الهلال

عدد تذكاري




للغسالات
الأتوماتيكية
ALL AUTOMATIC WASHING MACHINES
Loly
PRODUCT OF
ALEXANDRIA OIL & SOAP Co.
ALEX. EGYPT
لولى
أسلوب عصري للتنظيف

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجى زيدان عام ١٨٩٢

السنة المائة • يناير ١٩٩٢ • جمادى الثانية ١٤١٢

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

نائب رئيس مجلس الإدارة
عبد الحميد حمروش

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

المستشار الفنى
محمد أبو طالب

مدير التحرير
عاطف مصطفى

المشرف الفنى
محمود الشيخ

سكرتير التحرير (الفنى)
عيسى دياب

الإدارة : القاهرة ــ ١٦ شارع محمد عزالعرب بك (المبتديان سابقا) ت ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط)
المكاتبات : ص. ب : ٦١٠ العتبة ــ الرقم البريدى : ١١٥١١ ــ تلغرافيا المصور ــ القاهرة ج م ع
مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨١
تلكس : 92703 Hilal un
فاكس : FAX : 3625469

ضمن احتفال الهلال بمرور مائة عام على صدوره ، حرصنا فى هذا العدد التذكارى على تقديم ألوان من الفكر المتميز الذى نشر بالهلال طوال رحلته المديدة ، هذا الفكر كان يتضمن المعارك والمساجلات الأدبية بين مفكرى وأدباء هذه الفترة ، خاصة بين طه حسين ، ومصطفى صادق الرافعى ، وسلامه موسى وغيرهم .. ومن تلك المعارك النزاع الذى اشتد بين أنصار المذهب القديم وأنصار المذهب الجديد فى الأدب .. كما ننشر مقالا للعقاد يتحدث فيه عن المصريين وشيمهم العريقة التى يتميزون بها على كل شعوب الدنيا .

وما نقدمه فى هذا العدد مأدبة ثقافية تتضمن الحديث . كما تتضمن القديم ، ومن بين الحديث مايشغلنا الآن بدءا من قضية المياه ومستقبل الصراع العربى الاسرائيلى مرورا بمستقبل التعليم فى مصر وتضميد الجراح العربية بعد أحداث الخليج التى نعرفها ، والحديث عن النظام العالمى الجديد ، وهل هو وهم أم حقيقة ؟

وبالاضافة إلى الرسائل الصحفية من بيروت وواشنطن يجىء الحديث عن ابن سينا أبرز حكماء الشرق نتعرف من خلال سيرته على نبض العصر الذى عاشه عصر النهضة والاسلام ويبرز الفنان محمد أبو طالب كل ذلك ويجسده من خلال اختياره للشخصيات والاخراج المتميز لغلاف الهلال .

فكر وثقافة

● مائة عام من الفكر والفن والعلم ●

في هذا العدد

ص

● استقبال الهلال .... عاطف مصطفى ٨
● هؤلاء اقاموا صناعة الفتاء .... كمال النجمى ١٤
● احمد امين .... حسين احمد امين ٢٠
● الاتجاه العروبى فى كتابات زكى مبارك د . حسين خريس ٢٨
● دعوة .... د . مصطفى سويف ٣٤
● عرابى والهلال ٣٦
● نحن المصريين .... عباس محمود العقاد ٤٤
● الخصومة بين القديم والجديد فى الادب ... د . طه حسين ٥١
● رسم الحبيبة .... مصطفى صادق الرافعى ٦٠
● الاحياء العربى .... د . محمد حسين هيكل ٦٤
● العالم سنة ٢٠٠٠ .... توفيق الحكيم ٧٠
● اخلاق العلماء .... د . احمد زكى ٧٣
● اين يسير بنا العلم ؟ .... د . على مصطفى مشرفة ٧٩
● القفز على الاشواك : حوار مثقفين د . شكرى محمد عياد ٨٣
● عام جديد وإنسان جديد .... البابا شنودة الثالث ٨٨
● خالتى صفية والدير .. اسطورة سياسية .... —
.... د . سيد البحراوى ٩٢
● نميمة عنخ .. الفن مفتاح الحياة .... د . سيد كريم ٩٨
● المهرجان الحائر بين الرقابة والحرية .... مصطفى درويش ١٠٨
● حول القراءة المعاصرة للقرآن .... د . محمد شحرور ١٢٨
● كيف نشعر بالالم واللذة .... د . محمد بهائى السكرى ١٣٥
● يحيى الطاهر عبد الله وداء النسيان .... عبده جبير ١٤٨
● صبحى ولينين وديمقراطية المسرح .... فوزية مهران ١٥٢
● ابو على بن سينا .. حكيم الشرق .... مصطفى نبيل ١٦٦



بريشة الفنان : محمد ابو طالب

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية تسعة جنيهات وفى بلاد اتحاد البريد العربى والافريقى والباكستان عشرة دولارات او مايعادلها بالبريد الجوى . وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .
والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع . نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية . وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال . وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة بعاليه عند الطلب .

رسائل صحفية

رسالة بيروت :
الجامعة الأمريكية فى بيروت .... عبود عطية ١١١
رسالة واشنطن :
بعد مرور نصف قرن على بيرل هاربر ..:.... محمود أحمد ١٣٨

آفاق المستقبل

المياه ومستقبل الصراع العربى الإسرائيلى ....
.... د . رشدى سعيد ١٧٧
مستقبل التعليم المصرى .... د . سعيد اسماعيل على ١٨٢
الطبقة الوسطى وأزمة المجتمع المصرى ....
.... د . محمود عبد الفضيل ١٩٠
تضميد الجراح العربية .... د . أحمد صدقى الدجانى ١٩٨
وهم نظام عالمى جديد .... عبد الرحمن شاكر ٢٠٤

قصة و شعر

المصيدة « قصة » .... أحمد عبد الله متولى ١٠٦
عندما تنام القاهرة « شعر » .... جليلة رضا ١٢٦

الأبواب الثابتة

عزيزى القارىء
(٦)
أقوال معاصرة
(٣٣)
لغويات
(٦٣)
شهريات
(١٤٨)
التكوين
د . مصطفى سويف
(٢١٠)
أنت والهلال
(٢١٨)
الكلمة الأخيرة
كامل زهيرى
(٢٢٦)

ثمن النسخة

سوريا ٧٠ ليرة ، لبنان ١٥٠٠ ليرة ، الأردن ١٠٠٠ فلس ، الكويت ٧٥٠ فلسا ، السعودية ٨ ريالات ، الجمهورية اليمنية ٢٥ ريالا ، تونس ١,٥ دينار ، المغرب ١٥ درهما ، البحرين ٨٠٠ فلس ، قطر ٨ ريالات ، مسقط ٨٠٠ بيسة ، غزة والقدس والضفة ٨٠ سنتا ، ايطاليا ٢٧٠٠ ليرة ، لندن ١٢٥ بنسا ، نيويورك ٤ دولارات ، الامارات العربية المتحدة ٨ دراهم ، الجماهيرية العظمى ١ دينار .

عزيزي القارئ

مصابيح الظلام .. مائة عام في

كل عام وأنت ياعزيزى القارىء بخير عميم ، ومقام كريم ، برغم تقلبات الدنيا ، وانتقال الأمور من حال الى حال ، وتراكم العجائب والغرائب فى أيامنا هذه التى ينطبق عليها قول القائل قديما : من يعش رجبا .. ير عجبا !!

وشهر يناير فى عامنا الجديد ، يوافق شهر رجب ، فلا غرو أن استدعى هذا التوافق بينهما الى ذاكرتنا ذلك المثل القديم عن عجائب شهر رجب !

فهذا هو عامنا الجديد - ١٩٩٢ - يستهل صارخا كالمولود ، أصابه الفزع من الدنيا التى تتلقفه يداها لاول مرة فيحس فيهما العنف والخشونة .

وفى مثل خفق البرق يندثر وجه العالم الذى عرفناه ، ويطل علينا وجه عالم آخر ، لا يوصف بالقبح ولا يوصف بالجمال ، حتى الآن - ولكن يوصف بالغرابة ، وتكتنفه الرغبة والرهبة ، فهاهى الامبراطورية العالمية الواحدة بلا شريك تعود الى الدنيا بعد طى صفحات الامبراطورية الرومانية التى كانت وحيدة الدنيا قبل ألفى عام !

وكذلك يجيء عام ١٩٩٢ بصورة جديدة للعالم ، لم يجيء بها اى عام سبقه خلال اكثر من عشرين قرنا ، حتى ان عام ١٩٩١ الذى حفل بالعجائب لم يكن فى بدايته يبشر أو ينذر بانقلاب تام فى ملامح عالمنا .. اما عامنا الجديد ، فهو بشير ونذير بملامح تاريخ جديد للجنس البشرى كله ، ولهذا يستحق عامنا هذا الذى يولد فى الثلوج والاعاصير ، ان يوصف بأنه بداية التاريخ لا نهاية التاريخ !

وفى عامنا هذا الجديد يستكمل "الهلال" عامه المائة ، ففى سنة ١٨٩٢ صدر العدد الاول من "الهلال" وخلال مائة عام بعد صدور ذلك العدد التاريخى ، حمل الهلال مشعل الثقافة للناطقين بالضاد فى مصر والبلاد العربية ، وفى المهجر البعيد فوق ارض امريكا الشمالية وامريكا اللاتينية ، وفى الجزر النائية فى المحيطات ، وفى آسيا واستراليا .

وعلى صفحات "الهلال" ظهرت أسماء أشهر الادباء والشعراء والفنانين والمفكرين ، ممن كان لهم أبلغ الأثر فى وجدان الانسان العربى وعقله وضميره .

وهانحن اولاء - بعد مائة سنة - نعود فى هذا العدد الخاص المتميز من "الهلال"

لمراجعة تلك الاسماء العظيمة التي اضاءت فى سماء مصر والبلاد العربية خلال ذلك الأمد الطويل الممتد من أواخر القرن التاسع عشر الى اواخر القرن العشرين ، فكانوا مصابيح الظلام خلال مائة عام .

وذلك هو فحوى الاستبيان الشامل الذى تطالعه في هذا العدد من "الهلال" فى مستهل هذا العام الجديد الذى تحثنا بوادره على الالتفات الى ماضينا كما تدفعنا الى العمل لحاضرنا ومستقبلنا .

فمن هم أولئك الاعلام الذين يرى اهل الفكر الآن انهم كانوا اعمق تأثيرا فى الادب والعلم والفن وسائر ضروب الفكر ؟! ..

عزيزى القارىء

ان عالم الفكر عالم مائج هائج لا ساحل له .. ولا يمكن ضبط ما يجرى فى اعماقه او على سطحه بمقياس واحد ، وسترى مصداق ذلك فى اختلاف الاراء بين الاساتذة الذين اشتركوا فى هذا الاستبيان ، وان اختلافهم ليدل على اتساع البحر الذى خاضوه بحثا عن الاسماء الكبيرة ذات الاثر ، وانه ليدل على كثرة هذه الاسماء ، وعلى تنوع مجالات الثقافة والفكر التى عرفتها الامة العربية خلال القرن المتصرم .

عزيزى القارىء :

ان البحث عن النغمة الصحيحة فى عالمنا الجديد ، مهمة بالغة المشقة ، فقد تكاثرت النغمات الكاذبة والحت على الاسماع لكى توهمها بأنها النغمة العذبة المطربة ذات الرنين الصادق ، فإلى اى الجهات يميل الانسان العربى بأذنيه فى هذا العالم الذى ضجت فيه الانغام الصحيحة والانغام الكاذبة ؟!

قديما - كما تروى لنا كتب الادب - كان بعض من يستبد بهم الطرب للألحان والانغام ، ينطحون الحائط برءوسهم من فرط الاندماج فى الطرب لما يسمعون !

فأى حائط - ياترى - يتقدم اليه الانسان العربى فى عالمنا الجديد لكى ينطحه برأسه تعبيرا عن طربه ، وكيف تكون العاقبة بعد ذلك ؟!

عزيزى القارىء

كل عام وانت بخير عميم ، ومقام كريم ، برغم تقلبات الدنيا ، وانتقال الامور من حال الى حال .

المحرر

مائة عام من الفكر والفن والعلم

بقلم : عاطف مصطفى

● نجيب محفوظ فى الرواية ● طه حسين فى النثر ● صلاح أبوسيف فى السينما ● سيد درويش فى الموسيقى ● نجيب الريحانى فى المسرح ● طلعت حرب فى الاقتصاد ● قاسم أمين فى العلوم الاجتماعية ● د . على إبراهيم فى الطب ● د . على مصطفى مشرفة فى العلوم الطبيعية ...



نجيب محفوظ

فى سبتمبر ١٩٩٢ يتم « الهلال » عامه المئوى ، قدم فيه الإبداع الفكرى ، والثقافة العربية الرفيعة ، وكان على مدى الأعوام المائة منارة من منارات الثقافة العربية التى واصلت العطاء ، ولم تتوقف وتخطى « الهلال » كل الحواجز ، وظل يلقى بلآلئه على شطآن المعرفة ، لم ترهبه الأنواء ، ولم توقف مسيرته ، إصدارات من هنا وهناك ، وظل « الهلال » الأب الروحى والرائد للثقافة العربية ، ضمت ملايين صفحاته مقالات وبحوث لصفوة المفكرين المصريين والعرب فى كل فنون المعرفة وألوانها المتباينة ، بما

يتيح له أن يصبح مكتبة ثقافية وفكرية مستقلة تزدان بها كبرى المكتبات فى الوطن العربى .

وقد قامت « الهلال » بعمل استبيان « حول أبرز الشخصيات التى عاصرته منذ بداية صدوره فى سبتمبر ١٨٩٢ حتى الآن ، ويتضمن الاستبيان الإشارة إلى أهم شخصية أدبية فى المائة عام الماضية (عمر الهلال) فى الرواية والشعر والنثر ، وأهم شخصية فنية فى السينما ، الفن التشكيلى ، الموسيقى ، المسرح ، وأيضا فى مجال الاقتصاد والعلوم الاجتماعية ، ثم أهم شخصية فى الطب والعلوم الطبيعية والعلوم النظرية .

وحرصنا على إرسال الاستبيان إلى عدد كبير من العاملين فى مجال الفكر والثقافة ، وإلى عدد من كبار الأدباء ، وخاصة كتاب الهلال ، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر :

نجيب محفوظ ، يحيى حقى ، د . إبراهيم بيومى مدكور ، د . شكرى عياد ، د . سهير القلماوى ، د . مصطفى سويف ، كامل زهيرى ، د . شوقى ضيف ، د . يوسف خليف ، د . أحمد عبدالرحيم مصطفى ، د . أحمد حسين الصاوى ، حافظ محمود ، صوفى عبدالله ، د . أمين العيوطى ، د . جابر عصفور ، د . على شلش ، د . أنور عبدالملك ، حسين بيكار ، د . صبرى منصور ، صافى ناز كاظم ، أبوالمعاطى أبوالنجا ، حمدى قنديل ، إبراهيم فتحى .

وقد تبين من الإجابات أن الأديب الكبير نجيب محفوظ



د . طه حسين



صلاح ابو سيف

قد حصل على أعلى نسبة فى الاستفتاء فى مجال الرواية يليه د . محمد حسين هيكل ثم محمد فريد أبوحديد وفى مجال القصة القصيرة د . يوسف إدريس .

وفى الشعر حصل أمير الشعراء أحمد شوقى على أعلى نسبة يليه صلاح عبدالصبور ويتساوى حافظ إبراهيم شاعر النيل وإبراهيم عبدالقادر المازنى ومصطفى لطفى المنفلوطى ثم محمود حسن إسماعيل ومحمد إقبال وبشارة الخورى وعمر أبوريشة وأمل دنقل وأضيف إلى الشعراء صلاح جاهين بالرغم من أنه كتب الشعر العامى وفى مجال النثر جاء فى المقدمة الدكتور طه حسين عميد الأدب العربى ، يليه عباس محمود العقاد ، ثم توفيق الحكيم ، والذى تم اختياره أيضا من أبرز الشخصيات التى أثرت فى المسرح وأثرته بما قدم من مسرحيات هادفة ، ويجىء بعدهم فى ترتيب اختيارات الاستبيان الدكاترة زكى مبارك ، أحمد حسن الزيات ، عبدالرحمن الشرقاوى ، سلامة موسى ، عبدالرحمن الخميسى ، مصطفى صادق الرافعى ، ولويس عوض ، ود . زكى نجيب محمود الذى اختارته مجموعة فى مجال النثر ، ومجموعة أخرى فى مجال العلوم النظرية .

وفى السينما يحصل المخرج صلاح أبوسيف على أعلى نسبة فى الاستبيان يليه محمد كريم ، ثم شادى عبدالسلام ، وأنور وجدى وبهيجة حافظ وفاطمة رشدى وفاتن حمامة والمخرج يوسف شاهين وقد أختير شارلى شابلن كشخصية عالمية فى مجال السينما ، رغم أن الاستبيان لم يشر إلى شخصيات غير عربية .

أما فى الفن التشكيلى فقد أجمعت كل الآراء تقريبا على أن الفنان محمود مختار من أبرز الشخصيات التى عاصرت المجلة فى المائة عام الماضية وحتى وفاته (١٩٣٤) يليه الفنان السكندرى محمود سعيد وسيف



سيد درويش



نجيب الريحانى



طلعت حرب

وانلى وحامد ندا وعبدالهادى الجزار وجمال السجينى ومنير كنعان . وفى الموسيقى سيد درويش يليه محمد عبدالوهاب ثم رياض السنباطى وزكريا أحمد وأحمد صدقى وأبوبكر خيرت .



قاسم امين

وجاء نجيب الريحانى ثم يوسف وهبى وبعدهما زكى طليمات فى مقدمة الذين أثروا المسرح المصرى منذ بدايته ، وعلى مدى صدور « الهلال » ، يليهم على الكسار وأحمد علام وروزاليوسف وأمينة رزق وزينب صدقى .

وفى الاقتصاد أجمعت كل الآراء على الدور الكبير الذى لعبه طلعت حرب وأشار الدكتور أحمد حسين الصاوى إلى أن عمر لطفى يعتبر "أبو التعاون" فى مصر ، كما تضمن الاستبيان فى مجال الاقتصاد د . وحيد رأفت ، ود . عبدالمنعم القيسونى والسيد ياسين ..



د . على ابراهيم

ويحصل قاسم أمين على أكثر الآراء فى العلوم الاجتماعية ، يليه د . شفيق غربال ، ثم د . محمد عوض محمد ، د . سليمان حزين ، د . أحمد عبدالرزاق السنهورى ، د . عبدالحميد العبادى ، د . فؤاد مرسى ، على الجريتلى ، إسماعيل صدقى ، د . على عبدالواحد وافى ، د . محمد إبراهيم كاظم ، د . عبدالرحمن بدوى ، مصطفى عبدالرازق ، د . سيد عويس .

فى الطب جاء د . على إبراهيم فى مقدمة الرواد فى هذا المجال على مدى مائة علم هى عمر « الهلال » ، يليه د . عبدالوهاب مورو ود . نجيب محفوظ ود . أنور المفتى ثم د .. ياسين عبدالغفار ثم د بول عليونجى ود . كامل حسين ، ود . مجدى يعقوب طبيب القلب المصرى العالمى .



على مصطفى مشرفة

وفى المائة سنة الماضية جاء د . على مصطفى مشرفة وهو عالم ذرة وموسيقى فى مقدمة العاملين والمبدعين فى

العلوم الطبيعية يليه د . أحمد زكى رئيس تحرير « الهلال » ثم أول مؤسس لمجلة العربى ، والتى خرجت من عباءة « الهلال » لتؤدى دورها الثقافى ، ثم يليه د . مصطفى نظيف أستاذ الطبيعة بكلية العلوم والذى أصدر كتابا مهما عن الحسن بن الهيثم ثم عالم الفضاء المصرى الشهير د . فاروق الباز ..

واخيرا فى مجال العلوم النظرية جاءت نتيجة الاستبيان اختيار د . محمد مدور فى مجال الفلك ود . حسن صادق فى مجال الجيولوجيا ثم د . منصور فهمى ود . فؤاد زكريا .

★★★

الطريف أن الدكتور أمين العيوطى أجاب عن السؤال الخاص بأهم شخصية فى الطب والعلوم الطبيعية والعلوم النظرية ، باختياره للدكتور عبدالوهاب مورو فى مجال الطب وللدكتور على مصطفى مشرفة فى العلوم الطبيعية وفى العلوم النظرية اختار رفاعة الطهطاوى ومحمد عبده فيما قبل المائة سنة الأخيرة (توفى محمد عبده عام ١٩٠٥) واختار كل أعلام التطوير فيما بعد : طه حسين ، إبراهيم عبدالقادر المازنى ، عباس محمود العقاد ، أحمد لطفى السيد ، أمين الخولى والدكاترة زكى مبارك .

أيضا اختار الاديب أبوالمعاطى أبوالنجا عددا من الشخصيات الأجنبية ضمن الاستبيان نذكر منها : الكاتب اليونانى كازنتازاكيس والكاتب اليوغوسلافى إيفوأندروفتش فى الرواية ..

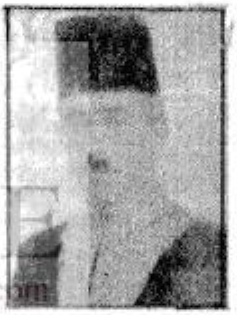
واختار شارلى شابلن فى السينما وسلفادور دالى وبابلوبيكاسو فى الفن التشكيلى .

وفى الاقتصاد والعلوم الاجتماعية اختار أيضا : دور كايم ، أوجست كونت ، ماركس ، لينين ، آدم سميث ، ثورو .

كما اختار د . أحمد عبدالرحيم مصطفى شارلى شابلن



احمد شوقى



د . محمد حسين هيكل



المنفلوطى

فى السينما . وارنولدتوينبى ، د . شاخت (المانيا) بيفريدج (بريطانيا) والبرت اينشتاين فى العلوم الاجتماعية والنظرية ..

كذلك اشارت الكاتبة الصحفية صافى ناز كاظم فى اختيارها لاهم شخصية فى الرواية إلى ان الكاتب الكبير المغفور له محمد فريد أبوحديد رائد الرواية المصرية المعاصرة ورائد التجربة الحديثة فى الشعر والأسلوب السلس البسيط العميق فى النثر . مؤلف « زنوبيا ملكة تدمر » التى سرقت عدة مرات تحت أسماء مؤلفين آخرين ، و« ابنة المملوك » من باكورة أعماله التى صدرت عام ١٩١٨ تقريبا ! ..... وصاحب ترجمة « ماكبث » بالشعر المرسل ، و« ميسون الغجرية » وهى تجربة رائدة فى كتابه الأوبريت بالشعر الحديث سبق بها شوقى وعبدالصبور والشرقاوى .

وكما نرى فإن موضوع الاستبيان ليس له شطآن ، فالهلال على مدى ١٠٠ سنة كتب فيها مئات من أمثال من تضمنهم هذا الاستبيان ، وبالتالى نحن نبحث عن انعكاس هؤلاء على الهلال ، ولهذا اخترنا مقالات لعدد من تلك الشخصيات سبق نشرها فى الهلال على مدى رحلته الطويلة ، وهذه المقالات برغم قدمها فى النشر ، كأنها تخاطب العصر الراهن ، فضلا عن أن هذه الشخصيات من خلال مقالاتها تتحدث عن نفسها كما أختار بعض كتاب الهلال المعاصرين كتابة بعض المقالات التى تتناول هذه الحقبة الزمنية ، أو تتناول شخصية فكرية أو أدبية ومن المؤكد أن هناك شخصيات لها تأثير كبير فى حياتنا الفكرية والثقافية ، ولكن لا يتسع المجال للحصر ، ولكننا آثرنا الانتقاء من خلال الاستبيان الذى قمنا بعمله وتضمن آراء الكوكبة التى تكتب فى مجلة الهلال .

وبلا شك فإن هذه نقطة البداية فى جهد يستمر حتى سبتمبر القادم العيد المئوى للهلال ، حيث تتوحد مجلة الهلال مع الفكر والفن والثقافة خلال قرون من الزمان .



محمود سعيد



المخرج محمد كريم



احمد حسن الزيات

محمد عبد الرحيم المسلوب — عبده الحمولى — رياض السنباطى

هؤلاء أقاموا

بقلم: كمال النجمى

فى هامش "الاستبيان" الذى اجراه "الهلال" بين أهل الادب والفن والعلم ، يمكن أن نفرد مساحة لمن كان يُطلق عليهم فى الماضى "طائفة المغانى" .. وهم ـ بلغة عصرنا ـ الملحنون والمطربون والضاربون على آلات الموسيقى والإيقاع .

هؤلاء كانوا ومازالوا منسيين إذا جرى الحديث عمن تركوا اثرا ظاهرا فى التكوين الثقافى للأمة ، مع أن صناعة الغناء هى أول ماينهض من الصناعات عند نهضة الأمة ، وأول مايكبو عند كبوتها ، كما زعم ابن خلدون قديما فى مقدمته ..

ولعل "الهلال" كان ومازال من المجلات الثقافية القليلة التى عنيت بهذه الصناعة وتحدثت عن أجيالها المتعاقبة منذ أيام عبده الحمولى المتوفى سنة ١٩٠١" .. إلى أيامنا هذه التى تدهورت فيها .

● مرآة المجتمع

صناعة الغناء ، وانهارت أسس الغناء العربى المتقن ، واقتحمت الأسماع أصوات غربان الملاهى الليلية وأشرطة الكاسيت ! ..

وفى السنين الطوال التى عاشها



سيد درويش



زكريا أحمد



محمد القصبجي

صناعة الغناء

"الهلال" تقلبت الدنيا واتخذت أشكالا وألوانا فى كل مجال ، وتخالفت شئون السياسة والاجتماع والأدب والعلم والفن ، وكان فن الغناء العربى فى مصر مرآة التطورات المتلاحقة منذ أواخر القرن التاسع عشر إلى أواخر القرن العشرين ..

لانتحدث عن هذا الفن فى عصر المماليك العثمانية ، ولكن لابد من الإشارة إلى أن فن الغناء الذى ورثه عصر عبده الحمولى كان من "مخلفات" أولئك المماليك ، أى من العصر العثمانى الذى استلب كل شىء جميل فى مصر ، وكان فن الغناء من أجمل أسلاب ذلك العصر الطويل الثقيل ..

وفى عصر محمد على بدأ البحث عن الطريق ، وشرعت الأمة تنهض ، فكان من علائم نهضتها مانشره الشيخ شهاب الدين محمد بن اسماعيل من شعره ونثره وكتابه المسمى "سفينة الملك ونفيسة الفلك" الحافل بالموشحات القديمة ، فوجد أهل الصناعة فى هذا الكتاب موردا يستقون منه أساليب الغناء العربى المتقن التى انقرضت فى العصر العثمانى ..

كان الشيخ شهاب الدين مصرى الميلاد والموطن ، حجازى الأصل .. اشتغل بالصحافة المصرية فى نشأتها الأولى ، وكان شاعرا موسيقيا ، وتمثلت فى شخصيته دلائل التطور الذى بلغته مصر فى عصر محمد على وخلفائه .

ولما توفى الشيخ شهاب الدين سنة ١٨٥٧ كان قد فتح الباب لتحرير الغناء

هؤلاء أتقنوا صناعة الغناء

العربي من الرطانة العثمانية والغجرية ، ولكن هذا الباب لم يفتح على مصراعيه إلا في عهد اسماعيل باشا بظهور جيل المطربين والملحنين والعازفين الجدد ، مقترنا بظهور جيل من الشعراء ثاروا على طريقة الشعر العثماني ، وردوا الشعر المصري إلى طريقة العصر العباسي الأول ، عصر الديباجة العربية الذهبية ، وكان رائدهم في هذا المضمار محمود سامي البارودي ..

واكتملت بتحرير الغناء العربي والشعر العربي من الرطانة العثمانية المملوكية ، ثورة تاريخية مزدوجة لهذين الفنين العربيين - الشعر والغناء - ردت إليهما اسلوبهما العربي الذي أوشكت أن تنده أيدي الغرباء ! ..

وكان الشيخ محمد عبدالرحيم المسلوب طليعة "طائفة المغاني" في الثورة على الرطانة العثمانية المملوكية ، ومن أوتار عوده انبعثت البدايات الأولى لفن "الدور" مع مجموعة من الموشحات لاتقل في دقة صناعتها عن الموشحات الاندلسية ، حتى إن موشحه المشهور : "لما بدا يتثنى" أثار وادهش بدقة صناعته ملحني عصره فنسبوه إلى التراث القديم ، ولكن الشيخ المسلوب كان - بلا مراء - هو صاحب ذلك الموشح البديع ، وقد أثبتنا ذلك بالحجة فيما كتبناه عنه قديما ، مما لايتسع له المجال الآن .

● المسلوب .. حياة حافلة

توفي الشيخ المسلوب سنة ١٩٢٨ بعد ان عاش اكثر من مائة وثلاثين عاما شهد خلالها عصر مراد بك وابراهيم بك ، وغزوة بونابرت ، وعصر محمد علي باكمله ، ثم عصر أحفاده إلى ايام الملك أحمد فؤاد الأول ..

وخلال هذا العمر الفسيح تتلمذ على يديه فحول الملحنين والمغنين ، وعلى رأسهم عبده الحمولي الذي كان اشهر أهل الصناعة ، وعلى يديه بدأ تطوير الغناء العربي وتوسيع آفاقه واستخراج المقامات والإيقاعات من مرقدها الذي لبثت في كهفه منذ سقوط بغداد تحت سنابك خيل هولاكو سنة ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨ م إلى آخر ايام المماليك العثمانية ..

وعاصر عبده الحمولي صديقه ومنافسه محمد عثمان .. ولم يكن صوته فائق الجمال كصوت الحمولي ، ولكن فنه في التلحين كان أعلى وأسبق ، فكان الحمولي يتلقف الحان محمد عثمان ويغنيها استرضاء للجماهير التي افتتنت بتلك الألحان ..

وقد لحن محمد عثمان الموشحات والأدوار والقصائد والاناشيد ، ولما توفي سنة ١٩٠٠ ترك فراغا كبيرا لانه كان صاحب اكبر جهد في تأسيس فن الغناء العربي المعاصر ، وفاق في ذلك



محمد عبد الوهاب



ام كلثوم

زميليه المسلوب والحمولى .. فهو الذى أنطق المقامات العربية القديمة بلهجة غنائية جديدة ، واستنقذ هذه المقامات من رطانة الأتراك والفرس الذين أطلقوا عليها أسماء أعجمية ، مثل : راست ونهاوند وحجازكار وهزام وجهاركاه ، وغيرها من الأسماء التى لها أصل عربى قديم ملموس ..

وأدوار محمد عثمان وموشحاته يعتبرها أهل الصناعة حتى اليوم نماذج كلاسيكية رفيعة ، لاغنى عن دراستها واستيعابها بالحفظ والأداء لكل من يطلب صناعة الغناء والتلحين وقد سجل المطربون منها الكثير فى الأعوام المائة الماضية ، وعلى رأسهم المطرب صالح عبدالحى الذى حفظ بذاكرته القوية وأدائه الفذ معالم الغناء العربى فى صورته الكلاسيكية المعاصرة ، كما رسمها محمد عثمان ..

ويمكن أن يقال إن المسلوب والحمولى وعثمان أسهموا فى تشكيل وجدان الإنسان المصرى - ثم العربى - فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ويبقى أثرهم فى وجدان كل من سمع ألحانهم حتى النصف الثانى من القرن العشرين .. أما أثرهم فى بناء فن الغناء المتقن فممتد إلى آفاق المستقبل البعيد ..

يجىء بعد هؤلاء الثلاثة الكبار فنان متواضع اسمه محمد على لعبة .. كان ضارب إيقاع وعازفا للآلات وملحنا ، ولكنه لم يقفز إلى المقدمة إلا حين اخترع قالبا غنائيا جديدا هو قالب "الطقطوقة" ..

● الطقطوقة .. فن جميل

لم تكن الطقطوقة موجودة فى عصر المسلوب والحمولى وعثمان ، وليست لهم ألحان يمكن أن تسمى طقاطيق ، فلما اخترع محمد على لعبة

هؤلاء أناموا صناعة الغناء

"الطقطوقة" اندلعت كالنار، وطغت على كل الوان الغناء، وصارت عروس الافراح والليالى الملاح، فهى أغنية صغيرة، ذات غصن واحد، وجملة لحنية واحدة، وإيقاع واحد .. لاترهق أصوات المطربين والمطربات، وإن كانت تملأ قلوب المستمعين طربا ومرحا ..

وقد سيطرت "الطقطوقة" على الأسماع زمنا طويلا، منذ اخترعها محمد على لعبة فى العقد الاول من القرن العشرين الى يومنا هذا .. وكل ماتسمعه الآن من اهازيج خفيفة سريعة فأصله قالب الطقطوقة ولا أصل لها سواه، والفضل فيه للاستاذ لعبة ! ..

فلعل الأوان قد آن للاعتراف لمحمد على لعبة بدوره البارز فى تشكيل وجدان الإنسان المصرى الذى تجعل طقاطيق منيرة المهدية وأم كلثوم وليلى مراد وشادية وغيرهن ركنا منه يقتضى الإنصاف الاعتراف بأهميته ..

ومن عباءة الأستاذ لعبة خرج جميع ملحنى الطقطوقة الذين عاصروه أو جاءوا بعده، لانستثنى منهم أحدا ولو كان فى حجم سيد درويش أو زكريا احمد أو رياض السنباطى أو محمد عبدالوهاب ..

لقد كان محمد على لعبة أول ملحن مصرى يخترع قالبا لحنيا بعد انقضاء عصر الثلاثة الكبار، وكانت الطقطوقة تعبيرا عن الشخصية المصرية المرحة الخفيفة الظل التى تحررت من بعض قيودها بعد الثورة العرابية سنة ١٨٨٢ وتخلصت من الغناء العثمانى والفجرى الذى اناخ على حناجر "أهل المغنى" دهرا طويلا .

وجاءت مع اختراع "الطقطوقة" حركة بعث الغناء الفلكورى المصرى الذى كان من الناحية الفنية شكلا من قالب الطقطوقة ..

وكان سيد درويش فى مقدمة هذه الحركة الجديدة التى أحيت أغانى الفلكلور واتخذت منها منطلقا لأسلوب جديد فى الغناء الفردى والغناء المسرحى على السواء ..

وعصر سيد درويش - على اهميته - كان أشبه بعاصفة سريعة، فلم يعش إلا خمس سنوات، من سنة ١٩١٨ إلى سنة ١٩٢٣ وهى السنوات التى عاشها سيد درويش فى القاهرة وعمل فى مسارحها، وصنع فيها أدواره وموشحاته وطقاطيقه ..

ويمكن أن يقال إن سيد درويش قد تميز على معاصريه بفن التعبير فى تلحينه، فقد كانت الألحان قبل عصره أشبه بأبنية هندسية يقل فيها التعبير وإن كثر فيها الطرب، فجاء سيد

درويش فجعل التعبير والطرب فى وعاء واحد ، وهذه هى ميزته الكبرى التى التقطها منه جميع الملحنين الذين جاءوا بعده .

وإذا كان المسلوب والحمولى وعثمان هم الثلاثة الكبار الذين لامسوا وجدان الإنسان المصرى فى بداية نهضة فن الغناء المعاصر ، وكان محمد على لعبة هو اللاعب الرشيق الذى قدم الطقطوقة فخامرت كل وجدان .. وكان سيد درويش هو صاحب التعبير والتطوير ، فإن ورثة هذا كله هم الملحنون الكبار الذين أعقبوا هؤلاء جميعا وهم : زكريا أحمد ومحمد القصبجي ومحمد عبدالوهاب ورياض السنباطى ..

ومن هؤلاء الملحنين الأربعة الكبار الذين لم يجتمع مثلهم فى عصر واحد ، انطلقت بدائع فن الغناء العربى المتقن الحديث على حناجر المطربات والمطربين وعلى رأسهم أم

كلثوم التى لعبت دورا جوهريا فى توجيه مواهب الملحنين وصقلها وتوسيع آفاقها .

● **أم كلثوم ملهمة الملحنين**

لقد أسهم صوت أم كلثوم فى خلق أساليب التلحين العربى ، وأتاح للملحنين أن يجوبوا آفاقا باهرة ما كانت تخطر لهم على بال لولا وجود هذا الصوت الذى حملهم إلى تلك الآفاق العُلى ..

إن صوت أم كلثوم بمقدرته الفذة ، ومساحته الخصبة ، ومقاماته المصقولة ، وذبذباته السحرية ، ونبراته الوضيئة التى يتمثل فيها الجمال كله ، هو الذى أشعل مواهب

الملحنين ، وأثار التنافس بينهم ، وألهمهم الألحان التى حاولوا دائما أن تكون على مستوى صوت أم كلثوم ..
وقد لعب هذا الصوت العبقرى أعظم الأدوار فى تشكيل وجدان الإنسان المصرى والعربى منذ العشرينات إلى التسعينات ، وسيلعب دوره على مدار السنين ..

وبعد ..
فمعذرة ، لأن هذه السطور بالغة السرعة فى تصوير الأثر العظيم لفن الغناء العربى المتقن فى وجدان الأجيال التى توالت خلال مائة سنة ..
وتحية منا لهذه العبقريات التى تعاقبت فى سماء هذا الفن كتعاقب الشموس والأقمار ! ..

أحمد أمين

بقلم : حسين أحمد أمين



● ● الأديب الكبير أحمد أمين كان له تأثيره الواضح فى الفكر العربى، ويعتبر من الرواد فى مجال الفكر الإسلامى، خاصة كتبه القيمة فى هذا المجال «فجر الإسلام»، «ضحى الإسلام»، «ظهر الإسلام» وغير ذلك من آرائه الجريئة، والتى كان يرى أنها تناسب عصرنا.

نقدمه باعتباره من الذين أثروا حياتنا الفكرية على مدى الاعوام المائة الأخيرة، ولدوره الهام كأديب ومفكر إسلامى كبير ● ●

قد أفردت كتابا مستقلا لأحمد أمين الوالد. فكيف يسعفنى فى ست صفحات أو سبع الإحاطة بأحمد أمين الإنسان، والمربى، والقاضى، والعالم، والأديب، والصحفى، والإذاعى، والمؤرخ للحضارة الإسلامية، والأستاذ الجامعى، وعميد كلية الآداب، وعضو مجمع اللغة العربية، ومؤسس الجامعة الشعبية، ورئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر، وصاحب مجلة «الثقافة»، ومدير الإدارة الثقافية فى وزارة المعارف، ومدير الإدارة الثقافية بالجامعة العربية، ومحقق كتب التراث العربى القديم. مالم أوجز العرض لبعض مساهماته الجليلة المتنوعة الباقية على مرّ الزمن، ثم اتهم بعد ذلك - وعن حق - بالتقصير والإيجاز المخل؟.

● الإنسان

كان ناجحا فى حياتيه العلمية والعملية معا، وكان نجاحه فيهما نجاحا للجد وانتصارا للفضيلة، لأنه لم يعتمد فى شهرته العلمية على الإعلان والتهويش، ولا فى مناصبه الحكومية على الاستخذاء والملق، وإنما كان يجرى فى عمله على الإخلاص، وفى معاملاته على الحق، وفى علاقاته على الشرف، وما كانت حياته الحافلة العريضة إلا مثلا للحياة العاملة فى غير ضجيج، الناصبة فى غير ملل، المثمرة فى غير غرور ولا دعوى. فمن الناس من يحدثون ضجيجا هائلا حين يصلون إلى فكرة جديدة أو يكتشفون معنى جديدا، وكم وصل أحمد أمين إلى فكر ومعان، بل لقد أنار عوالم كاملة من حياة العرب العقلية فى عصورهم المختلفة، ومع ذلك لم يهول على الناس، ولم يحدث جلبة ولا فرقعة، بل كان مثال العالم الحق الذى ينكر نفسه، ويترك للناس أن يكتشفوه ويعرفوه.

كتب إلىّ عام ١٩٥٠ وأنا غائب فى لندن رسالة جاء فيها:

«رأيت أن قول الحق والتزامه، وتحرى العدل وعمله، يكسب الإنسان من المزايا ما لايقدر.. قد احتملت فى سبيل ذلك بعض الآلام، وأغضبت بعض الأنام، وضاعت علىّ من أجله

أحمد أمين

بعض المصالح ، ولكنى برغم ذلك كله قد استفدت منه أكثر مما خسرت ، استفدت منه راحة الضمير ، وثقة الناس بما أقول وأعمل ، وحسن ظنهم بما يصدر عنى ولو لم يفهموا سببه ، وقد استفدت منه أيضا ماديا أكثر مما استفاد غيرى ممن لم يلتزموا الحق ولم يراعوا الصدق والعدل . لقد عشت فى أوسلط كثيرة ، وعاشرت زملاء يرضون رؤساءهم أكثر مما يرضون ضمائرهم ، ويقولون مايعجب الناس لا ما يعتقدون أنه الحق ، ويرتكبون الظلم طلبا للجاه أو للعلو فى المنصب ، ومع هذا فقد ربحوا قليلا وخسروا كثيرا .. خسروا الفضيلة والضمير ، وفازوا بقليل من الحظ العاجل تبعه كثير من الفشل الآجل . فلو حسبت بالدقة ماكسبت وماخسرت ، وما كسب هؤلاء وماخسروا لوجدتنى أسعد حالا وأوفر حظا ، فإذا أردت أن تنتفع بتجربتى فالتزم الحق والصدق والعدل فى جميع أعمالك مهما تكن النتيجة .

« نعم رأيت من زملائى من تمسكوا بهذه الفضيلة فخسروا كثيرا وفشلوا فشلا ذريعا ، ولكن لم يكن عيبهم أنهم التزموا الحق والصدق والعدل ، بل عيبهم أنهم التزموا هذه الصفات فى سماجة فقالوا الحق فى غير أدب ، والتزموا الصدق فى غير لباقة ، وتحروا العدل فى غير لياقة ، فلم يكن الذنب ذنب الحق ولكن الذنب ذنب السماجة .. فتعلم من هذا أن تقول الحق فى أدب ، وتتحرى العدل والصدق فى لباقة ولياقة . فمن غضب بعد ذلك كان الذنب ذنبه ، ولا ذنب عليك .. ولا تتعجلن النتيجة فقد تمس من الحق نارا ، ويهب عليك من العدل لفحة جحيم . ولكن ذلك أشبه مايكون بالامتحان ، إن صبرت له انقلبت النار جنة ، واللفحة الحارة نسيما عليلا .. »

● المربى

لم تكن التربية فى رأيه مجرد درس يلقى ومعلومات تشرح ، بل حرص الحرص كله على أن تكون تفتيحا للذهن ، وإيقاظا للانتباه والملاحظة ، وتعهدا للسلوك وتقويما للأخلاق ، وهو ماكان أبدا يتعبد الآراء التى يصل إليها ، بل كان يمرن طلبته ومريديه على خلافه ، وأن يروا الرأى مناقضا لرأيه ، يريد بذلك أن تكون لهم أصالتهم فى الفهم والحكم ، لا مجرد الجدل والمناقشة فى غير طائل ، وكان يسعى جاهدا إلى رفع الحواجز بين الطلبة الجامعيين وأساتذتهم ، وألا يكتفوا بما يدون فى المحاضرات ، بل يتحولوا إلى الأروقة وحجر البحث والمكتبة ، يتجادلون ويتحاورون ، لا فرق بين كبير وصغير ، ولا شيخ ولا شاب إلا بمقدار التجربة والسبق إلى معرفة الحقيقة .

كانت تربيته فكرية وروحية لا لأولاده ولطلبته فحسب ، وإنما أراد بها أن تشمل الشعب بأسره ، وتغذى المجتمع كله ، وقد قصد إليها عن

طريق مجالسه فى الأندية ، وأحاديثه الأسبوعية فى الإذاعة ، ومقالاته الكثيرة فى مجلات « الهلال » و« الثقافة » و« الرسالة » و« الأثنين » وغيرها ، ومحاضراته فى كل مكان ، يحلل التقاليد والعادات ، ويناقش الذوق والعرف ، ويعرض للمشكلات الحاضرة ، ويقارن بين الشرق والغرب ، ويوازن بين الحاضر والماضى ، ويرمى إلى وضع دعائم تربية اجتماعية استقلالية .. ورغم أنه كان يفضل الخلوة إلى نفسه ، ويلذ له التأمل الهادىء وتفكير المتوحد ، فقد كان يحرص من أجل أداء رسالته فى التربية على الاتصال بالناس ، فكان بيتنا مفتوحا لتلاميذه وأصدقائه ، وكانت جلسات لجنة التأليف والترجمة والنشر فى أيام الخميس مقدسة لديه ، لم يتخلف عنها إلا فى القليل النادر طوال الأعوام الأربعين التى رأس اللجنة خلالها .

وهو يدرك مع ذلك حتمية اختلاف كل جيل عما سبقه .. كتب إلىّ يقول :

« أى بنى : إنى لأعلم أنك قد خلقت لزمن غير زمنى ، وربيت تربية غير تربيتى ، ونشأت فى بيئة غير بيئتى .. لقد كنت فى زمنى عبد التقاليد والأوضاع ، وأنت فى زمن يكسر التقاليد والأوضاع .. وكنت فى زمن شعاره الطاعة لأبى ولأولياء أمرى ، وأنت فى زمن شعاره التمرد ، التمرد على سلطة الآباء وعلى المعلمين وعلى أولى الأمر .. وتعلمت أول أمرى فى كُتّاب صغير نجلس فيه على الحصير ، ويعلمنا مدرس جبار ، يضرب على الهفوة وعدم الهفوة ، ويعاقب على الخطأ والصواب ، ويمرن يده والعصا فينا كما تمرنون أيديكم على الألعاب الرياضية ، وأنت تعلمت فى روضة الأطفال حيث كانت تشرف عليك آنسة رقيقة مهذبة ، وتقدم لك تعليم القراءة والكتابة فى إطار من الصور والرسوم والأغانى وما إلى ذلك .. وكنت أعيش فى كُتابى على الفول النابت والفول المدمس ، وأنت تعيش فى روضتك على اللبن والشاى والبسكويت وما إلى ذلك أيضا ، ثم لما صبوت تعلمت فى مدارس نقلت إليك أساليب المدنية الغربية .. وتربيت أنا فى وسط كله دين : دين فى الكتب ودين فى الحياة الاجتماعية ودين فى أوساطى كلها ، وتربيت أنت فى مدارس أو جامعات لا يذكر فيها الدين إلا بمناسبات .. وكان يذكر الدين فى وسطنا دائما ليحترم ، وكثيرا ما يذكر الدين فى وسطك ليهاجم .. ونشأت فى وسط لاتذكر فيه السياسة إلا لماما ، ونشأت فى وسط كله سياسة وإضراب وأكثر من الإضراب .. ونشأت فى وسط لا يعرف المرأة إلا محجبة ، ولا يعرف الشاب فتاة إلا أن تكون قريبة ، ونشأت أنت فى وسط تجالسك الفتاة فى جامعتك وتشاهدها فى أوساطك وقد أخذت من الحرية مثل ما أخذت ..

« ولو عددت لك الفروق بينى وبينك فى زمنى وزمنك ، وتعليمى وتعليمك ، وبيئتى وبيئتك ، لطال الأمر .. ومع ذلك

أحمد أمين

فإن الفروق - مهما كانت - فروق جزئية ، ولايزال بيني وبينك وجوه شبه أعمق من هذه المظاهر ، فالاختلافات بين الناس مهما اختلفت الأزمنة والأمكنة اختلافات سطحية ، وأمور عرضية ، أما الإنسان في جوهره والجمعيات البشرية في نزعاتها الأصيلة فترجع إلى أصول واحدة . ومن أجل هذا كانت تجارب السلف مفيدة دائما للخلف . فلأقص عليك شيئا من تجاربي التي أعتقد أنها قد تفيدك مهما اختلفت بيئاتنا ومدارسنا وثقافتنا ..... »

● العالم والمفكر

كان متضلعا من علوم الدين واللغة كأكثر النابغين من المتخرجين في الأزهر ، ولكنه كان من الأزهريين القلائل الذين أوتوا دقة النظر ، وحرية الفكر ، وسعة الأفق ، فكان في الدين صاحب اجتهاد ، وكان في اللغة صاحب رأى .. كان يرى أن الدين ستور للدنيا ، فلابد أن يتطور مع العلم ، وأن يتقدم مع الحضارة ، وأن يسهم في توفير الحلول للمشكلات المستجدة ، وكان يرى أن اللغة أداة للفهم ، فلابد أن تطوع لألسنة الناس ، وأن تبسط قواعدها ، وأن تجدد على طول الزمن ، وإلا فإنها لا تلبث أن تموت أو تتخلف ، فتنحط إلى العامية ، أو تضيع بين ألسنة الأميين والجهلة .. وقد ساءه أن يسد الأوائل باب الاجتهاد في اللغة كما سدوه في الدين والشريعة ، وكتب يقول :

« نحن بين اثنين ، إما أن نقدس ماقاله العرب ونقف عنده ولانسمح لأنفسنا بوضع جديد ، وحينئذ يجب أن تكون اللغة العربية لغة أثرية كاللاتينية ، وإما أن تكون لغة حية ، وحينئذ يجب أن تخضع إلى قوانين الحياة فتنمو وتتجدد وتساير حياة الناس لتلائم الزمن ، وهذا الأخير هو الذي ينبغي أن يكون » .

وقد اجتمعت لأحمد أمين خصال إذا اجتمعت في شخص كان حكيما على الحقيقة ، هي : حرية الفكر ، والبعد عن الدجماطيقية ، والترحيب بالنقد ، والجلاء والوضوح ، والعناية بالكل دون الأجزاء ، والبحث عن العلل .

كان حر الفكر إلى أبعد حدود الحرية ، لا يقول إلا ما يعتقد ، ولا يحفل إلا بالحق وحده ، لا يهمه مصانعة ذوى السلطان ، أو تملق الجماهير ، أو مشايعة الأهواء السائدة ، وتبدو هذه الحرية في الجهر باعتقاداته الدينية على الرغم من مصادمتها لمشاعر الجمهور ، ومخالفتها للمألوف من التقاليد الطويلة الأمد .. جاهر بالانتصار لمذهب المعتزلة الذين اعتقد أنهم أهل العقل في الإسلام ، ونادى بالرجوع إليه ، وتفسير الدين بالعقل ، مع أن المسلمين عارضوا ذلك المذهب منذ القرن الرابع الهجرى ، وحكموا على

أصحابه بالكفر ، وحرقوا كتبهم ، ومنعوا تدريس تعاليمهم فى مدارسهم وجاهر برأيه فى الشيعة ومعتقداتهم حتى كاد يصيبه من جراء ذلك محنة عظيمة حين كان ببغداد بعد أن أصدر « فجر الإسلام » . ومع ذلك فقد حاول المهادنة بين الشيعة والسنة حتى تتحد كلمة المسلمين ، وخصوصا أن موضوعات الخلاف بينهما أصبحت فى ذمة التاريخ البعيد ، كذلك فقد نادى بفتح باب الاجتهاد حتى لانظل عبيداً لأبى حنيفة والشافعى ومالك وابن حنبل ، وقد كانوا ملائمين لزمانهم ، أما اليوم فقد تغيرت الأحوال واختلفت المشكلات والتحديات ، وقد ثار علماء الدين على رأيه هذا ، كما ثار علماء اللغة على دعوته إلى تبسيطها والإطاحة بالكثير من قواعدها ، « حتى تكون لنا لغة شعبية ، ننقيها من « حرافيش » الكلمات ، على حد تعبير ابن خلدون ، ونلتزم فى أواخر الكلمات الوقف من غير إعراب ، وتكون هى لغة التعليم ولغة المخاطبات ولغة الكتابة للجمهور ، ولا تكون اللغة الفصحى إلا لغة المثقفين ثقافة عالية ممن يريدون أن يطلعوا على الأدب القديم » .

كذلك فقد أثار ثائرة المناصرين للعروبة حين كتب فى « فجر الإسلام » يقول :

« لسنا نعتقد تقديس العرب ، ولا نعبأ بمثل هذا القول الذى يمجدهم ويصفهم بكل كمال وينزههم عن كل نقص ، لأن هذا الخط من القول ليس نمط البحث العلمى ، وإنما نعتقد أن العرب شعب ككل الشعوب ، له ميزات وفيه عيوبه ، وهو خاضع لكل نقد علمى فى عقليته ونفسيته وآدابه وتاريخه ، ككل أمة أخرى .. » .. وقد رد عليه خصومه يعتبون عليه الكتابة عن العرب كباحث بعيد عنهم ، ويذكرونه بآية (كنتم خير أمة أخرجت للناس) التى تكفى للإعلان عن القيمة الأصلية للعنصر العربى بين الأمم ، ويقولون إن رائده فى هذا الحكم هو ابن خلدون الذى لم يكن يرى للعرب فضيلة ولا فضلا .

● الأديب

كان همه من الكتابة أن يقرر ويقنع ، لا أن يؤثر ويمتع ، ولعل منشأ ذلك فيه أن عقله كان أخصب من خياله ، وأن علمه كان أكبر من فنه ، وأن حبه للحرية والصراحة كان يحبب إليه إرسال النفس على سجيتها من غير تقييدها بأسلوب معين ، وعرض الفكرة على حقيقتها من غير تمويهها بوشى خاص . ومع ذلك كان لأسلوبه طابعه المميز وجاذبيته القوية بحيث وصفه أغلب النقاد بالسهل الممتنع ، تقرؤه فلا تروعك منه الصور البيانية الأخاذة ، ولا الأصوات الموسيقية الخلابة ، وإنما تروعك منه المعانى المبتكرة الطريفة ، والآراء الصريحة الجريئة ، والشخصية القوية المهيمنة .. فأنت منه بإزاء عالم يبحث لينتج ، أو مصلح يصف ليعالج ، لا بإزاء مصور يلون ليعجب ، أو موسيقى يلحن ليطرب .

أحمد أمين

فالجلاء والوضوح هما سمة كتاباته كلها ، خاصة مقالاته التى جمعها فى كتاب من عشرة مجلدات ، هو « فيض الخاطر » الذى يضم كافة آرائه السياسية والاجتماعية والأدبية واللغوية .. وقد جاء هذا الجلاء والوضوح من أمرين : الأول وضوح الرأى فى ذهنه ، والثانى حرصه المتعمد على تجنب التزويق فى اللغة .. كان بوسعه أن يتقعر ، وأن يسجع ، وأن يجرى على أساليب الجاحظ وغيره من المتقدمين ، ولكنه آثر جلال المعنى على جمال اللفظ ، ورنين الفكرة على جرس العبارة ، ودرج على التعبير البسيط الذى يضرب فى المعنى إلى الصميم دون برقشة أو زركشة ، حتى يضرب للناس مثلا فى العناية بالأفكار ، والابتعاد على الصنعة التقليدية ، التى قتلت الفكر والأدب العربيين ، وأثقلتهما بهذه الزينة اللفظية ، وكان يوجه النقد والتهكم لمن التزموا النمط التقليدى فى تآليفهم أو تعبيرهم ، ويعد هذا فيهم من أسباب السطحية والفقر فى الحياة العقلية للعرب .. كتب فى وصف أحدهم يقول :

« أديب اللفظ ، فارغ الرأس ، قليل العلم ، قريب الغور ، قد ستر كل هذا بزخرفة القول كما تستر الشوهاء عيبها بالأصباغ ! »

● المؤرخ الإسلامى

على انه ربما كان أخطر إنجازاته الفكرية على الإطلاق ، وأبقاها على الأيام ، هى كتبه « فجر الإسلام » و« ضحى الإسلام » و« ظهر الإسلام » التى عرض فيها بالتحليل للحياة العقلية للعرب والمسلمين تحليلا لم يتهيأ مثله لأحد من قبله ، وقد وصف المستشرق البريطانى سير هاملتون جيب هذه الكتب فى « دائرة المعارف الإسلامية » بأنها « أول محاولة شاملة لإدخال منهج النقد فى التاريخ الإسلامى العربى الحديث » وستظل هذه الكتب الخالدة شاهدة على الجهد الذى لم يكل ، والعقل الذى لم يضل .. حاول فيها أن يلتمس العلل البعيدة التى غذت العقلية الإسلامية ونمتها وصقلتها وشكلتها فى شتى الصور على مر العصور .. وقد اقتضى منه هذا التحليل أن يرجع إلى العوامل الدينية المستمدة من الإسلام ، وإلى العناصر الدخيلة على المسلمين من الحضارتين الفارسية والهندية ومن الفلسفة اليونانية ، وكيف تفاعلت هذه العوامل كلها فى بوتقة الحضارة الإسلامية وفعل أكثر من ذلك إذ نظر إلى العقل الإسلامى فشرحه تشريحا ، فى حرية شديدة ، وجرأة غير معهودة ، وانتقل من التحليل إلى الأفكار التركيبية التى انتهت إليها العقلية حتى تحققت فى الحياة ، واستوت فى مظاهر السلوك ، وبرزت فى الأقوال المسطرة ، والكتب المدونة ، والعلوم المنتشرة .

وقد ارتفع فى هذه الكتب إلى النظرة الكلية الشاملة ، وبسط الحياة العقلية فى الإسلام بنظره النافذ وأحال ما فيها من اضطراب إلى وحدة ، فلم يعد القارىء العربى يحس بإزاء تاريخه أنه فى متاهة لا يعرف كيف يدخل إليها ، وكيف السبيل إلى الخروج منها .

فقد درج العرب على تأريخ حوادثهم فى حوليات ، كما نرى فى الطبرى وابن الأثير وغيرهما ، فيذكرون الأحداث من شتى نواحيها ، يختلط فيها التاريخ المحض السياسى بالأدب والعلم والدين ، ولم يعرف أحد من المتقدمين طريقة كتابته التاريخية الحديثة ، اللهم إلا ابن خلدون الذى صور فى مقدمته كيف ينبغى أن يكتب التاريخ ، حتى إذا شرع فى تدوين تاريخه سار على نهج القدماء .

أما تاريخ الحضارة بمعنى الكلمة فلم يعرفوا عنه شيئا ، فإذا أراد باحث اليوم أن ينهض لتصوير الحضارة الإسلامية فى مختلف عصورها ، مع بيان العناصر المكونة لها ، والظروف التى أدت إلى ظهورها ، كالعوامل الجغرافية والسياسية والاجتماعية والأدبية والاقتصادية ، فلن يجد شيئا من ذلك واضحا فى الكتب القديمة .

وقد كانت هذه هى المهمة التى أخذها أحمد أمين على عاتقه .. كتب فى مقدمة الجزء الأول من « ضحى الإسلام » يقول :

« لعل أصعب ما يواجهه الباحث فى تاريخ أمة هو تاريخ عقلها فى نشوئه وارتقائه ، وتاريخ دينها وما دخله من آراء ومذاهب ، ذلك أن مدار البحث فى المسائل المادية وما يشبهها واضح محدود ، وما يطرأ عليها من تغير ظاهر جلى ، أما الفكرة فإنك إن حاولت أن تعرف كيف نبتت ، وكيف نمت ، وما العوامل فى إيجادها ، وما العناصر التى غذتها ، وما الطوارىء التى طرأت عليها فعدلتها أو صقلتها ، أعياك ذلك ، وبلغ منك فى استخراجه الجهد » .

غير أن الرجل لم يبخل بجهده ، ووفق بفضل ثقافته العريضة ونظرته الثاقبة إلى أن يقدم ـ على حد تعبير طه حسين ـ « عرضا دقيقا صحيحا صادقا لتطور الحياة العقلية للمسلمين ملائما للعقل الحديث .. وكذلك استطاع ذلك الشيخ القديم الذى لم يجد نفسه فى الأزهر ، ولا فى مدرسة القضاء ، ولا فى الأعمال المختلفة التى تقلب فيها ، والذى كان شيخا ضائعا بين شيوخ ضائعين ، أن يفرض نفسه على الحياة العلمية فرضا ، وأن يظفر بإعجاب المواطنين والأجانب من العلماء ، وأن يصبح ثقة فى تاريخ الثقافة الإسلامية ، لا بالقياس إلى تلاميذه وزملائه فى مصر والعالم العربى ، بل بالقياس إلى كل من يعنون بهذا النحو من أنحاء العلم فى أقطار الأرض كلها .

أما بعد ، فإن هذا قليل من كثير ، وقطرة من بحر ، التزمت فيه بحدود الحيز الذى خصصته المجلة لهذا المقال ، وحدود صبر قارىء هذا الزمان . ■



الاتجاه العروبي في كتابات زكي مبارك

بقلم: د. حسين خريس (عمان)

شكلت العروبة في كتابات زكي مبارك المختلفة ظاهرة ميزته عن كثير من معاصريه . لما اتصفت به هذه الكتابات من كثرة والحاح واتساع مجال مابين مقالة سياسية او اجتماعية او ادبية نقدية او دراسات اكاديمية . ولاشك ان موضوعا له مثل هذا الشمول والتعمق . اذا تملك من صاحبه . فلابد ان يظل موصولا بنشاطيه الفكري والعملي . وكذلك كان الاتجاه العروبي عند زكي مبارك نزعة سلوكية والتزاما ادبيا اخلاقيا .

ثم جاءت رحلته الى العراق سنة ١٩٣٨ منتدبا للتدريس فى دار المعلمين العالية ببغداد كاستاذ زائر حافزا جديدا له على التأكيد على ماكان قد نذر له نفسه وما كان يعتد به منذ عهد مبكر من حياته الادبية الحافلة ، اضف الى هذا كله ضعف الصلات نسبيا بين البلاد العربية حينئذ ، وكون زكى مبارك مصرى الجنسية ؛ مصر التى كانت قد انحازت عن الدولة العثمانية منذ عهد مبكر لتنعم بدولة ذات سيادة وهياكل حكومية بانماط عصرية جديدة مما اكسبها خصوصية متميزة عن بقية البلاد العربية سواء أكانت مشرقية أم مغربية تضطرب اما فى جحيم السلطة العثمانية او فى قبضة الاستعمار الغربى . وهكذا كانت حماسة زكى مبارك للعروبة المنقطعة النظير ليؤكد بها انتماء مصر الخالد للعروبة التزاما اخلاقيا او نزوعا ادبيا هذا مع وجود بعض المعارضين لاتجاهه هذا سواء من داخل مصر او خارجها ، اما عن سوء تقدير او عجز فى التفسير واما لهدم استعداد فطرى او ثقافى . لكن صوت زكى مبارك كان اعلى . فقد ظل ممتشقا حسامه البتار لسنوات طويلة من غير ان يفتر له اوار او يعتريه كلل ؛ حتى ان ما كتبه فى هذا الخصوص لو جمعت نصوصه ، لشكلت مجلدا ضخما يفيد الدارسين باعتباره احدى وثائق عصره التى لا غنى عنه لاى متتبع لهذا العصر من حياة امتنا .

يقول زكى مبارك فى اعتداد واضح لا يخلو من زهو وخيلاء وكأنه المنافح الوحيد عن بيضة العروبة :

وانت مع ذلك تعرف انى وقفت لاعداء العروبة والاسلام بالمرصاد فمزقت اوهام الخوارج على العروبة والاسلام شر ممزق ، ودحرت من سولت لهم انفسهم ان يتطاولوا على ماضى الامة العربية ، وكنت دليلك الى التعرف الى مآثر العرب فى المشرقين والمغربين .

اما اللغة العربية فقد كانت معبودته ، بل هى قدس اقداسه وحبه الذى لا يساويه حب اخر ، وكان يفاخر بهذا الحب متباهيا كأنما اللغة العربية لغته وحده ، وكأنه ابنها البار الوحيد ، وكان من اجل هذا الحب يقاوم بل يحارب كل من يحاول أن ينال منها او يتعرض لها بالتنكر او الذم او الاتهام ، وهكذا نراه يرد على من يرميها بالعجز عن وصف المخترعات الحديثة ومسايرة العصر بان العيب فيهم لانهم كسالى وهم العاجزون . (الذين لم يخلقوا من الالفاظ والتعابير ما خلق البدوى الضال فى الصحراء) ولذلك فهو يعتب على اساتذة الطب العربى لتأخرهم فى نقل علوم الطب الى العربية يقول : (لغة العرب لغة آبائنا وأجدادنا فليعرف من لم يكن يعرف ان خطأنا فيها افصح من الصواب واننا لن نستمع لاى اعتراض بعد ان ركزنا الراية فوق ناصية الخلود) . يريد ان

الأدب العراقي
في كتابات زكي مبارك

المصريين افصح او من افصح العرب .

وفي رده على من يدعو الى الكتابة بالحروف اللاتينية او اصطناع العامية او من كان يدعي ان اللغة العربية غريبة ليست لغة المصريين يقول زكي مبارك : (فاللغة العربية في مصر ارسخ من اللغة الفرنسية في فرنسا ومن اللغة الانجليزية في انكلترا ومن الالمانية في المانيا لان تلك اللغات بصورتها الراهنة لم تعش في بلادها ربع المدة التي عاشتها اللغة العربية في بلادنا ، والفرق بيننا وبينهم انهم سلموا من الدسائس وابتلينا نحن بها .

وهكذا حمل زكي مبارك على اتخاذ اللغات الاجنبية لغات تدريس في المعاهد والكليات لانه اعتراف خط بان لغتنا فقيرة واننا فقراء وقد حاربت هذه النزعة في مصر وانا احاربها في العراق .

● لابديل للعربية

وكان زكي مبارك دائم التحذير من اهداف المستشرقين ومن يدور في فلكهم في زعمهم بان مصير اللغة العربية هو مصير اللاتينية حين تفرعت الاخيرة الى جملة من اللهجات المحلية اصبحت من بعد لغات قومية وكذلك اللغة العربية تمثل لهجاتها المختلفة اليوم الفروع الاخرى لها . وقد استمرت هذه الفكرة لسوء الحظ بصورة او باخرى الى عهد قريب حين زعم باحث متأخر ان اللغة العربية لغة مقدسة كالسريانية لغة صلاة وتعاويذ وتلاوة . وذلك بقصد انحسارها الى ميدان الطقوس الدينية . وقد يكون زكي مبارك من اوائل من نبهوا الى هذا الخطر المحدق بنا والذي يمزق وحدتنا باعتبار ان اللغة العربية هي الام الرءوم التي نرضع من ثدييها مواريثنا وتراثاتنا وكل ما يؤلف اشتات هذه الامة على وحدة المصير ولذلك كانت وحدة اللغة هي نفس وحدة الامة عاجلا او اجلا وحدة الامة العربية بالقوة او بالفعل فمادامت لنا لغة واحدة فالاساس في الوحدة باق لا يحول . من اجل هذا رأينا زكي مبارك يمتدح الحاكم بامر الله لانه وحد اللغة في مصر وهي حقيقة تاريخية لا يعرفها كثير من المؤلفين (فهو الذي وحد الامة المصرية حين اصدر قرارا بقتل كل من يتكلم باللغة العامية) . وزكي مبارك يمتدح طه حسين لانه لم يكن يسمح بالتحرش باللغة العربية او العدوان عليها وكذلك يشيد بمحفوظ الشاعر حافظ ابراهيم من الادب العربي القديم الذي جعله اية في اللباقة والظرف وحلاوة الحديث كما ينوه بسخرية حافظ ايضا من الادباء الذين اتهموا اللغة العربية بالعجز والتخلف وذلك في قصيدته المشهورة .

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي
وناديت قومي فاحتسبت حياتي

وفيها يقول :
ترى لرجال الغرب عزا ومنعة
وكم عز اقوام بعز لغات
اتوا اهلهم بالمعجزات تفننا
فياليتكم تاتون بالكلمات
ايطربكم من جانب الغرب ناعب
ينادي بوادي في ربيع حياتي

● مصر حصن العربية

وعن فضل مصر في حماية اللغة العربية والدفاع عن بيضة العروبة يقول زكي مبارك : ولحكمة ارادها الله بالعرب والمسلمين ان مصر هي البلد الوحيد (الذي انقرضت لغاته القديمة لتحل محلها اللغة العربية . وهذا حظ لم تظفر به امة عربية اخرى) . فقد ظلت في تلك البلاد لذلك العهد لغات اخرى . وكانت تطيب نفسه كلما رأى اشارة الى انتعاش اللغة العربية ، فهو يسعد ايما سعادة حين يسمع اطفال الاكراد في شمال العراق يؤدون امامه نشيدا باللغة العربية لانهم سيكونون بإذن الله من سواعد العروبة بعد حين . لان العروبة فكرة لا جنس .

وكان زكي مبارك يرى ان مصر هي حصن اللغة العربية الحصين وكان اعتزازه بهذه العروبة لايساويه اعتزاز لقد كانت العروبة هاجسة المتصل وهو يرجع سيادة مصر في الشرق وتقدمها لقوتين احداهما الاسلام والاخرى اللغة العربية الى درجة كان العرب في مهد العرب ومهد النبي العربي الامين يبعثون بابنائهم الى مصر لتعلم اللغة العربية . يقول : (ومن مفاخر مصر ان العربية هي لغتها القومية الوحيدة ، والاسلام دين الاغلبية السلحقة) .

وهكذا ظلت راية الشعر (يحملها المصريون ولن تنتزع هذه الراية من ايدينا ولو سهر الليل الاخوان الاعزاء في سائر الاقطار العربية) . وواضح انها دعوة الى المنافسة الشريفة بين الاشقاء كما يدل عليها لفظه النبيل : "الاخوان الاعزاء" وفي سبيل هذه المنافسة كان زكي مبارك يقول انني لو بقيت في العراق مدة وافية لخلقت للقاهرة منافسا خطيرا هو بغداد وما خنت بلدي بذلك لان وطني لا يسره ان تخمد جذوة الحماسة العربية .

وهكذا بريء زكي مبارك من داء الوطنية الضيقة او الاقليمية او العنصرية او الطائفية . وكان كثير الدعوة لتوثيق عرى المودة والمحبة بين البلاد العربية حتى رأيناه يعترف بانه ابن بغداد قبل ان يكون ابن القاهرة او باريس من ناحية الثقافة وكان لا يذكر العرب الا قال اسلافنا او اجدادنا مفاخرا (بانه اعد نفسه حتى يكون خادما من خدام العروبة وحارسا من حراس لغة القرآن وهو صوت مصر في العراق) .

ويحس القارىء لاثاره ان غيرته على البلاد العربية ومصالحها لا تقل عن غيرته على مصر ومصالحها . وكان

الاتجاه العربي
في كتابات زكي مبارك

يدرك ان الادب العربي والثقافة العربية من خلال اللغة هما الموثق لاواصر المودة مابين البلاد العربية ولذلك كان يهاجم كل من يتعرض للادب العربي بالقصور او التخلف فهو يهاجم سلامه موسى لانه يتهم طه حسين والزيات والعقاد وزكى مبارك لاهتمامهم بالاثار العربية التى يصفها بالعاديات . وكذلك يسخر من الشاعر ابراهيم ناجى الذى اخذ على زكى مبارك بعد عودته من باريس الكتابة عن اعلام الادب العربى ولم يكتب عن اعلام الادب الفرنسى . يقول زكى مبارك (انى لم اتعلم فى فرنسا لا تفرنس وانما كان المهم هو ان اخذ المنهج فى طريق البحث والتاليف) .

من اجل هذا كانت جل كتابات زكى مبارك موجهة الى خدمة اللغة العربية والثقافة العربية ولذلك ناضل احمد امين نضالا مريرا فى كتابه الموسوم بـ "جناية احمد امين على الادب العربى" وبسبب هذه الغيرة ناله من اساتذته فى جامعة السوربون ما ناله وحين نسب طه حسين الزخرفة فى الادب العربى الى اليونان ونسبه المستشرقون الى الفرس هب زكى مبارك يدفع هذه التهمة عن الادب العربى مستشهدا بالقرآن الكريم ويقول ان القرآن دل على حقائق ادبية واجتماعية كان يعرفها العرب عن اسلافهم ، لان القرآن "نثر وانه دليل على ان العرب كان عندهم نثر فنى قبل الاسلام فكان لهم بذلك وجود ادبى متين قبل ان يتصلوا بالفرس واليونان) . ولا يعقل ان يظهر كتاب كالقرآن فى اهميته وبلاغته بين قوم لم يفكروا فى الفصاحة وفى العروض والنقد . وطرائف التعبير . وظهور كتاب كالقرآن فى اى لغة يدل على انها تعدت طور الطفولة منذ ازمان) . ويستبعد زكى مبارك ان يظل العرب خالىّ الذهن من العلوم الادبية الى ان اتصلوا بالفرس والروم كما يستبعد (ان يكون ابو الاسود الدؤلى اول من فكر فى النحو ومن المضحك ان العرب لم يتنبهوا الى وقوع اللحن فى لغتهم الا بعد الاسلام .

وفى الجملة كان زكى مبارك شديد الاعتزاز بالذاتية العربية اعتزازا لا يعرف فيه المهادنة او المسالمة فقد نذر نفسه لهذه الغاية الشريفة كما تبينا فى هذه العجالة عن نضاله فى سبيل امته العربية ولغته العربية .

أقوال معاصره



د . عبد القادر القط



جورج بوش



ادوار شيفرنادزة

- "الشعب هو القاضى ، وصندوق الانتخابات هو المحكمة"

الأمير سيهانوك

- "مجانية التعليم أكذوبة كبرى"

الدكتور سعد الدين ابراهيم

- "التاريخ لا يعيد نفسه ، انما فى حالة تغير دائم"

الدكتور سمير أمين
مدير منتدى العالم الثالث

- "المبدع لا يلتزم بحقائق التاريخ"

الدكتور عبدالقادر القط

- "الشعر فن صعب يخون الكسالى"

الشاعر محمد حسين آل ياسين

- "لم يعد الناس يهتمون بالأدب والفن ، وانما بالفضائح"

الناقد والناشر الألمانى أوفى فيشتوك

- "مرجع قوة الحياة الفكرية الى عدم وجود رقابة دينية"

الدكتور محمد زغلول سلام
عميد آداب بنها الأسبق

- "خيال الشيء أجدى من الشيء"

الناقد السورى حليم اليازجى

- "نصوغ حياتنا وفق ما نعرفه من الحكايات"

دافيد معلوف
الأديب الاسترالي المنحدر من أصل عربى

- "فلنتحد بسرعة ، والا فقدنا كل شيء"

ادوارد شيفرنادزه

- "الحب أوله هزل وآخره جد"

ناصر خمير
مخرج الفيلم التونسي طوق الحمامة المفقود

- "العدو هو عدم الاستقرار"

الرئيس الأمريكى جورج بوش

- "الاقتصاد الفقير ، يزداد كل شهر فقرا"

اندرز آسلوند
مدير معهد استكهولم لشئون اقتصاديات أوربا الشرقية

دعـــــوة

□ كنت ومازلت ، مقتنعا بأن من اهم واجبات الكتاب والقائمين على امر الثقافة جميعا تذكرة المواطنين بسير قادة الفكر والعلم والادب والفن من ابناء هذه الامة ممن ملأوا تاريخها القريب بوجه خاص . وتاريخها خلال المائة عام الاخيرة بوجه اخص ، بعلمهم وبفكرهم واشراقاتهم الادبية والفنية . وبجهودهم لنشر هذا العلم وهذه الاشراقات والدفاع عنها ، فليس ادعى الى استنهاض همة الانسان الفرد من ان يدرك نفسه على انه عضو في فريق قطع شوطا في طريق بعينه ، وانه هو ومن حوله يبذلون الجهد في السبيل الى مزيد من التقدم على الطريق نفسه ، وانه سوف يأتي من بعدهم آخرون يواصلون السير في الاتجاه ذاته ، وبذلك يتكشف المنظور عن اننا بصدد جهود متكاملة بين اجيال متلاحقة ، وتكتسب حركة كل جيل وكل عضو في هذا الجيل قيمتها ومعناها في بناء يرتفع ويتكامل دوما .

● ثروتنا من العقول

وجدير بالذكر ان لدينا ثروة قومية كبيرة من الاسماء والاعمال تملأ هذا المنظور بدرجة من الثراء تفوق كثيرا مناظير مماثلة في عدد من المجتمعات المحيطة بنا . غير اننا لاندرك القيمة الحقيقية لهذه الثروة الا اذا قدمت لنا بالصورة الواجبة بحيث تتيح لنا الاقتراب منها لنرى الوجوه عن كثب ، ولنقوّم الاعمال في اناة وروية ، ولنقدر تقديرا تقريبيا حجم هذه الثروة ، وما تنطوى عليه من نفائس . سوف نفطن عندئذ الى انها ثروة بالغة التنوع ، وانها لذلك كفيلة ، اذا احسنا توظيفها ، بأن تمدنا بمعين شديد الخصوبة لجهودنا المنصرفة الى البناء في الحاضر والتخطيط للمستقبل ، وما أحوجنا الى مايشد أزرنا ويرفع من روحنا المعنوية في هذه الايام العجاف ، وما احوجنا الى زيادة الجرعة - المشاعر القومية في هذا الزمان الذى تنهال فيه الضربات المدمرة على تلك المشاعر حتى لقد بات خطر التهديد بإبادتها أمرا ممكنا ، وأكاد اقول محتملا .

منذ مائة عام ، عندما كنا على مشارف القرن العشرين ، كنا حديثى عهد بالتحرر من السيطرة العثمانية ، وكنا في الوقت نفسه حديثى عهد بالدخول في اطار السيطرة البريطانية ، ومن احتكاك هذين

الحدثين الخطيرين فى وجدان الامة بدأت تتخلق وتتشكل روح الثقافة المصرية الحديثة ، متجسدة فى رجال دخلوا العشرين فى مطلع شبابهم أو فى بواكير طفولتهم ، وتقدمت بهم أعمارهم وقد وطنوا النفس على اداء مهمة محددة ، هى : اثارة المشاعل على الطريق فى شتى نواحى الفكر ، وبكل الوسائل التى يمكن ان يرقى اليها خيال مبدع . كانت السمة الرئيسية فيهم جميعا هى علو الهمة ، والتفانى فى خدمة القضية ، كل من منظوره .

جاء احمد لطفى السيد يجتاز عقبة القرن العشرين ، وكان اذ ذاك فى مطلع شبابه ، وكذلك احمد شوقى ، وحافظ ابراهيم ، واحمد فتحى زغلول وجاء من بعدهم من اجتازوا العتبة وهم بعد اطفال صغار ، على عبدالرازق ، واحمد امين ، وطه حسين ، ومحمد ناجى ، ومحمود مختار ، ومحمود سعيد ، وحسن فتحى ، وغيرهم ، وتعاصرت كهولة هؤلاء مع شباب آخرين ولدوا فى رحابهم ، وتنسّموا نسمات الحياة الاولى على مشهد منهم ، نذكر فى هذا الصدد عبدالرحمن الشرقاوى ، ونعمان عاشور ، ويوسف ادريس ، وصلاح عبدالصبور ، ومحمد عويس ، وحامد ندا ، وعبدالهادى الجزار . ولايزال الموكب يتقدم وتتعاظم طاقاته .

● التاريخ الطبيعى للوجدان المصرى الحديث

وددت لو اننى استطعت كتابة التاريخ الطبيعى للوجدان المصرى الحديث . اذن لعكفت على النظر فى امر ثروتنا القومية هذه ، المتمثلة فى جهود رجال الفكر والادب والفن جميعا ، كيف شقوا الطرق فى السبيل الى بلوغ اهدافهم ، وكيف اتصلت بعض انجازاتهم ، وكيف تعطل بعضها وتعثر ، وماهى انواع الصعوبات التى اعترضتهم والظروف المعاكسة التى فرشت بها الأرض امامهم ، وكيف تشابكت جهودهم سواء عن قصد او عن غير قصد مع ظروف الحياة السياسية فى مصر ، وكيف تعاملت او تعاركت مع ماهو متاح او مفروض من عناصر الحرية من ناحية والاستبداد من ناحية اخرى . بمعناهما الاجتماعى العريض لا السياسى الضيق فحسب ، وكيف يمكن الوصول بهذا التحليل الى وضع تقدير اجمالى (تقريبى بطبيعة الحال) لحساب المكسب والخسارة .

أن الاوان ، ونحن مقبلون على المائة عام التالية ، ان يقوم بهذه الدراسة من هم مؤهلون لها ممن يملكون ادوات البحث التاريخى المدقق ، ويستطيعون ترسيخ النظرة الشاملة ، ويحملون نصيبهم من الانشغال بالهم العام فى الحاضر والمستقبل .

د . مصطفى سويف



عرابي والهلال

بعد ان نشر في الهلال العدد السابع عشر حديث عن الثورة العرابية وعن زعيمها احمد عرابي وما نقلته من اسباب تلك الثورة .. فلما اطلع على المقالة ، بعث الينا برسالة يدافع بها عن نفسه وفيها ترجمة حالة واسباب الثورة ونتائجها على ما اشرنا اليه .
وهذا نص الرسالة التي بعث بها الزعيم احمد عرابي بنصها

فقد وصلني الآن العدد ١٧ من هلالكم الاغر ، وبمراجعته وجدته مصدرا برسمي الأخير ورسمي العسكري قبل عشرين سنة وفيه مختصر ترجمة حياتي مع مختصر النهضة الوطنية المصرية التي قدمت بها في سنة ١٢٩٨ هـ طالبا من الحكومة المصرية اذ ذاك رفع المظالم ومنع التعصبات الجنسية ونشر اعلام العدل والمساواة بين جميع المستظلين بظل قوانين الحكومة .. فانعكست المرئيات وساء الحال حتى آل الأمر الى ما آل اليه مما هو مسطر في بطون التاريخ ..

فاشكر حضرتكم على تهنئتكم لي بما نلته من فضل مراحم الحضرة الفخيمة الخديوية .. وعلى حسن ظنكم بي .. ولكنني رأيت ان الذي اخبركم بتاريخ نشأتي الاولى قد كذبكم الحديث وخلط في روايته .. وحيث ذكرتم ان اخواني المصريين مشتاقون الى معرفة ترجمة حياتي مع تاريخ الحادثة التي ادت الى الانقلاب العظيم في مجاري الاحوال المصرية فصار حقا واجبا عليّ كشف حقيقة نشأتي تلبية لرغبتهم ..

فاقول :

نشأتي الاولى

ولدت في ٧ صفر ١٢٥٧ هـ من ابوين شريفين من ذرية العارف بالله السيد صالح البلاسي البطائحي بالعراق ، وهو اول من قدم الى بلاد مصر من بلاد البطائح بالعراق في اواسط القرن السابع للهجرة وهو من سلالة الحسين بن علي بن ابي طالب ..

واسم والدي محمد عرابي بن السيد محمد وافي .. الى ان ينتهي نسبه الى الامام الحسين بن علي ..

ومولدي كان بقرية هرية رزنه بمديرية الشرقية ..

وعشيرتي فيها نحو ربع تعدادها . وكان والدي شيخا عليها الى ان توفي في

شهر شعبان سنة ١٢٦٤ هـ . عن ثلاث نسوة واربعة اولاد وست بنات .. وكنت ثانى اولاده الذكور وسنى ٨ سنوات وترك لنا ٧٥ فدانا من الاطيان الزراعية .

فلما بلغت سنى ٥ سنوات ارسلنى والدى الى المكتب ، فاقمت فيه ثلاثة اعوام ختمت فيها القرآن الشريف وعمرى ثمانى سنوات وبضعة اشهر ، فلما توفى والدى كفلنى اخى الاكبر الذى توفى فى ٢٠ شعبان سنة ١٣١٨ هـ . ثم بدا لى المجاورة فى الازهر حين بلغت اثنى عشر عاما .. وبعد سنتين رجعت الى بلدى ..

● عهد سعيد باشا

وكان سعيد باشا قد تولى الحكومة الخديوية فى ١٥ شوال سنة ١٢٧٠ هـ وامر بدخول اولاد مشايخ البلاد واقاربهم فى العسكرية .. فدخلت من ضمنهم وانتظمت فى سلك الاورطة السعدية المصرية فى شهر ربيع الأول سنة ١٢٧١ هـ . وجعلت فيها وكيل بلوك امين من اول يوم سار انتظامى فى سلك العسكرية بعد امتحانى بحضور ابراهيم بك امير الالاى وحسن افندى الالفى حكيم الالاى ، ثم ترقيت الى بلوك امين فى نفس السنة بعد ان اعاد الامتحان .

وفى اوائل سنة ١٢٧٤ هـ امر سعادة راتب باشا بجمع الصف ضباط فاجتمعنا حوله فى فسحة قصر النيل وبلغنا لرادة المرحوم سعيد باشا وقال : ان افندينا بلغه انكم تقولون كيف يصير ترقى الصف ضباط الجدد وتأخير من هو اقدم منهم فى الرتب ، وانه امر الا يترقى أحد بعد الآن الا بعد الامتحان فمن فاق اقرانه فى الامتحان ترقى الى الرتبة التى يستحقها . فمن اراد منكم الامتحان فليتقدم الى الامام .. فعند ذلك تقدمت واحجم الآخرون خوفا ظنا منهم انه يريد معاقبة من يتظاهر بذلك .. ولما كرر عليهم الطلب خرج آخر وآخر حتى بلغ نحو ٣٠ شخصا ، فصار امتحانهم بحضوره فكنت اول فائز فى الامتحان .

ثم صار جمع الضباط والصف ضباط بمعرفة راتب باشا .. ووضع فى صدرى نيشان الباشجاويش واعلن ترقيتى الى هذه الرتبة : وبعد سنة اى فى اول سنة ١٢٧٥ هـ صار امتحان الباشجاويشية .. فكنت الفائز الاول وترقيت الى رتبة الملازم ثانى ، ثم بعد سبعة اشهر صار امتحان الضباط فى القصر العالى فكنت اول الفائزين .

ولما عرض الجدول على سعيد باشا امر باعادة امتحانى وانتدب لذلك سليمان باشا الفرنساوى .. وبعد الامتحان التمس سليمان باشا الخروج الى ميدان الأمام الشافعى وهناك يصير الامتحان فى الميدان فسأله الخديو عن مقصده فقال انه يستحق لرتبة الاميرالاى .. وبعد ذلك احسن الى برتبة الملازم اول ، وبعد شهرين احسن عليّ برتبة يوزباشى .

وفى اول سنة ١٢٨٦ هـ ترقيت الى رتبة صاغقول اغاسى» فى بنى سويف .

ثم اواخر سنة ١٢٧٦ هـ ترقيت رتبة بكباشى .. وفى اواخر سنة ١٢٧٧ هـ احسن الىّ برتبة القائم مقام .

وحاصل الأمر اننى دخلت العسكرية نفرا بسيطا فى اوائل سنة ١٢٧١ هـ وبلغت رتبة القائم مقام فى اواخر سنة

١٢٧٧ هـ بجدى واجتهادى .

وقال لى مـرة سعيد باشـا وأنا برتبة قائم مقام .. ان جميع الناس عادونى حتى اهلى بسبب مساواتكم بغيركم فحققوا امل فيكم . فاجبته : «ولكن الله سبحانه وتعالى يرضى عنك والامة المصرية ترضى عنك بمراعاتك للحق والانصاف» .

● تشائى الثانية

ولما تولى الخديو اسماعيل وامر بانشاء ٦ آليات بيادة كنت قائمقام في الالاى السادس ، وكان خسرو باشا اميرالاى على الالاى الثانى ثم ترقى الى رتبة لواء باشا .. وكان متعصبا لابناء جنسه تعصبا أعمى .

وترتب قومندانا على الالاى ٥ و ٦ ولما وجدنى وطنيا ، عظم عليه وجودى فى الالاى وسعى فى رفتى من الالاى لاجل اخلاء محلى لترقية احد ابناء المماليك وصار يترقب الفرص للايقاع بى الى ان صدر امر الجهادية بامتحان الضباط وكنت من ضمن اعضاء مجلس الامتحان ، وارسل لى عريضة احد الملازمين وطلب اخذ ختمى من عريضته والختم على عريضة ضابط آخر ، فشق علىّ هذا الأمر ، وقلت ان هذا ظلم لا افعله ، فحنق لذلك حنقا شديدا وذهب الى ناظر الجهادية اسماعيل باشا سليم واخبره اننى لا اطيع له امرا ولا اعبأ باوامر ديوان الجهادية . وناظر الجهادية عرض للخديو الاسبق بذلك . ثم صدر الأمر برفتى من الجهادية ، وحرمانى من المائتى فدان التى صدر امر الخديو بالاحسان بها على كل من القائمقامات الجهادية عقيب مناورة عسكرية حضرها الخديو وكنت من ضمن من حضرها .

وفى سنة ١٢٨٣ هـ صار تعيينى محافظا على بحر مويس بمديرية الشرقية زمن فيضان النيل .. وبعد انقضاء زمن النيل من غير ان يحدث ادنى ضرر فى مديرية الشرقية ، ثم ترتبت مأموراً لتشهيل بناء قناطر فم الاسماعيلية وقطع الاحجار فى معامل طره . والجبل الاحمر وشحنها بالمراكب الى هذه الجهات حتى ١٢٨٥ هـ فانتدبت لتشهيل بناء كوبرى ببنى سويف وكوبرى بمديرية الجيزة .

ثم احيل على عهدتى تمديد السكة الحديد من محطة المنيا الى محطة ملوى وبعد نهوها تصادف جعل المرحوم قاسم باشا فتحى ناظر الجهادية وكان يعرف قدر اعمالى فطلبنى وكلفنى الانتظام فى سلك العسكرية ثانية ، فأجبته وكان ذلك فى اوائل سنة ١٢٨٧ هـ وفى سنة ١٢٨٨ هـ انتقلت الى رئاسة ٢ جى الاى بادة برتبة القائمقام .

وفى سنة ١٢٩٢ هـ انتدبت الى ترتيب عساكر محافظين للقلاع الحجازية .

ولما عرضت انتهاء مهمتى على ناظر الجهادية حسين باشا كامل قال لى انى لاعتمادى عليك ووثوقى بك قد عينتك مأمورا للحملة الحبشية فاستعد لذلك . فانتخبت من اعتمد عليهم من الضباط والكتبة وسافرنا جميعا . وبعد انتهاء تلك الحرب عدت الى مصر .

● خاتمة أمرى

ولما تولى المرحوم توفيق باشا مسند الخديوية وحضر الى الاسكندرية أحسن علىّ برتبة الأميرالاى على الالاى الرابع فتوجهت الى رأس التين وقدمت تشكراتى وامتنانى الى حضرته .

ولما صار المرحوم عثمان رفقى باشا الشركسى ناظر الجهادية فى وزارة مصطفى رياض باشا واستبدوا بالادارة .

عرابي والهلال

واستخفوا بأمر الخديو وخصوصا عثمان رفقي لجهله ، خيلت له نفسه ان يمنع ترقية المصريين من العسكر ، والاكتفاء بما يتخرج في المدارس الحربية وصدرت اوامره بذلك .

وكنت لا اعلم بشيء من ذلك ، وانما دعيت الى وليمة وسماع القرآن بمنزل نجم الدين باشا ، فجلست بجوار المرحوم نجيب بك وهو رجل كردى الأصل فلخبرني نجيب بك بذلك .

وبعد تناول طعام المائدة حضر لى احد الضباط واخبرني بان كثيرا من الضباط ينتظرونني بمنزلي ، فاسرعت اليهم وهم في هياج عظيم وقد بلغهم صدور اوامر ناظر الجهادية . واخبروني بذلك ، فقلت لهم هذ سمعت من غيركم فماذا تريدون .. فقالوا كلهم قد فوضنا اليك هذا الامر وليس فينا من هو احق به واقدر عليه منك .. فقلت لهم لا فقالوا لا نبغى غيرك ولا نثق الا بك ..

وفي الحال كتبت عريضة الى دولة رئيس النظار رياض باشا مقتضاها الشكوى من تعصب عثمان رفقي لجنسه والاجحاف بحقوق الوطنيين .. والتمست فيها :

١ ـ تشكيل مجلس نواب من نبهاء الأمة المصرية تنفيذا للأمر الخديو الصادر ابان توليته .

٢ ـ ابلاغ الجيش الى ثمانية عشر الفا تطبيقا لمنطوق الفرمان السلطاني ..

٣ ـ تعديل القوانين العسكرية بحيث تكون كافلة المساواة بين جميع اصناف الموظفين بصرف النظر عن الاجناس والاديان والمذاهب .

٤ ـ تعيين ناظر الجهادية من ابناء البلاد على حسب القوانين العسكرية التي بايدينا .

ولم اذكر قط رفت شيخ الاسلام كما ذكرتم بهلالكم الاغر لانه لا دخل له في امر العسكرية .

ثم تلوت بعد ذلك العريضة هذه على مسامع الجميع فوافقوا كلهم عليها فامضيتها بامضائي .. وامضاء على فهمي ايضا وعبد العال بك ..

وفي صحوة الغد ذهبت الى ديوان الداخلية وقدمت العريضة الى دولة رئيس النظار فقال لنا سانظر في هذا الامر واتكلم مع ناظر الجهادية» ..

وبعد يومين ذهبت الى الرئيس المذكور وسألناه عما تم في هذا الأمر فقال «ان هذا الطلب مهلك واشد خطرا من العرض الذي قدمه احمد افندى فنفي بسببه الى السودان» وكان بديوان المالية وتعرض لكلام حاق به .. فانصرفنا على ذلك .

ولما كان يوم غرة ربيع الأول سنة ١٢٩٨ هـ انعقد مجلس تحت رياسة الخديو .. حضره جميع الباشوات المستخدمين والمتقاعدين وكلهم من الترك والشراكسة والاوربيين : وقرروا فيه لزوم توقيف الثلاثة الذين امضوا على العريضة المتقدمة ثم اجراء محاكمتهم : فقال رياض باشا انى ارى انه اذا صار توقيف الأميرالات المذكورين يلزم ايضا توقيف ناظر الجهادية ، لانه في عدم توقيفه خطر عظيم ، فلم يوافق الخديو على ذلك ، وتعهد ناظر الجهادية المذكور بانه ضامن لاخذنا بسهولة .

وفي المساء ارسل لنا ناظر الجهادية

لكل منا تذكرة يدعونا فيها للحضور الى ديوان الجهادية فى سنة ١٢٩٨ هـ لنشهد الاحتفال بزفاف شقيقة الحضرة الخديوية . وكان وقت زفافها لم يحن بعد فتيقنا انه يريد خداعنا والبطش بنا فاخذنا حذرنا ..

وحين حلول الوقت المعين ذهبنا الى ديوان الجهادية فوجدناه غاصا بجميع الشراكسة ، وبأيديهم الطبنجات .. فلما حضرنا دعينا للحضور الى مجلس الهلاك فاجبنا طائعين .. وتلى الأمر الخديو ثم امرنا بتسليم سيوفنا فاطعناه .. وساقونا الى السجن .

وبعد اقفال السجن جاء خسرو باشا وكان رجلا صلفا جاهلا فوقف خارج السجن وقال (اية زنبيل لى هرقلر) يعنى فلاحين شغالين بالمقاطف .. وبعد غلق السجن جاءت اورتطان من الاى الحرس الخديوى بقيادة الشهم الهمام محمد افندى عبيد اليكباشى واحدقوا بديوان الجهادية .. وفتحوا الابواب واخرجونا من السجن .. وقد فر ناظر الجهادية الغشوم هاربا وكذا رجال المجلس وغيرهم .

ثم سرنا جميعا الى قشلاق عابدين .. وكانت الأورطة الأولى من الحرس الخديوى واقفة امام سراى الخديوية .. وعزفت الموسيقى بالسلام الخديوى ونادوا جميعا «يعيش الخديو» وذلك كان اشارة واعلانا للقوم باننا على اخلاصنا للحضرة الخديوية وكان جميع الذوات الذين كانوا بديوان الجهادية مجتمعين يتشاورون فيما بينهم .. واثناء اجتماعهم حضر الالاى السودان من طره وانضم الى الاى الحرس ..

ثم بتنا على ذلك وفى الصباح حضر لنا المرحوم احمد خيرى باشا مهردار الخديو ومعه محمود سامى باشا ناظر الاوقاف من طرف الخديو ..

وقالوا لنا : ماذا تريدون .

فقلنا: «العدل والمساواة» .

قالا : ثم ماذا .

قلنا : استبدال ناظر الجهادية برجل وطنى .. وتشكيل مجلس نواب للامة ينظر فى مصالحها .. وتعديل قوانين العسكرية ، وابلاغ الجيش الى ثمانية عشر الفا .. ونحن طاعتنا للحضرة الخديوية .

فذهبا الى الخديو ثم رجعا وقال : «قد عزل عثمان رفقى فمن الذى تريدونه ناظرا للجهادية» .

قلنا : الذى يختاره الخديو من الوطنيين .. فذهبا وعادا ثانية قالا :

— ان الخديو يقول اختاروا انتم من ترضونه حتى لا يحصل منه مثل ما حصل من عثمان رفقى .

فقلنا قد اخترنا هذا محمود سامى باشا وهو من اولاد المماليك الأول ولكنه صدق معنا ولم يقصد الغدر بنا .. وهو براء مما نسب اليه بمجلتكم من نقل اخبار المجلس الينا .. ثم صدرت الأوامر الخديوية باعادة كل منا الى الايه وعزل عثمان رفقى .. وصار تولية محمود سامى على نظارة الجهادية مع نظارة الاوقاف .

واخذ فى سن القوانين العادلة . وتعديل القوانين الاصلية وتنقيحها .

وبعد ذلك اجتهدت الحكومة فى غدرنا .. واخذنا على غرة او بحيلة ..

ولما لم يوافقها ناظر الجهادية محمود سامى باشا على نواياها .. صار عزله وتعين بدله داود باشا يكن وهو عديل الخديو ولكنه رجل جاهل احمق فاسرع باصدار اوامر لا يستطاع قبولها فنفرت القلوب منه .

عرابى والعدل

فكتبت له فى ٩ سبتمبر ١٨٨١ م باننا سنحضر بجميع العساكر الى ساحة عابدين لعرض طلباتنا ، وكلفته عرض ذلك على الحضرة الخديوية .

وفى الوقت المعين لجتمعت الالايات البيادة والسوارى والطوبجية فى ساحة عابدين . وقد حيانا المرحوم الخديو باجابة تلك المطالب العادلة .

ثم صار استدعاء المرحوم شريف باشا من الاسكندرية وتعيينه رئيسا للوزارة على حسب اختيارنا له .. وتعيين محمود سامى باشا ناظرا للجهادية .. وصار توظيفى وكيلا للجهادية .

وفى تلك النظارة صارت الامتحانات وترقى كثير من الباشوات وامراء الالايات والقائمقام وغيرهم .. وانشئت القوانين العادلة وتعدلت الرواتب ..

وصرفت الحقوق الموقوفة من زمن مديد .. وانشىء مجلس النواب ، وعم العدل واستقامت الأمور .

وحين ذلك عرضت على رتبة لواء (باشا) فرفضتها لئلا يقال علىَّ اننى اشتغل لمصلحتى .. وبقيت فى رتبة الاى مدة .

وبعد مدة عرضت علىّ مرة ثانية رتبة لواء فقبلتها من اجل المصلحة العامة وللضرورة .. وقد انتظمت الأمور وهدأت الاحوال .

ولكن اوربا لا يروق فى نظرها انتظام حكومات الشرق . فبدأت تعد المكائد وتتحين الفرص .

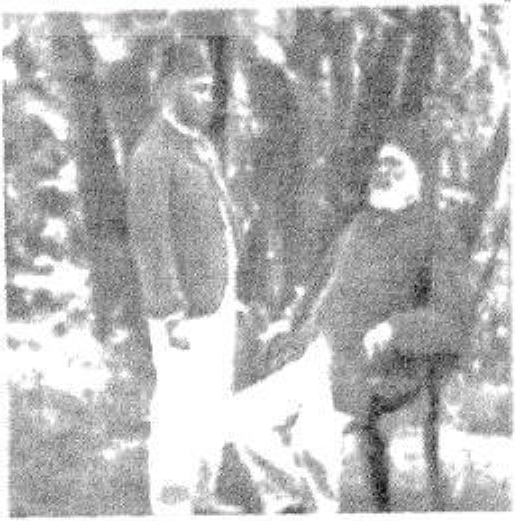
وفى شهر مايو سنة ١٨٨٢ م . جاءت الاساطيل الحربية الانجليزية والفرنساوية الى ثغر الاسكندرية .. وتقدمت للحكومة المصرية لائحة مشتركة من دولتى فرنسا وانكلترا مجحفة باستقلال الحكومة المصرية وحقوق الدولة العلية ، وتقدمت نسخة منها للخديو فرفضها مجلس النظار وقبلها الخديو ، فاستعفت النظارة من وظائفها .. وهاجت الافكار العمومية وطاشت العقول الذكية واجتمع مجلس النواب وجميع قناصل الدول يطلبون منى حفظ الأمن . فقلت لهم لا قدرة لى على ذلك لانى قد استعفيت ..

وفى ١١ يونية سنة ١٨٨٢ م حدثت حادثة الاسكندرية بتدبير ذوى الغايات لاجل تشويه اعمالى فى نظر اوربا .. وخدش تعهدى بالحفظ والامن فاسرعت بارسال العسكر الى الاسكندرية حتى انتهت الفتنة .

وبعد ذلك تشكلت الوزارة بمعرفة الخديو تحت رياسة راغب باشا وكنت من رجالها ايضا .

وفى يوم ١١ يوليو ١٨٨٢ م وردت افادة الى قومندان عساكر الاسكندرية من طرف

عرابى فى منفاه



اميرال الاسطول الانجليزى .. يقول فيها انه جارى تهديد الصارة الانجليزية بترميم القلاع والاستحكامات وانه يطلب تخريب القلاع وهدمها بايدى العساكر المصرية والا ضرب الاسكندرية ودمرها .

فعقد لذلك مجلس تحت رياسة الخديو ، واجتمعوا على رفض هذا الطلب والاستعداد للحرب . فاعطيت الاوامر بذلك ..

ومنذ اشراق يوم ١٢ يوليو بدأت مراكب الانكليز بالضرب على مدينة الاسكندرية وجميع سواحلها وانتشب القتال بين مصر ، والحكومة الانكليزية .

اما الاسطول الفرنساوى فاعتزل جانبا كالمتفرج .

وفى اليوم الثامن انهزمت العساكر فرجعت الى كفر الدوار واتخذت خطا دفاعيا ، وقد انحاز الخديو الى العدو المحارب لبلاده ، واستدامت الحرب الى ان قدر الله سبحانه وتعالى شأنه بالخذلان العظيم فى التل الكبير .

وتم الأمر بنفينا الى جزيرة سيلان ، وخرجنا من مصر فى يوم ١٦ صفر سنة ١٣٠٠ هـ ومكثنا بها تسع عشرة سنة .

وفى ٦ صفر سنة ١٣١٩ هـ صدرت الادارة الخديوية بالرخصة لى بالعودة الى مصر والاقامة فيها .

والله الذى لا اله الا هو انى ما خدمت بذلك دولة انكلترا ولا فرنسا ولا كنت آلة لدولة ما، وانما كنت اجتهد فى حفظ استقلال بلادى مع نيل الحرية والعدل والمساواة لأهل بلادى .. وانا خادم لهم ..

وانى والله لا اكره شركسيا ولا روسيا لذاته وانما اكره الاعمال المغايرة للعدالة والانسانية . واحب العدل والمساواة بين جميع بنى الانسان . والحمد لله اولا واخيرا والشكر لله وللحضرة الفخيمة الخديوية التى منحتنى نعمة العود الى وطنى العزيز لأحظى برؤية ذاته الكريمة ورؤية ابناء وطنى الكرام قبل ان افارق هذه الحياة الدنيا والحساب على الله ..

وانى اضرع الى الله سبحانه وتعالى ببركة سيد الاولين والآخرين المبعوث رحمة للعالمين ان يوفق الله بين الحكومة الانكليزية والحكومة العثمانية ويهديهما الى التوافق على اخلاء مصر من الاحتلال الانكليزى وتسليم مصر للمصريين وتعود المياه الى مجاريها كما كانت اولا .

وانا اسأل الله سبحانه بسعة رحمته وعظيم قدرته ان يوفقنى لما فيه رضاه مع حسن الثناء فى العباد وجميل الاثر فى البلاد وتمام النعمة وزيادة الكرامة وان يختم لى بالسعادة بجاه حبيبه المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ..

خادم وطنه العزيز مخلصكم
احمد عرابى الحسينى المصرى
«الهلال»

ويجدر بنا فى هذا المقام الاشارة الى ما لاقاه حضرته عند عودته من الاحتفاء ومواساة الاصدقاء . فان منزله لايكاد يخلو من عشرات منهم ليل نهار ، وقد تردد عليه كتاب الجرائد وخاطبوه واستطلعوه وكتبوا المقالات الضافية فى وصفه ووصف اخلاقه ونكباته . وقد حظينا بمقابلته مرارا وجالسناه وخاطبناه فحققنا ما تنبأنا به عنه فى مقالتنا المشار اليها فى صدر هذا الهلال .. ولم تزدنا المقابلة الا وثوقا بسلامة نيته واخلاصه فى الدعوة التى قام بها .. ويستدل على ذلك ايضا من فراسة وجهه ، فانك اذا جالسته وخاطبته تقرأ الاخلاص وصدق الطوية فى عينيه وتتحققهما من شفتيه .



بقلم الاستاذ / عباس محمود العقاد

نحن المصريين

نحن ابناء البلد الذى يتوسط القارات الثلاث ، ونحن فى بقعة من الارض لا يستقر العالم اذا اضطربت ولا يضطرب العالم اذا استقرت .

مر القرن التاسع عشر بالامة المصرية على حالة يرثى لها من هبوط "القوة المعنوية" كما نقول فى التعبير الحديث ..

كانت تنظر الى كل شىء اجنبى نظرة اعجاب وتعظيم ، وتنظر الى كل شىء مصرى نظرة اتهام وارتياب ، وكان المصرى يهاب ان يغشى الاماكن المخصصة للنزلاء الاجانب فى صميم بلاده ، وكانت الامتيازات الاجنبية تعمل عملها فى "تهبيط" هذه القوة المعنوية فوق هبوطها او تحت هبوطها على الاصح ، وجاء الاحتلال الانجليزى فى الربع الاخير من القرن التاسع عشر فمد الامتيازات الاجنبية بمدد جديد من التهبيط والتثبيط .

ووضح لذوى الرأى انه هزال نفسانى خطر ، وان الامة محتاجة الى "حقنة تقوية" عاجلة ، والا كتب عليها الفناء .

وتتابعت هذه الحقنة المقوية فى دعوات اليقظة وحركات البعث والاحياء ، وفعلت الحقن المتتابعة فعلها ، واوشكت ان تزيد على الحاجة اليها .

نعم .. اوشكت بعد الشكوى من الهبوط المعنوى ان نشكو من "المغالومانيا" او هوس العظمة والادعاء ، واخشى ان اقول بل هوس اخر اضر من هوس العظمة والادعاء ، وهو الافتتان بالذات الذى يسميه النفسانيون بالنرجسية ويحسبونه ضعفا يخاف منه على ذويه .

اننا نفخنا الغرور فى جيل من الناشئين حتى خيف عليهم وعلى الامة باسرها ، وما عملت الانسانية شيئا منذ عرفت الحضارة الا انها عالجت غرور الناشىء وتمرد الجاهل بعلاج الاديان والاداب والعرف والشريعة ، فاذا غلب الغرور على الناشئين وغلب التمرد على الجهلاء فقد ضاع كل ما كسبته الانسانية بعد عشرة الاف سنة ، ولا نذكر ما غبر قبل ذاك .

اننا اليوم فى شعورنا الوطنى لا نشكو المالنخوليا والاتيميا فلا لزوم لان نشكو المغالومانيا او النرجسية .

ولنضع انفسنا فى موازيننا بالقسط

نحن المصريين

من غير مبالغة الى النقص او الى الزيادة .
وهذا هو الذى ننوى ان نصنعه فى هذا المقال عنا "نحن المصريين" .

(١) اخلاقنا

لو اردنا ان نلخص اخلاقنا نحن المصريين بكلمة واحدة لكانت هى كلمة "الدماثة" .
هذه الكلمة تلخص محاسننا وهذه الكلمة تلخص عيوبنا ولا نحاول هنا ان نستقصى اسباب هذه الخصلة التى تجمع كل محاسننا وكل عيوبنا فى كلمة واحدة .
فحسبنا ان نذكر دماثة التربة المصرية ، والجو المصرى ، والنيل وشاطئيه .
وحسبنا ان نذكر تاريخ الحضارة الطويل الذى سبقنا به كل امة متحضرة من اقدم العصور .
فلا حاجة بنا الى اسباب كثيرة غير هذه التربة "الدمثة" وغير هذه الحضارة العريقة . ولا غرابة مع هذه وتلك ان نكون قوما دمثين ، وان نرى اثار الدماثة بينة فيما لنا من المحاسن وما لنا من العيوب .

(٢) محاسننا وعيوبنا

من دماثتنا ان المصرى رضى الجانب لين العريكة ، حسن العشرة لجيرته وصحبه وضيوفه ، لطيف الخلق والمعاملة ، محب لاسرته وذويه .
ومن دماثتنا ان المصرى سهل الذكاء ، سهل العمل ، سهل السليقة وهذه كلها صفات تبدو فى المحاسن كما تبدو فى العيوب .
لو كانت ميادين العمل ثلاثة اشواط متتابعة ، وجرى السباق بيننا وبين الامم فى هذه الميادين الثلاثة ، فمما لاشك فيه اننا نسبق الامم جميعا فى الشوط الاول ، واننا نأتى فى الشوط الثانى بعد ثلاث امم او اربع ، واننا ننظر وراءنا فلا نرى احدا فى الشوط الاخير ..!
ويصدق هذا على الفهم كما يصدق على العمل .
فالمصرى اسرع الناس الى الفهم من قريب ، ولكنه لا يصبر على التعمق ولا على الاستقصاء .
اذا نظر الى مسألة فى شوطها الاول فكل مافيها مفهوم مكشوف ويمضى خطوات من الشوط الثانى فيتراءى له الخلط والغموض .

ويكاد يعرض بعينيه عما امامه فى الشوط الثالث ، مخافة التعب والاعياء من النظر على غير جدوى .

سهل يستسهل ، ولو انه قسم كل شوط كأنه يبتدئه من الخطوة الاولى لاستسهل الصعاب .

(٣) سياستنا

وسياستنا ، كما قال المقريزى ، على كل لسان .

وهذا هو البلاء والعياذ بالله .

هذا هو البلاء لان السياسة التى على كل لسان يسمع فيها الخطأ الكثير والصواب القليل .

واننا لنعجب حين تسمع ما يقوله جميع القائلين ، ونعجب اكثر من ذلك حين نسمع ما يصدقه جميع المصدقين .

انهم يصدقون مالا يصدقه احد الا كان من الاغبياء ، وليس المصرى بالغبى ، بل هو فطن سريع الفطنة . فما هى العلة فى اللغط والتصديق ؟

العلة هى طول العهد بالاستبداد مئات السنين ، فان المستبدين احتكروا الحكم وتركوا الناس يتكلمون كما يشاءون .

وانما يزن الانسان كلامه ويزن كلام غيره اذا كان يتكلم وهو مسئول عن عمل ينجزه ويحاسب عليه ، ولكنه اذا تكلم وهو غير مسئول فلا حاجة الى وزن الاقوال وتقدير الاعمال .

واذا طال هذا البلاء جيلا بعد جيل ، ومضت عليه مئات السنين بعد مئات السنين ، فليس باليسير ان نتخلص منه بين ليلة ونهار .

ولكننا نتخلص منه طائعين او كارهين بعد النهوض بتبعتنا فى الزمن الحديث ، فخير مافى الاستقلال انه يجعل الحكم عملا ومحاسبة ، ومتى اصبح الحكم عملا ومحاسبة قل فيه اللغو السخيف ، وقل فيه ما هو اسخف من اللغو ، وهو التصديق .

(٤) اهدافنا

واذا قرأ القارىء عنوان "اهدافنا" فربما خطر له انها هى الاستقلال التام والحرية القومية .

كلا ! ان الاستقلال التام امنية سلبية ، لانها تحقق بخلع سيادة الاجنبى اذا تسلط علينا .

وما من امة حية تجعل هدفها الا تكون مستعبدة وكفى .

وما من انسان رشيد يجعل هدفه ان يخرج من الوصاية وينتهى عند هذا الرجاء المحدود .

فالاستقلال التام خطوة ضرورية فى طريق اهدافنا القومية ، ولكنه اول

الطريق وليس بنهاية الطريق .

ماذا نعنى ؟ انعنى اننا نطمح الى السيادة على اناس اخرين ؟

كلا .. لسنا من اصحاب هذا الطمع بحمد الله . ولو جاءنى احد يعرض علىّ ان استعبده طائعا مختارا لما قبلت استعباده ، فاننى لانقبض اذا نظرت الى حيوان اجرب ، واحرى بى ان انقبض اضعاف هذا الانقباض اذا نظرت الى انسان ذليل .

لا .. ليس همنا وراء الاستقلال ان نجور على استقلال احد ، وانما همنا ان نكون فى العالم منتجين ولا نكون فيه على الدوام مستهلكين ، وان نشترك بسهمنا الراجح فى امانة الحضارة العالمية ، فلا نقصر فى الميدان عن امة ولا نقنع بما دون الطليعة فى ترقية الحضارة .

واقل من هذا الهدف غير جدير بأمة تعيش فى مجتمع الامم المتقدمة وتفهم معنى الحياة ..

(٥) عروبتنا

واذا نظرنا الى عروبتنا فنحن لا نتكلم عن التاريخ القديم ، لان العروبة قبل اربعة الاف سنة مثلا لم تكن فخرا لمفتخر من اهلها او غير اهلها ، وانما كانت "جاهلية" لا يرتضيها العاربون ولا المستعربون اننا ننظر الى العروبة بفخر ثقافتها وفخر لغتها وفخر حصتها الكبرى فى ترقية الحضارة ، ولنا والحمد لله من هذه المفاخر نصيب لا يفوقه نصيب ثم نحن بموقعنا واسطة العقد بين العروبة فى القارة الاسيوية والعروبة فى القارة الافريقية ، فعلينا من هذا التوسط امانة لا ينهض بها غيرنا ، ويضاعف هذه الامانة كثرة العدد وزيادة المادة من المال والتعليم .

وقد تلخص امانتنا العربية فى توحيد مجال الثقافة العربية ورفع الحواجز الثقافية بين ابناء العروبة ان تقطيع جهات الثقافة العربية فيما مضى قد حال بينها وبين القوة التى تستحقها ، ولا حاجة الى التفصيل فى هذا المقام .. لاننا حين نجعل مجال العروبة مجالا يشترك فيه خمسون مليونا نتقدم الى الطليعة بين اللغات العالمية ، وحسبنا ذلك اجمالا ينطوى تحته تفصيل طويل .

(٦) شرقيتنا

واذا كنا واسطة العقد بين العروبة فى القارة الاسيوية والعروبة فى القارة

الافريقية فنحن فى الشرقين الادنى والاوسط ميزان السلامة والاستقرار نحن ابناء البلد الذى يتوسط القارات الثلاث ، ونحن فى بقعة من الارض لا يستقر العالم اذا اضطربت ولا يضطرب العالم اذا استقرت .

ولم يحدث فى الزمن الاخير حدث عالمى قط إلا كان له رده وصداه على هذه البقعة من الكرة الارضية .

فاذا ملكنا ارادتنا فى هذه البقعة فهى حجاز الامان بين المشرق والمغرب وبين المتنازعين من كل وجهة .

وعندنا مصفاة الثقافات والدعوات ، فاذا استخلصنا شيئا من الغرب وشيئا من الشرق ، فليس اقدر منا على تصفية الخلاصة لبنى الانسان جميعا فى ثمرة لا شرقية ولا غربية ، تضىء وان لم تمسسها نار .

(٧) افريقيتنا

والمزية التى لا ينكرها علينا منكر هى مقامنا الاول فى القارة الافريقية فلا يتقدم علينا متقدم من ابنائها ، وسيأتى اليوم الذى يخرج فيه المستعمرون من جنوب القارة او يندمجون فيها ، ولا يطرق خيال احد ان يأتى اليوم الذى تتجلى فيه الامة المصرية من القارة الافريقية .

فليكن مقامنا اذن مقام رحمة بهذه القارة ، ولا نكن ذريعة لاستعبادها بتسليمنا نحن فى حريتنا - فالقارة السوداء كلها مستعبدة ان لم تبلغ مصر حقها من حريتها واستقلالها .

ومصر اولا واخرا هى الامة "الدمثة" من اثر التربة والحضارة وهذه الدماثة تعد ذات محاسن وذات عيوب .. ومن الرجاء الصادق فى المستقبل ان هذه العيوب قابلة للزوال ، لان النيل الذى اكسبنا الدماثة على طول العهد بالزراعة والمحراث كفيل "بتصنيع" هذه البلاد فلا تغلب عليها صبغة الزرع ولا صبغة الصناعة : قوام بين الثمرة الجنية والحديد اليابس ، وحبذا القوام .

الفوارق موجودة

"الناس لايتفقون على استحسان الحسن من ثمار الاداب والفنون وهذا يخيل اليهم ان الامر فوضى لامقاييس له ولاضوابط فيه .

"ولكنهم كذلك لم يتفقوا على استحسان القبيح والاعجاب بالمبتذل الوضيع . وهذا خليق ان ينفى الفوضى عن الاداب والفنون ، وان يدلنا على مقاييس لها ، تقيم الفوارق بين ماهو حسن وماهو قبيح ، وقد لاتكون محدودة ولكن وجودها لاشك فيه" .

عباس العقاد - الهلال - نوفمبر ١٩٣٤

العقاد والهلال

تجيء أهمية عباس العقاد أنه واحد من أهم من استوعبوا المفهوم الحقيقى للثقافة ، فقبل العقاد اقتصر تعريف الثقافة على أنها مجموعة المعارف المتوافرة لدى الانسان إلا أن العقاد رأى أن الثقافة أوسع وارحب من هذه المعارف .

فالثقافة هى هذا الشيء الذى نرثه عن مجتمعنا بما فيه ادراكنا لانفسنا وسلوكنا ومواقفنا ازاء مايحيط بنا ولذا فإن أى مجلة ثقافية تكتفى بالمعارف والعلوم وتعزل نفسها عن قضايا الوطن الملحة ، تضع نفسها فى ركن هامشى من قضية الثقافة ذاتها .

• من هذا المفهوم قامت علاقة العقاد مع مجلة الهلال ، مع قارئه فى المقام الأول ، ومع المجلة باعتبارها كيانا حيا يؤثر فى المجتمع .

ولحسن الحظ ، فإن العقاد هو صاحب أكبر عطاء من بين الكتاب لمجلة الهلال . منذ أن كتب فيها فى مارس عام ١٩٢٣ وحتى وفاته فى مارس ١٩٦٤ . وقد انعكس هذا من خلال مواهبه المتنوعة المتعددة المصحوبة بالقدرة على التامل النافذ . وقد تميزت مقالات العقاد فى الهلال بالجوانية الصادقة . حيث جمعت بين الوضوح والتركيز وائتلاف بعض المنطق الصارم والحس المرهف وبين المثال المجرد والحقيقة الواقعة . فالعقاد على سبيل المثال هو اول من تنبأ ، على صفحات الهلال ، بسقوط الشيوعية فى يناير ١٩٤٦ فى مقاله : بعد عشر سنين تنتهى الشيوعية من العالم .. حدث هذا والشيوعية فى عنفوانها وقوتها .. وحدث ما تنبأ به العقاد بعد أربعين عاما بالضبط .

ومن الصعب حصر علاقة هذا العملاق بالهلال فى سطور قليلة . فقد كتب فى الدين والفلسفة والادب والفنون . وفى سيرته الذاتية . والسياسة والعلوم . وكان يعيش حاضره ويتنبأ بالمستقبل وكانه يحدث أمامه . فيخوض فيه ويستقصى ابعاده ويبحث فى أغواره .

من المعروف أن الهلال أصدر عددا خاصا عن العقاد فى ذكرى رحيله الثالث يعتبر من أهم المراجع للتعرف عليه .

بقلم الدكتور طه حسين

الخصومة بين القديم والجديد في الأدب

لقد اخذ النزاع يشتد بين انصار المذهب القديم وانصار المذهب الجديد في الادب . ففي احد اعداد الهلال نشرنا للسيد مصطفى صادق الرافعي دفاعاً عن المذهب القديم بمناسبة ماكتبه عنه الاستاذ سلامة موسى في سلسلة "الصور الموجزة لادباء مصر" . وعلى اثر مطالعة مقال الرافعي في الهلال كتب الدكتور طه حسين مقالاً نفيسا في "السياسة" ضمنه رايه في هذا النزاع وقد راينا ان نثبته هنا لنفاسته ونعيد نشره من جديد في "الهلال" اليوم لنرى كيف كان الادباء يهتمون بقضايا الفكر التي تشغلهم وتشغل كل المثقفين في ذلك الوقت قال الدكتور طه حسين بعد مقدمة وجيزة ..

الحق أن ميدان هذه الخصومة أوسع من مجلة "الهلال" وأن أبطال هذه الخصومة أكثر من الأستاذين سلامه موسى ومصطفى الرافعي وإذا كان لنا ألا نسرف في استقصاء التاريخ وألا نذهب بالقارىء إلى مابعد به العهد فقد يكون لنا أن نذكر القارىء بأن مصدر هذه الخصومة في هذه الأيام الأخيرة انما هي صحيفة الأدب في "السياسة" ، ففي الصيف الماضي اشتدت الخصومة بين الاستاذ الرافعي وطائفة من الكتاب المصريين حول رسالة له بعث بها إلى "السياسة" تحت عنوان "أسلوب في العتب" وذهب فيها مذهب المتكلفين من بعض الكتاب القدماء فانكر عليه بعض الكتاب المصريين جمال هذا الاسلوب ، وكانت حول هذا الانكار خصومة طويلة انتهت إلى الشتم والتنابذ ثم لم تكد تنتهي السنة الماضية حتى نشرت السياسة لكاتب أديب من كتاب فلسطين هو الاستاذ خليل السكاكيني رسالة حول الأسلوب القديم والأسلوب الجديد وحول الايجاز والاطناب تناول فيها بالنقد كاتبا اديبا من كتاب سورية هو الامير شكيب أرسلان ، فرد عليه الامير رداً طويلاً واشتدت المناقشة بين الكاتبين حتى انتهت إلى شيء من العنف ليس بقليل ، ثم عرض الأستاذ سلامة



موسى للأستاذ الرافعي في مجلة الهلال فعده مع الأمير شكيب ارسلان من زعماء المذهب القديم وأشار إلى الكاتب الأديب خليل السكاكيني على أنه من أنصار المذهب الحديث .

هذا هو التاريخ القريب لهذه الخصومة بين القديم والجديد فى الأدب ويخطىء من ظن أن هذه الخصومة ستنتهى غدا أو بعد غد ، ويخطىء من سأل نفسه عن قيمة هذه الخصومة وعن آثارها الحسنة أو السيئة ، فستستمر هذه الخصومة فى الأدب العربي كما استمرت فى الآداب الأخرى وكما استمرت فى الأدب العربى القديم نفسه ، وستنتج نتائجها التى انتجتها فى كل زمان وكل مكان فينتصر جديد على قديم ثم يصبح هذا الجديد قديما وتكون الخصومة حوله وحول جديد آخر ينتصر متى أن له الانتصار ، وستظل الحال كذلك مادام للغة العربية والأدب العربى حظ من الحياة .

• • •

هذه الخصومة إذن مشروعة ، سواء أكانت نافعة أم لم تكن ، فليس الأدب العربى بدعا من الآداب ، وليس الأدب العربى المصرى بدعا من الآداب العربية المختلفة ، فليختصم الاستاذان سلامه موسى ومصطفى صادق الرافعي ، وليختصم الأديبان خليل السكاكيني وشكيب أرسلان ، ولكنا نظن أن من حقنا نحن القراء على هؤلاء المختصمين أن نسألهم : فيم يختصمون ، وأن نطلب إليهم فى رفق ولين أن يتفضلوا فيحددوا لنا موضوع الخصومة حتى نتبعهم فيها على بصيرة من أمرها ومن أمرنا فقد يظهر لنا إلى الآن أن هؤلاء المختصمين يختلفون فى أشياء لم يستطيعوا بعد أن يحددوها وآية ذلك أنك تقرأ مقال الأستاذ الرافعي فتجده يسأل ما "المذهب الجديد" وما "المذهب القديم" ويحاول أن يتبين هذين المذهبين ومابينهما من فروق ، ولو كانت الخصومة بينه وبين صاحبه واضحة الموضوع بينة الحدود . لما كلف نفسه هذا التساؤل ولما احتاج إلى أن يكتب كل هذا الفصل الطويل وقل مثل هذا فى الخصومة بين الأديبين خليل السكاكيني وشكيب ارسلان فهما يختلفان فى الايجاز والاطناب والمساواة ، يرى أحدهما أن الاطناب خصلة من خصال اللغة العربية قد عمد إليها أكبر الكتاب وأرفعهم قدرا منذ كان النثر العربى إلى الآن ، فمن الحق أن يتبع طريقهم فى ذلك ، ويرى الآخر أن الاطناب خصلة من خصال اللغة العربية ولكن له مقامه فلا ينبغى أن يعمد إليه الكاتب ولاسيما فى هذا العصر الأ بمقدار وإلا حين تدعو إليه الحاجة الأدبية ، ويدور المختصون جميعا

الخصومة بين القديم والجديد في الأدب

حول الذوق دون أن يحددوا هذا الذوق ، أليس من حقنا أن نسألهم عن حد هذا الذوق ماهو وماحده وما الذي يريدون منه ؟

ولا نقل أن الأستاذ الرافعي قد أجاب عن هذا السؤال ، فنحن نعترف بأن جوابه أدق من أن نفهمه وأشد غموضا من أن نظهر عليه ، وانظر إلى مايقوله في الذوق : "وأنت تعلم أن الذوق الأدبي في شيء إنما هو فهمه وأن الحكم على شيء إنما هو أثر الذوق فيه وأن النقد إنما هو الذوق والفهم جميعا .." نعترف بأننا لانفهم هذا الكلام ، بل نعترف بأننا نعتقد أن هذا الكلام ليس من شأنه أن يفهم . فإذا كان الذوق الأدبي في شيء إنما هو فهمه وإذا كان الحكم على شيء إنما هو أثر الذوق فيه فكيف نستطيع أن نفهم أن النقد إنما هو الفهم والذوق جميعا ؟ ذلك أن الجملة الأولى صريحة في أن الذوق هو الفهم وإذن فالذوق والفهم لفظان يدلان على معنى واحد تدل عليه ألفاظ مختلفة .. نعترف كما قلنا بأننا لم نفهم هذه الجملة ولم نذقها ، وإذن فنحن لانستطيع أن ننقدها ولا نحكم فيها لأن الذوق هو الفهم ، والفهم هو الحكم ، والنقد هو الذوق والفهم معا وتستطيع أن تدور في ذلك ماشاء الله أن تدور .. فمازال الأستاذ الرافعي مطالبا بأن يوضح لنا نظريته هذه في الذوق ونحسبه يحتاج في توضيحها إلى عناء كثير ، ذلك أن يخيل إلينا أن الذوق شيء والفهم شيء آخر وأن الاسراف أن نقول أن الذوق هو الفهم فقد نفهم أشياء كثيرة دون أن نذوقها ، وآية ذلك أن نفهم كثيراً من كلام الأستاذ الرافعي دون أن نذوقه أو نعجب به وربما كان لنا أن نذهب إلى أكثر من هذا فنزعم أننا قد نذوق أشياء كثيرة دون أن نفهمها وإثبات ذلك ليس بالشيء العسير ، فمانظن أن الذين يذوقون الموسيقى ويطربون لها يفهمونها جميعا ، بل نعتقد أن الكثرة المطلقة من الذين يستمعون للموسيقى فيطربون ويتأثرون وينتهي بهم ذلك إلى شيء يشبه الذهول لاتفهم الموسيقى كما يفهمها الموسيقيون الاخصائيون . فأنت ترى أن الذوق والفهم شيئان مختلفان قد يجتمعان حينما تفهم قصيدة من الشعر أو فصلا من النثر وتعجب بهما ، وحينما تفهم قطعة من الموسيقى وتطرب لها ولكنهما قد يفترقان حينما تقرأ فصلا من فصول الكتاب المتكلفين أو قصيدة من نظم الشعراء المتكلفين فتفهم النظم وتفهم النثر ولكنك تكرههما وتسخط عليهما السخط الشديد ، وحينما تسمع قطعة من الموسيقى فتعجب وتطرب دون أن

تفهم ما أراد الموسيقى .

وللأستاذ الرافعي في فصله هذا اراء كهذا الرأى محتاجة إلى شيء من المناقشة ، ومنها ما كان يحتاج إلى شيء من التواضع قبل أن ينشر ويطن إلى الناس . انظر إليه مثلا يزعم أن المذهب الجديد في الأدب ليس في حقيقة الامر إلا نتيجة لضعف في اللغة والأدب العربي وقوة في اللغة والأدب الأجنبي ... وأن الذين يزعمون انهم من انصار المذهب الجديد انما هم قوم ضيعوا حظهم من لغة العرب وادابهم وأخذوا بنصيب موفور من لغات الفرنج وآدابهم . فكانت قوتهم في هذه اللغات والآداب وضعفهم في اللغة العربية وادابها مصدر تورطهم في فنون سخيفة من القول . وكان اعتزازهم بالمذهب الجديد وإنكارهم للمذهب القديم ضربا من الاعتذار لأنفسهم ولونا من الوان الغرور بانفسهم ايضا نعتقد أن الأستاذ الرافعي مسرف في هذا الحكم ولعل مصدر إسرافه في هذا الحكم إن صحت نظريته السابقة . انه أخطأ الذوق أو هو انما اخطأ الذوق لأنه أخطأ الفهم . ونستطيع أن ندور مع الأستاذ الرافعي حول الذوق الذى هو الفهم أو حول الذوق الذى ليس هو الفهم . والفهم الذى ليس هو الفهم حتى نتعبا فتسقطنا معاً وقد بلغ منكما الكلل والإعياء . ولكن الأستاذ الرافعي معذور على كل حال فما كان له أن يحكم فيحسن الحكم دون أن يفهم ويتذوق وهو قد يخطئه الفهم والذوق أحياناً فتخطئه الاصابة في الحكم ونظن أن للأستاذ الرافعي حظا من الانصاف وأنه يرى معنا أن بعض أنصار المذهب الجديد أو الذين يسمون أنصار المذهب الجديد قد أخذوا من اللغة العربية وادابها بحظ لابأس به وأن قوتهم في اللغة الأجنبية وادابها لم تحملهم على أن يضيعوا حظهم من اللغة العربية وآدابها . فهم يستطيعون أن يفهموا الجاحظ كما يستطيعون أن يفهموا "فولتير" وإذن فانتصار هؤلاء لمذهب جديد ليس ضعفا وليس اعتذارا لانفسهم وليس تعصبا للأدب الأجنبي الذى تفوقوا فيه . وما نظن أن الأستاذ ينكر على خصمه سلامه موسى انه يفهم الأدب العربي كما يفهم الادب الانكليزى . ويستطيع أن يحكم فيهما عن فهم هو الذوق أو ذوق هو الفهم أو فهم ليس ذوقا أو ذوق ليس فهما .. وما نظن أن الاستاذ ينكر علينا نحن أنا نستطيع أن نفهم الأدب العربي وأن نفهم الأدب الفرنسى وأن نحكم فيهما أحيانا عن ذوق وفهم . أو عن فهم دون ذوق أو عن ذوق دون فهم .. ثم هب سلامه موسى وغيره من خصوم الأستاذ الرافعي وأنصار المذهب الجديد ضعافا في اللغة العربية وآدابها أقوياء في اللغات الأجنبية وآدابها . فهناك قوم ينصرون المذهب

الخصومة بين القديم والجديد فى الأدب

الجديد وليس لهم من اللغات الأجنبية وآدابها حظ ، وحظهم من اللغة العربية وآدابها موفور تدل عليه آثارهم ومانيشرون فما رأى الأستاذ فى هؤلاء ؟ وما أصل مذهبهم الجديد وهم يجهلون اللغات الأجنبية ولايتعصبون لها ، ثم مالنا نذهب بالأستاذ بعيدا عن الموضوع الذى اتقنه وبرع فيه فلسنا نشك فى أن الاستاذ اتقن الادب العربى وأحسن روايته وفهمه وتقليده وأسرف فى هذا التقليد وهو يناقض نفسه بعض المناقضة ، فيصرح بأن العرب عرفوا القديم والجديد فكان القرآن الكريم جديدا وكانت الآداب العباسية جديدة من بعض وجوهها ، وتجددت الاداب العربية وادبائهم لم يذكر مذهبا جديدا ولا قديما ، وإذن فقد تجددت الآداب العربية غير مرة دون أن يشعر العرب بهذا التجدد او شعر العرب بهذا التجدد دون ان يذكروه .

والحق ان الآداب تجددت غير مرة وأن العرب شعروا بهذا التجدد وأنهم ذكروه واختصموا فيه كما يختصم فيه الأستاذ الرافعى وأصحابه الآن ، وقد كتبنا فى "السياسة" فصولا طوال فى العام الماضى فصلنا فيها بعض ماكان من الخصومة بين أنصار القديم وأنصار الجديد أيام بنى العباس ، وإذا كان العرب لم يصطنعوا لفظة "المذهب الجديد" و "المذهب القديم" فليس ذلك دليلا على أنهم لم يعرفوا القديم والجديد ولم يذكروهما ولم يختصموا حولهما ، وما معنى لفظ "البديع" ؟ وهل كان البديع جديدا ؟ أم هل كان قديما ؟ وهل اختصم الناس حول البديع أم هل قبلوه دون مناقشة ولا جدال ؟ وهل امتاز بالبديع من الكتاب والشعراء قوم غلو فيه فرضى عنهم قوم وانكرهم آخرون ؟ أم هل قبله الناس جميعا وأخذوا منه بحظوظ متساوية ؟ وإذا كان الأستاذ لاينكر أن العرب اختصموا حول القديم والجديد فى الشعر وفى النثر فهل يستطيع أن يعلل لنا هذا الاختصام ؟ فليس من شك فى أن انصار الجديد من العباسيين مثلا لم يكونوا ضعافا فى اللغة العربية وآدابها ولم يعتذروا لانفسهم من هذا الضعف بتملقهم بالجديد وغلوهم فيه ، أكان أبو نواس ضعيفا فى اللغة العربية وآدابها ؟ أكان أبوتمام ضعيفا فى اللغة العربية وآدابها ؟ أكان المتنبى ضعيفا فى اللغة العربية وآدابها ؟ ومع ذلك فقد جدد أبونواس وانتصر للجديد .

وقد جدد أبو تمام وانتصر للجديد ، وقد جدد المتنبى وانتصر للجديد ، وقد اختصم الناس حول هؤلاء الشعراء وتجديدهم فانتصر لهم قوم

وسخط عليهم قوم آخرون ونستطيع أن نؤكد للأستاذ الرافعي أن الأدباء الفرنسيين الذين كانوا يختصمون حول القديم والجديد كانوا يفهمون اللاتينية واليونانية ومنهم من يؤثر الفرنسية وكان منهم من يؤثر مذهب القدماء ومنهم من يؤثر مذهب المحدثين .

فليس المذهب الجديد قائما على جهل أو ضعف أو تعصب وإنما هو قائم على شيء آخر غير هذا كله .. قائم على الفهم قبل كل شيء ، قائم على أن الذين ينصرون هذا المذهب الجديد يحسون مالايحسه أنصار المذهب القديم ويرون ما لايراه أنصار المذهب القديم ويشعرون بأنهم يحيون فيريدون أن يأخذوا بحظهم في الحياة ، يريدون أن يفهموا الناس وأن يفهمهم الناس ، يعيشون مع الجيل الذي هم فيه دون أن يقطعوا الصلة بينهم وبين الأجيال الماضية .

***

ورأى آخر للأستاذ الرافعي يحسن أن نناقشه ولو قليلا . فهو يرى أن من الخير لأنصار المذهب الجديد أن يولدوا من جديد وأن يتعلموا الأدب العربي من جديد ليأخذوا منه بالحظ الموفور فيسلكوا فيه سبيل القدماء ذلك خير لهم من أن ينتحلوا مذهبهم الجديد ولغتهم الجديدة فيدخلوا في اللغة والأدب ماليس من حقهم أن يدخلوه ، ذلك لأن اللغة موروثة وهي ملك لملايين من الأعمار ولطائفة طويلة من العصور فيجب أن نقبلها كما ورثناها دون أن ندخل فيها شيئًا من عند أنفسنا ونحن نعترف بأننا نخالف الأستاذ كل المخالفة في هذا الرأي ونسمح لأنفسنا أن نراه عقيما ونسمح لأنفسنا بأن نزعم أن لنا في هذه اللغة التي نتكلمها ونتخذها أداة للفهم والافهام حقا يجعلها ملكا لنا ويجعل من الحق علينا أن نضيف إليها ونزيد فيها كلما دعت إلى ذلك الحاجة أو قضت ضرورة الفهم والافهام أو كلما دعا إليه الظرف الفني ، لايقيدنا في ذلك إلا قواعد اللغة العامة التي تفسد اللغة إذا تجاوزناها فليس لأحد أن يمنعك أو يمنعني أن نضيف إلى اللغة لفظا جديداً أو ندخل فيها أسلوباً جديدا مادام هذا اللفظ أو هذا الأسلوب ليس من شأنهما أن يفسدا أصلا من أصول اللغة أو يخرجا بها عن طريقها المألوفة ، ولولا هذا وأن اللغة ملك لأبنائها يضيفون إليها ويدخلون فيها لما نمت اللغة ولما عاشت ولما استطاعت أن تفي حاجات أهلها التي تتجدد وتتنوع بتجدد الأزمنة وتبدل الظروف ، والكتاب والشعراء في كل عصر وفي كل مكان يضيفون إلى لغاتهم ويدخلون فيها ويجددونها فمنهم من يسعده الحظ فتروج ألفاظه وأساليبه ويقبلها الناس ويتهالكون عليها حتى تشيع وتصبح

الخصومة بين القديم والجديد فى الأدب

جزءا من اللغة المألوفة ، ومنهم من يخطئه هذا الحظ فلا يحفل الناس بما ادخل ولا بما أضاف .

***

ومما يحسن أن ينبه إليه الاستاذ الرافعى فى رفق ولين ايضا أنه يسرف فى سوء الظن بأوربا وأمريكا وفى سوء الحكم عليهما ولعل مصدر ذلك أنه لا يقرأ لغة أوربا وأمريكا ولايفهمها ولايذوقها فهو يخطىء فى الحكم على أوربا وأمريكا وهو مسرف حين يظن "أن فى أوربا وأمريكا من الغفلة مذهبا ومن الرقاعة مذهبا ومن تسفل الشهوات مذهبا ومن الجنون مذهبا ومن كل شذوذ مذهبا ومن غير المذهب مذهبا .. هو مسرف فى ذلك فليست أوربا وأمريكا من السوء بحيث يظن ولو قد بلغتا من السوء هذا الحد لما كان لهما التفوق على غيرهما من بلاد الله ، ثم إن اختلاف المذاهب وتنوعها فى أوربا وأمريكا ليس شيئا جديدا وإنما هو شيء عرفه الانسان منذ تحضر ومنذ فكر . ويسوغنا أن نقول أن الانسان قد عرف الديانات منذ تحضر ومنذ فكر أيضا فما استطاعت الديانات أن تقضى على اختلاف المذاهب ولا استطاع اختلاف المذاهب أن يقضى على الديانات وإنما الانسان إنسان فيه الخير وفيه الشر . فيه الايمان وفيه الالحاد . فيه الفضيلة وفيه الرذيلة ، فيه الاباحة التى لاحد لها وفيه التحرج الشديد . والاستاذ الرافعى كثيره من انصار المذهب القديم مشفق كل الاشفاق على القرآن الكريم وعلى الاسلام أن يصيبهما من المذهب الجديد شر أو ينالهما ضيم . ونظن من الحق والانصاف التى لاتجدى أن نهون على الاستاذ ونهدىء من روعه فليس مايدعو إلى هذا الإشفاق ونظن أننا ونحن من انصار المذهب الجديد المتشددين فى نصره نستطيع أن نفهم القرآن الكريم ونذوقه كما يفهمه الاستاذ وأصحابه ويذوقونه . ذلك أن مذهبنا الجديد لايقتل اللغة ولا يصرف الناس عنها ولا يغير من أصولها وقواعدها وانما يريد أن تكون اللغة حية نامية . ومن ذكر الحياة والنمو فقد ذكر التطور ومن ذكر التطور وآمن به فهو من انصار المذهب الجديد سواء أرضى ذلك أم أنكره .

الهلال وطه حسين

إنه مصباح الفكر والتنوير فى القرن العشرين . روائى ، وشاعر . ومترجم . وباحث مدقق وعبقرية فذة . وعطاء لم يتوقف يوما . بدا فكره اشبه بالزلزال الذى هز حياتنا الفكرية والاجتماعية فى دعوته الى ان يكون التعليم من حق كل مواطن كالماء والهواء . وكان طبيعيا ان تثار من حوله الزوابع والمعارك الضارية لاسباب فكرية او لاسباب اخرى .

وقد بدات علاقة طه حسين بالهلال فى زمن مبكر .. ففى مارس ١٩٢١ نشر مقاله المعنون : "صحف مختارة من الشعر التمثيلى عند اليونان" وفى مقالاته المنشورة على صفحات الهلال ، وضع طه حسين كل فلسفته وافكاره التنويرية . والمتحررة ضد التخلف والرجعية . وقد تنوعت كتاباته التى تعكس موهبته التى لاحدود لها . فكتب عن قادة الفكر كما نشر بعض القصص التمثيلية .

وقد كان الهلال ساحة خصبة خاض فيها طه حسين معاركه الادبية والفكرية والعقائدية ، وقد جمع الكاتب على صفحات المجلة بين الكلاسيكية والتطور ، فالى جانب حديثه عن الثقافة اليونانية وفنون الاقدمين . فإنه فى يناير ١٩٥٣ يكتب عن "جناية العصر الحديث على الاديب" . كما تحدث عن قضية الديمقراطية اكثر من مرة .

طه حسين قدم للمكتبة العديد من الكتب منها "الايام" و "دعاء الكروان" و "اديب" . كما ترجم اعمال اندريه جيد . ومن المعروف ان الهلال قد اصدر عنه عددا خاصا فى فبراير ١٩٦٦ وكان من ابرز المقالات التى كتبت عنه . "استاذى طه حسين" للدكتورة سهير القلماوى ، وتحية من محمود تيمور بالاضافة الى مجموعة نادرة من الصور الخاصة .



بقلم الاستاذ/ مصطفى صادق الرافعي

رسم الحبيبة

كنت ساعة اجلس للكتابة اليك أراني كالمصور غير انى انقل من عالم فى داخلى . اما الآن ورسمك يملأ عينى فقد اضيف الى عالمى المضطرب بأخيلته الكثيرة عالم من الخيال الصافى هو فوق ذلك كالسماء فوق الأرض تحييها بالشمس والقمر ، وهو من وراء ذلك كالآخرة وراء الدنيا تصفها بالجنة والخلد .

لكنت والله يا حبيبتي اتخيل هذا الرق (1) الموضوع امامى يبرق بصورتك ويشرق بوجهك - نافذة سحرية فتحت بينى وبين عالم الجمال الأزلي فاطل فيها وجه حوراء من حور الجنة ينظر الىّ وانظر اليه . يجمله جسم خلق ليكون فتنة للجنة ذاتها وكأنه بجماله ومعانيه حقائق . ذلك النعيم جاءت تترجم لذة الخلد للنفس البشرية فى بلاغة مصورة اختاروا لها رسمك انت .

وهل فى الحسن احسن من هذا الوجه الذى يرف على القلب باندائه ويتلألأ بنضرته حتى لكأنه خلق من نور الفجر وكأن علامة الفجر فيه انما هى هذا الروح الذى يحيط القلب من وجهك بمعان كنسمات الصبح . عليلة من شدة الرقة ذابلة من فرط الجمال مملوءة من روح الندى بما يجعلها حول النفس كأنها جو من شعور فرح لاتسمات فى الجو .

وجه منضر يفزع لروعة حسنه من يراه كأن شيئا بدعا لم يكن ممكنا فأمكن . او كأن فى حمرة خديه وشفتيه خمر القلب ، رؤيتها شربها وفيها السكر بالجمال والنشوة بالهوى ، فما هو الا ان ينظر وجهك حتى يخالط قلبه وانى لألمح فيه سرا عجيبا يكون فقدان العبارة عنده هو ابلغ العبارة فى وصفه ، اذ لا تتكلم روعة الحس بالجمال ولا هى تتزل فى صور الالفاظ وانما تغمز على القلب غمزة تشعر الناظر ان روح المنظر خامرت الروح ، وان حياة الشكل انسكبت فى الحياة . وأن المعنى الغامض فى السر قد اتصل بالمعنى الغامض فى النفس ويمثل هذا السر الذى يطالعنى من جمال وجهك لصبح الجمال على الحقيقة هو علم افراح النفس واحزانها ، وعاد الشخص الجميل المعشوق وما هو بكل معانيه الا الفن الفلسفى الكامل لنفس اخرى تحاول بالحب لن تكون كاملة .

ومن هذا السر يظل وجه الحبيب جديدا على كل نظرة من محبه وان طال

رسم الحبيبة

ترداد النظر وتكراره ؛ كأن الوقت لا يمضي مع الاشياء ، وكأن الحب ابدى على قدر ما تحتمل الدنيا ولذا فهو يضغط على القلب لا بالساعة ولا باليوم بل يجثم بقطعة ضخمة من الزمن كأنها عمر كامل فرحها شديد شديد وحزنها شديد شديد .

ومن بعض هذا السر تلك الابتسامة الواقفة على ثغرك ترق فيها الروح مرة وتتكاثف مرة حتى كأنها وهى فى الرسم لون روحى يتموج على شفتيك فما اقلب فيه عينى الا شعرت ان روحى تذوب فيه كما يتمازج لونان فى السماء على الشفق الأحمر .

ونظرة ساحرة تجعلنى ارى كل شيء فى رسمك محدودا ومع ذلك اراك انت غير محدودة فى شيء كأن لك فيضا من الجمال والسحر يستغرق العالم ويغمر الكون .

أنه لجمال اكبر من الجمال اذا كانت فيه القوة والفتنة والحب جميعا والجمال وحده من شأنه ان يعجب ولكنه فيك يصبى ويدله ، وبذلك يعجب ويفتن ، وبذلك يتسلط مسوغا الحق ، وبذلك لا تكون له الا الطاعة .

[عن الهلال ١٩٣١]

الرافعي .. والهلال

مصطفى صادق الرافعي واحد من الرواد الحقيقيين الذين غيروا خريطة الفكر العربي في النصف الاول من القرن العشرين . وقد ساعدته نشأته الدينية والمرض الذي اصابه في صغره أن يتجه لدراسة الفكر والادب . فقد بدأ حياته الادبية شاعرا . وفي عام ١٩٠٠ صدر الجزء الاول من ديوانه وعرف كشاعر . بدأت علاقته بمجلة الهلال في عام ١٩٢١ حين نشر مقالا عن "التفاؤل" في عدد شهر مارس من نفس العام . وكان مهموما ببحث "نهضة الشرق العربي" على صفحات الهلال . فكتب عن "رأيي في الحضارة الغربية" و "ماذا أرى في التجديد والمجددين" .

من المعروف أن الرافعي من مواليد قرية بهتيم في عام ١٨٨١ . وقد عمل في أول حياته كاتبا بمحكمة طلخا الشرعية . وظل يتنقل من محكمة الى أخرى حتى استقر به المقام في محكمة طنطا الأهلية التي ظل يعمل بها حتى وفاته في عام ١٩٣٧ .

من أهم كتبه "راية القرآن" و "رسائل الاحزان" و "وحي القلم" و "على السفود" و "اوراق الورد" . واغلب فصول هذه الكتب منشور على صفحات الهلال .

لغويات

● يخطىء بعض الكاتبين في كتابة الاسماء الموصوفة بلفظ «ابن» فيقولون مثلا : ان خالدا بن الوليد قد صنع كذا وكذا .. والصواب ان يقولوا : ان خالد بن الوليد الخ .. بفتح الدال بلا تنوين . لان القاعدة فى حذف التنوين من الاسم المنون (مثل خالد وعلى ومحمد) اذا كان هذا الاسم موصوفا بلفظة «ابن» مضافة الى اسم اخر ، مثل «خالد بن الوليد» كما تقدم .. وهذه القاعدة مطردة فى حالات الرفع والنصب والجر ..

● سمعت متحدثا فى الاذاعة يقول : «هذه منة من منن الله .» وينطق كلمة «منة» بضم الميم ، وهو خطأ ، والصواب الكسر ، اى «النعمة» .. اما «المنة» بضم الميم فمعناها «القوة» وقد يكون معناها «الضعف» فهى من الاضداد ، وقد اشتهر لحافظ ابراهيم الملقب بشاعر النيل قوله يصف احدى «المظاهرات» النسائية فى ثورة ١٩١٩ او بعدها :

فتضعضع النسوان .. والنسوان ليس لهن مُنة .

والمنة فى هذا البيت بضم الميم ، ومعناها : القوة .

● يقول الرجل للمرأة التى يكرهها : اغورى من هنا .. اى اذهبى بعيدا ، وهو تعبير صحيح ، واصله السير فى الغور ، اى فى الأرض المنحدرة ، ولم يكن قولهم «غورى» مقصودا به الطرد كما هو الآن ، ولكن كان مقصودا به السير فى الأرض المنحدرة او الوطئة ، كقول البحترى فى الغزل بمحبوبته :

حلى سعاد غروض العيس او سيرى
وانجدى فى التماس الحظ او غورى

فهو هنا لا يطرد محبوبته ولا يشتمها بل يتغزل بها .. ولكن تقادم الزمن على هذه اللغة الغزلية جعلها تبدو مضحكة !



بقلم : د . محمد حسين هيكل باشا

الاحياء العربى

اتيح لى ان اتحدث الى قراء العدد الاخير من الهلال عن الاحياء العربى وما يجب القيام به من بعث آثار السلف فى العصور الماضية .. وقد اشرت الى الغزالى وابن سينا . وذكرت ان اعادة طبع الكتب القديمة له فائدته . لكنها فائدة محدودة اغلب الاحيان لانها تقف عند طبقة معينة من المثقفين الذين يطيقون بطبيعة دراستهم مراجعة هذه الكتب القديمة والاستفادة منها . وذكرت لذلك ان الاحياء المثمر يقتضى الباحثين والجامعيين تلخيص هذه الكتب واعادة نشر ما فيها بلغة هذا العصر واسلوبه . ورجوت ان يتعاون اهل البلاد العربية فى هذا الاحياء المثمر .

لقد اتيح لى بعد ان نشرت الهلال هذا الفصل فى العدد الماضى ان أتحدث الى غير واحد من أهل البلاد العربية المختلفة ، فعاد بنا الحديث الى التعاون فى الاحياء كيف يكون ، وعاد بعضهم يذكر هذه الحواجز السياسية القائمة بين البلاد العربية ، والى ضرورة تذليل ما تقيمه هذه الحواجز من عقبات فى سبيل الأحياء .. اما أنا فمازلت على الرأى الذى قلت به منذ سنوات . ذلك أن التكييف السياسى لبلاد ما لا يمكن ان يحول دون الأحياء الفكرى فيها ، وهو كذلك بصورة أكثر وضوحا اذا كان التكييف السياسى خاضعا لظروف غير عادية وكان مشكله لبلد ما أو لبلاد عده على صورة لا تدل على حرية لختيار أهل هذا البلد أو هذه البلاد إياها . فالتكييف السياسى صائر حتما وبقوة الطبيعة الى الشكل الذى يرضاه من يذعنون إلى هذا التشكيل ، عاجلا أو أجلا وهو يصير إلى هذا الشكل الذى يحوز رضى الناس على نحو أسرع كلما قويت الحركة الفكرية واشتد التيار العقلى والروحى ، والحركة الفكرية لا يمكن ان تخضع لحاجز من الحواجز أو تحول دون سيرها عقبة من العقبات . بل هى تسمو بطبيعتها فوق الحواجز والعقبات وتتغلب عليها . وهى كلما ازدادت قوة وازداد تيارها اندفاعا كانت أرفع فوق الحواجز تحليقا وأسرع على العقبات تغلبا . فأما ان بقيت الحركة الفكرية وبقى التيار العقلى فى ركودهما وحاولنا مع ذلك

الاحياء العربي

التغلب على الحواجز والعقبات فلن يكون مثل ذلك إلا كمثل الرجل الواحد يحاول زحزحة صخرة لا يقوى على زحزحتها ، فهو يدور حولها لعله يجدها الين فى ناحية من نواحيها ، فاذا هو عاجز عن درك غايته ، وإذا هو يزداد بما ينفق من مجهود ضائع اعياء . ولو انه استعان بقوى العلم أو بأمثاله من الرجال لما أصابه الاعياء . ولتغلب على الصخرة وزحزحها . والتعاون الفكرى والروحى لاحياء ماضينا هو الطريقة المثلى للعود بنا كمجتمعات الى الحياة الطبيعية فى تكيفنا السياسى وفى توجيهنا الى الكمال الاجتماعى .

وهذا الرأى الذى قلت وأقول به انما يستند الى قاعدة أساسية بسيطة . تلك أن من لا ماضي له لا مستقبل له . هذه قاعدة تنطبق على الاحياء جميعا . وهى اشد انطباقا على الجماعات منها على الأفراد ، كما انها اشد انطباقا على الأفراد فى الاحياء العليا منها فى الاحياء الدنيا . والأمة التى تنسى مالها من ماض مجيد لا يحق لها ان تطمع فى مستقبل مجيد . ومجد الامم ليس اكثره فيما لها من غلب سياسى يطوع لها فى النضال ان تتحكم فى غيرها عصورا أو قرونا ، وإنما اكثر مجد الامم فيما لها من آثار فكرية وروحية تنتقل ميراثا باقيا من جيل الى جيل ومن قرن الى قرن . فاذا نسيت الأمم مالها من هذه الآثار التى تشكل الحضارة الانسانية فى بعض عهودها ، ولم تبذل ما يجب بذله من المجهود لجعل هذه الآثار حيه دائما متطورة دائما سائرة مع الحياة مؤثرة فيها متأثرة بها ، واقتصرت على ترك نفسها ، رفعها تيار الحضارة الحاكمة ، ولو كان مما يحاوله هذا التيار ان يطمر آثارها وان يعفى على ماضيها ، فقد حق على هذه الأمم ان تعنو لغيرها جبهتها وان يخضع لسلطانه مجموعها .

والحق ان الأمم التى تعيش فى الحاضر وحده ، ناسية ماضيها مقتصرة عن الاستفادة المادية جهد الطاقة ، انما هى الأمم الضعيفة المتخاذلة التى يعيش كل فرد فيها بنفسه لنفسه ، لا يصل بين ماضيه وحاضره ، ولا يقدر الحقيقة الأزلية الخالدة التى صورها الشاعر القديم فى قوله :

وتزعم انك جرم صغير
وفيك انطوى العالم الاكبر

ولو ان الفرد أراد ان يبلغ على الحياة ما يجب عليه ان يبلغه لذكر انه حلقة في هذه السلسلة المنظمة، سلسلة الحياة، حلقة متصلة في المكان . بأمثاله من الأفراد الذين يعيشون معه في أمة واحدة وبأمثاله من افراد الانسانية جميعا، متصلة في الزمان بالذين سلفوا جميعا منذ الأزل والخلق الأول، فهي وإياهم وحدة يسرى فيها التيار الذى يسرى فيهم وتنتظمها وحدة الوجود التى تنتظمهم .

وكما ان الأرض التى استثمرها الأجداد على طريقتهم لا يجود اليوم ثمرها إلا إذا زرعت على طريقة العصر وبأسلوبه، وكما اننا نرى انفسنا مضطرين لتنقيح ما ترك لنا أسلافنا من مساكن لتتفق وطلبات اليوم، فنحن مطالبون كذلك بإحياء تراثنا الروحى والعقلى على طريقة العصر وأسلوبه .

وهذا التراث عظيم حقا، جسيم جدا . هو يتناول كل ما تتناوله البحوث العلمية الحاضرة على طريقة أولئك السلف . فهو يبحث في الكلام والنقد والفلك والرياضة والجغرافيا والطب والعلوم الكونية والعناصر وكل ما يمكن ان يدور بخاطر ابن اليوم . وهو يتناولها احيانا في كتاب واحد لمؤلف واحد يقع في بضعة أجزاء او في عشرات الأجزاء . ولو ان الرجل الواحد منا في هذا العصر أراد ان ينفرد بإحياء ما ترك واحد من هؤلاء السلف لا ضطر في كثير من الاحياء الى ايجاز الاحياء في ناحية والافاضة فيه في ناحية أخرى . ذلك اننا بحكم العصر قد ملنا إلى التخصص ولم نعد نستريح الى ان يكون الرجل منا واقفا على المعارف الانسانية جميعا، لأن هذه المعارف الانسانية قد بلغت من التفصيل والكثرة حدا جعل تقسيم العمل والتخصص فيه الوسيلة اللازمة لاتقان البحث ولابداع جديد فيه .. وهذا يدعونا الى القول بأن الاحياء بالنسبة لواحد من كبار الكتاب والمؤلفين من السلف ربما اقتضى ان يتعاون عليه اكثر من واحد منا، لان هذا الاحياء لن يقتصر على تحديد ما كتب هذا المفكر أو المؤلف بأسلوبنا نحن . بل هو يتناول دراسة مقارنة أكثر الأحيان، ويقتضى كذلك تتبع الفكرة أو الموضوع أو العلم أو البحث أيا كان نوعه مما طرق هذا المفكر أو المؤلف وكيف كان أثره فيمن جاء بعده سواء من الغربيين الذين تناولوا البحث أو من المتأخرين من أهل شرقنا . وإذا كانت الفكرة أو الموضوع قد درس اقتضى ذلك تتبع أسباب فنائه، وهل يرجع فناؤه الى انه غير صالح للبقاء، مثلا، أو الى ان الذين تناولوه بعد الباحثين الأولين تناولوه على طريقة كانت سبب القضاء عليه مع صلاحة للحياة وإمكان بعثه من جديد اليها .

الاحياء العربى

إذا كان احياء المؤلف الواحد او المفكر الواحد قد يقتضى تعاونا وقد يقتضى ان تتألف جماعات كالتى تتألف فى اوربا تحت اسم اصدقاء روسو أو أصدقاء موليير أو اصدقاء كونت ليكون التعاون أدنى إلى ان يؤتى ثمرته ، فما اعظم مبلغ هذا التعاون الذى يجب توافره اذا صدق عزمنا على الاحياء العربى حقا ، واذا صدق عزمنا عليه على الطريقة التى قدمت . اننا نكون اذن بحاجة الى تعاون ينتظم العالم العربى كله ويجعل الجماعات

التى تتألف اصدقاء للغزالى أو لابن رشد أو للجاحظ أو للمتنبى أو لهذه العشرات والمئات من المحدثين والمتكلمين والكتاب والفلاسفة والعلماء والادباء,بحيث لا تقف فى دائرة حدود مصر أو الشام أو العراق أو تونس ، بل

تتخطى حدود كل واحدة من هذه الامم وتحلق فوقها وتصل بينها جميعا وتجعل الجماعة الواحدة تشمل ابناء كل واحدة من الأمم العربية جميعا .

ولن يستطيع حائل من الحوائل ان يقف فى سبيل هذا التعاون على الاحياء ، لن يستطيع حائل سياسى أو غير سياسى . وكيف يمكن ان يرد بخاطر انسان من الناس ان يحول بين جماعة فى مصر ومثلها فى الشام وثالثة فى العراق ورابعة فى الحجارة وخامسة فى تونس وسادسة فى مراكش ، تريد ان تتعاون كلها لاحياء

المعرى أو ابن سينا وابن خلدون أو غير هؤلاء من الذين خلفوا التراث العقلى العظيم للانسانية كلها لا للناطقين باللغة العربية وحدهم وانني لعلى ثقة بان هذا التعاون سيكشف عن كنوز سمينة جدا ، وسيبعث الحياة إلى آثار مطوية اليوم ، فهى لذلك لا تحرك

الناس ولا تحدث فى الحياة ما يجب ان تحدثه فيها من أثر . وسيكون لهذا التعاون الى جانب ذلك مزية اخرى هى هذا التعارف الفكرى والروحى بين امم يجب ان يتم التعارف بين المثقفين من ابنائها على خير وجه . واى وجه للتعارف خير من هذا التعاون لانبل مقصد وأسمى غاية ؟

ولو ان عقبة خيف ان تقوم فى وجه هذا التعاون لكانت هذه العقبة رغبتنا

عنه وعدم حرصنا عليه . ولقد كانت هذه العقبة هي الحائل الصحيح عن القيام بالعمل المثمر في عصور الانحلال التي مضت . فاذا كان حقا ما نعتقد من ان هذه العصور قد آن أن تنتهي وأن يبدد فجر هذه النهضة الحديثة ظلمتها ، فآية ذلك من الناحية العملية قيامنا بهذا التعاون في سبيل الاحياء العربي ، نخدم به الحقيقة ونخدم به الانسانية ونخدم به هذا الشرق العربي نخرجه به من حالته الحاضرة ، حالة الاعتماد على غيره ، ليبدأ عصرا جديدا هو عصر الحرية والنور والتضامن مع سائر اجزاء

الانسانية في سبيل خير الانسانية جمعاء .

(الهلال - ابريل ١٩٣٥)

د . محمد حسين هيكل :

ولد الدكتور هيكل عام ١٨٨٨ في السنبلاوين لابوين ريفيين ، ولكن متيسرين ، حصل على البكالوريا في القاهرة عام ١٩٠٥ ، ثم التحق بمدرسة الحقوق .. وبدأ يكتب عن « تحرير المرأة » ، هو اول روائي عربي .. فقد نشر روايته الاولى « زينب » في عام ١٩١٤ في جريدة « الجريدة » بتوقيع فلاح مصري .. حصل على الدكتوراه في القانون من الجامعة الفرنسية وهو في الرابعة والعشرين من العمر .

تميز عطاؤه في الفكر الاسلامي والمقال الادبي .. والنشاط السياسي ، نادى بالتجديد والتحرر اجتماعيا ، وعلى المستوى الادبي ايضا .



بقلم الأستاذ / توفيق الحكيم

العالم سنة ٢٠٠٠

قصة من صميم التقدم

قصة سنة ٢٠٠٠ اذا كتبتها فى تلك السنة ستستمد حوادثها من صميم التقدم الذى تصل إليه البشرية فى تلك السنة . فاذا لم تقع حرب فى خلال الاربعين سنة القادمة ، وأمكن للقوى المتصارعة فى العالم أن تسخر العلم فى خدمة البشرية بدلا من دمارها ، فان البشرية ستسعد كثيرا .

فى ذلك العالم السعيد سيظهر الكثير من الاختراعات التى تهدف الى رفاهية بنى البشر ، وربما قامت الدولة بتوزيع الغذاء المادى والعقلى على الناس فى صنابير ، كما صورت فى مسرحيتى «رحلة الى الغد» . وسوف يكون كل شىء فى متناول اليد ، وتسخر الآلة فى خدمة الانسان ، ويتيسر السفر بين الأرض والكواكب .

وفى ذلك العالم السعيد ستختفى مناظر الفقر والجهل والمرض ، وستزول محاولات السيطرة على بنى البشر واستغلالهم .

اما اذا وقعت الحرب ، فقد يرجع العالم عدة قرون الى الوراء ، وربما الى الأحوال التى كانت سائدة فى القرون الوسطى ، أو إلى سيطرة رجال الدين ، بعد أن يكفر الناس بالعلم الذى جر عليهم الكوارث ، وانتهى به الأمر إلى أن نسف نفسه !

اما وصيتى للشباب فلا أريد أن اقول لهم اكثر مما قلت .

الهلال ـ يناير ١٩٥٩

الحياة .. على القلم

"احس كأنى فجعت فى شىء عزيز لدى ، الايمان بنزاهة الفكر الحر . ولقد كنت احيانا التمس الاعذار لفولتير . وازعم انه قال مقالة لاعن مجاملة أو ملق . بل عن عقيدة وحسن طوية استنادا على علم خاطىء بأخبار النبى . ولكن كتابه الى البابا كان يتهمه اتهاما صارخا . لايدع مجالا للشك فى دخيلة امره" .

"ان الدفاع عن شخصيتنا وعقيدتنا دفاع عن حياتنا . وان الكتابات التى توجه لهذا الفرد النبيل ينبغى ان يكون لها علينا حق المؤازرة والتعضيد وانى لست بناقد منقطع للنظر فى اعمال المؤلفين وتقدير قيم مايكتبون" .

(توفيق الحكيم ـ الهلال ٨ اغسطس ١٩٧٨)

فى مقال "محمد .. دفاع عنه"

توفيق الحكيم

.. والهلال

"الحلم والحقيقة . أحدهما شيخ الآخر" هو عنوان أول قصة نشرها توفيق الحكيم في الهلال في اغسطس ١٩٣٤ . وقد فتح الهلال ابوابه دائما لابداع ومقالات الحكيم مما عكس كافة جوانب موهبته المتميزة . وشخصيته الفريدة . وفكره المتجدد الذي ينبغي أن يكون . فتوفيق الحكيم هو أول مفكر في تاريخ العرب قرر ان يعيش عن فكره وكتاباته . لقد قرر أن يكون في عالم الغرب شبيها بيرنارشو و اناتول فرانس ومارسيل بروست وامثالهم في عالم الغرب .

فهؤلاء جميعا يقفون في عالم الغرب رموزا على الفكر المستقل القوى الذي يعيش على فكره . ويحدث التغيير الضخم في المجتمع بفكره . فهم نماذج لقوة الفكر وجلال قدره وقدرته على تغيير المجتمع .

وتكريما لهذا العطاء المتجدد ، اصدر الهلال عددا خاصا عن الحكيم في فبراير ١٩٦٨ كتب فيه عبد الرحمن صدقي عن "الانثى الخالدة عدو المراة وشهرزاد" كما تتبع صلاح عبد الصبور المنابع الشرقية "عند توفيق الحكيم" وتحدث د . زكي نجيب محمود عن "تعادلية الحكيم" وكتب رجاء النقاش عن "مصر في أدب الحكيم" وتابع كامل زهيرى رحلة الحكيم مع السياسة . كما فتح كل من د . على الراعي وفؤاد دواره ابواب مسرح الحكيم .

بقلم : احمد زكي باشا

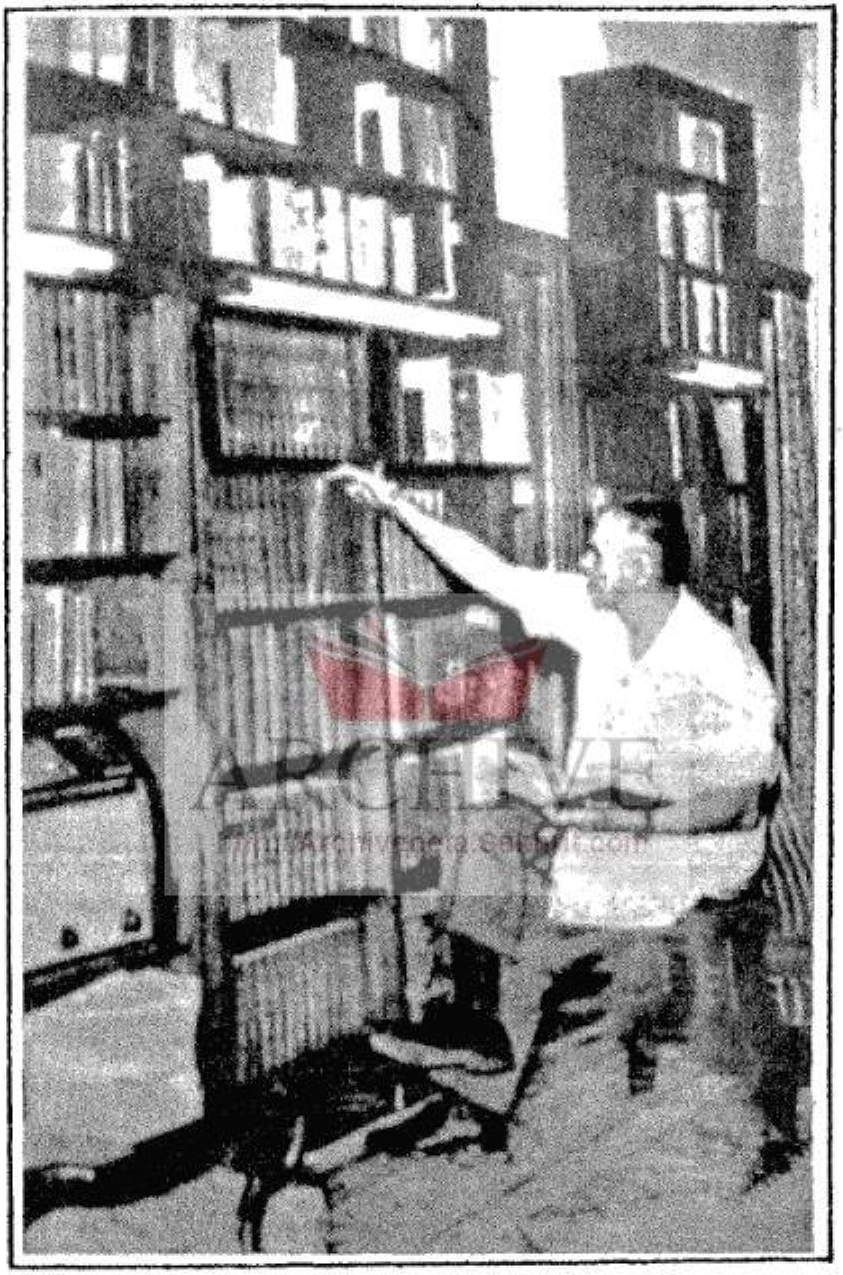
أخلاق العلماء

الاخلاق قواعد رسمها العرف او الدين لسلوك الانسان في الحياة . والانسان حسن الاخلاق ما اتبع هذه القواعد ، وهو سيئها اذا تنكب عنها في افعاله . ولكل فعل من هذه الافعال ناحيتان ، ناحية ظاهرية تتعلق بالظرف الخاص الذى وقع الفعل فيه ، وناحية باطنية تتعلق بالذى جرى فى رأس الفاعل او فى قلبه او فى عصبه قبيل وقوع الفعل .. والناحية الثانية تسبق الناحية الاولى دائما . والناس تقول لرجل انقذ طفلا عن حريق انه شجاع ، وهو حكم يسير بسيط على حدث ظاهر . ولكن الاصول النفسانية التى صدر عنها هذا الحدث ليست فى هذا اليسر ولا فى تلك البساطة .

على ان هذه الاصول النفسانية تتألف من حيث نشأتها ومادتها من اصول ابسط ترد بدورها الى أخرى اكثر بساطة هى الغرائز الانسانية الاولى . يولد الانسان بهذه الغرائز وهى أشبه ما تكون بغريزة الحيوان ، ثم تتفاعل هذه الغرائز مع البيئة التى بها الطفل فتزيد وتقل ، وتقوى وتضعف ، وتتغير وتتحور ، وينشأ منهما عادات مركبة مجملة لا تتبين فيها كيف نشأت ، ولا من أى العناصر تركبت ، وتزيد هذه العادات الباطنية تعقدا بتفتح ذكاء الطفل واتساع نطاق بيئته ، وتزيد كذلك عددا . فهذه هى أصول سلوكه فى الحياة ، ثم تتيقظ فيه انسانيته السامية بالتعلم ومخالطة الناس فتأخذ المثل تتكون فيه فتكون هى الهدف الذى يرمى اليه فى سلوكه وتخلقه ، والعلم من الأمور التى تؤثر فى هذه العادات وهذه المثل تأثيرا كبيرا .

ويدخل فى نطاق هذه العادات كثير مما يسميه الناس خلقا . فالصدق المطلق عادة ، والغضب عادة ، واليأس عادة ، والامانة عادة ، والصبر عادة .

ولنضرب لذلك مثلا عالما كيماويا يأخذ فى درس مسألة علمية ، وهى تختص بتطبيع طائفة من المواد وتخلقها ، وهى مواد لم يسبق لها فى الكون وجود ، فهى من تصورات العالم ، وله عليها وعلى انها ممكنة الوجود ما عرفه من طبائع العناصر والاجسام عند تفاعلها . فهذا العالم اول ما يفعل ان يرجع الى مراجع كثيرة بها الآلاف المؤلفة من الاجسام ، مما



صنعته الطبيعة ومما صنعه الانسان ، يبحث عن مواده عسى ان يكون قد سبقته الطبيعة الى خلقها ، او الانسان الى صناعتها . فان كان هان الأمر ، واغلب الظن ان لا يكون . فيبدأ يتجهز ويقضى الاسابيع والاشهر لتحضيرها وخلقها مما خلق الله . فهذه الخطوة الاولى من البحث لابد فيها من الحذر واليقظة والا ضاع على الباحث جهد كبير وزمن طويل .

ثم اذا استقر الكيمياوى الى طريقته على الورق وفى الخيال ، وقف امام منضدته يستفتى الزجاج والنار والبخار فيها . فيعمل الايام والايام فلا يخرج شيء . ثم هو يعيد الكرة ، المرة بعد المرة ، ثم يأخذ يدرس ظروف التجربة فيزيد من هذا الظرف وينقص من هذا الظرف ، ويظل يجرب ثم يجرب الاسابيع فالاشهر حتى يحصل على مادته عندئذ يؤمن بان النجاح لمن صبر ، لا يؤمن به من الكتب ولا من موضوعات الانشاء يستكتبها فى المدرسة ، ولكن يؤمن به من اسوداد الدنيا فى عينيه مائة مرة ، ومن الخيبة تحز فى السويداء من قلبه مائة حزة ، وهى حزات عميقة تترك بعد التئامها اخاديد دائمة الوجود ويحملها معه فى الحياة كيف دار وأينما طلع .

تذكرنى هذه الخيبة التى لابد منها لكل باحث فى العالم بيوم فى بلد اجنبى ، كان من سنوات بعيدة ، اذ كنت قائما الى جهاز فيه دورق كبير يسع خمسة ألتار ، وضعت فيه مادة اغليها بأخرى ، وكنت صرفت فى هذه المادة أسابيع احضرها ، ثم ذهبت من المعمل الى ركن غير بعيد ، فما كدت اصله حتى سمعت طقة ، فتلفت وهرعت الى الجهاز فاذا بالدورق انفتح بطنه وانكب حشوه ، فوقفت دقيقتين جامدا عنده لا أفوه بكلمة ولا يظهر على ملامحى غضب ، وفى نفسى من الغيظ المكبوت ما لو أسلمت له القياد لانحى بيدى على بقية الجهاز تكسيرا وتحطيما .

والحق انه ما أزمتنى بعد ذلك فى الحياة أزمة ، او حزبتنى فيها حازبة الا وتصورت الدورق فيها يطق ، فان فعل فأمر توقعناه ، وان لم يفعل فمخرج يسره لنا الله فحمدناه .

والصدق والامانة لابد منهما لكل عالم تجريبى ، والكذب ان انجح حينا فهو يخذل من بعد ذلك طول الدهر . كذلك التعصب ليس من شيم العلماء ، فهم ان أحبوا قصدوا ، وان كرهوا قصدوا ، ولا يغريهم حب مهما حلا ان يناصروا حبيبا مهما عز على باطل ، ولا

أخلاق العلماء

يغريهم بغض مهما غلا ان ينازعوا خصيما فى حق . أو هكذا يجب ان يكون العلماء . فالطبيعة آخر الأمر لا تنصر الا الحق شايعه حبيب أو خصيم .

هذه بعض سجايا العلماء مما يكتسبونه من ممارسة العلم . وهناك أخرى . ولا يحسبن حاسب ان العلماء كلهم على هذه السجايا . فممارسة العلم لا تكون الا بعد ان ينشأ ممارسه ويشب وتجمد أخلاقه بعض انجماد . فالذى يحدث فى الاغلب هو صراع بين عادات كسبها ممارس العلم من بيئته ، وعادات يكسبها اياه العلم بممارسته فهما قوتان متنازعتان ، فالغلبة لاقواهما . لذلك تجد من العلماء قوما يتحلون بكل السمات التي يتسم العلم بها على احسن ما يشتهى القلب ، وتجد آخرين لا تتراءى فيهم هذه السمات الاسئلة او تتراءى فيهم سمات الشر بارزة بينة .

ومن الاخلاق ما لا يتناوله التدريب العلمى بقليل أو كثير ، اللهم الا مسا من بعيد .. لذلك كان من العلماء سكيرون ، وكان منهم دساسون ، وكان منهم من جرى فى حياته وراء الرائجة ، ونافق وراء النافقة ، فلما كسدت ولى عن كاسبة الامس الى كاسبة اليوم .

والناس اجمع ، من علماء وغير علماء ، من مارسوا العلم ومن لم يمارسوه منهم ، قد افادوا من العلم الشيء الكثير . ولست اشير بذلك الى ما اصابوه من مدنية وحاجات مادية ، ولكن أريد ان العلم بما خلع عليهم به من نتائجه ، وبما اشاعه فيهم من طرائقه ، قد أثر فى نظراتهم ، وغير من معتقداتهم ، فتكونت فيهم مثل للحياة تخالف المثل الاولى . ثم أصبحت هذه المثل مرماهم ، فغيرت من سلوكهم وتعليمهم فى حقير الأمر وجليله .

[عن الهلال ١٩٢٨]

أحمد زكى .. والهلال

فتح الهلال كل ابواب المجلات الثقافية العربية المعروفة . وقد بدا هذا واضحا فى استعانة حكومة الكويت بالدكتور احمد زكى لاصدار مجلة شبيهة بالهلال فى علم ١٩٥٨ وهى مجلة "العربى" .

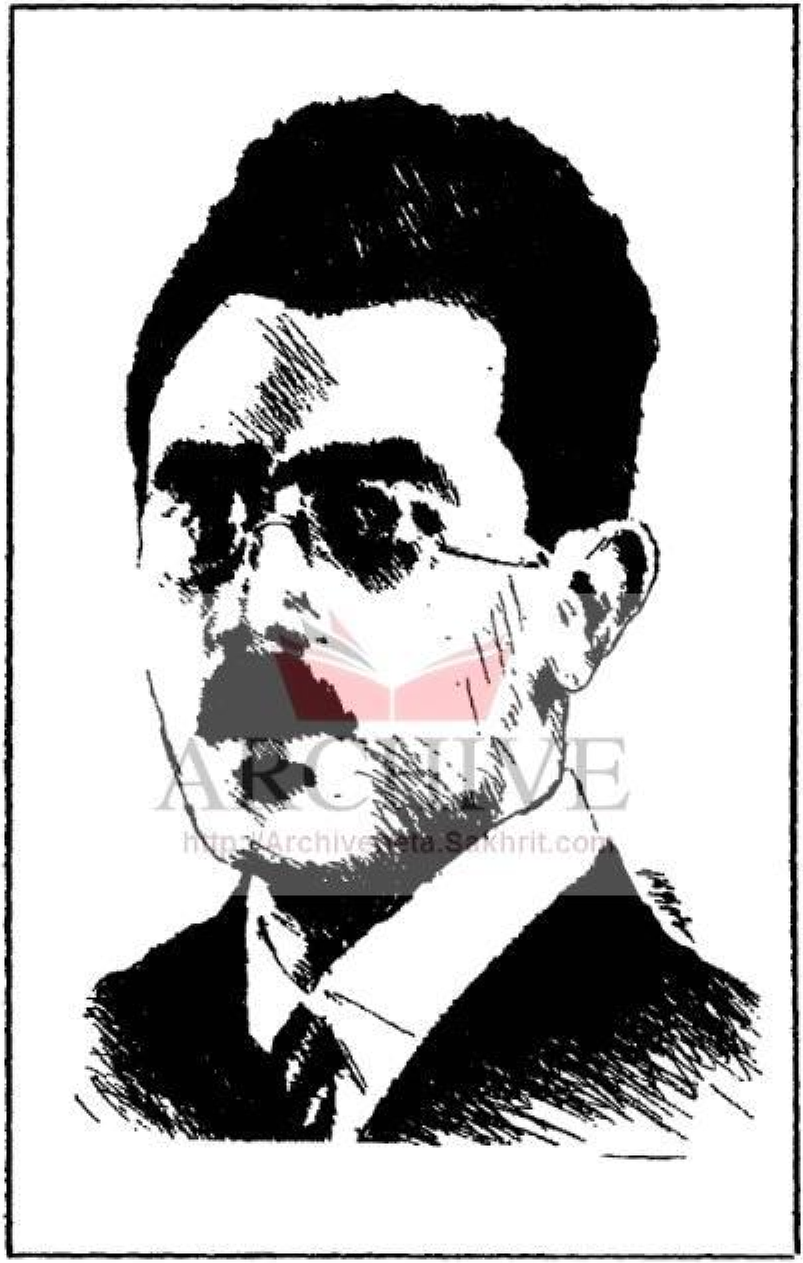
من المعروف أن الدكتور أحمد زكى قد تولى رئاسة تحرير مجلة الهلال مرتين بين علمى ١٩٤٧ ، ١٩٥٠ وبدا فيها مدى اهتمامه بكتابة العلم بروح الاديب . وكتابة الادب بروح العالم . ثم فى علم ١٩٥٧ .

وأحمد زكى ليس فقط علامة من علامات رحلة الهلال الطويلة ومسيرتها عبر قرن من الزمان بل هو واحد من الشخصيات المعاصرة التى اشتركت فى بناء النهضة الحديثة . فقد عاش فى المملكة المتحدة عشر سنوات درس فيها العلوم التطبيقية . وحصل على درجة الدكتوراه من جامعة ليفربول . ثم نال دكتوراه ثانية من جامعة لندن علم ١٩٢٨ .

وعقب عودته الى مصر شغل وظيفة استاذ الكيمياء المساعد بكلية العلوم وتدرج حتى انتخب بالاجماع عميدا لها . ثم انتقل الى وظيفة مدير لمصلحة الكيمياء المصرية عام ١٩٣٦ .

وقد عمل أحمد زكى (١٨٩٤ ـ ١٩٧٥) فى مناصب عديدة . فهو الذى انشا المركز القومى للبحوث العلمية . كما تولى وزارة الشئون الاجتماعية لستة اعوام . وعين مديرا للجامعة علم ١٩٥٣ . وذاعت شهرته ككاتب فى مجلات "الرسالة" و "الثقافة" و "المختار" قبل ان يتولى رئاسة تحرير "الهلال" .

من اهم كتبه "مع الله فى السماء" ، "بواتق وانابيب" و "بين المسموع والمقروء" يعتبر أصغر من نشر فى مجلة "الهلال" فى علم ١٩١٦ ـ ولد أحمد زكى فى السويس علم ١٨٩٤ ـ وقد كتب فى هلال يناير ١٩٤٧ "إننا نعود فنتذكر ان مجلة الهلال مجلة العالم العربى كله . وانه ليسرنا ان يساهم فيه ادباء الاقطار الشقيقة فى إطار الخطة التى رسمناها" .



بقلم الدكتور/ على مصطفى مشرفة

أين يسير بنا العلم إلى العمران أم إلى الدمار؟

أريد أن أشير أولا الى أن العنوان وإن كان مفهوما فى ذاته كسائر العبارات التى نكتبها ونفهمها - أو نظن أننا نفهمها - إلا أن القائله إذا نحن دققنا فيها وجدناها تنطوى على شيء من المغالطة التى يمتاز بها الأسلوب الأدبى الجذاب على الأسلوب العلمى الواضح. وهذا العنوان يشبه لنا العلم بقائد أو بزعيم يسير بنا تحت لوائه فى الطريق الذى يرسمه هو لنا ويختاره وكأننا نحن جنده وأتباعه نأتمر بأمره وننقاد لزعامته. ثم يتساءل أو نتساءل نحن الى أين يسير بنا ذلك القائد وإلام تجرنا سياسته: إلى العمران أم الى الخراب؟ فهذا التصوير ينطوى كما ذكرت على مغالطة بابتعاده عن حقيقة الواقع. إذ من الواضح أن العلم إن هو إلا أثر من آثارنا نحن وشيء من صنعنا. فوضعه موضع القيادة وتسليمه دفة السفينة البشرية قلب لأوضاع الأمور. إذ السفينة سفينتنا ونحن وحدنا المسئولون عن قيادتها

على أن هذا التشبيه إنما تنعكس فيه صفة قديمة من صفات الانسان وغريزة من غرائزه. فقديما صنع الناس تماثيل وأصناما ثم عزوا اليها قوة التحكم فى مصيرهم وأسندوا اليها القدرة على تكييف شئونهم. ومازالوا يخدعون أنفسهم فى أمرها حتى عكفوا على عبادتها وخروا لها سجدا. وتاريخ العقائد البشرية حافل بالأمثلة على ذلك من أجل هذه الظاهرة البعيدة عن كل منطق. من أجل هذه النزعة المتأصلة فى نفوسنا والتى ورثناها عن أجدادنا الأول. كان موضوع هذا المقال موضوعا له أهميته وله خطره فى تطور الجنس البشرى. فلا يكفى أن نجيب عن السؤال المطروح علينا بأن العلم لايسير بنا الى شيء ما وإنما نحن الذين نسير بأنفسنا. فهذا الجواب وإن انطبق على المنطق الصحيح إلا أنه يتحاشى الهدف المقصود ويحيد بنا عن جادة الطريق فيتركنا حيث نحن ولم نتقدم خطوة الى

أين يسير بنا العلم

الامام لاشك أن زيادة المعرفة البشرية ولاسيما فى العصور الحديثة قد أدى إلى تغير عظيم فى حياتنا المدنية والاجتماعية ، ولا حاجة بى إلى أن أبين المظاهر المختلفة لهذا التغير فما على المرء إلا أن ينظر حوله لكى يدرك مدى هذا الانقلاب الذى أصبح رمزا على المدنية الحالية . فمن طائرات الى غائصات الى إذاعة لاسلكية الى ناطحات للسحاب الى الف جديد وجديد مما كان أجدادنا يحسبونه فى عداد المعجزات . كل هذا شائع معروف للناس والعام كما أن من المعروف للخاص والعام ايضا أن هذه المستحدثات إنما هى ثمرة العلم الحديث ونتيجة من نتائجه . فالعلم قدرة تمكننا من استخدام القوى الكامنة فى الطبيعة وتسخيرها لاغراضنا المختلفة

على أنه لابد من التمييز بين العلم وبين نتائج تطبيقه ، بين العالم الأكاديمى وبين المهندس أو المخترع . فالعالم أو الباحث الاكاديمى إنما يطلب المعرفة لذاتها فهو يريد أن يستطلع حقيقة ماهو كائن ويقف على سر تركيبه . هذه الرغبة فى المعرفة غريزة من غرائز البشر ، وقديما كانت شجرة المعرفة مغرية للانسان بحيث لايقوى على مقاومة استهوائها لنفسه . أما المهندس أو المخترع فيستخدم العلم كوسيلة لتحقيق غرض يرمى اليه ويسعى اليه ويسعى وراءه ، فمكسويل وهرتز ولودج إنما كانوا يطلبون تفهم حقيقة الاشعاع اللاسلكى ودراسة أسبابه وكيفية حدوثه وارتباطه بسائر الظواهر الكهربائية والضوئية والمغناطيسية التى تتصل به . أما ماركونى فكان يرمى الى استخدام هذا الاشعاع ـ بعد أن كشف عنه غيره ـ فى نقل رسالات البشر وأصواتهم . وكذلك فرداى ولتنز واوهم وجول وامبير انما كانوا يدرسون خواص التيارات الكهربائية وأثرها الحرارى والمغناطيسى من الناحية الطبيعية والفلسفية أما جراهام بيل واديسون فكانا يستعينان بعلم هؤلاء وغيرهم على استخدام التليفون والانارة الكهربائية . أردت أن أميز بين العلم البحت والاختراع أو تطبيق العلم لاننا ازاء تحديد المسئولية . فالعلم لا يمكن أن تقوم ضده جريمة التخريب أو التدمير ، لأن ركن النية ، أو القصد الجنائى غير متوافر ، والعلم كما بينا بعيد عن كل ريبة فيما يختص بالغاية التى يرمى اليها . وأية غاية أشرف أو أنبل من الرغبة فى إحلال نور العرفان مكان ظلام الجهالة ؟ لعل بعض القراء يظن أننى إنما أحاول بشىء من المهارة أن أتخلص من موقف محرج بدلا من مجابهة الحقائق ومجابهة الموضوع . لعل هذا البعض يظن أن

التفرقة بين العلم البحت والعلم التطبيقى إن هى إلا تفرقة طفيفة وهى على أية حال تفرقة لا تهم الشخص المثقف العادى الذى ينظر الى طائفة العلماء والمخترعين ومن اليهم كاسرة واحدة بعضهم لبعض ظهير ، فكما أن المخترع يستخدم نتائج عمل المستكشف فى تنميق مخترعاته كذلك المستكشف يستخدم آلات المخترع وعدده فى زيادة الكشف والبحث العلمى ، فهم شركاء وأعوان ، مايصدق على الفرد منهم يصدق على الجماعة . الى هذا البعض من القراء أقول إننى أقبل هذا الموقف الذى يريدنى أن اقفه ، فالعلم سواء أكان بحتا أم تطبيقا هو العلم وشجرة المعرفة بأصولها وفروعها وثمارها وحدة لاتتجزأ وهى اما شجرة طيبة تؤتى أكلها ويمتد فيؤها فتكون خليقة بأن تنمو وتترعرع أو هى شجرة خبيثة وإذن يتعين ان تجتث من جذورها .

فلنتناقش الموضوع على هذا الاساس . إلام ينتظر أن يؤدى بنا تقدم العلم والاختراع ؟

اظن أن من المعقول أن نسأل اولا إلام ادى بنا فعلا هذا التقدم . هل العالم اليوم أكثر هما أم أكثر خرابا ودمارا مما كان عليه منذ مائتى سنة مثلا ؟ لا أظن هذا السؤال مما يختلف فيه اثنان .

وما على المكابر إلا أن يبتعد عن مرافق الحياة الحديثة ويكتفى بعيشة أهل القرون الوسطى فيضىء منزله بمصباح الزيت ويسافر على ظهور الخيل والبغال والحمير ، ويمتنع عن قراءة الكتب المطبوعة والجرائد اليومية ، ويرسل خطاباته الى أصدقائه مع رسول يقطع الفيافى والقفار على متن دابة ، ويكتفى بطرق العلاج التى كانت معروفة فى القرون الوسطى . فهذا كله ميسور لمن يريده ، ولكن لا أظننى مخطئا إذا قلت إنه لايوجد واحد فى الألف ممن يتمتعون بتمام قواهم العقلية يريد حقيقة أن يعيش على ذلك النمط .

من الجلى إذن أن تقدم العلم والاختراع قد أدى بنا فعلا إلى حالة من العمران تفضل فى نظرنا ما كانت عليه حالة العمران من قبل .. وكما أن الحكم على الرجل انما يكون بأعماله ، فإن كان ماضيه مقترنا بخدمة المجتمع والاخلاص له جاز لنا أن ننتظر منه خدمة المجتمع والاخلاص له فى مستقبله كذلك ، يجوز لنا أن نحكم من ماضى العلم على مستقبله فننتظر منه الاستمرار فى توفير سبل الرفاهية للاسرة البشرية ومحاربة المرض والفقر والجهالة التى هى الد أعداء البشر وأقوى أسباب آلامهم وبؤسهم .

أين يسير بنا العلم

وهنا أخالنى أسمع همسا عن أهوال الحروب الحديثة . عن الغازات الخانقة والطائرات المدمرة وما إلى ذلك من المخترعات التى يستخدمها الانسان فى محاربة أخيه الانسان ولاشك فى أنه من الممكن أن ننظر الى هذه الناحية من نواحى تقدم العلم بعين التشاؤم ولكن هذا التشاؤم إنما يكون معناه الحكم على الأسرة البشرية بالجنون الوراثى . فالأسرة البشرية يمكن تشبيهها بصبى قد بدأ يقوى ويشتد ساعده كما بدأت مداركه تتسع ، فيزداد علما بأسرار القوى الطبيعية التى تحيط به . فهو يستخدمها لاغراضه المختلفة . وهو ولاشك واجد يوما ما طريقة أو أكثر من طرق الانتحار . وأصدقاؤنا المتشائمون يريدوننا على أن نعتقد أن طلب الهلاك غريزة من غرائز هذا الصبى أو نزعة فى تركيبه الجنونى . فهو بمجرد أن يعثر على طريقة مثلى للانتحار سيبادر إلى استخدامها لانهاء حياته الصحية . وكل ما استطيع أن اقوله لهؤلاء إنه إذا كان الأمر كما يزعمون فالأولى بهم أن ينتحروا من الآن اختصارا للوقت والمجهود أما إذا تغلبت غريزة حب البقاء لهم فكرهوا مشورتى فليسمحوا لى أن أعتقد أن هذه الغريزة ذاتها وهى من أقوى الغرائز فى الجنس البشرى اذا أضيف اليها التعقل والحصافة اللذان سينشآن حتما عن زيادة المعرفة البشرية ، فمن شأنها جميعا أن تخول لنا النظر الى مصيرنا بعين المتفائل المطمئن .

د . مشرفة والعلماء

هو اصغر عالم حصل على درجة الدكتوراه فى العلوم على المستوى العالمى . حدث ذلك فى عام ١٩٢٤ . حين نال الدكتور على مصطفى مشرفة (المولود فى يوليو ١٨٩٨) على درجة الدكتوراه فى فلسفة العلوم من الكلية الملكية بلندن .

هو عالم واديب وموسيقار . وهو اول عميد مصرى لكلية العلوم علم ١٩٣٦ . له خمسة وعشرون بحثا فى نظرية "الكم" ونظرية النسبية لاينشتاين . و "الطاقة الذرية" كما اشترك ، مع اخرين ، فى تاليف العديد من الكتب العلمية . كما انه اول عالم مصرى اشترك فى الموسوعة العالمية للشخصيات العلمية وطبعة نيويورك .

حوار مثقفين

بقلم: د. شكري محمد عياد

كان موضوع الندوة "كيفية ايجاد جسر بين الآداب الغربية والادب المصرى في الوقت الحاضر" . وكانت الندوة نفسها مثالا عمليا لذلك الجسر ، فالمتحدث الاول فيها هو الكاتب السويسرى "ادولف موشك" ، والداعي هو المؤسسة الثقافية السويسرية "دبرو هلفسيا" ، وهي مؤسسة رسمية ، او شبه رسمية ، على نمط المجلس البريطاني ، ومكان الندوة قاعة في احد الفنادق الكبرى بالقاهرة ، وموعدها ساعة الظهر ، لكى تعقبها مادبة غداء .

● ذهبت الى هذه الندوة بمزيج من التطلع وعدم الاطمئنان ، ولعل هذا هو شعور قسم كبير من المثقفين المصريين نحو الغرب وما يأتى من الغرب . فمنذ وعينا ونحن ندرك ان الغرب متفوق علينا ، ونحاول جهدنا ان نمد الجسور لنصل اليه ، ولكن هذا الغرب لا يكاد يمد الينا بيده حتى نشعر بالشك ، فنحن نعرف ان هذا الغرب لم يسع الينا ، منذ البدء ، الا جريا وراء مصالحه الخاصة ، ولم يكن ليبلغ ما بلغ من السطوة والغنى لولا ما استغله من مواردنا . فاذا مد إلينا يدا ظاهرها الاحسان "وما اقسى هذه الكلمة !" فنحن نعلم ان باطنها الاستعباد ، ثقافة او لا ثقافة ! هذا الشعور الدفين من العداوة والخوف لا يفارقنى ابدا ، لم يفلح في محوه ذلك المدرس الايرلندى الذى كان يعلمنا اللغة الانجليزية في سنة ١٩٣٦ ، ونحن في البكالوريا ، وكان يشاطرنا حماستنا الوطنية ، ويحدثنا عن بارنل ، ويسالنا عن سعد زغلول ، ولم يفلح في محوه ما قرأته بعد ذلك من مسرحيات جالسورذى ، ومن قابلته على صفحاتها من فقراء الانجليز ، لم يفلح شيء في محوه ، لان بعض الغربيين مازالوا ينفخون في جمره كلما اوشك ان يخبو ، ومازلت كلما ضمنى وبعضهم مجلس اشعر ان في باطنى ذلك الصبى الصغير الذى كان يتوهم ان البشر كلهم اما اولاد عرب واما انجليز ، وان الانجليز هم اولئك الجنود الذين يراهم احيانا مطلين من نوافذ القطار الذى يمر بقريته ، ويسأل

التفكير على الأسوار

نفسه متعجبا : كيف يمكن ان يعرف بعضهم بعضا وهم جميعا سحنة واحدة .

هانذا جالس فى بهو الفندق انتظر ابتداء الندوة ، وافكر جديا فى الهرب ، عن اى جسور نتكلم وهذه الجسور ممدودة فعلا ومعها موائد الطعام ؟ اذا كان من الضرورى ان أتكلم فليس عندى الا كلمة واحدة ستبدو نابية جدا بل مناقضة لموضوع الندوة (وربما للغرض منها ، هكذا قلت لنفسى) ، نحن فى حاجة الى جسور تربطنا بقومنا . اكثر من حاجتنا الى جسور تربطنا بثقافة الغرب . فالصبى الريفى الذى يقبع فى داخلى بالغربة والتعاسة ، وينظر باستنكار مؤدب الى ما يفعله الجالس فوقه والذى سيتحدث طبعا باللغة الانجليزية ، فكم تكون المصيبة اذا تحدث مثلا عن حركة الترجمة وتبادل الزيارات وعقد الندوات والمؤتمرات والمهرجانات ونسى أن اكثر من نصف المصريين لا يفكون الخط ، وان طلبة الجامعات لا يقرءون سوى مذكرات الاساتذة ، وان اديبا مبدعا راسخ القدم فى فن الكتابة مثل ادوار الخراط الذى يدير الندوة ، والذى يخطو بتؤدة ووقار نحو السبعين ، لا يزال يجد صعوبة فى نشر كتبه ؟

● البحث عن الخصوصية

ولكن ماهذا ؟ هل كنا فى الهم مثقفون ؟ فالاستاذ موشك ، الذى كتب ست روايات ، وعددا كبيرا من القصص القصيرة والدراسات النقدية ، ليس كاتبا متفرغا ، بل هو يأكل عيشه من التدريس مثلنا ، ثم انه عندما تكلم ، فاجأنا بانه لا يريد ان يتكلم عن الجسور ، بل عن الاختلاف !

هل هو الاتجاه السائد الآن فى الثقافة الغربية ، البحث عن "الخصوصية" ، وتأكيدها ، والاعتزاز بها ، الى حد ان الامريكيين مثلا لم تعد تكفيهم خصوصية الهجرة ، وكراهية الاستبداد ، واقتحام المجهول ، فهم يضيفون اليها خصوصية زائدة من تاريخ الهنود الحمر الذين احتلوا ديارهم ، أهو رد الفعل العالمى ضد تكنولوجيا الثقافة التى عبرت الحدود وحطمت السدود ، وهددت بالقضاء على الثقافات الوطنية ، والبقايا الفلكورية ؟ ام هى "خصوصية" الثقافة السويسرية نفسها ، رغم انتمائها الى ثقافة الغرب ، بل وقوعها فى قلب هذه الثقافة ، وعند ملتقى تياراتها ، بحيث تعد معرضا كاملا لها ، وتلخيصا وافيا لكل ما فيها ؟ وهل يمكننا ان نتحدث عن "خصوصية" اهم سماتها الجمع والتأليف ؟

لقد أوجز موشك دور سويسرا الحضارى منذ قيام الاتحاد السويسرى حوالى منتصف القرن الرابع عشر حتى وقتنا هذا فى جملة واحدة "كانت سويسرا معقلا للثورة فى عصور المحافظة ، ومعقلا للمحافظة فى عصور الثورة" ، ولهذا الدور المتميز خلا تاريخ سويسرا من الانقلابات العنيفة ، وان لم يخل من الصراع ، بينما لجأ اليها الثوار فى منعطفات التاريخ المهمة ، فكان فولتير فى فرنى ، على مقربة من حدودها ، يشن هجومه المستمر

على رموز الاستبداد المدنى والدينى فى اوروبا القرن الثامن عشر ، وكان لينين فى جنيف يحضر للثورة البلشفية فى ١٩١٧ . ولهذا الدور المتميز ايضا ، وبفضل سياسة "الحياد المسلح" التى نفذتها سويسرا بحرص غير معتمدة على تعهدات الدول الاوروبية المتحاربة . تقدمت سويسرا تقدما مطردا حتى اصبحت من اغنى بلاد العالم رغم ضعف مواردها الطبيعية ، وحافظت على استقلالها ووحدتها رغم "كانتوناتها" الستة والعشرين المختلفة جنسا ولغة ودينا . (يدهشنى ان بعض العرب يستعيذ بالله من ان يصبح لبنان كانتونات هو الآخر ، وليته يصبح حقا كانتونات متحدة مثل سويسرا !) .

وهموم المثقفين من هموم بلادهم . فاذا كان همنا فى مصر هو الديون والتنمية (الاسم اللطيف للفقر والتخلف) فسويسرا همها هو الغنى . او على الاصح ان تعرف كيف تحافظ فى عالم موحد على غناها الذى كسبته من عالم متقسم . وموشك يشعر بالخجل "لخصوصية" كل منا فى هذه الناحية ، وقد همست ان القول له ان هذا الشعور غريب جدا من جانبه ، ولا يجب ان يزعجه على الاطلاق ، فمثل هذه "الخصوصية" موجودة بجميع درجاتها بيننا نحن العرب ، ونحن نقول ببساطة اننا أمة واحدة ، ولا احد منا يشعر بالخجل .

● هموم المثقفين !

ولكن المثقفين لهم هموم اخرى تتعلق بصنعتهم ، وقد سأل الحاضرون الاستاذ موشك ، هل تعد نفسك كاتبا المانيا ؟ وكان السؤال جوهريا بالنسبة لقوم تشغلهم قضية "الهوية" ، والانتماء ، وان لم يشغلوا كثيرا بقضية الخصوصية . ولا عجب ، فالمرء يبحث عما يفتقده ، والى ان نعرف هويتنا وانتماءنا معرفة يقين واطمئنان فسنظل نبحث عنها بجد واستماتة ، وسنظل نتساءل عن تراثنا ، هل نجده فى أرض مصر وتاريخها أم فى لغة العرب وثقافتهم وتاريخهم ؟ ومع ان الحاضرين لم يكن لديهم شك فى انتمائهم اللغوى فلعل بعضهم كان مترددا فى انتمائه الثقافى . اما الكاتب السويسرى فلم يكن لديه شك ولاتردد ، بل ان المسألة لم تكن مطروحة بالنسبة له اصلا . فلكل انسان ـ لا الكاتب فقط ـ انتماءات متعددة ، لا يلغى انتماؤه الوطنى انتماءه الثقافى او السياسى او الدينى الخ . وله هوية يصنعها بخبراته وارادته ، ولا تعطى له كمركب كيماوى من عند الصيدلى ، ولكن الكاتب ـ بما هو كاتب ـ له عالمه الخاص الذى يركبه كما يشاء له خياله ، لا يسأل نفسه ـ ولا ينبغى ان يسأله احد ـ عن مكوناته الثقافة او الدينية او السياسية الخ . ولا عن مصادره فى تراثه المحلى او الوطنى او القومى او الانسانى ، الا ان يريد ناقد ابراز "خصوصية" عالم المبدع من خلال هذه العموميات . وبدا من المناقشة حول العلاقة بين الابداع والمعطيات الخارجية ، سواء سميناها انتماء ام ثقافة ام تراثا ام غير ذلك ، اننا مازلنا نتكلم عن امور نظرية مثل المحاكاة واستقلالية الادب كما لو كانت خيارات حاسمة امام المبدع والناقد ، فى حين ان هذه المقابلة كانت تصبح عديمة المعنى فى نظر الكاتب الغربى .

وعلى العكس من ذلك قضية اللغة ، فنحن فيها سواء ، الكاتب المصرى الذى يكتب بالعربية "الفصحى" ، والكاتب السويسرى الذى يعيش ويعمل فى

النحو على الأسوار

المنطقة الناطقة "بالالمانية" من سويسرا ويكتب بالالمانية "العليا" فكلاهما يكتب بلغة تختلف قليلا او كثيراً عن اللغة الجارية ، ولكن بدا من كلام الزائر السويسرى ان التطور اللغوى فى بلده يسير فى اتجاه مضاد لما نلاحظه عندنا ، فنحن نلاحظ ان اللهجات العربية تتقارب ، وانها تقترب فى مجملها من لغة الكتابة شيئا فشيئا ، كما ان لغة الكتابة تتطور من جهتها بحيث لا يصعب فهمها على الشخص الامى ، مع انها لاتكاد تفقد شيئا من "اللغة الفصحى" ـ لغة الكتابة فى القرن الثالث او الرابع الهجريين ـ سوى تهاون بعض الكتاب فى الاعراب ، وهذه ظاهرة لافتة ولكنها ابعد ما تكون عن ان تعد سمة عامة ، اما فى سويسرا الالمانية فاللهجة الجارية تتباعد تباعدا سريعا عن الالمانية العليا ، حتى ليذهب الاستاذ موشك الى ان الوضع اللغوى ختلف اليوم اختلافا بينا عما كان عليه قبل عشرين سنة . فالالمانية السويسرية اليوم تكاد تستقل عن الالمانية العليا ، كما هو شأن اللغة الهولندية مثلا ، فلها مطبوعاتها ولها صحافتها ولها ادبها ، وتكاد الالمانية العليا تصبح غير مفهومة لدى الشباب ، فهم يفضلون ان يتفاهموا مع الاجانب ، وربما مع الالمان ايضا ، باللغة الانجليزية .

● فيم نحن مختلفون ؟!

هل نأسى ام نفرح ـ اذن ـ لاننا اخذنا هذا الوقت الطويل فى البحث عن هويتنا او خصوصيتنا ، وهل نجرؤ على الامل فى ان يكون تعلقنا بالروابط المعنوية بين طوائفنا وشعوبنا عوضا ـ فى المدى القريب على الاقل ـ عن اهمالنا المشين للروابط المادية ؟ واذا كانت الامور المعنوية هى "خصوصيتنا" وقوتنا ، فهل تعترف المعنويات بالحوائل والسدود بين شرق وغرب ، او شمال وجنوب ؟

قد يقول صديقنا القادم من الغرب : ان واقعنا هو الاختلاف ، فلننظر اولا فيم نحن مختلفون ، كى نعرف من بعد اين نقيم الجسور ، هو مخلص لثقافته ، وهو يقترب منا من موقع هذه الثقافة ، فثقافة قامت منذ العصور القديمة حتى عصرنا الحاضر على الترابط بين عناصر متعددة ومختلفة ، بل ومتناقضة فى كثير من الاحيان ، تتصارع تارة حتى يكاد يفنى بعضها بعضا ، وتتآلف تارة فتسقط تناقضاتها فى أعماق اللاشعور . لماذا لا اقترب من موقع ثقافتى انا ، وهى التى قامت منذ اقدم العصور ايضا على مبدأ الوحدة (كنيستى القبطية كنيسة موحدة ، مثل الاسلام) ، وتشعبت ما تشعبت ولكنها تمسكت دائما بالاصل الواحد ، وقاومت كل نزعات الاختلاف حتى كانت تفقد روح التسامح والتصالح ، وكاد يفنى بعضها بعضا باسم الوحدة ، فلا تتحقق وحدتها الا فى العدم .

ثقافته تعددية تصطنع الوحدة عند الازمات لكى تحافظ على حياتها وثقافتى موحدة ظلت تتجاهل الاختلاف ، حتى كاد الاختلاف يفتتها .

لننس النظم السياسية مؤقتا ، لننس العادات والاعراف . لننس المسرح

والسينما والاوبرا والباليه والموسيقى السمفونية والفنون التشكيلية . لننس الرواية والقصة الكلاسيكية والرومانسية والواقعية والرمزية . الخ . الخ . لننس هذا كله مؤقتا ولننظر اولا فى الجذور .

اما ان تلتقى الثقافتان ؟

سبحانك ربى ! هأنذا قد انتقلت من النقيض الى النقيض . اريد ان اتكلم عن الوحدة ، على عكس ما فكرت وقدرت !

كانت مساهمتى فى الحوار منحصرة فى الفكرة التالية :

اذا كان ضيفنا العزيز قد فاجأنا بأن اقامة الجسور بين الثقافات تقتضى ابراز الفروق أولا ، فاسمحوا لى ان افاجئكم بان اقامة الجسور بين ثقافتنا والثقافة الاخرى تقتضى اولا ان نتعمق فى ثقافتنا نفسها ، ولو اننى اقول ايضا اننا لن نستطيع ان نفهم ثقافتنا فى اعماقها الا اذا امكننا ان ننظر اليها من الشاطىء الآخر ، اى من منظور الثقافة الاخرى .

والذى استطعت ان افهمه عن ثقافتنا انها كانت فى عصور ازدهارها منفتحة والى اقصى حد ممكن على غيرها من الثقافات . وقد تكلمت عن الدور الاخير من هذه الثقافة وهو الدور العربى الاسلامى . وقلت ان الثقافات المصرية القديمة والهلنسية والرومانية وحتى ثقافات الشرق الاقصى دخلت شبه الجزيرة العربية من قبل البعثة المحمدية ، واسهمت كلها فى تكوين الحضارة الاسلامية ، التى كان لها فى اوج ازدهارها مسلماتها الخاصة ومسلكها الخاص فى بناء الانسان وفهم الكون وتنظيم المجتمع والتصرف فى مواد العيش . وقد دب الفساد فى هذا كله فاصبح ميراثنا من تلك الحضارة - كما نمارسها فى حياتنا المعاصرة - مبتورا مشوها . وانطلقت الحضارة الغربية الحديثة من مسلمات مختلفة واقامت ابنية مختلفة ، وحققت ماحققته من انجازات عظيمة ، ولكنها تقف الان - ربما بسبب هذه الانجازات نفسها - امام طريق مسدود . واصبح بقاء الجنس البشرى نفسه مهددا بخطر جسيم .

طرق الحضارة لا يمكن ان تكون محصورة فى الطريق الذى سلكناه ، والطريق الذى سلكتموه من بعدنا . وقد كانت البداية عندنا وعندكم مشتركة . اخذنا منكم واخذتم منا ، ومن البدايات الاولية الغامضة ظهرت مسلمات مختلفة ، وقامت حضارتان مختلفتان . ودخلنا فى صراع طويل . ومرت كلتاهما بمراحل مختلفة ، ولكن الاختيار الاول حدد المسار لكل منهما . وانتهت كل منهما الى عقدة مستعصية ، بينما اصبح الخطر واحدا والمستقبل واحدا .

هى الان نقطة غامضة جديدة فى تاريخ الجنس البشرى . تقف عندها حضارتان - او اكثر - تعيد النظر فى مسلماتها ، وتتامل حاضرها ، وتتخيل ما يمكن ان يكون عليه مستقبلها . وقد يكون فى مقدورها ان تبدا بداية جديدة مشتركة ، وان تبنى حضارة جديدة ، وقد تعلمت من دروس الماضى ان الوحدة يجب ان تكون وحدة اصيلة لا تمليها الضرورة ، وطوعية لا تحظر الاختلاف .

عام جديد وإنسان جديد

بقلم: البابا شنودة الثالث

قبل أن نبدأ العام الجديد ، ينبغي أن نقف قليلا لنتأمل العام الماضي . وكيف مضى ؟ وماهي مشاعرنا حياله ؟

أولا : نبدأ العام الجديد بالشكر ..

نشكر الله الذي أحيانا إلى هذه الساعة . وأعطانا عمرا جديدا لعلنا نمجده فيه . نشكره على كل إحساناته الدنيا ، وهي كثيرة لاتحصى . سواء بالنسبة إلى بلادنا . أوبالنسبة إلى كل منا كفرد ..

قال أحد الآباء ، ليست موهبة بلا زيادة ، إلا التي بلا شكر » . والعجيب أن صلوات الناس ، غالبيتها طلبات لاشكر ! ! إننا باستمرار نطلب من الله شيئا جديدا ، دون أن نشكر كما ينبغي على ما سبق أن أخذناه .. باستمرار ننسى ما في أيدينا ، ناظرين إلى ما نريده ..

هل شكرنا الله كما ينبغي على إعفاء مصر من ديون تبلغ عددا من المليارات ؟ هل شكرناه على اختيار مصرى ليكون أمينا عاما لجامعة الدول العربية ، مع انتقال مقر الجامعة لى القاهرة ؟ هل شكرناه على اختيار مصرى آخر ليكون أمينا عاما لهيئة الأمم المتحدة ؟ هل شكرنا الله على إنحسار الإلحاد من روسيا ودول الاتحاد السوفييتي (سابقا) . وعودة عشرات الملايين من الناس إلى الإيمان ، مع تقدمهم الـ...سوس إلى الممارسة الديمقراطية في حياتهم .

هل شكرنا الله على كل هذه الأمور وغيرها ، أم تمر علينا عابرة كمجرد أخبار صحفية نعلق عليها ، دون أن نبصر يد الله في الأحداث ؟ !

وهل شكرنا الله من قبل على رجوع سيناء وطابا إلى ملكية بلادنا ، الأمر الذي قد تحسدنا عليه كثير من الدول الشقيقة ، أم مر هذا الأمر دون شكر ، ونسيناه .. كما نسينا ما أنعم الله به علينا من اكتشاف كثير من آبار البترول ، حتى أصبحنا نحصل على ما نحتاج إليه منه ونصدر الباقي ..

وهل شكرنا الله على عودة الحياة إلى قناة السويس ، والعائد الضخم الذي تدره على بلادنا ، والذي تقوم به في نهضة اقتصادنا .. يبدو أننا نسينا ولم نشكر ، كما نسينا الشكر على حفر هذه القناة ذاتها ..

ما أكثر أحداث التاريخ التي تستحق الشكر .. كيف لنا أن نحصيها ؟ !

على أنه في الحياة الخاصة لكل منا ، توجد أمور عديدة تستحق أن نشكر عليها ، في بداية العام

الجديد ..

ليتنا نتذكر كل إحسانات الله إلينا ، واحدة فواحدة ، ونقول مع داود النبى فى المزمور « سبحى يا نفسى الرب ، ولا تنسى كل إحساناته » .. ليس فقط لنا كأشخاص ، وإنما أيضا لأقربائنا وأحبائنا وأصدقائنا ، ومعارفنا ، وكل من يفرحنا فرحه ، ويسعدنا نجاحه ، ويسرنا شفاؤه ..

بل نشكر الله أيضا على مغفرته العجيبة لنا ، وكيف أنه « لم يصنع معنا حسب خطايانا ، ولم يجازنا حسب آثامنا » مثلما قال المرتل فى المزمور .

نذكر فنشكر ، ليس فقط إحسانات الله فى العام الماضى ، وإنما فى كل ما سبقته من أعوام ، والنعمة التى نعيش فيها الآن .

★★★

أمر آخر نحتاج إليه فى نهاية كل عام وبداية عام جديد .. وهو أن نجلس إلى أنفسنا ، ونفحص ذواتنا .

ما أكثر ما ينشغل الناس بحفلات رأس السنة وبرامجها والإعداد لها ، بحيث يكونون فى مشغوليات ولقاءات واهتمامات ، لاتعطيهم فرصة على الإطلاق للجلوس إلى أنفسهم ، جلسة لتفتيش النفس وفحصها هى وظروفها كلها .. جلسة حساب ، وربما جلسة عتاب ، أو عقاب .

إن بداية عام جديد هو مناسبة هامة لمحاسبة النفس ، سواء من جهة أخطائها ونقائصها ، أو من جهة طباعها وعاداتها الثابتة فيها ، أو من جهة علاقاتها مع الله والناس . وإن كانت هناك أخطاء ، مع من كانت ؟ وما أسبابها وما طرق تفاديها ؟ وهل هى أخطاء عارضة أم ثابتة تحولت إلى عادات أو طباع ؟ وهل هى مقصورة على الذات أم تمتد إلى الآخرين ؟ وهل هى كامنة فى القلب والفكر ، وفى المشاعر والأحاسيس ، أم هى مكشوفة للناس ينتقدونها ؟ !

ليت جلستك يا أخى مع نفسك ، تكون مرآة روحية لك .

تعطيك صورة صادقة عن نفسك ، صورة طبيعية تماما بغير رتوش ، بغير دفاع ، بغير تبرير ، بغير مجاملة للذات ، بغير تدليل لها .

إنك قد تستاء ، إذا كشفك إنسان ، وأظهر لك أخطاءك التى تجرحك معرفة الناس لها ، ولكن لا يكون لك هذا التأثر ، إذا ما كشفت نفسك بنفسك ، لكى تعرفها فتصلحها ، ولكى تعرف أمراضها فتعالجها .

ولتكن جلستك مع نفسك جلسة ضمير نزيه ، أو قاض عادل يحكم بالحق .

جلسة صريحة وحازمة وحاسمة ، حاسب فيها نفسك على كل شىء ، على الخفيات والظاهرات ، ليس فقط على الأخطاء فى السقوط ، وإنما أيضا على توقف النمو ، فالمفروض أن تنمو باستمرار ، فى حياتك الروحية ، وفى معرفة الله ، وتنمو فى محبتك للناس ، وفى خدمتك للمجتمع الذى تعيش فيه . تنمو فى الفضيلة ، وفى المعرفة ، لاتكن حياتك واقفة ، ولا متجمدة فى

وضع معين . إنما حياة متحركة ، سائرة دواما إلى الأمام ، نحو الخير والكمال ..

حاول فى جلستك مع نفسك أن تخرج بخطة جديدة للعام الجديد . خطة عمل ، أو خطة عملية ، ومنهج حياة ، وأسلوب تنفيذ ..

أقول هذا ، لأن كثيرا من الناس يعيشون فى دوامة ، لا يعرفون فيها إلى أين يسيرون ، أو كيف يسيرون ؟ ! يسلمهم الأمس إلى اليوم ، ويسلمهم اليوم إلى غد ، وهم فى متاهة الأمس واليوم والغد ، لا يعرفون إجابة على من يسألهم : إلى أين ؟

إناس يعيشون فى غيبوبة عن روحياتهم وأبديتهم ! !

وخط سيرهم ليس واضحا أمامهم ، وربما يهتمون بتفاصيل كثيرة ، ولكن الهدف تائه عن أعينهم ، والخطوط التى تشدهم إلى واقعهم هى خطوط قوية ، كأنها سلاسل لا ينفكون منها ، لذلك هم فى حاجة إلى جلسة هادئة وهادفة مع أنفسهم ، يفحصون فيها كل شىء ، بكل تدقيق ، وبكل صراحة ، ويصلون إلى حل .

فى جلسة تخطيط للمستقبل ، وفى تفكير فيما يجب أن يكونوا عليه فى العام الجديد .. تفكير فى جو من الصلاة ، وعرض الأمر على الله ، لكيما يمنحهم نعمة وإرشادا وقيادة روحية فى كل ما ينوون ويعتزمون ..

لتكن جلسة مع نفسك لتقييمها ، وإعادة تشكيلها من جديد إذا لزم الأمر :

راجع حياتك كلها ، لا تقل « هذه هى طباعى » أو « هذه هى طبيعتى » . كلا ، فالذى يحتاج فيك إلى تغيير ، ينبغى أن يتغير ، وليست طباعك شيئا ثابتا ، فكما اكتسبتها يمكن أن تكتسب غيرها ، بالعزيمة والتدرب والممارسة . وثق أن كل مافيك من أخطاء هو أمور عارضة يمكن أن تزول ، وإن أردت تصحيح شىء فى نفسك ، فلن تكون وحدك ، بل سوف تسندك نعمة الله ، لأنه يريد لك الخير ويساعدك عليه . إنه تبارك اسمه « يريد أن جميع الناس يخلصون ، وإلى معرفة الحق يقبلون » ..

وليكن العام الجديد عاما منتصرا فى حياتك :

تنتصر فيه على نفسك ، وعلى أهوائك وعاداتك ، وتنتصر فى حروب الشياطين ، وعلى كل العثرات التى تأتيك من خارج ، مصمما أن تحيا حياة النصرة ، وأن يقودك الله فى موكب نصرته ، ويمنحك الوعود التى وعد بها الغالبين ، الذين بقوة من الله غلبوا الخطيئة والشيطان .

وفى الوقت نفسه استخدم جميع طاقاتك ومواهبك استخداما سليما ..

إن كان الله قد منحك مثلا موهبة ذكاء ، استعملها للخير ، ولا تتخذها للإضرار بغيرك ، ولا للفخر والخيلاء والكبرياء ، ولا لمجرد الانتصار على الغير ، ولا لتنفيذ رغبات خاطئة ، واعلم أن كسب محبة الناس أفضل بكثير من الانتصار على الناس ، أو فى جدل أو فى منافسة ..

وإن كان الله قد وهبك طاقة حب ، فلا تجعلها تنحرف ، وإنما اجعلها حبا للخير ، وخدمة للناس ، وليكن حبك طاهرا وللكل وبعيدا عن الذات . ولا تحب البعض على حساب البعض الآخر ، كن عادلا فى توزيع محبتك على الناس ، ولتكن محبتك لخيرهم .

★ ★ ★

وليكن العام الجديد ، جديدا فى كل شيء . يشعر فيه الكل انك قد صرت إنسانا جديدا ، متميزا فى كل شيء .

ولا يكون مجرد عام جديد فى التقويم ، يميزه أنه عام ١٩٩٢ ، بل ليكن جديدا بالنسبة إليك ، تحيا فيه بقلب جديد ، وبفهم جديد ، افضل من ذى قبل .

هذا التجديد يشمل عملية تنقية الفكر والمشاعر . ولايحدث هذا إلا إذا دخلت إلى قلبك محبة الله ومحبة الخير .

وليسأل كل إنسان نفسه بصراحة : ما سر عدم الثبات فى حياته ؟ لماذا تعلو حياته وتهبط ؟ ولماذا يتوب ويسقط ؟ ذلك لأنه يتعامل مع الأخطاء من الخارج فقط ، بينما القلب ليس خالصا لله ، يقاوم الأخطاء من جهة الفعل ، مع بقائها من جهة الحب ، ويوجد فى القلب إثنان أو ضدان ، يقاوم أحدهما الآخر ويقاسى الإنسان من هذه الثنائية التى يعيشها .

إن محبة الله ، ومحبة الخير ، هى مثل نار تطهر النفس وتنقيها . ولنضرب مثلا بالفحمة والجمرة .

تصوروا مثلا قطعة سوداء من الفحم ، كل من يلمسها يتسخ بها ، هذه الفحمة دخلت فى المجمرة ، وتحولت من فحم إلى جمر ، وأخذت حرارة لم تكن لها من قبل ، وشع منها نور وضياء لم يكن لها ، بل حتى لونها الأسود صار يحمر ويتوهج .. وصارت لها طبيعة جديدة تختلف تماما عن ذى قبل . إنه التجلى العجيب الذى تتحول به الفحمة إلى جمرة ، بعد أن دخلتها النار .

فهل العام الجديد بالنسبة إليك ، سيكتسب هذا التجلى ؟

هل تشعر فيه أن حرارة قد دخلت إلى قلبك ، وجعلت نفسك تشع بالنور ، وتنتقل حرارتك إلى إرجاء الوسط المحيط بك ، وتعطيه دفئا .. ليت الأمر يكون كذلك .

اطلب إلى الله أن يسكب محبته فى قلبك ، وقل له فى صلواتك :

« لا أريد يارب أن يكون الخير وصية أجاهد للوصول إليها . إنما أريد أن يكون الخير متعة فى قلبى أحبها ، وتلقائية فى حياتى أعيشها » .

أعطنى يارب أن احبك ، وأن أحب وصاياك ، وأن أرتل مع داود النبى فى المزمور « محبوب هو اسمك يارب ، فهو طول النهار تلاوتى » ... وحينما تسكب يارب محبتك فى قلبى ، سوف احب الخير ، وأحب الناس جميعا ، واصنع الخير مع كل أحد بدون تفريق ، بل أحب كل الكائنات ، لأنها كلها من صنع يديك ، إنها خليقتك ..



بهاء طاهر



خالتى صفية والدير

أسطورة سياسية !

بقلم : د. سيد البحراوى

فى هذه الرواية ، لانستطيع أن نعتبر أن العودة إلى مرحلة الطفولة ، أو الكتابة من منظور الطفل أو الصبى سوى مدخل لحكى الأسطورة الواقعية أو التاريخية . أقصد أسطورة صفية وحربى التى يتداخل فيها الصبى كمشاهد محب والبك القنصل كقامع وحارف ومكون أساسى لتعقيد الأسطورة ، ثم الدير وخاصة المقدس بشاى كحام ومعلم ورابط بالجذور . وهذه الأسطورة تنبت وتعيش فى واقع حى ومعروف تماماً ، سواء على المستوى الاجتماعى أو على المستوى السياسى ..

إذا أردنا أن نعرف الأسطورة ، الكامنة فى الرواية ، فإن علينا أن نتجاوز المستوى الأولى للحدث والذى يبدو وكأنه قصة ثأر تقليدية فى صعيد مصر رغم التطورات (الحضارية) التى عرفتها هذه العادة فى عقدى الخمسينات والستينات ، نتجاوز هذا المستوى لنقف عند نصين أساسيين ، أو لنقل أنهما نص واحد جاء فى بداية الرواية ، ثم جاء مع بعض التعديل فى

نهاية الرواية .

فى ص ٣٨ من الرواية وفى فصل معنون بـ "خالتى صفية" جاء بعد فصل أول يبدأ الحكى من منظور الطفل وتجربته ، نجد النص التالى : "تقول ورد الشام إن صفية تضرج وجهها لما حمل أبى إليها الخبر وسألته بصوت خافت "حربى قال ذلك ؟" فرد أبى مستسلماً وهو يزفر "نعم يابنتى حربى قال ذلك" .. تقول أختى أن صفية رفعت بعد ذلك رأسها وكانت عيناها نصف وجهها وكان فيهما البريق الغريب وقالت لأبى بهدوء : أنا موافقة ياوالدى .. سأتزوج القنصل وسأعطيه ولداً" .

وفى الفصل الأخير من الرواية ، قبل النهاية بقليل ، نجد النص التالى : "وكنت أزورها مع أبى فى تلك الأيام ولم تكن وقتها تتعرف على أحد . ولكنها ذات يوم افاقت من غيبوبتها وتطلعت إلى أبى الذى كان يقف الى جوار سريرها .. ظلت تنظر اليه فترة بعينين متعبتين ، لم يغب جمالها رغم كل ذبولها ، وقالت بصوت خافت ، صوت طفولى : نعم ياوالدى . اعذرنى .. لا أستطيع أن أقوم .. ولكن إن كان حربى يطلب يدى فقل للبك إنى موافقة .. أنت وكيلى ياوالدى ... وأنا موافقة على أى مهر يدفعه حربى .. لا تشغل بالك بالمهر .. ثم أغلقت عينيها مرة أخرى ودخلت بعدها فى غيبوبتها الأخيرة" .

فى كل من النصين جملة محورية تشكل بؤرة الأسطورة جملة النص الأول هى "أنا موافقة ياوالدى ، سأتزوج القنصل وسأعطيه ولداً" وجملة النص الثانى "ان كان حربى يطلب يدى ، فقل للبك إنى موافقة" فى كل من الجملتين المتكلم هو صفية ، والمخاطب هو الوالد (المستعار) وموضوع الحديث هو الزواج من شخصيتى البك وحربى . غير أن سياق كل من الجملتين مختلف عن الآخر . سياق النص الأول سياق حياة : حربى حى والبك حى وصفية فتاة فى قمة جمالها وتألقها . وسياق النص الثانى سياق موت : حربى والبك ماتا ، وهى فى طريقها الى الموت .. ومع ذلك فإن محتوى القول فى الجملة الأولى هو محتوى موت ، ومحتوى القول فى الجملة الثانية هو محتوى الحياة ، أى أن ثمة صراعاً حاداً بين سياق كل جملة ومحتواها . كان يفترض أن تقال الجملة الثانية فى سياق الجملة الأولى والعكس أيضاً صحيح . ولكن هذا لم يحدث وهذا هو الذى شكل الأسطورة ... والرواية .

إن ما أسميته ـ من قبل ـ بالأسطورة يخرج عن إطار المعنى الاصطلاحى الضيق والدقيق ، ولكنه لايبتعد عنه تماماً . الأسطورة ـ هنا ، علاقات خفية وكامنة ، وغير منطقية ، ولكنها من القوة بحيث تصبح هى المحرك الأساسى للسلوك والفعل ، كما هو الحال فى هذه الرواية ، وهذه الاسطورة ليست شيئاً ميتافيزيقيا ، وإنما هى بنت كوابت الواقع وقواهره ، تلك التى تمنع حركة الحياة والعلاقات

من ان تكون منطقية ومفهومة ، ومن هنا ، كانت تسميتى لها من قبل أيضاً ، اسطورة واقعية .

● صفية .. جمال اخاذ !

فى هذه الرواية ، يبدو كل من حربى وصفية شخصيتين اسطوريتين كما يتصورهما الإنسان العادى ، كلاهما يصلح بطلاً شعبياً ، لأنه يتمتع بخصائص جسدية ونفسية متميزة عن غيره من البشر المحيطين به .

ومنذ الصغر كانت صفية تلفت الأنظار بجمالها . كانت دقيقة الملامح . صغيرة الفم والأنف ، وكلما قصت حزة من شعرها الأسود نما واسترسل على ظهرها ناعماً وغزيراً حتى يتجاوز الطرحة السوداء التى كانت تغطى كتفيها وظهرها . اما عيناها فكان جمالهما فريداً وكانتا ملونتين ولكنى لا استطيع أن أصف لونهما ، أقرب وصف لهما انهما كانتا عسليتين فاتحتين فى الظل ، أما فى الشمس أو فى النور فكانت هاتان الحدقتان الأسرتان تصبحان ذهبيتين وتميلان إلى الخضرة وتمتزج فيهما ألوان كثيره أخرى .. كثيراً ما رأيت فى صغرى رجالاً ونساء يبترون حديثهم حين تتطلع خالتى صفية من خلال أهدابها الكثيفة إلى من تحدثه .. وكانوا يتمتمون بافتتان بعد لحظة صمت "بسم الله ماشاء الله" .

ومثلما كانت خالتى صفية جميلة بين البنات ، كذلك كان عمى حربى جميلاً بين الرجال ...

كان حربى طويل القامة ، بشرته خمرية ، ولكن فى خديه دائرتين مشربتين بحمرة الدماء يحددهما شاربه الأسود الذى يزيده وسامة بطرفيه المفتولين باستمرار ، وكانت تبرز فى رقبته العالية تفاحة آدم بشكل واضح ارتفاعاً وانخفاضاً كلما تكلم أو غنى . فقد كان صوته القوى هو أجمل مافيه" (ص ٢٦ ـ ٣٠) .

هاتان الشخصيتان مؤهلتان ، فى القص الشعبى ، بأن يتحابا ويتزوجا ، أو تقوم بينهما العوائق التى تحول دون تحقيق هذا الزواج أو الحب .. وعلى غير العادة فى المجتمع التقليدى ، فإن الجماعة تبدو متقبلة تماماً للعلاقة المحتملة : الزواج بين حربى وصفية . ومن ذلك تسيران الحبكة فى اتجاه العوائق التى تحول دون الزواج .

تبدو صفية محبة لحربى ، ورغم ان الراوى لايستطيع أن يجزم بهذا ، فإن هناك ـ فى الرواية ـ من الشواهد مايشير إلى أنها بالفعل تحبه وتتطلع الى الزواج منه :

.. هل كانت صفية تحب حربى ؟

لا أستطيع أن أجزم ، غير أنى اتذكر من بدء طفولتى انها ، وبقية أخواتى ، كن فى العادة يتلصصن عليه من خلال الأبواب المغلقة ... ولا اتذكر إن كانت هى أو واحدة من أخواتى التى قالت عنه حين فاجأتهن مرة وهن يختلسن النظر اليه "سبحان الله ... مثل فلق القمر" ...

واتذكر فى مرة أخرى انى رأيت خالتى صفية جالسة وحدها فى صحن

الدار ولم يكن فى البيت سوانا وهى تغنى بصوت خافت "حاربى قلبى" . ومع أن أغنية أمونة البيضاء كانت أغنية مرحة راقصة اللحن ، إلا أن خالتى صفية كانت تجلس يومها على الأرض متربعة ، ممسكة رأسها بين يديها وهى تغنى الكلمات ببطء ، بلحن التعديد الحزين" . ص ٣٠ ـ ٣٢

أما حربى فليس هناك من الدلائل ، ما يشير إلى أنه يحب صفية . أو العكس . والمؤشر الوحيد على أنه يحب غيرها هو أنه كان على علاقة بالغجرية أمونة البيضاء التى عشقته وغنت تلك الأغنية الغزلية تعبيراً عن هذا العشق . غير أن هذه العلاقة التى تعترف بها الجماعة "لمن لم يتزوجوا لو حتى لبعض المتزوجين الذين فلت عيارهم" ، "لم تكن سبباً يمنع حربى من التقدم لصفية لو أنه أراد" ، لأن مجمل ظروف الشخصيتين ، والخصائص التى أشرنا إليها والتى سترد فيما بعد ، أهلتهما ، فى نظر جميع أفراد الجماعة للزواج ، إلى حد أن تقدم البك لخطوبة صفية أخذ ـ فى البداية ـ من قبل الجميع ، على أنه خطوبة صفية لحربى ، ولكن المفاجأة كانت أن حربى هو الذى جاء يخطب ـ برضاه وبحكم العلاقات العميقة الودية (القهرية ضمنا والتى ستتفتح قهريتها فيما بعد) ـ صفية للبك . وعلى أساس هذا الفعل الانقلابى ، غير المعتاد ، تتبنى جميع أحداث الرواية المفجعة على كافة المستويات ، لا الخاصة بالشخصيات الرئيسية فحسب ، وإنما بمجمل الشخصيات فى الرواية ، وبمجمل الأماكن ، بما فيها المكان الأكبر .. الوطن

● صراع بين صفية وحربى !

تتزوج صفية من البك وتنجب له "حسان" وتبدأ الوساوس والدسائس فى إقناع البك أن حربى يريد قتل حسان حتى لاينافسه فى الوراثة مما يدفع البك لمعاداة حربى ، ومطاردته ثم الإمساك به وتعذيبه إلى حد الاقتراب من الموت ، وفى تلك اللحظة لم يكن أمام حربى إلا أن يقتل البك ويهرب ثم يسلم للبوليس ويسجن ثم يخرج من السجن ويعيش فى الدير ، وتتحول صفية إلى وريث لشخصية البك ، وليس فقط لأمواله ولابنه ، فتعادى حربى وتصر على قتله وتستأجر حنين ليقتله فينجح حربى فى قتله ، ولكنه يموت بعد ذلك مريضاً ، وبعده مباشرة تموت صفية وهى تعلن موافقتها على الزواج من حربى ، مثلما دخلت الحياة وهى موافقة على رأى حربى بالزواج من البك ..

وتحيط بهذه الأحداث مجموعة أخرى من الأحداث الصغيرة ، لا أعتقد أن لها أهمية سوى خدمتها لتلك الأحداث الفاجعة . ولذلك ، فإن معظم هذه الأحداث ، المرتبطة بالشخصيات

الأخرى تنتهى أيضاً نهاية مأساوية . ولعل أبرز هذه الأحداث هو انتهاء المقدس بشاى ، تلك الشخصية الرقيقة الجميلة ، إلى الجنون ، ومنها أيضاً وفاة الأب وتحول الأم إلى امرأة وحيدة مهجورة ، مع الابن (الراوى) فى القاهرة بعد أن تركوا منزل الأسرة يتهدم وتعشش فيه العناكب ، مثل قصر البك القديم - فالمقدس بشاى هو حلم جميل بالنسبة للراوى ، ولكن أهميته تكمن فى أنه حامل الإطار الثقافى للقرية - أو هكذا يبدو فى الفصل الأول ، وهى أهمية خلفية تثبت الأهمية المباشرة فى الأحداث ألا وهى حمايته لحربى حينما خرج من السجن . وأفراد الأسرة (الأب والأم والراوى والأخوات) تكمن أهميتهم فى بعد حنين الراوى إلى طفولته ، ولكن الأهمية الحقيقية تتمثل فى علاقتهم بكل من صفية ، وحربى ، والبك ، فالأسرة هى الإطار الأسرى الوحيد المعروف لكل من هؤلاء الثلاثة ، والذى ينتمى إلى عسران بك الكبير ..

فالبك هو حفيد عسران بك الكبير وأكبر وارث له ص ٢٣ ، وحربى هو ابن أخته ، وهو - اذن - ابن عم لأبى الراوى .. أما صفية فهى بنت خال أم الراوى . وهما - معاً - مات أهلهما ، بحيث لم يصبح لهما عائلة سوى عائلة الراوى .. فقد كانت صفية تعيش مع هذه العائلة ص ٢٦ وكان حربى يتردد على بيتها باستمرار ويعتبره الأب أخاه الأصغر ص ٢٧ وهكذا ، فرغم الأصول الطبقية العريقة لكل من صفية وحربى ، فإن الكاتب قد حرص على أن يعطيهما - من البداية - مؤهلات لشخصيات اسطورية ، حيث أفقدهما الأهل وهما فى سن مبكرة ، وربطهما معا بأسرة واحدة ، لتتمو بينهما علاقة ، لايسمح لها القهر الطبقى ، رغم انهما ينتميان الى نفس الطبقة ، بأن تكتمل على النحو الطبيعى ، فتتحول الى هذا العداء ذى النتائج الفاجعة ، بحيث يمكن القول إن فقدان كل منهما لأهله قد حوله الى فقير أو على نحو ما ، ومقهور على كل حال ، من قبل البك رمز الطبقة الأغنى وذى العلاقات الواسعة بالسلطة ، سواء أيام الملكية ، أو بعد الثورة التى طبقت عليه قانون الاصلاح الزراعى ،

وحددت ملكيته بمائتى فدان ، ومع ذلك فقد ظل غنياً واستطاع ، أن يقيم علاقة طيبة مع رجال الثورة . وقد ظل أبى يفخر لوقت طويل بأن المرحوم صلاح سالم زار السراى ومعه وفد من أعيان السودان - وبأنه كانت هناك يومها تشريفة من الجيش بالبريهات الحمراء تحيط بسراى القنصل" ص ٣٦ .

● حكاية شعبية

وهكذا يمكن القول إن الكاتب ، قد استطاع - عبر حبه العميق للصعيد وللحدوته - أن يخلق شخصيات تحمل إرث الشخصية فى الحكاية الشعبية ، وأن يخلق صراعاً قريباً من الصراع فى الحكاية الشعبية أيضاً ، بحيث

يمكن القول أنه قد قدم لنا حكاية شعبية ولكن بأسلوب كاتب روائي مقتدر، ورؤية فنان - فرد - معاصر يحمل موقفاً مما يحدث في العالم، حاول أن يقدمه من خلال رؤيته لما حدث في الصعيد ... إن تفسيراً سياسياً ما هو أمر ضروري، في ضوء ما حرص الكاتب على أن يقدمه من تلميحات وإشارات مباشرة للأحداث السياسية التي مرت بها مصر، منذ بداية الرواية. فالمقدس بشاي يلعن اليهود الذين حرموا الناس من أن تتقدس في فلسطين، والعلاقة بين البك ورجال الثورة سبق أن اشرنا اليها، (في الفصل الثاني) وفي الفصل الثالث (المطاريد) يتحدثون عن رغبتهم في المشاركة في تحرير سيناء فترفض السلطة، فتحدث (النكسة) في الفصل الرابع والأخير. وهي ليست نكسة ١٩٦٧ فقط وإنما نكسة لكل الشخصيات في الرواية كما سبق أن أشرنا الى النهايات الفاجعة ..

وعلى هذا الأساس، فربما كان الكاتب يدفعنا إلى اعتماد تفسير سياسي لأحداث الرواية التي انتهت بالنكسة. ولاشك أن الجذر الأساسي الذي سبب هذه النكسة هو زواج صفية من البك، وتخلى (حربي) عنها. وإذا صح الفهم الطبقي لكل من البك وحربي وصفية، يصبح منطقيا أن زواج صفية من السلطة سواء الملكية او الناصرية باطله، كما أن تخلى حربي النبيل عنها، كان خطأ فادحا وكلاهما أدى الى النكسة.

مثل هذا التفسير وارد، دون أن يكون ضرورياً أو وحيداً، لأن العلاقة سلطة / شعب، ليست واضحة الحدة في الرواية، لا بشأن الثورة، ولا بشأن البك القنصل، فثمة علاقات ودية كثيرة تتبادل بين الطرفين (مثلما هي ملتبسة العلاقة بين جيل الستينات والثورة) غير أن مايقوى مثل هذا التفسير، هو انتماء الكاتب الى منطق الحكي الشعبي نفسه الذي سبق أن اشرنا اليه .. فالكاتب الذي يحب الصعيد والحكايات الشعبية، والذي استطاع عبر هذا الحب أن يخلق مثل هذه الشخصيات، وهذا الصراع، وأن يتنازل عن كثير من خصائصه الأسلوبية الجميلة والتي كانت قد تبلورت في أعماله الأربعة الأخيرة، لصالح أسلوب القص الشعبي المركز على الحدث أكثر من الغناء، هذا الكاتب يعلن - عبر كل ذلك - انتماءه الى الشعب - فنياً - وفي الغالب سياسياً. كما يمكن أن يفهم من شهادته في آخر الرواية. ومن ثم، فإن ما أحب أن أسميه - محتوى الشكل - يضيف نوعاً من التدعيم للتفسير السياسي الذي أشرت اليه. ولكن دراسة أكثر عمقاً، ربما تستطيع تقديم تفسيرات أخرى.

تميمة عنخ

لغز مفتاح الحياة

بقلم: د. سيد كريم

ارتبطت عقائد قدماء المصريين منذ نشاتها بالعالم الآخر ، آمنوا بالخير المتمثل فى تعاليم رسالة التوحيد التى ظهرت مع فجر الانسانية على ارضهم المقدسة لتفتح تاريخ الحضارة المصرية ، كما آمنوا بالشر المتمثل فى السحر والحسد وعيون الشر اسلحة الشيطان .

وقد لازم تلك العقائد قوى مضادة وهى قوى التمائم التى تدفع الاذى ، وتمنع الشر لتحمى الانسان فى حياته الاولى التى اطلقوا عليها اسم حياة التجربة التى يمتحن فيها الانسان فى صراع الحياة بين الخير والشر وفى رحلة العالم الآخر الى حياة الخلود .

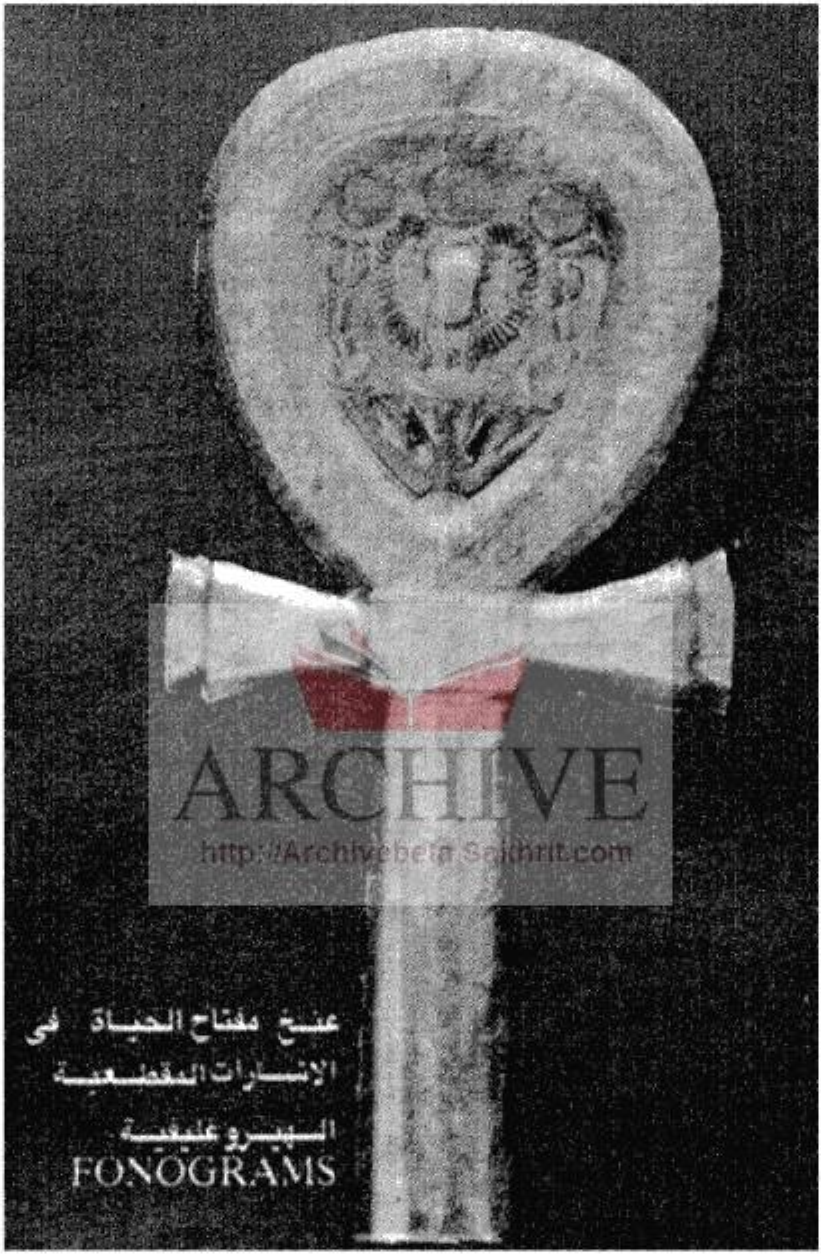
● والتمائم عبارة عن اشارات رمزية اصطلاحية لكل منها تعبير خاص وفاعلية مرتبطة بما تعبر عنه سواء عن الصحة أو الشباب أو القوة أو الحكمة الخ ولايقل عدد التمائم الاصلية التى امكن جمعها وحصرها عن ثمانين تميمة بخلاف التمائم المركبة التى تجمع بين اكبر من تميمة فى تكوين او تشكيل واحد .

بالبحث عن تاريخ التمائم وعلاقتها بتاريخ الحضارة الفرعونية تطفو على القمة تميمة عنخ (مفتاح الحياة) وينطق اسمها بضم العين ، كما هو واضح بالكتابة الهيروغليفية فى اللغة المصرية القديمة ، لابفتحها كما تم الاصطلاح عليه فى مختلف المراجع القديمة والحديثة التى سبق الكشف عن منطوق حروف اللغة على حقيقتها .

كما كان المعبود "تحوت" رسول المعرفة وحامل الكلمات الالهية وصاحب الصيغ السحرية ، فقد اعتبره قدماء المصريين حامل التمائم وحارسها ونسبوا اليه وضع الكثير من رموزها واشكالها وطلاسمها السحرية والى قرويه يرجع تفاعل اثرها فى الحفظ ودفع الشر والمناعة والعلاج واستجلاب الخير .

● اول تميمة

تعتبر تميمة عنخ التى وصفت بانها


عنخ مفتاح الحياة في
الإشارات المقطعية
الهيروغليفية
FONOGRAMS

لغز مفتاح الحياة

مفتاح الحياة اوا، تميمة ظهرت ضمن عقائد ومعتقدات المصريين القدماء فكانت اول تميمة قدمها "تحوت" الى البشر ، فنسب بعض المؤرخين تاريخ نشأة ظهورها مع ظهور الكتابة الهيروغليفية الاولى وكلماتها المنطوقة التى ظهر بينها اسم عنخ فى صورة رجل واقف على قدميه باسط ذراعيه .

كما احتلت مكانها فى جميع برديات نصوص العقيدة ومتونها وكتب الموتى ونقوشها وترمز فى كثير منها الى بداية خلق الحياة او مفتاحها وصورت البرديات "تحوت" رسول المعرفة المقدسة . وهو يحمل تميمة عنخ بيده ويقربها من انف الانسان لينفخ عبرها انفاس الحياة ـ وهو التقليد الذى ظهر فى كثير من نقوش المعابد والتى يظهر فيها الاله وهو يقدم العنخ لانف الملك لكى يعطيه الحياة فى الدنيا وقوة البعث فى رحلة الآخرة .

اختلف المؤرخون ومفسرو المصريات فى التوصل الى المصدر او الاصل الذى اتخذ منه الفراعنة شكل مفتاح الحياة الذى يقرب من صورة رجل واقف على قدميه باسط ذراعيه كما ظهر فى بعض النقوش البدائية القديمة . فاذا حاولنا البحث عن نشأة مفتاح الحياة فى رموز ماقبل الاسرات نجد ان "العنخ" قد اخذت شكلها عند بداية نشأتها من علامة رمز التاو T وهو اقدم تعبير عن خلق الحياة فى مراجع مخطوطات ماقبل الاسرات ويتكون رمز التاو من خطين متقاطعين يعبر الخط الافقى عن خط السماء "نوت" والراسى عن خروج الحياة من الارض وصعودها نحو السماء . وتطورت "التاو" لينقش فوق خط السماء بيضة الخلق ، وفى نماذج أخرى ظهر قرص الشمس بدل بيضة الخلق وهكذا ظهر اول شكل متكامل لتميمة الحياة التى اتخذها بعض المؤرخين رمزا لحضارة الفراعنة .

كما ذكر المؤرخ وعالم المصريات المشهور "بروجش" فى دراساته عن "العقائد والمعتقدات فى مصر القديمة" ان كهنة المصريين القدماء اتخذوا شكل مفتاح الحياة من شكل فقرة العمود الفقرى الذى اطلقوا عليه اسم "عمود الحياة" كما اتخذوا العمود الفقرى نفسه رمزا للخلق وشكلوا منه ثانى تميمة ظهرت فى قائمة التمائم وهى تميمة "زد" رمز الخلود تجمع بين العمود الفقرى الكامل واعمدة الكون أو الحياة الاربعة والتى اطلق عليها القدماء اسم "تميمة اوزوريس" .

كما كشفت بعض البحوث استنادا الى بعض النقوش والبرديات القديمة بالاضافة الى بعض النماذج لتميمة عنخ التى يعبر شكلها عن عضوى التناسل (الذكر والانثى) التى ترمز الى بعث الحياة وتجددها واستمرارها

على الارض اى التطور العضوى للخلق والاستمرار . كما وجد بين حفريات الواحة البحرية نموذج *لتميمة عنخ التى تكسب حاملها الاخصاب وتمنع العقم فى تكوين تشكيلى يجمع بين عناصر الحياة واعضاء التناسل .

إلحاقا لجميع تلك البحوث والدراسات المضنية المرتبطة بها التى قام بها قدماء الباحثين نفاجأ بإجماع كثير من كتاب المصريات الاجانب بان مفتاح الحياة اتخذ شكله من "رباط الحذاء" الذى يعبر عن ترابط الحياة .

● ويقول المؤرخ ابينيفى ABENEPHI (علوم الفراعنة واساطير الاسرائيليات) ان علامة عنخ أوحاها الملك رازيال لابينا آدم ونقلها عنه نوح وكان يحملها فى سلسلة على صدره ، ثم استعملها حام فى السحر حتى اتم بها ايات كثيرة ، ثم تركها لابنه مصرايم الذى اورثها للمصريين فاصبحت من المقتنيات التى يحتفظ بها الكهنة فى المعابد لفتح ابواب المعرفة واسرار الوجود بالسحر والتنجيم .

● اطلق على تميمة عنخ فى اللغة المصرية القديمة عدة اسماء منها (شا واوجا وحكت) اى الحجاب الذى يعطى حامله الحياة والقوة ويحميه من الشر والاذى والمكروه .

● التميمة والسحر !

لعبت تميمة عنخ دورا هاما فى



الحياة تنبعث من الشمس

الطب السحرى وخاصة فى الدولة القديمة حيث وصفت برديات الطب السحرى ان تميمة عنخ المعدنية كانت تشفى من لدغ الثعابين والعقارب اذ وضعت مكان اللدغة وتليت عليها بعض التعاويذ السحرية حيث تعمل التميمة على امتصاص السم وسحبه من الجسم ، لذا فكانت التميمة لاتفارق عمال المناجم فيحملونها على صدورهم او يربطونها حول معصمهم ومن الخصائص التى عرفت عن تميمة عنخ انها اذا زين بها مدخل البيت مع

لغز مفتاح الحياة

ادماجها مع تميمة "واز" عين حورس ـ تحمى سكان البيت من عيون الشر والحسد كما انها اذا وضعت تحت عتبة الدار تمنع دخول الحشرات السامة والضارة من تخطى عتبة الدار .

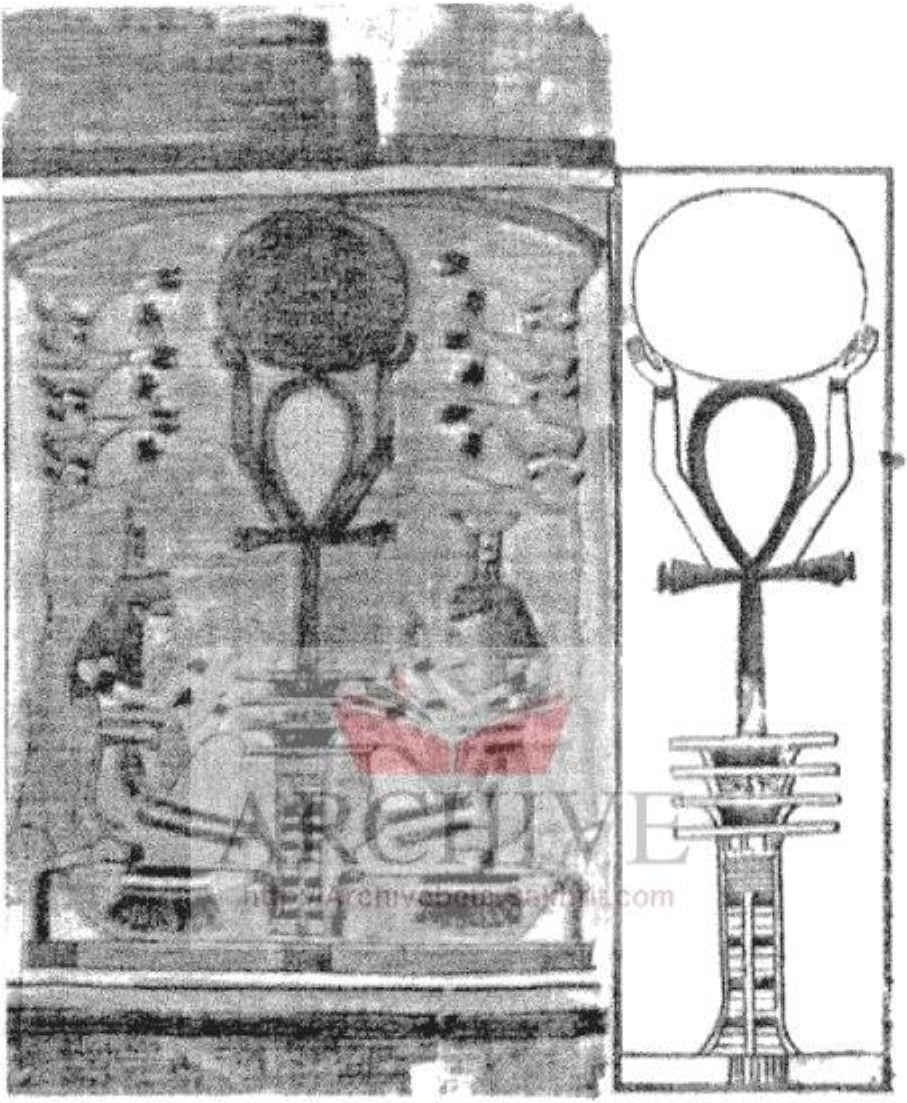
● استعمل قدماء المصريين "مفتاح الحياة" كبندول للعلاج

صليب المسيحية ومفتاح الحياة عنخ حفريات العصر المتأخر .. نشأة الصليب



والكشف عن الأمراض لعلاقته الوثيقة بين شكلها التكويني وتأثره بالموجات الاشعاعية التى يصدرها جسم الانسان فامكن بواسطة البندول وحركته الدائرية والتعرف على نوع الاشعاعات الصادرة من الجسم والوانها وموضعها فى اعضائه وعلاج الامراض بتوازن وتعادل قواها فى الجسم ، وقد احتل العلاج بالبندول الفرعونى مكانة فى الطب العالمى الحديث وانشئت له معاهد علمية خاصة فى كثير من الدول بعدما ثبتت فاعليته العلمية اسوة بالابر الصينية التى ثبت ان كهنة قدماء المصريين كانوا يمارسون العلاج بالابر فى الدولة القديمة وكان العلاج بواسطتها يعتبر من معجزات الطب السحرى الذى نسب الى "ايمحوتب" الكاهن والعالم المصرى ساحر معبد منف والذى اطلق عليه الاغريق اسم "اله الطب" وكانت الابر المصرية القديمة تصنع من العاج وتنقش على قبضتها صورة مفتاح الحياة وبعض التعاويذ السحرية المرتبطة بفاعليتها .

● للمادة التى كانت تتألف منها التميمة تأثير كبير على قوة فاعليتها . فالذهب المعدن المقدس وصفوه بانه من لحم الاله او شعاع الشمس المتجمد والذى يرمز الى الخلود والبقاء لانه المعدن الوحيد الذى لايبلى ولايفنى فكان يصنع منه مفتاح الحياة المقدس الذى يحمله كبار الكهنة والملوك كما اعتبروا ان لكل



نظرية الخلق (برديات كتاب الموتى) مفتاح الحياة يتوسط العمود الفقرى (حب) والسماء حاملاً قرص الشمس رمز الوجود.

لغز مفتاح الحياة

مادة من المواد التى تصنع منها التميمة فاعليتها الخاصة فى الدور الذى تقوم به فدخل فى صبغها الاخشاب المقدسة والعاج والابنوس والاحجار الكريمة على انواعها .

كما كان للألوان الخاصة بالخامات التى تصنع منها التميمة تاثير فى فاعليتها فاللون الازرق لمتع الارواح الشريرة وعيون الحسد واللون الاخضر للصحة والشباب واللون الابيض للطهارة والاخلاص واللون الاسود لجلب الحظ .

اما اللون الذهبى فانه اللون المقدس لانه يجمع بين جميع الوان الطيف وخاصية فاعليه كل منها مع المحافظة عليها من الفناء فاطلق على التميمة التى تصنع من الذهب بالتميمة الجامعة لان فاعليتها تجلب جميع عناصر الخير من الصحة والقوة والحظ والحب والحكمة وتقاوم او ترد جميع عناصر الشر من الحسد والمرض والفقر الخ .

وكانت التميمة الذهبية المقدسة تزين بتطعيمها بالاحجار الكريمة بأختلاف الوانها الطبيعية الفعالة .

كما لعبت تميمة مفتاح الحياة دورا حيويا فى صناعة المصاغ وادوات الزينة والاثاث وكانت لها بصماتها الواضحة فى معالم الطراز فى الفنون بانواعها امتدادا الى الطراز المعمارى وعناصر زخرفته فى مختلف العصور .

فى اعياد الحصاد صنع المصرى القديم من سيقان عيدان القمح تماوذجا خاصة لتميمة مفتاح الحياة كانوا يعلقونها على اغصان الاشجار المطلة على حقول القمح ومزارعه ويرفعونها على ابواب منازلهم تيمنا بالخير ووفرة المحصول وتعبيرا عن شكرهم للاله كانت تميمة مفتاح الحياة تصاحب القرابين المقدمة للمعابد فيظهر حامل القرابين وتمائم عنخ تزين اياديه حاملة القرابين ، وكانت التمائم التى تقدم مع القرابين تصنع من المعادن النفيسة التى يحتفظ بها فى القاعات المقدسة بالمعابد ويحمل كل منها اسم مهديها الى الالهة .

فى الحرب كان القادة العسكريين يحملون مفتاح الحياة معلقا على صدورهم او منقوشا على اساور معاصمهم كما وجد بعضها منقوشا على الدروع كمفتاح للنصر والحماية .

انتقل تقليد حمل القادة العسكريون من مصر الى اوروبا مع عودة الجنود والقواد الرومان من مصر فحملها كثير من الملوك والقواد العظام وتحتفظ المتاحف العالمية باكثر من تميمة من التمائم المصرية التى كان يحملها قواد الغرب من بينها التميمة التى كان يحملها شارلمان فى معاركه المشهورة

والتى اهداها له احد الكهنة المصريين .

● من لوحات الآثار الخالدة لمفتاح الحياة التى تظهر فيها ايادى اشعة شمس الاله اتون تحمل مفتاح الحياة لاخناتون .

● الصليب .. ومفتاح الحياة

اختلف مؤرخو العقائد والاديان فى المرجع الذى اتخذ منه الصليب رمز المسيحية ـ شكله . فنسبه البعض الى الصليب الذى حمله السيد المسيح فى طريق الالام ليصلب عليه . بينما نسبه البعض الآخر الى بعض الرموز المصرية القديمة المأخوذة من كتاب الموتى التى تعبر عن البعث والخلود والصعود من الارض الى السماء والممثل فى علامة "التاو" اصل مفتاح الحياة .

ان مصر .. مهد عقيدة التوحيد ومهبط الاديان والارض الامن الذى اوى اليه جميع الرسل والانبياء كان كهنتها الموحدون اول من تنبأ بنبوة السيد المسيح حيث تضمنت احدى اساطير العقيدة انتظار عودة المعبود حورس منقذ البشرية من الشيطان ست ـ عودته مع امه ايزيس التى حملت به من روح اوزير .

عندما بلغ الكهنة اخبار وصول الطفل المعجزة الذى تحمله امه من بلاد بعيدة من البلاد التى حملت فيها ايـزيس بحورس من روح الالـه اوزوريس على شواطىء بيبلوس وقد صحبت الطفل وامه الكثير من المعجزات من بينها معجزة شجرة البلسم المقدسة بغابة اون بالمطرية والتى انحنت اغصانها لتخفيه ، وتحميه من جنود هيرودس الذين تبعوه للقضاء عليه ، بالاضافة الى ما وصفه الكتاب والمؤرخون عن المعجزات التى ظهرت فى المزارات والمعابد التى قام بزيارتها اثناء رحلة الهروب والتى انتهى المطاف بها الى معبد (الدير المحرق) حيث اقام به حتى بلغ سن الشباب وغادره الى بيت المقدس للدعوة الى رسالته السماوية المقدسة .

عند مغادرته ارض مصر وضع الكهنة على صدره تميمة عنخ (مفتاح الحياة) لتحميه فى الدنيا والاخرة .

وظهرت صورة السيد المسيح الطفل فى احدى الايقونات القديمة وتميمة مفتاح الحياة تزين صدره كما ظهر فى احدى اللوحات القديمة حيث تزين صدره صليبا اتخذ شكلا يجمع بين تميمة عنخ واضلاع الصليب المروحية المثلثة والذى ظهر فى بعض النقوش القديمة من العصر القبطى الاول وبعض نقوش الدولة القديمة .

وهكذا الصليب او تميمة مفتاح الحياة رمزا للمسيحية وهو يعبر عن صعود السيد المسيح وخلود حياته لا عن صلبه كما شبه لهم .

فالصليب رمز المسيحية خرج من مصر قبل صلب المسيح وانتقل الى العالم الغربى عن طريق الكنيسة المصرية .



المصيدة

قصة قصيرة

بقلم : احمد عبد الله متولى

وريشة الفنان : محمد ابو طالب

يمشي على الرصيف .. بين موجات من اللحم البشري .. الساخن .. اللزج يشعر بغربة رغم الزحام .. يمشي متهدلا .. يحمل ظاهر الحزن على كتفه .. تتصفح عيناه لافتات الدكاكين ، والمشارب ، والحوانيت المتزوية في اشتباه .

يقطع الطريق منحنى فجائى ، العين لا تعى هذا السيل من الصور . لا يدرى كيف وصل الى هذه البقعة الصغيرة من العالم ، هذه البقعة الهائلة .. الفاصلة بالأسواق والهمهمات ، والوجوه البليدة ، المتخشبة .

غابات من الاسمنت .. وحين أراد شقة لم يجد .. الأرقام المطلوبة فوق طاقة أى موظف ، أرقام فلكية .. ولحل المشكلة ، كان النفى الى الخارج لخدمة الآخرين أو النفى الى الداخل .. وحين عرض على خطيبته أن يعيش في الواحات .. أو في الصحراء .. اتهمته خطيبته بالجنون وهاجمته حماته .. وقالت لابنتها : اما قلت لك .. انه مجنون رسمى ! .

سيل من المطر الأسود ينهال على قلبه ، وعلى السينة ، والذى يؤلمه كل الألم .. هو انه لا يعرف الحل ! .. اتهمه زملاء العمل بانغلاق التفكير .. وانه "لا يتفاهم" .. ماذا لو تغاضى عن بعض "الشكليات" "ياأخى عش ودع غيرك يعيش" ، "الدنيا قرش" العالم كرش .. همهمات جهنمية .. همسات هي مسامير في نعش الفؤاد ..

يمشي في دروب طويلة .. يطرد هواجس الهلوش .. يمنع اللون الرمادى أن يتسلق الى ضميره !

كيف انتهى به البحث عن شقة .. الى لاشيء .. غرفة مفروشة صغيرة فوق السطوح .. غرفة على شكل حرف ل .. وصالة صغيرة .. مستديرة مثل حبل المشنقة .. صاحبة العقار سيدة نشطة تعرف ما تريد .. وكثيرا ما ترتطم به على السلم أثناء انقطاع التيار الكهربائى .. الأمر صدفة !

انزوى في ملابسه .. تنكمش اعضاؤه في داخله .. يأتي متأخرا كل يوم لأنه يمشي بلا هدف .. يجوب المدينة الضجة .. ويعود كل ليلة وقد دب الارتخاء في قدميه .. يضع الجريدة اليومية تحت ابطه . وربما كتاب شعر .

وكيس به بعض العشاء الخفيف جبن ، زيتون أسود ، زيتون أخضر ، جبنة رومى .. وأحيانا بسطرمة .. أو قرطاس به بيض .. والقليل من الخبز .. يأكل حتى تمتلىء معدته .. وهو يتناول الطعام وعيناه على الجريدة .. وأثناء مع الراديو .. يستمع الى "دعش" الأقطار البعيدة ، ويمزج ملح طعامه بأخبار الهزائم والنكسات ، والتبريرات العقيمة .. وربما استوقفه خطف طائرة .. عرب .. يخطفون عربا ! .. وصور لمضيفات جميلات مقتولات ! وكانت تصعد الى سطوح المنزل .. امرأة أربعينية .. لاشك انها صاحبة المكان .. هل جاءت تطلب الهواء النقى .. أم تطل من فوق

المصيدة

قصة قصيرة

السطح على واجهة البيوت الاخرى .. واحيانا يجلس فى يوم الاجازة .. ياتى بالكرسى وكاس الشاى .. والجريدة ولكنه يستمتع اكثر برؤية النمل وهو يجرى فى الشوارع . وعلب صغيرة .. تقطع اشارات المرور ..

واحيانا تفتعل الصدفة نفسها .. وتاتى السيدة الجريئة .. تطلب من يؤنس وحدتها !! . كانت لديها الجراة . العينان تلتهمان كل شىء .. الوجه الممتلىء .. الساعد الابيض .. المليء بالأساور الذهبية وخاتم ماسى .. ولون شعرها الأسود يحيط بوجهها العريض .. يعلوه إشارب احمر .. لا يدرى .. ربما يتوهم ان لديه دائما فرصة متاحة ، لكنه لا يعرف لماذا يخاف .. انها إمراة جميلة .. غنية .. سهلة .. تاتى اليه مثل رشاوى الصباح ، لكنه اعلن الصوم عن الطعام واللحم .. شىء فى داخله يدعوه لرفض دعوة عالم متآكل .. اختلطت فى اعماقه معانى الطموح .. والإستشهاد . كان يجرى وراء اوهام .. العلم بلا حدود .. الفن بلا تخوم .. الفكر هو المستقبل .. ولكن قدميه متورمتان .. نعم حفيت قدماه على سكن يصلح لعائلة وهمية .. يمكن ان يكوّنها فى المستقبل .. الكل يطلب جزية تقصف الظهر .. لا يدرى .. لماذا يتقزز من عالم متهافت .. رغم انه ابن تاجر بسيط ينحدر من سلالة فلاحين



بسطاء .. جاءوا للمدينة هربا من انغلاق القرية .. وربما وراء سراب واوهام .. وربما وراء الخبز القمحي الطازج .. او السهر .. او نساء اهل البندر .. وكانت النتيجة .. مخيبة للبعض وباهرة للبعض الآخر .. انفصل البعض عن البعض .. ابوه كان دائرة تدور في التيه .. وراح يلحق ـ الأب ـ لوهم السعادة مع لقمة دسمة .. معمولة بيد امرأة جميلة .. ويتقلب في فراش ناعم .. افضل بكثير من النوم على حصيرة جافة فوق الفرن .. في حوارى طينية .. وليالي شتوية وهو من صلب رجل لا يعرف طعم الخصوصية .. فلا مانع عنده ان يعيش مع عدة اسر .. في شقة واحدة . تظلم الكنبات .. مما جعل صاحبنا يمقت هذه اللزوجة .. واختلاط الانفاس .. والأجسام التي لا تمنع يد لامس .. واضحى صاحبنا يعاني ويتنفس الغربة والغرابة والاستغراب . ماله يتنفس الماضي المعبق برائحة الغبار .. ماله لا يتوقف عن ذكريات سرطانية .. وخلايا خبيثة .. انه دائما كان يبحث عن الخصوصية ..

انه يمشي .. يطول به الطريق .. تطالعه عشرات الوجوه ومئات الأسماء والاف الأمكنة وملايين الألوان وتهاويل التفاصيل ..

ولكن هل ابتعد كثيرا .. ام ان الأشياء هي التي ابتعدت عنه ؟

سألته صديقته في الجامعة . ذات يوم مشمس .. تحت شجرة جميز عتيقة :

ـ الا تضع لمستقبلك خطة ؟

ـ لا يدرى ماذا يقول لها .. ولا يدرى لماذا تحرك فكره ..

قال : المستقبل بيد الله ..

ابتسم .. لكنها راحت تقلب السؤال بجدية

ـ الا تؤمن بخطة ؟ الا توجد عندك خريطة ؟

ـ لا امل في التوقف

قال : ماذا تعنين بخطة ؟ وهل حياتنا نهندسها بخطط ؟ .. لا اعرف هل هندس ابي زواجه من امي .. ولا ادرى لماذا اخترت هذا المكان لاجلس فيه دون غيره !

ضمت كتبها على صدرها الصغير .. وقالت وقسمات وجهها الجميل يقطر جدية :

ـ حينما يدخل الطالب كلية الطب .. يعني ذلك انه اختار مهنة الطب وانه لن يعمل في الهندسة او المقاولات او تصنيع الجبن .. هناك دائما تصور لما نعمله .. اليس كذلك ؟

ـ لا ادرى ما اقول لك .. ولكني عرفت من درس الطب ثم اشتغل بالأدب واشتهر بالشعر والقصة . وعرفت من درس الهندسة واشتغل بتجارة الأجبان والألبان ..

وكانها وصلت إلى نقطة معينة .. فقالت : ولماذا نتخذ الشواذ القاعدة ـ الطريق ممتد .. واللافتات مكتوبة بحروف عربية ولاتينية .. يتوارى خلفها او امامها الوجه الجميل ..

وذات مرة سألته صديقته : اراك تهتم بالأدب وهو ليس تخصصك ؟

ـ هواية تستبد بي !

تنكر الأدب هواية ..

المصيدة

قصة قصيرة

وليس مهنة !

- اترين ذلك ؟ .

- بكل تاكيد .. من قال ان الانفعالات مهنة !

- هناك من يحترف الادب .

- لا اتكلم عن المطبعجية !

يتوارى مرة أخرى الوجه الجميل ، الذكى المثقف .. الوجه الجميل ، ونسى القوام الجميل .. كان غيره اذكى منه .. لقد رآها بعد سنوات التخرج .. تجرى فى حديقة مع اربع اطفال .. تلاعبهم بالكرة .. ويجلس الى جانبهم رجل ممتلىء .. عرف انه زوجها .. صاحب معرض سيارات .. كم تغيرت صديقته .. اصبحت بدينة .. ثقيلة .. قوية . اصبحت امرأة ! . دخل سوبر ماركت .. تذكر ان الثلاجة خاوية .. لكنه لا يكف عن تامل الوجه .. شراهة الناس .. السيدات جميلات .. شرسات .. لهن خبرة هائلة فى اللحوم .. يقلبن البضائع باصابع مدربة ! .. والناس زحام .. الكل يختزن اكبر كمية من البضائع .. على قدر ما فى جيبه من نقود .. كان الحرب معلنة وهو لا يدرى .. كانهم سيموتون غدا !

خرج من المحل الفاخر المكيف .. يتصبب عرقا .. انه لا ينسى اتجاه البيت .. وصل .. راح يصعد سلالم عتيقة ، لكنها نظيفة .. كانت صلحبة البيت .. الاربعينية .. ترمقه من وراء الباب الموارب .. ترتدى افضل ثيابها .. راحت تسوى شعرها وتضع الروج على الشفتين فى اتقان .. سمعت المرأة صوت خشخشة فى المطبخ . ام الفار الملعون .. انه يلعب على مهله هنا وهناك .. لابد ان اضع الطعام الجيد له فى مصيدة جديدة .. ابتسمت للفكرة "ستضع له طعما لذيذا" .. لن يفلت من يدى مرة أخرى .

ارهفت .... الاذن .. سمعت الرجل وهو يصل الى غرفته فوق السطوح .. لابد انه سيجد الضوء الكافى امام الباب .. ويجد قصرية الزهور .. والترتيب الجميل . فى المدخل .

الهدوء النسبى .. الناس مشغولون فى برامج التليفزيون الملون .. امتدت يدها الناعمة لتلتقط قارورة عطر غالية الثمن .. راحت تسكب على صدرها .. وعلى تفريعة الذيين .. وتحت الابط وخلف الاذنين .. وقررت الصعود لتجميع الغسيل ..

ربما تمطر السماء فى الصيف ! من يدرى .. وربما تهب موجة غبار ! فتحت الباب .. سمعت باب المصيدة يرتطم بشدة .. وخلفت الفار المتمرد .. ابتسمت .. وقررت الصعود إلى اعلى ..

الجامعة الأمريكية فى بيروت

من : عبود عطيه

أنشئت خلال الحرب الأهلية الأمريكية واهتزت خلال الحرب الأهلية اللبنانية

بعدما استمرت فى الدوران على مدى قرن وربع تقريبا ، توقفت عقارب الساعة الشهيرة فى برج الجامعة الأمريكية فى بيروت عند الرابعة إلا ربعا من فجر يوم الجمعة ٨ اكتوبر ١٩٩١ . اذ اقتلع انفجار سيارة مفخخة جزءا من ماضى الجامعة ، وانشطر مبنى "الكوليدج هول" إلى نصفين . هوى احدهما ارضا بكل مايحمله من اثقال تربوية وثقافية وحضارية ، ودفن تحت انقاضه رمز المصنع الذى خرج جيوشا من اعلام الفكر والادب والعلم والسياسة ليس فى لبنان فقط ، بل فى دول المشرق العربى كله . وكان من اكبر مهندسى الثقافة والتربية والتعليم فى الوطن العربى على مدى قرن وربع تماما . اذ تزامن التفجير مع الاحتفال الذى كان يقام فى نيويورك لمناسبة مرور ١٢٥ سنة على تأسيس الجامعة ، وبفارق لايزيد على الساعات المعدودة .

● أول خريجى الجامعة سنة ١٨٧٠ كانوا خمسة من بينهم يعقوب صروف وفارس نمر .

رسالة بيروت

ويكاد تاريخ الجامعة الامريكية أن يكون امثولة او مثلا لما يجب أن يكونه التطور . ففى منتصف الستينات من القرن الماضى . وفيما كانت المدن الأمريكية تتخبط فى حربها الأهلية الشهيرة مابين الشمال والجنوب ، كان الأمريكى دانيال بلس يجوب هذه المدن بهاجس مختلف هو جمع التبرعات لانشاء جامعة فى بيروت .

وفى سنة ١٨٦٣ ، صدر عن ولاية نيويورك ترخيص بانشاء ما أسمى آنذاك "الكلية السورية الانجيلية" . وبعد ثلاث سنوات ظهرت كلية الآداب والعلوم كنواة اولى لهذه الجامعة ، وكانت تقع فى منزل صغير مؤلف من خمس غرف يملكه المعلم "بطرس البستانى" وانضم صاحب المنزل الى هيئة التدريس التى كانت تتألف من ثمانية أساتذة ينتمون الى أربع

صف التخرج الأول سنة ١٨٧٠ مع احد الاساتذة ، ومن بينهم يعقوب صروف وفارس نمر .



● ١٩ شخصا من واضعى ميثاق الأمم المتحدة والموقعين عليه هم من خريجى الجامعة .

جنسيات مختلفة وهم : الأمريكى دانيال بلس ، اللبنانيون ناصيف اليازجى ، أسعد الاشدودى ، ولويس الصابونجى ، السكوتلنديون ستيوارت دودج ، جون فرايزر ومستر روبرتسون ، والفرنسى موريس فيرن . أما عدد الطلاب فى السنة الأولى من عمر الجامعة فكان ١٦ طالبا .

فى سنة ١٨٧٠ تخرج خمسة طلاب من أصل الستة عشر طالبا ، وهم أول حملة شهادة بكالوريوس من الكلية . وكان من بينهم "يعقوب صروف" و "فارس نمر" اللذان أسسا فى وقت لاحق جريدة "المقطم" ومجلة "المقتطف" فى القاهرة ، الأمر الذى يعتبر مؤشرا واضحا على الدور الكبير الذى لعبته الجامعة الأمريكية فى تاريخ الثقافة العربية الحديثة .

وبعدما تمكن بلس من جمع مايكفى من التبرعات فى أمريكا وبريطانيا ، انتقلت الكلية الى الحرم الرئيسى (الحالى) فى منطقة رأس بيروت ، حيث اشترى مؤسسها قطعة أرض بمحاذاة الشاطىء بثمانية آلاف دولار . وراحت الكلية الصغيرة التى بدأ تمويلها بمائة ألف دولار وأربعة آلاف جنيه أسترلينى ، تنمو وتكبر لتتحول الى جامعة دولية فعلا ، بلغت موازنتها للعام الماضى حوالى ٨٥ مليون دولار .

وحول مسيرة الجامعة التاريخية ، يقول مدير الاعلام والعلاقات العامة فيها "رضوان مولوى" إنه فى السنة



دانيال بلس مؤسس الجامعة الامريكية

التالية لتأسيس كلية الآداب والعلوم ، تأسست كلية العلوم الطبية مع مستشفى يضم أربعة أسرة فقط . وفى سنة ١٨٧١ تأسست كلية الصيدلية وفى تلك الفترة وتحديدا سنة ١٨٨٠ ، تغيرت لغة التدريس من العربية الى الانجليزية "بسبب صعوبة ترجمة المصطلحات العلمية" .

وتوالى تأسيس الكليات : التجارة (١٩٠٠) ، التمريض (١٩٠٥) ، طب الاسنان (١٩١٠) .. وفى سنة ١٩٢١ ، وافق مجلس الامناء فى نيويورك على تغيير اسم الكلية ليصبح "الجامعة الأمريكية فى بيروت" . ورفعت الجامعة شعارا حفرته على مدخلها يقول : "من أجل أن تكون لهم الحياة ، وتكون حياة افضل " .

ويضيف مولوى : "وكان كل شىء

يسير نحو الافضل ففى سنة ١٩٤٣ ، سمح لأول مرة بقبول الفتيات فى كلية الآداب والعلوم . واستمر انشاء الكليات الجديدة للهندسة والعمارة (١٩٥١) ، والعلوم الزراعية والصحة (١٩٥٢) ...

اما المركز الطبى المعد اساسا ليكون مكانا لتدريب الطلاب فقد تحول الى مستشفى حقيقى وكبير . تمكن الاطباء العاملون فيه سنة ١٩٥٨ من اجراء اول عملية قلب مفتوح فى الشرق الأوسط ، وبذلك اصبح لبنان الدولة الرابعة فى العالم التى تجرى فيها هذه الفئة من العمليات .

فمن مستشفى بأربعة أسرة تطور المركز الطبى الى مستشفى عملاق يضم ٤٤٠ سريرا افتتح سنة ١٩٧٠ . ولعب هذا المستشفى دورا حيويا وضخما فى تضميد الجراح الحرب اللبنانية ، اذ كان يستقبل فى الفترات الساخنة أعدادا من الجرحى تصل أحيانا الى مائة جريح يوميا يحتاج أكثر من نصفها الى عمليات جراحية .

وخلال الغزو الاسرائيلى للبنان وحصار بيروت سنة ١٩٨٢ ، استقبل هذا المستشفى وحده ٥٦٠٠ من جرحى الحرب وعالجهم فى ثلاثة أشهر فقط .

قبل ٢٥ عاما ، ولمناسبة الاحتفال بالذكرى المئوية لتأسيس الجامعة ، قال مدير عام الأونيسكو آنذاك رينيه ماهو : "لم يقتصر الدور الحاسم الذى قامت به الجامعة الأمريكية على تحديث الشرق الأوسط عن طريق ترجمة المؤلفات العلمية الغربية ، ولا على اعداد عدد لايحصى من الاخصائيين والمعلمين وحسب ، بل اسهمت أيضا فى تعريف سائر البشر تعريفا اوفى بالثقافة العربية المميزة . إن هذه الجامعة هى جامعة دولية حقا .

فمن مفاخر الجامعة التى ترد فى كل كتيباتها هو أنه لدى تأسيس هيئة الأمم المتحدة عام ١٩٤٥ ، تبين آنذاك أن ١٩ خريجا من الجامعة الأمريكية كانوا من بين ممثلى الدول الذين وقعوا على شرعة الامم المتحدة أو ساهموا فى وضعها . ولم يكن لأية جامعة أخرى فى العالم مثل هذا العدد من المندوبين . إضافة الى ذلك ، فمن بين الستة والعشرين الف متخرج تقريبا ما بين تأسيس الجامعة والعام الماضى هناك حشد من رؤساء الجمهوريات ، ورؤساء الحكومات ، ومئات الوزراء والقادة السياسيين المبعثرين من اقصى اليسار الى اقصى اليمين بسبب المناخ الليبرالى الذى يسود أجواء الجامعة وبرامجها وحرمها . كما يصعب الحديث عن

حركة تحرر عربية واحدة فى القرن العشرين لم يكن من بين قادتها خريج واحد من الجامعة الأمريكية .

واليوم يبلغ عدد طلاب الجامعة حوالى خمسة آلاف طالب وطالبة ينتمون الى حوالى خمسين جنسية ويمثلون ١٩ ديانة . وقد تزايد عدد الطالبات فى السنوات الأخيرة حتى بات مماثلا لعدد الطلاب . أما الاساتذة فهم حوالى ٥٠٠ استاذ .

أى ما معدله واحد لكل عشرة طلاب . وهى النسبة التى تتمتع بها أرقى الجامعات فى العالم . والكل ينتشر . وسط مبان قديمة يغطيها القرميد الأحمر ، وتتبعثر بدورها وسط حدائق تشكل المساحة الخضراء الوحيدة المتبقية فى بيروت بالمعنى الحرفى للكلمة .

● الزلزال اللبنانى

الجامعة التى أنشئت خلال الحرب الأهلية الأمريكية ، اهتزت بعنف خلال الحرب الأهلية اللبنانية . حتى انها فى اوقات كثيرة حبست انفاس اللبنانيين خوفا من أى قرار باقفالها .

فإضافة الى القصف الذى كان يتعرض له حرم الجامعة على فترات متقطعة خلال سنوات الحرب، برزت مشكلة جديدة وخاصة ما بين عامى ١٩٨٤ و ١٩٨٧ وهى ارتماء عدد من الطلاب اللبنانيين فى احضان الاحزاب . الأمر الذى ماكان ليعتبر

مبنى الكوليدج هول وساعته الشهيرة قبل الانفجار



رسالة بيروت

ظاهرة سلبية لو بقى كما كان خلال سنوات الحرب الأولى . ولكن تأثير هذا الانتماء على الوضع داخل الجامعة دفع بمجلس امنائها الى افتتاح برنامج تدريسى فى منطقة بيروت الشرقية للطلاب الذين لايستطيعون الالتحاق بالحرم الرئيسى لأسباب عديدة ومن بينها صعوبة اجتياز المعابر ما بين شطرى العاصمة . وأثار افتتاح الفرع الشرقى للجامعة خوفا عليها من تقسيمها .

ولكن الجامعة التى بدت حريصة على وحدتها وجدت فى فتح المعابر ، وحل الميليشيات المناخ الملائم لاقفال فرعها فى بيروت الشرقية وحصر التدريس فى الحرم الرئيسى فسقط واحد من الاخطار التى كانت تتهددها .

ولكن حوادث أخرى ألحقت أضرارا بالغة بالجامعة ، ومنها اغتيال رئيسها الدكتور مالكولم كير سنة ١٩٨٤ . ووسط تفشى عمليات خطف الاجانب ، اختفى مدير المستشفى ، وعميد كلية الزراعة (اطلق سراحه أخيرا) ، وأحد موظفى المكتبة .. الأمر الذى ادى الى انخفاض مستمر وسريع فى عدد الاساتذة الامريكيين والاجانب

وبعده



حتى وصل الى حدود الصفر . وادى ايضا الى هجرة عدد من الاساتذة العرب انفسهم ومنهم على سبيل المثال لا الحصر الدكتور "احسان عباس" والدكتورة "وداد القاضى" من قسم الادب العربى فقط" .

إلا أن الزلزال الاعنف الذى ضرب الجامعة الأمريكية كان ولاشك تفجير مبنى الكوليدج هول أخيرا .

فالخسارة المادية جسيمة : ١٢٥ مليون دولار حسب تقديرات المسئولين اذ تهدم المبنى التاريخى بكامله وتشردت الادارة وقسما الادب العربى والتاريخ اللذان استقر مؤقتا فى مبنى المرصد الفلكى التابع للجامعة (؟!) ودمر قسم كبير من المتحف وهو أكبر متحف خاص فى الشرق الأوسط ، كما دمر جزء من المكتبة ، وهوى من على رفوفها حوالى مليون كتاب .

إلا أن الخسارة المعنوية هى ولاشك أكبر من ذلك . ولعل خير معبر عنها هو استاذ الادب العربى المعروف الدكتور محمد يوسف نجم الذى تهدم مكتبه ، وبطنت الانقاض قسما كبيرا من مكتبته الخاصة ، ومن جملة ماتضم صندوقا يحتوى على مخطوطات ، إضافة الى طبعات نادرة لبعض المراجع مثل "تاج العروس" و "لسان العرب" (طباعة بولاق) ، كما خسر ايضا مراجعه عن المسرح العربى الذى يستحوذ على اهتمامه الرئيسى حاليا .. وعلى الرغم من ذلك ، يقول الدكتور نجم أن اسفه على المبنى هو اكبر من أسفه على كتبه . فقد دخل المبنى طالبا . درس وعاش فيه ، وبقى فيه أستاذا من عام ١٩٥٤ وحتى ٨ اكتوبر ١٩٩١ .

فما هو ارضا هو جزء من الذاكرة ومن التاريخ الثقافى لآلاف الخريجين وللمنطقة برمتها ، وبشكل خاص لمنطقة رأس بيروت التى تدين بوجودها لوجود الجامعة الأمريكية فيها .

المسئولون فى إدارة الجامعة يؤكدون اصرارهم على إعادة بناء ماتهدم وعلى الطراز القديم نفسه . ولكن الاصرار الاكبر هو ذلك البادى على الطلاب . الطلاب الذين حرصوا على رفع الانقاض حجرا حجرا بحثا عن ورقة هنا او كتاب ممزق هناك ، الطلاب الذين اصدروا ملصقا فوريا بواسطة الآلة الناسخة كتب عليه "تحيا الجامعة الأمريكية فى بيروت" .

ربما كان ذلك حنينا الى ماض يجسده خير تجسيد مبنى "الكوليدج هول" الذى لم يعد موجودا ، وربما كان ذلك "من أجل أن تكون لهم الحياة ، وتكون حياة أفضل" .



البحث عن شيد مرزوق فيلم اثار الاعجاب

المهرجان الحائر بين الرقابة والحرية

بقلم : مصطفى درويش

انتشرت مهرجانات السينما ، وتضخمت حتى وصل الامر الى تداخل ايام بعضها مع ايام البعض الآخر ، بحيث اصبح من العسير فك ذلك الاشتباك .

ولعل تداخل ايام مهرجاني دمشق والقاهرة ، خير دليل على هذه الفوضى ، التى لابد ولن تؤدى ان عاجلا او اجلا الى انهيار عدد غير قليل من تلك المهرجانات .



لتشكيلات الرائعة في الفيلم الياباني ، السماء والأرض)

فقبل ايام من افتتاح مهرجان القاهرة السينمائي الدولي الخامس عشر ، بدأت دمشق مهرجانها الذي ما ان انتهى باعلان فوز «الكيت كات» وممثله «محمود عبد العزيز» بجائزتي افضل فيلم وتمثيل ، حتى هرول اغلب المشاركين فيه من سينمائيين عرب ، وغير عرب ، صوب القاهرة للحاق بعروض مهرجانها الكبير .

وليس من شك ان هذا التداخل بين المهرجانين ليس في صالحهما ، بل ليس في صالح السينما العربية من الخليج الى المحيط .

وكان من اولى نتائجه حرمان السينما العربية من المشاركة ، بافلامها المنتجة خارج مصر ، في مسابقة مهرجان القاهرة ، ذلك انه من شروط قبول دخول الفيلم فيها ، الا يكون قد سبق عرضه في اى مهرجان .

ومن هنا غياب افلام عربية عن المسابقة مثل «شاشات الرمال» وهو اول فيلم روائي طويل تبدعه المخرجة اللبنانية ، «راندا شهال» ومثل «طوق الحمامة المفقود» لصاحبه المخرج التونسي الموهوب «ناصر خمير» .

● طوق الحمامة

فقد سبق لفيلم «شهال» ان عرض

فى اكثر من مهرجان ، اما فيلم «خميس» فقد جرى عرضه قبل اربعة شهور فى مهرجان «لوكارنو» حيث اثار الاعجاب على كل صعيد ، مما كان سببا فى خروجه متوجا بجائزة لجنة التحكيم .

و«طوق الحمامة المفقود» كما هو ظاهر من اسمه مستوحى من التراث الاندلسى المجيد .

وهو الفيلم الثانى لمخرجه الذى سبق له ان ابدع قبل خمسة اعوام «الهائمون» . ذلك الفيلم الذى نجح فى انتزاع جائزة مهرجان «نانت» الكبرى حيث تردد اسم صاحبه باعتباره كشفا جديدا .

وفيلمه الاخير «طوق الحمامة المفقود» ، يرتد بنا الى عصر الحضارة الاندلسية . وهى فى اشد حالات الازدهار ، وبالتحديد القرن الحادى عشر حيث تجرى احداث مدارها معاناة البحث ممتزجة بشطحات الخيال .

ومن مزايا الفيلم انه يتكلم باللسان العربى الفصيح شانه فى ذلك شان رائعة شادى عبد السلام «المومياء» او «ليلة حساب السنين» .

● صعوبة الاختيار

وشرط ان يكون الفيلم جديدا ، لم يسبق له المشاركة فى اى مهرجان ، هذا الشرط جعل من اختيار حتى الافلام غير العربية ، امرا من الصعوبة بمكان .

فأين ، والسنة على وشك الرحيل ، ذلك الفيلم الممتاز الذى لم يسبق له العرض فى مهرجان او اكثر ؟

ويفرض وجود مثل هذا الفيلم ، فلاشك انه مدخر من اصحابه للعرض فى واحد من المهرجانات السبعة الكبار ، امثال كان وفينيسيا وبرلين ، تلك المهرجانات التى لها حق اقامة مسابقات ، ويعتبر مجرد المشاركة فيها ، شرفا عظيما للفيلم ، ودعاية له لا تقدر بمال .

وعلى كل ، فقد نجح مهرجان القاهرة فى ان يختار للمسابقة ثمانية عشر فيلما من جميع قارات العالم ، فيما عدا امريكا اللاتينية واستراليا وافريقيا ، اللهم الا اذا اعتبرنا الفيلمين المصريين المشتركين فى المسابقة «البحث عن سيد مرزوق» للمخرج «داود عبد السيد» و«يامهلبية ياه .. للمخرج «شريف عرفه» ، ممثلين للقارة السوداء !!

ونظرة طائرة على الافلام المشاركة تبين منها ان بعضها لا يرقى الى مستوى المسابقة بأى حال من الاحوال .

واذكر هنا على سبيل المثال الفيلم الفرنسى «سارق الاطفال» للمخرج

كريستيان دى شالونج والفيلم الأمريكى «شىء جميل» للمخرج «مايكيل لندس هوج» والفيلم السويسرى «حجر يحترق» وعنده اقف قليلا لاقول ان صاحبه المخرج «ليو كانمان» اداره حول بطل يهودى تائه حائر «دانييل» (ميشيل البرتينى) ، نكتشف فى نهاية الأمر ان والديه يعيشان فى المجر حيث ذبح معظم اليهود على ايدى النازيين داخل معسكرات الاعتقال وعذابات الافران !

ولا اعرف كيف نجح صاحبه فى التسلل به ، بحيث اصبح واحدا من افلام المهرجان القليلة المبشرة بجائزته الكبرى «الهرم الذهبى» .

ومهما يكن من امر هذا الفيلم ، وهو خال من اية براعة فنية تسترعى الانتباه ، وافلام المسابقة الأخرى ، فالقدر المتيقن من استعراض الاعمال السينمائية التى جرى عرضها على امتداد ايام المهرجان هو فقر الفكر فى الافلام القادمة اليه ، فباستثناء ما تيسر مجيئه من افلام لنفر من المخرجين السود ، وافلام اخرى قليلة وارد مصنع الاحلام فى هوليوود ، ودولة او دولتين صغيرتين من اوربا . وفيلم يتيم من اليابان ، باستثناء ذلك لا شىء جديدا .

● السفه والتبذير

هذا أولا .. أما الأمر الثانى فهو فاجعة السينما العربية متمثلة فى سفاهة التبذير وسوء التقدير .

ولعل خير دليل على ذلك مناجى العلى» لصاحبه «عاطف الطيب» و«طبول النار» لصاحبه المخرج سهيل ابن بركة» ذلك الفيلم الوحيد الذى انتجه مركز السينما المغربية تحت رئاسة هذا المخرج منذ انشائه قبل ثلاثة اعوام .

واعجب العجب ان ما انفق على «طبول النار» بلغ ثلاثين مليون دولار ، اى كل ميزانية المركز التى كانت معتمدة لانتاج ثلاثين فيلما روائيا او يزيد .

وصاحب الفيلم ، وهو يسارى سابق ، اضاع كل هذه الملايين فى الانتقال بين عدة دول اوروبية وامريكية حيث حشد جمعا من كبار النجوم ، زين باسمائهم فيلمه الذى لم تتح له فرصة العرض تجاريا خارج المغرب حتى الآن .

والظاهر ان احدا حتى يومنا هذا ، لم يره فيلما جديرا بالشراء رغم كل ما بذر فى انتاجه من ملايين الدولارات .

ولن اقف عند اجمل افلام المهرجان بالتفصيل ، فهذا امر يكاد ان يكون اقرب الى المستحيل .

وانما اكتفى بالوقوف ، عند ما هو متميز من تلك الافلام بشىء يجعله منتميا الى فكرة او موجة جديدة .

ولعل اكثر الافلام استحقاقا للوقوف عندها ولو قليلا لهذا السبب هو «صمت الحملان» "حمى الادغال" "سيرانو

دى برجراك" "الين فيرى" "السماء والأرض" "الدورز" واخيرا «المحتالون» .

و«صمت الحملان» لصاحبه المخرج «جوناثان ديم» بطلته «جودى فوستر» وهى نجمة ومخرجة الآن بفضل فيلمها الأخير "تيت الرجل الصغير" الذى عرض بدوره فى المهرجان .

● الأمريكى القبيح

وأحداث صمت الحملان تبدأ بها مكلفة من رئاستها فى جهاز المباحث الاتحادية بزيارة سفاح عشوائى متوحش ، متعطش للدماء ، الدكتور العالم النفسانى «هانيبال ليكتر» (انطونى هوبكنز) ، زيارته فى زنزانته الغريبة العجيبة المحكمة البناء بحيث يمتنع التماس بينه وبين الناس ، والا يحدث ما لا تحمد عقباه للحراس او الزوار .

وتكليفها بذلك كان الغرض منه اكتشاف امر سفاح اخر «بفلوبيل» كان العالم السجين يقوم بعلاجه قبل ان يتحول الى سفاح اكل للحوم البشر .

وبفضل لقاءات متكررة معه تنجح «جودى فوستر» (كلاريس) فى الوصول الى حيث يقيم «بفلوبيل» السفاح المطلق السراح ، فاذا به يكره رجولته ، ويتمنى لو يولد من جديد بنتا من بنات حواء ، ويعيش فى بيوت اشبه ببيوت الاشباح حيث يحبس فرائسه من النساء ليعذبهن قبل أن يسلخ جلودهن التى كان له فيها مآرب كثيرة .

والغريب من امر «صمت الحملان» هروب العالم «هانيبال» .. وهو شيطان واسع الحيلة والذكاء ، من زنزانته بعد ان قضى على حراسه بوحشية منقطعة النظير .

وينتهى به الفيلم متنكرا فى ثياب سائح ، متحدثا الى «كلاريس» من جزيرة «هايتى» لا لسبب سوى السخرية منها بتحديد موعد معها على العشاء !!

وكأنى بالمخرج يريد بهذه النهاية ان يقول ان السفاح العشوائى ان هو الا هدية امريكا الى العالم الثالث ، بمعنى اخر قنبلتها الزمنية القابلة فى اى وقت للانفجار .

● الأبيض والاسود

و«حمى الادغال» لصاحبه المخرج الاسود «سبايك لى» يكشف العنصرية فى المجتمع الأمريكى من خلال شخصياته الرئيسية التى هى اما سوداء من حى هارلم او بيضاء من حى «بيسونهيرت» الاكثر رقيا .

وبطل الفيلم مهندس اسود ناجح «ديزلى سنايبس» متزوج من امرأة جميلة نصف بيضاء تعمل فى احد محلات الازياء ، وله منها ابنة صغيرة يصطحبها الى المدرسة بانتظام .



المحتالون فيلم قاس ارعب الرقابة

وهو رجل سعيد فى حياته الزوجية الى ان يلتقى فى مكتبه بسكرتيرة بيضاء منحدرة من اصل ايطالى «انابيلا شيور» فتبدأ قصة حب تكون سببا فى هدم عش الزوجية ، وفى خروج السكرتيرة ، من منزل عائلتها مودعة من ابيها وشقيقيها باللعنات .

ومع ذلك فقصة الحب هذه تنتهى هى الأخرى بالفراق ومن عجائب «حمى الادغال» خلوه من لحظة ملل واحدة بدءا من العناوين المبتكرة المتداخل معها صوت المغنى الزنجى الشهير «ستيفى وندر» وانتهاء بلقطات الختام نرى فيها الاب بعد عودته الى عش الزوجية مصطحبا ابنته الى المدرسة ، وعلى ناصية الشارع فتاة سوداء تعرض جسدها من اجل شمة هيروين وفيما بين العناوين ولقطات الختام تمر مشاهد ابدا لا تنمحى من على شاشة الذاكرة مثل المشهد الاول بين البطل وزوجته يمارسان الحب الذى نفاجأ به ما ان تنتهى العناوين

ومشهد الحب الاول بينه وبين السكرتيرة البيضاء فى مكتب الشركة حيث يعملان .

ومشهد «تاج محل» تلك المكان الفسيح حيث يتجمع المعذبون بالادمان .

وبعض هذه المشاهد يفكرنا بفيلليني ساحر السينما الايطالية ، لاسيما المشهد الأخير .

● الفارس النبيل

فاذا ما انتقلنا الى الافلام الأخرى لوجدنا انفسنا بداءة امام «سيرانو دى برجراك» لصاحبه المخرج الفرنسى «جان بول رابينو» .

وهو فيلم مأخوذ عن مسرحية «ادمون روستان» التى بنفس الاسم .

ويمثله نجم فرنسا الاعظم «جيرار دى بارديو» وقصة حب الفارس النبيل ذى الانف المشوه الطويل فى تلك المسرحية «لروكسان» (ان بروشيه) التى تعلق قلبها بحب شاب تافه بيثها الغرام بصوت واشعار «سيرانو» هذه القصة معروفة للقاصى والدانى على السواء .

ولقد نجح «رابينو» فى ترجمتها الى لغة السينما باسلوب جذاب ، رصين .

ومما يؤسف له أن فيلمه الاخاذ قد مر عرضه فى المهرجان مر الكرام .

ولعلى لست بعيدا عن الصواب اذا ما قلت أن الفيلم اليابانى واحد من اكثر افلام المهرجان تكلفة (٣٣ مليون دولار) واحداثه تدور فى اليابان قبل ثلاثة قرون ، حيث تتفجر العداءات ، والحروب المدمرة للناس والمتاع .

واهم ما يميزه ، هو تحريك مجاميع الجيوش المتحاربة ، والتشكيل الجميل لجميع اللقطات دون اى استثناء .

ولو اجرينا مقارنة عادلة بينه وبين جميع الافلام الأمريكية فى المهرجان ، لوجدناه متفوقا عليها فى الاتقان والجمال ، شأنه فى ذلك شأن الفيلم الهولندى - البلجيكى «الينى فيرى» لصاحبه المخرج البلجيكى «هارى كومل» ذلك الفيلم الذى يذكرنا بدقته فى مراعاة تفاصيل حياة المتعمين فى الأرض قريبا من نهاية القرن الماضى ، يذكرنا بروائع المخرج الايطالى الراحل «لوكينو فيسكونتى» وبخاصة «الفهد" و "الموت فى فينيسيا» .

اما «الدورز» - الابواب - فصاحبه المخرج الأمريكى اوليفر ستون الذى قد ينتهى بعد ايام من اخراج فيلمه المستوحى من سيرة الرئيس الأمريكى الاسبق «جون كينيدى» .

«والدورز» يدور هو الآخر حول سيرة امريكى شهير فى عالم المغنى انه «جيم موريسون» (فال كيلمر) الذى مات فى عز الشباب ، ودفن فى مقابر «بيرلاشيز» بباريس حيث قضى ايامه الأخيرة ، ضائعا مثقلا بحمل الادمان .

وأحداث الفيلم تدور فى معظمها داخل ولاية كاليفورنيا خلال فترة من اكثر فترات امريكا سوادا ، عندما كان

الصراع مريرا بين قوى الحب والسلام ، فى مواجهة قوى الشر والفناء .

والدورز - فى رايى - اهم فيلم موسيقى انتجته هوليوود فى غضون الاعوام الاخيرة .

ويصعب على الصغار تحت الخامسة والعشرين الذين لا يعرفون عن مأساة فيتنام شيئا .

وعلى المسنين فوق الخمسين الذين فقدوا الاحساس بصخب الحياة ، يصعب عليهم تذوق وتقدير انجاز «ستون» الذى اراه انجازا كبيرا .

يبقى «المحتالون» لصاحبه المخرج الانجليزى ستيفن فرير ، وهو فيلم يعرض للعلاقات الخطرة بين ثلاثة ام «انجليكا هوستون» وابنها «جون كوساك» وعشيقته «انيت بيننج» انهم نصابون ، دائمو الاحتيال حتى فيما بينهم ، وبطبيعة الحال لا يثق اى منهم فى الآخر ، وكل واحد منهم لا يحمل للآخر الا العداء .

وفى نهاية المطاف الدامى تتعقد الأمور ، بحيث تقتل الأم العشيقة ، ومن بعدها الابن ، كل ذلك من أجل حفنة من الدولارات .

● روح العصر

ويبدو ان «المحتالون» ، وهو من اكثر افلام المهرجان قسوة ، قد الم الرقابة التى افزعها مقتل الابن بيد الام الما شديدا .

فكان ان قصرت عرضه على الكبار فى حفلتين يتيمتين لا ثالثة لهما .

وهنا وبمناسبة موقف الرقابة من هذا الفيلم وروائع سينمائية أخرى حرمت الجمهور من مشاهدتها حتى فى المهرجان ارى من اللازم ان اقول انه لا يكفى لنجاح مهرجان القاهرة ، وارتقائه على مر السنين ان تجيئه روائع الافلام من جميع انحاء العالم شرقا وغربا ، وان يتحقق له ربح وفير يؤهله لمواصلة المشوار ، وان يحج اليه سينمائيو ونقاد العالم لاهجين بالشكر والثناء .

كل ذلك لا يكفى ، اذا لم يكتب له ان يتحرر من رق الرقابة .

«فكان» وغيره من المهرجانات الكبرى ، لا تخضع افلامها لرقابة سابقة لها القول الفصل .

واستمرار الرقابة ، فضلا عن انه يشكل خروجا على السائد الآن فى عالم المهرجانات ، فهو يخالف روح العصر . عصر ثورة المعلومات ، وسقوط الاسوار .

عندما تنام القاهرة

شعر : جليلة رضا

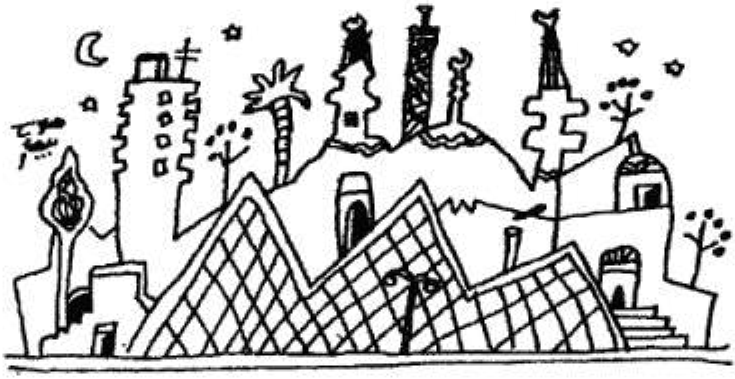
منذ وقت مضى بعيداً بعيداً غابت الشمس فى الدروب الدجية
هبطت سلم الفضاء عروسا تتهادى فى حلة ذهبية
وتوارت فخلفت فى سمائى حزن أمٍّ على فراق صبية
منذ وقت مضى ومازلت وحدى والخيالات فى عيونى حية
ارقب الارض والفضاء وليلا من ربيع المدينة القاهرية
اى سحر واى نورق عطر سكبته يد الملاك النقية
ليه يالنت يامدينة شعبى ومهاد الحضارة الأزلية
كل شيء عليك يبعث سحرا وغموضا ونشوة وحمية

★ ★ ★

ماهى "القلعة" الرهيبة تبدو من خلال المآذن الروحية
جثمت خلفها الجبال سجودا لتواريخ امة عربية
ماهو النيل قد تمطى كسولا .. مستظلا بالأنجم الفضية
ان نجما وراء نجم تهاوى . كالضحايا فى ساحة حربية
والعمارات تستطيل وتكبو . كعفاريت قصة وهمية
والدروب التى تضج حياة قد تراءت فى وحشة قفرية
وبقايا الأشباح تمضى سراعا مثل طيف الرجاء والأمنية
والملاهى التى تفيض ضلالا .. افرغت جوفها ونامت تقية !
والبساتين من بعيد تراخت واستراحت من الرؤى الآدمية
كل شيء على المدينة يغفو بين احضان غيبة حسية
بح صوت العملاقة الآن .. كلت قدماها . ونامت الجنية ..!

★ ★ ★

كل شيء ينام غير غلام . يذرع الدرب فى خطى ملكية
حاملا سهمه الرشيق . جميلا وعلى الثغر وردة قرمزية
بعيون هدب وشعر جثيل . ضاحكا للظلام فى سخرية
انه الحب ! (ياكيوبيد) رفقا . ياملاك المشاعر القلبية



ايهذا المليك حسبك فخرا ان حكمت الوجود والبشرية
كل قلب حللت فيه مشوق كل روح لمستها .. سرمدية
الشياطين فى حمك استحالوا منبع الهدى والدروب السوية
والغزاة الوحوش صاروا عبيدا قد غزتهم سهامك الوحشية
وقلوب الصخور والشوك لانت وتجلت قطيفة مخملية
ولك الله ! كم تخطيت يلحب حدود الاماكن الزمنية
فغدا الكهل فى يديك غلاما وغدت جدة الصبى .. صبية
وغدا الثلج والصقيع على القطب الشمالى نارا افريقية !

★ ★ ★

لهف نفسى لكم اسائل نفسى وانا ارقب البيوت حبية
ما الذى خلف هذه الجدر الصم ؟ وراء النوافذ الخشبية
كلها . كلها تخبىء احلاما ونجوى وصورة فنية
كم حياة بها كموت وموت كحياة ، وكم رؤى عكسية
كم عراء مقدس وبكاء ثمل ، كم من ضحكة دموية !
انها قصة الحياة تجلت فى ظلال السكون والحرية
فامض يلحب نحو كل بتاه وابعث النور تحت كل حنية
انت انت الربيع فى كل قلب ومثار الالهام والشاعرية
ها انا اسكب التامل لحنا تحت اقدام ظلمة قدسية
إن روحى تنساب بين شفاهى وهى سكرى بالوحدة الأبدية ..!

حول القراءة المعاصرة للقرآن

بقلم : د. محمد شحرور

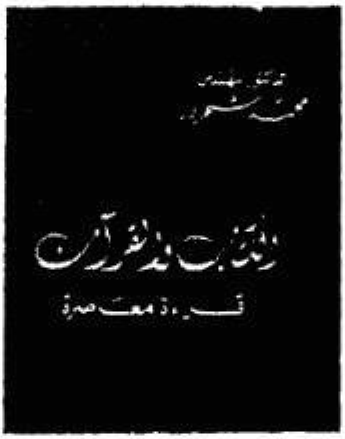
نشرت « الهلال » في عددها الصادر في اكتوبر من عام ١٩٩١ مقالا للدكتور نصر حامد ابو زيد بعنوان (لماذا طغت التلفيقية على كثير من مشروعات تجديد الاسلام . تعليقا على كتاب صدر في دمشق عن دار الأهالي بعنوان (الكتاب والقرآن ـ قراءة معاصرة) للدكتور المهندس محمد شحرور .

وقد جاءنا من دمشق هذا الرد من مؤلف الكتاب ..

يتألف كتابنا الذي تناوله الناقد من ٨٢٢ صفحة تحتوي على مواضيع متعددة الجوانب ، وهو ليس كتابا في التفسير او الفقه او الفيزياء ، بل هو نظرية اسلامية للوجود الالهي والكوني والانساني ، اجتزأ منها الناقد نصوصا مبتورة لاتزيد في مجموعها عن نصف صفحة من أصل ٨٢٢ صفحة ، معتمدا على عدم دراية القارىء بهذا الكتاب بشكل اساسي .

ـ لقد ذكر الناقد مصطلحات التأويل المنتج والتلفيق والتلوينية المغرضة ، وصنف الكتاب مع التلوينية المغرضة ، ولم يذكر لنا ماهي مواصفات التلوينية غير المغرضة ، وما الفرق بينهما ، وماهي مواصفات التأويل المنتج ...

ـ كما ذكر أن من خصائص تلك القراءة المغرضة (بصفة عامة) انها تسعى الى التلفيق بين طرفين احدهما صلب ثابت راسخ ـ يمثل نوعا من البداهة الفكرية والعقلية وهذا هو العصري من منظور القراءة ـ اما الطرف الثاني فيمثله التراث وهو الطرف الرخو المتحرك القابل للتشكيل واعادة التأويل وذلك ليوافق الطرف الأول ... لقد اخطأ الناقد في هذا وعكس الأمور تماما وذلك حين اعتبر أن الكتاب الموحى به الى محمد (صلى الله عليه وسلم) نص من التراث ، بينما يعتبر المؤلف أن الكتاب الموحى به الى محمد (صلى الله عليه وسلم) بشقيه الرسالة والنبوة هو ليس من التراث ، وأن كل ما قيل عنه من قبل الناس تفسيرا وشرحا انما هو تفاعل تاريخي لعصور متعاقبة مع هذا



الكتاب ، يدخل ضمن التراث ، حتى ولو كان من عصر صدر الاسلام . لذا فإن الثابت والمحفوظ هو النص الموحى الى محمد (صلى الله عليه وسلم) الموجود بين دفتي المصحف (الذكر) ، والمتحول هو فهم الناس لهذا النص على عصور متعاقبة ، وان لهذا النص الثابت قدسية لا تتأتى لأي نص آخر . وقد انطلق المؤلف من مصداقية الآيات الأربع التالية :

١ ــ (قل يا أيها الناس إني رسول الله اليكم جميعا الذي له ملك السموات والارض ......) (الأعراف ١٥٨) .

٢ ــ (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) (الانبياء ١٠٧) .

٣ ــ (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما) (الأحزاب ٤٠) ..

٤ ــ (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لايعلمون) .... (الروم ٣٠) .

فاعتبرها المؤلف صادرة من حي الى أحياء ، فالله حي والناس في القرن السابع أحياء ، والله حي الآن ، والناس في القرن العشرين أحياء ، فكيف نفهم مصداقية هذه الآيات الأربع في القرن العشرين مع ما نراه من تخلف العرب والمسلمين المرعب ؟

لقد بحث المؤلف عن مصداقية هذه الآيات الأربع في القرن العشرين على أساس احتمالات ثلاثة لارابع لها :

١ ــ ان الكتاب الموجود بين دفتي المصحف هو من تأليف محمد (صلى الله عليه وسلم) .

٢ ــ ان الكتاب الموجود بين دفتي المصحف هو من عند الله ولكنه مرحلي ذو سياق تاريخي ، زمني ومكاني ، زمانا : القرن السابع ، ومكانا : شبه جزيرة العرب ، أي انه على غرار التوراة والانجيل ، زمانا ، قبل الاسلام ، ومكانا : في الشرق الاوسط . فموسى الى بني اسرائيل ، وعيسى الى بني اسرائيل ، وبالتالي محمد الى العرب بني اسماعيل ، وتنطبق على هذا الكتاب الآيتان (وأنزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس) فهو هدى في القرن السابع للعرب لايصلح في القرن العشرين لاكثر من كتاب في اللاهوت صالح للتمائم والتعويذات والزينة وحلاوة النغم والتطريب في التلاوة .

● كتاب من عند الله

ــ ان الكتاب الموجود بين دفتي المصحف هو من عند الله ، الى الناس كافة والى أن تقوم الساعة ، أي أن علينا كقارئين له ومؤمنين به أن نبرهن على مصداقية الآيات الأربع الواردة

اعلاه فى القرن العشرين .

ويبدو ان الدكتور ابا زيد فى مقاله ، ينتمى الى الاحتمال الثانى ، هذا إن احسنا الظن به ، بينما نحن وصاحب « الكتاب والقرآن » ننتمى الى الاحتمال الثالث . وهنا يكمن بيت القصيد فى المقال كله . ففى الحالة الأولى والثانية الكتاب هو التراث ، بينما فى الحالة الثالثة الكتاب لاينتمى الى التراث وانما التراث هو ما قيل عنه من قبل الناس .

والبرهان على الحالة الثالثة ، اى عالمية النبوة والرسالة وانها الخاتم ورحمة للعالمين ، انطلق المؤلف فى البحث عن الخصائص التى تجعل من هذا الكتاب (الموحى الى محمد (صلى الله عليه وسلم) هكذا فعلا ، من المنطلقات التالية :

١ - خلوه البتة من الحشوية والعبث .

٢ - دقة المصطلح فيه ، فلا يمكن لطبيب ان يكتب كتابا فى الطب فيه دقة المصطلح الطبى ادق من الله فى التعبير عن مصطلحاته الواردة فى المصحف وهى : الكتاب - القرآن - الذكر - ام الكتاب - الفرقان - الكتاب المبين - تفصيل الكتاب - اللوح المحفوظ - الأمام المبين - السبع المثانى - الرسول - النبى ... منطلقا من خصائص اللسان العربى وهى :

أ - ان اللسان العربى خال من المترادفات .

ب - لايفهم اى نص لغوى إلا على نحو يقتضيه العقل .

جـ - إن المخاطب يشارك المتكلم فى صنع المعنى وهنا يكمن بيت القصيد .

وخلص بعد تحديد تلك المصطلحات الى ان النبوة هى القرآن والسبع المثانى وهى الآيات المتشابهات ، وان ايات تفصيل الكتاب هى الآيات اللا محكمات واللا متشابهات ، وان الرسالة هى الآيات المحكمات ، كل ذلك بامثلة واضحة وشواهد من الذكر الحكيم على هذه الأنواع الثلاثة .

● خاصية التشابة

وقد تم بيان صلاحية القرآن والسبع المثانى لكل زمان ومكان بخاصية التشابه . والتشابه كما فهمه المؤلف يحتوى على جدلية التماثل والاختلاف ، فالتماثل فى النص الثابت (الذكر) والاختلاف فى تفاعل الناس مع هذا النص ، كل حسب ارضيته المعرفية . فقال ان القرآن صيغ بشكل متشابه عن قصد ، وان القرآن يؤول ولا يفسر ، ووضع ست قواعد صارمة للتاويل لم يعلق عليها الناقد نهائيا ... وخاصية التشابه هذه تسمح بشكل مؤكد للسامع بمشاركة المتكلم فى صنع المعنى ، فالمتكلم مطلق ، والسامع نسبى ، وهنا تكمن جدلية التماثل والأختلاف وجدلية سياق التاريخ على الأرضيات المعرفية ، ولعل مقصدنا يتضح إن اوردنا مثالا حول تفاعل الناس بحسب ارضياتهم المعرفية مع النص فنقول :

قال زيد وهو انسان عربى : (مجموع زوايا المثلث يساوى ١٨٠ درجة) فسمعه ثلاثة اشخاص من العرب ايضا : الأول راعى غنم ، والثانى طالب فى الثانوية العامة ،

والثالث عالم مختص في علوم الفضاء والفيزياء ، نجد ان الأول لايفهم شيئا ، والثاني يقر بذلك ، والثالث يقول : هذا صحيح عند اقليدس ، اما عند ريمان ولوباتشوفسكي فإن مجموع زوايا المثلث لايساوي ١٨٠ درجة ...

ومن هنا فإننا اذا اردنا ان نتفاعل مع النص القرآني الذي يمثل النبوة ، نستطيع ان نفهم القرآن فهما معاصرا على اساس ثبات النص (قدسيته وانه ليس بتراث) وحركية المحتوى ، اي جدلية ثبات النص وحركية المحتوى ، ثبات النص الآلهي وحركية المحتوى في ضوء تطور المعارف الانسانية على مر العصور ، وهو ماسماه الكاتب جدلية التماثل والاختلاف ، وعلى هذا الاساس نستطيع تماما ان نميز بين المعاني الحقيقية والمجازية لمصطلحات القرآن لان التفريق بين الحقيقة والمجاز ليس تفريقا مطلقا كما وصفه السلف ضمن اطار ثابت مطلق .. لقد اصطلح المفسرون لمعنى الترتيل في قوله تعالى (ورتل القرآن ترتيلا) (المزمل ٥) على انه التانق في التلاوة ، وهنا استعمل الترتيل استعمالا مجازيا ، اما المعنى الاصلي للترتيل وهو الصف على نسق متتابع فقد استعمله المؤلف في موضعه الحقيقي بعد ان تبين له ان مواقيع القرآن المختلفة مبعثرة ضمن السور وليست على رتل ، فاذا اردنا ان نفهم آيات خلق الكون ، علينا ان نجمع هذه الآيات من السور المختلفة ونصفها في رتل لنفهم موضوع خلق الكون ، فعند استعمال المعنى المجازي للترتيل لمدة مئات السنين لم يستفد المسلمون من هذا الاستعمال شيئا . اما في الاستعمال الحقيقي ، فقد ساعدنا فعلا على فهم مواضيع القرآن .. وفي هذه الحالة لانكترث بمن قال عن الترتيل انه استعمال مجازي حتى ولو كان القائل سيبويه وكل الفقهاء ..

واللافت للنظر ان المؤلف لم يعد بكتابه ولم يتوعد ، ورغم ان شواهده كلها قرآنية ، فهو لم يطلب من قارئه ان يؤمن او لايؤمن ، لايمانه من جهة بعدم جدوى الوصاية الفكرية من احد على احد ، ولايمانه من جهة اخرى بأن التشريع الاسلامي مدني انساني ضمن حدود الله ، وان الديمقراطية احدى دعامات الممارسة الاسلامية الحقيقية ، وان الاسلام قادر على ان يتعامل مع كل الآراء والافكار الانسانية ويتفاعل معها ايجابيا ، وذلك من خلال تعريف المؤلف للتشريع الاسلامي تعريفا معاصرا يرى انه يحل به مشكلة الفقه المتيبس .

● مغالطات ؟

لقد اعطى الدكتور نصر في نقده انطباعا بأن مؤلف « الكتاب والقرآن » يزعم بأن العلوم الحديثة موجودة كلها في القرآن ، كما لو ان القرآن يحتوي على اسس صناعة الصواريخ والغواصات ومحركات الديزل والمضادات الحيوية ، وهذه مغالطة مقصودة من الكاتب لانها تعني لو كانت غير مقصودة ان الناقد لم يفهم الكتاب بتاتا ..

لا يحوي القرآن صناعة الصواريخ ولا محركات الديزل ولا المضادات الحيوية ، فمواضيع القرآن هي نظرية خلق الكون ابتداء من الانفجار الكوني

الأول وانتهاء بالساعة واليوم الآخر ، أى قوانين تغير الضرورة المادية ، والقوانين العامة الناظمة للكون ، أى نظرية الوجود الألهى والوجود الكونى والوجود الانسانى وهذا ما جاء فى باب جدل الكون وجدل الانسان فى كتاب الدكتور شحرور ..

وتحتوى نظرية الوجود الانسانى التى تم شرحها فى فصل «جدل الانسان» ، على جدل الانسان والمعرفة الانسانية وهى النقطة القاتلة فى تخلف العرب والمسلمين بشكل عام . فالقرآن يحتوى بالتأكيد على نظرية المعرفة الانسانية ، أى المنهج الذى تستنبط معتمدة عليه المعارف الانسانية . وهذه المعارف الانسانية تتصف بالتواصل ، بدأت بالمشخص وانتهت بالمجرد . وقد ربط المؤلف كل آيات المعرفة ربطا محكما فى جدل الانسان .. هذه النظرية المعرفية فى القرآن هى التى تفتح للانسان الخط العلمى الذى يصل من خلاله الى اختراع الصواريخ والمحركات وما تنعم به الانسانية من تقدم .. ومن خلال هذا الخط من التطور المعرفى فهم المؤلف القصص القرآنى على انه خط تطور المعلومات بالنبوات (المعارف) وخط تطور التشريع بالرسالات . فى حين نجد الناقد ينظر الى القصص القرآنى على انه اساطير . فيقول فى مقالته ان المؤلف استبدل الأسطورة بحقائق التاريخ الناصعة . ونحن نحتج ولا نظن أن الناقد يحتج على بعض التفاسير التى جاءت حول القصص القرآنى كعبارة (قال الله مسليا نبيه) أى ان القصص حواديت لتسلية النبى والترويح عنه . وكأن القصص القرآنى فى أحسن الأحوال ليس أكثر من مجموعة قصص اطفال بقلم كاتب شهير مثل (هندرسون) .

● الشريعة الاسلامية حدودية

أما صلاحية الرسالة (الأحكام) لكل زمان ومكان ، فقد بين المؤلف انها جاءت بالحدود ، وأن الطبيعة ونواميسها تقوم على الحدود ، كما بين أن الشريعة الاسلامية حدودية والشرائع التى قبلها عينية حدية ، وأن صلاحية التشريع الاسلامى تقوم على أساس انه تشريع إنسانى ضمن حدود الله ، وقد بين أن الناسخ والمنسوخ والتعليمات المرحلية تحمل الصفة التاريخية . فالرسالة من هنا تنظر الى التاريخية تماما . والناقد لم يفرق بين قوله تعالى (يأيها الرسول) وقوله (يأيها النبى) فهما سيان عنده ، لكن بينهما عند المؤلف فرق كبير ، فنحن نجد التاريخية التى يقول عنها الناقد فى آيات سورة التوبة . لكننا لا نجد آية تاريخية فى قوله تعالى (اذا الشمس كورت واذا النجوم انكدرت) ، ولا فى قوله تعالى (الذى علم بالقلم) . وبآيات الحدود فى التشريع وانما التاريخية فى فهم وتطبيق هذه الآيات .

ولابد فيما يتعلق بالتاريخية من أن ننوه الى النقطة التالية للناقد والقارىء معا :

أن حركة التاريخ تتصف بالديمومة التى هى وحدة التقطع والاستمرار

فالاستمرار في الوجود التاريخي لنا نحن العرب المسلمين .. والتقاطع يتجلى في طرق استنباط المعرفة ، ولنحافظ على استمراريتنا التاريخية علينا ان نقوم بقطيعة معرفية لا مناص منها مع السلف . وفي هذه النقطة محط الجمل . فكل ما وصلنا عن الاسلام وحتى عن العصر الجاهلي تمت كتابته وتاطيره في عصر التدوين ابتداء من النصف الثاني للقرن الثاني الهجري والقرن الثالث على احسن الاحوال . وفي هذا العصر تم تاطير الاسلام عقيدة وسلوكا واخلاقا وتشريعا ، وتعريف السنة وتاطير اللغة العربية ايضا . لذا فان ما نفهمه من الاسلام اليوم تم وضعه ضمن منهجية معرفية على مستوى ذلك الوقت . وما ندافع عنه اليوم على اساس انه اسلام تم تاطيره في ذلك الوقت . اي اننا ندافع عن طرق استنباط المعرفة والتشريع والالاهيات السائدة في ذلك الوقت . وبدون قطيعة معرفية مع ذلك العصر . وهذه القطيعة التي قامت بها كل الشعوب المتقدمة دون انقطاعية تاريخية . ونحن الى الآن لم نقم بها ... هذا هو الفهم التاريخي للاسلام ..

ان الدكتور « ابازيد » يدافع دون ان يدرى عن طرق استنباط المعارف السائدة في عصر التدوين على انها تاريخية الاسلام . فنستنتج ان مابقى من الاسلام هو الاخلاق فقط وان الاسلام الذى بين ايدينا الآن غير صالح لانه تاريخي ...... لكنه اخطا ودمج النص الالهي نفسه مع التراث والتاريخ ، واغفل خاصية التشابه في القرآن (النبوة) وخاصية الحدود في ام الكتاب (الرسالة) .

فاذا كان الدكتور « نصر » يبحث عن التاريخية في نصوص المصحف على اساس انها تراث ، فان تاييده كل اللغة العربية بنحوها وصرفها وحقيقها ومجازها في الوصول الى شيء ، الامر الوحيد الذى سيصل اليه تحت كابوس التاريخية هو ان المصحف تراث . يبقى منه الاخلاق فقط على غرار الكتاب المقدس القديم والجديد ويبقى منه الفرقان فقط .

اما اذا اراد الناقد تاريخية الاسلام حقيقة . فعلية بالسنة النبوية ، فهي التي تمثل الجانب التاريخي واللحظى الفعلي الاول للاسلام . وهي التي تحمل المفهوم النسبي الانساني للاسلام في القرن السابع وفي شبه جزيرة العرب ماعدا العبادات . ولقد تم وضع تعريف جديد للسنة في كتاب القراءة المعاصرة . فما فعله النبي (صلى الله عليه وسلم) في شبه جزيرة العرب هو الاحتمال الاول للاسلام (الثمرة الاولى) وليس الوحيد وليس الاخير .. ومنه تم تحديد الفرق بين الطاعة المتصلة للرسول في حياته وبعد مماته (واطيعوا الله والرسول) والطاعة المنفصلة للرسول في حياته فقط (واطيعوا الله واطيعوا الرسول) .. فقد تعامل النبي (صلى الله عليه وسلم) مع الواقع العربي بكل ابعاده القبلية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وبكل اعرافه وتقاليده . ولم يكن في يوم من الايام حالما ولا متوهما كما قال الدكتور شحرور في كتابه .

لقد شرحت القراءة المعاصرة

خاصية التشابة في النبوة وخاصية الحدود في الرسالة وتصدت من خلالهما لمعضلتين من اهم معضلات العرب المعاصرة هما :

١ ـ نظرية التطور وتغير الضرورة ، فهل التطور شيء تمنعه العقيدة الاسلامية ؟ ام انه من اساسياتها وعمودها الفقري ؟؟

٢ ـ نظرية الحرية والديمقراطية : هل الحرية والديمقراطية هي من اساسيات السلوك الاسلامي ومن اركانه ؟ نعم ام هي شيء لا تمانع به الممارسة الاسلامية ؟

فجاءت الاولى في القرآن (النبوة) ، وجاءت الثانية في ام الكتاب (الرسالة) .

● تحرير العقل العربي

وختم الناقد مقاله منديا بتحرير العقل العربي من عبادة النصوص ولم يقل كيف ، ولكن القراءة المعاصرة بينت انه لاسبيل الى تحرير العقل العربي واطلاقه الى الابداع الا بصياغة نظرية معرفية انسانية اصيلة معتمدة على القرآن الكريم حصرا ، مستثمرة آخر وسائل استنباط المعرفة المعاصرة .

ثم دعا الناقد الى تحرير الانسان من المعوقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي تحاصره ودعا الى ثورة شاملة .. هذه التعابير والمصطلحات المكرورة في كل مهرجان خطابي وفي كل مناسبة سياسة واجتماعية وسمعناها من اناس مارسوا الوصاية الفكرية والسياسية والديكتاتورية تحت هذا الشعار ...

لقد حددت القراءة المعاصرة المعوقات الاساسية لكبوة الانسان العربي ونومه وهو الايمان المطلق للغالبية العظمى للناس بثبات الاعمار والارزاق والاعمال وانها مكتوبة على كل فرد من الازل قبل ان يولد ، فكيف يمكن لهؤلاء الناس ان يثوروا ؟؟ وعن اية ثورة يمكن ان تتحدث مع هؤلاء الناس ؟؟ انها ليست مشكلة دونية او فوقية .... انها اكبر من ذلك .

إننا ندعو الى تحرير العقل العربي ، والى تحرير الانسان العربي المقيد في الدعوة الى التفكر والتدبير في كتاب الله تحرير للعقل ، وفي التحرر من اطر تفاسير القرون الماضية تحرير للانسان . ثم ان العقل هو مناط التشغلات كلها . ماعدا فهم القرآن والكتاب ؟؟

فالطوائف والمذاهب عوائق ، والعالم الاسلامي حافل بها ، ولقد نشأت وتشكلت تاريخيا من منطلق فهم اسلامي معين للقرآن ونصوصه ، وليس بالامكان حتما تجاوزها الا من منطلق فهم اسلامي معاصر ، ولن تنفع امامها كل شعارات المناسبات الكلامية بتحرر العقل وتحرير الانسان بدنا ونفسها وروحا ..

بقلم: د. محمد بهائي السكري

الأندروفينات : مورفين الجسم الداخلي

لعل الألم هو أبغض المشاعر الانسانية وأكثرها ضراوة وفتكا .. وإذا استبد بالمرء أحال قوته ضعفا، وسعادته تعاسة وشقاء .. وهو كالوحش الاسطوري متعدد الاشكال والصوره فهو تارة نافذ كالسكين وتارة معتصر كالقبضة الاسرة . وقد يكون محرقا كالنار أو متماوجا كأسنان المنشار . وقد يكون احساسا مبهما يصعب معرفة كنهه أو تحديد مكانه ، أو ثاقبا محددا لايخطىء الانسان في معرفة مصدره

ولكن الألم بالرغم من كل ذلك لايخلو من فائدة ، فهو نذير الخطر ، ولاينبعث من منطقة من مناطق الجسم الا اذا كان هناك ما يتهدد سلامتها وأمنها . ولذلك فهو حقا عذاب باطنه الرحمة .

ومستقبلات الاحساس بالألم واسعة الانتشار في الجسم . ولايكاد يخلو منها نسيج حي . ولكن عددها في مناطق الجسم المختلفة يتفاوت حسب تفاوت احتمالات التعرض للخطر . فهناك الكثير من مستقبلات الألم بالقرب من سطح الجسم الخارجي وفي الجلد حيث تكثر احتمالات الاصابة والتلف نتيجة لعوامل آتية من البيئة الخارجية المحيطة بالجسم . ويقل عدد مستقبلات الألم في الأحشاء وأجزاء الجسم العميقة .

● اشارات كهربائية

فإذا تعرض اى نسيج حي للأذى تطلق مستقبلات الألم الحسية اشارات كهربائية تنطلق في الاعصاب الطرفية متجهة الى الجهاز العصبي المركزي (الحبل الشوكي والمخ) حيث تدخل في مسارات محددة متجهة الى منطقة عليا في قشرة المخ الرمادية تعرف بمنطقة الاحساس بالألم .

فإذا استثيرت منطقة الاحساس بالألم تبدأ ردود فعل في العمل تستهدف حماية الجسم من الخطر المحيق ، وفي نفس الوقت تبدو على الكائن مظاهر الاحساس بالمعاناة .

ومن الاستجابات للألم عندما يتعرض الانسان لوخزة في منطقة من سطح الجسم أن ينسحب المرء بعيدا

عن مصدر الوخز كما تتلاحق دقات القلب وتنقبض الأوعية الدموية ويعلو ضغط الدم .

ولو تركت استجابات الجسم للألم بلا حدود لعصفت بالانسان . فالألم كما ذكر احساس بغيض . وبالرغم من أن وجوده ضرورة مادام كان هناك خطر يتهدد الانسجة فإن وجوده يثقل على النفس ، ويشكل عبئاً على الجهاز العصبي ، وقد يشل قدرة الانسان على العمل والتفكير .

ومنذ فجر تاريخ البشرية والانسان يبحث عن دواء للألم . وعلى قدر تنوع صنوف الألم وبمقدار معاناة الانسان فهناك الكثير من المعالجات وطرق التحايل على الآلام ، كالتبريد والتسخين والوخز بالابر والكمادات والضاغطات والأشربة والعقاقير ومنقوعات الاعشاب والخلاصات النباتية ، حتى الرقى والتمائم والتعاويذ .

ومن الخلاصات النباتية شديدة الفاعلية في مقاومة الألم مادة الأفيون التي استخدمها الاطباء والجراحون القدماء في تخفيف معاناة المرضى والمصابين .

● وسائل لمقاومة الألم

وفي العصر الحديث استخلص عقار «المورفين» من الأفيون ...

واستخدم على نطاق واسع لتسكين الام الذبحة الصدرية ، والمغص الكلوي ، وبعد اجراء العمليات الجراحية ..

وكانت العقبة الكئود التي تمنع تكرار وصفه للمريض الواحد مرات عديدة القابلية الشديدة للادمان على تعاطي هذا العقار الفعال .

وقد بينت الأبحاث الحديثة في السنوات الأخيرة أن الخلايا العصبية في بعض مناطق المخ والحبل الشوكي معدة لاستقبال المورفين . فاذا حل فيها هذا العقار نشطت تلك الخلايا العصبية وارسلت اشارات كهربائية تهبط في مسارات محددة لتعترض مسارات الألم وتثبط موجاته الصاعدة الى المخ وبمعنى آخر تغلق الباب في وجه الألم او تجعله مواربا لاينفذ منه الكثير .

واثارت هذه الاكتشافات الاهتمام . فلم يوجد في الجسم مستقبلات لعقاقير لا توجد فيه أصلا ؟ ومع تعمق البحث واطراده تبين ان هناك فعلا مواد شبيهة بالمورفين يفرزها الجسم عرفت بالاندورفينات .

ان الله الرحيم سبحانه قد هيأ للجسم وسائل مقاومة الألم . فإذا كان الانسان بحاجة الى هذا الشعور البغيض لينذره بالخطر فليكن هناك أيضا في الجسم قدرة على تخفيف وطأة الألم ومجابهته .

ولعل احتياج الجسم لهذه الاندورفينات هو السبب في قابلية ادمان المورفين . فإن تعاطي هذا

العقار يثبط قدرة الجسم على تكوين الاندورفينات ويصبح لامفر للانسان من حصوله عليها من مصدر خارجي وبجرعات متزايدة .

ويأتي اكتشاف وجود الاندورفينات بالجسم ليفسر ظواهر كثيرة مثل الطريقة التي يؤدي بها الوخز بالابر الصينية الى تخفيف الالم .

والوخز بالابر علاج تقليدي قديم استخدم منذ آلاف السنين واحاط به الغموض والابهام ولم يكن له تفسير علمي مقنع مما حدى بالبعض الى انكاره والحاقه بالشعوذة والدجل . وحدى بالبعض الاخر الى المبالغة في تقدير فعاليته وتعظيم شأنه .

وقد أثبتت التجارب العلمية أن الوخز بالابر يؤدي الى زيادة افراز الاندورفينات كما يعلو منسوبها في السائل المخي الشوكي الموجود بين اغلفة خاصة من اغلفة المخ والحبل الشوكي. ويمكن بذل هذا السائل من الجزء الاسفل من سلسلة الظهر اذا فالوخز بالابر له تأثير مثل تأثير جرعة صغيرة من المورفين .. انه ينشط الخلايا العصبية التي تسد مسارات الالم وتغلق بابه أو تضيق فرجته ..

وشبيه بالابر اى معالجة أخرى للمناطق الحساسة من سطح الجسم عن طريق تنشيطها بتيار كهربائي ضعيف أو بمواد كيميائية مهيجة مثل خلاصات بذور ثمار الشطة التي يكثر استخدامها في مراهم تدلك بها الاجزاء المصابة بآلام روماتيزمية .

● اهمية الرياضة

ومن الملاحظات المثيرة للاهتمام أن مزاولة النشاط الرياضي تزيد من افراز الاندورفينات بالجسم مما يقلل من احساس الرياضي بالاصابات وفي نفس الوقت يؤدي السعي وراء زيادة منسوب الاندروفينات بالجسم بطريقة لاشعورية الى الادمان على مزاولة الرياضة بحيث لايرغب الرياضي في التخلي عن مزاولة نشاطه حتى ولو كان هناك عائق صحي يعوقه !

وتبقى التأثيرات الأخرى المختلفة للاندورفينات في الجسم كحقل واسع كبير للاكتشاف والبحث العلمي .

فقد لوحظ على سبيل المثال أن للاندورفينات تأثيرا على نشاط الفص الامامي للغدة النخامية الموجودة عند قاعدة المخ وهي الغدة القائدة التي تتحكم في نشاط كثير من الغدد الاخرى مثل الغدد الجنسية والغدة الكظرية (الجاركلوية) ..

وتؤدي الاندورفينات الى تثبيط افراز هرمونات الخصوبة من الغدة النخامية وبالتالي يقل نشاط الغدد الجنسية ، وتكوين هرمونات الانوثة والذكورة . كما تزيد الاندورفينات افراز هرمون الغدة النخامية المنشط لقشرة الغدة الكظرية فتفرز تلك القشرة هرمونات تساعد الجسم على تحمل الضغوط النفسية والجسمية ومجابهة المواقف الطارئة .

إن الجسم البشري لا تفنى عجائبه الا بفناء جسم الانسان !

رسالة واشنطن

بعد مرور نصف قرن على « بيرل هاربر » :

قبل نصف قرن تماما ، وفى صباح يوم الاحد ٧ ديسمبر عام ١٩٤١ ، تسللت الطائرات التابعة لسلاح الجو الامبراطورى اليابانى من طراز "ميتسوبيشى ا ـ ٦ ام زيرو" والقاذفات من طراز "نكاجيما ـ ٩٧" لتهاجم ـ على حين غرة وبضربة صاعقة ـ الأسطول الأمريكى العامل فى المحيط الهادى والذى كان يرسو مستكينا فى ميناء "بيرل هاربر" بجزر هاواى .

كانت حصيلة الهجوم ، الذى نفذته الطائرات اليابانية على موجتين .. اولاهما فى الثامنة الا خمس دقائق والثانية فى التاسعة الا ربعا ، اغراق واصابة ١٨ سفينة حربية امريكية وتدمير او اعطاب ١٨٨ طائرة ومصرع ٢٣٣٠ من العسكريين الامريكيين واصابة ١٣٤٧ اخرين . اما اليابانيون فقد فقدوا فى الهجوم ٢٩ طائرة فقط .. ولم تتجاوز خسائرهم فى الرجال ٦٤ من افراد القوة المهاجمة .

وظلت ذكرى "بيرل هاربر" ، بطبيعة الحال ، محفورة فى الذاكرة الأمريكية طوال هذه السنين ، وخلال الأسابيع القليلة الماضية ، وبمناسبة مرور ٥٠ عاما كاملة على هذه الذكرى ، ازدحمت شاشات التليفزيون بالبرامج .. وملأت الكتابات أعمدة الصحف .. واتخمت الأسواق بالكتب ـ الجديدة والقديمة ـ كلها يتنافس فى عرض وتحليل ما جرى فى ذلك اليوم الذى يطلقون عليه اسم "يوم الأحد الدامى" .. وإن كانت التسمية الأكثر شهرة بين الأمريكيين ، هى : "يوم العار" « day of Infamy » !

■ ذكرى « يوم العار » الأمريكى .. وتساؤل يبدو اليوم غريبا : من الذى انتصر .. ومن الذى انهزم ؟



بقلم:
محمود أحمد

وبسبب كثافة التغطية الاعلامية ، والتى كان قد اعد لها منذ وقت طويل ، فقد طغت ذكرى "يوم العار" الأمريكى على احداث كثيرة داخلية وخارجية وخارجية ... بما فى ذلك الاستفتاء الذى أجرى يوم الأول من ديسمبر على استقلال جمهورية اوكرانيا السوفييتية .. ولم تكد تنافسها سوى أنباء الاستعدادات لعقد الجولة الثانية من محادثات السلام للشرق الأوسط التى كانت العاصمة الأمريكية تتأهب لاستقبالها فى الأسبوع ذاته . كما ان فيض الكتابات والبرامج التليفزيونية لم يقتصر ، بالطبع على يوم الذكرى نفسه ، وانما ظل الامريكيون أسابيع عديدة ـ قبل حلول السابع من ديسمبر وبعده ـ يتابعون المناقشات والآراء التى تثيرها ، ويحاولون الاجابة على ما

■ مستقبل العلاقات المعقدة بين امريكا واليابان .. فى ظل « النظام العالمى الجديد » !

رسالة واشنطن

تطرحه من تساؤلات .. ربما كان من اكثرها غرابة تساؤل حول : من الذى انتصر .. ومن الذى انهزم فى الحرب العالمية الثانية ؟!

ولاشك ان مثل هذا التساؤل ، الذى طرحته صحيفة "الواشنطن بوست" ، يبدو اليوم غريبا - بعد خمسين سنة من الحدث - او ربما غير مبرر بالمرة على ضوء الحقيقة التاريخية المعروفة للجميع .. وهى ان اليابان قد استسلمت بلا قيد ولاشرط بعد ٤٥ شهرا من هجومها على "بيرل هاربر" اثر إلقاء قنبلتين ذريتين على مدينتى "هيروشيما" و"ناجازاكى" فكانت اليابان بذلك هى البلد الوحيد فى التاريخ - حتى اليوم - الذى ذاق ويلات الهجوم الذرى .

ولم يعرف عن الامريكيين انهم "اقاموا مناحة" على هزيمتهم فى "بيرل هاربر" صحيح ان الهزيمة كانت صدمة مروعة ، وانها سببت جرحا أصاب صميم الكبرياء الامريكى ، ولكن ذلك كله كان جديرا بأن يصبح الآن مجرد ذكرى : فقد خرجت الولايات المتحدة منتصرة من الحرب العالمية الثانية التى جرتها اليابان اليها ، بل انها خرجت من هذه الحرب لكى تنشر نفوذها على اتساع العالم كله وترث امبراطوريات العالم القديم .. وتفرض قيادتها على الجميع .

● غزو يابانى مضاد !!

ومع ذلك ، فان الدنيا قد تغيرت ، خلال نصف القرن الذى انقضى منذ الهجوم اليابانى على "بيرل هاربر" خاصة بالنسبة للدولتين المعنيتين مباشرة بهذا الحدث ، وهما الولايات المتحدة واليابان ، اللتان تطورت العلاقات بينهما وتعقدت وتشابكت على نحو لم يكن فى الحسبان ولم يخطر فى خيال احد ، فمنذ "يوم العار" وحتى اليوم ، تطورت هذه العلاقات التى بدأت من أرضية عداء سافر ومرير - كان الامريكيون يرفعون خلاله شعار "اقتل مزيدا من اليابانيين" .. ويرفع اليابانيون فى مقابل ذلك شعار "مزقوا الغربيين البرابرة" - الى حالة تكفى فيها الاشارة الى ان البلدين أصبحا يتقاسمان التربع على قمة الدول الصناعية الاكثر ثراء فى العالم كله ، فاليابان "المهزومة" رفضت الاستسلام للواقع تحت براثن اعتى القوى التى تمخضت عنها الحرب العالمية الثانية ، بل هبت لكى تعمل بكل جدية وتصميم مما وصل بها الى المركز الرفيع الذى تحتله اليوم .

وكانت النتيجة هى ان الشركات الكبرى والاستثمارات الامريكية الضخمة التى سارعت الى "غزو" اليابان فور انتهاء الحرب - مثل "سفن اليفن" ، ومركز روكفلر ، والمطارات

"فايرستون" وغيرها - اصبحت اليوم مملوكة بالكامل لرؤوس الاموال اليابانية ، وليس هذا فقط ، وانما اصبحت سيارات الهوندا والتويوتا والميتسوبيشى تحقق معدلات مبيعات تتزايد باستمرار داخل الولايات المتحدة - مهد صناعة السيارات فى العالم - بينما يتراجع امامها انتاج ومبيعات العمالقة من امثال فورد وجنرال موترز وغيرهما ، بل ان رأس المال اليابانى اخذ يعبر المحيط الهادى ، فى موجات عاتية ، ليشترى كل ما يمكن للمال ان يشتريه على الارض الامريكية : من ناطحات السحاب الى استوديوهات السينما .. ومن اللوحات الفنية باهظة الثمن الى صناعة الدواء التى اصبح اليابانيون يملكون ٤٠ فى المائة منها . وانتبه بعض الامريكيين - فى انزعاج - ليجدوا ان اليابانيين مضوا يقيمون المصانع ومحطات توليد الكهرباء ، بل والمدارس اليابانية ، على الارض الامريكية .

وفى المحصلة النهائية ، فإننا نجد اليوم ام الميزان التجارى بين البلدين يحقق فائضا هائلا لصالح اليابان يصل الى ١٣٤ مليار دولار سنويا ، واصبحت الخزانة الامريكية فى وضع يضطرها - كما يقول الصحفى الامريكى "ت . ر . ريد" خبير الشئون اليابانية فى صحيفة "الواشنطن بوست" - الى ان تمد يديها الى طوكيو كل شهر ، لتتوسل اقتراض المزيد من مليارات الدولارات .. وهو وضع يبرر ، فى نظر الصحفى الامريكى ، ذلك التساؤل الذى اثير فى ذكرى مرور نصف قرن على "يوم العار" الامريكى : من كان الطرف المنتصر فى تلك الحرب .. ومن كان المهزوم ؟!

● زواج على الطريقة اليابانية !

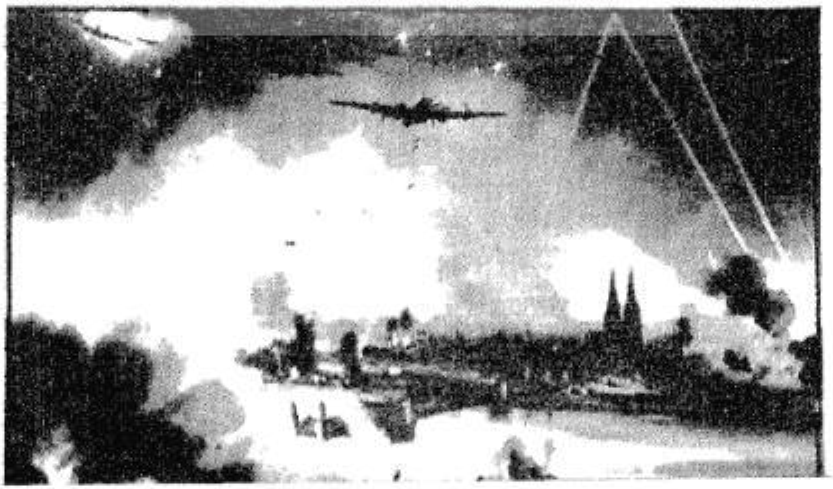
ولكن لا يمكن القول ان هذا هو رأى كل الامريكيين ، فهناك كثيرون ممن لا ينظرون الى الامر من هذه الزاوية . وعلى الرغم من ان هؤلاء يسلمون بكل الحقائق التى تنطوى عليها "الظاهرة" فى عالم اليوم عموما ، وفى العلاقات الامريكية اليابانية على وجه الخصوص ، فإنهم يشيرون الى ان هناك وجها آخر للعملة نفسها يتمثل فى ان قدوم الاستثمارات اليابانية الى السوق الامريكية يحمل فى حد ذاته خيرا وبركة - رواجا وفرص عمل جديدة - على نحو ما اكده عدد من رجال الاعمال الذين ناقشهم النائب الديمقراطى البارز "لى هاملتون" فى هذه المسألة .. خاصة فى ظروف الكساد الاقتصادى الذى تعانى منه الولايات المتحدة فى السنوات الاخيرة .. ولهذا ، فإن هناك من الاكاديميين والدبلوماسيين ورجال الأعمال الأمريكيين واليابانيين على السواء من يؤكد انه من الخطأ أساسا طرح التساؤلات التى تثار حول "من المنتصر . ومن المهزوم" .. لان هذه التساؤلات تضل عن رؤية النتيجة

رسالة واشنطن

الجوهرية التى اسفرت عنها الحرب ، وهى ان الولايات المتحدة واليابان - كلتيهما - قد ارتبطتا معا بشبكة من العلاقات المتشعبة والمعقدة التى جعلت كلا منهما لا يستطيع إلا ان يعتمد على الاخر بصورة كبيرة ، ويزداد هذا "الاعتماد المتبادل" ويقوى بمرور السنين ، وهو ما يتأكد فى المرحلة الحالية بصورة خاصة حيث يوشك العالم ان يشهد مولد او بزوغ مايسمى بـ "النظام العالمى الجديد" ... رغم أن ذلك ينطوى بوجه خاص ، على تنامى الدور اليابانى على الساحة الدولية سياسيا واقتصاديا - وحتى فى مجالات الدفاع - على نحو لم يكن يخطر على بال احد قبل سنوات محدودة فقط .

ويرى أصحاب هذا الرأى انه سيتعين على الولايات المتحدة واليابان ان يعملا معا فى المستقبل المنظور ، وعلى نحو ربما يكون أوثق مما كان عليه فى الماضى ، ليس على مستوى العلاقات الثنائية فقط وانما على اتساع الساحة الدولية باكملها . ويقولون انه إذا أرادت الدولتان الاحتفاظ بدورهما القيادى ، المميز والبارز فى عالم اليوم ، وان تظلا معا على رأس قائمة اكثر دول العالم ثراء .. فان عليهما القبول بهذه الحقيقة وهى انهما ستكونان دائما فى حاجة الى بعضهما البعض . وفى هذا الصدد يشير "كنت كالدر" استاذ العلوم السياسية بجامعة "برنستون" الامريكية ، فى حديث أجرى معه فى خضم أحياء ذكرى معركة "بيرل هاربر" ، الى ان الولايات المتحدة

معركة بيرل هاربر



واليابان قد ارتبطتا معا بشبكة من العلاقات التى تشبه خيوط العنكبوت والتى لم يعد ممكنا فض تشابك خيوطها المعقدة .. فهى شبكة تمتد لتغطى مجالات لا حصر لها : من التجارة والاستثمار الى الدفاع والشئون السياسية ، ومن ابحاث العلوم والفضاء الى العلاقات الثقافية .. الى غير ذلك من مجالات اخرى لا تحصى . ويؤكد ان هذه العلاقات قد أصبحت حقيقة واقعة ، هى اهم كثيرا من كل مجالات أو حتى احتمالات "المواجهة" التى قد تفرض صداما ، بين الحين والآخر ، على البلدين .

ومن هذا المنطلق ذاته ، يرى "ت . ر . ريد" انه عندما اطلقت طائرات "الميتسوبيشى" نيرانها على الاسطول الامريكى فى "بيرل هاربر" قبل ٥٠ عاما ، فانها انما كانت تسجل فى الحقيقة – على عكس كل التوقعات فى ذلك الوقت – بداية لما يمكن اعتباره الان "زواجا ناجحا فى مجمله" على حد تعبيره . والحقيقة ان كثيرين يوافقون على وصف العلاقة اليابانية الامريكية بانها اشبه بالزواج .. رغم ان البعض يعتبره "زواجا على الطريقة اليابانية" حيث الكلمة العليا للزوج – اليابانى – فى كل الامور ! وان كان اخرون – مثل "كارل جاكسون" خبير الشئون الاسيوية بالبيت الابيض – يردون على ذلك بالقول : "وهل ننسى اذاً ، ماتراه بأعيننا من اعتناق اليابانيين للافكار والثقافة بل ولاسلوب الحياة الامريكى ؟ .. بل هل لنا ان نتجاهل الى أى حد ظلت اليابان حليفا مخلصا للولايات المتحدة على مدى نصف القرن الذى انقضى منذ "بيرل هاربر" . كما ان هناك من اليابانيين انفسهم من يرفض القول بان الولايات المتحدة كانت ، كما يتضح الان وبعد ٥٠ عاما من هذا الحدث ، هى الطرف المهزوم . وفى ذلك يقول استاذ العلوم السياسية اليابانى "تاجيو هوما" : ان هذا القول ، وكذلك الادعاء بأن الولايات المتحدة قد كسبت الحرب بينما كسب اليابانيون السلام ، لا يعبر عن الحقيقة الواقعة ، فالولايات المتحدة – كما يؤكد – هى التى كسبت على طول الخط ، من وجهة النظر الايديولوجية ، وهى التى لاتزال تكسب .

● هل يتلاشى العداء القديم ؟!

ولعلنا نتوقف هنا لحظة ، لنستمع الى اصوات اخرى تطرح واقع العلاقات اليابانية الامريكية من زاوية مختلفة ولكن يجب التنبه اليها نظرا لما لها من اهمية ومغزى كبيرين .. فاصحاب هذه الاصوات يحذرون من ان "العداء" الامريكى اليابانى – ذلك الذى تولد وتكثف اثناء سنوات القتال فى الحرب العالمية الثانية – لم يتلاش ولم تخف حدته ، مع مرور السنين ، وانما بقى متأصلا فى النفوس .. ساخنا ونابضا .. ويؤكد هؤلاء ، فضلا

رسالة واشنطن

عن ذلك ، ان نشأة اجيال جديدة من الامريكيين واليابانيين لم تساعد الا قليلا على التخفيف من مشاعر العداء القديم الذى يسفر عن نفسه بين الحين والآخر . وفي مناسبات معينة ربما يكون أوضح مثال لها هو ما جرى عند حلول ذكرى معركة "بيرل هاربر" .. ويقولون ان التعبير عن العداء يحدث على كل المستويات ، من قمة السلطة .. والى مستوى رجل الشارع العادى .

فعندما حلت ذكرى "بيرل هاربر" ، لفت الانظار فى حديث ادلى به الرئيس الامريكى "جورج بوش" الى محطات التليفزيون الامريكية واليابانية ، ان "نبرة" حادة ظهرت بوضوح فى اقوال الرئيس الامريكى وهو يؤكد انه ليس هناك من مبرر لاعتذار الولايات المتحدة لليابان بسبب قصفها بالقنابل الذرية فى نهاية الحرب ، لان ذلك قد انقذ أرواح مئات الآلاف من الشباب الامريكى التى كان يمكن ان تهدر لولا ان السلاح الذرى قد وضع نهاية للحرب ، ثم تأكيده ، بعد ذلك انه لن يكون هو الرئيس الامريكى الذى يمكن ان يقدم مثل هذا الاعتذار على اى حال .

اما على مستوى رجل الشارع العادى ، فربما تكفى الاشارة إلى تلك المظاهرات التى قام بها بعض الشباب الامريكى فى أوائل الشهر الماضى - ديسمبر - وخاصة فى ولاية "كاليفورنيا" ، والتى رددوا فيها شعارات ملتهبة معادية لليابان ولكل ما يرمز اليها .. وبالذات البضائع اليابانية ! ثم قاموا بتحطيم الاعلانات الضوئية الملونة عن هذه البضائع ، بل وبعض السيارات اليابانية التى صادفتهم فى الطريق !

وربما يكون هناك قدر من المبالغة ، فيما يطرحه اصحاب هذه الاصوات او ما يحاولون التحذير منه فيما يتعلق باستمرار روح العداء القديم ، ولكن من الواضح ان ما يطرحونه يشكل جزءا من واقع لا يمكن تجاهله او تجاوزه على اى حال فى سياق هذا العرض للعلاقات الفريدة بين الولايات المتحدة واليابان .

وبالاضافة الى ذلك ، فان هناك جانبا من الصورة يتمثل فيما يجرى داخل اليابان نفسها من تصاعد فى "الحس القومى" والدعوة الى استقلالية اليابان والبعد بها عن النفوذ الامريكى وتأثيراته .. ولا يخفى الامريكيون المتابعون للشئون اليابانية انزعاجهم من تنامى هذا التيار الذى اخذ يعبر عن نفسه ، على نحو اخص ، بدفع النواب "القوميين" الى مقاعد البرلمان اليابانى "الدايت" ، والرواج الملحوظ للكتب التى تنادى بالافكار القومية والاستقلالية .. كالكتاب

الشهير اليابان تستطيع ان تقول : "لا" وغيره .. وعلى الرغم من فوز احد الشخصيات الاكثر موالاة لواشنطن اخيرا برئاسة الحكومة اليابانية ـ وهو "كيتشى ميازاوا" ـ فإن ذلك لم يخفف من الشعور بالقلق الذى يتزايد فى الولايات المتحدة ، على الجانب الآخر من المحيط الهادى ، بسبب اشتداد قوة التيار القومى بين اليابانيين .

● وهل تندلع حرب اخرى ؟!

واذا كانت هذه المناسبة ـ اى مرور ٥٠ عاما على الهزيمة الامريكية فى "بيرل هاربر" قد اثارت كل هذا الجدل واللغط حول العلاقات الامريكية اليابانية ، بالأمس واليوم وغدا ، فإن هناك من لا يخفون قلقهم من ان هذه العلاقات قد تندفع ـ بسبب المنافسة العنيفة التى تزداد قوة يوما بعد يوم ـ نحو صدام محتوم .. وليس باتجاه مزيد من التعاون كما يتوقع ، او يأمل ، البعض ولعلنا نشير فى هذا الصدد ، بصورة خاصة ، الى كتاب صدر منذ بضعة اشهر ولفت الانظار بقوة لاثنين من الكتاب الامريكيين هما "جورج فريدمان" و "ميريديث ليبارد" اللذان اجريا دراسة "فى العمق" ـ على حد تعبيرهما ـ للعلاقات الدولية فى عصر ما بعد انتهاء الحرب الباردة .

ويحمل الكتاب عنوانا ذا مغزى هو "الحرب القادمة مع اليابان" ! وفيه يؤكد المؤلفان فكرة قوامها ان الصراع الرئيسى فى العالم ـ الآن وفى المستقبل ـ سيكون بين الولايات المتحدة واليابان . بل انهما يذهبان الى حد توقع ان هذا الصراع "سوف يتصاعد خلال السنوات العشرين القادمة . وسيشمل احتمال ـ او امكانية ـ مجابهة مسلحة .. او بمعنى أصح حربا امريكية يابانية أخرى يكون المحيط الهادى هو ساحتها الرئيسية !

اذا نحن نحينا ذلك كله جانبا ، فاننا نستطيع ان نسجل "لقطتين" رافقتا حلول ذكرى معركة "بيرل هاربر" احداهما على الجانب الامريكى والاخرى على الجانب اليابانى ، ورغم انهما تجسدان بعض المشاهد التى تبدو هامشية لأول وهلة ، فإنها مشاهد قد تساعد على اظهار الصورة على نحو اكثر وضوحا نظرا لما تنطوى عليه من دلالة :

فعلى الجانب الامريكى : سنجد ان الصحف والمجلات وسائر المطبوعات التى اصدرت اعدادا خاصة فى ذكرى "بيرل هاربر" ، قد افتقدت سيل الاعلانات المعهود عن السلع اليابانية الذى يغطى صفحات كثيرة من هذه المطبوعات ، ويكاد يشكل الجانب الأهم من دخلها ، وتساءلت احدى الصحف الأمريكية بفزع ، اين ذهبت كل تلك السيارات الهوندا والتويوتا وتليفزيونات السونى ؟! والحقيقة ان المطبوعات الأمريكية قد خلت من الاعلانات اليابانية على نحو يثير الدهشة ! فعدد مجلة "نيوزويك" الصادر عن المناسبة ، والذى حمل غلافه عنوان "فى ذكرى بيرل هاربر" لم تكن به صفحة إعلان واحدة عن

رسالة واشنطن

سلعة يابانية . اما عدد مجلة "تايم" الصادر بالمناسبة نفسها ، والذى كان عنوانه الرئيسى على الغلاف هو "يوم العار" ، فلم يتضمن سوى صفحة اعلان واحدة عن سلعة يابانية .. بينما اختفت هذه الاعلانات كلية من عدد مجلة "يو . اس . نيوز اند ، وورلد ريبورت" الذى صدر يحمل عنوان "بيرل هاربر" : امريكا ترد .

وكان التفسير الذى ذكرته الصحف الامريكية هو ان المعلنين اليابانيين رأوا انه ليس من مصلحة سلعهم ان تقترن - امام نظر القارىء والمشترى الامريكى - بهذه الذكرى الأليمة ، وان كانت تعود الى ٥٠ عاما مضت ، فهى فى النهاية ذكرى "يوم العار" ، وهكذا حجب المعلنون اعلاناتهم وفضلوا اخفاء سلعهم عن عيون الامريكيين حتى تمر هذه المناسبة المقترنة بالالم والهزيمة فى الذاكرة الامريكية . وربما كانت مجلة "ناشيونال جيوجرافيك" هى اكثر المتضررين ، حيث فقدت اعلانات تقدر قيمتها بنحو ١,٨ مليون دولار كان مقررا نشرها على صفحات المجلة خلال عدديها الصادرين فى نوفمبر وديسمبر الماضيين اللذين كانت "بيرل هاربر" موضوعا رئيسيا فى كل منهما .

اما على الجانب اليابانى : فإن "اللقطة" التى امكن رصدها ، ومن واقع ما نشرته الصحافة الامريكية ايضا ، كانت تجسد ظاهرة غريبة وفريدة حقا ! ذلك ان السوق اليابانية اغرقت - بمناسبة حلول ذكرى "بيرل هاربر" بفيض من الكتابات والقصص الخيالية التى تدور حول ما كان يمكن ان يحدث لو ان الأمور سارت ، قبل نصف قرن ، على نحو آخر . فمثلا : ماذا كان يمكن ان يحدث لو ان التكنولوجيا اليابانية الحديثة كانت هى المتوافرة فى ذلك الزمان ؟ ماذا لو ان الطائرات والغواصات من انتاج اليوم ، استطاعت ان تقطع الزمان الى الوراء لتشارك فى الحرب ؟ وكيف كانت الصورة ستتغير لو ان المخابرات اليابانية - التى كانت محدودة القدرة ايام "بيرل هاربر" - قد تمكنت من تأدية دور افضل وراء خطوط "الاعداء" داخل امريكا ؟ ثم ماذا لو ان اليابان ، بدلا من غزو جيرانها الآسيويين واستثارة عدائهم ، اتبعت تجاههم سياسة مسالمة فضمنت تعاونهم او حيادهم ؟ وبالطبع ، فان الاجابة المنطقية على هذه الاسئلة هى ان اليابان كانت هى التى ستنتصر فى الحرب العالمية الثانية !

وعلى هذا النحو ، استغرق اليابانيون فى الخيال - واستمتعوا به - وخاصة مع القصص الخيالية التى ذاع صيتها للمؤلف اليابانى المشهور "يوشياكى هياما" الذى اصبحت سلسلته التى نشرها بعنوان "العودة الكبرى" اكثر الكتب انتشارا فى اليابان مع حلول ذكرى "بيرل هاربر" !

يحيى الطاهر عبدالله وداء النسيان

بقلم : عبده جبير

سألنى صديق زائر : أين يمكننى العثور على أعمال يحيى الطاهر عبدالله ؟ فأخذنى السؤال على غرة ، وكأننى تلقيت صفعة غير متوقعة على وجهى .

قلت : هيا نحاول العثور عليها ؟

وبالفعل قمنا برحلة طويلة عبر كل المكتبات الممكنة فى وسط القاهرة ، وفى أطرافها ، لكننا بعد عناء ، لم نجد سوى جملة واحدة جابهنا بها أصحاب المكتبات هى : لقد نفدت منذ سنوات طويلة .

عدت إلى نسختى من المجلد الذى يضم كتابات يحيى الطاهر عبدالله ، وفوجئت بالتاريخ الذى تحمله . (عام ١٩٨٣) وقلت فى نفسى : هكذا مرت السنوات سراعا ، وفى خطواتها المرتجلة أكلت الأيام بعضها . وبالفعل ، فإن هذه الأعمال قد نفدت بعد صدورها بعدة أشهر ، ونحن الآن فى بداية عام ١٩٩٢ ، أى أنه مرت ثمانى سنوات كاملة على نفاد هذه الأعمال . ولم يعد بالتالى ، يحيى الطاهر عبدالله موجودا بين يدى من يريد أن يقرأه طوال هذه السنوات الثمانى . وطبعا ، يمكن أن تمر عشرات السنين الأخرى ، وشيئا فشيئا يتلاشى وجود يحيى الطاهر ، أمام سمع وبصر الجميع ، وينتهى به الأمر إلى النسيان .

إننى لا أستطيع أن ألوم شخصا بذاته ، ولا هيئة بعينها ، عن هذا التقصير ، ولكننى فى نفس الوقت ألوم الجميع ، لأنه يبدو أننا جميعا نتمتع بقدرة هائلة على نسيان مواهبنا الكبيرة ، وبالتالى ، فإننا نضرب المثل فى التخلف ، الذى هو التفسير الوحيد لعدم الاهتمام الذى لم يبده أى منا لحقيقة أن أعمال هذا الكاتب لم تعد موجودة ، وهو مايعنى أن أعمالا هامة ، هى من صميم تراث هذه الأمة ، قد مسحناها من ذاكرتنا ، وأهلنا عليها التراب ، مع سبق الإصرار والترصد .

أذكر أنه حين مات ، يحيى الطاهر عبدالله ، فى ذلك اليوم المشئوم (٩ إبريل ١٩٨١) ارتفع الصراخ عاليا ، وأمطرتنا الأقلام بسيل من كتابات الرثاء ، تنعى

للأمة كلها موت هذا الكاتب الذى وصف وقتها بالعبقرى ، حتى وصل الأمر إلى أن تصدرت صورته أغلفة بعض مجلاتنا ، وكأننا كنا نحتفل بموته ، لابقيمته التى ها نحن نتناساها بإصرار وترصد .

لقد كتبت هنا ، على صفحات الهلال منذ نحو عامين (يونيو ١٩٩٠) كلمة تحت عنوان « النشر للمرة الأخيرة » ، أذكر فيها بهذا الداء اللعين ، داء النسيان ، وذكرت بالاسم ، ضمن من ذكرت (راجع العدد) يحيى الطاهر عبدالله ..ولكن أحدا لم يتحرك ، وهاهى ذى السنوات تمر ، وكأن الجميع قد انسوا لهذا الداء الذى يبدو أنه لاشفاء منه .

وإذا كنت أتهم ، بسبب علاقتى الشخصية بيحيى الطاهر عبدالله بالتحيز له ، فإننى يمكننى أن أميل إلى عشرات المقالات ، والدراسات ، وكثير من الكتب التى رصدت بالبحث والدراسة للرواية والقصة فى الستينيات ، وكلها يؤكد على قيمة هذا الكاتب ، وأميل هنا ، على وجه الخصوص ، إلى كلمة يوسف إدريس التى رثى فيها ، رحمه الله ، يحيى الطاهر مؤكدا على قيمته الكبيرة ، حيث قال (بعد ديباجة) : .. ومن أول سطر ، عرفت أنى أمام كاتب قصة ، وليس أى قصة ، قصة جديدة طوع لها شاعرية الوجدان المصرى الذى حمصته شمس الصعيدة جديدة الموسيقى ، جديدة اللغة ، جديدة المحتوى ، بل وأكاد أقول ليست مصرية فقط ، ولكنها أنغام صعيدية عالمية تماما .

فرحت به كالكنز ، أخذت منه القصة الأولى ونشرتها فى مجلة الكاتب ، أيام كانت مجلة الكاتب ، وقلت كلمة ألفت بها الأنظار التائهة إلى الظاهرة : إلى يحيى الطاهر عبدالله .

.. كتب خمس مجموعات من عيون القصة العربية الحديثة

ثم وفى نهاية الكلمة ، يصفه إدريس بأنه واحد من أنبغ كتابنا هاهو إذن يوسف إدريس ، رحمه الله ، يؤكد على قيمة يحيى الطاهر عبدالله ، وهو من هو فى عالم القصة ، سيد لايشق له غبار .

لكن إذن كانت القضية التى أثيرها هنا تخص تراث يحيى الطاهر عبدالله ، وضرورة إعادة نشره ، وتوفيره للقراء ، فإن المسألة تحتاج إلى ماهو أكثر من حل فردى لهذا الكاتب أو ذاك ، فهناك تراث عريض وهام يكاد يتلاشى بفعل هذه « الخصلة » التى نسير عليها ، هناك تراث عريض وهام للغاية لعدد كبير من الكتاب والمبدعين لايجد من يلتفت إليه ليُحيه من العدم ، هناك تراث عباس أحمد ، ومحمد قاسم جودة ، وسليم حسن ، ومصطفى عبدالرازق ، وحسين فوزى ، وغنيمى هلال ، وعبداللطيف حمزة وغيرهم وغيرهم من الكتاب .

ماذا يحتاج الأمر ؟

هيئة ؟

مؤسسة أخرى تكون مهمتها إحياء تراث الراحلين .

شيئا من هذا القبيل ؟

الأمر يحتاج إلى نقاش لحل هذه الإشكالية التى تديننا جميعا ، بل ربما لحقت بنا جميعا .

شهريات

ندوة جامعة القاهرة

التحليل السياسي لأدب نجيب محفوظ

على مدى يومين ، وبمناسبة بلوغ كاتبنا الكبير "نجيب محفوظ" عامه الثمانين اقام مركز البحوث والدراسات السياسية بجامعة القاهرة ، يومى ١١ و ١٢ ديسمبر الماضى ندوة خاصة عن الجوانب السياسية فى اعمال الكاتب الكبير الروائية والقصصية .

وفى بادرة غير مسبوقة قام نجيب محفوظ ، الذى لم يعتد حضور ندوات تناقش اعماله ، حضر الكاتب الكبير الجلسة الافتتاحية للندوة حيث رحب به الدكتور على الدين هلال رئيس مركز البحوث وكذلك الدكتور احمد الغندور استاذ العلوم السياسية ، اللذان بينا ، قيمة ما تضمنته اعمال محفوظ من شهادات سياسية للعصر الذى كتب عنه وفيه .

وقد بدأ الشاعر فاروق شوشة الجلسة الاولى مؤكدا على دور نجيب محفوظ التنويرى ، من حيث ان عبقريته نابعة من علاقته الحميمة بعراقة المجتمع المصرى ، مدا وجزرا ، فأدبه مرتبط بقاع المجتمع اخذا وعطاء .

اما كامل زهيرى فقد اكد ان القراءة الداخلية لاعمال محفوظ هى وحدها التى تمنح الناقد والسياسى وعالم الاجتماع الامكانية لقراءة المجتمع الذى كتب عنه محفوظ قراءة عميقة .

د. مصطفى كمال السيد اكد على تعدد قراءات نجيب محفوظ ، حيث يمكن لكل من السياسى او الناقد او عالم الاجتماع ان يجد قراءة مختلفة ، وقال انه نتيجة لذلك تنسب احيانا لمحفوظ مالا يقله ، لذا فإنه من الضرورى إلتزام الدقة فى قراءته قراءة تتزامن مع سياقها الاجتماعى والسياسى والتاريخى .

د. غالى شكرى بدوره قال ان هناك علامات استفهام عديدة ترتفع امام القراءة السياسية لاعمال محفوظ ، مؤكدا على ان "محفوظ لم يستكشف سقوط معادلة النهضة التى قامت على اساس التوفيق بين التراث والعصر ،

شهريات



نجيب محفوظ

وان محفوظ من ناحية موقفه من ثورة ٢٣ يوليو ظل مخلصا لانتماءاته الوفدية قبل الثورة ، كما ظل امينا لدعوات وافكار سلامة موسى وطه حسين ولويس عوض وحسين فوزى والتى رأت فى الغرب اساسا لها .

الاستاذ محمد على ابراهيم قدم استعراضا لنماذج الشخصيات السياسية التى تضمنتها اعمال الكاتب الكبير ، مؤكدا على ان معظم الشخصيات السياسية التى قدمها محفوظ تنتمى اساسا للطبقة الوسطى ، وهى من جهة ثانية شخصيات تؤمن بمبدأ أو عقيدة .

د. سيد عشماوى تناول رؤية نجيب محفوظ السياسية فى عمل واحد هو "المرايا" التى تدخلت فيها الرؤية السياسية العامة على امتداد تاريخ مصر المعاصر منذ ثورة ١٩١٩ وحتى اعقاب هزيمة ١٩٦٧ لهذه الشخصيات النمطية التى جسدت متناقضات عصرها من خلال الدلالات المباشرة التى فرضت أسبقية الافكار الكلية على الواقع الموضوعى .

الاستاذ على فهمى قدم تحليلا سيسيولوجيا عن انعكاس الحياة السياسية بمصر المعاصرة على رسم بعض الشخوص الروائية فى ادب محفوظ ، وقال ان ابداعه هو ظاهرة بشرية ملغزة ، والظواهر البشرية لا يحكمها قانون علمى ، ومن ثم فان اشكالية الابداع عند محفوظ اشكالية مركبة ان لم تقل هى بالغة التعقيد .

القاص جمال الغيطانى تتبع فى ورقته بشغف الاماكن التى كتب عنها نجيب محفوظ فى القاهرة القديمة وبين بمعرفة ودقة حقيقة هذه الاماكن . وهل هى الاماكن الواقعية ام هى من نسج الخيال ، مما يعد تحقيقا علميا لهذه القضية الهامة من قضايا ادب محفوظ .

سمير فريد تعرض فى ورقته لمنحى هام من مناحى ابداع الكاتب الكبير هو علاقته بالسينما ـ وقدم مسحا علميا للافلام التى ظهر عليها اسم محفوظ مؤكدا ان محفوظ كتب السيناريو لـ ١٤ فيلما وكتب قصة وسيناريو ٣ افلام ، واشترك فى كتابة سيناريوها ٢ افلام ، وكتب قصصا سينمائية لم ينشرها لـ ٨ افلام ، اما الافلام المعدة عن رواياته فقد بلغت ٢٧ فيلما ، والافلام المعدة عن قصص قصيرة له فبلغت ٩ افلام .

كانت ندوة حاشدة ونحن فى انتظار ان تصدر قريبا بما جاء فيها من مناقشات فى كتاب .

شهريات





صبحى ولينين وديمقراطية المسرح

بقلم : فوزيه مهران

اتابع مسيرة "محمد صبحى" منذ البداية (أحس به مشحونا طوال الوقت ... متوهجا ... مليئا بالمسرح) له رؤية شاعر ... ورسالة مفكر .... وقلب فنان محب وطموح .

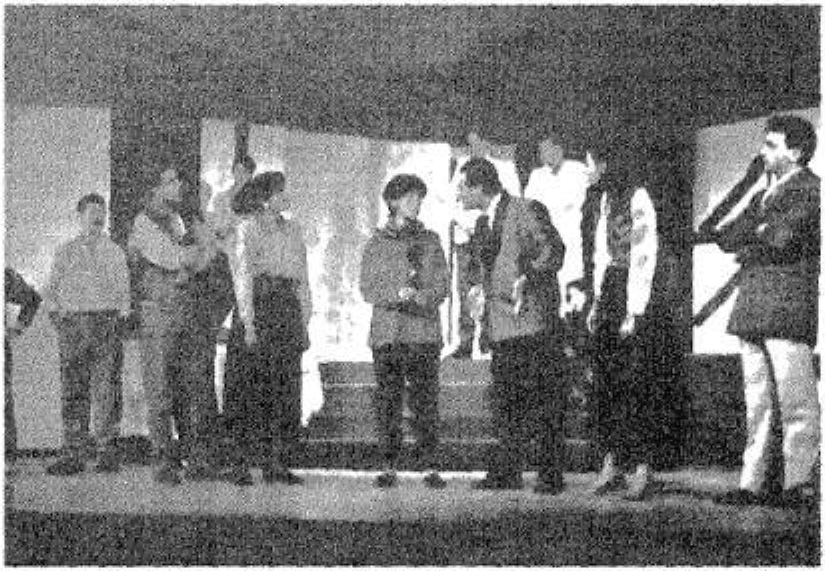
- رجل مسرح بكل معنى الكلمة .

يناضل ويخاطر .. يشقى ويمكن ان يستشهد من أجل تحقيق رسالة المسرح .

- يؤمن أن باستطاعة المسرح مساعدة المجتمع ليعثر على نفسه من جديد .

وبنفس القدر من الاهتمام والحب اتتبع انطلاقة "لينين الرملى" - التأليف المسرحى لديه رؤية فى العمق ورسالة مجاهدة ومحاولة نفاذ إلى قلب المشكلات .

يجدد ويجرب فى لغة المسرح وصورته - يريد ليضعه فى حياة الناس كوسيلة تحرر وتقدم ويعلى من طاقة السخرية والفكاهة الدافعة للتطوير وتحسين الأداء ..



لقطة من مسرحية بالعربي الفصيح

لايمكن تصور لقاء اجمل من لقاء هذين الصديقين - مشاركة وتفاهم وخلفية فكرية واضحة ... ورؤية طموح لمسرح جديد - يكون متعة ويقظة وثراء للعقل والوجدان .. وللجميع - ويجمعهما فهم عميق لرسالة المسرح - وظيفته بين الناس - لتحقيق التواصل ودفء المشاركة ..

● مسرح النقد الاجتماعي - والاحتجاج الصاخب .. والتزامه بهموم الناس معاناتهم وتنمية لديهم بذرة الغضب النبيل ..

(توسيع قاعدة الديمقراطية .. والمشاركة بالحوار .... وحرية الابداع والقدرة على التعبير) .

● بالعربي الفصيح

يقدمان لنا الآن تجربة جديدة .. ويحققان ظاهرة فريدة .. يرسمان علامة ظاهرة في تاريخ المسرح المصرى والعربي .

اقاما لنا معملا مسرحيا فائقا .. (هذا الثنائي المسرحي الجميل يجمعهما أيضا الايمان بقدرة الشباب على إقامة مسرحهم الجديد) .

ومن حقهم تقديم مسرحية "بالعربي الفصيح" - وهي غوص في قلب عالمنا العربي وضرورة تنقية

شهريات

نجواته من أدران الفرقة والخلاف واحتراف تعليق الشعارات وضرورة كشف الخطايا والسوءات .

وهو جهد لابد أن يدعمه جهد الشباب ليقيموا البناء من جديد .. ويغرسوا أسس الوحدة والتعاون والتفاهم من أجل مستقبل أفضل .. وحياة أكثر أمنا وحرية . وكان لابد من تعليم وتدريب لصياغة "نجوم المستقبل" .

(هكذا دعاهم محمد صبحي - وهو يقدمهم بنفسه بعد انتهاء العرض المثير) - نجوم الغد ... وأبطال المستقبل ... رصيدنا البشرى لعملية التقدم والترقى - لابد من جهود مشتركة .. وجمع مستنير ... ونبذ فكرة "النجم الأوحد" والبطل الخرافى المستطير .

وليس هناك من رصيد .. أو دعم مادى من دولة أو هيئة ... والنقود المتوافرة قليلة .. (ولكن لاتعوزنا الثقة ... ولا الجهد الطموح .. والايمان بقدرة الإنسان المصرى البسيط على التحدى والتفوق فى مواجهة التحديات والعقبات) .

(أسطورة محمد صبحى هو نفسه .. رصيده من الحب العظيم فى قلوب الجماهير تأتى من أنه بجسده الناحل وإحساسه النافذ وروحه المرحة الساخرة يمثل لديهم صورة المتمرد الجميل ... الذى يواجه المصاعب والآلام وينفذ من الأحزان والآلام ويحولها طاقة مرح وإرادة تحد وتصميم على الاستمرار والعناد وتحقيق الحلم والآمال) .

- إنه نغمة تمرد ... وروح تحد .. رمز وتجسيد حقيقى لإنسان مصر البسيط .

وكانت البداية إعلانا صغيرا بالصحف - وكل من يجد فى نفسه من الشباب رغبة للعمل بالتمثيل .

وتقدم الف وخمسمائة شخص . تم اختيار خمسين منهم ..

وأقيم معسكر صغير .. معمل مسرحى داخل مسرح صبحى ... وكتيبة عمل وتدريب من الشباب الواعدين .

خليط من العمال المهرة والفنيين .. طلبة جامعيون .. وتلميذات صغيرات .. وفتيات ناضجات .

المال قليل .. والعزم كبير .. والحب متسع والوقت متاح .. والآمال واعدة .

واستمر التدريب لمدة ثمانية أشهر أو يزيد

محمد صبحى ولينين الرملى .. يشتركان فى التعليم والتمرين .

(صبحى حاضر البديهة .. شديد الذكاء .. فائق الملاحظة .. تتجلى مواهبه فى الاخراج والتمثيل) لابد أن صحبته والأخذ منه والتدريب على

عينه كانت متعة وعبورا إلى عالم جديد .

لينين يجمع بين الخبرة الأدبية للتأليف المسرحي وخبرات نظرية وعملية في التمثيل والأداء وتوصيل علامات النص جيدا .

اسلوب نادر في العمل والجهد .. فعل خارق لهدف التعليم والتنوير وخدمة المجتمع وديمقراطية الفن من أجل الكشف عن مواهب حقيقية .. وعقول تفكر بأسلوب عصرى وعلى نسق جديد .

الدراسة الحرة ونشر مبدأ الثقافة للجميع والتوجه إلى الشباب لدفع حركة العمل والتنمية وإتاحة فرصة العمل والتعبير بعيدان الحيوية والاشراق لوجه المسرح من جديد . (انجاز اكبر من طاقة فردين .. لكن صبحي ولينين قوة جامعة .. وطاقة مفجرة) اقدما على التجربة الخطرة والعسيرة بروح المغامرة وحب الكشف والمعرفة وبروح نضال واعية .

كانى بهما إيزادورا وهي تعلم أبناء مدرستها تأمل كل حركة في الطبيعة ورعشة غصن صغير أو تفتح زهرة على عودها .. كانت تقف ساعات تدريبهم جعل أجسادهم آلة نورانية يسهل الطرق عليها وإرسال النغمات من خلالها - كانت تقول لهم "تأملوا ذلك النور الكامن بأعماقكم .. أنصتوا للموسيقى العذبة المتصاعدة من الداخل .. اتبعوا حركتها ودعوا جسدكم يعبر عنها ويصدح بأعلى نغماتها" .

من حظهم لن يدربهم - محمد صبحي .

ولن يؤصل لهم التجربة لينين الرملي .

صبحي وله طريقته الخاصة في الأداء .. يتمثل روح الشخصية .. يمسك بها تستوعبها حركته العضوية والخارجية .. تعبر عن حركة الشخصية الداخلية .. يجعل من أصغر إيماءة رسالة وبث وإشعاع للآخرين .

قفزاته على المسرح - مشيته .. ميله أو تجمده كلها تعبير مدهش وقدرة اتصال (حتى في صمته يشحن الجو بالحركة والحيوية والنطق البليغ) .

إنه يعرض عليهم تجاربه .. لحظاته الدافقة المبدعة على المسرح .. سيرته الذاتية والمسرحية .. ينمى لديهم صفات كامنة ويشد أوتارها ويوقظها من جديد .

- وهو في نفس الوقت يوالى تدريب نفسه .. ويواصل ابتكاره .. واكتشافه لقوى الخلق داخله .

يتيح لديهم أثمن مالديه وذلك التواصل بينه والجمهور وكيف ينفذ إلى قلوب الناس وذاكرتهم ووعيهم .

يقول محمد صبحي عن المسرحية "لست أدرى لماذا أسميناها - بالعربي الفصيح - مع انها باللغة

شهريات

العامية يطلقها دعابة ذكية .. ويلفت نظرنا إلى مفارقة مؤلمة وضاحكة .

"بالعربى الفصيح" يشير العنوان إلى معنى هام وعميق .. "اللغة العربية الجميلة لغة الكتاب والبيان والحكمة والفكر العميق ..

لغة غنية بليغة تحمل للناس رسالة محبة وتسامح وسلام للجميع ..

لغة مشتركة .. توحد الفكر والوجدان .. ورابطة واتصال ..

اللسان العربى المبين .. عبر عن حضارة وأصالة وتراث عريق ..

لماذا اتخذ العرب لغتهم الناطقة "مهجورة" لماذا ابتعدوا عن البيان والفصاحة والفعل النافع والعمل القويم ـ لماذا غابت عنهم مفردات "التوحيد" ... والقربى والمودة ..

وصلات إقامة الكلمات للحق والعدل والخير .

"بالعربى الفصيح" مسرحية تنفذ إلى قلب أمة العرب .. وتفصح عما أصاب الشخصية العربية وتكشف عن العيوب والنواقص .

مسرحية ساخرة ... كاشفة وناقدة ... فائقة البساطة ... بليغة المعنى .

لينين الرملى ـ يبحث عن لغة جديدة فى المسرح يرسم بعناية شخصيات شابة عربية تتجمع فى نزل فى قلب بلاد الغرب ـ بلندن ـ وأتت من كل فج عميق لطلب العلم .

ـ هم ثروة المستقبل حقا ـ لكن الأبناء هنا على دين بلدهم ـ كل واحد فيهم رمز لدولته فيهم سمات مشتركة لكن لكل تفرده وغرابته .

كل شخصية كأنها رسم كاريكاتيرى للشخصية العامة الوطنية فى بلدها .

ورغم فرقتهم ـ تشابهت قلوبهم ـ ساعة الخطر وفى الموقف العصيب .

ـ وأعمق من النكتة فى خلق النموذج وتجسيده .. والاضحاك على عيبه الظاهرى والباطنى .. يبرز عنصر المأساة ويجعله ضحكا أمر من البكاء .

(أروع أنواع الضحك وأنضجه هى القدرة على الضحك على النفس بذلك نكتشف العيوب ونعرف موطن السوء .. ويشفينا الضحك من استفحال المرض .. ومن الهروب من المواجهة .. والحماية بكبرياء زائف أو جمود مميت) .

لم يتبع لينين البناء التقليدى للمسرحية .. بدأ من قلب الحدث وفى لحظة المواجهة .. من داخل الموقف ذاته .

تجمع عربى شبابى فى الخارج ـ وكأن عين المجتمع الدولى مفتوحة علينا ترقب حركتنا وتشهد تصرفنا وردود أفعالنا .

وتتبدى الأخطاء .. وأسلوبنا المعتاد فى ستر العيوب بدلا من مواجهتها (يتركون الخطر القائم ويقيمون محاكمة لأنفسهم ويمزقون وجوههم ويمضون الوقت الثمين فى جدل عقيم وسفسطة ـ وعلى أحسن

الفروض ترتفع كلمات إنى أشجب واعترض)

ـ قد يحلو للبعض الإشارة إلى سطحية المعالجة واعتمادها على اللفظه الخارجى وتبسيط الصراع وتحريك رسوم الكاريكاتير والتعليقات اللاذعة .

ولكن لينين الرملى يتعمد الضحك والتنكيت ومن خلال الفكاهة يكشف عن أوجه المأساة ... وخطورة الاوضاع ..

ويتميز دائما بهذا المزج بين الكوميديا والترجيديا ...

● دور هام لصبحى

تجلت موهبة محمد صبحى فى الاخراج .. وتبدت رؤيته العميقة . كان يهتم بالحركة ويجعل منها زيا شفافا يكشف مابداخله . مرن مجموعة الشباب على الإجادة وجعل لكل منهم "دالة" وإيماءة فى الحركة أو نبرة الصوت أو خروجه أو مشيته .

تجلت أفكاره وتأثيره الدرامى على المسرح حيث مازج بين الحركة الفردية ورسم الحركة للمجموعة كلها .

كل يؤدى دوره ثم يتكتل الجميع فى لوحة ووحدة فنية بديعة التكوين .

بدأ الجزائرى عنيفا مشتدا ولديه استعداد فطرى للقتال .

والسورى فى دور المؤلف لمسرحية ـ داخل المسرحية ـ ملىء بالامكانات والالتزام والنضال . لغة المال تتحدث وسط النقاش . وتبرز وجه العملة السىء . والاعتماد على قوة المال وقدرته لشراء أى شىء ـ وكل شىء ـ وترك النفس للترهل والخمول . الفتاة المصرية ذات حياء وكبرياء وروح مرحة مشعة .

البحرانية متحدية وراغبة فى المعرفة والتجربة وتود الزواج على الطريقة التقليدية .

المصرى أوسع حركة وإدراكا وفهلوة .

الطالب العراقى عريض المنكبين .. تصادميا متجهما ..

السودانى يفضل القعدة بركن قصى ويعلق على مايجرى بخفة دم نادرة (وكان الجمهور يستقبله بالضحك بمجرد ظهوره ـ وانتظروا نجما متألقا للكوميديا فى المسرحيات والأيام القادمة) .

الطالب الليبى مستفز ومستنفر طوال الوقت .

الأردنى قصير ومكير ويشهد الموقف بترقب وحذر .

أخوان من لبنان .. "جعجعة ولا طحن" ونقاش جانبى منفرد ..

المغربى متأنق يبدى التحضر ـ يفسد أى مناقشة ـ يطلب نقطة نظام دائما ـ ولا يقول شيئا مطلقا .

الانجليزية إيفا ـ فاتنة العرض .. وعين على الطلبة .. وكل يحاول إقامة علاقة معها بطريقته ـ يتطلعون بالهلع عندما تعلن عن إصابتها بالايدز من خطيبها الانجليزى ويكتم كل منهم

شهريات

فرحته داخله لفشله فى إقامة علاقة معها ـ وتزدرى جهلهم فكيف ينتقل المرض بلمسة يد أو قبلة عابرة .. وتتبدى الخيبة واضحة . منتهى السخرية والتجريح من جانب المؤلف ليست بقصد القسوة والإيلام بقدر ماهى برغبة الكشف ونفض الزيف ..

المذيعة جادة ومتحمسة تريد أن تظهر الحقيقة كاملة وترضى ـ نظرا للظروف ـ بنصف الحقيقة وتجاهد لتحتفظ ولو بنسبة ضئيلة منها .

المذيع قلب المجموعة كلها ـ معلق ذكى ومن طلاب الحقيقة ويعانى فى مهنته .. (لفت نظرى فى دور الطبيب فى مسرحية جان دارك أو المخاطرة) وقد أطلق محمد صبحى حركته وانضبط تحركه ..

كذلك خطيبة الطالب المخطوف أو المختفى (ظهرت بنفس وجهها البرئ وعفوية أدائها فى مسرحية جان دارك أيضا وقلت عنها إنها جاءت بزيها المدرسى إلى المسرح مباشرة) ومازالت تحتفظ بنفس الأسلوب الطبيعى الجميل .

أجمل مافى إخراج صبحى تلك اللحظات التى تجمد فيها الحركة بين المجموعة وتصبح لوحة ساكنة مجمدة وإن كانت تنطق بذاتها وتتيح فرصة تأمل حركتها ومضمونها ـ كأنها رقصة شعبية معلقة على حائط قديم عريق ..

أتت بالصدفة وغير متعمدة .. وإن كانت مليئة بالدلالة والرمز ومعدة مسبقا ـ مباراة للتمثيل والأداء الصادق المعبر .

وكان علىّ أن أذكر أسماءهم جميعا لكنى فضلت التحدث عنهم "كجمع" وذكر عملهم كمجموعة رائدة . واعتبارهم كتيبة جديدة من فرق المسرح الجديد .

تصميم الديكور للفنان "حسين العزبى" يقوم على البساطة والوضوح .. مع عمق فى الصورة ودلالة اللون .

جسد طبيعة العرض الدائرى .. فالصالة مستديرة فى النزل يتراصون فيها فى استرخاء أو توتر .. صممت لتكون فى حركة دائمة أو كامنة ـ أو كأنها تدور بهم مثل وضعهم على كوكب الأرض .. وربما تشير لهم الا يدعوا حركة الأيام تدور بهم يسلمون قيادهم دون أن يملكوا زمام أمورهم .

والحل التنكرى صاخب الألوان والأقنعة .. والموسيقى تتبع الضجيج والخمود وتشتعل .

مضى وقت طويل ولم نجتمع هكذا حول عمل مؤثر ويثير النقاش ويستدعى التفكير والتحليل .

اجتمعنا .. وتوحدت منا المشاعر والأحاسيس وحدنا كيان هائل .. وتوقدت الوجوه حماسا ورغبة فى مواصلة البحث والسعى والعمل .

تحية لهذه الجوقة المبدعة ـ كتيبة المسرح القادمة ..

"نجوم المستقبل" حقا .

شهريات

مكتبة الهلال



الكتاب : ضراعة من قلب عربي
شعر : مصطفى بهجت بدوى
١١٢ صفحة
طباعة : دار الهلال

هذا هو الديوان الثامن للشاعر الكبير الاستاذ مصطفى بهجت بدوى . ولا نذكر هنا رقم الديوان استكثارا لعدد دواوين الشاعر . فربما كان بعض الشعراء او كثير منهم فى عصرنا قد اصدروا عددا اكبر من الدواوين . ولكن العبرة ليست بكثرتها بل بمادتها . فالشعر الان كثير ولكن القليل منه ، بل القليل جدا هو ما يمكن اعتباره شعرا ، سواء أكان منظوما بالبحور المتكاملة الشطرات ، او بالتفعيلات المتفرقة على السطور . ولا شأن لها بما يكتبه بعض الادعياء من النثر الخالص زاعمين انه شعر تجديدى يحمل اسم "القصيدة النثرية" !

والاستاذ مصطفى بهجت بدوى ينظم الشعر منذ خمسين عاما واول دواوينه صدر سنة ١٩٤٧ وهو فى السادسة والعشرين من عمره ، وكان حينذاك ضابطا ناشئا فى الجيش ، فانضم بديوانه الى جماعة الضباط الشعراء الذين كان اولهم فى عصرنا محمود سامى البارودى ، وكان منهم حافظ ابراهيم واخرون من الشعراء المجيدين .

اما الديوان الجديد فيدل على حياة صاحبه وفكره وهمومه . يبدو ذلك من عنوانه "ضراعة من قلب عربى" .. كما يبدو فى كل بيت من ابياته الى آخر صفحاته .

ان مصطفى بهجت بدوى شاعر مهموم بوطنه المصرى ووطنه العربى الكبير ، تؤرقه مأساة فلسطين بوجه خاص ، لهذا تجد صدى هذه المأساة الدامية فى كل دواوينه ، صارخا فى البرية ، او باكيا على اطلال القضية ، او عازفا لحن الامل فى انبعاث العرب وانتصارهم فى حطين وعين جالوت مرة اخرى ، على صليبيى هذا العصر ومغوله وتتاره الذين غزوا فلسطين تحت راية الصهيونية والامبريالية ، ومازالت غزوتهم تستكمل اهدافها حتى اليوم ، فى مشاهد بربرية رهيبة لا يعرف التاريخ لها مثيلا .

والضراعة التى يبعثها الشاعر فى ديوانه ليست موجهة الى

الاعداء الذين قدت قلوبهم من صوان ، ولكنها موجهة الى العرب والمسلمين الذين يحارب بعضهم بعضا . بل يشرب بعضهم من دماء بعضهم الآخر ، تاركين العدو ينفذ الى اهدافه وهو سعيد طليق اليدين يفعل ما يشاء !

وفى هذه النكبة "الداخلية" يرسل الشاعر شواظ غضبه على الجماعات التى يقاتل بعضها بعضا ، فيقول :

ماساة باتت ام ملهاة ؟
.. اليس ببابكم الاعداء ؟
لم اشهد اهلا ينتحرون فلم تفنون صباح مساء ؟!
ملعون حقد العصبيات اللاتى كفرن بغير حياء
وعصفن بعصمة حبل الله فامسى الاخوان الاعداء
والجسد الواحد كالمسعور تعض الاعضاء .. الاعضاء

هكذا يرى الشاعر موقف العرب والمسلمين فى مواجهة الغزوة الصهيونية الدموية ! لقد تركوا عدوهم حرا وراء ظهورهم وانطلقوا كالجسد المسعور تعض الاعضاء فيه الاعضاء ، وتاكل خلاياه خلاياه !

ان الاستاذ مصطفى بهجت بدوى هو احد الشعراء الذين اخلصوا لفن الشعر ، فلم ينصرفوا عنه بعد جولة او جولتين ، ولم ييأسوا من جدواه وينفضوا منه ايديهم ، وهذا الاخلاص لفن الشعر ارتبط بالاخلاص لقضية الشاعر التى وهب لها حياته ، وهى قضية الوطن المصرى والامة العربية والاسلامية .

وينعكس فى هذا الديوان الجديد حال الوطن وحال الامة العربية والاسلامية فى السنوات العشر الاخيرة التى اندلعت فيها الحرب بين ايران والعراق ، وتصاعدت ثورة الحجارة فى فلسطين ، ثم ما كان من مأساة حرب الخليج .

لقد وقف الشاعر على هذه الاحداث الجسام شاهدا عليها ، يعزف فى وهج نيرانها الحانه الشعرية ، ويسجل اختلاج ضميره وينبض قلبه بما تركته من اثار على الوطن والامة .

ان ديوان "ضراعة من قلب عربى" نادر فى مضمونه الذى يقدمه الى القارىء العربى فى هذا الزمن الذى انصرف فيه عن الشعر ، واوشك اليأس ان يصرفه عن متابعة ما يجرى حوله من احداث خطيرة تؤثر فيه وفى مصير امته اثارا تمتد الى مئات السنين القادمة .

وقد اثبت شاعرنا

مصطفى بهجت بدوى باصداره هذا الديوان اخلاصه لفن الشعر، واخلاصه للمضمون النبيل الذى حمله فنه الشعرى على امتداد خمسين سنة تقريبا .



الكتاب : على الكسار بربرى مصر الوحيد
تأليف : ماجد الكسار
الناشر : كتاب اليوم
عدد الصفحات : ٢٠٠ صفحة

الاستاذ ماجد الكسار مؤلف هذا الكتاب هو نجل المرحوم على الكسار فنان الكوميديا الذى افتتن به جمهور المسرح المصرى ثلاثين سنة أو اكثر، كما افتتن به جمهور السينما المصرية فى افلامه الكوميدية التى تتابعت فى الثلاثينات وبداية الاربعينات .

وعلى الكسار كان توأم نجيب الريحانى فى عهد ازدهار المسرح الكوميدى فى العشرينات والثلاثينات، وروايا‌ته التى قدمها على مسارح القاهرة والاسكندرية والمدن المصرية والعربية، كانت نموذجا للكوميديا فى ذلك العصر، وبلغت فى اخراجها وديكوراتها ونواحيها الفنية الاخرى غاية ما بلغته فنون المسرح ايامئذ، حتى صار على الكسار فى الصدارة بين المسرحيين، والتف حوله الجمهور، وارتفع شأن العاملين فى مسرحه من الممثلين والممثلات وسائر الفنيين، وكتبت عنه الصحف فى مصر والبلاد العربية واوربا .

وعلى مسرح الكسار عرضت المسرحيات الاستعراضية الغنائية التى لحنها سيد درويش وزكريا احمد وغيرهما من كبار الملحنين فى العشرينات والثلاثينات .

وعلى مسرح الكسار غنت أم كلثوم فى بدايتها الفنية كما غنى محمد عبدالوهاب، وفى هذا المسرح اشتهر اسماعيل يس ومحمود شكوكو وحامد مرسى وعقيلة راتب وبشارة واكيم وعشرات ممن اشتهروا فى المسرح والسينما فيما بعد .

كانت شخصية الخادم النوبى هى التى يقدمها على الكسار وينتقد من خلالها احوال المجتمع حينذاك، ولم يكن يخلو قصر من قصور الباشوات والبكوات من خدم نوبيين، كذلك كان "بواب العمارة" فى القاهرة والاسكندرية هو دائما من النوبيين، فكانت هذه المجموعة من المواطنين ذات وضع خاص فى المجتمع آنذاك، وقد عاش الكسار فترة من

شهريات

حياته يعمل بين هؤلاء المواطنين ولهج بلسانهم ، واندمج في عاداتهم ، فلما اشتغل بالتمثيل كانت شخصية "البربري" .. اي شخصية الخادم ذا اللون الاسود القادم من جنوب مصر ، هي الشخصية التي تتفجر منها كوميديا علي الكسار ، نقدا للمجتمع ، وطلبا للضحك على مفارقاته !

وقد نجح الكسار واستمر نجاحا لمدة طويلة ، ولكنه تعثر في آخر الامر ، فانكمش كأنه طوى تاريخه الفني الحافل الذي كان فيه صنو نجيب الريحاني ، ولكن الريحاني اتيح له ان يبقى ويستمر ، ولم يتح ذلك للكسار ، ولذلك اسباب كثيرة يبينها نجله ماجد الكسار .

ان هذا الكتاب يلقي الضوء على جوانب من حياة الكسار وفنه ، ومؤلفه اقدر من يقوم بهذه المهمة فهو نجل على الكسار ، وقد رأى حياة أبيه من داخلها وخارجها ، وصحبه في السراء والضراء ، وشهد أيامه الجميلة ، كما شهد يومه الاخير في الحياة عندما اسلم روحه في مستشفى قصر العيني سنة ١٩٥٧ .

لقد كان على الكسار علامة بارزة في الكوميديا المصرية ، وقلده الكثيرون في عصره وبعد عصره ، ولكنه بقي متفردا بفنه وطريقته .



الكتاب : كوميديا الحكم الشمولي
تأليف : ابراهيم فتحي
الناشر : هيئة الكتاب
١٣٦ ص ، ١٧٠ ق م .

يتناول الناقد المعروف ابراهيم فتحي بالدراسة عددا من المسرحيات الفكاهية ليوسف ادريس وعلى سالم وجمال عبد المقصود ، من منظور المقاربة بين اعمال هؤلاء الكتاب وبين ينابيع الفكاهة الشعبية التي تقف في مواجهة الاستبداد ، مؤكدا على ان الفكاهة الشعبية طابعا خاصا ، طابعا غير رسمي يبطن العصيان على ما هو تام الصنع ، مصقول ، مطلي بالطلاء ، وتلك الفكاهة تستمد جذورها من التقليد الفلكلوري في تطوره» .

وعالم الاشكال الفكاهية الشعبية ، كما يؤكد ابراهيم فتحي ، ينتصب في مناهضة النبرات «الجدية» المنتفخة ، العابسة المتجهمة ، لعالم الحكم الطغاة الاجانب في معظم الاحيان ، وعالم عساكرهم وجلاديهم ، وعلمائهم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ، فالفكاهة الشعبية نمت خارج اطار الاستبداد الرسمي وتحاول ان تبني عالما ثانيا وحياة ثانية في

مواجهة عالم التخويف والارهاب .

وهذا العالم الذى يشترك فيه الجميع ويتحررون داخله خلال فترة قصيرة ، يمارسون فيها حياة مبتهجة طليقة يتحقق فى الاعياد والاحتفالات والموالد العامة وطقوسها المرحة ، وشخصياتها البعيدة عن الوقار من مهرجين وحواة ولاعبى حظ .



الكتاب : الديوان الأخير
تأليف : عبد الحكيم قاسم
الناشر : دار شرقيات ، القاهرة ١٩٢ ص ، ٧٠ ج م

فى ثوب قشيب ، يأتى هذا المجلد الذى يضم أخر ما تركه لنا الكاتب الروائى البارز الذى فقدناه فى نوفمبر ١٩٩٠ عبد الحكيم قاسم ، وهى سبع عشرة قصة قصيرة ، وفصل من رواية «كفر سيدى سليم» التى لم يكملها ومات دونها ، بالاضافة الى مسرحيته الوحيدة التى اذاعها البرنامج الثانى للاذاعة المصرية لأول مرة عام ١٩٨٨ . «وهى طبل وفانوس ورجال» .

وعلى هذا الاساس تكون قائمة أعمال عبد الحكيم قاسم قد ضمت : ايام الانسان السبعة ١٩٦٩ ، وقدر الغرف المقبضة (١٩٨٢) والاخت لاب وسطور من دفتر الاحوال (١٩٨٣) والمهدى (١٩٨٤) الاشواق والأسى (١٩٨٤) والهجرة الى غير المألوف (١٩٨٥) الظنون والرؤى (١٩٨٦) وطرف من خبر الآخرة (١٩٨٦) ومحاولة للخروج (١٩٨٧) ديوان الملحقات (١٩٩٠) والصغيران وافراخ اليمامة (١٩٩٠) وهى حكاية للاطفال .

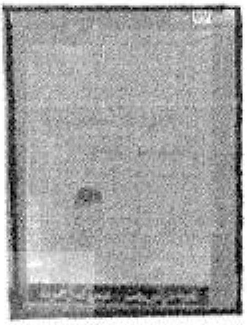
ومن ابرز ما فى هذه المجموعة قصته القصيرة المعنونة الطالب ، ففيها نشهد الملامح الاساسية لطريقة حكى عبد الحكيم قاسم المتفردة ، فنجده يقفز من الجملة الاولى ليصور لنا المشهد بدقة وذكاء وقدرة خارقة على التعبير اللغوى الفنى بمفرداته ذات الايقاع الموسيقى المترابط ، والذى يتفرد به دون غيره من الكتاب ، يقول :

واليوم فى هذه الدار جنون ، خوار الابقار والجواميس ، ثغاء الشياه ، قراق الفراخ ، صراخ النساء والعيال ، البخار من التنور ، الدخان من الكوانين والافران ، والحمارة السوداء ـ فى هذا الصخب المجتاح ، اربعة قوائم واهنة ملتوية ، وبطن ضامرة يغطيها شعر شاب سماره بياض كثير ، وذيل نامى كالعصا ، ورقبة مهزولة تثقلها هامة ماثلة هاوية متدلية الاذنين ، وعيناها الكبيرتان تحدقان فى الأرض بلا تأمل .

فاذا ما جن الليل وكبست الزريبة بالظلام ، وسمت فى الشقوق والحيطان حياة غريبة : صرير متواصل مكتوم ، زفرات قلقة متألمة ، رفة جناح منزعجة متقطعة وصرخة موجزة نهائية ، تهاويل مبهمة تتقلب فى جوف الليل ، والحمارة السمراء تحدق تحديقا

شهريات

مرتجفا في الظلام الدامس ، لكنها لا تزال قادرة على كد الطريق المترب ـ مثقلة بالاحمال ـ في الشمس الحارقة .



الكتاب : المؤسسة العسكرية الاسرائيلية
تاليف : نادية رفعت ، وعمرو حمودة
الناشر : سينا للنشر ـ القاهرة ١٧٦ ص .

هذه دراسة جادة بذل فيها الكثير لتأتي على هذه الصورة الناضجة مستفيدة مما سبقها من دراسات ، وان كانت قد انضافت بترابطها هذه الصورة الدقيقة والعلمية للمؤسسة العسكرية الاسرائيلية التي يرى المؤلفان انها مؤسسة «وضعت» ونمت على «العنف» كوقود لآلتها الشرسة في فرض امر واقع وحقائق ضد ارادة شعب عربي في فلسطين من اجل ابادة ثقافته وكينونته ومصادرة تاريخه ومستقبله . هو كتاب اذن يتناول جذور العنف في الايديولوجية الصهيونية واثرها على تركيبة المؤسسة العسكرية في كافة مستوياتها ، وفي بنائها الداخلي وفكر قيادة اركانها .

كذلك يتناول الكتاب السيطرة «الاخطبوطية» للمؤسسة العسكرية على مجريات الحياة اليومية في اسرائيل ، وعلى القرار السياسي للنخبة الحاكمة ، ليوضح في النهاية ان حياة الاسرائيلي مرهونة بارادة النخبة الحاكمة ، لتلك المؤسسة ومصالح المشروع الصهيوني .

والكتاب ينشر في اطار مشروع طموح تزمع دار سيناء متابعته مستهدفة تقديم «رؤية ديناميكية» للمجتمع الاسرائيلي ، بعيدا عن التقريرية .او المتابعة الوصفية والباردة ، انما تسعى الى تقديم المجتمع في حركته وتفاعلاته دون اغفال ارتباطاته الايديولوجية وعلاقته بجذوره الصهيونية القوية ، ومدى سيطرة هذه الارتباطات والعلاقات بحاضر ومستقبل هذا المجتمع .



الكتاب : بلقاس
تاليف : ممدوح المغربي
الناشر : سلسلة جزيرة الورد الادبية

بعد ايام قلائل من صدور مجموعته القصصية المذكورة ، التحق الاديب وموجه الصحافة المدرسية ببلقاس ممدوح المغربي الى بارئه تاركا وراءه

مجموعة كبيرة من القصص والمقالات والمشاريع الادبية المفتوحة .

يقول في قصة العصفورة الشاردة : «يحس دائما ان الزمن يحاربه ، وأن الليالي الحبالى لا تأتي الا وتنتهز فرصة أخرى ، لتلد له من احشائها هما جديدا ، وحرجا كبيرا . محاربة الزمن له يراها لا هوادة فيها مطلقا ، فكلما وجه بصره الى شيء ، ورأى فيه اعوجاجا وقومه ، أو اسدى النصيحة فأخذ مساره القديم لا يرى بعد ذلك الا انقلابا مخيفا ، فاخلاصه يقابله شر محقق ، واذا كان الزمن معه رحيما ، صار جفاء ابديا ، الخير ينقلب عليه بشيء آخر ، الزمن اذا تسامح معه ، ورق له حرمه من حظه ، دون ان يلحق به اضرارا جديدة .

تذكر متاوره يوم وجدها في الطريق ، وبجوار احد المحلات ، عصفورة صغيرة ، رقيقة الحجم والتكوين ، خرجت الى الحياة أخيرا ، لم يكتمل نمو ريشها ، حمرة ظهرها مازالت موجودة ، ومع ذلك رآها محتشمة غاية الاحتشام ، مستغلة كل الفرص المتاحة لها ، واحس رغم ذلك انها تتوارى خجلا من حمرة جسدها ، وتظن ذلك فتنة لذكور جنسها ، وتقضي وقتها او جله ، في الشدو والتغريد ، لتطرب البشر ، ومن يستطيع من العوالم الأخرى ، ترجمة اغانيها ومزاميرها .



الكتاب : في سوسيولوجيا النص الروائي
تأليف : د . عبد الرازق عيد
الناشر : الاهالي - سوريا ٢٣٢ ص ، ٨٠ ل . س

يضم هذا الكتاب مجموعة من الدراسات المتفرقة التي يعتبرها كاتبها .. محاولة منهجية تطبيقية تسعى للعثور على الشكل في المضمون ، والمضمون في الشكل ، عبر وحدتهما في تفاعلهما الجدلي ، باعتبار ان النص الابداعي لا يمثل بنية محددة العالم فحسب بل رؤية وموقف المبدع نفسه ، من اجل اعادة الاعتبار للنص ومنتجه» .

وبهذا المنهج يتناول الدارس كلا من الاعمال التالية ، اللجنة لصنع الله ابراهيم ، وقلوب على الاسلاك لعبد السلام العجيلي ، والربيع والخريف لحنا مينا ، والحنظل الأليف وزهرة الصندل لوليد اخلاصي ، والف ليلة وليلتان لهاني الراهب ، ورجال في الشمس ، ومن قتل ليلى الحايك ، وما تبقى لكم ، والعائد الى حيفا ، لغسان كنفاني ، ونشيد الحياة ليحيى يخلف ، والرب لم يسترح لرشاد ابو شاور ، بالاضافة الى تأملات نظرية ودراسات عامة لاعمال حنا مينا وغسان كنفاني .

أبو على بن سينا

سيرة ذاتية ٣٧٠ هـ ـ ٤٢٨ هـ

حكيم الشرق : يعالج البدن وينير العقل

بقلم : مصطفى نبيل



الشيخ الرئيس ، ابوعلى بن سينا ، ابرز حكماء الشرق ، اهتم به الكثير من الباحثين ، وكتبوا عن انجازاته العديد من الكتب ، ابرزوا خلالها مكانته فى تاريخ الفكر والعلم .

ونقدم هنا سيرته الذاتية التى لاتتجاوز بضع صفحات ، ولكنها تقود إلى عالمه الرحيب ، نقدم خلالها نبض العصر الذى عاشه ، وننقل لغة وثقافة القرن الرابع الهجرى ، عصر النهضة فى الإسلام .

البداية للدخول إلى عالم ابن سينا ، هى التعرف على ابن سينا نفسه ، قدرته على التحصيل والتأليف ، وهل تنطبق صورته فى المخيلة العربية على صورته الواقعية ؟

كان ابن سينا عظيم الذكاء ، عظيم النشاط ، حاد الذاكرة ، ممتلئا بالحياة والجسارة العقلية ..

وهو لايقل عن أفلاطون أو أرسطو فى العبقرية ، وفى التفكير وملكة الخيال ، اتسمت أعماله بالموسوعية ، وهى ليست مثل موسوعية القلقشندى أو النويرى ، الذى يصنف معارف غيره . ولكنه موسوعى بتعدد اهتماماته وقدراته ، فقد قرأ كثيرا وأنتج كثيرا ، وعاش حياة عريضة ، وعمل بالسياسة ، وتولى الوزارة ، ولم يتوقف أبدا عن الإنتاج الفكرى الغزير ، كتب فى الفلسفة والدين واللغة والفلك والموسيقى ، حتى أن له فى الموضوع الواحد أكثر من كتاب .

وهو شديد الاعتداد بنفسه ، وهو يروى سيرة حياته ، فالناس « عجبوا! من علو تحصيله » وبالفعل كان أشهر أطباء عصره ، وأشهر الفلاسفة ، حفظ القرآن الكريم قبل بلوغه العاشرة من عمره ، وأتقن الطب وهو دون العشرين .

فاقت قدرته على التحصيل قدرته على التدوين والتأليف .

وكان يردد لأصدقائه .. « إنى أوثر عيشا قصيرا رحبا على حياة طويلة ضيقة » . وقد عاش حياة فكرية راقية ، وحياة واقعية يتلمس من تفاصيلها خبرته ، فهو محب للحياة ومولع بالنساء ومتذوق للموسيقى والشعر والغناء .

يقول عن الشراب .. « إنه محرم على الحمقى والمغفلين ، ومحلل للعقلاء .. » فإذا كانت صورة المفكر والعالم فى المخيلة العربية ، تتسم بالهيبة والوقار ، فصورة ابن سينا كما تقدمها حياته غير ذلك ، فقد روى تلميذه الجوزجانى ، أنه يحب الحياة ومتعها ، يقبل عليها ويخوض غمارها ، ويستمتع بمباهجها ، وتوزعت حياته بين الفكر والسلطان والشهوة ، رغم ما بينها من تعارض ، ولكنه لا يرى بأسا فى الجمع بينها ، فكان يصرف أمور الوزارة بالنهار ، ويجمع طلبته ويملى عليهم فى الليل .. « فإذا فرغنا حضر المغنون على اختلاف طبقاتهم ، وهيىء مجلس الشراب بآلاته » ، وينصح طلبته .. « أما اللذات فيستعملها على إصلاح الطبيعة ، وإبقاء الشخص أو النوع أو السياسة ، أما المشروب فإنه يهجر شربه تلهيا بل تشفيا وتداويا .. » .

فهو القائل :

فى الشرب لاتقض إلى الكثير
واقنع من النبيذ باليسير
لاتدمن النبيذ كل يوم
ولاتكن تشرب بعد الصوم
إياك أن تسهر طول الدهر
إن لم يكن فمرة فى الشهر

أبو علي بن سينا

ويضيف تلميذه .. « كان قوى القوة كلها ، وكانت قوة المجامعة فى قواه الشهوانية اقوى واغلب » .

ورغم ذلك نجده يقول .. « اللذات مراتب بحسب سلم القيم .. فلذة الشهوات من طعام وشراب أدنى مرتبة من لذة الغلبة وحب الرياسة والسلطان ، ولذة الحياة العقلية أشرف واتم من اللذات الشهوانية ، ثم إن لذة المعقول ادوم من لذة المحسوس ، ولذلك كانت اللذة الدائمة ارفع من اللذة المتغيرة ، والعلة التى تجعل الإنسان لا يبلغ اللذة العقلية هى اتصاله بالبدن ، وانغماسه فى الرذائل ، ولا سبيل له إلى تحصيل اللذة الشريفة إلا بأن يخلع ربقة الشهوة والغضب عن عنقه ، فيطالع عندئذ لذة المقولات وما فيها من بهاء .. »

وربما كان تفسير التعارض فى اقواله ، انه مثل الفنان الذى يخوض تجاربه لكى تزيد معارفه ، فجولاته فى واقع الحياة ، لم تكن إلا مغامرات فى سبيل المعرفة .

● الفكر الإنسانى

ابن سينا أحد علامات الفكر الإنسانى .

فالكندى والفارابى وابن سينا هم أساطين الفلسفة الإسلامية ، يحتاج كل منهم إلى مجلدات للإحاطة بما أضافه ، ولكن هذه محاولة سريعة للإلمام بما يمثله الشيخ الرئيس .

استوعب ابن سينا كل معارف عصره ، وأحاط بجوانب الحياة تجربة وفكرا ، وبذل جهدا كبيرا للتوفيق بين الإسلام والفلسفات السابقة عليه ، بين كل من افلاطون وارسطو وافلوطين من جانب ، وكل من الفارابى وبعض فرق الاسماعيلية وبعض الفلاسفة من قدماء الهند وفارس من جانب آخر .

وأهم ماجاء به ، دعوته إلى « العقلانية » .. فأخذ يفسر جميع الظواهر من خلال المنهج العلمى ، يقول .. « قد تبلغك عن العارفين أخبار تكاد تأتى بقلب العادة ، فتبادر إلى التكذيب ، وذلك مثل ما يقال إن عارفا استسقى للناس فسقوا ، واستشفى لهم فشفوا .. ومثل ذلك مما لا يأخذ فى طريق الممتنع الصريح ، فتوقف ولا تعجل ، فإن لأمثال هذه أسبابا فى أسرار الطبيعة .. »

والمدينة الفاضلة عنده .. « يحرم فيها الحاكم البطالة والتعطل .. ويقاوم فيها الحاكم الفساد ، ويمنع الميسر والربا والزنا ، ويلتفت إلى أعداء المدينة ، اى الطابور الخامس .. »

لذلك كان طبيعيا مع بشائر نهضة الشرق فى أواخر القرن الماضى ، أن يجد السيد جمال الدين الأفغانى فى كتب ابن سينا المعين للدراسات الفلسفية .

● الحكيم ..

ويجدر ملاحظة انه فى التراث العربى تطلق صفة الحكيم على

الطبيب ، وعلى الفيلسوف معا ، فلكى تكون طبيبا لابد أن تكون مفكرا ، وارتبط الطب منذ نشأته بالفلسفة ، ويكاد يكون معظم فلاسفة الشرق أطباء ، من الكندى وحتى ابن رشد ، وفاقت شهرة ابن سينا كطبيب شهرته كفيلسوف .

ويبدأ المفكر بالطب الذى يختص بالأبدان وأمراضها وعلاجها ، ثم ينتقل للبحث فى النفوس والعقول ، فما معنى كثرة المعارف إذا عجزت عن علاج الأبدان والنفوس ؟ ! ..

واتبع ابن سينا فى دراسة الطب منهجه فى السؤال والبرهان ، وكان كتاب « القانون » فى الطب ، هو الكتاب الذى استمر يدرس فى أوروبا مدة ستة قرون ، وأورد فيه ابن سينا قائمة تضم ٧٦٠ عقارا ، كان العطارون يبيعونها فى زمانه ، ولم يكن غريبا أن التقى وسط صحراء موريتانيا بطبيب تقليدى ، مازال يعتمد فى علاجه على ماجاء فى كتاب ابن سينا .

وعلاوة على العلاج بالأعشاب ، كان أول من اهتدى للعلاقة الوثيقة بين الانفعالات النفسية وأوجاع جسم الإنسان ، وعرف الدواء لداء عضال ، أعراضه ارتعاش الشفتين وزوغان العينين ، والحمى وارتفاع الحرارة ، وهبوط الوزن ، والسرحان حتى التوهان ، أما المرض فهو فقدان الحبيب ، أما العلاج ، فهو الجمع بين المحب ومحبوبته .

ولم يكن غريبا على ابن سينا وهو العارف بالموسيقى ، أن يتبين آثار النغم على المرضى جسديا ونفسيا ، ومن منجزاته التى يذكرها له تاريخ الطب ، دعوته للتخدير عن طريق الفم فى العمليات الجراحية ، ويقال إن المرقد (البنج) قد تم استخراجه على أيامه من الشيلم ، كما وصف الأمراض التى تنتقل بالعدوى ، وأول من أوصى باختبار العقار الجديد عن طريق تجربته على الحيوان قبل الإنسان .

وكلما طالعت مصنفاته فاجأتك ابتكاراته ..

ومنها أنه قبل « بافلوف » الروسى ، لكتشف العلاقة بين كثرة النشاط والمهام التى يقوم بها الإنسان وبين النسيان الذى يرجعه إلى ما يطلق عليه التداخل الرجعى والتداخل اللاحق ، وله أيضا فضل بيان تأثير التغذية والمناخ على الصحة ، وانتشار الأمراض بسبب القذارة والمياه الملوثة .

● ماذكره عن نفسه

وابن سينا أحد الذين دونوا سيرة حياتهم ، وهى سيرة مشهورة أملاها على تلميذه أبوعبيدة الجوزجانى ، وهو فى الثانية والثلاثين من عمره ، ثم أكمل التلميذ بقية قصة حياة أستاذه ، وسجلها كتاب أبو أصيبعة .

يقول القفطى فى أخبار الحكماء .. « سأل أحد التلاميذ ابن سينا أن يحكى له تاريخ حياته ، فأملى عليه ما سطره » ، ويحتفظ المتحف البريطانى

أبو علي بن سينا

بهذه الترجمة ضمن مخطوطاته ، ونشر المستشرق البريطاني موالر هذه الترجمة في المطبعة الوهبية في مصر عام ١٣٠٠ هـ .

ويطرح الدكتور فؤاد الأهواني في دراسته عن ابن سينا السؤال التالي : هل السيرة الذاتية كافية للتعرف على كل جوانب الشخصية ؟ .

ويجيب : « نحن نعلم أن ابن سينا من القلائل في الإسلام الذين كتبوا سيرة حياتهم .

وقد تصور الكثيرون أن هذا التدوين ألقى الضوء على حياته وصور لنا شخصيته ، على أن الشيخ لم يذكر إلا ما أراد أن يفصح عنه ، وقنع المؤرخون بهذه السيرة ، ولم يسع أحد إلى الحديث عنه إلا بما ذكره هو عن نفسه ، غير أنه لم يصور ـ في رأيه ـ سوى المظهر الخارجي من شخصيته ، وبخاصة شخصيته العلمية والسياسية ، أما نوازعه الباطنة ، وخوالجه الخاصة ، وصفحات نفسه من آمال ومخاوف ، ورغباته في الحياة ، وما يؤثره ويحبه ، فلم يذكر عنه شيئا .

ويرى د . الأهواني أن هناك مصدرا آخر نجده في شعره ، أبان خلاله الشيخ أنه لم يكن من الزهاد ، بل أقبل على الحياة وخاض غمارها ، واستمتع بما فيها من مباهج .

● الشيخ الرئيس

ولكنه كان في سيرته صادقا ، ويكفي للتدليل على ذلك أنه ذكر أنه يسترد حيويته بالشراب ، ونعرف من خلال سيرته الذاتية ، أنه أبو علي ابن سينا ، ولد في إفشنه سنة ٣٧٠ هـ ـ ٩٨٠ م ، وهي قرية قرب بخارى ، ومن أسرة فارسية ، وقد أبدى الفتى منذ نعومة أظفاره ، قدرة كبيرة على التحصيل ، حفظ القرآن وهو في سن العاشرة ، فمواهبه ظاهرة حتى أصبح حجة في الفلك والطب والفلسفة والرياضة ، ولما يبلغ العشرين ، وتتلمذ على يدي إسماعيل الزاهد ، ثم اشتغل بالمنطق والهندسة وتتلمذ على يدي عبدالله الناتلي ، ثم أقبل على دراسة الطب وقرأ ما ترجم عن اليونان والهند ، وكان لايترك ميدانا من ميادين المعرفة إلا وألف فيه ، وأخذ في معالجة المرضى وهو ابن ستة عشر ربيعا .

ولقب في عصره بالشيخ الرئيس (وهي تسمية ليست عفوا) ، فالشيخ لقب علمي ، والرئيس لقب سياسي ، بعد أن جمع بين الاشتغال بالعلم والسياسة معا ، ويلاحظ على العصر الذي بزغ فيه ، أن التفاعل كان قائما بين كل ثقافات العالم ، وكانت الدولة العباسية هي أقوى دول العالم ، تبسط نفوذها على منطقة شاسعة تصل إلى ماوراء النهر وأفغانستان ، وبلاد فارس وجزيرة العرب والعراق والشام ومصر ، وكانت



الحضارة الإسلامية وريثة كل حضارات العالم القديم .

ورغم أن هذه الدولة بدأت تتفكك إلا أن التفاعل الثقافي داخلها كان متواصلا ، فقامت الدولة الفاطمية في مصر ، والدولة الصفاوية في سجستان ، والدولة السامانية في بخارى (٢٦١ هـ ـ ٣٨٩ م) . وبقيت المنافسات بينها في الفكر والعلم والأدب .

وتبين سيرته الذاتية ، أن اللغة العربية كانت هي لغة الفكر والثقافة في كل أرجاء العالم الإسلامي ، يؤثر مثلا ما يقوله المذهب الاسماعيلي في مصر عن النفس والعقل في بقية الدول ، ومن بينها بخارى مسقط رأس ابن سينا ، كما تظهر السيرة الدور الكبير الذى يقوم به « المعلم » ، ومدى انتشار المكتبات والحرص عليها ، ولم تكن ثقافة العصر ، تقتصر على الفقه والتفسير والحديث ـ كما يتصور البعض ـ ، بل شملت الفلسفة والفلك والرياضة والموسيقى .

★★★

وحان الوقت لنتابع معا نص الجزء الأول من سيرته الذاتية :

« كان أبى رجلا من أهل بلخ ، وانتقل منها إلى بخارى في أيام الأمير نوح بن منصور الساماني ، واشتغل بالتصرف ، وتولى العمل أثناء أيامه بقرية يقال لها خرميثن من ضياع بخارى ، وهي من أمهات القرى وبقربها أفشنة ، تزوج أبى منها بوالدتي وقطن بها وسكن ، وولدت منها بها ، ثم ولدت أخى ، ثم انتقلنا إلى بخارى ، وأحضرت معلم القرآن ومعلم الأدب ، وأكملت العشر من العمر ، وقد أتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب ، حتى كان يقضى منى العجب ، وكان أبى ممن أجاب داعى المصريين ويعد من الاسماعيلية ، وقد سمع منهم ذكر النفس والعقل على الوجه الذى يقولونه ويعرفونه هم ، وكذلك أخى ، وكانوا ربما تذاكروا بينهم وأنا أسمعهم ، وأدرك ما يقولونه ولا تقبله نفسى ، وابتدأوا يدعوننى أيضا إليه ، ويجرون على ألسنتهم

ذكر الفلسفة والهندسة وحساب الهند . وأخذ أبى يوجهنى إلى رجل يبيع البقل ، ويقوم بحساب الهند حتى أتعلمه منه . ثم جاء إلى بخارى أبوعبدالله الناتلى . وكان يدعى المتفلسف وأنزله أبى دارنا رجاء تعلمى منه . وقبل قدومه كنت أشتغل بالفقه والتردد فيه . إلى إسماعيل الزاهد . وكنت من أجود السالكين .

وقد ألفت طرق المطالبة ووجوب الاعتراض على المجيب . على الوجه الذى جرت عادة القوم به . ثم ابتدأت بكتاب « إيساغوجى » على الناتلى . ولما ذكر لى حد الجنس أنه هو المقول على كثيرين مختلفين بالنوع فى جواب ماهو ؟ .. أخذت فى تحقيق هذا الحد بما لم يسمع بمثله . وتعجب منى كل التعجب . وحذر والدى بشغلى بغير العلم . وكان أى مسألة يقولها أتصورها خيرا منه . حتى قرأت ظواهر المنطق عليه . وأما دقائقه فلم يكن عنده فيها خبرة . ثم أخذت أقرأ الكتب على نفسى وأطالع الشروح حتى أحكمت علم المنطق . وكذلك كتاب « إقليدس » . قرأت من أوله خمسة أشكال أو ستة عليه . ثم توليت بنفسى حل بقية الكتاب بأسره . ثم انتقلت إلى المجسطى ـ كتاب بطليموس . وهو فى علم الهيئة والنجوم وحركات الكواكب والأفلاك ـ . ولما فرغت من مقدماته وانتهيت إلى الأشكال الهندسية . قال لى الناتلى : تول قراءتها وحلها بنفسك . ثم أعرضها على لأبين لك صوابها من خطئها . وما كان الرجل يقوم بالكتاب . أخذت أحل ذلك الكتاب . فكم من شكل ما عرفه إلى وقت ما عرضته عليه وفهمته إياه . ثم فارقنى الناتلى . واشتغلت بتحصيل الكتب من النصوص . والشروح من الطبيعى والإلهى » ..

ثم يروى الشيخ الرئيس كيف تكونت معارفه . فخلال نحو عامين قرأ المنطق والفلسفة ـ كما رأينا ـ بفروعها المختلفة . بعد أن استغنى عن المعلم وأخذ يعلم نفسه . وإذا استعصى عليه شىء فى يقظته وجد حله فى منامه . كما كان من عاداته أنه إذا استشكلت عليه مسألة أن يتردد إلى الجامع ويصلى . حتى يتفتح له ما يصعب عليه . ويتيسر له حلها .

واحترف ابن سينا مهنة الطب . فكان لكل كاتب أو مفكر حرفة يعيش منها . ومنحه الطب المكانة الاجتماعية . ومن خلالها عمل بالسياسة . ووصل إلى ضالته من الكتب النادرة .

وعندما تعمق فى الفلسفة وانتقل إلى الإلهيات أى ماوراء الطبيعة . قاده الفارابى المعلم الثانى . ووجد لديه حل كل المسائل المستعصية

ولنتابع معا هذا الجزء من سيرته الذاتية . كما يرويها ..

، وصارت أبواب العلم تنفتح عليّ . ثم رغبت في علم الطب ، وصرت أقرأ الكتب المصنفة فيه ، وعلم الطب ليس من العلـوم الصعبة ، فلا جرم أني برزت فيه في أقل مدة ، حتى بدأ فضلاء الطب يقرءون على علم الطب ، وتعهدت المرضى ، فانفتح على من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة مالا يوصف ، وأنا مع ذلك اختلف إلى الفقه وأناظر فيه وأنا في هذا الوقت من أبناء ست عشرة سنة .

ثم توفرت على العلم والقراءة سنة ونصف ، فأعدت قراءة المنطق وجميع أجزاء الفلسفة ، وفي هذه المدة ما نمت ليلة واحدة بطولها ، ولا اشتغلت في النهار بغيره ، وكلما كنت أتحير في مسألة أو لم أكن أظفر بالحد الأوسط في قياس ، ترددت إلى الجامع وصليت وابتهلت إلى مبدع الكل ، حتى فتح لي المغلق وتيسر المتعسر ، وكنت أرجع بالليل إلى داري ، وأضع السراج بين يدي وأشتغل بالقراءة والكتابة ، فمهما غلبني النوم أو شعرت بضعف عدلت إليَّ شرب قدح من الشراب ، ريثما تعود إلى قوتي ..

● الحل في المنام

ثم أرجع إلى القراءة ، ومهما أخذني أدنى نوم أحلم بتلك المسائل بأعيانها ، حتى أن كثيرا من المسائل اتضح لي وجوهها في المنام .

ومازلت كذلك حتى استحكم معي جميع العلوم ، ووقفت عليها بحسب الإمكان الإنساني ، وكل ما علمته في ذلك الوقت فهو كما علمته الآن ، لم أزد فيه إلى اليوم ، حتى أحكمت علم المنطق والطبيعي والرياضي .

ثم عدلت إلى الإلهي وقرأت كتاب ما بعد الطبيعة ، فما كنت أفهم مـافيه ، والتبس على غـرض واضعه ، حتى أعدت قراءته أربعين مرة ، وصار لي محفوظا ، ومع ذلك لا أفهمه ولا أفهم المقصود منه ، وأيست (يئست) من نفسي ، وقلت هذا كتاب لاسبيل إلى فهمه ، وإذا أنا في يوم من الأيام حضرت وقت العصر في الوراقين ، وبيد دلال مجلد ينادى عليه ، فعرضه على ، فرددته رد متبرم ، معتقدا أن لا فائدة في هذا العلم .

فقال لي : اشتر مني هذا ، فإنه رخيص ، أبيعكه بثلاثة دراهم ، وصاحبه محتـاج إلى ثمنـه ، فاشتريته ، فإذا هو كتاب لأبي نصر الفارابي في أغراض كتاب مابعد الطبيعـة ، فرجعت إلى بيتي ، وأسرعت في قراءته ، فانفتح على في الوقت أغراض ذلك الكتاب ، بسبب أنه كان محفوظا على ظهر قلب ، وخرجت بذلك وتصدقت في ثاني يوم بشيء كثير على الفقراء شكرا لله تعالى .

● العالم والسلطان

وكان سلطان بخارى في ذلك

أبو علي بن سينا

الوقت نوح بن منصور (توفى سنة ٣٨٧ هـ ـ ٩٩٧ م) اتفق له مرض تلج (تردد) الأطباء فيه ، وكان اسمى اشتهر بينهم بالتوفر على القراءة ، فاجروا ذكرى بين يديه ، وسالوه إحضارى ، فحضرت وشاركتهم فى مداواته ، وترسمت بخدمته ، فسألته يوما الإذن لى فى دخول دار كتبهم ومطالعتها وقراءة مافيها من كتب الطب ، فاذن لى ، فدخلت دارا ذات بيوت كثيرة ، وفى كل بيت صناديق كتب منضدة بعضها على بعض ، فى بيت منها كتب العربية والشعر ، وفى آخر الفقه ، وكذلك فى كل بيت كتب علم مفرد ، فطالعت فهرس كتب الأوائل ، وطلبت ما احتجت إليه منها ، ورأيت من الكتب مالم يقع اسمه إلى كثير من الناس قط ، وماكنت رأيته من قبل ، ولا رأيته أيضا من بعد .

فقرأت تلك الكتب وظفرت بفوائدها ، وعرفت مرتبة كل رجل فى علمه ، فلما بلغت ثماني عشرة سنة من عمرى ، فرغت من هذه العلوم كلها ، وكنت إذ ذاك للعلم أحفظ ، ولكنه اليوم معى انضج ، وإلا فالعلم واحد لا يتجدد لى بعده شىء » .

● ابن سينا فى محبسه !

ونأتى إلى الجزء الثالث من سيرته الذاتية ، عندما كانت حياة « الشيخ الرئيس » عاصفة مضطربة تخللتها أسفار عديدة ، ولايكف عن كتابة مؤلفاته ، يكتب أحيانا خلال السفر ، وأحيانا خلال محبسه ، وأحيانا أثناء الفراغ من عمله الوزارى ، وكثيرا ما كان يختفى من الجميع .

وتتسم العلاقة عادة بين العالم والسلطان بالدقة والحساسية ، يجذبه أبهة السلطان والنفوذ الذى يحيطه ، ويبعده الرغبة فى التحرر من هذا النفوذ ، والتفرغ لعلمه ، وعندما يحصل على النفوذ يزهد فيه لكى ينصرف إلى المتعة العقلية ، ثم يعود ويخشى سطوة السلطان وجبروته .

وفى ظل صراع السلطة نفى مرة ، وسجن أخرى عندما اتهمه شمس الدولة بمكاتبة علاء الدولة ، وحرص عليه فسجن فى قلعة فردجان ، ونظم قصيدته :

دخولى باليقين كما تراه
وكل الشك فى أمر الخروج

ولنتابع الجزء الثالث من سيرته كما يرويها :

« وكان فى جوارى رجل يقال له ابوالحسين العروضى ، فسألنى أن أصنف له كتابا جامعا فى هذا العلم الفلسفى ، فصنفت له « المجموع » ، أتيت فيه على سائر العلوم عدا الرياضة ، ولى إذ ذاك إحدى وعشرون سنة من عمرى ، وكان فى جوارى أيضا رجل يقال له أبوبكر البرقى فقيه النفس متوحد

فى الفقه والتفسير والزهد ، مائل إلى هذه العلوم ، فسألنى شرح الكتب له ، فصنفت له كتاب الحاصل والمحصول فى قريب من عشرين مجلدة ، وصنفت له فى الأخلاق كتابا سميته كتاب « البر والإثم » . وهذان الكتابان لايوجدان إلا عنده ، إذ لم يعد أحد ينتسخ منهما .

ثم مات والدى وتصرفت بى الأحوال ، وتقلدت شيئا من أعمال السلطان ، ودعتنى الضرورة إلى الإخلال ببخارى والانتقال إلى كركانج ، وكان أبوالحسين السهلى المحب لهذه العلوم بها وزيرا ، وقدمت إلى الأمير بها وهو على بن مأمون ، وكنت على زى الفقهاء .

ولثبتوا لى مشاهدة داره بكفاية مثلى ، ثم دعت الضرورة إلى الانتقال إلى نسا ومنها إلى أبيورد ومنها إلى طوس ومنها إلى شقان ومنها إلى سمنان ومنها إلى جاجرم رأس حد خراسان ، ومنها إلى جرجان ، وكان قصدى الأمير قابوس ، فاتفق فى أثناء هذا أخذ قابوس وحبسه فى بعض القلاع وموته هناك ، ثم مضيت إلى دهستان ، ومرضت بها مرضا صعبا وعدت إلى جرجان ، وانشأت فى حالى قصيدة فيها بيت القائل :

كما عظمت فليس مصر واسعى
لما غلى ثمنى عدمت المشترى

● المشهد الأخير

يصف تلميذه المشهد الأخير بقوله .. « صار أمره فى السنة التى حارب فيها الأمير فى الفراش على باب الكرخ إلى أن أخذه قولنج - قرحة المعدة - ولحرصه على رفقة الأمير اشفاقا من هزيمة يدفع إليها ، ولا يتأتى له المسير فيها مع المرض حقن نفسه فى يوم واحد ثمانى كرات ، فتقرح بعض أمعائه ، فكان ينتكس ويبرأ كل وقت .. وعلم أن قوته قد سقطت وأنها لاتفى بدفع المرض ، فأهمل مداواة نفسه .. » .

ولعل الخطر الذى يخشاه « الشيخ الرئيس » هو الوشاية والمكيدة ، فحرص رغم مرضه على حضور مجلس الأمير ..

وعندما جاء أجله .. « اغتسل وتاب وتصدق بما معه على الفقراء ، ورد المظالم على من عرفه ، وأعتق مماليكه ، وجعل يختم القرآن كل ثلاثة أيام ختمة ، ثم مات » ..

ويا لسخرية القدر ، توفى أشهر الأطباء وأعظمهم نتيجة خطأ فى العلاج ، فقد مات نتيجة إسرافه على نفسه ، وإكثاره فى علاج قرحة المعدة المصاب بها ، فقد أسرف حتى تقرحت أمعاؤه !

وكانت وفاته فى همذان يوم الجمعة من شهر رمضان سنة ثمان وعشرين وأربعمائة ، ولم يتجاوز عمره الثمانية والخمسين .

الشركة الشرقية « ايسترن كومباني » وانجازات كبيرة خلال حكم الرئيس مبارك

تعتبر الشركة الشرقية « إيسترن كومباني » من الشركات الرائدة في مجال الصناعة . وفي لقاء مع المهندس / محمد صادق رئيس مجلس ادارة الشركة اشار إلى ان فترة حكم الرئيس مبارك تميزت بالمعدلات العالية في الانتاج في مختلف القطاعات وتنفيذ مشروعات عملاقة ، وبالنسبة لنا في الشركة الأرقام توضح ذلك ، واضاف قائلا : إن الشركة حققت انجازات كبيرة خلال عشر سنوات هي فترة حكم الرئيس مبارك . فقد ارتفعت قيمة الانتاج الكلي للشركة من ٥٦٣ مليون جنيه عام ٨٠ / ١٩٨١ إلى ٢٧٨٧ مليون جنيه عام ٩٠ / ١٩٩١ بنسبة تطور ٤٤٥٪ . كما بلغ إنتاج الشركة من أصناف السجاير وهي الانتاج الرئيسي للشركة ٤١,٨ مليار سيجارة خلال عام ٩٠ / ١٩٩١ مقابل ٣٣ مليار سيجارة عام ٨٠ / ١٩٨١ بنسبة تطور ١٢٧٪ . وارتفعت قيمة منتجات الشركة من ٣٨٦ مليون جنيه عام ١٩٨٠ إلى ٩٨٢ مليون جنيه عام ١٩٩٠ بنسبة تطور ٢٥٤٪ . أما الصادرات فقد بلغت ١١,١ مليون جنيه عام ٩٠ / ١٩٩١ مقابل ٢,٤ مليون جنيه عام ٨٠ / ١٩٨١ . وتوضح المهندس محمد صادق إلى انه تم تطبيق مركزية تحضير الدخان بالشركة بعد إدماج شركة النصر للدخان والسجائر في الشركة الشرقية مما حقق درجة عالية من التجانس والجودة في الإنتاج . واكد سيادة المهندس محمد صادق انه في السنوات العشر الماضية تمتع العمال بالشركة بالرعاية الاجتماعية الكاملة مما كان له اكبر الاثر في زيادة الانتاج ومن امثلة ذلك :



المهندس / محمد صادق

١ - الاستمرار في تقديم وجبة غذائية للعاملين بثمن رمزي (١٥ مليما) لم تتغير رغم ارتفاع الاسعار .

٢ - الاستمرار في تطوير الخدمات الطبية وصرف الادوية للعاملين بالمجان .

٣ - توفير الانشطة الرياضية والاجتماعية لجميع العاملين بانديه الشركة .

٤ - التوسع في خدمة كل العاملين بالاوتوبيسات من مناطق التجمع إلى مقر العمل والعكس .

٥ - تم انشاء صندوق تامين خاص للعاملين اعتبارا من ١ / ٤ / ١٩٨٢ بما يكفل صرف مكافاة ولاء لهم عند تقاعدهم .

٦ - تم انشاء صندوق رعاية اجتماعية لصرف إعانات للعاملين في حالات الكوارث .

٧ - تعمل الشركة باستمرار على تنمية مهارات العاملين عن طريق التدريب الفني والاداري !

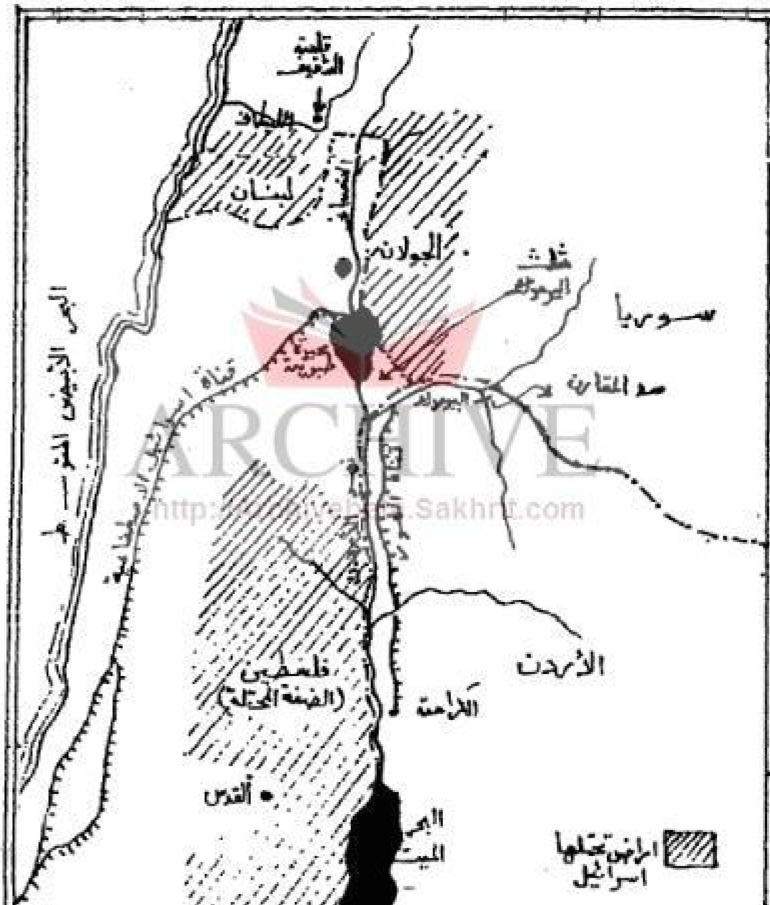
مصطفى البسيوني

آفاق المستقبل

المياه

ومستقبل الصراع العربي الاسرائيلي

بقلم : د. رشدي سعيد



المـيـــــــــــــاه

ومستقبل الصراع العربى الاسرائيلى

منطقة الشرق الاوسط هى واحدة من مناطق العالم القليلة الأمطار، والتى تقع فى معظمها فى حزام الصحارى المدارية وجل اراضيها إما قاحلة او شبه قاحلة. وتعتبر مشكلة تيسر الماء العذب فيها واحدة من اهم القضايا المثيرة للتوتر والمؤثرة على مستقبل استقرارها ومستوى حياة سكانها. وقد اصبحت هذه القضية محل الاهتمام إثر الإعلان عن وضعها أمام مائدة مفاوضات مؤتمر السلام بين دول المنطقة والتى أعلن عن انعقادها، فى موسكو فى آخر شهر يناير الحالى.

●●●

هذا المقال حديث عن مصادر المياه بمنطقة الشام المقسمة الآن إلى خمس دول هى إسرائيل وفلسطين والأردن وسوريا ولبنان وما يثيره موضوع نقص المياه فيها من صدام وتوتر وأطماع وفى فهمه معرفة لأبعاد قضية الشرق الأوسط.

وعلى الرغم من أهمية هذه القضية فإنها لا تشكل بالنسبة لمعظم الدول العربية الإلحاح الذى تشكله لدولة إسرائيل التى تهدف إلى زيادة سكانها عن طريق الهجرات الجماعية التى لا يمكن لها أن تتم دون تأمين مصادر جديدة من المياه غير تلك المتاحة لها فى الوقت الحاضر، وفى الجدول التالى بيان بكمية المياه المتيسرة لدول هذه المنطقة سواء ما يجيئها من داخل حدودها أو ما يصلها من خارجها وكذلك كمية المياه المستخدمة منها:

(أنظر الجدول فى الصفحة المقابلة)

ويتضح من الجدول أن إسرائيل تستفيد من مصادر المياه المتاحة لها سواء ما تيسر لها من داخل حدودها أو ماجاء من خارجها استفادة تكاد أن تكون كاملة فهى تستخدم ما يقرب من ٨٨٪ منها ـ ولما كان جزء كبير من الماء المتاح لإسـرائيل ـ يجيء اغتصابا كما سنبين فيما بعد فإن إسرائيل فى حاجة لاستخدام القوة ليس فقط لحماية هذا الماء بل لإيجاد مصادر جديدة تواجه بها مستقبل نموها وحاجات سكانها المتزايدة فضلا عن حاجات المهاجرين الجدد الذين يفدون عليها. وهذا بالضبط هو مايحرك سياسة اسرائيل ويدفعها إلى التوسع وقبول الجلوس فى المؤتمرات النوعية التى ينوى عقدها ضمن مؤتمر السلام شرط عدم ربط هذه القضية بأى تنازل عن الأراضى التى تحتلها. فإحكام القبضة على الضفة الغربية وهضبة الجولان وجنوب لبنان هو أحد أهداف السياسة الإسرائيلية وذلك للتحكم فى مياه نهرى الليطانى والأردن وروافدهما وتحويل معظم

الدولة	كمية المياه المتيسرة (بليون متر مكعب) من داخل حدود الدولة	من خارج حدود الدولة	مجموع	كمية المياه المستخدمة كميــــة المستخدم	نسبته من المياه المتيسرة	المستخدم للفرد (متر مكعب فى السنة)
إسرائيل	١،٧	٠،٥	٣،٢	١،٩	٪٨٨	٤٤٧
الأردن	،٧	٠،٤	١،١	٠،٤	٪٤٩	١٧٣
لبنان	٤،٨	ـ	٤،٨	٠،٧	٪١٦	٢٧١
سوريا	٧،٦	٢٧،٩	٣٥،٥	٣،٤	٪٩	٤٤٩

مياهها إلى أراضيها ، فدولة إسرائيل تحتاج بالاضافة إلى كل هذه المصادر إلى مصادر أخرى تأمل فى الحصول عليها من دول المنطقة الغنية بالمياه (كالعراق وسوريا) عن طريق مؤتمر السلام الذى تريد أن تكرسه لحل هذه المشكلة دون التنازل عن الأرض التى تحتلها

● **الضفة الغربية المحتلة (فلسطين) :**

يقع تحت أراضى الضفة الغربية مخزن المياه الأرضية الذى تتحرك مياهه ناحية الغرب إلى البحر الابيض المتوسط فتحت سطح الضفة طبقتان تحملان المياه الأرضية ، الضحلة منهما من الحجر الرملى ، والعميقة من الحجر الجيرى تشحنان بالمياه من الأمطار أو من تسرب نهر الأردن وتتحرك فى كليهما المياه ناحية إسرائيل التى تتصيد مياهها بشبكة كثيفة من الآبار التى دقت بين حيفا وتل أبيب ، وتزود هاتان الطبقتان إسرائيل بحوالى ٣٠٪ من جملة احتياجاتها من المياه العذبة وهذه الكمية تشكل حوالى ٨٠٪ من جملة مخزون المياه الأرضية بالضفة الغربية .

وتمنع إسرائيل أهل الضفة من دق آبار جديدة أو الاستفادة من المياه تحت أراضيهم أو القيام بأى عملية تنموية قد تحتاج إلى مياه فى مستقبل الأيام حتى تحافظ على انسياب المياه من الضفة إلى أرض إسرائيل لاستخدامها ولحفظ الضغط داخل الآبار المدقوقة على ساحل البحر الأبيض المتوسط حتى تمنع زحف المياه المالحة إليها .

هضبة الجولان

تحصل إسرائيل فى الوقت الحاضر على ٢٥٪ من جملة استخداماتها من بحيرة طبرية التى تضخ منها المياه إلى ارتفاع ٣٧٠ مترا فوق الجبال لكى تغذى القناة الاصطناعية التى حفرتها

المياه
ومستقبل الصراع العربي الاسرائيلي

حتى حدود مصر لكي تزود الاجزاء الوسطى والجنوبية منها بالمياه العذبة ويبلغ طول هذه القناة حوالى ٣٠٠ كيلومتر وهى من الأعمال الهندسية المعقدة التي تتكون من سلسلة من محطات الضخ والأنابيب والقنوات بُدىء العمل فيها عام ١٩٥٢ وجهزت للتشغيل عام ١٩٦٤ ، ويقع مأخذ هذه القناة عند ساحل بحيرة طبرية عند قرية كفر ناحوم التي تقع على مرمى حجر من هضبة الجولان التي تطمع إسرائيل فى ضمها إليها ، حتى تضمن الحفاظ على سلامة مأخذ القناة ولكي تمنع سوريا من استخدام اراضيها لتحويل مجرى نهر الحصباني (الذي ينبع فيها ويصب في بحيرة طبرية) إلى موقع آخر .

وقد حاولت سوريا بالاشتراك مع الدول العربية في الستينات وقت أن اوشكت إسرائيل على الانتهاء من حفر قناتها الاصطناعية ان تحول مياه نهر الحصباني عن بحيرة طبرية التي يصب فيها لكي يصب في نهر اليرموك عبر هضبة الجولان إلا أن الغارات الجوية المكثفة التي قامت بها اسرائيل على مواقع العمل في هذا المشروع . ثم استيلاءها على هضبة الجولان بكاملها خلال حرب ١٩٦٧ ، قد اوقفا المشروع كلية .

وقد كان للاستيلاء على الجولان اثره في منع أية تنمية لنهر اليرموك الذي يصب في نهر الأردن إلى الجنوب من بحيرة طبرية حتى يصل إلى إسرائيل بكامل تصريفه وفي عام ١٩٦٧ قام الاسرائيليون بتدمير خزان خالد الذي بنته الأردن على النهر عند بلدة مخيبة كما قاموا بعد ذلك بتدمير مأخذ قناة الغور على النهر وبذا أصبح عند ملتقى نهرى اليرموك والأردن من المياه ، ما يكفي لدفعها بمضخات ونقلها عبر خط الأنابيب إلى تل أبيب والنقب .

ولاتوجد حتى الآن أية اتفاقيات تحكم توزيع المياه بين الأردن وإسرائيل فقد رفضت الدولتان مقترحات إريك جونستون في الخمسينات لتنظيم الاستفادة من مياه نهر اليرموك ولكنهما يتعايشان بترك النهر على حاله دون إقامة أية منشآت عليه والسماح للأردن بالحصول على ما يستطيع الحصول عليه بعد حجز ٢٥ مليون متر مكعب لرى مثلث اليرموك (وهو الجزء الذي يقع إلى الشرق من نهر الأردن بداخل دولة إسرائيل فيما بين نهرى اليرموك والأردن وبحيرة طبرية) وترك مياه الفيضان التي تأتي في موسم الأمطار

لكى تذهب إلى إسرائيل فتضخها إلى بحيرة طبرية لاستخدامها ، ولم تسمح إسرائيل للأردن بإقامة أية خزانات على النهر وأوقفت محاولة بناء خزان المقارن فى أعالى اليرموك نتيجة التهديد العسكرى .

● جنوب لبنان

وإذا كان الاستيلاء على هضبة الجولان يضمن لإسرائيل حصة المياه الواصلة إلى بحيرة طبرية فإن استيلاءها على هضبة جنوب لبنان فيه إمكان لزيادة حصتها من المياه لاستخدامها المستقبلى ففيها يقع نهر الليطانى الذى كان مطمعا للحركة الصهيونية منذ بداية القرن وظل امل الاستيلاء عليه حيا . وفى مذكرات موسى شاريت اشارة إلى أن الليطانى كان موضوعا دائما على جدول أعمال مجلس الوزراء الاسرائيلى منذ الخمسينات إلا أن هذا الحلم لم يتحقق إلا بعد أن أعطت الولايات المتحدة الضوء الأخضر عام ١٩٨٢ لاسرائيل بالاستيلاء على جنوب لبنان كما شهدت بذلك مذكرات الكسندر هيج وزير الخارجية الأمريكى حينئذ .

وباستيلاء اسرائيل على جنوب لبنان يصبح أمر تحويل نهر الليطانى إلى إسرائيل أمرا هينا فهذا النهر يتجه من منبعه إلى الجنوب حتى نقطة تقع بجوار حد إسرائيل الشمالى وقلعة الشقيف (بوفورت) الشهيرة . والتى كانت حتى وقت قريب تشكل موقعا حصينا للحركة الفلسطينية ، فى جنوب لبنان . ومن هذه النقطة يتجه النهر فجأة وبزاوية قائمة إلى الغرب فى خانق عظيم حتى يصب فى البحر الأبيض المتوسط ، وعند نقطة تحول النهر إلى الغرب يمكن تحويل مجرى النهر إلى الجنوب عن طريق قناة لايزيد طولها على عشرة كيلومترات فيدخل بذلك فى إسرائيل لكى يغذى بحيرة طبرية والقناة الاصطناعية .

ونهر الليطانى من الأنهار القليلة التى لم يتم استغلالها بالكامل فمازال جزء كبير من مياهه قد يصل إلى ٢٠٠ مليون متر مكعب يلقى فى البحر ، وقد كان للبنان مشروع لاستغلال هذه المياه إلا أن تهديد إسرائيل وتدخل السلطات الأمريكية منعا من تنفيذ المشروع ، إن نقص المياه فى إسرائيل هو أمر بالغ الخطورة على الرغم من جهودها الكبيرة فى الاستفادة من كافة المصادر المتاحة لها بما فى ذلك إعادة استخدام مياه الصرف استخداما يكاد أن يكون كاملا ، واستغلال مياهها الجوفية للدرجة الحرجة ، فإن حاجتها للمياه تزداد ولا يبدو أن تحقيق حلم الدولة الصهيونية التى ستجمع شتات اليهود إلا بالعدوان على مصادر مياه جيرانها ومنع نموهم أو استخدام مصادر ثروتهم الطبيعية .

مستقبل التعليم المصرى

لكن الرد الفورى ، هو أن التعليم ، اذا اقتصر على هذه الوظيفة ، فسوف يؤدى بالمجتمع الى الجمود وجمود حركة المجتمع ، يعنى فى الترجمة العملية ، رجوعا الى الخلف ، ومن ثم تكون النتيجة ، حكما بالاعدام التدريجى البطىء على هذا المجتمع .

بل إننا لنذكر القارىء بأن ابناءنا الذين يدخلون المدارس فى أولى مراحلها الآن ، لن يتخرجوا أعضاء فاعلين فى المجتمع ، الا بعد ما لايقل عن خمسة عشر عاما ، حيث يحيون عالما آخر وظروفا مباينة لكثير مما هو قائم الآن ، مما يحتم أن يستشرف الذين يعلمون ، المستقبل دائما ، والا فسوف ينتجون شخصيات غير صالحة للتعامل مع مجتمع الغد ، وبالتالى ، فنحن ، فى التعليم ، لانقوم فقط بمهمة نقل الموروث الحضارى وانما لابد ـ بالاضافة الى ذلك ـ من (الابداع) ومن (الابتكار) ، عن طريق عملية (استشراف) للمستقبل : معالم تغيره ، وملامح احتياجاته ، وابرز تطلعاته .

ثم أن عملية نقل الموروث الحضارى نفسها لايقوم فيها التعليم بمجرد النقل الآلى ، كما تقوم بذلك وسائل النقل بالنسبة للبضائع والناس ، والا افتقدت نكهتها (التربوية) و (الانسانية) . أن ما يعطيها هذه النكهة ، التى هى ضرورة حياة وحتمية وجود ، أن تتناول هذا الموروث من خلال عمليتين ثقافيتين أساسيتين : عملية (الانتقاء) ، وعملية (النقد) ، فليس كل موروث يصلح للتعليم ، فمن هذا الموروث عناصر هادمة سلبية مخجلة ، لابد من إهالة التراب عليها ، أو على الاقل قصر الاهتمام بها على من يقومون بعملية (التاريخ) وهناك عناصر مضيئة مشرقة ايجابية ، تحتاج الى

كلما هل علم جديد ، اشتد شوق الانسان تطلعا الى المستقبل ..
وإذا كانت تلك "مقولة" تصدق على كثير من المجالات ، فإنها بالنسبة للمشتغلين بالتعليم تكتسب درجة إلحاح اكثر ومستوى من الاهتمام اعلى ، ذلك لأن التعليم ، بحكم وظيفته ، عملية مستقبلية .
وقد يحتج البعض بأن ما نقوم به فى عملية التعليم ، إنما هو عملية (نقل) للموروث الحضارى الى الاجيال الجديدة ، وبالتالى فهو عملية (ماضوية) .

بقلم: د. سعيد اسماعيل على

تكثيف الاهتمام بها لمدها بأسباب الاستمرار ، مع التحسين والتطوير .
وإذا كان هذا يتم فى مرحلة التعليم الاولى بصفة خاصة ، فإننا فيما بعد هذه المرحلة نحتاج الى عملية (نقد) لهذا الموروث الحضارى ، فإذا كانت هناك سلبيات ، فما طبيعتها ؟ وكيف ظهرت ؟ وما العوامل المسئولة ؟ وكيف يمكن تجنبها ؟
بل إننا فى عمليتى (الانتقاء) و (النقد) اللتين تتجها الى (الموروث) ، نحتاج الى (معايير) ، والمعايير هنا ليست مجرد معايير (فنية) ، وإنما لابد كذلك أن تكون معايير اجتماعية/ثقافية/تربوية ، أى لابد وأن تستند الى حاضر الأمة : مقوماتها ، مشكلاتها ، احتياجاتها ، ولابد أيضا أن (تستتبع) المستقبل ، وإلا ، فعلى اى أساس نختار هذا ونترك ذاك إن لم يكن من اجل حاضر الأمة ومستقبلها ؟!

وهكذا يصبح التفكير فى المستقبل (هاجسا) دائما للتعليم والمشتغلين به ، إن أراد المشتغلون به لأمتهم الحياة والاستمرار ، حياة متطورة متغيرة ، تجرى فى عروقها دماء القوة وتتبنى انسجتها بخلايا التقدم .

لكننا ، ونحن نطلع الى المستقبل ، لابد لنا من دليل ... لابد من خريطة .. فى كل الدول المتقدمة ، عندما يهم الانسان بزيارة دولة أخرى ، أو منطقة جديدة بالنسبة له ، لايقف ليسأل هذا أو ذاك عن المكان أو كذا ، وإنما هناك مئات الالوف من الخرائط التى لابد من الاستعانة بها حتى يتحسس طريقه ويصل الى الهدف المطلوب فى أقصر وقت وأقل جهد .
والتطلع الى المستقبل هو زيارة للمستقبل .. لمنطقة مجهولة نحتاج فيها الى خريطة ، والخريطة التى نعنيها هنا ، ذلك الاطار الفكرى العام

مستقبل التعليم المصرى

مشروع النهضة القومى .. الهوية الحضارية .. أيا ما كانت التسمية ، فالمسمى واحد .. وهو (البوصلة) التى ترشد السائر .. (القبلة) التى توجه (العابد) .. الشراع الذى يوجه المركب .. الى غير ذلك من تشبيهات ، أعددها ، حتى أضمن أن يصل ما أريد تكثيف الضوء عليه أمام القارىء .

هنا مشكلة المشاكل حقا بالنسبة للمشتغلين بالتعليم فى مصر . فمن الناحية العملية الفعلية ، نحن مطلوب منا أن نزور المستقبل بغير خريطة : ومن هنا يمكن أن نجد انفسنا بعد عدة سنوات قد عدنا من حيث بدأنا ، ويمكن أن نتجه الى مكان ، فإذا بنا فى مكان آخر .

● مطلوب أن نزور المستقبل

إن المشتغل بالتعليم ، تغلب على عمله صبغة (التنفيذ) .. تنفيذ ما يريده المجتمع منه . المجتمع لابد له من تصور لما يريد أن يكون عليه شأن الأمة فى مستقبل السنين والأعوام .. صورة للمواطن الذى يأمل أن يكون قوام هذه الأمة وعلى أى نحو يريد أن يكون عليه .. عندها يستطيع المربى ويمكن له أن يرسم ويخطط ويعمل ويعلم ، فماذا اذا غاب (النموذج) أو (الموديل) عن الصانع ؟ كل منهما سيجتهد باجتهاده الخاص ، وبالتالى يكون مشروعا لكل من يأتى ، أن يحكم بأن ماسبقه ليس هو المطلوب ، وبالتالى لابد من إعادة الانتاج .. وهكذا نسير فى طريق دائرى ، يوصل السائر عليه الى نقطة البداية ، وليس على طريق مستقيم ، كل يوم يمر ، نخطوا عليه خطوة الى المستقبل ، فيكون تقدما ويكون رقيا .

ولكى يكون حديثنا (تطبيقيا ، لا تحليقا فى أجواء التجريد والتنظير ، نعرض القضية التالية : الدستور عادة هو الوثيقة الرسمية التى من المفروض أن تمثل العقيدة الاجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية للدولة ..

والدستور الذى نعمل به الآن ، تم إعداده عام ١٩٧١ . وفى هذا العام ، لم تكن قد مضت على فترة الستينات إلا شهور تقل جملتها عن العام الواحد ، بحيث كانت (النغمة) السائدة هى هى .. إن هذا المجتمع الذى نحن أفراده (اشتراكى) ، أو يسعى الى أن يكون كذلك . وتحت هذه اللافتة الفكرية ، هناك العديد من التفصيلات والتطبيقات التى يمكن الاشارة الى بعضها (ترجمة) لهذه المقولة ، حياة وعملا فى مجال مثل مجال التعليم :

– كان منها أن تقوم الدولة بالاشراف على التعليم كله وتوجيهه .

– وكان منها أن تقدم الدولة التعليم

لكل المواطنين فى جميع المراحل (مجانا) .

- وكان منها أن يتم القبول فى مراحل التعليم عامة والعالى خاصة عن طريق تنسيق وتوجيه من الدولة ، فى ضوء احتياجاتها من القوى العاملة .

- وكان منها أن تتكفل الدولة بتشغيل الخريجين .

أن القضية أشبه بما نجده لدى الرياضى عندما يقول انه اذا كانت ا = ب ، و (ب) = جـ ، فلابد أن تجىء ا مساوية لـ (جـ) .

وفى أعقاب حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ ، بدأت المؤشرات والتوجهات تسير فى اتجاه آخر .. خطوة خطوة .. نحو "الخصخصة" على طريق رأسمالى . وعندما كان أحد منا ، أو من غيرنا ، يشير إلى ما يعنيه اجراء ما بأنه ابتعاد عن الهوية المعلنة ، كان يجابه دائما بأنه (لامساس) بالمجانية - مثلا - ولاتفكير فى الجامعة الأهلية .

حتى بدأت الساحة العالمية منذ عام ١٩٨٩ تشهد تحولا تاريخيا كبيرا نتج عن الانهيار المدوى لمنظومة الدول الاشتراكية . تساقطت الأطراف ، وبقى المركز ، ليشهد عام ١٩٩١ علامات ومؤشرات تؤذن بأنه هو الآخر بسبيله الى التفكك والانهيار ، هذا المركز هو الاتحاد السوفييتى .

هنا ، اختفت عبارة (لامساس) .

بدأت التصريحات الرسمية من قيادات مسئولة تقول بما كان يستنكر منذ عامين فقط .

أقول الحق ، أنا واحد من الناس ، لست أسفا على هذا الانهيار التاريخى المدوى لمنظومة الكتلة الاشتراكية ، لكنى مفزوع .. مفزوع من هذه التداعيات التى بدأت تطل برأسها على يد البعض

عندما بدأ التحول الاشتراكى فى مصر - مثلا - منذ الستينات ، بدأ بعض السذج والأغبياء ، يفهمون من ذلك أن الدولة - ستقوم بتوزيع الرزق بالتساوى على الناس وهم على الأرائك ينتظرون !! فكان توكلا "بغيضا" متناسين أن هذا الرزق المنتظر من الدولة أن توزعه ، ليست هى المنتجة له ، وانما هم الناس أنفسهم ، فإذا لم يجدوا فى الانتاج ، فلن يتم توزيع عادل .

وفهم بعض السذج والأغبياء أن مركزية السلطة تعنى مركزية الرأى ووحدانية الفكر ، متناسين أن هذا هو الاستبداد بعينه ، والقهر وإن تزيا بزى براق يسر الناظرين .

نفس الشىء يتكرر الآن ، على الوجه الآخر من الاسطوانة ..

انهيار النموذج الاشتراكى ، بدأ يعنى عند كثيرين من الخبثاء والشياطين ، أنه اطلاق للاستغلال .. و اللى تغلب به ، العب به" (اخطف واجرى) .

وهكذا انطلقت وحوش ضارية من القمقم .. وحوش يستحيل أن تظهر

مستقبل التعليم المصرى

على حقيقتها امام الجماهير بأنيابها الحادة ، والسياط التى بيدها ، ونهمها لامتصاص الدماء ، وانما لابد من التخفى .. ولابد من المناورة ... ولابد من المداراة ..

انطلقت مدارس خاصة عديدة تحاول أن تظهر انها تقدم خدمة تعليمية متميزة لايحصل عليها الطلاب فى مدارس الحكومة ، وفى نظير ذلك ، بدأت المصرفات ترتفع تدريجيا حتى وصلت الى الوف الجنيهات .. فى الحضانة ورياض الاطفال .

وبدأت الدولة نفسها تشجع على هذا ، وإن كان ذلك يتم عن غير قصد ، تقول إن العبء ضخم عليها ، والمهمة ثقيلة على اكتافها . وما دامت هناك مدارس خاصة وآباء يدفعون ، فلماذا تزيد من الانفاق الحكومى ؟

وتراجعت معدلات الانفاق على التعليم بالنسبة للدخل القومى ، وتراجعت مؤشرات عديدة ومقومات مختلفة للعملية التعليمية لتتدنى فى مدارس الحكومة عن الحد الأدنى ، حتى فى بعض الدول المتخلفة ، فبدأ آباء وأمهات يهربون بأبنائهم من المدارس الحكومية إلى المدارس الخاصة ، تماما كما يضطر الانسان الى الهرب عندما يرى السفينة التى يركبها قد كثرت فيها مظاهر الخلل ، خوفا من الغرق بها . وفى المدارس الخاصة ، يطالب الاباء والامهات بما يزيد كثيرا عن طاقاتهم ، ويبدأ الاستغلال بصوره البشعة .

ولم تكن وزارة التعليم صادقة مع جماهير الناس فى القول بأنها ملتزمة بالدستور . ويبدأ الالتفاف حوله ، خروجا عليه ، لا استمساكا به . ظهرت نوعية من المدارس ذات لافتة جديدة اسمها (المدارس التجريبية) ، حكومية ذات لغة أجنبية ، تزعم انها تقدم خدمة متميزة ، وفى سبيل ذلك تحصل مصروفات عالية من الطلاب ، وفى ذلك خروج عن المتعارف عليه عالميا من أن مرحلة التعليم الأولى ينبغى أن تخصص للتعليم ذى الصبغة القومية العامة والتركيز على اللغة القومية لتوفير الحد المشترك المكون للوحدة الثقافية بين أبناء الأمة ، وفى ذلك أيضا قول غير الحق ، لأن (التجريب) له معناه الشهير فى عالم التربية والتعليم ، يعرفه كل من درس الف باء العلوم التربوية ، بل لايخفى على كل من أوتى فهما عاما بصيرا بدلالة الالفاظ والمسميات وهذه المدارس ليس بها أى صورة من صور التجريب .. فهى إذن عملية التفاف ، لتقرير مصروفات بدءا من المرحلة الأولى ، باسم القانون الذى صدر عام ١٩٧٩ .

وهل أتحدث عن الدروس الخصوصية ؟ لا أظن أنى مستطيع

ذلك . والا لاحتجت إلى ضعف هذه الصفحات .

● الجامعة المفتوحة ودورها

ومنذ سنوات تعد على أصابع اليد الواحدة ، لا ، بل اقل ، عندما ظهرت فكرة الجامعة الخاصة فى مجلس الشعب ، انبرى المرحوم د . رفعت المحجوب ليستنكر ، بل وينفعل انفعالا حادا ، وهو يمثل السلطة التشريعية ، ويعد الرجل الثانى بعد رئيس الدولة ، وها نحن الآن نسمع عن سعى عملى للوزير الكفراوى لاخراج هذه الفكرة الى حيز التنفيذ ، بل ويعرض مبانى ضخمة أنشئت بالمال العام فى مدينة السادات ، ويبارك وزير التعليم هذا التوجه ويشجعه .

وعلى نفس الطريق يجرى مايسمى (بالتعليم المفتوح) ..

ويحار المرء حقا .. كيف يمكن ان تعمل الدولة على التقليل من المقبولين بالجامعات والمعاهد العليا تدريجيا كل عام ، بسبب الشكوى الشهيرة من بطالة خريجى الجامعات ، وفى نفس الوقت تبارك وتشجع ظهور جامعة خاصة وتعليم مفتوح لايتقيد بقبول أعداد محدودة ، بل يفرز الى السوق آلافا من الطلاب عاما بعد عام ؟

– سيقولون أن هذين التعليمين يتوجهان الى تخصصات جديدة ، السوق فى حاجة اليها .

وهنا نرد بتساؤل آخر : وما المانع ان تطور ما بالجامعات القائمة ؟ إن مايعجزها هو الامكانات ، فما المانع أن توجه هذه الأموال لهذه الجامعات التى هى ملك الأمة جميعا وليست ملكا لفئة دون أخرى ، لتجدد من برامجها وتزيد من أعداد المقبولين بها ؟

ليس المقصود هنا هو مناقشة قضية الجامعة الخاصة والتعليم المفتوح ، وإنما قضيتنا الاساسية فى هذا المقال ، هذا هى التناقض الصارخ بين (فلسفة) و (بوصلة) معلنة فى الدستور ، وحركة فى واقع التعليم .. فلسفة و (بوصلة) تعلن الاشتراكية ، وحركة واقع تسير فى الاتجاه المضاد .

كيف يمكن للمشتغلين بالتعليم أن يخططوا ويرسموا المستقبل للتعليم والخريطة التى بين أيدينا وأيديهم هى لمدينة أخرى ، غير المدينة التى يعيشون فيها ؟

تخيل أن تمسك بخريطة عليها – مثلا النيل فى جهة الشرق ، فإذا بك عندما تتجه اليه تجد صحراء ! تخيل عندما تمسك بخريطة تشير الى أن المتجه الى شارع (ا) ، عليه أن يدخل اليه من نهاية شارع (ب) يمينا ، فإذا بك عندما تفعل ، تجد أن الواقع يحتم عليك أن تتجه الى الشمال فى بداية الشارع (ب) !

أننا بحاجة الى امتلاك شجاعة المواجهة والحسم ، بدلا من اللف والدوران ، الى درجة تقرب من التحايل .. الدستور يرفع لافتة بالنسبة لجميع المراحل ..

فإذا كنا نتنكب الطريق، فلنعلنها

مستقبل التعليم المصرى

صراحة وبوضوح . "أن الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور متشابهات" فهل يحكم علينا أن نعيش التعليم فى معظم الأحوال فى منطقة المتشابهات ؟

● مجانية التعليم
بين التأييد والرفض

ولاننا لاتملك شجاعة المواجهة ، تبرز تفسيرات : المجانية ، إنما هى متعلقة بعملية (التعليم) ، ومن ثم فيمكن تحصيل مصروفات الكتب .

ونتساءل : من يضحك على من ، وهل يكون تعليم بلا كتب ، إن الكتب هى وعاء التعليم وواسطته الأساسية .

ويجىء تفسير من هنا وتفسير من هناك ، لتجد التعليم فى النهاية وقد أصبح الآباء والامهات يدفعون عنه مصروفات باهظة تحت أسماء مختلفة .

دليل المجتمع الرسمى يقول .. مجانية .

وحركة التعليم تسير فى اتجاه الخصخصة !!

انها لصعوبة بالغة فى الوقت الحالى ، أن نبرز مخاطر عديدة تنتظر (مستقبل التعليم) المصرى فى ظل (الخصخصة) ، خاصة وهذا الاتجاه يعيش فى أوج انتصاراته الدولية التاريخية الكبرى . ولكننا لانستطيع التغافل عن بعض الحقائق الاجتماعية الخاصة بمصر والتى تجعل هذا التوجه يحمل أخطارا عدة .

إن (التنافس) الذى يشكل فلسفة الخصخصة هو انسب لمجتمع الوفرة ، أما مجتمع (الندرة) والاختلال الطبقى ، فإنها تتحول الى عملية (افتراس) ، من القادرين لغير القادرين .

ولتأخذ مثالا ، مايتم حاليا فى عمليات الانتقال من مرحلة تعليمية الى اخرى :

انها عملية (فلترة) ، وترشيح ، وغربلة ، تضع سدا أمام البعض ، وتفتح الباب للبعض الآخر . على أى أساس ؟ يقال : مجموع الدرجات ..

لكن السؤال الذى نطرحه هنا : كيف يحصل الطالب على مجموع عال من الدرجات ؟

منذ سنوات ، كانت هناك مدارس (أميرية) تستوفى الكثير من مقومات التعليم من مبان ومنشآت وأنشطة وقلة كثافة طلاب ويوم مدرسى طويل ، كان هناك تعليم فعلى ، بالمجان ، فكان يمكن للطالب أن يذاكر جيدا لينجح بتفوق ، بحيث يفرز الامتحان ذوى الكفاءة عن غيرهم ، بمعيار العلم وحده .

ثم افتقدت المدارس الرسمية معظم المقومات اللازمة لعملية التعليم وأصبحت امكنة (للايواء) بغير تعليم حقيقى ، أو حتى نصف حقيقى .

هنا كان لابد للآباء أن يبحثوا عن سلعة التعليم فى السوق (الحرة) - بثمن باهظة ، فمن الذى يستطيع المنافسة فى الامتحانات اذن ؟ طلاب

المدارس الخاصة وطلاب الدروس الخصوصية !!

● سلعة التعليم فى السوق

التعليم الآن سلعة باهظة التكاليف ، وهناك ألوف قادرون عليه عقليا ، عاجزون عنه (ماليا) . وفى الوقت الذى تحول فيه التعليم إلى مجرد (خزن المعلومات) ، أصبح بالامكان الحصول على (نتيجته) دون حاجة الى استخدام مهارات واستعدادات التفكير والذكاء وإنما بالمال وحده فى كثير من الأحيان ، وآية ذلك ما نراه من رسوب ما يقرب من ٧٠٪ مثلا لطلاب الاعدادى فى كلية الهندسة التى هى من كليات القمة وفقا للتسمية الشائعة بين الناس !! .

وهكذا تتم عملية (الفلترة) و (الترشيح) و (الانتقاء) بغير معيار (الجدارة) و (الاستحقاق)، وإنما بمعيار قوة المال .

ومرة أخرى . أن المال ليس لعنة ، فهو من زينة الحياة الدنيا حقا وصدقا ، ولكنه فى مجتمع معظم أفراده يعيشون حول خط الفقر ، يصبح التنافس افتراسا .. وتصبح "الخصخصة" وحشا خطرا ينتظر آمالنا فى مستقبل التعليم لينقض عليها .

أن هذا يفترض منا الا نسرع بالاستجابة الى هذا التوجه العالمى ونطبقه على التعليم ، لابد من ترتيب الأولويات ، ولنتمهل فى هذا المجال ، إلى أن تبدأ المعضلة الاقتصادية فى الانفراج ، حتى تخفف وطأة الفقر وحتى تخف وطأة المعاناة ، فيشتد ساعد وعود فريق الفقراء فى حلبة المنافسة مع فريق الأغنياء ، ويمكن بالتالى أن تكون القدرة العلمية هى معيار الفوز فى التنافس .

بل إننا اذا شئنا الأولويات ، فلنقل أن سياسة الخصخصة تستوجب أن تمتد أولا الى مجالى السياسة والفكر ، وترجمتها العملية فى هذا وذاك ، أن يكون هناك تداول للسلطة وتعددية فى الفكر ، وتداول السلطة لايقف عند حد تغيير أفراد فى مواقع مسئولية فقط ، بل يعنى كذلك تغيير جماعات وقوى . وتعددية الفكر لاتترجم فى أحزاب تحاصر وأحزاب شكلية ، وإنما فى السماح كذلك لجماهير متعددة التوجهات أن تكون لها تنظيماتها الفعلية العلنية الرسمية ، وتترجم فى حرية اصدار الصحف والمجلات ، وتترجم فى المشاركة فى أجهزة الرأى أو الاعلام .

إن الفلسفة فى معناها العلمى ، لابد أن تتسم بالشمول والاتساق والتكامل ، ويستحيل أن يكتب لها نجاح إذا سرنا على طريق نجد أنفسنا فيه نرفع شعار الخصخصة فى الاقتصاد وننادى به فى التعليم ، وننساه فى مجالى السياسة والفكر ، أو نتذكر القليل منه ، ونسير فيهما على الطريق الاشتراكى .

وفى يقينى أن أولوية خصخصة السياسة والفكر من شأنها أن تمهد الطريق لأن يجىء التعليم بناء (للأصلح) لا (للأقوى) .

الطبقة الوسطى .. وأزمة المجتمع المصرى

بقلم: د. محمود عبد الفضيل

يا لها من مبادرة طيبة من جانب مجلة الهلال ان تفتح نقاشا واسعا حول ازمة وهموم ومسار « الطبقة الوسطى » فى المجتمع المصرى . ولقد ساهم فى هذا النقاش الهام حتى الآن : د . جلال امين ، د . محمود عودة ، د . عاصم الدسوقى من زوايا ورؤى اقتصادية - اجتماعية - تاريخية مختلفة . والحقيقة ان معالجة موضوع هام مثل ازمة الطبقة الوسطى فى مجتمعنا لابد ان تكون بالضرورة معالجة شاملة ذات ابعاد : تاريخية ، اقتصادية ، واجتماعية .

ولقد طرحت هذه المجموعة من المقالات قضايا تعريفية متعلقة بحجم العناصر المكونة لهذه الطبقة عبر المراحل والازمنة التاريخية المختلفة ، وكذا مشاكل النمو الكمى والتغير الذى يرافقه فى الخصائص الاقتصادية - الاجتماعية ..

والانعكاسات السياسية لكل هذه التطورات . كذلك تناولت هذه المجموعة الهامة من المقالات مسائل متعلقة بأزمة الطبقة الوسطى وهمومها الراهنة ودورها المستقبلى فى المجتمع المصرى . وتمثل هذه المقالة مساهمة متواضعة فى هذا النقاش الدائر لكى يمتد الحوار وتتسع دائرته ، من ناحية ، ولاستجلاء بعض نواحى الغموض فى الصورة المرسومة للطبقة الوسطى ومشاكلها ، من ناحية أخرى .

● المشاكل الحدودية بين الطبقات

لعل المشكلة الاولى التى تواجه الباحث فى هذا المجال هى رسم الحدود الفاصلة بين الفئات الاقتصادية - الاجتماعية المختلفة ، لكى نعرف : « **اين تبدأ طبقة واين تنتهى اخرى ؟** » . ومن الواضح ان هذه المسألة لها شقان :

(أ) **شق منهجى** : يتعلق بطبيعة المعايير التى يتم الاستناد اليها **للتصنيف والتدريج الطبقى** بين : طبقة عليا ، ووسطى ، ودنيا . اذ لم يعد من الممكن اجراء عملية التصنيف والتدريج الطبقى هذه بالاستناد الى **معيار وحيد** مثل : الدخل والثروة ، مستوى التعليم ، المكانة الاجتماعية

والسياسية (الحسب والنسب) الممارسات الثقافية والسلوكية .. الخ بل عدنا فى حاجة الى معيار مركب يشمل كل هذه الخصائص وبأوزان مختلفة .

(ب) شق احصائى : يتعلق بتوافر ودرجة الثقة فى البيانات المتاحة حول احجام الفئات الاقتصادية - الاجتماعية - الاقتصادية المختلفة عند نقطة زمنية معينة . فعادة ما تجىء البيانات الاحصائية (وافضلها بلاشك بيانات تعداد السكان) فى شكل تصنيف لفئات مهنية «Occupa- tional groups» غير ملائمة لاغراض التصنيف الطبقى ، وفقا لمعايير مركبة (تجمع عدة خصائص) على النحو السابق بيانه .. الامر الذى يحتاج لعمليات اعادة تصنيف وملاءمة شاقة حتى نصل إلى صورة تقريبية للاوضاع والمواقع الطبقية المختلفة .

ولذا فانه رغم بساطة التصنيف الثلاثى المعتاد للاسر والافراد فى المجتمع الى : طبقة عليا ، وطبقة وسطى ، وطبقة دنيا - تظل المشاكل المنهجية والاحصائية مشاكل شائكة تحول دون الوصول الى رسم خريطة طبقية يعتد بها فى التحليل والنقاش العام .

وفى ظل أحسن الاحوال تفاؤلا ، ومهما كان حجم نجاحنا فى حل تلك المشاكل المنهجية والاحصائية ، تظل هناك بالضرورة مشاكل تلك المناطق الرمادية التى تحتمل التصنيف هنا او هناك ، وهى قد تضيق أو تتسع حسب الظرف التاريخى والاجتماعى . ودرجة «السيولة» و«الحراك» الطبقى السائد فى مرحلة تاريخية معينة ، ومن هنا ينشأ المفهوم «الضيق» والمفهوم «الواسع» للطبقة ، وبالتالى تختلف الاوزان النسبية لكل طبقة فى اطار الخريطة الطبقية العامة للمجتمع ..

● الطبقة الوسطى فى مصر

اذا كنا بصدد تحليل عملية نمو واتساع مراتب الطبقة الوسطى فى مجتمع مثل مجتمعنا . فالافضل ان نتخذ «عدد الاسر» . وليس «عدد الافراد» ، بمثابة الوحدة الاساسية فى التحليل ، حتى لا تضطرب معايير القياس ، باعتبار ان «الاسرة» هى «الوحدة الدخلية» الأساسية وبؤرة النشاط الاقتصادى والاجتماعى والثقافى .

ويرى الدكتور جلال امين (فى مقاله المنشور بمجلة الهلال ، اغسطس ١٩٩١) ان «حجم الدخل والثروة هو اكثر المعايير ملاءمة لتصنيف المجتمع الى الطبقات الثلاث ، مع عدم تعليق اهمية كبيرة على طبيعة المصادر التى يأتى منها الدخل ، على اساس ان المجتمع المصرى ، هو اقل اهتماما الان بالسؤال عن مصدر الدخل والثروة» واختلف مع الدكتور جلال امين حول عدم الاعتداد بالسؤال عن مصدر الدخل او الثروة ، عند اجراء عملية التصنيف والتحليل الطبقى فى ظروف مجتمع مثل مجتمعنا . فبالرغم من ان «النقود ليس لها رائحة» ، كما يقول بعض الاقتصاديين الفرنسيين ، فانه يوجد فى مصر الان نوعان من الدخل :

الطبقة الوسطى وأزمة المجتمع المصرى

(أ) الدخل الدورى القابل للتجدد المرتبط بانشطة اقتصادية لها صفة الدورية ، والديمومة مثل : الانشطة الزراعية ، الصناعية ، التجارية ، والخدمية .

(ب) الدخل الطارىء (او الاستثنائى) القائم على الصدفة ، الشطارة ، المضاربة ، العمولة ، الصفقة غير المتكررة .. الخ .. وهى دخول استثنائية وطارئة تتولد من خلال عمليات « التداول » وليس من خلال عمليات « الانتاج المتجدد ».

ولذا فان الفئات التى قفزت الى مواقع « الطبقة الوسطى » ، من حيث حجم الدخل ، من خلال الحصول على دخل طارىء واستثنائى (دون ان يتحول بالضرورة الى ثروة مادية دائمة مولدة للدخل هى فئات ذات وضع مؤقت فى اطار الطبقة الوسطى .. قد يمتد لحقبة من الزمان ، وليس لجيل كامل . ولدينا سابقة تاريخية فى مصر فى هذا المجال وهى ظاهرة « القرنص » اثناء الحرب العالمية الثانية ، وماانتج عنها من دخول استثنائية وبعض السيولة الطبقية المؤقتة .. لم يكتب لها الدوام والاستمرارية لانها بنيت على ظروف استثنائية ومؤقتة .

وهكذا فان تحديد معالم « الخريطة الطبقية » وفقا لمعيار الدخل دون السؤال عن المصدر ، يتوقف على ما اذا كنا بصدد اخذ « صورة فوتوغرافية » للمجتمع عند لحظة زمنية معينة .. ام اننا نحاول التعرف على عناصر هذه الخريطة من منظور مستقبلى ديناميكى ، بمعنى ، هل تلك « الخريطة الطبقية » التى نرسمها ذات معالم ثابتة ومستقرة نسبيا .. ام انها تعبر عن اوضاع خاصة ذات طبيعة مؤقتة ..

ويرتبط بذلك اعتماد نمط الاستهلاك السائد ، او نوعية ملكية السلع المعمرة كمعيار يسترشد به لتحديد الحدود الفاصلة بين الطبقات والشرائح الاجتماعية المختلفة . فقد تنجح اسرة من الاسر فى تحقيق دخل استثنائى (غير قابل للتكرار) من خلال عمليات الهجرة للخليج مثلا ، تساعدها على اقتناء اغلى السلع المعمرة : سيارة خاصة ، جهاز فيديو ، اجهزة تكييف ، ولكن قد تعجز فى المستقبل عن تدبير نفقات تشغيل وصيانة تلك الاجهزة المعمرة .. مصدر المكانة والوجاهة الاجتماعية التى تؤهل للدخول فى مصاف عناصر الطبقة الوسطى .

وفى ضوء ما تقدم ، اود ابداء بعض الملاحظات على الرقم الذى تفضل به الدكتور جلال امين حول الحجم المطلق والنسبى للطبقة الوسطى فى اطار الخريطة الطبقية للمجتمع المصرى فى النصف الثانى من الثمانينات . فلقد قدر الدكتور امين هذا الحجم بنحو ٢٥ مليون شخص ،

اى نحو ٤٥٪ من السكان ، واعتقد ان هذا الرقم متحيز لاعلى . لانه يشمل النمو الطفرى والمؤقت فى الدخول عند لحظة تاريخية معينة .. وليس له صفة الدوام والاستقرار ..

واذا ما اتفقنا مع الدكتور امين على ان مستويات الدخل الشهرى التقريبي للاسرة التى تناظر الاوضاع الطبقية هى كالتالى : الحد الفاصل بين الطبقة الدنيا والطبقة الوسطى هو الحصول على دخل شهرى قدره **ثلاثمائة جنيه شهريا** ، وان الحد الفاصل بين الطبقة الوسطى والطبقة العليا هو الحصول على دخل شهرى لاسرة قدره **عشرة الاف جنيه** (شاملا المزايا العينية) تظل الصورة شديدة العمومية وينقصها العديد من التفاصيل الهامة . فمن المعروف ان الطبقة الوسطى ـ ان صح التعبير ـ تنقسم الى مراتب وشرائح دخلية . وانه من الضرورى التمييز بين ثلاث شرائح :

(ا) الشرائح العليا من الطبقة الوسطى .. وهى اقرب ما تكون فى طموحاتها ونظام قيمها وانماط معيشتها من الطبقة العليا ..

(ب) الشرائح الوسطى من الطبقة الوسطى .. وهى مايمكن اعتبارها الوعاء الحقيقى للطبقة الوسطى بالمعنى الضيق .

(ج) الشرائح الدنيا من الطبقة الوسطى .. وهى اقرب ماتكون فى نظام قيمها وانماط معيشتها من الفئات الدنيا .

ان مثل هذا التصنيف الداخلى لمراتب وشرائح الطبقة الوسطى المصرية ، يعتبر ضروريا للغاية . واذا ما اعتمدنا معيار الدخل لبساطته ، وبدون اخلال كبير للحدود الدخلية الفاصلة التى سبق الاتفاق عليها ، يمكن تركيب الصورة التالية للتناظر بين الاوضاع الدخلية والاوضاع الطبقية فى مصر عند مطلع التسعينات . كما فى الجدول رقم (١) :

واذا ما انتقلنا الى بعض الاحصاءات الواردة فى تعداد ١٩٨٦

الشريحة الطبقية	متوسط الدخل الشهرى* (باسعار عام ١٩٩١) لاسرة مكونة من زوج وزوجته وطفلين
١ ـ الطبقات الدنيا	٣٠٠ جنيه فى الشهر
٢ ـ الطبقة الوسطى	
(ا) الشرائح الدنيا	٣٠٠ ـ ٩٠٠ جنيه فى الشهر
(ب) الشرائح الوسطى	١٠٠٠ ـ ٣٠٠٠ جنيه فى الشهر
(ج) الشرائح العليا	٣٠٠٠ ـ ١٠٠٠٠ جنيه فى الشهر
٣ ـ الطبقة العليا	اكثر من ١٠٠٠٠ جنيه فى الشهر

(*) شاملا المزايا والتحويلات والمنافع العينية

للسكان فى مصر ، دعونا نلقى مزيدا من الضوء على بعض المؤشرات الهامة ذات الدلالة الطبقية ، لعلنا نصل لتقدير مستقل لحجم الطبقة الوسطى فى مصر فى النصف الثانى للثمانينات من منظور آخر .

وتتركز اهم تلك الشواهد والدلائل فيما يلى :

(أ) عدد الذين يملكون اكثر من شقة او فيلا بأكملها يمثلون نحو ٢٪ من جملة الاسر فى الجمهورية . وفى المقابل ، هناك ٢٢٪ من جملة اسر المناطق الحضرية يعيشون فى غرفة او اكثر بوحدة سكنية ، او فى عشة او خيمة .

(ب) عدد الاسر التى تمتلك تليفزيون ملون هى نحو ٢ مليون اسرة (اى نحو ٢٠٪ من جملة الاسر فى الجمهورية) ، مقابل نحو ربع مليون اسرة (اى ٢٪ من جملة الاسر) تمتلك ديب فريزر وجهاز فيديو .

(ج) عدد الاسر التى تمتلك غسالة كهربائية وتليفزيون ابيض واسود فى حدود ٥٠٪ من جملة اسر الجمهورية ، مقابل ٢٨٪ فقط من الاسر تمتلك ثلاجة كهربائية .

(د) عدد الاسر التى تمتلك سيارة واحدة نحو مليون اسرة (اى ١١٪ من جملة اسر الجمهورية) مقابل ٨٨٪ من جملة الاسر لا تمتلك اية سيارة خاصة . ذلك فى الوقت الذى كان هناك نحو ٦٠ الف اسرة تمتلك سيارتين او ثلاث سيارات (نحو ٠٫٦ من جملة الاسر بالجمهورية) .

(هـ) بلغ عدد الاسر الحائزة على مسكن تمليك نحو ٣٧٫٤٪ فى جملة المناطق الحضرية (مقابل ٢٢٪ فى محافظة القاهرة ، ٢٥٪ فى محافظة الاسكندرية) ، حيث ان العبرة (فى مساكن التمليك) بالمناطق الحضرية .. لان (مساكن التمليك) تعتبر هى النمط السائد تاريخيا فى المناطق الريفية ، والايجار هو الاستثناء ، مع ملاحظة ان من بين حائزى شقق التمليك فى المناطق الحضرية اسرا تنتمى الى الشرائح الدنيا (خاصة فى حالات البناء العشوائى فى المناطق الشعبية ، وفى اطراف المدينة).

وإذا قمنا بتجميع كل تلك المؤشرات ، ووضعها جنبا الى جنب ، يمكن ان تتضح لنا الصورة التشريحية للطبقة الوسطى فى مصر فى النصف الثانى للثمانينات . اذ انه بدلالة هذه البيانات ، يمكن لنا استخلاص بعض المؤشرات الاحصائية الخاصة بالوزن النسبى التقريبى للشرائح الطبقية المختلفة فى المجتمع المصرى :

(١) ان الوزن النسبى للطبقة العليا يتراوح مابين ٣٪ ـ ٥٪ من جملة الاسر فى المجتمع المصرى (نحو ٣٠٠ الف الى نصف مليون اسرة) . اذ ان هذه الاسر هى التى تمتلك سلعا استهلاكية متقدمة وترفيهية : ديب فريزر ، أجهزة فيديو ،

اكثر من سيارة خاصة .

(٢) الشرائح العليا من الطبقة الوسطى : تمثل ١٠٪ من جملة الاسر فى المجتمع المصرى (اى نحو مليون اسرة) وهى تلك الاسر التى تتميز بامتلاك اجهزة تليفزيون ملون ، وسيارة ملاكى واحدة لكل اسرة .

(٣) الشرائح الوسطى من الطبقة الوسطى تمثل ٢٢٪ من جملة الاسر فى المجتمع المصرى (اى نحو ٢,٢ مليون اسرة) وتتميز بتملك ثلاجة كهربائية وشقة تمليك (فى المناطق الحضرية) عن دونها من الشرائح الطبقية الادنى .

(٤) الشرائح الدنيا من الطبقة الوسطى وتمثل ١٥٪ من جملة الاسر فى المجتمع المصرى (اى نحو ١,٥ مليون اسرة) ، وتتميز بامتلاك غسالة كهربائية وجهاز تليفزيون ابيض واسود ، عن دونها من الشرائح الدنيا فى المجتمع .

(٥) الشرائح الاجتماعية الدنيا : وتمثل ٤٧٪ من جملة الاسر فى المجتمع المصرى (اى نحو ٤,٥ مليون اسرة) ، من بينها النصف تقريبا (٢,٥ مليون اسرة) تعيش فى ظروف بالغة البؤس ، اذ لا يوجد لديها اية سلعة معمرة على الاطلاق وتعيش فى غرفة مستقلة (او غير مستقلة) فى وحدة سكنية او فى عشة او خيمة او مدفن .

وهكذا نخرج بالصورة الاجمالية التالية للتركيبة الطبقية فى المجتمع المصرى فى النصف الثانى من الثمانينات :

الطبقة العليا : ١ ـ ٢٪ من جملة الاسر (٢٠٠ الف الى نصف مليون اسرة)

الطبقة الوسطى : ٤٨٪ ـ ٥٠٪ من جملة الاسر (٤,٧ مليون اسرة) .

الشرائح الدنيا : ٤٧٪ من جملة الاسر (٤,٥ مليون اسرة).

ويلاحظ ان هذه التقديرات تقترب بشدة من التقديرات التقريبية التى اوردها الدكتور جلال امين فى دراسته ، باستخدام معيار الدخل . ولكننا نعتقد ان الشرائح الدنيا من الطبقة الوسطى (١٥٪ من جملة الاسر فى المجتمع المصرى) مهددة بالانحدار الى مصاف الطبقات الدنيا بفعل الازمة الاقتصادية القادمة . **ولذا فان نحو ٣٥٪ من جملة الاسر فى مصر يمكن اعتبارها فى صفوف الطبقة الوسطى بصفة دائمة ومتجددة ..**

● الازمة القادمة للطبقة الوسطى فى مصر

ان المتأمل فى التاريخ المصرى الحديث منذ بداية هذا القرن ، يكتشف ان تلك الطبقة الوسطى ـ على تنوع فئاتها ومراتبها ـ قد شكلت العمود الفقرى لحركة المجتمع المصرى السياسية والفكرية منذ ثورة ١٩١٩ ، ومرورا بثورة ١٩٥٢ ، وحتى الان . فلقد شكلت تلك الفئات الوسطى ، العمود الفقرى للحركة السياسية والتنظيمات الحزبية المصرية ، والنقابات المهنية ، ومن بين صفوفها انحدر اهم المفكرين والكتاب والفنانين : كطه حسين ، وعباس

الطبقة الوسطى وأزمة المجتمع المصرى

العقاد ، واحمد امين ، وتوفيق الحكيم ، ومحمد مندور ، ولويس عوض ، ومحمد حسنين هيكل ، واحمد بهاء الدين ، والاف اخرين .

وهى ذات الفئات التى ملأت الحياة العامة جلبة وضجيجا منذ عام ١٩١٩ وحتى الان ، بما نالته من حظ طيب من التعليم والوعى السياسى ، وما كانت تتمتع به من وقت فراغ يسمح لها بالحركة والحضور السياسى والحيوية الفكرية .

كذلك اذا عدنا قليلا الى الوراء نجد ان الجانب الاكبر من مكاسب الخمسينات والستينات ذهبت ، فى معظمها الى ابناء تلك الطبقة ، لاسيما : مجانية التعليم ، والاصلاح الزراعى ، وتثبيت الاسعار ، وتعيين الخريجين ، وتوسع رقعة القطاع العام . ثم جاء الانفتاح وموسم الهجرة الى الخليج ليحدث بعض الانتعاش المؤقت فى الاحوال المالية والمعيشية لتلك الطبقة . التى اخذت تصارع غول التضخم والغلاء قبل ان يصرعها .

ولكن الاوضاع الاقتصادية والاحوال المالية والمعيشية للطبقة الوسطى اخذت تترنح بشدة عند منتصف الثمانينات . فرغم الغلاء والتضخم ، منذ منتصف السبعينات ، فقد نجحت فئات عديدة تنتمى الى الطبقة الوسطى من التنفيس عن ازمتها الاقتصادية من خلال عمليات الهجرة الواسعة النطاق الى بلدان الخليج منذ منتصف السبعينات .. وحتى بداية الثمانينات بشكل ناجح .

ولكن اليوم ، وبعد ان اوشك موسم الهجرة الى الخليج على الانتهاء ، وتضاءلت الامال المعلقة على الحصول على عقد عمل فى الخارج ، ليكون بمثابة جواز المرور للخلاص من الاوضاع المتردية للطبقة الوسطى فى المجتمع ، فان الطبقة المتوسطة هى المرشحة لان تكتوى اكثر من غيرها ، بنيران التضخم نظرا لطبيعة نمطها الاستهلاكى وضيق ذات يدها . فمع ارتفاع تكلفة الدروس الخصوصية ، ونفقات تعليم الابناء عموما . وارتفاع تكاليف البنزين وتكلفة المواصلات وارتفاع اسعار وشرائح استهلاك الكهرباء .. يصبح من الصعب على عناصر الطبقة الوسطى الحفاظ على المستوى المعيشى الذى تمتعت به خلال الخمسينات والستينات والسبعينات والنصف الاول من الثمانينات .

ففى ظل نيران التضخم المضطرمة .. اخشى ان يتحول العديد من عناصر الطبقة الوسطى من مصاف مساتير الناس[1] الى مصاف مساحيق الناس .

. ولذا فاننى اعتقد ان الطبقة الوسطى تواجه اكبر ازمة فى تاريخها منذ بداية هذا القرن (ازمة تفوق الازمات التى عاشتها فى الثلاثينات والاربعينات) وتجىء هذه الازمة فى

لحظة بدأت تفقد فيها هذه الطبقة بعضا من هويتها الوطنية ودورها فى عملية البناء الوطنى . اذ ان تريُّع[٢] اقسام واسعة من هذه الطبقة فى ظل موسم الهجرة للخليج وفوضى الانفتاح ، ساعد على عزلة هذه الطبقة عن وسطها الانتاجى والكفاحى الطبيعى .. واضعف لديها عنصر الانتماء للوطن ، وخضعت تدريجيا لمؤثرات التدويل والدولرة . وهكذا شهدت فترة السبعينات والثمانينات بداية نكوص الطبقة الوسطى على دورها الوطنى والكفاحى .

ورغم كل ذلك ، فاننى لست من القائلين بان عناصر الطبقة الوسطى لم تعد قادرة او مؤهلة على لعب اية دور مهم فى مسيرة بناء الوطن ودعم مقومات استقلاله (على النحو الذى ذهب اليه الدكتور عاصم الدسوقى فى مقاله المنشور فى الهلال - عدد ديسمبر ١٩٩١).

نعم قد لا تستطيع عناصر هذه الطبقة ان تلعب ذلك الدور القيادى فى الكفاح الوطنى على النحو الذى حدث فى العشرينات والثلاثينات والاربعينات او فى البناء الوطنى على النحو الذى شهدناه فى الخمسينات والستينات . ولكنها فى ظل الازمة الاقتصادية والاجتماعية القادمة فى التسعينات (نتيجة الجفاف التدريجى لمصادر الدخول الريعية والطفيلية) ، فانها لن تعد قادرة على الهروب الى الامام من خلال الهجرة الى الخارج او التحول الى طبقة اعمال متريِّعة ، فى الداخل كما فعلت من قبل . بل ستجد نفسها وجها لوجه مع الازمة تتفاعل معها وتشدها مرة اخرى الى مواقع اكثر تقدما .

نعم قد يكون سقط العديد من مفكرى تلك الطبقة ، حينما تحولوا الى مجرد سماسرة فكريين يتنقلون بحقائبهم المنتفخة الاوداج من ندوة الى ندوة فى فنادق الخمس نجوم ، تاركين جمهرة الناس فى المقاهى وفى القرى والدساكر يرتعون فى ظلام مبين ويعانون من فقر ثقافى وسياسى مدقع . لايقدمون لهم سوى التحليلات المنمقة ، وكأنها اصوات الغناء الاوبرالى لا يستمع اليها سوى رواد صالة مغلقة من صالات دار الاوبرا . ولكن اذا غاب المثقف العضوى من ابناء الطبقة الوسطى عن ساحة الوغى ، فليس معنى ذلك غياب او استمرار غياب العناصر الحية والواعدة من ابناء الطبقة الوسطى فى مصر فى مواقع الانتاج ومرافق الحياة المصرية المختلفة .

---

(١) تعبير مساتير الناس هو تعبير جاء فى تاريخ الجبرتى ليقصد به هؤلاء الناس الذين تعتبر احوالهم المعيشية والمالية مستورة بشكل عام ، ولكن ليست بالضرورة ميسورة . واذا ما ترجمنا فئة مساتير الناس ، بلغة الجبرتى ، الى مصطلح جديد بلغة العصر الحالى .. نجد ان المقصود به اليوم هم الشرائح الوسطى من ابناء الطبقة الوسطى ، الذين تعتبر احوالهم المعيشية وسطا بين تبذير وتقتير .

تضميد الجراح العربية

بقلم : د. أحمد صدقي الدجاني



المؤتمرات العربية .. هل تصلح لتضميد الجراح ؟

« تضميد الجراح العربية » شعار ارتفع فى سماء وطننا العربي في اعقاب زلزال الخليج وما اكثر ما تردد هذا الشعار منذ مطلع آذار/مارس ١٩٩١ في المحافل العلمية والسياسية العربية . وكان واضحا عند مردديه ان الجسم العربي والنفس العربية مثخنان بالجراح ، وان بعض هذه الجراح عميق ومتقرّح وبحاجة عند تضميده الى عناية فائقة . فالأمر يتطلب إعمال فكر كى نصل الى اجابة صحيحة عن سؤال كيف نضمد هذه الجراح ؟

ونتنظر فى جراحنا العربية التى نريد تضميدها فنجد ان بعضها مادى فى الجسم والمال يؤدى الى الم معنوى . كما ان بعضها الآخر معنوى فى النفس والفكر يؤدى الى الم مادى . وقد تعددت أسباب هذه الجراح فمنها اولا ما وقع بين دولتين جارتين عربيتين من خلافات تصاعدت الى حد قيام اكبرهما العراق باجتياح الكويت . ومنها ثانيا ما اقترن بهذا الاجتياح من انتهاكات لحقوق الانسان على صعد كثيرة .. ومنها ثالثا دعايات اعلام الأزمة التى حفلت بالشتم والقدح والمضح ، ولم تترك مقدسا من شيمنا وتقاليدنا إلاّ مسّتة .. ومنها رابعا اجراءات رسمية جرى اتخاذها فى عدة اقطار عربية اصابت ملايين العرب باضرار . ومنها خامسا قتال اثناء الحرب الطاحنة التى استمرت ستة اسابيع وكلفت العراق والكويت خسائر فادحة . ومنها سادسا اقتتال بعد الحرب فى العراق نجمت عنه آلام حادة ونتائج وخيمة وتقاطعت عدة ظروف فى حدوثه . ومنها سابعا تصفيات لآثار الحرب فى الكويت تتخذ عدة اشكال . ونجد ايضا ان هذه الجراح وقعت على المستويين الرسمى والشعبى ، وان بعضا منها مصدره أجنبى والبعض الآخر مصدره الدائرتان العربية والاسلامية للاسف الشديد .

نبحث فى تضميد هذه الجراح ، فنقف اولا عند دلالة اللفظ لنستلهمها . فضمد الجرح شدّه بالضماد وهو العصابة . والتضميد يتطلب الصبر وقد قال طلحة «ضمد عينيه بالصبر» . والضمد (بسكون الميم) الظلم والحقد اللازق بالقلب ، وقد نهى عنه الخلق الحميد . ويقول النابغة .. ومن عصاك فعاقبه معاقبة/تنهى الظلوم ، ولا تقعد على الضمد» .

واضح ان التضميد يتطلب تحركا سريعا لعصب الجراح . وعملية العصب هذه تتطلب من المجروح صبرا على ألم الشد وتمالك النفس . ولابد عند القيام بالتضميد من استحضار الخبرة التاريخية .. وتعلمنا هذه الخبرة ان الجراح الناجمة من ظلم ذوى القربى تكون شديدة الوقع على النفس «وظلم ذوى القربى اشد مضاضة/على النفس من وقع الحسام المهند» ، وان الجراح الناجمة من عدوان اجنبى تبقى غائرة فى النفس وما اسرع ما تتكأ وقد ختم عمر ابو ريشة قصيدته عروس المجد بقوله «ضلت الأمة ان ارخت على / جرح ماضيها كثيف الحجب» كما تعلمنا هذه الخبرة التاريخية ايضا ان مما يساعد على شفاء الجراح الخروج من وطأة التمزق النفسى ومن وطأة التشوش الفكرى .

● ايقاف الحملات الاعلامية ؟

ثلاثة أمور يجب القيام بها فى تحركنا لتضميد جراحنا العربية ، بدا

تضميد الجراح العربية

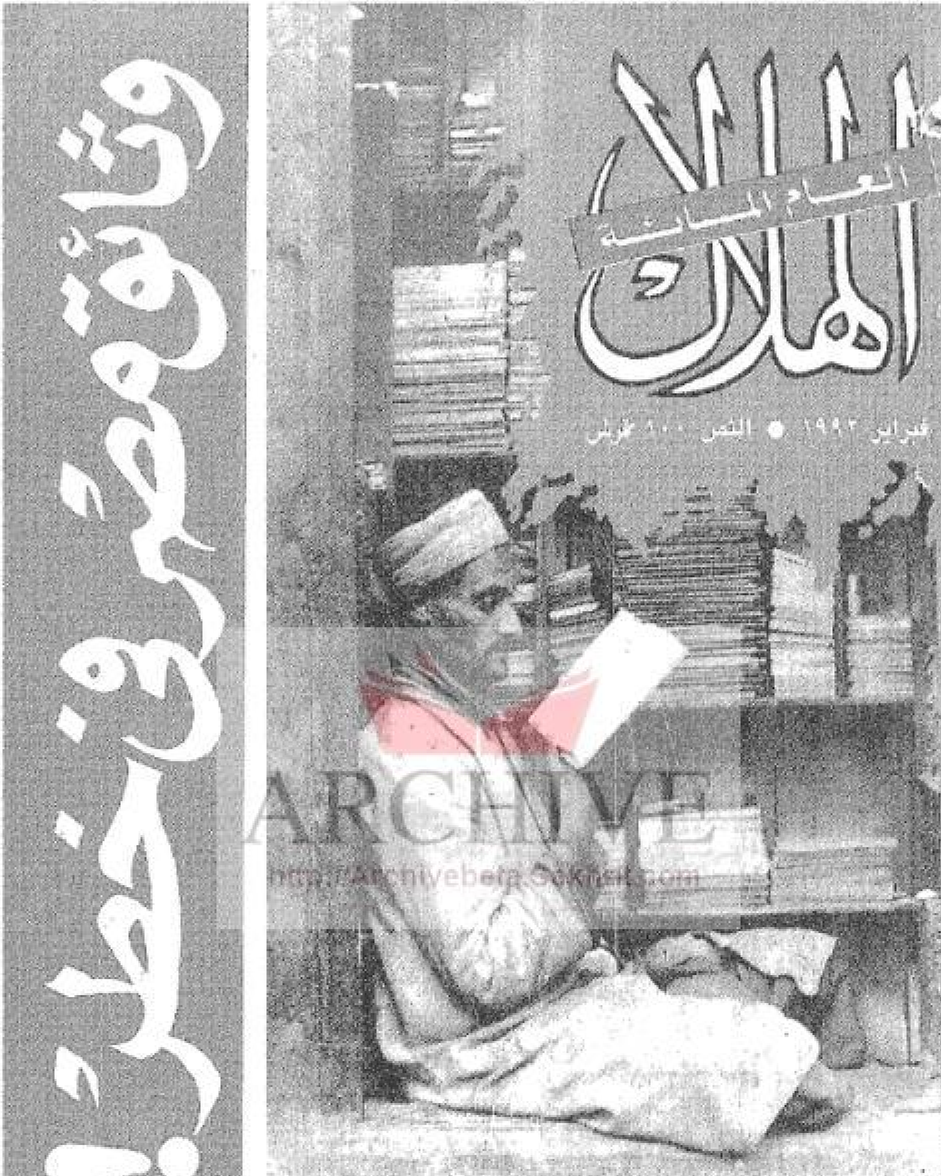
لى ان الحوار الفنى فى الندوات واللقاءات بلورها : اولها على صعيد الاعلام وهو ايقاف دعايات اعلام الأزمة التى تفرق بين شعوب الأمة على أساس جنسيا تهم . وتنشر «الفاحشة» وتبث روح الشقاق . وتوالى العدو الاجنبى ، وتؤدى الى الانهزام ، وتتصف بالاثارة المسببة للتوتر، وبالمباشرة المؤدية للسطحية؛ وبالانتقائية المحكومة بالنظرة الجزئية وبأنها تابعة تردد ما يبثه مصدر خارجي . واستبدال هذا الاعلام الشرير باعلام الكلمة الطيبة التى مثلها كمثل شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء«تؤتى أكلها كل حين بأمر ربها ، وهو اعلام يستهدف البناء ، ويعبر عن روح الانصاف ، ويحاول شرح الظروف المحيطة بمنطق التفسير لا منطق التبرير ، ويتطلع الى المستقبل ، ويواجه الخطر المحدق بالأمة كلها .

الأمر الثانى هو تحقيق تواصل واسع بين أهل الحل والعقد بخاصة وابناء الامة بعامة من خلال اللقاء المباشر الذى يشهد احتدام الجدل والنقاش والحوار . فهذا اللقاء هو الذى سيخرج ما كمن فى النفوس على السطح ويتيح للمشاركين فيه ان يروا الصورة من جميع جوانبها ويستكمل كل منهم معلوماته عن نفسه وعن أخيه ويصل الى نقاط لقاء يكون الانطلاق منها الى كتابة صفحة جديدة . ومن هنا تشتد الحاجة الى تكثيف اللقاءات العربية على مختلف الصعد فى شتى المجالات رسميا وشعبيا . وما اعظم خطأ اولئك الذين يخشون هذه اللقاءات تحسبا من حدوث تفجرات فيها . وقد رأيت بعينى من خلال عدة امثلة كيف كانت تنتهى بالتوافق على امور محددة .

الأمر الثالث هو اعادة النظر فى الاجراءات الاستثنائية التى اتخذتها حكوماتنا العربية على الصعيد القطرى ابان الأزمة والحرب بشأن المواطنين العرب فيما يخص العمل والاقامة والتنقل ، لمتطلبات أمنية . وايقاف العمل بهذه الاجراءات صيانة للأمن وانهاء للخسائر المادية والمعنوية الباهظة التى حدثت بسببها .

هذه الامور الثلاثة مطلوبة بالحاح من اجل تضميد الجراح العربية وهى تستحق منا ان ننظر فى كل منها متأملين فى كيفية تحقيقه .

واتساءل ما مدى الأثر السلبى لدعايات اعلام الازمة علينا كأمة ؟ يستطيع المتابع ان يقطع بأنه واسع وخطيره على الصعيدين الشعبى والرسمى . وقد تفكرت فى هذا المدى اثناء زيارتى لعاصمة عربية أخيرا ، وانا أصادف واقعتين متتاليتين لم تلبث ان تكررت مثيلات



دار الكتب .. جزء خاص ..


سانتو ٢٠٠٠
مسحوق معطر لغسل
وتطهير جميع
أنواع الغسيل
سانتو
٢٠٠٠
إنتاج
شركة الاسكندرية للزيوت والصابون

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جورجي زيدان عام ١٨٩٢

السنة المائة • فبراير ١٩٩٢ • رجب ١٤١٢ • ٩

الإدارة : القاهرة ـ ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا)
ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط)
المكاتبات : ص.ب : ٦١٠ العتبة ـ
الرقم البريدي : ١١٥١١ ـ تلغرافيا
المصور ـ القاهرة ج.م.ع.
مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨١
تلكس : UN Hilal 92703
فاكس : FAX : 3625469

منذ أيام قليلة انتهى معرض الكتاب الدولي ، والذى قدمت فيه الآف العناوين الجديدة بكل لغات العالم ، وجاء هذا المعرض ليضفى على القاهرة مزيدا من العبء فى تحمل مسئوليتها تجاه الثقافة بشكل عام .. ونحن هنا لا نتحدث عن الدور الذى يقوم به هذا المعرض الذى أصبح الثانى على مستوى العالم ـ كما يقولون ـ من حيث عدد دور النشر المشاركة فيه ، وعدد عناوين الكتب الجديدة ، وعدد رواد هذا المعرض ، برغم إحجامهم عن الشراء بسبب الغلاء الرهيب فى أثمان الكتب وتفاوت أسعارها مابين دار نشر وأخرى .

الذى يهمنا هو ماحرصنا على عرضه داخل هذا العدد ، من تدهور رهيب لدار الكتب ، حتى أنها فقدت دورها الهام فى حياتنا الثقافية ، بعد أن كانت تغنى الكثيرين عن المعاناة فى الحصول على الكتب الجديدة لقراءتها سواء من خلال الاستعارة أو الاطلاع .

يشارك عدد من كبار كتابنا ومفكرينا ويدلون بشهاداتهم حول دار الكتب .. الماضى والحاضر والمستقبل .

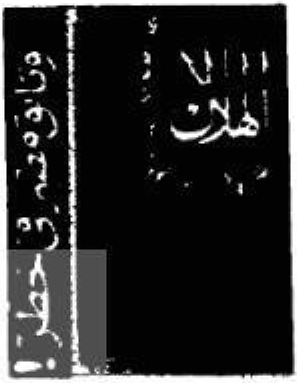
لكن السؤال الذى نطرحه هنا .. كم من الكتب تم شراؤها لتزود بها دار الكتب ، وكانت عشرات الآلاف من العناوين بين أيدينا ؟ وكيف تم الاختيار ، إن كان قد حدث الشراء والاقتناء ؟ إن إصلاح مسيرة دار الكتب يحتاج الى ثورة فى نظامها الحالى ، والى جرأة لمواصلة دورها الثقافى الهام فى حياتنا جميعا ..

ترى هل نحتاج الى قرار جمهورى ، أم يتحرك المسئولون ويثبتون حسن النوايا بهدف الرقى والاعتراف بالخطأ الجسيم الذى وقعوا فيه ؟

في هذا العدد

فكر وثقافة

- مشاكل العلم فى مصر .... سمير حنا صادق ٨
- أحاديث فى الأدب :
  الأدب وإعادة بناء الإنسان .... د . أحمد هيكل ١٤
- القفز على الاشواك :
  صور أخرى للوجه اللامع .... د . شكرى محمد عياد ٢٠
- إسلامية المعرفة ..
  من معالم مشروعنا الحضارى .... د . محمد عمارة ٢٧
- يوميات هذا الزمان ..
  هدية بهاء لنا فى عيد ميلاده .... صافى ناز كاظم ٣٢
- يحيى حقى .. ذلك العاشق .... مها محمود صالح ٣٦
- المثقفون والسلطة فى مصر .... د . عبدالعظيم أنيس ٤٤
- لغز الحضارة .. سر الرقم سبعة .... د . سيد كريم ٥٠
- سيناء .. هذا القفر البديع الموحش ....
  .... د . فاروق اسماعيل ٩٨
- مائة عام على الهلال .... د . رشدى سعيد ١٢٨
- تجربتى مع نعوم تشومسكى .... أسامة القفاش ١٣٨
- جمهوريات آسيا الوسطى بين الأوروبيين والمسلمين !
  .... عبدالرحمن شاكر ١٤٠
- المقاهى الأدبية .... عرض محمود قاسم ١٤٦
- تجربتى مع جلجاميش .... د . عبدالغفار مكاوى ١٦٠
- قواعد المعمار فى السيرة الذاتية ...... د . مصطفى سويف ١٦٨
- شخصيات شعبية ..
  الفارس قيس بن زهير العبسى .... فاروق خورشيد ١٧٤
- المدن العربية الكبرى مشروع للمقارنة .... عبده جبير ١٨٠
- الهوية اليهودية لفرانز كافكا ...... د . عبدالوهاب المسيرى ١٩٦
- مذكرات موسى صبرى .. .. د . غالى شكرى ٢١١



دار الكتب ...جزء ثان..

الغلاف تصميم الفنان : محمد أبو طالب

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى ١٢ جنيها فى ج . م . ع . تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية ــ البلاد العربية ١٢ دولارا ــ أمريكا وأوروبا وآسيا وأفريقيا ٢٥ دولارا ــ باقى دول العالم ٣٥ دولارا .

والقيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال . ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

• دار الكتب .. جزء خاص •

● الهلال يفتح ملف دار الكتب المصرية ٥٨
- دار الكتب والرحلة إلى الهاوية د . الطاهر أحمد مكى ٦٠
- دار الكتب وكيف يبدأ الاصلاح د . عز الدين اسماعيل ٦٨
- دار الكتب لم تعد مكتبة بحث د . شكرى محمد عياد ٧٢
- دار الكتب وأجمل الذكريات .. د . احمد حسين الصاوى ٧٩
- دار الكتب ونشر التراث فى مصر د . محمود الطناحى ٧٨
- دار الكتب .. ذكريات وآمال د . حمدى السكوت ٨٤
- دار الكتب .. وثائق مصر فى خطر سليمان محمد حسين ٨٨
- مكتبة الإسكندرية .... ربيع شتا ٩١

• فنـــون •

● الابداع الفنى المصرى عطاء حضارى متواصل ....
.... د . صبرى منصور ١١١
● البحث عن طوق الحمامة المفقود وأشياء أخرى ....
.... مصطفى درويش ١٢٠
● بيت العوانس فى القومى ووقفة مع الفنان الصادق ....
.... مهدى الحسينى ١٨٣

• شعر وقصة •

● الولد القروى .... شعر عزت الطيرى ٩٧
● النيـل .... شعر سليم الرافعى ١٢٦
● حوارات الأب حانوت .... قصة محمد حافظ رجب ١٥٢

• رسائل صحفية •

● رسـالـة لنـدن ..
الكتابة للمسرح على مشارف الثمانين
.... د . على شلش ٢٠٦

الأبواب الثابتة

٦
عزيزى القارىء

١٩
أقوال معاصرة

١٩٠
شهريات
(المكتبة)

٢٠٢
العالم فى سطور

٢١٨
أنت والهلال

٢٢٦
الكلمة الاخيرة

ثمن النسخة

سوريا ٧٠ ليرة . لبنان ١٥٠٠ ليرة . الأردن ١٠٠٠ فلس . الكويت ٧٥٠ فلسا . السعودية ٨ ريالات . الجمهورية اليمنية ٢٥ ريالا . تونس ١,٥ دينار . المغرب ١٥ درهما . البحرين ٨٠٠ فلس . قطر ٨ ريالات . مسقط ٨٠٠ بيسة . غزة والقدس والضفة ٨٠ سنتا . ايطاليا ٢٧٠٠ ليرة . لندن ١٢٥ بنسا . نيويورك ٤ دولارات . الامارات العربية المتحدة ٨ دراهم . الجماهيرية العظمى ١ دينار .

عودة قابيل وهابيل !

تسقط الدول مهزومة من الخارج بأسلحة أعدائها ، أو تسقط من الداخل بدسائس العملاء والجواسيس وغفلة الشعوب .. وقد حدثنا التاريخ كثيرا عن هزائم الأمم من الخارج والداخل ، إلا أن ما نشاهده بعيوننا الآن يفوق كل ما تحدّث عنه التاريخ المكتوب في أكثر من خمسة آلاف سنة ..

فهاهى ذى دول بلذخة لم يُخلق مثلها فى البلاد - على حد التعبير القرآنى - تنقلب على ظهرها تحت سنابك خيل لم تتحرك من مربطها ، وتمد أعناقها لشفرات سيوف لم تتصلت من أغمادها !.. ومن عجب أن المهزومين بلا هزيمة يطلبون الرحمة من المنتصرين بلا انتصار !..

الدنيا تدخل تاريخا جديداً من أبواب متفرقة لا من باب واحد ، فعندما يتحطم أمن الناس ورخاؤهم وأملهم ، يأكل الناس بعضهم بعضا على النحو الفاجع الذى سجله المؤرخون فى صفحاتهم !..

لقد كتب المقريزى وغيره من المؤرخين صفحات مروعة ببساطتها وصدقها عن المجاعات الكبرى التى اجتاحت القرون الوسطى ، وجاءت معها بالأوبئة والطواعين .. ووصف المقريزى والآخرون وحشية الإنسان القديم عندما جاع فأكل ابنه أو أخاه ، أو أباه ، أو أصدق الأصدقاء ، وأعز الأعزاء !..

وبعد الكشوف العلمية والأعمال التطبيقية التكنولوجية فى النصف الثانى من القرن العشرين ، وبلوغ المجتمعات المتقدمة درجة عالية من التنظيم ، قال الإنسان لنفسه مفتخراً بأعماله : لقد انتصرت على الطبيعة ، وأخضعت نواميسها ، وصرت سيدها !..

وأعلن رجل غارق فى الخمول والأحلام اسمه ليونيد بريجينيف سنة ١٩٨٠ أن "موسكو" قد أصبحت مدينة الوفرة التامة فى الانتاج ، ينطبق عليها الشعار القائل : من كل حسب قدرته ، ولكل حسب حاجته !..

وأمر الرجل الخامل الحالم بتوزيع الخبز مجانا ، وجعل أجور المساكن والمواصلات رمزية ، أما التعليم فبالمجان من بدايته إلى نهايته ، وأما الكتب والتسجيلات الغنائية والموسيقية فبلا مقابل !..

وفجأة ، بعد سنوات قلائل ، انفجرت المجاعة فى عاصمة الخبز المجانى ، والتسجيلات الغنائية والموسيقية التى بلا مقابل !..

وانهار الكيان الضخم الذى كانت موسكو عاصمته المهيبة ، ولم يبق إلا أن يجىء المقريزى بأوراقه وأقلامه ليسجل فصولا جديدة يضمها إلى كتابه القديم عن مجاعات القرون الوسطى التى وقعت عندما كان الإنسان ضعيفا عاجزا لا يملك تكنولوجيا الفضاء ، ولا أساليب استخراج الطعام من الماء والهواء والهباء !..

هل تمخضت أسطورة انتصار الإنسان فى دنيانا على الطبيعة ، عن ردة اجتماعية وسياسية وحضارية تعيد إنسان القرن الحادى والعشرين إلى ماكان عليه إنسان القرن الحادى عشر من عجز وقصور وجهل واستسلام للمقادير حيال الضربات التى تكيلها له صروف الزمان ؟!..

لقد كان كل شىء فى النصف الأول من القرن العشرين يبشر بتقدم فكرى وحضارى لا يتوقف ، ولكنا ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين نرى ارتدادا طفوليا البشرية التى زعم الزاعمون أنها نضجت وتطورت وانتصرت على الطبيعة !..

وبعد الهبوط على سطح القمر ، وبلوغ المركبات الفضائية أرض المريخ والزهرة ، أثبت البشر المتحضرون أنهم أبناء شرعيون لقابيل وهابيل .. القاتل والمقتول فى أول ساعة من فجر الزمان !..

واشتدت مع مجاعة المهزومين وضياعهم ، عنجهية المنتصرين ولا مبالاتهم ، وعنصرية بعنصرية الصهيونيين ووحشية أطماعهم ، واصطبغت الأعمال الأدبية والفنية والثقافية الحديثة جدا فى بلاد المنتصرين والمهزمين جميعا ، بدماء الضحايا فى كل مكان ، وكثرت رصاصات "الرحمة" المرصوصة لأبناء "العالم الثالث" وفى صميمهم أبناء عدنان وقحطان !..

ومع ذلك يبقى الأمل فى شىء لا نراه الآن ، ويستمر التعلق الإنسانى العفوى بالأدب والفن وكل عمل ثقافى يبحث عن الطريق بلا يأس ، بالرغم من جميع بواعث التقزز والغثيان !..

لقد كان الرومان الأقدمون يحيون ذكرى أعزائهم الراحلين ، ويتطهرون من الآثام فى شهر فبراير من كل عام ..

فياشهر فبراير .. كن شهر التطهر والذكرى للناس الآن كما كنت لهم أيام الرومان !..

وياشهر فبراير .. كن كما كانت تسميك أمة السريان قديما : شهر "شباط" .. أو شهر "السبات" والرقاد .. فالبشرية فى حاجة إلى التطهر والتذكر وترقيد جراحها بعد يقظتها المروعة !..

المحرر

مشاكل العلم فى مصر

بقلم : د. سمير حنا صادق

لكي نواجه مشاكلنا في مصر بموضوعية فعالة ، لابد لنا ان نعترف اولا باننا متخلفون باكثر مما نستحق عن ركب الحضارة فى العالم .. فباى مقياس من مقاييس التقدم ، سواء كان ذلك بنسبة التعليم والأمية او بمستويات الثقافة والفنون ، او بمتوسط العمر والصحة العامة ، او بالانتاج الزراعى والصناعى ... باى من هذه المقاييس او بغيرها ، فإننا سنجد انفسنا غير بعيدين عن قاع العالم الثالث .

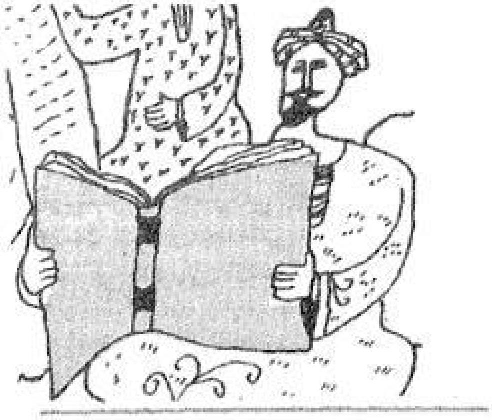
ويكفي ان تقرير هيئة برنامج الامم المتحدة للتنمية « U.N.D.P. » قد وضع مصر فى جداوله عن التنمية البشرية في عام ١٩٩١ بترتيب ١١٤ من ١٦٠ دولة فى موضع متخلف عن الجابون وبتسوانا وفيتنام .. بل وكل البلاد العربية ماعدا اليمن والسودان .

ولعل الكوارث التى تحل بنا يوما بعد يوم ، هى انعكاس لهذا التخلف فى كافة المواقع .. هناك طبعا بعض قشور التقدم البراقة المتناثرة هنا وهناك ولكنها واضحة الهزال .

ولن يجدى فى هذا المجال البكاء على الأطلال ، والفخر بالحسب والنسب ، فعالم اليوم عالم نشط يتطلع الى المستقبل ، وهو عالم لايرحم الكسول ولا يعفو عن الجاهل المتخلف ، ليس امامنا اذن الا النهوض والتقدم ، والا انتهينا ، والعياذ بالله الى كوارث التحلل والتفكك .

والنهضة والتقدم لا تتم الا بتنمية شاملة ، تنمية فى كافة اوجه التخلف الواضحة ، تنمية فى الخدمات ، تنمية فى الانتاج الزراعى والصناعى ، تنمية فى

● أستاذ بطب عين شمس



السلوكيات ، تنمية فى التعليم والثقافة والتدريب ، تنمية فى كافة اوجه الحياة .

والتنمية الشاملة عملية ارادية تحتاج الى تخطيط واع ، يدرس احتياجات المجتمع ، ويدرس قواه ، ويعبىء قدراته لخلق مجتمع اكثر تقدما وحضارة ، ولقد لعب العلم والتكنولوجيا دورا هاما فى التنمية الصناعية والزراعية منذ الثورة الصناعية ، كما اصبح اتباع المنهج العلمى (كما سنوضح فيما بعد) هو الطريق الاساسى لحل المشكلات الاجتماعية المرافقة للتنمية ولتنظيم الخدمات .

لابد لنا اذن من تنمية شاملة مخططة ، ولابد للتنمية المخططة من المنهج العلمى والعلم والتكنولوجيا .

● **اسباب التخلف**

وأداؤنا فى هذه المجالات (المنهج العلمى والعلم والتكنولوجيا) أيضا سيىء .. بل ان اداءنا السيىء فى هذه المجالات قد يكون هو السبب الرئيسى لتخلفنا .. وتكفى العودة الى اى من الدراسات الموثقة : واقترح فى هذا المجال " استراتيجية تطوير العلوم والثقافة فى الوطن العربى " ★ لكى نرى بوضوح موثق بالجداول والأرقام والبيانات ، مدى تقصيرنا فى هذه المجالات حتى عن الكثير من بلدان العالم الثالث .

ولكن البيانات والارقام لا تكفى لايضاح الصورة .. فالأرقام الخاصة بالنشر العلمى مثلا تقارن بين الاعداد ، ولكنها لا تناقش الجودة ، وبيانات اعداد اعضاء هيئات التدريس تحدد الكمية ولاتحدد النوعية ، وكل هذه الأرقام لاتعبر عن القاعدة الشعبية الضخمة المثقلة بالجهل والمعبأة بالخرافات والدجل ، فى بلد كان منشأ الحضارة ومنبع الديانات .

وكاتب هذه السطور ، وقد عاش لمدة نصف قرن ، بين طالب جامعة ، وباحث علمى ، وأستاذ جامعى ، يرى ان كثيرا من الصخور قد وضعت فى طريق

● استراتجية تطوير العلوم والثقافة فى الوطن العربى ١٩٨٩ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .

تقدمنا الى القرن الواحد والعشرين ويرى ان ازالة هذه العقبات عملية معقدة لابد لها من تكاتف كافة القوى لازالتها .. فهناك عقبات تتحمل فى تفهم طبيعة العلم ، وهناك مشاكل تتعلق باللغة ، وهناك سوء استعمال للألقاب العلمية .. عشرات من المشاكل والعقبات .

وغنى عن البيان اننا لن نستطيع ان نناقش كل هذا فى مقال أو مقالين .

ولكن .. كما قال الصينيون : ان مشوار الألف ميل يبدأ بخطوة .

● العلم والمنهج العلمى والتكنولوجيا

العلم :

يختلف الفلاسفة فى تعريف العلم « Science » ★★ ويصل بعضهم مثل بوبر « Pauper » الى حد تعريف العلم بانه ، ما يقبل التكذيب ، ولكن هناك شبه اتفاق علم بأن كلمة ، علم ، (بلفظها الاجنبى) تعنى ماتراكم من المعلومات الموضوعية التى اجتازت حد الشك بالتجربة والقياس والمناقشة والمناظرة .. وهو نظام لم يعرفه العالم الا فى ايام الحضارة الاغريقية وازداد تألقا ايام مكتبة الاسكندرية .. ثم افل نجمه بافول نجم هذه المكتبة ، ثم عرف لفترة ما ايام الحضارة العربية ، ثم اندثر فى عصور الظلمات الى ان عاد الى سابق مجده فى القرنين الأخيرين .

● المنهج العلمى

والمنهج العلمى هو الطريق الى العلم : باجراء التجارب وبالمشاهدة المحايدة ، وبالمناقشة الموضوعية .. وقد جرت الأمور فى وقت ما على اعتبار أن دراسة العلوم الانسانية والطب لاتسرى عليها قواعد وأساليب المنهج العلمى ، على عكس العلوم الطبيعية .. ولكن باكتشاف قوانين علم الاستنتاج الاحصائى Statistical Inference وقوانين الاحتمالات Laws of Probability وباكتشاف ان الحتمية العلمية Scientific Determinism لايمكن تطبيقها حتى فى العلوم الطبيعية ، اتحدت العلوم الطبيعية والعلوم الطبية الاكلينيكية والعلوم الانسانية فى اسلوب دراستها واصبحت جميعا تخضع لمنهج واحد وكما قال C.P. Snow فى ثقافة واحدة .

ولا مفر من تطبيق المنهج

العلمى تطبيقا دقيقا على مختلف مشاكلنا حتى الاجتماعية منها اذا كنا نبغى فعلا الوصول الى مزيد من التقدم والتنمية .. فلو اخذنا مثلا مقولة ما مثل « لقد فشلت علوم العقاقير فى علاج الادمان فى حين نجح العلاج بوضع حجاب أو تميمة » فان هذه العبارة لا قيمة لها ولا فائدة اذا اكتفينا باثباتها بأقوال السلف الصالح أو بقصص متناثرة من هنا وهناك ، ولامفر لكى نثبت صحتها أو خطأها (رغم بعد محتواها عن العلم) الا بالتجربة العلمية ، وتطبيقها دون ذلك خطر على الهدف الأسمى وهو التقدم والسعادة والصحة للبشر .

ولكن امتنا قد ابتليت بكل اسف بمن يجيدون خلط الأوراق ويرتدون ثوب العلماء وهم أبعد ما يكونون عن العلم والمنهج العلمى .

● التكنولوجيا

أما التكنولوجيا فهى استعمال ماتحصلت عليه البشرية من علم فى صناعة اجهزة ومعدات تخدم اهدافا معينة .. وتحتاج التكنولوجيا منا الى وقفة طويلة وتفصيل دقيق .

بعد ان القى فاراداى (١٧٩١ - ١٨٦٧) محاضرة عن أبحاثه العلمية فى ميدان العلاقة بين الكهرباء والمغنطيسية ، سألته احدى الحاضرات « وما فائدة كل هذا ؟» ورد عليها فاراداى قائلا : « سيدتى ، ما فائدة الطفل عند ولادته ؟ »

ولقد ادت اكتشافات فاراداى هذه التى تساءلت السيدة عن فائدتها الى اختراع آلاف مؤلفة من الآلات التى لايخلو منها مصنع او منزل أو طائرة أو سيارة أو مستشفى ، فكل آلة تحتوى على موتور وكل جهاز يحتوى على مؤشر وكل عملية تعتمد على مولد كهربائى هو تطبيق لتلك العلاقة بين الكهرباء والمغناطيسية التى اكتشفها فاراداى .

وكما فجرت دراسات فاراداى فيضا هائلا من التكنولوجيا ، كذلك تسببت النظريات العلمية الأخرى فى ظهور التكنولوجيا الحديثة ، فالنظرية النسبية ، ونظرية الكم هى الأساس العلمى لكافة استخدامات الطاقة الذرية ولكافة الأجهزة الالكترونية كذلك فان نظرية التطور هى الأساس الذى بنيت عليه تكنولوجيا الوراثة والعلوم الطبية والهندسة الوراثية وعلوم الاشارة والاتصال وعلوم اللغات ... الخ ؟ بل ان بعض علماء الطبيعة مثل هوكنج فى كتابه الرائع "تاريخ موجز للزمن" قد لجأ

● يمنى طريف الخولى - فلسفة كارل بوبر - الهيئة المصرية للكتاب

الى نظرية التطور لتفسير تفهم الانسان للظواهر الطبيعية .

العلم اذن هو اساس التكنولوجيا ، وبدونه لاتوجد .. واذا استوردت فى غيابه فانها لابد ستذوى وتندثر وآلاف الاجهزة الميتة كالجثث فى مستشفياتنا ومعسكرات جيوشنا ومدارسنا والمستوردة لارضاء المظهرية الذاتية لمشتريها لتأكد هذه الحقيقة .

ومن العبث تصور أن أى بلد آخر من بلدان العالم سيحل لنا مشاكلنا بتصدير تكنولوجيا خاصة بنا تنفعنا ان كل مانستطيع ان نستورده من تكنولوجيا هو مايحقق اهداف الشركات المصدرة ، وهى فى العادة لاتتفق .. بل تضاد أهدافنا .

التكنولوجيا اذن لاتستورد .. بل تستوعب ، لتدرس وتتغير وتطور (كما صنعت اليابان) الى مافيه خيرنا ونفعنا ، ولايمكن استيعاب التكنولوجيا فى بيئة يغيب عنها العلم .

والتكنولوجيا ليست ترفا مكلفا ، انما هى وسيلة يؤدى استعمالها الرشيد الى توفير الصحة والسعادة للبشر بتكاليف منخفضة ، فيمكن لآلة الكترونية لتشخيص الأمراض ان توفر الآلاف من الجنيهات كانت ستصرف على اوجه علاج مبنية على تشخيص خاطىء والقاعدة الذهبية فى استعمال أى تكنولوجيا هى فى دراسة معادلة التوازن بين التكلفة والمنفعة : Cost Benefit .

ولبعض قادتنا عداء طبيعى للعلم ، ولذا فهم يحاولون اقناع شعبنا بأن التكنولوجيا هى العلم أو انها بديلة عنه ، ويطلقون عليها لتحقيق هدفهم اسماء رنانة مثل « العلم التطبيقى » أو «العلم المناسب» لاحتياجاتنا وتقاليدنا وتراثنا .. وهو طبعا خلط للأوراق ضار بنا ومعطل لتقدمنا .

وكما ينتزع وحش جاهل طفلا من صدر أمه التى يعتمد عليها ويستمد حياته منها فيتحول الطفل فى يده الى جثة هامدة ، كذلك يصنع قادتنا .. فالتكنولوجيا تعيش على العلم وتستمد حياتها منه ، تبتكر او تنتقى بالعلم وتستعمل وتطبق بالعلم ، تصان وتنمو وتتطور بالعلم ، وفى غياب قاعدة علمية مؤهلة ومسلحة بالمنهج العلمى وقادرة على استعمال التكنولجيا ، فسوف تذوى تكنولوجياتنا المستوردة وسوف يفرض وحوش التجارة الآثم واجهزتهم التى

لاتقع لنا بها علينا .. ثم نسيء نحن استعمالها ، ثم لانستطيع صيانتها فتموت وتتحول الى جثث تملأ مصانعنا ومدراسنا ومعسكرات جيوشنا .

ونتيجة لغياب قاعدة علمية قادرة على الاختيار العلمي للتكنولوجيا ، فان توزيع التكنولوجيا على مؤسساتنا ومنشأتنا لا منطق له .. فقد اصبح مظهريا وليس وظيفيا .. ادخل الى غرف القيادات العليا لوزارات مثل وزارات الصحة أو التعليم او الثقافة وسوف ترى احدث تكنولوجيا المعلومات والاتصالات والتكييف .. الخ .

ثم اذهب الى فصول المدارس او حجر المرضى بالمستشفيات العامة او دورات المياه فى المسارح ولسوف تعجب لغياب ابسط مظاهر تكنولوجيا التعليم والتمريض والمراحيض .

وهكذا فبدلا من ان تكون التكنولوجيا المستوعبة علميا اساسا لتقدمنا ورخائنا ، اصبحت عبئا على نمونا وازدهارنا لأننا صدقنا قادتنا الذين حدثونا عن الالكترونيات والمستقبليات وتحولت التكنولوجيا التى استوردناها الى جثث هامدة مشوهة وتحول ثمنها الى عبء جديد اضيف الى ديوننا ، وكل هذا لاننا نسينا انه لا تكنولوجيا بدون العلم والمنهج العلمى .

نحن اذن فى مصر نكثر من استيراد التكنولوجيا دون ان « نتلوث » بالعلم والمنهج العلمى .. ونستخدم التكنولوجيا فى شكل مكبرات صوت وفى شكل سيارات فارهة لايوجد مثلها فى بلاد منتجيها .. ناسين ان اهم استعمالات التكنولوجيا هى الحقيقة فى المساهمة فى تقدم العلم .. فبفضل التكنولوجيا المتقدمة امكن التعرف على الكثير من خواص الكوكب الذى نعيش عليه وعلى طبيعة من يشاركنا الحياة فيه من كائنات حية ، وعلى جانب كبير من طبيعة اجسادنا ، وما يمرضها ويسقمها ، وما يصححها ويقويها .. بل وامكن للتكنولوجيا ان تساهم فى تقدم العلم الذى يستطيع ان يساهم بالتالى فى تقديم التكنولوجيا .

وبعد ..

هذه هى بعض النقاط الأولية التى لابد من الاتفاق عليها .. فى مقال مقبل نناقش بعض المشاكل الأخرى الهامة .

Hawking S.W. 1988 a brief histary of time Bantam Press

الأدب وإعادة بناء الإنسان



طه حسين



توفيق الحكيم



يوسف ادريس

وليس من الصدق مع النفس أن ندفن رءوسنا ونخفي سلبياتنا، ونكتفي بالتفاخر بالماضي المجيد والتاريخ البعيد. فنحن - بعد هذا الماضي وذاك التاريخ - نعيش حاضرا لايشبه من قريب ولا من بعيد هذا الماضي، وإنما هو شيء يوشك - لما أصابه - أن ينبت عن أصوله ويتنكر تماما لجذوره..

ولسنا هنا فى مقام بحث الأسباب القريبة والبعيدة، أو رصد المقدمات التى أوصلت إلى هذه النتيجة. وإنما نحن أمام واقع مؤلم أصاب الانسان بألوان من التمزق النفسى، والتصدع الروحى، والهبوط المعنوى، وهذا يدعو بإلحاح إلى معالجة الداء و«إعادة البناء».

ولما كان الأدب رصدا للحياة وإدراكا لحقيقتها بإيجابياتها وسلبياتها، ولما كان - فى الوقت نفسه - ريادة للحياة إلى آفاقها السعيدة وغاياتها الرشيدة، ولما كان الأديب

لاشك أن أعظم الآمال التى تخفق بها قلوبنا فى هذه المرحلة من حياة بلادنا ، أن نعيد بناء الإنسان على أرضنا . فقد عملت الأحداث الجسام التى مرت بهذا الانسان فى ثلث القرن الاخير عملها فى إصابته بألوان من التمزق النفسى والتصدع الروحى والهبوط المعنوى .. وقد تجلى ذلك فى كثير من السلبيات المؤسفة ، وعديد من الانحرافات المقيتة . بل وصل الأمر عند البعض إلى حد عدم الانتماء ، والشعور إزاء الوطن بالاغتراب أو مايشبه العداء .

بقلم : د. أحمد هيكل



نجيب محفوظ — عبدالرحمن الشرقاوى

إنسانا ذا موهبة خاصة تستوعب الحياة بدقة الحس ونفاذ النظر ، وترود الناس بصدق التعبير عنهم وقوة التأثير فيهم . لما كان الأدب والأديب كذلك ، كان من بديهيات الأمور - ومن أول الواجبات - أن يرتبط الأدب بالحياة ، وأن يحمل الأديب مسئولية الانسان الذى لم يوهب موهبته ولم يمنح ملكته ، ثم يقوم برسالته نحو هذا الانسان ، فى إضاءة الطريق له ، وتعبيد سبيل السعادة أمامه .

وقد عرفت الآداب الكبرى فى تاريخها كله بارتباطها بالحياة وعملها على إسعاد الانسان ، وذلك بالحفاظ على نسيجه النفسى ، وتحقيق طموحه الروحى ، وإعلاء بنائه المعنوى . وبهذا استمر وجود الانسان وتحقق رقيه فى ظل تلك الآداب ، واستطاع أن يحقق لنفسه وللحضارة الانسانية ازدهارا لايمكن أن يجحد .. وهكذا أيضا ازدهر الأدب نفسه فى ظل ارتباطه بالحياة والانسان ، وظهرت

الأدب
وإعادة بناء الإنسان

المذاهب الأدبية نتيجة لهذا الارتباط العضوى والصدق الفنى ، بالاضافة إلى عوامل أخرى ليس هنا مجال تفصيلها .. فنتيجة لقصد الآداب الأوربية إلى تعميق إحساس الانسان بالقيم الموروثة ، ظهرت « الكلاسيكية » ، واستجابة لمطلب الحرية لدى هذا الانسان ، ظهرت « الرومانتيكية » وتلبية لحاجة الانسان نفسه إلى التعبير عن واقعه وتجسيم مشكلاته وتحليل قضاياه ، ظهرت الواقعية .. وهكذا كانت النظرة إلى احتياجات الانسان والرغبة فى بنائه ، سببا أساسيا من أسباب نشاط الأدب وازدهاره ، وتشكيل اتجاهاته وتحديد مساره ..

وللانسان دائما احتياجات روحية وأشواق نفسية وضرورات معنوية ، لا تغنى فى سدها الأمور المادية .. ولاشك أن الأدب أعظم وسائل إشباع الروح وتغذية النفس . ولذا كان هو المسئول الأول عن الانسان فى أهم جوانبه ، وهو الجانب المعنوى .. فإذا ماعملت الوسائل الاقتصادية والسياسية والصناعية والزراعية والصحية ، على تهيئة مايحتاجه الانسان فى حياته المادية ، وإذا مانشطت الوسائل التعليمية على توفير متطلباته العقلية والفكرية ، بقى أن يعمل الأدب على تقديم مايحتاج الانسان فى حياته الروحية والنفسية ، فليس بالخبز وحده يعيش الانسان ، بل ليس بالعلم وحده ينهض أى إنسان . وإنما يكون عيشه الكريم ونهوضه الراقى بتلبية احتياجات الروح ، وإرضاء أشواق النفس وتصحيح مسار العقل . وذلك يأتى عن طريق الثقافة والفن . والأدب أهم روافد الثقافة وأعلى ضروب الفن ..

● سلبيات واضحة !

فإذا ماوجدنا الانسان على أرضنا قد ران على جوهره فى السنوات الأخيرة مالا يرضى من سلبيات ، كالأنانية والفردية واللامبالاة وضعف الاحساس بالغير وقلة الحفاظ على القيم والتحايل على القانون والتمرد على النظام ، أقول إذا وجدنا مالايرضى من هذه السلبيات التى تصل عند البعض إلى حد عدم الانتماء ، لم يعد المقام مقام كتابة أدب للتسلية والترفيه ، ولا للامتاع والمؤانسة ، ولا لاظهار البراعة فى معرفة أحدث الاتجاهات الفنية أو آخر الصيحات الأدبية ، كذلك لم يعد المجال مجال التغنى بالماضى المجيد أو الحلم بالمستقبل السعيد . لأن التغنى بمجد الماضى لايخفف آلام الحاضر ، ولأن صبح الغد لن يأتى إلا من فجر اليوم ، وإذن فالالتفات إلى الواقع المعيشى ينبغى أن يكون الميدان الأول للأدب والأدباء ، وخاصة



يوميات نائب في الأرياف

فى مرحلة إعادة البناء .. وإذا كان الواقع يعانى من التمزق والتصدع والهبوط ، فليس من الامانة مواصلة التشدق بفضائل موهومة وأمجاد مزعومة وخوارق معدومة ، وإنما الأمانة تكون بمواجهة الواقع مواجهة صادقة شجاعة بصيرة ، كمواجهة الطبيب للمريض .

وإذن فعلى الأدب الجاد في تلك المرحلة من حياتنا أن يقوم برصد تلك السلبيات التى تراكمت فى السنوات الأخيرة على الانسان المصرى ، فحجبت حقيقته وأخفت أصالته . ثم عليه أن يعرف أسباب تلك السلبيات ، وما أدى إليها من مقدمات . وأخيرا عليه أن يبحث عن العلاج الشافى والدواء الناجع لكل تلك الأدواء .

فلو عولجت السلبيات التى يعانى منها الانسان المصرى ، فى أعمال أدبية ناجحة ، من قصص وروايات ، وأشعار ومسرحيات ، وفى أشكال فنية كتمثيليات إذاعية وتليفزيونية وأفلام سينمائية ، لو تم ذلك بصدق وفنية على أيدى أدباء موهوبين متمكنين ، لاستطعنا أن نعالج أخطر جوانب التصدع فى الانسان المصرى ، ولأعدنا هذا الانسان من جديد صحيح الوجدان قوى البنيان .

● دعـــوة

إنها دعوة إذن إلى الارتباط من جديد بالواقع المصرى ، على أن يكون أساس هذا الارتباط ، هو تشخيص

الأدب
وإعادة بناء الإنسان

الداء المعنوى فى الانسان ، والبحث له عن دواء .. وليس معنى ذلك انها دعوة إلى معالجة الانسان وإعادة بنائه بالكلام . فالكلام وحده ثرثرة لاتجدى ، أو بلاغة لفظية لاتسمن ولاتغنى من جوع .. وليس معنى تلك الدعوة آخر الأمر ، توظيف الأدب توظيفا سياسيا أو دعائيا أو وعظيا .. ليس المراد شيئا من ذلك على الاطلاق .. لكنها دعوة إلى ان يتعرف الأدباء على احتياجات الانسان الحقيقية ، تلك الاحتياجات التى سبب حرمانه منها تلك السلبيات ، التى وصلت به إلى حد التصدع الذى يحتاج معه إلى إعادة بنائه .. وبعد التعرف على تلك الاحتياجات يكون الالحاح فى تحقيقها والمساعدة فى الوصول إلى أقرب الطرق إليها .. ومن هنا يحس الانسان المصرى أن أدباءه يتكلمون باسمه وينوبون عنه ، ويعملون على تحقيق آماله وإرضاء طموحه وإشباع اشواقه . وبهذا يطمئن إلى هؤلاء الأدباء ، ويحسن الاصغاء إليهم والاستجابة لدعوتهم ، وبهذا يسهل التوجيه ويتم التنوير ، ويستطيع الأدباء النهوض بالجماهير ، لكى تعود إلى أصالتها وتصدر عن حقيقتها ..

على أن هذه الدعوة ليست طلبا لشىء جديد أو غريب لم يعرفه أدبنا من قبل ، فقد أسهم روادنا الكبار منذ اكثر من نصف قرن فى تأصيل هذا الاتجاه البناء الهادف فى أدبنا الحديث . ونستطيع أن نتذكر هنا من أعمال طه حسين « المعذبون فى الأرض » و « دعاء الكروان » ومن أعمال توفيق الحكيم « يوميات نائب فى الأرياف » و « الطعام لكل فم » .. كما مضى أدباء الجيل الثانى من أدبائنا على نفس الدرب . وهنا نستطيع أن نتذكر « الثلاثية » لنجيب محفوظ و « الفتى مهران » لعبد الرحمن الشرقاوى ، و « شىء من الخوف » لثروت اباظة ، و « أرخص ليالى » ليوسف إدريس ..

فهذه الأعمال وكثير غيرها قد مثلت الالتحام بالانسان المصرى ومشكلاته الملحة وهمومه المعيشة ، فى محاولة للصراخ عنه حينا ، وتضميد جراحه حينا آخر ، والحفاظ على جوهره الأصيل فى كل الأحايين ..

غير اننا نلاحظ فى السنوات الأخيرة ، أن الأدب قد ابتعد — أحيانا — عن الانسان المصرى ، أو اكتفى — أحيانا أخرى — بطرح مايضاعف مرارته ويزيد حسرته ، أو سكت — فى كثير من الأحايين — عما فى هذا الانسان من سلبيات وصلت فيه إلى حد التمزقات والتصدعات ..

وقد آن الأوان ليخوض أدبنا بكل طاقاته معركة البنيان ، وأول ماينبغى أن يعنى فى تلك المعركة ، هو « إعادة بناء الانسان » .

أقوال معاصرة

● « احس أن صرختي ضاعت هباء »
الأديب يحيي حقي

● « الدين ليس جلبابا قصيرا ، ولحية كثيفة »
الدكتور احمد هيكل
وزير الثقافة السابق

● « الاقتصاد بدون فن لايساوى شيئا »
الدكتور حامد السايح
وزير الاقتصاد الأسبق

● « السينما الجيدة ، دعاية جيدة »
مارسيل مارتين الناقد الفرنسى

● « إعادة النظام الملكي ليس امرا مستحيلا »
فلاديمير كريلوفيتش
المطالب بعرش رومانوف الروسى

● « لم نتعلم بعد كيف نمارس الديمقراطية »
ميخائيل جورباتشوف
رئيس الاتحاد السوفييتى سابقا

● « عوام الناس يعرفون ان المال الذى ينفق على السلاح هو ، على الارجح ، مال مضيع »
ويليم كوانت
مستشار الأمن القومى الامريكى المساعد الاسبق

● « لانى لا امسح الغبار عن احذية القياصرة ، يشتمنى الاقزام والسماسرة »
الشاعر نزار قبانى

● « للشر جمع : شرور ، اما الخير فسيظل مفردا »
الاديب المصرى محمد مستجاب


يحيى حقى


احمد هيكل


جورباتشوف


نزار قبانى

 بقلم: د. شكري محمد عياد

صور أخرى للوجه اللامع

عندما التقيت بالشاعر فاروق شوشة فى ندوة بالبرنامج الثانى حول ديوان "لغة من دم العاشقين" ، ابديت له دهشتي من هذا العنوان ، فهو ماخوذ من القصيدة الثانية فى الديوان وعنوانها "جاء عصر الشتات" ، وفيها يقول :



فاروق شوشة

احبك
واخجلي حين اهتف باسمك
كل النداءات لغو تكرر
وصوت قديم تناسخه العابرون
وعُرس تقلص ضوء الذبالة فيه
وعشش وجه السواد
فكيف اوافيك فى سحنة الاخرين
وفي لغة من دم العاشقين
وهذا دمي فى شعاب البلاد
يسيل انتحارا وعشقا
ويومض فى جلوات الشروق
وينسل في لغة تتخلق عبر المنافى
وتمرق من رحم القهر
من قبضة الذكريات السجينة
من زخرفات الطقوس العقيمة
تفلت من اسن فى الحلوق
وترمي بنا فى خضم ليالى الحداد .

هو اذن يريد أن يفلت من قبضة اللغة الشعرية المتداولة ، اللغة التى سبكت حروفها فى مسابك العشاق ، ليخاطب محبوبته ـ مصر ـ بلغة أخرى ،

لغة تتخلق في رحم القهر ، لغة حزينة ولكنها صادقة . فلماذا عنون ديوانه بتلك الالفاظ التى تدل على لغة يريد ان يتخلص منها ؟ وهل تخلص من هذه اللغة فى الديوان كله ؟ وكيف كانت علاقته بها فى دواوينه السابقة ؟

إن الاجابة عن هذه الاسئلة تحتاج الى النظر فى الشاعر وشعره من ناحية ، وفي العصر ـ واللغة ـ او اللغات الشعرية السائدة فيه من ناحية اخرى .

• شاعر متفرد

فأما الشاعر فهو ذلك الوجه اللامع الذى يعرفه مشاهدو التليفزيون ويعجبون بلباقته فى التقديم والعرض ، والابتداء والانتهاء والتخلص ، كما يعجب مستمعو الاذاعة بصوته الحنون الشجي حين يستمعون اليه قبل نشرة اخبار الساعة الحادية عشرة وهو ينشد الشعر العاطفى او يلقى فرائد الحكمة بنبرات هادئة عذبة لا اثر فيها من عنجهية المعلم او شراسة الخطيب ، وربما حسده الشعراء المعاصرون على حسن حظه الذى لازمه ـ فيما يبدو ـ من البداية بل من قبل البداية . فمن منهم ولد فى قرية اسمها "الشعراء" ؟ ومن منهم امتلك منبرا ـ او اكثر ـ فى اعظم اجهزة الاعلام انتشارا وتأثيرا ؟ وكم منهم ـ غير شعراء الاغانى الذين يكتبون بالعامية ، وغير نزار قبانى بالطبع ـ سمع وسمع الناس بعض شعره يميس دلالا ويهتز نشوة ويختال اعجابا وهو ينساب عذويا بالسحر من ثغر مطربة رائعة الحسن ملائكية الصوت مثل ميادة الحناوى ؟

وهو يعرف ما يعرفه الناس عنه . فهو يقول فى أحدى قصائد ديوانه الثانى "العرى" فى "العيون المحترقة" :

"من اجلك اصبح هذا الفاتك فى ليل الاسطورة
هذا الوجه اللامع فى قلب الصورة
هذا العارى فى هذى الصفحات المنشورة"

ويستطيع ـ ببساطة وتلقائية ـ ان يكون شاعر صالونات كما فى قصيدته "للعبير اختناق" (لغة من دم العاشقين) وقد قالها حين وجد نفسه الرجل الوحيد فى فندق ضم عددا من المشتركات فى مؤتمر نسائى ، وختمها بهذين البيتين الظريفين :

مالذى الآن اشتكي ؟ رب نعمي ∴ قتلتني ، وللعبير اختناق
قد يطاق الجمال فردا ، ولكن ∴ كل هذا الجمال كيف يطاق ؟

واذا كان حافظ ابراهيم قد قال ان نصف ديوانه فى الرثاء ، فربما كان اكثر من نصف ديوان فاروق شوشة فى الحب ، وشعر الحب عند فاروق شوشة

هامس ناعم رقيق ، فى معظم الاحيان ، لا يوغل فى وصف الجسد ، ولا يصور عرام الشهوة ، فاذا تعرض لشيء من ذلك - وقلما يفعل - فبالكنايات البعيدة ، والاشارات المرهفة ، كما فى هذه السطور من قصيدته "قبل الوصول" (فى انتظار مالا يجيء) :

"ماذا لو انني خطوت ، ما انتظرت ان يطل وجهك
الصغير من ستارة الاحزان
اتيت دون موعد ،
وربما بقيت عامدا ،
اداور اللحظة استعيدها ،
الح فى اجتياز هوة المضيق بيننا ،
وفى اكتشاف هذا العالم المدثر القناع ،
خلف وجهك الغريق فى متاهة النسيان
مرتعشا اتيت ،
يامواقد الشتاء لا تكابرى
وياعطية السماء لا تناورى
فالرغبة الحبلى تفور
فى تاهب الخطى تفور
فانثنى ، والصحى
كم اشتهينا - صامتين - جلوة النيران !"



● لأجلك !

ولعل قصيدته الوحيدة التى "تعرى" فيها حقا هى قصيدة "العرى" التى استشهدنا منها ببيتين اشار فيهما الى انه اصبح "الوجه اللامع" وقد يوحى ذلك بالنرجسية كما يمكن ان يوحى العرى بالافحاش ، ولكن الشاعر لا يخرج عن طوره ابدا ، فمع انه يصف نفسه بالفتك والجسارة فهو يوحى الينا بانه لم يزد على ان استجاب لدعوة الطرف الاخر ، لهذا يكرر كلمة "لأجلك" . واذا لم يستجب الشاعر لمثل هذه الدعوة فهل يستحق أن يكون الوجه اللامع ، وهو يليق فى هذا العصر أن يقع فى غلطة سلفه على محمود طه :

شاعر الحب والجمال ، فقال ما عليه اذا أحب جناح !؟

ولعل شاعرنا فكر فعلا فى ان يكون شاعر الحب والجمال . مثل على محمود

طه ، او شاعر المرأة مثل نزار قباني ، مع اضافة فرق الزمن ، ولعله كان يختار عناوين دواوينه متأثرا بهذه الرغبة ، ولكنه لم يحسب حساب فرق اخر ، وهو فرق الشخصية ، وشخصيته كانت تتخذ ، رغما عنه ، صورة بل صورا أخرى غير هذه الصورة اللامعة .

فقصيدة الحب عنده لا تصور دائما ذلك الشاعر المفتون بسحر الجمال ، المتنعم بلذات الروح والبدن ، بل انه في كثير من الاحيان شاعر منقسم على نفسه ، يقول في احدى قصائد ديوانه الاول "الحصاد" (الى مسافرة) :

"لاقيد يكبل روحينا
الا قيد في روحينا"

ويبلغ اختلاط المشاعر اقصى درجاته في قصيدة اخرى "الصمت" حيث يمتزج الحب والاحباط والتشاؤم وتختم القصيدة بادانة للزمن كله ، لولا امل ضعيف لا يكاد يبين :



"الصمت منطق الحياة في زماننا
لأن كل شيء في شفاهنا نباح
الصمت مجدنا وعارنا
صمودنا الجليل وانكسارنا
لان بيننا الذي قضى
وبيننا الذي اصاب ، فاستراح
انصمت مهما طال تيهنا ، ملاذنا
لاننا مغللون بالجراح
الصمت يأسنا الكبير .. وانتصارنا
لان شيئا قادما .. كأنه صباح !"

ويقول في احدى قصائد ديوانه الخامس : "لا مفر" (الدائرة المحكمة) :

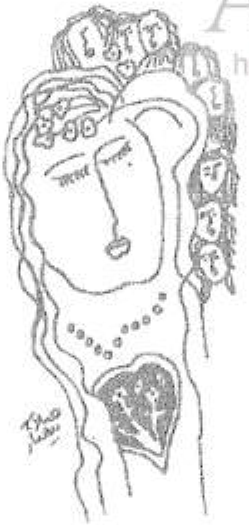
"اغرق حين ارتوى
فنبعك المعطاء دافق ، بلا حدود
وومضة الحنان تفتح الكوى
وتجعل الغرقى يرومون المزيد
لكن شيئا قائما ، يرسب في قلوبنا
شيئا ثقيلا داهما ، كقبضة الحديد
يخنق فينا حلمنا المزغرد السعيد
ياويلنا ، ياويلنا

من وخزة فى الصدر تنهى لحظة الامان
العمر لا يسعفنا
والخوف كم يتلفنا
هل من مزيد ياهمومنا ، ترى هل من مزيد !"

● سيرة شعرية

لقد كتب فاروق شوشة فى مقدمة اعماله الشعرية الكاملة ما يمكننا ان نسميه سيرة شعرية موجزة ، ولكنه كتب سيرته العاطفية بوضوح اكبر فى قصيدته "اعترافات العمر الخائب" (فى انتظار مالا يجيء) حيث يسترجع ايام الطفولة والصبا فى حين يستقبل الكهولة بازماتها الروحية العميقة :

"عندما ارجع بالتذكار استدنى الذى فات ،
اجيل الطرف ، القاك عزيزا ،
وضئيلا ، وقصيا ،
حافيا ،
تستلهم الارض ، طريحا ، نزق الاسمال ،
خجلان حييا
وارى حولك غلمان الحمى ، يستطلعون الغيب ،
يستجلون فى عينيك سرا غامض اللمحة ،
مشحونا ، عتيا
يرحل العمر وئيدا ،
تسقط الاعوام فى الهوة ،
يلتف الصبايا حول ناى الحب
تغريهن بالترنيم منضورا فتيا
عاشقا ، طلق المحيا
يرحل العمر ،
وتمضى سلة الاعوام لا تحمل شيا
يسقط السر ، يدوس الناس ،
ينهال التراب الصلد ، يدنو القيد
يهوى الناى ملتاعا ، شجيا
من جديد ،
ها انا القاك فى عصف الذهول المر



تجتاز الفجاج السود مخبولا
شقيا
وبعينيك سؤال اخرس الدمعة ،
ملزال عصيا :
ما الذى سدد فى قلبك سكينا
وفى عينيك حزنا ابديا ؟"

● الوجدان الجماعي

ان موضوع "الحب" فى شعرنا المعاصر جدير بدراسة موسعة ، واول ما يلفت النظر فيه ان قصيدة الحب كادت تندثر بعد شعراء ابولو : ابراهيم ناجي وابوالقاسم الشابى وعلى محمود طه ، ولعل فى شعر فاروق شوشة دليلا واضحا على ذلك اما غزليات نزار قبانى الخفيفة فلا تدخل فى هذا الباب ، قصيدة الحب افلت بافول الرومنسية ، وقد دخل الشعر العربى فى عصر جديد منذ اواخر الاربعينيات ، اذ كان كل شيء يتغير فى عالمنا العربي ، وكان الشعر ـ فى اول الامر ـ يرهص بهذا التغير ويقود خطاه ، ولكن التغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية لم تلبث ان سبقته ثم حاولت ان تجره معها ، ليصبح تابعا بعد ان كان متبوعا . ان اقدم القصائد التى يضمها ديوان فاروق شوشة ترجع الى اواخر الخمسينيات ، وفى ذلك العهد كانت الغلبة للشعر "الواقعى" ذى الموضوع السياسى او الاجتماعى ، ولم يكن من الممكن لشاعر ناشيء ان يعبر عن عالمه الخاص ، او نظرته الخاصة الى الكون او المجتمع ، وظهرت عبارة "الوجدان الجماعى" وصفا للموجة الجديدة ، وقد شارك فيها فاروق شوشة بعدد غير قليل من القصائد ، وبوجه لا تكاد ملامحه تختلف عن ملامح غيره من الشعراء الشبان .

وعندما ظهر عوار الواقع السياسى والاجتماعى كان الشعراء والقصاصون هم اول من شعروا بذلك ، واخذوا يعبرون عنه باساليب مختلفة ، وربما كان اختلاط المشاعر فى قصيدة مثل "الصمت" نوعا من الانكار لزيف الواقع ، صادرا عن استحالة الشعور بالحب فى عفويته واندفاعه حين وقع الشاعر تحت سنابك الزمن الخارجى ، قبل ان يكون اسلوبا فنيا للالتفاف حول دعامة الواقع التى كان الجميع يحاولون انكارها ، على اننا نجد فى شعر شوشة الغرامى نغمة اخرى تكررت كثيرا ، وهى تصوير "الحب" على انه حصن وملجأ من عدوان الزمن الخارجى ، وهنا نشعر بان للارادة دورا اكبر فى تشكيل العاطفة :

فى ظلك الوريف احتمى

في روضك الظليل ارتمي .. وانتمي
في دفئك الوثير انسج الامان والاشعار
وانت ماواى الوحيد والفريد" .
("الرغبة المعتقة" ـ لؤلؤة في القلب)

على ان نغمة الانكار تتصاعد بقوة في قصائد مثل "الخلاص" ، "فلتنزل الستار" "من سفر ايوب" "الى مسافرة" ، وتزداد ارتفاعا مع المجموعات التالية ، ممتزجة بسوداوية الحزن واليأس في كثير من الاحيان ، وشيء من ادانة الذات ، وفي ذلك كله تبدو صورة الشاعر اصدق ما تكون ، بما انعكس عليها من ظروف الزمان والمكان :

بشرنا حين لمحنا ثمة شيئا يولد ،
لكنا حين رأيناه ، وعرفنا وجه دمامته ،
عدنا فعكفنا ،
اغلقنا في وجه الاعصار معابدنا ،
وتصوفنا"
("بشرنا ثم تصوفنا" في انتظار مالايجيء)

قد يدهش الذين لا يعرفون فاروق شوشة الا من التليفزيون والاذاعة حين نقول لهم ان هذه الصورة هي الغالبة على شعره ، وهم معذورون ، فنحن ، في سعادتنا التي نصطنعها كل يوم ، نجتهد لننسى هذه الصورة ، ونستبقي فقط صورة الوجه اللامع :

"كان يؤدبني ويقول :
هذا قدرك
ان تحيا في سيرك العصر ، ولا تنجو
تتعثر في قبضة مهمازيه ، وسطوة جلاديه
تسقط مابين الاهة والتصريح
في زيف اللغو ولغو الزيف ..
.. ما اجمل ان تتزيا كل الالوان
فلعل الله يبارك في عمري ، واراك
انسان العصر المأمول ..
اللامع في كل زمان ومكان !"
("مواجهة" ـ لغة من دم العاشقين)

إسلامية المعرفة

من معالم مشروعنا الحضاري

بقلم: د. محمد عمارة

لعل ما يزيد العقل الاسلامي ثقة في خطر قضية : اسلامية المعرفه ، واطمئناننا الى توافر امكانات النجاح فيها - غير القياس على انتصار اسلافنا العظام على الوضعية القديمة والدهرية القديمة .. ان كثيرا من دوائر الفكر الغربي ذاته قد اخذت تفيق من خدر الاطمئنان الذى خدعتها به موجة المعرفة الحسية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين .

لقد شهد العلم الغربي ، منذ العقود الاولى للقرن العشرين ، العديد من الاكتشافات العلمية ، التي يعدها المؤرخون له بمثابة "الثورات" التي كشفت عورات افتقار المعرفة الحسية والمادية الى التوازن ، ومن ثم افتقادها لمقومات "الصدق المعرفي" .

ففي الفيزياء مثلت ابحاث ونظريات ومكتشفات اينشتاين Einstein "١٨٧٩ - ١٩٥٥ م" وبور Bohr "١٨٨٥ - ١٩٦٢ م" .. وهايزنبرج Heisenberg "١٩٠١ - ١٩٧٦ م" ثورة كبرى ..

● وفي مبحث الاعصاب مثلت ابحاث ومكتشفات شرنجتون Sherrington "١٨٥٧ - ١٩٥٢ م" .. واكلس Eccles "١٩٠٣ - " .. وسبيرى Sperry "١٨٦٠ - ١٩٢٠" .. وبنفيلد Penfield ثورة جديدة ..

● وفي علم النفس ، مثلت ابحاث ومكتشفات فرانكل Frankl .. وماسلو Maslow وماي May ثورة اخرى .

● وفي علم الكونيات ، كانت نظرية "الانفجار العظيم" ، و"المبدأ الانساني" فتحا علميا جديدا ، مثل مع الثورات العلمية في الفيزياء .. والاعصاب .. وعلم النفس الاسس الجديدة لمعرفة غير حسية - وبمعنى انها لا تقف على "ساق الحس" وحدها .. وبعبارة اهل الاختصاص من علماء الفيزياء ، الذين يحللون مغزى هذه الثورات العلمية ، ويؤرخون لها : "فإن هذه المكتشفات لم تقلب التصور الحديث - الذى كان سائدا في العلم

إسلامية المعرفة

الغربي – للانسان ولمكانته في العالم فحسب . بل هي تقدم تفسيرا جديدا .." .

لقد كان التصور السائد في دوائر العلم الغربي ، ابان حقبة الموجة المادية والحسية في المعرفة ، هو "ان لا وجود الا للمادة ، وان الاشياء جميعا قابلة للتفسير بلغة المادة فحسب . وهكذا يتحتم ان تكون حرية الاختيار وهما من الاوهام مادامت المادة غير قادرة على التصرف الحر . ولما كانت المادة عاجزة عن ان تخطط او تهدف الى اى شيء ، فلا سبيل الى العثور على حكمة وراء الاشياء الطبيعية – "عالم الغيب" – بل ان العقل يعتبر نتاجا ثانويا بالنشاط الدماغ ..

ولقد وصف برتراند رسل Bertrand Rassell "١٨٧٢ – ١٩٧٠م" هذا التصور المادي الذي ساد دوائر المعرفة والعلم الغربي فقال : "لان يكون الانسان نتاج اسباب لا تملك العدة اللازمة لما تحققه من غايات ، ولان يكون منشؤه ونموه ومخاوفه وصبواته ومعتقداته مجرد حصيلة ارتصاف ذرات عرضي ، ولان تعجز اى حماسة مشبوبة او بطولة ، او اى حدة في التفكير او الشعور ، عن الابقاء على حياة فرد واحد فيما وراء القبر ، ولان يكون الاندثار هو المصير المحتوم لكل عناء الاجيال ، ولكل التفاني ، ولكل عبقرية الانسان المتألقة تألق الشمس في رابعة النهار ، كل هذه الامور ان لم تكن حقا غير قابلة للجدل فانها مع ذلك تقترب من اليقين الى حد يستحيل معه على اى فلسفة ترفضه ان يكتب لها البقاء . وعلى ذلك لا يمكن بناء موطن الروح بامان الا في اطار هذه الحقائق وعلى اساس راسخ من القنوط المقيم" ! ..

نعم .. لقد سادت "دهرية القنوط المقيم" مما وراء المادة .. في حقبة النهضة الحديثة للمعرفة الغربية – الحسية – والعلم الغربي – المادي – .. الذي عمم هذه النظرة على جميع العلوم . المادية منها والانسانية ..

لكن المؤرخين الجدد ، للعلم الغربي ، الذين رصدوا الثورات المعاصرة في هذا العلم ، يقولون ان ذلك التصور "الدهرى – القانط" قد طويت صفحته بهذه الثورات العلمية المعاصرة وبمعطياتها في نظرية المعرفة .. وبعبارة عالم الفيزياء هنرى مارجينو Henry Margenau ان العقيدة الاساسية للمذهب المادى – وهي ان الحقيقة كلها تكمن في المادة وهذا راى كان مقبولا بعض القبول في اواخر القرن الماضي – التاسع عشر – غير ان امورا كثيرة حدثت في هذه الاثناء تكذب هذا الراى" ..

وبعبارة عالم الفيزياء فيرنر هايزنبيرج : "ان الفيزياء الذرية المعاصرة قد نات بالعلم عما كان يتسم به من اتجاه مادى في القرن التاسع عشر" .(١)

الن .. فنحن امام جديد .. وبازاء تحولات في مذهب المعرفة الغربية .. تحولات عن النزعة المادية البحتة والحسية الصرفة ..

لقد قال الامام الغزالي قديما : "طلبنا العلم لغير الله ، فأبى ان يكون الا لله ؟!" .. لقد بدأ جراح الاعصاب "ويلدر بنفيلد" تجاربه على الدماغ ، بهدف اثبات النظرة التي كانت سائدة ـ النظرة المادية ـ "الدماغ يفسر العقل" ـ .. لكنه وصل ـ عبر دراسة ما يربو على الف حالة ـ الى اثبات عكس هذه النظرة المادية .. وصل الى ان العقل غير الدماغ .. فالدماغ هو مقر الاحساس والذاكرة والعواطف . والقدرة على الحركة .. لكنه ليس مقر العقل او الارادة .. والعقل .. لا الدماغ ، هو الذي يراقب ويوجه في آن معا .. هو الذي يتخذ القرارات وينفذها . مستعينا بمختلف اليات الدماغ" .

لقد وصل بنفيلد الى هذه الحقائق .. ورتب عليها معطياتها في نظرية المعرفة .. فكتب في كتابه "لغز العقل" .

"انه اقرب الى المنطق ان نقول : ان العقل ربما كان جوهرا متميزا ومختلفا عن الجسم !" وامام هذا الذي قاله .. نتذكر تعريف الاسلاميين للعقل ، بكلمات الشريف الجرجاني "٧٤٠ ـ ٨١٦ هـ ـ ١٣٤٠ ـ ١٤١٣ م" : هو جوهر مجرد عن المادة في ذاته ، مقارن لها في فعله .. جوهر روحاني خلقه الله تعالى متعلقا ببدن الانسان .. نور في القلب يعرف الحق والباطل" ..

ونتذكر ايضا ، تعريفه لـ "القلب" الذي يعقل ويفقه ـ كما جاء في القرآن الكريم ـ والذي يقول عنه : انه "لطيفة ربانية لها بهذا القلب الجسماني الصنوبري الشكل المودع في الجانب الايسر من الصدر ، تعلق ، وتلك اللطيفة هي حقيقة الانسان .. ويسميها الحكيم : النفس الناطقة .. وهي المدرك والعالم من الانسان ، والمخاطب والمطالب والمعاتب .." !

انه التعريف الاسلامي ، الذي لم يرى الانسان مجرد مادة تفرز الفكر بالتفاعلات لجزئيات هذه المادة ..

ومن هذا المعنى يقترب العلم الغربي المعاصر ، بتجارب علمائه على الاعصاب !

بل لقد خطا ويلدر بنفيلد خطوة اخرى ، هامة ، عندما قال ـ متعجبا ـ وهو الذي بدأ ابحاثه بهدف دعم النظرة المادية والحسية للمعرفة ـ قال : "فياله من امر مثير ، اذن ، ان نكتشف ان العالم يستطيع ، بدوره ، أن يؤمن عن حق بوجود الروح ، واذا كان العقل والارادة غير ماديين ، فلاشك ان هاتين الملكتين ـ على حد تعبير "اكلس" ـ : "لا تخضعان بالموت للتحلل الذي يطرأ على الجسم والدماغ كليهما .." ؟! (٢) ..

...... الله اكبر ؟! ..

اننا بازاء ايمان "بالروح" .. وايمان بخلودها .. وايمان بأن تحلل الجسم وفناء المادة ليس نهاية المطاف ..

وهنا تضاهي هذه "التجريبية الجديدة" ـ ان جاز التعبير ـ "التجريبية الاسلامية" المؤمنة ، فيما انتهت اليه من معطيات .. لكن يبقى "البديل الاسلامي" متميزا .. فهو لا ينطلق في المعرفة ، فقط من "الواقع .. والحس .. والتجريب" . وانما ينطلق ايضا من "كتاب الوحي" . وهو ما يفتقده ويفتقر اليه هؤلاء "التجريبيون الجدد الغربيون" !..

لقد اكتشف بنفيلد "امرا مثيرا" ! .. اما العالم المسلم ، الذي ينطلق من "كتاب

الوحى" و"كتاب الكون" ، فإنه يكتشف بالتجربة فى "كتاب الكون" : الاسرار التى اودعها "صاحب الوحى" وخالق "الوجود" .. فهو ينطلق من الايمان الدينى .. ينطلق من "الشرعى" لاكتشاف "المدنى ـ الكونى" ، ثم يوظف ثمرات العلم "المدنى ـ الكونى" فى دعم الايمان "الدينى ـ الشرعى" ، ويكون لذلك اكثر خلق الله خشية لله .. "انما يخشى الله من عباده العلماء" ! (٣)

فالتطور الذى يحدث فى العلم الغربى المعاصر .. ومعطياته فى نظرية المعرفة .. هو مما يدعم ثقتنا فى "البديل الاسلامى" .. ويزيد من الحاح هذه القضية على العقل المسلم .. لتنقية علومنا من اثار الوجهة المادية للعلم الغربى الحديث .. ولصياغة هذه العلوم وفق منهاج اسلامية المعرفة .. وللاسهام ، بعد ذلك فى تزكية وترشيد هذا التوجه لجديد والوليد عند الغربيين ! ..

* * *

ان الاسلام الذى صاغ امته ، عندما صبغ حضارتها بصبغة الله ـ باقامته العلاقة بين "الشرعى" و "المدنى" فى المعارف والعلوم ..

ان هذا الاسلام ، الذى صاغ الامة ، ومناهجها فى المعرفة ، هذه الصياغة الايمانية المتميزة .. هو الذى صاغ ـ تبعا ذلك ، وبسبب ذلك ـ علماء هذه الامة صياغة متميزة كذلك ! ..

"تجريبيون ـ مؤمنون" .. و"روحانيون ـ ماديون" ! .. فنجت حياتنا الفكرية والعلمية من ذلك "الفصام النكد" بين "النظر" و"التجريب" .. بين "العمل الذهنى" و"العمل اليدوى" .. بين "الشرعى" و"المدنى" ..

فالدين : وضع الهى .. يسوق الانسان لعبادة الله ولعمران الكون ، مستعينا فى ذلك كله بكتابى "الوحى" و"الوجود" .. ومن هنا :

كان ابوالوليد ابن رشد "٥٢٠ ـ ٥٩٥ هـ ١١٢٦ ـ ١١٩٨ م" يفزع الناس الى فتواه فى الفقه كما يفزعون الى فتواه فى الطب !.. فهو الطبيب المجرب .. والفقيه الاصولى .. المتكلم الحكيم !.. انه صاحب "كتاب الكليات" ـ فى الطب و"بداية المجتهد ونهاية المقتصد" ـ فى الفقه وفلسفته و"مناهج الادلة فى عقائد الله" و "فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال" ـ فى علم الكلام والتوحيد .

وكان ابن سينا ابوعلى الحسين بن عبدالله "٣٧٠ ـ ٤٢٨ هـ ٩٨٠ ـ ١٠٣٧ م" "الشيخ الرئيس" فى "الشرعى و"المدنى" .. فى "الالهيات" و"الطبيعيات" .. فى "التصوف" و"النبات والحيوان" و"الهيئة" .. فمن اثاره فى الطب "القانون" .. وفى الحكمة والالهيات "الشفاء" و"المعاد" و"اسرار الحكمة المشرقية" .. وفى التجريب والطبيعة : "النبات والحيوان" و"الهيئة" و"اسباب الرعد والبرق" ! .. الخ .. الخ ..

وكان البغدادى ، ابومنصور عبدالقاهر

بن طاهر "٤٢٩ هـ ـ ١٠٢٧ م" ـ وهو الذى اشتهر بابداعاته المتميزة فى اصول الدين ـ المبرز فى الحساب .. وفى الهندسة ! .. حتى لقد قالوا : انه كان يدرس فى سبعة عشر فنا ؟! .. ومن اثاره "اصول الدين" و"تفسير القرآن" و"معيار النظر" "والتكملة فى الحساب" و"رسالة فى الهندسة" .. الخ .. الخ ..

وكان الخيام ابوالفتح عمر بن ابراهيم "٥١٥ هـ ـ ١١٢١ م" اللغوى .. الشاعر .. والفيلسوف .. المؤرخ .. والرياضى .. الفقيه .. والمهندس .. الفلكى ؟! .. ولقد بقيت لنا من اثاره "مقالة فى الجبر والمقابلة" و"شرح مايشكل من مصادرات اقليدس" و"الاحتيال لمعرفة مقدارى الذهب والفضة فى جسم مركب منهما" و"الرباعيات" و"الخلق والتكليف" .. وغيرها من الاثار الشاهد تنوعها وتكاملها على هذا المذهب الاسلامى فى تكامل مصادر المعرفة وتكامل ادواتها ، ومعرفة علمائها ..

وكان الفخر الرازى ، ابوعبدالله فخر الدين محمد بن عمر "٥٤٤ ـ ٦٠٦ هـ ـ ١١٥٠ ـ ١٢١٠ م" الامام فى علوم الدين والدنيا جميعا .. حتى لقد قال مؤرخوه "انه كان اوحد زمانه فى : "المعقول .. والمنقول .. وعلوم الاوائل" ؟! .. ومن بين اثاره الكثيرة والجامعة لاقطار المعرفة وتخصصاتها نجد : "مفاتيح الغيب" ـ فى تفسير القرآن الكريم ـ و"معالم اصول الدين" و"لوامع البينات فى شرح اسماء الله الحسنى والصفات" و"الخلق والبعث" ـ فى التوحيد واصول الدين و"محصل افكار المتقدمين والمتأخرين" و"نهاية العقول" و"البيان والبرهان" ـ فى الفلسفة و"المباحث المشرقية" ـ فى التصوف ـ و"السر المكتوم" ـ فى الفلك ـ و"النبوات" ـ فى النبوة والرسالة ـ و"النفس" ـ فى علم النفس ـ كما ابدع فى الهندسة "كتاب الهندسة" و"كتاب مصادرات اقليدس" ؟! .. الخ .. الخ ..

هكذا تجسد توازن وتكامل مصادر المعرفة ، فى المنهج الاسلامى ، وتوازن وتكامل ادوات وسبل تحصيلها ، فى هذا المنهج .. هكذا تجسد فى العلم الاسلامى وفى العقل الأسلامى .. وفى تراث علماء الاسلام .. فكان الاشتغال بجميع العلوم ، "الشرعى" منها و"المدنى" ، "النظرى" منها و"التجريبى" عبادة وقربة الى الله .. وامتثالا لاوامره وتكليفاته .. فبالعلوم الشرعية تعرف المقاصد الالهية فى العمران البشرى ، وبالعلوم المدنية يقيم البشر العمران الذى استخلفهم خالقهم لاقامته فى هذا الوجود .. وفيهما معا ، وبهما جميعا يكتشفون ايات الله ، سبحانه وتعالى ، فى الانفس والافاق .. فيظل العلم ، بهذا المنهج فى المعرفة ، الباب المفتوح دائما وابدا لاكتشاف الحقيقة فى عالم الشهادة ، ودعم قواعد الايمان بالله وعالم الغيب ! .. وصدق الله العظيم "سنريهم اياتنا فى الافاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق .." (٤)

---

(١) جورج ، ن ستانسيو ، روبرت .م اغروس "العلم فى منظوره الجديد" ص ١٥ ، ١٦ ـ ترجمة كمال خلايلى .. طبعة الكويت سنة ١٩٨٩ .

(٢) المرجع السابق . ص ٣٩ ، ٤٢ ، ٤٣ .

(٣) فاطر : الاية ٢٨

(٤) فصلت : الاية ٥٣

يوميات هذا الزمان

هدية بهاء لنا فى عيد ميلاده !

بقلم : صافى ناز كاظم

● ● فى هذا الشهر يتم الأستاذ أحمد بهاء الدين الخامسة والستين حيث ولد فى ١١ فبراير ١٩٢٧ .. أتذكر دائماً عيد ميلاده وأشاكسه بأنه أكبر منى بعشر سنوات ونصف ، وأجلس شاعرة بطفولتى وأنه هو الكبير .. هذا منذ أن قابلته لأول مرة فى عام ١٩٥٦ ، وكان فى التاسعة والعشرين رئيساً لتحرير صباح الخير ، وكنت وقتها صبية بحق لم تكمل بعد التاسعة عشرة ● ●



● كنت أحمل إليه قطعة من كتاب قديم لتوفيق الحكيم بعنوان « عصر الآلة » ، وأقوم بعمل موضوع أشبه بالفخ لمجلة الجيل التى كان يرأسها الأستاذ موسى صبرى .. كنت أدعى أن القطعة من كتابتى وأريد رأى الكتاب الكبار فيها لأعرف من خلاله هل أحكامهم النقدية موضوعية أم لا ، فهل هى حكم على القطعة المكتوبة أم حكم على عدم خبرة سنى الصغيرة .. ونجحت وقتها فى خداع الأستاذ العقاد والأستاذ إحسان عبدالقدوس ، لكننى ما أن قدمتها للأستاذ بهاء حتى قال لى قافشاً : صحيح علوزة تعرفى رأيى فى أسلوب توفيق الحكيم ؟! وكتبت الموضوع بعنوان « آراء صريحة جداً فى أسلوب توفيق الحكيم » !



يوميات هذا الزمان

● استاذ دهاء

واطلقت على الاستاذ بهاء لشدة ذكائه لقب استاذ دهاء ! ومنذ ذلك الحين نشأت بيني وبينه صداقة متينة امتحنتها الايام فاثبتت قوتها ، وكنت دائما اشعر فيها امامه انني طفلة مشاكسة وهو الكبير ، وكان من قفشاته انني كلما ذهبت أسأله رأيه في معضلة يقول رأيه فاعارضه واصر على رأيي فكان يسألني بضجر مفتعل : « إنت جاية تتحدى حتى رأيي والا رأيك ؟ » ورغم تلك الصداقة التي امتدت ستة وثلاثين سنة حتى الآن فلنني لم استطع مرة أن اناديه بسوى « أستاذ بهاء .. حضرتك » !

في عيد ميلاده العام الماضي ذهبت اليه في منزله اقول له « كل سنة وانت طيب » واراد أن يصافحني فقلت له : «هل نسيت انا اسلم ولا اصافح ! » فقال بمرحه المعهود : « حتى أنا ؟! » نعم إنه يكاد يكون شقيقي : هو يعرف ذلك وانا أعرف ذلك .

● استقالة .. وسلام

قابلني في نيويورك عام ١٩٦٦ وقد نلت شهادة الماجستير في النقد المسرحي ووجهتي مصوبة نحو استراليا أريد السفر إليها لاكمال دورتي حول الكرة الأرضية ، فاستنكر خطتي وقال : كفى اغترابا وعودي .. وكان شرط عودتي أن أعمل معه فانتقلت من أخبار اليوم الى دار الهلال ومن شدة استقامته وخشية أن يقال : « انحاز لأصدقائه » نسي اداريا وماليا أنني حاصلة على شهادة الماجستير في النقد المسرحي وكتب قرار تعييني « محررة بدار الهلال » بدلاً من « ناقدة مسرحية بمجلة المصور » وآلمني الموقف وشعرت بالظلم ، خاصة ماترتب عليه بعد ذلك من خسارات وسوء استغلال وتنكيل من آخرين بعده ، لكن هكذا هو الأستاذ بهاء : إنه يفضل أن يقال عنه : « ظالم أصدقائه » عن أن يقال عنه : « محابي أصدقائه » ومع ذلك لم يسلم من التهمة ولم نسلم منها لكنه قال لنا : « يكفي اننا في سلام مع انفسنا » هذه الاستقامة وهذا السلام مع النفس يشعان مع كل سطر في كتاباته كلها ومنها « يوميات هذا الزمان » انه يكتب بحماس واستقامة متوجها مباشرة صوب فكرته المحورية وتختلف معه وتتفق معه لكنك تشعر أن هذا القلم نظيف لايحكمه سوى عقل حر وقلب امين .. اختلفت معه كثيراً حتى الخصام ليوم أو اكثر بسبب بعض كتاباته فيضحك ويقول : كنت أعرف أنك ستغضبين ، على الأقل

دعيني أثار لغيظي من بعض كتاباتك .. ونضحك ونعرف أن الجسر بيننا هو الأمانة والصدق والسلام مع النفس والجمال الذى يتولد مع كل هذا .

● طبق الصباح الشهي

حين تقرأ « يوميات هذا الزمان » تستدعي طبق الصباح الشهي الذى كان يطالعك كل يوم على اليمين فى صفحة جريدة الأهرام الأخيرة ، الأستاذ بهاء يطل عليك بصيغة تجمع بين الألفة والاحترام .. إنه يطرق باب كل مايهمك ويحدثك بأسلوبه الممتع البسيط بلا كلفة .. لكنك تشعر أنك فى مكتبه تشرب القهوة مستعداً بملابس لائقة مريحة .. لايمكن أبداً أن تكون الشبشب والبيجامة .. فهو منضبط متحضر محفورة فيه سمات وتقاليد الأسر المصرية المحافظة الطيبة .. وفوق هذا هو لم ينس لحظة أنه رجل قانون : رجل نيابة ، رجل قضاء ، رجل محاماة .. كلها مسئوليات تستوجب المظهر المحافظ اللائق مع تغلغل كل هذه المسئوليات فى صميم حياة المواطن المصرى .. أحيانا فى يومياته نجده ممثل الادعاء ، غاضبا أشد الغضب من المخالفات والمراوغات والجرائم ، وأحيانا نجده ممثل الدفاع مستبسلا إلى حد الاشفاق واستثارة الدموع نحو الشعب المسكين الذى يستكثرون عليه اسرافه فى أكل الخبز رغم أنه علامة الفقر ، وشربه الشاى المحلى حتى نصف الكوب بالسكر لأنه مصدر الطاقة الوحيد .

وأحيانا نجده القاضى الذى يحكم أحكاما قطعية نهائية يضع بعدها نقطة النهاية بلا نقض أو ابرام .. ومع نبرة القاضى نجده مع ذلك لابد أن يوازن الرزانة مع الدعابة المصقولة التى لاتهز شيئاً أو وقاراً .

● عذوبة متصلة

كتابة عمود يومى أصعب من السير فوق حبل .. قليلون الذين ينجحون فى حفظ التوازن وجذب العين للقراءة اليومية ، والأستاذ أحمد بهاء الدين هو قلة من القليلين يستطيع أن يشدك بحضوره شديد الجاذبية لتقرأه من الكلمة الأولى حتى التوقيع .. جمل متتابعة مختصرة مرتاحة .. يقول الكثير فى موجز محكم ، لاشحوم .. ولاشفت ، ولاعسر هضم .. فى الصيف تشعر أنك تشرب ماء مثلجاً بعد ظمأ ، وفى الشتاء هو الشراب الدافىء المطلوب للطقس البارد .. حيوية بلا صخب وهدوء بلا ملل وجيشان بلا لهاث ورقة بلا ضعف وقوة بلا عنف .. عفيف فى عدائه موضوعى فى محبته : هذا هو أسلوب بهاء : الأستاذ أحمد بهاء الدين فى الحياة .. وعلى الورق .



يحيى حقي

ذلك العاشق

مها محمود صالح

٣٦

يحيى حقى والذى بلغ من العمر ٨٧ عاما إحتفى به محبوه من الأدباء والمثقفين فى الخامس من يناير الماضى .

ومن جانبها احتفت الهلال به حيث اصدرت له كتابين «خليها على الله» و«كناسة الدكان» ..

إنه اديب مبدع يستحق منا كل تقدير لما قدمه للفن العربى من فكر خلاق وإبداع له مذاقه الخاص والمتميز .

عاشق !

نعم ، هى حالة عشق تلك التى تدفع استاذنا الكبير ، يحيى حقى إلى أن يقدم لنا عصارة فكره ونوب روحه وخفقات قلبه العاشق دوما . يقدمها لنا - نحن قراءه ومحبيه - كما تقدم النحلة عسلا شهيا ، تبذل الجهد لتحصل على الرحيق فتمزجه بروحها ثم تخرجه من حشاها نقيا جميلا فى بساطة وتلقائية وبمنتهى الحب ، كأنما لم تعرف بداخلها الام الابداع ، ولا اقول الخلق حتى لايكرب استاذى !

ماذا القصد بالعشق ؟

إنه شعور صوفى حميم يربطه بكل ما حوله .. إنها رغبة حارقة ومحاولة دائبة للنفاذ الى الجوهر جوهر المشاعر والكلمات ، جوهر الناس والاشياء .

هو يعشق الحياة والروح المصرية بوجه خاص ، وكل التفاصيل والشخوص التى تنتظم فى خيط هذه الروح ..

وهو عاشق للغة .. يصبو منها الى جوهرها الوضىء وقدرتها المذهلة على التعبير عن دخائله ، ويكره منها الابتذال والزينة الرخيصة .

● إيمان بالحياة

« إن الحياة فى ابشع صور الدمامة جميلة ولكننا لا نراها » هذه العبارة من كتابه فى السيرة الذاتية « خليها على الله » توضح ذلك الايمان الشديد بالحياة .. بجمالها الداخلى رغم ما قد يغطيها من قبح . إنه الجمال النابع من قدرتها على الاستمرار والتحايل على عوامل الفناء ومن ذلك التفاعل الذى لايكف عن توليد الجديد بين المتناقضات .

هذا الهيام الشديد يتبدى فى محاولات يحيى حقى الدءوبة للوصول الى اعماق الانسان .. بل والحيوان ! انه يبحث عن شخصيات الظل ويقدمها لنا بحنان وود فى كتاب كامل هو « ناس فى الظل وشخصيات اخرى » .. وهو يهتم بالحيوان ونجد ان من اوائل القصص التى كتبها قصة « فله .. مشمش .. لولو » التى نشرت علم ١٩٢٦ وابطالها ثلاثة كلاب ، وهو يصف الحيوان فى مواضع متعددة مثل قصة « عنتر وجوليت » ورواية « صح النوم » بل إنه يفتتح ذكريات عمله



كمعاون للادارة فى منفلوط بعنوان « وجدت سعادتى مع الحمير » يتلو ذلك فصول عن الحمير انواعها ودرجاتها ومشاعرها وتكاتها ! وفيها مقارنة طريفة بين عيون الجمل والحصان والحمار والبقرة ! ويبدو ان عيون الحيوانات كانت لها دائما سحرها فى نظر كاتبنا الكبير . فقد سمعته فى برنامج تليفزيونى يقول إنه يشعر عند رؤية عيون الحيوانات بالذات القطط والكلاب ان وراءها ارواحا حبيسة تهفو الى الانطلاق ..

ويبدو بديهيا ان طبيعته العاشقة تلك ، بما تتضمنه من حميمية فى علاقته بالمخلوقات ، جعلت القصة القصيرة ، كما يقول هو نفسه ، هواه الأول .. وذلك « لان الحديث فيها عندى يقوم على تجارب ذاتية ، او مشاهد مباشرة ، وعنصر الخيال فيها قليل جدا ، دوره يكاد يكون مقصورا على ربط الاحداث ولايتسرب الى اللب ابدا .

● الإرادة

ولانه عاشق للحياة فهو يهتم فى قصصه بموضوع الارادة .. التى بدونها تفقد الحياة الانسانية سموها واحترامها .

ففى قصة « نهاية الشيخ مصطفى » التى نشرها عام ١٩٢٧ ، يحدثنا يحيى حقى عن الشيخ مصطفى القارىء والمنشد الذى يعاقر الخمر وتقصر إرادته عن هجرها رغم احساسه بالذنب وخوفه ان تنكشف سقطته للناس وعندما يقيض الله له شخصا ماكرا شريرا يكشف امره تقصر إرادته مرة اخرى عن الدفاع عن نفسه ومحاولة كسب الناس إليه فى مواجهة غريمه ، فيجزره الناس جزرا على حد تعبير المؤلف .

وفى قصة « احتجاج » التى نشرت عام ١٩٣٤ نرى نموذجا آخر لغياب الارادة . إنها « بمبة » الخادمة التى تعدت الاربعين من العمر وتأمل فى الزواج من الاسطى « حسن » النجار المستأجر لغرفة الدور الأول فى منزل مخدومتها . لكن « بمبة » تسمع افراد الاسرة وهم يتناقشون فيمن تصلح زوجة له من بنات الحى والمعارف ، فلا تند عنها إلا صيحة احتجاج بسيطة تعود بها الى طبيعتها البليدة المستسلمة .

اما قصة « الفراش الشاغر » (١٩٦١) فهى تجسد التدنى الذى يمكن ان تصل اليه النفس البشرية إذا غابت اهم مقوماتها : الارادة الواعية والقدرة بل والرغبة فى تحمل المسئولية .

تدور القصة حول أسرة من زوج وزوجة وابن وحيد يعيشون فى عزلة عن العالم ، ليس ضنا بسعادتهم ان يشاركهم فيها احد او خوفا ان يطلع

الآخرون على سوء حالهم ، وانما تجنبا لأى مسئولية او فعل ايجابى قد يكون عليهم القيام به اذا سمحوا لانفسهم بما اعتاده الناس من علاقات منها القائم على المودة والتراحم ومنها ما يقوم على البغضاء والتشاحن ، ونلاحظ منذ البداية إنحراف نفسية افراد الاسرة فالأب ينادى الأم بيامامى وهى تقول له يا ابنى والصبى يقول لامه ياعروستى ، بينما لا يوجه الكلام لأبيه ابدا . وينمو الفتى وتنمو معه سلبيته وشخصيته المضطربة ، ويفشل فى دراسته رغم تقلبه بين الكليات فيقرر ان يتزوج يختار من يظنها بسيطة خجولة لن تنهكه بطلباتها لكنها تواجهه بعد ليال ثلاث بعجزه وتتكره غير آسفة .

ويظل بعد ذلك الموقف الكاشف فى ترد مستمر .. يبحث عن متعة لايتحمل اى مسئولية تجاهها ، ويحلم بكائنات خالية من الارادة يتواصل معها ! وهكذا يصحب الساقطات حينا ، ثم يتحول عنهن الى صبى الحانوتى الذى يعلمه كيف يساعد فى غسل جثث الموتى الغائبة الارادة فلا تصده ولا تضيق به .

وينتهى الأمر بالفتى الى الشذوذ الصريح فى احط درجاته .

لقد تحول الى « روح تحطمت وتعفنت وغابت عنها رحمة الله » .

والمقام لايتسع لذكر القصص الكثيرة التى ترتكز على موضوع الارادة ، ومنها على سبيل المثال قصص : « ام العواجز » ١٩٤٧ ، « إزازة ريحه » ١٩٣١ ، « السلحفاة تطير » ١٩٣٩ ، « وقصة فى سجن » .

● التأمل

وحبه .. بل عشقه للحياة هو الذى يجعله مغرما بالتأمل فى حياتنا اليومية ، ملاحظة تلك المتناقضات والطرائف التى تزخر بها الحياة وتقديمها ، احيانا على شكل قصة قصيره ، واحيانا على شكل مقال ساخر يكاد يقترب من القصة القصيرة . ومن النوع الاخير كتابه « فكرة .. فابتسامة » .. هو عبارة عن لوحات متتابعة ساخرة بعضها يخفى وراءه مرارة شديدة مثل تلك اللوحة التى تعرض لنا خادمة فقيرة تقف امام سيدة قاسية متغطرسة تعرض عليها العمل عندها باجر بخس وبشرط ان تترك صغيرتها الرضيعة فاتن فى مكان آخر ولا تصحبها معها . فما يكون من الخادمة إلا ان تداعب صغيرتها وتتمتم فى حنان « لو كنت .. تموتى ! » وفى الكتاب لوحات اخرى فكاهتها اكثر صفاء وابتسامتها اقل مرارة مثل « الوصايا العشر فى سوق الخضار » .. التى يصف فيها الاعيب بائعى الخضر والفاكهة لتوريط الزبون فى بضاعة رديئة ، و « انا خرمان » التى تصف السيجارة وما تفعله بمغرميها ، و « فرتكة وقلة بركة » ، التى يتحدث فيها عن الوقت الذى لا ثمن له فى مجتمعنا .

يقول د . لويس عوض عن يحيى حقى فى ذلك الكتاب إنه نجا من مرض التشاؤم الذى يصيب كثيرا من الادباء الساخرين ويضيف د . لويس عوض : « إن قلب يحيى حقى يحمل لنقائص الانسان ونقائضه عطفا كثيرا ورثاء غير قليل فهو يهجو الانسان ولكن هجاء



الانسان للانسان لا هجاء الانسان للحيوان ، وهو يهجو المدينة ولكن هجاء المتمدن المهذب العقل والنفس لابناء فصيله لا هجاء المتمدن المزيف لانحطاط ابناء الفطرة وعبيد الغريزة » ..

هو إذن العاشق الذى لايخلو سلوكه ابدا من الحب والتعاطف .. حتى وهو يهجو وينتقد .

ولقد وجدت تلك الطبيعة المتأملة المغرمة بكل ما فى الحياة من تفاصيل ، وجدت ضالتها فى الحياة المصرية الزاخرة : شخصيات متباينة تضرب بجذورها فى عمق أرض سمراء عاشت آلاف السنين ، تراكمت تراث طويل من القوة والضعف ، العز والانكسار ، التمرد والخضوع ، وروح قوية صامدة قد تتخاذل احيانا أو تتراجع لكنها ابدا لاتموت !

ورغم اصله التركى فقد التحم يحيى حقى بتلك الروح الخالدة منذ بداية طفولته ، ولم ينفصل عنها ابدا !

● يحيى حقى والواقع المصرى

ولد يحيى حقى ١٩٠٥ فى حارة الميضة الواقعة خلف مقام السيدة زينب ، ورغم انه ترك ذلك الحى وهو طفل فإن تأثيره على حياته لاينسى : مثلا ، ظلت شخصيات « الست ما شاء الله » بائعة الطعمية ، و « الأسطى حسن » حلاق الحى وبائع الدقة وجموع الشحاذين والدراويش الملتفين حول المقام ، ظلت تتحرك فى خياله حتى اعاد زرعها من جديد فى رائعته « قنديل ام هاشم » ، وبعد تخرجه من كلية الحقوق ١٩٢٥ عمل استاذنا محاميا ثم تم تعيينه معاونا للادارة فى منفلوط (محافظة اسيوط) حيث عاش هناك حتى نهاية ١٩٢٩ .. وقد كان لهاتين السنتين فى الصعيد اكبر الاثر فى ادبه فيما بعد .. يلخص الاستاذ يحيى هذا التأثير فى نقاط اربع استقلاله فى المعيشة ، واتصاله المباشر بالطبيعة المصرية والحيوان والنبات ، واتصاله المباشر بالفلاحين والتعرف على طباعهم وعاداتهم ، واخيرا اتصاله المباشر ايضا ، وبحرية ، بالجنس الآخر .

وفى اعتقادى أن هذه التجربة تمثل تطورا ايجابيا فى علاقة يحيى حقى بالواقع المصرى . فقد كان فى حياته القاهرية فى السيدة زينب وما بعدها مجرد جزء من كل . لايتعدى وعيه حدود ذاته ، ينطبق عليه الوصف الذى قاله بعد ذلك عن اسماعيل بطل « قنديل ام هاشم » وهو فى ميدان السيدة : « تلفه الجموع فيلتف معها كقطرة المطر يلقمها المحيط ، صور متكررة متشابهة اعتادها فلا تجد فى روحه اقل مجاوبة لايتطلع ولا يمل . لايعرف الرضا ولا الغضب إنه ليس منفصلا عن الجمع حتى تتبينه عينه » .

تلك التجربة الخصبة في مجموعة القصص التي جمعت تحت عنوان « دماء وطين » . وقصة « البوسطجي » المتضمنة في تلك المجموعة مستقاة من حادث قتل حقيقي شارك في التحقيق فيه الاستاذ يحيى حقي معاون الادارة بمنفلوط . اما قصة « حصير الجامع » ١٩٣٢ والتي تناول فيها موضوع العلاقة بين الادارة الحكومية واهل الريف ، فهي ايضا من وحي موقف حقيقي عاشه بنفسه عندما ارسلت الحكومة اعلانا للفلاحين تحذرهم فيه من طاعون الدجاج وتخبرهم بكيفية الوقاية منه .

إن كتاب « خليها على الله » من امتع الكتب التي يمكن ان يقرأها المرء ، فيعرف منها الكثير عن ريف مصر وتاريخها والكثير عن يحيى حقي كإنسان وكفنان .



يحيى حقـــى خليها على الله

● خبرات مكتسبة ..

اما في الصعيد فقد تكشفت لكاتبنا الكبير ، فيما يشبه الصدمة ، أحوال الريف المصري في ذلك العهد : الفقر والجهل والتخلف وايضا مشاعر عدم الثقة التي يشعر بها الفلاح تجاه الحكومة ولايجرؤ على التعبير عنها إلا بالتمسك بأقصى درجات السلبية في مواجهة اوامرها .. يعلن استاذنا دهشته لان تفاصيل هاتين السنتين لاتزال عالقة بذهنه منذ عام ١٩٢٩ وحتى تسجيلها في كتابه « خليها على الله » ١٩٥٩ ، رغم انه لم يحتفظ باي مخطوطات تسجل لهذه الفترة ـ ولكنه في الحقيقة لم يكن ممكنا ان ينساها ، وكيف يفعل وهي تلح على ذهنه وتوحي له بالكثير من اعماله . لقد سجل

بعد سنتي منفلوط انتقل يحيى حقي للعمل في السلك الدبلوماسي فبدأ امينا لمحفوظات القنصلية المصرية في جدة ثم استامبول وبعدها روما ثم عاد إلى مصر ١٩٣٩ .

هذه الخبرة الجديدة من المؤكد انها اضافت الكثير الى وجدان استاذنا . إنها مرحلة جديدة في علاقته بمصر : الروح والشعب .

فإذا كانت تجربته في القاهرة ومنفلوط قدمته للواقع المصري ، فقد اتاح له السفر فرصة لرؤية جوانب الصورة الأخرى ..

ففي جده اكتشف تاريخ الجبرتي وفتن به اشد الافتتان حتى انه كتب دراسة عنه وعن الدعاية في المجتمع



يحيى حقى

المصرى فى عهده . نشرت لأول مرة عام ١٩٣٠ . وفى تلك السنوات ايضا بدأ اتصاله المباشر بالحضارة الاوروبية واخذ موقف التلميذ فى كافة الفنون التى لم تسمح له نشأته بالتعرف عليها من قبل ..

والأهم مما سبق . ولعله نتيجه له ، هو ان كاتبنا الكبير عرف تلك الصدمة الحضارية المتوقعة بين الواقع الذى اتى منه ، والحضارة الجديدة التى اقتحمها ، انبهر يحيى حقى بتلك الحضارة الجديدة لكنه ابدا لم يفكر فى الاستغناء بها عن حضارته القديمة .

« كنت اشعر دائما ان فى داخلى شيئا صلبا لايذوب بسهولة فى حضارة الغرب .. انا وصلتها (يقصد روما) وعندى حضارة .. إن لم تفق .. فهى تماثل حضارتها ، وعندى دين هو نظام متكامل فيه الغناء » . اما ما كان يشغله حقا فهو مصر واهلها : « طوال تلك السنوات لم انقطع عن التفكير فى بلادى واهلها . كنت دائم الحنين الى تلك الجموع الغفيرة من الغلابة والمساكين الذين يعيشون رزق يوم بيوم » .

وعاد الاستاذ يحيى ليعبر عن تلك التجربة بشكل فنى محكم فى قصته الشهيرة « قنديل أم هاشم » .

ها هو يعلن فى تلك العبارة مبدأه الذى لايتنازل عنه فى تعامله مع النماذج التى ينتشلها من اعماق المجتمع المصرى ويقدمها لنا بحب لايخلو من حكمة ونقد لايخلو من تعاطف . من هذه النماذج برهومه فى قصة « ام العواجز » وهو رجل تبدأ به القصة بائعا للفجل وتنتهى به شحاذا عند مقام السيدة زينب ، وبمبه التى سبق ذكرها فى قصة « احتجاج » والست زليخة فى قصة « تنوعت الاسباب » ، والمعلم شعبان فى قصة « ذكريات دكان » ، والفلاحين فى « حصير الجامع » .

اخيرا ، فيما يختص بعشق الروح المصرية ، أود ان الفت نظر القارىء الى مقال بعنوان « مسرح الريحانى » يضمه كتاب « خطوات فى النقد » وارى انه يعبر عن ذلك الفهم النفاذ والحب الصادق الذى يكنه يحيى حقى للشخصية المصرية . فالمؤلف بعد ان يعترف لنجيب الريحانى بموهبة الحضور المسرحى ، ينكر ما سمعه عبر الاثير من خلال حفل فى ذكرى وفاة الريحانى من ان « فنه خالد لانه فن مصرى خالص صادق قد انبعث من قلب مصر ودل عليها ، وترجم عنها وارخ لها « فشخصية كشكش بك » عمدة كفر البلاص ، التى قدمها الريحانى ، لم تكن فى موضع رثاء او عطف وانما كانت مصب سخرية مقذعة ، كان كالمهرج الذى يصفع على القفا فى مهازل اولاد بعجر » ! ولولا الحان سيد درويش المصرية الصميمة لما كان اسم كشكش

بك دار على كل لسان ، هكذا يرى يحيى حقي .

وعندما جاءت الأزمة الاقتصادية واختفت شخصية كشكش بك العمدة الذي يثرى من بيع القطن ويضيع منه ماله في اللهو والعبث ، اصبحت شخصية العصر الجديدة « بالتشخيص » هي شخصية الافندي المطربش لتخذ الريحاني ذلك النموذج ليعبر عن متاعبه ومشاكله لكنه بدلا من ان يستمد تفاصيله وسماته من صميم الحياة المصرية . اكتفى هو وبديع خيرى باستيراد اسوأ وأرخص ما في المسرح الفرنسي .

يقول الاستاذ يحيى : « حرام ان يدمغ الشعب المصرى النبيل الانوف الكريم الودود ، بمثل هذه الصورة البشعة » . فالمصريون عند مسرح الريحاني « قوم طيبتهم بلاهة ، وغزلهم تلعيب حواجب ، يحبون الحكم والمواعظ الفارغة ، سريع غضبهم لايتمالكون اعصابهم ، يثورون للتافه من الأمور . فلو القيت على احدهم تحية الصباح .. لانحدر عليك سيل من الردح والتشليق !! » .

إذا عدنا لمفهومه السابق عن اللفظ الذي يسد قالبا معينا يعوى في روح الكاتب لفهمنا مواقفه فيما يختص باللغة .

هو على حد تعبيره مهووس بالفصحى ويرى انها القالب الفني الوحيد للعمل الكبير واهتمامه بالفصحى يظهر في استخدامه احيانا لكلمات مغرقة في الفصاحة حتى انها تحتاج الى ذكر معناها في حاشية الكتاب . لكنه في الوقت ذاته حائر بين عشقه للتعبير الصادق عن الحياة ، بما يستتبعه احيانا من استخدام لكلمات عامية ، وبين عشقه للفصحى التي تقصر احيانا عن التعبير الصادق عن تفاصيل حياة العاديين من الناس .. الحل عنده هو اولا السماح للكاتب باستخدام كلمات عامية بشروط اهمها في هذا السياق هو الا يجد في الفصحى لفظا يؤدى كافة المعاني والايحاءات التي يقدمها اللفظ العامي . وثاني وسيلة يلجا اليها استاذنا للقضاء على تلك الحيرة هي محاولاته للتعمق في كل من الفصحى والعامية ، لعله اولا يزداد علما بالمساحة المشتركة بينهما ، وعلى امل ، كلما ازداد تعمقا في الفصحى ، ان يجد كلمات جديدة فصيحة تعبر عن مشاعر ومعاني كان لايحسن التعبير عنها إلا بالعامية ، إقرأ مقالاته « آخر الضحايا » ، « في اختلافهم رحمة » ، و « لعل وعسى » ، وغيرها في كتابه « عشق الكلمة » لتعرف تفاصيل محاولاته تلك .

لم يبق لنا الا ان نذكر بشكل سريع دعوة يحيى حقي الى الالتزام بما اسماه الاسلوب العلمي الذي يتميز بطلب الحتمية والوضوح والدقة (تجد تفصيله في مقاله الهام « حاجتنا الى اسلوب جديد » من كتاب « خطوات في النقد ») وهذا يعني باختصار ان يكون اللفظ في موضعه بلا قلقلة فليس غيره يمكن ان يوضع مكانه ، وان يتخلص النص من السجع اللفظي والذهني ومن التكرار وعنائم الكلمات .

كل ما سبق ينتهي الى مصب واحد او لعله الأجدر بي ان اقول انه يخرج من نبع واحد : العشق ! البحث عن الجوهر . والمحاولة الدءوبة للنفاذ الى العمق .

المثقفون والسلطة في مصر

بقلم: د. عبد العظيم أنيس

هذا كتاب هام للدكتور غالي شكري يبحث فيه طبيعة العلاقة المعقدة والمتشابكة بين المثقف والسلطة في مصر الحديثة اي ابتداء من محمد علي مؤسس مصر الحديثة حتى عصر انور السادات ، ويستعين في بحث تلك العلاقة المعقدة باستجواب لستة من المثقفين المرموقين الذين لعبوا دورا خاصا في حياة مصر المعاصرة . اثنان منهم يمثلان المؤسسة العسكرية وإن وقفا على طرفي نقيض في السنوات الاولى لثورة يوليو وهما خالد محيي الدين وعلي صبري . والاربعة الآخرون وصفوا في القسم الثاني من الكتاب تحت عنوان "الشارع السياسي" وهم على الترتيب فتحي رضوان وتوفيق الحكيم وزكي نجيب محمود ولويس عوض .

ولقد تصورت ان غالي شكري في هذه الاستجوابات الستة عن تاريخ حياة المثقفين المصريين المرموقين السابقين متأثر بما فعله ميشيل لوي في دراسته عن المثقف المجري الكبير جورج لوكاتشي وعن تحوله المعقد والمتناقض من رؤية مأساوية للعالم الى رؤية ماركسية لينينية جعلته يلتحق الحركة العمالية والحزب الشيوعي المجري . فإذا كان تخميني هذا صحيحا فإن استجواب توفيق الحكيم في كتاب غالي شكري لا يفي بالغرض ولا يفسر لنا شيئا عن تحولاته الفكرية ورؤيته للعالم والمجتمع المصري ، بل انصرف كله الى محاولة الدفاع عن مواقفه وسلوكه في المرحلتين الناصرية والساداتية ، وهو دفاع معروف لا يضيف شيئا جديدا على الارجح .

إن غالي شكري بدأ الكتاب بمقدمة واعدة تشير الى تلك المشكلة التي يواجهها الباحث في موضوع هذا الكتاب ، وهي ان الاطار المرجعي لاشكالية العلاقة بين المثقف والسلطة هي الفكر الغربي ، ومن هذا الاطار المرجعي تشتهر عادة المصطلحات والتعاريف . هناك مثلا موطنان لمصطلح "الانتلجسنيا" هما روسيا القرن التاسع وفرنسا دريفوس حيث قام المثقفون بدور "لم يكلفهم به احد" اعني الدفاع عن الضابط الفرنسي دريفوس .

وهناك محطتان فى تطور هذا الاطار المرجعى الغربى لتلك القضية هما بحث سارتر فى كتابه "دفاع عن المثقفين" ثم دراسة جرامشى عن المثقفين ، ولقد وجدت كتابات سارتر وجرامشى ومصطلحاتهما استجابة كبيرة لدى المثقفين العرب ، وهكذا أصبح سارتر إطارا مرجعيا لاشكالية العلاقة بين المثقف والسلطة مع ان ظروفنا تختلف عن ظروف اوربا ومشاكلنا كثيرا ما تختلف وبالتالى فنحن فى حاجة الى اطار مرجعي آخر نابع من تطور تاريخنا نحن وظروفنا تنحت منه مصطلحاتنا وتعاريفنا .

لكن غالى شكرى لا يستخرج من استعراضه لتاريخ مصر الحديث الا تصنيف المثقفين الى ثلاثة انماط : المثقف التقنى "الخبير" ، والمثقف الداعية "السياسى" ، والمثقف صاحب المشروع ، ويعطى امثلة على ذلك بعلى مبارك للنمط الاول وعمر مكرم للنمط الثانى ورفاعه رافع الطهطاوى للنمط الثالث . والذى يبدو لى هنا ان المصطلح المستخدم للتعبير عن النمط الاول "المثقف الخبير" موجود فى الغرب ويستخدم بكثرة وهو يشير الى نوع المثقف الذى يوظف خبرته ومعرفته لخدمة السلطة القائمة ، وأحيانا يسمى المثقف "الوظيفى" ، كما يبدو لى ان التفرقة بين المثقف الداعية والمثقف صاحب المشروع وهمية الى حد كبير ، فالمثقف الداعية "السياسى" هو عادة صاحب مشروع حتى ولو كان هذا المشروع غامضا فى وعيه ، فعبدالله نديم هو من هذا النوع .. المثقف الداعية ، وان كان صاحب مشروع فى الاستقلال الوطنى عن الاحتلال الاجنبى .

ولقد تجد فى تاريخ مصر الحديثة انماطا من المثقفين فيهم شىء من المثقف الخبير وشىء من المثقف الداعية وشىء ثالث من المثقف صاحب المشروع فى آن واحد . ولعل سيرة الامام محمد عبده تبرز هذا ، فهو المثقف الداعية لانه ناصر الثورة العرابية الى حد نفيه الى الشام ، لكنه هاجمها بعنف حتى ان العرابيين هددوه بالقتل ، وهو واحد من ابرز تلاميذ السيد جمال الدين الافغانى وان كان الفتور قد دب بينهما فيما بعد حتى فى فترة "العروة الوثقى" ، ويعرف التاريخ أن محمد عبده كان على صلة طيبة برياض باشا وبالمعتمد البريطانى كرومر ، ولاشك ان تعيينه مفتيا للديار المصرية كان محل رضاء سلطات الاحتلال ، وعلى ذلك فقد كان محمد عبده صاحب مشروع فى الاصلاح الدينى للتوفيق بين الدين والحداثة ، الأمر الذى أثار عليه ثائرة الازهر .

وربما كان اول خلاف فى الاطار المرجعى لفهم اشكالية العلاقة بين المثقف والسلطة بيننا وبين الغرب ،

المثقفون وسمتهم في مصر

ان تعريف المثقف والانتلجسنيا وجد طريقه الى النور هناك من خلال الدفاع عن قضية الديمقراطية بينما ينبغى ان نتلمس تعريف المثقف والانتلجسنيا المصرية تاريخيا من خلال الموقف من قضية الاستقلال الوطنى عن الاحتلال الاجنبى ثم امتدادا من خلال الموقف من قضية الاحتلال الصهيونى لاراضى فلسطين والاراضى العربية الاخرى .

فالموقف من ثورة ١٩١٩ كان هو المحك الحقيقى فى فهم دور الانتلجسنيا المصرية الحديثة والمثقفين . كانت "الجامعة الوطنية" حديثة النشأة انذاك بعد سنوات طوال من رسوخ فكر "الجامعة الاسلامية" وبعد صراعات طائفية وصلت الى حد اغتيال بطرس باشا غالى عام ١٩١٠ على يد الوردانى من الحزب الوطنى والى عقد المؤتمر القبطى فى اعقاب ذلك ثم الرد عليه بمؤتمر المسلمين مما اشاع جوا من التوتر لعبت فيه العديد من العناصر دورا سلبيا وفى مقدمتهم الشيخ عبدالعزيز جاويش من الحزب الوطنى .

● **فكرة القومية المصرية**

وبينما كان المثقف الاوربي يعرف بأنه "يدس أنفه فيما لا يعنيه" كما يقول سارتر اشارة الى دفاع المثقفين الفرنسيين عن الضابط اليهودى دريفوس فأن المثقف المصرى كان يعرف من خلال توحده بقضية الاستقلال الوطنى . ولعل هذه الحقيقة هى التى جعلت لمثقفى ثورة ١٩١٩ من امثال توفيق الحكيم وحسين فوزى ولويس عوض ونجيب محفوظ سمة واحدة هى التزامهم بفكرة "القومية المصرية" التى حاولوا تأصيلها من التاريخ الفرعونى . ولهذا لم تتسع صدورهم يوما لدعوة "القومية العربية" التى كانت مزدهرة فى المشرق العربى .

وفي هذا الاطار لعبت عوامل عديدة دورها فى ابعاد المثقفين المصريين عن دعوة العروبة السياسية ، وهى الدعوة الوحيدة التى كان يمكن ان توحد مجتمعات الشلم الفسيفسائية والتى تتميز بوجود اقليات متعددة دينية وعرقية مثل السنة والشيعة والعلويين والدروز والموارنة والارثوذكس والعرب الاكراد والارمن .. الخ . ولان القضية الاساسية فى المشرق العربى كانت قضية التحرر من الاحتلال والاستبداد التركى فليس من الممكن ان يكون شعار "الجامعة الاسلامية" هو الشعار المجمع للقوى الوطنية المختلفة ، وانما كان شعار "القومية العربية" هو عنصر التوحيد وفى هذا السياق ايضا تطلع زعماء الحركات الوطنية فى المشرق العربى قبل الحرب العالمية الاولى الى تأييد فرنسا وبريطانيا لدعوتهم وهذا ما تظاهرت به الدولتان فعلا . ويحكى التاريخ

الحديث ان العديد من هؤلاء الزعماء كانوا كثيرى التردد على "المكتب العربى" بالاسكندرية ، وهو جهاز المخابرات البريطانية فى الشرق الاوسط الذى كان يتردد ايضا عليه لورانس . فليس من الغريب اذن ان ينظر المثقفون المصريون ـ ومشكلة مصر آنذاك كانت الاحتلال البريطانى ـ والى دعوة القومية العربية بالكثير من الشك والريبة .

فى كتاب لورانس "أعمدة الحكمة السبعة" يحكى كيف ان قوات ماسمى "الثورة العربية الكبرى" والتى كانت تحت قيادته احتاجت الى مدفعية بعيدة المدى لمواجهة المدفعية التركية التى تحمى خط سكة حديد "بغداد ـ المدينة" وانه اقترح على المسئولين البريطانيين ارسال وحدة مدفعية مصرية من الوحدات الرابضة فى الخرطوم . فلما ارسلت الوحدة بالفعل رفض قائدها وجنودها اطلاق النار على الاتراك لانهم مسلمون وكان ان اعيدت الوحدة مرة اخرى الى الخرطوم .

ثم كان هناك اعتبار آخر لعب دوره فى ابعاد مثقفى ثورة ١٩١٩ عن دعوة القومية العربية ، الا وهو الدور الذى اضطلعت به الجالية "الشامية" فى مصر ازاء الحركة الوطنية المصرية ، ولاشك ان تلك الجالية قد لعبت دورا تنويريا عظيما فى ميدان الثقافة والاعلام من صحافة وسينما ومسرح وتبسيط علوم .. الخ ، لكن كثيرا من قيادتها كان وثيق الصلة بالاحتلال البريطانى وفى خدمته سياسيا . ونحن نعلم ان العرابيين ـ وخصوصا عبدالله نديم ـ هاجموا مواقف الجالية الشامية بشدة ووصفوا قادتها بأشنع الأوصاف كما فعل نفس الشىء قادة الحزب الوطنى وخصوصا مصطفى كامل .

● التأكيد على عنصرى الأمة

تلك هى الظروف التى جعلت مثقفى ثورة ١٩١٩ فى مجملهم بعيدين عن الفكر العربى السياسى ودعوة القومية العربية . ولذا لم يكن غريبا ان يتخندق امثال توفيق الحكيم ولويس عوض وحسين فوزى وسلامة موسى فى خندق "القومية المصرية" او ان يسعى بعضهم لتأصيل هذا المفهوم فرعونيا وهو ما يتجلى فى رواية "عودة الروح" لتوفيق الحكيم وفى اعمال نجيب محفوظ الاولى وفى كل اعمال سلامة موسى . وفضلا عن ذلك فقد كانت هناك حاجة شديدة الى تلك الراية "راية الوطنية المصرية" للتأكيد على وحدة عنصرى الامة من مسلمين واقباط بعد الاحداث المأساوية التى جرت فى مصر قبل الحرب العالمية الاولى مباشرة . ولقد تمنيت على كتاب د. غالى شكرى ان يتعرض لهذا الجانب لانه يحكى جانبا هاما عن قصة المثقفين المصريين الحديثة .

ثم هناك امر آخر ورد فى الكتاب ويتعلق بأزمة كتاب طه حسين "فى

المثقفون والسلطة فى مصر

الشعر الجاهلى" الذى صدر عام ١٩٢٦ ، فالدكتور غالى شكرى يرد هذا الموقف المعادى لحرية الفكر الذى تجلى آنذاك الى الاحتلال والاوتوقراطية الملكية ، وفى رأيى لا يكفى هذا التفسير لان الاحتلال لم يكن اصلا طرفا فى النزاع الذى تفجر آنذاك حول الكتاب ، وانما الذى يلفت النظر هو موقف دوائر البورجوازية المصرية التى وقفت بشكل عام ضد الكاتب والكتاب واذا قورن هذا بموقف البورجوازيات الاوربية من احداث مماثلة فسوف نجد الفارق شاسعا . ويعود السبب فى ذلك الى عوامل عدة من بينها عدم نجاح حركة الاصلاح الدينى التى بدأها محمد عبده والى طبيعة النمو المشوه للبورجوازية المصرية وخروج معظم عناصرها من عباءة الاقطاع المصرى واثراء الفلاحين وافتقاد وجود صناعة مصرية نامية . على ان النقطة الاخرى التى تستحق الاهتمام هى أن المؤلف قد استنتج ان المجتمع المصرى عام ١٩٢٦ كان اكثر تسامحا فى قضية حرية الفكر منه اليوم وذلك لان طه حسين لم يحاكم ولم يسجن ولم يفصل من الجامعة .

ولقد اشرت من قبل فى مكان اخر الى قناعتى بان هذا غير صحيح . واذا كان صحيحا ان طه حسين لم يحاكم ولم يفصل من الجامعة ولم يسجن فقد كان ذلك يعود الى طبيعة التوازن الوزارى الذى كان قائما انذاك بين الوفديين والاحرار الدستوريين فى الحكم . كان طه حسين رجل الاحرار الدستوريين بلا منازع وكان الاهداء فى هذا الكتاب موجها الى عبدالخالق ثروت قطب الحزب المعروف ووزير الخارجية انذاك ، وكان عدلى يكن زعيم الحزب هو رئيس الوزراء بينما كان سعد زغلول رئيسا لمجلس النواب وكانت هذه الوزارة الائتلافية قد تشكلت بعد صراع طويل لاشتراك هذا الحزب الاخير فى وزارة غير دستورية بقيادة زيور باشا جاءت فى اعقاب استقالة وزارة سعد زغلول بعد الانذار البريطانى الشهير اثر حادث اغتيال السردار سيرلى ستاك فى القاهرة عام ١٩٢٤ . وقد ثارت ضجة حول الكتاب بدأها نائب الجمالية الوفدى عبدالحميد البنان ، وهدد فيها عدلى يكن بطرح الثقة بالوزارة ان تقدم المجلس برسالة الى النائب العام حول الكتاب للتحقيق ورفعت الجلسة فى جو متوتر بين سعد زغلول وعدلى يكن ثم انتقلت الاجتماعات الى بيت الامة الى ساعة متأخرة من الليل بحثاً عن حل . وكادت الوزارة ان تسقط وينخفض الائتلاف لولا الوصول الى حل فى اخر لحظة . وفى هذا الجو لم يكن امام وكيل النيابة الا ان يحفظ التحقيق بحجة عدم توفر القصد الجنائى . ومع ذلك فان قرار الحفظ امتلا بالتهجم على طه حسين واتهامه بالجهل والتناقض الى درجة ان طه حسين قدم استقالته

من الجامعة عقب صدور قرار الحفظ لما فيه من اهانة له . لكن الوزير رفض الاستقالة .

وتستطيع ان نقارن هذا الموقف بما جرى للشيخ على عبدالرازق عند صدور كتابه "الاسلام واصول الحكم" قبل ذلك بعام اى عام ١٩٢٥ ، ومع ان المؤلف من عائلة عبدالرازق التى كانت احدى دعامات حزب الاحرار الدستوريين والذى كان ممثلا فى وزارة زيور باشا انذاك بثلاثة وزراء على راسهم عبدالعزيز باشا فهمى الذى كان وزيرا للعدل ، الا ان على عبدالرازق حوكم امام هيئة كبار العلماء التى سحبت منه شهادة العالمية الازهرية وفصلته من القضاء الشرعى ، اى انه لم يحاكم مدنيا وانما حوكم دينيا فى ساحة الازهر كما حوكم جاليليو من قبل فى روما . وما كان من الممكن ان يحاكم على عبدالرازق مدنيا اولا لان عبدالعزيز فهمى هو وزير العدل وثانيا لان الاتهام الموجه لعلى عبدالرازق لم يكن اتهاما بالكفر والالحاد كما هو الحال فى كتاب طه حسين . فاذا كان على عبدالرازق لم يحاكم ولم يسجن فالفضل فى ذلك يعود الى ان حزبا كاملا فى السلطة كان يقف وراءه ، والى ان عبدالعزيز فهمى قد استقال هو وزملاؤه احتجاجا على المحاكمة امام الازهر "بايعاز طبعا من الملك فؤاد" الامر الذى ادى الى سقوط الوزارة كلها واجراء انتخابات جديدة ساعدت على اعادة التقارب بين الوفد وحزب الاحرار .

● تحالف قوى الشعب

واخيرا اشير الى ان هذا الكتاب العلم قد خصصت خاتمته لبحث الصياغات المعرفية التى عنيت بالعلاقة بين المثقفين والسلطة ، واولها عند المؤلف صياغة "المستبد العادل" على يد محمد عبده او "الكل فى واحد" على يد توفيق الحكيم ، وثانيها هى الصياغة التى تحاول اقامة جسر بين المثقفين والمؤسسة العسكرية ومن اقطاب هذه الصياغة انور عبدالملك ومحمد عودة ، وثالثها هى صياغة "تحالف قوى الشعب العامل" وهى الصياغة التى ازدهرت خلال المرحلة الناصرية خصوصا بعد الميثاق عام ١٩٦٢ .

على ان مايلفت النظر هو نسيان المؤلف لصياغة رابعة عن العلاقة بين المثقف والسلطة ، وهى الصياغة الدستورية والتى تعبر عن جهاد حزب الوفد ومثقفيه خلال العشرينات والثلاثينات ، وهى الصياغة التى كان عباس العقاد معبرا عنها عندما قال باولوية الدستور على السلطان وادت به مقولته هذه الى السجن تسعة شهور عام ١٩٣١ .

ان هذه الصياغة ، صياغة الولاء لدستور ديمقراطى واولوية هذا الولاء على ولاء السلطان ، تأخذ اهمية خاصة فى ظروف العالم الجديدة وعلى ضوء الانهيارات الكبرى التى وقعت دوليا بل وعلى ضوء خروج مصر من مرحلة الحكم الشمولى والى مرحلة التعدد الحزبى والمعارضة السياسية .

لغز الحضارة

سر الرقم سبعة

بقلم : د. سيد كريم

لغز محير عاصر شعوب الحضارات الانسانية منذ نشاتها رقم عددى سيطر بسره وسحره على عقول البشر .

اتخذه البعض رمزا للخير والتفاؤل الذى بلغ الى حد التقديس بينما لمس فيه البعض الآخر ميلا الى الشر والتشاؤم .

اكتشفوا انه يرمز الى الاضداد اى الخير والشر فى اطار واحد فالسماوات وابواب الجنة اجمعت الكتب السماوية على ان عدد كل منها يخضع للرقم ٧ وفى نفس الوقت وصفت طبقات الارضين وابواب الجحيم وعناصر الشر وكيف يسيطر نفس الرقم على عددها .

فى عالم السحر الذى اشتهرت به مصر فى الدولة القديمة وانتقل عنها الى مختلف الحضارات القديمة اتخذ منه السحرة مفتاحا للسحر الاسود ووسيلة للاتصال بالعالم السفلى بينما استغله البعض الآخر سلاحا لدفع الشر ومفتاحا لعمل الخير فارتبطت طقوس السحر وتعاويذه فى مختلف حالاته بالرقم ٧ .

وفى تاريخ الحضارات عندما حاول الباحثون الكشف عن عناصر تكوين عمارة كل منها وجدوا ذلك الرقم السحرى يطل من بين اطلالها ، وصفت متون العقيدة البابلية ان العمد التى ترتكز عليها قبة السماء عددها سبعة . كما ان عرش معابد كل من بابل والقدس وروما تتكون من سبعة تلال ، وبرج بابل عدد درجاته سبع وحدائق بابل المعلقة عددها سبع كما ان هندسة بناء الاهرامات يلعب الرقم سبعة فى كثير من نظرياتها بنائها الانشائية والهندسية .

وسور الصين العظيم يتكون من سبعة اضلاع يكل منها برج للمراقبة

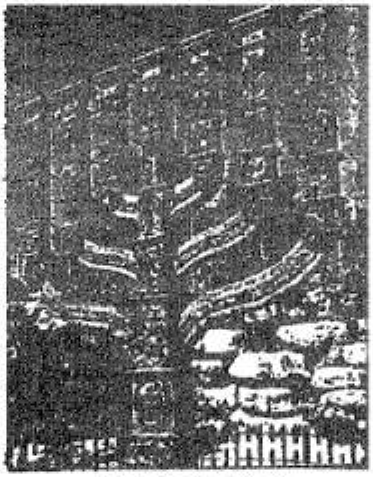
اطلق عليها ابراج الدفاع السبعة .

كما ان اسوار المدن التاريخية القديمة ومن بينها القاهرة لكل منها سبعة ابواب .

وعندما حاول مؤرخو الحضارات حصر صروح العالم القديم حددوا عددها مجتمعة بسبعة رغم تباعدها زمانا ومكانا واطلقوا عليها اسم عجائب الدنيا السبع وهي الاهرامات ومنارة الاسكندرية وحدائق بابل المعلقة وتمثال زيوس في اولمبيا وتمثال كلوراوس في رودس ومعبد ارتيميس وتمثال زيوس - ولا يخفى ان الاهرامات هي اقدم العجائب السبع كلها وهي الوحيدة التي بقيت صامدة حتى الآن ، ويليها تمثال كلوراوس في جزيرة رودس وكان مصنوعا من البرونز ويرمز إلى زيوس اله الشمس عند الفراعنة وقد اقاموه في مدخل الميناء كان ارتفاعه ١٠٠ قدم وانتهى امره الى الدمار بسبب زلزال وقع عام ٢٢٤ ق . م .

ولما كان الرقم سبعة قد ورد في كثير من الوصايا وتعاليم الشرائع بالكتب السماوية فقد انتقل ليحتل بدوره في اقوال الحكماء التي توارثتها الشعوب وتناقلتها الامثال الشعبية التي تعيش في وجدانهم كما وجد له منفذا الى الادب القصصي واساطير من قديم الزمن .

ففي قصص الاساطير الفرعونية والاغريقية والبابلية يصبح الرقم ٧ عاملا مشتركا في كثير منها كاسطورة ملك الملوك والكلاب السبعة الحارسة والتي تعبر عن اله السماء والنجوم



● مشعل شجرة الخلق ..
شعلة النور الدائم ..

السيارة الحارسة وقصة جزيرة الشيطان والثعبان ذي السبعة رءوس وشجرة الحب ذات الاغصان السبعة والتي يقف على كل فرع من فروعها سبعة من الطيور المغردة وزهرات اللوتس السبعة التي تتراقص في بحيرة الحب عندما يحتضنها النسيم وينقل لها اخبار الحبيب الغائب ، وغيرها من قصص الحب الفرعوني .

وانتقل الرقم ٧ الى ادب القصة الحديثة ابتداء من قصة الاميرة والاقزام السبعة وقصص افلام جيمس بوند التي اختار لها مؤلفها فلمنج اسم العميل رقم ٧ وعندما سئل فلمنج عن سر اختياره لهذا الرقم قال انه يتفاءل بهذا الرقم لان اسمه شخصيا مكون من سبعة احرف كما ذكر انه اكتشف ان روسيا اختارت نفس الرقم كشفرة في مخابراتها السرية وخط تليفونها الساخن .

وكان لسيطرة ذلك الرقم على معتقدات الشعوب منذ فجر الانسانية حتى يومنا هذا ولجماع الكثير منهم على تاكيد قدسيته .

لقد جذب ذلك الرقم السرى اهتمام كثير من علماء العصر الحديث وهم يحاولون كشف اسراره بوسائلهم التكنولوجية فى مختلف مجالات تخصصهم العلمى

يتوصل عالم الفلك والطبيعيات سيرام فى ابحاثه الخاصة بكشف العلاقة بين الظواهر الطبيعية ومكونات الكون وفى مقدمتها مكونات الاجرام السماوية او خلق السموات وطبقات تكوينها والتى اجمعت الكتب السماوية على ان عددها سبعة . اكدت نتائج ابحاثه ان ذلك الرقم يعبر فعلا عن التقسيم الطبقى لدرجات المادة الكونية وهى طبقات :

الصلابة والسيولة والغازية والاثيرية وفوق الاثيرية ودون الذرية ثم الذرية وعددها الثابت سبعة

ويشترك علماء الروحانيات كل من فردريك مايرز وكونان دويل عن طريق مخاطبة علماء موثوق بهم من الراحلين وتتفق ابحاثهما فى ان الارواح تنتقل الى العالم الاخر خلال سبع مراحل عبر سبع سماوات وهى مستوى العالم الارضى ثم مستوى انعدام الوزن ومستوى العالم الكوكبى وعالم الالهام وعالم الجوهر ثم العالم الالهى .

ويؤكد علماء المصريات بان ذلك التقسيم يتفق مع الاوصاف التى وردت فى كتاب الموتى الفرعونى فى رحلة العالم الآخر .

● عقيدة التوحيد المصرية القديمة وسر الرقم ٧ :

كان المصرى اول من قدس الرقم ٧ مع نزول اول رسالة للتوحيد عرفتها البشرية فى عصر ما قبل الأسرات فاتخذ الرقم ٧ رمزا للخلق ونشاة الحياة عندما خلق الاله الكون فى ستة ايام واستوى على العرش فى اليوم السابع والتى تصف المراحل السبعة بان الاله الاعظم (اتوم رع) خلق نفسه بنفسه . ومن انفاسه خلق عناصر الكون والوجود الستة فخلق الفضاء والارض فى اليومين الاولين فاندمجا فامرها بالقوة والطاقة لينجبا عناصر التكوين الاربعة وهى العطاء والخصب والخير والشر وفى اليوم السابع انزل الروح لتبدا الحياة .

« قل ائنكم لتكفرون بالذى خلق الارض فى يومين وتجعلون له اندادا ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها اقواتها فى اربعة ايام سواء للسائلين .. ثم استوى إلى السماء وهى دخان ... » "فصلت" كما اجمعت جميع الكتب السماوية والرسالات التى نزلت فيما بعد على خلق الكون فى ستة ايام واستواء الاله الخالق على العرش فى اليوم السابع .

وارتبط الرقم سبعة المقدس بسر الوجود فعناصر الخلق ومكوناته فى وصفهم تخضع لذلك الرقم المقدس والاله خلق السموات وعددها سبع

واعطى لكل سماء اسما ووصفا وطبقات الأرض مثلها والبحار العظيمة التى خرجت منها الحياة عددها سبعة والجبال او اعمدة اركان المعمورة تحمل نفس العدد .

كما وصفوا البعث ورحلة الروح ومراحل انتقالها الى العالم الآخر وعددها سبع مراحل تمر خلالها عبر بوابات السماء السبعة حتى تصل الى البرزخ الذى ترسو عنده سفينة الروح (سفينة الشمس) وتدخل الروح منه الى قاعة محكمة الآخرة لتقف امام الميزان فى حراسة الشهود السبعة ومن بينهم .

تحوت - رننوت - ونبيت والقرد والوحش ويحمل كل منهم صفة من صفات تسجيل حركة الميزان ويجلس على احد جانبي قاعة المحكمة القضاة الاثنان والاربعون فى ست مجموعات تعبر عن ايام الخلق الستة وعدد قضاة كل مجموعة سبعة .

وينتقل كتاب التوحيد ليصف طبقات الجنة او الجنات السبع :

١ جنة الموحدين اتباع حورس
٢ جنة الابرار والمطهرين
٣ جنة الحكماء والمعلمين ؟
٤ جنة شهداء حرب العقيدة
٥ جنة القديسين
٦ جنة الملائكة والرسل
٧ جنة النور (عرش الاله)

ووصفوا كل جنة من تلك الجنات وما بها من مغريات بما لا يختلف عما ورد ذكره ووصفه فى مختلف الكتب السماوية .

ويقف على باب الجنة الحور السبع المجيبة التى تستقبل داخل الجنة وتقوم بخدمته وتلبية رغباته ويعبر عن الحور فى كتاب الموتى بالبقرات السبع الجميلة .

وابواب الجحيم سبعة يحرسها سبعة زبانية .

ولعنة السماء سبع سنين وهى سنوات القحط والجفاف وقد سجل التاريخ الكثير منها من بينها السنوات العجاف التى حلت بمصر فى عهد سيدنا يوسف .

● تقديس الذهب

وفى علوم المعرفة كان المصريون القدماء اول من كشف ان الوان الطيف سبعة التى تجمعها شعة الشمس والتى يظهرها نور الاله (قوس قزح) انفراج الاشعة الذهبية لذا قدسوا معدن الذهب لان لونه يجمع بين الوان الطيف السبعة لذا فهو المعدن الوحيد الذى لايبلى ولا يفنى كما انهم كانوا اول من كشف السلم الموسيقى ودرجاته السبع فصنعوا من اوتاره قيثارة الوحى ذات الاوتار السبعة . وناى غاب النيل بثقوبه السبعة .

وعلم الفلك الذى كانوا يحاولون بواسطته كشف اسرار الوجود وما يرتبط به من علوم المعرفة المقدسة التى تحتفظ باسرارها قبة السماء . كشف لهم علم الفلك الكثير من اسرار الرقم ٧ ودوره المؤثر فى الرياضيات والطبيعيات والهندسة والفنون .

ففى عصر الاهرامات الذى نادى فيه « ايمحوتب » الذى حمل القاب رسول العقيدة واله الطب والاب الروحى للعمارة والفنون . بدا رسالته بتوحيد الاله والجمع بين العلم والايمان فكان اول من استعمل الحجر فى البناء فى

لغز الحضارة

تاريخ الحضارة المصرية ووضع نظريات فن البناء التي ترتكز على المعادلات الرياضية المستمدة من الفلك والتي تدور معظمها حول العدد ٧ المقدس .

كان ايمحوتب أول من استعمل الحجر في البناء في تاريخ الحضارات وبنى أول هرم رمز به إلى عقيدة التوحيد وهو هرم سقارة المدرج ، رمز بدرجاته الى ايام الخلق الستة وعرش الاله في اليوم السابع ولذا فقد اطلق على الهرم المدرج في برديات متون العقيدة اسم سلم الصعود الى عرش الاله والانتقال خلال السموات السبع .

كما وضع ايمحوتب نظريات بناء الاهرامات العظيمة جميعها وفقا لنظريات رياضية وانشائية علمية متطورة لازال علماء العصر التكنولوجي الحديث يحاولون كشف اسرارها وقد ذكر ايمحوتب في مقدمتها ان الشكل الهرمي نفسه تمثل قاعدته المربعة أعمدة اركان المعمورة الاربعة وواجهاته المثلثة الشكل تمثل قوى الاله الكونية الثلاثة وبذلك يكون الشكل الهرمي الذي تتجه قمته نحو قبة سماء يرمز الى ايام الخلق السبعة تى تمده بالقوة الكونية التي يقاوم بها الهرم عاديات الزمن .

ولا يخفى ان الاهرامات وهي اقدم عجائب الدنيا السبع كلها هي الوحيدة التي بقيت صامدة حتى الآن .

وبالفلك رصدوا النجوم السيارة حارسة الشمس فوجدوا ان عددها سبعة فاطلقوا عليها اسم الملائكة السبعة التي تحرس الشمس وهي المشترى والزهرة وزحل وعطارد والمريخ وقائدي الحراسة الأرض والقمر وهي الكواكب التي تخط مصير الانسان خلال دورتها في البروج السماوية ووضعت اساس علم التنجيم .

ومن نفس اسماء الآلهة السبعة التي اطلقها المصريون القدماء على الكواكب الحارسة اتخذ العالم الحديث في مختلف لغاته الحية نفس الأسماء ليطلقها على اسماء ايام الاسبوع السبعة بترتيبها الذي لم يتغير .

انتقل الاهتمام بالرقم ٧ لقدسيته . من العقيدة الى تنظام حياة المجتمع نفسه ففي المعابد قسموا درجات الكهنوت الى ستة درجات يرأسها الكاهن الاكبر والأب الروحي (اور - ماو) يتبعه ست مراتب من الكهنة ١ - حرعب (الكاهن المبجل) ٢ - واعب (المرتل) ٣ - ختم نتر (المرشد) ٤ - اتف نتر (المعلم) ٥ - ايموسيما (الامين) ٦ - اودود (المؤقت) - وهو نفس التنظيم الذي انتقل الى اليهودية والمسيحية .

رقم ٧ في العسكرية الفرعونية

في مجال العسكرية في مصر القديمة كان للرقم سبعة دور مرموق في تاريخ الحضارة العسكرية مع بدء ظهور الجيوش وتنظيماتها العسكرية والتي بدأت قبل عصر الأسرات . تصف الأساطير أول المعارك المصرية التي قام بها القائد نعرمر (مينا) بزحفه

المقدس بقواته المكونة من سبع فرق والتي وحد بها القطرين بتوحيد العقيدة في سبعة اشهر فرض فيها عقيدة التوحيد في المعابد السبعة بالوجهين القبلي والبحري ونصب نفسه ملكا على مصر مؤسسا لأولى اسراتها .

في عالم الطب الذي اشتهر به الفراعنة ونقله عنهم العالم القديم الذي اتصلت حضاراته بمصر نرى انهم قسموا الثقافة الطبية الى سبعة اقسام بدءا بالطب العضوي وامتدادا الى الطب النفساني والبشري والصيدلة ـ يدرس كل فرع من فروعها في جامعة خاصة او بيت من بيوت الحياة .

كما وصف برديات ايمحوتب . اله الطب ـ في الدولة القديمة : ان الجسم البشري مكون من سبعة اعضاء مرتبط بعضها ببعض من ناحية الاصابة بالأمراض ووسائل العلاج كما ربطوا كيان الوجود الانساني بالرقم ٧ المقدس فالجنين يتكامل تكوينه في بطن الأم في سبعة اشهر ومراحل تطور نموه من الطفولة الى الشيخوخة سبع مراحل طول كل منها سبع سنين بالتمام .

وفي طب العيون اكتشفوا ان شبكية العين تتكون من سبع طبقات وان حدقة العين تتغير بين سبعة اشكال يمكن عن طريقها تشخيص نوع المرض الذي يصيب الجسم .

وفي مجال التشريع كون الفراعنة اول مجلس للتشريع يتكون من سبعة من كبار الكهنة بمعبد اون لوضع التشاريع والقوانين المدنيـة وفقا لتعاليم السماء ويعتبر اول مجلس للشورى عرفه العالم وهو المجلس الذي نقل نظامه وعمله الحكيم سولون بعد عودته من مصر واطلق عليه اسم مجلس حكماء اثينا السبعة المكون من (سولون وتاليس وبيتاكوس ـ وبياس وكليوبولس وشيلون وبرناندر) ونسب مؤرخو عالم الغرب الى سولون بانه اول من وضع اسس مجالس التشريع والشورى للعالم بينما مجلس تشريع الفراعنة سبقه بالفى سنة .. وكون الاسلام مجلس فقهاء المدينة السبعة الذين اطلق عليهم رواة الفقه الاسلامي فكان اول مجلس للشورى والتشريع في الاسلام يقول فيثاغورس عالم الرياضيات ان جميع الكائنات في السماء والأرض يخضع نظامها لأرقام عددية يكمن فيها سر خصائصها وقد اعتبر المصريون الرقم ٧ مقدسا لارتباط اسرار القوى الكامنة والمحركة في معظم الكائنات به وان الكثير من اسرار المعرفة المقدسة ومصدرها مرتبط بذلك الرقم المقدس الذي يحتفظ كهنة المعرفة باسراره .

رقم ٧ في الاساطير

انها تحكي اساطير الاولين كيف حاول ابرهة هدم الكعبة بجيشه الذي تتقدمه سبعة افيال ضخمة فنزلت عليه لعنة السماء بصواعقها واعصارها التي استمرت سبع ليال وسبعة ايام انتهت بالقضاء على جيش ابرهه وافياله السبعة .

وقد ورد ذكر الافيال السبعة في البوذية وهي الافيال المقدسة التي تحرس معبد الاله وتنقش صورتها على كثير من التمائم التي يتبارك بها البوذيون كما ورد ذكر الرقم ٧ في كثير

لغز الحضارة

من متون العقيدة وكتاب الاختام السبعة (كتاب بوذا المقدس) فيشرح ان بوذا خطا سبع خطوات عند مولده ثم سار سبع سنين فى البحث عن الحقيقة حتى وجدها فى زهرة اللوتس المقدسة ذات السبع ورقات والتى يتخذ منها البوذيون رمزا للتفاؤل .

تتكون جنة البوذيين من سبعة اسطح يرتكز سطح كل منها على طبقة من طبقات السماء العليا ، كما يتكون الجحيم من سبع طبقات سفلى تحت الارض وهو ما يتفق مع كثير مما ورد فى كتاب التوحيد الفرعونى وورد ذكره فى جميع الكتب السماوية التى نزلت فيما بعد .

ويحصر بوذا الخطايا فى رسالته فى سبع او الخطايا السبع وهى الحقد والحسد والغيرة والغضب والنميمة والجشع والغرور او التكبر كما يشترك الرقم ٧ فى كثير من طقوس العبادة البوذية وتقاليدها .

● قصص الانبياء وكتب السيرة

ففى قصة سيدنا نوح استمر بناء السفينة سبع سنين وكانت ابعادها ومكوناتها التى تلقاها من السماء ترتبط جميعها بالرقم ٧ .

وانحسر الفيضان العظيم بعد سبعة ايام .

● هرم سقارة المدرج ٧ درجات ايام الخلق سلم الصعود الى عرش الإله فى السماء . خلق الإله الكون فى ستة ايام . ثم استوى على العرش فى اليوم السابع ليشع نوره على الكون وتبدأ الحياة والحركة (كتاب الموتى)



وغابت حمامة نوح لتعود بعد سبعة ايام حاملة غصن الزيتون الذى اتخذ منه العالم رمزا للسلام .

ويلقى سيدنا ابراهيم الغدر والعذاب من قوم اهل كنعان سبع سنين امره الاله بعدها بالهجرة الى مصر .. البلد الامن لتقضي بها سبع سنوات قبل ان يغادرها حاملا رسالة التوحيد ليصبح "ابو الانبياء" . كما قضى لوط معه تلك السنوات السبع على ارض مصر .

وقد ساير الرقم ٧ قصة سيدنا يوسف حيث قضى في السجن سبع سنوات خرج بعدها ليفسر حلم السنابل السبع والبقرات السبع السمان والسبع العجاف وسنوات القحط السبع ومثلها سنوات الرخاء .

وعاش يوسف فى معبد اون معبد العقيدة سبع سنوات تزوج بعدها من اسنات ابنة الكاهن الاكبر للمعبد . وقضى هود سبعة ايام فى بطن الحوت كما قضى يعقوب سبع سنوات فى البحث عن ليا وراشيل .

● الاسلام وخصائص العدد ٧

تعرض القرآن الكريم للعدد سبعة واحتواه فى اكثر من موضع وسورة واية . بدات فاتحة القرآن بالفاتحة وتتكون من سبع ايات . اعقبها بالشهادة «لا اله الا الله محمد رسول الله» وتتكون من سبع كلمات كل كلمة منها تغلق بابا من ابواب الجحيم السبعة .. والقرآن الكريم مكون من سبعة اسباع .

اما خاصية السبع فانها وقعت قدرا وشرعا فخلق الله عز وجل السماوات سبعا وفوقها سبع طرائق . والبحر يمده من بعده سبعة ابحر والارضين سبعا والايام سبعا والانسان كمل خلقه فى سبع اطوار .

ويقول الحديث الشريف ان هذا القرآن انزل على سبعة احرف . وهى المعانى السبع فى كتاب الله .

(الامر والنهى والوعيد والقصص والامثال والمجادلة) بينما يفسرها البعض الاخر بانها تعنى اللغات السبع التى وردت بعض كلماتها فى القرآن وهى الفرعونية والسريانية والعبرية ولغة قريش الخ كما ينسبها البعض الاخر الى القراءات السبع المعروفة . وتشير جميع التفسيرات الى مكانة الرقم ٧ العددى وخصائصه فى كل ما يمت الى اسرار الوجود .

ولا يخلو العديد من احاديث الرسول من ذكر العدد سبعة من بينها فى حديث الصحيحين «من تصبح بسبع تمرات من تمر العالية لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر» .

لقد انتقل الرقم ٧ الذى رمزت اليه الرسالات السماوية ومعتقدات الشعوب الى «الخلق واسرار الوجود» انتقل ادب الحكمة والامثال التى توارثتها الشعوب . انتقلت الى مختلف نواحى الادب الشعبى من حكم وامثال وقصص واساطير واغان مما لا يدخل تحت حصر لازالت جميع الشعوب تتداولها الى اليوم .

واتخذ العالم من الرقم ٧ علامة للتفاؤل ورمزا للنصر .

ليس من عادة "الهلال" ان يمتدح نفسه ، أو حتى يعدد مزاياه ، لكنه مضطر هنا ، وهو يعرض لهذه القضية التى اضحت مثارة على نطاق واسع ، أن يؤكد على عدة حقائق :

● أولى هذه الحقائق : ان "الهلال" انتبه لقضية دار الكتب المصرية ، والحال التى وصلت اليها ، منذ عدة سنوات مضت ، وحتى لاتصبح المسألة : "نرجسية مرذولة" ، نكتفى بالاشارة لمقالين :

ـ اولهما مقال لاحد كتابه الدائمين ، وهو عالم جليل يشهد له الجميع بالحيدة والانصاف ، والغيرة على قضايا الوطن الثقافية والادبية ، هو الدكتور الطاهر احمد مكى ، الذي نشرت له الهلال في سبتمبر ١٩٨٨ مقالا بعنوان : "دار الكتب ودورها الثقافى .. من ينقذها من الخراب والتخريب" ..

ـ ثانيهما : مقال لرئيس تحريرها "يوليو ١٩٨٩" يحمل عنوان "نحو نهضة فكرية اداتها العقل والخيال" ، تناول فيه قضية دار الكتب ، من منظورها الاعم والاشمل ، وفى اطار اشكالية النهضة الفكرية المرجوة .

● الحقيقة الثانية : ان الهلال حينما اثار هذه القضية فى حينه ، اثارها من باب الغيرة الوطنية على احد معاقل ثقافتنا التى ظلت : "ولسنوات طويلة ، معلما شامخا من معالم مصر الحضارية ، شأن الاهرام وابى الهول والازهر والجامعة" .. ولم يكن يقصد قط الى توجيه سهامه الى شخص بعينه ، أو جهة ما .

● الحقيقة الثالثة : ان الهلال اراد وهو يستعرض جوانب المشكلة ان يذكر على الخصوص ، تردى ما اسماه "بالتقاليد" التى رأى ان لها "اثرا بالغا فى

الهلال يفتح ملف

دار الكتب المصرية

الأدباء والمثقفون يقدمون شهاداتهم

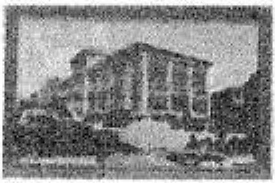
ماهى المشاكل ؟ ماهى الحلول ؟

سلوك العاملين ، وتسيير دفة العمل ، والحيلولة دون الخطأ والاهمال ، فهدمنا هذه التقاليد العظيمة في دار الكتب ، ولم نقم على انقاضها ، تقاليد جديدة صالحة ، لأن من فيها يفتقدون القدرة ، وهي العامل الاول في التقاليد العظيمة" ..

● الحقيقة الرابعة : أن الهلال وهو حتى يعرض للمشاكل التفصيلية التي آل اليها حال دار الكتب ، كالخدمات المتردية ، والاداء السيىء في تقديم المساعدة للعلماء والباحثين ، وضياع دورها في عدم تحديد من تقدم له يد المعونة ، هل هو مجرد القارىء العادي ، أم هؤلاء العلماء والباحثين وما آل اليه ايضا دورها العظيم السابق بالنسبة لتحقيق التراث ، ووضع الدوريات التي تضمها والتي تبدد اغلبها ، ولم يتم ماظل فيها بجديد ، نقول ، والهلال حين عرض لكل هذه المشاكل وغيرها ، إنما كان يدعو في الاساس الى "اصلاح عاجل وجذري يعيد لدار الكتب امجادها القديمة" ، في اطار من ان دار الكتب ، في اي بلد متحضر ، هي منارة العلم والثقافة ، ودليل تحققهما في المجتمع ، وان "الثقافة في نهاية الامر تعني تكوين نظام عقلي دقيق يعتمد في المقام الاول على غرس الروح العلمية" ، وصولا الى ان "يرتفع في المجتمع صوت العقل والحكمة ، ويتمدد طريق المنافسة والابداع والمبادرة من اجل الوصول الى حلول المشاكل القائمة" .

في هذا الاطار ، العلمي والثقافي ، والمبني على الغيرة الوطنية ، يقوم الهلال مرة أخرى بفتح ملف "دار الكتب المصرية" ، من جديد بمشاركة عدد لاباس به من المثقفين والعلماء ، الذين يقدمون شهاداتهم ، ليدفع بالقضية خطوة أخرى للامام .





دار الكتب

جزء خاص

احب ان اعرفها باسمها التاريخي العريق ، الذى تحمله عشرات المصادر الرئيسية التى نشرتها ، والاف الاحالات فى الابحاث والكتب التى الفت منها ، عربية واجنبية ، والذى حملته منذ اعوامها الاولى ،واتمنى ان تظل عليه إلى الأبد ، فالاغنياء المحدثون فى المجد والحضارة والثقافة ، هم الذين يغيرون اسماءهم والقابهم ، وحتى ضمائرهم ، ويهربون من تاريخهم الوقور العريق ، ربما إلى حاضر براق فى مظهره ، ولكنه خاو فى اعماقه ومحتواه .

دار الكتب المصرية إحدى القمم الشامخة فى بلادنا ، واراها إلى جانب مؤسسات ثقافية اخرى فى تاريخنا المعاصر اشبه بالاهرام ، وإن كانت هذه تذكر بامجاد خلت ، وتلك تصنع ، إذا حافظنا عليها وحميناها من العبث ، امجادا انية ومستقبلية .

وجيلى الذى شهد دار الكتب فى اوج مجدها ، وكون ثقافته بين قاعاتها ، وعاش على ماكانت تقدمه له من زاد ثقافى رفيع ، عن طيب خاطر وفى ود حنون ، يروعه ان يشهد ما انتهت إليه ، وان يقف منها موقف اللامبالى وهو يرى العبث والاهمال والضياع والتخريب تتخطفها من كل جانب ، ومن هنا فقد اسعدتنى صرخة الدكتور شعبان خليفة ، فى كتابه « دار الكتب القومية فى رحلة النشوء والارتقاء والتدهور » سعادة بلا حدود ، بما قدم من معلومات باهرة عنها يوم كانت مجدا ، وماهى عليه الآن مخزنا معتما بلا صاحب ، وهيكلا ليس فيه من الحضارة إلا الجدران الخارجية التى تحيط به ، وسعدت اكثر واكثر بالايجابية التى اتسم بها الكتاب ، فهو صرخة عالية مخلصة ، من متخصص عارف ، آثر الا يصمت ، فالساكت عن الحق شيطان أخرس ، ومن عجب ان صرخته الاولى كانت قبل ذلك بعشرين عاما تقريبا ، ولكنها ضاعت ، ولو استجاب له احد يومها ، لو فكروا معه ، لانقذنا هذه الدار العظيمة من الخراب .

ولم تتوقف صرخات الآخرين المخلصين ، واذكر ان مجلة الهلال افسحت

والرحلة إلى الهاوية

بقلم : د. الطاهر أحمد مكي

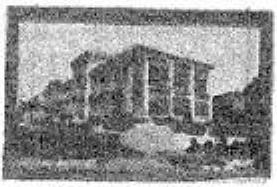
لى صدرها منذ أعوام قريبة ، لأذكر بما يجرى فى قاعات دار الكتب من إهمال مريع ، ومن استهتار بشع بجمهور المترددين عليها ، ومن إضاعة لوقت العلماء وطلاب البحث ، حين يمضون ساعات وساعات فى انتظار كتاب او دورية او مخطوطة ، ثم يجيء الرد بالسلب : لأن الكتاب فى التجليد ، أو بدعوى أنه متهالك ، أو مع قارىء آخر ، أو لايوجد ، وألف عذر وعذر لاتقوم على أساس ، ومنظر فرعها فى باب الخلق ، وكان الأصل ، فى شهور الصيف بخلصة ، والموظفات منهمكات فى شغل الابرة ، وأطفالهن يجرون فى القاعة بحرية كاملة ، ويعبثون بالكتب علانية ، يتخاطفونها ويلعبون بها ، دون أن تقول واحدة لابنها : « لاياولد عيب » ، جارح لمشاعر أى إنسان متحضر ، أو به بقية من ولاء لهذا الوطن ومايملك .

وهناك من العبث مايبلغ حد الاساءة إلى مصر نفسها ، وتشويه سمعتها ، وإلا فليفسر لنا أى عبقرى فى دار الكتب : كيف يرفض تصوير مخطوطة فى دار الكتب لباحث وافد ، عربى أو أجنبى ، ومنها نسخ أخرى فى بقية مكتبات العالم ، إلا بعد موافقة مباحث أمن الدولة ؟ .

ماشأن جهة الأمن بتصوير المخطوطات ؟ . ولكن ذلك بعض مايحدث فى دار الكتب ، ولست أعرف أن هذا التنظيم الغبى ، وإن كنت أعرف أن الباحثين العرب قد انصرفوا فى جملتهم إلى مكتبات أخرى فى العالم . وحين تعوزهم الضرورة إلى مخطوطات دار الكتب فهناك أكثر من طريق ملتو ، ويسيء إلى سمعة مصر والدار نفسها ، ويمكنهم عن طريقه أن يحققوا كل مايريدون ، وهو طريق يلجأ إليه بعض المصريين أيضا ، وكاتب هذه السطور منهم ، حين يريدون تصوير شيء ، احتراما لوقتهم وحفاظا عليه .

● قبلة الدارسين

أنشأ على مبارك دار الكتب المصرية عام ١٨٧٠ ، أى قبل دار العلوم بعام واحد ، وجمع فيها الكتب المبعثرة فى المساجد والزوايا والتكايا والمدارس



جــزء خــاص

ومخازن الأوقاف ، وخصها الخديو إسماعيل بكامل رعايته ، وجعل من قصر أخيه مصطفى فاضل فى درب الجماميز مقرا ، وأوقف عليها عشرة آلاف فدان ، وأنشأ الخديو توفيق مبناها الجديد فى باب الخلق ، ولايزال قائما حتى يومنا هذا ، وانتقلت إليه دار الكتب عام ١٩٠٤ ، وأصبحت قبلة الدارسين من كل حدب وصوب ، ومطما تحرص مصر على أن تضعه فى برامج كبار زائريها من الملوك والرؤساء .

وحرصت الحكومات المختلفة فيما قبل الثورة على تنمية المكتبة وتدعيم مكانتها ، وتأكيد استقلالها ، ومضاعفة مقتنياتها ، حتى غدت مكتبة قومية لكل العالم العربى ، « تجمع تراثه الفكرى وتنظمه ، وتقدمه للعلماء والباحثين ، وتحفظه للأجيال المتعاقبة » .

● بداية التدهور

وكان يمكن أن تجد دار الكتب فى عهد الثورة من الرعاية ماوجدته مؤسسات أخرى كانت قائمة ، وأخرى قد استحدثت ، وكان الأمر كذلك فى السنوات الأولى ، وحدث أن أنشأت الدولة فى نطاق تحديث المؤسسات الثقافية « دار الوثائق التاريخية القومية » عام ١٩٥٤ ، وهى مؤسسة مهمة تأخر قيامها رغم الحاجة القصوى إليها ، لامداد الباحث المعاصر بما يحتاج إليه من وثائق وأرقام وإحصاءات ، ولكن شيطانا خفيا أراد أن يدمر دار الكتب ، فأوعز فى عام ١٩٦١ بدمج المؤسستين فى كيان واحد يحمل اسم « دار الكتب والوثائق القومية » وجاء ذلك فى الفترة العصيبة من حياة مصر السياسية ، عام الانفصال وقيام اللجنة العليا لتصفية الاقطاع والملاحقات والاعتقالات ، فلم يجرؤ أحد على الاعتراض ، أو رفع صوته ضد هذا التخريب .

ويعلق الدكتور شعبان خليفة فى كتابه القيم الذى أشرت إليه على هذا الوضع فيقول :

« هذا الوضع الشاذ لانظير له فى اية دولة من العالم القديم والحديث على السواء ، ذلك أن للمكتبة الوطنية وظائفها وتخصصها ومصادر المعلومات التى



تتعامل معها ، ولدار الوثائق وثائقها وتخصصها والمحفوظات السائبة التى
تتعامل فيها . وكان هذا الضم معا أول كارثة تقع على دار الكتب المصرية ،
فقيدت حركتها ، وشلت فاعليتها ، وأثقلت بأحمال وأعباء ناءت بها » .
وكأن هذه الكارثة لم تكف عباقرة تخريب كل ماهو جميل فى هذا البلد
فاضافوا إليها كارثة أخرى بضم « الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر »
إلى « دار الكتب والوثائق القومية ، وخرج من هذا المزج العجيب مسخ لا لون
له ولا طعم ولا رائحة ولاهدف اسمه « الهيئة المصرية العامة للكتاب » .
« والوضع الجديد ليس شاذا فحسب ، ولامثيل له فى أى مكان فى العالم
الشيوعى أو الاشتراكى ، أو الرأسمالى ، ويدعو إلى السخرية لعدم وضوح
الرؤية والتخبط »
« فدار الكتب وظيفتها جمع التراث الفكرى المعنوى وتنظيمه ووضعه فى
خدمة الباحثين والدارسين والقراء .
« ودار الوثائق وظيفتها جمع المحفوظات والمستندات الأرشيفية ووضعها
فى خدمة المؤرخين الذين يكتبون تاريخ الدولة .
« أما الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر فوظيفتها نشر الكتب والاتجار
فيها ، فكيف إذن تجتمع التجارة والخدمة فى كيان واحد .
« وكيف تجتمع المكتبة والأرشيف ومتجر الكتب فى كيان واحد ، وتقعد
الكيان الجديد بأعمدته الثلاثة قعودا تاما ، واختفت قلعة فكرية ظلت طوال
قرن من الزمان (١٨٧٠ ـ ١٩٧٠) منارة للعالم العربى وذاكرة له .
« وفى ظل الانفتاح كان لابد للتجارة أن تطغى على المنارة ، وتنكمش
خدمات المعلومات ، وتمتد خدمات المال وإدارة الأعمال » .

● توقف التجديد

وحينما تنهار مؤسسة ، وتعجز عن الحفاظ على كل ماورثته من مجد بلاذخ ،
وماشادته على امتداد قرن من تقاليد عريقة ، وتتحول إلى مخزن كتب سيىء
بلا صاحب ، فالنتيجة الحتمية أنها تعجز عن التفكير فى المستقبل ، وعن



تحديث أجهزتها وتطوير خدماتها ، والافادة من منجزات العلم الهائلة والتقنيات المذهلة فى الفهرسة ، والاعارة والتصوير والخدمات الأخرى المختلفة ، وهو امر لم يعد وقفا على الدول العظمى وحدها ، ولايتطلب نفقات هائلة ، وإنما نجده فى مكتبات شعوب عربية لايزيد عمرها فى التحديث على عشرين عاما ، أعنى بذلك مكتبة الجامعة فى سلطنة عمان !.

● امنيات بلا نفقات !

والآن ماذا نتمنى وسط الكوارث والخراب الذى يحيط بدار الكتب من كل جانب ؟

● نتمنى دار كتب قومية مستقلة فى إدارتها وميزانيتها ، وموقوفة على طلاب البحث من العلماء والدارسين ، وتقوم على العناية بالتراث القومى وحفظه ، وتيسير ماعند الآخرين ، وعلى رأسها شخصية عظيمة ، تتمتع بالمهابة العلمية والثقافة الواسعة ، وبصلاحيات واسعة ، ولابأس أن يكون فى درجة وزير ، الا تساوى دار الكتب فى أهميتها محافظة الوادى الجديد مثلا ؟.

● وأن يشمل نشاطها الكتاب والمخطوطة والدورية ، على أن يكون كل واحد منها مستقلا ، على رأسه متخصص فى طبيعة القسم ونشاطه ، وهذه الأقسام الثلاثة تتمتع فى نطاق دار الكتب نفسها بشىء من التميز ، ويضمها جميعها مجلس أعلى ، لأن متطلبات كل قسم تختلف عن البقية .

فالقسم الخاص بالكتب يقوم بتيسير الكتاب المطبوع فى مصر وتملكه ، وتصبح فهارسه دليلا عمليا على ماطبع فى مصر ، ولايكتفى بهذا ، وإنما يلهث وراء الكتاب أيا كان ، وفى أى لغة ، عن طريق الشراء أو التبادل أو الهدايا ، مع وعى بترتيب الأوليات .

ومصر تملك أكبر قدر من المخطوطات العربية فى العالم كله ، وبعضها يمثل ذخيرة لاتقدر بثمن ، ولا توجد فى أى مكان آخر ، ومن الضرورى أن تتجمع فى هذا القسم كل مخطوطاتنا ، حتى لو ظلت تحمل أسماء الأمكنة التى وردت منها ، وفى هذه الحالة يمكن أن نعوض الجهات التى وردت منها بمصورات لها .

ويأتى على رأس هذه المخطوطات تلك التى توجد فى مكتبة الأزهر الشريف ، فهى من الكثرة بحيث عجز الأزهر عن فهرستها ، ومن الندرة بحيث اصبحت هدفا للنهب والسرقة ، وفى وضعها الذى عليه خارج نطاق الافادة منها على اى وجه .

ومثل هذا القسم يمكن ان يوفر على طلاب البحث من المصريين عبء السفر إلى بلاد اخرى بحثا عن المخطوطات ، فيتولى هو بإمكاناته مسئولية تصويرها وتمكين الدارسين منها .

وتقوم الدوريات الآن بدور جوهرى فى تقدم البحث العلمى ، فهى تضم الأبحاث العلمية المتخصصة فى المجالات المختلفة ، وعادة هى غالية الثمن ، أو يصعب الحصول عليها ، فهى إجمالا فوق طاقة العلماء ماديا . وسوف تكون مهمة هذا القسم الحصول على هذه المجلات فى كل اللغات ، وبعضها يمكن توفيره عن طريق المبادلة بالمجلات التى تصدر فى مصر ، وأن يقوم بدور جاد فى ترميم المجلات التى اهترأت او تمزقت ، او ليست فى دار الكتب اصلا ، عن طريق التصوير ، وأن تقلع عن إعارة أصول هذه المجلات إلا للضرورة ، مكتفين بوضع مصوراتها فحسب تحت تصرف الباحثين ، وأن يكمل المجموعات الناقصة من المجلات المختلفة ، فى اللغات المتنوعة ، عن طريق التصوير .

● أن يقوم قسم المخطوطات بالدراسات التى تتطلب قدرا من التطبيق ، فيتبعه معهد لتحقيق التراث ، وبذلك تعيد لهذا الجانب من تراث مصر الثقافى سمعته العالية التى كان يتمتع بها فى الأيام الخوالى ، وهو تحقيق لايستهدف النشر أو الربح فحسب ، وإنما غايته أن يصنع المحقق المقتدر ، وأن يقدم القدوة والمثل .

● أن تبدأ فى استخدام التقنيات الحديثة بتوفير آلات التصوير بدل النسخ باليد ، توضع فى قاعات المطالعة ، أكثر من واحدة فى جوانبها المختلفة ، آلات تصوير تعمل وتحاسب آليا ، دون حاجة إلى وسيط ودون أن تكلف الدار شيئا ، وأن تأخذ فى استخدام الكمبيوتر فى الفهرسة ، وفى البحث عن المصادر ، فعار أن تظل دار الكتب بعد قرن وربع قرن من الزمان تدار بالأسلوب الذى كانت عليه قبل أن يعرف العالم الكهرباء .

● إذن ...

إذا استقلت دار الكتب وكان على رأسها مسئول يستشعر أهميتها ، ويدرك خطورة رسالته ، وليس مجرد موظف كبير ، مهموم بالبحث عن وظيفة أكبر ، فلن تقوم المادة عائقا فى طريقه ، ويستطيع إلى جانب ماتخصصه لها الدولة من ميزانية أن يدعمها عن طريق الهبات والاعانات والتبرعات ، وفيما صنعه الدكتور حلمى نمر حين كان رئيسا لجامعة القاهرة مثل وقدوة ، فقد وجد قاعتها الكبرى فى حالة يرثى لها ، والميزانية لاتتسع لانفاق شىء عليها ، فدبر أكثر من ستة ملايين (تعادل الآن عشرين مليونا) عن طريق التبرعات من البنوك والهيئات الاقتصادية ، وجددها وزودها بكل إمكانات القاعات الحديثة ، وجعل منها شيئا يليق بالجامعة العريقة .

وقد آن الأوان لتكون الدار للعلماء وطلاب البحث وحدهم ، أما قراءات الثقافة فمكانها مكتبات فرعية ترعاها وزارة الثقافة ، ومجالس المدن ، وتعينها دار الكتب فنيا ، وفى هذه الحالة فلا بأس أن يدفع المترددون عليها اشتراكا محددا ، وليكن مثلا عشرين جنيها لكل ثلاثة شهور ، ينفق عائدها على الارتقاء بالخدمات ، وتطوير أجهزتها ، واستكمال النقص فيما تملك من كتب أو دوريات أو مخطوطات ، وفى تقديم حوافز للعاملين بها ، لتحسين الخدمة والارتقاء بها ، وقد جربت مكتبة الجامعة الأمريكية فى القاهرة نظام الاشتراكات فنجح تماما ، وأسهم فى زيادة دخلها ، وقصرها على الجادين الراغبين فى البحث فعلا .

● وللمؤسسات الأخرى دورها

إن التركيز على دار الكتب لايقلل من شأن المؤسسات الأخرى التى ضمت إليها ، أو التهوين من رسالتها ، فدار المحفوظات القومية ، وهى فى أولى خطاها ، لما ينتظم عملها ، وفى حاجة إلى رئيس فنى مقتدر متفرغ ، يعرف كيف يفيد من التقنيات العلمية الحديثة فى حفظ الوثائق وتصنيفها ، وتسهيل وصول الباحث إليها ، وأحسب أن من الخير أن تحتفظ كل محافظة بوثائقها ، وأن تقوم إلى جوار مكتبة المدينة دار للمحفوظات الخاصة بها .

والشىء نفسه يمكن أن يقال عن هيئة التأليف والترجمة والنشر ، فهى

● إن دار الكتب فى صورتها التى هى عليها الآن بلغت حدا ، السكوت عليه جريمة !!

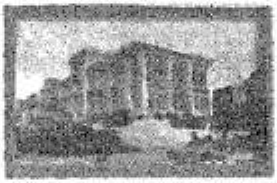
مؤسسة ثقافية منتجة للكتاب ، ورسالتها مختلفة ، ومهمتها أن تقوم بطبع ما لاتستطيعه دور النشر الخاصة من أمهات كتب التراث ، ذات العائد البطىء ، أو الدراسات المتخصصة جدا ، ذات الانتشار المحدود ، وأن تسخو على الترجمة التى أوشكت أن تتوقف مع أنها عماد التقدم فى أية دولة ، وبداهة سوف ترحمنا من السلاسل السخيفة التى تصدر عن الهيئة العامة الآن تحت أسماء مختلفة ، وغير ذات محتوى ، ومن مجلات لايقرؤها أحد ، ولو أنفقت الدولة ميزانياتها فى تشجيع المجلات غير الحكومية ، الناجحة والتى يصدرها أفراد ، بشراء كميات محدودة منها ، توزعها على مراكز الثقافة والمدارس والمعاهد ، لأحدثت ثورة ثقافية ، دون مزيد من النفقات أو الأعباء .

ومامن ضرورة الآن ، وقد تخلصت الدولة ، أو هى بسبيل التخلص ، من القطاع العام ، من الابقاء على احتكار الهيئة لتصدير الكتاب المصرى ، ويكفيها ما أضاعت من أسواقه ، وأن يترك ذلك كلية للقطاع الخاص ، والشىء نفسه يقال عن المكتبات التى تديرها . يكفى أن يكون لها فى عاصمة كل محافظة مكتبة واحدة ، أما أن تملك فى القاهرة مكتبة فى شارع عبدالخالق ثروت ، وأخرى على بعد أمتار منها أمام القضاء العالى ، وثالثة بالقرب من ناصية شارعى ٢٦ يوليه وأحمد عرابى ، ورابعة فى ميدان أحمد عرابى ، وخامسة هى أقدمها جميعا فى ميدان الأوبرا ، فشىء غير مفهوم ، ولون مذموم من التبذير ، لو كانت هناك إدارة يقظة لما أقدمت عليه ، ولتخلصت منه لو وجدته .

وتبقى مطبعة بولاق ، وأحب أن أذكرها باسمها العريق ، فعمل تجارى خالص ، وإن كانت غايته أن يخدم الثقافة ، قد تضع إمكاناتها فى خدمة دار الكتب ، أو هيئة التأليف والترجمة والنشر ، أو دار المحفوظات ولكن مامن ضرورة تجعلها ، على ضخامتها ، تتبع وزارة الثقافة ، والطبيعى أن تصبح هيئة مستقلة ، وأن تخضع لما يخضع له أى عمل تجارى ناجح .

● هل من يسمع ؟

إن دار الكتب فى صورتها التى هى عليها الآن بلغت حدا من التردى السكوت عليه جريمة ، وواجب كل ذى ضمير حى أن يصرخ بأعلى صوته : انقذوا دار الكتب قبل أن يأتى عليها الاهمال والتخريب ! .



دار الكتب

شهادات

دار الكتب من المفروض انها اكبر دار للكتب فى مصر ، ولذلك فاسمها دار الكتب القومية . هذا معناه انها تستوعب كل ما يصدر ، من كتب فى مصر ولها قانون ييسر لها هذا الأمر ، وهو قانون الايداع ، وقانون الايداع معناه ان كل كتاب لكى يصدر ، لابد ان يأخذ رقما للايداع من دار الكتب ، يطبع عليه ، ويعرف به فيما بعد ، مقابل ان تكون هناك عشر نسخ من هذا المطبوع ، تودع فى دار الكتب ، لتكون تحت يد المنتفعين بالدار .

وللاسف الشديد فان هذا القانون لا يطبق ، لان الجزاء الموضوع له جزاء هزيل للغاية ، فبدلا من ان يودع الناشر عشر نسخ ، اذا اقتضى الأمر اخيرا ، ان يدفع ثمن نسخة او اقل من ثمنها غرامة ، فلا باس ، فهو الكاسب فى هذه الحالة ، ومع ذلك حتى هذه الغرامات لا توقع على من لا يثبت فى مطبوعه رقما للايداع ، بما يعنى انه لم يودع فى دار الكتب .

ونتج عن هذا ان قدرا كبيرا من الكتب والمطبوعات التى تصدر فى مصر نفسها ، لا توجد فى دار الكتب القومية ، وهى المآل الأخير الذى يرجع اليه الانسان ، عندما يعز عليه الحصول على اى كتاب او مطبوع ، انه يرجع الى دار الكتب ليجد الكتاب المطبوع المطلوب .

من هنا بدأت الكتب والمراجع لا تعبر عما هو موجود فى ساحة النشر المصرية ، ناهيك عن ساحة النشر العربية ، التى هى جزء لا يتجزأ من ثقافة المثقف فى مصر ، والتى تشكل ضرورة ملحة للتواصل الفكرى ، بين المثقف المصرى والمهتم بالعلم فى مصر وغيره من نظرائه فى البلاد والاقطار العربية المختلفة .

فليس هناك اقتناء على الاطلاق للكتب العربية التى تصدر خارج مصر ، بل اكثر من هذا هناك قسم اسمه قسم التزويد ، هذا القسم كان يعمل لكى يغطى هذا الجانب من حاجة الدار الى متابعة الكتب والمطبوعات العربية والاجنبية ، كذلك فهو قسم من فرعين .. القسم الذى يتحرك فى الكتب الاجنبية وكانت ترد

... وكيف يبدأ الإصلاح ؟!

بقلم : د. عز الدين إسماعيل

اليه قوائم الناشرين الاجانب الكبار فى فروع المعرفة المختلفة بشكل متواصل ، وكان القائمون على هذا الفرع من القسم على دراية كاملة بما ينبغى اقتناؤه ، وما نحتاج اليه ، فكانوا يختارون من هذه القوائم كل عام قدرا كبيرا ، ممثلا لاحدث ما ينتج فى مجالات المعرفة المختلفة باللغات الاجنبية المطروحة فى مصر ، على الاقل الانجليزية والفرنسية ، ولذلك نجد فى دار الكتب من الكتب الاجنبية القديمة شيئا كثيرا وثمينا للغاية .

ولكن منذ مدة ليست بقصيرة ، توقف ـ تقريبا ـ هذا النوع من الامداد المتصل للدار بما يصدر من كتب على غاية من الاهمية ، بالنسبة لحركة الفكر فى مصر .

وبالنسبة لدور النشر الاجنبية قد تكون هناك عقبة تحول دون هذا ، او تعطل هذه الاستمرارية ، وهى عقبة الاستيراد والعملة الصعبة وتوافرها وما الى ذلك .. وهذه مشكلات ينبغى ان تكون لها اولويات دائما لانها اساسية ، وتشكل رصيدا معرفيا ، لابد من الحرص عليه ، مهما تكلف .

والسكوت على هذا من شأنه ان يجعل دار الكتب تتراجع مع الوقت ، وتتراجع من حيث ما تمثله من ثقافة وفكر وعلم ، والعالم يتقدم ، ويصبح الناس هنا محصورين فى هذه الدائرة المتراجعة ، التى لا تغنى اطلاقا ، لمن يريد ان يتابع ما يجرى فى الحياة من حوله .

● المحافظة على المخطوطات

من الضرورى ان تكون دار الكتب مهيأة تهيئة علمية للمحافظة على المخطوطات التى تمثل اهمية بالغة بالنسبة للدار وللعاملين فى حقل المعرفة العربية بشتى جوانبها وفروعها ، وضمان استمرارها دون ان ينالها العطب



والأمراض التى تصيب الكتب وتهرئها وتجعلها غير صالحة للتداول ، فضلا عما ينتاب المخطوطات وهى قديمة من هذا العطب المفسد لها .

فلابد ان يكون هناك تكييف مركزى لمخازن الكتب ولقاعات المطالعة ولابد من ان يكون هناك أجهزة لشفط الغبار والتراب وخصوصا الرطوبة ، لأن وضع دار الكتب على ضفة النيل يعرضها لتأثير الرطوبة البالغة فى وسط المدينة ، فهذه الرطوبة تعتبر من اشد اعداء الكتاب ، لانها تسارع بافساده . وأنا أؤكد على ضرورة متابعة ما يصدر من مطبوعات وكتب داخل مصر وعلى مستوى الوطن العربي والعالم كله من خلال حركة نشطة ، خاصة اذا علمنا ان كثيرين من ابناء الاقطار العربية يأتون الى القاهرة للاستعانة بدار الكتب فى دراساتهم وبحوثهم وخاصة تلك الثروة القديمة من المراجع ومن المصادر التى لا يجدونها فى مكان اخر ، ولكن مع مضى الزمن ، سيتقطع هذا بالضرورة ، وتصبح هناك مراكز اخرى ، تحاول ان تجذب وتستوفى شروط العمل المكتبي بشكل عصرى وجاد وتيسر للمريد كل ما يساعده على الوصول الى اهدافه .

اذاً لكى نعيد لدار الكتب دورها القديم على مستوى مصر والوطن العربي ، فلابد ان نعيد لها صورتها التى كانت عليها ذات يوم فى انها المصدر الوحيد لكل ما يحتاج اليه المواطن العربي فى أى فرع من فروع المعرفة أو الثقافة .

ايضا من الضرورى استخدام اساليب جديدة فى الخدمة المكتبية بحيث يحصل المستعير على الكتاب فى أسرع وقت ممكن ، بدلا من ضياع يوم كامل وهو يبحث عن طريق الفهارس العتيقة او البطاقات المتهرئة ، لكى يصل او لا يصل الى الكتاب المنشود ، لان كثيرا من البطاقات تضطرب ، ويضطرب نظامها مع الاستعمال غير المسئول ، فلا تظل على ماهى عليه من تيسير

● من الضرورى أن تكون دار الكتب مهيأة للمحافظة على المخطوطات التى تمثل أهمية بالغة فى حقل المعرفة العربية .

الوصول الى الكتب المطلوبة .. هذا التهرؤ فى البطاقات واضطرابها يضيع وقت الباحث .

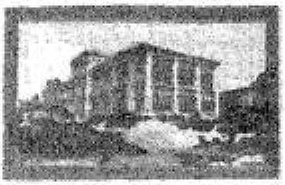
● نقص الدوريات الاجنبية

تعانى دار الكتب من نقص الدوريات الاجنبية وهى متوقفة ، ويدخل فى كلمة الاجنبية هنا الآن ، ليس الدوريات المكتوبة بلغات اجنبية ، ولكن ايضا الدوريات العربية والتى لا تكاد تحصى ، ومنها دوريات فى غاية الأهمية .. لابد من متابعة هذه الدوريات والاشتراك فيها وانتظامها بشكل مطرد فى دوريات دار الكتب ، استيفاء لما يجرى على الساحة العربية من دوريات تلزم لكل باحث عربي ، ايضا كما اشرت فالدوريات الاجنبية لها نفس الاهمية ولابد من الحرص على الاشتراك فى عدد كبير منها ، وان يكون وراء هذا الاشتراك والاختيار عقول تعى توزيع المعرفة التى تمثلها دار الكتب ، والا يحدث تركيز على صنف معين من المجلات على حساب اخرى قد لاتكون لها نفس الاهمية .

فالعقلية التى تختار وتنسق وتنظم هذه العملية ، لابد ان تكون عقلية واعية تفهم دورها تماما ، وليست عقلية مجرد موظف على مكتب .

ان الدوريات القديمة كثير منها متهرىء الى ابعد الحدود ، ولا يكاد يحتمل الانتقال من مكتب الى مكتب اخر ، ومن رف الى رف ، وبعضها قد رمم ، ولكن كثيرا منها لم يرمم الى الان مع ان فى الهيئة مركزا للترميم ، وعمله الاساسى بطبيعة الحال هو ترميم المخطوطات التى تلفت ، وايضا هذه الدوريات التى تقادم بها الزمن ، ولابد من ادراكها قبل ان تنتهى نهائيا .

هذه فى تصورى العناصر الاساسية للنهوض من جديد بدار الكتب .



دار الكتب المصرية

شهادات

عندما قدمت الى القاهرة سنة ١٩٣٦ لالتحق بالجامعة ، كانت دار الكتب هي مقصدي الاول قبل الجامعة نفسها . كان لي قريب يعمل فيها ، وعد بأن يساعدني في الحصول على المجانية ، ووقع لي - في الوقت نفسه - على استمارة الاستعارة الخارجية ، وكان الضامن الثاني - او لعله الضامن الرسمي فلا اظن ان الدار كانت تطلب ضامنين - هو الشاعر احمد رامي ، صحبني قريبي الى غرفته التي كانت في الحقيقة «قاطوعا» زجاجيا على يسار الصاعد الى دار الكتب ، اذ كانت الدار لا تشغل سوى الطابق الثاني من المبنى العتيق الذي لا يزال قائما حتى الآن في باب الخلق ، بينما كان الطابق الاول مخصصا للمتحف الاسلامي وله مدخل خاص .

اذكر هذه التفاصيل لان دار الكتب بدت لي شيئا هائلا بعد مكتبة بلدية شبين الكوم الصغيرة .. والحقيقة انها مازالت في ذاكرتي مكتبة عظيمة حتى بعد ان زرت المكتبة القومية في باريس ، وقد بدا لي الشبه بينهما واضحا ولم يكن في ذلك ما يستغرب اذا كانت مصر تحذو حذو فرنسا في امور الثقافة منذ عهد اسماعيل . وانا احلم بالمكتبات الحافلة كما يحلم الطفل بان يمتلك دكان حلوى . وتنطبع في ذاكرتي صور للحظات باهرة وانا جالس امام رفوف الكتب لا ادري بأيها أبدأ هل انسى مثلا اني جلست مشدوها امام ركن كامل - لا رف او رفين - خاص ببروست في مكتبة جامعة هارفارد . (وطلاب الدراسات العليا والباحثون الزائرون يمنحون بطاقات خاصة لدخول مخازن هذه المكتبة ، وتخصص لهم فيها مناضد ينقلون اليها ما يحتاجونه من الكتب) وهل انسى لحظات مماثلة في مخازن المكتبة البريطانية (مكتبة المتحف البريطاني - ولو ان الدخول اليها لا يكون الا بتصريح مؤقت ، ولغرض التفتيش عن المراجع فقط ، اذ ليست فيها أمكنة مخصصة للجلوس ؟ الناس يذهبون الى عواصم الغرب للمتعة والراحة ، وانا اذهب اليها ولا هم لي الا الكتب والمتاحف .

لم تعد مكتبة بحث

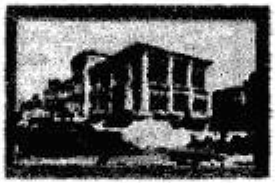
بقلم: د. شكري محمد عياد

ولكن دار الكتب المصرية اغنتني واشبعتني في عهد الصبا والشباب ، وامدتني - مع مكتبة جامعة القاهرة - بالمصادر والمراجع حين تصديت لكتابة ابحاث في الادب . كانت المكتبتان ، في اول عهدي بهما ، بحرين اغترف منهما كما اريد ، فاستطعت ان ارسم لنفسي برنامجا للدرس لم اتقيد فيه بمنهج الجامعة ، وكانت هذه السياحات المنتظمة في شتى الوان الادب والمعرفة هي التدريب الثمين الذي نفعني عندما قررت ان اكون باحثا وكاتبا .

لقد كنت طموحا ، لا أرضى بأقل من ان نكون في ابحاثنا وكتاباتنا اندادا لنظرائنا من الغربيين ، ولا ادري مبلغ ما حققت من ذلك الطموح ، ولكنني ادري ان اعداد ثبت المراجع واستعارتها من مكتبة الجامعة او دار الكتب او الرجوع اليها فيهما كان يفي بمعظم حاجتي وفي تلك الايام كانت مكتبتي الخاصة متواضعة جدا .

عندي الآن مكتبة لا بأس بها ، تجمع كتابا احبهم الى جانب دراسات اساسية في الفروع التي اعنى بها اكثر من غيرها . ولكنني اشفق من ان اقحم نفسي في بحث معمّق . ولا اظن ان للسن دخلا كبيرا في ذلك . ولكن السبب الاهم هو ان مكتبة جامعة القاهرة لم تعد مكتبة بحث ، ودار الكتب المصرية لم تعد مكتبة بحث . لقد تضاعف الانتاج الفكري في شتى فروع المعرفة ، بينما كانت مكتباتنا الكبرى لا تحصل من ذلك الانتاج الا على اقل القليل ، بل ان الكثير من مقتنياتها القديمة يتلف او ينهب .

وقد احببت الا اكتب هذه الكلمة قبل ان اقوم بزيارة وتجربة لدار الكتب ، في مقرها الجديد . وجعلت التجربة بحثين : بحثا عن ترجمة للكاتب الانجليزي تشارلس مورجان لانى افكر في ان اعيد طبع مقالاته النقدية التي اخترتها وترجمتها في كتاب «الكاتب وعالمه» ، وبحثا عن كتاب ، «علم الاساطير» بالفرنسية - للفي شتراوس : كانت نتيجة البحثين صفرا . فدار الكتب في مبناها الجديد العظيم وبموظفيها الكثيرين فقيرة فقرا مزريا .. والعذر الذي يعتذر به الجميع هو قلة الاعتمادات ، مع اننا ننفق على الالعاب والتسالي والمهرجانات اضعاف اضعاف ما ننفقه على الكتب .



جامعتنا الأولى التي انارت امامنا طريق المعرفة ، والنبع الثقافي الغزير الذى طالما نهلنا منه ما اطفأ ظمأنا وشفى غلتنا . كانت مدرستنا الكلية التى سعينا إلى ساحتها فى سنوات الصبى المبكر ، وواصلنا التردد على قاعاتها فى ايام الشباب الأولى ، والتى وجهت عقولنا ووجداننا واثرت ايما تاثير فى تكويننا الثقافى وفيما إختط كل منا لنفسه من حياة ، مع اختلاف مشاربنا ونزعاتنا .

وفى تلك الأيام كان العمل بالدار يسير فى دقة الساعة الميقاتية ... انضباط تام فى مواعيد العمل بالقاعات والمخازن ، وخدمة المطالع أو المستعير تعلو على كل اعتبار ، والفهارس مرتبة فى نظام دقيق وبطاقاتها مدونة بخط جميل واضح .

أما فريق العمل بالدار فكان كل من افراده يؤدى مهمته من موقعه المحدد على أكمل وجه ، ويتفانى فى هذا الاداء من أجل تحقيق الهدف الأسمى للمكتبة القومية ، أى مساعدة طالبى المعرفة على تحصيل مايرغبون من علم وفن وأدب ، أمناء القاعات لا يكفون عن التجول المستمر اليقظ بين جنباتها لمراقبة حسن سير العمل ، والعمال فى زيهم الموحد لا يكفون من الحركة جيئة وذهابا بين المخازن وقاعات المطالعة يحملون عشرات الكتب والمجلدات دون ما ضجر أو ملل .

وكان يحدث أحيانا أن يتقدم أحد الأمناء من مطالع يتكىء بمرفقه على صفحات مايقرأ لكى ينبهه فى لمسة رقيقة إلى أن يرفع ذراعه حتى لا يتلف الورق أو يشوهه وبهذا وغيره تعلمنا سلوكيات القراءة واحترام كيان ماتقرأ من مطبوعات . وكان من المالوف كذلك أن يبادر أمناء الفهارس بإرشاد القارئين الى طريقة الوصول إلى بطاقات الكتب المطلوبة حتى يسهل عليهم استعارتها .

وكانت دار الكتب تحفل بعشرات الألوف من المخطوطات الثمينة ، تحفظها

وأجمل الذكريات

بقلم : د. أحمد حسين الصاوي

فى أعز مكان ، وترممها وتحافظ على سلامتها ، وتتيح الاطلاع عليها لمن يشاء
وكان من المألوف أن يشاهد المطالع فى القاعة الكبرى عددا من «النساخين» عاكفين على نقل بعض ماتحويه هذه المخطوطات ساعات طوالا ، فلم يكن التصوير الضوئى الحديث للمستندات قد عرف بعد فى تلك الأيام .

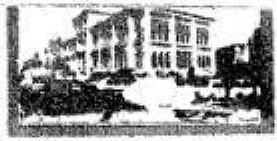
أما المكتبات الخاصة التى أهداها أصحابها لدار الكتب فكانت موضع رعاية كاملة من الدار ، تصونها وترتب مقتنياتها وتتيح الافادة من محتوياتها للباحثين .

وكان لدار الكتب فى تلك الأيام نشاط مرموق فى مجال النشر . فمن خلال مطبعتها العريقة قدمت عددا من عيون كتب التراث القيمة محققة منقحة ، فأسهمت بذلك إسهاما متميزا فى مجال العمل الثقافى الجاد .

وكان فرع الدار بالقلعة يقف شامخا فوق هضبة المقطم يقدم خدماته الجليلة لكل راغب فى الاطلاع على مجموعات الصحف القديمة ولكل باحث فى الوثائق والمحفوظات الرسمية ذات الطابع التاريخى الخاص .

وبعد ثورة ١٩٥٢ اضطربت أحوال دار الكتب ، فنبش النابشون عن محفوظات العهد الملكى فى فرع الدار بالقلعة ، ونقل الكثير من مقتنيات هذا الفرع الى حيث لا يعلم أحد . ولقد أحسست بألم عميق عندما كنت أتردد على هذا الفرع للبحث فى مجلدات الصحف المصرية الأولى فلا أجد المجلدات التى كنت أحفظ مكانها وأرقام تسجيلها عن ظهر قلب لتعدد مرات اطلاعى عليها من قبل ، أو عندما كنت أرى صور حكام الأسرة العلوية التى رسمها لهم كبار الفنانين فى أيامهم وقد ألقيت على الأرض وتمزق قماشها وتحطمت أطرها .

أما الدار الأم بباب الخلق فقد توقف ، أو كاد ، نشاطها فى التزويد والنشر ، واضطربت خدماتها وارتفعت أصوات المترددين عليها بالشكوى من سوء مايلاقون ومن عنت مايواجهون من متاعب فى تعاملهم مع الدار ، ولم يفلح العشرات من خريجى «الوثائق والمكتبات» الجدد بجامعة القاهرة الذين انضموا إلى أسرة العاملين بالدار فى تحسين خدماتها أو المحافظة على



تقاليدها العريقة . فقد كان التدهور أقوى من محاولاتهم ، وانصراف المسئولين عن الاهتمام بهذا الجهاز الخطير أكبر أثرا من كل ملجأوا به من علم وتقنيات .

مرت الأيام وتحولت تلك المنشأة العظيمة الى فرع متواضع من فروع المؤسسة الجديدة التى أطلق عليها «الهيئة المصرية العامة للكتاب» . وكان ذلك بكل المقاييس نكسة كبيرة فى تاريخ ذلك الصرح الثقافى الرفيع . ورغم مضى نحو ثلاثين عاما على تلك «التنظيمات» التى تناولت شئون الثقافة والنشر فى مصر وما يتصل بهما من طباعة وتوزيع ، فمازالت أحوال دار الكتب تسير من سيىء الى أسوأ . لقد تدهورت خدمة القارئين والباحثين والمستعيرين ، وأصبح من الأمور المعتادة أن الزائر للدار يقضى ساعة أو بعض ساعة ثم يأتيه الرد على ماطلب من مراجع أو مجلدات مخيبا لأمله : «المجلد مفقود» أو «المجموعة فى الترميم» أو «الضوء غير كاف» ... الخ .

ولم يعد للدار نفسها نشاط خاص فى مجال النشر الذى لا تستهدف من ورائه الربح كما كان الحال فى الأيام الخوالى . أما التزويد بالاصدارات الجديدة فيتم حسب التساهيل و ... على قد الحال ! وأما المخطوطات الثمينة التى كانت كنزا لا نظير له فى مكتبات العالم ، فقد اختفى كثير منها أو تلف أو اصابه البلى . وأصبح التصوير الضوئى لصفحة واحدة يكلف من الوقت والجهد والنفقة ما يصرف كثيرا من الباحثين عن اللجوء الى هذه الطريقة للحصول على مستنسخات يحتاجون اليها فى دراساتهم .

والنتيجة ... تخلف واضمحلال يدعو إلى أشد الأسى والأسف . ان مفهوم «دار الكتب» أو «المكتبة القومية» فى أى صورة من صورها ، وفى أى عهد من عهود الحضارة البشرية ، وفى أى مركز من مراكز العلم والتنوير التى عرفها تاريخ الإنسان ، ظل واحدا لا يتغير . وهو أن هذه المؤسسة هى مركز اشعاع ثقافى ، وانها هيئة «خدمية» تعطى ولا تأخذ وتقدم دون ماعائد أو مردود أما دور النشر والتوزيع وما اليها فهى مؤسسات تجارية تعطى وتأخذ ، ولانشطتها مردود وربح . والجمع بين أنشطة «خدمية» وانشطة تجارية فى اطار واحد أمر بالغ التناقض .

فمتى تتحرر مكتبتنا القومية من ربقة هيئة الكتاب ؟ لعل استقلالها يعينها على أمرها ، ويعيد لها إشراقها القديم ، ويدفع بها دفعا إلى طريق التقدم والنهوض .

وكانت أيام !

● علي باشا مبارك هو اول من فكر في انشاء دار الكتب في مصر ، بعد ان تنبه الى خطورة ترك الكتب والمخطوطات المصرية مبعثرة في المدارس القديمة والكتاتيب والمساجد والأضرحة والزوايا .

● أسست المكتبة الوطنية المصرية طبقا للأمر العالي الصادر في ٢٣ مارس عام ١٨٧٠ ، وافتتحت رسميا للجمهور للقراءة والاطلاع والنسخ والاستعارة في ٢٤ ديسمبر ١٨٧٠ ، وتعتبر اول مكتبة وطنية ، في العالم العربي .

● كان اول مكان لها هو درب الجماميز ، حيث استقرت بالدور الاسفل من قصر مصطفى فاضل باشا شقيق الخديو اسماعيل ، وقد بلغ عدد الكتب المخطوطة ، والمطبوعة التي وسعها المكان عند الافتتاح حوالي ٣٠ الف مجلد جمعت من المساجد والكتبخانة الخديوية القديمة وخزائن وزارة الأوقاف ، وكتبخانة ديوان الاشغال ، وكتبخانة ديوان المدارس .

● بعد ان ضاقت هذه المكتبة بالمخطوطات والكتب ، تم بناء دار مخصوصة لها ولدار الاثار الاسلامية (متحف الفن الاسلامي فيما بعد) بدىء في تشييده ، عام ١٨٨٩ في ميدان احمد ماهر بباب الخلق ونقلت اليه سنة ١٩٠٤ . وصدر امر سلطاني عدلت بمقتضاه لائحة الدار ، واصبحت الادارة تابعة لوزارة المعارف العمومية ، وشكل مجلس اعلى لدار الكتب برئاسة وزير المعارف .

● من بين الذين تولوا الاشراف على دار الكتب منذ بدايتها حتى عام ١٩١٤ عدد من الالمان كان اولهم شتيرن وآخرهم شاده .

ثم تولى عدد من المصريين منصب مدير الدار بعد ذلك حتى عام ١٩٥٧ وهم احمد لطفي السيد (مرتين) محمد اسعد براده ، د . منصور فهمي ، احمد عاصم ، احمد مرسي قنديل ، توفيق الحكيم .

ثم تولى منصب مدير دار الكتب عدد من المديرين الذين تدرجوا في وظائف الدار نفسها ، حتى وصلوا الى منصب المدير .. نذكر من بينهم محمد احمد حسين ، احمد عابدين ، حسين رشاد ، اسماعيل النحراوي ، نصر الدين محمد حسين ، سعيد رشيد .

● تضم دار الكتب المصرية مجموعات مجموعات قام باهدائها عدد من الشخصيات المصرية المعروفة من بينها مجموعة خليل اغا ، المجموعة التيمورية ، الخزانة الزكية ، ومجموعة الشيخ الشنقيطي ، ومجموعة على جلال الحسيني .

وفي سنة ١٩٧٠ وبعد قرن كامل من انشاء دار الكتب بلغت مقتنياتها ٥٥٩,٥١٥ كتابا مطبوعا باللغة العربية و ٩٠ الف مخطوط و ٧١٠٥ دوريات عربية واجنبية .



دار الكتب

شهادات

فى أوائل الستينات أخذت طريقى إلى دار الكتب المصرية ، طالب علم يلتمس رزقه فى نسخ المخطوطات العربية . وكانت الدار يومئذ تقف فى ذلك المكان المعروف بميدان باب الخلق ، مهيبة شامخة ، فكان الداخل إليها لايملك إلا أن يُنشد قول الشريف الرضى ، وقد نظر إلى مدينة الحِيرة وآثارها :

شهدت بفضل الرافعين قبابها

ويبين بالبنيان فضل البانى

ثم يترحم على رافع الدار وبانيها « على باشا مبارك » .

وكنت بالغدو والآصال أمر على قسم المطبوعات بالدار ، فأجد أشتاتا من نفائس المطبوعات التى أخرجتها الدار وعرضتها بأبخس الأثمان . وكنت أرى الناس أفواجا ومن كل بقعة يتزاحمون على شراء هذه المطبوعات لنفاستها ورخصها .

وفى تلكم الأيام أيضا رأيت بقية من هذه الطائفة الجليلة من أشياخ العلم التى كانت تقوم على تصحيح الكتب بالدار ، فيما كان يعرف بالقسم الأدبى ، وكان هناك رجل من أفاضل الناس ، هو الأستاذ محمد أبوالفضل إبراهيم ، رحمه الله ، الذى كان يتعهد هذه الذبالة المرتعشة ، ويمدها بالزيت حتى لاتنطفىء .

ثم تمادت بى الأيام ، فنسخت وقرأت وأبصرت وسمعت وسألت . وكان مما عنيت به التأريخ لنشر التراث العربى ، فى ديارنا وغير ديارنا ـ على ضعفى وقلة حيلتى ـ وقد رأيت هذا التاريخ يسير فى مراحل مختلفة ، ورأيت مطبوعات دار الكتب المصرية تمثل من هذه المراحل مرحلة متميزة غاية التميز ، هى بالقياس إلى ماسبقها من مراحل تمثل مرحلة النضج والكمال ، من حيث استكمال الأسباب العلمية ، واصطناع الوسائل الفنية المعينة على إخراج التراث إخراجا دقيقا ، يقوم على جمع نسخ الكتاب المخطوطة ، والمفاضلة بينها ، ثم اتخاذ إحدى النسخ أمًّا أو أصلا ، وإثبات فروق النسخ

ونشر التراث في مصر

بقلم: د. محمود الطناحي

الأخرى ، ومايتبع ذلك من إضاءة النص ببعض التعليقات والشروح ، وصنع الفهارس التحليلية الكاشفة لكنوز الكتاب ، ومايسبق ذلك كله من التقديم للكتاب وبيان مكانه في المكتبة العربية ، وموضعه من كتب الفن الذي يعالجه ، تأثراً وتأثيراً ، ثم الترجمة لمؤلفه .

ولابد من الاعتراف بأن ذلك المنهج الذي أصلته مدرسة دار الكتب المصرية للمحققين العرب ، قد تأثر إلى حد ما بمناهج المستشرقين الذين شغلوا بتراثنا ، ونشطوا لاذاعته ونشره ، منذ القرن الثامن عشر الميلادي أو قبله بقليل .

● المكتبة الزكية

وكان صاحب الفضل في مد الجسور بين مصر وأوربا ـ فيما يتصل بنشر التراث ـ أحمد زكي باشا ، الذي اتصل بعلماء الاستشراق ، ومثّل مصر في مؤتمراتهم . وهذا أحمد زكي باشا رجل من رجال مصر الأفذاذ ، كان من كبار الكتاب والخطباء ، ولد بالإسكندرية عام ١٨٦٧ م ، وتخرج بمدرسة الحقوق بالقاهرة ، وأتقن الفرنسية ، وكان يفهم الانجليزية والايطالية ، وقام بفكرة إحياء الكتب العربية ، وأحكم صلته برجالات العرب في جميع أقطارهم . وكان شديد الحب للعربية ، ولقب نفسه بشيخ العروبة ، وسمى داره بيت العروبة ، وجمع مكتبة في نحو عشرة آلاف كتاب ، ووقفها ، فنقلت بعد وفاته إلى دار الكتب وسميت فيها : المكتبة الزكية . توفي سنة ١٩٣٤ م . يقول عنه شيخي عبدالسلام هارون ، رحمه الله : « ولعل أول نافخ في بوق إحياء التراث العربي ، على المنهج الحديث في مصر ، هو المغفور له أحمد زكي باشا ، الذي قام بتحقيق كتاب « أنساب الخيل » لابن الكلبي و « الأصنام » له أيضاً ، وقد طبعا في المطبعة الأميرية ـ مطبعة بولاق ـ سنة ١٩١٤ م باسم لجنة إحياء الآداب العربية التي عرفت فيما بعد في دار الكتب المصرية باسم القسم الأدبي ، ولعل هذين الكتابين مع كتاب « التاج » للجاحظ الذي حققه



جـزء خـاص

ايضا فى السنة نفسها ، من أوائل الكتب التى كتب فى صدورها كلمة « بتحقيق » كما أن تلك الكتب قد حظيت بإخراجها على أحدث المناهج العلمية للتحقيق ، مع استكمال المكملات الحديثة ، من تقديم النص إلى القراء ومن إلحاق الفهارس التحليلية . ويضاف إلى ذلك انه أول من أشاع إدخال علامات الترقيم الحديثة فى المطبوعات العربية ، وألف فى ذلك كتابا ، سماه : « الترقيم فى اللغة العربية » طبع فى مطبعة بولاق ، سنة ١٩١٣ م . ومما حققه شيخ العروبة أيضا كتاب « نكت الهميان فى نُكت العميان » لصلاح الدين الصفدى . ونشره بمطبعة الجمالية سنة ١٩١١ م ، ثم قدمه إلى أعضاء المؤتمر الدولى الرابع لتحسين حالة العميان .

وعلى وقع خطوات أحمد زكى باشا ، وبهدى من توجيهه وإرشاده ، تكون القسم الأدبى بدار الكتب المصرية ، امتدادا للجنة إحياء الآداب العربية التى أسسها شيخ العروبة ، وطبع تحت شعارها « أنساب الخيل » و « الأصنام » وقد قام هذا القسم الأدبى بعبء ضخم حين نشر عيونا مما تركه أهل العلم من آبائنا الأولين . ولقد كان هذا القسم مدرسة كبرى فى القدوة المثالية للمحققين المعاصرين ، وكان يضم مشيخة جليلة من العلماء الكرام البررة ، الذين أخلصوا لله فيما أسند إليهم ، اذكر منهم أحمد زكى العدوى ، والشاعرين أحمد الزين وأحمد نسيم وعبدالرحيم محمود ومحمد عبدالجواد الأصمعى ومحمد عبد رب الرسول ، والعالم الجزائرى الشيخ إبراهيم اطفيش ، ومما يستطرف ذكره هنا أن الشيخ محمد الخضر حسين ، العالم التونسى الجليل قد عمل زمانا مصححا بدار الكتب المصرية . وهذا الشيخ الخضر حسين التونسى المولد والنشأة قد تولى مشيخة الأزهر ، أول قيام الثورة المصرية . وهذا من اكبر الدلائل على أن مصر لاتعرف التعصب .

● عناية بالتراث

وقد بدأ القسم الأدبى نشاطه فى إذاعة التراث ونشره من خلال مطبعة بولاق الكبرى ، وكان من ذلك موسوعة « صبح الأعشى » للقلقشندى الذى ظهر فى ١٤ مجلدا سنة ١٩٢٠ م باسم دار الكتب المصرية . ثم انشأت الدار

● لماذا ألغى القسم الأدبى بدار الكتب بعد ما حققه من نشاط فى اذاعة التراث ونشره من خلال مطبعة بولاق الكبرى ؟

مطبعة خاصة بها ، جمعت لها كل أسباب الجودة والاتقان ، فخرج الكتاب التراثى من هذه المطبعة فى ابهى حلة وفى آنق صورة ، وتستطيع أن تقول فى اطمئنان إنها أول مرة تحظى كتب التراث بتلك العناية الفائقة ، وافتح جزءا من كتاب « الأغانى » أو « تفسير القرطبى » واعجب ماشئت لهذا السخاء فى جمال الحرف وتنسيق السطور واتساع حواشى الصفحات ، ثم دقة التصحيح والمراجعة ، ولايكاد يشبه مطبوعات الدار هذه إلا مطبوعات لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مثل « سمط اللآلى » و « إمتاع الأسماع » للمقريزى و « شرح الحماسة » للمرزوقى ، ومطبوعات دار المعارف فى أيامها الأولى .

ولعل أول كتاب صدر عن القسم الأدبى عن مطبعة الدار هو « نهاية الأرب » للنويرى الذى بدأت طبعه محققا سنة ١٩٢٣ وقد كانت الصيحة المدوية لدار الكتب المصرية تبنيها لطبع كتاب « الأغانى » لأبى الفرج الأصبهانى ، بعد طبعات سابقة فى مصر وفى أوربا ، وقد تكفل بنفقات طبعه رجل من أعيان مصر هو « السيد على راتب » المتوفى سنة ١٩٥٥ م . وصدر الجزء الأول منه سنة ١٩٢٧ م ، وحظى بعناية كاملة ، فى إعداد الأصول ، ودقة التصحيح ، وصنع الفهارس التحليلية ، فى نهاية كل جزء من أجزائه .

وفى مطبعة دار الكتب المصرية ، وعلى منهجها القويم ، خرجت هذه النفائس : تفسير القرطبى (عشرين جزءا) والنجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة لابن تغرى بردى (١٢ جزءا) . وكان صاحب الفضل فى نشر هذا الكتاب ، عبدالخالق ثروت باشا رئيس وزراء مصر ، سنة ١٩٢٢ م ، فهو الذى أشار على الدار بطبع الكتاب ، وكان لهذا الوزير عناية بالعلم ونشره ، فقد كان عضوا فى تلك الجمعية الخيرية التى قامت على نشر كتاب « المخصص » لابن سيده ، سنة ١٩٠٢ م . ومن إصدارات دار الكتب فى ذلك الزمان : شروح سقط الزند ، لأبى العلاء المعرى (خمسة أجزاء) والتعريف بآثار أبى العلاء (مجلد ضخم) وعيون الأخبار لابن قتيبة (أربعة أجزاء) والطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز ، ليحيى بن حمزة العلوى (ثلاثة اجزاء) وأساس البلاغة للزمخشرى (جزءان) والفاضل للمبرد ، والمعرّب للجواليقى . ومعجم ألفاظ القرآن الكريم للأستاذ محمد فؤاد

عبدالباقي ، رحمه الله رحمة سابغة . ومن دواوين الشعر : ديوان الهذليين (ثلاثة أجزاء) ودواوين : مهيار الديلمي (أربعة أجزاء) وزهير بن أبي سلمى ، وابنه كعب . وحميد بن ثور ، وسحيم عبد بني الحسحاس ، وجران العَوْد ، ونابغة بني شيبان ، وتميم بن المعز لدين الله الفاطمي . ومن الموسوعات التي بدأت الدار طبعها ولم تتمه : مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري ، والمنهل الصافي لابن تغرى بردى .

وتدور الأيام ، وتضعف العزائم بضعف الرجال ، ويدعو الداعي إلى شيء نكر ، وهو إلغاء القسم الأدبي ، يقول شيخنا عبدالسلام هارون ، رحمه الله : « ثم ضعفت العناية بهذا القسم ، إلى أن تولى الأستاذ أمين مرسي قنديل إدارة دار الكتب ، فقام بمجهود ضخم جدا ، إذ حاول أن ينقذ هذا القسم من الفناء ، فدبت الحركة فيه ، ولكن الظروف لم تسعفه بتنفيذ فكرته النشيطة ، وكاد القسم الأدبي في عهده يرتقي القمة في نشر موسوعات التراث ، ولكن أطاحت بذلك فكرة خاطئة مغرضة ، تزعم أن ليس من وظائف دور الكتب في أوربا ، أن تضطلع بنشر التراث ، وكأننا في جميع خطواتنا إنما نترسم أوربا ، في حقها وباطلها » .

قلت : وحين تولى الأستاذ محمد أبوالفضل إبراهيم أشلاء هذا القسم المذبوح ، حاول أن ينفخ فيه ، فصدر في أيامه : إنباه الرواه على أنباه النحاه ، للقفطي . والخصائص ، لابن جني ، ومعاني القرآن للفراء ، والمعارف ، لابن قتيبة .

وفي منتصف الستينات أراد القائمون على دار الكتب إعادة القسم الأدبي ، فيما سموه « مركز تحقيق التراث » وتكون غايته نشر أعمال تراثية ، ثم إعداد جيل يتلقى فن التحقيق بوجه عملي ، على يد بقية شيوخه وأعلامه ، في رحاب دار الكتب حيث تتوفر المراجع : مخطوطة ومطبوعة . وقد وفق هذا المركز في نشر بعض الكتب بتحقيق علماء لهم في تحقيق النصوص سابقة ، ومعاونة نفر من الشباب أريد تدريبهم على تحقيق النصوص . ومن هذه الكتب : ديوان ابن الرومي (ستة أجزاء) ومقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث ، وكتاب الموسيقى الكبير للفارابي ، والمذكر والمؤنث للمبرد ، ولأبي

• ان من أوجب واجباتنا أن ننشر أمام هذا الجيل صفحاتنا المضيئة ، ومن أهمها تاريخنا وجهادنا فى طبع الكتاب العربى .

البركات الأنبارى ، وكتاب الجواهر وصفاتها ليحيى بن ماسوية ، ولايزال هذا المركز قائما ، ولكن نشاطه قل بصورة واضحة ، ولعل الله يهيىء له من يقيل عثرته .

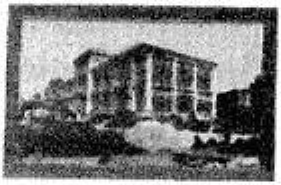
وقد أفسحت مطبعة دار الكتب المصرية مكانا للهيئات العلمية من خارج مصر ، فطبعت لحساب دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد ـ الهند ، كتابين جليلين : أحدهما « معرفة علوم الحديث » للحاكم النيسابورى ، سنة ١٩٣٧ م ، وثانيهما كتاب « إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم » لابن خالويه ، سنة ١٩٤١ م .

وبعد ... إن لدار الكتب المصرية تاريخا عريقا فى نشر الكتاب العربى ، ولكن عوامل كثيرة من الاستلاب والمسخ والتشويه تحجب هذا التاريخ أو تطمسه . لكن القضية أكبر من ذلك : إن تاريخ مصر يغتال ، وإن صفحات رجالها تطوى ، وإن أيامها تُغَيَّب ، وكل ذلك يتم بأيدينا وأيدى غيرنا ، ثم نقول : إن هذا الجيل ضعيف الانتماء لمصر ! واللهم لا . إن فى هذا الجيل خيرا كثيرا ، لكن الذين يعرضون عليه أمجاد مصر يقفون به أحيانا عند مظاهر هينة جدا من تاريخ الأيام والرجال ، ويترون وراءهم أياما عظيمة ورجالا كبارا . وإن من أوجب الواجبات أن تنشر أمام هذا الجيل صفحاتنا المضيئة ، ومن أهمها تاريخنا وجهادنا فى طبع الكتاب العربى والاسلامى : فقد غبر زمان وجاء زمان وليس بين أيدى الناس ـ عربا وعجما ـ من جياد الكتب إلا ماطبع بمصر . ثم جاء الزمان النكد ، ودارت آلات الطباعة الفاصية (الأوفست) تأكل تاريخ مصر أكلا وتغتال أيام الرجال اغتيالا ، فتنزع من فوق الأغلفة ومن خواتيم الكتب زمان ومكان الطبع ، ثم تمادت فأسقطت أسماء المصححين والمحققين ، ليقال بعد ذلك إن الحركة الثقافية قد انتقلت من مصر إلى البلد الفلانى والبلد الفلانى ، ثم ليقال أيضا :

كلا أبويكم كان فرعا دعامة

ولكنهم زادوا وأصبحت ناقصا

ويعلم الله .. إنها ليست عصبية البلد تحملنا على مانقول ، ولكنها العصبية للحق المهدر ، والغضب للتاريخ المهان ، وربك يفعل مايشاء



دار الكتب

شهادات

مازلت اذكر لحظات الزهو التى انتابتنى فى كل مرة ذهبت فيها الى فرع دار الكتب بطنطا ، وانا بعد فى العقد الثانى من العمر . كان المكان يقطر بالرهبة والوقار وكنت انا واثنان من رفاقى نشعر بالتميز ، حين نذكر زملاءنا الاخرين الذين لا يعرفون باب هذا المبنى الجليل .

كانت القراءات متناثرة ، يعوزها التوجيه والتنظيم ، وكان اغلبها للمنفلوطى والبشرى والرافعى ، واقلها لاسماعيل مظهر والعقاد وطه حسين . وكنا نسعد بالذهاب للدار ونحتشد له كما لو كنا نتوجه لحفل مهم فى دار الاوبرا التى لم تكن قد عرفنا عنها شيئا فى ذلك الزمان .

ثم انتقلنا الى القاهرة ، وكان الذهاب الى دار الكتب "الأم" فى باب الخلق نقلة كبيرة سواء من حيث القاعات والمراجع والدوريات أو من حيث استخدام هذه المكتبة الجليلة فى أمور علمية أيضا : كتابة البحوث التى كنا نطالب بها أحيانا ، أو الاعداد للامتحانات أو ما الى ذلك ، وظل شعور الزهو والتميز يتملكنا هنا ايضا .

لكنى حين سافرت للدراسة فى الخارج ، ودخلت مكتبة الجامعة التى درست بها أصابنى الذهول ، القاعات ضخمة وعديدة ونظيفة ، والكتب والدوريات متاحة على أرفف الطوابق التسعة التى يتكون منها المبنى . وما عليك الا أن تستخرج رقم الكتاب ورمزه من الفهارس ثم تذهب لاحضاره بنفسك ، لا فراش يتحكم ، ولا ابواب مغلقة . فاذا ما صادفتك مشكلة من أى نوع فهناك فى كل قاعة وفى كل طابق طاقم كفء متعلم ومهذب ومفعم بالرغبة فى أن يذلل أى عقبة ويفسر كل غموض .

ثم حضرت الى القاهرة بعد عامين ، لاستكمال جمع المادة الدراسية فى فترة الصيف ، وذهبت الى دار المحفوظات بالقلعة للاطلاع على الدوريات التى كانت تحفظ هناك . وهالنى المنظر : أطنان من التراب تلف المكان كله ، الدوريات والمقاعد وكل شىء ، والخدمة طبعا لا تقارن . لكن ما اسعدنى كان الاقبال الكبير على القراءة ، اناس من كل الاعمار منكبون على ما أمامهم فى جد وحماس لا يرون فى كل ما حولهم امرا غير عادى ، بل لعل بعضهم يشعر

ذكريات وآمال

بقلم : د. حمدى السكوت

بالزهو الذى كنت أشعر أنا به من قبل ، والذى حل محله الآن شعور بالتعاسة ، فقد ادركت ان كل شيء هناك كان يغرى بالقراءة ويدفع اليها على حين أن كل شيء هنا يصرف عن القراءة ، ويغرى بمغادرة المكان . وللحظة ، أحسست بأنه ربما كان من الخطأ أن توفدنا الدولة في بعثات . لكني سرعان ما تذكرت أن دار الكتب نفسها قد انشئت نتيجة ايفاد مصرى موهوب في بعثة الى الخارج ، فقد شاهد ذلك الموهوب (على مبارك) المكتبة الأهلية فى باريس ، فاقترح على الخديو أن ينشيء في مصر "كتبخانة خديوية" يضاهى بها "كتبخانة باريس" فوافق الخديو وأنشئت دار الكتب .

وشعرت بشيء من التفاؤل والأمل فى أن يقوم الموفدون الى الخارج لدراسة "علم المكتبات" بتطوير الأوضاع وتحسين الخدمة في دار الكتب وفروعها ، فهذا مطلب هين اذا ما قورن بعملية الانشاء من الأساس .

لكن السنين مرت ، وكثرت أسفارى الى الخارج ، وفى كل مرة كنت أجد طفرة فى أوضاع المكتبات فى الخارج .. البلدة التى كنت ادرس بها - وهى فى حجم مدينة بنها أو اقل - كان بها ثلاث مكتبات عامة (بجانب مكتبة الجامعة ومكتبات الكليات ، وهذه لها قصة أخرى) . وقد شهدت المكتبات العامة عبر السنوات توسعات كبيرة ، وانضمت اليها مكتبات متنقلة تذهب فى مواعيد ثابتة الى سكان أطراف المدينة ، بدلا من أن تقتصر المكتبات المتنقلة - كما كان الحال من قبل - على الذهاب للقرى والنجوع : استمر تزويد المكتبات بأحدث الكتب والدوريات ، وبالكتب "المسموعة" أيضا : الخدمة بالمكتبات عموما تطورت الى درجة أن القارىء يستطيع عن طريق المكتبات الآن استعارة كتاب ، أو حتى "رسالة جامعية" من مكتبات المدن أو الجامعات الاخرى .

وتخيل مثلا مدى سعادة باحث في جامعة الاسكندرية عند استعارة "رسالة دكتوراة" نوقشت فى جامعة أسيوط أو المنصورة أو قنا منذ شهر مثلا ، وهو قابع في مكتبة جامعته فى الاسكندرية . طبعا فى حالة الرسائل



تقوم المكتبة "المستعيرة" باتخاذ الضمانات الضرورية للحفاظ على الرسالة ولحماية حقوق المؤلف والمكتبة المعيرة . أما الفهارس فقد أصبحت الكترونية ، تضغط على زر أو اثنين فتحصل على كل ما تريد فى ثوان قليلة .

يشهد المرء هذه التطورات وغيرها ، وفى مكتبات اقليمية ، (فأنا لا أتحدث عن مكتبة "المتحف البريطانى" مثلا التى هى المكتبة القومية لبريطانيا) . نقول يشهد المرء كل هذا ثم يعود الى القاهرة ليلاحظ أن المستوى المعقول والمتواضع والذى كان يناسب أربعينيات هذا القرن والذى كانت دار الكتب وفروعها قد وصلت اليه ، هذا المستوى قد هبط هبوطا شديدا على كافة الأصعدة .

● تصوير الدوريات

فى أوائل السبعينيات بدأنا المشروع الببليوجرافى الذى تقوم به الجامعة الأمريكية ولاحظنا أن دوريات مثل "الجريدة" و "السفور" ، و "السياسة الأسبوعية" وغيرها فى حالة يرثى لها من كثرة الاستعمال . وتقديرا منا لقيمة هذه الدوريات وأمثالها وخوفا عليها من أن تزداد تهرؤا ، عرضنا أن تقوم الجامعة الأمريكية بتصوير هذه الدوريات واعطاء نسخة للدار من كل دورية حتى يستخدمها المترددون على الدار حماية للأصل . وسمح لنا المسئولون بذلك فى أول الأمر ، وصورنا ثلاث مجلات هى "السفور" ، و "البيان" ، و "الفجر" ثم صدرت الأوامر بوقف العملية لأن المشرفين على الدار رأوا أن يقوموا هم بالتصوير ، ويبيعوا نسخا لمن يرغب فى شرائها ، وانتظرنا أن يتم هذا المشروع المهم ، ولكن انتظارنا طال حتى الآن دون أن يحدث شيء . والله ، وبعض القراء ، يعلمون الحالة المأساوية التى آلت اليها هذه الدوريات الآن .

وحين أدمجت دار الكتب مع الهيئة العامة للكتاب حدث خطأ جلل (ومن المفارقات أن الذى اتخذ هذه الخطوة ، التى طمست هوية دار الكتب وأوشكت أن تؤدى بها . أستاذ متخصص فى "علم المكتبات" سافر الى الخارج مثل على مبارك) أما هذا الخطأ الذى أشرت اليه فهو أنه كان من المنطقى أن تضم الهيئة الى دار الكتب وليس العكس : فالهيئة لا تعدو ـ كبرت أو صغرت ـ أن تكون دار نشر ، وقد كان بدار الكتب قديما قسم متميز للنشر قدم روائع من التراث ككتاب الأغانى وغيره ، وكان الشيء الطبيعى هو أن تنضم

● هل آن الأوان لتزويد دار الكتب بالمراجع الحديثة ..؟!

الهيئة لقسم النشر هذا ويصبح المنصب الكبير والرئاسي هنا هو منصب مدير دار الكتب ، لا منصب مدير الهيئة .

ولو أن هذا حدث ، لو أن كل مدير للهيئة ، عين بدلا من ذلك مديرا لدار الكتب ، تتبعه الهيئة لاختلفت رؤيته وأهدافه وبرامجه ، ولشعر منذ لحظة تعيينه أنه مسئول عن المكتبة القومية لجمهورية مصر العربية ، وهى مسئولية ضخمة كان من شأنها أن تدفعه لأن يصرف كل همه للارتقاء بهذه المؤسسة وتطويرها . اما أن يعين هذا المدير مسئولا فى الأساس عن هيئة الكتاب وهى كما ذكرنا "دار نشر" تنافسها بل وتتفوق عليها دور نشر كثيرة فى مصر ، فإن من الطبيعى أن تنصرف كل جهود هذا المسئول ومحاولاته لتكبير هذا الشىء الصغير ، حتى يرتفع الى مستوى المسئول الذى هو عادة أستاذ جامعى مثقف ، يود بالطبيعة أن يتميز عن المشرفين على دور النشر الناجحة الأخرى الذين هم عادة تجار وأنصاف مثقفين ، ومن هنا تكثر الاحتفالات والمهرجانات الثقافية ... الخ حتى تخرج دار النشر هذه أى "الهيئة" عن جلدها الطبيعى ، بدلا من أن تنفق هذه الجهود على الارتقاء بدار الكتب ، التى هى مكتبتنا القومية . فهل آن الأوان لكى تنفذ الخطوات الجادة لاصلاح دار الكتب : لتزويدها بالمراجع الحديثة فى كافة التخصصات ، سواء فى ذلك الكتب ـ مقروءة ومسموعة ـ أو المخطوطات ، أو الدوريات العلمية والأدبية فى اللغات المختلفة ؟

وهل نأمل فى تحديث نظم الفهرسة بحيث تتمشى مع الأساليب التى بدأ استخدامها بالخارج منذ أواخر الستينيات ؟ وهل يمكن أن نوفر الميزانية لانشاء فروع لدار الكتب ، ليس فقط فى عواصم المحافظات وانما أيضا فى كافة المراكز والمدن الجديدة ، بل والقرى الكبيرة "ولو بارسال المكتبات المتنقلة اليها فى مواعيد ثابتة" كما يحدث فى الخارج ؟

وأخيرا فهل آن الأوان لكى يصبح اسم مدير الهيئة مدير دار الكتب والمكتبات القومية "أو شيئا من هذا القبيل" ، وذلك فى حالة استمرار ضم المؤسستين ، أو فصل دار الكتب عن الهيئة كلية ، وتعيين مدير لها يستطيع القيام بهذه المهمة الثقيلة ، مهمة اصلاح وتطوير وتحديث مكتبتنا القومية وفروعها ؟

آمال نرجو الله أن يُوفق الى تحقيقها .

شهادات

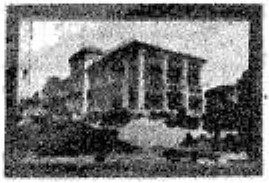
وثائق مصر في خطر

●● إن الاوضاع التى عليها دار الوثائق فى مصر تختلف تماما عن مثيلتها فى الخارج ، وهذا مالمسته بالفعل من خلال معايشتي للوثائق المصرية على مدى خمس سنوات ، ذلك انه طيلة هذه الفترة ينتابنى اليأس والحزن على الحالة السيئة التى فيها وثائق مصر . والواقع اننى فى خوف وقلق من ضياع وهلاك هذه الوثائق وبالتالى ضياع تاريخ بلادنا ●●

والحق يقال ، إن الحالة التى عليها الوثائق المصرية لا تجعل الباحث المصرى المخلص يحزن عليها فقط بل تدعوه ايضا الى الاستغاثة والصراخ فى آذان المسئولين عسى أن يهتم احدهم بهذه الوثائق قبل أن تضيع او تتلف تماما ، ووقتها لن ينفع الصراخ ولن تجدى الاستغاثة .

وتفاصيل الحالة السيئة التى عليها هذه الوثائق سوف اعرضها بشىء من الايجاز :

● اولا : وثائق المحاكم الشرعية ، وهى موجودة بارشيف الشهر العقارى بميدان الاسعاف بالقاهرة ويوجد به اكثر من ألفى سجل من الحجم الكبير . وهذه السجلات تحتوى على مادة علمية غاية فى الاهمية لانها تتناول التاريخ السياسى والاقتصادى والاجتماعى فى مصر من القرن السادس عشر حتى اواخر القرن التاسع عشر . والواقع انه رغم الاهمية التاريخية لهذه السجلات فإنها محفوظة فى مكان ضيق ومظلم بعضها بالدواليب لكنه غير مرتب ومهلهل ، والبعض الآخر ملقى على الارض وسط الاتربة تلتهمه الفئران والحشرات المختلفة . ورغم هذه الحالة السيئة فإن وزارة العدل ترفض تسليم هذه الوثائق لدار الوثائق .. وامام هذا الوضع السيىء اخذت على عاتقى انا وزملائى انقاذ مايمكن انقاذه من هذه السجلات مادامت مصلحة الشهر العقارى لاتود ترميمها . ونحن نقوم بعملية الترميم عن طريق جمع التبرعات من الاخوة الزملاء الباحثين فى التاريخ العثمانى ، لكن هذا الترميم ماهو إلا حل مؤقت افضل من تركها للضياع .



بقلم: سليمان محمد حسين

● ثانيا : سجلات محاكم الاقاليم : وهي تقدم مادة علمية مهمة عن الاقاليم المصرية في العصر العثماني والفترة الحديثة ، وقد نقل بعض هذه المحاكم الى دار الوثائق بالقاهرة لكن حالته سيئة وغير مرمم وتنقصه الفهرسة ، اما البعض الآخر فلايزال موجودا في الاقاليم في حالة سيئة وهنك مثالان على ذلك :

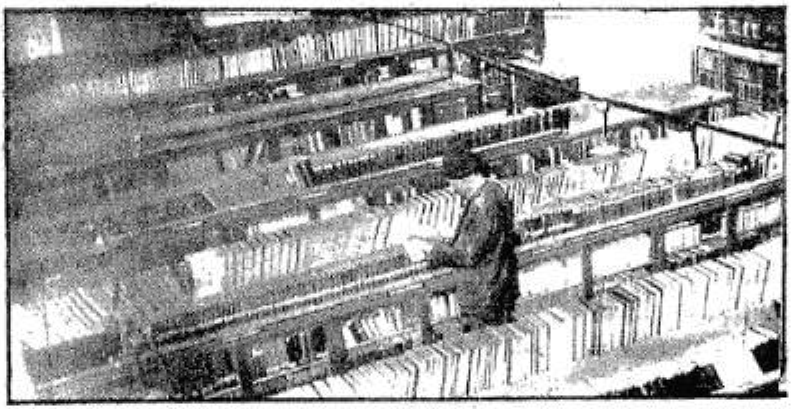
ـ المثال الاول : سجلات محكمة الاسكندرية وهي موجودة بارشيف الشهر العقاري بميدان المنشية وقد اطلعت عليها ووجدت بها مادة علمية مهمة جدا عن تاريخ مدينة الاسكندرية في العصر العثماني وفي تاريخ الاسكندرية في القرن التاسع عشر ، وبها حوالي مائتين سجل ورغم ان الموظف المسئول امين عليها إلا ان المكان الموضوعة فيه مكان ردىء تتكاثر فيه الحشرات وتجعل منه مرتعا لنفسها ويبلغ طول الحشرة ٥ سم من نوع غريب من الحشرات كنت اجدها بين ورق السجلات .

ـ المثال الثاني : سجلات محكمة رشيد وهي موجودة الآن بارشيف الشهر العقاري بمدينة دمنهور وهذه السجلات تحتوى على مادة علمية غزيرة عن تاريخ مدينة رشيد لكن للاسف الشديد هذه السجلات موجودة في بدروم تحيط بها المياه والرائحة الكريهة من كل مكان وبالتالي فهي مزرعة للحشرات لدرجة ان ورق الوثائق اصبح مثل الدقيق وبعض السجلات عند فتحها وجدتها خاوية لان الورق الموجود بها اكلته الفئران والحشرات لدرجة انني ارى بعد معايشتي لهذه الوثائق انه اذا لم ننقذ وثائق مدينة رشيد باسرع وقت ممكن فإن تاريخ هذه المدينة سوف يضيع بعد عام او عامين على الاكثر ..

والغريب في الامر انني عندما شرعت في اتخاذ اجراءات نقل هذه الوثائق إلى دار الوثائق بالقاهرة وجدت ان الموظف موافق فهو يريد التخلص منها هو الآخر ، ولكن وزارة العدل ترفض تسليمها مما يدعو الى التساؤل هل ترفض وزارة العدل تسليمها لكي يستفيد منها المؤرخون وتتركها غذاء للحشرات !!

● ثالثا : وثائق دار المحفوظات بالقلعة ، ويوجد بهذه الدار الاف الوثائق الخاصة بتاريخ مصر الحديث ولكن للاسف يقل الاستفادة منها بسبب تراكم الوثائق فوق بعضها دون تنظيم او فهرسة ، خاصة مخزن ٤٦ الذي يوجد به





وثائق لاحصر لها ، ولكن هذا المخزن مزرعة جيدة للثعابين والفئران مما يجعل الاستفادة منه فى حكم المستحيل .

● وثائق دار الوثائق القومية وكان من المفروض ان ياتى ترتيبها فى المقدمة نظرا لاهميتها وهى احسن اماكن البحث على وجه الاطلاق ولكن بها مشكلتان : الاولى ضيق وقت العمل فيها حيث يبدأ العمل فى العاشرة صباحا حتى الواحدة ظهرا فقط ، المشكلة الثانية أن معظم الوثائق الموجودة بها غير مفهرسة وبعضها ينقصه الترميم خاصة سجلات محكمة الدقهلية وغيرها من محاكم الاقاليم .

ـ وبعد هذا العرض الموجز يتبين لنا ان الامر جد خطير لانه يتعلق بوثائق تاريخ بلادنا اعز ماتملك ، لكننا نعلق الامل على الاستجابة للمطالب الاتية :

□ اولا : وقبل اى شىء انقاذ سجلات محكمة رشيد والاسكندرية من حالتها المحزنة وذلك بنقلها الى دار الوثائق بالقاهرة ثم ترميمها .

□ نقل سجلات ارشيف الشهر العقارى بالقاهرة الى دار الوثائق ثم تصويرها على ميكروفيلم ، او تغليفها بالبلاستيك ، فإذا تعذر ذلك نرجو نقلها الى الدور العلوى بالشهر العقارى بعيدا عن الظلام ، والحشرات .

□ ترميم سجلات محاكم الاقاليم الموجودة الآن بدار الوثائق وخاصة سجلات محكمة الدقهلية ثم تجليدها وفهرستها بطريقة افضل .

□ الاهتمام بنقل سجلات دار المحفوظات الى دار الوثائق الجديدة لحمايتها من التلف .

مكتبة الإسكندرية

أحياء اول مكتبة علمية فى التاريخ

بقلم : ربيع شتا

اذا كانت مدينة الاسكندرية ، التى انشأها الاسكندر الأكبر عام ٣٣٢ قبل الميلاد ، تضم احدى عجائب الدنيا السبع : وهى فنار الاسكندرية الذى يقع فى مدخل مينائها ، فانها كانت تستمد مجدها من مكتبتها الشهيرة . ولقد ظلت هذه المكتبة طوال ما يقرب من ستة قرون تضم مجموعة فريدة من المصنفات العلمية والفلسفية والأدبية . وكانت المكتبة تشكل مركزا للتعليم ومعهدا للبحوث وتقدم زادا دسما يغذى عددا لا يحصى من العلماء الذين وفدوا اليها من كل حدب وصوب ووجدوا فيها واحة وارفة الظلال ونبعا فياضا للعلوم والمعارف . وهنك ازدهرت الحضارة الاغريقية الرومانية التى تعتبر الاسس الذى ترتكز عليه الثقافة الغربية واحد المصادر الثرية للثقافة العربية التقليدية ، لاسيما فى مجال العلوم والفلسفة .

ويروى لنا التاريخ ان شخصا يدعى ديمتريوس الفاليرونى كان تلميذا لارسطو وحكم اثينا قرابة عشر سنوات ثم فر منها والتجأ الى الاسكندرية قرب نهاية القرن الرابع قبل الميلاد حيث اصبح مستشارا للملك بطليموس الأول المعروف باسم بطليموس سويتر (اى المنقذ) الذى كان احد كبار القادة العسكريين لجيوش الاسكندر ثم اختص بحكم مصر بعد ان قسمت امبراطورية الاسكندر بين هؤلاء القادة عقب وفاة الاسكندر . وتذهب رواية دُوِّنت فى القرن الثانى عشر الى ان ديمتريوس هذا هو الذى اقترح على مليكه بطليموس ان يقوم بجمع مجموعة من الكتب عن المملكة وعن ممارسة القيادة وأن يقرأها .. وهكذا ولدت مكتبة الاسكندرية التى انشئت على غرار مكتبة ارسطو فى اثينا ووفقا لتقاليدها وكان الهدف من انشائها طموحا للغاية حيث كان يتمثل فى جمع «كتب جميع شعوب العالم» .

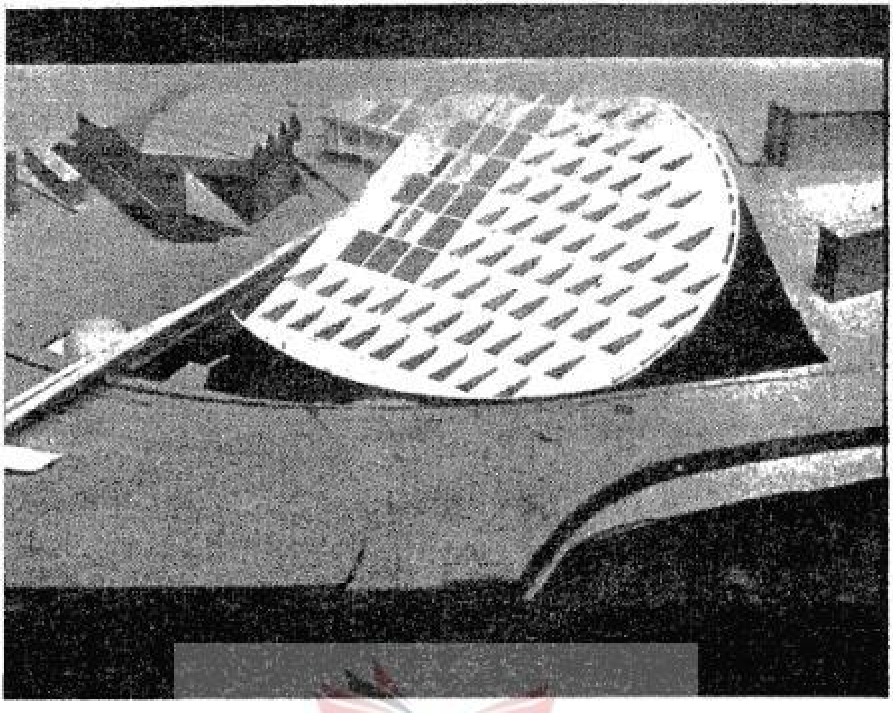
وتولى بطليموس الثانى المعروف باسم بطليموس فيلادلفوس (اى محب

اخته) توطيد دعائم مشروع ابيه . وبعد مرور قرنين من الزمان وبعد ان وصلت الاسكندرية الى ذروة مجدها واصبحت مدينة ذات طابع عالمي تضم اجناسا شتى من البشر وصارت المدينة الثانية فى الامبراطورية الرومانية ، اصبحت المكتبة تضم عددا يتراوح بين ٤٠٠٠٠٠ و ٧٠٠٠٠٠ لفافة من لفائف البردى تحتوى على قرابة ٣٠٠٠٠ مصنف وفقا لتقديرات مختلفة تتفاوت بتفاوت العصور . وحتى يتسنى انشاء مجموعة بهذه الضخامة ، كانت المكتبة تاوى جيشا من الكتبة الذين كانوا يمضون حياتهم فى استنساخ المخطوطات الواردة من المكتبات الأخرى . ذلك ان بطليموس الأول ، حسبما تقول الرواية الذائعة ، ارسل رسائل الى جميع ملوك وحكام العالم يطلب منهم فيها ان يعيروه مؤلفات « شعرائهم وكتابهم وخطبائهم وفلاسفتهم واطبائهم وكهنتهم ومؤرخيهم» . كما أن كل مصنف مكتوب كانت تحمله أحدى السفن كان «يُصادر» دائما لكى يجرى استنساخه ، لتغذية المجموعة التى كانت تسمى «مجموعة السفن» .

وفضلا عن ذلك كانت تحشد من كل شعب من الشعوب مجموعة من العلماء الذين كانوا لا يقتصرون على اجادة لغتهم الاصلية فحسب بل كانوا يتقنون ايضا اللغة اليونانية اتقانا عظيما : وكان يعهد الى كل مجموعة منهم بالنصوص التى تخصهم لترجمتها وهكذا كانت تعد ترجمة من كل نص من النصوص على اختلاف لغاتها وفى ذلك الوقت كانت هذه الشعوب متعددة ومتباينة للغاية ، حيث كانت الحضارة الاغريقية تمارس تأثيرها القوى على رقعة واسعة تمتد من جبل طارق حتى ضفاف السند ومن نهر الدانوب حتى صعيد مصر . وهكذا استدعى الى الاسكندرية ، وفقا للروايات التاريخية اثنان وسبعون حبرا من احبار اليهود ـ ستة من كل سبط من اسباط اسرائيل ـ ليقوموا بترجمة اسفار التوراة الى اللغة اليونانية ، فقاموا بهذه الترجمة فى اثنين وسبعين يوما . ولهذا سميت «بالقراءة السبعينية للتوراة» . وللمرة الأولى فى التاريخ ، وربما الأخيرة ، كان زوار المكتبة يشعرون بذلك الشعور الرائع بأنهم يجدون فى متناول ايديهم جميع كتب العالم بأسره .

ولكن كيف يستطيع المرء ان يهتدى الى الكتاب المنشود بين هذا العدد الهائل من الكتب ؟

كان اهم تجديد يتمثل فى تصنيف وفهرسة جميع الوثائق بحسب الموضوعات وبحسب المؤلفين على «البيناكيس» وهى كلمة يونانية معناها «الألواح» وقد تمت فهرسة وتسجيل جميع الوثائق على هذه الالواح ، وقام



نموذج معماري لما ستكون عليه مكتبة الاسكندرية

بهذه المهمة كاليماخوس القوريناني (٣١٠ ـ ٢٤٠) ، والاستاذ اراطوستينوس ، واريسطارخوس بتكليف من هذا الاخير وقد كانا من اوائل مديرى المكتبة .

ومع ذلك فان المكتبة لم تكن الا جزءا من مجمع اكبر واشمل : هو المتحف او «الميزيه» اى معبد رباب الفنون والعلوم (الميز) وقد انشىء هذا المتحف على غرار المدرسة التى اسسها ارسطو فى حى الليسية فى اثينا ، وكان هذا المجمع يضم الى جانب المكتبة التى ذاعت شهرته فى الآفاق ، مرصدا فلكيا وحديقة للحيوانات والنباتات ، وقاعات للاجتماعات . وطوال ستة قرون (ابتداء من القرن الثالث قبل الميلاد حتى القرن الثالث الميلادى) عاش او اقام لفترة من الزمن فى هذا المكان ، اعظم علماء العصر مما جعل من الاسكندرية القلب النابض والقوة الدافعة للحركات الفكرية فى جميع ارجاء حوض البحر المتوسط والشرق الاوسط ومن بين هؤلاء العلماء نذكر : هيروفيلوس (٢٤٠ ـ ٣٠٠ تقريبا) الذى أرسى قواعد التشريح والفسيولوجيا ، واقليدس (٣٣٠ ـ

٢٨٠) مبتكر علم الهندسة ، واراطوستينوس (٢٨٤ ـ ١٩٢) الذى استطاع ان يحسب محيط الكرة الأرضية ، واريستارخوس (٢١٥ ـ ١٤٣) ودنيس الطراسى (١٧٠ ـ ٩٠) اللذان وضعا قواعد علم النحو ، وبطليموس (٩٠ ـ ١٦٨) مؤسس علم رسم الخرائط ولكن تحرى الحقيقة التاريخية يدفعنا الى الاعتراف بأن الدافع الى هذا المشروع الضخم لم يكن هو الحب الخالص للمعرفة وحدها فلقد كان الهدف الأول من ورائه هو تزويد ملوك الاسكندرية بسلاح فريد للسيطرة ، عن طريق امدادهم بالمعرفة اللازمة لدعم سلطانهم ـ وهى معرفة مستمدة من الكتب فى المقام الأول ، وتشمل المعارف المتعلقة بالشعوب الخاضعة لسلطانهم التى كانوا يترجمون حتى كتبها المقدسة لكى يتسنى لهم فهمها على نحو أفضل ، ثم معرفة حية ، حيث كان العلماء المعتكفون فى حرم القصر الملكى ـ وهو السبب الذى من اجله كان المتحف يسمى موطن ربات الفنون والعلوم ـ يقدمون للملوك المشورة فيما يستطلعون رأيهم فيه من الأمور يوما بعد يوم .

● اختفاء المكتبة

ويدفعنا نفس الشعور باحترام التاريخ الى التزام الحذر الشديد فيما يتعلق بالاسباب الحقيقية لاختفاء المكتبة ، التى ترجع فى اغلب الظن الى الحروب والغزوات وما اقترن بها من الحرائق . ففى عام ٤٨ قبل الميلاد قيل ان النار التى اندلعت فى سفن الاسطول المصرى الذى كان يحاصر يوليوس قيصر الذى كان يحتمى بالقلعة ، امتد لهيبها الى المكتبة بفعل ريح الشمال وبعد بضعة اعوام نقل مارك انطونى ، على سبيل التعويض الى الاسكندرية ٢٠٠٠٠٠ لفة من المكتبة الوحيدة المنافسة لمكتبة الاسكندرية وهى مكتبة برجامون (بآسيا الصغرى) ثم اعقبت ذلك ـ ضمن احداث اخرى ـ الغزوات المتعددة على المدينة والتى قامت بها الملكة زنوبيا (٢٦٨) ثم الاباطرة الرومان اورليانوس (٢٧٣) ودقلديانوس (٢٩٥ ميلادية) والفرس (٦١٨) وعمرو بن العاص (٦٤٠) ثم الصليبيون وقد اقترنت هذه الغزوات فى اغلب الأحوال بعمليات السلب والنهب .

ولكن قد يمكن القول ايضا انه من المحتمل ان المكتبة قد اصبحت عتيقة عفا عليها الدهر ذلك ان لفات اوراق البردى تتلف سريعا بمرور الزمن كما ان استخدامها اصعب من استخدام مجموعات المخطوطات المدونة على اوراق مستطيلة الشكل والمغلفة بغلاف من الخشب او الجلد والتى تسمى

«كوديكس» والتى ظهرت فى نهاية القرن الثالث بعد الميلاد . وعلى اى حال ، فانه حتى دخول العرب الذين جعلوا من الاسكندرية قلعة حربية ، كانت هناك مخطوطات يونانية مازالت موجودة نظرا لان مضمونها قد وصل الينا بفضل الترجمات التى قاموا بها لتلك المخطوطات الى اللغة العربية .

● الحنين الى القديم

يهدف المشروع الى انشاء «مكتبة للاسكندرية» يمكن لمكتبة الاسكندرية ان تضاهى فى العظمة مكتبة الاسكندرية القديمة التى كانت قائمة منذ قرابة الفى عام . ولما كانت المكتبة القديمة لم يبق منها اى شىء فان الموضوع المطروح ليس موضوع صون او ترميم بل هو موضوع احياء واعادة انشاء مركز ممتاز للتدريب والتأهيل موجه على الاخص نحو مجالات المعرفة المتعلقة بالتاريخ والجغرافيا وبوجه أعم المتعلقة بحضارة الاسكندرية والمناطق المجاورة لها : اى بحضارة حوض البحر المتوسط والشرق الأوسط .

وستكون هذه المكتبة مزودة بأحدث الوسائل . ولن تقتصر على استقبال عامة الجمهور ، بل ستستقبل ايضا الباحثين فى مجالات علوم الاثار والتاريخ والعمارة واللغات والفلسفة وعلم اللاهوت المسيحى وعلم الكلام الاسلامى والعلوم الطبيعية وغير ذلك من المجالات . وفضلا عن ذلك فانها ستشتمل على مركز لصون المخطوطات الاصلية المهددة بالتلف ، وتيسير الاطلاع عليها ولاسيما عشرات الآلاف منها ، التى يرجع عهدها الى العصور الوسطى والموجودة فى المساجد والمتاحف والاديرة والصوامع المصرية والتى لا يوجد لها حتى اليوم اى فهرس شامل .

وسينفذ هذا المشروع على عدة مراحل ، على ان يتم انجازه فى بداية القرن المقبل .

وقبل تنمية المجموعة الاساسية من كتب العلوم الطبيعية والطب التى تضمها مكتبة جامعة الاسكندرية فى الوقت الراهن ، سيجرى التركيز اولا على العلوم الانسانية وستفتح المكتبة الجديدة ابوابها فى مبانيها الجديدة فى عام ١٩٩٥ بمجموعة اولية تقدر بـ ٢٠٠٠٠٠ مجلد ، ثم تنمى مجموعاتها تدريجيا ويتمثل الهدف فى الوصول الى ٤ ملايين مجلد ثم ٨ ملايين مع توفير امكانات التوسع فى البنى الاساسية وتزويدها بالمرافق التى اصبحت لا غنى عنها لمثل هذا المشروع .

مكتبة الاسكندرية

وستجرى ادارة المكتبة بالحاسبات الالكترونية بصورة كاملة وستكون فهارسها تدريجيا فى متناول جامعات المنطقة بواسطة وسائل الاتصال السلكية واللاسلكية وفضلا عن ذلك ستشتمل المكتبة على قاعدة معلومات تختزن فيها المعلومات المتعلقة بوجه خاص بالعصر الهلينى وبالشرق الاوسط وبالتقاء الحضارتين المصرية والاغريقية ، وبنشأة المسيحية القبطية وبالتأثير الاسلامى مع التركيز بوجه خاص على العلوم فى العالم القديم . وسيكون فى وسع العالم كله الانتفاع بهذه القاعدة عن طريق وحدة خدمات اقليمية ، ومن الجانب الآخر ستكون المكتبة على اتصال بوحدات الخدمات فى سائر انحاء العالم ، التى تشكل مصدرا للمعلومات عن الموضوعات المماثلة أو المرتبطة .

ولما كان من اللازم توافر الموظفين المدربين على تقنيات خدمات المكتبة فسوف تنشأ فى موقع المكتبة مدرسة دولية لعلوم المعلومات وستقبل طلبة يقومون بالتحضير للحصول على دبلوم عال او دكتوراه متخصصة ، يمكن الاستفادة بخبراتهم المميزة فى سائر مؤسسات مصر والشرق الاوسط .

كما سيجرى توفير جميع الدعامات الحديثة للمعلومات : اجهزة عرض الشرائح المصورة والاستنساخ وقراءة البطاقات المصغرة والكاسيتات واشرطة الفيديو وغير ذلك . هذه كلها سيجرى توفيرها فى قاعات تتسع لقرابة ٢٥٠٠ شخص ويمكن ان تعقد فيها مؤتمرات دولية ، حتى تصبح المكتبة مركزا ممتازا لتبادل الافكار المطروحة فى العالم اجمع .

ولاشك ان تكاليف مشروع طموح بمثل هذه الضخامة ستكون مرتفعة حيث يصل مجموعها الى ١٦٠ مليونا من الدولارات . فضلا عن ثمن الأرض (الذى يبلغ ٦٠ مليون دولار) فان انشاء المبانى سيتكلف ٦٠ مليون دولار ويتكلف تكوين مجموعات الكتب وشراء المعدات فى حدود ٤٠ مليون دولار .

وحتى قبل ان تفتح المكتبة ابوابها للجمهور سيلزم تدبير مبلغ ١٢ مليون دولار لتجميع المجموعات الاولية من الكتب ، و٣ ملايين دولار لتدريب العاملين وتحسين مهاراتهم ، ومليون دولار للاتصال بمراكز الخدمات الأجنبية .

الولد القروىّ

شعـــر :
عــزت الطـيرى

بشىء من الوجد
كان النسيم الطرىُ
يدحرج أغنيةً
للفؤاد العجول ......
فأهمس
تلك الفتاة
تخبىء نرجسها فى سهولى ......
تخبىء حنطتها فى حقولى ....
تخبىء دهشتها
فى الكلام القليل ....
تخبىء بين القميص
مظاهرة للأنوثة
تغسل وجه الصباح الجميل ......
بماء عذوبتها ....
وتوزع بسمتها للعصافير ،
والولد القروى الخجول ......
الذى يقرأ الآن فى دفتر الغيم ،
نجماته ...
نجمة ...... نجمة ....
نيزكاً .... نيزكاً ......
جالساً فوق ربوة سوسنه المستحيل .....
ثم يمضى :
إلى شاطىء الأبيض المتوسط ..
ممتطياً خوفه السلطى
بشىء من
الكبرياء البتول ....
بشــىء ..
من الوجد ..
أيضاً ....



أول دراسة ميدانية لسيناء

سيناء

هذا القفر البديع الموحش



تأليف
د. أحمد أبوزيد

عرض
د. فاروق إسماعيل

سيناء هي عمق الأمن المصرى ، وهي ساحة الصراع على مر الأجيال ، والتي تستحق منا الاهتمام في قضايا كثيرة من بينها القاء الضوء عليها في مجالات التنمية ، والرعاية الشاملة للمشروعات المهمة التي تحقق الاستفادة من المخزون الاستراتيجي الهائل في صحرائها الشاسعة المترامية .

ونعرض دراسة مهمة للدكتور احمد ابو زيد ، اشتملت على مادة انثروبولوجية شاملة ، تناولت الحياة في سيناء وتعد نموذجا لأبحاث الصحراء والتي نفتقر اليها في هذا المجال

الدراسة في خمسمائة صفحة ، وترجع اهمية هذا العمل الاكاديمي الى ان البحوث التي تمت في مناطق صحراوية في مصر ، كانت بحوثا محدودة الى حد كبير ، لكن هذه الدراسة تتسم بالشمولية إلى حد بعيد .

الحياة فى سيناء .. على الطبيعة



تناولت الدراسة خصائص علاقة الانسان بالبيئة .



ففي حديثه عن "شمال سيناء" المشكلة والمنهج اوضح د . احمد ابو زيد ان الهدف المباشر الاساسي هو اجراء مسح اثنوجرافي للحصول على اكبر قدر من المعلومات التي تعطينا صورة واضحة ومتكاملة عن البناء الاجتماعي والثقافي ... يمكن ان تفيد فى محاولة تحديد اسس ومعايير يمكن فى ضوئها رسم وتحديد عمليات التطوير ومشروعات التنمية ، بل وتقييمها وركزت الدراسة على نمطين اجتماعيين هما نمط الحياة الذي يعتمد اساسا على صيد الاسماك ، وقد اختير لذلك قرية التلول وتوابعها (مركز بئر العبد) ، وذلك النمط الذى يعتمد على مزيج من الرعي والزراعة ، وقد اختير لذلك قرية المقضبة وتوابعها (مركز الحسنة) . ويؤكد المؤلف ان هذين النمطين اكثر تعقيدا مما يبدو لأول وهلة ، نظرا لتعدد الانشطة الاقتصادية رغم سيادة او غلبة نشاط اقتصادى معين ، فضلا عن تعدد الاصول القبلية ، وتعقد العلاقات القرابية ، وانعكاس ذلك على اتساق البناء الاجتماعي .

ولم تقف الدراسة عند هذا الحد فى اختيار العينة اذ اضيف الى ذلك مجتمع محلى ثالث يمثل نمط البداوة فى مدينة "نخل وتوابعها" بل وامتدت الى مدينة العريش ذات الطابع الحضرى او شبه الحضرى ، ومدن ساحلية اخرى ، وهذا هو الذى دفعنا منذ البداية الى القول بان هذه الدراسة شمولية تستهدف الوقوف على كل انماط الحياة الاقتصادية والاجتماعية الرئيسية ، وقد اقتضت ضخامة العمل وتعدد الجوانب التى يشارك فيها الباحثون جميعا كفريق متعاون تنسيق الانشطة المختلفة بين مجموعات البحث الفرعية الثلاث التى اختص كل منها بدراسة نمط اجتماعى واقتصادى من الانماط الثلاثة الرئيسية التى سبق الاشارة اليها .

وقد اعتمدت الدراسة على الملاحظة العلمية عن طريق المشاركة واستهدفت المشاركة على حد تعبير المؤلف الاندماج الكامل فى حياة المجتمع ، وهو امر لايتحقق إلا بعد مرور فترة طويلة من الزمن تكفى لأن يتقبل المجتمع وجود الباحث واعتباره جزءا منه ، وان هذا الاندماج يساعده من ناحية اخرى على فهم كثير من العادات الاجتماعية وانماط السلوك والتصرفات السائدة ، ولم تقتصر أدوات البحث على الملاحظة بل امتدت الى وسائل اخرى لاتقل عنها اهمية كالمقابلة والاستعانة بالاخباريين الذين يمثلون الاداة الاساسية للحصول على المعلومات والبيانات المتعلقة بالاوضاع المجتمعية التى يصعب اخضاعها للملاحظة ، من هنا جاءت مشكلة اختيار الاخباريين الذين

يتميزون بقدرة فائقة على التذكر ، وهنا يحرص الباحثون على تتبع تاريخ الحياة life history لمثل هؤلاء الاشخاص وتسجيله بدقة ،على اعتبار ان هذا التاريخ يمكن ان يزود الباحث بكثير من المعلومات الاثنوجرافية من خلال حياة فرد واحد فى اطار الثقافة العامة السائدة فى المجتمع ، مع فهمه الخاص للحياة ونظرته الى الكون وتقييمه لمختلف الامور والأوضاع والعلاقات ، وهكذا نجد ان هذه الدراسة اعتمدت الى حد كبير على الاساليب الانثربولوجية التقليدية فى حين نجد ان الاستعانة بالمعلومات او البيانات الرقمية جاءت بطريقة عارضة وفى اضيق نطاق

وقد اشار الباحث الى الصعوبات التى صادفها فريق البحث سواء تلك التى تجمعت عن طبيعة المجتمع من ناحية والموضوعات التى تناولتها الدراسة من ناحية اخرى ، وتلك التى ارتبطت بالاهالى انفسهم ومدى استجابتهم ، وصعوبات اخرى متعلقة بالباحثين انفسهم واعدادهم العلمى وقدراتهم على التعامل والاتصال .

وعن الانسان والبيئة يعرض المؤلف لحقائق جغرافية اساسية لها ابعاد اجتماعية هامة يرى ضرورة ان تؤخذ فى الاعتبار فى اى محاولة لدراسة البناء الاجتماعى

الحقيقة الاولى : تتمثل فى طول سواحل شبه جزيرة سيناء بالنسبة لمساحتها الكلية ، اذ يبلغ طولها حوالى ٧٠٠ كم اى مايشكل نحو ٢٩.١٪ من السواحل المصرية .

الحقيقة الثانية : تلك التى تؤلف مظهرا هاما من مظاهر النسق الايكولوجى فى شمال سيناء ، وامكانية التميز فى تلك المنطقة بين بيئتين جغرافيتين مختلفتين اشد الاختلاف وأن كانتا متداخلتين بشكل يصعب معه التفرقة بينها تفرقة قاطعة ، وهما البيئة الساحلية والبيئة الصحراوية . وتتمثل البيئة الساحلية فى شمال سيناء فى السهول الشمالية المتاخمة لساحل البحر وتعكس اهم ملامحه الجغرافية والمناخية والنباتية ، ويمتزج بالساحل الرملى بعض الرواسب الطينية ، ثم البيئة الصحراوية التى تسود المناطق الوسطى من شمال سيناء ، وتزداد ملامح ومقومات هذه البيئة الصحراوية كلما ابتعدنا عن البحر ، واذا كانت السمة المميزة للسهول الشمالية هى الكثبان الرملية ، فالذى يميز البيئة الصحراوية هو وجود بعض المرتفعات المكونة من الحجر الجيرى والطفل والرمل ..

ولكن من الخطأ ان نتصور أن هاتين البيئتين متمايزتان او متخارجتان تماما ، فكل نمط من هذين النمطين اكثر تعقيدا مما قد يبدو عليه فى اول الأمر .

عينا من مختلف السعات او القدرات او التدفقات .

اما الحقيقة الجغرافية الثالثة : فتتمثل فى ان المطر هو المصدر الاساسى ان لم يكن المصدر الوحيد للماء فى شمال سيناء ، اذا استثنينا ماء النيل الذى ينقل الآن عبر خطوط الى منطقة العريش ، لكن استخدامه مقصورة على استعمال المساكن ، اما المياه الجوفية (مياه الامطار) فيمكن الوصول اليها عن طريق حفر الابار السطحية او قليلة العمق ، وتذهب بعض التقديرات الى انه يوجد فى شبه جزيرة سيناء مالايقل عن ٢٥٠ بئرا او

اما الحقيقة الجغرافية للرابعة والأخيرة والتى تعتبر من اهم ملامح النثق الايكولوجى تتمثل فى وجود الوديان الجافة والتى يعتبر وادى العريش اكبرها وأهمها ،الذى تصب فيه مياه السيول عن طريق عدد كبير من الروافد .

والجدير بالذكر ان شمال سيناء ، بل وشبه جزيرة سيناء كلها تزخر بثروة نباتية طبيعية كبيرة ومتنوعة ، ويمكن تصنيف هذه الثروة على النحو التالى :



تحتل المرأة فى سيناء مكانة هامة وكان ذلك وراء انتشار الزواج .

ا ـ النباتات والاعشاب الطبيعية التى تستخدم كغذاء للماشية .

ب ـ النباتات والاعشاب الطبيعية الطبية .

ج ـ الاشجار المعمرة التى اعتاد الانسان زراعتها كالنخيل والاشجار (الزيتون) و(الكافور) .. الخ .

هذه الثروة النباتية الطبيعية تقدم فى الاساس الغذاء الرئيسى لثروة حيوانية كالاغنام والماعز والابل ، وعلى الرغم من ان تلك الاخيرة تلعب دورا هاما الا ان اعدادها كانت دائما اقل من اعداد الغنم والماعز هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى تعتبر البيئة الصحراوية فى شمال سيناء موطنا ملائما لانواع اخرى من الثروة البرية او غير المستأنسة ، والتى تلعب دورا هاما فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية .

● الزمان والمكان

ثم ينتقل الباحث بعد ذلك الى معالجة مفاهيم الزمان والمكان وتداخلهما ويخلص الى :

١ ـ تداخل مفاهيم الزمان والمكان بحيث قد يقاس الزمان فى وحدات مكانية والعكس بالعكس .

٢ ـ الاعتماد الى حد كبير وبخاصة فى المناطق الصحراوية على الظواهر



التضامن القبلى اساس الحياة الاجتماعية فى سيناء .

الطبيعية والفيزيقية فى قياس الزمان والمكان ، وتحديد المناشط الاقتصادية بالاشارة الى التغيرات المناخية والظواهر الفلكية .. الخ .

٣ ـ ان البعد المكانى كما يقاس بالكيلومترات ليس من الضرورى ان يتفق مع البعد الاجتماعى القائم بين الوحدات القبلية المختلفة .

٤ ـ ان التغيرات الطارئة على المجتمع الصحراوى والمتمثلة فى انتشار التعليم وازدياد الاتصال بالاجهزة والمؤسسات ، وتكثيف علاقات التبادل بين المجتمعات المحلية من ناحية ووادى النيل من ناحية اخرى ساعد على تغيير مفاهيم الزمان والمكان .

وكما يتبادل الباحث انماط الحياة الاقتصادية وفيه يعرض لاربعة مناشط رئيسية .

● اولا : الصيد والصيادون

فى هذا الصدد يذهب المؤلف الى القول بأن ساحل سيناء كله يعتبر منطقة صيد ، اى المنطقة من رفح شرقا الى بالوظة غربا ،الا ان هناك مركزين هامين يرتبطان بهذا النشاط ارتباطا قويا وهما بحيرة البردويل وبالذات عند منفذ التلول وميناء العريش عند قرية ابى صقل التى تبعد بنحو ثلاثة كيلو مترات الى الشرق من العريش . ويعمل فى الصيد حوالى ٦٥٪ من مجموع سكانها ، ويمارس فى هذين المركزين اسلوبان مختلفان للصيد .

ثم ينتقل الى معالجة عملية الصيد والمؤثرات التى تتأثر بها كالبيئة الفيزيقية ، ودورة الحياة البيولوجية عند الاسماك فضلا عن القرارات الادارية .

ويتناول بعض القضايا الهامة كتلك التى تعالج الصراع ، او المنافسة بين القبائل على مهنة الصيد (الدواغر فى التلول كمثال) فى علاقته بالعائد من الصيد على الرغم من المبدأ المعلن هو ان حق الصيد مكفول للجميع ، وكيف ان المصالح الاقتصادية تقرب احيانا بين القبائل فى عمليات الصيد ، ثم يشير الى التعاون والتكافل الاجتماعى والذى تحكمه ضوابط وقيود وجزاءات غير رسمية ، ثم يختتم الباحث هذا الجزء بالاشارة الى الصعوبات والمخاطر التى تواجه الصيادين .

● ثانيا البدو والمزارعون .

يؤكد تراجع الرعى بالمعنى التقليدى الذى يعنى الحل والترحال والتنقل بحثا عن الماء والعشب وابراز اهتمام الدولة بمشروعات التنمية فى مجال الصيد والزراعة وارتباط ذلك بالاستقرار والاقامة فى مراكز سكنية محدودة ، والجدير بالذكر ان الزراعة فى المناطق الشمالية من سيناء بدأت تخرج عن النطاق التقليدى لزراعة

الشعير او القمح الى زراعة الخضر والفواكه ، ويمكن ان نميز فى شمال سيناء بين اكثر من شكل واحد للزراعة وان كانت هذه الاشكال تؤلف فى مجموعها نسقا واحدا متكاملا من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية ، وترتكز على شبكة معقدة من العلاقات الاجتماعية والقرابية وبعض مبادىء تقسيم العمل والملكية ، الا ان هذه العلاقات والنظم والممارسات تتأثر فى اخر الأمر بنوع مصادر المياه التى تعتمد عليها الزراعة وامكانات الرى وأساليبه الا ان الباحث فى معالجته لمثل هذه الموضوعات يثير عددا من الملاحظات الهامة :

اولا : ان الزراعة نشاط تعاونى يقوم فى المحل الأول على العلاقات القرابية

ثانيا : ان الزراعة فى شمال سيناء لاتعرف نظام الدورة الزراعية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة .

ثالثا : ان العمل فى الارض الزراعية يتطلب الكثير من الجهد والمعاناة ويكشف عن درجة عالية من الصبر والمثابرة بعكس الفكرة السائدة عن البدو ونظرتهم الى الزراعة والعمل اليدوى .

رابعا : مشاركة المرأة للرجل فى العمليات الزراعية ، حيث يحتاج الامر احيانا الى تكاتف كل اعضاء الجماعة القرابية المحدودة ، بل يتجاوزه الى الاقارب البعيدين والجيران والاصدقاء .

ثم ينتقل الكاتب الى مشكلة مياه الرى والمياه الجوفية وملكية الابار والأبار الاختيارية ، ومعرفة الاهالى وقدراتهم الخاصة فى مثل هذه الأمور كالاستدلال على وجود المياه من بعض تشكيلات الحصى التى تحمل الرطوبة او وجود اشجار "الغرقد" وما إليها ..

ثم ينتهى المؤلف الى موضوع هام يتمثل فى ارتباط الزراعة والعمليات الزراعية بالتنظيم القرابى والتوزيع الاقليمى من الناحية الاخرى والعلاقة القائمة بينهما .

● ثالثا : الرعى والرعاة .

منذ البداية يؤكد الباحث ان الذى يتعرض حقيقة لخطر الانقراض هو الرعى فى شكله التقليدى وانه يتراجع سواء من حيث حجم القطعان ونقص الثروة الحيوانية او حجم المشتغلين به . وان الجماعات التى تعمل بالرعى هى جماعات مستقرة ، بمعنى انها لاتعيش على الرعى وحده ، وانها تزاوج بينه وبين الزراعة (اقتصاد مختلط) وكما سبق ان اشار بالنسبة للصيد وانه حق مكفول للجميع وكذلك الرعى فانه حق مكفول للجميع مادام لايتعارض مع الحقوق القبلية للآخرين ، وعدم الحاق الضرر بالزرع ، وان هناك مناطق معروفة للرعاة تتميز بوفرة اعشابها ونباتاتها الصالحة كمرعى والتي تخرج اليها القطعان غير المتجانسة .

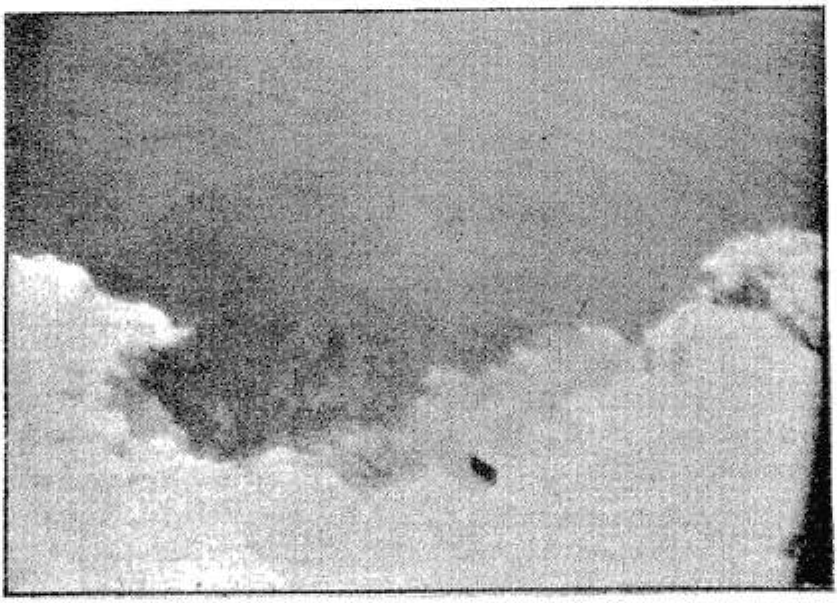
● العائلة .. النواة

وحول بناء العائلة واتساق القرابة يبدأ المؤلف حديثه بالاشارة الى ظهور العائلة النواة ، وان هذا الشكل من التنظيم بدأ يفرض نفسه فى العريش والى حد اقل فى بعض المراكز الحضرية ، الا انه يعود فيؤكد ان البناء القبلى والعائلى فى شمال سيناء مازال يقوم على اساس الروابط العاصبية فى خط الذكور ، بينما تحتل المرأة وأهلها مكانة تالية ان لم تكن ثانوية ، بل ان الزوجة التى تنتمى الى جماعة قرابية غير جماعة الزوج تعتبر غريبة بين جماعة الزوج ، وربما كان ذلك احد الاسباب وراء انتشار الزواج الداخلى او الاندوجامى فى الجماعة القرابية او القبلية الواحدة ، وتفضيل الزواج من ابنة العم التى تعطى أولوية مطلقة من الناحيتين النظرية والعملية ، وبصفة عامة فإن البناء العائلى فى شمال سيناء يقوم على الزواج التعددى الداخلى وكلا العنصرين هما وظيفة مبدأ العصبة الذى يرتكز عليها البناء السياسى القبلى .. والاهالى انفسهم يرون تفضيل الزواج الداخلى الى عدة اسباب لعل اهمها الاسباب الاقتصادية (المحافظة على الثروة ، انخفاض المهر ..) واسباب سياسية تتعلق بالصراع الذى كان يسود بين القبائل المختلفة والرغبة فى احتفاظ القبيلة لنفسها بمصادر الخصوبة البيولوجية ، وتحكم الزواج الداخلى فى شمال سيناء مجموعة من القواعد والمبادىء التى تأخذ فى الاعتبار المكانة الاجتماعية والاصل والعراقة ، وان كانت كل جماعة تحاول تفسير الوضع بما يتفق ونظرتها الى نفسها والدفاع عن كيانها ، وتفضيل الزواج من ابناء العمومة لايعنى اجبار الفتاة على ذلك فى كل الاحوال فلها حق الاختيار بين ابناء عمومتها فى حالة وجود اكثر من ابن عم واحد .

اما مبدأ تعدد الزوجات فهو العنصر الثانى الذى يقوم عليه بناء العائلة فى شمال سيناء ، فالتعدد نظام اجتماعى معترف به حتى من الزوجة ذاتها على رغم من مشاعرها الخاصة اذ يجب ان تعترف به وتقره حتى قبل حدوثه ، هنا يقدم لها الزوج "كبارة" اكبارا لشأنها او يدفع "رضاوة" لارضائها ولهم فى ذلك اراء ونظريات تدور حول تبرير تعدد الزوجات وانه رخصة احلها الله ، ووسيلة مشروعة لزيادة عدد افراد الاسرة ... الخ .

● نظام الحكم المحلى

وعن الحكم المحلى والتنظيم السياسى التقليدى : يعرض الباحث لمحافظة شمال سيناء وتقسيماتها الادارية من مركز ومدن والقرى التابعة لها ، وماتشمله من توابع هى اقرب الى النجوع او الكفور ، وينعكس هذا



السواحل السيناوية طويلة بالنسبة لمساحتها الكلية

التقسيم فى نظام اوبناء الحكم المحلى ووحداته ومجالسه بشكل تعريجى من الوحدات الصغرى الى المحافظة ككل ، حيث المجلس الشعبى المحلى على مستوى المحافظة على قمة هذا التنظيم اذ تمثل فيه كل المراكز وفقا لعدد السكان .

وعلى الجانب الاخر يقف التنظيم الهيكلى لمحافظة شمال سيناء وجهازه التنفيذى الذى تتبعه مختلف الادارات وفروعها فى المراكز والقرى ، ويعاون هذا الجهاز التنفيذى عددا من اللجان لمساعدة الاجهزة التنفيذية فى العمل والمتابعة على كافة المستويات ، ويقف المحافظ على قمة ـ الجهاز التنفيذى للحكم المحلى .. الخ .. ويرى الكاتب أن هناك نوعا من التعاون القائم بالفعل بين الجهازين الاساسيين الادارى التنفيذى والشعبى المحلى .. ومع ذلك فهناك نوع من الصراع الخفى بين التنظيمين ، ويتمثل ذلك فى النقد المستمر الذى توجهه المجالس الشعبية المحلية الى الاجهزة التنفيذية والعاملين فيها من بطء الاداء ..

ثم ينتقل الباحث الى عرض للابنية القبلية فى شمال سيناء ، وتفرعات القبيلة الأم والمستويات المختلفة للاقسام القبلية داخل القبيلة الواحدة ويضرب العديد من الامثلة المستمدة من الابنية القبلية للدواغر ، والسواركة

والترابين وجميعها قبائل يرى الاخباريون فيها انهم جميعا جاءوا من شبه الجزيرة العربية ويرى المؤلف ان معالجته التفصيلية لهذه الابنية القبلية ليس الهدف منها تقديم حصر اثنوجرافى كامل للقبائل وتفرعاتها بقدر ما كان يستهدف القاء الضوء على خصائصها ومقوماتها .

● القانون والنظام

ويشير الباحث الى ان القانون العرفى يستحوذ على جانب كبير من اهتمام الاهالى انفسهم ، ويؤلف شطرا كبيرا من الثقافة البدوية والتراث البدوى وربما دفعهم الى ذلك ادراكهم انه تابع من احكام الشريعة الاسلامية ، وليس أدل على تفضيل الاهالى حتى الآن اللجوء الى المجالس العرفية ، من انه حين يأبى احد اطراف النزاع ذلك ويرغب فى رفع الأمر الى السلطات المحلية يتولى بعض اعضاء جماعته القرابية العاصبة عرض النزاع على القضاة العرفيين هذا من ناحية ومن ناحية اخرى فان العرف يقضى بفرض غرامة على من يقوم بالتبليغ عن اى شخص فى جريمة الى السلطات الادارية ، وتدفع الغرامة عن كل ليلة يمضيها الجانى فى سجنه ، وذلك لخروج المبلغ عن التقاليد والعرف .

وتكفل اجراءات التقاضى قدرا كبيرا من الأمان والعدالة لأطراف النزاع ويظهر ذلك بوضوح فى كل مراحل القضية من اختيار القضاه والمفاوضات الجانبية التى تتم خارج المجلس العرفى ، او عند اعادة عرض القضية على قضاة آخرين اذا تعارض الحكم مع مصالحهم الخاصة ، ويعرض المؤلف للتخصص القضائى وفقا لنوع القضية فهناك "اهل الديار" اولئك الذين يختصون بقضايا الارض والملكية ، وهناك "اهل العرايش" لمنازعات النخيل "والمنشد" و"المسعودى" للاعتداء على الشرف ، وهناك "الأحامدة" للنظر فى حرمات البيوت وهكذا ..

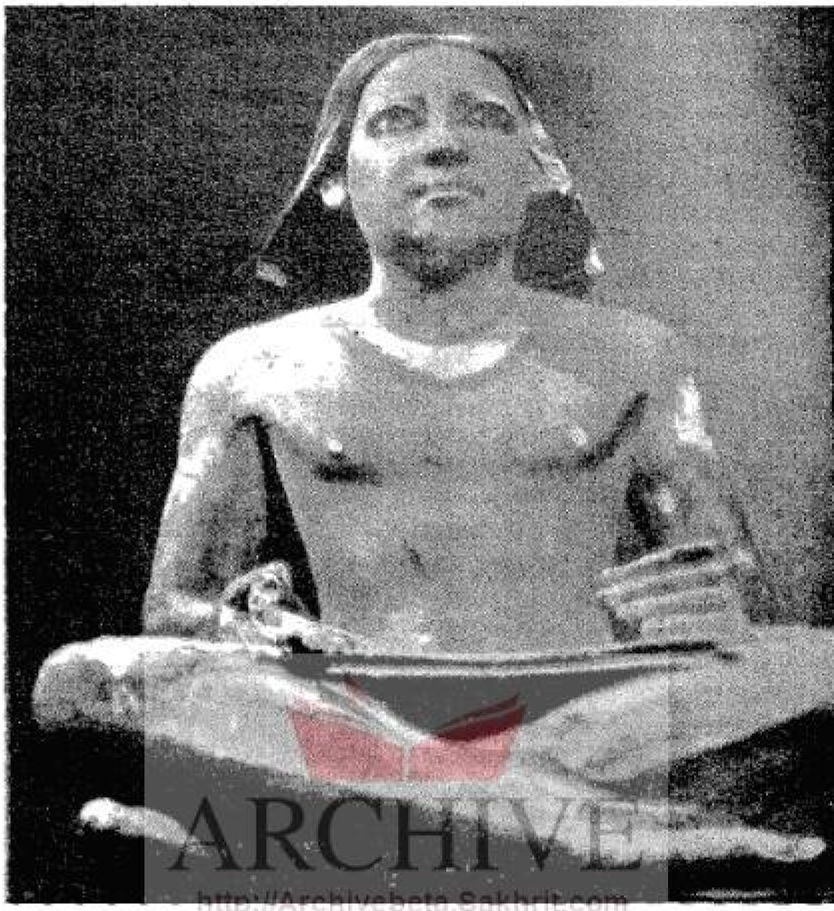
ثم ينتقل الباحث الى "التضامن القبلى" ويعرض لمفاهيمهم عن التضامن فى الغنم والغرم وكيف ان هذا المبدأ ينطبق على نتائج كل الافعال الجنائية باستثناء السرقة والاعتداء على العرض ، وان كان المبدأ يكشف عن تماسك الجماعة القبلية القرابية العاصبة ، وكيف يتم تحويل الجزاءات التى تصدرها مجالس القضاء العرفى او ترجمتها على حد تعبير المؤلف الى نقود بعد ان كانت فى الماضى جزاءات وعقوبات عينية فى شكل ابل واغنام وخدم وعبيد ، تترجم الى نقود مع بقاء المعيار .. وتخضع هذه المبالغ لكثير من التخفيض والتنزيل او التفويت على

حد تعبيرهم بقصد التخفيف عن كاهل الجانب المعتدى بحيث يصبح مايدفع بالفعل نسبة صغيرة مما صدر الحكم به .. ويختتم الباحث معالجته بالاشارة الى الملكية ووضع اليد والصراع على الأرض والفصل فى قضاياها ، ويستشهد بين الحين والآخر بوثائق واحكام تجلى الغموض وتعطى صورة واقعية للاحداث والوقائع اليومية التى تحدث هنا وهناك

● الشعائر ونسق المعرفة

وعلى الرغم من ان الكاتب يذهب الى ان موضوعات الدين والشعائر والطقوس الدينية والممارسات السحرية من اكثر الموضوعات جذبا لاهتمام العلماء والباحثين ، فإنه ينتهى الى ان النسق الديني فى مصر بوجه عام لم يلق مايستحقه من عناية الانثروبو لوجيين واهتماماتهم ، وان معظم ماتم فى هذا الصدد اقرب الى الدراسات الفولكلورية منها الى البحوث الانثروبولوجية الدقيقة ثم ينتقل الى المجتمع السينائى والذى يدين كل سكانه بالاسلام وترد اصولهم القبلية الى الجزيرة العربية كما سبقت الاشارة ثم يتناول العديد من اركان الاسلام كالصلاة (المسجد ومدى انتشاره والمترددين عليه ..) والصوم ويرى انه الشعيرة التى تراعى بدقة فى شمال سيناء الا انه يشير الى ان الناس فى شمال سيناء لايتبعون فى صومهم رمضان المواعيد والتواريخ التى يقرها مفتى الديار المصرية ، بل يتبعون رؤية السعودية ،الأمر الذى يشير الى نوع من الهوة الثقافية او العزلة او الانفصال عن المجتمع الاكبر ، والزكاة التى لاتتعارض مع التنظيم القبلى او العشائرى انها تعبير عن الاحساس بالمسئولية التى تجد اصدق تعبير لها فى الاسهام فى المغارم تدفع الدية او التعويض او نفقات الزواج .. الخ

ثم يعرض لفئة رجال الدين ومكانتهم الاجتماعية ، وكيف ان انتماء هؤلاء الى قبائل معينة يضفى عليهم المهابة والاحترام كما هو الحال بالنسبة للسواركة عشيرة الجريرات ، وينتقل الباحث بين الاحياء والاموات من رجال الدين وكيف يقصد الناس ضرائحهم بين الحين والاخر لمزارات يتبعون اثناءها طقوسا معينة ، ثم يشير فى شىء من التفصيل الى ثلاثة منهم على اعتبار ان افعالهم وكراماتهم يشكل جانبا هاما من نسق المعرفة لدى سكان شمال سيناء .. ثم ينتقل الكاتب الى الدور الذى تلعبه الطرق الصوفية التيجانية والبرهانية والخليلية والخلوتية والدور الذى تلعبه فى الحياة الدينية والروحية .. ثم يتناول ظواهر وافكار ومظاهر سلوكية ترتبط بنسق المعتقدات والتفكير الغيبى



تمثال الكاتب المصري (حجر جيري) من الأسرة الخامسة

الإبداع الفني المصري

عطاء حضاري متواصل

بقلم: د. صبري منصور



قطعة من نسيج القباطي ترجع الى القرن ٣م بالمتحف القبطي

إن التواصل فى المجال الثقافى والفنى يعنى وجود سلسلة متدفقة من التحولات الفنية ، وحلقات مستمرة متنامية من الطرز والاساليب ؛ وذلك لا يعنى ان فى ذلك استمرارية تخضع لقانون التطور نحو الارقى ، او التقدم نحو الافضل ، وانما يكون هناك تحول نحو شكل اخر متغير ، ينحدر من الطراز السابق عليه ، ويكون استكمالا له ، ثم يصل به الى ذروة عطائه ، كما انه يحمل فى نفس الوقت ارهاصات التغيير التى تتاكد ملامحها فيما يليه من تحول الى طراز جديد .

ولاشك فى ان البحث والتقصى عن عناصر استمرارية التراث الفنى المصرى عبر عصوره المختلفة ، واستخلاص أسباب تميزه واختلافه ، ليكتسب دلالة هامة فى هذه المرحلة التاريخية التى يتضح فيها ضرورة السعى نحو تخليق فن مصرى له استقلاليته . وشخصيته المتميزة . يكون تعبيرا صادقا عن حاضرنا المعاصر ، وثيق الصلة بالجذور الممتدة عبر التاريخ ، محققا للانسان المصرى ذاتيته ، كاشفا عن روحه الاصيلة ، ورؤيته الخاصة فى الحياة والوجود .

وقد يعتقد البعض ان السعى الى اثبات وجود استمرارية فنية فى تراثنا هو عبث لا طائل من ورائه ، فالماضى - فى رأيهم - قد انتهى وزال ، وان العصر الحديث قد اتى بافكار وقيم ومفاهيم جد مختلفة ، وهى الاحرى باتباعها ، ومن ثم فإن هذا العصر يحتاج الى شكل فنى لا يتصل من قريب او من بعيد بكل ما يندرج تحت مفهوم التراث ، ولكننا نرى بأن مبدأ الاختلاف ونبذ الماضى اذا كان يصدق على المفاهيم العلمية والصناعية التى تتطور نظرياتها نحو الاكمل ، وينسخ الجديد منها ماسبقه من نظريات ، فان الامر فى ميدان الفنون يختلف اشد الاختلاف ، فالفنون بطبيعة نموها لا يحكمها قانون للتطور بهذا المعنى ، اذ لا تجب الاشكال الفنية الجديدة منها ماسبقها او تلغيها ، بل انها تشتق من ثناياها ، وفى نفس الوقت تكون اضافة عليها . وكما ان كل فنان يشيد فوق عمل من سبقه من الفنانين سواء ادرك ذلك لم لم يدركه ، فان الكيان الفنى لأمة ذات تاريخ موغل فى القدم - كبلادنا - انما هو حلقات متصلة لا يمكن فصل احداها عن الاخرى . ولا يمكن المفاضلة بينها من ناحية القيمة ، او البساطة والتعقيد .

● اشكال باهتة من الفنون

كان من قدر بلادنا ان اصيبت فى فترة تاريخية - استمرت قرونا - بجدب فنى ، وانقطعت سلسلة التواصل فى العطاء الفنى باحتلال الاتراك العثمانيين . الى ان تم الاتصال بالحضارة الغربية وهى فى طور نضجها وكامل عنفوانها ، فى حين كنا قد تحولنا الى امة اضمحلت فيها مقومات الابداع ، ومن هنا كانت الهوة الحضارية عميقة وخطيرة ، وعلى مستوى الفنون لم ينتج هذا اللقاء الحضارى سوى اشكال باهتة من الفنون الغربية ، وذلك امر طبيعى ، اذ ان التاثر والتأثير بين الحضارات والثقافات لا يكون ايجابيا الا بتكافؤ عوامل القوة والنضج فيما بينها .

وفى اوائل هذا القرن انشأ الاجانب ول معهد للدراسة المنظمة للفنون

الجميلة ، ووضعوا المناهج الدراسية ، بل وقاموا هم انفسهم بالتدريس فيها فى البداية ، وها نحن نتاج هذه المرحلة القريبة وقد بدانا نشعر ان لنا كيانا له من العمق ما يجعله رافضا لمبدأ الذوبان ، فيسعى منقبا فى اغوار ذاته عن عوامل تميزه ، راميا لاستكمال طبقات البناء الثقافى والفنى لامته ، باضافة حلقة جديدة ربما كانت من اصعب حلقاته نظرا لظروف المرحلة المعاصرة ومايشوبها من تعقيد ، اذ يتم تخليقها من استحضار مراحل بعيدة ، وفى ظل تاثير الحضارة الغربية الغالبة ، بكل ماتتمتع به من وسائل متقدمة فى النشر والدعاية .

وتجدر الاشارة .. قبل استعراض حلقات تراثنا الفنى ـ الى ان مصر قد توفرت لها منذ فجر التاريخ ظروف اقتصادية ، قوامها التجدد السنوى للخصوبة الناتجة عن نهر النيل ، كانت هى الاساس فى قيام ثقافة مستمرة انعكس اثرها على الفن والدين ، وساعدت على احتفاظ الشخصية المصرية بعوامل ثباتها واستمراريتها ، تلك الشخصية التى كانت مجالا لدراسات العديد من الباحثين المصريين والاجانب ، والتى اكدو فيها توفر عنصر الاستمرارية فى هذه الشخصية . فيرى د. جمال حمدان "بأن بلدا من بلاد الارض لا تصدق على حضارته صفة الاستمرار كما تصدق على مصر ، وان مصر قد تعرضت للغزو لكن روحها لم تقهر ، لانها عرفت شيئا غريبا على التجربة الانسانية وهو الانسحاب الى داخل الذات »

● **مرتان فقط .. لتغيير الديانة**

ويسوق لنا د. حسين مؤنس دلائل عديدة يبرهن بها على عدم فقدان الشخصية المصرية لمقومات استمرارها ، اذ ان الديانة فى مصر قد تغيرت خلال حوالى خمسة الاف سنة مرتين فقط ، كما لم تتغير اللغة الا مرتين ايضا فى حين ان بلدا مثل بريطانيا التى لا يرجع تاريخها الى ابعد من الفين وخمسمائة سنة تغير الدين خلالها مرتين ، واللغة اربع مرات على الاقل ، واسبانيا التى يرجع تاريخها الى الفين وخمسمائة سنة قد تغير الدين اثناءها ثمانيه مرات ، واللغة ست مرات ، اما الجنس المصرى فلم يتغير فى جملته خلال هذه العصور سوى تغييرات طفيفة ، فى حين نرى ان بلدا كايطاليا قد تعاقبت عليه اجناس عديدة غيرت عنصر سكانه تغييرا تاما اكثر من مرة لذلك فان طبيعة الحياة فى مصر وجوهرها لم يختلفا كثيرا رغم مرور الاحقاب ، ومازالت العين تقع اليوم على مشاهد كانت موجودة ايام الفراعنة ، كما ان ملامح اجتماعية وثقافية عديدة ، وتقاليد والفاظ متوارثة وكذلك بعض العادات المتصلة بالزراعة والزواج والدفن ، مازالت مستمرة فى حياتنا حتى اليوم .

ويرى "روس" ان مصر قد شاهدت

مجيء ورواح انواع الغزاة الذين تركوا كثيرا من التأثيرات العميقة على روحها ذلك لان وادى النيل مسجل حقيقى للمراحل الناجحة فى حياة الانسان وان هناك ملامح قومية واصيلة قد استمرت خلال هذه الحضارات المركبة .

اما "رينيه ويج" فيؤكد بان تاريخ مصر يكشف عن لوحة ذات غنى خارق ، تلاقت فيه واتحدت اكثر العناصر اختلافا .

وليس غريبا اذن على هذه الشخصية التى لم تفقد ابدا عوامل استمرارها ! ان تعكس هذه الاستمرارية ذاتها على الفنون التى انتجت على ارض مصر عبر القرون ولعل اطلالة سريعة على اهم خصائص التحولات الفنية الكبرى فى التراث الفنى المصرى ، لتساعدنا على الكشف عن الخيوط التى تصل بين كل انماطها .

وقد كان الفن المصرى القديم اول عطاء فنى استمر لالاف السنين ، وكان هدف الفنان فيه دائما ابراز الاشكال فى اجمل واكمل اوضاعها ، كما كانت رغبته فى اظهار الاشياء ليس كما تراها عينه وانما كما هى موجودة فى الحقيقة ، ومن هنا جاء اهماله لقواعد

النيل عند الزمالك .. لجاذبية سرى .



المنظور والبعد الثالث ، وقواعد المنظور تدرك بالعلم والمعرفة ، وليس لها قيمة فنية تشكيلية فى حد ذاتها .

وكان لطبيعة المكان تأثيرها على الحس الهندسى فى الفن المصرى ، فمن خصائص البيئة الزراعية المنبسطة اعتمادها على التقسيم ، وتحديد الارض فى اشكال هندسية ، ومن هنا جاء التصميم فى الفن المصرى قائما على تقاطع الخطوط العمودية والافقية .

كما كان طابع الجد والوقار والسكون من اهم سمات الفن المصرى القديم ، فلا تنطق اثاره فى اغلب الاحيان عن احاسيس اصحابها او دلائل الانفعال والعاطفة ، والحركة هادئة وئيدة لاتكاد تعدو اكثر من تقديم رجل عن الاخرى .

● الفن القبطى .. والفن اليونانى

وبالاضافة الى تمتع الفنان المصرى القديم بسهولة فائقة فى استعمال الخطوط - التى تخجل وتخزى معظم الخطوط فى التصوير الغربى الحديث كما يرى العالم الاثرى "بيترى" فانه كان يشى بقدرة عالية فى التلخيص والتبسيط ، واختصار التفاصيل الزائدة وغير المفيدة للعمل الفنى ، ومهارة فائقة فى المبالغات الذكية للاشكال والعناصر ، واجراء الحوار التشكيلى فيما بينها . فرغم مايبدو على الفن المصرى القديم



طبق من العصر الفاطمى من القرن ٥ هـ بمتحف الفن الاسلامى .

للوهلة الاولى من رتابة وسكون ، فإن الـدارس المتعمق ليستكشف تلك الامكانيات الهائلة فى حبك التصميم واثرائه ، وتلك التوزيعات والايقاعات التشكيلية داخل التصميم الواحد .

ولقد اختفى الطابع المصرى القديم بعد ان اصبحت مصر جزءا من امبراطورية الاسكندر ، فتفاعلت مع الفن الاغريقى اكثر من ثلاثة قرون ، ونشأ فيها اثناء العصر البطلمى (٣٠٥ – ٣٠ ق . م) فن هو خليط من الفن المصرى القديم والفن اليونانى ، وكان هذا الفن الجديد ينم عن شىء من الحرية فى الحركات ، وليونة فى الاوضاع وهى من خصائص الفن اليونانى ، وبعض ملامح الوقار والصلابة المعروفة فى الطابع المصرى القديم .

وبدأ عصر الفن القبطى الذى يمكن اعتباره فنا وطنيا وانقلابا ضد الهيللينية منذ حوالى عام ٢١٣ م وحتى دخول العرب مصر عام ٦٤٠ م ، وعلى الرغم من انه كان فنا مسيحيا يعبر عن اتجاه جديد فى الحياة اخذ ينتشر انتشارا واسعا فى الشرق والغرب ، الا ان الفن المسيحى فى مصر ظل مصريا .

وقد انبثقت اسس الفن القبطى وخاصة فى التصوير من الفن المصرى القديم اذا ان هناك ارتباطا واضحا بين الفنين فى الاوضاع والتقاليد الفنية ، وكذلك فى الموضوعات ، وحتى فى طرق التصوير والتلوين .. ومما ساعد على الترابط المعنوى بين الفنين تلك التشابهات العقائدية . اذ كان المصريون القدماء اول من قدس الثالوث . حيث كان ثالوث طيبة من اهمها فقد عبدوا الاله "امون" وزوجته الالهة "توت" وابنها "خنو" . وايضا من التشابهات فكرة الولادة من الروح ، ففى الاسطورة الشهيرة للاله . "اوزريس" حيث تخيل القدماء ان اخاه اله الشر "ست" قد قتله ، وذكروا ان اخته وزوجته الالهة "ايزيس" سعت فجمعت اشلاءه وتلت عليها التعاويذ حتى عادت اليه الحياة وتزوجها عرفانا بجميلها ، فانجب منها ابنهما من الروح الاله "حورس" وكذلك نجد القيامة عند المصريين القدماء ، اذ انهم اعتقدوا بان الاله "اوزيريس" قد قام من الموت بعد ان هزم الشر . ومهدت تلك التشابهات بالاضافة الى العلاقة القوية بين اللغة الهيروغليفية والقبطية الطريق امام فنانى العصر القبطى للاقتباس والاستعارة من عناصر الفن القديم ، ولم يقف الامر عند حد الرسم على احدى الطرق المصرية القديمة وهى طريقة الرسوم الحائطية وتزيين اماكن العبادة بصور القديسين والقديسات بل تعدو ذلك الى صميم التقاليد والاوضاع ، فقد اباح الفنان القبطى

لنفسه فى العصور المسيحية الاولى ان يمثل السيدة العذراء فى بعض الرسوم وهى ترضع طفلها من ثديها وهذا الوضع لم يكن ليقدم على اظهاره فنانو البلدان المسيحية الاخرى . لقد استقى المصور القبطى مصدره من الرسوم والتماثيل المصرية القديمة التى تمثل الالهة "ايزيس" وهى تخرج ثديها لترضع ابنها "حورس" كذلك نجد ان كثيرا من فنانى العصر القبطى يخلطون بين علامة عنخ المصرية وبين الصليب .

● احياء الطقوس الدينية

يقول "جاييت" فى العلاقة بين الفن القبطى والفن المصرى القديم آمن الشرق منذ وقت بعيد بالخيالات المقدسة ، متبعا فى ذلك تعليم الشعوب التى تعتقد فى الارواح ، وهذه التعاليم اذ كانت مختنقة تحت الضغط الهيلليني ، فانها عادت تصحو اكثر قوة منها فى الايام الاخيرة من الدولة القديمة ، وفى مصر كان التصوير اساسا يلعب دورا خاصا جعله المترجم عن سمو الروحانيات القبطية ، ان الفن القبطى مثل الفن المصرى القديم يمثل لوحة خيالية لاحياء الطقوس الدينية ومع ذلك فان الفن القبطى اتسم بصفة الشعبية ، لان المسيحية دخلت مصر قبل ان تصبح الدين الرسمى للدولة الرومانية ، لهذا فقد نشأ بين جماعة من المصريين المضطهدين ، وافتقد الى التوجيه السياسى من الحكام والاباطرة الاجانب ، لهذا فانه لم يعد متصلا بالدين فحسب وانما ايضا متصل بالنواحى المدنية ، وسنجد ملامح البيئة المصرية الشعبية والانسان المصرى العادى ممثلا فى تراث الفن القبطى .

وقد تميز الفن القبطى باتجاهه نحو الرمزية ، واستخدام العناصر النباتية الزخرفية الى جوار الرموز الدينية ، اذ اننا غالبا مانرى الصليب يتوسط وحدات عناقيد العنب ، واوراقه مكررة فى نظام هندسى جميل ، وكما ابتعد الفنان المصرى القديم عن تقليد الواقع ، كذلك فعل فنان العصر القبطى حين جرد عمله من العمق ، واهمل التجسيم واستعمال الظل والنور كما ان عناصر عمله لم يكن يجمع بينها وحدة واقعية ، بل انها كانت تبدو منفصلة بعضها عن بعض ، وغير مرتبة ترتيبا منطقيا ، مما اضفى عليها طابعا زخرفيا ، تؤكده المهارة فى تنسيق العناصر ، وكثرة استخدام الوحدات الزخرفية وتنوعها .

ويرى اغلب الباحثين ان الفن القبطى قد ظل قائما بعد زوال الدولة الرومانية من مصر ، واستمر ازدهاره حتى القرن التاسع تقريبا ، وبانه يعد حلقة اتصال بين الفنون المصرية القديمة وبين الفن الاسلامى ، كما يؤكدون بان وجود التقسيمات الزخرفية والهندسية ، وعناصر الفن العربى "الارابسك" والزخارف التى تنتمى الى كل من الفنين القبطى

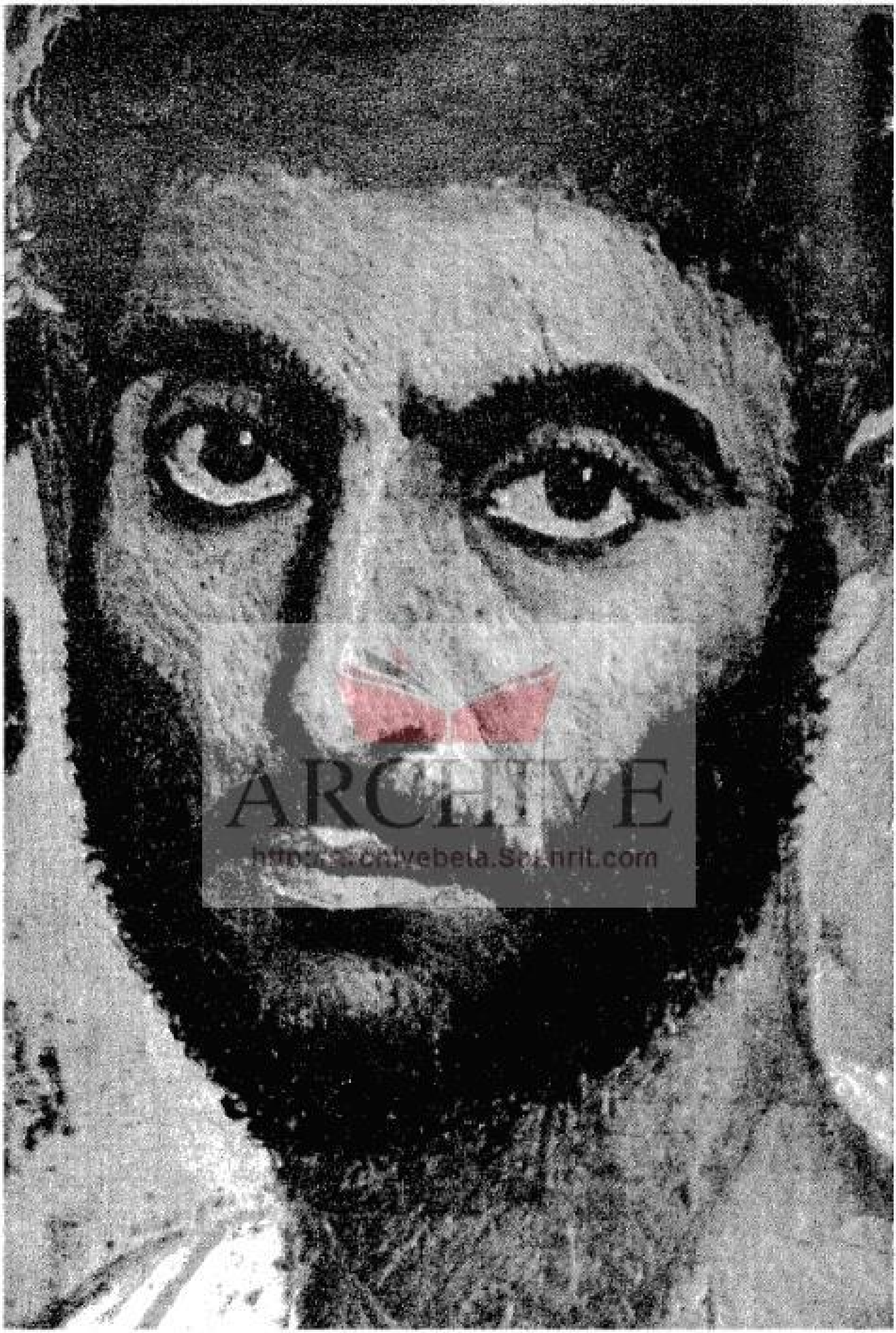
والاسلامى ، ليس الا دليلا قاطعا على اتحادهما وارتباطهما واستجابتهما لبعضهما .

● خصائص اساسية

ولم يكن الفن الاسلامى فى مرحلته الاولى الا مرحلة انتقال تتصف بالجمع بين التقاليد والعناصر الفنية السائدة فى مصر وبين الميول الاسلامية والذوق الاسلامى ، ونجد استخدام العناصر الزخرفية التى كانت غالبة فى الفن القبطى مثل رسوم اشجار العنب وعناقيده ، وورق الاكانتس والنخيل والسمك والحمام تستمر فى الفن الاسلامى المصرى مع مراعاة انها ظلت كما كانت فى الفن القبطى مسطحة لا تجسيم فيها : واوراق الشجر التى استخدمت كعناصر زخرفية والتى وصفها "دريتون" بانها غالبا ما كانت مفرغة ذات حواف مسننة ومستمدة من الشكل الطبيعى ، وتحمل قيمة زخرفية عالية اصبحت تقليدا واصطلاحا فنيا ، وهذه المعالجة الهندسية لها قد مهدت الطريق لفن الارابسك الاسلامى .

ولقد استمرت من خلال الفن الاسلامى فى مصر وحتى مجىء التأثير القاتل للفن الاوربى على حد قول خربرت ريد فى القرن التاسع عشر الخصائص الاساسية التى سادت الفنين المصرى القديم والقبطى ، تلك الخصائص التى تمثلت فى الابتعاد عن المحاكاة الحرفية للواقع وتقليده ، والنزوع نحو خلق كيان مستقل عن الطبيعة ، وفق قوانين فنية خالصة ، كان اهمها تبسيط العناصر وتحريرها فى نسق هندسى ، ينحو احيانا نحو الزخرف المشتق من اشكال طبيعية ، ويصل فى احيان اخرى الى التجريد الكامل ، والاعتماد على لغة فنية تشكيلية خالصة فى صياغتها ، ذلك بالاضافة الى تلك المسحة الروحانية التى ترقى بالرائى الى عالم مطلق ولا نهائى ، نراها فى الفن المصرى القديم بايماءاته بالخلود بعد الموت ، وفى الفن القبطى بسموه على الواقع المادى ، وفى الفن الاسلامى باتجاهه نحو تمجيد الخالق والايحاء بعظمته وقدرته تلك هى الخيوط الرئيسية التى استمرت خلال مراحل تراثنا الفنى ، ونستطيع التأكيد بأن معظمها يبدو واضحا حينا ، وخافتا فى احيان اخرى تحت سطح انتاج الفنان المصرى المعاصر حتى عند اولئك الفنانين الذين يدعون الى نبذ التراث وهجره الى اشد مذاهب الفن الغربى حداثة وتطرفا ، ولكن ما احرانا اليوم بأن نتدبر – عن وعى واقتناع – هذه الخصائص ، وأن نحاول الامتداد بها ، وانمائها بما يكفل استنباط تحول جديد يحمل روح هذه البلاد وتميز رؤيتها ، ويكون اثراء للطرز الفنية العالمية الكبرى ، واضافة حقيقية لها .

جزء من التيجان مرسوم بالاسلوب القبطى



البحث عن طوق الحمامة المفقود وأشياء أخرى

بقلم : مصطفى درويش

هناك افلام تمر صورها امام أعيننا مر الكرام ودون ان تترك في حافظة ذاكرتنا اثرا . وهناك افلام ما ان نراها حتى تبقى صورها في حافظة ذاكرتنا لا تنمحي ابدا . ومعظم الافلام ، لحسن حظنا ، من النوع الأول . ما ان ننتهي من مشاهدتها على الشاشة صغيرة كانت ام كبيرة ، حتى ننساها ، وابدا لا نستطيع استرجاع صورها على شاشة الذاكرة ، وقتما نريد .

أما افلام النوع الثاني ، وهي اقل القليل ، فترسب في الأعماق . إنها دائما هناك ، ونستطيع استرجاعها بكل تفاصيلها ودقائقها ساعة نشاء .

وفي اعتقادي ان فيلمي "طوق الحمامة المفقود" و"شيشات الرمال" من هذا النوع الأخير النادر ، الذي ما ان تلتقط صوره عدسة العين ، حتى تتذكره على الدوام .

ولسوء الحظ ، فكلا الفيلمين من الممنوعات . بل انهما في رأى نفر متعصب ، معاد للفن ، اكثر خطورة من اشد اصناف المخدرات هولا .

● قصة المدينتين

واعجب العجب بالنسبة لهما ، هو تضامن مهرجاني دمشق والقاهرة في اتخاذ موقف واحد منهما ، الا وهو موقف العداء الذي انحدر الى حد التجريم فالتحريم .

وحتى الآن لا اعرف لهذا الموقف الغريب سببا . اللهم الا اذا سايرنا الشائعات التي عمل على نشرها نفر يتاجر بالقضايا المصيرية ، ولا يحمل لحرية التعبير سوى المقت الشديد ، وهي شائعات تقول فيما تقول إن الفيلمين قامت بتمويلهما مصارف غربية يتحكم في شئونها اليهود ، فضلا عن ان احدهما ، وهو "شيشات الرمال" يحقر من شأن المرأة العربية على وجه مشين .

ولقد كان لهذه الشائعات تأثير كبير على مهرجاني العاصمتين فاذا بدمشق تجد نفسها محرومة من مشاهدة "شيشات الرمال" . وجميع الأفلام التونسية . بما في ذلك رائعة "فريد



ملصق فيلم شاشات الرمال

بوغدير" "عصفور على السطح" او "الحلفاويين" و"شيشخان" بطولة الممثل المصرى "جميل راتب" الذى ادى دوره باتزان واتقان غير مالوفين ، يعود الفضل فيهما الى صاحبي الفيلم "محمود بن محمود" و"فاضل جعايبي" . واولهما سبق له وان امتعنا قبل خمس سنوات بفيلمه الاول "عبور" .

واذا بالقاهرة بدلا من افتتاح مهرجانها الكبير برائعة عربية مثل "طوق الحمامة المفقود" لصاحبها "ناصر خمير" ، تفتتحه بفيلم ردىء فنيا وسياسيا اسموه "ناجي العلى" . ولا تكتفي بهذه الكارثة ، بل تعمل جاهدة على ان يكون الختام بفيلم عربي اكثر رداءة اسمه "طبول النار" .

وفي هذه الاثناء ، اذا برائعة "ناصر خمير" تختفي من جميع دور العرض بسحر ساحر . نبحث عنها مهتدين بارشادات برنامج المهرجان ، فلا نعثر عليها وكانها فص ملح وذاب .

● سور الصين

وبالمصادفة ، وبعد انتهاء المهرجان بيومين او ثلاثة ، وجدتني اشاهدها في عرض شبه سرى للنقاد ، لم يعلن عنه لا لشيء سوى ان "طوق الحمامة المفقود" كما سبق ان قلت ، انما يعتبر في نظر نفر من الناس اكثر خطرا من اكثر اصناف المخدرات نكرا !!

اما "شاشات الرمال" رائعة المخرجة اللبنانية "رنده الشهال" ، فحدث ولا حرج عن منعها باعتبارها من المحرمات .

فهي اصلا لم يسمح لها باجتياز عتبات ديار مصر ، وبالتالي ففرصة مشاهدتها والاستمتاع بها لم تتح لي الا بفضل شريط فيديو ، ذلك الاختراع اللعين الذى فتح في الاسوار نوافذ نطل منها على بساتين الفن السابع رغم انف سيف الرقباء .

● المجد التليد

وعلى كل ، وايا كانت الاسباب التي تذرعوا بها لحمايتنا من مشاهدة الرائعتين ، باعتبارنا لانزال مراهقين ، فالاكيد ان "طوق الحمامة المفقود" ، فضلا عن انه وحيد نوعه بين الافلام العربية ، فهو عمل سينمائى ساحر ، مستوحى من رسالة عن الحب "طوق الحمامة" ، كتبها العالم الاندلسي "ابن حزم" الذى فرغ لعلوم اللغة والدين في عصر عصيب شهد انتقال السلطان من بني امية إلى حُجّابهم ، ثم انهيار الامر حول هؤلاء الحجاب ، وقيام ملوك الطوائف ، وتدخل البربر في شئون العرب الاسبانيين .

والظاهر ان الحب كان يشغل الناس جميعا في الاندلس لعهد هذا العالم

البحث عن طوق الحمامة المفقود وأشياء أخرى

الكبير ، ولعله كان يشغل المثقفين والممتازين اكثر مما كان يشغل غيرهم من الناس .

والبادى من سياق الفيلم انه الشغل الشاغل للخطاط "حسن" بطل "طوق الحمامة المفقود" .

فبدءا من اللقطات الأولى ، وهو ابدا يردد عبارة "ابن حزم" الشهيرة التى تغوص فى ماهية الحب ، عندما تصفه قائلة فى سخرية لاذعة "الحب اعزك الله اوله هزل ، وآخره جد" .

وهو ابدأ يبحث عن مفردات كلمة حب ، وعددها ستون ، استطاع ان يجمع منها ثلاثا وثلاثين .

وفى سعيه هذا ، دائما ما يلتقى "بزين" مرسال الغرام فى قرطبة ذات الجلال ، والصبى الذى لا يُعرف له اب ، فاذا ما استفسر ملتاعا عنه من امه ، قالت له ضاحكة ، وهى فى حمام النساء ، انه جنى اصيل .

● "الف ليلة وليلة

ومن خلال مغامرات الاثنين "حسن وزين" التى جرى حكيها باسلوب حكى قصص الف ليلة وليلة ، نجح المخرج فى تسليط الأضواء على ابداعات الحضارة الاندلسية .. فن كتابة الخط العربى ، المكتبات بمخطوطاتها

(ناجى العلى) فيلم بدا به مهرجان القاهرة بدلا من طوق الحمامة المفقود





مطبوش على احسن انوار جميل راغب

البحث عن طوق الحمامة المفقود وأشياء أخرى

النادرة ، الساحات والباحات ملتقى المثقفين ، الجوامع بمآذنها واعمدتها عنوانا على علو شان المعمار ، ولا اقول الفنون جميعا .

باختصار شديد "طوق الحمامة المفقود" حدث جليل فى تاريخ السينما العربية .

وهو فيلم لا يحكى لا لسبب سوى انه اقرب الى موسيقى الشعر منه إلى اى شيء آخر .

وكذلك حال "شاشات الرمال" ، فهو فيلم تصعب حكاية وقائعه ، ولو حكيت فهى لا تحكى الا فى كلمات معدودات .

ولقد جرى عرضه فى مهرجان فينيسيا الأخير ، ومن بعد فى اكثر من مهرجان .

● نساء لبنان

هذا ، ولم يسبق لصاحبته ان اخرجت افلاما روائية ، فجميع اعمالها السينمائية قبل "شاشات الرمال" من ذلك النوع المسمى بالتسجيلي فى قول ، وبالوثائقى فى قول آخر ، اذكر من بينها "خطوة .. خطوة" (١٩٧٩) ، "لبنان أيام زمان" (١٩٨٠) ، "لبنان ارادة الحياة" (١٩٨١) ، و"الشيخ امام" (١٩٨٤) .

وبفضل رائعتها الروائية الاولى ، استطاعت ان تلحق بزميلتيها المخرجتين اللبنانيتين "هينى سرور" و "جوسلين صعب" .

فالمخرجات الثلاث بدأن المشوار معا ابان عقد السبعينات ، بافلام تسجيلية بعضها طويل ، والبعض الآخر قصير .

والآن لكل واحدة منهن فيلم روائى واحد لا يزيد .

ورائعة "شهال" باسلوبها الذى قد يراه جمهور السينما التقليدية مفرطا فى التجريد ، انما تذكرنا بأسلوب الأديبة الفرنسية "مارجريت دورا" فى الكتابة والاخراج .

ولا غرابة فى ان تتاثر "شهال" باسلوب "دورا" ، فهى متخرجة فى معهد "لوميير" للسينما (١٩٨٥) .

● الاتصال والانفصال

وهى فى رائعتها ، انما تعرض لماساة المراة العربية على امتداد الوطن العربى من المحيط الى الخليج .

تلك الماساة التى تتخلص فى فرض الانفصال عليها عن المجتمع العامل ، وبالذات مجتمع الرجال .

وهو انفصال شامل لجميع اجزاء هذا الوطن دون اى استثناء ، موجود فى كل مكان سواء اكان متقدما ام متخلفا ، مفروض على المراة فى اقاصى الصعيد ، فى متاهات الصحراوات ، فى اعالى لبنان ، فى وديان المغرب والسودان .

اذا نحن بإزاء ظاهرة انفصال بين الجنسين جامعة لكل العرب ولسوء الحظ ، تزداد على مر الأيام سوءا .

ومن هنا ايثار "شهال" لوقائع رائعتها الا تجرى فى بلد عربى محدد بالذات .

فكل النساء عندها في الهم عرب ، لا فرق في ذلك بين مشرق ومغرب .

وهي تبدأ رائعتها بدءا غريبا كل القرب ، غريبا كل الغرابة ، فتفرض علينا ان نصحبها في الطريق التي تريد ان تمضي فيها .

فهذه امراة جميلة "سارة" (ماريا شنايدر بطلة التانجو الاخير في باريس امام مارلون براندو) لم تتقدم بها السن ، ولكنها قد جاوزت الشباب قليلا انها داخل سيارة فارهة "رولز رويس" يقودها سائق ، يتبين لنا تلميحا فيما بعد انه لا يميل الى جنس النساء ولسبب لا نعرفه تصل بها السيارة الى المطار ، حيث لا يسمح لها بمغادرة البلاد .

فإذا ما عادت الى حيث تقيم ، رايناها في قصر منيف ، به حمام سباحة كبير ، مغطى بستائر تحجب الرؤية عن اعين المتطفلين ، ودوائر تليفزيونية مغلقة ، لا تترك شاشاتها صغيرة او كبيرة ، الا سجلتها حماية لشرف نساء البيت الكبير .

وسارة في وحدتها ، ورغم الثراء الفاضح ، امراة تعيش حياة طفيلية ، ملؤها الملل والضياع .

● وليس عندها وسيلة للاتصال بالعالم الخارجي ، سوى تليفون مثبت به شاشة تكشف عن شخصية المتلقي للمكالمة ، لا تستعمله الا لقتل الفراغ .

وفي محاولة منها للانعتاق من اسر تلك الوحدة القاتلة ، ها هي ذي تلتقي بامراة اخرى "مريم" اجبرتها ظروف الحرب الأهلية المستعرة الاوار ، الى مغادرة لبنان للعيش في هذا المكان الموحش ، حيث اسندت اليها مهمة اعداد مكتبة جامعية للنساء .

ولأمر ما ، تظل هذه المكتبة خاوية على عروشها ، بلا كتب ، و"مريم" تلح في الطلب ، ولا مستجيب .

وبعد حين تثوب هي الى نفسها ، حائرة اول الأمر ، ثم ساخطة ، ثم منكرة لهذا التصرف المريب .

ولا تزال تسال ، وتبحث وتستقصي ، مستنجدة باستاذ لبناني في جامعة النساء اسمه "طلال" تهرع الى الالتقاء به في احد المصاعد ، حيث يمارسان الجنس في لهفة ، تحت اعين كاميرات تعرض ما تلتقطه على شاشات يشاهدها رجال ساهرون على حماية حسن الآداب .

وسرعان ما نرى "طلال" ، وهو يلقى القبض عليه بواسطة جمهور من الناس غريب .

و"مريم" ، وهي هاربة ، بعدئذ استقر في نفسها انها متهمة بدورها ، وان لم تعرف طبيعة التهمة .

وفي الختام نراها واقفة بمفردها في صحراء شاسعة ، معلقة بين الياس والرجاء .

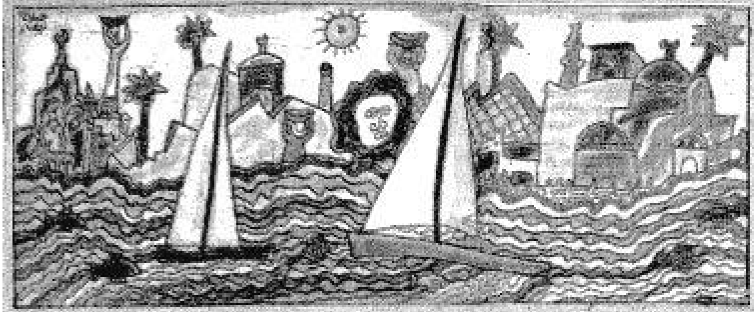
وكاني بصاحبة "شاشات الرمال" تريد ان تقول بهذه النهاية ان المراة في مجتمعاتنا تضيع حياتها في جهود مجدبة لا تغني عنها شيئا .

يبقى ان اقول ان "شاشات الرمال" تحفة سينمائية ، لا يعيبها ، رغم بعض الغموض ، الا انها متكلمة بالفرنسية ، اي بغير لغتنا الجميلة ، وهو عيب ، لو تعلم "شهال" كبير .

النيل

شعر: سليم الرافعي (لبنان)

(الى صدره اعيد نبضات العطف والجبروت)



ليخفق فؤادك ملء القرى
لرهشة فجر بكى في الدجى
بدنيا فرعون .. مجدولة
من الروح والجرح سالا حكى
هياكل رؤياك سحرية
يقولون: راح ينهر يشي
فيا عجباً .. ينادما دافقا
يشع الملوك على سمعه
فيا دمعة النهر مغفورة

ميم الركب السعي ولا اشتكى
لمشارق أطيافهم تحلى
وقد سال من جسد خالق
رفاقي إن الملك إنما لنا
كأنكم قصائدكم كلها
البيت غناء الصحاري وقد

وملء الحقول نما لتخضرا
وتمشي وتعانق طيف الكرى
ولحت من القائد لا يشترى
إذا التوائمان وما فسرا؟
تسيل أشعتها سوسرا
بأمواجه الهرم الأكبرا
تجمد .. يا موقفا حيرا
وقد نوى النهر كي يبهرا
على الصخر تستشرف الأعصرا

إذا نهض الركب أو قصرا
وتلك المعاول فوق الثرى
لدى العبقرية مستبشرا
أنفسها عرقاً طهرا
عموديه الروح فوق الذرى
تدفق صمت ونهر صخرة؟

فهل يدرم الصخر من نشوة
وهل قمس الروح لو ضمها
أكان مياه ومجداً معاً
فطوفان لسعه متقدا
تحدى الرحوش وقد زمجرت
رويدا رويدا رفاقي فلن
خلقت القصيدة في قمة
يرددها الفجر مستشرفا
قصيدة مصر على شاهق

رقي النوا يرددها لحنها
سلام على مصر موزونة
بكل الموانئ مجبولة
من السحر نهر بكى أو سقى
من الأبدية أسطورة
من الأمل المرتجى كلما

يوحي الفنان وقل فكرا؟
يؤلفه ذلك مستكبرا؟
من الجبروت وما صورا؟
لدى أسد كف أن يزأرا
بكل الطلاسم واستكبرا
أعيد عن الشعر فيما يرى
لشرح مع الشمس أو القمرا
ويحنو بها الليل ركب السرى
إلى القصائد بين الورى

فهل نطقتها أسود الثرى؟
بكل الرسوخ .. بكل العرا
بشعب هو الكون إن فكرا
جبالاً أو اجتاح أو عسرا
تفيض أعاصيرها كوثرا
أطل بها النيل أو بشرا

مائة عام على الهلال



بقلم : د. رشدى سعيد

يزعم كاتب هذه السطور أن مجلة "الهلال" هى واحدة من المجلات القليلة فى مصر التى يحررها كتاب جادون يحترمون القارىء ويصرفون وقتا طيبا فى اعداد مقالاتهم كما يزعم أيضا أن "الهلال" مجلة مفتوحة على الثقافة العربية والعالمية تعرض لمختلف اتجاهات الفكر دون حساسية ففيها أبواب ثابتة عن الجديد فى الأدب والقصة والفن والسينما وتعرض لقضايا الساعة وتفتح أبوابها للكتاب على مختلف أعمارهم واتجاهاتهم . ولذلك فإنه على الرغم من صعوبة قراءة البنط الذى تطبع به ورداءة الورق الذى تستخدمه وعديد الأخطاء المطبعية فإن "الهلال" مصدر سعادة كبيرة لى عندما تصلنى فى محل إقامتى بالولايات المتحدة فهى خيط الأمل الذى يصلنى بوطنى العزيز كما أحب أن أراه .

ولذلك فقد دهشت كثيرا من الاستبيان الذى استهلت به المجلة عامها المائة والذى جاءت نتائجه فى المقال "مائة عام من الفكر والفن والعلم" والذى قيل فيه إنه استبيان "لأبرز الشخصيات التى عاصرت الهلال منذ صدوره حتى الآن" فى مختلف المجالات . وتعود أسباب دهشتى إلى أن



د . احمد زكى



د . على مصطفى مشرفة



الدكتور ابراهيم حلمى عبد الرحمن

«استبيان لم يعد له الإعداد الذى يرفعه إلى مستوى استطلاع الرأى فلم يذكر الكاتب عدد الذين اشتركوا فيه أو هويتهم ويبدو لى ، إذا كان للقائمة المنتقاة من أسماء المشتركين التى جاءت فى المقال من مغزى ، أن معظمهم من الذكور الذين تجاوزوا الستين من العمر وأنهم من المشتغلين فى حقل الأدب والفن أساسا وليس بينهم واحد من المشتغلين فى حقل العلوم الطبيعية . وهذا فى حد ذاته نقص كبير فقصر العينة على هذا الركن الصغير من الفكر المصرى المعاصر فيه إجحاف بالهلال واقتراب من السياسة التى تنتهجها المؤسسة الثقافية الرسمية التى جعلت من لجانها ومجالسها منشآت مغلقة عديمة الجدوى ومن جوائز الدولة شيئا لا يؤخذ مأخذ الجد وكنت أتصور أن يمتد "الهلال" فيفتح صدره للعناصر التى تبحث عن مكان لها فلا تجده فى مؤسسة الثقافة الرسمية .

ويبدو من إجابات المشتركين أن هدف الاستبيان لم يكن واضحا كما تدل على ذلك اجاباتهم المتنافرة ففى حين قصر البعض إجاباتهم على قدامى المفكرين الذين شاركوا فى بناء نهضة مصر الحديثة فإن عددا آخر زاد على هؤلاء بعض المحدثين ولو أن الأمر قد اقتصر على اختيار أبرز الشخصيات التى عاصرت "الهلال" واكتتبت فيه بأقلامها لما احتاج الأمر إلى استبيان بل كان من الممكن أن يقوم بذلك واحد من محبى "الهلال" والمتابعين لتطوره عبر الأعوام . أما وقد اختلط الأمر وأصبح موضوع الاستبيان هو اختيار "أهم شخصية" فى مجال الأدب والفن والعلم فإن الأمر كان يحتاج أولا إلى وضع الأسس الموضوعية التى ينبغى أن تؤخذ فى الاعتبار عند الاختيار والتى كان من الواجب أن توضع أمام المشتركين حتى يصبح للاستبيان معنى .

وهذا هو نفس اعتراضى على الطريقة التى تمنح بها جوائز الدولة التقديرية بدءا من طريقة الترشيح لها وحتى منحها بما فى ذلك تشكيل اللجان التى تمنحها فليس لأى من هذه العمليات معايير محددة تهدى الطريق أمام متخذ القرار لترسخ اقدامه عند الدفاع عن موقفه . ولهذا لم يعد للكلمات الكبيرة التى تقال عن المنح معنى إذ لم يعد أحد يعرف بالضبط ماهو المقصود من المدارس العلمية التى انشأت أو من قيمة الابحاث التى تمت . ولا عجب لذلك أن يكون منح هذه الدرجات عن طريق جماعات الضغط والاعلان بل والتهويش فى الكثير من الأحيان .

فإذا عدنا إلى استبيان "الهلال" فاننا نجد أن أسوأ الاختيارات كانت فى مجال العلوم الطبيعية ومجال العلوم النظرية التى صنف تحتها علم الجيولوجيا لسبب غير مفهوم . فقد جاءت نتائج الاستبيان أقرب إلى الانطباع العام عنها عن الحكم الموضوعى فقد اختلطت اسماء أوائل المشتغلين بالعلم مع أسماء بعض المحدثين الذين لا يوجد مبرر واحد لتمييزهم عن المئات من زملائهم الذين خدموا العلم فى صدق وبدون إعلان .

وربما عاد ذلك إلى أن الذين قاموا بالاختيار كانوا من غير المشتغلين بالعلم لم تجذبهم إلا الأسماء التى لمعت عن طريق الاعلان حتى أن أحد الذين اختيروا كان أقرب إلى النجم السينمائى عنه إلى المشتغل بالعلم . وهذا فى حد ذاته من الأمور التى تحتاج إلى إمعان ففضلا عن انها تثبت أن الاعلان والتهويش يمكن أن يخيل على مفكرى مصر وكبار أدبائها كما يخيل على عامة الناس فإنه يدل على جراة هؤلاء فى الحكم على أمور لا يعرفونها فمن المؤكد أن أحدا منهم لا يستطيع أن يذكر عملا علميا واحدا أفاد به هذا النجم السينمائى معه لتبرير اختياره .

وتختلف العلوم الطبيعية عن الفن والادب فى انها لا تعتمد على عبقرية فرد بعينه أو شطحات رجل فذ بل إنها تعتمد على العمل الجماعى فى مؤسسات منظمة ذات جو مناسب يطلق طاقات العاملين فيها . ولذلك فإن التقدم فى العلوم يأتى فى خطوات صغيرة يقوم بها علماء منضبطون إلا انه يحدث بين الفينة والفينة أن تتجمع المعارف فتجد واحدا بذاته يقوم بتوليفها فى نظا..

جامعة تفتح آفاقا جديدة لجموح الباحثين الجدد . ولذلك فإن المعايير التى يمكن أن تصبح أساسا لاختيار "أهم" شخصية فى مجال العلوم الطبيعية هى فى رأيى ثلاثة يشكل النجاح فى أى منها مبررا للتميز فى مجال العلم :
أولها هو نجاح المشتغل بالعلم فى بناء المؤسسة العلمية التى تطلق طاقات المشتغلين فيها ووضع التقاليد والمعايير التى تحكم عملهم وتقييمه وتقدره .
وفى هذا الميدان لا يفوق على مصطفى مشرفة عالم آخر فقد ساهم مساهمة فعالة فى بناء كلية العلوم على نمط أرقى الكليات الجامعية وكان أول من أكد أهمية البحث العلمى فى عملية التدريس الجامعى حتى ليمكن القول إن مولد كلية العلوم بالقاهرة كان مولد الجامعة ذاتها كجامعة بعد أن كانت معاهد للتدريس فقط . وقد وضع على مشرفة تقاليد منح الدرجات العلمية وترقية الاساتذة على أساس موضوعى وقد برزت كلية العلوم فى ميدان البحث العلمى فخرجت منها مدارس عديدة نالت شهرة عالمية .

ولم يكن حظ أحمد زكى كبيرا فى هذا الميدان فقد ساهم فى انشاء المركز القومى للبحوث الذى اقيم لخدمة الصناعة التى كانت وليدة حينئذ ولكن الظروف لم تسمح له بأن يحقق هذا الهدف وقد كانت فى حقيقتها ظروفا خارجة عن ارادته .

ويمكن أن أضيف فى هذا الميدان من بين المحدثين الدكتور ابراهيم حلمى عبد الرحمن فقد ساهم مساهمة أساسية فى انشاء هيئة الطاقة الذرية ومعهد التخطيط وكان أساسيا فى بناء الاتحاد العلمى المصرى .

وثانيها : هو نجاح المشتغل بالعلم فى بناء مدرسة علمية فى فرع من فروع العلم انتهت أبحاثها المفردة إلى تأليف وجد مكانه فى العلم العالمى بحيث أصبح مرجعا . والعبرة هنا ليست فى عدد الأبحاث التى نشرت ولكن فى عدد المرات التى رجع فيها بالمؤلفين الآخرين لهذه الأبحاث . وفى اللجان العلمية التى أجلس فيها لا ينظر أحد إلى عدد الابحاث بل ينظر إلى مبلغ استفادة الآخرين بالبحث الذى نريد أن نقيمه . وهناك كثيرون من جيل كاتب هذه السطور ممن نجحوا فى هذا الميدان ممن يستحقون أن يعرفهم الناس فهم المصابيح التى أضاءت وعملت بصدق دون اعلان .

وثالثها : هو نجاح المشتغل بالعلم فى عمل كشف أو اختراع يتم تطبيقه بنجاح يزيد ثروة البلاد أو يحسن الانتاج . وقد برز فى هذا الميدان كثيرون ولكنهم بكل أسف مغمورون لا يعرفهم الناس .

تجربتى مع نعوم تشومسكى

أسامة القفاش

فى أواخر السبعينات كانت مجموعتنا فى كلية طب الاسكندرية تمثل المحور الاساسى لجميع الأنشطة الطلابية . فقد كانت تضم بين صفوفها السياسى والسينمائى والمغنى والرياضى والمسرحى . وكان المناخ العام فى مصر يتيح فرصا كبيرة للنشاط . فمن مراكز ثقافية نشطة إلى تجمعات سياسية توجد إلى موجودات مهنية تستقر وجمعيات اهلية تتزايد .

● وكنا قد اعتدنا على التجمع اسبوعيا فى منزل أحدنا للنقاش والمسامرة ، تمضى الأمسية ما بين حديث فى السياسة إلى نقاش فى آخر الأفلام المعروضة إلى استماع لغناء قديم على العود .

كان ضيوف الاسكندرية الثقافيين لابد أن يمروا بنا خاصة لو كانوا من شباب السينمائيين . وهكذا تعارفنا مع مجموعة كبيرة من شباب السينمائيين فى مصر وقتها ، وكان أحد اولئك الضيوف مخرجا مصريا أمريكيا يدعى شيرين الخادم . التقينا معه فى أشياء كثيرة فقد كان متمردا على دراسته الأصلية أى الهندسة وأحب السينما وعشقها بجنون وكذا كنا ، وكنا مثله نتجه غربا فى توجهنا الحضارى ، وهكذا تقابلنا وتصادقنا عند عودته إلى مصر لعرض افلامه ، فى إحدى تلك الامسيات وعلى العشاء فى حجرة الصالون بمنزل أسرتى تحلقنا انا وإبراهيم الدسوقى وشيرين حول الصديق عامر وعوده وأغان من التراث القديم لسيد درويش ومحمد عثمان وصالح عبد الحى يؤديها عامر بصوت الدافىء ـ وفى فترة الراحة اخذنا نتجاور ـ كان معظمنا يساريين ، وقال شيرين كلاما كثيرا حول « الموجة الجديدة » للسينما فى أمريكا .

ثم قال شيرين إنـه بنيوى ، استفسرت منه ، قال إن الأشياء سطوح ومحتويات ، وأن العالم يهتم بالمحتويات وقد حان الوقت للنظر إلى السطوح فى ذاتها ، كانت تلك كلماته بعربيتها المتلعثمة ، شدتنى تلك العبارات ، وبدأت بحثا دءوبا عن ادبيات البنيوية وكتابات البنيويين .

طبيب يعمل فى مجال الترجمة


Et derrière:
LE JUIF

وهكذا تعرفت على كلود ليفى شتراوس وميشيل فوكوه والتوسير وكريستنتيان متز وأمبرتوإكو وغيرهم . وشدنى علم اللغة كثيرا باعتباره أصل الفلسفة أو المنهج . وهكذا تعرفت على محمود السعران واستبعدت عبدالقادر الجرجانى وابن جنى وابن سيده . وكان الاسم الذى يتردد كثيرا فى الأدبيات اللغوية الأجنبية هو نعوم تشومسكى .

جاء أول شىء عرفته عن تشومسكى من كتابات علماء اللغة عن نظرياته فى النحو التوليدى ، وكيف أنه يرى أن اللغة بنية سطحية وبنية عميقة وتعبر البنية السطحية عن نفسها باستخدام التحولات الصوتية وتمثل البنية العميقة التحولات المعنوية وأن العلاقة بين البنية السطحية والبنية العميقة هى عملية من التحولات المتتالية ولذا يسمى النحو الذى بناه تشومسكى أحيانا النحو التحولى .

● نظرية تشومسكى للغة

إن أهم ما يميز نظريات تشومسكى اللغوية هى نظرته للغة بوصفها عملية ابداعية فى استخداماتها اليومية ، الكلام العادى الذى يتبادله الناس فى الشوارع كل يوم هو فى رأى تشومسكى إبداع وهو يقول فى هذا الصدد «من ثم فإن الاستخدام المعتاد للغة هو عملية إبداعية . وهذا الجانب الإبداعى لاستخدام اللغة المعتادة هو العامل الأساسى الذى يميز اللغة البشرية عن أى نسق اتصال حيوانى معروف» تلك النظرة تجعل الانسان هو محور الوجود ، وليس انتاجه فالبشر أهم مما ينتجونه ، والبشر مبدعون وخلاقون باستمرار .

اندفعنا فى الحديث عن النظريات اللغوية ولكن من هو تشومسكى ؟

البروفيسور نعوم تشومسكى العالم البارز والمتميز فى حقل اللغويات حصل على درجاته العلمية الثلاث (البكالوريوس والماجستير والدكتوراه من جامعة بنسلفانيا وفى ١٩٥٥ بدأ العمل فى معهد ماستشوست للتقنية من أهم كتبه فى مجال اللغويات كتب «الأبنية السياقية» و«جوانب فى نظرية السياق» و«اللغويات الكارتيزية» و«اللغة والعقل» .

وقد عمل كمحاضر فى اكسفورد وجامعة كاليفورنيا بلوس أنجلوس وبركلى ومعهد الدراسات المتقدمة فى برنستون ومركز الدراسات المعرفية بهارفارد .

استقينا المعلومات السابقة من كتابه «السلام فى الشرق الأوسط» وكنت قد رأيت هذا العنوان بين الكتب التى أصدرها تشومسكى فى البيلوجرافيا الملحقة بنهاية كتابه «القاعدة والتمثيل» فأصابتنى

الدهشة : السلام فى الشرق الأوسط ؟ كتاب سياسى إذن .

وهذا جانب آخر من جوانب الشخصية الاشكالية لنعوم تشومسكى .

● **من اللغة إلى السياسة**

فى الستينات من هذا القرن اشتهر البروفيسور نعوم تشومسكى ليس كمجرد عالم لغويات كبير ولكن ايضا بوصفه أحد قادة حركة « ڤاوم » الجذرية التى تشكلت فى الستينات من جماعات من الفوضويين واليسار الجديد لتأييد حركة التغيير الاجتماعى الشاملة ومعارضة حرب فيتنام .

وكان تشومسكى أحد أهم معارضى حرب فيتنام بشكل حقيقى ، حتى أنه صار يعتبر واحدا من أهم المثقفين الغربيين تأثيرا فى قضية السلام .

يدعو تشومسكى فلسفته السياسية باسم الاشتراكية التحررية . Libertarian Socialism ويحظى باحترام واسع وسط معظم قوى اليسار وكذلك معارضة شديدة منها ، فهو مثل الشخصيات الاشكالية العالمية كيان ميردال السويدى وتوم نارن البريطانى ولودفيج ڤاكوليك التشيكى يعصى على التصنيف والوصف التبويبى حتى أن معظم الفوضويين يرفضون اعتباره واحدا منهم .

ويلخص كارلوس اوتيرو و متيزورفات نظريته السياسية فى مايلى :

١ ـ مفهوم للطبيعة البشرية يضع الإبداع (وليس الاكتساب) بوصفه أولى حاجات الإنسان الأساسية ويدعو هذا المفهوم التحررية لتميزه عن الليبرالية المكتسبة) .

٢ ـ الاشتراكية فى مواجهة الرأسمالية .

٣ ـ التساوى فى مواجهة التربوية .

٤ ـ الإدارة الذاتية فى مواجهة أى شكل من أشكال السلقية .

وكما نرى فهو شخصية مذهلة متعددة الجوانب خصبة .

من هذا المنطلق أردت التعرف على تشومسكى . وبدأت البحث عن كتبه الأخرى ، فوقع فى يدى عام ١٩٨٥ كتابه « المثلث المدمر » وهو كتاب عن الغزو الاسرائيلى للبنان عام ١٩٨٢ .

واثناء قراءتى للكتاب وجدت تلك العبارة « إن هذا لا يعنى أن الحكومات العربية حكومات محترمة فهى بالتأكيد ليست كذلك » .

شدتنى العبارة فوجدتنى أمسك بالقلم وأرسل له رسالة على معهد ماساتشوسيت التكنولوجى اقول فيها لم يكن ثمة داع لهذا فالشعوب العربية لاتعتقد أن حكوماتها حكومات محترمة ، وطلبت منه فى الخطاب إرسال الكتب السياسية الأخرى التى كنت أبحث عنها وأخبرته أنه من الصعب جدا الحصول عليها فى

مصر ، ولم اكن انتظر ردا ، والمدهش أنه بعد مرور بضعة أيام على الخطاب وصلنى رد رقيق رسمى من سكرتيرته ماجى كارسينو تعتذر فيه عن الرد السريع من البروفيسور تشومسكى لأنه فى إجازة ويعدنى بالرد حالما يعود ، لم اكن اتوقع رد البروفيسور رغم هذا ، إلا أنه بعد أسبوع واحد من هذا الرد ، وصلنى رده يقول : أرسل لك كتاب السلام فى الشرق الأوسط اما عن الكتب الأخرى التى طلبتها فمن الصعب أيضا الحصول عليها فى الولايات المتحدة .

● الخطابات المتبادلة

كان هذا الرد مقدمة لخطابات متبادلة مستمرة حتى وقتنا هذا ، وزاد عددها على ٢٠ خطابا من جانب كل منا ، ناهيك عن المقالات والكتب التى ارسلها لى البروفيسور تشومسكى تتنوع الموضوعات التى نناقشها فى هذه الخطابات كتنوع شخصية تشومسكى . فنحن نتحدث عن النحو الكونى وهى نظريته اللغوية الحديثة التى يطورها الآن .

وهى تتكلم عن الأبنية الأساسية الموجودة فى العقل البشرى وباعتبار اللغة عملية إبداع مستمر وهذا بالطبع مثال شديد التبسيط للنظرية .

ونتحدث كذلك عن التغيير الاجتماعى وكيفيته ورأى تشومسكى فى اللينينية التى يعتبرها نظرية مجنونة قمعية ادت إلى تدمير الأبنية الديمقراطية التى أفرزتها الثورة الروسية سنة ١٩١٧ الا وهى السوفييتيات ، وأحلت محلها الحزب القائد الذى تحول إلى كيان دوجمائى متجمد بمرور الوقت ويعتبر تشومسكى أن فقدان البلاشفة لمصداقيتهم الثورية قد تأكد تماما مع قصف كرونشتادت على يد الجيش الأحمر ، حيث أصبحوا مدافعين عن السلطة لا الثورة . وتحدثنا أيضا عن التغيرات المتوقعة فى العالم ، وفى خطاب ارسله فى عام ١٩٨٩ توقع تشومسكى استقرار النظام العالمى فى شكل ثلاثى الاقطاب قطب غرب أطلسى بقيادة الولايات المتحدة وقطب أوربى متوسط بقيادة المانيا وقطب شرقى بقيادة اليابان ، وكذلك توقع عودة أوربا الشرقية إلى وضعها السابق كدويلات شبه مستعمرة تخضع لسيطرة واستغلال غرب أوربا ، كان هذا مثل التغييرات التى حدثت فى أوربا الشرقية .

وربما يلقى هذا الضوء على القدرة التنبؤية العالية للنموذج التفسيرى والإطار المعرفى الذى يتحرك من خلاله تشومسكى وهى نقطة سنعود إليها فيما بعد .

وكذا تحدثنا عن دور المثقف فى العالم والتزاماته الأخلاقية تجاه مجتمعه ، وعن الانهيار الأخلاقى والحضارى الذى يعانى منه المثقف

الغربى ، وعن الهيمنة الثقافية للولايات المتحدة على مثقفى أوربا الغربية وذلك من خلال نماذج متعددة تراوحت بين نان ليفنسون مراسل مجلة « فهرس عن الرقابة » Index on censorship اللندنية فى بوسطن وايرفنج هاو الكاتب الأمريكى التروتسكى الشهير والمؤيد المتعصب لإسرائيل واشعيا برلين الفيلسوف الغربى المشهور .

وهذه القضية تعتبر أحدى القضايا المحورية عند تشومسكى اليوم . بيد أنه كما يسهل الاستنتاج كانت القضية المحورية فى الخطابات المتبادلة بيننا هى أزمة الشرق الأوسط والقضية الفلسطينية ، فتشومسكى دائما يعتبر أن منطقة الشرق الأوسط هى أهم المناطق المؤهلة لبداية صراع عالمى قد يؤدى إلى دمار البشرية ، وهو يقول فى آخر خطاباته لى بتاريخ ٢٩/٨/١٩٩١ « أوافق تماما على ضرورة تغيير النموذج الثقافى العالمى ، ولكن هل يمكن أن يحدث هذا قبل أن يدمر العالم نفسه ؟ » .

ولتشومسكى رأى خاص فى القضية الفلسطينية فعلى العكس تماما من الرأى السائد فى الإعلام الغربى وأحيانا العربى يرى تشومسكى أن جبهة الرفض تقودها الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل وليس الدول العربية وهو يبنى رأيه هذا على أساس من المنطق الصارم كعادته دائما ، وتتلخص أطروحته الأساسية فى هذا الصدد فى أننا لو قبلنا مقولة أن ثمة أرضا هى فلسطين يتنازع عليها شعبان الشعب العربى والشعب اليهودى بغض النظر عن أحقية أيهما التاريخية أو الأخلاقية يصبح القبول هو القبول بحق الشعب الآخر فى تقرير مصيره والرفض هو رفض هذا الحق .

وكما ترى فهى مقولة بسيطة ومنطقية ، من ثم وباستخدام كم رهيب من البيانات والمعلومات التاريخية والوثائق يكشف تشومسكى كيف أن الولايات المتحدة وإسرائيل تعرقلان التسوية السلمية فى الشرق الأوسط وترفضان قبولها ، وهو يوضح لماذا يحدث هذا على أساس دور إسرائيل العدوانى فى المنطقة وطبيعتها كرأس حربة وقاعدة عسكرية للسيطرة الأمريكية وكذلك لتقوم بكل المهمات القذرة التى تطلبها منها الحكومة الأمريكية ، مثلا : مساعدة النازيين الجدد فى الأرجنتين ، وحكام جواتيمالا فى حربهم ضد الشعب الجواتيمالى ، وتهريب الأسلحة إلى إيران لاكتشاف العناصر العسكرية المؤهلة للقيام بانقلاب عسكرى ضد حكومة الثورة الإسلامية ومساعدة الجنرال سوهارتو فى إبادة شعب تيمور ، إلى آخر هذه القائمة من الأعمال التى لاتنتهى ناهيك عن مساعدة النظام العنصرى فى جنوب

افريقيا على اختراق المقاطعة وفك الحصار الدولى عنه .

وتشومسكى يوضح كيف يمكن أن يؤدى هذا العنت الأمريكى الإسرائيلى إلى تصاعد الأزمة ووصولها إلى مرحلة الصدام النووى وكيف أن هذا قد حدث أكثر من مرة وعلى سبيل المثال إبان حرب أكتوبر ١٩٧٣ .

ومن خلال خطاباتنا المتبادلة ومقالاته العديدة وكتبه الكثيرة أستطيع أن أحدد إطارا عاما لاسلوب نعوم تشومسكى فى الكتابة فهو شديد المنطقية صارم كما لاحظنا عند عرض رأيه فى قضية فلسطين ، وهو واقعى جدا يميل إلى التشاؤم وطالما امتد الجدل بيننا حول هذه النقطة ويقول تشومسكى فى خطاب له أن تشاؤم الذكاء هو تفاؤل الإرادة ، مستعيرا عبارة جرامشى الشهيرة ، وفى هذا الصدد يجدر أن نذكر وجهة نظره فى مسألة الدولة الفلسطينية فهو يتعجب من إدعاء إسرائيل أن تلك الدولة ستشكل تهديدا أمنيا لها ، ويطرح التساؤل التالى : ألا يجدر بفلسطين أن ترى أن إسرائيل المدججة بالسلاح والتى تملك ترسانة نووية ضخمة هى الخطر على أمن تلك الدولة ؟ ويسهب فى وصف الخطر الإسرائيلى والدور الذى تلعبه المياه فى المرحلة المقبلة .

وقد أختلفنا طويلا حول هذه النقطة فأنا أرى أن إسرائيل لديها مبررها القوى حيث أن فلسطين تعنى نفى وجودها المنطقى كما قالت جولدا مائير يوما انها لاتدرى من هم الفلسطينيون ؟ فهى فلسطينية كما ادعت ، فلسطين تعنى وجود شعب وحضارة أى تنفى المقولة الأساسية للصهيونية أرض بلا شعب لشعب بلا أرض ، وأحيانا يكون الواقع واجهة تمنع رؤية الحقائق .

كذلك يتميز اسلوب تشومسكى بالسخرية المريرة مما يمكن أن ندعوه الكوميديا السوداء حيث نراه يتهكم المرة تلو المرة على هنرى كيسنجر وجورج بوش وكارتر وتشرشل وغيرهم ويفضح رياء ونفاق المجتمع الغربى ووسائل الإعلام هناك بقسوة شديدة ، مثلا فى كتابه عن السلطة والايديولوجية يستعير عبارة دين اتشنسون وزير الخارجية الأمريكى ابان الرئيس هارى ترومان التى قال فيها : « يجب أن ندافع عن مواردنا » ويشفعها بقوله : « نعم مواردنا الموجودة فى أراضى الغير » وهو يقول فى نفس الكتاب أن أهم التحديات التى تشغل الولايات المتحدة بخصوص العالم الثالث ، هى حرية النهب والاستغلال ويدعو تلك الحرية « الحرية الخامسة »!! ، إشارة إلى

إقرار الدستور الأمريكي لحريات أربع

كما تمتلىء كتابات تشومسكى بالاستعارات والمعلومات والإحالات التاريخية مثلما فى الفصل الأخير من كتابه « المثلث المدمر » والذى عنوانه : « الطريق إلى أرماجدون » حيث أرماجدون هى المعركة الفاصلة بين قوى الخير والشر فى التوراة ، وتشومسكى شديد الدقة والأمانة فى الرجوع إلى مصادره حتى أنه عندما استخدم بعض المعلومات الواردة فى خطاباتى أوردها كهامش فى مقاله عن نتائج حرب الخليج فى مجلة « Z » الأمريكية التى يكتب فيها باستمرار وقال إنها مراسلة شخصية مع مصرى .

• • •

يصعب جدا أن نضع تعريفا مبسطا لتشومسكى هل نقول عنه كما قالت جريدة فى هذه الأوقات : « إنه أحسن من يكتب الآن » أم نقول عنه ما قاله اليوت ابرامز فى خطاب إلى مجلة : فهرس عن الرقابة : « إنه شخصية مأفونة وحاقدة » يكفى أنه عندما كان شابا زار تشومسكى إسرائيل ، وبالمناسبة هو يعرف العربية والعبرية ولكن منظمة البناى بريث الصهيونية اليهودية الأمريكية ترى أنه واحد من أشد المعادين لإسرائيل فى أمريكا وتصفه بأنه يهودى يكره ذاته ، وعلى نفس المستوى تعاديه العديد من المنظمات العربية وتتجاهله لنقده الشديد واللاذع للأنظمة العربية التى تتبعها تلك المنظمات .

على أية حال أعتقد أن تعريف جريدة الجارديان البريطانية له أقرب التعريفات إلى الدقة :

« نعوم تشومسكى هو المعارض الأول فى الولايات المتحدة ، إنه مثقف جبار استطاع عندما كان فى الثلاثين من عمره أن يزعزع التفكير التقليدى فى مجاله الحرفى الا وهو اللغويات وأصبح تشومسكى واحدا من أشد محللى السياسة الخارجية الأمريكية دقة ونفاذا وكل كتبه موثقة بدقة ، وتحمل كلها غضب الإنسان ذى الأخلاقيات الصادقة ، إن رسالة تشومسكى التى لاتعرف التهادن تصل إلى قلب الصورة الذاتية للمؤسسة الأمريكية وخاصة صورة ذلك المثقف الذى يمد تلك المؤسسة بأهم أبعادها .

فى النهاية هل يمكن أن يأتى تشومسكى إلى مصر فى زيارة إلى وطننا العربى ؟ هل لنا أن نتساءل : ايمكن أن تتضافر جهود المؤسسات المعنيه سواء الاكاديمية أم السياسية ، الحكومية أم الأهلية لدعوة هذا الهرم الثقافى إلى مصر ؟

جمهوريات آسيا الوسطى .. بين الأوربيين والمسلمين !

بقلم : عبد الرحمن شاكر

لايزال مصير الجمهوريات « السوفيتية » السابقة غامضا يثير التساؤل على جميع المستويات وفي مختلف الدوائر السياسية والاعلامية ، وذلك بالرغم من تحولها إلى « كومنولث » جديد لدواع اضطرارية ، أهمها الملكية المشتركة التي ورثتها تلك الجمهوريات لقوات عسكرية ضخمة هي الكبرى من نوعها في العالم ، وفي مقدمتها الترسانة النووية الهائلة ، وثانيها هو الاقتصاد المتشابك فيما بينها والذي نما على تلك الصورة عبر السنين الطوال ، سواء في عهد البلاشفة الذي دام أكثر من سبعين سنة ، أو سابقه عهد القياصرة الذي يقارب ثلاثة قرون .

إن من أسباب التساؤل حول مصير هذا « الكومنولث » النزاعات التي بدأت تطل برأسها بين مختلف الجمهوريات المشاركة فيه ، وفي مقدمتها النزاع بين أكبر جمهوريتين وهما الاتحاد الروسي وأوكرانيا حول القوات المسلحة ، فأوكرانيا تحاول الاحتفاظ بالأسطول « السوفييتي » الضخم ، الذي تحمل بعض قطعه أسلحة نووية ، ويرابط في موانىء البحر الأسود ، التي أصبحت تتبع أوكرانيا وحدها الآن ، ولم يعد هناك الاتحاد السوفييتي الذي كان يهيمن على تلك التبعية ، وترفض روسيا بالطبع هذه « النهبة » العسكرية الكبرى ، وتطالب رجال الأسطول بعدم حلف يمين الولاء لأوكرانيا وكثير منهم بل معظمهم من الروس ، بل الجيش البرى الذي تحاول

أوكرانيا أيضا الاستقلال بقواته على أراضيها ، طبقا للاتفاق المبدئي على اقتسام الجيوش ذات الأسلحة التقليدية فحسب ، حوالي أربعين في المائة من رجاله على أرض أوكرانيا هم من الروس !



يلتسين



جورباتشوف

● تدهور الاقتصاد

إزاء تلك المشكلة المتعلقة بالقوات المسلحة ، وتلك التى تتعلق بالمسألة الاقتصادية حيث أقدمت روسيا على إطلاق الأسعار طبقا لعوامل السوق ، فارتفعت أسعار السلع الأساسية فيها ارتفاعا كبيرا ، هدد الأوضاع الاقتصادية فى الجمهوريات الأخرى بمزيد من التدهور ، حيث بدأ التجار ينزحون ما لديها من سلع محدودة لبيعها فى السوق الروسية الغالية ، وهلم جرا إزاء تلك المشاكل ومايشابهها ، فإن التساؤل حول مصير الكومنولث يحيط به الغموض الكثيف ، ويجرى فى أحد اتجاهين : إما توقع انهيار هذا الكومنولث ، وتورط مختلف الجمهوريات فى منازعات قد تصل إلى حد الحرب الأهلية فيما بينها ، أو الانهيار السياسى لقادة هذا الكومنولث وفى مقدمتهم بوريس يلتسين رئيس الجمهورية الروسية ، عن طريق انقلاب عسكرى ، يعيد فرض وحدة « الاتحاد السوفييتى » من جديد باعتبار أن هذه البلاد لاتستطيع أن تبقى وأن تحمل أجهزتها، وخاصة قواتها المسلحة ، إلا إذا ظلت وحدة واحدة من جميع النواحى كما كانت من قبل !

ولكن نقطة الاستفهام الكبرى ، حول مصير تلك الجمهوريات ، إذا لم تفرض القوات المسلحة الوحدة « السوفييتية » من جديد ، سوف تبقى هى مصير جمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية الست : كازاخستان ، وأوزبكستان ، وتركمانستان وطاجيكستان وقرغيزيا وأذربيجان ، وقد سبق أن كتبت على صفحات « الهلال » بعنوان « المسلمون السوفييت والبريسترويكا » (عدد نوفمبر ١٩٩٠) أن هذه الجمهوريات باستثناء الأخيرة منها وهى أذربيجان ، هى أحرص مكونات الاتحاد السوفييتى على بقائه متحدا ، رغم بزوغ النزعات الانفصالية فى مختلف أجزائه ، وذهبت فى ذلك إلى حد تشبيه المسلمين السوفييت ، بالأم الحقيقية فى القصة المشهورة عن

سليمان الحكيم ، التى رفضت تقسيم الطفل بالسكين كما اقترح سليمان ، بينما وافقت الأم الزائفة على ذلك ! إما الطفل فى هذه الحالة فهو وحدة « الاتحاد السوفييتى » التى زالت مؤخرا كما هو معروف .

لقد كثرت الاشادة بالكتاب الغربيين « العباقرة » الذى توقعوا منذ سنوات انتهاء هذه الوحدة وتفكك الاتحاد السوفييتى ! إن هؤلاء لم يكونوا يضربون الرمل أو يطالعون النجوم ، ولكنهم كانوا يراقبون المشكلة « الديموغرافية » التى بدأت تطل برأسها فى تلك الدولة الكبرى من أيام بريجنيف ، حيث لوحظت الحملات الصحفية السوفيتية التى كانت تحث النساء فى المناطق الأوربية من « الاتحاد السوفييتى » على زيادة الانجاب ، لأن التوازن الديموغرافى فى الدولة قد بات مهددا ، حيث معدل الانجاب لدى المرأة الأوربية ، التى تفضل أن تقضى أمسياتها فى الرقص وتناول المشروبات الكحولية والتردد على المسارح .. الخ كان قد أصبح طفلا واحدا لكل أسرة ، بينما بلغ فى الجمهوريات الآسيوية الشرقية « المسلمة » ثمانية أطفال لكل أسرة ، وترتب على ذلك أن أصبحت نسبة المسلمين فى الجيش السوفييتى حوالى الثلث من بين مجموع أفراده ، بحيث لو استمر الحال على ذلك وبقى الاتحاد السوفييتى وحدة واحدة ، ففى بحر أجيال قليلة كان المسلمون سوف يصبحون هم الكثرة الغالبة فى تلك الدولة الكبرى !

الاتحاد السوفييتى إذن قد انهار ، وكان من المحتم أن ينهار ، لأن الأوربيين الذى أسسوه ، أو بالأحرى قد ورثوه عن الامبراطورية الروسية ، التى ضمت إليها الاجزاء من آسيا الوسطى بقوة السلاح يرفضون أن يصبح أبناء تلك المستعمرات الروسية السابقة هم أغلبية سكان الدولة الواحدة والمتحكمين فى أقدارها بحكم توالدهم الكثيف !

تلك هى الحقيقة البلقاء ، التى تجُب اية ثرثرة أخرى عن أسباب انهيار تلك الدولة الكبرى على نحو غير مسبوق فى التاريخ ، وباختيار من كبرى جمهورياتها ، وهى الجمهورية الروسية ذاتها ، قاعدة الامبراطورية القديمة ، وهو الأمر الذى يرشح الجمهوريات الاسلامية الست المذكورة للتباعد المعجل عن الكومنولث الهش الذى تأسس أولا بين الجمهوريات السلافية الثلاث : روسيا وأوكرانيا وروسيا البيضاء ، وكان الذى قاد الجمهوريات الاسلامية للحاق به ، هو نور سلطان نزار باييف رئيس جمهورية كازاخستان ، حيث اختار هذا الحل بعد أن أصبح انهيار الاتحاد الكامل محتما ، وقد كان أحرص الجميع على بقاء الاتحاد بسبب واضح ، وهو أن ثمانية وثلاثين بالمائة ، من سكان جمهوريته هم من الروس !

ولست اقصد هنا اختيار هذه الجمهوريات ، لقد اضطرت إلى قبول ما فرضته « اكابر » الجمهوريات ، روسيا وأوكرانيا وروسيا البيضاء من تفكك الاتحاد السوفييتي ، واستبداله بصيغة « الكومنولث » التى تركت مفتوحة لكى تنضم اليها بقية الجمهوريات .

الاختيار الذى اقصده هو اختيار العالم ، الذى يراقب مايدور فى الاتحاد السوفييتى السابق ، والذى تتنازعه المخاوف من تسرب القوى النووية السوفيتية إلى اماكن أخرى غير مرغوبة ، وأخيرا ، الذى يتدخل فى تقرير مصير تلك المنطقة من العالم ، على حد ماذكر ميخائيل جورباتشوف قبل ان يغادر منصبه كآخر رئيس للاتحاد السوفييتى ، حينما قال صراحة إن الامور لاتتقرر هنا ، اى فى موسكو وحدها ، بل فى اماكن اخرى كذلك ، قال ذلك تعليقا على اتصال يلتسين بالرئيس الامريكى بوش ، ليخبره عن اتفاقه مع كل من رئيس اوكرانيا وروسيا البيضاء باقامة الكومنولث المذكور قبل ان يخطر به جورباتشوف ذاته !

الاختيار هو بين أن تعود صيغة الاتحاد مرة اخرى . ولو فى صورة جديدة ، بحيث يستمر ذات الخطر الديموغرافى ، اى أن يتحول الشرقيون الآسيويون المسلمون إلى أغلبية فى دولة كبرى ، كالاتحاد السوفييتى السابق ، أو تترك لحال سبيلها لو ادت هشاشة الكومنولث إلى تمزقه وما حال سبيلها هذا ؟

إن مسالة الهوية السياسية بالنسبة لهذه البلدان قد أصبحت معقدة بعد انهيار الاتحاد السوفييتى . لقد كانت تلك البلاد تشعر بأنها مغلوبة على امرها حينما اجتاحتها جيوش القياصرة الروس والحقتها بامبراطوريتها ، وأن حقها كان أن تصبح مستقلة أو جزءا من كيان اسلامى كبير ، كالدولة العثمانية مثلا فيما مضى ، وبعد الثورة البلشفية عام ١٩١٧ ، وبالرغم من المحن التى تعرض لها المتمسكون بالعقائد الدينية على أيدى المتشددين من دعاة العلمانية فإن المساواة فى الظلم عدل كما يقال ، فما أصاب المساجد من تحويل بعضها إلى متاحف مثلا قد أصاب الكنائس مثله واكثر ، ومع قدر من التسامح الدينى اضطرت إليه الدولة خلال الحرب العالمية الثانية لتعبئة المواطنين للدفاع عن « وطن الاشتراكية » زال كثير من قمع النزعات الدينية ، وتدرجت التسهيلات بهذا الصدد حتى عهد بريجنيف ذاته ، وخاصة حينما اضطر أن يواجه بجيوش من المسلمين السوفييت ، حركة جهاد إسلامية فى افغانستان ، التى ورط بلاده فى حرب ضدها ، دفاعا عن نظام موال للسوفييت فى تلك الجارة الصغيرة . وكان الخراب

الاقتصادى والسياسى والمعنوى الذى جره هذا التورط واحدا من أهم دواعى التحول الكبير الذى قاده ميخائيل جورباتشوف تحت شعار البريسترويكا .

كان المسلمون السوفييت من أسعد الناس بهذا التحول الذى أعفاهم من حرب أفغانستان وأطلق الحريات السياسية والفكرية بما فيها الحرية الدينية إلى مداها ، وأصبحوا أصحاب ولاء حقيقى لايفرضه عليهم أحد للدولة التى تسع الجميع على اختلاف ألوانهم وعقائدهم ، وتفرض المساواة بينهم ، وينتظرهم فيها مستقبل هائل بفعل الزيادة المطردة فى أعدادهم . فضلا عن فرص التعليم التى قضت تماما على الأمية عندهم . وجعلتهم على اتصال بكافة العلوم الحديثة التى كان يحتكرها الأوربيون ، وقامت لديهم صناعات عصرية يديرها مواطنون لهم أمكنهم تحصيل تلك العلوم .

إلى أين يولون وجوههم الآن ، يلتمسون هوية جديدة لهم ، بعد سقوط الهوية السوفييتية عنهم ، بفعل القومية الروسية ، أو السلافية التى انبعثت تطلب الخلاص منهم ! وفى سبيل ذلك أطاحت بجورباتشوف الذى أعطاها حرية التعبير وعصفت بصيغة الاتحاد .

إن كلا من تركيا وإيران تحاولان مع تلك الجمهوريات خلق روابط لاجتذابها ، فيتحدث الأتراك من جديد عن الجامعة الطورانية ، بحكم العلاقة العرقية التى تربطها مع أبناء « التركستان » السوفييتى وهو الاسم القديم لتلك المناطق وتحاول أن تغريهم بأنها سوف تكون جسرا بين تلك الجمهوريات والولايات المتحدة الأمريكية ، وعينها ـ أى تركيا ـ على إمكانية الاستحواذ على بعض مالديهم من أسلحة أو أسرار نووية ، وكذلك تفعل ايران ولكنها لاتملك نفوذا حقيقيا إلا لدى الأقلية الشيعية ، مابين مسلمى آسيا الوسطى ، التى تسكن أذربيجان ، أما بقية المناطق الاسلامية وخاصة أوزبكستان ، فإن كلمة « السنة » لها دوى هائل لدى أهلها ، ففيها تقع بخارى ، موطن الامام البخارى ، الذى اعتاد المسلمون أن يصفوا صحيحه ، بأنه أصح كتاب بعد كتاب الله ...

الأكثرية المتدينة من أهل هذه البلاد تولى وجهها نحو قلب العالم الاسلامى ، وبالتحديد نحو العالم العربى ، الذى تعرف أنه المصدر الأصيل الباقى للعقيدة الاسلامية ، حيث كان النبى من العرب ونزل القرآن بلغتهم العربية ، وللعرب عندهم ، يعرف ذلك كل من زارهم ، نوع من القداسة ، لايشعرون به بالطبع إزاء أى من الفرس أو الترك ، الذين ليسوا من وجهة نظرهم إلا « أعاجم » مثلهم ، وكذلك الباكستانيون والأفغان ومن إليهم ، ممن تلقوا الديانة عن العرب



نزار باييف
رئيس جمهورية كازاخستان

ولم تتنزل بلغتهم !

ولقد نشرت « الأهرام » بتاريخ ٨ / ١ / ١٩٩٢ ، تقريرا غاية في الخطورة كتبه عبدالملك خليل مراسلها في موسكو ، موضوعه أن « المخابرات الغربية تثير المخاوف من الجمهوريات الاسلامية وتتحدث عن احتمالات كومنولث عربي مع المسلمين السوفييت ، ونزوح علماء الذرة المسلمين إلى العالم العربي »

وخلاصة العلاقة التبادلية التي يمكن أن تقوم بين العالم العربي والجمهوريات الاسلامية في آسيا الوسطى أن العرب من جانبهم لديهم المال الذي يمكن أن يقدموه لاقالة اقتصاديات تلك الجمهورية من عثرتها ، التي هي جزء من عثرة الاقتصاد السوفييتي ككل ، إلى جانب الثقافة الاسلامية الأصيلة من منابعها العربية ، وبالمقابل يقدم المسلمون السوفييت ، ماينقص العرب من علوم عصرية كان يحتكرها الأوربيون وقد تفوقوا ، ومنها مايتعلق بالأسلحة النووية وأسرار صناعتها .

وتتحدث تقارير صحفية أخرى عن أن إسرائيل تحاول احتواء هذا « الخطر » قبل أن يصبح واقعا وقبل أن ينجح المسلمون السوفييت في سد الفجوة التي تقوم بينها وبين العرب في القدرة العسكرية على النحو المذكور ، وذلك بمحاولة التقرب من جانبها ، أي من جانب إسرائيل إلى الجمهوريات المذكورة ، وعرضها عليهم كل مساعدة في مقدورها ، وتذكيرهم بأن اليهود لم يكونوا مضطهدين ابدا في المناطق الاسلامية من الاتحاد السوفييتي ، وان الاضطهاد إنما كان يقع عليهم من « السلاف » سواء في روسيا أو أوكرانيا ! ولنا أن نسأل : وهل كان اليهود مضطهدين في العالمين العربي والاسلامي ، حتى يوقعوا بالعرب في فلسطين وماجاورها ما أوقعه بهم الغزو الصهيوني ؟!

المهم أن العرب تواجههم مسئولية ضخمة إزاء مصير تلك الجمهوريات الاسلامية في آسيا الوسطى وعليهم أن يتدبروا أمرهم معها قبل أن يفوت الأوان ، ويبقى هذا التدبير في أيدي أعدائهم !

كتاب الشهر

المقاهي الأدبية

لغة للناس .. ولغة للمقاهي .. ولغة للأدب

تأليف : جيرار جورج لومير
عرض : محمود قاسم

لا احد يعرف بالضبط من هو الشخص الذى اخترع "المقهى" .. ولا احد يعرف بالضبط متى جلس الناس يتسامرون فى مكان علم . ويحتسون المشروبات الساخنة لاول مرة . ولانه لا احد يعرف متى حدث هذا بالضبط . فقد ترك الامر للاساطير تلعب دورها . وان تتداول بين الناس بعضها حقيقى . والبعض الآخر فى حاجة الى متابعة ومراجعة .



● وقد أثارت علاقة الانسان بالمقاهى ، وخاصة المقاهى الأدبية قريحة الكاتب الفرنسى جيرار جورج لومبير . فقدم كتابا ضخما بالغ الاهمية يحمل عنوان "المقاهى الادبية" تتبع فيه هذه الظاهرة منذ نشأتها وحتى الآن . وفى مقدمة الكتاب وتحت عنوان "خمر الاسلام" قال : "ان الباحث انطونيو نيرون قد اتى الى منطقة البحر الميت فى القرن الثامن عشر . وتأمل الماعز وهى تأكل بعض الاوراق الخضراء . اللامعة . واكتشف ان الماعز يتمتع بنشاط ملحوظ . وعرف ان هذا النبات يعطى من يتناوله نشاطا" ويردد الكاتب ان النبى محمد عليه الصلاة والسلام فى مرضه الاخير قد فوجىء بان سيدنا جبريل عليه السلام قد أتى اليه باوراق نباتية سحرية صنع منها الرسول مشروبا اعطاه النشاط لبعض الوقت . واطلق على هذا النبات اسم "خمر الاسلام" . هذا النبات هو القهوة الذى اصبح فيما بعد رمزا لثقافة جديدة . وحضارة مستمرة .

ويقول الكاتب ان الاسلام لم يغير فقط فى اقتصاد منطقة البحر المتوسط . بل فى مفاهيمها الثقافية . وان كلمة "قهوة" قد حورت بمنطوقها العربى . الى كل اللغات . وقد اكد الفيلسوف والطبيب العربى الكبير ابن سينا ان القهوة موجودة منذ الف عام من عصرنا . وانه ليس صحيحا ان الغربيين هم اول من اكتشفها . كما ان المفكر جمال الدين الافغاني قد تحدث عنها . ويقال إنه نادى بادخالها الى الاراضى المقدسة .

ويؤكد لومبير ان اول نص أدبى مكتوب عن القهوة قد صاغه الاديب ـ عبدالقادر ـ لم يؤكد من يكون صاحب هذا الاسم حقيقة فى القرن الخامس عشر حين كتب مناجيا القهوة قائلا : "انت شراب احباب الله . انت تعطين الصحة للمنهكين كى تشفى حكمتهم" .

اما الشاعر التركى البليجى فقد غنى كثيرا من اجل المقهى "من دمشق لحلب للقاهرة كنا نجتمع فى دائرة واسعة وقد غمرتنا الفرحة ! ومعنا بذور القهوة التى تنبعث منها رائحة نفاذة" .

وقد انتقلت بذور القهوة عن طريق الرحالة الاوروبيين الى الغرب فى القرن السادس عشر . وعرفت المقاهى لاول مرة بشكلها المتعارف عليه فى اسطنبول حيث بدأت من خلال حلقات تلاوة القرآن . وعرفت هذه الجلسات تحت اسم "مكتب المعرفة" . وكان يجلس عليها اصحاب الحكمة والعقول الراجحة .

وفى القرن السادس عشر ايضا تحدث الرحالة الفرنسى جان تيفنو فى

كتابه "رحلة الى الشرق" عن ظاهرة المقاهى فى الشرق قائلا : هناك مقاه عامة تعد مشروبا قويا لكل الزبائن . وكل الناس يمكنهم ان يرتادوا هذه المقاهى . وليس هناك سبب يدعو للخجل من الذهاب اليها . وامام المقهى هناك مقاعد وكراسى من القش يجلس عليها المرتادون فى الهواء الطلق وهم ينظرون الى المارة .

اما الكاتب الفرنسى المعروف بيير لوتى فقد جعل احداث روايته "الزيارة" تدور فى مقهى شرقى يرتاده الشيوخ والشباب .

● المقهى ممر القلعة

فى الفصل الاول من الكتاب يقول المؤلف لومبير ان "كارا مصطفى" هو اول من فكر فى انشاء مقهى مماثل لما يحدث فى الشرق عندما سافر الى فيينا عام ١٦٨٣ . وهكذا عرف اول مقهى فى اوربا . وقد انتقلت فكرة المقاهى فيما بعد الى بيوت المحظيات خاصة مدام دوسيفينى اما اول مقهى علم فقد انشأها فى باريس الارمنى باسكال . بينما انشأ الايطالى فرانشيسكو بروكوبيو اول مقهى فى مدينته باليرمو فى اواخر القرن السابع عشر . وقد كان بروكوبيو صديقا للعديد من الادباء الايطاليين والفرنسيين الذين جاءوا يرتادون مقهاه بشكل منتظم . وهناك كان الشاعر يلقى قصيدته . ويتلقاها المعجبون اما الناقد فكان يبدى رأيه فيها .

وما ان بدأ القرن الثامن عشر ، حتى انتشرت ظاهرة المقاهى الادبية . خاصة فى باريس . ووجد الموسوعيون ان من الافضل الجلوس على المقاهى بدلا من الاكاديمية الفرنسية ومن اشهر رواد تلك المقاهى كان هناك ديدرو ومونتسكيو . ثم بدأت الظاهرة تنتشر فى بقية دول اوروبا خاصة فيينا لدرجة دفعت احد المهندسين المعماريين الى انشاء اول مقهى مخصص للادباء وتصميمه تصميما خاصا انتهى منه فى عام ١٧٦٥ فى باريس . وحول هذا المقهى كتب الشاعر كارلو فروجونى قصيدته المقهى "ممر القلعة" قال فيها :

منذ ان اصبح الممر منتزها جميلا فاننى احرر المهندس من كل اخطائه بعبقريته التى صنع منها قصرنا

● مغامرات كازانوفا على المقهى

يقول الكاتب ان الثورة الفرنسية قد ولدت فى المقاهى . خاصة التى يرتادها الادباء كما ان الكاتب بنيامين فرانكلين الذى اصبح اول رئيس للولايات المتحدة قد كان من اشهر

رواد المقهى ومع بداية القرن التاسع عشر اهتم اشخاص بأعينهم لدعوة اصحاب الفكر الجلوس فى المقاهى . مثل فرسكانى صاحب اشهر مقهى ادبى فى تلك الفترة . ثم مقهى "ريش" .. التى كان يجلس عليها اونوريه دى بلزاك . وكان الاخوان جومكور يحرران صحيفتهما الشهيرة "لوجورنال" فوق موائدها .. وقد شهدت مثل هذه المقاهى اشهر الاحداث السياسية والاجتماعية فى اوروبا .

لقد انتشرت ظاهرة المقاهى الادبية فى القرن التاسع عشر لدرجة اصبحت شيئا اساسيا فى حياة الكاتب . فهو يذهب هناك لالقاء قصائده اذا كان شاعرا ، او لعرض لوحاته الجديدة اذا كان رساما ، او لسماع التعليقات اذا كان روائيا او اديبا . وقد اصبحت بعض هذه المقاهى بمثابة مزارات فنية على مدى التاريخ وفى الفصل الذى خصصه الكاتب عن "متاحف المقهى" اكد ان اهم مقهى للادباء فى روما يعرف باسم الجريكو وهو المقهى الذى ذكره كازانوفا فى مذكراته المشهورة . وقد كتب الشعراء الكثير من القصائد تغزلا فى هذا المقهى . كما كانت مصدرا للالهام لدى الكثير من الكتاب الاوروبيين . وكان هذا المقهى مشهورا بالقهوة التركية ولهذا المقهى شهرة برج بيزا فى ايطاليا . فالزائرون يأتون



جان بول سارتر وسيمون دى بوفوار
.. على مقهى سان جرمان

اليه . والرحالة يكتبون عن ذكرياتهم فيه . وقد اشتهر بفرقته الموسيقية التى كانت تعزف الحانا جميلة فى المساء للزوار . وفى سجلات هذا المقهى اسماء اشهر الشخصيات الادبية المعروفة فى القرن التاسع عشر . مثل الكاتب الدنماركى هانز كرستيان اندرسون . والناقد هيبوليت تين الذى كتب عن المقهى فى كتابه "رحلة الى ايطاليا" .

● سقراط .. فى فيينا

اما مقهى الاوليمبيا فقد كان الاشهر فى باريس ومن بين المقاهى العديدة التى كان يجلس عليها الادباء . تخصص هذا المقهى فى انه

كان الاكثر اتساعا . وايضا المنتجع للمبدعين على شتى مشاربهم . فمن الرسامين كان يأتى مانيه . ومن المصورين نادار . ومن الادباء زولا . وقد كتب عنه زولا فى روايته "نانا" اما مانيه فقد رسم معالمه فى لوحة "داخل المقهى" .

وفى القرن التاسع عشر ذاعت شهرة مقاهى مونمارتر . خاصة مقهى "اليزيه مونمارتر" الذى اتسم باتساع ملحوظ . وحديقته الصيفية . وكان مكانا مفضلا لدى الاثرياء ومالبث ان تحول الى مقهى شعبى . وقد سرد كتاب "المقاهى الادبية" اسماء العشرات من المقاهى التى لعبت دورا ملحوظا فى الحياة الثقافية الاوربية فى القرن التاسع عشر وأكد الكتاب ان هذه المقاهى كانت بؤرة لجذب كل الادباء من كل انحاء العالم . فلم يكن من الصعب على القراء ، وايضا على الكتاب مقابلة ادبائهم المفضلين ماداموا يعرفون اماكنهم . وكانوا يأتون اليهم لمصافحتهم . ولمعرفة اخبارهم الثقافية الجديدة .

ومع نهاية القرن التاسع عشر اصبحت هذه المقاهى بمثابة مؤسسات اجتماعية يلتقى فيها الجميع . ولم تكن هذه المقاهى محصورة فى مكان دون آخر . ففى النمسا اشتهر مقهى سقراط فيينا وايضا مقهى "المتحف" الذى صممه ادولف لووس وجاءت شهرته انه كان ملتقى للعديدين الذين يعيشون على هامش الحياة . وهذا المقهى لايزال موجودا حتى الان . ومن بين رواده الكاتب الياس كانيتى الذى فاز بجائزة نوبل فى الادب لعام ١٩٨١ .

وقد صمم لوس مقهى آخر فى فيينا عام ١٩٠٧ على الطراز الامريكى وحول هذا المقهى نظم الشاعر الالمانى بيتر التنبرج قصيدته التى يقول فيها :

كيف اشرح لك
ايتها الغبية العجوز
عندما منحت الوسام الرومانى
فان بيتر المجنون قد حصل على الوسام
اه .. ايها الضابط .

والقصيدة هى واحدة من القصائد المشهورة التى حاولت تحطيم الشعر الكلاسيكى . وهى مكتوبة بلغة غريبة تمتزج فيها الابيات بالانجليزية والالمانية والفرنسية . او كما يرى الشاعر هى اللغات التى يمكن ان تسمعها متداخلة وانت تجلس فوق نفس المقهى .

● الشمس .. تشرق على المقهى

خصص الكاتب فصلا عن مقهى

مونمارتر المعروف تحت اسم "مونمارتر التكعيبية" وهو بالطبع المقهى الذى كان يجلس عليه الفنانون التشكيليون المهتمون بالتجديد خاصة التكعيبيين امثال بابلو بيكاسو وماناخ ومانولو ، وكلهم قادمون من اسبانيا . ويكشف هذا المقهى ان المقاهى كانت تجمع بين ابناء الوطن الواحد . وايضا بين ابناء الفن الواحد والمدرسة الفنية . ومن هذا المقهى ، على سبيل المثال . انطلقت المدارس الفنية الحديثة وفى الحى اللاتينى كان مقهى "سان جرمان دوبريه" ملتقى للشعراء فى المقام الاول . وقد التقى فى هذا المقهى ابوللينير مع سالمون ورينيه داليتز . اما جان بول سارتر وسيمون دى بوفوار فقد بدأ يرتادان مقهى فلور فى عام ١٩٣٩ . كان المقهى مزدحما بالشباب من عاشقى الفلسفة . ورغم ان الاثنين كانا يرتادان الكثير من المقاهى فى باريس . فإنهما كانا يعشقان هذا المقهى . وقد جاء الى هذا المقهى الكثير من الادباء البريطانيين والامريكيين مثل هيمنجواى وكابوت وداريل . ومن المعروف ان هيمنجواى قد استوحى احداث روايته "الشمس تشرق ايضا" من زياراته العديدة للحديقة وارتياده لهذه المقاهى . وفيما بعد كان الممثل الآن ديلون وبرجيت باردو والناقد رونالد بارت من اشهر رواد هذا المقهى .

● للناس .. لغة مشتركة

لم يقع جيرار جورج لومبير اسيرا للحديث عن المقاهى الادبية فى باريس فقط ، وهى الاكثر شهرة . بل تحدث عن مقهى "المنازل" بحى سوهو فى لندن . كما راح يترجم نصوصا شعرية ونثرية ، ومقطوعات من روايات عديدة كتبت عن الحياة فى هذه المقاهى الادبية . مثل قصة "بيوت زهرة النيلا" للكاتب الايطالى جيتو سيرفينى .. وفى نهاية كتابه خصص اكثر من خمسين صفحة تضمنت اشهر التصميمات الهندسية للمقاهى الادبية التى عرفت فى التاريخ فى اوروبا . وصورا من اهم المسرحيات القصيرة التى مثلت فى هذه المقاهى .

وبعد .. فهذا كتاب من الصعب عرضه ، لكن ايضا من الممتع ان يطالعه المرء . وان يعرف ان هناك لغات مشتركة ولدت بين الناس فوق هذه المقاهى . لا تتعلق هذه اللغات فقط بالمشروب الساخن . بل ايضا بالحوارات البالغة السخونة التى تدور بين روادها ، حوارات الكثير منها يحمل وجهات نظر مختلفة لكن شيئا واحدا يجمعها . هو حب الانسان للحياة واهتمامه بان يتحاور مع الآخرين .

حوارات الأب حانوت

قصة : محمد حافظ رجب   ريشة : سميحة حسنين

●● لايصح ان نسأل من يذكر محمد حافظ رجب ؟ بل الاصح هو : من يخاف محمد حافظ رجب ؟ الذى سبق الجميع الى التجديد . وفى زمن هيمنة الاساتذة الكبار واجههم بالعبارة التى اصبحت شعارا بعد ذلك : نحن جيل بلا اساتذة .

صمت حافظ رجب بعد اعماله الاولى المتميزة (الكرة وراس الرجل) ، مخلوقات براد الشاى المغلى ، ولكن صمته تحول الى طريق للتجويد والمغامرة الفنية .

حافظ رجب الذى تحول مقدمة حقيقية لجيل الستينيات ثم قرر الصمت .

ها هو يعاود الكتابة مرة اخرى . وبعد ان انتهى من قصته الأولى بعد الصمت اختار ان ينشرها فى الهلال .

اللوحة الأولى

المنظر : مطعم صغير - موائد بمحاذاة شريط الرصيف - قدرة فول - طاسة طعمية اوانى - المعلم - جرسون شاب يمسح الموائد - يروح ويجىء فى حركة ميكانيكية يواجه الجرسون النظارة .

يونس : ظهيرة كل يوم تقترب .. بعد قليل يحضر القطة من العمارات المجاورة .. يختبئون فى ملاحات الملح يختفى الملح وتستدير الأرغفة نحوهم .. ظهيرة كل يوم المحرقة تقترب وعلىّ اطفاء الحريق باكواب من دمى .. وتبدا طاسة الزيت فى الغليان .. وتناضل حبات الفول للخلاص فى القدرة الساخنة .. وانا ابن الحانوت عاجز الروح واليدين .. التصق بالحانوت وصاحبه لكنى لست بقادر على تلبية رغباتهم .. جسدى كسيح وروحى متعبة .

صوت : ولعنا النار فى عين الشيطان .. ياويلك ياظالم ياابن الحرام .

المعلم : (مصفقا) صلى على النبى .. صلى على النبى .



يونس : نحن انصاف الرجال تأكلنا .. حلمنا الخروج من القدرة الساخنة سجننا .. وتخطى الزقاق المعتم .. لرؤية لشكال الحياة خارجه .. خلف الدكان البحر .. خلف الجدار الصور تهتز .. خلف القدرة حوذى وشيال يحمل حبات الفول مسجونة فى شوال فوق الكتفين .. امواج البحر تصطخب لاتسمعها .. هدير المواقد اغلق اذاننا .. يتغير شكل الانفعالات يخرج رواد السينما يضحكون او يبكون .. يسير الحصان بعربته مطرق الراس والاثنين .. ووقوفنا هو هو مستمر الزقاق المعتمة والقدرة فوق الموقد وصاحب الحانوت فوق الغطاء ..

(يدخل جرسون حاملا صينية شاى ويدير الملعقة فى الاكواب)

الجرسون : الشاى يارجالة

(يتجه يونس نحوه .. يأخذ كوبا له)

يونس : (يرتشف من الكوب عدة رشفات مشروبنا الشاى) واللفافات حريق الغضب

المعلم : (يصفق) على النبى صلينا على النبى صلينا .

يونس : هذا الذى يصلى على النبى يقولون عنه انه اتى .. ابنه ليس انا .. الحانوت ابنه ملاحات الملح والموائد والملاعق وطاسة الزيت والاوانى ملكه .. انا ملاحة ملح .. ايضا ملكه (للنظارة) وانتم فوق مقاعد المتابعة تنكرون رجال القدرة الفائرة .. وهم يتقلبون مع حبات الفول الفائرة .

يبدأ الفعلة فى الحضور .. يلبسون اقنعة تبرز من الاقنعة انيابهم مخيفة قاسية .. يحتلون الموائد جميعها .

يونس : "وهو يجرى ماسحا الموائد" ايوه جاى .. جاى حاضر .

المعلم : الخبز الرجال .. الخبز الرجال .. الخبز للرجال .. الخبز ياولد

يونس : "وهو فى حركة دائبة الآن تبدأ دورة اقدامى تحت حريق الظهيرة . الغاضبة" .. اطباق فوق كتفى .. اطباق فوق ظهرى .. اكواب ملء فمى والجسد محدود الطاقة والاحتمال (يحتل مائدة نقاش وبعض الفعلة) .

النقاش : "مصفقا غبطة" . هات .. وهات .. وهات

يونس : ايوه جاى .. ايوه حاضر (يقترب من مائدة النقاش والفعلة) عندنا .. وعندنا .. وعندنا .

النقاش : (للفعلة) .. ماذا تأكلون ياغيلان .

الفعله : (معا) نأكل مما تختار لنا يااسطى

النقاش : هات لنا عين .. وشريحة من لحم الكتفين .. وارووينا بالاكواب اولا .

يونس : (منادیا) هات لهم .. وهات لهم .. عين من العينين وشريحة من لحم الكتفين

المعلم : (يمسك بسوط طويل مثل الذى يروض به الحيوانات فى السيرك ــ يفرقع به عاليا) هيا ياولد .. هيا ياولد .

النقاش : (ليونس) اين الاكواب ياولد .. اين الاكواب ياصبى .. اين الانحناءة ، والطاعة والادب .

الفعله : (معا) اين الطلبات .. اين الطلبات ياولد

يونس : الصبر يارجال .. الصبر يارجال ..

المعلم : (يفرقع

بالسوط فوق ظهر يونس)
طلبات الاسطى ياولد ..
طلبات الرجال ياولد

النقاش : علشان ياولد
.. علشان ياصبى

الفعله : علشانين
مثلك يا اسطى ..
علشانين .

النقاش : يامعلم ..
يامعلم .. طلباتنا تاخرت ..
طلباتنا تاخرت

(يخرج يونس من
داخل الحانوت متقلا
بالاطباق .. يدور سريعا
حول الموائد ويلقى
بالاطباق فى عجلة) .

يونس : لحم كتفى فى
طبق .. حبة عينى فى طبق
.. دماثى فى الاكواب
قادمة

(النقاش يتذوق شيئا
من طبق يلوكه فى تلذذ
واضح) .

النقاش : ياسلام ..
ياسلام .. وهات لى طبقا
من عينك الاخرى وهات
لهم طبقا من لحم الكتفين .

الفعله : يقهقهون ..
هات .. وهات .. وهات .

يونس : (صارخا)
حاضر .. حاضر .. قادم
لكم .. قادم لكم
يدخل الحانوت .

النقاش : يامعلم اكرم
زبائنك .

المعلم : يكرمنا
ويكرمك ربنا .

النقاش : (وهويلوك
الطعام) وصىّ علينا
صبيك .

المعلم : عبدك بين
يديك .

(يمضغ النقاش
والفعلة طعامهم فى زهو ـ
يخرج يونس حاملا بضعة
اكواب مملوءة بالدم ـ
يضع الاكواب امامهم) .

يونس : اكواب
الدم .. عصرتها لكم ..
طازجة .. طازجة ..
تجرعوها جرعات قصيرة
حتى تكفى لاروائكم ..
حتى اتمكن من
المواصلة .

(يرفع الجميع اكوابهم
.. يتجرعونها مرة واحدة ـ
يمد النقاش يده بكوبه
الفارغ الى يونس) .

النقاش : املاه من
جديد .. املاه من جديد

الفعله : املا لنا
اكوابنا .. املا لنا اكوابنا
.. املاها من جديد ..
املاها من جديد

يونس : انه عصير
دمى .

النقاش : دمك لايروينا
.. دمك لايروينا .

(يتوقف يونس فى
المنتصف والاكواب فارغة
فى يده) .

يونس : (للنظارة)
احاول ان اسرع لالبى كل
الرغبات .. كل الرغبات ..
لكن دمى لايرويهم
لايرويهم .. صنبور الدم
فى عروقى لايكفى لرى
الجفاف .. لو اشفق علىّ
ابى لهان الامر

(يصفق النقاش
مستفزا .. يصفق الفعله
معا فى رتابة وازعاج) .

المعلم : كل هذه
الصرخات .. كل هذه
النداءات والاصم لايسمع
.. مات الاصغاء فى اذنيه
ماتت الحركة فى قدميه
(يفرقع بالسوط فوق ظهر
يونس) حاضر جاى ..
ايوه جاى .

النقاش : غير صبيك
يامعلم .. اطرد صبيك
يامعلم .

المعلم : ليونس حرك
رجليك ياولد

الفعلة : الدماء
الجفاف .. الدماء لاطفاء
الحريق . اطرد عبدك
اللئيم .. اطرد عبدك
اللئيم .

المعلم : اتسمع
مايقولون .. اتسمع
مايقولون .

النقاش : وقاحة نظراته
تعطل شهيتنا .

المعلم : حقكم فوق
راسى .. حقكم فوق راسى
وراسى ابى كمان .

الفعله : حقنا فوق

راسه وراس ابيه .. تعالوا نقطع فروة راسه واولاده اجمعين .
النقاش : لا .. لا .. المعلم عبدنا .. ينحني لرغباتنا .. انه مطيع لنا .. راسه فوق كتفيه ذات فائدة لنا .
المعلم : نحن في الظهيرة ـ عز الشغل ـ غدا سأتي بعبد اخر مطيع لنا
الفعله : (يتركون مقاعدهم ـ يتربعون على الارض) اطرده الآن .. اطردهم .. اطرد عبدك اللعين .. لتفتح شهيتنا ـ وتلوك لحمة العجين .
يونس : (يمشي مترنحا والاطباق ملء يديه) .
المعلم : سأطرده من اجلكم . سأطرده من اجلكم .
النقاش : هات الاطباق هنا .. هات الاطباق هنا .
الفعله : انيابنا لاتنتظر ـ انيابنا لاتنتظر .
المعلم : (يفرقع بالسوط عاليا فوق ظهر يونس) ، قدم لهم طاعتك .. قدم لهم طاعتك الغوله امك سحرتك تريد طرد زبائني . حاضر يجب ان تقولها .. اقولها انا .. وحذائي فوق راسي وراسي ابي
يونس : (صارخا في عذاب) ارفع سوطك من فوق راسي وانا اقولها .
(يضع الاطباق فوق مائدة النقاش) .
النقاش : يامعلم .. سأذبح هذا الغبي .
الفعله : (ينهضون من فوق الارض) .. نحن معك .. نحن معك . سنلتهم لحمه وراسه الغبي .
يحيطون بيونس في غضب ينزلق طبق فوق ملابس النقاش .
النقاش : هكذا .. هكذا تعملها معي .
(المعلم يهرول اليه).
المعلم : ماذا جرى .. ماذا جرى .
النقاش : ناولني سكينك يامعلم .. سأذبحه
الفعله : ونحن سنلتهم لحمه .
المعلم : (مفرقعا بسوطه) اطردوا الشرير يارجال .
يونس : يمسك كوبا يرش به وجه النقاش .
النقاش : (ممتقعا يمسح وجهه) ، ارايت .. ارايت يامعلم .. امامك يعمل عملته .
المعلم : (رافعا سوطه فوق يونس) يونس ياابن الحرام .. تريد طرد زبائني .. تريد موت الدكان على يدك (للنقاش) سأمسح ملابسك بيدى يدع السوط جانبا يمسح له ملابسه .. يبكي الفعله في نشيج خافت).
النقاش : سأقتله .. سأقتله .
الفعله : ونحن سنلتهم لحمه .
المعلم : (للنقاش) .. سأطرده من اجل خاطرك .. اخلع الفوطة ياولد
النقاش : يامعلم .. لك الشكر كله ..
المعلم : يهمني رضاكم .
النقاش : راضيا .. ابقاك الله لنا .. ودكانك عامر
المعلم : يعز علينا غضبك ورجالك معك .
(الفعله يرقصون في نشوة حول النقاش ـ يونس يخلع الفوطة ويلقي بها على الارض ـ يمتطى مائدة ـ يصفق ـ يهرول نحوه المعلم مستبشرا) .
المعلم : ابوه حاضر .
يونس : هات لي طبقا من مخ المعلم وشرائح من لحمه ـ سأدفع مقدما
(يخرج من جيبه نقودا يضعها فوق المائدة ، ليس هناك احد . احسن من احد)
المعلم : (مناديا) هات له طبقا من مخ المعلم ورطلا من كبده ـ سيدفع

الثمن مقدما ليس هناك احد لحسن من احد يتنبه لنفسه كيدى لن تذوقه ابدا يا ابن الغولة الغولة امك عموتى متاديا وقف الكلب (ليونس) انصرف من هنا .

يونس : العمله فى يدى . والمطعم للجميع .. لمن يمتلك الثمن .. لمن ليست يده فارغة .. لمن يركب كتفى المعلم المعلم تقدم نحوى انظر فى جيبى .. القروش تلمع .. انحن .

المعلم ينحنى قبل يدى المعلم يقبل يده قدم لى الاطباق بيبك يناوله الاطباق . قدم لى كوبا يروى عطشى (يناوله كوبا) امسح لى فمى يتناول فوطة) ويمسح له فمه .

المعلم : لتنصرف من هنا ؟

يونس : سأتناول طعامى ولتنصرف

(يرفع المعلم يده يهوى بها فوق وجه يونس - يظهر خط من الدماء تحت انفه - ينهض يونس متحسسا خيط الدماء - ملامحة تتغير بشكل مخيف - يتجه نحو الحانوت يخرج ممسكا بسكين - يتجمع الفعله حولهما) .

فاعل : من سيذبح من ؟

يونس : انا سأذبح الحانوت

النقاش : انه والدك

فاعل : هات السكين ياولد

يونس : ابتعد ادخل القدرة واختفى

الفاعل : سمعا وطاعة

المعلم : يرتعد ترفع السكين فى وجهى ياكلب

يونس : سأشق القلب بطعنة واحدة .. لابحث فيه عن وجه ابى

المعلم : انا سيدك . ابوك .. انا الاب ياغبى

النقاش : خذوا منه السكين يارجال

يونس : واترك الحانوت كما هو

النقاش : اخز الشيطان وانصرف

يونس : اخلع فوطته اولا .. لأرى القلب ولقمها واتمكن من تمزيق لحمه

المعلم : ياابن الحرام .. تأكل عيشى وتطرد زبائنى .. والآن ترفع السكين فى وجهى انا (للفعله) انتم شهود ماجرى

يونس : دعنى اراك خارج الحانوت ياابى .

ابتقدم النقاش من يونس متملقا ويتناول منه السكين دون مقاومة .

النقاش : انصرف الآن .. وغدا يحلها ربنا .

يونس : لهم غدا يموت الحانوت وتنهار جدرانه . ونعثر على جثته فى ملاحة ملح تاكله .

المعلم : يخلع فوطته - ثم يخلع قميصه ويشير الى قلبه . هنا اراد يونس الكلب طعنى فى المقتل

النقاش : (متزلفا) لم يعد فى العالم خير يامعلم - الكفر يملأ العالم كله ..

رجل : مات الآباء فى قلوب الابناء .

المعلم : (فى ذهول) فليتهى ماارادة .. فليطعننى فى المنتصف .. وينزف الدم من ثقبه .

النقاش : حد الله يامعلم .

المعلم : (لنفسه) ترى هل سيفعلها حقيقة ويضع قدمه فوق جثتى .

النقاش : لاتحزن يامعلم .. جنون اطفال فلا تهتم .

المعلم : (لنفسه) سأدخل التجربة ولو بطعنة سكين الحاضرين اغلقوا الحانوت .

النقاش : ماذا جرى يامعلم .

المعلم : الليلة يولد الحانوت من جديد او يموت .

النقاش : اخز الشيطان يامعلم .

المعلم : للحاضرين اجمعوا الكراسي والموائد يجمع الفعلة الموائد والمقاعد ـ يشد المعلم باب الدكان ـ ينصرف الجميع .

اللوحة الثانية

المنظر : كوخ من الداخل ـ يونس يدور منحنيا باحثا عن شيء لايرى ـ بيده مصباح بترولي ـ يقف معتدلا يضع المصباح جانبا .

يونس : شعر رأسي متناثر في الأركان ادور التقطه شعرة شعرة منذ لحظات كنت معلقا في خطاف حديدي يتدلى من سقف الكوخ وامرأة بنابين تجز جسدي بمذارة حادة .

تظهر امرأة وحشية المظهر بيدها مذراة .

المرأة : انطلق امامي ـ انطلق تحرك احمل اكواب الدم لهم .. الفعلة في انتظارك احمل الاطباق لهم التزم الطاعة والا اقتلك .

يونس : (برعب) اتركيني ابتعدي عني .. لست بقادر على حملك .

المرأة : سادعه ياتي ليقتلك

يونس : لن افعل سأقاومك دمائي تسيل لكني سأقاوم حتى المنتهى طرقات عنيفة على باب الكوخ .

يونس : انه في الخارج انه في الخارج .. انصرفي عني

(تختفي المرأة الطرقات تشتد) .

يونس : (للنظارة) تجبرني على الخروج لتعلقني فوق النار لياكل الفعله لحمي يضعونه في الاطباق ياكلوني ساخنا .

(يفتح الباب ، يدخل الفعلة باقنعتهم واشداقهم مفتوحة حمراء يرقصون حوله) .

يونس : لماذا جئتم هنا .. ماذا جئتم الى مكمني لن استسلم لكم .

(تعود الطرقات على الباب ينصرف الفعلة يلوذ يونس باحد الأركان تشتد الطرقات يفتح يونس الباب . يدخل المعلم متجهما وخلفه زوجته يقفان في منتصف الكوخ) .

المعلم : (بصوت متحشرج) اخرج من الركن (يخرج من جيبه مدية خذ المدية) .

الزوجة : (بفزع للمعلم) ماذا ستفعل له .

المعلم : ساعيد التجربة (ليونس) امسك المدية تناولها (يتناولها)

الزوجة : دعه فاللعبة خطرة

المعلم : والآن اطعني .. اطعني في القلب

الزوجة : ليونس لا .. لا .. لاتطعنه

المعلم : اضرب .. اطعني ولننته

الزوجة : للمعلم انا خائفة .. دعه في حاله ولننصرف

المعلم : (ليونس) اطعني اليس هذا ما تتمناه

يونس : (للزوجة) لو اقترب من سأطعنه .. سأطعن الأطباق والاكواب وجدران الحانوت والفعلة المتوحشين .

المرأة : (صارخة) لا .. لا يايونس ارم المدية من يديك .. ارمها .

المعلم : اطعني .. ولننته من كل هذا ..

اطعنى يابهيم

يونس : (للنظارة) فى كلماته الأخيرة رائحة ملل .. مل اللعبة ومع ذلك لو اقترب سأطعنه لن يهمنى وجود الثقب والدماء تنزف منه .. والجثة رمة ملقاة فى ملاحة ملح والرجال يشيرون : الابن قتل الاب . يجب الايقترب من المدية خطوة ، المدية حاميتى من جنونه .. السكين فى وجه القسوة .. المدية فى وجه الحانوت لو مدت القسوة . اصابعها لتخنقنى . فسأطعنها

الزوجة : انه ابوك يامجنون . الق بالمدية من يديك

يونس : اننى ميت من الرعب منه

المعلم : اقترب .. والرعب يفر

الزوجة : دعه وحده .. هيا نخرج من هنا

المعلم : لن نخرج حتى يفعل ما آمره

يونس : لاتضطرنى لأن اغمدها فى جسدك .. انت زوج الحانوت .. وانا زوج نفسى

المعلم : (لزوجته) من اجل اخوته شيدت الحانوت وهو يريد هدم جدرانة

يونس : اود ان اعانقك وابكى القى بالمدية فى عين الشيطان . ولكنك كوب ماء بشرية فاعل جائع يضع قروشا فى جيب الفوطة .. انت رعبى والمى انت

المراة : ذات النابين المخضبتين بالدماء .. لكن المذراة فى يدى سأطعنك بها

الزوجة : انتما مجنونان (للمعلم) .. فلنخرج من هنا بسلام

يونس : لو القيت بالمدية .. يحطمنى بجنونه انت شاهدة على غرابة حالنا

المعلم : عليك ان تنهى مأزقك بيدى

(الزوجة تنتحب)

المعلم : كفى عن نحيبك وغادرى مكاننا .

يونس : (للنظارة) فجأة انتهت اللعبة كما بدأت .. مل الحانوت الانتظار .. اختفت المراة ذات النابين سقطت المذراة من يدى

المعلم : اجمع ملابسك وغادر الكوخ الليلة .

(ينصرف المعلم ومعه زوجته يجمع يونس ملابسه ـ يطفىء النور ويغادر الكوخ من فوره) .

تجربتي مع جلجاميش

بقلم : د. عبد الغفار مكاوي



تنعكس الأحداث والكوارث على المثقفين بشتى الصور والأشكال ، فمنهم من يقاسي ويلاتها لو يذهب ضحيتها ، ومن يحلل أسبابها وتطوراتها ونتائجها تحليلا سياسيا واجتماعيا واقتصاديا ، أو يتتبع جذورها التاريخية الحديثة والقديمة ، أو يستقصي دلالاتها الفكرية والثقافية ... ، وقد شاءت المصادفة أن ينشغل الكاتب قبل المحنة الأخيرة بسنوات بحضارة وادى الرافدين القديمة وبالحكمة البابلية بوجه خاص . وعندما وقعت "أم المحن" كان قد بدأ في صياغة جديدة لدرة الأدب البابلي القديم وهي ملحمة "جلجاميش" . فكيف انعكست الأحداث الأخيرة على وجدان أديب عربي معاصر ؟ هذا هو الذي يتحدث عنه هذا المقال ...

وهل يمكن أن نجرب عملا تفصلنا عنه مئات ، بل ألوف السنين ؟ هل يستطيع إنسان يحيا "هنا والآن" أن "يدخل فى تجربة" مع ملحمة قديمة موغلة فى القدم ، مضى على أكتمال نسختها الأخيرة فى القرن السابع قبل الميلاد وفى العصر الآشورى الحديث مايزيد على ألفين وخمسمائة عام ، كما انقضى مايقرب من أربعة آلاف عام منذ أن ابتدأ تدوين أجزاء منها - بالخط المسماوى على الألواح الطينية - فى العصر البابلى القديم (من حوالى ١٨٩٤ - إلى حوالى ١٥٩٥ق .م) وإذا كان من الطبيعى أن تتوافر لمثل هذه التجربة شروط منهجية وأدوات بحثية لايملكها غير المختصين فى علم "الآشوريات" من المؤرخين والأثريين وفقهاء اللغات الشرقية القديمة ، وفى مقدمتها السومرية والأكدية السامية ، فهل تتسنى تجربة من نوع آخر لأديب شدته هذه الملحمة الشهيرة فقرأها وعايش أحداثها وتعاطف مع شخصياتها حتى دفعه الطموح الخطر "لقراءتها" قراءة جديدة ، ومحاولة "إحضارها" فى بؤرة الوعى ، وبث الحياة القديمة المتجددة فيها ، ووضعها على "خشبة" تاريخنا العربى الراهن الذى أغرقته المحن والمآسى والهزائم والأحزان ؟! وهل تجدى هذه المحاولة مع غياب "جلجاميش" عن الوعى العام المثقف فى بلادنا العربية - باستثناء قلة من



العلماء المختصين الذين ذكرتهم ، وأقل منهم من خاصة المثقفين - ومع القطيعة أو الانقطاع المعرفى والشعورى عنها مع اتساع الفجوة الزمنية الهائلة ، وتتابع دول وشعوب ، وتراكم نظم وقيم وخبرات لاحصر لها على الوعى منذ انهيار الدولة الأشورية (٦٠٩ ق.م) والسلالة البابلية الأخيرة أو الكلدانية (٥٣٩ ق.م) حتى الفتح العربي الاسلامى ومنه الى العصر الحاضر (من الفرس الأخيمينيين ٥٣٨ - ٣٣١ق .م إلى المقدونيين والسلوقيين ٣٣٠ - ١٢٥ ق.م والأرزاسيين أو الفرثيين ٢٥٠ - ٢٢٨ ق.م الى الساسانيين من ٢٢٤ ق.م الى ٦٥١ ب.م) - أضف إلى هذا أن جلجاميش لم يستطع بعد أن ينفذ فى الوجدان العربى كما فعلت على نحو من الأنحاء شخصيات ورموز أسطورية أخرى من حضاراتنا القديمة مثل إيزيس وأوزوريس وتموز وعشتار ،

تجربتي مع جلجاميش

كما أن المبدع العربي – في تقديري على الأقل ! – قد قصر حتى الآن في استيحائها واستلهامها وتوظيفها كما فعل مع الشخصيات والرموز السابقة ومع غيرها من التراث اليوناني بوجه خاص – على الرغم من أن جلجاميش قد أصبحت جزءا لايتجزأ من التراث الانساني والعالمي ، وأن "الآخر" الغربي لم يتوقف – منذ اكتشافها وفك رموزها وتحقيق نصوص ألواحها الاثنى عشر في أواخر القرن الماضي – لم يتوقف عن دراستها من كل جوانبها وأبعادها ، ولا عن ترجمتها الى لغاته الحديثة . ترجمات عديدة ، ولا عن استلهامها في أعمال أدبية وفنية وتشكيلية يصعب حصرها ..

كان أول لقاء لي مع جلجاميش – إذا صح تسميته بهذه الكلمة الدافئة الغنية بمعاني الحوار والمشاركة – والحضور – في سنوات الطلب قبل مايقرب من الثلاثين عاما .. فقد نبهني أستاذي الألماني إلى كتابين أكد أنهما من أهم الأعمال التي طبعت أثرا لايمحى في نفسه . كان العمل الأول هو كتاب الطاوية المقدس "تاو – تي – كنج" أو كتاب الطريق والفضيلة الصيني القديم الذي عكفت على نقله الى العربية عن بعض ترجماته الى اللغات الحديثة وظهر في أوائل الستينيات ، وكان العمل الثاني هو جلجاميش الذي قرأته في ذلك الحين في إحدى صياغاته الأدبية الحديثة التي عثرت عليها للأديب الألماني جورج بورخارت . لا أستطيع أن أصف تلك القراءة المتعجلة بأنها كانت تجربة ، إذ لم يتبق في ذاكرتي منها – حتى سنوات قليلة خلت – سوى بعض أحداثها وأشباح شخصياتها ، جلجاميش طاغية المدينة السومرية القديمة أوروك الذي حكم شعبها بالسخرة ودوى الطبل ، وبنى سورها الشهير وعددا آخر من معابدها وابراجها ، وأخذ الابنة من أمها والابن من أبيه والعروس من عريسها بالغصب والعسف حتى تضرع الناس لآلهة السماء أن يخلقوا له ندا ينافسه في القوة والبأس ويشغله عنهم ، وإنكيدو وحش البرية الفطري البريء الذي يرد الماء مع الحيوان ويرعى الكلأ مع الغزلان "وخوف الصيادين منه وشكواهم لطاغية أوروك الجبار الذي يبعث اليه بإحدى بغايا المعبد لكي تستدرجه الى أوروك – أو الوركاء كما سماها العرب – فيصارعه على أبواب معبدها ويكسب احترامه وصداقته التي أصبحت مثلا نادرا في الأدب العالمي كله ، ثم انطلاقهما في مغامرات وأسفار يقتلان فيها مارد غابة الأرز وحارسها ، ويفجران غضب عشتار (إلهة الحب والحرب !) عليهما وعلى المدينة بعد أن صرعا الثور السماوي الذي أرسلته لتدميرهما انتقاما من رفض جلجاميش عرضها

المغرى بالزواج منه - ربما حفظت الذاكرة كذلك آلام إنكيدو على فراش الموت ، وصراخ جلجاميش ودهشته وذعره من "حظ البشر" ، واغترابه عن أوروك وأهلها بحثا عن الخلود الذى استأثرت به الآلهة وحرمت منه البشر .

لن أحاول إذن عرض "جلجاميش الجديدة" لأن هذا عبث لاطائل وراءه ، كما أنه أمر متروك للقراء والنقاد فى مستقبل الأيام ، ولذلك أكتفى ببعض الاشارات واللمحات التى يمكن أن تكون لها دلالتها على أشواك الحاضر المرة وجذورها البشعة الضارية فى أغوار الماضى ..

● محاكمة جلجاميش !

يبدأ السطر الأول من اللوح الأول للملحمة كما هو معروف بهذه العبارة التى سميت بها : "هو الذى رأى" ولابد أن القارىء الذى اطلع على الملحمة يتذكر بقية العبارات التى تمجد جلجاميش وتبرز الوهيته التى غلبت على بشريته . فثلثاه إلهى - فى نظر الشاعر الأصلى الذى عاش حوالى سنة ١٢٠٠ ق.م - والثلث الباقى بشرى فان : هو الذى رأى كل شىء حتى تخوم البلاد ، هو الذى عرف البحار وأحاط علمه بكل شىء ، هو الذى تغلغل ببصره فى الهاوية المظلمة ، وامتلك الحكمة وتعمق كل الأشياء ، ورأى الأسرار وكشف الخفايا ، وجاء بأنباء ما قبل الطوفان" ..

يحوى العنوان الجديد كل دلالات العمل ، فقد أصبح "هو الذى طغى" .. وتحته وضع عنوان فرعى هو "محاكمة جلجاميش" - ولذلك تبدأ اللوحة الأولى من لوحاته الدرامية العشر بمحاكمة شاملة تشارك فيها شخصيات وأزمنة متعددة : فالراوية الذى يظهر فى البداية وهو يقلب "الواح الملحمة" ويعيد قراءة وتذكر بعض سطورها يعبر عن دهشة العربى المعاصر الذى يفاجأ بأصوات عميقة متداخلة تمجد جلجاميش : جلجاميش ! الملك الحكيم ، والبطل الوسيم ، أو تجسد رعبها الذى لم يقلل منه مر الآلوف من السنين : جلجاميش طاغ جبار ، جذوة نار ، يقتل فى ثورة غضبه ، ويفيض الألم بشعبه - ويفصل صوت من الجموع التى تقد على الخشبة مظالم طاغية أوروك الذى اقترن تأليهه وتمجيده بصبِّ لعنات المظلومين على رأسه : لايترك إبنا لأبيه ، ماض فى الظلم الفادح ليل نهار ، هو ثور هادر ، وحش غادر ... ويسأل الراوية هذه الجموع عما تريد فتجيب قائلة : جئنا لنحاكم جلجاميش ، نشكو للعصر الحاضر من ظلم العصر الغابر - ولكن من الظالم ومن المظلوم ؟ من سيحاكم ومن القائم بمحاكمته ؟ إن جلجاميش الذى يظهر بالقرب من السور أشبه بكومة بشرية يتصاعد منها الأنين على الحلم المستحيل والخلود الضائع ، ملتزم

بالصمت المطبق . والراوية - ابن الزمن الحاضر - يسأل شيوخ أوروك الذين شهدوا المحنة وجاءوا يحاكمون ملكهم وبطلم القديم : من سيحاكمه ؟ أنتم ؟ نحن ؟ فترد عليه الجوقة : سنحاكمه ونحاكم أنفسنا معه . باسم العدل وباسم الظلم . باسم الأرملة الثكلى والشيخ العاجز والأب والام - ويبدأ الراوية فى سؤال شخصيات الملحمة التى تقدم نفسها واحدا بعد الآخر . لعلها تعينه على فهم ما استغلق عليه من سطور الشاعر القديم الذى نسج مأثورا شفاهيا وكتابيا عمره مئات السنين فى نسيج عبقرى أصيل . وفى لغة عفوية بسيطة تكتفى بالتلميح دون التصريح ... وتبدأ الشخصيات الهامة فى تقديم نفسها والادلاء بشهادتها على الزمن الذى عاشته وذاقت مغامراته ومآسيه . كما تواصل جوقة الشيوخ تعليقاتها الحكيمة الغاضبة من برج "اللازمن" وكأنما تعبر عن "الضمير الجمعى" لهذه المنطقة من العالم وسكانها الأموات والأحياء ، أو كأنما تحذر وتنذر من رعب أكبر من هذا سوف يجىء" على حد قول المرحوم الشاعر الكبير صلاح عبد الصبور ...

بعد أن يستمع الراوية من أصوات الجموع الى قصة لجوئهم لآلهة السماء لتخلق منافس جلجاميش الذى سيشغله عنهم ويتقذهم من ظلمه ، ثم قصة وحش البرية وخوف الصيادين منه على نحو ما ذكرت من قبل ، تظهر "شمخات" فى عمق المسرح فيهتف الجميع : شمخات ! بغى المعبد ! فترد عليهم قائلة : بل قولوا كاهنة الحب قاربنى وحنوت عليه ، عانقنى فرويت العطش وأشبعت الجوع وهدهدت القلب ، يوما يومين ، سبعة أيام وليال نصل الصبح مع الليل ، والى أوروك قدت خطاه على الدرب ، كما تفعل لم مع طفل .. ثم تروى باختصار يليق بهذا التقديم المختصر كيف علمته أن يلبس الثوب ويأكل الخبز ويذوق مع الناس رحيق الخمر ، وكيف حولته من وحش الى انسان ، وعلقت عليه آمالها وآمال أخواتها من بنات أوروك وأهلها فى "إنقاذ" المدينة من بطش الطاغية .. ثم كيف أحبته حبا صامتا لم يفطن إليه ، وحذرته من المستبد الأنانى الذى لم يشغله إلا "شهرة اسمه" ومجده وخلوده المزعوم ، فلم ينتصح ولم يكترث بالتحذير .. حتى تبدد حلمها وحلم أهالى أوروك فى إنكيدو المنقذ ، عون المظلوم التعس وأمل الشعب وذلك على النحو الذى سيفصل فيه القول بعد مشهد الاستهلال تفصيلا شديدا يساير مواقف الملحمة وأحداثها خطوة خطوة ..

وبعد أن يتطرق الشيوخ الى الخراب الذى حاق بأوروك بسبب جبروت جلجاميش ، ثم بسبب مغامراته العقيمة بحثا عن المجد الزائف

والخلود المستحيل ، يظهر شبح المسكين الطيب إنكيدو ، من عالمه السفلى المرعب ، ليقدم نفسه للجمع الحاشد الذى ستعرض أمامه الملحمة بأكملها ليحاكم ويحكم عليه أو له : أنا انكيدو وحش البرية ، مازلت وفيا لعهود الحب وإن عهود القلب وثيقة ، وسواء سمانى الكتبة خادمه أو سمتنى الملحمة صديقه ، فلقد كنت ضحيته ، والسكين بيده ، والفأس المطروحة فى طرقات أوروك ، والنجم الثاقب يشتاق بريقه" .. ثم يتحسر من أعماق قلبه : آه كم حذرتك ياجلجاميش كم حاولت أردك لجموع الشعب لتبض القلب وأمر الحب .." ويتذكر رفيقه وصديقه الذى صاحبه فى مغامرات وأسفار لم تجلب عليه (أى على إنكيدو) غير الجراح التى أهلكته ، كما يشير من عالم الغيب الى الآلام التى عاناها هذا الصديق بعد موته ، وانطلاقه وراء حلمه المستحيل فى الخلود الالهى : آه كان حبيب القلب رفيق الدرب وكنت رفيقه ، وبكانى حين مرضت ، ولما اختطف الطير الصاعق روحى ، شبت فيه النار فلم يطفىء مر الأيام حريقه ... ومضى كالثور الجامح ، والنسر الجارح ، خاض بحار الموت ، غريبا يبحث عن حلم لايدركه البشر ، وما من حى يملك تحقيقه . آه ! كنت المصباح أضاء طريقه ، وسفينته فى بحر التيه وكنت غريقه .."

غير أن جلجاميش – كما يعلم القارىء – لم ينتصح . تملكته الرغبة فى تجاوز الموت الذى أخذ منه صديقه (والانسان الوحيد الذى أحس به) وفى التوصل للخلود حتى رجع من رحلته خاوى الوفاض إلا من اليأس والكمد – لقد عرف بعد ضياع نبتة الخلود ، أو شوكته البحرية التى دله عليها جده الخالد (إذ التهمتها الحية التى سماها البابليون أسد التراب فجددت جلدها ومازالت تجدده إلى اليوم وضيعت على جلجاميش وعلى شيوخ أوروك وشبابها وربما على البشرية بأجمعها كل أمل فى الشباب الدائم !!) أقول عرف المعرفة التى تولد الحزن والحسرة أبداً . ووصل إلى الحكمة الأليمة التى يحتمل أن تكون قد قالت له كما قالت لسقراط وكهنة معبد دلفى من بعده : إعرف نفسك والزم حدك ! ربما قالت له ذلك أو شيئا شبيها به ، إذ جعله شاعر الملحمة أو شعراؤها المجهولون يصيح من اليأس القطيع على أثر ضياع النبتة مباشرة : آه ! ماذا أصنع ؟ وإلى أين أوجه وجهى ؟ ضاعت منى النبتة ، راح الأمل وتاه ، لمن أضنيت يدى ، لماذا نزف القلب دماه ؟ آه ! ضاع العمر سدى ، لم أكسب شيئا ..

ويواصل العائدان – جلجاميش وأورشنابى – طريقهما إلى أوروك ويصيح جلجاميش مهللا بالفرحة الغامرة عندما يلمح من بعيد سور أوروك العظيم الذى اقترن باسمه حتى اليوم ، ويدعو صاحبه إلى تأمل بنائه الشامخ وتلمس أسسه وآجره المحروق

. وتحسس إفريزه النحاسي الذى يسطع فى الشمس كبريق الذهب .. تلك هى الخاتمة التى فاجأتنا بها الملحمة . لكننى سألت نفسى . ألا يمكن أن توجد للملحمة أكثر من نهاية ؟ ألا يحتمل أن يكون البطل الذى تبدد حلمه قد رجع لأوروك بعد غياب السنوات الطويلة فى مغامراته الطائشة وبحثه الأنانى عن الخلود والشهرة والمجد فوجدها مدينة مخربة مجدبة من الخضرة والحياة ، وفوجىء بتحطم سورها ومعابدها وأبراجها بعد غزو عدو من المدن المجاورة المعادية ؟ ثم ان ثمة احتمالاً آخر يمكن أن تضعه موضع الحسبان ، بدلا من الفرض السابق الذى يصور جلجاميش فى صورة مغترب او "لا منتم" عدمى لايملك فى النهاية إلا البكاء والصراخ على مجد عابر لايستعاد .. لذلك فكرت فى نهاية أخرى توحى بأن البطل قد "تطهر" بعد كل العذاب الذى قاساه ، وبعد أن تبدد حلمه المستحيل تحرر من الوهيته المزعومة التى نسبها إليه الكهنوت البابلى وحاولت أمه الحكيمة أن تنزع ثوبها عن جسده وروحه القلقة لترجعه إلى بشريته .. وتطهر من استبداده الأنانى وانتقل إلى "التحن" كما يقول الفلاسفة وعلماء النفس .. وبذلك يكون فى تقديرى استثناء نادراً أو ربما كان استثناء وحيدا بين طغاة الشرق القديم والوسيط والحديث .. لقد اقتنع طاغية أوروك فى النهاية - كما يقول معظم الباحثين والمفسرين وليس لى فضل فى ذلك ! اقتنع بأن الخلود الذى لهث وراءه مستحيل على البشر الفانين - وتأكد له خلال سفره الشاق الطويل أن الخلود الأبدى الذى كوفىء به جده أوتنابشتيم هو خلود ممل بلا حياة ، كما أن الخلود الذى قدمته له "سيدورى" مع كأس الخمر وبهجة لحظتها العابرة هو كذلك حياة بلا خلود ولا أبدية .. ولذلك انتهى على أرجح الآراء إلى أن الخلود الوحيد المتاح للبشر الفانين أثناء وجودهم على الأرض الفانية هو البناء الحضارى والعمل الذى ينفع الناس ويمكث فى الأرض إن كان سيمكث فيها شىء .. ولعله قد عرف بعقله أو شعر بحدسه وإلهامه أن الذكر للانسان عمر ثان كما قال شوقى فى رثائه لمصطفى كامل ، ولذلك يمد يده فى هذه النهاية المحتملة إلى أيدى مستقبليه من أفراد الشعب الذى انتظر عودته طويلاً ومعهم أمه وكهنته وحراسه .. وبعد أن يقوم بطقوس التطهير الواجبة ، ويستدعى روح صديقه إنكيدو التى تؤكد له ألا مفر من حظ البشر البائس وتصف له الأهوال التى تلقاها أرواح الموتى الذين يعيشون على التراب والطين فى العالم السفلى المظلم - كما تؤكد له أيضا أن الخلود الوحيد المتاح للبشر على هذه الأرض هو العمل

الباقى ـ بعد هذا كله يتجه جلجاميش نحو بوابة المدينة ويده فى يد أمه ، ومن ورائه الشعب الذى يبارك العارف المتطهر .. ويسأله الراوية ابن العصر الحاضر أن يتوقف ولا يتركه فى ليل الحيرة ، فهل رجع رجوع اليائس يحفر بيديه قبره ، أم عاد ليتطهر من كل خطاياه ويبنى أوروك العادلة الحرة ؟! .

ويرد عليه جلجاميش وكأنه يجيب على تساؤل الحاضرين والمعاصرين عن العبرة من الأمثولة التى عرضت عليهم ومثل هو فيها الدور الأكبر : انا جلجاميش عدت ومن أعمق أعماق الماضى ، مثلت الدور امامك مع اصحابى فكن الشاهد وكن القاضى ، انا جلجاميش من بابل ، لكن رغم ركام السنوات ومر المحن عليكم والنكبات ، فمازلت اعيش واتنفس فيكم ، نارى تتأجج تحت ثراكم ، يمكن ان تحرق حاضركم ، مستقبلكم ، والأمر يعود إليكم انتم ..

ويسأل الراوية مدهوشاً : يعود إلينا نحن ؟ ـ فيتردد صوت جلجاميش الضخم اثناء دخوله من البوابة : يعود إليكم انتم ، أن احكمكم بسوى الطبل واجعل منكم جيش السخرة والذل ، أو ازرع معكم زهرة امل ، ونقيم سوياً بيت الحرية والعدل .

قواعد المعمار فى السيرة الذاتية

بقلم : د . مصطفى سويف

● زوايا النظر الى السيرة الذاتية

تتعدد زوايا النظر الى السيرة الذاتية ، ومن المؤكد ان بعض هذه الزوايا لها مشروعيتها القائمة على اسس موضوعية لا يمكن تجاهلها او التقليل من شأنها . فالسيرة الذاتية تعتبر من وجهة نظر معينة قالبا ادبيا له مقتضياته ، يقف جنبا الى جنب مع الرواية ، والقصة القصيرة ، والقصيدة . وتعتبر من وجهة نظر اخرى وثيقة تاريخية اجتماعية ، تتشابك الأحداث الوارد ذكرها فيها مع احداث وتغيرات اجتماعية بعينها فتلقى عليها مزيدا من الأضواء وتكتسب منها معانى ودلالات اضافية . وتبدو من وجهة نظر ثالثة وثيقة نفسية تتيح لكاتبها قدرا من الاستكشاف المتروى لمعالم صورته الذاتية وما وراء هذه الصورة من عوامل اسهمت فى دعم هذه المعالم وتنقيتها من علامات كانت قائمة ثم لم تلبث ان تلاشت .

ولكن مهما تكن وجهة النظر التى تهم القارىء او الكاتب فمما لاشك فيه ان هناك امورا تشبه ان تكون مقامات مشتركة وراء وجهات النظر هذه . من شأنها ، اذا روعيت ، تعظيم الدور الذى تقوم به هذه السيرة . ولعل اكثر المقامات جذرية فى هذا الصدد هو ما يحقق متطلبات التعريف الذى اشرنا اليه من قبل ، من ان السيرة الذاتية حديث يتراوح بين الاعتراف والشهادة ، فى افضل صورة ممكنة .

● البناء والوظيفة

أن الميزة الرئيسية للتعريف الذى ارتضيناه أنه يقدم لنا اطارا على درجة عاليه من المرونة بحيث يسمح بتقبل اشكال مختلفة من السيرة الذاتية ، اشكال تختلف فيما بينها من حيث

في مقال سابق عن المقومات الاساسية للسيرة الذاتية قلت ان اغلب التعريفات المطروحة للسيرة الذاتية تؤكد انها الحديث يتراوح بين الاعتراف او الاقرار المباشر على النفس ، والشهادة وهى الاقرب للدلالة على الغير والعصر . وقلت كذلك ان المقومات التى تقوم عليها السيرة الذاتية متعددة ولكن اهمها اربعة ، هى الذكريات الحرفية والذكريات التأويلية والذكريات الممزوجة والاسوار الكاشفة واصبح السؤال الملح بعد ذلك هو ما يأتى : هل هناك طبيعة تسمى الذاكرة لهذا المعمار وما الذى يملى هذه الطبيعة

التوجه الرئيسى الذى يحكم حركة الكاتب نحو مزيد من التركيز على ذاته فتصبح السيرة اقرب الى الاعتراف ، او نحو مزيد من التركيز على من حوله وما يحيط بهم فيصبح الحديث اقرب الى الشهادة . ومع ان التعريف الذى فضلناه يتسع ليقبل بداخله هذه التنوعات مهما بعدت المسافات بين بعضها البعض فان هذا لا يمنع من النظر فى هذه الاشكال وتحليلها من وجهة النظر الوظيفية ، وهو تحليل لابد ان ينتهى بنا الى الاجابة عن اسئلة تدور حول محورين .

احدهما محور الوظائف التى تؤديها مكونات السيرة نحو بعضها البعض ونحو البناء الذى يضمها جميعا ، اى محور الوظائف الداخلية .

والثانى هو محور الوظيفة او الوظائف الخارجية ، وهو المحور الذى يتعلق بما تقدمه السيرة للآخرين من القراء والمتلقين بوجه عام . ولن يتسع هذا المقال للحديث عن الوظائف الخارجية ، ومن ثم فسنرجىء الحديث عن هذه الوظائف الى مقال اخر . اما محور الوظائف الداخلية فلابد من تناوله فى المقال الراهن لأنه لا سبيل الى الحديث عن معمار السيرة الذاتية بدون الرجوع اليه .

تتضح قيمة محور الوظائف الداخلية اذا وضعنا نصب اعيننا منذ البداية ان كاتب السيرة يقصد منذ الخطوة الاولى الى استشفاف بناء او نمط او قالب يقوم وراء احداث حياته ، ثم يحاول ان يقدم لنا الاحداث وقد صبها فى هذا القالب . هذه حقيقة لابد من التسليم بها كنقطة بداية للتفكير فى هذا الموضوع . ولابد من التسليم بان هذه المحاولة انما يقوم بها كاتب السيرة بغض النظر عن مدى تنبهه لها واصراره عليها واتقانه اياها .. والدليل على ذلك انه يختار ان يروى بعض احداث حياته دون البعض الاخر ،

تعاونه فى ذلك ذاكرة هى نفسها اداة انتخاب تسجل بعض ما يمر بصاحبها من وقائع وتسقط فى هوة النسيان بعضها الآخر . كما ان كيفية التسجيل الذى تقوم به لا يكون محايدا تماما . وإذن فهناك اختيار اراد الكاتب ام لم يرد ، والاختيار معناه القصد ، فى نهاية المطاف ، الى تقديم صورة بعينها مهما يكن حكمنا على هذه الصورة او هذا الشكل او القالب . هذه هى نقطة البداية التى تملى بعد ذلك نوع التحليل الوظيفى الذى يلزمنا ان نقوم به . وهو بالتالى تحليل يقوم على الاجابة عن سؤال مؤداه : هل قامت الأجزاء بالتساند فيما بينها لتوضيح معالم القالب وتزويده بدرجة معقولة من التوازن والاتساق ؟ وكيف قامت بهذا التساند ؟ وهل كان ذلك على حساب الصدق ام على حساب الحشو ولغو الحديث ؟ فاذا قام التساند على حساب الحشو المبتذل فذلك امر مطلوب ، اما اذا تم على حساب الصدق فذلك امر مرفوض .. ولا يجوز ان نخشى فى هذا المقام من وقوع تعارض بين مطلب الصدق ومطلب التساند بين جزئيات السيرة كما نقدمها ، فالصدق لا يعنى بالضرورة رواية جميع الاحداث الجزئية ، انما الصدق يعنى ان يكون ما نختاره من بينها ممثلا فعلا للتوجه العام للاحداث ، ثم بعد ذلك يستوى ان اقدم من هذه الاحداث خمسة او خمسين او خمسمائة . هذا منطق واضح وبسيط وينبغى ان يكون مقنعا ، وهو هو المنطق نفسه الذى نتحدث عنه فى الدراسات العلمية تحت عنوان «صدق تمثيل العينات» لمجال بعينه من الظواهر التى ندرسها ، فليس المهم فى العينة بمعناها العلمى ان تكون كبيرة الحجم او متوسطة او صغيرة ، ولكن المهم ان تكون صادقة فى تمثيلها جمهور المشاهدات الممكنة فى هذا الميدان او ذاك . كذلك الحال فى اختيار ما نختار فى كتابة السيرة الذاتية ، ليس مهما ان نسرد اكبر عدد من أحداث الحياة ، لكن المهم (اذا كان الاختيار امرا لابد منه ، وهو كذلك فعلا) ان نحسن اختيار ما يمثل التوجه العام لهذه الاحداث ، وأن يأتى ما نختاره متساندا لامتضاربا ومتنافرا .

هل يكون فى ذلك اى افتئات على حقائق الحياة ؟ ينفر البعض من هذا الحديث خشية ان يؤدى بالكاتب الى فرض نظام او تنظيم على احداث حياته ليس فيها اصلا . وتلك خشية فى غير موضعها ، لأن الكاتب الذى يبذل الجهد الواجب فى هذا المقام لن يفرض نظاما بعينه على احداث الحياة . بل سيوجه جهده الى اكتشاف النظام القائم اصلا بينها ، وهو جهد مماثل لما يقوم به العالم فى دراسته مجالا بعينه من مجالات الظواهر الحية او الظواهر السلوكية ، وهو جهد مماثل ايضا لما يقوم به الاديب او المصور او المشتغل باى فن من الفنون ، إنه يسعى الى اكتشاف النظام القائم بين التجليات

التى يركز النظر فيها ، ولا يمكن القول بانه يسعى الى فرض نظام بعينه على تلك التجليات . والا كان فنه او ادبه زائفا لا قيمة له . ولست ارى فرقا بين كتابة السيرة الذاتية وتصوير المصور للبورترية الشخصى ، إن المصور لا يقدم ما يمكن للكاميرا ان تقدمه ، بل يقدم ما يخفى على الكاميرا ، ومع ذلك فهذه هى صورته ، وقد زاد عليها وضوح القسمات والافصاح عن الدلالات . وكذلك كاتب السيرة الذاتية ، ليس مطلوبا منه ان يقدم ما تقدمه السجلات ، لكن المطلوب والمفروض أن يقدم ما تعجز عنه السجلات ، وما يشف فى الوقت ذاته عن السمات والتوجهات .

● الدلالة الاجتماعية للاحداث الشخصية

من الأمور التى يلزمنا ان نتذاكرها دائما فيما بيننا ان الأوزان التى نعطيها لاحداث حياتنا الشخصية كما نعيشها تختلف فى معظم الاحيان عن اوزانها فى نظر الآخرين ممن يحيطون بنا ، وان هذا الاختلاف لا يتجه بالضرورة وجهة واحدة ، نحو خفض هذه الأوزان او نحو زيادتها ، لكن الأمر يتجه احيانا الى الخفض واحيانا اخرى الى الزيادة فللمجتمع معاييره واعتباراته التى تختلف فى هذا الشأن عما يحرك مشاعرنا الشخصية بعنف او برفق . كذلك يلزمنا ان نتذاكر فيما بيننا ان المجتمع فى جبهاته او دوائره الثقافية عندما يطلب الينا ان نقدم له سيرتنا الذاتية فهو لا يطلبها لاهتمام بجزئياتها من حيث هى جزئيات على هذا النحو دون ذاك ، ولكن لما تدل عليه هذه الجزئية او تلك من دلالة او معنى او فاعلية خاصة فى توجيه الاحداث . فلا يهم المجتمع اننى التحقت فى صباى بمدرسة الظاهر الابتدائية او بمدرسة محمد على او مدرسة القربية ، ولكن قد يهمه اننى التحقت فى تنشئتى المبكرة بالمدارس المصرية مما كان له اثر فى تكوينى الفكرى ربما اختلف لو اننى كنت قد التحقت بمدارس اجنبية . هذا امر يلزمنا دائما ان نتذاكرة فيما بيننا عند كتابة السيرة الذاتية ، سواء كنا نكتبها تلبية لدعوة ، او تطوعا منا . وبالتالى فان ما اسميناه فى مقالنا السابق بالذكريات العارية ، وهى الوقائع الخام التى تتألف منها احداث الحياة (كما نذكرها) انما تكتسب قيمتها بما يرتبط بها من دلالات وما تشف عنه من توجهات ، وهو ما يسلمنا مباشرة الى المستوى الثانى من مكونات السيرة . وهى الذكريات التأويلية ، ويقصد بها الذكريات التى يقدمها كاتب السيرة محملة فعلا بالمعانى والدلالات لتستقيم بشكل ما مع الاتجاه العام للسيرة . وتتراوح هذه الذكريات التأويلية فى مجموع الاشكال التى ترد بها بين وقائع ينسج الكاتب حولها معانى تجعل منها رموزا او مؤشرات تشير الى امور تتحقق فى فترات من العمر مصاحبة او لا حقة ، وتأويلات

خالصة ليست معلقة على وقائع بعينها .

خلاصة القول اذن ان الوزن النسبى للذكريات العارية يجب ان يكون اقل من الوزن الذى نعطيه للذكريات التأويلية ، ولا يعنى ذلك بالضرورة ان يكون الفرق بين النوعين فرقا فى الكم ، ولكن يعنى انه يجب ان يكون اولا وقبل كل شىء فرقا فى الدور الذى يقوم به كل من النوعين فى تصميم المعمار الذى نشيده بسيرتنا الذاتية ؟ فالدور الاكبر لابد وان يكون للذكريات التأويلية ، اما الذكريات العارية فتأتى فى المقام الثانى ، وتكتسب معظم وزنها مما تقدم من دعم او توضيح واثراء لما تنطق به الذكريات التأويلية من دلالات . وقد يتراءى للبعض ان هذا من شأنه ان يقضى على خصوصية السيرة الذاتية كقالب ادبى ، فتصبح اقرب الى المقال الذى لا يقدم القارىء احداث الحياة بقدر ما يقدم له استخلاصات مجردة ، وهذا توقع لا مبرر له ، لأن المشكلة التى نحن بصددها ليست فى ان نقدم الذكريات العارية او لا نقدمها .

انما المشكلة فى الكيفية التى نقدم بها هذه الذكريات ، وفيما ننتخبه من بينها وما لا ننتخبه ، وفى الدور الذى نسنده اليها داخل شبكة الادوار التى نسندها الى مختلف انواع المكونات الاساسية للسيرة الذاتية . نحن على بينه تماما من انه لا غنى للسيرة الذاتية عن الذكريات العارية ، ولكن الأمر المهم هو ان نكون على بينه ايضا من ان السيرة الذاتية ليست سجلا من سجلات الدفترخانه ، فاذا اردنا العثور على تشبيه يفيدنا فى امر هذه السيرة الذاتية فلنقل انها كيان ادبى يقع فى المسافة بين الرواية وسجلات التوثيق ، فهى اكثر عيانية من الرواية ، واقل احتفالا بالجزئيات من الوثيقة الرسمية .

فى هذا السياق تحتل الذكريات العارية المرتبة الدنيا فى الاهمية ، ويكون دورها الرئيسى مساندة الذكريات التأويلية التى تقوم بدور نقاط الربط والتجميع واكساب الدلالات . وفى هذا السياق نفسه تقوم الذكريات التى اسميناها فى مقالنا السابق بالذكريات المتوهجة بدور الربط والتجميع ايضا ، تماما كما تفعل سائر الذكريات التأويلية ، كل ما فى الأمر ان الذكريات المتوهجة تكون قدرتها على الربط والتجميع اقوى من كثير من الذكريات التأويلية ، بل انها تربط بين هذه الأخيرة بعضها البعض ، وبذلك تصبح وحدات تنظيمية عالية المستوى تتحكم فى مساحات واسعة من المعانى والدلالات المتشابكة .

● الدلالة الشخصية للاحداث الاجتماعية

ويبقى بعد ذلك المكون الرابع من بين المكونات الرئيسية للسيرة

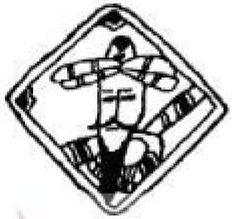
الذاتية ، وهو ما سبق ان اسميناه الأنوار الكاشفة ويقصد به الاشارة الى مواضع الالتقاء فى ذكرياتنا التى نودعها السيرة الذاتية بين مضامين تتعلق باحداث شخصية اخرى تدور حول احداث اجتماعية قومية او دولية . مثال ذلك ان تتجمع امامى مجموعة الذكريات الشخصية التى كنت اعايشها لحظة ان سمعت من الاذاعة المصرية اول نبأ باندلاع حرب اكتوبر سنة ١٩٧٣ . او تلك التى اقترنت باللحظة التى قرأت فيها انباء هزيمة الولايات المتحدة الأمريكية فى فيتنام سنة ١٩٧٥ . وقد سبق لنا القول بأن تسجيل هذا الاقتران على شريط الذكريات يكون هو نفسه فى كثير من الاحيان مصدرا لتوليد طاقة ذات جهد عال فى تثبيت مجموعة من الذكريات الشخصية ، وتضخيم قدرتها على اجتذاب اعداد كبيرة من الذكريات المفردة (العارية او التأويلية) والحاقها بجسم النور الكاشف . وكأنها بذلك تزيد من قدرتها على مقاومة النسيان وعلى الافصاح عن ابعاد جديدة لما تحمل من معان او دلالات .

إن هذه النقطة شديدة الاهمية ، وترتكز اهميتها على عدة اعتبارات لا اعتبار واحد ، فهى من ناحية جزء مما يمكن ان نسميه البعد النفسى لاحداث المجتمع والتاريخ . وبقدر ما تلقى من عناية لدى كتاب السيرة الذاتية تتيح الفرصة لتعاظم هذا الجزء بحيث نامل فى نهاية الأمر فى ان تلقى مزيدا من الضوء على جانب معتم من التاريخ كما نعرفه فى معظم كتابات المؤرخين . وهى من ناحية اخرى وسيلتنا الرئيسية التى نقترب بوساطتها من جعل سيرتنا الذاتية تقترب من قطب الشهادة (من حيث هى اقرار على الغير وعلى العصر) ليتوازن بصورة معقولة مع الاتجاه بها الى قطب «الاعتراف» (من حيث هو اقرار على ما يخص الذات) . وهى ناحية ثالثة يمكن ان تقوم كاساس هام لتجميع الذكريات وتصنيفها واكسابها دلالات ذات افاق اوسع من اشخاصنا . هذه الفئة من الذكريات ، فئة الأنوار الكاشفة محيث الاقتران بين العام والخاص فئة بالغة الاهمية ، لا لشىء الا لانها واسطة العقد بين سيرتنا وسيرة مجتمعنا ، هى ملتقى طرق بين حركة الكون الصغير الذى هو نحن . والفلك الذى يسبح فيه الكون الكبير (الذى هو مجتمعنا او عالمنا) ، فاذا اضفنا الى ذلك انها بؤرة شديدة الفاعلية فى تجميع عدد كبير من الذكريات على اختلاف انواعها (العارية والتأويلية والمتوهجة) ادركنا الى اى مدى يلزمنا العناية بها لانها يمكن ان تقوم بدور الركائز التى تغرس البنيان فى اعماق الأرض التى نشأنا فى رحابها ، كما انها تقوم بدور الاطار العام الذى يضم السيرة برمتها او يضم قطاعات كبيرة منها فيرقى بها الى مستويات من الدلالة لم تكن لتتسنى لها لو لم تنتظم داخل هذا الاطار .

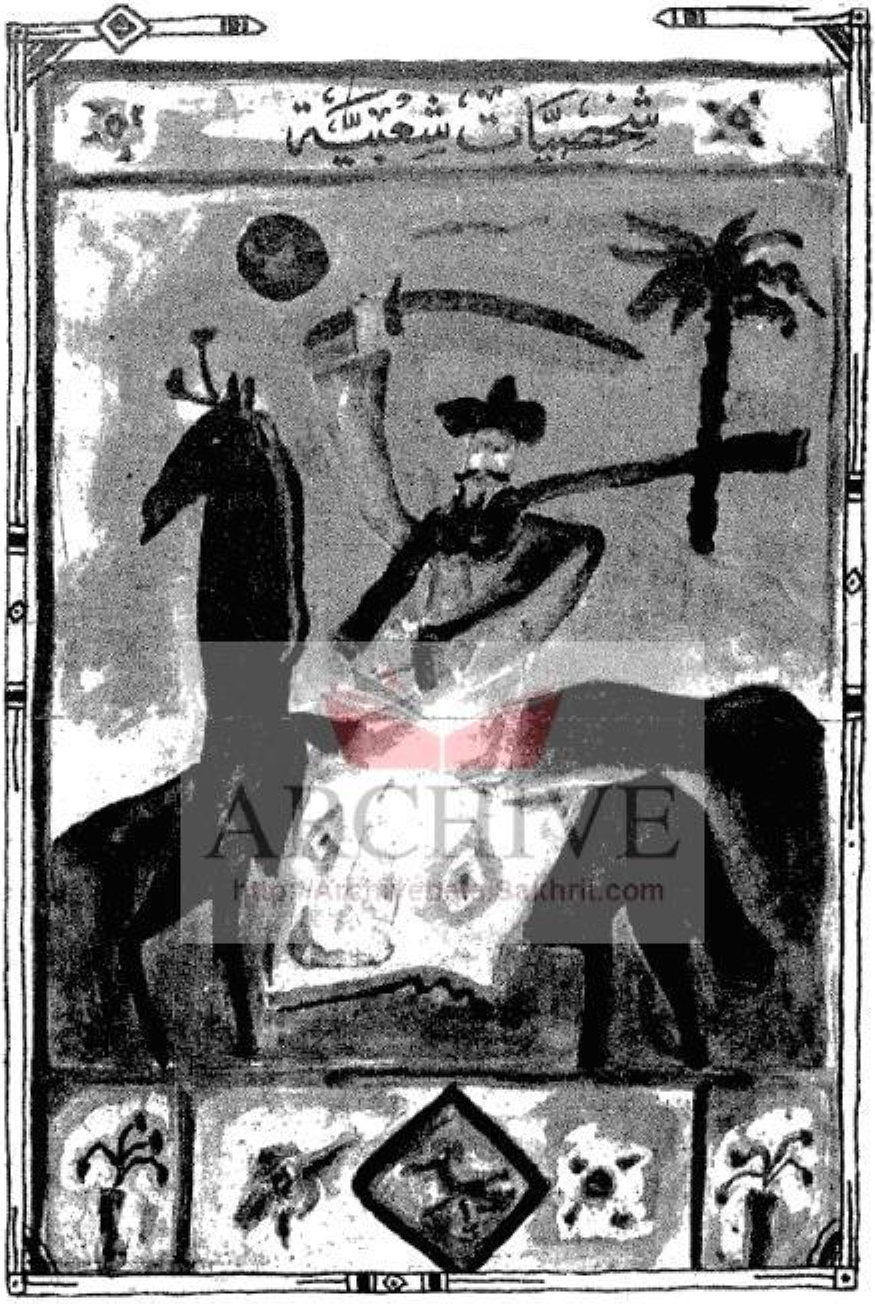
الفارس التائه

قيس بن زهير العبسى

بقلم : فاروق خورشيد



تكثر فى الحكايات الشعبية العربية والعالمية ، شخصية الرجل التائه .. او البطل الذى ينفصل عن واقعه المعاش ، وعن بيئته ومجتمعه ، ليظل غريبا تائها ، بعيدا فى الزمان ، وبعيدا عن المكان إلى حين محدد يعود بعدها او لايعود للالتصاق بواقعه ومجتمعه ، وربط نفسه من جديد بعجلة الزمن التى انفصل عنها حينا ، وقد توافق الحكايات الشعبية القصص التى ينقلها المؤرخون ، يثبتونها فى كتبهم باعتبارها حقائق تاريخية ثبت صدقها عندهم ، وهنا يلتقى الحس الشعبى المرهف فى استغلاله للشخصيات ، والرامز فى توظيفهم فى أحداثه الدرامية ، مع الشخصيات التى قبلها المؤرخون ، واثبتوا عنها هذه الغربة ، إما استسلاما لقوة الحكاية الشعبية وثباتها فى قلوب الناس والرواة ، وأما استغلالا لها لاثبات معنى ، أو تحديد موقف من هذه الشخصية التاريخية والشعبية معا ، وهناك شخصيتان عربيتان متفقان فى وجودهما الشعبى والتاريخى على السواء ، واحدة من الجزيرة العربية قبل الاسلام هى شخصية قيس زهير العبسى أو قيس الراى ، والثانية من مصر الفاطمية هى شخصية الحاكم بامر الله الفاطمى ..


شخصيات شعبية

والحاكم بأمر الله الفاطمي شخصية عجيبة اختلف حولها المؤرخون ، سواء في رسم حياته وفكره ، أم في ذكر أمر موته أو اختفائه .. ولعله دخل دنيا الحكايات الشعبية بعد وفاته لما حفلت به حياته من أعاجيب تندر بها المصريون وذكرها المؤرخون . ولعل اختلاف المؤرخين في أمر وفاته ، فتح بابا لهذه الحكايات الشعبية لتزدهر وتزداد خصبا وتشابكا وغرابة .

أما بطلنا الجاهلي فهو قيس بن زهير ، أو قيس الرأى شيخ قبيلة عبس ورأسها المفكر .. وقد دخل قيس دنيا الأدب الشعبي العربي من أوسع الأبواب . حين استلفتت شخصيته اهتمام كتاب أشهر السير الشعبية العربية على الاطلاق ـ أعني سيرة عنترة بن شداد ، ليدمجوا أسطورته المتداولة عند مؤرخي أيام العرب ، داخل أحداث السيرة الشعبية نفسها .. وهذا أمر يتكرر كثيرا عند كتاب السير الشعبية ، إذ يتابعون المحفوظ من الشخصيات التاريخية التي تدور حولها أحداث غريبة تقترب من الاضافات الشعبية والخيالية الى حد كبير فيلتقطونها ، ويبحثون عن مبرر روائي ، أو يخلقون هذا المبرر خلقا لتوظيف هذه الشخصية التاريخية وماتدور حولها من أحداث خيالية ، داخل أعمالهم الشعبية ، وداخل الأحداث الروائية لأبطال السيرة .. وقد فعلت سيرة عنترة هذا حيال العديد من الشخصيات المعروفة في التاريخ العربي قبل الاسلام .. وادخلت هذه الشخصيات ضمن نسيجها الروائي . فعروة بن الورد ، أو عروة الصعاليك كما كان رجال الأدب وكتاب الأيام يسمونه ، يصبح بكل ملحكته عنه الروايات القديمة جزءا متلاحما مع أبطال عنترة . وكذلك الأمر بالنسبة للأبطال الصعاليك كالشنفرى وتأبط شرا ، ولمشاهير الفرسان كدريد بن الصمه والربيع بن زياد ، وزيد الخيل ، ولمشاهير عرفوا بحكايات متداولة لسلوك معين كحاتم الطائي ، أو زهير بن أبي سلمى ، أو النعمان بن المنذر ويوم بؤسه ويوم نعمه .. بل لقد وظفت السيرة الشعبية شعراء المعلقات جميعا في أحداث السيرة بمهارة روائية فائقة . مستغلة كل مايمكن استغلاله مما عرف عن هذه الشخصيات لادماجه في النسيج الروائي لها ، وتوظيفه في الأحداث الدرامية لبطلها . ولم يكن كتاب سيرة عنترة في حاجة إلى البحث عن مبرر لادماج شخصية قيس بن زهير في أحداث السيرة .. إذ أنه لعب دوراً هاماً في حياة عبس وذبيان ، وتكرر ذكر اسمه في أحداث الأيام العربية التي تناولت حروب عبس ، وأيامها المتعددة .

● أيام العرب

والعرب قد حفظوا هذه الأيام ثم دونوها وغدت هي التاريخ الوحيد الذي نعرفه

عن تاريخ شمال الجزيرة قبل الاسلام . ويقول الدكتور حسين نصار فى كتابه (نشأة التدوين التاريخى عند العرب) ص ٥ : إذا أجهدنا أنفسنا باحثين عن أى نوع من الكتابة التاريخية فى العصر الجاهلى ، لم نكد نظفر بشىء ، حتى البلدان المتحضرة التى كنا نظن أنها تحرص على تسجيل حياتها ورقيها ، مثل اليمن والحيرة وغسان ، لم يصل إلينا منها كتب تاريخية أيضا ، وكان تاريخها نسيا منسيا لدى العرب ، سكانها أو غير سكانها ، ولذلك دخلت عليهم الأباطيل والخرافات عندما ارادوا الكتابة عنها بعد ظهور الاسلام ، وحلق بهم الخيال فى الأجواء ، حتى مانستطيع أن نركن إلى حقيقة مايقولون .. وإذا كان هذا هو الحال فى تواريخ المناطق التى اسماها الدكتور نصار بالبلدان المتحضرة فما بالك بأحاديث البادية ، وأعلام المناطق البعيدة عن بؤر الحضارة التى عددها تلك ؟ ثم يقول الدكتور حسين نصار فى ص ٦ من كتابه هذا : ولكن العرب على الرغم من ذلك عرفت نوعا من التاريخ الشفهى ، فقد كانت القبائل تروى أيامها : حروبها وانتصاراتها ، لتفخر بها على القبائل الأخرى ، سواء كان ذلك شعرا خالصا أو نثرا تتخلله الأشعار .

من هنا دخل أبطال هذه الأيام إلى سيرة عنترة بن شداد ، ومن هنا أيضا دخلها قيس بن زهير ، وقيس يلعب دوراً ثانويا فى أحداث سيرة عنترة الأولى ، إذ يتصدر القبيلة فى هذه الأحداث ابوه زهير العبسى ، ولكن قيسا يقفز الى الصدارة فى الأحداث بعد موت أبيه زهير .. إذ تتحدد أمامه مهمة خطيرة جدا ، هى الحفاظ على تماسك القبيلة ووحدتها فى مواجهة أعدائها .. ويظهر قدرة وحكمة وعدالة كأن كاتب السيرة يحاول أن يحقق صحة الاسم الذى اطلقته حكايات الأيام عليه وهو قيس الرأى .. وهو يشابه فى شهرة الحكمة والرأى السديد هذه زهير بن أبى سلمى شاعر المعلقات الذى سعى بالسلام وحقن الدماء بين المتحاربين من عبس وأعدائها .. وكذلك دريد بن الصمه حكيم العرب الذى استطاع أن يجمع العرب وقبائلهم المتفرقة لمواجهة الفرس فى واقعة ذى قار المشهورة ، التى سجلت أول انتصار للعرب على الفرس قبل الاسلام .. وقيس ينحاز إلى عنترة فى الخلافات التى تنشب بينه وبين كارهيه وأعدائه من عبس .. ومن الواضح انه كان يرى فى عنترة أمل القبيلة فى التوحيد تحت لواء فارس مهاب يخاف سيفه الجميع ، ويتمتع بشهرة تسبقه الى ميدان القتال فتوقع الهيبة والخوف فى قلوب أعداء عبس ، كما كان يرى فيه أمل عبس فى التفوق على الأعداء من ناحية ، وفى خلود الذكر ونصاعة الصيت إذ كان عنترة شاعرا يعترف الجميع بشاعريته ، ويتفوق على أقرانه الشداد من أبناء القبائل الأخرى ، شاقا

طريقه بسرعة وإصرار نحو الهدف الذى يسعى اليه كل شعراء الجاهلية ـ ان تكون قصيدة له واحدة من المعلقات التى تكتب بماء الذهب وتعلق على استار الكعبة ، وفى هذا شرف القبيلة كلها وبقاء لاسمها وفخار لأبنائها .. وقد كان حكم قيس القاطع هو الذى الزم مالك بن قراد ابا عبلة وعم عنترة بالوفاء بوعده لعنترة بالزواج منها ان هو احضر النوق العصافير من مراعى النعمان بن المنذر فى الحيرة ، إذ كان فى انتصار عنترة على جنود وفرسان النعمان الذين يحرسون مراعيه ، انتصار للبادية على الحضر المسالم للفرس والخاضع لنفوذهم ، والحامى لمصالحهم وأطماعهم فى الجزيرة نفسها .. وانتصاف قيس الراى ، او قيس بن زهير لعنترة فى قضيته هذه ليس انتصارا للعدالة وحسب ، وليس ارغاما لمن بذل الوعد أن يفى بوعده فقط ، ولكنه انتصار للرؤية المستقبلية التى كانت ترى فى هذه المناوشة التى قام بها عنترة ، وانتصر فيها ، ارهاصا بانتصار عربى وشيك على الفرس وأعوانهم من أهل الحيرة وفرسانها . فأحداث السيرة تجسد موقف قيس بن زهير الرافض للتبعية العربية فى الحيرة للفرس ، وفى الشام للروم . وتدخل السيرة قيس مع عنترة قائد الفرسان العرب الموحدين فى معارك مع الغساسنة مرة ومع المناذرة أخرى .. وتظهره الأصوات وكأنه العقل المدبر والرأس الحكيم الذى يوجه البطل فى معاركه ، ويحيلها من مجرد مغامرات فروسية يثبت بها البطل جدارته بالتفوق ، إلى صفحات دامية ومجيدة فى كتاب ضخم ينسج هو صفحاته ليكتب بها وحدة العرب ، وتكتلهم نحو هدف واحد ، هو خلاصهم من دول التخوم التابعة هذه ، ربما لخلاصهم من سطوة الروم والفرس التى تكبلهم ، وتوقعهم فى دائرة نفوذ هذه الدولة مرة ، وتلك الدولة مرة أخرى .

لقد حققت البعثة المحمدية هذا الحلم الذى يراود قيس بن زهير فى السيرة ، وكأن حلمه هذا ارهاص بما تحققه البعثة المحمدية من توحد للجزيرة ، ومن قضاء على دول التخوم التابعة ، ثم من القضاء على دولتى الفرس والروم جميعا .

لكن السيرة الشعبية تجهض هذا الحلم إذ يموت بطله عنترة ، ويموت بموته ماتحقق من وحدة اجتمعت على زعامته خوفا من سيفه وبطولته ، ويحاول قيس بن زهير عبثا أن يجمع ماتشتت ، وأن يعيد الروح إلى المعنى والأمل .. ولكن لم يفعل . فالتفاف القبيلة كان حول عنترة الذى يحميها من ناحية ويرهب اعداءها من ناحية ، ويرغمهم بقوة السيف على الانضمام الى القبيلة فى معارك موحدة تخوضها جموع العرب على اختلاف قبائلهم ضد الأعداء الداهمين للجزيرة وأهلها ، وموت عنترة يسمح للقبائل التى خضعت لزعامته ان تثور على هذه الزعامة وتتمرد عليها ، وتنصرف إلى شئون مجدها الخاص ، وتراثها الذاتى .. وموت

عنترة أيضاً يسمع تفرقة أن تدب من جديد بين بطون عبس نفسها فتتفرق القبيلة وينفرط عقدها ، ويقع قيس بن زهير بين شقى الرحا .. ويعرف المعنى الحقيقى لليأس والمرارة .. فيهرب قيس بن زهير ، ويترك عبسا كلها .. ويهيم على وجهه وحيدا تائها مغتربا فى الجزيرة العربية .

● الاحساس بالغربة

وهذا الحكم الدرامى القاسى الذى يحيل بطل الحكمة والعقل - قيس الرأى - إلى روح هائمة مغتربة فى الجزيرة ، تعنى أن الامل عنده قد مات .. وان تفكك العرب بموت عنترة ، حاصره ، وجعله يحس بالغربة الكاملة بين هذه الأجساد المفككة التى فقدت الروح والهدف .. فغربته إذن ترمز فى السيرة الشعبية ، وربما عند مؤرخى الأيام - إلى مرحلة الشتات والتمزق التى عاشتها الجزيرة العربية كلها قبل البعثة المحمدية - ان غربة قيس بن زهير هنا تحكى الضياع الذى كان يحسه العربى الواعى الذى كان يعيش الفرية داخل الأرض العربية ويحسها ، وقد تمزق كل شيء ، وتحطم كل مثل .. فيكون كل هذا ارهاصا فكريا واجتماعيا وسياسيا بالبعثة المحمدية التى اتت الى ارض تنتظرها بشوق لتعيد للقلب امله ، وللعمل الفاعل الواعى معناه وحدته ومضاءه من جديد .

ولكن قيس بن زهير هو الذى دفع الثمن بضياعه الدرامى ، وغربته التراجيدية الفاجعة التى لم يعرف أحد ابدا .. أين انتهت ، ان كانت قد انتهت حقا .. ولكنها بتكوينها وبدايتها واستمرارها تعلن أن الأدب الشعبى العربى لم يقصر ابدا فى القيام بدوره العميق والواعى فى التعبير الفنى الصادق عن هذه المرحلة الهامة من مراحل الحياة العربية .. مرحلة ماقبل ظهور البعثة المحمدية .. ويرسم بهذا الرمز الروائى تطلعها وشوقها الى رسالة توحدها ، والى بطل يأتى لها بالأمل ، ويجمع ماتفرق ، ويوحد ماتشتت ..

ويربط كتاب الأدب العربى ، وكتاب الأدب الشعبى العربى بين غربة قيس بن زهير وغربة مماثلة لبطل عربى قديم بل هو اقدم فى التاريخ من قيس بن زهير ، هو الحارث بن مضاض الجرهمى .. فيذكرون بيت الشاعر العربى :

غربة تقتضى مغربه قيس بن

زهير والحارث بن مضاض

والحارث هذا .. أو الجرهمى التائه حديث آخر فيه من التشويق والإثارة ، كما فيه من الابداع الشعبى الشيء الكثير .. من يدرى ربما عدنا اليه هو الآخر ، فهو يستحق وقفة متانية إن لم يكن وقفات .

شهريات

المُدن العربيّة الكبرى مشروع للمقارنة

بقلم : عبده جبير

●● لابد انك ستحس بالأسى العميق ، بعد ان تنتهى من قراءة هذا الكتاب ، خاصة إذا كنت من سكان احدى هذه المدن التى يعرض لتاريخها القديم ، فى العصر العثمانى "القرون الاربعة من ١٦ الى ١٩" لانك وانت تنظر حولك وتنظر ماجاء فى الكتاب ، ستجد المشكلة مجسمة امام عينيك . نعم ستحس بالاسى ، لان الروح الخاصة بهذه المدن ، فى ذلك العصر الذى لا يخلو من مثالب وعيوب ، كانت موجودة ، واضحة ، حية ، ونابضة ، والآن ، فإن هذه الروح قد تمزقت بين رحى عاملين لاشك هما واضحان للغاية .

الاول : هو ذلك الجانب ، او لنقل الهامش ، العشوائى الذى تغلغل فى اطراف واحشاء وقلوب هذه المدن من "المعمار" المشيد على عجل ، إن يكن عبر الهجرة المطردة من الريف الى المدينة نتيجة لسيادة روح الاستهلاك ، وتحول الانتاج من صيغة الصناعة والحرفة ، الى صيغة الخدمات التى تاكل الاخضر واليابس من اصيل العمل ، وقيمة العمل ، وهو مايبدو على هيئة ازمة عامة وشاملة ، لا فى المسكن فقط ، ولا فى التلوث فقط ، ولا فى المشكلات الاجتماعية العديدة "كالزواج والادمان" بل فى روح الانتماء التى يحس باختفائها كل ذى بصر ، وإن يكن - هذا البناء العشوائى - قد تزايد بفعل فوضى التخطيط ، او لنقل عدم التخطيط السائد لاسباب لايتسع المجال لذكرها هنا ، فهى احد اسرار الازمة .

الثانى : اعتبار النموذج الغربى المشوه ، الذى اقتصرنا فى الاخذ منه على جانب واحد هو البناء بالاسمنت المسلح ، دون جوانبه الايجابية الاخرى التى نراها ماثلة للعيان فى المدن الغربية المنسقة ، والمنظمة ،



المتحف الإسلامي . استوحى عمارة القاهرة الإسلامية

النظيفة والهادئة ، والتي روعي فيها وبصرامة القوانين ، علاوة على جمالها ، كفاءتها وملاءمتها لحياة البشر .

فهذه الطريقة التي يتمسك بها "المقاولون" من تجار الأزمة حتى يجدوا في هذه الصيغة في البناء ثروة سريعة وبأرقام فلكية ، يغذيها التجار منهم بالاستيراد الذي لا ينقطع للمواد المشكلة لعناصر هذا البناء ، مما يزيد في الأزمة من جهة أخرى ، بتراكم الديون ، والاعتماد على الغير ، هذا علاوة على التشوه الحضاري الذي نعيشه كافدح مايكون .

إنك إن اطلعت على هذا الكتاب الوافي في موضوعه وجدت اعتقادا يتبناه مؤلفه "الباحث الفرنسي المرموق اندريه ريمون" يقول بان قيام هذه المدن العربية الكبيرة "القاهرة ، ودمشق ، وحلب ، وبغداد ، وغيرها" في أساسه اعتمد على ماأسماه الباحث "قوة بنيانها الداخلي" وهو مايفسر قوة ثابتيتها لوظائفها واستمرارها ، مما يجعل لها منهجا حضريا ، وشخصية خاصة مميزة .

يقول - على سبيل المثال - إن القاهرة وحلب كانتا مدينتين عظيمتين للغاية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر . وقد جازت هاتان المدينتان على اعجاب الرحالة القادمين من الغرب والذين افتتنوا بجمالهما وعظمتهما وانشطتهما ، وكانوا يقارنون بينهما وبين المدن الكبرى في تلك العصر مثل باريس أو لندن .

فقد كتب كوبان في عام ١٦٤٠م بعد مشاهدته لمدينة القاهرة من أعلى القلعة :

"تعتبر القاهرة من اجمل الاشياء

شهريات

التي يمكن مشاهدتها . إن المنظر العام ليس تماما مثل روعة عاصمة بلادنا الفرنسية ، ولكن يمكن القول انه يوجد شيء اكثر مرحا ويدعو الى الانشراح اكثر" .

كما ان فولني الصارم كتب عن مدينة حلب في عام ١٧٨٥م قائلا : إنها احدى اجمل مدن سوريا ، بل قد تكون انظف مدينة في الامبراطورية كلها وافضلها تشييدا ، اننا حين نصل اليها من اى اتجاه نجد حشدا من المآذن والقباب البيضاء التي تمتع العين المرهقة من السهل الداكن والممل .

لهذا فإن قارىء هذا الكتاب ستخطر له على الفور فكرة ، نسوقها كمشروع لبحث مقارن ، يتمه بعد هذا الكتاب ، عملان ، يكونان على مستواه .

الاول يتعرض لهذه المدن في وضعها الراهن من جميع الجوانب العمرانية والسكنية والمعيشية علاوة على الكثافة والتظلم ، الجمال والصحة .

والثاني يقوم بعمل مقاربة تستخرج الفروق الاصلية ، حتى نعرف الى اى مدى نحن قد افترقنا عن هويتنا ، وهو الامر الاكثر الحاحا في هذا الزمان ، كما اعتقد انه سيكون مفيدا في النظر الى المستقبل .

انني لا انكر وجود محاولات اخرى تعرضت لهذين الجانبين ، ومنها مجهودات سابقة لريمون نفسه ، مثلا الحرفيون ، والتجار بالقاهرة ، في القرن ١٨ ، (الاحياء الارستقراطية في القاهرة ، اسواق القاهرة ، وغيرها) . إلا ان الفكرة هنا تندرج في سياق دراسة متكاملة تنحو للمقارنة حتى نستخلص الجانب الاكثر مدعاة للوصول الى مغزى مفيد .

★ ★ ★

إنني لااستطيع بالطبع ان اعرض لكل ملجاء في هذا الكتاب الفريد ، ولكنني اؤكد على انه كان محصلة جهود بدأت عام ١٩٥٥ للباحث الفرنسي الذي جاء في ذلك العام ليعمل بالبحث في المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ، حيث تلقن المعرفة بالقاهرة العثمانية من خلال اطلاعه على اعمال المؤرخين المصريين الكبار في اصولها "الجبرتي وعلى مبارك وغيرهما" ، ثم ينتقل للعمل في المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق لمدة تقرب من عشر سنوات مما اتاح له الفرصة الوافرة لدراسة تاريخ دمشق وحلب "واعتماده على كتاب حوادث دمشق اليومية لأحمد البديرى واضح للغاية" ، كما تمكن من خلال بعثات عمل الى الجزائر ، وتونس ، وقسنطينة ، وفاس ، ومراكش ، وتطوان ، وطرابلس الغرب ، والموصل ، وبغداد ، من تحقيق الاتصال المباشر ، وهو مايصفه بقوله : الامر الذى لايمكن بدونه تحقيق اى انجاز حقيقي في مجال ابحاث التاريخ الحضرى ، وذلك طالما بقيت هذه المدن الكبيرة متحفا رائعا "وحيا" للاشكال وللمنشآت المعمارية بالرغم من الغارات التى تشنها الحداثة على المناطق القديمة بالمدن .

شهريات

« العوانس » فى القومى
ووقفة مع الفنان الصديق

بقلم : مهدى الحسينى

انعام سالوسة وسناء يونس فى العوانس



شهريات

يشغل المخرج سمير العصفوري مكانا خاصا في التاريخ الحديث للمسرح المصري . فبعد هوايات الصبا الباكر ونشاطات الشباب بين بورسعيد وجامعة عين شمس ، قرر احتراف الفن المسرحي بدراسته في المعهد ، فعمل مخرجا بـ "المسرح العالمي" حيث بدأ باخراج "الدرس" للكاتب الطليعي "يوجين يونسكو" على مسرح الجمهورية سنة ١٩٦٤ ، وانتهى بتقديم "بيت العوانس" على المسرح القومي ١٩٩١ . مسيرة خصيبة تربو على ربع قرن من زمان القلق والتحول الذي عاشته امتنا المصرية عامة ، وحياتنا الثقافية والفنية خاصة ، قدم فيها ٢٢ عملا مسرحيا لهيئة المسرح ، و ٩ للثقافة الجماهيرية منها ٥ لفرقة بنها ، و ١٢ للقطاع الخاص ، وواحدة للتليفزيون المصري ، هذا عدا امسيات المناسبات وبعض المسرحيات التليفزيونية المعلبة .. والسهو والخطأ .

برز من بين هذه الاعمال : "زيارة السيدة العجوز" سنة ١٩٦٥ لـ "دورينمات" و"مأساة الحلاج" سنة ١٩٦٧ لـ "صلاح عبدالصبور" و"كلام فارغ" + "جدا" سنة ١٩٧٢ لـ "نبيل بدران" ، و"إيزيس" ١٩٧٥ لـ "توفيق الحكيم" ، و"ياعنتر" ١٩٧٦ لـ "يسرى الجندى" و"العيال كبرت" لـ "عبدالله فرغلي وسمير خفاجي" ، ثم "ابوزيد الهلالي سلامة" لـ "يسرى الجندى" ، و"فى زنزانة المجانين" سنة ١٩٨٠ اعدها عن قصة العنبر رقم ٦ لـ "تشيكوف" ، و"العسل عسل والبصل بصل" سنة ١٩٨٢ اعدها عن مقامات واشعار "بيرم التونسي" ، و"القاهرة ٨٠" التي اعدها مع سيد طليب سنة ١٩٨٩ عن قصة يوم ان قتل الزعيم لـ "نجيب محفوظ" والتي يقدمها الان على المسرح القومي مرة ثانية بعد ان توقفت العوانس فجأة لاسباب خارجة عن ارادتنا جميعا .

وعدا سنوات البعثة الثلاث الى فرنسا ، لم يتوقف العصفوري عن القلق .. اى عن العمل ، فهو فنان مبادر ومجدد يفاجئنا دوما بالاطروحات والقضايا والاشكال الفنية المستحدثة ، نختلف معه او نتفق ، الا ان حيويته الذهنية وخصوبة خياله تجذبنا الى اعماله ، حيث نشتبك معه في عراك او خلاف او حوار .. او نشتبك معه في اتفاق !!

وها نحن الان في حالة اشتباك

معه ، نصارحه بما يعتمل بداخلنا من قلق عليه منه ، وقد وضعنا في حرج ان نكون اشبه بالدبية التي ..... ، ولكن لا فرار من المكاشفة لانها الطريق الوحيد كي يكسب صدقنا كنقاد ، وكي نكسب تاريخه وجهده وابداعه كفنان .

قام الكاتب وهو "احمد عفيفي" ومؤلف العرض وهو "العصفوري" باستيحاء اعمال فنية عديدة من اجل صياغة العوانس ، منها مسرحية "بيت برناردا البـا" للشاعـر الاسباني "لوركا" وفيلم "طـار فوق عش الوقواق" للمخرج التشيكي الاصل الامريكي الاقامة "ميلوش فورمان" الى قصة "تشيكوف" الفريدة "العنبر رقم ٦" ثم مسرحية "مارا صاد" للكاتب الالماني "بيتر فايس" .. الى جانب مصادر عديدة اخرى منها ماهو سينمائي ومنها ماهو مسرحي ومنها ماهو ادبي ، غير ان الكاتبين لم يقوما بتمصيرها او الاعداد عنها مباشرة ، وانما استوحياها او تنسماها او استأنسا بها ، كي يقيما عرضا مسرحيا مصريا قحا خالصا .. او هكذا ارادا .

وليسمح لي اصحاب هذا العرض بخلاف اولي ، ليس على المصادر ، وانما على طريقة العمل ، فمادام المبدعان يعلنان انهما لا يقدمان سايكودراما وانما يقـدمان دراما نفسواجتماعية ، اي انهما ينظران الى المجتمع من خلال نفوس شخصيات مختارة ودالة منه ، فيقدمانها وهي في



سمير العصفوري مخرج العوانس

حالة التهاب مرضي تفضح اسراره وتطرح حقائقه وفي ظني ان طريقة العمل المناسبة لمثل هذا الطموح تبدأ كما يلي : (١) تحديد زاوية التناول (٢) تحديد القطاع ـ او القطاعات ـ الاجتماعي المقصود فحصه طبقيا ومهنيا وفكريا تمهيدا لطرحه (٣) تحديد النماذج الاجتماعية المراد تقديمها نفسيا وتحليلها كيما يكون مجموعها صوره جشتلتيه متكاملة فنستطيع ان نرى من خلالها كل المجتمع . هذا المنهج يتطلب القيام بعمل ريبورتاج درامي على الواقع "اوتشرك" ، بعد ذلك يتم عرض نص هذا الريبورتاج الدرامي على نوعين مختـارين من الاخصـائيين : (ا) سايكاتريست . (ب) سايكولوجيست (وجهي عمليـة القـراءة العلميـة للشخصية المريضة نفسيا ودلالتها الاجتماعية ، شرط ان يكونا علميا من نفس الاتجاه الاجتماعي والفكري

للكاتب والمخرج) و... بناء على ماسبق تبدأ عملية الصياغة المسرحية لهذه النتائج العلمية بواسطة المبدعين ، ومن ثم مجموعة العمل المسرحي : الديكوراتور والموسيقار ومصممة الازياء والممثلات .. الخ . مثل هذه الطريقة سوف تخلص الجميع من الافكار المسبقة والتحيزات ، سوف تؤكد رؤى صحيحة وتعمقها ، وسوف تحذف تصورات خاطئة ، سوف تركز وتختزل ، سوف تثرى وتنوع ، لاننا سوف نزاوج بين العلم وبين الفن ، خصوصا واننا ازاء مجال يتنافس فيه علماء الطب مع علماء الاجتماع والنفس كما يعتبره الفن ميدانه الرئيسي ، اى مكونات الشخصية الانسانية ومكنوناتها واسس دوافعها ومرامى حركتها .

وقد يقول قائل : ومن يدرك اننا لم نفعل هذا ؟ الذى يدريني هو النص ، ولنناقش جانبا منه لنأخذ مثلا شخصية فتاة السلخانة الفنية غير المتعلمة ، ومثلها نوعان : اما ان تذهب للتعليم فى الجامعة الامريكية بسيارة فارهة وتتزوج احد ابناء الطبقة الجديدة ، وإما محجمه عن التعليم فتتزوج معلما من ابناء جلدتها ، الاولى مريضة مرضا اجتماعيا خفيًا ، هو الطموح الاجتماعي والانسلاخ من الاصل الطبقى والتنكر له ، والثانية طبيعية لانها متآلفة ، اما "سكينة ابوساطور" التى فى العوانس فهى استثناء لذا لا تشكل نموذجا يمكن الخروج منه بمفهوم عام . ثم لنأخذ ايضا قصة الطبيبة وامها ، انها ابسط من هذا البنيان "المستشفى كبناء معنوى" فموت الاب فى سن مبكرة بعد ان يترك ارمله ذات افكار اخلاقية متشددة ، لا يخلق بالضرورة هذا الطموح المدمر لدى الابنة ، كما لايخلق جرثومة شرسة مثل "نور" ، بالطبع هناك نوع مامن العقد النفسية البسيطة سوف يظهر على الام وابنتها ، لكن ليس بهذا الدرجة البادية فى المسرحية لذا يبدو تحليل العلاقة بين الام وابنتها ـ الذى جاء متأخرا لايؤدى الى هذه النتائج سقوط الام سجينة لمرض نفسى مستعصى وسقوط الابنة فى الجريمة تجاه الزوج العجوز والسادية والتنكر تجاه الام ، علما بان هذا الخط ـ الطبيبة والام ـ هو بمثابة "المتن" الذى بنيت عليه باقى عناصر المسرحية والسياق المسرحى يتدفق بناء على اتباع مبدأ الضرورة ، او الترجيح فى اضعف الاحوال ، فهذا هو الملاط الذى يصف لبنات المسرحية من مواقف ولوحات وبغيره يتفكك البناء وتتبعثر الافكار ، وكذا نستطيع تفنيد باقى الشخصيات والعلاقات على النحو السابق

ايضاحه ، فضلا عن أن المسرحية لم تضع فى اعتبارها تمييزا علميا واضحا بين المرض النفسى وبين المرض العقلى !!

● لماذا الامراض النفسية ؟

ان السؤال المبدئى عند القيام بالبحث ـ او حتى التأمل والتفكير ـ السابق على عملية الابداع الكتابى ، كان يجب ان يكون كالاتى : لذا كان المجتمع المصرى يعانى التخلف والفوضى لانه مصاب بامراض نفسواجتماعية ذات دلالات بعيدة ، فكيف ولماذا تم هذا ؟ اية امراض نفسية ذات طابع اجتماعى قد استشرت فى صميم البنية الاجتماعية المصرية فأصبنا بهذا الوضع السرطانى الذى نعانيه ؟ اية قوى اصابتنا .. واية قوى اصيبت ؟ اية اشخاص تمثل القوى المصابة تمثيلا نموذجيا ؟ هذه الطريقة كانت كفيلة بان نضع اصابعنا على ادق اسرار النفس البشرية المصرية من خلال اغوار شخصيات تدل دلالة حاسمة على ماهو اشمل منها ، وكفيلة ايضا ـ فى ذات الوقت ـ اذا ما وضعناها جنبا الى جنب ان تعطينا تشخيصا امينا لامراضنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية والفكرية .

ومع ملاحظتى المتكررة لتعبيرات وجوه المشاهدين الخارجين عقب المسرحية ، ولتعليقاتهم الحائرة المقتضبة المتسائلة ادركت ان ثمة حاجزا زجاجيا شفافا وسميكا ، كان حائلا بينهم وبين شخصيات المسرحيات واطروحاتهن ، فهم لم يشاهدوا ـ وان شهدوا فجزء يسير ـ من انفسهم على المسرح ، لذا لم يتوحدوا ولم يختلفوا ، كما انهم لم يستغرقوا فى التفكير والتأمل ، الا انهم لا يملكون الرفض ، هم فى حيرة لان ثمة مسافة بعيدة بينهم وبين هذه الشخصيات ، هم لم يروها فى انفسهم ، او فى حياتهم الخاصة ، ولا فى حركتهم العامة .. اللهم الا لماما .

ولقد عوقت لغة الكاتب ـ ذلك النظم الذى اسماه شعرا !! شخصياته عن التعبير عن اغوار نفسها ، كن يتحدث بلغته مضافا اليها مؤثرات المخرج السوداوية الساخرة ، بينما عالم "المستشفى النفسى" يعطى اكبر الفرص كى ينوّع فى لغته ويحوره ـ اذا كان شاعرا ـ ليغوص فى نفوس ابطاله المرضى ، فيخرج لنا قصائد النثر من ادب الاعتراف ، انها لفرصة فريدة كى نسمع همس هذه النفوس المعذبة ، لكل قصيدته المتفردة ، كل شخصية على حدى "لعل اهم مالم يلاحظه الكاتبان ان المرضى النفسيين يعيشون فى جزر ، حتى وهم مجتمعون معا ، فكل مريض عبارة عن عالم وحده" ، وعليه تكون الملفات التى قدمت كمونودرامات ـ غلب السرد عليها والوصف الخارجى والافيهات لا البوح ـ استغرقت ثلثى الفصل الاول ، مجرد استنطاق للشخصيات بلغتى ....

المؤلف والمخرج وبفرضياتهما ولو تم عكس ذلك لكانت اللغة اكثر شاعرية وتأثيرا وصدقا وحساسية ، وربما تم اختيار مواضع انسب من سياق العرض لعمليات الاعتراف هذه ، وفقا لتفجر الاحداث داخل هذه المصحة العجيبة .

ونظرا لكل ماسبق ، بدا العرض اخراجيا ، كحلقات فى مسلسل منفصل متصل ، او كمسرح المنوعات ، كل لوحة مستقلة ، وكل "نمرة" لها شكلها الخاص داخل اطار عام من ديكور وملابس واضاءة وموسيقى وحالة مهيمنة وفكرة عامة فحسب ، دون اتصال عضوى وتساوق متجانس ، وفيما عدا الديكور والاضاءة اللتين صممهما الفنان المبدع "صلاح حافظ" وكذا الموسيقى والالحان والمؤثرات والاصوات التى صاغها الموسيقار الفذ "فتحى سلامة" فى توزيعات مهرمنة متقابلة متضادة متجانسة معبرة مصورة مصاحبة معا ، فانه لا يوجد رابط بصرى سمعى يربط اوصال هذه المسرحية ، فالملابس كروكية التصميم ، والرقصات رغم تفانى مصممها مجدى الزقازيقى ، فانه لم يدرك عالم النفس بعد ، لم يتصور حالة المريض نفسيا ، لم يتساءل كيف يرقص ؟ أظن انه لا يوجد رقص جماعى تقريبا، كل فرد له رقصته الخاصة ، وعلى حده ، ولا توجد سيمترية ولا صفوف ولا دوائر ، انما حركة حرة شديدة التمايز والتنوع والانفرادية .

الا ان الحالة المزاجية التى بثتها الروح الفنية والشخصية الانسانية للمخرج خلال ليالى البروفات الطويلة ، قد بثت حالة ابداعية خاصة لدى الممثلين : فقدمت انعام سالوسة نوعا رفيعا من الاداء افتقدناه طويلا منذ هجرت سناء جميل خشبة المسرح ، انها تذكرنى بشابلن وبيتر سيلرز وودى الان والاخوان ماركس ، اضف الى ذلك رقتها المميزة كامرأة وصوتها الجميل الصافى الواضح الرنان كصوت طفل مفعم بالسعادة ، ولست ادرى لماذا لا تكون هناك جوائز دولة فى التمثيل المسرحى لتنالها عن هذا الدور ، (فى المسيرة الطويلة لزوجها المخرج سمير العصفورى لم تعمل معه سوى ثلاثة اعمال اثنان منها عام ١٩٦٤ .. والثالث كان العوانس) . وكذا سناء يونس ــ التى تركت العرض لاصرارها على الخروج على النص وخطة المخرج ــ فهى ممثلة مسرحية عتيدة قادرة على الامساك بقياد الشخصية والسيطرة على الجمهور بحضور كوميدى وخفة ظل انسانية

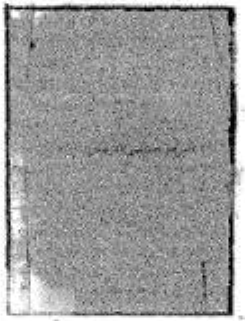
حميمية ، ولولا اصرارها على الانفراد بالخشبة دون زميلاتها لكانت قد اسهمت فى ان يقدم المسرح القومى موسما فنيا ناجحا .

اما سوسن بدر فقد سبق ان اشرت فى عدد ابريل الماضى من الهلال : "**ممثلة لم تاخذ حقها فى المسرح المصرى حتى اليوم ، لانها لم يسند اليها الدور الذى يحترم طبيعتها ويفهمها** .." وبالفعل كانت - قبل العوانس - تلعب ادوارا ثانوية مسطحة خلف عادل امام واحمد بدير ومحمد نجم ومحيى اسماعيل ، غير انها فى هذا العرض نالت البطولة اخيرا ، ولعبت دورا مركبا مليئا بالتفاصيل التى تستنفر طاقة الاداء عندها ، فقطعت منه شوطا شاسعا ، ومنحته حضورا مشعا باهرا ، حاز اعجاب جمهور القومى وانتباهه ، الا انها بحاجة الى الارتباط اكثر بالدور وبالمسرحية ، وان تتمسك بها ، وبهذا النوع من الاعمال الجادة لان فيها مستقبلها الفنى وتحققها الانسانى ، اما نجاة على التى بدأت الدور جادة متجهمة فقد طورت اداءها عبر ايام العرض ، فتجانست مع روح المسرحية ، واصبحت تفجر لحظات كوميدية رفيعة المستوى ، كذا **عفاف حمدى** التى كانت هجرت التمثيل المسرحى تقريبا ، فثمة فارق واضح بين ادائها فى البداية وبين ادائها بعد مرور شهر ، حين تبينت المفارقة الكامنة فى الشخصية ، فوصلت اوصالها المتناثرة عبر العرض ، وانشأت لها نسقا ادائيا حميما لا يخلو من خفة ظل حتى تواصلت مع الصالة .

اما **سهير طه حسين** فرغم صوتها الجميل وادئها الغنائى المعبر الدافىء ، فان الشخصية التى تؤديها ليست فاعلة وليست ذات وزن ، لذا قبل الجمهور حضورها المسرحى بصفة شخصية لا بصفة مسرحية ، وتجىء **فاطمة شوشة** كمفاجأة فى اداء هذا النوع الناكص الى طفولته من مرضى النفس ، وهى لفرط رقتها وشفافيتها ، تمهد لكارثة اغتيالها باسنان كلاب الحراسة فى نهاية المسرحية ، وحظت رقية احمد "الجزارة" بقبول جماهيرى مميز حيث طرحت اصولها الشعبية ببساطة وحرارة ونجحت رغم عدم اتساق بنية الشخصية التى تمثلها ، بينما لا تترك **سمحية عبدالهادى** فرصة للعمل على المسرح دون ان تملأها بحركة او بكلمة داخل السياق والشخصية ، فاكسبت دورها حيوية خاصة ، واكسبت شخصها حضورا خفيف الظلال لا يخلو من دفء ، وفى حين امسكت **صفاء الطوخى** بخيط البداية الصحيح ، الا ان دور الطبيبة المساعدة فى المصحة النفسية الذى تلعبه كان بحاجة الى مزيد من التحديد ، فسرعان ماذابت فى زحام المريضات فلم تعرف هل هى مثلهن ام لا !! وكذا كان شأن منى حسين وصافيناز فتحى وامانى مصطفى وشفيقة عثمان .

شهريات

مكتبة الهلال



الكتاب : مصر التي نريدها .

تأليف : د . اسماعيل صبري عبدالله .

الناشر : دار الشروق ـ ٢٦٠ ص .

العنوان الفرعي لهذا الكتاب يوضح بانه تقرير سياسي وبرنامج مرحلي . تقرير سياسي يحلل من منطلق اشتراكية ديمقراطية لا تتخلى عن عملية النقد الذاتي كاحد مقوماتها ، الأوضاع العالمية في المرحلة الراهنة ، فيعرض بتبيان ابعاد البريسترويكا كمنحى طبيعي نتج عن تراكم المشكلات في الاتحاد السوفييتي ، (سابقا) الذي لم ير فيه المؤلف نظاما مثاليا ، وإنما تجربة معينة ، إن كانت قد وصلت إلى الفشل ، إلا ان النهج الأصيل ، ان المنهج الذي اعتمدت عليه هذه التجربة ، مازال نافذا ، على الرغم من فشل هذه التجربة الهامة .

ثم يتعرض لتحليل اوضاع الرأسمالية العالمية المعاصرة ويرى انها ايضا تمر بازمة اقتصادية ، وليس ازمة عامة تحد من قدرتها على التجديد ، موضحا ، ان الرأسمالية العالمية قد جددت نفسها سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية ، بعمليات استيلاء الشركات الكبرى على شركات اخرى ليتأكد الطابع العالمي للشركات متعددة الجنسية ، التي اعتمدت على الثورة العلمية والتكنولوجية وما حققته من ارتفاع مذهل في انتاجية العمل اليدوي والذهني ومن فتح افاق لم يسبق لها مثيل لجمع وتحليل البيانات وللاتصال عن طريق الأقمار الصناعية .

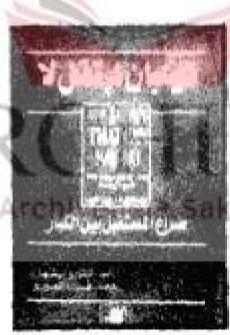
بعد ذلك ينتقل إلى ازمات العالم الثالث التنموية ، والقومية ، ويعرج لتحليل اوضاع الوطن العربي قبل كارثة الخليج ، وبعدها ، موضحا ان اهم القضايا والواجبات التي يجب التاكيد عليها هي ان القومية العربية حقيقة ثابتة ، وان مطلب التعاون والتكامل والوحدة يكتسب في ظروف التطورات العالمية بعدا حاليا ومستقبليا مبنيا على مصالح حيوية وليس فقط على اعتبارات تاريخية او ثقافية او عاطفية .

كما يجب التاكيد على ان القوى التقدمية عليها

مهمة التفاهم حول رؤية مشتركة للوحدة القومية وأسس النضال من اجلها وما يمهد لها السبيل من الاجراءات العاجلة، وان الديمقراطية ليست مطلبا متروكا لدولة الوحدة، بل انها ضرورة ملحة لنجاح اى مسعى وحدوى او تقدمى. عن طريق إقامة «جماعة اقتصادية عربية».

بعد ذلك يحلل الكتاب الأوضاع الداخلية من ناحية عجز ميزانية الدولة، والديون المتزايدة، ومسئولية الرأسمالية المصرية، وقضايا الفساد والعوز. خالصا إلى أنه ليس امام مصر سوى التطلع نحو الاشتراكية كمجتمع للانسانية المزدهرة، والتنمية المستقلة. بعدها يعرض لبرنامج مرحلى مطالبا بحزب يسميه حزب التجديد الاشتراكى الديمقراطى الذى يجد فى النقد الذاتى سبيلا لتجديد قواه وافكاره.

وهذا الكتاب فى النهاية. كما يقول مؤلفه، ما هو إلا محاولة لفهم مايمكن أن يكون جديدا فى الفكر والممارسة، ثم تحديد ابعاده الحقيقية وتكشف نتائجه المتوقعة وبيان المواقف الفكرية والسياسية فى ضوء ذلك، وهو لا يذهب مذهب الجدل الفكرى ولا يدعى تأصيل مفاهيم عامة، بل هو يتعامل مع كل المقولات والافكار والممارسات فى إطار سعى لتطوير الواقع المصرى والعربى بممارسة جادة إيجابية تستهدف الارتقاء باحوال الناس فى بلادنا من كل الوجوه.



الكتاب: اليابان لم تقل لا.

تأليف: شنتارو ايشاهارا.

ترجمة: هالة العورى.

الناشر: يافا للدراسات، ١٤٨ ص.

مؤلف هذا الكتاب «شنتارو ايشاهارا» عضو بارز فى المجلس التشريعى اليابانى، واحد قيادات الحزب الليبرالى الديمقراطى فى اليابان، واحد اكثر الشخصيات شعبية هناك، وكتابه هذا وزع اكثر من مليون نسخة، بالاضافة إلى ان له روايات عديدة تلقى رواجا كبيرا.

تقول مترجمة الكتاب فى تقديمها ان التقدم اليابانى الخارق لم يتحقق من فراغ، فالابداع والعمل الجاد ثمرة لقيم حضارية واخلاقية رفيعة. ذلك الولاء المطلق الذى يكنه العاملون تجاه مؤسساتهم ومصانعهم رد فعل طبيعى للنظام الادارى فى اليابان، ذلك النظام الذى يعمل على جعل المؤسسة مجتمعا واحدا يحدوه مصير مشترك فالمسئولية الادارية فى اليابان لا ينحصر همها بحال على

شهريات

تحقيق اكبر قدر من الربح ، بل يتقدم هذا الهدف ، العمل على تكوين مجتمع مترابط داخل الشركة من خلال الولاء والرعاية المتبادلة . فالعامل في اليابان ، ليس مثل نظيره العامل الأمريكي مجرد اداة للانتاج تقصى بعيدا في حالة تعرض الشركة للركود والانكماش ، كما ان رجال الأعمال اليابانيين لا تخطفهم لو تفتنهم حياة البذخ والاسراف .

وهذا الكتاب وضعه مؤلفه لبحث القضية العالقة بين امريكا واليابان ، مؤكدا على ان الأمريكيين قد أصيبوا بانزعاج شديد من ارائه المتعلقة بالتعصب العنصري ، فقد كتب بصراحة ان العنصرية هي التي تقف وراء التعريض باليابان ، ومع ذلك فهو يؤكد على ان كتابه ما هو إلا محاولة لرأب الصدع بين اليابان وامريكا عن طريق تفهم القضايا المشتركة ، وتبيان العيوب في الجانبين من اجل الخروج من المواجهة الى التعاون .



الكتاب : غضب مرتقب .
تاليف : د . مجدى وهبة .
ترجمة : زهير على شاكر .
الناشر : دار المدني ، جدة .
٤٠ ص

كتب الدكتور مجدى وهبة هذا المقال في اللغة الانجليزية عام ١٩٨٧ ونشره في مجلة يوميات الأدب العربي التي تصدر في بريطانيا بعد اشهر قليلة من صدور الطبعة الثالثة في كتاب المتنبي من تاليف صديقه الأثير وزميله في عضوية مجمع اللغة العربية بالقاهرة الأستاذ محمود محمد شاكر ، متضمنا مقدمة جديدة بعنوان رسالة في الطريق إلى ثقافتنا (صدرت في كتاب الهلال) ، وهو ، ان المقال ، جاء مناقشة نقدية لهذه الرسالة الزم مجدى وهبة نفسه فيها بالتزامين مختلفين ، الاول هو موقفه من القضية الأصلية التي يعرضها ، قضية الصراع بين الفكر العربي الإسلامي ، وبين الفكر الاستشراقي والغربي عامة . فقد التزم من هذا الصراع بموقف بالغ الصعوبة ، وهو موقف الحياد التام ، حياد ليس كحياد القاضي الذي لا يميل إلى اى من جانبي الخصومة ، بل حياد فوق حياد القاضي ، حياد يرتفع به حتى عن ارتقاء منصة القضاء ، او الوقوف موقف الحكم بين الخصمين ، وإنما يكتفي

بـأن يترك كـلا من الخصمين يعرض حجته عرضا دقيقا كاملا ، ثم يعطي الكلمة للآخر دون اضـافـة أو تعقيب ، الالتزام الثاني هو في تقديره لقيمة العناصر المشـاركـة في هـذا الصراع ، من أشخاص وأقوال ومواقف . فهو هنا يضع نفسه في مكان ليس أيضـا مكـان القاضي ، بل مكان الناقد بالمعنى القديم للكلمة العربية ، المستمد من نقد المذهب ، حين كان « النقادة » تعرض عليه الـدنانيـر ، فيتنـاولهـا ويقلبهـا ويتفحصهـا واحدا واحدا ، فما وجده زائفا أو مخلوطا أو خفيفا ـ نحاه ولم يلتفت إليه ، وما وجده صريحا صرفا نقيا ، زاده فحصا وتأملا ، ثم وزنه بميزان الذهب .

وبمعنى آخر ، فإن هذا المقال الذي تعرض بالعرض والمناقشة لآراء محمـود شـاكـر ، من صديقه الذي رحل بعد عمر مديد من العطاء ، هو نقد الاحتفاء بقيمة هـذا العمل ، وإن لم يـوافـق آراءه تمـام الموافقة .



الكتـاب : ربـاعيـات درويش .
تـأليـف : علـى درويش .
النـاشر : مطـابـع الأخبار .
١٢٨ ص

يصف الكاتب عمله هذا بقوله : هذا كتاب عن الحب ، أرقى وأنقى أنواعه ، إنه الحب الذي ينطلق من الأرض إلى السماء كالبرق ليسجد تحت عرش الرحمن طالبا القرب ورب القرب .

ويقول :

إن رباعيات درويش هي جزء مما أريد وليس كل ما أريد أن أكتبه ، فـالـوجـد في الصـدر كـالمحيط ، بل أكبـر وأعمق من المحيط ، يهز الكيان ويفوق قدر اللسان وإبداع القلم ، وكما يقول الدرويش من ذاق عرف ، فالقلب قد ذاق فسكر وشكر .

وفي مـوضـع آخـر يقول :

إن القلوب كالسفائن تبحر حيث تريد وتختار ، وفي رحلتها هذه تأخذ القلوب أصحابها معها ، فقد تبحر القلوب في بحـار الظلمات فتحكم علـى نفسـهـا وعلـى صـاحبهـا بـالعـذاب والضيـاع وبفقـدان الطريق .

إنها رحلة الظلمات التي تأخذ الإنسان بعيدا إلى حيث يتمزق القلب وصاحبه فلا صحبة ولا صديق ولا نور ولا هدى ولا هداية أما القلوب التي تبحـر في بحار الأنوار فهي قد اختارت طريقا ليس سهلا ولكنه مضيء .

طـريق تفوح منـه رائحة المسك وتغشاه الأنـوار ، شمسـه لا تغرب ، عواصفه وجد ، وأحلامه رؤى ، كلامه ذكر ، وحركاته سعي إلى ما بعد البحر والبحور ، إلى حيث رب الأكوان .

هو إذن ديوان من شعـر الحب الصوفي الذي يكاد يكـون قل الإنتاج فيه هذه الأيام .

شهريات



الكتاب : الحرب الايديولوجية وسقوط الشيوعية السوفييتية
تاليف : سعد زهران
الناشر : العربي ، ١٤٠ ص ، ٤ ـ ج ـ م ـ

تعالج فصول هذا الكتاب موضوعات متمايزة ، كل منها متكامل بذاته يمكن ان يقرأ مستقلا ، او يقرأ في السياق العام للكتاب .

في البداية يرفض المؤلف مايدعيه الامريكان ، والسوفييت "الذين انقسوا" من ان انتهاء الحرب الباردة يعني انتهاء الايديولوجية ، وذلك لان الانسان لابد ان يعيش بعقيدة ما ، دينية او قومية ليبرالية او اشتراكية ، فهي ضرورية للانسان الاجتماعي كضرورة الهواء .

ثم ينتقل الى تحليل الازمة الايديولوجية السوفييتية باعتبارها المفجر الاساسي للازمة الايديولوجية الشاملة التي يعاني منها عالم اليوم ، وبعدما يبين جوهر الايديولوجية الغربية السائدة ، وملامحها الاساسية في اصولها ، وذهب الى انها هي الصيغة الاحدث ، والاكثر تداولا لما اسماه "المحافظية" الغربية الحديثة .

في الفصول التالية يوجز تاريخ الحرب الايديولوجية الدائمة التي تشنها المحافظية الغربية على المذاهب والحركات السياسية الاجتماعية ، العقلانية والانسانية ، منذ الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر حتى الثورات الروسية والصينية وبلاد التحرر الوطني .



الكتاب : الاذاعات الغربية الموجهة للمسلمين العرب !
تاليف كرم شلبي

● حرص مؤلف كتاب « الاذاعات التنصيرية الموجهة الى المسلمين العرب » منذ بداية كتابه على التاكيد

بأنه لا علاقة لمؤلفه بالمسيحية دينا وعقيدة ، لأن موضوعه ينصب أولا وأخيرا على الاذاعات الدينية التي تنطق بالعربية وتبث إرسالها من خارج المنطقة العربية .

وكشف الدكتور كرم شلبي أستاذ ورئيس قسم الاعلام والمستشار الاعلامي بجامعة الأزهر دور تلك الاذاعات في إغراء المستمع بصنوف شتى من الهدايا والمباهاة بما تحرزه من نجاح في إقناع البعض بالارتداد عن دينهم .

وقد تناول الدكتور كرم شلبي في هذا المؤلف الهام الاذاعات الناطقة بالعربية ولغات أخرى ، والتي تقوم بهذا الدور الغريب ، وهي : إذاعة حول العالم المؤسسة منذ عام ١٩٥٤ والتي تبث إرسالها بـ ٣٥ لغة ، وإذاعة راديو الفاتيكان التي تأسست عام ١٩٣١ ، وتذيع بأكثر من ٤٧ لغة ، ومحطة (كي . جي . اي . إل الدولية الدينية) وتقدم برامجها بأكثر من ٣٠ لغة ، وشركة الشرق الاقصى وهي تملك ٢٥ محطة وتقدم برامجها بـ ٤٦ لغة ، وراديو صوت الانجيل الذي يبث من أديس أبابا بـ ١٢ لغة ! والمحطة الدينية المسيحية وتقدم برامج بـ ٣٥ لغة الى كافة بلاد أفريقيا ، وهناك ايضا محطتان في كل من أنجولا وموزمبيق .

وقد سجل الدكتور كرم شلبي في تجربته المثيرة كل مايبث من مواد وبرامج في الاذاعات الموجهة طوال عام كامل .

وكانت دهشته بالغة عندما أرسل بعض الخطابات الى هذه الاذاعات ، وردت إليه رسائله مزودة بعبارة « لم يستدل على العنوان » !

وهكذا لم يجد بد من السفر للبحث عن هذه الاذاعات في عواصم العالم ، فسافر الى روما ولندن وباريس وقبرص وشتوتجارت وموناكو والخرطوم ، وكانت الحصيلة هذا البحث الشيق عن الاذاعات الدينية المسيحية الدولية الموجهة الى العالم العربي .

انصبت دراسة الدكتور كرم شلبي أساسا على ثلاث اذاعات رئيسية هي : راديو الفاتيكان ، واذاعة حول العالم ، واذاعة صوت الغفران ، وشمل كتابه سبعة فصول وخاتمة بنتائج البحث وملاحق تضم نماذج لعدد من البرامج ذات الدلالة التي قدمتها هذه الاذاعات .

●●



الهوية اليهودية لفرانز كافكا

بقلم : د. عبد الوهاب المسيرى

ولد ونشأ فى تشيكوسلوفاكيا لأسرة يهودية مندمجة .. درس القانون وعمل في أحد مكاتب المحاماة ، ثم فى شركة تأمين تابعة للحكومة ، ولم يكن يكتب الا فى اوقات فراغه . كان ابوه شخصية متسلطة تركت اثرا عميقا على ابنه ، فلم يتزوج كافكا قط ، ومع هذا لعبت المرأة دورا مهما في حياته . كان كافكا يعانى طيلة حياته من الصداع النصفى والارق ، وتم تشخيص مرضه فى عام ١٩١٧ على انه السل ، فقضى بقية حياته فى مصحة ..... وقد عهد بمخطوطاته لصديقه وكاتب سيرته ملكس برود ، ولكنه اوصى وهو على فراش الموت بأن تحرق اعماله بعد وفاته ، ولكن برود لم ينفذ رغبته .

فرانز كافكا (١٨٨٣ - ١٩٢٤) روائى المانى يهودى .

وكثيرا ما تطرح قضية يهودية كافكا : فهناك من يرى أنه كان يهوديا بل صهيونيا حتى النخاع ، وهناك من يذهب الى انه كان غير مكترث بيهوديته بل معاديا للصهيونية ، ويورد كل فريق من الشواهد مايدل على صدق رؤيته . كما أن هناك تناقضا عميقا بين مذكراته من ناحية ورواياته من ناحية أخرى ، ففى المذكرات اهتمام شديد بالموضوع اليهودى ، على عكس الروايات التى تلتزم الصمت حياله فتوجد فى المذكرات اشارات الى المدينة اليهودية القديمة والجيتو والمشروع الاستيطانى الصهيونى (بل ويقال إن كافكا حضر أحد المؤتمرات الصهيونية) . أما رواياته فلا تكاد تشير الى الموضوع اليهودى ، ففى رواية أمريكا يوجد شخصيات من كل الجنسيات (ألمان ومجر وأيرلنديون وفرنسيون وروس وسلاف وايطاليون) ولايوجد سوى يهودى واحد .. ونعرف أنه يهودى من اسمه ، إذ لاتحمل شخصيته أى سمات من تلك التى تسمى «يهودية» ومع هذا ، فهناك من يقدم قراءة صهيونية لأعماله . ففى دراسة للكاتب العربى كاظم سعد الدين بعنوان «حل رموز كافكا الصهيونية» نجده يذهب الى أن رواية المحاكمة تسعى الى كشف فساد دار الحاخامية سليلة السنهدرين ، أى المجمع الدينى الأعلى . ورواية المسخ أو التحول ؟ إنما تشير الى التاجر اليهودى المتجول . والقلعة هى حصن صهيون ، وترمز وظيفة المساح الى الحياة الدنيا لليهود ومعرفة قوانينها وعاداتها وايجاد نوع من العلاقة الجيدة بينها وبين القلعة التى ترمز الى السلطة العليا الدينية اليهودية ، ويرى كاظم سعد الدين أن كافكا قد أسقط رمز سور الصين على حدود الدولة المرتقبة، وأراد أن يقول أن سور الصين سيكون لأول مرة فى تاريخ العالم اساسا أمينا لبرج بابل جديد !! وأن بدو الشمال هم الشعب العربى ونبوختنتصر . وأن أبواب الهند هى أبواب فلسطين ، وسيف الملك هو سيف داود ! .

ويشير الكاتب أيضا الى أن كافكا عارض اندماج اليهود فى الشعوب الأخرى إذ قال إن المدينة اليهودية القديمة غير الصحية ، أى الجيتو ، هى أكثر حقيقة بالنسبة لليهود من الشوارع العريضة للمدينة المبنية حديثا !! كما قال عن أرض كنعان أنها أرض الأمل الوحيدة .

● الاحساس بالغربة

وقد بينت الدكتورة بديعة أمين فى كتابها «هل ينبغى احراق كافكا ؟ أن هذين الاقتباسين الأخيرين قد نزعا من سياقهما ، اذ يتبع الاقتباس الأول الخاص بالجيتو عبارة «اننا لسنا سوى شبح زال ، أما أرض كنعان فهى ليست بأرض على الاطلاق وانما حلم وحسب» . وقد وصفت الدكتورة بديعة تفسيرات الأستاذ كاظم سعد الدين

بانها ضرب من المعادلات العينية التى استنبطها الكاتب من الكتب الدينية والتاريخية ، ثم اعتبرها معادلات موضوعية مادية/ حسية للرمز الكافكاوى استنادا لبعض العوامل الخارجية فى كتابات كافكا . ثم اضافت الدكتورة تحليلها لرؤية كافكا مبينة استحالة أن يتبنى مثل هذا الكاتب رؤية صهيونية ، فموضوعات أدبه هى الاحساس العميق بالغربة والعزلة الروحية حتى وسط الأهل والاصدقاء ، والوعى بالذات وما يؤدى اليه هذا الوعى ، وعلاقة الانسان بالسلطة وبيروقراطيتها القاتلة ، والانسحاب والانسلاخ الاجتماعيين ، واختفاء الهدف والاحساس بالهزيمة . وقد عبّر كافكا عن هذه الموضوعات بأسلوب غامض مغلق لايسمح بتسرب قطرة ضوء . والواقع ان أدبا يتناول مثل هذه الموضوعات بمثل هذا الاسلوب لايمكن أن يكون صهيونيا ، لأن الادب الصهيونى أداة أيديولوجية ووسيلة الى هدف واضح بطريقة واضحة ، ولذا فإن مثل هذا الأدب لابد وأن يتسم بالوضوح والايجابية . كما أن الادب الصهيونى يهدف الى الدفاع عما يسمى حقوق الشعب اليهودى الذى يحمل خصائص عرقية وإثنية خاصة ثابتة عبر الزمان والمكان ، بل ويركز على تقديس هذا الشعب . وغنى عن القول أن رؤية كافكا للطبيعة البشرية مختلفة تماما ، فهى بالنسبة له طبيعة متقلبة كالغبار غير مستقر، ولاتحتمل أى قيود . كما أن اليهودى بالنسبة له شخصية هامشية تقف بين عوالم مختلفة لاتنتمى الى اى منها . أما كافكا ذاته ، فهو يؤكد عدم انتمائه الى أى عالم ، وهو لايخلع القداسة على أحد - يهودا كانوا أم غير يهود .

هذا بخصوص موقف كافكا من الصهيونية . ولكن ماذا عن المضمون اليهودى فى أدبه ؟ إن مثل هذه المسألة يمكن أن تحسم إن قبلنا التحليل السياسى والمباشر للمضمون ثم اضفنا اليه مستويات أكثر عمقا . ولعلنا لو قبلنا بصيغة تفسيرية مركبة تقبل المستويات المتناقضة المختلفة لفهمنا كافكا حق الفهم ..

● الاهتمام بالموضوع اليهودى

ولنبدأ بكافكا الانسان والكاتب . كان كافكا يهوديا مندمجا ، ولذا لم يكن فى البداية مدركا للكتابات الدينية اليهودية أو كتابات المؤلفين اليهود ، ولكنه بالتدريج بدأ يهتم بها وبالموضوع اليهودى ، وهو أمر طرحه

عليه عدة عناصر من أهمها انه على الرغم من الرغبة الصادقة لقطاعات كبيرة من يهود وسط أوربا فى الاندماج بل والانصهار فى الحضارة الغربية ، وعلى الرغم من محاولة كثير من المجتمعات قبولهم ودمجهم وصهرهم ،

الا أن عملية مثل هذه لايمكن أن تتم فى جيل واحد أو جيلين . ولذا ، كان الجيل الأول والثانى من اليهود المندمجين يشعر أنه فقد الجيتو والأمن الذى كان يشعر اليهودى به داخله . ولكنه وجد نفسه فى عالم معاد له ، ولاشك أن حركات معاداة اليهود التى تصاعد نفوذها وازدادت شعبيتها قد عمقت هذا الاحساس لدى كثير من المثقفين اليهود . كما أن هجرة يهود اليديشية (أى يهود شرق أوربا) الذين كان يتزايد عددهم داخل الامبراطورية النمساوية المجرية ، ساهم فى خلخلة وضع اليهود المندمجين ، وهو الوضع الذى فرض على يهودى مندمج مثل هرتزل أن يبحث عن حل للمسألة اليهودية ، أى مسألة يهود شرق أوربا ، وأن يصوغ الحل الصهيونى .. ويعنى هذا أن الموضوع اليهودى قد فرض على كافكا فرضا . فبدأ يقرأ فى الكتابات الدينية اليهودية وكتابات المؤلفين اليهود العلمانيين . قرأ فى كتب القبالاه والحسيدية ودرس العبرية وقرأ كتابات صهيونية أو شبه صهيونية ، بل ويقال انه كتب دراسات يفهم منها تأييده للمشروع الاستيطانى الصهيونى .

ولكن المصادر الغربية لفكره أكثر تنوعا وعمقا وشمولا ، فقد تأثر بكيركجار ودوستويفسكى وفلوبير وتوماس مان وهيس وجوركى ، وبالفكر الاشتراكى والفوضوى فى عصره . ويبدو انه كان معاديا للراسمالية ولاقتصاديات السوق التى تحول الانسان الى شىء .

● اختلاف فى الموقف !

هذه الازدواجية (اليهودى / غير اليهودى) تعبر عن نفسها على كل المستويات .. فلنأخذ موقفه من الدين . من الواضح أن كافكا كان رافضا للدين حلا لمشكلة المعنى ، ومن هنا حداثة رواياته والاحساس الشامل بالضياع . وهو فى هذا ، يعبر عن موقف كثير من يهود عصره ، الذى كانت تعانى فيه اليهودية الحاخامية من أزمتها العميقة إذ أخذت تحل محلها العقائد العلمانية المختلفة مثل الصهيونية والداروينية والماركسية والنازية . ولكن موقف كافكا هذا لايختلف كثيرا عن موقف كثير من المثقفين الغربيين الذين ابتعدوا عن عقيدتهم وعن مجتمعهم بسبب تصاعد معدلات العلمنة وبسبب تآكل المجتمع التقليدى . لقد اندفعوا نحو المجتمع الجديد ، ولكنهم لم يجدوا فيه المعنى ، ولم تتحقق لهم الطمأنينة . بل إن أزمة اليهودية الحاخامية ، لم تكن إلا جزءا من أزمة العقيدة الدينية فى الحضارة الغربية ، كما أن كلا الأزمتين نتاج نفس الحركات : انتقال من مجتمع تقليدي الى مجتمع حديث ، ولكنه انتقال لايأتى بالسعادة ، وإنما

يؤدى إلى عدم الاستقرار والغربة ومعنى هذا أن نفس الظاهرة يمكن أن تفسر على اساس يهودى خاص ، وعلى اساس غربي عام ، ثم نكتشف أن كلا من الاساس اليهودى الخاص والغربي العام هما نفس الشيء .

ولكن الموقف الدينى لكافكا يتجاوز مجرد الرفض فقد كان يمارس ايمانا دينيا عميقا من نوع خاص .. فكافكا كان يرى أن فعل الكينونة لايعنى الوجود المادى وحسب ، وإنما يعنى ايضا الانتماء الى الاله ، فالاله كامن فى أعماق الذات البشرية . وهذا الجزء فى الانسان هو الجزء غير القابل للدمار ، وهو ذاته عالم المطلق ، المتجرد من الخطيئة والكمال ، وهو العالم الذى يسميه المؤمن بالاله ولكن قرب الانسان من الاله يعنى أن يعيش حياة صحيحة . وهذا الموقف ينتج عنه رفض للعالم المحسوس (عالم السببية والمادة) . وإذا كان الموقف السابق

● شخصيات كافكا

ولكن يمكن القول إن مأساة أبطال كافكا هى ايضا مأساة كافة الشخصيات فى الأدب الغربى الحديث التى تشعر بحالة النفى والغربة ، فهى شخصيات فقدت الايمان إذ وجدت نفسها فى مجتمع متناثر ذرى لايربط اجزاءه رابط ، مجتمع تعاقدى الانسان منفى فيه دائما ، مجتمع ازدادت فيه معدلات الترشيد حتى أصبح كل شيء آليا أو شبه آلى تم التحكم فيه ، ولكنه ترشيد اجرائى لاهدف له .. ومن ثم ، وعلى الرغم من تزايد تحكم الانسان ، إلا أنه يشعر باحساس عميق بالاختناق .

ويمكننا القول إن الموضوعات الأساسية عند كافكا هى موضوعات أساسية متواترة فى كل الأدب الغربى الحديث بصفة عامة ، وبالتالى فإن اصولها غربية ، ولايمكن فهمها الا على مستوى الحضارة الغربية ككل ، ولكن فى حالة كاتب من أصل يهودى مثل كافكا فقد يهوديته ، سنجد أن وضعه هذا يخلق عنده قابلية غير عادية لاكتشاف هذه الموضوعات وتطويرها ، كما أنها تكتسب حدة خاصة فى أدبه ـ اى أن يهودية كافكا ليست هى مصدر الرؤية العبثية (فهو يستمدها ـ شأنه شأن اى كاتب غربي ـ من حضارته الغربية) ولكنها مع هذا تعمقها وتزيد من حدتها .

وقد ترك كافكا اثرا عميقا للغاية على الأدب الغربى الحديث مثل (مسرح العبث) . ويستخدم اصطلاح «كافكاوى» أو «كافكوى» لوصف الاحساس بالضياع والسقوط فى شبكة متداخلة من الاحداث العبثية .. ولعل عمق اثره على الحضارة الغربية يبين مدى تجذره فى التشكيل الحضارى

الحرية وحدود الله
في الكتاب الذي
دخل مؤلفه السجن



بسم الله الرحمن الرحيم

يعلن مجلس الأمناء لجائزة ومعجم البابطين عما يأتي:

أولاً: فتح باب الترشيح لجائزة

عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري

في دورتها الثالثة (١٤١٢هـ - ١٩٩٢م) وذلك في المجالات التالية:

أولاً: جائزة الإبداع في مجال الشعر

وقيمتها عشرون ألف دولار أو ما يعادلها، وتمنح لواحد من الشعراء الذين أسهموا بإبداعهم في إثراء حركة الشعر العربي، من خلال عطائه الشعري المتميز.

ثانياً: جائزة الإبداع في مجال نقد الشعر

وقيمتها عشرون ألف دولار أو ما يعادلها، وتمنح لواحد من نقاد الشعر ودارسيه من الذين أسهموا بنقدهم ودراساتهم النظرية والتطبيقية حول الشعر العربي، في إثراء الحركة الشعرية العربية.

ثالثاً: جائزة أفضل ديوان شعر

وقيمتها عشرة آلاف دولار أو ما يعادلها، ويشترط ألا يكون قد مضى على صدور الديوان أكثر من خمس سنوات حتى ٣٠/٤/١٩٩٢.

رابعاً: جائزة أفضل قصيدة

وقيمتها خمسة آلاف دولار أو ما يعادلها، ويشترط أن تكون القصيدة قد نشرت في إحدى المجلات الأدبية أو الصحف خلال عامي ١٩٩٠-١٩٩١.

جهات الترشيح: الجامعات والمؤسسات أو الهيئات الحكومية والأهلية، اتحادات الأدباء، ويجوز أن يقوم الأفراد بترشيح أنفسهم، وسيتم عرض الإنتاج على لجنة تحكيم من المتخصصين العرب في مجال الشعر ونقده لاختيار الفائزين وفق الشروط التالية:

1- أن يكون النص باللغة العربية الفصحى.
2- أن يكون النص منشوراً، ويرسل كما نشر، أو مصوراً عنه في ثماني نسخ.
3- أن يرفق بالنص بيانات المتقدم كاملة بما في ذلك الاسم الكامل والعنوان البريدي ورقم الهاتف.
4- أن يرفق بالنص موافقة خطية من المرشح على التقدم للجائزة وفق شروطها المعلنة.
5- على المرشحين لجائزتي الإبداع في مجال الشعر ونقده إرسال كامل إنتاجهم كل في مجاله في ثماني نسخ.
6- يحق للجائزة إعادة نشر القصائد الفائزة ومختارات من إنتاج الفائزين.
7- لا تلتزم الجائزة بإعادة الإنتاج الذي تقدم به المشاركون سواء فازوا أو لم يفوزوا.
8- يغلق باب الاشتراك في المسابقة يوم ٣٠/٤/١٩٩٢.
9- يتم إخطار الفائزين في شهر سبتمبر ١٩٩٢ ويقام حفل توزيع الجوائز خلال شهر أكتوبر من ذات العام.

ثانياً

البدء في إعداد معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين.
ويدعو الشعراء العرب لإرسال معلومات وافية عنهم مع صورة شخصية للشاعر وثلاث قصائد يختارها من شعره.

المراسلات

جمهورية مصر العربية - القاهرة ص.ب (٥٠٩) الدقي - الرمز 12311
دولة الكويت: ص.ب ٥٥٩ الصفاة - الرمز 13006 ت ٢٤١٢٧٣٠
ويكتب على المظروف اسم الجائزة أو المعجم.

قضية حرية الرأى والأديان ، قضية دقيقة وحساسة وأنها تحدث جدلا واسعا لدى المثقفين ، وخاصة بعد الحكم الذى صدر على كتاب « مسافة فى عقل رجل » الذى كتبه علاء حامد ، ومصادرة مجمع البحوث الإسلامية لعدد من الكتب فى معرض القاهرة الدولى للكتاب مؤخرا ذلك جعل الجدل قائما والموضوع مثارا فى أوساط الرأى العام. لم يكن هناك أحد يمكنه أن يدلى بكلمة فى هذا الموضوع الهام أكثر من الدكتور أحمد كمال أبو المجد الذى يجمع بين معرفة واسعة بالشريعة الإسلامية ، وهو أحد أساتذة القانون الدستورى ، كما أنه رجل فكر وعمل ، وكان له دوره السياسى وتولى وزارة الإعلام ، ونظرا لأهمية هذه القضية ، تفتح « الهلال » صفحاتها لأى صاحب رأى يدلى بدلوه فيها .

السنة المائة - مارس ١٩٩٢ - شعبان ١٤١٢ هـ .

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجى زيدان عام ١٨٩٢

الادارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا)
ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط)
المكاتبات : ص . ب : ٦١٠ - العتبة - الرقم البريدى : ١١٥١١ - تلغرافيا المصور - القاهرة ج . م . ع .
مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨١
تلكس . 92703 Hilal un
فاكس . FAX : 3625469

فكر وثقافة

فى هذا العدد

● حرية الرأى واحترام الاديان ....
.... د . أحمد كمال أبو المجد ٨
● التلاوة بالألحان فى شهر رمضان .... كمال النجمى ١٤
● أمهات الكتب العربية (صحيح البخارى) ....
.... د. يوسف خليف ٢٤
● مختار الحكم ومحاسن الكلم .... د . الطاهر أحمد مكى ٣٢
● (لسان العرب -- لابن منظور) ...... د. محمود الطناحى ٣٨
● الحلاج ومحاولة تفجير اللغة .... د . يوسف زيدان ٤٦
● المنهج النفعى فى فهم النصوص الدينية ....
.... د . نصر حامد أبو زيد ٥٤
● الطب .. والصيام بلا جوع ....
.... د . محمد بهائى السكرى ٦٢
● حسن البنا . مشروع إسلامى للنهضة الحضارية ....
.... د . محمد عمارة ٦٦
● المستشرق الإسبانى ميجيل أسين بلاثيوس وجهوده فى
الدراسات العربية والإسلامية ..... د . محمود على مكى ٧٤
● مسجد قرطبة الجامع مهد مولد جامعات الغرب ....
.... د . سيد كريم ٨٢
● نظرة تحليلية فى حاضر العالم الإسلامى ....
.... د . أحمد صدقى الدجانى ٩٠
● عالم المسلمين السوفييت .... مصطفى نبيل ٩٨

الغلاف :
تصميم الفنان
محمد أبو طالب

الإشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى ١٢ جنيها فى ج . م . ع . تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ١٢ دولارا - أمريكا وأوربا وآسيا واستراليا ٢٥ دولارا - باقى دول العالم ٣٥ دولارا .
والقيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال - ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

● الطبقة الوسطى الصغيرة وتطور دورها السياسى ......
.... د . يونان لبيب رزق ١٣٢
● حنان عشراوى تسرق الكاميرا ..... د . سلوى أبو سعدة ١٣٨
● أحاديث فى الأدب (الأدب والتجديد) ... د . أحمد هيكل ١٤٢
● السيرة الذاتية وجذور الإبداع ..... د . مصطفى سويف ١٤٦
● المجد للرواية العربية .... فاروق عبد القادر ١٥٢
● غضب مرتقب .. ودروس فى النقد والترجمة ....
.... عايدة الشريف ١٦٢
● ملاحظات حول بينالى الاسكندرية السابع عشر ....
.... محمود عوض عبد العال ١٦٦
● جاسوس فى قصر السلطان .... فوزية مهران ١٧٤
● موسم الجوائز الأدبية .... محمود قاسم ١٩٤

● فنون ●

● عالم محمد حجي بين المرض والكتاب ....
.... صلاح بيصار ١١٤
● فقر الفكر فى السينما المصرية .... مصطفى درويش ١٨٠

● قصة وشعر ●

● الهلال فى عيده المئوى « شعر » .... فريد قرنى ٢٣
● معزوفة الحكاية « شعر » .... د . صابر عبد الدايم ١٣١
● ريم البرارى المستحيلة « قصة » .... ميرال الطحاوى ١٢٤

الأبواب الثابتة

٦ عزيزى القارئ
٢٢ أقوال معاصرة
٦١ لغويات
١٧٠ شهريات (المكتبة)
١٩٠ العالم فى سطور
٢٠٨ التكوين
٢١٨ أنت والهلال
٢٢٦ الكلمة الأخيرة
صلاح أبو سيف

ثمن النسخة سوريا ٧٠ ليرة ، لبنان ١٥٠٠ ليرة ، الأردن ١٠٠٠ فلس ، الكويت ٧٥٠ فلسا ، السعودية ٨ ريالات ، الجمهورية اليمنية ٢٥ ريالا . تونس ٥را دينار ، المغرب ١٥ درهما ، البحرين ٨٠٠ فلس ، قطر ٨ ريالات ، مسقط ٨٠٠ بيسة ، غزة والقدس والضفة ٨٠ سنتا ، ايطاليا ٢٧٠٠ ليرة ، لندن ١٢٥ بنسا ، نيويورك ٤ دولارات ، الامارات العربية المتحدة ٨ دراهم ، الجماهيرية الليبية العظمى ١ دينار .

عزيزى القارىء

أمل جديد .. وهلال جديد

كل سنة وأنت طيب يا عزيزى القارىء ، فها هو ذا شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن يعود إلينا بصيامه وقيامه وجهاده وذكرياته الممتدة على ألف وأربعمائة عام ، شاهد خلالها شهر رمضان فجر الإسلام ، ثم ضحى الإسلام ، ثم ظهر الإسلام ، على نحو ما كتبه المؤرخ الكبير المرحوم أحمد أمين فى موسوعته الشهيرة ..

وقد توقف المؤرخ الكبير عند ظهور الإسلام كأنه رأى أن الإسلام سوف يبقى متوهجا فى ظهيرة خالدة حتى يوم الدين ، ولن تميل شمسه بعد الظهيرة المتوهجة إلى العصر والأصيل ثم تذهب منحدرة إلى الغروب ! ..

إن أعداء الإسلام والمسلمين يتصورون أن ساحة التاريخ توشك أن تخلو من هذا الدين وأهله ، لأن أهل هذا الدين قد بلغوا بجموحهم وتخلفهم وعجزهم حافة الهاوية ، حتى ليظن من يرى حالهم هذه أنهم بقايا أمة انقرضت ، فلا يكون لأنفسهم نفعا ، ولا لأعدائهم ضرا ، ولم يبق لهم من وسيلة ولا حيلة إلا الإستسلام للمقادير التى حكمت عليهم فى نهاية القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين أن يعودوا القهقرى ، أسرى وسبايا وغنائم فى أيدى الدول الكبرى الاستعمارية كما كانوا عند انهيار الأمبراطورية العثمانية فى الحرب العالمية الأولى قبل بضعة وسبعين عاما .

إن هلال شهر رمضان الذى هو خير الأهلة ، والذى يرتقبه المسلمون كل عام ، يطل عليهم هذا العام متسائلا :

– هل أعددتم شيئا من القوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ؟ ! ..

ولعلهم أعدوا القوة ورباط الخيل ، ولكن العزائم خائرة ، والعقول حائرة ، والأيدى جائرة ، وإن كانت الألسنة ثائرة ، والأقلام فائرة .. ولا ينصر الله إلا من ينصره ! ..

عزيزى القارىء

فى شهر رمضان يلتفت المسلمون إلى تراثهم ، لأنه ديوان فكرهم وفخرهم وتاريخهم ، ومرآة عبقريتهم وحضارتهم ، ولكن التراث يحتوى الجواهر والدرر ، كما يحتوى الخرز والحجر ' ومهمة المثقف العربى والمسلم الآن أن يعرض من التراث ما يساعد على نهوض العرب والمسلمين .

ومن هذا المنطلق يقدم إليك « الهلال » فى هذا العدد بعض كتب التراث بأقلام لفيف من المفكرين ذوى النظر الثاقب المستنير ، القادرين على أن يستخلصوا من التراث طاقة جديدة يتحرك بها هذا الجسد الهامد المتمدد بين المحيط الأطلسى والمحيط الهندى والمحيط الهادى ! ..

عزيزى القارىء

ترددنا كثيراً قبل أن نتحرك قليلاً بسعر هذا العدد والأعداد التالية من « الهلال » هذه الحركة اليسيرة التى جعلت سعره مائة قرش ، على أن هذه الزيادة لن تسد إلا أقل القليل من الخسارة المادية التى تحملناها طويلا فى سبيل الكسب المعنوى والأدبى لك ولنا ..

ولعلك - يا عزيزى القارىء - لا تتصور أن هذا السعر الجديد هو فى الحقيقة ثلث ما يتكلفه العدد الواحد من « الهلال » ، ويتحمل «الهلال» بقية النفقـــات بالرغم من أنه لا ينزح المال من بئر بترول ، ولا يتلقى المعونة إلا من قارئه الذى يسهم بقروشه ، مدركا أن « الهلال » هى المجلة الثقافية الوحيدة فى مصر التى تناضل فى الميدان منذ مائة عام ..

إننا نعتمد على قارئنا غير أبهين بالأخطار التى يحملها الورق المصقول الذى يباع بالمجان تقريبا لكى يتحكم فى عقول جماهير القراء بمادته اللزجة الضارة ..

ونحن على ثقة من أنك يا عزيزى قارىء « الهلال » ستبقى دائما معه ، فإن ما بينكما هو المحبة الفكرية والروحية ، وإن هـذا النوع من المحبة هو الجوهر الثمين الذى لا يمكن أن تحصل عليه الأوراق المصقولة الخالية من الفكر والمحبة والصدق ..

وكل عام - يا عزيزى القارىء - وأنت بخير وعافية وأمل متجدد كتجدد هلال شهر رمضان كل عام .. ورمضان كريم ! ..

حرية الـــرأى..
واحترام الأديان..

بقلم : د. أحمد كمال أبو المجـد

من فروع المعرفة وفنون الأدب التى تفرد بها تراثنا العربى والإسلامى فرع سماه الأقدمون «أدب المناظرة» - وهو باب من أبواب العلم عالج به أسلافنا قضيتين نحتاج إليهما أشد الحاجة ونحن نتناول موضوع حرية الرأى وحدود تلك الحرية وكيفية التوفيق بينها وبين قيم أخرى تحرص الجماعة على حمايتها وتثبيتها ورد العدوان عنها..

القضية الأولى : تحديد منهج الحوار وتبادل الرأى حول القضايا الخلافية ، عن طريق وضع عدد من القواعد الموضوعية التى تكفل الوصول بهذا الحوار إلى غايته من تجلية الحقائق ، ووزن الاعتبارات المتعارضة ، وتمحيص أوجه الخلاف ، على نحو يمكن الجماعة - فى نهاية الحوار - من الوصول إلى أفضل الحلول المتاحة لمشاكلها .

القضية الثانية : الاتفاق على عدد من «الآداب» التى تتصل بالحوار وسلوك أطرافه ، صيانة لكرامة أولئك الأطراف وحفاظا على الاحترام المتبادل بينهم ، بما يشجعهم على مواصلة الحوار وهم آمنون من سهام التجريح وقذائف الاتهام بالباطل، وهى قذائف تغرى كثيرا من أصحاب الرأى بإيثار السلامة ، وترك ابداء الرأى والابتعاد عن ساحات الحوار ،

مادام أصحاب الرأى يتعرضون - فى غيبة الالتزام بآداب الحوار - لسخائم التعريض والتجريح التى يجيد فنونها من تعنيهم الغلبة والظفر فى مبارزات الكلام .. أكثر مما تعنيهم خدمة القضايا العامة التى يدور حولها ذلك الحوار ...

* حرية الفكر والتعبير *

ولقد تذكرت هذا كله ، وأنا أتابع كثيرا مما كتب وقيل خلال الشهور الأخيرة ، دفاعا عن حرية الفكر والتعبير .. فى مناسبة الحكم القضائى الذى صدر بتوقيع عقوبة جنائية على مؤلف كتاب «مسافة فى عقل رجل» وعلى من قام بتوزيعه بعد صدور القرار بمنع تداوله . ذلك أن أول أصول «الحوار» أن يحدد موضوعه وأن تحدد - على وجه الدقة - عناصر الخلاف حول ذلك الموضوع ..

والسؤال الذى كان ينبغى على الكتاب والمتحاورين أن يطرحوه فى مناسبة هذه القضية هو البحث فى «تكييف» محل النزاع .. وهل تضعنا هذه القضية أمام حالة من حالات الحجر غير الدستورى على حرية الرأى .. أم تضعنا أمام حالة من حالات «القذف والسب» التى لم يدع أحد قديما ولا حديثا أنها من صور التعبير عن الرأى التى تتسع بالحياة الدستورية والسياسية ..

ولقد شغلنى هذا السؤال وأنا اتابع الحماس الشديد والانفعال الذى جرت به مناقشة الحكم القضائى الصادر بمعاقبة مؤلف ذلك الكتاب ، وكيف افترض أكثر المعترضين على الحكم القضائى . أن ذلك الحكم ينطوى على مصادرة لحرية التعبير ولحق المخالفة والنقد .. وأنه بذلك يمثل نكسة خطيرة وينفتح بها باب إرهاب الباحثين والمفكرين والأدباء والنقاد .. ويفرض بمقتضاها وصاية على عقول الناس وضمائرهم يمسك زمامها أفراد معدودون من رجال الدين والعاملين فى المؤسسات الدينية الرسمية ..

وبدا لى إزاء ذلك أن الحاجة ماسة إلى إلقاء مزيد من الضوء على جوانب قضية «حرية الرأى» التى اكتسبت فى العقل والوجدان العربى مفهوما «رومانسيا» غامضا يهتف الجميع باسمه ويشقون الحناجر صباحا بشعاراته دون أن يعنوا بدراسة وظائفه الحقيقية فى الجماعة . وفى ظل هذا الموقف العاطفى الخالص أمكن لكثير من أصحاب السلطان أن يجوروا على تلك الحرية ، كما أمكن لكثير من رافعى شعاراتها أن يسيئوا إليها وأن يجوروا باسمها على قيم وحريات أخرى ..

والتوفيق بين حماية حرية الرأى وبين قيم أخرى يحتاج المجتمع إلى حمايتها هى الأخرى ، يثير عددا من ادق مشاكل العلم

حرية الرأي واحترام الأديان !

السياسي والقانون الدستوري ، وهي مشاكل سوف تطرح نفسها بمزيد من التعقد على الرأي العام وعلى الجهات القضائية المسئولة عن حماية تلك المبادئ والحريات المتعارضة ..

وسنحاول فيما يلي أن نضع بين يدي الباحثين في هذا الميدان عددا من الحقائق الأولية الكبرى التي تعينهم على إيجاد صيغ مقبولة للتوفيق بين هذه الحريات ..

الحقيقة الأولى

إن من المقرر في الفقه الدستوري والعلم السياسي على السواء ضرورة الفصل بين حرية الاعتقاد والفكر من ناحية وحرية التعبير عن الرأي من ناحية أخرى .. فحرية الاعتقاد والفكر حرية مطلقة لا سلطان للدولة ومؤسساتها عليها ، إذ ان الفكر والاعتقاد أمران مستقران في الفؤاد ، مستكنان في العقل والضمير .. وما داما لا يخرجان إلى المجتمع من خلال التعبير له؟؟؟ فلا شأن للقانون بهما ، ولا سلطان للدولة على أصحابهما .. أما إذا اختار صاحب الفكر والعقيدة أن يخرجهما إلى الناس وأن يعبر عنهما بما يعن له من صور التعبير ، فإن نتاج هذه الممارسة يدخل « المجال الاجتماعي » ويلتزم – ضرورة – بقواعده وضوابطه .. ومن ثم لا يتصور أن تكون حرية التعبير حرية مطلقة، إذا ليس في السلوك الاجتماعي بصوره المختلفة حرية مطلقة ..

الحقيقة الثانية

أن تجارب الأمم والشعوب على اختلاف ثقافاتها ومساراتها التاريخية قد دلت على ضرورة الإفساح لحرية التعبير ومنحها حماية دستورية خاصة .. كما دلت على أن هذه الحماية هي وحدها الكفيلة بانطلاق الفكر باحثا عن الحقيقة ومبدعا في جنبات الكون .. كما دلت في النهاية على أن هذا الانطلاق هو العاصم للجماعة من الزلل، وهو الهادي إلى الرشد ، والكفيل بتعلم الناس جميعا من تجاربهم وأخطائهم وانطلاقا من هذه التجارب الطويلة ظهرت في الفقه العام السياسي والدستوري نظرية تذهب إلى أن حرية التعبير تتميز بمركز ممتاز فريد [illegible] بين سائر الحقوق والحريات .. باعتبارها مدخلا ومفتاحا لحماية سائر الحقوق والحريات .. وبناء على هذه النظرية ذهبت بعض أحكام القضاء في الولايات المتحدة إلى أنه إذا كان الأصل في جميع التشريعات افتراض أنها متفقة مع

نصوص الدستور ، ووجود قرينة أصيلة على هذا الاتفاق فإن الأمر يختلف فى خصوص التشريعات التى تمس حرية التعبير أو تنتقص منها إذ تقوم قرينة عكسية مؤداها أن هذه التشريعات تخالف الدستور حتى يتم إثبات توافقها مع الدستور (١) .

الحقيقة الثالثة

أن أى قيد تشريعى أو إدارى على حرية التعبير من شأنه أن يحدث أثرا تصاعديا فى الحجر على تلك الحرية ذلك أن من المألوف فى السلوك الإنسانى أن الفرد يتوسع عادة فى ابتعاده عن دائرة المحظور .. ومعنى هذا أن القيد الذى يهدف المشرع من ورائه إلى تضييق مساحة حرية التعبير بمقدار معين ، يؤدى فى النهاية إلى تقييدها بما يجاوز كثيرا ذلك المقدار . فإذا ذكرنا أن الإبداع والحوار الجاد حول القضايا العامة يحتاجان إلى توفر أكبر قدر من حرية التعبير لأدركنا خطورة الآثار السلبية التى تترتب على ترخص المشرع وتوسعه فى فرض القيود على حرية التعبير .

الحقيقة الرابعة

أنه فى مقابل الحقائق الثلاث السابقة فإن من المسلم به أن هناك صورا من التعبير لا تحميها الدساتير عادة ولا القوانين ما تمنحه لحرية التعبير كأصل عام من حماية دستورية .

ومن هذا النوع على سبيل المثال ألفاظ السب والقذف التى يبلغ مساسها بكرامة الأخرين وسمعتهم وأعراضهم ومشاعرهم مبلغاً يرجح على أى منفعة تعود على الجماعة أو على صاحب الرأى من تعبيره الجارح لكرامة الأخرين .. ولهذا لم يخل نظام قانونى من تقرير عقوبات جنائية لجرائم السب والقذف .. ولم يقل أحد أن فى عقاب مرتكبى هذه الجرائم ما يجور على حرية التعبير التى يحميها الدستور. ومن هذا النوع كذلك التعبيرات بالقول أو بالصور أو بالكتابة عن معانٍ خاشة للحياء وهو ما يطلق عليه لفظ «الفحش» odsenity أو صور الإثارة الجنسية Pornography .

وقد كان من أدق المشاكل التى واجهت المشرعين والقضاة فى العديد من الدول مشكلة وضع الحد الفاصل بين التعبيرات الجنسية التى قد يقتضيها البحث العلمى أو تتطلبها بعض صور الأدب الواقعى والتى تتمتع بالحماية الدستورية المقررة لحرية التعبير.. وبين التعبيرات الفاحشة فحشا مجرداً لا يخدم شيئاً من الأهداف العلمية أو الأدبية .. ولكن المبدأ المستقر فى

(١) ظهرت هذه النظرية فى القضاء الأمريكى للمرة الأولى فى عبارة أوردها القاضى ستون (رئيس؟) عضوا المحكمة العليا عام ١٩٢٨ فى قضية Products Careolene .

حرية الرأى واحترام الأديان !

تشريعات عشرات من الدول وفى أحكام محاكمها التى تفسر نصوص دساتيرها هو أن الدستور لا يحمى «الفحش» وأن التعبير الفاحش أو الفاضح لا يدخل فى نطاق حرية الرأى. ولقد عبرت المحكمة العليا الأمريكية عن هذا المبدأ المستقر تعبيرا دقيقاً وقاطعا فى حكمين أصدرتهما عام ١٩٥٧ فى قضية روث ضد الولايات المتحدة، وقضية ألبرت ضد كاليفورنيا ذاهبة إلى أن جميع الأفكار تتمتع بالحماية الدستورية الكاملة حتى تلك التى لها قدر ضئيل من القيمة الاجتماعية، وتلك التى تعتبر بغيضة فى ظل المناخ الفكرى السائد .. وذلك ما لم تتضمن اعتداء على قيم ومصالح أخرى أولى بالرعاية .. ولكن من الثابت والمستقر - فى ذات الوقت - رفض التعبير الفاحش، ضرب زذن دق بحسبانه تعبيرا مجردا من أية قيمة اجتماعية .. ولا يتمتع - لذلك - بالحماية الدستورية ومعنى هذا كله - ودون استطراد إلى مزيد من التفاصيل حول تحديد مدلول الفحش - والأبحاث المستفيضة حول أدق المعايير التى يجب على المحاكم أن تستند إليها لتحديد ذلك المدلول - إن هناك صورا من التعبير لا تحميها الدساتير، ولا يعتبر تقييدها - بالتشريع أو بأحكام القضاء، عدوانا على حرية التعبير ..

ومن هذه الصور كذلك استخدام عبارات وعرض أفكار معينة فى مواجهة جمهور رافض لها تماما، ومستثار بسبب عرضها على نحو يهدد باختلال الأمن، وهو ما عرف فى الفقه الدستورى باسم مخاطبة الجمهور الرافض hostile audience .. ومعنى هذا أن طرح أفكار وتعبيرات تصدم الشعور العام وتستثيره على نحو يهدد بوقوع ردود أفعال تخل بالأمن والاستقرار يمكن أن يكون مدخلا لتقييد حرية طرح مثل تلك الأفكار والتعبيرات ..

فإذا أضفنا إلى ذلك كله فكرة النظام العام والآداب لما تعذر علينا فهم المبررات التى تسمح بتقييد بعض صور التعبير من الرأى.

وفى ضوء الحقائق المتقدمة جميعا، نستطيع أن نتصدى لوضع الحدود الفاصلة بين حرية النقد وحق مخالفة الأفكار السائدة، وبين صور من التعبير تتجه مباشرة إلى خدش الحياء العام أو إلى تجريح المعتقدات الدينية السائدة تجريحا لا تقتضيه الضرورات الأدبية والفنية، ولا تكون له أية قيمة اجتماعية هادفة ..

ولقد انتشرت خلال السنوات الأخيرةم كتابات أدبية وقصصية تنطوى على سخرية بالأديان وتحقير للأنبياء ، وتجريح فاحش للرسل بالعبارات الصريحة أحيانا أو بالرمز الواضح الذى لا يكاد يكون رمزاً أحيانا أخرى . وعز على النقاد والمحللين أن يجدوا هدفا - أى هدف - لهذا اللون من التجريح ، كما عز على كثير منهم أن يجدوا ضرورة أدبية أو فنية لاستخدام هذه التعبيرات أو تلك الرموز بحيث لم يبق من هذه التعبيرات إلا أنها تمس جمهور الناس فى صميم عقائدهم ومقدساتهم ، وأنها تجرح شعورهم كما يجرحه اللفظ النابى والصورة الفاضحة الفاحشة ..

وأنها لا تبدو لها أية قيمة اجتماعية تبرر استخدامها فهل تتمتع هذه التعبيرات - رغم ذلك كله - بالحماية الدستورية .. وهل يعتبر منعها أو تقيدها عدوانا على حرية الرأى يهدد المجتمع المفتوح ويصادر حق النقد ، ويؤذن بوصاية شاملة على الأفكار تهدد الابداع وانطلاق الأفكار وتؤذن بالعودة إلى نظام محاكم التفتيش ورقابة الرقباء الدينيين ؟ ! لا نظن ذلك أبدا، وما نظن الشرع المصرى قد تخطى حدود الدستور حين قرر فى المادة ٩٨ من قانون العقوبات عقاب من استخدم القول أو الكتابة .. بقصد إثارة الفتنة أو تحقير أو ازدراء أحد الأديان السماوية أو الطوائف المنتمية إليها . والضمان الحقيقى لكى لا تتحول هذه النصوص إلى قيد ثقيل على حرية النقد والابداع ، يتمثل فى توصل المحاكم إلى معايير منضبطه تحدد معنى ما اشتمل عليه ذلك النص التشريعى من عبارات ، مدخلة فى اعتبارها بمناسبة كل قضية - أن مفهوم الشعور العام ، مفهوم متحرك يختلف تقديره من عصر إلى عصر ومن ظرف سياسى واجتماعى إلى ظرف سياسى واجتماعى أخر ... وليت المتخصصين من كتابنا وأدبائنا ورجال القانون والسياسة يبذلون من الجهد فى وضع تلك المعايير ، ما بذله بعضهم فى الدفاع عن كتابات أدبية ، يعلم أصحابها أنهم تجاوزوا الحدود واقتحموا على الناس - بالعدوان - دائرة المشاعر الدينية والقيم الاعتقادية المستقرة ، دون أن تضطرهم إلى ذلك ضرورات خدمة هدف سياسى أو اجتماعى له حد أدنى من القيمة الاجتماعية وهو الحد الذى يمنحه الحماية الدستورية التى يتمتع بها الحق فى التعبير عن الرأى .

إن حرية التعبير تستحق منا جميعا أن نكون على أعلى درجات اليقظة والشجاعة دفاعا عنها وتأمينا لاستخدامها وحرصا على ألا يستخف أحد بالحماية الدستورية المقررة لها ... ولكن هذا كله ينبغى أن يبذل - بغير تراخ ولا تهاون - فى الميدان الحقيقى .. ميدان التعبير عن الأراء والمواقف السياسية والاجتماعية .. أما إثارة المعركة ودخولها بكل أنواع الأسلحة حين يكون الأمر فى حقيقته سباً وقذفاً وعدواناً على قيم اجتماعية وعقائد ، مستقره ، فليس من الحكمة ولا من حسن السياسة ولا من البطولة فى شىء .

التلاوة بالألحان

فى شهر رمضان

بقلم : كمال النجمى



يبدو لى أن تلاوة القرآن الكريم بالألحان كانت بداياتها الأولى فى شهر رمضان قبل ألف وثلاثمائة سنة ، لأن إظهار الوجد فى التلاوة يكون على أشده فى ليالى هذا الشهر الوضئ ، ومن شأن الوجد أن يثير التغنى ، فإذا تغنَّى القارئ استدعت حنجرته بلا قصد ولا اعتمال محفوظها من الألحان - قلَّ أو كثر - فإذا القارئ يصدح بالآيات صُدَاحَ الوجد والطرب ! ..

وفى زماننا يتلو جميع القارئين آيات الكتاب بالألحان ، وقبل زماننا بأزمان . كانوا أيضا يتلونها بالألحان ، ولكن قلائل من الجامدين المتزمتين مازالوا حتى اليوم ينكرون التلاوة بالألحان ، مع أنه لا يوجد الآن بلد إسلامى واحد يمنعها ، على اختـــلاف المذاهب بين أهل السـنة والجماعة ، وغيرهم من الرافضة والشيعة والبقية الأخيرة من فرق الخوارج ..

إن التغنى بالقرآن الكريم فن قديم ، بدأ فى أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستمر بلا انقطاع فى جميع العصور الإسلامية التى عرفت دولا كثيرة ، ونظما للحكم مختلفة ، ومذاهب وفلسفات لا تعد ولا تحصى ..

قال النبى عليه السلام : من لم يتغن به - أى بالقرآن - فليس منا ..

وسمع عليه السلام صوت سالم مولى أبى حذيفة يتغنى بالقرآن فقال : « الحمد لله الذى جعل فى أمتى مثل هذا » ..

وكان عليه السلام يحب سماع عبد الله ابن مسعود يتغنى بالقرآن ..

أما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فإنه لما سمع أبا موسى الأشعرى يتغنى بالقرآن ، قال لمن حوله : من استطاع أن يتغنى بالقرآن غناء أبى موسى فليفعل ..

وكان عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وعطاء بن أبى رباح ، ثم أبو حنيفة وأصحابه ، والشافعى وأصحابه ، وغيرهم من علماء السلف يرون أن تحسين الصوت بالقرآن ، وتحسين القرآن بالصوت ، معناهما إباحة الطرب الوجدانى بقراءته ، مع التزام أصول القراءة الصحيحة التزاما تاما ..

التلاوة بالألحان

ومن المعروف أن المسلمين فى العهد النبوى وعهد الخلفاء الراشدين ، كانوا يقرأون القرآن بحسب لغاتهم المتعددة ، وأفصحها سبع لغات ، أولاها لغة قريش ، وهى لغة النبى الذى نزل عليه الكتاب ، فكان الناس من قريش وغيرها متى قرأوا بلغاتهم تخالفوا فى بعض كلمات أو حروف أونطق ، فلما سئل النبى فى ذلك قال : إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف ..

فكانت القراءات تختلف باختلاف القبائل العربية ، ولم يخرج بهم هذا الاختـــلاف كثيرا ولا قليــلا عــن آيات الكتاب ..

ولما أنشئت المدن الكبرى فى العراق كالبصرة والكوفة ، قرأ الناس فى البصرة بقراءة أبى موسى الأشعرى ، وقرأوا فى الكوفة بقراءة عبد الله بن مسعود ، وقرأ أهل الشام ومصر واليمن بقراءات أخرى . وقال أهل كل بلد إنهم أصح قراءة من سواهم ، حتى حسم أمير المؤمنين عثمان بن عفان هذا الخلاف إذ جمع المصاحف المتباينة من الناس ، وأمر بكتابة مصحف لا خلاف عليه ، يُقرأ بلغة قريش ..

لكن الخلاف بين الناس فى القراءة عاد بعــد مدة ، فصـــار كل فريق يقرأ مصحف عثمان بقراءته التى يراها أقوم من سواها ، وبادر الحجاج بن يوسف الثقفى والى العراق فى عهد الخليفتين عبد الملك بن مروان وابنه الوليد ، فأمر بوضع النقط على حروف المصحف ، ولكن بقيت الكلمات غير مشكولة حتى تم شكلها على يد الخليل بن أحمد فى بداية العصر العباسى الأول ، فانقطع الخلاف إلا قليلا، واستقر الأمر على القراءات السبع المتواترة عن نافع بن أبى رويم ويزيد بن القعقاع – وكلاهما فى مدينة رسول الله – وعبد الله بن كثير فى مكة ، وأبى عمرو بن العلاء ويعقوب الحضرمى فى البصرة ، وعاصم بن أبى النجود وحمزة بن حبيب الزيات وعلى الكسائى وخلف البزاز فى الكوفة ..

ثم زيدت هـــذه القـــراءات فصارت عشرا ، واعتبرها العلمـــاء كلها أصولا للقراءة ، جائزة كلها فى القراءة والصلاة ..

مصاحف بخط اليد

وفى عصرنا تنتشر فى مصر وفى أكثر البلاد العربية والإسلامية قراءة القرآن برواية « حفص » ورواية « ورش » ..

أما المصاحف المنتشرة فى ليبيـــا وموريتانيا وبعض جهات تونس والجزائر والسودان ، فإنها برواية قالون ، ورواية الدورى ، ويكتبها الناس هناك بخط اليد ، ولا يطبعونها فى المطابع ..

وقد انحصر الفرق بين القراءات آخر الأمر فى قليل من حركات الضبط والإمالة ونقــط بعض الحـــروف وتصريف بعض الأفعال ، وعدد الآيات .. ومرجع

عـددها إلى تقسيم الآية الواحـــدة إلى آيتين ، أو إدماج آيتين فى آية واحدة .. وأما الاختــلاف فى النقط ، فتجد فى سورة الأعراف والفرقان والنمل : « الرياح بشراً » .. تكتب وتُقـرأ برواية حفص : « نشراً » بالنون .. وفى سورة « يس » كلمة « سدا » بفتح السين فى حفص ، وتُقرأ بالضم فى « ورش » .. وفى ســورة « الحديد » قوله تعالى : « فإن الله هو الغنى الحميد » برواية حفص ، تُقرأ بحـذف « هــو » فى رواية « ورش » .. وفى ســورة « الشمس » برواية حـفص : « ولا يخاف » ، تُقرأ : « فلا يخاف » برواية ورش ..

ويعلّق البيـان الملحق « بالمصحف المعلـم » الذى أشـرف الأزهــر عـلى إخراجه ، وطباعته على هذه الفروق الطفيفة قائلا : « كلٌ يتلو بحسب الرواية التى توارثها وحفظ عليها ، وجميعها صحيح ومُنزل مصـــداقا لقـوله تعـــالى : « ولقد يسرنا هذا القرآن للذكر » ..

إن ضبط قراءة الكتاب بلغة قريش قد تم سنة ٣٠ للهجــرة فى عهد الخليفة عثمان ، وكتب منه أربع نسخ ، منها نسخة أرسلت إلى مصر ، وما زالت مصر منذ ذلك اليوم دارا للقرآن الكريم ، وموئلا لقرائه ، وفيها ظهر أعظم هؤلاء القراء ، وتوالت أجيالهم أربعة عشر قرنا بلا انقطاع ، وحسبك منهم فى عصرنا أمثال المشايخ محمـد رفعت ومصطفى إسماعيل وعبده عبد الراضى وعلى محمود وعبد الفتاح الشعشاعى ، ومن قبلهم أحمد ندا ومحمود الناخلى وإسماعيل سكر ، صعوداً إلى الشيخ الفيومى الــذى تحدثت عنه تقارير الحمـــلة الفرنسية على مصر ســـنة ١٧٩٨ودونت بعض قراءته بالعــــلامات الموسيقية ..

القراءة بالألحان وضوابطها

سئل أحمد بن حنبل : ما تقول فى القراءة بالألحان ؟ .. فقال لسائله : ما اسمك ؟ .. فأجاب : محمد .. فسأله ابن حنبل : أيسرك أن يقال لك : يا موحمد .. بالمد ؟ ! ..

إن ابن حنبل هنا لم ينكر إلا العبث بأصول النطق الصحيح للألفاظ ، فإنْ تغنّى القارئ بالآيات فى نطق صحيح فما وجه الاعتراض عندئذ ؟ ! .. ألا يرى المتشبثون بكلمات ابن حنبل أنه لم يعترض إلا على النطق غير الصحيح ، ولم يذكر شيئا عن الألحان بذاتها ، لأنه إنما أراد استنكار النطق غير الصحيح فى جميع حالاته ، ومنها حالة التغنى بالألحان ! ..

وفى « التبيان » للإمام النووى ، قال : أجمع العلماء من السلف والخلف ، من الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم من علماء الأمصار ، على استحباب تحسين الصوت بالقرآن ، ودلائل هذا من حديث رسول الله

التلاوة بالألحان

مستفيضة عند الخاصة والعامة ..

وفى « زاد المعاد » قال ابن القيم : كان عبد الرحمن بن الأسود بن يزيد يتتبع الصوت الحسن فى المساجد فى شهر رمضان .

وقال بعض معاصرى الإمام الشافعى: رأيت أبى والإمام الشافعى ويوسف بن عمر يستمعون القرآن بالألحان .. (أى .. ولا ينكرون ذلك على قارئه) ..

وكان أبو حنيفة وأصحابه يستمعون القرآن بالألحان ، فاتبعهم أهل العراق ، كما اتبع أهل مصر إمامهم الشافعى وأصحابه ..

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَلّهُ أشد أذَناً إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته » ..

وقال عليه السلام : « لم يأذن الله بشئ ما أذن لنبى يتغنى بالقرآن » ..

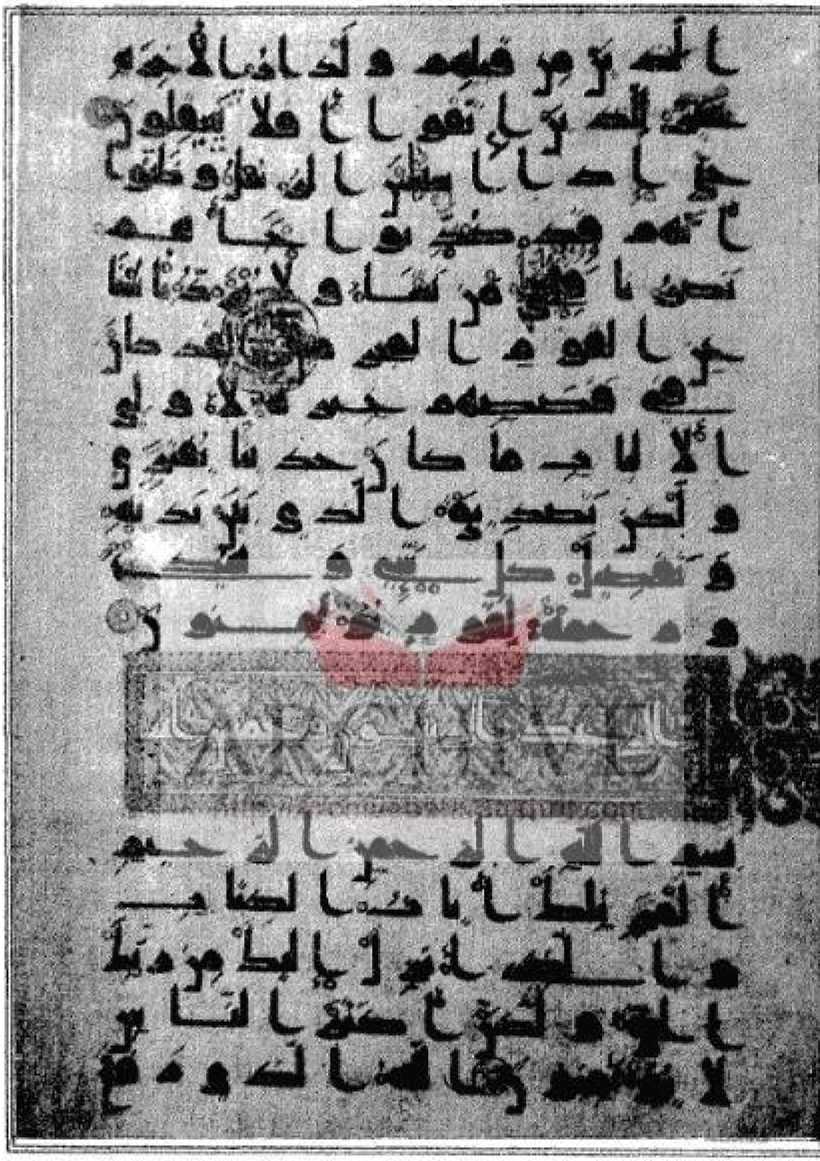
وعن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله قال له : « لو رأيتنى وأنا أستمع لقراءتك البارحة ، فقال أبو موسى : أما والله لو أعلم أنك تستمع قراءتى لحبّرتها لك تحبيرا » .. أى لحسّنتها بصوتى أعظم تحسين ..

وعن جبير بن مطعم ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ فى المغرب بالطور ، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءةً منه ، فلما سمعته قرأ : « أم خُلقوا من غير شئ أم هم الخالقون » خلت أن فؤادى قد انصدع ، وكاد قلبى يطير ! ..

وكان جبير مشركا حين سمع هذا ، فكيف بالمسلم حين يسمعه ؟ ! .. وقد هدى الله جبيراً إلى الإسلام بما سمعه من ترتيل رسول الله ..

وعلى هذا يمكن أن يقال إن التغنى بالقرآن الكريم بالألحان ، أو بغيرها ، مستحب شرعا ، وقد حث عليه النبى والصحابة والتابعون وأئمة المسلمين ، إلا من خشى منهم أن يكون فى ذلك تبديل فى نطق الكلمات ، كالإفراط فى المد ، وإشباع الحركات حتى تصير الفتحة كالألف ، والضمة كالواو ، والكسرة كالياء ، أو يقع إدغام فى غير موضعه .. وهذا ما كان يشير إليه ابن حنبل فى قوله لسائله : أيسرك أن يقال لك : يا موحمد .. أى بمد ضمة الميم حتى تصير واوا ..

ويبدو أن ابن حنبل - رحمه الله - لم يستمع إلى القرآن مرتلا بالألحان إلا من قراء ضعاف ، يمدون الضمة والفتحة والكسرة ، ولا يُظهرون التشديدات ، ولا يوفون الغنات ، ولا يتمون الحركات ،



مصحف شريف مكتـــــوب بقلم كـــوفي على رق

التلاوة بالألحان

ولا يفخمون ما يجب تفخيمه من الحروف ، ولا يرققون ما يجب ترقيقه ، ولا يقصرون ما يجب قصره ، ولا يمدون ما يتعين مده ، ولا يقفون على ما يصح الوقوف عليه .. إلى غير ذلك من الآفات التى تعلق بقراءة بعض الدخلاء والجهلاء عند تلاوة القرآن بالألحان أو بغيرها ..

وعصر ابن حنبل كان يعرف مثل هذه الآفات حتى فى المغنين ، فكان إبراهيم بن المهدى - وهو من كبار المطربين الهواة ، وأخو هارون الرشيد - يمد الحروف ويمط الكلمات فى غنائه كيف شاء ، فعاب عليه ذلك إسحاق الموصلى ، وهو شيخ صناعة الغناء من عهد الرشيد إلى عهد المتوكل ، أى طوال العصر الذى عاشه ابن حنبل ، وشدد إسحاق الموصلى النكير فى ذلك على إبراهيم بن المهدى ، لأن هذه الطريقة فى أداء الأنوار الغنائية تكسر أوزان الشعر وتُخرج الألفاظ عن أوضاعها التى يعرفها العرب فتغدو كألفاظ الجرامقة والعجم الآخرين ! ..

فإذا كان إسحاق الموصلى قد استنكر هذه الطريقة فى الغناء بالشعر ، فإن استنكارها فى التغنى بالقرآن أوجب ، لأنها عدول عن نهجه القويم ، وابتعاد بلفظ القرآن عن صيغته بإدخال حركات فيه أو خراج حركات منه ، يلتبس بها المعنى ، ويستعجم المبنى .. فهذا جهل فاضح

لا يقترفه قارئ يميز الصواب من الخطأ ..

التهويل حول الألحان

وقد وضع علماء القراءات قواعد ، من التزم بها متغنيا أو قارئا بغير تغن ، كان على النهج الصحيح فى قراءة القرآن أو التغنى به ..

والألحان التى يتم بها تحسين الصوت فى القراءة لا تُخرج اللفظ عن وضعه قيد شعرة ، وليس فى هذه الألحان إيقاعات يمكن ضبطها على آلات الإيقاع المعروفة ، وإنما هى ألحان منسابة بغير إيقاع محسوس . وهذا اللون من الألحان معروف عند أهل الصناعة باسم « الألحان المرسلة » .. أى الخالية من الإيقاع المقسَّم على آلات النقر .. فالاعتراض على الإخلال بالنطق الصحيح للألفاظ لا وجه له مع ضبط اللحون على أدق ما يقتضيه النطق الصحيح طبقا لأصول القراءة ..

ولقد لبث الأمر فى قراءة القرآن الكريم بالألحان منضبطا تمام الانضباط حتى فى عصور التدهور التى مرت بها الأمة العربية والإسلامية بعد سقوط بغداد تحت سنابك خيل التتار سنة ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨ م ودخول مصر والشام والحجاز واليمن وغيرها تحت حكم المماليك البحرية ثم المماليك البرجية ، ثم الأتراك العثمانيين الذين تدهورت فى عهدهم الأوضاع الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية

فى البلاد العربية والإسلامية ، ولكن تلاوة القرآن احتفظت بأصولها الموروثة منذ العصر النبوى كما أحصاها وتكلم عليها العلماء على امتداد العصور ، وانتقلت بالتلقى والتلقين من جيل إلى جيل ، ولم يقتصر العلم بها على مجرد النقل من الكتب المدونة فى علوم القرآن ..

ويقى التجويد علما راسخا لم تمسه يد التغيير والتبديل ، مع استحسان التغنى بالقرآن وفق المقامات اللحنية بلا إيقاع ولا آلات ، فى حفاظ تام على النطق الصحيح طبقا للأحكام الشرعية ، فازدادت أصوات القراء حُسنا ، واتخذ القرآن فى أسماع المسلمين صورته الجميلة ذات التأثير الوجدانى العميق ، وزاد هذا من تأثير القرآن فى الناس ، مسلمين وغير مسلمين ..

وبعد ..

فإن التغنى الصحيح بالقرآن الكريم لابد له أن يلتزم بأصول التلاوة والتجويد التزاما لا تهاون فيه ، ويتم دخول الألحان على التلاوة من خلال توزينات الألفاظ العربية بطريقة لا تقل دقة عما يقع فى الترتيل الذى لا تدخله الألحان دخولا ظاهرا ، مع أن الترتيل الذى لا تظهر فيه الألحان تمام الظهور ، هو أيضا نوع من التغنى بالألحان ، بل إن تدوينه بالعلامات الموسيقية الأوروبية « النوتة » أيسر من تدوين التغنى بالألحان .. فلا توجد نغمة مرتلة ولو أبسط ترتيل إلا دخلت تحت جنس من أجناس النغمات ، شأنها فى ذلك شأن النغمات الملحنة أعقد تلحين ، وقد وهم من ظن غير ذلك ، **وأخطأ من قال إن التغنى بالقرآن فى مقامات لحنية يُخرج القراءة عن أصولها ، فهذا لا يحدث إلا من قارئ جاهل لا يحق له أن يتغنى بالقرآن ، وهذا القارئ لن يسلم من النطق الفاسد المشوِّه للألفاظ فى قراءته العادية الخالية من الألحان .. فالعبرة فى جميع الأحوال هى بمقدرة القارئ ومعرفته بأصول القراءة ، وعسى أن يكون القارئ بالألحان أصح قراءة ممن يقرأ بغيرها .**

وقد جرى تهويل كثير من بعض الناس حول القراءة بالألحان ، وبالغوا فى التوجس خيفة من كلمة « الألحان » لجهلهم معناها ، إلا أن الحقيقة هى أن القراءة بالألحان مثل القراءة بغيرها ، تصح أو لا تصح طبقا لالتزام القارئ بأصول القراءة ، ولا تكون الألحان لعبا ولا لهوا ما التزمتْ بتلك الأصول ، بل تكون زينة مطلوبة مرغوبة تجمع الناس حول القرآن فى شهر رمضان ، وفى كل زمان ومكان ! ..

أقوال معاصرة

● « الحرية الآن تعانى كثيراً من اختناق الجو العام المتمثل فى الآراء المتطرفة »

« نجيب محفوظ »

● « ليس من حق أحد أن يعطل الاجتهاد والقياس وإلا كان مقصراً »

« الدكتور السيد أبو النجا »

● « الشمولية العسكرية تؤدى إلى النظم الكهنوتية »

« المستشار سعيد العشماوى »

رئيس محكمة أمن الدولة العليا

● « لا مكان لمتصيدين فى مياه الواقع العكرة »

« الشاعر الفلسطينى سميح القاسم »

● الأدب الشعبى احتجاج صامت ضد كل أشكال السلطة »

« الدكتور أحمد مرسى

أستاذ الأدب الشعبى »

● الرواية سباحة فى البحار المفتوحة »

« الأديب الليبى أحمد الفقيه »

● عدد كبير من خريجى معهد السينما لا يفهم شيئاً فى السينما »

« المخرج كمال الشيخ »

● يجب ألا يكون العصر الذهبى وراء ظهورنا ، بل يكون فى موضعه الصحيح فى المستقبل »

« الدكتور زكى نجيب محمود »



نجيب محفوظ



نجيب محفوظ



كمال الشيخ

الهلال في عيده المئوي

للشاعر : فريد قرني

مائةٌ مرتْ – ولا زلتَ هلالاَ ∴ يا منـاراً في رُبَى الشرق تلألا
أيّ ساحاتِ انطلاقٍ رُدْتَها ∴ فرس الفُصحى بهـا صال وجالا
وصروحٍ شامخاتٍ شِدْتَها ∴ عبْرَ قرنٍ .. تتأبّى أن تُطالا
لثقافاتٍ ثريّاتٍ .. بها ∴ سعد القرّاء .. لم تتركْ مجالا
غرسُك الطيّبُ أثرى ينعَه ∴ وتفيّا الكلُّ نُعماه ظلالا
أدبٌ سامٍ .. وفنٌ رائعٌ ∴ بلغَ الغاية .. شعرا ومقالا
قصصٌ حلو الجنَى .. أحداثُه ∴ لا يرومُ المرء عنهنّ انشغالا
يطفُر السائحُ مسلوبَ النُّهَى ∴ في مجاليهنّ .. إنْ حطّ وشالا
وبحوثٌ فضّتِ السرّ .. ولم ∴ تُخبلِ العقلَ يميناً وشمالا
نبعك الثرُّ من الأمسِ وحتّى ∴ اليوم .. لا زال سناه يتوالى
يرتعُ الظامئُ في شطآنه ∴ مُولعاً يرتشف السِّحرَ الحلالا
منبرَ الأعلام نادوا فوقَه ∴ ما ونَوا جهدا .. ولا كلّوا نضالا
صفوةَ الأقلام قد حُزتَ فلمْ لاَ ∴ تسحبُ الذّيلَ افتخارا واختيالا
طالبُ الحكمة يأتيكَ فلا ∴ تُوصدُ البابَ .. وتُغنيه السؤالا
أنتَ سفْرٌ بضْعُ صفحاتٍ .. لها ∴ أفردَ التّاريخ صفحاتٍ طِوالا
تُومضُ المتعةُ في طيّاتها ∴ تخلبُ اللّبَّ .. وتحتلُّ الخيالا
عجباً .. صرتَ كما البدرِ اكتمالا ∴ ويسمّونك – لا زلتَ – الهلالا

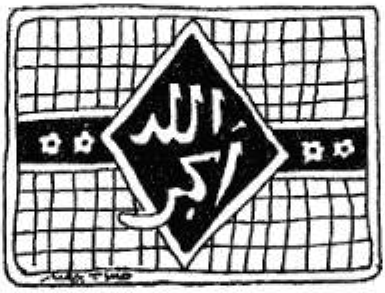
صحيحُ البُخـــارِىّ

بقـلـم : د. يوسف خليف

لم يُجمَع الحديث النبوى ولم يدوَّن فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم ولا فى عصر الصحابة إلا من بعض جهود فردية قام بها بعض الصحابة لأنفسهم فى نطاق مجالات محدودة ، على نحو ما نعرف عن على بن أبى طالب الذى كان يدوّن لنفسه أحاديث الأحكام ، وابن عباس الذى كان يدوّن ما يسمعه من الرسول فى صحيفة له سماها « الصادقة » ، وإنما بدأ الجمع والتدوين مع مستهل القرن الثانى ، أو - كما كانوا يقولون - « على رأس المائة الثانية » ، مع الصحف التى دونها محمد بن شهاب الزهرى المتوفى سنة ١٢٤ للهجرة ، وهو أحد التابعين الكبار الذين كان لهم اهتمام كبير برواية الحديث ، وهى صحف لم تصل إلينا ، وإنما وصلت أحاديث منها وأخبار عنها تؤكد أنها كانت محاولة كبيرة ، وأن صحفها كانت محفوظة فى خزائن القصر الأموى ، مما جعل العلماء ينسبون الى الزهرى أنه « أول من دوّن العلم وقيّده » ، وبعدها اتسعت محاولات جمع الحديث وتدوينه وكثرت جهود العلماء فى هذا المجال فى شتى الأمصار الإسلامية.

وساعد على ذلك ما استشعره أئمة الفقه من حاجة الى الحديث النبوى المصدر الثانى للتشريع الإسلامى بعد القرآن الكريم . ولذلك نلاحظ أن الجيل الأول فى تاريخ تدوين الحديث الذى ظهر فى هذا القرن كان من الفقهاء الذين شغلوا بجمع الحديث وتدوينه ليكون بين أيديهم وهم يضعون أصول الفقه الإسلامى وأحكامه .

وقد توّج هذا الجيل بظهور الإمام مالك إمام دار الهجرة ، المدينة المنورة ، المتوفى سنة ١٧٩ للهجرة (٧٩٥ م) بكتابه « الموطأ » الذى يعد أول كتاب من كتب الحديث وصل إلينا كاملا ، والذى يمثل الخطوة الأولى الثابتة على الطريق الذى سلكه تاريخ جمع الحديث وتدوينه . ثم كانت الخطوة الثانية مع مطالع القرن الثالث ، « على رأس المائتين » ، حين ظهر منهج جديد من مناهج تصنيف الحديث ، وهو منهج التصنيف على « المسانيد » الذى يقوم على تصنيف الأحاديث حسب روايتها من الصحابة ، وهى الخطوة التى يمثلها فى أدق صورها مسند الإمام أحمد بن حنبل المتوفى ببغداد سنة ٢٤١ للهجرة (٨٥٥ م). ثم كانت الخطوة الثالثة التى تمثل القمة التى وصل اليها تدوين الحديث ، والتى وقف بعدها هذا العلم ، واستقرت عندها مناهجه ، وتمثلها كتب الصحاح الستة التى صنفت على أساس قبول الأحاديث الصحيحة بعد تصفيتها تصفية دقيقة وفق القواعد والمقاييس البالغة الإحكام والضبط التى وضعها علماء الحديث . وهذه الكتب هى حسب ترتيبها التاريخى : صحيح البخارى (ت ٢٥٦ هـ = ٨٧٠ م) ، وصحيح مسلم (٢٦١هـ = ٨٧٥ م) ، وسنن ابن ماجه (٢٧٣هـ = ٨٨٦م) ، وسنن أبى داود (٢٧٥هـ = ٨٨٨م) ، وجامع الترمذى (٢٧٩هـ = ٨٩٢م) ، وسنن النسائى (٣٠٣هـ = ٩١٥م) وعلى رأس هذه الستة « صحيح البخارى » الذى يعد هو وصحيح مسلم أصح كتابين من بينها .



والبخارى أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَردِزْبَة فارسىّ الأصل ، ولد فى مدينة بُخارى فى سنة ١٩٤ للهجرة (٨٠٩ م) . وكان أجداده الأولون من الفرس ، ثم اعتنق جده الثانى - المغيرة - الإسلام على يد والى بخارى - اليمان الجُعفى - أحد أبناء قبيلة جُعفىّ اليمنية ، فاكتسب ولاءها . ومن هنا كان البخارى يلقب بالجعفىّ نسبة الى هذه القبيلة ، كما كان يلقب بالبخارى نسبة الى بلده .

العناية بالحديث

وفى ظل أسرة إسلامية نشأ البخارى ، فقد كان أبوه إسماعيل من علماء الحديث فى بلده الذين يؤخذ عنهم الحديث ، وتروى له كتب الحديث عددا من الأحاديث ، ويضعه العلماء بين رجال الطبقة الرابعة من التابعين ، ولعله هو الذى وجه ابنه منذ حداثته الى العناية بالحديث ، إذ نراه مشغولا به منذ صباه المبكر ، وفى هذه السن المبكرة قرّر أن يبدأ الرحلة فى طلب الحديث إلى الأمصار الإسلامية المختلفة حيث يوجد رواته وحفّاظه وعلماؤه ، يسعى إليهم ويلتقى بهم ويأخذ عنهم ، فرحل الى العراق والحجاز واليمن والشام ومصر ، ولم يترك بلدا سمع أن به رواة الحديث إلا قصده .

صحيح البخارى

وامتدت رحلاته ست عشرة سنة ، يطلب الحديث من رواته المنتشرين فى أرجاء العالم الإسلامى ، يأخذ عنهم ويأخـذون عنه ، ويروى عنهم ويروون عنه . وعلى امتداد هذه الرحلات الطويلة لقى أكثر من ألف راوٍ من رواة الحديث - ألفا وثمانين راويا - وجمـع أكثر من ستمائة ألف حديث ، عاد بها الى بلده ، وعكف عليها فى تصفية دقيقة ، وفق شروط بالغة الدقة قائمة على أسس ومقاييس مما كان قد أصلّه علماء الحديث ، من أجل استخراج الصحيح منها ، واستبعاد ما لم تثبت صحته أمام قواعد البحث المنهجى الثابتة فى علوم أصول الحديث ومصطلحه. وقد روى عنه أنه قال : « صنَّفت كتاب الصحيح لست عشرة سنة ، خرَّجته من زهاء ستمائة ألف حديث ، وجعلته حجة بينى وبين الله » .

قام البخارى بتصفية هذه المجموعة الضخمة من الأحاديث التى جمعها فى رحلاته التى امتدت هذه السنوات الطوال ، ثم أخذ يصنفها حسب موضوعاتها ، سواء أكانت موضوعات فقهية ، أم غير فقهية مثل بدء الوحى أو تفسير القرآن أو المغازى أو الفضائل أو علامات الساعة أو الفتن التى تحدث فى آخر الزمان أو غيرها من الموضوعات التى تناولتها الأحاديث ، وإن يكن من الطبيعى أن تكون الموضوعات الفقهية هى أهم هذه الموضوعات وأكثرها ، فأساس تقسيم البخارى لكتابه ليس - فى حقيقة أمره - أساسا فقهيا خالصا ، ولكنه أساس موضوعى ، فلكل موضوع من موضوعات الحديث - سواء أكان فقهيا أم غير فقهى - قسم مستقل فيه .

على هذا الأساس الموضوعى قسم البخارى كتابه الى كتب وأبواب : قسمه أولا الى سبعة وتسعين كتابا ، ثم قسم هذه الكتب الى أبواب فرعية بلغ عددها ثلاثة آلاف وأربعمائة وخمسين بابا . وأول كتاب فى البخارى هو كتاب الوحى ، ثم يأتى بعده كتاب الإيمان ، ثم كتاب العلم ، ثم كتب الطهارة ، ثم كتاب الصلاة ، ثم كتاب الزكاة ، ثم كتاب الحج ، وهكذا تتوالى الكتب وفق الموضوعات المختلفة التى تعرضت لها الأحاديث ، حتى يكون آخر كتاب هو كتاب التوحيد ، وهو الكتاب السابع والتسعون . وفى داخل هذه الكتب تتوالى الأبواب الفرعية ، فمثلا فى « كتاب القدَر » ، وهو الكتاب الثانى والثمانون ، تتوالى الأبواب التالية : باب فى القدر ، باب جف القلم على علم الله ، باب الله أعلم بما كانوا عاملين ، باب وكان أمر الله قدرا مقدورا ، باب العمل بالخواتيم ، وهكذا حتى تكتمل الأبواب ستة عشر بابا . وفى « كتاب التعبير » مثلا آخر تتوالى الأبواب الفرعية : أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى الرؤيا الصادقة ، ثم باب رؤيا الصالحين ، ثم باب الرؤيا من الله ، ثم باب الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جـزءا من النبـوة ، ثم باب المبشرات ، ثم باب رؤيـا يوسف عليـه السـلام ، ثم باب رؤيا إبراهيم عليـه

السلام ، وهكذا حتى تكتمل الأبواب ثمانية وأربعين بابا .

ولكن يلاحظ على كتب البخارى وأبوابه أن بعضها لا يضم إلا حديثا أو حديثين ، بل إن بعضها لا يضم أى حديث وإنما مجرد عنوان ولا شيء تحته ، وبعضها فيه آية من القرآن الكريم وليس فيه حديث ، بل إن بعضها يصعب فهم الرابطة أو الصلة بين عنوانه وما ذكر فيه من أحاديث ، على نحو ما نرى مثلا فى « كتاب اللباس » حيث نجد هـذه الأبواب الخمسة فى آخره : باب الارتداف على الدابة ، باب الثلاثة على الدابة ، باب حمل صاحب الدابة غيره بين يديه ، باب إرداف الرجل خلف الرجل ، باب إرداف المرأة خلف الرجل (الكتاب ٧٧ - الأبواب ٩٨ - ١٠٢) ، وهى موضوعات يصعب إدراك الصلة بينها وبين موضوع الكتاب ، وهو « اللباس » .



وقد وقف العلماء أمام هذه الظاهرة وحاولوا تفسيرها ، وفى أغلب الظن أن السبب فى ذلك يرجع الى أن البخارى لم تصح عنـده أحاديث فى هـذه الأبواب الخـالية ، وكأنما قام أولا بوضع خطة كتابه ، ووضع عناوين له ، ثم أخذ يملأ الأقسام التى قسم إليها بما يصح عنده من أحاديث تتصل به ، فإذا لم تصح عنده أحاديث فى بعض الأبواب تركها خالية على احتمال أن يجد بعد ذلك أحاديث صحيحة يضعها فيها . ومن هنا يظن العلماء أن نسخة البخارى كما خلّفها صاحبها لم تكن قد وُضعت فى صورتها النهائية ، وأنه كان فى نيّته أن يعيد النظر فيها ليستكملها ، كما يظنون أن بعض النساخ الذين قاموا بنسخ الكتاب قد تصرفوا فى بعض كتبه وأبوابه ، ويؤكد ذلك ما يذكره أحد علماء الحديث - الحافظ أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد المستملى - وهو يتحدث عن النسخة التى نسخ منها صحيح البخـارى ، والتى كانت عند أصحاب البخارى الذين كتبوها عنه ، حيث يقول : « انتسخت كتاب البخارى من أصله الذى كان عنـد صاحبه (أى صاحب البخارى) محمد بن يوسف الفِرَبْرِىّ ، فرأيت أشياء لم تتم ، وأشياء مبيضة ، منها تراجم لم يثبت بعدها شيئا ، ومنها أحاديث لم يترجم لها ، فأضفنا بعض ذلك الى بعض » . ويقول أحـد علماء الحديث : « ومما يدل على صحة هذا القول أن الروايات مختلفة بالتقديم والتأخير ، مع أنهم انتسخوا من أصل واحد ، وإنما ذلك بحسب ما قدر كل واحد منهم » .

صحيح البخاري

وعلى كل حال فهذه الظاهرة تدل - من بعض وجوهها - على الدقة البالغة التى فرضها البخارى على نفسه ، فهو لم ير فيما وصل إليه الصورة النهائية التى كان يريد أن تكتمل له ، ولم يجد فيما حدده لكتابه من خطة ، وما خططه له من منهج ، ما يملأ كل جزئياته من مادة يطمئن إليها ، فلم يغلق الأبواب أمامه ، ولم يضع السطور الأخيرة فيه ، وإنما ترك مواضع خالية على نية معاودة النظر فيه ، وعلى أمل إستكمال ما لم يتح له أن يستكمله فى تجاربه الأولى .

ولكن ليس هذا هو المظهر الوحيد لدقة البخارى فى كتابه ، وإنما هناك مظهر آخر أهم منه ، وهو تلك الشروط البالغة الدقة التى فرضها البخارى على نفسه واشترطها ملتزما بها التزاما كاملا .

وأهم هذه الشروط شرطان :

الشرط الأول أن البخارى لم يكن يقبل إلا الحديث الصحيح بمفهومه الاصطلاحى الذى اتفق عليه العلماء فى علم « مصطلح الحديث » ، وهو الحديث الذى اتصل إسناده برواية العدل الضابط عن العدل الضابط إلى منتهاه بشرط ألا يكون شاذا ولا معللا .

والعدل هو المسلم البالغ العاقل الذى سلم من أسباب الفسق وخوارم المروءة . والضابط هو الراوى الذى سلم له عقله ، وسلمت له ذاكرته ، ولم يثبت عليه فى روايته خطأ ولا غفلة ولا نسيان . والعدل الضابط هو الذى يسميه علماء الحديث «الثقة» .

والحديث الشاذ - فى أصح الأقوال ، وهو قول الإمام الشافعى - هو الحديث الذى يرويه الثقة ويخالف به ما روى الناس .

وأما الحديث المعلل فهو الحديث الذى به علة خفية لا يعرفها إلا المختصون الخبراء بالحديث تقدح فى صحته وسلامته ، ولهذا يقولون : « معرفة العلل إلهام » .

لم يقبل البخارى من الأحاديث إلا الحديث الصحيح الذى تتوافر فيه هذه الشروط جميعا ، ولهذا لم يقبل «الحديث الحسن» على الرغم من أن علماء الحديث يقبلونه ، وأكثر أصحاب «الصحاح» يأخذون به ، وخاصة الترمذى الذى يعد كتابه «السنن» أصلا فى معرفة الحديث الحسن ، وكذلك «سنن أبى داود» .

والشرط الثانى أن البخارى يشترط فى رواته أمرين لابد من توافرهما لهم ، هما المعاصرة والسماع ، فلكى يكون الراوى عنده مقبولا لابد من أن يكون معاصرا لشيخه ، ولابد أيضا من أن يكون متصلا به سامعا لما يرويه عنه . وهو شرط لم يشترطه من علماء الحديث إلا البخارى ، حتى أن مسلما نفسه لم يكن يشترط السماع ، فحسبه أن يكون الراوى معاصرا لشيخه وما عليه بعد ذلك أن يكون قد أخذ الحديث عنه سماعا أو قراءة أو عرضا أو بأى طريق من طرق تحمل الحديث .

وعلى أساس هذا الشرط رتب البخارى رواته درجات ، وأعلى هذه الدرجات أن يكون الراوى ملازما لشيخه فى السفر والحضر - على حد عبارة البخارى نفسه ، أى أن يكون ملازما له ملازمة تامة . ثم تأتى بعد هذه الدرجة درجة أقل يكون الراوى فيها ملازما لشيخه مدة طويلة تكون

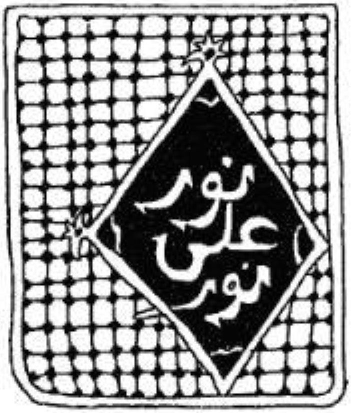
كافية للتعرف على شخصيته وأسلوبه فى الرواية ، وطريقته فى فهم الأحاديث التى يحدث بها . ثم تأتى بعد هاتين الدرجتين درجات أقل يتفاوت فيها مدى ملازمة الراوى لشيخه . ولم يكن البخارى يقبل إلا من رواة الدرجتين الأوليين ، أما سائر الدرجات فلم يكن يأخذ عن رواتهم شيئا ، ولكن الواقع أن أكثر أخذه كان عن رواة الدرجة الأولى ، وقليلا ما كان يأخذ عن رواة الدرجة الثانية .

وساعد البخارى على تحقيق هذا الشرط ، ويسر له هذا التصنيف للرواة ، سعة علمه برواة الحديث وأخبارهم ومستوياتهم فى الرواية .

وكل الأخبار التى بين أيدينا عن البخارى تؤكد أنه كان واسع العلم برواة الحديث ورجاله وأخبارهم ، وقد ألف كتابا عنهم سماه « التاريخ الكبير » عرض فيه لحياتهم وأحوالهم وأخلاقهم وسلوكهم فى حياتهم العامة والخاصة ، وقسمهم درجات من حيث التعديل والتجريح أو التوثيق والاتهام ، ثم عاد فاختصره وسمى المختصر «التاريخ الصغير» ، وكأنه وضع هذين الكتابين كمقدمة لجمع كتابه «الصحيح» . وكان البخارى يقول عن نفسه مسجلا ذلك العلم الواسع . « قلّ اسم فى التاريخ إلا وله عندى قصة »

ذاكــرة خــــارقة

وصفة أخرى ساعدت البخارى على الوصول بكتابه إلى ما وصل إليه ، وهى قوة ذاكرته ، وكل من تحدثوا عنه نوّهوا بقوة ذاكرته الخارقة للعادة ، وهم يقولون



عنه إنه كان يستطيع أن يحفظ الكتاب كله عن ظهر قلب لأول قراءة ، ويذكرون أيضا أنه كان يحفظ كثيرا من الأحاديث بأسانيدها الكاملة .

فى ضوء هذه الشروط الدقيقة التى وضعها البخارى لنفسه ، والتزم بها ، وأخضع منهجه العلمى فى كتابه لها ، صفى تلك المجموعات الضخمة من الأحاديث التى جمعها فى أثناء رحلاته تصفية دقيقة بالغة الدقة انخفض معها عددها انخفاضا ملحوظا ، فعدد أحاديث البخارى بدون تكرار – كما حققه الحافظ ابن حجر فى مقدمته لشرحه عليه المعروف بفتح البارى – ٢٧٦١ حديثا ، فإذا أضفنا إليها الأحاديث المكررة واختلاف الروايات فإن العدد يرتفع إلى ٩٠٨٢ حديثا ، وهذا غير ما فيه من أحاديث الصحابة وأقوال التابعين . وبهذا يتضح أن عملية التصفية التى قام بها البخارى كانت عملية بالغة

صحيح البخارى

الدقة ، ولهذا نلاحظ أن صحيح البخارى أقل كتب الحديث من حيث عدد أحاديثه مع أنه أهمها وأشهرها .

والعلماء متفقون على أن البخارى - إلى جانب علمه الواسع بالحديث - كان فقيها . ويعده السبكى فى كتابه «طبقات الشافعية» شافعيا . ولكن الظاهر - كما يرجح الاستاذ أحمد أمين فى كتابه «ضحى الإسلام» أنه كان مجتهدا ، فله آراء توافق مذهب أبى حنيفة ، وآراء توافق مذهب الشافعى ، وله آراء تخالفهما ، وهو أحيانا يختار مذهب ابن عباس ، وأحيانا يختار مذاهب غيره من الصحابة ، وفى بعض المواضع نراه مستقلا برأيه ، ينفرد باستنباطات خاصة لا يتقيد فيها بمذهب معين .



وقد شغل العلماء بكتاب البخارى ، وعنوا به عناية شديدة منذ أن وضعه صاحبه ، وتداولته أيديهم ، وتعددت نسخه فى الأقاليم الإسلامية المختلفة ، فكان طبيعيا أن تختلف هذه النسخ فى بعض مواضع منها نتيجة لتداول العلماء لها وتنقلها بين أيديهم . ولكننا لا نكاد نصل إلى القرن السابع الهجرى حتى نرى عالما من كبار علماء الحديث ، وهو شرف الدين اليونينى الحنبلى ، يُشغل بجمع كل ما هو موجود من نسخ البخارى ، ويتفرغ لمراجعتها وتحقيقها والمقابلة بينها ، ليخرج منها نسخة موحدة مصححة محققة تحقيقا دقيقا . حتى إذا ما تم له هذا العمل الضخم الذى يعد أول تحقيق علمى منهجى لنص من النصوص عرفته الثقافة العربية ، واستوت لهذا المحقق المبكر فى تاريخ هذه الثقافة نسخة دقيقة مضبوطة محققة من هذا الكتاب مسجلا عليها اختلاف النسخ الأخرى التى قابل عليها النسخة الأم ، متخذا لهذه النسخ - شأن المحققين المحدثين - رموزا تعرف بها ، عرضها على إمام النحو فى عصره ابن مالك صاحب الألفية المشهورة ، ليراجعها معه ، وليخرج ما فيها من آراء نحوية غير معروفة له ، وليصحح ما بها من تحريف النساخ .

وقام ابن مالك بمراجعة نسخة البخارى التى حققها اليونينى ، وصحح نحوها ، وخرج ما بها من آراء نحوية مختلفة ، وتم

ذلك في واحد وسبعين مجلسا في المسجد الجامع بدمشق كان يشهدها جماعة من العلماء الثقات ، ومع كل واحد منهم نسخة من الكتاب يراجع عليها ، مبالغةً في الدقة والاطمئنان . وبعد الفراغ من هذه المراجعة والتصحيح سجل ابن مالك على النسخة المحققة سماعه لهـــا من أجل مراجعتها وتخريج ما فيها من مسائل نحوية ، وكتب عليها بخطه هذه العبارة التي لا تزال تحتفظ بها أول ورقة منها ، وختمها بتوقيعه توثيقا لها : «سمعت ما تضمنه هذا المجلد من صحيح البخاري - رضي الله عنه - بقراءة سيدنا الشيخ الإمام العالم الحافظ المتقن شرف الدين أبي الحسين علي بن محمد بن أحمد اليونيني - رضي الله عنه وعن سلفه - وكان السماع بحضرة جماعة من الفضلاء، ناظرين في نسخ معتمد عليها ، فكلما مر بهم لفظ ذو إشكال بينت فيه الصواب وضبطته على ما اقتضاه علمي بالعربية ، وما افتقر إلى بسط عبارة وإقامة دلالة ، أخرت أمره إلى جزء أستوفي فيه الكلام مما يحتاج إليه من نظير وشاهد ، ليكون الانتفاع به عاما ، والبيان تاما ، إن شاء الله تعالى . كتبه محمد بن عبد الله بن مالك حامدا لله تعالى» .

وفي آخر النسخة سجل اليونيني هذه المراجعة أيضا ، فكتب بخطه : « بلغت مقابلة وتصحيحا واسماعا بين يدي شيخنا شيخ الإسلام ، حجة العرب ، مالك أزمة الأدب ، العـــلامة أبيْ عبد الله بن مالك الطائي الجياني ، أمد الله تعالى عمره ، في المجلس الحادي والسبعين ، وهو يراعي قراءاتي ، ويلاحظ نطقي ، فما اختاره ورجحه وأمر بإصلاحه اصلحته وصححت عليه ، وما ذكر أنه يجوز فيه إعرابان أو ثلاثة كتبت عليه معا ، فأعملت ذلك على ما أمر ورجح» .

وقد وفى ابن مالك بوعده ، فألف بعد ذلك كتابه المعروف : «شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح» .

وبهذا تمت لليونيني أدق عملية تحقيق في تاريخ الثقافة العربية ، واستطاع من خلالها أن يقدم أدق نسخة من «صحيح البخاري» ، وهي النسخة التي تداولتها أيدي العلماء بعد ذلك ، وأصبحت هي المعتمدة إلى الآن . وعلى هذه النسخة قامت شروح «صحيح البخاري» ، وأشهرها ثلاثة : فتح الباري لابن حجر ، وعمدة القاري للعيني ، وإرشاد الساري للقسطلاني . وأشهر الثلاثة وأهمها وأغزرها مادة على الإطلاق فتح الباري لابن حجر .

وهكذا استطاع الإمام البخاري - رضي الله عنه - أن يقوم بهذا العمل الجليل ، جمع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتحقيق صحيحه من ضعيفه وموضوعه ، حتى استحق بكل جدارة تلك الصفة التي وصفه بها العلماء «شيخ الحديث ، وطبيب علله في القديم والحديث» .

مختـــار الحكم ومحاسن الكلم لأبى الوفاء المبشــر بن فاتك

بقلم : د. الطاهر أحمد مكى

يعد العصر الفاطمى من أزهى فترات تاريخ مصر فى العصر الوسيط ، سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وعلميا ، وخلال النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى كان اسم الخليفة الفاطمى يذكر فى خطب الجمعة فى جميع المساجد ، من المحيط الأطلسى إلى البحر الأحمر ، واليمن ومكة ودمشق ، وبلغ حتى الموصل ، وظفرت بأن تصبح الدولة الإسلامية الوحيدة ذات النفوذ العظيم فى شرقى البحر الأبيض المتوسط .

وكانت مصر هى الوحيدة من بين بلاد الإمبراطورية الفاطمية التى احتفظت بالطابع الثقافى الفاطمى ، ذى المميزات الخاصة ، رغم أن المذهب الشيعى انتهى بانتهاء الدولة نفسها ، وخلف وراءه حب المصريين لآل البيت ، دون اعتناء كبير بالعقيدة الشيعية نفسها أو الطقوس المرتبطة بها . وكان العصر الفاطمى بداية عهد جديد فى تاريخ البلاد ، مملوءا بالحيوية والاستقلال ، ويقوم على قواعد دينية منذ أيام الفراعنة العظام .

ولقد زار الرحالة الفارسى ، والداعية الاسماعيلى ، ناصرى خسرو مصر فى الفترة ما بين ١٠٤٦ و ١٠٤٩ م ، أى قبل سنوات التصدع السياسى والاقتصادى ، وترك لنا وصفا رائعا خلابا لما كانت عليه

مصر ، ولما شاهده فيها ، من قصور بانخة ، وعوامات ضخمة جميلة ترسو فى النيل ومساكن مبنية فى معظمها بالآجر ، وتتكون من خمس طبقات أو ست ، والشوارع الرئيسية مسقوفة ، ومضاءة بالمصابيح ، وأسعار الحاجيات محددة رسميا ، والأمن يسود العاصمة ، حتى أن باعة الجواهر والصيارفة كانوا يذهبون إلى الصلاة ويتركون محلاتهم مفتوحة دون غلق ، وتمتعت البلاد برخاء اقتصادى لم تعرفه البلاد إلا فى العصر الفرعونى والعصر الإسكندرى

ازدهار العلوم

وشهد هذا العصر تقدما باهرا فى مجال العلوم بخاصة ، فعاش فيه علىّ بن يونس ، المتوفى ١٠٠٩م ، أكبر فلكى شهدته مصر ، وصحح الأخطاء التى كانت شائعة على أيامه فى الجداول الفلكية ، وابن الهيثم ، المتوفى ١٠٣٩م ، ويعد أعظم علماء المسلمين فى الطبيعة والبصريات ، وخطّأ نظريات إقليدس وبطليموس القائلة إن العين ترسل أشعة بصرية إلى الأشياء المرئية ، وأجرى عدة اختبارات لقياس زاوية الانكسار وزاوية الانعكاس ، وتوصل فى بعض تجاربه إلى اكتشاف نظرية العدسات المكبرة ، وسوف تصنع فى إيطاليا بفضله بعد ذلك بثلاثة قرون .

وكانت المكتبة الملكية على عهد الخليفة المستنصر تضم مائتى ألف كتاب ، بينها ما هو بخط الوزير ابن مقلة ، أشهر خطاط فى التاريخ العربى ، ويضم عددا من الكتب بخط مؤلفيها أنفسهم ، كتاريخ الطبرى ، وكتاب العين للخليل بن أحمد ، وتضم من كل كتاب هام عدة نسخ .

وتدين لمصر فى هذا العصر بكتاب له من الأهمية بقدر ما ناله من الإهمال ، وقلة تعرف موطنه وقدره ، مع أنه نموذج فريد فى التأليف العربى ، وشهادة حية على تمكن المسلمين بعامة ، والمصريين من بينهم بخاصة ، من الفلسفة اليونانية ، وإحاطة جيدة بمحتواها ورجالاتها ، وكان مصدرا أساسيا لكل من تناول هذه القضايا من زملائه فى الوطن أو العقيدة ، وترك أثرا بينا فى الثقافة الأوربية فى فجر نهضتها ، فى إسبانيا أولا ، ثم فى بقية العالم الغربى من بعد ، ورغم أن مؤلف الكتاب مصرى فإن مخطوطات هذا الكتاب القيم استقرت كلها خارج مصر ، فى ليدن بهولندا ، المتحف البريطانى ، وبرلين ، واستنبول . وأحسب أننا لو راجعنا مخطوطات المكتبة الأزهرية وفهارسها ليست كاملة حتى الآن ، فقد نجد نسخة منه مهملة فى ركن منها لايعرف أحد من القائمين عليها قيمته ، ولا يعرف أحد فى العالم الخارجى أنه يمكن أن يوجد فيها ، وإلا لحازوه بطرقهم الخاصة من زمن بعيد ، كما حازوا الكثير من تراثنا تماثيل ومخطوطات .

وقدر لهذا الكتاب أن يظل منفيا حتى بعد تحقيقه وطبعه ، ومثل هذا الكتاب

العظيم ما كانت لتخفى قيمته على عالم جليل ، هو الآخر بعيد عن وطنه ، رد الله غربته !

أما الكتاب فهو «مختار الحكم ومحاسن الكلم» لأبي الوفاء المبشر بن فاتك ، وأما المحقق فهو الأستاذ الدكتور عبد الرحمن بدوى ، وأما المكان الذى نشر فيه فهو مدريد عام ١٣٧٧ هـ = ١٩٥٨ م .

المؤلف أصلا من دمشق ، ولكنه استوطن مصر حتى صار يعد من أعيان أمرائها ، وأفاضل علمائها ، وأحد العارفين بالأخبار والتواريخ ، المصنفين فيها .

ولاتذكر المصادر سنة مولده ، ولا تاريخ وفاته ، ولكننا نستطيع تحديد سنى حياته عن طريق شيوخه ومن درسوا عليه ، وفى ضوئها نفترض أنه ولد فى العقد الأول من القرن الخامس الهجرى ، وأن وفاته لابد أن تكون قد حدثت قبل عام ٤٨٠ هـ ، لأن بعض من أرخوا له يقولون إنه حضر خلافتى الظاهر ، وحكم من ٤١١ هـ ١٠٢١م . إلى ٤٢٧ هـ ١٠٣٥م ، والمستنصر، وحكم من ١٠٣٥م إلى ٤٩٥ هـ ١٠٩٤م ، ولم يحضر خلافة المستعلى الذى تولى الخلافة بعد المستنصر يوم وفاته .

درس المبشر علوم الهيئة والعلوم الرياضية وفروع الفلسفة ، وكان ابن الهيثم من بين أساتذته ، وكان كثير الكتابة ، ونسخ بخطه كثيرا من مصنفات الأقدمين ، كثير الاقتناء للكتب مكبا عليها ، وأدى به إدمانه للكتب إلى انصرافه عن زوجته ، حتى أنه حين توفى نهضت ومعها جواريها إلى خزائن كتبه وجعلت تندبه وفى أثناء ذلك ترمى الكتب فى بركة ماء كبيرة فى وسط الدار ، هى وجواريها ، ثم رفعت الكتب بعد ذلك من الماء ، وقد غرق أكثرها .

وقد حرر المبشر كتبا كثيرة فى الطب والمنطق وسيرة المستنصر ، والوصايا والأمثال ، ومن بينها الكتاب الذى نعرض له ، وهو الوحيد الذى وصلنا .

ليس للمؤلف فى الكتاب إلا فضل الجمع والاختيار ، ولكنه جمع أشياء لم تكن شائعة ، وقلة كانت تعنى بها ، وتدل على سعة إطلاعه بكتب الأوائل من اليونان ، وأن مصادرها كانت متوفرة فى مصر على أيامه ، واختار من مقولاتهم وآدابهم وأخبارهم ما لا نجده بهذه الصورة والافاضة عند آخرين .

فنحن نلتقى فيه بدءا بطائفة من كلام النبى شيث ، وهو الابن الثالث لآدم وحواء ، طبقا لرواية التوراة فى سفر التكوين ، يليه حديث عن ادميس وآدابه ، وهو إدريس النبى فى العربية ويقول عنه إنه ولد فى مصر ، فى مدينة منف منها ، ويسمى عند اليونانيين طرميس ، وعند العبرانيين خنوخ ، خرج عن مصر ، ودار الأرض كلها ، وعاد إلى مصر ، ورفعه الله إليه بها ، وذلك بعد اثنتين وثمانين سنة ، ثم يورد

طائفة من مواعظه ، ثم يعرض لابنه صاب ، وإليه ينسب «الصابئون» ، وتلميذه أسقلبيوس ، وكان قد رافق أستاذه في رحلاته .

وبعد حديثه عن هؤلاء يعرض للحديث عن الأدباء والفلاسفة من اليونان ، فيتحدث عن هومير الشاعر ، وسولون الحكيم وآدابه ، وزينون الفيلسوف وأخباره ، وأبقراط الطبيب وحكمه ، وفيثاغورس ورحلاته ومصنفاته ، وذيوجانس المتجرد وزهدياته ، وسقراطيس الزاهد وأخباره وحكمه ومواعظه ، وأخبار أفلاطون ومشوراته وآدابه ، وصفحات مطولة عن أرسطاطاليس وفلسفته وتاريخه وفكره .

لماذا الإهتمام بالإسكندر ؟

ويعقب الكلام عن أرسطو حديث عن تلميذه الإسكندر ، ويرى الدكتور عبد الرحمن بدوي أن هذا الفصل على جانب كبير من الأهمية لأنه بني على كتاب حياة الإسكندر الذي ينسب تأليفه إلى كليثينس . ثم يتساءل : ترى هل ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية ؟ يجيب على ذلك فيقول : إن أهتمام المسلمين بأمر الإسكندر المقدوني ذي القرنين يعود لوروده في القرآن الكريم في سورة الكهف ، وإلى أهتمام العصر الهليني بأسطورة الإسكندر حتى نشأت قصصا خرافية تدعى قصة الاسكندر كانت واسعة الانتشار جدا في بلاد الشرق الأوسط ، بيد أن المصادر لاتتحدث صراحة عن شيء من هذا . فلا هي تذكر اسم كليثينس وتنسب إليه القصة ، على حين أن مختار الحكم لايتابعها إلا في أجزاء منها .

وكليثينس ، وولد حول ٣٦٠ ق م ، ليس بعيدا عن أرسطو ولا عن الإسكندر ، فقد كان قريبا للأول ، وكان أستاذا لهما هما الاثنان ، ويعلمهما معا واهتم بدراسة التاريخ ، وعندما انتصر الإسكندر على الفرس ، وانتشى بالنصر ، وأراد أن يقدس كما تقدس الفرس ملوكها رأى أن ذلك مناف لطبائع اليونان ، فعارض اتجاهه مما جعل الإسكندر ينقم عليه ، وانتهز فرصة مؤامرة عليه فتخلص منه .

نسبت إلى كليثينس قصة زائفة عن حياة الإسكندر ، هي الأصل في أسطورة الإسكندر ، وانتشرت على نطاق واسع جدا ابتداء من القرن الرابع الميلادي ، رغم سوء كتابتها ، واضطراب الرد فيها ، واختلاط الواقع بالأساطير والخوارق ، وربما كان وراء ذيوعها ، بسبب عقليتها الساذجة النازعة إلى الإيمان بالمعجزات والخوارق ، حتى أنها ترجمت إلى الارمنية والتركية والعبرية والقبطية والعربية والفارسية والجورجية ، وقبلها إلى اللاتينية ، ثم صيغت على أساس ترجمة لاتينية متأخرة إلى اللغات الأوربية الحديثة : الفرنسية والألمانية والإيطالية والإسبانية والإنجليزية والسويدية والدانمركية والتشيكوسلوفاكية .

وإذن فلكتاب مختار الحكم قيمة عظيمة لأنه حفظ لنا إحدى الروايات عن قصة

أصحاب الكتب العربية

الإسكندر هذه ، لأن الفصل الخاص به قد اعتمد إما على ترجمة عربية وإما على كتاب آخر اقتبس منه معالم هذه القصة من تاريخ الإسكندر .

وقد فقدت هذه الترجمة العربية مع الكثير الذى فقد من تراثنا فى سنوات الجهل والتردى والإهمال ، ولم يبق لدينا منها إلا ما يقدمه لنا مبشر ، وكانت هذه الترجمة العربية هى أصل الروايات اللاتينية التى انتشرت فى العصور الوسطى .

وبعد قصة الإسكندر يفصل القول عن بطليموس وحذقه لعلوم الهندسة والفلك ، وماألف من كتب فيها ، وأنه ولد ونشأ بالإسكندرية . ثم يصل إلى أخبار لقمان الحكيم ، وأنه أسود اللون ، أصله من النوبة ، ونشأ وتعلم ببلاد الشام ، وتوفى وقبر فى مدينة الرملة من أعمال فلسطين ، ويأتى بطائفة من وصاياه ، وينتقل منه إلى حكم مهاد رجيس وباسيليوس واللاهوتى غريغوريوس ، وجالينوس الحكيم ، أحد الأطباء الثمانية المقدمين المرجوع إليهم فى صناعة الطب قديما ، والذين هم رؤس الفرق ومعلمو المعلمين ، ويختم كتابه بباب جامع لأقوال جماعة من الحكماء «عرفت أسماؤهم ، ولم يوجد لكل واحد منهم ما يصلح أن يفرد له باب يجمعه فى موضع واحد ، وباب آخر لآداب لم يعرف قائلها فجمعت فى موضع واحد .

ترك كتاب مختار الحكم أثرا واضحا فى الفكر على أيامه وفيما بعدها ، فقد أفاد منه كثيرون وبخاصة أولئك الذين يعرضون لتاريخ الملل والنحل والمذاهب فى مختلف الأمم ، فقد نقل عنه الشهرستانى المتوفى ٥٤٨ هـ صفحات كثيرة فى القسم الخاص بحكماء اليونان، ونقل عنه الصوفى الشهير الشهر زوردى (شمس الدين محمد بن محمود) المتوفى ٦٤٨ هـ صفحات طويلة فى كتابه «نزهة الأرواح وروضة الأفراح» نقلا حرفيا دون تغيير ، أو مع زيادات غير ذات أهمية ، ولولا أنهما يختلفان اختلافا بينا فيما يوردان من الحكماء والأنبياء ، وأن ثمة إضافات ونقوصا بين الفصول المتناظرة لظنهما المرء كتابا واحدا . وكان ابن اصيبعة فى كتابه «عيون الأنباء فى طبقات الأطباء» ، أكثر أمانة ، فنقل عنه ، وأشار إليه فى المواضع التى نقلها .

فى أوربا كانت إسبانيا أول من ترجم الكتاب إلى لغتها فى عصر ألفونسو العالم (١٢٥٢ - ١٢٨٤) ملك قشتالة ، وكان مدرسة الترجمة فى طليطلة التى اضطلعت بترجمة الكثير من التراث العربى فى الأندلس إلى اللغة الإسبانية ، ومن بين ما خلفته كتاب «لقم من ذهب» ، تأليف بونيوم ملك فارس ، وعند دراسة الكتاب تبين للإسبان أنه اعتمد إلى ما يقرب أن يكون ترجمة لمختار الحكم ، وأن مبشراً اعتمد

فى جمع حكمه على كتاب «آداب الفلاسفة» لحنين بن إسحاق ، والحكم المنسوبة إلى الإمام على بن أبى طالب ، إلى جانب القدماء من اليونانيين ، وربما استعان ببعض الكتب المسيحية أيضاً . وفضلا عن العرب الذين تأثروا به ، فقد تأثر به أيضا سعدى وعبد الرحمن حامى شعراء الفرس، وبعض شعراء الترك أيضاً .

والواقع أن الكتاب كان موردا عذبا لكل الكتاب الإسبان الذين كانوا يبحثون عن المعرفة العملية التى تملأ مجموعات الحكم والأمثال لتربية الأمراء وتعليم الشعب ، وعند الذين اهتموا بجمع الأمثال أصلية أو مترجمة .

أما ترجمته إلى اللاتينية فقد قام بها يوحنا البروشيدى ، وكان حاكما لجزيرة بروشيدا وطبيبا ومتآمرا فى السياسة ، وتوفى عام ١٣٠٢ ، ويرجح الدكتور بدوى أن الترجمة اللاتينية تمت عن العربية لا عن الترجمة اليونانية ، لأن هذا الطبيب المترجم عاش فى بلاط فريدريك الثانى ، المتوفى ١٢٥٠ م ، وكان حافلا بمن يعرفون العربية ، وعلى أساس الترجمة اللاتينية تمت الترجمة الفرنسية ، قام بها جيوم دى تنيونفيل أحد أمناء قصر شارل السادس ، توفى ١٤١٤ م ، وكان محافظا لمدينة باريس ، فى لغة فرنسية ، وقد أغفل بعض العبارات ، وفى مواضع أخرى عدل فى الأصل اللاتينى تعديلا يتفق مع نزعاته ، وعن الترجمة الفرنسية هذه ترجم إلى اللغة الإنجليزية ، وإلى البروفنسالية ، ثم توالت ترجماته فى اللغات الأخرى .

أهمية خاصة لمختار الحكم

إن كتاب «مختار الحكم» هو أوفى كتاب فى العربية استقصى أقوال الفلاسفة والحكماء ، ومادته تزيد عشرات المرات عما ورد فى نظائره مثل «جاويدان خرد» لمسكويه ، و «الكلم الروحانية فى الحكم اليونانية» لأبى الفرج بن هندو ، والنصوص التى أوردها مبشر ذات ديباجة عربية خالصة ، لاتشتم منها رائحة ترجمة ، مما يقطع بأن قلما عربيا عالى الأسلوب جرى فى الترجمات اليونانية .

ظل كتاب مختار الحكم حبيس مخطوطاته الموزعة على مكتبات العالم الأوربى ، دون أن يعرف عنه العالم العربى شيئا ، على حين أنه كان معروفا جيدا لجمهرة المستشرقين الإسبان ، وقد نشر منه برونو ميسنر الفصل الخاص بالإسكندر المقدونى فى مجلة الجمعية الشرقية الألمانية ، فى ليبزيج عام ١٨٩٥ ، مع ترجمته إلى الألمانية .

ثم جاء الأستاذ الدكتور عبد الرحمن بدوى فأخرجه كاملا فى طبعة علمية ممتازة ، معارضا بين مخطوطاته المختلفة ، ومعلقا على غوامضه ، ومقدما له بدراسة عميقة ، غير أن هذه الطبعة العلمية الممتازة صدرت فى مدريد ، وما طبع منها كان محدودا ، وقد نفدت منذ زمن بعيد ، ومؤكداً أن أحداً فى القاهرة لا يعرف عنها شيئا .

أمهات الكتب العربية

لسان العرب لابن منظور

بقلم : د . محمود الطناحي

وابن منظور : هو أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرّم بن على الأنصارى الإفريقى المصرى ، ينتهى نسبه إلى الصحابى الجليل رُوَيْفِع بن ثابت ، رضى الله عنه . وقد ذكر ابن منظور هذا النسب فى مادة (جرب) من اللسان .

ولد ابن منظور يقيناً بالقاهرة سنة ٦٣٠ هـ ، ونشأ بها وتعلّم وصنّف ، وتوفى سنة ٧١١ هـ ودفن بقرافتها و« الإفريقى » فى نسبه معناها التونسى ، فقد كانت إفريقية فى ذلك الزمان يراد بها تونس الآن . وقد وُلد جدّ ابن منظور « على » فى تونس ، ثم غادرها إلى القاهرة ، وبها وُلد ابنه « مكرّم » والد ابن منظور ، ثم وُلد هذا وإخوته بها . وقد ذهب بعضهم إلى أن ابن منظور وُلد بتونس ، وذهب آخرون إلى أنه ولد بطرابلس الغرب . يقول الدكتور إحسان عباس : « وقد ثار فى السنوات الأخيرة جدل حول منتمى ابن منظور ، أملته النظرة الإقليمية ، أهو إفريقى أم مصرى .... ولو تأملت هذا الكلام من جميع هؤلاء الدارسين لتملكك العجب ، ودهشت لهذا الذى يجرى فى الدراسات والتحقيقات ، من استنامة إلى السهول والتساهل ، مع أن الأدفوى يقول فى البدر السافر : محمد بن مكرّم الإفريقى المحتد القاهرى المولد . وهذا ابن سعيد يروى نقلاً عن المكرم نفسه والد محمد ، أنه أى المكرّم - ولد بالقاهرة . فإذا كان الأب نفسه ولد بالقاهرة فبأىّ حق يفتش الدارسون عن عبقرية إفريقية (تونسية) ولدى ابن منظور ؟

ومهما يكن من أمر فقد عرف ابن منظور بالاشتغال بالأدب ، نظماً ونثراً ، مع معرفة بالنحو واللغة والتاريخ ، وتولّى كتابة الإنشاء بالدولة ، وكان كثير النَّسْخ ، ذا خطّ حسن . وقد شهر باختصار الكتب

التصنيف والتدوين

ومع هذا النشاط الظاهر فى الاشتغال بعلوم العربية واختصار مصنفاتها ، فما

● **خرج من مصر - تأليفاً وطباعةً - أضخم معجمين فى تاريخ المعاجم العربية : لسان العرب لابن منظور المتوفى ٧١١ هـ ، وتاج العروس من جواهر القاموس للمرتضى الزَّبيدى المتوفى فى سنة ١٢٠٥ هـ . ومع أن تاج العروس هو أغْزر المعاجم اللغوية مادة وأكثرها شمولا ، فإن لسان العرب قد ذهب بالشهرة كلها ؛ لأسباب ودواعٍ يأتيك حديثها .**



عرف ابن منظور وما شهر إلاّ بكتابه العظيم : لسان العرب .

وقد جاء ابن منظور بعد ما استقرَّ التأليف المعجميّ ، واتضحت طرائقه ومدارسه . وقد بدأ التصنيف المعجمى - كما هو معروف - موازيا للتدوين فى علوم العربية ، فى النصف الأول من القرن الثانى ، وتمثل ذلك فى تلكم الرسائل الصغيرة التى تناولت موضوعات بعينها ، مثل ما كتب فى خَلْق الإنسان والبهائم والحشرات ، والإبل والخيل والنخل والنبات والمطر واللبن ، وما كتب فى نوادر الأبنية ثم ما كتب فى غريب القرآن والحديث .

قام بهذا اللغويون الأوائل ، مثل أبى خيرة الأعرابىّ ، وأبى عمر بن العلاء ، وأبى مالك الأعرابىّ ، وأبى زيد ، والأصمعىّ ، وأبى عبيدة معمر بن المثنى ، وأبى عبيد القاسم بن سلاّم . وفى ذلك الزمان أيضا قام الخليل بن أحمد بتصنيف أول معجم متكامل ، وهو المعجم الرائد « العين » الذى رتّبه على مخارج الحروف . وبجانب هذا التأليف المعجمىّ الخالص الذى بدأه الخليل قام العلماء من النحاة واللغويين بصنع دواوين الشعراء وشرحها ، من أمثال الأصمعى وتلميذه أبى نصر الباهلى ، وأبى عمرو الشيبانى وابن السكيت وثعلب والسكّرى . وقد قدم هؤلاء مادة لغوية غزيرة من خلال شرح ما

صنعوه وما جمعوه من شعر . هذا إلى اهتمام علماء كل فن وعِلم باللغة ، يقدّمونها أمام كلّ بحث ، ويعنون بها قبل كلّ كلام . ولاعجب فى هذا فاللغة هى المدخل الحقيقىّ لمعرفة علومنا كلها وتاريخنا كله ، والاستهانة بها والتفريط فى قواعدها ورسومها إنما هى استهانة وتفريط بمعارفنا وعلومنا كلها .

وقد انتهى إلى ابن منظور حصاد طيب فى التصنيف المعجمىّ ، نظر فيه واستصفى منه خمسة كتب بنى عليها معجمه ، وهذه الكتب بحسب ذكره لها : تهذيب اللغة للأزهرى (٣٧٠ هـ) . المحكم لابن سِيدَه (٤٥٨ هـ) . الصحاح للجوهرى (حدود ٤٠٠ هـ) . والحواشى عليه لابن بَرّى المصرى (٥٨٢ هـ) تسمى هذه الحواشى : التنبيه والإيضاح ما وقع فى الصحاح . النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٦٠٦ هـ) .

وتمثل هذه المراجع الخمسة ثلاث مدارس فى التأليف المعجمى : المدرسة الأولى ، مدرسة ترتيب المواد اللغوية وفق مخارج الحروف ، وهى مدرسة الخليل ابن أحمد ، ويمثلها من هذه الكتب : التهذيب والمحكم . والمدرسة الثانية : التى ترتب المواد على الجذور اللغوية (أصل الاشتقاق) واعتبار الحرف الأخير منها باباً ، والحرف الأول فصلا ، مع مراعاة الترتيب الألفبائىّ فيما بين حرفى الباب والفصل . ويمثل هذه المدرسة الصحاح وحواشيه . والمدرسة الثالثة : التي ترتّب الموادّ وفق الأول والثانى والثالث . ويمثلها النهاية .

وقد ارتضى ابن منظور من مناهج هذه المدارس منهج المدرسة الثانية ، مدرسة الصحاح ، ورتّب كتابه على أساسها ، وأخضع المدرستين الأخريين لها . وقد صدر ابن منظور معجمه بمقدمة أبان فيها عن منهجه ، وأنبأنا أنه تغيّا من تأليفه هذا غايات ثلاثاً : الغاية الأولى تعليمية ، وتمثلت فى نقده لطريقة ترتيب المواد وفق المخارج ، ويصف ذلك بقوله : إنه « مطلب عسر المهلك ، ومنهل وعر المسلك ، وكأن واضعه شرع للناس موردا عذبا وحلأهم عنه .

غيرته على العربية

والغاية الثانية غاية دينية ، يقول : « إننى لم أقصد سوى حفظ أصول هذه اللغة النبوية وضبط فضلها ، إذ عليها مدار أحكام الكتاب العزيز والسنّة النبوية .

وتأتى الغاية الثالثة ، ويمكن أن نسميها غاية قومية وطنية ، باعثها الغيرة على العربية والعصبيّة لها ، بعد أن اطّرح الناس الحديث بالعربية ، وهجروها إلى اللغة الأعجمية - وهى التركية فى ذلك الزمان - يقول ابن منظور : « وذلك لما رأيته قد غلب فى هذا الأوان من اختلاف الألسنة والألوان ، حتى لقد أصبح اللحن فى الكلام يعد لحنا مردودا ، وصار النطق بالعربية من المعايب معدودا ، وتنافس الناس فى تصانيف الترجمانات فى اللغة الأعجمية ، وتفاصحوا فى غير اللغة العربيّة ، فجمعت هذا الكتاب فى زمنٍ أهله بغير لغته يفخرون ، وصنعته كما صنع نوح الفُلك وقومه منه يسخرون » . هذا ما قاله بن منظور منذ سبعمائة عام عن حال اللغة العربية بإزاء اللغة الأجنبية ، فماذا نحن قائلون الآن ؟

ويصرّح ابن منظور فى مقدمته بأن عمله فى معجمه لم يخرج عن حدود ما فى مراجعه الخمسة ، فيقول : « وليس لى فى هذا الكتاب فضيلة أمُتّ بها ولا وسيلة أمسك بسببها سوى أنى جمعت فيه ما تفرّق فى تلك الكتب من العلوم .... فمن وقف فيه على صواب أو زلل أو صحة أو خلل فعهدته على المصنف الأول ، وحمدُه وذمّه لأصله الذى عليه المعوّل ؛ لأننى نقلت من كلّ أصله مضمون ، ولم أبدّل منه شيئا فيقال : « فإنما إثمه على الذين يُبَدّلُونه » . وقد أغرى هذا الكلام كثيراً من الباحثين ، وثبّت لديهم أن ليس لابن منظور فى « اللسان » إلاّ الجمع والترتيب . والحقيقة أن هذا الكلام جرى على لسان ابن منظور على سبيل التواضع وهضم النفس ، وهو نمط من الكلام معهود عند كثير من أهل العلم فينا الذين لا يذهبون عن أنفسهم ، ولا يتعلقون بالباطل فيضعون أنفسهم فوق هامات السابقين ، وإنما يظهر الكِبر ويفشو العُجْب بالنفس عندما تضعف العزائم وتصغر النفوس .

فابن منظور لم يقف عند هذه الكتب الخمسة وحدها ، فقد استطرد إلى ذكر فوائد من قراءاته وسماعاته ، وحكى عن معاصريه من العلماء ، ونقل نقد العلماء لما بين يديه من موادّ .

هذا وقد ضمّ « اللسان » قدرا هائلاً من الموادّ اللغوية ، ممزوجة بمعارف أخرى استمدّها من مراجعه الخمسة المذكرة بمناهجها واهتماماتها المختلفة : فقد أخذ من تهذيب الأزهرى هذا القدر الضخم من الأبنية والمترادفات والمشترك اللفظى ، وشواهد القرآن الكريم والحديث الشريف ، وأشعار العرب وأقوالها وأمثالها ، إلى جانب ذلك الاهتمام المبكّر بالناحية البلدانية الجغرافية التى استوعب بها الأزهرى التعريف بكثير من بلدان ومواضع ومياه الجزيرة العربية ، ممّا كان أساساً للجغرافيين العرب من بعد ، مثل أبى عبيد

البكرى فى « معجم ما استعجم » وياقوت فى « معجم البلدان » وللغويين الذين اهتموا بالمواضع والبلدان ، من أمثال الفيروز ابادى فى « القاموس المحيط » ، والزَّبيدى فى « تاج العروس » .

ثم أخذ عن الجوهرى وابن سيدة ما ضمّناه معجميهما من التوجيهات النحوية والصرفية وقضايا الاشتقاق .

ومن ابن برِّى أخذ عنايته الفائقة بتصحيح الشواهد الشعرية وتحريرها ونسبتها . ومن ابن الأثير شرحه لغريب أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكلام الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أجمعين .

الأدب سبيل المعرفة

أخذ ابن منظور هذا كلّه ، وأضاف إليه قرْاءاته ومسموعاته ، وأحسن جَمْعَه وترتيبه ، وأجاد عرضه ، وأعانه على ذلك اشتغاله بالأدب . وقد كان الأدب ولايزال خير سبيل لإيصال المعرفة ، وسرعة انصبابها إلى السمع ، واستيلائها على النفس . والبليغ يضع لسانه حيث أراد ، ويمّهد لنفسه طريقاً إلى كلّ قلب ، وإنك لتجد كثيراً من الدراسات قد جمعت فأوعت ، لكنها لم تبلغ مبلغها من النفع والفائدة لجفافها وعُسْرها وتجافيها عن الأدب .

وبذلك أصبح « لسان العرب » كتابَ العربية ، يجد فيه طالبه كلّ ما يريد ، وأصبحت قراءته متعة تطلب لذاتها ، إذ سلم من جفاف المعاجم التى تقف عند حدود الدلالة وشرح اللفظ المفرد أو التركيب المعزول عن سياقه ، وكم عرفنا من أدباء وعلماء يديمون قراءة « اللسان » كما يقرأ أحدهم كتاباً للشافعى أو الجاحظ أو أبى حيان . وقد أخبرنى شيخى محمود محمد شاكر - حفظه الله - أنه قرأ « لسان العرب » كله وهو تلميذ بالثانوى ، ثم أخبرنى أيضا أن أمير الشعراء أحمد شوقى قرأ « اللسان » كلّه . قلتُ : ولعل هذا يفسّر لنا « معجم شوقى الشعرى » - والنثرى أيضا فى أسواق الذهب - هذا المعجم الذى يدهشنا بهذه الألفاظ والتراكيب الضاربة فى الفصاحة بعُرُوقها . وما أحرانا أن ندفع أبناءنا فى كليات الدراسات العربية والإسلامية ، إلى قراءة المعاجم ، وكثرة التفتيش فيها والصبر عليها ، بدلاً من وقوفنا بهم عند حدود تلك الدراسات النظرية التى تتناول نشأة المعاجم ومدارسها ، ثم تنتقل إلى ذكر عيوب المعجم العربى . ولئن سلّمنا ببعض هذه العيوب فإنها مما لا ينبغى أن تعرض على طالب العلم فى مراحله الأولى

، بل يؤجل ذلك وأشباهه إلى مراحل الدراسات العليا ، لأنه لا يصح بحال أن نكشف لصغار الطلبة – وهم في هذه المرحلة الجامعية الأولى – عن أبواب النقد هذه ، وأن ندلّهم عليها ، فإن مداركهم تقصر عن إدراك تلك المرامي البعيدة ، فضلاً عمّا يحدثه ذلك في نفوسهم من زلزلة وبلبلة قد تُزهّدهم في العلم كلّه . ومن آدابنـــا في ذلك ما ذكره أبو داود في رسالته إلى أهل مكة ، قال : « إنه ضررُ على العامة أن يكشف لهم كل ما كان من هذا الباب فيما مضى من عيوب الحديث ؛ لأن علم العامة يقصر مثل هذا » قال الحافظ بن رجب الحنبلي : « وهذا كما قال أبو داود ؛ فإن العامة تقصر أفهامهم عن مثل ذلك ، وربما ساء ظنهم بالحديث جملة إذا سمعوا ذلك » – شرح علل الترمذي ص ٥٣٤

طبعات اللسان

كان من حظ كثير من آثارنا الكبرى أن تطبـع في ذلك الزمان الرخيّ المهنّىء ، حيث كانت مصر تُشعّ علماً وحضارة ، فعلماؤها مستقرّون ، ومكتباتها زاخرة ، ومجالس العلم بها مشهودة ، واحترام العربية باسطٌ سلطانه ، والحياء عاصم ، والنقد بالمرصاد .

وكانت مطبعة بولاق الكبرى في ذلك الزمان منارة علم باذخ ، ومركز ضوءٍ باهر ، وقد طبعت من أصول العلم وكبار الكتب ما أخرج الناس من الظلمات إلى النـــور

وكان من أجــلّ مطبوعاتـها « لسان العرب » ما بين سنتي ١٣٠٠ هـ – ١٣٠٧ هـ وقد اجتمع لهذه الطبعة من آيات الإتقان والكمال مالم يجتمع في كتاب : فالنُّسَخ المخطوطة جيدة ، والضبط كامل تغلب عليه السلامة ، والتصحيح دقيق ، حيث كان يتولى التصحيح بمطبعة بولاق مشيخة جليلة من علماء الأزهر الشريف . وقد جاءت هذه الطبعة في عشرين مجلدا من القطع الكبير ، متوسط كل مجلد ٤٥٠ صفحة .

ثم كانت النشرة الثانية للكتاب بدار صادر ببيروت سنة ١٩٥٥م في ٦٥ جزءاً صغيراً جُعلت بعد ذلك في ١٥ مجلداً ، ويقول عن هذه النشرة شيخنا عبد السلام هارون ، رحمه الله « وكان من المتوقع أن تسلم هذه النشرة من كثير من أخطاء النشرة الأولى ، ولكن من المؤسف أن الأخطاء والتحريفات التى وردت فى النشرة الأولى ، أى طبعة بولاق ، قد زِيد عليها كثيرُ من أمثالها ، وإن كان من الحقّ أن بعض الأخطاء القديمة قد عُولج فيها بنسـبة ضئيلة جدا » – تحقيقات وتنبيهات فى معجم لسان العرب ص ٤ ، ٥ .

وفى السنوات الأخيرة أصدرت دار المعارف بمصر طبعة ثالثة من اللسان ، بعد أن غيرت ترتيبه من نظام التقفية الباب والفصل الى الترتيب على الحرف الأول والثاني والثالث ، كما رتب الزمخشـرى معجمه « أساس البلاغة » والفيومى معجمه

« المصباح » وإن كان هذا الترتيب أقدم من الزمخشري والفيومى ، وتفصيل ذلك فى غير هذا المكان .

عمل غير صالح !

وهـذا الذى أقدمت عليه دار المعارف ، فى نظرى عملٌ غير صالح ؛ لأن فيه جرأة على أعمال السابقين ، وقد قال أصحاب دار صادر فى نشرتهم للّسان : « وأشير علينا أن نغيّر ترتيب « اللسان » ولكنا آثرنا أن يبقى على حاله حفظاً للأثر من أن يُغيّر وهذا هو الحق والصواب ، فإن ابن منظور – ومن قبله الجوهرى – قد رتّب معجمه على اعتبار آخر الكلمة وأولها بعد تجريدها من الزوائد ، لأسباب اقتضت ذلك ، ومن أهم هذه الأسباب أن آخر الكلمة ثابت تصريفاً واشتقاقا ، وإنما تطرأ الزيادة والتغيير على الأول والحشو (الوسط) . وإعادة ترتيب المادة المعجمية على الأول والثانى ينقض ذلك فضلا عمّا يحدثه من تعريض منهج المؤلف للاضطراب ، من حيث اختلال الإحالات والإرشادات تقديماً وتأخيرا ، فالمؤلف يقول وفق منهجه : تقدّم ذلك ، أو : سيأتى ، ولا يستقيم هذا على المنهج المقلوب ، فقد يكون المقدّم آتيا ، والآتى مقدّما .

ويرتبط بتلك الدعوة دعوة أخرى خطيرة ، وهى ترتيب المادة اللغوية داخل المعجم على ظاهر اللفظ ، دون رعاية التجريد والزيادة . وفى هذا إضاعة لعلم كبير من علومنا ، هو علم الصرف والاشتقاق . ومما ينبغى التنبيه عليه هنا : أن بعض علمائنا الأقدمين قد ذكر فى معجمه بعض الألفاظ على ظاهر لفظها لشيوع الكلمة بشكلها هذا ، لكنه كان ينبه فى كل مرة إلى أن أصل الكلمة هو كذا . ومن هؤلاء العلماء ابن الأثير المتوفى سنة ٦٠٦ هـ فى معجمه : « النهاية فى غريب الحديث والأثر » وهو من المعاجم المتخصصة التى رتبت المادة على الأول والثانى والثالث ، فقد ذكر فى باب الحاء والدال والهاء حديث « فجعلتُه فى قبر على حدة » ثم قال : « أصلها من الواو ، فحذفت من أولها وعوض منها الهاء فى آخرها ، كعدة وزنة من الوعد والوزن ، وإنما ذكرناها هنا لأجل لفظها » .

لكننا إذا رتبنا معاجمنا كلها على هذا المنهج ، ونبهنا فى كل مرة على الأصل الاشتقاقى تضخمت تلك المعاجم جدا فيما لا غناء فيه ولاطائل تحته .

أما ما يقال عن التيسير والتسهيل فهو كلام من يظن أن أبناء العربية كلهم صاروا تلاميذ فى مرحلة التعليم الثانوى أو ما هو

دونه ، وأننا قد تحولنا جميعا إلى طبقة من العوام لا تقوى على المناهج الموروثة ، ولا تطول يدها الكتب الكبار ، واللهمّ لا ! ولا ينبغى أن يكون التيسير والتسهيل سبيلاً إلى طمس المعالم وهدم الحدود .

ومن وراء ذلك كله فإن السالك هذا السبيل لا يأمن العثرة بعد العثرة ، والزلّة إثر الزلّة ، وما أريد أن أطيل بذكر الأمثلة والشواهد ، لكننى أشير هنا إلى عملين تراثيين سلكا هذا المسلك ، وما كان ينبغى لهما ذلك ، أولهمـــا : كتاب « معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع » لأبى عبيد البكرى الأندلسى المتوفى ٤٨٧ هـ وقد نشره الأستاذ مصطفى السقا رحمه الله سنة ١٩٤٥م. والكتاب فى أصل وضعه مرتب على الأبجدية المغربية التى تخالف الأبجدية المشرقية فى ترتيب الحروف ، وحين نشره الأستاذ السقّا أعاد ترتيبه على أبجديتنا المشرقية المعروفة ، وقد أدّى هذا إلى اختلال فى إحالات المؤلف تقديماً وتأخيرا ، قد تربك القارئ الذى لم يقرأ مقدمة الأستاذ المحقق ، ثم إنه رحمه الله قد تصرف فى الكتاب تصرفا آخر أشار إليه فى مقدمته .

ومن العجيب حقا أن الناشر الأول للكتـــاب ، هـــو المســـتشرق الألمانى « وستنفلد » حافظ على ترتيب المؤلف للكتاب ، وذلك فى نشرته التى صدرت بجوتنجن بألمانيا سنة ١٨٧٦م ، ثم أضاف إليه فهرسة على ترتيب أهل المشرق للحروف ، فأحسن كلّ الإحسان

والمثال الثانى : كتاب « الاستيعاب فى معرفة الأصحاب » - الصحابة رضى الله عنهم - لابن عبد البر القرطبى المتوفى ٤٦٣ هـ . وقد رتب كتابه هذا أيضاً على ترتيب الحروف عند المغاربة ، فجاء ناشره الأستاذ على محمد البجاوى رحمه الله ، وقلب هذا الترتيب ورده إلى الترتيب المشرقى ، وقد أدى ذلك إلى سقوط بعض التراجم التى استدركها الناشر فى آخر طبعته .فالحق والصواب أن تترك الكتب كما وضعها مؤلفوها ، ثم يلجأ الى الفهارس والكشافات تيسيراً وتسهيلا ، كما فعل « وستنفلد » فى نشرته لكتاب البكرى ، وكما صنع شيخنا عبد السلام هارون ، رحمه الله فى فهارس « تهذيب اللغة » للأزهرى ، ومن الطريف هنا أن شيخى محمود محمد شاكر حفظه الله لا يزال حريصاً على ترتيب موادّ اللغة على طريقة الباب والفصل (أصل الاشتقاق) إن البّر بتراث الآباء والأجداد ، واحترام التاريخ يقتضينا أن نأخذ بأيدى أبنائنا إلى ذلك الموروث ، نخوض بهم لججه ، ونسلك معهم دروبه ، ونفتح لهم مغاليقه ، وهكذا تتواصل أجيال المعرفة ، فيحرص اللاحق على إرث السابق ، ويصونه كما يصون كرام الأبناء ودائع الآباء . أما إذا لجأنا إلى إعادة الترتيب والاختصار وما أشبههما فإننا نباعد بينهم وبين تاريخهم ، ونتركهم كالذى لا يعرف من النهر الكبير إلاّ ما يأتيه به الجدول الصغير .

الحلاّج ومحاولة تفجير اللغة

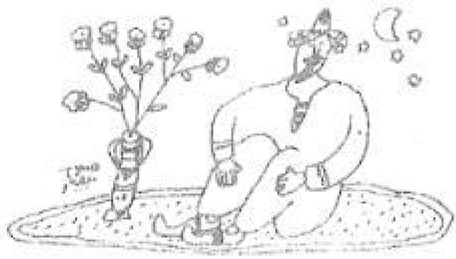
بقلم : د. يوسف زيدان

فى كل تاريخ - عام أو خاص - لحظات حاسمة ، تحدث معها التحولات الكبرى . وقد كانت سنة ٣٠٩ هجرية من أعظم السنوات حسماً وتحولاً فى تاريخ التصوف .. فى هذه السنة ، وبالتحديد : يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من شهر ذى القعدة ، أخرج الحسين بن منصور (الحلاج) من سجنه ، فجُلد ، وقطعت يداه ورجلاه ، وشوه ، وصُلب ، وقطعت رأسه ، وأحرقت جثته .

مع النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ، أخذت مشكلة اللغة تطفو على سطح التصوف ، فقد تعمقت الأحوال الصوفية ودقت المعانى وتفردت ، فلم يعد بإمكان اللغة العادية أن تصور الدقائق الصوفية التى يود أهل الطريق البوح بها . وتفاقم ذلك الإشكال التعبيرى حتى صار بمثابة «أزمة» تبدُت فى شطحيات أبى يزيد البسطامى (المتوفى ٢٦١) .

ويمثل الحلاج مرحلة متقدمة من مراحل «أزمة اللغة» عند الصوفية ، كما يمثل التضحية الكبرى التى قدمها الصوفية فى طريقهم نحو إقرار القاموس الصوفى الخاص .. فقد قدم الحلاج حياته ثمناً لمحاولته التعبير عن الأحوال التى يعاينها ويعانيها .

وُلد الحلاج حـوالى عام ٢٤٤ هجـرية (١)، بقرية تابعة لبلدة «البيضاء» الفارسية ، فدرس علوم الدين، ثم سلك طريق الصوفية على يد الشيخ : سَهل بن عبد الله التسترى، وطاف الحلاج فى البلدان، وصحب جماعة من كبار مشايخ العصر كالجنيد والنورى وابن عطاء وعمرو ابن عثمان المكى .. وجرت بين الحلاج وهؤلاء المشايخ وقائع كثيرة يضيق المقام هنا عن ذكرها لكنها فى مجملها تشير إلى نأى الحلاج وتفرُده عن أهل الزمان ،



وتؤكد شعوره بذاته على أنه : نسيج وحده..

الغرق في بحر النور الإلهي

عاش الحلاج التجربة الصوفية بكل ما فيها من صدق وروعة ، وغرق في بحر النور الإلهي تمام الغرق . ولسوف نقتصر فيما يلي على ذكر فقرتين شهيرتين من سيرة الحلاج، تلك السيرة التي أفاض فيها المؤرخون والمترجمون له (٢) .. وهاتان الفقرتان تكشفان عن طبيعة الحياة التي عاشها الحلاج ، وطبيعة الموقف الذي تمت فيه إدانته :

الفقرة الأولى : قال ابن باكوية : سمعتُ الحسين بن محمد المذاري يقول : سمعتُ أبا يعقوب النهرجوري يقول : دخل الحسين بن منصور الحلاج مكة ، فجلس في صحن المسجد لا يبرح من موضعه إلا للطهارة أو الطواف، لا يبالي بالشمس ولا بالمطر، فكان يُحمل إليه كل عشية كوز وقرص – ماء وخبز – فيعض من جوانبه أربع عضات ويشرب (٣) .

الفقرة الثانية : قال ابن زنجي : وحُملت دفاتر من دور أصحاب الحلاج، فأمرني حامد – الوزير – أن أقرأها والقاضي أبو عمر حاضر ، فمن ذلك قرأتُ : أن الإنسان إذا أراد الحج ، أفرد في داره بيتاً ، وطاف به أيام الموسم ، ثم جمع ثلاثين يتيماً ، وكساهم قميصاً قميصاً ، وعمل لهم طعاماً طيباً ، فأطعمهم وخدمهم وكساهم ، وأعطى لكل واحد سبعة دراهم أو ثلاثة ، فإذا فعل ذلك ، قام له ذلك مقام الحج ! فلما قرأت ذلك الفصل التفت القاضي أبو عمر إلى الحلاج وقال له : من أين لك هذا ؟ قال : من كتاب «الإخلاص» للحسن البصري . قال : كذبت يا حلال الدم ، قد سمعنا كتاب «الإخلاص» وما فيه هذا (٤) .. فلما قال أبو عمر : «كذبت يا حلال الدم» ، قال له حامد : أكتب بهذا ! فتشاغل أبو عمر بخطاب الحلاج ، فألحّ عليه حامد ، وقدّم له الدواة ، فكتب بإحلال دمه ، وكتب بعده مَن حضر المجلس ، فقال الحلاج «ظهري حِمىً ، ودمي حرام ، وما يحل لكم أن تتأولوا عليّ ، واعتقادي الإسلام ، ومذهبي السنة ، فالله الله في دمي» ولم يزل يردد هذا القول وهم يكتبون

الحلاج ومحاولة تفجير اللغة

خطوطهم ، ثم نهضوا ورُدَّ الحلاج إلى الحبس ، وكُتب إلى المقتدر - الخليفة - بخبر المجلس ، فأبطأ الجواب يومين ، فغلظ ذلك على حامد ، وندم وتخوّف ، فكتب رقعة إلى المقتدر في ذلك يقول : إن ما جرى في المجلس قد شاع ، ومتى لم تُتبعه قتل هذا - الحلاج - افتتن به الناس ، ولم يختلف عليه اثنان . فعاد الجواب من الغد : «إذا كان القضاة قد أباحوا دمه ، فليحضر صاحب الشرطة ، ويتقدم بتسليمه وضربه ألف سوط ، فإن هلك وإلا ضُربت عنقه ..» فسر حامد (٥)

والآن ، لننظر قضـية اللغـة عند الحلاج !

* * *

حين أراد الحلاج أن يترجم بالألفاظ ما يمرُّ به من أحوال ، لم يكن بإمكانه أن يستعير أساليب تعبيرية من الصوفية السابقين عليه أو المعاصرين له . فالسابقون كانوا يكتفون بالتعريف الموجز لحقائق الطريق ، دون محاولة لتأسيس مفردات لغوية خاصة . والمعاصرون كانوا يراعون العامة والفقهاء ، فيكتفوا بالإشارات المقتضبة الموجزة ، كأن يجيب «الجنيد» عن سؤال حول المعرفة والعارف بقوله : «لون الماء لون إنائه ..» وهي عبارة خطيرة سوف يسهب الصوفية من بعده في الكلام عليها ، لكنها من حيث الصياغة اللغوية ، خالية من أية محاولة لنحت لفظ صوفي متفرد .

هكذا لم يكن أمام الحلاج سبيل للاستفادة من التراث اللغوي الصوفي ، ومن ناحية ثانية لم يكن بإمكانه أن يسكت أمام طوارق الأحوال . فصار عليه أن يؤسس تراثاً لغوياً صوفياً ، وأن يجد مخرجاً يتجاوز به «أزمة اللغة» التي تحول دون التعبير عن حقيقة الحال الذي يعاينه .. بعبارة أخرى ، كان على الحلاج أن يجرب . خاصةً وهو القائل :

للعلم أهل وللإيمـان ترتيبُ
والعلـوم وأهـليها تجاريبُ

* * *

ولما كان الشعر الموزون هو أحد السبل التعبيرية المتاحة أمام الحلاج ، فهو لم ير بأساً في جعله مجالاً للتجريب . وقد تمخضت «تجاريبه» الشعرية عن قدر لا بأس به من المتناثرات الشعرية التي جمعها الدكتور كامل الشيبي في مجلد واحد ، ونشره محققاً منذ سنوات ببغداد .. فمن تجارب الحلاج الشعرية ، قوله مبرراً ما يلبسه من ثياب رثّة (القشر) تخفي تحتها نفساً كريمة (اللُّب) ، ومشيراً إلى الأمر الجسيم الذي يشعر أنه مُساقٌ إليه :

لئن أمسـيتُ في ثوبيْ عديمٍ
لقـد بـلَيَا على حُرٍّ كـريمِ

فلا يحـزنك أن أبصرت حالاً
مغيـرةً عن الحـال القديمِ
فلي نفسٌ ستذهب أو سترقى
لعمـرك بى إلى أمرٍ جسـيم (٦)

تبدو هذه القطعة الشعرية على المستوى اللغوى ، فقيرة بلاغياً ، بسيطة التركيب إلى حد السذاجة التى لا تطمح إلا فى الاخبار عن حقيقة الحال . وهى على المستوى الصوفى ، تكشف عن مضامين متواضعة حين تؤكد بقاء الذات وتكتفى بالإشارة إلى إمكانية فنائها - والفناء درجة عالية فى سلم الترقى الصوفى - وليس هذا فحسب ، بل تصف الأبيات صاحبها بأنه «الحر الكريم» وهى مسألة تعدُ صوفياً : نوعاً من المدح المذموم للنفس .. وكان الصوفية آنذاك قد أدركوا ضرورة ما أسموه «كسر حدة النفس» كإحدى الرياضات الروحية التى يسعى من خلالها الصوفى - مهما بلغت مرتبته - إلى السيطرة على نفسه والخلاص من رعوناتها .. إذن ، لم يستطع الحلاج ، هنا أن يصل بالشعر إلى درجة من النضج اللغوى أو الصوفى ، بحيث يتجاوز «أزمة اللغة» التى أشرنا إليها .

ولم يقف الحلاج عند هذا الحد ، وإنما انجرف مع الشعر دون حذر، وترك الإيقاع يقوده نحو دليل إدانته .. فقال فى أبيات أخرى :

أنت بين الشغاف والقلب تجرى
مثل جرى الدمـوع من أجفانى
وتحلُ الضـميرَ جوفَ فؤادى
كحـلول الأرواح فى الأبـدانِ
يا هـلالاً بدا لأربع عشـرٍ
لثمـانٍ وأربعٍ واثنتـان (٧)

ويقطع النظر عن البيت الأخير الذى لا يحمل - من حيث ظاهر اللفظ ولا باطن المعنى - أية دلالات ، ولا يمكن اعتباره إلا كدليل على انجراف الحلاج مع البحر الشعرى والقافية ، دون هدف محدد .. جاء البيت الأول حانياً ، رقيقاً ، مشتملاً على صورة فنية جيدة (سريان المحبوب = الله ، فيما بين القلب وما يغلفه = الشغاف) وتشبيه ذلك بانسياب الدمع من الجفن المغلف للعين . وهى صورة معبرة - صوفياً - عن فكرة امتلاء المحب بالمحبوب الذى هو حقيقة كل شئ .. لكن الحلاج يصدمنا فى البيت الثانى بكلمة «الحلول» الخطيرة ، تلك الكلمة التى لم يجريها فى الشعر الصوفى غيره . ثم يعيد ذكرها مرتين ، فى كل شطر مرة ، ويؤكد معناها فى أبيات تجريبية أخرى ، تقول :

مُزِجت روحـك فى روحى كما
تمزج الخمرة بالماء الزلالِ (٨)

وكان الحلاج لم يكتف فقط بذكر كلمة «الحلول» التى كان يمكن تأويلها صوفياً على أى وجه من الوجوه ، فإذا به يختم عليها بكلمة أشد خطراً «المزج» ثم يشبه هذا المزج بين روحه وروح المحبوب - الله - بمزج الخمر الحسية بالماء .. وكانت تلك

الحلاج ومحاولة تفجير اللغة

فى المرة الأولى التى تستخدم فيها كلمة «الخمر» فى الشعر الصوفى ، ولسوف يعود شعراء الصوفية لاستخدامها على نطاق واسع ، بعد إعطائها دلالة رمزية بحيث تشير إلى النشوة بتجلى المحبوب (خمر المحبة) أو إلى تذكر عالم الذر الذى كانت فيه الأرواح قبل خلق الأجساد تُقِرُ بالوحدانية لله (خمر التوحيد ، كأس : ألست بربكم) المهم الآن : أن الشعر جرف الحلاج فأتى بكلمتين من قاموس الممنوع العقائدى .. فهل كان الرجل بالفعل يقصد : الحلول والمزج ؟

فى شهادة - نثرية - للحلاج ، نراه ينفى بشدة ما أثبته فى شعره ! فيقول عن «المزج» مانصه : مَن ظنَّ أن الألوهية تمتزج بالبشرية ، فقد كفر (٩) . وعن «الحلول» يقول : إن معرفة الله هى توحيده، وتوحيده تمييزه عن خلقه ، وكل ما تصور فى الأوهام فهو - تعالى - بخلافه، كيف يحل به ما منه بدأ (١٠) ..

مأزق جديد

القضية إذن ، أن الحلاج لم يستطع بالشعر أن يخرج من الأزمة . كما استطاع من بعده ابن الفارض وجلال الدين الرومى - بل وقع فى مأزق جديد عندما استسلم لوقع النظم ، وعندما جلب كلمات : الحلول ، والمزج ..

وقد أثارت كلمات الحلاج حفيظة المعاصرين له ، فأدانوه بكلمتى (الحلول - المزج) لما فيهما من دعاوى نصرانية بحلول الله بالبشر وامتزاجه بهم .. واستثقلوا كلامه حول (اللاهوت والناسوت) لنفس السبب ، ولم يقتصر الأمر على الفقهاء فحسب ، فقد روى المؤرخون أن مشايخ التصوف أنفسهم : كانوا يستثقلون كلامــه(١١) .

ومن الألفاظ التى لجأ إليها الحلاج فى محاولاته الأولية هذه ، كلمة (شمشعانى) التى اعتبرت - لغرابتها - دليلاً على سوء الأدب .. فقد احتد عليه مرة الوزير على بن عيسى قائلاً له : كم تكتب - ويلك - إلى الناس «تبارك ذو النور الشعشعانى» ما أحوجك إلى أدب ! (١٢) .

وعلى هذا النحو ، لشل الشعر فى الوصول لصياغة متبلورة يعبر خلالها الحلاج عن مكنون ذاته ! ولشلت الكلمات التجريبية (حلول - مزج - لاهوت - ناسوت - شعشعانى) فى حمل معانيه .. فلم يبق أمامه إلا الصراخ !

حملت كتب التراجم ، العديد من صرخات الحلاج .. مثل زعقته فى أسواق بغداد : أيها الناس ، اعلموا أن الله قد أباح لكم دمى فاقتلونى ، اقتلونى تؤجروا

واسترح ، اقتلونى تكتبوا عند الله مجاهدين واكتب أنا شهيد (١٢) .

وفى غمرة هذا الانفجار الوجدانى ، لاحت للحلاج الوسيلة المثلى للخروج من المأزق .. وأدرك أن تأسيس اللغة الصوفية، لا يكون بالاسترسال مع النظم ، ولا يكون باستخدام الألفاظ المثقلة بالدلالات القديمة.. وإنما يكون بتفجير اللغة .

* * *

إن المراد بمحاولة الحلاج «تفجير اللغة» هو سعيه للتخلص التام من أساليب الصياغة اللغوية الشائعة فى عصره ، وطموحه الكبير إلى استبدال اللفظ الذى اهترئ من كثرة التداول بلفظ يتخلق بحرية خلال السياق الجديد .. وقد تجلى هذا التفجير للغة السائدة ، واكتشاف الحلاج لمعدن اللغة الصوفية الجديدة ، فى النص الوحيد – تقريباً – الذى بقى إلى اليوم من مؤلفاته . وهذا النص ، الذى كتبه الحلاج فى سجنه – وقربه تلاميذه – والذى يعد واحداً من أروع النصوص الصوفية على الإطلاق ؛ هو : كتاب الطواسين ..

* * *

فى كتاب الطواسين (١٤) يفجر الحلاج كل التراكمات اللغوية والدلالية ، ليعود إلى أصل اللغة : الحرف .. وإلى التجلى الأتم لها : القرآن !

أراد الحلاج أن يغوص نحو الحروف، التى هى المادة الأولية فى اللغة ، فجعل فصول كتابه (طواسين) أى أن كل فصل منها (طاسين) ، مستفيداً من الدلالة الصوتية العميقة ، الناشئة من جمع حرفى الطاء والسين ؛ وناسجاً فى الوقت ذاته على منوال النص اللغوى الأقدس (القرآن) باعتباره المجلى الأصلى لصياغة الكلام الإلهى صياغةً عربية .. فقد بدأت بعض سور القرآن بذكر الحروف، ومن بينها الطاء والسين اللذين بدأ بهما الحلاج.

ثم يأتى الحلاج بما يجلو الحرف، وذلك عن طريق «الإضافة» ليكشف عن مفهوم صوفى يساوق الجمع اللغوى بين لفظتين .. هذا المفهوم الصوفى هو باختصار : أن الحقيقة لا تدرك إلا من حيث النسب والإضافات ، فلا توجد حقيقة إلا من حيث نسبتها وإضافتها . بعبارة أخرى ، لن تصير حقائق الوجود قائمة بالفعل، إلا بعد إضافة هذا الوجود لله .

وإضافات الحلاج الطاء والسين تكشف عن مستوى آخر من مستويات اللغة الصوفية عنده ، وهو مستوى الترميز .. فقد أراد الحلاج أن يبين الصوفية أنه لا يمكن التحدث عن حقائق الطريق إلا رمزاً . فاضاف للحروف رموزاً ، بحيث صارت فصول كتابه : (طاسين السراج ، وطا سين النقطة ، طا سين الدائرة .. إلخ) والسراج هنا هو محمد – صلى الله عليه وسلم – النبى الذى قد اقتبس كل الأنبياء

الحلاج ومحاولة تفجير اللغة

نورهم من نوره القديم الذى كان يتلألأ وآدم بين الطين والماء . أما النقطة والدائرة ، فهما من الاصطلاحات التى سوف تستقر فى اللغة الصوفية ، حتى يأتى ابن عربى . فى الفتوحات المكية - فيجوس فى مفاوزهما ، ويكشف عن دلالتهما الخاصة بالجدل المعرفى (الابستمولوجى) الكاشف عن العلاقة الوجودية (الانطولوجية) بين الله والإنسان الكامل .

ومن الحروف ، تتألف «الأسماء» التى هى الظهور الخاص لحقائق الأشياء .. كلٌّ على حدة . ولذلك ، فحين أراد الله تعالى أن يتميز آدم ، علمه الأسماء كلها ، ثم أظهره على الملائكة .. ولذا ، واصل الحلاج غوصه فى محاولة لكشف حقيقة الأسماء بوصفها مركبة من حروف . وضرب لذلك أمثلة فى سياق كلامه ، منها قوله فى (طا سين الأزل والالتباس) ما نصُّه . «اشتق اسم إبليس من رسمه» - يقصد : لأنه التبس عليه الأمر فى الأزل، (فغير عزازيل، العين لعلق أهمته) يقصد لأنه تعلق بالله على التجريد فلم يسجد لغيره - «والزاى لازدياد الزيادة فى زيادته» - يقصد لأنه أزاد على كونه طاووس الملائكة ، كونه الوحيد الذى لم يسجد لغير الله - «والألف ازادة فى ألفته ، والزاى الثانية لزهده فى رتبته، والياء حين يهوى إلى سهيقته ، واللام لمجاولته فى بليته ، وقال له : ألا تسجد يا أيها المهين ؟ قال : محب ، والمحب مهين ، إنك تقول مهين ، وأنا قرأت فى كتاب مبين ، ما يجر على ياذا القوة المتين ، كيف أذل له وقد خلقتنى من نار وخلقته من طين «ثم يقول الحلاج : يا أخى ، سُمِىَ عزازيل ، لأنه عُزِلَ وكان معزولا فى ولايته ، مارجع من بدايته إلى نهايته ، لأنه ما خرج عن نهايته...» والمقصود بالنهاية هنا ، إدراك ابليس - وهو أعرف العارفين بالله - أن الأمر الإلهى له كان ابتلاءً ، وأن المعصية مقدرةٌ عليه فى الأزل ، وأنه لن يخرج عن دائرة المشيئة الإلهية التى اقتضت كل ما جرى !

على هذا النحو ، يسعى الحلاج إلى الرجوع لبكارة اللغة ومادتها الأولى (الحروف) وإلى دلالات المفرد المميز لحقيقة الشئ (الاسم) ليفتح بذلك باباً عظيماً ، سوف يعرف فى التراث العربى بعلم الحروف والأسماء .. وهو علم سوف يستهوى الصوفية بعد الحلاج ، فيحاولون الغوص وراء : سر الظرف المودع فى الحرف (وهو عنوان لأحد كتب عبد الكريم الجيلى) ولا يزال هذا الاستهواء ممتداً فى ثقافتنا المعاصرة ، وإلا .. فما الذى يفعله الشاعر المعاصر «حسن طلب» حين يغوص فى بحار حرف الجيم !

* * *

وبعد .. لقد كانت واللحظة الحاسمة، التي قُتل فيها الحلاج ، كفيلةً بتغليف التصوف من بعده بجدار الصمت . لكن الرجل فتح أمام اللاحقين عليه باب اللغة الجديدة التي سوف تتجلى عند النفرى وابن عربى والجيلى ، وغيرهم من الصوفية .. ولقد كنت أود تبيان ملامح هذه اللغة الجديدة ، من خلال استعراض الخصائص اللغوية فى كتاب الطواسين. لكن المقام هنا لن يحتمل ذلك، فلنرجئ الأمر إلى دراستنا الموسَّعة - التى نرجو أن يمهلنا الأجل حتى نتمها - حيث نتناول بالتفصيل : مولد اللغة الصوفية وتطورها .

الهوامش

(١) ماسينيون : مادة «الحلاج» بدائرة المعارف الإسلامية ١٧/٨ .

(٢) راجع القائمة - المطولة - الخاصة بمصادر التاريخ للحلاج ، فى تحقيقنا لديوان عفيف الدين التلمسانى (مؤسسة أخبار اليوم ١٩٩١) ص ١٠١ .

(٣) ابن باكويه · أخبار الحلاج (نشرة ماسينيون وكراوس ، باريس ١٩٣٦) ص ٤٢ - الذهبى : سير أعلام النبلاء (مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٣) ٣٢٨/١٤ .

(٤) هذا الكتاب غير معروف منذ زمن طويل .

(٥) سير أعلام النبلاء ٣٤١/١٤ - نشوار المحاضرة ٨٧/٦ - بتاريخ بغداد ١٢٨/٨ .

(٦) وردت الأبيات فى : ديوان الحلاج ص ١١٧ - تاريخ بغداد ١١٧/٨ - سير أعلام النبلا ٣٢٧/١٤ - البداية والنهاية ١٣٤/١١ .

(٧) ديوان الحلاج ص ٩٦ - أخبار الحلاج ص ١١٣ - طبقات الصوفية ، للسلمى ص ٧٤ - سير أعلام النبلاء ٣٢٦/١٤ .

(٨) ديوان الحلاج ص ٨٢ - تاريخ بغداد ١١٥/٨ . (٩) أخبار الحلاج ص ٤٧ . (١٠) المرجع السابق ص ٣١ . (١١) سير أعلام النبلاء ٣١٦/١٤ . (١٢) المرجع السابق ص ٣٢٧ .

(١٣) فى اليوم الذى صُلب فيه الحلاج ، نظر إلى السماء وقال : هؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلى تعصباً لدينك وتقرباً إليك ، فاغفر لهم .. فإنك لو كشفتَ ما كشفت لى ، لما فعلوا ما فعلوا . ولو سترت عنى ما سترت عنهم ، لما لقيتُ ما لقيت .. فلك التقدير فيما تفعل ، ولك التقدير فيما تريد ! .

(١٤) هو كتاب صغير الحجم ، قام ماسينيون بنشره فى باريس سنة ١٩١٣ ميلادية ، وقد اعتمد على هذه النشرة معظم الذين كتبوا عن الحلاج بعد ماسينيون .. ومع ذلك ، فإن ما كتبه ماسينيون نفسه عن الحلاج (عذاب الحلاج) بالفرنسية ، يعد إلى اليوم أروع البحوث فى هذا الباب .



المنهج النفعى

بقلم : د. نصر حامد أبوزيد

مازال الحوار مستمرا بين د. نصر حامد أبوزيد ود. المهندس محمد شحرور مؤلف «الكتاب والقرآن» ، وهو حوار خصب لعله يحرك الركود فى الحياة الثقافية

أحسن الدكتور مهندس محمد شحرور صنعا باستجابته الطيبة لما كتبت فى هذا المكان تعليقا على كتابه «الكتاب والقرآن : قراءة معاصرة» . أقول «استجابته الطيبة» مستثنيا بعض العبارات التى لم أكن أحب له أن يقع فى حبائلها، وذلك من مثل قوله : «يبدو أن الدكتور أبازيد فى مقاله ينتمى إلى الاحتمال الثانى - يقصد الإيمان بتاريخية النص القرآنى - هذا إن أحسنا الظن به» والتأكيد من عندى. ومن مثل قوله كذلك إننى لم أفهم الكتاب إطلاقا. وسأترك مسألة حسن الظن تلك، لأنها لا تقدم أو تأخر فى الحوار الفكرى، فللكاتب أن يسئ الظن أو يحسنه، تلك مشكلته هو الشخصية ، والتى لا دخل للحوار الفكرى بها. وإنما هى عبارة ذات طابع إرهابى خفى ما كنت أحب لمن يقدم قراءة عصرية - لن ترضى الخطاب الدينى السلفى التقليدى - أن يتورط بقولها .

أما مسألة عدم فهمى للكتاب فهى عبارة تقع فى منطقة وسطى بين «الهجوم الشخصى» والخلاف المنهجى، وسأتجاوز عن الهجوم الشخصى فى العبارة ، لأنها لا تضر الشخص المخاطَب - بفتح الطاء - بقدر ما تشير إلى ذهنية المخاطِب - بكسر الطاء . ولا شك أن فهمى للكتاب يختلف عن فهم

فى فهم النصوص الدينية

كاتبه، والمقصود هنا القضايا التى يطرحها الكتاب ويتناولها تحليلا وتفسيرا من منظور منهجى محدد. الخلاف المنهجى يحدث خلافا فى فهم القضايا وفى تفسيرها. هذا أمر طبيعى، وهو المحرك للحوار، أى حوار. واتهام أحد أطراف الحوار للطرف الآخر بأنه «لم يفهم» يعنى أن الطرف الأول يتجاهل الأسس الابستيمولوجية للحوار، ويعنى أنه يريد أن يدور الحوار فقط طبقا لمنظوره المنهجى، الذى يتماثل ذهنيا فى عقل صاحب العبارة بالحقيقة المطلقة، التى إما أنك تفهمها وتدركها، وإما أنك تجهلها. ولا أظن أن الدكتور شحرور يعنى تلك الدلالات المتضمنة فى العبارة.

الاختلاف المنهجى والفكرى:

بقى أن أحدد بشكل واضح للدكتور شحرور وللقراء عناصر الاختلاف المنهجى والفكرى بينى وبينه وهنا أجد من الضرورى أن أشكره – مرة أخرى – للاستجابة الطيبة لما كتبت عن كتابه. ولن أترك الدكتور شحرور للحيرة بين «حسن الظن» و «إساءة الظن» فيما يتصل بانتمائى الفكرى وقناعاتى المنهجية. والخلاف الجوهرى والأساسى بينى وبين شحرور هو مسألة «التاريخية»، والتى يبدو أنها تسبب له قلقا ممضا. لقد فهم من حديثى عن «التراث» أننى أضع «القرآن» فى جانبه، وأننى من ثم أخضعه لمقولة التاريخية، واستنبط من ذلك أننى أذهب إلى أنه لم يبق من الإسلام إلا الأخلاق فقط، وأن الإسلام الذى بين أيدينا الآن غير صالح لأنه تاريخى. ولا أريد أن أحيل الدكتور شحرور لكتابى «مفهوم النص» ولكتاباتى الأخرى عن قراءة النصوص الدينية، بل سأطرح مفهومى للتاريخية بشكل واضح يزيل عنها الصفة «الكابوسية» التى تفزع كثيرا من الناس فى كتاباتى.

والسؤال الآن: هل ينتمى النص القرآنى إلى مجال «التراث» الذى تنطبق عليه مقولة التاريخية، أم أن للنص القرآنى صفة خاصة تخرجه من مجال التاريخية التراثية وتدخله فى تصنيف محايد مفارق؟! والحقيقة أنه لا يمكن الإجابة عن هذا السؤال إلا بتحديد

المنهج النفعى
فى فهم النصوص الدينية

مفهوم التاريخية ذاته، فالإنسان كائن تاريخى يقع فعله فى التاريخ ويتشكل بالتاريخ، لا بمعنى تتابع الوقائع فى الزمن، بل بمعنى السياق السسيولوجى العام للوجود الإنسانى. وأظن أن تاريخية الوجود الإنسانى مسألة لا خلاف عليها، إنما يتركز الخلاف حول «الفعل الإلهى» وحول علاقته بالتاريخ ولا شك أن ثمة أفعالا إلهية قد وقعت خارج التاريخ، أى خارج الوعى الإنسانى وسابقة عليه من المنظور الدينى، مثل فعل الخلق والتكوين ..إلخ لكن الفعل الإلهى هذا لا يخضع لشروط البحث العلمى من جانب الإنسان، وذلك يعكس الفعل الإلهى فى التاريخ الذى يتمثل فى إرسال الرسل وتنزيل النصوص الدينية .

هذا الفعل الإلهى فى التاريخ لا يتم تجاوزا لقوانين التاريخ ولا إلغاء لها، ذلك لأن الإنسان – الكائن التاريخى – طرف فى هذا الفعل . النصوص الإلهية رسائل من الله للإنسان، رسائل مهمتها تعديل مسار الإنسان، لذلك يختار الله لغة الإنسان. واللغة ظاهرة اجتماعية تاريخية ثقافية – ليخاطبه بها. إن الله – المطلق – سبحانه وتعالى يتنزل للإنسان – وتأمل صفة التنزل هذه – فى لغته ووفقا لمعايير ثقافته ومجتمعه. بل إنه الله يختار من البشر رسولا مثلهم ليوحى إليه بالرسالة ويطلب منه إبلاغها نحن إذن إزاء أربعة جوانب فى الرسالة مُرسل هو الله سبحانه، ومستقبل هو الرسول، ورسالة هى النصوص الدينية ، وشفرة هى لغة القوم الذين نزلت إليهم الرسالة ولأن الرسالة تهدف إلى سعادة الإنسان، فمن الضرورى أن يكون الإنسان هو المُخَاطب بها، وأن يكون «الإفهام» هو غايتها . ومعنى ذلك أن شروط المُخَاطَب – الكائن الاجتماعى التاريخى – هى المحددة أساسا لشفرة الرسالة ولآلياتها .

من هنا يمكن القول بأن النصوص الدينية نصوص تاريخية . وليس معنى التاريخية، أن دلالتها مرهونة بسياق التنزيل، لأن اللغة – من حيث هى نظام رمزى – آلياتها الخاصة للانتقال من الخاص إلى العام، ومن الجزئى إلى الكلى، تلك خاصية فى النظام اللغوى ذاته، شفرة تلك النصوص ومن أجل هذه الخاصية تظل قصائد أمرئ القيس وأبى تمام والمتنبى والمعرى قصائد دالة بالنسبة للعصور التالية لحياة مؤلفيها، وحتى عصرنا الحاضر لكن دلالتها تختلف جزئيا من عصر لعصر تبعا

لتطور دلالة اللغة من جهة، وطبقا لتغير الأفق الثقافى - الاجتماعى التاريخى - لفعل القراءة من جهة أخرى. نفس القانون ينطبق على النصوص الدينية، من حيث هى نصوص لغوية تاريخية.

الدلالة والمغزى

وللإجابة على السؤال الخلافى نقول: نعم، النصوص الدينية - ومنها القرآن- نصوص تاريخية بالمعنى الذى حددناه للتاريخية. هى نصوص تاريخية الدلالة، ولا يمكن استنباط دلالتها إلا بالعودة إلى السياق المنتج لهذه الدلالة. لكن تلك الدلالة ليست مرهونة بالسياق الثقافى/ الاجتماعى لأن طبيعة الشفرة - اللغة - تنقل الدلالة من الخاص إلى العام، ومن الجزئى إلى الكلى. لذلك نُفَرق فى دلالة النصوص بشكل عام بين «الدلالة» و«المغزى»، حيث ترتبط الدلالة بالسياق، ويتحرك المغزى مع تحرك السياق، سياق القراءة فى هذه الحالة. لذلك فرقنا بين القراءة «التلوينية» المغرضة وبين القراءة «التأويلية» المنتجة. وهى التفرقة التى وقف الدكتور شحرور متسائلا فى تهكم خفى عن معناها. وللإجابة عن هذا التساؤل نقول: القراءة التلوينية المغرضة هى القراءة التى تتجاهل السياق المنتج للدلالة - أى تتجاهل تاريخية النصوص بالمعنى السالف - وتقفز إلى إضفاء إيديولوجيتها الخاصة زاعمة أنها الدلالة التى تنطق بها النصوص. أما القراءة التأويلية المنتجة فهى القراءة التى تستنبط الدلالة من خلال العودة إلى السياق، وتنتقل انتقالا هادئا من الدلالة إلى المغزى وكلمة «تأويل» نفسها تعنى العودة إلى الأصل - آل بمعنى رجع - من جهة، واكتشاف العاقبة والغاية من جهة أخرى. ولأن قراءة شحرور تنتمى للنمط الأول - الذى يتجاهل السياق ويرفض التاريخية - قلنا إنها قراءة تلوينية مغرضة، وكشفنا فى مقالنا السابق آليات التلوين.

وأهم آليات التلوين التى وقفنا عندها خضوع التأويل عنده لأغراض نفعية مباشرة خاصة وذلك بجذب النصوص الدينية لتنطق بمفاهيم وتصورات معاصرة. وقد كرر الكاتب فى رده علينا نفس الآلية حين دافع عن فهمه «للترتيل» بالمعنى الحرفى المعجمى، ورفض المعنى المجازى الذى ورد به الاستخدام القرآنى. دافع عن ذلك بقوله: «فعند استعمال المعنى المجازى للترتيل لمدة مئات السنين لم يستفد المسلمون من هذا الاستعمال شيئا. أما فى الاستعمال الحقيقى، فقد ساعدنا فعلا على فهم مواضيع القرآن. وفى هذه الحالة لا نكترث بمن قال عن الترتيل إنه استعمال مجازى حتى ولو

المنهج النفعي في فهم النصوص الدينية

كان القائل سيبويه وكل الفقهاء» .

الهدف إذن من القراءة محدد سلفا ، وهو الهدف النفعي كما يتصوره المؤلف، وهو استنطاق النصوص بما هو معروف وجاهز سلفا من إنتاج وعي الآخر الأوروبي وهذا هو «الطرف الثابت» كما قلنا في مناقشتنا السابقة. والطرف المتحرك الرخو هو النص الديني الذي عليه أن يستجيب لهدف المؤلف. أليس ذلك تلوينا مغرضا» يتم فيه تجاهل السياق تجاهلاً تاماً ؟ ويتم الاختيار بين الدلالة الأصلية والدلالة المجازية بناء على هدف معلن مسبقا. هذه قراءة لا تهدف إلى الوصول إلى الحقيقة ، فالحقيقة مشروطة بالانتفاع، والشيء النافع يكون حقيقيا. هذا التصور النفعي الذرائعي يختلف عن القراءة التأويلية المنتجة التي ترى أن الحقيقة تنفع لأنها حقيقة ، وشتان بين المنطلقين، وشتان بين القراءتين .

تقسيم النصوص الدينية إلى القرآن - الرسالة - والكتاب . النبوة هو تقسيم ينتمي إلى القراءة التأويلية المغرضة ، ذلك لأنه تقسيم يهدف إلى جعل التاريخية جزءا في بنية النص، ويجعل من باقي بنيته ميتافيزيقا. يستند المؤلف في ذلك إلى قراءة تلوينية مغرضة لآية سورة آل عمران عن المحكم والمتشابة فيتجاهل السياق تجاهلا تاما ليحدد من عنده معاني الأحكام والتشابه ويتحدث عن شفرتين وتنزيل وإنزال. إلخ ويخوض المؤلف في مسائل ميتافيزيقية لا برهان عليها إلا الارتباطات الذهنية التي تعتمد على موقفه الأيديولوجي .

يتحدى المؤلف القارئ - وهو العبد لله في هذه الحالة - متسائلا : أي تاريخية في قوله تعالى (إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت) أو في قوله تعالى (الذى علم بالقلم) ؟ والإجابة عن هذا التساؤل بسيطة : هل تُفهم هذه الآيات دون معرفة السياق المكي لنزولها ؟ وهل تفهم إلا في سياق طبيعة البيئة الصحراوية التي تمثل الشمس والنجوم فيها علامات أنطلوجية طبيعية ومعرفية في نفس الوقت ؟ هل تفهم خارج إطار التهديد بيوم القيامة وأهواله ؟! إن للنصوص مستويات من السياق لا تفهم دلالة النصوص إلا من خلالها .. وبعد فهم الدلالة يمكن الانتقال إلى المغزى الملائم للعصر ولسياق القراءة. أما الوثب إلى «المغزى» دون المرور بالدلالة واكتشافها بقوانين علم تحليل النصوص فهو «التلوين» المغرض، أو القراءة النفعية التي تحول النصوص إلى نصوص معلقة في الفراغ .

وفى النهاية نقول ليس الأمر هو ما نريده من النصوص، بل هو ما تقوله النصوص فعلا، وهل يلائم ما تقوله النصوص وتدل عليه سياق حاضرنا وعصرنا ويساهم فى تحريك واقعنا الراكد ؟ هذه هى الأسئلة التى يجب أن ننهض للإجابة عنها، وهى أسئلة تحتاج لوعى تام بالتاريخ وبالسياق المنتج للنصوص كما تحتاج لوعى تام كذلك بسياق الواقع الذى نحياه يتصور الخطاب الدينى أن التراث مخزن شامل، يتضمن حلا لكل المشكلات، مشكلات الماضى والحاضر والمستقبل، وفى فترات التأزم يكون اللجوء إلى التراث مهربا .

وكتاب الدكتور شحرور تعبير عن أزمة ، لكنه تعبير سلبى عاكس للأزمة ولا يقدم حلاً لها . والسؤال المُستفز، أو الذى يتصور صاحبه أنه مُستفز : هل القرآن جزء من التراث ؟ الإجابة عنه : نعم ، تراث تاريخى لا يفهم إلا بالعودة إلى السياق لكن هل هو بشرى أم إلهى ؟ هذا سؤال آخر فالتراث هو كل ما ورثناه عن الماضى، ومن المؤكد أن القرآن لم ينزل على أحد من المعاصرين، أى أنه ليس نتاج لحظة فى الحاضر، بل هو إنتاج لحظة فى تاريخنا وهو من هذه الزاوية ينتمى إلى التراث، بشرط أن تفهم التاريخية فهما صحيحا. هل هو بشرى؟ ليس بالضرورة ، هو إلهى من حيث الأصل والمنبع (المرسل) لكنه بشرى من حيث الرسالة ومن حيث الشفرة ومن حيث المتلقى الأول (الرسول) والمستهدفين بالرسالة (العرب والإنسانية من ورائهم). لكن الخطاب الدينى يقف عند (المرسل) فقط ويهدر جوانب الرسالة الأخرى. يدافع الخطاب الدينى فيما يتصور عن الله فى حين أن الله سبحانه هو الذى «يدافع عن الذين آمنوا» .

والوقوف عند الأصل/الإرسال فى دلالة النصوص الدينية يحول الرسالة كلها عن طبيعتها الأصلية ، فبدلا من أن تكون تنزلا من الله للإنسان، تتحول إلى صعود ومعراج من الإنسان لله وهو تحويل يتم على أساس التضحية بالإنسان – هدف الوحى وغايته – لصلحة قوى إنسانية أخرى تستغله باسم الله والدين . ويتم هذا كله ربما من موقف حسن النية ، لكن النوايا الحسنة وحدها لا تنتج وعيا، بل ربما تساهم فى تعميق الأزمة : أزمة الواقع الراكد المتخلف الذى يجد فى تراثه عوضا يلوذ به ويحتمى من تحديات العصر.

قال الإمام على بن أبى طالب فى رده على المبدأ الذى رفعه الخوارج «لا حكم إلا لله» : «القرآن بين دفتى المصحف لا ينطق، وإنما ينطق به الرجال» هل كان الإمام يشير إلى

المنهج النفعى فى فهم النصوص الدينية

بشرية النص أم إلى بشرية الفهم والتفسير ؟! الإجابة واضحة ، لكن البشرية تلك لا يجب أن تعتمد على الأهواء الأيديولوجية ، بل لابد لها من الالتزام بأصول البحث العلمى وقواعده. ومن أخطر تلك الأصول فى فهم النصوص مراعاة السياق بمستوياته المختلفة والمعقدة. هذا ما ندعوا إليه ونلح فى الدعوة فى كل ما نكتب .

محور الاعتراض

التفسير العلمى للقرآن – وهو جانب من جهد شحرور فى كتابه – تفسير يعتمد على اكتشاف ما سبق أن قام باكتشافه الآخرون فى الطبيعة والمجتمع، ومحاولة تلمس تطابقات أو تشابهات بين ما سبق اكتشافه بجهد العقل الإنسانى وبين ما تنطق به النصوص. وهذا بالضبط كان محور اعتراضنا : لماذا ننتظر أن ينتج الآخر المعرفة فى مجال العلوم الطبيعية أو الإنسانية ، ثم نهرع إلى النصوص نستنطقها قسرا بما سبق اكتشافه ؟ لو كانت النصوص تدل على ذلك حقا لاكتشفها المفسرون قبل أن يكتشفها الأوربيون العودة إلى التراث والنصوص لاكتشاف ما سبق اكتشافه تعبير عن العجز العقلى والكسل الذهنى. وتلك حالة تساهم فى تثبيت حالة الركود العامة التى نعيشها . ولذلك دعونا إلى التحرر من سلطة النصوص وتحرير الإنسان من كل ما يكبل حركته وما يعوق نشاطه الإبداعى، وهى الدعوة التى شاء شحرور أن يسخر منها رابطا بينها وبين الأنظمة الشمولية. أرجو ألا تنسى ياصديقى العزيز أن «الشمولية» سمة ترتبط اساسا بعبادة النصوص، تستوى فى ذلك النصوص الدينية أو النصوص البشرية حين يتحول النص – أى نص – إلى قيد يؤخر الواقع المتحرك، يقع الإنسان فى نطاق «الشمولية» ، ويضحى به فى سبيل غاية ميتافيزيقية ، قد تكون الدين أو الحزب أو الطبقة .. إلخ. إنها حرية العقل وتحرير الإنسان مرة أخرى من كل القيود التى تكبله اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا وفكريا : هذا طريق الخلاص ، ولا طريق غيره ،

لغويات

● "التنبل" فى الاصطلاح العامى هو الرجل الخامل الكسول المعتمد فى طعامه وشرابه على غيره ، والجمع "تنابلة" .. ويقال فى الأمثال : "تنابلة السلطان" .. وهم القاعدون فى ضيافته يأكلون ويشربون بلا عمل ..

● و"التنبل" و"التنابلة" من فصيح العربية ، ومعنى التنبل فى اللغة : الرجل القصير القميء ، فاستعير اللفظ لتنابلة السلطان ، إذ كانوا أقزاما يتسلى السلطان بألعابهم الهزلية !..

● و"التنبل" و"التنابلة" معروفون منذ الجاهلية .. قال معبد الخزاعى وهو شاعر مخضرم شهد الجاهلية والإسلام :

من جيش أحمد لا وخش تنابلةٌ

وليس يُوصف ما أنذرت بالقيلِ

والوخش أراذل الناس وصغارهم ، أى "التنابلة" كما نعرفهم الآن :
وقال أبو الطيب المتنبى :

وقد أطال ثنائى طولُ لابسه

إنَّ الثناء على التِّنْبَالِ .. تنبالُ

فاستعمل المتنبى كلمة "تنبال" وهى مثل "تنبل" وجمعهما "تنابلة" !.

● يتحدث الآن بعض الاقتصاديين الإسلاميين عما يسمونه "المضاربة" ويرون أن المضاربة حلال ، بعكس "الفائدة" فهى حرام !.. وفى لسان العرب : "المضاربة أن تُعطِى إنساناً من مالك ما يتجر فيه على أن يكون الربح بينكما ، أو أن يكون له سهم معلوم من الربح" ..

● هذا معناه أن تحديد الربح بسهم معلوم منذ البداية ، ليس حراما ، وليس "العائد" أو "الفائدة" فى الاقتصاد المصرفى الحديث إلا تحديداً للربح بسهم معلوم منذ بداية الإيداع !..

ولو أخذ الفقهاء بالتحديد اللغوى العربى البحت لمعنى "المضاربة" لبطل الجدال الحاد الذى يدور الآن كما دار قديما الجدل البيزنطى !..

الطب والصيام بلا جوع !

بقلم : د. محمد بهائى السكرى

يولد كل هلال من أهلة الشهور العربية بمذاق خاص. ولكن هلال رمضان له مذاق فريد . فالشهر ليس ككل شهر، ونمط الحياة فيه مختلف، وأيامه ولياليه تقترن بشعيرة أساسية من شعائر الدين وهى الصوم.

وترنو القلوب إلى الهلال ، وتشرئب الأعناق، وترنو الأبصار تحاول استجلاءه من أعماق السماء ، وتبحث عنه فى كل الآفاق وراء السحاب.

ويبزغ الهلال مؤذنا بصيام النهار وقيام الليل، ويقظة القلب فى العبادة، وسياحة الأرواح فى بحار الصفاء والنور.

وتوجل قلوب ، قلوب الأبرار خشية التقصير وقلوب العصاة من الذنوب.

ويبقى رمضان شامخا فترة من عمر الزمان تفتح فيه أبواب السماء للصالحين والمذنبين. وتنبسط المائدة الربانية تدعو الناس إلى خيرى الدنيا والآخرة.

ويتقدم مؤمن صغير أو حديث عهد بالصيام يريد الصوم ولكنه يخشى

الجوع والعطش !

وإلى هذا القادم الجديد على الرحب والسعة تتوجه هذه الكلمات لتجيب عن هذا السؤال : كيف يصوم المرء دون أن يجوع أو يعطش ؟ .

إن الله سبحانه حين فرض الصيام فرضه على علم تام بقدرات الجسم البشرى «ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير» صدق الله العظيم .

فوائد جمة للصيام

وما كان الصيام ليؤذى البدن أو

بغيره، أو حتى يتسبب فى إيلامه وتعذيبه، بل قد يفيده ويشفيه من بعض أمراضه..

ونعود إلى المراجع الطبية لنستفتيها فيطالعنا الباب الأول من كتب علم وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا) بعنوان ضخم تدور حوله آليات العمل فى جسم الإنسان وهو «ثبات الوسط الداخلى» Homeostasis.

لقد حبا الله الكائنات الحية وعلى رأسها الإنسان بقدرة هائلة على المحافظة على ثبات الوسط الداخلى للجسم - أى السائل المحيط بالخلايا - لفترات طويلة.

فتحت مختلف الظروف من قلة الطعام والشراب، وتغير الطقس من الحرارة للبرودة يظل التركيب الكيميائى ودرجة حرارة السوائل الداخلية فى جسم الإنسان ثابتة إلى حد كبير.

وتعمل كل أجهزة الجسم وخلاياه بصورة متناسقة لتحقيق هذا الثبات من أجل صلاح الجميع.

فالجهاز الهضمى يهضم الغذاء ويمتصه، والجهاز الدورى يوزعه على أنحاء الجسم حيث يأخذ كل نسيج حاجته، ويختزن الباقى كاحتياطى استراتيجى فى الكبد والنسيج الدهنى فى مختلف أنحاء البدن. وترتوى الخلايا بالماء الممتص مع الغذاء ولكنها لا تختزنه لفترة طويلة بل إنها تستطيع أن تنتجه عن طريق احتراق الغذاء حيث يتأكسد إلى غاز ثانى اكسيد الكربون وماء.

والجهاز التنفسى يمد الجسم بالأكسجين اللازم للاحتراق فى الأنسجة ويخلصه من ثانى أكسيد الكربون الناتج عن تأكسد الغذاء.

والكليتان تخلصان الجسم من الماء الزائد، والفضلات القابلة للذوبان فى الماء.

وهكذا يوجد توازن دقيق بين معدلات الأداء، والإنتاج والاستهلاك فى أعضاء الجسم المختلفة مما يؤدى إلى تحقيق حالة ثبات الوسط الداخلى.

وبالتالى تجد دائما منسوب السكر والدهون والأملاح، ودرجة الحموضة والقلوية، وضغط غاز الأكسجين وثانى أكسيد الكربون الذائب فى الماء، بل ودرجة الحرارة فى سوائل الجسم فى حالة ثبات مستديم لا تشوبها سوى تذبذب بسيط يعمل كمؤثر لتنشيط الآليات الخاصة التى تعيد الاستقرار دائما إلى الوضع الطبيعى.

ولا يختل هذا التوازن الدقيق إلا فى حالتين : الحالة الأولى عند المرض،

الصيام بلا جــوع !!

والحالة الثانية عند الإسراف فى التعرض للضغوط .

والمريض معفى من الصيام والمسلم قادر على الصيام بسهولة ويسر إذا تجنب الإسراف فى التعرض للضغوط. وبيان ذلك يتضح فيما يلى :

* يحتوى الكبد على قدر من النشا الحيوانى (الجليكوجين) يقدر بـ ٣.٠٠ مئات من الجرامات، وهو قابل للتحول إلى سكر يدخل الدم ليتوزع على جميع أنحاء الجسم، ويكفى الإنسان لمدة ما يقرب من نصف يوم.

* يختـــزن الجســم قــدرا من البروتينات على هيئة مخزون غذائى لا يدخل فى التركيب العضوى للخلايا. وهذه البروتينات المختزنة يمكن استدعاؤها على وجه السرعة لتستخدم كوقود فى حالة الحاجة .

* يحتوى الجسم على مخزون من الدهن يكفيه كوقود لمدة اسبوع أو أكثر. وبالطبع لا تمتد فترة الصيام أثناء النهار فى رمضان إلى هذا المدى الطويل .

* يظل منسوب الأملاح ثابتا فى الجسم لفترة طويلة مالم يتعرض الإنسان لحرارة جو مرتفعة لفترة طويلة أو مجهود غير عادى يتسبب فى عرق غزير .

* يتكون أثناء عمليات الاحتراق فى الجسم ما يقرب من ربع لتر من الماء فى اليوم تضاف إلى القدر من الماء الذى يتناوله الإنسان فى الطعام والشراب.

ومما سبق يتبين أنه لا يحدث تغير كبير فى الجسم أثناء صيام رمضان يقتضى الاحساس بالجوع أو العطش تحت الظروف العادية المعتدلة .

فلم إذن يشعر الإنسان بالجوع فى رمضان أو غير رمضان ؟ .

إن الإجابة عن هذا السؤال تكمن فى تفهم وظائف أجزاء معينة من الجهاز العصبى المركزى وبصفة خاصة أجزاء من قشرة المخ الرمادية، وجزء معين عند قاعدة المخ يعرف بتحت المهاد يحتوى على مركزين للإطعام والشبع .

كيفية الإحساس بالجوع

فعندما تخلو المعدة من الغذاء تبعث بإشارات حسية إلى قشرة المخ الرمادية لتثير إحساسا بالجوع. وينكى

ذلك انخفاض منسوب السكر فى الدم الذى ينشط مستقبلات كيميائية خاصة فى منطقة تحت المهاد فتثير مركز الاطعام فيبعث أيضا بإشارات حسية منشطة لقشرة المخ الرمادية .

فإذا تناول الإنسان الطعام وامتلأت المعدة، ويبدأ الهضم والامتصاص، وأخذ منسوب السكر فى الدم فى الارتفاع تسكن تلك المثيرات، وينشط مركز الشبع فى منطقة تحت المهاد ويبعث بإشارات لقشرة المخ الرمادية تثبط الإحساس بالجوع .

ويساعد الإفراط فى الطعام على الإحساس بالجوع بعد فترة قصيرة لا تتجاوز الساعتين ! ويرجع ذلك إلى أن الإفراط فى الطعام ينشط افراز هرمون الأنسولين من غدة البنكرياس ليحرق السكر الزائد فى الدم، ولكن زيادة إفراز هرمون الانسولين تؤدى إلى انخفاض السكر فى الدم بعد ساعتين مما يؤدى إلى الاحساس بالجوع من جديد . وهكذا قد يكون الإفراط فى الطعام فى السحور سببا فى الجوع أثناء الصباح الباكر ! .

ومما تقدم يتبين أن الإحساس بالجوع له ارتباط وثيق بحالة المعدة من الخلو أو الامتلاء بالغذاء ومنسوب السكر فى الدم . ولكن التدريب والتعود له أيضا دور كبير . فالجهاز العصبى ينظم نشاط الجهاز الهضمى، والمعدة تنشط انقباضاتها وإفرازاتها فى الأوقات المعينة التى تعود فيها الإنسان على تناول الطعام حتى ولو لم يتناوله. وكل ذلك بتأثير من الجهاز العصبى المركزى الذى يعمل وفق ساعة بيولوجية دقيقة موجودة فى جزء عميق منه. وبالتالى قد يعانى الإنسان من الجوع فى الأيام الأولى من الصوم لاختلاف مواعيد تناول الطعام فى أيام الصيام عن غيرها من الأيام، ولكن بمرور الوقت تقوم الساعة البيولوجية الدفينة فى الجسم بتعديل مواقيتها حسب النظام الجديد لتناول الطعام فيصبح الصيام أكثر سهولة بالتدريج مع مرور الأيام .

ومن هنا تأتى أهمية الاعتياد على الصيام من الصغر، والاستعداد لصوم رمضان بالتدرب عليه عن طريق صيام بضعة أيام تطوعا من الشهور التى تسبقه .

ولا ينبغى أن نغفل أيضا دور العناية الربانية التى تحف بالصائمين وتيسر عليهم كل أمر عسير فتمضى بهم أيام رمضان فى صفاء روحى، وسمو بالنفس فوق شهوات البدن .

حسن البنا

مشروع إسلامى للنهضة الحضارية

بقلم : د . محمد عمارة

على إمتداد أوطان الأمة الاسلامية ـ من "غانة" إلى "فرغانة" ـ ومن "حوض نهر الفولجا" إلى جنوبى "خط الاستواء" ـ بل وفي مواطن الأقليات الاسلامية خارج دار الاسلام ـ إذا نظر الباحث المنصف إلى ظواهر وحركات ومشروعات البعث والنهضة والتغيير والاصلاح .. فسيجد ظاهرة الصحوة الاسلامية ومشروعها الحضارى أقوى وأخطر وأكبر وأعمق ظواهر ومشاريع العصر الذى نعيش فيه .. يستوى فى ذلك التقييم الباحثون المؤيدون أو المناوئون لهذا المشروع ؟! ..

والحقيقة الثانية ، التى لن تجد عليها خلافا بين الباحثين ، ولا بين حركات وتيارات هذه الصحوة الاسلامية ، هى الابوة والامامة والريادة التى يمثلها الامام الشهيد حسن البنا (١٣٢٤ ـ ١٣٦٨هـ ١٩٠٦ ـ ١٩٤٩م) بالنسبة لهذه الظاهرة الكبرى ـ التى تمثل أمل النهضة لدى الاسلاميين .. والقلق المخيف لأعداء الاسلاميين ! .

أما الحقيقة الثالثة ـ فى هذا المقام ـ فهى أن أبوة وإمامة وريادة حسن البنا لهذا الاحياء الاسلامى المعاصر . إنما تمثل الحلقة "المعاصرة" فى سلسلة الاحياء الاسلامى "الحديث" .. إنها مرحلة متميزة فى "الكم" و "الكيف" ولكنها امتداد متطور ، لمرحلة النشأة" و "التبلور" التى تمثلت فى حركة "الجامعة الإسلامية" . التى ارتاد ميدانها ورفع أعلامها إمام الاحياء الاسلامى فى العصر الحديث جمال الدين الأفغانى (١٢٥٤ ـ ١٣١٤ هـ ـ ١٨٣٨ م ـ ١٨٩٧م) والتى كان الامام محمد عبده (١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م) المهندس الاعظم لتجديدها الفكرى .. كما مثل الشيخ محمد رشيد رضا (١٢٨٢ ـ ١٣٥٤ هـ ١٨٦٥ ـ ١٩٣٥م) الامتداد الذى أسلم أمانتها الى حسن البنا . الذى انتقل بها إلى هذا "الكيف" المعاصر الذى تعيش فيه ..

لقد بدأ المشروع الحضارى الاسلامى ، على يد الأفغانى ، حركة تجديد واجتهاد وإحياء ، تستهدف



تحرير العقل المسلم ليواجه ويتجاوز التخلف الموروث عن الحقبة "المملوكية - العثمانية" . وليتمكن من مواجهة التحدى الحضارى الغربى ، الذى اقتحم حياتنا وواقعنا الاسلامى فى ركاب الغزوة الاستعمارية الحديثة .. وبعبارة محمد عبده ، فلقد "وجه الافغانى عنايته لحل عقد الأوهام عن قوائم العقول" ؟! .. اما مقصده السياسى "فهو إنهاض دولة اسلامية من ضعفها وتنبيهها للقيام على شئونها ، حتى تلحق الأمة بالأمم العزيزة ، والدولة بالدول القوية ، فيعود للاسلام شانه وللدين الحنيفى مجده" !

وفى هذا المشروع الحضارى "رابط" محمد عبده على "ثغرة الفكر" وجاهد فى ميدانها جهادا عظيما ، حتى جعله اجتهاده المهندس الأعظم لفكر هذا المشروع .. وبعبارته هو ، التى يتحدث فيها عن "الثغرة الفكرية" التى "رابط" عليها مجددا ومجاهدا .. يقول : "لقد ارتفع صوتى بالدعوة الى أمرين عظيمين : الأول : تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة ، قبل ظهور الخلاف ، والرجوع فى كسب معارفه الى ينابيعها الأولى ، واعتباره من ضمن موازين العقل البشرى التى وضعها الله لترد من شططه .. لتتم حكمة الله فى حفظ نظام العالم الانسانى ، وانه على هذا الوجه يعد صديقا للعلم ، باعثا على البحث فى اسرار الكون ، داعيا الى إحترام الحقائق الثابتة ، مطالبا

بالتعويل عليها فى أدب النفس وإصلاح العمل" كل هذا اعده امرا واحدا . وقد خالفت فى الدعوة إليه راى الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الامة : طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم ، وطلاب فنون هذا العصر ومن هو فى ناحيتهم!

اما الأمر الثانى : فهو إصلاح اساليب اللغة العربية فى التحرير ... .

وعلى امتداد مايقرب من اربعين عاما (١٣١٥ هـ ١٨٩٨م - ١٣٥٤هـ ١٩٣٥م) كانت مدرسة (المنار) - التى قادها رشيد رضا - هى ترجمان هذا التيار ، الذى وضع الأسس والمعالم للمشروع الحضارى الاسلامى . والذى كون له "العقل - الصفوة - النخبة" - كما تمثلت فى تنظيماته - وابرزها تنظيم (جمعية العروة الوثقى) ..

• تصاعد التحدى .. وعموم البلوى ؟!

فى اوائل هذا القرن العشرين حذر الامام محمد عبده من عواقب صراع "العرب" و "الاتراك" لأن "هذان الشعبان هما اقوى شعوب الاسلام .. ودول اوربة واقفة لهما بالمرصاد .. فإذا وهنت قوتهما فى الصراع ، وثبت دول اوربا . فاستولوا على الفريقين ، او على اضعفهما .. فتكون العاقبة إضعاف الاسلام وقطع الطريق على حياته . "!"

وبعد خمسة عشر عاما من هذا "التحذير - النبوءة" وقع المحظور .. وبدا عموم البلوى يخيم على سائر بلاد الاسلام .. فالشريف حسين بن على (١٢٧٢ - ١٣٥٠هـ ١٨٥٦ - ١٩٣١م) تمرد على الدولة العثمانية (١٣٣٤هـ ١٩١٦م) استجابة لعوامل داخلية ، ومدفوعا باغراءات انجليزية ! .. ففتحت فى جدار دولة الاسلام الكبرى الثغرة التى افضت الى تنفيذ الغرب لمعاهدة "سيكس - بيكو" السرية ، التى عقدوها (١٣٣٤هـ - ١٩١٦م) لتقسيم تركة الدولة العثمانية بين اقطاب التحالف الغربى .. ولوعد بلفور (١٣٣٦هـ - ١٩١٧م) بإقامة الكيان الصهيونى ، قاعدة غربية ، على ارض فلسطين .. واحتل الفرنسيون الشام ، وقال قائدهم "جورو" امام قبر صلاح الدين الأيوبى : "ها نحن قد عدنا باصلاح الدين" ؟! .. واحتل الانجليز فلسطين والعراق . وقال قائدهم "النبى" عندما دخل القدس : "اليوم انتهت الحروب الصليبية" ؟!

وبعد أن رفرفت رايات الاستعمار الغربى على اوطان الأمة الاسلامية - من غانة الى فرغانة - اسقطت الخلافة الاسلامية (١٣٤٢هـ - ١٩٢٤م) .. فعمت البلوى . التى جاهد ضدها الأفغانى .. وحذر منها محمد عبده . وتيار الجامعة الاسلامية . لأكثر من نصف قرن من الزمان ! ..

بل لقد حدث ماهو اخطر من احتلال الأرض ، ونهب الثروة .. حدث الاختراق للعقل المسلم ، وبدا صوت "التغريب" - على لسان نفر من ابناء الامة - يبشر بان الخلاص لن يتحقق إلا عبر تبنى المشروع الحضارى الغربى ، بخيره

وتسرد . بحلوه ومره نصوابه وخطئه فنحن منه . لاننا ابناء حضارة البحر المتوسط وعقلنا يوناني . لم يغير القرآن من يونانيته ، كما لم يغير الانجيل يونانية العقل الغربي - إذ القرآن مصدق للانجيل !
والاسلام ليس إلا رسالة روحية . لاسياسة فيها ولا دولة ولا حكم بل يبعد مابينها وبين السياسة ، وماكان محمد إلا صاحب سلطان روحي ، كالخالين من الرسل ، لم يقم دولة . ولم يرس حكومة . . فرسالته، كسابقتها ، تدع مالقيصر لقيصر وما لله لله !!.. وللمؤمنين ان يؤمنوا ماشاء لهم الايمان بقصص القرآن . لكن الباحثين لابدلهم من الشك فيه ! .. وليست العربية هي لغة النهضة والتقدم ، لانها لغة القرآن والاخلاقيات العربية . لا لغة الديمقراطية والبرلمانات ! .. ومعايير النضج الفكري هي الايمان بالغرب والكفران بالشرق !!

نعم حدث هذا الاختراق .. وصدرت الكتب العربية الحاملة لهذه الافكار . وامثالها . لنفر من اعلام الفكر العربي في العقد الثالث من هذا القرن العشرين .. الامر الذي اهتز له ضمير الامة كما لم يهتز في منعطف من منعطفات التحديات التاريخية التي واجهتها .. فكانت الاستجابة الايجابية امام هذا التحدي . تعبيرا عن نفاسة المعدن .. وتحقيقا للسنة الالهية (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .. سنة . حفظ الاسلام بالمسلمين .. وتجديد دنيا المسلمين بتجديد دين الاسلام !! .

● الجامعة الاسلامية في طور جديد

نعم . كان الاسلام . على مر تاريخ الامة . هو حصنها المنيع عندما تهدد الملمات والتحديات وجودها . وكانت صيحة "وإسلاماه !" هي كلمة السر التي تتنادى بها الامة ، وتتداعى إليها عقولها وقلوبها . خاصتها وجماهيرها . كان هذا هو قانون "التحدي" و "التصدي" على مر تاريخ الاسلام والمسلمين ... ولقد عاد ليعمل عندما عمت البلوى أثناء وعقب الحرب الاستعمارية العالمية الاولى ..

● ففي ١٣٤٦هـ - ١٩٢٧م اجتمع صفوة علماء الاسلام بالقاهرة ، وأسسوا (جمعية الشبان المسلمين) ..

● وفي العام التالي (١٣٤٧هـ - ١٩٢٨م) حدثت "اللحظة التاريخية" التي مثلت "التطور النوعي" لانجاز حسن البنا في سياق تطور المشروع الاسلامي للنهضة الحضارية . عندما ادرك الرجل ان تصاعد التحدي .. وثغرات الاختراق .. وعموم البلوى . إنما تتطلب الانتقال بالقضية من إطار الصفوة والنخبة - الذي كانت عليه منذ (العروة الوثقى) وحتى الشبان المسلمين - الى الدائرة التي تشترك فيها "الامة" مع "النخبة" وإلى المستوى الذي تسهم فيه "الجماهير" مع "الصفوة" في مواجهة التحديات . .

لقد كان النصف قرن الذي مضى من عمر الجامعة الاسلامية : تاسيسا لمشروع النهضة الاسلامية .. وتكوينا

حسن البنا

"للعقل" القائد لهذا المشروع ... وامام تصاعد التحديات .. والاختراق من الداخل .. كان لابد من بلورة "جسم" لهذا "العقل" ؟! .. فكان للانجاز التاريخي لحسن البنا في سياق الاحياء الاسلامي : "الانتقال بـ "البرنامج" المقدم "للجماهير" .. والانتقال بـ "التنظيم" الحامل للرسالة ، من إطار "الصفوة" - كما كان الحال في (جمعية العروة الوثقى) - الى إطار "الجماهير" .

تلك هي اللحظة التاريخية لحسن البنا .. وذلك هو التطور النوعي ، والاضافة الكيفية لانجازه ، في السياق التاريخي لحركة الأحياء الاسلامي الحديث .. وتلك هي "بصمته" الخالدة في ظاهرة الصحوة الاسلامية المعاصرة ! ..

● ففي مواجهة "التغريب" .. الذي اخترق عقل الأمة ، وغدا له أنصار من بين أبنائها .. يقف مشروع الأستاذ البنا ليقول : "إن الحضارة الغربية ، بمبادئها المادية ، قد انتصرت في هذا الصراع الاجتماعي على الحضارة الاسلامية ، بمبادئها القوية الجامعة للروح والمادة معا ، في أرض الاسلام نفسه ، وفي حرب ضروس ميدانها نفوس المسلمين وأرواحهم وعقائدهم وعقولهم ، كما انتصرت في الميدانين السياسي والعسكري .. وكما كان لذلك العدوان السياسي أثره في تنبيه المشاعر القومية . كان لهذا الطغيان الاجتماعي أثره كذلك في انتعاش الفكرة الاسلامية ... إن مدنية الغرب ، التي زهت بجمالها العلمي حينا من الدهر ، واخضعت العالم كله بنتائج هذا العلم لدوله وأممه ، تفلس الآن وتنتحر ! .. فهذه أصولها السياسية تقوضها الدكتاتوريات ، وأصولها الاقتصادية تجتاحها الأزمات .. وأصولها الاجتماعية تقضي عليها المبادىء الشاذة والثورات المندلعة في كل مكان . وقد حار الناس في علاج شأنها وضلوا السبيل ! ... ونحن نريد أن نفكر تفكيرا استقلاليا ، يعتمد على أساس الاسلام الحنيف ، لا على أساس الفكرة التقليدية التي جعلتنا نتقيد بنظريات الغرب واتجاهاته في كل شيء ، نريد أن نتميز بمقوماتنا ومشخصات حياتنا كأمة عظيمة مجيدة ، تجر وراءها أقدم وأفضل ماعرف التاريخ من دلائل ومظاهر الفخار والمجد ! ..

● ولقد كان رفض "التغريب" في مشروع الأستاذ البنا ، رفضا "للتقليد .. والتبعية" .. ولم يكن رفضا "للتفاعل - الصحي" بين الحضارات .. ولا دعوة "للعزلة .. والانغلاق .. والاكتفاء الذاتي" ؟! ..

فهو الذي يقول عن حضارتنا الاسلامية ، وأمتنا الاسلامية "لقد اتصلت بغيرها من الامم ، ونقلت كثيرا من الحضارات ، ولكنها تغلبت بقوة إيمانها ومتانة نظامها عليها جميعا ، فعربتها أو كادت ، واستطاعت أن تصبغها وأن تحملها على لغتها ودينها بما فيها من روعة وحيوية وجمال . لم يمنعها أن تأخذ النافع من هذه

الحضارات جميعا ، من غير أن يؤثر ذلك في وحدتها الاجتماعية أو السياسية .."

● وفي مواجهة "التخلف الموروث" .. وتيارات "التقليد" لهذا "التخلف" .. دعا حسن البنا إلى "التجديد" .. وحدد ، في صراحة ووضوح ، أن دعوته هي واحدة من "الدعوات التجديدية لحياة الأمم والشعوب" . وطالب - في النظرة النقدية للتراث والتاريخ - بالتمييز بين "الدين - الثابت" وبين "الفكر - المتغير" و "الممارسات - البشرية" .. ذلك "ان أساس التعاليم الاسلامية ومعينها هو كتاب الله ، تبارك وتعالى ، وسنة رسوله ، صلى الله عليه وسلم .. وان كثيرا من الآراء والعلوم التي اتصلت بالاسلام وتلونت بلونه تحمل لون العصور التي أوجدتها والشعوب التي عاصرتها ، ولهذا يجب ان تستقى النظم الاسلامية ، التي تحمل عليها الأمة من هذا المعين الصافي ، معين السهولة الأولى ، وان نفهم الاسلام كما يفهمه الصحابة والتابعون من السلف الصالح ، رضوان الله عليهم ، وان نقف عند هذه الحدود الربانية النبوية حتى لانقيد انفسنا بغير مايقيدنا به الله ، ولانلزم عصرنا لون عصر لايتفق معه والاسلام دين البشرية جمعاء ! "

ووقف موقفا نقديا من تاريخ الدولة الاسلامية ، عندما حدد العوامل السبعة التي أدت الى تحلل كيانها .. وهي :

أ - الخلافات السياسية والعصبية وتنازع الرياسة والجاه ..

ب - والخلافات الدينية والمذهبية

جـ - والانغماس في ألوان الترف والنعيم ..

د - وانتقال السلطة والرياسة الى غير العرب ، من الفرس تارة والديلم تارة أخرى والمماليك والأتراك وغيرهم ممن لم يتذوقوا طعم الاسلام الصحيح ، ولم تشرق قلوبهم بأنوار القرآن لصعوبة إدراكهم لمعانيه ..

هـ - وإهمال العلوم العملية والمعارف الكونية ، وصرف الأوقات وتضييع الجهود في فلسفات نظرية عقيمة وعلوم خيالية سقيمة ..

و - وغرور الحكام بسلطانهم والانخداع بقوتهم ، وإهمال النظر في التطور الاجتماعي للأمم من غيرهم ، حتى سبقتهم في الاستعداد والأهبة ، وأخذتهم على غرة .

ز - والانخداع بدسائس المتملقين من خصومهم ، والاعجاب بأعمالهم ومظاهر حياتهم ، والاندفاع في تقليدهم فيما يضر ولاينفع ! ..

● وفي مواجهة الذين اكتفوا من مقاصد "الاستقلال" بالاستقلال "السياسي" - الذي يقف عند "العلم والنشيد" !! .. دعا حسن البنا الى الاستقلال الذي يحقق "سيادة الأمة" .. "لان الاسلام لايرضى من أبنائه بأقل من الحرية والاستقلال ، فضلا عن السيادة وإعلان الجهاد ، ولو كلفهم ذلك الدم والمال" .. والى الاستقلال الاقتصادي - للأمة - وليس لقطر واحد من أقطارهم .. فالهدف هو تحقيق "نظام اقتصادي استقلالي للثروة والمال والدولة والأفراد .. والنقد .. ذلك أن الرابطة بيننا وبين العروبة والاسلام تمهد لنا سبيل الاكتفاء الذاتي والاستقلال

حسن البنا

الاقتصادى . وتنقذنا من هذا التحكم الغربى فى التصدير والاستيراد وما اليها ! . والى "الاستقلال الحضارى" الذى يعيد لامة الاسلام وحضارته مكانة الامامة للدنيا وموقع الشهود على العالمين .. "فلقد كانت قيادة الدنيا . فى وقت ما . شرقية بحتة . ثم صارت بعد ظهور اليونان والرومان غربية . ثم نقلتها النبوات الى الشرق مرة ثانية . ثم غفا الشرق غفوته الكبرى . ونهض الغرب نهضته الحديثة .. فورث الغرب القيادة العالمية . وها هو ذا الغرب يظلم ويجور ويطغى ويحار ويتخبط . فلم تبق إلا ان تمتد يد "شرقية" قوية . يظللها لواء الله . وتخفق على راسها راية القرآن . ويمدها جند الايمان القوى المتين . فإذا الدنيا مسلمة هانئة . وإذا بالعوالم كلها هاتفة (الحمد لله الذى هدانا لهذا وماكنا لنهتدى لولا ان هدانا الله)

إنه استقلال الحضارة "المتميزة" لا "المنغلقة" ولا "التابعة" - ذلك ان "الاسلام لايابى ان نقتبس النافع . وان ناخذ الحكمة انى وجدناها . ولكنه يابى كل الاباء ان نتشبه فى كل شىء بمن ليسوا من دين الله على شىء . وان نطرح عقائده وفرائضه وحدوده واحكامه لنجرى وراء قوم فتنتهم الدنيا واستهوتهم الشياطين ؟! ..

● وفى مواجهة المضمون الغربى . الضيق الأفق . والانعزالى . لكل من "الوطنية" و "القومية" يقدم مشروع الاستاذ البنا الصيغة التى تحقق الانسجام بين درجات الانتماء . الوطنى .. والعربى .. والاسلامى والانسانى .. "فالاسلام قد وفق بين شعور الوطنية الخاصة وشعور الوطنية العامة .. ومصر هى قطعة من ارض الاسلام . وزعيمة اممه .. وفى المقدمة من دول الاسلام وشعوبه .. ونحن نرجو ان تقوم فى مصر دولة مسلمة تحتضن الاسلام . وتجمع كلمة .. العرب وتعمل لخيرهم . وتحمى المسلمين فى اكناف الارض من عدوان كل ذى عدوان . وتنشر كلمة الله وتبلغ رسالته .. فالمصرية لها فى دعوتنا مكانها ومنزلتها وحقها فى الكفاح والنضال .. ونحن نعتقد اننا حين نعمل للعروبة نعمل للاسلام . ولخير العالم كله ! " ..

● وفى مواجهة "الغلاة" .. الذين لايرون فى المجتمعات الاسلامية . وفى عقائد المسلمين المعاصرين إلا شوائب الكفر والجاهلية .. فيحكمون بهما على الأمة .. او على الكثير من المجتمعات .. يقدم مشروع الاستاذ البنا الموقف الموضوعى المتوازن .. فنحن "لانكفر مسلما اقر بالشهادتين وعمل بمقتضاهما وادى الفرائض - برأى او معصية - إلا ان اقر بكلمة الكفر . او انكر معلوما من الدين بالضرورة . او كذب صريح القرآن . او فسره على وجه لاتحتمله اساليب اللغة العربية بحال . او عمل عملا لايحتمل تأويلا غير الكفر .. "ولقد اندمجت مصر بكليتها فى الاسلام بكليته . عقيدته ولغته وحضارته . ودافعت عنه وزادت عن حياضه وردت عنه عادية المعتدين .. ومن هنا بدت مظاهر الاسلام قوية فياضة زاهرة دفاقة فى كثير من جوانب الحياة المصرية .

فسماؤها إسلامية . ولغتها عربية ، وهذه المساجد العظيمة يذكر فيها اسم الله ويعلو منها نداء الحق صباح مساء . وهذه مشاعرنا لاتهتز لشيء اهتزازها للاسلام وما يتصل بالاسلام" .. والمعركة قائمة بيننا وبين الشوائب التى وفدت الينا من الحضارة الغربية . تلك "الحضارة التى غزتنا غزوا قويا .. فانحسر ظل الفكرة الاسلامية عن الحياة الاجتماعية المصرية فى كثير من شئونها الهامة ، واندفعنا نغير أوضاعنا الحيوية ونصبغ معظمها بالصبغة الأوربية . وحصرنا سلطان الاسلام فى حياتنا على القلوب والمحاريب ، وفصلنا عنه شئون الحياة العملية . وباعدنا بينه وبينها مباعدة شديدة . وبهذا أصبحنا نحيا حياة ثنائية متذبذبة أو متناقضة !.. فالمعركة معركة تنقية المجتمعات الاسلامية من الدخيل ، الذى أقام فيها الثنائية والتذبذب بين روح الاسلام وبين الروح المادية الالحادية . روح اللذة والشهوة ، الذى تميزت به الحضارة الغربية .. وليست معركة مع مجتمعات ارتدت عن الاسلام ونوره الى الجاهلية وظلماتها ! ..

● وفى مواجهة المتعجلين لقطف الثمار .. الذين يريدون القفز سريعا الى القبض على صولجان الحكم .. والذين يستبطئون طريق التربية وتغيير الذات - ذات الفرد . فالأسرة ، فالمجتمع . ثم الدولة .. فى مواجهة هؤلاء يؤكد مشروع الاستاذ البنا على ضرورة اعتماد طريق المراحل .. ومنهج التربية وسياسة النفس الطويل فينادى الرجل قائلا : "أيها الاخوان المسلمون . وبخاصة المتحمسون المتعجلون منكم اسمعوها منى كلمة عالية داوية .. إن طريقكم هذا مرسومة خطواته . موضوعة حدوده ولست مخالفا هذه الحدود التى اقتنعت كل الاقتناع بانها اسلم طريق للوصول

أجل ، قد تكون طريقا طويلة . ولكن ليس هناك غيرها إنما تظهر الرجولة بالصبر والمثابرة والجد والعمل الدائب . فمن أراد منكم أن يستعجل ثمرة قبل نضجها أو يقتطف زهرة قبل أوانها فلست معه فى ذلك بحال . وخير له أن ينصرف عن هذه الدعوة الى غيرها من الدعوات .. ومن صبر معى حتى تنمو البذرة . وتنبت الشجرة . وتصلح الثمرة . ويحين القطاف . فاجره فى ذلك على الله . ولن يفوتنا وإياه أجر المحسنين . إما النصر والسيادة . وإما الشهادة والسعادة ..

ألجموا نزوات العواطف بنظرات العقول .. ولاتصادموا نواميس الكون فإنها غلابة . ولكن غالبوها واستخدموها وحولوا تيارها . واستعينوا ببعضها على بعض . وترقبوا ساعة النصر . وماهى منكم ببعيد ! .. أريد أن أكون صريحا معكم للغاية . فلم تعد تنفعنا إلا المصارحة . اعدوا أنفسكم .. وفى الوقت الذى يكون فيه منكم ثلاثمائة كتيبة قد جهزت كل منها نفسها . روحيا بالايمان والعقيدة ، وفكريا بالعلم والثقافة . وجسميا بالتدريب والرياضة . فى هذا الوقت طالبونى بأن أخوض بكم لجج البحار . وأقتحم بكم عنان السماء . وأغزو بكم كل جبار عنيد . فإنى فاعل إن شاء الله .

المستشرق الإسبانى ميجيل أسين بلاثيوس

وجهوده فى الدراسات العربية والإسلامية

بقلم : د . محمود على مكى

● فى شهر يناير الماضى (بين يومى ١١ و ١٤) أقامت ثلاثة أقسام من كلية الآداب بجامعة القاهرة احتفالاً كبيراً وندوة دولية تكريماً لذكرى المستشرق الإسبانى ميجيل أسين بلاثيوس . وكانت هذه الأقسام هى قسم اللغة الإسبانية وقسم اللغة العربية وقسم الفلسفة . واشترك فى الإعداد للملتقى الكبير - إلى جانب جامعة القاهرة - المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد والمعهد الإسبانى للتعاون مع العالم العربى . وقدمت فيه أبحاث من نحو أربعين عالماً متخصصاً من أساتذة الجامعات من بينهم خمسة عشر إسبانيا يمثلون الدراسات الإسلامية فى جامعات أسبانيا المختلفة : بمدريد وغرناطة وإشبيلية ومرسية وقادس وبرشلونة وسلمنكة ، ومن الجامعات المصرية : القاهرة ودار العلوم والأزهر وعين شمس والاسكندرية . كما ساهم فى اللقاء رئيس دائرة العلوم الفلسفية فى منظمة اليونسكو ممثلا للمدير العام للمنظمة . أما الأبحاث المقدمة فإنها تعد مساهمة كبيرة فى الدراسات الدينية والفلسفية الأندلسية . وهذان هما الميدانان اللذان عمل فى خدمتهما المستشرق الأسبانى العظيم .

الاستشراق الإسباني في القرن التاسع عشر :

يعد القرن التاسع عشر فى تاريخ إسبانيا هو عصر الهزات العنيفة والأحداث المأساوية الهائلة ، فقد بدأ بغزو نابوليون لإسبانيا بما كان يعنيه ذلك من إذلال لإسبانيا وامتهان لكرامتها بعد أن كانت خلال القرنين السابقين الامبراطورية العتيدة التى لم تكن تغيب عنها الشمس ، وانتهى القرن بهزيمة منكرة لإسبانيا فى حربها مع الولايات المتحدة وبضياع ما بقى من مستعمراتها الأمريكية ، وفيما بين الحدثين الشنيعين تقلبت أحوال البلاد ما بين ثورات وقلاقل وصراعات حزبية وضروب من الخلل الاجتماعى والأزمات الاقتصادية الخانقة .

ومع بداية القرن التاسع عشر تبرز شخصية أول مستشرق إسبانى يتوفر على كتابة أول تاريخ شامل للأندلس منذ بداية فتح إسبانيا حتى نهاية دولة غرناطة (٧١١ - ١٤٩٢) ، ونعنى به خوسيه أنتونيو كوندى Jose Antonio Conde (١٧٦٥ - ١٨٢٠) وبمؤلفه كتاب « تاريخ الحكم العربى لإسبانيا » وكان كوندى متعاوناً مع غزاة بلده الفرنسيين مما أساء إلى سمعته وجعل كثيراً من مواطنيه يتهمونه بالخيانة . أما كتابه فقد اتسم بما تتسم به المحاولات الأولى من الفجاجة والتعثر ، وكان المستشرق الهولندى راينهارت دوزى - باعث الدراسات الأندلسية فى أوربا - أقسى ناقديه وكاشفى ما وقع فيه من أخطاء .

ويأتى بعد كوندى مستشرق إسبانى جليل يعد واضع البذرة الأولى فى تربة الدراسات الأندلسية فى إسبانيا وراعى هذه الدراسات وهو باسكوال دى جايانجوس Pascual de Gayangos (١٨٠٩ - ١٨٩٧) وكان منهجه أكثر علمية ودقة من منهج كوندى فقد رأى أن كتابة تاريخ الحضارة الأندلسية ينبغى أن يبدأ بنشر النصوص الباقية من تراث الأندلس ثم ترجمتها إلى اللغات الأوربية حتى تكون فى متناول أيدى الباحثين من غير المتخصصين ، ولهذا فقد عمل على ترجمة الشطر الأكبر من كتاب «نفح الطيب» إلى الإنجليزية ، ثم اضطلع بنشر العديد من النصوص العربية أو التى ترجمت قديما من العربية ، وكانت هذه خطوة فى الاتجاه الصحيح سيواليها تلاميذه بعده .

فرانسسكو كوديرا و « بنو » كوديرا :

وأعلى هؤلاء التلاميذ قامة خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر هو بغير شك فرانسسكو كوديرا زيدين FRancisco Codera Zaidin (١٨٣٦ - ١٩١٧) . وهو الذى واصل عمل

جايانجوس في تحقيق النصوص العربية باعتبار ذلك مدخلاً لابد منه لكتابة التاريخ الأندلسي ، فأصدر بالتعاون مع تلميذه خوليان ريبيرا ما أطلق عليه اسم « المكتبة الأندلسية » في عشرة مجلدات تضم سلسلة متكاملة من كتب التراجم الأندلسية، وكان كوديرا يرى أنه لا يمكن معرفة التاريخ الإسباني الحقيقي إلا بمعرفة اللغة العربية وبتقويم للحقبة الإسلامية في تاريخ بلاده على أساس من التجرد والنزاهة والإنصاف ، وفي ضوء هذه النظرة أصدر أيضا مجموعة من الدراسات التاريخية حول عصور الأندلس الأولى وحول دولة المرابطين إلى جانب دراسة للنميات (النقود) الإسلامية بالغة الأهمية .

وقد أحاط بكوديرا أيضا عدد من التلاميذ كانوا يدعون «بني كوديرا Beni Codera » إشارة إلى صلتهم الحميمة بأستاذهم ، وهم الذين أعطوا الدراسات العربية في إسبانيا دفعة كبيرة إلى الأمام وكان أوثق هؤلاء صلة بكوديرا هو خوليان ريبيرا Julian Ribera (١٨٥٨ - ١٩٣٤) الذي يمكن اعتباره منتميا - إلى حد ما - إلى ذلك الجيل العظيم من المفكرين الإسبان الذي اصطلح على تسميته بجيل ٩٨ « Generacion del 98 » وهم طائفة من الكتاب والشعراء أثارهم ما أصاب بلادهم من تدهور ظلت حلقاته تتوالى طوال القرن التاسع عشر حتى انتهى إلى كارثة الحرب الإسبانية الأمريكية في سنة ١٨٩٨ ، وفي ظل الهزيمة الساحقة التي منيت بها إسبانيا تكشف الخلل الذي أصاب أجهزة الحكم في إسبانيا على مدى القرنين السابقين وراء واجهة تشعر في الظاهر بالقوة والتماسك ، فقد ظلت إسبانيا حتى بداية القرن التاسع عشر امبراطورية « لا تغيب عنها الشمس » تحكم ثلاثة أرباع القارة الأمريكية بالإضافة إلى ما استولت عليه من أراضٍ واسعة في قارتي أفريقيا وآسيا ، غير أن الفساد الإداري وسيطرة الكنيسة والجمود الفكري الذي انتهى إلى رجعية متحجرة والعزلة التي فرضتها هذه الرجعية على البلاد مما أدى إلى تخلفها عن التقدم العلمي الذي كان يسود جاراتها الأوربية ...

وكان من الطبيعي أن ينعكس هذا الفكر الجديد على الدراسات الاستشراقية في إسبانيا ، وكان كوديرا و « بنوه » هم حاملي راية هذا الاتجاه الذي يدعو إلى إعادة النظر في الحقبة الإسلامية من تاريخ إسبانيا على أساس علمي سليم بعيداً عما كان يسود المؤرخين ودارسي الحضارة خلال القرون الماضية من أفكار جامدة يمليها التعصب الديني أو العنصري المقيت .

وقد كان خوليان ريبيرا بعد أن اشترك مع أستاذه كوديرا في نشر « المكتبة

الأندلسية » والعديد من النصوص العربية الأخرى هو أول من أطلق نظرياته «الثورية» حول التراث الأندلسي وفضله على حضارة إسبانيا وثقافتها ، ففي سنة ١٩١٢ نشر دراسته حول ما يدين به الشعر الغنائي الإسباني والأوربي للشعر الدوري الأندلسي أي الموشحات والأزجال ، وفي سنة ١٩١٥ أطلق « قنبلة » أخرى إذ نشر فضل الشعر الأندلسي على الشعر الملحمي الأسباني ، وكان العلماء الأوربيون من قبل يدينون بأن العـــــرب لم يعرفـــوا الملحمـــة ولا الأدب الملحمي ، وتوالت دراساته حول تأثير الفكر العربي في إسبانيا في مختلف المجـالات ، من الفكر الصوفي للراهب الميورقي رامون لول Raman Lull إلى أساليب الفلاحة وتوزيع المياه في منطقة شرق الأندلس .

في هذا الجو الجديد الذي تنبوت فيه النظرة التقويمية إلى الماضي العربي الأندلسي نشأ ميجيل أسين بلاثيوس Miguel Asin Palacios الذي قدر له أن يقتحم ميدانـا جـديـداً من ميادين الدراسات الاستشراقية الأندلسية وهو متشبع بهذا الفكر « الثوري » الذي حمل رايت. « كوديرا وريبيرا .

ولـد ميجـيل أسـين في سـرقسطة Zaragoza يوم ٥ يوليه ١٨٧١ في أسرة من طبقة متواضعة تشتغل بتجارة بسيطة . وتوفي أبوه وهو لايزال في سن الطفولة ، فقامت أمه على تربيته هو وأخويه الصغيرين ، وأتم دراسته الثانوية في مدرسة يديرها الرهبان اليسوعيون ، وكان منذ صباه متفوقاً في الرياضيات واللغة اللاتينية ، وكان يفكر في الالتحاق بكلية الهندسة ، غير أن موارد أسرته لم تسمح له بمثل هذه الدراسة ، فالتحق بكلية الفلسفة والآداب بجامعة سرقسطة ، وفجأة استهواه سلك الرهبنة ، فاتم دراسته اللاهوتية في سبتمبر ١٨٩٥ .

وكانت أولى صلاته بعالم الاستشراق والدراسـات العربية حينمـا وصـل إلى سرقسطة خوليان ريبيرا في سنة ١٨٨٧ أستاذاً للغة العربية في جامعة سرقسطة ، وكان ريبيرا يكبره بنحو ثلاث عشرة سنة ، وأعجب ميجيل أسين بأستاذه ريبيرا وأصبح من مريديه الملازمين له ، وفي سنة ١٨٩٦ عين ريبيرا تلميذه أسين - وهو في العشرين من عمره - مدرساً مساعداً له في نفس المواد التي كان يقوم بتدريسها في الجامعة ، وارتبط الاثنان : الأستاذ وتلميذه برباط وثيق من الإعجاب والتعاون لم ينفصم أبداً . بل إن أسين كان يقيم في بيت ريبيرا أكثر مما كان يقيم في ديره ، وانعكس تعاون الرجلين على إخراج عدد من الأعمال العلمية منها ما بقي من مجلدات المكتبة الأندلسية التي بدأها كوديرا والتعاون في نشر عدد من النصوص الموريسكية المكتوبة بما كان

يسمى بالعجمية أى aljamiado الإسبانية القديمة المكتوبة بحروف عربية .

ووجه ريبيرا تلميذه الذى توسم فيه النجابة إلى دراسة الفكر الفلسفى والصوفى الإسلامى ، وكان هذا ميداناً لم يسبق للمستشرقين الإسبان خوضه ، إذ كانت دراساتهم لا تتجاوز المجالات التاريخية والأدبية واللغوية والأثرية ، ورأى ريبيرا أن دراسات أسين اللاهوتية تؤهله لهذا المجال الجديد ، ولهذا فقد أوصاه بقراءة الكتب التى كانت تصل إلى سرقسطة من القاهرة أنذاك مما كان متصلاً بالموضوعات الفلسفية والدينية ، مثل كتب الغزالى وابن رشد وابن حزم وابن عربى . وكان الذى يقوم بإرسال هذه الكتب أحمد زكى (باشا) « شيخ العروبة » الذى انعقدت صلة صداقة بينه وبين كوديرا شيخ الاستشراق الإسبانى آنذاك .

وبعد أن قام أسين بإتمام دراسته التمهيدية للدكتوراه فى مدريد شرع فى إعداد رسالته لنيل هذه الدرجة وكانت حول « منهج الغزالى الفكرى » ، وحصل العالم الشاب على الدكتوراه بتقدير خاص من لجنة الامتحان فى ٢٣ أبريل ١٨٩٦ ، وكان من أعضاء اللجنة العالم الإسبانى الكبير مننديث بيلايو Menendez Pelayo الذى أوصاه بمواصلة العمل فى ميدان الدراسات الإسلامية متابعا العمل الذى كان يقوم به آنذاك عدد من كبار المستشرقين الأوربيين من أمثال نيكولسون وماكدونالد وناللينو وهورتن وماسينيون .

وفى سنة ١٩٠١ نشر أسين رسالة الدكتوراه بعنوان « العقيدة والأخلاق والزهد فى فكر الغزالى » ، وفى أبريل ١٩٠٣ تقدم أسين للاختبارات اللازمة لشغل كرسى الدراسات العربية فى جامعة مدريد وهو الكرسى الذى تركه له طائعاً أستاذه فرانسسكو كوديرا .

وفى السنوات التالية يتتبع أسين امتداد فكر ابن مسرة (المتوفى سنة ٣١٩ / ٩٣١) وتأثيره فى مفكرى الأندلس الذين تلوه ، فرأى ذلك التأثير يمتد إلى ابن عربى المرسى (المتوفى سنة ٦٣٨ / ١٢٤٠) مروراً بابن العريف المَرَوِىّ (المتوفى سنة ٥٣٦ / ١١٤١) . وقد حمله هذا التتبع إلى نشر كتاب « محاسن المجالس » لهذا الصوفى الذى يمثل حلقة الصلة بين ابن مسرة وابن عربى

التصوف والفلسفة

على أن أسين لم يقصر اهتمامه على التصوف بل رأى فى الفلسفة الأندلسية أيضا ما يستحق الدراسة ، فشرع فى دراسة فلسفة ابن رشد القرطبى ومهد لهذه الدراسة بأبحاث تناولت من سبقوا ابن رشد من فلاسفة الأندلس وأهمهم ابن باجة السرقسطى (توفى سنة ٥٣٣ / ١١٣٨) ثم تلميذه ابن طفيل (المتوفى سنة ٥٨١ /

١١٨٥) ، وتنبه أثناء ذلك إلى أن هذه التيارات الفكرية الإسلامية قد باشرت نفوذاً على مفكرى المسيحية الأوربيين ، أما التيار الصوفى الذى امتد من ابن مسرة إلى ابن عربى فقد ترك آثاره الواضحة على الإسكولاتيين المسيحيين مثل دنس سكوتوس Duns Scotus (ت فى ١٣٠٨) وروجر بيكون Roger Bacon (ت ١٢٩٢) والميورقى رامون لول Ramon Lull (ت ١٣١٥) وأما التيار الفلسفى الذى انتهى إلى ابن رشد فقد باشر نفوذاً كبيراً على القديس توماس الأكوينى St. Thomas Aquinas (ت ١٢٧٤) وقد كان لهذه الأبحاث التى أثبت فيها أسين تأثير الفكر الفلسفى والصوفى لا فى الفكر الإسبانى فحسب بل فى الأوربى أيضا أهمية كبرى . فقد كان الأوربيون بما تأصل فيهم من عنجهية عنصرية يتهمون إسبانيا بأنها عربية الطابع وأنها أكثر انتماءً إلى أفريقيا منها إلى أوربا ، فأتت أبحاث أسين بلاثيوس لتبين فضل الثقافة العربية على أوربا المتعجرفة ، وقد وصف بعض النقاد صنيع أسين فى ذلك بقوله : « بدلاً من أن يطالبونا «بأوربة» إسبانيا فإن علينا أن « نُعَرِّب أوربا » .

واستهوت هذه الدراسات المقارنة عالمنا الذى لم يمنعه كونه من رجال الكنيسة المسيحية مواصلة أبحاثه فى فضل الإسلام على ثقافة أوربا المسيحية .

ففى سنة ١٩١٩ أصدر بحثه الذى أثار ضجة كبرى فى الأوساط الأوربية ، وهو « أثر المعراج الإسلامى فى الكوميديا الإلهية لدانتى » ، وكانت بداية هذه الدراسة هى بحثه فى المعراج الصوفى لابن عربى المرسى ، فتبين له أن ابن عربى قد احتذى فيه خبر معراج الرسول (عليه الصلاة والسلام) إلى السموات العلى ، بعد أن أسرى به من البيت الحرام إلى المسجد الأقصى ، وكانت هذه الدراسة ثمرة المقارنات بين نصوص خبر المعراج ونصوص الشاعر الفلورنسى الكبير (المتوفى سنة ١٣٢١) الذى تعتبر قصيدته أعظم ما صدر فى عصر النهضة الأوربية ، فقد رأى أسين أن التماثلات بين النصين لا يمكن أن تعزى لمحض الصدفة ولا لمجرد توارد الخواطر ، بل لابد أن يكون دانتى قد عرف خبر المعراج النبوى ، واحتدم الجدل حول هذا البحث ، وكان الإيطاليون أشد الأوربيين رفضاً لما جاء فيه ، وكأنهم أخذتهم العزة بالإثم فاستنكفوا أن يكون للفكر العربى مثل هذا النفوذ على أديبهم الأكبر ، وطالب المعترضون أسين بإثبات الطريقة التى وصل بها دانتى إلى الاطلاع على خبر المعراج ، ولم يكن فى وسع العالم الإسبانى تقديم الدليل القاطع على ذلك ، إذ أن دراسته قامت على رصد أوجه التشابه فحسب ، غير أن الدليل أتى بعد

ذلك في سنة ١٩٤٩ بعد وفاة أسين بلاثيوس بخمس سنوات ، فقد عثر الباحث الإسباني مونيوث سنديو Munoz Sendino على المخطوطات التي ترجم فيها نص المعراج النبوي إلى اللاتينية والفرنسية والإسبانية (وإن كان هذا النص الأخير قد فقد) ، وقد ثبت أن برونيتو لاتيني Brunetts Latini أستاذ دانتي قد عرف هذه النصوص أثناء سفارة له إلى قشتالة (إسبانيا) وحملها معه إلى إيطاليا حيث عرفها دانتي وبذلك تأكدت صحة استنتاجات أسين بلاثيوس .

ويتابع ميجيل أسين دراساته المقارنة ، فيثبت في بحثه لفكر الفيلسوف الفرنسي بسكال ما يدين به الصوفية المسلمين ولاسيما الغزالي ، ويدرس حياة أنسيلموا دي تورميدا Anselme de Turmeda وكان راهباً من ميورقة رحل إلى تونس فإذا به يعتنق الإسلام ويؤلف كتاباً بالعربية بعنوان « تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب » ويشتهر بين أهل تونس باسم عبد الله الترجمان ، وكان قد ألف من قبل باللغة القطلانية كتابا طريفاً سماه « مجادلة الحمار للراهب أنسلمو تورميدا » ، فأثبت أسين أن هذا الكتاب مأخوذ من إحدى رسائل إخوان الصفا . أما كتابه العربي في الرد على المسيحيين فقد نقل معظم مادته من كتاب « الفصل » لابن حزم ، وفي دراسته للصوفي الإسباني سان خوان دي لاكروث San Juan de la Cruz (ت ١٥٩١) انتهى إلى أنه قد تأثر بفكر الصوفي الأندلسي الشاذلي ابن عباد الرندي شارح « حكم ابن عطاء الله السكندري » (المتوفى سنة ١٣٨٩) الذي سبق نظيره المسيحي بقرنين من الزمان .

وفي سنة ١٩٣١ ينشر أسين كتابه الكبير « التفاعل بين الإسلام والمسيحية » El Islam Cristianizado وقد أفرده لدراسة محيي الدين بن عربي حياته وتصوفه ، وهو يعد من خير ما ألف عن هذا الصوفي العظيم .

ومن أضخم ما أنجزه ميجيل أسين كتابه الضخم عن ابن حزم القرطبي الذي نشره بين سنتي ١٩٢٧ و ١٩٣٢ في خمسة مجلدات كبار أفرد الأول منه لدراسة ابن حزم حياته وآثاره ومكانه في تاريخ الفكر الإنساني ، وأما المجلدات الأربعة الباقية فقد خصصها لترجمة كتابه " الفصل في الملل والأديان والنحل " ، كما يترجم أيضا رسالته البديعة في الأخلاق والسير ، وينشر بعض رسائل ابن حزم المخطوطة مع ترجمتها إلى الإسبانية .

وفي سنة ١٩٢٩ يعود مرة أخرى إلى الإهتمام بالغزالي ، فيترجم إلى الإسبانية كتابه " الإقتصاد في الإعتقاد " ثم يفرد أربعة مجلدات لدراسة المنهج الروحي لمفكرنا العظيم .

وإذا كان الشطر الأعظم من نشاط المستشرق الإسباني الكبير موجها في

المقام الأول للدراسات الفلسفية والصوفية فإنه لم يخل مجلات أخرى من إهتمامه ، فقد نشر على سبيل المثال سلسلة من المقالات القيمة عن الجاحظ وكتابه الحيوان ، وأفرز بحثا طريفاً لمنارة الإسكندرية وصفها لدى الرحالة والجغرافيين ، ودرس أصل اللغة لدى ثلاثة من مفكرى الإسلام هم الغزالي وابن سيده المرسى صاحب معجمي المخصص والمحكم وابن حزم القرطبي في كتابه الإحكام ، وتناول مجموعة من الألفاظ الإسبانية ذات الأصول العربية ، وفي آخر حياته نشر كتابين متصلين باللغة أيضا : أولهما كتاب مجهول المؤلف في الفلاحة ، وقد تتبع فيه بالدراسة الألفاظ الرومانسية.(أى اللاتينية الدارجة التي أصبحت اللغة الإسبانية فيما بعد) الواردة في الكتاب مع تحليل وافٍ لها ، وأما الثاني فهو الذى خصصه لأسماء الأعلام الجغرافية ذات الأصول العربية في إنحاء شبه جزيرة إيبريا .

وآخر ما قام به قبيل وفاته هو دراسة الطريقة الشاذلية ومبادئها الصوفية وتأثيرها في صوفية الغرب المسيحي ، ولم يقدر له أن يكمل هذه الدراسة التي نشرت أجزاؤها مسلسلة بعد وفاته في مجلة " الأندلس " .

وهنا ينبغي أن ننبه إلى دوره في تأسيس هذه المجلة في سنة ١٩٣٣ ، وكان الهدف منها خدمة الدراسات الأندلسية في شتى المجالات ، وكان صدورها موافقا لإنشاء مدرستي الأبحاث العربية في مدريد وغرناطة على يد خوليان ريبيرا . وكانت المجلة تصدر عددين في السنة ، وقد تحولت بمضى الزمن إلى مدرسة تخرج فيها نخبة من العلماء المتخصصين في الدراسات الأندلسية . وكان يعاونه في إدارتها وتحريرها تلميذه الأثير لديه إميليو غرسيه غومس Emilio Garia Gomez الذى أصبح اليوم عميد الاستشراق الإسباني وكبير شيوخه . وقد ظلت هذه المجلة التي تعد من أعظم منجزات أسين بلاثيوس تصدر عن مدرستي الأبحاث العربية في مدريد وغرناطة على مدى نصف قرن لم تنقطع إلا خلال سنوات الحرب الأهلية (١٩٣٦ - ١٩٣٩) . ثم توقفت عن الصدور في أوائل الثمانينيات . وإن كانت قد خلفتها مجلة أخرى تحمل اسم " القنطرة Alcantara " وتواصل نفس الإتجاه الذى خطته مجلة " الأندلس "

حياته كانت صافية كالبللور ، دقيقة كالساعة ، وأما ذهنه فقد كان رائعاً يعمل بإنضباط مذهل ، وكثيراً ما كان أساتذته في الدراسات الكلاسيكية وهو بعد في مرحلة الطلب : « أى ذهن فقدته دراساتنا وكسبته الدراسات العربية » ! .

كان يكره التقليد والجمود وينفر من جعجعة البلاغة الجوفاء فلا يعمد إلا إلى التعبير الواضح الموجز المجرد من لغو القول والزخرف الزائف .

مسجد قرطبة الجامع

مهد مولد جامعات الغرب الأوربية ومنار نشأة جامعات الشرق الإسلامية

بقلم : د. سيد كريم

● اختار الأوربيون مدريد عاصمة أسبانيا لتكون عاصمة أوروبا الثقافية أو عاصمة الثقافة الأوربية عام ١٩٩٢ لأن مدريد تختلف من حيث طابعها وشخصيتها عن العواصم الأوربية الأخرى ولان العرب كان لهم دور كبير فى ازدهارها ونشاطها قبل ظهور الثقافة الأوربية الجامعية .

فالعرب تربطهم علاقات تاريخية قديمة بالأسبان ويقول أحد علماء الاسبان إن اللغة الأسبانية هى حلقة الاتصال بين أسبانيا وأوروبا والثقافات الاخرى من جهة وبين أسبانيا والعرب من جهة أخرى عن طريق الحضارة الاسلامية الأندلسية التى عبرت أوروبا عن طريق أسبانيا على حين أن الأسبان بدأوا فى تعلم اللغة العربية منذ القرن الثامن عشر وأنشأوا أقساما للغة العربية وآدابها فى الجامعات ويدرسوها فى قسمى التاريخ والآثار .

فالاسبانيون يعترفون فى كتاباتهم ودراساتهم وأبحاثهم ومؤتمراتهم بالدور المشرف للاسلام وإسهاماته فى التكوين الثقافى لأوروبا وحضارتها الحديثة .

فأسبانيا مقتنعة تماما بدور الإسلام فى تكوينها التاريخى والثقافى والحضارى

البحث عن الحقيقة

● أين هى الحقيقة فى علاقة العرب بالاندلس ودور تلك العلاقة فى نشر الثقافة فى أوروبا ونشأة الجامعات الأوربية ؟ ذلك الدور الذى مهد للاعتراف بمدريد كعاصمة للثقافة الأوربية ؟



مسجد قرطبة الجامع

بدأت علاقة العرب بالأندلس عندما نجح عبد الرحمن الداخل عام ٧٥٦م في تأسيس خلافة أموية في الأندلس ظلت حاكمة ما يقرب من ثلاثمائة عام . تحت الخلافة الاموية ورعايتها أينع أسلوب فني عظيم مسمى بالأسلوب الإسلامي الأندلسي وكان مركز هذا الأشعاع المسجد الكبير الذي أقامة العرب في قرطبة وأطلق عليه أسم «المسجد الجامع» والذي اتخذت منه الجامعات أسمها .

يعتبر مسجد قرطبة الجامع أو جامعة قرطبة التي خرجت إلى حيز الوجود عام ١٧٠ هـ / ٧٨٦ م أول جامعة شهدها عالم الغرب وكانت تسمى بالجامع الأعظم دار العلوم ومجمع العلماء . وكعبة المعرفة .

● يعد جامع قرطبة أكبر المساجد الإسلامية في الاندلس وثالث المساجد الكبرى في الإسلام بعد مسجدي سامراء وابي دلف . كانت مساحة مسجد قرطبة المتوازي الأضلاع حيث يبلغ طوله من الشمال إلى الجنوب في اتجاه القبلة ١٧٨ مترا وعرضه من الشرق إلى الغرب حيث أبواب مداخله المتعددة ١٢٥ مترا وتبلغ مساحته الكلية ٢٢٥٠٠ متر مربع وهو مايغطي مساحة قدرها خمسة أفدنة بينما كانت مساحة كل من مسجدي سامراء وأبي دلف ٣٨٠٠٠ ، ٢٨٠٠٠ متر مربع على التوالي .

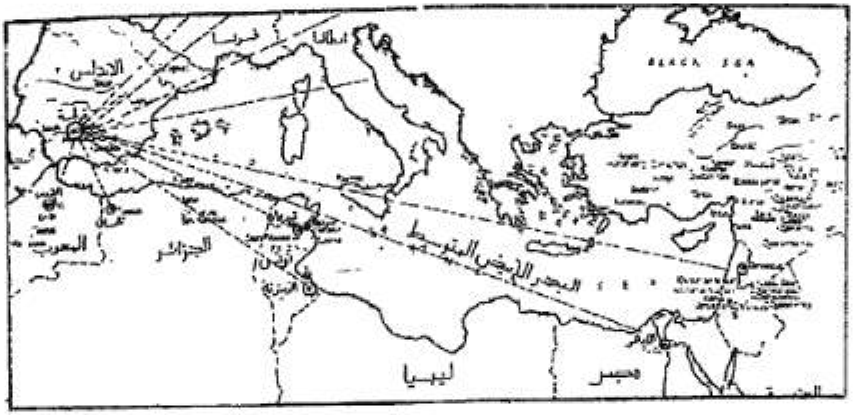
أشهر المساجد

ويعد مسجد قرطبة من أحفل مساجد الإسلام تاريخا وأكثرها أهمية معمارية في كلتا الناحيتين الانشائية والزخرفية بجانب تجانس مراحل تنفيذة واندماج الزيادات التوسعية في التكوين الأصلي .

● تبدأ قصة بناء جامع قرطبة عندما انتصر عبد الرحمن الداخل في فتح قرطبة وأصبح أميرا على الأندلس وجعل من قرطبة عاصمة لملكه وبنى لنفسه قصر الرصافة . ثم قام بتحويل كنيسة قرطبة إلى مسجد للمسلمين بعدما عوض أصحابها بمبلغ كبير من المال وأقطعهم أرضا شاسعة لبناء كنيسة جديدة خارج المدينة ثم شرع في بناء مسجده العظيم سنة ١٦٩ هـ / ٧٨٥ م .

● مات عبد الرحمن الداخل الذي لقب بعبد الرحمن الأول قبل أن ينتهي من إتمام بناء المسجد فقام ابنه هشام بن عبد الرحمن بإتمام بنائه وتوسعاته عام ٧٨٧ م وحقق أمنية والده في إتمام إقامة مالا يقل عن أربعمائة مسجد وبيت للعلم والصلاة لنشر الثقافة الإسلامية الدينية والعلمية بين مختلف طبقات الشعب في أنحاء البلاد .

وجعل اللغة العربية لغة التدريس في المدارس والمعاهد الأمر الذي أدى إلى دخول النصارى واليهود في الإسلام وخاصة من انضموا للتعليم الجامعي



الاشعاع الثقافى لجامعة قرطبة ، الذى امتد لقرون طويلة



بهو مسجد قرطبة الجامع وشكل هندسى للاعمدة والعقود

بالجامع الكبير أو جامعة قرطبة .

مر بناء مسجد قرطبة الكبير خلال أربع مراحل .

قام بالزيادة الأولى أو المرحلة الثانية عبد الرحمن الثانى عام ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م، ومات عبد الرحمن الثانى قبل أن يتم زخرفة البناء المستجد فأتمه أبنه محمد بن عبد الرحمن عام ٢٤١ هـ / ٨٥٥ م وتركزت الأعمال على تجديد أشرطة الكتابات

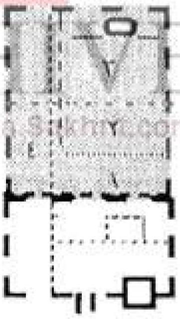
مسجد قرطبة الجامع

القديمة التى اشتهر بها المسجد والنقوش الزخرفية . كما سجل أعماله على أحد الأبواب الجانبية أسوة بمن سبقوه فى إقامة الأعمال الإنشائية والزخرفية عبر مراحل التنفيذ المختلفة .

ولقد تضاعفت مساحة بيت الصلاة فى تلك المرحلة بعد هدم جدار القبلة وزيادة المسجد فى جهتها كما أقام أول مئذنة للمسجد على قواعد برج الكنيسة القديمة الذى تهدم .

مسجد قرطبة الكبير

مراحل التنفيذ



١ - عبد الرحمن الاول ٧٨٦ م

٢ - عبد الرحمن الثانى ٨٤٨ م

٣ - الحكم بن عبد الرحمن ٩٦١م

٤ - المنصور بن عامر ٩٨٧ م

● تمت المرحلة الثالثة فى توسعة المسجد فى عهد الحكم الثانى عام ٩٦١ م حيث هدم جدار القبلة للمرة الثانية وتم نقله مسافة أربعين مترا فى اتجاهها وعمل له محرابا جديدا وأكمل القبة الرئيسية الواقعة أمامه والتى تستند على سلسلة مثمنة من الأضلاع المتقاطعة والتى امتد استعمالها فى عمارة الغرب الأندلسى المسيحى ولعبت دورا معماريا فى طرازه .

ولما ضاق المسجد للمرة الرابعة بما يؤديه من خدمات للمصلين ولرسالة العلم التى يقوم بها شرع المنصور بن أبى عامر عامل هشام بن الحكم عام ٣٧٧ هـ / ٩٨٧ م فى زيادته وتمت الزيادة فى شرق المسجد بطول المراحل الثلاثة الأولى .

دور نشط فى نشر اللغة العربية

● يقول المستشرق دوزى كان الفضل لجامعة قرطبة وشبكة المساجد والمعاهد التى تشرف عليها . كان لها الفضل فى نشر اللغة العربية بين الكثير من الأسبان وسارع الكثير من أهل البلاد إلى اعتناق الإسلام طواعية دون ضغط أو اضطهاد مما كان له أكبر الأثر فى احتواء قاموس اللغة الأسبانية الحديثة على أكثر من خمسة آلاف كلمة عربية .

كما يذكر نفس المؤرخ دور الثقافة الإسلامية فى الأندلس فى ازدهار المجتمع ثقافيا وسياسيا مما كان له دور فعال فى تمتع الشعوب المسيحية بالحرية والاستقلال وتحرير الفلاحين من العبودية حيث كان الإسلام أكثر تعضيدا لتحرير الرقيق من النصرانية مما كان سببا فى

ازدهار الزراعة والعمال وانتقل أثرها إلى البلاد الأوربية المسيحية الأخرى .

وكان الفضـــل فى تلك النهضة لجامعة قرطبة التى أرســت تعاليم الإســـلام وتشـاريعه فى دعم الهيكل السياسى للحكم .

اشتهرت جامعة قرطبة بعلوم الكيمياء والطب والطبيعة والهندسة والفلك والحساب والترجمة والشعر والأدب ، والفنون والموسيقى بجانب الفقه والتشريع . فكان الرهبان يفدون من كل أوروبا للتعلم والدراسة فى جامعة قرطبة لينقلوا لبلادهم أحدث ما وصل إليه العلم فى ذلك الوقت .

انطلاق إلى العالمية

ومن جامعة قرطبة تخرّج علماء الغرب الذين وضعوا حجر الأساس فى إنشاء الجامعات العالمية الأولى فى مختلف أنحاء القارة الأوربية ونقلوا نظم التدريس ومناهج العلوم ونوعيات موادها التى كانت جديدة عليهم إلى الجامعات التى أقاموها .

كانت جامعة قرطبة تحوى أكثر من أربعمائة ألف مجلد ومخطوط وكتاب فى مختلف العلوم والفنون والآداب من بينها الكثير من المخطوطات باللغات القديمة التى كان العرب يجمعونها فى غزواتهم ويقومون بترجمتها وتدارك أسرارها وفك رموزها وألغازها لقد انتقلت تلك التراجم العالمية إلى عالم الغرب عن طريق الترجمات العربية كما انتقل الكثير من تلك المخطوطات القديمة ومجلداتها وتراجمها التى جمعها العرب .. انتقلت من جامعة قرطبة إلى الجامعات الأوربية ومتاحفها بعد خروج العرب من الاندلس .

جامعة قرطبة والزى الجامعى

ومما هو جدير بالذكر أن علماء الغرب وأساتذة جامعاته قدر لهم أن يعترفوا رغم إرادتهم بفضل العرب والإســـلام على ما يحصلون عليه من علم وما نالــوه من درجاته .

فحافظوا على تقاليد جامعة قرطبة بارتداء الزى الذى فرضته عليهم وهو الروب الجامعى الأسود اللون - العباءة العربية عباءة طبقة العلماء العرب ذات الوشاح الاخضر رمز الإسلام وهو الروب الذى كان يهدى لخريجى جامعة قرطبة عند حصولهم على درجة الأستاذية أو العالمية .

أما غطاء الرأس المربع الشكل الذى يحمله أساتذة الجامعات مع الروب الجامعى الأسود فهو بدوره من التقاليد التى كان معمولا بها فى جامعة قرطبة . فعندما يتقدم الطالب لتسلم شهادة التخرج يتحتم عليه أن يضع المصحف الشريف فوق رأسه ويردد القسم وهو يضع كفه فوق المصحف اعترافا بفضل كتاب الله - المصحف الشريف - على ما وهبه الله من العلم .

كانت تعلو منصة العلم بالجامعة لوحة رخامية تحمل الآية الكريمة « **يرفع الله الذيــن آمنــوا منكــم والذين أوتـــوا العلم درجات** »

مسجد قرطبة الجامع

وقد وجدت تلك الآية منقوشة على إحدى شهادات التخرج التى كانت تصدرها جامعة قرطبة وترجع إلى عام ٨٩٠ م ويحتفظ بها متحف إحدى الجامعات البريطانية .

ولم يتوقف دور جامعة قرطبة التى حملت رسالة الثقافة خلال ثلاثة قرون من عمر الزمان أفسحت فيها المجال لنشأة الجامعات فى مختلف الدول الأوربية بل انتقلت شعلتها لتصبح منارا يمهد الطريق لقيام المساجد الجامعة فى العالم الإسلامى امتدادا من المحيط إلى الخليج وتعبره إلى البلاد الآسيوية فتقام المساجد الجامعة أو الجامعية التى ترفع راية العلم والإيمـــان فتظهـر جامـعـة القرويين فى أقصـى الغرب وأصفهـان ودلهـى فى أقصى الشرق .

فى مقدمة تلك المساجد الجامعة التى اقتفت خطوات جامعة قرطبة سواء فى تخطيطها المعمارى ودورها فى نشر الثقافة العلمية الإسلامية . وتعمل على جمع شمل بلاد العالم الإسلامى وتقوية الروابط الاجتماعية والاقتصادية بين الشعوب بتوحيد العناصر الثقافية وارتباطها بالعقيدة الإسلامية أى الربط بين العلم والإيمان . تبدأ تلك السلسلة من المساجد الجامعة بمسجد قيروان فى تونس أول مسجد أقيم فى شمال أفريقيا ويعد مسجد قيروان فى تونس أقدم المساجد الجامعة فقد بدأ العمل فى بنائه الأمير هشام عام ١٠٩ هـ / ٧٢٧م أى قبل بناء مسجد قرطبة نفسه ولكن بناءه لم يتم إلا عام ٨٣٦ م أى مع مسجد قرطبة فى الأندلس .

كان فى المرحلة الأولى من بنائه قد أعد كمسجد للصلاة فقط وعلوم الفقه والشريعة ثم تحول إلى مسجد جامع تقليدا لمسجد قرطبة فى القرن التاسع بعد توسعته ومضاعفة مساحته الأصلية .

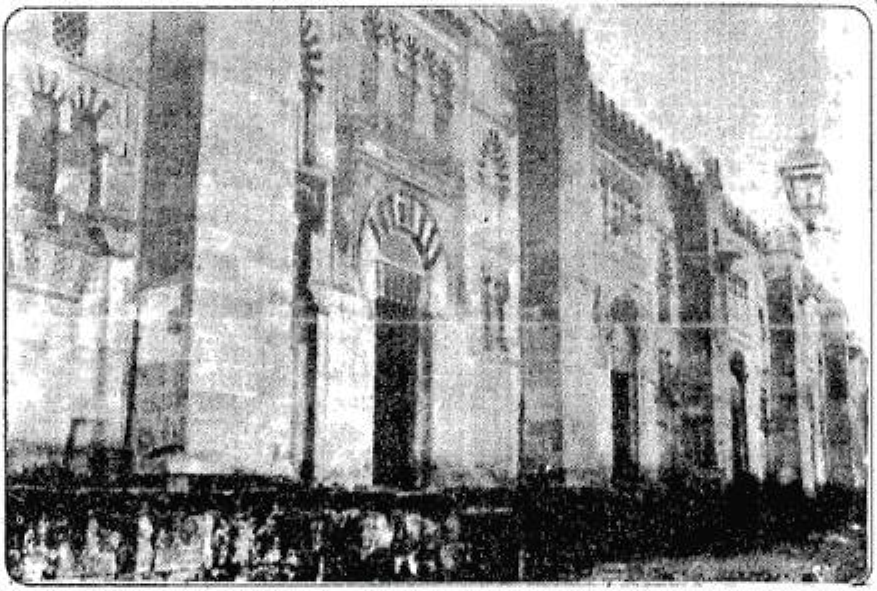
أما المساجد الجامعة أو الجامعات الإسلامية التى حملت رسالة جامعة قرطبة إلى العالم الإسلامى لتمتد من المحيط إلى الخليج وتعبره إلى البلاد الآسيوية فيمكن حصرها فيما يلى :

جامعة قيروان تونس ٧٢٤ - ٨٣٦ م

جامعة القرويين فاس ١١٣٦

جامعة تلمسان (الجزائر) ١٠٩٦

جامعة الزيتونه (تونس) ٧٨٥



مسجد قرطبة الجامع

جامعة الأزهر (مصر) ٩٦٩
جامعة سمرقند (إيران) ٨٩٠
جامعة أصفهان ١١٥٠
جامعة دلهي (الهند) ١٢٠٠

لقد انتهت رسالة قرطبة بانهيار الحكم الإسلامي في الأندلس الذى دالت معه حضارة العرب الإسلامية العريقة . توقفت جامعة قرطبة عن تأدية رسالتها السامية التى استمرت ثلاثة قرون رفعت فيها شعلة الثقافة الإسلامية عالية لتلقى ضوءها ونورها على الغرب الأوربي والشرق العربي .

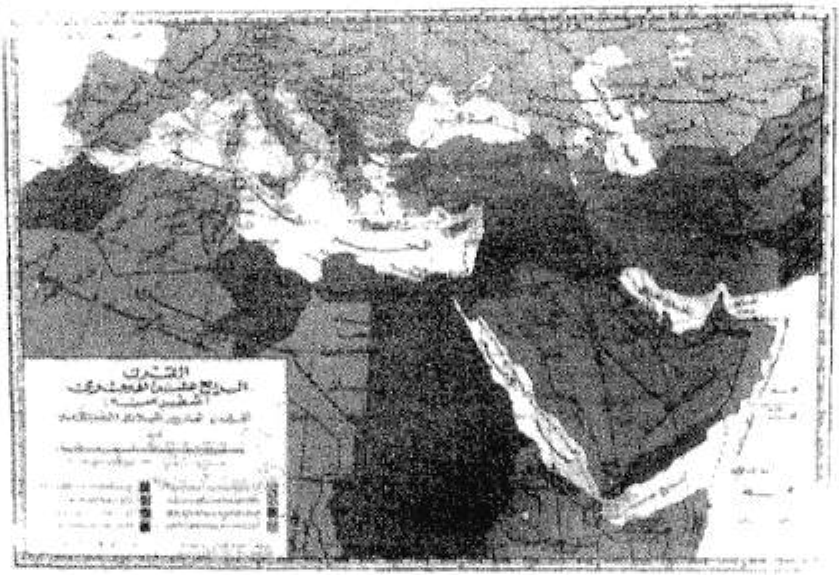
أما المساجد الجامعة في شمال أفريقيا وبلاد الشرق فقد تعرضت بدورها فى مقاومة الاستعمار الأجنبي إلى الكثير من عوامل الدمار فانهار بعضها وصمد البعض الآخر كما هو الحال فى جامعة الأزهر التي تعرضت لأكثر من عدوان في مختلف مراحل الاستعمار

نظرة تحليلية فى حاضر العالم الإسلامى

بقلم : د . أحمد صدقى الدجانى

● مرة أخرى يتجدد الاهتمام بالعالم الإسلامى فى العقد الأخير من القرن العشرين الميلادى . ويبرز هذا الاهتمام فى وطننا العربى . ودائرة الحضارة العربية الإسلامية وفى العالم الخارجى وبخاصة الغرب ، على السواء ، ولأسباب مختلفة ، ونجد فى خضم ذلك حديثاً عربياً مسئولاً معنيا « بالتضامن الإسلامى » ودور العرب فى تحقيقه ، وأحاديث غربية متنوعة يركز بعضها على ما اصطلح الغرب على تسميته « بالأصولية » تتسم فى كثير من الأحيان بالبعد عن الموضوعية .

الحاجة ماسة فى كل الأحوال إلى إلقاء نظرة تحليلية فى حاضر العالم الإسلامى فى مطلع التسعينات ، وقد سبق لأمتنا فى العشرينات أن شغلت بهذا الموضوع حين صدر فيها كتاب « حاضر العالم الإسلامى » الذى يضم ترجمة لكتاب مؤلف أمريكى هو لوثروب ستودادر عنوانه « عالم الإسلام الجديد » قام بها المرحوم عجاج نويهض « وتعليقات وحواش » مستفيضة عن دقائق أحوال الأمم الإسلامية وتطورها الحديث بقلم أمير البيان والمجاهد الكبير الأمير شكيب ارسلان – كما كتب على غلاف الكتاب . ويومها نال هذا الكتاب شهرة واسعة وطبع مرتان خلال بضع سنوات وكرّس مصطلح « حاضر العالم الإسلامى » . كما شغلت



أمتنا بهذا الموضوع بعد تجزئة الوطن العربي والعالم الإسلامي وقيام « الدولة القطرية » المستقلة منذ إنتهاء الحرب العالمية الثانية ، وتردد الحديث في أوساطنا عن « التضامن الإسلامي » ، تماما مثلما يتردد اليوم حديث عن إمكانية قيام نظام اقليمي لدائرة الحضارة العربية الإسلامية ، يكون للنظام العربي دور أساسي فيه .

بغية إلقاء هذه النظرة التحليلية في حاضر العالم الإسلامي اليوم ، نستحضر أطلس العالم الإسلامي بخرائطه كلها التي تضم خريطته الطبيعية وخريطته السكانية أقواماً ومللاً وخريطته الاقتصادية انماطه الحياتية وخريطته الاجتماعية وخريطة الحدود السياسية ، وحين نتأمل في هذا الأطلس نخرج بعدد من الأمور :

تزايد أعداد المسلمين

١ - إن عدد المسلمين الذين تجمعهم وحدة العقيدة يتراوح اليوم بين ٩٥٠ مليوناً و مليار ومائة مليون نسمة يمثلون حالياً نسبة ١٩٪ من سكان العالم ، ومن المتوقع أن يصل هذا العدد سنة ٢٠٢٠ إلى حوالي مليار و ٧٠٠ مليون نسمة فتصل النسبة إلى ٢٠,٥٪ ، وفق التقديرات التي اوردها مهدى المنجرة في بحثه في ندوة قضايا المستقبل الإسلامي . وكان العدد قبل عقدين من السنين حين نشر جمال حمدان

نظـــرة تحليليــة في حـــــاضر العالم الإسلامي

كتابه « العالم الإسلامي المعاصر » يتراوح بين ٥٠٠ و ٦٠٠ مليون نسمة بنسبة ١٥٪ من سكان الكوكب آنذاك ، وقد لاحظ حمدان يومها « أن الإسلام في توسع ديناميكي مطرد بعيد المدى ، بل لعله اليوم أكثر الاديان نمواً عددياً ، فهو من ناحية يكسب كل يوم ارضاً جديدة في افريقيا وربما أسيا المدارية الاضافة إلى العالم الجديد ، ومن ناحية أخرى .. لا تزال معدلات المواليد فيه مرتفعة » ، وأكثر من نصف المسلمين اليوم في قارة آسيا وربعهم في قارة افريقيا ، ويتوزع الباقون على أوربا والعالم الجديد

٢ – يتحدد محيط العالم الإسلامي جغرافياً « بنصف الكرة الشمالي أولاً وبنصف الكرة القديم ثانياً على حد تعبير جمـال حمـدان ، وهو في العـالم الجـديد « شظايا سديمية متطايرة » . ويمتد في قوس محدد من بكين إلى كازان إلى بلجراد في الشمال ، أو في قاطع من فرغانة إلى غانا كما يقـول مؤرخو الإسلام ، أو في قاطع آخر من جبل طارق الاطلس إلى سنغافورة « جبل طارق الهادى » ، أو من ملقا بالاندلس إلى ملقا بالملايو (وكل من الاسمين مشتق من ملقى العربية) ، ويمكن أن نحدد قاعدة العالم الإسلامي في الجنوب بمحور يمتد من قبائل السنغال حتى قبائل التاجال بالفلبين .. أما بالطول فمن الفولجا والدانوب حتى الزمبيزى والليمبوبو » . ويبدو النمط الجغرافي للعالم الإسلامي نمط قوس اساسي يبدأ بجناح أيسر عريض في افريقيا وينتظم غرب أسيا ووسطها وينحنى في جنوب آسيا وجنوبها الشرقي ، ويسـميه جمال حمدان « هلال الإسلام » ، الذى يشمل الوطن العربي وأفريقيا المدارية ومن البلقان حتى باكستان ومن الفولجا حتى سينكيانج في قطاعه الغربي ، كما يشمل في قطاعه الشرقي شبه جزيرة الهند وهضبة التبت التي تكاد تخلو من المسلمين وبانجلاديش بجنوب شرق آسيا . ويتميز هذا الموقع الجغرافي للعالم الإسلامي بأهميته الاستراتيجية على صعيد كوكبنا الأرضى

٣ – يبدو هذا العالم الإسلامي الواحد وكأن دائرته تشمل في داخلها عدة دوائر سماها مالك بن نبر عوالم إسلامية وعدّ خمسة منها الأسود الأفريقي والعربي والإيراني (فارس وأفغانستان وباكستان) والماليزى (أندونسيا والملايو) والصيني المنغولي فالتنوع حقيقة قائمة فيه ضمن وحدة العقيدة . كما تبدو دائرة العالم الإسلامي الكبيرة من ناحية أخرى وكأنها تضم عدة دوائر متحدة المركز كالحلقات .

وقد صنّف جمال حمدان هذه الانحدارات الحلْقية - كما أسماها - على أساس خمسة عناصر هي عمر الإسلام فيها وكثافة المسلمين ونوعية التدين ونسبة العرب ونسبة العربية ، وأمكنه التعرف على حلقات ست متتابعة من الداخل إلى الخارج فهناك أولاً منطقة النواة وقلب الدائرة وهو الوطن العربي ثم حلقة ثانية تشمل أسبانيا التي سماها النواة الميتة ، ثم حلقة ثالثة سماها ظل العرب وتشمل إيران وحلقة رابعة سـماها شبه ظل العرب تشمل تركيا « ولم تكن أصلاً تعدو قطاعاً من الحلقة الثالثة » وحلقة خامسة سماها صدى العرب تشمل وسط آسيا وباكستان وجنوب شرق آسيا وشرقي أفريقيا وحلقة سادسة سماها الأطراف الهامشية تضم الجماعات الإسلامية في الصين وجزر المحيط الهندي وأوربا والعالم الجديد . واستحضار هذا التصنيف يساعد على تصور بنية النظام الإقليمي الإسلامي المطلوب وتحديد الأدوار فيه .

٤ - تتعدد الأقوام في هذا العالم الإسلامي ، والألوان والألسنة ، من عرب وأمازيغ وكرد وترك وفرس وهنود وأفغان وماليزيين وسودان وأوروبيين وأمريكيين . وقد تحدث الجاحظ عن هذا التعدد كما كان في عصره في رسالته إلى الفتح بن خاقان « في مناقب الترك وعامة جند الخلافة » فذكر العربي والتركي والخراسـاني وفارس والتُّبـت والـزّابج (جزيرة في أقصى بلاد الهند) والهند والروم وغيرهم .

وتتعدد الملل في هذا العالم الإسلامي ، وقد أشار الشهرستاني إلى أن تقسيم العالم يمكن أن يكون بحسب الأقاليم السبعة ، وبحسب الأقطار الأربعة ، وبحسب الأمم ، وبحسب الآراء والمذاهب ، واعتمـد التقسـيم الأخير في تأليف كتابه « الملل والنحل » . وغالبية المسلمين هم من السنة والشيعة وفيهم إباضيون ومذاهب أخرى وغالبية النصارى هم من الأرثوذكس الشرقيين . وتتعدد مذاهب اليهود . ويوجد أتباع ديانات أخرى .

دور خطير للاستعمار

٥ - تقوم في هذا العالم الإسلامي دول كثيرة . وقد انتسب للمنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم حتى عام ١٩٩٠ ثلاث وأربعون دولة . ولاحظ مهدي المنجرة أن عدد سكان اثنتين وعشرين منها يقل في كل دولة عن خمسة ملايين نسمة ، الأمر الذي يشير إلى ما أصاب العـالم الإسـلامي من « بلقنة » على أيدي المستعمرين الغربيين الذين تسلطوا عليه . وتتباين خريطة الحدود السياسية هذه مع خريطة الأقوام في أطلس العالم الإسلامي في أحيان كثيرة . فالعرب وهم أمة واحدة يتـوزعون بين اثنين وعشـرين كيـانا

نظـــرة تحليلية في حـــــاضر العالم الإسلامي

و « جنسية » . وخمس من هذه الكيانات يقل سكان الواحد منه عن المليون ، ويقل سكان الواحد من خمسة كيانات أخرى عن الملايين الخمسة . ويتوزع الأكراد في موطنهم الواحد بين خمس دول ، والهنود بين ثلاث دول ، والسودان الأفارقة بين دول كثيرة ، وهكذا . وقد نجمت بفعل هذه الخريطة السياسية مشاكل حدود تقوم بين الدول المتجاورة ، حول السيادة . وعانى الناس بفعلها أشد المعاناة على صعيد التنقل والإقامة والعمل ، بدواً وريفاً وحضراً ، وتبرز اليوم بعد انتهاء الاتحاد السوفييتي خمس جمهوريات غالبية سكانها من المسلمين أصبحت أعضاء فيما يسمى الكومنولث ، وبدأت تطلب الانتساب لمنظمة المؤتمر الإسلامي .

٦ – يمتلك هذا العالم الإسلامي ثروات كثيرة إنسانية وطبيعية . ويعاني في الوقت نفسه من وقوع دوله في أسر الاستدانة ، ومن ثم التبعية . وهناك تباين شديد في توزيع الثروة بين هذه الدول يعود في أحد أسبابه الرئيسية إلى الطريقة التي رسم بها المستعمر الغربي الحدود السياسية بعد أن قسم « الدولة الإسلامية الواحدة » التي حكمها « نظام الخلافة » . ولا تكاد توجد دولة بين الدول الإسلامية القائمة اليوم يتحقق فيها التوازن بين الثروة الإنسانية والثروة الطبيعية ، وهناك مشكلات جديدة قائمة بينها لم تعرفها من قبل كمشكلة المياه . وهكذا نجد مثلاً دولة بدون الحدّ الأدنى اللازم من السكان لديها ثروة طبيعية عظيمة يتحكم فيها آخر الأمر المستعمر الغربي الذي يتسلط عليها . ونجد دولة لديها عمالة زائدة لا تستطيع توظيفها داخل حدودها . ونجد جل هذه الدول يعتمد في غذائه على مصدر خارجي بنسبة عالية تحرمــه من الاستقـلال وتفـرض عليـه التبعية .

صيغ كثيرة

٧ – تتعدد في هـــذا العالم الإسلامي « أنظمة الحكم » التي تتبعها دوله ، من ملكية إلى جمهورية إلى جماهيرية ، وتعاني غالبيتهـــا من نقص حاد في « تداول السلطة » ، وفي « الشورى » و « المشاركة » و « التعددية » .

وتبدو هذه الأنظمة التسعة في الحكم خليطاً بين ما هو موروث وماهو مستورد ، وبين ماهو نابع من البيئة وماهو مفروض عليها . وهي في خطوطها الرئيسية من وضع المستعمر الغربي الذي تركها وراءه ، وتتميز غالبيتها بكثرة الصيغ التي جربتها

وتأثرها بالنظام الشمولي ومحاولة الدولة فرض هيمنتها على كل مناحى الحياة وتحسبها من العمل الطوعى الأهلى الذى يبرز فيه مايصطلح على تسميته فى الغرب بالمجتمع المدنى ، وقد نجم عن هذه الأوضاع صدع فى العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، وأزمة فى القيم الاجتماعية والثقافية ، وخلل فى نمط التنمية تفاقم بفعل نقل أساليب مستوردة لا تلائم أنماط الحياة ، وضعف فى سيادة القانون ، وانتهاك لحقوق الإنسان .

٨ - يفتقد هذا العالم الإسلامى الذى يضم مسلمين تجمعهم وحدة العقيدة ، وجود المؤسسة المرجعية الواحدة ، منذ إنهاء نظام الخلافة . وتتباين أدوار روابط علماء الدين بين دولة وأخرى فيه . وقد تضاءلت هذه الأدوار فى دول كثيرة أمام تضخم دور الدولة ، وتحددت فى الغالب ضمن حدود الدولة القطرية . وأفقد حلول نظام تعيين المراجع الدينية الروحية محل نظام الانتخاب الذين يتولونها الكثير من استقلالية الرأى ومن ثم شعبيتهم . وتشهد دول العالم الإسلامى نشاطاً فى جمع علماء الدين فى محافل وضمن صيغ ، ولكن التنسيق بين هذه المحافل لا يزال فى حده الأدنى . وقد انبثقت عن منظمة المؤتمر الإسلامى مجموعة مؤسسات مختصة مازالت فى بدايات التحرك .

وهناك حد أدنى من التواصل بين المرجعية الشيعية والمرجعية السنية فى بعض الدول بدأ مؤخراً ، وهو بحاجة إلى التكثيف والتأطير .

٩ - يواجه هذا العالم الإسلامى اليوم دخول الخطر الصهيونى الذى يتهدده مرحلة جديدة ، مع حملة التهجير الصهيونى لليهود من أوطانهم التى بدأت إثر التحولات فى أوروبا الشرقية منذ عامين ، ومع تحركه إثر حرب الخليج لتمكين الكيان الاسرائيلى من الهيمنة على المنطقة من خلال الدور الذى يقوم به لصالح التحالف الاستعمارى الصهيونى . وإذا كانت محاولة حرق المسجد الأقصى عام ١٩٦٩ من قبل صهيونى كانت رمزاً ومؤشراً لما ينتظر العالم الإسلامى ، فإن تبنى سياسة بناء الهيكل وإقامة المستعمرات الاستيطانية فى القدس والضفة والقطاع والجولان والمجاهرة بالسعى لإقامة إسرائيل الكبرى والتحرك الأمريكى لإنهاء المقاطعة العربية والإسلامية للكيان الإسرائيلى وإلغاء القرار الأممى لعام ١٩٧٥ الخاص بالعنصرية الصهيونية هى اليوم واقع قائم يؤكد عظم الخطر الذى يواجه العالم الإسلامي فى هذه المرحلة الجديدة .

وفلسطين كما وصفها جمال حمدان « هى عين القلب من العالم الإسلامى ، لا

نظــرة تحليليــة في حـــــاضر العالم الإسلامي

جغرافياً فحسب ، بل ودينياً أولاً وقبل كل شئ .. » وقد انطلق عالم الجغرافية السياسية العربي المسلم من هذه الرؤية في تحليل دقيق لخطر الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في خاتمة كتابه عن العالم الإسلامي انتهى منه إلى القول « وتهديد الخطر الصهيوني لا يقتصر على العالم العربي وحده ، وإنما يمتد إلى العالم الإسلامي . وليس المسجد الأقصى وحرقه إلا رمزاً ومؤشراً لما ينتظر العالم الإسلامي جميعاً » .

١٠ - ان يواجه هذا العالم الإسلامي اليوم استراتيجية غربية تضعه نصب عينها هدفاً أولاً معادياً لها بعد أن تم توقيع معاهدة باريز في كانون أول - ديسمبر ١٩٩٠ بين « الغرب والشرق » الغربيين واستوعب الغرب الرأسمالي أوروبا الشرقية في « البيت الاوروبي » الذي جعلت سياسة إعادة البناء السوفيتية الدخول هدفاً اولياً لها ، وتتضمن هذه الاستراتيجية الغربية مخططات اعلامية لتصوير أي « نهوض إسلامي » على أنه خطر على الغرب ، وابراز ما تسـميه هذه المخططـات «الاصولية الإسلامية» على أنها « الغول » في عالمنا . كما تتضمن مخططات اقتصادية لاحكام السيطرة على اسواق الدول الإسلامية واغراق هذه الدول في الديون لوضعها في أسر تبعية دائمة ، ومخططات سياسية ليس لمنع أي تحرك نحو التوحيد فحسب بل لتشجيع التفكيك والتفتيت ، وما أكثر الأمثلة التي يمكن الاستشهاد بها على هذه المخططات قبل أزمة الخليج وأثنائها وعلى مدى حرب الخليج وبعدها .

١١ - يشهد هذا العالم الإسلامي منذ عقد من السنين « صحوة » قوامها « وعي الذات » ، « ومعرفة العدو » بجوانب قوته وضعفه ، و « الوثوق بقدرة الأمة على مواجهته والانتصار عليه في صراع النفس الطويل وتحقيق النهوض وبلوغ الأهداف واعلاء كلمة الله في الأرض ، وقد جاءت هذه الصحوة بعد أن تبين للناس فشل التغـريب بكل اشكاله واسـمائه وعظـم ما يسـببه من كـوارث ، وتجسـدت في « الانتفاض » الذي هزم « الوهن » ، وتَعُم روح الانتفاض اليوم مختلف أرجاء العالم الإسلامي بعد أن ضربت أروع الأمثلة في مواجهة العدوان الصهيوني ، وتشهد هذه الصحوة جهوداً بناءة على مختلف الصعد الفكرية والعملية ، وازدهاراً في العمل الطوعي الأهلي ، واعلاءً لكرامة الإنسان الذي جعله الله خليفة في الأرض .

كتابُ الهلال

يقدم

سيرٌ ذاتية عربيّة

"من ابن سينا حتى علي باشا مبارك"

بقلم

مصطفى نبيل

يصدر ٥ مارس ١٩٩٢

عالم المسلمين السوفيت

بقلم : مصطفى نبيل

• خروج جمهوريات آسيا الوسطى عن مدارها القديم

• هلال الخطر الاسلامى بين المارد الصينى وتفكك الامبراطورية السوفيتية .

خرجت جمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية عن مدارها ، وأفلتت من الفلك السوفييتى الذى كانت تدور فيه ، وانضمت إلى دول الكومنولث الجديد ، ذلك الاتحاد الهش ، الذى يمكن أن يتطور نحو علاقات أوثق أو يضعف حتى يتفرق ويتلاشى . !

فما هو أثر استقلال هذه الجمهوريات على الموازين العالمية .. ؟ وأى المجالات قادر على جذب هذه الجمهوريات إليه . ؟ وما هى المعارك التى تدور بينها وحولها . ؟!

تحتل جمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية هلالاً يمتد بين روسيا والصين ، وتسيطر على أحد المعابر التاريخية بين أوربا وآسيا ، وهى امتداد طبيعى لعالم الإسلام ، وليس لديها أى منفذ على البحار المفتوحة

وينذر هذا الوضع بقلب الموازين العالمية ، ويتركز فى اختياراتها العديد من النتائج .

وتحصل هذه الجمهوريات على استقلالها فى وقت تتصاعد فيه إدعاءات الغرب حول خطر «الإسلام » ، ويؤرق هذه الجمهوريات الحنين إلى الماضى ، ويتزايد



• التوق إلى الهوية الإسلامية منذ



• أن الصـــراع بين تيمور ولينين للانتهاء .
تمثال [illegible] جانب أطلال قبر تيمور

عالم المسلمين السوفييت

وعيها بهويتها الحضارية ، وتوقها للعودة إلى جذورها .

ويتساءل الغرب . ماذا سيحدث عندما يلتقى الشرق الإسلامى بتراثه الحضارى مع التقدم العلمى الذى حققته هذه الجمهوريات ، والتى نجحت فى القضاء على الأمية ، وقطعت شوطا واسعاً من التطور المادى .. ؟ ، خاصة بعد أن انتزعت طويلاً من محيطها وأعطت ظهرها للشرق واتجهت إلى الغرب ، وخضعت لأوروبا وتخلت عن آسيا ودولها ، وانتزعت من الإسلام وفرضت عليها الماركسية .!

وسنعمل على إعادة قراءة هذا الحدث الهام ، من خلال تاريخ هذه الجمهوريات ، وما شهدته أخيراً من أحداث سريعة متلاحقة فى ظل عالم متغير ، لعل هذه القراءة تمدنا بمؤشرات تساعدنا على استشراف المستقبل ، وهل تعود إلى روابطها القديمة مع الشمال يشدها الاعتماد الاقتصادى المتبادل ، والذى نسج بدأب على مدى سبعين عاما متصلة . ؟ وما تأثير العامل الجغرافى السياسى والمتمثل فى كونها امتداداً جغرافيا لروسيا لاتحادية . ؟ خاصة وقد حققت هذه لجمهوريات تقدماً كبيراً مقارنة بمحيطها القديم ، وهى أكثر تقدما وتطوراً فى العلوم والتكنولوجيا من جاراتها مثل أفغانستان أو باكستان أو إيران . ولديها علماء على مستوى عال ومهندسون مهرة وعمال مدربون ، - وتملك قازاخستان (كازاكستان) صناعة نووية متقدمة كما تملك أسلحة نووية ، وتستحوذ أوزبكستان على صناعة الطيران السوفييتية .

وفى نفس الوقت هى أقل تطوراً من مثيلاتها الجمهوريات الأوربية فى الاتحاد السوفييتى المنهار ، وتحتل المراكز الستة الأخيرة فى ترتيب الجمهوريات السوفييتية فى مقدار نصيب متوسط دخل الفرد من الإنتاج القومى .

ولعل هذا هو السبب فى أن هذه الجمهوريات الإسلامية كانت آخر الجمهوريات التى سعت أو أيدت الاستقلال وسبقتها جمهوريات الشمال فى طلب الاستقلال ، وإذا قارنت الجمهوريات الأوربية السوفييتية أوضاعها بالدول الأوربية ، فسترى فى الدول الأوربية نموذجاً يحتذى .

لذا طالبت الأغلبية الساحقة فى الاستفتاء الذى أجرى أيام الرئيس السابق جورباتشوف فى مارس عام ١٩٩١ بالبقاء داخل الاتحاد السوفييتى ، ولكنها سارعت بعد سقوطه بالانضمام إلى أسرة «الدول المستقلة» فى قمة الما - آتا فى ديسمبر الماضى .. !

وربما كان السبب أن قيادات هذه الجمهوريات من القيادات التقليدية ، عندما كان الحزب الشيوعى يحرص على ضم أبناء القيادات الدينية والعشائرية إلى صفوفه ، وأخذت هذه المناصب تتوارث على الطريقة الشرقية ! ، ولم تشهد هذه الجمهوريات تغييراً يذكر فى قياداتها القديمة ، رغم التغييرات الواسعة التى

• تجدد الصراع بين الصفويين والعثمانيين على دول ما وراء النهر

حدث فى بقية الجمهوريات ، بل وانتخبت ذات القيادات السابقة ، وبقيت الأحزاب الشيوعية وإن غيَّر بعضها اسمه .

ويتردد بين أبناء المنطقة أن هذه القيادات من « المافيا » التي استأثرت بالامتيازات وبالثروة والثورة معاً .

ويبقى رغم أهمية كل هذه الوقائع أزمة حادة فى هذه الجمهوريات ، وهى أزمة الهوية المفقودة ، والحاجة الملحة للانتماء للشرق وحضارته ، بعد الحرمان الطويل فى ظل الاتحاد السوفييتى - ومن قبله أيام روسيا القيصرية - من هذا الشعور بالانتماء ، وهو رد فعل القهر القومى والدينى والثقافى ، ففى الوقت الذى يصبح فيه العالم قرية صغيرة ، يتزايد فيه الشعور بالانتماء الدينى أو العرقى فى كل أنحاء العالم .

وهذا ما دفع الكاتب البريطانى إدوارد مورتمر إلى أن يتساءل فى كتابه « العقيدة والسلطة » كيف فشلت كل الامبراطوريات القديمة مثل بريطانيا وفرنسا فى الاحتفاظ بمستعمراتها ، ونجحت روسيا فى الاحتفاظ بامبراطوريتها الآسيوية ! ..

فهل تعود هذه الجمهوريات إلى مكانها القديم جزءاً من آسيا وحضارة الإسلام ، وهى التى أضافت وساهمت فى ازدهار الحضارة الإسلامية ؟ .

وهل سنطبق على هذه الجمهوريات ، نظرية « البندول » أو « رد الفعل » ، ويندفع الأهالى لكى يحققوا ما حرموا منه طويلاً ، وهو مانشاهده مع انهيار الاتحاد السوفييتى وما صاحبه من تداعيات ؟ يدفع الجمهوريات الإسلامية إلى هذا الدرب ما عانته فى الماضى من حرمان روحى ، وتصبح الأولوية لديها لانتمائها الدينى والحضارى والثقافى ؟ .

ويقف على الجانب الآخر ، غياب التجارب والنماذج الناجحة فى الشرق ، وخاصة وهى ترى دول الشرق وقد قامت بينها المنافسة والصراع ، فأى من نماذجه قابل لكى يحتذى ويسود لديها ؟ .

وتبحث هذه البلاد عن هويتها فى ظروف دولية دقيقة ، تنكفئ فيها جمهوريات الاتحاد السوفييتى السابق على ذاتها ، ويستغرقها حل أزماتها الاقتصادية الحادة وتوفير حاجة مواطنيها من الحاجات الأساسية ، ويولى الغرب اهتمامه بالمؤسسات المالية والاقتصادية بدول شرق أوروبا ، وتعتنى الدول الاسكندنافية ، السويد والنرويج والدنمارك وفنلندا بجمهوريات البلطيق لما لها من ارتباطات جغرافية وتاريخية معها ، وتركز دول السوق الأوربية على الجمهوريات السلافية - روسيا الاتحادية وروسيا البيضاء وأوكرانيا .

وتترك هذه الجمهوريات معلقة فى السديم تبحث عن فلكها !

عالم المسلمين السوفييت

ولم يعد أمامها - من المنظور الغربي - سوى تركيا ، فلعلها تحول بين هذه الجمهوريات وبين غيرها من الدول الشرقية، وتساهم في إشعال المنافسة بين الترك والعرب والفرس ، وحتى لا يستفيد من هذا الوضع السياسي المارد السياسي الصيني الرابض على الحدود والذي يتاخم ثلاث جمهوريات إسلامية ، والذي يشبه بكثافته السكانية المياه خلف السد ..

ويأمل الغرب أن تكسب تركيا الجولة ، فالأتراك يماثلون من الناحية العرقية معظم سكان هذه الجمهوريات ، ويكتب للإسلام التركي الغلبة ، الذي يصفونه بأنه الإسلام الليبرالي الصديق للغرب ، والذي ينادي بالديمقراطية واقتصاديات السوق .

ويتجاهل الغرب العرب الذين حملوا مشعل الإسلام والحضارة إلى هذه المناطق ، والذين تحتضن بلادهم المقدسات الإسلامية ، ورغم ما لديهم من فوائض مالية يمكن لها أن تلعب دوراً بناءً إذا أحسن استخدامها .

ويستبعد الكل إمكانية قيام تنسيق وتعاون بين هذه الجمهوريات وروافد الحضارة الإسلامية الثلاثة العرب والفرس والترك .

الصوت والصدى

هذه هي المسائل التي يحاول هذا المقال تناولها ، مزوداً بحصيلة ثلاث زيارات قمت بها لجمهوريات آسيا الوسطى ، كان أولها في منتصف سنة ١٩٧١ وآخرها في نهاية عام ١٩٨٩ ، كما نقلب صفحات الماضي معاً بقدر ما يكشف عن اتجاهات المستقبل .

في البداية لابد أن تكون هذه الجمهوريات الآسيوية قد تأثرت بتجربتين إسلاميتين قد جاورتهما . هما الثورة الإيرانية ، واجتياح أفغانستان وحركة المجاهدين الأفغان ، ولايدعي أحد القدرة على رصد كل آثارهما ، عندما كانت التفاعلات الداخلية في هذه الجمهوريات مجهولة خارجها ، ولكن الجانب المعروف ، أن البعض في هذه الجمهوريات يتصور أن غزو القوات السوفييتية لأفغانستان ، كان المعول الأول الذي أدى إلى الزلزال السوفييتي ، واتخذ السخط في الجمهوريات الاسلامية شكل المعارضة الصريحة ، وأثار المشاعر الدينية والقومية، عندما كان الأوزبك والطاجيك يقاتلون إخوانهم ، في أفغانستان ويضطر الجنود المسلمون في الجيش السوفييتي توجيه قذائفهم على إخوانهم في الدين وفي أفغانستان يعيش مليونان من الطاجيك ومليون من الأوزبك وأربعمائة ألف من التركمان ، كما أدت هذه الحرب الخاسرة إلى استنزاف جانب كبير من موارد الاتحاد السوفييتي .

كما لم يرضِ أحد أثر احتلال إسرائيل للأراضي العربية ، ولا أثر عاصفة الخليج على مشاعرهم .

ولعل إلقاء نظرة على المسلمين داخل



• مع التقدم العلمي حافظ أهل آسيا الوسطى على معالم حياة الشرق

الإتحاد السوفييتي يساعد على رصد هذه الآثار .

تتكون هذه الجمهوريات الإسلامية فى آسيا الوسطى من أوزبكستان وقازاخستان وتركمانيا وطاجاكستان وقيرغيزيا ، بالاضافة إلى أذربيجان التى تقع عند السفوح الجنوبية الشرقية لسلسلة جبال القفقاز وتطل على الساحل الغربى لبحر قزوين ، ويمتد الطاجيك والأذر إلى ماوراء الحدود ، يمتد الطاجيك إلى أفغانستان وتعيش الكتلة الرئيسية من الأذر فى إيران، ويبلغ عدد المسلمين ٥٦ مليون مسلم يمثلون ٢٠٪ من سكان الاتحاد السوفييتى السابق .

ولا تقتصر التجمعات الاسلامية على هذه الجمهوريات وحدها ، بل هناك مستوى آخر أقل درجة وهو الجمهوريات التى تتمتع بالحكم الذاتى ، مثل تتاريا فى منطقة الفولجا وبشكيريا فى منطقة الأورال وداغستان والتشيش فى القفقاز ، والتى توجد داخل روسيا الاتحادية .

وترجع الأصول العرقية لخمس من الجمهوريات المستقلة إلى جذور طورانية (تركية) . أما الشعب الطاجيكى فيعود إلى أصول فارسية ، ويتحدث الطاجيك اللغة الفارسية ، وبقية الجمهوريات تتحدث لهجات تركية محلية . أما داغستان فكانت تتحدث اللغة العربية حتى عام ١٩١٧ .

وحكاية المسلمين السوفييت طويلة ، تبدأ يوم حطم قياصرة آل رومانوف فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر الدول والإمارات والخانات الإسلامية ، وأصبح الإسلام بعدها أقلية فى روسيا ،



أذربيجان :

المساحة : ٨٦.٨٠٠ كم٢

العاصمة : باكو (خامس عاصمة في الاتحاد السوفيتي القديم) .

السكان : ٧ ملايين معظمهم أتراك شيعة .

التركيب السكاني : ٧٨ ٪ أذربيجانيون ، ٨ ٪ روس ، ٨ ٪ أرمن ، ٦ ٪ قوميات أخرى

الحالة الاقتصادية : تنتج البترول والقطن والحرير والفواكه .

الحالة السياسية : أعلنت استقلالها في ٣٠ أغسطس ١٩٩١ .

قازاخستان :

المساحة : ٢٧١٧ مليون كم٢
الجمهورية الثانية في المساحة بعد روسيا

العاصمة : الما – آتا (١.١ مليون نسمة)

السكان : ١٦.٥ مليون نسمة

التركيب السكاني : ٤١ ٪ روس ، ٣٦ ٪ كازاك ، ٦ ٪ أوكرانيون ، ٢ ٪ تتار .

الوضع الاقتصادي : تنتج البترول والفحم و $\frac{1}{3}$ إنتاج الاتحاد السوفييتي القديم من

القمح وبها صناعة نووية .

الحالة السياسية : استقلت فى اكتوبر ١٩٩٠ ودخلت الكومنولث .

أوزبكستان :

المساحة : ٤٤٧.٤٠٠ كم٢

العاصمة : طشقند (٢.١ مليون)

أهم المدن : بخارى – سمرقند .

السكان : ١٩.٩ مليون نسمة

التركيب السكانى : ٦٨ ٪ أوزبيك ، ١٢ ٪ روس ، ٤ ٪ تتار ، ٣ ٪ كازاك ، ٤ ٪ طاجيك

وتضم جمهورية تحكم حكماً ذاتيا فى الشمال هى جمهورية كارا كالباك .

الوضع الاقتصادى : تنتج ٦٧ ٪ من القطن فى الاتحاد السوفيتى القديم ، ونصف إنتاج الأرز .

الحالة السياسية : أعلنت الاستقلال فى ٣١ أغسطس ١٩٩١ .

تركمانستان :

المساحة : ٤٨٨.١٠٠ كم٢

العاصمة : اشخاباد (عشق أباد) ٣٩٨ ألف

السكان : ٣.٥ مليون نسمة (مسلمون سنة)

التركيب السكانى : ٦٨ ٪ تركمان ، ١٢ ٪ روس ، ٩ ٪ أوزبيك ، ٣ ٪ كازاك .

الوضع الاقتصادى : تنتج القطن ، أكبر مستودعات الكبريت فى العالم .

الحالة السياسية : أعلنت الاستقلال فى ٢٧ أكتوبر .

طاجكستان :

المساحة : ١٤٣ ألف كم ٢ .

العاصمة : روشابنى (٥٩٥ ألف نسمة)

السكان : ٥.١ مليون نسمة (مسلمون سنة)

التركيب السكانى : ٥٩ ٪ طاجيك ٢٣ ٪ أوزبيك ، ١٠ ٪ روس

(تضم إقليما يتمتع بالحكم الذاتى) (جورنا – باراخشان)

الوضع الاقتصادى : تنتج ١١ ٪ من القطن

الحالة السياسية : أعلنت الاستقلال فى ٢٤ أغسطس .

قيرغيزيا :

المساحة : ١٩٨,٥ ألف كم٢

العاصمة : فرونز ٦١٦ ألف نسمة

السكان : ٤.٣ مليون نسمة .

التركيب السكانى : ٤٨ ٪ قيرغيز ، ٢٦ ٪ روس ، ١٢ ٪ أوزبيك .

ومن وقتها وهو يتعرض لاضطهاد القياصرة وبعدهم البلاشفة ، ولم تنقطع يوماً محاولات الإسلام فى تحقيق الاستقلال ، ولم تتوقف ضده الحملات .

ونشأ بعد قيام الاتحاد السوفييتى موقف دقيق ومعقد ، وانعزل الإسلام السوفييتى عن عالم الإسلام ، وتعرضت المناطق الإسلامية إلى هجرة روسية كثيفة ، وهذه المناطق تشهد اليوم هجرة روسية معاكسة .

وطبق الاتحاد السوفييتى سياسته الخاصة بالمسألة القومية ، والتى يعانى اليوم من ردود فعلها ، وهى تقوم على الاعتراف بالقوميات والشعوب المختلفة ، وتقوم الوحدات السياسية لا على أساس التاريخ أو الجغرافيا أو الاقتصاد .

وعاش المسلمون أياما صعبة وظروفاً قاسية . ولم تستطع الماركسية أن تتجاوز الصراع التاريخى الذى كان قائما بين التتار والروس ، بعد أن حكم التتار الروس مدة ثلاثة قرون ودار الزمان وأصبحوا محكومين وخاضعين ، واختفت أمة لعبت دوراً هاما فى تاريخ الشرق على مدى خمسة قرون .

* عقد زواج فى طشقند ، فلم يكتف المسلمون بالعقد المدنى



أرض النور والنار

استرجعت ذكرياتي عندما كنت أتابع أحداث أذربيجان الدامية ، لأربط هذه الوقائع بخبرة مشاهداتي السابقة ، فهذه الصدامات العرقية إحدى نتائج معالجة المسألة القومية على الطريقة السوفييتية ، التي تقوم على دعم القومية الأضعف وإضعاف القومية الأقوى ، وهو ما أشعل القتال بين الأذر والأرمن . أما انقسام أذربيجان بين الاتحاد السوفييتي وإيران ، والمنافسة بين الفرس والترك فهو أحد نتائج الحروب بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية ، ثم تجدد الصراع بين روسيا القيصرية والامبراطورية البريطانية على الطرق البرية بين أوروبا وآسيا التي تصل إلى المحيط الهندي .

ولا يفوت زائر أذربيجان - أرض النار والنور - أن يلاحظ ملامح الصراع بين حضارتي الشرق والغرب .

المباني الحديثة إلى جانب الأحياء القديمة ، وهي تضم مزيجا من آثار العرب والفرس والترك ، وعندما ترى ملامح وجوه أهل باكو أو تسمع موسيقاها الشرقية ، أو تشاهد عمارتها القديمة ، يخيل إليك أنك في أحد شوارع اسطنبول أو طهران ، أو تجلس على أحد مقاهي القاهرة .

وكانت أول بلاد في وسط آسيا يدخلها ، الإسلام في عهد الخليفة الثاني

• الفولكلور بدلاً من التاريخ



عمر بن الخطاب ، ويصعب اليوم التعرف على الكثير في معالم الماضي ، فأسماء تغيرت أو محيت . وقد عزلت عن عالم الإسلام بعد ما يزيد عن ١٢ قرنا من الاتصال والتفاعل ، وكانت تعتبر حديقة الاتحاد السوفييتي الخلفية التي تمده بالفواكه والخضراوات ، وسميت أرض النار نتيجة لغناها بالنفط ، وكانت أول وأهم منتج للنفط في الاتحاد السوفيتي ، وتتميز بزيادة نسبة المعمرين فيها .

وعندما خرجت أذربيجان من مدارها ، مزقت الحدود القديمة ، واتصل الأذر على جانبي الحدود بأقاربهم ، فعلى الجانب الإيراني يعيش بقية الأذر ، والذين يحتل آية الله شريعتمداري قيادتهم الدينية ، وهو صاحب أكبر منصب في الحوزة الشيعية ويحول دون حصوله على مكانته ، أنه ينتمي إلى الأقلية التركية وليس من الفرس !

ومن جانب آخر انفجر الصراع القومي بين الأذر والأرمن على منطقة «ناجورنو كارا باخ» .

من باكو إلى طشقند

ومن باكو انتقلت إلى طشقند ، ومن يصل إلى المناطق الإسلامية ، لا يفوته أن يلاحظ الفروق الظاهرة بين الجانب الأوربي والجانب الآسيوي ، فعندما تصل إلى مطار طشقند تشعر على الفور أنك في بلد شرقي ، بما يظهر من ملامح الوجوه الآسيوية ، وفي الأزياء وفي غطاء الرأس ، فالأرض من حولك صحراوية صفراء ، أما مطار موسكو فتحيطه غابات الصنوبر وينتشر حوله اللون الأخضر .

وعندما كنت أطوف بالمناطق الإسلامية، أنتقل بين مدنها ، وألتقي بأئمة مساجدها ، وأتجول بين آثارها ، كنت أسعى إلى التعرف على حياة المسلمين ، بعد مرور سنوات طويلة على قيام الثورة البلشفية ، وأبحث عما آلت إليه مناطق لعبت دوراً بارزا في التاريخ .

وتستمد حركة الانتعاش الثقافي عندهم من الحنين الجارف إلى الماضي ، ومن وحي مدن تاريخية مثل بخارى وسمرقند ووادي فرغانة ، ومن قائمة زاخرة بالعلماء العمالقة حتى لايكاد يعادلها أي منطقة أخرى ، تشمل القائمة الفارابي وابن سينا والخوارزمي والبيروني والرازي والفرغاني وأولوغ بيك والإمام البخاري والطبري والنسفي وغيرهم .

وأخذت أقلب صفحات التاريخ بعقلي ووجداني ، أسمع نبض الإسلام الصامت والرابض في قلوب أولئك الذين حافظوا على هويتهم بعد أن عصفت بهم خطوب الزمان .

• صراع أم تكامل بين الفرس والعرب والترك في الجمهوريات الاسلامية

وعلمت أن الكتب والمجلات الصادرة فى المناطق الإسلامية تطبع وتتداول سرا ، ومنها مثلا كتاب «فى ظلال القرآن » لمؤلفه سيد قطب ، وكثرت فى المرحلة الأخيرة الجمعيات الإسلامية ، التى يسمح بها القانـون ، وتابعت حركة انتعاش خلاقة ، وتحديا من نوع خاص .

القهر القومى

وآسيا الوسطى هى موئل القوميات وفسيفساء اللهجات ، وهى تتطلع إلى التخلص من الهيمنة الثقافية الأوربية ، ويتنامى فيها التوجس من وجود هيمنة غربية تتخفى وراء علم الإنسانية ، وتعالت بها صيحات تطالب بإعادة التوازن بين حضارة الغرب وحضارة الشرق .

ومن أكثر أشكال هذه الهيمنة وضوحاً ، الهيمنة الثقافية وفرض اللغة الروسية على كافة الجمهوريات ، وتغيير الأبجدية العربية إلى الحروف الروسية الكريكية .

رغم أن أول من رفع صوته شاكيا من القهر القومى والاستنزاف هو روسيا وأوكرانيا ، اللتان أعلنتا أن الوقت قد حان لوقف الانفاق على الجمهوريات الأقل تطوراً . وأن أعباء المركز ومسئوليته عن الأطراف قد زادت ، وهى التى حالت دون تمتع روسيا بالرفاهية .

وأظهرت تجربة هذه الجمهوريات أنه لا شىء يعوض الإنسان عن حلمه الدائم فى حرية العقيدة ، وإمكانية التعبير عن الهوية القومية .

واتبع السوفييت سياسات ذكية فى معالجة المسألة القومية ، تقوم على تفتيت القومية الواحدة إلى عدة أقسام ، وعلى جانب الهوية يتعامل بطريقة انتقائية مع التراث ، يحتفى بالعلم بدلاً من الفقه ، وبالفلكلور بدلاً من التاريخ ، ومع القومية بدلا من الدين ، رغم أن العامل المشترك الذى يوحد آسيا الوسطى هو الإسلام ، وأن معظم سكانها ينتمون إلى العنصر الطورانى - كما سبق وذكرت - ، والقبيلة تتحول إلى بطون ، يتعاملون مع كل منها على حدة .

ويقوم التحليل السوفييتى على أن هذه القبائل قوميات لم يكتمل تشكيلها بعد ، ومن جانب آخر ، أقام السوفييت توازنا دقيقا بين القوميات يسانده على الجانب الاقتصادى التعاون المتبادل ، فالطاجيك (الفرس الأصل) لديهم مطالب أقليمية فى أوزبكستان ، وفى صيف ٨٩ روع وادى فرغانة صراع بين الأوزبك والأتراك (المسخيتيون) المهجرين من جورجيا ، وراح ضحيـة هذا الصراع أكثر من ١١٢ شخصا ، كما توجد فى قيرغيزيا أقلية أوزبكية تصل إلى ١٢٪ ، وشهد صيف ١٩٩٠ صدامات دموية بين القيرغيز والأوزبك راح ضحيتها حوالى ٣٢٠ قتيلا .

بلاد ما وراء النهر

ونمضى فى رحلة مع التاريخ ، قبل الوصول إلى إجابة سؤال فى أى فلك ستدور هذه الجمهوريات الإسلامية المستقلة

عُرِفَتْ هذه المنطقة في الكتب العربية ببلاد ما وراء النهر ، وهي المنطقة الواقعة في حوض نهر جيحون وسيحون (أموريا وسيرداريا)، وكانت معظم هذه الجمهوريات ماعدا أذربيجان جزءاً من خراسان ، وشهدت التجمع العباسي بقيادة أبي مسلم الخراساني ، وشهدت هذه المنطقة زحف الهجرات التركية إليها ، وكانت تتبع حتى منتصف القرن التاسع عشر إيران ، إلى أن نشبت حروب بينها وبين روسيا القيصرية ، وهزمت إيران واحتلت هذه المناطق وكانت قبل الثورة ثلاث إمارات هي : بخارى وطشقند وخوقند .

ولم تنقطع في الإمارات الإسلامية حركات المقاومة ، ففي داغستان مثلاً ، قامت حركة المريدين بقيادة الإمام شامل ، الذي قام بدور بارز في زعزعة دعائم القيصرية ، والذي تمتع حتى في روسيا بهيبة كبيرة .

وفي الصراع الذي اندلع في المناطق الآسيوية ضد الجيش الأحمر .. يذكر التاريخ انضمام أنور باشا أحد قيادات الاتحاد والترقي للمقاومة ، والذي قاوم الاحتلال الإيطالي لليبيا ، وانتقل يقاتل

• أطفال أذربيجان ، ينالون عناية فائقة ، ستجدد المستقبل



إلى جوار رفاقه المجاهدين حتى استشهد هناك .

ومن الماضي يتبين أن العرب والترك والفرس لعبوا في هذه المنطقة أدواراً متتابعة ومتكاملة ، واللافت للنظر في طشقند قيام معهد بخارى الديني بإعادة تقييم تاريخ آسيا الوسطى ، ويرفض التاريخ الرسمي لهذه الجمهوريات ، ويسعون إلى إعادة الاعتبار لتيمورلنك ، مما يخالف رؤية المؤرخين السوفييت ، الذين يرون في تيمورلنك أحد الغزاة البرابرة ، ويكفيهم أنه سبق وأحرق موسكو، ويفضلون عليه ألوغ بيك الذي آثر الاهتمام بالعلم وأقام مرصداً مازال مزاراً حتى اليوم .

أما أساتذة معهد بخارى فيرون في تيمورلنك بطلا قوميا ، كان يسعى إلى توحيد عالم الإسلام ، لمواجهة الأعداء صفا واحداً ، وقد تعددت عواصمه وكثرت إنجازاته .

الفرس

هل اقتربنا من الإجابة عن بعض الأسئلة التي طرحناها ؟ أم ازداد الموقف تشابكا ؟

فمنذ إعلان استقلال هذه الجمهوريات ، وتتزايد التحركات السياسية بداخلها ومن حولها ، وآخر هذه التحركات رحلة وزير الخارجية الأمريكية بيكر ، وسبق هذه الرحلة التنافس بين أطراف عديدة ، فتعاني هذه الجمهوريات مصاعب فترة الانتقال ، والخلل الحاد بين الأجور والأسعار مع الأخذ بقوانين السوق دفعة واحدة ، وأعلنت هذه الجمهوريات استعدادها لإقامة المشروعات المشتركة وتقديم التسهيلات المطلوبة ، ويراقب الغرب الموقف وهو يبدي مخاوفه من التزاوج بين الإسلام والتقدم التكنولوجي ، ومن انتقال العلماء المسلمين من جمهوريات آسيا إلى بعض الدول الإسلامية الأخرى .

تقول مجلة النيوزويك الأمريكية .. « أصبحت اللعبة السياسية في هذه المناطق في غاية الدقة والخطورة ، فالإسلام الذي يبحث عن هويته يملك الأسلحة النووية .. » .

وأعلن متحدث باسم وزارة الخارجية الأمريكية في عبارات لاينقصها الصراحة قوله .. إنه يتجاذب جمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية . اتجاهان ، ويغريها نموذجان ، أحدهما علماني صديق للغرب وهو تركيا ، والآخر راديكالي معاد للغرب – وهو النموذج الايراني ، ولن تسمح تركيا ولا السعودية بانتشار هذا النموذج ، فذلك يمثل تهديدا لها أكثر مما يهدد الغرب » !!

فماذا فعلت إيران بعد استقلال هذه الجمهوريات ؟

سارعت إيران لإقامة سفارات لها في عواصم الجمهوريات الإسلامية المحتلة ، وأصبحت إيران طرفا فعالاً في الأحداث ، وسبق وكانت كذلك بالنسبة للقضية الأفغانية .

وأقامت إيران منفذا لجمهوريات آسيا الوسطى ، عندما تبنت مشروعا لإقامة طريق بري بين الما – آتا عاصمة

قازاخستان وبين طهران فى إيران ، لكى تنافس مشروعا آخر يقضى بمد طريق بحرى من الما- آتا حتى بكين بتمويل صينى .

وسعت إيران لإحياء اتفاقية قديمة لمنظمة التعاون الاقتصادى التى تضم كلا من إيران وباكستان وتركيا ، لكى تكون أساسا للتعاون بين هذه الدول الإسلامية والجمهوريات السوفييتية السابقة ، وضمت بالفعل إلى عضويتها كلا من أذربيجان وتركمانيا وأوزبكستان ، وتقضى هذه الاتفاقية بإلغاء الحواجز الجمركية وزيادة التبادل التجارى بين بلدانها .

وقد أشرنا من قبل إلى أحد صور الصراع الذى كان محوره أبجدية اللغات المحلية ، والذى نشب من جديد بعد الاستقلال ، فاللغة المحلية فى أذربيجان تنتمى إلى عائلة اللغة التركية ، وكانت هذه اللغة تكتب بالحروف العربية حتى عام ١٩٢٧ ثم تحولت مع تركيا إلى الحروف اللاتينية ، ثم تغيرت من جديد عام ١٩٣٧ إلى الأبجدية الكريكية التى تكتب بها الأبجدية الروسية ، وتختار بعد الاستقلال الحروف اللاتينية مرة أخرى ، وانتصرت تركيا فى المنافسة مع إيران .

ولا يخفى على أحد ما يحدثه هذا التغيير المتلاحق من اضطراب فى حياة أذربيجان الثقافية ، واتخذت هذه المنافسة منحى آخر فى طاجاكستان ، فبعد أن تغيرت الأبجدية العربية أيام الهيمنة السوفييتية إلى الحروف الكريكية ، عادت بعد الاستقلال إلى الحروف العربية وهى ذاتها الأبجدية الفارسية ، وأحرزت إيران الفوز ، وتدفقت الآلات الكاتبة وآلات صف الحروف العربية على روشانبى العاصمة من إيران .

ومازالت تركيا تسعى إلى إدخال الحروف اللاتينية إلى الجمهوريات الأربع ذات الأصول التركية .

الترك والعرب

عادت تركيا إلى المنطقة ..

بعد أن كانت أكبر طعنة وجهت لمسلمى آسيا يوم تخلت تركيا عن الخلافة ، وعن الأبجدية العربية ، ورجعت اليوم تمد خطوط طيرانها إلى عواصم هذه الجمهوريات ، تحمل منتجاتها الاستهلاكية بيد وتحمل أفكار الديمقراطية واقتصاديات السوق باليد الأخرى .

واعترفت باستقلال هذه الجمهوريات يوم ١٦ ديسمبر الماضى ، وقدمت مساعدات غذائية .

وتركيا حالة خاصة فهى جغرافيا تمتد بين أوروبا وآسيا ، وعاشت أزمة هوية بعد زوال الدولة العثمانية ، يتنازعها الشرق والغرب .. آسيا وأوروبا ، واختارت أن تصبح جزءا من الغرب ، وانضمت إلى حلف الأطلنطى ، ولم تنجح فى الانضمام إلى السوق الأوربية المشتركة ، وفقد حلف الأطلنطى مبرر وجوده بعد انهيار الاتحاد السوفييتى وقبله حلف وارسو .

● مصــــر هى الاقـــدر على إقامة جســريــن مشرق الاســـــلام ومغـــربــه

ولم يقبلها الغرب قبولاً كاملاً ، ويدفعها ليوم للعب دور فى الشرق الأوسط والصراع العربى الإسرائيلى ودور آخر فى جمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية ، وتعود وتخلع القبعة وتلبس العمامة من جديد ، مما يقوى الاتجاهات الشرقية فيها، ولم يلتفت أحد إلى تداعيات هذا الموقف داخل تركيا ذاتها !

أما البلدان العربية ، فقد قامت بعثة مصرية على أعلى مستوى لزيارة تلك الجمهوريات الإسلامية ، تسعى إلى تقوية العلاقات وتنسيق السياسات ، وبحث مجالات التعاون مع هذه الجمهوريات ، ومصر لها مكانة كبيرة فى هذه المناطق ، لا يعرفها إلا من زارها وتجول فى قراها ونجوعها ، والتقى بالأهالى فوق قمم الجبال . بل ويدهش الزائر القادم من مصر على المكانة التى يجد نفسه فيها ، وهو رصيد لو تعلمون كبير لمن يحسن التعامل معه . فمصر هى حلقة الوصل بين مشرق العالم الإسلامى ومغربه .

فمصر هى بلد الأزهر الشريف ، الذى حافظ على مشعل الثقافة متقداً على مر القرون ، ويلاحظ الزائر أن الجيل القديم من الشيوخ وأئمة المساجد من خريجى جامعة الأزهر ، لديهم حنين إلى أروقة جوامع القاهرة ، أما الجيل الذى يليه فهو خريجو جامعات الأردن ، ولعله يرجع إلى وجود الشيشين والشركس فى كل من جمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية ووجودهم ضمن سكان الأردن أيضا .

وعلى الجانب الآخر هناك العديد من الدارسين المصريين ، الذين عاشوا فى هذه الجمهوريات ، ولهم معرفة جيدة ، ولايجوز تجاهل خبرتهم .

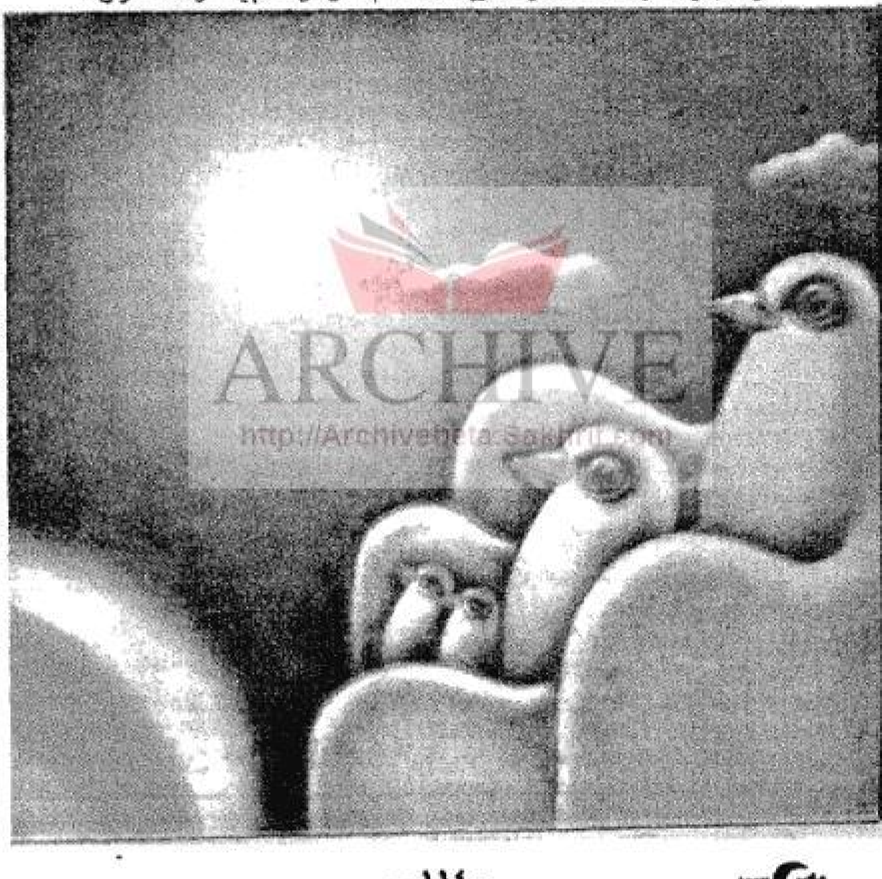
إن ما وقع من تغييرات فى آسيا الوسطى لا يمكن الرجوع عنه ، وهو يؤكد فرصة كبيرة وإضافة مؤكدة للدول الإسلامية ، وسيقلب الموازين الدولية ، يتوقف مدى الاستفادة منها ، على عوامل كثيرة ، أبرزها أن يتحقق التكامل لا التنافس ، والاتفاق لا التنافر ، بين روافد الحضارة الإسلامية ، العرب والفرس والترك .

وأن تعود دول الشرق الإسلامى نماذج تحتذى ، وتحقق التوازن المفقود بين التقدم المادى والروحى معاً .

تشكيل

عالم محمد حجى بين المعرض والكتاب..!!

• وآتاكم من كل ما سألتموه • سورة الأنعام – من • رسام يقرأ القرآن •



بقلم : صلاح بيصار

الفنان محمد حجى



تصغير للوحة « شمال يمين »



(رسام يقرأ القرآن - شمال يمين - رسوم من ليبيا) .. ثلاثة كتب جديدة على المكتبة العربية للرسام محمد حجى .. تمثل ثلاث حالات تعبيرية لكل منها فكرها ومناخها الخاص ولغتها التشكيلية تخرج بنا من دائرة الرسم الصحفى الى لوحات مستقلة .. وكأننا نرتاد معرضاً .. لكن بدلاً من أن نذهب اليه .. يأتى إلينا فى صورة مطبوع أنيق يدخل كل بيت .. يساهم فى اتساع رقعة جمهور الفن التشكيلى .. أرفع الفنون وأقلها جماهيرية فى العالم الثالث .

عندما انتقل محمد حجى فى أواخر الخمسينيات من عمق الريف المصرى بوسط الدلتا (إحدى قرى المنصورة) الى القاهرة حيث التحق بكلية الفنون الجميلة يدرس التصوير .. كان فى هذا الوقت مشبعاً بعالم شعبى تتتابع صوره بداخله .. من رسوم وكتابات تلقائية يطالعها على واجهات البيوت الطينية ويدور معظمها حول عودة الحجيج .. ومستنسخات تباع بأسواق القرى .. فى الملاحم الشعبية والقصص الدينى .. تصاوير لأبى زيد الهلالى وعنترة وسيف بن ذى يزن و « سفينة نوح » .. و « آدم

عالم محمد حجى

وحــواء » و « كبش اســماعيل أو كبش الفداء » .. وكانت تلك الصورة الأخيرة تتصدر معظم منادر بيوت القرية .. يصفها الآباء للأبناء (ربما عمداً) لما تحمل من فكرة الامتثال .. امتثال سيدنا اسماعيل لسيدنا ابراهيم .

تعانقت كل هــذه الصــور التي جمعت بين الرمز والتشخيص مع أشواقه الفنية في هذه الفترة .. وكان عليه أن يختار بين اللوحة التقليدية وبين أن يكون له حضور يواكب الصراع الدائر وقتها .. حيث كان المجتمع يمور بالتغيير .. خاصة وجمهور المعارض لا يتعدى مساحة صغيرة من جمهور الفنون الأخرى .. ولا يخرج عن دائرة القاهرة .. فاختار حجى أن يعمل بالصحافة والتى تنسخ من العمل آلاف المستنسخات حتى يكون حضوره موازياً للتشكيل الشعبى الثقافى وأيضاً ممتداً ومتناغماً مع حجم التغيرات والتحولات التى تشهدها مصر فى ذلك الوقت .

وكـانت البـداية حين شــارك فى تأسيس مجلة المنصــورة .. وهى تجربة صحفية متميزة خارج العاصمة وتعد نموذجا يحتذى فى الصحافة الاقليمية .. قدم خلالها وطوال فترة دراسته الكثير من الرسوم والتحقيقات الصحفية .. ثم انتقل عام ١٩٦٥ ليعمل رساماً بمجلة الطليعة ثم رســاماً بمجلتى روز اليوسف وصــباح الخير .

ومنذ أواخر الستينات .. لم يعد حجى يقتنع بأن تكــون رسومه مجرد زينـة لمقال أو قصة أو عمل فكرى .. فاتجه الى كتابة التحقيقات المرسومة .. لرحــلات قام بها داخل وخــارج مصر .. وقــدم رسوماً صاحبت نصوصــاً شارك فى اختيارها فرسم مسلسل قصص الأنبياء عام ١٩٦٩ .. ومع بداية السبعينات تحولت توجهاته نحو تقديم الفن من خلال المطبوع .

تسابيح تشكيلية .. و .. « رسام يقرأ القرآن »

وبحكم نشأة حجى الريفية .. والقرآن الكريم هو الكتاب الذى يحكم حركة الحياة اليوميــة فى حيــاة المسلمين .. يتمثلونه ويحكمونه فى جميع قضاياهم وشئونهم الخاصة والعامة .. فكانت له اهتماماته وتأملاته ورؤيته تجاهه وهى رؤية رسام لا تنفصل عن رؤية أى مسلم .. باستثناء إجادته للغة تعبيرية يفهمه من خلالها .. كلغة الخطــاط والقــارىء وصــانع المشــكاوات الإسـلامية .. مع اختلاف التعبير .. من هنا استلهم آيات من القرآن فى لوحات .. تواكبت مع مقــالات كـان ينشرها د. مصطفى محمــود فى عام ١٩٧٠ بمجلة صباح الخير حول « تفسير القــرآن تفسـير عصرى » فنشرت مصــاحبة لهــا بخصوصيتها التعبيرية .. بعــدها استمر حجى فى تجربته من رسم تلك اللوحات التى تمثل اضافة تشكيلية وصوفية على مستوى التصوير الدينى

عموما .. ابتعد بها عن محاكاة الوجوه البشرية عند تمثيلها فى التصوير الذى ارتبط وتأكد مع الدعوة المسيحية منذ أن دعا القديس فرانسوا الى حب الله عن طريق حب مخلوقاته الأكثر قرباً للواقع .. كما ابتعد عن منطق التصوير الاسلامى الذى يعمد الى التشخيص فى اطار من الزخرفة والتخيل والتبسيط فجاءت أعماله بلغة رامزة تتمشى مع جلال الآيات .. استجابة للصور الصوفية والروحية الموجودة بالقرآن .

لقد أثار القرآن فى نفسه مشاعرا دافقة من الحب الصوفى فصور ٣٢ لوحة لـ ٣٢ آية جمعها فى كتاب أنيق من إخراجه .. تبنته دار المستقبل العربى وأعدته فى ثلاث طبعات بالعربية والانجليزية والفرنسية بمقدمة مطولة بقلم الدكتور ثروت عكاشة ويحمل (أى الكتاب) اسم « رسام يقرأ القرآن » بمعنى رسام يتمعن ويتمثل القرآن الكريم .

وبألوان الفلوماستر .. وهى ألوان شعبية ذات خاصية سيالة .. صعبة التحكم ولا تتعدى امكانياتها المعتادة أكثر من مسطحات لونية .. استطاع حجى أن يحقق من خلالها امكانيات هائلة بما يعد اكتشافا لها .. لوحات بمثابة تسابيح تشكيلية تتألق فيها جماليات اللون والايقاع والتكوين .. فى عالم يشع بالبهجة والفرح الضوئى .. عالم يعانق الآيات برموزه وينفذ الى عمقها بكائناته الحميمة من : نبتة صغيرة .. ورقة شجر .. طائر على إناء .. كتكوت .. عصفور على غصن .. سنبلة .. وردة .. أشكال فيزيقية وميتافيزيقية .. عضوية وهندسية .. كائنات سابحة فى فراغ ممتد تتداخل وتتشابك أو تظل وحيدة .. مثقلة باللون فى ملابس ناعمة تتناغم فى تآلف أو تضاد .. فيبدو الأسود مشبعاً بالأحمر الطوبى .. ويخترق الأحمر النارى فى جُرأة امتداد الأخضر .. ويتداخل الأصفر مع البرتقالى فى ارتقافات الأخضر السندسى الذى يسبح فى زرقة لا نهائية .

ساهم فى ثراء السطوح ووضوح العناصر بكثافتها الثقيلة .. استخدام حجى لأقلام الجاف الملونة مع الفلوماستر .. فكان هذا الحوار الناعم الشفاف بين الأضواء والظلال .

وعلى الرغم من أن الكتاب قد تمت تجهيزاته الفنية بطبعاته الثلاث من صف الحروف وفصل الألوان الى الاخراج الفنى وتصميم الغلاف .. وذلك من أوائل الثمانينات .. إلا أننا مازلنا فى انتظار الموافقة على طباعته .. خاصة والكتاب يمثل اضافة حقيقية فى التصوير الصوفى .. وقيمة رفيعة تلبى احتياجاً روحياً فى مواجهة أشكال طباعية عديدة من نتائج وبطاقات ولوحات تصور آيات القرآن الكريم بشكل لا يتمشى مع جلالها .. تتزاحم الآن على أرصفة الكتب وفى المكتبات .

عالم محمد حجى

« شمال يمين » .. وثيقة احتجاج .. فى لوحات

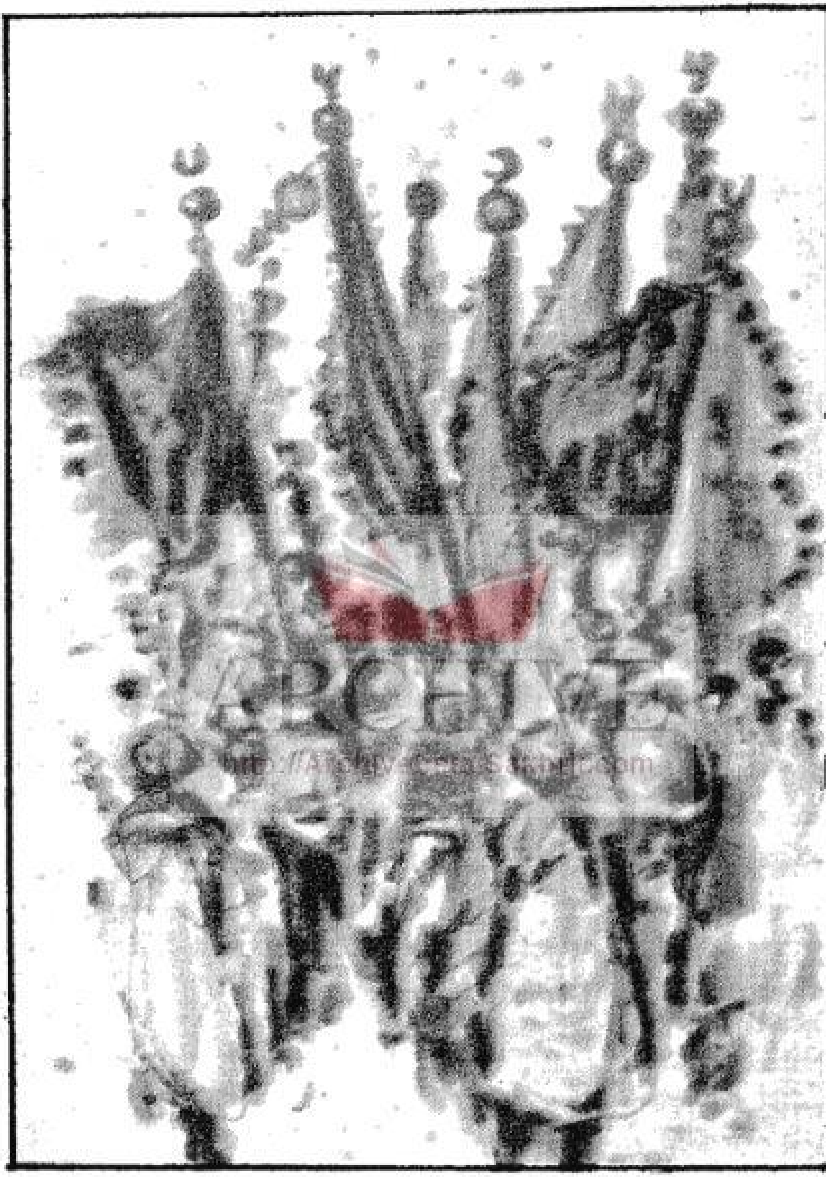
من الفرح الصوفى حيث سلام الروح وطمأنينة النفس .. ينقلنا محمد حجى من صور الجمال والجلال فى « رسام يقرأ القرآن » الى حالة تعبيرية أخرى تفاجئنا بصدقها المروع .. فى زمن بلا عقارب أقرب الى أجواء ماركيز فى « خريف البطريرك » وعالم كافكا فى « المحاكمة » مع اختلاف صيغ التعبير .

عالم كابوسى مقبض جاثم كطائر أسطورى يسد السماء .. تغتال فيه البراءة

فالق الإصباح (الأنعام) من « رسام يقرأ القرآن »



احتفالية شعبية من « رسوم من ليبيا »



عالم محمد حجى

وتداس الحرية .. حيث تصادر الكلمة وتكمم الأفواه ويعصف بالفكر .. في لوحات كتابة « شمال يمين » التى أنجزها بين عامى ١٩٧٦ و ١٩٧٧ وتمثل وثيقة من الفن الثورى ضد كافة أشكال الحكم القمعية من اليمين الى اليسار وما بينهما .. وإن تمثلها في صورة رمزية لديكتاتور عسكرى يتربع على أنقاض ضحاياه في بزته العسكرية منتفخاً مثقلاً بالنياشين والأنواط مجللاً بالنجوم والشارات .

فى صور تنوعت فى حدتها وقتامتها .. تشكيلات سوداء .. تضافرت فيها الرموز وتشابكت .. تتلاقى وتتنافر فى ديمومة وحركة دائبة لا تتوقف .. تعكس ثقل اللحظة وبطء الزمن .. رموز من الغشم والجهالة مسلحة بكافة الأدوات فى مواجهة رموز البراءة والحرية .. جاءت اللوحات بالأبيض والأسود أكثر تعبيراً عن هذا المناخ المأساوى المسكون بالصراخ الانسانى وأوجاع وآلام التعذيب.

وحيث يسيطر الأسود .. تنحسر مساحة الأبيض فلا تبقى إلا بقع ضوئية كالوميض تحدد حركة العناصر التى يعمد حجى الى المبالغة فى تحريف أشكالها ليؤكد صور التناقض التى تسكن هذا العالم بمفرداته المتزاحمة من : علامات وإشارات .. جنازير ومقارع .. قفازات .. بيارق وشارات .. فوهات مدافع .. أحذية باطشة وخوذ ضاغطة .. أسلاك شائكة وسياط .. أقنعة تنكرية وأجهزة تنصت .. مفاتيح .. زنازن .. كل هذا فى مواجهة هياكل آدمية تقترب فى شكلها من ديدان الأرض .. تتجمع أو تتناثر .. فى أشلاء وبقايا أطراف ورؤوس .

ولا تخلو بعض الأعمال من الروح السيريالية التى تغلف هذا الكابوس .. حين نطالع الديكتاتور ممتطياً البراق المجنح .. رافعاً سوطه فى عنف يشق السماء .. أو حين يبدو فى جسد امرأة عارية برأس رجل .. وفى أحد الأعمال نطالع جانباً من سترته تمتلىء بسحب من المفرقعات كرواية مفتوحة على هذا الأفق الأسود .

ويلتقى التشكيل بالخطوط والمساحات مع الرسم بالكلمات فى « شمال يمين » حين تقترن كل لوحة بمقتطف من قصيدة لشاعر عربى يختاره حجى فتتداخل الكلمة والصورة فى نسيج واحد حيث يمثلان وجهاً لحالة واحدة ٢٨ لوحة تتعانق مع مقتطفات من ٢٨ شاعراً معاصراً .. تصور هذا الارهاب الأسود الذى يقول عنه الشاعر محمود درويش فى مقدمة الكتاب :

« إنه إرهاب السلطة بميوعة صفاتها الطبقية وبوضوح تجلياتها فى تسليم الأرض وفى تحريم النبض وفى تعميم القبض » .

« رسوم من ليبيا » ..
و .. ملحمة تعبيرية ..

ولما كانت لوحات شمال يمين بالأسود فقط .. فقد جاءت بمثابة وقفة تشكيلية مقتصدة وحاذقة .. احتشد بعدها حجى ليقدم ملحمته التعبيرية فى صورة قصيدة تشكيلية طويلة متعددة المستويات .. تضافر فيها عنصرا الشكل واللون .. فى لوحات كتابه « رسوم من ليبيا » .

يقول الناقد والكاتب الليبى محمد خليفة التليسى فى مقدمة الكتاب :

« إننا هنا إزاء معرض لفنان كبير وظف طاقاته الابداعية فى اكتشاف المدهش والمذهل والرائع والمتميز والأصل فى حياتنا ، تسعفه فى ذلك ثقافة فنية عالية وقدرة على التذوق لكافة الألوان الغالية على هذه الحياة فيضعنا إبداعه أمام صور يعتز بها الجميع ويهتز لها الجميع لأنها ترسم حياتنا وتعبر عن صور حبيبة الينا مألوفة لدينا رابضة فى أعماقنا هنا صورة لكل واحد منا فى لحظة من لحظات تعامله مع عاداتنا وتقاليدنا وملامحنا الموروثة ، انها عملية اكتشاف للبيت القديم الذى نسكنه فتحجب عنا الألفة اليومية أهمية ألوانه حتى اذا رحلنا عنه فى الزمان أو المكان تذكرنا ما كان عليه من روعة وجمال » .

بعين نافذة ظل حجى طوال ٤ سنوات يفتش فى هذا الجانب الشعبى البدوى الصحراوى الذى صاغ حقيقة الانسان فى ليبيا .. يقتنص مناطق الجمال فى أكثر من ٢٠٠ لوحة .. تنوعت من الواقعية التعبيرية الى الغنائية الشعبية .. الى التلخيص الشديد الذى يقترب من التجريد .. هذا بالاضافة الى غلبة الملامس الحوشية التى سيطرت فى أعمال كثيرة وربما كان هذا التنوع والثراء التشكيلى لطول الفترة الزمنية التى أنجز فيها اللوحات التى امتدت بعمق الشخصية الليبية وتنوع البيئة هناك بخصائصها القومية والطبيعية .

انجذب حجى الى العمارة التلقائية المنحوتة فى المناطق الجبلية .. فقدم من خلالها أعمالاً عديدة غلب عليها هذا الحس السكونى الشاعرى المتألق بالجلال .. يصنعه حواراً أخاذاً بين الأضواء والظلال التى تتنوع من مصادر عديدة .. كوى ومنافذ ودروب ومنحنيات وأقواس وتقاطعات .. وقد ساهم فى تعميق هذا السكون الجليل .. الملامس الحوشية الخشنة التى غلفت الأعمال .

ويلجأ الفنان فى بعض الأحيان الى التلخيص الشديد .. فلا تتعدى اللوحة مجموعة متناغمة من السطوح والمستويات

.. تتآكل فيها الخطوط من حدة الظلال والأضواء .. وفى أحيان أخرى تبهره التفاصيل الصغيرة فيقف عندها يتلمسها من خلال تداعى التشكيلات النحتية وفى ملامس المنافذ والفتحات .

ويبدو الانسان متوحداً مع العمارة .. متدمجا فيها .. تتشكل ملامحه بنفس منطق التكتل .. لكنه يضفى عليها بعداً انسانيا يخلخل هذا السكون .

ويستأثر الأسود والبنى بدرجاته العديدة بالجزء الأكبر فى هذه اللوحات فتسبح فى زمن ممتد يتجلى فيه أصالة وعراقة المتاصر .

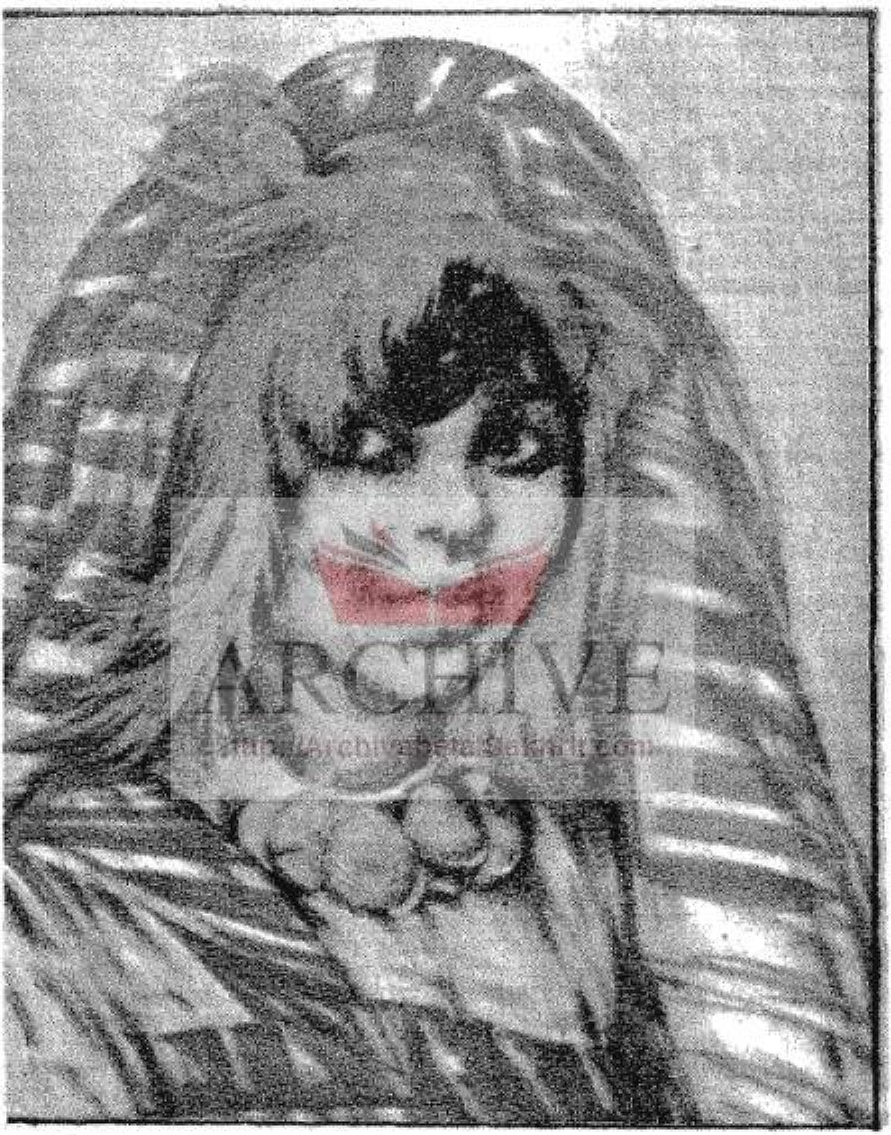
والوجوه الانسانية عموماً فى « رسوم من ليبيا » تقترب من التماسك والبناء المعمارى حيث يصور فيها أبعاد القوة والجلد .. ارتباطاً بظروف البيئة المتقشفة وما قد يطرأ عليها من ظروف أخرى خارجية .. فتلمح فيها طابع الصرامة وملامح التحدى والإصرار .

ويمس حجى الحياة بتفاصيلها فيقدم لوحات لقطعة من الحلى أو جزء من ثوب أو غطاء .. وأخرى لرأس حصان أو رأس حمل .. كما يأخذنا الى هدير الحياة الشعبية من المقاهى والأسواق والحوانيت .. الى الصناعات اليدوية من مطرزات وأنوال ومشغولات نحاسية .. كما يعكس صور البهجة والفرح فى الأعراس والموالد الشعبية وصبوح المواليد .. والألوان هنا غنائية صداحة من الأحمر والأخضر والأزرق والأصفر .

أما الاسكتشات السريعة فتحمل نبضاً انسانيا .. متوتراً ومشحوناً .. فتنساب الخطوط سريعة وانسيابية على السطوح البيضاء .. تحمل كثافة التعبير رغم بساطتها الشديدة .

وفى النهاية يمكننا أن نقول إن محمد حجى فى كتبه الثلاثة والتى تمثل توجهاً خاصاً وتجربة جديدة على الكتبة العربية لم يبتعد عن اللوحة التقليدية ولكنه قدمها فى إطار ثلاثة معارض مطبوعة .. تتيح للمتلقى ما لا تتيحه المعارض العامة .. ربما تكون بداية لترسيخ هذا الاتجاه .. الذى يبدو متوافقا مع متغيرات العصر .. وأيضا مواكباً للثورة الطباعية التى تشهدها حالياً .

وجه بورتريه من « رسوم من ليبيا »



ميرال الطحاوى

كاتبة الفرح الطفولى

والألم الغامض

« ميرال الطحاوى » اسم جديد فى عالم القصة القصيرة ، هى شابة فى الثالثة والعشرين وباحثة تحضر للماجستير فى الأدب العربى من جامعة الزقازيق ، لكنها روح طفلة تكتب وهى منغمسة فى دفء الشمس ترنو إلى الأفق ، إلى السحب تنسخ من تحولاتها تراكيب لها دلالات فى نفسها تفرح معها أو تتألم فى شجن غامض . لها أسلوب مغزول مثل زركشات فن الكروشيه تصنع أحيانا الدانتيل الرومانسى أو الجهامة المتوجسة

فى قصتها هذه « ريم البرارى المستحيلة » نجد مشغولية تكررت بمعالجات مختلفة فى انتاج ميرال الطحاوى - الكثير والذى لم تنشر منه سوى القليل - تتمحور حول الطموح والحلم والطاقة النشطة المبدعة داخل الإنسان، حين تحبط جميعها وتتهشم على واقع صلد غليظ لا مساحة فيه للتفهم والتعاطف والتحقق، ولقد بدت ميرال الطحاوى متخصصة فى التقاط هذا الإهدار وإبرازه فى إطار من العذوبة البريئة والألم البكر .

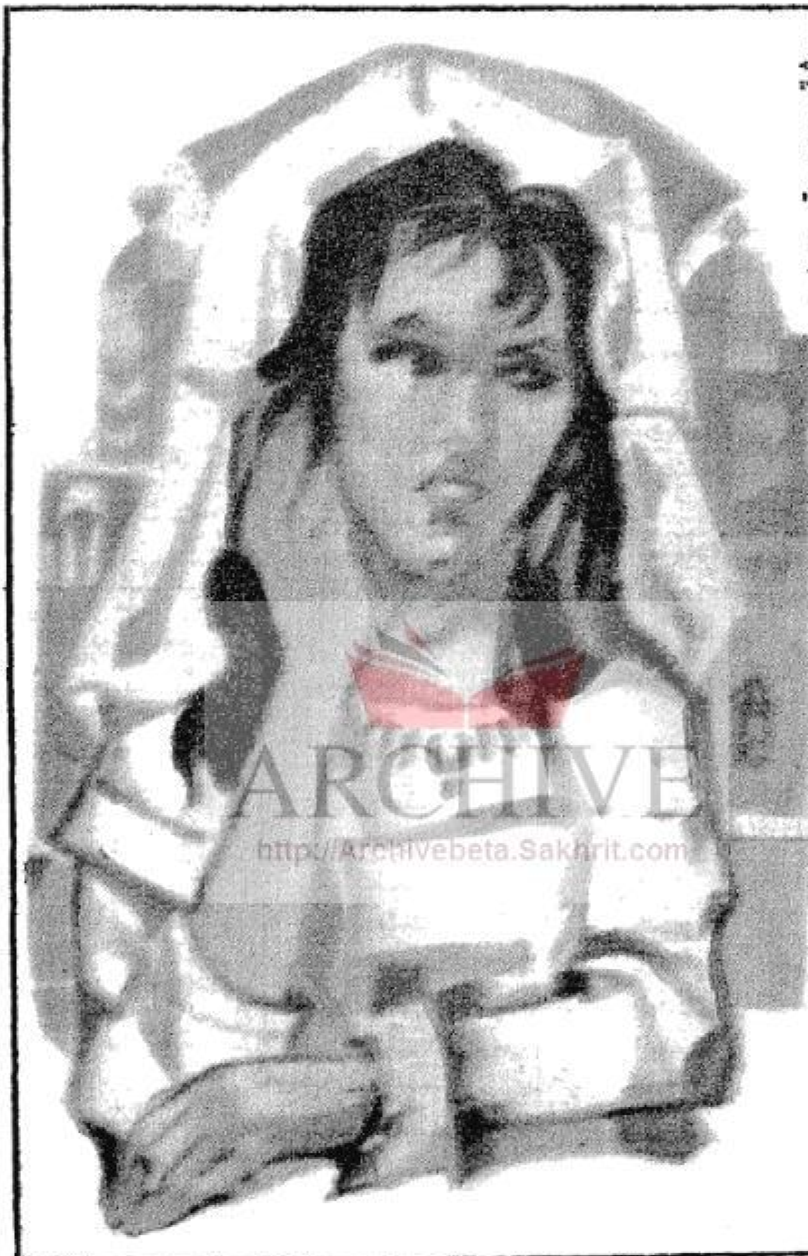
صافى ناز كاظم

ربيع البنزاري الحبلة

قصة

ميرال الطحاوى

لا .. لم يعرف أحد لماذا طاشت يده فى السماء ثم انغرست أسهمها فى الخد المذهول من المفاجأة .. لا لم ينطق أحد .. بل تبللت ابتسامة أمها بالاعتزاز بكفه النائئ بأعشاب الصحارى وتلقفه شارب أبيه بابتسامة زهو متلصصة تحاول الاختباء تحت مظاهر الحزم البادى على وجهه .. بينما تكومت هى على أول جدار طينى صادف قدمها ونزفت عيونها دما.. هى.. عيون تبرق كقطط الليل اللقيطة فوق الأسطح وبم متدفق بالحياة كالعشب تضحك، تبتسم، ترقص وتغنى وتقود الصغار فى رحلات استكشافية إلى أعماق الخليج الضحل بحثاً عن الأسماك الهارية وإلى شجرة النبق المنهارة على تلال الزمن .. توزع عليهم سبائك الشهد المنثور .. تخشق ضوء الليل الخافت وتدعى أنها رأت «أمنا الغولة» وصاحبت كل العفاريت .. بالليل وهى مدفونة فى أعشاب سطح الدار الخشنة كانت السماء صافية كليلة قدر وضاحكة وكان القمر يتدثر فى الضباب وفجأة انقضت النيازك من كل الجهات، سقطت النجمة «أم ذيله» تاركة وراءها شريطاً طويلاً من نار مشتعلة .. لم تخف بل ابتسمت لثوب العروس الحائمة حول القمر، وفى الصباح الباكر جمعت شمل تشردنا فى حلقة واسعة على حافة الحقل وأقسمت لنا ألف قسم بأنها رأت الحورية وهى تحوم حول القمر وتخنقه .. لا أنها كانت تحتضنه فقط لذا ظن البلهاء أنها تخنقه .. وغنت للقمر وحدها .. (يا بنات الحور الحور .. فكوا القمر المسحور) .. ولولا عصا أبيها المتروسة خلف الباب لتسلقت جدار البيت ونادتنا لنشاركها رؤية الحوريات .. وجلس بعضنا كثيراً ينتظر فى



رسم البراري المستحيلة

ريشة سميحة حسنين

الليالى السوداء حتى أعيانا الندى الثلجى المتسرب عبر مسام قلوعنا المشرعة فى سماء الحلم .. لكنها ظلت وحدها تراه وتحكى لنا فى الصباح ..

وفى الليالى المقمرة كانت تغمس نفسها فى الدقيق الأبيض وترتدى ملفحة جدتها الجوخ وتحفر بمحاريث اللهب الكالح فى الأفران خطوطاً طولية على حاجبيها وتتكئ على خشبة صدئة وتتمدم فى الضوء الخافت لترتعش كل عضلة فى وجوهنا ونمتص عبق المفاجأة بالعويل والصراخ المطحون فى دموع الضحكات الوارفة .. لم تكن جميلة لكن شيئاً ما فى حضور سمرتها جذاب ومتألق برائحة الانطلاق ونكهة الفرح الطفولى الذى يجف بل يزهر فوق الأسطح وأمام عتبات الدور وفى محافل العرس المخضبة بنقرات الدفوف .

يزهر وجودها دائماً سنابل المرح على وجوه العجائز والصبية . «ياالله يابنت غنى» وتغنى وينقلب الفناء إلى واحة تتعطر بانتقالات نهر صغير داخل تجاويف عطشها .. تجرى يداها الضامرتان على رقة مفرطة فى الجسد الهش المتراخى كعصفور أسير وتهرب حمرة سفوح وجهها المنبسطة لدى أول حفة لقدم فى الطريق .. طالما أقتلعها من بسطة السمر الليلى على مصابيح الضوء الكابية ومن دفء الحجرات المختنقة بحرائق اللهب المطمورة فى دعاء النار ومن ضجيج الأفران الهائمة برائحة الخبز وحديث النسوة .. طالما جذبها أمامنا ومضت معه ككتلة من خشب تتسمر من الفجيعة وتبث خوفها إلى الرمال التى تعربد تحت قدميها وتنطوى عليها نظراتها الكسيرة .. ونعود إلى ضحكاتنا محاولين أن نطمس بداخلنا بكاء حضورها الذى غاب وتنطفئ حماسة الأفواه المليئة بآلاف الحكايا ويلامسنا الفقد وتنطلق التهاويم (بنت شيطانة ..) (الله يخيبك يابعيدة .. دمها خفيف) (اخوها عامل زى الديك منفوش على الفاضى والمليان) .. (حيموتوها .. ما يسيبوها تضحك ..) (غلبانة .. بختها قليل ..) .

وحينما نظرت فى كفى وقالت : .. !! طويل وجميل ومتعلم .. يستاهلك ضحكت حتى ضاعت ملامح وجهى فى فيضان الضحكات ولامس وجهها سفائن حزن مسافرة .. لماذا يحاصرنا العجز كسيول الشتاء الغاضب ويختطف من على الشفاه وشماً صغيرا لينحت به فوق الجبين تلالاً من الخوف .. تبتسم ابتسامة كسيرة ثم تمضى حاملة معها التصبيب . قرشاً مدوراً . جلباباً قديماً. بضعة أرغفة صارت

ريم البـــــرارى المســـــــتحيلة

باهتة كشمس الخماسين الغاربة وصامدة كحافة بئر جافة .. تبحر عيونها فى الأحجــار القرمزية المقــامة على مشــارف البيوت وترتجف ثم تخور بالنواح وتغرز رأسها فى طين البـــرك المطمورة وتجــرى فى الحقول .. «ممسوسة» كما يقولون .. لا أحد يعرف ماذا ألم بها .. حينما غرس اظافره فى وجههـــا بعد أن أقتادها باللعنات من قلب العــرس . النــابض بالضجيج لم يلتفت إليه أحد وحين ركلهــا فى الطريق امام كل الفتيان الملتفين حول الضجة لم ينظر إليهـــا أحد، ولم تصرخ وحينما ألقى على ضفائرها الكيروسين لم تستنجد بأحــد بل تركت وجهها ينزف الاستعطاف بينما كف أبيه يدفعه عنها «حترروح فى داهية ..

أحنا محتاجينك .....

ولم تعـرف لمـــاذا لا يحتاجها أحـــد ولماذا يضربها ؟ ولماذا جرجرها طوال الطريق باللعنات ولم تبك إلا حينما أشعل فيها نار الخبز المســموم .. وكانت تحلم بصوت الناى الهادر فى قطيع الأغنام يطرق بابها لكن أمه . كما سمعت . قالت عنها كلاماً كثيراً واتهمتها بأنها «رعنة» وأنهـــا لا تعرف كيف تمسك «بمطرحة» الخبز . ولا تفلح إلا فى فشخ فمها بلا مناسبة .. صار الوجه العائد لنا ممصوصاً تتفجر عنه تضــاريس جـديدة .. يتجمع الجـلد المكرمش فوق الجفنين المتهدلين كثوب مهترىء وتغلق فمها على الصمت وتهـرب عيونها كحمامات برية .. الأحجار الوردية تعانق سواد الحجرات الطينية القديمة وصوت أزيز الآلة الصاخب يلطم الأثواب البالية وتتفجر الضحكات حول الصـورة المغروسة فى صندوق فى ساحات بيتهم بينمـا هى تسرح مبهوتة فى الأرض المروية تحتضن الشـال على ضـفائرها وتتطوح فى الهواء وتدور حول نفسها . كالطــــاحونة وتزغـرد وتصرخ وتنوح وتنـادى على «أمنا الغولة» التى لفحتهـا ذات ليلة بوجه بومة والعفريت الذى شق حائط الجــرن الخرب المستأنس بروث البهائم وبول الصـبية وضربها على رأسها ثم أتسخط غرابا أسود .

.. لا لم أعد استطيع أن أدخلها بيتى لتمـرح فيه كما كنا نفعل . أنا لا أبخل عليهـــا بشىء فى الشـــهر الفــائت حطت عينيها على ثوب حنتى الذى يختبىء فى ركن الصــوان .. لم أدر كيف لمحتـــه .. لكنى أعرف نظرتها حين تشتهى شيئاً



ما .. تكسرها في الأرض وتصمت .. وكان الثوب غالياً على نفسي .. أنتم لا تتركون كم تلك الأشياء البسيطة تقلق حبة الذكريات المدفونة في القلب .. لكني حين تذكرت وجهها وهي تخبيء لي وسط ثوبها القضفاض صورته التي اختلستها من صندوق أخته ، وصحبتني إلى شط الرياح حيث لحته يلقي شباكه في الماء الجاري .. تعثرت قدماي أمامه فضحك بينما جذبت في خيط سنارته ، وظلت ترثر معه وهو يرجم سكوني بشهب سماء قلبه الخافق بعاصفة قريبة .. ثم حملت لي بعدها آلاف ، القصاصات المطوية التي صار يلقيها في صندوق أخته لتحط رحالها ببابي معها ، .. هو أيضاً لم يبخل عليها بشيء قال مسكينة «ياترى ماذا فعلوا بها ..» لكنها لم تضعه على جسدها قط . حملته معها إلى الجرن الواسع واشعلت فيه النار ورقصت حوله ثم بكت ولم أعاتبها .. أعرف أنها ممسوسة وذلك خارج عن إرادتها .. لكن أن تدخل بيتي .. لا مستحيل صغاري يخافون شرودها وأخاف عليهم هياج أحزانها المكبوتة .. قالوا إنها حين تغرد لها البومة ويحوم حولها الغراب تصبح كالوحش الكاسر تفرد شعورها . وتقذف

زمن البـــــراري المستحيلة

كل شيء أمامها بالطمى والطين والروث وأعـواد الحطب الخشنة .. ضربت أمها .. «مممسوسة» ألم أقل لـكم ؟ ! حتى أمها العجـوز المنكمشة على الغصن لا يبرق داخلها إلا عيون مفتوحة فى فوهة تجاعيد دائرية متراكمة كالكثبان وأنين تتلقف من ضجيج الحيـاة صـداه البعيـد البعيـد وتترجم الحرف إلى لغة لم يسمع بهـا أحـد لم تفلت من نوبات جنونهـا .. إنها تضرب بشراسة الفتية الأشداء حتى تقع متورمة فى جراحها داكنة فوق كومـة قش تمتص عـرق حمتهـا ثم تفترش فى ذهولها لتبـدأ من جديد تدور حافية على عتبات الدور والمصاطب وجلسات السـمر شاردة واهنة كتيارات المـاء المنسابة على الجسر .. يقولون

إنهم عنبوها كثيراً .. حين ألقى تحت عجلات سـيارته الفخـمة رزمة أوراق ملونة كان يدفعها لتخـدم زوجته .. وتلك عذبتها كثيراً بل قالوا إنها كانت تخطف قلبه بضحكتها الفوارة بالندى لذا فقد كوت كل قطعة فى جسدها .. شوهتها وكان يعشق رائحة الشواء خاصة الأرانب البرية ، ويدفع نصف عمره ثمناً للحم غزال صغير هارب فى البرارى المستحيلة .. وقالوا إن صمتها ليس خدعة ولا تستجدى به أحداً وأنه ليس من الضـرورى أن يولد الإنسان بلا صوت فزوجتـه كانت تصعقها بالكهرباء حتى افقدتها الصدمات الرغبـة فى معاشرة الحروف لا لم تشك لأحد قط يبدو أنها فقدت ذاكرتها أيضاً لكن

حينما تجرى عربة جديدة يزفها الصـبية وسط الحقول التى ربض فيها الفقـر وأطفأ قناديل خبزها المغموس فى ملح الرضـا تصبح شرسة كلبؤة تطارد قناصاً سرق منا عيـالها .. تضرب وتضرب ولا تهدأ إلا وهى مبقورة فى دمهـا القزح وملح دموعها .. وتنطلق التهاويم أيضاً (سيبى كل حى بشـوف نصيبة) (فاكرة كل الخلق خايبة زيك) وتمضى العربة ولا يعودون ممـا يؤكد أنها الخائبة الوحيدة ولا يحق لها أن تمنع غيرها من ممارسة التجربة لكن حين تصـارع شياطينها فى الليـالى السود وتصرخ وتولول .. لا يصـدق البعض أن كل ذلك لمجرد أنه ذات يوم جاءت عربة فارهة وحملتها فى ثوب عرس وألقت على أهداب الفقر الطالـة من البيت المطعون بالحاجة بضعة أوراق ملونة .

« معزوفة الحكاية »

شعر : د . صابر عبد الدايم

يدى فى يـديك إلى اللانهـايةْ　　وفى كل يــوم نعيـد البـدايةْ

ونقطـع فى لحظـة ألف عـام　　وفى لمحـة نسـتعيد الحكـاية

نجـدد دفء الليـالى الوضـاء　　ونرحـل فيهـا لأنبـل غـايةْ

نسـافر فى دفتـر الأمنيـات　　ونعـزف للقـلب أحـلى روايةْ

● ● ●

نجـدد مافـات من عمـرنا　　ونشـربُ فرحـة ميـلادنا

وإن شبّت النـار يومـاً بنـا　　فلن تحـرق النـور فى قلبنـا

وإن داهمتنـا ريـاح الخريف　　فلـن تتغـذى بأثمـارنا

ففـى مهجتينـا تغنى البـذور　　وتحيـا الثمـار بأعمـاقنا

● ● ●

وإن حاصـرتنا الثلوج فـإنا　　بـدفء ليـالى الهـوى نتغنَّى

ونصـهر ما حولنـا من جليد　　ونحيـا الحيـاة كمـا نتمنَّى

الطبقة الوسطى الصغيرة وتطور دورها السياسى . !

بقلم : د. يونان لبيب رزق

بدأ الدور السياسى لمن شكلوا ما عرف فى بداية التاريخ المصرى الحديث بجماعة «الأفندية» يطفو إلى السطح منذ أواخر القرن التاسع عشر .

وعلى الرغم من أن لفظة الافندية قد أطلقت فى العصر العثمانى على الأمراء ومشايخ الإسلام ورؤساء الديانات الأخرى فإنها فى مصر كانت قد استقرت فى أواخر القرن التاسع عشر لتوصيف أولئك الذين تلقوا تعليما مدنيا وشغلوا على الأغلب وظائف الحكومة المتوسطة والصغيرة أو اشتغلوا ببعض المهن الحرة.

ونرى أن الأفندية قد استمروا منذئذ يشكلون العمود الفقرى لما يمكن توصيفه «بالطبقة الوسطى الصغيرة» فى مصر تمييزا لهم عن طبقة كبار ملاك الأراضى الزراعية من الباشوات والبكوات أو حتى بعض من اشتغلوا بالتجارة من المصريين فى هذا الوقت المبكر ممن كانت لهم ألقاب أخرى مختلفة لعل أشهرها لقب الخواجة !

وقد سجل الربع الأخير من القرن التاسع عشر متغيرا هاما لأبناء هذه الطبقة ..

فقد انتقلت القيادة فى العمل السياسى الذى كان حكرا على مشايخ لمشايخ الأزهر ورجال الحارات فى أوائل القرن إلى أبناء هذه الطبقة فى أواخره ، ووجدنا المطربشين وقد حلوا بشكل كبير محل المعممين ، عرابى ومصطفى كامل ومحمد فريد وأحمد لطفى السيد محل عمر مكرم والشيخ المهدى والشيخ السادات



مصطفى كامل



مصطفى النحاس



إبراهيم عبد الهادى

وغيرهم من المشايخ .

غير أن هناك ملاحظتين على دور الأفندية أو أبناء الطبقة الوسطى الصغيرة فى العمل السياسي خلال تلك الفترة ..

الملاحظة الأولى : أن بعضهم ممن انحدر من أصول اجتماعية متفقة مع الطبقة التى نشأوا منها ولع فى العمل السياسي ما لبث أن سعى إلى الانتقال إلى الشرائح العليا من الطبقة ، ليصبح من الباشوات والبكوات بل ويتنكر للطبقة الوسطى الصغيرة التى ولد فيها .

لن نتحدث فى هذه المناسبة عن مصطفى كامل (باشا) ابن المهندس الصغير، أو حتى عن مصطفى النحاس (باشا) ابن أحد تجار سمنود الصغار وإنما هناك هذا المثل الشهير الذى اكتسب مكانة متميزة فى التاريخ المصرى المعاصر باعتباره ابنا للطبقة الوسطى الصغيرة ، وقد تنكر لها ..

هذا المثل يتجسد فى نجيب الغرابلى أفندي المحامى الصغير من طنطا والذى لعب دورا ملحوظا فى قيادة العمل الثورى بالمدينة خلال ثورة ١٩١٩ .

هذا «الأفندى» أراد سعد زغلول لدى تشكيله لوزارته فى يناير عام ١٩٢٤ تعيينه وزيرا للعدل فاعترض الملك فؤاد على ذلك «لضعف مكانته وضخامة المنصب الوزارى عليه» ، غير أنه أذعن أخيرا لرغبة سعد باشا .

وبدلا من أن يكون تولى أحد أبناء الطبقة الوسطى الصغيرة لهذا المنصب محسوبا لتلك الطبقة فإن الرجل لم يلبث أن انسلخ عنها ونال لقب الباشوية واستمر يتولى الوزارة بطول الثلاثينات كلما شكلها الوفد ، الأخطر من ذلك أنه ما لبث أن انشق عن الوفد خلال عهد صدقى (١٩٣٠) وتولى وزارة الأوقاف فى وزارة عبد الفتاح يحيى باشا خصم الوفد عام ١٩٣٣ .

الملاحظة الثانية : أن أبناء الطبقة الوسطى الصغيرة من الأفندية قد سلموا لفترة غير قصيرة بدور الزعامة لطبقة الأعيان من الباشوات والبكوات ..

الطبقة الوسطى

حدث هذا فى الفترة السابقة على إعلان الحماية عام ١٩١٤، وحدث هذا أيضا خلال أحداث ثورة ١٩١٩، وبامتداد العشرينات ، فتؤكد الدراسات التى وضعت عن طبقة كبار الملاك الزراعيين أنها قد استمرت تحتكر الزعامة السياسية على مختلف المستويات ، فى الأحزاب والبرلمان والوزارة بامتداد تلك السنوات .

وكان أبناء الطبقة الوسطى الصغيرة قانعين بتشكيل كوادر الأحزاب وممارسة مختلف أنشطتها بالتظاهر أو بسائر أعمال العنف التى كانوا يتعرضون خلالها لصدمات مباشرة مع قوى الاحتلال أو السلطة الملكية ، بمعنى آخر كان صغار الأفندية وقود الحركة الوطنية وأدوات لطبقة الأعيان فى مواجهة خصوم هذه الحركة .

* * *

غير أن هذا الوضع أخذ فى التغير خلال النصف الأول من الثلاثينيات ونتيجة لمجموعة من المعطيات ..

١ - الأزمة الاقتصادية العالمية التى أثرت أكثر ما أثرت على أبناء هذه الطبقة وعرضتهم للبطالة على نطاق واسع .

٢ - نجاح الحركة الفاشية فى إيطاليا والحركة النازية فى ألمانيا بكل ما أثارته فى نفوس صغار الأفندية من انتعاش الآمال لوجود نهج يغاير هذا النهج الذى اتبعه الباشوات سواء بالنسبة لمشكلتهم الاجتماعية أو بالنسبة للقضية الوطنية .

٣ - الفشل الذى منى به النهج الذى اتبعه الأعيان فى معالجة القضية الوطنية خلال العقد والنصف السابق والذى تجسد فى إخفاق أكثر من جولة للمفاوضات التى جرت خلال تلك الحقبة .

ويمكن أن نعتبر أن قيام مصر الفتاة من مجموعة من الشبان الذين يصنفون بدون شك فى الطبقة الوسطى الصغيرة من الأفندية، على رأسهم أحمد حسين وفتحى رضوان .. يمكن اعتبارها حركة تمرد من أبناء تلك الطبقة على زعامة طبقة كبار الملاك من الباشوات والبكوات .

بدأ هذا التمرد فى رفض مصر الفتاة الانخراط فى أى حزب آخر من الأحزاب التى تزعمها كبار أبناء طبقة الأعيان ، صحيح أنهم عقدوا علاقات قوية مع الأحرار الدستوريين، ومحمد محمود على وجه التحديد إلا أنهم فى هذه العلاقة تعاملوا مع الحزب والرجل من منطلق تبادل المصالح وليس بأن يكونوا أدوات لهما .

بدأ هذا التمرد أيضا فى رفض الأساليب السياسية التى اتبعتها زعامة الأعيان للحركة الوطنية ، الصحافة و الاجتماعات والمفاوضات ، وأخذوا فى اتباع أساليب أخرى بالعناية بالصناعة الوطنية التى تكفل حل أزمتهم الاقتصادية، وبتكوين ميليشيات على النسق الفاشى هى

التى عرفت بأصحاب القمصان الخضراء ، وهى التنظيمات التى تناسب أكثر مزاج أبناء هذه الشريحة من الطبقة الوسطى .

ويلفت النظر هنا أنه عندما أراد الوفد أن يواجه أصحاب القمصان الخضراء بتشكيل جماعات من الشباب ممن ارتدوا قمصانا زرقاء فقد جاءت قيادات هؤلاء من الأفندية من أبناء الطبقة الوسطى الصغيرة ، يمثل ذلك كل من زهير صبرى ومحمد بلال اللذين شكلا قيادة التنظيم الجديد الموالى للوفد .

* أزمة الأفندية !! *

وتمر السنون وتأتى الحرب العالمية الثانية لتتسع أزمة الأفندية وتتزايد معها رغبتهم فى التخلص من قيادات جماعات الأعيان ، وتزداد هذه الرغبة شدة مع ملاحظة ما جرى فى أعقاب معاهدة ١٩٣٦ من خروج كثير من رموز هذه الطبقة من الحزب الشعبى ، مثل النقراشى وإبراهيم عبد الهادى فى الانشقاق الكبير الذى ترتب عليه قيام الهيئة السعدية أواخر عام ١٩٣٧ ، ثم بخروج مكرم عبيد عام ١٩٤٣ الذى لم يكن يحسب بحال على طبقة الأعيان ، فى الوقت الذى دخل الحزب كثير من رموز الأعيان على رأسهم آل سراج الدين وآل الوكيل وآل المغازى عبد ربه وغيرهم .

استتبع ذلك أن بدأت تنظيمات الطبقة الوسطى الصغيرة من الأفندية فى الاتساع ، فتعاظم فى أواخر الحرب الثانية وفى السنوات التى تلتها حتى قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ شأن الجماعات الماركسية التى تشكلت بالأساس من أبناء هذه الطبقة وليس من أبناء طبقة البروليتاريا كما هو مفترض ، كما تعاظم شأن جماعة الاخوان المسلمين التى ضمت فى صفوفها الكثير من الأفندية ، خاصة من أولئك الذين انخرطوا فى سلك التعليم المجانى فى مدارس المعلمين والمعلمات ودار العلوم والأزهر مما لم يتح لهم فرصة الاحتكاك الكافى بالحضارة الحديثة واشتد بين جوارحها الشعور الدينى ، ثم الحزب الاشتراكى بعد أن ارتدى رجال مصر الفتاة الرداء الجديد .. رداء الاشتراكية .

ولا يستطيع أى مراقب للحياة السياسية المصرية خلال تلك السنوات إلا أن يقر بأن الطبقة الوسطى الصغيرة ممثلة فى الأفندية قد نجحت فى أخذ زمام المبادرة فى الشارع المصرى من الأحزاب الكبيرة التى استمر يتحكم فى قياداتها كبار ملاك الأراضى الزراعية .

ومع استحكام أزمة الطبقة الوسطى الصغيرة فى سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية ، ومع بقاء التنظيمات التى شكلتها ، رغم قوتها ، خارج إطار الشرعية السياسية التى صنعها الأعيان ، فقد كان منتظرا أن تتفاقم الأزمة السياسية التى تبدت فى الاضطرابات والمظاهرات ، فضلا عن التنظيمات السرية وأعمال الاغتيالات

الطبقـة الوسـطى

التى طالت عددا من رموز نظام الأعيان .

وتبدو الطبيعة الاجتماعية لأزمة الطبقة الوسطى الصغيرة خلال تلك الحقبة من ملاحظة أن مؤسسات الحكم لم تكن مغلقة أمام بعض من أنضم من طبقة الأعيان للتنظيمات التى شكلها أبناء هذه الطبقة .

يقدم الاستاذ إبراهيم شكرى نموذجا على ذلك باعتباره أبنا لأحد كبار الملاك من شربين ، فرغم مكانة الرجل المتميزة فى الحزب الاشتراكى (مصر الفتاة) فى تلك الفترة ، وهو الحزب الذى لم يدخل رئيسه أو رئيس أى من الجماعات الثلاث التى شكلتها تلك الطبقة إلى البرلمان فإن إبراهيم شكرى قد دخله .. ليس لسبب سوى أنه لم يكن ينتمى فى النهاية إلى الأفندية من أبناء الطبقة الوسطى الصغيرة !

ولم يكن هناك مناص من حدوث التغيير التاريخى لصالح هذه الطبقة فيما حدث فى ثورة يوليو عام ١٩٥٢، والتى قادها الضباط ممن كان ينتمى غالبيتهم فى أصولهم إلى هذه الطبقة ..

صحيح أنه كان هناك بعض استثناءات مثل آل محيى الدين ، زكريا وخالد، اللذين كانا ينتميان إلى طبقة الأعيان ، لكن يبقى فى النهاية أن خالدا على الأقل كان منحازا لتطلعات الطبقة الجديدة ، ثم الأهم من ذلك عبد الناصر الممثل الأمين لهذه الطبقة .

ولا شك أن السياسة التى تم اتباعها بامتداد الحقبة الناصرية انما كانت تسعى بالأساس إلى تحقيق مصالح هذه الطبقة بدءا من مجانية التعليم التى أدت إلى تخريج جحافل متتالية لتضخ فى الطبقة الوسطى الصغيرة إلى نظام القوى العاملة التى سعى إلى استيعاب هذه الجحافل والقضاء على الأزمة التى ظلت تعانى منها الطبقة فى ظل حكم الأعيان ، أو ضرب هؤلاء الأخيرين من خلال المصادرات الاقتصادية والسياسية المتتابعة التى استمرت سمة أساسية من سمات الفترة الناصرية ، وكان هذا الضرب يتم عادة لحساب الطبقة الوسطى الصغيرة ، فضلا عن المركزية فى التخطيط الاقتصادى والتى كانت تستهدف فى جانب منها توفير فرص الوظائف لأكبر عدد من أبناء هذه الطبقة المتعاظمة ، والذين لا يستطيعون الصـمود فى عالم اقتصـاد المنافسة الحرة .

وليس من تفسير لهدوء الشارع المصرى فى الحقبة الناصرية ، مهما تذرع البعض بالقول إن هذا الهدوء قد حدث تحت ضغوط العصا الناصرية الغليظة ، فالعصى وحدها لا تصنع هدوءاً .. ليس من تفسير لهذا الهدوء سوى أن النظام الجديد قد نجح فى تحقيق مصالح الطبقة

الوسطى الصغيرة التى كانت المصدر الأساسى للقلاقل السياسية خلال سنوات ما قبل عام ١٩٥٢ .

* * *

ويذهب عبد الناصر ويأتى السادات وتقوم حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ ، وما أعقبها من التحول من سياسات التخطيط المركزى ، التى حققت أساسا مصالح الطبقة الوسطى الصغيرة ، إلى سياسات السوق الحرة أو ما عرف بسياسات الانفتاح الاقتصادى والتى أصابت مع بداياتها أبناء هذه الطبقة بأضرار اجتماعية بالغة ، وبدأ أول تململ واسع قادته هذه الطبقة فى أحداث ١٨ و ١٩ يناير عام ١٩٧٧ ، صحيح أن شرائح من غير أبناء الطبقة الوسطى الصغيرة قد شاركت فى تلك الأحداث ، غير أن التنظيم والهتافات كانت تشى بقيادتها ، ثم أن الدراسة التى اجريت على من تم القبض عليهم بتهم القيادة والتحريض تؤكد هذه الحقيقة .

وتتزايد حدة الأزمة الاقتصادية التى تعانى منها الطبقة الوسطى الصغيرة مع تزايد أعدادها ، خاصة مع التوسع فى التعليم الجامعى وافتتاح عدد كبير من الجامعات الاقليمية الأمر الذى أثر كثيرا على توجهاتها السياسية ..

ومما ينبغى الاعتراف به هنا أن تلك التوجهات خلال الثمانينيات قد تحولت أساسا إلى الجماعات الدينية سواء فى شقها العلنى ممثلا فى جماعة الاخوان المسلمين ، أو شقها السرى ممثلا فى جماعة الجهاد والجماعات المماثلة .

ويمكن أن يعزى هذا التحول بالأساس من أبناء تلك الطبقة لسببين :

السبب الأول : الهجرة الواسعة لهؤلاء منذ النصف الثانى من السبعينيات وحتى يومنا هذا إلى الدول النفطية المحافظة التى عادوا منها وقد تأثروا تأثيرا شديدا بنمط المجتمع الدينى السائد فى تلك البلاد ، بل يلاحظ أن بعضهم قد تزيد فى هذا الاتجاه بشكل فاق ما عايشوه فى تلك المجتمعات، وهم فى الغالب قد ربطوا بين حل أزمتهم فيما حدث نتيجة للهجرة وبين طبيعة المجتمعات التى هاجروا إليها .

السبب الثانى : أن من لم يتمكن من الهجرة واستمر يعانى من الأزمة الاقتصادية فى مصر دون أن يجد ثغرة فى حائط اليأس الذى يواجهه قد أخذ بهذا الاتجاه على أمل أن يجد فيه الحل .

وتبقى مع ذلك الوضعية الاقتصادية للطبقة الوسطى الصغيرة من أهم العناصر التى تصنع التوجهات السياسية لغالبية أبنائها حتى يومنا هذا .

حنان عشراوى تسرق الكاميرا

بقلم : د. سلوى أبو سعـدة

تابعناها وتعاطفنا معها جميعاً ، ليس فقط لكونها عربية فلسطينية ، صاحبة حق وقضية ، ولكن لحضورها الطاغى ، ولإبتساماتها المطمئنة والمُتطمأنة ، ولبساطتها الراقية ، ولثقتها المتناهية بالنفس وبالقضية ، ولقدرتها المذهلة على الإقناع ، وهى من أهم المستلزمات التى تحتاجها القضية الفلسطينية .

كانت حنان عشراوى المتحدثة الرسمية للوفد الفلسطينى كسباً لقضية قضايا العرب فى أحد أهم منعطفاتها ، فشدت الإنتباه ، ولفتت الأنظـار ، بل وأقنعت بوضـوحها وصراحتها العقـول ، فسرقت « الكاميرا » فعليـاً ، فى كل اللقـاءات والحوارات الصحفية ، التى تحدثت فيها ، من كل المتحدثين الآخرين فى مدريد ، وواشنطن وموسكو وحتى فى داخل إسرائيل ذاتها ، مما جعل صحيفة « صنداى تلغراف » تصفها : بأنها ناطقة واضحة وواثقة من نفسها ، تطرح كلاماً معقولاً ، وكانت تلبى وبسرعة أى طلب لمقابلتها ... بينمـا كان أعضـاء الوفد الإسـرائيلى شخصيات بدون خيال ، كل همهم إلقاء اللوم فى كل شىء على العرب فإن حنان ورفاقها أمسكوا بكفـاءة بالفرصـة التى أتيحـت لهـم .

إبنة رام الله

حنـان عمرها من عمر القضية ، ولدت فى السنة التى تمت فيهـا أبشـع جريمـة إغتصـاب للأرض فى التاريخ ، إبنة الطبيب الفلسطينى ميخائيل من القدس وهى أخت لثلاث شقيقات ، تعيش فى رام الله ، المدينة الفلسطينية التى تردد الإذاعات والصحف العالمية مقاومة أبنائها مع سكان الداخل فى أشجع وأطول إنتفاضة تعيشها الأرض المحتلة على إمتداد ما يزيد على أربع سنوات ، دونما كلل أو وهن ، رغم كل الأساليب القمعية والأحكام التعسفية التى يتفنن المحتل الإسرائيلى المدجج بأحدث وأكثر



الأسلحة فتكاً ، فى إتباعها ، لإجهاضها ،فلا تزيدها إلا اشتعالاً .

هذا العدو الذى تعودت وتمرست حنان منذ نعومة أظافرها على معايشته طفلة وطالبة وأستاذة للأدب الانجليزى فى جامعة « بيرزيت » حيث شغلت منصب العمادة لعدة سـنوات ، بعد حصولهـا على الدكتوراة ، من جامعة فيرجينيا بالولايات المتحدة ، تعرف كيف تتعامل مع ألوان الارهاب الإسرائيلى ، وكذا التفتيش التعسفى الذى تتعرض له فى كل مرة تغـادر فيها القدس ، فمن الوفد الفلسطينى لمفاوضات السلام . كيف وهى التى تعيش مع زوجها إميل عشراوى الفنان والمصور الذى التقت به فى امريكا وتزوجته فى عام ٧٦ ومع ابنتيها " أمل " ١٤ سنة ، و " زينه " عشر سنوات ، يعيشون معاً فى مسكن يجاور مباشرة مسكن الحاكم الإسرائيلى ذاته .

معرفتى بحنان عشراوى لم تقتصر على مشاهدتها عبر شاشات التليفزيون ، بل كان لقائى بها فى القاهرة فى الواحدة بعد منتصف الليل ضمن أعضاء الوفد الفلسطنى المسافر لمدريد للاشتراك فى مؤتمر مدريد .. وعند رؤيتى لها أحسست بحضورها القوى ، الذى شعر به الجميع عند رؤيتها وهى

حنان عشراوى

تدلى بتصريحاتها وتعليقاتها الصحفية ، فأدركت فى لحظتها لماذا أطلق عليها الإعلام الأمريكى والغربى " المرأة الأولى فى الإنتفاضة " ، وسيدة فلسطين الأولى ، وهو ما أكدته صحيفة " التريبون " عندما كتبت : « أن السيدة ذات الشعر الأسود القصير كانت تتقاذفها أمواج الإعلاميين بحيث يفقد حراسها السيطرة فى كل مرة ، لكنها لم تتخل عن إبتسامتها فى أى وضع ، وما أن تصل إلى المنصة حتى تصبح لها السيطرة ... أن هذه الأستاذة الجامعية المثقفة والسياسية بالفطرة عرضت قضيتها على العالم بثقة هادئة ، وبوعى متبصر ، وبوضوح جلى ، لقد أعطت العالم صورة جيدة عن شعبها » .

فأهم ما تتسلح به حنان عشراوى ، وهى التى لم يسبق لها وأن تمرست على العمل السياسى أو العسكرى المنظم ، القناعة والإيمان بعدالة قضيتها وبشرعية مطالبها ، مدركة فى ذات الوقت بعدم قانونية وبعدم شرعية كل أسانيد وإدعاءات هذا العدو المحتل تاريخياً وجغرافياً وحضارياً . لذا جاءت تعليقاتها لا إنفعال فيها بعيدة عن أية بلاغة لفظية أو حذلقة لغوية ، وهى الاستاذة التى تملك ناصية اللغة الإنجليزية ، فلا كلمات معادة ، ولا مراوغات فى الردود ، فشهد لها الجميع بالصراحة والوضوح فى التعبير حتى عند تناولها لأكثر القضايا حساسية وأشدها خطورة . مما دفع السفير الإسرائيلى فى واشنطن " زالمان شوفال " إلى مهاجمتها فى أحد مؤتمراته الصحفية ، متهماً أياها بأنها تتطلع إلى وظيفة المتحدثة الرسمية بإسم الخارجية الأمريكية . ونسى شوفال أن منزل حنان عشراوى فى رام الله أصبح مزاراً للعديد من الوفود و الشخصيات الإسرائيلية المساندة للسلام الفلسطينى الجديد ، والمطالبة بالإعتراف بالمنظمة ، كممثل شرعى ووحيد للشعب الفلسطينى ، وآخر تلك الوفود ، وفد من حركة النساء لدفع مسيرة السلام ، بل واجتمعت معها " ياثيل ديان " أبنة موشى ديان الذى كان أحد صقور اسرائيل .

فلعقلانية ومنطق حنان عشراوى وتفهمها للقضية بخلاف كونها صاحبه حق ، يمكننا التعرف من خلال تصريحاتها على سياسات ومنطلقات التحرك السلمى الفلسطينى فى المرحلة الراهنة ، فنجدها فى تصريح لها تقول فى بعضه :

« غير مقبول وقف الإنتفاضة ، فهى غير خاضعة للمساومة ولا للتفاوض ،

لأنه حركة شعبية تلقائية ، ترد على القمع الإسرائيلى من خلال بناء بنية شعبية فلسطينية . الإنتفاضة لن تتوقف إلا بإنتهاء الأسباب التى أدت إلى تفجرها ، والأسباب معروفة وهو الإحتلال الإسرائيلى وللإنتفاضة هدف وبرنامج سياسى وهو بناء الدولة الفلسطينية .

وعن العمل داخل فلسطين ولجمع وتوحيد الصفوف بين فلسطين الداخل وراء المسيرة السياسية قالت عشراوى :

« زاد عملنا اليومى لأنه لايوجد لدينا راديو ولا تليفزيون ، والصحافة الفلسطينية مراقبة ، فالطريق الوحيد المفتوح أمامنا هو طريق التخاطب والحوار المباشر . فأعضاء الوفد سواء الرسميين أو الإستشاريين أو الإعلاميين يطوفون بمختلف المدن والقرى ، لشرح وتحليل المواقف والأحداث دون مبالغة سواء بالسلب أو الإيجاب للشعب الفلسطينى » .

وعن مدى تفهمها للعقلية الإسرائيلية وطبيعة المواجهة الحالية معها قالت :

« الموقف الإسرائيلى موقف متشنج ومتصلب وقائم على طرح أقصى المواقف ، وهذا الموقف يتجاهل حتى الشارع الإسرائيلى . وإسرائيل تحاول وستحاول تعويض وتدمير عملية السلام بأى شكل ، اسرائيل تحاول الهروب من حق السلام والهروب من مواجهة المفاوض الفلسطينى الذى يعرف جيداً كيفية مواجهة المفاوض الإسرائيلى » .

هذا المفاوض الفلسطينى الذى حدد فى كلمته فى مؤتمر مدريد الهدف الذى تؤمن به حنان عشراوى تؤمن به جموع فلسطين الداخل والخارج وإنه فى الشرق هناك دولة مفقودة ، وهى دولة فلسطين ينبغى أن تولد تلك الدولة على أرض فلسطين .... نود أن نخاطب الشعب الإسرائيلى الذى تبادلنا معه الآلام لفترة طويلة لنتقاسم الأمل بدلا من الآلام ... نحن على إستعداد أن نعيش جنباً إلى جنب على الأرض ونشاطر ونشترك معا فى صنع المستقبل »

فهل تتحقق نبوءة أحد أعضاء الوفد الفلسطينى عندما صرح بأنه فى يوم ٣١ أكتوبر فى مدريد أسسنا الدولة الفلسطينية ؟! .

أحاديث فى الأدب :

الأدب والتجديد

بقلم : د . أحمد هيكل

فحين انفتح وجدان أدبنا العربى على الفكر الاسلامى فى صدر الإسلام ، دخل هذا الأدب طورا مضيئا ، أشرق بالقيم الإسلامية المجيدة والتعاليم المحمدية الرشيدة ، وأصبحت لغته أكثر سماحة ، وأنصع فصاحة ، وصارت روحه أدنى إلى الإنسانية وأقرب إلى المدنية ، بفضل ما رفده من الروح القرآنية والبلاغة النبوية ، وهكذا حلت فى الأدب قيم السلام والوئام ، محل قيم الصراع والخصام ، وقامت فيه تعاليم الحب وطهارة الوجدان ، على أنقاض تعاليم الكراهية والزهو بالعدوان ، وأصبح هذا الأدب العربى - مع الإسلام - يمثل المدنية العالية والإنسانية السامية ، بعد أن كان - فى الجاهلية - يمثل البداوة المتخلفة ، والقبلية الخشنة .. وحين اتسعت رقعة الأمة العربية وأتيح لها أن تنفتح على حضارات وثقافات أخرى ، دخل الأدب العربى مرحلة جديدة من مراحل تطوره



محمود تيمور



مصطفى المنفلوطى

وتجدده ، وهكذا أخذ من فلسفة اليونان وحكمة الهند وفكر الفرس ، وعرف أشكالا من التعبير وفنونا من التصوير ، لم يكن ليعرفها لولا هذا الانفتاح للتطور والاقبال على التجدد .. وإذا تجاوزنا بهذا الأدب أقاليمه الشرقية وتتبعناه فى بيئته الغربية الأندلسية ، وجدنا آثارا باهرة لاستجابة هذا الأدب للتطور فى ذلك المناخ الجديد ، حتى لقد وصل الأمر به إلى إبداع ألوان من الفن القولى لم تعُرف فى الشرق ، ومن تلك الألوان مثلا : الموشحات فى الشعر ، والقصصُ الأخروىُّ فى النثر . وأقصد

● الأدب مثل كل كائن حى ، لا يمكن أن يعيش إلا بالتطور والتجدد ، لأنه إذا ظل على صورته أصيب بالتوقف والتجمد .. وقد عرف تاريخنا الأدبى هذا على امتداد القرون وتعدد البيئات فكلُّ ما كان من ازدهار لأدبنا العربى ، قد ارتبط بالاستجابة للتطور والتفتح للتجدد ، وكل ما كان من تخلف لهذا الأدب - فى بعض الفترات أو البيئات - كان أثرا من آثار الانغلاق والتقوقع .





د. محمد حسين هيكل   صلاح عبد الصبور

بالقصص الأخروى ، هذا القصص الذى يتخذ مسرح أحداثه عالما آخر غير عالمنا ، كعالم الجن والدار الآخرة والسماوات ، وما إلى ذلك .. فشكل الموشحات فى الشعر - هذا الشكل الذى يعد أكبر ثورة فى موسيقى القريض العربى - نتاج أندلسى خالص ، قد جاء نتيجة لتطور الشعر العربى وتجدده فى تلك البيئة الغربية الجديدة .. وشكل القصص الأخروى فى النثر - هذا الشكل الذى سبَقَ بأول نماذجه الأديبُ الأندلسيُّ أبو عامر بنُ شهيدُ كلٌّ من كتبوا على منواله فى الشرق والغرب كأبى العلاء فى رسالة الغفران و « دانتى » فى الكوميديا الالهية - هذا الشكل نتاج اندلسى خالص كذلك ، قد جاء أيضا نتيجة لتطور النثر العربى وتجدده فى تلك البيئة الغربية الجديدة .. وعلى العكس من ذلك نرى أدبنا العربى قد تخلف وتجمد حين انغلق وتقوقع ، وذلك فى عهود سيطرة الأتراك والمماليك .. على أنه عاد إلى الارتقاء والحياة والازدهار ، حين تفتح من جديد واستجاب - فى العصر الحديث - للتطور والتجدد .. فبهذا التفتح خرج الشعر - منذ منتصف القرن الماضى - من الركاكة المطرزة بالبديع ، - والمشبهة للجثة الميتة المكفنة بالديباج - إلى البلاغة الحية والأصالة النابضة والشاعرية الحقة ، وكان ذلك مع أول حركة إحياء لشعرنا العربى فى العصر الحديث وهى الحركة التى رادها البارودى .

الأدب والتجـــــديد

موجات متتابعة للتجدد

ثم توالت خطوات التطور صاعدة إلى أعلى ، وتتابعت موجات التجدد دافعة بالفن الشعرى فى مدارج الرقى . فكانت أولا حركة التجديد بين الذهنيين ، الذين رسموا للقصيدة طريق الوحدة الفنية ، والتعبير بالصورة الشعرية ، ونادوا بالصدق الفنى ، واهتموا بالخيط الفكرى فى النسيج الشعرى حتى أصبح لنا مع هؤلاء التجديديين الذهنيين – وفى مقدمتهم العقاد العملاق – أصبح لنا شعر يخاطب العقل كما يخاطب القلب ، ويصور خطرات الفكر كما يرسم تموجات الوجدان ، وهو قبل هذا لا يضل فى نماذج الشعر المأثورة، وإنما يحاول أن يدل على صاحبه كما تدل عليه سماته وملامحه .. ثم جاءت بعد ذلك حركة الابتداعيين العاطفيين ، الذين ألهبوا القصيدة الحديثة بالعاطفة الجياشة، وأطلقوها محلقة بالخيال المجنح، وأنطقوها بلغة جديدة الصفات حديثة السمات فاتنة الملامح .. وهكذا أصبح لنا مع هؤلاء الشعراء الابتداعيين العاطفيين – وفى مقدمتهم ناجى العظيم – شعر عصرى واضح العصرية ، لا تقل نماذجه الممتازة عن مثيلاتها فى الأشعار العالمية .. ثم تلت تلك الحركة حركة أصحاب الشعر الحر ، الذين اهتموا بقضايا الإنسان المعاصر فى معاناته وعذاباته ، من أجل الحرية والعدل وسلام الروح ، والذين اعتمدوا فى موسيقى شعرهم على وحدة التفعيلة بدلا من وحدة البيت ، ولم يلتزموا تماثل القافية فى أواخر أسطر القصيد ، وإنما آثروا القوافى الحرة ، التى تأتى فى أواخر الأسطر متقاربة أو متوازية أو معتمدة على قافية رئيسية تأتى بين الحين والحين لتضبط الايقاع .. وهكذا أصبح لنا مع حركة الشعر الحر – التى رادها الشرقاوى وأصلها صلاح عبد الصبور – شعر أكثر معاصرة وأوضح حداثة . وأضافت نماذجه الجيدة وترا جديدا إلى قيثارة الشعر العربى ، وهو وتر أوسع استجابة لمقتضيات الأعمال الدرامية والقصصية التى تريد أن تتحدث بلغة الشعر وقد جاءت تلك الحركة كسابقاتها نتيجة للانفتاح الأدبى ، واستجابة لمقتضيات التطور والتجدد ، اللذين هما أساس التقدم والازدهار .

التأثر بالغرب

وبهذا الانفتاح الأدبى أيضا غَنِىَ أدبنا الحديث منذ أوائل القرن العشرين بفنون من النثر كان من قبل فقيرا فيها أو معدما منها ، وأهم تلك الفنون ، فنون القصة والرواية والمسرحية . فبفضل انفتاحنا على الأدب الغربى ، وبفضل تعرف روادنا الأوائل العظام على تلك

الفنون ، وبفضل تغير المناخ الثقافي والفكري والأدبي تغيرا مستنيراً نتيجة لكل حركات الاحتكاك الثقافي بالغرب طيلة القرن الماضي ؛ بفضل ذلك كله ظهرت في أدبنا القصة القصيرة مع محمد تيمور – بعد محاولات ممهدة من المنفلوطي وغيره – كما ظهرت الرواية الفنية مع محمد حسين هيكل – بعد محاولات ممهدة كذلك من مترجمين وممصرين ومؤلفين آخرين – كما ظهرت المسرحية الناضجة ، شعرية مع شوقي ونثرية مع الحكيم .. (وتتابعت المؤلفات القصصية والروائية والمسرحية ، وتعددت الاتجاهات وتوالت الأجيال ، حتى تأصل الأدب القصصي والمسرحي عندنا ، وأصبح يتصدر فنون الأدب الأخرى ..)

فتح النوافذ الثقافية

وهكذا نرى أن حياة أدبنا ارتبطت بالتفتح والتجدد ، وأن جموده ارتبط بالانغلاق والتجمد .. (ومن هنا كان علينا أن نعي دائما أن فتح النوافذ الثقافية والأدبية ضرورة حتمية ، وأن التعرف الواعي على ما عند الآخرين فريضة قومية وأن الإفادة من النافع والملائم والجيد الذي لدى هؤلاء الآخرين ، إنما هو الدم الجديد الذي يعالج « الأنيميا » الأدبية .. ولكن علينا أن نعي في الوقت نفسه أننا لا نستبدل دما بدم ، ولانفرغ أنفسنا من حقيقتنا لنقحم في كياننا حقيقة أخرى .. علينا أن نعي دائما أننا حين نأخذ عن الغير أنفع ما عنده وأنسب ما عنده وأحسن ما عنده، إنما نأخذه لنضيف إلى ما عندنا ، لا نلغي ما عندنا . نأخذه لنطعم شجرتنا ، لا لنجتث تلك الشجرة . نأخذه لنجمل ملامح أدبنا بالتوليد الخصب والمزاوجة المثمرة ، لا لنمسخ تلك الملامح بالخلط العقيم أو الترقيع المشّوه .. والسبيل إلي ذلك – كما نقول دائما – هو معرفة تراثنا والارتباط به والإفادة منه والبناء عليه والإضافة إليه ، ولكن دون التكبل به والعبودية له .. كل ذلك على التوازي مع التطور والتجدد ، بالتعرف على ما عند الآخرين والانتقاء منه والتطعيم به والتقويّ عليه ، ولكن دون التّغرُّب به والفناء فيه .

وإن نظرة مراجعة فاحصةً لأعلام أدبنا الحديث لتُصَدِّق ما نقول . فالذي تصدر منهم المسيرة وبلغ القمة هو من بنى عظمته على دعامتي التراث والانفتاح على الجديد ، مثل شوقي وطه حسين والعقاد والزيات .. وأما من جعل همه التراث وحده، فقد كبله التراث وعوق مسيرته ، وأما من جعل وجهته الأدب الغربي وحده ، فقد غرّبه هذا الأدب وأفقده هُويّته .. وأدبنا لا ينهض أبدا بالمكبلين ولا بالمغّربين ، وإنما ينهض بالرواد الحقيقيين ، الذين يؤمنون بأن أول التجديد هو قتل القديم درسا ، وأن أساس كل نهضة إنما يقوم على الأصالة والمعاصرة ، والأصالة ركيزتها التراث ، والمعاصرة روحها الانفتاح والتطور والتجديد .

السيرة الذاتية وجذور الإبداع

بقلم : د . مصطفى سويف

تناولنا فى مقالين سابقين موضوع السيرة الذاتية ، وكان ذلك بالإجابة عن سؤالين رئيسيين ، أولهما : ما هى السيرة الذاتية ؟ والثانى : كيف تُكتب السيرة الذاتية ؟ وقد آن الأوان للإجابة على هذا السؤال الثالث : لماذا نكتب السيرة الذاتية ؟ ونحن لا ندعى هنا أن كل من يتقدم لكتابة سيرته الذاتية يبدأ بأن يطرح على نفسه هذا السؤال ، ولا ندعى كذلك بأن طرح هذا السؤال ضرورة لابد منها كنقطة للبدء وبدونه يكون الكاتب قد حكم على نفسه مقدما بالفشل، ولكننا نرجح أن تكون إثارة هذا السؤال داعية لمزيد من إتضاح التصور السائد عن السيرة عند الكاتب والقارئ معاً ، وأن ذلك من شأنه أن يزيد من تجويد الكاتب لما يكتب ، كما أن من شأنه أن يزيد من قيمة العائد الذى يجنيه القارئ من قراءة هذه السيرة أيا كانت القيم والمعانى التى يبحث عنها وهو يقرأ ، والتوجهات التى تملى عليه قراءته .



لماذا نكتب السيرة الذاتية

مهما تكن الأسباب الدافعة القريبة ، أو الأهداف المقصودة البعيدة ، الكامنة وراء كتابة السير الذاتية على اختلاف كُتّابها ، ومستكتبيها ، فهناك محور رئيسى يضم هذه الأسباب والمقاصد جميعا هو شعور صاحب السيرة ، أو حكم من يستكتبونه ، بأن سيرته تنطوى على قيمة عامة تستحق النشر وأنه من الخير أن تقدَّم هذه القيمة لتحتل المكانة اللائقة بها فى نسيج الحياة الفكرية والاجتماعية .

على هذا النحو نفهم ما ورد فى المقدمة التى وضعها إدوين بورنج ، أحد أساتذة علم النفس الأفذاذ ، لمجموعة من السير الذاتية التى كتبها عـــدد من كبار أساتذة هـــذا العلم فى مجموعة كارل مرتشيزون الصادرة سنة ١٩٥٢ ، تلبية لطلب الجمعية الأمريكية لعلم النفس . قال بورنج : « إن بإمكان ما يحدّثنا به الكاتب عن نفسه ، وعن قيمه ، أن يمضى شوطا بعيداً فى تنبيه القارئ إلى الكيفية التى تتحرك بهـــا الدوافع البشرية لتصنع التقدم العلمى » . وقال فى موضـع آخـر : « وسوف يرى قارئ هذا المجلد إلى أى مدى يتبـاين هؤلاء الكتّاب فى طبيعة جهودهم » ، يعنى أن هذه الجهود مختلفة رغم أدائها لوظيفة واحدة هى الإسهام فى تقدم العلم . وقال فى موضع ثالث : « وقد بلغ هؤلاء الرجال ذلك العمـــر الذى إذا توقفوا عنده ونظروا إلى الوراء كان ذلك مفيداً » .

وحول هذه المعانى نفسها قال تشارلز داروين فى مطلع سيرته الذاتية : « وأنا أعلم أنه كان من الممكن أن يثير اهتمامى أن أقرأ شيئا كتبه جـدى بنفسه عن تفكيره ، حتى ولو كان ما كتبه مجرد مخطط شديد الإيجاز ثقيل الظل ، لأعرف فيم كان يفكر ، وكيف كان ينتقل من الفكر إلى الفعل ، وكيف كان يؤدى أفعاله » . قال هـــذا مشيرا إلى جـده إرازموس داروين ، وكان عالما مرموقا فى علم

السيرة الذاتية
وجذور الإبداع

الحيوان عاش فى القرن الثامن عشر .

وفى سياق مشابه يتمنى أحد كتاب الهلال الأفاضل ، الأستاذ زكريا سعيد على ، أن يكتب الأستاذ محمود شاكر ، الفقيه اللغوى الجليل ، سيرته الذاتية (راجع « الهلال » ، عدد ديسمبر سنة ١٩٩١) . يقول الكاتب : « فهل يوفر علينا الشيخ الجليل ذلك ويحدثنا عن حياته ، ويفتح لنا من صفحته وتجربته ؟ إننى فى شوق لسماع مثل ذلك ورؤية أيامه الماضية مسطورة بمداده المنير ، وإن هذا لفيه من الخير العميم لناشئة هذه الأمة وأدبائها جيلا بعد جيل » .

فى هذه الأقوال جميعا نستطيع أن نستشف شعور الكاتب ويقينه بأن السيرة الذاتية التى يشير إليها تمثل قيمة إيجابية ، ومن أجل هذه القيمة ينبغى الحرص على نشرها بين الناس ، أو بين النشء بوجه خاص .

القيمة الأساسية التى تنطوى عليها السيرة

يمكن الحديث هنا عن عدة جوانب تتضمنها هذه القيمة ، ولا يعنى ذلك أن هذه الجوانب جميعا تتوفر فى كل سيرة على حدة مهما تكن طبيعة المجال الذى اهتم به صاحبها ، أو حدود المساحة التى شملها نشاطه ، ولكنه يعنى أننا إذا نظرنا إلى السير الذاتية فى مجموعها وجدناها تنطوى على هذه الجوانب جميعا ، وربما انطوت على أكثر منها ، أما نصيب كل سيرة فقد يكون جانبا واحدا ، كما قد يكون أكثر من جانب .

الأبعاد أو الجوانب إذن متعددة فى مجموع السير المطروحة ، ومادمنا لا ننظر فى أمر سيرة بعينها ولا يعنينا إلى النشر العام لكل ما هو إيجابى فقد وجب أن نركز بقية الحديث فى مقالنا الراهن حول هذه النقطة ، ويصبح السؤال الآن : ما هى أهم هذه الجوانب ؟

يخيل إلينا أن هناك أربعة أبعاد رئيسية ، تنطوى عليها القيمة العامة للسيرة الذاتية ، هذه الأبعاد هى بمثابة مهام كبرى تقوم بها السير الذاتية المنشورة فى حياتنا الفكرية بوجه خاص والاجتماعية بوجه عام . وفيما يلى نذكر هذه المهام ونناقشها واحدة بعد الأخرى .

المهمة التربوية العامة

هذا هو أوضح جوانب القيمة الإيجابية للسيرة ، بمعنى أنه أقل المهام إثارة للجدل . أما كيف يتم أداء هذه المهمة فهناك عدة قنوات ينفذ من خلالها تأثير السيرة إلى قرائها : يأتى فى مقدمتها قناة الاقتداء بمعنى أننا هنا بصدد شخص وصل فى إنجازه إلى مستوى يرشحه لأن يصير قدوة . فهذا وحده يستثير قدراً من حب الاستطلاع الذى يمتزج أحيانا بالإعجاب ، وهو ما يوفر لدينا دافعا فيه الكفاية لنقرأ سيرته الذاتية ، ويوفر لدينا فى الوقت نفسه استعداداً لأن نتأثر بما يرد فى هذه السيرة ، ويكون ذلك على

سبيل المحاكاة الساذجة حينا ، والتعلم الناضج حينا آخر .

جاء فى السطور الأولى للسيرة الذاتية لبرتراند رسل ما نصه : « ثلاث عواطف بسيطة لكنها بالغة القوة ، هى التى حكمت حياتى : الحنين إلى الحب ، والبحث عن المعرفة ، وإشفاق لا حدود له على الإنسان فى معاناته . وقد فعلت هذه العواطف بى ما تفعله الريح العاتية ؛ عصفت بى هنا وهناك فى طريق لا يستقر له قرار ، فوق محيط زاخر الأعماق بالألم ، حتى لقد وصلت بى إلى حافة اليأس والضياع أو كادت .. وبقدر ما تمكنت من الحب والمعرفة فقد وجدتهما يرقيان بى الى عنان السماء . لكن الإشفاق كان يردنى دائما الى الأرض . كانت أصداء صرخات الألم تجد لها رنيناً فى قلبى .. كنت تواقا الى تخفيف الألم ، لكنى عجزت ، ومضيت أنا نفسى أعانى . هكذا كانت حياتى . وقد وجدتها جديرة بأن تعاش ، ولو أننى مُنحت فرصة حياة أخرى لعشتها مرة أخرى ، سعيدا بها » . هـذا نموذج لما ورد فى سيرة ذاتية تجبرنا على أن نفيـد منها تربويا .

ومع ذلك فما تكشف عنه المهمة من وضوح يوحى بأن أمر تحقيقها ميسور دون عقبات أو محاذير يبـدو نوعا من الوضـوح أو اليسر الخـادع المحفوف بالمخاطر ؛ فقد يرد فى كثير من اليسر ذكر بعض الأعمال والعادات التى يرفضها من كان همُّه تربية النشء ، ويتردد أمامها كثيرا من كان مراده تربية نفسه . مثال ذلك ما يذكـره كولريدج ، الشـاعر الرومانسى الإنجليزى ، الذى عاش فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، وقـد ذكر فى خطـاباته الشخصية (وهى تؤدى بعض مهام السيرة الذاتية) إدمانه تعـاطى الأفيون . وفى بعض المواضع يبدو هذا الإدمان مغريا لنوع معين من القراء بمحاكاته لأنه (كما قدمه كولريدج فى بعض المواضع) كان وراء الإشراقات الشعرية المبهرة ، فى قصيدته كوبلاخان ، لكنه فى مواضع أخرى يبدو مصدراً لكثير من العـذاب والتدهور الذى أصاب الشاعر ، هنا فى هذا الموضع ، وفى أمثاله ، وهى منتشرة بكثرة فى السير الذاتية وما يقرب منها من كتابات النابهين والعباقرة ، هنا تكون المشكلة الحقيقية ، أو بالأحرى إحـدى المشكلات التى تواجه المهمة التربوية للسيرة الذاتية للنوابغ والمبدعين ، ولا يتسع المقام هنا للدخول فى هذا المجال ومناقشة قضاياه المتعددة والمعقدة ، ولكن حسبنا أن نقدم فى هذا الصدد تعليقا موجزا نختتم به هذه الفقرة ، خلاصته أن السيرة الذاتية تعتبر أولا وقبل كل شيء نموذجا من نمـاذج الحياة المطروحة أمامنا ، والمطروحة علينا كصيغة للاسترشاد بها فى تنشئتنا الغير أو فى تربيتنا أنفسنا ، كل ما فى الأمر أن هذه السيرة نموذج مكثَّف من حياة شديدة الثراء بأنواع معينة من الخبرة ، وأن

تكون علاقته بالإنجاز النهائى علاقة السبب بالنتيجة فهذا غير صحيح ، فقد يكون الإنجاز الذى تم تحقيقه إنما تم بالرغم من بعض أحداث حياة صاحب السيرة لا بفضلها . وليس ثمة ما يمنع أبداً من تبنّى وجهة نظر متفتحة نحو هذه السير ، أو ما نسميه وجهة نظر انتقائية . على أن السؤال هنا مطـروح على كل مشـتغل بالتربيـة ، ومؤداه : كيف يمكن الإفادة تربويا من هذه السير ؟ وليس مطروحا الخيار بين أنْ نفيد أو لا نفيد .

المهمة التاريخية للحياة الاجتمـاعية المسامة

تتراوح السير الذاتية من حيث نسيجها أو بنيتها الداخلية بين سير شديدة الذاتية ، يقدم الكاتب فيها أحداث حياته الشخصية كما لو كانت تقع فى فراغ ، ولا يحركها إلا قراراته هو شخصيا ، وسير شديدة البيئية ، يتناول فيها صاحب السيرة أحـداث حيـاته كما لو كانت محكومة تماما بظروف الحياة الاجتماعية التى أحاطت به .

وقد تحدثنا فى مقال سابق عن المكونات الرئيسية للسيرة الذاتية ، وذكرنا من بينها ما أسميناه (حسب بحوث علماء النفس فى قوانين الذاكرة البعيـدة) باسم « الأنوار الكاشفة » ، وهى رواسب الذاكرة لدينا حول بعض الأحداث العامة المحلية أو العالمية ، وقلنا إن هذه العناصر تقوم عند الكثيرين منا بمثابة كيانات أو بؤر نفسية ذات طاقة عالية فى جذب كثير من الذكريات شديدة الذاتية نحوها وتثبيتها لفترات زمنية طويلة . وأنها لذلك تكون بمثابة نوع من الأعمدة الأساسية فى تثبيت بنيان الذاكرة البعيدة ، ومنها تنفذ بهذه الصورة نفسها الى معمار السيرة الذاتية . هنا فى هذا الموضع بالذات يبدو قدر كبير من القيمة التاريخية الاجتماعية للسيرة ، ويصبح السؤال الوارد فى هذا الموضع ، هو : ماذا تضيف هذه السير الى التاريخ الاجتماعى ؟ ويمكن صياغة الإجابة على هـذا السؤال على النحـو الآتى : إذا أحسن المؤرخون استغلال هذه السير ، باعتبارها وثائق تاريخية تخضع لجميع أنواع التمحيص العلمى ، فسيكون فى ذلك تجديد لكتابة التاريخ ، وسيمضى هذا التجديد فى الاتجاه الى مزيد من صدق الرواية التاريخية من حيث إن الصدق هو مطابقة القول للواقع . فالتاريخ كما نجده فى معظم الكتب المتداولة يعانى من سوأتين ، إحداهما أن يقتصر فيما يروى على شريحة ضيقة من الأحداث التى وقعت فى المجتمع ، هى فى أغلب الأحيان أحداث تتعلق بجهاز الحكم وقراراته بدعوى أن هذه الأحداث هى المعالم البارزة لحركة المجتمع عبر الشهور والأعوام . هذه إحدى السوأتين ، والثانية هى أنه يقدّم هذه الأحداث مبتورة من سياقها فى حياة المجتمع ، فلا ذكر للمقدمات البشرية

الحقيقية التى أدت إليها ، ولا للانعكاسات البشرية الواقعية التى ترتبت عليها . والنتيجة أن الأحداث المسماة بالتاريخية تبدو وكأنها كيانات ميتافيزيقية منفصلة تتوالى كما تتساقط حبات السبحة من بين الأصابع فى يد لا نعرف شيئًا عن صاحبها .

والنتيجة النهائية أن يترسَّب فى ركن مظلم فى عقل الدارس شعور بأن أحداث التاريخ تحركها قوى لها صفات القَدَر ، فهى مجهولة الهوية من ناحية ، ومطلقة القوة من ناحية أخرى . وهكذا ، بدلا من أن تكون دراسة التاريخ أداة لتنمية الشعور بالإرادة الجماعية ، وبأن المجتمع يصنع تاريخه من خلال ضروب من الصراع والتعاون متلاحقة فى مواجهة قوى وقيود ضاغطة ، تصبح هذه الدراسة أداة لوأد هذا الشعور . وحتى عندما يحاول بعض المؤرخين أن يوسِّعوا دائرة النظـــر قليـــلا بتحليـــل الحـــدث الذى يقدِّمونه فهم يلجأون إلى أساليب غاية فى السذاجة ، كالرجوع إلى تصريحات رسمية أو خطب جماهيرية ، أو يرجعون إلى ذكر أحداث عامة أخرى سبقت الحدث الذى يعنيهم ، وكأنمـــا الأحـــداث التاريخيـــة لا علاقة لها بهوية الأشخاص المؤدين لها والدوائر التى يتحركون بداخلها ، وما يتم داخل هذه الدوائر من فعل وانفعال

إن السيرة الذاتية المكتوبة من خلال إطار ذهنى يحدوه وعى رفيع المستوى بأمور الهم العام (إلى جانب الهموم الخاصة) كفيلة بأن تقدم المادة الخام التى يلزم المؤرخ المجتهد أن يحصل عليها لكى يكتب التاريخ بصورة تبرز بشرية الأحداث من خلال إلقاء الأضواء الواقعية على بشرية مقدماتها ونتائجها . وحتى إذا كنا لا ننتظر من المؤرخين أن ينهجوا هذا النهج فى المستقبل المنظور فمن حقنا على بعضنا البعض ، نحن المواطنين الكُتَّاب والقراء ، أن نعمل على تصحيح هذا الجانب فى التاريخ المكتوب ، من استطاع منا أن يكتب فليكتب ، موليا هذه « الأنوار الكاشفة » حقها من العناية ، ومن استطاع أن يقرأ فليقرأ هـــذه السير ليستمد منها ما يسد به بعض ثغرات التاريخ التقليدى . فالتاريخ مسار بشرى ، يتقدم من خلال تلاطم وتلاحم آلاف الإرادات ، وكلما اقتربنا من مشهد هذه الإرادات فى واقعها قبل الحدث وبعده ازداد التاريخ إفصاحا عن حقيقة ماجرى . ولا يعنى ذلك أن يتمادى المؤرخون فى الاهتمام بالتفاصيل بحيث يغيب عنهم إدراك الحدث فى مجمله، ولكن لا يجوز من ناحية أخرى أن يتم الاهتمام بالحدث فى جملته على حساب المفـــردات الإنسانيـــة التى أسهمت فى صنعه . إن ما ندعو إليه من شأنه أن يلقى فى نهاية المطاف مزيدا من الضوء على مشكلة غاية فى الأهمية بالنسبة لعلماء التاريخ والاجتماع والفلاسفة على حد سواء ، وهى « دور الفرد فى التاريخ » .

« البقية فى العدد القادم »

عن كتاب الدكتور على الراعى « الرواية فى الوطن العربى .. نماذج مختارة » :

المجد للرواية

بقلم : فاروق عبد القادر

● فى تقديم كتابه « دراسات فى الرواية المصرية ، ١٩٦٤ » ، يذكر الدكتور على الراعى أنه سئل لماذا وجه اهتمامه إلى الرواية المصرية ، ولم يتجه - مباشرة - نحو دراسة المسرحية المصرية دراسة شاملة ، وكان جوابه الواضح : « إن أية دراسة للجهد العربى المعاصر فى المسرح لا يمكن أن تكون عميقة بعيدة الجذور ما لم تسبقها دراسة للرواية والقصة . ليس فقط لأن المسرح وثيق الصلة بفنون القصة .. (...) ، بل لأن كثيرا من المشاكل الفنية والفلسفية والوجدانية التى واجهت كُتاب الرواية قد واجهت كُتاب المسرح فيما بعد (....) ، من أجل هذا كان لابد أن نمسح الأرض القصصية أولاً ، قبل أن تدرس المسرحية دراسة ذات بال .. » ، ومن ثم كانت تلك الفصول ، قصد بها صاحبها أن تؤلف « الجزء الأول من دراسة شاملة عن الرواية المصرية » ..

لكن الذى حدث هو أن أضواء المسرح وقضاياه شغلت الأستاذ الكبير ، فتتابعت أعماله : « الكوميديا المرتجلة فى المسرح المصرى، ١٩٦٨ » ، « فنون الكوميديا من خيال الظل إلى نجيب الريحانى، ١٩٧١ » ،« مسرح الدم والدموع ، ١٩٧٣ » ، إضافة لكتابه عن توفيق الحكيم « فنان الفرجة وفنان الفكر ، ١٩٦٩ » .



غلاف الكتاب



د . علي الراعى

وتوج الدكتور على جهاده فى ميدان المسرح بكتابه الكبير والشامل « المسرح فى الوطن العربى ، ١٩٨٠ » ، وفيه واجه « التحدى القوى الفاتن » المتمثل فى رسم صورة شاملة لواقع المسرح العربى المعاصر ، والحقيقة انه قد بذل جهداً هائلاً فى جمع مادته والعكوف على تحليلها ، فالتجزئة واقع قائم ، تعمل الممارسات السياسية اليومية على تأكيده وتعميق أشكاله ، ولعل هذا ما كان يعنيه بقوله فى تقديم كتابه : « من يقرأ هذا الكتاب سيجد نفسه دائما بين أهله ، أينما انتقل المؤشر من الخليج إلى المحيط : الهموم ذاتها ، الآلام بعينها ، الآمال وبواعى الاستبشار هى هى فى كل قطر عربى .. » ، واقع التجزئة هذا نفسه فرض على الباحث مادته وطريقة تناولها معاً ، وهو يقول بوضوح لا لبس فيه : « لم أتردد فى أن أثبت ما وصلنى من معلومات الغير عن مسارح عربية لم يتح لى أن أتعرف على إنتاجها تعرفا مباشراً ، مؤثرا فى هذا أن أكون ناقلاً عن أن أكون متجاهلاً والهدف العام لهذا الكتاب هو التعريف بالمسرح فى الوطن العربى ، وقد سلكت كل السبل المتاحة كى يكون هذا التعريف أوسع وأشمل ما تسمح به الظروف ، موقتنا - مع هذا - من أن جهداً أكبر لابد أن يبذل فى المستقبل ، كى يكون هذا التعريف كاملاً » .

وبعد أكثر من عشر سنوات ، يقدم لنا الدكتور على الراعي كتابه التوأم الرواية فى الوطن العربى » .

النضال ضد الواقع

وأقول إنه توأم ، لأن الهدف منه هو ذات الهدف . فى تقديمه يكتب : « المجد

للرواية العربية . لقد جعلها أفضل المبدعين فيها لسان حال الأمة ، وديواناً جديداً للعرب ، ومستودعاً لآلام وآمال أمتنا العظيمة مقطعة الأوصال . لا تزال شعوب هذه الأمة ترنو إلى التوحد من جديد ، لا تزال تناضل الحدود الزائفة ومؤمرات الأجنبي وقصر نظر الحكام المحليين لا تزال تستهزئ بالحواجز والكوارث وأسلحة البغي التي تحاول جاهدة الهيمنة على الشعوب .. » .

بعبارة أخرى ، يهدف الكاتب من كتابه أن يكون إسهاماً في النضال ضد الواقع الذي يفرض التجزئة ويكرسها ، وهو يسعى لتحقيق هدفه برسم تلك « الجدارية الهائلة » للرواية العربية ، عبر تناول أكثر من ثمانين عملاً لكُتاب من مصر والمشرق والمغرب والسودان والخليج . هو التقسيم الجغرافي ذاته ، بكل ما ينطوي عليه من شر وخير ، الذي سبق أن اعتمده في كتابه عن « المسرح » وإن كنا نلمس داخل هذا التقسيم رغبة في أن تشمل الأعمال موضوع المناقشة – في هذا البلد أو ذاك – أكثر من جيل من أجيال المبدعين ، وأن تفسح للمبدعات مكانا إلى جوار المبدعين .

وإنني أشهد بالجهد الهائل الذي بذله الدكتور علي الراعي في جمع مادته الروائية ، لأكثر من عشر سنوات ، وحتى كتب فيه الكلمة الأخيرة (مارس ١٩٩١) لم يكن له هَم سوى هذا العمل ، يبحث وينقب ويقرأ ويوازن ويختار ، يدفعه حرصه على تمثيل "كل" البلاد العربية (لم يفلت منه سوى قطر ودولة الأمارات وموريتانيا) إلى مزيد من السعي والتقصي .

هل هي المصادفة التي جعلت الرواية المصرية تشغل من الكتاب نفس المساحة التي شغلها المسرح المصري في التوأم الآخر ؟ (شغلت الرواية المصرية ١٨٤ صفحة من مجموع ٦٩٢ ، أي حوالي ٢٧٪، وسبق للمسرح المصري أن شغل ١٥٥ صفحة من مجموع ٥٥٨ ، أي حوالي ٢٨٪) ، على أي حال ، إن الكاتب يهدي كتابه كله لنجيب محفوظ " الذي فتح الأبواب أمام الرواية العربية " ورغم أن إهداء الأعمال يبقى ، دائماً ، ذا طابع ذاتي ، إلا أنه هنا يكتسب دلالة موضوعية تماماً ، في الحقيقة ، يصعب تماماً تصور قيام الرواية العربية ثم ازدهارها دون إصرار ودأب وكدح هذا الراهب العظيم في محرابها .

وإذا تذكرنا قول الدكتور الراعي في تقديم « دراسات في الرواية المصرية » الذي أشرنا إليه ، هل يمكننا أعتبار هذا القسم هو « الدراسة الشاملة للرواية المصرية » التي وعد بانجازها ؟

إنه يتناول سبعة وعشرين كاتباً وكاتبة (ثلاث كاتبات : لطيفة الزيات ، رضوى عاشور ، إقبال بركة) ، ويختار لكلٍ عملاً واحداً (الاستثناءات قليلة) . فهو يناقش عملين لكلٍ من لطيفة الزيات وعبد الحكيم قاسم ومجيد طوبيا ، كما يختار لخيرى شلبي رباعية قصصية لا عملاً روائياً) . إذا أضفنا لهذا الحصاد الوافر النماذج العشرة التى اختارها فى « دراسات فى الرواية المصرية » (وهى تبدأ بالمويلحى و« حديث عيسى بن هشام » لتنتهى إلى « ثلاثية » نجيب محفوظ ، مرورا ضروريا بالدكتور هيكل و« زينب » ، والعقاد و « سارة » ، والمازنى و« إبراهيم الكاتب »، والحكيم و« عودة الروح » ، وطه حسين و« دعاء الكروان » ويحيى حقى ، « قنديل أم هاشم » ومحمود تيمور و« سلوى فى مهب الريح » ، وعادل كامل و« مليم الأكبر ») لرأينا أن الكاتب قد استطاع أن يرسم أمامنا لوحة كبيرة وشاملة للرواية فى مصر ، تبدأ بأعمال روادها ومؤسسيها ، وتنتهى إلى أكثر أجيالها شباباً (محمود الوردانى وفؤاد قنديل ومحمود حنفى وسيد سالم) .

نماذج مختارة فقط

والدكتور الراعى يثبت فى عنوان كتابه أنه يضم « نماذج مختارة » ، لكنه لا يحدد لنا الأسس التى تم بناءً عليها هذا الاختيار ، ومن ثم فلنا أن نلاحظ غياب أسماء لها أهميتها عن تلك اللوحة : فى كتابه الأول حضر عادل كامل ونجيب محفوظ ، وغاب من رفاقهما عبد الحميد السحار وإحسان وعبد الحليم عبد الله وعبد الرحمن الشرقاوى ، ولكلهم أعمال جديرة بالمناقشة ، وفى كتابه هذا حضر سليمان فياض وصبرى موسى ، وغاب من رفاقهما أبو المعاطى أبو النجا وصالح مرسى وعبد الله الطوخى ومحمد جلال ، وممن جاء بعدهم حضر أصلان ويحيى الطاهر ومجيد والغيطانى .. إلخ ، وغاب من رفاقهم محمد البساطى ومحمد جبريل وعبد الفتاح رزق .. إلخ .

إننى لا أنتقص من الجهد الهائل الذى قام به الأستاذ الناقد ، لكننى كنت أتمنى أن أقرأ تحليلاً لبعض أعمال هؤلاء ، يتسم بما اتسم به تحليل أعمال رفاقهم من دقة ونفاذ .

هل ينصرف تعبير «النماذج المختارة» إلى أن الناقد قد اختار لكل كاتب عملاً واحداً هو الأكثر تعبيراً عنه ، ودلالة على مشروعه الروائى بوجه عام ؟

تصيب الاختيارات وتخطئ ، وعلى سبيل المثال فلو شئت أن تختار عملاً لنجيب محفوظ هو الأكثر تعبيراً عنه فى مرحلته الأخيرة ، فربما جاء هذا العمل

« ملحمة الحرافيش ، ١٩٧٧ » ، أو « ليالى ألف ليلة ، ١٩٨٢ » ، أو حتى « حديث الصبـــاح والمســـاء ، ١٩٨٧ » ، لكننى لا أعتقد أنه سيكون « يوم قتل الزعيم » الذى رأى فيه الدكتور الراعى ما ليس فيه ، وأغدق عليه من « كرمه النقدى » - لو صح التعبير . كذلك الأمر بالنسبة لفتحى غانم ، فرغم أهمية العمل الذى اختاره الأستاذ الناقد « حكاية تو » ، فإننى أرى أن لفتحى أعمالاً أخرى هى أدخل فى صميم مشروعه الروائى منه ، أعنى أعمالاً مثل « تلك الأيام ، ١٩٧٢ » أو « زينب والعرش ، ١٩٧٦ » ، أو « الأفيال ، ١٩٨١ » .

وقد احتفى الدكتور الراعى احتفاءً كبيراً برواية لويس عـــوض الوحيـــدة « العنقاء .. » ، ولا شك فى أن أهمية حضور لويس عوض فى مجالات أخرى غير فن الرواية ، وراء بعض هـــذا الاحتفـــاء . وبذات المنطق : ألم يكن يوسف ادريس - وما أنجزه فى مجال القصة القصيرة أعظم من أن يشار إليه - يستحق مكاناً صغيراً فى هذه اللوحة مترامية الأطراف ؟ ، ألم تكن « الحرام » أو « قصة حبى » أو حتى « البيضاء » جديرة بالمناقشة ؟

وفات عليك أن الأستاذ الناقد اختار ثلاث كاتبات فقط ، ومن ثم غابت كاتبات كثيرات من أجيال مختلفة : من أمينة السعيد وصوفى عبد الله وجاذبية صدقى إلى فوزية مهران وزينب صادق وسلوى بكر بل ان ثمة روائية جهيرة الصوت ، ذات حضور قوى ، وقضية ملتبسة ، كنت أتمنى أن أقرأ رأياً للدكتور على فى عمل من أعمالها الدالة عليها ، أعنى نوال السعداوى .

هل نثقل على الأستاذ الناقد ، ونحمله مزيداً من العبء ؟ لكن ما أنجزه هو ما يغرينا بطلب المزيد .

وقد أدى التقسيم الجغرافى الذى التزم به الكاتب إلى تفاوت درجة الاشباع التى تحققت لكل من البلاد العربية ، بقدر ما توفر من معرفة بكتابها ، وتوفر أعمالهم بين يديه ، وقد جاء حظ المشرق العربى - على وجه العموم - أوفى من مغربه (تعرض لسبع روايات من فلسطين ، وثلاث من الأردن ، وست من سوريا ، وخمس من لبنان - بينها أعمال ثلاث كاتبات - وخمس من العراق ، واثنتين لكل من السعودية واليمن والبحرين والسودان ، وثلاث من الكويت . أما عن المغرب فقد تناول الباحث رواية واحدة من ليبيا ، وثلاثاً من الجزائر ، وخمساً من تونس ، وستاً من المغرب) .

فرضت الضرورة - إذن - أن تمثل ليبيا برواية واحـدة (ثلاثية أحمد الفقيه

« سأهبك مدينة أخرى » ، وقد قرأها الباحث مخطوطة قبل صدورها فى لندن منذ شهور قليلة) ، وذلك أن أعمالاً أخرى لعلى المصراتي وخليفة التليسي وعبد الله القويري ، ثم أخيراً إبراهيم الكوني ، لم تتوافر للباحث ، ومن ثم يصعب اعتبار هذا العمل - على أهميته - ممثلاً للتعبير الروائى فى ليبيا من حيث علاقته بالواقع وقضاياه .

ومن الجزائر أحسن الدكتور الراعى الاختيار تماماً حين ناقش « الجازية والدراويش » لعبد الحميد بن هدوقه ، و « التفكك » لرشيد بو جدرة ، فكل من العملين يمثل صاحبه خير تمثيل أما اختيار « عرس بغل » للطاهر وطار فلست أظنه كذلك . إن ما أعطى للطاهر قدراً كبيراً من أهميته فى مجال الرواية العربية إنما هو تعبيره الفذ عن اندلاع الثورة الجزائرية وأحداثها ، وما أعقب الاستقلال من سيطرة التجار والانتهازيين والكتبة والعسكر على مقدرات الأمور فى البلاد ، من هنا كنت أفضل لو أن الدكتور على ناقش « اللاز » (ولها جزء ثان بعنوان « العشق والموت فى الزمن الحراشى ») أو « الزلزال » .

وفيما يتعلق بتونس والمغرب ، فلا شك فى أن عدم معرفة السياق الذى يضم الأسماء والأعمال ، ويصنفها حسب أجيالها واهتماماتها ، يجعل من العسير مناقشة اختيارات الباحث ، لكنه - فيما يبدو - تعمد أن يختار أعمالاً لأجيال مختلفة منهم ، حتى تتكامل الصورة قدر الامكان ، وإن كان يلفت النظر هنا أن المغرب العربى كله يخلو من كاتبة واحدة ! .

لكنهن حاضرات بقوة فى رواية المشرق : اثنتان من فلسطين ، واثنتان من سوريا ، وثلاث من لبنان ، وتسرى ذات الملاحظة حول حضور البعض وغياب الآخر هنا أيضا : حضرت غادة السمان وغابت كوليت خورى ، كذلك حضرت اميلى نصر الله وغابت ليلى عسيران وبالنسبة للروائيين فقد نفتقد بين السوريين فارس زرزور وصلاح دهنى (من جيلهما نجد حنا مينه وعبد السلام العجيلى) ، كما نفتقد وليد إخلاصى (من جيله حضر الباقون : هانى الراهب وحيدر حيدر وخيرى الذهبى ونبيل سليمان) ، وبين الأردنيين قد نفتقد إثنين لا يقلان حضورا فى الرواية عن إبراهيم نصرالله (الذى ربما كان شاعرا أكثر منه روائياً) هما مؤنس الرزاز والياس فركوح .

رغم الغياب والحضور ، فإن اللوحات الداخلية التى يرسمها الأستاذ الناقد للرواية فى تلك الأقطار ، ومن ورائها الواقع بوجوهه الإنسانية والسياسية والاجتماعية ، لوحات متكاملة ومعبرة ، فقد توفرت المعرفة الكافية بالأعمال والسياق

معاً ، ومن ثم جاءت هذه الفصول إضافة ثمينة لنقد الرواية فى الوطن العربى .

كذلك الحال بالنسبة للعراق (وكما كان الأمر فى كتاب «المسرح» : يصر الدكتور على إدراج العراق بين بلاد الخليج ، وأراه بين بلاد المشرق) ، فقد اختار نماذج معبرة ودالة لعدد من أهم روائى العراق ، وعرض لها مناقشاً رؤاها وأفكارها وأدواتها الفنية جميعا . على أن هناك ملاحظة مدهشة استوقفتنى حول رواية فؤاد التكرلى «الرجع البعيد» (وهى عندى من أهم الروايات العربية جميعاً ، وهى – وحدها – وضعت اسم صاحبها بين الروائيين الكبار)

فى تقديم الكتاب يذكر الدكتور على : وفى «الرجع البعيد» يعتدى فؤاد على ابنة عمه منيرة ويفتضها ..» (ص١١) ، وفى مناقشة الرواية ذاتها نقرأ : «لم تخطئ منيرة أبداً بمحض إرادتها ، لم تزل ، وإنما اعتدى عليها ابن خالتها اعتداءً فظاً ..» (ص٤١٦) .

والحقيقة التى رفض الدكتور على .. بأخلاقياته الواضحة وحسه السوى . أن يراها هى أن عدنان الذى اغتصب منيرة ليس ابن عمها ، ولا هو ابن خالتها ، لكنه ابن اختها . ودلالة اختراقه حاجز المحارم حين اخترق عذريتها ، ووضع بذرة المأساة فى الرواية كلها ، دلالة لا تخطأ . وقد كانت هذه الشخصية بحاجة لمزيد من اهتمام الاستاذ الناقد ، فهو – من البداية – عدوانى عنيف ، لم يكمل تعليمه ، واندفع إلى حياة لاهية وعلاقات حزبية غامضة ، وحين أخرجته منيرة من عالمها بقى متشبثاً به ، فهو يطاردها فى بغداد بعد أن انتقلت إليها ، وهو الذى ينقل إليها فى النهاية النبأ الفاجع ، نبأ قتل مدحت ، ويحمل إليها بطاقة هويته ، بعد أن اغتلمت بغداد ثم هدأت ، وأعدم عبد الكريم قاسم، وسكت حوار الرصاص .

وفى ضوء معرفتنا بتاريخ العراق المعاصر ، يصبح عدنان نموذجاً لطراز سائد من الحزبيين الذين يغتصبون الناس والسلطة ، ويخترقون حاجز المحارم وكل الحواجز الأخرى . تلك إحدى الدلالات التى غابت فى «الرجع البعيد» . ثم أن التكرلى قد كتب كل حوارات روايته الكبيرة – والكثير من مونولوجات أبطالها – بالعامية العراقية (البغدادية) الصعبة ، من حيث مفرداتها وإبدال حروفها ، وقد كنت أتوق لمعرفة رأى الناقد الكبير فى هذا الأمر : هل أدت العامية المستخدمة إلى مزيد من صدق الشخصيات واستدارتها واكتمالها ، أم أنها وقفت عقبة فى سبيل تلقيها ؟

الهويات المثبتة فى جوازات السفر أطالت قامة كلٍ من السعودية ، السودان ، فقد أضافت عبد الرحمن منيف إلى الأولى، والطيب صالح إلى الثانية ، وكلا الروائيين الكبيرين تجاوز حدود بلده نحو

العالم العربى كله ، ثم انطلق إلى العالم الواسع . وفى تحليله لرواية «عرس الزين» يبلغ الدكتور الراعى أفقاً رائعا وهو يشيد بهذا العمل الذى يراه «زغرودة طويلة للحياة ، أنشودة حب يرتفع بها صوت فنان كبير القلب قدر ما هو كبير المعرفة ، لعل أكبر قدراته وأهمها تتمثل فى أنه أزال نهائياً ذلك الحاجز غير المنظور الذى يفصل بين الفنان وبين ناسه ...

ورغم أهمية «شرق المتوسط» فى إبداع عبد الرحمن منيف (وقد عاد إليها من جديد، فنشر روايته الأخيرة حول ذات الموضوع، بعنوان «الآن .. هنا» أو شرق المتوسط مرة أخرى ، ١٩٩١) ، إلا أنها ليست ممثلة له قدر ما تمثله خماسية «مدن الملح» التى أراها درة فريدة فى الرواية العربية كلها ، أو رواية «النهايات» التى أراها رواية البادية بامتياز ، شهادة بدوى يعرف الصحراء والمواسم والخصب والمطر والقحط والجفاف والحيوان والنبات والطير، ويتشمم رائحة الغيم ويتعرف على نذر العاصفة، ويعيش مع أهل قريته - هى دائماً ذات القرية التى تقع على حافة الصحراء - متمثلاً أنماطها الثقافية وأصفى قيمها . إن أحد هذين العملين كان سيمثل إبداع عبد الرحمن منيف ، تماما كما مثل « عرس الزين » إبداع الطيب صالح .

ولا شك فى أن الفصول التى أفردها الدكتور الراعى للرواية فى الكويت واليمن والبحرين هامة من حيث إنها تقدم لمحات عن الرواية وصلتها بالواقع فى تلك البلاد . ولعل أهم القضايا المطروحة هناك هى التغير السريع فى شكل الحياة وإيقاعها بعد النفط ، من ناحية ، ثم القهر الذى توقعه نظم الحكم الجائرة بأهل تلك البلاد، من الناحية الأخرى . وفى هذا الضوء فإن لى ملاحظة حول اعتبار الروائى إسماعيل فهد بين أهل الكويت ، وأنا أحسبه عراقياً أقام هناك ، ودليلى لا يتعلق بالبيانات المثبتة فى جواز سفره بطبيعة الحال ، لكنه يتعلق بأعماله الروائية الأولى التى نشرها أوائل السبعينيات (كانت السماء زرقاء - المستنقعات الضوئية - الحبل - الضفاف الأخرى) ، فقد كانت تنتمى - بوضوح - إلى الرواية العراقية ، وتدور أحداثها فى العراق ، بل إن بينها وبين أعمال العراقى عبد الرحمن الربيعى أكثر من صلة ونسب . وفى هذا الضوء أيضاً ، فإنه بقدر ما تبدو رواية «بحرية» للكويتى وليد الرجيب ذات دلالة هامة فى تصوير ماضى الكويت وحاضرها ، قدر ما تبدو «المرأة والقطة» لليلى العثمان بعيدة عنه . لعل رواية ليلى التى تتسق وهذا السياق هى «وسمية تخرج من البحر» ، التى تحاول فيها استخلاص صورة الكويت القديمة الوادعة من قبضة العدم . وقد يكون بعض الدافع وراء هذه الملاحظة أن ليلى هى الكاتبة الوحيدة التى

المجد للرواية

تجد مكاناً صغيراً بين روائىّ العراق والخليج . وقد كان يمكن لصوت المرأة أن يتضح أكثر لو أن الاستاذ الناقد عرض لبعض أعمال العراقيتين لطيفة الدليمى وديزى الأمير ، أو البحرينية فوزية رشيد .

يستخدم الدكتور على الراعى – فى تقديم فصول كتابه الكبير – منهجاً يقول عنه إنه «يرسم صوراً فنية للعمل ، تتأتى بعد تحليل أجزائه ، وإعادة تركيبها وفق منظور الناقد الخاص ، بحيث يعرض العمل الفنى فى ثناياه الأحكام النقدية ، صريحة أو متضمنة ..»

وعندى ، إنه المنهج الصائب ، والملائم تماماً لموضوعه ، فبه استطاع الاستاذ الناقد تحقيق هدفيه معاً : اشرك القارئ معه فى التعرف على العمل ، وقاده بيسر نحو تكوين آرائه الخاصة فيه ، ثم قدم له – فى ذات الوقت – حكمه على العمل ، من خلال ما سبق من استعراض مواطن الجمال والقوة (أو النقص والضعف) فيه .

تزيد أهمية هذا المنهج حين نضع فى الاعتبار صعوبة الحصول على كثير من الأعمال موضوع المناقشة ، مما يجعل قارئيها أقلية قليلة ، أضف لذلك تلبية رغبة القارئ المشروعة فى التعرف على الأسباب والبواعث التى دعت الناقد لأختيار العمل أولاً ، ثم التى دعته لإصدار هذا الحكم أو ذاك عليه ، ثانياً .

ما أبأس أولئك النقاد الذين يبدأون قارئيهم بأحكام لا يعرفون كيف توصلوا لها ، يصوغونها فى مصطلحات جهمة لا يعرفون معانيها الدقيقة عندهم ، وما أقل جدوى ما يكتبون ! .

وقد وعد الدكتور الراعى قارئيه أيضاً بأن «تصبح الكتابة النقدية بهيجة وممتعة..» ، وقد أنجز وعده ، فجاء كثير من صفحات هذا العمل عبقة بعطر الفن الجميل .

بعد دراسات الاستاذ جورج طرابيشى المتصلة فى الرواية العربية (والتى تحويها كتبه المتتالية : «شرق وغرب» ، «رجولة وأنوثة» ، «والأدب من الداخل» ، «ورمزية المرأة فى الرواية العربية» ، عقدة أوديب فى.....» «والرجولة وايديولوجيا الرجولة فى.....» و «انثى ضد الانوثة..») التى يعتمد فيها التقسيم الموضوعى ، ويستخدم منهج التحليل النفسى بصفة أساسية ، تأتى دراسة الدكتور على الراعى الهامة والشاملة والممهدة لتثبت ، حقاً ، أن الرواية قد أصبحت أهم قنوات التعبير فى أدبنا المعاصر .

نعم . المجد للرواية العربية .

« غضب مرتقب .. ودروس في النقـد والترجمـة »

بقلم : عايدة الشريف

غضب مرتقب هو عنوان المقال الذى حلل فيه الدكتور مجدى وهبة كتاب « فى الطريق إلى ثقافتنا » للعلامة محمود محمد شاكر . ونشره بالإنجليزية بمجلة « يوميات الأدب العربى » التى تصدر فى بريطانيا ، ونقله إلى العربية وكتب له المقدمة الأستاذ زهير شاكر ، وظهر فى كتيب صغير عن دار المدنى .

يحمل هذا الكتيب الصغير كثيرا من دروس النقد والترجمة .. وكيفية إبراز مثل هذه الرسالة وسط مجالها الذى كتبت لأجله تأكيدا للأبعاد الغائرة بين سطورها ، ثم تقديم صاحبها كطرف أوحد للحوار مع الاستشراق الحديث إن أراد ذلك .

تسنى هذا كله للدكتور مجدى وهبة لأنه لم يسلك طريق من تصدى من قبل لنقد كتاب « رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا » أولئك الذين انصبت كتاباتهم على الكتاب نفسه منفصلا عن المجال الذى كتب له ، فجنحت أحكامهم إلى تفاصيله وجزئياته ، وخلت من النظرة الشمولية التى تحيط بأبعاده . فبدت وكأنها ليست معلقة فى الهواء فقط بل وكأنها تدافع عن الاستشراق أيضا .

وقد لجأ هؤلاء الكتاب لهذا المنهج لأن أصحابها لم يلمحوا الخيط الدقيق بين كون هذا الكتاب رسالة وما تحمله هذه الصفة من صيغة تقترب من الترجمة الذاتية ، ومن ثم خلطوا بين الخاص فيها والعام ، ولأن همهم انحصر فى التصدى لآراء صاحب الترجمة العلامة محمود محمد شاكر الذى

عرف بالتصدى ، فإنهم رضخوا للجانب الذاتى وتركوا عموم الوثيقة أو القذيفة وعلى من تطلق ، فطاشت سهامهم .

ولأن الدكتور مجدى وهبة يعرف المرسل والمرسل إليه معرفة محيطة ودقيقة فإنه استهل تحليل الرسالة وتجليتها برسم الخلفية التى تبرزها . فرصد أولا ردود أفعال كتاب « الاستشراق » لادوارد سعيد الذى سدد سهاما من الشجب والاستنكار إلى صميم قلب الفضـــول الثقافى الغربى (الاستشراق) يتهمه بأن له دوافع بعيدة ، لا تليق بالقيم الجامعية الخالصة ، ثم يلقى الضوء على المقالات الاعتذارية للاستشراق الحديث . كالمقالة التاريخية لبرنارد لويس وكذلك مقالات النقد الشخصى والموضوعى التى كتبها ألبرت حورانى ومكسـيم رودنســـون ، ونورمان دانيل ، وفحواها كلها التنصل من أغراض ودوافع الاستشراق القديم .

ولا يفوت الدكتور مجدى أيضا التنويه لى قلة ما لقيته دراسة ادوارد سعيد من هتمام فى الكتابات العربية ، خاصة من الكُتاب التقليديين أو السلفيين الإسلاميين وحتى بعد أن ترجم إلى العربية فإنه لم يحظ إلا بآراء كُتَّاب يغلب على إطارهم الفكرى صبغة (التغريب) نشرت ببيروت .

ثم يتتبع الدكتور مجدى بزوغ الرغبة فى الحوار بين طرفى الصراع الذى وإن لن يصل إلى التوفيق بينهما .. سيصل حتما إلى سبر أغوار كلا الطرفين لنفسيهما ، حتى يتعرف كل منهما على ذاته ، التى يجب أن يعرفهـــا الجـانب الآخر عنه .

الصبغة الذاتية

ولمسة من هنا وإضاءة من هناك تتقدم الرسالة على يد الدكتور مجدى حتى تصل إلى البؤرة فتتألق وتشع . فنتبين الأسباب التى أعطتها الصبغة الذاتية ، ألا وهو ارتطام المرسل بنتائج الاستشراق ، « من الحروب الصليبية إلى حملة نابليون وبالذات رسالة نابليون لكليبر حتى الاستعمار الإنجليزى » ممثلا فى عملية تفريغ الوعى القومى من الارتباط بالتراث ومنابع الانتماء - التى وضعها دوجلاس دانلوب - موصولة بكل المذاهب المبتدعة فى ظلها ، كمذهب الشك الذى تناول به الدكتور طه حسين دراسة الشعر الجاهلى والحكم بانتحاله ، وكيف جفاها شاكر محيلا ذهنه إلى صفحة بيضاء برغبة إعادة كتابتها بما تمليه عليه دراسته لجذوره أو جذور الثقافة العربية الخالصة .

ولأن شاكر كمستكشف يرتاد رحلة مجهدة إلى ينابيع وكنوز تراثه القومى والدينى .. يريد أيضا أن يعبد طريق رحلته



محمود محمد شاكر



غلاف الكتاب

لمن يسير فيه من بعده . فوضع اللافتات الإرشادية والمنارات كلما اعتورت الطريق الصعاب، فاضطر إلى أن يكتب رسالته فى هيئة يوميات أى أوليات الشعر والأدب بجميع أنواعه والتاريخ وعلم الدين بفروعه المختلفة والفلسفة بمذاهبها المتضاربة ، وكل ما هو صادر عن الإنسان إبانة عن نفسه وعن جماعته ، وكان يرمى من ذلك كله إلى أن يكتسب السليقة العربية التى يكشف بها تراثه الأدبى .

ثم خلص من هذه الرحلة بطولها إلى حكم نقدى جاد يقتضى من صاحبه أن يجمع مادة النصوص ثم يخضعها للدراسة النقدية وهو ما أسماه قبل المنهج : ثم المنهج الذى يبنى عليه متسلحا بتجرد من الأهواء والمنازع الشخصية .

ولأن ما قبل المنهج أو ثقافة الأمة العربية شديد الوثوق بدينها الإسلامى الذى يرتضعه الإنسان من فطرته وتعليمه منذ كان وليدا حتى يصبح جزءا لا يتجزأ من الإنســان . أى أنه لا يوجد فهم بـدون اعتناق .

ولأن المستشرق ليس لديه من كل هذه العناصر إلا لغة يتعلمها الواحد منهم بعد أن يستوى رجلا : وإلا نوازع متعصبة وليدة نظام وجدان أجنبى عن الإسلام . فلن يستطيع النظر بموضوعية علمية للعلوم الإنسانية .. ولا أن يتوصل من استكشافه هذا لأى نتائج جامعية ذات قيمة تفيد القارئ فى أى مكان من العالم . اللهم إلا اكتساب قوة تضاف إلى قوة أمته الغربية وثقافته هو نفسه ، أو لكى يبحث عن حجج يستعين بها فى الهجوم على التراث.

هذا باختصار هو الاتجاه الذى يراه شاكر وينبرى للدفاع عنه بكل ما أوتى من قوة . وهو اتجاه لا يقبل أى تنازلات ، متشكك إلى أقصى الحدود فى التفسيرات الأجنبية رافض فى الواقع لأى احتمال للفهم الحقيقى خارج النطاق المحدد للعالم الإسلامى نفسه . ويصف الدكتور مجدى صاحبه شاكر بأنه صوت أصيل معبر عن

الغضب والاستياء العربي بعد إثني عشر قرنا من المواجهة مع الغرب .

ممثل متفرد

ولأجل ذلك كله يرشح الدكتور مجدى وهبة محمود محمد شاكر كممثل متفرد كطرف للحوار الواقعي بين المستشرقين الجدد والعرب المسلمين ، ثم يبرر اختياره بأنه لا جدوى من أن يمثل جانب الإسلام فى الحوار المرتقب نماذج مثل د . طه حسين أو المثقف شبه الماركسى الحديث ، أو حتى من يسمون بالإسلاميين المعتدلين ، حيث لا يمكن للنظام الثقافى الغربى أن يدخل فى حوار مثمر مع صورته فى المرآة .

وكان الدكتور مجدى وقد شعر بالموقف الحرج للغرب وتساؤله : كيف يمكن للمرء أن يتوصل إلى طول الموجة التى يمكن التخاطب عبرها مع وجهة النظر التى تعبر عنها الرسالة التى كتبها شاكر ؟ ولديهم تفسيرات مختلفة لحقائقهم التاريخية ؟ وفى التو يرشدهم : ليس من الضرورى أن تتقبل ما تقوله الرسالة التى كتبت بعاطفة مشبوبة ، ولكن بألمعية بارعة قبولا مطلقا . ولكن من الضرورى أن تلتحموا مع الغضب الذى تعبر عنه ، لأنه غضب ناتج عن التمسك المخلص للمعتقدات الإسلامية ، فهى سجل لما يستاء منه العديد من المفسرين المسلمين وما يؤمنون به ، وما يخشونه وما يثير غضبهم عندما يقفون موقف المواجهة مع الغرب الغاصب .

بعد هذه النصيحة يتناول الدكتور المشاريع التى يقترحها الغرب لبدء الحوار : كاقتراح أندريه ريموند ، و (المشروع الإسلامى) لهدجسون : حيث اقترح الأول أن يبدأ الحوار من منطلق نقاط الاتفاق بين الثقافتين العربية والغربية أعمال أرسطو ، والعلوم الطبيعية اليونانية ، تشرب فنون التصميم المعمارى، والمصطلحات الشعرية ، ويؤشر عليها بعدم الصلاحية ، وعدم الكفاية ، لا سيما والمسلمون - بنص القرآن - خير أمة أخرجت للناس وأن هذه الأمة هوجمت مرارا من جانب إناس ذوى عقيدة ذائغة أو بلا عقيدة .

أما الترياق الثانى أو مشروع هدجسون الإسلامى الذى يرى الحل فى إشباع حاجتى التخطيط الاجتماعى عند العرب ، وتثقيف الجماهير لدى المسلم : فإنه يهى بمجرد مضاهاته بآراء شاكر التى توضح أن إشباع هذين الاحتياجين هو بالضبط ما يحققه النظام الإسلامى والعمل فى محيط المجتمع الإنسانى المنظم الذى يقوم على الإيمان المبنى على أساس الوحى الإلهى .

ويكاد الدكتور مجدى يجزم باستحالة الحوار بين الثقافتين إلا إذا استطعنا أن نمحو من ذاكرة المسلمين كل الماضى

الاستعمارى ، وأن نجعل المسيحيين واليهود يسلمون بنبوة محمد . وهو جزء من العداء المتأصل بين العقيدتين المطلقتين وميراثين مثقلين بالتجريم . تقضى إلى أن تعتبر مشروع الحوار : محض أمنية معلقة أو خاطر غير تام الأدوات قد يحدث إثر تحقق شرطين هما : إنتهاء المرحلة الطويلة من الإقامة من الانبهار ، والانسحاب النفسى اللتين إتسم بهما المناخ الثقافى لموقف العرب من الغرب منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، ويبدأوا يتفحصون التراث اليهودى والمسيحى بروح من التساؤل، ويعترف الجانب الغربى بماضيه الاستعمارى الآثم : ثم يتفحص التراث الإسلامى بأمانة . فالفضول وحده هو القادر بمرور الزمن على التغلب على الغضب .

هكذا جعل الدكتور مجدى الحركة تدب فى هذه الرسالة وتنمو لتظهر ليس كوثيقة هامــة فى تاريخ الفكر فقط ولا باعتبارها شهادة على تاريخنا المعاصر فحسب ، وإنما لكونها جماعا للقضايا التى يثيرها العرب والمسلمون فى مواجهة الاستشراق وهى دروس يجب أن يعيها كل من يتصدى للتحليل لأى وثيقة .

أما الدروس المستفادة من هذا الكتيب للمترجمين فتتضح من المقدمة التى كتبها المترجم حيث أظهرت كم هــو عليم بشخصيتى شاكر ووهبة وعلمهما وتوجهاتهما . وقد ظهر بجلاء فى الهوامش التى أثبتها فى ترجمته . والتى تدل على معرفته الممتازة لأصول الترجمة . فهو عندما وجد أن مؤلفات شاكر مذكورة فى صلب مقال وهبة وجد أن من الإخلال إضافة أى شئ إليها فى مقدمته . وعندما وجد أن المقال يعلق على صفحات من الرسالة .. لم يقم بترجمتها بل عاد يكتبها من النص العربى ، وعندما سها على كاتب المقال وكتب أن الرسالة كانت مقدمة للطبعة الثانية لكتاب المتنبى لشاكر .. مع أنها فى الحقيقة مقدمة للطبعة الثالثة .. عدل المتن بما يوافق الواقع . أما عندما ذكر الدكتور مجدى أن شاكر عارض مذهب الشك الذى تناول به الدكتور طه حسين دراسة حياة المتنبى وعصره فقد علق فى الهامش وبأدب شديد (هذا مما سبق به قلم الدكتور مجدى وهبة فقد كان هذا الخلاف حول شك الدكتور طه حسين فى الشعـر الجاهــلى لا فى المتنبى ووقع (ز ش) .

رحم الله المترجم زهير شاكر وكاتب التحليل الدكتور مجدى وهبة ومد الله فى حياة كاتب الرسالة محمود محمد شاكر . وجعل الهلال تصدر الطبعة الثالثة منه والرابعة والخامسة ... من « رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا » .

ملاحظات حول بينالى الإسكندرية السابع عشر

محمود عوض عبد العال

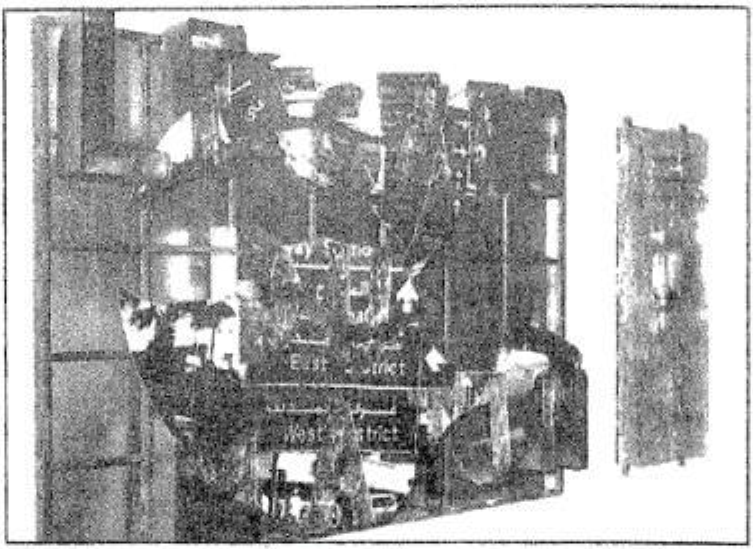
فى كل دورة لبينالى فنانى البحر المتوسط بالاسكندرية ، والذى يعقد كل عامين ، يثار الجدل حول هذا الحدث الفنى العالمى الكبير .. خصوصا الدورة الأخيرة ، وهى السابعة عشرة التى أكتنفتها عدة ظروف صعبة للغاية ، كان أبرزها تأخر انعقادها دورة كاملة ، فجاءت بعد أربع سنوات وهى اكثر ما تكون تراجعا عن جميع الدورات السابقة ، حيث أعتذرت عن الاشتراك دول عربية وغير عربية هامة مثل تونس والجزائر والمغرب وتركيا والأردن ، يضاف إلى هذه الاعتذارات ، قلة الأعمال الفنية من فنانى الدول المشاركة .

على سبيل المثال ايطاليا شاركت بمصور واحد (فينشنزوساتا) ومعروف أن إيطاليا بها قمم فنية عالمية فى مجالات الفنون المختلفة من تصوير ونحت وحفر ، وكذا فرنسا شاركة بخمسة شبان مصورين فقط ، وقبرص بمصورين فقط ، وليبيا مصور واحد ، فيكون مجموع الفنانين المشاركين من الدول التسع (مصر - اسبانيا - اليونان - ايطاليا - سوريا - فرنسا - فلسطين - قبرص - ليبيا) ٣٤ فنانا .

وقد كان البينالى يزدحم فى سنواته السابقة بأكثر من سبعين فنانا من ذوى السمعة والشهرة والمكانة المتقدمة فى بلادهم ، يضاف إلى ذلك وصول بعض أعمال الدول المشاركة بعد الافتتاح ، الأمر الذى حرمها شرف التواجد بالكتالوج الفخم الذى أعدته كلية لفنون الجميلة بالاسكندرية .

أسباب التراجع

داخل البينالى إلتقينا بالفنان الرائد



من أعمال البينالى للفنان رمزى مصطفى - مصر -

حامد عويس العميد السابق لكلية الفنون الجميلة بالإسكندرية ، والذى فجر قضية البينالى بأبعادها الإيجابية والسلبية فقال :

«إن التدنى والهبوط الذى حاق ببينالى الإسكندرية لدول البحر المتوسط فى دورته السابعة عشر ، ليس وليد اليوم ، ولكنه نتيجة حتمية لسلسلة من السلبيات والأهمال لازمته طوال السنين الماضية .

أولا عدم أحترام موعده ، أو الغاء لبعض دوراته ، ثم قلة ، ما خصص له من اعتمادات ، وتفاهة القيمة المخصصة للجوائز ، ويقف خلف كل هذا عدم إيمان المسؤلين عنه كظاهرة حضارية ، ولقد سخر لهذه الدورة الكثير من الطاقات والجهود والامكانات التى كان يمكن أن تجعل منه مهرجانا فنيا يليق بمصر ، فمثلا تدخل وزارة الثقافة ممثلة فى المركز القومى للفنون التشكيلية بالدعم المادى الجزيل وتدخل جامعة الإسكندرية ممثلة فى كلية الفنون الجميلة بتصميم جميع مطبوعات المعرض ، فظهر لأول مرة فى تاريخ هذا المعرض كتالوج يليق بجلال الحدث ، وازدانت شوارع الإسكندرية بملصقات للمعرض غاية فى الأبداع حتى بطاقة الدعوة تمت على مستوى فنى فاق

كثيرا من الأعمال التي حواها المعرض .

ولا يمكن أن نغفل فى هذا المجال الجهود الفنية التى قام بها كوموسير المعرض .. وبالرغم من كل هذه الإمكانات والطاقات التى بذلت لم نتمكن للأسف من ان ننقذ المعرض من الهبوط ، لأن المهم فى مثل هذه الأمور هو جدية اشتراك عدد من الفنانين المهمين فى بلاد البحر المتوسط فى المعرض ، وهذا هو ما لم يتحقق فى هذه الدورة لانعدام الثقة بين الفنانين الجادين وهذا المعرض الذى فقد أهميته وان كل ما نراه من أعمال فى المعرض لهى نوع من الاستجابة السياسية لبعض الدول مجاملة لمصر .

المنشـأ

وعن فكرة بينالى الإسكندرية وكيف ولدت يضيف الفنان حامد عويس :

كانت مصر بعد ثورة ١٩٥٢ تقود أكبر ثورة تحرر في منطقة الشرق العربي وأفريقيا ، وسيطر الأسلوب الثورى على كل ألوان النشاط الفنى فى مصر .

لقد كان تشييد مبنى خاص كمتحف للفنون الجميلة بالإسكندرية ، يعتبر ثورة فى حد ذاته ، فما أن وجد المتحف حتى فكر القائمون عليه في تدشينه بعمل ثقافى كبير يتوج هذا الأنجاز ويليق بالإسكندرية كأقدم مدينة حضارية تطل على البحر المتوسط ، ويقام كل سنتين بالتناوب مع بينالى البندقية الدولى بايطاليا .

ويضيف الدكتور حامد عويس : عقدت أول دورة للبينالى عام ١٩٥٥ وجاءت على عكس المتوقع، وأقوى مما كان منتظرا لها، وذلك لمساهمة بعض رجال المال والأعمال الأجانب المقيمين فى الإسكندرية بتقديم مقتنياتهم الفنية القيمة من أعمال فنانى القرن التاسع عشر والعشرين ورأينا فى المعرض لأول مرة أعمال راود الفن الأوربى طليعة الفن الحديث الذين تزين أعمالهم متاحف العالم ومجلدات تاريخ الفن .

وقد حقق نجاح الدورة الأولى عام ١٩٥٥ للبينالى ، ثقة فيه ، حتى إن بلدا كأسبانيا مثلا انشأت قسما خاصا ببينالى الإسكندرية فى وزارة الاستعلامات والسياحة ، وتوالت الدورات وتبارى فنانو دول البحر المتوسط فى تقديم إبداعاتهم ، واكتسب البينالى ثقة الفنانين رغم تواضع جوائزه التى كانت غالبا لاتصل إلى مستحقيها بين الأجانب .. وللأسف .. وكأى عمل جميل وعظيم فى بلدنا نحيطة بالحماس والأهتمام عند نشأته ثم يفتر الأهتمام رويدا رويدا ، ، لولا الجهود الفردية التى قام بها حسين صبحى من أجل الابقاء على هذه الظاهرة إلى آخر أيام حياته .

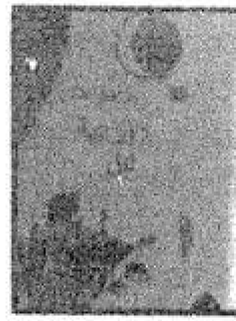
بدأ المعرض يعانى من الأهمال حتى وصل إلى ما وصل إليه فى هذه الدورة ، وبكل أسف لا أجد فى هذا المعرض ما

يمكن أن يقدم للناس فى مجال الفن الجديد ، إذا ما استثنينا الجناح المصرى لجديته والتزامه باحترام الحدث ، كما برزت مساهمة غير منصفة من جماعة الأتيلية بالإسكندرية في تشتيت المعرض وكشف عيوبه بإستحواذها على الأعمال القليلة للجناح الفرنسي ليعرض فى قاعات العرض بالأتيلية ، فى الوقت الذى كانت فراغات متحف الفنون وصالاته تشكو من قلة ما تحويه من معروضات ، وانني لأشعر بالاشفاق لتورط لجنة تحكيم المعروضات ومنح الجوائز التى اضطرت لأن تعطى جوائز لاعمال لاترتقى لمستوى فنى رفيع حتى أنها منحت جائزة أحسن جناح للجناح الفرنسي ، وكنت أفضل إذا ما كانت هناك حتمية لمنح جوائز ، فإن الجناح المصرى وفنانيه هم الأجدر بكل الجوائز لجديتهم واحترامهم للمعرض .

وحول البينالى يتحدث أيضا الفنان الدكتور طارق زبادى ، وهو أحد المواهب البارزة فى مجال النحت المعاصر من بين جيل الشباب ، وله حضور فنى ممتاز فى دورات البينـالى التى إشترك فيها ، فيقول : نحن حريصون على نجاح بينالى الإسكندرية ، حرصنا على استمرارية تقدم الفنون التشكيلية فى مصر ، من خلال الاحتكاك الدولي ، ورؤية أنفسنا بعد ذلك عند التقييم والمقارنة ، ومن خلال هذا الحرص فإن مشكلات البينالى لن تنتهى وستظل تتجدد عند كل لقاء ، لكن يبقى معه حرصنا على استمراريته فى موعده وهو حدث هام تميـزت به مصر فى المنطقة .

وإزاء المشكلات التى تعترض الطريق يقترح الفنان طارق زبادى نقل تبعية البينالى من محافظة الإسكندرية إلى أى جهة أخرى تتولى تنظيمه بشكل أفضل ، وذلك لأن محافظة الإسكندرية تعتبر البينالى عبئا عليها ، وليس فرصة لاستغلاله ولو سياحيا ، وتساءل الفنان طارق : لماذا لايكون هناك مكتب دائم لبينالى الإسكندرية كما تفعل بعض الدول الأوربية ، ودول حوض البحر الأبيض ، كما أنه يمكن الترشيح من الآن لدورتين قادمتين ، فالفنان الذى يعرض فى أى بينالى فى حاجة إلى وقت وجهد واستعداد ، ايطاليا فى هذه الدورة واضح جدا أنها لم تهتم .

وأضاف طارق زبادى : مطلوب كتاب أحصائى شامل جامع عن جميع دورات البينالى ، يمكن من خلال تجميعة ودراسته والأستفادة منه ، ونحن قادرون على الدفاع عن البينالى ومعنا كل المثقفين لأنه صار جزءا حيا من وجداننا الفنى ، ولايمكن السكوت على محاولة تقويضة أو تشوية صورته ، وسوف يبقى البينالى مدرسة فنية ومعرضا عاما واحتكاكا دوليا .. طالما بقى فى الفنانين ذاك الهمّ الفنى الذى تشربوه من حب هذا البلد .



الكتاب : وردية ليل

تأليف : إبراهيم أصلان

الناشر : شرقيات – القاهرة

١١٢ ص ، ٥ ج م .

هذا هو الكتاب الرابع لإبراهيم أصلان ، سبقه « بحيرة المساء » مجموعة قصص ، « مالك الحزين » رواية ، « يوسف والرداء » مجموعة قصص .

وفي هذا الكتاب الجديد يقدم لنا أصلان مجموعة متواليات قصصية من عالم واحد ، هو عالم الليل الذي كان يشكل بالنسبة للبطل وقتا خاصا مشحونا بالذكريات التي لا يمكن الفكاك منها .

إنها مشاهد أولى يمد أصلان خلالها يده ليوارب الأبواب ، ويمضي بنا إلى تلك الحنايا المأهولة بنفر من أهل الليل ، الحنايا العامرة بدفء القلوب عندما تتجاور ، يلملم الأشجار والأحزان ونجوم الليالي ، ويجمع إبتسامات الرجال وآمالهم، ويلامس جراح الروح بأطراف الأصابع برفق ، ولكن دون وجل لينتهي بنا ، بقدرة الفنان ومهارة المبدع إلى عالم كامل غير مسبوق ، يغنينا ويملأ نفوسنا بفيض من الأسى والبهجة والتراحم .

يقدم الكاتب هنا تصورا روائيا يقوم على اختصار مساحات من الزمن ليتوقف عند أطوار مختلفة ومتباعدة من حياة هذا النفر القليل من الناس ، وحياة الوطن الذي يعيشونه ، ويجسدها في مشاهد يكتمل كل منها على حدة وإن كانت ، في تجاورها ، تمنحنا عقدا واحدا موصولا ، له حبات من النور ، ترتجف، لتهدينا إلى قلب العتمة .



الكتاب : مقدمة في نظرية الأدب

تأليف : تيري إيجلتون

ترجمة : أحمد حسان

الناشر : الثقافة الجماهيرية

٢٥٦ ص ، جنيه مصري .

هذا الكتاب يطرح على نفسه مهمة تقديم تقرير شامل على نحو معقول عن نظرية الأدب الحديثة لمن تكون معرفتهم السابقة بالموضوع ضئيلة أو معدومة .

ورغم أن مشروعا كهذا يتضمن ، بالطبع ، ضروبا من الحذف والمبالغة فى التبسيط ، فقد حاول المؤلف أن يجعل الموضوع شعبيا ، لا مبتذلا ، وحيث إنه لا توجد ، فيما يعتقد النيات ، طريقة محايدة غير تقييمية لتقديمه ، فقد دافع طوال الوقت عن قضية بعينها .

على سبيل المثال فإن المؤلف يرى أنه ليس من المحتمل أن يقود التمييز بين الحقيقة والخيال إلى بعيد ، وليس السبب الوحيد لذلك أن التمييز نفسه موضع شك فى العادة ، فقد جادل البعض ، بأن التعارض الذى نقيمه بين الصدق التاريخى والصدق الفنى لا ينطبق على الإطلاق على أنواع بعينها من الأدب .

فى الأدب الإنجليزى وفى أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر يبدو أن كلمة « رواية » كانت تستخدم لكل من الأحداث الحقيقية والخيالية ، وحتى التقارير الصحفية لم تكن لتعتبر حقيقية ، أى ببساطة ، لم تكن تمييزاتنا القاطعة بين الخيال والحقيقة سارية .

على هذا المنوال ، من تتبع المدارس الأدبية ونظريات الدرس الأدبى وتبيان الفوارق الدقيقة بينها ، يمضى الناقد الإنجليزى الشهير تيرى إيجلتون فى كتابه هذا الذى يعد أحدث كتبه الذى تقرؤه كل الأوساط الثقافية النشطة فى العالم ، وهو يعد وأحدا من الكتب الهامة فى مجال الفكر النقدى خلال العقد الأخير ، وقد حرص فيه المؤلف على اعتصار أبرز المنافع التقنية والفكرية المعروفة والمؤثرة.



الكتاب : ما رآه السندباد

شعر : حسن توفيق

الناشر : المؤسسة العالمية للطباعة والنشر قطر ، ١٦٠ ص

هذا هو الديوان الثامن للشاعر حسن توفيق يواصل فيه مسيرته الشعرية التى بدأت منذ الستينات دون انقطاع .

يضم الديوان عشرين قصيدة أغلبها من شعر التفعيلة وبعضها جاء على نظام الشعر الكلاسيكى العمودى .

من أجواء الديوان :

كلما قلت سأبقى فى بلادى بين أهلى وصحابى والعباد / تدحرج القلب على الأشـواك تيـار الضجر .

فتشبثت بحزنى ، وبحلم كاد يخبر ، وتذكرت السفر . عندما كنت أرى وجهى على مرآة موج البحر معتزا بأن الوجه وجه السندباد .

آه كـم كنت أحب الخوض فى قلب الخطر

آه كم كنت أغنى عندما أكشف نارا حوصرت حينا .

بأكداس رماد ورماد

ضجر شوك قلبى إذ رأى نارا ولكن لا أرى فيها إتقاد .

وأرى الضـجـر يوافينى بأشياء تعاد

وأرى ناسا يضيقون مع الفجر ، يروحون ، يجيئون .

ولكن بابتسـامات مريبة .



الكتاب : رجال فى حياة أم كلثوم

تأليف : عبـد النور خليل

الناشـر : مطـابع روزاليوسف

٢٣٢ ص ٤٠ ج م .

يتابع هذا الكتاب مسيرة أم كلثوم من زاوية أولئك الرجال الذين إرتبطت بهم مسيرتها الطويلة فى الفن العظيم الذى قدمته .

لكن لماذا أم كلثوم الآن ؟

يقول الزميل عبد النور الخليل الذى مارس النقد الفنى قرابة الثلاثين عاما فى إجابته عن هذا السؤال :

ببساطة .. لأننا مازلنا نعيش فى عصر أم كلثوم الذى بدأ فى مطلع هذا القرن ، ورغم انقضاء سبعة عشر عاما على رحيلها فلم ولن نشهد نهـاية هـذا العصر الكلثومى لسبب بسيط آخر هو أن صوتها الذى تنشره أغانيها وتراثها الغنائى جيلا بعد جيل ، لم يزل القمة المعجزة فى شرقنا العربى ، وليس هناك من الدلائل ما يشير إلى أن صوتا عبقريا جديدا ، ولد أو قد يولد ، لكى يصنع عصرا جديدا آخر للغناء العربى .

كل الأصوات فى ساحة الطرب والغناء فى عالمنا العربى شرقا وغربا عاشت وتعيش تحت مظلة صوت قيثارة السماء كوكب الشرق سيدة الغناء العربى الخالدة أم كلثوم .

على أى حال فإن المؤلف يسرد قصة أول رجل من الوسط الفنى تعرف على فنانتنا الموهوبة وهى فى مرتع الصبا ، وهو الشيخ أبو

العلا محمد الذى ما أن سمع صوتها حتى أصر على أن يدفع بها إلى قلب الحياة الفنية ، وكان لقاء المصادفة على رصيف محطة القطار فى السنبلاوين بين الشيخ وأم كلثوم أهم حدث فى حياتها ، فهذا اللقاء هو الذى حدد ملامح مستقبلها فيما توالى بعده من أيام ، فقد كان الشيخ أبو العلا هو الذى أقنعها بالنزوح إلى القاهرة وتعهدها فى البداية ، ولم يفارقها حتى آخر يوم من حياته ، وكان هو الذى مهد لها الوجود على خريطة ساحة الغناء والطرب فى القاهرة فى بداية العشرينات .

بالاضافة إلى هذه العلاقة ذات الطابع الخاص ، يسرد الكاتب علاقة سيدة الغناء بكل من أحمد رامى ، وزكريا أحمد ، والسنباطى ، ومحمود الشريف ، وغيرهم وغيرهم ممن الرجال الذين ربطت بينها وبينهم وشائج الفن الرفيع .

جاسوس فى قصر السلطان

بقلم : فوزية مهـــران

إذا كانت المسرحية من تأليف محمد عنانى يمكننا القـــول أيضــا إنهــا من خلق كرم مطـاوع ومن إبـداع أشرف عبـد الغفــور ...

● التاريخ » دائما مادة خصبة وغنية للمؤلف المسرحى والأحداث التاريخية حافلة بألوان الصراع والمتناقضات وتضفى على المسرحيات المستمدة منها حيوية وواقعية وتشيع جوا حقيقيا لتأمل أحداث جرت بالفعل ، وقد يعيد الكاتب قصصا وأساطير اخترعوها من خيالهم وسرت مثل الاساطير بينهم .

إن جوردن شايلد المؤرخ الفيلسوف يقول عن التاريخ إنه علم التقدم وان المعرفة لدينا تتطور من خبرات الأجيال السابقة وإن تتبع الحدث التاريخى يضفى الكثير من الفهم والكشف وتجديد العلاقات الإنسانية .

علاقة متبادلة بين المؤرخ والمؤلف المسرحى .

المؤرخ يسجل الوقائع والأحداث والدرامى يلتقط لحظة .. أو حدثاً .. موقفاً .. شخصية يبرز بها معنى وفكرة ويناقش الواقع والحاضر من خلالها .

لقد أخذ شكسبير مادته التاريخية من كتب توكيتدس وبلوتارخ « سير الأعلام العظام من اليونان والرومان » .

(قال تشيرشل إنه تعلم تاريخ بلاده من مسرحيات شكسبير أكثر من كتب التاريخ) .

استلهام التاريخ

وعلى ذكر شكسبير فإن الدكتور محمد عنانى يحب ويعلم ويترجم مسرحيات



شكسبير ، ووجد ضالته المنشودة فى هذا العالم الرحب الحافل بعراقة التاريخ .. وعبق المسرح ومؤشرات الحكمة ولحظات التنوير .

وقد تأثر بالمعلم طه حسين الذى أقام الدعوة لاستلهام التاريخ .

(وهو واجب وطنى وقومى أن نحاول بعث تاريخنا ورصد حركة التحرر والتقدم فيه) .

وكانت الزيارة إلى التاريخ وأعمال التنقيب فيه فى عهد المماليك - فترة حافلة زاخرة بألوان المرارة والهزل وتألق روح السخرية والنكتة كسلاح مصرى قديم .

الجديد في الأمر أنه جعل المماليك فى مواجهة عموم المصريين - لا يوجد البطل الخارق أو المخلص العظيم . مجرد إنسان عادى من أهل الصنعة ومن قلب السوق .. محاط بالمئات مثله من النجارين . والحدادين والخياطين والنساء العاملات .. حركته من بينهم .. وتساؤله على لسانهم .. واندفاعه من أجلهم .. وتقدمه متبوع بحركتهم وحيرتهم واندفاعهم إلى المجهول هو أيضا لم يركز على واحد من المماليك بعينه - إنما ركز على إنسان بسيط من وسط السوق وظل يصعد به إلى البطولة وكأنه يسجله فى ذاكرة التاريخ - وفى تاريخنا الخاص والعام ، وهو دور مشهود لأشرف عبد الغفور ، مشهد البداية فى سوق القلعة .. فى قلب ساحة هموم المصريين .

فى الخلفية إحدى بوابات مصر القديمة .. تقف شاهدة . قباب شامقة من العمارة الإسلامية . نتنزل إلى قلب السوق .. الركود فى النفوس وفى الحركة .. الأزمة والبوار وسوء الحال على الوجوه وفى الطريق العام يتحدثون عن شاعر كذاب مأجور يأتى كل حين ويزيد من وقع البلاء .. فهو يتحدث عن انتصارات ورخاء وسعة وحبور !

يتحدثون أيضا عن محمود « نجار » يرفع صوته ويتساءل بصوت مسموع متى تجئ الأخشاب وينتظم دولاب العمل والانتاج .

(لمحة أخذنها من مسرح شكسبير .. التقديم للشخصيات قبل ظهورها على المسرح .. وتحريك الاستعداد للقائها) .

الناس يعيشون بأحلام اليقظة - يلعقون الخوف .. ويلعنون الشاعر ولكنهم يريدون أيضا أن يصدقوا أنباء الانتصار والرخاء القادم على الأبواب .

ويقسون على النجار العنيد « أشرف عبد الغفور » يقولون إن عقله أصبح خشبيا جامدا مثل مادة صناعته - (ربما يحصنونه بقسوتهم وسخريتهم من أعين البصاصين) يجترون الأحلام .

ممثل عموم المصريين !

أشرف عبد الغفور أو محمود - أجمل فتى فى السوق .. عاقل وجسور لا يرضى عن حال أصدقائه - فى أوقات المحن والفراغ والأزمة عندما يتوقف الابداع وتدور الشائعات وتنزل إلى السوق فنون الخداع والأكاذيب .

هو الرجل البسيط - ممثل لعموم المصريين - نجار فنان ومبدع - يريد أن يعثر على مادته الخام .. يبدع صنعها ويتقن عمل الأثاث وإقامة بيوت جديدة لو توافرت لديه .. الأحلام تتحقق .. يصير العمل والخلق والجهد المتقن أسلوب حياة (حقا فى ظل الإبداع والخلق تبنى المجتمعات والنفوس من جديد) يصمم أن يذهب إلى قصر السلطان .

بدلا من هذا الانتظار القلق المميت - قصر السلطان ملئ بالخيرات والأخشاب الملقاة بإهمال - يطلبها .. ليصنعها ويرمم بها حياة الناس وتبدأ العجلة فى الدوران .

هناك حكمة شعبية قديمة - إذا كنت تريد المواجهة أو الحقيقة فاذهب إلى عرين الأسد - لذلك يصمم محمود على الذهاب إلى عرين السلطان .

ويحاول أن يثنيه عن عزمه الحداد المجرب الحكيم (جمال الشيخ) ليحميه - فهى رحلة الهلاك واختراق الألف ميل من

المكائد والفخاخ والشراك - والحقيقة ملقاة هناك بإهمال مثل أطنان الثروات والأرصدة المجمدة والأخشاب ومواد الصناعة والبناء) .

- إنها رحلة البحث عن الحقيقة ، وانتزاعها من قلب الأسد العجوز وبراثن الأساطير .

إبداع المخرج

تجلى كرم مطاوع وجعلها لوحات حية تنبض وتشع حركة داخلية وتنطق بذاتها .. بدأ بالساحة الشعبية وقلب منطقة الحرفيين - سر مصر الزاخر وكنزها المخبوء سر البسطاء المبدعين على مر العصور .

أدخلنا المخرج فى عمق الصورة والمشهد .. عزف بكل المفردات لديه .. جعل السقا ينادى « اشرب ماء النيل الصافى » .

وظف النداء والغناء وتداخل الأصوات وتتابع جمل الحوار بحيث جعل السوق يضج بالحركة وتتصعد الحكمة والشفرة الساخرة ، وحبكة النكتة ، وتباين النغمات وردد آهات وجع القلوب - حمل الكلمات الشاعرية للمؤلف بموسيقى تصويرية كامنة وصادحة .

المسرحية أطنان من الكلمات - كلام فوقه كلام - حوار كثير وتكرار لنفس المعنى والأقوال .

ويجعل المؤلف إحدى بطلاته - أم علية - لم يمسسها بشر ولم تتزوج - وهكذا اسمها وتتوهم أن بالبيت علية ابنتها حقا وعلى وش زواج . تقول عن العصر : إنه كلام فى كلام .

عندما يجئ نبأ غرق سفن الأخشاب يدرك محمود أنها لحظة المواجهة لابد من شحذ الطاقات - الخامات موجودة بالداخل « الخشبية والإنسانية » .

(لا تنقصنا الصنعة ولا روح الابتكار)

- المعجزة لاتأتى من الخارج أبدا - لكنها فى الداخل من إبداع الحلول .. والعمل الجاد المتقن والايمان بحق العيش والعدل ، وهذه رسالة المسرحية .

وعلى عكس لوحة السوق والساحة الشعبية .. وبوابة مصر القديمة والقباب المشرعة نحو السماء .

تكون ردهة القصر المقبض .. وأبوابه الجانبية المغلقة تحوى خلفها الكثير من الدسائس والمؤامرات وتكمن القصص المريضة والأحلام المحبطة .

القصر يبدو فارغا فعلا ..

المخرج كرم مطاوع أراد لكرسى العرش ووسائد السلطان وفراش الترف والاسراف أن تكون معلقة فى الهواء .. تنزل من أعلى .. وتختفى فالكل يحلم بالسلطة .. بالكرسى ولا شئ له جذور أو ضارب فى عمق الأرض ومصلحة الناس أو النفع العام .

وهكذا بلمسات ذكية .. وتصور يقظ

أعطى خلفية سياسية عن عصر المماليك واهتزاز الملك .. وتهاوى النظام .

ساندته فى الرؤية التشكيلية « سكينة محمد على » وجعلت الستائر ونسيج المخمل الثقيل كأنها حواجز كثيفة تحجب عنهم الحقيقة .. ومشاعر الناس وفوران الناس والقلوب فى الخارج ، وكانت ذكية وجعلت التباين ملموسا وشاهدا .

من أحلى المواقف أيضا فى المسرحية لوحة السجن داخل القصر .

اندفعت أم علية بشهامة بنت البلد تنقذ النجار الذى اتهم بأنه جاسوس وتنقذ العامل لديها الذى تبعه هناك .

غرفة مغلقة موحشة مظلمة أكد بها كرم مطاوع عمق القهر والظلم فى القصور .

يقف كل فى ركن بعيد .

يناجى نفسه والواقع .

مديحة حمدى الأميرة أو الخاتون .. يرمونها بالجنون لأنها تحلم بفارس شجاع من الشعب يخطفها على حصان أبيض ويبعدها عن القصر المريع .ووجدت فى النجار الجميل صورة حلمها .. وأقصوها عنه .

تنزل من أعلى بفراشها الحرير .. لكنها أسيرة ومعذبة مثلهم .

وفى الركن محمود النجار .. أدرك الحقيقة فى القصر الغريب .. كانوا ينتظرون الجاسوس ويعدون لاستقباله .. والاتفاق معه أيضا .. كل لديه خطة فى التعاون وفى رسالة إلى الأعداء .

والآن يتهمونه بقتل السلطان .

وكل ما يريده الأخشاب .. ليبدأ العمل .

وأم علية ملقاة فى ركن بعيد تعلن عن خيانة حبيبها الذى هجرها .. وارتكانها لصورة وهمية فيها دف « ومشاركة وزواج .

العودة إلى الحق

فى القصر أيضا توجد فتاة مصرية .. تخفت فى صورة أميرة « سلوى خطاب » تعرف خبايا القصر .. وكل الحكايات والتلفيق وتود الخروج والهرب بنفسها .. ومن النجار الموهوب تعرف أنها لابد أن تفكر بناسها فى الخارج وتحاول مساعدتهم وتحررهم .

كانت تتحرك بثقة وكلماتها تصدر من أعماق قلبها .. وتعيش دورها حقا وكأنه حقيقة .

الدكتور عنانى قدم السلطان فى صورة ساخرة هزلية .. (محمد أبو العينين) جعله يجمع بين البلاهة والمكر . ولعب الدور ببراعة وبدى فى صورة بهلوان يتخابث وكان معاونوه أكثر مكرا ودهاء وإن سخر منهم أيضا .

(حمزة الشيمى) فى دور سيف الدين بدا متآمرا طبيعيا يستفيد من كل الأحداث لصالحه ، و (مدحت مرسى) فى دور علم الدين أعطى حيوية أكبر للدور .. وخفة ، وكان يلون صوته وكأنه يسخر من النموذج وهو يقدمه .

جماعة القصر أبرزهم كرم مطاوع مثل الأراجوزات .. الكروش المتخمة .. والعقول المغلقة على مظاهر السلطة وإطالة مدة التمتع بها وألبستهم سكينة محمد على أكتافا مصنوعة عريضة ، وزينت الكروش بالماس والأحجار . جعلتهم بالفعل كالبالونات المنفوخة ، ورجال جوف تضيق ملابسهم على أرجلهم حتى لتكون حركتهم القفز والشقلبة وعدم التوازن أو الاتزان .

أشرف عبد الغفور يمتد تأثيره علينا حتى خارج العرض كان ممثلا لعموم المصريين ومنـدوبا عنا فى السـوق .. ومتحـدثا ببساطة أهل الديار ويحرك وجداننا وتفكيرنا .

ويظل يتبعنا بطريقة مشيته .. بحركته القافزة داخل القصر .. بنغمة الصدق داخله .. ببساطة أدائه.. كان فردا .. وكان جمعا .

لدرجة لا أتصور هذه المسرحية بدونه .

ماذا يحـدث لو أنه ليس النجار الموهوب .

مشهد النهاية . كان التشكيل فيه جميلا وبليغا ..

عودة إلى السوق .. مواجهة بين أطماع المماليك والناس .. محاولة احتواء وتزييف الحقيقة من جديد .. وصحوة بين أهل السوق .

سجلها كرم مطوع كأنها صفحة من كتب التاريخ ، ومن ذاكرة الشعوب .

لوحة جديدة أقامها كرم مطاوع من كتاب وصف مصر مصرية التكوين والإبداع .

المشهد الأخير .. وقد وجهت الطعنة الغادرة للنجار البديع .. محمود أو أشرف عبد الغفور .

يقول : لقد قتلت شعبا .

فالتتار على الأبواب .

يحيط به الصناع وأهل السوق - ويدخل البحار فلقد علم البحارة الشجعان بالحال وجاءوا يحرثون البر أيضا .

ينطلق دخان أبيض شفيف وكأنه أفق المستقبل القريب كان يمكن أن ينطق بتلك الحكمة الشاعرية البسيطة « عندما تطعن مصريا يقوم عنه عشرة أو ألف » .

وتظل اللوحة هكذا ساكنة .. صامتة .. محملة بالمعنى والأمل .

فقــر الفكــر في السـينما المصرية

بقلم : مصطفى درويش



عمر الشريف لم ينقذ اسمه فيلم «المواطن مصري» من الفشل

نجاح الفيلم أو فشله ، إنما يرجع أساسا إلى السيناريو، هل هو مبتكر أم لا ، وإذا كان مأخوذا عن عمل أدبي فهل معالجته له سينمائية أم لا .؟ !

وفي كلا الحالتين هل هو محكم البناء ، يقدم المعاني التي يدور من حولها في صور تتتابع بجلاء ومنطق واضح يترتب لاحقه على سابقه ، أم بناؤه مترهل ومعانيه غامضة معتمة ، على نحو يوحي بالتخبط والتخليط .

وهذا القول فى أهمية السيناريو من الأمور البديهية التى لا خلاف عليها . أو بعبارة أخرى من المسلمات .

وإذن فلماذا تكرار الذكر له الآن ؟

كانت السنة الماضية فى أيامها الأخيرة عندما عرض «المواطن مصرى» و«يا مهلبية يا» .

ومع مطلع السنة الحالية ، جرى عرض عدد آخر من الأفلام لمخرجين لامعين أو واعدين ، أذكر من بينها «الصرخة» و «فارس المدينة» و «ناجى العلى» وتوقع الكثيرون لهذه الأفلام نجاحا منقطع النظير، ولا سيما أنها جميعا مرصعة باسماء كبار نجوم السينما المصرية والعالمية بدءا بعمر الشريف وعزت العلايلى ومحمود حميدة وانتهاءً بنور الشريف .

هذا إلى أنها نتاج فكر نفر موهوب قادر على التقاط ما تضطرب به صدور الناس فى أنين مبهم مكتوم، فتخرجه آخر الأمر افلاما .

مرّ الكـــــلام

ولكن الرياح جاءت بما لا تشتهى السفن ، فإذا بها - وبلا استثناء - تفشل فى الشباك فشلا ذريعا .

وحاول نفر من مدمنى التنظير الزائف ، والتبرير المتهافت، والمنطق المعوج، تفسير هذه الظاهرة بأن الأفلام ما سقطت تجاريا ، إلا لأنها عرضت فى ظل ظروف غير مهيأة لاستقبالها استقبالاً حاراً .

ومن بين هذه الظروف فى نظر هذا النفر، مهرجان القاهرة السينمائى الذى امتص فضول المشاهدين وجزءا كبيرا من مدخراتهم المخصصة للترفيه ، وهى مدخرات تنكمش على مرّ الأيام بسبب موجات الغلاء !

فضلا عن البرد القارس ، وما صاحبه من أمطار غزيرة ، ورياح صرصر عاتية ، لم تشهدها مصر منذ عشرات السنين .

وفوق كل هذا رفع أسعار تذاكر السينما ، ومحاصرة الأفلام المصرية بالأفلام الأمريكية القائمة على الحركة والإثارة ، مثل «روبين هود» و«سحالف النينجا» و«المدمر.. يوم الحساب» .

وغاب عن بال هذا النفر أنه لا المهرجان ولا الغلاء ولا البرد بأمطاره ورياحه ، قد أفلحت فى الحيلولة بين الناس وبين الذهاب إلى السينما للاستمتاع بفيلم «الرقص مع الذئاب» .

ولا ارتفاع أسعار التذاكر ، ولا غزو الفيلم الأمريكى لدور العرض ، قد نجحا فى منع جمهور الفيلم المصرى من الاقبال على مشاهدة «الكيت كات» .

صرخات وهمسات

واضح إذن أن الفشل له أسباب أخرى ، لعل أهمها فقر فكر الأفلام ، وانعكاس ذلك على السيناريوهات .

وأبدأ بالصرخة ، حيث يلعب نور الشريف دور شاب أبكم أصم «عمر الفرماوى» يعمل ميكانيكيا بورشة سيارات .

وما أريد أن أدخل القارئ فى متاهات تفاصيل الفيلم التى تصور حياة هذا الشاب فى سجن العجز عن الكلام .

وموقفه أمام الباحثة «تيسير» (معالى زايد) التى تعد رسالة دكتوراه فى علم الإشارات ، فتتخذ منه مادة للدراسة ومادة للاستمتاع بفحولته حين تراوده عن نفسه فى شقتها الفاخرة . إلا أنه يأبى ويتولى مخافة اقتراف الفحشاء .

ثم موقفه أمام زوجته «عزوزة» (نهلة سلامة) ، تلك المرأة الجشعة المدمنة التى كانت تعمل فى المقهى المجاور للورشة ، ولا هم لها من معاشرته إلا سرقة ما ادخره من مال .

فلما فشلت فى تحقيق مآربها ، كادت له بتحريض صديقة ساقطة على الادعاء بأنها حملت منه سفاحا .

وإنما اكتفى بالوقوف قليلا عند محاكمته عن تهمة اغتصاب هذه الفتاة الساقطة ، إذ تبين أنها قاصر ، وما تبع صدور الحكم فى تلك التهمة من آثار جسام .

فها هو ذا ينكر الجريمة ، ويطلب من هيئة المحكمة أن تكلف الباحثة «تيسير» بالقيام بترجمة ما يصدر عنه من إشارات .

السقوط .. لماذا ؟

وإذا بها تفاجأ بقوله ، وهو يرد تهمة الاغتصاب عن نفسه ، إنه ليس عبد الشهوات ، وآية ذلك امتناعه عن سماع نداء الجنس عندما همت به فى حجرة نومها ، وهى مستلقية فى وضع كله إغراء .

وطبعا لا تقوم بترجمة أقواله ، فيثور الحضور ، وجلهم من الصم والبكم ، ولكن ثورتهم لا تغير من الأمر شيئا .

فلأمر ما في ذهن صاحب الفيلم المخرج «محمد النجار» لم يسمع رئيس المحكمة لاحتجاجهم الصاخب، وكان أن أصدر حكما يلزم «عمر» بالزواج من الفتاة المتهم باغتصابها زورا وبهتانا .

ولسبب ما من تلك الأسباب التى تدخل في باب العجب العجاب شاء كاتب السيناريو «كرم النجار» لثورة الصم والبكم أن تستمر .

وإذا بهم يختطفون النسوة الثلاث بدافع الانتقام .. إلى أين ؟

إلى حجرة قياس السمع حيث يسلطون عليهم نبذبات ذات تردد عال ، إلى أن يفقدوهن حاسة السمع نهائيا .

وبهذه النهاية الغريبة كل الغرابة ، ولا أقول الحمقاء كل الحماقة ، نخرج من الفيلم ، وقد امتلأت نفوسنا لا بغضا للنسوة الثلاث اللائى تسببن بمكرهن العظيم في محنة الشاب الأخرس البرئ، وإنما بغضا لهؤلاء الخرس المتمردين بسبب جريمتهم النكراء ، تلك الجريمة التى سلبت البعض نعمة السمع ، دون أن تتيح لمرتكبيها وجودا جديدا ، أكثر تحررا .

مجد الغانيات

خلاصة القول إننا إذن إزاء فيلم يقوم على سيناريو حافل بمظاهر اختلال جسيم يجعله أقرب إلى تخليط المجانين ، والجمهور أعقل بطبيعة الحال من أن يجذبه مثل هذا التخليط .

وكذلك الحال بالنسبة لـ «يا مهلبية يا» فهو بدوره فيلم شديد التخليط ، شديد التعقيد .

فلقد اراد صاحباه الثنائى كاتب السيناريو «ماهر عواد» والمخرج «شريف عرفه» أن يبتدعا عملا سينمائيا من ذلك النوع الفريد الذى يتكون من شقين متداخلين ، كل شق يكاد يكون فيلما كاملا ، واحد يعرض حياة مخرج يعانى أزمة التعبير سينمائيا عما تحسه نفسه ، وواحد يعرض بعضا من أحداث الفيلم الذى من أجله يعانى هذا المخرج عناءً شديداً.

ولعل «ثمانية ونصف» رائعة المخرج الإيطالى الشهير «فيديريكو فيللينى» أعلى أفلام ذلك النوع العسير من الابداع شأناً .

وكم من المخرجين حاولوا الاقتداء بتلك الرائعة ، وهم يصنعون أفلاما تعرض لعملية إبداع فيلم فى أثناء مرحلة التكوين .

ولكن أكثرهم لم يستطع أن يحقق

من النجاح ، فى هذا الخصوص ، إلا القليل .

ولسوء الحظ أن الثنائى «عرفه ، عواد» لم يستطعا بفيلمهما «يا مهلبية .. يا» ، وهو محاولة من هذا القبيل ، إلا أن يصنعا عملا سينمائيا فجا شديد الافتعال ، كشف عن ثروة متواضعة فى الثقافة الذهنية ، الروحية ، حتى ما كان منها متصلا بتاريخنا القريب .

و «يا مهلبية .. يا» ، وهو رابع أفلامهما معا ، يبدأ بمخرج «عبد العزيز مخيون» وكاتب سيناريو «أحمد راتب» ، وهما على وشك بيع مخزن للدقيق ، ورثه الأول من عمه .

عملقة الأقزام

وبالمصادفة يكتشفان ، وقبل توقيع العقد مع أحد الاستثماريين ، انه ليس مخزنا ، وإنما استديو سينما قديم ، فلا يستكملان إجراءات البيع ، لأنهما قررا إبداع فيلم يجرى تصويره داخل هذا الاستوديو .

وحكاية هذا الفيلم التى وقع عليها الاختيار ، تقع أحداثها إبان عهد الملكية والاحتلال ، وبالتحديد سنوات الاربعينات التى جاءت لتكون مرحلة للتحول العظيم .

فما هى هذه الحكاية التى وقع عليها الاختيار؟

إنها حكاية غازية من بنات الهوى اسمها « عناب » (ليلى علوى) تدير مرقصا ليليا ، ولكنها فى حقيقة الأمر ، زعيمة وطنية تقود مجموعة من الأوباش ضد العسكر الانجليز، وضد الملك الذى تدبر مع اتباعها مؤامرة لاغتياله تارة بإطلاق الرصاص عليه ، وتارة بوضع السم له فى طبق مهلبية لذيذ .

حيرة وضياع

ولا نشعر بغموض وقائع الحكاية لأول وهلة ، ولكننا لا نلبث أن نحس شيئا من الغرابة فى هذا الذى نرى ، لأننا نرى أشياء مسرفة فى السوقية ، ليس من شأنها أن ترتفع إلى حيث تكون فنا رفيعا ، وإنما هى من هذه الأشياء التى نراها فى أكثر المسرحيات ابتذالا .

وسرعان ما نسأل أنفسنا ما الذى يريده صاحبا الفيلم بكل هذا .

ما الذى يقصدانه بهذه الزعيمة البغى التى لا نعرف من ماضيها شيئا .

ونزداد حيرة عندما نكتشف أن



محمد خــان
صاحب فارس المدينة



• يامهلبية ... يا • زعيمة الوطنية

كفاحها ضد السراى والاحتلال ، لا يعدو أن يكون تمثيلا فى تمثيل وأن كفاح اتباعها تحت قيادة عشيقها «مليم» (هشام سليم) من أجل تحرير فلسطين ، لا يعدو هو الآخر أن يكون وهما كبيرا .

لا شئ يهــم

وما أن تنتهى وقائع الفيلم ، حتى تظهر على الشاشة كلمات لصاحبيه تقول لنا باستخفاف مميت إن جميع حروبنا فيما عدا حرب العبور !! عبث فى عبث .

وكأنى بهما يريدان أن يقولا لنا بأسلوب مشوش ثقيل على النفس ، إنه لا شئ يهم .

والآن إلى «فارس المدينة» لصاحبه «محمد خان» ، وهو إذا ما قورن من ناحية لغة السينما بجميع الأفلام المهزومة تجاريا فى ساحة الشباك ، لكان أكثرها رقيا .

ومع ذلك فقد كان حظه من النجاح قليلا .. لماذا ؟ هذا ما سأحاول تفسيره فى كلمات .

يهدى «محمد خان» فيلمه إلى زمن «أم كلثوم» باعتباره زمن الأصالة والجمال، ومفهوم ذلك بالمخالفة أن ما عداه أزمنة قبح وزيف .

الأزمنــة الجميـلة

ولو أخذنا صاحب «فارس المدينة» بظاهر كلامه ، لاعتبرنا هذه العهود الستة ، هى زمن الأصالة والجمال .

فقر الفكر في السينما المصرية

ولما فرقنا بين ما كان منها سابقا على إعلان الجمهورية وبين ما جاء بعد هذا الإعلان .

ولست أدرى إذا كانت نية «محمد خان» قد انصرفت إلى عدم التفرقة بين أى من تلك العهود أم لا .

فصوت أم كلثوم فى أثنائها كان أعجوبة بين الأصوات وأغانيها فى أثنائها تهون وتشحب أمامها أية أغنية لها خلال العشرين سنة الأخيرة من حياتها المليئة بالالحان والأشجان .

وفى اعتقادى أن صاحب الفارس ، لم يقصد إلى أى شئ من هذا .

ولكنها فوضى الإهداءات ، وفوضى إدعاء الحنين إلى ماض ذهبى لا وجود له إلا فى شطحات الخيال .

وعلى كل ، فلنترك جانبا الاهداء بكل ما اثاره من مشاكل وتداعيات ، ولنسرع بالانتقال إلى «فارس» بطل الفيلم ، وياله من فارس .

المهرب الشريف

إنه تاجر عملة جاوز الشباب قليلا «محمود حميدة» . جمع ثروته ، وهى بالملايين ، من التهـــريب هو إذن بالعربى الفصيح ، رجل خارج على القانون .

ورغم ذلك ، فهو فى نظر نفر من الناس صعلوك إيجابى !! ، قوى ، عنيد، فاتن ، أحمق ، مسئول ، مغامر وفاهم .

وفى نظر نفر آخر فارس يحتفظ بقدر من « الجدعنة » فى التعامل ، وقدر ونصف من القدرة على العطاء ، وقدرين من الحب لصوت أم كلثوم وزمانها الجميل .

وفى نظر نفر ثالث إنسان لا يتنازل عن شهامته ، ورجولة تصرفاته ، يصفى كل تعاملاته ليبدأ من جديد من نقطة الصفر ، فهو فارس فى زمن السداح مداح .

وأعجب العجب أن تكتشـــف كل هذه الفضــائل مجتمعة فى فـــارس «محمد خان» مع أنه فى حقيقة الأمر مهرب خطير جمع ثروته فى الحرام ، وإلى الحرام تعود .

وعنـــدى أنه لا تفســـير لهـذا إلا فى انتشار التخليط بين القيم ، وهو تخليط أراد كاتب السيناريو « فايز غالى » وصاحب الفيلم أن يتفاداه ،

فإذا به يستهويهما فيما أظن ، وإذا بهما أشد إسراعا وغلوا إلى الوقوع فى مخالبه ، ومن ورائهما نفر من المعجبين والمعجبات بمتسلطات «محمد خان » .

التشابك والتعقيد

ومما زاد أمر الفيلم سوءا أن صاحبه ، وهو يرسم شخصية هذا الفارس المهرب على وجه يدفعنا إلى التعاطف معه ، لم يقنع إلا بخيوط متعددة ، معقدة ، شديدة التشابك .

فأولا : جعله هاربا من مسئوليات الزواج والتزاماته ، وبالتالى مطلقا ، والممثلة لدور المطلقة «سعاد نصر» له منها شاب لا يجيد إلا لعب البلياردو وامتطاء السيارات وشم الكوكايين بطبيعة الحال .

وثانيا : جعل له عشيقة « عايدة رياض » ، يضاجعها بين الحين والحين ، وثمنا لذلك يطالبها بالحصول له على معلومات عن الأعداء .

وزاد صاحب الفيلم من تعدد الخيوط وتشابكها ، فجعله أيضا واقعا فى حب معرضة حسناء « لوسى » ، مطاردا من أحد عتاة الاجرام «عبد العزيز مخيون » ، ومنشئا لصداقة مع مدرس تاريخ عجوز لا يجيد سوى اجترار الماضى ، وإلقاء نفسه أمام السيارات الفارهة ، ابتغاء دخول المستشفيات الفاخرة حيث الحياة على حساب الغير طرية ، لذيذة .

وغنى عن البيان أن تعدد الخيوط وتشابكها على هذا الوجه ، قد زاد الأمور تعقيدا بالنسبة لنا ، نحن المتفرجين .

وهو مثل للشئ إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده .

والحق ، إننا خرجنا من الفيلم ، ونحن أكثر جهلا بطبيعة عالم توظيف وتهريب الأموال ، وأقل قدرة على التفرقة بين الحرام والحلال !!

● ●

الشركة القابضة للأدوية

وإنجازات قطاع الدواء خلال عشر سنوات من حكم الرئيس مبارك

من عام ١٩٨١ - عام ١٩٩١

• يسعى قطاع الدواء إلى توفير احتياجات البلاد من الأدوية . وقد أمكن لصناعة الدواء في مصر الوصول إلى إحلال إنتاجها محل العديد من المستحضرات المستوردة والتي بلغت ٣٤ مستحضرًا هذا العام .

ويغطي الإنتاج المحلي الغالبية العظمى من هذه الاحتياجات بنسبة ٩٢٫٢٪ واقتصر استخدام النقد الأجنبي على تمويل عمليات استيراد الخامات ومستلزمات الإنتاج اللازمة للصناعة المحلية .

هذا وتبذل شركات القطاع الدوائي جهدها لتحسين وتطوير الإنتاج ، والعمل على الاستفادة من كل الخبرات المتواجدة ، وقدراعت الشركة القابضة للأدوية ضرورة العمل على توفير الأدوية بغض النظر عن ربحيتها مع ترشيد إستيراد الأدوية والخامات بحيث تكون الأولوية للأدوية الأساسية إنتاجًا واستيرادًا .

وتلتزم شركات القطاع بتوفير الأدوية الأساسية وعدم رفع أسعارها إلا في أضيق الحدود مع توفير الأدوية المستوردة الأساسية كأدوية القلب والأنسولينات وأدوية السرطان وألبان الأطفال والتي مازالت تحقق خسارة .

ونعرض فيما يلي لأهم إنجازات القطاع الدوائي خلال الفترة من عام ١٩٨١ - عام ١٩٩١

التطور فى نشاط القطاع الدوائى

خلال الفترة من عام ١٩٨١ - عام ١٩٩١

تطور قيمة الإنتاج: بسعر بيع المصنع (بالمليون)

العام	٨٢/٨١	٨٣/٨٢	٨٤/٨٣	٨٥/٨٤	٨٦/٨٥	٨٧/٨٦	٨٨/٨٧	٨٩/٨٨	٩٠/٨٩	٩١/٩٠
شركات القطاع العام	١٧٨,٣	٢١٦	٢٥٣	٢٩٥,٢	٣٢٠,٦	٣٥٧,٢	٤١٧,٦	٥٢٤,٢	٥٤٣,٧	٦٠٨,٢
شركات القطاع المشترك والخاص	٧٧,٣	٩٠	١١١,٧	١٣٧,٤	١٧٠,٤	٢٣٢,٠	٢٩٨,١	٣٧٠,٤	٤٥٨,٧	٥٩٨,٦
الإجمالى	٢٥٥,٦	٣٠٦	٣٦٤,٧	٤٣٢,٦	٤٩١,٠	٥٨٩,٢	٧١٥,٧	٨٩٤,٦	١٠٠٢,٤	١٢٠٦,٨

تطور قيمة الاستهلاك: بسعر بيع الجمهور (بالمليون)

العام	٨٢/٨١	٨٣/٨٢	٨٤/٨٣	٨٥/٨٤	٨٦/٨٥	٨٧/٨٦	٨٨/٨٧	٨٩/٨٨	٩٠/٨٩	٩١/٩٠
المحلى	٣٣٤,٣	٤٠١,٨	٤٧٣,٣	٥٥٦,٥	٦٣١,٤	٧٥١,٧	٩٠٨,٥	١١٢٨	١٢٥٠,٨	١٥٧٦,٥
المستورد	٧٨,٩	٧٩,٣	٩٨,١	١١٦,٢	١٢٤,١	١٣٥,٩	١٤٦,٠	١٣٢	١٢٢,١	١٣٣,٦
الإجمالى	٤١٣,٢	٤٨١,١	٥٧١,٤	٦٧٢,٧	٧٥٥,٥	٨٨٧,٦	١٠٥٤,٥	١٢٦٠	١٣٧٢,٩	١٧١٠,١
نسبة المحلى إلى الإجمالى	٪٨٠,٩	٪٨٣,٥	٪٨٢,٨	٪٨٢,٧	٪٨٣,٦	٪٨٤,٧	٪٨٦,٨	٪٨٩,٥	٪٩١,١	٪٩٢,٢

تطور قيمة الصادرات: (بالمليون)

العام	٨٢/٨١	٨٣/٨٢	٨٤/٨٣	٨٥/٨٤	٨٦/٨٥	٨٧/٨٦	٨٨/٨٧	٨٩/٨٨	٩٠/٨٩	٩١/٩٠
قيمة الصادرات	٤,٢	٩,٥	٧,٩	٨,٦	١٠,٤	١٢,٦	٢٦,٢	٥١,٤	٣٩,٥	٦٨,٧

مع تحيات قطاع الإعلام والتصدير بالشركة القابضة للأدوية

بيروت

العقيدة السرية .. والكتابات المعاصرة

ما أقل اهتمام المثقفين العرب هذه الأيام بالثقافات العالمية المعاصرة . لا يتضح هذا فقط من انحسار الترجمة لدى دور النشر ، وما أكثرها ، فى العالم العربى ، بل انعكس ذلك على ماتنشره المجلات الثقافية القليلة التى تصدر فى كل أنحاء الوطن العربى . كما يتضح ذلك أيضا فى الصفحات الثقافية (!) التى تتابع حركة النشر والمثقفين لا أكثر .

ومن المعروف انه بعد حرب الخليج الأخيرة قد توقفت مجلات كانت تهتم بمتابعة الثقافات الحديثة . الأولى كانت تصدر فى الكويت « الثقافة العالمية » . والثانية كانت تصدر فى بغداد هى « الثقافة الأجنبية » .

الآن لم يعد يبقى فى العالم العربى سوى مجلتين . الأولى تصدرها وزارة الثقافة السورية وهى فصلية تحمل عنوان « الآداب الأجنبية » . ولا تصل إلى مصر بالمرة . اما الثانية فيصدرها الشاعر اللبنانى الياس لحور . وهى « كتابات معاصرة » التى صدر منها حتى الآن إثنا عشر عددا . وهى مجلة مهددة بالتوقف فى أى وقت لانها فى المقام الأول مجهود فرد واحد يعانى الكثير من أجل تمويل كل عدد جديد .

ومن عنوان المجلة نفهم أنها لا تهتم فقط بالثقافة الأدبية والابداعية بل أيضا بالثقافة العلمية المعاصرة . وفى الاعداد السابقة من المجلة بدا مدى اهتمامها بالقاء الاضواء على الكتابات المعاصرة عربياً وعالميا . وهى لا تعتمد على الدراسات المترجمة مثل بقية المجلات من صنوها .

ولكنها تعتمد على المقالات المكتوبة . وفى العدد الأخير بدا هناك بعض التغير فى خط المجلة العام . فالى جانب الملف المفتوح حول « الحداثة أين ؟ » وملف آخر عن « السيمياء الصوفية » و« العرب والعلم » ثم ملف رابع عن « العلم الحديث والأدب » فإن المجلة راحت تتابع فى ملف خامس منفصل فلسفة الحكمة الشرقية من منظور العقيدة السرية للفيلسوف بلافاتسكى .

ومن أبرز الدراسات التى تضمنها العدد الأخير دراسة هلا سليمان حول « الآثار العلمية للحملة الفرنسية على مصر » . جاء فيها ان جهود علماء الحملة الفرنسية لم تقتصر على اكتشاف الآثار فى طول البلاد وعرضها . بل عنوا بجميع المعلومات الجغرافية والطبوغرافية الدقيقة التى تساعد على وضع خريطة مفصلة

للقطر المصرى . ويرى الكاتب أن من آثار الحملة علميا دخول الطباعة وظهور الصحف فى مصر لأول مرة .

والعدد الأخير من « كتابات معاصرة » يحتوى أيضا على نماذج من الابداع الحديث فى الشعر العربى والسويدى والروسى . بالاضافة إلى متابعة للكتب المترجمة مثل « آفاق المستقبل » للمفكر الفرنسى جاك آتالى ، ودراسة كتبها د . عبد السلام المسدى عن قضية « البنوية » .

نيويورك

فنان .. الفن الثامن



اندى وارول
(شوفتونى وانا ميت)

لم يثر فنان تشكيلى معاصر حوله من دهشة واهتمام واعجاب قدر ما فعل الفنان الأمريكى الراحل « اندى وارول » الذى توفى قبل خمس سنوات . ورغم رحيله فإنه موجود دائما فى وسائل الاعلام التى تعيد اكتشاف عبقريته وعطائه يوما وراء آخر . فلم يكن مجرد فنان تشكيلى عادى ، بل هو صاحب أشهر بصمة فنية تجعل المرء ما أن يرى ابداعه حتى يهتف : « هذا وارول » . كما ان الفنان قد اقتحم فنون الابداع الأخرى كالموسيقى والسينما وترك بصمته البارزة فى كل منها .

وحول « وارول » قدمت أخيرا مجلة لونوفيل أوبسرفاتور ملفا ضخما جاء فيه ان اندريه ابن أسرة تشيكية كبيرة العدد هاجرت إلى الولايات المتحدة مع مطلع العقد الثانى من القرن العشرين . وقد ولد اندى فى مدينة بطسبورج فى ٨ أغسطس ١٩٢٨ . وقد اهتمت أمه بتشجيع مواهبه . فراحت تصرف عليه الكثير من الميراث الصغير الذى تركه الأب قبل وفاته . فدرس فى معهد التقنيات . وبدأ حياته فى عمل ديكورات المحلات الكبرى فى المدينة . ثم سافر إلى نيويورك عام ١٩٤٩ وسرعان ما قابله النجاح فى كل مكان .

عمل اندى فى أول الأمر مخرجا صحفيا فى مجلات تعتمد فى المقام الأول على الاخراج مثل «فوج» . ثم راح يرسم للمجلة رسومات توضيحية لفتت اليه الانظار . فهو يلون الاشخاص بما لم يعتد الآخرون ان يشاهدوا وذلك مثلما فعل مع الفيس بريسلى وكافكا وترومان كابوت .

وتجئ أهمية وارول انه جعل من السريالية فنا شعبيا يراه الناس فوق الملصقات . وأيضا فوق علب المأكولات والمشروبات . وعلى يديه

تولد فن « البوب » الذى أطلق النقـاد عليه اسم « الفن الثامن » .

وفى هـذا الفـن استخدم وارول أدوات جديدة لم يستخدمها فنان من قبل . ثم اخترق مجال القصص المرسـومة . والمجلات السينمائية .

كان وارول فنـاناً غريبا تماما . ففى قمة شهرته راح يرسم فوق علب الطماطم ويضـع فيها الزهور ويبيعها كما راح يصمم النقود وعلب الكوكا : « أود أن اصبح آلة » ونجح بالفعل ان يجعل من الفن الحديث عملية آلية . كما ان الناس كثيرا ما شاهدوه وهو يرسم جدران المنازل والأسوار

واستطاع ان يحول المصانع إلى مؤسسات ثقـافية تهتم باللون . وفوجئ به الناس يخرج فيلمـا سينمائيا يصنع ديكوراته ويصوره بنفسه ويقوم ببطولته .

كانت أمه جوليا هى حبه الأول . وعندما ماتت تعمد ألا يحضر جنازتها . وظل لسنوات يرد على الناس الذين يسألونه عن أمه : « انها لاتزال نائمة فى سريرها » . وفى مايو ١٩٦٨ أطلقت عليه إحدى الممثلات الناشـئات رصاصات من مسدسها فظل فى غيبوبة لبضعة أيام . وما أن تنبه حتى ردد : خسارة لقد عرفت ان الكاميرا لم تصورنى فى هذا المشهد » .

وبعد وفاته فى فبراير ١٩٨٧ تم العثـور على مجموعة كبيـرة من رسوماته التى لم ينشرها . وذلك فى الفنـدق الذى أقام فيه طويلا .

لندن

جولدنج .. فوق البحر

« درع السـفينة النارى »

عنوان الجـزء الثالث من ثلاثـية الكـاتب البريطانى وليام جولدنج (نـوبل ١٩٨٣) التى صدرت الشهر الماضى . وكان جولدنج قد اصدر الجـزآن الأول والثـانى « طقـوس العبـور » و « طلقة انذار السفينة » عامى ١٩٨٢ و ١٩٨٦ . وتدور أحداثها فوق سفينة متجهة إلى اسـتراليا قادمة من لندن . وفوق هـذه السـفينة يدعى أدموند تالبوت . والرحلة تستمر عاماً بأكمله فى الثلاثية . وعلى السـفينة ان تمر بخط الاسـتواء . وعنـدما يحـدث ذلك على الركاب ممارسـة طقوس خاصـة تمليهـا عليهم الظروف .

لقـد ركب السـفينة بعض المغامرين والبحارة. وامرأتان جميلتان وأطفال وهـذه السـفينة تنقـل مجمـوعة ضـخمة من المـدافع الثقيلة . وطوال



جولدنج

الرحلة الطويلة يعانى الركاب من أحداث بحرية وحالات اختفاء غامضة .

وبمناسبة صدور هذه الرواية . اجرت جريدة لوفيجارو حديثاً مع الكاتب أكد فيه « انه لم يكن ينوى ان يكتب جزءاً ثالثا لهذه الرواية . لكنه وجد تالبوت يستيقظ فى داخله كى يدفعه للكتابة مرة ثالثة عنه » .

وفى نفس الحديث أكد جولدنج انه لم يتبع فى حياته تقليداً أدبيا . وانه لا يستطيع ان يحدد ذلك فالآخرون هم الذين يفعلون . « لا اعتقد اننى انتمى إلى هذا . صحيح اننى مهتم بالدراما اليونانية ولكننى أخشى ان أضع نفسى فى شكل بعينه » .

وعن الشر الذى تمتلئ به أعماله تمتلئ بحوادث الشر . فانه يقول : الشر هو الطبيعة الثانية للإنسان ولا يجب ان نغفلها . وليس فى امكان البشر ان يجعلوا انفسهم يعيشون مثل أقرانهم ولنأخذ النمل كمثال . فانا اشك ان هناك حدوداً لاتحادهم . واعتقد ان قدرة البشر هى التى تدفعهم لفعل الشر .

من المعروف ان جولدنج قد زار العديد من الدول . ويعتبر من ابرز كتاب البحر فى النصف الثانى من القرن العشرين . فقد زار روسيا وبرلين وجنوب افريقيا وأمريكا اللاتينية . ومصر التى ألف عنها كتابا تحت عنوان « وقائع مصرية » عام ١٩٨٥ . « مصر هى البلد الافريقى الوحيد الذى اعرفه . وانا اتعامل مع مصر كبلد من بلاد البحر المتوسط » .

احتفل جولدنج فى العام الماضى بعيد ميلاده الثمانين . نشر روايته الأولى « آلهة الذباب » عام ١٩٥٤ . وهى الرواية التى حاز بمقتضاها على جائزة نوبل . وقد ترجمت هذه الرواية لأول مرة فى روايات الهلال عام ١٩٨٤ . ثم ستصدر طبعتها الثانية فى الشهر القادم عن دار الهلال . ومن أهم رواياته الأخرى « السفينة » .. و« كريس مارتن » و « الهدف المتحرك » .

إيف سيمون

المطرب الذى حصل على جائزة أدبية

بقلم :محمود قاسم :

الشباب الذين يتابعون الأغنيات العالمية الحديثة يعرفون جيداً اسم مطرب فرنسى تتصدى أغانيه قائمة مبيعات الاسطوانات من شهر لآخر طوال السنوات العشر الماضية .. هذا المطرب اسمه « إيف سيمون » .

ومن المعروف فى عالم الغناء الغربى الحديث ان عمر المطرب أو الفرقة الغنائية الناجحة قصير للغاية وان القليلين من المطربين هم الذين يظلون يغنون فوق المسارح لسنوات طويلة ويحتفظون بنفس البريق . ولعل أشهر هذه الأسماء « جلبير بيكو » الذى اعلن إعتزاله الغناء فى الشهرين الماضيين وهو فى الثالثة والستين ، وهناك أيضا جونى هاليداى وميشيل ساردو .

● ومن بين الاسماء الشابة التى ظهرت فى فرنسا خلال السنوات الماضية لم يلمع سوى عدد قليل منهم على سبيل المثال فانيسا بارادى .. اما أغلب الاسماء الأخرى فقد تبخرت بسرعة مثلما جاءت ، ولعل هذه الظاهرة كانت تقلق إيف سيمون الذى اختار ان يبحث عن طريق آخر للبقاء مشهوراً فاتجه إلى الابداع الروائى .

قد يكون هذا هو الإنطباع الأول



المسافر الرائع



ايف سيمون

بالنسبة لسيمون قبل ثمانية أعوام حين نشر روايته الأولى . فقد شهدت فرنسا طوال السنوات العشر الأخيرة ظاهرة لفتت الانظار حين قام الكثير من الممثلين ونجوم السينما بتأليف روايات إبداعية كانت مثاراً لطرح سؤال عن السبب وراء ذلك . وعلل البعض ان الإجابة قد تكون أشبه بتلك التى ذكرناها فى السطور القليلة الماضية . فمن المعروف ان نجوما من المشاهير مثل ليزلى كاروت وسيمون سينيوريه ، ومارى فرانس بيزيه ، وريشار بورنجيه ، وأخرين قد دخلوا مجال الإبداع الروائى .. بعضهم كتب رواية واحدة ، وممثلة واحدة فقط كتبت روايتين هى مارى فرانس بيزيه ، وقد سبق ان ناقشنا هذه الظاهرة فى عدد أغسطس ١٩٨٥ من الهلال .

الأول .. مطربا .. وأديبا

لكن هذه الظاهرة تختلف فى تفسيرها عند إيف سيمون . ليس لأنه أول مطرب يدخل المجال ، فقط وليس لأن سيمون قد نشر حتى الآن ثلاث روايات ، ولكن لأن الرواية الأخيرة لسيمون قد فازت بواحدة من أهم الجوائز الأدبية فى فرنسا على الاطلاق الأولى هى جائزة مرسيس .

تجئ أهمية هذا الحدث الأدبى ان جائزة مرسيس ، كما هو معروف ، تمنح سنويا للرواية من الأدب التجريبى الجديد ، الذى يعد بمثابة إضافة حقيقية للشكل الروائى والأدبى .. ولذا فهى أكثر جذبا للانتباه من جائزة جونكور نفسها التى حاولت فى السنوات الأخيرة ان تؤكد انها طليعية فاعلنت ، مثلا عن فوز الكاتب جان رووه عام ١٩٩٠ بروايته «ساحات الشرف»

موسم الجوائز الأدبية

التي نشرت في رويات الهلال في نوفمبر الماضي .

عندما اراد إيف سيمون أن يغني وضع موهبته كمطرب نصب عينيه كي يُطرب الآذان . فكان هو الذي يكتب اغنياته التي يلحنها لنفسه . ثم عندما أراد أن يكتب رواية أهتم ان يقدم نصاً أدبياً استطاع أن يحصل به على جائزة أدبية مرموقة . ليس فقط فيما يتعلق بجائزة مرسيس ١٩٩١ ، ولكن أيضا بجائزة المكتبات التي حصل عليها عام ١٩٨٧ عن روايته « المسافر الرائع » وجائزة المكتبات تجيء في المرتبة السادسة من بين الجوائز الأدبية السنوية الهامة في فرنسا .

دائما .. يحاول ان يفهم

ومنذ روايته الأولى ، وسيمون يهتم بالتجريب في الشكل والمضمون معا ، ففي « المسافر الرائع » نجد تأثراً واضحا بفيلم « وردة القاهرة القرمزية » للمخرج وودى الن . فنحن هنا أمام امرأة شابة قوية تجد نفسها في قاعة سينما تشاهد فيلما لوودى آلن نفسه . مثلما فعلت بطلة هذا الفيلم حيث تخيلت نفسها عشيقة لبطل فيلم آخر تدور أحداثه في القاهرة . نحن هنا أمام حوادث متداخلة كأنها الصندوق السحرى الذى يحوى بداخله صندوقاً به صندوق ثالث وهكذا ... وفي قاعة السينما تفاجيء " ملينا " برجل يمد لها منديلا من الحرير تمسح دموعها . إنه ادريان الذى سرعان ما يصبح حبيبها بدلا من الحب الخيالي الموجود على الشاشة .

لكن الأشياء لا تمشى بشكل جيد ، مثل أغلب قصص الحب التي نعرفها . فالمرأة تود أن تنجب طفلا من هذه العلاقة . الا أن الرجل حريص ، ومتردد . ويقول الكاتب في روايته أن الرجال يخافون من إنجاب الأطفال لأنهم يفتقدون البنية .

وادريان بطل الرواية مصور شاب . وهو مفتون دائما بما يطلق عليه اسم " اماكن البدء " . هناك حيث يتحدى الإنسان المستحيل . فمثلا خلال علاقته بالكاميرا سافر إلى أماكن عديدة . وقابل

الكثير من البشر ، واقتحم الأماكن بجغرافيتها وتاريخها . التقط الصور فى الاتحاد السوفييتى . وأيضا فى كينيا حيث أمكن " للإنسان الأول أن يسمع صخب العالم وينصت إلى جمال الافق " كما أن ادريان زار هيروشيما . والتقط صورا للقاعدة الفضائية " كيب كيندى " حين انطلق منها أول صاروخ يحمل رجالا سوف يمشون فوق القمر . لم يفعل ادريان ذلك من أجل التقاط الصور فقط . ولكنه كان دائما يحاول أن يفهم .

أما الفتاة ميلينا فهى تختلف . إنها امرأة حالمة . تعمل ممثلة ، وتعيش تمثل مسرحيات تشيكوف ، ولذا فإن مفهومها للحب يختلف كثيرا عن مفهوم الشاب الذى تحبه الذى يرى أن وجود طفل يزيد من الغاز العالم لغزاً جديداً . ولذا فإن هذه العلاقة التى تولدت فى قاعة سينما مظلمة محكوم عليها بالفشل وعلى ميلينا أن تبحث عن رجل آخر يملأ وعاء بطنها بطفل . وليس عن هذا المسافر الرائع ادريان .

الجدير بالذكر أن المسافر الرائع " لم تكن الأولى فى حياة إيف سيمون . ولكنها هى التى جذبت الإنتباه إلى موهبته . وقد بيع منها ٨٥ ألف نسخة فى طبعتها الأولى . ولعل ذلك يرجع إلى ان موهبة سيمون لم تكن قد نضجت بعد قبل ذلك ، وان الناس كانت تتعامل معه كمطرب فى المقام الأول . خاصة ان الأخبار المنشورة عن البومات إيف سيمون حتى تلك الفترة كانت من الكثرة أن الناس تصوروا ان عناوين كتبه هى فى الأساس عناوين لاسطوانات جديدة لم يعثروا عليها بسهولة فى محلات بيع الأشرطة والاسطوانات .

وقد علق سيمون على هذا التحول أنه يعى تماما أن الموسيقى لا تسعى إلى تغيير أفكار الناس ، ولكنها تنجح فى تجسيد مشاعرهم وعواطفهم ، وعندما يتعامل المرء مع الأفكار فإنه يؤلف كتباً ، أو يكتب مقالات وكلمات .

الحياة رائعة

بدت هذه المفاهيم فى رواية أخرى للكاتب نشرها عام ١٩٨٨ تحت عنوان « أيام عادية » ، ففيها اتضح مفهوم

سيمون للعالم الذى يراه أشبه بمدينة ملاه كبيرة يروح الناس فيها ينتظرون دورهم لركوب الأراجيح ، ثم ينتظرون دورهم أيضا للانتهاء من ركوب الأرجوحة ، « لسنا على ثقة فى شئ ، ونحن لا نعرف شيئا سوى مداعبة الجلد ، وتقبيل الفم ، والرواح والغداة بأجسادنا ، والتمتع بها ، ونحن نحمل المناديل الورقية فى أيدينا ، ونردد بعد مباراة كرة أو حفل موسيقى : كم كانت أمسية رائعة » هذه هى الأيام العادية التى نعيشها جميعا ، ويعيشها أيضا أبطال رواية إيف سيمون ، فنحن أمام أشخاص عليهم ان يعبروا الحياة مثلما يعبرون جسراً فوق نهر ، مهما طال الجسر فإن الرحلة يجب أن تنتهى ، وقد ينتاب بعضهم الرغبة فى عدم تكملة المشوار ، ويفكر فى القاء نفسه فى النهر أسفل الجسر .

ومثلما كانت « ميلينا » شغوفة بفيلم لوودى آلن فى رواية « المسافر الرائع » . فان بطل الرواية هنا مجنون بأفلام المخرج الألمانى فيم فندرز . فابطال أفلام فندرز مرهقين من كثرة التجول فى الشوارع الطويلة ليست لهم بيوت يسكنون فيها ، ولا نعرف من أين تأتى جذورهم بالضبط ، ولذا فهم فى حالة سفر دائم داخل المدن وخارجها .

والأيام العادية التى يقصدها إيف سيمون قد تبدو فى الكثير من الأحيان غير عادية بالمرة ، أو قد تبدو مثل صفحات الكتب البيضاء ، لا معنى لها بالمرة ، ولذا فإن « چيل ريتار » ، واحد من ابطال الرواية يحب التطلع من النوافذ المفتوحة نحو الفضاء . تبدو المساحات أمامه فارغة بلا معنى ، وهو يجد هذا امراً مثيراً فهو لا يريد أن يرى شيئا . بل ان يفكر فى لا شئ .

والبطل الاساسى فى هذا الكتاب هو سيمون نفسه . فهو الذى يقوم بالجولة فى اماكن عديدة . فى المتاحف والشوارع ولذا فإن « أيام عادية » أقرب إلى الانطباعات الإنسانية منها إلى الرواية المتكاملة ، أو لعل سيمون قد سعى فيها ان يغير الشكل الروائى كى يؤكد انه ينتمى إلى مدرسة الرواية الجديدة .

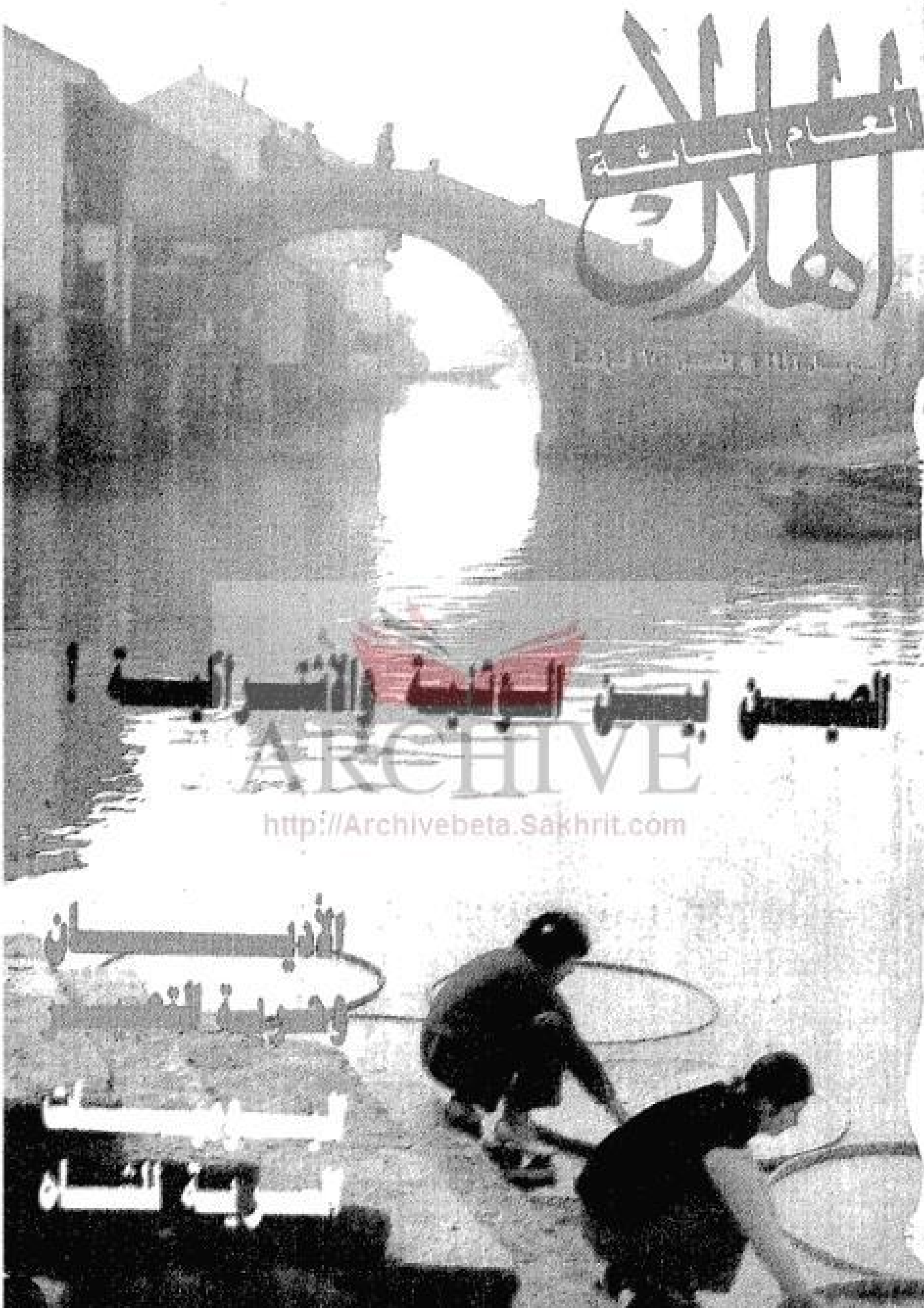
الماضي .. قطع غيار

اما الرواية التي فازت بجائزة مرسيس عام ١٩٩١ فعنوانها « نفايا المشاعر » ، وهي نفس الجائزة التي حصل عليها من قبل الآن روب جرييه وكلود سيمون وميشيل بوتور . والبطل في هذه الرواية يحضر مراسيم دفن صديقته ، وبينما جسدها يدخل المقبرة يتذكر صديقة أخرى أحبها طويلا . هذا الرجل مؤلف روائي ألف كتاباً واعطاه لصديق من أصل أفريقي كي يقوم بإعادة كتابته . انه كتاب عن ماري التي أحبها وحملت منه وارادت ان تجهض ، ولأن لهذا الكاتب إبناً من امرأة ثالثة فإنه لا يريد طفلاً جديداً ، وكما ترى فنحن من جديد ، أمام لعبة الصناديق المتداخلة المعقدة . لقد رحلت عشيقته أم ابنه وهجرته قبل أن تلد ابنه الذي لم يره حتى الآن ، ولذا فهو لا يريد ان يمر بنفس التجربة مرة أخرى « ترى ما هو الماضي ، انه ليس سوى مجموعة قطع غيار متناثرة وطعنات سكين » .

ويقول الناقد رينو ماتينيون - جريدة لوفيجارو ١٤ أكتوبر ١٩٩١ - ان « نفايا المشاعر » لا تمثل سيناريو فيلم ولا بحثا ، ولا طرداً بريدياً ، ولكنها رواية عن مشاعر البشر مصاغة في كلمات لان الهياكل البنائية غائبة منها » .

ويقول ماتينيون أيضا ان صفحات الرواية تبدو متشابهة في بعض الأحيان تشابه مشاعر الإنسان وتشابه ايقاع حياتنا اليومية ، ولكن أهمية تجربة سيمون الجديدة ليس في الشكل التجريبي ، وانما في اللغة التي يستعملها . انها لغة جديدة تتشابك كلماتها معا كأنها تصنع مشربية عربية ذات شكل جميل ومتناسق ، وقد اتضح هذا في أولى صفحات الرواية حين أكد الراوية : « انني اتكلم عن أمر لا أستطيع ان احيكه سوى بالكلمات وإذا لم أفعل ذلك عليّ ان التزم الصمت » .

بهذه الرواية أثبت إيف سيمون ان تجربته الروائية لم تكن أبدا حالات عابرة مثلما حدث مع أغلب الذين كتبوا الرواية من نجوم السينما خاصة في فرنسا ، وانه ليس هناك أي تناقض ان يكون المرء مطرباً عذب الصوت ، ذا تأثير على مشاعر الناس وفي نفس الوقت يكون مبدعاً روائيا متميزاً يساعد في بلورة أفكارهم وصناعتها . بل ويحصل على الجوائز الأدبية المتميزة .


الهلال
العام المائة
الصين بين الوثنية والاشتراكية !


المنظف الصناعى
نيون ...٢٠٠٠
ذو الرغوة الوفيرة
والرائحة الذكية
إنتاج:
شركة اسكندرية للزيوت والصابون

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجى زيدان عام ١٨٩٢

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

نائب رئيس مجلس الإدارة
عبد الحميد حمروش

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

المستشار الفنى
محمد أبو طالب

مدير التحرير
عاطف مصطفى

المشرف الفنى
محمود الشيخ

سكرتير التحرير التنفيذى
عيسى ديـاب

الادارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا)
ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط)
المكاتبات : ص . ب : ٦١٠ - العتبة - الرقم البريدى : ١١٥١١ - تلغرافيا المصور - القاهرة ج . م . ع .
مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨١
تلكس : 92703 Hilal un
فاكس FAX : 3625469

السنة المائة - أبريل ١٩٩٢ - رمضان ١٤١٢ هـ .

عالجنا موضوع الآثار ، ونبهنا أكثر من مرة إلى الخطر الذى يتهددها فى كل ربوع مصر بدءاً من الأقصر ، حتى المنطقة الأثرية فى الجيزة ، كما تناولنا الخطر المستمر والاعتداء اليومى على آثارنا الإسلامية الخالدة .

وحرصت « الهلال » على الدعوة المبكرة لحماية آثار مصر وكنوزها التى لامثيل لها فى العالم كله . ويبدو أن الأمر يحتاج وبشكل عاجل إلى حملة إنقاذ عالمية لتوفير المال اللازم والكفاءات العلمية لدرء الأخطار عن هذه الآثار التى تعد ملكا للبشرية كلها، كما ننبه بضرورة أن تبدأ حملة قومية داخل مصر ، لتوقف الاعتداء الصارخ على الآثار ، وبيان أهميتها .

وحتى نخلق رأياً عاماً قويا يبين الأخطار التى تهددها ننشر مقالين فى هذا العدد .. الأول بعنوان «أعظم آثار العالم فى خطر » والثانى بعنوان «انقذوا كنوز مصر المعمارية والأثرية» .

في هذا العدد

• فكر وثقافة •

● اخناتون . محو الأمية في مصر الفرعونية ..... د . سيد كريم ٨
● الجامعة المفتوحة وديمقراطية التعليم .... د . شبل بدران ١٦
● الأدب العربي المعاصر .... د . محمود على مكى ٢٤
● مستقبل وأزمة الطبقة الوسطى المصرية ..... أحمد عباس صالح ٣٤
● القفز على الأشواك : الأدب والغناء ...... د . شكرى محمد عياد ٤٦
● ابن حنبل واسحاق الموصلي .... كمال النجمى ٥٤
● الشاه وأنا .... حسين أحمد أمين ٦٠
● لماذا نكتب السيرة الذاتية ؟ .... د . مصطفى سويف ٦٨
● عن النصر والهزيمة بإصلاح .... عبد الرحمن شاكر ٧٢
● بين العرب واليهود تجربة خاصة ١٩٣٦-١٩٩٠ .
.... د . عبد الوهاب المسيرى ٩٢
● الصين بين الوثنية والاشتراكية .... د . السيد أمين شلبى ٩٨
● أعظم آثار العالم في خطر .... د . صبرى منصور ١١٠
● اقتلوا كتون مصر .... جودت أحمد الحمد ١١٨
● السلامة البيولوجية .... د . محمد بهائى السكرى ١٢٨
● قراءة في أوراق ندوة اشكالية التحيز .... عبده جبير ١٤٠
● أين دور مجمع اللغة العربية من لغة العصر؟ .... عادل عبدالصمد ١٤٥

الغلاف
تصميم الفنان
محمد أبو طالب

الإشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى ١٢ جنيها فى ج . م . ع . تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ١٢ دولارا - أمريكا وأوربا وآسيا وافريقيا ٢٥ دولارا - باقى دول العالم ٣٥ دولارا .

والقيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال - ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

• دائرة حوار ••

- الأديان واحترام حرية التعبير .... وجيه دراز ٧٨
- حدود حرية التعبير . تعقيب على تعقيب .. د. أحمد كمال أبو المجد ٨٢
- العصر القادم والثقافة العربية .... محمد الفارس ٨٦

• فنون •

- السلطة والسلطان قضية تلح على كتاب المسرح المصرى .
.... مهدى الحسينى ١٣٢
- أديب من النوبة .... د . أحمد حسين الصاوى ١٥٦
- صاروخان . مليون نكتة سياسية فى ٦٣ عاماً ...... نجوى صالح ١٦٢

• رسائل صحفية •

- رسالة لندن : الصحافة العربية فى بريطانيا ..... د . على شلش ١٧٢
- رسالة باريس : رجل مجنون فى الشارع ...... مصطفى درويش ١٨٣

• قصة وشعر •

- حصاد العمر « شعر » .... رشاد يوسف ٦٦
- إنه فى التاسع والأربعين « قصة » .... سعيد سالم ١٢٩

الابواب الثابتة

عزيزى القارىء ٦
أقوال معاصرة ٢٣
شهريات (المكتبة) ١٤٠
لغويات ١٥٥
العالم فى سطور ١٧٨
أنت والهلال ١٨٦
الكلمة الأخيرة ١٩٤
د. شكرى محمد عياد

النسخة
سوريا ٧٠ ليرة ، لبنان ١٥٠٠ ليرة ، الأردن ١٠٠٠ فلس ، الكويت ٧٥٠ فلسا ، السعودية ٨ ريالات ، الجمهورية اليمنية ٢٥ ريالا . تونس ١٫٥ دينار ، المغرب ١٥ درهما ، البحرين ٨٠٠ فلس ، قطر ٨ ريالات ، مسقط ٨٠٠ بيسة ، غزة والقدس والضفة ٨٠ سنتا ، ايطاليا ٢٧٠٠ ليرة ، لندن ١٢٥ بنسا ، نيويورك ٤ دولارات ، الامارات العربية المتحدة ٨ دراهم ، الجماهيرية الليبية العظمى ١ دينار .

أزهار ابريل

شهر أبريل – ياعزيزى القارىء – هو شهر الكذبة الشهيرة التى موعدها اليوم الأول منه ، فإذا جاء اليوم الثانى التزم الناس الصدق ، ولاشىء غير الصدق كأنهم ماثلون أمام المحكمة يؤدون القسم على قول الحق ولاشىء غير الحق ! ..

وأبريل أيضا هو شهر الأزهار والأثمار ، ويقابله عندنا شهر «برمهات» المصرى ، ومنذ القدم يقول الفلاحون المصريون بعضهم لبعض : « فى برمهات انزل الغيط وهات » أى أن الزروع تنضج فى برمهات وتملأ الحقول ، وما على الفلاح إلا أن ينزل إلى حقله ويقطف ثمار عمله الشاق فى طوبة وأمشير ، أثماراً ناضجة فى شهر برمهات ، أو شهر ابريل ، شهر الكذب فى أوله ، وشهر الثمرات اليانعات إلى نهايته ..

والشعراء يتغزلون بأزهار شهر أبريل .. يحدث ذلك فى البلاد العربية إذ يتغزل الشعراء لشهر نيسان الذى هو شهر ابريل ، ويحدث حتى فى انجلترا ذات الجو البارد إذ يتغزل شعراؤها فى « ليدى ابريل » أو « السيدة ابريل » .. أى أن ابريل عندهم يشبه المرأة الجميلة المختالة فى أجمل أزيائها الملونة ! ..

ولأبريل تاريخ قديم .. كان الرومان يحتفلون به بوصفه شهر « الزهرة المقدسة » .. واسمه فى اللاتينية « ابريليس » .. ويقابل فى اليونانية « فينوس » الزهرة الرومانية الجميلة .. وفى ٢١ أبريل ذات عام من الأعوام قبل الميلاد بدىء فى بناء مدينة روما الباقية على الزمان ! ..

إن اسم « نيسان » الذى نطلقه على ابريل هو أحق الأسماء بالتأمل والاعتبار ، فإن كلمة نيسان ذات الأصل السريانى معناها « الذبيحة » .. ولعل اسم « الذبيحة » هو الاسم الذى يتلقاه شهر ابريل فى هذا العام وهو مُقرّ بمعناه ومبناه تمام الإقرار ، ناظرا إلى البلاد العربية من مشرقها إلى مغربها نظرة الرثاء ! ..

عزيزى القارىء

لانريد « تقليب المواجع » فى هذا الشهر الذى سمّاه الشعراء شهر الحب ، وشهر الجمال ، وشهر الربيع ، وشهر الأزهار والأطيار ! ..

ونحن مع الشعراء نرحب بشهر الربيع قائلين :

مرحباً بالربيع فى رَيْعَانِهْ
وبأنــوارِه وطِــيبِ زمَانِهْ

.. وأشعار نيسان

فإن الشعوب التى تشعر بمقدم الربيع ، وتنتعش أحاسيسها فى دفئه ، وترتفع معنوياتها فى ضوئه ، هى الشعوب التى مازالت تحتفظ فى أعماقها برغبة فى البقاء ولاشك أن الشعوب العربية من بين تلك الشعوب الراغبة فى البقاء ، المناضلة عن نفسها ضد عوامل الفناء ، وإن كان الزمان قد قلب لها ظهر المِجَنّ - كما كان يقول القدماء - وكشّر لها عن أنيابه ! ..

عزيزى القارىء ..

هانحن أولاء نلتقى بعد شتاء قارس جهم طويل ، فإن الحياة أشد حيوية مما يتصور أعداؤها ، والربيع ينتصر دائما ويعود على حصانه الأغر المحجل الذى تختلط فيه ألوان البياض والحمرة والدكنة ، كاختلاط الألوان فى حقول نيسان ، أو حقول برمهات التى تفتح صدرها للفلاح المصرى ، وتدعوه قائلة فى ترحاب صادق : انزل الغيط وهات ! ..

ومطلوب من كل إنسان مصرى وعربى أن ينزل إلى معترك هذا العالم الجديد الذى وجدنا أنفسنا فجأة نعيش فيه ، ومطلوب أن تأخذ الأمة العربية ماتقدر يداها على الوصول إليه من « الغيط » الذى صار حراسه خليطا من اللصوص والحرس الغلاظ الشداد وخيالات « المآته » المهزومة التى لم تعد تخيف العصافير ! ..

عزيزى القارىء

نشكرك على لقاء الشهر الماضى ..

كان لقاء مارس - آذار ، أول شهور الربيع لقاءً حميما بينك وبين الهلال فقد تضاعف إقبالك ، واشتدت حماستك لمجلتك التى تسعى إليك بانتظام منذ مائة عام وأنت تنتظر مقدمها فى كل الظروف وكلاكما يقول لصاحبه : أهلا ! ..

وندعوك - ياعزيزى القارىء - إلى جولة فى هذا العدد الذى يوافيك مع أثمار برمهات ، وحرارة أبريل وأشعار نيسان ! ..

« المحرر »

إخناتون

محو الأمية فى مصر الفرعونية

بقلم : د . سيد كريم

ماذا فعل الأجداد فى مصر الفرعونية فى أخطر المشاكل التى يعانيها مجتمعنا المعاصر . ؟ وكيف اهتدوا إلى طرق بسيطة ، ولكنها فعالة ، تقوم على تخطيط سليم ، للقضاء على الأمية . ؟

من البرديات المصرية ، نتعرف على هذا المشروع الفريد الذى استطاع به أخناتون ، خلال ثلاث سنوات القضاء على الأمية بمعناها الشامل فى مصر كلها ..

الحضارة مرآة الثقافة والثقافة نسيج علوم المعرفة من وحى العقيدة .. فالعلم توأم الايمان فى جميع رسالات التوحيد .

معادلة ثابتة من ناتج حوار الحضارات الانسانية . معادلة حددت دور العقيدة فى بناء الثقافة . ودور الثقافة فى بناء الانسان ، ودور الانسان فى بناء الحضارة .

فعقيدة التوحيد المصرية القديمة هى أول عقيدة وحدت الخالق ، وأول توحيد للخالق عرفته البشرية مع مولد الزمان قبل نزول الرسل والأنبياء . حملت الرسالة الحرف والكلمة بالخط الهيروغليفى أول كتابة عرفتها البشرية ، بدأت بالقول بأن الاله الخالق أنزل اليهم الحرف والكلمة ليقرءوا كلام الله ويتلقوا تعاليمه فيستمعوا إلى صوت السماء .

العلم أول أركان الإيمان

لذا فقد بدأت رسالة التوحيد الذى أطلق عليه المصريون القدماء اسم « كتاب النور » بقولها بأن العلم هو أول أركان الايمان بالإله ، وعن طريق المعرفة بالقراءة والكتابة يتفتح عقل الانسان لتقبل علومه

● اخناتون
١٣٧٠ ق٠م



اخناتون اخن اتن (عنخ أن ماعت) «الذى يعيش فى الصدق» رابع رسل عقيدة التوحيد .. القراءة أول اركان الايمان والجهل كفر بالاله

المقدسة التى تميزه عن بقية الكائنات ، وتكشف له أسرار الوجود ، وينفتح قلبه للإيمان بالخالق الذى وهبه نعمة المعرفة

التى تمكنه من رؤية الإله فى كل آياته ، ويستمع إلى تعاليمه التى تمهد له عبور حياة التجربة بأمان ، وتمهد له حضارته

الطريق إلى عالم الخلود .

ان عقيدة التوحيد المصرية التى نزلت على أرض مصر فى عصر ما قبل الأسرات فى مدينة أون « مرصد الشمس » هى أول دعوة عرفتها البشرية لمحو الأمية ، دعوة ربطت بين العلم والايمان برباط مقدس .

فكانت الدعوة التى تصدرت جميع كتب التوحيد السماوية التى حملها الرسل والأنبياء عبر تاريخ الأديان السماوية وقيام الحضارات العالمية التى ارتبطت جذور نشأتها بالرابطة الوثيقة بين العقيدة والثقافة ، أو بين العلم والايمان .

فجوهر التوحيد الذى يمثل حجر الزاوية فى الايمان « الاوزيرى » المصرى القديم يرفض كل فصل بين العلم والعقيدة .

لم تنشأ عقيدة التوحيد عند قدماء المصريين الفصل بين الايمان الذى عبروا عنه « بالحكمة » والعلم ، فلم تقبل معالجة أى فرع من فروع العلم بمعزل عن العقيدة التى هى هدف فى ذاتها ، ومعنى للوجود نفسه ، فكل ما فى الطبيعة كما يذكر كتاب التوحيد هو مظهر من مظاهر وجود الاله ، فليست معرفة الطبيعة وعلوم معارفها الا شكلا من أشكال العبادة المقربة إلى الله .

فانطلق العلم فى عقيدة التوحيد المصرية من مبدأ الوحدانية حيث لا مجال للتفريق بين الطبيعة « آيات الله » ، وبين مختلف علوم مجالات الحياة من فنون



وآداب وعلوم وطب وفلك وهندسة وزراعة ، بل مختلف الحرف والصناعات وامتدادا إلى السياسة والاقتصاد وإدارة الحكم والقضاء ، وعلاقة كل منها بتشاريع السماء كما هو الحال فى جميع الكتب السماوية التى بدأت بالدعوة لمحو الأمية لتلقى تشاريع السماء وكلمات الاله .

ولم تغفل العقيدة المصرية علاقة العلم بالعمل ، والعمل بالتقنية ، فجعلت من العمل وممارسته واتقانه نوعا من العبادة التى تقرب الانسان من الاله كما يقول أخناتون فى احدى برديات العمارنة : « تعلموا لتتعلموا كيف تعملون فاتقان العمل صلاة تقربكم من الاله وعين الاله لا تغفل عما تعملون » .

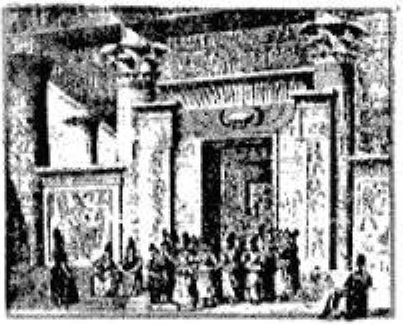
أربع مراحل لمحو الأمية

لقد مرت ثورة محو الأمية التى ارتبطت بنزول العقيدة بأربع مراحل عبر تاريخ مصر الزمنى الطويل ، حملها أربعة رسل من رسل العقيدة بدءا بأوزوريس الذى حمل أول رسالة للتوحيد عرفتها البشرية ، صاحبها نزول الكتابة الهيروغليفية أول كتابة مرسومة ومنطوقة عرفها الانسان ، ومنها ومن قواعدها استقت جميع اللغات السامية القديمة . ويأتى بعد أوزوريس « مينا » موحد القطرين بتوحيد العقيدة مؤسس الأسرة الأولى فى العصر العتيق ، وتبعه « ايمحوتب » برسالة التوحيد فى عصر الأهرامات الذى وصفه المؤرخون بإله الطب ورب الهندسة والفنون ، يأتى بعده أخناتون الذى وصفه مؤرخو العصر الحديث بالخطأ بأنه أول من نادى بالتوحيد فى تاريخ الحضارة المصرية .

لقد سجلت كل تجربة من تلك التجارب الأربع صورة ناطقة لا تمحى عن الدور الذى قامت به العقيدة فى محو الأمية ونشر الثقافة ، ودور كل تجربة فى بناء الحضارة فى مصر القديمة ، وازدهارها فى مختلف عصورها وما سجله لها تاريخ الحضارات العالمية بخطوط من نور .

سأقتصر فى هذا المقال على شرح دور العقيدة فى محو الأمية على التجربة الرابعة التى ارتبطت بعقيدة التوحيد الأخناتونية التى قام بها الملك « امنحتب الرابع » أى الذى لنفسه أسما روحانيا عندما تولى الحكم هو « عنخ ان ماعت » أى الذى يعيش فى الصدق ، وعندما قام بثورته الدينية المعروفة أطلق على نفسه اسم أخناتون ، وحقيقة نطقه (اخن اتن) واخن معناها مبعوث أو مكرس ، واتن صفة من صفات الاله كما وردت فى كتاب أوزوريس ، ومعناها «القوى الآلهية» التى تهب الحياة وتحرك الكون ، أى أن اسم إخناتون أو اخن اتن معناه مبعوث العناية الآلهية .

لاتختلف رسالة أخناتون فى مضمونها وتعاليمها وشرائعها عن الرسالات التى سبقتها إلا فى طريقة صياغتها وأسلوب



عرضها بما يتفق مع تطور ظروف حياة المجتمع المعاصر للزمان والمكان .

مشروع أخناتون

بدء اخناتون الرسالة عام ١٣٧٠ ق.م فى المدينة التى شيدها لتكون عاصمة ملكه وحاضرة العقيدة فى الأرض التى اختارها له الاله « أرض لم يدنسها بشر » اطلق عليها اسم « اخت اتن » أى افق الاله (تل العمارنة) .

فى تلك المدينة وفى معبد الوحى الذى اقامة للاله تلقى أخناتون رسائل التوحيد التسع (تاسوع التوحيد أو وصايا السماء) كشفت حفريات العمارنة عن خمسة من تاسوع تلك الرسائل موزعة بين المتحف البريطانى واللوفر وبرلين وتورين ومن بينها رسالة محو الأمية ، وهى الرسالة الثالثة لتشاريع العقيدة وكان الفضل لاكتشافها وترجمتها العالم المصرى الكبير الدكتور سليم حسن والذى اكتشف فى نفس الوقت صفحات من كتاب العقيدة الاخناتونية مماثلة لصفحات من التوراة التى ظهرت بعده بعدة قرون بجانب ما هو معروف عن مزامير داود المعروفة والتى وجدت أنها صورة طبق الأصل من أناشيد أخناتون التى كشفت حفريات العمارنة ، وأخيراً حفريات اخميم ، عن العديد منها وأعلن عنها حديثا فى أكثر من بحث علمى .

الفهم الصحيح

تنص مقدمة الوثيقة التاريخية أو الرسالة الثالثة من تشاريع أخناتون بأن العلم أول أركان الإيمان والجهل كفر برب السماء .

تضمنت الوثيقة وصفا كاملا لمحو الأمية بمفهومها الحضارى الصحيح ، فمحو الأمية فى مفهوم العقيدة لا يقصد به محو الجهل بالقراءة والكتابة . بل محو الجهل بمختلف مقومات حياة الفرد وكيان وجوده ودوره الفعّال فى خلية المجتمع ، ودور الثقافة فى بناء الانسان ، ودور الانسان فى بناء المجتمع المتحضر ، وبناء المجتمع فى بناء حضارة الأمة والتاريخ .

جمعت الرسالة بين محو الأمية ونوعية التعليم وتشعب اتجاهات ومراحل تطوره ، بجانب دور أفراد المجتمع بأكمله فى معركة محو الأمية أو معركة التطهير من الجهل .

معركة يشترك فيها الشعب بمختلف طبقاته وجميع طاقاته مع كهنة المعابد ورجال الدين وأهل المعرفة وسواعد العمال

فى تطهير الشعب وبخوله تحت مظلة التوحيد والايمان بالله .

تحولت المعابد ودور العباده تحت راية تلك الحملة ، بجانب دور السكن ومنتديات الشعب وساحات المدينة ، إلى خلية حية لمحو الأمية ومصنع للمعرفة ومحو الجهل . فأصبح العلم والعمل من طقوس العبادة التى يأمر بها الآله .

حددت الوثيقة موضع كل فرد من أفراد العائلة ، وكل عضو من أعضاء المجتمع فى معركة محو الأمية .. معركة التحرير من الجهل .

حددت دور الآباء والأمهات فى تنشئة الطفل وتعليمه قبل خروجه من البيت إلى الحياة . حددت دور محو الأمية فى علاقتها بالثقافة المهنية وتطويرها . والتقنية وتنميتها ، وذلك بالتركيز على توريث المهن والحرف التقليدية ، والعمل على تشجيع خبراء العاملين والمتخصصين فى المهن الفنية ، وذلك بمنحهم الألقاب الفخرية (والتى بعضها الانتساب للقصر) بينما حمل البعض مختلف الالقاب الكهنوتية وانتقلوا لممارسة أعمالهم وفنونهم داخل أسوار المعبد للحفاظ على أسرار المهن وسلامة العمل على توريثها .

البـــرنـامـج

يبدأ برنامج محو الأمية بتوريث المهن والتخصص فيها بالكاتب ، وهى أرقى المهن المرتبطة بتعاليم السماء الخاصة بالمعرفة المقدسة . تبدأ بتعاليم ابن الكاتب فى المعبد القراءة والكتابة وفنونها ونقوشها انتقالا إلى ادب العقيدة والحكمة ، ويصل إلى أعلى درجات الكهنوت ليحمل لقب الحكمة المقدسة عندما يصور كتاب العقيدة ، « كتاب الموتى » كاملا على لفافة البردى برسومه التصويرية والنقش المقدس (الخط الهيروغليفى) مع احتفاظه بأسرار المعانى التى يعبر عنها بالرموز والطلاسم ويضاف إلى اسمه لقب حكيم ككل من أنى وحونفر وانهاى ممن نسبت اليهم برديات « كتب الموت » ! .

ويتخصص الكاتب الذى يعد للأعمال الوظيفية سواء فى القضاء أو الادارة أو التشريع فى الدراسات المرتبطة لوظيفته .

كما يحمل كبار الموظفين الذين يحتلون قمة مراكز القضاء أو التشريع أو التعليم وكذلك بعض المهن العلمية ، ألقابا كهنوتية مقدسة مبجلة بجانب ألقابهم المدنية ويستمر ارتباطهم بالمعبد الذى ينتمون إليه .

تنص وثيقة توريث المهن الاخناتونية على أن يتعلم صاحب أية مهنة من المهن المعروفة بجانب الدروس الدينية أو تعاليم السماء ، يتلقى البرنامج الخاص بمحو أميته وتنمية مواهبه علميا وعمليا وتقنيا .

تستمر علاقة الثقافة بتوريث المهن لتحدد برامج محو الأمية لكل مهنة وفئة من فئات الشعب كالآتى :

يتعلم ابن المزارع (ابن الأرض) القراءة والكتابة والحساب والزراعة ورعاية



الأرض المقدسة وما عليها من نبات وحيوان وضعهم الآله أمانة فى يده .

٨ يتعلم ابن العامل الحرفى القراءة والكتابة والحساب واصول الحرفة التى يزاولها أبوه فهى هبة من الآله يورثها لأولادها ، وهو مسئول عن الحفاظ عليها ، فاتقانها يقربه من الآله وتوريثها أمانة فى عنقه .

يتعلم ابن الطبيب القراءة والكتابة والحساب وعلوم الطبيعة وأسرار الطب والعلاج ويتخصص فى نواحى تخصصه ويحافظ على أسرار مهنته المقدسة التى يتلقى تعاليمها من كهنة المعبد المتخصصين .

ويتعلم ابن المهندس القراءة وعلوم الهندسة والرياضيات والفلك واحجار المناجم .

ويتعلم ابن الفنان القراءة والكتابة والفنون المقدسة التى يتداولها بالوراثة أو الموهبة كفنون النحت والتصوير والنقش المقدس (الكتابة) والموسيقى والغناء .

أما العلوم الدينية ورسالة التوحيد فيتعلمها تلقائيا من تعلم القراءة والكتابة التى نزلت فى الكتاب المقدس الذى يأمرهم بقراءة كلام الآله ليتعلموا القراءة والكتابة عن طريقه .

تعليم المرأة

لم تغفل رسالة محو الأمية فى الرسائل الاخناتونية محو أمية المرأة ودورها فى المجتمع ، فوصفتها بأنها « مديرة مدرسة البيت » لأنه فرض عليها أن تجعل من بيتها مدرسة يتعلم فيها الأطفال منذ ولادتهم الوعى الاجتماعى السليم والمستقيم ، بجانب تعلم مبادىء الكتابة بتعلم رسم الحروف ونطقها حيث تمتاز الكتابة الفرعونية بالعلاقة بين شكل الحروف ونطقها الذى تميزت به حروف الكتابة الهيروغليفية التعبيرية وهو ما يعتبر من أحدث الطرق المتبعة عالميا لتعليم الأطفال فى دور الحضانة الآن ، وهو ما يعتبر أول مراحل محو الأمية قبل خروجهم من مدرسة البيت إلى مدرسة الحياة .

أما محو أمية المرأة نفسها فتبدأ بالقراءة والكتابة والحساب والتمسك بتشاريع السماء التى حددت حقوقها وواجباتها فى الحياة والمجتمع ، بجانب رعاية الطفل ، وتدبير المنزل ، بالإضافة إلى التدريب على الرعاية الصحية للعائلة والبيت وما يحيط به .

كما اشترطت ثقافة المرأة أن تتعلم أحد الفنون الترفيهية المقدسة وهى الموسيقى والرقص والغناء . وكانت النساء والبنات والأولاد يشتركون بتلك الفنون الجميلة فى المناسبات الدينية وأعيادها فى المعابد ، وساحات الأعياد ويدخل بعضها فى الطقوس الدينية .

لم تحرم المرأة من القيام بدورها فى المجتمع فى ممارسة بعض المهن التى تنتقل اليها بالتوريث كالطب والهندسة والحرف التقليدية وخاصة الصناعات المنزلية (ربات البيوت) ، فاحتلت المرأة المصرية مكانة فى مهنة التمريض والصيدلة ، وقد سجل التاريخ اسماء كثير من النساء ممن تولين أعلى المناصب فى الدولة سواء فى الطب والهندسة أو القضاء أو الكهنوت خلال كل من الدولتين القديمة والحديثة .

جدول زمنى

ويعلن أخناتون مسئوليته فى نشر عقيدة التوحيد وتعاليمها التى حمله الآله إياها والتى تبدأ بمحو الأمية ..أول أركان الايمان فوضع أخناتون جدولا زمنيا قال إنه تلقاه من رب السماء ذكر به المهلة التى حددها الآله للدخول فى طاعته . حددها بدورة سفينة عرش الآله دورة كاملة فى قبة السماء عبر بروجها وسمواتها وديكاناتها . دورة لا تغفل فيها عين الآله عن رؤية البشر ومراقبة أعمالهم . تبدأ الدورة بظهور النجم سبرت (الشعرى اليمانية) الذى يظهر مرة واحدة فى افق مصر مع شروق الشمس فيعلن بداية العام .

وهو النجم الذى اتخذه الفراعنة أساساً للتقويم الشمسى الفرعونى القديم والمعمول به فى العالم أجمع إلى اليوم .

أى أن أخناتون قد حدد موعدا لبرنامج محو الأمية يستمر طوال العام . لكن المشروع كله يكتمل خلال ثلاثة أعوام

لما كان الآله قد حمل أخناتون مسئولية تقصير دخول الناس فى الايمان وجهلهم بقراءة كتابه وتعاليمه فقد ارفق إخناتون بوثيقة محو الامية مختلف العقوبات التى يطبقها على المخالفين لتعاليم العقيدة ومحو الامية وتتفاوت العقوبات بين الجلد والسخرة والحرمان من الحقوق المدنية ومن بينها مصادرة أموال رب العائلة الذى يهمل ويقصر فى تعليم أبنائه للصرف منها على حملة التعليم ومحو الامية .

هكذا سجل تاريخ الحضارة لاخناتون بأنه تمكن من محو الامية بقوة العقيدة وربط العلم بالايمان فى مصر خلال فترة زمنية لا تغفل فيها عين الآله عن مراقبة البشر .

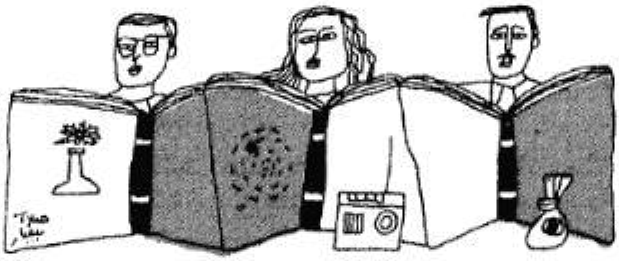
يقول المؤرخ سيرام فى كتابه « ذاكرة التاريخ » ان الملك الفيلسوف أخناتون تمكن من محو الامية فى عاصمة ملكه خلال ثلاث سنوات ، تركزت السنة الأولى على تعليم الكتابة والقراءة وحفظ وصايا السماء التسع وطقوس العبادة ثم عامين لإتمام محو الامية أو الجهل بالوجود والانتماء للمهن بالعلم والايمان تبعا للبرامج والتعاليم والوصايا التى حددتها الوثيقة .

الجامعة المفتوحة..
وديمقراطية التعليم

بقلم : د. شبل بدران

مع تزايد المعرفة الإنسانية ونموها بشكل مطرد ، وتزايد عدد السكان فى العديد من بلدان العالم ، اخفقت مؤسسات التعليم الجامعى والعالى وما قبله ، عن القيام بكامل دورها نحو إيصال العلم والمعرفة إلى المحرومين منه ، وكذلك إلى طلابه ومريديه . فتم استحداث صيغ جديدة ومبتكرة للتعليم العالى ، تسعى كلها نحو توصيل العلم والمعرفة إلى قطاعات واسعة من الطلاب .. فكان هناك «التعليم عن بعد» ، وهو نوع من التعليم يعنى بُعد المتعلم عن مكان الدراسة ، مدرسة ، أو معهدا ، أو جامعة ، وسواء كان البُعد اختيارياً كما هو الحال فى الدراسة أثناء العمل أو ربة البيت التى لا تستطيع التفرغ للدراسة . أو إجبارياً كما هو الحال فى عدم توافر الشروط التى تضعها الجامعة أو قلة الأماكن المتاحة بها أو عدم قدرة الطالب المادية على دفع تكلفة التعليم العالى .

كذلك يمكن أن يشمل «التعليم عن بُعد» أى مرحلة من مراحل التعليم : العام أو الجامعى أو التعليم المستمر .. كما هو الحال فى البلاد ذات المساحة الشاسعة مع قلة السكان مثل استراليا وكندا ، حيث يستغل اسلوب «التعليم عن بعد» ، لإيصال الخدمة التعليمية إلى الطلاب فى مراحل التعليم العام أو العاملين فى المزارع البعيدة والنائية عن العمران ، وذلك شعوراً من الدولة بمسئولياتها عن تعليم كل مواطن



بأساليب ميسرة ، وبدون أية عوائق مادية أو جغرافية تحول دون تعليم الناس، على اعتبار أن تعليم المواطنين ضرورة مجتمعية وسياسية في عالم متغير ومتجدد .

أما الجامعة المفتوحة فهي مؤسسة تربوية للتعليم الجامعي تتبع اسلوب «التعليم عن بُعد» ولا تتقيد بالشروط المحددة للقبول مثل الجامعات التقليدية ، بل هي «مفتوحة» للجميع مادامت هناك الرغبة والدافع للتعليم وما دام الطالب يداوم على نجاحه وتقدمه في دراسته ، فهي بذلك تحقق ديمقراطية التعليم تحقيقاً كاملاً وتترك للطالب حرية اختيار الدراسة في التخصص الذي يميل إليه ويرتبط بحاجاته وعمله ، إلا أن الجهد الأكبر في هذا المجال يقع على عاتق الاساتذة والخبراء الذين تستخدمهم الجامعة لإعداد المادة التعليمية والوسائط التعليمية التي تكتب خصيصاً «للتعليم عن بُعد» لتلائم التعلم الذاتي الذي ينبني عليه هذا الاسلوب من التعليم والتي تتضمن - فيما تتضمن - أساليب التقويم الذاتي والموضوعي لما اكتسبه الطالب من معلومات ويدعم بالمرشدين الأكاديميين في المراكز الدراسية المنتشرة في أماكن تجمع الطلبة والدارسين .

فلسفة التعليم المفتوح

تكمن فلسفة التعليم المفتوح في كونه أحد دعائم ديمقراطية التعليم في المجتمع، حيث تنبثق تلك الفلسفة من أن التعليم حق أساسي لجميع الناس على اختلاف أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والجغرافية ، لذلك يجب توفيره بصورة أكثر كفاية وعدلا لجميع الأفراد الراغبين فيه ، ولا يحول بينهم وبينه عوامل السن والمؤهل الدراسي والامكانات المادية وغيرها من العوائق التي توضع أمام الناس وتحول بينهم وبين حقهم في التعليم .

وتتبلور معالم التعليم المفتوح كصيغة «للتعليم عن بُعد» في كونها تهدف أساسا إلى تحقيق ديمقراطية التعليم والتي تعنى بالدرجة الأولى توصيل العلم والمعرفة إلى

مستحقيهم الفعليين والمحرومين منهم أساسا، بصرف النظر عن العوائق الطبيعية والمادية التى تحول دون ذلك. ويمكن إجمال بعض أهداف التعليم المفتوح فيما يلى :

- خلق صيغ جديدة تعاون الصيغ القديمة فى تحقيق الهدف الكبير وهو إيصال التعليم إلى المحرومين منه أينما كانوا وبصرف النظر عن إمكاناتهم وظروف حياتهم المعيشية .
- الاستجابة أولا لاحتياجات الواقع المعاش والأفراد فى توفير العلم والمعرفة المطلوبة لتحقيق التقدم الاجتماعى والتكنولوجى وفق شروط ودرجة التطور الاجتماعى السائد فى المجتمع .
- الإيمان بأن التعليم والتعلم قائمان ومستمران مدى الحياة وليس هناك سن معينة للتعليم أو فترة معينة أو صيغة محددة ، حيث يبدأ بالميلاد وينتهى بالوفاة ، فحياة الإنسان هى رحلة طويلة فى دروب التعليم والتعلم .
- توفير الخبرة والمهارة والتدريب لهؤلاء الذين انخرطوا فى العمل ولم تسمح لهم ظروفهم بمواصلة التعليم ، ويحتاجون إلى تطوير معارفهم وعلمهم لكى يواكبوا التطور العلمى والتكنولوجى الحادث فى المجتمع المحلى والعالمى .

الخصخصة ... والتشويه

تلك هى صورة التعليم المفتوح وغاياته وأهدافه النبيلة ، والتى تسعى فى جملتها إلى تحقيق العدل التربوى وتوفير فرص التعليم للإنسان أينما كان وكيفما يكون .. فماذا حدث فى مصر ؟ وكيف استفدنا من تلك الصيغ ؟ وبأى معنى ولأى هدف تم ما تم فى جامعاتنا المصرية ؟

لقد تحمس نفر قليل من العاملين فى مجال التعليم العالى والجامعى فى تشويه تلك الصورة وتحويلها عن مسارها الطبيعى والذى وجدت من أجله .. فبدل أن يكون التعليم المفتوح فرصة وحقا للمحرومين منه ، أصبحت سلعة تباع لمن يستطيع أن يدفع ثمنها .. وأصبحت مفارقة لحاجات الواقع المعاش ولحاجات الأفراد .. وانحسرت فقط ، فى كونها نتوء تم صنعه فى الجسد التربوى والتعليمى ليتسلق عليه هؤلاء الذين يملكون القدرة المالية ، ويفتقدون القدرات المعرفية والدراسية ، ويحتاجون إلى سياج اجتماعى وبريق مجتمعى ، يعطيهم المشروعية فى كونهم من خريجى الجامعة ..

إن المحاولات التى تمت فى بعض جامعاتنا (القاهرة والاسكندرية) ساهمت فى الاجهاز على مجانية التعليم وتكافؤ

الفرص وديمقراطية التعليم برمتها ، وذلك بخلق تشوهات ونتوءات فى التعليم الجامعى، شكلت قنوات للتعليم المفتوح للطلاب الذين لم يوفقوا فى دخول الجامعة بسبب قلة الدرجات التى حصلوا عليها ، ويملكون فى ذات الوقت القدرات المالية التى تسمح لهم بدفع تكلفة التعليم الجامعى .

وإذا كانت التجربة قد بدأت بالدراسة فى كلية التجارة جامعة الاسكندرية ، وكليتى التجارة والحقوق جامعة القاهرة ، فإن العديد من كليات الجامعات المصرية سوف تتصارع فى تعميق التناقضات والانقضاض على ما هو قائم وباق من مجانية التعليم وتكافؤ الفرص وذلك بفتح شعب فى تلك الكليات لاستيعاب هؤلاء الذين لم تمكنهم قدراتهم المعرفية من دخول الجامعة ، بدخولها من الباب الخلفى وبمصروفات مالية .. وكان من نتيجة ذلك الصراع أن أعلنت كلية التجارة جامعة القاهرة ، عن فتح شعب للمحاسبة والإدارة يكون التدريس فيها باللغة الانجليزية ؟ ! بدعوى الاستجابة لاحتياجات الواقع (البنوك الاجنبية) وأصبح الذين فشلوا فى دخول الجامعة بالطريق الرسمى ، هم الذين سوف يخدمون الواقع ! وهم فى الأساس يخدمون مصالحهم ومصالح من يمثلون اجتماعياً .. ومن هنا ترسخت قيمة جديدة هى من يملك القدرة المالية يستطيع أن ينفذ إلى داخل الجسد التعليمى بشتى الطرق (ولعل ذلك ازداد بعد حالة الاخفاق من التحويل من جامعات رومانيا والمجر وغيرها) وبعيداً عن القوانين واللوائح التى وضعت لتنظم قبول الطلاب بالجامعات المصرية . ويتم ذلك تحت دعاوى تجربة التعليم المفتوح والصيغ الجديدة ، فى حين أن ذلك النوع من التعليم وضع أساساً لأهداف غير ذلك ، ووضع لخدمة الطلاب المحرومين من التعليم أساساً بسبب عدم مقدرتهم المالية ، وظروفهم الاقتصادية والجغرافية .

دعاوى قديمة فى أثواب جديدة

إن المجتمع المصرى يعانى من نسب مرتفعة للغاية من البطالة ، وليست البطالة على إطلاقها ، بل بطالة المتعلمين من التعليم العالى والجامعى ، حيث بلغت تلك النسب ١٧٪ ، بما يعادل ثلاثة ملايين شاب متعلم متعطل عن العمل ، غالبيتهم من خريجى الآداب والتجارة والحقوق وهم من دفعات ١٩٨٤ وللان .. وإذا كانت مجالات العمل التقليدية ضاقت عن استيعاب عمالة متعلمة جديدة ، فما هى الجدوى من زيادة تلك الاعداد بتخريج أعداد جديدة من التعليم المفتوح فى كليات التجارة والحقوق.. وإذا كانت المبررات الواهية التى

تقول إنهم يدرسون علوما جديدة مثل الحاسوب واللغة الانجليزية وغيرهما .. ونحن نقول لهم ألا يمكن أن يتم تدريس تلك المواد للطلاب المتخرجين فعلا وفى انتظار فرصة العمل من خلال مراكز خدمة المجتمع التى تتبع الجامعات وفى جامعة الاسكندرية والقاهرة وعين شمس مراكز كبيرة الغرض منها خدمة المجتمع ، فلماذا لا يتم تدريب هؤلاء تدريبا سريعا فى أشهر معدودة استجابة لاحتياجات الواقع.. هل ذلك المبرر الواهى يستلزم فتح شعب جديدة دون التقيد بالمجموع ووفق القدرة المالية وحدها .. ونُحمل الجامعة أعباءً جديدةً وهى التى فى حاجة إلى أموال هؤلاء لتطويرها وترقية أدائها خدمة للطلاب الموجودين فيها الآن ؟!.

كما أن الشكوى تزداد من زيادة أعداد خريجى الجامعات للدرجة التى وصل بها الأمر ، إلى حد المطالبة بالحد من التعليم الجامعى وتضييق فرص الدخول إليه ، وتحويل الطلاب إلى مجالات العمل المهنية والفنية ، وهذه الشكوى تصدر عن جهات الاختصاص (وزارة التربية والتعليم والمجلس القومى للتعليم والمجالس القومية المتخصصة) بضرورة وأهمية تقليل العدد الداخل إلى الجامعات نظراً لعدم الحاجة إليه .. فما معنى أن توافق ذات الجهات المختصة بفتح تلك الشعب والقنوات – النتوءات – داخل جامعاتنا ؟ ! هل لتمنح هؤلاء الطلاب الصك – الشهادة – مقابل الآلاف من الجنيهات ؟ وتخلق متنفسا لأعضاء هيئة التدريس لزيادة أجورهم ودخولهم من وجود ساعات زائدة عن النصاب وتأليف الكتب والأشرطة والمكافآت التى تعينهم على العيش بشكل إنسانى وكريم ؟ وإن كان الأمر كذلك ، فكيف سيكون للبعض دون البعض الآخر ؟

التطوير الفعلى .. وليس الترقيع

إننا لسنا فى حاجة إلى تلك الصيغ، ولكننا فى حاجة ماسة فعلا إلى تطوير ما هو قائم وتنميته وربطه أكثر بحاجات المجتمع والناس ، شريطة أن تكون احتياجات المجتمع معلومة ومعروفة لدى جهات الاختصاص والتخطيط ، وذلك لأننا لم ننجح فى الصيغ التقليدية للآن .. ونستخدم الصيغ الجديدة لأهداف متعارضة ومتناقضة مع أهدافها وفلسفتها التى وضعت من أجلها . فمازال تعليمنا يعانى من توفير مكان مناسب للدراسة ووجود مكان إنسانى للطالب والاستاذ لكى تتم العملية التعليمية بكفاءة واقتدار ، ومازال يعانى من قصور فى التمويل .. والحاجة الفعلية هى تطوير ما هو قائم ودعمه ومساندته وليس التحايل عليه بدعاوى أخرى .

جامعة القدس وإسرائيل المفتوحة:

لا شك أن هؤلاء الذين قاموا بعملية الخصخصة التعليمية ، وافتقدوا ذلك النوع من التعليم أهدافه النبيلة وغاياته السامية فى توفير فرص التعليم للإنسان أينما وجد ويصرف النظر عن العديد من القيود .. انهم لم ينظروا أبعد من وقع أقدامهم .. ولم يتجاوزوا حدودهم الذاتية الضيقة والنفعية . وهناك جامعتان فى منطقتنا العربية تمثلان دليل عمل ومرشدا لكل من يسعى إلى إبقاء الاشياء على جمالها ونبلها ، وهى جامعة القدس المفتوحة .. وجامعة إسرائيل المفتوحة .

والجامعة المفتوحة فى إسرائيل ، هى إحدى المؤسسات الصهيونية التى اقيمت فى فلسطين المحتلة ، وهى تعمل على توحيد اليهود لغوياً وثقافياً وقومياً ، سواء منهم المقيمون فى المستوطنات فى فلسطين المحتلة أو اليهود الباقون خارجها فى مواقعهم الاصلية ، والذى أدرك أهمية تلك الجامعة وتحمس لها هو : «ايجال آلون» وزير التربية ، وذلك بالتعاون مع مؤسسة «روتشيلد» عام ١٩٧١ . وبنظرة ناقدة إلى تلك الجامعة سوف نجد ما يلى :

- إن ثلاثة أرباع الطلبة فى الجامعة المفتوحة ينضمون تحت اسم «القوة العاملة» فى البلاد .
- تتميز الجامعة المفتوحة عن غيرها من الجامعات التقليدية بتوفير فرص دراسية للشباب فى إسرائيل أثناء تأدية خدمتهم العسكرية الإجبارية ، لدرجة أنهم يمثلون ١٦٪ من مجموع الطلاب . كما يشكل المعلمون كتلة كبيرة أخرى من طلاب الجامعة المفتوحة .. فهناك حوالى ١٦٪ منهم يعملون فى مجال التربية والتعليم والتدريس .
- تتميز الجامعة المفتوحة أيضا بنشاطها الواسع بين أعضاء المزارع الجماعية فى إسرائيل (الكابوتزات) فحوالى ربع أعضاء هذه المزارع ملتحقون بهذه الجامعة وهى يشكلون حوالى ٨.٥٪ من مجموع الطلاب بها .
- تقدم الجامعة المفتوحة خدماتها إلى عدد من السجناء (ما بين سن ١٥ - ٢٠ سنة) كل فصل دراسى ، وحوالى ٢٠ طالبا فيما وراء البحار وطنهم إسرائيل ويعيشون فى الخارج .

فأين نحن من ذلك ؟ !! إن تلك الصيغة تنشر العلم والمعرفة على طول البلاد وعرضها وتقدم العلم للمزارع والسجين والمواطن خارج وطنه ، بهدف قومى وليس هدف مادى .. وتدريب العاملين فعلا ، ولا تزيد أعداد البطالة وتساهم فى تطوير

المجتمع ، وليس فى تعطيل قدراته وإمكاناته المادية والبشرية .

أما جامعة القدس فقد انشئت بتمويل من الصندوق القومى الفلسطينى واليونسكو والصندوق العربى للإنماء الاقتصادى والاجتماعى وكانت الفكرة عام ١٩٧٦، وتم التنفيذ عام ١٩٨٥، والأهداف التى من أجلها انشئت تلك الجامعة ، هى توفير الفرص التعليمية للطلاب الفلسطينيين المحرومين من التعليم والذين تحول ظروفهم المعيشية والاقتصادية والجغرافية من مواصلة التعليم العالى . وكذلك العمل على توحيد الشعب الفلسطينى وإيجاد قناة تعليمية تشرك الفلسطينيين فيها ، ومن خلالها يتم التواصل الفكرى والثقافى والحفاظ على الهوية الفلسطينية والعربية فى مواجهة المؤسسات الصهيونية التى تعمل على تزييف الوعى . ومن الخطط الدراسية والبرامج لجامعة القدس ما يلى :

- الأرض والتنمية الريفية .
- البيت والتنمية الأسرية .
- التكنولوجيا والعلوم التطبيقية .
- الإدارة والمبادرة الفردية .
- التربية وتأهيل المعلمين .

فأين نحن من ذلك أيضا ؟! فهذه هى البرامج والمناهج الدراسية التى تقوم بتدريسها جامعة القدس المفتوحة . ولو قارناها بشعب التعليم المفتوح بكليات التجارة والحقوق جامعة الاسكندرية والقاهرة ، والتى تم إنشاؤها ، سنجد أن تلك الشعب تنحصر فى : إدارة الأعمال ، الحاسوب ، الدراسات القانونية والتشريعات ، ولا نجد جديدا فى تلك المقررات عما هو سائد ويدرس فى ذات الكليات ، بل هو تكرار ومسخ وتشويه ، والجديد فقط فى طريقة التدريس من خلال استعمال أشرطة الكاسيت والفيديو والمطبوعات وغيرها .

أليس الذى نقوم به هو تحايل جديد لإعطاء أبناء المحظوظين والميسورين ماديا، شهادة لكى ينافسوا غيرهم فى فرص العمل المتاحة والتى سوف تكون من نصيبهم هم بحكم وضعهم الاجتماعى، وتكريس الهالة الاجتماعية حول المؤهل الجامعى والشهادة الجامعية ، فمن يملك القدرة على دخول تلك الشعب ، يملك وبنفس القوة القدرة على إيجاد فرص العمل قبل نظيره الذى سلك الطريق الرسمى التقليدى .. إنه تشويه لأهداف التعليم المفتوح وإهدار لمبدأ تكافؤ الفرص التعليمية وتغييب لديمقراطية التعليم التى نسعى إليها بشتى السبل .

أقـــوال معاصرة

● « لا أحب الجاهل ، لا كرامة له »

الأديب يحيى حقى

● « علانية عقوبة الإعدام فى ميدان عام مسألة جوازية وليست وجوبية »

الدكتور محمد سيد طنطاوى
مفتى الجمهورية

● « الأبحاث اللغوية لدينا موسوعة بعقدة الاستغناء عن علوم الغير »

الدكتور عبد السلام المدعى
عالم اللغات التونسى

● « لا يوجد أدب نسائى وأدب رجالى ، يوجد أدب ولا أدب »

الروائية السورية كوليت خورى

● « لو لم أكن ممثلا لأكلت نفسى حيا »

أنطونى هوبكنز
ممثل دور القاتل العشوائى فى صمت الحملان

● « الجسم البشرى معمل أدوية ضخم »

كانديس بيرت – المعهد القومى
للصحة العقلية بالولايات المتحدة

● « التطرف فى دول الجنوب يخدم العنصرية فى دول الشمال »

بيير شيفنمان
وزير الدفاع الفرنسى السابق

● « الأشياء لا تهم ، فلا تحارب من أجلها أبداً »

الممثلة الامريكية كاترين هيبورن

● « العلم لا يعطى تفسيراً لسعى الإنسان نحو العلم »

فرانسيس فوكوياما
العالم الأمريكى المنحدر من أصل يابانى

● « الشعر العربى اليوم فى أفضل حالاته !! »

الشاعر السورى / أدونيس

● « الاسلام ليس ملكا لأحد ، ولا حكرا على أحد »

الرئيس الجزائرى محمد بو ضياف



يحيى حقى



محمد سيد طنطاوى



بو ضياف

الأدب العربي المعاصر

بقلم : د . محمود على مكى

« الحديقة صغيرة ، ولكن السماء هائلة الاتساع »
بهذا البيت من شعر أوكتافيو باث أديب المكسيك الذى نال جائزة نوبل للآداب فى السنة الماضية يقدم بدرو مارتينث لكتابه « الأدب العربى اليوم » ... والسماء التى يعنيها ليست إلا أدبنا العربى بامتداده الهائل فى الزمان والمكان ...

وبسبب هذا الاتساع لا يسهل على الباحث أن يأخذ بآفاقه المترامية ، أو يزعم أنه استطاع ارتياد كل مجاهله . ولهذا فإنه لا يلبث أن يقول فى التمهيد الذى وضعه بين يدى الكتاب :

« منذ أكثر من ثلاثين سنة اتخذ من دراسة الأدب العربى الحديث مهنة وعملا أنفق فيه بياض نهارى وهزيعاً من سواد ليلى ، ومع ذلك فما أكثر اللحظات التى أراجع فيها نفسى ، فإذا بى وقد غلب على إحساس عميق بأننى مازلت فى أول الطريق ، ولا يظنن أحد بكلماتى غير ما تعنيه ... لأقل إن هذا ليس إلا اعترافاً صريحاً لا مجال للتأول فيه ! » .

يروعنا حقا مثل هذا الاعتراف المتواضع صادرا عن عالم نشر عشرات الكتب والأبحاث عن الأدب العربى ترجمة وتأليفا ، وساهم بجهوده وجهود تلاميذه فى تعريف الملايين من قراء الإسبانية بنتاج فكرنا ، ثم ينتهى بعد هذه السنوات الطوال ليلقى إلينا بهذا الاعتراف ! ... هذا وما أكثر ما نجد بين من لم يبلغوا حتى أول الطريق أناساً تصور لهم أوهامهم أنهم قد أوتوا علم الأولين والآخرين ، وكأنهم يرددون مع شاعرنا العربى القديم قوله - ونعوذ بالله من غرور ما تزينه النفس الأمارة بالسوء - :

وطمحت حتى ما أسائل واحداً
عن علم واحدة لكى أزدادها

* * *

صاحب هذا الكتاب بدرو مارتينث مونتابث Pedro Martinez شخصية

- المستشرقون الاسبان اعتبروا أن الاندلس جزء من تاريخهم الحقيقي


بدرو مارتينث مونتابث

فريدة في عالم الاستشراق الاسباني . لست أصفه بذلك بسبب ما خطه قلمه من دراسات متميزة تكشف عن بصر ثاقب بآدابنا العربية قلما يتهيأ لأجنبي ، وإنما لأنه كذلك اختط طريقاً لم يسلكه غيره من قبل . لقد كان الاستشراق الإسباني منذ أواخر القرن الثامن عشر حتى منتصف هذا القرن موجهاً اهتمامه الأكبر للدراسات الأندلسية، وهو أمر منطقي مشروع ، فقد كان من الطبيعي أن يهتم مستشرقو إسبانيا بالوجود العربي الإسلامي الذي ظل ماثلا على أرض شبه جزيرة إيبيريا قرابة عشرة قرون ، إذ أنهم اعتبروا ذلك الوجود جزءا لا يتجزأ من تاريخ بلادهم ، وعلى مدى القرنين الأخيرين برز من هؤلاء المستشرقين من قدموا للدراسات الأندلسية أجل الخدمات ، نذكر منهم باسكوال دى جايانجوس (١٨٠٩ - ١٨٩٧) وفرانسسكو كوديرا (١٨٣٦ - ١٩١٧) وتلميذه خوليان ريبيرا (١٨٥٨ - ١٩٣٤) وأسين بلاثيوس (١٨٧١ - ١٩٤٤) وجونثالث بالنثيا (١٨٨٩ - ١٩٤٩) وأخيراً شيخ مدرسة الاستشراق الأندلسي اليوم إميليو غرسية غومس (ولد سنة ١٩٠٥) .

والذى نوهنا به من اعتبار هؤلاء المستشرقين الإسبان الوجود الإسلامي في الأندلس جزءاً من تاريخهم هو أحد الوجوه التي ميزت الاستشراق الإسباني عن ضروب الاستشراق الأوربي . وهناك وجه آخر هو أن عالم القرن التاسع عشر الذى تمت فيه الدراسات العربية في أوربا كان عالم الامتداد الاستعماري في بلاد الشرق الإفريقية والأسيوية ، وكانت أكثر بلاد الغرب شراهة إلى فرض سيطرتها على بلاد ما نسميه اليوم بالعالم الثالث هي بريطانيا العظمى وفرنسا ، تليها هولندا وبلجيكا ، ثم بدرجة أقل ألمانيا وروسيا . ومن هنا أصبح الاستشراق أداة ومدخلاً لهذا الاستعمار الأوربي . أما اسبانيا فقد كان ساستها مشتغلين بأمور بلادهم المتردية ، فلم يظفروا بطائل من تلك المأدبة الاستعمارية ، ولهذا لم يكن الاستشراق الإسباني ليؤدى لساسة بلاده ما أداه الاستشراق الأوربي ، فلم نر لأعلامه جهوداً تذكر فيما يتعلق ببلاد المشرق العربي ، اللهم إلا ما كان يفرضه عليهم جوارهم للمغرب العربي من اهتمام بأحـوالـه .

وهكذا ظل الاستشراق في إسبانيا

بعيداً عن عالم العرب فى المشرق حتى الخمسينيات من هذا القرن حينما بدأت أول صلة ثقافية بين إسبانيا وبلاد الشرق العربي ، وذلك بإنشاء المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد على يد طيب الذكر الدكتور طه حسين حينما كان وزيراً للتعليم (المعارف) فى سنة ١٩٥٠ ، وبعد ذلك بسنوات أنشأت حكومة إسبانيا « المعهد الإسباني العربي للثقافة » فى سنة ١٩٥٦ (وهو الذى يدعى الآن « معهد التعاون مع العالم العربى ») ، كما أقامت مراكز ثقافية فى أهم عواصم المشرق العربي : فى القاهرة ثم دمشق وبغداد . واضطلع المعهدان كلاهما بجهود متواصلة فى التعريف بالأدب العربي الحديث والمعاصر إلى جانب مواصلتها الخط التقليدى القديم فى خدمة الدراسات الأندلسية . وكان من مظاهر ذلك قيام غرسية غومس وهو شيخ الاستشراق الإسبانى التقليدى بترجمة « الأيام » لطه حسين ، و« يوميات نائب فى الأرياف » لتوفيق الحكيم .

غير أن تعريفه بأديبينا المصريين الكبيرين لم يكن إلا اظهاراً لاقتداره على ترجمة الأدب العربي الحديث بعد أن شهد له قراء الإسبانية بروعة ترجماته للنصوص الأندلسية . فقد ظل غرسيه غومس وفياً لخطه الأول فى الانقطاع للدراسات الأندلسية .

رائد ذو جهد متميز

أما البداية الحقيقية لذلك الاتجاه الجديد إلى أدبنا العربى الحديث فالفضل فيها يعود بغير شك إلى بدرو مارتينث مونتابث الذى أصبح منذ شبابه المبكر رائداً لذلك الاتجاه .

كان مولد هذا العالم فى سنة ١٩٣٣ فى قرية من قرى مدينة جيان تدعى شوذر Jodar . وجيان Jaen مدينة لها فى تاريخ الثقافة الأندلسية ماض عريق فمنها خرج أول شاعر أندلسى اتسم شعره بالأصالة هو يحيى بن الحكم الغزال ، ومن إحدى قراها نبغ أعظم شعراء الأندلس فى عصر الخلافة هو ابن دراج القسطلى الذى لقب بمتنبى الأندلس ، وإليها ينتسب علم من أعلام النحو العربى هو ابن مالك صاحب " الألفية " ، وعالم آخر جمع إلى التبحر فى علوم العربية إحاطة بالتفسير والعلوم القرآنية هو أبو حيان الغرناطى صاحب « البحر المحيط » ونزيل مصر ، لعل هذه الخلفية من مكانة جيان فى ماضى الثقافة العربية كانت وراء إقبال بدرو مارتينث على الآداب العربية ، وكانت بداية تخصصه هو إعداده رسالة فى موضوع « تبدل أسعار القمح فى مصر المملوكية » (١٩٥٦) . ومن هذا المنطلق الذى يبدو بعيداً عن ميدان الدراسة الأدبية بدأ اهتمامه بشئون مصر ، فكان أن عين

● لم يكن بدرو من طراز المؤرخين الذين لا يعرفون من حياتنا إلا الظاهر

مديراً للمركز الثقافى الإسبانى فى القاهرة (١٩٥٨ - ١٩٦٢) ، وتعد هذه السنوات الأربع من أخصب فترات حياة هذا العالم وهو فى مقتبل عمره العلمى ، فقد أقبل على الحياة الأدبية فى مصر فى حماسة متعرفاً تياراتها وعاقداً أوثق الصلات بأعلامها ، بل إنه اندمج فى حياة المصريين من الداخل ، فعرف منها ما ظهر وما بطن . كان بدرو نموذجاً رائعاً للأوربى المتجرد من خنزوانة الاستعلاء التى تطبع سلوك كثير من الأوربيين الذين يعيشون بين ظهرانينا ويساكنوننا سنوات طوالاً ، فلا يعرفون من حياتنا إلا ظاهراً ليس بينه وبين الحقيقة سبب . وقد أكسبه هذا الاندماج فى حياة المصريين فضلا عن المعرفة العميقة حباً أشربه لمصر وأهلها . بل إن حياته بيننا فتحت له آفاق الإحاطة بأحوال الأمة العربية كلها لا فى مجال الثقافة والأدب فحسب ، بل بكل جوانبها المختلفة من سياسية واجتماعية واقتصادية ، ولم يقتصر الأمر عنده على تلك المعرفة العميقة الواعية ، بل تجاوز ذلك إلى تعاطف وإيمان بالقضايا العربية قلما نجدهما عند أوربى . وهكذا كانت هذه السنوات الأربع هى التى جعلت من بدرو مارتينث طرازاً فذاً يختلف عن كثير من المستشرقين ، فإذا به يتقن العربية حديثاً وكتابة على نحو رائع . وخلال هذه السنوات يصدر مجلة « الرابطة » التى كانت - مع مجلة المعهد المصرى فى مدريد - من أعظم جسور التواصل بين الثقافتين العربية والإسبانية .

ويعود بدرو مارتينث إلى إسبانيا فلا يلبث بعد سنوات قليلة أن ينتخب رئيساً لجامعة مدريد المستقلة ، وهى جامعة جديدة فتية سرعان ما تحولت فى ظل إدارته إلى واحدة من أرقى جامعات إسبانيا . وهنا يبرز دور بدرو مارتينث بصفته محوراً وأستاذاً رائداً للاتجاه الجديد فى الاستشراق الإسبانى ، وهو الذى يوجه اهتمامه الأكبر إلى حاضر العالم العربى . ويتشعب نشاطه ، فهو إلى جانب الدراسات الكثيرة التى يصدرها حول أدبنا العربى الحديث والترجمات التى يقوم بها لروائع هذا الأدب شعراً ومسرحاً وفناً قصصياً يتبنى جهود مجموعة من تلاميذه الشباب ، فيوجههم إلى هذه الدراسات ، حتى يصبح هؤلاء فريقاً يضم عشرات الباحثين ، ويتولاهم بالرعاية فى أبوة حانية ، ويصدر منذ السبعينيات مجلة تحمل اسم « المنارة ALMENARA » لكى تضم جهود هؤلاء الباحثين ، وينتخب نائبا لرئيس « جمعية الصداقة العربية الإسبانية » ، وإن كان فى الحقيقة هو رئيسها الفعلى ، وهى جمعية كان لها نشاط ملحوظ ، ولكنها توقفت مع الأسف لتنافر ممثلى الجانب العربى وقصر نظرهم وغلبة النوازع الفردية عليهم . وهذه هى آفة العرب دائما فى بعدهم عن تبين مصالحهم الحقيقية وعجزهم عن إدراك حقائق العالم المحيط بهم . ومع ذلك فقد بقى بدرو وفياً متسقاً مع ما يدين به من

مبادىء ، فظل مدافعاً عن القضايا العربية في وعي بعيد عن التشنج الحماسي ، وما أكثر ما ساهم في هذا الدفاع بقلمه في الصحافة وبلسانه في الحلقات الدراسية وفي الندوات الإذاعية والتليفزيونية ، على نحو عجز عن مثله كثير من العرب المقيمين في إسبانيا . ومازال حتى اليوم مواصلا لهذه الجهود ، هو وتلاميذه بغير أن يفت عضده مايراه أحياناً من الجحود والفرقة والتشرذم في صفوف العرب ، وما قد يخلفه ذلك في نفوس أصدقائهم المخلصين من مرارة .

* * *

ونعود إلى كتاب بدرو مارتينث ، هذا الكتاب الذي يضم مجموعة من الدراسات حول أدبنا العربي المعاصر ، فنقرأ في القسم الأول منه تسع دراسات مطولة أولاها عن العلاقات الأدبية العربية الإسبانية المعاصرة ، وفيها يتحدث عن ألوان من التشابه بين نتاج بعض المبدعين والمفكرين العرب والإسبان المعاصرين بغير أن يقتضي ذلك بالضرورة ما يمكن أن يدرج في باب التأثير والتأثر . ويضرب على ذلك أمثلة بالتشابه بين العقاد والمفكر الإسباني أونامونو Unamuno ، وبين الشاعر الغرناطي لوركا والعراقي بدر شاكر السياب ، والمراسلات المتبادلة بين جبران خليل جبران ومي زيادة ومثيلاتها الدائرة بين أنتونيو ماتشادو Antonio Machado ومن سماها « حبه العظيم الخفي » كما يورد دراسة قيمة حول « الرواسب الشرقية والعربية في شعر لوركا » .

وفي بحثه « الأندلس وشعراء المهجر الأمريكي الجنوبي » يتناول المؤلف مجالاً آخر من مجالات هذه العلاقة الحميمة بين إسبانيا والشعر العربي الحديث ، هذه المرة في أدب عربي ظهر نبتة فريدة في بلاد تبعد آلاف الأميال عن الوطن العربي ، ونعني به أدب المهاجرين العرب إلى أمريكا اللاتينية الناطقة بالإسبانية والبرتغالية ، وهو الذي أنتجته الجماعة المعروفة باسم « العصبة الأندلسية » ، واسم هذه الجماعة نفسها يكشف عن حقيقة استلهامها لماضي العرب على أرض إسبانيا في شعرها الذي طمحت به أن تجرى دماء جديدة في عروق الشعر العربي الحديث ، هذا مع إلحاحها على كونها حلقة جديدة من حلقات الصلة بين العالمين العربي والإسباني . ويختص المؤلف بالدراسة أبا الفضل الوليد وفوزي المعلوف الذي انعقدت

طه حسين



صلاح عبد الصبور



● هل الابداع العربي يفتقر الى الخيال والرؤية التي تتجاوز متناول اليد ؟

روابط الصداقة بينه وبين الشاعر المَروىّ (نسبة إلى مدينة المرية Almeria) فرانسسكو بيًا إسبيسا Francisco Villa espesa صاحب العبارة المشهورة « إن الذى يحك بظفره بشرة الإسبانى التى تبدو بيضاء شاحبة مثل سائر جلود الأوربيين لا يلبث أن يجد تحتها أديم العربي الحي بلونه البرونزى المتوهج ، فالحقيقة أن أوربيتنا ليست إلا العرض الظاهر ، أما شرقيتنا العربية فهى الجوهر الباطن الخالد » . وقد كان هذا الشاعر الإسبانى الأندلسى هو الذى ترجم ديوان فوزى المعلوف « على بساط الريح » (المنشور فى ريودى جانيرو سنة ١٩٢٩) وقام بالتقديم له (مدريد ١٩٣٠) ، ثم يتحدث بدرو مارتينث بعد ذلك عن الملامح الأندلسية فى شعر الأخوين شكر الله الجر وعقل الجرنزيلى البرازيل والأخوين إلياس وزكى قنصل نزيلى الأرجنتين وجورج صيدح وغيرهم من أعلام المهجريين .

والمقال الثالث دراسة فنية بديعة لصدى إشبيلية وصومعة مسجدها الجامع التى تدعى « الدوارة La Giralda » فى الأدب العربى المعاصر ، محللاً ما كتبه نثراً حول المدينة الأندلسية الجميلة ورمزها العربى أمين الريحانى وعبد السلام العجيلى وحسين مؤنس وعيسى الناعورى ، وما نظمه شعراً نزار قبانى وابراهيم طوقان وعدد آخر من الشعراء المغاربة والتونسيين والعراقيين .

وفى المقالين الرابع والخامس يعود الكاتب لموضوع لوركا والشعراء العرب المعاصرين ، ويخص بالدراسة أولئك الذين رثوا لوركا واستحضروا ذكريات ذلك اليوم الذى شهد فجره مصرعه ، ثم مشهد الإعدام المشحون بالمأساوية وأبرزهم صلاح عبد الصبور وعبد الوهاب البياتى ومحمد جميل شلش وسعدى يوسف ، ثم الفلسطينى سميح القاسم .

والمقال السادس دراسة حول « الخيال والمتخيل فى الأدب العربى المعاصر » ، وهو يعالج فيه قضية شائكة خطيرة هى نصيب الأدب العربى من الخيال الشعرى الإبداعى ، وهو يستهل هذا البحث بشهادتين غريبتين تنكران على الفكر العربى القدرة على الإبداع الأصيل لأنه « يفتقر إلى الخيال والرؤية التى تتجاوز ما هو قريب فى متناول اليد » . والغريب أن هاتين الشهادتين لم تكونا من نتاج أقلام المستشرقين الغربيين الذين ألفنا منهم مثل هذه الأحكام ، وإنما مما بقلم أديبين عربيين : الشاعر التونسى المرموق أبى القاسم الشابّى ، والكاتب المصرى الكبير توفيق الحكيم . والمؤلف يتخذ من هاتين الشهادتين مدخلاً للحديث عن الفن العربى الذى كان بعض الأوربيين مثل النمسوى أوليج جرابار Oleg Grabar أكثر إنصافاً له واعترافاً بقيمه . على أن مسألة الخيال والمتخيل من المسائل التى تثار دائما عند البحث فى طبيعة الإبداع العربى فى مجال الفكر والفن ومدى أصالتهما عند العرب ، وهى مازالت من

محاور الجدل الذى لم ينقطع بعد فى العالم العربى حول « الأصالة والتراث » ، وموضوعاً لمقولات متباينة مافتئ المفكرون والنقاد العرب يطرحونها حول « نحن والآخرون » . ويتتبع المؤلف فى معرض الحديث عن دور الخيال الإبداعى ما كتبه حول هذا الموضوع بعض المفكرين والمبدعين العرب من أمثال كاتب ياسين وعلى أحمد سعيد (أدونيس) وجمال الغيطانى وجمال الدين بن شيخ ، ويشعر فى نهاية المقال إلى أنه لابد من إعادة النظر فى هذه الآراء التى تنكر على العرب الخيال الإبداعى على أساس من الدراسة الواعية المتعمقة للتراث العربى فى مختلف ميادينه ، ويضرب على ذلك مثلا بما كشفت عنه الأبحاث الأخيرة من قوة الخيال الإبداعى فى التراث الصوفى العربى مما نراه فى نتاج النفرى والسهروردى ومحيى الدين بن عربى على سبيل المثال ، كما ينوه بالعناصر التى يشتمل عليها التراث القصصى الشعبى الذى يجب أن يرد إليه اعتباره ، إذ نجد فيه من قوة الخيال ما يرد تلك التهمة التى طالما ألصقت بالفكر العربى .

التراث والحداثة

والمقالان السابع والثامن مواصلة لبحث المقال السابق ، فهو يدور حول « التراث والحداثة فى العالم العربى » ، وهو يتتبع هذين المفهومين بما يتضمنانه من تقابل ومواجهة هما فى الحقيقة نتيجة لمواجهة أخرى مازال العالم العربى يخوض غمارها بين « الاستعمار أو التدخل الأجنبى » من ناحية و « الاستقلال أو التحرر » من ناحية أخرى . وهو يستعرض هذه المواجهة منذ بدايتها فى كتابات الجبرتى ورفاعة رافع الطهطاوى وخير الدين التونسى وأديب إسحاق وأحمد فارس الشدياق وهم رواد الحداثة فى العالم العربى بجناحيه فى المشرق والمغرب . والمؤلف يلاحظ بعد عرضه للمصطلحات التى تستخدم اليوم بين المفكرين والمبدعين العرب للتعبير عن مفهومى التراث والحداثة أن تلك المواجهة قد ازدادت حدتها فى السنوات الأخيرة بسبب ما يتعرض له العالم العربى من أحداث وتغيرات سياسية واجتماعية تجعل مسيرة هذا العالم لا تتم فى يسر وانتظام ، وهو ما يجعل الحكم على هذا الحوار بين التراث والحداثة أمراً عسيراً لا يسهل التنبؤ بما سينتهى إليه .

والمقال التاسع حول « المثقف العربى اليوم وقضية الصراع من أجل الديمقراطية» وهو يرى أن الأزمة التى يعيشها المثقف العربى ليست إلا أزمة المجتمع العربى كله إجتماعيا وسياسيا . وقد ازدادت هذه الأزمة خلال ربع القرن الأخير أى منذ نكسة سنة ١٩٦٧ ، فقد أدت الأحداث التى بلغت ذروتها فى هذه النكسة إلى طرح الحوار من جديد حول الديمقراطية على نحو ملح . ويدل على ذلك كثرة الندوات التى

● فشلت الناصرية لأنها ارادت أن تأتى بصيغة جديدة للديمقراطية الشعبية

عقدت والدراسات التى نشرت حول هذا الموضوع خلال السنوات الأخيرة ، ومن أهمها « الديمقراطية وحقوق الإنسان فى الوطن العربى » (نشر مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٨٣) ، و« أزمة الديمقراطية فى الوطن العربى » (نشر المركز نفسه ، بيروت ١٩٨٤) . ويبدو من هذا الحوار المحتدم اليوم أن هناك ثلاث صيغ للديمقراطية يختلف حولها المثقفون العرب فى الوقت الحاضر : الأولى هى الصيغة الإسلامية المتمثلة فى شعار « الإسلام هو الحل » ، والثانية هى الصيغة الليبرالية البورجوازية مثل تلك التى كانت سائدة فى مصر حتى ثورة ٢٣ يوليو ، والثالثة هى الصيغة التقدمية الاشتراكية التى أتت بها الثورة . والاثنتان الأخيرتان هما اللتان تم تطبيقهما حتى الآن فى العالم العربى المعاصر . وتأمل واقع العالم العربى يؤدى بنا إلى أن نحكم بفشل تجربتى هاتين الصيغتين ، وإن كان هذا الفشل يرجع لا إلى فساد الأسس النظرية التى قامتا عليها بقدر ما كان راجعاً إلى اختلال آليات التطبيق وإجراءاته . ومن هنا كان فشل الناصرية إذ أنها أرادت أن تأتى بصيغة جديدة للديمقراطية الشعبية الاشتراكية ، ولكنها لم تستطع أن تنجز ما وعدت به من إصلاحات اجتماعية بل تحولت إلى نقيض ما دعت إليه أى إلى ممارسة دكتاتورية صريحة . وتبقى بعد ذلك الصيغة الثالثة وهى الإسلامية . ويرى الكاتب أن الإسلام السنى يحتوى على كثير من العناصر التى تصلح قاعدة لديمقراطية سليمة ، غير أن المفكرين « الإسلاميين » لم يقدموا حتى الآن مشروعاً شاملاً يحقق هذه الديمقراطية ويمكن تطبيقه بشكل عملى قادر على حل المشكلات الاجتماعية والسياسية التى يواجهها العالم العربى . ويختم المؤلف دراسته بطرح هذا السؤال : هل من طريق إلى الحل ؟

على أنه لا يكتفى بالتساؤل ، بل يُقدم – من واقع حبه للعالم العربى وإحساسه المتعاطف مع قضاياه – على طرح تصور للحل يقوم على أسس ثلاثة : الأول أن الصيغة الملائمة لا ينبغى أن تكون مستوردة من الخارج سواء من الشرق أو من الغرب ، فتطبق على المجتمع العربى تطبيقاً كاريكاتورياً لابد أن ينتهى إلى الفشل ، كما لا ينبغى أن تكون نقلاً لنماذج تراثية قديمة لم يعد تطبيقها فى عالم اليوم عملياً ولا ممكناً ، وإنما تكون صيغة تستجيب لمتطلبات جماهير اليوم ، ويجب أن يتم ذلك فى إطار القومية العربية الذى مازال صالحاً لضم الكيان العربى حتى وإن بدا هذا المبدأ فى نظر البعض مستبعداً بعد خيبة الأمل فيه منذ فشل المشروع الناصرى . والأساس الثانى هو أن « التطبيع الديمقراطى » لابد أن يتم فى إطار مشروع متكامل للإصلاح الاجتماعى حتى لا يكون مجرد طلاء خارجى أو « مكياج » سياسى ، أو بتعبير آخر : ظاهر ديمقراطى تقبع وراءه

دكتاتورية لم يعد لها مكان فى عالم اليوم . وثالث هذه الأسس هو أن يهتدى العالم العربى سريعاً إلى طرق جديدة ملائمة لممارسة الحريات والحقوق العامة ، ومن أجل الوصول إلى هذه الطرق يجب فتح حوار حقيقى صريح حول الحريات على مستوى المفكرين وأهل الرأى على اختلاف وجهات نظرهم .

نجيب محفوظ واللقاء الأول

هذا هو القسم الأول من الكتاب ، أما القسم الثانى فهو يضم مجموعة من الدراسات يودع فيها الكاتب ملاحظاته وتعليقاته حول قراءاته فى الأدب العربى . وهو يفتتح هذه المجموعة بثلاثة مقالات حول نجيب محفوظ منذ لقائه الأول به فى سنة ١٩٥٩ ثم لقاءاته التالية عبر السنوات الثلاثين التى انقضت حتى حصول كاتبنا الكبير على جائزة نوبل سنة ١٩٨٨ ، والمقالات مزيج من ذكرياته عن نجيب محفوظ وعرض نقدى لأعماله الروائية والقصصية ، وهو فى أثناء ذلك يقدم لنا فى لمسات فنية رائعة صورة لأديبنا الذى عرف كيف يفرض للأدب العربى مكاناً مرموقاً فى خريطة الأدب العالمى .

ويأتى بعد ذلك فصل يفرده لأديبين عربيين لم يظفرا بجائزة نوبل وإن كانا لا يقلان مكانة عمن ظفروا بها ، وأولهما طه حسين الذى يدعوه « أبا الثقافة العربية المعاصرة » ، وهو يتحدث عن الدور الريادى لطه حسين ثم يجمل آراءه فى النقد الأدبى . والثانى هو جبران خليل جبران الذى ينوه بدوره « الثورى » فى الفكر العربى الحديث ويقول إن نتاجه الأدبى والنقدى مازال غضا يستحق أن يقرأ ويستمتع به على الرغم من مرور ستين سنة على وفاته .

ويضم الفصل التالى خمس مجموعات من المقالات النقدية التحليلية لعدد من الكتب : « الحركة النسائية فى مصر » وهو بقلم الدكتورة آمال كامل السبكى، و« اتجاهات الرواية العربية فى الجزائر » لواسينى الأعرج ، و « الإسلام فى نظر أربعة وعشرين كاتباً عربياً معاصراً » (نشر بالفرنسية ، باريس ١٩٨٦) ، والكتّاب الذين يورد المؤلف شهاداتهم ينتمون لأجيال مختلفة أقدمهم توفيق الحكيم وأحدثهم سناً جمال الغيطانى ، و« الأدب الحديث فى الجزيرة العربية ، دراسة ومختارات » (صدر بالأنجليزية ، لندن – نيويورك ١٩٨٨) للشاعرة سلمى خضرا الجيوسى ، وهو كتاب يعرض الحياة الأدبية فى كل أنحاء الجزيرة : المملكة العربية السعودية واليمن بشطريه وعمان وبلاد الخليج العربى ، مع مختارات

جبران خليل جبران



نجيب محفوظ



كلما ندت منا زفرة على ضياع الاندلس
خلقنا من كل منفى اندلس جديدة

شعرية أو من القصص القصيرة .

ويلى ذلك فصل عن مأساة لبنان وانعكاسها على أدب الثمانينات . ومن أول آثار هذه المحنة انتحار الشاعر خليل حاوى . ومقال بدرو مارتينث حول هذا الحدث أشبه بمرثية رائعة لذلك الشاعر المناضل الذى كان يحلم بوطن عربى كبير واحد حر ، فإذا به يرى وطنه الأصغر لبنان تدوسه أقدام الغزاة البرابرة . فلا يجد من رد على هذه المهانة إلا أن يضع حداً لحياته بيده ، وكأنه بذلك يعلن إفلاس السياسة العربية : سياسة المداراة والنفاق والخيانة والخنوع والصفقات المريبة ، وكأن انتحار الشاعر رمز لما ستؤدى إليه تلك السياسة لو استمرت من انتحار الوطن العربى كله ، والأثر الثانى للغزو الاسرائيلى هو مقتل السفير الإسبانى « أريستيجى » وزوجته فى إحدى وقائع الحرب الأهلية سنة ١٩٨٧ ، وقد يبدو هذا الحادث بعيداً عن عالم الأدب العربى ، ولكن صلته بهذا العالم هو أن هذا السفير الذى لقى نحبه فى حرب صلى بها وإن لم يكن من جناتها هى أنه كان متزوجا من ابنة الكاتب الروائى اللبنانى توفيق عواد . وقد اتخذ المؤلف من ذلك منطلقا للحديث عن عواد الذى يعد من أبرز رواد الكتابة القصصية فى لبنان ، ويلى هذا المقال تحليل لقصيدة نزار قبانى الطويلة فى رثاء بيروت ، وهى قصيدة قامت بترجمتها إلى الإسبانية المستشرقة النابهة كارمن رويث التى تعد من أبرز تلاميذ بدرو مارتينث ومواصلى مسيرته .

ويفرد المؤلف فصلاً للشعر العراقى الحديث فيعود لدراسة جوانب من شعر بدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتى ، ويضيف إليهما دراستين حول بلند الحيدرى وحامد سعيد .

ويختم الكتـــاب بفصـــل بعنوان : « مغامرتان » . أما الأولى فهى مغامرة المسرح المغربى ، ويعنى بها ظاهرة جديدة من ظواهر النشاط الأدبى فى المغرب ، وهى تجربة الطيب الصديقى فيما سماه « المسرح الاحتفالى » الذى بدأ عرضه فى مدينة مراكش فى أواخر السبعينيات ، وأما المغامرة الثانية فهى تلك التى خاضها الشاعر الفلسطينى حنا جاسر الذى ولد فى قرية الطيبة على ضفاف البحر الميت فى سنة ١٩٢٥ وألجأه العدوان الصهيونى إلى الهجرة إلى الأرجنتين فى سنة ١٩٥١ ، وفى قرطبة الأرجنتينية نشر ديوانه العربى « أمة وجراح » (١٩٨٠) ثم أتبعه بديوان باللغة الإسبانية يصور فيه مأساة شعبه فى قصائد تروع القارىء بجملها القصيرة النابضة بالألم الحادة كأنها خناجر ... قصائد يقول فى خاتمة إحداها

«والسلاح العربى/يتثاءب فى المخابئ»

وفى مرثيته لشاعر مات فى المهجر :

كلما ندت منا زفرة على ضياع الأندلس
خلقنا من كل منفى أندلساً جديدة

* * *

وهكذا تنتهى سياحتنا الطويلة فى كتاب بدرو مارتينث مونتابث الذى صدر عن دار كانتارابيا بمدريد سنة ١٩٩٠ ، هذا الكتاب الذى يعد من أهم حلقات السلسلة المتلاحقة من دراسات هذا المستشرق الإسبانى الصديق الذى وقف حياته على التعريف بأدبنا الحديث والمعاصر وإبراز قيمه وبيان مكانه من خريطة الأدب الإنسانى فى عالم اليوم .

مستقبل وازمة

الطبقة الوسطى المصرية

بقلم : أحمد عباس صالح

من بين المشاكل المنهجية التى عانى منها الباحثون العرب ، مشكلة المصطلحات . ذلك أن الغالبية منها منقول عن اللغات الأجنبية وعن موضوعات ومشاكل أجنبية . وكانت التقسيمات الطبقية ومصطلحاتها واحدة من هذه المشاكل .

كنا نحاول أن نجد مقابلاً فى المجتمع المصرى مثلاً للطبقة الرأسمالية والطبقة الاقطاعية والطبقة العاملة والطبقة الوسطى ، ولغير ذلك من التعريفات المتعلقة بهذا التعريف أو ذاك ، وكم ثار من جدل حول الفرق بين الزراعة الاقطاعية والزراعة الرأسمالية . وهل مرت مصر بما يسمى بالاقطاع الزراعى .

ذلك أنه بناء على هذه التعريفات تقوم التحليلات السياسية ، ويتم وضع التصور النهائى الذى يراه الكاتب فى موضوع بحثه .

ومع ذلك فإن الكتاب والقراء يشعرون - على نحو ما - بمن هم الطبقة الوسطى أو العاملة ، أو الطبقات الغنية .

ويبدو أن الأفضل من كل ذلك ، هو ما جرى عليه الباحثون العرب فعلا ، وخاصة فى مصر ، فقد اتجهوا مباشرة إلى الواقع يفتشون عن تركيباته . وأصبح لدينا دراسات جيدة عن تاريخ الملكية الزراعية ، وعن النظم الادارية ، وعن

● كيف لعب المثقفون المصريون الدور الأكبر فى الضغط على الحكومة ؟

الاشغال المختلفة الملكية ونظم الوقف وغيرها . وهذه الثروة العلمية التى لم تظهر إلاّ بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، أصبحت فى متناول الباحثين دون حاجة لتركيبها أو تطويعها لهذا المصطلح أو ذاك . ودون حاجة عاجلة لوضع تعريفات لها خاصة ، والكثير من الظواهر الاجتماعية فى مصر متداخلة ومركبة ووضع تصنيف دقيق وحاد لها يعد مخاطرة لا ضرورة لعاقل أن يخاطر بها . لأنها من الناحية العملية لا تقدم أو تؤخر فى استخراج الدلالات الاجتماعية أو الفكرية التى يبحث عنها الباحث .

ومع هذا فنحن لم نكف عن استعمال المصطلحات وخاصة مصطلح الطبقة الوسطى .

تعريف خاص

وليس من العقل أن نقع فى الخطأ الذى نحذر منه وهو إيجاد تعريف خاص أو تصنيف خاص لهذه الجماعة من الناس المصريين الذين درجنا على أن نسميهم الطبقة الوسطى . والأفضل من ذلك أن نتجه مباشرة إلى التاريخ لنحدد دور هذه الجماعة ، ولنحاول أن ندور حولها دون أن نضع لها إطاراً أو حدوداً صارمة .

فإلى قبل الحملة الفرنسية ، كان المتعلمون هم خريجو الكتاتيب ومعاهد الأزهر ، ومنهم من يعمل بالتدريس أو القضاء أو الأعمال الادارية الأخرى . وكان هؤلاء هم الطبقة المستنيرة وكان البعض منهم يملك بعض العقارات أو الأراضى ، وربما كان يشارك أيضا فى تجارة هنا أو هناك . وهؤلاء لم يكونوا قوة سياسية ذات شأن ، وكان على شرائحهم العليا أن تقوم بتبرير الأوضاع السياسية والاقتصادية التى تطلبها القوة الحاكمة الممثلة فى الاتراك والمماليك .

وعندما جاء نابليون أراد أن يستميل هذه الشرائح لمقاومة النفوذ التركى الذى كان يزعم حقاً ما على مصر فى إطار مفهوم الجامعة الاسلامية .

وفى عهد محمد على وجد الرجل أن سبع سنوات منذ قدوم الاحتلال الفرنسى قد دفعت بالمستنيرين المصريين وهم ملاك متوسطون أيضا ، إلى الصفوف الأمامية ،

محمد على



على مبارك



وقد كان من السهل عليه أن يجمعهم إلى جانبه لارغام السلطات التركية على توليته : ولعب المثقفون المصريون الدور الاكبر إلى جانب القنصل الفرنسي الكبير فى الاستانة والحكومة الفرنسية التى كانت تضغط من أجل هذه التولية .

وها نحن نستعمل مرة كلمة المستنيرين ومرة كلمة المثقفين ومرة أخرى الملاك المتوسطين ، وهى كلمات مناسبة لوصف هذه الشرائح الاجتماعية التى نتحدث عنها اليوم تحت مصطلح الطبقة الوسطى .

وكانت بقية الشرائح الاجتماعية المصرية الأخرى مثل الفلاحين والحرفيين وعمال الخدمات المختلفة إلى جانب التجار هم باقى التركيبة الاجتماعية التى يتشكل منها المجتمع المصرى ، هذا بخلاف الحكام والمالكين الكبار والذين كانوا من الأتراك والمماليك .

ودفعت الظروف المختلفة بهؤلاء المستنيرين إلى أن يكونوا مشاركين إلى حد ما فى السلطة . ولكن الأمور لم تسر بهذه السهولة . كان لدى هذه « الطبقة » إحساس بأنها صاحبة البلد وكانت تريد أن توسع نفوذها ، وكان مفهوم « الوطنية » الجديد قد وصل إلى أسماعهم ، وأصبح لكلمة مصر معنى آخر ، لأنها تخص شعباً معيناً هو سكان هذا البلد الأقدمون ، ليسوا هم الحكام الاتراك أو المماليك . بل هؤلاء الرجال المتعلمون الذين انحدروا من اصلاب الفلاحين أو سكان المدن ، وبالتالى اكتشفوا أن من حقهم أن يمتلكوا بلدهم كما يمتلك الفرنسيون أو الألمان بلادهم .

ولكن محمد على كان رجلاً تركيا فى الأساس وكان يريد أن يحكم حكما فرديا وفق المفاهيم القديمة والتى ما زالت جارية فى الشرق . وفى سبيل أن يفعل ذلك قام بمحاولات ابعاد وتصفية دموية أحيانا لزعماء المستنيرين من المصريين والذين أصبحوا يفكرون وفق مفاهيم « الوطنية » الجديدة .

● صراع .. وأمل ! ●

وكان المصريون الجدد يريدون المشاركة وإن كانوا لا يترددون لو سنحت الفرصة أن يستولوا على السلطان الكامل على بلادهم ، فهذا حقهم .. وكانوا يعرفون أن ذلك سيوسع فى أرزاقهم ويحسن معيشتهم . وكانت القطاعات الأخرى من فلاحين وحرفيين وتجار تعلم أن ازاحة الملتزمين واتباعهم ستخفف الوطأ عليهم بطبيعة الحال ، وكانت الطبقة

● حكاية الطبقة التى أحست أنها صاحبة البلد وجعلوا لكلمة « مصر » معنى آخر

المستنيرة المصرية أقرب اليهم من هؤلاء الأجانب الذين ساموهم العذاب .

وكانت مشكلة محمد على الرئيسية هى الجيش ، ولم يكن ممكنا أن يجد عشرات الألوف من الجنود خارج القطر المصرى ، وبعد محاولات فاشلة لجأ إلى الشعب المصرى وبدأت عملية تجنيد واسعة وتدريب وما تبع ذلك من صناعات عسكرية وعلوم وطب وهندسة وفى خلال أربعة عقود تغيرت صورة المجتمع المصرى تماما ، وظهرت شرائح المتعلمين وفقاً لمتطلبات الحياة الجديدة . فالتعليم لم ينحصر فى الاطار الدينى السائد ، بل اتسع إلى الرياضيات الحديثة والفيزياء والكيمياء والتكنولوجيا المتعلقة بالصناعات الحربية ، وظهر نمط من التفكير الجديد يقوم على الخبرة المباشرة وما ينتج عنها من نظريات ومناهج .

وبعد سبعين عاما من وصول محمد على إلى الحكم ، كان المجتمع المصرى غير الذى كان . كانت هناك شرائح هائلة من العلماء والمهندسين والاطباء والمترجمين وضباط الجيش وموظفى الادارات والجنود والعمال . وأصبح لهؤلاء وجود بارز مع أنهم فى واقع الأمر لا يملكون إلا السلطات البسيطة المخولة لهم من صاحب السلطان . وكان البارزون من أبناء هذه الطبقة يعانون من إهدار الحقوق ، بل من الازلال أحيانا ما لا يستطيع أن يتصوره المعاصرون . فرجل مثل رفاعه الطهطاوى عانى من النفى والابعاد والتجاهل الشيء الكثير ، أما على مبارك ، فقد شرد وصودرت أملاكه وأبعد من الوظائف وأعيد عدة مرات ، وكان المثقفون المصريون لا ينعمون بأى حقوق وبخاصة البارزون منهم . وكانت هناك مواقف عدائية من جانب السلطان نحو هؤلاء المتعلمين ، وكان السلطان يحرص على التاكد من الولاء التام والخضوع الكلى له من جانب هؤلاء المتعلمين .

وفى إطار انحصار السلطة فى ايدى الحاكم تدرب المثقفون على كل الطرق التى تنجيهم من الاذلال والافقار بما فى ذلك النفاق وإظهار الخضوع .

ولقد ذكر عرابى فى مذكراته أن على مبارك كان ينقل ما يدور فى الاجتماعات الخاصة بالثورة إلى الخديو واتهمه بالجاسوسية .

● تحديث المجتمع ●

ومن يقرأ سيرة على مبارك ويعرف جهوده الرائعة من أجل التعليم ومن أجل

● المثقفون من المنفى والمصادرة .. والاتهام بالتجسس إلى أعلى المناصب الادارية

تحديث المجتمع المصرى . ويعرف ما شهد على أيدى الحكام ، يقف محزونا - غير غاضب - على هذا الرجل المسكين الذى لم تساعده الظروف على أن يكون كما يريد .. فاضلاً ونافعاً ..

وأيا كان الأمر فقد احتاج المجتمع المصرى لحوالى سبعين سنة ليغير تركيبه ، ويظهر طبقة جديدة من المتعلمين والمتولين الوظائف المختلفة ، والذين تمكنوا من الامتلاك أو الادخار وأصبحوا يعتقدون أن من حقهم أن يمتلكوا حق سياسة بلدهم .

وكان هؤلاء جميعا هم الذين حركوا الجيش ليحصلوا على برلمان ، وليشرفوا على السياسة المالية الخربة لادارة فاشلة كادت أن تنسف كل ما بنته الطبقة الجديدة من رخاء ومن طموح .

وفى ظل هذه الطبقة نشأت الأفكار الجديدة . وكان هناك ادراك مبكر لأن جوهر التغيير المطلوب هو فى نظرية المعرفة . وأن المعرفة الصحيحة للظواهر المختلفة لا تتأتى إلاّ من خلال التجربة العملية وممارسات العقل الحر بعيداً عن أى خرافات متداولة من تراث عهود التدهور التى مرت بها مصر .

والعجيب ان الشاعر محمود سامى البارودى ورئيس الوزراء فى عهد الثورة له مقال كبير وجد مخطوطاً بين أوراقه - ونشره الدكتور محمود الشبطى أخيراً فى كتاب . يتحدث فيه عن نظرية فرانسيس بيكون الذى يعتبر أحد أهم بناة التحول فى المجتمعات الأوربية .. وهى منهجه فى المعرفة ، ذلك المنهج الذى عرف بالتجريبى ونقل المجتمعات الأوربية إلى العصور الحديثة .

ولم يكن المقال ترجمة خالصة ، بل رأى واضح للشاعر ، يسبق الكثيرين ممن يتحدثون عن الثقافة فى مصر والعالم العربى اليوم .

كانت ثورة الطبقة الوسطى لها أبعادها المختلفة .. كان لها نشاطها القانونى فى دستور اسماعيل .. وكان لها نشاطها العلمى فى طرق البحث والتفكير .. وكان لها رؤيتها فى تحديث مصر والوثوب إلى العصر الحديث .

ضربت حركة الاستنارة المصرية بواسطة الجيش البريطانى ، وجردت الطبقة الوسطى من سلاحها بتصفية الجيش المصرى وإخضاعه للاشراف البريطانى . واستعمل الاحتلال الأدلاّء والجـواسيس واتبـاعهم كقوة جديدة بديلة ، وأغدق عليهم الأراضى الزراعية والمناصب ، واستمال من استطاع استمالته

• لعب الجيش البريطـانى دوره المنتظـر فى تخريب الاستنارة المصرية .

من شرائح الطبقة المتوسطة المشاغبة وشتت الباقين .

● قوة عسكرية ضاربة ●

من وجهة النظر البريطانية بدا أنهم

انهوا خطراً محتملاً بنمو هذه الدولة التى

ظهرت كالصاروخ فى منطقة الشرق الأوسط ، بديلاً عن الدولة العثمانية (الرجل المريض) وكانت مصر فى عهد محمد على قوة سياسية كبرى تنافس الانجليز والفرنسيين وحلفاءهم الأوربيين فى منطقة يسعون كل السعى لإخضاعها .

ومن يقرأ تقارير السفراء الانجليز والفرنسيين والأوربيين بعامة يعرف أن وضع مصر حينذاك كان مساوياً - من حيث القوة العسكرية والتقدم الحضارى - للقوى الأخرى المتنافسة . ولذلك فان تصفية محمد على لم تتم إلاّ باتفاق دولى كبير ومن أكبر خمس دول فى العالم حينذاك .

ومن وجهة نظر « الطبقة الوسطى » المصرية كانت هناك إشكالية خطيرة . فإما أن يتوجهوا إلى تركيا للتحالف معها ضد الاحتلال البريطانى وهو أمر له عيوبه الكثيرة ، أولها تخلف الرؤية الحضارية للدولة التركية التى مازالت رازحة تحت تراكمات ثقافة عصور التدهور ، والتى تخلص منها المصريون بصعوبة وجهاد مع قدر من الحظ التاريخى السعيد . وكان جهاد المصريين عموما هو للتخلص من السيطرة التركية فكيف يعود جهادهم مرة أخرى لإعادة هذه السيطرة ، فضلاً عن البون الشاسع الذى سبق فيه المصريون الدولة العلية من الناحية الفكرية والعلمية وبصفة خاصة حرية الفكر وحقوق الانسان .

وكان الخيار الثانى أن يتجاوبوا مع السيد الجديد وهو الاحتلال البريطانى ، والذى على الرغم من وضعه العدوانى ، يمثل فكراً جديداً يتفق مع المعطيات التى أحرزها المصريون إبان نشوء دولتهم الجديدة ولمدة تزيد على ثمانين عاما .

ومن الواضح أن الخيار الثانى كان لا يقل صعوبة عن الخيار الأول .

البارودى



محمد فريد



أما الخيار الأخير فهو الاعتماد على الذات فى مقاومة الاحتلال ، واستعداء العالم الأوربى على المحتلين ، وتوعية شرائح الشعب الأخرى بأبعاد الأزمة الجديدة .

والواقع أن الخيارات الثلاثة السابقة هى ما توزعت عليها الاحزاب المصرية فيما بعد ، وقد ظلت تتفاعل إلى اليوم فى قلب المجتمع المصرى .

ومن الواضح أن الذى كان يقود الشعب المصرى بشرائحه المختلفة هو هذه الطبقة التى تسميها الطبقة الوسطى المصرية .

وعلى الجانب الآخر كان الوطنيون المصريون الذين اضطروا إلى العمل الوطنى فى الخارج قد بدأوا يكتشفون اللعبة السياسية واضطر محمد فريد الزعيم الوطنى الأكثر شهرة للفرار من تركيا بعد أن علم بمؤامرة لقتله للتخلص منه . ذلك أن محمد فريد كان يظن أن الاتراك سيساعدونه لتحرير مصر من أجل الصداقة والأخوية ورابطة الدين ، ولكنه اكتشف أن كل أهدافهم تنحصر فى إعادة ضم مصر وهو الأمر الذى لم يقبله وشرحه فى مذكراته .

وعقب الحرب العالمية الأولى لم تكن هناك وسيلة إلاّ الاعتماد على الأفكار الجديدة بما فيها فكرة عصبة الأمم والحريات والمبادىء المشهورة التى أعلنها الرئيس الأمريكى ويلسن. ولكن الذى حسم الأمر هو تحالف الطبقة الوسطى مع الشرائح الاجتماعية الأخرى وقيام الثورة الشعبية فى كل أرجاء القطر المصرى .

ومع ذلك لم يظفر المصريون إلاّ بمشاركة فى السلطة مع القوة الرئيسية وهى قوة الاحتلال وقوة مؤسسة القصر التى عمد الاحتلال إلى تقويتها حتى يحد بها من جموح القوى الجديدة المتمثلة فى الطبقة الوسطى وزعامتها .

وربما كانت هذه أول ممارسة مباشرة لسلطة مصرية – على ما فيها من قصور – منذ الحكم المملوكى والتركى .

وهنا أيضا فشلت « الطبقة الوسطى » المصرية فى الاستئثار بالسلطة فى بلدها . وفى خلال أقل من ثلاثين سنة كانت زعامات الطبقة قد ضَعُفت ، وأصبحت تمتلك العديد من الثروة العقارية وأسهمت بقدر كبير مع القوة الأجنبية المتعددة الجنسيات التى استولت على نسبة عالية جداً من الاقتصاد المصرى ومصادر الثروة وانتهت تلك الجولة التى بدأت بعرابى ثم بسعد زغلول ومصطفى النحاس

• خياران أمام الطبقة الوسطى .. كل منهما أشد مرارة

لتبدأ جولة جديدة .

● سيرة الطبقة الوسطى ●

وهكذا يبدو أن سيرة التاريخ المصرى الحديث هى سيرة الطبقة الوسطى التى نشأت نتيجة التحولات التى حدثت فى عصر محمد على ونمت وتطورت حتى عهد اسماعيل والثورة العرابية حيث ضربها الاستعمار الخارجى ، ثم عادت عن طريق ثورة شعبية واسعة لتظفر بمشاركة فى السلطة تحت عين الاحتلال وعداوات القصر .

واتسعت دائرة ما يسمى بالطبقة الوسطى . وعلى الرغم من أن التعليم لم تتسع دائرته بالشكل الكافى ، إلاّ أن طبقة جديدة راحت تتزايد . وكان المجتمع المصرى قد انغلق على القيادات القديمة واستطاع استيعابها وإرضائها من حيث الثروة والمشاركة فى السلطة . ولكن الشرائح الجديدة بدأت تتزايد وأصبح المجتمع بتركيبته القائمة عاجزاً عن تلبية الأمانى الكثيرة التى ظلت تتصاعد خاصة بعد الحرب العالمية الثانية ، وخروج الدولة البريطانية ضعيفة ومتهالكة وقوة عالمية من الدرجة الثانية .

والواقع أن الطبقة المصرية المتوسطة كانت تتكون - فى الأساس - من جيش من المتعلمين من أبناء الموظفين والحرفيين وصغار التجار والفلاحين وضباط الجيش . وكان الطريق أمامهم مسدوداً . كانت الوظائف الأساسية فى أيدى الأجانب الذين يتحكمون فى الشركات ويسيطرون على اتحاد الصناعات ويمتلكون ما يقرب من ثمانين فى المائة من النشاط الاقتصادى . ولم يكن امام الخريجين الجدد إلاّ وظائف الحكومة - وكانت محدودة جدا - أو البطالة أو « عمل حر » لا يقدم عائداً معقولاً لشاب فقير من أسرة متوسطة .

ولذلك حين قامت ثورة ٢٣ يوليو كان هدفها الرئيسى هو « تمصير » الاقتصاد ، أى نقل الوظائف إلى المصريين . ومن يلاحظ الخطوات التى اتخذتها هذه الثورة فى وقت مبكر يجد أنها تركزت فى تمصير الوظائف وقد وصل الأمر إلى الالتزام بتشغيل كل خريج أو مؤهل للعمل ، ولم يكن هذا تمشياً مع الأفكار الجديدة الشائعة فى الفكر الاشتراكى أو دولة الرفاهية فى العالم الرأسمالى فحسب ، بل لحاجة أساسية كان يشعر بها القائمون بالثورة الذين كانوا ضباطاً فى الجيش والكثير

● يبدو أن سيرة التاريخ المصرى الحديث هى سيرة الطبقة الوسطى

منهم لم يصبح ضابطا إلاّ نتيجة ضربة حظ ، وكان الأخوة والأقارب يعانون من البطالة شبه كاملة .

وثورة ٢٣ يوليو فى أحد أبعادها ثورة طبقة وسطى كانت محرومة من الوظائف . وكان هاجسها الأول هو إيجاد وظيفة . ولذلك لم يكن من الصعب أن تتفق افكارها مع النظريات الشائعة عن التشغيل الشامل ، وكان فكرها الاقتصادى المفضل هو فكر كينز إلى جانب تلامذته الأمريكان وخاصة شومبيتر . هذا على الرغم من الأحاديث الكثيرة عن الماركسية والاقتصاد الماركسى .

ولم يكن إقامة نظام للاقتصاد الموجه مشكلة بالنسبة لثورة الموظفين هذه . إذ كان هذا الاقتصاد يتفق تماما مع الروح البيروقراطية التى كانت تحرك الفعل السياسى فى المجتمع ومنذ بداية الستينيات وحتى آخر عهد جمال عبد الناصر كانت الغالبية العظمى من الاقتصاد المصرى فى أيدى الموظفين المصريين من ضباط وتكنوقراط واداريين وتم اشباع الميل إلى شغل الوظائف ، وبدأ الاقتصاد المصرى يدور وراحت المشاكل الناتجة عن الاشراف البيروقراطى تظهر فى صورة مؤشرات صغيرة ، ولكنها كانت خطرة على أى حال .

وهذا الموضوع غاية فى التعقيد ويحتاج إلى رؤية فى المعالجة . وها هو ذا الاقتصاد الموجه فى الدولة الأم التى نفذته وأعطته قيمته العالمية ، وهى الاتحاد السوفييتى السابق ، تعلن إفلاس هذا النظام وعجزه عن النمو ، وسقوطه التام فى احضان الركود والجمود . ولا أظن أن الأمر يختلف كثيراً فى الدول الأخرى ومنها مصر .

وعلى كل حال وعندما استطاعت الطبقة الوسطى المصرية التى قامت قيادتها النشيطة بثورة ٢٣ يوليو ، أن تكون شيئا من المدخرات ، وعندما اكتسبت شيئا من الخبرة فى التعامل مع العالم الخارجى والتجارة الخارجية بصفة خاصة ، ادركت أن القيود التى قيدت بها نفسها لم تعد مناسبة ، ولابد أن تتغير الأسس التى قامت عليها الثورة لتتجاوب مع التحولات الجديدة التى طرأت عليها . ولذلك كان من السهل على أنور السادات أن يقود عملية تحول شاملة تتناسب مع الظروف الجديدة ووجد قوة اجتماعية كبيرة تؤيده على الرغم من أصوات المعارضة الأخرى والتى كانت تأمل فى بقاء الاقتصاد الموجه وتطويره ، وكانت تعتقد

• كانت ثورة يوليو طبقة وسطى محرومة من الوظائف . وهاجسها الأول هو ايجاد وظيفة

أن الفشل الذى يعانى منه هذا الاقتصاد راجع إلى أن الاداريين الذين يقودونه ليسوا عقائديين ، وكثيرا ما كان يتردد الشعار « لا اشتراكية بغير اشتراكيين » ولكن الأيام أثبتت بعد ذلك أن العيب كامن فى النظام نفسه أكثر من كمونه فى القائمين على تنفيذه .

● نظـام الحزب الواحد ●

والواقع أن النظام المصرى شأنه شأن النظم الأخرى – حتى فى العالم الاشتراكى وغالبيتها خرجت من تحت عباءة الحكم العثمانى الشمولى – لم يمر بمرحلة الليبرالية لأسباب كثيرة ، وكانت الثورتان الليبراليتان المصريتان ؛ ثورة عرابى وثورة سنة ١٩١٩ غير ناجحتين . وربما كانت ثورة ١٩١٩ التى ظفرت بنصف نجاح هى الأوسع تأثيراً وفى إشاعة الأفكار الليبرالية . التحديثية فى المجتمع المصرى . ولكن كان هذا لفترة قصيرة ولم تكد التجربة الديمقراطية المحكومة بقوة الاحتلال ومقاومة السراى

سعد زغلول



جمال عبد الناصر



أن تحقق أهدافها . ولذلك كان من السهل الانتقال من المراحل الشمولية التى مرت بها مصر منذ الحكم المملوكى والتركى واسرة محمد على إلى نظام الحزب الواحد الذى اختارته قيادات الطبقة المتوسطة وهو يتفق مع الطبقة البيروقراطية المتوارثة والذى لم يختلف ، إلاّ قليلا ، عن الحكم المملوكى القديم .

ومرة أخرى وبعد سياسة الانفتاح تكونت مدخرات هائلة فى أيدى الطبقة الوسطى من خلال الجهاز البيروقراطى ، والكثير من هذه المدخرات قد هرب إلى الخارج ، وقد سادا اضطراب كبير فى الحياة الاقتصادية فى مصر ، وهو أمر طبيعى ولن ينجو منه أى اقتصاد آخر يمر بنفس الظروف مثل اقتصاديات الدول الاشتراكية السابقة .

على أن مصر كانت سابقة فى ذلك ، وأصبحت هذه المدخرات تنشد العودة – بصرف النظر عن الأساليب اللا أخلاقية التى تم بها تجميعها – وهذا لن يتحقق إلاّ بتطبيق كامل لليبرالية . ولا مفر من ذلك فهو الحل الأوحد لتطور الاقتصاد المصرى وخروجه من أزمته . كما أن ما حدث فى النظام الرأسمالى العالمى واتساع دور الدولة ومسئوليتها نحو الضمانات

الاجتماعية المختلفة كحق التعليم وحق العمل وحق العلاج إلى جانب حقوق الانسان الأخرى . كل هذا يواجه النشاط الخاص فى مصر ولابد من التسليم به وتقنينه تقنينا سليما بما لا يمس حرية العمل الاقتصادى وحرية حركة رأس المال والضمانات الطبيعية التى يستلزمها .

والالتزامات الملقاة على عاتق الاستثمار الاقتصادى الحر فى الدول الكبرى كافية تماما - حين تطبيقها فى مصر - لقيام مجتمع مستقر لا تتصادم فئاته الاجتماعية صداما عنيفا أو مهددا للاستقرار .

وفى الوقت الذى ظهرت فئات من الطبقة الوسطى مالكة لمدخرات كبيرة ، اتسعت دائرة الطبقة الوسطى فى شرائحها الأقل ، وعانى جمهور الموظفين والذى يمثل أكبر شرائح هذه الطبقة معاناة شديدة إلى حد ما ولولا حاجة دول البترول إلى نشاط وخدمات جزء كبير من الطبقة الوسطى لواجهت مصر مشكلة انفجار مؤكدة .

والتحرك الذى تقوم به القوة الجديدة يأخذ طريقين ، الطريق الأول هو التحكم الكامل ، أو عودة للنظام الشمولى تحت لافتات دينية حتى تضمن هذه المدخرات أن تتحرك بأيديها وتحت حمايتها المباشرة معبئة وراءها الشرائح الأخرى وفقاً لثقافة تجعل « الطاعة » هى الشرط الأول .

على أن الأمر لم يمض بهذه السهولة لأن هذه التيارات لم تعد واحدة ، وقد جمعت - فى الواقع - أنواع المعارضة المختلفة التى كان يقول بها الشيوعيون والقوميون والدينيون ، ولذلك تتميز هذه الحركات بالإيمان بالحزب الواحد وترفض التعدد ، وتزعم ان هناك حقيقة واحدة ينبغى أن يخضع لها الجميع .

ونتيجة لما طرأ على هذه التشكيلات أصبحت المضاربة عليها خطرا ومرة أخرى يبدو الخيار الليبرالى هو الأنسب ، خاصة فى ظل التحولات الجارية فى العالم والتى تعتقد أن الديمقراطية هى الاسلوب الوحيد الذى يستوعب جميع ألوان السخط ، ويوصل إلى الحلول الوسطى الذهبية ، ويفتح الطريق لانتقال السلطات بطرق سلمية ، كما يحقق مشاركة لا جدال فيها للقوى الشعبية المختلفة .

والواقع أن الثورة الليبرالية التى قامت بها الثورة العربية فى ثمانينات القرن التاسع عشر مازالت مستمرة ، ولم تحقق أهدافها حتى اليوم ، ومن الطبيعى أن تعاود المحاولة فى ثورة ١٩١٩ ثم فى ثورة

● العيب كامن فى النظام نفسه أكثر من كونه فى القائمين على تنفيذه

٢٣ يوليو وفى تحولات السادات فى منتصف السبعينات .

وخلال هذه الرحلة الطويلة الشاقة تقلّبت أفكار متعددة على المجتمع المصرى ، خاصة وان منطقة الشرق الأوسط ليست متروكة لشأنها لأهميتها الاستراتيجية ولتواجد أكبر احتياطى للطاقة فى العالم فيها ، ولوجود المغامرة الصهيونية التى تضافرت لتحقيقها ظروف كثيرة معقدة كان من الصعب تجاوزها . وها هى ذى الآن تشكل مشكلة بالغة الخطورة ، لأنها بدلاً من ان تكون عامل استقرار تحولت إلى سبب لأزمات لا يستطيع أحد تحسبها .

● الدين والليبرالية ●

وعلى الرغم من التحولات الجارية فى العالم وميل النظام العالمى الجديد إلى إنهاء النزاعات الإقليمية فإن مشكلة إسرائيل - ربما أكثر من أى مشكلة أخرى فى العالم - شديدة التعقيد ، وإن كان لا مفر من حلها وفى القريب العاجل .

والطبقة الوسطى المصرية مشتتة أو موزعة بين مفاهيم كثيرة . وإن لم يبق فى الساحة إلاّ المزاعم السياسية التى تتمحك بالدين ، والاتجاهات الليبرالية الجديدة وإن كانت مشـوبة بتراث هائل من الريبة والشك ، ومن الخوف من الانفتاح على العالم .

وعلى كل حال ليس أمام الطبقة الوسطى بشرائحها المختلفة - فإن تكتشف الحل الأوسط ، وأن تتدرب على تبادل التنازلات ، وإن تدرك إن هناك فئات إجتماعية أخرى شريكة لها وقريبة منها ، وإنه بدون تقدير المصالح المتبادلة والتى تبدو أحيانا تعارضة ، لا يمكن أن يتحقق سلام إجتماعى .

وعلى الرغم من أن البحث فى الأصول الفكرية الجارية فى المجتمع المصرى ، هو أشبه بالبحث فى غابة كثيفة متشابكة من الأفكار والأوهام والخدع والحقائق . فإن تصنيف الأفكار المطروحة وتحديدها بقدر الإمكان قد يقضى على الصداع الهائل الذى يعانى منه الناس بسبب تكاثف الأفكار وتشابكها وغموضها .. ومن المؤكد أنه سيريح الصدور التى يرهقها التعصب لفكرة لم تخضع لمناقشة حقيقية ، والقلوب التى أثقلتها المشاكل ، والعقول التى أنهكها البحث عن يقين .

● عودة للنظام الشمولى تحت لافتات دينية

القفز على الأشواك

الأدب والغناء

بقلم:
د. شكرى محمد عياد

لا أظن أحداً ممن يعرفون الأدب العربى أو يلمون به أدنى إلمام إن سألته عن أهم كتاب فى المكتبة العربية إلا سيجيبك أنه كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى . وربما استشهد بما روى عن الصاحب بن عباد أنه كان إذا سافر حملت له كتبه على عشرين بعيرا - أو كما قال - فلما ظهر كتاب الأغانى اكتفى به فـ « الأغانى » موسوعة شعر وأدب وأخبار ترسم أرقى صورة للحياة العربية منذ العصر الجاهلى إلى القرن الرابع ، حتى أن أحد الباحثين وضع كتاباً عن الحياة الاجتماعية فى العصر العباسى الأول مستخلصة من كتاب الأغانى . فالغناء والشعر توأمان وهما الفنان العربيان الأصيلان ، وإذا كان الشعر ديوان العرب - كما يقال - فالغناء نبض وجدانهم وصدى أحلامهم .



وقد أعاد لنا كمال النجمى صلة الأدب بالغناء منذ اختار أن يكون ناقداً موسيقيا فوق كونه شاعراً وأديباً وهاهو ذا يقدم لنا فى كتابه « محمد عبد الوهاب مطرب المائة عام » مزيجاً من السيرة الأدبية والنقد الموسيقى والنقد الاجتماعى فى لمحات كاشفة غنية بالايحاءات ، فيصاحب هذا العلم الشهير طوال رحلة حياته الطويلة العريضة ، منذ ولادته فى أواخر القرن الماضى فى بيت فقير بحى باب الشعرية ، حيث كان أبوه يعمل مؤذناً بمسجد الشعرانى ، إلى وفاته فى منزله بالزمالك ، وقد تربع على قمة الشهرة منذ أكثر من ستين سنة ، وأحرز ثروة طائلة وجاهاً عريضاً ، فجمع إلى الدكتوراة الفخرية عضوية مجلس الشورى ورتبة لواء فى الجيش . إنها قصة الموهبة النادرة عندما يرفدها الطموح والذكاء ويساعفها الحظ ،

● كان عبد الوهاب يــــرى فى « النجاح الجماهيرى » المقياس الصحـــيح للعمل الفنى



كمال النجمى

ولابد مــن قــدر من الحظ فى حــياة كل عظيم . ولكننا نمــيل إلى المبالغة فى دور هذا الحظ . فالمصـــادفات الحسنة والسيئة جزء من منطق الواقع .

ولقد كان من المنطقى أن يسمع شاعر كبير مولع بالغناء كأحمد شوقى ، خبراً عن ذلك البلبل الفريد الذى يغنى فى ملهى صغير بشارع الهرم ، وكان من المنطقى أن يُجرى عليه أمير واسع الثراء معروف برعايته للمواهب الشابة كالأمير يوسف كمال راتباً شهرياً سخياً . ولكن كم من المصادفات السيئة مرت على محمد عبد الوهاب صبياً وغلاماً ويافعاً ، قبل أن ينعم عليه القدر بهذه المصادفات السعيدة ؟ ألم يكن أحمد شوقى نفسه سبباً فى قطع رزقه عندمـــا رآه على مســرح عبد الرحمــن رشدى ، غلاماً هزيلاً يقف ليغنى بين الفصول ، فدعته شدة الإشفاق على ضعفه البادى أن يطلب من صاحب الفرقة إعفاءه من ذلك العمل الذى يكلفه سهراً لا تحتمله صحته ؟ ألم يكن موت سيد درويش المفاجىء كارثة على تلميذه الذى لم يشتد عوده بعد ، بحيث اضطر ، فى فترة ما ، أن يقف وراء شاب دعى فى صناعة الغناء ولكنه يملك بعض المال ، يغنى بدلاً منه بينما الآخر يفتح فمه ويطبقه بلا صوت ؟

الحظ يأتى حين يريد ، وإلى أن يأتى الحظ لابد من الصبر والإصرار ، ووراءهما تلك الحقيقة التى لا تمكن المكابرة فيها إن الموهبة تعرف ذاتها قبل أن يعرفها الآخرون .

كاتب عفيف

والسيرة العظيمة ، فى أى باب من أبواب الحياة ، تنطوى دائماً على شخصية عظيمة ، ولكن لكل شخصية عظيمة جوانبها المظلمة .

القفز على الأشواك



منيرة المهدية



عبده الحامولي

إذا وليت ظهرك للمنجزات الرائعة ورحت تبحث فى الزوايا فكم من صغائر قد يستحيي منها الشخص العادى ! وكتاب السير فريقان :

فريق يهتم بالأعمال أكثر من الشخص ، وفريق يهتم بالشخص أكثر من الأعمال ، ومعظم كتاب السير فى الوقت الحاضر هم من هذا الفريق الثانى ، تجذبهم إلى هذا اللون من الكتابة عوامل كثيرة ، قد يكون من أهمها انتشار الثقافة النفسية ، وشعور القارئ الحديث بالعزلة ، التى يحاول التغلب عليها بالتلصص إلى حياة الآخرين ، ومعلوم أن الأسرار - وخصوصاً تلك التى تنطوى على فضائح - هى الأكثر تشويقاً ، ولكن كمال النجمى كاتب عفيف القلم ، وشعوره بالكرامة الشخصية - وهو شعور يتخلل موضوعاته دون قصد - يجعله أحرص على كرامة بطل السيرة من أن يجعلها مادة لتسلية محبى الاغتياب . لذلك تراه لا يخوض فى حياة محمد عبد الوهاب الخاصة ، ولا صفاته الشخصية جداً ، إنه على سبيل المثال - يتكلم عن زيجاته الثلاث باختصار بل يحرص على أن يكتم اسم الزوجة الأولى - كما كتمه عبد الوهاب نفسه - وكيف تم ذلك الزواج ، وكذلك يصنع بالنسبة إلى الزوجة الثانية والثالثة ، ولا يذكر شيئا على الإطلاق عن غرامياته فيما بين هذه الزيجات الثلاث ، وهو الذى كان - كما يقول النجمى - أشهر دون جوان فى الوسط الفنى فى الثلاثينيات والأربعينيات ، وكانت هذه الشهرة تضايق دون جوان القصر الكبير نفسه !

ضبط النفس

بعيداً عن هذه الجوانب التى تثير خيال المراهقين ، والتى تشغل حيزاً كبيراً - بل ربما الحيز الأكبر - من اهتمام ما يسمى بـ « الصحافة الفنية » ، هناك جانب آخر من حياة المشاهير - وقد لا ينفرد بها أهل الفن وحدهم - يثير نوعاً من الدهشة المستنكرة لدى مريديهم ذوى النزعة المثالية ، وهو الحرص على الشهرة لذات الشهرة ، لا لتبليغ رسالة ولا لتحقيق هدف عظيم ! فقد تدفع الشهرة

صاحبها إلى التآمر ، أو ما يشبه التآمر ، وقد ينزل إلى المداهنة والنفاق أحيانا ، وإلى الشراسة والعدوان أحيانا أخرى ، وقد تصبح الشهرة لديه نوعاً من الإدمان يستهلك الأعصاب ، وربما رفعته إلى أنواع أخرى من الإدمان أشد فتكا بالجسم والعقل ، ولعل تجارب الحـياة قد علمت عبد الوهاب ضبط النفس ، ولكنه بعد أن تسنم قمة المجد الفني أصبح حريصاً على ألا يتزحزح عنها .



ام كلثوم

يصف كمال النجمي كيف حاول عبد الوهاب « احتواء » عبد الحليم حافظ عندما لمع نجمه في الخمسينيات ، أولاً بأن أسند إليه بطولة عدة أفلام من إنتاجه ، ثم بأن استعاد حماسته للتلحين والغناء بعد فترة تراخ طالت منذ الأربعينيات ، وكانت الصورة الجديدة التي حاول أن يرسمها لنفسه صورة شبابية رومانسية كتلك التي ظهر بها عبد الحليم حافظ ، ولكن عبد الوهاب أخفق ، « وظل عبد الحليم حافظ يرتفع ثم يرتفع حتى انفرد بالساحة الغنائية.أو كاد ينفرد بها دون جميع المطربين الذين أفنوا أعمارهم في تثبيت أقدامهم في تلك الساحة » .

ولعـــل عبد الوهاب لم يهدأ إلا حين التقت ألحانه بصوت أم كلثوم ، ونجـــحت هـــذه الألحـــان نجـــاحـــاً مدويـــاً تجـــاوز « السميعة » عشاق الصنعة إلى الجمهور الجديد من الشباب .

وأن يكون التشبث بالشهرة سبباً لمزيد من الإبداع ، هذا دليل على القدرة والحيوية والذكاء ، التي أتاحت لعبد الوهاب أن يجدد فنه مرة بعد مرة ، وهو ما يؤكده النجمي في سيرته الفنية .

ولكنه لايستطيع إلا أن يعلن مخالفته لعبد الوهاب حين يتبين له أن هذا الفنان الكبير كان يرى في « النجاح الجماهيري » المقياس الصحيح للعمل الفني ، و« النجاح الجماهيري » ليس إلا اسماً آخر للولع بالشهرة . وكمال النجمي ناقد مرهف الذوق ، ومعيار « الغناء المتقن » – الذي يعرفه عبد الوهاب حق المعرفة !! – حاضر أبداً في ذهنه ، ثم هو باعتباره مؤرخاً لفن الغناء يعرف أن مسيرة هذا الفن تتعرض للهبوط أحياناً حين يصبح « النجاح الجماهيري » هو

المقيـاس الأوحد ، أو المقياس الصحيح .

وتذوق الموسيقى والغناء – كما هو الشأن فى سائر الفنون – يتطلب درجة من العلم بأصولهما وأنواعهما ، والموسيقى بحرها واسع ، وقد كتب الدكتور حسين فوزى مرة – ومعروف عنه أنه تخرج فى طب العيون ولكنه هوى الموسيقى هواية أربت على الاحتراف – إن دراسة الموسيـقى أصـعب وأطـول من دراسة الطب ! وهذا الذى قاله يصدق على الموسيقى السمفونية الشديدة التركيب ، ولكن موسيقانا العربية لها أصولها وأنواعها وألوانها أيضا ، وإذا كان معـظم أعلامها حتى الماضى القريب قد فاتتهم فرصة التعليم المنظم ، فقد حصلوا بالمشافهة والتدريب والخبرة العملية علماً غير قليل ، وكانوا ينتفعون بالتلمذة المباشرة لمن سبقوهم ، جيلاً بعد جيل، ويترقبون الفرص لالتقاط ما يمكنهم إلتقاطه من علم نظرى – ومن هؤلاء محمد عبد الوهاب ، فبعد أن لازم سيد درويش مدة من الزمن أتيح له أن يتلقى حظا من الدراسة المنظمة فى « نادى الموسيقى الشرقى » الذى أنشاه عدد من الوجهاء المعذبين بالموسيقى ومعهم بعض الموسيقيين المحترفين ، وجعلوا فيه قسماً لتعليم الغناء والعزف على العود . ويقول كمال النجمى إن عبد الوهاب تعلم فى هذا « النادى » العزف على العود على يدى محمد القصبجى ، بـل أتقـن القـراءة والكتابة أيضا ، وكأن هذا الفتى الطموح كان يعد نفسه لصداقة كبيرة صقلت ذوقه الأدبى : صداقته لأمير الشعراء أحمد شوقى :



سلامة حجازى

كمال النجمى والموسيقى الشرقية

أما كمال النجمى كاتب سيرة عبدالوهاب وناقده فما أدرى كيف حصل كل هذا العلم بالموسيقى الشرقية . بل وبالموسيقى العالمية إيضا ! ولكننى استمتعت بكتابه وأفدت منه فى تثقيف ذوقى فى الاستماع كما أفيد من أحاديث حسين فوزى ورتيبة الحفنى وعمار

الشريعي ، سوى أنني أستريح إلى الكتاب أكثر مما أستريح إلى الحديث المسموع . فالكتاب تستطيع أن تردد النظر فيه ، وأن تسترجع ما فات من صفحاته . ولا تستطيع مثل ذلك مع الحديث المسموع ، وقد شعرت بعد أن فرغت من هذا الكتاب أن الغناء العربي والموسيقى العربية أصبحا أقرب إلى نفسي ووجداني ، عرفت طريقة الموال وتلاعبه بالإيقاع والمقامات ، وعرفت شكل الدور وشكل الطقطوقة وشكل المونولوج ، وكيف تتمايز أو تتداخل ، وأعجبتني المقارنة بين التحميلة والكونشرتو والمقارنات الكثيرة بين الموسيقى الشرقية والموسيقى الغربية ، وبين الغناء العربي المعتمد على الإنشاد الديني ، والغناء التركي والغناء الهندي ، وأعجبتني - كدارس أدب - المقارنة بين عبده الحمولي ومحمود سامي البارودي .



محمد القصبجي

إن هذا الضرب من المعرفة ليس من قبيل « الثقافة العامة » التي يظنها من لا دراية له بالثقافة بمعناها الحقيقي أمشاجا من المعلومات لا يربط بينها رابط ، بل الثقافة الفنية التي تنصب على معرفة الأشكال هي سبيل الاستمتاع الحقيقي بالفن ، فالاستمتاع بالفن مبني على التوقع ، وبراعة الفنان في إشباع توقعاتك أو مراوغتها هي سر الخلابة في الفن ، هل جمال القافية في الشعر إلا أن تطابق توقعك أو تفاجئه بتوقع آخر كان غائباً عن بالك ؟ وهكذا أنت في الموسيقى أيضا : أين طريك للدور إن لم تتوقع المذهب ؟ وأين طربك للتحميلة إن لم تتوقع الآلة المنفردة بإيقاعها الخاص ؟ وأين طربك للموال إذا لم تستسلم للمغني وهو يذهب بك يمينا وشمالاً وعلوا وسفلا ؟

إن كمال النجمي يطل بنا على تاريخ الذوق وهو يؤرخ للغناء العربي والموسيقى العربية من خلال محمد عبد الوهاب ، وتاريخ الذوق يضم تحت عباءته الفنون كلها ، ويشير إلى ما يسمى حساسية العصر ويرصد تقلباتها ، وحساسية العصر هي سر التغيرات الاجتماعية ، هي روحها !

القفز على الأشواك

يقول كمال النجمى فى ختام الفصل الثانى ، وقد خصصه لطفولة عبد الوهاب وحالة الغناء فى العقد الأول من القرن العشرين : -

« انقضى العصر المملوكي العثماني ، وطويت صفحة الغناء البدائى الذى لم يكن أربابه يحتفظون من أصول الغناء العربى المتقن إلا بالقليل ، وجاء عصر محمد على باشا الكبير ، فكانت فيه بداية النهضة التى شملت مرافق البلاد ، وأيقظت فى الأمة الرغبة فى النهوض وتعويض ما فاتها طوال العصر العثماني ، وكان الغناء والشعر فى طليعة موكب النهضة منذ بداية عصر محمد على الكبير ، فهما أول ما يسقط عند سقوط الأمة ، وأول ما ينهض عند نهضتها .. وقديما أشار ابن خلدون فى مقدمته إلى هذا المعنى بقوله : « أول ما يتراجع عند تراجع عمران البلاد ، صناعة الغناء ! ... » وإذا كان ارتباط الغناء بالعمران - أو الحضارة - قضية صحيحة على إجمالها فى عصر ابن خلدون ، فإنها فى عصرنا هذا - عصر « وسائل الإعلام الجماهيرية » صحيحة إجمالاً وتفصيلاً - أعنى أن تقدم وسائل الإعلام يشكل نوع الارتباط بين الغناء والحضارة .

ويتابع كمال النجمى تطور فن الغناء مع تطور ظروف الاستماع ووسائطه ، من مجالس الطرب فى الأعراس وحفلات القصور ودور الملاهى إلى عصر الأسطوانة الذى دخل فيه الغناء معظم الدور متوسطة الحال ، ثم عصر الإذاعة وعصر السينما ، وأخيرا عصر التليفزيون ، كان التأثير المباشر بصوت المغنى يتوارى خلف الأسطوانة ثم خلف الميكروفون ، ثم يندمج مع مؤثرات السينما فى عرض منوع تشاهده مختلف الطبقات والفئات والأعمار من « سميعة » وغير سميعة ، وقد أدرك عبد الوهاب أواخر عصر المسرح الغنائى المزدهر - عصر سلامة حجازى ومنيرة المهدية وسيد درويش ، ولكن مجده الفنى بدأ مع مجد الأسطوانة وقام على استيعاب الغناء القديم المتقن ثم الابتكار والتجديد فيه حتى أصبحت

رتيبة الحفنى



العاطفة الفردية الرومانسية هى طابعه المميز . ولم يزل حريصاً على هذا الطابع فى ألحانه حتى آخر عمره ، لولا الكم الهائل من الأناشيد والأغانى الوطنية التى كانت تذاع على الناس من الإذاعة والتليفزيون لتواكب الأحداث المتلاحقة منذ حركة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

لعل التحليل الاجتماعى لدور الغناء طوال هذه الفترة التى بدأت قبيل ثورة ١٩ وأثنائها وعاصرت نظما سياسية مختلفة وتحولات جذرية فى التركيبة الاجتماعية - أقول لعل التحليل الاجتماعى طوال هذه الفترة لا يزال فى حاجة إلى دراسة مفصلة من ناقدنا ، وفى كتابه هذا لمحات كاشفة تنبىء بأن لديه الكثير مما يمكن أن يقال فى هذا الباب .

كيف تطور فن « الطقطوقة » الخفيفة الحابتة - إلى حد المجون أحيانا على يدى سيد درويش ومؤلفى أغانيه المسرحية لتعبر فى بساطة وصدق على الأحداث الكبيرة والصغيرة أثناء الثورة الوطنية الكبرى سنة ١٩١٩ ... « فلم يجعلوا الكلام عن الوطن والاستقلال والحرية خارجاً عن مألوف الكلام المتبادل بين الناس ... ... كلمات بسيطة لا يشوبها ادعاء البطولة أو عدم المبالاة بمطالب الحياة اليومية الخانقة ... إن الزعيق العالى المجرد من نبض الحياة لا يصنع أغنية شعبية ولا أغنية ثورية ، وإنما يصنعها هذا الأسلوب البسيط الصادق الذى كان سيد درويش ومؤلفو أغانيه يخاطبون به المستمعين » .

فإذا جاء ناقدنا إلى « عصر الأناشيد » فى تاريخ عبد الوهاب الفنى لم يجد ما يستحق التعليق ، وإنما هى جملة واحدة تقول : « وأسهم عبد الوهاب فى (حرب الأناشيد) كما أسهمت أم كلثوم وعبد الحليم حافظ والآخرون . » ثم سرد لعناوين أناشيد عبد الوهاب .

سيد درويش



- والصمت عن التعليق أحيانا .. أبلغ من كل تعليق ، ويمكننا نحن أن نأتى بالتعليق من هناك إلى هنا ، ثم نطالب ناقدنا الأديب بكتاب جديد يفرده لدور الغناء فى مجتمعنا ، منذ بدايات النهضة حتى اليوم ..

ابن حنبل
وإسحاق الموصلي

بقلم : كمـــال النجمى

في هلال الشهر الماضى تحدثنا عن تلاوة القرآن الكريم بالألحان ، فأخذتنا السياقة إلى « مفارقة » تاريخية - إن صح أن تسمى مفارقة - بطلاها أحمد بن حنبل إمام أهل السنة العراقيين فى عصره ، وإسحاق الموصلى إمام أهل صناعة الغناء فى ذلك العصر .. أما ابن حنبل فهو المشهور بالتشدد فى الدين ، وأما إسحاق الموصلى فكان ذا دين وعلم بالدين ، ولكنه كان مغنيا ملحنا ، احترف الغناء والتلحين سبعين سنة فى العصر الذى عاشه ابن حنبل ، فكان إسحاق علَماً على الدنيا ، وابن حنبل علما على الدين ، ولكن الغيرة على اللغة العربية جمعتهما على غير اتفاق ، فعاشا يدعوان إلى نطق ألفاظها نطقا صحيحا ، ويرفضان كل نطق غير صحيح !.

وعندما سئل ابن حنبل عن التلاوة بالألحان أنكرها لأنها تشوه نطق ألفاظ القرآن الكريم ، وقال لسائله : ما اسمك ؟ فأجاب : محمد .. فسأله ابن حنبل : أيسرك أن يقال لك : يا موحماد ؟ .. (أى بمد الميم المضمومة حتى تصير واوا ، ومد الميم المفتوحة حتى تصير ألفا) .. كأنه أراد أن يقول إن التلاوة بالألحان تشوه



نطق الألفاظ ، إذ يضطر صاحبها أن يساير إيقاع الألحان وأوزانها ..

والظاهر أن ابن حنبل لم يسمع قراءة بالألحان إلا من بعض الضعاف الجاهلين بأصول القراءة وأصول الألحان ، فظن - رحمه الله - أن النطق الشائه ملازم دائما للتلاوة بالألحان ، وهو لحن في غير محله ، فعسى أن يكون القارئ بالألحان أصح ممن يقرأ بغيرها ..

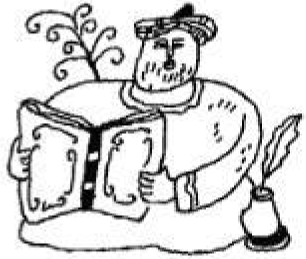
وابن حنبل عاش في القرنين الثاني والثالث للهجرة أكثر من سبعين عاما شهد خلالها عصر الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل .. وهؤلاء الخلفاء العباسيون جميعا كانوا يسمعون الغناء ، وكان « الواثق » يلحن ويغني ويتولى تحفيظ جواريه بعض ألحانه . وبقى يغني ويلحن مدة ولايته للعهد ومدة خلافته .

وكانت بين المعتصم وكبير قضاته أحمد ابن أبي دُؤاد مناظرات حول الغناء ، فكان المعتصم يجلس للسماع ، وابن أبي دؤاد لايفعل ، ثم اقتنع آخر الأمر برأى أمير المؤمنين وجلس للسماع .

وابن أبي دؤاد هذا من غلاة المعتزلة ، وكان شديداً في عدائه لابن حنبل ، وقصة هذا العداء طويلة معروفة ، ولكنهما اجتمعا حينا - بلا لقاء - على كراهة الألحان ، في القرآن وغير القرآن ! ..

والآفة التي كان ابن حنبل يخشى أن تلحق بألفاظ الكتاب عند تلاوته بالألحان لم تكن وقفاً على بعض القراء في عصر ابن حنبل ، بل كان بعض المطربين الكبار مصابين كذلك بتلك الآفة ، ومنهم إبراهيم ابن المهدي ، أخو الخليفة هارون الرشيد .

كان إبراهيم بن المهدي كبير المطربين



ابن حنبل وإسحاق الموصلى

الهواة فى عصره ، وكان صوته أجمل الأصوات حتى قال بعضهم إنه « أجمل الإنس والجن والوحش والطير صوتاً » ! .. ولكنه كان لا يلتزم فى كثير من غنائه بالنطق الصحيح ، فعاب عليه ذلك شيخ صناعة الغناء إسحاق الموصلى - وهو معاصر لابن حنبل من عهد الرشيد إلى عهد المتوكل - وشدد إسحاق النكير على ابن المهدى ، لأن هذه الطريقة تخرج الألفاظ عن أوضاعها الصحيحة ، وهو ما عابه ابن حنبل على ضعفاء القراء الذين سمع تلاوتهم الرديئة بالألحان ! ..

كلام العجم والروم

كان إبراهيم بن المهدى لا يفتأ يزعم أنه « يجندر » الغناء الموروث عن فحول مطربى العصر الأموى وبداية العصر العباسى ، فكان إسحاق الموصلى يقول له فى ازدراء :

- أيها الأمير .. إنك تفسد ولا تُصلح ، وتهدم ولا تبنى ، وتجاوز مالا تستطيع أداءه من غنائهم الجزل الكثير ، إلى شئ منه ، قليل خفيف ، تظن أنك تستطيعه ، وما أنت - أيها الأمير - فى هذه الصناعة بأعلم من أهلها ، وليس لك حق اللعب فى عملهم المتقن البديع ؟ ..

وطال جدالهما يوما فقال له إسحاق :

- أخبرنى أيها الأمير عن قولك فى أول قصيدتك التى تستعطف بها أمير المؤمنين المأمون :

ذهبتُ من الدنيا وقد ذهبتْ منى
هوى الدهرُ بى عنها وولّى بها عنى

أى شئ كان معنى لحنك الذى صنعته فى شعرك هذا ، وأنت تعلم أن هذا الكلام إذا غنيته بهذا اللحن لم تستطع إلا أن تقول : « ذهبتو » .. بالواو .. فإن قلت : «ذهبتُ» بضم التاء ولم تمدها فتجعلها واوا ، انقطع اللحن وانكسر الضرب ، وإن مددت ضمة التاء فجعلتها كالواو فسد الشعر وصار كلامك قبيحا ككلام النبط والعجم والروم ! ..

رد عليه إبراهيم بن المهدى ساخرا :

– لا تنكر نطقى يا إسحاق وأنت أعجمى جرمقانى الأصل ، تلقَّن أبوك اللغة من جرامقة الموصل وتلقنتها أنت عنه ، وأما أنا فقرشى هاشمى ، فاين أنت منى ؟!

صمد إسحاق الموصلى لهذه الاهانة وقال :

– الجرمقانى والله منا ، أشبهنا بالجرامقة لغةً ونطقا ، وهو الذى يقول : « ذهبتو » .. ولو كان من قريش ! ..

الجهل بالصناعة

وغنى إبراهيم بن المهدى ذات ليلة لحنا من صناعة إسحاق الموصلى فانكر عليه إسحاق أخطاء النطق ، فضلا عن أخطاء الصناعة ، وسأله محتدا :

– كيف تغنى هذا الصوت على غير الوجه الذى سمعته منى ؟! ..

قال ابن المهدى يحاول تهدئته :

ـ جُعلت فداك .. إنما أردت أن ألعب فى وسط هذا الصوت لعبا أعجبنى ! ..

استفز قوله إسحاق فصاح فيه :

– يا هذا .. إذا أردت أن تلعب فالعب فى غناء نفسك لا فى غناء الناس ، واصنع أنت إن كنت تُحسن أن تصنع ، والعب فى صنعتك كما تشتهى ، غير مُشاركٍ فى جد الناس بلعبك ، ومُفسدٍ له بما لا تعلم ! ..

قال ابن المهدى معابثا :

– إنما جندرت لحنك هذا وهذبته ! ..

اشتد الغضب باسحاق فقال بصراحة :

– يا هذا .. إن لحنى الذى لعبت فيه ليس يتهيأ لك أن تمخرق علينا وتقول : جندرته ، كما اعتدت أن تقول كلما لعبت بصناعة القدماء الذين كانوا يحسنون تمام الصنعة ، ولم يعجزوا قط عما يكمل به الغناء ويتم ويحسن ، ولم يتركوا بعدهم أشياء لم يهتدوا إليها واهتديت إليها أنت بزعمك فجئت تنبه عليها وتجندر ما شئت ، جهلا باصول الصناعة ! ..

ابن حنبل وإسحاق

هكذا .. لم يكن ابن حنبل وحده فى ذلك العصر يستنكر الخطأ فى نطق القراء بالألحان ، بل كان إسحاق الموصلى أيضا يخوض معركة لا تنتهى ضد المغنين الذين لا يستوفون أصول النطق العربى فى غنائهم .. وكان العصر كله حافلا بالعلماء والفضلاء الذين يطاردون العبث باللغة .. وفى ذلك العصر ظهر أئمة اللغويين والنحويين ، ووضع الخليل بن أحمد علامات الشكل لضبط حروف القرآن ، ووضع العروض للشعر العربى ، حفاظا على لغته وأوزانها ونطقها ، وتابع عمله تلميذه سيبويه فوضع « الكتاب » وهو بحر اللغة الزاخر ، ولا تستطرد وراء ما صنعه علماء عصر ابن حنبل فليس هذا مقصودا

ابن حنبل وإسحاق الموصلى



.. وحسبنا أن نقول إن هارون الرشيد كان ينظر من وقت إلى آخر فى الكتيب الذى وضعه له الكسائى عالم الكوفة ، عن الألفاظ التى يخطئ العامة فى نطقها أو فى فهم معناها .

فلا عجب أن اشتد إسحاق الموصلى على الأمير إبراهيم بن المهدى فى استنكار تهاونه فى نطق الألفاظ ، ومد الضمة حتى تصير واوا ، والفتحة حتى تصبح ألفا ، والكسرة حتى تنقلب ياءً.

وقد جرت بينهما مناظرات كثيرة شائقة ، ذكرها الأصبهانى وغيره ، وتنوقلت كلها بالرواية إلا مناظرة واحدة ذكرها الأصبهانى فى كتاب الأغانى مباهيا بأنه قرأ نصها مكتوبا بخط إسحاق ، وعلى ظهر الورقة رد ابن المهدى بخطه أيضا .

كان إبراهيم بن المهدى يرى « تحريك » الغناء – على حد تعبيره – ومعناه حذف التركيبات اللحنية الكثيرة ليصبح الغناء – فى رأيه – أخف على النفس ، وكان يقول : « إنما أنا ابن ملك ألعب بهذه الألحان » .. أى أن عمله فى تحريك الألحان وجندرتها لم يكن يعدو التسلية وتزجية الفراغ واستكمال الترف ! ..

أما اسحاق الموصلى فكان شديد الإحساس بمسئوليته حيال فن الغناء ، لأنه كان المقدم على جميع المغنين والملحنين .. وصفه أبو الفرج الأصبهانى بأنه « إمام أهل صناعته جميعا ، ورأسهم ، ومعلمهم .. يعرف ذلك الخاص والعام ، ويشهد به الموافق والمفارق » .. وأنه الذى « صحح أجناس الغناء وطرائقه ، وميزه تمييزا لم يقدر عليه أحد قبله ، ولا تعلق به أحد بعده » ..

ولما احتدم الخلاف بين إسحاق الموصلى وإبراهيم بن المهدى فى أواخر عهد الرشيد ، تدخل الرشيد بينهما واشتد فى تأنيب أخيه « ابن المهدى » وتعنيفه قائلا :

- أتستخف بإسحاق الموصلى وهو نديمى وابن نديمى ؟! .. هاه .. هاه ! .. وأنت مالك وللغناء ؟! .. وما يدريك ماهو ، ومن أخذك به وطارحك إياه ، حتى تتوهم أنك تبلغ فيه مبلغ إسحاق الذى غُذى به رضيعا ، وهو صناعته وصناعة أبيه ، ثم تظن أنك تخطِّئه فيما لا تدريه ، ويدعوك إلى إقامة الحجة ، فلا تثبت لذلك وتعتصم بشتمه .. أليس هذا مما يدل على السقوط ، وضعف العقل ، وسوء الأدب ؟ .. مِنْ دخولك فيما لا يشبهك ، وَغَلَبَةِ ذلك على مروءتك وشرفك ، وإظهارك الغناءَ ولم تُحْكِمْهُ ، وادعائك ما لاتعلمه ، حتى ينسبك الناس إلى الجهل المُفْرِطِ » ! ..

المناظرة المكتوبة

وفى أواخر حياة إبراهيم بن المهدى الذى توفى قبل إسحاق الموصلى بعشر سنوات تقريبا ، جرت بينهما المناظرة المكتوبة التى سلفت الإشارة إليها ، والتى قال الأصبهانى إنه قرأها بخط إسحاق وبخط ابن المهدى عند الورّاقين فى منتصف القرن الرابع الهجرى أى بعد وفاة إسحاق وابن المهدى بأكثر من مائة عام .

كان إسحاق وابن المهدى - كلاهما - من أعلى طبقات الأدباء والكتاب ، يبدو ذلك فى كتب إسحاق وشعره ، وفى شعر ابن المهدى وخطبه ، كما يبدو فى رسالتيهما هاتين اللتين نقلهما الأصبهانى بنصهما فى « كتاب الأغانى » وقد كتباهما عفو الخاطر ولكنهما جاءتا فى الغاية من طبقات البيان ، ويضيق المقام عن نقلهما ، ولكن أول الخلاف وآخره بين إسحاق الموصلى وإبراهيم بن المهدى ، أنّ ابن المهدى كان ينطق الكلمات فى الغناء نطقا غير صحيح استجابة للمسار اللحنى الخاطئ الذى زعم أنه يحرك به الغناء أو يجنّدره ! ..

وهذا الخلاف على نطق الألفاظ ، هو نفسه الخلاف الذى كان بين ابن حنبل وبعض قراء عصره الذين كانوا يخطئون فى النطق عند تلاوة القرآن بالألحان ، وقد كانت صحة النطق مطلبا عاما فى ذلك العصر للخلفاء والعلماء والشعراء واللغويين والعروضيين ، وكان ابن حنبل - على طريقته الخاصة - واحدا من هؤلاء ، كما كان إسحاق الموصلى - على طريقته أيضا - واحدا منهم ، فكثر المتشددون فى طلب صحة النطق وصحة اللغة بين رجال الدين ورجال الدنيا .

ولو صح النطق فى عصرنا الحاضر ، فى « نشرات الأخبار » فقط لكان ذلك إرهاصا ببعث جديد لهذه الأمة العربية التى لو مات لسانها لم تستطع أن تهلى ، ولصارت لضيعتها أندلسية ، كما كان يقول القدماء ، ولعلها أوشكت أن تصير كذلك ونحن لا ندرى ! ..

الشاه وأنا

اليوميات السرية لرئيس وزراء إيران الأسبق ووزير البلاط فى عهد الشاه أسد الله عَلَمَ

عرض وتقديم : حسين أحمد أمين

ثمة صنفان من الكتب : كتب تكتسب أهميتها من طبيعة موضوعها ! وكتب تتوقف أهميتها على مؤلفيها وطبيعة نظرته الفريدة إلى الموضوع الذى يتناوله ، مهما كان هذا الموضوع ... وقد يكون للكتب الأولى أهمية ضخمة حتى إن كان مؤلفوها أناسا عاديين أو سطحيين خالين من الموهبة ، كالكتب التى تتحدث عن رحلات إلى مناطق نائية غير معروفة ، أو ظواهر طبيعية غير مألوفة ، أو أحداث خطيرة شهدها المؤلف وساهم فيها ، أو شخصية مرموقة كان الكاتب صديقا حميما لها ، أو وقائع تاريخية قضى الباحث زمنا طويلا ، وبذل جهدا ضخما ، فى سبيل دراسة الوثائق الأصلية الخاصة بها .. أما الصنف الثانى فالغالب فيه أن يكون الموضوع عاديا أو مألوفا ، وإنما تعود قيمته الفذة إلى عبقرية الكاتب الذى يضفى رونقا وجدة على كل ما يتحدث عنه ، ويلقى ضوءا ساطعا على جوانب خفية من عواطف نخبرها جميعا ، أو أحداث عاصرناها وألممنا بتفاصيلها ، أو قصص طالما سمعناها من قبل .. وهل فعل إسخيلوس أو سوفوكليس أو يوربيديز أو شكسبير مثلا غير أنهم تناولوا فى مسرحياتهم موضوعات كان مشاهدوها على علم سابق بها !



الشاه وفرح ديبا



الخميني

والكتاب الذى نعرضه اليوم هو من الصنف الأول من الكتب .. قد يكون مؤلفة معروفا أو مجهولا لدى هذا القارىء أو ذاك ، وقد يتفق القراء بعد قراءة الكتاب على أن صاحبه خالٍ من الموهبة الأدبية ، أو حتى من الحنكة السياسية ، وعلى أنه لا يتمتع بأية صفة من صفات الشخصية النبيلة أو السويّة ، غير أن كل هذا لم يحل دون أن أعتبر الكتاب من أمتع ما قرأت من كتب خلال السنوات القليلة الماضية .

وهو وثيقة شائقة مذهلة من وثائق التاريخ السياسى والاجتماعى المعاصر . فهو لا يقتصر فى عرضه للأحداث فى السنوات ما بين ١٩٦٩ و ١٩٧٧ على كشف مجريات الأمور فى إيران وفى القصر الإمبراطورى ، وإماطة اللثام عن الأسباب الحقيقية التى أدّت إلى اندلاع الثورة الإيرانية والإطاحة بحكم الشاه عام ١٩٧٩ ، وإنما يكشف أيضا عن خفايا السياسة الدولية ، ولعبة الأمم ، والضغوط التى تمارسها الدول العظمى على دول العالم الثالث ، وعن حقيقة أنظمة سقطت وأنظمة لا تزال قائمة ، وشخصيات عالمية وملوك وحكام ، وعن دور إسرائيل فى منطقة الشرق الأوسط ، بالإضافة إلى مئات من الموضوعات التى تتراوح بين ماله أهمية دولية قصوى ، (كارتفاع سعر النفط فى أوائل السبعينيات وآثاره بعيدة المدى ، واتفاقية الجزائر عام ١٩٧٥ بين إيران والعراق حول شط العرب) ، وبين الحديث عن شخصية الشاه ومسلكه وغرامياته العديدة ، وعلاقته المتوترة مع زوجته فرح ديبا وابنته شاهناز ، وإخوته من ذكور وإناث وفضائح البلاط

المؤلف ويومياته

فأما المؤلف الأمير أسد الله علم (١٩١٩ - ١٩٧٨) فأرستقراطى نبيل ينتمى إلى عائلة من أعرق العائلات الإيرانية . وقد ظل لأكثر من عشرين عاما أقرب المقربين إلى الشاه محمد رضا بهلوى ؛ يجتمع به كل يوم تقريبا ، وكثيرا ما يتناولان معا وجبتى الغداء والعشاء ، وأحيانا الإفطار أيضا . وهو محط ثقة الشاه المطلقة ، سواء فى الأمور السياسية أو العائلية ، أو فيما يتصل بالمغامرات النسائية الشائقة .. وهما فى سن واحدة ، وهواياتهما واحدة (التنس وركوب الخيل) ، والإثنان يتمتعان بقدرة فائقة على العمل لساعات طويلة كل يوم . وإذ عيّنه الشاه رئيسا للوزراء عام ١٩٦٢ ، كان لأسد الله فضل إنقاذ نظام الشاه من أول محاولة يقوم بها آية الله الخمينى لتأسيس دولة إسلامية فى إيران ، وذلك حين أمر أسد الله الجيش بإطلاق النار على جموع الثائرين ، وقمع حركتهم بكل وسائل العنف ، ثم قضى بعد ذلك بنفى الخمينى من البلاد . وقد عُين بعد ذلك وزيرا للبلاط وهو منصب كان أكثر أهمية ونفوذا من منصب رئيس الوزراء ، وأضحى من وقتها المسئول الأول عن اتصالات الشاه بالدول الأجنبية ، والملوك والرؤساء ، وإبلاغ الوزراء وقادة الجيش بتعليمات سيّده ، وترتيب لقاءات الشاه بعشيقاته خفية عن زوجته الثالثة فرح ديبا ، إلى أن اضطر إلى الاستقالة عام ١٩٧٧ (أى قبل وفاته بسنة) لإصابته بالسرطان .

وقد كان أسد الله علم طوال توليه لوزارة البلاط يسجّل كل ليلة تقريبا قبل أن يأوى إلى فراشه يوميات سرية بكل ما حدث خلال اليوم ، وما دار بينه وبين الشاه أو السفراء الأجانب أو الملوك والرؤساء الزائرين لإيران من أحاديث . وهو بالرغم من حبّه وولائه الصادقين للشاه ، كان كثيرا ما ينتقد مسلك سيّده فى يومياته ، ويعبّر عن خشيته وقلقه من أن تؤدّى أوتوقراطية الشاه ، ورفضه إتاحة الفرصة للشعب الإيرانى للمشاركة فى اتخاذ القرار ، وفساد الوزراء ورجال الحاشية وأفراد الأسرة المالكة ، ووحشية معاملة السافاك للمعتقلين السياسيين ، إلى نشوب ثورة تودى بنظام الحكم . غير أن أسد الله كان يخشى أن يطّلع على يومياته من ينقل الخبر بمحتوياتها إلى الشاه ، فكان يحرص عى أن يودع أجزاءها بين الفينة والفينة فى خزانة بأحد البنوك السويسرية . وقد ظل أمر هذه اليوميات سرا إلى أن أفشاه أسد الله إلى زوجته

حين أحس باقتراب أجله طالبا منها أن تؤجل نشرها إلى ما بعد انقضاء أمد حكم أسرة بهلوى لإيران .

وفي شهر يونيو ١٩٨٧ رأت أرملة علم أن الوقت ربما قد حان لنشر يوميات زوجها فدعت بها إلى علي غني علي خاني المدير الأسبق لجامعة طهران ووزير الاقتصاد لمدة ست سنوات في حكومة أسد الله علم ، طالبة منه الإشراف على ترجمتها إلى الإنجليزية ونشرها في لندن ، مع اختصار الأصل الفارسي المكون من ألف وخمسمائة صفحة إلى نحو الثلث . وكان أن نهض علي خاني بهذه المهمة ، حاذفا من الأصل كل الإشارات إلى أفراد لا يزالون مقيمين في إيران خشية تعرضهم لما يكرهون من قبل السلطات الجديدة فيها .

شخصية الشاه

فالصراحة التامة إذن هي السمة الغالبة على هذه اليوميات . وبالرغم مما ذكرناه عن صدق ولاء علم للشاه وحبّه له ، فإن الصورة التي يرسمها لسيده وصديقه هي صورة رجل كريه سطحي صلف ، شديد الإيمان بحكمة قراراته ، وبأنه لايمكن أن يخطيء ، عظيم الاحتقار لوزرائه وكبار القادة في جيشه ، بل وللزوار الأجانب من ملوك وأمراء ورؤساء ووزراء ، يفتقر إلى كل الشروط التي تتطلبها إقامة علاقات أسرية نقية ، أو صداقة حميمة ، وإلى المبادىء الأخلاقية والعواطف الإنسانية ، ضعيف الثقة بقدرة شعبه «المتخلف» على أن يجاريه في أحلامه وتطلعاته إلى أن يجعل من إيران «يابان الشرق الأوسط» ، وأن يبني فيها «حضارة عظيمة بوسعها أن تلحق بالغرب في ظرف عشر سنوات ، دائم التعبير عن استيائه من جحود شعبه وضعف إمتنانه لكل ما يبذله من أجل رفع مستوى معيشته ، والإعلاء من شأن دولته .

غير أن الواضح أيضا من خلال هذه اليوميات أن الشاه كان يخفي وراء عجرفته وغطرسته وصلفه ، شعورا عميقا بالضعف والإحساس بالقلق إزاء المستقبل . ولم تكن نوايا الاتحاد السوفييتي تجاه إيران هي مبعث هذا القلق كما ظن الكثيرون . فقد كان مطمئنا تماما إلى أن الغرب لن يسمح أبدا بسقوط إيران في براثن الشيوعية . وإنما كان مبعث قلقه الأكبر هو خشيته من أن يفكر حلفاؤه الأمريكيون والبريطانيون في يوم ما في الإطاحة بنظامه متى رأوا أنه لم يعد يحقق لهم مصالحهم في المنطقة ، أو أنه بات يهدّد هذه المصالح ، بالضبط كما أطاحوا بوالده رضا بهلوى عام ١٩٤١ لاتهامهم إياه بالميل إلى النازية ودول المحور .

وقد ظل الشاه إلى وقت نشوب الثورة الإسلامية مؤمنا بأنه لم يرتكب خلال سنوات حكمه الطويلة خطأ يذكر ، وبأن فضله على إيران لا يدانيه فضل أى حاكم لها على مدى ألفى سنة وخمسمائة ، وبأنه يحكم شعبا قوامه فلاحون سعداء بوضعهم ، وعمال راضون بحالهم ، يتمتعون بثمار ما وفره لهم من تعليم مجانى ، ورعاية صحيّة مجانية ، ورخاء مادى ناجم عن تمكنه بسياسته الحكيمة من رفع سعر النفط فى السوق العالمية . وقد كان يحيط نفسه دائما بمن يحرص الحرص كله على إخفاء حقيقة الأوضاع عنه ، وغضب الشارع الإيرانى على استبداده ، وفساد وزرائه ، وما يعانيه الشعب رغم عائدات النفط الكبيرة من ضائقة اقتصادية شديدة . وكثيرا ما تعرّض أسد الله علم نفسه لغضب الشاه وإهاناته حين حاول أن ينبهه إلى واقع الأمور وإلى ضرورة السماح بقدر أكبر من الديمقراطية وحرية التعبير . فالشاه لا يستمع إلا إلى ما يريد سماعه : المديح لإنجازاته ، والإشادة بخدماته للأمة ، وتقارير حكومته ومخابراته عن حال الرخاء والرضا التى يعيش شعبه فيها . وهو يصر على نسبة كل إنجاز إيجابى إلى نفسه ، فإن حقق وزير له قدرا معينا من النجاح فإنما حققه بفضل إرشادات الشاه وتوجيهاته له ، وإن أساء أحد المسئولين التصرف فبرغم أوامر الشاه ونصحه ، وإن اكتسب أحد كبار رجال الدولة شعبية كبيرة كتلك التى اكتسبها الوزير المسئول عن الإصلاح الزراعى ، بادر الشاه بتنحيته عن منصبه ونسبة الإصلاحات إلى نفسه .

فعلى أفراد تلك الحاشية إذن وغيرهم من المنافقين المتملقين داخل إيران يقع جانب من المسئولية عن سقوط نظام حكم الشاه . غير إنه كان ثمة إلى جانبهم من الأجانب من طمأنوه بمديحهم على حكمة إداراته ، وروعة سياساته وحنكته . فهناك الرئيس الأمريكى الأسبق ريتشارد نيكسون الذى نسمعه يقول للشاه خلال حفل استقبال بواشنطن « إن كل ما أنجزتموه ياجلالة الإمبراطور وكل ما تنجزونه يحمل سمة الجلالة » . وهناك وزير الخارجية هنرى كيسنجر الذى صرح بقوله إنه « ليس هناك فى زمننا هذا من هو أعظم من الشاه » وهناك نلسون روكفلر الذى نقرأ عنه فى يوميات أسد الله ما يلى :

الجمعة ٢٦ مارس ١٩٧٦ :

« غادر صباح اليوم نلسون روكفلر طهران فى طريقه إلى الشرق الأقصى وأستراليا وقد حادثته فى طريقنا إلى المطار فى موضوعات شتى ، وكان من بين ما قاله إنه ساخط على بطء عملية اتخاذ

القرارات فى الولايات المتحدة ، عكس الوضع فى إيران ، وأنه يتمنى لو أن إيران أعارت جلالة الشاه لمدة عامين أو ثلاثة إلى الولايات المتحدة ليعلمنا كيفية حكم البلاد» !

فرح ديبا

كذلك يتضح لنا من قراءة هذه اليوميات كذب ادعاء البعض أن الشاه كان قد عقد العزم قبيل نشوب الثورة على إدخال قدر أكبر من الديمقراطية فى نظام الحكم . فالمؤكد أنه كان دائما شديد الاحتقار للمبدأ الديمقراطى ، قوى الإيمان بأن لم يجلب على الدول الغربية غير الفوضى ، وأنه لا يتفق مع التقاليد الإيرانية . وربما خرج البعض من قراءة الكتاب بالإحساس بأنه لولا إغفال الشاه للأخذ بنصائح أسد الله علم ونصائح زوجته فرح ديبا ، وإيصائهما المتكرر له بتطبيق الديمقراطية ، لما فقد عرشه ، والغريب فى الأمر أنه بالرغم مما سطّره علم مرارا فى يومياته عن كراهية فرح ديبا له لعلمها بأمر ترتيبه لمغامرات زوجها النسائية واشتراكه معه فيها ، فإن الصورة التى تبدو بها الامبراطورة فرح فى هذه اليوميات صورة مشرقة حقا ، ومشرفة حقا .

يكتب أسد الله علم فيقول :

«إن لدى جلالتها موهبة وضع أصبعها على أخطر أوجه القصور والضعف فى النظام القائم . غير أنها للأسف - وكما أخبرتنى هى نفسها - لا تنظر هى والشاه إلى الأمور بعين واحدة ، ولا يكادان أن يتفقا على شيء أبـداً » .

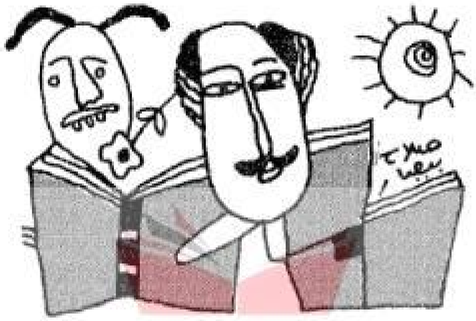
★★★

غير أن الفرصة كانت قد ولت حين أقر الشاه فى النهاية بالحاجة إلى إجراء «بعض الإصلاحات الصغيرة » !! ففى يناير ١٩٧٧ نسمعه يعترف لأسد الله علم قائلا :« لقد أفلسنا ، وغدا كل شيء مهدد بالتوقف » . كما نقرأ فى يوميات علم : «ثمة نذر رهيبة تنذر بكارثة محققة ، خاصة مع تدهور عائدات النفط ، والضغط المتزايد علينا من جانب الرئيس كارتر من أجل احترام حقوق الإنسان .. الأرض تميد بنا ، وكل شيء ينذر بالانهيار من حولنا » .

وقد كان أن انهار كل شي من حولهم مع بداية عام ١٩٧٩ .. غير أن أسد الله علم كان قد توفى قبل ذلك بتسعة أشهر ، وكان الشاه قد أضحى عاجزا تماما عن أن يوقف المد الثورى فى بلاده .

حصــــــاد العمــــــر

شعر : رشـــاد محمد يوسـف



يا شعر ماعاد فى قلبى سوى ألمى .·. وذكرياتُ شبابٍ ملْهـــا قلمى
وحقنـة من مواويــــلٍ ... ملـونةٍ .·. ألحانها فى الحشا مَشْبُوبة النغَم
وأمنيـاتٌ تـــدانت فــى تعثـرها .·. وكنتُ أشتاق أنْ تـرقى إلى القمـم
وهــامةٌ لوحتها الشمسُ ما سـجدتْ .·. ولا انثنى عزمُها يومــاً إلى صنم
وهمـةٌ لا تطيـــقُ الضَيَم أثقلهـــا .·. ما أثقلَ القلبَ من ضعفٍ ومن سقم
تمردتْ فى خطـاها واكتوتْ زمنـاً .·. بحـرقة الأسْرِ والأصفـــاد والألم
لكنهـــا وســـدادُ الـرأى يَعْصمُها .·. عن زلّة الفكـر أو عـن زلّة القـــدمِ
عـــزيزةٌ بجـلال الحـق شـامخةٌ .·. تسمُو إلى صَفْـوَةِ الأخلاقِ والشممِ

ما عاد يا شعرُ من صحبي سوى كتبي .·. يحيطني عطرُها بالـــود والكـــرم
تفيض أنفاسُها علمـــاً ومعـــرفةً .·. بــلا قيــود ولا مـــنٍّ ولا نقـــم
سـميرةٌ في الدجى والصبح صـادقةٌ .·. ذكيّةُ النفـحِ عن صَخَبٍ وعن رَحـمِ

ما عاديا شـعر للأشـواق بي شـغفٌ .·. إنْ قيلَ حبٌّ فحسـبي حُـرْقةُ النّدمِ
أرنـو إلى رحلة المـاضي ويفـزعُني .·. زَيْفُ المشاعر والوجدان والـــذممَ

العـاذلون وكـمْ أحصـوا بـلا ملَلٍ .·. على الفؤاد فضـولَ الخطـو والكلم
سِـهامُهمْ في حنـايا كلُّ جـارحةٍ .·. وكـلُّ سـانحة من لفظـةٍ لفـم
والله يعلم كـمْ رأبـتْ ظواهـرُنا .·. وفي جوانحنـا طُهْـرٌ من التهـم
ياشـعرُ والنـاسُ أهـواءٌ موزعـةٌ .·. وخلْفَ أهوائهـم يَمْشـونَ كالبهم
تشـدُّ أعنـاقهم للـزيف غـايتهمْ .·. فلا تفـرقُ بين اللـؤم والكـرمَ
مللْتُ يا شـعر غـدرَ النّاس من زمنٍ .·. مللته بعد طـول الجَهْـدِ والسـأمَ
من أطعمُوا كِسرتي أو أشربوا عَسَلي .·. رحيقَ عُمْري من الخيـرات والنـعم
تــراهم الآن والأحقـادُ تاكلُهـمُ .·. والغيـظُ يقـذفُ كالبركان بالحَمم
يعكّرونَ صفـاءَ النبْعِ مـا علمـوا .·. أنَّ المحبـةَ ينْبوعٌ لكـلِّ ظـمِ

يا شـعرُ والعُمْرُ يَمْضي نحـو غايَته .·. والخطْوُ يَرْكُضُ نحـو الشـيْبِ والهرَمِ
هي الليـالي حصـادُ العُمْـرِ مَلحَمةٌ .·. وكـلُّ أبيـاتها من لوعـةٍ ودَمِ
يا شـعر حسبي وحسبُ العمر تَسْرِيَةٌ .·. أنْ صنْتُ فيه أصولَ العهْد والقَسَـمِ
قـدمتُ شعـراً كريمَ الأصـلِ مَنْبِتُهُ .·. منْ أحْرُفِ النـورِ أوْ من طَيِّب الكَلِمِ
قـدمت قلبـاً نقـيَّ الوُدِّ شـيمَتُهُ .·. حبُّ الأخـلاء والأخيـارِ والشَـمَمِ

لماذا نكتب السيرة الذاتية ؟

التاريخ العلمى وجذور الإبداع

بقلم : د . مصطفى سويف

● تاريخ العلوم :

أوردنا فى الجزء الأول من هذا المقال والذى نشر فى العدد الماضى قول إدوين بورنج : إن بإمكان ما يحدثنا به الكاتب عن نفسه ، وعن قيمه أن يمضى شوطا بعيدا فى تنبيه القارىء إلى الكيفية التى تتحرك بها الدوافع البشرية لتصنع التقدم العلمى .

ويمكننا أن نضيف هنا أنه ينبه القارئ أيضا إلى أمور ، منها :

الكيفية التى ينتقل بها العقل (لا الدوافع فقط) من فكرة إلى أخرى ، ومن مجال من مجالات البحث خاصة أو الإنتاج عامة إلى مجال آخر ، والبدايات الأولى للتفكير فى حل المشكلات البحثية أو الفنية فى اتجاه جديد ، والمصادر التى أوحت بهذا التفكير وهذه البدايات ، وهذه اللفتات ، إلى آخر هذه الأمور التى من شأنها أن تعمّق فهمنا لتطور التفكير العلمى فى إحدى المشكلات البحثية أو الفنية عبر عدد من الشخصيات العاملة فى الميدان .

إن التاريخ المكتوب لتطور العلم (فى فروعه وفى مجموعه) لا يقل هشاشة عن التاريخ المكتوب لتطور الحياة الاجتماعية والسياسية . وقد أشرنا من قبل إلى سوأتين يعانى منهما هذا الأخير ، ونزيد فى هذا الموضع أن التاريخ المكتوب للعلوم والفنون يعانى من ذات السوأتين كما يمكن أن تكشفا عن نفسيهما من خلال المادة النوعية لهذه العلوم والفنون . ولا يمكن إبراء هذا التاريخ من هاتين السوأتين أو التخفيف من آثارهما الضارة إلا بالرجوع إلى ما قد يكون هناك من سير ذاتية للعلماء أو إلى كتابات تنتمى إلى هذه النوعية من التسجيل .

ومن الأمثلة الممتازة على حسن استغلال السيرة الذاتية لأحد العلماء

الأفذاذ فى إبراز بعض الحقائق التفصيلية فى تاريخ العلم ما فعله فرانسس داروين ببعض ما ورد من إشارات فى السيرة الذاتية لأبيه تشارلز ، إذ استعان بهذه الإشارات على متابعة مجموعة المفاهيم الرئيسية التى كانت تدور فى أوائل القرن التاسع عشر حول موضوع التطور فى عالم الكائنات العضوية والكائنات غير العضوية ، وكيف تجمعت هذه الأفكار ، ثم كيف توارى بعضها فى الظل وزاد البعض الآخر بروزاً وثباتا فى الصورة النهائية التى فرضت نفسها على كتاب « أصل الأنواع » ، بذلك استطاع داروين الإبن أن يؤرخ بصورة شديدة الإحكام لواحدة من أهم المنظومات الفكرية التى سيطرت على الفكر العلمى طوال القرن التاسع عشر .

وما أوردناه هـنا عن تاريخ العـلم يصدق كذلك بالنسبة لتاريخ الآداب والفنون جميعا .

مهمة الكشف عن جذور الإبداع

فى النصف الثانى من هذا القرن العشرين الذى يوشك على الأفول ، ازدهرت البحوث العلمية الدقيقة فى سيكولوجية الإبداع كما لم تزدهر من قبل فى تاريخ علم النفس بصورته العلمية الحديثة ، وقد شمل هذا الازدهار الكم والكيف معاً . فتوالى نشر مئات الدراسات الصادرة عن عشرات المعامل السيكولوجية المنتشرة فى كثير من بلدان العالم ، وشملت هذه الدراسات فى تعددها جميع مجالات الإبداع فى العلوم ، والآداب والفنون والصناعة ، وغيرها . والشئ الجدير بالذكر هنا أن ازدهار هذه البحوث ارتبط فى بعض جوانبه بالسعى الحثيث فى بعض المجتمعات إلى التطبيق العملى لبعض نتائج هذه البحوث فى طريق التنمية الرأسية للطاقة البشرية المتوافرة لديها . فالمسألة إذن لا تقتصر أهميتها على أمور المعرفة الخالصة فحسب ولكنها تمتد لتشمل عالم التطبيقات العملية كذلك .

وهناك مناهج بحثية متعددة لإجراء بحوث الإبداع هذه .

ومن بين هذه المناهج ما يحتاج فى بعض مراحله الى الاستعانة بالنظر للسير الذاتية للمبدعين ، وما كان قريبا من طبيعته من هذه السير كالخطابات الشخصية التى كتبها هؤلاء المبدعون . فى هذه السير والخطابات (بالاضافة الى أنواع أخرى من الوثائق) نجد كثيرا من بذور الابداع كما كانت فى حالة الكمون التى سبقت فعلها فى عقول أصحابها . وقد حرص بعض الباحثين والناشرين النبهاء ، فى الفترة الأخيرة ، على أن يستكتبوا بعض العلمـاء ما أسـموه « القصص التى لم تنشر » عن بحوثهم فى ميادينهم المختلفة . ومن هذا القبيل ما نشره فى أواخر السبعينات اثنان من علماء النفـس همـا سيجـل وزايجلر تحت عنوان : « البحث السيكولوجى : القصـة المُضمَرة » ، والاشارة فى هذا العنوان الى القصـة التى يعيشها العـالم بينه وبين

نفسه ، فى مقابل القصة الصريحة وهى البحث كما يرد فى شكل التقرير العلمى المنشور . فالقصة المضمرة هى قصة التفكير فى مشروع البحث منذ البداية ، والتردد ، والخطأ ، وطلب المشورة ، واكتشـاف الخطأ ، والتراجع عنه ، والفشل ، واليأس المؤقت ، وعـودة الحماس للعمل والاقتناع به ... الخ . وهى على هذا النحو مجرد فصل من فصول السيرة الذاتية للعالم وهو فصل شديد الالتصاق بنشاطه العلمى . فى هذا الكتـاب نجـد سيجل وزايجلر يستكتبان تسعة عشر عالما من علماء النفس التجزيبيين تسعةعشر فصلا ، يروى كل عالم فى الفصل الخاص به خبرته الحميمة بالتفكير والبحث فى أحد الموضوعات التى ملأت عليه حياته العلمية وحقق فيها انجازاً له وزنه . بعبارة أخرى كان المطلوب من كل منهم أن يكتب قصة ابداع أحد بحوثه أو قطاعاً من بحوثه ، كما عاشها فعلاً ، لا كما كتب نتائج البحث فى التقارير التى نشرها محكومة بتقاليد النشر العلمى . وبهذا الوصف جاء الكتاب مجموعة من الوثائق بالغة الأهمية فى الكشف عن دقائق النشاط العلمى لعقول العلماء اذ تصنع علماً . وفى مقدمة موجزة بقدر ما هى ثمينة يقول سيجل وزايجلر ، والخطـاب هنـا موجه الى القارىء : « سيثير انتباهك واعجابك حتمـا ، عنـدما تقرأ هـذه المختارات ، سعة المـدى الذى تتنوع فيه الموضوعات القـابلة لأن تدرس بأساليب التجـريب السـيكولوجى . وسرعان ما تكتشف أن لكل معمل أسلوبه الفريد فى تناول موضوعاته . وبالتالى تصبح الأعمال الصادرة عن هذا المعمل لها طابعها المميز لها ... هذه الخاصية على وجه التحديد ، ونعنى بها الأسلوب الشخصى فى اجراء البحث ، ومواضع الاهتمام شديدة القربية التى تتخلله ، هى السبب فى أنك سوف تقرأ هنا تسع عشرة قصة بحثية ، لا قصة بحثية واحدة تسع عشرة مرة ، ومع ذلك فبعد أن تفرغ من قراءة أربع قصص أو خمس من بين فصولنا سوف تبرز أمامك بعض التماثلات ... وربما كان على رأس قائمة التماثلات التى سوف تتكشف لك خاصية نسميها أحيانا المثابرة ، وأحيانا أخرى التكريس ، وأحيانا ثالثة مواصلة التأهب ... وأهم ما يميزها أن العالِم الموفق لابد له من مواصلة العمل حيث الاستمرار مشقة أكثر منه متعة . ومن التماثلات التى سوف تظهر لك فى حياة هؤلاء العلماء الموفقين أيضا الظاهرة التى نسميها أحيانا بـ « الإدراك الجانبى » ، أو الإدراك غير المقصود ، حيث تجد أمامك ما لم تكن تبحث عنه ... وهى (هذه الظاهرة) غالبا ما تقود العلماء الى ارتياد مجالات ما كان لهم أن يتوقعوا من قبل ارتيادها ... وغنى عن البيان أن حسن الحظ ليس وحده المطلوب هنا ، ولكن الأمر

يتطلب كذلك مستوى من التنبه الى أن شيئا هاما قد انكشف ، واستعداداً ايجابياً للتعامل مع هـذا الشيء . ومن التماثلات كذلك ، التى تشيع فى فصول الكتاب ، صورة يبدو من خلالها تقدم العلم والتجريب شبيها بتفرع الشجرة ، فكل منعطف أو كل تجربة تزود العالِمَ بخيار جـديد للأفرع التى سوف يتسلقها بعد ذلك . وليس لدينا أية وسيلة للتنبؤ مقدما ، عندما يكون الباحث فى بداية طريقه ، بأى فرع من فروع الشجرة سوف ينتهى به المطاف اليه » . وهكذا يواصل الناشران حديثهما عما سيجده القارىء فى فصول الكتاب من عناصر العملية الابداعية .

هكذا الحال فى هذه السير المحدودة ، وهكذا الحال فى السير الذاتية الموسعة ، سواء بالنسبة للعلماء والمفكرين والأدباء والفنانين ... الخ . نجد فيها معينا لا غنى عنه للباحثين فى موضوع الابداع ، ولايزال كاتب هذه السطور يذكر كيف أسفرت هذه السير عن نفائسها أمام عقله ووجدانه أيام بدأ دراساته فى الابداع الفنى وهو بعد فى بواكير الشباب ، عندئذ تبين له أن ما تزخر به أكبر كثيرا من كل ما أوتى من حول وطول فى اجراء بحثه ، فلم يكن أمـامه بد من قـرار للاكتفاء بالقليل ، أما الكثير الباقى فأمره مرجأ الى مقبل الأيام ، وما قد تجود به عليه أو على غيره من الباحثين من فرص لارتياد هذا المعين الذى لايكاد ينضب .

والخلاصة

أن السيرة الذاتية انما تُكتب أو تُستكتب لما نتوسمه أو يتوسمه الغير فيها من أنها تنطوى على قيمة عامة . وأن هذه القيمة تتمثل فيما يمكن أن تقوم به من مهام فى الحياة الاجتماعية . وأن أخطر هـذه المهـام شأنا أربع . هى : المهمة التربوية ، والمهمة التاريخية الاجتماعية ، ومهمة التأريخ لتطور العلوم والفنون ، ثم مهمة الكشف عن جذور الابداع فى العلوم والآداب والفنون وسائر المناشط الكبرى فى الحياة .

تلك هى المهـام الاجتماعية الرئيسية التى ينطوى عليها القول بأن سيرة ذاتية ما تقوم كقيمة عامة . ولا يعنى ذلك أنه لا وجود لمهام أخرى تندرج تحت هذه القيمة ؛ فليس هناك ما يمنع من قيام السيرة بمهمة استثارة بعض الخبرات الجمالية شأنها فى ذلك شأن كثيـر من قوالب الكتـابة الأدبية ؛ ولا ما يمنع من قيامها بمهمة التعبير بكل ما يعنيه من معانٍ سيكولوجية بالنسبة لكاتبها ، ولا ما يمنع من قيامها بمهام أخرى إضافة الى المهمتين الجمالية والتعبيرية . كل ما فى الأمر أن الوظائف الاجتماعية للسيرة كما أوضحناها تبدو وظائف بالغة الأهمية ، وهى بذلك تستحق من كُتّاب السيرة مزيدا من الوعى بهذه الوظائف وبمقتضياتها .

* * *

> حدث خطأ فى عنوان الجزء الأول من هذا المقال فى العدد الماضى للدكتور مصطفى سويف وصحة العنوان :
> لماذا نكتب السيرة الذاتية .. القدوة والتأريخ الاجتماعى .

عن النصر والهزيمة .. يا صلاح



بقلم : عبد الرحمن شاكر

من قال إن الحياة تنتصر على طول الخط يا صلاح ، وهاهو الموت ينتزعك من بين أيدينا ، وأيدى كل من أحبوك وأعجبوا بك ، وأنت تكتب كل أسبوع ، فى مطلع شبابك ، عن انتصار الحياة ؟

لكم أشفقت عليك منذ شهور ، وأنت تكتب « للهلال » فى الأيام الأخيرة للراحل قبلك بقليل يوسف إدريس ، تقول له لو كنت عبقريا حقا لاجتزت هذه المحنة ، محنة المرض ، ولكنه لم ينجح فى ذلك .. كنت تقول ذلك ضنا به على الموت ولكن من قال إن العباقرة لا يموتون ؟ مات يوسف إدريس ، وتبعه فجأة فيليب جلاب ، وها أنت تلحق بهما يا صلاح .

ما أشد الفجيعة فيك وفيهما ، لكل من عرفوكم عن قرب ، أو من على سطور أوراقكم فحسب .

هل أمضى فى الحديث الفاجع على هذا النحو ؟ ما أظن ذلك يرضيك وأنت صاحب « انتصار الحياة » فلأذكر للناس بعض ما أعرفه عنك .

زرتك فى مكتبك فى منتصف السبعينيات مع بعض الأصدقاء وكانت تلك أول مرة ألتقى فيها بك ، كنت أعرفك عن طريق ما تكتب ، وأظنك أيضا قد قرأت لى ، واتفقت معك على أن أكتب لك فى موضوع بعينه ، كان معركة قلمية بين الراحلين الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر وقتذاك ، وعبد الرحمن الشرقاوى رئيس مجلس إدارة روز اليوسف أيام كنت رئيسا لتحريرها .

من يومها - ولأوجه الحديث إلى القارىء - عرفت صلاح حافظ عن قرب كان أعجب رئيس تحرير عرفته فى حياتى - على كثرة من عرفت من هؤلاء .

أول العجب أنه لم يكن له مكتب .. كان مكتبه عبارة عن حقيبة فى يده ، أضخم حقيبة أوراق رأيت إنسانا يحملها ويتحرك بها حيث يذهب .. كان اللقاء معه يتم بالمصادفة فى أى ردهة من ردهات روز اليوسف ، وأحيانا قليلة فى المكتب الوحيد الذى كان يجلس إليه غالبا رئيس التحرير الآخر لروز اليوسف . فتحى غانم .

نتبادل معه الحديث أثناء تجواله ، ثم تسلم المادة الصحفية التى تحملها إليه ، لكى يدسها فى حقيبته الضخمة ، وينظر فيها وقت أن يتاح له أن يخلو إلى نفسه وإلى حقيبته فى أى مكان ، والأرجح أنه بيته .

أما لماذا لم يشأ أن يكون له مكتب ، فذلك لسبب بسيط ، أنه كان لا يستطيع أن يرد أحدا يطلب لقاءه ، ولو لزم مكتبه لانهال عليه الزوار من كل صوب ، أقلهم من يقصدونه لسبب جاد ، أو يتعلق بالعمل الصحفى الذى يشرف عليه ، والأغلبية سوف تأتى للاستمتاع بالجلوس إلى صلاح حافظ والتحدث معه كان حديثه لايقل إمتاعا عن كتابته ، وكان يعرف نفسه .. كان يعرف أنه سوف يكون أشد استمتاعا من الحاضرين بالتحدث ، بل



والمحاضرة التى قد تستغرق ساعات طويلة ، فلا يبقى وقت ولا جهد لانجاز العمل الصحفى المنوط به ..

باختصار : لو لزم صلاح حافظ مكتبا فى روز اليوسف ، لتحول إلى مقهى ، أو ندوة دائمة .. ولم تكن روز اليوسف لتصدر على الإطلاق !

وماذا إذا أراد أن يكتب شيئا عاجلا لينشر فى المجلة التى يرأس تحريرها ؟ كان عليه أن يجد مكانا يختبئ فيه ، أى مكتب لا يتوقع أن يقصده أحد ، يتوارى فيه عمن يطلب لقاءه ، ويهرب إليه من شهوة الآخرين فى التحدث إليه ، ومن شـهوته هو فى الحديث ...

نجاح متصل

ثم تصدر « روز اليوسف » فتتخاطفها الأيدى ، ويرتفع توزيعها إلى درجة ترفض معها الإدارة المالية طبع المزيد ، لأن الاعلانات التى تمولها ، لن تكفى لتغطية ثمن الورق الذى تستلزمه زيادة النسخ المطبوعة ، ويغضب صلاح ويصف ذلك بأنه « إصرار على الفشل » !

ولكن لماذا كل هذا الرواج الذى عرفته روز اليوسف فى عهده ؟

لم يكن صلاح حريصا على أن يكتب هو .. بل أن بابه " قف " ، لم يكن يصدر فى كل عدد ، كان يكتبه فقط ، حينما يحس أن لديه شيئا يريد أن يقوله ، ولا يهمه أن يطول « الباب » أو يقصر ، المهم أن يكفى للغرض الذى يكتب من أجله ، كان يحب لكل من يكتب ، أن يتوقف عن الكتابة حينما ينتهى المعنى الذى يريد إيصاله للقارىء .. ولا يضع تسويد الصفحات نصب عينيه .

جاءه فيليب جلاب ، وكان يحرر باب خارج الحدود ، وفيليب كان من علماء السياسة الدولية .. جاءه ذات صباح بمجموعة ضخمة من الأوراق المكتوبة يسلمها إليه ، فنظر إليها صـلاح ورازها (أى وزنها) فى يده ، ثم قال متظاهرا بالغضب :

« ما تكتبولنا على قد فلوسنا .. » ما أبدعك يا صلاح فى مداعباتك وسخريتك !

طلبه أحد الأصدقاء فى التليفون ، ودار بينهما الحوار التالى :

● لو لزم صلاح حافظ مكتبا فى روز اليوسف لتحول إلى مقهى أو ندوة دائمة !

- أرسلت إليك مقالا .. هل وصلك ؟

- نعم وصلنى

- هل قرأته ؟

- نعم قرأته

- هل أعجبك ؟

- نعم أعجبنى

- هل ستنشره ؟

- كلا .. لن أنشره !

هكذا كان صلاح حافظ ، وكان صادقا ، ولكن ليس كل مايعجبه يصلح للنشر ! وكان أفضل من يطبق شعار : انظر لما قيل لا لمن قال

جاء شاب حديث التخرج من كلية الاعلام ، وقدم له موضوعا مثيرا ، فنشره فى الصفحات الأولى من روز اليوسف ، نفس المكان الذى كانت تنشر فيه مقالات عبد الرحمن الشرقاوى رئيس مجلس الإدارة ، وملأ بعنوان الموضوع غلاف روز اليوسف .. ثم أصبح هذا الشاب بعد ذلك عبئا على صلاح ، يتصور أنه هو صاحب الفضل فى نجاح روز اليوسف ، ويرى من حقه عليها أن تنشر له كل ما يكتب بنفس الطريقة التى نشر بها موضوعه الأول ! وانتهى الأمر بأن ابتعد عن صلاح وعن روز اليوسف ..

اشتكى لى صلاح من أنه يجد نفسه مطالبا بأن يعيد كتابة كل المادة التى تنشر فى نصف العدد على الأقل ، وأن ذلك يرهقه أشد الارهاق فعرضت عليه أن أعاونه فى ذلك ، وقبل هذا العرض ، ثم راح يسلمنى مواضيع مما تقدم إليه لكى أعدها للنشر .

قبل ذلك لم تكن لى أية خبرة فى التعامل مع ما يكتبه الآخرون ، كانت صلتى بالصحافة مقصورة على ما أكتبه فحسب .

خبرة وحكمة

وعرفت منه كيف يكون تحرير الصحف ، حينما يتولى تحريرها فنان مثل صلاح حافظ حتى كانت روز اليوسف تقرأ من « الجلدة للجلدة » فى عهده .

هل ذكرت إعادة الكتابة وما تعنيه عند صلاح ؟ أول شيء حذرنى منه حينما قدم لى موضوعات لأتولى إعدادها للنشر أن أعيد كتابة الموضوع بقلمى ، إن الذى



يفعل مثل ذلك بما يكتبه ، لا يستحق أن يكون كاتبا أو محررا ، لا يصلح ذلك إلا مع المخبرين الصحفيين فحسب ، ممن يأتى أحدهم بالخبر ولا يحسن صياغته .

إذن كيف تكون إعادة الكتابة على طريقة صلاح حافظ ؟

قدم لى " تحقيقا صحفيا " كتبه أحد ناشئة المحررين ، وقال لى : احذف ، وأنت مغمض العينين ، الثلث الأول من التحقيق .. فالمحرر عادة يتلكأ فى هذا الجزء حتى يصل إلى لب الموضوع الذى يستحق النشر ...

– ابحث عن أكثر جزء يكون جذابا من الموضوع وضعه فى المقدمة ، وليس من الضرورى أن تكتب مقدمة من عندك ، بل يمكنك أن تلجـأ إلى طريقة " القص واللصق " ، بحيث تتصرف فى الموضوع بإعادة ترتيبه حتى يصبح مقروءا ولا بأس من تعديل كلمة هنا ، أو عبارة هناك لهذا الغرض .

– فى الاختصار : عادة يحتوى المقال على ثلاث أو أربع أفكار .. أحذف أضعف فكرة منها ، ويبقى الباقى مقروءا وفى المساحة المحددة .

سلمنى ذات مرة مقـالا كتبه أحد كبار " المشايخ " ممن وصلوا إلى درجة الوزراء ، وكان يتضمن ردا على بعض ما نشر فى روز اليوسف ، وكان طويلا يحتاج إلى الاختصار .. قال لى صلاح :

أحذف منه القدر الذى تطلب المطبعة حذفه ، ولكن احتفظ بكل « الشتائم » التى يوجهها إلينا !

مرة أخرى سلمنى مقالا طويلا كتبه نائب وزير .. وقال لى اختر منه عمودا فحسب يصلح للنشر ، وبعد أن فعلت ، نشره صلاح فى بريد القراء ..! من يومها لم يرسل إلينا هذا النائب ، الذى أصبح بعد ذلك وزيرا ، ثم محافظا شيئا لننشره !

* * *

لا أستطيع إنهاء الحديث عن صلاح حافظ دون الاشارة إلى الأفكار السياسية التى كانت تجمعنا ، وأكتفى فى هذا الباب بنقطتين :

● كان أحد الجامدين المذهبيين يجادله فى

● سيبقى صلاح حافظ مدرسة يانعة الأزهار لأجيال تأتى بعده وبعدنا

مسألة « اشتراكية » عبد الناصر ، وكيف أنها تخالف كل مواصفات الاشتراكية عند الفكر الماركسى .. فقال له صلاح : إذا رأينا زهرة تنبت فى الصخر ، فهل ننكر أنها زهرة ؟

● فى الآونة الأخيرة حيث سقطت النظم الشيوعية فى شرق أوروبا والاتحاد السوفييتى ذاته .. رفض صلاح حافظ أن يسلم بأن ذلك هو نهاية قضية الاشتراكية والعدالة الاجتماعية ، وكان مما كتبه فى أواخر أيامه على صفحات أخبار اليوم ، فى باب « أوراق » أن أمريكا ذاتها فيها اشتراكية ، حيث يحصل العمال على أفضل الأجور ، وحيث لديهم تأمينات اجتماعية وطبية .. الخ ، ولعلى أضيف إلى ذلك أن حوالى ٢٥ مليونا من فقراء أمريكا يحصلون على كوبونات مجانية للطعام ، وأن المسألة الاقتصادية والمحافظة على مستوى معيشة الطبقات الوسطى ، ورفع مستوى معيشة الفقراء هى جوهر الصراع حول مقعد الرئاسة فى الانتخابات الأمريكية المقبلة .

هذا فى الوقت الذى يرجف فيه المرجفون بأن الاشتراكية ، قد هزمت على المستوى العالمى ، والواقع أن الذى هزم هو الاستبداد فحسب ، حتى ولو تلبس بصورة العدالة الاجتماعية ..

ظهرت بعض عيوب الاشتراكية التى طبقت بطريقة استبدادية .. وأعيدت بعض الأساليب الرأسمالية إلى البلدان الاشتركية ، أو التى كانت كذلك ، ولكن ليس معنى ذلك أن قضية العدل الاجتماعى قد سقطت إلى الأبد ، أو أن الرأسمالية سوف يكون من حقها أن تفرض على الناس البطالة والجوع والتشرد بشكل مطلق ، كما كانت فى أول عهدها ، قبل الاشتراكية .. الهزيمة الظاهرة للاشتراكية تتداخل مع انتصار جوهرها من خلال الربط ما بين الحرية السياسية وحق الجماهير فى الحياة الكريمة .

تداخل الهزيمة مع النصر ، هو من طبيعة الأشياء ، كما تتداخل الحياة مع الموت وكان الحديث عن صلاح حافظ ، الذى انتزعه الموت من بيننا ، ولكنه سوف يبقى فى وجداننا ، فالفن الرفيع الذى انطوت عليه كتاباته وكل عمله الصحفى لن يموت ، بل سيبقى مدرسة يانعة الأزهار لأجيال تأتى بعده وبعدنا ..

وداعا يا صلاح .. يا صاحب انتصار الحياة !

الأديان

واحترام حرية التعبير!

وجيــــه دراز

فى كلمته عن « حرية الرأى واحترام الأديان » تجاوز الأستاذ الدكتور أحمد كمال أبو المجد عن موضوع مصادرة كتاب « مسافة فى عقل رجل » والحكم الصادر بالسجن على مؤلفه وناشره ؛ بل ومصادرة مجمع البحوث الإسلامية لعدد من الكتب فى معرض الكتاب كما جاء فى دعوتكم لسيادته لفتح باب المناقشة فى الموضوع . نحى ذلك كله جانبا بكلمة استخفت بالقضية ومن حكم عليه بالحبس فيها ؛ ولم يقدم لنا سيادته « تكييفه » لحل النزاع !

فإذا كانت القضية « قذف وسب » فليقل ذلك صراحة بدلا من تلميح يجرّم المحكوم عليه دون أن يلزم القائل ! وهل كان ذلك هو نفس « تكييف » الكتب المصادرة فى معرض الكتاب (بصرف النظر عن الرجـوع عنـه) ؟ وقد اخـتـار د.أبو المجد بدلا من ذلك أن يناقش قضـية « حرية الرأى » مناقشة هامة دافع فيها دفاعاً طويلا عن حرية التعبير : وضرورة إفساح المجال لها ، وحمايتها حماية خاصة منعاً من الزلل وهداية للرشد وأبان ما خصتها بها المحكمة العليا الأمريكية من افتراض أن أى قيد تشريعى عليها يخالف الدستور إلى أن يثبت العكس خلافاً للأصل

حرية الـرأى .. واحترام الأديان

بقلم : د . أحمد كمال أبو المجد



د . أحمد كمال أبو المجد

من افتراض مطابقة أى قانون للدستور إلى أن تثبت المخالفة . ونبّه سيادته إلى أن أى قيد محدود فى البداية يتجه إلى التصاعد مع خطورة الآثار السلبية الناتجة عن التوسع فى فرض القيود على حرية التعبير .

واستطرد سيادته إلى بعض صور التعبير التى سلم بأن الدساتير لا تحميها : وضرب مثلا « الفحش » Obsenity أو الإثارة الجنسيـــة Pornogrophy التى أخرجها عن نطاق حرية الرأى ، ووثّق سيادته ذلك – مرّة أخرى – استناداً إلى أحكام المحكمة العليا الأمريكية .

من هذه المقدمات يقفز بنا د . أبو المجد قفزة خطيرة : إذ يرفع الحماية الدستورية عن « استخدام عبارات وعرض أفكار معينة فى مواجهة جمهور رافض لها تماما ، ومستثار بسبب عرضها على نحو يهدد باختلال الأمن » ! ! ! أين هذا التوسع والمنطق البوليسى – الذى لم يقدم د . أبو المجد هذه المرة أى توثيق له – من تحذير د . أبو المجد نفسه لنا من تصعيد الحجر على حرية الرأى استناداً إلى أى قيد يفرض عليها ؟؟ ومع تسليمى بأنى لست من رجال القانون ، إلا أنى سأكون فى غاية الدهشة إذا قدّم د . أبو المجد توثيقاً لما ذهب إليه من المذاهب القانونية الليبرالية الديمقراطية التى استند إليها سيادته فى توثيق مقدماته !!

دائـــرة
الحـــوار

الإخلال بالأمن

بل كيف تتطور المجتمعات إذا منعنا عرض أفكار معارضة أمام الجمهور الرافض تماما لها ؟؟ ألم يعرض الإسلام فى مواجهة « جمهور رافض تماماً » ؟ بل وقد أدت الدعوة للإسلام « إلى الإخلال بالأمن » فى المجتمع الجاهلى . هل يعنى د . أبو المجد أنه كان من الواجب ألا يعرض الإسلام على جمهور رافض ؟؟ ألم يكن الجمهور رافضاً تماما لادعاء جاليليو أن الأرض تدور حول الشمس وكان يؤمن بالعكس ؟ هل يقر د . أبو المجد تهديد الكنيسة لجاليليو وإرغامه على إنكار علمه والارتداد إلى رأى الجمهور ؟ إن رفض الجمهور لأية أفكار لا يستوجب منعها ، بل الواجب حماية المنادى بها ، ودعوة الجمهور للتسامح إزاءها ومناقشتها مناقشة موضوعية للتثبت من خطئها أو صحتها . إنى لا أشك فى أن د . أبو المجد يقصد إلى شئ من ذلك ، غير أن تلك هى النتيجة المنطقية لإطلاقه إباحة تقييد « أفكار فى مواجهة جمهور رافض لها تماما » دون تحفظ . إذ أنه يعطى بذلك رخصة مفتوحة للمتزمتين الذين يقفون فى وجه التطور .

وهنا تعن ملاحظة - وأكرر ، أنها ملاحظة شخص من العامة وليس من دارسى القانون - يحسن إثباتها قبل الاسترسال فى الرّد . يشير د . أبو المجد إلى « ما عرف فى الفقه الدستورى باسم مخاطبة الجمهور الرافض hostile oudi-ence . ويخيل إلىّ أن الترجمة الأنسب لـ hostile oudience هى الجمهور المعادى . إذ أن الجمهور الرافض ترجمة لـ reqecting audience ؛ واعتقد أن فارقاً بين الإثنين . هل نحمى الجمهور المعادى من المتحدث ؟ أم المتحدث من الجمهور المعادى ؟

وإذا استأنفنا قراءة د . أبو المجد بعد هذه الملاحظة العارضة نجد أنفسنا فى حيرة ! فبينما نجده فى فقرة يستبيح فرض القيد على مجرد « عرض أفكار معينة فى مواجهة جمهور رافض لها تماماً » ، دون أى تحفظ ؛ نجده فى فقرة أخرى يفرق « بين حرية النقد وحق مخالفة الأفكار السائدة ، وبين صور من التعبير تتجه مباشرة إلى خدش الحياء العام أو إلى تجريح المعتقدات الدينية السائدة تجريحا لا تقتضيه الضرورات الأدبية والفنية ، ولا تكون له أية قيمة اجتماعية هادفة » . (التشديد من عندى) أين التزيد فى استباحة تقييد حرية الرأى فى الفقرة

الأولى من تضييق مساحة التقييد فى الثانية إلى درجة التحفظ فى إطلاق القيد حتى فى الحالات الجارحة ؟؟

مناقشة التفاصيل

ولكن مناقشة مثل هذه العموميات لا تساعد على رسم الحدود بين حرية التعبير المباحة التي يحميها الدستور ، وما يرى د . أبو المجد إلا حماية له . فإن مثل هذه العموميات لما يصعب الاختلاف عليه . ولكن المحك هو فى مناقشة تفاصيل حالات معينة . ولا شك فى أن أهلية د . أبو المجد لذلك هى التى دفعت الهلال إلى دعوته لافتتاح المناقشة . ولسنا فى حاجة لاختلاق حالات افتراضية تجرى حولها المناقشة ، ففى تاريخنا وذاكرتنا القريبة حالات فعلية وقعت فيها مصادرة الكتب باسم الإسلام والفضيلة :

- الإسلام وأصول الحكم : للشيخ على عبد الرازق .
- مقدمة فى فقه اللغة العربية : للدكتور لويس عوض .
- أولاد حارتنا : للأستاذ نجيب محفوظ .
- الإسلام السياسى (وكتب أخرى) : للأستاذ المستشار سعيد عشماوى .
- مسافة فى عقل رجل : للأستاذ علاء حامد .
- الفتوحات المكية : لابن عربى .
- ألف ليلة وليلة .

إن مناقشة هذه الحالات على اختلاف طبائعها وأسباب منعها ومصادرتها ، وما جرى فى بعضها من الرجوع عن المصادرة ، لكفيل بأن يوضح للرأى العام عامة والمثقفين خاصة أوجه الإباحة والمنع بما يمكنهم من الاشتراك الموضوعى فى المناقشة والإسهام فى تحديد حدود المنع عسى أن تجد سبيلها إلى التشريع آخذين فى الاعتبار احتمالات التوسع فى التقييد عند التطبيق كما أشار إلى ذلك د . أبو المجد .

وكما تقول الهلال - وبحق - فإن د . أبو المجد لعلمه بالشريعة والقانون الدستورى وبدوره كمفكر إسلامى أحق بأن نسمع له فى هذه القضية . ولكن لنسمع الرأى فى الحدود والملابسات . لماذا وكيف . ولا نكتفى بمسلمات لا خلاف عليها نقف عندها دون توضيح لحكم أو دفاع عن ظلم ، وليس بكاف أن يحكم بالعدل ، بل يجب أن يرى الناس أن الحكم كان بالعدل ، وإلا مثل ذلك - كما يقول د . أبو المجد « نكسة خطيرة ينفتح بها باب إرهاب الباحثين والمفكرين والأدباء والنقاد ، وتفرض بمقتضاها وصاية على عقول الناس وضمائرهم يمسك زمامها أفراد معدودون من رجال الدين والعاملين فى المؤسسات الدينية الرسمية » .

حدود حرية التعبير

تعقيب على تعقيب

بقلم : د . كمال أبو المجد

تأكدت بعد قراءة تعقيب المهندس وجيه دراز على كلمتى التى نشرت فى العدد الماضى من الهلال بعنوان " حرية الرأى واحترام الأديان » مع أننى والمهندس دراز نقف من هذه القضية فى خندق واحد وهو خندق الحرص على هذه الحرية وتوفير الضمانات لممارستها ، والحساسية الشديدة نحو أى قيد يفرض عليها ويقيم « وصاية » على عقول الناس وضمائرهم .

كما تأكدت من صحة ما أشرت إليه من أن المشكلة الحقيقية فى حماية حرية التعبير إنما تكمن فى صعوبة وضع المعايير التى يعتمد عليها فى التمييز بين صور التعبير التى يحميها الدستور والنظام القانونى وبين صور قليلة من صورها لا تستحق أن تتمتع بهذه الحماية . غير أن المهندس وجيه دراز قد أفزعه وأقلقه فيما كتبت أمران :

أولهما : ما أشرت إليه من حق المجتمع، فى أحوال معينة من رفع الحماية الدستورية عن استخدام عبارات وعرض أفكار معينة فى مواجهة جمهور رافض لها تماما ، وهو يصف هذا التوسع بأنه « منطق بوليسى » يعطى رخصة مفتوحة للمتزمتين الذين يقفون فى وجه التطور .

ويلاحظ - فوق ذلك - أننى لم أقدم

توثيقا له .

الأمر الثانى : أنه لا يرى فائدة كبيرة من مناقشة مثل هذه العموميات التى اشتمل عليها المقال ، إذ أن فى تاريخنا وذاكرتنا القريبة حالات فعلية وقعت فيها مصادرة الكتب باسم الإسلام والفضيلة كما يرى أننى قد تجاوزت فى كلمتى موضوع مصادرة كتاب « مسافة فى عقل رجل » والحكم الصادر بالسجن على مؤلفه وناشره كما تجاوزت مصادرة مجمع البحوث الإسلامية لعدد من الكتب فى معرض الكتاب » .

١ - فأما موضوع الجمهور الرافض أو المعترض أو « المعادى » كما يؤثر المهندس دراز أن يسميه ، فلا أريد أن أطيل الحديث فيه ، لأنه يمثل حالة استثنائية تتعلق بالإخلال بالأمن Brech of the Pasce أكثر من اتصالها بحدود حرية التعبير ، إذ أن ما قد يمنع فى إطار ظروف محلية وظرف خاص يمكن أن يباح تماماً إذا تجردت الملابسات من الاحتمال الراجح بوقوع إخلال بالأمن .. وأما توثيق هذا المثال فلم يكن يعنينى لأننى لم أشأ أن أحمل هذا المثال الاستثنائى فوق ما يحتمل أو أن أصرف القراء به عن جوهر البحث ، وهو الجوهر المتعلق بحدود حرية التعبير فى غير حالات الإخلال المباشر بالأمن والنظام .. ومع ذلك فإننى أحيل المهندس دراز إلى أحكام المحكمة العليا الأمريكية التى قررت هذا المبدأ وأهمها الحكم الصادر عام ١٩٥١ فى قضية فينز ضد نيويورك Feinsr V.N.Y. ، وفى هذا الحكم كتب القاضى فرانكفورتر وهو أحد الحريصين على حماية حرية التعبير رأيا مستقلا قال فيه : حينما يكون السلوك واختلاف نطاق التعبير المسموح به عن الرأى فإن رجال البوليس يكونون حراسا لأمن المتحدث وأمن السامعين على السواء . على أن سلطة المحافظة الفعالة على النظام لا يمكن تنحيتها بإعطاء المتحدث حصانة مطلقة ، (أنظر كذلك حكم المحكمة العليا فى قضية Kunz V. New York حيث سحبت الإدارة ترخيصا ممنوحا للمدعى Kunz بعقد اجتماعات دينية فى شوارع نيويورك لأنه تعرض بالإهانة لجماعات دينية أخرى كاليهود والكاثوليك) .

حدود حرية التعبير

٢ - وأما أننى لم أتعرض لتفاصيل وملابسات مصادرة كتاب « مسافة فى عقل رجل » وكتب أخرى كانت معروضة فى معرض الكتاب فلأننى لم أطلع على نص الحكم الصادر فى قضية الكتاب الأول وإنما قرأت الكتاب كما عرفت النصوص القانونية التى استند إليها الحكم وهى نصوص معروفة فى قانون العقوبات . فاكتفيت بالتعقيب عليها لأنها تعالج بعض حالات استخدام « التعبير » استخداما يقصد به صاحبه إثارة الفتنة أو تحقير أو ازدراء أحد الأديان السماوية .. وكان كل ما قررته أن العقاب على مثل هذا الاستخدام لا ينطوى على إهدار للضمان الدستورى المقرر لحرية التعبير .. أما أن يكون كتاب بعينه داخلا فى نطاق الحظر التشريعى الذى تضمنه نصوص العقوبات فتلك مسألة « وقائع » تتحقق منها المحاكم فى كل حالة على حدة ..

وأما الكتب الأخرى التى جرت مصادرتها من معرض الكتاب كما يقول المهندس دراز فليس فى علمى أن منها ما ينطوى على الجريمة التى عالجها ففى المادة ٩٨ من قانون العقوبات » ولذلك لا أتردد فى الدفاع عن حق أصحابها فى عرض أفكارهم وآرائهم ، مؤمنا بأن الوسيلة الدستورية السليمة فى التعامل معها لابد أن تتم فى إطار حرية التعبير ذاتها عن طريق مناقشة العلماء والباحثين وأصحاب الرأى لما جاء فيها » ..

ولا أزال مع ذلك فى النهاية مؤمنا بأن صور التعبير عن الرأى التى تتجاوز عرض الرأى والموقف لتدخل فى باب القذف والسب فى حق الأشخاص ، أو التحقير والازدراء فى حق العقائد التى تدين بها الأمة .. مثل هذه الصور لا تتمتع بالحماية الدستورية لأنها « كما قلت » تقتحم على الناس - بالعدوان - دائرة المشاعر الدينية والقيم الاعتقادية المستقرة دون أن تضطر أصحابها إلى ذلك ضرورات خدمة هدف سياسى أو اجتماعى له حد أدنى من القيمة الاجتماعية » . ومع التسليم بأن هذا المعيار سيبقى دائما معيارا مرنا وتقريبيا ، فإن الضمان النهائى الممكن سوف يتمثل دائما فى قيام القضاء الطبيعى المستقل بتطبيق هذه المعايير بعيداً - بحكم حياده واستقلاله وتحصنه . عن كل صور الخضوع للإرهاب والابتزاز ، ومدخـلا فى اعتباره مجموعة القيم الأساسية السائدة التى تمثل « النظام العام والآداب فى الجماعة » - وهى قيم لا يخلو منها نظام سياسى واجتماعى .. ولا يمكن أن تعتبر المحافظة عليها قيدا ثقيلا على الحرية يصادر انطلاق الفكر الحر أو يهدد الإبداع الذى ينمو ويزدهر فى ظلال الحرية ..

دائرة الحوار

العصر القادم والثقافة العربية

محمد الفارس

لقد وقعت الحركة التجديدية بعد عام ١٩٤٨ – فى أغلب الأحوال – تحت سيطرة النظم العربية بشكل أو بآخر، وكانت هذه النظم تشجع أصحاب التجديد وتنشر لهم وتمنحهم المناصب ؛ من أجل تجميل وجه السلطة !! .. ورغم نجاح هذه الحركة ؛ فإنها انتكست فى بعض الأحوال وفى بعض البلدان لأسباب سنتعرض لها . ولكن حركة التجديد فى هذه المرة (بعد عام ١٩٩٠) ؛ سوف تتعلم من التجربة السابقة ومن المتغيرات العالمية ، فلا تقع فى أسر نظام ما أو سلطة ما – وسوف تقود الإنسان العربى المعاصر ؛ إلى عالم الغد .. على أقلام الشعراء والكتاب والنقاد ، وعلى أقلام المفكرين أولا وأخيرا .. كيف ؟ . بإنشاء هيئة مستقلة للمثقفين .. لا تخاصم الأنظمة أو تمالئها .. ليست من أجل السياسة ، وإنما من أجل الثقافة والفكر .. كيف ؟!! . فلندخل معا فى استقراء موجز ؛ لمسيرتنا الثقافية بأهم معالمها ؛ بقدر ما يسمح به المجال .

أزمة العقل العربى

عانت الثقافة العربية من :

١ – اجترار النقاش والجدل ؛ حول قضايا مستهلكة ، حسمت منذ القرنين الثالث والرابع الهجريين ؛ مثل القدرية والجبرية ومشكلات المعتزلة مع الأشعرية وغيرهم .

٢– مناصرة – نفر آخر – الأفكار الغربية، وقد أتهم هذا النفر ، من الفريق الأول بالتبعية .

٣ – فريق ثالث .. أراد أن يجمع بين

مثلما حدث بعد ١٩٤٨ ... حركة تجديدية فى الفكر والفن ؛ لتجاوز المأزق التاريخى وقتذاك - سوف تحدث حركة تجديدية أخرى ، بعد مأزق العقل العربى فى عام ١٩٩٢ ؛ فالأرض ممهدة لظهور نظرية فى النقد وفى الفن لعالمنا العربى المعاصر ؛ ونحن على عتبات القرن القادم .

الستينيين ؛ فنادى بالمزج بين الأصالة والمعاصرة - والنتيجة تخبط القارىء العربى بين منظرى الاتجاهات الثلاثة .

دور الريادة

إن المراقب لتاريخنا الثقافى الحديث والمعاصر ؛ يرى نموا مطردا بين الثقافة والسلطة سواء إلى أعلى أو إلى أسفل ؛ مع أن دور الثقافة دور الريادة لا الإنسياق - ولكن فى عصور التخلف تكون الثقافة هامشية ؛ فتكثر دعاوى باطلة متعددة !! .. مثل الدعوة إلى الفصل بين الدين والدولة ؛ باعتبار اللهجة العامية يجب أن تكون ، اللغة الأدبية المعبرة عن الشعب .. بينما اللغة الفصحى ليست - فى زعمهم - سوى لغة رسمية سلطوية ، وغير معبرة عن آمال الجماهير ؛ هذه الدعوة - بالطبع - باطلة

.. إذ أنها كانت صحيحة فى حالة أوربا إبان العصور الوسطى ، حيث أقرت الكنيسة بالحق الإلهى الملوك . ولكن فى بلادنا العربية ليس ما يستدعى المناداة بهذا الفصل ؛ إذ أنهما ليس شيئا واحدا .. حتى فى النظم العسكرية فهى لا تستمد سلطتها من الدين ، إلى جانب أن (اللغة) العربية هى لغة العرب بقدر ما هى لغة القرآن ، أو العكس .

كذلك .. مثل الدعوة إلى لجوء الفصحى ، إلى استعارة لغة (التصوف) سواء من ناحية اللفظ أو التركيب اللغوى .. فإذا كان هذ اللجوء ، من مدرسة أو جيل ؛ فهى دعوة إلى الهروب والتقوقع داخل النفس !! .. وليس مواجهة الحياة بالفكر والفن - أما إذا كانت الصوفية (قناع فنى) لنفر من الأدباء ، وليس سمة لعصر ، فهى فى هذه الحالة مسألة نقدية ، تقبل

الجدل من خلال مفهوم الاغتراب ، وتيار الوجودية كتيار فلسفى .. ومدى العلاقة بين كل منهما وواقعنا الثقافى والفكرى ، وبمنظور عربى ، لا يرفض .. بالقطع النهائى ، وبدون تمحيص - لمجرد أنه غربى .

الرؤية العربية

إن الرؤية العربية يجب أن تمتزج بالجديد والتجديد ، وتكون أشبه بالنحلة تمتص رحيق الزهرة ، لتخرجه شيئا آخر تماما هو العسل .

وهذه الرؤية العربية لها ملامحها الخاصة ، المنبثقة من التراث الدينى ، والتراث الميثولوجى ، إلى جانب أن العربى القديم .. كان الكون فى نظره مجرد صحراء دون نهاية ، وسماء تعلوها - وكذلك فإن هذه الرؤية العربية تنظر للكون نظرة شمولية ، وانطلاقا من هذا المفهوم يمكن إعادة النظر فى (تهويمات الحداثية) ، و(منهج البنيوية) .

إن الحداثيين يتحدثون داخل شرنقاتهم ، مغتربين عن مجتمعاتهم ، دون الولوج إلى مشاكل العالم ، مؤثرين - بذلك - السلامة .. وتجىء قصائدهم صعبة الفهم ، إن لم تكن مستحيله على القارىء ، فضلا عن الأديب والناقد .. بينما يظهر فى النقد تيار هجر الأوروبيون ، هو تيار (البنيوية) بمربعاته ودوائره ، واهتمامه بعدد الأسماء والحروف والأفعال ، لمحاولة فهم النص وتفسيره من خلال البناء .

ولأن أهم ملامح الرؤية العربية التعامل مع الواقع وليس الهروب منه ، فتجىء ضرورة خروج المثقف والفنان ، للالتحام بالقارىء العادى (ليس بمعنى النزول إلى مرحلة الدونية من الكتابة ، ولكن بمعنى الفن الواضح ، والفكر الواضح ، وعدم المباشرة) ؛ فيكون الفن شكلا ومضمونا أشبه - على حد تعبير الناقد الإيطالى وأحد أهم علماء الجمال فى العالم .. بندتو كروتشه .. - بسكر مذاب فى كوب ماء ؛ فيتكون لدينا عنصر ثالث .. ليس الماء وليس السكر . ومن هذا المنطلق يمكن للفن أن يهتم بقضايا إنسان (منطقتنا العربية) التى هى جزء هام جدا من العالم الثالث ، فى ظل الظروف العالمية المعاصرة ، ويمكن أن يكون كذلك الفكر .

إن كلا من المنظورين (العربى والغربى) .. عينه - دائما - على جغرافية المكان ، لأن كليهما مدرك للأهمية الاستراتيجية لهذا المكان .. والمنظور العربى يحوى ثقافة أصيلة ذات جناحين ؛ أحدهما مستنير والآخر كتب فى عصور قديمة انتهت ظروفها تماما - وليس من مفر من الاعتماد على الجناح الأول ، وتحجيم الجناح الآخر عن طريق الفكر والحوار والحجة .. فقد أثبتت التجـــارب أن مجرد النبـــذ ليس كافيـــا .

دور المثقفين

دور المثقفين - إذن - الاعتماد على الجناح الأول ومحاربة الجناح الآخر؛ لكن مع التواصل بدون حساسية .. مع الثقافات العالمية المختلفة ، مع الحذر الشديد من الوقوع فى عباءة ثقافة ما ؛ تبغى الهيمنة على ثقافتنا لكى تمحو هوية هذه الثقافة التى هى هويتنا . وبهذا المنظور العربى القومى ، يمكننا القضاء على القبلية والعرقية والطائفية ، فى بعض بلداننا العربية دون قهر الحديد والنار ، وبذلك يمكن تجاوز المأزق الحالى من كافة نواحيه .

كذلك فإن استفادة المادية الجدلية من النظام الرأسمالى ، واستفادة الرأسمالى من الاشتراكية ؛ فى عمليات تجديد كل منهما لفلسفته .. يدل على أن المنظور العربى فى الستينات بمصر كان على حق؛ حيث اعتمد - ومازال - المجتمع على ركيزتى القطاع العام والقطاع الخاص - هذا دليل على أن المنظور العربى ؛ كان أبعد نظرا من النظامين فى المعسكرين (الشرقى والغربى) وقتذاك . وعلى هذا فإن المنظور العربى فى ظل سيادة القانون وشرعيته ، لهو - أيضا - طريق للخروج من المأزق الحالى .

العالم الثالث الجديد

وقد حدثت عدة تغيرات فى السنوات الأخيرة .. فى العالم تتمثل فى :

١ - الرأسمالية تجدد نفسها.

٢ - الاشتراكية العلمية تجدد نفسها .

٣ - الوفاق الدولى .

٤ - ظهور فكرة الوحدة الأوربية (بما فيها الاتحاد السوفييتى) .

بينما في عالمنا العربي .. ظل مستمرا تواصل النضال الفكري ؛ أمام سيادة كل من الدوجماطيقية (عدم التمحيص) ، والديموجاجية (التعمية والتضليل) ؛ وأصبح على مفكري وأدباء العالم الثالث ، وخاصة (عالمنا العربي) .. إقامة وخلق رأي عام مستنير ، لمواكبة العالم المعاصر القادم ؛ الذي يفرض بالضرورة أن يكون للعالم الثالث هويته ؛ بالاعتماد على النفس .. وببناء علاقات جديدة مع أوربا (وداخلها الاتحاد السوفييتي الجديد) ، وعلاقات مع أمريكا بما يتناسب مع المصالح المتبادلة .. باتباع الحوار الموضوعي ، والشرعية الدولية - خاصة أن الصورة المستقبلية تتحدد في دول متقدمة ودول متخلفة .. الأولى متقدمة علميا وتكنولوجيا ، والأخرى هي دول العالم الثالث الذي سوف يُصدّر أفراده كعمال أجراء للدول المتقدمة ؛ نظير أن يتعلم هؤلاء الأفراد التكنولوجيا (وبالطبع سوف تكون فتات التكنولوجيا) .

إن هذا الوضع سيكون الشغل الشاغل للعالم الثالث بما فيه المنطقة العربية ، وخاصة أن هذه المنطقة تمثل أهم شرايين هذا العالم الثالث ؛ الذي يجد نفسه أمام تساؤل ملح : هل يظل مواطنو العالم الثالث كعمال أجراء ، يصدرون كسلع بالثمن ؟! . هل سيصبح العالم كله مكونا من طبقتين فقط ؛ إحداهما بروليتاريا ، والأخرى سادة ؟؟! . أم يجب أن تلحق دول العالم الثالث بالركب الحضاري القادم ؟! . وهل سيكون القرن بعد القادم .. عالما من طبقة واحدة هي الأغنياء (أصحاب التكنولوجيا والسبرنيطيقا) ، والطبقة الأخرى عمال اليون .. بعد أن تكون شعوب العالم الثالث قد لحقت بالهنود الحمر ؟؟ ! .

دعوة للنهوض بالثقافة

تأسيسا على ما سبق ؛ فإن المثقفين العرب عليهم المناداة والدعوة و (التنفيذ) لإقامة مؤسسة أو هيئة مستقلة ؛ تجمع كل الكتاب والشعراء والنقاد والمفكرين .. على أن يكون التمويل من الأدباء أنفسهم ، خاصة الذين يستطيعون الإسهام ماليا (والدعوة في الدرجة الأولى لنجيب محفوظ) .. ثم لكل صاحب قلم ؛ يسهم بقدر طاقته - دون النظر إلى هويته الأيدلوجية ، حيث أنها هيئة لا تعادي أي نظام عربي أو تمالئه .. عملها ينحصر في الفكر والفن ، والثقافة عامة - وليس إنشاء محاور

سياسية أو التعاطف مع محاور .. همها الانفتاح على الفكر العالمى المعاصر ، مع التقدير الكامل للتراث المستنير (تراث محلى أو قومى أو عالمى) بموضوعية تامة ، وحيدة علمية بحتة .

ينص دستورها فى افتتاحيته على الاستقلال الكامل ، عن السلطات كافة ، وعلى رفض المعونات وكل أنواع المساعدات (داخلية أو خارجية) حتى تستطيع أن يكون لها ذاتيتها ، دون تبنى وجهات نظر حكومة معينة ضد أخرى ، إذ أن شغلها الشاغل الإنسان العربى ، متفردة عن أى هوى إلا هوى الفكر وحده وحريته ، والرأى وحريته ، والعقيدة وحريتها .. مسئولة مسئولية كاملة عن حماية الكتاب فى حياتهم وبعدها .. من مكوناتها لجنة للدفاع عن الحريات ، وأخرى لحقوق الإنسان (المفكر والفنان) . وتستطيع الهيئة من خلال التمويل الذاتى ، أن تصدر جريدة أو مجلة تنشر آداب وفنون وعلوم هذه الأمة العربية وبالانجليزية ، وتوزع كالأهرام الدولى مثلا .. ويمكنها إصدار البحوث والكتب وترجمتها ونشرها على نطاق واسع .. تقيم المهرجانات والمؤتمرات الفلسفية والفنية بعيدا عن سيطرة الحكومات أو فرض الرعاية .. هيئة تصر على الديموقراطية بين القاعدة والسلطة ، وعلى تعميق هذا المفهوم ؛ انطلاقا للنضال بشكله الحديث ؛ تمشيا مع المتغيرات العالمية .

هيئة مستقلة تؤكد على ضرورة حماية العقل العربى .. وحماية حريته ، ولن يكون للحرية كيان بدون الديموقراطية ؛ التى لن تتحقق إلا عن طريق النضال الذى يقوم على الحوار والموضوعية ، والمنطق المحض .. هيئة تحمى ولا تخاصم أو تمالىء .

وبذلك تكون قد تحققت الاستفادة من المأزق التاريخى ، كما تحقق مثل ذلك - مع اختلاف الظروف التاريخية وغيرها - من نكبة عام ١٩٤٨ ؛ وبذلك .. أيضا .. يمكن للعرب (مثقفين ونقاد) الدخول إلى العصر القادم .

مجلة الهلال

إن هذه الفكرة .. فكرة أنشاء هيئة مستقلة للمثقفين ؛ ياحبذا لو أن مجلة الهلال تبنتها على صفحاتها ؛ ودعت إليها نجيب محفوظ وغيره من المفكرين .. وكذلك كل المثقفين العرب للإسهام .. كل بقدر استطاعته - ومجلة الهلال مجلة عريقة فى تاريخ ثقافتنا العربية .. تستطيع بصفحاتها تبنى هذه الفكرة وإنجاحها .

بين العرب واليهود

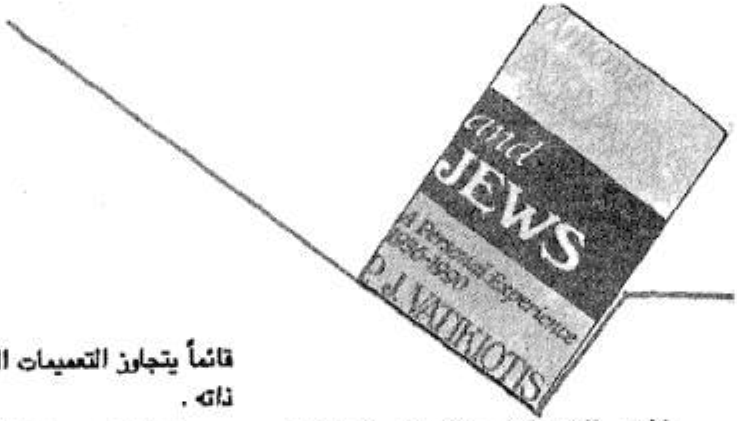
تجربة خاصة ١٩٣٦ - ١٩٩٠

تأليف ج . ب ڤاتيكيوتيس (لندن : وايدنفلد ونيكلسون ، ١٩٩١)

بقلم : د . عبد الوهاب المسيرى

هذا الكتاب سيرة ذاتية يتناول فيه المستشرق الأمريكى (من أصل يونانى) ڤاتيكيوتيس ذكرياته مع العرب واليهود خلال فترة صباه وشبابه فى فلسطين ومصر ، ثم خلال فترة عمله كأستاذ جامعى متخصص فى الشرق الأوسط فى الولايات المتحدة وإنجلترا (من أهم مؤلفاته : الجيش المصرى فى السياسة والصراع فى الشرق الأوسط ، وناصر وجيله ، وتاريخ مصر الحديثة ، والإسلام والدولة ، وغيرها من الدراسات) . ويتمحور الجانب الأكبر من علاقته بالطرفين حول الصراع بين عرب فلسطين والتجمع الصهيونى فيها إبان فترة الانتداب البريطانى على فلسطين ثم الصراع اللاحق بين العرب وإسرائيل .

والكتاب فى تصورى ليس له قيمة أدبية على الإطلاق ، فالاسلوب سردى تقريرى ومباشر ، ولا توجد أى محاولة من جانب الكاتب أن يستخدم الآليات الأدبية المختلفة (المجاز - الرمز - تعديل بنية الجمل - الانتقاء الواعى للألفاظ) التعبير عن رؤيته وأفكاره . ولعل هذا هو السبب أننى وجدت قراءة هذا العمل عملية مملة إلى أقصى حد ، إذ أنه كان يتحول أحياناً إلى مجرد دردشة وقيل وقال (وإن



كانت آلية القيل والقـــال تستخـــدم أحياناً للهجوم المسموم على أعداء المؤلف الشخصيين مثل ادوارد سعيد) .

وإذا كانت هذه السيرة ليست عملاً أدبياً ، فما هي ؟ وكيف يمكن تصنيفها ؟ هل يمكن أن نعتبرها وثيقة اجتماعية كتبها أحد علماء الاجتماع والسياسة يقدم فيها حياته العامة كي يفهمها القراء ويعوا ما فيها ، إذ أن ما يهم في حياة مثل هذا المؤلف ليس أفراحه وأحزانه الخاصة ، وإنما رحلته العامة كعالم وباحث ؟ إن قبلنا بهذا التعريف سنجد أن القيل والقال يقفان في طريقنا ، كما أننا لن نجد نمطاً متكرراً وإنما سيلاً من الكلمات والحواديت .

لكل هذا فسنصنف هذه السيرة على أنها من قبيل ما يسمى بـ « الوصف المكثف » وهي آلية يلجأ إليها بعض علماء الانثربولوجيا الذين يودون أن يتعـاملوا مع مجتمع ما ولكنهم لا يودون أن يصدروا تعميمات عليـه ، فيكتفـون بوصفه وصفـاً كامـلاً (كثيفاً) بحيث تـكون الدراسة هي هذا الوصف ، وحتى إن قام العالم الانثروبولوجي باصدار حكم ما ، يظل الوصف الكثيف الذي قدمه العالم قائماً يتجاوز التعميمات التي أصدرها هو ذاته .

ولد فاتيكيوتيس في القدس عام ١٩٢٨ وكان عضواً في الجالية اليونانية الصغيرة في فلسطين حيث كان جده قد استقر في فلسطين في القرن التاسع عشر . وقد عمل والده ، مثل معظم أفراد الجالية اليونانية في فلسطين ، لدى إدارة الانتداب البريطاني في البلاد . ويقول فاتيكيوتيس، في رده على الانتقادات التي وجهت إليه بخصوص مواقفه وكتاباته حول العرب وحركة المقاومة الفلسطينية ، يقول إنه عاش وترعرع بين العرب ولم ينتم إلى مجتمع حاول السيطرة عليهم أو استغلالهم، ولذلك فهو لا يشعر بحرج أو ذنب عند انتقاده لهم .

ارتباط وثيق بالهوية

ولعل موقعه هذا (يوناني في فلسطين يقف بين « العرب واليهود ») هو النقطة المركزية في وصفه الكثيف ، ولعل النمط التحليلي يكمن هنا في هذه النقطة . يروي لنا فاتيكيوتيس بعض جوانب حياة الجالية اليونانية في فلسطين ، ومن أهمها ارتباطها الوثيق بلغتها وثقافتها اليونانية وبالعقيدة اليونانية الأرثوذكسية والتي



أصبحت فى فلسطين مرتبطة بالهوية اليونانية نفسها (أو هكذا كان يتوهم) ، وكان للكنيسة اليونانية الأرثوذكسية شبكة واسعة من المدارس فى جميع أنحاء البلاد تغرس فى نفوس طلابها الاعتزاز باليونان والعقيدة الأرثوذكسية والشعور بالتفوق على المجتمعات الأخرى فى فلسطين سواء المسلمين أو اليهود أو الإنجليز ، كما كانوا يكنون عداء للمسيحية الكاثوليكية ، وكان محرماً على اليونان التحدث بغير اليونانية فى بيوتهم فى حين كان أبناء أثرياء العرب ، وخاصة من الطوائف المسيحية الذين كانوا يتلقون تعليمهم فى المدارس الأجنبية العديدة فى فلسطين ، يتحدثون الفرنسية أو الإنجليزية فى بيوتهم ، ويقول فاتيكيوتيس إنه فى حين نجحت الإرساليات المسيحية البروتستانتية فى فلسطين فى تحويل بعض أعضاء الطوائف المسيحية الأخرى من العرب إلى البروتستانتية فإن نشاطها لم ينجح بين اليونانيين نظراً للارتباط الوثيق بين الهوية اليونانية والعقيدة الأرثوذكسية ، ويشير فاتيكيوتيس إلى أن كثيراً من العرب المسيحيين اعتنقوا البروتستانتية وانضموا إلى الكنائس الغربية لأن ذلك كان يحقق لهم حراكاً اجتماعياً واقتصادياً مما أكسبهم لقب « طائفة الشلن » ، ويشير بالفعل إلى أن العرب البروتستانت كانوا أكثر القطاعات العربية تعليماً وحراكاً وكانوا يرسلون أولادهم إلى المدارس الإنجليزية الخاصة ويسكنون فى أحياء راقية ويعملون فى المهن الحرة مثل الطب والمحاماة والتدريس ، كما كان يعمل عدد كبير منهم موظفين لدى حكومة الانتداب شأنهم فى هذا شأن أبناء الجالية اليونانية ، ويتصور فاتيكيوتيس أن سر عداء ادوارد سعيد له أن أسرة الأخير كانت من ضمن طائفة الشلن هذه ، بينما ظل هو متمسكاً بهويته الأرثوذكسية اليونانية ، ولعل استخدامه هويته اليونانية المتماسكة المستقلة (فى مقابل هوية ادوارد سعيد) يؤكد لنا أننا فى اختيارنا لهذه النقطة باعتبارها النمط التحليلى والتفسيرى الأكثر صلاحية وملاءمة لم يجانبنا الصواب كثيراً .

ويتناول فاتيكيوتيس موقفه وموقف الجالية اليونانية فى فلسطين ثم فى مصر التى انتقل للدراسة بها فى الجامعة الأمريكية عام ١٩٤٤ ، مع اشتداد واحتدام الصراع حول فلسطين ، فبرغم علاقات أو روابط الصداقة بل وأحياناً المصاهرة مع العرب الأرثوذكس لم يتبن أعضاء الجالية اليونانية موقفاً مؤيداً للعرب لأن ذلك كان سيعنى تهديد علاقاتهم بالسلطات البريطانية والتى كانت تمثل مصدر معيشتهم فى فلسطين ، وبالفعل مع رحيل البريطانيين عن فلسطين رحلت معهم الجالية اليونانية حيث اتجه بعض أفرادها للاستقرار فى اليونان ، والبعض الآخر-

وخاصة الشباب ، للدول الاستيطانية فى الأمريكتين وأستراليا وجنوب أفريقيا ، وقد اتجه هو إلى مصر مؤقتاً للدراسة فى وقت تصاعدت فيه الحركة الوطنية المصرية والقوى السياسية العديدة المناهضة للوجود البريطانى بالمنطقة ، ولا يذكر من قريب أو بعيد اشتراكه فى الحركة الوطنية المصرية أو تعاطفه معها (وهذا كله له دلالة كما سنبين فيما بعد) . ويعطينا عدداً لا بأس به من التفاصيل عن حياة الطلبة اليونانيين واليهود والفلسطينيين فى الجامعة الأمريكية فى القاهرة .

أى سيرة حياة هذه ؟ هل يمكن أن تكون حياة إنسان تفاصيل تتراكم فوق تفاصيل ؟ أم أن هناك نمطاً قد أفلت من يد صاحب السيرة ذاته ؟ كما أسلفنا قد يكون المفتاح فى الهوية ، والهوية هنا ليست هوية « يونانى فى فلسطين يقف بين العرب واليهود » كما يدعى فاتيكيوتيس لأنه لو كان يونانياً فعلاً لاتجه لليونان (وطنه الأصلى) للدراسة أو الاستقرار ، ولكن لنلاحظ أنه كان فى فلسطين بعد احتلال الانجليز لها وكان أهله جزءاً من جماعة تعمل فى خدمة الانتداب مرتبطة بها تماماً ، بل إن وصولهم فى نهاية القرن التاسع عشر تم فى إطار بدايات الزحف الغربى على المنطقة ، وترك أعضاء هذه الجماعة فلسطين مع حكومة الانتداب واتجه هو شخصياً بعد ذلك لا إلى اليونان وإنما إلى الولايات المتحدة ليعمل فى معاهد الاستشراق الغربى التى لا تنفصل كثيراً عن التشكيل الاستعمارى الغربى . ودراساته تبين مدى تعاطفه الشديد مع هذا التشكيل ، ولكنه يظل دائماً على هامشه إذ أنه يقوم على خدمته .

ولوصف هذا النمط البشرى طورت مفهوماً جديداً أسميته « الجماعات الوظيفية » استخدمته لتفسير ظاهرة مثل ظاهرة اليهود فى الحضارة الغربية باعتبارهم تجار ومرابين وظاهرة المماليك فى مصر باعتبارهم مرتزقة ، والجماعات الوظيفية (أو المتعاقدين الهامشيين الغرباء) هم جماعة من البشر تستجلبهم المجتمعات الإنسانية (التقليدية) من خارج المجتمع ، أو تجندهم من داخله ، وتوكل لهم بوظائف لا يمكن لأعضاء المجتمع القيام بها إما لأنها مشينة (مثل البغاء) أو متميزة وتتطلب خبرة معينة أو بضرورة ارتياد مناطق نشاط جديدة (الطب أو الاستثمار الصناعى) أو حساسة للغاية (الأمن - الوظائف القريبة من النخبة مثل الوزراء والمستشارين والخصيان) ، وبعض أعضاء الجماعة اليونانية فى مصر كانوا ينتمون للفريق الأول إذ أن كثيراً من البغايا كن يونانيات ، أو للثانى فقد كان منهم مستثمرون صناعيون أدخلوا صناعات جديدة ، ولكنهم لم ينتموا قط إلى الفريق الثالث إذ لا نعرف أنهم اضطلعوا بوظائف أمنية . أما فى فلسطين فيبدو أن حكومة الانتداب قررت تجنيدهم داخل الجهاز الحكومى كموظفين وغيره حتى يمكنها أن تبقيهم بمعزل عن الفريقين المتصارعين



وحتى يمكنها التحكم فى الفريق عن طريق عنصر مستورد يمكن الثقة فيه . ويبدو أن حكومة الانتداب قد نجحت أيضاً فى استقطاب بعض العناصر العربية البروتستانتية وأوكلت لهم نفس الوظيفة . ويبدو أنه لم تفعل ذلك مع العرب من المسيحيين الأرثوذكس أو الكاثوليك ، وهذا أمر بالغ الدلالة ، فالجماعات التبشيرية لم تكن توجه نشاطها لتنصير المسلمين ، وإنما زاولت نشاطها بالدرجة الأولى بين المسيحيين بهدف اخراجهم من كنيستهم الوطنية المحلية لتضمهم إلى كنيسة غربية مرتبطة بالتشكيل الاستعمارى الغربى ، فالتبشير هنا ليس لنشر الهداية وإنما محاولة لعزل عنصر بشرى محلى وتحويله إلى عنصر موال للاستعمار الغربى .

ويتسم أعضاء الجماعة الوظيفية بما يلى :

١ – الحياد والموضوعية والتعاقدية : فأعضاء الجماعة الوظيفية مجرد أداة فى يد الحاكم والأداة لابد وأن تكون موضوعية ومحايدة لا تتخذ مواقف ، ولا تغضب ولا تفرح وإلا لما أصبحت أداة ، وعلاقتهم بالحاكم ليست علاقة حب أو كره وإنما علاقة تعاقد ، فهو يحتفظ بهم بمقدار نفعهم .

٢ – العزلة والهوية المستقلة : يحتفظ أعضاء الجماعة الوظيفية بهويتهم التى تأخذ شكل عقيدة مختلفة ولغة مختلفة وتوجه ثقافى وحضارى مختلف يعزلها عن محيطها الحضارى (ومن هنا كان يتحدث المماليك الشركسية وهناك كذلك لغة القوانين السرية) ، وهذه العزلة تجعلهم موضع رفض عميق من الجماهير ، وبالتالى ثقة من الحاكم ، إذ أن عزلتهم تسبب عجزهم ، وعجزهم يجعلهم غير قادرين على التمرد عليه أو استخدام ما يتراكم معهم من ثروات أو أسرار ضده .

٣ – الارتباط الوهمى بالوطن الأصلى : نقول « وهمياً » لأن أعضاء الجماعة الوظيفية لا يعودون قط إليه وإنما يستخدمونه كنقطة مرجعية تعزلهم عن الوطن الفعلى الذى يعيشون فيه ، ويعد ركيزة لهويتهم التى تعمق هذه العزلة .

٤ – الحركية : أعضاء الجماعة الوظيفية يتسمون بحركية بالغة لأنهم غير مرتبطين بالمجتمع الذى يعيشون فيه ، وهم لا يعودون إلى وطنهم الأصلى وعلاقتهم بالقوة الحاكمة التى تستخدمهم علاقة نفعية تعاقدية . وهم لا يدينون بالولاء لأحد إلا لجماعتهم الوظيفية والقوة الحاكمة التى ترعاهم .

● حيلة صهيونية ●

وفاتيكيوتيس ، المهاجر اليونانى الأزلى ، والمتعاقد الهامشي الدائم ، ينتمى إلى هذا التشكيل الذى ينكر التاريخ ، ولذا فرؤية فاتيكيوتيس لفلسطين تنكر تاريخها فهو يرى فلسطين لا باعتبارها بلداً يقع داخل التشكيل الحضارى العربى الإسلامى له هوية تاريخية محددة وإنما يراها « منطقة » تضم خليطاً من الأعراق والأديان والقوميات (عرب مسلمين – عرب مسيحيين { كاثوليك – أرثوذكس – بروتســـتانت } – أرمن – إيطاليين – يونان – بهائيين – دروز – يهود) ولا يذكر فاتيكيوتيس أن الأغلبية الساحقة عرب تضم أغلبية عربية مسلمة وأقلية عربية أساساً أرثوذكسية ، وهو يقدم البانوراما الإثنية والدينية على طريقة الكتالوج الذى يتساوى فيه الجميع ، وهى حيلة صهيونية قديمة ساوت بين العرب (٩٧٪) واليهود (٣٪) فى مطلع القرن العشرين وتقرر إعطاء فلسطين لليهود (أى يهود العالم الغربى) ثم تقرر تقسيمها بالعـدل بينهم وبين العرب . ولا يزال الصهاينة يشيرون إلى الشرق الأوسط بأسره باعتباره « المنطقة »

ولكن الشبه بين فاتيكيوتيس والصهاينة يتوقف عند هذه النقطة ، فاليونانيون لم يكونوا مثل الصهاينة لهم مشروع استيطانى مستقل ولم يكونوا يطمحون إلى تأسيس دولة فى فلسطين ، وإنجلترا القوة الاستعمارية التى كانت ترعى الجماعة اليونانية الوظيفية لم تكن تراهم باعتبارهم مادة استيطانية وإنما مادة ادراية وحسب ، لكل هذا ، رغم انكار فاتيكيوتيس لتاريخ فلسطين (العربى المسلم) فإنه لا يطالب بتهجير الفلسطينيين أو إبادتهم (على الطريقة الصهيونية) وإنما يكتفى عضو الجماعة الوظيفية من طائفة الباوند اليونانية أن يطرح الانتداب البريطانى باعتباره أفضل الحلول وأكثرها واقعية لحكم هذه الجماعات المختلفة ، ولذا يهاجم جميع المشاريع القومية المنادية بحق تقرير المصير أو إقامة دولة قومية ذات سيادة ليستمر هو وجماعته اليونانية الوظيفية فى إدارة « المنطقة » لحساب القوة الإمبريالية الراعية ، ومع كلٍ ، هذا هو ما استمر فى انجازه حين عمل مستشرقاً بعد ذلك ، يقدم الدراسات الوظيفية المحايدة التى تنظر للأرض دون تاريخ أو حضارة ، وهى رؤية تمكن داخلها جيوش أوربا الفاتكة . فإذا كـانت الأرض بلا شـعب ولا تاريخ ، فبقية القصة معـروفة ، والملايين التى أبيدت فى الأمـريكتين شاهد على ذلك ، والله أعلم .

الصين
بين الوثنية والاشتراكية

تأليف : كولين ماكراس   عرض وتقديم : د. السيد أمين شلبى

الوطن واحد .. والرؤى متعددة

الصين هذا الكيان الجغرافى والبشرى والتاريخى والحضارى الضخم ، كيف تصوره ورآه الغربيون منذ البدايات الأولى لعلاقة الغرب بالصين ، وما هى المصادر التى صاغت هذه الصورة من رحلات وأسفار وكتب ودوائر معارف وروايات وأدوات ووسائل الرأى العام ، وأهم من هذا كيف تغيرت وتأثرت صورة الصين لدى الغرب بتغير البيئة السياسية والثقافية فى الغرب ودوافعه نحو الصين وبحيث بدت الصين لبعض المذاهب الفكرية كنموذج، وبدت للبعض الآخر كتمدن للحضارة الغربية ، وحيث جاءت الصورة إيجابية حساسة ، متفهمة وإنسانية حين كانت الدوافع هى مجرد اكتشاف الصين .



الصين  في عيون غربيــــــــة

وجاءت سلبية مثيرة للشكوك والمخاوف وتركز على كــل ما هو سلبي مع بروز الإمبريالية في القرن ١٩ وتوجيهها نحو الصين . وإلى أي حد ينطبق على صياغة صورة الصين نظرية المعرفة والقوة والتي تصيغ بمقتضاها القوة المسيطرة دوليا الصورة الحضارية لغيرها من المجتمعات .

هذا ما يناقشه هذا الكتاب المهم الذي كتبــه بوضــوح وموضوعية وتجرد استاذ أسترالي عاش وعمل وحاضر في الصين منذ الستينات .

ماركو بولو والمصادر الأولى

لم يكن ماركو بولو (١٢٥٤ - ١٣٢٤) الأوربي الأول الذي يزور ويعيش في الصين ولكنه كان الأول الذي يعود لبلاده لكي ينقل رؤيته وخبراته وانطباعاته ، وبفضله يمتلك التاريخ الأوربي رؤية تفصيلية عن الصين ومجتمعها تقوم على أكثر من مجرد التخمين ، وتجعل منه بذلك أول من صاغ الصورة الغربية عن الصين .

في عام ١٥٨٣ ، قرر البابا جورجي الثالث عشر وضــع تاريخ شــامل عن الصين ، واختار لهذا القس : خوان دو مندوثا الذي وضع كتابه الذي نشر في روما بالأسبــانية عام ١٨٨٥ تحت عنوان : « تاريخ مملكة الصين العظيمة » حاول فيه وبنجاح كبير جمع كل ما عرف عن الصين في الغرب . ومثل ماركو بولو وغيره من الكتاب الأوائل تأثر بحجم الصين ووصفها أنها أكثر بلدان العالم مساحة وسكانا ، كما كتب عن مدنها بعبارات تمجيدية مركزا على عظمة وفخامة مبانيها وروعة شوارعها والتي كانت ممهدة جداً وعريضة بحيث تسع ١٥ حصاناً يجرونها في وقت واحد ، كما وصــف الصينيين في شوارعهم ومنازلهم بأنهم على قدر رائع من النظافة . وكتب بالتفصيل وبإعجـــاب عن النظــام الحكومي والإداري وقال إن كبار الرسميين كانوا على قـــدر كبير من الفضـــائل الأخــلاقية ، والصـــبر علــى الاستمــاع للشكوى ، كما تحمس لنظام الامتحان الذي يدخل به الفرد الخدمة العامة . ولكنه من ناحية أخرى انتقد بشدة النظام القضائي ولاحــظ العقوبات « الوحشـــية » التي تصدرها المحاكم ووصف بالتفصيل ألوان التعذيب التي تســتخدم لاســتخلاص الاعترافات .

● فولتير كان يرى أن حكومة الصين استبدادية متنورة

وشأن غيره من كتاب عصره ، تأثر متدوتا بنظام العائلة الصينية ، وبفضائل النساء وأمانتهن ، وناقش بالتفصيل نظام ربط أقدام النساء دون نقد .

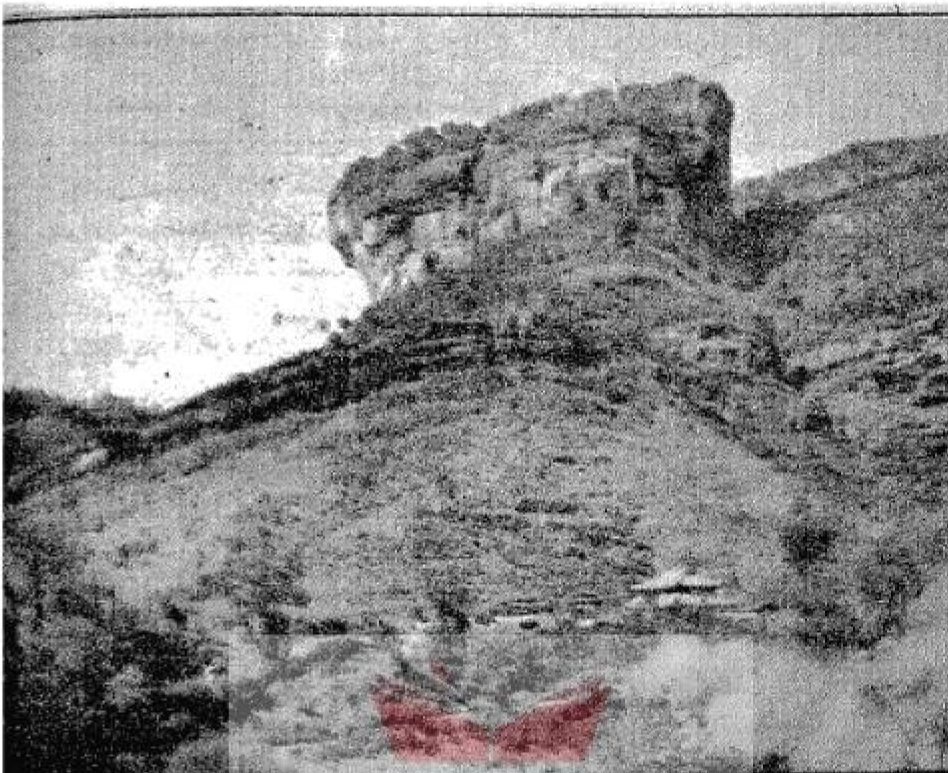
هكذا كان معظم الكتاب والقراء عن الصين فى القرن ١٦ مهتمين بشكل حقيقى بالصين واكتشافها ، ولكنهم كانوا يتخذون منها موقفا إيجابياً موضوعياً غير متحيز ، ورغم أن هدفهم الذى ثبت عقمه كان تحويل الصين إلى المسيحية ، فإن الإمبريالية وأهدافها لم تكن بعد قد وجهت نظراتهم .

الحكام . والدولة المالة السعيدة

أعجب معظم فلاسفة القرنين السابع والثامن عشر بالعقلية ، الكونفوشيسية حيث رأوها تتناقض بشكل قوى مع الصراع الدينى الذى كان يسود أوربا . ففى ألمانيا ، كان ما لفزع ليبنز (١٦٤٦ - ١٧١٦) اللاخلاقية السائدة فى بلده وزمنه ، واعتبر أن الصين « يجب أن ترسل البعثات لكى تدرس لنا هدف استخدام اللاهوت الطبيعى ، بنفس الطريقة التى بعثنا بها بعثات تعلمهم الوحى اللاهوتى » وكان يعتقد أن الصين وأوربا وهما على طرف قارة أراسيا ، هما أعظم مدنيات العالم ، ولذلك فقد شغل معظم حياته بالتبادل الثقافى بين الصين وأوربا .

كذلك كان فولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨) من أكثر مفكرى عصر التنوير الفرنسى نفوذاً واتجاهاً إيجابياً نحو الصين . وقد أثنى على حكومة الصين واعتبرها استبدادية متنورة بل انكر أنها استبدادية على الإطلاق . واعتقد فولتير أن حكم الصين يقوم على القانون والأخلاقيات واحترام الأبناء لآبائهم . وكان من أكثر ما استوقف فولتير ما اعتبره الطابع العلمانى الكونفوشيسية . وأثنى على كونفوشيوس لأنه لم يعتبر نفسه نبياً وإنما قاضياً وحكيماً يعلم القوانين القديمة . وقد أنكر فولتير أن الصينيين ملحدون رغم أنه رأى عقيدتهم مهتمة بالفكر الأول بالعالم الدنيوى لا بتتبع الموت ويبدو أنه اعتبر نظرتهم هذه نقطة فى صالحهم . كذلك عقب فولتير إنبهار البلد المحوظ على كمية الطعام والفاكهة المتاحة للناس ، كما سجل أن الصينيين كانوا يعلمون الطباعة قبل أوربا بوقت طويل .

أما مونتسكيو (١٦٨٩ - ١٧٥٥) فقد كانت نظرته الصين مختلفة وسلبية ، فقد



بالى هنا .. جاء ماركو بولو فى القرن ١٣

رأى أن الصين دولة إستبدادية إلا أنه لم ير فيها شيئاً سيئاً . إلا أنه أعجب كثيراً بتظلم العائلة القوى فى الصين . فالعلاقة بين الحكام والشعب كانت كالعلاقة بين الآباء والأبناء . « فالمشرعون يطلبون من الشعب أن يكون خاشعاً ومسالماً ومجتهداً فى عمله ، وكانوا يرون أنه حين يعمل كل فرد ، ويطيع حكامه فإن الدولة تصبح فى حالة سعيدة » .

بلد .. من زمن الوثنية !!

إذا كانت القرون السابقة قد تبنت وجهات نظر متنوعة عن الصين إلا أنها على الأقل تميزت بالتوازن بين الصورة الإيجابية والسلبية ، أما القرن التاسع عشر من هذا التوازن قد تحول بشكل حاسم بعيداً عن الصورة الإيجابية ونحو



الصين في عيون غربيـــــة



الصورة السلبية . وربما كان ثمة أسباب عديدة لذلك ، ولكن السبب الرئيسي كان هو حضور الإمبريالية الغربية وخاصة البريطانية منذ الثورة الصناعية ، وللمرة الأولى أصبحت بريطانيا من أكثر مصادر صياغة الصور الغربية عن الصين . وقد ظهر هذا التحول بالتحديد في منتصف القرن ١٨ حين عاد البارون جورج أنجون من رحلة طويلة حول العالم عام ١٧٤٤ ونشر مشاهداته عام ١٨٤٨ وتضمنت أوسع هجوم على الصورة الوردية عن الصين التي أشاعها الجيزويت الفرنسيون عن الصين ولأسباب داخلية ليس لها علاقة بالصين إلا بشكل ضئيل ، تحول الرأي العام في كل من فرنسا وبريطانيا بشكل قوي ضد الصين .

وقد كانت بعثة اللورد ماكارتني إلى الصين عام ١٧٩٣ من أهم من عبر عن هذا الاتجاه الجديد نحو الصين ، ففي يومياته لاحظ أن نظام الصين السياسي هدفه إقناع الشعب بأنه يعيش في نظام كامل « وعلى هذا فهو لا يحتاج أن يتعلم شيئاً من الآخرين » ، وقد انتقد ماكارتني هذا بشدة واعتبر أنه أسلوب غير حكيم في الحكم « فالدولة التي لا تتقدم تعود إلى البربرية والبؤس » ، وملاحظته هذه سوف تعكس الاتجاه الذي تبناه الغرب تجاه الصين في القرن ١٩ ، والقائم على إفتراض أن الصين يجب أن تتعلم من الغرب ، وأن التغير مرادف للتقدم ، وأن الصين لا يجب أن تكون بعد ذلك هي النموذج الذي رآه فولتير وآخرون .

وقد واصلت بعثات التبشير البروتستانتية في بداية القرن ١٩ ما بدأته بعثة ماكارتني وكانت هي مقدمات التوغلات البريطانية وغيرها في الصين بل أن المدفعية البريطانية هي التي قدمت لهم المدافع لفتح الطريق إلى الصين ، ورغم هذا فإن هذه البعثات البروتستانتية لم تترك إلا أثراً ضئيلاً من حيث عدد من استطاعت تحويلهم إلى البروتستانتية والذين بلغوا أقل من مائة عام ١٨٤٠ . وتجئ المفارقة هنا من أن هذه البعثات في الوقت الذي لم تترك إلا أثراً ضئيلا في الصين إلا أنها تركت أثراً جوهرياً في الغرب . وقد لعبت دورا كبيرا في تغيير اتجاه أوربا نحو الصين وشعبها ، هذا بالإضافة إلى أن هذا قد توافق مع أن بريطانيا كانت في هذا الوقت تعاني

● حكاية البارون التى أثارت الرأى العام الأوربى ضد الصين فى القرن ١٩

مخاض الروح المحافظة والتى تنسحب جزئياً كرد فعل لنظريات الثورة الفرنسية .

من أبرز المبشرين البروتستانت الذين كتبوا عن الصين ويلز وليامز فى كتاب : « مملكة الوسط » ، فقد نظر هو وغيره من البروتستانت إلى الصين على أنها « بلاد الوثنيين الذين يفتقدون ضوء الله ويجب أن ينقذهم أحد من اللعنة الأبدية » . ورغم أن وليامز اعتبر أن الصين هى أكثر الأمم الوثنية القائمة مدنية فى مؤسساتها وآدابها ، فإنه اعتبرها « مستعبدة وناقصة وتقوم على مبادئ خاطئة ، وقد يكون فيها عناصر الاستقرار ولكن لا تتقدم ، كى لا تلمس فى الناس الشرف أو الأخلاق أو الرحمة ، وباختصار فإن هذه المدنية آسيوية وليست أوربية ، وثنية وليست مسيحية » .

وقد تدعمت هذه الصورة السلبية عن الصين فى القرن ١٩ بفعل الموسوعات الكبرى وخاصة البريطانية والتى جاءت نعتتها عن الصين متعالية تنظر إلى الصين كبلد غريب ومتخلف وبربرى فى بعض الوجوه .

صحفى غربى فى معسكر الشيوعيين

لعبت الكاتبة الأمريكية . بيرل بيكى (١٨٩٢ – ١٩٧٣) دوراً بارزاً فى صياغة الصور الغربية عن الصين فى النصف الأول من القرن العشرين وذلك من خلال روايتها « الأرض الطيبة » بوجه خاص . وقد عبرت بيكى عن وضعها بين عالميها الأمريكى والصينى اللذين عاشت فيهما بقولها « لقد نشأت فى عالم مزدوج ، العالم الأمريكى الأبيض النظيف الذى يمثله والدى ، والعالم الصينى الكبير ، ولم يكن ثمة اتصال بين العالمين ، فحين كنت فى عالم الصين كنت أتصرف ، وأتحدث وآكل كما يفعل الصينيون وأشاركهم فى أفكارهم ومشاعرهم ، أما حين أكون فى العالم الأمريكى فإنى أغلق الباب تماما » .

وقد جاءت الصور التى قدمتها بيرل بيكى عن الصين أكثر إيجابية عن تلك التى سادت خلال انتفاضة البوكسر التى جاءت لكى تعكس مخاوف الغربيين وشكوكهم وهى الصور التى ركزت على القسوة والخيانة والكراهية للأجنبى .

ومما يجب تسجيله عن هذه الفترة ١٩٠٠ – ١٩٤٩ أنها قد شهدت قمة



حين تكون في الصين .. تصرف كما يفعل الصينيون

النشاط التبشيري الغربي في الصين وخاصة من الولايات المتحدة . ويهدف ترش القيم الأمريكية والغربية الخاصة على المثقفين الصينيين . وهكذا انتشرت خدمات مثل المستشفيات ، والمدارس التعليمية . غير أنه من الملاحظ أن الذين عملوا في هذه المجالات قد تأثر كثير منهم بالحضارة الصينية وبحب وحماس طلابهم. وكما عبر أحد المبشرين « أنه جاء إلى الشرق الأقصى يحمل رسالة ولكن في عملية التحول فإن الشرق هو الذي أبلغ رسالته » . وهكذا فإن الكثيرين الذين ذهبوا إلى الصين لتغييرها هم الذين تغيروا .

كذلك لعب عدد من الصحفيين الأمريكيين ذوي الاتجاهات اليسارية دوراً في صياغة صورة الصين في عام ١٩٤٩ . فقد اهتمت أجنس سميدلي (١٨٠٥ - ١٩٥٠) بحياة الفلاحين لدرجة أنها خصصت كتاباً عن تاريخ حياة أحد القادة العسكريين الشيوعيين واعتبرت أنه بروايته لتاريخ حياته يصبح « أول فلاح يتحدث »



أبنـــــاء وبنـــــات من « الأرض الطيبة »

كذلك كتب سنيكى عن الصين شبه الإقطاعية الزراعية . على أنها فاسدة وجاهلة ومتحللة وغير قادرة على تطوير نفسها أو اتخاذ خطوة واحدة يمكن أن تزيد القوة الإنتاجية أو الشرائية الجماهير الصينية . كما اعتقد حتى فى الثلاثينات أن الحزب الشيوعى هو القوة الوحيدة القادرة على تغيير المجتمع . وأيده بقوة وبشكل علنى وتنبأ بانتصاره .

أما الصحفية أنا لويس سترونج فقد جاءت زيارتها الأولى الصين فى نهاية العشرينات وأصدرت عنها كتابا من جزءين : « ملايين الصين » وكتبت حتى قبل إنشاء جمهورية الصين الشعبية رسمياً « أن الصينيين الذين تقرر مصيرهم فى القرن الماضى على يد كل دولة أخرى ، سوف يمتلكون بلدهم وسوف يتقرر مستقبل الصين بواسطة الصينيين » .

كما كان إدجار سنو (١٩٠٥ - ١٩٧٢) أكثر الثلاثة تأثيرا ونفوذا . فقد ذهب إلى الصين عام ١٩٢٨ وحصل عام ١٩٣٦ على فرصة فريدة لزيارة قاعدة

الصين في عيون غربيـــــــة



الثوار العسكرية وقابل ماو تسي تونج الذي حكى له قصة حياته والتي سجلها سنو وربطها بانطباعاته الحية وخبراته في قاعدة الثوار ذلك يشكل الكتاب الكلاسيكي « النجم الأحمر فوق الصين » والذي جاء لا لمجرد حوادث عابرة وإنما حقائق ذات تاريخ دائم ، « وكرسالة عن الصينيين الذين يكرسون أنفسهم وعملهم لتحقيق التكافل الوطني والعدالة الاجتماعية » .

الأرض الطيبة .. وقدر الإنسان

وما دمنا قد تعرضنا للروائية الأمريكية بيرل بيك وروايتها « الأرض الطيبة » كأحد المصادر الروائية في صياغة الصور الغربية عن الصين ، فإن ثمة روائيا آخر يبرز في هذا الحقل وهو المفكر الفرنسي أندريه مالرو (١٩٠١ - ١٩٧٦) وروايتــه « قدر الإنسان » ، ولم تكن هي روايته الوحيـدة عن الصين فقــد نشر أيضـا : « الغزاة » التي نشرت عام ١٩٢٨ وركزت على انتفاضة جوانجهو عام ١٩٢٥ . وبينما كانت بيرل بيك مهتمة بالفلاحين وبالريف فإن خبرة مالرو واهتمامه قد تركزتا على المدن وسكانها ، ومع هذا فإن الصورة التي رسمها مالرو عن الصين في روايته الأولى هي أكثر قسوة من تلك التي قدمتها بيرل بيك .

كذلك من الكتاب الذين تفوقوا على بيرل بيك في وصف الصين الكاتب البريطاني سومرست موم (١٨٧٤ - ١٩٦٥) . ورغم أن أغلب أعمالــه « الآسيوية » تقع في ماليزيا ، وبورنيو ، وسنغافوره ، فإن بعضها يخص الصين مثل : « الحجاب المطبوع » و « شرق السويس » ، وهو بهذا يعتبر من أكثر الشخصيات الأدبية التي صاغت الصور الغربية عن الصين ، وكانت مجمل رسالته التي حملها لقومه في الغرب أن الصين رغم كل ما يبدو من أخطائها في نظرهم ، فإن لديها وجهة نظر تستحق الاهتمام والاستماع ، وأنها بلغت من الواقع لدرجة أنها استحوذت على الغربيين المقيمين فيها وجعلتهم سعداء أن ينظروا إليها كوطنهم .

● سومرست موم من أكثر الشخصيات الأدبية التي تناولت الصين بكل الاهتمام

العالم تغير بعد ١٩٧٢

في إطار نظرية « القوة والمعرفة » ، والتي تتولى بمقتضاها القوة ذات الثقل الدولي في عصرها صياغة الصور الحضارية السائدة عن غيرها من المجتمعات ، ومثلما صاغت فرنسا وفقا لهذه النظرية صورة الصين في القرن ١٨ ، وصاغت بريطانيا هذه الصورة في القرن ١٩ ، فإن صورة الصين في القرن العشرين قد صاغتها إلى حد بعيد الولايات المتحدة الأمريكية بفعل ثقلها ونفوذها الدوليين.

وكذلك قد لا يبدو مدى تأثر صورة الصين لدى الغرب بتأثر البيئة السياسية والثقافية مثلما بدا من الاتجاه الأمريكي نحو الصين بعد ثورتها عام ١٩٤٩ . فبعد الثورة وتولى الشيوعية السلطة فإن نشر ودعم الصورة السلبية عن الصين لم يكن مجرد ضرورة أيديولوجية بل سلاحاً في المنافسة الدولية العريضة بين الغرب والشرق . غير أن الصورة السلبية التي تكونت عن الصين في الولايات المتحدة خلال حقبتي الخمسينات والستينات سوف تتحول إلى صورة إيجابية لا لأن الأوضاع في الصين قد تغيرت وإنما لتغير الاتجاهات السياسية الأمريكية نحوها .

وقد بدا هذا بوضوح على أثر زيارة الرئيس الأسبق نيكسون لبكين في فبراير عام ١٩٧٢ والتي أراد بها أن ينهي حالة العداء والقطيعة التي سادت منذ الخمسينات وفتح بذلك خطا استراتيجيا جديدا وجعله يصف هذه الزيارة بأنها « غيرت العالم » على أثر ذلك زاد الاهتمام في الولايات المتحدة بكل ما هو صيني سواء مادياً أو ثقافياً . وبمقارنة نتائج استطلاعات معهد جالوب التي قام بها للرأي العام الأمريكي في الستينات حول الخصائص الإيجابية والسلبية للشعب الصيني باستطلاعات مماثلة قام بها عام ١٩٧٢ سوف نلمس صعودا ملحوظا في تقرير الخصائص الإيجابية عن الشخصية الصينية مثل العمل ، والأمانة ، والشجاعة، والتدين والذكاء ، وهبوطا ملحوظا أيضا في تقييم الخصائص السلبية مثل الجهل ، والقسوة ، والخيانة .

د. صبرى منصور



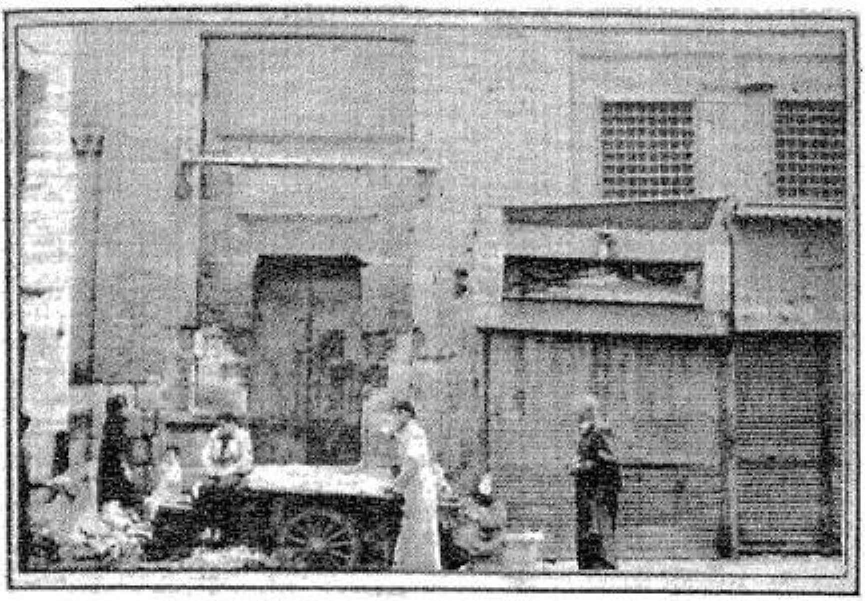
جزء من معبد الإله حورس - إدفو

لا تعتقد أن هناك بلداً فى العالم تزدرى آثارها - مهما كانت متواضعة القيمة أو حديثة العهد - مثلما تفعل فى مصر ، رغم أن آثارنا من جميع العهود والحقب هى الأعظم قيمة فى تاريخ البشرية . إننا بكل أسف لا نقدّر الكنوز التى نملكها ويحسدنا الآخرون على أنها فى أرضنا ، فيقطعون آلاف الأميال ، ليأتوا إليها صاغرين متبطلين ، ليلقوا عليها نظرة متأملة مذهولة بإنجاز ذلك الشعب الذى عاش قديماً فى وادى النيل .. ونحن هنا لا ندرك لتلك الآيات معنى ، ونمرّ عليها مرّ الكرام ، فلا تثير فينا أىّ حافز . بل والأدهى من ذلك أننا لا نصونها كما يجب ، والأمرّ من كل هذا وذاك أننا بأيدينا ندمرها ، ونساعد عوامل الزمن على سرعة اندثارها ، فهل هناك مأساة حضارية تستحق الرثاء أكثر من مأساة الآثار المصرية مع المصريين !

كم يتعجب المرء من كيفية معاملة الإنسان المصرى لآثاره حين ينظر إليها دون تقدير. فلا يلمح فيها جوانب العظمة والإبداع

وقد يبدو الحديث البعض مبالغاً فيه ، ولكن علينا أن نمسح عن عيوننا تلك النظرة التى تعودت على الإهمال ، وتأقلمت مع آثاره ، ولننظر إلى ما فعلنا بآثار مصر نظرة جديدة واعية ، سلعتها ستدرك إلى أىّ حد تمتهن آثار الأجداد على أيدى أحفادهم .

ولقد أصبح مألوفاً ذلك المنظر المفزع لانتهاك الآثار فى القاهرة الإسلامية ولن جولة سريعة بشوارع وأزقة القاهرة الفاطمية لتطلعنا على أثر الإهمال الذى يحيط بالمواقع الأثرية من كل جانب ، فالأهالى قد أقاموا أنشطتهم التجارية المتنوعة حول المبانى والمساجد الأثرية ، واستعملوا حوائطها وواجهاتها ، وأقاموا منشآتهم بتخريب جمالياتها ، بل أن هناك منهم من استغل أحواشها وأسقفها فى تخزين بضاعته ، تلك كانت بصمة الأحفاد على تراث أجدادهم . ولن تستطيع أن تحصى كمية الآثار المنتهكة والمستباحة ،



جامع جمال الدين محمود بالجمالية محلات وترنيط شوزع للفرشي

إذ أنها وبدون أىّ استثناء أصبحت مرتعاً لكافة أنواع التعدى والإساءة ، ففى حىّ الجمالية فقط مسجد جامع الحاكم ، ووكالة الأشرف قايتباى ، ووكالة قوصون ، ووكالة بازرعة وقبة سنقر وقصر المسافر خانة وغيرها من الآثار النادرة التراث الإسلامى الذى يندثر رويداً رويداً ونحن شهود مباركون .

ولا يمكن لأحد أن يتخيل مسجداً يحاط منذ سنوات ببركة من المياه الآسنة (جامع الصالح طلائع ببوابة المتولى) وقد استغلها الجمهور فالقى فيها كافة أنواع القاذورات . ولا ندرى كيف ينام أىّ من المسئولين عن آثارنا قرير العين مرتاح الضمير ، ويهنأ بحياته اليومية ، وينعم الحفلات ، ويتباهى بموقع مسئوليته بينما تلك الحقيقة البشعة ماثلة العيان تفقأ العيون وتعمى القلوب ؟ إنها أكبر دليل على ما يصل إليه حال مسئولينا الذى لا يوجب فقط الإقصاء عن موقع المسئولية وإنما للمحاكمة والإدانة .

المياه الجوفية خطر مدمر

وتلك قنبلة موقوتة لتدمير الآثار الإسلامية ، إذ تشكل أكثر العوامل الضارة خطورة ، وقد ازداد منسوبها خلال السنوات الثلاثين الماضية . مع ازدياد هجرة الأهالى إلى الأماكن الحضرية ، وتوصيل شبكات الصرف الصحى والمياه ، وما يسفر ذلك عن استخدام مسرف

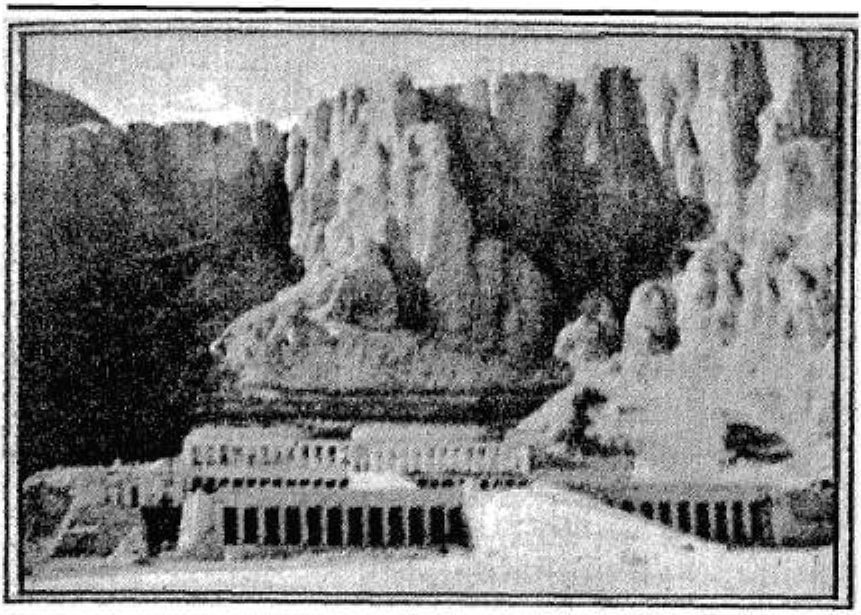
المياه، مع تصريفها على نحو غير سليم مما أدى لتجمع المياه فى الأرض ووصولها إلى مستوى سطح الأرض تقريباً فى أماكن عديدة، بينما كان ذلك المنسوب (قبل عام ١٩٥٠) فى حدود متر ونصف تحت سطح الأرض. لقد وصلت الرطوبة إلى حد لا يمكن إغماله وتركه، فكثيراً ما يبلغ أربعة أوخمسة أمتار فوق سطح الأرض، والمواد المحشية تتفاعل مع المواد الكيميائية فى المبانى - فى الأجزاء التى تعلو جدران الأساس - فتنتج من هذا التفاعل أملاح تضعف قوة مواد البناء وتفيض باستمرار على السطح إلى أن تؤدى فى النهاية إلى انهيار المواد المكونة الحائط.

كل ذلك ولا نرى ولا نسمع عن مشروعات جادة وعاجلة تتصدى للظاهرة بالدراسة ووسائل المعالجة، وتركنا المياه الجوفية تنخر فى آثارنا، متوقعين انهيارها بين لحظة وأخرى.

وأن يمتد حديثنا إلى التعرض لمعالجة العوامل الجانبية التى تشوه آثار مصر الإسلامية، مثل ارتفاعات المبانى الملاصقة للآثار والتى تؤدى إلى حجب الرؤية وتشوه من جمال التتابع الأثرى، وتؤثر على العلاقة الجمالية بين الأثر والمبانى المحيطة به، أو إلى تلك الأنشطة غير الملائمة لطبيعة المناطق الأثرية كورش الحدادة ومخازن البصل ومقالق الخشب ناهيك عن الباعة الجائلين من كل صنف، ومثل ترك الآثار المهدمة وعدم ترميمها، وكذلك انعدام المسطحات الخضراء الملائمة لإبراز الأثر فى محيط جمالى مناسب.

ولم يكفنا ما حاق بالآثار الإسلامية، وإنما امتدت يد الإهمال إلى أغلى كنوزنا الأثرية بصعيد مصر، تلك الآثار التى يفد إليها الزائرون من شتى بقاع الأرض - دون هبوط بالقاهرة - ليملأوا عيونهم بجمالها وقراءتها. فمعابد الأقصر والكرنك ومقابر وادى الملوك ومعابد ادفو وكوم امبو وإيزيس وأبوسمبل هى درة الآثار العالمية وأكثرها شموخاً وأقدمها تاريخاً..

لكننا ماذا فعلنا بها ولها؟ لا شئ سوى أن تركناها تقاوم الزمن دون تبصير أو معين، بل وتقاومنا نحن المصريين... ويتعجب المرء من كيفية معاملة الإنسان المصرى لآثاره، حين ينظر إليها دون تقدير فلا يلمح فيها جوانب العظمة والإبداع، فهى بالنسبة إليه بقايا القدماء أوجداقهم.. وكل ذلك ناتج عن عدم وعى وثقافة وتعليم، فلم تزرع فى جمهورنا تقدير الأثر، ولا أسلوب مشاهدته وتتبع مواطن جماله. ومن أغرب الأمور أن أولادنا وحتى الشهادة الإعدادية، أى لسن الخامسة عشرة لا يدركون حرفاً عن تاريخ بلادهم، بينما يكون أول درس فى التاريخ للطفل الأوربى هو عن حضارة مصر القديمة كأساس لحضارة الإنسانية.. لذلك فإن مصر وآثارها القديمة تشكل ملمحاً رئيسياً من وعى الإنسان المتحضر، وتمثل



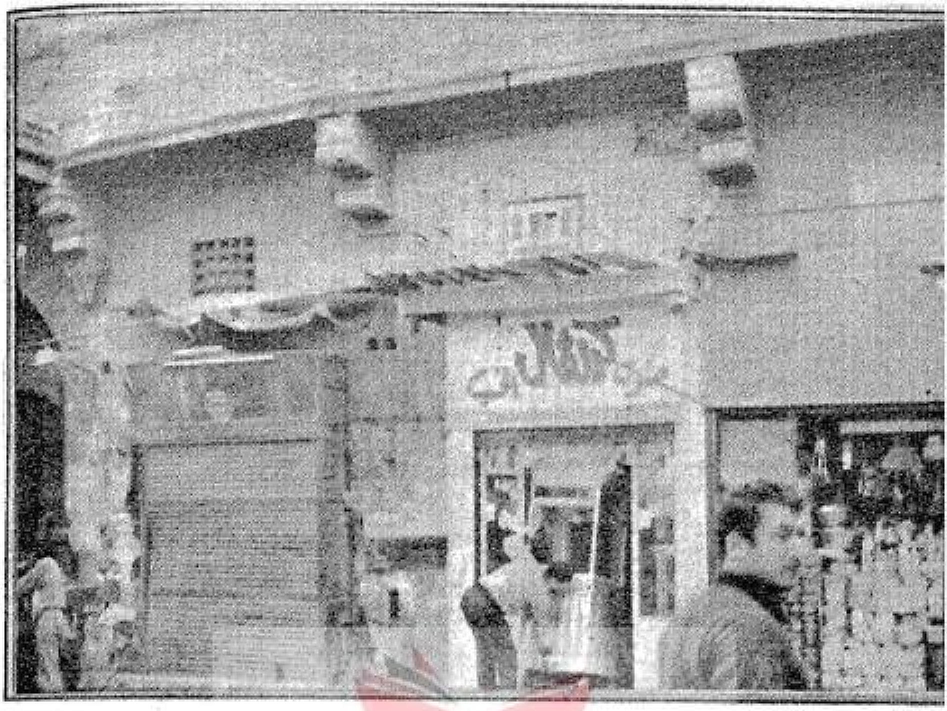
معبد الملكة حتشبسوت بالدير البحري (موقع فريد المعبد في حضن الجبل)

موقعاً ذا أهمية تسوي في مجمل ثقافته ومعرفته .. ويتبدى ذلك في نظرته الجادة ، وإحساسه العميق بجلال الأثر وهيبته ، وتراه في زيارته الموقع الأثري وقد أمسك دليلاً يسترشد به ، فلا يترك صغيرة ولا كبيرة في الأثر إلاّ وعاينها عن قرب ، محاولاً استجلاء أسرارها .. أما نحن فلا يهمنا في رحلاتنا إلا التقاط الصور التذكارية ، فترى مجموعات الرحلات - وحتى من الطلاب الجامعيين - وهم يتصايحون ويتنادون بأعلى الأصوات في جنبات المعبد ، ويتقافزون فوق الأحجار في محاولة لالتقاط صورة غريبة ، ولا تسلم الأحجار من لمس الأيدي ونقش الأسماء التذكارية ، كل ذلك ولا رقيب ولا حسيب ، فالمباني الأثرية متروكة يجول فيها من يشاء وكيفما شاء ..

وفي استعراض الصوت والضوء بمعبدي فيلة والكرنك تجد العجب العجاب ، ففي الظلام ، ومع إضاءة صناعية مسرحية وموسيقى تصويرية يبدأ المذيع في إلقاء جزء من تاريخ المكان بينما تهرول آلاف الأقدام لحجز مكان الجلوس ، محدثة جلبة وضوضاء تطغى على صوت التسجيل ، وفي الظلام الدامس يصبح المكان مرتعاً لكافة أنواع المخالفات ، إذ يستحيل مراقبة الآلاف وما يفعلون في ساحة المكان المتسع .

إن الأمر بات يستوجب إعادة النظر في استعراض الصوت والضوء ، خاصة





وكالة أوداباش – شارع الجمالية (محلات على الواجهات)

وأن التسجيل المذاع نفسه لا يضيف جديداً ، ويمتلئ بالمبالغات الأدبية ، والعبارات الانشائية ، وهو فى نهاية الأمر لا يفيد الأثر .. وإذا كانت هناك بعض الدول تفعل بآثارها نفس الشئ – رغم شكنا فى ذلك – فإن علينا أن نضع مصلحة الأثر والمحافظة عليه فوق أى اعتبار

سرقة الآثـار

إن حجراً من الأحجار الملقاة فى ساحة المبانى الأثرية لجدير بأن يصان من العبث به ، وأن يتم تقديمه لحسن تقديم ، وأن تتم حراسته مهما كلف ذلك من أموال وبشر وخاصة بعد أن تفشت ظاهرة سرقة الآثار . وعلينا أن نكون صارمين فى تلك الرعاية والحراسة . فتلك كنوز لا تعوض ، ولنر ما يفعل الآخرون بفتات آثارنا ، وليذهب المسئولون عن آثارنا ليشاهدوا كيف أحاطوا المعبد المصرى بمدريد ببركة مياه صناعية حتى لا تطوله يد ، وليروا كيف تعرض آثارنا بمتاحف اللوفر والمتروبوليتان وغيرها من متاحف العالم المتحضر .



منزل أثرى بالجمالية
مستعمل كمخزن خشب

أما عن الترميم والمحافظة على رونق الأثر، فتلك مأساة أخـرى، إذ لا يشاهد – وفيما ندر – من يقوم بهذه العملية الدقيقة سوى عمال لا يمتلكون إلا الخبرة البدائية، بينما تدر الآثار على مصر أموالاً بالعملات الحرة تكفل صيانتها وترميمها على أفضل مستوى تقنى، وعلى أيدى أقدر الخبراء المحليين والعالميين. ولم تسلم الأماكن المحيطـة بالمعابد من مظاهـر الفوضى والقذارة، فالباعة الجائلون يمهدون لزيارة الأثر ببيع أى شئ، حتى أعواد القصب وما تخلفه من قاذورات. وتبحث عن مكان لتقتنى منه كتيباً عن الموقع الأثرى أو بطاقة تدل عليه وتذكر به كما يحدث فى المتاحف ومواقع الآثار فى بلاد الدنيا، فلا تجد شيئاً من ذلك، كأن هذه الآثار ليس لها صاحب يدعو لها وينشر عنها ما يشبع غلة الزائرين.

إن وضع الآثار المصرية قد وصل إلى حدٍّ لا يمكن السكوت عليه، ولقد عوملت فى السنوات الأخيرة من جانب المسئولين معاملة مزرية لا تليق بمكانتها ليس لمصر وحدها وإنما لتاريخ البشرية جمعاء. وأصبح الأمر يستدعى الدعوة لإنقاذها من بين أيدى من تولوا أمرها، فمصيرها بين أيديهم إلى اندثار أكيد، كما بات الأمر محتاجاً إلى نقل مسئوليتها إلى جهة قومية مستقلة لا تتبع وزارة الثقافة التى انشغلت بمهرجانات لا طائل من ورائها، ولا هدف لها سوى الدعاية الزائفة، ويكفى أن يقام مهرجان عالمى لما يدعى بالمسرح التجريبى فى بلد يكاد المسرح التقليدى فيه يلفظ أنفاسه، ولو صح ما يقال عن أن جزءاً من دخل الآثار يقتطع لصالح ما أسموه بصندوق التنمية الثقافية الذى ينفق منه على هذه المهرجانات الدعائية لكانت مصيبة وكارثة مخجلة.

وإذا كانت مصر المعاصرة تعانى من مصاعب مادية واقتصادية قد تهدد مستقبلها، وتؤخر من تقدمها ونموها، فإن ماضى مصر فى حاجة إلى التفاتة جادة وخطة عاجلة من أجل إنقاذه، فذلك الماضى – بالإضافة إلى كونه مصدر فخر لنا ومصدر رزق – هو أمانة غالية فى أعناقنا لا يجوز إهمالها ولا التفريط فيها قيد أنملة.

أنقذوا كنوز مصر

المعمــــارية والأثــرية

ترجمة : جودت أحمد الحمد
«الأردن»

ستفقد البشرية كنوز مصر المعمارية الفريدة ما لم يتــم تقديم المســاعدة الفورية لإنقاذها

الآثــار المصرية بما لها من أهمية خاصة تصبح محط أنظار العالم كله ..

ولأننا أهملنا هذه الآثار لفترات طويلة ، بدأ الحديث يعلو عن الأضرار التى لحقت بها .

هذا المقال ترجمه كاتبه عن مجلة « تايم » وأرسله إلينا من الأردن ، إن كان قد سبق نشره منذ فترة إلا أنه يعبر عن حرص القارئ العربي والرأى العام العالمى لما يهدد الآثار المصرية .

ترقدُ الأهرامات بهضبة الجيزة المشوية بحرارة الشمس بضواحي القاهرة بلا حراك ، تنظر من عل بعد وكأنها لم تهرم فى أربعة آلاف وخمسمائة سنة منذ أن شيدت . أما عن قرب فتبدو أبعد ما تكون عن الخلود . تجمع الركام وغبار الصخور المتفتت من هرم خفرع بأكوام فى أسفل الهرم . وفى هرم خوفو نخرت القشور



الملحية المتخلفة عن تبخر المياه الجوفية النئة جدران غرفة المدفن . كما فقد أبو الهول ، على بعد عدة مئات من الأمتار من الأهرامات ، قطعة تزن ٥٠٠ رطل من كتفه الأيمن ، ورقبته ضعيفة جداً ورأس التمثال الهائل في خطر السقوط .

القصة هي نفسها تقريباً في كل أنحاء مصر . تشققت جدران معابد الأقصر بصورة كبيرة ، ودعا الرئيس حسني مبارك الذي زار الموقع في فبراير ١٩٨٩ ، القيام بعملية ترميم كاملة لها . تلف حوالي خمس الرسومات المنقوشة على جدران مقبرة نفرتيتي بوادي الملكات بفعل الترسبات الملحية ، ويقول زاهي حواس من هيئة الآثار المصرية ، والمشرف على سهل الجيزة بأن " كل المعالم الأثرية معرضة للخطر بالفعل ، وإذا لم نقم بعمل عاجل ستختفي الكتابات خلال مائة عام، وستختفي المعالم المعمارية خلال مائتي عام » .

ويشعر آخرون بهذه المأساة خارج حدود مصر . في الوقت الذي تفتخر فيه مصر لاحتوائها على حوالي عشرة آلاف موقع أثري ، ويقول ميشيل جونز البريطاني المختص بالشئون المصرية : « هذه المعالم الأثرية مورد غير قابل للتجديد » . المقابر والمعابد والرسومات والنقوش تعد سجلاً لا يُضاهى لحياة ومعتقدات شعب في واحدة من أقدم الحضارات البشرية التي أثرت على تطور الثقافات الحديثة في كل أنحاء العالم .

ويقول علي حسن من هيئة الآثار المصرية : « نحن حماة تراث فريد » . مثل هذه الحماية مكلفة وتتطلب خبرة كبيرة لاتستطيع أي دولة منفردة - وخاصة من الدول النامية - توفيرها وذلك يتطلب إنقاذ المواقع الأثرية القديمة الفريدة تعاوناً عالمياً .

كانت هذه الأهرامات قديمة عندما دخل الرومان مصر ، وكان عمر أبي الهول المصنوع من صخور جيرية طريّة سهلة الحتّ حوالي ألفي عام من التلف التدريجي ومحاولات الترميم . لكن فعل عوادي الزمن يأتي في المرتبة الثانية بعد الانسان ، في تدميره فقد تضافرت أعداد المصريين المتزايدة ، الذين يربو عددهم على ٥٥ مليون نسمة ، مع حشود السياح الذين يتوافدون على مصر في إحداث خراب لهذه الآثار في العقود القليلة الماضية أكثر من ذلك الخراب الذي تسببت فيه آلاف السنوات من التعرية .

ومع ازدياد أعداد المصريين يندفع الناس من المدن بحثاً عن المسكن . فبينما كان سهل الجيزة ذات يوم بعيداً عن الزحف المدني غير المنتظم ، يقع الآن في ظل البنايات السكنية الحديثة وبالقرب منها تلقي المركبات القديمة والمصانع بغيومها السامة من عوادمها التي تصبح مواد حامضة عندما تذوب في الماء . كما تسببت هزات وجوجة المرور بتشقق في المعالم الأثرية .

والأكثر خطورة من كل هذا ، الدمار الذى تسببه المياه الجوفية حيث يتسرب مايقدر بحوالى ٨٠ ٪ من موارد القاهرة المائية من أنابيب المياه للأرض . كما يسهم فى هذه المشكلة نظام الصرف الصحى المتقادم الذى أنشىء قبل خمسة وسبعين عاما ليخدم نصف مليون نسمة والذى يختنق الآن بمخلفات ثلاثة عشر مليون نسمة حيث يدمر الارتفاع الحاصل على النطاق المائى أسس البنايات بالتدريج متسبباً بميلانها أو حتى بانهيارها . ففى عام ١٩٨٧ انهار مامعدله بيت قديم واحد كل يوم ، على الأقل ، فى القاهرة القديمة ، كما يقول لويس موتريل مدير معهد جيتى الحفاظ على الآثار بلوس انجلوس ، ويقول : « لايمكن الحيلولة دون هذا الدمار » .

أسباب المشكلة

ويعتقد كثيرون بأن مشاكل المياه الجوفية قد تفاقمت مع إقامة السد العالى بأسوان . فقد أوقف السد ، الذى تم الانتهاء من بنائه عام ١٩٧٠ ، فيضان النيل السنوى وساعد على توفير أراض زراعية أكثر . لكن الرى الزائد ، لجعل الأرض أكثر قابلية للزراعة ، بالاضافة للتصريف الردىء للمياه ساعد فى ارتفاع معدل منسوب النطاق المائى . وعندما ترتفع المياه الجوفية فإنها تذيب الأملاح المعدنية من التربة والصخور الأديمية وقد صنع كثير من الأبنية القديمة من حجر جيرى مسامى كاسفنجة تمتص هذا الماء المالح من الأرض . تبقى الأملاح بعد تبخر الماء . وعندما يحدث هذا على سطح الحجر تتبلور هذه الأملاح لافات بيضاء مدمرة .

ومن بين المشكلات السياح

ويشكو حواس قائلاً :

« الأهرامات هى المعالم الأثرية الوحيدة فى العالم التى تقود إليها سيارتك وتوقفها هناك . وحتى فى ديزنى لاند ، عليك أن توقف سيارتك على بعد ميل » . ففى سنة ١٩٨٨ وحدها قام ١,٩٦٩,٤٩٣ شخصاً بزيارة كنوز مصرية ولمسها والتنفس فيها ، وعندما يتنفس ستة أشخاص داخل ضريح لمدة ساعة ترتفع الرطوبة فيه بنسبة ٥ ٪ وبالتالى توفر الرطوبة العالية ظروفاً جيدة للبكتريا والفطريات التى تنمو على الرسومات أيضا يزور ضريح الملك توت عنخ أمون ثلاثة آلاف سائح يومياً ، يعرقون بداخله . وذلك له أثره السيىء أيضاً والمصريون فخورون حقاً بتراثهم الفرعونى ، فكلما أورد تقرير بأن المعالم الأثرية مهددة بالخطر كانت تتبع ذلك صرخة جماهيرية بسرعة . لكن ، وفى بلدة لايستطيع توفير السكن والطعام الكافيين لشعبه ، فإن الحفاظ على المعالم الأثرية أو ترميمها أبعد مايكون عن أولويات جدول الأعمال

السياسى المحلى حيث بلغت ميزانية الحفاظ على المعالم المعمارية لعام ١٩٨٩ ستة ملايين دولار فقط من الرسوم التى يدفعها السياح لزيارة تلك المعالم الأثرية والمتاحف .

حلـول عـاجلة

قام المصريون بعمل رائع بالفعل تحت هذه الظروف ، حيث أعدوا مشروعا ضخما يتكلف سبعة عشر مليون دولار لتنظيف موقع الأهرامات وترميم خمسة عشر ضريحاً فى سهل الجيزة وبدأ العمال بتنظيف أطنان من الرمل والنفايات وبذلك يقللون من مصدر التعرية المحمول جواً . كما بدأوا بإزالة حوالى ثلاثين قدماً من الحجارة المتفتتة عند قاعدة هرم خوفو وطبقاً للأنظمة الجديدة ، يمنع قادة الجمال والباعة الجائلون الذين يتشاحنون مع السياح منذ أيام هيرودتس من دخول المناطق التى تحيط بالأهرامات . كما ستمنع السيارات من التوقف هناك حالما ينتهى العمل من مواقف مخصصة لها .

وسيركب السياح حافلات كهربائية تنقلهم للمعالم الأثرية . وتدعو الخطة أيضاً لتحسين تصريف المجارى لسكان يعيشون على بعد مئات الياردات من الأهرامات بعد أن وضعوا أيديهم على تلك الأراضى وابتنوا مسـاكن لهم عليها . وبعد كل ماقيل ، قد يستغرق تنفيذ ذلك المشروع خمس سنوات على الأقل لإتمامه . وفى هذه الفترة يُخطط المصريون لإيجاد طواقم من المعماريين والمهندسين ليقوموا بتقييم سنوى للمواقع التاريخية فى أنحاء البلاد لمعرفة أيّها أشد حاجة للعناية . تم انتقاء عدة مواقع للجولة الأولى من الدراسة ، من بينها :

أبو الهول : يتفتت الصخر الجيرى بسرعة عندما يلامسه الماء يقول سيد توفيق رئيس هيئة الآثار المصرية : « حتى المصريون القدماء كانوا يعرفون بأن هذا الصخر لم يكن بحالة جيدة » استخدمت الاصلاحات التى تم القيام بها فى أوائل الثمانينات الأسمنت مما ساعد الصخر الجيرى على الاحتفاظ بالماء بداخله واستخدم العمال ، مؤخراً جداً ، مسحوق الصخر الجيرى الجاف ، الذى يشبه فى تكوينه الصخر الأصلى ، لتقوية قاعدة أبى الهول ، ومن بين الاقتراحات معهد جيتى بمونتريال : يجب وضع التمثال بكامله تحت مظلة واقية لأشهر عدة على الأقل بينما يجرى الكشف عن بدائل أخرى لحمايته وقد صوتت وزارة السياحة لصالح تلك الفكرة .

معبد الأقصر : تم الاكتشاف فى هذا المعبد الذى يبلغ عمره ٣٢ قرنا ، قبل ست سنوات بأن الأعمدة فى ساحة امنحوتب الثالث كانت بصورة تنذر بالخطر وهذه الأعمدة مسنودة الآن بسقالات خشبية بينما يُقرر خبراء المحافظة على المعالم الأثرية الخطوة التالية التى يجب



القيام بها فضلا عن أن جدران المعبد الحجرية قد تشققت وبهتت نقوش معركة قادش المحفورة على بواباته الضخمة ، ويقترح التقرير طرقاً لتثبيت القاعدة تحت الأعمدة لإيقاف ميلانها الذى يزداد يوماً بعد يوم .

معبد الكهنة بواحة سيوه :

تداعت جدران هذا المعبد - الذى يعود تاريخه للقرن الرابع قبل الميلاد حيث كان يعتقد بأن الأسكندر الأكبر قد تُوّج هناك ملكاً على مصر - وتعانى من خطر السقوط . يأمل المسئولون المصريون

بانقاذ هذا المعبد بنقله قطعة قطعة من مكانه الحالى على الرمال المتحركة فى الصحراء الغربية لأرض أصلب .

والسـؤال هو أين سيوضع ؟

دير البحرى : يبلغ عمر هذا الضريح والمعبد ، الذى يقع بالقرب من الأقصر ، ٣٤٠٠ سنة ، وهو مهدد بالانهيارات الأرضية من الجبال القريبة . يتمثل أكثر الحلول احتمالية فى إقامة سياج متصل من السلاسل لحماية هذا المَعْلم الأثرى من الصخور المتساقطة وفى نفس الوقت يقوم المركز المعارى البولندى فى القاهرة بأعمال ترميم على أجزاء من المعبد ، ويشمل أحد المشاريع استخدام الجبس للترقيع ، واعطاء تمثال الآله أوزيريس وجهاً جديداً .

وحتى لو كان بالإمكان البدء بالمشاريع الإنقاذية الرئيسية لكل هذه المواقع حالاً ، فهناك مواقع أخرى كثيرة بحاجة للعناية الشديدة ففى معبد سيتى الأول الذى يعود تاريخه إلى ١٣٠٠ قبل الميلاد ، تتساقط الرسوم والنقوش البارزة من على الجدران الأسقف. وفى معبد سوبك وحورس الروماني – الافريقى فى كوم امبو أثرت الأملاح المتكوّنة على النقوش البارزة والكتابات المحفورة فى جدران المعبد وأعمدته . وحتى فى معبد ادفو (من القرن الثالث قبل الميلاد القرن الثانى قبل الميلاد) أحد أفضل المعابد المحافظ عليها ، فإن الكتابة المحفورة فيه مُهددة بخطر الزوال بسبب الرطوبة .

وبالاضافة القيام بجهود هائلة لترميم معالم أثرية معينة ، يريد مسئولو دائرة الآثار المصرية تطوير استراتيجيات عامة للمحافظة على المواقع الأثرية والتاريخية من التلف أكثر من ذلك ويقترح زاهى حوّاس إقامة حزام حماية حول كل مَعْلم أثرى قيّم ، ويقول : المواقع الأثرية فى مصر غير محمية على الإطلاق وعلينا أن نبعد عنها أى نشاط ميكانيكى بحدود ميلين أو ثلاثة أميال ويقترح سيد توفيق زراعة أشجار حول المعالم الأثرية الخارجية لحمايتها من الرياح . وكى تمتص الرطوبة . أما فى المعالم الأثرية نفسها فيقترح تركيب صفائح بلاستيكية شفافة لمنع السياح من لمس الرسوم والكتابة ، وتزويدها بأنظمة تنقية الهـواء لتخليصها من الرطوبة والغبار .

اقتراحـــــــات

ولاتمتلك مصر المال اللازم لمثل هذا البرنامج الترميمى الطموح بمفردها ولكنها تستطيع ايجاد أكثر أهمية بخطوة بسيطة واحدة هى رفع الرسوم التى يدفعها السياح ، والضئيلة جداً حالياً وزيارة الأضرحة مجانية فى الغالب ، ويدفع السياح الذين يزورون الأهرامات حوالى

دولار وربع فقط وهناك خطط لمضاعفة تلك الرسوم ، كما يمكن مضاعفتها مرة ثانية وتبقى مع ذلك متدنية .

وبالاضافة لذلك هناك حاجة لإحداث بعض التغييرات الحكومية . فيجب رفع هيئة الآثار المصرية ، التى تمثل دائرة فقط بوزارة الثقافة ، لمستوى وزارة . فلا تستطيع الدائرة أن تقف سياسياً فى وجه وزارة السياحة التى تفضل توسيع امكانية الوصول للمواقع القديمة وفى نفس الوقت يجب رفع أجور المعماريين المصريين الذين يعانون من تدنى مستوى لأجورهم الحالى . وفى هذه الأثناء على المصريين أن يستمروا فى الاعتماد على الخبرة الأجنبية بالاضافة للمال الأجنبى . ويؤدى ذلك فى بلد تُنهب كنوزه عن طريق دارسى ، وهواة جمع ، الآثار . وأصبحت مثل عمليات التهريب هذه نادرة . لكن لمعظم الزائرين اهتماما ضئيلا بالمحافظة على الآثار ومع هذا قامت مجموعات أجنبية قليلة باسهامات رئيسية فى هذا المجال .

ويقوم معهد الدراسات الشرقية بجامعة شيكاغو بتوثيق ، والمساعدة فى المحافظة على المعابد والأضرحة فى الأقصر منذ أواخر العشرينات ويتمثل ذلك فى المشروع النموذجى والمجهود الرائع لترميم قبر نفرتيتى ، وقد أغلق المدفن الذى يبلغ عمره ٣٢ قرناً ، والذى تم اكتشافه عام ١٩٠٤ ، رسمياً منذ أوائل الخمسينات بسبب حالته المتداعية وبدأ معهد جيتى بمشاركة هيئة الآثار المصرية عام ١٩٨٦ عملية انقاذ مُضنية ودقيقة لبقايا الرسوم الجدارية . ففى بادىء الأمر ، قام فريق دولى بتقدير الخراب الذى لحق بالمدفن وبمسح جيولوجى ومناخى محلى . ثم قام المُرمِّمون بإلصاق ورق من لحاء شجر التوت والشاش القطنى فوق الرسوم الجدارية الأكثر تخلخلاً للتأكد من عدم تساقطها . وأخيراً تمت إزالة الأغطية وحُصنت الرسوم بالأكريل ونُظفت . ولحمايتها من خطر الماء سيلصق باحثو معهد جيتى بها مواد عازلة مقاومة للماء واستغرقت عملية معالجة ١٦٠ مدفنا حوالى الستتين ، وهذه الجهود لن توقف التلف الذى يلحق بالمعالم الأثرية مالم يُسارع المصريون المحافظة عليها .

ولهذا كانت زيارة الرئيس مبارك للأقصر ، الأولى منذ أن تسلم السلطة عام ١٩٨١ ، مهمة جداً ولم يطالب الرئيس بترميم معبد الأقصر فقط ، بل طالب بوقف اعتداءات الزحف السكانى والعمرانى المدنى على كل المواقع المعمارية والأثرية ، وإذا ما ألقى الرئيس مبارك بثقله وراء عملية المحافظة على المواقع الأثرية ، فقد يشجع ذلك المصريين على تسلم مسئولية المحافظة على تراثهم الذى لايقدر بثمن بأنفسهم ، والأمم الأخرى على مد يد المساعدة كذلك . وبعد كل هذا سيخسر العالم بأكمله الحضارة الفرعونية وتراثها إذا ماسمح لها بالتداعى والانهيار .

"إنه فى العام التاسع والأربعين"

قصة قصيرة

بقلم : سعيد سالم

بريشة : محمد ابو طالب

قد فرّ منى زمن طويل قصير فلم ألحق به . طالت مطاردتى له دون جدوى . مثلما امتنع عنى فإنه جاء يسعى إلىّ بقانونه الأزلى . يقف فى صمت ورهافة بواقف . أرقبه فى ذهول العائد إلى رحمة أمه رغما عنه . فأدخل وأخرج ويروح ويجىء من حولى والخلق يهرولون فى أيامهم والشمس والقمر . أطير بوجدى إليها فما عاد فى الوقت متسع لانتظار أو تأمل .

هيا أدخلى فى عباءتى فمثلى كنز لم يمسّسه إنس ولاجان من قبلك لم أكن أدرى أننى استبقيته لأجلك كل هذا العمر . قد بددتُ من نفسى الكثير فآه من عمر الغفلة الذى لاعاصم منه إلا الله . وأما ماتبقى فهو لك وخذى الحكمة ومعها شعرى الفضى والتى بهما حيثما شئت .. فى النهر فى صدرك . فى البحر فى قلبك . فى الجبل فى عينيك – آه !!

– الدكـتور بهاء كامل ؟

– نعم .

– البقية فى حياتك .

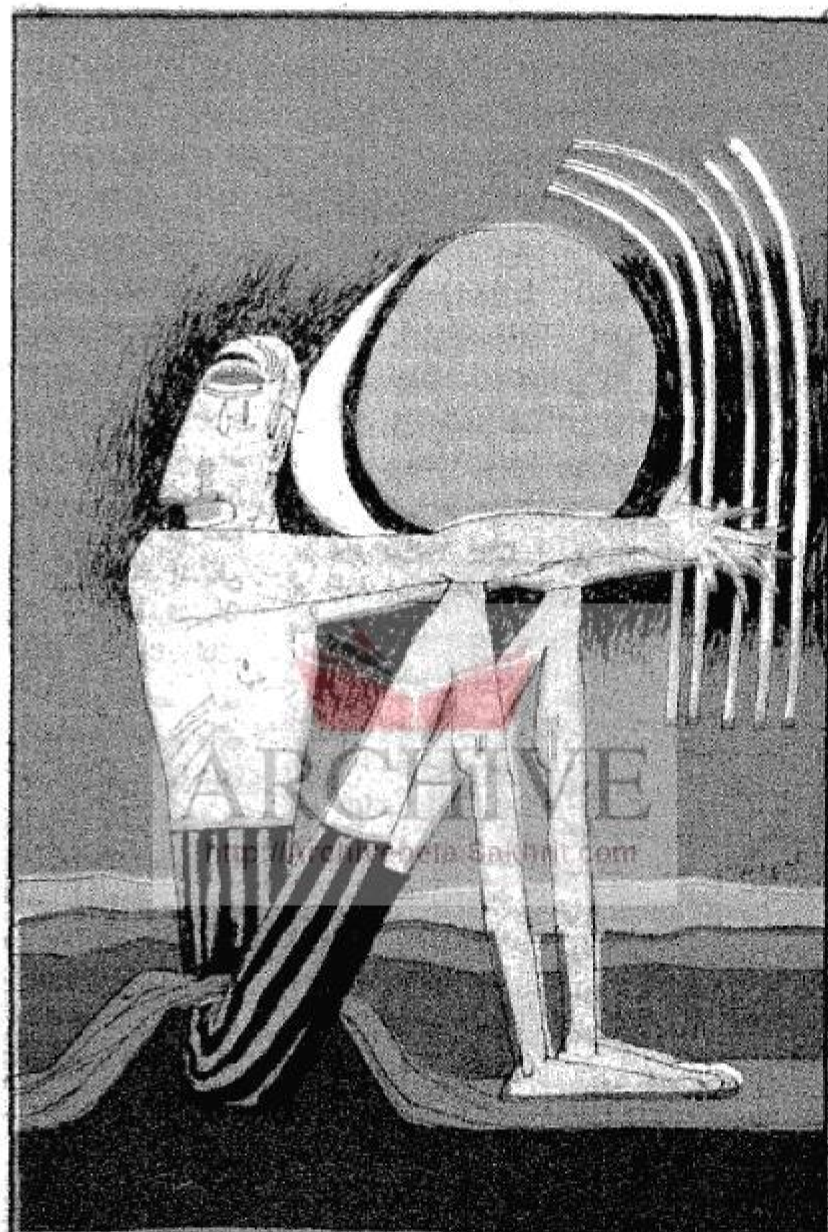
منذ خمسة وعشرين عاما جمعتنى به غرفة وعود وكمان ولحن وحلم وفرحة ودخان سجائر وكلسان مترعتان بالسعادة . منذ خمس وعشرين ساعة جمعتنى به غرفة وفراش وطبيب وصمت وعقاقير وعجز ودموع . كانت الغرفة الأولى خضراء . أما الثانية فكانت بيضاء .

فى كل دقيقة كنت أرجو الله أن يعطينا الخير ويدفع عنا الشر وينجينا من المهالك .. وبعد دقائق قليلة سوف أترك أعمالى ورغباتى وأمنياتى وتطلعاتى وأصدقائى وأعدائى ونزواتى وشهواتى وخيرى وشرى كى أذهب إلى هناك . فى الزمان هو الأمل الباقى والملاذ الأخير وفى المكان هو الحلم الغامض والنشوة المستحيلة .. وليكن مايكون ! ..

– الدكتور بهاء ؟

– نعم .

– ألم تعلم ؟!



إنه فى العام التاسع والأربعين *

منذ ثلاثين عاما جمعتنا ليلة وكتب وموسيقا وطعام ومجون وشراب وفتوة وشباب . قالت إن الحب باهظ التكلفة وقلت إن العمر قصير وضحكت من غفلتى وضحكت من حكمتها وبكينا من شدة الجنون . كنت أستطيع أن أريد دون أعرف ماذا أريد . وكنت أنا .. أنا .. أشعر بجسدى وأرى البهجة فى عينيها وأثق فى الأشياء وأصدق وأندهش وتلقى بملابسها فى وجهى وتتشبث بالموت حتى النخاع فتنفجر ينابيع الحياة ونجرى فى الشوارع تحت المطر كالمجانين .. لنا الأرض والسماء والأيام القادمة والسنوات والنخل ذات الأكمال والروابى والشلالات .

منذ ثوان قررت ألا أعبأ بذكريات الهاتف اللعين لكن جسده الرمادى باق أمامى يجسّد لى فناء الأحباب ، وكانما لم يُسمعنى يوما خبراً بميلاد طفل أو حفل زواج أو عن فرحة نجاح أو قفزة فى العمل أو طفرة فى الرزق .

فى هذه الثانية أعتصر ذهنى باحثا عن مخرج ، هل ابتعد من أمام الهاتف إلى غرفة أخرى أم أحطمه وأستريح أم أغادر المنزل إلى حيث لا أعرف ، فالذى أعرفه أنه سيدق بعد قليل معلنا سفر عزيز جديد ، وهذا ما قررت ألا أسمع به ولا أسمعه ، وإن سمعت وسمعت فلا أصدقه .

هيا ادخلى فى عباءتى فعندى دفء مقدس يترفع فى جلال عن الخطيئة . دفء طالما احتفظت به لأجلك من قبل أن أعرف أنك ستجيئين يوما إلى زمانى وقد نفضت عنه غبار الطيش والغفلة . وإياك أن تدق أيها الصنم الصغير إلا مؤذنا بصوتها الحبيب ، مجنون الجنون عقل مثلما نفى النفى إثبات .

ولتتوهج أيها القلب بنار حبك الأخير .

– دكتور بهاء كامل ؟

– نعم .. ولكنى غير موجود .

ياكتلة صماء من معدن أرضى – مثلى – كيف أموت وتبقى . كيف يستحيل جسدى إلى تراب وتظل تابعا فى موقعك تدق لغيرى وتعيش سنوات وسنوات رغم أنك تخلو من الروح ؟! .

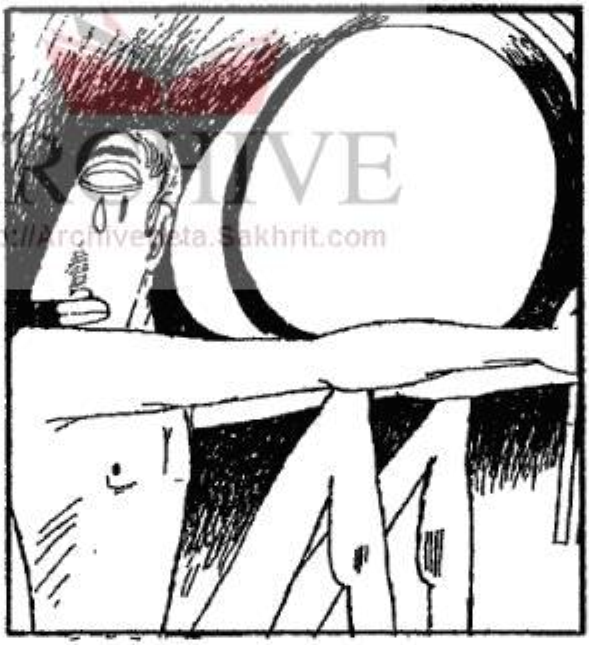
يوم كنت فرحاً بك وقلت إنك سوف تغنينى عن ضياع الوقت والجهد

حتى أنفقتهما فى المقيد .
لم أكن أعرف أن الوقت والجهد والفائدة أشياء لامعنى لها . آه .. لم أكن أعرف ، فقد بذلتهم جميعا بحماس أحيانا وفتور أحيانا فما جنيت شيئا أكثر مما كان مقدر لى أن أجنى ، وما فقدت غير ماكان مقدراً لى أفقد . وظلت تدق وتدق .
وأجرى وألهث . وتصمت واستريح . وتدق وأعاود الهرولة واللهاث والضحك والبكاء والصمت والذهول .. ورغم ذلك لم أتعلم شيئاً يتقذنى من تلك الثوانى المرهقة التى تكاد الآن أن تزهق روحى بثقلها المميت .

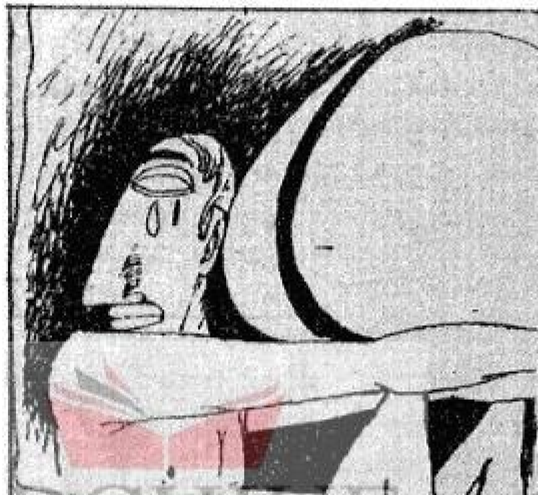
هيا ادخلى فى حياتى فقد كنت خشتينا يظلها على غيرك من قبل أن أعرف من أنت أو ما الذى جاء بك إلى أرضى وقد أنهكتها خصوبتها فبات اخضرارها داكنا حتى السواد . بالله كيف عرفت أن أحدا قبلك لم يقترب من الكنز والدفء والظل مهما أتيح له أن يجوس فى أرضى ويصول ويجول ؟! .. ومادمت عارفة بسرى فلماذا لايدق هذا الصمت حاملا صوتك الحنون ؟!

- بهاء ؟
- هل تجيئين ؟
- صعب
- إذن أجىء أنا
- صعب أيضا

تسع وأربعون سنة . رفاق سلاح تناثرت أجسادهم فى الهواء ورفاق دراسة هاجروا إلى بلاد الله البعيدة ورفاق زمان يعيشون على مقربة منى وأراهم لكنهم لايبصروننى وأبصرهم ولكنهم لايروننى فالعين تبصر لكن القلب يرى أو لايرى .. سيداتى آنساتى سادتى . مع الفرحة والمرح ولاتفكروا فيما



" إنه في العام التاسع والأربعين "



تسمعون .. عليكم بالرقص فقط ، فمن لم يعرف الرقص لم يعرف معنى الحياة ، ولايفنى في الله من لايعرف قوة الرقص .

« ياللي وسطك وسط كمنجة .. وعودك مرسوم عالسنجة »

« أنا كنت باحب المشمش .. دلوقت باموت في المنجة »

« المنجة .. المنجة .. المنجة .. المنجة »

في معنى أعوام عشرة ضاعت في بحث علمي حول حركة الكترونات وهمية في مدارات أكثر وهماً وقراءات مراجع وسهر ليال وإعداد جداول وجمع وطرح وضرب وقسمة للحصول على لقب يصحبه انتفاخ في الوجه وجلطة في القدم وربطة عنق ضيقة تبرز الشرايين وطالب يستمع إلى محاضرة مملة لمجرد أن يجلس بجوار فتاته فيتفقا على موعد للقاء .

« ويقول لي وأقول له .. ويقولك وتقول لي »

« وتقول له ويقول لك .. وتقول لي ويقول لي »

« ويقول لك وتقول لي .. وأقول له ويقول لي »

فما جدوى أن تولد في قرية فقيرة في بلد فقير في أمة ليلها قتال ونهارها قتال ، ولايقدس قومها إلا نصفهم الأسفل ولايعتزون إلا بحناجرهم التي تقول له ويقول لها حتى الصباح في ضجيج الدولارات وتمايل الراقصات ورنين الدينارات وطرقعة التصريحات وانهيار الحدود والسدود والبنايات

.. وإيقاع الزار ونهب الأموال وقطع الأرزاق وجنة المشتاق فى أصول النفاق ؟! .

هيا ادخلى فى عباءتى وشاركينى فى جنتى حتى . ولئن كان المستحيل صعبا فليكن الصعب ممكنا ولئن ترددت فى الدخول فاعلمى أن تسعة وأربعين عاما هى المحال ، وأننى سوف أحملك بذراعى لأخفيك تحت عباءتى من العيون وأحرسك بألف جندى من لحمى وجلدى ودمى وأعصابى وعقلى وجنونى .

كل سنة وأنت طيب يابهاء .

.. وهكذا فلن تزول الأزمة مادام الصراع التفكيكى بين القديم والحديث محتدما ومادمنا عاجزين عن تحويله إلى كيان تركيبى تكاملى سوف يسفر ولاشك عن حل هو المعجزة مثلما يسفر الإخصاب الذكرى عن خروج الوليد من رحم أمه ، وأنا شخصيا - يا اخوانى فى أزمة أعجز عن حلها ، فكيف تجيئون للاستماع إلى محاضرتى بهذه الثقة رغم أننى أحتفظ فى جيبى الأيسر بقائمة من أسماء الأصدقاء الذين عانوا من أزمات مماثلة وعاشوا والذين عانوا وماتوا والذين لا يعانون ولا يموتون والذين يموتون ولا يعيشون ويعانون أو لا يعانون ، سواء من أزمة الفكر العربى أو الفقر العربى أو الجهل العربى أو صابون الاستحمام .. ولكن ماجدوى قائمة ثابتة فى زمن متغير يخضع لمتغيرات تخضع لقانون إسمه العبث ؟!

أنا أعلم أن الأولين سيتهموننى بأننى أبدع وحيث أن كل بدعة ضلالة ، فمصيرى إلى النار، أما أنصار الحديث فسوف يتهموننى بالالتجاء إلى الغيب والارتماء فى أحضان الموت والبعث والقدر، وأما الخبثاء فسوف يتهموننى بالصفرية .. ألم أقل لكم أننى أزمة ؟! ..

إنصرفوا إذن بأمر الله فلا جدوى من بقائكم معى لأن الزمن لايتجمد .

- وأنت طيبة .. يحفظك الله

- هل أنت سعيد ؟

تحت عباءتى الآن يقبع سر السعادة . نعم تأخرت فى العثور عليه . نعم دفعت لقاءه ما يقرب من ثمانية عشر ألف يوم من الصمت والسكوت والبصر والاستبصار والدخول والخروج والحزن والفرح .. وكان النور أمامى فلم ألمحه . وكان الحلم فى سراديب صدرى ولم أفجره . وكان النهار طويلا والليل أطول فما شعرت إلا بلحظة ! .. فتعالى إلى عمرى ياصاحبتى إلى السر..الكنز فى أنتظارك فيها .. هيا إدخلى فى عباءتى .

السلطة والسلطان

قضية تلح على كتّاب المسرح المصرى

بقلم : مهدى الحسينى

ثمة مسرحيات مصرية عديدة طرقت هذا الموضوع الهام والحسّاس فى السنوات الثلاثين الأخيرة ، فبعد «السلطان الحائر» للرائد العبقرى «توفيق الحكيم» سنة ١٩٦٠ ، تلاحقت مسرحيات أخرى تدور حول نفس الموضوع منها «الفتى مهران» للشرقاوى سنة ١٩٦٥ ، ثم يكتب الراحل «مصطفى بهجت مصطفى» مسرحية « لعبة السلطنة » سنة ١٩٧١ ، التى لم يوافق المسئولون حينذاك على عرضها رغم جودتها ، وفى سنة ١٩٨٦ يقدم المسرح القومى «لعبة السلطان» تأليف «فوزى فهمى» ، وتفوز مسرحية «فارس فى قصر السلطان» تأليف «فتحى فضل» بجائزة الثقافة الجماهيرية سنة ١٩٨٧ ، ويقدم مسرح الشباب مسرحية سنة ١٩٨٩ «المتنبى فوق حد السيف» تأليف «محمد عبد العزيز أبو شنب» .. وأخيرا يكتب «محمد عنانى» مسرحية «جاسوس فى قصر السلطان» سنة ١٩٩٠ ليقدمها المسرح القومى فى فبراير من هذا العام .

ومسرحيات أخرى عديدة تدور حول «السلطان» !! فمن ياترى هذا السلطان ؟ وما هى القوى التى «سلطنته» علينا ؟ وما قضيتنا معه ؟ وما مطلبنا منه ؟ وهل هناك أزمة سلطة ؟ أو أزمة مع السلطة ؟ هل هناك مطالبون بالسلطة ؟ إن تكرار هذه العناوين ، والإلحاح على مثل هذه الموضوعات ، وتقليب مثل هذه القضايا ، إنما يعكس أزمة . غير أن التناول بالفن عامة .. وبالمســرح خاصة له أسس وأصول .



مشهد من مسرحية لعبة السلطان لدكتور فوزى فهمى ١٩٨٩

بالطبع يكون الميدان عصر السلاطين والمماليك ومصر العثمانية ، ويكون المصدر الأساسى سفرين كبيرين لابن تغرى بردى وابن إياس ، وغيرهما من كتب التراث الثقافى والفلكلورى والتاريخى المصرى ، ومنها أيضا ما أشار له المؤلف فى نشرة المسرحية كمصدر لعمله وهو كتاب «التحفة المملوكية فى الدولة التركية» من تأليف «بيبرس المنصورى» ، وهنا تختلف .. من كاتب لآخر - المسافات التى يقطعها المؤلف بين المصدر .. وبين براعات الإبداع : من حيث الفكر والفكرة والتيمة والشخوص ووحدات التعبير والنسيج والأسلوب والحرفة والمزاج والطابع الشخصى والعام واللغة . أى بنية الموضوع الكلية الشاملة .

درس عميق

لماذا التاريخ إذن ؟ الكاتب لا يلجأ للتاريخ كى نستذكره للامتحان ، أو لكى يراوغ الحاكم أو الرقيب ، بل بحثا عن درس عميق ، والبحث يكون عن القانون المحرك لأحداث التاريخ ، بحث عن فاعليته وتجليه فى لحظة معينة تُشابه لحظتنا الحاضرة ، وهدف البحث هو خلق حالة نكية من التوارد الدّال بين الآن وبين الماضى . هنا لا تهمنا الأحداث فهى ليست سوى شواهد وأدلة وسمت وملمس ، لا نلتزم بها حرفيا بل نستوحيها ، فهى فرصة الكاتب بالمشاهد عن واقعه كى يتمكن من رؤيته من زاوية نظر موضوعية ، متجرداً عنه ، يراه فى صورة بعيدة عنه نسبيا حتى يتسنى له أن يحكم عليه بموضوعية ، فيستلهم قانونه ليتعلم منه ، أو كما قال «ألفريد فرج» «الاغتراب للاقتراب» . هذه هى الجدوى المسرحية - درامية وملحمية - للجوء للتاريخ ، أو للتراث كمصدر للإلهام .

السلطة والسلطان

على أن كاتبنا مثقف مرموق وأستاذ جامعي عميق الأثر ومترجم فذ وشخصية عامة لها حضورها البارز وأنشطتها ونفوذها . له كتابات في النقد ومؤلفات في المسرح ، والمسرحية التي نحن بصددها بالشعر الفصيح .

وكذا يكون مخرجنا الفنان الكبير «كرم مطاوع» بتاريخه الطويل المعروف ، وبأعماله المهمة المؤسّسة في مسار الوعي والذوق في المسرح المصري ، الشهير بمبادراته ومغامراته الفنية المعروفة .

رحلة بحث مضنية

ولكي أشرك القارىء – الذي شاهد المسرحية أو لم يشاهدها – في هذا الحوار النقدي ، سأستعين بفقرات وردت في نشرة المسرحية تلخص أحداث العرض «فالبطل محمود نجار مصري عادي من أهل الصنعة ، حرفته ككل المصريين البسطاء ، تحويل الأحلام إلى واقع ، وصناعة خير الأمة وحضارتها .. يذرف عرقه فوق أخشاب الأشجار ليترجم أحلام الحب والتوصل إلى حقائق ملموسة ، إلى أثاث وأعراس وبيوت عامرة ... لكن الأخشاب تختفي فجأة ... ولا يبقى من صوت سوى نعيق الشاعر الرسمي ، يتغنى بانتصارات وهمية ورخاء مكذوب .. وحين يرى محمود عالمه يتصدع ، يشرع في رحلة بحث مضنية ، ظاهرها البحث عن الأخشاب باطنها البحث عن الحقيقة ، فيذهب إلى القصر ظانا أنه سيجد مطلبه هناك ، ولكنه ما أن يدلف إلى عالمه اللامع ، حتى يجد أقدامه تغوص في رمال متحركة تريد أن تبتلعه ، وإذ يجاهدها يتخبط في متاهاتها بحثا عن مخرج ، فيدرك أن ما توهمه ليس سوى نسيج عنكبوتي من المؤامرات والأكاذيب ... وأشباح باهتة تحيا على خداع النفس والآخرين . وتصل المسرحية إلى نهايتها المحتومة ، وتتم المواجهة بين الوهم والحقيقة ، فإذا بالاشباح والأوهام والدمى تتساقط في لهب المشاعل» .

وبالفعل يذهب محمود إلى القصر فيشتبك في علائق مع السلطان والحكام والأميرة المقهورة «خاتون» والفتاة المصرية الثائرة «غازية» والعاشق الثائر الشاب «شهبندر» الملاح المصري وحبيبته «حسنة» الجارية المغنية ، حيث يظنه الجميع جاسوسا تتريا ، ثم يُقتل السلطان ، ويتولى الحكم قائد جيشه ، ويتهم محمود بقتله ، على أنه الجاسوس التتري ، ويعرف أهل القاهرة الأمر فيذهبون لتخليصه ، إلا أن الحاكم يقتله أمامهم ، بينما لا يحركون

ساكتا !! حتى يصل الثائر «شهبندر» وجنود البحر كيما يخلصوا الشعب . ذلك هو الخط الدرامى الذى أراد المؤلف والمخرج أن يقدماه إلينا ، إذن فلنتناوله فى محاولة للتحليل :

فى أصول البنية

يرتكز المؤلف على نقطة هجوم درامية واهية ، وهى أن (محمود النجار) لا يجد أخشابا لأعراس العامة ، والسؤال هنا : من كان من الشعب ينام على أسرّة أو يستخدم دواليب ومناضد وكراسى فى أزمنة الترك والمماليك ؟ فى أزمنة الطاعون والجوع الفاتك ؟ هذا ترف لم تكن لتناله الطبقة الوسطى إلا استثناءً ومشقة ، أما الشعب (فلاحون وحرفيون وصغار التجار والصناع ومجاورون) فكان لا يستخدم إلا الحصير والبرش إذا لم تكن النفايات والمهملات والبقايا وقحوف النخيل ، أو كان ينام فوق الأفران الريفية ويجلس على المصاطب الحجرية والطينية ولا يستخدم الأخشاب اللهم فى صناعة صندوق العرس الأحمر ، خاصة وأن مصر بلد غير منتج للأخشاب إلا قليلا ، بل مستورد لها منذ الفراعنة ، وإذا كان المؤلف يقصد بالأخشاب رمزاً !! ، فالرمز يكثف الواقع ولا يخالفه ، يدل عليه من على مبعدة ولا يتعامل معه مباشرة ولا يفتئت عليه ، ويشمل الظاهرة كلها بلا استثناء ، فهل كانت تكفى كومة أخشاب مهملة فى فناء قصر السلطان يحصل عليها محمود النجار لتلبية حاجة الشعب ؟ وهل استغل الكاتب أزمة نقص الأخشاب تلك ، فى تفجير قوة دافعة للشعب كى ينزع أبواب القصر مثلا ليصنع أشياءه منها ؟ إن نقطة الهجوم التى اختارها المؤلف لاتكفى لصنع منحنى درامى قوى مشدود الأوتار كى يدفع بنا نحو الأزمة فالذروة . لذلك يظهر لنا محمود النجار - ممثل الشعب - كمستجد ساذج (رغم أن المؤلف حمله لسانه الذرب الواعى) وفى النهاية يقتل «ضحية» سهلة ، بينما لا يحرك أحد من أهله وعشيرته ساكنا !!!

هذا يسوقنا إلى ملحوظة أخرى عن الصيغة ، ففى ص ٤٥ من النص المطبوع تسترسل الفتاة (غازية) فى مونولوج - هو فى الحقيقة ليس بمونولوج بالمعنى الفنى ، إنما هو استرسال منظوم - تسرد فيه لـ (علم الدين) نائب السلطان (وكان قد سباهما معا عمه المتوفى ، فتحكى له حكايتها مع عمه وكيف علمها دخائل الحياة خلف أسوار قلعة الحكام ، وحب الشعب خارجها فى ساحة القلعة بين الصناع والحرفيين ... إلخ ، وثمة سؤال : ألا يعرف صنوها فى التربية هذه القصة ؟ أم أن هذا الكلام (إلك ياجارة) أى

السلطة والسلطان

للجمهور ؟ أى أن ليس له ضرورة درامية ، بل ضرورة إعلامية أملتها أخطاء فى خطة التأليف ؟ ثم أية شخصية مسرحية (غازية) تلك بغض النظر عن أصلها التاريخى ؟ يشى بها (علم الدين) ابن عمها – بالتربية – للسلطان الذى يسجنها لأنها تقرأ ولأن لديها أفكاراً ثورية !! فى حين أنها تشكو من أنها قضت حياتها أسرى لـ (سجن الكتب) !! ، وفجأة تهرب من السجن المادى إلى القصر !! كيف ؟ ثم تعلن – لنائب السلطان وداخل القصر (!!) أنها عزمت على الرحيل هاربة من بطش السلطان والمماليك حيث إنها ثائرة ومصرية !! (لاحظ أنها لم ترحل بل ظلت تثرثر) وحين تنعى له ما آل إليه حال البلاد فإنه يتعلل بالحرب ضد التتار ، فيدور حديث وما تمليه لواجبات الوطنية !! ثم سيرة ذاتية !! ثم عتاب بين محبين !! ثم تعاهد بالزواج عن حب قديم !! كل هذا فى مشهد واحد ؟ ! ! إن بنية المشهد المسرحى عموما عليها أن تنجز مهمة واحدة لا أكثر ، وموضوعا واحداً لا أكثر ، وإذا كان هناك (ماهو أكثر) فإن هناك ما هو رئيسى طاغ بحيث ينظم باقى العناصر فى إساره وإطاره .

ولكن لنمض وراء (غازية) فهذا الخط أصيل وغنى وصالح لانشاء عمل مسرحى كبير ، إذا ما حققناه فى إطاره ، وتعمقناه وتقصّيناه ، وكشفنا عن أسبابه وملابساته ومصيره ، خاصة لتبرز جانب الاستثناء فيه ، فنجد أن هذه الفتاة (نصف جان دارك) ثائرة تتجول فى قصر السلطان الذى سجنها وخلفها حرس مقنّع دون أن يتعرض لها أحد !! هاربة من السجن دون مطاردة !! تتحدث عن الثورة والشعب دونما حرص أو حذر !! لها عيون ترصد أحوال الشعب وأحوال السلطان !! تدبر مؤامرة لقلب نظام الحكم !! .. وفى النهاية – ويا للدهشة – يقتلها (علم الدين) بكل سهولة أمام حراسها المسلحين الملثمين الأشاوس دون أن يحركوا ساكنا !!! كيف ؟ ! ! ! . أعلم أن الغرض الفكرى للكاتب هو أن الثورة الفردية الناجمة عن أزمة شخصية لا تحقق النجاح ، وهذا غرض وجيه ، ولكن كيف ؟ كيف هربت غازية من السجن ؟ وكيف تجولت فى القصر بحراسها دون أن يتعرض لها أحد ؟ وكيف أخذت تثرثر بآرائها وأخبارها وخططها ونواياها ومؤامراتها (عمّال على بطّال) دون رعاية لقواعد السرية التى تتنكبها سليقة الثوار ؟ ومن أين أتت بالمال والرجال والسلاح ؟ والعجيب أن نكتشف فى النهاية أن المشهد الغرامى بينها وبين علم الدين كان مناورة

من كليهما ، وهذا فى لغة المؤثرات الحرفية الدرامية يسمى المفاجأة ، وهذه لها شروط تقنية كى تتم وتؤتى أثرها دونما لبس ، كأن يسبقها مفارقة درامية ، لهذا يكون ترتيب المشهد كالآتى : أن يعرف المشاهد مسبقا أن غازية تنوى الإيقاع بعلم الدين لأنه خانها وأرشد عنها السلطان ، ثم يجيء المشهد المشار إليه - مع تركيزه - بعد ذلك مباشرة ، ثم نعرف أن علم الدين ينوى الفتك بها ، هنا يتحقق عنصرا التعرف والإثارة معا ، وهنا يقع المشاهد فى حالة الإشفاق على غازية فيتمنى لها النجاة ، ويظل المشاهد هكذا حتى يقع المحظور فتكون الفاجعة ، وكان يمكن أن تقتل غازية بمكيدة تصمها زوراً بصلة بالجاسوس التترى ، وتلك فرصة تدبير مفارقة درامية أخرى أفلتت من يد المؤلف ، ان خط غازية هو الخط المحورى الذى كان يجب أن يرتكز على متنه طرفا الصراع . محمود .. والسلطة ، وكان الممكن أن تنشأ حوله المسرحية كلها : خاتون وحسنة وشهبندر وساحة الحرفيين والشعب وثوار البحرية ، تلك هى قضية النسيج الداخلى لمثل هذا الحدث خاصة والمسرحية عامة ، لذا فقد بدت بنية النص وعناصره ، متجاورة لا متفاعلة ، وظهر أن عديداً من شخوص المسرحية لا تربطهم بالنص أى صلة ، ولنأخذ «خاتون» مثلا . هل تترك أى خلل عضوى أو فراغ بنائى إذا ما شطب دورها ؟

أخطار على فن المسرح

حسنا فعلت دراما الإذاعة والتليفزيون والمسرحية التجارية والعروض المحلية الدارجة ، إذْ رفعت عن كاهل الفن المسرحى ركام الكلمات ولجاجة النثرية روحا وقالبا ، فخلصته من الركاكة والتفاصيل التافهة ، أعفته فأعادته إلى بنيته الأصلية : روح وجوهر الفكر ، درّ الكلام وعميق المعانى وساحر الخيال هذا إنْ نثراً وإنْ شعراً ، عامية أو فصحى ، فالأمر لن يختلف : الشعر والتفلسف معا ، ومن هنا يستقل المسرح بمهمته النبيلة وبجمهوره فى حالته الرفيعة ، ومن هنا أيضا تقوم علاقة نوعية أخرى بين الفن المسرحى وبين جمهوره ، تلك العلاقة التى لا تتناقض مع الوسـائط الإبداعية الأخرى ، غير أنها تختص وحدها بمهمة إعادة بعث الحياة فى لحظات منتقاة وعميقة وخاصة ودالة ومكثّفة ونموذجية ، أياً كان مصدر الإلهام ومنحى المبدع .

وطالما استلهمنا روح الشعر Paetry واستوحينا أعماق المعانى والأحاسيس واستخرجنا الجوهر ، فإن النظم Verse يشكل خطراً على المبدع والإبداع والجمهور سواء ، فهو كمعطف الجبس

السلطة والسلطان

هش وغير مرن ، كما يقعقع بجرسه النحاسى وإيقاعه الخارجى ، ليسرد علينا فى أبيات طوال ما يوحيه الشعر فى بيت واحد ، حيث يكثف موقفا وشخوصا ومعانى وخيالات فى ضربة ناجزة . إن عدم المرونة الذى يسببه النظم يعجز الكاتب عن تمثل المنعطفات والثنايا والغضون والتفاصيل اللامحة والأسارير والخلجات التى تعطى النبض للشخصية المسرحية ، هو خال من الهسّات والآهات والمسات ، أجرد من الروح ، لذا يضطر الكاتب قسراً للعموم والتعبير الخارجى ، فبالنظم لا تستطيع أن تعبر عن جوهر شخوصك ، ولا أن تناجيها وأن تحادثها حديث السريرة ، لأنه يعوقك عن استبطان دخيلتها وسبر مكنوناتها ، ويضلك جرسه المصم فيحبط سعيك إلى أعماقها ويئد متعة مباغتتها وصيدها فى مواقـف عميقة مهمة ، حيث تتفجر مفصحـة عن دخيلتها بالبوح أو بالصراخ أو بالفعل معا ، فتتجلى عن سمتها وسحنتها ، وعن طريق هذه الحالة وحدها يعرف الممثل طريقه إلى الشخصية، كى يتمثلها ويعيد خلقها ، وبغير ذلك فإنه يكتفى بوصف خارجى فاتر لملامحها ، إن النظم يحبط طاقة الأداء - تقمصا أو تشخيصا - لديه ، فهو لن يخلق إلا شخصية جعجاعة لن توحى بالثقة حتى ولو صدقت ، ولن تفصح عن صدق حتى ولو كانت حقيقية ، فمثل هذه الشخوص الورقية التى تصاغ بالنظم ، لن تثير خيال مخرج فنان ، بل وتزعج أسماع المشاهدين بإيقاعها الرتيب فيرغمون على النعاس .

وفى هذه المسرحية ، لا نستطيع أن نمايز بين لغة شخصية وأخرى ، فلو حجبنا هامش النص بورقة بيضاء لنخفى أسماء الشخصيات ، لقرأنا كلاما منظوما مرصوفا متواصلا لا مكان فيه لملامح مميزة ، ولا نفوس دفينة ، ولا بوح ، ولا فرح ولا بكاء ولا تحولات ولا إرهاصات ، ولا خصوصية فعند شكسبير يوجد لكل شخصية إيقاعها وقاموسها، وعند ترجمة مثل هذا النص تتبخر أوهام الشعر فيه ، فلا يبقى منه إلا خيوط النثر البائسة الهزيلة .

صور من بعدين ؟

لن أتحدث عن الممثلين والممثلات - وكلى أسف - فهل وجدوا طعاما للأكل ولم يأكلوه ؟ أو شرابا يبل ريقهم ولم يشربوا ؟ هم صور وخيالات من بُعدَيْن لا من ثلاثة ، بلا ظلوا أوراقا مرسومة تتحرك فى وَهْنٍ ،

فقد وقف المثال عند حدود الكتلة ، ولم تهبها أصابعه حياة ، لم تعبث روحه فى ثناياها وبين جوانحها فتخلقها ، وقديما قال لنا حكيمنا «محمد مندور» الانسان مثل جراب الحاوى ملىء بالخبايا المدهشة ، فمهما مددت أصابعك وأخرجت منها .. فإنها لن تنفد أبداً . وحين مد الممثلون أيديهم فى الجراب .. لم يجدوا إلا أوراقا بلا حياة .

وفى صيغته لفن التمثيل هنا ، وقف «كرم مطاوع» بَيْنَ بَيْن ، بين الكوميديا دى لارتى ، وبين التمثيل الشعبى المصرى، لكنه لم يعقد الصلة بينهما كى يقدم اكتشافا - بالفن - يغنينا عن عشرات البحوث ، كما طرح المخرج صيغة الشخوص حارت بين مبالغات المسرح السياسى البريختية ، وبين المدرسة الواقعية ، وبين روح الفانتازيا ، وهذا أسلوب جائز إذا تم عن سبيكة متجانسة ، وفى ظنى أن الذى دفعه إلى هذه الحيرة والتردد بين الصياغات ، أو عدم الاستقرار على صيغة ما ، أو خلق صيغة جديدة مبتكرة ، والسبب هو أنه تعامل مع مادة لم تكن مناسبة تماما لأصابعه الحساسة رفيعة الأداء .

أبدع كرم فى توظيف المجاميع ، لم يعتبرها - كما الآخرون - من الحشو والنوافل وسد الفراغات ، فلم يبتذلها ولم يهملها .. بل احترم وظيفتها الفنية ، كما احترم حضورها الانسانى على المنصة ، وأبدع فى تصميم حركة الجنود والحرس حين استخدمهم فى التعبير عن الأزمات والمناورات وعن الأخطار ، وأبدع فى مشهد أنشأه من تقاطعات مونولوجية حزينة - لم تكن موجودة هكذا فى النص المطبوع - للأميرة خاتون ، وأم عَلَيّه ، وحُسنَه ، ومحمود ، كل هذا ليس جديداً على المخرج الكبير ، فقط طرح أجمل مهاراته الفذة القديمة ، وكلنا يعرفها ، وكلنا يحبها ، وياطالما أثرت فينا وأسهمت فى تشكيل ذوقنا وتعلمنا منها : نعومة الضوء ، سلاسة النقلات ، تصميم الحركة مذهل الجمال ، التحكم فى مساحة الخشبة ، توزيع الممثلين ، انسيابية الدخول والخروج ، لوحات تشكيلية حيّة متلاحقة فى سياق بصرى خلاّب ، هذا الطفل بازغ الجمال ، ما أن تنسم أنسام الحياة .. حتى مات !! إيهام بالتمثيل بلا شخوص ، وإيهام بالدراما بلا صراع حقيقى وعميق ، وإيهام بالتشكيل بلا موضوع ، وإيهام بالحركة إيهاما تجريديا هندسيا بارداً ثنائى الأبعاد ، وأبعاد هذا الفن بلا نهاية .

قراءة فى أوراق ندوة إشكالية التحيز

رؤية معرفية ودعوة للإجتهاد

بقلم : عبده جبير

إن كانت الشهور الماضية قد شهدت ندوات جادة عديدة ، فى مجالات مختلفة ، فإن حظ هذه الندوة التى نعرض لها بقراءة أولية لأوراقها ، من الجدية ، والعمق بمكان ، من واقع الجهد المبذول فى هذه الدراسات التى لم توفر تقريبا « موضوعا » من الموضوعات التى تشغل المهتمين بقضايا الفكر ، إلا وتناولته ، نقول كان حظها من الجدية ، والشمول حظا كبيرا ، حتى لا نكون مبالغين إذا قلنا أنها تميزت حتى إنفردت لتعد واحدة من أخطر ندواتنا الفكرية التى جرت منذ زمن طويل فى مصر .

وجه الخطورة هنا يقوم على أساس واحـــد : عمق الدرس ، وجـــدية التناول ، و « التحيز » الواضح لفكر بعينه ، هو راغب فى نفس الوقت ، فى حوار جاد للوصول إلى هدف الإستقلال الفكرى ، بدلا من الضياع فى بحار الغربة التى لا منجاة منها .

يقول الأستاذ طارق البشرى حول الرغبة فى إنشاء حوار خلاق : « على أننا نود أن يتصل حبل الحوار فلا نتراشق بالحجج فيما هو أشبه بحروب الإستنزاف ، ونود أن يتصل حبل التفاهم ليفهم كل صاحبه . فما أعظم مستقبل هذا البلد إذا انضمت قـــواه بعضهـــا إلى بعض ، ولم ينطرح بعضها من بعض كما يحدث الآن » .

ونحن هنا ، نؤكد على أن هذه الروح الجميلة ، روح الحوار الخلاق والعقلانى هى أيضا قائدنا إلى الملاحظات التالية ، التى وإن إنطلقت من موقف مغاير للموقف العام للأساتذة الأجلاء المساهمين بأوراقهم فى هذه الندوة ، إلا أن الهدف المقصود واحد ، هدف الإستقلال الفكرى والبحث عن طريق خاص بنا للبحث ولقيادة أمور حياتنا .

هو هدفنا أيضا وإن كان يقوم على أرضية أخرى ، أرضية تنطلق من العروبة ، لا كمقولة تعصب أعمى ، بل كضرورة حياتية وسياسية ، فالعروبة لا شك تحتوى على ثقافة الإسلام ، لكنها تجعل أركان فكرنا وحياتنا المستقبلية تقوم على أساس محسوس ، بل وأكثر خصوصية .

وهنا ، وقد قادنى الإستطراد إلى هذه النقطة التى ترد إلى الذهن أولى ملاحظاتنا عن الأوراق جميعها ولا أريد أن أقول إنه كان هناك تواطؤ جماعى عليها ، ولكننى أقول إننى لم أقرأ ، ولا حتى إشارة عابرة واحدة فى الأوراق كلها (والتى بلغت خمساً وعشرين ورقة) إلى هذا المنحى العروبى ، وكان الأساتذة الأجلاء جميعهم قد ولدوا وعاشوا فى فضاء لا يرتبط بالواقع ، ولا يرى ما هو قائم ، ولاحتى بالنظر إلى المستقبل الذى تفرض علينا كل الحجج الداعية للإستقلال إلى الإرتباط به ، حتى ولو كانت شريعة الإسلام هى الهدف المرتجى .

الإسلام فى كل مكان

إن عالم الإسلام يمتد على خريطة العالم ، كما يعرف الأساتذة الأجلاء جميعا ، حتى لا يترك قارة إلا وله فيها دائرة قد تتسع أو تضيق ، كما أن عالم الإسلام يضم فرقا ومذاهب شتى ، عند التطبيق ، أو حتى ممارسة الشعائر الدينية ، نجدها تختلط بالقيم المحلية الموروثة من المكان ، أى من واقع وتاريخ هذه الأمم العديدة المختلفة ، وأعفى نفسى من ضرب الأمثلة ، فهى معروفة .

ولا أريد أن آخذ أحدا بسوء النية ، لكن ألا يساهم هذا المنحى غير العروبى فى القضاء النهائى على فكرة القومية العربية بمعناها السياسى خاصة وأنه يراد لها الآن ، وفى هذه الفترة التاريخية التى نعيشها ، الشلل الكامل والنهائى ، الذى يدفع بالبعض إلى هدف معاكس لهدف المتدين الأجلاء ، وهو الإرتماء فى أحضان الغرب ، بحجة أن العروبة قد تسببت فى كوارث .

إننى أتساءل ، ونوايا أصحاب الورقة من النبل تنفى هذه النتيجة ، لكننى أصر على هذا التساؤل ، وأدعوهم جميعا إلى الإجابة عنه .

لكننى وحتى لا أقع فى تعميم مخل أؤكد على إشارة نافرة من صلب ورقة الدكتور جلال أمين ، الذى يفاجئنا هنا بمفاجأة غير مسبوقة ، بإنضمامه إلى هذه

المنظـومة الفكرية التى لم تكن واضحة لديه من قبل ، لعلها ، تدلل على صحة توجهى أكثر مما تدل على صحة توجه جل الأوراق .

أخطاء غريبة !

ففى معرض إستعراضه لإشكالية التبعية ، وتجلياتها المختلفة ، يقول الدكتور جلال أمين :

« وقد إمتدت التبعية إلى لغتنا العربية فنجد فى كتاباتنا الإقتصادية والإجتماعية الإتجاه إلى استخدام الألفاظ الأجنبية فى الكتابات العربية حتى إذا كان لدينا مقابل عربى يؤدى إلى نفس المعنى أداء أفضل أو كثرة ذكر المقابل الأجنبى بجوار الكلمة العربية حتى فى الأحوال التى يكون فيها اللفظ العربى واضحا بذاته . وكأنه دليل على سعة الإطلاع وتنوع الثقافة ، ولكن الأخطر من ذلك هو إقحام عادات التعبير الأجنبية على اللغة العربية وإخضاع اللغة العربية لقواعد التعبير الأجنبى على نحو يذهب بسلامة الفكرة ووضوحها ويشوه جمال اللغة العربية ويخل بقواعدها ، وقد يقول البعض أن المهم هو مضمون العلم وليس اللغة التى يكتب بها أو يدرس بها ، وهذا إدعاء غير صحيح لأن التضحية باللغة القومية فى التعبير يؤدى فى النهاية إلى التضحية بطريقة كاملة فى التفكير والنظرة العامة للحياة ، فاللغة تعكس هى نفسها مواقف قيمية وتفضيلات خاصة للمجتمع الذى ابتدعها ولا تتمتع بتلك الدرجة من الحياد الذى يزعم لها » .

وإننى إذ أوكد على كل كلمة فى عبارة الدكتور أمين السابقة أستطرد فى هذه النقطة التى ليست بحال ، خاصة فى مواجهة أساتذة أجلاء هم جادون بالقطع فى توجههم المشار إليه ، أقول ليست بحال مسألة شكلية .

فاظن أنهم جميعا يتفقون على أن دراسة الإسلام ، أو عرض مفاهيمه بل نسقه العـام ، تتـوقف فى المقـام الأول (وهنا أحيل إلى أوراق كل من طارق البشرى ، وعادل حسين ، وعبد الوهاب المسيرى نفسها) على فهم النصوص الأصلية (القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة المسندة) فهما صحيحا ، وأن هذا الفهم يتطلب معرفة دقيقة باللغة العربية وقواعدها ، ففهم النص يتوقف على هذه المعرفة ، لكن حين يفاجأ المرء بهذا الكم الهائل من الأخطاء النحوية واللغوية ، بل والإملائية للأسف (علاوة على الأخطاء الطباعية التى لا تقهر) وهى تنتشر فى أغلب الأوراق ، وحتى فى عناوين بعضها ، كما جاء فى عنـوان ورقة الدكتور المسيرى (هاتان تفاحتان حمراوتان) بالتاء ، وتكرر هذا فى صـلب الورقة ، فإنه لابد من التساؤل : هل تتسق هذه المعرفة البسيطة مع الإدعاء بفهم النصوص الكبرى ؟

سأسوق أمثلة قليلة :

يقول أحدهم : « ويمكن القول أنه بينما نمد « الدال » رأسيا سكونيا (كذا) يتسم بالإستمرارية والتزامن فإن المدلول أفقى ويتسم بالتعاقب .

ويقول نفس الكاتب : « ولذا فالتجربة العلمية مضبوطة إلى حد كبير ، حيد فيها بعدا الزمان والمكان إلى حد ما » وهو يقصد حيد بعداها الزمانى والمكانى .

ويقول آخر : « وتكرس ذلك بعد الحرب العالمية الثانية ، حيث ساد الإعتقاد بقدرة العلماء الإجتماعيون على إحداث إعادة تشكيل (هندسة) للمجتمعات » .

ويقول نفس الكاتب : وصاحب هذا التغير ... فقدان الأسرة لدورها فى التنشئة الإجتماعية ... حيث تولت ذلك المؤسسات الصحية المتطورة ، ودورها فى التوجيه النفسى حيث تولى هذه المهمة الخبراء النفسيين والتربويين المحترفين » .

ونحن بالقطع لانتسقط أخطاء نحوية ولغوية بسيطة ، من باب السهو ، بل ولو أنها كانت عابرة لما التفتنا اليها ، لكن إنتشارها بشكل وبائى فى كثير منها هو الذى دفعنا للوقوف أمامها ، فليس معقولا أن نكتب عن محنة والتبعية ، وخطأ التوجه التربوى السائد فى مدارسنا ، ونحن أنفسنا نعانى من نفس المشكلة ، فإنه ليعز على المرء أن يجد هذا القدر من الأخطاء فى الكتابات أناس يدعون للمعرفة الإسلامية .

فى العربية أيضا نوع من العيوب يسميه البلاغيون « التعقيد اللغوى » وآخر يسمونه « التعقيد المعنوى » وهما عيبان مرذولان فى العربية ، وإنه وإن كانت كثير من الأوراق قد اتسمت بوضوح العبارة ، إلا أن بعضها قد سلك طريق هذا التعقيد اللغوى والمعنوى ، الذى هو ليس من باب عمق العبارة ، لكنه الناشىء عن عيب كامن يقول أحدهم : وموضوع البعد الخامس بعد الاتساع قضية شائكة بين مدركات العقل ومحسوسات الأفئدة ، وتطبيقها فى مجال التشكيل ، ولقد هدانى الله فى كتاباتى المتواضعة شارحا فيها إبتكاراتى المدركة من ظواهر أحاسيس بظاهرة الاتساع .. قانونها موجود فى الطبيعة وما يجعلنى على يقين بوجوده إستنادى بقول الله تبارك وتعالى : « وإنا لموسعون » الآية ٤٧ الذاريات » وإلى آخره .

وأشهد أنني لم أفهم من هذه الجملة ولا من أغلب جمل هذه الورقة شيئًا .

تعريف كلمة التحيز

أنتقل إلى ملاحظة تالية تنصب على مسألة إجرائية ، فالجميع تقريبا قاموا بجهد واحد متكرر فى مقدمات أوراقهم ، هو تعريف كلمة التحيز ، فى صيغتها اللغوية ، وهى مسألة تدعو للتفكير ، هل هو الإرتباط بطريقة واحدة فى البحث ، أم هى

رغبة في الإتفاق على المعنى اللغوى ، أم هو نوع من إثبات الإنتماء للغة الأم التى منها ينطلقون إلى المفهوم الخاص بكل منهم فى تخصصه ؟

إننى أتساءل .

لكننى أمضى سريعا إلى لب الموضوع الذى تلخصه عبارة الأستاذ عادل حسين النابهة حين يقول :

« إن الأسئلة كافة ، والإجابات كافة ، نشأت عن المجتمع الغربى في مراحله المختلفة (وهو يقصد الأسئلة والإجابات التى سادت فى مجال البحث المعاصر) ونحن من موقع التاريخ الخاص لأمتنا ، ومن واقع التبعية والتخلف الإقتصادى نواجه أسئلة غير أسئلة الغرب ، ويتطلب هذا أن ننشىء مدارس تختلف عن مدارسه ، ويجب أن نفهم مجتمعنا ومساره الماضى وفى المستقبل فى ضوء المبادىء الإسلامية » .

وهنا فأننا بلاشك نتفق مع عادل حسين فى التشخيص الأول ، لكن مسألة « تاريخ أمتنا » التى أثارها هو نفسه ، فى هذه الجملة ، بل وفى جل ورقته ، ألا تدعو للتفكير فى هذا التاريخ بإعتباره تاريخا عربيا أيضا ؟ خاصة وهو يؤكد على أن « تراثنا هو المنطلق للتنمية » .

***

فيما قبل النهاية أعترف بأن قراءة هذه الأوراق قد إستغرقت منى وقتا طويلا وأثارت فى نفسى كثيرا من التساؤلات ، وبعضها ، كما فى أوراق الأساتذة ، راسم بدران ، ويوسف سلامة ، وفريال غزول ، ومحمد أكرم سعد الدين ، وسهير حجازى ، ومحمود الزواوى ، وسعيد عبد الرحمن ، ومحمد شومان ، وأسامة القفاص ، وصالح الشهابى ، أقول إن هذه الأوراق ، قد أفادتنى كثيرا ، ومنها تعلمت الكثير ، وإن كانت هناك نقطتان لم تتعرض لهما الأوراق ، وكنت أنتظر أن يتناولهما بعض الباحثين ، هما مسألة المرأة المسلمة ، وصورة الغرب لها ، أى مسألة التحيز فى الفهم الغربى للمرأة الشرقية ، ومسألة النموذج اليابانى الناجح الذى استفاد من إنجازات التكنولوجيا الغربية ، مع إحتفاظه بخصائص وقيم مجتمعه الأصيلة .

على أى الأحوال أعتذر عن تناول كثير من الأفكار النيرة التى وردت فى هذه الأوراق ، راجيا أن أعيد القراءة مرة أخرى ، وربما ، حين تصدر فى كتاب ، حتى أستدرك ما غاب عنى وهو كثير . لكننى لابد أن أشيد بالجهد المبذول فى تغطية جوانب العديد من قضايانا الملحة ، فى الأدب والفن ، وفى الفكر الاجتماعى والعلوم ، كما فى العمارة ومناهج الدراسة في جامعاتنا ومدارسنا ، راجيا أن يكون الحوار الخلاق قائدنا جميعا إلى نتائج محسوسة فى رحلة بحثنا عن المستقبل .

أين دور مجمع اللغة العربية من لغة العصر ؟

عادل عبد الصمد

●● يتكالب على لغتنا العربية غزو غريب وشاذ من كل جانب ، لكى يقوض ارتباطنا بلغتنا .. لغة القرآن ، ويحولنا إلى أمشاج يسهل ابتلاعها . وتكييفها على النحو الذى يريد .

يرغب فى أن يقوض الدعامة الأساسية فى كياننا ، وسهل عليه بعد ذلك أن يقوض كل الدعامات الأخرى لتنهار واحدة تلو الأخرى .

وخطر هذا الغزو ، يتمثل فى لغة السح الدح ، ... ، والسيكى بن ..وولعها ولعها ، وشعللها شعللها ، ومن أول حكة ياكبريت ولعت فى قلبى ياعفريت ، وجرحونى وقفلوا الاجزاخانات ، وعملى فيها أبو التفاتيح وأنت طلعت فشنك ومبح ، وجاى تانى هتتقر ، ده احنا اللى معانا المفاتيح .....

وما تقدم على سبيل المثال ، أجزاء من الأغانى التى تنتشر الآن وتتناقلها الألسنة واستطاعت هذه الأغانى أن تنتشر وسط الشباب بسرعة مخيفة ، تعمل جاهدة على إفساد الذوق العام بكل الوسائل الممكنة والمتاحة .

ووسط هذه العوامل الهدامة ، يكون هناك اجتماع سدنة وشيوخ العربية ، يدافعون عن اللغة العربية ويرفعون من شأنها وعقدت اجتماعات مؤتمر مجمع اللغة العربية فى دورته الثامنة والخمسين ، وفاء لحقوق العربية فى شهر يناير الماضى .

وكانت قاعة الاجتماعات قد ضاقت على سعتها بجموع الحاضرين من محبى

اللغة العربية وعشاقها من أعضاء المجمع .. كل منهم يحمل فى جعبته الكثير من الدراسات والأفكار التى يريد أن يطرحها على الأعضاء وعلى اللجان للدراسة والمناقشة ، ولحماية لغة الضاد من تيارات الغزو المختلفة ... ولكن لنا أن نتساءل : هل استطاع المجمع أن يواكب لغة العلم والحضارة على مدى دوراته الثمانية والخمسين ؟ أم أن المجمع اللغوى أصبح صومعة اعتزل فيها العلماء ؟ ..

فى الحقيقة ومما لا شك فيه أن لغة العلم والحضارة من المشاكل الكبرى التى عنى بها مجمع اللغة العربية منذ إنشائه ، ولقد ورد هذا صراحة فى المادة الأولى من مرسوم القانون الخاص بإنشائه ، فقد نص على :

« إن المجمع يضطلع بعبء مواجهة متطلبات العلم والحضارة » .

والمتتبع لدورات مجمع اللغة العربية وتوصياته وإنجازاته ، يدرك الجهد المبذول فى خدمة لغة « الضاد » والحرص الشديد عليها ، ولكن الأمر كله يتعلق إلى قرار واحد ، يصدره « صاحب القرار » كى تصبح التوصيات حقيقة واقعة لا سبيل إلى الرجوع عنها ، ويكون لها قوة التنفيذ والأخذ بها والالتزام بهذه التوصيات إجباريا فى جميع الأجهزة الثقافية والتعليمية ...

ونحاول هنا تتبع بعض مجهودات المجمع من خلال دورته الثامنة والخمسين لنرى قيمة الجهود المبذولة فى خدمة اللغة والعلم حيث قدمت فى المؤتمر العديد من الدراسات والبحوث منها دراسات حول مصطلحات فى الفيزيقا ... الجيولوجيا ، علوم الاحياء والزراعة ، الحاسبات وفى الرياضيات ، الجغرافيا ، العلوم الطبية ، التربية الرياضية .. الهندسة الميكانيكية ودراسات فى تاريخ الكلمة ، الإعراب مفهومه ودوره فى العربية ، العامى الفصيح من المعجم الوسيط ... التعريب قبل فوات الأوان ، الكلمة الأجنبية فى الوثائق الدبلوماسية العربية ، التعريب بين الفكر والعالم .

وقد أنجز المجمع خلال هذه الدورات عشرة معاجم علمية وحضارية تفيد فوائد كبرى ، فى تعريب العلوم ، ويجرى الآن الإعداد لإخراج معجمى النفط والقانون ، وسوف المجمع بإخراج معجم نفيس لألفاظ القرآن الكريم وله ثلاثة معاجم لغوية .

حماة اللغة

وهذه إنجازات تدل على جهود يقظة لا يعيش أصحابها فى بروج عاجية ، بل هم حماة اللغة ، يتعايشون معها ومع العصر ، ولذا اختار المجمع هذا العام قضية مهمة لتكون المحور الذى تدور حوله المناقشات .. هى « تعريب التعليم الجامعى » ، والعمل على إقراره فى الجامعات العربية ، وبيان العوائق التى تقف دونه .



د. شوقي ضيف



حسين كامل بهاء الدين

تعريب العلوم

وقد أوضح الدكتور شوقي ضيف أهمية التعريب ، وبين في كلمته « أنه لايزال كثيرون من علمائنا في الكليات العلمية يرون أن يظل تعليم العلوم فيها ، باللغات الأجنبية ، محتجين بأن المصطلحات العلمية في كل علم غربي تتكاثر يوما بعد يوم ، بحيث تصعب متابعتها وحصرها ثم تعريبها ونقلها إلى لغة الضاد ، وهي حجة واهية ، إذ صعوبة شئ لا تمنع من تذليله ، والمعروف أن سوريا سبقت إلى هذا التعريب منذ فترة غير قليلة ، وحرى بشقيقاتها العربيات أن تحاكيها فيه حتى تعود لنا نهضتنا العلمية القديمة ، وحتى يتكامل للعربية في عصرنا وجهها العلمي بجانب وجهها الأدبي ، وحتى تنقذ الشباب العربي من التمزق بين لغة قومية أو لغات أجنبية .

وتعميق مفهوم أن تعريب التعليم في جميع مراحله ولا سيما الجامعية أصبح ضرورة حتمية لتحقيق أهداف أمتنا العربية ، في اللحاق بركب الحضارة الحديثة والتخلص من التبعية الفكرية ، وذلك من خلال بناء تربوي يفضي بأمتنا إلى الإبداع العلمي ، وصنـــع تقنيـاته من ناحية ، ومن ناحية أخرى يفضي بها إلى المحبة والتآخي والوحدة .

وذكر الدكتور محمد رشاد الطوبي في كلمته « إن تعريب التعليم الجامعي ليس بالصعوبة التي يتصورها البعض ، بل إنه في غير حاجة إلى هذا الضجيج المفتعل ، الذي يثـار حـوله من آن إلى آخـر ، وبالأخص من أولئك الذين يمجـدون كل ما هو أجنبي .

وتحدث الدكتور حسين كامل بهاء الدين وزير التعليم قائلا :

« إن قضايا لغتنا القومية يجب أن تأتي في مقدمات القضايا الأخرى ، فهي تتصل بماض عريق ، وتراث فريد ثرى يزهو على مر العصـور بخلود شموخه وحاضر متجدد يتطلع إلى المزيد من البحث والاستقصاء ، وتنوع الدراسات والمعارف المواكبة لثورة العلم والمعلومات ، لتنطلق من القاعدة القومية لتراثنا المجيد للتحليق في سماء العلم والمبتكرات والاكتشافات في عديد من المجالات التي تنطلق منها ثورة التكنولوجيا ، والاتصالات في العالم كله لتلحق بركب هذا التطور المذهل السريع .

مواكبة التطور

ولغتنـا القـومية بثراء تراثهـا ومستحدثاتها تمكنها من القبض على ناصية الأمور .. لا يجوز لها أن تتخلف عن ركب ثورة العلم والمعلومات .. فهي

البحر وفى أحشائها الدر كامن .... ولكن ما قيمة أن يبقى هذا الدر كامنا لا يستخدم ، ولا يطوع كما يطوع الذهب وبقية الجواهر الثمينة واللآلئ فى صنع عقود يتحلى بها جيد الزمن ، وتتدلى ثرياتها لتشرق على الدنيا بكل ما هو جديد ومفيد فى عالم الفكر والفن والأدب والعلم والتكنولوجيا الحديثة .

موقع اللغة من التطور

وناقش الدكتور عبد الكريم خليفة رئيس مجمع اللغة العربية الأردنية قضية التعريب متسائلا :

« أليس من الواجب علينا أن نتساءل أمام هذه الأحداث الكبار ، عن موقع أمتنا من هذا كله ؟ وعن دور لغتنا العربية كوسيلة للتعبير ، وأداة للتفكير ، وفوق هذا كله فهى لغة القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ، وهى التى تعطى لأمتنا هويتها ، وتكون جوهر وجودها ، ولا سبيل لنا من أجل المشاركة الأصيلة فى هذه المرحلة التاريخية من التطور العلمى إلا بالتعريب ، وجعل العربية لغة العلم والتقنيات الحديثة ، ولا يتم هذا إلا بتعريب العلوم والنقل المستمر إلى العربية كل ما يجد فى جميع مجالات المعرفة منشورا فى المصادر والمراجع والدوريات العلمية وكما أنه لا خيار لقطر أو سلطة أو رئيس للانسلاخ عن هويته العربية الإسلامية ؟ فإنه لا خيار أمام التعريب الشامل بعامة وتعريب التعليم الجامعى بخاصة وإذا أردنا أن نستعيد دورنا العلمى والحضارى ، وأن تحيا أمتنا العربية الحياة الحرة الكريمة .

فقد بات من الضرورى الخروج من الأحاديث النظرية المكررة عن تعريب التعليم العالى والجامعى ، إلى البدء بالتنفيذ وفق خطة دقيقة ومفصلة تشمل جميع المجالات العلمية سواء أكان ذلك فى ميادين العلوم الإجتماعية والإنسانية أم فى ميادين العلوم النظرية والتطبيقية » .

وتأتى توصيات المؤتمر فى النهاية مؤكدة على أهمية التمسك بالفصحى وخاصة فى وسائل الإعلام المرئية والمسموعة ، وبتحفيظ القرآن للناشئة والتمسك بالحرف العربى ، فى كتابة لغاتها القومية ، وفى الكتابة باللغة الفصحى ، ويوصى المؤتمر بالحرص على ألا تكون اللغة العربية هى اللغة التى تلتزم بها جميع وسائل الإعلام .. وغير ذلك من توصيات ..

وفى النهاية نجد أنفسنا أمام السؤال الملح والدائم ، لماذا لا تجد توصيات المؤتمر ونتائج دراساته العلمية والرسمية طريقها للتنفيذ وخاصة القضايا التى تتعلق بهوية أمتنا ولغتها ووحدتها وذوقها السليم ، وقضية تعريب التعليم الجامعى ، ولماذا أخفقت حتى الآن المؤسسات العربية عن تحقيق الأهداف التى وجدت من أجلها ؟

وكيف ننقذ شبابنا من الإسفاف المنتشر من أغانى الكاسيت التى تنتشر بسرعة وتسيطر الآن على الذوق العام ؟

مكتبة الهلال



الكتاب : تأملات فى مسألة الأقليات تأليف: د. سعد الدين إبراهيم
الناشر : دار سعاد الصباح
٢٥٢ ص

يعد هذا الكتاب واحدا من الكتب القليلة الجادة عن الطوائف والجماعات العرقية فى الوطن العربى ، وهو ، كما يقول مؤلفه ، موجز تلخيص لعمل أكبر وأكثر تفصيلا سيظهر قريبا ، يؤمل أن يسهم فى فهم أكثر عمقا وممارسة أكثر عقلانية فى التعامل المنصف مع المسألة العرقية فى الوطن العربى .

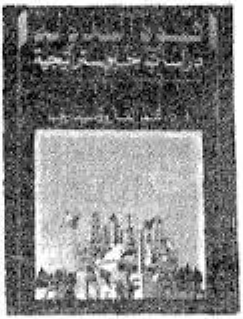
يقول الكاتب : لقد استغرق انجاز العمل التفصيلى الذى أقدم له موجزا فى هذا الكتاب ، أكثر من عشر سنوات ، بل إن الاشتغال بموضوع الأقليات والطوائف والجماعات العرقية فى الوطن العربى يشغل هذا الكاتب منذ ربع قرن على الأقل ، وقد بدأت معالجاتى الأولى للموضوع - باستحياء وتردد - على صفحات مجلة دراسات عربية فى أواخر الستينيات ، وخاصة بعد هزيمة ١٩٦٧ .

يقول الكاتب أيضا : يشهد العالم كله ما يمكن تسميته بصحوة الأقليات القومية والعرقية ، ورغم أن الشكل الدرامى لهذه الصحوة يتجلى منذ بداية التسعينيات فى كل من الاتحاد السوفيتى ويوغوسلافيا ، فإن هذه الظاهرة ليست جديدة على الوطن العربى ، فمعظم الصراعات الأهلية العربية المسلحة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية كانت حول هذه المسألة بل إن ما نعتقد أنه الصراع الرئيسى فى المنطقة ، وهو الصراع العربى الإسرائيلى حول فلسطين ، لم يستنزف من الدماء العربية قدر ما استنزفته الصراعات الأهلية العربية المسلحة . فهذه الأخيرة قد استنزفت ثلاثة أمثال ما استنزفه الصراع العربى الإسرائيلى من دماء عربية . إن من استشهدوا فى كل حروب العرب مع إسرائيل يقدر بحوالى ١٥٠ ألفا ، بينما يقدر عدد من قتلوا فى الحرب الأهلية فى ثلاثة أقطار عربية فقط «فى العراق ولبنان والسودان» بحوالى

نصف مليون من مواطنى هـذه الأقطـار . ونفس الشئ ينطبق على الموارد المالية و المادية الأخرى .

وبعـد كل الأزمـات والنكبـات فإن الكاتب أصبح يعتقـد اعتقادا جازما أن أحد أسباب هـذه النكبات هو عدم التصـدى الموضـوعى الجرئ لمشكلاتنا الداخلية والإقليمية ، فإذا كان لنا أن نعيـد البنـاء وطنيا وقوميا لنواجه حقائق ومتغيرات عصرنا ، فلا ينبغى أن نتـردد فى الاجتهاد .

* * *



الكتـاب : قوة الدولة.
تأليف : د. عمر الفاروق
الناشر : مكتبة مدبولى.
٢٠٤ ص

تتضمن هذه المجموعة من الدراسات – كما يقول مؤلفها – عرضا لعدد من نظريات القوة ولبعض من مقوماتها وطرق قياسها المنهجيـة والتطبيقية ، متبينة لها مفهوما يتجاوز معناها العسكرى الضيق إلى إطارها الحضارى الأشمل ، وتتجلى القوة – فى هذا الإطـار – كحركة تاريخيـة عميقة الجذور متنامية مستمرة ، منطـوية دائمـا على مستوياتها ونماذجها هذه التى تختلف من مرحلة لمرحـلة ومن منطقة لأخـرى ، مرتبطة فى جميع الحـالات بالسلم والحـرب معـا ، محليا وإقليميا وعالميا .

من هنا أصبحت قوة الدولة من الاهتمـامات الأساسية فى الدراسات الجيوستراتيجية ، وذلك باعتبارها المحصلة الأخيرة لمجموع الموارد الطبيعيـة والفعاليات الاقتصـادية ، والبيئة السكانية والثقـافية ، ونظمهـا السـياسية والإدارية ، وعـلاقاتها الـدولية ، وقـوتها العسـكرية ، وليست المحصـلة – كما يؤكد المؤلف – مجـرد مجموع العناصر فى حد ذاتها ، بل وأيضا فيما ينشأ بين تفصيلاتها من علاقات ، وما يتداعى عن تفاعلاتها – داخليا وخارجيا – من نتائج واحتمالات ، وغير ذلك مما يتصل بالآلاف من العناصـر التفصـيلية والمتغيرات شبه اليومية .

* * *



الكتاب : الرابطة الخطرة .
تأليف : أندرو / لسلى كوكبورن
ترجمة : أحمد صدقى مراد .
الناشر : العربى للنشر .
٢٤٢ ص، ٤ ج. م

يقول الدكتور محجوب عمر فى تقديمه لهذا الكتاب : أنه سيضاف إلى سلسلة الكتب التى تتكلم عن الاستخبارات الإسرائيلية والأمريكية . ولكن قارئه سيتبين من الصفحات الأولى أن مؤلفى هذا الكتاب ليسا متعاطفين مع المخابرات الإسرائيلية إن لم يكونا بالفعل من خصومها .

وقد رختار الكاتب أن يبدأ الفصل الأول بمشهد سينمائى مريع يصور قافلة من خمسين سيارة ركاب تنقل سائحين من فنادقهم في تل أبيب إلى معسكر إسرائيلى فى المنطقة الشرقية من مرتفعات الجولان . وأبلغ الكاتب القارئ بأن هؤلاء السائحين قدموا من أمريكا لزيارة معالم إسرائيل وأنهم سيشاهدون الجيش الإسرائيلى أثناء مناورات .

الذين يعرفون أن المناورات العسكرية الجدية لا تجرى أمام أنظار السائحين يتساءلون عن سر هذه الترتيبات الإسرائيلية والنتيجة هى أن هذه الاستعراضات التى تقدمها السلطات الإسرائيلية للسائحين الأمريكيين هى جزء من حملاتها لمواصلة التبرع لإسرائيل .

والكتاب أصلا منشور فى أمريكا ، والكاتبان أمريكيان ، وسياق الرواية كله يركز على الوجه القبيح للموساد ، دون أن يعنى ذلك أنه يبرئ الطرف الأمريكى من الاشتراك فى الأفعال المذكورة ، ولكنه يميل دائما إلى تقديم الدور الإسرائيلى باعتباره الطرف المستعد دوما للقيام بالأعمال القذرة لحسابه الشخصى أساسا وليس لصالح الولايات المتحدة ، بل واستعداده للخروج حتى على ما يتم الاتفاق عليه بين الطرفين .

* * *

الكتاب : ٧٥ عاما من تاريخ الحركة النقابية .
تأليف : عبد المنعم الغزالى .

الناشر : العربى للنشر .
٤٥٢ ص .

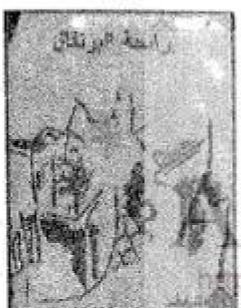


يعترف مؤلف الكتاب، وهو يحدد دوره بقوله : وأول ما أريد أن أؤكد عليه هو أن هذا الكتاب الذى أعالج فيه تاريخ الحركة النقابية العمالية ، ليس كتابة لتاريخ الطبقة العاملة المصرية ، لأن كتابة مثل هذا التاريخ تعنى كتابة تاريخ مصر الاقتصادى والسياسى خلال مائتى عام ، منذ ولاية محمد على وإقامته للصناعة المصرية «الحديثة» ، وعنايته بإنشاء وسائل الرى والصرف والقناطر والسدود والترع .. وكل منشآت كانت مملوكة للدولة .. المهم أنه كانت هناك طبقة عاملة لدى حكومة محمد على ، تعمل فى الصناعة وليس وفق نظام الحرف والطوائف والذى ظل يعيش جنبا إلى جنب مع الانتاج الصناعى الحديث المستخدم لعمالة لا تملك غير قوة عملها تبيعها للمنظم بالسعر الذى يفرضه ، أى الأجر .

ودراستنا لتاريخ الحركة النقابية تؤكد لنا أن الإدارة والسلطة الرأسمالية روجت دائما لأن يكون المصدر التسيير اليومي والذاتي للحركة هو من القمة ، أي بالقرار الصادر من القمة دون حوار مسبق يدور بين مختلف الآراء والتوجهات، وعلى نطاق التنظيم كله ، من قاعدته إلى قمته . شاملا كل مستوياته .

وتؤكد لنا الحركة النقابية المصرية ومن خلال كتابة تاريخها أنها سباقة بمواقفها الوطنية المعادية للاستعمار ، الأمر الذى جعلها دائما صاحبة تاريخ طويل من النضال من أجل وحدة كل القوى المناضلة ضد الاستعمار ، وهى ترفض كل دعوة لإحداث فرقة فى كلمة المصريين لأن مثل هذه الدعوة إنما تكون فى صالح الاستعمار .

***



الكتاب : رائحة البرتقال .
تأليف : محمود الوردانى .
الناشر : شرقيات .
١١٦ ص .

فى هذه الرواية تمتد تجربة محمود الورداني الكتابية إلى الخطوة الأهم

في مسيرته ، حيث تبدو الصورة الكلية مبنية من الدقائق الصغيرة للحياة اليومية ، وخلال هذه الرحلة التي تلتقطها عينا الفنان بعمد وتربص تتشكل الصورة لتجسد حركة الأشياء والأشخاص من حول الراوية الذي يبدو مندهشا ، مشتاقا للرواء الذي لا يجد من يمده إليه، سوى الملاحظة ، ملاحظة الحنايا المضنية ، والأشواق المعذبة التي تتكسر على قسوة الحياة ، والخوف من الفناء الذي يتربص به .

يقول الراوية : خففت من سرعتي عندما وصلت إلى أول السور . كانت الدنيا أمامي خالية وسيئة يلفها الظلام، وكان البرد شديدا والرياح تحمل ترابا يملأ الحلق ويبعث على الاختناق ، حملت الطفل . لا .. الطفلة . نعم الطفلة ، في حضني وجعلت وجهها في صدري، وكفي الأيسر يسند رأسها . ولما رفعت رأسي أصابني الدوار وشككت في أن هذا السور ، من ورائه تلك المدرسة التي قضيت فيها ردحا من الزمن ، لو كانت هي حقا ، لأمكنني أن أحدد أشياء كثيرة : على الأقل أن أسير مطمئنا ، مهتديا إلى الخطوة التالية التي على أن أحزم أمري على اتخاذها .

ولأنها رواية مجددة فإن عملية تلخيصها ، علاوة على استحالتها فإنها أقرب إلى تشويهها، ولذلك نحيل القارئ وندعوه لقراءتها فهي عمل جدير بالقراءة .

الكتاب : ما أبقت الأيام



مني (ديوان شعر)
تأليف : كمال عمار
الناشر : دار الضياء - القاهرة
٨٠ صفحة من القطع الصغير

الديوان صغير في حجمه ، قليل في صفحاته ، ولكنه كبير في مادته ، كثير في محتواه ، فهو لشاعر « مخضرم » ينظم الشعر منذ بضعة وأربعين عاما ، وإن كان يدعي أنه مازال في شرخ الشباب ، وأنه من أبناء « الموجة الجديدة » و« الجيل الصاعد » ! إن الشاعر المطبوع

- الذى ينظم عن طبع لا عن تكليف - كمال عمار هو أحد الشعراء القلائل فى مصر الآن الذين يهش المرء لرؤية دواوينهم لثقته بأنها تحمل اليه شعرا حقيقيا يستمتع به، بعكس ما يحدث عندما يرى الانسان ديوانا لهذا الشاعر أو ذاك من أدباء هذه الأيام فإن الاكتئاب يسارع إليه، فلا يملك إلا أن يرفع كفيه إلى السماء داعيا الله أن يكشف عنه هذا البلاء الذى يصبه عليه هؤلاء الشعراء، كما صب نابليون بونابرت وابلا من «القنبر» على أهل القاهرة قديما فصاحوا فى ابتهال: يا خفى الألطاف، نجنا مما نخاف!..

وديوان شعره هذا الصغير الكبير يحتوى قصائد متكاملة الأوزان، وأخرى من أوزان التفعيلة، وهو يجيد فى الحالتين، وتنسجم شاعريته انسجام الماء العذب فى الأوزان وفى التفعيلات، ولغته هنا وهناك عربية فصيحة لا عجمة فيها كلغة أدعياء الشعر الذين تكاثروا فى الزمن الأخير حتى صاروا أكثر من الهم والغم على قلوب الناس!

ومن الصعب اختيار قصيدة من هذا الديوان الممتلىء شعرا - بمعنى الكلمة حقا - فنكتفى بما تقوله قصيدته المسماة «زمن الحرية»:

أخرج مختاراً من دائرة الضوء
ويكامل كل قوى العقلية
أسقط من ذاكرة التاريخ
المصبوغ الفودين..
المشبوه الجنسية..
حتى لا أصبح خصماً أو حكماً
فى زمن محترف للقتل العمد
سوق عكاظ امتلأت بالكلمات
الشائهة الأشداق الكاذبة الصوت
بالرايات الزائفة النسبة
كل يغرق فيما هو فيه
لا يعنيه.. ماذا بعد
لن يصرفنا شىء عن تقسيم الفىء
وليذهب للشيطان الصوت الصارخ فى البرية
حين يكون الصمت كلاماً
لابد من الصمت!..
فى زمن يعطيك الحرية
كل الحرية..
أن تختار الموت.. أو الموت؟

هذا هو الشعر الحق فى التفعيلات النابضة بالحياة!.. إن الشاعر «المطبوع» كمال عمار يستعلن فى ديوانه هذا الذى يغنى بصوت حقيقى وسط حشد الأصوات الزائفة!..

لغويات

● في تاريخ الدولة العباسية خليفتان ، أحدهما ، اسمه « الطائع » والآخر اسمه «المطيع» أما الطائع فمن الفعل « طاع » . . أي انقاد وسمع الأوامر ، وأما المطيع فمن الفعل « أطاع » والفرق بينهما الألف ذات الهمزة ، والمعنى واحد ! .. ويروى التاريخ أن هذين الخليفتين كان لهما من اسمهما أوفى نصيب ، فقد كانا طوع أوامر العساكر الأتراك المتحكمين في دولة الخلافة ! ..

● سمعتهم في اذاعة لندن يقولون : « صَمَّام الأمان » أو « صَمَّام الزجاجة » بفتح الصاد وفتح الميم وتشديدها .. وهذا خطأ ، والصواب « صِمَام » بكسر الصاد وفتح الميم التي بعدها بلا تشديد ، أما الصمام الذي تتحدث عنه إذاعة لندن فشيء آخر ..

● يكثر الكلام الآن عن نهري دجلة والفرات في العراق ، ويُطلق عليهما من قديم اسم «الرافدين» .. وليس هذا الاسم بمثنّى في حقيقته ، فلا يقال للواحد منهما «رافد» بل يُطلق اسم «الرافدين» عليهما مجتمعين فلا يفترقان .. ومن هذا القبيل الكلمة المشهورة : «الثَّقَلان» بفتح الثاء المشددة وفتح القاف .. وقديما اشتهر أبو العتاهية بقوله : « مات الخليفة أيها الثقلان » فإن الثَّقَلَيْن هما الإنس والجن ، أو العرب والعجم، ولاتجيء « الثقلان » إلا في صيغة المثنى وليس لها مفرد .. ومثلها «الخافقان» أي المشرق والمغرب ، فلا يمكن إفرادهما ..

● العامة تسمى القطار البطيء الذي يقف على جميع المحطات كبيرها وصغيرها : «القَشَّاش» .. وهو استعمال صحيح في رأينا ، لأن الفعل «قش .. يقش» قريب المعنى من الفعل «جمع .. يجمع» .. ويقال : قش الجائع الطعام ، أي أكل كسر الخبز وجمعها من هنا وهناك ، وكبيرها وصغيرها والرجل الذي يجمع القُشاشة يُسمَّى القشَّاش ، وبينه وبين القطار القشاش نسب ظاهر ! ..

● كان اللسان الفصيح لايقل أهمية عند العرب القدماء عن السيف القاطع فقالوا : فلان ذَرِبُ اللسان ، أي حاد كالسيف ، لأن الذَّرَبَ صفة للسيف الحاد ، وقالوا : عضب اللسان ، أي قاطع كالسيف العضب الذي لانظير له ، وعكسه اللسان الكليل ، كالسيف الكليل الذي لايقطع .. واللسانُ الكَهَامُ كالسيف الكهام ، وهو عكس السيف الحُسَام القاطع .. ونخشى أن يكون العرب قد فقدوا اللسان والسيف معاً في الزمن الأخير ! ..

أديب .. من النوبة

بقلم : د . أحمد حسين الصاوى



● ما الذى يعرفه أبناء مصر المعاصرون عن النوبة ؟ إن الغالبية العظمى من المصريين « المتعلمين » لا تكاد معلوماتهم تزيد - فى أحسن الفروض - على أن النوبة إقليم يقع فى جنوب مصر ، وأنه موطن السد العالى ومعبد أبو سمبل ، وأن أهله سمر البشرة ، وأن آلافا مؤلفة منهم يعملون فى مختلف أقاليم مصر ، وبخاصة فى القاهرة والاسكندرية ، وقد يتحذلق البعض فيضيف أن للنوبة فنونها الشعبية ، وأن كثيرا من أهلها تم تهجيرهم إلى قرى « النوبة الجديدة » ، بعد أن أغرقت مياه السد العالى قراهم القديمة .

والحق أننا قد ظلمنا هذا الإقليم العزيز كثيرا . فنحن لا نعرف عنه ما يكفى ، مع أنه جزء لا يتجزأ من الوطن الواحد الكبير . ونحن أغفلنا العناية بأمره قرونا ، وأهملنا مساعدته على تنمية تراثه الخاص المتميز .

إن معظمنـــا ، حـكاما ومحكـومين ، لا يعرف أن النوبة (بلاد الذهب) بسماتها الحامية القديمة تمثل أحد الروافد الأساسية التى اشتركت فى تكوين بنية الشــعب المصرى وحضـارته منـذ آلاف السنين . ومعظمنا لا يعرف كذلك أن النوبة لعبت طوال التـاريخ المصرى القديم دورا فاعلا ومؤثرا فى حياة مصر ، وبرز دور النوبيين بوجه خاص فى بداية عهد الدولة الحديثة . وعلى سبيل المثال اشتركت قوات نوبية فى حركة الكفاح المسلح لطرد الغزاة الهكسوس . وكان «أحمس بن أبانا» - أحد قواد البطــل أحمس - نوبيـا من منطقـة «الكاب» . وكذلك أصبحت أهم المدن النوبية مراكز ثـــابتة لعبادة أبى الآلهــة المصـــرية «آمون رع» .

وكثيرا ما ننسى أن الأسرة الخامسة والعشــرين من فــراعين مصر التى حكمت نحو قرن من الزمان تتكون من ملوك نوبيين كان أولهم وأطـولهم عهـدا «بعنخى» ، وله تمثـال رائع بالمتحف المصرى .

ولقد كانت النوبة هى الإقليم المصرى الوحيد الذى دفع أكبر ثمن وتحمل أفدح عبء فى سبيل إقامة بعض المشروعات الكبرى التى استهدفت رخاء باقى القطر المصرى ، عن طريق توسيع الرقعة الزراعية . فقد أغرقت مياه النيل جزءا من أراضى النوبة بعد إقامة « خزان أسوان » فى أوائل هــذا القـرن ، ثم أتت عـلى كثير من القرى النوبية بعد إنشاء « السد العالى » فى الستينات .

إن النوبة بحضـارتها الموغلة فى القدم ، وبتراثها المتميز عبر مختلف العصور ، وبدورها البارز فى حياة مصر منذ ما قبل الاسرات ، لتمثل نموذجا فريدا فى التاريخ البشرى . فبقدر احتفاظها بخصـائصهـــا الاثنوغرافيـــة واللغــوية وبموروثها الفولكلورى ، فقــد ظلت دائمـــا - مع هذا التفرد - جزءا لا ينفصل عن الكيان المصرى الكبير . واستطـــاعت على مدى العصـــور أن تحقق توازنـــا دائما بين طرفى هذه المعادلة .

على أن ما مرت به النوبة من ظروف قاسية فى القرن الحالى ، وما أصاب شعبها من شدة ، قد أثر كثيرا على تماسكها ، وأحدث شروخا واضحة فى بنيتها ، مما أقلق كثيرا من أبنـــائها الذين تحركوا ليعملوا على تأكيد هويتها وتوضيح معـــالم شخصيتها ، وبخاصة بعد أن ارتفعت بينهم نسبة المتعلمين والمثقفين .

الحفاظ على الشخصية النوبية

ومن هنا اشتد اهتمام أبناء النوبة مؤخرا بدراسة تاريخ بلادهم وحضارتها . وحاول المبدع النوبى والفنان النوبى أن يقدما إلى مواطنيهما المصريين ما يبرز ذاتية ذلك الإقليم « المجهول » ، ويلقى الضوء على خصائصه ، ويرسم له أجمل اللوحات وأدق الصور .

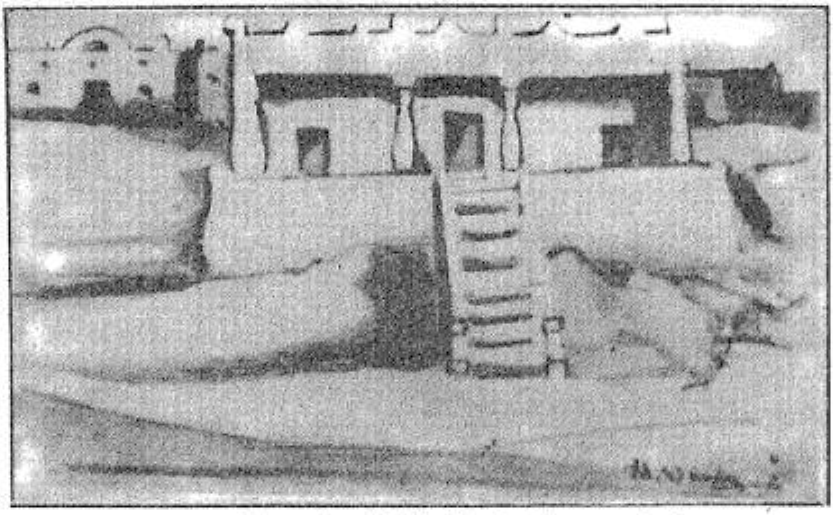
ويطول الحديث عن الجهود الجبارة لشباب النوبة الحديثة فى سبيل الحفاظ على الشخصية النوبية ، رغم ما توالى عليها من محن وأرزاء ، وفى سبيل إسماع صوت النوبة وعرض فنونها الأصيلة ، والسعى لتحقيق مكان متميز للابداع النوبى على الساحة المصرية .

ومن خلال تلك التطلعات النوبية النبيلة استمتعنا ، نحن أبناء سائر الأقاليم المصرية ، بمشاهدة فنون النوبة الشعبية ، وبقراءة أدب نوبى رائع ، وبالاستماع إلى غناء نوبى عذب . ولاشك أن أعمال الراحل محمد خليل قاسم وحجاج حسن أدول وعلاء حمزة ومحمد منير ومحمد حمام وغيرهم وغيرهم قد استطاعت أن تجد لها طريقا سهلا إلى وجدان المتذوق المصرى وقلبه وعقله جميعا .

والأديب « يحيى مختار » هو أحد هؤلاء المبدعين من حملة المشاعل النوبية الذين يضيئون بإبداعهم طريق الرؤية الصحيحة لمجتمع النوبة ، بكل قيم هذا المجتمع وتقاليده وموروثاته ومشكلاته ، بل وبطبيعته الفطرية الساحرة وبنيته التى تفرد بها عبر الزمان .

لقد عرفت يحيى مختار فى صدر شبابه ، وكان طالبا طموحا وواعدا ونقيا . ولكنه ، مع نخبة من خيرة شباب مصر فى أوائل الستينات ، تعجل حركة التاريخ ، واندفع مع زمرته فى التفكير والتدبير ، فكان الصدام الحتمى مع قوى لا يطيقونها وأصابتهم المحنة . وكان على يحيى مختار بعد محنته أن يهدئ من إيقاع فكره وأن يطامن من فورة اندفاعه وأن يتلمس سبيلا آمنا لحياته يكفل له العيش المستقر ، فابتعد مضطرا عن طريق الكلمة المكتوبة ، وإن لم ينقطع عن القراءة والتأمل ، حتى آن الأوان أخيرا ليطلع على الناس بإنتاجه المتميز ، بعد أن اختزن فى أعماقه بذور هذا الإنتاج طويلا .

ولعل من أهم هذا الإنتاج قصته التى نشرها مؤخرا فى إحدى مجلاتنا الأسبوعية بعنوان « الجدار الزجاجى والزمان النوبى » . وتقدم هذه القصة ، بلغتها البسيطة وأسلوبها الأخاذ ، صورة لأسرة نوبية حديثة . فالأب فنان تشكيلى له مرسم كبير ، وزوجته سيدة متمدينة ، وبناته الثلاث حصلن على قسط وافر من التعليم . وتحيا هذه الأسرة حياة « حديثة »



نموذج من مساكن بلاد النوبة للفنان « أدهم وانلى »

عادية فى القاهرة . غير أن المشكلة الكبرى التى تمثل ذروة الصراع بين مقومات هذه الحياة الحديثة وبين التقاليد النوبية التى يتمسك بها عثمان رب الأسرة ، كما يتمسك بها آلاف غيره من الآباء ، هى : لمن يزوج بناته ؟ هـل لشبان من أبنـاء مصر العاديين ، أم لشبان نوبيين ؟ وهذه المشكلة التى تؤرق عثمان وتقلق بناته ، كما تؤرق كثيرا من الآباء النوبيين وتقلق بناتهم ، بعد أن هجروا النوبة إلى القاهرة وغيرها حيث يحيون حياة عصرية ، بل لعلها تؤرق يحيى مختار نفسه (فهو يشغل وظيفة مرموقة فى العاصمة ووالد لثلاث فتيات) ، هى من أهم المشكلات الاجتماعية ذات الدلالة العميقـة التى تواجـه الأسرة النوبيـة الحديثة .

ولقد صدر للكاتب بعد ذلك مجموعة قصصية بعنوان « عروس النيل » تضم أربع قصص ، هى : عروس النيـل ، واقعة ، الطرد ، حكاية للنسيان . والقصة الأولى تقدم لنا مأساة نوبية أليمة ، بطلتها فتاة راحت ضحية لتحالف الجهل والفقر وخلل البناء الاجتماعى . وفى هذه القصة استطاع الكاتب أن يوفق باقتدار بين مرارة الواقعية وشفافية الرمز . ففريدة هى فتاة القرية الساذجة التى غُرر بها ولقيت من العذاب أشده ، ثم ألقت بنفسها فى مياه النيل ، فتحولت إلى رمز أسطورى قديم ... عروس النيل التى كانت تفدى وفاء النهر بروحها . وهى النوبة نفسها التى جار عليها الوطن الأم . والكاتب يوظف لقصته لغة شاعرية عذبة يقدم من خلالها صورة حية نابضة للحياة فى قرية نوبية نائية .

والقصة الثانية « واقعة » ذات مضمون غريب غير مألوف . إنها تحكى قصة لاجئ

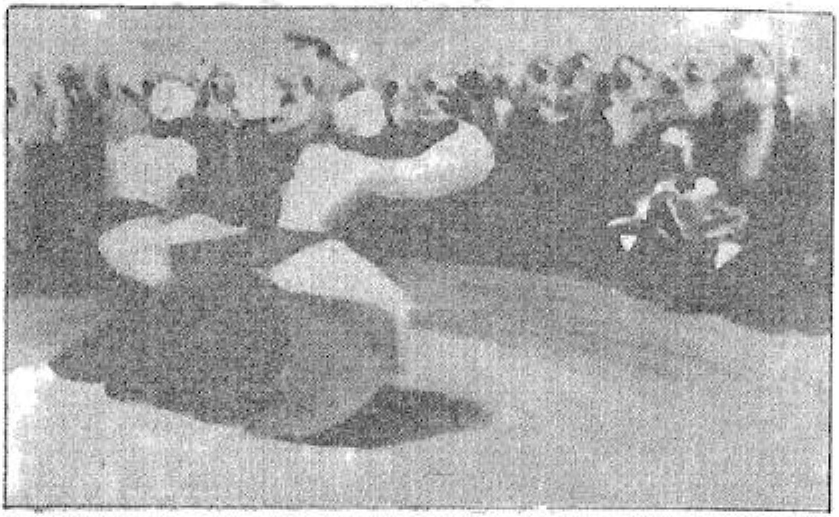
إلى النوبة من قرية في الشمال (الصعيد) وما يلقاه هذا الغريب من معاناة في مهجره الجديد الذي احتمى به من خطر مميت يحدق بحياته . ولكن مجتمعه الجديد ، القرية النوبية القابعة في حضن النيل ، لم تتقبل مقامه فيها بسهولة ، فعاش شبه منبوذ ، ويكشف الحوار الذكي بين اللاجئ الصعيدي محمدين وصاحبه النوبي حسن عن ذلك الاختلاف الكبير - بل التناقض - بين بعض قيم الصعيد وتقاليده وما يقابلها في النـــوبة . بين قسوة الثأر وهمويتـه ولا إنسانيته هناك وبين السماحة والتراحم والتعاطف هنا . ومع ذلك فقد ضحك القدر طويلا عندما أقام بعض شباب القرية على محمدين حدا استقوه من شرعة بدائية قديمة لجريمة لم يرتكبها ، فاغتالوا رجولته في ليلة ليلاء ! ويثير ذلك الحادث الأليم الذي انتهت به القصة تساؤلا كبيرا ، فهل هو المعادل الموضوعي أو رد الفعل لمعاناة النوبيين في مهجرهم بالنوبة الجديدة ؟

والقصة الثالثة « الطرد » تجسد معاناة الفراق بين الأب المكافح في سبيل لقمة العيش في القاهرة وأسرته الصغيرة في النوبة ، التي تتلهف على أخباره وتنتظر في لهفة واشتياق ما يبعث به إليها بين حين وآخر من مال يسير أو هدايا متواضعة أو حتى كلمات قليلة تبل الظمأ وتطفئ لواعج الشوق .

ونموذج أسرة « محمد حسن كاشف » في هذه القصة هو نموذج نمطي مألوف عرفته النوبة منذ عشرات السنين ، عندما بدأ الجدب يجتاح القرى النوبية عقب إقامة « خزان أسوان » ، واضطرار الآلاف من الشباب النوبي إلى الهجرة للقاهرة والاسكندرية وغيرهما ، لالتقاط الرزق من شتى الأعمال التي عرفوا بإجادتها ، تاركين وراءهم زوجاتهم وأبناءهم يعانون شظف العيش ويأملون ويحلمون ، فلا يلتقون إلا لماما إذا سمحت الظروف ، أو عن طريق « البوستة » أي الباخرة النيلية الصغيرة التي تنقل الرسائل و « الطرود » بين الأسر وأبنائها .

وما أرق ما صورته القصة من مشاعر القلق والحنين واللهفة والتأسي والتمني ... في انتظار « البوستة » .

أما القصة الرابعة والأخيرة « حكاية النسيان » فتثير أعمق الأشجان حول المأساة الكبرى للنوبة الحديثة ... مأساة التهجير إلى النوبة الجديدة (كوم أمبو) عقب إنشاء السد العالي . إن هذه المأساة هي الجانب الإنساني الوحيد في مشروع السد العالي الذي لم يذكره أحد إلا أمثال يحيى مختار من مبدعي النوبة وفنانيها . والقصة تصور في براعة واقتدار وشفافية تمس شغاف القلوب كيف أدارت مأساة التهجير عقول النوبيين وأنت نفوسهم ،



رقصة نوبية للفنان « أدهم وانلي »

فاختلطت لديهم الرؤى والأحلام والكوابيس وهم يحاولون التوائم مع حياة المهجر فى تلك « الحجرات الأسمنتية التى بنتها لهم الحكومة ، مفتقدين دورهم الواسعة الرطبة المطلة على النيل » ، ويسخرون فى دهشة بالغة مما يسمعون عن اعتزام بعض الدوائر المختصة « دراسة ظواهر التغيير التى طرأت على النوبيين فى أعقاب التهجير وأثر الموطن الجديد عليهم نفسيا واجتماعيا ... » كما لو كانوا فئران تجارب !!

وبعد . فقد استطاع يحيى مختار أن يقدم لنا فى قصصه لوحات تعبيرية بسيطة تصور المجتمع الذى تنتمى إليه جذوره ، مجتمع النوبة ، بتراثه ومآسيه وصراعاته ، كما استطاع بأسلوبه السلس وَلمسانه الوصفية السريعة وألفاظه النوبية العذبة التى نثرها فى ثنايا عباراته ، أن ينفذ إلى وجدان القارئ ، ليستشعر صفاء جو النوبة ويسمع خرير مياه النيل على شواطئها ويشم عطورها ويتذوق طعامها ويستروح نسائمها الرقيقة . إن هذه « الخصوصية المحلية » الصارخة تذكّر بتلك السمة التى كانت غالبة على القصص الروسى العظيم قبل الثورة الاشتراكية .

وعلى أى حال فإن هذا الأديب الذى تأخر «ظهوره» وإن لم يتأخر نضجه لجدير بأن يلتفت النقاد إلى إنتاجه .



تشكيل وزارى مصرى بالزى الفرعونى

صاروخان

نجوى صالح

« مازلت أعيش فى هذا البيت بروحه التى كانت تشع مرحا وبهجة . كان يحب الغناء . وكان له صوت عذب . يغنى لشارل إزنافور ولمحمد عبد الوهاب . وميراى ماتيو . ثروته دائما هى حب الناس . وإقامة الحفلات . كان يحب المرأة بشكل خاص . وكانت للمرأة مكانة خاصة فى قلبه ».

بهذه الكلمات الدافئة عن أبيها حدثتنى ابنته الوحيدة حينما زرتها فى منزلها . والذى هو أيضا بيت أبيها الفنان الراحل صاروخان . قالت إن أباها كان يتمتع بالقاء النكات اللاذعة عن النساء . وكم ملأ مجالسه بالحيوية والبهجة .



رسم اجتماعي ثلاث رءوس ثلاثة آفاق

كان صاروخان فنانا بكل ما تحمله الكلمة من معنى ليس فقط فيما يخص خطوطه المميزة ، وحيويتها المتدافقة التى كانت تلمس القلب والوجدان والعقل فى الصميم وبأسرع ما يمكن . ولكن أيضا فى أسلوب حياته ، وطريقته فى ارتداء الملابس . فهو أشبه بالغجر (الجيبس) يرتدى أى شيء يشعر أنه مريح بالنسبة له . ففى الصيف كان يحس بمتعة كبيرة وهو يرتدى الشورت الكاكى وفانلة من القطن الخفيف .

ورغم أن صاروخان مخلوق ضاحك اختلطت فى جسده وروحه النكتة والتعليق الساخر ، فإنه كان عصبى المزاج ، يركن إلى الاستماع إلى الموسيقى الكلاسيكية ، ويحرص على ممارسة الرياضة لمدة نصف ساعة يوميا . وكان يفضل رياضة المشى . ويرى أن التأمل رياضة لا يستطيع سوى القليل من البشر أن يمارسوها ، وأن يستفيدوا منها .



وزير الخارجية السابق محمود فوزى

سبع لغات .. ساخرة

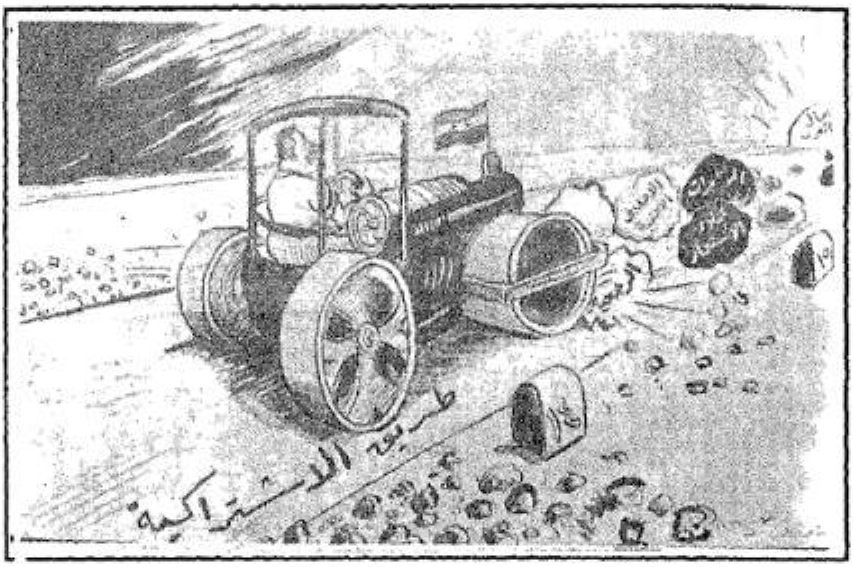
كان صاروخان فنانا متقنا . يسعى أن يشمل الكون كله فى رأسه الصغير . فهو يجيد سبع لغات قراءة وكتابة . وقد حاول أن يحصد ثقافة البشرية من خلال إجادته لهذه اللغات لذا لم ينفصل يوما عن عصره

بل كان مواكبا لجميع الأحداث المحلية والعالمية . يحب قراءة التاريخ . واستقراء المستقبل السياسى العالمى . وفى كثير من الاحيان كان حدسه يصدق . فصناعة النكتة السياسية مهنة ليست سهلة على الاطلاق . إنها تحتاج إلى مواهب عديدة تجتمع كلها فى صانع الكاريكاتير الذى تحبه الجماهير . فكى ينفذ إلى الحقيقة عليه مواكبة الاحداث السياسية والاجتماعية المتلاحقة . داخليا وخارجيا . ويختار الشخص الذى سيكون عليه عبء تحريك النكتة لدى المتلقى . ويضع على هذا الحدث من روحه الساخرة اللاذعة ويتضح ذلك جلياً فى رسم جذاب تصبح فيه الريشة وسيطاً جيد التوصيل . وطبقا لروح صاروخان الساخرة ، خفيفة الظل .

تستطرد ابنة الفنان قائلة : « لكى يجهز ذهنه لنكتة اليوم التالى . كان يدخل إلى حجرة نومه مبكراً . ويجلس إلى جهاز الراديو حتى الواحدة صباحاً . يواكب الأحداث فى العالم كله . وفى نفس الوقت يشرب كوب الشاى . الواحد بعد الآخر . يقرأ كتابا أو يتصفح جريدة أو مجلة . ثم ينام ، ويستيقظ فى السابعة صباحاً كى يرسم النكتة . وحوله عدة أكواب من الشاى والكعك الشامى والجبن الأبيض . وهذا هو فطوره اليومى . وفى بعض الأحيان يقوم ليفتح الباب ليستقبل بائع اللبن أو العيش كى يأخذ رأيه فى الرسم . ويرى تأثير النكتة على وجهه .

خمسة قروش كل ليلة

هذا الانسان الفنان المتفرد فى غزارة فنه ، وفد إلى مصر فى صيف عام ١٩٢٤ ، وكان يبلغ من العمر آنذاك ستة وعشرين عاما ، جاء تلبية لدعوة من شاب مصرى قابله فى « فيينا » ، ودعاه للعمل فى مصر فى مجلة تدعى « الجريدة المصورة » ولكنه حينما نزل ميناء الاسكندرية لم يجد الشاب فى انتظاره ، وتحسس العنوان الذى يحتفظ به فى جيبه بجانب قلبه الذى يدق



نكتة تظهر آمال صاروخان في الوحدة العربية

خوفا ، من مصير مجهول ينتظره في مصر !! وبدأ يتجول في شوارع الأسكندرية وهو لا يملك مالا كافيا ليقضي الليل في فندق ، فاختار أن ينام على كرسي في حديقة عامة ..

وفي الصباح بدأ في البحث عن أي أرمني يساعده ، وكان الثغر يعج بالأرمن في ذلك الوقت ، ووجد ضالته ، وشرح له ظروفه فأقرضه بعض المال حتى يمكنه السفر إلى المنصورة مقر صاحب المجلة « وهناك » وجد المفاجأة ، فهذا الشاب ، وهو طالب فاشل ، قد أصدر من تلك المجلة عددين ثم أغلقها مما دفع صاروخان أن يتجه بالقطار إلى القاهرة ، واتصل ببعض الأرمن الذين أقرضوه مبلغ ثلاثة جنيهات ليسكن في فندق بخمسة قروش في اليوم !!

وتعرف على صاحب مطبعة أرمني يدعى « بربريان » ساعده أن يجد له عملا كمدرس رسم في إحدى المدارس الأرمنية .

كان صاروخان دائم التردد على صديقه صاحب المطبعة ، وكان بين المترددين على تلك المطبعة « على أمين » الذي كان يبلغ من العمر في ذلك الوقت ثلاثة عشر عاما ، ويحضر لطبع مجلة مدرسية كان يصدرها مع بعض زملائه ، وتعرف على صاروخان .. الذي رسم لعلي أمين صورة كاريكاتيرية أهداها له إعجاباً به .

وفي نفس المكان التقى بالأستاذ محمد التابعي الذي أعجب بأسلوب رسم صاروخان ، وعرض عليه أن يشتغل معه



رئيس الوزراء السابق
علي ماهر



رسم أكاديمي بالزيت
صاروخان بريشته..

فى مجلة (روز اليوسف) ورسم الغلاف الأول ، وحاز إعجاب « فاطمة اليوسف » صاحبة المجلة وربما فى فيض من الإنتاج الغزير ، دفع المجلة أن تستغنى عن عشرة من رسامى الكاريكاتير !!

بعد ذلك بعدة سنوات التحق على أمين مع محمد التــابعى فى مجلـة « روز اليوسف » وكونوا ثلاثيا رائعا مع صاروخان .

كانا يعطيانه الأفكار .. والتابعى يقوم بتمثيل الوضع أو الشكل ، الذى يود أن تبدو عليه الشخصية المراد تصويرها ويقوم صاروخان بالرسم ، كان هذا التوضيح الذى يقومان به أمام صاروخان يعطى دفعات متتالية لصاروخان لفهم الحياة السياسية ، فقد جعلوه يرسو على أول الطريق السياسى فى مصر ، وأفهماه ما يجرى فى الكواليس السياسية وانتقل ثلاثتهم إلى أخبار اليوم والتى لم يتركها صاروخان قط إلى أن وافته المنية فى أول يناير ١٩٧٧ .

وراء كل ضحكة .. دمعة ساخنة

سألت ابنة صاروخان عن سر هذا الحزن الذى كان يعتصر قلبه ولكنه يحاول بشكل دائم أن يغطيه بابتسامة ؟؟

قالت ابنة صاروخان ولد أبى فى سنة



وزير الثقافة الأسبق
ثروت عكاشة

١٨٩٨ فى القوقاز فى مدينة باخوم على البحر الأسود ، وقد هاجر هو وأسرته إلى اسطنبول متوهماً أنه سيجد فيها عملا طيباً ، ولم يلبث الأب أن اكتشف أن الحياة فى اسطنبول أسوأ منها فى « باخوم » فعاد مع زوجته وشقيقات صاروخان الأربع إلى موطنه تاركا « الكسندر صاروخان » وشقيقه فى اسطنبول . كان هذا القرار مصيبة وقعت على رأس الأسرة .

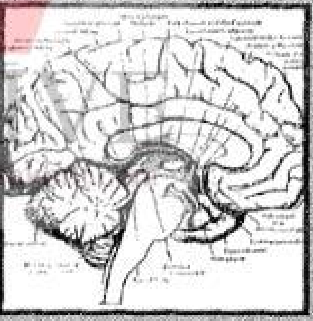
ومع أن الأب وبناته نجوا من مذبحة الأرمن البشعة على أيدى الأتراك ، فإن الأسرة قد عاشت فى آلام وأحزان وهم يبكون الأرمن الذين ذبحوا ابشع الذبح على أيدى الأتراك فماتت الأم بعد هذه المذبحة بقليل وهى تصرخ « ولداى ! ولداى » ثم مات والده بعد ذلك ولم ير صاروخان إخواته بعد ذلك أبداً .

لقد نبغ صاروخان فى الرسم وهو تلميذ فى مدرسة باخوم ، وكان أساتذته يعجبون برسومه ويتوقعون له مستقبلا كبيرا فى الرسم . وفى إسطنبول استطاع أن ينشر رسومه فى مجلة أرمنية كانت تصدر هناك ولم يكن يتقاضى مليماً واحدا ثمنا لرسومه ، وعاش سنوات من الضنك والجوع والرعب . ثم هرب من المذابح التى كانت تقع يوميا ضد الأرمن فى تركيا . وسافر إلى فيينا ، ودخل مدرسة الفنون بها لمدة عامين . وعرف هناك الجوع والتشرد والحذاء المثقوب الذى يدخل منه البرد القارص . هذا الفقر والتشرد والمعاملة الوحشية التى عاشها شعبه تركت فى قلبه مرارة لم يستطع أن يمحوها الزمن .

وعاش طول حياته يهتم بالأرمن فى كل مكان فى العالم . ويحاول أن يساعدهم ، ويدافع عن قضيتهم . وينتهز كل فرصة ليلعن هؤلاء الذين جعلوه يمضى شبابه فى الجحيم .

الساعة البيولوجية

الزمان في جسم الانسان



بقلم :
د . محمد بهائي السكري

● بعض الناس يكون في أحسن حالاته وقمة نشاطه مع بزوغ الفجر

ظلت الأشياء قرونا طويلة توصف وتعرف بأبعادها الثلاثة طولها وعرضها وإرتفاعها حتى عصرنا الحديث عندما بدأ الانسان يأخذ في اعتباره وجود بعد رابع لها وهو الزمن .

إن القطار عندما يتحرك من مكان لآخر يظل مظهره الخارجي دون تغيير إلى حد كبير . ولكن في حقيقة الأمر هناك الكثير من التحولات تعتريه من الداخل والخارج ، ومحتوياته في حركة دائبة وتغير مستديم .

والكائنات الحية أكثر قابلية للحركة الديناميكيـــة مع الثبـات الاســتاتيكى لمكوناتها حيث تقوم بإحلال لبنات بناء جديدة مكان اللبنات القديمة المستهلكة .

إنك لست نفسك بعد أن قرأت هذه السطور كما كنت قبل أن تقرأها تماما . فأحداث كثيرة طرأت فى جسمك ونفسك خلال هذه الثوانى القليلة ! .

والثانية الواحدة من الزمن فى عمر الخلية الحية تناظر عاما أو أكثر فى عمر مدينة آهلة بالسكان .

السرعة والبطء

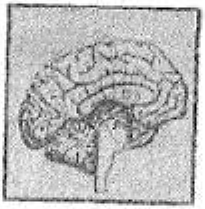
والزمن مسألة نسبية فى أحوال كثيرة واليوم الواحد يختلف طولا وقصرا على مدار السنة فى كوكب الأرض ، ويتفاوت حسب المواقع الجغرافية من قطبى الأرض إلى خط الاستواء . واليوم على سطح الكرة الأرضية يختلف تماما عن اليوم على سطح أى كوكب آخر يدور حول نفسه بسرعة مخالفة لسرعة دوران الأرض حول نفسها . فالزمن قابل للاسراع والابطاء حسب الحركة والمكان .

وإحساس الإنسان بالزمان حاسة فريدة وقد يستطيع المرء أن يقدر الوقت بدقة دون استخدام ساعة أو آلة أخرى للقياس ، ولكنه أيضاً قد يخطىء التقدير عندما تنتابه الانفعالات فتمر به الثوانى متباطئة أو تمضى به الساعات دون أن يشعر بها ! .

وأعضاء الجسم الداخلية وأجهزته الحيوية المختلفة تعمل بايقاع خاص وتسير وفق ساعة بيولوجية لا تخطىء كثيراً حتى وإن أخطأ الإنسان فى حساب الزمان .

فالقلب يدق بانتظام وتنشأ فيه موجة تنشيط كهربائية كل ثانية أو أقل من ذلك أو أكثر بقليل لتحدث انقباضا فى الأذينين فينتقل الدم منهما إلى البطينين ثم ينتشر التنشيط إلى البطينين فينقبضا ويدفعا الدم إلى جميع أنحاء الجسم . وموجة التنشيط هذه موجة تلقائية تبدأ من جزء من أذين القلب الأيمن يعرف باسم منظم إيقاع القلب . ولا يعرف كيف تنشأ هذه الموجة الكهربائية التى تسبب انقباض القلب بصورة منتظمة متوافقة مع احتياجات الجسم ، ولو عرفنا ذلك لعرفنا سر الروح ، ولكن الروح من أمر الله وما أوتينا من العلم إلا قليلا . وبالرغم من وجود أعصاب لا إرادية تغذى عضلة القلب تستطيع أن تزيد أو تقلل من سرعة دقاته فإنه قادر على العمل بصورة تلقائية حتى لو فصل تماما عن جميع الأعصاب المغذية له كما يحدث فى جراحات نقل القلب .

وفى الجهاز الهضمى تنقبض العضلات اللاإرادية الموجودة فى جدران المعدة والأمعاء بصورة تلقائية بإيقاع خاص



الساعة البيولوجية

يختلف حسب احتياج الجسم أثناء هضم وامتصاص الطعام .

ويحدث التنفس بإيقاع رتيب يتناسب مع احتياج الجسم للاكسجين ، ومعدلات إنتاج ثانى أكسيد الكربون أثناء احتراق الغذاء فى الأنسجة . وتزداد سرعة التنفس بصورة تلقائية كلمـــا زادت الحاجة للاكسجين ، وكلمـــا تراكم ثانى أكسيد الكربون فى الخلايا .

إيقاعات متناسقة

فهناك إذن أكثر من ساعة دقاقة داخل جسم الإنسان وأكثر من بندول ، بل هناك أكثر من ذراع من أذرع الســـاعة فى الجسم مثلما تحمل الساعة أذرعا للساعات والدقائق والثوانى ويشعر الجهاز العصبى فى الإنسان بكل هذه الايقاعات ويتأثر بها ويؤثر فيهـــا متفاعلا معهـــا بصـــورة متناسقة ! .

ولقد كشفت الأبحاث الحديثة عن دور مهم تقوم به أجزاء معينة من المخ فى تنظيم ايقاع الأنشطة الحيوية بالجسم .

فلفت النظر وجود منطقة عند قاعدة المخ تعرف بتحت المهاد (هيبوثالامس) ترتبط ارتباطا وثيقـــا بالمناطق العليا من المخ الخاصة بالإحساس والحركة والذاكرة، والمراكز السفلى الخاصة بتنظيم الوظائف الحشوية اللا إرادية مثل إيقاع القلب وضغط الدم والتنفس ، كما تسيطر سيطرة تامة على الغدة النخامية المهيمنة على معظم الغدد الصماء فى الجسم .

وتبين بوضوح أن هناك علاقة وثيقة بين منطقة تحت المهاد والنوم واليقظة ، والنشاط والخمول ، والانفعال والتبلد ، والرغبة فى الطعام والعزوف عنه ، والميل للجنس الآخر والزهد فيه ، وأن هذه المنطقة تعمل بصورة دورية لتنشيط وظائف الجسم اللا إرادية المختلفة طبقا لاحتياجات الجسم الداخلية فى ضوء متغيرات الوسط الخارجى والبيئة المحيطة بالانسان .

ويمكننا القول إن تحت المهاد هو منظم المنظمات فى الجسم ، وهو أشبه ما يكون بغرفة تحكم رئيسية تصل إليها المعلومات عن طريق شبكة دقيقة تمدها ببيانات كاملة عما يحدث داخل الجسم وخارجه . وفى تلك الغرفـة توجـد أجهـزة كمبيـوتر (حاسوبات) تستوعب تلك البيانات وتستفيد منها طبقا لبرامج موضوعة ثم تقوم باتخاذ قرارات لا إرادية - أى ليس لسيطرة الانسان فيها دخل كبير - ويتم تنفيذ تلك القرارات عن طريق تحكم تحت

المهاد فى المراكز العصبية الدنيا فى المخ وفى أغلب غدد الجسم الصماء .

ويلفت النظر هنا أن معدلات الأداء فى منطقة تحت المهاد تتباين فى كثير من الأشخاص كما تتباين فى الذكر والأنثى بوجه عام مثل اختلاف المواقيت فى بلدان الأرض من الشرق إلى الغرب . فكما يكون فى بعض مناطق الأرض ليل بينما يسطع فى أجزاء أخرى منها النهار ينشط تحت المهاد مع طلوع الشمس ويسكن مع حلول الظلام . ولكن ذلك يحدث بميقات مختلف فى كل انسان حسب طبيعته واستعداده . فبعض الناس يكون فى أحسن حالاته وقمة نشاطه مع بزوغ الفجر ، والبعض الآخر يتأخر ذلك عنده إلى وقت القيلولة أو بعد الظهر . وفى المرأة دورة أخرى بطيئة تتراكب مع تلك الدورة اليومية وهى دورة نشاطها الجنسى على مدار الشهر حيث يتزايد افراز الهرمونات الجنسية تدريجيا ويحدث انطلاق البويضة جاهزة للاخصاب من المبيض ثم ينخفض منسوب الهرمونات فى الجسم عندما لا يحدث تلقيح لتبدأ الدورة من جديد .

●●●

ومن الطريف اكتشاف علاقة وثيقة بين جسم صغير فى المخ مجهول الكنه يعرف بالجسم الصنوبرى ومنطقة تحت المهاد .

ويقع الجسم الصنوبرى فى مكان متوسط بين كرتى المخ ، ناحية الخلف فوق المهاد . وقد ظن ديسكارتس أن روح الانسان تسكن هذا الجسم الصغير ، واعتبره البعض عين ثالثة تستشفُ ما يحدث ناحية الخلف . وفى العصر الحديث أمكن فصل بعض الهرمونات منه كما تبين أنه ينشط فى الليل بتأثير من تحت المهاد مع انتشار الظلام ، ويفرز مواد تثبط الغدة النخامية القائدة فى الجسم أى أنه ترس صغير فى آلة الزمان داخل جسم الانسان .

وعكف الانسان على دراسة المسارات العصبية داخل الجسم التى تعطى قاعدة لفهم هذا الترابط الوثيق .

وتبين بجلاء أن شبكية العين الحساسة للضوء والظلام لها اتصال محكم بمنطقة تحت المهاد . فإذا ساد الظلام ساعات طويلة تأثرت تحت المهاد وأرسل إشارات عصبية للجسم الصنوبرى تؤدى إلى زيادة إفراز هرمون يسمى « الميلاتونين » . وينتقل« الميلاتونين » مع الدم وسوائل المخ إلى الغدة النخامية عند قاعدة المخ فيثبط إفرازها . ويحدث العكس أثناء النهار .

وتبين أيضا أن منطقة تحت المهاد لها سيطرة فعالة على الجهاز العصبى السمبثاوى الذى ينشط فى حالات اليقظة والعمل والانفعال والدفاع عن النفس ليزيد من كفاءة الجسم وقدرته ، ويخمد أثناء النوم وبالتالى يشحذ تحت المهاد سن السكين أثناء النهار ، ويغمده فى جرابه أثناء الليل . وكل ذلك فى دورة منتظمة إنتظام عقارب الساعة .

وتلك هى آلة الزمان فى جسم الإنسان التى تتوافق مع تعاقب الليل والنهار على سطح الأرض .

رسالة لندن

الصحافة العربية في بريطانيا

هل تبحث عن حرية التعبير أم تحقق الوجاهة ؟

بقلم : د . علي شلش

● في شهر واحد ، هو فبراير ، ظهرت مجلتان عربيتان جديدتان في لندن ، ومع أن صدورهما في وقت واحد مجرد مصادفة فهما تلخصان ملمحا أساسيا من ملامح صورة الصحافة العربية الراهنة في بريطانيا ، وهي صورة متعددة الملامح ، سريعة التغير ، تعكس الوضع العام في العالم العربي في النهاية ، ولاسيما بعد حرب تحرير الكويت ، وتحطيم قوة العراق العسكرية .

أما المجلة الأولى فتسمى « اليمن الكبرى » ، وهي من ١٦ صفحة ، تطبع بلون واحد ، وتضع على غلافها غير المنفصل شعارين : الجهاد ، الوحدة ، الديمقراطية « من نجران إلى عجمان .. أرضك أرضك يا كهلان » وتتوسط الغلاف صورة عبد الناصر تحدها من اليمين واليسار أبيات من قصيدة نزار قباني في رثائه . وعلى غلافها الأخير خارطة للجزيرة العربية عليها خط بارز يحدد اليمن الكبرى التي تتكون في عرف المجلة من اليمنين المتحدين وأجزاء من المملكة العربية السعودية ، مع كل الإمارات العربية وسلطنة عمان ، وهذا هو مفهوم « من نجران إلى عجمان » ولكن ، لا يوجد على المجلة أو بداخلها تحديد لجهة الإصدار أكثر من عبارة « يصدرها مكتب لندن بالتعاون مع مركز لندن للدراسات الاستراتيجية اليمنية » ولا يوجد أيضا اسم لرئيس التحرير ولا أسماء لأي محرر أو كاتب ، فالموضوعات والأخبار التي تضمها قصيرة عموما . ولكن لهجتها العامة تقول إنها معارضة للسعودية والإمارات وعمان ، وتضيف في افتتاحيتها إنها هاجرت من اليمن بعد أن ساء وضع الديمقراطية والاقتصاد هناك .

وهذه المجلة - كما هو واضح - تدخل فئة الصحف المعارضة من حيث الشكل ، ولكنها أقرب إلى فئة صحف الدعاية المضادة للسعودية بصفة خاصة ، والفئتان تسيطران على ما يمكن تسميته بالصحف الصغيرة ، وهي الجرائد والمجلات الفقيرة



الموارد ، البسيطة الإخراج ، المحدودة العدد المطبوع أو القابل للتوزيع . وهذا النوع – الصحف الصغيرة – هو الغالب والأقدم تاريخيا فى لندن ، ويضم ثلاث فئات أخرى غير المعارضة والدعاية المضادة هى فئة صحف الارتزاق أو الابتزاز ، وفئة الصحف التى تخدم الجالية العربية فى بريطانيا ، وفئة المجلات الثقافية ، وإذا كانت صحف الارتزاق من الأنظمة العربية والأثرياء العرب ، أو ابتزاز المال من الطرفين ، تعمر أكثر من صحف الجالية والمجلات الثقافية ، فهى أيضا متغيرة المزاج متقلبة الأوضاع ، ولكنها جميعا تعيش على الاحسانات – إذا صح التعبير – من الأنظمة أو الاثرياء أو أصحاب المصلحة فى صدورها وإذا كانت صحف الارتزاق والابتزاز يحررها – عادة – فرد واحد باسمه الصريح أحيانا ، أو باسم مستعار أحيانا أخرى ، فالمجلات الثقافية تنتشر فيها الأسماء الصريحة لمساهمين من بريطانيا والمهاجر الأوربية والأمريكية ، بل من العالم العربى . وبالرغم من ثراء بعض العرب من أبناء الجالية المقيمة ، أوالمهاجرة ، نجد أن صحف الجالية أضعف فئات الصحف الصغيرة فى بريطانيا ماليا وتحريريا ، وأكثرها اختفاء . وقد اختفت تماما قبيل حرب تحرير الكويت ، بالرغم من زيادة النازحين الكويتين أثناء الاحتلال .

وأما المجلة الأخرى فتسمى « الوسط » وهى من ٨٠ صفحة غير الغلاف المنفصل ، تطبع بالألوان على ورق فاخر وبأحدث الطرق . وإذا كانت المجلة الأولى شهرية سياسية معارضة فهذه أسبوعية جامعة غير معارضة . ويرأس تحريرها الصحفى اللبنانى عبد الكريم أبو النصر الذى أسس مجلة « المجلة » الأسبوعية فى لندن عام ١٩٨٠ ، ثم أقيل منها بعد أربع

رسالة لندن

سنوات وعاش فى باريس على مراسلة بعض صحف الخليج . وقد جاء فى ترويسة « الوسط » أنها تصدر عن شركة بهذا الاسم ، وإن كانت تابعة لمجموعة شركات أخرى تصدر جريدة « الحياة » اليومية ، وهى مجموعة يمولها أمير سعودى شاب ، وتحتل أحدث وأفخر وأغلى مبنى لصحيفة عربية - وانجليزية أيضا - فى قلب لندن . وبالرغم من التعاطف الواضح مع سياسة السعودية فالمجلة تبدى توجها عربيا عاما واضحا أيضا . وبالرغم من رشاقتها وقربها من مجلة « تايم » الأمريكية فى التغطية الصحفية والإخراج فليس من السهل الحكم عليها الآن .

نوعان من الصحف

تأتى هذه المجلة لتعوض « النقص » الذى أصاب المجلات العربية فى لندن بسبب مغامرة النظام العراقى . فقد توقفت منذ بداية حرب تحرير الكويت مجلتان أسبوعيتان عراقيتا التمويل هما : « الدستور » التى سبق أن هاجرت من بيروت إلى باريس عام ١٩٧٧ ، ثم « تعرفت » ، وهاجرت إلى لندن بعد عشرة أشهر ، و« التضامن » التى ظهرت فى لندن مباشرة عام ١٩٨٢ . وكانت المغامرة العراقية سببا فى القضاء أيضا على مجلتين عربيتين فى باريس هما : كل العرب ، اليوم السابع . وتعويض هذا النقص مسألة مجازية بالطبع . فالصحف والمجلات العراقية التمويل والتوجه لم تكن أحسن حالا من غيرها ، أو متميزة بشىء غير الدعاية للممول والموجه !

ولكن هذه المجلة الجديدة تدخل فئة الصحف الكبيرة من حيث الشكل والمضمون . وتشكل هذه الفئة النوع الثانى من أنواع الصحف العربية فى بريطانيا ، وهو نوع يقابل النوع السابق الذى يضم ماسميناه الصحف الصغيرة . ومن الواضح أن الصحف الكبيرة هى تصدرها شركات أو مؤسسات كبيرة ، وتتوفر لها أحدث الإمكانات وأكبرها ، وتعتمد على الدعم من الأنظمة المصدرة لها ، وكذلك على الإعلان الدولى والمحلى ، وتطبع كميات كبيرة تصل إلى ٥٠ ألفا فى المتوسط ، وتتوجه إلى قارىء منطقة الخليج أساساً .

يبقى نوع ثالث من أنواع الصحف العربية فى بريطانيا ، وهو نوع وسط بين الصغير والكبير ، ولايعتمد على التمويل العربى ، وإنما تموله الحكومة البريطانية ويحمل توجها بريطانيا . ولكن هذا النوع محدود جدا ، ويقتصر على مجلة واحدة شهرية هى « هنا لندن » التى يصدرها القسم العربى فى الإذاعة البريطانية . وكانت تطبع فى لندن ، ثم صارت تطبع فى القاهرة وتوزع من هناك توفيرا للنفقات .

من الملاحظ أن أنواع الصحف العربية الثلاثة فى بريطانيا تتركز فى لندن . وإذا كان من الصعب إحصاء صحف النوع الأول ، أى الصحف العربية الصغيرة ، لأن هذه الصحف غير مستقرة الصدور ، فمن باب التقريب أنها تزيد على ٢٠ صحيفة بين جريدة ومجلة ، معارضة ، أو دعائية ،

أو مرتزقة ، أو ثقافية . وهذا العدد التقريبي لاتوجد جهة لضبطه أو تحديده في بريطانيا . فمن المعروف أن إصدار الصحف في بريطانيا لايستلزم تصريحا أو ترخيصا ، وأن تسجيلها في هيئة البريد ليس إجباريا . ولكن من السهل إحصاء صحف النوع الثاني ، أي الصحف العربية الكبيرة ، لأنها واضحة الظهور .

تبلغ هذه الصحف الكبيرة اليوم تسعا ، وتتراوح بين الجرائد اليومية والمجلات الأسبوعية . وتبلغ الجرائد خمسا ، وهي بترتيب ظهورها : العرب (١٩٧٧) ، والشرق الأوسط (١٩٧٩) ، والحياة (١٩٨٨) والقدس (١٩٨٩) ، صوت الكويت (١٩٩٠) والأخيرة انتقلت إلى الكويت بعد تحريرها ، وأبقت على مقرها اللندني لطبعتها الدولية . ومادمنا ذكرنا الطبعة الدولية فيجب أن نذكر أن هذا تقليد طارئ على الصحف العربية ، بدأته صحيفة « النهار» اللبنانية بعد الحرب الأهلية عام ١٩٧٥ . واتبعته بعد ذلك صحف : « القبس » الكويتية ، و « الأهرام » المصرية ، و «الثورة» العراقية ، أما المجلات الأسبوعية فتبلغ أربعا ، وهي بترتيب ظهورها : الحوادث (١٩٧٦) المجلة (١٩٨١) ، سيدتي (١٩٨٢) ، مجلة الشرق الأوسط (١٩٨٧) . والأخيرة لاتعد مجلة مستقلة ، فهي تصدر كملحق لجريدة الشرق الأوسط .

ومن الواضح أن الجرائد اليومية متباينة التمويل والتوجه ، وتتراوح بين أربعة أنظمة : الليبي (العرب) والسعودي (الشرق الأوسط والحياة) والكويتي (صوت الكويت) ولكن المجلات الأسبوعية منها ثلاث بتمويل وتوجه سعوديين ، وواحدة (الحوادث) يملكها الصحفي اللبناني ملحم كرم ، وليس لها توجه خاص أكثر من مراعاة المشاعر الرسمية في مناطق التوزيع الأساسية ، وعلى رأسها منطقة الخليج . ويجب أن نضع في الاعتبار هنا صعوبة الإعلان الصريح عن الولاء السياسي في هذه الجرائد والمجلات ، ولكنه لايخفى على المتابعة وتحليل الافتتاحيات والموضوعات الأساسية ، كما أن مرعاة المشاعر الرسمية في مناطق التوزيع الأساسية ليست وقفا على مجلة « الحوادث » ، وإنما هي مبدأ عام لاتستطيع الصحيفة العربية في بريطانيا أو غيرها مخالفته وإلا حكمت علي نفسها بإيقاف الدعم المالي والمنع من الدخول إلى أسواق البلد الذي تمس مشاعره الرسمية . فجريدة « العرب » ، مثلا ، يملكها الصحفي الليبي أحمد الهوني ، وتعتمد أساسا على السوق الليبية ، فلابد أن تراعي المشاعر الرسمية الليبية ، ومعنى هذا أنها حرة بعد ذلك في التخفف من المبدأ المذكور ، شريطة أن تسمح السياسة الليبية الرسمية ذاتها بهذا التخفف . ولذلك إنحازات الجريدة وقت أزمة الكويت إلى صف العراق ، وهكذا .

من الناحية المهنية نجد أن الصحف والمجلات الكبيرة هذه تنتفع بأحدث طرق الطبع والإخراج . ولمعظمها جهاز تحريري محدود ، أشبه بالمطبخ ، ولكنها تعتمد أساسا على مكاتبها ومراسليها في العالم العربي ، وكالات الأنباء العالمية . وبعضها مثل « الشرق الأوسط» يرتبط باتفاقات مع وكالات ومراكز إعلامية أوربية وأمريكية ، ولاسيما في المواد المصورة . وتتفاوت

رسالة لندن

أجور العاملين فيها ومكافآت كتابها الخارجيين تفاوتا كبيرا . وبعضها يتحرر من قوانين العمل في بريطانيا ، فلا يتقيد بيومي العطلة ، ولايرفع الأجور والمكافآت سنويا لمواجهة التضخم ولاتوجد للعاملين فيه تنظمات نقابية لرعاية مصالحهم ولنا أن نتخيل بعد ذلك حال العاملين – إذا وجدوا – فى الصحف والمجلات الصغيرة . وبعضها لايملك مقرا خاصا فى معظم الأحيان ، ويصدرها أصحابها أحيانا من منازلهم .

تساؤلات

يثير الوضع العام لأنواع الصحف العربية الثلاثة فى بريطانيا عددا كبيرا من التساؤلات ، ولكننا سنكتفى هنا بثلاثة من أهمها :

هل هى صحف مهاجرة؟

من جمهورها ؟

مامستقبلها ؟

باستثناء مجلة « الحوادث » التى هاجرت من بيروت عقب تردى الأوضاع هناك فى بداية الحرب الأهلية لاتوجد صحيفة أو مجلة كبيرة مهاجرة من أي بلد عربى ، فجميع الصحف والمجلات التى ذكرناها بريطانى المولد والنشأة باستثناء مجلة « مواقف » الأدبية التى يحررها الشاعر أدونيس من مهجره فى باريس ، وتدار من لندن ، وتطبع فى بيروت ، لاتوجد جريدة أو مجلة صغيرة مهاجرة أيضا . ومع ذلك يوجد صحفيون عرب مهاجرون ، معظمهم من لبنان وسورية . ومع أن بينهم بعض الصحفيين من أبناء دول المغرب العربى فلا توجد أيضا صحيفة أومجلة ذات توجه مغاربى باستثناء جريدة «العرب» ذات التوجه الليبى ، ومجلة ليبية معارضة تعد من المجلات الصغيرة ، على العكس من باريس التى توجد بها بعض مجلات المعارضة التونسية والجزائرية والمغربية . فمصطلح « الصحف المهاجرة » إذن مجازى ، وغير دقيق ، لأنه ينطبق على الصحفيين لا على الصحف ، ويوحى بأن هذه الصحف كان المفروض أن تصدر فى بلادها ، ولكنها أختارت هذا المصير .

ومعنى هذا أن الصحف والمجلات الكبيرة ، بصفة خاصة ، يمكن أن تصدر فى الأقطار التى تمولها أو توجهها . وإذا قيل إن صدورها فى بريطانيا – أو غيرها – يقربها من مصادر الإعلان الدولى أو الإعلام الدولى فهذا قول مردود ، لأن المعلن يسعى وراء الجمهور والجمهور ليس فى بريطانيا ، فضلا عن أن الإعلام الدولى يمكن أن يهطل على البلاد العربية دون حاجة إلى تحرك العرب إلى الخارج . وإذا قيل أيضا إن هذه الصحف والمجلات تبحث عن حرية التعبير فهذا غير صحيح ، لأنها إذا تحررت يكون مصيرها المنع . وما دامت تريد دخول قطر عربى فلابد أن تدخله بشروطه لابشروطها كما هو معروف ولكن البحث عن حرية التعبير النسبية والمتفاوتة فى العالم العربى – كما هو معروف أيضا – ينطبق على الصحف والمجلات الصغيرة ، ولاسيما المعارض منها . وفى لندن صحف ومجلات صغيرة معارضة جميع أنظمة الحكم فى العالم العربى ، باستثناء الكويت ومصر وتونس

والمغرب وموريتانيا والصومال . وهذه الصحف والمجلات المعارضة تحتاج إلى حرية في التعبير المكفولة في بريطانيا ، ولكنها أيضا تحتاج إلى جمهور . والجمهور العربي في بريطانيا محدود جدا ومن هنا تقع في تناقص صارخ ، لأنها لاتصل إلى جمهورها الطبيعي ، ولاتحدث التأثير المنشود .

ليست بريطانيا على أي حال مطمحا جماهيريا للصحف العربية بالرغم من وجود ألوف العرب المهاجرين ، ولكن هؤلاء يهاجرون وفي نفوسهم وعقولهم روابط قطرية ومحلية تجعلهم يتفككون إلي وحدات صغيرة ، مصرية أو عراقية أو ليبية ، وغيرها وداخل هذه الوحدات القطرية الصغيرة يوجد قراء بالطبع ، ولكن أكثرهم غير منتظمين ، فإذا انتظموا التزموا بالصحف الواردة من أقطارهم لمعرفة أخبار الوطن والأهل ، فضلاً عن أن الصحف اليومية العربية الصادرة في لندن تباع بضعف أثمان الصحف الإنجليزية . وهذا يشكل عائقا آخر أمام انتشارها . ولذلك يتروح توزيع هذه الصحف في بريطانيا كلها بين ٥٠٠ إلى ١٥٠٠ نسخة للصحيفة ، أي مايزيد قليلا على متوسط توزيع الصحف والمجلات العربية الصغيرة ومعظم هذه الصحف والمجلات الصغيرة لايحقق عائدا من التوزيع يكفي لتمويل إصداره ، ولكنه يحرص على الصدور مادامت توافرت له مصادر التمويل أو الدعم . ولذلك يكون الجمهور الحقيقي الأكبر داخل الأقطار العربية ذاتها ومع ذلك فباستثناء منطقة الخليج والمناطق النفطية الأخرى التي تنتمي إليها معظم الصحف والمجلات الكبيرة فإن توزيع هذه الصحف محدود جدا أيضا بالقياس إلى توزيعها في بلادها الأصلية .

هل هي صحف ومجلات للوجاهة إذن ؟

الحقيقة أن معظمها هكذا ، لأن مبرر الصدور من لندن لا محل له من المنطق ، من حيث تكلفة الإنتاج ونفقات الشحن . ومن المعروف أن عقد السبعينيات الذي عادت فيه هذه الظاهرة - بعد اختفائها في أوائل القرن - شهد أحداثا مزقت العالم العربي وزادت فرقته . وكان على رأس هذه الأحداث اشتعال الحرب الأهلية في لبنان فضلا عن القفزة الكبيرة في أسعار النفط بعد حرب ١٩٧٣ . وأدى هذا كلة إلى هجرة بعض الصحفيين اللبنانيين وإصدارهم صحفا في باريس ولندن ، وهجرة بعض الصحفيين المصريين أيضا وإصدارهم مجلات صغيرة معارضة في العاصمتين المذكورتين . وبعدها بدأ استقطاب هؤلاء وأولئك من جانب بعض الأنظمة النفطية العربية وعلى رأسها العراق . وكان من المتوقع أن يؤدي اغتيال الرئيس السادات إلى تفكك هذه الظاهرة واختفائها ، ولكن الحرب العراقية الإيرانية قضت على هذا التوقع . وكان من المتوقع أيضا أن تؤدي الكارثة العربية في الكويت والعراق إلى هذا التفكك والاختفاء ، ولاسيما بعد توقف الصحف والمجلات ذات التمويل العراقي . ومع ذلك ، فهاهو ظهور مجلة أسبوعية كبيرة جديدة يخيب أملنا في أي تغيير قريب ، مادام التمزق العربي مستمرا والفرقة العربية مزدهرة . ومالم تناقش هذه الظاهرة بجدية بعيدا عن المصالح الضيقة ، فسوف تظل لندن - إلى ماشاء الله - قلب العروبة النابض ، في الصحافة على الأقل ، ولكنه قلب ينبض بالمزيد من الفرقة والتمزق !

القاهرة

امرأة فرنسية .. من النوبة

من يشرب من مياه النيل لابد أن يعود ثانية ليشرب منها مرة أخرى .. ومن شاهد آثار مصر وشم روائحها أسرته ووقع فى أسرها . وتملكه رغبة خاصة فى البقاء إلى جانبها ينقب فيها ، ويحاول أن يفك ألغازها .. هذا هو حال الباحثة الأثرية كرستيان ديروش - نوبكلور - ٧٨ سنة - التى سجلت تجربتها كباحثة آثار فى مصر فى كتاب ضخم يحمل عنوان «النوبة الكبرى» . ونتيجة لأهمية هذا الكتاب أجرت مجلة لوبوان الفرنسية (١٩٩٢/٢/٢٢) حديثا مع الكاتبة التى لعبت دورا كبيراً فى نقل معبد « أبو سمبل » من مكانه القديم . ونجحت فى كشف الكثير من أسرار مومياء الملك رمسيس الثانى . كما عملت على عرض آثار توت عنخ أمون فى فرنسا ..



معرض توت عنخ أمون فى باريس ١٩٦٧

تقول الكاتبة فى الحديث «إنه فى سنوات الثلاثينات لم يكن من المستحب على المرأة أن تعمل، حتى فى الأوساط المتحررة . لكن أبى نصحنى أن أعمل فى الأمن الاجتماعى . وأن أدرس الرسم فى القرن الثامن عشر . لكننى كنت أحب التاريخ . ورحت أدرس المصريات وأنا فى السابعة عشرة» .

وترى الكاتبة أنها لم تعشق شخصا مثلما عشقت الملك الشاب توت عنخ آمون . فعندما كانت فى العشرين من عمرها عقدت أول مؤتمر علمى عنه . وفى عام ١٩٦٧ نجحت بواسطة وزارة الثقافة المصرية أن تقدم كنوزه للجمهور الفرنسى فى معرض ضخم زاره أكثر من مليون ومائتى ألف زائر .

جاءت كرستيان إلى مصر لأول مرة عام ١٩٣٧. وسط معارضة شديدة من أسرتها . ورغم أنها لم تكن تملك ما يكفيها من مال . ولم

أحس أبدا بأى متاعب فى تنقيب الآثار بصفتى امرأة يجب أن أقول أن المصرى لم يتغير منذ ثلاثة آلاف عام . إنه فى المقام الأول مسلم يتسم بالحكمة والطيبة».

وفى حديثها أشارت كرستيان أن الدكتور ثروت عكاشة ، وزير الثقافة الأسبق ، ومدير عام اليونسكو ، قدما لها أيدى المساعدة عندما عملت على نقل معبد «أبو سمبل» فى أوائل الستينات وقد فسرت سبب وجود هذا الكم الهائل من التحف الأثرية المصرية فى متاحف باريس خاصة اللوفر قائلة إن المصريين فى القرن التاسع عشر لم ينتبهوا إلى أهمية هذه الكنوز وتعاملوا معها على أنها مجرد تماثيل . لذا نشطت حركة نقل الآثار ، ما خف ثمنه وزادت قيمته ، خارج مصر .. لكن هذه النظرة تغيرت كثيرا فى القرن العشرين .

* * *

باريس

عاشت قصص الحب .. !!

الأوربيون فى واد .. والأمريكيون فى واد آخر ..

فالروايتان اللتان تحققان أعلى المبيعات الآن فى فرنسا تنتميان إلى الرواية الرومانسية فى المقام الأول . الرواية الثانية هى «العاشق» للكاتبة مرجريت دوراس التى قفزت مرة أخرى إلى سلم الصدارة بعد تحويلها إلى فيلم أخرجه جان جال أنو يكتسح الآن الإيرادات فى غرب أوروبا .. وأحداث الفيلم عن تجربة الحب الأولى فى حياة الكاتبة مرجريت دوراس حين كانت تعيش فى الهند الصينية مع اسرتها عام ١٩٣٢ وأحبت شابا من الوطنيين .

أما الرواية الأولى فتحمل عنوان «عاطفة بسيطة» للكاتبة آنى ارنو، وهى واحدة من أبرز الأديبات فى الفترة الأخيرة . والرواية أيضا تتحدث عن تجربة حب غريبة فى حياة الكاتبة .

والرواية تدور حول امرأة تعيش حالة انتظار للرجل الذى تحبه ووعدها أن يعود .. إنها لا تفعل شيئا سوى أن تنتظر وتنتظر . ثم تنتظر . تجلس أمام التلفاز لتشاهد المسلسلات وتبكى حين تستمع إلى الاغنيات العاطفية .

وليست البطلة هنا مجرد فتاة صغيرة فى أول سن المراهقة مثلما حدث فى «العاشق» . ولكنها امرأة ناضجة . وأم لأطفال كبار . وتقرر أن تتخلص من تجربة حبها بأن ترويها فى رواية «منذ بداية شهر سبتمبر فى العام الماضى . لم أفعل شيئا سوى انتظار رجل . أن يحدثنى فى الهاتف .



آنى أرنو

وأن يأتى لزيارتى»

الجدير بالذكر أن هذه الرواية التى تتصدر مبيعات الكتب فى باريس لا تتعدى صفحاتها الثمانين صفحة . وقد تفوقت فى نسبة توزيعها على كافة الروايات الحاصلة على جوائز أدبية لهذا العام . كما تفوقت على روايات لأدباء مشاهير مثل مرجريت دوراس ودومنيك فرنانديز وأثبتت تعطش الناس لأجواء الرومانسية لدرجة دفعت بروايات ستيفين كنج ، أشهر من يكتب قصص الرعب إلى ذيل قائمة المبيعات .

مرض السرطان .. أرحم

التفت الناس فى الفترة الأخيرة إلى الأدب الأبيض المكتوب فى جنوب افريقيا عقب فوز نادين جورديمر بجائزة نوبل فى أكتوبر الماضى ..

ويعتبر ج . م . كوتيزى واحدا من أبرز الأدباء البيض الذين يدافعون عن قضايا الزنوج فى رواياتهم . وهو من مواليد عام ١٩٤٠ . ويعمل مدرسا للأدب الأمريكى فى جامعة «كاب» بجنوب إفريقيا . وهو كاتب متعدد الأنشطة . فهو مترجم وناقد . ويعمل فى اللغويات . وحصل على ثلاث جوائز عن روايته .. فى انتظار الهمج .. كما حصل فى فرنسا على جائزة «فيمينا» . وفى بريطانيا على جائزة «بوبكر» ومن بين رواياته «مايكل كه» . وقد تحولت بعض رواياته إلى أعمال سينمائية .

«زمن الحديد»

هو عنوان الرواية الأخيرة لكوتيزى . وتدور أحداثها فى مدينة «كاب» بجنوب إفريقيا .. وبطلة الرواية تدعى إليزابيث . تحدث بمرض عضال أصابها منذ سنوات طويلة . إنها امرأة وقفت دوما ضد نظام التفرقة العنصرية «الأبارتهايد» .

وقبل موتها تقرر أن تكتب رسالة طويلة لابنتها التى تم نفيها إلى الولايات المتحدة تخبرها فيها أن عليها ألا تفتح الظرف إلا عقب وفاة أمها



ج . م كويتيزى

ويصبح على إليزابيث أن تنتظر أيامها الأخيرة . بينما على الابنة أن تنتظر على أحر من الجمر لتعرف ماذا فى الرسالة ..

وبعد أن تموت الأم تقرأ الابنة أن أمها إليزابيث قد اشتركت فى النضال ضد الرجل الأبيض من أجل حقوق السود . وكانت الجماعة التى انضمت إليها تحمل اسم «زمن الحديد». وأطلقوا عليها حركيا اسم «ملاك الموت» .. وتروى المرأة كم من المعاناة عرفت بهذا السبب . فكم جاء البيض يطرقون بابها . وكم جاء المتشردون لإرهابها ..؟

فويتون

«كولومبس» والعربية أم اللغات

معروف أن العالم يحتفل على امتداد هذه السنة بمرور خمسمائة سنة على اكتشاف نصفه الآخر الذى كان مجهولا . ذلك النصف المسمى الآن بأمريكا .

والفضل فى هذا الاكتشاف يرجع إلى كريستوفر كولومبس ابن مدينة «جينوة» التى كانت فى ذلك الزمان ميناء له شأن كبير .

فلقد كان «كولومبس» أول إنسان من العالم القديم ، وبالذات أوروبا ، يعبر بحر الظلمات (المحيط الأطلسى) على سطح سفينة مجهزة علميا للاكتشاف .



ففى الثانى عشر من أكتوبر لسنة ١٤٩٢ لمست قدماه أرض جزر الباهاما ، وبالتحديد جزيرة «جوانا هانى» ، التى سرعان ما غير اسمها إلى «سان سلفادور» مع إعلان ضمها إلى أملاك صاحبى الجلالة ملك وملكة أسبانيا.

ومن بين ما كتب من مقالات وأبحاث ودراسات حول هذه الرحلة التى غيرت وجه التاريخ ، وما أكثرها ، ثمة مقال قصير مثير كتبته «إلين فنسنت باروود» - وهى أمريكية - جاء فيه أن «كولومبس» عندما نزل إلى شاطئ تلك الجزيرة ، توقع من سكانها أن يكونوا على دراية بلغة العرب ، فيستميلهم بتحية «السلام عليكم» .. لماذا ؟

لأن اللغة العربية ظلت اللغة العلمية التى تتعامل بها معظم الإنسانية زهاء خمسة قرون من عمر الزمان ، وبالتحديد طوال الفترة ما بين القرنين الثامن والثانى عشر الميلاديين .

ولعله إلى ذلك السبب ترجع أولا تسمية كولومبس لها بأم اللغات .

وثانيا : اصطحابه ، فى رحلته الأولى إلى العالم الجديد ، «لويس دى توريس» بوصفه مترجما ، وذلك لأنه كان يجيد اللغة العربية .

فلقد كان «كولومبس» على ثقة ، وهو يركب المخاطر مجتازا المحيط ، أن أول أرض ستقابله هى أرض الهند التى سبقه العرب إليها عن طريق الشرق منذ زمن بعيد .

والأكيد .. الأكيد ، إنه كان كذلك على علم واسع باكتشافات العرب على امتداد القرون السابقة على رحلته ، وبما كتبوه - وهو كثير - عن تلك الاكتشافات التى وصلت بالإنسان إلى أقصى حدود العالم الذى كان معروفا فى تلك الأزمنة .

ألم يدوروا حول إفريقيا ، وواصلوا الإبحار حتى الهند . وألم يغامروا على اليابسة عبر آسيا الصغرى ومصر وسوريا ، وقد كانوا أسواقا غريبة للشرق الذى كان مجهولا ، حتى وصلوا إلى قلب آسيا .

وألم يرسموا الخرائط للأرض ، ويتعقبوا مسار الأنهار ، ويوقتوا الرياح الموسمية ، ويقيسوا ارتفاعات الجبال ، فتصل بهم هذه الاكتشافات إلى الصين .

وإذا بهم ، بفضل ذلك ينشرون الإسلام واللغة العربية فى كل تلك البقاع .

ومن هنا ، فقد تكون أول مفاجأة لكولومبس ، هى أن أحدا من سكان «جوانا هانى» الذين أطلق عليهم اسم الهنود خطأ ، لم يرد بالعربية على تحيته ، أو على أقل تقدير لم يفهم منها شيئا .

ومع ذلك فقد ظل أسير وهم أن الأرض التى وصل إليها هى أرض الهند .

فكان أن كتب فى مذكراته أنه على يقين من أنه ما أن يجتاز هذه الجزر المجاورة للهند حتى يصل إلى شواطئ سيبانجو (اليابان) والصين ، بعد رحلة فى البحر لن تزيد عن الألف ميل !!

رجل مجنون في الشارع

رسالة باريس من مصطفى درويش

لو كنت فى باريس فى أثناء هذا الشتاء ، ولو تسكعت فى شوارعها قليلا ، لاسترعى انتباهك صورة لإنسان لا تعرف عنه شيئا .

ولو كنت من أهل مدينة النور أو كنت من المولعين بسحر الألوان وما توحى به من بيان ، لاستبان لك أنها من إبداع ريشة الفنان التشكيلى «ديودور جيريكو» صاحب اللوحة الشهيرة «طوف المادوزا».

وأنها ، أى صورة الإنسان المجهول ، ما انتشرت هكذا فى كل مكان ، إلا لأنهم فى فرنسا يحتفلون بمرور مائتى سنة على ميلاد هذا الفنان .

لوحــة نــادرة

وأغلب الظن أن ريشته قد جرت برسم هذه الصورة قريبا من الربع الأول من عشرينيات القرن التاسع عشر .

والآن ومن دون رسومه جميعا هى التى وقع عليها الاختيار كى تكون أولا صورة الملصق المعلن عن معرض «جيريكو» فى القصر الكبير الواقع بين شارع الشانزليزيه ونهر السين .

وثانيا : صورة غطاء المجلد الضخم (الكتالوج) المطبوع احتفاء بالحدث الكبير .

ولقد تم العثور على لوحة هذا الرجل المجهول ، مع أربع لوحات أخرى شبيهة فى علية أحد المنازل بألمانيا ، وذلك بعد أربعين سنة من موت صاحبها ، ذلك الموت الذى جاءه مبكرا .

وإثر ذلك العثور ، أهديت اللوحة إلى متحف اللوفر الذى رفض الإهداء .

رسالة باريس

ولا غرابة فى هذا ، فهى إذا ما قورنت بدراما «طوف المانوزا» ، والضجة التى أثيرت حولها ، لا تعدو أن تكون صورة لرجل ما ، لا نعرف عنه إلا أنه كان نزيل سراى المجانين .

والعجيب أن هذه الصورة التى كانت مرفوضة من اللوفر قبل قرن من عمر الزمان ، هذه الصورة هى التى تختار كى تمثل جميع أعمال نفس الفنان .

فما الذى استجد حتى يحدث كل هذا ؟

لماذا أصبحت هذه الصورة الهزيلة فى رأى سدنة متحف المتاحف ، محط الأنظار ، وذكرها على كل لسان ؟! فى محاولة من الناقد الانجليزى «جون بيرجر» لتفسير هذا التغيير الذى طرأ على الموقف إزاء صورة هذا الرجل المجهول ، المجنون .. قال : أى شخص وجد نفسه إلى جوار صديق على شفا السقوط فى هاوية الجنون، أحسبه على دراية بذلك الاحساس الغريب الذى يدفعه حتما إلى أن يصبح متفرجا . فهذا الإنسان الذى على وشك السقوط نراه على خشبة مسرح الحياة وحيداً ، وبجواره كالشبح يقف فشل

، ولا أقول عجز كل التفسيرات المطروحة شرحا للألم اليومى الذى منه يعانى عناءً شديدا . وها هو ذا يقترب من ذلك الشبح ، ويواجه الفضاء الرهيب بين ما يقال من كلمات وبين ما تعنيه فى حقيقة الأمر . والحق ، هذا الفضاء ، هذا الفراغ ، هو الألم . وفى نهاية الأمر ، وبالنظر إلى أن الطبيعة تمقت الفراغ ، فها هو ذا الجنون يندفع كى يملأه ، وإذا بالفارق بين المسرح والعالم ، وبين اللعب والمعاناة ، إذا به ليس له أى وجود .

إن المحنة الراهنة إنما تكمن فى اتساع ذلك الفراغ ، فى تلك الفجوة بين ممارسة الحياة بشكلها الطبيعى فى هذه اللحظة الحرجة من وجودنا على كوكبنا ، وبين الخطاب الإعلامى الموجه للرأى العام ابتغاء إعطاء معنى لتلك الحياة .

وبقدر ما تتسع هذه الهوة ، بقدر ما يزيد الأسى والشقاء .

ومن هنا استعداد حوالى ثلث سكان فرنسا للاستماع إلى ما يجئ على لسان «لوبان» زعيم أقصى اليمين من هراء .

فهذا النوع من الخطاب ، وإن كان يعزف على عدة أوتار كل منها أشد نشازا من الآخر ، إلا فإنه يبدو أكثر اتصالا بالاحداث الجارية فى الشوارع الآن .



الفنــــان ديــودور جيـــريكو

فــأى شــئ بــدءا من التضـليل (الديماجوجية) وحتى الاستمناء المصطنع.. أى شئ يهون من أجل سد تلك الفجوة، وغالبا ما يفقد الصواب.

● عيون شاخصة للمجهول

ومما يلاحظ على اللوحات الخمس التى رسمها «جيريكو» فى لاساليبتيير (سراى المجانين الواقعة وسط باريس) أن عيون الجالسين شاخصة ببصرها إلى مكان آخر.. متسائلة.

وهى كذلك لا لأن البصر مصوب إلى شئ بعيد أو متصور، وإنما لأنها اعتادت ألا تسلط النظر على أى شئ، متى كان قريبا.

فكل ما هو قريب يثير الدوار، لا لسبب سوى أن هذا الشئ القريب غير قابل للتفسير حسب الشروح المطروحة، وأغلبها مبنى على التمنى والتهويم، ولا أقول الخداع لما أكثر ما نلتقى اليوم بنظرات شبيهة ترفض التركيز على الشئ القريب، نلتقى بها فى القطارات، أماكن وقوف السيارات، طوابير الحافلات، وساحات التسوق.

ثمة فترات تاريخية يظهر فيها الجنون على حقيقته.. بلوى شاذة، نادرة الحدوث.

ولكن ثمة فترات أخرى، مثل الفترة التى نعيشها الآن، فيها يظهر الجنون وكأنه القاعدة، وليس الاستثناء!!

وثائق مصر

أثارت مقالة الصديق سليمان محمد حسين فى هلال فبراير الماضى عن وثائق مصر شجونى ، وجددت أحزانى للحالة التى صارت عليها هذه الوثائق !.. وتبدو المشكلات التى تعانيها وثائقنا كما يلى باختصار :

دار الوثائق القومية :

ما إن انتهى تشييد البناء الجديد الذى تتوفر له إمكانيات أفضل نسبياً من مقر الدار القديم المؤقت بالقلعة وبدأت عملية نقل الوثائق حتى ظهرت من جديد مشكلة عدم استيعاب هذا المبنى لكل الوثائق ، مما يجعلنا بإزاء نفس المشكلة القديمة الجديدة التى لا تراوح مكانها وهى حاجتنا الى مبنى ضخم يستوعب الوثائق التى تضمها الدار القديمة مع بقية الوثائق المبعثرة بين أمكنة كثيرة ، مثل سجلات المحاكم الشرعية الموجودة فى مخازن الشهر العقارى بالقاهرة والاسكندرية ودمنهور وغيرها مما قد يستجد وتدعو الحاجة الى ضمه مستقبلاً .

دار المحفوظات العمومية :

لاتزال دار المحفوظات تستأثر بجزء هام جداً من وثائق الدولة ، وكانت إلى عهد قريب الملتقى الذى يؤمه الباحثون ويجدون فيه بغيتهم دون عنت بحكم احتفاظها بعدد من الموظفين الأكفاء ، ولكنها فى السنوات الأخيرة أخذت تعانى من التدهور فى خدماتها ومرافقها وازدحام وضيق بنائها مما جعلها تستغنى عن جزء من وثائقها فى منتصف السبعينيات لدار الوثائق وهذا أمر طبيعى لا بأس به ، لكن غير الطبيعى هو بيعها لجزء هام من وثائق مصر فى القرن التاسع عشر كأوراق دشت بالطن الى باعة اللب وغيرهم ، وهو ما شاهده بعينى رأسه باحث زميل ، وهذا يعنى ببساطة أن بقية الوثائق قد تلقى نفس المصير المحزن ، مادامت موجودة بدار المحفوظات ولم تتحرك الجهات المسئولة لوقف هذا النزيف المستمر ، على الأقل بنقل ما تبقى من وثائق الى المبنى القديم لدار الوثائق بالقلعة وهو على بُعد خطوات من دار المحفوظات الى حين توفير مكان مناسب لحفظها ، لاسيما وأن دار المحفوظات لاتزال تحتفظ بجزء هام من وثائقنا .

أرشيف وزارة الأوقاف :

تحتفظ وزارة الأوقاف بحجج الأوقاف منذ العصر المماليكى ، وتقبع هذه الثروة التاريخية فى بدروم الوزارة وتعانى من عدم توافر طرق الحفظ والصيانة ، وقد تلف جزء هام منها نتيجة طفح المجارى منذ ثلاث سنوات ، وهذا خطر مازال يهدد ما بقى من محتويات هذا الأرشيف الهام اذا لم تمتد يد المسئولين بالوزارة للاهتمام به وتصويره على ميكروفيلم أو نقله الى مكان أفضل فى طابق أعلى والاستعانة بالمتخصصين فى حفظ وترميم الوثائق وهى أمور تستطيع الوزارة مادامت تصر على التمسك بالوثائق وترفض الاستغناء عنها لجهة الاختصاص الوحيدة وهى دار الوثائق .

وأخيراً فإنى أعتقد أن اثارة قضية محنة الوثائق المصرية وما تتعرض له من مشاكل عدم توافر إمكانيات تصويرها على ميكروفيلم وحفظها وصيانتها والعناية بها وترميم ما قد يكون عرضة للتلف منها وضيق مبنى دار الوثائق الجديد فضلاً عن الإهمال والتسيب وخطورة فقدانها بدور الأرشيف غير المتخصصة سواء بأبنية الشهر العقارى ودار المحفوظات ووزارة الأوقاف لا تقل أهمية عن قضية دار الكتب إن لم تكن أولى بالرعاية والإهتمام .. وعلى أية حال فالقضية واحدة وهى خطر تعرض تراث الأمة الفكرى والثقافى للضياع .

محسن على شومان - مدرس مساعد بآداب الزقازيق

أم كلثوم فى ذكراها السابعة عشرة

مَضَيْتُ أسأل فى دَرْبِ القنــاديلِ — عَنِ الشُّعاعِ الّذى من كَفِّ جبـريلِ

هَوَى إلى الأرْضِ مُخضلَّ الرُّؤَى قَلِقًا — كأنّمـــا رِيعَ مِنْ وَجْـــدٍ وتَرْتِيلِ

فمَا سَمِعْتُ سِوَى الإيقاعِ يُحفِزُنى — إلى السَّماءِ بِتَرْجِيـــعٍ وتَهْلِيـــلِ

وأقبلت أمُّ كلثوم وقد ائتنت | إلى الدعاة بتطواف وتقبيل
وقد حطّطت على ركن تحاورني | فيه البدور محوطا بالأكاليل
وسامر الحيّ جوّاب المدى أبدا | قد تاه بين تواشيح وترسيل
في كل عين أرى لي نغمة خفقت | وكل قلب صبّي كان يصبو لي
قد ناهزتني أغاريد الهوى يفعا | وكبلتني بأنغام وترتيل
وتيمتني بأحلامي تعللني | باللحن يجلو تباريحي وتعليلي
وأم كلثوم مدت بيننا شفقا | تختال من فوقه شتى التماثيل
فإن خطوت إليها سامني شغفي | وجدا ممضا وعادتني تهاويلي
كأنني ذلك المجنون بادره | شوق لليلى وما قلبي بمأمول

د. حسين خريس

حيرة وأمل



أي ليل في مساني ..
أي نجم بسمائي ..
صرت لا أعلم دائي من دوائي
بات ضحكي كبكائي
وأنيني كغنائي
وشجوني غيمة تكسو فضائي
في دروبي تاه حلمي
اختفى فيها رجائي
وأنا في ظلمة الأيام أسري
ومسيري كبقائي



غربةٌ ما نلتُ منها ، غير سقمٍ وعناءِ

موطني أنتَ عيوني

لكَ حبى وولائى

لكَ إيماء قلبى

لكَ نبضى ووفائى

ولقد أقسمتُ أنى

سأوافيكَ عطائى

فإذا ما حارَ أمرى .. أنتَ نورى وضيائى

درهم جبارى — سان فرنسيسكو

أغلاط مطبعية

فى مقالة « عزيزى القارىء » بعدد مارس الماضى من « الهلال » ، وقعت بعض الأغلاط المطبعية ، منها :

– « توقف المؤرخ عند ظهور الإسلام » .. وصوابها : « ظُهْر الإسلام » .. وهو عنوان الكتاب الذى أشارت إليه المقالة من تأليف المرحوم الأستاذ أحمد أمين .

– وفى فقرة أخرى : « إن أهل هذا الدين قد بلغوا بجموحهم .. » .. والصواب : « بجمودهم » .

إلى عينيك

أخشاك حبيبى ..

أرهب عينيك

الليل الكامن يسرى .. يتسلل داخل عمقى ..

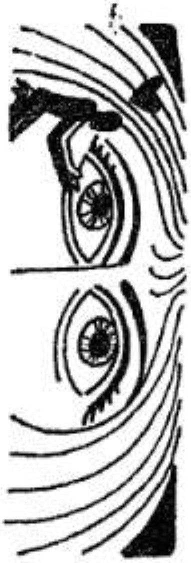
يطرق أبوابى .. يفتحها .. لا ينتظر الإذن ..

أعشق عينيك .. أتوغل داخل ليلهما ..

أتلمس هذا .. الشىء ..

هذا الشىء خرافى .. لم أعرفه ..

يغرق أحلامى فى نشوة ليل دافىء ..



أخشاك حبيبى .. أتراجع
دعنى أرجوك !..
ترنو .. فى صبر تغزونى .. وقلاعى لا تصمد
ما أنت دماء .. وعروق .. وعظام مثل الناس
بل أنت عيون سوداء ..
تدعو .. وتلح .. ولا تيأس ..
جمعت حبات الحب .. نظمت عقدا نورانيا
ما يعنى رجل يتمطى فى عمق القلب ؟
ما يعنى العالم فى رجل ؟..
فى داخل هذا العالم خبئنى
مازلت أحب !..

سامية عبد السلام

العقــاد وكارليــل

● كان الأديب الكبير عباس محمود العقــاد يذكر كثيراً أنه من المعجبين بالكاتب الانجليزى كارليل ، فمن هو هـذا الكاتب ، وما سبب إعجاب العقاد به ؟!..

عبد الراضى حسن شديد - طالب ثانوى - أسيوط

- إسمه توماس كارليل ، وهو كاتب ومؤرخ انجليزى ولد فى العقد الأخير من القرن الثامن عشر ، ودرس القانون ثم كتب فى الأدب والفلسفة والتاريخ ، ونقد المجتمع الإنجليزى فى عصره نقداً شديداً ، وألف كتاباً عن الثورة الفرنسية باعتبـاره من معـاصريها ، وهو من أهم المراجع عن تلك الثورة ، ولعل سبب إعجـاب العقــاد به كتابه المسمى « البطولة وعبادة الأبطال » فهذا الكتاب كان - فيما يبدو - يجد صدىً عند العقاد المعجب بالأبطال والبطولة ، والذى كان يعتبر نفسه أحد الأبطال .. وقد توفى كارليل سنة ١٨٨١ بعد أن عاش ستة وثمانين عاماً .

عندما كنت صغيرا



عندما كنت صغيرا
كان القلب رضيعا
يلهو بين الأطفال
يعزف أنشودات حمقاء
لكن ليس بها سفك دماء
كان البيت هو العالم
لكن .. حجرات البيت فسيحة
أركض فيها دون لغوب
أملؤها صيحات مرحة
كانت مدرستي دار غِنَاء
كنا نتلقن درس الإملاء
كنا نتخاصم .. نتصالح ..
عندما كنت صغيرا
كان الجسد بريئا
يحمل قلب العصفور
رويدك أيامي ... انتشي ..
هل بعدُ تُراكِ تعودين !؟

ياسر عبد البصير - آداب عين شمس

رياح أمشـــــــــير

تهب في عيونِ طفلة كئيبة
وتصفعُ البيوت بالتراب
فتنحني وتكمش
كمثل عصفور الشتاء اليتيمْ
تهب كالجنودِ بالصيَّاح والرعودْ
تحطُّ سُنْبكَ الصقيعِ فوق هامة الشجرْ



يئن بالحنين للربيعِ
ويَرقب الحياةَ فى الجذورْ
تهب فى « الجِرار » و « القُلَلْ »
فتلعن الشتاء فى سقيفة العراء والتعبْ
وتبتئسْ ..
كالهِرّ فى مُلاءَة الكَسَلْ
ترى .. متى تعمُّها الشموسُ بالشروقِ والأمَلْ

نوبى حسانى محمود – كلية الآداب – قنا

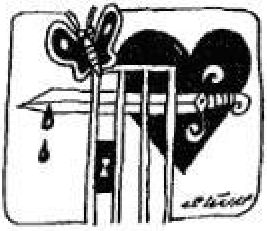
اختـــــلاط المفـــــاهيم

من المفاهيم التى اختلط أمرها على الناس فى أيامنا الحاضرة ، لقب « الشاعر » ولقب « الزجال » .. فأنا أشاهد على شاشة التليفزيون لقاءات يجريها المذيعون مع زجالين يؤلفون الأغانى فيقدمونهم الى المشاهدين بلقب « الشاعر » وأحيانا « الشاعر الكبير » .. ومن الواجب المحافظة على الفروق الفنية الدقيقة بين لقب « الشاعر » ولقب « الزجال » لكيلا يختلط الحابل بالنابل ، ولا تعرف الأجيال الجديدة الفرق بين هذا وذاك ! ..

عبد الوارث محمد أبو بكر – أسيوط

أنو أشـ...

دَمٌ غِمْدُ كُلِّ السيُوف ، وقَلبُ فراشةٌ حبٌّ تَطُوفْ
كما يَسلُكُ الفَجرُ بين الدُّجَى والصَّباح
ويرجعُ مُتَّشِحًا بالجراحِ كأغنيَةٍ فى الخريفْ !!
ولم يَزَلِ العَقْلُ يَنْشُرُ ظِلَّ جناحيْهِ ... ،
فى خُفْيَةٍ يُخْرِجُ الحَرْفَ مِن طَبَقاتِ الرَّماد
سماءٌ تُهَيْكِلُ شَمْسَ المدائنِ خارِطَةً للبلاد



ولا تستطيعُ اختراقَ السّجونِ التى تحبِسُ الوَجَعَ ...

المُتَوَحّدَ بالليلِ ، لا تستطيعُ التّجلّى بحجمِ الهَوى السرمدِى

ولكنّها تتلمّسُ خَيْطَ الرُقى

لِتَهْدِى اليهِ العُيونَ !!!

عبد الرحيم الماسخ - سوهاج

مع أصدقائنــــــا

الشعراء السادة : طارق عثمان عرابى .. السيد التحفة .. محمد عبد المنصف الزيبق .. الحسين محمود خضيرى :

– أشعاركم تحتاج الى مراجعة دقيقة من ناحية الأوزان ..

محمد عبد المطلب حامد – جراجوس – قوص :

– شعرك صحيح الأوزان ، ولكن أين المعانى الشعرية ؟!

رمضان عبد اللطيف حامد – كلية الآداب – قنا :

– أنت مازلت ناشئا فى الشعر ، ونحن نشجعك لتواصل طريقك حتى تبلغ درجة النضج ، ولكن يبدو أنك شديد الإعجـاب بشعرك ولا تريد إلا أن تنشر قصائدك كاملة ، وهـذا لا يفيـدك ، والأفضل نشر الفقرات الجيدة منها فقط ، ولا تستسلم يا بنى لوسوسة الشيطان لك بالغرور ، فإنه يقتل الموهبة !..

اعتــــــذار

ونعتذر الى أصدقائنا الكثيرين الذين كتبوا الينا ولم نستطع التنويه برسائلهم الكريمة ، نظراً لضيق المقام ، والمواعيد بيننا متجددة من شهر الى شهر ، ونرحب بهم دائماً ونسعد برسائلهم ..



الكلمة الأخيرة

بقلم : د . شكرى عياد

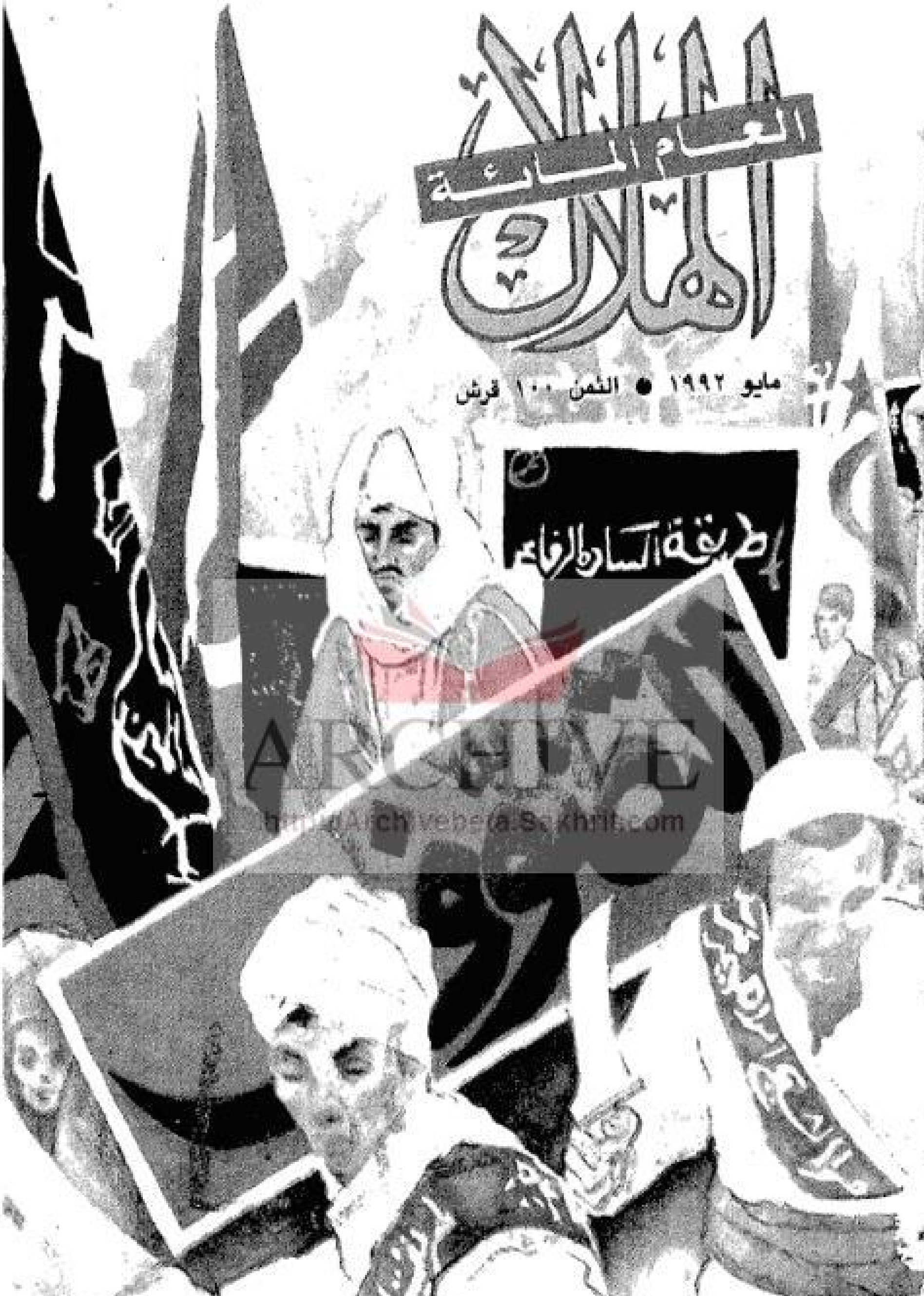
التعليم : المشكلة والحلول والمسئول

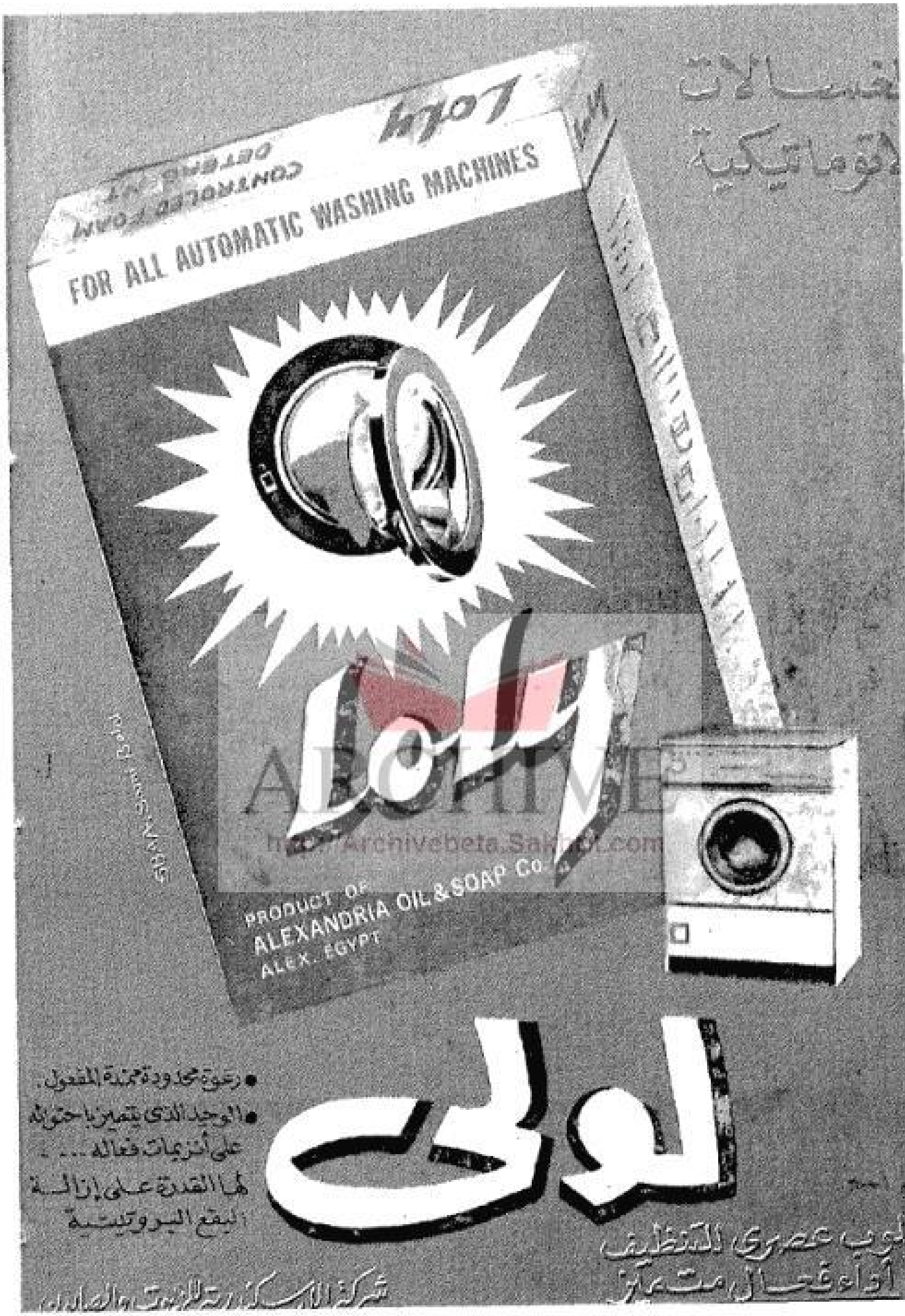
لست من المتشائمين . ولا أقول أيضاً إننى متفائل . فمشكلاتنا جميعا – ومنها مشكلة التعليم – هينة إذا نظرنا إليها نظرة موضوعية ، ولكنها عسيرة بل مستحيلة الحل مع فقدان الإرادة ، والإرادة المفقودة حالة يمكن أن نتجاوزها ، ولكنها مستحكمة فى الوقت الحاضر إلى درجة أشبهت « الإرادة السلبية » ، واستحقت عند بعض الكتاب إسم الانتحار الجماعى .

إليكم – على سبيل المثال – حلاً لمشكلة التعليم . أصعب عناصر المشكلة لأنه عنصر مالى فى المحل الأول – هو المبانى التعليمية . وواقع الحال أن مبانينا التعليمية لا تشغل بعملية التعليم إلا أقل من نصف العام . الحل البديهى – لولا فقدان الإرادة – هو أن تبقى مدارسنا مفتوحة للتعليم طول العام بعبارة ، أخرى أن يدرس نصف الطلاب بصورة متصلة من أول أكتوبر إلى آخر مارس مثلا ، ونصفهم الآخر من أول أبريل إلى آخر سبتمبر . (مع حذف العطلات الكثيرة التى لا معنى لها ، وضغط امتحانات آخر السنة فى أسبوع واحد ، كما كان الحال قديما ، عندما كان التعليم تعليما) .

هذا هو الحل الأساسى ، وستترتب عليه تغييرات كثيرة فى تفاصيل « نظام » التعليم ، لا العملية التعليمية ذاتها ، التى أزعم أنها سوف تتحسن كثيراً ، ولكننى لن اتكلم عن التفاصيل ، لأن الأمر كله متوقف على « الإرادة » .

كما أننى لا أتقدم بهذا الاقتراح إلى وزير التربية والتعليم ، لأننى أعلم أنه ليس مسئولاً عن شلل الإرادة الذى أصبح مرضاً متوطنا بين المصريين ، ولو تبناه لثارت عليه ثائرة الإداريين والمعلمين والتلاميذ وأولياء أمور التلاميذ . ولكنى أتوجه به إلى هؤلاء جميعا ، وأدعو الله أن يوجد فى نقابة المعلمين مثلاً من يراه جديراً بمجرد التفكير ، ومن لا يخاف أن يتهمه الناس بالشذوذ حين يدعو إلى إعادة النظر فى المشكلة التعليمية [illegible]ساسها . فقد مضى الزمن الذى كنا نجد فيه « الحكومة » مسئولة عن كل شىء ، وأصبح من واجب كل مصرى أن يشعر بأنه مسئول عن مستقبل مصر كلها ، ولا سيما إذا كان قريباً من موقع الاختصاص !


الهلال
العام المائة
مايو ١٩٩٢ • الثمن ١٠٠ قرش


غسالات
لأوتوماتيكية
Loly
CONTROLLED FOAM
DETERGENT
FOR ALL AUTOMATIC WASHING MACHINES
PRODUCT OF
ALEXANDRIA OIL & SOAP Co.
ALEX. EGYPT
لولى
• رغوة محدودة ممتدة المفعول.
• الوحيد الذى يتميز باحتوائه على أنزيمات فعاله ... لها القدرة على إزالة البقع البروتينية
لوب عصرى للتنظيف
أداء فعال متميز
شركة الاسكندرية للزيوت والصابون

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجى زيدان عام ١٨٩٢

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

نائب رئيس مجلس الإدارة
عبد الحميد حمروش

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

المستشار الفنى
محمد أبو طالب

مدير التحرير
عاطف مصطفى

المشرف الفنى
محمود الشيخ

سكرتير التحرير التنفيذى
عيسى دياب

الادارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا)
ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط)
المكاتبات : ص . ب : ٦١٠ - العتبة - الرقم البريدى : ١١٥١١ - تلغرافيا المصور - القاهرة ج . م . ع .
مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨١
تلكس : 92703 Hilal un
فاكس : FAX : 3625469

السنة المائة - مايو ١٩٩٢ - شوال ١٤١٢ - ٩

التصوف منزع علمى وعملى نزعت إليه الحياة الروحية الإسلامية منذ نشأتها فى صدر الإسلام ، وعلى تعاقب الأطوار التى مرت بها فى تطورها التاريخى ، والتصوف بهذا المعنى هو مرآة هذه الحياة الروحية الإسلامية التى يخضع فيها الإنسان لألوان من الرياضة والمجاهدة ، ويعد فيها قلبه لمعرفة الحقائق عن طريق الكشف والمشاهدة .

فى هذا الجزء الذى نقدمه نحاول إلقاء الضوء على التصوف فى مصر كظاهرة إجتماعية ، وكيف جاءت مفاهيمه لدى العامة ، مغايرة تماما لما كان ينبغى أن يحدث .

فهناك من يحاول جهده إيجاد صلة ما بين التصوف والإسلام على أساس ما يرد فى القرآن الكريم والحديث الشريف من نصوص تدعو إلى البر والإحسان والتقوى والورع ، وتحذر من الانغماس فى الدنيا .

وهناك من الباحثين من لا يرى أى صلة تربط التصوف بالإسلام ، وينفى وجود أى علاقة بينهما لأن الاسلام منهج إلهى متكامل الحياة ، أما التصوف فإفراز فكرى بشرى احاطت به مؤثرات مختلفة .

تناولنا « الطرق الصوفية فى مصر ، والتصوف مع مسيرة التاريخ الإسلامى ، مجالس الإنشاد الصوفى ، محاولة قراءة المسكوت عنه فى خطاب ابن عربى ، كيف تكلم الشعرانى ، والقصة عند الصوفية ، « السما » وطريق الوصل بين السماء والأرض » . فى محاولة لإلقاء الضوء على كيفية وضوح الرؤية لفكر المتصوفة وكيف أسيء فهمه لدى العامة والسذج !!

في هذا العدد

• جزء خاص : التصوف •

● الطرق الصوفية فى مصر .... د. السيد رزق الطويل ٨
● محاولة قراءة المسكوت عنه فى خطاب ابن عربى ... . د. نصر حامد أبو زيد ٢٤
● هكذا تكلم الإمام الشعرانى .... مصطفى نبيل ٣٤
● القصة عند الصوفية ! .... د. يوسف زيدان ٤٨
● مجالس الإنشاد الصوفى .... عبد الحميد توفيق زكى ٥٦
● «السماء» وطريق الوصل بين السماء والأرض ...... ماجدة الجندى ٦٦

• فكر وثقافة •

● متى يعود إلى مصر وجهها الجميل : عود على بدء ! .... د. مصطفى سويف ٧٦
● نبيع مسرح الدولة؟ لبيعه لماذا ؟ نبيعه لمن ؟ ..... د. على الراعى ٨٤
● القفز على الأشواك.. حوار مع أديب شاب .... د. شكرى محمد عياد ٩٢
● اعتقال الغرب فى علم الاستغراب .... د. صلاح قنصوه ٩٨
● اختر الحياة .. حوار بين ثقافتين ...... عرض د. أمين العيوطى ١٠٨
● قبل أن يحتكروا حق التفكير .... د. يحيى الرخاوى ١١٦

الغلاف
بريشة الفنان
محمد أبو طالب

الاشتراك

قيمة الاشتراك السنوى ١٢ جنيها فى ج.م.ع. تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ١٢ دولارا - أمريكا وأوروبا وآسيا وأفريقيا ٢٥ دولارا - باقى دول العالم ٣٥ دولارا .
والقيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال - ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

● أحلام العلماء ومشروعات المستقبل لكي لا تغرق فينيسيا والاسكندرية ! .... د. سيد كريم ١٢٤

• قصة وشعر •

● من بستان محبتها (شعر) .... صلاح والى ٩١
● المتاهة (قصة قصيرة) .... بقلم : ميرال الطحاوى ١٣٢

• فنون •

● أنا .. اقامسيص من حياتى . سيرة نجمة كبيرة .... مصطفى درويش ١٣٨
● أنماط المسرحية الكوميدية .... د. إبراهيم حماده ١٥٤

• رسائل صحفية •

● رسالة لندن : مجلة تولد وأخرى تموت .... د. على شلش ١٦٤

• شهريات •

● القصيدة : مجلة جزائرية جديدة ١٤٦
● صك المؤامرة عن وعد بلفور ١٤٨
● المكتبة ١٥٠

الأبواب الثابتة

٦ عزيزى القارئ
٢٣ أقوال معاصرة
١٥٩ لغويات
١٦٠ العالم فى سطور
١٧٢ التكوين
١٨٦ أنت والهلال
١٩٤ الكلمة الأخيرة د. يوسف خليف

ثمن النسخة

سوريا ٥٠ ليرة ، لبنان ١٠٠٠ ليرة ، الأردن ١٠٠٠ فلس ، الكويت ٧٥٠ فلسا ، السعودية ٨ ريالات ، الجمهورية اليمنية ٢٥ ريالا . تونس ١,٥ دينار ، المغرب ١٥ درهما ، البحرين ٨٠٠ فلس ، قطر ٨ ريالات ، مسقط ٨٠٠ بيسة ، غزة والقدس والضفة ٨٠ سنتا ، ايطاليا ٢٧٠٠ ليرة ، لندن ١٢٥ بنسا ، نيويورك ٤ دولارات ، الامارات العربية المتحدة ٨ دراهم ، الجماهيرية الليبية العظمى ١ دينار .

عزيزى القارئ

دار الهلال

خطواتنا فى العام المائة من عمر « الهلال » تحظى منك يا عزيزى القارئ باهتمام يقظ ، ومتابعة حميمة ، ومحبة صادقة ، نلمسها فى رسائلك التى لا تنقطع عنا ، وفى زياراتك ومكالماتك وبرقياتك واقتراحاتك التى يتزايد عددها يوما بعد يوم فنحس نحن العاملين فى « الهلال » أننا مواطنون فى جمهورية واسعة للقراء العرب تمتد من المحيط إلى الخليج ، وتتوالى فيها أجيال جديدة تتعلم من الأجيال القديمة ، بحيث لا ينقطع الخيط الواصل بين الماضى والحاضر والمستقبل ، مع استمرار عمل القانون الأزلى : حلول الجديد محل القديم ..

إن أكثر من سبعين فى المائة من قراء « الهلال » فى سنة ١٩٩٢ - العام المئوى للهلال - هم من الشبان الجدد الوافدين إلى عالم القراءة لأول مرة ، والذين لم يلتقوا بالهلال إلا فى الآونة الأخيرة ، ولم يعرفوا أنه « أقدم » مجلة مصرية وعربية إلا فى المهرجان المئوى الذى وضع القراء فيه التاج المئوى على هامة الهلال .

إن « الهلال » الذى بدأ فى سنة ١٨٩٢ كمجلة شهرية وحيدة يصدرها فرد واحد هو جرجى زيدان قد تطورت مرحلة بعد مرحلة ، حتى صارت فى العشرينات - قبل سبعين عاما - دارا كبيرة تصدر مجموعة من الصحف على غرار دور الصحف الكبرى فى أوربا وأمريكا ، وكانت مجلة « المصور » هى أكبر شقيقة للهلال صدرت فى العشرينات ، وهى الآن ، بعد سبعين عاما تقريبا تتصدر المجلات الأسبوعية المصورة فى مصر والعالم العربى والشرق الأوسط ..

وإلى جانب « المصور » تصدر دار « الهلال » مجموعة من الدوريات العريقة الراسخة من بينها « حواء » و « الكواكب » و « سمير » و « ميكى » و « طبيبك الخاص » .. فضلا عن إصدارات النشر الخاص لطائفة من أهم المؤلفات العربية والمترجمة ..

عزيزى القارئ

إن دار الهلال بتاريخها المئوى تستعد كلها منذ الآن للاحتفال بالعيد المئوى بالمجلة التى تحمل اسمها الشهير العريق ، مجلة الهلال ، هرم الثقافة المصرية والعربية

تستعد لعيدها المئوى)

الذى تطل على القراء من فوقه مائة عام من الآداب والعلوم والفنون تواصلت بلا انقطاع ، جيلا بعد جيل .

وفى هذه المناسبة نشرت مجلة « المصور » فى أحد أعدادها الأخيرة كلمة عن العيد المئوى للهلال قالت فيها : « نحن ننتظر من الآن لهذا الاحتفال بأكبر قدر من التفاؤل ، لأنه يقام فى زمن الرئيس حسنى مبارك ، حيث تتوهج فرص الإبداع ، دون قيد على فكر أو رأى ، الأمر الذى أدى إلى تواصل فريد بين الحكم والثقافة ، وفى هذا السياق فإن مناسبة « الهلال » فرصة لأن يصبح الاحتفال احتفالنا جميعا ، ابتداءً من رئيس الدولة الذى أعاد للثقافة اعتبارها وللعقل المصرى قيمته » .

ووزارة الثقافة أيضا ترى أن الاحتفال بالعيد المئوى للهلال ينبغى ألا يكون مقصورا على دار الهلال وأصدقائها وقرائها ، على كثرتهم ، وقد قال السيد فاروق حسنى وزير الثقافة إن الوزارة ستقف طويلا أمام مناسبة مرور مائة سنة على صدور مجلة الهلال .

عزيزى القارئ

هكذا سيكون الاحتفال بالهلال فرصة لاجتماع وزراء الثقافة العرب مع الأدباء والشعراء والفنانين ورؤساء تحرير ومحررى المجلات الثقافية والمهتمين بالثقافة العربية فى كل أنحاء العالم ..

وستعقد الندوات وتلقى المحاضرات وتتم الاجتماعات فى هذا السياق ، ويلتقى رؤساء تحرير الهلال السابقون وهم خمسة من كبار الأدباء الذين مازالوا يمتعون القارئ بكتاباتهم فى مختلف الصحف وهم كامل زهيرى ورجاء النقاش د . على الراعى و د . حسين مؤنس وكمال النجمى أما رؤساء التحرير السابقون الذين توفاهم الله - وهم خمسة أيضا - (جرجى زيدان - أميل زيدان - أحمد زكى - على أمين - صالح جودت) فستتلألأ أسماؤهم الكريمة فى سماء الاحتفالات بالتكريم والتبجيل .

يا عزيزى القارئ ..

إننا ندعوك إلى احتفالاتنا التى سنعلن عنها فى موعدها .. وإلى اللقاء ! ..

« المحـــرر »



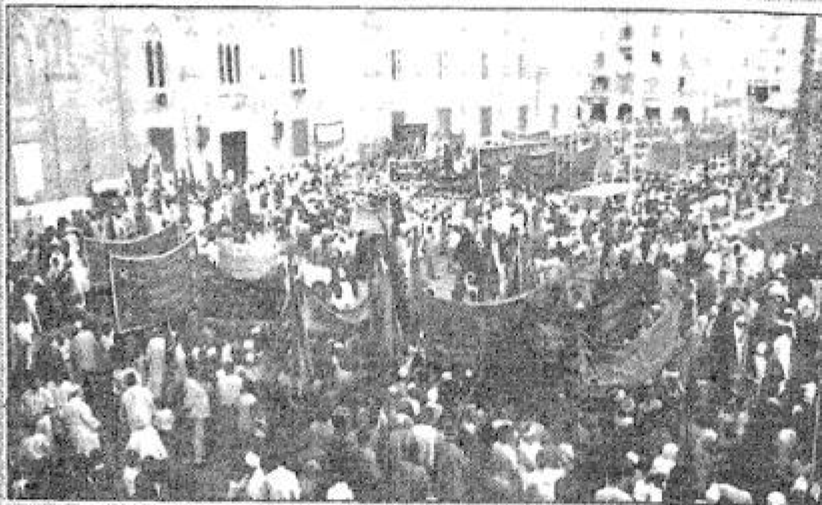
جزء خاص ● التصوف ●

الطرق الصوفية في مصر

بقلم : د . السيد رزق الطويل

هذه دراسة موجزة موضوعية عن الطرق الصوفية فى مصر، أصل وجودها وتأثيراتها سلبا وإيجابا فى سلوكيات المجتمع المصرى ، وهذا يتطلب منا تمهيدا يكشف أبعاد العلاقة بين التصوف والإسلام ، يمكن أن ننطلق منه إلى الموضوع الذى نتصدى لدرسه.

وبادئ ذى بدء أريد أن أقرر أمرا ستؤكده هذه الدراسة هو أنى سأسير على نهج الحيدة التامة ، والتعامل النزيه مع النصوص والأحداث لنصل إلى نتائج كاشفة عن آثار الظاهرة الصوفية فى مصر .



المدافعون عن التصوف يرون أنه نمط أعلى من التدين

التصوف والإسلام

هذه قضية شغلت الباحثين فى مسيرة التفكير الإسلامى .

فهناك من يحاول - جهده - إيجاد صلة ما بين التصوف والإسلام على أساس ما ورد فى القرآن الكريم والحديث الشريف من نصوص تدعو إلى البر والإحسان والتقوى والورع ، وتحذر من الانغماس فى الدنيا .

بل إنه يتكلف فى الأمر فيحاول أن يوجد بذورا للتصوف فى العصر الجاهلى مستندا إلى ظاهرة المتحنفين ، وإشارات بعيدة فى الشعر الجاهلى ، ومنه قول النابغة من رثاء النعمان :

إنى وجدت سهام الموت معرضة
بكل حتف من الآجال مكتوب [1]

وهناك من الباحثين من لا يرى أى صلة تربط التصوف بالإسلام ، وينفى وجود أى علاقة بينهما ؛ لأن الإسلام منهج إلهى متكامل للحياة وهداية الأحياء ، وأما التصوف فإفراز فكرى بشرى أحاطت به مؤثرات مختلفة ، ومحاولة إيجاد علاقة بينهما كمحاولة إيجاد علاقة توفيقية بين الدين والفلسفة على نحو ما اتجه إليه الكندى والفارابى وابن سينا ، وابن رشد وغيرهم من فلاسفة الإسلام .

كاتب المقال عميد كلية الدراسات العربية والاسلامية (جامعة الأزهر)

١ - أنظر نشأة التصوف الاسلامى د . ابراهيم بسيونى ص ٣٧ وما قبلها

ويؤكدون وجود علاقات وثيقة بين التصوف والبوذية ، والبراهمية وغيرهما من الديانات الوثنية من ناحية والفكر الإغريقى كالأفلاطونية الحديثة من ناحية أخرى [1]

ولكى تتضح تماما أبعاد هذه القضية أريد أن أسوق أمورا :

أولها : أن التصوف ظاهرة بشرية تظهر فى سلوك البشر بتأثير ظروف بيئية واجتماعية مختلفة ، وتنتهى بنظريات فلسفية أحيانا كالفناء ووحدة الوجود ، والاتحاد والحلول ، ومن هنا عرفتها الديانات الوثنية القديمة ، وعرفها الفكر الإغريقى ، كما عرفتها اليهودية والنصرانية .

ثانيها : ظهر التصوف بمقاييسه الفكرية والفلسفية فى البيئة العربية والإسلامية فى النصف الثانى من القرن الثانى للهجرة ؛ إذ تهيأت فى ذلك الوقت البيئة المواتية لاستنباته وتبدو البيئة مهيأة لنزعة التصوف فى أمرين :

١ - ظهور نزعة الزهد والعزوف عن الدنيا ، وهذه النزعة لم تأت بصورة طبيعية أو تعبيرا عن مقصد إسلامى يراد تحويله إلى سلوك عملى ، فلم ترد كلمة زهد فى القرآن الكريم إلا فى موضع واحد ، وفى معنى غير المعنى الذى يعنيه المتصوفة وهو قوله تعالى فى سورة يوسف (وكانوا فيه من الزاهدين) ، وكذلك لم يدع النبى صلى الله عليه وسلم إلى الزهد فى شىء إلا فى المحارم فحسب .

وكان ظهور هذه النزعة بمثابة رد الفعل للانحلال ، والتيار الحضارى الجارف فى عهد العباسيين .

يقول العلامة ابن خلدون : فلما فشا الإقبال على الدنيا فى القرن الثانى وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة [2] .

وعبارة ابن خلدون هنا تشير إلى أن اسم التصوف أطلق أول ما أطلق على أصحاب سلوك إسلامى فيه إمعان فى زهادة ، هذه الزهادة لم تكن من مقاصد الإسلام الرئيسية .

وهو فى هذا يتفق مع العلامة ابن تيمية فى وصفه هذه الطبقة من العباد بصوفية أهل العلم الذين كانوا يقولون : علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة [3]

٢ - الأمر الثانى الذى هيأ لظهور التصوف الفلسفى ظهور الفكر الدخيل فى هذه

---

١ - أنظر الصوفية فى نظر الاسلام للأستاذ عاطف الزين من ص ١٤ - إلى ص ٣٢ ط لبنان سنة ١٩٦٩ وأنظر كتاب هذه هى الصوفية الشيخ عبد الرحمن الوكيل بتحقيقنا ١٩٧٧ .

٢ - مقدمة ابن خلدون جـ ٣ ص ١٠٦٣ شرح وتحقيق د . وافى ١٩٦٠ .

٣ - انظر الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان .

الفترة ، وتسلطه كالفلسفة اليونانية ، والديانات الشرقية حتى وجدنا الزندقة اتخذت طريقها لمجتمع المسلمين في عصر العباسيين ، وفي عهد الخليفة المهدي الذي تصدى لها ، ووقف إلى حد ما في مواجهة تيارها .

ثالثها : اصطلاح التصوف وافد على البيئة الإسلامية ، ولذلك لا نجد له أثرا في معجم ألفاظ القرآن الكريم ، ولا في حديث نبوي صحيح ، بل لم تأت فيهما إشارة للتصوف بلفظه أو معناه ، وهذان المصدران الصحيحان في متناول الجميع ، ومن عنده ريب في هذا التعميم فليأت ببرهان يقطع التشكك باليقين .

ولهذا اختلف الباحثون – سواء المؤيدون منهم للتصوف أم المعارضون – في أصل هذا اللفظ واشتقاقه .

فالمتصوفة يرونه مأخوذا من الصفاء ، والصفوة ، يقول صاحب اللمع : إن العبد إذا صفا من كدر البشرية ، يقال له صوفي فهو صوفي [1]

وهذا الاشتقاق مرفوض لغويا حتى من أعلام المتصوفة ؛ إذ يقول القشيري : هو بعيد من مقتضى اللغة [2]

وهناك من المتصوفة من يرجع اللفظ إلى « الصفة » التي كانت في مؤخرة مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة حيث كان ينزلها فقراء المسلمين الذين ليس لهم مأوى ، وكان هؤلاء يكتسبون أرزاقهم عند إمكان الاكتساب ولا ينصرفون عنه إلا إلى ماهو أوجب .

وهذه محاولة قصد بها وصل التصوف بعصر النبوة لإيجاد صيغة مشروعة له ترده إلى عهد الأسوة الحسنة ، يقول السهروردي : قد اجتمعوا بمسجد المدينة كما يجتمع الصوفية قديما وحديثا في الزوايا والربط لا يرجعون إلى زرع ، ولا إلى ضرع ، ولا إلى تجارة ... [3]

وهذا الوصف لأهل الصفة مع مجافاته لواقعهم وهم من أهل العمل والجهاد فإنها – أي النسبة للصفة – تخالف قواعد اللغة ؛ لأن النسب للصفة صفي لا صوفي .

تعبير عن الزهد

والذي ارتضاه جمهرة الباحثين وتسانده اللغة هو أن صوفي نسبة إلى الصوف الذي اتخذه هؤلاء شعارا لهم ، معبرا عن زهادتهم ورغبتهم عن الدنيا .

---

١ – اللمع لأبي نصر بن السراج ص ٤٧ ت د عبد الحليم محمود ١٩٦٠

٢ – الرسالة القشيرية ص ١٢٨

٣ – عوارف المعارف ص ٤٧

وقد حاول بعض المتصوفة من جهة أخرى أن يوجدوا لهم رابطة مشروعة بعصر النبوة وما بعده من ناحية أخرى أعنى من ناحية اتخاذ الصوف ملبسا ، وذكروا فى ذلك مارواه ابن ماجه والحاكم عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أكل خشنا ، ولبس خشنا ، لبس الصوف واحتذى المخصوف [1]

وكذلك قول أبى موسى الأشعرى : « يابنى لو رأيتنا ، ونحن مع نبينا صلى الله عليه وسلم إذا أصابتنا السماء وجدت منا ريح الضأن من لباسنا الصوف » [2]

على أن لبس الصوف فى عصر النبوة وما بعده لا يعنى أنه شعار لفكر أو مذهب ، أو شارة لمسلك معين ، وإنما هو اللبس الميسور للعامة ، المناسب لحياتهم الخشنة فى بيئة تسودها حرفة الرعي ، وتعمل بتربية الإبل والأغنام .

على أن من المتصوفة من نظر إلى اتخاذ الصوف شعارا نظرة فطنة ورأى أنها إن قصدت كانت لونا من الرياء .

دخل رجل على قتيبة بن مسلم ، والى خراسان ، وعليه مدرعة صوف ، فقال له قتيبة : ما يدعوك إلى لباس هذه ؟ فسكت عنه ، فقال له قتيبة : أكلمك فلا تجيبنى ؟ قال : أكره أن أقول زهدا فأزكى نفسى ، أو أقول فقرا فأشكو ربى [3]

وقد كان الحسن البصرى ممن لا تخدعهم الدنيا ، ويأخذ حظه منها بالمعروف ، وقد انتقد هؤلاء الذين اتخذوا الملبس شعارا لهم ، قال عن أصحاب الاكسية : لقد أكنوا الكبر فى قلوبهم وأظهروا التواضع فى لباسهم ، والله لأحدهم أشد عجبا بكسائه من صاحب المطرف بمطرفه [4]

رابعها : الاتجاه الصوفى على النحو الذى يردده أعلام المتصوفة لم تعرفه البيئة العربية قبل الإسلام وإن أشار القوم إلى فترات التحنث التى كان يقضيها محمد بن عبد الله فى غار حراء قبل بعثته ، ومن قبله جده عبد المطلب : فهذه كانت فترات عزوف عن المجتمع الفاسد فى وقت لم تتيسر الأسباب لمقاومته حتى أن النبى محمدا عليه الصلاة والسلام هجرها هجرا تاما عندما أمر بتبليغ الرسالة ، وانصرف إلى طريق الدعوة والجهاد ، وضرب أروع مثل للإيجابية فى المجتمع .

أضف إلى ذلك أن طبيعة الحياة العربية كانت قائمة على أساس التفاعل مع الحياة ، وأن الحنفاء كانوا رافضين للوثنية لا للحياة العملية .

خامسها : الدين الحق الذى أصطفاه الله لعباده منهاجا لحياتهم يقوم أساسا

---

١ – أنظر اللمع تحقيقات الأحاديث صـ ٥٧٤

٢ – الطبقات لابن سعد ج ٤ صـ ٨٠

٣ – العقد الفريد صـ ٦ ـ ٢٧٦

٤ – الطبقات لابن سعد صـ ٧ صـ ١٢٣

على التعامل مع الحياة والاندماج فيها فى إطار ما جاء به من مثل وقيم ، وأن الخصومة مع الحياة ، والانعزال عن طيباتها إنما يعنى ضعفا فى عزم المسلم ويقينه، فالحياة ابتلاء بما فيها من خير وشر (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) [1] والمؤمن الفطن يتجاوز ابتلاءاتها بالصبر على شرها ، والشكر على خيرها .

والعابد الذى يقتحم الدنيا أقرب إلى الله من عابد عاكف فى محراب أو صومعة

ولذا حث القرآن الكريم الأمة على التماس طيبات الحياة وحلالها ، مع زهد كامل فى محرماتها ، يقول سبحانه : (ولا تنس نصيبك من الدنيا) [2] كما يقول جل شأنه: (يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ، ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ، قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) [3]

التصوف مع مسيرة التاريخ الإسلامى

سارت حركة التصوف منذ ظهورها مع مسيرة التاريخ الإسلامى من زهد وإعراض عن الدنيا إلى تصوف نظرى فلسفى احتوى الأفكار الملحدة التى سبقت إليها الديانات الوثنية ووجدت كما كبيرا من المصطلحات والتعبيرات التى يصعب على الباحث ربطها بالإسلام فى صورته المشرقة والنقية مثل : المحو والفناء ، والحلول ، ووحدة الوجود ، وسقوط التكاليف ، ووحدة الأديان ، كما تسمع عن المواجيد ، والمجاهدات ، والمذاقات والجذب ، كما يروعك ما تسمعه من الهيكل الهرمى الذى يقود العالم بتفويض من الله كالأبدال ، والأوتاد ، والنجباء والأقطاب .

وهناك ملاحظ على الحركة التاريخية للتصوف منها أن انتشاره فى العالم الإسلامى لم يكن بدرجة واحدة ، فبينما نراه متكاثرا فى مكان نراه فى حكم المعدوم فى مكان آخر ، تبعا لتوافر الظروف المهيئة لوجوده وانتشاره ومنها أن انتشاره وغلبته يتزامنان مع عصور الاستبداد ، وفترات البغى ، وغياب الشخصية الإسلامية الواعية، والتسلط الأجنبى .

وهناك من ينتمون للتصوف على أساس أنه سلوك عملى يستهدف الإخلاص والورع ، واتقاء الشبهات ، والالتزام بالأخلاق الفاضلة ، وهذه كلها قيم إسلامية فى غنى عن هذا الانتماء الذى يثير الشكوك ، ولهؤلاء مكانتهم فى الإسلام .

وفلاسفة التصوف أو ملاحدته الذين تبنوا المذاهب الملحدة كانوا سببا فى الحرب التى قامت بينهم وبين علماء الأمة وفقهائها حتى انهم اضطروا إلى القول بالحقيقة ، والتستر وراء الرمزية ، واتهموا الفقهاء بأنهم أهل ظاهر ، وأصحاب شريعة محجوبون عن الحقيقة فلم يذوقوا لكى يعرفوا .

---

١ - القصص / ٧٧ ٢ - الأعراف / ٣٢ ٣ - الأنبياء / ٣٥

ويلحظ أن المدافعين عن التصوف ، الحريصين على وصفه بأنه نمط أعلى من التدين الراقى لا ينكرون سلبيات التصوف ، ويعتذرون عن سادتهم الأوائل الذين ألحدوا بأنهم قالوا ما قالوا فى لحظات سكرهم وفنائهم ، كما وصفوا من وقعوا فى سلبيات التصوف بأنهم ليسوا صوفيين حقيقيين وإنما هم دخلاء وأدعياء (1)

لكن منهم من يدافع بحماسة وقوة عن خطايا صوفية لا يحسن السكوت عليها نراها فى فصوص الحكم لابن عربى وتائية ابن الفارض ، والطبقات الكبرى للشعرانى .

والظاهرة اللافتة للنظر فى انتشار الحركة الصوفية فى العالم هى التناقض فى الفهم والتفسير ، وأن العمل الصوفى يأخذ طابعا يكاد يكون شخصيا فترى صوفيا ينكر شيئا من أعمال الآخرين ويقره آخر ، بل يدافع عنه بشدة .

بداية التصوف فى مصر

يذكر بعض الباحثين أن فى مصر ظروفا مهيئة للاتجاه الصوفى ترجع إلى العصر الفرعونى وما ارتبط به من طقوس دينية تدل عليها النقوش الموجودة على جدران معابدهم ، مما يؤكد ارتباطهم بالحياة الآخرة ، وانشغالهم بها (2) ، ثم جاء الإسلام يحمل الدعوة إلى الدنيا والآخرة ، فساروا فى هـدى تعاليمه راضين .

وهذا اجتهاد أو تصور لا يرقى لمستوى الحقيقة التاريخية ؛ إذ لو كان الأمر كذلك لرأينا بوادر التصوف فى مصر فى القرن الأول ، أو الثانى ، الأمر الذى لم يكن له أى وجود بصورة من الصور .

وإذا تحدثنا عن بدايات التصوف فى مصر فلابد أن نفرق بين ظهوره بصورة فردية ، وظهوره على شكل جماعى على هيئة فرق وطرق .

فعن الوجود الفردى للتصوف فى مصر يرى بعض الباحثين أن أول من غرس بذور التصوف فى مصر هو ذو النون المصرى المتوفى سنة ٢٤٥ هـ ، وكان يعد أول من تكلم فى المقامات والأحوال ، وكانت له شخصية مؤثرة حتى أن جميع الشيوخ من معاصريه أخذوا عنه ، واعتمدوا عليه ، وشاركه فى غرس بذور الفكر الصوفى فى القرن الثالث الهجرى صوفيان آخران هما أبو بكر الزقاق المصرى ، وأبو الحسن بن بنان الحمال المتوفى سنة ٣١٦ هـ .

وعلى امتداد القرنين الرابع والخامس الهـجريين أتى إلى مصـر رجـال

---

١ - انظر التصوف والحياة العصرية صـ ٢٢

٢ - انظر التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى جـ ١ صـ ٣٦ وما بعدها د. توفيق الطويل

متصوفون منهم أبو على الروزبارى المتوفى سنة ٣٢٢ هـ وأبو على بن الكاتب المتوفى سنة نيف وأربعين وثلاثمائة من الهجرة ، وأبو الحسن الدينورى الصائغ المتوفى سنة ٣٣١ هـ وأبو بكر الرملى النابلسى المتوفى سنة ٣٦٣ هـ ، وابن الترجمان المتوفى سنة ٤٤٨ هـ وأبو القاسم الصامت المتوفى سنة ٤٢٧ هـ (١)

ويبدو أن الوجود الفاطمى فى مصر من منتصف القرن الرابع حتى منتصف القرن السادس كان عاملا مشجعا على توافد الصوفية إلى مصر ؛ لأن السياسة الفاطمية وانتماءها الشيعى والباطنى الذى كان يستهدف إبعاد الناس عن مجال السياسة بالاغراق فى الزهد ، واختلاق المناسبات الشاغلة سواء أكانت دينية أم غير دينية ، وإقامة الأضرحة على قبور وهمية وغير وهمية لشخصيات لها مكانتها فى قلوب المصريين أوجد بيئة خصبة لوفود من المتصوفة تأتى من فارس ، والعراق ، والمغرب لتقيم لها ركائز فى مصر تجد حماية مبذولة من النظام الفاطمى المسئول تاريخيا عن إشاعة البدع والمستحدثات كما أنه مسئول عن حالة العجز والتواكل فى مواجهة البغى الصليبى حتى تم الإنقاذ على يد الأيوبيين أما بداية التجمعات الصوفية أعنى الفرق والطرق فقد اختلفت فيها آراء الباحثين .

سجل المقريزى نشأة التصوف الجمعى فى مصر بأنه كان فى عام ٥٦٩ هـ (٢) ويرى على باشا مبارك أنه كان زمن صلاح الدين الأيوبى سنة ٦٥٩ (٣)

ورأى المقريزى أدنى للصواب ؛ لأن صلاح الدين الأيوبى توفى سنة ٥٨٩ (٤)

ويقول صاحب رسالة الطرق الصوفية فى مصر : فى القرن السادس الهجرى ظهرت مدرسة صوفية كبيرة بصعيد مصر وهى المدرسة التى أسسها الشيخ عبد الرحيم القنائى المتوفى سنة ٥٩٢ هـ والذى كان على ما يذكر الحافظ المنذرى أحد الزهاد المشهورين ، والعباد المذكورين ، ثم قام عليها من بعده صوفى مصرى له مكانته فى عصره هو الشيخ أبو الحسن الصباغ المتوفى سنة ٦١٣ هـ والذى أخذ عنه كثيرون جدا من صوفية الصعيد فى ذلك العصر (٥)

وهذا الاختلاف فى نقطة البداية لا يعد شيئا لتقارب التواريخ فهم أدنى إلى الاتفاق منهم إلى الاختلاف إذا استثنينا الوهم التاريخى لعلى باشا مبارك .

---

١ - الطرق الصوفية بالديار المصرية : تأليف الدكتور أبي الوفا التفتازانى ص ٢١ ، ٢٢ ، وانظر الرسالة القشيرية من ص ٢١ إلى ص ٢٧ وانظر حسن المحاضرة للسيوطى جـ ١ صـ ٢٩٤ وما بعدها .

٢ - خطط المقريزى صـ ٤ صـ ٢٧٣

٣ - انظر الخطط التوفيقية جـ ١ صـ ٩٠

٤ - التصوف فى مصر د. توفيق الطويل صـ ٣٧

٥ - رسالة الطرق الصوفية فى مصر د . التفتازانى صـ ٢٢ .

كما تتضح لنا الصورة الجماعية التى أخذت المسيرة الصوفية فى مصر تلتزمها ، وتسير عليها . ومصر فى ذلك الوقت ومابعده كانت مهاجرا للأعلام من الشرق والغرب، إذ كانت الواحة الآمنة وسط الاضطراب الذى ساد العالم الاسلامى بتأثير الهجمات الصليبية ، ثم غزوات التتار فيما بعد والتى استهدفت المشرق الإسلامى ثم الاضطهاد الباغى من نصارى الأسبان الذى استهدف المغرب الإسلامى ودمر حضارته الزاهرة .

ويأتى القرن السابع

وتتكاثر الوفود المتصوفة لائذة بكنف مصر مع من لاذ بها من أعلام العلماء ، وتتسع الحركة الصوفية ، وكل شيخ وافد يؤسس طريقة ينسبها لشخصه ، ويجمع حوله المريدين الذين يستحوذ تماما على وجدانهم ومشاعرهم حتى لا نرى لهم مصدر إرادة .

فقد وفد إلى مصر الشيخ أبو الفتح الواسطى من العراق ، وأقام بالإسكندرية ودعا إلى الطريقة الرفاعية .

وجاء من المغرب السيد أحمد البدوى سنة ٦٣٤ هـ وأقام بطنطا وأسس الطريقة الأحمدية وتوفى ٦٧٥ هـ وكانت له مسالك مثيرة جعلت الباحثين ينظرون إليه نظرات متباينة بين الادعاء والخرافة والجاسوسية أو العلم والولاية [(١)]

وجاء بعده من المغرب أيضا الشيخ أبو الحسن الشاذلى سنة ٦٤٢ هـ ومعه جملة من تلاميذه ومريديه ، واستوطنوا الإسكندرية ، وأسس الطريقة الشاذلية .

وأبرز من قام عليها من بعده تلميذه أبو العباس المرسى المتوفى سنة ٦٨٦ هـ ، ثم خلفه عليها تلميذه ابن عطاء الله السكندرى .

كما ظهر فى دسوق الشيخ ابراهيم الدسوقى المتوفى سنة ٦٧٦ هـ وقام على تأسيس الطريقة البرهامية [(٢)]

ومن الواضح أن تكاثر النشاط الصوفى فى هذا القرن كان إفرازا للأحداث الأليمة التى عصفت بالعالم الإسلامى ، فدفعوا جميعا إلى سلبية الزهادة والتمس منهم السلاطين البركة عند الأزمات وكان هذا هو دورهم فى الجهاد القائم مما جعل بعض المعاصرين يتصور أن لهم ايجابية فى المقاومة ودورا فى التصدى لأعداء الأمة.

ويشير الدكتور أبو الوفا التفتازانى شيخ مشايخ الطرق الصوفية إلى أن أول تنظيم رئاسى للطرق الصوفية فى مصر يرجع تاريخه إلى عصر السلطان

---

١ - أنظر السيد البدوى ودولة الدراويش للأستاذ فهمى عبد اللطيف ، والسيد البدوى للشيخ محمود أبى رية ، والسيد البدوى بين الحقيقة والخرافة د. أحمد صبحى منصور .
٢ - أنظر الطبقات الكبرى للشعرانى جـ ١ ص ١٠٨ وما بعدها .

صلاح الدين الأيوبى ، وأنه انشأ للصوفية خانقاه (١) هى المعروفة بسعيد السعداء ، وكانت تعرف بدويرة الصوفية بالقاهرة يقصدها الصوفية الوافدون إلى مصر ، وأجرى عليها أوقافا سنة ٥٦٩ هـ وكانت أول خانقاه أسست بمصر ، ولقب شيخ هذه الخانقاه بشيخ الشيوخ (٢)

وجاء العصر المملوكى فتهيأت الظروف لاتساع النشاط الصوفى ، وذلك لأنه كان مفعما بالبغى والتسلط ، وذهب الأمن وعم الأضطراب ، إذ كان حكم المماليك قائما على سلاح القوة سبيلا للحصول على السلطان ، والمستحوذ منهم على السلطة يبغى على الرعية ، ثم يستند إلى الطرق الصوفية لتبارك عمله ، وتسقط عنه تبعة مظالمه وقد يصحب بعضهم فى غزواته أو يستعين بهم على بعض أموره (٣)

وفى هذا العصر أخذ هيكل النظام الصوفى فى التكامل وظهرت مصطلحات الأقطاب والابدال ، والاوتاد والنقباء .

وكانت أماكن النشاط الصوفى منذ تحوله من نشاط فردى إلى نشاط جماعى منحصرة فى ثلاثة : الخانقاه - الرباط - الزاوية .

ولكل منها خصائص ، وأساليب استخدام ، وأنشطة معينة ، وكان ينشئها السلاطين ويجرون عليها الأرزاق ، والنشاط فيها أمشاج من الحق والباطل ، والدجل والخرافة والدين والعبادة والعلم والجهل .

وقد أفاض من وصف هذه الأماكن المقريزى من خططه ، وعلى مبارك فى الخطط التوفيقية ثم تحولت الخوانق إلى تكايا يقيم فيها دراويش الأعاجم ، ثم تطور الحال بالتكايا حتى أضحت أخيرا ملاجئ لإيواء المرضى ، ومن قعدت بهم الشيخوخة عن اكتساب القوت .

وأما الرُبط والزوايا فامتدت الحياة بها فترة ، واختلف أسلوب الحياة فيها ، وأوضاع نزلائها (٤)

وما أن شارف القرن التاسع على النهاية ، وبدأ القرن العاشر ، ودخلت مصر فى العصر العثمانى حتى انتشر التصوف انتشارا واسعا ، وتعددت طرقه ، وعظم تأثير شيوخه ودخله فساد كبير ، وتكاثرت سلبياته مما أساء إلى العقيدة ، وأشاع الفساد الاجتماعى والضلال الفكرى ، وعظم سلطان الدجل والخرافة .

---

١ - الخانقاه : كلمة فارسية معناها بيت العبادة .
٢ - أنظر الطرق الصوفية فى مصر ص ٢٥ ، والمقريزى جـ ٤ ص ٢٧٣ - ٢٧٤ .
٣ - أنظر بدائع الزهور جـ ٢ ص ٢٢ .
٤ - أنظر التصوف فى مصر جـ ١ جـ ٢٩ وما بعدها .

والقارئ للطبقات الكبرى للشعرانى يجد صورا بالغة السوء لسلطان المتصوفة وما كان يحدث منهم من كبائر ورذائل تحت شعار الكرامات حتى أن الناس فقدوا كرامتهم معهم .

وفى القرن التاسع عشر الميلادى أو ما قبله بقليل أصبح للطرق الصوفية مشيخة عامة تشرف على جميع الطرق ، وأصبح لكل طريقة شيخ ولكل شيخ خلفـــاء فى القرى ، ونواب فى المراكز والمديريات .

وعندما تولى السيد محمد توفيق البكرى عام ١٨٩٢ م مشيخة الطرق الصوفية استصدر لائحة رسمية لها وذلك فى ٢ من يونيو ١٩٠٣ م كما صدرت لها لائحة أخرى داخلية سنة ١٩٠٥ م وآخر لائحة صدرت لتنظيم الطرق الصوفية ، وتستهدف النهوض بها ، وتخليصها من الشوائب والنقائص جاء بها القانون ١١٨ لسنة ١٩٧٦ م وصدرت لائحته التنفيذية بالقانون رقم ٥٤ لسنة ١٩٧٨ (١)

الظاهرة الصوفية بمصر

لتقويم الظاهرة الصوفية فى مصر ورصد آثارها الإيجابية والسلبية فى الدين والمجتمع والسياسة نعرض نقاطا محددة تكشف الظواهر التى نريد رصدها ، وبيان حقيقتها :

١ - الحركة الصوفية فى مصر كانت بمنأى عن الغلو ، واعتناق الفلسفات الملحدة، تتسم بالاعتدال وتنأى عن الشطط ، يقول الدكتور التفتازانى : وقد لاحظنا بعد استقراء طويل لأقوال ومذاهب صوفية مصر من القرن الثالث إلى السابع الهجرى سواء منهم من كان مصريا أم وافدا إلى مصر أن أولئك الصوفية كانوا معتدلين فى تصوفهم ، فلم يكن واحد منهم قائلا بوحدة الوجود أو الحلول ، أو الاتحاد ، كما كان تصوفهم بمنأى عن العناصر الأجنبية البعيدة عن روح الإسلام ، وهذا راجع إلى أن مصر كانت بعيدة عن تيارات الأفكار والمعتقدات الأجنبية ، الفارسية والهندية ، وهذا على عكس تصوف أوائل الصوفية من الفرس ، الظـــاهرين بأمـــاكن عدة كخراســـان ، ومرو وبلخ ، ونيسابور ، ونهاوند ، والرى ، وأصفهان، وشيراز وغيرها ، والذين يرجع تأثرهم بما كان سائدا فى بيئاتهم .. إلى أن يقول : هذا إلى أن صوفية الطرق من المصريين يجمعهم جميعا طابع خاص هو العناية بالجانب العملى الخلقى من التصوف أكثر من العناية بالخوض فى المسائل النظرية الصوفية ، وهذا يفسر لنا عدم ظهور صوفية خائضين فى المباحث النظرية الفلسفية بمصر كالحسين بن منصور

---

١ - انظر الطرق الصوفية ص ٢٩ وما بعدها.

الحلاج ، والسهروردى المقتول ، ومحيى الدين ابن عربي ، وصدر الدين القونوى وعفيف الدين التلمساني ، وابن سبعين ومن اليهم ممن مزجوا تصوفهم بالفلسفة .

ثم يستدل على ذلك برفض المصريين لفكر ابن عربي والقونوى عندما قدما لمصر وعدم تقبلهم لطريقة ابن سبعين برغم مكثه فى مصر زمنا يدعو إليها .

ومع تأييدى لهذه الملاحظة المهمة ولتفسيرها فإن كلمة الدكتور التفتازانى تؤيد ما نقوله من وجود فكر إلحادى فى سلوك المتصوفة الذين سماهم ابن تيمية ملاحدة التصوف ، كما يؤيد ما نقوله أيضا من تأثير الديانات الوثنية والفلسفة اليونانية فى الفكر الصوفى حتى بدا غريبا عن الدين الحق الذى نعرفه فى الكتاب الحق والسنة الصحيحة ، وهذه الملاحظة تنتهى عند القرن السابع .

٢ – فى عصر المماليك كان التصوف عملية خلوة للعبادة فى الخوانق والربط ، ويجرى عليهم السلاطين الأرزاق ، ويخرجون فى مواكب للصلاة يوم الجمعة ، ويلتمس منهم السلاطين والناس البركة ، ويلجئون إليهم عندما يهمهم أمر .

فكانت آفة التصوف فى هذا العصر ماثلة فى هذه السلبية والعزلة ، وإن كانت هذه العزلة منحت بعضهم وقارا وهيبة جعلت لهم مهابة عند سلاطين المماليك .

إن وضع المتصوفة فى هذا العصر كان نتيجة للوضع الاستبدادى السائد فى العصر المملوكى ، وكان فى الوقت نفسه سندا لسفه هؤلاء الحكام وطيشهم .

فى أواخر العصر المملوكى اتسعت دائرة المتصوفة ؟ إذ رأوا فى التصوف ستارا يحميهم من المماليك ويمنحهم سلطانا على رقاب العباد فاعتنقه العوام والدجالون ليصلوا إلى هذه الغاية التى يريدونها وقد هيأ لهذا الأمر أن حكم السلاطين المماليك دب فيه الفساد وأدركه الاضمحلال .

يقول الدكتور توفيق الطويل : فى أواخر القرن التاسع وبداية القرن العاشر الهجرى انساق التصوف تحت تأثير الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية إلى التدهور ، والاضمحلال ، ودخله العوام ، واعتنقه الوصوليون والادعياء ، وظهر فى كبار رجاله الأميون الجهلة حتى تتلمذ الشعرانى وهو عملاق عصره على سبعين شيخا لايعرف أحدهم علم النحو ، بل كان بعضهم أميين لايقرءون ولايكتبون [1] .

يؤكد الدكتور الطويل تأثر التصوف بالظروف المحيطة ، وأنه أصبح مطية لأصحاب الأهواء من المفسدين فى الأرض ، وأشد صور هذا الفساد التلمذة على الجهال بحجة أنهم علماء فى الطريق ومما يثير الأسى أن بعض متصوفة عصرنا يفخر بشيخه الأمى ويهوى على يده تقبيلا ، ولا أدرى كيف يستساغ ذلك فى رحاب الاسلام الذى يعد طلب العلم فريضة ، والسعى إليه جهاد ، وأن الكلمات الأولى المنزلة من الكتاب الحق كانت أمرا بالقراءة ودعوة للعلم ؟!!

١ – انظر التصوف فى مصر ج ١ ص ٤٧ .

– وظلت تتنائر الظاهرة الصوفية في العصر العثماني تزداد سوءا بل وتتردى وتتنكس وسأسوق لذلك شهادة حق من شيخ مشايخ الطرق الصوفية الآن ، وهو فيما أعلم يعمل جاهدا على رد التصوف إلى الدين الحق ، والسنة الصحيحة ، يقول : إن مصر كانت تعاني في ذلك العصر اضمحلالا فكريا وحضاريا، وأصبحت عناية أصحاب الطرق فية منصرفه إلى الشكليات ، والرسوم أكثر من العناية بجوهر التصوف ذاته ، وسيطرت على جماهيرهم الأوهام ، والمبالغة في التحدث بالمناقب والكرامات التي لم يكن يأبه لها المحققون من أوائل شيوخ التصوف [1] .

هكذا كشف الدكتور التفتازاني عن صور التردى التي هوى إليها التصوف في ذلك العصر ويشير الدكتور توفيق الطويل إلى رأى المخضرمين من أهل التصوف من أن هناك فرقا بين العصر المملوكي والعثماني فالأول يتسم بالصدق في عبادة الله ، والتجرد لذكره ، والزهد في طلب الدنيا ، والإعراض عن مباهجها ، والآخر يتصف بالدجل والخداع والشعوذة [2]

ويعقب الدكتور الطويل على ذلك بأن العصرين في هذا الفساد سواء سوى فارق ضئيل ، قليل الخطر يتمثل في قوة هذا التيار الفاسد أو ضعفه ، إذ أن هؤلاء المخضرمين من أعلام المتصوفة الذين أرخوا للتصوف وكتبوا في الطبقات كالشعراني يذكرون المتصوفة الذين تحرروا من أوامر الدين ونواهيه في العصرين ، فيقولون في عصر المماليك إن الخواص والمتبولي ، والشطوطي كانوا لايقيمون الصلاة أبدا ، وأن غيرهم كان يفعل الفاحشة على ملأ من الناس ثم يقولون في عصر العثمانيين إن فرق الأحمدية ، والبرهامية ، والقادرية وما إليها كانت لاتلتزم أوامر الدين ونواهيه ، فتهمل الصلاة وترتكب الفاحشة [3] .

ويعرض الشعراني في طبقاته صورة مزرية لنفوذ المتصوفة الكبار على الأتباع والمريدين بعد أن فرضوه على السلاطين أنفسهم فخضعوا لأصحاب الولاية المزعومة وآمنوا بدجلهم ، واستحالوا أداة في أيديهم بصورة يعوزها العقل ، وينقصها الحس ... كان الشيخ على وحيش (٩١٧ هـ) كلما رأى رجلا يركب حماره أنزله من فوقها ، وقال له : أمسك رأسها حتى أفعل فيها الفاحشة .. !! فإن أبى الرجل تسمر في مكانه لايستطيع حراكا ، أو هكذا خيل إليه من فرط اعتقاده في الشيخ !! وإن استجاب لطلبه أدركه الحياء من سوء مايفعل الشيخ [4] .

---

١ – انظر : الطرق الصوفية في مصر ص ٢٨ .
٢ – التصوف في مصر ص ٥٣ .
٣ – المرجع السابق : ص ٥٣ ، ٥٤ .
٤ – المرجع السابق وانظر الطبقات الكبرى للشعراني جـ ٢ ص ١٢٩ – ١٣٠ .

لا أظن أن هناك فسادا فى التدين ، وانحرافا فى الخلق ، وضلالا فى السعى أشد من هذا والمتحدث به واحد منهم ، ويسوقه على أنه من مظاهر الولاية ، وأنه لون من الكرامة إلى هذا المدى جنى المتصوفة على دين المصريين وأخلاقهم ، وأورثوهم الهوان بجانب فساد الحكم وضلال السياسة ، وبغى السلطان .

٤ – من مظاهر هذا التسلط الذى اتخذ هذه الصورة المهينة مافرضوه من إتاوات على الفلاحين والبسطاء ويؤدونها لمشايخ الطرق لتسلم لهم زراعاتهم وأنعامهم ، ويحفظوا لهم أولادهم وذريتهم ، ويقع هؤلاء فى أسر هذا الوهم نتيجة لفساد العقيدة ، واختلال الفكر ، وانحراف التدين .

٥ – أدت الظاهرة الصوفية فى مصر إلى الوقوع فى ألوان من التدين الفاسد .

أ – منها حلقات الذكر التى يلحدون فيها فى أسماء الله ، ويحولونها إلى صورة لامية عابثة ويصبح الذكر – وهو عبادة كريمة – رقصات على دقات الطبول ، وأنغــام المزامير ، ويصدق فيهم قوله تعالى : (الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا)

ب – كان وراء المظاهر الشركية التى تكاثرت حول قبور الأولياء كالطواف حولها، وتقبيل أعتابها كما شجعوا النهج الضال الذى سنه الفاطميون وهو بناء المساجد على القبور ، فكان كل شيخ يموت منهم يقيم مريدوه مسجدا على قبره مخالفين بذلك توجيهات رسول الله صلى الله عليه وسلم .

جـ – هم وراء الموالد التى شملت أكثر أيام العام ومايقع فيها من مفاسد وضلالات وانحرافات وأقرب صورة لذلك وصف الجبرتى لمولد العفيفى : « ينصبون خياما كثيرة وصواوين ، ومطابخ وقهاوى ويجتمع العالم الأكبر من أخلاط الناس وخـواصهم وعواصمهم ، وفلاحى الأرياف ، وأرباب الملاهى والملاعيب والغوازى والبغايا ، والقوادين والحواة ، فيطئون القبور ، ويزنون ، ويلوطون ، ويلعبون ، ويرقصون ويضربون بالطبول والزمور ليلاً ونهاراً ، ويجتمع لذلك الفقهـــاء والعلمـــاء ، ويقتدى بهم الأكابر من الأمراء والتجار والعامة من غير إنكار ، بل يعتقدون أن لذلك قربة وعبادة ، ولولم يكن ذلك لأنكره العلماء فضلا عن كونـهم يفعلونه ، فالله يتولى هدانا أجمعين » [1]

---

١ – أنظر تاريخ الجبرتى جـ ١ ص ، ٢٢٥ ، ط ١٣٢٢ هـ .

٦ - الإسهام فى الفساد السياسى ، والتخاذل أمام هجمات الأعداء حتى أن المستعمرين استغلوا هذه السذاجة التى شاعت ، وانغماس الناس فى الدجل والدروشة ، فشجعوا هذا الاتجاه وشاركوا فيه ليستقر لهم زمام الأمور .

وحين أغار الفرنجة على المنصورة قبل منتصف القرن السابع الهجرى اجتمع زعماء الصوفية لقراءة رسالة القشيرى ، والمناقشة فى كرامات الأولياء (١)

ويذكر المؤرخون أن نابليون كان يحضر حفلات المولد ، ويشهد حلقات الذكر مع المتصوفة وفعل مثل هذا فيما بعد المندوب السامى البريطانى .

يقول الدكتور فروخ : ومن أجل ذلك يجب ألا نستغرب إذا رأينا المستعمرين يغدقون على الصوفية الجاه والمال ، فرب مفوض سام لم يكن يرضى أن يستقبل ذوى القيمة الحقيقية من وجوه البلاد ، ثم تراه يسعى إلى زيارة حلقة من حلقات الذكر ، ويقضى هنالك زيارة سياسية تستغرق الساعات . أليس التصوف الذى على هذا الشكل يقتل عنصر المقاومة فى الأمم ؟ » (٢)

إلى هذا المدى وصلت الظاهرة الصوفية بمصر والمصريين . فساد فى الدين ، وخلل فى المجتمع ، وانحراف فى الأخلاق ، وتواكل وسلبية مهينة ، ومواكب صاخبة ، وقعود عن مقاومة العدو المتربص .

ومع هذا فإنى - إنصافا للحق - أقرر أمرين :

أولهما : أن هناك من انتموا للتصوف على درجة من الفضل وكمال الدين ، وأن تصوفهم لايعنى أكثر من الورع والتقوى والاحسان ، وكل ما يؤخذ عليهم الانتماء إلى ظاهرة متهمة تاريخيا وليست من صريح الإسلام .

والآخر : هو أن قيادة الطرق الصوفية فى الوقت الحاضر ، وفى ظل اللائحة الأخيرة تعمل جاهدة من أجل تخليص التصوف من الشوائب والنقائض ، والظواهر الفاسدة ، وتلكم مهمة شاقة ، لأن الأسلوب الصوفى ، والفكر الصوفى من حيث هو مناخ صالح لاستنبات بذور الفساد والانحراف .

---

١ - انظر الطبقات الكبرى جـ ١ ص ١١ ط صبيح .

٢ - التصوف فى الإسلام ، عمر فروخ .

أقوال معاصرة

● «المسلم لم يخلق لاقامة الشعائر فقط وانما ليعمّر وينتج ويبدع»

الرئيس حسنى مبارك

● «غياب الايمان الحقيقى بالحرية هو إحدى الخطايا الكبرى التى تمارسها بعض الحركات الاسلامية»

الدكتور كمال أبو المجد

وزير الاعلام الأسبق

● «الشعر نهر يغيّر أمواجه في كل لحظة، ولكنه يبقى نهراً»

الشاعر نزار قبانى

● «مصر ليست المصدر الوحيد للثقافة العربية»

الدكتور على الراعى

● «جسد الأمة بخير ولكن السوءات تبرز فقط على مستوى النخبة»

الدكتور رشدى فكار

● «نظن أننا أذكياء، ولكننا لسنا إلا آلات حساسية، لأننا فقدنا منطق البراءة البسيط»

المخرج السينمائى البلجيكى

جاكوفان دورمايل

● «السياسى اذا أراد اقتناء المثقف وتوظيفه بوقا، فقد ناصحا»

على عقله عرسان

رئيس اتحاد الكتاب العرب

● «سيكون فى قدرتنا إطالة عمر الانسان بأكثر مما يظن الجميع»

بروس أمس

أستاذ الكيمياء العضوية بجامعة بيركلى

بولاية كاليفورنيا



الرئيس حسنى مبارك



نزار قبانى



د. على الراعى

محاولة قراءة المسكوت عنه فى

خطاب ابن عربى

جزء خاص • التصوف •

بقلم : د . نصر حامد أبوزيد


حفر يمثل نموذجا للرقص الصوفى

محيى الدين بن عربى متصوف أندلسى (ت ٦٣٨هـ) ولد فى مُرْسيه ونشأ فيها ، ولكنه ارتحل إلى أركان العالم الإسلامى الواسعة .. فأقام فترة فى مكة وجاور بها، وكانت نتيجة هذه الإقامة موسوعته الضخمة «الفتوحات المكية». كما زار أماكن أخرى عديدة ترك فيها تلاميذ ومريدين فى تركيا وفارس وسوريا ، وقد اجتمعت فى كتاباته كل معارف العصر الدينية والفكرية والفلسفية وذلك لاتساع مجالات تأثره ، فأقام من ذلك كله بناءً فكريا متميزا يصعب على الباحث من فرط دقة البناء وتماسك أجزائه وعناصره أن يرد العنصر إلى أصله ، والسبب فى ذلك يرجع إلى أن كل عنصر من تلك العناصر يكتسب فى بناء ابن عربى الفكرى وفى سياق مشروعه الفلسفى دلالة خاصة متميزة .



التعـــارض الواضــح فى مشـروع ابن عربى يحفزنا إلى معـاودة قـــراءته من منظـــور مغـــاير لقـــراءاتنا الســـابقة له

والمشروع الفكرى الفلسفى الذى حاول ابن عربى أن يقدمه للعالم لا يمكن أن يفهم إلا فى سياق الصراع الدينى والعرقى الذى كان يسيطر على جو الأندلس ويحرك حياتها الاجتماعية والسياسية والفكرية . حاول ابن عربى ان يقدم مشروعا للمصالحة الدينية ، لا بين الأديان الثلاثة الكبرى - اليهودية والمسيحية والإسلامية - فقط ، بل بين تلك الأديان مجتمعة وبين كل العقائد الإنسانية على وجه الأرض ، وأبياته الشعرية الشهيرة التالية تلخص للقارئ هذا المشروع خير تلخيص :

لقد صار قلبى قابلا كل صورة
فمرعى لغزلان ، ودير لرهبان
وبيت لأوثان ، وكعبة طائف
وألواح توراة ، ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنىّ توجهت
ركائبه فالحب دينى وإيمانى

وإذا كان هذا المشروع الفكرى الإنسانى لم يجد من العالم الذى عاش فيه ابن عربى وأنتج خطابه فى سياقه أذنا صاغية ، فمرد ذلك من منظور مدخلنا فى هذه الدراسة الاستكشافية يعود إلى أن ابن عربى أراد أن يقدم مشروعه من داخل منظومة الإسلام ، والتعارض واضح بين مشروع يتجاوز الإسلام ويتعامل معه بوصفه جزءا من كل إنسانى وبين طموح صاحب المشروع لإضفاء صفة الإسلامى عليه ، وعلى ذلك لم يقتصر رفض المشروع على

المعاصرين لابن عربى فقط ، بل امتد الرفض إلى عصور التاريخ الإسلامى كافة ، وليس ببعيد عن الأذهان تلك الضجة التى أثيرت فى مصر حين أصدر مجلس الشعب المصرى قرارا بمصادرة فكر ابن عربى فى عام ١٩٧٨ م .

والتعارض الواضح هذا فى مشروع ابن عربى هو الذى يحفزنا إلى معاودة قراءته من منظور مغاير لقراءتنا السابقة له .

قراءتنا اليوم قراءة تتلمس الدلالات الضمنية الكامنة والمستترة وراء مستوى الدلالة الظاهرة للخطاب ، وهذه القراءة لا تستمد مشروعيتها من بعض إشارات ابن عربى نفسه فحسب ، تلك الاشارات المتكررة التى تحذر القارئ من الوقوف عند المستوى الدلالى السطحى للخطاب ، بل وتحفزه للانتقال من مستوى الدلالة الظاهرة إلى المستوى الباطن . إن تلك الإشارات على أهميتها تساهم فى عملية تضليل القراءة ، وذلك لأنها تحصر الدلالة فى مستوى واحد فقط هو مستوى المنطوق فى الخطاب ، وتتجاهل المستوى الآخر الذى لا يقل أهمية عنه ، وهو مستوى « المسكوت عنه » والبحث عن الدلالات الباطنة من خلال تحليل المنطوق فقط ، كما ينصحنا ابن عربى يدخل القراءة فى دائرة « الاستنباط » بالمعنى الفقهى التراثى التقليدى من جهة ، ويعطى لبُعد التأويل « الذاتى » مركز الصدارة فى اليات القراءة من جهة أخرى ، وقد وقع باحثو ابن عربى - بدرجات متفاوتة بالطبع - فى شراك تلك القراءة الاستنباطية التأويلية الذاتية ، بدءا من نيكلسون وهنرى كوربان وأسين بلاثيوس وعابد الجابرى وكاتب هذه الدراسة .


صورة لأحد الأئمة الصوفيين المعروفين تحت أسم « مولانا »

تحليل مضمون الخطاب

لا تستمد قراءتنا هذه مشروعيتها من إشارات ابن عربى وحدها ، بل تستمدها بشكل جوهرى من تحليل بنية الخطاب ، متجاوزة مجرد تحليل المضمون الذى كان - ولايزال - محور اهتمام كل القراءات . إن التركيز على تحليل مضمون الخطاب وحده ، دون الاهتمام ببنية الخطاب ، أمر يؤدى إلى إهدار الدلالة الكلية للخطاب اكتفاء بدلالة المنطوق وحدها ، هذا من جهة ومن جهة أخرى يؤدى التركيز على المضمون وحده إلى فك منظومة السياق المصاحبة للخطاب والمنتجة للدلالة ، اكتفاء ببعض عناصره السطحية خاصة تلك المنتجة للدلالة الأيديولوجية . ويشير التركيز على تحليل المضمون

بعيدا عن تحليل البنية - سؤالا منهجيا حاسما ، ينال من شروعية التحليل ذاته ، وهل يمكن الوصول إلى المضمون أصلا إلا ن خلال تحليل البنية ؟!

وبنية الخطاب - أى خطاب - تتحدد من خلال مستويات عديدة ، أهمها فيما نحن بصدده مدى توافق هذه البنية - أو خالفتها - لبنية الخطاب السائدة ، وخطاب ابن عربى ينتمى من حيث مجاله الأضيق الخاص داخل المجال العام إلى مجال الخطاب لصوفى ، خطاب العرفان حسب تقسيمات محمد عابد الجابرى . ذا هو تصنيف بنية خطاب ابن عربى على مستوى المنطوق وحده ، ما مستوى المسكوت عنه فيطرح بنية على مستوى أشد تعقيدا جعل تصنيف الخطاب أمرا غاية فى الصعوبة .

وكما تحيّر أهل مكة حين سمعوا القرآن فى تصنيفه داخل ائرة البنى الخطابية السائدة فى ثقافتهم - الكهانة والسحر والشعر كذلك يصعب على الباحث إدراج بنية نص ابن عربى تحت أى نمط صى شائع . إن المسيطر على بنية الخطاب هو النسق التأويلى ، نص ابن عربى طبقات من النصوص المتراكبة لا المركبة فحسب ، نى المركبة بطريقة معقدة إلى الحد الذى يجعل عملية اكتشاف دى طبقاته مغامرة غير مأمونة النتائج .

ولأن نسق « التأويل » هو المسيطر على مستوى البنية ، بوصفه سقا من العلاقات ، أى بوصفه فعل قراءة للنصوص المتراكبة ، صبح تحليل هذا النسق مدخلا أقرب إلى السلامة لاكتشاف بنية خطاب ، سعيا للكشف عن الدلالة العميقة ، لا مجرد الدلالة ىطنة ، ولأن أهم النصوص - أو أبرزها على مستوى البنية - هو ص القرآنى ، فاننا نتوقف هنا - مرة أخرى - أمام تأويل ابن بى للقرآن فى محاولة لاكتشاف ما لم تكتشفه قراءتنا السابقة .



فى دراسة سابقة لنا بعنوان « فلسفة التأويل » عند محيى بين بن عربى تمت قراءة ابن عربى على أساس أن عقيدته الدينية سفته الوجودية والمعرفية هى الأساس المحرّك لعمليات التأويل ، غم أن المنطلق النظرى لتلك الدراسة السابقة كان الإيمان بوجود لاقة جدلية بين المفاهيم النظرية وبين النصوص موضوع التأويل ، ، سيطر على إجراءاتها ومفاهيمها التطبيقية تسليم ضمنى - من نبنا - تأولية التصورات الفلسفية ، بل وهيمنتها ، بحيث أضحت صوص الدينية ، والشعرية أيضا ، مجرد موضوعات تستجيب تجابة سلبية لكى تنطق مما يريده ابن عربى من تصورات فلسفية

وجودية أو معرفية ، وبعبارة أخرى هناك فجوة ملموسة بين المنطلق النظرى لتلك الدراسة وبين المفاهيم الاجرائية التطبيقية الضمنية لها.

ولابد هنا من الإشارة للملاحظة النقدية الدقيقة والهامة التى طرحها الأستاذ ميشيل شودكيفيكس فى ختام عرضه لدراستنا السابقة حيث تساءل : « ألم يكن من الأفضل اتباع مدخل معاكس ... والانطلاق من الاشارات التى يستنبطها ابن عربى من الآيات القرآنية فى كل صفحة من أعماله تقريبا ، لكى نصل فى النهاية إلى إكتشاف القوانين التى تنظمها ؟ إن تفسير ابن عربي لايستنبط من عقيدته ، بل هو مصدر تلك العقيدة » .

التأويل والمفاهيم النظرية

لكن الملاحظة على أهميتها تريد الانتقال من مدخل منهجى قائم على الفصل بين « أفق المفسر » السابق وعملية التأويل ذاتها إلى مدخل آخر يقوم على نفس الفصل ، وإن كان يعطى الأولية لعمليات التأويل ، فيجعلها الأساس المحدد للمفاهيم النظرية . يرى الأستاذ شودكيفيكس أن تأمل ابن عربى للقرآن هو أساس عقيدته الفلسفية ويتناسى الجهد الخارق الذى يبذله ابن عربى فى كثير من الأحيان لكي يجذب النّص الديني وكذلك الشعرى إلى أفقه المعرفى ، وليست المسألة على أية حال إعطاء الأولية لهذا الجانب أو ذاك فى دراسة ابن عربي ، فالحديث عن جانبين فى الواقع يعتمد على فصل إجرائي منهجى فى دراسة ظاهرة ليست منفصلة فى الحقيقة .

ولعله من المفيد أن نخرج قليلا من حدود إشكالية قراءة ابن عربى لنقرأ بعض آليات الثقافة العربية ، خاصة فى مجال إنتاج المعرفة ، ولا يحتاج الأمر إلي تدبر عميق لكى نكتشف أن إنتاج المعرفة فى الثقافة العربية يتمحور أساسا حول إنتاج النصوص اللغوية بشكل خاص ، وإذا كانت الثقافة في تعريفها السميولوجي هى مجموعة النصوص – اللغوية وغير اللغوية – التى تنتجها الذاكرة الجمعية ، فان نشاط الذاكرة الجمعية العربية قد وجد تجليه الأعظم فى مجال إنتاج النصوص اللغوية . ففى البدء كان « الشعر » الذى وصف بأنه « علم قوم لم يكن عندهم علم أصح منه » . كان الشعر هو النص المسيطر والمهيمن والذى ضم تحت جناحه نصوصا أخرى مثل « سجع الكهان » و« تنبؤات العرافين » . وفى قصة رؤيا ربيعة بن مضر الذى استدعى أعظم الكهان لتأويلها تأويلا صحيحا ،

> التركيز على المضمون وحده يؤدى إلى فك منظومة السياق المصاحبة للخطاب

يرفض صاحب الرؤيا أن يقصها عليهم ، طالبا من الكهان التنبؤ بها ، وهذا الرفض من جانب ربيعة بن مضر لقص الرؤيا يفسر لنا أهمية « القص اللغوى » - أو بتعبير الرؤيا - فى تحديد دلالة الرؤى والأحلام ، وهى الأهمية التى يحدثنا عنها طويلا ابن سيرين فى كتابه . يقول ابن سيرين إن الرؤيا قد تأول بالخير أو بالشر وفقا لطبيعة المفردات أو الدوال اللغوية التى يستخدمها صاحب الرؤيا فى قص رؤياه ، ولعل فى نهى يعقوب يوسف ان يقص رؤياه على إخوانه ما يدعم وجود هذا القصور فى الثقافة العربية قبل الإسلام .

الرؤية التى يقدمها القرآن للوجود رؤية سميولوجية فى جوهرها ، فالوجود هو كلمات الله التى لا تنفد ، وعيسى عليه السلام كلمة الله وروح منه ، والموجودات كلها انبثقت من العدم بفعل الإرادة والأمر اللغوى « كن » ، والأهم من ذلك أن القرآن حين أمر الإنسان بالنظر والاعتبار أو بالتفكر والتدبر ، أو بالتعقل يأمره فى الواقع بالقراءة الواعية التى تتوجه صوب أمرين : الوجود الخارجى من جهة ، والنفس الإنسانية من جهة أخرى ؛ إذ هما « النصان » الأساسيان . وليس من قبيل الصدفة بأن تدل كلمة « آية » - وجمعها آيات - فى الاستخدام القرآنى على الظواهر الكونية والإنسانية - كما تدل على الوحدة اللغوية فى بناء السورة القرآنية ، ولعل هذا هو الذى سمح لابن عربى بابداع نظريته عن التوازى بين « النص » الوجودى و« النص » القرآنى من جهة ، والتوازى بين اللغة الالهية (= الابداع والخلق) وبين اللغة البشرية من جهة أخرى .

النص القرآنى

ولم يكن النص القرآنى وهو يطرح رؤيته للعالم يفعل ذلك بمعزل عن النصوص الأخرى السابقة عليه فى الثقافة العربية ، فقد انخرط النص القرآنى فى علاقات معقدة مع « سجع الكهان » و« نبوءات العرافين » من جهة ، ومع « الشعر » النص المسيطر من جهة أخرى ، وحين استطاع النص القرآنى أن يستوعب النصوص الأخرى فى مجاله - سواء بالإزاحة أو التأويل أو بالطمس والإبعاد - أصبح هو النص المهيمن والمسيطر ، أو صار النص « المعجز » إذا شئنا استخدام مفاهيم الخطاب الدينى ، وتحولت بذلك مكانته المعرفية من نص مُنتج (بفتح التاء) إلى نص منتج (بخفض التاء) ، أى صار

من البديهى أننا حين نتحدث عن « تولد » النصوص نشير إلى عملية تفاعل خصبة على درجة عالية من التعقيد

هو النص المولّد للنصوص الأخرى فى الثقافة . كان أول النصوص التى تولّدت عنه نص « السنة » ، وتولدت عنهما معا نصوص الثقافة العربية كلها .

من البديهى أننا حين نتحدث عن « تولّد » النصوص نشير إلى عملية تفاعل خصبة على درجة عالية من التعقيد ، عملية تفاعل متعددة الأبعاد فى القلب منها الوجود الاجتماعى الإنسانى ، وهو الموجود الذى تنبثق عنه كل ممارساته النوعية : اقتصادية وسياسية وثقافية .. إلخ ، بمعنى أننا لا نشير إلى عمليات تكاثر طبيعية تتم فى أتجاه واحد صوب حفظ النوع بالمعنى البيولوجى ، وكذلك لانشير إلى عمليات «انتخاب طبيعى» تؤدى إلى «بقاء الأصلح» . إن مسألة «تولد» النصوص فى الثقافة لا تتماثل مع العمليات الطبيعية المشار إليها ، وإن تشابهت بعض آلياتهما ، فالفارق بينهما ، الفارق بين « القوانين الطبيعية » وما تتضمنه من حتمية صارمة تمكن من التنبؤ بتطوراتها ، وبين « القوانين الاجتماعية » التى لا تتسم حتميتها بالصرامة المشار إليها فى القوانين الطبيعية .

من هذا المنطلق - منطلق هيمنة النصوص اللغوية على غيرها من النصوص فى الثقافة العربية ، يمكن لنا أن نفسر تلك المكانة المقدسة التى تحتلها اللغة فى الضمير العربى ، وهى مكانة تجعل جماليات اللغة هى مقياس الجمال فى الثقافة والفكر ، ومن الطبيعى بعد ذلك كله أن يكون الفن التشكيلى العربى الأساسى هو فن الخط ومن الطبيعى كذلك أن يرتبط جمال الأداء الصوتى وجمال النغم بقراءة القرآن ، وبعبارة أخرى من الطبيعى أن تنبثق الفنون العربية البصرية والسمعية من رحم جمال اللغة عامة وجمال النص القرآنى خصوصا .

مقارنة

محيى الدين بن عربى ابن لهذه الثقافة ، ونصه - كتاباته - نص ينتمى إلى نصوصها المتولدة عن النص الأساسى الأول ، فمن الضرورى إذن أن يكون لهذا النص الأول ولتأويله حضور تام واضحا فى كل صفحة من صفحات نص ابن عربى ، ولا يحتاج المرء إلى كثير عناء لاثبات ذلك ، فابن عربى نفسه يقارن بين بنية كتابه الفتوحات وبين بنية القرآن من حيث ما يبدو ظاهريا أنها بنية تعتمد على الانتقال من موضوع إلي موضوع دون رابط ظاهرى بينها

منمنمات فنية تصور الاحتفال بإحدى المناسبات الدينية





الموضوعين ، وهو فى سياق كتابه « نصوص الحكم » يزعم أنه أملى عليه في مبشرة - رؤيا - رآها ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم هو الذى أملاه عليه ، وسواء كان الأمر بحسب ما يزعم ابن عربى فالحقيقة أن بنية النص القرآنى - ترتيب الآيات - تمثل بنية النص العربى بشكل عام ، فالقصيدة الجاهلية مثلا تعتمد فى بنائها على الانتقال ظاهريا من موضوع إلى موضوع .

ولا يتوقف تأثر نص ابن عربى - أو بالأحرى تناصه - بالنص القرآنى عند حدود البنية العامة الخارجية فقط ، بل يندمج النصان - يتراكبان - فى مستويات متعددة من السياق ، حتى ليصعب على القارئ فى كثير من الأحيان فصل صوت ابن عربى عن صوت القرآن ، وحتى ليبدو أن ابن عربى لا يحاول فحسب محاكاة جماليات النص القرآنى ، بل يحاول إبداع نص جديد يدخل القرآن فى نسيج بنيته جزءا مؤسسا ، ولعل هذا الطموح الإبداعى هو الذى أثار - ولايزال يثير - غيظ الفقهاء ورجال الدين .

لا يستطيع الباحث أن يغفل مثل هذا الطموح فى نص ابن عربى ، وهو طموح من شأنه أن يجعل المنظومة اللغوية هى المنظومة الأم ونموذج الإبداع ، وإذا كانت اللغة تحتل فى الثقافة العربية المكانة التى حللناها وأشرنا إلى بعض أبعادها فيما سبق ، فإنها تحتل فى نص ابن عربى مكانة النموذج والمثال الذى ترتسم على نمطه وتتحدد التصورات الوجودية والمعرفية .

ابن عربى إذن لا يؤول القرآن ، أو ليس هذا هو همه الأساسى وإن بدا الأمر كذلك على مستوى البنية السطحية ، بنية المنطوق . إنه يرتد إلى الأصل المؤسس لكل النصوص - ومنها القرآن - وهو اللغة العربية ، ليؤسس من خلال بنيتها - صوتيا وصرفيا وتركيبيا ودلاليا - مشروعه الفكرى . من هنا نفهم حرص ابن عربى على تأكيد أن خطابه ليس من إبداعه هو ، بل هو من مصدر إلهى مقدس ، وابن عربى مجرد « مبلِّغ » ، وهذا معناه أنه يرتد إلى الأصل والمنبع : الله اللغة ، وتصور ابن عربى للوجود يسمح لنا بهذا التوحيد . فالوجود هو كلمات الله التى تكونت فى النفس الالهى (العماء) المعبر عن شوق الذات الالهية للظهور فى معرفة الغيرْ (الخلق) تبعا للحديث القدسى الذي يحتفى به المتصوفة جميعا : « كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق فبى عرفونى » . تتركز قراءة ابن عربى على الدال « أحببت » ويحلل مشاعر الحب وما يرتبط بها من شوق يستدعى فى شكل إخراج النَّفس . هذه الموازاة بين اللغة

طموح ابن عربي من شأنه أن يجعل المنظومة اللغوية ، هي المنظومة الأم ونموذج الإبداع

والوجود معناها أنهما من مصدر واحد . من هذا المصدر تنبع النبوة والولاية ، والنصوص وعلى رأسها القرآن ، وإذا كان نص ابن عربي ينبع من نفس المصدر . فهو لا يتمتع بنفس المستوى من المصداقية فقط ، بل هذا ما يسمح له بجعل اللغة نموذجا لتصور الوجود والعالم والإنسان .

علاقات منطقية وفلسفية

هذا التماهي بين نص ابن عربي ونص القرآن من حيث المصدر مهم من زاوية أخرى ، ذلك أنه يستدعي بدلالة المخالفة خطابا آخر يعتمد في بنائه وتركيبه على العلاقات المنطقية ، وهو الخطاب الفلسفي عامة ، وخطاب ابن رشد معاصره الأندلسي بصفة خاصة هذا الاستدعاء بالمخالفة يهدف إلى تحديد هوية الخطاب من خلال التناص مع نقيضه ، وهو التناص الذي يبقى خطاب ابن رشد بوضعه في دائرة البشري غير المقدس . من خلال علاقة التناص هذه يمكن فك شفرة اللقاء الذي وصفه ابن عربي بطريقة رمزية مع ابن رشد في هذا اللقاء سأل ابن رشد ابن عربي ، ابن رشد هو الأكبر سنا والفيلسوف المشهور في حين كان ابن عربي - بحسب تعبيره - صبيا أخضر الشارب ، سأل ابن رشد ذلك الصبي قائلا : هل وجدتم الأمر عندكم - أي في التجربة الصوفية - على غرار ما وجدناه ؟ فأجاب ابن عربي : نعم ، ولما أحس سرور ابن رشد لهذا الاتفاق ، سارع قائلا : لا ، فاغتم ابن رشد ، لكن ابن عربي أضاف : وبين نعم ولا تطير الرقاب .

هذا اللقاء يدل على أن تناص ابن عربي مع النص الفلسفي تناص لا يعتمد على التناقض التام ، إذ يظل حضور النص الفلسفي ممثلا لاحدى طبقات نص ابن عربي ، وهذا أمر أثار ارتباك أبو العلا عفيفي مثلا ، وإذا كان خطاب ابن عربي يستوعب في بنيته الديني ويتقاطع مع الفلسفي ، فليس معنى هذا أنه خطاب صوفي عرفاني خالص ، لا يمكن وضع خطاب ابن عربي في سياق واحد مع الغزالي أو السهروردي أو ابن سينا . إن له سياقه الخاص بوصفه نصا متميزا . والسياق المحتمل لتحديد بنية خطاب ابن عربي - وهو السياق الذي اقترينا من حدوده فيما سبق - هو سياق دعوة ابن تومرت : « العودة للأصول » ، وهو سياق يستدعي بالضرورة سياق الوضع الأندلسي وإذا كانت دعوة ابن تومرت أدت على المستوى السياسي إلى إقامة دولة « الموحدين » بديلا للمرابطين،

فقد كان أثرها على المستوى الفكري القضاء على التعددية ، والتعارض من ثم مع الوضع الأندلسى المتعدد على جميع المستويات .

هنا يأتى خطاب ابن عربى ببنيته الخاصة ليؤسس التعددية فى إطار الوحدة ، وهو بذلك لا يستجيب استجابة سلبية لسياق ابن تومرت ، أو لسياق الوضع الأندلسى . إنه يستجيب بالمسكوت عنه : « لم يعد النص الدينى ببنائه المغلق كافيا ، لابد من إعادة فتح آفاقه لانتاج نص جديد ، يستوعب كل نصوص الوضع الأندلسى ، ويتجاوزها فى نفس الوقت » . لهذا يمكن القول إن بنية خطاب ابن عربى لا تكتفى بعلاقة التشابه مع بنية الخطاب القرآنى . بل تتجاوز ذلك إلى التناص معه تناصا إستيعابيا ، أى تناصا يحوله إلى جزء فى بنية الخطاب ، وإن يكن جزءا مؤسسا .

ومعنى ذلك أن خطاب ابن عربى لا يقدم مجرد قراءة القرآن ، ولا تأويلا له فقط ، بل يسعى إلى تأسيس ذاته نصا شاملا ، وليس هذا السعى مقصورا على نص « الفتوحات المكية » ، بل إن مفهوم « الفص » فى كتابه الآخر الهام « فصوص الحكم » يكاد يقترب إلى حد كبير من مفهوم الوحدة البنيوية فى نص شامل ذلك أن كل فص – أو فصل – يمثل مرحلة من مراحل النص الإلهى الشامل ، حيث يستوعب الفص التالى الفص الذى يسبقه ، ويتجاوزه مؤسسا بنيته الخاصة . هكذا تتدرج الشرائع من آدم – الفص الأول – إلى محمد – الفص الأخير – مكونة نصا شاملا يعتمد على علاقات الاستيعاب / التجاوز بين اللاحق والسابق . لكن الذى اكتمل بالفصوص / الأنبياء هو نص الشريعة وحده من منظور ابن عربى ، أما نص « الحقيقة » فمازال قيد الاكتمال ، وهو الاكتمال الذى يطمح ابن عربى فى تحقيقه .

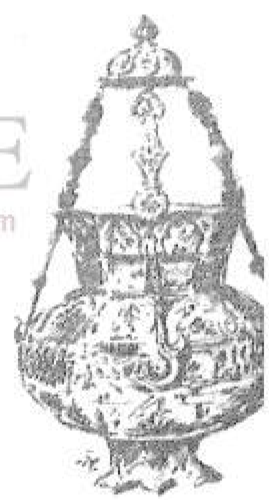
إبن عربى لا يسؤول القرآن ، إنه يرتد إلى الأصل المؤسس لكل النصوص ومنها القرآن

معنى ذلك أن خطاب ابن عربى يدور فى الأفق « المفتوح » – أفق الولاية – فى حين كان خطاب الشرائع (= الفصوص) يدور فى الأفق المغلق ، أفق النبوة . هذا التقابل بين « المفتوح » و « المغلق » – أو بين الولاية والنبوة وبين الحقيقة والشريعة – هو الذى يسمح لنا بالقول إن خطاب ابن عربى يسعى لتأسيس ذاته نصا شاملا يستوعب الخطاب القرآنى فى بنيته ويتجاوزه فى الوقت نفسه كانت تلك بعض جوانب المسكوت عنه – الجانب البارز ربما – فى خطاب ابن عربى ، والكشف عن باقى الجوانب يستحق إعادة قراءة شاملة نرجو ان تكون هذه القراءة الاستكشافية حافزا لها .

هكذا تكلم الإمام الشعرانى

الشريعة هى السفينة
والطريق هو البحر
والحقيقة هى الدر

بقلم : مصطفى نبيل



أدهشنى التسليم بقيام مولد السيد البدوى ثلاث مرات فى العام الواحد ، فلا يوجد إنسان ولد ثلاث مرات ، كما أدهشنى ما يؤكده التاريخ حول تأخر معرفة المصريين عن منابع النيل ، الذى يعيش أهل الوادى على ضفافه والدور الحيوى الذى يلعبه فى حياتهم . ورغم ما عرف عن إزدهار الحضارة على ضفافه .

واقتصرت معرفتهم طويلا ، على أن النيل ينبع من القمر فى السماء ، وتارة أخرى ينبع من الجنة ويحمل إلى شعب مصر البركات .



فما معنى ذلك .. ؟ هل تعودنا التعامل مع الظواهر والنتائج وتجاهل الأسباب والمنابع ؟ وهل غابت لدينا لذة البحث عن الآفاق الجديدة ، ومتعة المغامرة والخوض في المناطق المجهولة .

شغلتني هذه الأسئلة طويلا ، وأخذت أتقصى أسبابها ، فهل الطرق الصوفية هي التي أشاعت فكرة الانصراف عن الدنيا وهمومها ، واحتقار ما انطوت عليه من علوم وفنون ! . ولعل هذا المقال يقدم جانبا من الإجابة .

فإذا كانت الحياة العقلية في تمام عافيتها ، توارت الخرافات ، وحلق العقل والخيال يبحثان عن عمارة الأرض وبناء الإنسان ، فالحياة المصرية لا تفهم على وجهها الصحيح . إلا بدراسة الأثر الاجتماعي للتصوف ، فأرباب الطرق الصوفية لهم أكبر الأثر على الريف ، وتأثير عميق على تشكيل الوجدان العام ، حتى يكاد التصوف يترك أثرا في كل فرد وعلى كل قيمة .. ولا يمكن القيام بأي دراسة اجتماعية بدون معرفة التصوف . الذي مازالت رموزه قائمة على طول البلاد في أضرحة الأولياء التي لا تخلو منها قرية أو نجع ..



ومدخلى إلى معرفة التصوف ، كتاب شيق سجل فيه عبد الوهاب الشعرانى سيرته الذاتية ، وأطلق عليه اسم «لطائف المنن والأخلاق» ، والذى أطلق اسمه على حى باب الشعرية والقادم من قرية سيدى أبى شعرة فى المنوفية والمتوفى سنة ٩٧٣ هـ - ١٥٦٥م .

وهذه السيرة تلقى الضوء على العديد من جوانب الحياة الاجتماعية فى البلاد ، وتقدم فكر المتصوفة بلا أقنعة ، فمن أقدر على وصف حياة من صاحب هذه الحياة نفسها ؟ ، ونتعرف من خلال تجلياته وإشراقاته على عالم شيق ينقل ما فيه من خير وما عليه من فساد .

عاش الشعرانى فى مرحلة دقيقة ، عاش خلالها عصرين ، فقد ظهر عندما قارب حكم المماليك على نهايته ، ذلك الحكم الذى يقسم أرض مصر إلى أربعة وعشرين قيراطا ، منها أربعة للسلطان ، وعشرة لأمراء المماليك ، وعشرة لأجناد المماليك ، أما أصحاب البلاد وأهلها ، فقد حرم عليهم حتى ركوب الخيل ، وتركت لهم الزوايا والتكايا والربط ، يمارسون فيه نفوذهم .

وتم فى تلك الأيام اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، وما أدى إليه من تراجع الحياة الاقتصادية ، وانطوت مصر على أهلها ، وتوالت عليها مواكب الظلم والجهل ، ثم هزم العثمانيون المماليك ، ولم تعد القاهرة عاصمة إمبراطورية إسلامية كبرى كما كانت ، وانتقل منها مقر الخلافة الإسلامية ، فقد عاش الشعرانى حكم المماليك حتى بلغ الخامسة والعشرين ، وقضى بقية حياته فى ظل الحكم العثمانى ، وشاهد انحسار المجد عن بلاده ، ورأى أحوالها ، تضطرب ، وتابع خيرة صناعها يغادرونها إلى الأستانة ، وتخلى الوافدون الجدد عن عادة المماليك فى الاهتمام بالعلم ، ونشط الجهل، وتغلب التعبد على التأمل .

وكتب سيرته ، وهو المتصوف الزاهد ، فى شأن المتصوف بالسيرة الذاتية ، وهل يقصد التعريف بحياة صاحبها ، أم له هدف آخر ؟ .. يقول الشعرانى إنه أراد من كتابة اعترافاته ، أن يعرّف الكافة ، كيف يسلك المؤمن «الطريق» وبالتالى فنحن أمام سيرة ذاتية من نوع خاص ، يصبح فيها العنصر الشخصى هامشيا ومحدودا .

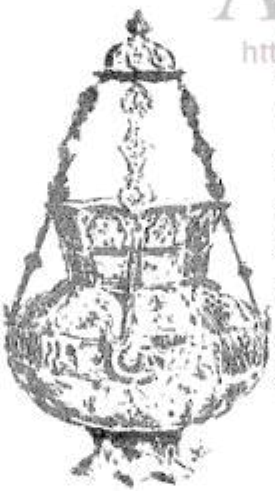
ولكن المتصوفة يزعمون القدرة على ملامسة الحقيقة برواية سيرتهم الذاتية . فأى أحداث يتوقفون عندها ، هل التفاصيل العادية ، أم تلك التى تؤكد ذاته التى يسعى إلى ذكرانها . ؟ ! وهل يخترع المتصوف مثل غيره الأسباب والدوافع للأعمال التى صـــدرت عنه ؟ وهل سيكون صريحاً عارياً أمام القراء ؟

الشعرانى وروسو !

ويدهش قارىء هذه السيرة أنه أمام سيرة عارية تقدم صاحبها بسذاجة كبيرة ممزوجة بالدهاء ، وزعم الكثيرون أن السير الذاتية العربية ليست فى صراحة السير الذاتية الغربية ، وها هى ذى إحدى السير العربية التى لا تقل صراحة عن غيرها ، وربما أكثر صراحة وصدقاً من السير الذاتية الغربية ، فإذا كانت اعترافات جان جاك روسو ، هى قمة الصراحة ، فإنه تبين أن جانبا منها كان للتغطية على ما يريد اخفاءه ، فعندما ذكر أكثر المسائل الجنسية دقة . كان يخفى حقيقة أكثر إيلاماً ، وعندما ذكر أنه كان يرسل أبناءه إلى ملاجىء اللقطاء ، كان يخفى حقيقة أنه لم يكن قادرا على الإنجاب !

أما الشعرانى فقد قدم صوراً صريحة وتعبيراً قويا من عاطفة شكر الله على ما يتمتع به من نعم ، ومن أجل التطهر من ذنوبه وخطاياه .

وهو يكتب سيرته لكى يقتدى به مريدوه ، وباعثه ما قاله له أحدهم يوماً ، « هذه الأخلاق التى تأمر بها لم نجد أحداً تخلق بها حتى نقتدى به . وهدف ما يرويه العمل بالآية الكريمة « وأما بنعمة ربك فحدث » الصفحة (١١) ، وقد سبقنى جماعة ذكروا مناقبهم ، ليأخذ الناس عنهم العلم والطريق ، تحدثا بنعمة الله لا افتخاراً على الأقران ، ولا طلبا للدنيا ... فإن المعارف لا تسلب وإنما تسلب الأحوال بسرعة استحالتها من حال إلى حال ، فهى كالثوب الذى يخلع ويلبس ، والمعارف كالذوات لا يدخل فيها محو ولا إثبات .. فطريق التصوف طريق علم وعمل ، والكامل إذا بلغ مقام الكمال فى العرفان صار غريبا فى الأكوان ، وقد صرحت فى الكتاب بأمور كان الأولى كتمانها ، لولا الأمر لى باظهارها (!) »



إعترافات روسو وإعترافات الشعرانى !

ولم يكن الشعرانى بعيداً عن التأليف ، ويكاد يساهم فى فروع المعرفة الدينية المختلفة ، وترك ثلاثمائة كتاب ، تناولت النحو والتفسير والفقه والتصوف ، وله فى دار الكتب نحو خمسين كتابا ، أغلبها لايزال مخطوطا ..

أحلام الفقراء

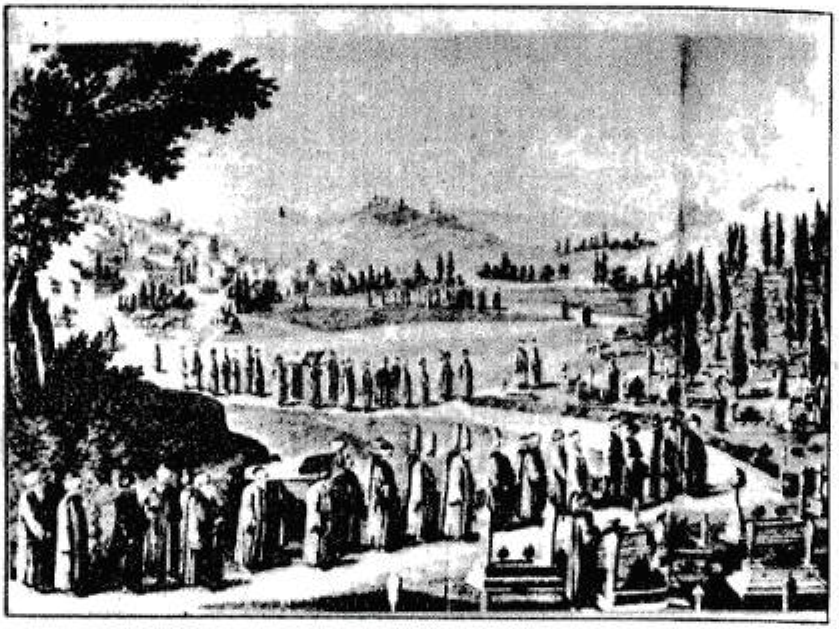
غدت الحركة الصوفية فى زمان المماليك والعثمانيين ، التنظيم الأهلى الوحيد ، البعيد عن مؤسسات الحكم ، وقسمت مصر الأهلية على شيوخ الطرق الصوفية ، وأصبحت الحرية الوحيدة الباقية للمريد أن يختار شيخه وزاويته ، وهى محدودة فيعقبها بيعة على التزام الطاعة تبدأ بالتوبة ثم ذكر ومجاهدة . ولكن اختزنت الحركة الصوفية أحلام المستضعفين والفقراء .

وأصبحت « زاوية » الشعرانى ذات تأثير كبير ، فقطبها صوفى كبير وكاتب بارز ، واسع النفوذ لدى معاصريه ، ويتساءل د. توفيق الطويل بعد وصفه للحياة فى زاويته ، كيف يتهيأ لهؤلاء الزهدة ما لا يتوافر لمعاصريهم من أهل الدنيا . ؟ الفاقة عن عامة الناس ، والترف عند الذين وقفوا حياتهم على الحرمان .. يتوافر لديهم عسل النحل والبطيخ واللوز والجوز .. فوق راحة البال واطمئنان النفس والخلو من كل تبعة .!

ويقول صاحب السيرة عن مصدر رزقه .!! لم يقسم الله لى عمل حرفة من خياطة أو تجارة أو ضفر خوص ونحو ذلك ، وكثيراً ما استأجر أرضا ، واستأجر من يزرعها ، فيأتينى منها بقوتى وقوت عيالى ، بعد أن بلغت مقام الزهد إلى أن صار عندى الذهب والتراب سواء من غير ترجيح ، وبعد أن أحكمت هذا المقام ، رجحت الذهب على التراب عملا بما جعله الله تعالى فيه من الحكمة .

ويمكن من خلال سيرته رسم ملامحه الشخصية ، والتى جاءت فى صورة حكم ونصائح تختلط فيها التقاليد بالعادات بالقيم السائدة .

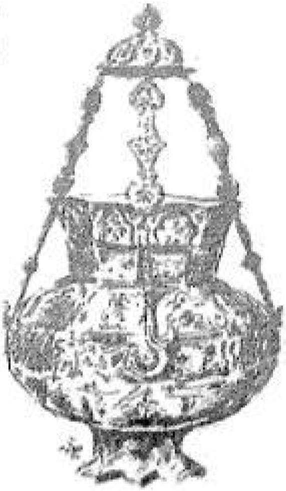
يعود نسب الشعرانى إلى الإمام على رضى الله عنه ، وقد نشأ يتيما فى قريته ، وأوضح الفارق الكبير بين الريف والعاصمة ، يقول



لوحة تركية للاحتفال بدفن سلطان العارفين فى الأضرحة المجاورة للمسجد الكبير فى القسطنطينية

وهو ينتقل من قريته إلى مصر القاهرة ... « ما جرنى من بلاد الريف إلى مصر ، انتقال من أرض الجفاء والجهل إلى بلد اللطف والعلم ، وكان مجيئى إلى مصر وعمرى إثنتا عشرة سنة ، وأقمت فى جامع سيدى أبى العباس ، وشاركت شيخ الجامع حياته حتى حفظت متون الكتب الشرعية .. وكان ذهنى بحمد الله سيالا لا يسمع شيئا وينساه .. »

ولم يذكر لنا لماذا غادر قريته ، وإن كان يقول .. « أنعم الله على حفظى من السرقة والخيانة منذ وعيت ، ما عدا مرة عندما أجلسنى شخص من بلدة الخانكا فى حانوته ، ومضى إلى حاجته ، فمر بى شخص يبيع حلاوة ، فأخذت من غلته ثلاث نقره واشتريت بها حلاوة ، واستحيت أن أذكر ذلك لصاحب الحانوت ، وكنت إذ ذاك دون البلوغ ، فلما بلغت طلبت محاللته فوجدته قد مات » ويضيف . «ومن صغرى أنعم الله علىَّ عدم مزاحمتى على شىء فيه رياسة دنيوية ،



ولا أنازع من يزاحمنى فى الرياسة قط ، وهو أمر أجد له فى مصر فاعلاً غيرى إلا القليل (!)

وبحمد الله .. إحساسى بمشاركة جميع المسلمين فى جميع البلايا والمحن حتى أنى أشارك المعاقبين فى بيت الوالى ، وأشارك المرأة إحساسها حال طلقها وولادتها ، وإذا استأجر منى شخص دولابا أو مركبا ولم ينتفع بها ، لا آخذ منه أجرة .. (أى أنه لا يقصر فى رزقه على ريع الأرض كما سبق وذكر) ، وتركت لذيذ الطعام ، ولبست الخيش والمرقعات من شراميط الكيمان نحو سنتين ، وأكلت التراب لما فقدت الحلال نحو شهرين ، ونفرت من جميع الناس ونفروا منى ، فكنت أقيم فى المساجد المهجورة ، والأبراج الخربة وسياحتى فى الجبال والبرارى ، حتى قطعت برارى ما أظن أحداً من أقرانى يعرفها ، ثم حبب الله إلى جبل المقطم ، ثم المساجد المهجورة فى القرافة ، ثم الخرايب فى مصر ، وما من فقير حتى له القدم فى الطريق إلا بعد سياحة ، ذلك لأن الأنس بالخلق حجاب عظيم ، فلا بد من قطع هذا الحجاب إما بالمجاهدة وإما بجزبة إلهية . وضعفت بشريتى ، وقويت روحانيتى ، حتى كنت أصعد بالسرعة فى الهواء إلى الصارى المنصوب فى الجامع ، فأجلس عليه فى الليل والناس نائمون ، ثم إذا نزلت من السلم إلى الجامع أنزل بجهد وتعب لغلبة روحانيتى ، وطلبها الصعود إلى عالمها .. وربما نزلت بثيابى فى الماء البارد فى الشتاء حتى لا يأخذنى النوم .

ومن منّ الله علىّ .. شفقتى على كل دابة ركبتها ، وكراهة حملى سوطا إذا ركبتها خوفاً من أن تغلبنى حدة النفس فأضربها إذا حرنت ، وكذلك لا أسبها ، ولا أدعو عليها حال ركوبها ولا حال عثورها .. وعدم أكلى أو شربى شيئا إذا ركبت دابة بالكراء ، مدة غيبتى بها عن صاحبها ، لكونى أصير بالأكل والشرب ، أثقل مما كنت حال استئجارها .

فأهل الكشف تدرك من يفعل خيراً مع الدواب ، ومن يفعل معها شرا ، ولكنها لا تنطق .. وعدم شح نفسى على الهرة التى تستولى على الدجاجة ، وعدم تمكينى أحداً يتبعها إذا خطفتها (!)

ى.. صبرى على مجالسة بعض الثقلاء ، وكتمى عنهم إدراك ثقلهم ، وعدم غيبتهم إذا قاموا .

أعظم النوافل

ويعد أن يقول الشعراني .. « ومن مان الله على .. زهدى فى المطاعم والملابس والنساء والفرش الوطيئة ، وكثرة الروائح الطيبة الخارجة عن العادة ، وقناعتى بالكسرة اليابسة »

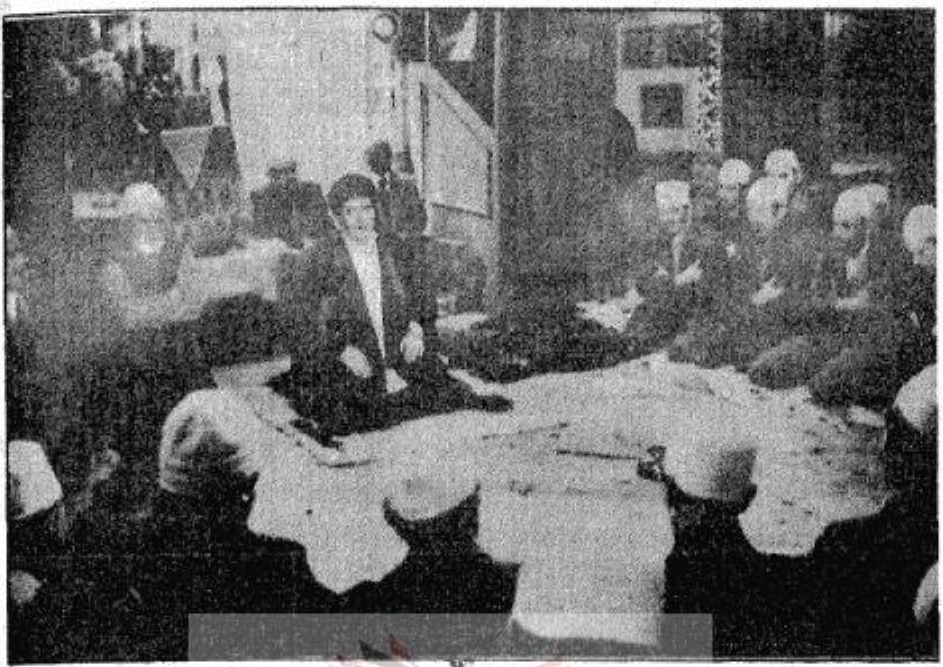
يعود فيقول .. «إن أعظم النوافل بركة الإكثار من النكاح لما فيه من الازدواج والإنتاج ، ولا أجامع وأنا غضبان أو وأنا مقبل على الدنيا ، ولا وأنا مخاصم أمهم ، فحضورى مع الحق فى حال إجتماعى بزوجتى ، فالاكثار من النكاح تتحقق فيه العبودية التى لا يشوبها دعوة قوة .. والنكاح يهيىء الزاهد لتلقى العلم اللدنى ، فإن كانت الزوجة على فتنة وجمال ، وجب تجاوز اللذة بالاستمتاع بها ، إلى رفع الهمة إلى التمتع بجمال من هى من آثار صنعته تعالى »

ويحكى رواية غريبة أنه لما تزوج فاطمة مكثت معه بكراً خمسة شهور ، إلى أن رأى السيد البدوى (فى المنام) ، وقد جاءه وأخذه ومكنه من إزالة بكارتها داخل ضريحه ، وفوق ركن القبة .. التى على يسار الداخل ، وتم ذلك بفضل كرامة وبركة السيد البدوى .

«وقد تمكنت من إصلاح زوجاتى الأربع اللاتى تزوجتهن على التعاقب ، وهن زينب وحليمة وفاطمة وأم الحسن إبنة سيدى مدين ، وعدم جمعى بين الضرتين ، وإقامة العذر لزوجتى إذا تزوجت عليها ، أو تسريت (إقتنى الجاريات) ، ولا أطالبها بالصبر لعلمى أنه لا تطيقه غالب النساء ، ومزحت مرة مع زوجتى أم عبد الرحمن وقلت لها : أن أسبق إلى الجنة بضرتك تفرش لك بيتك ، وتملأ لك الأباريق وتنتظرك حتى تجيئى إلينا ، فحلفت بالله العظيم أنها لو دخلت الجنة ورأت ضرتها هناك ، رجعت وقامت خارج الجنة أبد الآبدين» .

ويذكر أيضا ، أنه لم يعد يستحى من تعليم النساء الأجانب آداب الجماع ، فضلا عن تعليم الرجال .

ويشكر الله مرة أخرى .. « من عدم الوقوع فى شىء من أعمال قوم لوط . »



البكتاشية إحدى الطرق الصوفية التى اعتمدت عليها الدولة العثمانية

شطحات الصوفية

يقول البعض إن الطرق الصوفية لديها شفرة خاصة ، فهل تفسر هذه الشفرة ، ما يقولونه عن كراماتهم ، فالشعرانى قد طاف حول العالم فى محفة طائرة فلنصحبه وهو يروى عن كراماته ، يقول: إنه سمع تسبيح الجمادات والحيوانات ، وسمع من يتكلم فى أطراف مصر ، وسمع تسبيح السمك فى البحر المحيط . يقول ..

« عمت فى بحر النيل أيام «الوفاء» وأنا دون سن البلوغ ، فتعبت ونزلت فى قعر البحر لأموت ، فأرسل الله لى تمساحاً فوقف تحت رجلى حتى استرحت ، ثم حام حولى يساندنى حتى وصلت إلى ساحل البحر ، ليس هذا فقط ، بل كثرة حضور الملائكة والجن لدروسه ، وهرب التماسيح عند نزول البحر ، رغم كراهته .. » لوقوع الخوارق على يديه فى الدار الدنيا ، ولكن وقوع الخارق لابد منه ولو

مرة واحدة بشرى من الله ، وألف كتابا كشف فيه الحجاب عن أسئلة الجان وهى نيف وسبعون سؤالا سألنى عنها علماء الجان !!)

وأحصى ولاحظ د. زكى مبارك ، أن الشعرانى ذكر فى مؤلفاته أكثر من خمسين مرة عبارة «العاقل من عرف زمانه » ، فهل معنى ذلك أن الشعرانى قد عرف عقلية معاصريه ، فبلغ من ذكائه أن قدم إليهم ما يرضيهم ..

ولعل ما يفسر الكثير من هذه الخرافات ، قوله فى موضع آخر .. « أخذ علينا العهود أن ندور مع أهل زماننا ، ونتخدع لهم كما يتخدعون لنا ، ونتلون لهم كما يتلونون لنا ، فنأمر إخواننا أن يدوروا مع الزمان وأهله كيف داروا .. »

ونقل الشعرانى صورة لما يجرى فى زمانه قال .. « كان إبراهيم العريان يصعد إلى منبر المسجد عاريا ، ويخطب فى الناس ، قائلا .. السلطان ودمياط وباب اللوق وبين الصورين ، وجامع طولون والحمد لله رب العالمين » فيحصل للناس بسط عظيم . !

وقد نقد الشعرانى فى كتبه أحوال زمانه وأحوال المتصوفة ، ويرى أن معظمهم دجالون يحتالون على أكل أموال الناس ، ويورد صوراً عن فساد أخلاقهم وتهافتهم على حطام الدنيا فهل يعنى الطرق الصوفية الأخرى فقط . ؟!

لقد أوتى الشعرانى خصوبة خيال وسرعة بديهة وذكاء ، تعبر عن أحلام المستضعفين والفقراء ، الذين يأملون فى الكرامات التى تدعو للفقير فيصبح غنيا ، ويقول للطبق « النحاس » صر «ذهبا» فيصير ذهبا .

ويذكر الشعرانى بعضا من هذه الكرامات ، فهذا شيخ يجتذب قلقاسا من الحلفا ، وهذه امرأة تشتهى جوز الهند ، فتذهب إلى الشيخ فتنبت شجرة فى خلوته تأخذ منه المرأة ما تشتهى . وهذا رجل يحتاج إلى المال .. فيأمره شيخه بالذهاب إلى ساقية بعينها يغترف منها ما يشاء من ذهب وفضة .

وهو لا يكتفى بحل مسألة الحياة والموت والقضاء والقدر ، بل ويضع حلولاً لكافة هموم الإنسان ويساعده على تحقيق أحلامه ، حتى لو استبدل الحقيقة بالخيال .

العاقل من عرف زمانه .. !

إعــــلاء
شأن الأمية !

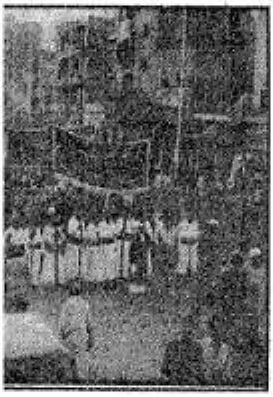
ولنقتصر فى سيرته الذاتية على البحث فى مسألتين ، رؤية المتصوفة للسياسة ، أى العلاقة بالحاكم فى الداخل وبالقوى الأجنبية فى الخارج ، وموقف المتصوفة من تحصيل العلم ..

فمن المآخذ على الطرق الصوفية فى مصر ، تأييدها المطلق للحاكم ، ومهادنة الغازى ، ويقدم الشعرانى فى نصائحه موقفا سلبيا ، لا يتجاوز الشفاعة للمظلومين من الأهالى .

ويرى أن مقاومة الحاكم الظالم ، مجلبة للمتاعب والقلاقل ، لأن مثل هذا الحاكم الجائر لا يغفر لأحد عصيانه ، ولا يتسامح مع من يعمد إلى التنديد به ، لذا وجبت مداراته ، وتجنب العمل على إثارة حفيظته ، فالولاة عنده أتم نظرا من الأهالى ، فلهذا حكمهم الله فى رقابهم فكل ما يفعلونه يمكن حمله على الظن الحسن ، وترجيح نفعه للمسلمين وإن خفى وجه النفع فيه ، وأقصى ما يفعله التغيب عن حضور مشاهد الظلم ، حين يأخذ الولاة فى شنق المذنبين وشنكلتهم وخوزقتهم وخزمهم فى أنوفهم :

فاحترام الحاكم واجب حتى لو كان جائراً ، وإذا رفض الشفاعة وجب إحتمال رفضه ، وينصح بتملق الحكام إتقاء شرهم ، فالله هو الذى ولى على الناس الحاكم الفاسق الجائر ، والخروج عليه ، عصيان لله وتمرد على حكمه ، ويذهب أبعد من ذلك عندما يطالب قراءه بأن ينطووا على إحترام هؤلاء الظلمة ويضمروا لهم الحب سرا وجهراً ، ويحكى أنه يمرض إذا سمع بمرض أصاب الحكام ، حتى أنه أفطر فى رمضان عشرة أيام ، إبتهاجاً بشفاء السلطان العثمانى سليمان بن عثمان من ألم أصاب رجله ، كما أفطر فى فرص أخرى من أجل خاطر الوزير على باشا الذى كان نائبا فى مصر ..

وينصح بعدم إفشاء سر من صحبه من الولاة ، .. « إذا قربنى ، وصار يشاورنى فى أموره ، فلا أقول لأحد من أصحابى قط ، إن الأمير قال كذا ، أو شاورنى فى كذا ، فينبنى على ذلك مفاسد ، منها نفرة الأمير وأخذ حذره منى ، فليس للأمير أن يعفو على ثلاث: من قدح فى ملكه ، ومن أفشى سره ، ومن أفسد حريمه !



فمن جالس الملوك بلا أدب جره ذلك إلى العطب .« وعندما أدخل على أمير لا أذكر أمامه بخير حديث الأمير الذى كان قبله ، خوفا من إثارته وكراهته قبول شفاعتى فى المستقبل ، وهذا ما يتعين فعله مع ولاة هذا الزمان ، فإن غالبهم صار بحكم القانون ليس له عدو إلا أصدقاء الأمير الذى كان قبله ، وربما سلب نعمة جميع أصحاب من كان قبله» .

وأغرب ما يقول .. «ضرورة حفظى للأدب مع السلطان ، حتى لو ورد ملوك الفرنج ديارنا وأركبوهم الخيل . وخدمهم مماليك السلاطين، وطرقوا لهم الطرق ، فأحمل ذلك على كامل طيبه فربما ذلك لمصالح تعود على المسلمين ، كأن يرحمون ما عندهم من الأسرى، فالولاة أتم نظرا منا .. »

وهكذا نجد أن الطرق الصوفية تقف مع الحاكم في كل الأحوال، وتقدم التبرير الكامل له ، وشيوع هذه القيم هى التى مازالت تعمل عملها فى تجربتنا السياسية ، وخاصة إذا عرفنا أن المنضوين تحت لواء الطرق الصوفية فى مصر أكثر عدداً من المنتمين للأحزاب السياسية !

إنتشار الأمية

ويقود هذا التفكير بالضرورة إلى أن يصبح الأمى أفضل من المتعلم ، فبعد أن أصاب الطرق الصوفية الكثير من الآفات ، ومن أهمها تقديس شيخ الطريقة ، وانسحاب أتباعها من معارك الحياة ، وقيام هيكل تنظيمى يخضع خلاله المريد لشيخه ..

وفيما يرويه الإمام الشعرانى عن تحوله من فقيه إلى متصوف ، تظهر تلك القيمة الدخيلة على الإسلام والمدمرة لأهله ، فلقد كان شيخه على الخوّاص أميا ، وكان الشعرانى أكثر أهل عصره علماً ، وكان شيخه الأمى « ينطق بجوامع الكلم ، ويختصر على المريد الطريق .»

وفى أول الطريق طلب إليه شيخه أن يتخلص من كل كتبه وينفق ثمنها إحسانا على المعوزين ، وعاد يطلب منه أن ينصرف عن طلب العلم وحضور مجالسه عاماً كاملا ..

وقال له شيخه بعد إنقضاء العام : بقيت فارغا والفارغ يملأ ولا يتغير ما فيه ، ثم طلب إليه أن يعتزل الناس ويتحاشى مجالسهم ، وأن يطرد كل خاطر يهفو إلى ذهنه . فالعلوم الوهبية اللدنية تزاحم العلوم النقلية .

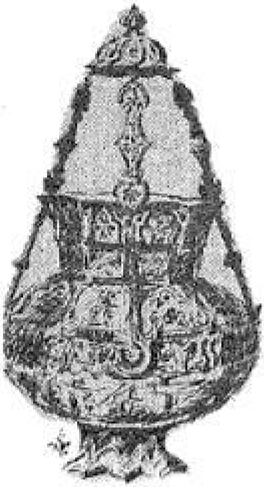
ويعترف الشعراني ، أنه كان أحد أطراف إنقسام حاد ، بين أصحاب العلم العقلي الذى يمثلهم الفقهاء ، وأصحاب العلم اللدنى القائم على الكشف الذى يمثلهم المتصوفة ، وها هو ذا بحر العلم عند شيخه مبسوط الرحاب ، عميق القاع ، والذى لا يقوم سوى على الكشف الصحيح والتعريف الإلهى ، ولا يتصل بالفكر والنظر فى قليل أو كثير !

وغطس الشعراني فى هذه المعرفة خمس مرات ، فالشريعة هى السفينة والطريق هو البحر والحقيقة هى الدر ، ووجد فى كل مرة غاص فيها صيداً من خزائن العلم اللدنى وأخذ يفيض فى تفسير القرآن والحديث، ويستنبط أحكام الدين ، حتى أغناه عن إستقاء العلم عن آثار المؤلفين قدامى كانوا أو محدثين ..

ولابد من الشيخ للمريد عند الشعراني ، «فلو أن طريق القوم يوصل إليها بالفهم من غير شيخ ، لما إحتاج مثل حجة الإسلام الإمام الغزالى ، ولا الشيخ عز الدين بن عبدالسلام أخذ أدبهما عن شيخ .. ! » ، وكان يقول لعلماء زمانه : لستم بعلماء ، وإنما أنتم تتلذذون بالمسائل ، ولو أنكم كلفتم نفوسكم بالعمل بما تعلمون لتجرعتم المرارات ، ولكبحت نفوسكم عن التعلم .

وينقل عن إبراهيم المتبولى قوله .. « ثلاثة من الناس لا يرجى فلاحهم لاستحكام المقت فيهم ، ، من يحب اللواط ، ومن يعمل بالكيمياء ، ومن يريد فتح المطالب» وهو هنا ياللغرابة يجعل اللواط كدراسة الكيمياء ، ويؤكد كراهيته لتعلم ، علم الحرف ، وعلم الرمل والهندسة والسيمياء ، وغير ذلك من علوم الفلسفة وهذه الأمور يفعلها المفلسون من صفات الصالحين !

إليس ذلك تحريض على الجهل وحض على الخرافة ، والرضا بالخروج من معترك الصراع الذى يشهده العالم من حوله ، إنها



يفطر رمضان إذا مرض السلطان !

صور بالغة السوء لسلطان التصوف على أهالي مصر المحروسة ، ولابد هنا من ذكر تحفظ ضروري ، حول الفارق بين العلم الدنيوي والعلم اللدني، فربما كان يعني الفارق بين العلم الذي يستوعب وبين العلم المحفوظ ، فالمعرفة الحقة هي الإستيعاب وليس الحفظ ، ولكن لا يمكن بحال إعلاء شأن الأمية وتجاهل العلوم والفنون والفلسفة .

وهناك تحفظ ضروري آخر ، ألمح إليه في كتاب المتن ، هو تزوير الأعداء والحساد لبعض كتبه .. « لما دسوا في كتبي كلاماً يخالف ظاهر الشريعة ، وصاروا يستفتون عليّ زوراً وبهتانا ، وادعى البعض عليّ أني أفتيت بتقديم الصلاة على وقتها إذا كان وراء العبد حاجة ..

وحدث بعد تصنيفي لكتاب « البحر المورود » ، أن كتبوا منه نحو أربعين نسخة ، وغار من ذلك الحسدة ، فاحتالوا وكتبوا بعض الكراريس ، ودسوا فيها عقائد زائفة ، وسبكوا ذلك في غضون الكتاب في مواضع كثيرة ، ووقعت بذلك فتنة كبرى ..

فهل بعض آرائه الغريبة في مصنفاته زودت بفعل فاعل . ؟ وكم هي هذه الروايات المنحولة !.

وعلى أية حال من الواضح أن نمو النشاط الصوفي كان إنعكاسا لأحداث العصر التي عصفت بالعالم الإسلامي ، وحان وقت التخلص من آثارها ، والتطهر من تلك الآثار السلبية التي تبقى على التخلف . ليحل محلها الإسلام الصحيح ، الذي يجعل التفكير فريضة، والذي يساوي بين البشر ، ويقوم على الشورى . ■

جزء خاص • التصوف •

القصة عند الصوفية

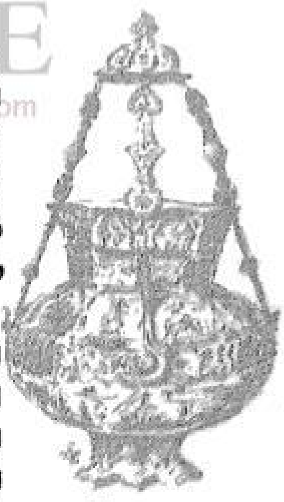
بقلم : د. يوسف زيدان

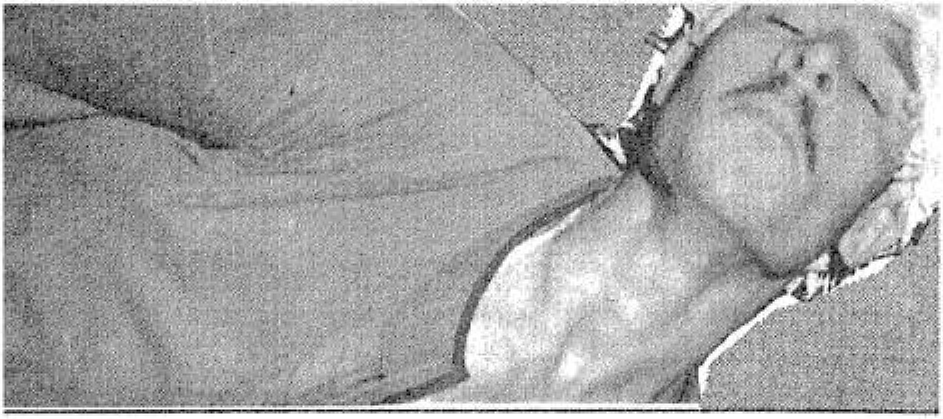
.. إذا انجرفنا مع تيارات الرؤى الغربية للأشياء ، ووقعنا تحت هيمنة الآخر الغربى ، صرنا نرى ذاتنا وفقاً لرؤية الآخر لنا ، و نستعير منه صورتنا التى يقررها هو ! ومن هنا ، نرى مثقفاً مصرياً كبيراً ، يقف أمام حشد ثقافى أكبر ، فيعلن « إن القصة العربية ولدت يتيمة ، وكان اسمها زينب » فى إشارة واضحة إلى أن رواية محمد حسين هيكل الصادرة سنة ١٩١٤ ، كانت مسبوقة بالعدم الروائى .. وهذا وهم كبير ..

البذور الأولى :

لا يمكن - تاريخياً - تحديد الزمن الذى ابتدأت فيه القصة العربية ، فهى ذات أصول ضاربة فى القدم . كان عرب الجاهلية الأولى يتناقلون حشداً كبيراً من التراث القصصى الراوى لوقائع الأيام ، وسير أعلام الرجال ، وحكايات البطولة . وكان التراث الفارسى والاسكندرانى - وهو تراث اتصل به العرب قبل الإسلام - زاخراً بالأشكال القصصية المتنوعة ، بداية بالملاحم المطولة ، وانتهاءً بالقصة القصيرة ذات الطابع الرمزى .. هناك إذن بذور !

ومع فجر الإسلام ، نرى فى القرآن الكريم « أحسن القصص » وهى تروى عن الأنبياء ، وعن الفجرة والأتقياء ، وعن الأيام والأعمال . وما لبثت القرون الأولى أن حفلت بطائفة من الأدباء المعروفين باسم « القُصَّاص » وكانت لهم مكانةٌ خاصة عند أهل الزمان وعند الحكام ، واشتهر منهم الكثيرون .. وبالقطع ، فلسنا هنا





> الـراوى فى القصـص الصـوفى هو المحور الذى تـدور حـوله الأحـداث والـوقـائع

بصدد تحليل هذه الألوان المبكرة من الأدب القصصى العربى ، وإن نطيل المكث أمام عمل مثل « ألف ليلة وليلة » فكل ما فى الأمر أننا نود الإشارة الى أن هناك أصولاً وبذوراً أولى للقصة الصوفية ، التى هى بدورها أصولٌ وبذور أولى للقصة العربية المعاصرة .

بدء القصة الصوفية :

إن أول عمل أدبى يحمل طابع القصِّ الصوفى ، هو تلك الترجمة المتميزة التى حكاها عن نفسه « الحكيم الترمذى » المتوفى ٣٢٠ هجرية ، وجعلها بعنوان : بدو الشأن . وفيها نراه وهو يروى تنقلاته الروحية العروجية ، عبر حشدٍ من الرؤى المنامية التى رآها هو ، أو رأتها له زوجه .

وتوالت من بعد ذلك ، أعمال قصصية لمتصوف كبير – وطبيب وفيلسوف أيضاً – هو الشيخ الرئيس : أبو علىّ بن سينا . وقد كتب مجموعة من القصص القصيرة التى حملت عناوين مثل : حىّ بن يقظان – سلامان وأبسال – رسالة العشق .. وغير ذلك .. وعلى الجانب الآخر من العالم الإسلامى ، يعيد ابن طفيل الأندلسى ، صياغة قصة « حى بن يقظان » التى كتبها ابن سينا المشرقى ، فيكتبها ابن طفيل هذه المرة بالشكل الذى سيعرف باسم الرواية القصيرة Novela .

وتتعدَّد أعمال شيخ الإشراق « شهاب الدين السهروردى

حاملاً عناوين مثل : قصة الغربة الغربية - أصوات أجنحة جبرائيل .

أما مؤلفات الشيخين : محيى الدين بن عربى ، عبد الكريم الجيلى .. فقد امتلأت بما لا حصر له من تلك القصص التى تسمى الواحدة منها « قصة قصيرة جداً » وهى لون مميَّز من الأدب القصصى المركَّز .

ولما كان المقام هنا لا يتسع لتقديم نماذج من تلك الأعمال القصصية المتنوعة عند الصوفية المسلمين فلا يبقى إلا استعراض الخصائص العامة للقصّ الصوفى ، وهى خصائص تتعلّق بالشكل وبالمضمون .



بكارة اللغة :

تميَّزت الكتابات الصوفية عموماً ، والقصّ الصوفى خصوصاً ، بنوع من التفرُّد اللفظى ومحاولة استحداث صياغات جديدة تناسب التعبير عن المعانى الخاصة التى قصد إليها المتصوفة ولهذا نرى فى القصص الصوفى العديد من الكلمات والعبارات التى لا نراها عند غيرهم ، ففى قصة قصيرة جداً لابن عربى ، نراه وهو يقص رحلته مع « أحد الأبدال » إلى « جبل قاف » كى يلتقى بالحية « المُحدقة بالجبل » .. ولم يقف الأمر بالقصص الصوفى عند محاولة توليد اللفظ الجديد من المنظومة العامة للغة ، بل تعدى ذلك الى اختراع ألفاظ جديدة لم تكن مستخدمة من قبل . فعندما أراد السهروردى أن يعبِّر عن اللاموضع ، أو المدينة التى لا مكان لها ، اختار لفظاً خاصاً ، هو نَاسُجَابَادْ !

غموض المصطلح :

كان لابدَّ للصوفية من تأسيس قاموس لغوىّ خاصّ بهم ، لأسباب فنية وتاريخية عديدة ، منها : التحرُّز من ترصُّد الفقهاء القشريين - الرغبة فى استيفاء معانيهم للخواص دون العوام - مناسبة اللفظ الخاص للتعبير عن الحال الخاص . وغير ذلك من الأسباب الداعية إلى استخدام طائفة من الاصطلاحات كالحال

والمقام والقبض والبسط والسُكْر والمحق .. الخ .

وفى القصص الصوفى ، لن نجد اصطلاحات بينها ، يمكن الكشف عنها وعن مدلولها «الرسالة القشيرية» أو « اصطلاحات الصوفية للقاشانى » وغير ذلك من المؤلفات الصوفية – فقد تجددت الرموز الصوفية فى القصص ، وتعددت دلالاتها بحسب السياق ، مما يجعلها فى معظم الأحيان ملفوفة بالغموض ، خاصة فى عين الخبير بلغة المتصوفة ، ولنضرب مثلاً :

يبدأ السـهروردى قصة « أصوات أجنحة جبرائيل » بقوله « فى يوم ما انطلقت من حجرة النساء ، وتخلّصت من بعض قيود ولفائف الأطفال ، كان ذلك فى ليلةٍ ، إنجابَ فيها الغسقُ الشُّهَبىُّ الشكل مستطيراً عن قبة الفلك اللازوردى ، وتبدّدتْ الظُلمة التى هى أخت العدم على أطراف العالم السُفلى ، وبعد أن أمسيت فى غاية القنوط من هجمات النوم ، أخذتُ شمعاً فى يدى متضجراً ، وقصدتُ إلى رجال قصر أمى .. »

ولكى نفهم تلك العبـارات التى استهلّ بها السهروردى قصته ، لابد لنا أن نفسل الغموض المحيط بالمصطلح ، فنعرف أن « حجرة النساء » تعنى العلائق الحسية الجسمانية ، وأن « لفائف الأطفال » هى الأمور التى اعتادتها النفس الإنسـانية فى العالم الأرضى ، وأن « الليلة » تعنى زمن العروج ووقت التجليات .. وهكذا .

التواصل مع التراث

لقد صرنا نفهم كلمة « التراث » على أنها عالم قديم ، بائد ، نحن عنه شبه منفصلين . وربما كان ذلك نابعاً من انقطاعنا عن التواصل مع التراث فى العقود الأخيرة ، تحت تأثير الاستعمار والاغتراب الثقافى عن الذات . أما فى القرون السابقة ، فقد كان اللاحق يتواصل مع تراث السابقين ، دون أدنى شعور بوجوب القطعية معهم ! وقد ظهرت عملية « التواصل مع التراث » قديماً ، فى أشكال ثقافية لا حصر لها ، منها « مجالس التعليم الإسناد – سلاسل الطرق الصوفية – الشرح والتحرير .. » وظهر التواصل مع

لابـــد للصـــوفية من تأسـيس قـــاموس لغـــوى خـــاص بهم لأســـباب فنيـــة وتاريخيـــة .

التراث السابق أيضا ، في القصص الصوفى متمثلا فى قصة « حىّ بن يقظان » وفى غيرها .

حىّ بن يقظان والعالم النورانى :

هناك بعض الدراسات التي تسعى للكشف عن الأصول اليونانية والاسكندرانية لقصة « حىّ بن يقظان » التى كتبها ابن سينا ، لكننا يمكن أن نتتبّع مسار هذه القصة ابتداءً من صياغة ابن سينا لها ، حيث حاول تصوير عملية الخروج الإنسانى من (بلاد برزة) إلى العالم العلوى النورانى (قصر الملك) مشيراً بالعنوان الى الوجود الإنسانى (حىّ) الذى انتبه من رقدة الحواس وسيطرة المادة ، فصار (ابن يقظان) .

يتواصل السهروردى مع تراث ابن سينا ، فينتقد قصته نقداً لطيفا ، قائلا : إنى لما رأيت قصة « حىّ بن يقظان » صادفتها مع ما فيها من عجائب الكلمات الروحانية والاشارات العميقة ، متعريةً من تلويحات تشير إلى الطور الأعظم ، الذى هو الطامة الكبرى المخزونة فى الكتب الالهية .. المخفية فى قصة « سلاّمان وأبسال » التى رتّبها صاحب قصة « حىّ بن يقظان » .. فأردتُ أن أذكر منها شيئاً ، فى طرز قصة سمّيتها أنا : قصة الغربة الغربية .

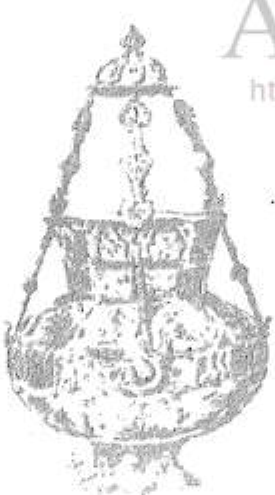
وفى « الغربة الغربية » يحكى السهروردى رحلته مع أخيه عاصم (العقل الانسانى) إلى العالم الاعلى ، مشيراً بالعنوان الجديد إلى غربة الانسان فى هذا العالم ، واغترابه – وهو على قيد الحياة – عن أنوار العالم العلوى الذى لايمكن له العروج اليه إلا فى لحظات تسنح كلمح بالبصر.

ويعود ابن طفيل إلى العنوان الأول ، فيكتب روايته القصيرة « حى بن يقظان » على نحو أكثر تفصيلاً يتناول نشأة « حى بن يقظان » وتطّور إدراكه وقواه العقلية والروحية حتى يصل إلى جوهر الدين وأصوله . وقد أفرغ « دانييل ديفو » المحتوى الفلسفى والصوفى من قصة ابن طفيل ، واستغل قالب النشأة وطبيعة الارتقاء فقط ، ودوّن قصته التى نالت شهرة واسعة ، روبنسن كروزو .

ونعود لعملية التواصل مع التراث عند المسلمين ، فنرى العلاّمة علاء الدين بن النفيس وهو يستلهم الإطار العام لقصة « حى ابن يقظان » التى كتبها ابن سينا ، ويخالفه في المضامين . فإذا كان ابن سينا قد أراد التعبير عن إمكانية وصول العقل الانسانى الفطرى إلى الحقائق العلوية - وهو مانراه أيضاً عند ابن طفيل .فإن ابن النفيس يرى أن العقل لابد أن يهتدى برسالة سماوية ترشده .. ولهذا ، أحتفظ ابن النفيس فى قصته ببنية القصة الأولى ، وخالفها فى السياق ، وفى العنوان أيضاً .. ففى مقابل « حى » الذى يشير عند ابن سينا إلى مطلق الانسان « ابن يقظان » الذى يشير عنده الى يقظة العقل الانسانى استخـدم ابن النفيس عنوان « فاضل » كإشارة الى الانسان الاخلاقى « ابن ناطق » الذى يشير الى الوصلة مع الشريعة من خلال اللغة . وهكذا كانت قصة ابن النفيس « فاضل بن ناطق » تواصـلاً مـع التراث السابق المتمثـل فى قصـة ابن سينا « حىّ بن يقظان » وإن كان هذا التواصل لم يلغ اللاحق لحساب السابق .

أسلوب الإلتفات

الالتفات ظاهرة أسلوبية توقف عندها البلاغيون العرب كثيراً . وقد تكرّرت هذه الظاهرة فى آيات القرآن الكريم ، ثم استفاد منها المتصوفة فى أدبهم القصصى .. وفى « الالتفات » يتغير مافى مسار القص من الرواية الحاكية إلى الحوار ، ليعطى النص حركة درامية أعمق . وهذا ما سنراه فى هذه القصة - القصيرة جداً - التى صاغها ابن عربى على النحو التالى :



« ذهبتُ أنا وبعض الأبدال إلى جبل قاف ، فمررنا بالحية المُحْدقة به ، فقال لى البدل : سلّم عليها فإنها سترد عليك السلام . فسلّمنا عليها ، فردّت ، ثم قالت : من أىّ البلاد ؟ فقلنا : من بجاية . فقالت : ما حال أبى مدين مع أهلها ؟ فقلنا لها : يرمونه بالزندقة ، فقالت : عجبا والله لبنى آدم ، والله ماكنت أظن أن الله - عزَّ وجلَّ - يوالى عبداً من عبيده ، فيكرهه أحد .. »

شخصية الراوى

الراوى فى القصص الصوفى هو المحور الذى تدور حوله الأحداث والوقائع ، وهو الشخصية التى لا تخلو منها قصة صوفية ولذا ، تتعدد (تاء المتكلم) فى النصوص القصصية للقوم ، أكثر من بقية الضمائر الأخرى .

والسر فى غلبة شخصية الراوى ، هو أن القصة الصوفية غالباً ما تكون تصويراً لمراحل الطريق الصوفى التى قطعها المؤلف ، أو تصويراً لمرحلة بعينها من هذا الطريق العروجى - والطرق إلى الله - كما يقول الصوفية - على عدد أنفاس البشر ! ومن هنا تتفرَّد كل تجربة صوفية ، ويستقل بها صاحبها . وبالتالى ، تتفرد القصة الصوفية الواحدة ، وتستقلُّ عن غيرها .

وثمة أمور أخرى قد يسعى إليها الصوفى فى قصته - غير الإخبار عن رحلة عروجه الخاص - فمن ذلك : الرغبة فى معارضة مضامين قصة سابقة ، كما هو الحال فى قصتى « الغربة الغربية » و « فاضل بن ناطق » .. أو تسجيل موقف الراوى من واقعة معينة ، كما هو الحال فى قصة ابن عربى السابقة التى سجَّل فيها رفضه لاضطهاد الشيخ أبى مدين التلمسانى ، فلجأ لهذا الأسلوب الذى تغلب عليه سمة الفانتازيا .. وقد يسعى الصوفى بالقصة إلى تبيان أمر ذوقى خاص لمريديه أو صحبه ، ولذا ترد فى بعض الديباجات القصصية تعبيرات مثل « اعلموا يا إخوان » أو « معشر صحبى » وغير ذلك . وكل هذه الأمور نابعة من نفس الصوفى الذى تعبِّر عنه شخصية « الراوى » .

ويلجأ القصص الصوفى لتقنية فى الكتابة ، تشابه ما سوف يقوله « إليوت » تحت مسمَّى « المعادل الموضوعى » .. فالصوفى غالباً ما يقوم فى قصته بتكوين عالم درامىّ يعادل العالم الحقيقى ، ويوازيه . ثم يعبِّر عن مضامينه الخاصة من خلال حركة « الراوى » فى هذا العالم الموازى ، وينتهى به الأمر إلى هدم ذلك العالم الموازى بعد أن يكون قد وصل بالقارئ إلى حالة خاصة . وهم يسمون العالم القصصى الموازى « القشر » فى مقابل الحقائق المراد الإخبار عنها



« اللب » ومن هنا نرى الصوفى يذّيل قصصه بعبارات مثل : فلا تقف عند هذه العبارات – خُذ اللب واتركْ القشر .. الخ.

التواصل مع الأدب الصوفى

لقد استفاد الأدب الحديث من تراث القصة الصوفية بشكل مباشر أو غير مباشر ولعل أقوى الشواهد على هذه الاستفادة ، وعلى تواصل الأدب المعاصر مع الأدب الصوفى التراثى ، هو ما نراه فى أعمال « جمال الغيطانى » الإبداعية ، خاصة فى عمله الروائى الضخم « كتاب التجليات » وفى غيره من قصص الغيطانى ورواياته .. لقد حقّق الغيطانى عملية التواصل الأدبى الأمثل مع التراث ، فاستقى منه ، البناء العام ، ووَقْع الألفاظ ، وسحر العالم الموازى ، والدفء ثم استقل هو بمضامين معاصرة ، ورؤى خاصة أراد التعبير عنها .. ولاشك فى أن دراسة الصلة بين أدب الصديق جمال الغيطانى ، وبين الأدب الصوفى بعامة ، هى دراسة سوف تكشف عن الكثير من الأمور والملامح الخاصة بتيار مهم فى الأدب العربى المعاصر ، وكم كان بودى أن أتوقف هنا عند هذه المسألة .. لكنها : قصةٌ أخرى .

مجالس الإنشاد الصوفى

التصوف جزء خاص

بقلم : عبد الحميد توفيق زكى

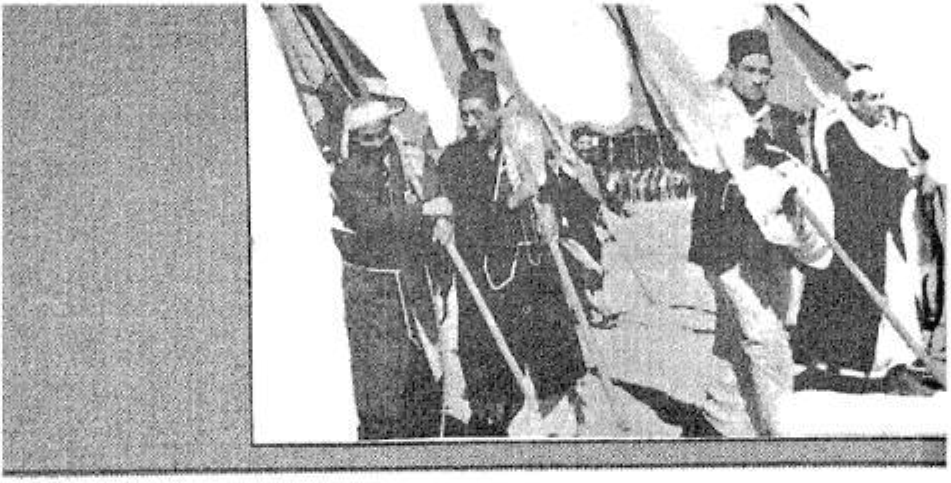


الناس على اختلاف طبائعهم ، يغنون ويسمعون ، ويشغفون بالنغم الحلو ، والصوت الحنون ، إمتاعاً للحس.. وإشباعاً للنفس، واستجماماً لرحلة الحياة الشاقة المضنية ، أما المنشدون الدينيون ، على اختلاف أديانهم وعقائدهم ، فإنهم يغنون ويسمعون ، بل ويرقصون وجداً ورحاً ، وهم فى غيبة عن حواسهم ونفوسهم ، يحدوهم إلى ذلك نار الشوق ونور العشق لإله الكون .

وترتبط الأغانى الدينية عامة ، أوثق الارتباط بالمناسبات الدينية التى يحتفل بها المجتمع الشعبى ، وتحظى هذه الأغانى باحترام كبير ، ينبع من طبيعة المناسبة ، التى تغنى فيها ، وجوهر المعتقدات الدينية، المتأصلة فى ضمير المجتمع ، بل ويذهب الدارسون ، إلى أن الأغانى الدينية عميقة الجذور ، متأصلة فى التقاليد التاريخية للمجتمعات البشرية عامة .

وإذا أردنا أن نختص الصوفية ، فنقول كما يقول الغزالى (إن قلوبهم بها سبحات الجلال والهة حيرى ، وأرواحهم من تنسم روح الوصال سكرى ، فكل غايتهم أن يتحقق وجودهم فى الوصول إلى الله) .

الأغانى الدينية ترتبط أوثق الارتباط بالمناسبات الدينية .



يعتبر الصوفية الغناء والسماع طريق الوصل .

ذلك أن الصوفية يعتبرون الغناء والسماع أحد المقامات على الطريق فى الوصول إلى الله ، وهم يسمون هذا الطريق بسفر ، أو حج ، ولأجل تحقيق الوصول فى هذا السفر ، لابد من المجاهدة فى قطع عدة مقامات ، كل مقام منها أشبه بمرحلة ، وكل مرحلة قائمة على التى تقدمتها ، وهى على التوالى مقامات : التوبة ، والورع ، والزهد ، والفقر ، والصبر ، والتوكل ، والرضا .. وهذا المقام الأخير يسمونه ، راحة النفس ، أو السلام الروحى ، والتوصل إليه يكون بالوجد والحبور ، والغناء والسماع ، والحبور عندهم هو السماع ، وبهذا المعنى يفسرون قول الله تعالى :

(فهم فى روضة يحبرون) أى يسمعون .

ويفلسف الصوفية مأربهم من السماع فيقولون إنهم يسمعون (الهاتف السماوى) فى آية قرآنية ترتل ، أو شعر ينشد ، أو موسيقى تردد ، فإن الله أوحى إلى مخلوقاته كلها ، أن تسبحه بلسان الحال ، أو بلسان المقال ، فالإنسان والطير والحيوان والأشجار ، كلها تردد نشيداً عاماً به تسبيح الله ، وعلى هذا فالموسيقى (هاتف سماوى) يحدو بالمرء إلى التوجه والسعى نحو الله ، فمن أعارها سمعه وهو راغب فى الله كان له ما أراد ، ومن أعارها سمعه وهو راغب فى الشهوات وقع فى الخطيئة ، وارتطم فى حماة الشهوات .



وجـــودى أن أغيب عن الوجـــود

بمـــا يبدو على من الشـــهود

الإنشاد والمنشدون

هذا فن له قواعده وأصوله فى المجتمعات الصوفية ، وفى نفس الوقت له روعته ومقامه ، فى عالم الغناء والفن .

ومن تقاليد الإنشاد ، أن يقف المنشد على رأس حلقة فى الذكر، فإذا ما بدأ الذاكرون فى ترديد لفظ الجلالة ترديداً هادئاً (الله ... الله ... الله) وهم فى مرحلة الاستعداد والاحتشاد ، بدأ المنشدون لنشادهم جماعة على طريق المذهب فى القالب الموسيقى المسمى (الدور) ، ويختتمون إنشادهم بمطلع (الخمس) الذى نظمه الفقيه الإريب أبو عبد الله الحيّان :

الله زاد محمـــداً تـكـريمـا	وحباه فضلاً من لدنه عظيما
واختصه فى المرسلين كريما	بالمــؤمنـــين رحيـــما

صلوا عليه وسلموا تسليما

فترتفع الأصوات من كل جانب (اللهم صلى وسلم عليه) وبذلك تنتهى ما يسمى بالطبقة أو الحلقة من الذكر .

أما المنشد فى بداية الحلقة ، فيتغنى بجمل رائعة مثل تلك الاستغاثات (أغثنا .. أدركنا يارسول الله) أو (يارسول الله .. خذ بيدى) .. وما إلى ذلك من الأدعية .

أما فى السودان الشقيق ، فيسمون المدائح النبوية (بالحُوليّات) جمع حُولية ، ويقال عن رئيس الحلقة المنشد لفظ المدّاح ، أما المجموعة فيقال عنها (الشيّالين) .

أشـــهر المنشـــدين رددوا أهازيج الســـحر لتسرى فى هـــدأة الليل حاملـــة أشجى ألوان الطـــرب الحنـــون .

أغانى السَّحَرْ

يطلقون على أهازيج السَّحَرْ ، أغانى السَّحَرْ ، ويقصدون بها تلك التسابيح الشجيّة ، التى يرددها المنشدون والمؤذنون فوق المآذن



قبيل آذان الفجر ، فتسرى فى هدأة الليل ، ومع نسمات السحر ، حاملة إلى الآذان أشجى ما سمعت من ألوان الطرب الحنون ، وإلى القلوب ، أروع ما استشعرت من معانى الخشوع .

وهذا ما يحدث من اعتلاء أحد المنشدين مئذنة المسجد ، ويأخذ فى الغناء الدينى ، ويحدث هذا فى كثير من الدول العربية ، وعلى الأخص فى شهر رمضان .

ومن أشهر الفقرات التى كان ينشدها المنشدون من فوق المآذن :

يا من تحـل بذكره ... عقد النوائب والشدائد

يا من لديه الملتقى ... وإليه أمر الخـلق عائد

وكذلك قصيدة ابن الفارض التى مطلعها :

ته دلالاً فأنت أهـل لذاكا ... وتحـكم فالحـسن قـد ولاكا

أو قول ابن الفارض أيضاً ، ما نقتبس منه البيتين الآتيين :

ما بين معتـرك الأحداق والمهج

أنا القتيـل بلا إثم ولا حـرج

ودعت قبل الهدى روحى لما نظرت

عيناى من حُسن ذاك المنظر البهج

ومن أشهر المنشدين فى الأمة العربية ، الذين أنشدوا أهازيج السحر ، الشيخ حمزة شكور بدمشق ، والشيخ صلاح كبارة بلبنان .. أما فى مصر ، فكان سلامة حجازى وعبده الحامولى ، وعلى محمود، ويوسف المنيلاوى .. ثم أحمد عبد القادر ، وسعيد حافظ .

يقول الصحفى الراحل محمد فهمى عبد اللطيف ، فى كتابه (الفن الإلهى) : (وفى الحق أن الصوفية ، قد أحاطوا السماع بحدود وقيود رهيبة من الآداب ، لا يحتملها إلا أولو العزم من الرجال ، منعا من الانزلاق فى ذلك مع هوى النفس ، ولذة الحس ، وفى مؤلفات الصوفية فصول مطولة عن هذه الحدود والآداب ، وخلاصة القول فى

ذلك أنه لابد أن يصحب الغناء والسماع انحلال الشهوات والرغبات ، وانصراف الذهن عن كل الموجودات ، والغيبة عن كل شئ ، ليتحقق الوجود مع الله) .

ويقول الراحل طاهر أبو فاشا فى كتابه (العشق الإلهى) مُفسراً الفرق بين المحبة والعشق (ألا ترى أنك تستسيغ أن تقول (أحب التفاح) مثلا ، ولكنك لا تستسيغ أن تقول .. «أعشق التفاح») .

وكلمة الحب تدل – من الناحية اللغوية – على الود .. والميل .. والرغبة .

والحب بحسب متعلقاته أنواع ودرجات ، فمنه حب الذات الذى ينتهى إلى ما نسميه (الأنانية) ، ومنه حب الغير الذى يصل إلى ما نسميه (الإيثار) .. ومنه حب الحياة ، ومنه حب الكون كله وهو صورة من صور الحب الإلهى ، لأن من صدق الحب أن تحب ما يصدر عن المحبوب .

أما العشق ، فهو – من الناحية اللغوية – إفراط المحب فى حب من أحب . وهو – أيضا – له متعلقات ومراتب ، تبدأ من الصورة المادية الحسية ، ثم تنتقل فى مدارج الصعود ، حتى تصل إلى الجمال المطلق والعشق الإلهى .



ويقرر داود الأنطاكى أن الحب يدل على أريحية فى الطبع ، ولطافة فى الشمائل ، لأن غاية العاشق أن يحصل على رضا معشوقته ، وهو لا يحصل على رضا المعشوق وإعجابه ، إلا إذا حصل على صفات الكمال التى تملأ نفس المحبوب وتقربه منه .

وبهذا يحدد الأنطاكى مفهوم العشق الإلهى ، فهو نزوع الروح إلى الروح الأكبر ، الذى منه المبتدى ، وإليه المنتهى ، ويوضح هذه الفكرة أستاذنا الفاضل الاستاذ الدكتور عبد الوهاب باشا عزام ، فى كتابه الممتع (فريد الدين العطار) المؤرخ الصوفى الكبير ، الذى يقرر فى نصوص متعددة من تلك التى نقلها الدكتور عزام عن الفارسية (أن روح الإنسان من روح الله) وأن الصوفية يحتجون لذلك

بقوله تعالى : «فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين» ، ولهذا فإن صلة الإنسان بربه أقوى من صلته بالعالم .. هكذا يقولون . ويشير الدكتور عزام هنا إلى قصيدة الشيخ الرئيس «ابن سينا» المشهورة :

هبطتُ إليك من المحل الأرفع ورقـــاءُ ذاتُ تعــزُّزٍ وتمنُّعِ
محجـوبةً عن كل مقلة عارف وهى التى سَـفِرَت ولم تتبرقع
وصـلتُ على كُرهٍ إليـك وربما كرهت فراقك وهى ذات تفجُّـع

فالورقاء هنا رمز للنفس الإنسانية التى هبطت من عالم الروح الأعلى إلى عالم الأرض ..

ولهذا يحن الواصلون من السالكين إلى الاتصال بالأصل والرجوع إليه ، ولا يزالون يتدرجون فى معارج الوصول ، حتى يصلوا إلى مقام العشق الإلهى .

يتغنى الصوفيون بأشياء كثيرة ، وبأشعار ألفوها ولحنوها ولكن ينشدون بعض ما أنشده أشهر عباد الله الذين قاوموا الفساد فى الأمة العربية ، فعندما صاح الحلاج وهاجم الانحلال والفساد فى غير هوادة ، والتفت له الجماهير ، واهتز عرش الخلافة ببغداد فى عهد المقتدر ، جاء الجند بالحلاج مكبلاً بالأغلال ، واشتطوا فى تعذيبه وانصب عليه الجلادون بسياطهم ، والحلاج يبتسم ويتواجد ويترنم قائلاً : ما ينشده الصوفيون حالياً :

عجبت منـــك ومنى يامنيـــــة المتمنى
أدنيتنى منــك حتى ظننـــــت أنـك أنى
وغبتُ فى الوجد حتى أفنيتنى بـــك عنى

وإذا كان عجيبا ، فأعجب منه أنهم بتروا يديه ، وقطعوا قدميه وهو هو لم يجزع ولم يتألم ، ولم تفارق الابتسامة شفتيه وهو يترد ويتواجد ويقول :

كيـف قاوم الحـــلاج الفســاد ، ولم يأبه للتعـذيب لإيمـــانـه الشـــديد برسالته ؟!

ابن عربى لم يقل بوحدة الوجود فحسب ، وإنما قال أيضا بوحدة الأديان

وحرمة الود الذى لم يكن يطمع فى إفساده الدهرُ

ما قدَّ لى عضو ولا مفصلُ إلا وفيه لكمو ذكرُ

وإنه لعجيب وغريب حقاً ألا تفارق الابتسامة شفتيه وأن يتواجد ويترنم ويرقص وهم يجلدونه ويقطعون يديه ورجليه .

القوّالون

الصوفية يسمون المغنى الذى ينشد الأشعار فى المحافل بالقوّال ، وقد آثر الصوفية هذه التسمية تحرزاً من استعمال كلمة المغنى ، التى اقترنت فى أذهان الناس بمعنى اللهو والمتعة الحسية .. ولأنهم يستمدون الدليل على الشغف بالغناء والسماع من قول الله تعالى : «فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه» . ويقولون أن الألف واللام فى كلمة القول للتعميم والاستغراق فهى تشمل كل قول ، وقد ذاع هذا الاصطلاح الصوفى بين جماعات الصوفية فى جميع الأقطار ، حتى وصلت إلى الهند ، ومازالوا فى الهند إلى اليوم يسمون مجالس الغناء والطرب التى يعقدها الصوفية (قوالى) وهى مأخوذة من كلمة قوال العربية ، وكم فى لغة الهند من كلمات عربية دخلت إليها عن طريق الاتصال والتمازج بين رجال الطرق الصوفية فى البيئات الإسلامية .

ويتغنى الصوفيون بكلمات سلطان العارفين الشيخ الأكبر (ابن عربى) الذى أوغل فى مفازات وحدة الوجود ، وانطلق منها إلى آفاق العشق الإلهى وهو القائل :

أدينُ بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحبُّ دينى وإيمانى

ولم يقل (ابن عربى) بوحدة الوجود وحسب ، وإنما قال أيضا بوحدة الأديان ، فالدين كله لله ، وهى نظرة سمحة متقدمة .



ومن أشهر ما يتغنى به الصوفيون :

ليت شعرى هل دَرَوا — أىُ قلبٍ ملكوا
وفؤادى لو درى — أىُ شعبٍ سلكوا
أتراهم سلموا — أم تراهم هلكوا
حار أربابُ الهوى — فى الهوى وارتبكوا ؟ .

ولعل أشهر من ساروا على هذا الدرب الذى تغنى به الصوفيون ، كلمات سلطان العاشقين : (شرف الدين أبو حفص عمر، المعروف بابن الفارض الحموى أصلاً ، القاهرى مولداً ونشأة ووفاة) فقد قدم أبوه من (حماة) إلى مصر ، وتولى عملاً يشبه عمل

(القاضي الشرعي) من بعض الوجوه ، إذ كان يقوم بإثبات ما يفرض للنساء من الحقوق على الرجال ، ولهذا لقب بالفارض .

وابن الفارض هو شاعر العشق الإلهي بغير منازع ، ولهذا لقب بسلطان العاشقين .. وقد سلك طريق المجاهدة والرياضة النفسية ، فساح في وادي المستضعفين بالجبل المقطم ، كما ساح بأودية مكة ، حيث قضى خمسة عشر عاماً ، عاد بعدها إلى القاهرة ليعطر أجواءها بنفحات من طيوب شعره ، الذي لم يأخذ من جماله بعض التكلف الذي جعل يُثقل الشعر في هذا العصر والعصور التالية .

ولابن الفارض ديوان شعر كبير ، جاء فيه نص قصيدة (الخمر الإلهية) اقتطف منه المنشدون الصوفيون الأبيات الآتية :

شـــــربنا على ذكر الحبيب مُدامة

سـكرنا بها من قبل أن تخلق الكرمُ

ولولا شــــذاها ما اهتديتُ لحانِها

ولولا ســـناها ما تصـورها الوهمُ

إذا ذكـرت في الحيِّ أصـــبح أهله

نشـــاوى ولا عـارٌ عليهم ولا إثمُ

وإن خطـــرتْ يوما على خاطر امرئٍ

أقـــامت به الأفراحُ وارتحل الهمُ

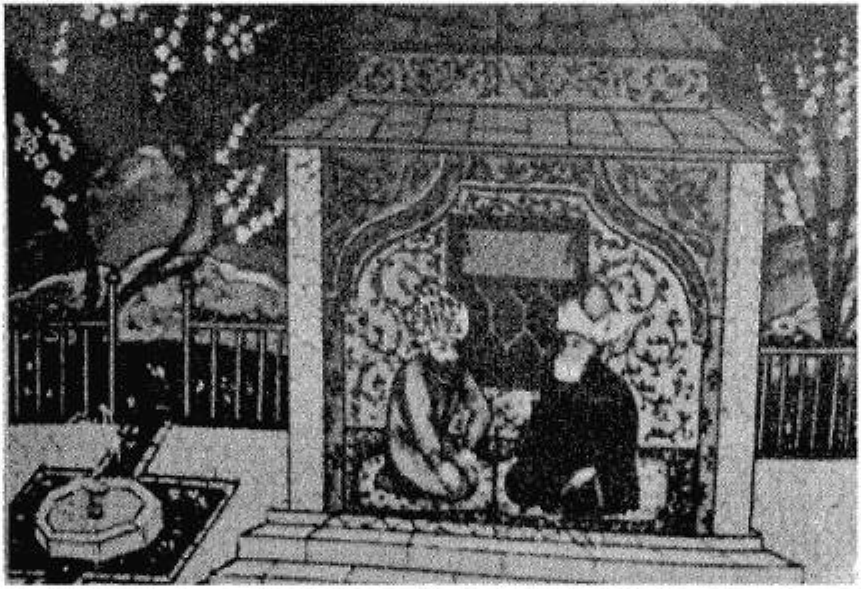
ولو نضحـــوا منها ثرى قبـــر ميت

لعـــادت إليه الروحُ وانتعش الجسمُ

وهذه الأبيات غناها وسجلها في عام ١٩١٠ ، الشيخ المبتهل وقارئ القرآن والمطرب الراحل أحمد ادريس .

ولقد سـار على درب هؤلاء العاشـقين كثير من الشـعراء المعاصرين، وفي مقدمتهم أحمد شوقي، ومحمود حسن إسماعيل، وعبد الله شمس الدين ، وطاهر أبو فاشا ، وأترابهم .

ابن الفارض هو شاعر العشق الإلهي بغير منازع ، ولذا فقد لقب بسلطان العاشقين .



وطريق الوصل بين السماء والأرض

بقلم : ماجدة الجندى

يقول مولانا جلال الدين الرومى :

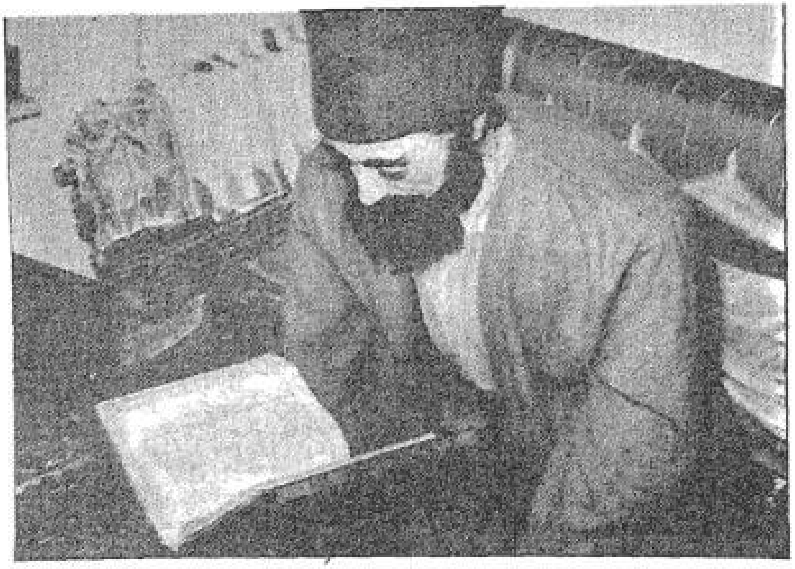
انصت للناي .. كيف يقص حكايته

أنه يشكو آلام الفراق قائلا

أننى منذ قطعت من منبت الغاب

والناس رجالا ونساء يبكون لبكائه

أننى أنشد صدرا مزقه الفراق حتى أشرح له ألم الاشتياق



الطاقية البيضاء .. رمز مقدس عند الدراويش

ويقول :

إن صوت الناي هذا نار .. لا هواء

فلا كان من لم تضطرم في قلبه مثل هذه النار

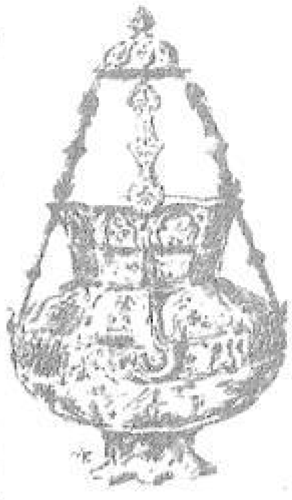
ويقول أيضاً : عدة طرق تقود إلى الله .. وقد

اخترت طريق الرقص والموسيقى

« السما » .. احتفالية روحية .. أو في محاولة للتبسيط هي إيقاع حركي يأخذ لحالة من الوجد .. مشهدها الأول ربما كان في بغداد نحو ٨٧٠ هـ كما جاء عند « لوي ماسينيون » لكن كلاماً آخر يرجعها لذي النون المصري نحو عام ٨٥٩ .. أو لعل مدرسة بغداد في القرنين الثاني والثالث الهجريين توصل لها ..

والمهم أن لقاء مولانا جلال الدين بن الرومي بشمس تبريز كان نقطة تحول رئيسية ليس هذا مجال الخوض فيها إلا بقدر ما يقربنا ذلك من المعنى المراد من أن « شمس تبريز » لما ألقى بظلاله على

مولانا كانت « السما » واحدة من هذه الظلال .. وقبيل هذا اللقاء كان مولانا عابداً ناسكا .. متقشفا طريقه إلى الله لا يمشى عبر وقع الموسيقى ، وحركة الروح الراقصة ، لكن شمس تبريز أخذ بمولانا نحو النشوة فى إيقاعات « السما » التى تعطى كل حسب مقدرته فى السمو والصفاء .



وصل ما بين السماء والأرض

ولقد كانت دعوة شمس تبريز لمولانا واضحة « ادخل إلى « السما » فستجد فيها ما تبحث عنه أكبر وأوسع »

ولقد كان .. ما كان .. وصارت « السما » وصلا ما بين السماء والأرض يتم عبر واسطة تذوب منصهرة ملبية قطرة كانت عليها الروح قبل الحلول فى الجسد ، وليس تفاعل الروح مع الموسيقى إلا تعبير عن حنين قديم للميت ..

.. موسيقى « السما » وإيقاعات لغاتها تستحضر وحدة الجسد الأصلية .

والناى الذى خصه مولانا بأنشودته يترجم تماما حالة الشوق إلى الاتحاد ، ويقترب منه الرباب أحيانا والسانتور ..

وتنتقل موسيقى رقصة السما شفاهة .. أو بالسماع ، ولكل شيخ طريقته وبصمته فى هذه الموسيقى ، وهناك أسر بأكملها تركية وفارسية هى وحدها الحافظ الأمين على سر هذه الموسيقى التى تسلم من أب لابن لكن الجوهر الواحد الجامع لهذه المدارس هو البعد الروحى الذى يحول صوت الناى أو السانتور إلى صوت آت من السماء يتلون بتلون حال المريد حتى تكاد الأذن ترى والعين تسمع والقلب يذوب مع الجسد والكل ينصهر مع الواحد ..

فى الساحة وصل السماء بالأرض

تسبق السما وتمهد لها آيات القرآن مرتلة والصلاة والتحيات والسلام على آخر المرسلين محمد المصطفى وآله وصحبه ... ثم تنساب أنات الناى رهيفة مترجعة تضبطها إقاعات الدفوف حانية غير زاعقة .

والمسرح الذى يشهد محاولة البشر لوصل السماء بالأرض عبر رقصة السما .. أو الساحة يمكن أن تميز داخلها بين جزءين يفصل بينهما حاجز خشبى مثمن الأضلاع .. ولا يخفى هنا مدلول الرقم ثمانية الذى فسره البعض باللانهائية ، المهم أن هذا الحاجز اللانهائى المثمن يفصل بين جمهور العوام الذى قد يتابع دون مشاركة «السما» وبين الساعين « للوصل » والربط والمزج والاتحاد بين السماء والأرض .

« محراب » يشير إلى اتجاه القبلة . فى العمق .. فى المركز . تماما من ساحة الساعين . على يمينه منبر وفى مواجهته باب الدخول الذى يهل منه الساعون .. ليجلس القدامى على يمينه والجدد يساراً .. قطعة من جلد الغنم يفترشها « الشيخ » .

أعلى باب الدخول يصطف عازفو الناى وضاربو الدفوف فى المنتصف تماما من رواق يعلو الساحة قليلا .

وما أن تشرع هذه الباقة من إرسال أنات الناى وهبات الدفوف فى إيقاع منتظم حتى يبدأ الساعون أو الدراويش فى الوقوف صفا يتهلل ويتهيأ ليلف الساحة مرات ثلاث فى اتجاه دائرى يعاكس اتجاه حركة دوران عقارب الساعة أى من اليمين إلى اليسار، والشيخ جالس فوق قطعة جلد الغنم حتى إذا ما قاربت اللفة الثالثة على النهاية أو أوشكت يركع على اليمين ثم يجلس إلى اليسار .

أكبر الساعين ، أو أقدم الدراويش، أو ما يطلق عليه السمائى، يأخذ مكانه على يسار قطعة الغنم التى يفترشها الشيخ ويركع كل اثنين من الساعين فى مصافحة بعدها يستكملان الدوران

النغم المتصاعد

وفى الخلفية لا يبقى نغم الناى وضرب الدفوف أسير إيقاع واحد بل يأخذ فى العلو شيئا فشيئا مضفراً بالأنشاد غازلا عباءة لخنية فى حناياها يقف الساعون .. يلقون بعباءاتهم السوداء كاشفين عن أردية بيضاء لعل البعض رأى فيها رمزاً «للكفن» .

يأخذ أكبر الدراويش المبادرة والقيادة فى السير والدوران وأيضا فى المثول أمام الشيخ مقبلا يديه ويتبعه الباقون ، ولو دقق

الناظرون البصر ، بعد ذلك ، لتابعت عيونهم رفع اليد اليمنى ، أو الكف اليمنى ، فى أتجاه السماء وبسط الكف أو اليد اليسرى ، وتبقى رأس الساعى فى أتجاه اليمين على طول لفاته وأنطلاقة الدرويش أو الساعى ، حتى تأتى لحظة ترفرف الأردية البيضاء للساعين فى رقصة السما فى لوحة مروحية دائرية تكاد تشبه غماماً أبيض حلزونى الشكل يتصاعد مع ضفيرة النغم وضربات الدف التى يتعالى إيقاعها حتى إذا ما وصلت إلى ذروة معلومة عاد الساعون إلى أماكنهم واستردوا عباءاتهم وأستأنف أنشادهم والصلوات ولا يغادرون حتى يغادر الشيخ الساحة ..

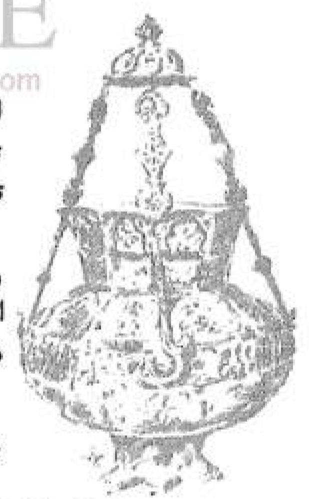
. فيما يشبه محاولة الترجمة يقال أن اللفات الثلاث الدائرية للساعين فى رقصة السما ما هى إلا تعبير عن حالة تدرج وسلم روحى يبدأ من العلم للرؤية للمعرفة ثم الاتحاد أو الوصول إلى حقيقة .. وقد لوحظ أن دائرة «السما» تكاد تنشطر بشكل غير منظور إلى جزئى دائرة واضحى المعالم يصلهما قطر .. هو الطريق إلى الله .. وهذا القطر يتجه من حيث يجلس الشيخ إلى باب المدخل ولا تلامسه الأقدام .. من ناحية أخرى يأتى تفسير يرى فى شطر الدائرة نوعا من حالات تطور الروح حتى تصل إلى التحقق النهائى فى الوحدة ..

«السما» .. قراءة فى الرموز

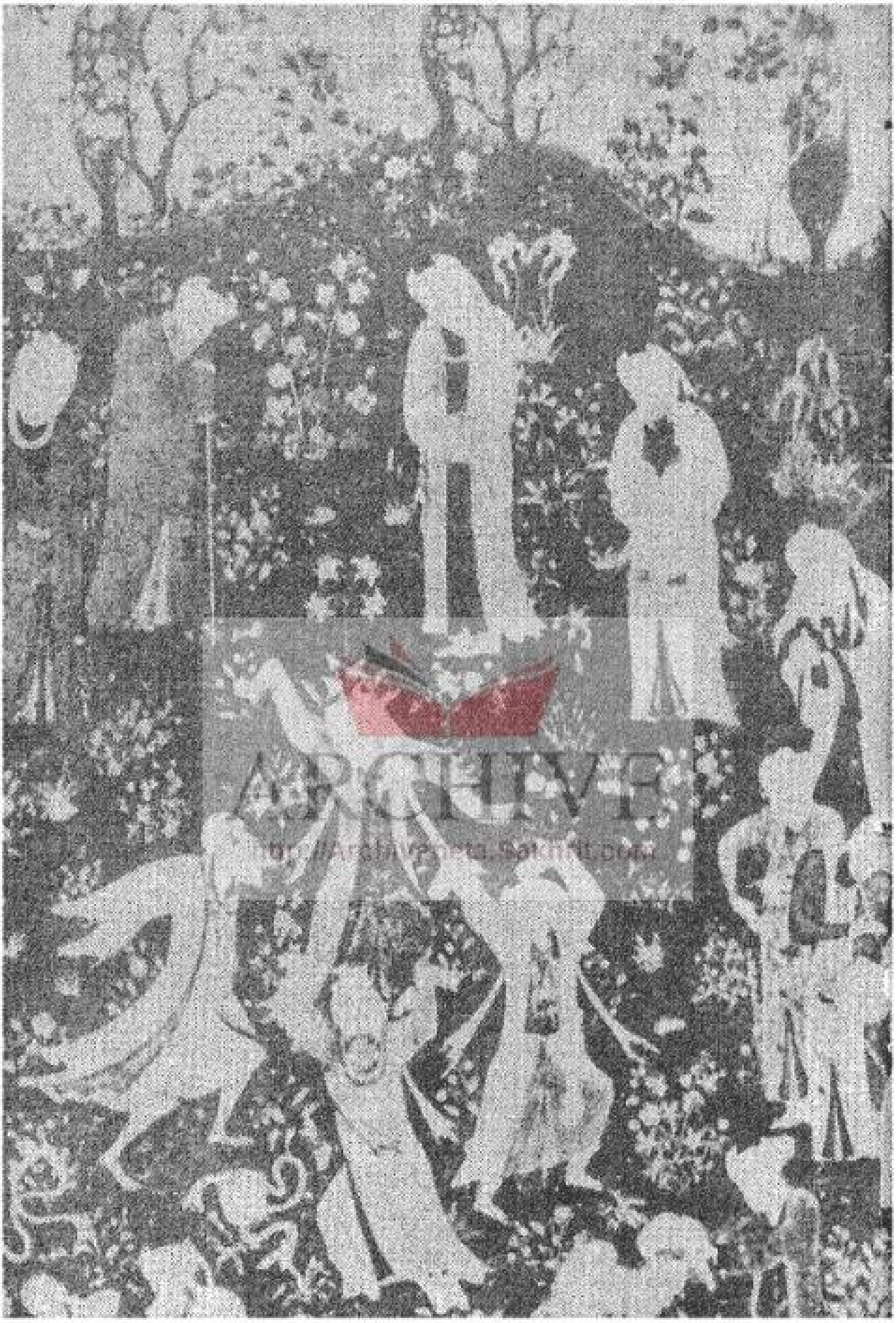
وإذا أقترب المتمعن أكثر من حركات « السمائى » أو الساعى لرصد الكف اليمنى أو الراحة اليمنى المفتوحة بأتجاه السماء فكأنها تتلقى القوة والعطايا الروحية من السماء لتنقلها إلى الأرض التى تشير إليهما الكف اليسرى .

وهذا التحول ، أو المنح من السماء للأرض ، يمر عبر السمائى روحياً ونفسياً ، فهو الواسطة ما بين السماء والأرض وفى هذه الرؤية المفسرة لحركات مؤدى السما زاوية أساسية من زوايا «سيماء» السما وأسرارها ...

ليس كل من سعى للوصل بين السماء والأرض عبر رقص «السما» متساويا .. لا فى الخصال ولا فى الطبائع ولا فى درجات



● لوحة فارسية للرقص الذى يعبر عن الوجد الصوفى رسمت سنة ١٤٩٠م



السمو الروحي .. «فالسما» كلٌ فيها حسب مقدرته وخصاله ومرتبته وحاله وفى وسط هذه الرحابة هناك نوع من التميز لدرجات ثلاث أو مراحل :

أولاها يدخل فيها أولئك الذين لم يتمكنوا من الهيمنة على نوازعهم وعواطفهم وثانيتها ينطوى فيها من أستطاع الكشف والشعور بمتع السما الروحية .

فى « السما » نوع من النشوة مبعثها حالة من الاتحاد الصامت وتلك هى المرحلة الأرقى الثالثة من تلك التى تعبر فيها الدموع والصيحات .

هناك لحظة وجدانية فى السما .. تأخذ الدرويش أو الساعى أو السمائى إلى حد الذوبان والانصهار تماما .

وقد يواكب هذا الوجد نوع من التعبير الصوتى المسموع الذى يأتى بغير وعى أو إرادة ، وهناك البعض من الشيوخ حث على تجنب هذه الحال ، ويروى أن أحدهم وجه لمريد نوعاً من التوجيه يحثه على تجنب هذا التعبير المسموع مهما أخذه الوجد أو النشوة وكان هذا المريد يروح وتأخذه لذات السما حتى يسقط مرة ومرات.. مبتهجا متأوها .. صائحا .. باكيا .. فيما تلقى المريد توجيه الشيخ و«لجم» انتفاضات روحه المنطلقة الوثابة إلى الأعلى ، وحاول كبحها بحزم وقوة ، حتى أتت لحظة أطلق فيها صيحة واحدة ومعها أنفاسه الأخيرة ..

لكن أرقى مراحل السما الثلاث هى التى تنساب فيها النشوة والوجد قوية رقراقة فى آن واحد وينصهر الساعى مع الواحد فى عذوبة ويأس معاً والتى يترادف فحواها مع المعنى الذى ردده ابن عربى .. لكل اسم لغة ولكل لغة عبارة ولكل عبارة إذن ولكن الذى يتكلم والذى يسمع واحد .. فحين يتحد المتكلم والمنصت والمرسل والمتلقى يشف التعبير ويقوى حتى دون بنت شفة ..

يقول مولانا جلال الدين الرومى « ليس كل قلب بقادر على ممارسة «السما» .. أنما القلب المنصهر فى محيط القلوب يلوب تحت هذا الهواء ويمنح السما ..

فالالتحام أو الانصهار أو الذوبان فى حالة « السما » له تجلة ..
وحول النقطة الساكنة تدور كل الأبعاد ، وكل الأشياء فى حركة ،
ففيها لا يوجد سوى الحركة .. سوى الحياة ..

فى لفات السما وحركة الدوران تعميق وتجل ، وهكذا كل ما فى
الكون يدور .. الكواكب .. الزمن .

« والسما » ليست سوى انعكاس ومرآة لحركة أوسع ودوران
أعمق وارحب لعوالم مرئية وأخرى غير مرئية .

ودرجة فدرجة تكون الرؤية للسمائى حتى تصل إلى اللانهائية
والتحقق النهائى .

فى « السما » تتكشف أعتى الأسرار ويتجسد الفناء فى
الذات ويفنى الموجود فى الواحد وجسداً ووجداً .

ويصير الموجود موجوداً بالحب منفتحا ومتجليا فيه .

ممارس « السما » والعاشق واحد .. كل منهما ساع إلى الكشف
عن محبوبه والاتحاد به .

وهكذا ينشد مولانا جلال الدين الرومى .

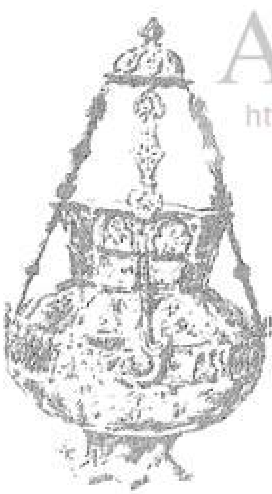
« السما ... السما .. السما ..

إنها النور .. والشعاع .. الشعاع .. الشعاع .

إنها الحب الذى نطيعه .. نطيعه .. نطيعه .

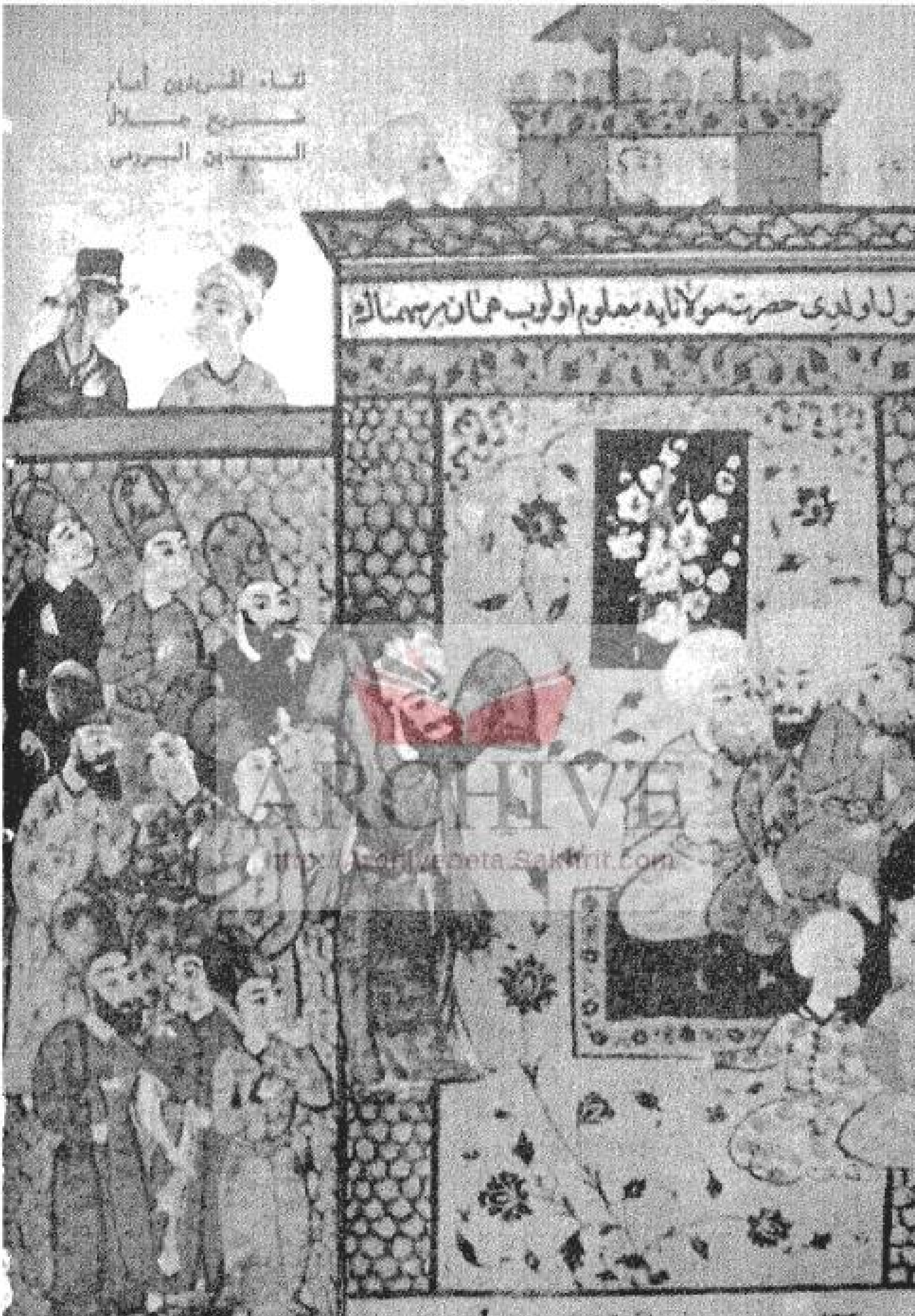
إنها وداع للعقل .. وداع .. وداع .

مائة موجة تتكسر على قلب فى قصة السما » .



« فى السما » تتحقق الوحدة بتجاوز السمائى كل صنوف
الدرجات ، حتى يصل إلى مرحلة بإمكانه فيها عدم الحراك وكل ما
بداخله يتحرك ، وكم من الساعين فى نقطة السكون حام وغام ولف
ودار مكنونهم .

ويروى أن أحدهم ، وكان شيخا .. عتيدا ، توقف أثناء السما ..
وجلس فلما سأله مريده الدرويش لم توقف ؟ أحاله إلى الجبل ودعاه
لتأمل حاله الذى قد يبدو ساكنا على حين تتحرك السحب .



لقاء الشيخين أمام
ضريح جلال
الدين الرومي

فى درجة ما من درجات السما يكون الوجد داخليا والحركة أيضا فى الأعماق .

أيها النهار .. ألا أستيقظ

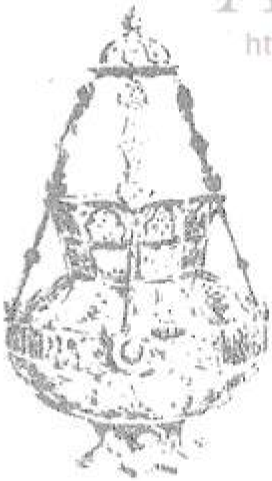
« السما » مبدئيا هى حالة من الحبور والنشوة للجسد والروح معا حركة واحدة يلتئم معها المكنون والظاهر ويرقص .. تماما كما ترقص كل ذرات الكون فى رقصة لا نهائية وصيرورة لا تتوقف للحياة .

وهكذا يدعو مولانا النهار للاستيقاظ .. فالذرات تتراقص والاعضاء والاتصال للموجود والواحد حادث فى كل لحظة .

ولنتأمل حال « راقص السما » الذى أوثر وصفه بالساعى لوصل السماء بالأرض .. أنه يدور حول نفسه إنه المركز والدائرة فى آن واحد .. أنه المحور والعالم عبره تتصل الأرض بالسماء فى حركة .

فالشيخ الذى يبقى ساكناً بلا حراك يدور الراقصون حوله .. يصير المركز .

حقيقة فى لف السمائى وحركته أنتقال من نقطة لأخرى لكن النقطة تنتقل على محيط الدائرة نفسها فالنقطة والدائرة واحد فى المركز والمحيط على إتحاد .



كما أن الموجود لا يذهب إلا من الله لله .. فكل نقطة على الدائرة تبرز حالا .. والمركز ساكن لا يتغير وفى النقطة المركز يندمج الوجود والموجود .

ويقول أحدهم لمريد :

«أعثر على مركز وجودك ثم أفعل ما تشاء .. درجة .. فدرجة يكون الأحساس بالكلية عبر الانفعال من نقطة لأخرى على محيط الدائرة » .

متى يعود الى مصر وجهها الجميل :

عود على بدء

بقلم : د. مصطفى سويف

في شهر أبريل سنة ١٩٩٠ ، أي منذ سنتين على وجه التحديد، بدأت سلسلة من ثلاث مقالات ، نشرت تباعا في أعداد مجلة « الهلال » الزاهرة ، حول بعض ما أصاب الشارع المصري بوجه خاص ، والحياة العامة في مصر بوجه عام ، ومن مظاهر التسيب ، وفساد الـذوق العام ، والفرغانية ، والأثرة على الغير ، واللامبالاة ، وركزت حديثي بصورة خاصة على موضوع التسيب بمستوياته المختلفة : التسيب على مستوى الأفراد ، وعلى مستوى التجمعات الاجتماعية ، وعلى مستوى الدولة . ثم خصصت الحديث لبيان بعض الأسباب المسئولة مسئولية مباشرة عن هذا التسيب ، وأردفت ذلك بإشارة إلى الطريق نحو العلاج.





وكان لسان الحال عند كتابة هذه المقالات أن ما يشهد من أحداث فى حياتنا الاجتماعية اليومية مما نعانى منه جميعا ، ويقع تحت عنوان « التسيب » أو « اختلال الانضباط » لا يجوز النظر إليه على أنه مجرد أحداث متفرقة ، ولكنه تيار له دلالته السيئة والخطيرة معاً ، ولا يجوز النظر إليه على أنه مجرد خروج على مقتضيات الذوق أو الواجب أو الأدب ، بالمعنى الرقيق الذى نقصده من وراء استخدام هذه الكلمات فى حياتنا اليومية المعتادة ؛ ولكننا هنا بصدد أحداث تعبّر عن تيار يشير إلى إصابات خطيرة فى نسيج حياتنا الاجتماعية ؛ وبصدد ما يشهد بأن هذا التيار لن يتوقف عند مستواه الذى هو عليه الآن ، بل سيزداد اندفاعا واتساعا ، وبالتالى سوف تزداد هذه النوعية من الأحداث المزعجة لنفوس المواطنين ، والمرهقة لمشاعرهم وضمائرهم ، ما لم نحزم أمرنا ونتدخل فى محاولة جادة للتغلب عليها بالفهم والتدبير اللائقين بهذا الطراز من الأحداث .

وتدور الأيام ، ويمضى عامان بالتمام والكمال ، وإذا بواحد من تلك الأحداث المزعجة والمرهقة يقع مساء ٢١ مارس الماضى ، وهو حادث « فتاة العتبة » ، ولأن هذا الحادث له دلالته المنذرة ، ولأنه أثار نفوس المواطنين بصورة عنيفة وأزعجهم فيما يتعلق بمستقبل الأمن والطمأنينة واقعا وشعورا ، فى هذا البلد الأمين ، ولأنه لا يجوز وليس من الحكمة أن نسمح بتكرار هذ النوع من الأحداث ، ولا بتكرار هذا المستوى من القلق العام ، فقد رأينا من واجبنا أن نقدم فى الموضوع وجهة نظر نسهم بها فيما ينبغى أن يتخذ فى هذا الصدد من خطوات على مستوى التدبير والتنفيذ العاجل ، ثم على مستوى التخطيط المتروى .

العناصر التى أثارت الخواطر فى حادث العتبة

بالنظر فى معظم المادة التى نشرت فى الصحف اليومية ، منذ وقوع الحادث وحتى كتابة هذه السطور ، نتبين أن أهم العناصر التى أثارت القلق والغضب فى نفوس المواطنين ، هى :

أولاً : وقوع الجريمة فى أحد الميادين العامة ، فى وسط المدينة ، وعلى مسافة تقل عن مائة متر من كل من قسم شرطة الأزبكية من ناحية ، ومقر قيادة شرطة النجدة من ناحية أخرى .

ثانياً : وقوع الجريمة فى وقت كان المكان فيه مليئا بالمارة .

ثالثاً : عدم ظهور أحد من رجال الأمن بملابسهم الرسمية الظاهرة . (ولا يغنى فى ذلك ما تبين من وجود أمين شرطة واحد بملابس مدنية . فالملابس الرسمية يمكن أن تقوم بدور لايجوز التقليل من شأنه) .

رابعاً : تأخر رد الفعل المباشر الصادر من الجمهور .

خامساً : إفلات بعض الجناة .

ويستخلص الضمير العام من هذه العناصر فى مجموعها أن الجناة فى هذا الحادث بلغوا من الجرأة الإجرامية مستوى خطيرا ، وأن عددا من الظروف الاجتماعية الرسمية وغير الرسمية ساعدتهم على ذلك ، والدليل هو إفلات البعض .

ولا شك أن الخروج بهذا الاستنتاج أمر مقلق ، وأسوأ ما فيه هو مسألة الظروف الاجتماعية التى يسّرت للجناة ارتكاب الجريمة ، ثم مكّنت بعضهم من الهرب .

ردود الأفعال الاجتماعية غير المباشرة

توالت بعد ذلك ردود الأفعال غير المباشرة ، وقد تعددت صورها وإن اشترك معظمها فى التعبير العنيف عن القلق والغضب ، وكان من أهم هذه الاستجابات ما يأتى :

١ - مقالات صحفية تفاوتت فيما بينها فيما اتخذته هدفا تصب عليه غضبها ؛ فقد استهدف بعضها جمهور الحضور على مسرح الجريمة ونعته بأسوأ النعوت ، واستهدف البعض الآخر إجراءات الأمن الضعيفة فى المكان وفى شوارع القاهرة بوجه عام ، واستهدف البعض الثالث ملابس الفتيات على أساس أنها مثيرة فى أغلب الأحيان (علما بأن الفتاة الضحية كانت محجبة) ، واستهدف البعض الرابع الأخلاق العامة السائدة ونعى عليها التحلل والفساد .

٢ - أحاديث صحفية وتليفزيونية مع بعض الرسميين ، كان بعضها موفقا لأنه اعترف بحق الرأى العام فى الشعور بالصدمة ، كما أنه أشار إشارات معقولة فى تحليل الحدث وفى شأن التوجهات الواجبة للعلاجات السريعة ، (مثال ذلك حديث الأستاذ مكرم محمد أحمد) . بينما جاء البعض الآخر بعيدا كل البعد عن التوفيق ، بل ومستفزا فى بعض عناصره لشعور المواطنين إلى حد لم يكن لائقا ولا حكيما .

٣ - مناقشات عاصفة فى مجلس الشعب ، لم تختلف كثيرا عما جاء . فى الصحف ، سواء من حيث الشكل أو من حيث المضمون .

٤ - وفى ثنايا ردود الأفعال هذه



ظهرت الدعوة مرات متعددة إلى تشديد العقوبة ، وإلى العنف فى تطبيقها (فى الميادين العامة) ، وإلى الإسراع فى تطبيقها .

ه - الإعلان عن مشروع قانون للعرض على مجلس الشعب ، بتشديد العقوبة فى هذا النوع من الجرائم .

إلى هنا ويمكن القول بأن هذه الفئة من ردود الأفعال الاجتماعية (وخاصة الردود الأربعة الأولى) تعتبر من قبيل الاستجابات المتوقعة ، لأنها صدرت متعاطفة مع جمهور مصدوم ، وجدير بالذكر فى هذا الصدد أن عددا من الكتابات الصحفية جاء فى باب بريد القراء ، أو جاء فى صورة مقالات كتبها مواطنون ليست مهنتهم التحرير الصحفى أصلا وهو أمر مطلوب ومرغوب فيه كوسيلة من وسائل التعبير عن آراء المواطنين ومطالبهم موجهة فى خطاب مباشر إلى رموز السلطة وصناع القرار .

تعليق خاص على بعض ما ظهر فى الصحف

نحن الذين نكتب فى الصحف دون أن نكون من أهل المهنة نحمل الكثير من الاحترام والإكبار للصحافة والصحفيين ، لذلك يعز علينا أن يظهر فى الصورة ما يخدشها . لكن الحق أعز .

فقد ظهرت فى بعض الصحف كتابات لا تليق بالمقام ، لا المقام الذى يجب أن يقترن بمهمة الصحافة والمشتغلين بها : ولا مقام الحدث ومشاعر المواطنين إزاءه ، ونحن نخص بالذكر هنا الأنواع الآتية على وجه التحديد :

أ - كتابات امتدت إلى مستويات من تفصيل القول ما كان يجوز الاقتراب منها ؛ فذكر اسم الضحية والوصف التفصيلى لكيفية ارتكاب الجريمة ، والحديث عن فقرات بعينها مما ورد فى تقرير الطبيب الشرعى ، هذه كلها أمور ما كان يجوز الخوض فيها بأى حال من الأحوال ، فذلك عدوان ثان على الضحية بكل ما تحمله هذه العبارة من معنى ، ولا عبرة هنا بالقول إن الحديث فى مثل هذه الأمور يرد بصراحة تفوق ذلك فى كتب القانون أو الشريعة والكتب العلمية وفى قاعات المحاكم . فالاحتجاج بذلك خطأ يتدنى إلى مرتبة المغالطة ، والرد المباشر عليه أن لكل مقام مقالا ، والصحيفة اليومية ليست المقام المناسب لمثل هذا المقال ،. ومن أسف أن بعض هذه الأمور تورطت فيها صحف عزيزة على قرائها ، ومشهود لها غالبا بالوقار .

ب - ثم إن بعض ما نشر كان مليئا

بعبارات المبالغة التى تستفز مشاعر القارئ لتصل به إلى فائض من الغضب والغيظ بغير طائل ، والنتيجة مضاعفة شعور المواطنين بالإحباط بدرجة مؤلمة .

جـ – ثم إن الكتابات استمرت أياما وأسابيع ، بدرجة من الإلحاح لا معنى لها ، ولا تخدم هدفا واضحا .

د – ومن الملاحظ أن بعض الأقلام غير الصحفية تصدت للموضوع بالتعليق والتفسير بل والتنظير : ولم يكن قد مر على وقوع الحدث ثمانٍ وأربعون ساعة ، ولم يكن التحقيق فيه قد وصل بعد إلى قدر يذكر من الكشف عن حقيقة ما جرى ، ومن المؤسف أن أسماء بعض أصحاب هذه الأقلام أسماء يجب أن تظل موضع ثقة المجتمع ، لأنها لا تمثل نفسها فحسب ، ولكنها تمثل بالإضافة إلى ذلك قيما ومؤسسات يجب أن تظل موضع احترام الجميع .

ما العمل ومن أين نبدأ ؟

أمام كل هذا الذى حدث ، الجريمة ، وردود الأفعال الاجتماعية إزاءها ، يصبح السؤال الوارد هو : ما العمل ؟ ونحن لا ندعى أننا نقدم فى هذا المقال الإجابة الشافية ، لكننا نحاول أن نقدم عددا من النقاط نرجو أن تؤخذ بعين الاعتبار ، سواء عند المواطنين الذين يؤرقهم الهم العام ، أو عند صناع القرار أيا كانت مواقعهم :

أولاً : يلزمنا فى البداية قدر من وضوح الرؤية ؛ فقد قال البعض إن هذا الذى حدث إنما هو حادثة فردية ، وبالتالى فهى جريمة فردية لا تمثل ظاهرة متواترة فى عالم الإجرام ، وهذا تعليق لا محل له فى السياق الذى نحن بصدده ، إنما الذى له محل فعلا هو أن علماء النفس وعلماء الاجتماع وعلماء الأنثروبولوجيا يتكلمون عما يسمى بـ « الحادثة ذات الدلالة » ، وهى قد تكون فردية وغير مسبوقة ، ولكن لأنها تقع فى سياق معين يكون لها معنى « المؤشر » أو « النذير » أو « النبوءة » ، أى أنها تنذر بأننا على مشارف تيار من الجرائم يمثل تصعيداً على مستوى العنف أو التخطيط أو التنظيم أو الاستهداف أو أى بُعدٍ آخر من أبعاد السلوك الإجرامى وهى متعددة ، وتقتضينا الأمانة أن نقول إن هذه الحادثة تبدو من هذا النوع الدال ، ويجدر بالذكر أنها تأتى فى سياق سلسلة من الجرائم توالت الواحدة تلو الأخرى على مر السنوات العشر الأخيرة ، كان لكل منها مواصفاتها المتفردة ، ولكن يجمع بينها جميعا جذر مشترك هو الربط بين العنف والشكل غير المعتاد فى مجتمعنا ، (خطف الأنثى ، الاغتصاب ، قتل الوالدين ، قتل الأزواج بوساطة الزوجات ... إلخ) . كل حادثة على حدة تعتبر حادثة فردية ،



ولكن تواليها عل هذا النحو لابد أن يلفت النظر .

ثانياً : لا يزال الإعلام لدينا يحتاج إلى وقفة لإعادة النظر فى أمور عدة بدءا من المسلّمات وانتهاء بالغايات المستهدفة . إن النشر الإعلامى المكثّف والمفصّل والمتواصل عن الجريمة ، مهما قيل فى تفسيره من أنه مرآة تعكس الانزعاج الاجتماعى إزاء نوع الجريمة وملابساتها ، فإنه ليس مبررا كافيا للتمادى فيه بالصورة التى شهدناها ، والأهم من التبرير أو عدم التبرير أن هذا النشر المكثّف نفسه يكون له شديدة السوء ، تجتمع كلها فى اتجاه التشجيع على مزيد من الإجرام ، بعبارة أخرى إن آثاره الجانبية تأتى بعكس المطلوب تماما ؛ ذلك أنها تحدث نوعا من الاعتياد على وجود الجريمة معنا فى حياتنا اليومية ، ويصحب ذلك قدر من تبلّد المشاعر نحو سيرتها وسيرة مرتكبيها ، كما أن نشر التفاصيل يحدث لدى بعض الشباب قدرا من الإثارة غير السوية ، بل والتشويق ، يصحبه أقدار متنامية من تعلم بعض الجوانب الدقيقة فى مهارات السلوك الإجرامى ، وقد نبّهنا إلى ذلك مراراً ونحن بصدد الحديث عن تعاطى المخدرات وإدمانها ، وبالمنطق نعود إلى التنبيه إلى هذه الحقيقة ونحن بصدد الحديث عن الجريمة أياً كانت ، وعن جرائم العنف بوجه خاص ، وعن جرائم العنف المختلط بالجنس بوجه أخص .

ثالثاً : إلى أن يتم إحداث تغييرات جذرية نحو تحسين ظروف الحياة الاجتماعية عامة لابد من إجراءات عاجلة للتخفيف من وطأة العوامل المشجّعة تشجيعا مباشرا على اقتراف هذا النوع من الجرائم ، ويأتى فى مقدمة هذه الإجراءات ما يلى :

أ - تكثيف الوجود الأمنى الظاهر والفعال فى الطريق العام بكل الصور الممكنة ، ونعنى هنا الأمن الجنائى لا الأمن السياسى ، ونعنى الأمن المدرّب والمزود بما يحميه من العدوان عليه هو نفسه من قبل بعض المجرمين المغامرين ، والمزوّد أيضا برقابة فعالة من رئاسته حتى لا ينصرف إلى التراخى وربما ما هو أكثر من التراخى .

ب - كذلك لابد من إعادة النظر فى تنظيم وسائل النقل العام وتيسيرها بما يتيح خدمة آدمية للمواطنين تحفظ قدرا معقولا من كرامتهم البشرية .

جـ - ولابد من مراجعة دقيقة لمستوى الإنارة فى الطرق ليلاً ، ونعنى هنا الإنارة

المباشرة لا الإثارة غير المباشرة المترتبة على تشغيل المحال التجارية فإذا أغلقت ساد الظلام أو ما يقرب من الظلام .

هذه إجراءات يمكن البدء فيها فورا ، حتى يلمس المواطنون فى القريب العاجل أن هناك خطوات جادة اتخذتها الدولة لحمايتهم ولإدخال الطمأنينة على نفوسهم ، وحتى يتأكدوا من أن هيبة الدولة (على مستوى أمن المواطن العادى) لاتزال قائمة .

رابعاً : لابد من تشكيل لجنة عمل ، تجمع بين مختلف التخصصات التى تمس أحوال الطريق العام (الازدحام ، والضوضاء ، والمرور ، والجريمة المخصصة للطريق العام) تكون مهمتها دراسة الموضوع من جوانبه الرئيسية المتعددة ، واقتراح الحلول بعيدة المدى فى هذا الشأن ، بحيث تعرض فى ذلك لما يوشك أن يصير مشكلات مزمنة ؛ كالازدحام وكل مايرتبط به ، ومعاملة المواطن العادى فى أقسام الشرطة ؛ وكفاءة العمل كما يجرى فعلا فى هذه الأقسام لا كما نحب أن نصوره من خلال الشعارات البراقة ؛ وتعزيز جهاز السلطة القضائية بحيث يمكن للمواطنين أن يأملوا فى سرعة البت فى قضاياهم دون إرهاق قاتل لرجال القضاء ؛ وإصلاح الإعلام بحيث يصبح هدفه الإنارة لا الإثارة .

خاتمة :

أما بعد – فقد وصلنا إلى المرحلة التى أصبحت مشكلاتنا الاجتماعية تتفجر فيها من حين لآخر بصورة بالغة الإزعاج للضمير العام ، ولا جدال فى أنه ليس من الحكمة أن نضيف إلى ذلك مزيدا من الإثارة فى الحديث عنها .

ولكن ليس من الحكمة أيضا أن نبادر إلى « رش الماء البارد عليها » ، ففى ذلك استفزاز للشعور العام وتلميح إلى أن الأمور ستظل على ما هى عليه وإن يفعل المسئولون شيئا لتغييرها ، وهو مالا يُعقل أن يكون ولا نظن أنه سيكون .

لابد من اتخاذ خطوات عاجلة لإدخال تحسينات يلمسها المواطن فورا ، ولا يكفى فى ذلك تغليظ العقوبات ، فستظل النوعية الجديدة من الجرائم ترتكب ما لم نقض على عدد من العوامل الاجتماعية المباشرة التى تؤدى إلى أو تشجّع على أو تيسّر ارتكاب هذه الجرائم ، ولابد كذلك من المبادرة إلى الدراسة الموضوعية الأمنية والمتبصرة لوضع الخطط السليمة للإصلاح طويل المدى لكى يبدأ تنفيذها فى المستقبل غير البعيد ، ذلك أن التحسينات العاجلة مهما قيل فى قيمتها فهى فى نهاية الأمر محدودة الفاعلية ، وسيضعف مفعولها شيئا فشيئا حتى يتلاشى تماما ما لم نشفعها بالإصلاحات الجذرية بعيدة المدى .

نبيع مسرح الدولة ؟ نبيعه لماذا ؟ نبيعه لمن ؟

بقلم :
د . على الراعى

• فليصمت الدلالون فإن روح مصر ليست مطروحة فى المزاد !!

حين وقعت على رءوسنا جميعا هزيمة ٦٧ ، سارعت فرق المسرح الخاص الى إطفاء أنوارها ، وإغلاق أبوابها بأغلظ الاقفال . والسبب - ان جو الأحزان - حتى ولو كانت أحزانا كبيرة لأمة فجعت فى أغلى أمانيها لا يناسب نشاط مسرح القطاع الخاص . إنه مسرح يقدم الفرفشة والضحك الخالى العقل والقلب معا ، فكيف تُقام موالدُه فى مأتم كبير ؟ الشباك لا يسمح ، ورصيد البنوك لن يواصل التضخم . بل هو مهدد بالانكماش ؟ طيب ، والقضية البلد؟! أليس المشرفون على مسارح الفرفشة مواطنين صالحين، يفترض انهم يشعرون بالانتماء الى بلدهم وقضايا بلدهم؟! نعم نحن كذلك - يقول هؤلاء - ولكن القدرة لها حدود ، فنحن تجار مسرح ، وتجارة المسرح . أصبحت الآن كاسدة ومن ثم ؟ فنحن مضطرون الى التوقف فى انتظار الفرج !



زكي طليمات



سعد أردش



نبيل الألفي



مسرحية أهلا يابكوات عمل جاد قدمه مسرح الدولة

ومسارح الدولة ماذا فعلت بعد الهزيمة ؟ لم يغلق مسرح واحد من بينها ، بل حفزتها الهزيمة الى مواصلة البقاء ، دفاعا عن روح الأمة ، وحفزا لها الى التماسك ، وامتصاص الصدمة ، ثم تجاوزها الى مواقف اكثر ايجابية .

هذا هو الفارق الجوهرى بين مسرح الدولة ومسرح القطاع الخاص . الأول ملتزم بمبادئه ، والثانى ملتزم برصيده فى المصارف .



إنقلاب من مسرح جلال الشرقاوى

دعائم فن المسرح

وقبل أن أمضى إلى شرح دور مسرح الدولة فى حياتنا الثقافية والفكرية والفنية والاجتماعية والسياسية ، أريد أن أنبه الى أن مسرح الدولة قد كان النتيجة المنطقية لجهد اكبر وأوسع هو جهد الدولة فى خلق وارساء دعائم فن المسرح بصفة عامة . فهى الدولة التى أرسلت جورج أبيض الى فرنسا فى أوائل القرن ليتلقى تدريبا نظاميا على التمثيل ، وهى التى أرسلت من بعد زكى طليمات وفتوح نشاطى وسعد أردش وكرم مطاوع ونبيل الألفى وغيرهم من فنانى المسرح واطقمه الفنية الى عواصم العالم المسرحية لتلقى دراسات عليا فى فنون المسرح .

وهى الدولة أيضا التى شجعت زكى طليمات على انشاء ودعم المعهد العالى للفنون المسرحية ، ووقفت الى جواره تسانده فى مهمته الحضارية التى ازدهرت وأتت كثيرا من الثمار .

وهى الدولة كذلك التى انتقلت من هذه الجهود المتفرقة الى انشاء مؤسسة كاملة للمسرح وفنون الاداء المسرحى عامة ، فانتقل التفكير العلمى الذى بادر به زكى طليمات نقلة كبرى ، وجعلت من الحركة المسرحية ريادة فنية وقيادة واعية . وكان من أثر قيام هذه المؤسسة الكبرى ان اتسع مفهوم المسرح بحيث لم يعد يقتصر على فنون الكلمة وحدها ، بل تعدى هذا الى فنون الرقص الشعبى وفنون السيرك والعرائس والفن الاستعراضى والمسرح الغنائى .

ورغم تحفظاتى الكثيرة على نشاط فرق التليفزيون المسرحية ، فقد كانت هذه الفرق - فى الاساس ومن الوجهة النظرية البحتة - محاولة للوصول بفن المسرح الى جمهور التليفزيون الذى كان يُعَدُّ إذ ذاك بمئات الألوف . وكان هذا جهدا آخر من جهود الدولة وان شابته معايب كثيرة فى الممارسة ، وتعدى اثر هذه المعايب الخير القليل الذى قدمته فرق التليفزيون هذه .

ولما قامت فرق القطاع الخاص مثل فرق الفنانين المتحدين ، لم تجد من يمثل على خشباتها ويخرج لها الا فنانين تربوا فى احضان جهدالدولة المسرحى - معظمهم كانوا خريجين من معهد الفنون

المسرحية . ولما دخلت هذه الفرق الخاصة فى منافسة مباشرة مع فرق مؤسسة المسرح ، لم تلبث القيادة الفنية والفكرية التى كانت المؤسسة تقوم بها للحركة المسرحية عامة ، أنْ دفعت فرقة الفنانين المتحدين الى التخلى عن مسرحيات قليلة القيمة مثل« البيجاما الحمراء »« وعفريت مراتى » .. الخ والتقدم الى اخراج مسرحيات من نوع أرقى مثل : « سيدتى الجميلة » .

المسرح الخاص الذكى

وكانت هذه بداية لعملية ترشيد تمت بأثر مباشر من مؤسسة المسرح ، نتج عنها - فيما بعد - ما سميته المسرح الخاص الذكى تمثل فى جهود جلال الشرقاوى فى فرقته « مسرح الفن » واتخذ أرقى صوره فى مسرح لينين الرملى - محمد صبحى ، الذى وعى ، بحس مرهف وبصيرة شديدة الصفاء الدرس التالى : وهو أن الفن المسرحى الجيد يمكن ان يكون ممتعا ومفيدا فى وقت واحد ، وأن الناس تقبل على عنصرى الفكر والفرجة معا - لو وجدتهما - اقبالا شديدا ، وانها حين لا تجد الفكر الى جوار الفرجة ، فقد تتفرج سنة أو سنتين أو ثلاثاً ثم تنفض فجأة عن المهرجين الفارغى الرءوس .

الى جوار هذا كله اقامت الدولة معاهد الباليه والفنون الشعبية والكونسرفاتوار ، التى أخذت جميعا تمد الفرق المسرحية بحاجتها من الأطقم والمواد الفنية . هذا الى جوار معهد التذوق الفنى الذى يتولى اخراج الناقد والمتذوق الواعى .

وحين ازدهرت الحركة الفنية المسرحية استطاعت مؤسسة المسرح ان تقيم أول عرض مسرحى فى منطقة الأهرام ، وهو العرض الذى أقيم فى أوائل الستينيات وقدمت فيـــه فرقة « الاولد فيك » البريطانية مسرحيتى : « روميو وجولييت » - لشكسـبير ، « والقديسـة جـــون » - لبرنارد شو . وكان هذا العرض بشيرا بأعياد مسرحية لاحقة تمت فى المنطقة ذاتها .

ولا أريد الإطالة فى سرد ما هو معروف للجميع ، يذكره الكل الآ أصحاب الغرض ومدمنى تصفية الحسابات . وأخلص للحديث عن الاتجاه الخطر الذى ظهر بيننا فى الأسابيع الأخيرة ، والذى ينادى ببيع مسرح الدولة .

ظاهرة غريبة

والظاهرة أن بيع الأشياء التى تدخل فى إطار الملكية العامة أصبح هواية لدى البعض ، ما لبث ان تحولت الى ادمان ! وقد بدأ الصراخ بطلب بيع اثار مصر لتسديد ديونها . وتلى هذا بيع المؤسسات الناجحة التى يملكها القطاع العام . وتفاقم الأمر فقرر نفر من محترفى البيع



مسرح صبحى ولينين نموذج جاد للمسرح الخاص

كريم الدفع يريدون به ان يشلوا فعالية تليفزيون مصر العتيد .

فى اطار هذه الدعوى العامة لبيع كل ما هو عام ، قامت المطالبة ببيع مسارح الدولة . وفى كل مطالبة من المطالبات بالبيع العام ، لا يسأل أحد نفسه : لماذا البيع ولم لا يتم الاصلاح ؟ وفى حالة المسرح ، لا يوجد سبب واحد يدفع الدولة الى التخلى عن جهدها فى رعاية ومساندة المسرح . فالمسرح يلقى المساندة والتمويل والدعم العتيد فى بلاد كل العالم ، وبالأخص فى البلاد الرأسمالية مثل امريكا وفرنسا وانجلترا والنمسا . فليس هذا الدعم تطبيقا لمبادىء اشتراكية يرى جمع المنتفعين من اوضاع العالم المتغيرة أنها زالت الى الأبد ، ومن ثم وجب الاختفاء بالايديولوجية الرأسمالية وحدها .

الايديولوجية الرأسمالية – على معايبها ومظالمها الكثيرة ، تبذل العون للفنون المختلفة سعيا وراء رقى الأمة والانسان معا ، وهذا فى حد ذاته يؤدى الى تحسين الإنتاج الذى يخطط له وينفذه الانسان نفسه . فإن ارتقى هذا ارتقى معه كل شىء . ومن ثم تغدق الاموال على المتاحف ، وتشترى الاعمال الفنية بالمليارات ، وتقام المهرجانات الموسيقية والمسرحية والاسواق الدولية للكاسيت والمصنفات الفنية ، وتخصص الجوائز الكبرى للمبدعين فى الأدب بأنواعه

ان يجرفوا أرض مصر ويبيعوها على شكل طوب أحمر ، غير مبالين بأنهم يبيعون طعام مصر ، ورزق مصر ومستقبل مصر .

وانتقلت العدوى الى التعليم العالى ، فعادت الجهود تبذل لانشاء جامعة خاصة للقادرين ، سوف تتكلف مليار جنيه تجمعه نقابة القادرين ، لتعليم الأولاد الخائبين من ابناء القادرين – القادرين على القفز على الطوابير وسنوات الدراسة ، ومناهج التعليم !

وساء البعض ان يكون لمصر تليفزيون يمثل السيادة المصرية ، والطموح المصرى وأسلوب الحياة المصرية ، فاخذوا يلتفون حول هذه المؤسسة الكبرى بانشاء تليفزيون سريع الحركة ، غزير الاشعاع ،

وفى فنون الأداء من تمثيل وسينما وتليفزيون .

يتم كل هذا فى البلاد الرأسمالية ، ولايحتج عليه أحد ولا يطالب أحد بالفائه بل هم يطلبون منه المزيد .

لن تبيع المسرح !

إذن لماذا يصرخ البعض منا فى هستيرية : بيعوا مسرح الدولة ؟ نبيعه لمن ؟ لمنتجى مسرحيات « حمرى جمرى » و « العسكرى الأخضر » و « جوز ولوز » وغيرهم من أصحاب الموالد المسرحية الموسمية التى تنتشر أيام الصيف وفى المواسم السياحية ؟ نبيعه لأبطال هز البطون والقحوف ، والعقول والضمائر ومغتصبى حق المواطن فى التفكير السليم والمتعة الفنية المتوازنة التى تخاطب العقل والوجدان ولا تقتصر على الأجساد ؟

لا ينكر أحد أن ثمة خللا فى مسارح الدولة . وهـــذا الخلـل مرجعـه - فى الأساس - إلى سوء الإدارة ، وسوء التنظيم . ولا يعود أبدا إلى قلة المسرحيات الصالحة ، ولا إلى تقاعس الأطقم الفنية عن أداء واجبها .

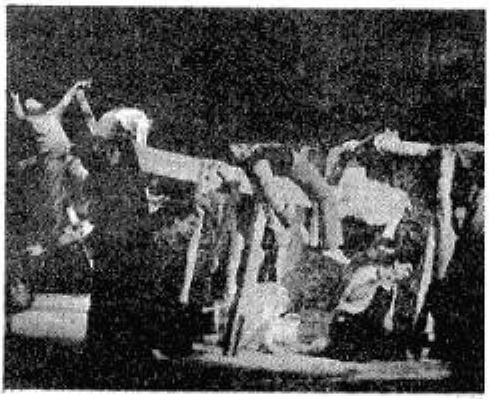
فإلى جوار أفراد قليلين يقبضون مرتباتهم ويتهربون من التمثيل . هناك مئات من الشباب الواعد من الجنسين ، يتحرقون شوقا إلى التمثيل والإخراج والكتابة . لا يحجبهم عنها إلا النجوم المشهورون والمتقاعسون . وقد أثبتت تجربة لينين الرملى ومحمد صبحى فى مسرحية « بالعربى الفصيح » أن هؤلاء موجودون بالإمكانية وبالفعل ، لا ينقصهم إلا أن تتاح لهم الفرصة . وهم أهل لكل ثقة وجديرون بأن يحملوا عن النجوم المتقاعسين المتاكلين الآفلين عبء المسرح كاملا .

طريق الإصلاح

أن على مسارح الدولة أن تقدم على خطوتين رئيسيتين فى طريق الإصلاح ، أولهما إنهاء نظام الفنان المسرحى الموظف والأخذ بمبدأ الفنـــان المرتبط بفـــرقة ما ارتباطا يحدده عقد يطول أو يقصر ، بحيث يتناول الفنان أجره إذا ما أتم عمله ويحرم منه بل ويجازى إذا ما تهرب من هذا العمل . وهذا أمر سهل التنفيذ .

أما الخطـوة الثانيـة ، فهـى أكثر صعوبة ، وإن كانت غير مستعصية على الحل .

لقد نبهت من سنوات إلى الوضع المتأزم الذى يجد فيه المسرح القيّم - لنسمه كذلك حتى لا نقول الجاد ونجلب على أنفسنا خطيئة إشاعة سوء الفهم - يجد ذلك المسرح فيه نفسه منذ ظهور التليفزيون والفيـديو . قلت على صـفحات « الهلال » إن ما كان يقدمه المسرح القيّم فى الستينات قد هاجر إلى الشاشة الصغيرة ، وأنه بفضل جهود كتاب وأعين



مسرح التليفزيون فى الستينات

ومخلصين وجادين وواسعى الثقافة من أمثال أسامة أنور عكاشة ومحفوظ عبد الرحمن وغيرهما أصبح مضمون المسرح القيِّم يقدم بوسائل أفضل وأرخص، وأوفر راحة، واعرض بما لا يقاس من جمهور المسرح الحى. فى الستينات تباهى المسرح - ما بين قيِّم وغير ذلك! - بأنه حقق إقبال مليون متفرج فى عام واحد، عملت فيه كل فرق الدولة مواسم كاملة. اليوم يشاهد المسلسلات الجيدة جمهور لا يقل عن ثلاثين مليونا فى مصر وخارجها وذلك فى اليوم الواحد وفى كل يوم حتى انتهاء المسلسل. معنى هذا أن المسرح الحى عليه أن ينظر بعمق فى أساليبه الفنية وفى المسرحيات التى يختارها، وأن يتعرف إلى صيغة مسرحية جديدة تشمل الفكر والفرجة معا. هذه دعوة قديمة تقدمت بها من سنوات، والحاجة إلى التمسك بها وتعميق خلق الصيغة التى توفرها هى الآن أكثر إلحاحا من أى وقت مضى.

لا خوف على المسرح الحى من دراما التليفزيون، بدليل نجاح مسرحيات اعتمدت صيغة الفكر والفرجة معا مثل: «أهلا يا بكوات»، «وجهة نظر»، «وبالعربى الفصيح» من مسرح لينين الرملى ومحمد صبحى، «ومنين أجيب ناس» و«الملك هو الملك» من فرقة المسرح الحديث التابع للدولة: مسرحية «انقلاب»، من مسرح جلال الشرقاوى.

ولكى يصل مسرح الدولة الى ايجاد هذه الصيغة المهمة والضرورية لضمان بقائه، عليه ان يشجع كتاب الشباب - يسعى اليهم ويوجههم، ويبذل لهم الحب الذى يستحقون. وعليه كذلك ان يوسع رقعة الحرية أمامهم فلا تفتك بأعمالهم الرقابة الصارمة أو التدخل فى أمور المسرح من قوى ضاغطة تمد نفوذها ومالها من خارج مصر لتشكل أمور الثقافة والفن فى بلادنا حسب مصالحها هى، واهوائها.

من بستان محبتها

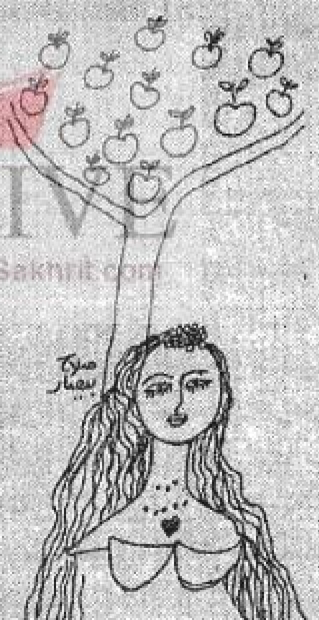
شعر : صلاح والى

(١) تفاح

من قال بأن التفاح له أشجار؟
هذى أشجار الدنيا
والتفاح تكون تحت قميصك
وتكون من أسرار ثيابك
وأنسل من الدفء اللهبى
وطان
التصق من الشهوة بالأشجار
فاهتزت من رعب النشوة
فاحت رائحة التفاح

(٢) التين

التين جراحات الناس
وعجين جراحات القلب
مدت التينة من عنقها شوقاً شبقيا
شرأبت رأسها نحو الشمس
فصارت قطرة وجد أولى
تتدلى إذ تتعالى نحو الأعلى
تتشقق بما فيها
وتئن من الحمى
فإذا فاض الشوق اشتعلت
شقت قشرتها شقاً طوليا
وتعثرت
يتعالى صوت التينة
أن هيت .... فهيا



حوار مع أديب شاب

بقلم : د . شكرى محمد عياد

سيكون الأدباء الشبان هم أول من يعترض على هذا العنوان ، وخصوصاً بعد قراءة المقال . فلن يعترف أحد بهذا الشاب الذى حاورنى ، ولا يبعد أن يتهمنى بعضهم بأنى لم أقصد بتسجيل هذا الحوار – وكان المفروض أن الشاب هو الذى يجرى الحوار معى ، لا العكس – لم أقصد بتسجيل هذا الحوار إلا أن أقدم صورة سيئة للأجيال الجديدة من الأدباء . وهذه الأجيال الجديدة لا تتكلم بلسان واحد إلا حين يهاجمون الأجيال السابقة ، وهم يترحمون على الذين ذهبوا ويستعجلون المتلكئين من الشيوخ . أما أشد هجومهم فعلى الكهول الذين ينتظر أن تطول إقامتهم واستبدادهم بأسباب الرزق والشهرة فى دنيا الأدب .

وللشباب خيال جموح يصور لهم أنهم إذا طبع لهم كتاب فسوف ينفد فى أيام أو على الأكثر أسابيع ولكن بشرط واحد ، وهو أن يكتب عنه عدد من النقاد الذين يتمتعون ببعض الشهرة .

وربما كان طلاب الرزق الواسع والشهرة العريضة من هؤلاء الشباب قد أخطئوا من أول الأمر حين اختاروا طريق الأدب ، وحرفة الأدب من قديم الزمان مرادفة للفقر وخمول الذكر ، ولكن من أصعب الأمور أن يرجع الإنسان عن اختيار خاطىء ، والغالب أن يتمادى فيه ويلقى اللوم على غيره ، ويمضى الزمن بالأديب الشاب وهو واقف حيث هو ، والناس لا يذكرونه ، إذا ذكروه ، إلا بوصف « الشاب » ، مع أن الشيب قد اغتال سواد شعره ، لأنه لم يجن بعد ثمار مجهوده .

السبعينيات ، أو حين تنشب الحرب الأهلية بين أبناء الجيل الواحد ، وإنها لحرب – علم الله – بلا انتصارات ولا غنائم ، كالحرب بين منظماتنا الفدائية ، والعدو قابع في مكانه ، مستبد بسلطانه .

صاحبي هذا – كما بدا لي من أمره – ليس من عتاة المحاربين ، ولكنه قد حضر – على الأرجح – ندوة أو ندوتين ، وسمع كلاماً تتقاذفه الشفاه هنا وهناك ، وبعد أن تعلم لغة الندوات جاء ليحاورني .

كيف يصنع الأديب !

أما لماذا سميته أديباً فلظنني فعلت ذلك لأنه ليس بأي شئ آخر فلا هو معلم ولا متعلم ، ولا هو عامل ولا هو عاطل ، ولا هو صحفي ولا غير صحفي . إنه باختصار واحد من ملايين الشباب الذين جنينا عليهم فخرجناهم في الجامعات وألقيناهم إلى الشارع . وقد دعاه الفراغ إلى تلك الندوات فتبين له أنها يمكن أن تؤهله لعمل لا يتطلب الكثير من الجهد ، ففي القاهرة عشرات من دور الصحف أو المكاتب الصحفية التي تجمع مواد مكتوبة وتبعث بها إلى عشرات بل ومئات من الصحف والمجلات في أنحاء العالم العربي وفي أوربا أيضا ، والله يعلم من أين تأتي بالمال لتدفع أثمان هذه المواد ، فليس في العالم العربي طوله وعرضه ولا لدى المهاجر



لهذا أصبح من كنا نسميهم « الأدباء الشبان » يسمون أنفسهم « جيل السبعينيات » و « جيل الثمانينيات » ، ينسبون أنفسهم إلى الفترة التي اختاروا فيها طريق الكتابة ، وراحوا يحاولون نشر أعمالهم ، ولاشك أن هذه التسمية أقرب إلى الواقع ، ولو أنها تُشعر بالتحزب ، الذي يبلغ أحياناً حد التعصب ، وذلك حين يوجه جيل الثمانينيات هجومه ضد جيل

العربية فى شرق العالم وغربه ، ما يقوم بنصف هذا العدد من الصحف والمجلات .

هو على كل حال رزق ساقه الله إلينا فمن الأدب ألاّ نسأل من أين جاء ، وكل ما عليك أيها الشاب النجيب هو أن تعدّ سؤالاً أو سؤالين - تلتقطهما من هذه الندوات - وتلقى بهما واحداً من هؤلاء الذين يسميهم الناس أدباء أو نقادا وتكتب ما يمكنك أن تكتبه من كلامه وتحضره إلينا فى المكتب وسننشره إن وجدناه صالحاً للنشر ونعطيك كذا .

وهذا ما كان . أما السبب فى كونى أكتب هذا الحوار الآن بصرف النظر عما يمكن أن يكون الشاب قد صنع فيه ، فهو سببان فى الحقيقة لا سبب واحد وأولهما أن أسئلة الشاب كانت تستفزنى لأن ألقى عليه أسئلة مضادة ، وكذا خرج الحوار من الإطار العادى المكون من سؤال وجواب إلى شىء أشبه بالحوار التمثيلى المعبر عن شخصيات المتحاورين ، ورأيت هذا الأسلوب الجديد جديراً بالتسجيل لأنه لايخلو من طرافة وتسلية ، وإن كان عديم الفائدة بطبيعة الحال (هذا يجعله أكثر شبها بالفن) وبما أن الفتى كان يسجل أسئلته وأجوبتى - وهى الجانب الذى يخصه من الحوار ، فقد كان علىّ أنا أن أقوم بتسجيل الجانب الآخر - أسئلتى وأجوبته - إذا أردت أن أحافظ على هذا الأثر الفنى المبتكر . ويضاف إلى هذا السبب الأول سبب آخر وهو أن الفتى لم يكتف بعدم تدوين أسئلتى وأجوبته بل كان يتوقف عن الكتابة أحيانا وأنا أجيب ، ولا أدرى هل كان ذلك لجهله وعدم خبرته أم عن سوء نية منه ، وهو ما أدعيته أنا ، منتهراً أياه بقسوة (لا داعى للشفقة فإنه لم يتأثر) وناسباً إليه أنه يمارس نحوى نوعاً عجيباً من الرقابة .

وهاأنذا أقدم إليك الحديث ملتزماً أقصى حدود الدقة والأمانة وغير مستسلم إلى مغريات الفن وإن كانت كثيرة .

حوار حول النقد

بعد أن شرب الفتى شايه واستقر - المجلس وجّه إلىّ سؤاله الأول :

- هل تعتقد أن هناك أزمة نقد ؟

إلهى لماذا تركتنى ؟ أنا مصلوب على هذا السؤال منذ سنين طويلة . منذ سنين طويلة وأنا لا أكتب إلا نقداً . تركت القصة كما تركت الشعر ، ولم أعد أكتب إلا نقداً ، وهناك نقاد غيرى أيضا . وكلما لقينى أحد هؤلاء الشبان سألنى عن أزمة النقد . إلهى لعلهم يقصدون أنها أزمة فرط إنتاج ؟ فهم بكل تأكيد لا يجدون وقتاً ليقرءوا ما نكتبه من النقد . ولكنى أعلم يا إلهى أنهم

يقصدون العكس . فالأزمات عندنا تعنى دائما أن هناك نقصاً ما : أزمة سكر ، أزمة زيت ، أزمة بيض ، أزمة نقد . ولكنى بدأت أحاوره :

– أولاً : ماذا تعنى بأزمة النقد ؟

قال :

– النقد لا يتابع الإنتاج الجديد .

– أى إنتاج جديد ؟

– أبناء السبعينيات والثمانينيات .

اتهام سمعته مراراً وتكراراً . مرة يقال بصورة رجاء شخصى أو تنبيه مهذب ، ومرة يقال بصورة إدانة صريحة باسم طائفة « المبدعين » الناشئين لطائفة النقاد ، ووراء ذلك جهل أو تجاهل لوظيفة النقد . فأكثر هؤلاء يرون مهنة النقد مهنة خدمات مثل الطب والمحاماة : إذا مرضت استدعيت الطبيب أو ذهبت إلى عيادته فيفحص جسمك ويصف لك الدواء ، وإذا عرضت لك مشكلة قانونية استشرت المحامى ، كلاهما توجب عليه مهنه أن يلبى طلبك ، فـ « المبدع » أيضاً يبعث إلى الناقد بكتابه ليقول الناقد رأيه فيه . وفريق آخر لا يرى فى الناقد أكثر من وسيط تجارى أو « وكيل فنانين » ، عمله أن يقدم فنه إلى القراء محاطاً بألوان الإطراء . ولا أظلم الشباب فبين الكبار – كبار السن – من هم شر من ذلك ، وشرهم ذلك الأخ الذى عرض علىّ نقوداً لأكتب عن كتبه التى لا يقرؤها أحد (ولعله .. يقرأ هذا الكلام فيكف عنى) .

كتمت همى فى قلبى ، وقلت لجليسى الشاب :

– هذا غير صحيح . فالنقد لم يهمل أدباء السبعينيات والثمانينيات ، ولو أن اهتمامات الناقد قد تتعدى هؤلاء . ولكنك لا تجد كثيراً من هذا النقد فى الصحف اليومية . فإن كان هذا هو ما يشكو منه « المبدعون » فعليهم أن يتجهوا بشكواهم إلى محررى هذه الصحف ، وأنا ضامن لهم أنهم إذا أرادوا أن ينشروا نقداً أدبيا فسيجدون عدداً طيباً من النقاد المتازين والمستعدين لذلك ، أما وهذا موقف الصحافة من النقد ، فعليكم أن تنظروا فى المجلات الأدبية والثقافية قبل أن تتهموا النقاد .

ثم سألته سؤالاً مباشرا :

– هل تقرأ « أدب ونقد » أو « الهلال » أو « العربى » أو « إبداع » أو « فصول » ؟

لا . إنه لا يقرأ .

– ومع ذلك فأنت تتحدث عن مبدعى السبعينيات والثمانينيات ، وهؤلاء يقولون إن لهم مذهبا فى الأدب مغايراً لمذاهب الأجيال السابقة ، ويتهمون سابقيهم بالجمود والتحجر ، فماذا يريدون من هؤلاء المتحجرين ؟ إذا كانت الأعمال المعاصرة هى القادرة وحدها على أن تخاطب

الإنسان المعاصر ، فهل تحتاج إلى نقد ؟
– تحتاج إلى من يوضحها للقراء .
– ولكن النقاد المقصودين بالهجوم هم

أنفسهم أولئك الذين لا يفهمون الأعمال الجديدة ، فهل يمكنهم أن يجعلوها مفهومة لغيرهم؟

ولما بدا من سكوته أنه لا يجد حلاً لهذه المشكلة ، اقترحت عليه الحل :

– أليس من الطبيعي أن يتولى هؤلاء المبدعون شرح أعمالهم بأنفسهم ؟

ولكنه سأل بلهجة المعترض :

– هل يمكن أن يكون المبدع ناقداً في الوقت نفسه ؟

– الأمثلة لا حصر لها في الشرق والغرب ، في القديم والحديث والمشهور على كل حال إن المبدع لا يكون مبدعاً حقاً إلا إذا تميز بحاسة ناقدة . ولكن دعني أسألك : هل قرأت « فن الأدب » لتوفيق الحكيم؟

لم يقرأ .

– هل قرأت « قالبنا المسرحي » له ؟

لم يقرأ .

– هل قرأت « خطوات في النقد » ليحيى حقي ؟

لم يقرأ .

– أرأيت ؟ عندما تقرأ هذه الكتب ستجد نقداً عظيماً لمبدعين عظماء .

– ولكن كثرة القراءة تقتل الموهبة !

– نعم ، تقتل الموهبة الضعيفة ، وهذه تستحق القتل .

انتهينا من السؤال الأول ، وبقي السؤال الثاني الذي لابد منه .

– هل لدينا نظرية عربية في النقد ؟

سؤال أشد خبثاً ، وإن يكن بريء المظهر فمعناه البسيط الصريح : هل لدينا نقاد ؟

– لأنه إذا كان لدينا نقاد حقيقيون ، لا مجرد أساتذة للنقد ، فلدينا بالضرورة نظرية نقدية . نحن نقول مثلاً إننا لا نملك فلسفات عربية ، وهذه في الواقع هي مشكلة المشاكل في ثقافتنا العربية المعاصرة ، لأننا لا نعرف فيلسوفاً عربياً واحداً في العصر الحديث ، وإن كان لدينا أساتذة كثيرون للفلسفة ، وبعضهم أساتذة عظماء . ولكن هل ينطبق ذلك على النقد أيضاً ؟

عدت أسأل :

– ألا يكفي أن يكون لدينا نقاد ؟

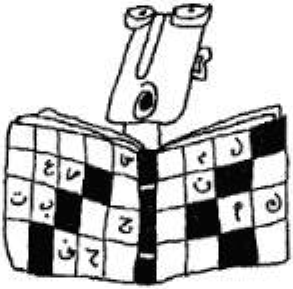
قال :

– ولكنهم يعتمـــدون على نظريات مستوردة من الغرب : بنيوية ، تفكيكية ، الـــخ .

قلت :

– وقبل ذلك : كلاسيكية ، رومنتيكية ،

واقعية ، واقعية اشتراكية ، الخ . ولكن هذا يتوقف على ما تقصده باستيراد النظريات إن كنت تعنى أننا نأخذ النظرية كما هى ، نعرضها تارة ، ونطبقها على أعمالنا الأدبية تطبيقا حرفيا تارة أخرى ، فنحن حقا لا نملك هذه النظرية ، ولكننا نستعيرها أو « نستدينها » ونستهلكها ، كما نصنع بأى منتج مادى . أما إن كنا نتصرف ، فيها (وقد يسمى البعض هذا التصرف تشويهاً) فإنها تصبح ملكاً لنا ، بقدر ما نجرى فيها من تعديل أو تحوير ، ولكن الفضل فى إبداعها يكون لصاحبها الأول . أما إذا أخذناها ، وحللناها وعرفنا ما يرجع من عناصرها إلى ظروفها التاريخية ، وما يرجع إلى مسلمات فكرية مشتركة بين البشر جميعا ، أو إلى منهج عقلى ثبتت صحته بالتجربة ، أو إلى معطيات موضوعية يمكن أن تختلف مواقف المجموعات البشرية منها ، ولكنها



لا تملك نفيها فهنا تستحيل النظرية إلى مادة فكرية تمتزج بغيرها من المواد فى تفكيرنا حتى نصبح قادرين على صياغة نظريتنا نحن .

ثم قلت له : –

– أنت تستطيع أن تصف مشيتى إذا رأيتنى أمشى . ولكن هل تستطيع أن تصف مشيتك ؟

قال : لا

قلت : وإذا وقفت أمام مرآة ، وجعلت تبتسم ، أو تضحك ، أو تمشى مقبلاً ومدبرا ، حتى تعرف صورة ابتسامتك أو ضحكتك أو مشيتك ، فهل تكون عندئذ فى كمال عقلك ؟

قال : لا

قلت : وإذا رآك أحد فى هذه الحالة ، فهل يقول عنك إنك عاقل أو مجنون ؟

قال : أظنه يقول عنى إنى مجنون .

قلت : فكذلك نحن النقاد . قد تكون لنا نظرية ، ولكننا لا نعرفها ولا نصفها ، لأننا لاننظر إليها من خارجها . نحن ننقد فحسب . وعلينا فقط أن ننظر بعمق ، ونتكلم بأمانة . وإذا رأى من بعدنا أن ينظروا فى هذا النقد ، فقد يجدون فيه نظرية ، وقد لا يجدون ، وقد يعطون النظرية اسما ، وسنكون نحن – إن كنا بعد أحياء – أول من يتبرأ من الاسم ومن النظرية !

اعتقال الغرب فى "علم الاستغراب"

بقلم : د. صلاح قنصوه

١ - الذات والموضوع

لم أكن أعلم قبل أن أفرغ من مطالعة السفر الضخم «مقدمة فى علم الاستغراب» (٨٨٤ صفحة) للصديق الفيلسوف د. حسن حنفى، أننى وزملائى وطلابى، منذ عهد بعيد، من الباحثين فى «علم الاستغراب».

ولقد غمرنى شعور بالابتهاج، أو على الأقل، بالارتياح للتخفف من أثقال اسم مهنتى القديمة، وهى الفلسفة، التى غدت سيئة السمعة بين جماهير القراء، فلقد أهدانا د. حسن اسماً جديداً لعلم دقيق هو علم الاستغراب. والواقع أن سعادتى بهذا المصطلح كانت على مستوى سعادة «مسيو جوردان»، فى إحدى مسرحيات «موليير»، عند اكتشافه بأنه يتحدث النثر منذ زمن طويل.

وقد ألح د. حسن على تذكير القارىء بأن مجرد العرض السريع لفلاسفة الغرب ونقد بعضهم لبعض بدءاً من الاغريق حتى اليوم، وهو ما صنعه المؤلف فى مجلده، إنما يتم عبر علاقة معرفية بين طرفين، الأول هو «الأنا» (ويقصد بها الذات فى الفلسفة)، والثانى هو «الآخر» (أى الموضوع) والى هنا فليس ثمة جديد، لأن طلاب الفلسفة فى الثانوية العامة يعلمون أن المعرفة أو البحث يتضمن أو يفترض ذاتاً باحثة أو عارفة، وموضوعاً يخضع للبحث.

أما الجديد الذى يبشرنا به المؤلف فهو أن بحثنا ودراستنا لابداعات الغرب الفلسفية إذا ما تمت تحت عنوان علم الاستغراب، فإن «الغرب» أو «الآخر» كما يجب أن يسميه المؤلف، سيغدو موضوعاً يذعن لى بوصفه مفعولاً به وخاضعاً رغم أنفه لأدوات بحثى. ولا ريب أن فى ذلك انتصاراً عظيماً عليه، وازالة لآثار عدوانه السابق عندما جعل من العرب

نعمت كثيراً فى صلتى الحميمة بالدكتور حسن حنفى بألوان خصبة من الحوار الذى لا يضيق صدره به ، بل يحث زملاءه وطلابه عليه . وهذه خصلة حميدة من بين خصاله العديدة التى أعتقد أن أروعها هو أحلامه النبيلة فى استعادة أمجادنا الشامخة ، ومسعاه الدءوب لتحقيقها بالبحث المتواصل الذى لا يكف عن تفجير الألغام فى مسلماتنا الراكدة .

وأرجو أن يفسح صدره لإحدى مشاغباتى التى اعتادها معى كصديق محب .



د. حسن حنفى

المذاهب فى الغرب تنشأ فى ظروف خاصة وتتوالد فيما بينها طبقاً لقانون الفعل ورد الفعل

والمسلمين» موضوعاً «للاستشراق» وحان دورنا لكى نجعله موضوعاً لعلم الاستغراب ، ومن ثم تسقط هيبة الغرب فى أعيننا ، كما يقول د. حسن ، وتحس بالاستعلاء عليه . وعلى الفور تتسلم شعلة الحضارة ، وتتولى زمام أمورنا ، بل وتقود العالم كله وبخاصة بعد أن أعلن بعض مفكرى الغرب سقوطه وأفوله .

ولئن نشأت مشكلات تخلفنا ، كما يقول المؤلف ، من جراء ادعاء الغرب أنه المركز الوحيد ، وأن سائر العالم أطراف ، فقد حان الوقت لحل تلك المشكلات بأن نضم كل تاريخ الفكر الغربى فى مجلد واحد ، وأن نثبت أن المذاهب (فى الغرب) تنشأ فى ظروف خاصة .. وأنها تتوالد فيما بينها طبقاً لقانون الفعل ورد الفعل ثم محاولة الجمع بين النقيضين فى مذهب ثالث » (ص ٧٨٦) ، وأن نقرر أن «التراث الغربى ليس تراثاً انسانياً عاماً يحتوى على نموذج التجربة البشرية ... بل

الكثير من الباحثين يواصلون إثبات أن ما وصل إليه الغرب من فكر وإبداع هو بضاعتنا ردت إلينا

هو فكر بيئى محض نشأ فى ظروف معينة هو تاريخ الغرب وهو نفسه صدى لهذه الظروف» .(ص ٣٦ - ٣٧) .

ويهدف بذلك علم الاستغراب « الى إقالة الثورات الحديثة من عثرتها ، واستكمال عصر التحرر من الاستعمار ، والانتقال من التحرر العسكرى الى التحرر الاقتصادى والسياسى والثقافى ، وقبل كل شىء التحرر الحضارى . فطالما أن الغرب قابع فى قلب كل منا كمصدر للمعرفة وكإطار مرجعى يحال اليه كل شىء للفهم والتقييم ، فسنظل قاصرين فى حاجة الى أوصياء » (ص ٢٤) .

٢ - علم الاستغراب معسكراً للأسرى :

ولسنا فى حاجة الى اجهاد الذهن لنستنتج أن علم الاستغراب على نحو ما يطرحه د. حسن ، هو فرع من فروع وسائل العلاج التى تلحق بعلم النفس المرضى . فالمؤلف يصرح بأن هدف هذا العلم هو « تجاوز عقدة النقص ... التى يشعر بها بعض الباحثين ... ويمكننى (أى المؤلف أو الباحث أو « الأنا ») أخذ كل فلاسفة الغرب وأضمهم فى طابور عرض وأكون أنا قائدهم أوجههم وأحركهم وأستعرضهم فى حركات وتشكيلات وتحيات كيفما أشأ ، وطبقاً لاستراتيجيتى وخططى وأهدافى . بل أن أخذ طوابير الأعداء بعد حصارهم وأضعهم جميعاً فى الأسر ، وأضع كل مجموعة منهم فى زنزانة ، وأغلق عليهم أبواب السجن . وبالتالى تضيع من نفوسنا رهبة الأعداء . لقد وقع العدو الذى كان بالأمس منتصراً فى أسرنا اليوم ، كما حدث مع العدو الاسرائيلى فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ . وعلى هذا النحو قد تضيع من نفوسنا روح الرهبة أمام الفلسفة الأوربية ... كما يساعدنا كثيراً تجميعهم فى مذاهب وتيارات واتجاهات على أخذهم جميعاً فى شتلات كيفما أشأ ، فى سجن كبير ومذاهبه فى زنازين متجاورة حتى لا يتوه أحد منهم ونتوه معه فى اقتفاء الأثر ... كان لابد أولا من فك الأسر ، ويصبح السجن سجاناً والأسير آسراً » (ص ٧٨٧ - ٨) .

ونستخلص من هذه الفقرة الدالة أن جدة علم الاستغراب عند المؤلف تقوم على تجميع كل الفلسفات الغربية فى مجلد واحد حتى يتيسر اعتقالها جميعاً بدلاً من انفاق الجهد فى عمليات الملاحقة الفردية .

وهنا تصيبنى الدهشة ، فلا شك أن المؤلف غير غافل عن أن المكتبات العربية متخمة بالدراسات والرسائل الجامعية التى

تبحث على نحو مدقق فى المذاهب والشخصيات والقضايا الفلسفية الغربية التى تتصدى لها بالعرض والتحليل والنقد ، فضلاً عن مقارنتها بالفكر الاسلامى والعربى والشرقى بوجه عام .

كما يعلم أن الباحثين المصريين منذ العقد الثانى من هذا القرن الذى أوشك على المغيب يدرسون ، وينتقدون ، ويعلّمون الفكر الغربى لطلابهم فليس ثمة جديد إذن فى أن الفكر الغربى كان ولايزال «موضوعاً» ، بل ان الكثير من الباحثين العرب والمسلمين يواصلون مهمتهم التى وقفوا حياتهم عليها وهى إثبات أن ما وصل اليه الغرب من فكر وإبداع هو بضاعتنا ردت الينا .

فهل الجديد فى علم الاستغراب هو تجميع كل ذلك فى مجلد واحد ليكون سجناً كبيراً واحداً متجاوز الزنازين ؟

حتى هذا ليس جديداً ، فالملخصات من هذا النوع كثيرة مبذولة فى الأسواق ، ولا تختلف فيما بينها إلا فى الحجم . إذن فالجديد الذى ينبغى أن نعترف به للمؤلف هو اطلاق التسمية .

ولكننا لو أخذنا بها ، على محمل الجد ، فينبغى علينا إن نعيد تسميات المقررات العلمية فى مختلف فروع الطب والهندسة والفيزياء وغيرها منذ المرحلة الابتدائية حتى الجامعة والدراسات العليا ، فنسمى كل ما يدرسه الطلاب : « علم الاستغراب فرع كذا » على أن تستثنى من ذلك مقررات كليات أصول الدين والشريعة واللغة العربية بجامعة الأزهر لأنها العلوم الوحيدة التى لم ينتج فيها الغرب شيئاً .

ولننظر فى أمر هذه التسمية « الجديدة » . إن أى مفهوم أو مصطلح يشترط ، تبريراً لوضعه ، أن يقدم تمييزاً جديداً داخل سديم مختلط من المعارف بحيث يعاون فى فهم الفروق ويضم شتات المعرفة فى وحدات تصنيف منطقية ، وشرطه الثانى أن يضيف جديداً من المعرفة أو الفهم لم أكن أبلغه بدونه بعبارة موجزة ، ينبغى أن يكون وجود المصطلح الجديد أفضل من غيابه ، وإلا كان فضولاً لا نفع فيه ، أو لفتاً للأنظار عما يجب معرفته ، أو العمل به .

٢ - علم الاستغراب وعقدة الاستشراق :

لا ينكر المؤلف أن ما دفعه الى صك هذا المصطلح الطريف هو المقابلة مع الاستشراق . غير أنه أغفل أن الاستشراق لم يكن علماً بحيث يكون نقيضاً لعلم الاستغراب هذا . فقد كان جهداً وعملاً لاكتشاف المخطوطات وتحقيقها ، ونقد المخطوطات داخلياً كى تنسب الى مؤلفيها الأصليين ، وفهرستها ، وبيان أماكن الحصول عليها فى كل أنحاء العالم ، ووضع معاجم دقيقة لألفاظ القرآن الكريم والأحاديث الشريفة ، وكلها أمور شارك فى معظمها باحثونا كما أفدنا منها جميعاً دون استثناء . ولا يمكن بطبيعة الحال أن يزعم أحد أولئك أنه قادر على أن يجمع حصاد هذا الجهد والعمل المتواصل بين دفتى كتاب حتى ولو بلغ ٨٨٤ صفحة

الاستشراق ببساطه ضرب من إعادة الاكتشاف لما ران عليه النسيان من تراثنا

ككتاب علم الاستغراب ولكن تحت عنوان « مقدمة فى علم الاستشراق » .

لقد قدم المستشرقون اكتشافاتهم الكثير من تراثنا وتحقيقاتهم ومقارناتهم ، كما أدلوا بآراء مختلفة إزاء محتويات هذا التراث العظيم ولم يفرضوا علينا أن نلتزم بوجهات نظرهم ، التى اختلفت فيما بينهم، لأننا اقتنعنا بصحة بعضها وأنكرنا غيرها بالفعل . ولم يكف باحثونا قط عن مناقشة آرائهم ونقدها أو الدفاع عن بعضها ، وكل ذلك بمقتضى الروح العلمي البناء .

فالاستشراق ببساطة ضرب من إعادة الاكتشاف لما توارى عن التداول أو ران عليه النسيان من تراثنا ، وتقديمه لنا وللعالم أجمع .

إلا أن الأمر يختلف عما يسمى بعلم الاستغراب . فليس الغرب فى حاجة الى أن نكتشفه أو نقدمه له ، أو لأنفسنا كالأقاليم مجهولة لنفسه ، ولنا . فلقد اقتحمنا منذ زمن بعيد ، ورحلنا اليه طلباً للعلم ، ونوافذ محلاته ومخازنه عريضة مكشوفة ، وليس فى حاجة الى من ينقب فيه ليستخرج منه مخطوطاته ودفائنه ، وحبذا لو أنفقنا جهدنا فى استكمال اكتشاف مخطوطاتنا ، والتنقيب عن آثارنا بأنفسنا وبدون طلب لعونه .

ولقد سبق مفكروه الى نقد بعضهم البعض ، وبيان النسبية التاريخية فى أعمالهم ، والافصاح عن العلاقة الوثيقة بين الأفكار والواقع الاجتماعى والاقتصادى والسياسى ، وهو ما حاول د. حسن أن يستعيده ، موجزاً سريعاً ، فى كتابه .

ما أهمية التسمية إذن ، إذا كانت لا تعنى سوى دراسة الغرب ، فليس فى هذا جديد إلا إذا كان الأمر متعلقاً فقط بمجرد « الاعلان » بأننا ندرسهم كما درسونا ، ولكن بأيسر السبل لأن مكتباتهم مفتوحة أمامنا ، ومطابعهم لا تكف عن الدوران ، ووسائل الاتصال ممدودة لنا نغترف منها دون رقيب .

وهل يجدى هذا « الاعلان » الذى جاء متأخراً جداً عما نقوم به بالفعل منذ وقت طويل ، هل يجدى فى أن يبرئ د. حسن من عقدة الاستشراق وكأن هناك ثأرا قديما ، أو كأن الغرب أثناء عمليات الاستشراق قد اعتدى على عفتنا الفكرية ؟ فليقر المؤلف عيناً لأننا صنعنا ذلك قبله فى قرون النهضة العربية الأولى عندما ترجمنا معظم فكر الاغريق الى لغتنا .

٤ - الهجوم أفضل وسائل الدفاع :

ماذا يبقى لعلم الاستغراب إذا ما أهملنا دوره العلاجي لعقدة النقص ؟

إن مهمتــه كمـا يعلن صـاحبه هي « القضاء على مركب العظمة لدى الآخر الغـربي بتحـويله من ذات دارسة الى موضوع مدروس » (ص ٢٩) ، « لذلك يظهـر الاسـتغراب كدفاع عن النفس ، وخير وسيلة للدفاع هي الهجـوم ، والتحرر من عقدة الخوف تجاه الآخر ، وقلب الموازين رأساً على عقب ، وقلب المـائدة في وجه الخصوم » (ص ٣٠) . وسرعان ما يستخلص المؤلف في الصفحة التالية «أن وعي هـذا الأنا الدارس المهاجم والمشاغب هو » وعي أقرب الى الشعور المحايد » وأن « أنا الاستغراب (أي المؤلف) أكثر نزاهة وموضـوعية وحيـاداً من أنا الاستشراق » (ص ٣٢) ما أجمل ذلك الحياد وتلك الموضـوعية التي تقلب المـوائد في وجه الخصوم !

ولعلنا نتساءل من هذه « الأنا » النزيهة الموضوعية المحايدة التي تنتسب اليها والتي ستقوم بدور « الذات » الباحثة للغرب « الموضوع » ؟ لا يجيب المؤلف عن ذلك على النحو الذي يتيح لنا أن نحدد معالمها، أو نميز مواقفها المبدئية ، بل يجمع كل مانشر أو أذيع في العالم الثالث سواء على مستوى السلطة ، أو المعارضـة ، أو الجماهير ، دون تفرقة ، في زمبيل واحد . وهو يقصد إلى ذلك عامدا لأنه ، لا يود أن يشعل خصومة بين المواقف المتناقضة التي نعلم جيدا أن وسائل الحوار بينها هي السلاح بكل أنواعه . وذلك لأنه يرى أن العدو الأوحد لنا جميعا هو الفكر الغربي ، غير أنني أعتقد أن السر وراء هذا التجميع إنما يرجع إلى أن المؤلف لا يريد أن يفقد تعاطف أية فئة من الفئات السالفة الذكر حتى يذعن الجميع لقيادته من أجل تحريرهم وتحطيم عدوهم . فهو يصرح مثلا بأن كتابه « التراث والتجديد » يبشر بميلاد عصر جديد « لحضارة الأطراف » (ص ٦٠٧) . وهو يعلن أن تاريخا جديدا للبشرية يبدأ بعصر التحرر الذي يواكب أزمة القرن العشرين في الغرب ، وبداية الانكماش الأوربي داخل حدود الغرب الطبيعية وانحسـار ثقافته وآثـاره على الغير (ص ٣٤)

ثم ما يلبث أن يحصى بعض المؤسسات التي أنتجها وعن « الأنا » : الزنجية ، الوجدانية ، الوحدة الاسلامية ، القومية العربية ، الاشتراكية العربية ، الاشتراكية الأفريقية ، لاهوت التحرر في أمريكا اللاتينية ، حركة ماو ماو ، فضلا عن منظمة التضامن ، اتحاد الكتاب ، ومؤتمر عدم الانحياز ومنظمة الوحدة الأفريقية ... (ص ٣٥) وتحت عنوان حركات التحرر الوطني التي تمثل في نظره « مظاهر أمل ودواعي تفاؤل في وعي العالم الثالث ، يحشد كل شئ حتى ما كان منها على خصومة دموية مع الآخر ، أو مضاداً للحرية والديمقراطية ، أو تزييفاً للوعي . فيسمى تجربة الحزب الواحد تجربة فريدة لتجسيد قوى الشعب والتعبير عن مصلحة الجماهير . ويغازل الانقلابات

نقطة البداية للأنا عند د. حسن حنفى هى ظهور الإسلام وبداية الحضارة الإسلامية

العسكرية فيما يسميه « النظريات العديدة عن دور الجيوش فى البلاد النامية التى تشبه عصر الثورة الفرنسية ، نابليون يجسد روح الثورة !! (ص ٧٣٦)

ويثنى على المنظمات الرسمية مثل جامعة الدول العربية ، ومنظمة جنوب شرق آسيا ، ومجلس التعاون الخليجى ، ومجلس التعاون العربى (الراحل) والاتحاد المغربى . (ص ٧٣٧)

كما يتوجه بالتقدير لكل مشروعات وبيانات وتحليلات الأخوة العرب أو المسلمين ، على تناقض مواقفهم . فهو مع القوميين والاسلاميين ، مع اليمين واليسار ، مع الديمقراطية والحزب الواحد ، مع المنظمات الحكومية والشعبية ... فالأنا هو كل ذلك مادام « الآخر » هو الغرب وهو أيضاً كل شىء ، ولا فرق بين اغريقى ونرويجى ، أو بين ماركسى وليبرالى ، أو بين وجودى ولاهوتى ، فلقد حلت عليهم جميعاً لعنة الآخر ، أو الغرب ، والمعنى واحد عنده .

وكنا نتوقع من علم الاستغراب أن يدرس الغرب أو الآخر بمفاهيم وأدوات مختلفة - عما أنتجه الغرب . إلا أننا نصدم عندما نجد الدكتور حسن حنفى قد جمع مذاهب الغرب وتياراته بالطريقة نفسها التى يلجأ إليها أصحاب الملخصات والكتب العامة من الغربيين . ويصيبنا الفزع عندما نطالعه وقد استعار منظومة المفاهيم الغربية ، دون تمييز ، لكى يحلل بها ويناقش ، فيستخدم « الأنا والآخر » والإيديولوجية ، والطبقة ، والبنية والوعى ، واليمين واليسار ، والقطيعة المعرفية وغيرها وغيرها مما يستخدمه أصحاب المذاهب المتنافسة جميعاً ، وكأنه بذلك يعلن إفلاسه النظرى حتى قبل أن - يشرع فى القبض على الآخر وإيداعه سجن الاستغراب الكبير الذى احتل مساحة ٨٨٤ صفحة من القطع الكبير .

الأنا والآخر ومقياس القرون السبعة

يقدم د . حسن اجتهاداً خاصاً ونبؤة تتعلق بالقرون السبعة القادمة . ويعتمد ذلك على محاولة شخصية لتحقيب التاريخ بالنسبة للأنا والآخر على السواء .

فنقطة البداية للأنا عنده هى ظهور الإسلام وبداية الحضارة الاسلامية . ويفترض ذلك أن الأنا لم يكن له وجود فى الحضارات الشرقية القديمة . وربما هذا الحذف أو الاستبعاد لهذه الحضارات العظيمة لتطويع تاريخ الأنا للتحقيب العشرى الذى يجعل من كل سبعمائة عام وحدة زمنية لكل مرحلة من مسار الأنا أو الآخر .

فقد انتهت مرحلتان ، الأولى من القرن

الأول الهجرى حتى السابع ، والثانية من الثامن الهجرى إلى الرابع عشر ، وبدأت الثالثة – منذ عشرة أعوام ، كما يقول ، لتنتهى فى القرن الحادى والعشرين الهجرى التى يتنبأ بأنها ستشهد العصر الذهبى الثانى للحضارة الاسلامية .

وهو يصرح بأن يقينه من صحة نبوءته مستمد من استقرائه العلمى للماضى فقد كان ثمة إبداع فى القرون السبعة الأولى ثم توقف الإبداع السبعة التالية ، ولا مناص أن يلى ذلك نهضة فى السبعة القادمة . وكذلك حدث فى مراحل تطور الغرب ، فقد انتقلت الريادة من الفرس والروم إلى المسلمين ، ثم استردها الغرب ، لتعود ثانية فى القرون القادمة إلى المسلمين (ص ٦٩٦ – ٧٠٨)

فإذا سلمنا جدلاً بمنطق الانطلاق ثم الانتكاس ثم العودة أو النهضة فى تاريخ الحضارات ، لترتب على ذلك أن الحضارة أو الريادة تعود إلى أصحابها الذين فقدوها منذ سبعة قرون ولكننا نعرف أن الفرس والروم لم تقم له قائمة حتى اليوم ، وأن ما سلف من أمم لم تستعد حضارة سابقة كانت لها .

أهناك سر خاص لسريان القاعدة على المسلمين وحدهم ؟ فالقاعدة لا تصدق على الحضارة المصرية أو الفارسية أو غيرهما من الحضارات القديمة المعروفة ولا نكاد نعثر على عاقل جاد يحلم باستعادة عصورها الذهبية لعل المقياس أو الشرط هو الدين . إذن لماذا لا نطبقه أيضاً على اسرائيل ، فنحقب تاريخ اليهود سبعمائة عام بعد سبعمائة لكى نكون منصفين ؟

ربما يرجح لدينا أن عجز تلك القاعدة السبعمئينية التى تعبر عن أحلام نبيلة عند مؤلفنا يرجع إلى اعتماد كل تحليلاته على مصطلحه الأثير « الأنا الآخر » واعتقاده أنهما يمثلان وقائع علمية يمكن رصدها واستخلاص نتائجها . على حين أن ذلك مجرد تصور فردى للمتغيرات والظواهر التاريخية والاجتماعية والثقافية وقد يصلح استخدامه فى فلسفات الوجود الذاتية أو علم النفس الفردى ، ولكنه لا يلائم تفسيرنا للوقائع التاريخية المعقدة .

وهو يشير إلى أسلوب تبسيطى اختزالى يجمع كل المتغيرات التى ينبغى أن نتعرف عليها ونميز بينها فى طرفين أو قطبين فقط . كما أنه يمثل توجها معياريا مبيتا . ولا شك أنه مفهوم فضفاض لا يميز شيئا ولا يضيف علما جديداً لأنه مضاد لكل مقاييس المنهج العلمى الذى يؤثر استخدام المتصل أو التدرج أو التفاعل بين المتغيرات ، وبيان الشروط المكانية والزمانية، ويوشك مفهوم الأنا والآخر أن يكون مفهوماً لاهوتيا يتعامل مع أقانيم أو جواهر مستقلة ، فإما مؤمن أو كافر . ومن ثم لا يفضى إلى حوار حقيقى بقدر ما يعلن حربا باردة أو ساخنة بين الطرفين . بل نحن لا ندرى فى كتاب علم الاستغراب من هو الأنا ، هل هو العالم

أضحت مهمة كثير من مفكرينا إنفاق الجهد فى لصق بطاقات عربية وإسلامية على إبداعات الآخرين الفكرية !

الثالث ، أم الاسلامى أم العربى ، ولذلك يلحق د. حسن شعوب أمريكا اللاتينية بالمسلمين ويسميهم المؤتلفة قلوبهم الجدد ! ص ٧٢٣

فهذا المفهوم ، على أية حال ، تجريد مفرغ من المضمون ومن المتعذر التعرف عليه ، فليس ثمة كيان واحد متجانس فى التعامل مع البشر فى تنوعاتهم وتباين مواقفهم ومصالحهم ، وبالتالى لا يصلح اصطناع ما يشبه المتوسط الحسابى أو الاحصائى فى دراسة العلاقات بين الحضارات .

إن هذه المشروعات النهضوية أو الحضارية تحلق بعيدا وتكرس انفصالاً عن أية شبهة فى الدعوة إلى للتغير الجذرى أو التدريجى فى بنية المجتمع ، لأن مثل هذه الدعوة تحمل أصحابها تبعات المعركة وهموم البناء بينما الحديث عن الأنا والآخر ينقل المعركة إلى جمال الفكر والسلوك الفردى الذى يخلع على أصحابه رداء المهابة والرصانة . وبدلاً من منازلة المشكلات الحقيقية فى مجالاتها الواقعية يلوذ أصحابنا بمجال الوعى الذى يستمدون منه تعريفاتهم المستعارة للمشكلات بحيث تظل أيديهم نظيفة ناعمة ونائية عن المواجهة المباشرة للواقع الفعلى، أو لسلطات الضبط والتحقيق .

لقد أضحت مهمة كثير من مفكرينا انفاق الجهد فى لصق بطاقات عربية واسلامية على ابداعات الآخرين الفكرية مثلما نطلق تسمية « نصر » على السيارة « فيات » أو كما نكلف لجنة دائمة لمؤتمر الطب الاسلامى بانتظار ما يكتشفه الآخرون فى مجال الطب لكى نبحث له عن أصول فى القرآن أو السنة .

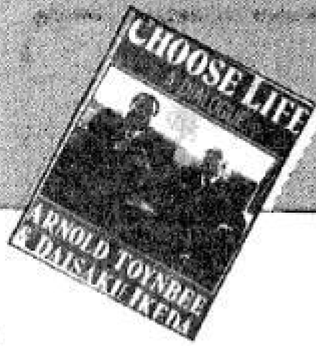
لماذا لا نبادر بالبحث والابداع بدلاً من أن نهنئ أنفسنا بعودة هويتنا الضالة أو نتنعم بأحلام السيطرة على العالم حتى القرن السابع والعشرين !

وأخشى أن يجد طلابنا وشبابنا فى كتاب علم الاستغراب – ما يتعلق كسلهم وجهلهم بما يزخر به الكتاب من استخفاف لفكر المبدعين بحجة نزع الهيبة من الغرب .

فالعلاج لا يكون بالتهوين من شأن « الآخر » بل بالمزيد من الإطلاع على ما لديه ثم سبقه إلى الإبداع . وليطمئن الذين يطالبون بأعلى أصواتهم بفكر أوعلم عربى، فإن أحداً لا يمنعهم من الابداع مثلما لا يمنعهم من الصراخ . ولن تفلح الطريقة السحرية القديمة فى إلغاء الخصم أو صرعه على الورق ، أو ترديد الرقى والتعازيم لترسيخ الإيحاء الذاتي ، لن تفلح فى رفع قاماتنا أصبعا واحداً ، فإعلان الأمانى لا يكفى وحده فى إنجازها .

• عرض كتاب •

اختر الحياة



• عرض : د . أمين العيوطى

فى هذا الكتاب يلتقي القارىء مع حوار بين ثقافتين جرى على امتداد ثلاث بين المؤرخ العظيم آرنولد توينبى وايساكا إكيدا رئيس منظمة بوذية عالمية تدعو إلى نشر التعليم والثقافة والسلام . وقد امتد الحوار ليشمل القضايا الحيوية التى تواجه الانسان المعاصر مثل تلوث البيئة ، تضاؤل الموارد الطبيعية ، طبيعة الانسان وعلاقته بالمخلوقات الأخرى والطبيعة والكون وغيرها ، ويجمع الاثنان على أن بقاء الانسان على قيد الحياة مهدد بقدرته على تدمير بيئته الطبيعية وعدم التوازن بين قدراته التكنولوجية وعدم نضجه الأخلاقى ، وأن الحل يكمن فى وحدة الانسان والكون وقد أخترت لك ، عزيزى القارىء ، بعض أهم القضايا التى يثيرها الحوار . فهذا العرض ، فى نهاية الأمر ، لن يغنى عن قراءة الكتاب نفسه .

أساسيات الحياة الانسانية

يبدأ الحوار عن الجانب الحيوانى فى الانسان فيطرح اكيدا موضوع التحرر الجنسى فى أوروبا وأمريكا واليابان الذى يهدد بتقويض المجتمع الانسانى . ويرى توينبى أن الانسان حيوان واع بوجوده الروحى الذى يسبغ عليه جلالا لا يتوافر للحيوان . لهذا تضعه الأعضاء الجسدية ووظائفها وشهواتها فى موضع محرج .

ولكى يحافظ الانسان على تميزه بالجلال فانه يلجأ إلى ابتكار أعراف ليميز طريقة تعامله مع أعضائه وليحمى انسانيته . وهكذا فان معيار التعامل مع الاتصال الجنسى هو أنسنة العلاقات الجنسية بالحب ذلك أن العلاقات الجنسية بخلاف الوظائف الحيوانية الأخرى لا تؤثر على الفرد فقط وانما على شخصين على الأقل أما التسيب الجنسى فيرجع إلى الحروب التى تعزل الجنود عن قيمة الحياة

حوار بين ثقافتين

• أرنولد توينبى
• دايساكا إكيدا



أرنولـد توينبى وايسـاكا إكيـدا

الانسانية وعن بيئتهم الاجتماعية . إلى هذا يضيف اكيدا أن التسيب الجنسى يتسبب فى اضعاف قوة الحياة الداخلية الذى نتج عن الحضارة المادية الحديثة ، وأن الحب وحده لا يكفى مالم يقترن بغرس الايمان بقوى الحياة التى تولد هذا الحب .

ويثير هذا الموضوع موضوع العلاقة بين العقل والروح والجسد ، فيقول اكيدا إن الروحانيين يؤكدون على الأخلاق والحب للحفاظ على انسانية المجتمع الانسانى ، فى حين يؤكد الماديون على الجانب المادى فى الحياة . كلاهما يؤكد جانبا واحدا ولهذا يفشل فى فهم العلاقة بين الروح والجسد . ويتفق توينبى معه فى الرأى بأن المادة والروح يشكلان وحدة لا تتجزأ ويشير اكيدا إلى أن البوذية تنظر إلى هذين الجانبين على أنهما وحدة واحدة وأن الحياة تتجلى فى أصدق أشكالها حين يصبح الاثنان كيانا واحدا حيا ، بل تذهب البوذية إلى أبعد من هذا فى تفسيرها لطبيعة الحياة المادية فى علاقتها بالحياة الكونية فى سبيل توجيه العلاقة بين الجسد والعقل نحو خلق نوع جديد من الحياة .

وفى ضوء العلاقة بين الجسد والعقل تتضح أيضا العلاقة بين الوعى واللاوعى . ففى حين تركز الحضارة الغربية على دراسة الوعى ودوره فى تهذيب اللاوعى ، تركز البوذية على تكاملهما وعلى ضرورة التفكير العميق واستبصار طبيعة الحياة والتأمل للوصول إلى الحقيقة الروحية المطلقة ويصل توينبى إلى نفس الرأى فيقول إن وجهى الحياة النفسية لا يتجزآن وأن اللاوعى ، مصدر الشعر والبصيرة الدينية ، متطابق مع الحقيقة المطلقة التى تكمن وراء الكون كله ، وهى ما تعنى فى



البوذية قوة الحياة الكونية التى تتمثل فى ظواهر الكون . وهذا هو ما يحاول الفكر الغربى أن يصل اليه الآن من خلال دراسة وجود الروح .

البيئـــة

وكما أن جوانب الحياة الانسانية لا تتجزأ فكذلك العلاقة بين الانسان والبيئة . فى هذا الاطار ترى البوذية أن هذه العلاقة ليست علاقة تضاد بل علاقة اعتماد متبادل . فالجسد الانسانى والبيئة كيان واحد . وأســاس هذه الوحدة هو قوة الحياة الكونية . على هذه الفكرة يرد توينبى بأن هذه هى نفس الفلسفة التى توصل اليها الاغريق والرومان . وقد كان من جراء هذا الاعتقاد أن صاغ أسلاف الشعب اليابانى معايير للحد من تلوث البيئة . غير أن اليابانيين فى العقود الأخيرة قد وضعوا نصب أعينهم مســـايرة الأمم الغـــربية المتقدمة ، وتخلوا عن دينهم التقليدى وموقفهم من الطبيعة والعلاقات الأخلاقية بين البشر كل هذا تحت تأثير الجشع المادى . وليس هذا قصرا على شرق آسيا بل تقاسمه معها البشر جميعا حتى راح الانسان الغربى يغير بيئته من خلال تصحير الأرض وقطع الغابات . ويرى توينبى أن الديانة اليهودية لعبت دورا فى هذا الشأن حين كرست القداسة فى الخالق وحده ، وسلبت الكون قداسته ، وأعطت الانسان فى استغلال الأرض ومواردها ، فى حين أن المسيحية رأت أن الجشع الاقتصادى يتعارض مع عبادة الله، وأن المسلمين الآن أكثر ترددا فى تبنى التكنولوجيا الحـــديثة وما تخـــدمه من أهداف .

وفى حوارهما حول هذه النقطة يصل الرجلان إلى أن التطورات الحضارية قد ضاعفت التلوث على أيدى المؤسسات الصناعية التى جعلت الناس ضحايا ولكنهم أيضا مذنبون بسبب اسرافهم فى استهلاكهم الخاص . ومن السهل القضاء على التلوث الصناعى من خلال التشريع ، ولكن من الصعب اقناع الأفراد بالعمل فى هذا الاتجاه بارادتهم . وحتى يصل الناس إلى مدى اسهامهم فى التلوث فلابد لهم أن يفحصوا حياتهم اليومية ليستبعدوا منها كل ما يسهم فى التلوث ، وألا يخضعوا للحملات الدعائية عن السلع المعمرة مثل السيارات ، وأن يضعوا حدا لاستخدام الأدوية والمنتجات الكيمائية والمواد المضافة إلى الأطعمة .

التعليم

أن هدف التعليم هو مساعدة الانسان على أن يرى بوضوح ما يجب أن يكون عليه وكيف يعيش . غير أن الناس فى المجتمع الحديث ينظرون إلى التعليم على أنه يخدم المنفعة المادية ومع تقدم الحضارة التكنولوجية أصبح للتعليم أثران سيئان بأن جعل التعليم أداة للسياسة والاقتصاد ، كما أكد على المعرفة العقلية والمهارات التكنولوجية . كذلك فإن التعليم وحده غير كاف لتطوير الامكانيات الفردية وتثقيفها . ولهذا فإن أداء الطالب فى المدرسة لا يجب أن يكون الحكم النهائى على قدراته ، بل يجب أن يتبع التعليم فى المدارس التعليم الذاتى مدى الحياة . فالتعليم الأكاديمى وحده لا يكفى لأن يجعل الانسان حساس العقل والروح . ولابد من ابتكار وسائل لربط الطلبة بالمجتمع وتزويدهم بالخبرات المتنوعة بحيث يسهم التعليم فى تطوير الكيان الانسانى كله .

وعن التعليم المختلط يقول توينبى إنه يخلق الآن مشكلة خطيرة ، هى مشكلة الاباحية الجنسية خاصة فيما بين سن الثالثة عشرة والثامنة عشرة . غير أن التعليم الذى يفصل بين الجنسين له أيضا مساوىء انتشار الشذوذ الجنسى خاصة فى المدارس الداخلية . ويرى أكيدا أن حل هذه المشكلة أن تقوم المؤسسات التعليمية بتعليم الطالب احترام حرية الحكم على الأشياء وتطوير شخصيته وإلا كانت المدرسة لا تقوم بدورها على ما يرام .

الأدب والرقابة

وعن دور الأدب فى الحياة العصرية يقول توينبى أن أعمال تولستوى أدت إلى تأثيرات عالمية فى ايقاظ ضمير القلة القوية من الأغنياء ، خاصة فى روسيا ، حتى يصلحوا المجتمع بطرق كثيرة بما فى ذلك اطعام الجائعين . ذلك أن تولستوى كرس عبقريته لترقية الرفاهية الانسانية وللأدب تأثير عملى إذا كان تعبيرا تلقائيا عن الحافز الابداعى للكاتب ، لا تعبيرا عن الاتجاه السياسى السائد فى الدولة . إلى هذه الرؤية يضيف اكيدا أن الآداب التى تحكمها العقائد السياسية أو الدينية لا يمكن أن تثير استجابة عالمية لما يحكمها من رقابة الدولة . ويذهب توينبى فى هذا إلى أن هناك دافعين لرفض السماح بحرية التعبير . فالرقابة اللاهوتية لها تأثير مدمر على الأدب وليس لها ما يبررها . أما الرقابة التى تقوم على أسس أخلاقية فانها تثير مشكلات عويصة . فهناك قلة من الناس ترى أن التحريض على الاباحية الجنسية وتعاطى المخدرات والشذوذ واستخدام العنف يجب أن يكون مباحا . وتعريض الشباب لتأثيرات مفسدة أمر غير مقبول . لكن ليس هناك اجماع على الخط الفاصل بين المسموح به والممنوع غير أنه لما كانت الرقابة فى أى شكل من أشكالها قد تمتد لتشمل أمور الفكر والعقيدة فإن توينبى يرى أنه ليس من حق المؤسسة السياسية أن تحظر العقائد الدينية والفلسفية ، فالفن لا يزدهر فى المجتمع



الشمولى لأن الفنان يتجنب الاشتباك مع الرقباء مما يقتل حريته الرقابية وتلقائيته . وفى رأى اكيدا أن الكاتب قد يلجأ تحت هذه الظروف إلى العدمية أو إلى الشغف بالأدب الاستبطانى الذى يسهم فى يأس الكاتب العدمى . غير أن توينبى يرى أن الأدب الاستبطانى له واحد من هدفين . فقد يكون انسحابا من الكاتب إلى داخل ذاته بعيدا عن الاتصال بالآخرين وبالكون ، وقد يكون بحثا داخل أعماق اللاوعى للاتصال بالحقيقة الروحية المطلقة . الهدف الأول سلبى والثانى ايجابى .

الصحة

فى هذا الموضوع يطرح اكيدا فكرة تقدم الطب فى العالم الحديث . غير أنه من المؤسف أن بعض الأطباء قد فقدوا احترامهم للحياة الانسانية وانحطوا بمعاييرهم الأخلاقية . ويؤكد توينبى هذا المعنى بقوله إن أولوياتهم انصبت على كسب الرزق ، وأن العلاقة الشخصية بين الطبيب والمريض قد اختفت . ولعل هذا يرجع جزئيا إلى تقدم العلوم الطبية التى وفرت وسائل فعالة للكشف عن الأمراض ، وهى وسائل تخضع الأشياء للنظرة الموضوعية . وهكذا فان الحياة الانسانية حين تتعرض للدراسة العلمية تصبح شيئا سقط عنه الاتصال الروحى مع الطبيب . وعلى الرغم من أن الطب يتطلب أساسا عقليا باردا ، فإنه لابد أن تكون هناك عاطفة انسانية دافئة . ويتفق الرجلان على أن الطبيب لا يمكن أن يكون طبيبا على المستوى الروحى والأخلاقى مالم يكن لديه موقف دينى أو فلسفى من الحياة الانسانية والكون الذى يعيش فيه الانسان .

وعن عمليات زرع الأعضاء يقول اكيدا أنها تثير جدلا من وجهات نظر دينية وأخلاقية وفلسفية . فهى تنطوى على موت الواهب . وفى ظل الأساليب الطبية والجراحية الراهنة لا يصبح اجراؤها ، بل يجب حظر زرع المخ على الأخص لأنه ينطوى على إحلال الجزء الأساسى من ذات المتلقى المفكرة . وفى حالة زرع الكبد والقلب فلابد من الامتناع عنها حتى تصل إلى أسس علمية لا يرقى اليها الشك لتقرير ثبوت الموت . بيد أن توينبى يرى من حيث المبدأ أن زرع الأعضاء لا يتنافى مع جلال الانسان وكرامته ، إذا كان هناك شخص قد توفى وأن قلبه يضمن انقاذ حياة شخص آخر ، أو أن شخصا حيا تبرع بتضحية حياته لينقذ حياة آخر ، أو إذا توفى شخص ورغب شخص آخر تلف مخه فى استبداله بمخ آخر . لكنه يتفق مع اكيدا أن الطب لايزال عاجزا عن وضع معيار علمى لتقرير لحظة الموت أو التنبؤ

بأثر زرع عضو ما . ويتفق الاثنان على أن يتخذ قرار زرع الأعضاء فريق من الأطباء وعلماء المناعة وجراحي المخ والمتخصصين، وأن تعلن خطـــوات العملية قبل الزرع وبعده ، وأن يكون الفريق الذي ينزع القلب غير الفريق الذي يزرعه ، وأن يكون هناك قدر من المسئولية الأخلاقية لدى جميع الأطراف .

أصل الحياة

يبدأ اكيدا الحوار حول هذه النقطة بأن يشير إلى نظرية تطور الحياة من مواد غير عضوية إلى كائنات حية ، وأن ما يجب أن يشغل العلماء لا الكيفية التي ظهرت بها الحياة على الأرض وانما لماذا ظهرت في عالم من المواد غير الحية . ويضيف رأيه بأنه على الرغم من أن الأرض غير حية إلا أن الميل إلى ظهور الحياة كان كامنا فيها ، وأن ما ندعوه أصل الحياة لا يعدو أن يكون النقطة التي ظهرت عندها الحياة . ويتفق توينبي مع اكيدا على أن كل شيء يوجد كان موجودا منذ البداية . غير أنهما يختلفان ، ففي حين يؤمن اكيدا بالتطور يؤمن توينبي بالخلق . ويبرر اكيدا رأيه بأن توليفة الحياة لا تعني الخلق بل الطريقة التي أبدت بها الحياة نفسها فالوجود واللاوجود متلازمان في البوذية بمعنى أن حالة اللاوجود تنطوي على امكانيات كامنة للوجود وحين تكون الظروف مواتية لميل الحياة إلى الظهور فإنها تتولد في أي مكان أو زمان أما توينبي فيرى أن الحياة والواقع في حد ذاته أمر غامض لا يمكن تفسيره في ضوء التطور .

مسألة الخلود

في مسألة الخلود يتفق المفكران على أن عودة الجسد إلى التراب لا تعني نهاية الحياة ، بل استمرارها في شكل وحدة نفسية لا جسدية . لكنهما يطرحان من وجهة نظر دينية تفسيرين مختلفين . فتوينبي يطرح التصور المسيحي بأن الجسد الذي يبعث ليس هو الجسد المادي بل هو جسد روحي ، وأن للكون بداية ونهاية لكنه سيكون خالدا في شكل يختلف عن شكله الحالي . ويطرح اكيدا فكرة التناسخ البوذية ، أي أن الروح قد عاشت لفترة لا نهائية من الزمن قبل أن تولد في هذا العالم في شكل جسد وأنها ستواصل حياتها بعد الموت في هذا العالم في شكل جسد ، ومن خلال سلسلة من الولادات المتتالية تصل إلى نهاية من خلال محاولاتها الروحية في هذا العالم .

ويحاول الاثنان الاجابة عما إذا كانت الحياة الخالدة تتحد مع الحقيقة الروحية المطلقة في العالم الآخر ، وما إذا كانت كل الأرواح تتحد مع هذه الحقيقة بنفس الدرجة بغض النظر عن النتائج الأخلاقية لأفعال الفرد خلال حياته . على هذا السؤال يجيب توينبي بأن أعمال الفرد في حياته لها نتائجها لا بالنسبة له وحده بل بالنسبة للبشر والكون والحقيقة الروحية



هى فى واقع الأمر وحدة متناغمة لابد من فهمها على أنهما كل لا يتجزأ .

الخير والشر

المطلقة . غير أن توينبى لا يؤمن بخلود الروح حيث إن هذا أمر لا يمكن التحقق منه كما أن التمييز بين الروح والجسد أمر افتراضى فى هذه الحياة فى بعدها الزمنى . ولما لم تتوافر لنا تجربة وجود أرواح منفصلة عن الأجساد فلابد أن نستخلص أن الروح تتوقف عن الوجود فى لحظة الموت ، لكنها تصبح وجوداً خارج البعد الزمنى الذى نألفه . ولما كانت الحقيقة المطلقة لا توجد فى البعد الزمنى فإن الروح تمتص فى الحقيقة المطلقة . ويرد اكيدا قائلا إنه على الرغم من أن الجسد يموت وتحلل فإن الخصائص الجثمانية التى تتقمصها الروح تستمر فى الوجود . وبهذا التصور فإنه من الخطأ أن نتصور أن الموت يفصل الروح عن الجسد . ولما كانت الحقيقة المطلقة ، كما قال توينبى ، تسمو على الزمان والمكان ، ولا ترى بالعين المجردة فإننا قد نظن أنها تشبه اللاوجود . غير أنها قادرة على أن تظهر فى أشكال منظورة وبهذا تصبح موجودة وجودا خالدا خارج الزمن لكنها تبدى نفسها كحياة ووجود وكموت ولا وجود . فالروح والجسد والحقيقة المطلقة

من هذا يصل الرجلان إلى مناقشة الخير والشر فى الطبيعة البشرية فيدحضان فكرة الشر الفطرى الكلاسيكية وفكرة الخير الفطرى الرومانسية ، ويريان الانسان مزيجا من الخير والشر بنسب متفاوتة . هذا المزيج فى الطبيعة البشرية نتيجة العلاقة بين الكائن الحى وبين الكون وهى علاقة تعطى الانسان القدرة على اختيار المواقف والسلوك . فإذا حاول الانسان استغلال الكون ليصبح مركزه فإنه يقترف شرا ، وإذا كرس نفسه لخدمة الكون وأهدافه فإنه يعمل خيرا . والميل الطبيعى للذات الأنانية هو محاولة السيطرة على الكون واستغلاله . لكنها قادرة أيضا على تكريس نفسها للآخرين وللأشياء . وعلى هذا الأساس يجب التحكم فى الأنا من خلال التحكم فى النفس وانكارها والتضحية بها إن أمكن من خلال الحب الكونى . لكن القادرين على هذا قلة ولهذا فإن المجتمع الانسانى فاشل أخلاقيا واجتماعيا إذا حكمنا عليه بمعايير السلوك التى يحددها الضمير والمجتمعات المتحضرة ليست متفوقة أخلاقيا على المجتمعات البدائية . فالتطور التكنولوجى

يأتي معه بمزيد من القوة التي تستخدم للخير أو الشر . والتطور التكنولوجي لا يصاحبه تطور أخلاقي بنفس القدر . ولن يستطيع الانسان تجنب الانتحار الجماعي من خلال امتلاكه للقنبلة الذرية مالم يرتفع بمستوى سلوكه إلى معايير السلوك السامية . ولن يتأتى هذا من خلال ضغوط اجتماعية وغيرها بل يجب أن يجاهد الفرد ليصلح ذاته وهو ما يعد ثورة انسانية .

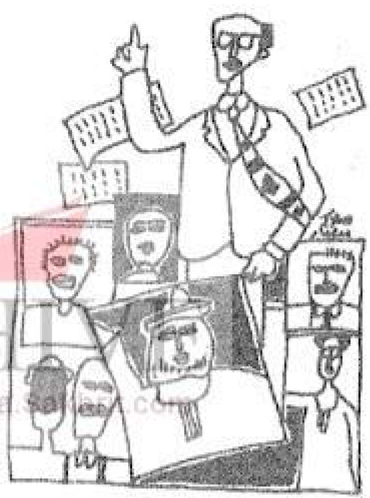
القيمة الانسانية الأسمى

ويؤدى الحوار إلى محاولة البحث فى القيمة الانسانية الأسمى . يرى اكيدا أنها لابد أن ترتبط بجلال الحياة بصفتها معيارا كونيا وأن أية محاولة لاعتبار أية قيمة مادة أو اجتماعية أعلى من هذه القيمة لا تجلب إلا قهر البشرية ولا يقصر توينبى هذه القيمة على الفرد بل يمدها لتشمل الكون الحى كله بل والأجزاء غير العضوية وغير الحية فى الطبيعة كالأرض والهواء والماء والصخور والينابيع والأنهار والبحار فإذا انتهك الانسان جلالها فانما ينتهك جلاله هو نفسه . مثل هذا التقليد فى احترام العوالم النباتية والحيوانية وغير الحية تقليد يابانى يصاحبه حس جمالى قوى وتقدير للحياة . غير أن اليابانيين منذ أن تبنوا خبرة الغرب التكنولوجية منذ قرن أخذوا ينتهكون جلال الحياة وجلال كل ما هو غير حى . واليوم يسود العالم رد فعل ضد تلوث الطبيعة نتيجة للتكنولوجيا الانسانية . فالجيل الحالى يرى أن الانسان بانتهاكه للطبيعة إنما ينتهك جلاله ذاته .

إلى هذا يضيف اكيدا أن قوة الحياة التى تسود كل الأشياء تحافظ على التناغم فى العالم الطبيعى . والانسان نفسه ليس الا جزءا من الكون ، وحين يصيب الكون بأذى فانما يصيب نفسه . وتفسر البوذية الطبيعة والكون على أنهما قوة حياة عظيمة واحدة ، وأن جلال الحياة لا تعادله أية قيمة أخرى .

مع هذه النظرة يتفق توينبى ويرى الجلال والشرف والكرامة قيما مطلقة لا نسبية ولا يمكن مبادلتها بأية قيمة أخرى . فالانسان يفقد احترام الآخرين له إذا باع نفسه ليكسب ثروة أو مكانة اجتماعية . والانسان يفقد كرامته إذا لم يحترم كرامة الآخرين . لطبيعة الشىء الذى يعلق عليه الفرد قيمة أعظم تميز مرتبته من الحياة كلها . ولهذا فإن كرامة الانسان وجلاله يتمثلان فى الغيرية والتعاطف والحب وولائه للكائنات الحية الأخرى وللكون وموقف الانسان الحالى يجب أن يشعره بالتواضع الذى يستثيره إلى تحقيق الكرامة التى لا يمكن أن تكون للحياة قيمة بدونها . فهى لا تتحقق فى مجال التكنولوجيا والاستكشافات العلمية بقدر ما تتحقق فى مجال الأخلاقيات ، والانجاز الأخلاقى لا يقاس بالجشع والعدوانية بل بالتعاطف والحب .

قبل أن يحتكروا حق التفكير



بقلم :
د . يحيى الرخاوى

تَرددتُ كثيرا قبل أن أستقر على عنوان هذا البحث ، حيث أنه كان فى البداية يحمل صفة " منظور إسلامى مباشر " إلا أننى خشيت أن يختزل إلى ما يسمّى بالطب النفسى الإسلامى كما شاع أخيرا أو أن يشوه فى اتجاه الدعاية السطحية للدين تحت دعوى مقاومة الغرب ، الأمر الذى لم يعد يظهر فى أغلب الأحوال إلا كأطروحة سلبية تبرر البدائية والنكوص أو أن يقاس بمقاييس تقليدية : إما بالرجوع إلى نص جامد ، أو بالاحتجاج بمنهج علمى مغلق ، كما أننى خشيت أن يقرأه غير أهله بلغة غير لغته أو يطبق ما جاء به لغير ما يَنْفع له .

● من البديهيات التى نحب أن ننساها بداية أن العلم ليس مرادفا للمعرفة

ما ليس كذلك

لكل ذلك قدرت أنه إبراء لذمّتي عليّ أن أبدأ بنفي أمور لم أقصد إليها أصلا كما يلي ، فالرأي الذي أقدّمه :

١ - ليس خاصًا بـ (أو مغلقا على) دين الإسلام الحنيف .

٢ - ليس خاصًا بتفسير سابق (ثابت) لدين الإسلام الحنيف .

٣ - ليس خاصًا بالأطباء النفسيين من المسلمين .

٤ - ليس خاصًا بالتطبيق العلمي السطحي واستعمال الدين للشفاء .

٥ - لا يتطرق أصلا لمسائل خارج نطاق مُا وضع له هذا الفرض .

ما هو كذلك

هو مدخل إلى المعرفة

وهو رأي في المنهج

فإذا كان الأمر كذلك ، فلماذا قفز إلى ذهني العنوان الأول يصف هذا المدخل أنه من : منظور إسلامي ؟ " أصلا .

لقد حاولت أن أحل محلها : منظور إيماني أو منظور تطوري كوني أو منظور شرقي إخناتوني ، لكنني وجدتني أخون أمانتي ، فهذا المنطلق في الفهم والإبداع هو نابع من لغتي العربية دون سواها ، ومن ديني : الإسلام دون سواه ..

وأحسب أنه من أبسط درجات العرفان والأمانة أن أنسب الأمور إلى أصولها ، فكان العنوان الأول التزاما أخلاقيا ، وموْضعة معرفيةً لا مفرّ منها .

مخاطر

ورغم هذا وذاك فمازلت أستشعر المخاطر من مصدرين أساسيين :

١ - المصدر الأول هو الزملاء الأطباء النفسيون الذين اعتادوا أن يفكروا بلغة أخرى ، وأن يمارسوا بلغة أخرى ، وأن يحلموا بوعي آخر .

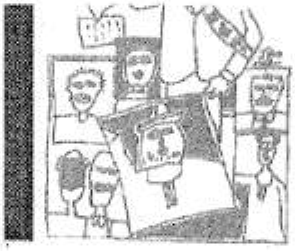
٢ - المصدر الثاني هو المسلمون التقليديون الذين يتصوّرون أن تفسير ديننا هو حكر عليهم ، فهم إما أن يجتزئوا ما أقدّمه ثم يروّجوا به أفكاراً سطحية لم تخطر على بالي ، تحت عنوان مثل التفسير العلمي للإسلام أو للقرآن ، وإما أنهم سوف يرفضون ما ذهبت إليه باعتباري غير مختص ولا يحق لي أن أفهم ديني كما ألقاه ربي في وعيي الذي سوف يحاسبني به وسوف يحاسبني عليه ، فإذا قبلوا أن يعتبروا أن هذه الرؤية التي أعلن أنها من فضل إسلامي على عقلي ، إذا قبلوا أن تكون كذلك ، فلتكن ، ولهم الشكر ولوحدتي الكسر ، وإذا لم يعجبهم ما جئت به ورأوه تزيدا ، أو فهما خاصًا فما عليهم إلا أن يلاحظوا الفرقَ بين " من منظور إسلامي » وبين « حالة كونه مسلما " كما حوّرت العنوان أخيرا .

تعدد وسائل المعرفة

من البديهيات التي نحب أن ننساها - لست أدري لماذا - بديهية أن العلم ليس مرادفا للمعرفة ، ولا هو أفضل الوسائل للوصول إليها .

كما أن الفن ليس نشاطا تفريغيا أو جماليا مكملا وإنما هو - في صورته الحقيقية - وسيلة أيضا للمعرفة .

وأيضا فإن الدين ليس فحسب طقوسا تؤدى أو معتقدا دفاعيا مشتركا ، وإنما هو بالضرورة وسيلة إنسانية للمعرفة .



والوسائل التى أقدمها هنا هى على سبيل المثال لا الحصر ، لأن ثمة سبلا ومجالات أخرى للمعرفة لابد أن تأخذ مكانها المناسب ، فمثلا : أين تقع الأحلام (كوسيلة للمعرفة) ؟ ، وأين يقع النشاط الحركى الجسدى ؟ هل الجسد مجرد حامل للرأس الذى هو بدوره حاو للمخ أداة المعرفة الأولى ؟ أم أن كلا من الأحلام والنشاط الجسدى وغيرهما هما أدوات تلقائية وجيدة للمعرفة ؟

فهذا المدخل - إذن - ينفى بشكل مباشر ذلك الزعم القائل بالتفسير العلمى للدين ، وهو زعم كما ألمحت شاع أخيرا وكأنه دليل جديد معاصر لإثبات أن الدين دين ، أو أنه يستأهل أن نظل نعتنقه ، لدرجة أننى فى كثير من الأحيان لا أقرأ هذا المصطلح على أنه " التفسير العلمى للدين " بل على أنه " التبرير العلمى للدين " ، وأحيانا ما أتصور أن العلم - بذلك - يرد دينا للدين أو هو يرد صفة له ، ففى عصور الظلام ، فى القرون الوسطى فى أوربا مثلا - كان على العلم أن يبحث عما يمكن أن يسمى التبرير الدينى للعلم كجواز مرور حتى يمكن أن يُعلَن العلم أو يُتقبَّل أو يُتداول ، وها هو العلم بدوره يدعى أنه يردّ الجميل بأسطع ما يكون من الطبطبة على المقولات الدينية وكأنه يقول للدين " برافو " أنا وجدتك صحيحا (!!!!) فهو بذلك ، ورغم حسن النية ، يختزل الدين ويحرمه أن يكون سبيلا معرفيا فى ذاته لا يحتاج إلى اعتراف من خارجه .

تضفر وسائل المعرفة

وأحب أن أنتقل بعد ذلك إلى علاقة هذه الطرق الثلاثة الرئيسية ببعضها كوسائل متضفِّرة تختلف فى طبيعتها ومناهجها وأدواتها ، لكنّها تتفق فى غاياتها وتوجّهها ، وقد قدّرت فى البداية أن العلم والفن والدين هى طرق متوازية للوصول إلى الحقيقة ، لكننى رجعت فتحفّظت تجاه ذلك خشية أن يفهم - ضمنا - أن التوازى يتضمن ببساطة عدم التقاء المتوازيين . ثم خطر ببالى تعبير التكامل بين هذه الوسائل (العلم والدين والفن) إلا أننى أيضا شعرت بأن لفظ التكامل قد سبق سوء استعماله لدرجة بهتت معها قوتّه ، فرضيت مؤقتا بلفظ التضفّر على أن يشمل ذلك كلا من : التفاعل الجدلى ، والتعدد الكشفى ، والتضام الفائى فى آن واحد .

أما التفاعل الجدلى فهو النابع من العلاقة الحركية الحيوية الخاصة بين التناقض ، والتى هى قانون الحياة الرائع والذى مازال الفضل فى الكشف عنه يرجع لهيجل حقيقة وفعلا ، وإن كان لا يقتصر عليه بداهة .

وأما التعدد الكشفى ، فهو يشير إلى أن المعرفة تعنى بالضرورة تعميق الوعى (وليس مجرد زيادة المعلومات) بما يترتب عليه من توسيع مساحة الرؤية أى الكشف عن جوانب وأبعاد الظاهرة .

أما التضام الغائى فهو يضيف تبريرا لكلمة التضفر التى اخترتها مؤقتا كما أنه يؤكد على مفهوم الفكرة المركزية أو الغائية (الذى هو مفهوم تركيبى بالضرورة) بحيث لا يكفى أن تتفاعل وسائل المعرفة المشار إليها بقوانين الجدل مثلا ، كما لا يكفى أن تساهم كل وسيلة من ناحيتها بكشف الجانب الذى هو فى مجالها ، بل إن كل هذه الوسائل تصب - غائيا - فى توجه مشترك يحدد اتجاه السهم رغم اختلاف الطرق والوسائل .

معايشة الجنون : شحذ للوعى

ثم نأتى بعد ذلك إلى مسألة معايشة الجنون ، وأين نضعها بين هذه الوسائل المعرفية المختلفة ؟

وهنا لابد أن أعترف بفضل ممارسة هذا الفرع من الطب على تعميق دينى ، وتوسيع معارفى فى آن ، وذلك أن الطب النفسى بوجه خاص ، هو ما أعاد غموى ببديهيات ليست سوى الحقائق المطلقة التى أخفاها التنويم اليومى والعادية اللاهية المتراكمة ، ذلك أن الطب الذى أمارسه ليس علما خالصا ، لكنه يستعمل العلم ، وهو ليس فنا تماما مع أنه - فى أصوله على الأقل - هو فن اللأم ، ثم إنه كشف متبادل من المريض والطبيب لعمق علاقة الإنسان بالكون والمابعد بما يحضر معه البعد الدينى فى بؤرة الممارسة .

لكنّ هذا الذى نفسه قد اختُزل أخيراً إلى معطيات جزئية ، وممارسات قمعية كيميائية ، يهون بجوارها أى قمع آخر عبر تاريخ البشرية فى الطب النفسى والحياة العامة على حدٍ سواء .

وممارسة الطب النفسى فى مجتمع فقير غير نام مثل مجتمعنا يتيح الفرصة المعرفية الحقيقية لإعادة النظر فى اختزال هذا الفرع واختزال الإنسان إلى ما تسمح به وسيلة واحدة قاصرة للمعرفة وهى العلم .

رؤية ضرورية

ولابد أيضا أن أعرض ابتداء ما هى المنطلقات التى جعلت هذه الرؤية ضرورية فى هذه المرحلة من تطور العالم وتطور المعرفة وتطور الطب النفسى معا

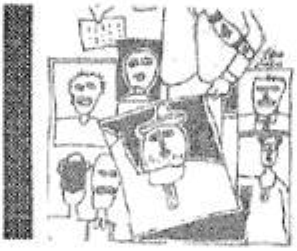
وابتداء أقول إن المتغيرات فى مجال الطب النفسى مرتبطة بالمرحلة التاريخية بقدر ارتباطها بالظروف السياسية والاجتماعية فى العالم بأسره وفى كل قطر على حدة .

كما أن الطب النفسى بمفهومه الحقيقى مرتبط أشد الارتباط باللغة كتركيب ، وبالدين كمحور وجودى .

وقد طرأ على منطقتنا وعلى العالم فى العام الأخير حدثان هامان :

أما الحدث الأول : فهو كارثة الخليج ، وهى الكارثة التى لها فضل التعرية ، لا أكثر ، فهى لم تضف شيئا إلى واقعنا ، ولا حتى انتقصت منه شيئا ، لكنها قالت لنا من خلال الدمار والخراب والذل والغرور والاعتمادية (والـ CNN) قالت لنا : "من نحن" : الآن وكيف (نحن : على الجانبين) .

أما الحدث الثانى فهو : انهيار الاتحاد السوفيتى وأوربا الشرقية ، وهو



الذى قال لنا " من هم " (على الجانبين أيضا) .

وقد حدث هذا وذاك فوق أرضية الصراع الوهمى المسمى الصراع العربى الإسرائيلى إخفاء لاسمه الحقيقى الذى سيرد ذكره فيما بعد .

كما أن هذا وذاك قد أسرعا بإعلان (وليس بإنشاء) ما يسمّى بالنظام العالمى الجديد .

المواجهة

ونحن نواجه الآن الولايات المتحدة الأمريكية بلا منافس ، أقول نحن ، ولا أقول العالم ، فالقضية قضيتنا حتى لو شاركنا فيها الغير ، وإذا كنا أضعف من أن نواجه بالسلاح والاحتكار والدعاية والإنتاج فى المرحلة الحالية ، فإن ذلك لا يعنى أننا ليس عندنا ما نقوله فى الفكر والوعى قولا متفردا ينبع من تاريخنا وحاضرنا ومسئوليتنا مهما بدا أننا تابعون فى مجالات أخرى .

ذلك أنه إذا كانت أمريكا قد أثبتت أنها أقوى سلاحا وأمتن اقتصادا وأظهر حريّة وأخبث مخابرات وأعلى صوتا وأروج دعاية وأنكى نصبا ، فإن ذلك لا يعنى ذلك – تلقائيا – أنها الأقرب إلى الحق أو الحقيقة ، أي أنها ليست بالضرورة (إذن) هى التى تعرف قوانين التطور وحفزها ، ولا هى الأدرى بطرق المعرفة ، ولا الأحذق فى مناهج البحث ، ولا الأنجح فى طرق العلاج ولا الأعظم بمقاييس الحضارة ، ولا الأصدق بمقاييس التدين والأخلاق ؟

فهل عندنا – حقيقة وفعلا – قول آخر نابع من وعى آخر ؟

تفسير المدّ الإسلامى

من البديهى أنه لا استمرار للحياة إلا فى جدليّة خلاّقة ، وبمجرد أن كشفت حرب الخليج بدائية غالبية العرب المعاصرين (كمثال لزيف قوّة الثروة غير الموجّهة) وبمجرد أن أعلن انهيار السوفييت ومن إليهم فشل الاشتراكية (كمثال للمثالية المتجاوزة للمرحلة الراهنة) تحرك نداء ملح من كل ناحية يستلزم ظهور مشاريع بديلة فى مجال السياسة والاقتصاد أساساً ، وإلى درجة أقل فى مجال الفكر والفن . والمتتبع للحوار الأعمق بين أمريكا وأوربا لابد أن يلاحظ المشروع الأوربى فى السياسة المستقلة ، والمتتبع للحوار الأعمق بين أمريكا وجنوب شرق آسيا لابد أن يرى المنافسة المتنامية فى مجال الاقتصاد والمال .

لكنّ هذا وذاك ليسا هما نهاية المطاف ، فالسياسة ليست هى قضية الوجود وإنما هى بعض وسائله .

والمال بما يحقق من رفاهية يستحيل أن يقوم إلا بالمساعدة فى إتمام وإتقان وحسن توزيع البنية الأساسية لا أكثر ولا أقل .

ثم تأتى بعد ذلك تحديات الوعى بالوجود ، والعلاقة بالكون ، وتطور

الإنسان ، أقول بعد ذلك باعتبار أنها البنية الفوقية ، لكنّها مغروسة طول الوقت ، ومنذ البداية في كل لبنة من لبنات البنية الأساسية ، وبتوضيح لا لزوم له إلا التذكرة بالبديهيات أقول : **إن قضايا الفكر والوجود ليست بديلة من قضايا الإنتاج والسياسة ولا هي لاحقة لها ، وإنما هي عمق حركيتها وعصب نشاطها .**

هل الإسلام هو الفكر البديل ؟

لقد بدا لي ، وربما لهم ، في ظاهر الأمر أن ظهور الحركات الإسلامية السياسية ، والتعصّبية ، والأصولية كان أحد مظاهر رفض السيطرة المستوردة والاستكبار والاستعلاء والاحتكار المعلن أو المستتر من جانب النظام العالمي الجديد .

فهل يا ترى هذا صحيح ؟

وإذا صحَّ ، فهل هو المطلوب والمنتظر من فكر له كل هذا التاريخ ، وكل هذا الاختلاف النوعي ؟

وهل الفكر الإسلامي - كبديل - هو الجانب الحضاري والكياني المُواكب لهذه التحركات (ولا أقول الحركات) الإسلامية في مجالات السياسة والتدين ؟

وهل الفكر التديني الغربي (المسيحية الكنائسية الغربية) يواكب أو يقابل ما يمثله الفكر الإسلامي البديل ؟

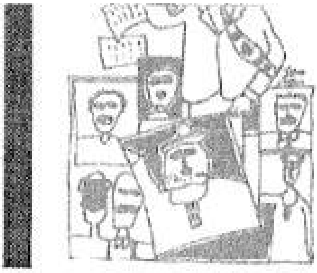
وهل إعادة الحياة للكنيسة الروسية - مثلا - هو أحد الأدلة على أن الدين يقع مع جانب الفكر (أو النظام) العالمي الجديد ؟

ذلك أن هذا النظام الجديد هو نظام متدين ، أو هو يقول ذلك ، وخطب السيد بوش ، وأسماء الأحزاب المسيحية في ألمانيا ، ونشاط الكنيسة البولندية ، وتباريك البابا ، كل ذلك في جانب إعلان أن النظام العالمي الجديد هو نظام متديّن ، وبالتالي فهو يبدو وكأنه قد جمع فلوعي (أو كما يقولون بالعامية ضرب وغطى وخد خانة) وطى الباقين بما في ذلك المتدينين من كل دين أن يتبعوا .

وأنا (من موقعي مسلما تعمّق إسلامه بمعايشة الحقيقة العارية من خلال مهنته) **أشك في هذا النظام ، وأخاف منه ، وأرفض الاستسلام له** ، أرى كل ذلك من منطلق خصوصية الإسلام ، جنبا إلى جنب مع واقع معايشة الجنون .

وليس معنى الجزء الأخير من الفقرة السابقة أنني أحاول أن أعطي أية أهمية خاصة لما هو طب نفسي في غير مجال الممارسة المهنية ، فأنا ضد وجود ما يمكن أن يسمى **الطب النفسي السياسي** ، أو **الطب النفسي الإسلامي** أو ما شابه ، كما أنني أيضا لست من أصحاب الرأي القائل أن المرض النفسي هو مجرد ضعف اعتقاد في الدين وبالتالي فإن التدين بالمعنى السائد هو علاج كل الأمراض ، فلا يخفى أن نسبة المرض النفسي ، والجنون خاصةً هي نفسها في كل بيئة وبين أهل كل دين ، ومعتقد .

وبذلك فإن ما أقدّمه هنا هو شئ آخر **غير الطب النفسي السياسي ، وغير الطب النفسي الديني** ، إنه مدخل من واقع لغتي وإسلامي ، حالة كوني في طريقة تفكيري وممارستي مهنتي



متأثرا بهما فى عمق أعماق ذاتى .

مبررات هذه الرؤية

إذن ، فالمبررات لهذه الرؤية / الفرض يمكن أن توجز فيما يلى :

١ - إن الإسلام - كنموذج حياة - له خصوصياته - التى تصبغ كل نشاط حياتى ومعرفى صبغة مختلفة عما يعرضه علينا ما يسمى بالنظام العالمى الجديد .

٢ - إن مسايرة الحركات الإسلامية التى تسود العالم الإسلامى فى شكل الإسلام السياسى ، وتسود بعض أفراد العالم الغربى فى شكل التحول إلى الإسلام فرادى تلزمنا بالبحث عن البعد المعرفى والحضارى البديل فى هذا الفكر الذى يطل ويختفى وراء هذا الظاهر السياسى والدينى (وأحسب أنه البعد الذى أدخل جارودى الإسلام مثلا) .

٣ - إن الحركة المسمّاة بالطب النفسى الإسلامى - كمثال - إنما تركز على جانبين ليسا هما الإسلام بالمعنى المعرفى ، ولكنهما أقرب ما يكون إلى الفكر الاستثمارى الكمّى ، وبالتالى لم يصلنى إلا أنها وجه آخر لنفس النظام المادى القائم ، ولن يخرج منه إلا التسطيح والتسكين وأوهام الرفاهية ، ولكن باسم آخر : هو الطمأنينة .

٤ - إن علاقة الدين (والإيمان) بممارسة الطب النفسى وثيقة ، من خلال معايشة المعرفية للجنون حيث تتعرى الفطرة إلى عمق جذورها ولكنها لم تأخذ حقها إلا على المستوى السلوكى السطحى.

معنى الإسلام من هذا المنطلق

١ - الإسلام ليس تعصبًا أصلاً ، بل إنه يمثل جماعا ختاميا لوحى متكرر يمثل خلاصة مسيرة الإنسان فى علاقته بالكون إذ يتلقى الوحى تلو الوحى من الحق تعالى ، وبالتالى فهو يحتوى ما سبقه بقدر يجعله والفا لمفهوم الإيمان عبر التاريخ المعروف للإنسان .

٢ - كما أن الإسلام ليس معتقدا مطمئناً ، والإعلاء من ترادف الإسلام مع « النفس المطمئنة » هو أمر يقلل من الالتفاف إلى دور الإسلام فى حركيته وقدراته التطورية التصعيدية ، إذ يخفت من بهر مفهوم الكدح المستمر ، وتحمل القول الثقيل (أمانة الوعى) ، وحتمية الجهاد المستمر ، والإبداع المجدد .

٣ - وليس الإسلام هو ما يدعو إليه الأصوليون فى مجال السياسة أساسا ، ولا هو ما يهاجمه العلمانيون فى محاولة جعل الدين نشاطا سرّيا فرديا خاصا ببعض الوقت ، وبالتالى فالدعاوى المكررة على الجانبين مثل " أن الدين لله والوطن للجميع " ، أو " أن ما لقيصر لقيصر وما لله لله " أو " أن الإسلام دين ودولة " ، هى كلها أخطاء استقطابية شائعة قد تنتمى إلى اديان أخرى ، أو إلى نظم سياسية قهرية أخرى .

ثم إنى أقرأ من لا يحكم بما أنزل الله باعتبار أن الله قد أنزل كل شئ بلا إستثناء بما فى قوانين الطبيعة وفلسفة الجمال ، والحكم بها هو تنقيتها ومَوْضَعَتُها وتنشيط فاعليتها ، وهذا الموقف يستتبعه فهم للإنسان وطريقة المعرفة ومنهج للبحث قبل وبعد أى قانون سياسى أو قهر سلطوى .

فالإسلام الذى غمر وعيى – رغم إننى لست صاحب الفضل الأول فى اختياره – لا يمكن أن يقتصر على كونه معتقدا فكريا أساسا أو تماما ، ولا هو نشاط نصف الوقت (لا أيام الأحد أو الجمع) ، ولا هو علاقة خاصة بين الإنسان وربه ، ولا هو إضافة أخلاقية مناسبة لتحسين المعاملات ، ولا هو تسكين وتأجيل ، ولا هو ملاحقة ملحة من الوعود والوعيد .

وإنما هو أساسا – دون التعرض لغير ذلك مما لا أنفى أهميته – هو :

١ – موقف شامل متكامل فى الحياة .
٢ – طريق (منهج) للمعرفة .
٣ – وعى " كيانى " بالذات والوجود .
٤ – امتداد " تكاملى " فى المابعد .

وكل ذلك إنما يتم من خلال التوحيد كفكرة مركزية ، كما يتحقق ويتدعم من خلال السلوك والعبادات ، ليصب فى تعميق الوعى ، وتوسيع دوائر المعرفة .

ويمكن أن يكون مسلما من انتمى إلى ذلك حتى ولو لم يكن دينه الإسلام ، وأنا أميل إلى تصديق الرأى القائل إن الآية الكريمة « إن الدين عند الله الإسلام » قد تشير إلى بعض ذلك .

ثم إن من ينتمى إلى هذا الموقف الحياتى الأساسى ، سوف يجد نفسه أقرب إلى دين يتصف بالمباشرة ، وعدم الوصاية ، وتنمية العلاقة بالطبيعة ، وبساطة العبادات ، ورفض الكهنوت ، والنهى عن الإنسحاب من الواقع والناس حتى لو كان يتصور أن هذا الإنسحاب هو إلى الله على حساب الناس .

والعكس صحيح : فمن بدأ بالإعتقاد بالفكرة المركزية : التوحيد (وفرق بين الاعتقاد وبين الانتماء) ثم مارس العبادات بتلقائية وانتظام وإبداع ، وأحسن المعاملات بكلية هادفة ، ووجه طاقته خالصة لوجه الحق ، فهو واصل إلى اكتساب أدوات المعرفة الإيمانية إذ سوف يتعمق وعيه ، وتزداد موضوعيته ، ويصبح هو فى ذاته آلة حسن صقلها وشحذها لسبر غور الحقيقة .

ولكن ما هى الأساليب العملية التى تجعل هذا النوع من الإسلام وسيلة معرفية ؟

وأين موقع هذا الزعم بين الوسائل المعرفية العصرية ؟ سواء بما يتعلق بفلسفة العلم ، أو ما يتعلق بالمناهج ؟

وهل ثمة أدوات تُستعمل فى بعض فروع البحث العلمى والمعرفى يمكن أن تميّز هذا السبيل المعرفى من غيره

والرد على بعض ذلك له حديث قادم .

أحلام العلماء  ومشروعات المستقبل

قناطر مضيق جبل طارق

بقلم : د . سيد كريم

وجه الكثير من علماء البيئة تحذيرات قوية من ظاهرة ارتفاع مستوى مياه البحار والذى سوف لايقل مع مرور كل عام عن السنتيمترين حتى يصل إلى مايزيد على المتر قبل نهاية القرن التالى ووصفه البعض باسم الطوفان القادم .

نسب الخبراء تلك الظاهرة إلى ارتفاع درجة حرارة الأرض التى تؤثر على ذوبان جبال الكتل الثلجية بالقطبين الشمالى والجنوبى والتى أمكن رصدها فى السنوات الأخيرة . كما ينسب البعض الآخر ارتفاع حرارة الأرض إلى زيادة البقع الشمسية واختلال الغلاف الجوى للأرض وضعف مقاومته لاثارها المدمرة .

● مواجهة ارتفاع البحار وحماية البيئة .

● اقتصاديات تعمير دول شمال افريقيا .

● قناطر جبل طارق حماية البيئة لحوض البحر المتوسط



إن خطر ظاهرة ارتفاع منسوب المياه بالنسبة لحوض البحر المتوسط تتمثل فى غمر وتآكل بعض شواطئه وأراضيه تبعا لانخفاض منسوبها بالنسبة لمنسوب مياه البحار فى المستقبل . بجانب أثر التيارات المائية القادمة والمستجدة المرتبطة بسرعة تحرك المياه وارتفاع أمواجها وأثر تلك العوامل الهدامة على شواطىء المدن السكنية والسياحية بصفة عامة وبما تحويه من موان وارصفة بحرية .

مشكلة قديمة

ومشكلة ارتفاع مياه البحر المتوسط وآثارها على البيئة بما فى ذلك الحضارة والمحافظة على تراثها ليست بجديدة . فارتفاع مياه محيطات الكرة الأرضية والتى تشترك معها مياه البحر الأبيض المتوسط لاتصاله بها ليست وليدة اليوم عندما بدأت تشغل علماء البيئة بل انها مرتبطة بعمر الكرة الأرضية نفسها .

بدأت بتغيرات حرارة باطن الأرض وسطحها وما ارتبط بهما من ظواهر طبيعية كان من أقدم ظواهرها التى تعيها ذاكرة التاريخ القريب ماأطلق عليه عصر الجليد الذى كان يغطى مساحات شاسعة من البلاد الشمالية ودوره فى زيادة كميات المياه المتدفقة إلى المحيطات وبالتالى ارتفاع منسوب أسطح مياهها . وأنتقل بدوره إلى البحر الأبيض المتوسط الذى نعيش على شواطئه .

مما هو جدير بالذكر ولافت للأنظار تلك العلاقة المرتبطة بين ارتفاع منسوب مياه البحار والمحيطات بظهور البراكين والزلازل الناتجة من ضغط المياه على قاع البحار والمحيطات . ويؤكد تلك النظرية أختفاء جزر وقارات بأكملها فى المحيطات مع كل مرحلة من مراحل ارتفاع المياه كذلك انتقال حزام الزلازل والبراكين إلى حوض البحر المتوسط . وإذا راجعنا تاريخ ظهور البراكين المشهورة بحوض البحر الأبيض وحزام الزلازل الذى يربطها لوجدنا ان تاريخ ميلادها مرتبط بمراحل ارتفاع المياه . لقد تأكدت تلك النظرية عند إقامة بحيرة ناصر بوادى النيل وظهور أول زلزال بالمنطقة نتيجة ضغط قاعها على طبقات الأرض أسفلها . كما كان لارتفاع منسوب مياه البحر الأحمر فى السنوات الأخيرة والذى تسبب فى غمر مساحات شاسعة من شواطئة السياحية أثره فى انتقال حزام الزلازل إلى المناطق المحيطة بشواطئه وسلاسل جباله .

كان لارتفاع منسوب مياه البحر المتوسط والزلازل الملازمة له عبر تاريخ الحضارات التى نمت على شواطئه ، دور

مؤثر فى تخريب كثير من المدن التاريخية وأثارها الخالدة من بينها مدينة الاسكندرية وكريت ومدن شواطىء مقدونيا وفينسيا والكثير من أثارها التى كانت تطل على شواطىء البحر المنخفضة مباشرة .

فبالنسبة للشواطىء المصرية حين تراجع الخرائط القديمة التى ترجع إلى عصر البطالسة فى القرن الثانى قبل الميلاد نجد ان شاطىء البحر الأبيض كان يبعد عن حدود شاطئة الحالي بمسافة تتراوح بين ١٥٠ ، ٢٠٠ متر .

فقد كان لارتفاع منسوب مياه البحر على فترات متباعدة عبر ذلك التاريخ ان طغت مياه البحر على جزء كبير من دلتا النيل واختفاء عدد من أنهارها القديمة السبعة التى كانت تصب فى البحر كما أتصلت بحيرة البرلس بالبحر بعد ما كانت تبعد عنه وتحولت من بحيرة نيلية إلى بحيرة بحرية . كما أختفى جزء كبير من مدينة الاسكندرية القديمة عروس البحر الأبيض التى أقامها الاسكندر الأكبر حيث أختفى الحى الامبراطورى بأكمله تحت الميناء الشرقى وقد ساعدت الزلازل على هبوط جزء كبير من المدينة الأصلية وأحيائها السكنية تحت البحر وكشفت الحفريات الحديثة أثار الحى الامبراطورى تحت مياه الميناء الشرقى وبعض أثار المدينة القديمة تحت سطح المدينة الحديثة بما يتراوح بين سبعة وعشرة أمتار .

وكان لارتفاع منسوب مياه البحر فى تلك الفترة من التاريخ والتى كانت سببا فى تعرض كثير من المدن القديمة للانهيار وأختفاء كثير من معالمها وأثارها التاريخية والتى يعمل علماء الأثار فى المحافظة على ما تبقى منها مما قد تتعرض له من ظاهرة الارتفاع المفاجىء فى مياه البحار بحيث يفكر خبراء البيئة والتخطيط الأن فيما يمكن اعداده من خطط ومشروعات لحماية المدن الحديثة ومواجهة ما سوف تتعرض له من أخطار يمكن توقعها .

أخطار مستقبلية

ان استمرار ارتفاع منسوب مياه البحر المتوسط هو فى مقدمة العوامل التى ستعمل على انهيار أكثر من مدينة من المدن الحديثة المطلة على شواطىء البحر الأبيض وفى مقدمتها مدينة فنيسيا عروس البلطيق التى يتسابق العلماء والخبراء فى دراسة وسائل انقاذها وقد فشلت جميع المحاولات التى وضعت لحمايتها وقدر لها بعض الخبراء أنها ستختفى من الوجود خلال قرن واحد من الزمان إن لم يتوصل الخبراء لاكتشاف طريقة عملية لانقاذ مبانيها وطرقاتها وميادينها من طوفان البحر .

وإذا كان ارتفاع منسوب مياه البحر

على مبانى ومنشآت المدن التى سيغمرها ويتعرض لزحفها والتى يحاول البعض حمايتها باقامة السدود وحواجز الأمواج والتى ثبت عمليا عدم فاعليتها ، فإننا نجد أيضا أن تأثير ارتفاع منسوب مياه البحر سيمتد إلى ارتفاع منسوب المياه الجوفية ومياه الرشح تحت أساسات المبانى والتى ستحتاج بدورها إلى نوع آخر من الصيانة والحماية كما هو حـادث اليوم فى محـاولة حماية برج بيزا المائل من السقوط المحتمل .

وجميع المحاولات التى قامت فى أعقاب الحرب العالمية الثانية وما زالت مستمرة إلى الآن وصلت جميعها إلى طريق مسدود حيث كانت كل دولة تقوم بأبحاثها المنفردة المرتبطة بظروفها الاقتصادية وخبراتها المركزية والتى تركزت جميعها - خاصة فى الفترة الأخيرة - على مواجهة الظاهرة المفاجأة وتحذيرات علماء البيئة والتى تحولت فى بعض الدول إلى حد إعلان حالة الطوارىء عندما أعلن خبراء البيئة عن الخطورة الناجمة عن الزيادة المفاجئة فى ارتفاع منسوب سطح المحيطات وانتقالها إلى البحر الأبيض وتهديد شواطئه ومدنه وموانيه .

وفى مؤتمر حماية البيئة الذى أقيم مؤخرا فى جنيف تقدم أحد الخبراء باقتراح إقامة مشروع ضخم لبناء حواجز أو خزانات عند كل من جبل طارق وباب المندب لمنع دخول مياه المحيطات إلى البحرين الأبيض والأحمر والاحتفاظ بمستوى مياههما لحماية سواحل ٣٠ دولة أثنى المؤتمر على المشروع من ناحية جدواه وفكرته المبتكرة بينما فشلت جدواه الاقتصادية والعملية فى حل المشكلة المزمنة حلا جديا أو جذريا .

إن حماية شواطىء البحر المتوسط لن تكون بالمحافظة على منسوب سطح مياهه من الارتفاع بل ستتركز فى الخطوة الأولى على تخفيض منسوب مياهه التى تسببت فى تخريبه وتآكل شواطئه - أى العمل على علاجه وليس وقايته . وتتمثل تلك المحاولة أو التجربة العالمية فى إجراء عمليتين جراحيتين فى وقت واحد أحداهما لمنع مياه فيضان المحيطات القادم من الدخول إلى البحر الأبيض المتوسط والعمل على رفع منسوب سطح مياهه ثم عملية تخفيض منسوب سطح مياهه الحالية إلى ما كانت عليه من ألفى سنة والذى يقدر بما يزيد على متر ونصف عندما كانت حضارات دولة فى قمة نموها وازدهارها .

إن فكرة مشروع إقامة مضيق جبل طارق ليست وليدة اليوم فقد قمت بوضع

تصميم كامل لقناطر جبل طارق من نصف قرن من الزمان وبالتحديد فى أعقاب الحرب العالمية الثانية وذلك ضمن برنامج مشروعات تعمير البلاد النامية والذى بدأته أثناء عملى بجامعة زيورخ .

وقد تم إعداد المشروع وتقديمه للجهات المسئولة فى مصر والخارج بعد انتهاء الحرب .

فكرة المشروع

ونشـــرت تفاصيل المشـــروع فى مجلة العمـارة التى كنت أصـدرها فى عددى ٣ ، ٤ عام ١٩٤٦ .

تتلخص أهداف المشروع الأصلى فى عدة نقاط :

١ - ربط قارتى أوروبا وأفريقيا ببعضهما بريا عن طريق المواصلات البرية والسكك الحديدية .

٢ - تخفيض مستوى سطح البحر المتوسط لحماية شواطىء جميع الدول المطلة عليه .

٣ - تنمية اقتصاديات الدول الأفريقية النامية ودول شمال أفريقيا العربية .

٤ - تغيير المناخ الجوى وأثره على المناخ الاقتصادى فى القارة الأفريقية بذلك يمكن تحقيق الناتج الأيجابى لدراسة جدوى المشروع وهو مافشل فى تحقيقه المشروع المقدم لمؤتمر حماية البيئة .

يتلخص المشروع فى سد فتحتى البحر المتوسط عند كل من جبل طارق وبورسعيد بحاجزين كبيرين من القناطر ثم فتح مجار مائية إلى المناطق المنخفضة بالصحراء الكبرى - وقد دُرست الصحراء الكبرى دراسة شاملة بواسطة خبراء الجامعة الذين حددوا على خرائطها جميع المناطق التى يمكن غمرها بالماء وينخفض بعضها مايزيد على ٢٠٠ متر عن سطح البحر ويمكن الاستفادة من تحويل المياه إلى تلك المنخفضات بإقامة السدود عند مداخل أحواض خزاناتها ومساقط مياهها ويمكن إقامة محطات الطاقة الكهربائية والتى تفيد فى عديد من مشروعات الإصلاح الزراعى والتنمية الصناعية ، بذلك سيكون لكل منطقة أو دولة من دول شمال أفريقيا مراكز خاصة للطاقة التى تحتاج إليها تبعا لعلاقة منسوب المياه فى البحر وعمق أحواضها الطبيعية فى صحرائها . هذا بخلاف الطاقة الكهربائية المركزية المرتبطة بتصميم القناطر والتى ستغطى وحدها تكاليف المشروع بالإضافة إلى العائد الناتج عن النقل البرى بأنواعه بين القارتين وعائد المرور البحرى خلال أهوسة القناطر .

وسيعمل تخفيض منسوب مياه البحر بتفريغها فى أحواض الصحراء الداخلية وبحيراته الصناعية على تشغيل محطات

الكهرباء بالقناطر الرئيسية ومساقط المياه الصحراوية .

كما وجد بدراسة التحول فى طبيعة الجو فى شمال أفريقيا بعد ظهور تلك البحار والبحيرات الداخلية بها أنها ستعمل على تحويل شمال أفريقيا بأكمله بما فى ذلك القطر المصرى وجزء كبير من المناطق الصحراوية إلى مناطق أمطار مع تغيير كبير فى درجات الحرارة على مدار السنة . كما ستساعد عوامل التبخر فى مياه البحيرات الصحراوية المكشوفة على سقوط الأمطار وعودة الحياة للأراضى الصحراوية القاحلة والتى كشفت الحفريات فى كثير منها وجود بقايا أشجار متحجرة مما يثبت أنها كانت مغطاه بغابات الأجواء الممطرة . وقد وجد أن المناطق التى ستتحول إلى مناطق صالحة للزراعة فى دراسة الجدوى للمشروع ما يقرب من مليونى كيلومتر مربع كما ستساعد القوى الكهربائية المتحصلة من مساقط مياهها الداخلية والمحلية فى زراعتها ميكانيكيا وتعمير مشروعات إسكانها وتصنيع منتجاتها الزراعية التى ستربطها أقتصاديا بالدول الأوروبية المطلة على حوض البحر الأبيض والتى ستساهم بدور كبير فى تمويل مشروع السد والقناطر الرئيسية بجبل طارق كما ستتعاون مع دول شمال أفريقيا فى تنفيذ مشروعات الغزو العلمى والعملى للصحراء ذات الجدوى الإيجابية لتبادل التعاون الاقتصادى المشترك بين الدول الصناعية والدول الزراعية التى تتلاقى حول مائدة البحر المتوسط .

فيما يختص بعلاقة المناطق الصحراوية المنخفضة التى سيحولها المشروع إلى بحيرات مكشوفة تمدها بمياه البحر شبكات من المجارى المائية السطحية المكشوفة أو المواسير الأرضية لتصب فى البحيرات وتستغل مساقطها فى إنشاء محطات القوى الكهربائية فيشمل تخطيطها وتحديد مواقعها أربع دول من دول شمال أفريقيا وهى مصر وليبيا والجزائر والمغرب .

وبالنسبة لمصر فقد وقع الاختيار على منطقة منخفض القطارة وقمت بعرض المشروع عام ١٩٤٥ على الوزارة وكان يرأسها حسين سرى باشا الذى اقتنع بفكرة المشروع بعد عرضه على لجان الوزارة وخبرائها وأمر بتنفيذه ... ثم توقف المشروع .

أما برنامج تحويل الصحارى والوديان المحيطة بالبحيرات التى تنشأ فى منخفضات الصحراء التى تملؤها مياه

تفريغ البحر المتوسط لتخفيض منسوبه والعمل على تحويلها إلى أراض زراعية ، مع افتراض انعدام وجود مياه جوفية عذبة لريها أو حتى التفكير فى تحلية مياه البحر المالحة ، فقد أعد برنامج اشترك فى دراسته مجموعة من الخبراء الألمان .
يعتمد المشروع على زراعة أشجار جوز الهند حول شواطىء البحيرات . ومن المعروف أن أشجار جوز الهند تنمو فى المياه المالحة ولا تحتاج لمياه للرى . كما أن من خصائصها اشعاع الرطوبة بكميات وفيرة مما يكون له أثر سريع فى تحويل جو المنطقة إلى جو ممطر ورطب مما يساعد على تحويل المناطق المحيطة بالغابات إلى أراض صالحة للزراعة ، لقد وجد بدراسة جزر المحيط الهادى التى تغطى شواطئها أشجار جوز الهند أن التيارات البحرية وتيار الخليج جرفت الثمار من جنوب آسيا آلاف الكيلومترات حتى ألقتها على شواطىء تلك الجزر فنمت وحدها . وبمرور الزمن ظهر أثرها فى تنمية الأراضى الرملية والصخرية التى تحولت إلى أراض زراعية خصبة تتوسط الغابات الكثيفة بمختلف أنواع أشجارها الخشبية ترويها الأمطار التى نتجت عن تغير طبيعة جو المنطقة كما ساعدت الأمطار على تكون المياه الجوفية التى لم يكن لها وجود فى ماضى الجزر .

إن أروع أمثلة تلك التجربة الطبيعية ما قامت به أشجار جوز الهند فى جزيرة هاواى إحدى جزر المحيط الهادى التى دبت فيها الحياة لتحولها من جزيرة قاحلة وصحراوية مجهولة ومهجورة إلى جنة عالمية للسياحة اشتهرت بحـاصلاتها الزراعـية من فـواكه وزهـور وخضـراوات وأشجار خشبية تصـدرها لجميع دول العالم .

ومشروع إقامة قناطر مضيق جبل طارق الذى تقدم به الخبراء فى مؤتمر حماية البيئة الذى جاء متأخرا بما مالا يقل عن نصف قرن ماهو الا مشروع مصرى كان سابقا لأوانه . وهو المشروع الذى تلافت جدواه جميع الأخطاء والاعتراضات التى واجهت حل المشكلة بإقامة القناطر الباهظة التكاليف والتى يجد البعض الاستغناء عنها ببناء الحوائط البحرية ومختلف الوسائل الأخرى لحماية الشواطىء بعد التأكد من فشل دراسة جدوى المشروع المقدم .

بينما المشروع الأصلى كما سبق وصفه فقد درست جدواه الكاملة بمقارنة التكاليف والمصاريف بالعائد ودوره فى التنمية الاقتصادية العامة ووجد أن المشروع فى الإمكان تغطية تكاليفه بالكامل خلال بضع سنوات مع استمرار عطائه بعائده المتضاعف فى تنمية دول شمال أفريقيا النامية وجنوب أوروبا الصناعية والسياحية فى ظل تعاونهما الاقتصادى .

قصة قصيرة

المتـــاهة

بقلم : ميرال الطحاوى

بريشة : سميحة حسنين



تختنق بالأورام العجوز تتأرجح ضرباته عابرة نفس الشريط الحديدي الذي أتمثله ذهاباً وعودة ، أتنفس بصعوبة وألتصق بالمقعد المعدني المسيج لصالة انتظار بعد أن فشلت في مسابقة العبور اليومي نحو أول مقعد خال .

أتنفس بصعوبة وأشعر أن كل الوجوه الراكضة خلف العربات المحشورة بالآدميين تنبش نحوي بأظافرها وتلهث فوق جسدي الملقى الحاف كحالة فصل ، أتابع العيون الباحثة عن بارقة أمل مستحيلة في الوصول إلى أوكار همومهم قبل أن يلبسوا إنسانيتهم ثم يبيعوها على الأرصفة ... تلفحني الوحدة فأشعر برغبة مقترنة من الرعب في البكاء عليه ... على وجهه الأسمر الذي اختزن تقاطيع وجهي ولون ابتسامتي ويسابق خطواتي بخمسة أمتار والتجئ ضحكته العذبة التي كانت تنتزع جنيني من حالة القلق والإحساس المبهم بأني نبتة هشة يحاصرها الضياع .. ضوء الأمان الذي كان يبثه عبر القرب عيونه الصغيرة كان يهادن المجهول .. نعم ذلك المجهول الذي يترصدني بلا رحمة والطريق أمامي مرصوف بتابوت غير كافية إلى أين ؟! كل الطرق أطلت جرماني إلا من الغيبة ، وذلك ما يثير القلق في مرابع انتظاري حتى الآن فلا نجمه أفل ولا بزغ بل اختنق كصفحة وردة ذابلة ، يعزي أمي نفسها بعد انتظاره بالانتظار وفشلت في إقناعها بأنه مر زمن الأمنيات الجميلة وبقت الغيبة طعاماً للجياع في أحراش الغابة .. حتى هو .. حلمها تحول إلى آلة جوف يقذف بجاهي

ووجهها بوابل الشتائم اليومية فتتصحنى بالابتسام وأنا ابتلع الملح المذاب على تضاريس وجهى واتذكر نصف الرغيف الذى كنا نقتسمه ونحن نسير فى عبق الأثواب المدرسية الملتاثة فى أجسادنا الضئيلة التى لا تحتل فجواتها ، تصر أمى على بضعة « أشبار » أضافية لنستقبل كل عام بفك ثنية من ثنيات الثوب حتى يئن من تعب الاستعمال فيتحول - بقدرة قادر -



إلى أشكال متنوعة من وسائل التدفئة « بنطال - فانلة - خلقة » .. احتضن كفه الصغير بينما تستأسد نظراته وأنا أحتمى به من الضياع وسط ضجيج العربات المجنونة والأرصفة التى نما عليها المتسولون وتكاثر فوقها الباعة وضجت مساحات الأرض المتبقية من صدى الأصوات المتداخلة .. ألتصق به أكثر وأكثر وأهرب من فم المرأة التى تنتظرنى هناك وتنادى بابتسامة مسترسلة (تعالى .. تعالى حلوديك لأمك .. تعالى .. تعالى) أمسك بكفه لتهدأ ضربات قلبى النازفة من التعب والضجر وخيوط المتاهة الكبيرة تحاصرنى كأعشاب عنكبوت على ضعف فريسة تائهة .. يدقدق حذائى الرث فى الممر الواسع وتتلقفنى العيون من كل جانب فأتوارى داخل طيات ذاتى من انعكاس أشعة شفقة أو سخرية تعتصر ضآلتى قطرة قطرة فتتسرب نظراتى إلى الأرض وتنسكب فوق خشب المقاعد وفى قاعات المحاضرات وانكس كل ملامح وجهى وأحفر داخلى قنوات الحكم وأمضى (كل شىء يهون .. بكره لما تتخرجى ..) ترن فى أذنى كلماتها وأقاوم رغبة عارمة فى التقيؤ .. ثم تتكسر أضلاعى من الأختناق والعربات الفارهة ، رائحة

العطور ، الملابس ، ترمى عيونى الجائعة بألف نعل مدبب وتطقطق عظامى والأجساد تعجن جسدى المحشو فى صندوق يتأرجح على الخط الحديدى .. ألملم جسدى وأتكور على النافذة ... ألوذ من خيطات تقات على جرح كرامة الآخرين بمزيد من الانكماش .. أشد برئتى خيط هواء نظيف .. نام .. نام وأنا أجيب لك جوز حمام .. غنوة لم أسمعها منذ زمن طويل .. استبدلتها أمى بغنوة جـــديدة (بكرة لَمـــا تتخرجى .. ؟؟) ماذا سأفعل ، اكتشفت أمى أخيراً ما كنا نصرخ فى وجهها لتدركه .. منذ أن جلس بجانبها وعلق على الجدار تلك الورقة المضمومة فى إطار وهو هائج ككلب أصابته طلقة طائشة ، .. ينفث الدخان الذى لون تقاطيعه بألف وجه غير الوجه الذى تعرفه .. ينفض غبار جيوبه الخاوية ويلعن كل شىء .. ثم يحتسى ضجره ويغازل الأوهام المستحيلة .. (عارفة يا أمه لما اشتغل .. ؟! .. حـــأجيب لك تــوب وطرحة ، ..) لكنها تشرح بيدها وتصمت ، تعودت على طعم الخيبة ..

(كأنك يا أبو زيد ما غزيت ..) ترددها أمى لبنطاله المتسخ من عد القـــروش المعدنيـــة .. (شبـرا ، شبرا ، شبرا مين رايح شبرا) منـادى ؟! وكان ليه العلام ؟ ! ، .. تتساءل فى حسرة حقيقية مندّاة بالدموع بينما يخبط هو ملاليمه فى الأرض ويقسم أن يترك لها البيت كله .. وأنا أطارد ظله الذى كان يعبر بى الشوارع الصاخبة ويحرس قامتى التى تتصاغر داخل ظله المنقوش على الأرض وابتسم لعيونه المترقبة لنظرات الصبية الحائمة حول غلالة شعرى .. ويبكى الظل على الجسد الخائر الذى ينفث الدخان ويرجم الجميع بوخزات حادة ومسنونة كالوجع .. أحمل باقات كتبى وأتركه يغط فى نومه وأصر على أن أرفع رأسى والأجساد الفائرة تسحقنى فى الضجيج ، فى لهاث رائحة العرق فى مستنقع المواصلة اليومية .. أواصل رغم الجرذان المتسلقة لأعشاش حلمى .. أتذكر أبى هذه الأيام كثيراً .. أسأل أمى عن تفاصيل صغيرة وأحاول صياغة ذاكرة حلمى عبر الموت ..

أدرك أن الغد الباسم كشر لى عن أنيابه فاحتمى « بلو » من السقوط دفعة واحدة .. تمطر لى صورته فى الإطار أثواباً وحلياً ونقوداً ودنانير ترن ترن ترن .. كناقوس الكنائس الحزينة وتتجسد المشكلة



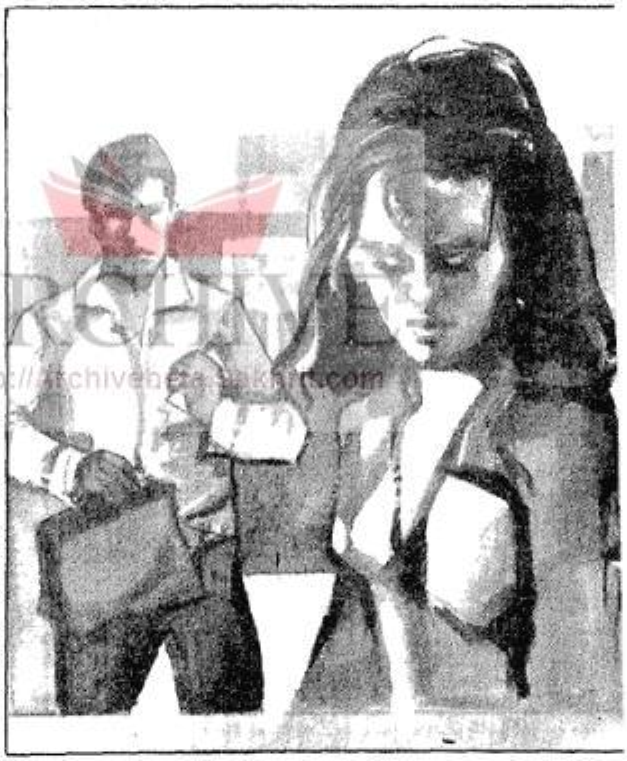
لى فى أنه مات قبل أن تأتيه الإعارة فأعاتبه لأنه تركنى أنسحق .. صرت جزءاً من تكوين الغابة .. نبات متسلق لا يجد إلا حافة قبر يمد عليها فروعه .. ؟!

مربية ، مربية مربية .. آنسة حسنة المظهر سكرتيرة تجيد تجيد تجيد كور الصحيفة ويقذفها مى وجهى فأمتص نفس الملح وألقى فى وجه الصفعة قطعة الحلوى التى كان يخفيها فى طيات ثيابه ليلقمها فمى الصارخ بحثاً عن قطعة جديدة .. وأردد خلفه .. خمسة فى خمسة بخمسة وعشرين خمسة فى ستة ..) وتطير دموعه فى سحابات الحزن الكثيفة التى تحجبها قسوة الدخان المتصاعد من ثقبىّ أنفه « الرجل لا يبكى » لكنى ألمح بكاءه فى شتى اللطمات التى يقذفنى بها .. وأشهده كل يوم حين نتركه يؤنس الفراغ فى مساحات البيت ينتحب وتطرف جفونه دماً وصديداً وماء ثم يغرق فى لامبالاته وحين تتضجر يهددنا بجحيم « نارجيله » على مقعد فى مقهى خال فنرضى بوثبات جنونه اتقاءً لخيوط متاهة ينسجها تيار صاخب ، .. وحدى أسير والشوارع غاصة بالباعة وواجهات المحال مزدانة بربيع أناس غيرى .. أتفرس فى الملابس فى الأرقام فى الهيئات الوافدة لتنتقى نفس الحلم الذى اخترته فى منامى ، حلقات الفتايات وهن يتفاوضن حول الأجمل تصيبنى بالهلع والأرقام تسبح كالنمل وتحاصر جسدى .. (مطلوب بائعة .. مطلوب بائعة ..) يتفحص هيئتى فأطرق برأسى مرتجفة من إحســاس شار بالضآلة .. وأعد الأيام المقبلة لاحتواء أو قطعة عرق تنز من جبينى وتنصهر داخل رقم مرسوم على ورقة خضراء ، .. يشيعنى باللعنات ويستقبلنى بقسم ألا أذهب مرة أخرى ويعدد صور الوحل الذى

مرغت كرامتى فيه .. ، لا. ينقذنى إلا صـــوتها .. (اتركها تجهز مصاريف دراستها ..) (الله يصلح حالك يابنتى ويحميك) .. أحلم بثوب وحذاء وغطاء رأس وحقيبة ليس بها ثقـوب ... واحلـم لهـا مثلى .. حتى هو لم أنفه من حلمى .. سأدس فى

جيبه بقطعة نقود .. خمسة ؟ ! لا .. عشرا .. قميصه صار خرقة قديمة .. تتبخر نقودى التى لم ألمسها بعد ولا تفى بشىء من قائمة الانتظار .. لكن حين لمستها لم أجرؤ على التصرف فيها .. ضممت وجع أقدامى المنتصبة منذ ثلاثة شهور وأبحرت

بها نحو البيت لتنهال القذائف .. أحتضن نقودى فى صدرى وأبكى .. ويجذب فى شعرى ويلطم وجهى بكل قواه .. (هات الفلوس .. هات هات ..) وتضيع توسلاتها قبل توسلاتى فى هدير الركلات أقذفها برعشة الخوف وأتحسس جبينى المنساب عليه شىء لزج .. ساخن يلون صرخاتى بالنحيب .. يركل الباب ويختطف حقيبته . المعدة سلفاً ويمضى .. (حاسافر ..) (لما أرجع حاجيب لك ياأمه وأجيب لها .. ؟ !) ويعود فى البشائر وأنا أنتحب شقاء شهورى الماضية وقطرة الدم التى ما زالت تخضب صراخى ووجهها يفترس الحزن ويدمع .. (أخوك .. معلش أخوك .. أخوك) أتنفس بصعوبة والترام العجوز ينحنى القضبان الحديدية المسيجة خطواته وأشعر بالجذب والانتظار يطول .. فلا القصاصات تطل ولا هو يعود .



أنا .. أقاصيص من حياتى

سيرة نجمة كبيرة

بقلم : مصطفى درويش



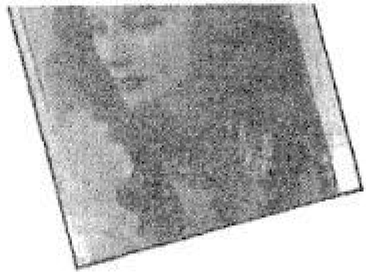
كاثى أيام الشباب

● أمر صاحبة هذه السيرة التى أحدثك عنها عجب من العجب .

فقد ولدت فى بداية القرن العشرين ، وبالتحديد سنة ١٩٠٧ .

وكان مولدها فى عائلة من عائلات نيو انجلاند العريقة ، التى جاء أجدادها الأوائل إلى العالم الجديد ، مستقلين « الماى فلاور » تمخر بهم بحر الظلمات .

نشأت فى بيت كبير ، يقوم على رعاية شئونه خدم وحشم ، وبين أحضان والدين عُرف عنهما النشاط القوى وحدة الذهن ، وحب التقدم .



● حقيقة الاشاعة التى استمرت ثلاثين عاما مع سبنسر تراسي

فأبوها كان جراحا ناجحا ، داعيا إلى تحرير العقل ، وتعليم الناس أسرار الجسم .

وأمها كانت امرأة اجتماعية داعية إلى حصول النساء على حق الانتخاب ، وإلى تحديد النسل . رغم أو ربما ، لأنها أنجبت ستة أطفال ، نصفهم من الذكور ، والنصف الآخر من الاناث .

ولكنى نسيت ان اسميها ، وقد كان يجب أن أبدأ هذا الحديث بتسميتها ، فهى كاترين هوتون هيبورن ، وشهرتها كاتى هيبورن النجمة الذائعة الصيت .

النجوم .. أسرار

وكاتى بين النجوم وحيدة نوعها .

فما أظن ان أحدا - رجلا كان أم امرأة - ظل مثلها يعمل فى دنيا التمثيل بلا انقطاع ، على امتداد نصف قرن من عمر الزمان أو يزيد .

وما أظن ان نجما فى سماء هوليود ، أو غيرها من السماوات ، استمر نجما ساطعا مدة طالت أكثر من ستين عاما .

وما أظن ان انسانا فى مصنع الأحلام يستطيع أن يفاخر مثلها بالانتصار فى مضمار أوسكار ، وذلك بالخروج منه متوجا بجائزة أحسن ممثلة رئيسية ، لا مرة ولا مرتين ، وإنما أربع مرات ، آخرها عن أدائها لدور الأم أمام هنرى فوندا فى فيلم البحيرة الذهبية (١٩٨٢) . وكانت قد بلغت من الكبر عتيا .

والسؤال .. كيف استطاعت « كاتى » أن تحقق كل هذا الانجاز ؟

كيف نجحت فى الصمود لعاديات الزمن وأين ؟

فى مدينة يسودها شيطان الريح ، وتموت فيها النجوم ، وهى فى ريعان الشباب .. لا تزال !!

هذا ما أجابت عنه « كاترين هيبورن » قبل أشهر بصراحة ترجع بعض الشىء إلى اختيارها لنفسها قبل ستين عاما ، أى منذ أصبحت نجمة ، أن تعيش امرأة حرة متحررة من قيود الزواج ، وما ينتج عنه من أعباء ، لعل أهمها الأولاد .

وكان ذلك فى كتاب تحت عنوان « أنا .. أقاصيص من حياتى » بثته حصاد سنين طوال ، فى أسلوب سهل ممتنع ، ممتع ، خال من أى تعقيد ، فيه من روحها وطريقتها فى الكلام ، تلك الطريقة التى

أصبحت من العلامات المميزة لشخصيتها فى الافـلام ، فيه من كل ذلك الشىء الكثير .

الأيام الجميلة

كانت الحياة سخية مع صاحبة ذلك الكتاب ، فقد حباها الحب والعذاب ، وهما المتاع الأمثل لأية ممثلة عظيمة ، وبدونهما لا يتحقق لها طول البقاء .

فحياتها ، وهي طفلة ، كانت رائعة ، بل أكثر من رائعة .

ولم لا ، وقـد توافرت لها أسباب الأمان .

فهناك الشعور بالاطمئنان عند العودة إلى البيت إلى وجود والدين يغدقان عليها الحب بلا حساب .

والاحساس بالرضا والهدوء والثقة الباسمة التي تنشأ عن هذا الاطمئنان .

ومن هنا نجد كثرة استعمال صاحبة الكتاب ، وهى تعرض لما مرّ بها فى أثناء مرحلتى الطفولة والصبا ، لعبارات من قبيل « كنت سعيدة الحظ » و « كانت الحياة ممتعة » .

طريق الآلام

أما العذاب ، فقد جاءها هو الآخر مبكرا ، وليس لها من العمر سوى أربعة عشر ربيعا ، باختفاء « توم » أكبر اشقائها ، وأقربهم إلى قلبها ، بواحدة من أغرب حوادث الموت .. كيف ؟

صباح يوم الفصح ، ذهبت إلى المائدة لتناول الأفطار .

أدهشها أن « توم » غير موجود فى مكانه المعتـاد ، جرت فى أنحاء بيت العمة « مارى تاول » بنيويورك حيث كانت تقيم ، هى وشقيقها ، بمناسبة عطلة الأعياد .

وأخيرا عثرت عليه متدليا من حبل مربوط إلى خشبة سقف غرفة علوية ، تلامس قدماه الأرضية ، أو تكادان .

وكان أن فزعت إلى الشارع تستغيث ، ولكن بعد فوات الأوان .

فشقيقهـا العزيز كانت عينـاه بـلا رعشة ، ولا ومضة وجسمه بلون الرماد .

فإذا ما صـارت شـابة فى عمـر الزهور ، تزوجت ممن مالت اليه « لدلو اوجدن سميث » ، ذلك الزوج العاشق الولهان الذى اضطرته إلى تعديل اسمه بحيث أصبح « سميث اوجدن » ، لا لسبب سوى أنها لم تكن ترغب فى أن تحمل اسما دارجا مثل اسم السيدة سميث .

ومع ذلك فقد راعها بعد أشهر قليلة ، انها لا تصلح للزواج ومسئولياته من أمومة ، وما إلى ذلك من آثار الرباط المقدس التي ليس لزوجة منها فكاك ، فكان أن حصلت على الطلاق .

المحنة والنجاة

وتستمر رحلة العذاب .

فبعد نجاحها فى هوليوود بالفوز بأوسكار أفضل ممثلة عن دورها فى ثالث أفلامها « مجد الصباح » (١٩٣٢) .

وبعد تعلق الجماهير بها بفضل دورها الرائـع فى فيلم « نسـاء صـغيرات » (١٩٣٣)

أخذ شبح الفشل يطاردها فيما تمثل من أفلام .



مع كارى جرانت فى أحد الافلام التى جعلت منها نجمة الشباك



كاتي تنال الاوسكار الرابعة عن دورها فى البحيرة الذهبية

فباستثناء « أليس آدمز » (١٩٣٥) كان الفشل من حظ الأفلام الثمانية التي مثلتها على امتداد خمسة أعوام .

وفي مدينة لا حديث فيها إلا عن البيع والشراء وعن الربح والخسارة ، عن أسهم تصعد ، وأخرى تهبط ، اطلقوا عليها « سم الشباك » هذه القسوة المسلطة فوق رأسها ألهبتها بسوطها الحامي ، فكان أن غادرت هوليوود بحثاً عن خلاص .

حديث المدينة

فى هذه الأثناء ، كانت الحرب الثانية بأهوالها تدق على الأبواب ، سحب عاصفتها المميتة تتجمع منذرة بالاقتراب ، ولا حديث فى طول أمريكا وعرضها إلا عن « ذهب مع الريح » .

ومن بين ما قالته « كاتى » فى كتابها عن هذه القصة ان مؤلفتها « مارجريت ميتشل » ارسلت لها نسخة منها ، ما أن قرأتها حتى وجدتها عملا يصلح للسينما .

تصادف ، بعد ذلك ، أن توجهت بعربتها إلى منزل « دافيد سلزنيك » لاستصحاب شقيقه « مايرون » فى نزهة نهاية الاسبوع .

وعندما دقت الجرس ، وفتح الباب ، أطلّ منه « دافيد » وكان ممسكا فى يده



كاترين هيبورن فى « خمن من هو زائر العشاء ؟ »

كتاب « ذهب مع الريح ».

وما أن رأت الكتاب ، حتى قالت « لا تقرأه يا دفيد .. أسرع بشرائه ».

وفعلا اشترى حق ترجمته إلى لغة السينما ، وأثار حول اختيار النجمة التي تؤدى دور بطلته « سكارليت اوهارا » ضجة كبرى.

وبطبيعة الحال ، كانت « كاتى » من بين أوائل المرشحات.

وفى البدء سارت الأمور كما كانت تشتهى ، فكان ان اختيرت مع مخرجها المفضل « جورج كوكور » الذى كشف عن مواهبها فى أكثر من فيلم ، هى لأداء دور « سكارليت » ، وهو لإخراج « ذهب مع الريح ».

ولكن سرعان ما غيرت الاقدار الأدوار ، فإذا « سكارليت » من نصيب ممثلة انجليزية غير معروفة اسمها « فيفيان لى » ، يكتب لها فيما هو قادم من أيام ان تتوج بأوسكار مرتين ، وان تعيش بعد هذه الامجاد حياة قصيرة ممتلئة بالخطوب والعذاب.

وإذا « بجورج » مخرج أجمل أفلامها ، يرفت هو الآخر من « ذهب مع الريح ».

وعن واقعة الرفت الأخيرة ، قالت فى



امرأة السنة أول فيلم
مع سبنسر تراسى

كتابها « لم يفصح لى « جورج » أبداً عن السبب ، وأنا لم أسأله أبداً » وعلى كل ، فبعد هذا الاحباط شدت « كاتى » الرحال إلى نيويورك ، حيث لعبت دور « تراسى لورد » فى « قصة فيلادلفيا » على خشبة المسرح فى برودواى .

اللقاء السعيد

أحبها النقاد والناس فى الدور ، فاشترت حق عمل سينمائى من تلك المسرحية ، ثم قفلت راجعة إلى عاصمة السينما فى الغرب ، حيث باعت ذلك الحق إلى شركة « مترو جولدين ماير » بربع مليون دولار ، وهو مبلغ مذهل فى تلك الأيام ، وحيث قامت بأداء الدور فى فيلم أمام كل من « جيمس ستيوارت » « وكارى جرانت » (١٩٤٠) .

وعن « لويس ماير » قيصر تلك الشركة التى جعلت من الأسد شعارا لها ، انتزعت « كاتى » من حافظة السنين صورة مختلفة له عن صور الآخرين ، حين وصفته فى كتابها بأنه أشرف شخص تعاملت معه على مر الزمان !!

ومنذ بداية الاربعينيات ، وهى متربعة على عرش السينما ، تظهر النجوم ، وتختفى ، ونجمها باق يلمع فى السماء .

الصعود والتجلى

وها هى ذى تختار « سبنسر تراسى » الحاصل على أوسكار مرتين ، كى يتقاسم معها بطولة فيلم « امرأة السنة » (١٩٤١) فتحسن الاختيار .

ويتكرر ظهورهما معا فى تسعة أفلام ، آخرها « خمن من هو زائر العشاء » ، ذلك الفيلم المعادى للعنصرية ضد السود (١٩٦٧) عقب حصولها على أوسكار للمرة الثانية عن أدائها لدور الأم أمام «سبنسر» فى الفيلم الأخير ، وبالتحديد فى تمام الساعة الثالثة من صباح يوم العاشر من يونية لسنة ١٩٦٧ ، سمعت « كاتى » ، وهى فى حجرة نومها ، صوت خطوات «سبنسر» متجهة نحو المطبخ ، فقفزت مهرولة اليه ، ولكنها سرعان ما سمعت صوت تحطم كوب وارتطام .

وما أن فتحت باب المطبخ حتى وجدته جثة لا حراك بها .

اشاعة حب

ولست أريد أن ألخص هنا خير ما فى فصل « ترك بيت كاليفورنيا » من الكتاب ، ذلك الفصل الذى خصصته « كاتى » لموت « سبنسر » ووصف بيته الذى قضيا فيه معا أجمل سنوات العمر .

وهو تصوير لقائهما الأول ، وكيف رأى « سبنسر » اظافرها متسخة ، وكيف تصور انها امرأة منحرفة لا تميل إلى جنس الرجال .

ولا أن الخص موقف زوجته « لويز » وابنته « سوزى » وابنه الاطرش « چون » عندما ابلغتهم « كاتى » خبر الوفاة ، والتقوا الثلاثة بها حيث كانت تقيم مع الفقيد .

وانما اكتفى بنقل الحديث الذى جرى تليفونيا بين « كاتى » وبين الزوجة بعد موت « سبنسر » بأيام « انت عارفة يا لويز . انه ممكن انك وأنا نصبح أصدقاء أنت عرفتيه فى البداية ، وأنا فى النهاية ، وفى امكانى مساعدتك فى رعاية الأولاد » .

وجاء رد أرملة « سبنسر » مفاجئا « حسنا » ، نعم ، ولكنى كنت أظن ان ما بينكما إشاعة .. » !!

وتعلق كاتى قائلة :

« بعد ما يقرب من ثلاثين سنة ؟ اشاعة ؟ ما الرد على هذا ؟ الجرح كان غائرا لا يندمل حوالى ثلاثين سنة وأنا مع « سبنسر » فى الحلو والمر ويقال اشاعة .

وهكذا ، وبفضل عدم اعترافها ابدا بأنى موجودة ، ظلت الزوجة ، وظلت ترسل بطاقات التهنئة بعيد الميلاد وبقى «سبنسر» المذنب ، وهى الضحية المعذبة . أما انا ، فقد نشأت فى بيئة متحررة ، ولم احطم زواجهما ، فقد كان حطاما قبل ظهورى على مسرح الاحداث بزمن طويل » .

(يلاحظ ان « كاتى » بروتستنتية ، فى حين أن « سبنسر » و « لويز » كاثوليكيان ، أى من طائفة تعتبر الطلاق وتحديد النسل من الذنوب التى يتعين معاقبة مرتكبيها عقابا شديدا) .

وهنا ، تجدر الاشارة ، والحديث عن حب دام حوالى ثلاثين سنة ، إلى واحد من أهم فصول الكتاب ، ذلك الفصل الذى افردته صاحبة السيرة « لسبنسر » تحت عنوان قصير من كلمة واحدة لاغير «حب» .

التعريف السليم

فيه تقول ان حبها له كان من ذلك النوع الذى يملك على المحب كل شىء ، فيصرفه عن كل شىء حتى ينتهى به الأمر إلى أن يفنى فيه .

عرفته ، ولها من العمر ثلاث وثلاثون سنة .

وهذا يعنى أنها انتظرت طويلا ، حتى التقت بالشخص الذى ترك فى قلبها جذوة لا سبيل إلى اطفائها .

ولعل ما كتبته فى تعريف هذا الحب الجامح الذى لا يترك لصاحبه حظا من اناة أو روية أو تفكير ، لعلــه خير ختام للحديث .

« احبك ... ماذا تعنى ؟ فكر .

نحن نستعمل هذا التعبير باستهتار .

الحب ليس له أى ارتباط بما تتوقع أن تجنيه ، وانما يرتبط بما تتوقع أن تعطيه .. وهو كل شىء .

ما تحصل عليه مقابل الحب ، يختلف باختلاف الأحوال .

ولكنه فى حقيقــة الأمر لا علاقــة له بما تعطيه ، أنت تعطى لأنك تحب ، ولا تستطيع الامتناع عن العطاء » .

القصيدة مجلة جزائرية جديدة

للأسف الشديد إن الإنقطاع قائم بين الشعر الجزائرى الحديث وبين القارىء المصرى ، وبالمقارنة بين معرفتنا بالرواية العربية الجزائرية فإن معرفتنا بالشعر تكاد تكون معدومة .

من هذه المطبوعة الجديدة « القصيدة » يمكننا أن نتأكد أن هناك أصواتا متميزة بين شباب الشعراء الجزائريين ، ومن المعلومات غير الوافية للأسف التي سبقت الصفحات التى خصصتها المطبوعة عن كل شاعر يمكننا أن نستدل على أن أصغرهم ولد فى أواخر الستينات وأكبرهم فى بداية الخمسينات ، وكان من الضرورى فى الحقيقة أن تكون المعلومات وافية فالواضح أن الأغلبية الغالبة من هؤلاء الشعراء لم تصدر لها مجموعات كاملة ومن سبق له النشر فى كتب صدرت له مجموعة واحدة . من هنا فإن التعريف الوافى هو جزء مهم ، وإن كان الأهم بالطبع النصوص نفسها ومدى تحققها .

على أى حال ، وحتى لا نرتكب نحن نفس الخطأ ، نقدم هذا التعريف الوافى بهذه المطبوعة الجديدة فى عددها الأول الذى وصلنا الشهر الماضى ، والواضح أنه ربما يكون قد صدر فى نهاية العام الماضى (١٩٩١) فهكذا يشير تاريخ الطبع ، وهو التاريخ الوحيد الذى أمامنا .

واضح أيضا أن هذه المجلة الشعرية الجديدة تصدر كملحق عن مطبوعة أخرى هى التبيين التى تصدر عن جمعية الجاحظية بمقاطعة عين النعجة الجزائرية ، وعلى الرغم من ورود إسم القاص المعروف الطاهر وطار كمدير لتحريرها فإننا نفهم أن مواد هذا العدد قد تم إختيارها من القصائد التى فازت فى مسابقة « مفدى زكريا » التى نظمتها جمعية الجاحظية عام ١٩٩٠ ، وكذلك تم إختيار بعض القصائد من مئات القصائد التى وصلت إلى الجاحظية فى إطار المسابقة .

لذا ، تقول لجنة التحكيم ، إن « مسئوليتنا فى إعداد وتقديم هذا العدد محدودة ، إلا أنه بين رغبتنا فى أن يعكس هذا العدد الأول مختلف أشكال وتوجهات



ومستويات القصيدة الحديثة فى الجزائر من جهة وقناعتنا بضرورة تقديم المستوى الذى يحترم ويخدم القارىء والشاعر والأدب بصفة عامة من جهة أخرى . إجتهدنا وغيرنا ما رأينا ضرورة تغييره واجبا ، وحرصنا على تقليل الأخطاء التقنية إلى الحد الأدنى .

على أن الإطار الحضارى الذى صدرت هذه المجلة فى ظله تعكسه كلمة التقديم التى هيأها مكتب الجمعية الجاحظية والتى جاء فيها : إننا - نضع بين يديك هذا المولود الجديد ، ونحن نشعر بالغبطة الكبيرة ، لا لأنه المولود الأول الذى تنجبه بلادنا بعد عقم دام ثلاثين سنة، ولكن لأنه مولود شرعى ، جاء نتيجة تضافر جهود شباب السبعينيات والثمانينيات مع جهود لا نقول بعض الرواد ، ولكن نقول كتاب وأدباء الستينات والسبعينات والخمسينات أيضا .

وحتى وإن لم يقدر لهذا المولود أن يعيش ، حتى وإن خنقته الأيدى الأثيمة التى تعودت أن تخنق المبادرات الخلاقة ، فإن مفخرته ومبعث الإعتزاز به ، أنه شرعى ، لم تلده البيروقراطية ، بميزانية ، ومكاتب مكيفة ، ومراسيم تسميات ، وسكرتيرات ، وسيارات تذهب إلى البيوت الشخصية أكثر مما تذهب إلى المطابع . إنه إبنتا . ابن جميع الكتاب والأدباء الجزائريين . الذين شاركوا منهم والذين لم يشاركوا الذين يقيمون بالعاصمة وضواحيها ، والذين يقيمون فى أبعد نقطة من ترابنا الوطنى العزيز ، الذين يعيشون فى هذا العصر ، والذين سبقونا ، مفدى زكريا ، ومحمد العيد آل خليفة ، ومالك حداد ، والذين سيأتون بعدنا ، بأجيال وأجيال .

بإصرار وبعناد ، ويتحد للظروف القاسية التى تعيشها بلادنا ، ولأزمة الضمير التى تعترى مجتمعنا نواجه المستحيل ، كى يخرج هذا المولود الجديد إلى النور .

كل هذا لم يثن عزيمتنا ، ولا إصرارنا ، على أن يكون للشعر الجزائرى منبر ، تتعرف فيه الدنيا عليه ، ويتعرف الشعراء على بعضهم البعض ، ويتواصل القارىء مع إبداع أبنائه فيه أيضا .

صك المؤامرة

عن وعد بلفور

هذا كتاب أشبه بالحدث ، فهو وإن كان مكتوبا للفتية العرب ، فإن مؤلفيه جميل عطية إبراهيم ، وصلاح عيسى ، قد جعلا منه موسوعة حية ، عن كل ما يتعلق بهذا الوعد المشئوم ، وما ترتب عليه ، من أحداث ، ومن شارك حول هذه الأحداث من أشخاص بالكلمة والصورة ، والتاريخ والرقم ، حتى ليصبح مرجعا كاملا فى موضوعه .

وتقدم دار الفتى العربى هذا الكتاب الذى يحكى قصة صدور ذلك الوعد من وجهة نظر ممثلين لأطرافه المتعددين .

الطرف البريطانى الذى تولى إعداد الساحة العربية لكى تنفذ فيها خطة التقسيم الاستعمارية ، والطرف العربى الذى كان ضحية لهذا الوعد ، والطرف الصهيونى الذى حصد نتيجته المباشرة .

وقصة وعد بلفور هى قصة الصهيونية فى مرحلة من مراحلها ، وهى قصة حلقة



من حلقات المؤامرة الاستعمارية لتمزيق الوطن العربى ، ومنح قطر منه - هو فلسطين - للصهاينة ، يقيمون على أرضه (دولة حاجزة) تحول بين وحدة المشرق العربى والمغرب العربى .

وفى هذا الكتاب يروى أربعة شهود قصة هذه المؤامرة :

- فيتحدث السير هنرى مكماهون - المعتمد البريطانى فى مصر عام ١٩٥٢ - عن الظروف التى أحاطت ببريطانيا فى الحرب العالمية الأولى ، وجعلتها تفكر فى مستقبل الوطن العربى بعد الحرب ، وتسعى للتفاهم مع حلفائها ومنافسيها





حول إقتسامه .

- ويقص حاييم وايزمن - أول رئيس للدولة الصهيونية - الدور الذى قام به ؛ حتى استطاع الحصول على وعد من وزير الخارجية البريطانية بلفور - بإنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين .

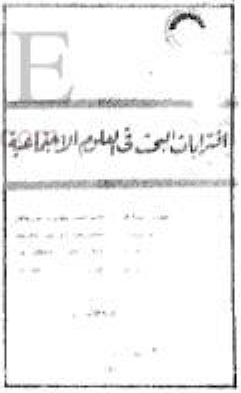
- ويروى إدوين صموئيل مونتاجو - وزير شئون الهند فى وزارة لويد چورج - كيف ولماذا عـــارض اليهود البريطانيون غير الصـــهـاينة - وهو منهم - صدور هذا الوعد .

- ويشهد الشريف حسين بن على - ملك الحجاز - على خديعة الحلفاء - وعلى رأسهم بريطانيا - للعرب ، حين وعدتهم بالاستقلال ، ثم وعدت فرنسا فى إتفاقية (سايكس - بيكو) بمنحها جزء من أقطارهم ، ووعدت اليهود بقسم آخر .

وهى قصة طويلة .. للوعد الذى غير تاريخ الوطن العربى ، برغم أنه لا يزيد عن مائة كلمة ، ترقد الآن بين محفوظات مكتبة المتحف البريطانى .

مكتبة الهلال

الكتـــــاب : اقترابات البحث في العـــلوم الاجتماعية
تـــأليف : مجـــموعة مـــن الباحثين
النـــاشر : مركز البحـوث والـــدراسات الســـياسية (جامعة القاهرة)



يمثل هذا الكتاب العمل الثاني الذي يصدره مركز البحوث والدراسات السياسية (كلية الاقتصاد والعـلوم السـياسية - القــاهرة) ويتضـــمن البحـــوث والتعقيبات التي قــدمت في ندوة عقدت في ديسمبر ١٩٩٠ تحت عنوان « اقترابات البــحث في العـــلوم الإجتمـاعية » التي هدفت إلى تبـــادل الخبـرات البحثية بين الباحثين في مجال العلوم السياسية وعلم الإجتماع حول هذا الموضوع ، وتم في إطارها مناقشة مجالات استخدام بعض اقترابات البحث في هذين الفرعين من فــروع العلوم الاجتمـاعية وإمكانيـات ومجــالات استخداماتها المستقبلة .

وكان العمل الأول قد ضم مجمـوعة الأبحاث التـي عقــدت في المركز (ديسمبر ١٩٨٩) تحت عنوان البحث الإمبريقي في الدراسات السياسية .

ويرجع اهتمام المركز كما يقول تصدير الكتاب بهـذا البـــرنامج إلى مايواجـــه البعض من البـــاحثين من صــعوبات في مراجعـــة النمـــاذج والنظريات والإستفادة من أطــر التحليـــل المتوفرة وتظريف المفاهيم ووضع الفروض وجمع البيانات اللازمة لإختيارها .

يأتي في تعـــريف الاقتـــراب أنه يتضـــمن عددا من المفـــاهيم التي تربطها علاقات معينة فهو يمثـــل طريقـــة للتفكير وتنظيم المعلومات وطرح الافتراضات فكل إقتراب يقع في إطاره العديد من الكتـــابات النظرية التي تحــــدد ماهية المفاهيم المستخدمة والعلاقات التي يمكن استنباطها وأساليب جمع وتحليل البيانات الأكثر ملاءمة لموضـــــوع البحث .

الكتاب : البلدان النامية وتجديد الفكر الإشتراكى،
تأليف : بهيج نصار
الناشر : دار العالم الثالث ٢٧٥ ص



يفضل المؤلف أن يسمى كتابه تقريرا استقى مادته من الخبرة الذاتية التى جاءت من مشاركته فى نضال شعب مصر ، ثم خبرة المشاركة في بحث الكثير من القضايا العالمية ومخالفة كثير من مناضلى الأحزاب المختلفة أثناء عمله سكرتيرا لمجلس السلام العالمى منذ أواخر عام ١٩٧٣ .

ويقول :

غير أن الجذور الحقيقية كما ورد فى هذا التقرير هى الخبرة العظيمة لآلاف المناضلين من المصريين منذ الأربعينات وحتى الآن ، فذلك تاريخ تواصل خمسين عاما ويحتاج إلى مزيد من الجهد لإستخلاص الخبرة كى تضاف إلى جهد مشكور ومحمود تم فى هذا الشأن .

وأكاد أتصور – يضيف المؤلف – أن معظم ماسجلته هذه الأوراق كان من الممكن أن يكون الفصل الأخير لتاريخ هذه الحقبة ضد نضال أصحاب الاشتراكية العلمية من المصريين فى مختلف مجالات التنمية الاقتصادية والإجتماعية والثقافية – وفى التحالفات السياسية – وفى العمل مع المنظمات الجماهيرية وفى العلاقة بين قوى اليسار ، وفى أشكال عديدة من العمل الجماهيرى ـ السياسى والمسلح – وفى التعامل مع قوى العالم .

على أن التقرير وإن إستند إلى الماضى من أجل فهم الحاضر فهو يتطلع إلى المستقبل ، وهو محاولة لفهم الحاضر من أجل تغييره نحو هدف مقبل لامحالة ، هو العدالة الإجتماعية بقضية الهيمنة الامبريالية وباحترام حقوق الإنسان وحقوق البيئة حوله – وبتحرير العمل من كافة أشكال الإستغلال والقهر.

الكتاب : خروج العرب من التاريخ
تأليف : د. فوزي منصور
ترجمة : ظريف عبد الله وكمال السيد
الناشر : دار الفارابي ، بيروت ٢٤٤ ص .



يقول الدكتور فوزى منصور وهو يقدم هذه الطبعة من كتابه هذا كتيب قصدت به عند كتابته شيئا ، لكننى أرى الآن ، عند العودة إلى قراءته ، تمهيدا لإصدار طبعته العربية ان ما كتبت كان شيئا آخر .

كتب فى أوائل عام ١٩٨٨ ، استجابة لدعوة من جامعة الأمم المتحدة ومنتدى العالم الثالث ، وهو يكون الجزء الذى يخص الوطن العربى من دراسة أشمل تتبناها جامعة الأمم المتحدة عن موضوع : الأمة والدولة والديمقراطية فى مناطق العالم الثالث الرئيسية ، وينشر هذا الجزء بشكل مستقل فى سبتمبر وأكتوبر عام ١٩٩٠ باللغتين الفرنسية والإنجليزية تحت عنوان : مأزق العالم العربى : دراسة تحليلية تاريخية وقد شجعنى على الإستجابة إلى الدعوة التى تلقيتها للكتابة عن هذا الموضوع ، إدراكى المتزايد لأهمية العناصر الثلاثة التى يتضمنها – وللارتباطات المتبادلة بينها – لدراسة وفهم الأوضاع الراهنة فى الوطن العربى .

ويضيف الكاتب :

على أننى ما إن عدت في النصف الثانى من عام ١٩٩٠ إلى قراءة ما كتبت فى النصف الأول من عام ١٩٨٨ حتى فوجئت بأن ماكتبت كان فى الحقيقة محاولة غير مقصودة لتقصى المراحل المتتابعة لخروج الأمة العربية من التاريخ ، وأكثر مما هو محاولة لتفسير هذا الوجه أو ذاك من أوجه الواقع العربى المعاصر : دور العامل القومى ، طبيعة الدولة فى أقطار الوطن العربى ، غيبة الديمقراطية عنه ، أو غير ذلك .

إنه كتاب مهم عن واقع العالم العربى .

الكتـــــاب : الأسطورة والتراث
تـــــأليف : د . سيد القمنى
النـــاشر : سينا للنشر - القــاهرة ٣٢٨ ص .



فى مقدمة ساخنة لكتابه يقول الدكتور سيد القمنى مشخصا الوضع الراهن لمجريات التطورات الجارية فى البلاد العربية أن هناك ولاشك عوامل متعددة تقف وراء التمسك العنصرى بالجنس والدين والجـذور القوميـة ذلك التمسك الذى يتمثل لدينا فى حنين حاد للماضى جـاء كرد فعل طبيعى ، إزاء فترة طـويلة من الإحتـلال الأجنبى . مع ما أنبـأت به مرحـلـة مابعد التحرر الوطنى من فشل مشاريع التحديث ، وإقامة مجتمعات عصرية، وما لازمهـا من فشل آخر منيت به التوجهات العلمـانية فى إيجـاد مرتكزات جماهيرية لها ، وهو بدوره . ناتـج عن أسباب ليس هنا مقام مناقشتها ، أما العامل الأساسى فى ذلك التوجه الكاسـح نحـو الماضى - فهـو وجـود الـدولة الصهيونية على التراب الوطنى وما يشكله هذا الوجود من خطر وتهديد مستحدثين ، وجرح نازف غائر دوما فى الكرامة الوطنية والقومية .

وبهذا المنطق السائد - يضيف المؤلف - يتم إغـلاق الدائرة وتصبح خصـوصيتنا العـرقية والجنسية القومية أدلجة دينية تجد تنظيراتها فى مكتباتنا المزدحمة بما يطلق عليه ذلك المصطلح المجـازى « التـراث الإسلامى » بينما تصبح أى محاولة مخالفة ، هى إبتعـاد عن الإعتصـام بحبـل الله ، وإبتعاد عن صـالح سلفنا وتنظيراته وسـقوط مـزيد من الإنحطاط .

إن الأسـطورة جزء لايتجـزء من تراثنـا ، وهى الجـانب الذى لم يحـظ بأدنى قـدر من الاهتمام ، إزاء صـدور الحكم عليه باللامعقـول الذى ينبغى شـطبه من تاريخنا وقبـل درسه الدرس الكافى لإصـدار مثل هذا الحكم .

مسرح

أنماط المسرحية الكوميدية

بقلم : د. ابراهيم حمادة

يرى كثير من الباحثين فى الأجناس الأدبية ، أن المسرحية التراجيدية تقف عند طرف ، بينما تقف المسرحية الكوميدية عند الطرف الآخر المواجه - وكأنهما يمثلان وجهين لعملة واحدة .

وهذا التقسيم النوعى - الذى يبدو حاداً - إنما هو أمر من أمور التنظير ، الذى يفرضها النقد الأدبى إذ يقف قرب منتصف المسافة القائمة بين هذين القطبين الأساسيين ، نوع آخر مهجن ، يطلق عليه التراجيكوميدى . كما تتوالد أنماط درامية عديدة ، ينطوى كل منها على عناصر معينة من خصائص كل قطب . وتختلف كمية هذه العناصر وكيفيتها ، تبعاً للبعد أو القرب من القطبين اللذين يفترض - نظرياً - أنهما جنسان دراميا خالصان .

وتقوم المسرحية الكوميدية - والأنواع الأخرى المشتقة منها على توظيف عوامل السخرية من التصرفات الإنسانية التى يرفضها المجتمع ، بقصد إثارة ضحك المتفرجين ، وإمتاعهم ، أو الترفيه عنهم وتسليتهم .

ويتراوح مظاهر هذه الاستجابات - التى تثيرها الكوميديا - بين القهقهة المتفجرة التى تهتز لها الكروش ، والضحكة الهادئة المتعاطفة ، والراحة النفسية الخفية كما تتحقق تلك الاستجابات - المعبرة عن السرور والمتعة - عن طريق وسائل حسية متعددة : كالضرب ، والصفع وتغريب الملابس



مسرح شيكسبير

أو تقطيعها ، وإلقاء التورتة بالكريمة فى الوجه ، والحركات الفزيائية الشاذة ، والتشوهات البدنية بما لا يؤلم – وكذلك من خلال وسائل لغوية ذات أوجه كثيرة : كالتوريات ، والمواعظ ، والعبارات الحلوة ، والتعليقات البارعة ، واللعب بالألفاظ ، وتحريف المنطق ، والبذاءات ، وإبداء الملاحظات الخشنة ، والإهانات ، والتناقضات ، والسب ، والتورية ، والتنكيت ، والتبكيت ، والاستعباط والتقليد المبالغ فيه .

صعوبة التصنيف

أما الوسائط المستخدمة فى ذلك ، فأهمها مظاهر الشخصيات غير العادية ، ومواقفها ، وسلوكاتها ، وتفكيرها ، وأسلوب كلامها .

ولاشك أن تصنيف المسرحيات الكوميدية فى خانات منمطة محددة ، أمر جد عسير ، لأن شخصياتها – التى تصدر عنها الأفعال والأقوال الفكهة – تتباين فى تراوحها بين شخصية الصعلوك المهلهل الثياب الذى يترنح وسط القمامة من شدة تأثير الخمر الردىء الذى عبّ منه وشخصية الأمير الوسيم المثقف المعطر ، الذى يرتدى ملابس السهرة الغالية ، وتحتشد حوله كوكبة من الأمراء يتنافسونه جاهاً وفطنة وثراء .

والحقيقة أن التنميط الذى يسعى إلى تحقيقه البحث الأكاديمى – المفتون بالفرز والتصنيف والتعريف – يتجاهله المؤلفون تماما عند الإبداع ، فهم يطلقون أيديهم فى المادة الكوميدية ، ويروحون يمزجون بين عناصرها بمقادير متنوعة ، بما يلائم أخيلتهم وأهدافهم ، دونما اعتبار التنظير النوعى الذى قد يكون سابقا ، أو حتى ينتظر لحوقه .

براعة التعبير

ولقد كان الشاعر الكوميدى الإغريقى أريستوفان (٤٥٠ - ٣٨٥ ق . م .) ، يستخدم فى بناء كوميدياته ألواناً شتّى من البذاءات اللّفظية ، والحركات البدنية المرحة والخشنة ، ويمزجها بضربات فكرية ناقدة ، أو لكمات عقلية ساخرة ، يوجّهها - عادة - إلى بعض معاصريه من السّاسة والمفكّرين ، فى صياغة شعرية تدلّ على براعة وموهبة فى التّعبير . ولهذا ، حار الدّارسون فى تصنيف دراماته ، واضطرّوا إلى أن يلصقوا عليها بطاقة مميّزة ، عنوانها : « الكوميديا الأريستوفانية » .

وكذلك ، يصعب تصنيف كوميديات وليم شكسبير (١٥٦٤ - ١٦١٦) ، التى يبدو وكأنها هزلية ، ورومنسية ، وسوداء ، بل إنه - فى بعض الأحيان - كان يمزج أساليب مختلفة فى نفس المسرحية الواحدة .

ولقد حاول آلان رينولدز طومسون فى كتـــابه : « تشـــريـح الـدّراما » (١٩٤٤) ، أن يصنّف التّراث الدرامى الكوميدى الذى تناهى إليه ، وأن يفرّقه على درجات سلّم تبعاً لقيمة طبقاته ، يبتدىء من الدرجة السّابعة السّفلى ، ثم يعلو حتى الدّرجة الأولى . ولقد وضع المهزلة (الفارس) فى الدرجة الأدنى لأنها تعتمد على كل ما هو مضحك حتى ولو كان مفحشاً وعبثيا . ثم وضع - فى الدرجة التى تعلوها - الكوميديا الماجنة التى تسخر من العاهات والكوارث الجسمية ، ثم التى تشهد لها حبكاتها بالمهارة فى تدبير الحيل والخدع . ثم تعلو ذلك درجة الكوميديا التى تقوم على الفطنة اللّفظية ، واللّعب الذكى بالكلمات والمعانى، ثم وضع - فى الدرجة السّادسة - الكوميديا التى تنبنى على تصوير الشخصيات المتناقضة . وفى الدرجة الأعلى - والأخيرة فى السلم - كوميديا الأفكار أو الكوميديا الراقية .

وقبل طـــومسون ، حـــاول ألارديس نيكول فى كتابه : « نظرية الدراما » (١٩٣١) الذى ترجمه المرحــــوم درينى خشبة إلى « علم المسرحية » (١٩٥٨) - أن يقدّم سلّماً خاصاً ، ولكنه - كغيره - لم يكن ينطوى على التّدرج التقييمى النهـــائى الذى يمكن أن يحظى بالإجماع .

ففى الدرجة الأسفل فى السلم ، وضع نيكول المهزلة (الفارس) ، ثم جاء فوقها مباشرة بكوميديا الأمزجة ، ثم وضع أعلاها الكوميديا الرومنسية

الشكسبيرية التى تفرّعت منها كوميديا الفواجع الرّومنسية التى ألّفها شكسبير فى أخريات حياته . وفى نهاية السلّم العلويّة وضع الكوميديا السلوكية التى ألحق بها كوميديا التّظرّف والجنتلة ، التى تتميّز بمناخ عاطفى مبالغ فى تصويره ، وبسلوكات شخصياته الشديدة الرّقة والتأدّب المفتعل

★★★

وتجىء حبكة المسرحيـــة الهــزلية (الفارس) مصطنعة ، وتبرئة من أحكام المعقولية ومشاكلة الواقع . وتبذل غاية جهدها فى إثارة جو المسرح الذى تجتهد فى تهيئته شخصيات كاريكاتورية ، بحركات جســمية تهريجية ، ومــواقف ملفّقة ، ومصادفات غير محتملة ، ونكات خشنة ، وألفاظ يمجّها الذوق المثقّف ، وكل الأفعال البدنيّة واللّغوية الساخرة التى تهدف إلى التّرفيه والإضحاك - بصفة أساسية - مما يستهلك أدنى طاقة من تفكير المتفرّج .

وتهتم كوميديا التّدسيس - قبل كل شىء - بالتّنكّر ، وحبك الدسائس المرحة ، وتدبير المقالب المضحكة ، والمكائد الفكهة .



نماذج من شخصيات المسرح الأغريقى

أما موضــوع الـكوميديا الرّومنسية - كما عرف فى بعض ملاهى شكسبير ، وبواكير العصر الإليزابيثى - فإنه يدور حول بطلة مثالية رقيقة الحاشية ، تصادف فى سبيل غرامها عقبات وعراقيل ، ولكنها تتغلّب عليها فى النهاية ، وتحقّق أحلامها الوردية . وتسود الأحداث أجواء رومنسية ، تهيئها ظلال الغابات والبساتين ، ودفء الأقمار الفضية ، حيث يسرح الخيال المشعشع ، وتقطر الكلمات العذبة سحرا وعاطفة .

وتتصف الكوميديا الراقية ، بطابع فكاهى مهذّب ، شبه جاد ، يثير ضحكاً

خفيفاً أو ابتسامات وامضة ، مبعثها الذهن ولأن هذا النوع من الكوميديا (الأفكار) ، ينتقد - غالبا - السلوك الاجتماعي دون قسوة أو تهجّم ، فقد ارتبط ارتباطا وثيقا بمصطلح « كوميديا السلوك » .

ويتركب هذا النوع الراقي من بعض خصائص الكوميديا التي تعتمد علي بناء المواقف ، والتي تهتم بتصوير الشخصيات ، والأخرى التي تعنى بالأفكار . ولهذا ، كانت شخصياتها من الطبقة العليا التي تتكلّف تصرفاتها وأقوالها . كما تتسّم - الى جانب انتقاد السلوك الاجتماعي المصطنع - بالدس ، والتّنمّر الذّهني والعاطفي .

أنواع مستحدثة

[illegible] الملاحظ - بوجه عام - أن [illegible] ، [illegible] ، وترتيب نيكول ، قد [illegible] [illegible] وضع المهزلة (الفارس) في [illegible] . وعلى وضع [illegible] [illegible] الأفكار ، أو كوميديا السلوك في أعلاه . إلا أنّ التقسيمات النّوعية الأخرى المدرجة بين طرفي سلّم الباحث الأول ، تختلف عن الترتيب النوعي القائم بين طرفيْ سلّم الباحث الثاني . بل ويجب الاعتراف ، بأن هناك أنواعا أخرى مستحدثة أو قديمة ، يمكن إضافتها إلى الأنماط المذكورة ، لأنها تستقلّ بملامح خاصة ، تميّزها عن أخواتها اللائي جيء بهن في درجات السلّميْن .

والحقيقة أن مؤلفي الكوميديا ، يهتمون أساساً بتركيب أعمالهم الدرامية ، ممّا يمكنهم مزجه من العناصر الفكاهية المتاحة ، بل وكذلك من عناصر الشجن الخفيف . ولاشك أن التركيبات المتباينة المقادير والاساليب ، تتجاوز أي تقسيم أكاديمي - في الوقت الراهن - يحاول كبح جماحها ، داخل قوالب محدّدة ثابتة ومنطقة .

ولمّا كانت كل مسرحية كوميدية يتراوح موضعها بين قطبي الرّقي والانحطاط ، وبين ما هو فزيائي وما هو ذهني ، فهي أيضا تختلف عن غيرها من بنات جنسها ، طبقاً لأهداف مؤلفها وقدراته ، لأن العنصر الجوهري المتوافر في كل نمط - مهما كانت مرتبطه - هو وجهة نظر المبدع ، التي تتجلّى في موقفه الكوميدي .

لغـويات

● مازالت كلمة « يتواجد » منتشرة فى الصحف المصـرية ، وهى كلمة ذاعت على الألسنة منذ استعملها ضباط ثورة يوليو فى بياناتهم التى كانت مليئة بالأغلاط اللغوية والنحوية لأنهم لم يكونوا من أصحاب اللغـة الفصيحة .. وكلمة « يتواجد » معناها إظهـار الوجـد ، ولكن قائليها يقصدون بها الفعل المضـارع « يُوجَدُ » ويستعملون « يتواجد » بدلا من هـذا الفعـل ويرفضـون تصـحيح الخطأ ! ..

● ومثل « يتواجد » فى قبح الخطأ قول الصحف : « فلان وأخوه توأم » .. والصـواب : « فلان وأخوه توأمان » .. لأن التوأم للمفـرد لا للمثنى ، والجمع « توائم » .. وقد انتشر هذا الخطأ كانتشار خطأ « يتواجد » فى أجهزة الإعلام وعلى ألسنة العامة انتشار النار فى الهشيم ! ..

● وخطأ آخر أدمنته الصحف هو قولهم : « فلان أخ فلان » .. والصواب : « فلان أخو فلان » .. وأخو هنا اسم مرفوع بالواو ، فإذا نصبته قلت : « رأيت فلانا أخا فـلان » ، وفى الجر تقول : « ذهبت إلى فلان أخى فلان » وهـذه من « بديهيات النحو » التى كان يعرفها الناس قديما ، وصارت الآن خافية على الصحف الكبيرة ..

● سمعت أحدهم فى حديث له بإحدى الإذاعات يقول : « ثم دخلت السيدات القاعة ثُلاثاً .. ثُلاثاً » .. بضم الثاء فى أول الكلمة وفتحها وتنوينها فى آخرها ..

والصواب ضم « ثُلاثَ » فى أولها وفتحها فى آخرها بلا تنوين .. فيقال : دخلت النساء ثلاث ، ودخل الرجال ثلاث بضم الثاء فى أولها وفتحها فى آخرها من غير تنوين فى جميع الحالات ، وبلا تكرار « ثلاث » مرتين كما فعل صاحبنا الذى كررها وألحق بها التنوين جهلاً ! ..

روما

موسوعة شخصيات القرن العشرين

« بانوراما » . مجلة ايطالية سياسية أسبوعية . تهتم مثل كل المجلات المشابهة بالفنون والآداب والعلوم والاقتصاد . ربما لجذب أكبر عدد من القراء . أو إيمانا بدور هذه الفنون والمعارف فى صناعة مجتمع أفضل .

لكن دور مجلة بانوراما لم يتوقف عند هذه المتابعات الاسبوعية لما يحدث فى ايطاليا والعالم على المستوى الأدبى والعلمى والفنى . فقد اعتادت المجلة منذ فترة من الوقت على توزيع كتيبات كهدايا على بعض من اعدادها . اغلب هذه الكتيبات عبارة عن مراجع مفيدة جداً للقراء.



على سبيل المثال فقد وزعت المجلة بعض القواميس المبسطة ثنائية اللغة من الايطالية إلى لغات عديدة كالانجليزية والفرنسية والاسبانية والالمانية وغيرها .

وفى الشهر الماضى أصدرت المجلة موسوعة صغيرة وزعتها على ثلاثة اعداد تحمل عنوان « ١٠٠٠ شخصية صنعت القرن العشرين » . تتضمن تعريفا بأشهر الشخصيات التى اشتركت فى صناعة القرن العشرين فى مجالات إنسانية عديدة منها السياسة والاقتصاد والعلم والفنون والآداب .

والموسوعة صادرة بالحجم المتوسط ، وهى مصورة ويمكن للمرء العادى من خلالها ان يتعرف على الكثير من الشخصيات التى عاشت معه يسمع عنها ويتابعها فى وسائل الاعلام المختلفة ، ورغم ان الكثير من هذه الشخصيات معاصرة لنا فإن الكثير منها غير معروف خاصة البارزين فى مجالات الصناعة والعلوم والاقتصاد .

وتجىء أهمية الموسوعة انها لا تهتم كثيرا بالرصد ..قدر اهتمامها بالتحليل والانطباعية وذلك تبعا لعدد الاسطر المخصصة لكل شخصية على حدة حيث لا تزيد بأى حال على ثلاثين سطرا مهما كانت أهميتها ودورها . ليس تقليلا من

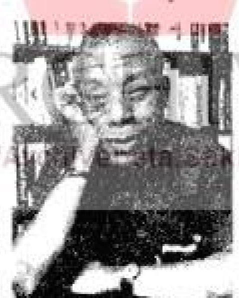
حجمها ، ولكن من أجل اعطاء مساحة أخرى لشخصية يجب الا تسقط من ذاكرة القرن العشرين .

ومقابل هذا العدد الأقل من الاسطر ، فإن الموسوعة تضع الشخصيات الأكثر أهمية داخل براويز بدافع التمييز . وذلك مثلما فعلت مع الكاتب الأمريكي ارنست هيمنجواى والعالم البريطانى ستيفن هوكنج - سبق للهلال ان قدمته فى دراسة مستفيضة - وفريق الخنافس ، والفنان التشكيلى بيكاسو والزعيم الهندى جواهر لال نهرو والرئيس الأمريكي جون كينيدى ، والكاتب المسرحى يوجين ارنسكو

لم تخل الموسوعة من بعض الاهتمام بشخصيات عربية أغلبها عمل فى مجال السياسة مثل جمال عبد الناصر وانور السادات وياسر عرفات . فعبد الناصر كما جاء فى الموسوعة زعيم كبير ناهض الاستعمار فى الخمسينات والستينات وانه اهتم بتصنيع بلاده ولذا سعى لبناء السد العالي . وبحث عن تطوير بلده اقتصاديا، وانه رغم موته يبقى أهم زعيم عربي معاصر .

واشنطن

الكاتب .. والباحث


جيمس بولدوين

فى عدد شهر مارس الماضى من مجلة « سكواير » الأمريكية . فتحت الكاتبة ناتالى روبنز ملف الحرب السرية ضد الكتاب الأمريكيين المعروفة باسم الحرب الكارثية ضد المثقفين . اشارت ان مئات الملفات قد فتحت فى ادراج المباحث الفيدرالية باعتبار أن أى كاتب يمتلك حق الانتقاد قد أصبح عدواً للشعب .

الآن . يتم فتح هذه الملفات السرية لمعرفة ماذا كتب رجال المباحث عن الكتاب المشاهير . هذه الملفات التى فتحت باسلوب عشوائي . وبدون أى دلائل كافية لادانة أى كاتب من الكتاب ولذا امتلأت هذه الملفات بمغالطات وافتراءات عن الأدباء . فقد جاء فى ملف الكاتب اروين شو مؤلف رواية « الجائزة » انه شيوعى انضم إلى الأنشطة الشيوعية فى عام ١٩٣٥ اما جون شتاينبك فقد كتب على ملفه «سرى للغاية» وجاء

فيه انه قد تم العثور على رسائل فى بريد الكاتب تدينه بتهمة الشيوعية .

أما ارنست هيمنجواى فقد تم فتح ملفه لأول مرة فى ديسمبر ١٩٤٢ وذلك بتهمة التردد على سفارة كوبا ، وقد كتب جون هوفر رئيس المباحث هذه الملفات بقلمه ذكر فيها ان هيمنجواى كان صديقا للسفير الكوبى . وان هذا يعكس فكر الكاتب .

ومن بين هؤلاء الكتاب هنرى ميللر المعروف برواياته الاباحية الذى فتح له ملف لأنه كتب أثناء الحرب أنه يعتقد ان النازيين شعب متعاون .

وفتحت المباحث الفيدرالية للكاتبة جرترود شتاين ملفا لأنها كانت ضد سياسة الرئيس الأمريكى روزفلت ، ولذا اختارت الإقامة فى أوروبا .

لشبونة

مائتا عام من الأناشيد القومية

لكل دولة نشيدها القومى الخاص بها . ويمثل هذا النشيد فى وجدان الناس مشاعر وطنية فياضة ، ويحس المرء حين يردده أو يسمعه بزهو خاص بوطنه ونفسه .

لكن ، لعل القليلين هم الذين يعرفون الكثير عن الأناشيد الوطنية ودورها فى صناعة الوجدان القومى .. وقد اثار هذا الموضوع قريحة الكاتب الفرنسى جان بول ريب الذى ألف كتابا عن أشهر الأناشيد القومية العالمية ، ونشر النص الكامل لهذه الأناشيد مع ذكر لمؤلفيها وتواريخها ، وقد جاء فى الكتاب ان النشيد القومى يستثير المشاعر الوطنية وتختزنه الذاكرة ، وأغلب الأناشيد العالمية تقوم على أفكار انسانية عامة لا تفرق بين الأديان وتدعو إلى « الوحدة . والعدالة والحرية » .

ظهر أول نشيد قومى أثناء الثورة الفرنسية عام ١٧٩٢ . أى منذ مائتى عام بالضبط . ألفه روجيه دوليس من أجل زيادة الحماس لدى الجنود المحاربين فى الراين ، وقد صاحبت كلماته موسيقى معروفة باسم « استير » . مأخوذة عن مقطوعة موسيقية مستوحاة من إحدى مسرحيات راسين ، وقد أصبح هذا النشيد نواة للنشيد المعروف باسم « المارسيلليز » أو « فتاة مارسيليا » ، والغريب ان هذا النشيد قد منع من الترديد ابان حكم لويس الثامن عشر عام ١٨١٦ ثم عاد للظهور مرة أخرى عام ١٨٤٨ ، وتقول بعض كلماته :

هيا يا أبناء الحزب
فقد حان يوم المجد

وقد قسم الكاتب الأناشيد القومية إلى أقسام عديدة . اشدها دموية هو النشيد القومي المكسيكي والدنماركي الذي من كلماته «تتبعث الضحكات الجهنمية من المدافع . كي ترقص في الحفل المرعب» .

اما نشيدا الترويج وبنجلاديش فيعتبران الأكثر بلاغة ويعتبر نشيد اليابان أكثرها بساطة وقد تم تأليفه عام ١٨٨١ .

بيروت - موسكو

نقاط العالم .. الساخنة

في أحيان كثيرة ، تكون الخرائط والرسوم التوضيحية أكثر بلاغة عشرات المرات من المقالات والبحوث والدراسات ، ولذا فإن الخريطة التي نشرتها مجلة «لونوفيل أوبسرفاتور» عن النقاط الساخنة في عالم ١٩٩٢ جاءت أكثر بلاغة من أي ملفات فتحتها نفس المجلة أو مجلات أخرى عن نفس الموضوع .. الدراسة منشورة في صفحتين متجاورتين في عدد ٩ يناير ١٩٩٢ ، وبدون أي تعليق ممكن ، وبنظرة واحدة فقط على الخريطة يمكن للمرء ان يعرف الاماكن الأكثر سخونة في العالم ، وإلى أي حد هي أكثر سخونة .

من النظرة الأولى لهذه الخريطة سنرى ان هناك قارات أشد سخونة ، وقارات أخرى أقل حرارة .. وأماكن عديدة باردة تماما حيث الصراعات . أشد هذه المناطق لهيبا هي قارة آسيا . حيث هناك صراعات وقوات أمن دولية وسباق تسلح وحروب أهلية في الهند وافغانستان وسرى لانكا وبيرمانيا واندونيسيا والفلبين وكمبوديا والأرض المحتلة . ثم في جورجيا ولبنان وتركيا وارمينيا والعراق .

أما أفريقيا فإنها تشهد مجموعة من الصراعات في بقاع متعددة بداية من الصومال وتشاد والسودان وليبيريا وتوجو وانجولا التي تشهد جميعها حروبا أهلية . أما اثيوبيا وموزامبيق فتشهد صراعات على السلطة . بينما تتعقد الأمور في الصحراء الغربية . فهناك حروب تحرير وقوات سلام دولية .

وفي أوروبا تخف الصراعات إلى حد كبير . ففي أسبانيا وايرلندا وقبرص هناك حركات تحرر قومي اما يوغسلافيا فتشهد حرباً أهلية ضارية .

مجـــلة تــولد وأخرى تموت

بقلم : د. على شلش

عشت أثناء الحرب العالمية الثانية بقرية قريبة من الصحراء الغربية ، وكان هذا القرب سببا فى أول إنطباع لى عن الإنجليز والألمان معا . فقبلها لم أر انجليزيا واحدا ، مع أن الإنجليز كانوا يحتلون البلاد ، ولكنى رأيت الجنود الإنجليز بكثرة عندما راحت لورياتهم تخترق قريتنا بين يوم وآخر ، وعليها عشرات من الأسرى الألمان الذين أوقعتهم هزيمة روميل فى الأسر . وكانت اللوريات تجمعهم من أطراف الصحراء ، وتنقلهم إلى الإسكندرية عن طريق القرية . وذات يوم رأيت قافلة اللوريات تقترب فوقفت للفرجة مع بعض أطفال القرية . وكنا اعتدنا كأطفال أن نلتقط ما يلقيه إلينا الجنود الإنجليز من حلوى وشيكولاتة ، ثم نصيح بأعلى أصواتنا «هايل هتلر» . ولم أكن أعرف وقتها أن «هايل» الألمانية هذه تعنى التحية والترحيب ، فهكذا تعلمناها من الكبار ، وهكذا كنا نرددها ، ولا نلقى إلا الابتسام من الجنود الإنجليز ، والهتاف بذات العبارة من الأسرى الألمان .



غلاف العدد الأول من مجلة بنش

ولأمر ما حدث فى ذلك اليوم الأخير أن تأخر الإنجليز فى إلقاء حلواهم وشيكولاتاتهم ، فهتفنا هتافنا ، فإذا من نصيبنا هذه المرة لفافة من الورق تصيب رأس أحدنا . ولما فتحناها أدركنا أنها مجلة انجليزية ، فرحنا نهتف من الغيظ ، والأسرى يهتفون وراءنا ، وحراسهم الإنجليز يضحكون عليهم وعلينا !

وكانت المجلة من نصيبى فأخذتها إلى أبى الذى تصفحها ، وأعجب بها قليلا ، ثم تركها لى ، فبقيت عندى حتى منتصف دراستى الابتدائية . وكانت أول صحيفة بتلك اللغة التى بدأت وقتها فى تعلمها بالمدرسة . ومنها التقطت بعض الكلمات ، ولكن ما شدنى إليها كان الرسوم الكاريكاتيرية . وكانت الكلمة الوحيدة التى بقيت فى ذهنى منها هى اسمها ذاته : Punch . وقد فسره لى أبى وقتها - بعد استشارة القاموس - بأنها تعنى اللكم أو النخس أو الخرم . وعندما أطلعت عليها مدرس الإنجليزية ذات يوم فرح بها ، وسألنى إن كنت أعرف معنى اسمها فرددت عليه تفسيرات أبى، أو القاموس بمعنى أصح، ولكنه لم يقبل هذه التفسيرات، واستشار قاموسه ، فأضاف معنى آخر هو نوع من الشراب المخلوط من عدة عناصر مع الكحول أو بدونه . ثم طلب منى المدرس أن يحتفظ بالمجلة قليلا لقراءتها ، ولم يعدها لى بعد ذلك . ومضت الأعوام حتى أصبحت من زبائن سور الأزبكية فى القاهرة ، وذات يوم من أيام الخمسينيات

رسالة لنـــدن

رأيت كومة من أعداد المجلة معروضة للبيع فأثارت فى نفسى كوامن الذكريات حتى اشتريت بعضها . وللمصادفة اكتشفت أن ما اشتريته يعود تاريخه إلى سنى الحرب العالمية . ولكن الاكتشاف الحقيقى كان مادة المجلة ذاتها ، وهى مادة منوعة تقطر ظرفا وسخرية وهجاء ، ولا سيما فى الرسوم الكاريكاتيرية المصاحبة لها . ولابد أن هذه المادة كانت فى وقتها من منشطات روح المقاومة لغارات هتلر وقنابله المستمرة على لندن وغيرها من مدن الإنجليز .

وعندما زرت بلاد الإنجليز بعد ذلك ، وأقمت بينهم ، كانت مجلة «بنش» هذه على رأس صحفهم التى يشوقنى الإطلاع عليها . ولكنها كانت قد تغيرت كثيرا عن «بنش» القديمة التى رافقت سنوات الحرب . ومع ذلك عرفت - لأول مرة - المعنى الحقيقى لاسمها ، وهو اسم شخصية كاريكاتيرية ظريفة يمثلها رجل أحدب معقوف الأنف ، دائم الشجار مع زوجته المشاكسة التى تحمل اسم «جودى» . ومن اسميهما معا (بنش وجُودى) يتشكل اسم لعبة القراقوز، أو الأراجوز ، عند الانجليز : Punch and Judy وكان رسم الزوجين القراقوزين يتصدر غلاف المجلة عند ظهورها .

وفـــاة بنـــش

هذه المقدمة الطويلة من قبيل الحديث ذى الشجون . فقد كثر حديث الإنجليز فى الشهر الماضى عن «بنش» التى أعلنت عن توقفها المفاجئ ، وأذيع الخبر ، ونشر فى نشرات الأخبار المسموعة والمرئية ، ونعى المعلقون المجلة لقرائها الذين يبلغون اليوم ٣٢ ألفا فقط ، وهو رقم لا يعول مجلة أو صحيفة محترمة ، إلا إذا كانت متخصصة فى الأدب أو فى الكلاب ، بعد أن كان ١٧٥ ألفا قبل سنوات قليلة ، مما تسبب فى خسارة كبيرة للمؤسسة المنتجة للمجلة ، وصلت إلى مليون جنيه انجليزى فى السنة !

وكانت المجلة قد صارت منذ عام ١٩٨٩ تخاطب جمهورا من فئة ٢٠ - ٤٠ سنة ، وتزيد فى عنف فكاهتها ووقاحة كاريكاتيرها ، بل عينت شابا عمره ٣٣ سنة رئيسا لتحريرها . ولكن الشباب لم

يعد يقبل عليها ، ولم تعد هى تربى جمهورا جديدا ، فى حين أن جمهورها الأصلى من الكهول كان يمكن أن يعولها ، لولا تصابيها بغير مبرر ولا سند يحميها .

من أطرف ما نشر فى رثاء المجلة نعى صادر من نقابة أطباء الأسنان جاء فيه :

«يحزننا أن نشهد وفاة مؤسسة عظيمة كهذه . فصالات الاستقبال (فى عياداتنا) لن تعود كما كانت» .

والسبب أن عيادات أطباء الأسنان بالذات ، حيث يواجه الانتظار الطويل زبائنها ، درجت على الاشتراك فى المجلة من أجل تسلية الزبائن ، وتخفيف آلام العلاج . ولكن هذه العيادات لم تكن وحدها من مشجعى «بنش» ، فقد انضم إليها كثير من عيادات الأطباء الآخرين وصالونات الحلاقة والتجميل . ومعنى هذا أن الباقى منها للشراء العادى لا يسمن ولا يغنى . وويل لأى مجلة تنزل إلى مستوى التوزيع الذى من هذا النوع .

فى الوقت ذاته نبش كثيرون فى تاريخ هذه المجلة العريقة التى ظهرت يوم ١٧



تشارلز ديكنز

يوليو ١٨٤١ لتكون مجلة أسبوعية هزلية مصورة . ومنذ ذلك التاريخ ، وحتى ظهور آخر عدد يوم ٨ أبريل ١٩٩٢ ، حافظت على شخصيتها الأساسية عموما ، وصمدت لمنافسات طاحنة ، وتوالى على تحريرها عدد لا بأس به من كبار ظرفاء الكتاب ورسامى الكاريكاتير . وكان الكاريكاتير الذى تنشره ينقل أولا بأول فى مجلات وصحف كثيرة فى لغات مختلفة ، أو يستوحيه رسامو الكاريكاتير فى العالم الثالث ، أو ينهب نهبا .

وقبل ظهور «بنش» عرفت انجلترا مجلة أو اثنتين من طرازها عامي ١٨٣١ - ٣٢ . ولكن ظهور مجلة «شاريفارى» الفرنسية فى باريس عام ١٨٤٠ نبه بعض محبى الفكاهة والسخرية من الإنجليز إلى تقليدها . وكانت «شاريفارى» Charivari - التى تعنى فى الفرنسية آلة موسيقية بدائية من الصفيح - صحيفة كاريكاتير ناجحة ، فخطر للرسام وحفار الخشب الإنجليزى إيبينزير لاندلز أن يصدر مجلة مثلها . ولما عرض الفكرة على زميل له تحمس لها الأخير ، وعهد الاثنان بتحريرها إلى الكاتبين ليمون وجوزيف كورين ، ثم اكتفى لاندلز بالرسم لها . وبعد قليل انضم إلى تحريرها الروائى المتعدد الجوانب وليم ثاكرى (١٨١١ - ١٨٦٣) ، وأمدها بكثير من لوحاته القلمية ورسومه الكاريكاتيرية ومقالاته الطريفة . ثم انضم إليها أيضا عدد آخر من الكتاب والفنانين ، من أشهرهم هود وليتش وكين وديموربيه ودويل وتيدى وسكارف .

عند ظهورها وضعت تحت اسمها عبارة «أو شاريفارى اللندنية» تيمنا بالصحيفة الفرنسية . وفى أول عهدها كانت «بنش» متطرفة فى نقدها ، ولكنها ظلت مجلة الطبقة العالية طوال أجيال . وأشتهرت بنقد الوزراء والسخرية منهم . كما اشتهرت بأنها أول مجلة رفضت النشر للكاتب الروائى - المغمور وقتها - تشارلز ديكنز ، بالرغم من فكاهته المعروفة بل اشتهرت أيضا بتعبيرات ومأثورات معينة مازالت تجرى مجرى الأمثال فى اللغة الإنجليزية . ومن أطرف هذه المأثورات : لا تؤدى اليوم ما تستطيع تأجيله حتى الغد (سخرية من تعبير : لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد) ، إذا دفعت فتحمل اختيارك ، نصيحة للمقبلين على الزواج : لا تفعلوا ! ولم يكن أى محرر يعمل بها ، أو يطمح للعمل بها ، يحق له أن يكتب كتابة رديئة أو يكون مغمورا !

وفى سبعينيات هذا القرن عين الصحفى المعروف آلان كورين رئيسا لتحريرها ، فجدد الكثير فيها ، وجعل غلافها ملونا لأول مرة عام ١٩٧٨ ، ولكنه لم يستطع المساس بسر شهرتها ، وهو الظرف والجرأة . وقد وصف هو نفسه كتاباتها - ذات مرة - بأنها «مقالة

فودفيلية» نسبة إلى مسرح الفودفيل الفرنسي الذي تختلط فيه خفة الظل مع التسلية والفكاهة . أما آخر رؤساء تحريرها ، ديفيد توماس ، فلم يستطع المحافظة على هذا السر ، برغم شبابها ، فرفع عيار السخرية ، واكتفى بجمهور الشباب ، دون أن يصد المساءلات القانونية الكثيرة التي وقعت فيها المجلة بسبب جرأتها ووقاحتها ، ولم يستطع أن يضحك القراء كما كانوا يضحكون في الماضي .

دورة حياة للبشر والمجلات

ماذا يمكن أن نتعلم من هذه الحياة الطويلة لمجلة عريقة ؟

قبل أن نجيب نعود إلى نص طريف من نصوصها لأحد كتابها الأوائل ، وهو وليم ثاكري . وقد أعيد نشر النص في كتاب صدر منذ سنوات بعنوان «روح الشرق» . ولا ترجع طرافته إلى أن صاحبه كاتب ظريف وحسب ، وإنما إلى أنه وثيقة طريفة ومجهولة أيضا . ففي عام ١٨٤٤ سافر ثاكري إلى الإسكندرية ، ثم إلى القاهرة ، وزار أهرام الجيزة ، ثم عاد وكتب مقالاً للمجلة ، زوده برسم كاريكاتيري يمثله جالسا على قمة الهرم الأكبر ، واستهله بقوله :

«نسيت اليوم الذي شهد معركة الجنرال بونابرت بمنطقة الأهرام .. حيث قال لجنوده إن أربعين قرنا من الزمان ترنو إليكم من على قمة هذه البنايات - وهذه عبارة أشك جدا في صحتها» .

وصور ثاكري بعض تجربته مع الأهرام فقال :

«عندما صعدت إلى الهرم (الأكبر) لم أستطع التفكير إلا في جسر ووترلو في حبيبتي لندن . فهو بناية ضخمة ورائعة وجميلة وغير نافعة بمقدار ما هي وحيدة . لم يمر عليها بعد أربعون قرنا من الزمان ، هذا صحيح ، ونادرا ما عبرها زوج من عربات الأجرة التي تجرها الخيل . ولكني أشك في حصول المساهمين في تشييدها على حصة أفضل لعاصمتهم من حصة حملة الأسهم السمر الذين يشتغلون بالمضاربة في منطقة الأهرام ، وهي منطقة داست ترابها أجيال لا حصر لها من أبنائهم .» .

ثم تحدث ثاكري عن مساهمته في إحياء ذكرى «بنش» على أكبر هرم قائلا :

رسالة لندن

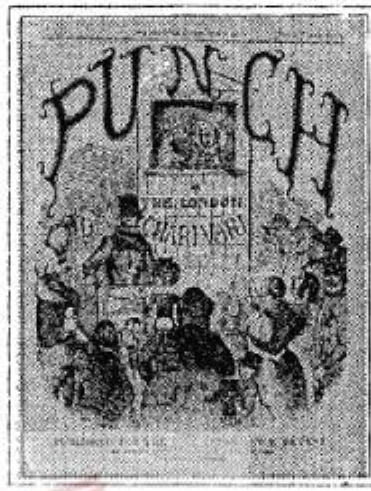
«إذا كان مر على قمة الأهرام أربعون قرنا كما يقول بونابرت فكل ما أستطيع قوله هو أننى لم أر هذه القمة . ولكن مجلة «بنش» كانت هناك فى الحقيقة ، وأقسم على هذا . لقد قمت بوضع ملصق واحد على أول حجر قابلنى (من يدرى كم من الزمن سوف يحترم الشره البدوى هذه الهيروغليفية المقدسة ؟ !) .

وبعد أن ترك الملصق الذى جاء به ، وشبه الكتابة الإنجليزية التى عليه بالهيروغليفية ، صور كيفية صعوده إلى أحد الأحجار العالية ، وكيف حمله إلى الحجر - وهو ثقيل الوزن - أربعة رجال سُمر أشداء ، ثم ثبت الملصق على الحجر ، ونزل إلى الأرض فرحا بنجاحه والوفاء بوعده للمجلة !

نعود إلى سؤالنا الذى ينتظر الجواب . ولا يوجد درس لهذه التجربة سوى الدرس المعروف تقريبا ، وهو أن المجلات مثل البشر ، لها دورة حياة تنتهى بالنهاية المحتومة . ولكن الذى يطيل حياة مجلة عن أخرى هو درجة إحساس محررها والمساهمين فيها بنبض العصر ، ومدى توفيق هؤلاء فى التعبير عن الخطة التى رسموها للمجلة . ومع أن كل محرر جديد يأتى عادة بخطة جديدة- فالخطة بنت العصر . والحاجة إلى خدمة ثقافية أو إعلامية معينة تفرض على المجلة نوعية الخطة ومجالها . والمحرر الشاطر ، بعد ذلك ، هو الذى يصنع من هذا كله توليفة مقبولة وجذابة ، ومع أن الصحف والمجلات فى بريطانيا سلعة اقتصادية واستهلاكية أساسا فهى أيضا سلعة قابلة للبوار إذا تهاون منتجوها فى أدائهم أكثر من مرة . وهذا ما حدث للراحلة «بنش» على أى حال، حين صار معظم سوقها وقفاً على عيادات الأطباء وصالونات الحلاقة !

وفى الوقت الذى قررت فيه «بنش» الاحتجاب والتوقف ظهرت مجلة جديدة . وهذا شئ طبيعى ، لأن أصحاب خطة المجلة الجديدة لابد أنهم درسوا السوق جيدا ، ولاحظوا أن فيه مكانا شاغرا نتيجة بوار «بنش» .

المجلة الجديدة اسمها «ذا أولدى» The Oldie أى «العجوز» . ومع أنه اسم يحدد سوقها وقراءها فهذا هو المطلوب ، لأنها لا تريد أكثر من العجائز المتقاعدين . وقد وضعت على غلاف عددها الأول كاريكاتيرا طريفا مناسبا للعجائز بالألوان . وعلى امتداد صفحاتها الاثنتين والخمسين ينبض أسلوب «بنش» الظريف القديم الذى كان يخاطب الكهول . أما



محررها – ريتشارد إنجرامز – فهو محرر مجلة أخرى طريفة رحلت فى السنوات الأخيرة ، كان اسمها «الدين الشخصية» . وقد أصبح عمره ٥٤ سنة ، أى على أبواب السن التى يخاطبها ، ولكنه لم يفقد خفة ظله وطرافة أسلوبه . وفى افتتاحيته الموجزة كتب إنجرامز :

«بدأت حياة «العجوز» كنكتة . ولكن الجميع أخذوها مأخذ الجد فور أن أعلنت عنها . وراحت عروض المساعدة تنهال علىّ ، واتصل بى الناس تليفونيا يريدون الاستثمار . وقبل أن أعرف ما كان يدور وجدت نفسى أقود حملة صليبية» .

ثم شكر كل من ساعده بالمال أو التسهيلات المكتبية (لأن المجلة لم يكن لها مكتب فى البداية) وعلى رأسهم الناشر الفلسطينى الأصل نعيم عطا الله . كما شكر محرر جريدة «الإندبندانت» على فصله كاتبة عمود شهيرة مما أتاح له توظيفها . واختتم كلامه بأن المجلة «لا يسندها مدد لا ينفد من المال . فإذا أعجبتك (أيها القارئ) فلك أن تساعدنا باشتراك عن طريق ملء الاستمارة المنشورة» .

ومن الصعب التنبؤ بشئ الآن عما سيكون من نصيب «الأولدى» هذه ، ولكن من السهل ملاحظة الفراغ الكائن فى مثل هذا النوع من المجلات الظريفة قبل ظهورها . وظهورها ذاته جاء عندما سقطت زميلتها «بنش» ، وراحت تلفظ آخر أنفاسها .

وهكذا الحال فى المجلات :

مجلة تولد وأخرى تموت ، ولا يبقى غير حاجة البشر إلى القراءة !

التكوين

استفزتني (٢)

د. عبد العظيم أنيس

هـــذا هــو الجزء الثـــانى من مرحلة « تكوين » الدكتور عبد العظيم أنيس ، وقد تعرض فى الجزء الأول إلى بعض العوامل التى أثرت فى بداية مرحلة تكوينه . ومن هذه العوامل نشأته في حي الأزهر وجذور عائلته ، وانتقاله إلى حي العباسية وأثر ذلك على تعليمه ومعاناته فى المرحلة الأولى للدراسة ورسوبه فى امتحان القبول الابتدائى ، وقدوة أخيه الاكبر له وانتقاله للمرحلة الثانوية واشتراكه فى المظاهرات ضد الانجليز وبداية تكوينه الثقافى وأثر دار الكتب فى هذا التكوين وكذلك حصوله على التوجيهية ودخوله كلية العلوم قسم الرياضيات والتى كانت نقطة تحول فى حياته .

فى مايو سنة ١٩٤٤ حصلت على الدرجة الخاصة فى الرياضيات بكلية العلوم جامعة الملك فؤاد الأول (القاهرة) وعينت فى أوائل سبتمبر من نفس العام معيدا بكلية العلوم جامعة الملك فاروق (الاسكندرية) ومع أنه كانت هناك فرصة لتعييني بجامعة القاهرة إذا انتظرت ، فإنني آثرت عدم الانتظار لأسباب عديدة فى مقدمتها أنني كنت حريصا على أن أعيش حياة مستقلة عن الأسرة خصوصاً بعد وفاة والدتى وبداية تفكك الأسرة بزواج الكثير من أبنائها .

لكنني ذهبت إلى الاسكندرية وأنا أحمل فى داخلى ذكريات علاقات عديدة بالقاهرة لعبت دورا هاما فى تحديد مسار حياتى واهتماماتى بالاسكندرية . لقد ساعدت ظروف تربيتى وما صادفته الأسرة من مصاعب بسبب الحرص على التعليم على اهتمامى منذ وقت مبكر فى شبابى بالعمل العام وعلى توفر إحساس مبكر بالالتزام قبل الآخرين خصوصا إذا كانوا من

السياسة فى عائلتنا كل حياتى



د. أنيس مع خالد محيي الدين رئيس تحرير المساء وزوجته عام ١٩٥٧

الفئات المضطهدة والمظلومة والمطحونة اجتماعيا . فمثلا عندما جاءت وزارة الوفد إثر ازمة فبراير سنة ١٩٤٢ بين الملك والانجليز - وسط غارات جوية ألمانية وإيطالية على القاهرة والاسكندرية - وكانت قوات روميل قد وصلت إلى العلمين ، تطوعت للالتحاق بمدرسة الوقاية من الغارات الجوية بالزيتون التي كانت قد أنشئت لتدريب المشرفين على أعمال الوقاية من الغارات ، وكان سنى آنذاك لا يزيد على ستة عشر عاما . وعندما خصصت الجمعية التعاونية للبترول خمسة فى المائة من أرباحها السنوية للخدمة الاجتماعية وقامت بإنشاء مبرتين للأطفال الفقراء (مبرة الاميرة فائية بالدمرداش ومبرة الأميرة فريال بالقلعة) سارعت وأنا طالب بالجامعة بالتطوع للعمل المجانى فى المبرة الأولى التى كانت قريبة من منزلنا ، وقضيت فترات الصيف لثلاثة أعوام متتالية أعمل متطوعا بتلك المبرة فى فصول محو الأمية وفى الطواف على منازل الأطفال الفقراء بالمحمدى لبحث

الحالة الاجتماعية لا طفل واقتراح معونة مالية لها وكان يشرف على هذا العمل من قبل الجمعية التعاونية للبترول اثنان من كبار الممولين فيها .... كامل عبد الرحيم وكيل الخارجية المساعد آنذاك وسفير مصر فى واشنطن بعد ذلك والمستشار عبد المنعم رياض الذى كان من قضاة محكمة النقض .

الشباب والخدمة الاجتماعية

ولقد استطعت إقناع بعض زملائى - ومنهم د . محمد عجلان - بالاشتراك فى هذا العمل التطوعى الخيرى خلال فترة الصيف ، ونجحت فى ذلك مما أسعد المسئولين عن هذه المبرة ، خصوصا كامل عبد الرحيم الذى كان يرى فى هذا العمل نقطة تحول فى توجهات الشباب نحو الخدمة الاجتماعية . وساعد على توثق صلتى به أنه قد بدأ يكتشف أن موظفى وزارة الشئون المنتدبين للعمل بالمبرة كانوا يختلسون بعض الاموال المخصصة للانفاق عليها ، فما كان منه إلا كلفنى بمسئولية الانفاق على المبرة يوميا وتقديم كشف حساب له كل شهر . وعندما تخرجت من كلية العلوم وعينت معيدا بالاسكندرية أقام كامل عبد الرحيم حفلة شاى بمنزله بمصر الجديدة لتحيتى وتوديعى وأهدانى باسم المبرة أربعة كتب فى الرياضيات قيل لى إنها سوف تفيدنى فى حياتى العلمية الجديدة .

كانت تلك إذن صـورة سـريعة لاهتماماتى بالعمل العام - الخدمة الاجتماعية - عندما ذهبت إلى الاسكندرية . ولقد أشرت إلى ذكريات الحلاقات الكثيرة مع زملاء لى التى حملتها معى عند ذهابى إلى الاسكندرية . وهنا يجدر أن أشير إلى علاقتى بالدكتور عبـد المعبـود الجبيلى - وزير البحث العلمى فى السبعينيات ومدير مؤسسة الطاقة الذرية قبل ذلك - كان عبد المعبود معيدا بقسم الكيمياء تخرج قبلى بعامين وكان محل انتباه الانظار بالكلية له لتفوقه العلمى وذكائه واهتمامه بالشئون العامة ولقد حاولت اجتذابه للعمل معنا فى الخدمة الاجتماعية بمبرة الأميرة فادية فلم أجد منه الحماس الذى توقعته ، وأدى بنا هذا إلى حوار طويل حاول فيه إقناعى بأن الخدمة الاجتماعية لن تؤدى إلى تغيير حقيقى فى الاحوال المتردية للمجتمع المصرى وأنها لا تزيد على أن تكون مسكنا من المسكنات مثل الاسبرين ، وأن الحل الحقيقى الجذرى هو الثورة على النظام الملكى القائم ، وأن مثل هذا العمل فى حاجة إلى إعداد طويل .

وشيئا فشيئا بدأت أشك فى أنه مرتبط بشكل ما بتنظيمات ماركسية غير معلنة ، ثم تيقنت من صحة هذه الشكوك عندما بدأ يتحدث معى ببعض الصراحة ويعيرنى بعض الكتب الماركسية الانجليزية مثل « ما هى الاشـتراكية » لإميـل بيرنز ، وكتـاب « الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية » للينين ، وملخص لكتاب « رأس المال » لماركس ، وكتب أخرى ترضى اهتماماتى بالفلسفة مثل كتاب «الايديولوجيا الالمانية» « ضد دهرونج » لماركس وكتاب « المانية

والنقد التجريبى » للينين . ولقد التهمت ك هذه الكتب وتصورت أننى فهمت وإن كنت قد أدركت فى فترات لاحقة أن الفهم الحقيقى لا يتحقق إلا بمعرفة السياقين الاجتماعى والثقافى اللذين ألفت فيهما هذه الكتب . غير أن أهم كتاب أثار اهتمامى آنذاك هو فى الحقيقة كتاب إنجلز « جدل الطبيعة » ، وهو محاولة من المؤلف - على ضوء اكتشافات العلوم الطبيعية فى القرن التاسع عشر - لاستخلاص قوانين الجدل من تلك الاكتشافات . وهذا الكتاب بالذات كان محل انبهارى الشديد فى تلك الفترة من شبابى لأنه بدا لى أنه يقدم تعميما مثيرا لبعض النتائج العلمية - فى الرياضيات والفيزياء والبيولوچى - لم أسمع به من قبل ، ولقد لفت نظرى على وجه الخصوص كيف اكون رجلا مثل إنجلز يكون على هذا المستوى من المعرفة مع أنه غير متخصص فى العلوم .

وبالطبع فعندما أنظر الآن إلى هذا الكتاب أشعر أن هذا الاعجاب المبكر كان مصدره جهلى بأشياء كثيرة عن العلم . وقد يكون كتابا جيدا بمعنى تاريخى ، لكن التطورات العلمية للقرن العشرين قد تجاوزت نتائجه دون شك ، وبعض نتائجه فيما يتعلق بالرياضيات التى تبدو لى اليوم سانجة كان مصدرها معرفة إنجلز السطحية بهذا العلم .

الثورة هى الحل

تلك كانت البداية إذن ... مناقشات مستمرة مع عبد المعبود الجبيلى وغيره من الأصدقاء وقراءة متصلة فى كتب ماركسية كان يعيرنى إياها ، وكل هذا انتهى بى إلى الاقتناع بوجهة نظره بأنه لا يوجد حل لمشاكل مصر الاجتماعية غير الثورة ، وأن خير ما يفعله شاب مثلى هو المشاركة فى الاعداد لها . وهكذا ارتبطت بمنظمة « إسكرا » التى كان الجبيلى أحد قياداتها . وعندما تمت الوحدة بين « إسكرا » وبين « الحركة المصرية للتحرر الوطنى » عام ١٩٤٧ وتكونت منظمة «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى» (حدتو) أصبحت واحدا من أعضائها .

ولقد كانت مصر - فى ظل الازمة الطاحنة التى كان يجتازها النظام الحاكم - تموج بتنظيمات غير قانونية كثيرة من بينها بالطبع تنظيم الضباط الاحرار الذى كان يقوده البكباشى جمال عبد الناصر ومع أننى لم أكن على علم بتنظيم الضباط الاحرار فقد كنت أشعر بشكل غامض أن هناك شيئا يجرى داخل الجيش بين ضباطه الصغار ، وكان مصدر هذا الشعور أننى قابلت آنذاك عددا من الضباط الصغار ذوى الميول الاشتراكية من بينهم الملازم أول أحمد حمروش ، وقد فهمت أنهم يؤدون بعض الخدمات التنظيمية الثورية مستفيدين من سيارات الجيش .

ولقد كانت هناك حاجة شديدة لدى منظمة « إسكرا » لتكوين مجموعة مصرية قوية من المثقفين بالاسكندرية . لقد كان لها وجود نشيط ضمن أجانب الاسكندرية ، لكن وجودها ضمن المصريين كان قريبا من الصفر ولذا لا أشك أن مجموعة المعيدين بكلية العلوم بالاسكندرية قد لعبت دورا

الشروق

رئيسيا فى تشكيل تنظيم مصرى فى أوساط طلاب الجامعة وشبابها . وساعد على ذلك أننا نجحنا فى إنشاء ناد ثقافى بحى الازاريتا بالاسكندرية كان محل لقاء الشباب المتحمسة بالشئون العامة ، وفى تأسيس رابطة للمعيدين تدافع عن مصالحهم النقابية . كما أن صدور مجلة « الجماهير » الاسبوعية بالقاهرة كان عنصرا هاما فى تجنيد العناصر المتحمسة لقضية الثورة .

وبطبيعة الحال كانت هناك خواطر من الحيرة والريبة تلم بنا نتيجة إدراكنا أن هناك تنظيما لإسكرا فى أوساط الاجانب لا نعرف عنه شيئا . ولكن مما خفف هذا الوضع علينا فى الاسكندرية أننا كنا نعمل بنجاح كبير فى أوساط الطلاب العمال وكان الانفصال الكامل بين التنظيمين المصرى والاجنبى يساعد على أن ننسى هذه المسألة على الأقل فى السنوات الأولى .

وكانت تلك الفترة (١٩٤٥ - ١٩٤٨) تتميز بجيشان جماهيرى واسع وتحركات شعبية من السخط والاحتجاج ضد الاحتلال البريطانى الرابض فى القاهرة والاسكندرية وضد النظام الملكى الذى كان قد فقد شعبيته وبالتالى شرعيته تماما . وبشكل عام كانت أحوال المعيشة سيئة بالنسبة للغالبية من المطحونين اجتماعيا وكانت الأوبئة تكتسح البلاد - الكوليرا مثلا - وتفتك بالألوف ، وكان الرأى العام - وخصوصا الشباب - معاديا للنظام الملكى ولفاروق خصوصا بالرغم من الجهود الحثيثة التى كان يبذلها الاخوان مصطفى وعلى أمين لتقديم صورة زائفة عن الملك وأسرته أمام الرأى العام .

صراع مع الانجليز

وعندما أتأمل اليوم أحداث تلك الفترة تتدافع إلى ذكرتى أشياء عديدة قد يكون من المفيد أن أشير إلى أهمها باعتبارى واحدا من شهودها أو المشاركين فيها . وأولها بطبيعة الحال اللجنة الوطنية للطلبة والعمال التى قادت مظاهرات ٢١ فبراير سنة ١٩٤٦ ضد الاحتلال فى ميدان التحرير وفى مواجهة ثكنات قصر النيل البريطانية (وكانت محل مبنى الجامعة العربية وفندق هيلتون النيل) ، مما أدى إلى سقوط العشرات من الشهداء برصاص قوات الاحتلال . لقد كان هذا العمل الجماهيرى المجيد حدثا تاريخيا بمعنى الكلمة ، وحتى اليوم ما زال الطلاب فى العالم يحتفلون بهذا اليوم (٢١ فبراير) سنويا باعتباره (يوم الطلاب العالمى) .

ولأنى كنت فى الاسكندرية فلم يكن لى أدنى صلة لا بتشكيل تلك اللجنة ولا بمظاهرات ذلك اليوم المجيد . وإنما ذكرته هنا لأن هذا الحدث الجليل كان له رد فعل غاضب بالاسكندرية يوم ٥ مارس حيث وقعت المصادمات التى كنت من شهودها بين مواقع البوليس الحربى البريطانى بمحطة الرمل والمنشية وأدت إلى مصرع عدد من جنود الاحتلال .

بعد هذه الأحداث بنحو شهرين أو ثلاثة فيما أنكر وقعت مصادمات أخرى بين طلاب جامعة الاسكندرية وقوات البوليس المصرى التى كانت تحاصر مبنى الجامعة فى محرم بك حيث كانت توجد كلية العلوم وكلية الحقوق وانتهت بحادث فاجع وهو مقتل ضابط من قوات الشرطة . وجن جنون قوات الأمن فأمطرت الجامعة سيلا من الرصاص واعتقلت كل من خرج من الجامعة سواء من الطلاب أو هيئات التدريس ، وظل الحصار مضروبا حول الجامعة إلى منتصف الليل عندما حضر وزير التعليم - محمد العشماوى - من القاهرة فى طائرة وأمر برفع الحصار . وخلال فترة الحصار قمت مع مجموعة من معيدى كلية العلوم بكتابة عريضة احتجاج على الحصار وجمعنا توقيعات العديد من أعضاء هيئات التدريس الذين كانوا معنا فى الحصار بما فى ذلك توقيع عميد كلية العلوم - الدكتور حسين فوزى - وعميد كلية الحقوق الدكتور عبد المعطى خيال . واتصلت تليفونيا بأحد الأصدقاء خارج الجامعة وأبلغته نص عريضة الاحتجاج طالبا منه أن يبرق بها إلى صحيفة المعارضة الوفدية (صوت الأمة) . وبالفعل صدرت الجريدة فى صباح اليوم التالى وفى صفحتها الأولى نص البرقية فى برواز كبير موقعا عليه باسمى نيابة عن الموقعين ، وكان ظهور اسمى بهذا الشكل مجرد مصادفة إذ أن موظف التلغراف أصر على وجود اسم يتحمل مسئولية هذه البرقية فكان أن أعطاه صديقى اسمى. واستشاط رئيس الوزراء - اسماعيل صدقى - وكلف وزير التعليم بالتحقيق فى الموضوع . واعتقد أننى كنت على وشك الفصل من الجامعة بسبب هذه العريضة لولا أن الوزير اكتشف أن عميدى العلوم والحقوق من الموقعين فضلا عن عدد كبير من أعضاء هيئة التدريس ، ولم يكن من السهل إذن تحميلى المسئولية .

محاولة فاشلة لاعتقالى !

ولابد أن تلك الواقعة كانت ذات صلة بوضع اسمى فى كشوف حملة اعتقالات اسماعيل صدقى التى نفذت فجر ١١ يوليو سنة ١٩٤٦ واعتقل فيها العديدون من بينهم محمد زكى عبد القادر والدكتور محمد مندور وعبد الرحمن الشرقاوى وهنرى كورييل وآخرون كثيرون ، والتى قصد بها فى حقيقة الأمر تصفية النشاط الجماهيرى البارز الذى كان اليسار المصرى - بالتعاون مع الطليعة الوفدية - قد نجح فى قيادته . ولم يتمكن بوليس الاسكندرية من اعتقالى لأنهم ذهبوا إلى عنوان كنت قد تركته منذ أسابيع قليلة . وشاء الحظ العاثر للضابط المكلف بالعملية أن يفتش منزل أحد نواب حزب السعديين بحثا عنى ، ورفض أن يعترف أن لهذا المنزل حصانة برلمانية . وفى اليوم التالى تقدم النائب باستجواب فى البرلمان ، وكانت العلاقات بين اسماعيل صدقى والسعديين قد بدأت تتوتر لأسباب أخرى فحمل النواب حملة شديدة على الوزارة واضطر رئيس الوزراء إلى أن يلقى بيانا فى البرلمان يشرح فيه ملابسات خطأ الضابط الذى كان مكلفا باعتقالى ضمن الحملة ، وقدم اسماعيل صدقى اعتذارا

النائب عما حدث وأعلن أن الضابط قد نقل إلى الصعيد عقابا له .

قرأت كل هذا وأنا فى مخبئى عند أحد الاصدقاء بالاسكندرية وقد تردد اسمى كثيرا فى كل هذه المساجلات البرلمانية . وفى أوائل سبتمبر كانت النيابة قد أفرجت عن جميع من اعتقلوا فى حملة يوليو وحفظت التحقيق ، فعدت إلى الجامعة وعند خروجى منها ظهرا فى أحد الأيام وجدت ضابطا فى انتظارى حيث قضيت فى قسم محرم بك ليلة شديدة الطرافة ، وفى الصباح توجهت إلى النيابة بالمنشية ، فما كان من وكيل النيابة إلا أن سألنى بضعة أسئلة شكلية وتولى هو الإجابة عليها ثم رجانى أن أذهب إلى الجامعة فور خروجى من مكتبه . ولم أفهم السبب فى هذا الطلب إلا عندما علمت عند وصولى إلى الكلية بإضراب الطلاب احتجاجا على اعتقالى .

أما الواقعة الثالثة الجديرة بالإشارة هنا فتتعلق بأحداث ٥ ، ٦ ابرايل سنة ١٩٤٨ المعروفة باسم « إضراب البوليس » . لقد كان لضباط البوليس وجنوده مطالب تتعلق بزيادة الرواتب وتحسين ظروف العمل . وقد فشلوا فى إقناع رئيس الوزراء النقراشى الذى كان عنيدا إلى حد الحماقة ، بعدالة تلك المطالب . وعندئذ دعوا إلى إضراب عام لهم فى يوم ٥ إبرايل ، وكان لهذه الدعوة إلى الاضراب امتدادات جماهيرية واسعة فى الاسكندرية على وجه الخصوص . فقد تزامن هذا الموضوع الخطير - إضراب البوليس - مع مطالب نقابية خاصة بالأجور لعمال الغزل والنسيج وغيرهم ، كما تزامن مع موضوع طلابى آخر عرف آنذاك باسم « قضية سعد فريد » .

كان سعد فريد طالبا بكلية العلوم قبض عليه فى حى كرموز وقيل إنه كان يوزع منشورا يساريا عند أبواب شركة الغزل الاهلية . وفى إجراءات حكومية عاجلة ومقصودة للتخويف حوكم سعد فريد وصدر عليه حكم بالسجن ستة أشهر وقد أثار هذا الحكم ثائرة طلاب الجامعة لأنه كان أول حكم يصدر ضد طالب . كل هذا كان قد جرى قبل ٥ ابريل بشهر على الأقل . لكن غياب البوليس فى هذا اليوم المشهود كان فرصة مواتية لمظاهرات عارمة التحم فيها العمال مع الطلاب مع جنود البوليس فى مظاهرات ملأت ميدان المنشية وكان جنود البوليس يرفعون سناكى بنادقهم وعلى قمتها رغيف عيش إشارة إلى مطالبهم . واتجهت بعض هذه المظاهرات إلى سجن الحضرة لاطلاق سراح سعد فريد . ونزلت قوات الجيش بالدبابات والعربات المصفحة إلى الميادين وأطلقت النيران وسقط العديد من القتلى والجرحى . وفى هذا اليوم - أو ربما اليوم التالى ٦ ابرايل - وزعت منشورات باسم (حدتو) كان عنوانها «تسقط الملكية وتحيا الجمهورية» . وكانت تلك أول مرة توزع فيها مثل هذه المنشورات الثورية بين الجماهير . ولقد أشرت منذ سنوات فى مكان آخر إلى هذه الواقعة وذكرت أن كاتب المنشور كان فى الحقيقة الشاعر كمال عبد الحليم الذى كان آنذاك المسئول



زيارة رشيد كرامي وزير الاقتصاد اللبناني لمعهد الإحصاء الدولي ببيروت ١٩٥٤

السياسي في (حدتو) لمنطقة الاسكندرية ، وأن كاتب هذه السطور هو الذي قام بطبع المنشور في أحد مطابع محرم بك وتنظيم توزيعه ، وكنت آنذاك مسئول الدعاية والتثقيف في نفس لجنة المنطقة .

اعتقالات بالجملة

لقد كان هذا المد الثوري بالاسكندرية والقاهرة هو السبب الحقيقي لقيام حكومة النقراشي بإعلان الاحكام العرفية في ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ رغم أنها اتخذت من موضوع فلسطين تكئه لهذا الاعلان ، ولعل الدليل الواضح على ذلك أنها لجأت إلى اعتقال كل القوى السياسية المناوئه للنظام بادئة باليسار ثم قوى الطليعة الوفدية ثم الاخوان المسلمين بعد ذلك بشهور . وكنت بالطبع واحدا من المعتقلين الذين اودعوا في معتقل (أبو قير) بالاسكندرية ثم نقلت بعد ذلك بشهور مع آخرين إلى المعتقل المخصص للقاهرة (معتقل الهاكستيب) ثم نقلت مع آخرين إلى معتقل (الطور) على ساحل البحر الأحمر بالقرب من دير سانت كاترين ، وقد تجمع في هذا المكان الذي كان أصلا مخصصا للحجر الصحي الآلاف من اليسار والاخوان المسلمين . وكان الهدف هو عزلهم تماما عن القاهرة والعالم الخارجي ، وكانت وسيلة الاتصال الوحيدة بين المعتقل وبين السويس هي الباخرة «عايدة» التي كانت تأتي لنا بالمؤن والمأكولات والخطابات كل أسبوعين .

وقد قضيت في تلك المعتقلات نحو عام ونصف مرضت في آخرها ونقلت إلى

مستشفى الدمرداش وبقيت فيه من سبتمبر سنة ١٩٤٩ حتى أفرج عنى فى ١٠ يناير سنة ١٩٥٠ عندما أجريت الانتخابات العامة وعادت الحكومة الوفدية فأفرجت عن جميع المعتقلين .

ومن الضرورى الاشارة إلى أن قصة الاعتقالات هذه قد تزامنت مع الانقسامات العديدة التى وقعت فى صفوف اليسار وأدت إلى تضعضع نفوذه . صحيح أن الخلافات وبداية الانقسامات كانت قد بدأت قبل إعلان الأحكام العرفية والاعتقالات ، وذلك بانقسام شهدى عطية الشـافعى الذى عـرف آنذاك بـ «تكتـل سليمان» . ولكن قضية فلسطين والموقف من مشروع التقسيم وبداية اعتقالات ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ ... كل ذلك خلق مناخا مواتيا لانقسامات أوسع بين مؤيدى مشروع التقسيم ومعارضيه فى صفوف اليسار ، وكان من الطبيعى أن يثور فى هذا المناخ وضع الاجانب واليهود داخل قيادة (حدتو) وخصوصا هنرى كوريل .

ولقد حاولنا فى الاسكندرية تجنب انقسامات القاهرة ونجحنا فى ذلك إلى حد كبير فى أول الأمر ، لكن اشتداد حملة الاعتقالات ثم ذهابنا إلى معتقل الهاكستيب حيث الانقسامات كانت مكرسة بالفعل أدى بطبيعة الحال إلى أن أصبحت الاسكندرية جزءا من هذه الانقسامات التى صارت أمرا واقعا . ولقد حلت الحكومة موضوع الاجانب فى معظمه بترحيلهم إلى خارج مصر ولم يعد لهذه المشكلة وجود داخل مصر وأن كان بعض هؤلاء المتمصرين من اليهود قد حاولوا إنشاء تنظيم لهم فى باريس باسم (مجموعة روما) . ولا شك أن الانقسامات قد أضعفت نفوذ اليسار إلى حد كبير وأصبح من الواضح لكل ذى عينين أنه إذا قدر لليسار أن يستعيد حيويته ونفوذه فى يوم من الأيام فإن ذلك سوف يستغرق زمنا طويلا .

عندما أفرج عنى فى ١٠ يناير سنة ١٩٥٠ عدت إلى جامعة الاسكندرية كما عاد زملائى الآخرون من المعيدين ، لكننا وجدنا تقاعسا من الكلية فى تسليمنا العمل من جديد . وعدت إلى القاهرة ساعيا لمقابلة وزير التعليم الجديد بالوزارة الوفدية - الدكتور طه حسين - لشرح الأوضاع له . ولقد نجحت فى ذلك بفضل سكرتيره الخاص (حسين عزت) ومدير مكتبه (سعيد العريان) . ولقد كان موقف الوزير رائعا على الرغم من أنه لم يكن يعرفنى أصلا ... أنصت باهتمام كعادته لكل ما قلته ثم أشار إلى حسين عزت أن يطلب له مدير جامعة الاسكندرية تليفونيا . وبقيت فى غرفة حسين عزت إلى أن استدعانى الوزير مرة أخرى لمقابلته فإذا به يطلب منى أن أذهب إلى الاسـكندرية لتسلم عملى ، وقد علمت بعد ذلك عندما عدت إلى الاسكندرية أنه شدد على مدير الجامعة بضرورة عودتنا إلى عملنا .

بداية مرحلة جديدة

ولقد كانت عودتى إلى العمل بكلية العلوم بداية لمرحلة جديدة إنتهيت فيها - بعد مراجعة فكرية طويلة - إلى ضرورة

اتخاذ موقف جديد من النشاط السياسى نتيجة ما استجد من ظروف . لقد تمزقت قوى اليسار إلى كيانات صغيرة بلا وزن حقيقى ، واتضح لى سذاجة تفكيرنا السياسى الذى كان يتوهم أن ثورة بقيادة قوى اليسار هى على الأبواب . ولقد كنا محقين فى الوصول إلى نتيجة أن نظام فاروق قد أصبح كالثمرة العفنة التى على وشك السقوط ، لكن الخطأ كان فى تصور أن اليسار كان قادرا على التصدى لقيادة التحول . ولقد ثبت تاريخيا أن ضباط الجيش بتوجههم الوطنى العام (وإن ضموا عناصر تنتمى إلى اليمين والوسط واليسار) هم الذين كانوا مؤهلين لقيادة معركة التحول فى معركة سرعان ما تم التخلص فيها من عنصر اليسار الموجود فى القيادة (خالد محيى الدين) .

وكل هذا التحليل قد انتهى بى إلى ضرورة السفر إلى الخارج للحصول على الدكتوراه ما دمت سأبقى فى الجامعة . وطلبت من صديق لى كان قد عاد من بريطانيا بعد حصوله على الدكتوراه أن يحجز لى مكانا فى إحدى كليات جامعة لندن ، وعندما تم هذا بدأت أستعد علميا للسفر ، إذ مشاكل العمل السياسى كانت قد أبعدتنى عن اهتماماتى العلمية ، وهكذا سافرت فى أوائل سبتمبر سنة ١٩٥٠ إلى لندن .

ومن المفارقات الغريبة التى وقعت لى قبل سفرى بأقل من شهرين أن وزير الداخلية فى وزارة الوفد - فؤاد سراج الدين - استدعانى إلى مقابلة فى مكتبه بلاظوغلى فى يوليو سنة ١٩٥٠ كما استدعى زميلى د . محمد عجلان ، وقد أجرى معنا حوارا سياسيا طويلا حول أفكارنا وبرنامجنا السياسى تحدثنا معه بصراحة حول قضايا الاصلاح الزراعى وبرنامج النهوض بالريف وحول قضايا التأميمات (خصوصا شركة قناة السويس) وحقوق الحركة العمالية النقابية ... الخ ، وكان رأى الوزير أن الكثير مما ندعو له موجود فى برنامج الوفد ولم نوافق بالطبع على هذا الرأى . وقد فهمت السبب الأساسى لدعوته عندما قال إن تقارير القسم المخصوص له تقول إننا مستمرون فى نشاطنا السياسى غير القانونى ، ولم يكن هذا صحيحا بالمرة فقد كنت أستعد للسفر إلى لندن ومشغولا بإعادة تأهيل نفسى من الناحية العلمية .

ولقد أوضحت هذا للوزير الذى فوجىء بنبأ استعدادى للسفر إلى لندن . ولقد ذكرته فى الرد على تقارير القسم المخصوص الزائفة بما كان يهتم هو به عام ١٩٤٩ من نفس هذه الأجهزة بأنه يدبر مؤامرة لاغتيال رئيس الوزراء أنذاك النقراشى - ولم يملك الوزير إلا أن يبتسم ويسكت عند سماعه كلامى . ومن طرائف هذا اللقاء أن ضابط القسم المخصوص الذى حضر هذا اللقاء واستمع إلى هجومى على تقارير القسم المخصوص هو ممدوح سالم الذى صار رئيسا للوزراء بعد ذلك فى عهد السادات .

●●●

قضيت فى بريطانيا عامين بالتمام والكمال من سبتمبر سنة ١٩٥٠ إلى سبتمبر سنة ١٩٥٢ لاعداد رسالة

الدكتوراه في الاحصـ... ـصي بإحدى كليات جامعة لندن . ومع أني قضيت فيما بعد نحو خمس سنوات أخرى في بريطانيا كمدرس بالجامعة (طوال سنتي ١٩٥٥ ، ١٩٥٩) وكأستاذ زائر لاحدى جامعتها (ثلاث سنوات خلال السبعينيات) إلا أن فترة الدكتوراه كانت نقطة تحول شديدة الأهمية في حياتي العلمية وتكويني الثقافي .

وفي العادة يستغرق الاعداد للدكتوراه في الفروع المعملية للعلوم الطبيعية حوالي أربع سنوات أو أكثر ، لكن في الرياضيات بالذات يصبح من الممكن - ولو أنه نادر - أن ينتهي الطالب من إعداد رسالته خلال عامين ميلاديين إذ ساعده الحظ في موضوع البحث أرهق نفسه بالعمل المتواصل وهو ماحدث معي إذ رغم سوء حظي في مناسبات عديدة من حياتي فإن الموضوع الذي اقترح عليَّ بحثه كان أصلا قد بدأ على يد المهندسين المدنيين . وقد وصل إلى أستاذي من خلال أستاذ الهندسة المدنية بنفس الكلية التي التحقت بها (الكلية الامبراطورية) . والموضوع يتلخص في أن مهندسا استشاريا بريطانيا مرموقا - هيرست - عمل في مصر سنين طويلة وارتبط اسمه بدراساته المنشورة عن نهر النيل كان قد نشر في مجلة الهندسة المدنية الامريكية بحثا هاما يحاول فيه بناء نظرية للتخزين القرني (مائة سنة) للمياه في بحيرة فكتوريا . وقد صادف هذا البحث العديد من المسائل النظرية العامة في علم الاحتمالات والاحصاء . وكعادة المهندسين فقد حاول هيرست أن يعطى إجابات تقريبية على مسائل من نوع : كم يكون حجم الخزان إذا أريد له ألا ينضب خلال المائة سنة وعلى أساس تصرف مائي متوسط معين كل عام ؟ ولقد كان المطلوب مني هو معالجة منهجية لهذه القضايا وإعطاء إجابات دقيقة غير تقريبية عليها ، وهذا ما نجحت فيه في نهاية الأمر وأدى بي إلى علاقة خصبة مع هيرست بعد ذلك .

ولقد اقتضى هذا العمل المتواصل صباحا في حضور محاضرات لطلبة الدراسات العليا ولطلبة ما قبل البكالوريوس ، وبعد الظهر في الذهاب إلى مكتبة الكلية ومكتبة المتحف العلمي البريطاني ، وفي المساء في مواصلة القراءة بالمنزل في كثير من الاحيان . ولا شك أنها كانت مرحلة أساسية في تكويني العلمي .

تكويني الثقافي

غير أن هذه المرحلة لم تكن أساسية في تكويني الرياضي فحسب ، وإنما كانت أيضا شديدة الاهمية في تكويني الثقافي العام ، إذ انفتحت فيها على الجوانب الايجابية العظيمة في الثقافة الغربية عموما وفي الثقافة الانجليزية خصوصا . ومن حسن الحظ أن الكلية التي التحقت بها كانت في أحد أحياء لندن المشهورة (سوث كينتز نجتون) وهو حي المتاحف الكبيرة ... متحف فيكتوريا وألبرت ، المتحف العلمي البريطاني ، متحف التاريخ الطبيعي ... الخ ، كما أن به قاعة ألبرت الشهيرة والتي

كانت تعقد بها الحفلات الموسيقية الكبيرة والاجتماعات الجماهيرية الضخمة ، وكل هذا كان يبعد عن غرفتي بالكلية خطوات . ولا شك أنني مدين لقاعة ألبرت بتذوقي للموسيقى الكلاسيكية خصوصا بيتهوفن وموتسارت وهما أحب موسيقيين إلى قلبي ، كما حرصت في عطلات نهاية الاسبوع على التردد على المسرح البريطاني والاستمتاع بروائعه ، ولم أفلح مع ذلك في تذوق الاوبرا والاهتمام بها .

كما كانت إقامتي في بريطانيا فرصة للقراءة في الادب الانجليزي وحضور ندوات ثقافية واجتماعية وسياسية وزيارة العديد من المدن البريطانية . ورغم هذا البرنامج الحاشد لم أفقد اهتمامي بتتبع شئون مصر السياسية ومشاكلها وكتبت بين الحين والآخر مقالات لصحيفة ديلي ووركر البريطانية باسم (ص . الايوبي) ، كما حرصت على التردد على النادي المصري يومي السبت والاحد للالتقاء بزملائي الدارسين لمناقشة الاوضاع في مصر . وقد استطعنا تشكيل « اللجنة الوطنية » لمتابعة الموقف في مصر والاستجابة له بالعمل الطلابي الصحيح ، وأذكر من أعضاء هذه اللجنة د . حكمت أبو زيد وزيرة الشئون الاجتماعية خلال المرحلة الناصرية ، د . فائق فريد نائب وزير الكهرباء الاسبق .

وقد قامت هذه اللجنة بأعمال مهمة عديدة ومنها أنها كانت تصدر نشرة غير دورية عما يجري في مصر سياسيا ونقابيا عرفت باسم « السلام والاستقلال » وكنا نرسلها إلى النقابات والهيائات البريطانية بالبريد . والحقيقة أن هذه النشرة كان يصدرها أصلا د . عبد المعبود الجبيلي في باريس وكان يرسلها لى فنتولى ترجمتها إلى الانجليزية وطبع أعداد كافية منها وإرسالها إلى النقابات والهيئات .

ولقد نجحت اللجنة الوطنية في عقد مؤتمرات مختلفة للطلاب المصريين في بريطانيا بالنادي المصري في المناسبات السياسية والاجتماعية المختلفة ، وقد تميزت تلك الفترة في مصر بأحداث سياسية واجتماعية مهمة ومتدافعة مما ساعد على اهتمام الطلاب المصريين بحضور تلك المؤتمرات في لندن . غير أن أهم عمل اضطلعت به تلك اللجنة ونجحت فيه المؤتمر الضخم الذي عقد بالنادي المصري أثر هجوم القوات البريطانية على محافظة الاسماعيلية وحريق القاهرة في ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ . وكانت نفوس الطلاب تغلي سخطا على الاوضاع في مصر التي أدت إلى تلك الكارثة الرهيبة ، وفي هذا الاجتماع تحدثت طويلا عن المؤامرة التي دبرها الاحتلال مع الرجعية المصرية لاسقاط وزارة الوفد وحرق القاهرة ، كما تحدث غيري من الطلاب في هجوم صريح على النظام الملكي في مصر محملين فاروق وقوات الاحتلال المسئولية الاولى فيما حدث ، بل لقد وقف أحد الدارسين (د . عبد الحميد أمين) وطالب بضرورة أن يتنازل الملك فاروق عن العرش كبداية لحل الأزمة المستحكمة . ولقد صفق الطلاب طويلا لهذا الاقتراح ولكنه تسبب في إحراج شديد لمدير مكتب البعثات - د . عبد العزيز عتيق - الذي كان زوج

شقيقة عبد الحميد أمين ، وهو نجل كاتبنا الكبير أحمد أمين .

ولم يمض على هذا المؤتمر سوى شهور قليلة حتى تحول الضباط الاحرار للاستيلاء على السلطة فيما عرف باسم ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ . وفى هذه المناسبة دعونا لمؤتمر حاشد من جميع مدن بريطانيا لمناقشة الوضع الجديد . وكانت المعلومات المتاحة شحيحة عن طبيعة وتوجهات هذه الحركة الجديدة ، إلا أن الحدث الذى دفعنا إلى تأييد حركة الجيش بشكل حاسم هو طرد فاروق من مصر وتنازله عن العرش ، فقد كان هذا مطلبا من مطالبنا فى مؤتمر أواخر يناير سنة ١٩٥٢. وأرسلت باسم اللجنة والمؤتمر برقية تأييد للثورة أذيعت من راديو القاهرة ، وازدادت قناعتى بصحة هذا الموقف عندما أعلنت الجمهورية لاحقا .

قرار بالفصل من الجامعة

بعد وقوع الثورة بشهرين قدمت رسالة الدكتوراه ونجحت فى الحصول على الدرجة وعدت إلى مصر متفائلا ببداية مرحلة جديدة . ولم أذهب إلى جامعة الاسكندرية كما كان مفروضا وإنما صدر قرار وزارى بنقلى إلى كلية العلوم جامعة القاهرة لأحل محل د . طلبة عويضة الذى كان قد أعير إلى العراق . وبقيت فى قسم الرياضة البحتة بالكلية المدرس الوحيد بين عدد من الأساتذة المساعدين وأستاذا واحدا أتحمل عبء تدريس ١٤ ساعة أسبوعيا حتى وقعت أزمة مارس سنة ١٩٥٤ فانحزت إلى دعوة الديمقراطية مع خالد محيى الدين ومحمد نجيب ، وكنت من الموقعين على العريضة التى طالبت بعودة الجيش إلى ثكناته . وكان أن صدر قرار من مجلس قيادة الثورة فى ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٥٤ بفصلى مع ٤٢ عضوا من هيئات التدريس بالجامعات معظمهم من الذين اتخذوا هذا الموقف . وكان من بين هؤلاء د . عبد المنعم الشرقاوى ، ود . لويس عوض ، ومحمود أمين العالم ، ود . فوزى منصور (من جامعة الاسكندرية) وآخرون كثيرون .

ولقد كان صدور هذا القرار صدمة كبيرة لى فقد كنت قد قضيت عامين فى جامعة القاهرة أدرس وأبحث وأكتب مقالات فى الادب والثقافة فى جريدة المصرى ومجلة روز اليوسف . وفى مايو سنة ١٩٥٤ طلبت إجازة فى الصيف للسفر إلى بريطانيا لاستكمال بعض الابحاث العلمية هناك ، وقد وافقت جامعة القاهرة وسافرت فعلا وقضيت الصيف كله فى لندن منقطعا لأبحاثى وعدت إلى القاهرة بالفعل يوم ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٥٤ ودون أن أعرف أن قرارا من مجلس قيادة الثورة قد صدر يوم ٢٤ سبتمبر بفصلى من جامعة القاهرة . ومن المفارقات الغريبة أن أستاذى فى جامعة لندن الذى أشرف على رسالة الدكتوراه استدعانى لمقابلته قبل ترك لندن بأيام وفاجأنى أنه قد طلب منه أن يرشح أحد تلاميذه لشغل وظيفة محاضر فى

الاحصاء بإحدى كليات الجامعة وأنه قد خطر فى ذهنه أن يرشحنى لشغل هذه الوظيفة . وقد اعتذرت فورا وقلت له إن جامعة القاهرة أولى بجهودى . وبعد هذا اللقاء بأيام عدت فعلا إلى القاهرة لأجد قرار مجلس قيادة الثورة فى انتظارى ، وهكذا أصبحت فجأة فى القاهرة بلا عمل وبالطبع أبرقت إلى أستاذى أخبره أننى قبلت عرضه وأن خطابا فى الطريق يشرح لماذا غيرت رأيى .

ولست أنسى فضل الذين حاولوا مساعدتى فى هذه الظروف ومنهم د . عبد المنعم الشافعى الذى كان آنذاك وكيلا لوزارة الشئون ، والذى رشحنى للعمل فى معهد الاحصاء الدولى (فرع بيروت) . وبالفعل سافرت إلى بيروت فى نوفمبر سنة ١٩٥٤ وقضيت هناك نحو أربعة شهور أدرس فيها لطلاب معهد الاحصاء الدولى . ومن بيروت سافرت إلى بريطانيا فى فبراير سنة ١٩٥٥ وبقيت فيها نحو عامين محاضرا بكلية تشلسى للعلوم والتكنولوجيا حتى تأميم قناة السويس فى يوليو سنة ١٩٥٦ وعندئذ قررت أن أقدم استقالتى من عملى لأتفرغ للدفاع عن قرار التأميم أمام الرأى العام البريطانى . والغريب أن إحسان عبد القدوس - وكنت على صلة به وأبعث له مقالاتى فينشرها فى روز اليوسف - كان قد كتب فى فبراير سنة ١٩٥٥ مقالا طويلا على صفحتين فى مجلته عنوانه « الرجل الذى سرقه الانجليز» يدعو فيه إلى إعادتى إلى جامعة القاهرة ويطالب الثورة بتصحيح هذا الخطأ ، وكان مقالا شجاعا فى تلك الظروف . ثم جاءت مسألة التأميم واستقالتى من عملى فى لندن فوضعت القيادة فى مصر فى موقف حرج والغريب أن الملحق العسكرى فى السفارة المصرية بلندن طلب منى ألا اشترك فى العمل الجماهيرى فى بريطانيا المدافع عن التأميم والمناهض للحرب لأنه كان يتصور أننى سأقف فى هذا العمل معارضا لعبد الناصر باعتبارى مفصولا من الجامعة لكنى رفضت طلبه بالطبع واتخذت الموقف الذى أملاه على ضميرى الوطنى وهو الدفاع عن التأميم وعن عبد الناصر فى موقفه من الجزائر وباندونج .

ولقد تعاونت فى هذا النشاط مع «حركة تحرير المستعمرات» التى كان الجناح اليسارى من نواب حزب العمال هو القيادة الحقيقية لها (تونى بن وآخرون) واشتركت بهذه الصفة فى اجتماعات جماهيرية حاشدة فى المدن البريطانية المختلفة ، انتهت إلى اجتماع ميدان «الطرف الأغر» بعد بدء العدوان الثلاثى على مصر بأيام . وبعد هذا الاجتماع بأيام عدت إلى القاهرة عن طريق الخرطوم التى بقيت فيها حتى حضور أول طائرة من القاهرة فوصلت القاهرة فى أوائل ديسمبر لأجد عرضا من خالد محيى الدين بالعمل معه فى صحيفة المساء . وقبلت العرض وتحولت من أستاذ جامعى إلى صحفى منقطع للعمل فى بلاط صاحبة الجلالة .

لكن تلك قصة أخرى أرجو أن أعود إليها فيما بعد .

أنت والهلال

ملاحظـــات ●●

● ١ – فى عدد مارس الماضى من «الهلال» مقال للدكتور الطاهر مكى قدم فيه كتاب «مختار الحكم ومحاسن الكلم» لأبى الوفاء المبشر بن فاتك ، من تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوى ، ولأن الاستاذ معروف بدقته فيما يعرض ، فقد ذكر أن الكتاب طبع فى مدريد وأن ما طبع كان محدودا ، وقد نفدت طبعته منذ زمن بعيد ، ومؤكدا أن أحدا فى القاهرة لا يعرف عن هذا الكتاب شيئا ، ولا ريب فى أن النفى أشق على العالم من الاثبات ، فإذا فات الاستاذ الدكتور مكى أن هذا الكتاب بعينه طبعته (المؤسسة العربية للدراسات والنشر) ببيروت قبل ١٩٨٠ ، وأن الطبعة الثانية صدرت سنة ١٩٨٠ ، فلأن الإحاطة أمر بعيد التحقيق ، وجل من لا يسهو .

٢ – الشاعر فؤاد بدوى فى تسجيل رمضانى مع إذاعة لندن ذكر فى الشعر الرمضانى أن الأخطل قال :

أتُوعِد كل جبار عنيد فهأنا ذاك جبـار عنيد
إذا لاقيت ربك يوم حشر فقـل لله : مزقنى الوليـد

والبيتان للوليد بن يزيد وموضوعهما لا علاقة له البتة برمضان ، ويعرف موضوعهما كل من قرأ تاريخ الوليد بن يزيد فى كتاب الأغانى وغيره ..

حسان اليمانى – إمام مسجد

● الذكرى الأولى لعبد الوهاب ●

● فى ٤ مايو الحالى تحل الذكرى الأولى لرحيل الموسيقار محمد عبد الوهاب ، وهذه الأبيات من وحى هذه الذكرى :



ذكراك عــادت فالدموع ترقرق • * • لجـــلالها قلبي يدق ويخفق
لفـراقكم عـام مضي لكنــــه • * • تتصـاعد الزفرات فيه فتحرق
يا «كليـوباترا» هل دريت بنعيه • * • وسـكبت دمعاً ساخناً يتدفق ؟
فى الخافقين أذاع باسمك غنوة • * • من وقعهـــا «روما» تغار وتشفق
غنيت أوبريتـــا «لقيس» رافعا • * • من مجـــده «للعامرية» يعشـق
متحججا بالنار ســار لحيها • * • فيـــرده «المهـــدى» لا يترفق
أمحمـد فى الخـلد أنت مكرم • * • جـادتك غـادية تفيض وتغـدق

مصطفى محمود مصطفى – كفر ربيع – منوفية

● أقصـوصـة ● هـل تعـودين يا ديانا ؟

● كان ينام على الحشائش الخضراء تتراقص على أطرافها بقايا قطرات للندى باتت الليل وحيدة ، وفى السماء الصافية انتشر أريج الأزهار وعلى أشعة الشمس المنسوجة عبر الأفق كأوتار آلات العزف كانت الطيور تعزف أغنية للصبح الجديد .

كان ينام «ديمونين» ذلك الراعي الأسمر الجميل ، أى سحر فتنك فيه يا ديانا .. يا أجمل آلهات الجمال المقدس عبر الزمان .. أكنت تنسجين أسطورة بأن الحب لا يعرف الغرى المادى .. أم كنت ترسلين إلى عالم البشر رسالة تخطين قوانين العشق فيها لعالك والعالم .. فكنت تقبلينه كل مساء فعشقته فاستأثرت به وضربت على أذنيه فى الكهف فصار لا يرى سوى نورك أنت .

آه .. يا ديانا العصرية ما أقربك من «ديانا» وما أبعدنى عن «ديمونين» . إن ديمونين الآن يحبك نفس الراعى الأسمر الذى لا يملك سوى ابتسامة على شفتيه ، إنه هو يحبك لكن لما لم تعودى «ديانا» التى تحب بقلبها والتى تحرص على محبوبها .. صرت ديانا أخرى حتى الاسم انتزع منك . أصبحت تحبين الأسْرة والوسائد الحريرية التى ينام عليها ديمونين . لم تقنعي بابتسامته وصفاء قلبه لا تريدين راعيا بل سيداً وجسورا .

آه يا «ديانا» العصرية ما أبعدك عن «ديانا» وما أقربنى من «ديمونين» .

ناصر محمد خليل – كلية الآداب فى قنا

● هلال رمضان - مارس ●

● اسمحوا لى أن أهنئ الهلال بعيدها المئوى مع تمنياتى لها بدوام النجاح والتوفيق ، وقد جاء عدد مارس من الهلال مشرفا لكل قارئ ومثقف مصرى يفخر بالهلال منارة ثقافية .

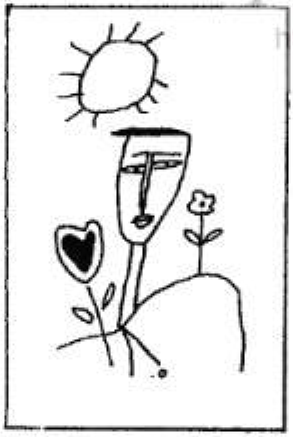
لاحظت الإخراج الفنى الجديد والطباعة وقد أعطيا للنفس وا[illegible]ن والعين راحة عند متابعة العدد ، وكذا ترقيم الصفحات بالهلال الرمز الذى [illegible]ن إيماءة جميلة من الهلال خاصة فى الشهر المبارك الكريم .

كما جاءت الوجبة الشهية التراثية الفكرية فى عرض بعض [illegible] التراث ومقال الاستاذ النجمى والذى يتناسب وروحانية الشهر المبارك وأ[illegible] أن يظل تقديم بعض كُتب التراث بأقلام هؤلاء الكُتاب أو غيرهم باب[illegible] أبواب الهلال الثابتة .

كما لا يفوتنى أن أنوه بالإخراج الجديد لباب «أنت والهلال» [illegible] المواهب وهمزة الوصل بين الهلال وقرائها .

صلاح عبد الستار الشهاوى دمشيت - طنطا

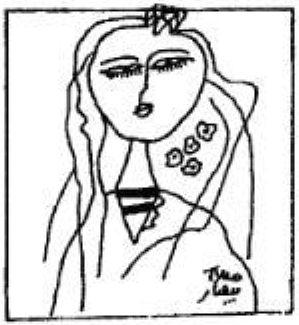
● حبيبتى .. مدينة السكينة ●



رجـوتك .. دنيـاى .. يا غـادتى
منـامى ، وصحوى ، وإطلالتى
حيـاتى التى أشرقت شـمسها
فى نهار النهـار .. وفى الليل
رجوتك .. حقـلا ، شـهى الثمر
رجوتك .. سـقفا ، بديع الصور
رجـوتك فى ملك ربى .. مـدينة
أنا .. فى رباها .. الهوى ، والسكينة
أنا الناس .. فيها .. النبات ، الجماد
أنـا .. كل شئ

لأنى .. فى الحب .. أهـــوى (الأنا)
أجئ إليهـــا بشـــبابتى
بكورا .. أصيلا .. عشاء ، وفجرا
فأمضى أغنى .. أغنى .. أغنى
وبالرغم منى أرانى استدرت
وطوقت بالشوق .. ذاك النهارا !!

رمضـــان أبو غالية - تونسا



● تعـــليق على لغـــويات ●

● من أبواب مجلتنا (الهلال) الهادفة ، خفيفة الظل ، القريبة من القارئ على اختلاف مستوياته العلمية والثقافية : باب (لغويات) ؛ لما يناط به من تيسير لغتنا ، وتصحيحها ، ولفت الأنظار إلى طرائفها وخفاياها .

واعتقادا منى بأننا جميعا يجب أن نشارك فى الحفاظ على مجلتنا بوقارها ، وقوتها .. وحرصا على أن يظل لهذا الباب - على الخصوص - دوره الفعال فى تنمية الثقافة اللغوية ، أرسل إليكم رفق هذا تعليقا صغيرا - أراه مهما - على ما جاء بالباب فى عدد مارس عام ١٩٩٢ ، فقد تناول باب (لغويات) معنى كلمة (المضاربة) ، على ما جاء فى لسان العرب ، الذى يقرر أن : «المضاربة أن تعطى إنسانا من مالك ما يتجر فيه ، على أن يكون الربح بينكما ، أو أن يكون له سهم معلوم من الربح» .

ويبدو أن تمنى التقاء أمتنا على ما يوحد صفوفها أعجل الاستاذ محرر الباب ، فلم يشغل نفسه بتحرى الدقة فى المعنى ، وسارع إلى استنتاج أن كلمة (سهم معلوم) تعنى أن تحديد الربح بسهم معلوم منذ البداية ليس حراما ، وأن هذا يعنى إباحة (العائد) أو (الفائدة) فى الاقتصاد المصرفى الحديث، لأنه تحديد للربح بسهم معلوم منذ بداية الإيداع . وتمنى أن يلخذ الفقهاء بالتحديد اللغوى العربى البحت لمعنى (المضاربة) حتى يبطل الجدال الحاد الذى يدور الآن .

ولا ريب فى أن كل غيور على أمته يرجو الله أن يوفق أبناءها إلى البعد عن الجدال الذى يصرف عن مصالحها ، ويرسى دعائمها على الأسس الثابتة الراسخة الملتزمة بشريعتنا الإسلامية الخالصة .

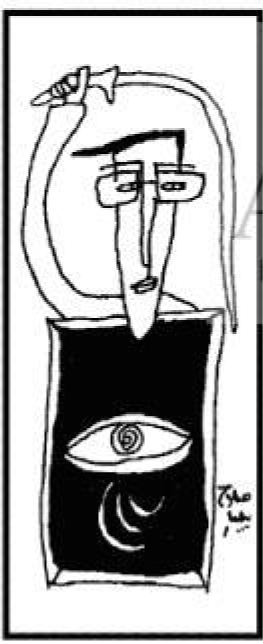
ولكن الاستاذ محرر الباب فاته أن المباح فى المضاربة - كما نقل عن لسان العرب - هو السهم المعلوم من الربح . وأن (العائد) أو (الفائدة) فى الاقتصاد الحديث يعني : السهم المعلوم من رأس المال ، وليس من الربح .

ولا شك فى أن الفارق كبير بين هذا السهم ، وذاك ، وإن أطلق على الاثنين اسم (سهم) وهذا يعنى أن السهم فى المضاربة ليس هو السهم فى المعاملات المصرفية ، كما تبادر إلى تصور الأخ محرر الباب .

هدانا الله جميعا إلى ما فيه مرضاته ، وشرح صدورنا لتقبل الحق والحقيقة ،

الدكتور إبراهيم عوضين - رئيس قسم الأدب والنقد بكلية اللغة العربية - المنصـ

● لوحـــات الزيت ●



أحيانا تقتلني الفكرة !!

تحـــرقني ..

تنثر ذراتي فى وجه الريح .. وتصيح :

أعجـــزت الإنســـان

حولت كيان المســكين دخانا

أحيـــانا أغـــدو لغزا ..

أو حجراً معـــدنه الكتمان ..

ما أتعـــس هـــذا الإنســـان !

وتحط الريح الذرات.. فى أرض دائمة الرى

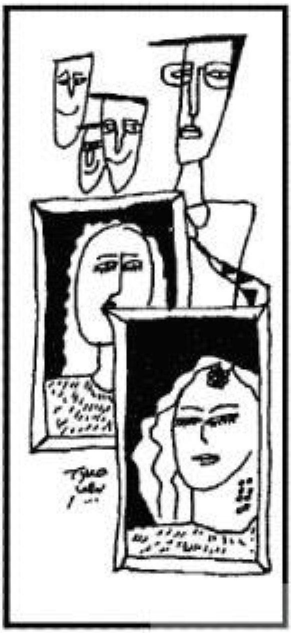
ترويها عين تنبع من جوف الـ ..

... صـــدقني لا أدرى ! ..

لكن يكفى أن المنبـــع جـــوف

أرجـــع متئداً حيث مـــكانى الأول

الســـيف المشـــرع .. بيمينى ..



وعيــــونى .. شــــاشات ردار ..
الدنيـا قدامى واســـعة .. والوقت نهار
ألمح بعض اللوحات الزيتية تتسمر فوق جدار
بسمات واسعة مرسومة .. فوق وجوه الزوار
وأخيــــراً ..
أجلس منتظراً ذاك القــــادم يرديني
ينثر ذراتى فى وجـــه الريح ..
لأعـــــود جـديداً .. وأصيح :
« يا هـــذا الإنســـــان ..
أنت قـــــوى إن عــــانيت
ووقفت شــــديداً فى وجه المـوت »
ولعلى أوضحت المعنى فى هذى اللوحة ..
إحـــدى لوحــــات الـــزيت !!

د. سمير محمد البهواش - أوسيم

● ٥٠٠ سنة بعد الأندلس ●

● ترقبت طوال الأشهر الأربعة الماضية أن تكتب الصحف المصرية كثيرا أو قليلا عن ذكر ضياع الأندلس العربية لمناسبة مرور خمسمائة عام على استيلاء الأسبان عليها ، وطرد العرب منها بعد أخذهم بالعذاب الوبيل ، والاستئصال والاستعباد ..

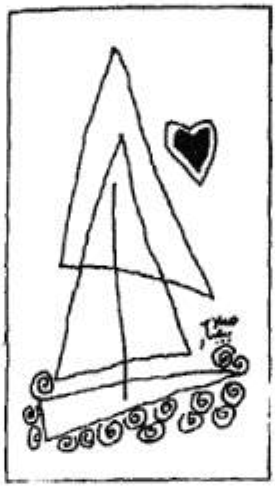
إننى أخشى أن يكون هذا هو مصير فلسطين العربية ، فلا يذكرها أحد بعد خمسمائة عام ، بل بعد خمسين عاما ! .. إلا أننى أرجو أن تهبط على العرب معجزة من السماء تمكنهم من تحرير فلسطين ، وإن كان هذا ليس زمن المعجزات ! ..

عبد الراضى أحمد الرملى - القاهرة

رؤية حبى

ثبتت رؤية حبى فى سـماء الراصدين
فأذاعوها .. فكانت شَرَكَ القلب الحزين
كلما صافحَ أنات الهوى هزّ صداها
فأضاءت فى دم الكون عيونا وشفاها
لم تقُل ما كان من نظرة عين وابتسام
فابتعاد قانع - بالطّل - من فيض الغمام
إنما قالت كلاماً عن لقاء ووداع
حَجَبَ الريحَ الربيعية عن خَفْق الشراع
فاستبدت بسفين القرب آهاتُ الشتاء
فى مُحيط صار لا يفضى لأرض أو سماء

عبد الرحيم الماسخ - سوهاج.



شاعر وشعره

● أكتب الشعر منذ عشر سنوات ، وعمرى الآن عشرون عاما ، وقد شجعنى أساتذتى على كتابة الشعر ، وهذه قصيدة أرسلها إليكم من بين قصائد أخرى اجتمعت عندى فإن كانت لا تصلح للنشر فأنا أريد من سيادتكم أن توضحوا لى مواضع القوة فيها والضعف حتى أتمكن من كتابة قصيدة ذات معنى وقوة فى التركيب .

مـــش «انتى» .... ؟
مـــاذا تـــريدين ....؟
ابتعـــدى «لا تقتـــربين»
فالشـــك يراودنى «فيـــكى»
لأنـــكى تـــكادى تـــكونين
أقرب إلى الشـــك منه إلى اليقـــين

فأنتِ عـــــــــــار على بنى جنســـــك

«لأنكى» من الوضاعة «خلُقتى» لا «ليشى» من الطين

ولو كان للحيـــــــــاة «بقـــاءُ» بـــــدونك

لتمنيـــــت ألا «تُخـــــــــــــلقين»

ياســـر إبراهيم التحفاشبراخيت - بحيرة

تعليق الهلال :

- يابنى .. ليس فى «قصيدتك» هذه مواضع قوة ولا مواضع ضعف، لأنها - مع الأسف - خارجة عن الشعر وعن اللغة بنحوها وصرفها، كأنك لا تعرف عنها شيئا .. وقد وضعنا لك كلماتك غير الصحيحة بين أقواس، كقولك «أنتى» .. وصحتها «أنتِ» بكسر التاء فقط دون مدها بياء بعدها .. ومثل قولك : «لا تقتربين» وهو فعل أمر ، وصحته : «لا تقتربى» .. وقولك : «فيكى» والصحيح «فيكِ» بغير ياء .. وقولك : «لأنكى تكادى» .. وصوابها «لأنك تكادين» .. ومثل «خلقتى» .. ومثل «لو كان للحياة بقاءُ» بفتح وتنوين الهمزة وصوابها الضم والتنوين .. ومثل «تمنيت ألا تخلقين» .. والصواب «ألا تخلقى» .. وهناك خطأ إملائى فى السطر الرابع فى كلمة «ليس» فقد جعلتم السين شيناً .. وهكذا أنت - مع الأسف - تحتاج إلى أن تتعلم اللغة العربية من أول سطر فيها قبل أن تكتب أول سطر من الشعر أو النثر ! ..

مع أصــدقائنا

● السادة الشعراء : حسن شراقى .. حنان سلامة البلتاجى .. محمد على بكر .. طارق عرابى .. محمد عبد المنصف .. أحمد الزيبق .. إبراهيم عبد اللطيف منصور .. مفرح السيد عوض .. مصطفى محمد محمد .. سيد يوسف صالح ..

- قصائدكم تحتاج إلى مراجعة فى الأوزان ، ونرحب بتلقى رسائلكم لتعرف مدى التقدم الذى تبلغونه بالمرانة المتواصلة والاطلاع الدائم ! ..

الكلمة الأخيرة



بقلم : د. يوسف خليف

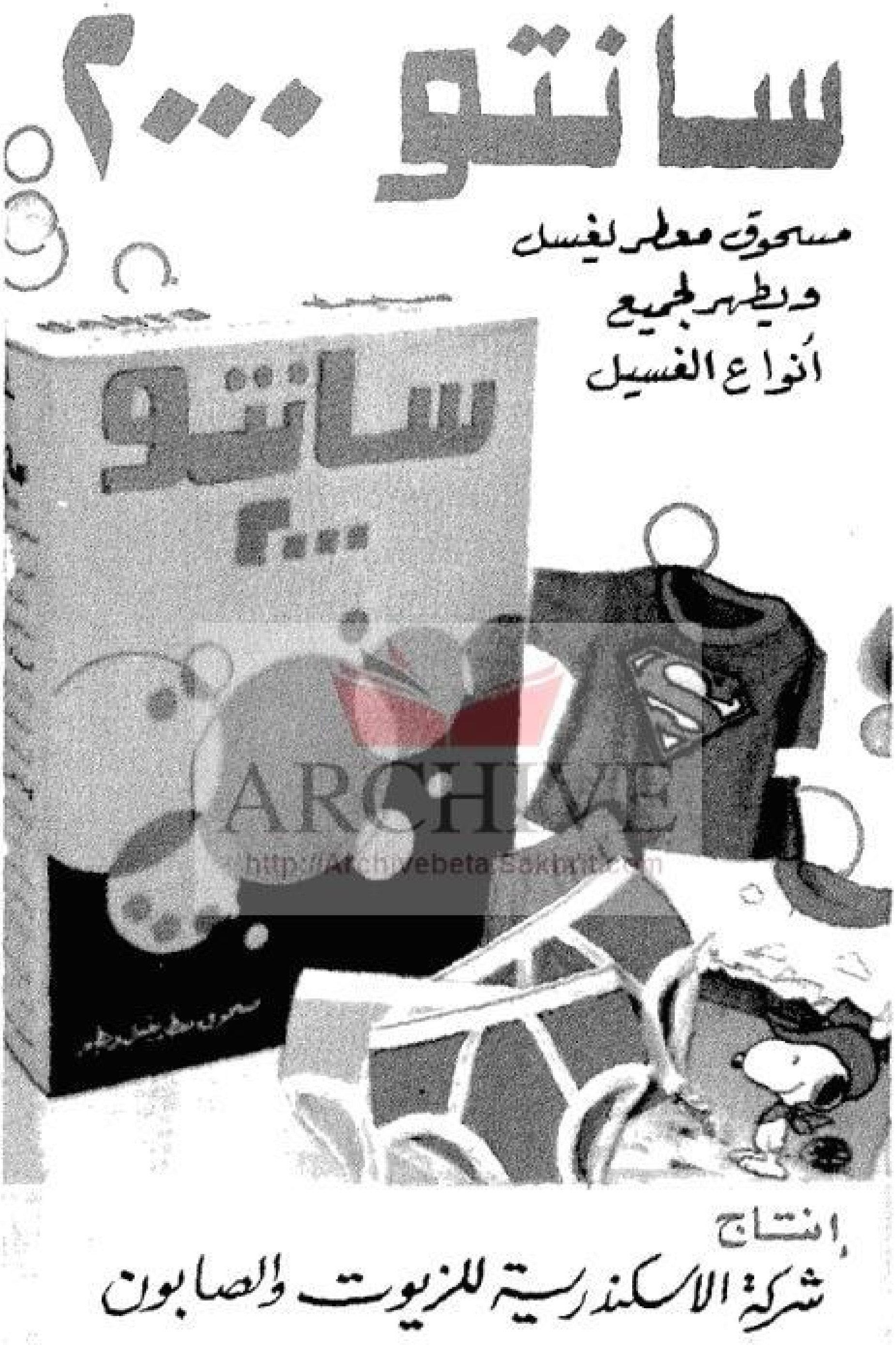
الأمر الذى لا شك فيه أن التليفزيون عبقرية من عبقريات العصر الذى نعيش فيه ، ومعجزة من معجزات العلم الحديث التى حققها إنسان هذا العصر ، ولكنه - وهنا موطن الخطر - سلاح ذو حدين ، له خيره وله شره . ويرجع ذلك إلى تلك القدرة السحرية التى يمتلكها ، والتى تبدو قادرة قدرة غير عادية على اجتذاب من يريد الشهرة والظهور من أيسر سبيل ، ومن يطمح إلى الانتشار السريع من أهون طريق ، ليصبح بين عشية وضحاها ملء السمع والبصر .

ومنذ البداية نحمد له أنه تنبه أخيرا إلى أهمية الدور الثقافى الذى يجب أن يقوم به ولكن هذا الدور - بحكم طبيعة الدور العام المتشعب الذى يقوم به - يبدو سريعا إلى حد بعيد ، وغير مؤثر إلى حد بعيد أيضا ، لأنه - لاعتماده على الكلمة المنطوقة - يختلف اختلافا كبيرا عن الصحيفة أو الكتاب الذى يعتمد على الكلمة المكتوبة التى تكتسب بقاءها وخلودها من تسجيلها ، ويتحول ببساطة إلى مجرد كلام تبتلعه موجات الأثير ليختفى بعد ذلك .

ولأسباب كثيرة أصبح هذا الجهاز السحرى الخلاب المصدر الأساسى الذى يستمد منه كثير من شبابنا معلوماتهم الثقافية والأدبية ، والمنهل السهل القريب المنال الذى يصل إليهم دون أن يبذلوا جهدا فى الوصول إليه ، والذى يستقون منه مادة تكوينهم العقلى والأدبى ، فقلت حاجتهم إلى الكتاب المتخصص ، وقل اعتمادهم عليه، بل اتجاههم إليه ، وكان الحصاد قشورا خفيفة تتطاير مع الهواء ، وزبدا يذهب جفاء ولا يمكث - ككل ماينفع الناس - فى الأرض . ولذلك أيضا كانت أهم انجازات هذا الجهاز فى المجال الثقافى أنه شارك مشاركة فعالة فى نهضة الفن الروائى والفن المسرحى دون سائر فنون الأدب . وهما - فى غير مجاملة - أهم لونين أدبيين سجلا نهضة رائعة فى حياتنا الأدبية المعاصرة ، كما كان له دوره الأكبر - بل الأوحد - فى إظهار التمثيلية التليفزيونية التى أصبحت أشد ما يشد الجماهير من برامجه ، وهى - فى غير مجاملة أيضا - لا تتصل بالأدب فى مفهومه الصحيح إلا بسبب ضعيف . ولعل هذا أحد الأسباب التى جعلت حياتنا الأدبية والنقدية تتحرك فى بحيرة مسطحة ، ولا تتحرك مع نهر تتدفع تياراته القوية الصاخبة مثيرة حولها ذلك الإحساس بالحياة الذى لاتقوم نهضة أدبية أو نقدية بدونه .


EGYPT AIR
مصر للطيران


الهلال
العام المائة
١٩٩٢ الثمن ١٠٠ قرش
ربع قرن على
هزيمة يونيو
العنف فى المجتمع الأمريكى


سانتو ٢٠٠٠
مسحوق معطر لغسل
وتطهير لجميع
أنواع الغسيل
سانتو ٢٠٠٠
إنتاج
شركة الاسكندرية للزيوت والصابون

ونحن على مشارف الاحتفال بمائة عام على صدور الهلال، حرصنا على أن نبدأ سلسلة من المقالات التى تضم أغلى الذكريات عن دار الهلال، وعن مجلة الهلال التى تتم عامها المئوى فى سبتمبر القادم، تلك المناسبة التى نستعد لها استعداداً ضخما يليق بمجلة حملت عبء هذه السنوات الطوال، وقدمت أجل وأعظم الجهود فى مجالات الثقافة والأدب والعلم.

كتب الأستاذ مصطفى أمين تجربته مع دار الهلال التى أحبها، وكيف قرأ الهلال فى بيت سعد زغلول، وأعجب بها وصمم على العمل بدار الهلال، فتحقق له ما أراد، وعمل رئيسا لتحرير مجلة الاثنين .. وكيف أن ما جمعه من مكافآته ورواتبه من دار الهلال أعانه على إنشاء أخبار اليوم.

ومن تكوينها الثقافى تحدثت أمينة السعيد عن تجربتها مع دار الهلال وكيف فشلت فى بداية الأمر، لتعاود محاولتها مع الكتابة ثم لتعين رئيسة لتحرير حواء إلى أن تصبح رئيسة لمجلس إدارة دار الهلال، وعلى مدى مشوارها نقرأ مواقف وطرائف لم تفت فى عضدها فحققت النجاح.

ويتحدث الأستاذ عبد الحميد الكاتب عن ذكرياته فى مجلة الهلال منذ خمسين عاما، وكيف تحققت أمنيته وهو يشهد الآن الاحتفال بمرور مائة عام على صدور الهلال.

إنه حديث الذكريات الذى يثبت الحب لمهنة الصحافة، التى جعلت الهلال تواصل إصدارها بلا توقف ولا مصادرة حتى الآن.

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجى زيدان عام ١٨٩٢

الادارة : القاهرة – ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا)
ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط)
المكاتبات : ص . ب : ٦١٠ – العتبة – الرقم البريدى : ١١٥١١ – تلغرافيا المصور – القاهرة ج . م . ع .
مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨١
تلكس : 92703 Hilal un
فاكس : FAX : 3625469

فى هذا العدد

• فكر وثقافة •

• ربع قرن على هزيمة يونيو .... مصطفى نبيل ٨
• القفز على الأشواك : لمن يكتب النقاد ؟ .... د. شكرى محمد عياد ١٢
• أساطير المثقفين العصرية .... د. صلاح قنصوه ٢٠
• العنف فى المجتمع الأمريكى .... مصطفى الحسينى ٢٨
• خمسة قرون من فكر التنصية .... د. جلال أمين ٣٨
• مسئولية التركستان من البانيا إلى الصين .... عبد الرحمن شاكر ٤٦
• الخلل فى مناهج المعرفة الغربية .... د. محمد عمارة ٥٢
• ذكريات ٥٠ سنة. القراء على أمواج الأثير ...د. محمد رجب البيومى ٥٨
• حكاية الأرمن فى مصر .... نجوى صالح ٦٦
• قوس قزح (هذه الجريمة) .... عبد المنعم الجداوى ٧٦
• بدروبات سولدان . رحالة من بيرو فى مصر فى منتصف القرن التاسع عشر .... د. محمود على مكى ٩٠
• نزار قبانى والنص الغائب .... أحمد عنتر مصطفى ١٣٨
• الجهاز العصبى مفتاح الصحة والمرض ...... د. محمد بهائى السكرى ١٥٠
• نحن لا نخاف من أمريكا .... محمود قاسم ١٥٤
• عندما كانت مجلة الهلال فى سن الخمسين ...... عبد الحميد الكاتب ١٦٠
• تتلمذت على «الهلال» فى بيت الأمة .... مصطفى أمين ١٧٠

الغلاف لوحة للفنان ... العربى

الاشتراك

قيمة الاشتراك السنوى ١٢ جنيها فى ج.م.ع. . تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ١٢ دولارا - أمريكا وأوروبا وآسيا وافريقيا ٢٥ دولارا - باقى دول العالم ٣٥ دولارا .

والقيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال - ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

● فنون ●

● الهوية اليهودية فى أفلام وودى ألين .... د. عبد الوهاب المسيرى ٨٤
● حلمى التونى والهمس فى العيون .... محمد أبو طالب ١٠٦
● العيد المئوى لمولد فنان الشعب سيد درويش .... فوزية مهران ١٢٠

● قصة وشعر ●

● الفارس «شعر» .... د. صابر عبد الدايم يونس ١٠٤
● أقوى من أمواج الليالى «قصة» .... ادوار الخراط ١١٤

● ...رات ●

● الملتقى الفكرى لمنظمة حقوق الإنسان .... عبده جبير ١٢٦
● صورة الرجل عند كاتبات القصة المصريات ١٣٠
● مكتبة الهلال ١٣٤

الابواب الثابتة

٦ عزيزى القارىء
٢٦ أقوال معاصرة
٢٧ لغويات
١٤٦ العالم فى سطور
١٧٦ التكوين
١٨٦ أنت والهلال
١٩٤ الكلمة الأخيرة محفوظ الأنصارى

ثمن النسخة

سوريا ٥٠ ليرة ، لبنان ١٠٠٠ ليرة ، الأردن ١٠٠٠ فلس ، الكويت ٧٥٠ فلسا ، السعودية ٨ ريالات ، الجمهورية اليمنية ٢٥ ريالا . تونس ١,٥ دينار ، المغرب ١٥ درهما ، البحرين ٨٠٠ فلس ، قطر ٨ ريالات ، مسقط ٨٠٠ بيسة ، غزة والقدس والضفة ٨٠ سنتا ، ايطاليا ٢٧٠٠ ليرة ، لندن ١٢٥ بنسا ، نيويورك ٤ دولارات ، الامارات العربية المتحدة ٨ دراهم ، الجماهيرية الليبية العظمى ١ دينار .

عزيزى القارئ

حى السيدة زينب

لم يبق سوى أشهر قلائل على بداية احتفالات « الهلال » بعيده المئوى فى سبتمبر القادم . وقد اتسع معنى هذه الاحتفالات منذ تحدثنا عنها قبل بضعة عشر شهراً، وترامت أطراف الرؤى والأحلام المتعلقة بهذه الاحتفالات ، ومع ذلك مازلنا نراها متواضعة ،ومازال أصدقاء« الهلال »يزودوننا بالاقتراحات ،ومازلنا نحن نصغى إلى كل اقتراح ونحاول أن نستفيد منه ونحوله إلى عمل يتصل باحتفالاتنا المأمولة فى الأشهر القادمة ..

إن الذى جعل الاقتراحات تتسع يوما بعد يوم ، هو أن « الهلال » لا يحتفل فى الحقيقة بعيده الخاص ، ولكنه يحتفل كذلك بعيد الصحافة الثقافية المصرية فى مائة عام ، ويجعل من هذا الاحتفال بابا إلى مائة عام أخرى للصحافة الثقافية العربية ، يتحقق فيها – كما نرجو – أضعاف ما تحقق فى المائة عام الماضية ، فيتصل الماضى بالحاضر بالمستقبل اتصال الأمل والعمل للأجيال الناطقة بالضاد بلا انقطاع طويل أو قصير بينها، وإن لم يمنع الاتصال بلا انقطاع ، اختلاف الأجيال ، وتناقض الأفكار ، وجدل التاريخ بين التقدم ومزيد من التقدم ، ولا نقول بين التأخر والتقدم لأننا نرجو أن تكون المائة عام القادمة مرحلة فى عصر طويل من التقدم المطرد لهذه الأمة التى حوصرت أمدا بعيدا بين التخلف وخيبة الآمال ! ..

عزيزى القارئ

خلال الشهور الماضية ، تابعنا معك أحلام العيد المئوى للهلال فى هذا الباب الذى نلتقى فيه على هذه الكلمة الموجزة فى مفتتح الهلال ، وطال حديثنا إليك ، ولكننا كنا نستشعر أنك مصغ إليه ، لا تمله ولا تنصرف عنه ، حتى استطعنا أن نرسم لك صورة من أفكارنا التى تبلورت حول هذه المناسبة « المئوية » التى يندر أن يتاح مثلها لصحيفة عربية نذرت نفسها للثقافة والفكر والعلم والأدب ..

عزيزى القارئ

هل تتذكر معنا ما تحدثنا فيه طوال الأشهر الماضية فى هذه المناسبة المئوية النادرة ؟ ..

فى المنــاسبة المئــوية

لقد تحـدثنا باستفاضـة عن أشيـاء كثيرة يمكن إجمـال بعضهـا - بعضها لا جميعها - فى نقاط مختصرة ..

- الدولة المصرية الحديثة منذ عهد محمد على الكبير إلى عهدنا ، وأين بلغت بعد أكثر من مائة وثمانين عاما ؟ ! .. وماذا أقامت من قلاع فى ميادين الصناعة والزراعة والتعليم والثقافة ؟ ! ..

- الرابطة العربية بين الشعوب المتناثرة بين الأطلسى والفارسى ، وكيف تطورت ، وهل اطرد نموها أم تدهورت وتعثرت ، وأين هى الآن فى عصر القطب الامبراطورى العالمى الواحد ؟ !.

- أين انتهت دعوات التثوير والتنوير من عهد عرابى باشا وجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وقاسم أمين ، ثم العقاد وطه حسين .. إلى ما تموج به أيامنا الراهنة من القيل والقال فى هذا المجال ؟ ! .

- الديمقراطية والحـرية والعـدالة الاجتماعيـة والحقـوق المدنية ، وحقوق الإنسان ، وتحرير المرأة ، ورفع القيود عن الفكر والفن والأدب ..

كل هذه رءوس موضوعات أو رءوس أسئلة نطرحها فى ندوة موسعة يحضرها أدباء مصريون وعرب فى المناسبة المئوية للهلال ..

وهذه الندوة ستكون ملمحا واحدا من ملامح احتفالاتنا المئوية ..

عزيزى القارئ

إن دار الهــلال تقوم منذ خمسين عاما تقريبا فى حـى السيدة زينب ، أى أن « الهلال » قضى نصف عمره الذى عاشه حتى الآن فى هذا الحى الشعبى العريق الذائع الصيت ..

وفى المناسبة المئوية ، سيتم - إن شاء الله - ترميم الآثار التاريخية فى الحى، وإنشاء مكتبة عامة ، ومكتبة أخرى للأطفال .. وكل عمل من هذه الأعمال يحتاج إلى حديث مستقل ، فإلى اللقاء فى الأعداد القادمة ، فالحديث موصول بيننا حتى نلتقى فى احتفالاتنا إن شاء الله ..

المحــرر

ربع قرن على هزيمة يونيو

بقلم : مصطفى نبيل

يمر هذا الشهر ربع قرن على هزيمة ٥ يونيو ، وهى فترة كافية لتأملها بعد أن ابتعدت مرارة اللحظة وتوترات الواقعة وحيرة العقول أمام هول ما حدث . كما تأتى بعد الانتصار الكبير فى أكتوبر الذى كان بحق معكوس هزيمة يونيو ونقيضها ..

وحان الوقت للوقوف أمام تلك القارعة وتأملها من منظور تاريخى ، لا من أجل تعذيب النفس ولا جلد الذات ولا التعالى على الأمة وإنما لكى تكون دروسها حافزاً للفعل ، ودافعاً لإنهاض الأمة ومواجهة المقبل من الأحداث والأيام .

وبداية .. أى هزيمة مهما بلغ هولها ، ومهما كان حجمها المادى لا تكتمل ولا يمكن لها أن تحقق أهدافها ، إلا إذا أصابت القلوب وكسرت المعنويات ، ونالت من نفوس الناس ووجدانهم .

فلم يعد لائقا تناول هزيمة يونيو من أجل تصفية الحسابات ، ولا لكى نتساءل من تقع عليه المسئولية المشير أم الرئيس ؟ ، أو تصبح موضوع الصراع بين أنصار عبد الناصر وأنصار السادات ..

بل يجب النظر إليها فى سياقها ، كمعركة حضارية ، ترتبط بموازين القوى يحدد النصر أو الهزيمة الأكثر تقدما ، والأكثر إرتباطا بعلوم العصر وقواعده ، بصرف النظر عن الحق والباطل أو الظلم والعدل ، فهذه نواميس الكون .

ولم يكن هذا الحديث ميسراً لولا نصر أكتوبر - وهو بحق معكوس هزيمة يونيو - الذى كشف قدرة شعب مصر على التعامل مع مستحدثات العصر ، وقدرته على حشد قواه فى لحظة التحدى ..

إذن فالنصر أو الهزيمة يرتبطان بالقدرة على إحداث التقدم ورعايته ، وأن يكون

التقدم جزءا طبيعيا من الحياة اليومية للأهالي ، بعد أن أمكن لشعب مصر أن يحقق أعلى درجات الكفاءة ، ولكن لا يكفى أن يحشد المجتمع قواه لمواجهة التحدى ثم يعود إلى التراخي من جديد . !

إن النصر والهزيمة قضية حضارية ترتبط ارتباطا جوهريا بموازين القوى سواء مع الغرب المتقدم أو مع العالم من حولنا فإقامة مجتمع حى عصرى ، هى المسألة الجوهرية التى تحسم أى صراع فى مداه الطويل .

فالمجتمع العصرى هو المجتمع الذى يستطيع أن يصل إلى أقصى درجات التنظيم ، ويحشد أكبر قدر من طاقته فى سبيل تحقيق أهدافه ، وهو المجتمع الذى يعرف قيمة الوقت يحسب الزمن فيه باللحظات لا بالأيام ، ويعرف ثمن الآلة . أى يعرف أنه لا يكفى شراء المعدات والتقنيات الحديثة بل عندما تكون ملائمة لظروفه واحتياجاته ، وأنه لا يكفى نقل العلوم والمعارف بل عندما تصبح جزءا حيا من تكوينه ، فلا نكتفى بأن نكون مستهلكين لمستحدثات العصر ولكن مشاركين فى إنتاج هذه المستحدثات .

والانسان هو اللبنة الأساسية للمجتمع العصرى ، والحداثة تمتد إلى العادات والتقاليد والأخلاقيات والعلاقات الاجتماعية وتنظيم العمل وقيام ذلك المجتمع الذى يكون جزءاً عضويا من منظومة متكاملة ، لا محل فيه لأوضاع تقوم على الطائفية أو أى صورة من صور التفرقة بين مواطنيه ، وهو الذى يتيح الفرصة كاملة لأبنائه من الموهوبين والمبدعين .

إنه المجتمع المدنى القادر على اختيار مشروعه ، الذى يميز خلاله بين الكليات والتفاصيل ، وتتحول فيه الكليات والجزئيات إلى خطة شاملة ، ثم الصبر على تنفيذها ومعالجة قصورها فى زمان لا يتوقف ودنيا تتغير ، وشروط تاريخية تتبدل .

فمع سعى المجتمع المصرى للانتقال من دائرة البلد الزراعى الراكد إلى دائرة المجتمع العصرى ، غفلنا عن فجوات وتخلخلات خطيرة ، فبعد أن عاشت مصر الاف السنين على رقعة زراعية محدودة أخذت تعبر النقطة الحرجة فى عدد السكان الذين ما زالوا يعيشون على نفس الموارد .

وأخذنا ندفع ثمن الحداثة ولا نحصل على ثمارها ، بعد أن دفعنا فيها ثمنا فادحاً ، عندما بقيت معنا الفردية والشللية والتسلق الاجتماعى ، والاكتفاء بالأداء المظهرى للواجب والنأى عن مضمونه ، ندفع غاليا ثمن ما حملناه من انتقال من عالمنا القديم ، وعندما لم نصل إلى المعادلة الصحيحة فى التعامل مع العالم من حولنا ، وصاحب تطورنا إزدواجية ، بين رفض ما يحدث فى العالم من جانب والذوبان والاندماج فيه من جانب آخر ، والتخلف نصيب من لايتفاعل مع كل الثقافات باعتبارها تراثا للإنسانية جمعاء .

وعندما لم نضع جدولا دقيقا للأولويات ..

واكتفينا أحيانا بالحماسة ومجرد الاستعداد النبيل للتضحية ، ولم ندخل فى اعتبارنا

الحساب الدقيق والخطة المتكاملة وضرورة تحقيق الكفاءة العالية ، ونجحنا أحيانا وفشلنا فى أكثر الأحيان فى إقامة المؤسسات المستقلة القادرة على التحرك الذاتى ، سواء المؤسسات السياسية أو تلك التى ترعى الفكر والثقافة ، والتى ترتفع بقدرة المجتمع على الخلق والابداع ومن قبل على الإنتاج .

ولم نتخلص من العديد من صور الاستبداد الشرقى ، ولم نبن النظام السياسى القادر على تصحيح ذاته واحداث التفاعل الصحى بين فئاته وقواه الاجتماعية والسياسية والذى تشارك فيه المرأة إلى جوار الرجل .

فهذا هو الجهاد الأكبر ، وهذا ماينبغى مراجعته فى هذه الوقفة التاريخية .

وهنا أحاول أن أبدى وجهة نظر ربما تضيف بعداً ناقصاً إلى مسألة النصر والهزيمة ، حان الوقت لطرحها للمناقشة ..

نقطة البدء التى يجب التوقف عندها ، هى أن « الشرق » كما كان يطلق عليه فى الماضى ، فى حالة هزيمة منذ عصر النهضة فى أوروبا ، والتى يؤرخ بعض المؤرخين نقطة البدء فيها ، عند فشل حصار فيينا الثانى سنة ١٦٨٣ ، وأنه إذا كانت ثمة إنتصارات قد تحققت ، فانها كانت انتصارات مؤقتة ، أو بتعبيرات عصرنا ، يعيش الشرق حالة هزيمة « استراتيجية » تتخللها بعض الانتصارات « التكتيكية » . وهذا لا يقلل من شأن كل من جاهد وضحى فى سبيل الارتقاء بالوطن .

ولن يتغير هذا الحال ، إلا إذا انتصرت البلاد الشرقية على التخلف والأمية والفقر والاستبداد ، عندها فقط يتغير ميزان القوى ويتغير وضعنا داخل العالم الذى نعيش فيه .

فرغبة سيطرة الدول الكبرى على دول العالم « الثالث » ليست ظاهرة جديدة وإنما هى جزء من حقائق العالم الذى نعيش فيه ، ولدى كل دولة كبيرة أجهزة جبارة وميزانيات ضخمة ، لا هدف لها إلا البحث عن ثغرة بين الدول التى ترى أنها مهددة لها أو مناوئة لمصالحها ، لكى تسعى للنفاذ منها ، ولا يجوز لومها عندما تجد هذه القوى أمامها حاجزا هشا مملوءاً بالفجوات ..

والصراع بين مصر والغرب مثل واضح على ذلك ، فهو تاريخ مرير لم ينقطع ، وإذا توقفنا عند مفاصله الرئيسية فسنجد أمامنا هزيمة معركة الأهرام ، أمام الحملة الفرنسية بقيادة بونابرت سنة ١٨٩٨ ، وسبق ذلك الغزو الفرنسى للجزائر سنة ١٨٣٠ ، وبقية الدول العربية فى الفترة التالية وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى ..

فالغرب منذ بداية القرن الحادى عشر يتطلع إلى الاستيلاء على الشرق العربى الذى يضم كلا من مصر وسوريا وفلسطين ، والذى يتوسط البلدان العربية وواسطة العقد للعالم الثالث .

وشهدت مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين سلسلة متتابعة الحلقات من فصول هذا الصراع تأتى بعد معركة الأهرام مناصرة الغرب لنظام محمد على ثم القضاء عليه ، وفرض معاهدة نافارين سنة ١٨٤٠ ، وبعدها عزل الخديو اسماعيل فى يونيو سنة ١٨٧٩، ثم هزيمة عرابى سنة ١٨٨٢ ، ثم محاولة إعادة الاحتلال البريطانى على مصر سنة ١٩٥٦، ولا يمكن تجاهل الحروب العربية الاسرائيلية كأحد فصول ذات الصراع .

فيقيم الأعداء حساباتهم الدقيقة على أن المنطقة العربية قادرة على أن تجتمع وأن تتضامن وأن تنسق فيما بينها ، وهى قادرة بامكانياتها الكبيرة على أنجاز ذلك ..

لذا تسعى هذه القوى إلى نشر الوهن فى أهلها ، ومسخ عقولهم ، وعزلهم عن ثقافتهم، وإبعادهم عن طريق التقدم .

وتستطيع أن تلمح إحدى السمات المتكررة ، فكلما وقعت هزيمة أو حدث تراجع ، يحدث ما ينتظره الأعداء بالضبط ، فبدلا من مواجهة أسبابها الحقيقية ، يسعى كل طرف لإلقاء مسئوليتها على غيره ، وهى نسخة لما كان يحدث بين ملوك الطوائف فى الأندلس ، وتوضع المسئولية داخل القطر الواحد أحيانا على نظام الحكم ، وأحيانا أخرى على قوى سياسية بعينها ، أو يلقى كل بلد عربى المسئولية على الآخر ويكون ذلك ذريعة للسلبية والقعود .

وهذا ما وقع بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ ، فبدلا من أن تدفع الهزيمة الدول العربية إلى التضامن جرفتها الهزيمة إلى التناحر والانقسام ، وبدلا من أن تزيد المجتمع صلابة جعلته يتفكك ويتحول إلى شظايا ..

وظهر الذين يرون الصراع ، صراعا بينهم وبين مواطنيهم ومؤسسات بلادهم ، ووجدنا الذين لا يبالون يركعون ويسجدون فرحاً بانتصار الأعداء ، وسروراً بهزيمة الأقرباء . !

ووصلت تداعيات الهزيمة إلى أن استكانت بعض الدول العربية إلى وضع العبء الأكبر على مصر ، وانصرفت هذه الأقطار إلى شئونها وانكفأ أبناء القطر على ذواتهم ، وتجنبت هذه الأطراف النظر فى عين الحقيقة وتأمل مسئولية كل منهم ودوره الهام فى مشروع النهضة ، واستبعدت قيام كل طرف بما يقدر عليه لتعديل ميزان القوى وتغيير مسار الأحداث.

وإذا كان هذا هو منطق تداعى الهزائم ، فطريق النصر هو اقتران الفعل بالقول، وأن يقدر كل طرف ظروف الطرف الآخر ، وأن يقوم تفاعل خلاق بين المدارس الفكرية المختلفة ، وبين القوى السياسية والقوى الاجتماعية ، مع تقدير لطبيعة العالم من حولنا وموازين القوى التى نعيش فى ظلها ..

إن طريق النصر مرهون بالقدرة على بناء الانسان وعمارة الأرض ..

وتلك الأيام نداولها بين الناس ..

لمن يكتب النقاد ؟

بقلم د . شكرى محمد عياد

كنا فى صبانا نقرأ النقد كما نقرأ القصص والشعر . وشباب هذه الأيام يتحدثون كثيراً عن « المعارك الأدبية » ويحسبونها من النقد، ويتوهمون أن النقد والأدب خسرا كثيراً باختفائها أو خفوت صوتها. والحقيقة اننا لم نكن نعدها نقداً، ولكننا كنا نتسلى بقراءتها كما نتسلى بالفرجة على عركة فى الشارع ، أما النقد الذى كان يستهوينا حقا كما تستهوينا قصص تيمور أو جبران أو شعر المهجريين فهو ما كان يكتبه طه حسين عن الشعراء الجاهليين والأمويين والعباسيين وما كتبه العقاد عن ابن الرومى والمازنى عن بشار ، فقد كنا نشعر أن هؤلاء القدامى أحياء يعيشون بيننا ، فأقبلنا على قراءتهم بلذة لم تفسدها علينا صعوبة اللغة أحيانا ولا غثاثة التعليم المدرسى دائما .

وعندما بدأ أدبنا الحديث يستوى على عوده وتمتد فروعه وينهض ليحتل مكانه بين الآداب العالمية المعاصرة طالعتنا مقالات مندور الأولى فى الرسالة مواكبة لهذه النهضة ومشيرة إلى آفاق جديدة ، فلم يكن احتفالنا بها أقل مما سبقها من كتابات نقدية .

كان الناقد فى تلك الأيام يكتب للقارىء كى يغريه بقراءة كاتب ما أو شاعر ما ، فيعرفه به ويجول معه جولة فى أدبه ، يخرج منها القارىء مسرورا بصحبة النـاقد والمنقود معـا . ثم بدأ عصر آخر شعر فيه قارىء الأدب بأن النقاد تغيرت أساليبهم فى الكتابة وأغراضهم منها ، وكأنهم يكتبون فى الحقيقة عن شىء آخر غير الديوان أو الرواية أو القصص التى يفترض أنها موضوع حديثهم فهم أحيانا يتكلمون عن الشعر فى عمومه أو القصص فى عمومه ، وأحيانا أخرى يتكلمون عن شىء أهم فى نظرهم من كل شعر وكل أدب ، وهو موقف الشاعر أو القصاص



محمود تيمور



د . طه حسين



جبران خليل جبران



د . محمد مندور

أو الكاتب المسرحي من قضايا عصره الاجتماعية والسياسية ، وقيل لهم إن هذا ضرب جديد من النقد اسمه النقد الإيديولوجي ، وإنه هو النقد المعتبر في أيامنا ، لأن الأدب لم يعد كما كان زينة وترفا للطبقات المرفهة ، ومخدراً وضللاً للطبقات الكادحة . . ولأن وظيفة النقد هي أن يوقظ وعي القارىء بمجتمعه والقوى التي تتصارع في هذا المجتمع ، من خلال تحليله لأفكار القصاص أو الشاعر ، وتمييزه بين فكر تقدمي طيب ، وفكر رجعي شرير . ومع أن هذه الطبقة الجديدة من النقاد كانوا غالباً مخلصين في دعوتهم ، وكثيراً ما نجحوا في كسب فئات من القراء إلى صفوفهم ، فإنهم - في الوقت نفسه - لم يحببوا إليهم قراءة الأدب ، بل جعلوا الأديب في نظرهم متهما ، أو على الأقل مشكوكا في أمره ، إما من جهة نقاء ضميره ، وإما من جهة سلامة وعيه وأصبح قارىء الأدب - بالتبع - لا يستريح إلى هذا النوع من النقد ، حتى وإن وافق أصحابه في مذهبهم الاجتماعي ، لأنه يشعره بما يشبه انفصام الشخصية .

ومع أننا لا ينبغي أن نغفل دور وسائل الإعلام ، ولا طغيان المشكلات السياسية والاجتماعية في تضييق دائرة المتهمين بقراءة الأدب ، فلعلنا لا نغلو إذا عزونا لهذا اللون من النقد بعض « الفضل » في ذلك . ولكنه ، بكل تأكيد ، لا يضارع أو يقارب « فضل » النقد الذي يكتب في هذه الأيام .

كلمات جديدة !

لقد انطوى عصر النقد الإيديولوجي ، بل أصبحت كلمة « الإيدلوجية » نفسها ، أو كادت تصبح من الكلمات المنبوذة ولكننا أصبحنا

نقرأ ونسمع كلمات جديدة مثل : البنيوية والأسلوبية والتفكيكية والشكلانية ، وتوابعها من إجرائية ومحاور رأسية وأفقية .. إلخ ، وأصبحنا نطالع فى ثنايا النقد الأدبى معادلات أشبه بالمعادلات الجبرية ، وصيغا أشبه بالصيغ الكيميائية ، وجداول إحصائية ورسوماً تخطيطية ، فازداد اغتراب النقد عن الأدب الإبداعى واغتراب كليهما عن القارىء الذكى . وكثيراً ما طرح الجمهور فى الندوات الأدبية أسئلة حول هذه الأسماء ومسمياتها وتلك الإجراءات وفائدتها . وكثيراً ما قال المبدعون انهم لا يقرءون النقـد ولا يهتمون به لأنهم لا يفيدون منه ، وربما كانوا يعنون هذا النوع من النقد ، وربما كانوا مخطئين ، ولكننا لن نلوم القراء ولا المبدعين إذا علمنا أن كاتبنا الكبير نجيب محفوظ أعلن عقب صدور العدد الأول من « فصول » إنه لم يفهم منه شيئا .

وأقطاب هذا النقد الجديد أنفسهم يعلمون ذلك . ولكنهم – فيما يبدو – وقعوا أسرى تلك النظرية البنيوية منذ أغرتهم بأنها سوف تجعل من دراسة الأدب علماً مثل سائر العلوم . فما زال أصحاب العلوم الطبيعية يبحثون فى بنية المادة حتى استطاعوا أن يحطموا الذرة ويسخروا طاقتها ، فلماذا لا يصنع أصحاب العلوم الإنسانية صنيعهم فيبحثوا فى بنية النفس وبنية المجتمع بادئين من اللغة وهى وعاء التفكير فى النفس والمجتمع ، ومستغلين فكرة التناقض أو الاختلاف الذى تمايز به أجزاء المركبات ليتكون من هذه الأجزاء المتخالفة أو المتناقضة كل له نظام يمكن أن توضع له قوانين صالحة للتطبيق لا على أثر أدبى واحد ولا على مجموعة متجانسة من الآثار الأدبية بل على الأدب كله ؟ كانت هذه هى الفكرة الأصلية وراء تلك الأفكار والأسـماء كلها ، وهى كما ترون فكرة مغرية ، لولا أنها التزمت تعرية اللغة من الأفكار حتى يسلم لها القالب ، وحتى تحشر فيه الإنسان مهما اختلفت نزعاته وأحواله . وقد انساق اتباع البنيوية وراء اغرائها ونسوا محاذيرها ، كما نسوا أنها بكل ما جاءت به ليست إلا حركة فى مجرى التاريخ تمخض عنها التاريخ ولابد أن يبتلعها كما ابتلع غيرها . لم يعنوا كثيرا بمصادراتها الفلسفية ، ولم يتعمقوا البحث فى جذورها التاريخية ، بل أخذوها جاهزة كمنهج جديد فى النقد الأدبى يستعلى على المناهج السابقة بموضوعيته وعلميته ، ونسوا أن الأدب رؤية قبل أن يكون شكلا ، وأن

النقد الذى يحصر همه فى الشكل ولا يجلو الرؤية يعجز عن عقد الصلة بينه وبين الأثر الأدبى ، ثم عن عقد الصلة بينهما معا وبين القارىء .

المذاهب والموضات الحديثة

والبنيوية - كما لا يخفى على أحد - مذهب فكرى غربى ، ولأهل الغرب فى مذاهبهم الفكرية مسلك حميد وإن تكن المذاهب نفسها مصطنعة كموضات الملابس وموديلات السيارات وغيرها من السلع الاستهلاكية . ذلك أنهم ما أن يذيعوا أسم المذهب ويروجوا له بمختلف ألوان الدعاية حتى يتناولوه بالتعديل والتبديل كل على حسب اجتهاده ، إلى أن يتولد من المذهب القديم مذهب جديد أو مذاهب جديدة ، فيشرعون فى إذاعتها والترويج لها كدأبهم فيما سبقها . وهكذا دواليك . أما نحن فأصحاب حضارة زراعية لايناسبها التغيير والتبديل ، أعمال الحقل عندنا بمواسم ، فإن تغير أوان الحر أو البرد أو المطر فهو الشذوذ الذى يترتب عليه تلف المحاصيل . وهكذا نتوقع ألا تختلف بنيوية هذا عن بنيوية ذاك ، ولا بنيوية - الأمس عن بنيوية اليوم أو الغد . وإن جاءنا اثنان بتعريفين مختلفين للبنيوية اتهمنا أحدهما أو كليهما بالخطأ أو الجهل . فما زالت عقليات معظمنا زراعية وإن استوردنا علوم الغرب الصناعى فيما نستورد من منتجاته . فنحن نرى اختلاط المفاهيم اختلالا ، ولا نحاول أن نميز العناصر المختلفة فى كل مركب جديد ، وإذا تجاوزنا الممارسة السانجة إلى الجذور النظرية وقعنا فى الارتياب والارتباك .

وقد كان هذا الارتباك سبباً آخر لنفُور قراء الأدب من النقد البنيوى ، وتردد النقاد البنيويين أنفسهم فى التسليم بصلاحية منهجه . فلما خلفته سلالات جديدة من المذاهب السميولوجية والتفكيكية كان ذلك مدعاة لانزعاج قوم وشماتة آخرين .

بنيوية عربية

لذلك رأى أحد رسل البنيوية فى العالم العربى أن يبحث قضيتها أصلاً وفروعا ، آملاً أن يخرج من هذا البحث بحكم يكون نبراساً لبنيوية عربية الطابع . والدكتور عبدالسلام المسدى صاحب هذه المحاولة الطموحة (« قضية البنيوية» - دار أمية - تونس) فاضل من أساتذة الجامعة التونسية مختص بعلم اللغة ، أو الألسنية كما يسمونه

هناك ، ولكن أكثر إنتاجه دراسات أسلوبية على المنهج البنيوى ، وهى من أجود الدراسات فى بابها . ولهذا يجب أن يحسب أولاً فى النقاد ، والفصل الذى عقده للنقد الأدبى البنيوى هو بالفعل أقوم فصول الكتاب ، فهو يتناول مشكلات محددة فى النقد البنيوى يقف منها موقف المراجع والمصحح . وفى طليعتها المشكلة التى أدرنا حولها هذا المقال : « لمن يكتب النقاد ؟ » يقول الدكتور المسدى فى الجواب عن هذا السؤال : « إن مما لاشك فيه أن ناقد الأدب قد كان من قبل يتجه ضمنيا أو بالمكاشفة للأديب بذاته أو للأديب عبر قراء أدبه . فالناقد كان ينتصب وسيطاً بين المؤلف والقارىء أو قل - حسب مصطلحات بعض التيارات الفكرية - بين (المنتج والمستهلك) . وهو فى كل الحالات كالمدافع يرافع يوما وفى كل لحظة عن شىء ما . مرة متجهاً للقارىء باسم صاحب النص ومرة عائداً على الأديب باسم قراء أدبه . ولعل كل هذا الميراث النقدى قد جعل وظيفة الناقد عبر العصور وعبر الحضارات أقرب إلى وظيفة المعلم منها إلى شىء آخر . لذلك اعتبر الناقد مهذباً للذوق وصاقلاً للمدارك وكاشفاً لأسرار الفن .

« أما مع البنيوية فقد تحولت الأمور عن سننها . ولم يكن لها بد من التحول، ونحن إذ نبرز هذا مستقرئين إياه من خفايا النسيج المعرفى فليس من موقع التزكية ولا الاعتراض وإنما من موقع التفسير الموضوعى ، لأن النقد البنيوى قد سعى إلى إقامة صرح الموضوعية الكاملة ، ولكنه فى أثناء حرصه ذلك قد تغافل عن أشياء لم يكن من اليسير التخلى عنها فى الوعى الجماعى ، كما لم يكن ممكناً أن يطول العهد دون أن تعود معالمها مخيمة بظلال من الشك على مؤالفة الناقد للأدب . وأول ما قد نكاشف به فى هذا المضمار هو أن الناقد البنيوى لم يعد يتجه بما يكتبه لا إلى الأديب صاحب النص ولا إلى قارئه الطبيعى وهو الذى يخاطبه الأديب بأدبه ، وإنما أصبح يتجه بنقده إلى رفيقه الناقد مقيماً وإياه حواراً خاصاً قد لا يشارك فى دواله ورموز علاقاته غيرهما . » (ص ٧٤ - ٧٥)

نظرة متعالية

أرجو ألا يقلق القارىء من عبارات مثل « النسيج المعرفى » و «الوعى الجماعى » مما أخذه الكاتب من الفلسفة أو علم الاجتماع . فيجب ألا ينسى أن الكاتب لايزال بنيويا ، ولايزال

يرى أن النقد البنيوى قد فعل ما كان لابد له أن يفعله لكى يصبح النقد علماً ، أى أن يتمسك بالموضوعية الكاملة ، والعالم حين يحلل المادة ليصل إلى سر تركيبها لايستفتى تلك المادة ولا يفترض فيها أنها تنتقل من يد بائع إلى يد شار. الناقد البنيوى ليس وسيطاً ولا مدافعاً عن مصلحة البائع أو المشترى ، بل ولا حتى معلما ، إنما هو عالم نزيه . لا غرابة إذن فيما نلاحظه من نظرته المتعالية إلى هؤلاء جميعا . ولا ينبغى أن نتوقع منه أن يكتب كلاماً نفهمه ، مادام زميله الناقد (العالم) يفهمه . (ولو أن المسدى يعود فيلاحظ أن لكل ناقد بنيوى مصطلحاته الخاصة . فهو إذن يتعالى على زميله البنيوى الآخر ، فكيف بنا نحن ؟)

والآفة كلها فى أن مطمح « العلمية » (المقصود فى الحقيقة نوع خاص من العلمية ، وهو علمية العلوم الطبيعية) جعل الناقد البنيوى متخصصاً فى الشكل ، فلم يعد يعنية المعنى أو القيمة ، وهو الرباط الحقيقى بين الكاتب والقارىء ، وجلاؤه هو مهمة الناقد ، ولذلك عدّ الناقد راعياً للذوق والقيم ، وجاز أن يسمى معلماً لا عالماً ، وفى مقدوره – إن شاء – أن يتعزى بأن الأنبياء كانوا أيضا معلمين ، ولكن العلم بعيد عن شواربه ، ونحن – كما ترى – فى عصر العلم لا فى عصر الأنبياء .

فالعلوم الحديثة لا تعترف بالقيم بمعناها المطلق . والعلوم التى نعنيها هى العلوم الإنسانية كعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد وعلم الأخلاق (وإن أردت الدقة فيجب أن تجعل هذا العلم الأخير فرعاً من الإثنوجرافيا مختصاً بعادات الشعوب) ، لأن العلوم الطبيعية تنتهى عند الوسائل ، ولا شأن لها بالغايات ، أى لا شأن لها بالقيم سواء أكانت قيما مطلقة أم نسبية . العلوم الإنسانية الحديثة تعد قيم الحق والخير والجمال مفاهيم ميتافيزيقية لا وجود لها فى الواقع ، وما لا وجود له فى الواقع لايدخل فى حساب تلك العلوم . فالحب والرحمة والسلام والكرم والعفة وإباء الضيم حفريات لغوية لايتعامل بها إنسان العصر الحديث ، فعنده كلمات أخرى تفضلها لأنها تدل على السلوك الظاهر أو ترتبط به ارتباطاً مباشراً . لماذا تتحدث عن الحب مثلاً وأنت تريد القبلة أو السرير ؟ إنسان العصر الحديث – عصر العلم – لا يؤمن بالقيم المطلقة لأنه لايؤمن بالروح ، ولا يؤمن بالروح لأنه يؤمن بالله ، ويضايقه جداً أن أشياء الروح هذه تلقى بظلالها المزعجة على سلوكه ،

فإذا قبِل أوضاجع شعر مع ارتفاع ضغط الدم بشيء معنوى غير محسوس أسمه الحب ، وإلا ما أستطاع أن يقبّل أو يضاجع . وأنـا أستعمل هنا كلمـة « الظلال » فى نفس السياق الذى أستعملها فيه الدكتور المسدى ، ولا أظن أني أبتعد كثيراً عن معناه ، وإن كان هو قد آثر أن يتغافل عن حقيقة تلـك « الأشياء » التى يسهل التخلى عنها فى الوعى الجماعى (يذكرنى ذلك بكلمة قرأتها قديما فى مذكرات توماس هاردى أو بعض رسائله ، مؤداها أنك لاتستطيع أن تتجاهل فكرة الله لأنك كلما حاولت ذلك وجدتها قابعة لك فى أحد الأركان) . وقد أثرت البنيوية أن تتخلص من « المعنى » جملة ، لتقصر اهتمامها على الشكل ، بحجة أن فيه وحدة تكمن « أدبية الأدب » ، وهذا زعم لايستقيـم إلا إذا أنكـرت ارتبـاط « المعنى » بالقيم المطلقة ، ليتيسر لك – من ثمة – إنكار ارتباط الأدب بهذه القيم ، فلا يبقى له إلا الشكل . هذه كلها معان مضمرة فى البنيوية ، لأن البنيوية لاتنفيها صراحة (فقد تولت الحضارة الغربية الحديثة ذلك عنها) بل تتجاهلها . ولكنها تظل تابعة فى الأركان تتربص بها ، كفكرة الله عند هـاردى . وهنا ينفض الفكر الغربى يده من البنيوية ويبحث عن لعبة أخرى .

أما صديقنا البنيوى العربى فبعد أن يقبل فكرة الشكلية بلعبة منطقية طريفة إذ يحل « الدلالة » محل المعنى ويلغى فكرة القيمة كسائر البنيويين ، لا يطاوعه عقله أو قلبه علـى إنكار ربـاط « القيمة » بين النص وصاحبه ومتلقيه ، ولكن لا يعبر عن ارتيابه صراحة ، إنما يرفض ماتذهب إليه البنيوية من عزل النص عن مؤلفه فيقول :

« على أن مسارعة بعض البنيويين إلي إعلان انفكاك النص عن صاحبه والتأكيد على أنقطاع صلة الرحم بين الأدب وواضعه مع مارافق ذلك من إشادة وتمجيد باسم الحداثة هو الذى جنى على المنهج النقدى وألبسه تبعة الإضمار ، ولا سيما عندما دخل المجاز فى الحلبة وفعل فعله يوم لذ لبعضهم أن يعلن (موت المؤلف) كمتصور ذهنى فى العملية الأدبية . وحقيقة الأمر إذا ما أعدنا إليها أبعادها الطبيعية تتركز فى أن لحظة ميلاد الأدب أدباً إنما هى ساعة يتلقاه المتلقى فيتبناه أدبا . فالذى يوقع على شهادة ميلاد النص ليس هو صانعه وإنما هو متقبله ، ولئن كان الأديب هـو الأب الطـبيعى فإن (كذا) وليه الشرعى إنما هو قارئه .



عباس العقاد



إبراهيم المازنى

وحقيقة الأمر هذه لاتحتاج إلى بنيوى لينبه إليها ، فهى كلمة شائعة عن كروتشى ، أن الأثر الأدبى لا يتم إلا بتلقيه ، وإن كان المسدى قد أبرزها فى معرض مجازى جميل : ولعلى لا أتجاوز حدود اللياقة حين أقول إنى قدمت مجموعتى القصصية الأولى بكلمة إلى القارىء قلت له فى ختامها « وهذا الكتاب لا شىء حتى تؤلفه أنت » ، ولا أدرى هل كنت قرأت كروتشى قبل ذلك أو لا ، ولكنى بكل تأكيد لم أكن قد سمعت عن البنيوية ، وأغلب ظنى أنها لم تكن قد عرفت فى فرنسا نفسها .

ماذا يريد المسدى إذن . بـ « إعادة الارتباط . بين النص وكاتبه ؟ هل هو إلا الاعتراف بالقيمة ؟ فالشكل الأدبى فى ذاته محايد ، لا ارتباط بينه وبين كاتب بعينه (وهذه حجة البنيويين فى تأسيس علم الأدب) ، وإنما يرتبط شكل النص بمبدعه حين يفرض عليه «القيمة» فيصبح شكلا خاصا .

وكلامنا هذا لايتم ولا يستقيم إلا حين نذكر القارىء بأن « القيمة المطلقة» التى نتحدث عنها لا تتحقق فى أية حال بالفعل . سمها إن شئت « المثل الأعلى » الذى نعلم علم اليقين أنه لايتحقق أبداً فى واقع ولا خيال ، ولكن كل إنسان يتصوره على نحو ما فى حال ما ، وعلى نحو آخر فى حال آخر، فوجوده الفعلى نسبى أبداً ، ودائم التغير ابدا ولكن وجوده المطلق ضرورى ، فولا فكرة المطلق ما صح للنسبى وجود .

فقد هدم صاحبنا ، دون أن يدرى ، فكرة البنيوية من أساسها ، لأنه ألزمها فكرة المطلق ، وهى حين حصرت نفسها فى الشكل لم يبق لها سبيل إلى المطلق إلا أن يكون المطلق هو الشكل نفسه فيكون للشكل عندئذ معنى ميتافيزيقى بعيد عن طبيعة العلم التجريبى الذى تحاوله ، وإن نفت حقيقة المطلق من أساسها انتفى الأدب أيضا، فأولى به إذن أن ينفض يده من تعريب البنيوية ، فقد أبت البنيوية أن تتعرب ، وإن بناءها لقائم على جرف هار ، فلينقضها وليأخذ من أنقاضها مايصلح له، وليترك مابقى يسقط فى الهاوية .

أساطير المثقفين العصرية

بقلم : د. صلاح قنصوة

لم يصف مبدعو الأساطير القديمة أعمالهم بأنها أساطير لأن مفهوم الأسطورة مهما تنوعت وتعارضت تفسيراتها العلمية ، وصف لاحق لما كان يعتقده الأولون بصحته وصدقه .
فإذا استخدمناه اليوم فإننا نصف به أوهاما قد تنكرت فى إهاب الرصانة العلمية .

ولا تروج الاساطير العصرية إلا حيث يفتقد الحوار العقلاني الرشيد ، وتسود الأماني بديلا عن الفعل والمبادرة ، أو تنشط الطموحات الفردية في اللهفة على قيادة الغوغاء حيث يتربع الجهل راسخاً مطمئنا .

ولعل ظروفاً معينة قد حالت بين المثقفين وأداء دورهم ، كما أن كثيراً من الشعارات قد هوت على الناس من قمم السلطة ، وتأقلم الناس على تداولها والرطانة بها دون حوار سابق أو اقتناع فقد أدى ذلك إلى الألفة والاعتياد على انفصال خطاب المثقفين عن الواقع الفعلى أو الفكر العلمى معاً على السواء .

وأغرى ذلك بعض المثقفين على أن تكون لهم بضاعتهم الخاصة التى لا يشترط فيها الاشارة إلى الواقع ، أو الالتزام بالأسلوب العلمى ومن ثم أغرقت أسواق الإعلام بأساطير عصرية أكتسبت أهميتها ورواجها من كثـرة الترديد والتكرار ، والالحاح على الأذن والعين .

أسطورة « العصر الذهبى »

لا مفر من الاعتراف بأن التاريخ الفعلى ليس هو بعينه ما دونه المؤرخون . فلا تزال الدراسات التاريخية تحمل طابعا أسطوريا بدرجة أو بأخرى ، فالتاريخ الفعلى شبكة من التفاصيل والوقائع المتعددة مثلما نحياها اليوم فى عصرنا الراهن ، ولكن عند إعادة كتابته أو إعادة النظر يتم اختيار ناظم أو محور يضم هذه التفاصيل والوقائع فى وحدة هى التى تؤلف معناها أو دلالتها التى يرتضيها المؤرخ . فهكذا يجرى « تحويل» الوقائع والملابسات وتقسيمها إلى جوهر ،

● التـــاريخ الفـعلى ليس هـــو بعينـه ما دونه المؤرخون

وأعراض تدور من حوله . ويختار من بين الوقائع والشخصيات والحوادث ما يصلح جوهراً رئيسياً أو نواة أو بنية أساسية يعاد صياغة غيرها من الوقائع حولها بوصفها أعراضا وتجليات .

وتعامل الحوادث التاريخية كما لو كانت برادة حديد تستعيد انتظامها فى دائرة المجال المغناطيسى بقضيب ممغنط هو المحور أو الجوهر ، أو البنية التى يختارها المؤرخ ، وتتباين مؤلفات التاريخ بتباين هذا الجوهر المختار الذى يعده كل مؤرخ حقيقة موضوعية قد فرضت نفسها عليه ، ومن ثم يعاد النظر ، أو تراجع العلاقات بين هذه وتلك من الوقائع وفقاً لكل تصنيف .

بعبارة أخرى ، يمكن القول بأن الماضى كله يصاغ كما تحكى الأسطورة التى توزع الأدوار الرئيسية والثانوية كما يراها المؤرخ ، وتكتسب مصداقيتها بكثرة تكرارها . فذلك ييسر فهم شتات الوقائع وتناثر التفاصيل ، كما يسلم إلى التعامل الهين المريح معها .

فالأسطورة ، بوجه عام ، صياغة أو قراءة لبعض أحداث الماضى فى لغة الحاضر وأمانيه . فهى لا تكتسب دلالتها من المنطق والواقع بقدر ماتستمدينه من قيم الحاضر ومثله العليا .

ومن هذا التصور الأسطورى تضفى القداسة على بعض الشخصيات أو الحوادث التى تعد جوهراً أو محوراً لتتحول إلى رموز تنزع من سياقها الزمنى والمكانى التى تتشابك معه ، وتفرز وتعزل من بين ركام المفردات الوقائعية لتشكل صورة تاريخية تفرق بجلاء بين الأرضية الباهتة ، وبين تلك المعالم المنتقاة التى تصطبغ حينئذ بألوان حادة مشرقة . ومن ثم يكون الفارق بين مؤرخ وآخر فى انتقاء المتغيرات ، أى المفردات الوقائعية التى يجعلها أرضية محايدة متجانسة ، وإيثار غيرها لتكون معـــالم أو مراحل بارزة مؤثرة .

ويترتب على هذه الصياغة الأسطورية أن يكتسب القديم المختار قداسة تتجاوز بمعاييرها مقاييس العلم الموضوعية ،

وتعفينا من مشقة مواصلة البحث ومايقترن به من معاناة الشك وافتقاد راحة اليقين .

فالعصر الذهبى الموهوم ليس واقعة تاريخية بالمعنى العلمى بقدر ماهو معيار قيمى محتجب غير معلن لأنه خلاصة منتقاة على نحو متميز من وقائع صرفت عن مواقعها المكانية والزمانية الأصلية ، وصفيت من علاقاتهـــا الاجتمـاعية والسياسية والشخصية بحيث أصبحت مثالاً نموذجيا منتزعاً من تفاصيلـه النسبية ، ليعود مقياساً لكل وقائع التاريخ مثلما يستخدم البعض مفهومات مثل «حـــزب الله» ، وحـزب الشـيطان» ، «المجــاهـدين» والمنافقين» (أى أنصار حزب مجاهدى خلق فى ايران) والفتنة ... كما تحتل أمريكا موقع الروم القديم ، والاتحاد السوفييتى السابق موقع الفرس ، أو يمغ المجتمع المعاصر بالجاهلية ... الخ

وتنتمى أسطورة العصر الذهبى إلى عالم سحرى يستبدله المثقف أو الداعية المعاصر بالعالم الموضوعى الذى يمكن أن تحلل عناصره ومتغيراته وتفسر بمعزل عن رغباتنا تمهيداً للتنبؤ بهـــا . على حين تسود العلاقات الشخصية بين عناصر ذلك العالم السحرى بما تحمل من عواطف وانفعالات تؤلف حركتها الدرامية التى تصنع منها أسطورة فى نهاية المطاف .

ويفترض أصحاب أسطورة العصر الذهبى أن لحظة من لحظات الماضى هى مستودع أو ترسانة علينا أن نتفرغ جميعا لجرد ما فيها ، وتصنيف محتوياتها لاختيار ما يصلح لحل مشكلاتنا المعاصرة كما يفترضون دلالة معينة للزمان تفقده حركته وتدفقه لتجعله مجموعة انقطاعات عن النبع الأصلى الذى يتخذ إطاراً مرجعيا لقياس كل لحظات الزمان . وهنا يضفى طـابع الثبـات والاطـلاق ، بل والتقديس أيضا على كل ماينسب إلى ذلك العصر الذهبى !

أسطورة «الوسطية»

ربما أدى تعدد المواقف إلى شعور بعض المثقفين بالمشقة فى الاختيار من بينها فسعوا إلى تجنبها بالاحتماء بنزعة توفيقية أو تلفيقية تصف الثقافة العربية حينا ، أو الاسلامية حينا آخر (وفقا لمساحة جمهور القراء المتوقع) ، بالوسطية .

فمن الوجهة المنطقية تفترض الوسطية أن الحقيقة تقف فى منتصف الطريق بين ضدين أو طرفين ، هذا إذا كانت توفيقاً ، فإذا كانت تلفيقاً ، فإن الحقيقة سلة نلتقط فيها أفضل ما أنتجته المواقف جميعاً .

وعلى هذا الوجه ، تفترض الوسطية أطرافا سابقة ثم يأتى دورها لتقف فى وسطها . فهى إذن وصف لاحق ، بعدى ، رهين بموقفين سابقين أو مواقف سابقة ، وهى جميعا متعارضة متطرفة ، فتحتل موقعها بين إفراط وتفريط .

والواقع أننا لا يمكن أن نقبل وجود ثقافة عربية متميزة لا تملك من أمرها شيئا إلا أن توفق بين ضدين أو أضداد . فهذا وصف سلبى يعبر عن موقف يؤثر الاعتدال والتوسط بين معسكرين . ولايليق بنا أن ننقل مفهوم عدم الانحياز أو الحياد الايجابى الذى يفترض وجود الاتحاد السوفيتى وأمريكا ، أو المحور والحلفاء من قبل ، إلى شئون الثقافة . فهذا الوصف يفتقد الاطار المرجعي الخاص لأنه يقتات أو يتطفل على أطر مرجعية سابقة خاصة بأوضاع تاريخية وسياسية واجتماعية معينة ، ويحاول أن يقف فى منتصف المسافة بينها .

كما لا يفيدنا فى هذا الصدد أن نستعير مفهوم أرسطو الأخلاقى عن الفضيلة بوصفها وسطا بين رذيلتين ، ونطبقه على سائر مجالات الثقافة ببساطة ويسر فهذا نوع من الكسل العقلى الذى يوشك أن يكون نفاقاً سياسياً .

فإذا ما حاول بعض « المستشرين » للنصوص الدينية أن يفحمنا قائلا : ماذا نصنع بقوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس » (١٤٣ البقرة) ، فليس لنا إلا أن نحيله إلى كتب التفسير التى شرحت اللفظ « وسطاً » بما كان يستخدمه الرسول (صلى الله عليه وسلم) وجماعة المسلمين عند نزول القرآن قبل أن يتسلل مفهوم أرسطو عن الوسطية إلى ثقافتنا العربية فعلى سبيل المثال ، لا الحصر ، يفسرها « الزمخشرى » فى كشافه : « خيارا وفضلاً وعدولاً » ويفسرها « ابن كثير » : « خيار الأمم ، والوسط ههنا : الخيار والأجود، كما يقال قريش أوسط العرب نسبا وداراً ، أى خيرها ، وكان رسول الله وسطا فى قومه ، أى أشرفهم نسباً » كما جاء فى تفسير « الجلالين » خياراً وعدلاً . أما المفسر المحدث « فريد وجدى » فيقول « خياراً أو معتدلين متحلين بالعلم والعمل » .

ولا أحسب أن وصف ثقافتنا بأنها خير الثقافات يضيف شيئا أو يميزها عن غيرها .

ومهما يكن من أمر معنى الوسط فى القرآن الكريم ، فإنه يشير إلى سياق الايمان والعقيدة الذى جاء فيه الاسلام خاتما ، بعد عقائد أو مواقف سابقة كان ينبغى أن يتحدد موقعه منها . وأغلب الظن

أن نقل اللفظ فى سياقه الدينى إلى سياق الثقافة المضطرب بالجديد من المتغيرات لن يجدى شيئا .

أسطورة الأصالة والمعاصرة

نوع من الرصف أو اللصق اللفظى الذى يجمع النقائض معا فى صرة أو جراب واحد مثلما نجمع بين مايسمى بالتراث والتجديد ، والاتباع والابداع ، الخصوصية والعالمية .... الـــخ وهو حل يسير هين ككل ضروب التوفيق والتلفيق التى تخلق وهما بالإنجاز ، وتقتصد فى اتفاق الجهد والبحث فى مواجهة الخصومة .

فإذا ما أمعنا النظر فى المفهومين المتلاصقين لوجدنا أنهما لا يميزان شيئا ، ولا يضيفان جديداً ، كما لا يرفضان شيئاً فهما معاً لا يدعواننا إلى أمر دون آخر ، وجمعهما معاً على صعيد واحد لا يمثل موقفاً محدداًينبغى أن نتخذه .

فالأصالة إذا كانت تعنى التمسك بالهوية ، فهذا شئ لا جديد فيه ، والمعاصرة إذا كانت دعوة إلى أن نتواءم مع تغيرات عصرنا فذلك أمر محمود لاخلاف حوله .

ولابد إذن لكى يحمل هذا القول مغزى أو دلالة أن يشير علينا بما ينبغى أن نأخذ أو نترك ، فهذه مسألة ترتد إلى البرامج المختلفة التى يتقدم بها المواطنون فى نطاق المجلات الرئيسية المتعددة للممارسة السياسية والاقتصادية والاجتماعية فحينئذ يصرح بالخلاف فى الاجتهاد ، وهو ما يتجلى فى الأساليب المنوعة لطرح المشكلات الحقيقية ، والبرامج المقترحة لحلها فلسنا فى حاجة إلى ترديد مفهومات نصف بعضها إلى جوار بعض ، ونثير الشغب بينها عوضاً عن مواجهة المشكلات الفعلية والسعى إلى الخروج منها .

وبدلاً من البحث عن دلالة للمفهوم الذى نضعه ، ثم نختلف حول تعريفاته واشتقاقاته ، ونمضى الوقت فى مناقشة دلالاته ، وننفق الجهد والطاقة فى توزيع الأنصبة على مايخص الأصالة ، وتلك التى تنسب للمعاصرة ، بدلاً من ذلك ، علينا أن نتصدى للواقع الراهن نفسه ، ونتنازل مشكلاته فى مجالاتها الأصلية ، وتخصصاتها المحددة ، بعيداً عن اللافتات اللفظية التى لا تعنى شيئا بعينه يمكن الخلاف أو الاتفاق حوله فى حوار جاد .

أسطورة الغزو الثقافى

لا مندوحة عن الاقرار بأن الثقافات جميعا قد تبادلت التأثر والتأثير بطرق متعددة منها السلمى ومنها المسلح . ولا تخلو ثقافة قائمة من عناصر دخلتها عنوة أو طواعية ، وما يدخل عنوة هو ما يجدر أن نطلق عليه الغزو الثقافى أما ما يتسرب

دون سلاح فليس غزواً ، بل اختياراً من فئات محلية تؤثر مصالح مادية أو غير مادية في وجه فئات ومصالح أخرى .

فالغزو إن كان ثقافيا لابد أن يكون مفروضا بقوى أخرى غير ثقافية لأن الثقافة أمور تخص العقل والوجدان أى الوعى .

وافتراض الغزو الثقافى دون قوى مادية أى دون قهر ، إنما يفترض أموراً غير مقبولة على الاطلاق أهمها :

١ - أن المواطن خامة طيّعة بلا شخصية ، أو هو بالأحرى جوال فارغ يمكن لأى عابر سبيل أن يحشوه ببضاعته الفكرية . وبالتالى علينا أن نغلق الحدود دون الفكر « الدخيل » . أو أن المواطن مريض يخُشى عليه من لفحات الهواء ، ومن الخير إغلاق النوافذ تحسبا « للتيارات الوافدة » التى قد تسبب له « التهابا » عقليا أو فكرياً وخيم العاقبة .

٢ - أن الحشو السيىء الذى ينبغى مقاومته هو دائماً وافد من خارج الحدود ، لأن العدو يتربص بنا للتسلل إلى عقولنا « الفارغة » لكى يملأها ببضاعته الثقافية ، أو أن مانتداوله من وسائط أو معارف ثقافية ليست فى حاجة إلى مزيد، أو أنه أفضل مما يتداوله الناس جميعاً فى كل أنحاء العالم .

٣ - أن هذا العدو الخارجى لاينتج إلا نوعاً واحداً وفاسداً من الثقافة ، ومن ثم فلا يتطلب تصدينا لسبب البلاء والنكبات إلا إغلاق الحدود ، وإعلان الحظر على الفكر المستورد ، ومحاكمة عملائه من المثقفين المشبوهين .

٤ - ويضمر كل ذلك فى نهاية الأمر افتراضاً أخطر وأفدح ، وهو أن جهة ما تعلونا جميعاً ، وتملك الوصاية على عقولنا وهى التى تحظى بتفويضنا الكامل ، هذه الجهة ، أى الحكومة ، هى التى نناشدها ونرفع إليها التماساتنا لأنها وحدها التى ستقوم بكل الاجراءات لدفع هذا الغزو الثقافى الأجنبى ، وليس لنا ، كمثقفين ، أو لعقولنا من الأمر شىء .

وأحسب أن الاتهام بالغزو الثقافى تصور مادى غليظ يقيس كافة الأمور بمقياس السلع والسوق والمنافسة حينما يسعى أصحاب الاتهام إلى المغالاة فى رفع الرسوم الجمركية على مايسمونه أفكاراً مستوردة باستعداء السلطات وغلق أبواب النشر ، وإثارة استنكار الجماهير . فنحن نغتبط ونهلل عندما نكتشف أن أحد مصطلحاتنا أو إحدى أفكارنا قد بلغت الغرب وأفاد منها ، ولكننا نسخط ونستنكر استخدام البعض لمصطلح أو فكرة وافدة . ونحن هنا لانصطنع ميزاناً عادلاً ، إلا إذا كنا نقصد « الميزان التجارى » لأنه وحده الذى يُقدّر السعى إلى زيادة الصادرات على الواردات !

أقـــوال معاصـــرة



د. كمال أبو المجد



الشاعر أدونيس



كيم إيل سونج

- « تربية الأبناء مهمة لا يتصور أن تقوم بها أمهات جاهلات قاصرات ، محرومات من الثقافة » .

الدكتور / كمال أبو المجد
وزير الإعلام الأسبق

- « لا أريد أن أعرف أريد إن أومن ، هذا هو النموذج الثقافى الذى يهيمن على الحياة العربية » .

الشاعر السورى أدونيس

- « الأمم الضعيفة تقودها النساء » .

صبغة الله مجددى
الرئيس المؤقت لافغانستان

- « العدوانية تتناقض مع الابداع » .

الشاعر البلغارى بويكو لامبوفسكى

- « هناك ارتباط وثيق بين الموسيقى والمعمار سواء شئنا أم أبينا » .

يانيس خيناكيس
الموسيقار الفرنسى المنحدر من أصل يونانى

- « الفن ليس معصية تستوجب التوبة أو التكفير عنها » .

الفنانة فاتن حمامة

- « الخلود لا يهمنى أبداً » .

جان ماريه
الممثل والرسام والكاتب الفرنسى

- « التفاؤل سر طول العمر » .

كيم إيل سونج
رئيس جمهورية كوريا الشمالية

- « إذا لم تكن الأفلام موضوعهـا الناس ، فهى إذن لا تقول شيئا » .

المخرج الهندى ساتيا جيت راى

- « أنا لا أقول شيئا » .

فرانسيس بيكون
الفنان التشكيلى الانجليزى

● تُوفِّيَ فلانٌ إلى رحمة الله فهو « مُتَوَفًّى » بضم الميم وفتح التاء والواو وتشديد الفاء المفتوحة وتنوين الحرف الأخير .. وهذا من بديهيات اللغة التى كانت معروفة عند الصحف المصرية والعربية ، ولكنّ إحدى الصحف المصرية الكبرى كتبت فى صفحتها الأولى منذ أسابيع كلمة « مُتَوَفٍّ » بكسر الفاء وتنوينها بدلا من « متوفًى » التى بيناها ، فكأنما أحدث الرجل الوفاة بنفسه ولم يَتَوَفَّهُ الله تعالى ! ..

● ومن أغلاطهم قولهم : « يذخر البحر » بالذال ، وصحتها بالزاى ، وقولهم : يُذكى النار ، وصحتها « يذكى » بالذال لا بالزاى ، وقولهم : فلان يريد نوال هذا الشئ أو ذاك ، و « النوال » هنا خطأ ، والصواب : « النَّيْلُ » بفتح النون وتشديدها وسكون الياء ، أما « النوال » فهو العطاء .. يقال مثلا : كان هارون الرشيد عظيم النوال ، أى عظيم العطاء للناس ! ..

● ومن أغلاطهم قولهم : فلان ممرور من فلان .. يعنون أنه غاضب حانق عليه واستعمال كلمة « ممرور » فى هذا المعنى بالتحديد خطأ ؛ لأن « الممرور » هو المجنون ، وليس الذى يشعر بمرارة ، وإن كان بين المعنيين قرابة ! ..

● ويستعملون كلمة « مرير » بمعنى « مر » بضم الميم وهو الشئ ذو المرارة ، ولكن المرير فى اللغة هو : القوى المتين ، كقول أبى الطيب المتنبى منوها بثبات عزيمته :

سهرتُ بعــد رحيلى وحشةً لـكمُ ∴ ثم استمرَّ مريرى وارعوى الوسنُ

ونتذكر من كلام صفى الدين الحلى :

تشرفت الأقدامُ لـما تتابعتْ ∴ إليك خطاها واستمرَّ مَرِيرُهَا

ومريرها فى هذا البيت : عزمها القوى ! ..

● هزيم القنابل : صوت انفجارها ، من قول القدماء : هزيم الرعد ، أى صوته المدوى .. ولكن بعض الكاتبين الآن يكتبون : هزيع القنابل ! .. وإنما الهزيع هو : نحو ثلث الليل أو ربعه ، ولا شأن له بالرعد ولا بالقنابل ، وما أكثر المستعجمين فى هذه الأيام ! ..



العنف فى المجتمع الأمريكى

بقلم : مصطفى الحسينى



عندما تتحدث الولايات المتحدة عن نفسها ، تزهو بأنها مجتمع تعددى تنسجم لحمته بمنظومة من القيم الاجتماعية والسياسية المشتركة ، لذلك يتمتع بقدرة عبقرية على ابداع حلول مقبولة لنزاعاته الداخلية ، لأنها إنما تجرى حول خطوط باهتة من التفاوت والتمايز بين الجماعات الاقتصادية والسياسية والعرقية التى يتشكل منها المجتمع ، ويعلل هذا الزهو كل من عبقرية التسوية وشحوب التمايز بخصوبة الأرض وغناها وبعشق ناسها للعمل والجهد ودأبهم ، أو بأن هذا المجتمع لم يعرف ثبات الانقسامات الطبقية العميقة ، كوجود أرستقراطية وطبقة عاملة (بروليتاريا) على نحو ما تعرف تاريخ المجتمعات الأوروبية ، وبانفتاح المجال فسيحا أمام الحركة الاجتماعية والصعود الطبقى ، أو يعللها بكون المجتمع مجتمع مهاجرين ليس لأى جماعة قومية منها أى دعوى فى أحقية أصيلة بالوطن بينما يوحد بينها بنعمة هذا العالم الجديد عليهم جميعا وسواسية ، والذى أواهم ، الهاربين منهم من الاضطهاد الساعين إلى « المدينة الفاضلة » أو الفارين منهم من الفقر يلتمسون الفرصة ، ولذلك كله فإن أى جماعة متجانسة من السكان إن كان لها حجم معتبر ، ما عليها إلا الالتزام بالقواعد المرعية للتفاعل بين هذا العديد من المكونات ، حتى تنال نصيبها المشروع من السلطة والثروة والرخاء والاحترام جميعا .

وعلى هذه الصورة عن الذات ، تقيم الولايات المتحدة واحدا من أسس دعواها بالجدارة لقيادة العالم .

لكن المفارقة أنه بقدر ما تحظى هذه الصورة بالرواج فى الخارج ، بقدر ما هى محل للنزاع فى الداخل فتتفاوت اليها النظرات وتتنوع منها المواقف على مسافة شاسعة تمتد من وصفها بالكذب الدعائى



بـوش

الفـاضـح إلى التـحـفظ عليـهـا تحـفظـا يدعـمـه أصـحـابه بشـواهد التـاريخ كـمـا بوقائع الحاضر . وإذا كان ما حدث أخيراً فى لوس أنجلوس سـيـضـاف إلى حـجـج التـحفظ ، فإن من شأنه أن يعيد فتح باب الجدل حول هذه الصورة الزاهية المزهوة . والحقيقة أن هذا الجدل لم يتوقف أبداً ، إلا أنه منذ بداية السـبـعـينات أصـابه الخفوت ، وبطء التواتر وتراجع موقعه من الاهتمام العام، داخل أمريكا قبل خارجها

ومـا حـدث فى لوس أنجلوس يمكن تلخيصه كما يلى : ذات يوم منذ شهور قام أربعـة من رجـال الشـرطة البيض بضـرب رجل أسـود بقسوة غير مبررة ، وتصـادف أن شـخـصـا من هواة التصوير سـجـل شريطا كاملا لما حدث ، وأن هذا الشريط وجـد طريقـه إلى شـاشـات التليـفـزيون فى أنحاء البلاد جميعا ، وأن رجـال الشـرطة الأربعة قدموا للمحاكمة ، لكنهم لم يحاكموا فى لوس أنجلوس حيث وقع الحادث ، إنما نقلت المحاكمة إلى مدينة أخرى صـغـيرة وقـريبـة ، لكنهـا مـعـروفـة باتجـاهاتهـا «المحـافظة» ، وهى كلمـة تعنى فى شـفـرة اللغة السياسية الأمريكية : احتقار الملونين – من السود إلى الصفر – وتكره الأجانب ، وتزدرى الفـقـراء ، وتلقى اللوم فى البطالة على كسل المتعطلين وافتقـارهم إلى «روح المبادرة الأمريكية» وبالوضاعة التى تجعلهم يفـضلون على العـمل أن يعـيـشـوا على أفضال صدقة المجتمع المنعم بالخير ... الخ . وفى تلك المدينة الصغيرة «المحافظة» شكلت سلطة الاتهام والمحكمة هيئة محلفين ليس بين أعـضـائها الاثنى عشر شـخـصـا واحد أسود . ورغم الشريط المصور والذى لا لبس فيه ولا مايدعو إلى الشك ، ورغم أن واحدا من الشرطة الأربعة شـهـد بقسـوة زملائه وبتلذذهم بما كـانوا يرتكبـون وأنه حـاول ايقـاظهم وايقـافـهم ، فـقـد حكمت المحكمة ببراءتهم جميعا !

ومـا أن أعلن حكم البراءة ، حتى انفتح فى لوس أنجلوس «باب الجحيم» على حد وصف أمـريكى مـتـواتر ، انطلقت كـتـلة السكان السود التى تعيش شبـه منفصلة فى النصف الجنوبى من وسط المدينة ، تعمل فى المدينة تحطيمـا وحـرقا ونهبـا ، وتذيق من تصـادف من البيض بعض ماذاق واحـد من أبناء جلدتهم على أيدى رجـال الشرطة الأربعة .

فى مواجهة هذا الانفجار ، الذى اعتبر رغم كل شىء مـفاجـئـا ، تحـركت السلطة : عـمـدة المدينة – وهو أسـود – طلب تدخل الشرطة الفيدرالية ، حاكم ولاية كاليفورنيا التى تتبعها لوس أنجلوس ، أمر « الحرس

الوطنى » بالتدخل ، الرئيس الأمريكى أرسل الى المدينة حملة صغيرة من الجيش، انما يقودها الجنرال نورمان شوارتزكوف، قائد «درع الصحراء» ثم «عاصفتها» ثم ، وبعد أن تمت السيطرة على الوضع زار الرئيس الأمريكى المدينة ، وشكل لجنة للتحقيق فيما حدث ، وعين رئيسا لها القاضى وليام وبستر الذى شغل على التوالى اثنين من أهم المناصب الأمنية وأعلاها : مدير المباحث الفيدرالية ثم رئيس وكالة المخابرات المركزية .

ومهما كانت جسامة الأحداث المباشرة، فإن سلوك الدولة على مستوياتها الثلاثة المتراتبة : المدينة والولاية والحكومة الفيدرالية ، يبدو أكبر من الأحداث ذاتها .

فهل يعنى هذا أن الدولة هناك تدرك أن ما جرى فى لوس أنجلوس ، ومهما كانت جسامته ، أخطر كثيرا من ظاهره؟

***

من بين الأمريكيين الذين يدمغون «حديث الولايات المتحدة عن نفسها » بالكذب الدعائى الصريح ، عديد من علماء الاجتماع والعلوم السياسية ، ومن أبرز هؤلاء «ريتشارد روبنشتين» الأستاذ المتخصص فى فرع من العلوم الاجتماعية، ربما تنفرد به الولايات المتحدة ، ويسمونه هناك «علم حل المنازعات » ، ويعمل فى مركز متخصص فى هذا الفرع فى جامعة جورج ماسون ، فى ضواحى واشنطن .

وفى دراسة قصيرة ومركزة عنوانها «عنف الجماعات فى أمريكا» نشرها فى خريف ١٩٨٨ ، يقول روبنشتين إن النظام السياسى الأمريكى الذى يصف نفسه على النحو الذى تقدم ، لا يتمتع فى الحقيقة بشىء مما يدعيه !

وقد يكون مهما للقارئ هنا -أى القارئ غير الأمريكى ، والذى يتلقى صورة أمريكا عن نفسها - قد يكون مهما ذكر أن ريتشارد روبنشتين (١) أمريكى (٢) أبيض (٣) يعمل فى واحدة من الجامعات الأمريكية المحترمة (٤) ليس من سمعته أنه « يسارى » أو «راديكالى» أو هامشى » أو أى شىء من هذا القبيل .

وفى هذه الدراسة الموجزة المركزة يطرح مقولة ويدلل عليها ، وخلاصتها أن النظام السياسى الأمريكى والمجتمع نفسه يفتقران إلى أى طاقة فعالة تنظم حل الصراعات الاجتماعية فيه سلميا أو بدون عنف .

وفى هذا السبيل يستعرض تاريخ أمريكا حافلا بالعنف : بدءا بالمهاجرين المستوطنين البيض ضد السكان الأصليين الذين أصبح اسمهم « الهنود الحمر » إلى عنف الدولة ضد هؤلاء الهنود إلى انتفاضات المزارعين إلى ما اقترن بالثورة الأمريكية فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر من عنف ، إلى انتفاضات العبيد ، إلى انتفاضة البيض الجنوبيين

إلى الاضطرابات المدنية التى اقترنت بالحرب الأهلية ، إلى موجة الارهاب التى اجتاحت الجنوب تقاوم إعادة صياغته بعد الحرب الأهلية إلى الصراعات العنيفة بين المستوطنين القدامى والمهاجرين الجدد ، إلى ٦٠ عاما من الصراع العنيف فى العلاقات العمالية - الصناعية ، إلى قرن كامل من الصراع العنصرى كانت موبوءة بالاعدام دون محاكمة والمذابح ، إلى الاضطرابات المدنية التى صاحبتها الحروب الخارجية ، إلى عنف الدولة ضد الأقليات العرقية والعنصرية والسياسية .

ويرى روبنشتين أن هذا السجل ، الذى لم يصل إلى نهايته ، يدحض مقولة أن حركة المجتمع الأمريكى محكومة بالتقدم السلمى ، كما يدحض القول بأن هذا العنف الذى ساد التاريخ لذلك البلد لم يكن ضروريا ولم تكن منه فائدة ، ويدحض الادعاء بان الجماعات «الداخلة فى النظام» أى المستفيدة منه ، قد صعدت درجات سلمه دون عنف . بل يرى العكس ، أنه من جماعة ذات هوية مميزة فى المجتمع الأميركى وصلت إلى موقع من السلطة أو الثروة أو الكرامة داخل النظام ، وأيا كان هذا الموقع ، عزة أو هوانا ، قد جربت «اللعب حسب القواعد» حتى اقنعتها التجربة بأن هذا لن يجديها شيئا ، فلجأت إلى العنف ، وعندئذ أصابت من النجاح قليلا أو كثيرا .

بل أنه يرى أن الحركة والحراك فى المجتمع الأمريكى وفى هيكل السلطة لايجريان بهذه الصورة على قسوتها ، انما الواقع أقسى وأكثر مرارة فالنظام جرى تصميمه تاريخيا بحيث يستوعب قيادات الجماعات المقهورة عندما تتمرد ، ويترك قواعد تلك القيادات صفر اليدين إلا قليلا يسيرا ، وأن الجماعات الاقتصادية أو العرقية المؤتلفة فى السلطة لا تقبل اشراك أى جماعات أخرى إلا عندما يتهددها العنف ؛ فعنف الشماليين هو الذى قضى على امبراطورية الرق فى الجنوب ، وإرهاب الجنوبيين هو الذى أوقف اعادة تنظيم الجنوب وصياغته ليتفق مع بواعث الحرب الأهلية ونتائجها ، والحكومة الفيدرالية لم تعترف بالنقابات العمالية إلا فى غمار الأزمة الاقتصادية فى الثلاثينات وفى خضم موجة اضرابات عنيفة أثارت خوفا عرقيا واسع النطاق من الثورة ، ولم يحقق السود أهم مكاسبهم التشريعية إلا بعد الاضطرابات العنيفة التى اجتاحت المدن الأمريكية فى الستينات .

لكن الكاتب يتحفظ قليلا ليقول إن هذا لا يعنى أن العنف كان دائما مفيدا فى رفع المظالم عن الجماعات المقهورة أو فى

تحقيق مطالبها ، فبعض العنف لم يحقق شيئا ، وابرز الأمثلة هى انتفاضات السكان الأصليين - الهنود الحمر .

أما الأخطر الذى يراه ، فهو أن ما يحققه العنف من مكاسب قليلة أو كثيرة للجماعات التى تمارسه ، فإنه لم يؤد إلى تغيير طبيعة النظام السياسى والاجتماعى سوى فى حالة واحدة هى الحرب الأهلية الأمريكية .

ويرد هذا إلى أن حركات العنف كلها ، لم يستهدف أى منها تغيير النظام القائم ، انما الالتحاق به والدخول إلى قسمته .

عنف الجماعات

وعنده أن هذا هو السبب الأهم ، إلى جانب أسباب أخرى ، لتكرار العنف وتواتره ، وأنه سيبقى يتكرر ما بقى مايسميه « عنف الجماعات » فى أمريكا مستقرا على خواصه التى لازمته منذ البداية ، وما بقى سلوك السلطة حياله محافظا على نمطه المستقر رغم تغير الأوضاع والظروف .

ما هى الخواص التى لازمت « عنف الجماعات » فى أمريكا ، وما هى المعالم المطردة بسلوك السلطات حياله !

أولى خصائص « عنف الجماعات » أنه دائما « محلى » فعلى سبيل المثال الصارخ أن حركة الارهاب التى اندلعت فى الجنوب فى أعقاب الحرب الأهلية لتعرقل اعادة تنظيمه وصاغته على وفاق مع نتائج تلك الحرب ، لم تحاول الاطاحة ، فالحكومة فى واشنطن ، انما حاولت فقط منع ما لاتريد فى الجنوب ، وأن حركات العنف تتصف عادة بالموالاة للنظام ، حتى أن منظمة الكوكلوكس كلاف البيضاء المتطرفة والتى كانت تقود هذا الارهاب قد نصت فى دستورها الذى أقرته فى ١٨٦٨ على الولاء للحكومة الفيدرالية ، وأن الاضطرابات العمالية العنيفة فى التاريخ الأمريكى كله كانت تقف عند حد قمع « مخربى الاضرابات » والاضرار بممتلكات الشركة ، وقصارى الأمر أن يتجه عنها إلى الشرطة المحلية ، بل إن حركات العنف التى صاحبت حركة الحقوق المدنية فى الستينات ، لم يكن فى برنامجها تغيير النظام .

وترجع هذه الخصائص إلى أن حركات التمرد « ترى نفسها أمما داخل الأمة » فهى تعبر عن كيانات ذات ثقافية مشتركة ومتمايزة تناضل من أجل حق تقرير المصير ، أكثر من كونها كيانات اقتصادية مرتبطة عضويا بالجماعة الوطنية . وأن هذا يجعل النظام السياسى الأمريكى الداخلى أشبه بالنظام الدولى ، قواعده الحاكمة هى الفوضى فى الأساس ، والقدرة فى الحركة ، والاعتماد على النفس من حيث القيمة .

وأن الأسباب المباشرة لاندفاع العنف هى عادة أفعال يقوم بها ممثو السلطة

المركزية على مجال حياة جماعة من الجماعات التي تعيش في المجتمع متمايزة ومتفاصلة ، فيأتي عنف الجماعة وكأنه استجابة مباشرة لعدوان أجنبي ، ويكون هدفه طرد ممثلي السلطة المركزية « المعتدية » وعملائهم المحليين ، واستبدال السلطة بعناصر محلية . فالمطلب هو لامركزية السلطة وليس الاستيلاء على السلطة المركزية .

ولهذا السبب فإن ايديولوجيات حركات العنف نادرا ماكانت تشمل خططا لتغيير الاقتصاد والسياسة على مستوى البلاد ، فهي ترى أن مهمتها الطبيعية ، هي الدفاع عن هوية الجماعة التي تعرضت للعدوان ، وتحقيق التغييرات التي تكفل احترام الجماعة ومشاركتها في السلطة القائمة .

ومن الأمثلة البارزة والدالة على هذه الخواص وبالتالي على محدودية أثرها يسوق الكاتب حالة العنف الذي انتشر في الولايات المتحدة في الستينات ، فقد كان زعماء الطلبة والأقليات يطالبون الاعتراف بتجمعاتهم كوحدات سياسية ، يتولى أعضاء منها مهمات الشرطة في داخلها ، وأن تعترف السلطة المركزية بزعمائها المحليين ، وكان أشد زعماء هذه الحركات العنيفة ثورية ستوكلي كارما يكلي وتشارلز هاملتوني يعتبران أن هذه المطالب لا تتنافى مع رغبة هذه الجماعات في الاندماج في المنظومة الأمريكية لجماعات المصالح ، التي هي العمود الفقري للسلطة السياسية ، وكان أساس هذا التفكير أنه لا يدخل إلى حلبة سياسات الائتلاف الحاكم إلى من بيده رصيد يساوم به وعليه، وكان هدف العنف هو الحصول على هذا الرصيد .

أما رد فعل السلطات على العنف فيراه روبنشتين مزيجا مستقرا من العنف والإصلاح المعتدل بل والرمزي أحيانا ، ففي الستينات استخدمت الشرطة والحرس الوطني عنفا ضاريا وقف دون حد المذابح، إنما حيال القيادات فقد لجأت الشرطة إلى الاشتباك الفردي بالسلاح ، والتوريط في الجرائم التي يستدرجهم إليها عملاء الشرطة ، والاغتيال ، فالنمط المستقر هو عنف انتقائي وإصلاح محدود، لأن مطلب حركات العنف يكون إصلاحيا بطبعه ، فعندما طالب «الفهود السود» في الستينات بأن يدير السود مناطق تجمعهم، كان هذا هو الذي فتح الباب أمام النشاط الانتخابي في أوساط السود في السبعينات وهو ما أدى إلى انتخاب عمد سود في عديد من المدن ذات الكتل السكانية الكبيرة منهم ، مثل لوس انجلوس وكليفلاند وأتلانتا وديترويت ونيويورك .

كان بطلب «السلطة السوداء» يعنى «الإدارة الذاتية» أى السيطرة على الأرض التى يعيشون عليها ، وتأكيد الهوية المتميزة باعتبار أن هذه هى الأسلحة اللازمة لتنمية الأعتزاز الجماعى بالنفس والمهارات وتعبئة الموارد اللازمة للمنافسة مع الجماعات الأخرى والأقوى .

لكن هذه المطالب ما أن تحققت بدرجة أو بأخرى فى الستينات ، حتى تكشف خواؤها فى الثمانينات، فقد تحولت السلطات المحلية المستجدة فعليا ، إما إلى طبقة عازلة بين غضب الناس لسوء أوضاعهم وبين سلطات الولايات أو الحكومة الفيدرالية ، وإما أن هذه السلطات المحلية قد اجتذبت إلى مقاعدها أكثر العناصر أهلية لقيادة هذه الجماعات المقهورة ، فحرمت الجماعة من القدرات المعنوية والتنظيمية لهذه الكفاءات ، وعندما لم تتحقق الآمال التى كانت معقودة على هذه الإدارة الذاتية ، تعرض كثير من الزعماء السابقين إلى الخيانة ، وإما أن السلطة المحلية كانت منطلق العناصر المتطلعة من القيادات السابقة إلى مراكز أعلى فى هيكل السلطة ، وإجمال هذا كله ، أن الجماعات التى تمردت قد حرمت من قياداتها عندما تحققت مطالبها ، فقد تحقق عزل هذه القيادة بجذبها إلى أعلى ويفصلها عن قواعدها .

وخيبة الأمل ، خميرة جديدة لعنف لابد أن يتجدد .

لكن الملحوظ أن السبعينات كانت عقدا من السلام الاجتماعى ، يعلله روبنشتين بأنها كانت فترة استيعاب ماحققه عنف الستينات من نتائج قبل انكشاف خوائها ، وتميز الاستيعاب بقدر من الرضا الشعبى ، فقد صدر قانون الحقوق المدنية وقانون حق الانتخاب ، وانفتحت فرص جديدة أمام الطبقة الوسطى السوداء ، كما أن رئيسا من الحزب الجمهورى انهى الحرب التى كانت البلاد غارقة فيها فى فيتنام ، وأنهى بذلك أهم أعراض ثورة الشباب ، وفى هذا المناخ انقطعت الصلة بين العناصر الواعية والنشيطة والجماهير ، أى الزعماء ، فإن من لم ينجح النظام فى كسبهم، لجأ إلى سجنهم أو قتلهم .

لكن الكاتب يرصد أيضا أنه مع السلام الاجتماعى فى السبعينات ، كان العنف مستمرا ، إنما غير ملحوظ : العنف الجماعى تحول إلى عنف فردى يعبر عن نفسه من خلال الجريمة التى استشرت بين الجماعات المقهورة عندما بدأت تكتشف أنها لم تكسب شيئا ذا بال من العنف الجماعى بل وحرمت من عناصرها الفعالة، بينما تزايد عنف الدولة ضد الطبقات الدنيا .

ويرصد روبنشتين فى دراسته التى نشرها فى أواخر ١٩٨٨ ، تغيرات مهمة

العنف فى المجتمع الأمريكى

فى المجتمع الأمريكى ترشحه لتجدد العنف ؛ ويبدأ من القول بأن « اللامركزية » و« الحكم الذاتى » كانت حلولا جزئية صالحة فى الستينات ، عندما كان الاقتصاد والسلطة والمجتمع تتجه إلى اللامركزية . لكن هذه « الإصلاحات » أبقت على أسباب العنف : فالفصل العنصرى مازال قائما كأمر واقع ، وأن استغلال الطبقات الدنيا أو إهمالها عندما لا يتسع الاقتصاد لاستغلالها يتزايد ، والعلاقات بين مجتمعات الأقليات الفقيرة والمحرومة وبين الشرطة تزداد مرارة ، واعتماد أفراد هذه المجتمعات المقهورة على مؤسسات الرعاية اعتمادا مهيناً يتزايد مع انكماش الآمال فى الفرصة المتكافئة والعدل .

وكان يرى فى سياق هذا الرصد عوامل أربعة تؤجل انفجار العنف ، يكرر من بينها دخول السود وذوى الأصول الأمريكية اللاتينية إلى الأجهزة السياسية والإدارية للمدن الكبرى وبعض المناطق الزراعية .

ويضيف إلى ذلك تجارة المخدرات التى ضخت إلى أوساط الجماعات المقهورة بلايين الدولارات وعشرات الآلاف من فرص العمل فى أكبر شبكة للأعمال المشروعة وغير المشروعة فى التاريخ الأمريكى ، كانت هذه التجارة « حربا على الفقر » حققت ما فشلت فيه البرامج الحكومية فى هذا المجال ، لكنها فى الوقت ذاته نقلت طاقة العنف إلى داخل الجماعات المقهورة فى شكل الحروب بين عصابات المخدرات ، لكن هذا أيضا أدى إلى تدخل الشرطة على نطاق واسع ، فى صورة أخرى من العنف .

وأن تزايد الهجرة إلى الولايات المتحدة بدءا من السبعينات ، حتى أصبحت طوفانا فى الثمانينيات ، جعل الخريطة الديموغرافية معرضة لتغير مستمر ومتواتر ، أضعف تجانس الجماعات ذات الهوية المشتركة ، وشغلها إما باستيعاب المهاجرين الجدد من بين جلدتها ، أو بالصراع ضد المهاجرين الجدد من غير بنى جلدتها والذين يجتاحون أراضيها .

وأن ذكريات انتفاضات الماضى يمكن أن تكون كابحا للعودة إلى اللجوء إلى العنف ، بعد أن رأى الناس أن ماضى العنف لم يحقق نتائج باقية .

لكنه فى المقابل يرى عوامل أخرى أربعة من شأنها أن تؤدى إلى إحياء العنف ، ويلخصها فى :

١ - إبطاء وتيرة الهجرة على نحو يتيح لكل جماعة استيعاب المهاجرين الذين ينتمون إلى هويتها ، وتنظيم نفسها على نحو يعكس وزنها الاجتماعى .

٢ – أن تنخفض بحدة معدلات النمو الاقتصادى .

٣ – أن يتضح فشل السياسيين المحليين .

٤ – زيادة الضغوط على الجماعات المقهورة من خارجها ، إما بتكثيف الاستغلال الاقتصادى ، أو تخفيض الإنفاق الاجتماعي للدولة .

وكأنه كان يتنبأ .

ثم ينهى دراسته بتحذير ذى حدين : الأول أن الجماعات المنبوذة من النظام والتى تبقى الاحتياجات الأساسية لأفرادها دون إشباع " سوف تتمرد على وجه التأكيد ، والثانى أنه إذا كانت تجارب العنف فى الماضى لم تحقق لهذه الجماعات احتياجاتها ، فإنها ستبتكر أشكالا جديدة من العنف ، قد تتعذر السيطرة عليها .

* * *

ويبدو أن ما حدث فى لوس أنجلوس كان مصداقا لما تنبأ به ريتشارد روبنشتين ولما حذر منه .

لكن الذى لا يبدو هو أن رد فعل السلطة ، كما تكشف حتى الآن ، لم يضع أيا من هذه التنبؤات والتحذيرات فى حسابه .

فلقد تبين أن استجابة السلطات ، على ما يبدو فيها من اهتمام و« فخامة » ترجع إلى عوامل غير ما حدث فعليا فى لوس أنجلوس ، وغير العوامل غير الظاهرة الكامنة وراء القتل والضرب والتحطيم والحرق والنهب .

فقد وقعت أحداث لوس أنجلوس في ظروف دقيقة .

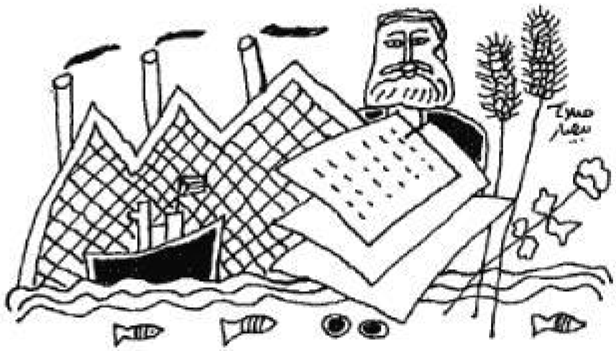
فالرئيس الأمريكى فى خضم حملة انتخابية يدخل إليها بدعوى النصر على طول الخط : من الحرب الباردة إلى « عاصفة الصحراء » وعليها يقيم دعوى تفوق النظام الأمريكي وجدارته بقيادة العالم .

والولايات المتحدة ، تدعي النيابة عن العالم فى إقامة العدالة ، فإذا لوس انجلوس تلقى ظلالا كثيفة على قدرتها على إقامة العدالة القضائية بين مواطنيها .

واللجنة التي عينتها الرئيس بوش ، تفتح تحقيقاتها فى بحث حالة القطيعة بين عمدة المدينة – الأسود – وبين مدير شرطتها الأبيض ، وهى قطيعة كان عمرها خمسة عشر شهرا قبل أن تنفجر لوس أنجلوس .

والبداية مؤشر ، على أن السلطات كالعادة ، ستبحث عن أفراد يتحملون المسئولية وعن « كباش فداء » وعن تسوية تؤدى إلى تهدئة الوضع الراهن ، دون أن تحل المشكلة .

وهذه الأخيرة من الخواص التى رصدتها دراسة روبنشتاين



خمسة قرون من فكر التنمية

بقلم : د. جلال أمين

لقد كان موضوع النمو الاقتصادى والتنمية هو أحد الشواغل الأساسية لأصحاب المذهب التجارى منذ نحو خمسة قرون ، ولآدم سميث والاقتصاديين التقليديين فى القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر ، وللاقتصادى الألمانى فريدريك ليست فى العقدين الرابع والخامس من ذلك القرن ، ولمؤسسى الماركسية فى الربع الثالث من نفس القرن ، وليس من المستغرب ، بطبيعة الحال ، أن تتناول كل هذه المدارس قضية التنمية تناولاً مختلفاً عن تناول المدارس الأخرى ، سواء من حيث عوامل التخلف والتنمية التى يجرى التركيز عليها ، أو من حيث نوع السياسة الاقتصادية المثلى التى ينصح باتباعها ، بل وأحيانا من حيث تحديد ما الذى يجرى تنميته . فكل مدرسة عكست بفكرها ، إلى حد كبير ، ظروف المرحلة التاريخية وظروف الدولة أو الدول التى ظهر هذا الفكر فيها ، وكلما تغيرت الظروف تغير منحى التفكير ومحتواه ، لايبدو هذا الاختلاف غريبا البتة بالنظر إلى الفترات الزمنية الطويلة نسبياً التى تفصل بين بعض هذه المدارس وغيرها ، فبين نشأة الفكر التجارى وكتاب آدم سميث نحو ثلاثة قرون ، وبين آدم سميث وماركس نحو قرن ، ومع امتداد الزمن لابد أن نتوقع أن تتغير الظروف وتتغير معها الأفكار . كما ان ظروف إنجلترا عندما كان آدم سميث يكتب (ثورة الأمم) ، كانت

«من الممكن أن يقال إن موضوع النمو الاقتصادى والتنمية ، لم يبدأ فى احتلال تلك المكانة العالية فى الكتابات الاقتصادية ، التى يحتلها اليوم ، إلا منذ أقل من نصف قرن ، على أساس أن الاقتصاديين ظلوا وقتا طويلاً قبل الحرب العالمية الثانية لا يبالون كثيراً ، أو لا يبالون على الإطلاق بموضوع التنمية . ولكن الحقيقة أن موضوع التنمية ، وإن لم يكن يسمى بهذا الإسم ، قديم قدم علم الاقتصاد ، عاصر نشأته والمراحل الأولى من نموه ، وظل يحظى بأهمية كبيرة لدى مختلف المدارس الاقتصادية حتى بدأ إهماله على يد المدرسة النيو كلاسيكية (أو التقليدية الحديثة) حوالى سنة ١٨٧٠ .»

تختلف اختلافا ملحوظا عن ظروف ألمانيا عندما كان ليست يكتب «الأساس القومى للاقتصاد السياسى» ، فكان من الطبيعى أن يختلف منحى هذا عن منحى ذاك .

الأكثر لفتا للنظر وقد يكون مداعاة للاستغراب ، ما طرأ على فكر التنمية من تغير خلال تلك الفترة القصيرة جداً ، نسبيا ، التى انقضت منذ الحرب العالمية الثانية ، وفى نفس العالم الغربى الذى تخرج منه أهم الكتابات فى هذا الموضوع . فخلال هذه الفترة التى لا تزيد على خمسين عاما ، تغير موقف الاقتصاديين أكثر من مرة ، وتغيرت النغمة السائدة فيما يتعلق بالعوامل الأساسية فى التنمية والتخلف ، والجوانب التى يجرى تركيز البحث عليها والاهتمام بها ، والسياسات الاقتصادية التى يشيع النصح بتطبيقها .

هذا التقلب الشديد فى الفكر الاقتصادى السائد فى قضية التنمية ، ليس فيه ما يدعو الاقتصادى للزهو أو الإعجاب بنفسه ، بل على العكس ، فيه فيما أظن ما يدعوه إلى الكثير من التواضع ، إذ أنه من هذا التقلب يفصح عن أن «علمه» مازال بعيداً كل البعد عن أن يكون ذلك العلم المنضبط الدقيق وهو ما كان يطمح إليه ويظن أحياناً أنه قد وصل إليه بالفعل، كما يفصح عن أن علم الاقتصاد يخضع للأهواء والتحيزات واتجاه المصالح السائدة بدرجة أكبر كثيراً مما يظن .

● النمو الاقتصادى والتنمية أحد الشواغل الأساسية لأصحاب المذهب التجارى .

الغريب مع هذا ، أن هناك من الاقتصاديين من لا يرى أو لا يريد أن يرى هذا التقلب فى فكر التنمية ، الذى يصل أحياناً إلى درجة التقلب بين الشئ ونقيضه، ويصور آخر كلمة قالها اقتصاديو التنمية وكأنها هى الكلمة النهائية والحاسمة، أو كأنها هى ما وصل إليه علم الاقتصاد ونتيجة تطور تدريجى يقترب به شيئاً فشيئاً من الحقيقة ، دون أن يفطن إلى أن الكلمة التى تقال ليست بالضرورة أكثر حكمة مما كان يقال منذ ثلاثين أو أربعين سنة ، أو حتى منذ قرنين أو ثلاثة ، بل قد لاتزيد على كونها «الكلمة المناسبة فى هذا الظرف بالذات ولخدمة مصالح بعينها» .

الغرض من هذا المقال ومقالات تالية (١) ، هو محاولة بيان هذا التقلب الشديد فى فكر التنمية عبر القرون الخمسة الماضية ولكن مع التعرض بدرجة أكبر من التفصيل للتقلبات التى طرأت على هذا الفكر منذ الحرب العالمية الثانية ، يحدونى الأمل فى أن النجاح فى بيان هذه التقلبات وتفسيرها قد يكسبنا درجة أكبر من الحكمة عندما نتعرض لتقييم ما يسود من أفكار عن التنمية وما تنصح به من سياسات اقتصادية فى أيامنا هذه .

* * *

لم تكن التنمية عند أصحاب المذهب التجارى ، الذى ساد أوربا طوال ما يقرب من ثلاثة قرون (١٤٥٠ - ١٧٥٠) هى زيادة ما ينتجه المجتمع من سلع وخدمات ، كما نفهم نحن التنمية الآن ، بل زيادة ما تحوزه الدولة من ذهب وفضة . كان هذا المنحى من التفكير ، الذى قد يبدو لنا شديد الغرابة الآن ، مفهوما وطبيعيا تماما فى تلك الفترة ، كما أنه لم يكن بالحماقة التى وصفه بها آدم سميث فى ١٧٧٦ . كان طبيعيا أن تُعرَّف الثروة بالذهب والفضة فى وقت كان المصدر الأساسى للثروة فيه هو التجارة ، وأن يفهم النمو وزيادة الرخاء بمعنى زيادة ما بحوزة الدولة من ذهب وفضة فى وقت كان أكثر مصادر الدخل نموا فيه هو نمو التجارة ، خاصة التجارة الخارجية ، وبالذات فى أعقاب الكشوف الجغرافية منذ نهاية القرن الخامس عشر . كما أن فهم الثروة على أنها الذهب والفضة ، وليست السلع

والخدمات التى تشبع مختلف الحاجات الإنسانية يكتسب درجة عالية من العقلانية إذا تذكرنا أن أخشى ما يخشاه التاجر هو أن تبقى لديه السلع دون تصريف ، وأن نجاحه واستمرار نشاطه يتوقفان على استمرار وسرعة ما تحققه «من سيولة» ، أى سرعة تحويل السلع إلى نقد ، أى إلى ذهب وفضة ، إنه إذا كان رأس مال أرباب الصناعة هو الآلات والمعدات والمواد الأولية ، فإن رأس مال التاجر هو النقود .

أما ما اشتهر به التجاريون من التركيز على ميزان المدفوعات ، واعتبارهم أن أهم هدف للسياسة الاقتصادية هو تحقيق فائض منه (ومن ثم أن يدخل إلى الدولة كمية من الذهب والفضة تزيد عما يخرج منها) فهو مفهوم أيضا وطبيعى للغاية فى عصر كان التنافس فيه على المستعمرات الجديدة ، فى أثر الكشوف الجغرافية ، على أشده بين الدول الأوربية ، حيث كانت كل دولة ترغب فى اكتساب موطئ قدم فى الأرض المكتشفة حديثا تحقق من ورائه لتجارها أرباحا مضاعفة . كان التصدير إذن هو أكثر أنواع النشاط الاقتصادى ربحاً ، ومن ثم كان أكثرها تمتعا بثناء الاقتصاديين ، وكان تدفق فوائض الذهب والفضة على الدولة الدليل الأكيد على نجاحها فى التصدير ، ومن ثم اعتبر تحقيق الفائض فى ميزان المدفوعات أولى الأهداف الاقتصادية بالاهتمام .

تنافس حاد وتدخل حكومى

كان هذا التنافس الحاد بين الدول الأوربية على فتح مناطق جديدة لتجارتها ، وكذلك الحاجة إلى توسيع السوق المحلية أمام المنتجين المحليين ، يتطلبان درجة عالية من التدخل الحكومى لأكثر من سبب من ذلك فرض سياسة حمائية تضمن توفير سوق متسقة أمام التجار الوطنيين ، والقيام بمشروعات البيئة الأساسية اللازمة لتسهيل التجارة وتشجيعها كإنشاء الطرق والموانىء وتحسينها ، واستتباب الأمن والقضاء على قطاع الطرق ، وتوحيد الأوزان والمقاييس ، والقضاء على الحواجز الجمركية القائمة بين مقاطعات الدولة الواحدة ، ومنح الاعانات للمصدرين ، بل وتشجيع إنتاج مختلف السلع الصالحة للتصدير وتخفيض نفقة إنتاجها ، وتشجيع صناعة السفن وتجهيز جيش قوى قادر على ضم أراض جديدة والدفاع عن أراض تم اكتسابها . بل لقد كانت الدولة ترى من واجبها أحيانا التدخل بفرض مواصفات معينة على السلع المصنوعة تسهيلا لتصديرها ، كما كان الحال فى ظل كولبير ، وزير مالية لويس الرابع عشر ، حيث كانت "الكولبيرية" نموذجا يمثل الفكر التجارى أصدق تمثيل .

كانت أوربا تعيش إذن خلال ذلك العصر ، الذى يكاد يتطابق مع عصر النهضة ، مرحلة يناسبها تماما هذا الفهم

● بيان التقلب الشديد فى فكر التنمية عبر القرون الخمسة الماضية .

لطبيعة الثروة والتنمية ، وهو الفهم الذى يبدو لنا الآن محدودا وقاصرا كما كانت تناسبها تماما درجة عالية من التدخل الحكومى فى النشاط الاقتصادى . بل إن من الشيق جدا أن نلاحظ أوجه الشبه الشديد بين بعض أفكار التجاريين ، وبعض الأفكار والاتجاهات التى شاعت فى الدول المسماة ، اليوم بالمتخلفة أو النامية فى الخمسينات والستينات من القرن الحالى .

وليس من الصعب فى الواقع تفسير هذا الشبه فاقتصاديو العصر التجارى كانوا فى الواقع يرفعون لواء بناء الاقتصاد القومى فى مراحله الأولى ، وقد كان ذلك يتطلب درجة عالية من الاعتماد على النفس – وتشجيع التصنيع ، وحماية السوق من منافسة السلع الأجنبية .

إن من الشيق جدا أن نقرأ القائمة التالية من النصائح التى كتبها أحد كبار التجاريين فى إنجلترا فى كتاب نشر فى ١٦٦٤ ، وهو توماس مان Thomas Mun، الذى وصفه البعض بأنه قد يكون أقرب التجاريين الانجليز إلى نموذج « التجارى المثالى » ، فإذا بنا وكأننا نقرأ مذكرة من المذكرات المقدمة لأحد رؤساء جمهوريات الدول النامية فى الخمسينات أو الستينات من هذا القرن ، حين شاعت القومية الاقتصادية ، وسادت نزعة الاعتماد على النفس . إن توماس مان ينصح الانجليز بالآتى :

١ – لابد أن نستغل كل شبر من أراضينا الزراعية ، حتى نقلل من اعتمادنا على الواردات .

٢ – ونقلل من إسرافنا فى استهلاك السلع الأجنبية .

٣ – ونمنع أن يكون تصدير منتجاتنا على سفن أجنبية .

٤ – فإذا أردنا الإسراف فلنسرف فى الإنفاق على سلعنا المحلية ، حتى نخلق فرصاً جديدة للعمالة ، لأبناء وطننا ، ولكن من الأفضل أن يشتغل هؤلاء فى صناعات تتجه إلى التصدير .

٥ – وعلينا أن نزيد من نشاطنا فى المياه المحيطة بنا «بدلاً من أن نترك ذلك للهولنديين» .

ومثل هذا كثير ، حتى يختم توصياته بالدعوة إلى إنه « يجب أن نبذل كل ما في جهدنا لاستخدام مواردنا وقوانا الذاتية إلى أقصى حد ممكن » (٢) وكأنه واحد من الدعاة المحدثين للاعتماد على النفس .

لاعجب إذن أن استخدم اصطلاح التجارية الحديثة (neo-mercantilism) كثيرا في وصف ما كانت تتبعه كثير من الدول النامية من سياسات اقتصادية في الخمسينات والستينات من القرن الحالي ، ومنها مصر في عهد الناصرية .

وقد أصاب فكر التجاريين نفس الانحصار الذي أصاب « التجارية الحديثة» في العالم الثالث ، نتيجة أيضاً لتغير الظروف والأحوال فإذا بنا نجد آدم سميث والاقتصاديين التقليديين في بريطانيا يدشنون مجموعة مختلفة جدا من الأفكار



ابتداء من ١٧٧٦ ، ليس لأن الاقتصاديين كانوا قد اكتسبوا مزيدا من الحكمة مع مرور الزمن (وإن كانوا قطعا قد صاروا أكثر دقة وأكثر ميلا للتحليل والتنظير) ، بل لمجرد أن ظروف بريطانيا منذ نهاية القرن الثامن عشر قد استدعت هذا الانقلاب التام في مضمون الفكر الاقتصادي واتجاه السياسة الاقتصادية .

* * *

مما يستحق أن يروى في هذا الصدد، ويؤيد هذا الذي ذهبنا إليه حالات تلك القصة الشيقة عن موقف الاقتصادي الانجليزي الشهير جون مينارد كينز من المذهب التجاري والجدل الذي ثار بينه وبين الاقتصادي السويدي الشهير أيضا ، إيلي هيكشر .

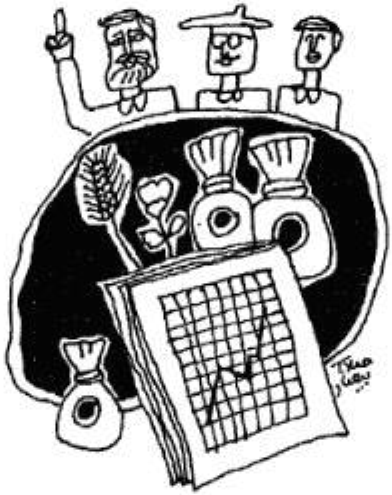
ذلك أن كينز خصص فصلا باكمله من كتابه المعروف (النظرية العامة) ، والذي نشر في ١٩٣٦ ، للثناء على التجاريين والإشادة بفطنتهم ، وقال إنهم " دون أن يكون لهم دراية بالأسس النظرية التي تقوم عليها السياسة الاقتصادية ، يبدون وكأنهم قد وفقوا في الوصول إلى الحكمة العملية.» (٣) ولم يكن هذا الموقف من جانب كينز غريبا ، إذ أن كثيرا من عناصر السياسة الاقتصادية التي دعا إلى تطبيقها في الثلاثينات من هذا القرن ، لمعالجة الكساد العظيم ، قريبة جدا من عناصر السياسة الاقتصادية التي دعا

● بناء الاقتصاد القـــومى يتطلب درجـة عـالية من الاعتمـــاد على النفـس .

إليها التجاريون قبله بنحو خمسة قرون . فكلاهما يؤكد على المنافع التى تعود على الاقتصاد القومى من زيادة كمية النقود المتداولة ومن تشجيع الصادرات ، وكلاهما يعتبر الانفـــاق على الاســتيراد من قبيل «التسرب» الذى ينقص من الطلب الكلى على منتجات الدولة ، ومن ثم تحسين تخفيضه ، وكلاهما ، فى نهاية الأمر ، يرى تدخل الدولة فى الاقتصاد شيئا مرغوبا فيه بل وضروريا ، بعكس ما دعا إليه الاقتصاديون التقليديون فى بريطانيا ابتداء من نهاية القرن الثامن عشر .

كان كينز قد اعتمد فى تحصيل معلوماته على التجاريين وأفكارهم ، اعتمادا يكاد يكون تاما على كتاب الاقتصادى السويدى هيكشر عن التجاريين ، وقال كينز ذلك صراحة ، وأضاف أن هيكشر من أنصار الاقتصاديين التقليديين المتحمسين لهم ، وهم ، كما ذكرنا حالا على طرفى نقيض من التجاريين فيما دعوا إليه من حرية اقتصادية وكفّ يد الدولة عن التدخل ومن ثم يقول كينز إن هيكشر لا يمكن أن يتهم باظهار التجاريين فى صورة أفضل من الحقيقة ، فإذا كان كينز قد استخلص من كتاب هيكشر ما يرفع من شأنهم ، فلابد أنه على صواب . (٤)

الطريف أن هيكشر عندما نشر الطبعة الثانية من كتابه عن التجاريين ، وكان ذلك بعد أن نشر كينز كتابه ، احتج على كينز احتجاجاً شديدا . لقد بدأ بتوجيه الشكر لكينز على ما عبّر عنه من دين له ولكتابه عن التجاريين ، ولكنه لامه لوما شديدا على ما أظهره من خفّة وتسرع بالثناء على التجاريين إلى هذا الحد ، وعلى زعمه بأن نصيبهم من الحكمة كان أكبر من نصيب آدم سميث والاقتصاديين التقليديين ، لمجرد أن التجاريين دعوا إلى تدخل الدولة والتقليديين دعوا إلى الحرية الاقتصادية ، أو لمجرد أن التجاريين دعوا إلى بعض الاجراءات الاقتصادية التى تصادف أنها اتفقت مع هوى كينز ، وتساءل هيكشر متهكما : كيف نتوقع أن تتوافر للتجاريين درجة عالية من « الحكمة العملية » ، فى عصر لم تكن تتوافر فيه إحصاءات يعتد بها ، بل كانت المعرفة فيه بالمتغيرات الاقتصادية أقرب ما تكون إلى التخمين ؟ وكيف نتوقع أن تسود الحكمة العملية



لبعض الوقت ثم تختفى فجأة فى ١٧٧٦ ، أى وقت ظهور كتاب آدم سميث ؟

الحقيقة فى نظر هيكشر أن التجاريين لم يكن لديهم أدنى اهتمام بالوصـول إلى « حقائق نظرية عامة » صالحة لكل زمان ومـكان . ومن ثم فوصفهم « بالحكمة » لايناسبهم فى الواقـع ، إذ ليس هـذا ما كانوا يسعون إليه . كانوا مهتمين بتقديم النصيحة بما اعتقدوا أنه ملائم لفترة معينة ، وليس للعالم بأسره بل لظروف دولة أو دول معينة .

ويختتم هيكشر كلامه بالقول بأن كتاب كينز الذى سمّاه « النظرية العامة » ، لا يحتوى على « نظرية عامة » على الإطلاق ، شأنه فى ذلك شأن مساهمات كل المدارس الاقتصادية الأخرى ، فصحة ما قدمته كل من هذه المدارس مرهون بظروف العصر والمكان اللذين نشأت فيهما . وفى رأى هيكشر أن كينز وقع بهذا فى نفس الخطأ الذى وقع فيه آدم سميث من قبله ، فكلاهمـا يفتقد " الاحسـاس بالنسـبية (Sense of relativity) حيث ظن كل منهما أن ما يصلح لعصره وبلده يصلح لكافة العصور والبلاد ، وهذا الخطأ هو الذى أدى بآدم سميث إلى أن يقسو على التجاريين كل هذه القسوة وبكينز أن يطريهم كل هذا الإطراء . (٥)

---

(١) هذا المقال والمقالات التالية عن تطور فكر التنمية خلال القرون الخمسة الماضية ، هى خلاصة دراسة نرجو أن تنشر فى كتاب يحمل اسم هذا المقال ، فى مطلع ١٩٩٣ . والكاتب مدين فى كتابتها للجامعة الأمريكية بالقاهرة لإتاحتها له فرصة التفرغ بعض الوقت لكتابتها خلال ١٩٩١ .

(2) A. Gray : The Develo - pment of Economic Doctrine, Longmans, London, 1957, PP . 86 - 88 .

(3) J.M. Keynes : The General Theory of Employment, Interest and Money, Macmillan, London, 1957, P. 340 .

(٤) المرجع السابق ، ص ٣٤١

(5) E.F. Heckscher : Mercantil-ism, Mendel Shapiro, London, 1935, Vol.2, PP. 273 - 358 .

مسئولية التركستان من ألبانيا إلى الصين

بقلم : عبد الرحمن شاكر

تفرض المتغيرات الدولية على الأمم والشعوب مسئوليات جديدة ربما لم تكن فى حياتها من قبل ، وفى الوقت ذاته تتيح لها فرصا لعلها لم تسع إليها ، ولكن ساسة هذه الأمم يجدون أنفسهم مطالبين بالتصدى لتلك المسئوليات الجديدة ، ومحاولة الاستفادة من الفرص المتاحة ، وإلا وجدوا أنفسهم خارج التاريخ وبعيدا عن مجرى أحداثه

وأحدث هذه المتغيرات وأبعدها مدى هو الانهيار الذى أصاب الكتلة الاشتراكية فى شرق أوربا وانتهى بتفكك الاتحاد السوفييتى ذاته إلى جمهوريات مستقلة ، يضمها « كومنولث » واهى العرى ، مهدد بالانهيار فى أية لحظة ، بل يمتد التهديد إلى كبرى جمهورياته وهى الاتحاد الروسى ذاته ، الذى تحاول بعض الجمهوريات ذات الحكم الذاتى داخله أن تحصل على استقلالها الكامل .

وكان من الطبيعى أن ينعكس إنهيار الدولة السوفييتية على النحو المذكور على أقرب جاراتها إليها ، ومن بينها تركيا ، التى كانت بدورها حتى نهاية الحرب العالمية الأولى امبراطورية ضخمة تسمى الدولة العثمانية ، وشهد التاريخ السابق لتلك الحرب صراعا هائلا ما بين تلك الامبراطورية ، وجارتها الضخمة المتاخمة لها : الامبراطورية الروسية .

وقد أدت الحرب العالمية الأولى إلى تحول واسع النطاق فى كلتا الامبراطوريتين ، وكانت هناك عناصر مشتركة فى هذا التحول تشمل الامبراطوريتين من ناحية ، وعناصر



كمال أتاتورك

اختلاف أملتها طبيعة الظروف الخاصة بكل منهما من ناحية أخرى .

أما عن العناصر المشتركة ففي مقدمتها سقوط الحكم الأتوقراطي القائم على أساس الدين في كل من الامبراطوريتين ، وكانت البداية في روسيا فقد سقطت في عام ١٩١٧ القيصرية التي كانت تحكم « روسيا المقدسة » باعتبارها حامية المسيحية الأرثوذكسية في العالم ووريثة بيزنطة في هذه المهمة ، بعد سقوط هذه الأخيرة في القرن الخامس عشر الميلادي ، في أيدي العثمانيين ، بل تحولها إلى قاعدة حكم هؤلاء ، ومقر الخلافة الاسلامية ، التي تحكم عن طريقها روحيا وعسكريا الشطر الأكبر في العالم الاسلامي .. قام على أنقاض القيصرية نظام علماني متطرف ، لم يكتف بابعاد الدين عن الدولة في الأمور السياسية فحسب ، بل حاول اقتلاع جذوره الثقافية في نفوس أتباع مختلف الديانات ، ليفرض المساواة الكاملة بينهم في كل شيء ، باسم الاشتراكية والملكية العامة لوسائل الانتاج ، وباسم الاشتراكية مارس استبدادا جديدا لا يقل عنفا عن استبداد القياصرة رغم اختلاف الأهداف وتباينها ، فيما عدا هدفا واحدا مشتركا حافظ عليه البلاشفة وهو بقاء « الامبراطورية » الروسية على حالها وحدة متماسكة بكل ما تضمه من قوميات وعقائد مختلفة ومتنابذة ، تحت اسم جديد ، هو اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية ، الذي تفترض فيها المساواة الكاملة بين مختلف مكوناته من الجمهوريات والأجناس وأتباع الديانات .

أما الامبراطورية العثمانية ، فقد سقطت فيها الخلافة الاسلامية وحكم آل عثمان بعد ذلك التاريخ بسنوات قليلة ، وقامت فيها بدورها جمهورية علمانية ، ولكن بعد أن تم تجريد تلك الجمهورية ، من كل أتباع الامبراطورية القديمة ، سواء أتباعها المخالفون في الدين ، من المسيحيين أساسا في شرق أوربا ، أو من المسلمين في العالم العربي ، الذي كان الاستعمار الأوربي قد سبق بالفعل إلى اقتطاع أجزاء كبيرة منه بحيث لم يبق للسيادة العثمانية عليها سوى الاسم ، كما كان عليه الوضع في مصر ، التي احتلها البريطانيون في عام ١٨٨٢ ، وبقيت تابعة رسميا للدولة العثمانية ، حتى قيام الحرب العالمية الأولى فأعلنت دولة الاحتلال الحماية عليها وصدت الجيش العثماني الذي حاول الزحف عليها لتحريرها من الحكم البريطاني .

مسئولية التركستان

ورفض أتاتورك زعيم الثورة التى أطاحت بالخلافة العثمانية دعوة لينين ، زعيم الثورة البلشفية فى روسيا أن يمده هذا الأخير بالسلاح الذى يكفى لاسترداد الامبراطورية العثمانية وطرد الاحتلال الغربى الامبريالى منها، واكتفى أتاتورك من السلاح والتأييد السوفييتى بالحصول على استقلال بلاده تركيا فحسب ، وهى التى أوشكت لولا هذا التأييد أن تتحول بدورها إلى مستعمرة بريطانية أو بريطانية - يونانية مشتركة ، كما كان عليه الحال فى قبرص التى جلا منها البريطانيون فيما بعد الحرب العالمية الثانية لتبقى حتى الآن فريسة للصراع ما بين قسميها التركى واليونانى !

لم يتخل الأتراك فى عهد أتاتورك ، عن مجرد حلم الاحتفاظ بالامبراطورية التى كانوا يحكمونها بشقيها المسيحى فى أوربا والاسلامى فى آسيا وأفريقيا فحسب ، بل تخلى القوميون الجدد منهم عن فكرة « الجامعة الطورانية » التى تجمع ما بينهم وسائر المتكلمين بالتركية والذين ينتمون إلى أعراق مشابهة لهم ، ومعظم هؤلاء كانوا يعيشون فى منطقة التركستان فى الشمال الشرقى من تركيا أو الأناضول، ويمتد وجودهم البشرى والثقافى إلى سنكيانج فى الصين ، وقد وقعوا فيما قبل الحرب العالمية الأولى تحت سيطرة الامبراطورية الروسية فى سلسلة من الحروب والغزوات آخرها حرب القرم فى عام ١٨٧٠ ما بين الدولة العثمانية والامبراطورية الروسية وانتصرت فيها هذه الأخيرة ، واعتبرتها أوربا انذاك نصرا مؤزرا للمسيحية على الاسلام !

فى أواخر عهد الدولة العثمانية كان هؤلاء القوميون الطورانيون يرون أن تتريك بعض الأجزاء التى يحكمونها باسم الاسلام من العالم العربى ، أسهل من منازعة الروس المناطق التى يحتلونها من التركستان ، والتى سبق لهم أن فرضوا عليها أو على أجزاء منها سياسة الترويس ! وكان التتريك القسرى كما حدث فى الشام ، واحدا من الأسباب التى دعت أجزاء من العالم العربى إلى قبول التحالف مع الغرب الاستعمارى المسيحى ضد دولة الخلافة العثمانية فى الحرب العالمية الأولى .

ولعل أحد أسباب رفض أتاتورك دعوة لينين لاسترداد الامبراطورية العثمانية هو تساؤل صامت لابد أن يكون قد دار فى خلده : هل سوف يسمح لنا لينين بعد ذلك أن نضم إلى امبراطوريتنا « الاسلامية » ، التركستان المسلم الذى يقع تحت سيطرته ؟

كانت علمانية أتاتورك تختلف عن علمانية لينين : فلا هو حريص مثله على تحرير كل الشعوب من قبضة الامبريالية

العالمية ، ولا على المساواة الاقتصادية ما بين أفراد المجتمع الواحد وسائر البشر ، بل يكفيه منها أن يفصل الدين عن الدولة فى كل شىء وأن يحاول أن يجعل تركيا قطعة من أوربا فى لباسها وتقاليدها الاجتماعية ومختلف مظاهر حياتها ، باعتبار أن أوربا هى نموذج المدنية الحديثة .

دورة التاريخ :

ويدور الزمن دورته ، ويسقط الاتحاد السوفييتى ، بل وتسقط فيه الاشتراكية ، ويصبح النموذج الذى تتطلع إليه شعوبه ، ليس أوربا الغربية فحسب ، بل الولايات المتحدة الأمريكية واليابان وسواهما من قادة التكنولوجيا المتطورة ، ويحرص « السلاف » من سكان الاتحاد السوفييتى السابق على ألا يربطوا عجلتهم تماما إلى عجلة « المتخلفين » من سكان المناطق الآسيوية فى الاتحاد السوفييتى ، أو « التركستان » الذى أطلق عليه فترة اسم « التركستان الروسى » والذى أصبح الآن ست جمهوريات مستقلة هى كازاخستان وأوزبكستان وتركمانستان وطاجيكستان وقرغيزيا وأذربيجان ، بالاضافة إلى الجمهوريات الصغيرة ذات الحكم الذاتى فى الاتحاد الروسى والتى تتطلع حاليا إلى الاستقلال مثل شيشن والاغوش ، وتتارستان ، وداغستان .

وبهذا التفكك الذى أصاب الاتحاد السوفييتى ، ثم انهيار الامبراطورية الروسية ، وأصبحت المشكلة التى تواجه الجمهوريات الاسلامية من هذا الاتحاد السابق هى مشكلة الانتماء ، لأن رابطة « الكومنولث » الواهية التى ابتدعها السلاف من أبناء الاتحاد السوفييتى السابق تبدو عديمة المستقبل ، وربما تكون فى طريقها إلى الزوال .

ويتحرك « الجنوب » فى اتجاه تلك الجمهوريات التركستانية ، فيما يبدو تخليا من جانب « الشمال » .. تتحرك إيران وتركيا والعالم العربى ، وكلها لها روابط تزيد أو تنقص مع هذا « التركستان » .

وتتركز الأنظار على تركيا بصفة خاصة : فهى الأقرب للتركستان من الناحية العرقية واللغوية ، كما أن العقيدة التى تسودها ، وهى الإسلام على المذهب السنى ، هى التى تسود معظم هذا التركستان .

وتحت ستار العلمانية ، الذى ساد كلا من تركيا ، والتركستان (الروسى) ، بطرق مختلفة ، يتحرك حنين إلى الدين ، الذى عانى بدوره جوعا متفاوتا لدى كل من الفريقين .

وممن تتركز أنظارهم على تركيا فى هذا المجال الولايات المتحدة الأمريكية القوة العظمى الوحيدة فى العالم الآن بعد الانهيار السوفييتى والتى تتطلع إلى الهيمنة العالمية ، بحكم أن منازعها العسكرى الأول قد انتهى ، ولم يعد ينازعها السيطرة العالمية إلا قوتان اقتصاديتان يحسب حسابهما ، وليس لهما

مسئولية التركستان

وزن عسكرى كبير حتى الآن ، وهما المنهزمان السابقان فى الحرب العالمية الثانية : ألمانيا واليابان ، مع احتمال تصدر الأولى منهما لكيان دولى كبير يتمثل فى أوربا الموحدة أو السائرة فى طريق التوحد .

تحاول أمريكا أن تجعل من تركيا حصان طروادة الذى يكفل للأولى أن تكون لها اليد العليا على التركستان الذى فقده الروس بانهيار الاتحاد السوفييتى ، عن طريق التحول إلى اقتصاد السوق طبقا للنموذج الأمريكى ، وأن تدفع عن هذا التركستان خطر الأصولية الاسلامية على الطريقة الايرانية .

ولكن هذا الهدف يواجه عقبات لا يستهان بها ، من ذلك :

١ - أن الفكرة الاشتراكية لم تسقط تماما فى التركستان أو الجمهوريات الأسيوية من الاتحاد السوفييتى السابق ، فرغم كل شىء ، تدين تلك الجمهوريات للقدر الذى أحرزته من تقدم ثقافى واقتصادى للثورة البلشفية ، بل إنها فى التحليل الأخير ، تدين باستقلالها الحالى إلى تلك الثورة ، وكانت أحرص على بقاء الاتحاد السوفييتى ، من قادته الأوربيين .

ولا يزال الشيوعيون ، باسمهم الصريح يحكمون أجزاء من هذا التركستان ويتمتعون برضا شعوبهم عن هذا الحكم ، ما دام يبدى تسامحا ديمقراطيا إزاء المعارضين ، ولا يتدخل فى موضوع الحرية الدينية ومن الصعب على هؤلاء أن يرتدوا بعلمانيتهم الاشتراكية إلى المفهوم التركى للعلمانية ، الذى لا يعنى عندهم لا ديمقراطية ولا تقدما حقيقيا ، بل مجرد تقليد سطحى للغرب . إن من شاركوا من أبناء التركستان فى ريادة الفضاء والذين يملك بعضهم الآن ، ويستطع أن يشارك فى صنع الأسلحة النووية ، لا يبدو لهم التقدم الصناعى فى تركيا شديد الجاذبية بحال ! لقد كانوا جزءا من دولة كبرى ولا ينتظر لدولة صغرى أن تقدم لهم الكثير فى هذا المجال .

٢ - من الناحية الثقافية والدينية :
بالرغم من اللغة المشتركة ما بين التركستان وتركيا ، فإن الثقافة الأصلية للعقيدة الاسلامية ، هى ما كان منها بالعربية أساسا ، والتراث الذى تعتز به جمهوريات آسيا الوسطى الاسلامية ، هو ما شارك به أبناؤها العظام فى الماضى في إنتاج الثقافة العربية الاسلامية فى أزهى عصورها ، وما دام الحال كذلك ، فإن تطلع أبناء التركستان فى هذا الميدان سوف يتجه أساسا إلى العالم العربى وخاصة مصر بلد الأزهر ، بحيث يكون التزود من الثقافة الاسلامية مرتكزا على

العربية مقترنا بتعلمها ، ولعله يدفع الأتراك – أى أبناء تركيا – إلى التفكير فى العودة إلي كثير من المواقع التى هجروها فى الماضى ، بما فى ذلك ترك بالحرف العربى وكتابة التركية بالحروف اللاتينية . وليس النصر الجزئى الذى أحرزوه فى التنافس مع إيران ، باقناع أذربيجان بكتابة لغتها بالحروف اللاتينى بدلا من الحروف الروسية ، أو العربية كما اقترحت إيران لأنه الحرف الذى تكتب به الفارسية بنهاية المطاف فى هذا الميدان .

٣ – قد تبدو العلمانية التركية فى صورتها الحاضرة وهى الحرص على الانتماء إلى أوربا فحسب ، متناقضة مع كثير من حقائق الأوضاع المعاصرة ، التى دفعت أبناء التركستان بعيدا عن الروس ، والتى تدفع أبناء البوسنة والهرسك بعيدا عن الاتحاد اليوغوسلافى الذى أصبح الاستمرار فيه يعنى القبول بالسيطرة الصربية خصوصا بعد خروج كرواتيا وسلوفينيا من هذا الاتحاد ، ومعظم أبناء البوسنة والهرسك من المسلمين من أيام العهد العثمانى وربما يكون بعضهم أتراكا بالعرق أيضا .

انقلاب ديمقراطى

ونفس الشيء ينطبق بصورة أخرى على ألبانيا ، التى كانت دولة شيوعية ، ولكن الانقلاب الديمقراطى فيها حاليا ، سوف لا يجعلها تستمتع بوضع الدولة الأوروبية الديمقراطية ، أو بأنها جزء حقيقى من هذه القارة ، فى الوقت الذى تتصاعد فيه فى أوروبا النزعات الفاشية والعرقية والتعصب ضد ثقافات العالم الثالث وفى مقدمتها الاسلام ، مما قد يجعل الانتماء الى العالم الاسلامى من جديد أقرب إلى نفوس أبناء ألبانيا وأملهم الوحيد فى المستقبل .

٤ – كان من نتائج انهيار الاتحاد السوفييتى وخروج التركستان الروسى منه أن تحركت النوازع الانفصالية فى الجزء الصينى من هذا التركستان ، ومنطقة "سنكيبانج" على وجه التحديد ، حيث أرسلت الحكومة الصينية فرقا مسلحة لقمع هذا التمرد .

ولعل ذلك مما يفسر التقارب الصينى الإسرائيلى المعاصر ، المتمثل فى التعاون بين الدولتين فى مجال التكنولوجيا العسكرية إلى حد اتهام إسرائيل بأنها سربت إلى الصين أسرارا أمريكية فى هذا المجال .

إن تزعم تركيا للتركستان ، الذى أصبح يمتد الآن من ألبانيا غربا إلى الصين شرقا ويضمها فى وسطه لا يمكن إلا أن يتخذ فى الظروف المعاصرة صيغة تضامن إسلامى ، كما دعا الرئيس محمد حسنى مبارك فى زيارته الأخيرة لتركيا ، وسوف يشهد التاريخ القريب ما إذا كان المسلمون فى هذا العالم قادرين حقا على تحقيق هذا التضامن وصيانة مستقبلهم من الضياع فى هذا العالم المضطرب الذى يموج بشتى التيارات .

نور على نور

الخلل فى مناهج المعرفة الغربية

بقلم : د . محمد عمارة

فى منهاج المعرفة الإسلامية - الذى يشيع الحديث عنه الآن تحت عنوان : « إسلامية المعرفة » .. تقوم المعرفة الإنسانية على ساقيها الطبيعيتين :

أ - كتاب الوحى : القرآن الكريم - بما يعنيه من سبيل للعقل الإنسانى يدرك به ومن خلاله ما يمكن له إدراكه من نبأ عالم الغيب .. ومن الأحكام الشرعية التى لا يستقل العقل بادراكها .. أو بإدراك مقاديرها .. أو الحكمة من وراء تشريعها والتكيف بها .

وبما يعنيه هذا المصدر الالهى من إطار يحكم غرور العقل وشططه .. وذلك كى لا يخـرج عن رسـالته فيتحـول إلى « هوى » ! ..

ب - وكتاب الوجود : الكون المخلوق - بما يعنيه من الحقائق والآيات التى هى مجال لإدرك الحواس الإنسانية .. وميدان للتجارب الحسية .

كذلك تميز هذا المنهج الإسلامى فى المعرفة - منهج « إسلامية المعرفة » باعتماد كل سبل الإدراك طرقاً لتحصيل المعارف والعلوم والتصورات .. وليس الوقوف فقط عند الحـــواس .. فمع الحواس.. وملكة العقل .. هناك الأدلة السمعية .. والذوق .. والوجدان .. إلى آخر ما من الله على الإنسان من سبل التصور والإدراك ..

وبسبب من تكامل مصادر المعرفة ، فى هذا المنهج الإسلامى .. وبسبب من تكامل كل سبل الإدراك والتصور .. كان التوازن والتكامل فى هذه المعرفة الإسلامية .. الأمر الذى عصمها من « الانشطار » .. ومن « الخلل » .. فبرئت من النظرة الأحادية ، « مادية » كانت أو « باطنية غنوصية » ! ..

ولأن هذا هو تميز هذه المعرفة الإسلامية ، كان تميز إنسانها المسلم بالانتماء - الذى حققه له الإيمان - بكتاب الوحى .. والنظر فيه وفى كتاب الكون - والذى عصمه هو الآخر ، من خلل « الانشطار .. والاغتراب » ! ..

صورة سلبية

حـوافز لـمـزيد من ثقتنـا بمنهجنـا الإسـلامى المتميـز فى المعـــرفة

وإذا كانت هذه هى سمات وثمـرات التـكامل فى منهـج « إسلامية المعرفة » .. وفى المعارف والعلوم التى أثمرها هذا المنهج .. وفى إدراك وتحصيل هذه المعارف والعلوم .. فلقد كان طبيعياً أن تكون الصورة سلبية وشائهة على جبهة الحضارة التى اختل فيها ميزان هذا المنهج ..

ومن هنا لا يدرك ذلك دون كثير عناء إذا هو قارن بين هذا التكامل الذى أشرنا إليه على الجبهة الإسلامية ، وبين واقع النهضة العلمية الغربية ، ذات المنهج الحسى والمادى فى المعرفة ..

★ لقد كان التقدم العلمى ، فى علوم الدنيا ، نقضاً وإنكاراً للوحى والدين .. حتى لقد قادت الاكتشافات العلمية هناك أصحابها إلى « تاليه الإنسان » .. فصاح بعضهم تلك الصيحة المنكرة - المعبرة عن هذا الخلل - فقال : لقد مات الله ؟! - تعالى الله عن ما صاحوا به علواً كبيراً !..

★ وكان الكثير من ثمرات هذا المنهج المختل - القائم على ساق المعرفة الحسية وحدها - وخاصة فى العلوم الاجتماعية والإنسانية - ثمرات معتلة .. ففى الوقت الذى زعموا لنا حياد ودقة وموضوعية العلوم الطبيعية والتجريبية ، رأينا اكتساح التطور لها كما تكتسح الصحة والعافية العلل والأمراض .. لقد أثمر هذا المنهج الأعرج مذاهب وفلسفات ونظريات ، كانت



أقرب إلى « الأمراض الفكرية » وإلى « الفجر - الكاذب » الذى سرعا ما يتوارى ، حتى وإن بهر بعض الأبصار ! ..

وأثمر ألوانا أخرى من المذاهب والفلسفات ، كانت تعبيراً خاصاً عن أمراض أو ملابسات غربية خاصة .. ومع ذلك ، فقد زعموا لها « العلمية » و « الموضوعية » و « الحيادية » .. فذهبوا يفرضونها على البشرية جمعاء ؟! .

وبسبب من الطابع المادى والحسى لمناهج المعرفة فى هذه النهضة الغربية الحديثة ، فلقد تصور الغرب أن هيمنته على الشعوب المستضعفة ، وتدميره للبنية الاقتصادية والاجتماعية فى مجتمعاتها ، ومسخه ونسخه وتشويهه لموروثها ومعرفتها .. ظن ذلك « رسالة حضارية » يدفع الرجل الأبيض ضريبة نشرها فى العالمين ! ..

الغرب .. ودمار البيئة

وبسبب من هذا الطابع الحسى والمادى أيضاً ، كانت التطبيقات الغربية لثمرات عبقريته فى العلم الطبيعى .. كانت تطبيقاتها فى دمار البيئة وتلويثها والاخلال بتوازنها .. وكما عد قهره للأمم الأخرى « رسالة حضارية » .. فلقد اعتبر العدوان على الطبيعة « رسالة حضارية » أخرى ! جعل من عبارات : « قهر الطبيعة » و « السيطرة عليها » و « تسخيرها للإنسان » عناوين عليها ؟! .

ولأن هذا المنهج الحسى والمادى ، لا يعترف بغير الواقع المحسوس ، ولا يؤمن بغير عالم الشهادة ، فلقد أثمر « الدهرية » التى لا ترى للحية الإنسانسة مقاصد غير « الوفرة المادية » التى تحقق للإنسان لذاته وشهواته ، التى لا تنتهى عند حدود ! .. وبواسطة القوة الضيقة ، والصراع الذى لا يعرف القيود ! ..

لقد أثمر هذا المنهج فى المعرفة الغربية علوماً ومعارف ومذاهب تحقق للإنسان « قوة المفترس » الذى « يأكل فى سبعة أمعاء » !! « بينما عجزت عن تحقيق الاشباع الروحى لهذا الإنسان ، فاختل توازنه عندما لبت له حاجات الجسد ، دون حاجات الروح .. حتى لقد أدى هذا الخلل إلى تهديد الجسد ذاته بالدمار لغياب نور الروح فى ترشيد الإشباع المادى جسد هذا الإنسان ! ..

***

إن ما أشرنا إليه من تحولات جديدة فى فلسفة العلم الغربى المعاصر .. تحولات عن حسية المعرفة وماديتها .. هى حوافز لمزيد من ثقتنا بمنهجنا الإسلامى المتميز فى المعرفة .. لابد وأن تدفعنا إلى مزيد من الجهد ، لبلورة المنهج – منهج إسلامية المعرفة – وصياغة علومنا الإنسانية وفلسفة علومنا الطبيعية وفقا له.

وإن ما نشهده من سقوط وتراجع الكثير من مذاهب الغرب ونظرياته ، التى بهرت الأبصار لعقود عديدة من الزمن .. سقوطها وتراجعها ، كحال الفجر الكاذب ، وكشأن الأمراض التى تكتسحها الصحة والعافية .. لهو حافز آخر لمزيد من الجهد الذى يجب أن يبذل فى هذا الميدان .. وإلا ، فمنذا الذى لا يكتشف فى سقوط وتراجع « الماركسية » .. و« الداروينية » .. و« الوجودية » .. و« الفرويدية » .. والكثير من مذاهب ومناهج البحث والنقد فى الفنون والآداب .. من ذا الذى لا يكتشف فى ذلك ، ووراءه خللا حقيقياً وأكيداً فى المنهج المادى والحسى للمعرفة التى أثمرت هذه المذاهب والنظريات ؟! ويرى فى هذا تأكيدا والحاحاً على ضرورة بلورة المنهج البديل ؟! ..

إن إسلامية المعرفة تعنى حضارة مؤمنة تقوم على عقلانية متدينة

لقد ظلمنا بجمودنا وتقليدنا لـ « تخلفنا الموروث » المنهج الإسلامى المتميز فى المعرفة ، عندما وقفنا عند تراث عصر تراجعنا الحضارى .. ولم نول المنهج القرآنى فى المعرفة ، الذى واجه به علماء عصر نهضتنا مذاهب المعرفة الحسية عند الأمم والنحل الأخرى .. لم نوليه ما هو أهل له من الاهتمام .

وظلمنا هذا المنهج الرسلامى ، مرة أخرى ، بتقليدنا « للنموذج الغربى » فى نظرية المعرفة .. فحلت الوضعية والمادية والتجريبية – بمعانيها الغربية – واحتلت المكان الأرفع فى علومنا الإنسانية والاجتماعية ، وفى فلسفة علومنا الطبيعية .

ولقد كان هذا التقليد – لتخلفنا الموروث .. وللوافد غير العلمى ، وغير اللائق – السبب الأول فى فقرنا الشديد فى الإبداع !.

وما كان لأمة أن تبدع فى علوم حضارتها المتميزة ، إلا إذا هى بلورت منهاجها المتميز فى المعرفة .. وإذا كانت اليقظة الإسلامية المعاصرة مدعوة إلى بلورة « بديلها الحضارى » ، كدليل لنهضتها المنشودة ، وذلك حتى لا تسقط فى هاوية « التبعية » و « الاستلاب الحضارى » .. أو تضل الطريق .. فإن المدخل



إلى هذا الانجاز هو « إسلامية المعرفة » ، حتى يأتى هذا « البديل إسلاميا » حقاً .. فقضيتنا ، إذن - قضية « إسلامية المعرفة » - هى جزء من « مشروع حضارى بديل » .. وليست مجرد قضية ثقافية خاصة بدوائر المثقفين والمفكرين .

إنها قضية أمة تريد أن تنهض ، فى مواجهة تحديات شرسة .

وقضية دين ، أنعم الله علينا بأن هدانا إلى التدين به ..

وقضية حضارة صاغ أسلافنا العظام علومها ومعارفها بهذا المنهاج ..

ولن يصلح البديل الحضارى الإسلامى المعاصر ، الذى نريد به مواجهة الخلل المعرفى الحديث ، إلا بما صلح به البديل الحضارى الإسلامى الأول ، الذى واجه به أسلافنا الخلل المعرفى القديم !

إنها قضية « قديمة - جديدة » .. تمثل واحدة من أبرز القسمات التى تميز ويتميز بها الإسلام .. الدين .. والحضارة .. على غيره من النحل والفلسفات والحضارات ! ..

***

عزل المعرفة عن الدين والوحى

إن « إسلامية المعرفة » تعنى : « حضارة - مؤمنة » ، تقوم على « عقلانية .. متدينة » ، يبدعها « علماء - هم أكثر الناس خشية له » ! .

★ وإذا كانت « الوضعية الغربية » ، التى عزلت « المعرفة عن الدين .. والوحى .. ونبأ السماء » .. بل وجعلت « الدين : وضعاً بشرياً » ! .. إذا كانت هذه « الوضعية » قد أثمرت - وزثمرها - نموذج فيلسوفها « أوجست كونت » .. ذاك الذى قطع المحاضرات التى بدأ القاءها سنة ١٨٢٦ م (فى الفلسفة الوضعية) - وهى التى كونت « مؤلفه الرئيسى » - قطعها بسبب إصابته بمرض عقلى ! .. أعقبه محاولته الانتحار غرقاً فى نهر السين سنة ١٨٢٧ م لفرط اليأس والقنوط ؟! ..

والذى تعرف على « كارولين ماسان » – وهى بغى – فساعدته أثناء احترافها للبغاء ! .. ثم تزوجها ؟! .. فلما انفصل عنها هام حباً بامرأة متزوجة من رجل هارب من مطاردة البوليس – هى « كاوتيلد دى فو » – فكان حبه لها – كما يقول مؤرخو فكره – السبب فى اتخاذ كتاباته طابعا جديداً ؟! فقال بخضوع العقل للقلب ! .. ودعا إلى (تعاليم الدين الوضعى) ؟! (١) .

إذ كان هذا هو حال « علم » و « علماء » المعرفة الحسية ، و « الفصام النكد » بين « الأرض » و « السماء » .. بين « السكون » و « الوحى » .. بين « الدنيا » و « الآخرة » .. بين « المدنى » و « الشرعى » .

★ فإن لإسلامية المعرفة شأناً آخر ، وثمرات مغايرة ، ونماذج من العلماء مختلفين ..

لقد كان عالمنا أبو عثمان ، عمرو بن عبيد (٨٠ – ١٤٤ هـ – ٦٩٩ – ٧٦١ م) : فارساً من فرسان الثورة فى سبيل الشورى والحرية والعدل .. وصرحاً من صروح العقلانية الإسلامية التى واجهت مقولات الشرك والزيغ والإلحاد .. وفى ذات الوقت كان الرجل الربانى الذى تضرب بتقواه الأمثال ؟! .. ويشير الناس إليه ، إذ رأوه ، قائلين : « هذا خير الناس ؟! » .

إنه « الثائر » الذى يقول : « إن ذكر غضب الرب يمنع من الغضب » !

والفيلسوف العقلانى ، الذى يدعو ربه فيقول : « اللهم اغننى بالافتقار إليك ! ولا تفقرنى بالاستغناء عنك ! .. اللهم أعنى على الدنيا بالقناعة ، وعلى الدين بالعصمة ؟! » .

وهو القائد المطاع فى قومه وأنصاره .. والذى يحج إلى بيت الله الحرام ، سيراً على قدميه – من البصرة إلى مكة – أربعين مرة فى أربعين عاماً .. يمشى على قدميه ، وخلفه بعيره ، يحمل عليه الفقراء والضعفاء ؟! (٢) .

هذه هى « بضاعتنا » .. وتلك « بضاعة » الوضعيين – الماديين !

إنه نسق فكرى متكامل .. وبديل حضارى متميز لإعادة التوازن الذى أصابه الخلل بالانحراف « الحسى » و « المادى » ، ذلك الذى أقام « الوضعية .. المادية » العرجاء !

(١) [الموسوعة الفلسفية المختصرة] ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ . إشراف ومراجعة : د . زكى نجيب محمود . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣ م .

(٢) أنظر دراستنا عنه ، بكتابنا [مسلمون ثوار] ص ٦٠ – ١٧٥ طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨ م .

ذكريات ٥٠ سنة

القراء على أمواج الأثير

بقلم : د . محمد رجب البيومى

فطنت الإذاعة اللاسلكية حين بدأت إرسالها فى مايو ١٩٢٣م إذ جعلت رمضان المبارك مسرحاً للأحاديث الدينية ، وموسماً رائعاً لتلاوة آيات الذكر الحكيم بأفواه المشهورين من أئمة القراء ، واستروحا للنفوس بترديد التواشيح والابتهالات ، ولم يكن المذياع حينئذ بهذا الاشتهار العام فى كل منزل ومتجر ومصنع كما هو الآن ، بل كان محدود الانتشار، بحيث لا يوجد إلا فى منازل العلية ، وفى مقاهى الدرجة الأولى ، وكثيراً ما كان العامة يلتفون حول المنازل التى حظيت بهذا المخترع الحديث ، ليسمعوا ما يتردد من آيات القرآن ، وأحاديث العلماء ، هذا فى المدن الكبيرة، أما قرى الريف فلم يكن بالواحدة منها غير مذياع أو مذياعين ، أتى صاحب المقهى العام بأحدهما ليكون مصدر انجذاب العامة ، ولازلت أذكر سهرات رمضان فى مقهى قريتى الصغيرة بعد العشاء ، إذ يزدحم المكان الضيق نسبياً بعشرات المتعطشين لسماع القرآن الكريم، وما يليه من أحاديث الوعظ والإرشاد، وكان الشيخ محمد رفعت حينئذ قارئ الإذاعة المعلم، وموضع الإعجاب اللانهائى من السامعين، عامة ومثقفين ، كما سيجئ ...

● ● ●



الشيخ محمد رفعت



الشيخ عبد العزيز البشرى



الشيخ مصطفى إسماعيل

على أن قراءة القرآن بالمذياع إذ ذاك، لم تخلُ من نوادرَ طريفة، نذكرها للتسلية الضاحكة، إذ نهضَ فريقٌ من المتشددين يُنادون بتحريم قراءة القرآن في المذياع، احتفاظاً بحرمته وتنزهاً عن مُجاراته لعبث الأغاني، ولهو الطقاطيق مما ترسله الإذاعة في فترات متقطعة للترويح، وأذكر أن مجلة الإسلام الصادرة بتاريخ ٢٧ من مايو سنة ١٩٣٣ وجهت بقلم أحد كتابها الغيورين استفتاءً لحضرات أصحاب الفضيلة علماء الأزهر، قال فيه:

« ظهرت اليوم بدعة جديدة حسنها الشيطانُ الرجيم لمن يتبعون أهواءهم، تذيع كلام رب العالمين صباحاً ومساءً، ومن شر المصائب وأنكاها أننا سمعنا هذه الآلة في شارع الأزهر، تُحرف القرآن تحريفاً لا ينبغي، وخصوصاً عندما تتغير المحطة أو يختلف الهواء!

كما أذكر أن قُضاة محكمة الشرع بالبحرين ، وجهوا سؤالا للاستاذ الكبير الشيخ يوسف الدجوى عضو جماعة كبار العلماء، يقولون فيه : إن راديو مصر قد أعلنَ ثبوت هلال رمضان، ولكننا توقفنا عن الصيام للشك في الخبر عن طريق المذياع، وقد أجابَ الاستاذ الكبير بمقالٍ شاف نشره بعدد جمادى الأولى سنة ١٣٥٥ هـ قال فيه بعد أن أفتى بتصديق ما يذاع :

« ولو قلنا إن أخبار المذياع، والبرقيات السلكية واللاسلكية لايعول عليها، لوَصمنا الدين الإسلامي، البعيد النظر، الواسع الحكمة، بالجمود الذي يبرأ منه، وينعاه على أهله، ولصيرناه مضغةً في أفواه أعداء الدين، وسخرية بين الزنادقة والملحدين، ولكان غير صالح لكل عصر من العصور، وحاشاه من ذلك، إذ وجدت وسائل كثيرة في هذا العصر لم تُعرف من قبل ».

مصر وقراءة القرآن

اشتهرت مصر في العالم الإسلامي باعتنائها التام بقراءة كتاب الله ترتيلاً وتجويداً ، وكان قراؤها الكبار يزورون

ذكريات ٥٠ سنة

العواصم الكبرى فى مواسم مشتهرة مع صعوبة الانتقال فى العصور السابقة ليؤدوا رسالةً دينيةً ، قبل أن تكون رسالةً فنيةً ، وكان الحرمان الشريفان فى مكة والمدينة يسعدان كلّ عامٍ بنفرٍ من قراءِ مصر ، يقرءون كتاب الله بأصواتهم النديّة ، وترجيعهم الشجىّ ، فتطير لهم شهرةٌ واسعةٌ من ناحية ، ويجدون من حجّاج بيت الله من يتتلمذ عليهم أثناء أداء الفريضة الحبيبة من جهة أخرى . ولم تكنْ مدّة الحجّ فى الزمن الماضى محصورة فى أيام معدودات كما هى الآن ، بل كانتْ تمتد من شوّال إلى أوائل المحرّم ، وهو زمنٌ يتسع للإشباع والإمتاع ، ونحن نعلم أن القارىء الشهير الشيخ اسماعيل سكّر كان مقرىء السلطان عبد الحميد بالأستانة ، يفد من مصر إلى تركيا فى مواسم خاصة ليقرأ كتاب الله فيسمعه الخليفة فى مجلسه الخاص ، ثم ينتقل إلى العامة فى المساجد الكبرى بالأستانة ليقرأ كلام الله مبتدئاً من بعد صلاة المغرب ، حتى يتنفسّ الليل عن الفجر ، والسامعون خاشعون ، مبتهجون لا يشغلهم شاغل غير كتاب الله .

أمّا مساجد مصر فقد خصّص لكلّ مسجد قارىء مجيد ، يؤدّى سورة الكهف يوم الجمعة ، ويقوم بالأذان والتبليغ عند الصلوات الخمس ، ومنْ هذه المساجد العامرة طارتْ شهرة المجيدين من القرّاء فى مصر ، فعرفهم الناس ، وسعدوا بهم فى احتفالات المآتم والأفراح ، وأقول الأفراح عن قصد، لأن المصريين فى مطلع هذا القرن وما قبله كانوا يحتفلون بقراءة القرآن فى الأعراس وحفلات الختان، وأسبوع الميلاد، وكان لهذه الاحتفالات دويها الكبير، إذ يُعلنُ عنها قبلَ الموعد المحدّد، فيتعالم الناس أمرها، ويهيئون أنفسهم لقضاء ليلة سعيدة مغردة، ولم يكن الرجال وحدهم قراء هذه الحفلات، بل كان من السيدات القارئات من تجيدُ التلاوة إجادةً ذاتَ خُشوع وحنين، وقد تحدثَ شاعرُ الأقطار العربية الكبير الاستاذ خليل مطران عن قارئة مبدعة ، فقال من حديث بديع :

«كانت ليلةُ الأحد الثانى من هذا الشهر مفتتح ليالى عُرسٍ فى منزل الوجيه الفاضل حسين بك شاهين، وكانت القارئة المجودة فتاةٌ من القيوم تسمى (اسمهان) وأول ما سمعناه منها سورة يوسف، وكانَ صوتها يُسلسل الآيات كعد الجواهر على صفاء، وكان تلحينها مستوياً كأنه ممهد لما يتلوه، فلما ألقى يوسفُ فى الجب ثم نقله السيارة إلى مصرأخذَ الصوت يتنقل بين المُفرح والمحزن والترغيب والترهيب، والقرع والزجر، والوعد والوعيد، وكلما تمادت فى القراءة عَظمَ الشعور فى نفوس الحضور، وكلّهم من ذوى الأدب والمقام، ثم كانَ التهليل والتكبير صدىً لشعورهم فى حشمة ووقار، وأذكرُ أنها لما وصلت إلى قول إخوة يُوسف له (وتصدق علينا) رَق صوتُها وحَنّ ولطُف، حتى طفرت الدمعة من عينى، إذ

كانت تختار لكل موقف آسر النغم، وفى كل هذا لا يضطرب لها منطق، ثم سمعنا بعد سورة يوسف، سورة آل عمران، وانصرفنا ذاهلين تمتلئ النفس سروراً وخشوعاً ».

الشيخ محمد رفعت

فى هذا الجو المؤمن البهيج، نشأت طائفة من كرام القرّاء ، تؤدى رسالتها أكرمَ ما يكونُ الأداء، وقد بزّغ منهم عند ظهور الإذاعة مَن لا تَزالُ نسمع صوته إلى الآن فى تسجيلاته الذائعة مثل المشايخ على حزين ، ومحمد الصيفى، وعبد الفتاح الشعشاعى وعبد العظيم زاهر، وفى مقدمتهم جميعا القارئان العظيمان الشيخ محمد رفعت والشيخ على محمود، وهما من هُما :

والشيخان الفاضلان تلميذان للقارئ الكبير الشيخ أحمد ندا، وهو يومئذ شيخُ القراء بمصر كافة، وكان يتولى القراءة والإنشاد فى مسجد السيدة زينب رضى الله عنها، فيزدحمُ الناس على استماعه من كل ناحية فى القاهرة، قربت أو بعدت، ولم تكن المكبرات الصوتية تتخذ حينئذ، ولكن جهارة صوت الشيخ ندا، كانت تحمل صداه إلى المحتشدين فى الميدان خارج المسجد، والقوم صامتون لا يجرؤ أحدٌ على إحداث لفظ قليل ، ليبلغ السحر مداه دون عائق ، فإذا انتهت القراءة فى المسجد، انتقل الشيخ ندا إلى منزله مع القراء من تلاميذه، وهو قريب من المسجد الزينبى ، فيتناوب هؤلاء القراءة والتوشيح حتى يحينَ ميعاد السحور، فينصرف الناس مبتهجين .

وقد رحلَ الشيخ أحمد ندا إلى جوار ربه قبل أن تبدأ الإذاعة بعامين، ورأى القائمونَ عليها أن يختاروا من تلاميذ الشيخ من شاعَ لهم ذكرٌ طيب فى هذا المجال، وفى مقدمتهم الشيخان الكبيران محمد رفعت وعلى محمود .

ومما يذكر أن الشيخ محمد رفعت لشدة ورعه ، قد خافَ مما سمع من بعض المتشددين ، إذ أفتوا بحرمة قراءة القرآن فى موضعٍ يذيع الأغانى وأفانين الملهيات، فانتظر متردداً، وحين كثر الإلحاح عليه، توجه إلى شيخ المسجد الزينبى، وشارح حديث رسول الله به فى مجالس وعظه، وهو فضيلة الاستاذ الكبير الشيخ محمد إبراهيم السمالوطى عضو جماعة كبار العلماء بالأزهر مُستفتيا فى أمره، فشجعه الشيخُ على القراءة بالمذياع، وصاح به محذراً أن يصد عن سبيل الله، حين يحرم الناس من ترتيل آيات الكتاب، وهم إليه متشوقون، فاطمأن قلبه واستجاب.

لم يكن ترتيل الشيخ رفعت مفاجأةً لأهل القاهرة. فهم يَعرفونه حق المعرفة، ولكن المفاجأة الكبرى دوت فى أنحاء الدولة شرقاً وغرباً. وجنوبا وشمالا، إذ سمعَ المصريون فى شتى البلاد ما لم يكن يتوقعونه من جمال الصوت، وكمال الأداء، وكانت ليالى رمضان المتتالية حفلات سرور لمن يحتشدونَ حول المذياع فى شوق لايُحد، ذلك أن الشيخ الكبير قد أُلهم معانى القرآن إلهاماً رائعاً، فكان يؤدى الآية

ذكريات ٥٠ سنة

الكريمة، وكأنه يفسرها للناس بصوته المصقول، وقد تجمعُ الآية الواحدة بين الوعد والوعيد، وبين الجنة والنار، فيختلف الصوت بين الرغبة والرهبة وفق ما تؤديه الألفاظ من معانٍ، هذا في الآية الواحدة، أما الآيات المنفردة بغرض خاص من الأغراض القرآنية فإن الشيخ يعرف أبعادها النفسية، فيوائم بينها وبين المحتوى الفكرى مواءمة تجعل الرجل طائراً يصدح ، لا رجلاً يتلو ، وكم خشعت قلوبٌ قاسية ! وكم سالت عيون جامدة ! على صوت الشيخ . إذ جاء مصدقا لقول الله عز وجل «الله نزل أحسنَ الحديث كتاباً متشابهاً، مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلينُ جلودهم ، وقلوبهم إلى ذكر الله، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء، ومن يضلل الله فما له من هاد» .

وإذا كانت الموهبة لاخلاف عليها إذ هى الركيزة الأولى فى نبوغ الموهوب، فإن من لوازمها المكملة أن يلم صاحبها بأصول الفن، وعلمُ التجويد فى العربية من أرسخ العلوم فى فن الأداء الصوتى، إذ يقرر قواعد الإظهار والإخفاء والادغام، ويوضح الحروف ترقيقاً وتفخيما حسب موضعها المتعارف من حلقية وجهرية وشفوية، وهو ضرورى لمن يزاول الترتيل والتلاوة، ويضافُ إليه الإلمام الكافى بقواعد النحو، لأنها هى التى تعين الوقوف الصحيحة، وبإعراب الجملة يتضح معناها، وقد كان الشيخ محمد رفعت رئيس طبقة من القراء تتقن هذه القواعد، وتسير عليها فى دربها الصحيح، وله فى هذا المجال لفتات صائبة. تدل على براعةٍ فى فهم الدقائق النحوية، فقد قرأ ذات مرة قول الله عز وجل فى سورة القصص «فجاءته إحداهما تمشى على استحياء، قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا» فوقف عند قوله تعالى : فجاءته إحداهما تمشى .. ثم ابتدأ بقوله عز وجل : على استحياء قالت، فاعترض عليه من ظنه قد أخطأ، ولكنه رد عليه، بأن الاستحياء فى القول أشد حضورا من الاستحياء فى السير، وإذن فتكون (على استحياء) حالاً مقدماً، وصاحب الحال الفاعل فى قالت ، وذلك غرضٌ دقيق لمقرئ لم يتعمق قواعد النحو .

كما ذكر الدكتور أحمد الشرباصى رحمه الله أن الشيخ رفعت قرأ ذات ليلة قول الله عز وجل «وآتاكم من كل ما سألتموه» فوقف عند قوله «من كل» وبدأ بقوله : ما سألتموه» وهو فهم دقيق لم يطرأ على بال من سمعوه، فاعترضوا عليه، ولكن الشيخ قال : إن المعنى ينتهى عند من كل، وتكون ما فى قوله «ما سألتموه» ما النافيه بمعنى أن الله عز وجل يقول - وهو أعلم بمراده - إنه آتاكم من كل شئ من النعم دون أن تسألوه شيئا، ولهذا جاز الوقف على كل، وكان قوله تعالى «ما سألتموه» استئنافا جديدا ..

هاتان النادرتان تدلان على فهم المتذوق، وعلم الدارس ، كما تضرب المثل لمن يكتفون بحلاوة الصوت، دون أن يعكفوا على دراسة علمي التجويد والقراءات وما يتبعهما من علوم النحو واللغة، وكل ذلك قد أحاط به الشيخ إحاطةَ الدارس المستوعب، ولستُ مع صديقي الدكتور أحمد الشرباصي حين ذكر في حديثه عن الشيخ رفعت - نقلاً عن سواه - أن القارئ الكبير كان ينهل من الفن الكلاسيكي الأوربي، إذ أخذ يدرسُ مؤلفات باخ ، وموزارت، وبيتهوفن ولست وباجيني، ويحتفظ بثروة من اسطواناتهم ! وهو شطط لا دليل عليه، لأن الرجل الفقير لم يكن يملك اسطوانات تسجل صوته هو وحين مات لم يجدوا لدىَ أسرته المتواضعة تسجيلاً واحداً، ونهضَ عشاقه يجمعون آثاره ممن سجلوها لأنفسهم من هواة الموسرين، فكيف له باسطوانات باخ وموزارت وبيتهوفن ولست وباجيني مما تخيله المتخيلون، أذكر أن الاستاذ محمود حسن إسماعيل في رثائه للشيخ الكبير قد عاب على الإذاعة إهمالها تراث رفعت، وقال في غضب :

جحدته بل جحدت صداه فما
حفظت لـه رتَماً يسـجله
لو أنه غَنى لهـا نغمـات
متهتك الصبوات تـأمله
لرأيتها حفرت بمهجتها
تمثاله ، ومضت تـدلله
ياقوم لا طوبى لما ذهبت
دنياكمو بالفن تفعلـه

الشيخ علي محمود

أما الشيخ علي محمود فإن ميدانه في رمضان كان أفسح جناباً من أي مرتل سواه، لأنه لم يقتصر على ترتيل القرآن بصوته المتميز، بل ضم إلى ذلك إبداعه الإنشادي في حفلات الذكر، وقراءة قصة المولد، وابتهالات المئذنة ، ولكل موقف من هذه المواقف شروطهُ المميزة، فهو في ساحة الذكر يُراعي النسق المتفق عليه، حين يرأسُ حلقة الإنشاد، إذ يأخذُ في تكرار لفظ الجلالة بصوتٍ خفيضٍ يرتفع شيئا فشيئا، وهي مرحلة التحميس والتهيئة، ثم يأتي ببعض الأبيات المادحة لرسول الله، وكثيراً ما كان يردد :

الله زاد محمـداً تكريمـا ..
صلوا عليه وسلموا تسليما

فإذا توالى الذكر، واشتدت حركة التمايل والانثناء، ترك المنشدون له المجال وحده ، فجعل يجلجل بروائع الأبيات، وصوت الله .. الله .. يقومُ من الذاكرين مقامَ جوقة كاملة، وكثيراً ما كان ينشد قول ابن الفارض :

ذكريات ٥٠ سنة

تِهْ دلالاً فـــأنتَ أهـــل لذاكا
وتحكم فالحـسنُ قد أعــطاكا
ولك الأمرُ فاقضِ ما أنت قاضٍ
فعلى الجمــال قـــد ولّاكا

ولم تكن الإذاعة بمستطيعة أن تنقل حفلات الذكر، لأنها لا تكمل إلا بالمشاهدة العينية، لذلك كانت سهرات الشيخ على بها ملأى بالتواشيح والابتهالات، وهو استاذ كل من جاء بعده من المبتهلين، والفرق بينه وبين مبتهلى اليوم بإذاعة القرآن الكريم بعيدٌ بعيدٌ ، حيثُ نلحظ أن أكثرهم يُنشد البيت، فلا يقيم له وزناً، ولا يصحح إعراباً، وقد يبدل لفظاً بلفظ غير ملتفت إلى الوزن العروضى ، وهو نشازٌ سقيم ، يستنكره السامعون ، وقد تحدثتُ عن ذلك مع بعض المسئولين دونَ جدوى، ولا أدرى كيف كان يؤدى الشيخ على محمود أبيات البوصيرى وابن الفارض والبرعى أداءً صحيح اللغة، سليم الوزن ، ثم ينشأ جيلٌ بعدَه على هذا النحو الأليم ، مع كثرة المدارس والمعاهد، حتى لأتساءل حائراً : أنتقدم أم نتأخر ؟

فإذا تركنا الابتهالات إلى قصة المولد التى كان على محمود بُلبُلَها الأول، فإننا نجد الساعات الثلاث تمر وكأنها دقائق معدودات، إذ أن الشيخ قد حفظ مولد البرزنجى منذُ صباه، وأخذ يكرره فى مدى أربعين عاما على نمطه المسجوع، وقافيته الهائية التى تتكرر فى الفواصل الممتدة، مُنشداً ما يتخلله من رقائق الأشعار فى نغمٍ مستطاب، وقد لاحظتُ أن حفلات الريف بالدقهلية كانت تؤثر مولد (المنياوى) دون مولد البرزنجى الذى اختاره الشيخ على محمود وهام به فلم يفارقه هذا المدى الطويل، وحَدّثَنى الاستاذ أحمد محمد البيومى فى ذلك، وهومن ذوى الدراية التامة بقصص المولد جميعها، فقال «إن اسلوب (المنياوى) واضح، وغرائب المعجزات به كثيرة، وهى مما تشوق العامة، مهما انخفض أسلوبها البيانى»، وقد وضع الاستاذ عبد الله عفيفى قصة للمولد ذات بيان مطبوع، ولكن الشيخ على محمود لم يرتح لقراءتها، إذ رآها ترتفع عن مستوى مَن يلتفون حوله من السامعين، وإذا كنا نفتقد قصص المولد الآن، ولا نكاد نرى لها أثراً فيما يذيعه الراديو من المسجلات، فليس العيب عيب الشيخ، ولكنه خطأُ من أهملوا التراث الدينى الرائع، ومن بينه قصة المولد بصوت الشيخ وتطريبه البديع.

أما الأذان فقد كان أول درجة ارتقى إليها الشيخ فى سلم حياته الفنية. إذ أن قول هذه الشعيرة فى صباه بمسجد الحسين عليه السلام فكان عليه أن يصعد

إلى المئذنة قبل ميعاد الفجر بأمد متسع، ليفيض فيما يُسمى بالاستغاثات والتسابيح ، وفي شهر رمضان خاصة لا يقتصر الأمر على الساعة الأخيرة قبل الفجر، بل يتهيأ السامعون إلى التمتع بالابتهالات قَبل منتصف الليل، وهي في أول رمضان ترحيبٌ وابتهاج بمقدم الشهر الكريم، وفي الليالي العشر الأخيرة توديعٌ وبكاءٌ لمفارقة الضيف العزيز، وقد أبدع الشيخ على فيما يُسمى «بالتوحيش» وهو ما يُقال من استشعار الوحشة لفراق رمضان، وللمبتهلين في هذا المجال رَقائق جميلة، إذ يتصورون الشهر المبارك إنسانا حبيباً حانَ وداعه . فهم يتلطّفون معه غاية التلطف ، وأجمل ما أحفظه مما يقولون في مُخاطبة رمضانَ هذا البيت المؤثر :

لا تشتكي لله أفعالنا
واصفح فإن الصفح طبع الكرام

وهكذا كان شهر الصيام أفسح مجالاً لدىّ الرجل الكريم .

كلمة فكري أباظة

كان الكاتب الفكاهي الكبير فكري أباظة يرسل تعليقاته الصائبة بمَجلة المصور أسبوعيا، وقد قال في بعضها «إن عمامتين عظيمتين هما اللتان حببتا الإذاعة للسامعين، هما عمامتا الشيخ محمد رفعت والشيخ عبد العزيز البشرى ، أما عمامة الشيخ رفعت فقد تحدثت عنها، وأما عمامة البشرى فقد بلغت موضع التأثير بما كان يذيعه الكاتب الكبير من أحاديث أدبية ممتازة ، وأذكر أنه تحدث في (الراديو) عن جهاز (الراديو) وجعل الحديث على لسان أعرابي بدوي ، جلس فجأة أمام الجهاز السحري فارتاع منه، وفر هاربا إذ زعمه جنيا لا إنسيا، وكان مما قاله البشرى على لسان البدوي :

«جلست فإذا دُمية من خشب، بُتر ساقها فأقعدوها على منضدة ، لها أنف صغيرة ، وأُذنان دقيقتان وعين واحدة تمزقت حدقتها فتناثرت ، ثم قام صاحبها فحرك أذنها ، وسرعان ما احمرت حدقتها. فاستعذت بالله من الشيطان الرجيم ، ثم سمعت صوتا مالبث أن استحال زمزمة وهمهمة ، فخلت والله أن الأرض قد زلزلت عليّ ، وجعلت ألتمس آية الكرسي استعصم بها من هذا الشيطان، فقال صاحبي لن ينالك منه مكروه، فقد قيدوا ساقه، وشدوا وثاقه، ثم انثنى إلى الدمية فحرك أذنها مرة ثانيةً فسرعان ما سكن هديرها وبطل زئيرها، وإذا العفريت يتحدث في لين وهدوء كأنه إنسان ! » .

هذا بعض ما يقال عن المذياع، وعن رمضان، وعمن كانوا يرسلون فيه أعذب الأصوات وروائع الآيات !

حكاية الأرمن في مصر

بقلم : نجوى صالح

مساعدات مستمرة يتم تجهيزها لإرسالها إلى الوطن الأم أرمينيا



●● ما هى حكاية الأرمن فى مصر ؟ .. كيف جاءوا وكيف استقروا بها وأصبحوا ضمن نسيج المجتمع المصرى يعملون فى جد ويتطلعون إلى اليوم الذى يستعيدون فيه وطنهم الذى أورثهم اللوعة والحزن الدفين فى كل ثقافتهم وأغانيهم ؟ .. إننى هنا أحاول أن اكتشف البقية الباقية من الأرمن الذين هاجروا إلى بلادنا فى عصر التشتت ، حتى جاء عليهم اليوم الذى أصبحت فيه أرمينيا دولة مستقلة ضمن دول الكومنولث الجديد ●●

فى واحدة من المدارس الأرمينية بالقاهرة وعددها ثلاث مدارس



● كان محمد علي أول من اختار الأرمن للمناصب العليا



بابا الأرمن الأرثوذكس
ناسكي الأول

● فى العصر الفاطمى من ٩٦٩ إلى ١١٧١ م ، وفى أيام الخليفة « المستنصر » على وجه التحديد وصل عدد الأرمن فى مصر إلى ٣٠ ألفا ، منهم ٢٥٠٠ شغلوا مراكز فى حكومة ذلك الوقت ، وقد شارك الأرمن فى النهضة العمرانية ، وعلى سبيل المثال بناء مسجد العطارين وباب النصر وباب زويلة وباب الفتوح .

وفى ذلك الوقت كان فى مصر ٣٥ مكانا للأرمن يمارسون فيها شعائر عباداتهم .

« وفى العصر المملوكى (١٢٥٠ - ١٥١٧) زاد عدد الأرمن فى مصر بسبب الأسرى الذين تم استحضارهم من مملكة أرمينية اسمها « سيلسيا »

وفى العصر العثمانى (١٥١٧ - ١٨٠١) شهدت القاهرة عددا كبيرا من الأرمن وبالذات من الحرفيين المهرة أصحاب الخبرة فى مجال البناء والتجارة وخاصة فن صياغة الجواهر ، واستقروا فى حى الأرمن بخان الخليلى .

عصر التشتت

وكانت سنة ١٨١٥ من الأعوام الفاصلة فى حياة الشعب الأرمنى ، فقد كانت بداية التشتت التى تعرض لها هذا الشعب إلى يومنا هذا ، بسبب المذابح التى تعرضوا لها فى استنبول ، وعلى يد جمال باشا السفاح ذبح ما يزيد على ٣٠٠ ألف من صفوتهم ، وفى الحرب العالمية الأولى قتل منهم ما لا يقل عن مليون ونصف ، ومع نهاية الحرب قتل منهم ١٠٠ ألف ، وبانتهائها قتل منهم - أيضا - ١٥٠ ألفا ، فضلا عن الذين دخلوا السجون والذين دفنوا أحياء فى القبور ، ولعنف هذه المذابح وعمليات الإبادة فإن الأرمن يحتفلون بها سنويا فيما يسمى بأعياد « الجينوسنيد » وهو ما يعنى باللغة العربية « الإبادة » .

وفى عهد محمد على باشا مؤسس مصر الحديثة نزح إلى مصر ١٠ آلاف أرمنى ، استطاعوا أن يلتحموا بنسيج

الشعب المصرى ، ومع أن الجالية الأرمنية تعتبر من أصغر الجاليات فى تلك الفترة فإن حاكم مصر اختار منهم أصحاب المواهب للمناصب العليا ، وقد جاء ذلك فى محاضرة ألقاها قنصل فرنسا بالاسكندرية « مسيو باسكال كارمو » فى الاسكندرية عن الأرمن فى القرن التاسع عشر ، أما لماذا اهتم هذا الفرنسى بالذات بتاريخ هذه الطائفة فلذلك سبب عائلى بحت ، وهو أن أمه أرمينية الأصل !

وهناك عدة أسباب لاهتمام محمد على بالأرمن منها أن معظمهم يجيد اللغتين الفرنسية والتركية إلى جانب لغة وطنه ، ولذلك اختارهم فى معظم الأحيان للعمل فى مجال الشئون الخارجية حيث كان يستعين بهم فى مباحثاته مع الدول الأجنبية ، وهذا الاحتضان من جانبه للأرمن يدل على ذكاء شديد ، فقد كان وجود الأرمن بهذه الكثرة فى مصر يشكل نوعا من الحماية له (مثل رهائن العصر الحديث) خاصة وقد كان يسعى جاهدا للاستقلال بمصر .

ويعتبر « بوغوص يوسيفيان بك » أول أرمنى يعمل مستشارا لمحمد على ، ووصل إلى الإشراف الكامل على الخارجية واستمر لمدة ثلاثين عاما ، وقبل رحيله مباشرة عام ١٨٤٤ قدم إلى الوالى ابن اخته « نوبار » وكان عمره فى ذلك الوقت ١٨ عاما ، وبعد موت « بوغوص » صعد نجم « نوبار » وتولى الشئون الخارجية والتجارة مثل خاله ، وظهر بعده « أرتين بك تشاركيان » الذى أصبح مسئول الحربية وتصدر لترجمة المصطلحات الحربية من اللغة الفرنسية إلى التركية ، ليستفيد منها الطلبة الدارسون فى الكلية الحربية فى ذلك الوقت ..

من الوزارة إلى السجن

وفى ولاية عباس الأول الذى اشتهر باغلاقه للمدارس والمصانع وكل نشاط استهدفه محمد على ، قبض على « أرتين » وأودعه السجن ولكنه فر منه بأعجوبة ولجأ إلى فرنسا وظل بها حتى رحيله !

وحين ارتقى الخديو إسماعيل عرش مصر أنعم على نوبار برتبة الباشوية ، وهو أول مسيحى ينعم عليه بهذا اللقب ، وقد أطلق عليه المصريون رجل الوعود الصادقة نظرا لروحه العملية الخالصة ، فقد سماه « بسمارك » المستشار الألمانى فى ذلك الوقت « الأرمنى الصغير الداهية » .. وللعلم فنوبار كان ضخم الجثة طويل القامة .

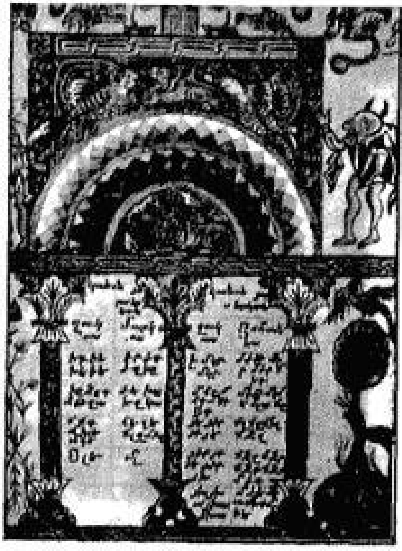
وقد ظل وجود نوبار ممتدا ومؤثرا فى الشئون الخارجية حتى تسلم منه الراية

بعد رحيله (١٨٩١) لم يلمع أرمينى آخر فى العمل الدبلوماسى !

الحروب واللغة

إن أكثر ما يميز شعب أرمينيا هو احتفاظه بعاداته وتقاليده ولغته الأساسية بالرغم من الحروب الطاحنة التى تعرضت لها أرمينيا بسبب موقعها الجغرافى والذى كان طريقا للحروب بين الفرس والرومان والبيزنطيين ، ففى سنة ٤٥١ ميلادية حاول الفرس أثناء حربهم مع الأرمينيين إجبارهم على التخلى عن ديانتهم المسيحية والتحول إلى الديانة « الزرادشتية » إلا أن تشبث هذا الشعب بدينه أدى إلى فشل تلك المحاولات !

ولأن اللغة الأرمينية لغة منفصلة ومستقلة بذاتها عن اللغات الهندية والأوربية ، فقد تم اكتشاف حروفها الأبجدية فى سنة ٤٠٤ بعد الميلاد .. وتتكون أبجدية هذه اللغة أساسا من ٣٦ حرفا ، زادت إلى ٣٨ حرفا فى القرون الوسطى ، وفيها تنطق الكلمات مثل الكتابة تماما حتى آخر الكلمة ، وعادة يحتفل الشعب الأرمنى سنويا بيوم اكتشاف الحروف الأبجدية الأرمينية مجسداً فيها سر اتحاده وحفاظه على تراثه وتعبئة أهدافه إلى المستقبل .



إحدى المنمنمات الأرمينية فى القرن الرابع عشر

« تيجران باشا » زوج ابنته ، وكان تيجران جذاب الحديث يملك قوة اقناع بالغة حتى أن « ذو الفقار باشا » (من الأعيان) قال عنه : هذا الرجل لابد أن يتولى أهم الوزارات وهى وزارة الخارجية .

الأرمن فى مصر

وكان تيجران هو آخر الأرمن المحترمين الذين تولوا أعلى المناصب فى هذه الوزارة المهمة ، وقد كلفه الخديوى توفيق بالتفاوض مع قائد الأسطول الإنجليزى الذى كان يصوب مدافعه نحو المدينة ، وقد استطاع بلباقته أن يحول لغة المدافع إلى لغة الحوار الدبلوماسى ، ولكن

الشخصية الأرمنية

وفى لقاء مع الأسقف « زافين شنشنيان » أسقف الأرمن الأرثوذكس والأب الروحى لهم ، بدأ حديثه قائلا : إن هذا الشعب دائما يستشعر الحنين للوطن لهجرته منه منذ آلاف السنين بسبب الحروب المتتالية ، ونزوح كثير من أفراده واشتغالهم بالتجارة فى بلاد بعيدة ، ولكن الحنين إلى الوطن ظل يراودهم طوال سنوات الغربة ، وأدى إلى استشعار الحزن ورهافة الحس فى نفوسهم وميلاد هذا الفن المتقن الدقيق !

وأكثر ما يميز الشخصية الأرمنية النشاط والاتقان والتعقل والإيمان بنجاح الأفراد أكثر منه كمجموعة .

ويستطرد قائلا : بسبب الموقع الجغرافى لأرمينيا والاتصال بالثقافات المجاورة أمثال الفرس والبيزنطيين والعرب ، فقد تمكنوا من معرفة واستلهام فنون هذه الحضارات والتفوق فيها وإدخالها فى الفنون الأرمنية مع الاحتفاظ بالسمات الخاصة لشخصيتهم !

وسألته : ولكن ما هو احساس الأسقف بعد استقلال أرمينيا ؟

ورد قائلا : نحن كمصريين نعيش فى مصر .. نشعر بفرحة وسعادة لاستقلال أرمينيا مثل سعادتنا باستقلال أى دولة أخرى .

إن حصول أى شعب على حريته وتقرير مصيره شئ عظيم ، وفى حالة أرمينيا هو شعور بالتأكيد أكثر دفئا والتصاقا نظرا لعلمنا أن هذه الدولة ظلت سبعين عاما تحت السيطرة السوفييتية ، وقد أثر ذلك على خواص الشعب الأرمنى هناك سواء اجتماعيا أو ثقافيا أو روحيا !

وقال إن تقدم أى شعب حضاريا يستلزم وجود الحرية ، وحينما يوجد كبت للحريات لا توجد حرية للخلق والإبداع ، بل سيطرة أيديولوجيات (نظريات) الدولة لخدمة السلطة ، لذلك لم تتقدم الثقافة أو الإبداع أو الفن أو حرية التعبير منذ الحكم السوفييتى ، فالفن خاصة له ارتباط كبير بالناحية الروحية والدينية للبشر ، وقد كانت السلطة السابقة تحكم القيود على انتشار الأديان ، وأدى هذا إلى أن أصبح الفن فى خدمة أهداف السلطة ، مما أدى إلى الانغلاق النفسى والروحى والسياسى ، ففى مثل هذه البيئة يزيد الرياء والتملق والفساد .

الأرمن والكنيسة

وعن الظروف التى مرت بأرمينيا منذ سبعين عاما تحدث الأسقف زافين قائلا :

● **كيف احتفظوا بعاداتهم ولغتهم رغم المذابح الجماعية ؟**



د . سيرمارت كيفسورك



فاروجسان كازاميجيان

لقد أخذت الكنيسة على عاتقها دورا قياديا للحفاظ على اللغة والثقافة والشخصية الأرمنية ، مما أدى إلى وجود علاقة قوية بين الشعب الأرمني فى جميع أنحاء العالم والكنيسة الأرمنية ، وبالتالى بين رجال الدين فى المهجر والمركز الأعلى للكنيسة الأرمينية أو العرش البابوى فى أرمينيا والذى يرأسه البابا « فاسكين » الأول ، وبالطبع كانت هناك صعوبات شتى للاتصال أو الاجتماعات المختلفة بين الكنيسة الأم ورجالات الدين فى المهجر ورغم ذلك كانت تتم بطريقة أو بأخرى غير رسمية !

لذلك فإن الكنيسة الأرمنية فى ظل الاستقلال ليس لها أى طموحات أو رغبة فى أى سلطة مدنية أو سياسية ، فمن المعروف أن الكنيسة الأرمينية كنيسة قومية لأنها حافظت على ايجاد ما يسمى بالقومية الأرمنية .

وحينما نعيد النظر منذ زمن التشتت بالنسبة للأرمن نجد أنهم هاجروا إلى مختلف بقاع العالم واهتموا ببناء أنفسهم وتأمين حياتهم والجرى وراء لقمة العيش ، ولكن سرعان ما جاء دور الكنيسة ، فقد أنشئت مدارس اللاهوت فى لبنان والقدس ، وكان هذا ضروريا لإعادة التيار الروحى للإنسان الأرمني .

ورداً على سؤال عن طبيعة وظيفة رجل الدين بشكل عام من وجهة نظره .. أجاب قائلا :

إن البذور حين تزرع بعد فترة تموت ، بعد أن تثمر مئات من الحبوب ، فهى مثل الشمعة التى تحترق وتذوب لتنير من حولها ، ولهذا فإن رجال الدين فى تواضع يخدمون الناس للتخفيف من آلامهم وحل مشاكلهم ، وأثناء تلك الخدمة يقومون بواجبهم تجاه الرب وهذه هى رسالتى فى الحياة .

قلت له : وماذا عن الزواج .. لماذا لم تتزوج ؟!

– قال : ببساطة .. إذا تزوجت سأنشغل عن التخفيف عن آلام الناس بأسرتى !!



زواج في الكنيسة الأرمنية في القاهرة يقوم به الأسقف زافين شنشنيان

مع الأستاذة الجامعية

وتركت الأسقف لألتقى مع نموذج ناجح للمرأة الأرمنية يمثل مدى تفاعلها ومساهمتها في أداء الدور الوظيفي البناء في خدمة المجتمع ، تلك هي السيدة «د. سيرفارت كيفوركيان» التي تشغل أستاذ مساعد بكلية التربية - جامعة المنصورة .

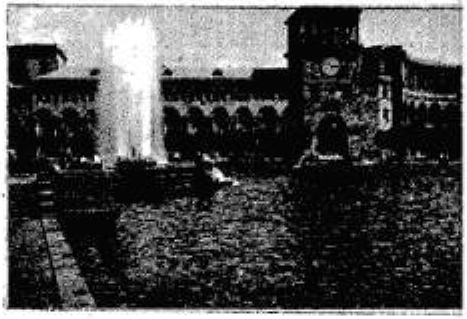
ولعل أكثر ما جذب انتباهي إليها أنها صممت على أن تأخذ الطريق الطبيعي في التعليم ، إذ ان معظم سيدات الجالية الأرمنية يتجهن إلى اتقان اللغات في مدارسهن والاشتغال إما في العلاقات العامة أو كسكرتيرات أو العمل الخاص مثل التجارة وخلافه ، ولكن هذه السيدة اختارت أن تدرس في الجامعة وتصبح أستاذاً مساعداً ، بالرغم من مصارحتها لي بأنها في البداية أرهقها التعامل مع من حولها في أولى خطواتها الوظيفية لأنها على حد قولها (خواجاية) ولكن بإصرارها اكتسبت الحب واحترام كل من حولها .

● أسقف الأرمن يتكلم عن مشاعرهم بعد استقلال أرمينيا

وهذا هو دورى الرئيسى والأساسى .

نجيب محفوظ فى إذاعتهم !

والتقيت كذلك بوجه آخر هو الدكتور فاروجان كازاميجيان ، الحاصل على دكتوراة فى الأدب الإنجليزى ويقوم حاليا بالتدريس فى جامعة طنطا بالإضافة إلى عمله فى الإذاعة الأرمينية كمذيع ومعد برامج متخصص فى تقديم البرامج الثقافية والتى تبث لمدة ساعة يوميا عبر الإذاعة وتسمعها أمريكا .. ويقدم البرامج المتنوعة التى تشتمل على أخبار مصرية وأخرى عن النوادى الأرمنية العديدة بالإضافة إلى الموسيقى الكلاسيكية .. وكذا الاحتفال بالمناسبات القومية الأرمنية وأعياد الميلاد والفصح بما يعد تواصلا بين جميع الأرمن فى مصر والعالم الخارجى ، كما أنه يهتم بالأدب العربى القديم والحديث على السواء فيقول : أقدم الثقافة المصرية بكل دقة ، فقد تركت رسالة الدكتوراة لفترة حتى أتفرغ لاعداد برنامج عن نجيب محفوظ استغرق منى قراءة أعماله كاملة لحوالى خمسين يوماً .. كما قدمت يوسف إدريس ، وعلى مدى ٥٢ أسبوعا قدمت أعمال الشعراء المصريين المحدثين أمثال صلاح عبد الصبور وصلاح جاهين ، وكل هؤلاء ربطتنى بهم



مبنى الحكومة فى أرمينيا

وتقول د. سيرفارت : « إننى أتألم كثيرا عندما يقول الناس مافيش فايدة » .. لأن المثل الصينى يقول رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة واحدة .. ولو أن كل واحد منا أصلح ما يستطيع اصلاحه من مكانه ، لأصبحت مصر من أرقى البلاد ، ثم ان البث الاعلامى عليه معول كبير فى التوجيه فهو الذى فى امكانه توجيه الأطفال ولاسيما فى مجال الحث على القراءة والخلق والابتكار ، وهذا ينسحب أيضا على الكبار ففى مقدورهم نقل هذا الحس للصغير إذا كان البث الاعلامى يخطط لهذا .

إننى كرئيسة أو مديرة أو مربية لقطاع صغير لا أمارس هذا الدور إلا فى النطاق الذى تحتمه الوظيفة ، ولكننى دائما ما أكون صديقة لكل من حولى ، أحاول الاقتراب منهم لأتفهم مشاكلهم وأحلها ،

● الدراسات المهمة التى قدمها الأرمن عن نجيب

صداقات وطيدة ، وهذا يدل على أن الأرمن غير منفصلين على الإطلاق عن أوطانهم القديمة ، بل العكس صحيح .

ويستطرد قائلا : إننا معشر الجيل الجديد أكثر ترابطا مع المجتمع نتيجة اتقاننا جميعا اللغة العربية التى نتعلمها فى مدارسنا ، فنحن نأخذ التوجيهية باللغة العربية ، وتوجد ثلاث مدارس أرمنية فى مصر أولها أنشئت فى عام ١٨٥٤ وتقع هذه المدارس فى بولاق ومصر الجديدة والاسكندرية .

زواج الأرمن وأكلاتهم

وحول سؤالى له عن إمكانية زواج أرمينية من مصرى ؟!

صمت قليلا ثم رد على قائلا : « إنها حالة قد تحدث بنسبة واحد فى الألف ، فهى نادرة الحدوث جدا ، ولكن أود أن أوضح أنه يمكن أن تتزوج الفتاة أو الشاب الأرمنى من مسيحى وحتى هذه الحالة لاتزيد عن ١٠٪ من حالات الزواج !

امتد بى الحوار مع الدكتور فاروجيان وكان لى أن أنتهز تلك الفرصة لأسأل السيدة والدته وكذلك خطيبته عن أشهر الأكلات الأرمينية منذ قديم الزمان ، فاستمعت إلى قصة طريفة ملخصها « أنه فى القرن السادس عشر قبل الميلاد مر بأرمينيا مؤرخ اغريقى يدعى « اكسينو فون » وخلال رحلته تلك ذاق البسطرمة مع البيرة ، وأثنى على تلك الأكلة تماما .. ووصفها لأهل بلده فى اليونان ، وهذا يدل أن أصل البسطرمة هو أرمينيا وليس اليونان !!

إن الوجوه الأرمنية المشهورة تطل عليك عبر التاريخ حتى يومنا هذا ، ومن أشهر رساميهم القدامى ، يوحنا الأرمنى وكان يقوم برسم الأيقونات فى الكنائس المصرية ما بين عامى ١٧٤٥ حتى ١٧٨٣ وهى تزين معظم الكنائس القبطية القديمة مثل كنيسة مارمينا ، وأبو سيفين ، وكنيسة « عذراء قصرية الريحان » ، والكنيسة المعلقة وأبو سرجة .

وينحدر التاريخ ويتولى ظهور أرمن إشتهروا على أرض مصر من أمثال « ماهان تكيان » من أشهر شعرائهم وهو مؤسس جريدة « آنيف » اليومية ثم الفنان الكبير صاروخان .

ومن المرفيين بابازيان أشهر صانع للأحذية و« بابزيان » للآلات الموسيقية .

المنتج السينمائى تاكفور أنطونيان ، المصور الفوتوغرافى « ألبان » ، ثم الملحن الموسيقى « هايج ساركسيان » ، وأخيرا لبلبة والممثلة ميمى جمال ، والمغنية أنوشكا ، ونجمة الاستعراض المرموقة نيللى .

محفوظ وصلاح عبد الصبور ويوسف إدريس ، .

هذه الجريمة

قوس قزح

عـرض وتحليـل: عبد المنعم الجداوى



كما يجمع « قوس قزح » كل ألوان الطيف . فإن هذه الجريمة قد جمعت كل الألوان التى تكفل لها إبراز الصورة التى التقطت بالأشعة لمجتمعنا .. صورة يتصارع فيها السقف مع القاع .. فالذين بنوا فى القاع ، وفشلوا فى الانفصال . لأن السقف رفضهم ، ولأن القاع لم يتخل عنهم . كهذا الفتى ، وتلك الفتاة فهما همزة الوصل ، والجيل الذى كتب عليه ان يفقد الانتماء إلى القاع ، ويسقط منه الولاء للسقف . الذى يرفض أن يتيح له المأوى ، وكسرة الخبز .. فالهمس فى القاع أحيانا يصل إلى السقف ، ويصدعه ، وكذلك إرهاصات السقف تحدث زلزالا فى القاع .. وينعكس كلاهما على الآخر .. فى كأس مريرة يتجرعها الجيل الجديد .. وتحدد الجريمة درجات الصعود والهبوط.. لضحايا صراعات ولدت قبل مولدهم ، وسوف تبقى بعد رحيلهم.. مادام السقف لا يرحم القاع ، والقاع لا يخفض بصره عن السقف .. !

الانتحار . هو انهيار قبل أن يكون انتحارا ، وخيانة للنفس ، واعتقال للروح قبل أن يكون نهاية لمتاعب زلزلت ثقة الجانى فى كل شئ ، ورسبت فى ذهنه ، وملأت وجدانه بان مأساته هى نهاية العالم ، وآخر أيام للدنيا على قيد الحياة .. وتحت وطأة هذا اليأس الأسود .. يخون الله فى أسمى أمانة منحها له ، وأوصاه بالحفاظ عليها .. فينقض عليها طعناً أو سما أو غرقا أو شنقا ، وهو لا يدرى أنه يرتكب الإثم الأكبر فى حق الله .. ثم فى حق نفسه .. ثم فى حق المجتمع الذى يراه مكانة ومكانا بشكل أو بآخر .. !!

لقد اجتاز المرحلة الحرجة ، والعمر الافتراضى للانتحار .. تجاوز الثلاثين بعام أو عامين .. فكيف أقدم على الانتحار ؟ ومن أجل ماذا .. ؟ من أجل الحب .. ؟ إنه ليس طالبا ، ولا شاعرا ، ولا فنانا .. فهو تاجر .. نشأ ، وتربى فى « وكالة البلح » .. أقسى مدارس التجارة ، وأقوى مراكز اصطياد الرزق ، واستخراج النقود من جيوب الطبقة المتوسطة .. واستطاع تحت مظلة والده أن

هذه الجريمة

يستقل بحانوت ، وأن يتعامل فى سلع بعيدة عن مجال والده . حتى لا تعلق به شبهة إعانة والده له .. ولكى يؤكد للجميع أن الفشل فى الدراسة - ليس معناه الفشل فى الحياة ، وحتى يشعر أنه ليس أقل شأنا من أخيه الذى نجح فى التعليم ، وحصل على بكالوريوس التجارة .. وهكذا يبدو شخصية قوية .. قادرة على اخضاع ظروفها ، دون أن تخضع لها .. فكيف اجتاحه ذلك الوباء الأسود ، وسد أمامه المسالك والدروب ..؟!

فى البداية ، وبعد تمرده على الدراسة شق طريقه فى التجارة بقليل من الخبرة ، وكثير من العنف ، وبعض الجدّية التى صرفته وقتها عن كل ما يشتغل به الشبان أمثاله ، فهو لم يركن إلى شبان « وكالة البلح » فقد كان يرى أنه فوقهم بقدر ما نال من تعليم ، ورفضوا هم أن يعترفوا له بهذا التفوق ، ولم يجد لديه الجرأة ليقتحم مجتمع المتعلمين الذين أكملوا وتخرجوا ، فقد كان يرى أنهم يذكرونه بفشله ، ولم يوسعوا له مكانا بينهم . لأنه يزهو عليهم بأمواله ، ويحتقر مؤهلاتهم ، وهكذا وجد نفسه وحيد الوجدان - لا يتلهف على أحد ، ولا أحد يتلهف لرؤياه أو يبحث عنه .. وعزل نفسه داخل جوانحه . كل تفكيره فى التجارة لعله ينسى غربته بين أهله .. !

وزاره فى حانوته صديقه ، وزميل له . فشل مثله فى الدراسة ، والتحق بعمل فى إحدى المؤسسات .. لكن المفاجأة لم تكن فى الزيارة .. كانت فى الشكل والموضوع .. هذا الزميل الذى كان شعلة من الشقاوة ، وسوء الخلق ، وابتكار المشاجرات مع خلق الله . فقد حباه الله بجسد متين البنيان .. قد تحول إلى ملاك يمشى على الأرض .. اللحية الجميلة ، والجلباب الأبيض ، ولسانه لم يكف عن الذكر طوال زيارته ، وتواعدا ، وتلاقيا ، ووجد نفسه فى الحقل الجديد . أحب أن يكون جنديا من جنود الله ، وشيئا فشيئا ارتدى الجلباب الأبيض ، وأطلق لحيته ، وأصبح من الذين يصلون الأوقات الخمسة فى المسجد . لا سيما صلاة الفجر ، مما كان موضع دهشة أهل الحى ، وكل وكالة البلح ...!

وكان لابد لجندى الله أن يستكمل دينه . فلم يكن قد فكر فى الزواج حتى الآن ، وبدأ يفكر فى البحث عن « إبنة الحلال » ، ولكن تفاجئه عملية المصران الأعور ، ويدخل المستشفى ، وهناك يشفى من المصران ، وتنجح العملية ليسقط فى رغبة شديدة وأكيدة فى الارتباط بالمرضة

التي كانت أول أنثى تقول له كلمة طيبة ، وأحس بالقنبلة تتفجر داخله .. تصدع أركان شخصيته ، وتحول بعض معتقداته القديمة إلى تراب ، ويضطرب كأنما مسه شيطان ، وإلى وقت قريب كان يؤمن أن الأنثى هي شيطان أو على الأقل حليفة الشيطان .. لكنه كلما نظر إلى عيني المرضة ، لاحت له من خلالها الجنة التي ما خطرت على قلب البشر .. أرغم على الاعتراف بأن هناك إناثا لا يعرفهن الشيطان ، ولا يجرؤ على الاقتراب منهن .. ملامحها كانت تطمئنه ، وجبينها كان يسعده ، وهمسات فمها كانت كالتراتيل ، وكالصلوات ، وكل لحظة تمضى عليها معه .. تزيده رغبة فيها ، وشوقا إليها ، وعانى من الكبح ، ومن قمع مشاعره ، واضطهاد أحاسيسه .. فلا تكاد تتمدد في حناياه حتى يخنقها . مخافة أن يفتضح أمره ، واستعان بكل قواه الواهنة ، حتى ينتهى العلاج ويخرج .. فإذا ما ظلت رغبته متوهجة ، وأشواقه متأججة .. تأكد أنها رغبة أصيلة ، وليست نزعة مريض ضعيف في حالة محنة ، وأنه يحق له أن يتقدم أو يبحث الموضوع .. !

وخرج من المستشفى إلى منزله ، وسأل قلبه ألف سؤال رد عليه بألف نعم إنه يريدها ، ولا يريد غيرها ، وأبدى رغبته في مجلس من الإخوة كانوا يزورونه ، وعارضوا جميعا لأنها تعمل في تمريض الرجال ، وتتعامل مع الأطباء . فإذا استطاع أن يحصل منها على تعهد بالا تمرض إلا السيدات ، وألا تتعامل الا مع الطبيبات ، وان تضع « الخمار » على وجهها فلا يراها الا المحارم . ضمها إلى النخبة الطيبة ، وأصبحت جديرة بأن تكون حرم الأخ الطيب المعشر ، ورفيقته في الجنة ان شاء الله وقدر ..

ولعبت فئران الدنيا كلها في صدره . فهذه عقبات لا يعتقد أنها سوف تستطيع أن تتخطاها ، واقترح معهم أن تستقيل من العمل . فهو والحمد لله ليس في حاجة إلى مرتبها ، وبذلك يكون الله قد كفى المؤمنين والمؤمنات شر التمريض ، وهللوا جميعا ، وكبروا للفكر الهادئ النابع من قلب خاشع ، واتفق مع نفسه على أن أول مكان يذهب إليه بعد تماثله للشفاء ، هو منزل أهلها ليعرض عليهم نفسه ، ويكون قد استطلع رأى أهله أيضا ، واستخار الله ، وعرض زواجه من المرضة على أمه ، وأطلقت صرخة من الدهشة ، ، وضربت على صدرها ، وكأن كارثة وقعت ، وأعلنته بأنه لن يكون ابنها ، وسوف تتبرأ منه إلى يوم القيامة ، وتوسلت إليه ألا يفتح ذلك مع والده .. حتى لا يطلق عليه رصاصة من بندقيته المرخصة ، وفوجئ بالمظاهرة التي هاجمته بها والدته .. فابتلع رغباته كجمرات تتدحرج من حلقه إلى أحشائه ، وكان ذلك تحذيرا من أن يبدى مثل هذه الرغبة لوالده ، وأحس أنه يأكل بعضه قبل

هذه الجريمة

أن يتكشف طريقه ، فهو لم يسأل صاحبة الشأن رأيها .. قد يكون ذلك لأنه على ثقة من أنها لن ترفضه ، فهو كما يرى تتمناه كل أنثي عاقلة رشيدة ، تريد أن تحيا فى ظل رجل . أخلاقه حسنة ، وأحواله المالية حسنة ، ومن عائلة حسنة .. ولكن لا بأس من استطلاع الأمر . ثم يسأل الله ان يأخذ بيده ، فيتولى عنه إقناع أهله بوجهة نظره ! ..

وذهب يختال فى صحته وعافيته ، والتقى بالممرضة فى المستشفى مدعيا أنه جاء ليشكرها ، وكان ذلك غير عادى . ان يعود مريض ليشكرها على ما قدمته له من خدمة ، وضغطت برموشها ، ونظراتها ليعترف بحقيقة ما جاء من أجله ، ولم يستطع المقاومة ، ولا الإنكار . فخر صريعا ليعترف ، ويسألها رأيها فى أن تكون زوجته .. ؟!

ورغم زلاقة لسانها ، وقدرتها الفائقة على الحديث فى كل شئ . فإنها اضطربت، وسألته أن يعفو عنها إذا لم تجبه فورا بلا أو نعم ، فقد كانت تتوقع أى مفاجأة إلا تلك ، وامتلأت ملامحها بحيرة قلقة ، وحسرة طافت بقسماتها لحظات .. فقتلت طمأنينته ، وقصمت ظهر الثقة التى كان يعول عليها .. واستمهلته بضعة أيام تعطيه بعدها الرد ! ..

وأحس ان الرد لن يكون فى صالحه .. فكل هذه المقدمات يمكن ان تشى بالنتيجة القادمة ، ولم يشأ ان يتراجع ليعيش معلقا بين اليأس والرجاء ، يكفيه ما لديه ، وأصر على ان تجيب الآن أو على الأقل تقول له ما يمكن ان تقوله عن ظروفها . فيشاركها البحث عن الحلول .. فهو أيضا كل ماحوله ضده ! ..

وكأنما مس بعبارته الأخيرة عمق جراحها . فانفجرت فيه تؤكد له ان أهله لابد أنهم رفضوا اقتراحه بالزواج من ممرضة .. فهى على يقين من نظرة المجتمع الظالمة ، وتصاعد غضبها سريعا، وأمسكت بأهدابها على دموع توشك ان تندفع من عينيها ، وأقسمت أنه لولا أن مشاعرها لاتطاوعها لأنهت المقابلة ، وانصرفت عنه .. ففى كل يوم يتقدم إليها عشرات الخطاب ، لكنها ترى فى عيونهم الطمع فى دخلها الذى يعتبر بالنسبة إلى خريجى الجامعات فوق المتوسط ، واعترفت أنها ما أصغت إليه الا لأنه لديها غير الآخرين ، وفرح ان له فى قلبها مكانة خاصة ، فابتلع ثورتها ، ورد يطمئنها أنها إذا ما أصبحت زوجته فسوف يطلب منها ان تستقيل من العمل حتى لاتخدم رجلا غيره .. ومرة أخرى عربدت دهشة على

ملامحها ، وعجزت عن فهم البراكين التى تتفجر داخلها .. هل تلطم وجهها من الحسرة ؟ أم تصيح راقصة من الفرحة .. وتوسلت إليه أن يتوقف عند هذا الحد ، وان يكون رفيقا بها .. وسوف تلقاه بعد أيام أو تتصل به تليفونيا .. فلابد لها أن تخلو إلى نفسها .. إن مثل هذا الزواج يمضى فوق ألغام لابد أن تنتزع من الطريق ! ..

انصرف عنها ، وانصرفت هى إلى نفسها .. كانت تود أن تفرح لولا العراقيل التى تسد عليها الطريق .. إنه يريدها أن تستقيل ماذا يظن .. ؟ أيظن أنها تعمل لتقتل أوقات الفراغ ؟ .. أو تعمل متطوعة .. ؟ إنها عملت وتعمل . لأنها مسئولة عن أسرة بأكملها .. إخوة أربعة فى المدارس ، وشقيقتها كبرى إخوتها فى الجامعة ، واثنين فى الثانوى ، وشقيق فى الاعدادى ، وأمها تقف فى البيت كالطود الشامخ ، والأب مشلول يستنفد وحده نصف مرتبها فى الأدوية ، والأطعمة الخاصة . إنه يريدها أن تستقيل ، وهو لا يدرى أنه يعرض عليها المستحيل . إلى جانب أهله الذين سوف يقاطعونه لأنه تزوج بممرضة ! .. وهو لن يقبل أن تعمل . كما يعتقد ، فلا يجوز لصاحب لحية ان يترك زوجته تعمل مع الرجال ، وفى خدمتهم ، وإذا تركها فسوف تتحول حياتها إلى جحيم . فضلا عن هذا البيت الذى يقوم على ما تكسبه من وظيفتها .. فهى فضلا عن عملها بالمستشفى ، تعمل عند طبيب فى عيادة خاصة بعد الظهر . كل ذلك حتى تتمكن من مواجهة متطلبات هذه الأسرة التى لا يكف نزيف مصروفاتها ، ولا يتوقف .. إلى جانب معاش والدها الضئيل ! ..

إن المشروع مقضى عليه بالفشل ، وهى لن تحمل الأمر إلى والدتها فسوف تحرضها على قبول شروطه . مادامت تريده ويكفيها ما قدمته من تضحيات ، ولكنها لن توافق على الدفع بإخوتها ، والأسرة إلى المجهول .. إن قلبها يحرضها على انتهاز الفرصة التى قد لاتعود .. لكن إنسانيتها فى كيانها تحذرها من تعريض إخوتها وأمها ووالدها للهوان .. فقد تندم لإنها فرطت ، وساعتها لن يجدى الندم .. أما فرصة الزواج فسوف تجدها على طول المدى .. قد تتغير مواصفات العريس فى كل مرحلة . لكنه فى النهاية زواج شرعى من رجل بالغ رشيد .. واستقر رأيها على ان تتناساه . فإذا ما جاءها مرة أخرى صارحته بكل ظروفها ، واعتذرت له ، ودعت له من قلبها أن يجد من تسعده ، ويسعد معها بلا مشاكل !! ..

★★★

أما هو فقد ظل يترقب اتصالها ، وعلم أن أمه لوحت للأب برغبة الإبن فى الزواج من الممرضة ، وهاج الأب ، وماج ، وطلب من الأم ان تنقل إليه تحذيره أو الذهاب

هذه الجريمة

بعيدا عن الأسرة حتى لا يجلب لهم العار ، وليتذكر أنه له إخوة بنات ، وبنينا ، وأنهم لن يشهدوا له خطبة أو فرحا ، ونقلت إليه الأم التهديد ، وزادت عليه أنهم سيعتبرونه مفقودا إذا فعل ذلك حتى يعود ! ..

وطوى جوانحه على عذاب من نوع غريب . لم يعرفه من قبل ، وعرض الأمر على الإخوة ، وتهديد والده ، وطاعة الوالدين ، والإحسان إليهما ، وأجمع الإخوة على أنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، والزواج طاعة لله ورسوله ، وليس ذنبا فيه معصية الأب ، وانطلق يسعى نحوها يسألها الرد مادامت لم تتصل فى ، وحاولت أن تتهرب منه لكنه أصر على أن تستمع إليه فقد جاءها وهو فى حالة عصيان لوالده ، وعليها ان تقدر موقفه حق قدره .

وزاد ذلك من محنتها ، ونفضت بين يديه همومها . لم تترك شيئا الا شرحته له . فهى ليست كما يراها .. إنها لا تملك نفسها ، ولا أيامها . فهى اليوم ، وفى المستقبل لسنوات طويلة ملك لإسرتها التى تعولها ، وإخوتها يجب ان يتعلموا حتى يضعوا أقدامهم على الطريق السليم ، وهى قد باعت حياتها لهم ، وليس فى نيتها أن تسترد ما وهبته .. فالعمل بالنسبة لها ليس ترفا ، وإنما هو حياة أسرتها ، ولن تستطيع الاستغناء عنه . مهما وفر لها من حياة طيبة .. لأنه ليس مسئولا عن أسرتها ، وإنما تلك مسئوليتها هى وحدها ، ولماذا يضع نفسه وسط كل هذه العواصف ، والمحاذير ، ويخسر أسرته ؟ ..

إنها تريده كما يريدها . لكن عليهما أن يخضعا للظروف ، وليس كل ما يتمناه المرء يدركه .. ان العقل هنا يجب ان تكون له الكلمة .. فالقلب وحده لا يكفى ! ..

إذن فهو الرفض انصياعا لظروفها ، وظروفه ، وليس أمامهما الا أن يدعو كلاهما للآخر أن يجد فى مستقبل أيامه ما ينسيه هذا الحب الذى جاء عن طريق الخطأ فى غير موعده .. و .. و ... !.

ولم يطق الاستماع إليها أكثر من ذلك . أسرع يبتعد دون ان ينطق بكلمة . اختلطت فى ذهنه الخطوط ، وتصادمت الرغبات ، وانحدرت دمعة من عينه فنحاها بأصبعه ، ومضى ، وهى ترمقه فى ذهول ، وظلت جالسة فى مكانها عساه يعود .. يقول كلمة .. يتأسف .. يسب .. يلعن .. لكنه ذهب دون أن يتوقف ! ..

عندما عاد إلى منزل والده .. كانت تتساقط نفسه منه فى الطريق .. كان وعيه يغادره ويعود كأمواج تضرب الشاطئ ثم

تعود ، ويحاول أن يتمسك بالوعى ، لكنه يلوى ذراعه ويفلت منه .. كلما صمم على الوصول إلى البيت ضاع منه الطريق ، وهو على مقربة من البيت .. ويظل يدور ويحملق فى الشوارع . لم يحاول أن يسأل أحدا .. خجل أن يعرف أهل الحى أنه ضال .. ! تبدّى له البيت .. أسرع يندس داخله .. طالعته أمه .. أول الأمر ظنت أنه أصيب فى حادث .. سألته عما به .. حملق فيها صامتا .. حاولت أن تكلمه .. لكنه لم يجب .. كان يسمع حديثها لكنه لا يميزه .. دخل غرفته ونام .. بعد قليل دعته أمه للغداء .. لصلاة العصر .. لم يجب .. استيقظ لكنه ظل مكانه .. كل ما يفعله هو أنه يحملق فى لا شئ .. سقط فى بئر بلا قرار .. بكت أمه .. جمعت إخوته .. لكنه أغرق فى الصمت .. وعندما جاء والده ليلا .. كان حوله بعض الإخوة .. لكنه لم يتكلم .. قرأوا عليه قرآنا ، وكبروا فى اذنيه . لكنه لم يتكلم .. ولم تختلج قسماته بمشاعر أو أحاسيس .. وبقى هكذا ثلاثة أيام .. أطعموه بالقوة تارة ، وبالحيلة أخرى .. وفى اليوم الرابع حملوه حملا إلى طبيب .. قال الطبيب أنه يعانى من كآبة شديدة ، وأوصى بالتغذية الجيدة ، وتحقيق أمنياته التى سفحوها ! ..

وكجزء من العلاج وافق الأب على الزواج ، وأسرعت الأم مبتهجة تبلغ الإبن موافقة الأب .. لكنها فجعت فلم يستقبل الخبر بما كانت تتوقع .. نظر إليها طويلا ، ولم يعقب .. كان فى صراع طويل وشاق مع وعيه الذى ينسلخ ، وينخلع عنه بالساعات .. وكان يرفض ان يراه فى محنته أحد من الاخوة ، وحينما حاولوا من أسبوع ان يزوروه رفض ان يدخلوا عليه .. فلم يجد معه من نفسه ما يلقاهم به .. إنه مضيع فى رحلة . لكن مع من .. ؟ ومتى يعود منها ؟ .. لا يدرى ! ..

أحست الأم بفجيعة المأساة .. وبناء على تعليمات الطبيب المعالج ، وفى سبيل أمومتها .. ذهبت إلى المرضة . فلما التقت بها سألتها سؤالا محددا . هل هى تحبه بالقدر الذى يحبها به ؟ وهل مستعدة لتتزوجه ام لا .. ؟ ، وأجابتها الفتاة بانها قد يكون حبها أضعاف حبه .. لكنها لن تتزوجه . لأنه يريدها ان تستقيل ، وهى لا تستطيع أن تخون أشقاءها وأسرتها ، والا فيصبح من السهل عليها ان تخونه أيضا ! ..

ومالت الأم على يدى الفتاة فقبلتهما ، واعتذرت لها عن الظن السيئ بها ، وتوسلت إليها أن تجئ لتزوره معها ، وسوف يقبلون كل شروطها . لإنه يجتاز محنة من الصعب أن يعبرها .. وفزعت الفتاة وأسرعت معها ، وعندما وصلت ، وطرقت الأم باب غرفته .. كان الصمت يخيم على كل شئ .. وضغطت الأم الباب .. لكن .... كان العريس جثة تتطوح فى حبل يتدلى من سقف الغرفة .. !!

الهوية اليهودية

فى أفلام وودى ألين

بقلم : د. عبد الوهاب المسيرى

مخرج سينمائى وممثل وكاتب سينمائى أمريكى يهودى ، ولد فى بروكلين (حى كان يتركز فيه عدد كبير من يهود الولايات المتحدة فى نيويورك) . التحق بجامعة نيويورك ، ولكنه لم يحصل على شهادة جامعية . بدأ حياته المهنية ككاتب نكات يقدمها للصحف أو لمقدمى البرامج التليفزيونية . وفى هذه الفترة ، طور ملامح الشخصية الأساسية التى تظهر فى معظم أفلامه ، شخصية البطل المضاد والمعادى للبطولة ، أو البطل المهزوم الذى يخسر دائماً ويفشل .

وثمة موضوعان أساسيان فى أفلام وودى ألين ، وهما مرتبطان تمام الارتباط ، أما الأول فهو وجود البشر فى الزمان حيث يحصدهم الموت بمنجله . أما الموضوع الثانى فهو الجنس . والجنس هو وسيلة للمتعة ولكنه أيضاً طريقة للتواصل والتضامن ومعرفة النفس البشرية . ولكن الزمان يؤدى إلى التغير فتصبح كل الأمور نسبية ، ومن ثم ، يصبح العالم خالياً تماماً من أى مطلقات معرفية أو أخلاقية ، ومن أى معنى أو هدف . وتصبح الحركة آلية رتيبة مكررة ، ويفرغ الجنس من المعنى تماماً ويصبح مجرد مسألة جسمانية لا تحل مشكلة المعنى . ويحاول البطل المهزوم أن يتجاوز كل هذا عن طريق الإيمان الدينى . ولكنه يرتد دائماً على عقبيه فاشلاً ، إذ أنه يدرك استحالة بحثه ، فيظل قابعاً رغم أنفه فى عالمه العلمانى بين حدوده ومأساته ، ولكنه لا يتجاوزه قط . ولكنه لا يقنع بهذا أيضاً ، إذ نجده بين حدود الإيمان الدينى كذلك ، ومن ثم فهو فى تصورنا واحد من أهم نقاد المجتمع العلمانى الذى يراه بوضوح ويرى الكارثة المعرفية والأخلاقية الناجمة عن

النسبية ، ولكنه يظل داخل حدود نسقه ، يجلس على عتبات الإيمان الدينى يطلق نكاته المظلمة المنيرة .

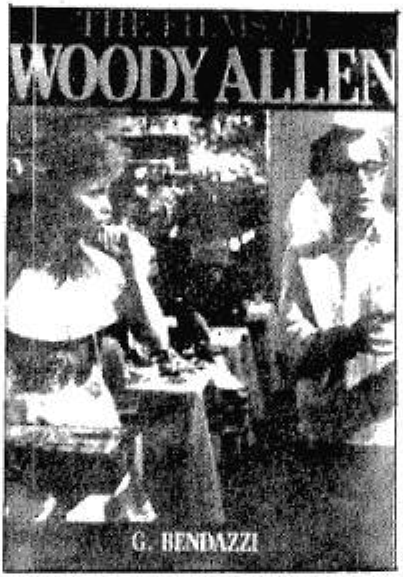
غريب فى عالمنا الحديث

وعادةً ما يتناول وودى ألين هذه الموضوعات من خلال حشد كبير من الشخصيات بعضهم له ملامح إثنية واضحة مستمدة من حياة مهاجرى يهود اليديشية فى الولايات المتحدة (هم وأبناؤهم الذين حققوا قدراً من التأمرك ولكنهم لم يندمجوا تماماً ، مما يجعلهم غير مستقرين لا فى القالب اليهودى اليديشى ولا داخل قالب الواسب ، أى الأمريكيون البيض البروتستانت) . وهم ، فى هذا ، يشبهون الإنسان الغربى الحديث ، الذى فقد عالمه التقليدى ولكنه لم يجد نفسه إلا غريباً فى عالمه الحديث .

ومن الأفلام الأولى لوودى ألين ، التى تستخدم نمط البطل المهزوم ، فيلم «فلتأخذ النقود ولتهرب» عام ١٩٦٩ ، وهو محاكاة ساخرة للأفلام الوثائقية .

وتدور أحداث فيلم «العبها مرة أخرى ياسام» (١٩٧٢) حول ناقد سينمائى مستوعب تماماً فى أفلام همفرى بوجارت وفى شخصيته التى تتسم بالذكورة الفائقة ، ولذا بدلاً من أن يبدع هذا البطل تتبدد طاقته فى الحلم بالقيام بغزوات تشبه غزوات بوجارت . فتهجره زوجته ويبحث هو عن حب حقيقى أو عن علاقة غرامية أو جنسية لها معنى .

أما فيلم «النيام» (١٩٧٣) ، فهو يتناول الحياة فى عالم المستقبل الذى



غلاف كتاب أفلام وودى ألين



وودى ألين على هيئة (روبوت) رجل آلى فى فيلم النيام

يشبه الكابوس . فبطل الفيلم لا يمكنه التأقلم مع هـذا العـالم المنظم بشكل هندسي ، مما يجعل تجربته تشبه تجربة اليهودي في الحضارة الأمريكية الحديثة . وتجربة الإنسان بشكل عام في المجتمع الصناعي الحديث . وفيلم « كل ما كنت دائماً تود معرفته عن الجنس ، وتخشى السؤال عنه » (١٩٧٣) هو محاكاة كوميدية لعدة أنواع ومواضيع أدبية وسينمائية : رواية الخيال العلمي ، وأسطورة فرانكشتين ، وأفلام الإباحية ومشكلة الشذوذ الجنسي في المجتمع الحديث . والفيلم يتضمن نقداً عميقاً للعقلية الحديثة التي تحاول الوصول إلى الحد الأقصى في كل شيء .

أهم الأفلام

ويعتبر «الحب والموت» (١٩٧٥) من أهم أفلام وودي ألين ، وتدور أحداثه في روسيا القيصرية في أثناء غزو نابليون . وبطل الفيلم هو بطل ألين المعتاد ، الإنسان الصغير الذي يفشل دائماً ، ولكنه يجد نفسه في هذه المرة بطلاً رغم أنفه . وتدور حبكة الفيلم حول الحب والموت ومحاولة البطل أن يصل إلى الحب وأن يفهم الموت . وهو يحقق شيئاً من النجاح في محاولته الأولى إذ يتزوج ابنة عمهم سونيا بعد سنوات طويلة من الحب المرفوض ، لكن زواجه هذا يتم عن طريق الصدفة ، أما الموت فيظل هذا الشيء البعيد الذي لا يفهم - إذ يحاول البطل أن يغتال نابليون فيقبض ويحكم عليه بالإعدام ، وفي الليلة المحددة لتنفيذ الحكم يأتيه في سجنه ملاك يبشره بالنجاة والخلاص فيتقدم البطل إلى الموت دون خوف ، ثم يظهر أن الملاك كان يكذب عليه وينتهي الفيلم بإعدام البطل !

ويعتبر فيلم «آني هول» (١٩٧٧) نقطة تحول في تاريخ وودي ألين السينمائي . والفيلم يتناول كثيراً من الموضوعات الأمريكية اليهودية ، علاقة اليهودي بالشيكسا (أنثى الأغيار الشقراء) ، وموقف اليهودي المبهم من حضارة الواسب، إذ هو يحبها ويكرهها في آن واحد ، يود دخول عالمها والاندماج فيه ولكنه يخشى أن يفعل ذلك . وهناك أيضاً موضوع كره اليهودي لنفسه وعشرات الموضوعات الأمريكية الأخرى مثل البارانويا والتحليل النفسي . وتزداد قضية المعنى أهمية في هذا الفيلم ، بل وتشغل المركز .

ويعد فيلم «الداخل» (١٩٧٨) من أفلام وودي ألين القليلة المأساوية والتي لا يمثل دوراً فيها . وهي تتناول قصة حياة امرأة تفقد علاقتها بالحياة ، إذ تستوعب تماماً القيم الفنية خصوصاً قيمة التناسق ، إلى درجة أنها تحاول أن تفرضها على الواقع . وحينما ينفصل عنها زوجها ، ثم يطلقها ، لا تتحمل هذه الصدمة وتنتحر .

ومن أهم أفلام وودي ألين فيلم «مانهاتن» (١٩٧٩) ، ومانهاتن هي أهم أحياء نيويورك ومركز المال والتجارة ، وهو الحي الذي يعيش فيه وودي ألين نفسه . وهو في هذا الفيلم ، يتناول الفوضى الأخلاقية والعاطفية الناجمة عن النسبية ، واختفاء المعنى والقيمة ، وتحول كل شيء إلى جزء من الحياة العامة . فزوجته ، على سبيل المثال ، تتركه لتعيش مع امرأة

أخرى ، وتكتب كتاباً عن حياتها الشخصية تتعرض فيه لأدق وقائعها . ولكن، في وسط كل هذا ، توجد فتاة صغيرة تحب البطل وترتبط به . ورغم محاولته الهرب منها ، فإنها تظل تؤكد حتى النهاية ضرورة أن يثق البشر - الواحد بالآخر .

ويتناول فيلم «زيليج» (١٩٨٣) قصة حياة رجل يتلون كالحرباء تبعاً للوسط الذى يعيش فيه حتى يفقد هويته تماماً . ولعل زيليج تعبير عن مأساة الإنسان الحديث الذى يفشل تماماً فى تحقيق الانتماء ، لأى عقيدة ولأى مجتمع ، ولذا يظل دائماً غريباً لا مأوى له . والإنسان الحديث ، فى هذا يشبه المهاجر اليهودى (أو غيره من المهاجرين) حيث يبذل قصارى جهده لأن يصبح جزءاً من مجتمعه ويحاول فى ذات الوقت ألا يفقد هويته ، ولكن المحاولة تبوء عادةً بالفشل إذ أن ما يحدث هو فقدان المهاجر ليهوديته ، ولكنه فى ذات الوقت لا يصبح من الواسب . ولذا فإن محاولته للاندماج تصبح حالة مرضية مثل حالة زيليج .

بين الكوميديا والمأساة

ومن أهم أفلام وودى آلين «وردة القاهرة القرمزية» (١٩٨٥) وهو فيلم لا يظهر فيه هو نفسه ، ويقف ما بين الكوميديا والمأساة ، بطلة الفيلم امرأة متواضعة الحال تعيش حياة كلها بؤس ، حياة لا يوجد فيها نبل أو تجاوز أو تعال ، وزوجها عاطل عن العمل بسبب الكساد الاقتصادى فى الثلاثينيات ، ولا تجد ملجأ من كل هذا الكابوس إلا فى عالم الأحلام الوردية ، عالم السينما . تذهب هى إلى السينما كل يوم تشاهد نفس الفيلم ، المرة تلو الأخرى ، فعالم السينما هو عالم غير حقيقى ولكنه جميل ويعلو على واقعها الردىء . والفيلم الذى تشاهده هو فيلم من الثلاثينيات يسمى «وردة القاهرة القرمزية» - فيلم هروبى ، أبطاله أثرياء ، ينتقلون من القاهرة إلى شرفات شققهم الفاخرة فى شيكاغو وإلى المطاعم التى تغنى فيها أشهر المغنيات . وتستوعب البطلة تماماً فى الفيلم الذى تشاهده إلى أن يزول الخط الفاصل بين الواقع والخيال ، ويقع بطل الفيلم فى غرامها ويترك الشاشة ويهرب معها لتعيش البطلة الحالمة معه حياة مليئة بالمغامرات . ثم يأخذها البطل ويدخل معها عالم الفيلم ذاته حيث تختلط بالنجوم وتحيا حياة المتعة والثراء . ولكن ينتهى الفيلم حين يأتى ممثل الفيلم ويخبرها أن عليها أن تختار بينه (هو الممثل الحقيقى) وبطل الفيلم الوهمى فتختاره هو بطبيعة الحال . ولكن يظهر أنه خدعها ، إذ يعود إلى هوليود وتعود هى إلى حياتها العادية الرتيبة لتشاهد مزيداً من الأفلام وتعيش مرة أخرى فى عالم البؤس تتطلع إلى عالم الأحلام الوردية !

قضية المعنى

وتظهر فى «حنا وأخواتها» (١٩٨٦) قضية المعنى بكل حدة ، فبطلها كاتب تليفزيونى أمريكى يهودى لم يعد يؤمن باليهودية ، ويبدأ رحلة البحث فيعتنق المسيحية الكاثوليكية بضعة أيام ولكنه يتركها ، ثم يجد العزاء والمعنى فى الحب والسينما . وبعد هذا ظهر فيلم «قصص

نيويورك» (١٩٨٨) ، وهو فيلم يتكون من ثلاثة أجزاء ، أخرج وودى ألين ثالثها بعنوان «أطلال الملك أوديب» (لعب على لفظ «ركس» Rex اللاتينية التى تعنى ملك وكلمة «ركس» Wrecks الإنجليزية وتعنى «يحطم» أو «يهدم») وفى هذا الفيلم يعود ألين إلى الموضوع اليهودى ويتناوله بشكل مباشر كما فعل فى «آنى هول» فالفيلم يتناول حياة شاب أمريكى يهودى يحاول أن يندمج فى المجتمع ، فيغير اسمه ويتصرف تماماً مثل الواسب ويحب شيكسا، أى أنثى الأغيار . ولكن أمه اليهودية ذات الشخصية المتسلطة والهوية اليديشية الواضحة ، ترفض هذا الوضع تماماً . وفى يوم من الأيام ، تختفى الأم ولكنها تظهر فى سماء نيويورك حيث تستمر فى مطاردة ابنها إلى أن يرضخ فى نهاية الأمر ويحب أنثى يهودية تشبه أمه تماماً . ولا يتسم هذا الفيلم بكثير من التركيب ربما بسبب قصره . ويعد فيلم «جرائم وسوء سلوك» (١٩٨٩) من أهم أفلام وودى ألين ، إذ تتبلور فيه كثير من الموضوعات وتصل إلى منتهاها ، فقضية المعنى ومصدر القيمة الأخلاقية المطلقة فى المجتمع العلمانى تصبح هنا قضية مركزية. وبطل الفيلم مخرج سينمائى يؤمن بفنه ويشاركه هذا الإيمان فتاة يعتقد أنها تحبه . ويوجد فى الفيلم كذلك طبيب عيون يهودى أمريكى ناجح ، مندمج فى مجتمعه، أحد مرضاه حاخام أعمى . وينتهى الفيلم حين يجد البطل أن صديقته تتركه للتزوج من رجل سوقى متخصص فى العلاقات العامة ويقوم طبيب العيون باستئجار قاتل ليقتل عشيقته التى تهدده بالفضيحة - فكأن العام والبرانى ينتصر تماماً على الخاص والجوانى ، يختفى اليقين المعرفى والإطلاق الأخلاقى . وعلى كل فإن الحاخام أعمى منذ البداية ، أما الطبيب الذى يحاول أن يرجع لعيونه النور فهو مجرم!

وظهر عام ١٩٩٠ فيلم «أليس» ، ويتناول حياة أنثى أمريكية ثرية تعيش حياة رتيبة تماماً ، لا يوجد لها هدف أو معنى . بدأت تشعر بالفجوة العاطفية التى تفصل بينها وبين زوجها ، وبالمسافة التى تفصلها عن أطفالها بسبب اعتمادها على مربية فى تنشأتهم وعلى آلاف الأشياء الأخرى (مثل اللعب والهدايا التى لا تنتهى) وتقرر تغيير حياتها فتستشير طبيباً صينياً يعرف بعض الوصفات السحرية من بينها دواء إن أعطته لشخص فإنه يقع فى غرامها على التو . وبعد أن تجربه ترفض هذا الحل السحرى ، كما ترفض أن تذهب للاستقرار فى الهند بحثاً عن تجربة دينية وإنما تترك زوجها وتأخذ أطفالها وتتفرغ لتربيتهم متخطية المسافة التى تفصل بينها وبينهم .

بروز المكون اليهودى

ويمكننا الآن أن نتناول« يهودية» وودى ألين . وكما أسلفنا ، هناك مكون يهودى قوى فى أفلامه ، فثمة إشارات واضحة أو كامنة إلا أن أبطاله يهود (فى العادة) . ففى «آنى هـول» و «أطـلال الملك أوديب» و «جرائم وسوء سلوك» ، نجد أن يهودية

البطل في مجتمع الواسب هي الموضوع الأساسي . أما في فيلم «مانهاتن» فإن يهوديته يشار إليها وحسب ولا تشكل موضوع الفيلم . وفي فيلم «الحب والموت» ، يعرف البطل في البداية باعتباره يهودياً ، ولكنه يصبح مسيحياً في النصف الثاني من الرواية . وفي «حنا وأخواتها» ، نجد أن الأسرة يهودية ، ولكنها أسرة أمريكية يهودية يواجه أعضاؤها مشاكل المجتمع العلماني الأمريكي من تفكك وصراع ومحاولة لتجاوز كل ذلك من خلال شكل من أشكال التضامن . ولكن شخصياته ، سواء أكانت يهودية أم غير يهودية ، فإنها تتجاوز وضعها الخاص لتصبح جزءاً من نمط إنساني عالمي يمكن للجميع المشاركة فيه والإحساس به . ولهذا ، فإن يهودية وودي آلين (حينما تظهر) ليست استبعادية، وإنما هي رمز لمعاناة الإنسان في مجتمع فقد المعنى والقيمة ، وهي مجرد ذلك الموضـوع المباشر البارز للعمل ، على حين أن الموضوع غير المباشر والكامن موضـوع ذا طابع إنساني عام . وهذا يثير ، ولاشك ، إشكالية يهودية وودي آلين ، إذ أن تناوله للموضوع اليهودي قد لا يختلف كثيراً عن متناول أي مخرج آخر ، إلا إذا أخذنا في الاعتبار أن آلين ينظر إلى الموضوع من الداخل باعتبار أن الموضوع اليهودي يخصه بشكل شخصي ومباشر ، فأبطاله على علاقة وثيقة بسيرته الشخصية .

وآلين لا يختلف كثيراً عن فنانين يهود آخرين ، مثل مارك شاجال وإسحق بابل ، حيث لا يشكل العنصر اليهودي سوى تلك المادة الخام التي يتناولونها في أعمالهم بشكل إنساني عام . وهذا يجعل بوسعنا التعاطف مع الضحايا من اليهود والوقوف إلى صفهم ، والتمتع بما في مثل هذه الأعمال الفنية من جمال .

ومما يجدر ذكره أن وودي آلين كتب مقالاً في غاية الأهمية عن الانتفاضة ، مستخدماً فيه نفس الصوت الروائي الذي يستخدمه في أفلامه ، أي صوت البطل الفاشل الذي يحاول أن يأتي بأعمال بطولية ويخفق ولكنه يصر مع هذا على أن يتمسك بموقفه المبدئي . وهو ، في هذا المقال ، يهاجم الدولة التي تدع جنودها يضربون الناس ليكونوا عبرة للآخرين ، وتكسر أيادي الرجال والنساء حتى لا يلقوا بالحجارة ، وتجر المدنيين من بيوتهم بشكل عشوائي لتحطمهم ضرباً في محاولة لإرهاب بقية السكان وإرغامهم على الهدوء.

وحينما احتجت المؤسسة الصهيونية ، كتب وودي آلين مقالاً آخر يعلن فيه عن تمسكه بموقفه ، وعن دهشته ممن يطالبونه بعدم الهجوم على الدولة الصهيونية لأنه يهودي . والواقع أن موقف وودي آلين من الانتفاضة هو استمرار لموقفه في أفلامه وبحثه عن المعنى والقيمة المطلقة على الرغم من إدراكه أن قوى الشر والنسبية مسيطرة تماماً ، بل ومهيمنة .

بدروبات سولدان رحالة من بيرو فى مصر

فى منتصف القرن التاسع عشر

بقلم :
د . محمود على مكى

الرحلة استغرقت أكثر من شهر فى عام ١٨٦٢ وسجلها فى خمسة فصول كاملة

الرحلة من أكثر الألوان الأدبية إمتاعاً وإثارة ، وقد تعددت العوامل التى كانت تدفع إلى خوض غمار الأسفار ما بين مجرد الفضول الذى يغلب على نفس الإنسان الطلعة الولوع باستكشاف حياة الآخرين ، وبين مختلف الأهداف التى قد يطمح الرحالة فى تحقيقها سواء أكانت دينية أم سياسية أم اقتصادية .



بدروبات سولدان

وقد كان شرقنا العربى فى العصر الحديث مثيراً لرغبة الآخرين فى تعرفه والاطلاع على أحواله ، وخاصة من قبل الأوربيين منذ أن وقع الصدام الكبير بين عالم الإسلام والعالم الغربى فى الحملة الفرنسية (١٧٩٨ - ١٨٠١) . فقد لفتت هذه الحملة أنظار أوربا إلى عالمنا ، وكان أسبق الدول الأوربية إلى ذلك هما الدولتين الكبريين آنذاك : فرنسا وإنجلترا ، وكان التنافس على أشده بين الدولتين على التوسع الاستعمارى فى أقطار ما أصبح يدعى الآن بالعالم الثالث : أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية ، وكانت فرنسا هى السابقة فى هذا المجال ، وكانت منذ البداية ترى أن السيطرة على هذا العالم المستضعف لن تتم إلا عن طريق الدراسة الواعية التى ترصد كل شئ ، ورأينا مظهراً لذلك فى البعثة العلمية الكبيرة التى رافقت حملة نابليون على مصر ، إذ كان من أعضائها عدد من المستشرقين من تلاميذ سيلفستر دى ساسى (١٧٥٨ - ١٨٣٨) نذكر منهم ج . ج مارسيل (١٧٧٦ - ١٨٥٤) ، وهو أول من ترجم خطاب نابليون الموجّه إلى المصريين إلى العربية ، ومؤرخ الحملة الفرنسية والمشرف على طبع كتاب « وصف مصر » ، ويليه دى لابورت (١٧٧٧ - ١٨٦١) الذى رافق الحملة أيضا ثم جاب بلاد الشرق العربى وعمل بعد ذلك قنصلا فى طرابلس على أن الإنجليز - وكانوا يخططون منذ أول القرن التاسع عشر لاحتلال مصر - لم يلبثوا أن أتوا فى أعقاب الفرنسيين ، وتردد رحّالتهم على بلاد الشرق العربى طيلة هذا القرن وأوائل القرن العشرين ، وكان معظم هؤلاء هم طليعة الزحف الاستعمارى والممهدين له ، ولا نبالغ إذا قلنا إن الرحلات التى كتبوها إنما كانت تقارير مرفوعة إلى السلطات السياسية وإلى أجهزة المخابرات فى بلادهم .

وكان فى طليعة هؤلاء جون بوركهارت (١٧٨٤ - ١٨١٧) وهو سويسرى تجنس بريطانيا ، وقد قام برحلات جاب فيها بلاد الشام والجزيرة العربية ومصر والسودان ، ثم اعتنق الإسلام وتسمى بإبراهيم بن عبد الله وتوفى فى مصر ودفن فى قرافتها ، وتعتبر رحلته من أهم ما كتب حول الشرق العربى فى مطلع القرن التاسع عشر .

وأتى بعده إدوارد لين (١٨٠١ - ١٨٧٦) الذى قصد مصر فى سنة ١٨٢٥ وأقام فيها إقامة طويلة على فترات متعددة ، وكان يتزيا بالزى المصرى ويتلقى الدروس فى الأزهر ، وتسمى بمنصور أفندى . ولين هو صاحب معجم يعد من أهم المعاجم العربية الانجليزية وكتاب آخر سجل فيها عادات المصريين ومختلف مظاهر حياتهم . ويشبهه فى ذلك جورج بادجر (١٨١٥ - ١٨٨٨) الذى قام برحلة إلى الجزيرة العربية وألف معجماً عربيا إنجليزيا وضعه مع أحمد فارس الشدياق . ومن أهم كتاب الرحلات الإنجليز بعد ذلك ريتشارد بيرتون

رحالة من بيرو في مصر

(١٨٢١ - ١٨٩٠) ، وكان قد زار مصر في سنة ١٨٥٣ وأقام مدة في القاهرة والسويس ثم حج إلى مكة ودخل المدينة المنورة متنكراً في زى تاجر عربي ، ورحلته تعد من أغزر الكتب وأحفلها بالمعلومات حول بلاد الشرق العربي ، وهو مترجم ألف ليلة وليلة . وكان يرافق بيرتون في رحلته إدوارد بالمر (١٨٤٠ - ١٨٨٢) الذى زار شبه جزيرة سيناء وفلسطين وأقام بمصر حتى مصرعه على أرضها . ومن هؤلاء الرحالة وليم بالجريف (١٨٤٠ - ١٨٨٣) وله رحلة إلى الجزيرة العربية متنكراً في زى طبيب سورى . وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر نلتقى بشخصية تشارلز دوتى (١٨٤٣ - ١٩٢٦) وكان قد بدأ رحلته في ١٨٧٠ فزار سوريا ومصر وعبر سينا إلى جنوب فلسطين والتحق بقافلة من الحجاج إلى أواسط الجزيرة العربية ، وله كتاب ذائع الصيت عن رحلته في بلاد العرب .

كل هذا أمر منطقى ليس فيه ما يستغرب ، فمعظم هذه الرحلات سواء أكانت بتوجيه من الحكومة البريطانية أو لم تكن إنما قام بها أصحابها تحقيقاً لأهداف سياسية واقتصادية واضحة . أما الذى لم نكن نتوقعه فهو أن يهتم بزيارة بلادنا - بغير هدف إلا الرغبة في المعرفة - رحالة ينتمى إلى عالم كان بالنسبة لنا مجهولاً تماماً ، وهو عالم أمريكا اللاتينية . ولم يكن لدول هذا العالم مصالح في بلادنا تثير عزيمة مفكريه وتحثهم على تعرف أحوال شعوبنا .

ولهذا فقد استوقف نظرنا العثور على هذه الرحلة إلى مصر التى كتبها أديب شاب من بيرو لم يكن عمره يجاوز اثنين وعشرين عاماً حينما قدم إلى مصر فقضى فيها شهراً وبضعة أيام من سنة ١٨٦٢ ، ثم سجل لنا مشاهداته في بلادنا في خمسة فصول من كتاب رحلته . وكان يحكم مصر في ذلك الوقت الخديو محمد سعيد الذى لم يطل به العمر بعد ذلك إلا نحواً من سنة خلفه على ملك مصر بعدها ابن أخيه الخديو إسماعيل بن إبراهيم بن محمد على .

بدرو باث سولدان
سيرة حياة (١٨٣٩ - ١٨٩٥) :

إسم مؤلفنا البيرواني هذا بدرو باث سولدان أونانوى Pedro Paz soldan un-anué . ولنتوقف قليلاً عند الاسمين الأخيرين وهما لأسرتى أبيه وأمه ، أما الاسم الأول « سولدان » وهو لأسرة الأب فإنه ليس إلا الصيغة الإسبانية للاسم العربي « سلطان » على حين أن اسم أسرة الأم « أونانوى » يدل على أنها تنتمى لأصل هندى قديم ، والذى يبدو لنا من عروبة اسم أسرة الأب هو أنه قد يكون

من سـلالة أحد الموريسـكيين (بقايا الشعب الأندلسى المسلم) الذين هاجروا إلى أمريكا اللاتينية فى بداية الفتح الإسبانى لها فراراً من اضطهاد محاكم التفتيش ، وهنا نتساءل : أيكون لهذا الأصل العربى البعيد أثر فى توجيه أديبنا البيروانى إلى الرغبة فى تعرف عالم العروبة والإسلام ثم فى اللهجة المتعاطفة التى تحدث بها عن هذا العالم ؟ لسنا نستبعد ذلك وإن كان أمراً يحتاج إلى مزيد من البحث .

كان مولد هذا الأديب فى ليما عاصمة بيرو فى سنة ١٨٣٩ ، وكان أبوه رجلاً ميسوراً يملك ضيعة واسعة فى الريف تـدعى أرونا Arona فى وادى كانيتى (على اسم قرية أندلسية كان العرب يسمونها قنيط Canete) فى ضواحى ليما ، وفيها قضى بدرو سنوات طفولته وصباه ، كما عاش فى كنف جده إيبوليتو أونانوى وكان هذا طبيباً لم يكتف بممارسة مهنته وإنما كان على قدر كبير من تنوع الثقافة جمّاعا للكتب ، وفى مكتبة هذا الجد بدأت مواهب أديبنا تتفتح ، ونهمه للقراءة يكشف عن روحه الطُّلَعَة الوثابة إلى تحصيل أكبر قدر من المعارف ، وكان قوى الملاحظة يعجبه تتبع تقاليد الفلاحين وعاداتهم وتسجيل ما يسمعه من لغتهم الشعبية البسيطة فى أثناء معايشته لهم فى ضيعة أبيه . على أن حياته تعرضت بعد ذلك لأحداث جعلته يفقد ثروته مما اضطره إلى اتخاذ الكتابة مهنة له ، ولهذا فقد كان يستخدم فى توقيع كتاباته اسماً مستعاراً هو « خوان الذى فقد أرضـه «Juan sin Tierra» أو « خـوان دى أرونا J. de Arona » .

وبعد أن جاوز مرحلة المراهقة بدأت رغبته فى استكشاف العالم المحيط به ، فشرع فى القيام بجولات فى بلده على طول ساحل إيكيكى Iquique (فى سنة ١٨٥١) ثم خارج وطنه : فى كولومبيا وفى تشيلى ، إذ أقام سنة فى عاصمتها سنتياجو مواصلاً دراسته العليا التى أكملها بعد ذلك فى بلده فى معهد سان كارلوس بليما ، على أنه لم يلبث أن استهوته الرحلة من جديد ، هذه المرة إلى أوربا والشرق . واستغرقت هذه الرحلة الطويلة خمس سنوات (بين ١٨٥٩ ، ١٨٦٣) ، قضى منها سنتين فى باريس دارسا خلالهما فى جامعة السـربون وفى « الكوليج دى فرانس » وكان اهتمامه فى هذه الدراسة باللغويات والتاريخ الطبيعى مع استكمال معارفه باللاتينية واليونانية ، وفى سنة ١٨٦١ توجه إلى ألمانيا والنمسا ، ثم المجر وإيطاليا ، ومنها قام برحلته إلى مصر ثم بلاد الشام وتركيا واليونان ، وفى طريق العودة إلى بلاده مر من جديد بإيطاليا وفرنسا وإنجلترا ، وبعد عودته إلى ليما اشتغل بالكتابة فى الصحف ، كما نشر العديد من الدواوين الشعرية والأعمال المسرحية والكتب المختلفة تأليفاً

رحالة من بيرو في مصر

كان نقده عطوفاً واختلف عما نراه في كتابات الاوروبيين المتغطرسة

وترجمة وفي سنة ١٨٧٢ التحق بالعمل في وزارة الشئون الخارجية ، فمثل بلاده في تشيلي (١٨٧٨) ثم في الأرجنتين (١٨٨٠ - ١٨٨٦) ، وقضى سنواته الأخيرة في بلده حتى وافته المنية في ١٨٩٥ .

ومع أن بدرو پاث سولدان توفي وهو في السادسة والخمسين من عمره فإن له إنتاجاً أدبياً غزيراً بدأه وهو في الثانية والعشرين بكتاب نشره في لندن سنة ١٨٦١ بعنوان « طرائف لغوية » ثم بديوان شعرى بعنوان « أطلال » نشره في باريس سنة ١٨٦٣ ، وتوالت بعد ذلك كتبه : « مشاهد وأحداث من بيرو » ، و « السهول » (ليما ١٨٦٧ - ١٨٦٩) ، وفي هذين الكتابين يصور على نحو رومانسي إحساسه بطبيعة بلاده وارتباطه بأرضها ولاسيما هذه المنطقة الساحلية الواقعة في جنوب ليما حيث قضى صباه وشبابه المبكر ، وأثمرت دراسته في باريس وعكوفه على الأدب اللاتيني كتابين : « الجورجيات » (١٨٦٧) وهو ترجمة لقصائد فرچيل ، و « الشعر اللاتيني » (١٨٨٣) . وفيما بين سنتي ١٨٨٢ و ١٨٨٤ ينشر « معجم الاستعمالات اللغوية في بيرو » ليما - بوينس أيرس) . وكان في الوقت نفسه يزاوج بين دراساته اللغوية وما ينظمه من قصائد سياسية ونقدية اجتماعية جمعها بعد ذلك في ديوانه « سونيتات وتجليات » (١٨٨٥) ، كما كان يواصل نشر مقالات متنوعة في صحيفة قام هو بإصدارها بعنوان « شرر » (بين سنتي ١٨٩١ و ١٨٩٣) وكذلك في مجلة أسبوعية تدعى « السهم » . وكان له أيضا نشاط مسرحي ملحوظ بصفته مؤلفا وناقداً . ومن بين مسرحياته التي لاقت إقبالاً عظيماً من الجمهور « عقوبة المتآمر » (١٨٦٧) و « أكثر وأقل ... لا أكثر ولا أقل » (١٨٧٠) و « دعابة ثقيلة » (١٨٨٣) أما عمله الدبلوماسي فقد أثمر مذكراته التي نشرها بعنوان « صفحات دبلوماسية من حياة بيرو » (١٨٩١) و « الهجرة إلى بيرو » .

وأما الرحلات التي استغرقت شطراً كبيراً من حياة پدرو پاث سولدان والتي اضطلع بها في العالمين الجديد والقديم فقد كان ينشر مقالاته عنها في مختلف الصحف ، وكان ينوى جمعها في كتاب بعنوان « مذكرات رحالة بيرواني » Memorias de un viagero peruano ، غير أنه لقى نحبه قبل أن يتاح له ذلك ،

وبقيت هذه المقالات مبعثرة مطوية فى الصحف حتى اضطلعت بجمعها ونشرها دار الكتب الوطنية فى بيرو سنة ١٩٧١ . وعلى هذه الطبعة سيكون اعتمادنا فى العرض الذى نقدمه لبعض فصول الكتاب . وهى الفصول التى تتناول وصفه لمصر ومشاهداته فيها ، وكان سفير بيرو فى القاهرة الأستاذ كلاود بواتريكى سوسا قد أهدى إلىّ نسخة من هذا الكتاب النادر ، فرأيت فى الفصول التى كتبها عن مصر ما يستحق أن يعرض فى هذا المقال ، حتى نعرف كيف كانت بلادنا وصورة شعبنا فى نظر هذا الكاتب . وأنا أنتهز هذه الفرصة لكى أقدم جزيل الشكر للسفير البيروانى على هديته القيمة .

كتاب طريف ووحيد من نوعه

فالحقيقة أن الكتاب كان بالنسبة لى مفاجأة مدهشة . فقد اعتدنا أن نقرأ كتب رحلات قام بها أوربيون لمصر خلال القرن الماضى ، وكان أكثر هؤلاء الرحالة من الإنجليز والفرنسيين ، ممن كانوا طليعة للتدخل الاستعمارى الذى تعرضت له بلادنا ، فكانت رحلاتهم أشبه بتقارير مقدمة لمخابرات بلادهم وسلطاتها السياسية تمهيداً للغزو العسكرى الذى قُدِّر علينا أن نبتلى به . ومن هنا لم يكن من الغريب أن يكون للإنجليز بصفة خاصة نصيب الأسد من كتب الرحالة الذين جابوا بلادنا منذ أوائل القرن التاسع عشر . أما أن نجد فى غمار هذا النتاج الأدبى كتاباً لرحالة من إحدى بلاد أمريكا اللاتينية وفى مثل هذا الزمن المبكر فهو الأمر الغريب الذى لا يتوقع .

ومع أن مؤلف هذا الكتاب زار مصر وهو لم يبلغ بعد الثالثة والعشرين من عمره فإن أسلوبه فى الكتابة يشف عن ثقافة واسعة ونضج يستكثر على من هم فى مثل سنه . ولما كان هدفه من الرحلة هو السعى للمعرفة بغير ارتباط بأى مطمع استعمارى فإننا نجد لديه تعاطفاً مع شعب مصر وتقديراً له على نحو يندر أن نجدهما لدى كاتب غربى فى ذلك الوقت . ولعل ذلك راجع أيضا إلى أنه كان ينتمى إلى شعب حديث عهد بالاستقلال وإن كان أيضا يعانى من بعض مظاهر التخلف التى جمعت بين شعوبنا الشرقية وشعوب أمريكا اللاتينية فيما أصبح يدعى بلغة العصر « العالم الثالث » . هذا إلى جانب ما وقر فى ظننا من إمكان انحداره من أصل موريسكى أندلسى قديم ! ...

ومع ذلك فإنه لا يخلى مشاهداته فى مصر من نقد لما يراه من عيوبنا ، غير أنه نقد عطوف نحس فيه بالغضب لنا لا الغضب علينا ، فهو يختلف تماماً عما نراه فى كتابات كثير من الأوربيين الذين كانوا ينظرون إلينا فى احتقار وغطرسة غليظة . وهو إذ يتحدث عما فى بلادنا من سلبيات أو عيوب فإنه يقرنها بما يماثلها مما يراه فى بلاده . وهو لا يفعل ذلك مجاملة لنا ، إذ لم يكن يقدر أن يطلع قراءنا على

رحالة من بيرو فى مصر

ما كتب .

لقد قضى مؤلفنا شهراً وبضعة أيام فى مصر فى أواخر عهد الخديو محمد سعيد (من أواخر فبراير إلى أوائل أبريل سنة ١٨٦٢) ، ومع ذلك فقد استطاع أن يجوب مصر من الإسكندرية إلى الصعيد ومن مدن الدلتا وريفها إلى السويس ، وأن يقدم لنا فى دقة وتجرد كل ما يراه سواء فى الطبيعة أو فى نفسيات من كان يتصل بهم من البشر ، فهو طموح إلى المعرفة يريد أن يرى كل شئ ويعرف كل شئ . وفى أحد مواضع كتابه يوضح منهجه فى الكتابة ، فيدعو الأديب الذى يقوم بالرحلة إلى أن يتوقف بين وقت وآخر حتى ينظم أفكاره ويسجل ملاحظاته ، وإلا تداخلت المشاهد فى ذهنه ، فيصاب - على حد قوله - « بعسر هضم فكرى » ويضرب على ذلك مثلا بالجنرال بلسو Belzu دكتاتور بوليفيا السابق الذى التقى به فى إسبانيا ورافقه فى زيارات لبعض مدنها ، إذ يقول إن مشاهد البلاد التى زارها ذلك الرجل قد اضطربت فى ذهنه اضطراباً شديداً ، فأصبح يخلط بين ماراه فى الآستانة وفى سان بطرسبورج ، وإن اللغات قد تداخلت فى ذاكرته فأصبحت أشبه بعجينة تختلط فيها الألفاظ الروسية بالفرنسية والإسبانية ! ..

من مالطة إلى الإسكندرية :

حينما انتهى بدرو پاث سولدان - أو خوان دى أرونا كما كان يسمى نفسه - إلى إيطاليا فى جولته الأوربية استقر عزمه على زيارة مصر ، فاستقل باخرة توجهت به من ميناء نابلى إلى جزيرة مالطة وكانت آنذاك مستعمرة بريطانية . فقضى بها أياماً سجل لنا خلالها وصفاً للجزيرة وأهلها وأعيادها الشعبية . غير أن أهم ماراه فيها كان المكتبة العامة فى « لاقاليتا » عاصمة الجزيرة ، وكانت مكتبة حافلة أشبع مؤلفنا فيها نهمه إلى القراءة ، فعكف على الكتب التى تصف الشعوب الشرقية والتى كتبها مؤلفون ورحالة إنجليز أو فرنسيون وهو ينص على عناوين هذه الكتب ويوصى بقراءتها من يود التوجه إلى بلاد الشرق العربى وإلى مصر بصفة خاصة ، وهذه قائمة بأهم ما أورده من تلك الكتب :

- كلوت بك : لمحات عن مصر .
- شامبليون : مصر القديمة (العالم العجيب) .
- بارتيليمى : معجم فرنسى عربى (مع تصوير لطريقة النطق الصحيح) .
- إدوارد لين : معجم عربى إنجليزى .
- ادوارد لين : عادات المصريين المحدثين وطريقتهم فى الحياة .
- ويلكنسون : عادات قدماء المصريين وطريقتهم فى الحياة .

- جونسون : معجم إنجليزى عربى وفارسى .
- فارس : قواعد اللغة العربية .

وهو يثنى بصفة خاصة على كتابى ويلكنسون ولين ويقول إنه يجب أن يقتنيهما كل زائر لمصر إذ أنهما متكاملان ، فهما يصوران الحياة فى مصر قديماً وحديثاً ، كما يثنى على الكتاب الذى نشرته أخت لين وصورت فيه حياة المرأة المصرية .

وتحمل الباخرة كاتبنا من مالطة إلى الإسكندرية ، فتصل إلى مينائها فى ٢٤ فبراير ١٨٦٢ فى الساعة السابعة مساءً . ولكن ربان السفينة يؤثر ألا يدخل الميناء ليلاً ، فيظل متلوماً حتى فجر اليوم التالى ، ويصور لنا المؤلف انفعاله الشديد وهو يطالع منارة الإسكندرية وعمود السوارى الذى يدعى خطأ بعمود بومبيو ، فهذه هى أول مدينة عربية وأفريقية يصل إليها بعد أن قرأ عنها الكثير .

ويصعد مدير فندق « أبات » Abbat بنفسه إلى الباخرة حتى يجتذب السائحين إلى فندقه ، ويسلم مؤلفنا قياده إليه ، ويتوجه إلى الفندق حيث يراه مليئاً بضباط فرنسيين قادمين من بكين ، وقد ملأهم الزهو بانتصاراتهم فى الحملة الفرنسية على الصين ، وقد حمل كل منهم شيئاً مما انتهبوه من قصور بكين ، وبهذه المناسبة يسجل المؤلف حزنه لأنه الوحيد من بين السياح القادمين الذى لا يستقبله أحد ولا لبلاده البعيدة المجهولة ممثل يعنى بأمره لو حدث له شئ أو ألم به مكروه .

ومع ذلك فهو سعيد بهذا اليوم الأول الذى يقضيه فى الإسكندرية ، وهو لا يضيع وقته ، بل يجوب أحياءها ويسجل انطباعاته حولها : الطعام هنا ممتاز ، وبعده تقدم القهوة العربية . الإسكندرية مدينة جميلة نظيفة لا تقل فى مظهرها عن المدن الأوربية التى زارها من قبل ، والشوارع تضاء ليلاً بغاز الاستصباح (سوف يسجل بعد ذلك عند زيارته لأثينا أن العاصمة اليونانية لم تعرف إضاءة الشوارع ليلاً إلا بعد الإسكندرية بسنوات) . وملامح المصريين والمصريات تكاد لا تختلف عن الصور التى كان يراها فى الكتب لقدماء المصريين منقوشة على آثارهم الفرعونية ، وهو يعجب لهذه الظاهرة : كيف لم يمح الزمن تلك الملامح مع ما تعرضت له هذه البلاد من اختلاط الأجناس والأعراق على مدى آلاف السنين !

وهو يرى فى المدينة كثيراً من السود (نوبيين أو سودانيين) فيقول إنه كثيراً ما يظن نفسه فى بلدة ڤيا Villa من وطنه بيرو ، المشهورة بمزارع قصب السكر ، إذ أن هؤلاء السود المبتسمين دائما يماثلون تماماً أولئك الذين كان يراهم فى تلك البلدة بملابسهم الخفيفة وملامحهم المميزة وجلوسهم وهم يمصون أعواداً من قصب السكر . أما الريف المحيط بالإسكندرية فهو يشبه المناطق الريفية فى بلاده ،

رحالة من بيرو في مصر

لولا أن حقول الإسكندرية أكثر نضرة وخصوبة .

وبعد قضاء يومين في الإسكندرية يتوجه في صباح اليوم التالي إلى محطة السكك الحديدية حتى يتوجه بالقطار إلى القاهرة (كانت القطارات البخارية قد دخلت مصر قبل أن يعرفها كثير من المدن الأوربية والأمريكية) ، وفي المحطة يلتقي بصبيان يلتمع المكر في أعينهم وهم يساومون السياح على « البقشيش » لقاء حملهم حقائبهم .

الرحلة من الإسكندرية إلى القاهرة تبدو لكاتبنا ضرباً من الأحلام ، والمصريون الذين يلتقي بهم في القطار يتحدثون الإنجليزية والفرنسية والإيطالية ، وما أسرع ما يقبلون على الحديث معه ، وهم يقدمون له برتقالاً ونرجيلة يتبادلون الأنفاس منها .

في القاهرة : ويستغرق السفر ست ساعات يصل بعدها إلى العاصمة ، فينزل في فندق بحي الأزبكية يدعى أوتيل دوريان Hotel d'Orient (فندق الشرق) وهو منذ اللحظة الأولى يشرع في التجوال لا في أحياء المدينة فحسب ، بل كذلك في الريف المحيط بها ، ويعجبه منظر الساقية ، فيصفها وصفاً مفصلاً ، ويقول إن عدد السواقي في مصر يبلغ خمسين ألفاً ، وبعد أن يصور بشكل دقيق نطق القاف العربية يستطرد إلى الحديث عن اللفظ المقابل للساقية في اللغة الإسبانية ، وهو Noria، مبيناً أنه تحريف للفظ « ناعورة » العربي ، وهو الذي كان يستخدمه أهل الأندلس في إشارة إلى الصوت الرتيب الذي تصدره عجلتها في دورانها (وهي ملاحظة صحيحة تماماً) . كذلك يصف الشادوف ثم النورج ويربط بين هذا اللفظ المصري القديم ولفظ moreg العبري الوارد في إصحاح إشعيا (١٥/١٢) ، ثم يقول « إن من الغريب أن فلاحينا في بيرو لم يعرفوا كيف يستخدمون الشادوف على بساطته مع أنه كان من الممكن أن تفيد منه الزراعة في بلادنا » .

من المناظر الشاعرية التي تستهوي المرء وتستحق التصوير مآذن الجوامع الشامخة وغابات النخيل وقوافل الجمال والسواقي بأنينها الحزين الرتيب .

ويعود لوصف الحياة في القاهرة : مدينة ضخمة شديدة الازدحام بالبشر ، يبلغ عدد سكانها ٨٠٠،٠٠٠ نسمة وأغلب وسائل المواصلات فيها هي الحمير ، تشق الشوارع المختنقة بالبشر ، ويركض معها المكاريون بصياحهم الذي لا ينقطع : حاسب ! رجلك ! حا ! .. يابنت ! .. يولد ! .. (وهو يسجل كل هذه الألفاظ بالحروف اللاتينية) . هؤلاء المكاريون على الرغم من

أن أعمارهم تتراوح بين ثمانية واثنى عشر عاماً يتكلمون شيئاً من الفرنسية والإيطالية والإنجليزية وكلمات من الإسبانية ، وهم يرتدون جلابيب زرقاء من القطن وطواقى من الصوف ، ويوجدون فى كل مفترق طرق وبشكل خاص على أبواب الفنادق ، ولا يرون أوروبياً حتى يتصايحوا :

- A good donkey, sir . you want a donkey, sir ?

- Un bon baudet ! Voilá le bon baudet, monsieur !

- ... Marche comme tous les diables ! C'est le chem in de fer, monsieur !

ويروقه هذا التشبيه الأخير للحمار الذى « كأنما ركبته الشياطين » أو « الذى يشبه قطار السكك الحديدية » . (فقد كان المثل يضرب آنذاك فى السرعة بقطار السكك الحديدية) ، بل لا يخلو الأمر من صبيان يصيحون بالإسبانية :

(حمـــــار جيد ياسـيدى !)

- un buen asno, senor !

ومع طرافة هذه النداءات ومناظر النزاعات بين المكارين من أجل الظفر بركاب لمطاياهم فإن الأجر الذى يطلبونه لقاء خدماتهم متواضع إلى حد بعيد . فهو لا يزيد على فرنك واحد للجولة لمدة ساعتين أو ثلاث ، مما يشجع السائح على أن يستأجر حماراً .

ويذكرنا تصوير باث سولدان لهذه المشاهد بذلك الذى ورد فى حديث الرحالة الأندلسى على بن موسى بن سعيد عن القاهرة ومكاريها فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ، وكذلك بالمشاهد الفكهة التى قصها علينا المويلحى فى « حديث عيسى بن هشام » والتى تخيل وقوعها فى نفس الفترة التى وافقت وجود رحالتنا البيروانى فى القاهرة ولا نحس فى تعليق مؤلفنا بضيق أو امتعاض لهذه الحياة المائجة الصاخبة فى القاهرة ، فهو يقول :

« المصريون يكثرون من استخدام أيديهم وأذرعهم فى الكلام ، وهم لا يكفون عن الصياح فى مرح ، ولهذا فإن الغريب هنا يضطر اضطراراً إلى تعلم اللغة العربية . الحياة هنا فى القاهرة تختلف فى ذلك تماماً عنها فى دمشق الصامتة العابسة أو فى الآستانة التى تقاربها فى التجهم القاتم ، وقد يكون من أسباب ذلك الطابع المفتوح لأهل مصر .

كل شئ هنا يحملنى على تعلم العربية، وتأكيداً لذلك أذكر أننى تعلمت خلال الأيام القليلة التى قضيتها هنا من الكلمات والعبارات العربية أضعاف ما تعلمته من الألمانية ، مع أننى قضيت فى ألمانيا مدة أطول ، وللمصريين طريقة فى الكلام تدفع دفعاً إلى التواصل معهم والانجذاب إليهم ، وكما يقال من أن النار تطهر كل شىء فإنه يمكننى أن أقول إن الكلمة هنا فى مصر تجمل كل شئ وتسبغ على العادى المبتذل من الأمور سحراً خاصاً » .

رحالة من بيرو
في مصر

خارج القهوة الفنان
لودفيج دوتش عام ١٩٠٣

صحن جامع رستم باشا في اسطنبول
لوحة للفنان رودلف ارنست

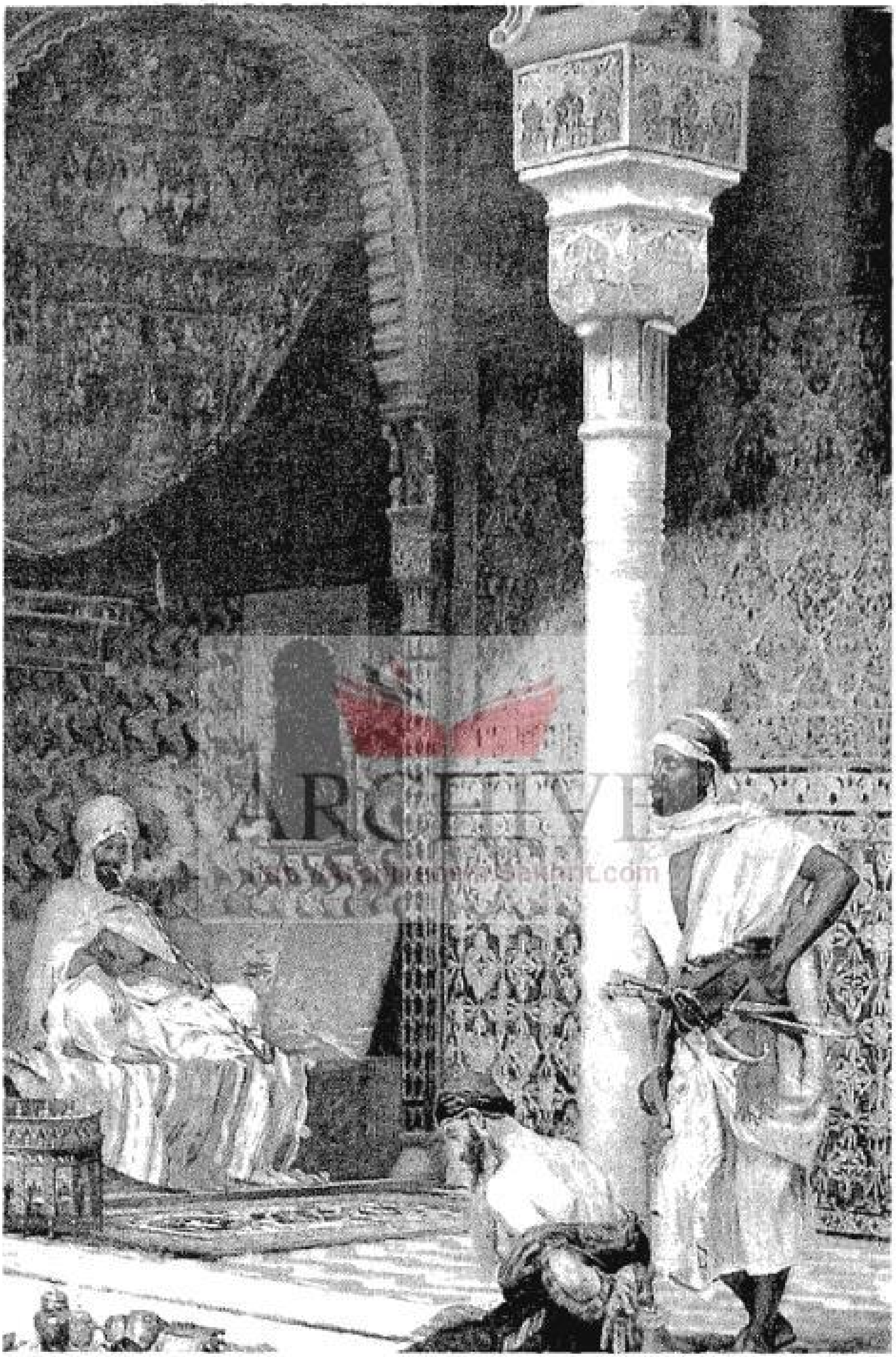




الاسير .. لوحة للفنان فيلبيوبا إتي ←

الامير والخادمة .. لوحة الفنان
جون فردريك





الفارس

شعر : د . صابر عبد الدايم يونس

بريشة : الفنان محمد حماد



في زمان الهوان أنتَ الإباء ∴ والمنارات من حجاك تُضاء

أنت أيقظت في الصباح نياما ∴ كانت الأرضُ ليلهم والسماءُ

أسكنوا الحرْف هيكلا مرْمريًا ∴ والخيالات في رؤاهمُ خواءُ

فجرت روحكُ الفتيةُ فيهم ∴ لغة الضوء .. وهي حاءُ وياءُ

عانقوا الشمس في الظهيرة ∴ والحق خطاهُ لم تثنها الرمضاءُ

وهج الصدق فيك نور ونارُ ∴ وإلى نورك المريدون فاءوا

لغة النار أنت فيها المرايا ∴ والحروف العواصف الهوجاءُ

***

أيّ ريح .. أثرْتها في فضاءا ∴ تِ رؤانا فزلزل الشعراءُ ؟ !!

أيّ نار .. سكبتها .. في مسافا ∴ تِ هوانا فأُحْرق الضعفاء

أي كنز وجدته في كهوف النفس ∴ والنفس والوجود سَواءُ

لغة الضوء .. لم تدَعْك حبًا ∴ غير من أنت في مداهم رجاء

لغةُ النار أبعدتك عن الضو ∴ ء وفي الضوء .. تمكُنُ الظلماءُ

في زمان الهوان أنت الإباء ∴ والمنارات من حجاك تُضاءُ

عبقريٌ .. سافرْت في عبقريا ∴ ت التواريخ تصْطفي من تشاءُ

● أستاذ الأدب والنقد بكلية اللغة العربية بالزقازيق

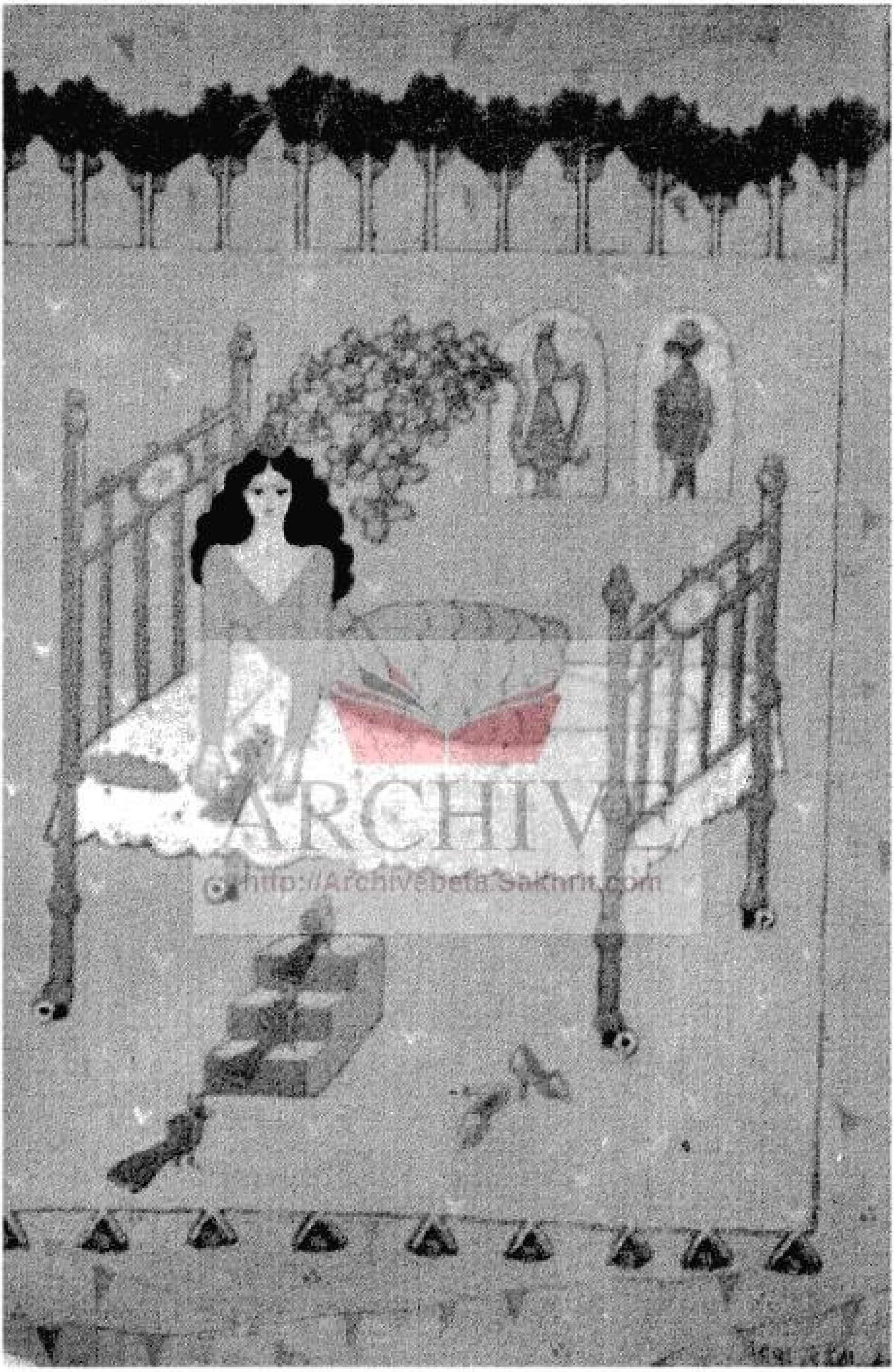
حلمى التونى
والهمس فى العيون

محمد ابو طالب



« ما نراه هنا ، لا هو هذا ولا ذاك ولا غيرهما مما تعودنا أن نراه .. فهو لا يشبه « المتفق عليه » ولكنه شىء آخر يمكن أن نسميه « المختلف عليه » أو حوله .. أو ما لم نتفق عليه بعد .. فأنا لا أتصور أن أرسم عملاً يقف أمامه المشاهد ويشعر أنه ربما قد شاهده قبل ذلك ، أو رأى ما يشبهه ..

هذا هو المعيار عندى ، أن تقف أمام اللوحة وتشعر بصدمة .. مفاجأة .. دهشة .. أو سرور (وهو الأفضل) ، وأنك لم تشاهد ما يشبهه من قبل ، واذا ذكرك هذا العمل بشىء فإنما يذكرك بشىء رأيته فى الطبيعة ونسيته ، أو يذكرك بذكرى لك خاصة .. ولكن أبداً لايذكرك بعمل فنى آخر .. »







● هذه الفقرة من الكلمة المطبوعة فى نشرة معرض الفنان حلمى التونى الذى أقيم بقاعة أخناتون بالقاهرة فى الفترة من ٢٩ أبريل حتى ١٥ مايو السـابق .

وجاءت هذه الكلمة كرسالة موجهة من الفنان إلى زوار معرضه واتسمت بتلقائية محببة وصدق كامل ساعدا على سرعة وصولها وتواصلها مع المتلقى الذى أحس بصدق الفنان وشاعريته .

والفنان حلمى التونى أحد الفنانين المهتمين بالبحث فى أصول حضارتنا والغوص للوصول إلى الجذور ، والأرض التى يحفر فيها هى أرض مصر مهد الحضارات جميعا .

من هذا المعين الفنى المتنوع يستقى الفنان ويستلهم عالمه الفنى ويعثر خلال بحثه الفنى على بوتقة انصهرت فيها كل هذه الحضارات وفنونها وهى الفن الشعبى المصرى .

لن أتحدث عن رحلة الفنان حلمى التونى فى دروب الفن لأنها أولاً رحلة طويلة ومتشعبة بدأت منذ أكثر من خمسة وثلاثين عاماً وثانيا لأن الفنــان من أشهر

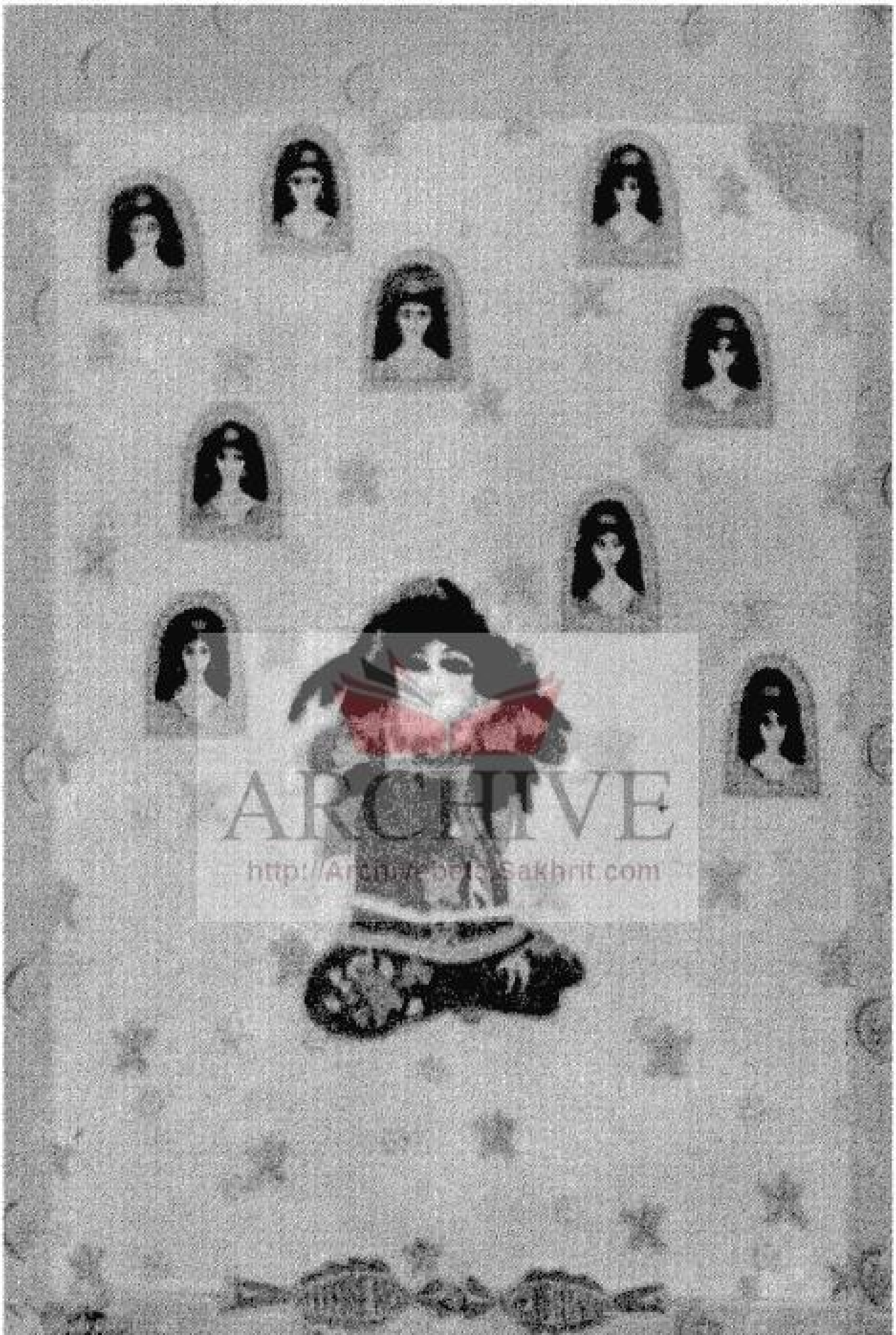






فنانى العالم العربى حيث أنه أحد رواد فن تصميم الصحف والمطبـــوعات بكافة أنواعها ، ويذكر له الفضل فى إحداث ثورة فنية لجميع مطبوعات دار الهلال فى ستينيات هذا القرن وضعت هذه المطبوعات فى مصاف المطبوعات العالمية من حيث الشكل والتصميم والرسم بعد أن ظلت لعشرات السنين تخرج بأسلوب فنى متواضع لا يختلف كثيرا عما بدأت به فى نهاية القرن التاسع عشر ، لهذه الأسباب لن أخوض فى رحلة الفنان وبصماته فى كثير من المجالات الفنية فى مصر والبلدان العربية ، فقط سأحاول نقل بعض إحساسى عند مشاهدتى لمعرضه الأخير الذى استطاع أن يبعث البهجة فى نفوس الـــزائرين على اختـــلاف ثقافاتهم وأعمارهم .

هذه البهجة أو « الفرحة الفنية » كما أسماها الفنان فى كلمته كانت ومازالت هدفاً يشغل الفنان بالبحث عن شكل وأسلوب يستطيعان تحقيقه فى إطار من الخصوصية التى اهتم بها الفنان وميزت جميع أعماله وهى خصوصية فردية لذات الفنان وخصوصية جمـاعية للوطن والبيئة



والتقاليد والتراث والحضارة ، والفنان حلمى التونى كان محقاً تماماً عندما اعتبر الخصوصية مصدر الإلهام لأى عمل فنى أصيل وصادق .

تحدث الفنان عن مشاعره وأفكاره قبل وأثناء وبعد عملية الإبداع وذكر الرسوم الشعبية وألف ليلة وليلة واللعب الخشبية ورسوم المنمنمات الإسلامية وقطع الأثاث وقماش الفساتين المشجرة التى ترتديها الفلاحات وبنات البلد فى مصر ، كما ذكر مساحات الخضرة التى تحتضن الطريق أثناء السفر والنخيل وزخارف عربات الكارو وتذكر رجال الأمس ذوى الشوارب الكبيرة والطرابيش والشماسى ، وتساءل فجأة « أين ذهبت الشماسى ؟!! » ليكشف عن فيض هائل من النور والبراءة فى أعماقه انعكس على جميع أعماله ، كما أن هذا التساؤل البسيط استطاع أن ينقلنا فجأة إلى الواقع ويشعرنا كم هو مختلف عن الأمس الجميل .

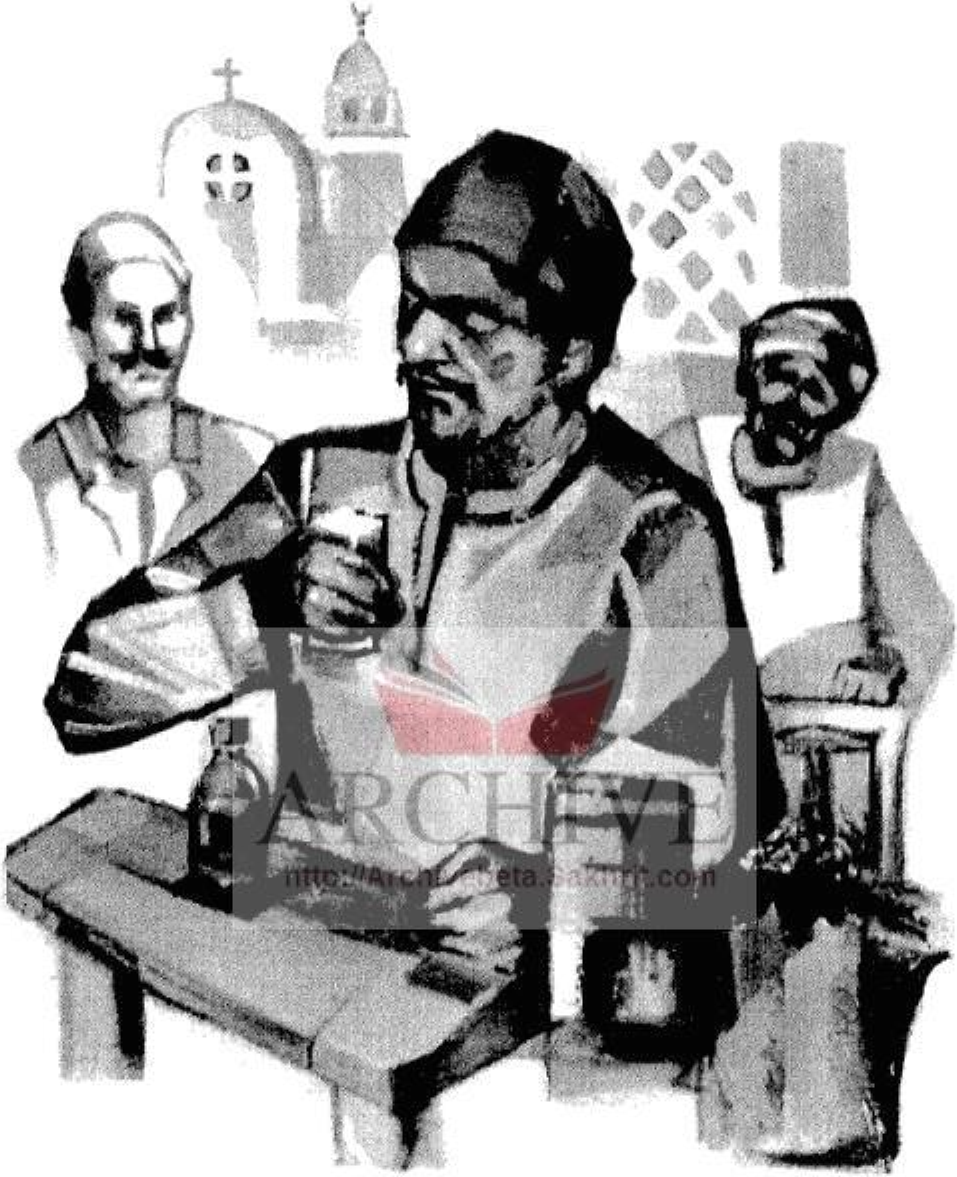
فى هذا المعرض كان الفنان حلمى التونى يهمس فى عيون المشاهدين بألوانه الهادئة الرقيقة العميقة ذات الدرجات المتقاربة والتأثير الساحر الذى استطاع بهدوء شديد أن ينتزع الإنســـان من واقعه





المضطرب المشحون بالهموم والمشاكل والرؤى الرمادية إلى عالم الحلم والذكرى والأمل .




ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قصة قصيرة

أقوى من أمواج النيل

بقلم : إدوار الخراط

بريشة : سميحة حسنين

بعد عودتنا من وادى النطرون ، وانتهائنا من ترحيلة إعادة رصف شقة من الطريق الصحراوى التى أخذ خالى ناثان عهدتها من المقاول الكبير الذى لم أعرف اسمه قط ، كنا أمام دكانة المعلم شنودة البقال ، فى أول الليل . أنا وخالى ناثان ، وأسعد أفندى ابن أخت عمى سلوانس الصراف . أخرج لنا شنودة مقعدين خشب مدورين ، دون ظهر، عملهما له خالى سوريال عندما جاء هنا أول الصيف ، وجلس هو على حَجَرة بيضاء كبيرة ، أما كرسى الخيزران فقد عزم وحلف على خالى ناثان ليأخذه .

كنا نواجه الدكان ، فى الحارة الضيقة ، وورانا حائط سدّ طويل متلوٍ ليس فيه منفذ ، حائط بيت الشيخ علوان ، صاحب كُتّاب القرية وإمام مسجدها ومقرئها وكان يحجز أهل بيته عن عيون القرية ويمنعهم زيارة أهلها ، نصارى ومسلمين على السواء ، يحوّط على كنز هشّ سريع الاشتعال .

كان بيته فى الجانب البَحرى من الطرّاتة الذى يسكنه أقباط البلد تقريبا، فيما عدا بيتين أو ثلاثة .

أما الكنيسة فقد كانت فى الجانب القِبْلى ، فى وسط بيوت المسلمين وأمام السراية .

الجرن المدور الفسيح يربط بين شقىْ البلد .

جامع القرية كان أيضاً فى طرفها القبْلى ، يطل على الغيطان من ناحية ، وعلى النيل من ناحية أخرى ، والطلمبة الوحيدة فى القرية كانت فى حوش الجامع ، تمد الميضة بمائها الرائق الذى كان يصعب قليلاً ترغيته بالصابون .

وكنت تأتى إلى الجامع بعد أن تترك دوّار الشيخ عيسى وتعريشة الخشب التى تتعلق بها

العتبة العجفاء الناحلة على مطبته العريضة ، وبعد أن تدور حول سور السراية الكبيرة المرشوق بالزجاج المكسور وشقافة القُلل والزلَع ، طالعاً من ماء النيل مباشرة من الناحية الأخرى ، والسراية ، لايقيم فيها إلا الخواجا أبو أنيس - البقية الباقية من عائلة داود - وخادمه العجوز حمدان . هو أيضا لايزور ولا يلمّ به أحد ، لا يفتح الباب الخشبيّ العريض لأحد ، بعد أن جاء ابنه الذى كان طالباً بمدرسة الطب العليا فى القصر العيني فى المسامحة الصيفية التى فاتت ، وجاء معه برقاصة من مصر قال إنها زميلته فى الكلية فلما عاد أبو أنيس من دمنهور ، طرد ابنه من السراية ، واستبقى البنت ، وأطلق أنيس على نفسه الرصاص ، وظلت السراية خاوية على عروشها . لم يكن الشيخ



يسمع فى عزلته الا صوت طلقة نار .

وبعد السراية تأتى إلى قبّة الشيخ أبو طاقية ، خضراء منخفضة ، وحدها على طرف جسر النيل المرتفع، ولها شباك حديدى نرى منه النعش المكسو بحرير أخضر ناصع . الشيخ علوان يوقد المبخرة فى صلاة الجمعة ، ويتبرك به الناس .

أما طرف القرية البَحَرى فقد كان آخر بيت فيه ، يطل على الغيطان ، جنب الساقية القديمة المهجورة ، وهو بيت الست حنينة ، تعيش فيه وحدها ، بعد أن مات عنها زوجها عمى ميساك البنهاوى ، لايعرف لها أحد أصلاً ولا فصلا ، سيرتها على كل لسان ، وكلها غزّ وتنخيس .

عَزَم علىّ المعلم شنودة بكأس عَرَقى ، سقسقة بالماء فابيض وكثف قوامه ، زيتيا ، كاللبن الحليب ، وفاحت منه رائحة اليانسون النفاذة ، وحثنى خالى ناثان أن آخذه ، من غير كسوف خُد يابنى صهلل ياما عمك شنودة قرّبع « خمسينيات » كونياك أوتار معتبر من جدك وياما أكل « زفر » مزغط من إيد ستك ياالله ياعم حد واخد منها حاجة إن شا الله ماحدّ حوش إلى آخره إلى آخره ، وضحك أسعد أفندى بصفاء وصعد العَرَقى قليلاً - كالعادة - إلى رأسى وأحدّ بصرى وتيقظ حسى وتوتر جسدى .

عندما خرج إلينا من الغور ، وفى يده ربع

العرقى ، كان لخطواته الثقيلة صدى فى الفراغ، وسط الدكان

الرفوف حوله ، فى عتمة خفيفة ، عليها علب الدخان والسجاير معدن كوتاريللى بالقاروصة ، وبالعلبة ، وفَرْط ، وشاى التموين فى باكوات ورق مسطحة صفطانة صغيرة حمراء ، وعلب أخرى مستطيلة ومكعّبة وطرية الشكل ، وعلى الرف العلوى . أقماع السكّر الكاملة فى غلافها الورق الأزرق ، أما الكَسْر منها فجنب البنك يضربها المعلم شنودة بسنجة الوقّة المضلعة فتنبثق منها شرارات حمراء متطايرة من قوة صدمة الحديد بصلابة السكر ناصع البياض . تحتها باكوات الملح فى عبوات ورق رمادى مرسوم عليه أبو الهول . جنبها زجاجات الزيت الفرنساوى . تراكم التراب من الخارج على نسَم زجاجها ، وأقراص الليف الخشن الملتف على نفسه . ومن الناحية الأخرى مكعّبات صابون النابلسى فاروق الصفراء الجافة اسودّت قليلا من الأضلاع الخارجية . أما صفائح الجاز فكانت بجانب الباب ، بعيد متناولها ورائحتها عن سائر البضاعة . لم تكن الرفوف الخشب الخام عامرة . لمبة جاز نمرة خمسة مدخمسة فى خواء وسط الدكان . على الأرض المتربة أكوام عالية من قوالح الذرة وشوالات الغلّة والشعير والحلبة ، والعيش البتّاو الناشف فى مقطف كبير

صفوف البيض الطازة مرصوصة فى قفص معمول من جريد النخيل ، هذه عُملة أهل البلد ، بنك البلد ياما قايضت كوز الجاز – بالكوبون – بكوز الذرة ، لستى أماليا ، وحُق الدخان أبو غزالة بثلاث بيضات لجدى ساويرس . وعندما يخرج المعلم شنودة من الدكانة يرفع البنك الخشب ويتركه يسقط على دعامتيه بخبطة قوية .

قدّرْتَ لى سبيلاً على الأرض ، ليتنى أتألق فى جوهرك .

يا أم الاله ، ياذات الأسماء التى لاتحُصى ، ياموللى ، لا أعرفك أيتها الغريبة ، أنكرك ،. أنت فى ، كل لحظة ، تعاساتى لا نهاية لها ياسيدة القُرَى المولودة ناضجةً كاملة فى القوقعة نيمفية البحر الكبير إيزه عشتار مريم رامة اشفعى لى ، بحق الأنات التى لاينُطق بها ، دفنت وجهى فى ظلامك الذى يسطع بنور أكثر تألقا من كل أنوار الأرض والسماء .

نور معموديتى الثانية موسيقى الأمواج تصدر عن جدران المقبرة تحت شجرة الدوم القردُ القدسى لا أراه ، أعرف أنه جاثم بلا حراك بين سعَفها الدائرى المجدول صلاة تطهير للآثام الثقيلة ماضية وآتية بزوغ القمر الوليد .

وفى حموة العَرَقى الخفيفة كان حضورها الذى يمر أمامنا ، قوياً وكأنه تهديد ، تحت حائط الشيخ علوان الرمادى القاتم ، فى طراوة غبشة أول الليل ، تميل على رجلها وهى تتسرب حافية، قدماها المتربتان نصف أصابعهما قد تآكل وسقط ، غلظت جذوعها الباقية وتكورت . عيناها وحدهما نقيتان متألقتان بنار داخلية ليس فيها غضب ولا مرارة ، أمواج شعرها الناعم المنسدل مسرح ممسد بعناية ، تحت الطرحة المغبرة باهتة السواد ، مفروشة على ظهرها .

طرياً ودافئا ، مع أنه مطمور فى الرمل منذ أكثر من ألف عام ، المجد لك يايسوع قال المعلم شنودة ، كنت هناك وأنا صغير ، مع أبى الله يرحمه ويقدس روحه ، عندما رفعوه ، قال نضح الجثمان فجأة بالدم وسال الدم على الأكفان



الملفوفة حوله ، كتان أصفر كأنه الحرير ، وكأن جراح الاستشهاد مفتوحة مازالت ، تنزف ، قال ، تحللتْ رقائق الزنك التى تحيط بصندوقه ، وتفتت خشب الصندوق بمجرد أن رُفع فى الهواء ، واستحال مسحوقاً من رماد باهت ، ولكن بقيت علامات الصليب المرسومة على لفائف الكتان لم يمسسها البلى ولا أصاب فتائلها عطب ، قال ، كل الدفائن حوله سقطتْ عظاماً مفككة متناثرة ، وبقى جثمان الشهيد سليما يضىء وجهه المكشوف بنور ليس من هذه الأرض ، كأن الروح لم تفارقه بعد ، قال ، رأيته عندما أخرجوه وقبل أن يودعوه صندوقه الجديد المعمول من خشب الجوز الثمين ، سراً ، دون أن تعرف الحكومة ، صلّوا عليه صلاة الشهيد، مساء ، على نور الشمع الكبير ، وكانت الكنيسة محتشدة بالناس ، لايند عنهم صوت ، والقداس السرى فى عنفوان تقلبه ، رأيته ، قال ، قوىٌ البنيان مازال ، ممتلئا بالنعمة ، مهيبا ، على قسماته آثار الآلام التى لا توصف ، تجاوزها وعبر إلى المسيح ، صَفَتْ ملامحه ، وراقت ، نال إكليل الشهادة ، قال .

عثروا تحت بوبيللو على جثمان القديس بسادة ، محتفظا بكيانه ، قال .

قلت لك : أحتاجُ إلى الشجر ، والسماء ذات الموج الساجى ، والنوارس المنطلقة الصارخة على غُمْر البحر، لكى أعرف الحرية، لكى أخلص من

ثقل الدهور بكل مجده وأكاليله.

ليست حريتي محبوسة داخلية مقطوعة عن جسد العالم عن تجليات جسد الله آخذ قرباني في نور الشمس الفسيح في سطوع ليلٍ لا نهائيّ الأفق.

لا لم أقل لك ذلك

لم أقله

لا أقوله

الا ينتهي القيل والقال؟

عددتُ صياحَ الديك، مرتين و فقط

أظل انتظر الثالثة.

هل أبحثُ عن جسد العالم، عن تجليات، في جسدك وعجينته؟

أم أبحثُ عن جسدك تحت بشرة السماء الناعمة، في عَضَل الشجر، وفي زهوره الصفراء الساقطة في تراب الطريق؟

قال كان جسده أبيض اللون، نضراً، قال، وأبونا أندراوس سكب عليه قنينة عطر جديدة غالية، اسودَّ الجسد على الفور، كله، ولكنه ظل على لدونة أعضائه وطراوتها. وبقيت في الوجه المسوَّد المنير، آثار كدمات قاتمة، جروه على الأرض أثناء تعذيبه، جلدوه، وجذبوه على وجهه من فوق سلّم قصر الوالي وأركبوه بالمقلوب، دامياً مرضوضا، على جاموسة، وطافوا به شوارع المدينة.

عصبوا عينيه طوال المدة في طُرة، في أبو زعبل، وضعوا الأسلاك الكهربية حول خصيتيه وعلى حلمتي صدره، وكسروا أسنانه بلكمات قوية، أوقفوه في الماء البارد عاريا، وعلقوه من قدميه حتى فقد الوعي، وقالوا اعترف.. اعترف

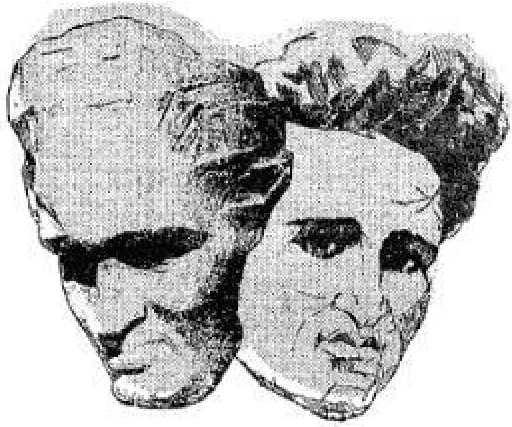
في بكين وبرلين، في روما وقرطاجنة، في لورنزو ماركيز وبوينس أيرس، في دمشق وبغداد، في سيول وهانوي، كلهم سواء.

الكدمات والتشويهات قد نعمت بالشهادة وكأنها وَسامة مُضافة، كانت الذراعان منزوعتين عن عظام الكتفين، وأثار القطران المغلىّ المسكوب على رأسه تاجا من الشوك حروق في الجسم على هيئة سيور غير منتظمة، والكلابات الحديد غُرست في لحمه وعظمه غرسا، تركت فتحات غائرة ثقوب هلْب مَركب حادّ الأسنان في الصدر، ثلاثة أقانيم العذاب والاستشهاد.

الشهداء بلا اسم ولا عدد. بلا مجد ولا نُصب، هذا مجدهم المركوز.

صفوفهم تتوالى تسقط ترتفع بلا انقطاع بلا انقطاع.

مسرح :



العيد المئوى لمولد فنان الشعب سيد درويش

"السيّد"

سلطان زمانه - ولكل الأزمنة -

بقلم : فوزية مهران

وكان حقا علينا أن نسمع صوته الآن
- فى هذا الأوان العسير - ومن خلال مؤلف مسرحى (جاد ومهموم) يريد ليقول كلمته ..
- وجدها فرصة مواتية أن يقولها خلال فنان مصرى أصيل .. ثائر موسيقى ومنشد وطنى - قائد لأوركسترا النضال .

(صوت يجيء من الدروب الضيقة .. صعايدة وشغيلة .. عمال مواني وفلاحين ومراكبية وبنت مصر بياعه وخبازة ووسط البنائين « والفواعلية »)

صوت مشروخ يتصعد من مقهى ومن أعلى بناية .. ومن نداء الباعة ورؤى العاشقين ومن نوب مياه النيل .. تعكس روح أمة .. مرحها وويلاتها .. ومكرها

الجميل .. وأسباب التحدى والتأهب ليوم عمل جديد .

- موسيقى سيد درويش .. تصدر من عمق القلوب .. وتتصعد من « جوانية » الناس وتعبر عن همومهم وأحلامهم .

وكان حقا على يسرى الجندى .. أن يعود للمسرح ويعيد اكتشاف ذلك المنجم ويحرك كوامن النفس والشجن .. ويوقظ منا الحس وقوى الإدراك والعمل .

- والنوايا الطيبة لاتقيم صرح مسرحية جيدة .. ولكن فى زمن الايقاع الردىء والأغانى الهابطة والجهر بالسوء والمسرح الردىء نجدها « نعمة » أن نلتف حول كلمة طيبة ونعيد صياغة نغمة صحيحة .

كتيبة الثقافة الجماهيرية ترى أن من أسس أعمالها وأهدافها « الوصول بالثقافة إلى الجماهير وتحقيق مبدأ ديمقراطية الثقافة » .. ونحن فى حاجة حقا إلى أن نعيد بناء الثقافة الوطنية وإيقاظ الوعى العام وبعث التربية الجمالية وجعل الجماهير مشاركة ومنتجة أيضا لهذه الثقافة وباعثة وملهمة لها .

سيد درويش حقق ديمقراطية الموسيقى .. حررها .. نزل بها من تحت السلاطين والأمراء .. من خدور الغوانى وحرملك السلطان .. لتصبح حقا وأداة تعبير وتغيير .. ووصلها بجيشان العواطف والأحلام التى تسكن قلوب الناس - جعلها تلتقى مع الموسيقى الكامنة بأعماق الشعب وتطلق قوى الخلق والإبداع لديهم .

تجلى المخرج عبد الرحمن الشافعى أدار العرض كعادته دائما بحماس وحب و« صخب » ..

وحاول جاهدا ألا نحس بالفجوة بين مجموعة الموسيقيين والمنشدين فى عمق المسرح وبين مايحدث فى المقدمة أو على المستويين الأعلى على جانبى المسرح .

- كانت الأوركسترا فى الوسط .. وفى العمق وكأنها إشارة موحية لعمل موسيقى سيد درويش ونفاذها إلى القلوب .. وتبضها بين الحنايا وتدفق الحياة والعمل .

عبدالرحمن الشافعى وتتابع أعماله وجهوده على مسرح الثقافة الجماهيرية لأكثر من ثلاثين عاما .. يحب دائما المسرح الشامل - العرض الذى يحقق فرجة شعبية يمتزج فيها الرقص بالغناء والأداء التعبيرى ومجموعات الإنشاد والحركة .- حتى صار مثلا لكل أجيال المخرجين من بعده .

وحتى أصبحت أمنية عسيرة أن نجد عرضا بسيطا بدون كل هذا الحشد « والصخب » .

ووجد عبد الرحمن الشافعى بغيته فى فرجة مسرحية وعن فنان الشعب .

- وإن كانت المجاميع أكثر تدريبا وأقل عددا من مرات سابقة .. ويبدو جهد الفنان محمد خليل واضحا .



البساطة كانت صيغة تليق بهذا العرض – فى الاخراج والتأليف .

جو مثالى

من ميزات المخرج أنه يجعل الأشياء تتقابل وتتداخل على المسرح وأحيانا يبرز ثراء الصورة عن طريق التناقض .

وقلنا إن جو المسرحية هو المثالى بالنسبة له .. فلقد تجاور الضحك والغناء وجو المأساة والسخرية والنقد السياسى والاجتماعى اللاذع . نقلنا المخرج والمؤلف إلى الجو الذى خرج منه سيد درويش .. وشاهدنا ردود الفعل التى تصدر عنه .. ودلنا على الظروف مجتمعة التى تحيط به والجميع فى هذه الحقبة .

يسرى الجندى وجد بين يديه مادة تاريخية موسيقية ودرامية – خصبة وثرية كذلك بطل تراجيدى ومن قلب الجماهير – كان من الممكن بناء مسرحية هائلة تاريخية أو عبثية .. لكنه فضل المباشرة .. والمحادثة المسرحية والفرجة ..

– حدد لنفسه مهمة متواضعة منذ البداية « تطمع فقط فى أن تشعل قنديله السحرى لحظة نرى فيها أنفسنا ونراه » .

هذا بالفعل أيسر وأسهل .. ومدد ياسيد .

ومع أنه أعلن هذه الصيغة إلا أنه فى التنفيذ عقد المسألة وركبها أكثر مما يجب ومما تحتمل .. وتحير فى الاختيار بين المواقف والذرى الدرامية المدونة .

يبدأ وشلة الأنس تجلس أعلى المسرح إشارة واضحة وذكية لتوقد العبقرية والجرعة القاتلة لحياة متوهجة

حديث يدور بين حانوتى والسيد فى مقدمة المسرح – ياستر.

يطلب منه جمجمة .. يقلبها بين يديه ويعود ليقول إنه لم يعد بحاجة إليها – فالطب ليس بعلاج للأمراض المستفحلة .

أية بداية .. وحكمة سانجة .. لمسرحية غنائية أو فرجة شعبية وألحان ملهمة ! وهل كان من سبب لظهور الجمجمة ؟

شلة الأنس تستعجل الحانوتى ليصعد لها – ووجودهم على هذا النحو معبر – ليظلوا فى الذاكرة أو فى خلفية الأحداث ويظل السلم الموصل إلى خشبة المسرح يصل بين الماضى والحاضر .. ويرمز إلى تداعى الصور والذكريات والأحداث .

هنا يجب فنان الديكور أشرف نعيم صنع مستويين أعلى على المسرح .. وكمنت الفرقة الموسيقية فى العمق واتسعت ساحة المسرح لسيد درويش ومنابع إلهامه ومجرى الأحداث والحياة من حوله .

شلة الأنس فى المستوى الأعلى فى أوهامها ولكنها تنزل كل حين وتشارك وتعلق على الوقائع والأحداث .

ويظهر فوق المساحة أيضا أفندينا وجوقة الطرب .. ويمر من فوقها سيد درويش أحيانا ليتأمل من بعيد ويستلهم رجع الأصوات وإيقاعها - أو ليظل ثابتا حيث تجرى من تحته حركة المؤدين ومجريات الأمور . كان أشرف نعيم نكيا ولبقا .. إذ لعبت هذه الفواصل دور الكواليس وظلت كل الأشياء مكشوفة أمامنا .

وفى المقابل مستوى آخر تبدو تقسيماته برءوس النغمات وكأنها مسامير غليظة وحشية غرست فى أرض النغم - وتصدر من بينها مشرجات سوقية مثل « كوز المحبة » وغيرها ...

يتصدر عمق المسرح مفتاح صول كبير رمز التطوير سيد درويش للموسيقى الشرقية ووصلها بالموسيقى الحديثة .

تحته تكمن الفرقة الموسيقية بقويها ويقوم بدور سيد درويش مغنيا رءوف حمدى - صوت ساطع صادح لابد من إيجاد مقهى ثقافى له تستمع فيه إلى تلك الألحان الشجية التى توحدنا وتصل بيننا .. ونستعيد قوانا على حسن الاستماع والإدراك والحركة الصاعدة إلى أمام دائما .

كذلك تنطلق موهبة أخاذة « ماجدة ابراهيم » وصوتها العذب يهزنا من الأعماق ويحرك مياهنا الداخلية وموسيقانا الكامنة .

وينطلق صوت الشيخ سيد القاضى .. قويا عريضا منشدا ويعلى من درجة اتقاننا .

وتخرج أيضا من بين رءوس النغمات الغليظة « جميلة » أو جليلة فى الأصل حبيبة سيد درويش ..

- تمثل الصوت الآخر داخله - صوت الغواية والتزييف .. تريده ليستسلم مثل الآخرين - فليس أقل موهبة منهم - أن يغنى للبلاط الملوكى ولجوارى السلطان (عقد مقارنة بين سى عبده وعيشة الترف) بدلا من الفقر والبؤس والغناء لفقراء تعساء .

- نفس المنطق الحديث - وأسلوب البيع والشراء . والغواية الآثم لفنانين ومجاهدين .

جليلة - جعلوها راقصة - لماذا لا تؤدى دورها ممثلة ؟

(لكن الراقصة جاهزة والدنيا رمضان .. ولا رقص فى الملاهى والصالات فلا بأس من أن تعتلى المسرح - مسرح الثقافة بالذات - وتؤدى رقصة كاملة محشورة ومقرصة على أنغام سيد درويش) لماذا إذن كانت المسرحية . ودفاعها عن التطوير والنغم الأصيل ... لماذا كل هذا التعب ؟)

- وهناك أيضا جارية أفندينا عندما استدعى من جبانة الأموات وجاء بالخلفية التاريخية معه .. بقمع الدولة وتابعه .. ورقصت جاريته أيضا .

المويقات التى تقام ضدها المسرحية .. نجسدها « ونشخلعها » ونفسح فاصلا لها وتبدأ المسألة بحجم راقصة .. وتحتدم بخطب مباشرة عن طول بحثه « عن الصوت الذى بداخله » .



فهمي الخولي ممثل شخصية سيد درويش . كان يبدو أنه يعاني من انفصام طوال الوقت .. لم يساعده النص .. لم يساند نفسه مخرجا .

كان يؤدي شخصية سيد درويش ويروى عنها بالاضافة لإحساسه المتضخم بذاته ورغبته في أداء بطولة خارقة .

أحيانا يندمج مع الدور ويستهويه جو النغم لدرجة أن ينسى حدود دوره ويغني بصوته ويصفق الجمهور له - للغناء والصوت .

وحينا يقوم فينا خطيبا يحاضرنا عن سيد درويش .. ثم يتذكر البطولة المنتظرة فيتجهم وينظر إلينا من علياء !

في حين أن الكلمات شاعرية غنائية وتذوب عشقا وجوى . وتقول بصوت يسرى الجندى . « مكتوب على جبيني أكون درويشك المجذوب مكتوب أكون قنديل يضيء لحظة زمن مكتوب وده عشق موت »

فهمي مخرج متمرس .. ويعرف من أسرار الحركة على المسرح ويرسمها .. فلماذا رضي لنفسه أن يروح ويجيء هكذا .. أمامنا على المسرح - يتمشى طوال الوقت - ولايكاد يغادره ؟

هل كان يود ألا يندمج في شخصية سيد درويش . ويظل خارجها - وعلى الطريقة البرختية يعلنا أنه يلعب دورا - ويمثل - لذا يجب ألا نتأثر أو نتطهر أو نندمج نحن وعلينا التفكير والتدبر .

- ولكن ذلك لا يتحقق بقطع المسرح ذهابا وإيابا .

(المقهى .. لقاء وود وحوار ومشاركة - وتعينهم على السمع والتعليق وإطلاق نكاتهم اللاذعة - سلاح المصريين ومنطقة صمودهم وعشهم)

ونحس في المسرح أننا على المقهى بينهم - نسمع ونرى وعندما تحيط بهم الكروب والضغوط تمد آهات عميقة بيننا - وتنزل عليهم الشباك المحيرة المربكة .. وتتخبط بينهم .

الغريب أن يقف سيد درويش خارج الشبكة - كان وسطهم بالطبع - وقلبهم النابض وصوتهم المليء بالأسى والشجن على المقهى .. يجتمع المسيحي والمسلم الضرير والمفلس وتختلط الاصوات بالطلبات بالترحيب ... والتعليق والحكم على الأحداث والظروف .

نغمات أصيلة

نجحت المسرحية في إبراز تلك اللحظة الدرامية المتوهجة عندما يلتقط سيد درويش جذوة ألحانه وأنغامه من بين كلماتهم .. مجرد النداء والتعليق .. والنكتة .. كلها تتحول إلى بث موسيقى .. ونغمات أصيلة لها وهج وإيقاع وصدى على طول الزمن .

لحظة تخليق الأغنية .. وانبعاث اللحن كانت موحية على المسرح وأشد حضورا وأكثر نفاذا من كثير من الأفكار الأخرى التى جاءت خطابية ومشوشة وزاعقة .

(وعندما منع ذكر اسم سعد زغلول .. أجراه سيد درويش رغما عن سلطة الاحتلال والقصر) ترنم به الجميع وغناه الباعة والأطفال والنساء « يابلح زغلول حياتي يابلح » .

ورغم الفقر والعناء فإن صورة بائعة التفاح توحى ألوانها وتموجات الغنائية فيها وشاعريتها بوهج لون التفاح وعذوية مذاقه وجمال من تبيعه .. لوحة مرئية غنائية متحركة .. مثل لوحات رينوار – تخلق جوا من الدفء والتواصل ..

« ويانواعم ياتفاح ياحاجة حلوة كوسة » .

ويرز فى الأداء أبو العينين « يوسف رجائى » كان فى دوره بصيرا طبيعيا وتلقائيا تماما ومعلقا بحكمة عموم المصريين .

مسيحة يقفل دكانه يفلس (محمد عبد المنعم) ويرتجف صوته بالكدر والخواجة يظهر أيضا (طارق فهمى) ناعما .. زئبقيا مراوغا .

(مجدى السباعى) أجاد في دور كبير الياوران وحزنبل (زايد فؤاد) كذلك لمع السلطان (محمد حسن) والعمدة (محمد الطوخى) الإضاءة كانت في مسرح السامر مركزة على الجانبين ومقدمة المسرح ، كانت خابية فى العمق إلا عند الغناء الجميل فتركز أشعتها كلها .

– وحتى بضعف الامكانيات – يمكن للفنان المتعب أن يكون معبرا .

« صلاح حفنى » ذكرنا بذلك الرمز والمعنى والتجريد لاسم « زعبلاوى » وجاءت الأغنية العبثية الماكرة .

« الدنيا مالها يازعبلاوى »

لحن سيد درويش يهزنا ويجعل السؤال يتهدج بصدرنا وعيوننا وفوق شفاهنا ..

(وكان السؤال هو الفكرة الأساسية أو النغمة الرئيسية لواحدة من أروع قصص نجيب محفوظ ..

كانت النغمة العميقة .. ولماذا يوجه السؤال إلى زعبلاوى بالذات .. من هو : وأين نجده .. وكيف نعرف الإجابة ..)

– ولأن الدنيا « حالها حاوى » بالفعل .. بدن .. لاطعم ولا اعتدال أو توازن ..

إنها رحلة البحث عن الحقيقة ..

« والنغمة الصحيحة ضرورة العثور عليها بأنفسنا »

رحلة حب وعناء وعمل يصحبنا فيها رواد وأبطال وتضمنا كتيبة المثقفين يداعبنا جوقة المؤدين والمنشدين .. المخرج والمؤلف .. يشعل الدفء بيننا والسؤال أديبنا الساطع نجيب محفوظ ويقود العزف موسيقى سيد درويش ..

ومدد يا « السيد »

الملتقى الفكرى لمنظمة حقوق الإنسان

حول حرية الفكر والاعتقاد والتعبير

بقلم : عبده جبير

ماذا يفعل الكاتب الذى يتوخى موقف «الناقد» حين يجد نفسه أمام عمل أو نص هو متحمس له أشد الحماس ومعجب به أشد الإعجاب ؟

ألا يدفع هذا لوجود شبهة أن هذا الحماس ، ربما دفع إلى التغاضى عما يمكن أن يكون قد ورد من أخطاء فى هذا العمل أو هذا النص ؟

وبداية أعترف أننى متحمس أشد الحماس لمجمل النشاط ، الفكرى والعملى ، الذى تقوم به المنظمة المصرية (العربية) لحقوق الإنسان ، فهى فى اعتقادى «نموذج» وصمام أمان لما ينشده مجتمعنا من تقدم وتحضر وازدهار ، إن كان يدفع أولا لانعتاق الفكر والإبداع من إسار القهر والحجر والتخلف ، وهى معان على غير ما جاءت عليه طبيعة البشر ، ويرمى إلى حرية تنمو خلالها شجرة الفكر ، فهذا لابد أن يؤدى بالضرورة إلى ازدهار «إنتاج» الإنسان ، فهو الذى يبدع ، وطاقته الروحية هى التى تدفعه ، فإن كانت مقيدة خبت شعلة الإبداع فيه ، وإن كانت حرة انطلقت إلى آفاق لا تنتهى .

نقول هذا احتفاء بالملتقى الفكرى الثالث الذى أقامته «المنظمة» لمدة يومين ، فى بداية مايو الماضى ، تحت عنوان «حرية الفكر والاعتقاد والتعبير» بمقر الجمعية المصرية للاقتصاد والتشريع .. ، وكانت المناقشات التى جرت خلالها ، وإن شاب بعض أوقاتها لحظات من «الحدة» ، إلا أنها جاءت فى إطار الحماس للمبدأ : مبدأ حرية الفكر والاعتقاد والتعبير .

وإنه وإن كانت هذه النقاشات قد حظيت بحظ وافر من العرض فى الصحف اليومية والأسبوعية التى صدرت فى أعقاب هذا التاريخ ، فإن مناقشة الأوراق هى التى تحتاج منا إلى قليل من التأمل .



كامل زهيرى



صلاح الدين حافظ

وفى المقدمة فقد جاءت كلمات كل من الاساتذة «كامل زهيرى» (رئيس الملتقى) ، و «محمد فائق» (أمين المنظمة العربية لحقوق الإنسان) ، و «بهى الدين حسن» (أمين المنظمة المصرية) ، و « لياء رافع» مقررة الملتقى ، أشبه ما تكون بأجندة عمل ، والتمنى على الحاضرين بالتمسك بـ «الرصانة العلمية ، والنزاهة الفكرية ، والابتعاد عن التعصب فى الحوار ، والتعالى على المصالح السياسية والأيديولوجية المباشرة» .

فى مجال حرية الفكر والتعبير

وفى هذا الإطار أورد بهى الدين حسن فى كلمته أربع ملاحظات - أو لنقل مفارقات - برزت من خلال المعلومات والوقائع المتراكمة لدى المنظمة المصرية لحقوق الإنسان فى مجال حرية الفكر والاعتقاد والتعبير :

أولا : أن الاعتداءات فى هذا المجال تستند فى جانب هام منها على تشريعات ولوائح لأبسط بديهيات حقوق الإنسان المتعارف عليها ، وتتعارض بشكل صارخ مع نصوص وروح الدستور المصرى والاتفاقيات الدولية لحقوق الإنسان التى أنضمت إليها الحكومة المصرية ، ويستلفت النظر فى هذا المجال أن أغلبية هذه التشريعات تعود إلى حقب تاريخية تجاوزها التطور الإجتماعى والثقافى والسياسى فى مصر ، مثل :

(أ) الخط الهمايونى ، الذى يعود إلى أكثر من قرن من الزمان (١٨٥٦) والصادر بفرمان من السلطان العثمانى ، ويفرض قيودا تعسفية على بناء الكنائس .

(ب) المواد ٩٨ من قانون العقوبات ، التى تجرم أيديولوجيات سياسية بعينها ، والتى استنت فى عهود الاحتلال .

(جـ) القوانين الاستثنائية التى وضعت فى عهد الرئيس الراحل أنور السادات لفرض العزل السياسى على معارضيه من عدة اتجاهات .

ثانيا : إنه فى الوقت الذى شهدت فيه الثمانينيات تطورا إيجابيا على صعيد الممارسة العملية فيما يتعلق بالتسامح السياسى والأيديولوجى تجاه بعض العقائد السياسية (الليبرالية ، الناصرية ، الماركسية) وبدرجة تتجاوز فيها ترسانة التشريعات المنافية لحقوق الإنسان ، فإن التسامح الدينى قد شهد على صعيد الممارسة العملية تطورا معاكسا ، أو بمعنى أدق تراجعا مؤسفا .

ثالثا : إنه فى الوقت الذى شهدت فيه الثمانينيات تطورا إيجابيا فى مجال الحد من الرقابة المباشرة لأجهزة الدولة على الصحافة والفكر والأدب والفن ، وصارت أكثر تسامحا تجاه النقد السياسى، فإن الدور الرقابى للمنابر الإسلامية من مؤسسات وصحف وكتب ، قد شهد صعودا متناميا فى نفس الحقبة ، وأصبح نافذ الكلمة لدى الأجهزة ومؤسساتها المعنية ، بحيث صارت هذه المنابر - من الناحية العملية - الرقيب الأول فى مصر .

هذه على أية حال بعض من الخطوط العريضة التى سارت عليها المناقشات والأوراق ، وإن كان كل دارس قد عكس اهتماماته الخاصة ، واندفع فى اتجاه ابراز مقولاته من خلال هذا الإطار العام .

وقد أكد فهمى هويدى ، بما يتسم به فكره من وضوح على أن رقابة المؤسسات الدينية على النشر وتأثيرها على حرية الفكر «ما هى إلا تعبير عن مسلك وظيفى دنيوى ، وليس بأى معيار من مقتضيات الإلتزام الدينى ، وبتعبير الأصوليين فإننا بإزاء حديث عن السياسة الشرعية ، وليس عن الشرع» .

ويضيف :

«فالذى تعلمه أن حرية التفكير والحوار مطلقة فى المفهوم الإسلامى ، والذى نفهمه أنه ليس فى الإسلام شئ اسمه «مؤسسة دينية» .

ثم نأتى إلى ورقة المحامى الشاب «نجاد البرعى» وهى أيضا كورقة هويدى حملت عنوان «رقابة المؤسسات الدينية على حرية النشر» ، ولكن صرحاء ، فالمقصود هو مؤسسة الأزهر ، ثم مجمع البحوث الإسلامية الذى قام بما يسميه الكاتب بمذبحة الحرية ، وهو يقصد ما جرى من مصادرات لعدد من الكتب فى معرض الكتاب الأخير ، وقد لاحظ المحامى أن رقابة المؤسسة الدينية على حرية النشر تتميز بعدة خصائص :

(أ) أنها لا تستند إلى أى أساس قانونى معروف .

(ب) أنها تستخدم لخدمة أغراض سياسية فى كثير من الأحوال .

(جـ) أنها تمارس على مطبوعات لا علاقة لها بالدين ، ومن غير المتخصصين فى الفرع الذى يراقبونه .

(د) أنها تتم بشكل لاحق على نشر المطبوع ، مما سبب اضطرابا فى سوق النشر .

أما عن الأساس غير القانونى لرقابة مجمع البحوث فيعود بها لنص الدستور المصرى نفسه الذى صدر فى ٧١/٩/١١ عندما نصت المادة ٤٨ منه على أن «حرية الصحافة والطباعة والنشر ووسائل الإعلام مكفولة والرقابة على الصحف محظورة وانذارها أو وقفها أو إلغاؤها بالطريق الإدارى محظور ، ويجوز الاستثناء فى حالة إعلان الطوارئ أو زمن الحرب ..

كما أن الدستور فى المادة ٤٩ منه ، وبصريح العبارة نص على «كفالة حرية البحث العلمى والإبداع الأدبى والفنى والثقافى» بل نص أيضا على «توفير وسائل التشجيع اللازمة لتحقيق ذلك» ..

ومن هنا فإنه فى الإطار العام تغدو رقابة المؤسسة الدينية ، أيا كان مداها ، أو حجمها متعارضة ومتصادمة مع نصوص المادتين ٤٨ ، ٤٩ من الدستور .

بل إن تلك الرقابة لا تتصادم فقط مع تلك النصوص الدستورية الواضحة ، ولكنها تتأبى أيضا على نصوص قانون ، الأزهر رقم ١٣ لسنة ٦١ ، والذى هو ينص المادة ١٧ من اللائحة التنفيذية له ، والصادرة بقرار رئيس الجمهورية ٢٥٠ لسنة ٥٧ على أن واجبات مجمع البحوث الإسلامية تقتصر على تتبع ما ينشر عن الإسلام والتراث الإسلامى من بحوث ودراسات «للانتفاع بها أو تصحيحها» فقط ، فهذه هى حدود سلطته وغاية ما قام من أجله ، بل إن هناك حكما صادراً لمحكمة النقض ، وهى أعلى سلطة قضائية مصرية صدر فى ٨٢/١٢/٥ أدان بشدة طلب مجمع البحوث التحفظ على أى كتاب مهما كان ، وأيا ما كان موضوعه ..

ولعل أهم وأسوأ خصائص رقابة المؤسسة الرسمية على حرية النشر ، كما يؤكد المحامى النابه ، أنها تأتى لاحقة على صدور المطبوع ، وفى ظل عدم وجود خطوط واضحة لما هو مسموح به أو ممنوع ، مما يضع المبدع طوال فترة إبداعه فى حالة خوف وترقب حتى ليظل مهددا بملاحقته مهما طال الزمن على طرح عمله للناس مما يمنعه من مباشرة إبداعه بحرية كاملة .

وبالفعل - وهنا على كاتب هذه السطور أن يوضح أنه بالفعل ، بدأ عدد كبير من المبدعين التفكير فيما يشبه الهجرة الجماعية بأعمالهم للنشر فى الأسواق الخارجية ، هربا بأعمالهم الإبداعية من هذه الملاحقة ، خاصة وأن أحدا منهم لا يعرف الحدود أو السدود ، وهو ما يعيد للأذهان فترات مظلمة من فترات حجب الأفكار ومطاردتها فى فترات سابقة ، مما سيكون له تأثير خطير على الفكر والفن فى مصر .

على أى حال ، لابد لى أن أعتذر ، وقد وجب أن أنهى هذه المقالة خوفا من الإطالة، لكل من الأساتذة الأفاضل ، الدكتور حسن حنفى ، والدكتور حامد عمار ، والاستاذ صلاح الدين حافظ ، والاستاذة فوزية مهران ، والدكتور فرج فودة والدكتور أحمد صبحى منصور ، والاستاذ حسين أحمد أمين ، والاستاذ مصطفى عامر ، عن مناقشة أفكارهم النابهة ، فهم على أية حال قد ساهموا مساهمات هامة ، وأفكارهم معروفة منشورة مما لا تحتاج معه إلى بيان ، ولعلنا نقرأ دراساتهم صادرة فى كتاب حتى تعم الفائدة .

رسالة جامعية

صورة الرجل
عند كاتبات القصة المصريات

عن موضوع « القصة القصيرة وصورة الرجل عند الكاتبات المصريات (١٩٣٤ - ١٩٨٧) حصلت الباحثة «سوسن ناجى» على درجة الدكتوراة بمرتبة الشرف الأولى من جامعة المنيا ، بإشراف الدكتور عبد الحميد إبراهيم عميد كلية الدراسات العربية ، ومناقشة من الدكتور الطاهر أحمد مكى والدكتور محمد عبد المطلب وقد وجها للباحثة عددا من الإنتقادات الهامة التى نعرض لها بعد أن نعرف جانبا من مضمون الرسالة .

عنيت الدراسة برصد معالم الصور الفنية للرجل - وذلك من منظور الذات الكاتبة - كخطوة تكميلية تمكن من الولوج إلى عالم المرأة / الكاتبة ، ومحور رئيسى يساهم فى الكشف عن رؤية الكاتبة إلى العالم ...

والوعى برؤية الذات الكاتبة يكشف عن مدى إدراكها للعلاقات الكائنة فى الواقع ، ومدى تخيلها « للصورة التى ينبغى أن تسود هذه العلاقات فى المستقبل ... وكلما كانت أكثر عمقا وحساسية وذكاء كانت أقدر على كشف القوى التى تعوق حركة الواقع .. »

وكان المدخل - الأول - إلى دراسة صورة الرجل / الآخر هو الرصد لماهية صورة الذات ، إيمانا بأن « الأنا » امتداد « للآخر » ، وصيرورة له ، و« الآخر » فى كل الحالات يمثل جزءا من وجودنا ذاته «وكل شكل العلاقة بين «الأنا» ونفسها ، بين « الأنا » والاشياء وبين «الأنا» والمطلق يكشف فى جوهره عن طبيعة الاتصال بوجـود مفارق ، وعن طبيعة الانفصال عنه معا» .

ويثير مدخل الرسالة هذا التساؤل

للإجابة عليه ، وعلى تساؤلات أخرى تنتظر إجابة .... حيث يبدأ برصد منحنى التطور الذى طرأ على صورة الذات الكاتبة ، ومن ثم على رؤيتها ، وذلك عبر إثارته عددا من التساؤلات تتعلق فى مجملها بتخصيص ما يدعى بالكتابة النسائية ، وهل هناك خصائص بعينها للكتابة النسائية ؟ وتلك التساؤلات من شأنها أن تقود إلى الإستفسار عن وجود خصوصية بعينها - فى الذاتية النسائية - تنبع من خصوصية الموقع الذى تشغله هذه الذات ، ومايتنج عن هذا الموقع من معاناة تسبب فى إحداث فقدان أو انقسام داخل الذات ساهم فى عزل المرأة اجتماعيا ونفسيا بطريقة أدت إلى اعتمادها المطلق على الرجل . أو وكأن تحديد المرأة لذاتيتها حينئذ غدا مرتبطا بموقعها من عالم الرجل . وظل هـذا الموقع أسيرا لماهية علاقتها به . وهى غالبا علاقة لا تتجاوز أشكالا ثلاثة :

١ - علاقة خضوع (ينشأ عنها استلاب واضح لهوية المرأة ، مما يفقدها ذاتها فى « الآخر ») .

٢ - علاقة تسلط (تتبنى الذات خلالها شروطا تسلطية تعمل على نفى « الآخر » من عالمها) .

٣ - علاقة توافق (تتنازل الذات خلالها عن كبريائها لتتبادل الاعتراف بالذات الأخرى) .

وعبر هذه المحاور الثلاثة - من العلاقات - تشكل وعى المرأة / الذات بالكاتبة فى رؤى (اتجاهات) ثلاثة ، صنفت لأنماط ثلاثة من العلاقات ، تشكل من خلالها معالم صورة الآخر/ الرجل . وهذه الرؤى / الاتجاهات استندت فى تصنيفها - هذا - إلى الوعى الفردى والثقافة الخاصة بالكاتبة . قبل أن تستند إلى العمر الزمنى لها أو الجيل الذى تنتمى إليه .

وراهنت سمات « الاتجاه الأول » على اندراج كاتباته ضمن إطار محور التقليد ، بمعنى أن كتاباتهن ظلت تعيد إنتاج موقف رجولى تقليدى ، يساير ما هو سائد من قيم أدبية وفكرية - وذلك لانتمائهن إلى منظومة القيم السائدة فى المجتمع - حيث ظلت صورة الذات - لديهم - محددة من خلال منظور الرجل والمجتمع إليهن سلفا ، - وتبع هذا ضياع لملامحها الفردية ، ككاتبة ، وكشخص مختلف .. - ولما كانت الفردية تمايز واختلاف فى « الأنا » عن «الآخر » كان ضياعها مؤشرا دالا على انزواء « الأنا » وذوبانها فى الآخر / الرجل . ومثل هذا التصور - الضمنى - للذات الكاتبة - يفسر سر ذوبان المرأة / الكاتبة - هنا - فى تيار كتابات الرجل ، أى بتبنيها وتقليدها وإعادتها إنتاج مواقف تقليدية تتقمص فيها روح الرجل ، فى مقابل عجزها عن الافصاح عن عالمها وتجربتها فى صدق وحرية .

وأدركت كاتبات « **الاتجاه الثانى** »

أن تحقق الذات الأنثوية لايأتى إلا مع تحرر صورة الذات ، وتحرر صورة الذات لا يكون إلا بخروجها - من الداخل إلى الخارج - على الشائع والمألوف ، ويتمظهر هذا فى شكل رفض صريح للأدوار التقليدية للجنسين .. والكاتبات - بهذا - يتجاوزن مرحلة الفقدان الكامل للذات أو حتى الوعى بذلك إلى محاولة البحث عنها واستعادتها ، عبر صيغ حداثية تشكل أفكارهن ، وتصوغ للتناقضات التى تحيط أحلامهن ، مما دفعهن إلى التطلع إلى أفق مغاير .

أيضا أيقنت كاتبات « الاتجاه الثالث » أن تحررهن لا يكون إلا بتحررهن ضمنيا من منظورهن التقليدى إلى العالم ، وهذا فى حد ذاته يستدعى - منهن - إلغاءهن الانقسام من داخل ذواتهن ، وتحررهن من سجن الصورة التقليدية المرسومة - للمرأة سلفا وذلك بتبنى صورة جديدة عن الذات ، تبعثها رؤية جديدة - من جانبهن - للعالم ، لا تحاول نفى القديم وفى الوقت نفسه لا ترحب بـه ، من جديد ...

بين الثابت والمتغير

وعنيت الدراسة على مدار « الباب الأول » بالتحليل لتردد صورة الرجل - فى موقعه بالنسبة للمرأة - بين رحى الثابت والمتغير ، وذلك عبر الرصد للأنماط التى يمثلها وجوده فى الواقع - كرجل «سيد» أو مقهور ، أو « مثال » / حلم ، أو مـاجـن ، أو حبيـب ، أو أب ، أو أخ ، أو زوج ، أو ابن - بناء على اعتبار أن الصورة هى « العنصر الثابت » أما رؤية الكاتبات - عبر اتجاهاتهن الثلاثة - فكانت هى العنصر المتغير ، التابع لتغير شخصية وثقافة وموقع الذات الكاتبة فى المجتمع ..

فلدى كاتبات « الاتجاه الأول » تأثرت صورة الرجل بنوعية العلاقة الكائنة معه فى الواقع ! ولما كانت هذه العلاقة تتسم فى مجملها بكونها « علاقة خضوع » لذا شغل « الآخر » / الرجل موقعا ايجابيا (موقع الفعل والحركة) بينما ظلت « الأنا » (الذات الكاتبة) تشغل موقعا سلبيا (سكونيا ، منفعلا بفعل أو حركة الآخر) .. وكان النمط السائد المستحسن لديهن هو نمط الرجـل « السيد » وقـد تمـثل هذا « السيد » فى صورة الأب ، والأخ والزوج أيضا .. بكل ما تنطوى عليه هذه الشخصية من معالم قمعية مباشرة ، أما تمرد الذات الكاتبة / المرأة تجاه الرجل - بصفة عامة - فكان مضمرا ، غير معلن ، ظل يشبه حربا غير واعية - خاصة فى فترة ما بعد الخمسينات - استخدمت خلاله نفس منظومة الفكر التقليدى لتحول الرجل إلى أداة إنتاج أو حافظة نقود ، أو ذكورة فحسب، غير أن الرجل - رغم هذا- ظل يشغل موقعا محوريا ، حيث احتفظ بموقع « الصدارة » بالنسبة لها ، وكان بمثابة القطب أو النواة لاحتفاظه بامتثال

دورانها فى مداره ..

ولدى كاتبات « الاتجاه الثانى » بدأ الرجل – بالنسبة إلى المرأة – مهمشا ، لا يملك أى دور فى حياتها ، بينما أصبحت هى الطرف الأكثر مقاومة لغبن الواقع ، صاحبة الحركة والفعل والدور المتغير ، لكن الرجل رغم هامشيته هذه ظل مستدعياً طوال الوقت داخل وعى البطلة / الذات الكاتبة ...

ويلاحظ تحقق انسحاب فعلى يصيب دور الرجل . بصرف النظر عن كون هذا الرجل قويا أو ضعيفا ، أخلاقيا أو غير أخلاقى وهذا الإنسحاب لم يكن نتيجة حتمية للظرف الاجتماعى فحسب ، بل أيضا كان نتيجة حتمية للرؤية المهيمنة – الخاصة بالذات الكاتبة – بما تنطوى علية من نزعة تسلطية تبغى نفى « الآخر / الرجل » ، وهذا الظرف / الموقع كان من شأنه أن دفع بالرجل إلى المواقع الخلفية / السلبية ، بينما احتفظ للمرأة بمواقع الصدارة ، أو الهيمنة على الواقع ،

أما صورة الرجل لدى كاتبات « الاتجاه الثالث » فتبدو عبر محاولتهن الدائبة لالغاء « الثنائية » داخل ذواتهن ، وذلك لتحقق تطابقا بين الصورة المرئية للرجل ، والصورة المتخيلة له – داخل الوعى – نظرا لاعترافهن بأن هويتهن لا يمكن أن تتحقق إلا عن طريق تبادل الاعتراف بالذوات الأخرى .. غير أن الصورة المرئية – له – من منظورهن ظلت تحمل منظومات الفكر التقليدى ، لذا انطلق وعيهن ليطرح نماذج بديلة له ، انتظار لصورة جديدة تبزغ فى الأفق . وهذا فى حد ذاته يعنى عدم الاعتراف بالنماذج التى يقدمها الواقع للرجل ، لهذا قمن بالفعل (الحركة ، والتجريب) مستخدمات أسلوب المصادمة بهدف زلزلة الألفة – الخاصة بالمفاهيم التقليدية السائدة – عن الأدوار الشائعة للجنسين ، ومن شأن هذا الأسلوب أن يساهم فى خلق المناخ الملائم لتقبل هذه الصور (الأدوار المستحدثة للجنسين) ، كما يساهم فى تحقيق رغبتهن لها فى الاكتشاف الحقيقى للذات فحسب ، بل أيضا فى تحقيق الوحدة داخلها ..

الإنتقادات

وبعد أن أثنى الدكتور الطاهر مكى على منهج الباحثة ولغتها الأدبية عاب عليها الخلل الملحوظ فى دراستها بالنسبة لإستخدام علامات الترقيم ، والاستعجال فى رسالتها الذى ترتبت عليه كثير من الأخطاء التى كان من الممكن تجاوزها بالدقة .

أما الدكتور عبد المطلب فقد أبدى عجبه من عدم تسمية الباحثة بشكل مباشر لمنهج البحث الذى اتبعته ، وشكك فى أن تكون غير عارفة به ، وقال عنه إنه «البنوية التكوينية» .

وأشار أيضا إلى وجود الترقيم .

الكتاب : ثلاثون عاما مع الشعر والشعراء
تأليف : رجاء النقاش
الناشر : دار سعاد الصباح ، ٥٧٥ ص ، قطع كبير



لا يكتب رجاء النقاش نقدا باردا يقطع به أوصال القصائد ليعيد صياغة أفكاره الخاصة عن الشعر ، ولكنه يكتب بانفعال وحماس شديدين تجد نفسك وأنت تتابع كلماته ، منفعلا معه نفس الانفعال ، حتى أنك ما أن تبدأ أيا من فصول هذا الكتاب إلا وتجد نفسك غير قادر على تركه إلا لحظة النهاية .

وأهم خصائص هذه الكتابة التى تسردها بتلخيص مخل هى أنها ، وهى تصدر عن قلب دافىء تصدر أيضا عن قلم مثقف عارف بموضوعه ، يدقق فى المعلومة دون إندفاع ، فهو إذا كان متيقنا أكد وإذا لم يكن فإنه يقدم ما لديه موضحا هذا الموقف ، وهذه ميزة من الصدق قلما نجدها الآن فى كتابات المعاصرين .

خاصية أخرى هى هذه الشجاعة التى تدفعه لدخول المعارك ضد من يرى أنه يجب الوقوف ضدهم ، وهو وإن إحتد أحيانا فإن دافعه لذلك هو الهدف الذى يسعى إليه ، وهو إيمانه بالفن من أجل الحياة .

خاصية أخرى يصرح بها هو نفسه فى مقدمته لهذه المجموعة الضخمة من المقالات عن الشعر والشعراء التى كتبها خلال ثلاثين عاما من الكتابة المتواصلة فيقول عما يجمع بينها من وحدة « هى وحدة تنبع من شخصية مؤلفه ، وطريقته فى البحث والتفكير والتذوق ، وحدة تنبع من العصر الراهن الذى تدور حوله الدراسات والفصول المختلفة .. فهذه الخاصية إذن هى كالبصمة لنفس الكاتب ، ما أن تتأملها حتى تكتشف أنها قطعة من ذاته .

أما الخاصية الأخرى فهى تتعلق بمنهجه فى الدرس والتحليل حيث يقول عنه : إننى من الذين يؤمنون بما يمكن تسميته بالمنهج « الجمالى الإنسانى » أى أننى

أبحث دائما في الفن عن الجمال وأبحث عن الإنسان ، والفن عندي لابد أن يكون ممتعا ومثيرا للفكر والشعور ، ولكن الجمال الفني وحده لا يمكن أن يكون كاملا إلا إذا إستطاع التعبير عن الشخصية الإنسانية في صراعها من أجل الحياة والسعادة والبحث عن معنى للوجود ، وكل ما ليس جميلا ، أو كان خاليا من التعبير الصادق عن الشخصية الإنسانية ، لا أتوقف أمامه ، ولا أجدني قادرا على التعاطف معه أو البحث فيه ، وإذا كان هذا المنهج يحدد ما أحبه ، فهو في الوقت نفسه يحدد ما أرفضه ولا أرتضيه » .

هذه بعض الخصائص نذكرها سريعا في هذه العجالة التي لا توفي هذا الجهد الكبير حقه ، وكل ما نملكه هو أن ندعو لقراءته فهو كتاب في النقد ، لكنه أيضا مثير للأحاسيس والمشاعر .

الكتاب : الإمام الشافعي وتأسيس الأيديولوجية الوسطية
تأليف : د. نصر أبو زيد
الناشر : سينا للنشر
١١٢ ص .



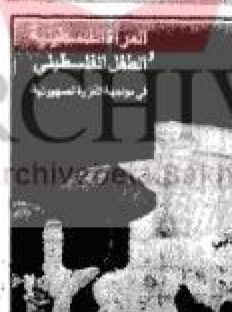
بأسلوبه العذب ودقته العلمية يحدد لنا نصر أبو زيد في هذا الكتاب الهام الذي يعد حلقة من حلقات بحثه المتواصل في تراثنا الفكري والحضاري ، يحدد موقع الإمام الشافعي بالنسبة لمقولة الوسطية وبالنسبة لأقرانه من مفكري وفقهاء الإسلام فيقول : الشافعي والأشعري والغزالي ثلاث شخصيات هامة في تاريخ الثقافة الاسلامية عامة والفكر العربي خاصة . وترجع أهميتهم الى تأسيس الوسطية التي يرى كثيرون أنها أهم خصائص التجربة العربية الإسلامية في التاريخ ، وهي الخصيصة التي تتجسد فيها « الأصالة » التي يتحتم على المجتمعات العربية والإسلامية الاحتماء بها في صراعها ضد أعدائها الساعين الى القضاء عليها .

وإذا كانت مسألة الصفة «الجوهرية» الثابتة محل نزاع وخلاف ، فإن الثابت تاريخيا أن الشافعي قد أسس « الوسطية » في مجال الفقه والشريعة ، وأسس الأشعري الوسطية ذاتها،

أولكن فى مجال العقيدة ، أما الغزالى فقد أسسها فى مجال الفكر والفلسفة اعتمادا على تأسيس كل من الشافعى والأشعرى ، ولا غرابة فى الأمر على كل حال ، فالغزالى شافعى المذهب فى الفقه، أشعرى المذهب فى العقيدة ، وكلا المجالين مجال أصول قد يسميان الشريعة والعقيدة ، وقد يكونان أصول الفقه وأصول الدين .

وتعتمد هذه الدراسة – منهجيا – على تحليل الأفكار والكشف عن دلالتها أولا ثم الانتقال الى مغزاها الاجتماعى السياسى – الأيديولوجى – ثانيا . وبعبارة أخرى ستكون الحركة من الداخل للخارج ، من الفكر الى الواقع الذى أنتجه ، وذلك لتجنب مزالق التحليل الميكانيكى – الانعكاسى – إذا كانت الحركة المنهجية من الخارج الى الداخل ، ومن الطبيعى والمنطقى أن يوضع فكر الشافعى فى السياق الفكرى العام للعصر الذى أنتجه من جهة ، وفى سياق المجال المعرفى الخاص ، مجال أصول الفقه ، من جهة أخرى .

الكتاب : المرأة الفلسطينية والطفل الفلسطينى فى مواجهة الغزوة الصهيونية
تأليف : عبلة الدجانى
الناشر : المستقبل العربى ١٨٤ ص



يتضمن هذا الكتاب عددا من البحوث والدراسات التى قامت المؤلفة بإعدادها وتقديمها فى بعض المحافل والمناسبات تلبية لدعوات فى ندوات أو محاضرات ، وتناولت معظم هذه الدراسات أوضاع المرأة والطفل الفلسطينيين داخل الوطن المحتل وخارجه ، وقد جاءت هذه الدراسات متضمنة لمعظم جوانب حياة المرأة والطفل – المظلم منها والمشرق – مبينة الصعوبات والتحديات التى تواجهها الأسرة الفلسطينية منذ بداية الغزوة الصهيونية لفلسطين .

وعلى سبيل المثال فإنها فى دراستها المعنونة « معاناة المرأة الفلسطينية خارج الوطن المحتل » سلطت الأضواء على المشاكل والمعوقات التى تتعرض لها الأسرة فى المنفى من خلال إبراز أشكال معاناتها فى الشتات والناجمة عن فقدان الوطن والحرمان من الهوية ، كما تعرضت الى كيفية مواجهة المرأة

لهذه المصاعب ومحافظتها الدءوب على الشخصية الفلسطينية بتمسكها بالعادات والتقاليد الفلسطينية ونقلها معها الى أماكن الشتات لتضع فى كل مكان تعيش فيه مجتمعا فلسطينيا .

وعن الطفل الفلسطينى نجد هناك دراسة عن تنمية الطفل فى الانتفاضة كشفت فيها عن المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية التي يواجهها أبناء الشعب الفلسطيني من جراء الممارسات والاجراءات القمعية والارهابية الصهيونية مبينة تأثير ذلك على صحة ونفسية وحياة الطفل وكيف أدى ذلك الى إطلاق مشاعر التحدى والمواجهة للاحتلال الصهيونى التى تجسدت فى الانتفاضة .

الكتاب : الإسلام فى حياتنا الحديثة
تأليف : محمد عبد القدوس
الناشر : مكتبة مصر
٢٤٠ ص ، ٣ ج.م.



ما هو دور الدين فى الحياة ؟

يقول الزميل محمد عبد القدوس مؤلف هذا الكتاب أن هذا السؤال هو فى رأيه من أهم الأسئلة المطروحة على الساحة السياسية الشعبية ، بل يتوقف مستقبل الدول الإسلامية وشعوبها على تحديد دور الإسلام فى حياتنا المعاصرة .

ويرفض عبد القدوس ذلك الفريق من المتدينين الذين يرون أن تكون وظيفة الدين فى المجتمعات المعاصرة هامشية ، محدودة ، تقتصر على العبادات ومكارم الأخلاق ، بل يرى « من المؤكد أن ديننا لا يعرف هذه التفرقة بين الدين والدنيا ، فما أجملهما إذا اجتمعا ، وأن الدور الهامشى للدين فى الحياة قد يكون مقبولا فى المجتمعات الأوربية والأمريكية وغيرها ، لكن الوضع فى المجتمعات الإسلامية على النقيض من ذلك ، وهذا الكتاب هو محاولة لتقديم صورة مشرقة للإسلام ممزوجا بالدنيا ، ويدحض ما يحوطه من شبهات .

لم يضعه المؤلف من برج عاجى بل نزل الى أرض الواقع محاورا العلماء والمفكرين والفنانين ليخلص بهذه المجموعة من الدراسات والحوارات القيمة .

نزار قباني والنص الغائب

أحمد عنتر مصطفى



نزار قباني



عمر ابو ريشة

نحاول هنا أن نتقصى بعض (النصوص الغائبة) في شعر نزار قباني، وأن نتتبع هجرة هذه النصوص وتحولاتها ، في مثيلاتها من شعر الشاعر الكبير . ولا يفوتنا أن نورد ما قاله (رولان بارت) في هذا المجال ، حيث : (لا نص يوجد خارج النصوص الأخرى ، و يمكن أن ينفصل عن كوكبها ، وهذه النصوص الأخرى اللانهائية هي ما نسميه بـ (النص الغائب) . غير أن النصوص الأخرى المستعادة في النص تتبع مسار التبدل والتحول ، حسب درجة وعى الكاتب بعملية الكتابة ، ومستوى تأمل الكتابة لذاتها ...) .

ونتجاوز باستعمالنا مصطلح (النص الغائب) عن ذلك (الإثم الأخلاقي) الذى قذف النقاد به في وجه النص تحت عبارة : (السرقات الشعرية) ونكون أكثر تحديداً باستعمالنا له بديلاً عن لفظيْ : (التأثير) و (التأثر) الواردين في مثل هذا المقام ، في كتاباتنا النقدية ، وعلى وجه الخصوص ، القديم منها .

إن مثل هذه النصوص الغائبة ظلت تتردد أصداؤها في نتاج نزار قباني حتى منتصف الستينيات . ولنبدأ بقصيدته (غرناطة) من ديوانه [الرسم بالكلمات] الصادر عام ١٩٦٦ ، في هذه القصيدة يستيقظ الوجع التاريخي / الأندلس - على حد تعبير الشاعر - حيث يلتقي في القصيدة بالفتاة / التاريخ ، وتتثاءب المرثيات ، لتفيق من سبات عميق استغرق سبعة قرون

في مدخل الحمـراء كان لقـاؤنا ∴ ما أطيب اللقيـا بلا ميعـادِ
عينـان سـوداوان في حجريهمـا ∴ تتوالد الأبعـاد من أبعـادِ
هل أنت إسـبانية ؟ سـاءلتهـا ∴ قالت وفي (غرناطة) ميلادي
غرناطةٌ !! وصحت قرون سـبعة ∴ في تيك العينين بعـد رقـادِ
وأميـةٌ راياتُهـا مرفـوعة ∴ وجيـادُها موصولة بجيـادِ
ما أغرب التاريخ كيف أعـادني ∴ لحفيدة سـمراءَ من أحفـادي
وجـهٌ دمشـقيٌ رأيت خـلاله ∴ أجفان (بلقيس) وجيد (سعادِ)

مازالت (أمية) تركض بجيادها ، ويسابقها الشاعر بخياله اللاهث ، ولا تهدأ هذه الدوامة مادام الشاعر يخطو فوق تلك الأرض التي عطر ترابها (عبد الرحمن الداخل) واهتزت فوق روابيها مواكب (بني عباد) .. وكما تعلق الشاعر طفلاً ، بثوب أبيه ، ولم يصدق بموت ذلك الأب مادامت ملابسه معلقة على مشجب الذكريات ، يتشبث الشاعر بالأب / التراث ، ويرحل ، أو ينتقل يبوحه مع الحفيدة السمراء الى مراقيء بعيدة .. ، وتسأله - هي - فيجيب وكلاهما في واد .. وإن ضمتهما رقعة واحدة

ودمشق . أين تكون ؟ قلت : ترينها ∴ في شعرك المنساب نهر سـوادِ
في وجهك العربي ، والثغـر الذي ∴ مازال مختزناً شـموس بلادي
في طيب (جنات العريف) ومائها ∴ في الفلِّ ، في الريحان في الكبادِ

وكما يكثف الشاعر (الزمن) في تلك اللحظة ، يصهر المكانين في بقعة واحدة .. لترفع دمشق لواء الحضور ..

سارت معي ، والشَعْرُ يلهث خلفها ∴ كسـنابلٍ تُرِكت بغير حصـادِ
ومشيت مثل الطفـل خلف دليلتي ∴ وورائي التـاريخ كـومَ رمادِ

ترى أيهما كان دليل الآخر ؟؟!!

.. الزخرفاتُ أكادُ أسمع نبضـهـا .˙. والزركشاتُ على السقوف تنادى
قالت : هنا الحمراء ، زهو جدودنا .˙. فاقرأ على جدرانهـا أمجـادى
أمجادُها ..؟! ومسحتُ جرحاً نازفاً .˙. وكتمتُ جرحـاً آخـراً بفؤادى
ياليت وارثتى الجميلةُ أدركت .˙. أنَّ الذين عنتهمو أجدادى
عانقتُ فيها عندما ودعتُها .˙. رجلاً يسمى (طارق بن زيادَ ..)

في شعر عمر أبي ريشة ، ومن قصيدة له بعنوان (في طائرة) نجد جذور قصيدة (غرناطة) . يصدر عمر أبو ريشة قصيدته بالكلمات التالية :

.. [كان في رحلة الى الشيلي ، وكانت الى جانبه حسناء اسبانيولية تحدثه عن أمجاد أجدادها القدامى العرب ، دون أن تعرف جنسية من تُحدِّث ...] .

ثم يأتى النص الذى هاجر من حيث الموضوع والبناء الى نص (غرناطة) لنزار قباني :

وثبتْ تستقربُ النجم مجالا .˙. وتهادت تسحب الذيل اختيالا
وحيالى غادة تلعب في .˙. شعرها المائج غنجاً ودلالا
طلعة ريا ، وشيء باهر .˙. أجمالٌ ؟ جل أن يسمي جمالا
فتبسمت لها فابتسمت .˙. وأجالت فيَّ ألحاظاً كسالى
كل حرف زلَّ عن مرشفها .˙. نثر الطيب يميناً وشمالا
قلتُ : يا حسناء من أنت ؟ ومن .˙. أى دوح أفرع الغصنُ وطالا
فرنتْ شامخة أحسبها .˙. فوق أنساب البرايا تتعالى
وأجابت : أنا من أندلس .˙. جنة الدنيا سهولاً وجبالا
وجدودى ألمح الدهرَ على .˙. ذكرهم يطوى جناحيه جلالا
بوركت صحراؤهم كم زخرت .˙. بالمروءات رياحاً ورمالا
حملوا الشرقَ سناءً وسنى .˙. وتخطوا ملعب الغرب نضالا
فنما المجدُ على آثارهم .˙. وتحدى ، بعدما زالوا ، الزوالا
هؤلاء الصيدُ قومى ، فانتسب .˙. إن تجد أكرم من قومى رجالا
....
....
أطرق القلبُ وغامت أعيني .˙. برؤاها .. وتجاهلت السؤالا ..!!

ربما يبدو اختلاف المكانين في النصَّين لصالح (غرناطة) نزار قباني . حيث أتاح له المكان بسطوته التاريخية أن يتجول ، شعريا ، في (جنات العريف) و (مدخل الحمراء) وأن ينصت الى الزخرفات والزركشات على السقوف ، الا أن الطائرة ، كمكان ، لم تستطع أن تحد من شاعرية أبي ريشة في قصيدته تلك التي كتبها عام ١٩٥٣ ، على حين كتب نزار قصيدة (غرناطة) في الستينيات ، وعلى وجه التحديد تأتي هذه القصيدة ضمن نتاج (التجربة الإسبانية) في مرحلة الانفعال القومي والتاريخي - كما يسميها الشاعر في كتابه : (قصتي مع الشعر) وهي التجربة التي شغلت الفترة من ١٩٦٢ - ١٩٦٦ .

وإذا كانت « فتاة غرناطة » تفخر بأمجاد أجدادها الذين لا تعرفهم فإن فتاة أبي ريشة على وعي كامل بدور العرب الحضاري ، وربما كان هذا الوعي هو ما حدا بالشاعر الى أن يتجاهل سؤالها عمن يكون ؟.. إنها ألقت القفاز في وجهه وطلبت منه أن ينتسب أمامها ، إن وعيها بجذورها جعل موقفه على النقيض من موقف نزار الذي اتخذ سمت الخطيب المصقع ليعدد ، ولو بينه وبين نفسه ، أمجاد التاريخ .. ذلك أن مقارنة جارحة ، قفزت الى ذهن أبي ريشة بين هذا الماضي الزاهر المشرق الذي انتسبت اليه الفتاة .. والشاعر أيضاً !!.. وبين حاضر أمته الممزق الذي بدا له ، فآثر أن يلعق جراحه في صمت .. مما أضاف الى القصيدة (حِدَّة النهاية) وهي ملمحٌ من ملامح شعر عمر أبي ريشة .

......

......

نص مهاجر آخر من نصوص عمر أبي ريشة نجده في قصيدة (الحب والبترول) لنزار قباني التي يقول عنها الشاعر في كتابه (قصتي مع الشعر) :

[.. ان قصيدتي : الحب والبترول ، مثلاً ، صورة للإقطاع العاطفي وللعلاقة اللاأخلاقية التي تقوم بين رجل يستملك ، بدفتر شيكاته ، وامرأة تُستملك بسنابل شعرها الذهبي وطفولة نهديها ..] ص ٢٠٠ .

والقصيدة ، كما نقرأها في ديوان (حبيبتي) ، خاصة في مقاطعها الأولى توحي بما أشار اليه الشاعر .. (صورة الإقطاع العاطفي والعلاقة اللاأخلاقية) .. ولكننا حين نستمر في قراءتها تعطينا - بل تحصرنا - في ذلك البعد السياسي الذي لا نستطيع الفرار من قبضته ، في المقطع الأخير منها :

لك البترول فاعصره على قدمَيْ عشيقاتِك ..

كهوف الليل فى باريس قد قتلت مروءاتك ..
على أقدام مومسة ، هناك ، دفنت ثاراتك ..
فبعتَ (القدسَ) ، بعتَ اللّه ، بعتَ رمادَ أمواتك ..
كأن حرابَ اسرائيل لم تجهضْ شقيقاتكْ
ولم تهدم منازلنا .. ولم تحرق مصاحفنا
ولا راياتها ارتفعت على أشلاءِ راياتك ..
كأن جميع من صلبوا
على الأشجار فى يافا ، وفى حيفا ، وبئر السبعِ ،
ليسوا من سلالاتك ..
تغوصُ القدسُ فى دمها .. وأنت صريع شهواتك
تنامُ .. كأنما المأساة ليست بعض مأساتك
متى تفهم ؟؟
متى يستيقظ الإنسانُ فى ذاتك ؟!!
......

أشك أن نزاراً ، بإشارته السابقة الى (محاربة الإقطاع العاطفى) ، قد عمد الى أن يذرّ رماداً فى العيون ، قصداً منه أن ينفى إطلالة (النص الغائب) أو (التناص) بيت قصيدته هذه وقصيدة عمر أبى ريشة بعنوان : [هكذا ...] التى هاجرت الى (الحب والبترول) موضوعاً ورؤية وموقفاً ، يصدّر عمر أبو ريشة قصيدته (هكذا) بهذه الكلمات :

[.. فى ليلة واحدة ، أنفق أحد رعايا المحميات البريطانية ستين ألف دولار على عشيقته ..!!] .

ثم تأتى القصيدة التى أرّخ الشاعر كتابتها بعام ١٩٥٤ :

صاحَ : (يا عبد) فرفَّ الطيبُ ∴ واستعر الكأسُ ، وضجَّ المضجعُ
منتهى دنياه نهدٌ شرسٌ ∴ وفمٌ عذبٌ ، وخصرٌ طيِّعُ
بدوىٌ أورق الصخرُ له ∴ وجرى بالسلسبيل البلقعُ
فإذا النخوةُ ، والكبرُ ، على ∴ ترف الأيام جرحٌ موجعُ
هانت الخيلُ على فرسانها ∴ وانطوت تلك السيوف القُطَّعُ
والخيامُ الشمُّ مالت ، وهوتْ ∴ وعوت فيها الرياحُ الأربعُ
.....

قال : يا حسناءُ ما شئت اطلبي .·. فكلانا بالغوالي مولعُ
أختك الشقراء مدَّتْ كفَّها .·. فاكتسي من كل نجمٍ إصبعُ
فانتقيْ أكرمَ ما يهفو له .·. معصمٌ غضٌ وجيدٌ أتلعُ
..... .·.

وتلاشى الطيبُ من مخدعه .·. وتولاه السُّباتُ المتعُ
والذليلُ العبدُ دون الباب لا .·. يغمضُ الطرفَ ، ولا يضطجعُ
والبطولاتُ على غربتها .·. في مغانينا جياعٌ خُشَّعُ
..... .·.

هكذا تُقتَحمُ القدسُ على .·. غاصبيها .. هكذا تُسترجَعُ !!

مرة ثانية تصفعنا تلك النهاية الحادة التي يجيدها عمر أبو ريشة بقدرته الفائقة على التكثيف ، وكما تطالعنا بها قصائده : [.. زاروا بلادي ، إفرست ، هيكلي ، إقريئيها ، قطرة الزيت ، لا تنتقي كلماتك ، مظاهر ..] .. وغيرها .. ربما نلمح قدرة الشاعر على تكثيف رؤيته من اختياره هذا العنوان لقصيدته ، والمؤلف من كلمة واحدة : [هكذا ..] . على حين تأتي تسمية نزار لقصيدته : [الحب والبترول] مترهلة وسطحية ، قياساً الى عنوان قصيدة أبي ريشة .. فضلاً عن المباشرة التي تكتنف التسمية . واذا كانت صرخة المرأة المتكررة : متى تفهم ؟؟ في قصيدة نزار لها ايقاعها الحاد المنبثق من ايقاع مجزوء بحر (الوافر) فإن هذه الصرخة تترهل بطول القصيدة . على حين تأتي القضية بحدتها وضراوتها وحضورها في قصيدة [هكذا] – على قِصرها – ولبنائها المحكم أقوى وأمضى تأثيراً .

هجـرة النص

واذا كان النصَّان السابقان لعمر أبي ريشة قد هاجرا موضوعاً ورؤية الى نصَّين من شعر نزار قباني فإن هناك نصوصاً أخرى يمكن تقصيها للشاعرين تؤكد هجرة النص أسلوبياً وبناءً ، من ذلك قصيدة (المنحنى) لعمر أبي ريشة ، ومطلعها :

أمسكتْ بي باسمةٌ لاهيةْ .·. على حواشي الربوةِ الزاهيةْ

نجدها فى قصيدة نزار التى مطلعها :

ووشوشتنى النسمةُ الصافيةْ ∴ لمحتُها تعدو على الرابيةْ

كذلك المقطع الأول من قصيدة (البغىّ) لنزار قبانى ، وإن جاء على إيقاع بحر (الرمل) :

علّقت فى بابها قنديلها ∴ نازف الشريانِ محمرَّ الفتيلةْ

فى زقاقٍ ضوأت أوكاره ∴ كل بيتٍ فيه مأساة طويلةْ

غرفٌ ضيقةٌ مو بوءةٌ ∴ وعناوين لمارى وجميلة ..

وبباب البيتِ حاكٍ هرم ∴ راح يجترهُ التواشيح الطويلةْ

نجد خلال هذا المقطع نصاً غائباً لعمر أبى ريشة هو قصيدته المشهورة (دليلة) – وإن جاءت على إيقاع بحر (الخفيف) ، ونورد هنا من هذا النص قول أبى ريشة :

وأوينا إلى مخابىء كهفٍ ∴ ردَّ أيدى زمانه مغلولةْ

فى زواياه للمناكبِ مسرىً ∴ لم تشأ صحبةُ الأسى أن تُزيلهْ

ومصابيحه وراء دخانِ الشر ∴ ب أو هى من أن تفضَّ فلولهْ

وعلى كلِ مقعدٍ وجدارٍ ∴ منه أسماءُ فتية مجهولةْ ..

وصحونا على سؤالٍ مغنٍ ∴ هدَّ من كاهليه عبءُ الرجولةْ

يبقى لدينا فى هذه الدراسة المختصرة نصٌ آخر بعنوان (حكاية) يقول فيه نزار :

كنتُ أعدو فى غابة اللوز لما ∴ قال عنى أمَاه أنى حُلوهْ

وعلى سالفى غفا زرُ وردٍ ∴ وقميص تفلتت منه عروةْ

قال ما قال فالحرير جحيمٌ ∴ فوق صدرى والثوبُ يقطر نشوةْ

أأنا حلوةٌ .. وأيقظ أنثى ∴ فى عروقى .. وشقّ للنور كوةْ

وتمضى القصيدة على هذا النحو من تدفق المونولوج الأنثوى الذى تصف به الفتاة المراهقة مشاعرها أمام أمها الى أن يختتم الشاعر هذه القصيدة العذبة بقوله على لسان الفتاة :

أنتِ لن تنكرى علىَّ احتراقى ∴ كلّنا فى مجامر النارِ نسوهْ

فى هذه القصيدة من ديوان (أنت لى) ينهمر الاعتراف المراهق فى ايقاع (بحر الخفيف) مختلفاً عروضياً عن قصيدة (هند وأمها) للشاعر بشارة الخورى ، الأخطل الصغير التى تأتى فى ايقاع (بحر المتقارب) وتتخذ شكل الحوار . حيث تعترف الفتاة لأمها بوصف متدفق .. يعقبه فى نهاية القصيدة رد الأم الذى يتضمن موقفاً أنثوياً من الحب والحياة فيه الرقة والتعاطف المغلف بالدلال المعروف عن الأنثى .. يقول الأخطل :

أنت هندُ تشكو الى أمها ∴ فسبحان من جمع النيّرين
فقالت لها : إن هذا الضحى ∴ أتانى .. وقبلنى قبلتين
وفرّ .. فلما رآنى الدجى ∴ حبانى من شعره خصلتين

وجئتَ الى الروض عند الصبا ∴ ح .. لأحجبَ نفسى عن كل عيَن
فنادانى الروض يا روضتى ∴ وهمّ ليفعل كالأولين

وتمضى القصيدة فى وصف الليل الذى ذُوّب سائلاً منه وكحّل هنداً منه فى المقلتين ، والغصن الذى انحنى على قدميها وسجد سجدتين ، والبحر الذى ذهبت اليه للابتراد فحملها – ويحه – موجتين رجراجتين .. ثم ..

فها أنا أشكو اليك الجميع ∴ فبالله يا أم ماذا ترينْ ؟
فقالت – وقد ضحكت – أمها : ∴ وماست من العجب فى بردتينْ
عرفتهمو واحداً واحداً ∴ وذقتُ الذى ذقتِه مرتين !!

ولا يفوتنا أن ننوه هنا الى أن نزار قبانى اكتفى فى قصيدته (حكاية) بمنولوج الفتاة التى صادفها ذلك الشاب فى غابة اللوز وفجر فيها الأنوثة بمداعبته لها .. على حين نرى الأخطل الصغير بخيال عابث يفجر العلاقة بين الطبيعة والمرأة .. من خلال مجموعة مقارنات – قد تبدو تقليدية ، كالعلاقة بين سواد الليل والشعر والمقلتين ، وبين الورود والخدود ، والغصن والقوام ، إلا أنه يصهر ذلك كله فى إطار عابث متظرف .. ثم لا يفوته فى النهاية أن يورد تعقيباً ذكياً للمرأة الأم التى تعيش تجربة ابنتها المراهقة فى حنو وحدب .. وكأنها تعيش حياتها هى مرة ثانية .

لندن

هال .. يولد هذه الايام

يحتفل المخرج الأمريكي ستانلي كيوبريك هذه الأيام بمناسبتين فى منتهى الغرابة . الأولى هى الاحتفال بميلاد العقل الاليكتروني « هال » الذى ولد هذه الأيام ، أو المفروض أن يولد . والمناسبة الثانية هى مرور عشرين عاما على اخراج فيلمه الشهير « البرتقالة الآلية » .

تبدو غرابة المناسبة الاولى ، فى أن العقل الاليكتروني « هال » قد ظهر فى فيلم «٢٠٠١ أوديسا الفضاء » الذى تم اخراجه عام ١٩٦٧ . وحسب أحداث الرواية . فإن هذا العقل الاليكتروني سوف تتم صناعته فى عام ١٩٩٢ ويتم تركيبه فى سفينة الفضاء نوستروموا التى ستدور حول الأرض فى عام ٢٠٠١ ، وفوق هذه السفينة سيدور أول صراع من نوعه بين قائد سفينة الفضاء والبشرى وبين « هال » .. الذى سيصبح بالفعل أول عقل اليكتروني يصارع الانسان ويتفوق عليه فكريا ويتحكم في مصيره ثم يقوده ..

المفروض حسب خيال الكاتب آرثر كلارك الذى كتب الرواية - أن هال سيولد هذه الايام ولعل إحدى الشركات تقوم بتصنيعه فعلا وتتمكن من بعثه إلى الوجود . ليتحول خيال الفنان إلى حقيقة مع العام الأول من القرن الواحد والعشرين .

أما الحدث الثانى فهو فيلم « البرتقالة الآلية » المأخوذ عن رواية للكاتب المعروف انتونى بيرجيس . والتى تدور حول الشاب ماكس الذى ارتكب مجموعة من جرائم الاغتصاب العنيفة فى شوارع لندن فى زمن قادم . وقامت السلطات بالقبض عليه . وبدلا من عقابه قامت باجراء عملية « مسخ مخ » له تحول على أثرها إلى مخ بشرى ، يقبل أحذية أسياده ولاتفه الأسباب . ويتصرف بخنوع وذله بادبين .. .. لكن الناس آثرت أن يعود ماكس الى حالته الأولى أفضل من أن يكون بشراً صناعيا ..

لاشك أن لكيوبريك الحق فى أن يحتفل بهاتين المناسبتين ، فهذان الفيلمان قد شاركا فى صنع عقلية العالم فى العشرين عاما الماضية . وخرجت من جعبة الفيلمين ظواهر عديدة حول علاقة



البرتقالة الآلية

الانسان بانجازات العلم . ومنظوره إلى المستقبل الذى سوف يتسم بعنف ظاهر على كل المستويات .

الجدير بالذكر أن روايات الهلال قد قدمت للقارىء العربى ترجمة كاملة لرواية « البرتقالة الآلية » قبل عدة أعوام .

باريس

كاتب يموت على الهواء

استطاع الفرنسيون أن يروا الكاتب ارفيه جيبير وهو يموت لحظة بلحظة ، وذلك من خلال البرنامج التليفزيوني الذي أذيع على القناة الفرنسية الاولى وتابع اللحظات الأخيرة فى حياة الكاتب الشاب الذى مات فى شهر ابريل الماضى على أثر اصابته بمرض الايدز.

ظلت الصحافة وقنوات التلفاز الفرنسية تتابع مرض جيبير ورحيله منذ أن أصيب بهذا المرض فى أواخر العام الماضى وحتى لحظة وفاته وجاءت مأساوية الحدث ليس فقط فى أن جيبير صغير السن بل . أيضا لأنه كاتب موهوب صعد نجمه الأدبى بسرعة بدرجة اثارت الانتباه ، وأعتبره الكثير من النقاد أحد علامات الرواية فى العقد الحالى.

وبصرف النظر عن موهبة الكاتب . فلاشك أن التلفاز قد لعب دوراً كبيراً فى اثارة الحزن والشجن لدى المشاهدين من خلال تصويره الدقيق لحالة الكاتب الذى مات ببطء شديد والذى وافق على أن يتم تصويره فى فيلم بلغت مدة عرضه عشر ساعات . وصلت بعد المونتاج إلى ساعة واحدة لا أكثر . سمع فيها الناس الكاتب الشاب يقول: « إنه ينخر فى دمى لحظة وراء أخرى وهـا أنذا أذبل يوما تلو يوم » .



ورغم المرض الذى أصاب الكاتب . فإن صوته بدا قويا لم يفقد حيويته . وتعمد أن يظهر للناس عاريا تماما كى يروا إلى أى حد ذبل جسده ونبلت عظامه . وقال إنه يتأمل هذا الجسد صباح يوم بيوم أمام المرآة وهو يعرف أنه هالك فى التراب . كما تساءل الكاتب فى البرنامج : هل من الممكن على المرء أن ينتحر لو أصابه مرض ميئوس من شفائه ؟!

ومن أشد لحظات البرنامج تأثراً ذلك المشهد الذى التقى فيه بعمته سوزان (٩٥ سنة) والتى بدت أكثر منه شبابا وحيوية . ورغم ذلك فإن الكاتب لم يحاول أن يستدر عطف الناس على مرضه . ولكنه ود أن يعرى نفسه على الناس مثلما يفعل فى كتبه .

القاهرة

كاليجولا .. وكرباج يوسف شاهين

فى الفترة السابقة تجول كاليجولا فى العديد من العواصم العالمية مرتديا العديد من الأقنعة . لكنه سيظل كاليجولا الطاغية المهووس .

فبينما عرضت المسرحية المصرية كاليجولا بين القاهرة وأسبانيا . فإن باريس لاتزال تشاهد المسرحية التى أخرجها يوسف شاهين لحساب فرقة « الكوميدى فرانسيز » فى باريس وحول هذه المسرحية كتبت الناقدة نيتا روسو لونوفيل أوبسرفاتور مقالا عن شاهين ومسرحيته الاولى شرحت فيه كيفية اختياره لاخراج كاليجولا .

فقد كانت هناك نية فى البداية للاستعانة بمخرج من أفريقيا إلا أنه فى حديث بين يوسف شاهين وصديقه وزير الثقافة الفرنسى جاك لانج طلب الأول أن يمثل شخصية كاليجولا ولم يكن فى تصوره أنه سيكون المخرج وكما جاء فى المجلة فإن شاهين أكد أنه قد بدأ حياته ممثلا وأنه رفض تجسيد هذا الدور اكثر من مرة فى شبابه .

ولان كاليجولا فى مسرحية البير كامى شاب لم يقترب من الثلاثين ، فقد كان من الصعب على شاهين أن يجسد الدور .



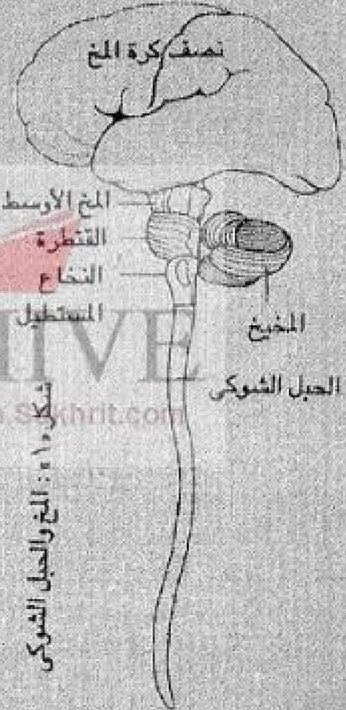
ووجد نفسه مستغرقا فى البروفات كمخرج ثلاثة أشهر . كان شاهين معجبا بالعالم المجرد الذى رسمه كامى فى المسرحية مما يوحى أن كاليجولا موجود فى كل عصر وزمن .

وقد واجهت يوسف شاهين مشكلة اختيار الممثلين . واستغرق وقتا طويلاً قبل أن يسند الأدوار إلى ممثلين باعينهم وبالنسبة للممثلين فإننى لا أتوقف من البوح لهم فهم جزء منى لذا فالامور تسير جيدا معهم . لأن الممثل شىء مقدس بالنسبة لى . وإذا لم يعطنى كل ما اريده قتلته . أنا أحبه من ناحية . ومن أخرى فإننى أمسك له الكرباج » .

وفى نفس المقال الذى كتبته نيتا روسو تحدث المخرج عن فيلمه القادم فقال : « أنا أفعل ما أريد . فلست مخرجا سائقا لسيارة تاكسى . بمعنى أننى لست فى خدمة المنتجين .

فأنا أرفض أن يفرضوا علىّ فيلما مع ايزابيل ادجانى تدور أحداثه فى الهند الصينية فهذا ليس من شأنى . وليس عليها سوى أن تذهب وحدها وليس فى هذا أدنى درجة من الغرور . أنا لا أفعل شيئا لا صل إلى نهاياتى . ولكننى أفعل شيئا يحسب لى .

الجهاز العصبى مفتاح الصحة والمرض



شكل ١٠: المخ والحبل الشوكى

بقلم :
د : محمد بهائى السكرى

الهلال يونية ١٩٩٢

● لكى يكون الإنسان مفيدا منتجا لابد أن تعمل أجهزة جسمه فى توافق وانسجام

شرف الله سبحانه جل وعلا الانسان بالعقل وهو القدرة على التدبر والتأمل والتفكير ، والنظر فى الاشياء ، والربط بين الاسباب والنتائج والبحث عن الأصول ، والتحليل والتعليل.

والعقل كلمة مجردة لا يعلم ابعادها الا الاله العلى . ولكن مما لاشك فيه أن للمخ وللجهاز العصبى بوجه عام ارتباطا وثيقا بالعقل وبالحالة النفسية .

ويعتبر الجهاز العصبى الدعامة الرئيسية فى تنظيم وظائف الجسم والتحكم فى أوجه نشاطاته المختلفة .

ومنذ فجر تاريخ المعرفة الطبية أدرك الإنسان أهمية المخ لصلاحية جسم الإنسان وحياته وحيويته .

وتحـــدث هـــيروفيلس Herophilus وتلميـــذة أريســـتراتس Eristratus مـن مدرسة الإسكندرية القديمة عن وظائف أجزاء مختلفة من المخ مثل نصف كرة المخ ، والمخيخ ، والحبل الشوكى ، والأعصاب ، وذلك قبل مولد المسيح عليه السلام بثلاثة قرون .

وأجرى جالينوس الذى عاش فى القرن الثانى بعد الميلاد تجاربا على حيوانات ثدية بيُن فيها تأثير قطـع أجـزاء من الحبل الشوكى على مناطق معينة من الجسم وحدد المناطق التى يصيبها الشلل من جراء ذلك .

واعتقد ديسكارتس Descartes الذى عاش فى القرن السابع عشر الميلادى أن الانسان فقط دون غيره من الكائنات الحية يمتلك نفسا ذات تفكير منطقى وأن المستودع الذى تكمن فيه هذه النفس هو الجسم الصنوبرى فى المخ . وصنف ديسكارتس مؤلفا فى الطب بين فى بعض اجزائه تصوراته لطريقة حدوث ردود الفعل المنعكسة فى الانسان واستجابته للمؤثرات المختلفة .

ومنذ أواخر القرن السابع عشر بدأت تفاصيل التراكيب الدقيقة فى جسم الانسان تتضح مع اكتشاف المهجر .

وخلال القرن الثامن عشر بدأت الدراسات على النشاط الكهربائى للاعصاب والعضلات .

وفى خلال القرن التاسع عشر بدأت وظائف الجهاز العصبى الارادى الذى يتحكم فى وظائف الاحشاء فى الاتضاح . وفى نفس الوقت ايضا بدأت دراسات كثيرة مختلفة لوظائف اجزاء المخ ، وبدأ تحديد اماكن مراكز كثيرة فى المخ تختص بالحـــركة ، والاحســـاس ، والســـمع والابصار .

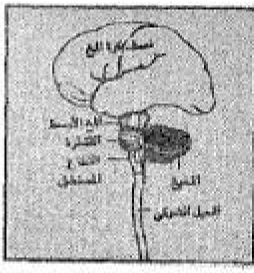
وشهد القرن العشرون تقدما مذهلا فى كل المجالات العلمية والطبية واكبه ابتكار الكثير من اجهزة الفحص والاختبار مثل المهجر الاليكترونى واجهزة الفحص الاشعاعى باستخدام الصبغات والاشعة المقطعية ، ورسام المخ الكهربائى .

ويتركب مخ الانسان من أكثر من عشرة بلايين خلية عصبية تتخاطب فيما بينها عن طريق اشارات كهربائية ، وعن طريق افراز مواد كيميائية معينة .

ويتكون المخ اساسا من نصفى كرة تتحكم اليمنى فى الجانب الايسر من الجسم ، واليسرى فى الجانب الايمن منه . وتشمل بقية اجزائه جذع المخ الذى يربط بين كرتى المخ والحبل الشوكى ، والمخيخ الذى يقبع خلف جذع المخ ويتصل اتصالا وثيقا باجزائه المختلفة (شكل " ١ ") .

ويرتبط السطح الاسفل من المخ

الجهاز العصبي



ارتباطا جيدا بالغدة الصماء القائدة فى الجسم " الغدة النخامية " التى تتحكم فى العديد من الغدد الصماء الأخرى مثل الغدة الدرقية ، والكظرية ، والغدد الجنسية ، مما يجعل الجهاز الهرمونى تحت سيطرة الجهاز العصبى . ويتيح هذا الوضع الفريد للجهاز الهرمونى قدرة التفاعل مع الجهاز العصبى والتكامل معه فى تنظيم وظائف الجسم المختلفة .

الوظائف الإرادية واللاإرادية

ويمكن تقسيم المخ من الناحية الوظيفية إلى قسمين اساسيين : قسم يختص بالوظائف الارادية مثل التفكير والكلام ، والحركة طبقا لارادة الانسان وقسم يختص بالوظائف اللاارادية أو الحشوية مثل التنفس والهضم وتنظيم سريان الدم والاخراج والمحافظة على حرارة الجسم .

ولا يمكن الفصل بين اقسام المخ الوظيفية فبينهما ترابط مثل ترابط التروس التى تحرك عقارب الساعة الواحدة .

وبالتالى تتأثر وظائف الجسم الحشوية، كالهضم والتنفس بالنشاط الارادى مثل التفكير والافعال الصادرة عن رغبة الانسان وبالمثل ايضا تتأثر الاعمال الارادية بحالة الاحشاء وقدرتها على العمل، ودرجة نشاطها أو خمولها .

ويحدث الكثير من الامراض فى الجسم نتيجة اضطرابات فى الحالة العقلية أو النفسية . بل قد يصبح الانسان اكثر عرضة للاصابة بحوادث مختلفة مثل حوادث الطريق أو الحوادث داخل المنزل . كما قد تنخفض المناعة فى الجسم ويصبح اقل قدرة على مقاومة الجراثيم المسببة للامراض .

وفى نفس الوقت يؤدى اختلال الوظائف الحشوية إلى حدوث اضطرابات نفسية ، وتتأثر اعمال الانسان الارادية ، وانحرافها عن المألوف .

ومن امثلة ذلك كله نذكر ما يلى فى تأثير النفس على الجسم :

– يحدث القلق الشديد اختلالا فى نبضات القلب ، وارتفاعا فى ضغط الدم وزيادة فى حموضة المعدة ، وميلا لحدوث قرحة بها أو بالامعاء .

– يحدث الحزن الشديد ارتفاعا فى ضغط العين الداخلى كما قد يحدث اعتاما فى الرؤية نتيجة لقلة شفافية عدسة العين .

– تؤدى بعض الحالات النفسية إلى حدوث اضطراب فى افراز بعض الغدد الصماء : فقد يزيد افراز هرمون الغدة

الدرقية ، وقد تحدث اضطرابات فى الدورة الشهرية فى النساء ، كما قد تزيد القابلية لحدوث مرض السكر .

– تؤدى بعض الحالات النفسية إلى فقد الشهية للطعام مما يفضى إلى حدوث هزال واضح .

وفى مجال تأثير الجسم على العقل :

– تتسبب زيادة أو نقص أفراز بعض الغدد الصماء مثل الغدة الدرقية فى حدوث اضطرابات فى الشخصية وتغير فى المزاج العصبى .

– يحدث امتلاء المعدة أو فراغها ، واحتباس البول ، أو وجود مغص بالامعاء بعض التأثير فى القدرة على التركيز والتفكير .

– تتغير الحالة النفسية لكثير من السيدات اثناء الدورة الشهرية نتيجة لتغير منسوب الهرمونات فى الدم .

ويدعونا استحضار ذلك كله إلى أن نأخذ فى اعتبارنا دائما تأثير العقل والحالة النفسية على الجسم ، وتأثير الجسم على التفكير .

إن الانسان لكى يكون مفيدا منتجا لابد أن تعمل اجهزة جسمه فى توافقا وانسجام . ولا ينبغى أن ننسى أن الانسان يتأثر بالبيئة المحيطة به ، ويتفاعل معها ككائن حى ، فيتأثر بتغيرات العالم الذى يعيش فيه كما أنه يستطيع أن يحدث تغيرات فى الوسط المحيط به .

والانسان لا يفتقد الارادة والحكمة والقدرة على أن يجعل نفسه فى أحسن حالاته إلى أقصى درجات الامكان فهذه واحدة من مواهب الله جل وعلا له ، ونعمه التى لا تحصى عليه . فالانسان يمكنه أن ينأى بنفسه عن مواطن المتاعب والمخاطر ، ويخلد إلى القصد والاعتدال فى مأكله ومشربه وجده ولعبه ، وعمله ونومه . كما أنه يستطيع أن يوفر الطمأنينة لنفسه عن طريق الصلاة وأيضا عن طريق راحة الضمير . وعندما تحيق به الشدائد يلتجىء إلى الله بالدعاء والرجاء فتصفو نفسه وتهدأ سريرته ويزيده الله من فضله فيستجيب له .

ولكن الانسان ايضا قد يسىء إلى نفسه ، ويعرض جسمه للمخاطر والامراض إذا تجاوز حدود قدراته ، أو أساء استخدام بدنه واجهزة جسمه ، أو إذا أفرط فى تناول الطعام ، أو تعاطى من العقاقير والسموم ما يفسد توازنه ، ويخل بنشاطه ، ويحيق به الهلاك والدمار .

فهل لنا أن ندرك فضل الله علينا ، ونشكره حق شكره بحسن استخدام ما اولانا من نعم ؟

" يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الالباب " .

● نحو صناعة نموذج ثقافي عربي ●



نحن لانخاف من أمريكا

محمود قاسم

ترى كيف ستكون المواجهة بعد أن أنحسرت الحرب الباردة والساخنة بين الايديولوجيات ؟ . لا شك أن الحرب القادمة في العالم ستكون حرب ثقافات بين الشعوب والطوائف على المستوى المحلي في مناطق عديدة من العالم ، وستكون حرب ثقافات على المستوى العالمي بين شعوب عديدة في بقاع الدنيا باكملها ..

لن تكون هذه الحرب بين ثقافة معينة وأخرى ، ولكن ، بين ثقافات عديدة ، فقد تمتزج مجموعة من الثقافات ، مثلما كانت تتحد الجيوش المحاربة فيما قبل ، لمواجهة ثقافة أكثر سطوة ، أو لمناهضتها مثلما يحدث الآن بالنسبة للثقافة الأوروبية التى بدأت تمتزج ببطء مع عام ١٩٩٢ أو عام الوحدة الأوروبية فى مواجهة الثقافة الأمريكية .

وهذه المواجهات كانت موجودة دائما ، لكنها بدأت تتبلور فى الربع الأخير من القرن العشرين ، وقد سبق أن أشرنا إلى بعض من ملامحها فى الهلال - اكتوبر ١٩٨٩ - لكن مع عام ١٩٩٢ تغيرت أشكال المواجهة ..

فى شهر ابريل الماضى بدأت هذه المواجهة تشتد بشكل لافت للنظر ، وذلك بمناسبة افتتاح مدينة ديزنى قرب باريس فى الثانى عشر من ابريل ، فقبل افتتاح المدينة بأسابيع عديدة والمفكرون الفرنسيون يرفعون شعار مواجهة ذلك المد الثقافى القادم من الولايات المتحدة ، والمتمثل فى غزو ثقافى جديد فى شكله ، وقوى فى جاذبيته ، وخطير فى قدرته على طمس الثقافات المحلية ، ومنافستها ..

ومن جديد أثيرت قضية سطوة ثقافة الدولة الأولى الآن فى العالم من ناحية القوة العسكرية والسياسية على ثقافات العالم كله ...

ولم يتأخر المفكرون الفرنسيون فى التصدى لهذا الخطر (!) القادم إليهم فراحوا ينبهون إليه ، لكن هيهات ، فهاهى مدينة ديزنى قد فتحت أبوابها كى تتسع لمئات الآلاف من الزوار يوميا .. وعلى باريس صاحبة أشهر أحياء الأدب والفن والمتاحف أن تسعى قدر الإمكان لجذب هؤلاء الزوار من ديزنى لاند إلى اللوفر ومونمارتر .. لكن هيهات .. فهناك مناطق جذب جديدة لن تقاوم الأماكن التقليدية منافساتها .

تجىء خطورة هذا الحدث أن باريس بؤرة الثقافة الأوروبية المعاصرة ، وإيقاعها وإبداعها يختلفان تماما عن الايقاع الأمريكانى AMERICANISMO . فإذا كان المثقفون فى الدول التى عرفت بتاريخها الفكرى الطويل ، والتى أفرزت أهم الأسماء فى مجالات الابداع والفكر والفلسفة طوال قرون قد نبهوا إلى ظاهرة الغزو الثقافى الامريكى الذى تمثل فى سيادة برامج التليفزيون ومحطات البث وقوة وكالات الأنباء وجاذبية أفلام هوليوود . فإن افتتاح مدينة ديزنى كان يستحق كل



شيرنوبل .. ثقافية

جاءت حساسية هذا الحدث فى أن شخصيات مدينة ديزنى وما تمثله من ثقافات أمريكانية ، كانت تدخل البيوت قبلا عبر شاشات السينما والتلفاز قد أصبح لها مكانا فى قلب أكبر عاصمة ثقافية فى العالم . وأصبحت المدينة كانتا مزروعا يمكن أن يهدد الثقافة الفرنسية التى تتسم بطابع خاص بكل ما به من تقليدية ومدارس تجريبية مرتبطة بنظريات فى المسرح والرواية وسينما الموجة الجديدة .

وقد كتب الكثيرون عن أهمية المجابهة بين هذه الثقافة وبين الامريكانية التى حلت فى قلب أوروبا بكل ثقلها وجاذبيتها وسطحيتها . لكن أهم من كتب فى هذا الأمر هو المفكر والأديب چان فرانسوا ريفل الذى كتب مقالا بالغ العمق فى مجلة لوبوان - ٢١ مارس ١٩٩٢ - تحت عنوان « نحن لا نخشى أمريكا » . يرد فيه على المخاوف التى اعتملت فى أذهان المثقفين الفرنسيين . حيث أكد البعض أن افتتاح مدينة ديزنى أشبه بكارثة شيرنوبل على المستوى الثقافى .

فلا شك أن الثقافة الأمريكانية - حسب هذه المخاوف - سوف تتسرب من حيث لا يدرى الناس مثلما تسربت أشعة مفاعل تشرنوبل إلى الناس وظهرت آثارها الضارة بعد فترة من الزمن .

المثير فى هذا الأمر أن چان فرانسوا ريفل يهدئ من هذه المخاوف مؤكداً أنه لا داع للخوف بالمرة من الثقافة الأمريكية ليس بالطبع لأنه حاول أن يقلل من أهميتها . أو أن يهون من مخاطرها . ولكن لأنه يركز على نقطة هامة ، وهى أن الثقافة الأمريكانية لا تأتى لتمحو ثقافة مولودة من فراغ . ولكنها سوف تجد نفسها فى مجابهة صنعت لنفسها هويتها الراسخة . ومن الصعب اقتلاعها من جذورها .

وهذه النقطة هى مربط الفرس فى موضوع مواجهة الثقافات ، فلا شك أن هذا الأمر يهمنا هنا فى عالمنا العربى والاسلامى ، فنحن كثيرا ما نتحدث بحساسية مرهفة عن الغزو الثقافى الأجنبى . وأنه يهدد ثقافتنا البالغة الأصالة والتقدم . وبدا الأمر كأن هذه

الحضارة العريقة لا يمكنها أن تجابه أى ثقافة أخرى أو تقف فى مواجهتها ، رغم أنها أقدم الثقافات وأكثرها أصالة ..

شخصيات مقتبسة

يقول جان فرانسوا ريفل أنه لا خوف بالمرة من الثقافة الأمريكية . فلو نظرنا إلى الشخصيات التى ابتدعتها مؤسسة ديزنى ، على سبيل المثال ، فسنجد أنها مستوحاة من الثقافات الأوروبية ، فقد استوحى ديزنى شخصية زورو الشهيرة من الفولكلور الأسبانى . كما أن شخصيات « الأميرة والأقزام السبعة » و « الحسناء النائمة » مصنوعة فى أوروبا . مع شخصيات أخرى كثيرة . وكل ما قام به الأمريكيون أن اقتبسوها وحاولوا تصديرها إلى كل أنحاء العالم . ومنها بالطبع البلاد التى اقتبست منها مثل هذه الشخصية .

لكن الخطأ الذى وقع فيه جان فرانسوا ريفل يتمثل فى أنه لا يزال أسيرا لماضى ثقافته . فهو يتحدث عن تاريخ أوروبا الثقافى ، مؤكدا أن اليونان قدمت للعالم المسرح والفلسفة . وقدم الفرنسيون كورنى وموليير والبريطانيون شكسبير . والألمان بيتهوفن وفاجنر .

ولاشك أن هذا اعتراف خطير من ريفل أن الثقافة المعاصرة أضعف من أن تجابه السطوة الثقافية القادمة من العالم الجديد . ففيما قبل كان الأوروبيون هم الذين يكتشفون الأدباء الامريكيين مثلما فعل بودلير حين ترجم « قصص شاذة » لادجار إلن بو . أما الآن فإن الأمر قد تغير ، إن لم يكن قد إنقلب . فالإيطاليون ، على سبيل المثال ، هم الذين صنعوا ألمانيا . لكن الأمريكيين هم الذين قدموها فى روايات وأفلام مصبوغة بالصبغة الأمريكانية .

ولعل أهم ما أشار إليه ريفل هو أن الأمريكيين لم يتفوقوا فى كافة الفنون ، بل برعوا فى فنون بعينها . فقد اهتموا بالفنون الجماهيرية مثل السينما والدراما التليفزيونية ، أما بقية الفنون الحقيقية ، و الآداب ، فقد وجدت سيادتها خارج الولايات المتحدة كفن الرواية . والموسيقى والفن التشكيلى .

فمن الواضح أن أساطين فن الرواية الأمريكية الذين برعوا بين الحربين قد قطعوا شوطا طويلا فى أوروبا وتأثروا بالمدارس البريطانية والفرنسية مثل هيمنجواى وفوكنر وشتاينبك . وسنكلير لويس وباختفاء هذا الجيل ظهر جيل جديد أقل قيمة رغم العدد الضخم من الاصدارات السنوية فى مجال الرواية .

الآن فإن الصدارة فى عالم الرواية موجودة فى أوروبا وأمريكا اللاتينية واليابان والعالم العربى ..



نحو صناعة
نموذج ثقافي
عربي

ثقافة الأموال الضخمة

المهم فى هذه الملاحظات أن خيوط الابداع المتميز ليست فى أيدى من هم الأكثر ثراء . لكن هذا لا يمنع أن هناك علاقة بين فنون الكتابة التى برزت خارج الولايات المتحدة . وفنون التعبير المتمثلة فى السينما والتليفزيون . وقد تحدث چان فرانسوا ريڤل عن ثلاث ملاحظات تتعلق بسيادة النوع الأمريكى فى مجال الفنون من خلال :

– نجح الأمريكيون فى التعامل مع وسائل الاعلام . وسعوا إلى اقتباس الروايات المكتوبة خارج الولايات المتحدة . خاصة الميلودرامى منها . فقاموا بتحويرها وأمركتها . فشخصية « رامبو » هى تحوير لشخصية المغامر روكامبول ، أما شرلوك هولز فقد تحول إلى المفتش كرلومبو . (يهمنا أن نذكر هناك شخصيات فى تراثنا العربى أقدم من هذه النماذج مثل : على الزيبق و الزير سالم) .

يعترف ريڤل أن السبب الأساسى فى الاعجاب بالنموذج الأمريكانى أنه الأكثر شجاعة وجرأة من النماذج الثقافية الأخرى . فهو يتصدى لكشف الفضائح ولا يحابى أحداً ولا يتعامل مع المجردات . ولعل هذا يعطى مؤشرا قويا على العلاقة بين الابداع والحرية بكافة أشكالها .

ويهمنا أن نعلق على هذه النقطة بأن الرقابة وسيطرة الأجهزة الرسمية على الابداع يساعد فى خنق تكوين هوية ثقافية قومية حقيقية يمكنها أن تجابه الثقافات الأخرى الأكثر حرية ومرونة فى التعبير عن مشاكل المجتمع الذى تمثله . فالرقيب يتعامل مع المثقفين والجمهور على أنهم لم يبلغوا سن الرشد بعد ، ويبدو كمدرس يحمل عصا يعلم الناس ما يجب وما لا يجب أن يقرأوه ويشاهدوه فى الصالات والبيوت ..

أعترف ريڤل أن الامريكيين لم يتفوقوا سوى فيما أسماه ، بثقافة الفنون المرئية ، وهذه الثقافة تعتمد فى نجاحها الجماهيرى على رءوس أموال ضخمة . فاستوديوهات هوليوود ومدينة ديزنى لم يكن لها أن تظهر إلا من خلال اعتمادات مالية ضخمة . ثم كبرت هذه المؤسسات من خلال الأرباح الطائلة التى تحققها .

شئنا .. أم أبينا

لعل افتتاح مدينة ديزنى فى باريس يكون بمثابة جرس التنبيه لنا فى عالمنا



العربى ، فالمنافسة والمجابهةجات منذ سنوات . ولاشك أنها سوف تشتد وتحتدم فى السنوات القادمة .. ولا نعرف ماذا أعددنا بالضبط لهذه المجابهة سوى أن هناك مجموعة من الاراء التى تختلف فيما بينها وتتضارب ، فالبعض يرى أنه لا يجب التعامل بأى شكل مع هذه الثقافات لما تمثله من خطورة على ثقافتنا . على طريقة دفن رأس النعامة فى الرمال . ويرى البعض الآخر أنه يجب الاتصال بهذه الثقافات والتعرف عليها ، لأن الاتصال سيتم شئنا أم أبينا .

أما البعض الثالث فيرى أنه من المهم تأصيل نموذجنا الثقافى ، ولا شك أن صناعة نموذج ثقافى عربى له قوته وأصالته وهويته هو أفضل الحلول ، سواء للمجابهة القادمة . أو لمحاولة رد السيادة التى تمثلها ثقافات غربية أكثر ثراء وجاذبية وانتشارا . وعلى سبيل المثال ففى عالم ثقافة الطفل ليست لدينا شخصية قومية يمكن التأكيد أنها عربية أو مسلمة يمكنها أن تقف فى مواجهة النماذج الأخرى الموجودة فى القرية العالمية ، ليس فقط من الولايات المتحدة التى صنعت عشرات الشخصيات من طراز ميكى وسوبر مان وتوم وجيرى . بل من فرنسا تان تان وسبيرو ، ومن ايطاليا (بينوكيو) وشخصيات أخرى مصنوعة فى اليابان وغيرها من الدول ..

وإذا نظرنا إلى السينما العربية ، فسوف نرى أن أغلبها خرج من عباءة السينما فى بلدان عديدة ، ولكن هناك نوعا من الانفراج والتميز فى ميدان الرواية فلا شك أن هناك مجموعة من الأدباء العرب يحظون بأهمية لا بأس بها ، سواء الذين يكتبون بالعربية أو بالفرنسية مثل الطاهر بن جلون وأمين معلوف ورشيد بوجدرة .

إذا كان جان فرانسوا ريفل قد ردد : «نحن لا نخشى أمريكا » بينما تدخل الأمريكانية بكل قدراتها عرين أوروباالتى صنعت ثقافة العالم طوال قرون . فهل يمكن أن يردد مثقف عربى نفس العبارة ، اللهم إلا إذا كان هناك نموذج ثقافى عربى يمكنه الوقوف صلبا أمام النموذج الأمريكانى . يمكن أن يجابهه وينافسه . وأن يجد قبولا وجاذبية على الأقل على المستوى العربى .. ؟

مجرد سؤال ..



د. محمد حسين هيكل



العقـــاد



شكرى أباظة

عندما كانت مجلة الهلال فى سن الخمسين

بقلم : عبد الحميد الكاتب

كنت أعمل محرراً بمجلة «الهلال» عندما احتفلنا ببلوغها سن الخمسين ، وأرجو أيها القارئ الكريم ، وأيتها القارئة الكريمة ، ألا تتعجلا فتحسبان أننى بلغت الآن من العمر مائة سنة عتيا .. فقد كنت أعمل محرراً بالهلال وأنا طالب صغير فى الجامعة !

وعندما اقتربت المجلة العظيمة من سن الخمسين رأى رئيس تحريرها ، الأستاذ اميل زيدان ، أن يصدر عدداً خاصاً احتفاء بهذه المناسبة الكبيرة ، وأخذ يفكر فيما ينبغى أن يتضمنه هذا العدد من موضوعات ، وفيمن ينبغى أن يكتبوا فى هذه الموضوعات . واستقر رأيه على أن تكون هذه هى المناسبة لعرض تطور الحياة المصرية والحياة العربية فى شتى جوانبها خلال تلك السنوات الخمسين التى قطعتها مجلة «الهلال» .

وكنا ثلاثة نعمل مع رئيس التحرير ، الاستاذ طاهر الطناحى والاستاذ إبراهيم المصرى وكاتب هذا المقال .. فوضعنا برنامجاً مفصلاً يتضمن موضوعات هذا العدد الخاص ، فاكتمل أمامنا تصور شامل للحياة المصرية والعربية فى جميع جوانبها وأبعادها ، وتطورها خلال نصف قرن مضى ، وتطورها المأمول فى القادم من السنين .. فوضعنا فى هذا البرنامج أسماء العديد من أكبر وأبرز الشخصيات المصرية والعربية .. رؤساء دول ورؤساء حكومات .. زعماء سياسيين ووزراء بارزين .. قادة فى مجالات الاقتصاد والاجتماع والتعليم والقانون .. اسماء كبار المفكرين والكتاب .. اسماء ضخمة فى عالم الأدب والشعر والفن .. وفى عالم التحرر الوطنى والاجتماعى الذى كنا نعيشه حينذاك .

وأرسل رئيس التحرير خطابا إلى كل من هؤلاء الكبار البارزين ، وراح الاستاذ طاهر الطناحى يتصل بهم ويتابعهم ، حتى تجمعت لدينا المقالات المطلوبة فأخرجنا عدداً من « الهلال » لا أقول أنه كان عدداً «خاصاً» ولا عدداً « ممتازا » ، بل اقول اننا قدمنا للقارىء ثروة من العلم والفكر والأدب لا مثيل لها .

لقد عدت إلى تصفح هذا العدد من مجلة الهلال فقلت ما اظن أن هناك كتابا عن تاريخ مصر وتاريخ العرب فى العصر الحديث يضاهى هذا « السفر » الحافل فى مادته وثروته ، وفى أفكاره وتوجهاته ، وفى مستوى هؤلاء الاعلام الذين شاركوا فى كتابة موضوعاته المتعددة والشاملة . ولهذا فإنى لأرجو ، وألح فى الرجاء ، ان تعيد دار الهلال إصدار هذا العدد من مجلة الهلال الذى صدر فى سبتمبر سنة ١٩٤٢ ، وسيقبل عليه القراء الآن اكثر مما أقبلوا عليه منذ نصف قرن مضى ..

وعلى مر السنين الطوال فإنى لأذكر جيداً أن أحد كبار كتاب الهلال ، وهو المرحوم الشيخ عبد العزيز البشرى الذى طلبنا منه مقالاً فى هذه المناسبة ، اتصل بى بالتليفون ليخبرنى بأنه انجز المقال ، وأن أرسل إليه من يحمله إلى المجلة ، ثم يقول ويكرر : كل خمسين سنة يا ابنى وانت طيب ! .

وشاءت ارادة الله أن يجيب دعاء الشيخ عبد العزيز البشرى ، ابن الشيخ سليم البشرى شيخ الازهر الشريف .. رحمهما الله برحمته الواسعة .. وهأنذا ادعى بعد خمسين سنة للمشاركة فى العيد



عبد العزيز البشرى

المئوى للهلال .. وادعو الله عز وجل أن يشهد أولادنا وأحفادنا الاعياد القادمة لمجلة الهلال العريقة .

☆☆☆

بدأت صلتى بمجلة الهلال وأنا طالب بالسنة الثالثة فى الجامعة ، فقد دفعنى شىء من الثقة بالنفس والتطلع إلى المستقبل أن اطمع فى نشر مقال فى المجلة التى لا يكتب فيها إلا كبار الكتاب أو من اقتــرب من مكانة هؤلاء الكتاب الاعلام .. أن أى تفكير متعقل كان يحتم علىّ الا يجنح بى الطموح إلى هذا المدى البعيد !

وفعلاً قبعت فى غرفتى اياماً واياماً ، وكل يوم يمتد بى العمل معظم الليل وشطراً من النهار ، وكتبت ثلاث مقالات .. مقالة عن القصصى الروسى تشيكوف ، ومقالة عن الشاعر الهندى طاغور ، ومقالة عن موضوع مصرى اذكر أنه موضوع «قوانين العمل والعماله» التى نحتاج إليها فى مصر وكل مقال كتبته واعدت كتابته مرة أو مرتين أو ثلاث مرات . ثم ذهبت بها إلى دار الهلال وقابلت الاستاذ طاهر الطناحى مدير التحرير .. فقال لى : إن مجلة الهلال مخصصة لكبار الكتاب .. ويدأ يسرد بعض هذه الاسماء الكبيرة .. قلت : نعم ، أعرف هذا .. ولكننى اطمع فى أن تجد فيما كتبت شيئاً مناسباً للنشر فى الهلال .. وخاصة أننى منذ قريب نشرت مقالاً فى مجلة أخرى لا يكتب فيها إلا كبار الكتاب وهى مجلة « الرسالة » وكان المقال عن اسماعيل صبرى ، الشاعر المصرى العظيم .

وبعد أيام لا تتجاوز اسبوعاً وصلتنى رسالة بالبريد .. رسالة من الاستاذ أميل زيدان صاحب دار الهلال ورئيس تحرير مجلة الهلال .. يقول فيها : قرأت مقالاتك واعجبت بها .. وارجو ان تحضر لمقابلتى يوم كذا .. الساعة كذا ..

وذهبت للقاء الرجل الكبير .. وفى الموعد المحدد بالدقيقة خرج من مكتبه واستقبلنى فى الغرفة المجاورة المعدة للمقابلات .. وكان لطيفاً بشوشا .. وأثنى على ما كتبته .. وقال سأنشر مقالك عن تشيكوف، ومقالك عن طاغور ، أما مقالك عن قوانين العمل والعمــال فهذا موضوع مصرى بحت .. ومجلة الهلال مجلة مصرية للعرب جميعاً .. قراؤها هم قراء العربية فى كل بلاد العرب .. حتى فى مهاجرهم فى أقاصى الأرض .. ثم قال لى ما هو أكثر من هذا : كلما فكرت فى كتابة موضوع لمجلة الهلال .. فأطلب مقابلتى .. وأحضر لنتناقش فيما تريد كتابته .. لنتفق

على الموضوعات المناسبة لمجلة الهلال ، ولغيرها من مجلات دار الهلال .

خرجت وأنا لا أصدق أن طالباً لم يتم دراسته بعد قد استقبله هذا الصحفى الكبير بهذا القدر من التشجيع .. وبعد شهر أو أقل صدرت مجلة الهلال وفيها مقالى عن تشيكوف .. ثم ظهـرت مقالتى عن طاغور .. وبعد النشر بأيام قليلة كانت تصلنى رسالة من دار الهلال أصرف بها من خزانة الدار جنيهين عن كل مقال .. ومع الرسالة بطاقة من الاستاذ إميل زيدان عليها كلمات : مع شكرى وتحياتى .

وقد سئلت فى الاجتماع الذى عقد فى دار الهلال للاعداد للاحتفال بالعيد المئوى لمجلة الهلال عن مكافآت الكتاب عن مقالاتهم فى ذلك الوقت ، وكنت أعرف هذا عندما صرت سكرتير تحرير مجلة الهلال»

العقاد وأحمد أمين وعبد العزيز البشرى وفكرى أباظة .. وغيرهم من الكتاب الكبار كانت المكافأة ثلاثة جنيهات عن المقال . أما الطبقة الثانية من الكتاب ، وكانوا عندئذ يقتربون من الصف الأول ، وهم عبد الرحمن صدقى وعلى أدهم وإبراهيم المصرى وحسن الشريف وحبيب جاماتى وغيرهم ، فكانت المكافأة جنيهين عن المقال وكان الكاتب الوحيد الذى يتجاوز هذا القدر هو طه حسين فكانت مكافأته خمسة جنيهات عن المقال .

أذكر فى هذه المناسبة أن العقاد عندما خرج على الوفد وراح يهاجم الحزب ورئيسه ورجاله ، سدت فى وجهه كل أبواب النشر فى الصحف والمجلات .. خرج من صحيفة « الجهاد » الوفدية ، ولم يكن فى وسعه أن يكتب فى صحيفة من صحف الأحزاب الأخرى التى أمضى السنوات وهو يهاجم زعماءها بشدة وعنف .. وأصدرت السيدة روز اليوسف جريدة يومية يدير تحريرها الدكتور محمود عزمى ، ويكتب فيها العقاد المقال الرئيسى كل يوم .. ولكن الجريدة لم تعش إلا قليلاً ، وخاصة أنها ركزت على مهاجمة المعاهدة المصرية البريطانية التى عقدت سنة ١٩٣٦ ، وكان أغلب الناس قد رضوا بها ليستريحوا ويستجموا من مشقة الجهاد الوطنى ومتاعبهم التى استغرقتهم سنين طويلة .. فانصرف الناس عن تلك الجريدة الممتازة من الناحية الصحفية البحتة ، فأغلقت أبوابها ولم يبق للعقاد من مصدر رزق سوى مقالين يكتبهما لمجلة الهلال ، إحداهما يوقعه باسمه ، والثانى ينشر فى نهايته الحروف الأولى من اسمه .. ويتقاضى عنهما ستة جنيهات فى الشهر .

رأيت العقاد فى تلك الفترة العصيبة مراراً فى « مكتبة نهضة مصر » يتصفح الكتب الأجنبية ويأخذ جانباً منها .. ولقيته مرتين أو أكثر ينتظر الترام فى ميدان العتبة الخضراء وهو يحمل حزمة من هذه الكتب الأجنبية .. وسألت صاحب مكتبة



عبد الرحمن صدقي

نهضة مصر المرحوم الأستاذ حسن محمد عن هـذا فقـال .. قلت له : يا أستاذنا خذ ما تشاء من الكتب .. وسأكتب ثمنها على « الحساب » .. وإن شاء الله سوف تفرج وتدفع ثمن الكتب .

فى تلك الأيام كـتب العقـاد قصـة « سارة » .. قصة حب لامرأة لا تعرف حـتى الآن من هى .. قيـل إنهـا ممثلة مصرية كانت ذائعـة الصيت فى ذلك الوقت .. وقيل إنها امرأة لبنانية تعيش الآن فى باريس أو كانت تعيش هناك حتى وقت قريب .. واقترح عليه الأستاذ طاهر الطناحى أن ينشر هذه القصة مسلسلة فى إحدى مجلات دار الهلال ، وبواقع ثلاثة جنيهات عن كل حلقة ..

ووافق العقاد .. ونشرت الحلقة الأولى.. ثم الحلقة الثانية وفى مقدمتها كلمة يقول فيها الطناحى إن العقاد على كثرة ماكتب فى شتى الموضوعات ، فإنه لم يكتب عن الحب فى شبابه .. أما الآن وقد بلغ الأربعين أو جاوزها ، فقد راح يكتب عن الحب ! وكانت كلمة بريئة كل البراءة ..

ولـكن ما أن قرأها العقـاد حتى غضب وثار .. وهاج وماج .. ورفض أن يستمر فى نشر القصة التى تدر عليه اثنى عشر جنيها كل شهر .. واكتفى بمقاليه فى الهلال .. وبالستة جنيهات !

بين العقاد وهيكل

وكان العقاد مريحاً فى شئ ، ومتعباً فى شئ آخر ، كان مريحاً فى الالتزام بالموعد المحدد لتسليم مقاله ومريحاً فى وضوح الخط الذى يكتب به كأنه خطاط .. على النقيض الدكتور محمد حسين هيكل باشا الذى لم أكن أستطيع قراءة خطه بتاتاً ، بل إن عمال المطبعة فى دار الهلال لايستطيعون قراءته ، فكنا نستعين بعامل فى مطبعة جريدة « السياسة » التى يرأس تحريرها ليفك طلاسم هذا الخط .. أما الناحية التى كنت أتعب فيها مع العقاد فهى إذا تجاوزت مقالته الصفحات المقررة لها بسطر أو سطرين .. فأنا لا أستطيع أن أضحى بصفحة كاملة من المجلة لأنشر فيها سطراً واحداً أو سطرين .. فلابد أن أرسل « بروفة » المقال إلى الأستاذ العقاد فى منزله فى مصر الجديدة ، لكى يختصر هو بنفسه هذين السطرين ، وأذكر أنه قال لى مرة أنه تعب كثيراً ليعثر على سطرين من مقاله يمكن الاستغناء عنهما !

ينبغى هنا أن أقول شيئاً .. إن العقاد الذى كان يبدو فى ظاهره ، وفى حديثه على الملأ ، متكبراً متعالياً مغروراً .. والذى

يقف فى مجلس الشيوخ ويقول عن الملك فؤاد : إن المجلس على استعداد لأن يسحق أكبر رأس فى البلاد تعتدى على الدستور .. هذا العقاد نفسه كان على نقيض هذا معنا ، نحن تلاميذه ومريديه ، بل كان يفيض معنا لطفا ورقة وتواضعاً .. أما ذلك التكبر والتعالى والتعاظم فإنه يختص به الكبراء من أمثال جلالة الملك أو زعيم الأمة .. فعندما ذهب مصطفى النحاس باشا إلى العقاد فى بيته ليطلب إليه بصفته « زعيم الأمة » أن يكف عن مهاجمته ومهاجمة الوفد ، قال له العقاد : أنت زعيم الأمة لأن الأمة هى التى جعلتك زعيماً .. أما أنا فكاتب الشرق .. ولا فضل لأحد علىّ فى هذا .. فقد جعلت نفسى كاتب الشرق بفضل مواهبى وجهودى ! .. وعندما ذهب على باشا ماهر بالملك فاروق لزيارة العقاد فى شقته فى مصر الجديدة ، كان العقاد يقول .. ولا يتحرج من القول .. إننى لا أستفيد شيئاً من هذه الزيارة .. ولكن الملك هو الذى يستفيد .. فعندما يكتب تاريخه سيذكر الذين يمدحونه أنه كان يريد أن يتعلم وينفتح عقله .. فذهب إلى زيارة العقاد فى بيته .

أعود إلى مجلة الهلال وصلتى بها منذ نصف قرن مضى ؟

سألنى الأستاذ إميل زيدان فى أحد لقاءاتى معه ، وكنت عندئذ فى السنة الأخيرة فى كليتى الجامعية ، عن المرتب الذى يمكن أن أحصل عليه بعد تخرجى فى الجامعة .. فقلت له إذا وجدت « واسطة » كبيرة وذات نفوذ فسأحصل على وظيفة مرتبها عشرة جنيهات . فقال لى : لماذا لا تأتى الآن إلى دار الهلال ويكون مرتبك عشرة جنيهات ؟ قلت : إننى سأتم دراستى بعد شهور قليلة وأخذ « البكالوريوس » .. فقال : وهو كذلك .. انته من الامتحان ، ولا تنتظر النتيجة ، واحضر للعمل معنا ..

وفعلاً لم أنتظر نتيجة الامتحان .. فقد رسبت فى إحدى المواد .. وأخذت الشهادة فى الملحق !

وعملت فى دار الهلال بمرتب قدره عشرة جنيهات فى الشهر .. وشعرت منذ أول شهر بالاستقلال الاقتصادى عن والدى .. وبعد ثلاثة أو أربعة شهور شعرت بالرغبة فى الاستقلال الاجتماعى عن أسرتى .. وتجرأت وفاتحت أمى وأبى فى هذا .. وكانت عاصفة من الرفض والاستياء .. ثم كلام عن الزواج .. ثم موافقة على مضض، فاستأجرت شقة قريبة من بيت أسرتى وكان إيجارها جنيهين ونصف جنيه .. وكانت من ثلاث غرف واسعة وصالة فسيحة .. وبما لايزيد على أربعين أو خمسين جنيهاً اشتريت الأثاث اللازم بما فيه مكتب وخزانة كتب .. وأنا لا أعرف الطهو فاستأجرت طاهياً بجنيه ونصف جنيه فى الشهر فيطهو الطعام وينظف الشقة أيضاً .. وبثلاثة جنيهات فى الشهر يشترى اللحم والخضار



كامل الشناوى

والفاكهة .. وإذا أردت أن أتعشى مع الاصدقاء خارج البيت فهناك مطعم إيطالى فاخر في ميدان التوفيقية ، تؤمه الممثلات المشهورات فى ذلك الوقت .. فنراهن .. ونأكل ونشرب الطعام الإيطالى اللذيذ .. ويدفع كل منا عشرين أو خمسة وعشرين قرشاً .

وهذا المستوى للأسعار لا يختلف كثيراً عن مستواها الحالى ! .. كيف ؟ .. نعم ، لقد كانت قيمة الجنيه المصرى أعلى قليلاً من قيمة الجنيه الذهب .. كان هذا يساوى سبعة وتسعين قرشاً ونصف قرش .. والذى حدث أن هذا الجنيه الذهب يساوى الآن أكثر من مائتين وستين جنيهاً مصرياً .. أى أن مرتبى وقدره عشرة جنيهات يساوى الآن أكثر من ألفين وستمائة جنيه .. ولو اعطتنى مجلة الهلال الآن هذا المبلغ لاستطعت أن أعيش فى المستوى المريح الذى كنت أعيشه منذ خمسين سنة !

وزاد مرتبى من مجلة الهلال مرتين فوصل إلى خمسة عشر جنيهاً . ثم حدث تطور كبير فى الصحافة المصرية وفى مرتبات المحررين ، وذلك عندما صدرت «أخبار اليوم» فى أكتوبر ١٩٤٤ ، وسمعنا عن مرتب قدره مائة جنيه فى الشهر يتقاضاه كل من توفيق الحكيم وأحمد الصاوى محمد وكامل الشناوى وعندئذ فاجأنى الأستاذ أميل زيدان ذات يوم بسؤاله عن مرتبى .. قلت له إنه خمسة عشر جنيهاً قال لى .. هذا لا يناسب .. ابتداءً من الشهر القادم سيكون مرتبك ثلاثين جنيهاً ! .. وفعلاً تضاعف مرتبى من مجلة الهلال دفعة واحدة .

ماذا كنت أؤدى من العمل مقابل هذا المرتب ؟

الهلال والترجمة

كان فى دار الهلال مكتب خاص يتلقى مجموعة كبيرة من الصحف والمجلات الإنجليزية والفرنسية والأمريكية ، فيعكف رئيس المكتب الأستاذ مرشاق على قراءتها .. لكى يتخير منها الموضوعات ، ويستمد منها الأفكار ، التى تصلح لمجلة الهلال ولاخواتها من المجلات وأولاها مجلة «المصور» . ومجلة «ايماج» التى تصدر باللغة الفرنسية .. ثم مجلة «الاثنين» ... وربما مجلات أخرى جعلت من دار الهلال أكبر دار صحفية فى العالم العربى ، وإحدى دور الصحف الكبرى فى العالم .

ولم تكن قراءة مجلة أجنبية شيئاً غريباً عنى .. فعندما كنت تلميذاً فى مدرسة

الزقازيق الثانوية كانت توجد مكتبة فى المدرسة ، وكانت ترد إلى هذه المكتبة مجلة إنجليزية أسمها مترجماً إلى اللغة العربية، «المصور» أو «المصورة» ، وكنت أسرع إلى هذه المجلة يوم وصولها فاطالع صورها الرائعة وأحاول أن اقرأ ماكتب تحت هذه الصور .. وأظن أن صاحبى دار الهلال الأستاذ إميل زيدان والأستاذ شكرى زيـــدان ، رأيا أن يخرجا مجلة عربية تضاهى مجلة «المصور» الإنجليزية ومجلة «المصور» الفرنسية الشهيرة ، فأخرجا مجلة «المصور» العربية ..

وكان هذا المكتب يزود مجلة الهلال بكثير من المقالات التى تصلح للترجمة أو للتلخيص أو للاقتداء بها فى كتابة موضوعات عربية مشابهة ، فكنت أنكب على هذه المقالات أترجمها أو أقتبس منها، مثلما أخذت أترجم وأقتبس من الكتب الأجنبية التى كنت ومازلت أهوى اقتناءها .. فأملأ بها صفحات مجلة الهلال .. أقول هذا بلا غرور ولا ادعاء .. فقد تصفحت يوماً عدداً من أعداد المجلة فى تلك الأيام ، فوجدت أن عدد الصفحات التى كتبتها كان ثمانين صفحة من المجلة التى تضم مائة وثمانى وعشرين صفحة .. وكانت هذه الصفحات الكثيرة تضم مقالاً وقعته بأسمى، ومقالاً وقعته بالحروف الأولى من الأسم ، ومقالات عديدة مترجمة أو ملخصة .. وقصة قصيرة لأحد أعلام أدب القصة .. هذا فضلاً عن الأبواب الثابتة للمجلة وفيها باب للأخبار العلمية ، وباب نقد الكتب ، وباب رسائل القراء .

وباب رسائل القراء هذا كان ينشر رسائل قصيرة تأتينا من قراء الهلال فى أقاصى الأرض .. تأتينا من قراء فى أمريكا وفى البرازيل والارجنتين .. وفى شيلى فى أقصى جنوب أمريكا .. ولا أظن أن مجلة الهلال كانت توزع أو تباع هناك .. ولكن أظن أن أهل هؤلاء المهاجرين فى لبنان وسورية كانوا يرسلون إليهم المجلة العربية المحترمة .. وهنا أذكر أن من بين من كانوا يكتبون لمجلة الهلال الشاعر أيليا أبو ماضى الذى رأيته فيما بعد يجلس أمام دكان صغير فى حى بروكلين ومنهم الأستاذ فيليب حتى المؤرخ الكبير وأستاذ الدراسات العربية فى جامعة برنستون الشهيرة .. وفى رحلاتى إلى بلاد أمريكا الجنوبية فيما بعد التقيت بالكثير من هؤلاء المهاجرين الاوائل ، ومنهم من صاروا أغنى الأغنياء فى أوطانهم الجديدة .. ولكنهم يقرءون ما يصلهم من مجلات وكتب عربية ، ومنهم من كان يقرض شعراً عربياً .. ولكن هذا توقف عند جيل المهاجرين ، أما أبناؤهم وبناتهم فلغتهم هى الأسبانية أو البرتغالية . ويتعلمون معها لغة أجنبية هى اللغة الأمريكية طبعاً !

☆☆☆

وأخيراً فينبغى أن أذكر أن من أفضال مجلة الهلال علىّ أننى تعرفت خلال



إميل زيدان

السنوات الثمانى التى قضيتها معها بكثير من الكتاب والأدباء ، وبكثير من الصحفيين، وفى مقدمة هؤلاء اثنان من أعلام الصحافة هما الاستاذ فكرى أباظة والاستاذ مصطفى أمين .

وعن طريق الاستاذ فكرى أباظة نشأت أول صلة لى بالأمم المتحدة . ففى سنة ١٩٤٥ تقرر عقد مؤتمر سان فرنسيسكو لإقامة المنظمة الدولية الكبرى ووضع ميثاقها . ولم تكن الصحف المصرية حينذاك تستطيع أن ترسل مندوبيها إلى هناك ، فاتفقت معنا على أن ينوب عنها الاستاذ فكرى أباظة .. وأظن أنه كان يومها نقيباً للصحفيين .. فسافر إلى سان فرنسيسكو وأخذ يرسل كل يوم برقية باللغة الأنجليزية يلخص فيها أعمال المؤتمر من وجهة نظر مصرية عربية ، فتوزع على الصحف المصرية جميعا . أما مجلة المصور التي يرأس تحريرها فكان يخصها بمقال أسبوعى طويل يبدى فيه آراءه فيما يجرى فى المؤتمر وفى المنظمة التى يراد إنشاؤها ، وكان رأيه بوجه عام متشائماً من مستقبل هذه المنظمة ، ويرى أن الأمم المتحدة لن تكون أحسن حالاً من عصبة الأمم .

كان يرسل هذا المقال تلغرافيا .. وباللغة الإنجليزية طبعاً .. فلو أرسله بالبريد لما وصل من سان فرنسيسكو إلى القاهرة إلا بعد أسابيع .. واختارنى الاستاذ إميل زيدان لترجمة هذا المقال الأسبوعى .. وكنت أحاول فى الترجمة أن أقلد وأحاكى أسلوب فكرى أباظة .. وأكثر كما كان يفعل من وضع علامات التعجب والاستفهام .. فكان أكثر القراء يظنون أن هذه المقالات بقلم الكاتب الكبير ، وليست ترجمة لما أرسله باللغة الانجليزية .. وكان يعاونه فى كتابتها بالإنجليزية الدكتور على الجريتلى المستشار الاقتصادى لوفد مصر إلى مؤتمر سان فرنسيسكو .. وكان قيامى بترجمة هذه المقالات هو أول علاقة لى بالأمم المتحدة التى أمضيت فيها ومعها بعد ذلك ثلث قرن من الزمان .. أو على وجه التحديد أمضيت فيها ومعها ثلاثا وثلاثين سنة وأربعة شهور .. حقا إن الإنسان لا يرسم طريقه فى الحياة .. وإنما ترسمه إرادة الله سبحانه وتعالى .. تلك عقيدتى وهذا هو إيمانى .

أما الاستاذ مصطفى أمين فعندما التقيت به أول مرة فى دار الهلال ، فقد استقبلنى أجمل استقبال ، ورحب بى ترحيباً شديداً ، وأثنى على ما أكتب ثناءً

عاطراً ، وطلب منى أن أكتب فى مجلة «الاثنين» التى كان يرأس تحريرها .. واعتذرت طبعاً فأنا لا أصلح للكتابة فيها .. وقابلته بعد هذا عدة مرات ، وفى كل مرة أجد منه كل ترحيب وحفاوة .. وذات يوم دخلت صالة المحررين فى مجلة «الاثنين» .. وكان على عادته يكتب شيئاً .. فأقبلت عليه لأحييه ، فرفع رأسه قليلاً ، ونظر إلىّ ، ثم تمتم بكلمة رداً للتحية .. فاندهشت .. ماذا جرى ؟ .. لماذا يقابلنى بهذا التجاهل والجفاء ؟ .. وأسرعت إلى مكتب صديقى الاستاذ حسين فريد سكرتير تحرير المجلة، وقلت له وأنا بين الدهشة والاستياء .. إن مصطفى أمين هذا رجل غريب .. إنه كان يقابلنى دائما بالترحيب الحار .. فماله اليوم يقابلنى بهذه الجفوة ؟ .. فقال لى : هذا ليس مصطفى أمين .. هذا على أمين !

وقد ظللت فترة طويلة لا أفرق بينهما .. ثم عرفتهما عن كثب ، وعملت معهما فى أخبار اليوم .. وعرفت ولمست عن قرب أن على أمين ، عليه رحمة الله ، يحمل أصفى وأنقى قلب يحمله إنسان .. وأنه يفيض لطفاً وعطفاً ومودة وكرماً .. وإنه إذا صاح فى إنسان فإنما يصيح لفرط محبته وإعزازه .. ومصطفى أمين هكذا أيضا ولكنه يسيطر على أعصابه ، فلا يغضب ولا يثور ، وهو إذا أحب أحداً بذل فى تشجيعه ومساعدته كل ما يستطيع .. مثلما فعل معى مراراً .. ولكن إذا خاصم ، وهو لا يخاصم إلا فى أمور السياسة ، وإلا على مستوى الرؤساء والزعماء والدول وحتى الايديولوجيات السياسية ، فإنه يسرف فى خصومته !

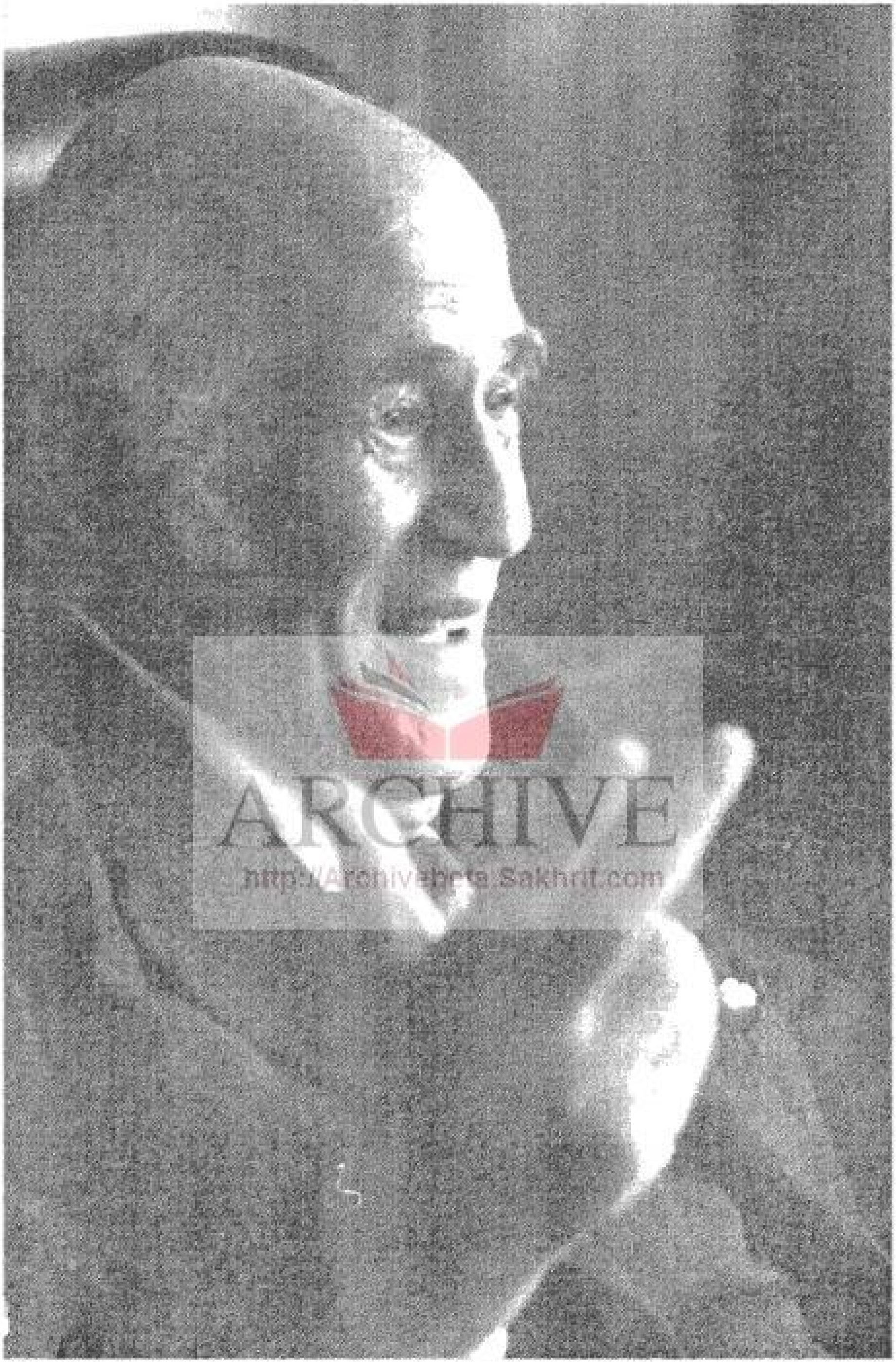
وألح علىّ الاستاذان الكبيران أن أكتب فى مجلة الاثنين .. فاعتذرت لأننى لا أستطيع أن أكتب لها ما يناسبها ويرضيها .. وألحا .. وأخيرا وافقت على أن أكتب باباً بعنوان «قرأت» أتخير له أشياء مناسبة مما كنت منكبا على قراءته حينذاك من كتب ومجلات أجنبية .. ولم أكن واثقا من نجاح هذا الباب .. فاخترت لنفسى اسماً مستعاراً أكتب به هذا الباب الأسبوعى . فإن ارتضى القراء هذا الباب وارتاحوا إليه ، قلت إننى صاحب هذا الاسم .. أما إن فشلت فيما أكتب وطوى القراء صفحته دون أن ينظروا فيها قلت إننى لا أعرف من هو كاتب هذا الباب .. وقد نجح هذا الباب ولله الحمد نجاحاً كبيراً .. وطلبت مجلة «الثقافة» أن أكتب لها باباً مثله ومناسباً لها .. وقمت بهذا لبضعة شهور ، ولكن ذخيرتى كانت لا تكفى لتغطية مثل هذا الباب مرتين فى الأسبوع .. واقتصرت على باب «قرأت» أكتبه فى مجلة الاثنين .. وأوقعه باسمى المستعار الذى صرت بعد هذا أوقع به كل ما أستطيع كتابته فى الصحف والمجلات .. وهو على أية حال .. اسم على غير مسمى .

مصطفى أمين :

تتلمذت على « الهلال » فى بيت الأمة .. وتعجبنى جرأة موضوعاته وآرائه

فى احتفالنا بمرور ١٠٠ عام على صدور الهلال ، نقدم من خلال هذا الباب « شهادات » لعدد من كبار مفكرينا الذين أسهموا فى الحركة الثقافية والأدبية ، وقدموا من إبداعهم ، ما يجعلنا نحرص على نشر ما يقولونه عن «الهلال» التى صمدت أمام الأنواء والعواصف ، واستمرت بلا توقف على مدار قرن كامل من الزمان ، وهو الحدث الثقافى الكبير الذى لم تحظ به مطبوعة فى بلاد عريقة كثيرة من دول العالم المتحضر ..

نلتقى فى هذه الحلقة بالصحفى الكبير مصطفى أمين ، ليروى لنا ذكرياته ، ويدلى بشهادته عن «الهلال» التى بدأ يتابعها من بيت الأمة .. «بيت الزعيم سعد زغلول» سنة ١٩٢٦ وظل يتابعها حتى الآن ..



أعتقد أننى صديق قديم للهلال ، وصلتى به ترجع إلى سنة ١٩٢٦ ، فقد كانت أمى تشكو أننا لا نواظب على الدراسة على أمين وأنا ، فاتفقت مع السيدة صفية زغلول على أن يذاكر على فى بيتنا ، وأذاكر أنا فى بيت الأمة ، فى مكتب سعد زغلول .

أجلسونى بمكتبه فى الدور الأول ، وأمضيت الوقت أعبث بما فيه من كتب فلم أجد كتابا يستهوينى إلا مجلة الهلال .

أخذت أقرؤها باهتمام شديد ، وكانت هناك عدة أعداد ، وأعجبت كثيرا بمقالات الدكتور أحمد زكى والشيخ مصطفى عبد الرازق والأستاذ على عبد الرازق ، وفكرى أباظة ، والدكتور أمير بقطر ، الذى كان يكتب مقالات عن الاختراعات والحياة فى القارة الجديدة (أمريكا) وكان يستهوينى قراءة هذا النوع من المقالات .

أيضا شدتنى مقالات سلامة موسى والتى يضمنها النظريات الحديثة والآراء الاشتراكية .

أعجبنى كثيرا فى هذه الفترة المبكرة من عمرى تنوع « الهلال » لأنه كان إلى جانب إرضائه للمثقفين ، كان يرضى أيضا الناشئة من أنصاف المتعلمين ، لأننى كنت فى ذلك الوقت نصف متعلم !

كان أسلوب « الهلال » يعجبنى جدا ، كان الأسلوب واضحا ومفهوما ، والكلمات ليست معقدة ، والجمل ليست ملتوية ، ولذا كانت قراءة الهلال متعة .

استمتعت وأنا فى بيت سعد زغلول بقراءة الهلال ، وكانت هذه هى المذاكرة الحقيقية التى كنت أقوم بها بعد أن فصلونى عن أخى على أمين !

وأعترف بأننى خرجت من قراءة مجلة الهلال بفائدة ، وشعرت بأننى كنت فى مدرسة ، وأننى دخلت فى هذه المدرسة ، وأحببت دروسها ، وأصبحت مهتما بكل الأفكار الجميلة التى تتضمنها .

تواصل مع دار الهلال

دخلت دار الهلال بعد ذلك فى عام ١٩٤١ ، بعد حبى وعشقى للهلال بخمسة عشر عاما ، بمبناها الجديد (الحالى) ، وأذكر أننى حاولت أن أدخل المبنى القديم قبل ذلك ، فى سنة ١٩٣٠ ، وكنت وقتها

● ذهبت فى عام ١٩٣٠ أطلب عملا بدار الهلال فطردونى وفى عـام ١٩٤١ عينت رئيسا لتحرير مجلة الاثنين .

أصدر مجلات للمدرسة ، صادرتها الحكومة ، فقررت أن أعمل محررا ، وذهبت إلى دار الهلال ، وطلبت مقابلة الأستاذ إميل زيدان وأخذت أنتظره مدة طويلة ، وأخيرا أطل برأسه من الباب وقال لي « أفندم » !

قلت له : إنني شاب ناشيء وأريد أن أعمل بدار الهلال

قال : نحن لا نشغل ناشئين !

قلت له : أنا أريد أن أعمل مجانا !

قال : نحن لا « نشغّل » ناس مجاناً !

قطع الرجل عليّ الطريق ، وخرجت في ذلك الوقت مهزوما ، ولكنني في سنة ١٩٤١ دخلت لدار الهلال رئيسا لتحرير مجلة «الإثنين» وكان عمري وقتها ٢١ عاما ، وأذكر أننا اختلفنا في أول الأمر ، حيث عرض عليّ الأستاذ إميل زيدان مرتبا قدرة خمسون جنيها في الشهر ، وطلبت أن يكون سبعين جنيها .

وقال إميل زيدان : إننا واثقون بأن مجلة « الإثنين » لن يزيد توزيعها عن التوزيع الحالي ، بعد أن قمنا بعمل التجديدات والترغيب للقراء من خلال يانصيب لمن يكسب من القراء ولم يزد التوزيع قلت له : أوافق على تعييني بخمسين جنيها ، ولكن بشرط أن أحصل على عشرة بالمائة عن كل زيادة في التوزيع .

قال إميل زيدان : أحب أن أقول لك بأنك لن تحصل على أي مليم زيادة ، لأن نسبة التوزيع لن تزيد !

ولحسن الحظ زادت السنة الأولى من ١٢ ألف نسخة إلى ٤٠ ألفا وفي السنة الثانية زاد التوزيع إلى ٦٠ ألفا وفي السنة الثالثة وصلت نسبة التوزيع إلى ٩٠ ألف نسخة ، وهكذا قبضت عدة ألوف من الجنيهات من دار الهلال ، وهذه الأموال هي التي بدأت بها أخبار اليوم .

لقد تأثرت كثيرا بالأستاذ إميل زيدان ، ومن رأيي أنه كان صحفيا ممتازا ، وكان فكره متحررا ، ولكني اختلفت معه لأن عقدي كان يقول بأنني سأكون مستقلا عن الأحزاب ، وقد فسره إميل زيدان بأن أكون محايدا .

وقلت له : هناك فرق كبير بين المحايد والمستقل ، فالمحايد ينكر آراء الآخرين ، ولا يذكر رأيه ، أما المستقل فإنه يذكر

● الهـــلال هي المجــلة الوحيــدة التي لـم تصــادر على مــدى قـــرن كامـل من الزمـــــان

رأيه، دون أن ينتسب إلى حزب من الأحزاب ، ولهذا السبب اختلفنا وخرجت من دار الهلال وأصدرت أخبار اليوم عام ١٩٤٤ .

ومن الحكايات الغريبة أن جميع محررى « الاثنين » تضامنوا واستقالوا دون أن يخبرونى أو أطلب منهم ، تضامنا معى ، ولهذا كنت محرجا جدا ، وانتابتنى حيرة شـديدة ، لماذا أفعـل ، وهـذا ما جعلنى أسرع فى إصدار جريدة أخبار اليوم ، لكى يعملوا فيها جميعا .

وأثناء وجودى فى دار الهلال ، كانت «الهلال» هى المجلة الأولى ، حيث كان أصحاب الدار يهتمون بها أكثر من اهتمامهم بأية مجلة أخرى ، وكان يسعدهم أن تكون منتشرة فى كل أنحاء الدنيا .

ثم نقلنى الرئيس جمال عبد الناصر من أخبار اليوم إلى دار الهلال عام ١٩٦٢ وبعد التأميم مباشرة ، وتولى على أمين رئاسة تحرير « الهلال » ، وتوليت رئاسة تحرير المصور ، ثم رئيسا لمجلس إدارة دار الهلال ، وكان ذلك عندما اختلف الرئيس جمال عبد الناصر مع فكرى أباظه واختارنى خلفا له .

كان السبب الحقيقى لهذا الخلاف أن فكرى أباظه كتب فى باب « الملحوس » هذه العبارة «عندما كنت فى إسبانيا رأيت المبانى العظيمة والحدائق الفخمة ، ولكن الناس كانت تنقصهم الحرية ، وكل هذا لايساوى الحرية» وهذه الكلمة هى التى تسببت فى خروج فكرى أباظة من رئاسة مجلس إدارة دار الهلال .

ولقد أمضيت فى دار الهلال أسعد أيام حياتى ، وكان عملى مع فكرى أباظة متعة ، وكنت أنظر لفكرى أباظة على أنه رئيسى بـرغـم أننـى رئيـس مجلـس الإدارة .. وأحببته حبا شديدا .

على أمين والهلال

وإذا تحدثت عن الفترة التى تولى فيهـا أخـى علـى أمـين « الهلال » ، فإننى أشير إلى أنها كانت فترة تجديد «الهلال» ، لأن على أراد أن يحولها إلى مجلة مقروءة ، لأنها كانت تصدر للمثقفين فقط ، وعلى أرادها مجلة للجميع ، وأدخل فيها عدة أبواب جديدة من بينها الكاريكاتير .

وفى هذه الأثناء حدثت حكاية طريفة أشير إليها هنا ، وهى أننا سمعنا بأن هناك مذكرات للأديب والسياسى الكبير أحمد لطفى السيد مكتوبة عن قصة غرامه

بمى زيــادة ، فكلف على أمين طاهر الطنــاحى ، وكــان مديرا لتحرير الهلال فى ذلك الوقت ، لكى يقنع لطفى السيد بنشر هذه المذكرات فى «الهلال» .

فرفض لطفى السيد ، فاضطر على أمين أن يتصل ببهى الدين بركات باشا وكان صديقا حميما للطفى السيد ، وقال له إن لطفى يعارض فى نشر مذكراته .

وقال بهى الدين بركات إن من رأيى أن ينشر مذكراته وقصة حبه لمى واشترك الدكتور عبدالحميد بدوى فى إقناعه ..

وفعلا عدل لطفى السيد عن قــراره ونشــر مـذكـراتـه فــى «الهلال» ونجحت نجاحا كبيرا ، وكان الفضل الأول لطاهر الطناحى الذى ذهب إليه فى البداية فى محاولة جادة لإقناعه بنشرها .

الهلال تعجبنى

وأنا أقرأ الهلال الآن ، وأقرأ به مقالات عديدة تعجبنى ، صحيح إنها الآن تنشر مختلف الآراء وبحرية تامة ، لكنها فى الماضى ، كانت بعيدة عن السياسة .

وفى السنوات الخمس الأخيرة تقدمت وبدأت تستعيد مجدها وعددها الأخير عن «التصوف» على سبيل المثال عدد جيد جدا ، فقد عرض بهذا الجزء مختلف وجهات النظر ، ورأيى أنه فى الصحافة ينبغى أن تنشر مختلف وجهات النظر ، لارأيك فقط .. أى رأيك والرأى الآخر .

وأن تقوم الهلال بهذا فتلك خدمة ممتازة بحق .

وشىء جميل جدا أن تمر مائة سنة على مجلة «الهلال» ولم تصادر وهى المجلة الوحيدة التى صدرت طوال هذه الفترة ولم تصادر وكل مجلة صدرت طوال هذه الفترة صودرت وذهبت إلى النيابة وجرى تحقيق مع رئيس تحريرها ، أو حبس رئيس تحريرها ، ماعدا الهلال ، لأنها كانت بعيدة عن السياسة .

إننى أرجو أن يكون الاحتفال بمرور مائة عام على «الهلال» بشكل يليق بهذه المناسبة المهمة ، وأن يدعى فى الاحتفال بالهلال أدباء من كل البلاد العربية ، ويقام حفل كبير بالأوبرا ، وتلقى به الكلمات من الأدباء من الدول العربية تحية لها ، ويشاد بجرجى زيدان الذى أسسه وبإميل وشكرى زيدان اللذين تولياها بعد ذلك ، كما يحتفل بجميع الذين شاركوا فيها وتولوا رئاسة تحريرها ونهضوا بها .

التكوين

فشلي في بداية حياتي

أمينة السعيد

رحلتي مع الحياة العملية تزيد على الخمسين عاما ، تبدأ من المرحلة الثانوية يوم اختارتني السيدة هدي شعراوي للعمل معها ، وفي الجامعة مارست العمل الصحفي ، من خلال المقالات التي كنت أرسلها لبعض الصحف والمجلات باسم مستعار ثم التحقت بدار الهلال للعمل بها ، وطردني إميل زيدان ، وجاء زوجي لكي يقدم لي النصح ، ويصحح لي بعض الأخطاء التي وقعت فيها ، ويوضح السبب الذي جعلهم يستغنون عن خدماتي بدار الهلال ، واشتري لي هدية قيمة مازلت أقتنيها وأضعها أمامي في منزلي ، وهي الموسوعة الانجليزية والتي أفادتني كثيرا في حياتي العملية .

وبدأت أقدم برامج إذاعية من خلال قراءاتي في تلك الموسوعة ..

وعدت إلي دار الهلال مرة أخري بعد محاولات من جانب إميل زيدان الذي أعده صحفيا لا مثيل له وأنا مدينة له بالكثير ..

بدأت الكتابة قبل عام ١٩٣٥ وكنت طالبة بالجامعة ، كنت أكتب بإمضاء مختلف (مصرية) ، (مواطنة) وليس بإمضاء أمينة السعيد ، حتى لا يقولوا إننى مازلت طالبة ! وسافرت إلى الهند عام ١٩٤٦ وكانت الحرب الأهلية مشتعلة بين المسلمين والهندوس وأرسلتنى السيدة هدى شعراوى للاشتراك فى أحد المؤتمرات ، كما اشتركت في مؤتمرات لم تكن هدى شعراوى تستطيع السفر إليها فى بلاد بعيدة خاصة أننى أجيد اللغة الانجليزية .

التنس .. جريمة !

أذكر أن مصطفى أمين له دين كبير فى عنقى . فذات يوم وأنا طالبة بكلية

دفعني لاحتلال أرفع المناصب الصحفية

عندما كرمتني الدولة من خلال الرئيس أنور السادات



الآداب ، كنت ألعب التنس فى وقت الفراغ مع مدرب هذه اللعبة بملاعب الجامعة ، وشاهدنى أحد الرجعيين مثل هؤلاء الذين نشاهدهم اليوم ، وعلى الفور ذهب إلى الجامعة وهو يصيح إلحقونا .. وا إسلاماه هناك بنت قد اعتدت على الإسلام ، فجاءت مجموعة من الطلاب تهرول بمن فيهم مصطفى أمين ، ليروا هذا الاعتداء فوجدونى أقف لابسة ثيابا محترمة بأكمام طويلة ، والمدرب يقوم بتدريبى على لعبة التنس .

بعد اكتشافهم هذا الكذب المزعوم ، حاول البعض منهم الحضور لمشاهدة هذه التدريبات ، فكنت أغضب ، وحينما حاولت طردهم غضبـوا منى ، واعتبروا ذلك إهانة ، وقاطعونى فى الجامعة ، فلا أحد

التكوين

يكلمني أو يجلس بجانبي ، بل إمعانا في غضبهم كانوا يتركونني أجلس في الصف الأول ويجلسون بعدى بثلاثة أو أربعة صفوف ، يعني (شغل عيال) واستماتة في مضايقتي ومقاطعتي .

ولكنني استمررت في سياستي ، وكانت النتيجة أنهم تغيروا ، وعادوا إلى طبيعتهم الأولى في علاقات جامعية جيدة ، وعادت المودة والصداقة بيننا من جديد وقتها أحس مصطفى أمين أن لدى قسطا كبيرا من الشجاعة فأخذنى إلى الأستاذ محمد التابعي وقدمني إليه ، وكان رئيساً لتحرير آخر ساعة ، وقمت بعمل عدة موضوعات ، ولكنها تسببت في مشاكل كثيرة واجهتني في بداية عشقي وحبي للعمل الصحفي .

من بين هذه الموضوعات أنهم طلبوا مني الذهاب إلى الإسكندرية وأحاول أن أدخل حماما مغلقا للسيدات في سان ستيفانو لأستمع إلى ما تقوله زوجات الوزراء عن أزواجهن ..

كنت وقتها قليلة الحيلة ، وليس لدى تجربة ، فذهبت بالفعل إلى هذا الحمام ، وظللت أستمع إلى هؤلاء السيدات ، وكتبت

عندما احتفلنا بعيد ميلاد [illegible] عام ١٩٥٦



مقالا بدون إمضاء وفور نشره حدث نفور كبير من جانب هؤلاء الوزراء وزوجاتهن ، وصممت الحكومة على غلق « آخر ساعة » وطلبوا أن يعرفوا هذا « المجرم » الذى كتب هذا الكلام الخطير كنت عقب نشر المقال فى حالة سيئة يملؤنى الخوف والفزع ، وقال البعض إن كاتب هذه الصفحة هو أمينة السعيد ، وكان على علوبة باشا صديقا حميما لوالدى .. جاء ليسألنى ، هل صحيح كتبت هذا الكلام ؟ ، ومن شدة الخوف كذبت عليه وقلت له : لا ..

قال لى : أنا أصدقك ، فلا أتصور أن تكتب أمينة السعيد مثل هذا الكلام !

وجعلتني هذه التجربة أفكر وأوقن بأن من يكتب أسرار الناس ، يعد فى نظرى سارقا لأخبارهم ، ويعد إنسانا غير سوى واحتقرت نفسى بشدة على هذا العمل ، ولم أكرر هذه التجربة على مدى خمسين عاما من العمل فى الصحافة .. لم آخذ أبدا حديثا استمعت إليه فى السر ، ولم أمنع إمضائى عن أى موضوع قمت فعلا بكتابته .

فى هذه الفترة قرأت لعظماء الأدباء والكتاب من الغرب وكانت النتيجة أن تفتح ذهنى بشكل كبير ، وأخذت كثيرا من روح هذا الأدب ، ولذلك فكل مكتبتى تقريبا لهؤلاء الكتاب الكبار .

بعد تجربتى مع « آخر ساعة » أقنعنى الأستاذ إبراهيم عبده بالعمل فى مجلة « كوكب الشرق » فذهبت معه لمقابلة أحمد باشا ماهر وكان رئيسا لتحرير المجلة ، والذى رحب بى ترحيبا شديدا وأعطانى صفحة أسبوعية نسائية بذلت جهدا كبيرا فى تحريرها ، وكانوا قد وعدونى بمنحى راتبا ، ولكن فى نهاية الشهر لم تكن لديهم أموال وبعد عدة أشهر اضطررت لتركهم .

وتلقفنى بعد ذلك الأستاذ فكرى أباظه وكان صديقا حميما لوالدى ، وكان تلميذه فى ثورة ١٩١٩ وكنا وقتها بمدينة أسيوط التقيت به بعد وفاة والدى ..

أخذنى إلى إميل زيدان والذى حدد راتبا شهريا قدره ثلاثة جنيهات ، وكنت وقتها اكتب كلاما (هلس) حيث لم تكن لدى الخبرة الصحفية والتى تجعل منى قيمة لدى الآخرين ، واضطر إميل زيدان أن يرسل لى خطابا ينوب رقة وأدبا ورقتنى ، وتضمن خطابه : إن مرتبك الكبير وقدره ثلاثة جنيهات لا يتناسب مع إنتاجك الضئيل ، وحزنت جدا وبكيت لدى تسلمى هذا الخطاب ، وأحسست بأن الدنيا قد أسودت فى عينى .

الموسوعة .. هدية

فى هذه الأثناء كنت مخطوبة للدكتور عبد الله ، وحينما قصصت عليه ما حدث لى فى دار الهلال قال لى إنك مخطئة ، فالصحافة مثل التجارة والصناعة ، ولابد من إنجاز العمل الصحفى بفن وعناية شديدين ، حتى تجنى من وراء ذلك الشىء

التكوين

الكثير فلو كنت مثقفة ثقافة عالية ، لأعطيت المجلة الجهد الذى تستفيد منه ، لكن بسبب ضعفك الثقافى ، جاء عملك ضعيفا ولا يتناسب مع احتياجاتهم فى هذا العمل المهم .

أسفت جداً على هذا القول وقلت للدكتور عبد الله : كيف تقول لى ذلك وأنا طالبة بقسم اللغة الانجليزية ويدرس لى أســـــاتذة عظماء وأكـــــدت على « اننى مثقفة » .

قال لى : إن الثقافة ليست هى الجامعة أو الشهادة الجامعية ، والجامعة لا تثقف ، ولكن دورها أن تعلم الإنسان كيف يثقف نفسه إذا أراد أن يتثقف ، الجامعة تضىء لك طريق الثقافة وربما تضعك على أول الطريق ، لكى تواصلى مسيرة الحياة استفدت كثيرا من هذه النصيحة الغالية ، خاصة أنه قدم لى على الفور هدية قيمة هى الموسوعة الانجليزية والمكونة من ٣٠ جزءا ، وتضم آداب العالم منذ العهود المتقدمة حتى وقتنا هذا ، وبدأت أقرؤها لمدة عامين متصلين وساعدتنى كثيرا فى حياتى الصحفية .

وأذكر أن الإذاعى المعروف محمد فتحى رحمه الله – وكان زميلا لى بالجامعة – دعانى إلى تقديم بعض الأعمال التى أترجمها من هذه الموسوعة بالإذاعة ، وكنت أقرؤها بصوت مميز ، وظللت أقدم هذا البرنامج بانتظام كل ثلاثة أسابيع ، وبدأ اسمى يلمع ، وبدأ الناس يتتبعون كل ما أقدمه .

ومرة أخرى عاد فكْرى أباظة ليخبرنى بأنهم يريدوننى أن أعمل بدار الهلال والتى طردت منها من قبل !

ورفضت هذا العرض على الفور قائلة لن أذهب إلى هؤلاء الناس الذين طردونى بشكل مزر لا أرضى عنه على الإطلاق فقال لى : تعالى معى ، وقولى لهم هذا الكلام ، وكان فكرى أباظة بالطبع يسر فى نفسه بأننى لن أستطيع أن أفعل ذلك .

ذهبت إلى دار الهلال وقال لى إميل زيدان نحن نريدك .

قلت له : وأنا لا أريد العمل لديكم .

قال لى : لماذا ؟

قلت له : لأنكم عاملتمونى فى المرة الأولى معاملة غير كريمة وأنا لا أود العمل لديكم .

قال لى إميل زيدان : لكنك لم تكونى بمثل هذا المستوى الثقافى والفكرى ، فقد طورت نفسك فى السنتين الماضيتين ، وأصبحت لك شخصية مميزة وثقافة جيدة .

لكننى رفضت برغم كلماته الرقيقة .

وعلى الفور حدد لى مرتبا قدره أربعون جنيها برغم أن راتبى السابق لم يتجاوز ثلاثة جنيهات !

ومع ذلك قلت له : أنا لا أتاجر ! .. أنا لا أريد التعامل معكم !

وتصور الرجل أن المرتب ضئيل ، فقال نزيده إلى ستين جنيها .

ورفضت أيضا .

قال مرة أخرى : ما الذى يرضيكى ؟ !

واتفقنا أخيرا على أن اكتب بالقطعة (أى بالموضوع) وكل ما أقدمه لدار الهلال إذا أعجبهم نشروه ، وإذا لم يعجبهم فلا داعى لنشره ، وكان ذلك فى عام ١٩٣٦ بعد تخرجى مباشرة من كلية الآداب قسم اللغة الانجليزية وبالفعل بدأت أنشر فى " الهلال " وفى مجلة " الاثنين " ، ووجد إميل زيدان أننى أحصل على مبلغ كبير شهريا ، فعاد يقول لى نود الاتفاق على مرتب شهرى ، وكان أكبر مرتب ثابت حصلت عليه من دار الهلال ستين جنيها ، وظل مرتبى يتزايد إلى أن أصبحت رئيسا لمجلس إدارة دار الهلال ولأحصل على أكبر مرتب فى الدولة .

تجربتى مع حواء

وفى حياتى تجربة مهمة ورائدة فى مجلة حواء ..

فحينما فكر إميل زيدان فى إصدار مجلة نسائية ، رأيت بعينى مدى الاهتمام الذى كان يبديه مدير الإعلانات ، ورأيت كيف رفض أكثر من فكرة بحجة أن هذا المشروع لا يحقق مزيدا من الإعلانات ..

وطرح اسم درية شفيق لرئاسة تحرير حواء وكانت علاقتها بالأميرة شويكار سببا فى اعتذارها ، وحسم إميل زيدان هذا الأمر بقوله علينا أن نختار أمينه السعيد إبنتنا وابنة دار الهلال ، وفرحت جدا بهذا الاختيار ، وقد ساعدنى على المضى من نجاح إلى نجاح أن الإدارة تذلل كل المشكلات التى يمكن أن تواجهنا فى بداية الأمر ، وكان ذلك فى عام ١٩٥٥ .

ولم تكن الأمور تسير سهلة يسيرة ، بل كان البعض ينتقدنى ، والبعض الآخر يأتى إلى أمى فى منزلنا يحرضونها ضدى ، ويقولون كيف تعمل ابنتك « جرنالجية » ، وكانت تحزن لذلك كثيرا ، وفى المقابل كنت أفتخر بكل قرش أكسبه من مهنة الصحافة .

ثقتى فى النجاح كانت بلا حدود ، وتلك المشكلات والمصاعب لم تفت فى عضدى ، ومع مرور الأيام ، بدأ عدد كبير من كبار رجال الدولة والمستشارين يتصلون بى ، ويرجوننى فى تعيين بناتهم للعمل فى حواء، وأظن أن هذا العدد الكبير من اللائى تعلمن فى مدرسة حواء ، يدل على صدق التجربة ونجاحها ، ومن جانبى لم أكن أبخل عليهم بإعطاء الفرصة والانطلاق فى أول مجلة نسائية فى الوطن العربى ، حملت الفكر المستنير ، وخاطبت المرأة فى كل ميادين الحياة .

لكن النجاح لابد أن يعقبه نجاح ، فقد بدأت فكرة باب « إسألونى » ويعود الفضل فيه إلى الصحفى لطفى رضوان ..

التكوين

كان من عادة إميل وشكرى زيدان أن يجريا تجديدا فى تحرير المجلات التى تصدر عن دار الهلال ، فى اكتوبر من كل عام ، وحينما حضرت اجتماعا للمصور اقترح لطفى رضوان أن ننشئ بابا عنوانه « اسألينى » تنشر فيه بعض المشكلات النسائية ، ويرد عليها بعض النساء أو الكاتبات المعروفات فى ذلك الوقت .

وبالفعل صدرت الأعداد الثلاثة الأولى، وكتبت المشكلة والرد ، ولم تصل المجلة خطابات من القارئات !

فعادوا مرة أخرى ليضيفوا إلى أعبائى ، مسئولية هذا الباب ، وبدأت العمل فيه بشكل جاد جدا ، وكنت أضع نفسى فى مكان صاحبة المشكلة ، ووصلتنى ثلاث رسائل مرة واحدة ، وكلها تطلب أن أرد على ما تتضمنها من مشكلات ، وذهبت إلى إميل زيدان أعرض عليه الأمر ، فقال ردى عليهم .

واستمر هذا الباب يصدر ، وبدأت تصلنى مشكلات من الرجال ووصلنى عتاب على اسم الباب ، وأنه يتضمن تخصيصا للمرأة فقط ، فضلا عن أنه من وجهة نظرهم يسخر من الرجال واقترحت أن يتحول إسم الباب إلى « إسألونى » حتى يضم الرجال والنساء سويا .

وقد عرضنى هذا الباب لمشكلات كثيرة من بينها أننى لم أكن أتفق مع صاحبة المشكلة أو صاحبها ، كما أننى كتبت عن التطرف ، وجاءتنى خطابات تهديد بالقتل ، لم أعبأ بها ، ولم تفت فى عضدى لأننى دائما أومن بكل كلمة أكتبها ، مهما كلفنى ذلك من متاعب ومشكلات !

كرمتنى ثورة يوليو

أحب أن أشير إلى نقطة مهمة ، وهى أننى لم منذ بداياتى فى العمل الصحفى إلى حزب من الأحزاب السياسية .

ومنذ بداية ثورة يوليو كنت حريصة على ألا أدخل فى صراعات سياسية ، فقط كنت منصرفة إلى الاستغراق فى الصراعات الاجتماعية ومعالجتها وبالطبع كانت آرائى لا تعجب قلة من الناس ، وكثيرا ما وصلتنى خطابات وعيد وتهديد !

وكان الرئيس جمال عبد الناصر معجبا جدا بحواء وبكتاباتى فيها ، وقد قلدنى نيشان الاستحقاق من الدرجه الأولى فى عيد العلم وقد أعطى لأول مرة إلى سيدة بعد أم كلثوم .

وزادنى تكريما وأنا أستلم منه النيشان ليقول لى إننى أقرأ " حواء " من الغلاف إلى الغلاف ، واعتبرت هذا تكريما آخر .



مع بنات جماعة الصحافة



امينة السعيد .. عام ١٩٥٦



إميل زيدان



محمد التابعي



د. عبدالله زين العابدين الأستاذ بكلية الزراعة وزوج أمينة السعيد



أيام زمان

التكوين

ونفس الشيء حدث في عهد الرئيس السادات ، فقد نلت إعجابه وتقديره لي ، فأهداني نيشان الجمهورية من الطبقة الأولى ، وفي عهد الرئيس حسني مبارك أهداني وسام العلوم والفنون من الدرجة الأولى .

وبذلك أكون السيدة الوحيدة التي حصلت على أعلى الأوسمة في عهود ثورة يوليو الثلاثة .

أنا وهدى شعراوى

أعتبر نفسي بنتا لهدى شعراوى .. وهي بمثابة أمي الروحية وقصة تعرفي بها جاءت نتيجة كبرها في السن ، واحتياجها إلى من يساعدها في إلقاء خطبها ، ومساعدتها في العمل الاجتماعي من خلال جمعيتها الشهيرة .

عرفتني بها السيدة إنصاف زوجة منصور باشا فهمي ، وكانت مديرة المدرسة الثانوية التي تعلمت بها ..

في بداية اللقاء كانت معي زميلة لي إسمها سعاد بنت شقيقة الزعيم مصطفى كامل ، ألقيت أمامها الشعر وبعض الخطب، وفعلت ذلك زميلتي سعاد ، وأختارتنا نحن الإثنتين ، وبدأنا نقرأ خطبها في الحفلات الخيرية التي كانت تقيمها .

وبعد وفاة سعاد ، تمسكت بي أكثر من ذي قبل ، واعتبرتني بذرة طيبة من الممكن أن تصبح قيادة جيدة ، والتقيت بشريفة محرز وليلى دوس ، وكل هؤلاء اعتبرتهن أخواتي في الاتحاد النسائي الذي كونته هدى شعراوى ، وظللنا نعمل معها بكل الإخلاص والتفاني حتى آخر يوم في حياتها ..

ولفرط ثقتها بي أرسلتني في عدة مؤتمرات بالخارج في الهند وفي باكستان نيابة عنها .

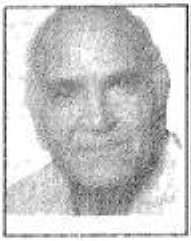
لم يحدث بينها وبيني أي خلاف طوال فترة علاقتي بها ، حتى في الوقت الذي حاولت فيه الأميرة شويكار إغرائي بالانضمام إلى جمعيتها فقد تصورت هذه الأميرة التركية المتعجرفة أن سبب شهرة هدى شعراوى بسببي ، وأن الخطب الرائعة التي كنت ألقيها أنا التي أكتبها وأدبجها .

وفي ذات يوم انتظرت حتى سافرت هدى شعراوى إلى المنيا للإشراف على وقف لأسرتها هناك ، ووصلتني في هذا اليوم دعوة رقيقة من الأميرة شويكار ، فسألت أختي كريمة السعيد ، هل أذهب أم أعتذر عن الدعوة ، وشجعتني على الذهاب، وذهبنا سويا لنعرف السر وراء هذه الدعوة المفاجئة !

وحينما دخلت إلى الباب ، إذا بواحدة من توابعها تضع شارة جمعية شويكار



لطفي رضوان



محمد فتحي

على صدرى ، وكان مندوب الأهرام يقف متحفزا ، وعلى الفور التقط صورة ، نشرها مع خبر انضمامى إلى جمعية الأميرة شويكار .

قرأت هدى شعراوى الخبر لدى عودتها من المنيا ، وكما علمت تألمت بشدة ، وتصورت أننى خنتها وذهبت إلى غريمتها الأميرة شويكار والتى كانت تقوم بأفعال غير لائقة لم نكن نرضى عنها ، وكانت هدى شعراوى تهاجمها بعنف على ذلك !

أسرعت بالذهاب إلى هدى شعراوى ، وذكرت لها كل ما حدث ، ولكنها فاجأتنى بقولها ، إذ كنت فى حقيقة الأمر لا تودين الانضمام إلى جمعيتها فاجلسى الآن ، واكتبى لها اســتقالة ، وأنك لن تذهبى إليها ، وأملتنى هدى شعراوى بنفسها الكلمات التى تضمنت الاستقالة وبالطبع لم أسلم من التهديدات لى ولأسرتى من هذه الأميرة التركية !

وعادت العلاقة ، وظللت ربيبة وحبيبة لهدى شعراوى ، تلك السيدة العظيمة التى درست الحركة النسائية على يديها ، ورأيت كفاحها ونضالها ، وشاهدت كيف تساعد خريجات الجامعة وتشد من أزرهن ، وتعلى من شأنهن لدى المجتمع .

ورحلتى مليئة بالعمل والإنتاج فلدى ١٧ كتابا ، تضم القصة والرواية وأدب الرحلات ومن بينها « مشاهداتى فى الهند » « آخر الطريق » ، « الثائرة » .

ونشرت فى الهلال موضوعات كثيرة ، ونقلت بعض هذه الموضوعات إلى كتب المطالعة ويدرسها الطلاب والطالبات بسوريا ..

ويحضرنى الاحتفال بمرور مائة عام على هذه المجلة العريقة ، ذات التاريخ العظيم والتى أتمنى أن يتم الاحتفال بالعام الألف على إنشائها ، فهى تستحق كل هذا التكريم .

وأختم مشوارى بأننى عشت محبوبة فى دار الهلال منذ بداية عملى إلى أن وصلت إلى منصب رئيس مجلس إدارة وفى تلك الأثناء أحبنى واحترمنى كل العاملين بهذه المؤسسة العريقة ، وكانت العلاقة طيبة بينى وبين الجميع .. كنت صارمة وحازمة ، ومع ذلك مازلت أشعر بالسعادة والبعض يقول « ولا يوم من أيام أمينة السعيد » ..

وهكذا تتوالى الأيام ، ومازال عطائى مستمرا .

● رابطة أدبية ●

● نتشرف نحن أعضاء الرابطة الأدبية بسنهوت مركز منيا القمح ، محافظة الشرقية ، أن نرسل مع رسالتنا هذه نماذج من إنتاجنا من القصة القصيرة والشعر والزجل ، آملين النظر فيها ، طامعين فى التوجيه والإرشاد .

أعضاء الرابطة الأدبية بسنهوت :
طه أحمد مقلد وسامى السيد الذكرى
وأمجد محمود جابر وعبد العزيز رياض
ومحمد النادى وطه أبو عربية

● تعليق الهلال :

نشكر لكم اجتهادكم وإخلاصكم وحسن ظنكم ، وأما انتاجكم فيبشر بالخير في الشعر والزجل والقصة ، ولا يتسع المجال لنشر كل ما أرسلتموه ، فنجتزئ منه بقصيدة الشاعر محمد النادى التالية :

● أحبك ●

أحبك رغم أحلامى التى صارت بلا مأوى
ورغم التيه فى الأحزان يا عمرى بلا جدوى
ورغم صبابتى الحيرى على آفاقها الثكلى
أحبك رغم أيامى فأنت الداء والسلوى
وحين الليل يغرقنى تصافح أنتى الذكرى
وأسبح فى خيالات بلا شط ، ولا مرسى
لأنى شاعر يهوى حروفاً مالها مسعى
سوى عينيك يا عمرى تعذبنى وما أشقى
أحبك رغم ما أضحى ورغم الهجر والشكوى
لأنى بالهوى ثمل وكأسى فى الهوى نشوى
سوى عينيك كاساتى فكونى مثلما أهوى



محمد النادى
الرابطة الأدبية بسنهوت

يسرنى كقارئ أن أقدم هذه المقترحات للاحتفال بالعيد المئوى للهلال :

١ - لقد جاءت ندوة « المصور » بناءة وكانت الأحلام كبيرة ولكن أخشى ألا ينفذ منها شئ .. أتمنى أن يكون الإعداد انتهى ودخل طور التنفيذ !

٢ - اقتراحكم بإعادة طبع مجلدات الهلال اقتراح ممتاز لأنه مهم جدا للقارئ الجديد لمتابعة تاريخ الثقافة من خلال الهلال فى القرن الماضى وهذا الاقتراح يأتى متوافقا مع اقتراح الاستاذ رجاء النقاش بإعادة طبع بعض الاعداد المميزة ايضا اقتراح « مختارات الهلال » وهو جدير بالمناقشة .

٣ - أين الاذاعة والتليفزيون ومحررو الصفحات الأدبية العالمية فى التايمز ولوبوان والنيوزويك وتايم وغيرها ولديكم الاستاذ محمود قاسم وهو محرر ذكى ومطلع على الأدب العالمى والصفحات الأدبية والمجلات الثقافية المتخصصة فى انحاء العالم ويمكنه دعوة محررى هذه المجلات لمشاهدة الاحتفال ..... !

٤ - لقد تأخر هذا الاحتفال فيما أعتقد حيث كان يجب الاعداد له منذ العام الماضى وأتمنى ألا يؤثر هذا التأخير على « سلق » الاحتفال فيجب أن يكون جديرا بالهلال .. وإن جيلى ليفخر أنه عاش فى هذه المناسبة الكبيرة .

وفى النهاية فإن الاحتفال بمئوية الهلال مسئولية كل مثقف عربى مصرى أولاً وأخيراً .

فرج مجاهد عبد الوهاب

محلج شربين - دقهلية - ٣٥٦٦١

سر حيث شئت وحبذ صحبة الكتب

بداية الغيث قطرات من السحب

لا مستحيل بهذا الكون إن وثبت

خطاك بالدرب لا تسأم من التعب

يايعربى لقد أوليتنى شرفاً
إذ جئتنى حاملاً لى نفحة الأدب
إن الألى سادت الدنيا جدودهم
اضحوا مسودين فى هم وفى كرب
الغرب داس نواصيهم فما اعترضوا
لدوسها ، إنما ليوه بالطلب
حنوا الجباه له من غير ما خجل
وسلّموه كنوز الأرض والذهب
يفضلون ملذات على شرف
ويحسنون فنون الرقص والطرب
ناب الأعادى يعض اليوم مهجتنا
ونحن نستنفد الطاقات بالخطب
ودودة الغدر بالأجساد تنخرها
وترتعى بالدم المهراق والعصب
متى نحطم ناباً قد أضر بنا ..
متى على الدود تأتى ثورة الغضب ؟!
واحسرتاه فما بالدار من بطل
حامى الحقيقة للأحرار منتسب
إن كانت الأسود لا تحمى مواطنها
فللثعالب حق الفخر واللقب !!

درهم جبارى – سان فرانسيسكو – الولايات المتحدة

• الأيديولوجية الصهيونية •

الدكتور عبد الوهاب المسيرى حصل على الدكتوراة فى الأدب من جامعات الولايات المتحدة ، ويشغل وظيفة (خبير فى الشئون الصهيونية) بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ، وعمل مستشارا ثقافيا للوفد الدائم للجامعة العربية بالأمم المتحدة بين عام ١٩٧٥ – ١٩٧٩ م ويعمل

الآن استاذاً للأدب الانجليزى بجامعة عين شمس ، ومن مؤلفاته : -

١ - موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية - رؤية نقدية ١٩٧٥ .

٢ - اسرائيل وجنوب افريقيا وتطور العلاقة بينهما ١٩٧٨ .

٣ - الايديولوجية الصهيونية جزآن الكويت ١٩٨٢ .

٤ - هجرة اليهود السوفييت دار الهلال ١٩٩١ .

وكتاب الايديولوجية الصهيونية يتحدث عن جذور المسألة اليهودية وكيف بدأت مرحلة التجارة والربا فى شرق أوروبا وأن جزءاً عمل بالزراعة والآخر بتجارة الماس وتقول الموسوعة اليهودية فى مدخل المصارف والصيارفة فأن اليهود فيما بين القرنين الثانى عشر والخامس عشر احتكروا تقريبا عملية الاقراض نظير فائدة .

ويقدم د . عبدالوهاب المسيرى كتاب Among Arol and Jews تأليف ج . ب فاتيكيوتيس (لندن وايد نفلد ونيكلسون ١٩٩١) .

ومؤلف الكتاب عاش فى القدس عام ١٩٢٨ ويتحدث عن المجتمع العربى والمجتمع اليهودى داخل فلسطين ويتحدث عن أعضاء الجماعة الوظيفية .

١ - الحياد والموضوعية والتعاقدية أعضاء الجماعة الوظيفية مجرد أداة فى يد الحاكم والأداة لابد وأن تكون موضوعية ومحايدة لاتتخذ مواقف .

٢ - العزلة والهوية المستقلة : - يحتفظ أعضاء الجماعة الوظيفية بهويتهم التى تأخذ شكل عقيدة ، مختلفة ولغة مختلفة وتوجه ثقافى وحضارى .

٣ - الارتباط الوهمى بالوطن الاصلى .. تقول وهميا لأن أعضاء الجماعة الوظيفية لايعودون قط اليه وإنما يستخدمونه كنقطة مرجعية تعزلهم .

٤ - الحركية أعضاء الجماعة الوطنية يتسمون بحركية بالغية لانهم غير مرتبطين بالمجتمع الذى يعيشون فيه .

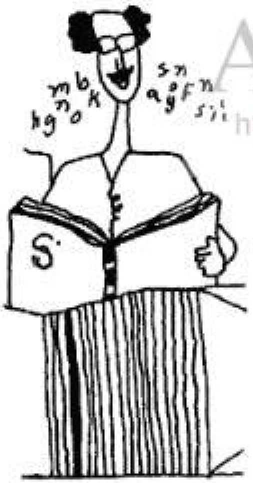
وفاتيكيوتيس المهاجر اليونانى الأزلى ينتمى إلى تشكيل ينكر فلسطين للعرب وهو لا يطالب بإبادة الفلسطينيين .

رجب عبد الحكيم بيومى الغولى

• رسالة •



حبيبتى ..
يا أملاً أعيش له ، يا نجمة السماء
تقبلى احترامى ، وخالص الوفاء
وبعد ..
فأنا لم أشع أننا أسطورة
ولم أكن ذات يوم طيراً من الطيور
وأنت يا وحيدتى
لست كما توهمت عصفورة !! ؛
لأننا لو كنا طائرين ..
لو كنا عصفورين –
كما عشنا – كما نعيش – مشاكل البشر ؟!
لوكنا طائرين .. كنا اتلفنا وقت التقاء النظر ..
جسماً واحداً
لكنت قد جمعت من دنياهم ،
القش والأوراق ، .. ومستلفظ الطعام ،
وجئت ملأنة الخاطر ، تغازلينى وتنشدى :
« إهدنى بذرة الحياة ..
فأنا أشعر بالحنين لأن يكون بيننا وليد .. »
لكننا يا وحيدتى بشر ..
وختاماً ...
تقبلى تحيتى .. ومطلباً يعادل حبنا الكبير
مع الشروق ، كل يوم ، ترقبى ؛
لعل ذات يوم تكون عودتى



وإن أبطأت فى المجئ ، وأحسست ضيق الانتظار

لا تيأسى ..

فقد أجئ بعد مغرب النهار ..

وخلفى .. ألف ناقة .. تحمل الذهب !!؟ ..

د . سمير محمد البهواش
أوسيم – شارع جامع البهواش

• الشاعر عبد الحميد الديب •

فى أبريل الماضى مرت الذكرى التاسعة والأربعون لرحيل الشاعر عبد الحميد الديب الذى كانت حياته مثالا مجسما للبؤس والشقاء ، ولم يأخذ حقه حيا وميتا ، ولم يزل مجهولا لدى الكثيرين برغم آثاره الشعرية ، وكان كما وصفه الأديب الكبير أحمد حسن الزيات : « نمطا وحده فى شعراء عصره .. كان ظهوره رجعة إلى نوع انقرض من الشعراء الهجائين المستهترين المكثين الذين لم تهيئهم طبائعهم للعمل الكاسب ، فأخلدوا إلى التبطل ، وحملوا عجزهم على لؤم الناس وظلم القدر » ..

ولد عبد الحميد الديب فى إحدى قرى مركز تلا بمحافظة المنوفية ، وهى قرية كمشيش عام ١٨٩٨ .

وبالرغم من أن الشقاء لازمه فى حياته ، إلا أن المحن صقلته ، والخطوب صهرته ، فكان شاعرا مبدعا ، صادق الاحساس ، وكان الشعر هو ميراثه الوحيد الذى خرج به من الدنيا ، أو كما قال :

ملكتموهـــا بالغنى .·. وملكتها شعرا وفنا

أنتم مشيب فى الصبا .·. وأنا الشباب كبرت سنا

لقد غمرت المحنة شاعرنا واخترق الأسى شغاف قلبه وأحس بأن أصحابه ينفضون من حوله ، فيزداد سخطه وحزنه فيقول :

أنا الغريب على الدنيا فعالمها .·. أعدى عدوى يهجونى وأهجوه
فما سمعت على الأعياد تهنئة .·. إلا مداهنـــة يلقى بها فـــوه
يا قوم مالى من ذنب أدان به .·. مابال نورى إن أظهرت تخفوه
لكنها محنة أنتم طواعية .·. فيهـا لدهرى إن يأمر تجيبوه

وقد بلغ اليأس والبؤس بشاعرنا مبلغاً جعله يتمنى لو كان الناس كلابا فهو يعتقد أن الوفاء لا يوجد إلا فى الحيوان وأن كلبته ترمز لهذا الوفاء بما تحملته من جوع قدر عليها لخلو منزل شاعرنا - بحكم الشقاء الذى لازمه - من القوت ..

ليت العبـــاد كـــلاب إن كلبتنـــا .·. لما تزل لحفـــاظ الـــود عنوانا
تحملت قسطها فى البؤس صابرة .·. لم تشك جوعاً ولم تستجد إنسانا

ويزداد همّ الشاعر حينما يُسْرَق لحافه الذى يتقى به صولة البرد ولو يكن هو الضحيّة دون لحافه ..

وياليتنى دون اللحـــاف ضحيّة .·. فإنى صـديق فى الحياه موافى
فكم ليلة تحت اللحـــاف قضيتها .·. أسامر أحلامى وطـيف سلافى
وكم ذا وقانى البرد فى جنح ليلة .·. بها الموت من كل المواجع شاف
لقد ضـــاع منـــى ذا الغطاء فهل .·. ترى أدثر شـعراً ضافيا وقوافى

وتزداد الأحزان والهموم بالشاعر حتى عندما يتزوج ...

أقام لى الأصـحاب عُرْسًا فمذ رأوا ... به محنتى تشـدو أقاموه مأتما

لقد كان عرسه مأتماً ، ولم لا والشاعر بائس فقير لا يملك قوت نفسه ، فكيف به وهو يتزوج أرملة لها طـفلان ؟! مـن أين له بقوتهم جميعاً ؟ .. وما الحل إذن ؟! ..

على الرغم منى أن أطلق زوجتى .·. وما لى بها فى الكون أى بـديل
ولكننى أخشى على الحسن فاقة .·. فما أخضرت الدوحات بين محيل
إذا قلّ مـالى فى هـواها فإنما .·. وفـائى لها فى العيش غير قليل

ثم إن الشاعر برغم بؤسه وحرمانه وهمومه المتوالية مؤمن بالله كأشد مايكـون الإيمان ، راض عن ربّه وعن أحكـــامه كأشد مايكون الرضا فهو يقول :

وفى قسمة الأرزاق عدلٌ وإنما .·. هنالك سرٌ فى السماء وطلسمُ

ويقول :

أأكفر من بؤسى بأحكام خالقى .·. كفى بى رزقاً أننى الدهر مسلمُ

وتبلغ المأساة قمتها حينما يضيق الشاعر بحياته ويناجى ربّه متمنياً الموت ولو كانت نهايته جهنّم :

جوارك ياربّى لمثلى رحمة .·. فخذنى إلى النيرن لاجنة الخلد

وتكون النهاية التى يتمناها الشاعر فيلقى ربه فى ٢٠ أبريل عــام ١٩٤٣ م .

عزت فتحى سعد الدين – كفر ربيع – منوفية

السـادة الشعراء : محـمد محمد نعمان الهوى (أبو تشت) السيد التحفة (شبراخيت) محمد عبد الله أحمد (حلوان) حـسام السيد عبد المجيد هلال (سنهور) رمضان الهجرسى (السنبلاوين) سومه خليل حسن (كفر صقر) .. قصائدكم تدل على مواهب متنوعة ومتفاوتة فى النضج ، ولكن الأوزان ليست على مايرام ، وكذلك النحو والصرف ، وحتى الإملاء فى بعض القصائد ، وإن كانت بعض القصائد تكاد تخلو من الأخطاء الإملائية واللغوية ، ولكن أخطاء العروض تشمل جميع القصائد ..

الكلمة الأخيرة



بقلم : محفوظ الانصارى

مائة جديدة .. وعطاء جديد ..

طلب منى الأصدقاء الأعزاء - مكرم محمد أحمد ومصطفى نبيل - وعبد الحميد حمروش - « أصحاب الهلال بلغة قرن مضى - ، مشاركتهم جلسة عمل ، تضم عددا من المفكرين والمثقفين والكتاب ..

موضوع الحديث والجلسة .. الثقافة فى مائة عام ..

الموضوع « الهلال .. » فى عامه المئوى ..

الموضوع .. « مائة عام جديدة .. » ، من الثقافة والحضارة والعلم ..

الموضوع نهضة جديدة ، وريادة جديدة ، وتنوير جديد يقوده « الهلال .. » مواصلا دوره وعلى امتداد واتساع « مئوية .. » جديدة .. تبدأ فى سبتمبر القادم ..

« أصحاب الهلال .. » ، أرادوا أن يجعلوا من عيد الميلاد المئوى .. عيدا مصريا .. عيدا عربيا ..

عيدا للكلمة المكتوبة بالعربية والصادرة من مصر على امتداد المائة عام الماضية .

وعيدا ، أو افتتاحا لنهضة فكرية وثقافية وعلمية متجددة طوال المئوية القادمة .

لقد بدأ الهلال عام ١٨٩٢ .. نهاية قرن ، وبداية قرن جديد ..

اليوم ونحن فى عام ١٩٩٢ .. نودع قرنا .. ونستعد لاستقبال قرن جديد ..

وكما تولى « الهلال .. » رسالة التنوير ، فى نفس اللحظة ونفس الظروف ونفس التوقيت من مائة عام ..

هاهو الدور يتجدد .. والرسالة مطلوبة .. والارادة منعقدة عند أصحاب « الهلال .. » ، بل وعند كل من تعلم وتنور ، قارئا « الهلال .. »

ولهذا فمهمة « الهلال .. » فى المئوية الجديدة أظنها أصعب وأعقد .. ورسالتها أكبر وأعظم .. لقد حمل « الهلال .. » الجديد والنور إلى الناس فى أول القرن .. ومطلوب منه أن يواصل العطاء بالجديد وبالريادة فى العلوم والفنون والثقافة ..


EGYPTAIR
مصر للطيران


الهلال
يوليو ١٩٩٢ ● والثمن ١٠٠ قرش
القصة القصيرة
ازدهار وانحسار
جزء خاص
شطحات الصوفية

فقط ٥ جنيهات استرلينية



يمكنك فتح دفتر توفير

بنك مصر

وتمتع بالمزايا التى يوفرها لك



أعلى عائد
بالإضافة إلى
الجوائز

- السحب والإيداع فى أى وقت ومن أى فرع .
  (٣٥٥ فرع فى خدمتك)
- يتيح لك الاشتراك فى دفتر التوفير والجوائز .
- لكل ١٠ جنيهات استرلينية فرصة سحب شهرى .
- ١٥١ فرصة كل شهر، قيمتها السنوية تعادل ١٤١٩٢٠ دولار تصرف بالجنيه الاسترلينى .. بالاضافة إلى العائد المستحق .

بنك مصر

هكذا يكون البنك !

في الجزء الخاص عن القصة القصيرة نحرص على إبراز أهمية هذا الفن الجميل بهدف أن يعود إلى مكانته في نفوس القراء خاصة أن القصة القصيرة في الآونة الأخيرة تواجه انحساراً على عكس الرواية التي تشهد ازدهاراً ملموساً الآن .

والقصة القصيرة عرفت منذ زمن بعيد في العصور الوسطى كما عرفت القصة القصيرة الحديثة في القرن التاسع عشر على أيدى إدجار الان بو في أمريكا وجى دى موباسان في فرنسا ، وأصبح لها فرسانها من أمثال كبلنج وتشيكوف. وبالرغم من أن القصة القصيرة فن محدث في الأدب العربي وقد ولدت متأثرة بالأدب الغربي فإنها نمت وتطورت حتى أصبح لها كيانها الخاص وقوامها المستقل ، وموضوعها الأصيل الذى تستقيه من واقعنا بما فيه من آمال وآلام ومن وجداننا بما ينطوى عليه من أحاسيس ومشاعر .

كان روادها محمد ومحمود تيمور وتوفيق الحكيم ومن بعدهم ظهرت المدرسة الواقعية التي مثلها يوسف إدريس ثم المدرسة التأثيرية ومن فرسانها يحيى حقى ومحمود البدوى ثم عشرات من الأسماء التي سطعت في سماء القصة القصيرة .

أين نحن من تلك الانطلاقة التي شهدتها القصة القصيرة في مصر منذ بدايتها .. وهل مازالت القصة تحظى بنفس القدر ونفس الأهمية .. وهل فرسانها الآن يؤدون نفس الدور وبنفس الأدوات الفنية المرتفعة ؟

سؤال نطرحه على هذا الجيل أملا في الإجابة التي تحقق للقصة ازدهارها السابق والمتعة التي يحظى بها القارئ العزيز .

السنة المائة – يوليو ١٩٩٢ ● محرم ١٤١٣

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

الادارة : القاهرة – ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا)
ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط)
المكاتبات : ص . ب : ٦١٠– العتبة – الرقم البريدى : ١١٥١١ – تلغرافيا المصور – القاهرة ج . م . ع .
مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨١
تلكس : 92703 Hilal un
فاكس : FAX : 3625469

فى هذا العدد

• فكــــر وثقافة •

● قمة الأرض وأهل الجنوب أمام المستقبل .. محمود عبد المنعم مرتضى ٨

● (القفز على الاشواك) بين الفلسفة والفن .... د. شكرى محمد عياد ١٢

● عن رواية صنع الله إبراهيم الجديدة «ذات» .... د. على الراعى ٢٠

● الطبقة الوسطى ومشكلة الفردية الجديدة فى الأدب .. ابراهيم فتحى ٢٦

● الموقف الإشراقى فى التصوف الإسلامى ... د. محمد على أبو ريان ٣٤

● الشيخ مصطفى اسماعيل وقراء مصر .... د. محمود الطناحى ٤٢

● جرجى زيدان حياته وفكره .... د. أمين العيوطى ٥٠

● ماذا بعد ٤٠ سنة ثورة ٢٣ ! .... مصطفى نبيل ٥٩

● القدس عربية بعبق قداستها ورائحة حجارتها ! .... محمد هيكل ٧٦

الغــلاف : لوحة للفنان بيـــكار

• فنــون •

● بيكار الناقد والفنان .... د. صبرى منصور ٦٦

● شغالات السينما بين الواقع والخيال .... مصطفى درويش ١٥٦

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى ١٢ جنيها فى ج.م.ع. تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ١٢ دولارا - أمريكا وأوربا وآسيا وافريقيا ٢٥ دولارا - باقى دول العالم ٣٥ دولارا .

والقيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال - ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

الأبواب الثابتة

عزيزى القارىء ٦
أقوال معاصرة ٤٩
شهريات (الكتبة) ١٦٤
العالم فى سطور ١٧٥
التكوين ١٨٠
أنت والهلال ١٨٦
الكلمة الأخيرة د . عبد العظيم أنيس ١٩٤

• جزء خاص عن القصة القصيرة •

- إثم متكرر قديم .... قصة . أنوار الأغراط ٨٦
- الجمل .... قصة . سلوى بكر ٩٥
- ضريح ولى الله المقدس «عم سلامة» ...... قصة . سليمان فياض ١٠٠
- البهو .... قصة . جمال الغيطانى ١١٠
- قطار إلى المرج .... قصة . محمد مستجاب ١٢٠
- المحفظة ياعالم ثالث .... قصة . مجيد طوبيا ١٢٨
- القصة القصيرة من الستينات إلى التسعينات ..
.... د. سيد حامد النساج ١٣٨

• ندوة الهلال •

- متى تزدهر القصة القصيرة؟ .... عاطف مصطفى ١٤٦

• رسائل صحفية •

- رسالة لندن :
كيف تصبح مليونيراً على الطريقة البريطانية ؟ . د. على شلش ١٦٨

سوريا ٥٠ ليرة ، لبنان ١٠٠٠ ليرة ، الأردن ١٠٠٠ فلس ، الكويت ٧٥٠ فلساً، السعودية ٨ ريالات ، الجمهورية اليمنية ٢٥ ريالا ، تونس ١.٥ دينار ، المغرب ١٥ درهماً، البحرين ٨٠٠ فلس ، قطر ٨ ريالات ، مسقط ٨٠٠ بيسة ، غزة والقدس والضفة ٨٠ سنتا ، إيطاليا ٢٧٠٠ ليرة ، لندن ١٢٥ بنسا ، نيويورك ٤ دولارات ، الإمارات العربية المتحدة ٨ دراهم ، الجماهيرية الليبية العظمى ١ دينار ، السودان ٤٥ ج . س .

عزيزى القارىء،

دار الكتب .. تعــود لمصر

فى شهر فبراير الماضى فتح « الهلال » ملف دار الكتب المصرية بعد صمت طويل، وتجاهل مديد ، وقعت تحت نيره هذه الدار العريقة التى كانت أول دار للكتب والوثائق أنشئت فى الشرق كله ، ولم تكن الكتب والمخطوطات والوثائق قبل إنشاء هذه الدار تجد مكانا تأوى إليه ، فكانت تتناثر فى مكتبات الأفراد والجماعات والمساجد وغيرها ، حتى أنشأ الوزير المصلح المرحوم على مبارك باشا دار الكتب المصرية عام ١٨٧٠ فصارت موئلاً للتراث الفكرى العربى والاسلامى ، وفتحت أبوابها للقراء والأدباء والمؤرخين والباحثين ، وقدمت لهم أجل الخدمات .

ولكن هذه الدار العظيمة توقفت مسيرتها عندما أدمجت عام ١٩٦١ فى « دار الكتب والوثائق القومية » ثم أدمجت هذه الدار الأخيرة فى الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، فانهارت دار الكتب المصرية العريقة وعجزت عن أداء وظيفتها ! ..

وكان هدف « الهلال » من فتح الملف المغلق لدار الكتب إحياء دورها وتطويره وتوسعته وتحديثه ، ومن حسن الحظ أن هذا المسعى قد صادف أذنا صاغية من الجهات المسئولة ، فأصدر السيد فاروق حسنى وزير الثقافة قرارا بتأليف لجنة من كبار العلماء والمثقفين والمختصين .. مهمتها وضع استراتيجية لتطوير دار الكتب المصرية تطويرا شاملا ، بما يحقق استقلالها عن الهيئات التى أدمجت فيها ، ورفع مستوى الأداء والخدمات بها للوصول إلى أفضل مستوى ..

وبعد أن تبنت قرينة الرئيس السيدة سوزان مبارك مشروع القراءة للجميع ، ستضع ثقلها وراء مشروع إحياء دار الكتب وانتشار المكتبات فى كل أنحاء البلاد .

والمهمة المنوطة بهذه اللجنة مهمة كبيرة متشعبة تبدأ بإصلاح وترميم مبنى دار الكتب فى ميدان باب الخلق بالقاهرة ، وإعادة تخطيط الميدان نفسه ليلائم هذا المبنى العظيم الذى كان له أثر عميق فى تاريخ الثقافة المصرية والثقافة العربية والإسلامية فى عصرنا كله ..

والعالم الإسلامى

ويشمل العمل الضخم الذى يستهدف إنقاذ دار الكتب وإحياء دورها على أوسع نطاق وأحدثه ، حصر ما بالدار من الكتب والوثائق والمخطوطات والأجهزة والمعدات ، وقاعات الاطلاع والمعامل والمخازن وأماكن الإدارة ، وما تحتاج إليه عملية التجديد والتطوير من أجهزة كمبيوتر وميكروفيلم وميكروفيش وأجهزة ضبط درجات الحرارة والرطوبة حفاظا على المخطوطات والوثائق النفيسة التى تضررت من الإهمال الطويل ..

عزيزى القارىء

هكذا يتبين أن إنقاذ دار الكتب المصرية يحتاج إلى جهد واسع بعيد المدى يشمل نواحى كثيرة ، لا تقتصر على ترميم الكتب والوثائق والمخطوطات ، وإقامة نظام إدارى ومالى للدار ، وإيجاد الحلول المعمارية اللازمة لمبنى الدار ليتحقق غرضه الأساسى .. بل امتد التفكير إلى التنسيق المعمارى والحضارى لكل المنطقة المحيطة بالمبنى .. واقتضى ذلك دراسة التكلفة المالية الإجمالية والتفصيلية ، لكى يتسنى توفير الميزانية المطلوبة وعناصر التمويل اللازمة لهذا المشروع القومى الحضارى الكبير .

عزيزى القارىء

إن الظروف قد أتاحت للهلال فى عامه المئوى أن يرتاد مجالات متنوعة للثقافة بتوسيع معانيها ، وقد حدثناك فى العدد الماضى عن المشروع الخاص بترميم الآثار التاريخية فى حى السيدة زينب وإنشاء مكتبة عامة ، ومكتبة للأطفال فى هذا الحى الذى تقوم فيه دار الهلال منذ أكثر من نصف قرن ..

وها هو ذا مشروع إحياء دار الكتب المصرية ، وهو مشروع قومى ضخم يتطلب تضافر جهود المفكرين والعاملين من جميع الفئات ، مع فتح باب الاكتتاب للمؤسسات الثقافية وغيرها للمشاركة فى هذا المشروع النبيل بما يكفل نجاحه وإعادة دار الكتب المصرية إلى دورها الثقافى والعلمى الرائد اللائق بدور مصر فى العلم والثقافة على امتداد البلاد العربية والإسلامية .

« المحـــرر »

قمة الأرض

وأهل الجنوب أمام المستقبل

بقلم : محمود عبد المنعم مرتضى*

لعل أبرز العلاقات الدولية الراهنة ، أن ثمة اعادة ترتيب للاولويات فيما يتعلق بالقضايا التى تحظى بالاهتمام العالمى ، إذ تتصدر سلم الأهمية قضايا حقوق الانسان والتعددية السياسية ، وحماية البيئة .

وإذ تدرك شعوب الجنوب أهمية هذه القضايا العالمية الملحة ، فانها ترى أن المناقشة الأمثل لها لابد وأن تجرى من منطلق التقييم النقدى الذى تنظر به دول العالم جميعاً إلى هذه القضايا ، كما أن معالجتها ينبغى أن تعكس بصورة سليمة ، تنامى التكامل فى إطار المجتمع الدولى بأسره ، كما ينبغى أن يرتكز تناولها على اتفاق عريض فى الرأى .

فبالنسبة لقضية حقوق الإنسان فلابد لنا أن نؤكد من جديد أن حقوق الإنسان لا تتجزأ ، وأن الإهتمام بحقوق الإنسان يجب الا يقتصر على حقوقه المدنية والسياسية ، كما أنه لا يمكن التعامل مع حقوق الانسان بمعزل عن الارتباط المباشر بين حقوق الانسان وبين التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، وهى معادلة لا تكتمل إلا بالتنسيق بين جانبيها ، بشكل يمتد إلى أبناء المجتمع ، على اختلاف طبقاته وعناصره العرقية واللونية ، وفى اطار يشمل العلاقات الدولية ككل .

كذلك يتعين التأكيد على ضرورة عدم إثارة قضية احترام حقوق الانسان بصورة انتقائية ، واستخدامها كوسيلة لتحقيق أهداف سياسية محضة . كما ينبغى التسليم بأن الدعوة لاحترام حقوق الانسان

---

* سفير مصر فى البرازيل

وحمايتها هي التزام من جانب الدول كل على حدة ، وفقا لمعتقداتها الدينية وأنظمة القيم التي تؤمن بها شعوبها ، وإعمالا لروح المواثيق الدولية التي صادقت عليها .

أما عن قضية التعددية السياسية ، فقد دفعت الرغبة الملحة في نفوس عامة الناس ، في جميع أنحاء العالم إلى إطلاق تيار عالمي عارم صوب هذا الاتجاه ، بغية تحقيق الاستجابة للتطلعات السياسية للشعوب ، في نطاق تراثها وتقاليدها الثقافية والإنسانية . ومع ذلك ، فإن ثمة حاجة إلى التسليم بأن الإستقرار السياسي لا يمكن أن يتحقق في ظل ظروف الحرمان الاقتصادي حتى ولو كان بالنسبة لقطاع أو قسم معين فقط من شعب دولة عظمى أحرزت أعلى معدلات التقدم والثراء في العالم لذا فلابد أن يتركز الاهتمام العالمي على القضاء على الفقر والجوع والبطالة وسوء التغذية والأمية .

قلق بالغ

أما فيما يتعلق بالبيئة ، التي هي تراث عام ، فإن تدهورها العالمي المستمر والذي كان للشمال القسط الأعظم في أحداثه ، مدعاة للقلق البالغ من جانب كافة شعوب العالم ، كما أن حمايتها تستوجب تعاون المجتمع الدولي بأسره ، انطلاقا من منظور متوازن ، يقوم على مبدأ كل حسب مسئوليته ، وكل حسب طاقته .

ولا شك أن قضية البيئة وقضية التنمية ، هما قضيتان مترابطان ، تدعم كل منها الأخرى ، ولا يمكن علاجها إلا بالربط بين الاهتمامات البيئية وبين ضرورة النمو والتنمية الاقتصادية . وفي هذا الخصوص ، تتمسك شعوب الجنوب بأهمية التسليم المطلق بحق بلدانها في التنمية ، بضرورة أن تدعم التدابير المتخذة لحماية البيئة العالمية ، النمو والتنمية الاقتصادية في هذه البلدان ، وبخاصة التوجه بكل الالتزام من جانب البلدان المتقدمة للقضاء على الفقر باعتباره عاملا أساسيا للتدهور البيئي في البلدان النامية .

وفي ظل الفجوة الضخمة في مستوى التنمية العالمية لكوكبنا ، ينقسم العالم بين الذين يملكون والذين لا يملكون بما يهدد بانفجار موجات متلاحقة من الاضطرابات الاجتماعية والهجرات الواسعة وملايين اللاجئين والنزاعات الإقليمية والثنائية .

وربما يكون أخشى ما تخشاه شعوب الجنوب الآن أن تتمخض عاصفة التطورات التي تجتاح نهاية هذا القرن ، عن نتائج سلبية بالغة تصيب حاضرها ومآل مستقبلها ، ذلك أن من المفارقات المصاحبة لعاصفة التغيير التي يشهدها زمننا الراهن ، هو أنه في الوقت الذي يتحول فيه العالم المعاصر إلى قرية مكشوفة الأسرار تتسع الهوة الفاصلة بين مستويات تطور هذه القرية ، وتطرد بوتائر أسرع عملية الاندفاع إلى أمام لقسم ضئيل من سكانها والاندفاع إلى وراء للقسم الأعظم منهم ، فكلما زادتنا وسائل

الاتصـال اقـتـرابا ادركنا كم نحن متباعدون .

وإذ يلحظ الجنوب أكثر فأكثر أن عاصفة التغيير تشيح بوجهها عنه هناك ، فمن حقه أن يشعر بالصدمة لصورته التى تفرض عليه دون أن يشارك فى رسمها ، صورته القادمة من تاريخ ليس كله تاريخه ، صورته المصنوعة من نتائج حرب عالمية لم تندلع ، ولكنها أسفرت عن عالم يتجه إلى تكريس المظالم التى خلفها لنا نظام الأمس المنصرم .

ومهما كانت الصورة المتبلورة للعالم القائم من هذا المخاض الفوضوى والمنظم فى آن ، فإننا نرى بوضوح ساطع مدى غموض مكانتنا هناك فى جنوب الصورة !

إن عملية حل التناقض القائم ، تتم للأسف بخلق المزيد من عوامل التناقض القادم ، إذ يقف الجنوب المحروم من المشاركة فى الأسئلة الكبرى التى يطرحها الشمال على مستقبل وجوده ، عاجزا عن ترميم القطيعة بين تاريخها المتناقض وخائفا من الوظيفة التى يرشحه لها النظام العالمى الوليد ، لأن هذه الليبرالية المنتصرة لم تفصح بعد عن إنسانيتها وشموليتها وعالميتها لتحمل بشرى الديمقراطية وحقوق الانسان وحق تقرير المصير لكل بقعة من بقاع الأرض .

إن عدم الانسجام بين وتيرة التقدم المادى العالمى ، وبين المنهج الروحى والانسانى ، يخلق إمكانيات الهيمنة والاستبداد ، خاصة وأن هذه العاصفة التى تهب على نهاية هذا القرن لا تعدنا - حتى الآن - بتقديم الحلول الواضحة لمشاكل الجنوب المتراكمة ، كالفقر والجوع والأمية والمديونية والعنصرية التى تعانى منها مئات ملايين البشر .

صياغة الشرعية الدولية

إن ما يحدث فى التنظيم الدولى الآن ، وفى الحياة السياسية الدولية برمتها ، يتمثل فى العصف المنظم بميراث التطور الانسانى فى مجال القانون والتنظيم الدولى المعاصر ، وذلك من خلال الانفراد المتعسف بتحديد المعايير القانونية لحل النزاعات القائمة ، وصياغة نظام الشرعية القانونية الدولية ، على أسس انتقائية وذاتية بعيدة عن الموضوعية . ولعل أكثر ما يعرى هذا الموقف ويفقده كل مصداقية ، هو تطبيق معايير مزدوجة على القضايا المتشابهة ، انطلاقا من المصالح الضيقة والرؤى المتحيزة . كما أن الاستخدام الفج لمجلس الأمن وللمنظمات الدولية فى بسط الهيمنة على أنظمة الجنوب ، والتدخل فى شئونها الداخلية ، إنما يهدد بنسف مبدأ السيادة الذى يعد أساس القانون الدولى وجوهر مبادئه أيضا .

ولا شك أن هذا النمط من السلوك السياسى ، يحبط تطلعات دول الجنوب فى أن تتم تصفية النزاعات الاقليمية والتوترات الدولية من خلال التسويات السلمية ، وعلى أساس قواعد القانون الدولى . بل إن آمال الانسانية فى التطور السلمى ونبذ الحروب ، تقف دونها الآن ، تلك الرغبة الجامحة فى استخدام العنف والبطش وفرض إرادة القوة والقهر .

إن شعوب الجنوب التي تعلقت بالآمال في أن يسود العالم نظام يجري فيه تغليب قوة القانون، غدت تعيش الآن ولفترة قد تطول لزمن قادم، تحت وطأة قانون القوة، الذي تسقط فيه كل ضمانة في أن يكون للأمم المتحدة وللمجتمع الدولي ككل، لا لدولة عظمى بعينها، الكلمة الفاصلة في تقرير الخطوط الدقيقة التي سوف تفصل بين المشروع وغير المشروع، والجائز وغير الجائز.

ومن أكثر التناقضات التي تسود حياتنا الدولية حدة في الوقت الحالي، أنه في الوقت الذي تعلو فيه قيمة الديمقراطية كأسلوب لتنظيم المجتمعات، يفتقد المجتمع الدولي بشدة للديمقراطية، إذ تشتد الفوارق بين الشعوب وتقوم بينها أفدح التمايزات، وتهدر كل ما لها من حقوق متكافئة في تقرير مستقبلها.

ومن هنا فإن حاجة الإنسانية إلى ديناميكية أخلاقية، وإلى مرجعية للضمير المجتمع الدولي تتزايد الآن بشكل ملح لضبط سلبيات المرحلة الفاصلة وما قد تفرزه من استهتار بالمستوى الروحي والأخلاقي تحت إغراء غطرسة القوة، والاستغناء عن ضرورة الحوار بين الشعوب وثقافتها، واستبدال التعددية الثقافية بتكريس مركزية كونية مهيمنة للثقافة ولنمط الحياة والتفكير.

إن البشرية تمر اليوم بتجربة تثير الأعجاب، حيث تعبر فيها الحدود المادية والفكرية والروحية بين ما كان قائما بالأمس بخيره وشره، وبين ما سيكون جديدا في القرن القادم، في العالم على امتداده. ومن ثم فإن هذا العبور لابد وأن تشارك فيه القوى الفكرية والسياسية في كل مكان، ذلك أن التفاعل سيظل هو العنصر الضروري، الذي لاغنى عنه، لبلورة رؤية واضحة تعبر عن توافق حقيقي في التوجيهات بين الروافد الرئيسية للفكر العالمي.

ومن المؤكد أن حركة العبور التاريخية هذه سوف لا تكتمل ولا تستقر في الواقع الدولي، مالم تشارك الانسانية جمعاء في انضاجها وتأمين استمرارها ونموها، حتى تصبح بحق تطورا استراتيجيا في خطواته وأهدافه، وليس تكتيكا عابرا، يقتصر مداه على فترة زمنية محددة، طالت أم قصرت.

وفي تقديرنا أنه لا مناص، إذا ما نريد أن نحول هذا الحماس العاطفي الذي يجتاح الآن مئات الملايين من البشر في الشرق والغرب، في الشمال والجنوب، ونوظفه لخدمة قضايانا الكبرى، قبل أن تخمد جذوته أو يصيبها الاحباط، من تهيئة المناخ للتفاعل الايجابي من أجل بلورة القيمة الجديدة للانسان، الذي نريده عابرا للحدود، باقتدار وثبات، بين قرن وقرن، وبين تاريخ وتاريخ، وإلا فلن يقدر لإنسان العصر أن يكون كما نريده، بانيا لحضارة السلام والحرية، محققا لحلم البشرية في العدل والاخاء.

القفز على الأشواك

بين الفلسفة والفن

بقلم : د. شكرى محمد عياد

سلخ من عمره – حتى الآن – نيفا وأربعين سنة فى دراسة الفلسفة وتدريسها ، ولكنه مازال وفيا للشعر الذى غازله مدة قبل أن يبلغ العشرين ، ثم صرف الله عينيه وذراعيه عنه وإن لم يصرف عنه قلبه ، فهو لايزال يحن اليه ويناجيه كشأنه مع حبه الأول (العينين الواسعتين السوداوين) التى انعقد لسانه فى اللحظة الحاسمة فلم يعقد حياتها بحياته . والفلسفة عندى وعند أمثالى ممن يتملون طلعتها فى محفل الثقافة ويهابون الاقتراب منها بله أن يتأبطوا ذراعها خارجين (أو حتى أن ينحنوا لها مرة كما فى الأفلام : تسمحين لى بهذه الرقصة !) غادة مغناج تطمعك ولا تعطيك ، ولا تظفر منها بعد السهر والهدايا وشقا العمر إلا بمواعيد كمواعيد هند صاحبة ابن أبى ربيعة ، ولها – مثل كل ذوات الجمال والدلال – وجهان : وجه الى العلم حين تصاحب رجلا كأرسطو أو بيكون أو جيمس ، ووجه الى الشعر حين تؤانس رجلا كأفلاطون أو بسكال أو كامى ، ولها – فى جميع الأحوال – تعلق خفى بالسياسة ورجال السياسة .

وقد وقع عبد الغفار مكاوى فى هوى الفلسفة ، وأقبل عليها جريئا غير هياب وتزوج منها مختارا غير مضطر فتعذب بها طول العمر ، ما غضب منها ولا سلاها ولكن مفزعه كان دائما الى الشعر ، وأخذ عن الوجوديين خاصة شريعة العشاق

فى ذلك العالم الحافل بالأنماط والأزياء وهى أن « التفلسف » عوض عن « الفلسفة » ، كما أن الذات هى التى تصنع الواقع .

وكذلك استوت لعبد الغفار مكاوى فى حياته وأدبه شخصية فريدة هى مزاج من الحب والسخط واللذة والألم ، والوداعة والغضب . لم يصطنع هذه الشخصية ولكنه اكتشفها فى ذاته ، وجد بذورها كامنة فى نفسه فرعاها ونماها ، و « كل ميسر لما خلق له » . يقول عن طفولته الأولى – وهو يصف كتاباته كلها بأنها « اعتراف طويل » – : « ولدت ثالث ثلاثة ، وآثر ضلعا المثلث أن يتركا أضعفهم وأكثرهم هزالا بعد الشهر الثانى من ولادتهم . ولقد طاردنى الشعور بالذنب نحو الشقيقين الغائبين ، أو العاقلين ، منذ أن سمعت القصة من فم أمى وشقيقتى الكبرى . وعرف عنى التحول الرومانسى فى صباى بين قبور جبانة البلدة بحثًا عن قبرى المسكينين ، وعن الشبر الباقى الذى أعده جارنا المقرىء والحاد ليسع الجسد الثالث النحيل ، فشاء حظه أو مكره – لسبب لا يفهمه ولا يستحقه – أن يبقى بعد المقرىء والأم والأب وشقيقين عزيزين أكبر منه » (« التكوين » – الهلال ، سبتمبر ١٩٩٠ ، ص ١٧٨) .

نحن لا نصنع الجحيم

أصبح بعد ذلك أستاذا فى تعذيب نفسه ، فهو يصور فكره وإبداعه بـ « الجحيم المحبوب » ، الذى لا يفر منه الى آفاق أخرى أرحب وأجمل إلا ليعود اليه أشد ما يكون وفاء له وتفانيا فيه ! ربما كنا « نصنع هذا الجحيم بأنفسنا » ، كما يقول ، ولكن هل ترانا نصنعه من العدم ؟ أليس « الانتحار الجماعى » – وهو وصفه لحالة أمتنا العربية – جحيما لمن يعى ؟ فنحن لا نصنع الجحيم بأنفسنا إلا لأننا نتشبث بأوطاننا انتماء ، ونرفضها وجودا ، نرى قبورنا الى جوار إخوتنا الذين سبقونا ، ولا ندرى كيف يمكن أن ينجينا المكر – أو أى شىء آخر لا ندريه – من مصير كمصيرهم . نحلم بالجنة – ولو كانت جنة متواضعة جدا – جنة تحترم فيها إنسانيتنا ونتمتع فيها بحرية القول والعمل – ونفيق على واقع مؤلم ، ولذلك أصبحنا نخاف أن نحلم . يقول الناسك الصينى لأهل القرية : « آه يا أبنائى ، هل جربتم سحر الحلم ورعبه ؟ أن يغوص الإنسان فيه كما يغوص فى موجة طرية ناعمة ويفزع منه كأنه يتدحرج فى هاوية مظلمة ملعونة ، أن يتشبث به بيديه وأسنانه ، وأن يخشاه ويفر منه كأنه برق ينذر بالصاعقة ؟ أن يهيم فيه كعاشق مفتون يطوق بذراعه خصر معشوقته وينتفض خوفا منه كأنه قبضة جلاد قبل إحكام حبل المشنقة ؟ » (« القيصر الأصفر » ، ص ١١٢) .

الحلم والكابوس : مركب آخر من المركبات التى تتألف منها حياة عبد الغفار

القفز على الأشواك





د. عبد الغفار مكاوى   أرسطو

مكاوى ، ومنها يصوغ فنه . ولعله أقرب من المركبات السابقة الى الفن . فكثيرا ما استلهم المبدعون أعمالا فنية عظيمة من أحلام وقعت لهم – قصة كولردج مع مطوّلته المشهورة « كوبلاخان » معروفة – فى تاريخ الأدب – وإن كانت العلاقة بين الحلم والفن ذات وجهين : فهل يقلد الفن الحلم أو العكس ؟ إن الفن يحاول أن يضرب بجذوره فى أعماق العقل الباطن ، وهى مادة الأحلام ، ولكنه يأخذ منها بحساب وتقدير ، حتى الفن السيريالى له مصطلح جمالى يميزه عن فوضى الأحلام . ومن جهة أخرى قد يحلم الفنان أنه يكتب قصة أو يصوغ لحنا ، فكأن الحلم يحاول تقليد الفن ، ولكنه فى الغالب لا يحسن التقليد ، ولذلك قال توفيق الحكيم إن الحلم فنان ردىء ، ويروى بعض الموسيقيين أنه كانت تخطر له أحيانا وهو يحلم أنغام يخيل اليه فى أثناء حلمه أنها رائعة ، ولكنه ينساها حين يستيقظ من نومه ، فأعد ورقا وقلما بجانب فراشه حتى اذا زاره ذلك الحلم ذات ليلة سارع بتدوين اللحن ، ثم نظر فيه بعد أن استيقظ فلم يجده شيئا . وأغلب الظن أن يد الفنان لابد أن تتناول الحلم بالزيادة والنقص والتهذيب والتثقيف حتى تصوغ منه عملا فنيا .

الكتابة والشكل الفن

واذا كنت أحب أن أتناول رواية عبد الغفار مكاوى القصيرة « الكابوس » (« الشمعة الثالثة » من بكائيات) بشىء من التحليل باعتبارها عملا متميزا بين مجموع أعماله وممثلا له فى الوقت نفسه ، فأنا لا أعدها مجرد « تدوين » لكابوس فعلى « ظلت غرائبه المختلطة تلاحقه فى اليقظة والمنام » كما يقول ، حتى « كان أن دونت الكابوس على الورق فى تسعة أيام لاهثة محترقة الأنفاس » ، فقد يتوهم الكاتب أنه لم يزد على أن « دوّن » الكابوس ، مع أن حالة استحضار الكابوس فى اليقظة تختلف عن حالة الكابوس نفسه أثناء النوم ، وحالة الكتابة تختلف عن الحالتين ، وأهم ما تتميز به الكتابة هو الشكل الفنى ، وهو متحقق فى الرواية وان احتفظت

بالكثير من تلقائية الحلم – الكابوس بحيث أصبح لها شكلها الخاص القريب من الاعتراف ، على أن هذا الشكل « النوعى » الخاص لا يلخص كل الصنعة الفنية فى الرواية ، فهناك صنعة الأسلوب أيضا ، وهو أسلوب مسجوع فى كثير من المواضع ، وكأنه يستحضر جو « ألف ليلة وليلة » بما فيه من خوارق .

تبدأ الرواية بفصل عنوانه « هيجل فوق العرش » ، وتجرى السطور الأولى كما يلى :

« قصر مهجور ، يبدو كالنسر الهرم الجاثم فوق السفح ، يحتضر وحيدا من ألم الجرح . تحملنى قدماى اليه عبر صحارى جرداء ، تحت سماء دهمتها السحب السوداء . جحافل قطعان وجيوش ذئاب ، سفن غرقى يهرب منها البحارة والفئران ويبكى الربان . خيل جامحة تسقط فى الميدان . أقنعة الأبطال المهزومين ، دروع تسقط فى الطين ، وملائكة تنفخ فى الأبواق ، كلاب تنبح فى الآفاق ، ومواكب إنس وشياطين ، ترقص تركع تسجد للتنين . أدخل من باب القصر كأنى أدخل فى قبر ، يهتف صوتى يأتى من فوقى من تحتى أو ينبعث من الصدر : هذا قصر العقل المطلق . حدق فى عين الموت وحدق . فحياتك أن تلقى الخطر المحدق . تتحداه فتنجو من قبضته أو تغرق » .

« العقل المطلق » يكاد يكون مرادفا لفلسفة هيجل ، كما يعرف كل من شدا شيئا من تاريخ الفلسفة ، وهيجل هو الجالس على العرش فى قصر العقل المطلق ، من حوله أشلاء وجماجم نخرة ، تختفى بينها عقرب « التجريد » التى لا يشفى لديغها ، لأن هيجل هو آخر الفلاسفة الكبار الذين حاولوا أن يقدموا تفسيرا شاملا للكون ، اذا استثنينا ماركس الذى لم تكن فلسفته فى جوهرها إلا قلبا لفلسفة هيجل ، أو تصحيحا لوضعها المقلوب فى رأى الماركسيين ، فقد قامت فلسفة هيجل فى جانبها الميتافيزيقى على فكرة المطلق ، أو الله ، وفى جانبيها المنطقى (الديالكتيكى) والتاريخى على فكرة التطور ، أى التجليات المتتابعة والمتناقضة والمتصاعدة للمطلق ، فجاء ماركس وأقام فلسفته على أن أصل الوجود هو المادة لا الروح أو العقل المطلق، ومن ثم أصبح التطور الديالكتيكى عنده هو تطور النظم الاجتماعية القائمة على علاقات مادية ، وليست مظاهر الحياة العقلية أو الروحية بعد ذلك إلا توابع أو « أبنية فوقية » مترتبة على تلك العلاقات المادية .

ولكن عبد الغفار مكاوى لا يتعالى على قارئه بأسماء الفلاسفة أو مصطلحات الفلسفة ، ويستطيع القارىء الذى لا يعنى كثيرا بالفلسفة أن يعبر على هذه الأسماء والمصطلحات ، وسيترسب فى وعيه شعور قوى بما ترمز له أوصاف القصر المهجور وما حوله وما فى داخله : فوضى الحياة

القفز على الأشواك


البير كامى


بسكال

اليومية وقسوتها ، التى نحاول الهرب منها ملتمسين العزاء فيما نسميه القيم الروحية ، ولكننا نجد أنفسنا نحدق فى الفراغ ، ونشعر بالعجز فنرتد الى أحلام الطفولة ، ثم نجد أنفسنا آخر الأمر أسرى طبيعتنا البشرية ، ضائعين ممزقين بين شهوة الجسد وخوف الموت .

يتغير المشهد فجأة : بينما يفر الحالم من هجمة العقرب محاولا أن يلحق بالنادل الذى يحمل صينية عليها يمامة محمرة تزيد جوعه التهابا ، اذا هو فى بهو فسيح أنيق، وكأنه بهو فندق فخم من فنادق المدن الكبرى وتبدأ خبراته فى ذلك الفندق بهجوم جنسى من إحدى المضيفات ، ثم سؤاله عن أوراقه ، واذا هى قد ضاعت مع حافظته ، ثم يظهر صبى فى يده ناى ، يقدم الحافظة الى الفندقى . وحين يتبين أن بطاقة الهوية بيضاء لا تحمل صورة ولا اسما يهمس الصبى فى أذن الفندقى بكلمات يتغير مسلكه على أثرها من الرفض المهين الى الترحيب الذليل .

إن الصبى صاحب الناى رمز واضح الشعر الذى سيصبح منذ اليوم رفيق صاحبنا فى تجاربه ، ربما استدرجه الى الخطأ ، أو سهل له الوقوع فيه ، ولكنه فى أكثر الأحيان منقذه من الأزمات ، ومواسيه فى الشدائد . وحين يتجولان معا فى أنحاء الفندق (الحياة) نشعر أننا قد ابتعدنا عن جو الحلم ومنطقه ، وأن القصة (الحلم أو الكابوس) تستحيل الى ذكريات قريبة جدا من الواقع ، حتى لتبدو أشبه بالاعترافات : اعترافات تتمحور حول ثلاث نساء ، أولاهن تنقلنا من جو الحلم الى جو الواقع : « ممددة على الفراش كحورية خرجت من الماء - الشعر الكستنائى منسدل حول رأسها بغير نظام ، والوجه الناصع البياض ، المشوب ببقع حمراء خفيفة ، يشبه وجه ملاك . وجه صغير شاحب كالهلال النائم فوق السحاب ، تشع منه براءة طفل عليل ، مسحوب الى أسفل شبه مثلث حاد ، تشعر من نظرتك الأولى اليه أنك مدعو لحماية يتيم . والعينان ضيقتان، خاليتان من التعبير ، والجفنان بلا رموش، تنظران فى

بلاهة لا تعرف إن كانت مكراً أو سذاجة أو غباء . توشك أن تهتف حين تنظر فى بحيرتهما الآسنة : هل خلق الله ملائكة عميانا ؟ » .

ولكن هذا المكر الأبله يغلب ذكاء الشاعر المتفلسف الحزين ، حتى يخرج من التجربة مضحوكا عليه . أما المرأة الثانية فتقدم الينا من أول الأمر فى صورة واقعية تماما : « قصيرة ، رقيقة الوجه ، على عينيها نظارة سميكة ، تسبقها ابتسامة تبرز أسنان الفك الأعلى الناتئة الى الأمام . جسمها الضئيل كجسم لم ينم ، لا يتميز فيه صدر ولا خصر ولا ردف ، والقدمان قصيرتان ، أقصر مما يسمح به جسم قصير ، فى قدميها جورب أبيض كجورب التلاميذ ، ويداها ، الرقيقتان المتدليتان من ذراعين نحيلتين كأيدى عرائس الأطفال ، لا تتحركان إلا حين يصدر لهما الأمر من الدماغ ، الدماغ الضخم الذى يكسوه شعر أشقر قصير هو كل شىء فى هذا الشبح الأشقر » . وكأن الشاعر يريد أن يتجاهل أنها امرأة ، تريد أن تكون محبوبة مثل كل النساء ، فهو إذ يستجيب لعاطفتها نحوه ، ويحاول أن يتجاهلها فى الوقت نفسه ، يدعوها أمه الصغرى ! الى أن تحين لحظة الوداع فتنهار كبرياؤها وتستسلم لمشاعرها المكبوتة .

وأما الثالثة فمومس فى ماخور ، تؤجر جسمها بالدقائق وتعطى الزبون حقه بأمانة ، وحقه لا يشمل اصطناع العاطفة . فليخرج الشاعر من مخدعها مدحورا ، يضرع الى اله الحب : « يا رب السهم النافذ والقوس ، هبنى أن أجد القبلة : كأسا تفرغ فى كأس ، عينا تغرق فى عين ، قلبا يدق فى قلب » !

يعود الصبى صاحب الناى الى الظهور، ومن هذه اللحظة يبدأ الكابوس الحق ، وهو يتألف من مشهدين كلاهما مفعم بالشخصيات والحركة : المشهد الأول عند شاطىء البحر ، يتوهم الحالم أن فيه الخلاص فاذا عنده ستة عمالقة سود غلاظ شداد ، وإذا هو قد طرح أرضا وبجانبه بقرة تمضغ فى سكون ، ويأمرون الصبى بأن يقرب مرآة من وجه صاحبنا ، فإذا هو شبيه بوجه البقرة . ويبقرون بطن البقرة فلا يسيل منه دم ولا تخرج منه أحشاء ، بل كتب ! ويقيدونه الى صخرة – مثل بروميثيوس فى الأسطورة اليونانية القديمة، ويأتى نسر ضخم فينهش فى كبده ، ويتطاير ريش يحسبه من ريش النسر ثم يتبين له أنه يتطاير من كبده ! وينشق الأفق عن شخص « فى جلال أبولو وجماله ، كيان أسطورى عالى الجبهة ، شامخ الأنف كبطل رومانى ، منسدل الشعر على الكتفين ، لا هو بالطويل النحيل الذى يشرئب عبثا للسماء ، ولا بالقصير السمين الذى تجذبه العناصر للأرض » . ويفك « البطل الشمس » أغلال صاحبنا ، ويبين له شأن



افلاطون



بيكون

النسر : إنه القلق الذى يدفع ذويه الى الإبداع ، وهذا الدم الذى يسيل من الجرح هو مداد الشعر . أما العمالقة السود الذين يشكوهم صاحبنا الى منقذه فإنهم يعرّفون أنفسهم الى المنقذ : « نحن خرجنا من هذا الصدر كما خرج النسر ، نحن رؤاه ، هواجسه ، أحلام صباه ، ظنون الفكر ، يأمرنا نصدع للأمر ، عشنا معه فى السراء وفى الضراء ، وفى الخير وفى الشر . جعنا وظمئنا معه ، ذقنا الحلو وذقنا المر . ليلا ونهارا ناديناه ودعوناه فى الجهر وفى السر . انهض وتحدَّ القهر . وافتح عينيك وقلبك للشمس وألق بجسدك فى البحر . حتى غضب علينا . نسى ملامحنا . ألقانا فى قاع البئر » .

ينصح البطل صاحبنا وضحاياه - جلاديه بأن يعملوا ، ففى العمل الحر خلاصهم جميعا ، فيخرجون فئوسهم وآلاتهم ويعطون صاحبهم فأسا ، ويشرعون فى شق قناة ليحولوا الأرض الجرداء الى جنة . ولكن صاحبنا لا يحسن استعمال الفأس لأنه مثقف : ميئوس منه ! ولأيًا بلأى ما يفرغ من إعداد حفرة ، وإذا هى قد أعدت له كى يدفن فيها ! ولكنه يجب أن يذبح أولا ، ويقهقه كبيرهم صائحا وهو يمسك برأسه ليذبحه : « رأس هش ! رأس هش ! » .

وأما المشهد الثانى ففى ساحة فى صنعاء ، وصاحبنا واقف بين الواقفين فى انتظار موكب الإمام الذى سيُظهر كرامة على الملا . يصلى الإمام ويصلى كلبه وراءه . هذه هى الكرامة . يدخل صاحبنا فى جدال مع الإمام ويتهم بالكفر . وفى ساحة الإعدام يلمح زبانيته الستة إلا أنهم فى زى مختلف ، متمنطقون بالخناجر . وقبل أن ينفذ الحكم يرى حبه الأول - حلمه الأول الذى لا ينسى - وقد ظهرت لتلتمس من جلاديه أن يعفوا عنه ، وتقطع أوصاله وهو ينظر فى عينيها ، ثم يزيح السياف الشعر عن الرقبة ، ويسمع مرة أخرى : « رأس هش ! رأس هش ! » .

ويعود المنظر الى بهو العرش ، ولكن صاحب العرش نعسان ! وصاحبنا يخاطبه كلما تنبه ، كما يخاطب أصنام الحكماء

المحيطين به حين تتثاءب وتفتح عيونها : يستنجد مرة ويلوم مرة ويعتذر مرة . ويقول له صاحب العرش ناصحا « لِمَ تقفز من قمة حلم لتغوص في هوة حلم ؟ عش يومك يا ولدي ... من بؤرة هذا الحاضر تبصر ماضي الأزمان ، وبعين الظاهر تجد اللب الكامن في الأشياء وفي الأبدان » . ثم إذا بعاصفة تهز أركان البهو ، ويرى صاحبنا أمه ، يشكو اليها ضياع العمر ، فتوصيه بالصبر : « ستدور الدورة يا ولدي ويطل ربيع مفتر الثغر ، وتمر يداه على شجرتك فتخضر » .

ويدوي صوت غاضب : ليس لديه هوية ، لا اسم ولا عنوان . أفسد عقل صبي ساذج ، أغوى المشرفة على الحمام ، وأساء لسمعتها ولسمعة هذا الفندق ، فليطرد من حرم المطلق ! فليطرد من حرم المطلق ! لن نقبله حتى يصبح نفسه « حتى يتحقق بالسر الأكبر : كن إياك ومت لتكون ! وبينما هو خارج تلدغه العقرب .

***

وصفت هـــذا العمـــل ، كمـــا وصفه صاحبه ، بأنه « رواية » . ولكنني قلت في مستهل حديثي عنه انه رواية لها شكلها الخاص ، وأصحاب الحداثة يتكلمون في هذه الأيام عن أعمال أدبية (أو «نصوص» باصطلاحهم) لا تدخل تحت نوع من الأنواع ، ويسمونها « عبر نوعية » ، وأنا لا أحب الرطـــانة ولا المماحكة في الاصطلاحات ، وأرى تصنيف الأعمال الأدبية - من أساسه - الى أنواع أو مذاهب مقبولا حين يراد التعميم أو التعليم ، مخطئا أو خاطئا حين يُطلق على عمل بعينه . فلماذا نزيد الأصناف صنفا فوق الأصناف أو عبر الأصناف ؟ كل ما أريد أن أقوله هنا هو أن هذه الرواية صورة من صاحبها : عقله ومزاجه وتكوينه ، ومحاولة جاهدة مخلصة ليكون « هو نفسه » . ولكن هذا ليس كل شيء في الفن ، الفن هو أن تجد في العمل الفني صورة من نفسك أنت أيضا ، ولن أسبقك بالحكم أكثر مما قدمته اليك من جمل وفقرات التقطتها من ثنايا الرواية ، أما إن شئت أن أحدثك عن تجربتي في قراءتها - وأنا أشترك مع كاتبها في الشعور بالمتناقضات الكثيرة التي تتألف منها حياتنا ، ولكنني لا أشترك معه في فلسفته المتشائمة ، ولا أدعي أني أجاريه في ميدانه الفلسفي أصلا ، وإنما أنا رجل معنى بفن الأدب - ففي وسعي أن أقول إني رأيت في هذه الرواية ظل الفيلسوف على الفنان ، كما رأيت في كتـــابه ، الذي يكاد يكون توأما لهـــا ، وهو « لم الفلسفة » ظل الفنان على الفيلسوف . وربما جاز لي - من موقعي ناقدا للأدب - أن أقول بتشبيه آخر : انني كنت أرى مفاصل الفلسفة وفقراتها بارزة في جسم الرواية الجميل .

عن رواية صنع الله إبراهيم

الجديدة «ذات» (*)

بقلم : د. على الراعى

هو عالم «ذات» فى المحل الأول . وهو عالم عبد المجيد فى المحل الثانى . ذات هى التى تُحرِّك الأحداث ، وهى التى تتحرك حولها الأحداث ، رغم الموقف المتسلط الذى يتخذه عبدالمجيد منها . رغم أنه قد حرَّم عليها العمل بعد التخرج ، ثم عاد ليقول لها : إن قعودها فى البيت لم يعد له معنى . رغم أنه أمرها بالحجاب ، ثم اكتشف من بعد أن الحجاب لم يعد يكفى فأمرها بالنقاب ، فاستجابت له ذات فى كل مرة .

تسلط عبد المجيد على «ذات» تسلطا مظهريا ، يستند إلى القهر التقليدى الذى تجد فيه المرأة المصرية نفسها بإزاء الرجال : آباءً كانوا أم أزواجا أم حتى أبناء . وراء تسلط عبد المجيد ضعف كامن : لم يتم تعليمه الجامعى . لم يستطع أن يجمع ثروة فى عهد انفتاح السادات . لم يفلح فى الحصول على عقد عمل فى السعودية . لم يستطع أن يساير مسيرة الهدم والبناء التى تنفخ المعلنون بأبواقهم مؤذنين ببدئها طالبين أن يدمر المصريون مطابخهم وينسفوا حماماتهم ، ويقبلوا على ترف المطابخ المستوردة والسيراميك اللامع ، الذى تزحلق عليه عبدالمجيد من بعد وكسر ظهره .

عبدالمجيد صنم من قش . حين تتحداه «ذات» وتوضح له أن سلسلة الأخطاء التى وقع فيها والتى انتهت به إلى العجز التام

(*) دار النشر : «المستقبل العربى» مارس ١٩٩٢ .



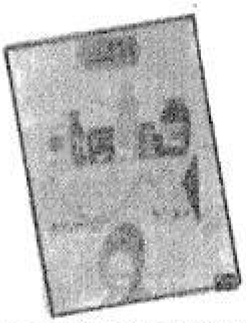


كل من «ذات» وعبد المجيد يعيش مع رفيقه على مضض . حين ثارت الشكوك القوية حول احتمال إصابة «ذات» بالسرطان ، جعل عبد المجيد يصلى بانتظام، لا من أجل خلاص « ذات » وإنما من أجل خلاصه هو منها فـفى الركن الغربى من رأسه الاصلع تجمعت خيالات غامضة ، احتلت فيها امرأة أخرى مكان «ذات» .. امرأة أكثر قدرة على ارضاء عبد المجيد بغير الوسائل التقليدية للاكتفاء الجنسى .

و« ذات » تتأمل فكرة الاتجار بجسدها ، فلا يصدها عن هذا سوى أفضلية غيرها عليها فى هذا المجال ، والخوف الغريزى الذى أثارته فى نفسها جارتها مدام سهير ، صاحبة الشقة المفروشة التى تستقبل فيها عملاءها . ومع هذا فهى دائمة التوتر ، تحلم بفتاة رائعة الجمال تحدثها فى الحلم ، وتتلقى منها لمسة وبية فى مكان معين ثم غزة أصبع مفاجئة ، تجلب لها الرعشة المتمناة !

«ذات» لا تقبل على زوجها جنسيا ، وإنما هى مضطرة إلى تحمله ، لأن هذا هو الواجب التقليدى والشرعى للمرأة المتزوج . وهى تتأمل حالها معه فتقول لصديقتها صفية : «خلاص ماعدتش أطيقه .» ثم تتناقض مع هذا الموقف بعد ثوان فتقول : «أما أسيبه أو أحبل منه» . وعندما تسألها صفية هل هناك «آخر» فى حياتها ؟ تنفى «ذات» ذلك مخفية تطلعها الدائم إلى

عن المشاركة فى مسيرة الهدم والبناء وحرمان ابنتيه من الالتحاق بمدارس اللغات وتبديد ذات لحياتها فى المطبخ وتربية البنين ورعايته هو ، لا يجد عبد المجيد ما يقوله . حينما توضح له أن المسألة لم تعد مجرد مسايرة عملية الهدم والبناء ، دائما هناك مهام عاجلة تتصل بضرورة الاستعداد من الآن لزواج البنتين - يسألها السؤال الدفاعى التقليدى : «أعمل أيه ؟ أسرق ؟ فترد ذات على الفور : «وماله .. فيها أيه ؟»



«عشاقها» من نجوم السينما الذين تغازلهم فى أشرطة الفيديو ، ومتسترة – فى الوقت نفسه . على رغبة خفية حملتها إلى الاسكندرية – حيث تعيش صفية – لمحاولة إشعال جمرة خامدة فى حياتها الروحية القاحلة تمثلت فى عشق عزيز عبدالله الذى أصبح فيما بعد زوجا لصفية .

وسميحة ، جارة «ذات» فى القاهرة ، تجد نفسها فى موقف مشابه لموقف «ذات» متزوجة من رجل قوى كالثور يعاملها – جنسيا بفظاظة ، حتى أصبحت لا تطيق أن يلمسها . سميحة – فى الأخرى – تهرب من جفاف الواقع إلى أحلام الجنس المكبوت التى تدور حول نجوم أشرطة الفيديو . ولكنها أكثر سخطا على زوجها الشنقيطى – هذا اسمه – فهى تسعى إلى الطلاق منه . ومن ثم تصطدم بمقاومة عاتية من أسرتها الأم خاصة ، والأب التابع لزوجته الذى يعلن أن ليس فى الأسرة امرأة تغضب من زوجها ، أو تترك منزل الزوجية ، أو لاتلبى نداء الرجل أو لا تتشرف بأن يضربها زوجها . ومن بعد أضاف الأب : أن ليس فى الأسرة امرأة تطلب الطلاق .

وحين ذهبت سميحة فى صحبة «ذات» لتستفتى الشيخ عبدالسلام فى أمر زوجها ، تلا عليها الشيخ آيات من سورة النساء وأوضح لها أن إطاعة الزوج واجبة فى كل الأوضاع ، جالسة ، واقفة ، على ظهرها ، أو على بطنها . والشيخ عبدالسلام هذا كان رجلا عاديا ، ماتت ابنته ، فسمع صوتا يهتف به : قم وصَلِّ. وفعل الرجل فصار من أولياء الله الصالحين وطار صيته بعد أن عاد من السعودية مزودا بلحية طويلة خطها الشيب ، وملابس حريرية على الطراز الباكستانى ، ونظارة مذهبة وصندل جلدى فاخر من طراز صنادل صدر الاسلام ، ومصحف فى غلاف مخملى ، مضموم إلى الصدر فوق القلب مباشرة ، ومشيته مهرولة إلى المسجد الذى أقامه صاحب العمارة الجديدة للتخفف من الذنوب والضرائب ، فتبرع له الحاج عبدالسلام بعدة مراوح كهربائية ، وبفرش من الموكيت وحصائر متينة ، ملونة تبسط فوق أرض الشارع عند اللزوم ومن ثم أصبح من حقه أن يؤذن للصلاة ويؤم الناس ويلقى خطبة الجمعة ويفتى فى شئون العباد . وهكذا أفتى الشيخ بأن المرأة لا حق لها فى عصيان زوجها ، أو العزوف عن تلبية طلباته ، مهما كانت مسرفة فى الظلم . وراء هذه الفحولة التى يبديها عبدالمجيد وصديقه اللدود

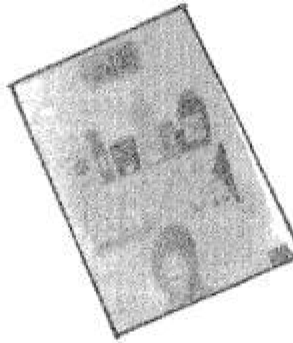
الشنقيطى ضعف جنسى عام، يدفعهما إلى الاستعانة بأشرطة الفيديو الفاضحة للحصول على الإثارة، ومن ثم يعكف الاثنان على الاعتماد على نفسيهما، دون حاجة إلى وصال الزوجتين. بل إن العمارة بأكملها تشاهد هذه الأشرطة وينصرف الرجال والشباب فيها إلى الاعتماد على أنفسهم، فيستيقظون كل صباح منتفخى العيون محمرة جفونهم.

قهر المرأة

يستخدم صنع الله إبراهيم هذا الحديث عن العلاقة بين الأزواج ليوضح مقدار القهر الذى تتحمله المرأة فى مجتمع ظالم، يدفع الرجال والنساء معا إلى الانحراف، ويظهرنا الكاتب أيضا على مدى العجز الذى يعانى منه هذا المجتمع. فالفشل فى التواصل الصحى بين الرجال والنساء هو مظهر لشىء أكبر منه بكثير هو عجز الناس عن التواصل فى أمور الحياة كلها.

وكيف يتواصل الناس تواصلا سويا والفساد يستشرى فى العالم الصغير الذى تعيش فيه «ذات» و«سميحة» و«صفية» و«عبدالمجيد» و«الشنقيطى»، وحشد كبير من الشخصيات الأخرى التى تعيش على السرقة والنميمة والتلاعب بالجنس مثل الصحفى الذى يحضر ومعه جهاز كمبيوتر يدعى أنه بوسعه أن يجرد صورة المذيعة على شاشة التليفزيون حتى تبدو عارية تماما للمشاهدين. كيف يتواصل الناس فى شرف واستقامة، وصنع الله يفتح النافذة بعد كل فصل من فصول الجزء الروائى فى عمله المستفز والمحير هذا، فكأنما يفتح النافذة على غرفات الجحيم. فتقرأ عن ثلاثة شبان، أحدهم ابن صاحب مصنع كبير، اختطفوا الطالبة المثالية لمحافظة الفيوم وخدروها والتقطوا لها صورا عارية واعتدوا عليها. ثم تقرأ من بعد أن رئيس شرطة الآداب بالفيوم قد حرر واقعة الاعتداء على الطالبة المثالية على أنها معاكسة فى الطريق العام، وأدعى فى المحكمة أن الطالبة من الساقطات وتعمل مرشدة لمكتب الآداب.

وكيف تستقيم أمور الناس فى العالم الصغير، وهذا هو العالم الكبير المحيط بشخصيات الرواية يعج بكل ما يندى له الجبين. وتتحطم له القيم جميعا: رجل أعمال يمثل أمام النيابة بتهمة تسهيل اشتغال ابنته بالدعارة. ابن نقابى بارز شغل منصبا حكوميا كبيرا يهرب إلى خارج البلاد بعد أن استولى على ثمانية ملايين جنيه من أموال الاتحاد العام للعمال، ثمانية آلاف من جنود الأمن المركزى بالقاهرة يتمردون ويغادرون معسكراتهم صائحين. الرحمة. الرحمة. العثور على جثة سيدة عارية فى حديقة منزل الملحن بليغ حمدى. اكتشاف لحوم فاسدة فى ثلاجة واحد من أفخم مطاعم مصر. رئيس الوزراء يقرر إغلاق مصنع



المهندس المكرونة ، إحدى شركات الملياردير عثمان أحمد عثمان لاستخدامه خمسة آلاف طن من الدقيق الملوث بالإشعاع الذرى . وزير الأعلام صفوت الشريف يقول : نتائج التحاليل التى تمت لـ ١٢٠ عينة من مكرونة المهندس أثبتت صلاحيتها التامة للاستهلاك . مجلة نيوزويك الأمريكية تنشر : مصر تأكل من سنوات دجاجا ملوثا بمادة ب. سى. ب السامة التى لايظهر اثرها إلا بعد عشر سنوات ، ولاتستطيع المعامل المصرية اكتشافها ، فى حفل عيد ميلاد أميرة عربية تكلف نصف مليون دولار ، تقاضت الممثلة شريهان ١٥٠ الف دولار بمعدل ثلاثة آلاف دولار للرقص فى الدقيقة . أب يشعل النار فى زوجته وأطفاله لعجزه عن تدبير المصروفات المدرسية . غش جماعى فى امتحان الثانوية بمدرسة أبو طشت . الطلبة يجمعون مبالغ طائلة ويوزعونها على المسئولين والمراقبين لتنظيم عملية الغش . جريدة مايو ، لسان الحزب الوطنى الحاكم التى أسسها السادات ويرأسها عبدالله عبدالبارى وأنيس منصور تقول .. فضيلة الشيخ شعراوى يهدى واحدا من الجن الكفار إلى الإسلام .»

هذه عينة مختارة عشوائيا من المادة التى تبديها طاقات الجحيم التى يفتحها صنع الله بانتظام بعد كل فصل روائى . علاقتها بصلب الرواية تبدو ضعيفة لمن لا يدقق النظر ، غير أنها – فى الواقع – على صلة عضوية بالرواية . إنها تمثل «الماكروكوزم» الذى يؤثر بأحداثه وحركاته فى «الميكروكوزم» الذى يتخبط فيه أشخاص الرواية . إنها القدر الكونى الذى يلف أقدار من يعيشون على الأرض قدر لافكاك منه ، ولا أمل فى تجنبه . ولا وسيلة للتفاهم معه أو حتى التهاون ، دع عنك الخلاص .

والطريقة البارعة الشديدة الدقة ، البالغة الحرص التى ينطوى عليها اختيار نماذج الأحداث والتصريحات تجعل الجزء الوثائقى كلا قائما بذاته ، لو شاء الكاتب أن يجمعه على انفراد ، مستقلا عن أحداث الرواية لاستقام له شكل روائى من نوع جديد وفريد هو الرواية الوثائقية الخالصة ، التى يقوم الفن فيها على الانتقاء الذكى ، والترتيب الدال، والإعلان

الموحى ، والصوت الجهير ، والإيماء الخافت ، فيتخلص إلينا عمل فنى لا ضير من اعتماده التام على الواقع ، بل إن فخره الأكبر أنه يقوم بنفسه رغم اعتماده التام على الواقع !

صنع الله إبراهيم هنا يقدم عملين فنيين ، لاعملا واحدا . كلاهما ينجح فى إيصال الرسالة ، وكلاهما يصب فى الآخر عكسا وطردا .

***

بقيت بعض الملاحظات على الجزء الروائى ، لابأس من ايرادها وطرحها للنقاش .

فهذا الجزء مزدحم ازدحاما كبيرا ، واحيانا معوقا - بالأحداث والتفاصيل ، وبعض من أجزائه يقتطع من حجم الرواية أجزاء لا يبرر محتواها المساحة التى تخصص لها . مثل «السياحة» التى تقوم بها «ذات» فى سبيل إبلاغ المسئولين عن علبة الزيتون الفاسدة التى اضطرت إلى شرائها ، ومثل المصاعب التى تلقاها «ذات» وأصحابها فى جمرك الاسكندرية فرغم الحشد الكبير من الشخصيات الطريقة التى تطالعنا فى كل من هاتين السياحتين فإنهما لا تخرجان - فى القيمة - عن أى ريبورتاج صحفى يظهر فى المجلات والصحف السيارة ، وبعض برامج التليفزيون .

على العكس من هذا هناك التحقيق فى الطريقة التى تم بها مقتل الطالبة جيهان . فقد انزلقت قدماها فى الأوحال وتشبثت بعامود النور ، فصعقتها الكهرباء . الطبيب الذى استقبل الجثة ، نصح الابوين بأن يتجنبا تشريح القتيلة ، وذلك بالتسليم بأنها ماتت ضحية هبوط فى الدورة الدموية وافق الابوان على مضض ، ثم تبين أن هذا لا يكفى ، فقد أصر قسم الشرطة على أن يحضر الابوان شاهدين يشهدان بأن الأبنة كانت مصابة بمرض قلبى مزمن ! هذا تحقيق أقصر بكثير من سابقيه ، ولكن دلالته أفدح ، وقيمته الوجدانية أفعل فى النفس منهما .

***

يتشوف المرء لمعرفة أى جديد يمكن أن يتقدم به صنع الله إبراهيم بعد هذا فى صدد انشغاله الدائم بالواقع والوثيقة . علينا أن ننتظر ، واثقين أن صنع الله لن تفرغ له جعبة ، ما بقيت له عينان مزودتان بكاميرا فائقة الحساسية تسجل بالصورة وبالصوت ما يحدث لابطاله ، حتى وهم منفردون بأنفسهم فى الحمام ، يخلعون ملابسهم ، ويتأملون اجسادهم ، ويحاولون أن يستنطقوها ما يكون من أمرهم فى قابل الأيام ، كما تفعل «ذات» وهى فى حمام صديقتها صفية !

الطبقة الوسطى

ومشكلة الفردية الجديدة فى الأدب

بقلم : إبراهيم فتحى



د. طه حسين



د. محمد حسين هيكل



يحيى حقى

كما يشق بطل «الأيام» ، الدكتور طه حسين طريقه من الظلمات إلى النور فى الأعالى . أما «محسن» بطل «عودة الروح» و«عصفور من الشرق» لتوفيق الحكيم فهو الفرد المنتمى إلى الطبقة الوسطى فى طموحنا إلى الانتقال بمصر المستعمرة المتخلفة إلى الاستقلال واسترجاع المجد القديم . وكذلك الحال مع «إسماعيل» بطل «قنديل أم هاشم» ليحيى حقى ، حيث تواجهه مشكلة الفردية الجديدة التى تحاول التحرر من قيود الجماعة التقليدية وأعرافها الخانقة لتصل إلى توفيق بين القنديل ونور الكهرباء ، وهل تختلف الحال مع شخصيات «إبراهيم» المتعددة داخل بطل روايات إبراهيم عبد القادر المازنى ؟

إن موجة الحداثة الأولى أو التحديث الأول فى مصر قادتها الطبقة الوسطى - كما يقول معظم الباحثين - فى السياسة

الحداثة الأولى

تسيطر «الطبقة الوسطى» فى مصر منذ بعيد على الإنتاج الأدبى من رواية وقصة ومسرحية وشعر . وقد حل أفراد هذه «الطبقة» محل أبطال الأدب القديم من فرسان وأمراء ورحالة وعشاق معاميد . ونرى حامد المحامى من أعيان الطبقة الوسطى فى « زينب » للدكتور هيكل يقلب البصر بين سماء الطموح العملى وتقدم مصر وبين أرض الفــلاحين فى تعاســتهم وروعة الطبيعة حولهم .



توفيق الحكيم



إبراهيم المازنى



نجيب محفوظ

والاقتصـــاد والفكـــر وكذلك فى المجال الأدبى .

وكما كان للطبقة الوسطى من تجار وأصحاب مشاريع مربحة فى الريف والمدينة ومتعلمين فى المهن الحرة والجهاز الحكومى دور هائل فى الحركة القومية وإعادة بناء البلاد لإخراجها من التخلف ، كان لهذه الطبقة الوسطى التى تقع بين كبار الملاك من ناحية ومعدمى الأرض والحرف من ناحية أخرى الهيمنة على التحديث الأدبى فى كل مجالاته .

لقد اكتشفت الطبقة الوسطى الذات الفردية فى محاولاتها لكى تكون مركزا للعالم ، وفى أن تكون معركة المنافسة وصعود السلم الاجتماعى هى الباعث على الفعل والانفعال بدلا من القيم الجماعية السابقة . والتصورات اليقينية القطعية . لذلك احتفت الأعمال الأدبية بأبطال

يطرحون المسلمات السائدة للتساؤل ويحاولون الوصول إلى مفاهيم جديدة يمكن اختبارها على أساس من تجـربتهم الشـخصية ووقـائع الحيـاة العيانية .

وقد ظل التأرجح بين النمط الجاهز المحدد سلفا للشخصية (نمط الفلاح «أبو شادوف» . والعمدة والمأمور والشيخ متلوف «الفاسد» ورجل العلم الدينى الطاهر ، والمرابى الجشع ... ألخ) وبين الفردية الحرة وذاتيتها المستقلة فى تحديد أهدافها ومسئوليتها عن اختيارها ، سمة مميزة للكتابة الأدبية بعد ثورة ١٩١٩ .

ولنأخذ شخصية «محسن» عند توفيق الحكيم على سبيل المثال . إنه يشبه روبنسون كروزو على الرغم من زحام الأسرة فى القرية وفى القاهرة حوله ، لأن جزيرته المنعزلة توجد فى أعماقه النفسية والعقلية . إنه يبدأ من «الصفر» رافضا قيم سادة الأرض وسادة الصحراء باحثا فى «قلب» الفلاح عن أسطورة البعث الفرعونية، وفى الثقافة الغربية عن التمجيد الرومانسى للحب والحياة الداخلية الخاصة للفرد ليصل إلى وفاق سعيد متخيل . ومن الملاحظ أن رؤية الطبقة الوسطى كما يمثلها «محسن» تعيد تأليف الواقع كله ، وتبدع الفلاحين على صورة تتخيلها الطبقة الوسطى : إنهم طاقة هائلة نائمة أو كامنة ، تعجز عن الحركة بنفسها ، تنتظر الزعيم المعبود «من الطبقة الوسطى» ليقوم بتفجيرها على النطاق القومى ، وتنتظر «قائدا» اقتصاديا محليا أو زوجته (كما تصرح يوميات نائب فى الأرياف) لتحول الخصب الماثل فى وحدة الوجود بين الأرض والفلاح وبهائمه وزراعته إلى وفرة وعدالة ومجد .

ولا تختلف الحال مع إسماعيل بطل قنديل أم هاشم . إنه مثل محسن – ومثل روبنسون كروزو يجسد الذات الفردية المتحررة أو التى تجاهد للتحرر من أغلال الماضى لكى تبشر بإعادة بناء العالم على أسس جديدة . ذات متنبئة أو مدعية للنبوة لا تدعو الخطاة إلى التوبة بل تدعو الأبرار إلى الهدم والبناء . والأبرار هنا هم متعلمو الطبقة الوسطى . أما الأعماق السفلى من ملايين الشعب مثل فاطمة النبوية أو زينب قبلها ، فهم جميعا من طينة سلبية ، يقع عليهم الفعل ، وينتظرون «فرسان» الطبقة الوسطى يمتطون شهاداتهم العالية ويغزون نساء لندن وباريس وبرلين . ويقررون بتجربتهم الخاصة ما الذى يشفى عيون

● بطل الأيام غنى عن التعريف استطاع بالعلم أن يرى رغم عاهته

الشعب التى كادت تكف عن الإبصار .

أما بطل «الأيام» فهو فى غنى عن التعريف . استطاع بالعلم أن يرى رغم عاهته أبعد مما يرى المبصرون «كما قال عنه جان كوكتو» ، وقدم مشروعا لتحرير الوعى والوجدان يتأرجح بين ثقافة البحر الأبيض اليونانية اللاتينية وبين على هامش السيرة ليحمل الماء والهواء إلى المعذبين السلبيين فى الأرض لاقتلاع شجرة البؤس من جذورها .

ولكن هذه الطبقة التى كانت وسطى بين كبار الملاك وفقراء الفلاحين ، انفصلت شريحتها العليا وقطعت صلتها بوضع «التوسط» . لقد شارك الصاعدون فى مغانم الاستقلال الشكلى بعد ثورة ١٩١٩ وفى مغانم السلطة بعد حركة الجيش فى يوليو ١٩٥٢ . ومع اضمحلال الملكية الكبيرة التقليدية للأرض ، والرأسمالية الكبيرة المتحالفة مع الانجليز قفزت أعلى مراتب الطبقة الوسطى لتشغل وضع الطبقة العليا أو البورجوازية الحاكمة فى القطاع الخاص والقطاع العام وكل مراكز النفوذ والسيطرة . وأصبح الحديث عن الطبقة الوسطى يعنى فئاتها الدنيا فحسب .

ممثلو الانسانية جمعاء على درجات السلم

إن هؤلاء البورجوازيين الصغار كما جرى العرف على تسميتهم هم سكان العوالم الوسطى بين القمة والقاع ، بين الملكية الكبيرة وانعدامها . وهم يبدون لأنفسهم فى روايات سيد مصوريهم فى الأدب العربى نجيب محفوظ ، كما لو كانوا يقيمون لا فى بين القصرين أو السكرية أو خان الخليلى بل فى منطقة ذوبان الصراع الاجتماعى فى ساحة دوران الأفراد وتبادلهم المراكز فى عملية الحراك الدائم بين الأعالى والأغوار . أنهم سكان الأعراف أو المطهر ، حيث يتحقق على السطح وفى الظاهر ما يبدو عناقا هادئا بين الطبقات المتناحرة .

ولقد كان هذا العناق الهادىء أو الصاخب سمة مميزة لحداثة الطبقة الوسطى منذ ثورة ١٩١٩ . فأفراد هذه «القوة الثالثة» فى عوالمهم الوسطى يحلقون عاليا فوق المعركة الاجتماعية ، ويتخيلون أنهم ممثلو «الوطن» فى استمراره التاريخى (فرعونيا كان أم عربيا أم إسلاميا) ، ويمثلون الانسانية الحقة والثقافة الموضوعية التى لا تميل إلى

يمين أو يسار ، ومحور التطور والتجديد .

محل ألوان الطيف

وعالم نجيب محفوظ الذى يضم كل ألوان الطيف السياسى يفصح فى كل جلاء عن أن الطبقة الوسطى الصغيرة على الأخص تكاد أن تنفرد بتقديم ممثلى الاتجاهات السياسية جميعا من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار . فمعظم الشيوعيين سواء فى خان الخليلى والقاهرة الجديدة أم فى الثلاثية والشحاذ وميرامار ينتمون إلى تلك الطبقة ، ولا يختلف الأمر بالنسبة إلى الاخوان المسلمين أو الوفديين .

فكيف كان ذلك ؟ حقا إن الطبقات ليست رفوفا ثابتة فى هيكل اجتماعى ساكن ، بل هى ممارسات اقتصادية وسياسية وفكرية متضادة ، وهى مواقع موضوعية فى التقسيم الاجتماعى للعمل مستقلة عن إرادة شاغليها ، ولكن البورجوازية الصغيرة على الرغم من أنها كبيرة العدد لا تتمتع بقدر كبير من رسوخ المواقع وتكاد تنقسم إلى فئتين متميزتين . هناك أمثال السيد أحمد عبد الجواد والمعلم كرشة ووالد محجوب عبد الدايم ينتمون إلى نمط عتيق ، نمط الملكية الصغيرة للأرض والمتجر ووسيلة الانتاج ، وهناك من ناحية أخرى فئة مختلفة حديثة يقوم أفرادها بالأعمال الذهنية فى الأجهزة والشركات ودور العلم والمؤسسات من فنيين ومشرفين وموظفين ومهندسين ولهم مراكز «إشرافية» «رقابية» فى نمط حديث أو شديد الحداثة . وعلى ذلك يبدو التاريخ المعاصر لتلك الطبقة فى الواقع والأدب على السواء وكأنها ملتقى تيارين متضادين : تيار يقوض أشكالا قديمة منها أو يفرض الخضوع والتبعية ، وتيار آخر يعيد خلق أشكال جديدة منها وينتج لها أماكن وأدوارا ووظائف مستحدثة ما تلبث أن تتعرض لمصير نفسه . فلعبة النهاية والبداية دون توقف والطابع الانتقالى دون محطات وصول نهائية نسبيا هما طريقة الوجود التاريخى لتلك الطبقة . ويبدو ذلك فى وعى الشخصيات منسحبا على المجتمع بأكمله وكأنه لا يزال فى مرحلة الصنع والتكوين على عجلة صانع الفخار . فابن الفلاح الصغير بالتعليم أو بالمهارة فى السوق أو بالواسطة والمحسوبية أو بالتسلق على ساق الزوجة أو على العكس بدعاء الوالدين وبركة الصلاة على خير الأنام أو بالعمل السياسى الثورى يصعد إلى أعلى المراكز ويعيد تشكيل المجتمع . وفى الأدب المصرى تصوير رائع لأفراد هذه العوالم الوسطى وهم يرقصون دائما على الدرجات الأولى من سلم الصعود الاجتماعى والسياسى والثقافى ، وما أكثر

الذين يتساقطون وما أقل الذين يصعدون ، إن «فتحي غانم» أستاذ في تصوير العيون والقلوب المشدودة إلى هذا السلم الخرافي الذي يشبه الفوز «باليانصيب» في لعبة التصيب اليومية . هناك «الرجل الذي فقد ظله» ممثلاً لقمة السقوط والنجاح . وفي «زينب والعرش» و «ست الحسن والجمال» وغيرهما من روائع فتحي غانم نجد لوحة متعددة الألوان لسلم الصعود بكل أنواعه ، والمصعد الخاطف السرعة ، وسلم الخدم . وفي الخلفية دائما مشروع للمدينة الفاضلة وكأنه مشروع لأحد الأحياء السكنية معروض للبيع والإيجار . العصر الذهبي القديم بخيره وبركته يتم اختراع نسخة معدلة منه ويبدو على مرمى حجر أو قنبلة أو طلقة مسدس من اللحية والجلباب وشركة الاستثمار . ومن الناحية الأخرى يبدو المجتمع الألفي السعيد المليء بالعدل مشرقا مع شمس الغد من شرق أحمر لا يفصلنا عنه إلا ألف ألف منشور ومقال وقصيدة واجتماع لتداول الكلام .

وتوضح القصص والروايات والقصائد أن حلم المستقبل وسلم الوصول إليه عند البورجوازية الصغيرة يبدأ في المدرسة . فقد كان الجهاز التعليمي هو أداة الحراك الاجتماعي الأساسية ، كما استطاعت الحركة الوطنية حيث تحالفت المراتب العليا من الطبقة الوسطى مع مراتبها الدنيا أن تقدم بعض فرص التعليم أمام أبناء هذه المراتب . وقد اتسعت هذه الفرص بعد ما يسمى مجانية التعليم بعد ١٩٥٦ على الرغم من أن معظم أبناء العمال وفقراء الفلاحين لم يستفيدوا كثيرا من هذه «المجانية» ، فقد ظلت نسبة الأمية الأبجدية مخيفة أما الأمية الثقافية عموما فلم تنقص إلا قليلا . ولكن الطبقة الوسطى الصغيرة ، أو صفوتها المتعلمة على الأخص كانت مستفيدة بدرجة ملموسة من سلم الصعود لحركة ٢٣ يولية . وقد خرج منها معظم الكتاب والصحفيين والفنانين ومنتجي الثقافة بل ومستهلكيها بالإضافة إلى جيش من صغار البيروقراطيين يحصلون على مرتبات صغيرة مضمونة دون أن يقوموا بعمل يذكر .

لعبة الكراسي

ويؤكد كثير من الدارسين أن خرافة السلم السحري للصعود تستند عند البورجوازية الصغيرة إلى خرافة أخرى هي اعتبار الدولة وسلطتها وأجهزتها صنما معبودا . ويعتبر الحصول على مكان في الجهاز الإداري أو الصحافي الرسمي أو التعليمي العالي شرطا للفاعلية الثقافية والشهرة أو حتى مجرد الوجود . إن «الجماهيرية» في الإنتاج الأدبي عندهم لا ترجع في المحل الأول إلى القيمة الفنية . إن وجدت . ولكنها ترجع إلى «الورنيش» الإعلامي الذي يدهن به الكاتب . تبعا لركونه إلى ظل السلطة الظليل . وقد تفاقم ذلك الوضع بعد حركة

الجيش واستمر حتى الآن بعد أن تحول أبناء الطبقة الوسطى الصغيرة من الأنباء الكبار بجدارة أو أصحاب المواهب المتواضعة والشهرة الزائفة إلى موظفين . وحينما استوزرت حركة الجيش بعض دكاترة الجامعة بعد خنق الحياة السياسية وفرضت بعضهم على الهيئات والمؤسسات والمجالس ، أصبح نفاق الحاكم طالما هو جالس على القمة مبدأ ثقافيا وأدبيا وأكاديميا مسلما به . كما أصبح مصعدا سريعا للمتعثرين على سلم الخدم بحكم ضآلة قدراتهم . وصار لدينا عدد لا يستهان به من أبناء البورجوازية الصغيرة يتربعون على الكراسى الوثيرة فى المكاتب المكيفة ، ويتصببون عرقا فى إنتاج مزابل ضخمة مطبوعة من «الأدب» و«الفكر» .

ومن المعروف فى لعبة الكراسى أن عدد اللاعبين الذين يلهثون أكثر كثيرا من عدد الكراسى ، ولم يكن من المستغرب أن يهرع بعض أبناء البورجوازية الصغيرة إلى كراسى أجهزة حكومية عربية خارج مصر لينشروا أعمالهم ويلتمسوا الحظوة والمكانة والدخل ، بعد أن يدخلوا التعديلات اللازمة حسب المكان والزمان ، ولكنهم يقومون بعد ذلك بإدخال التعديلات على التعديلات ، وتغيير اسم الصنم المعبود والسياسة المطلوبة . ولا يقتصر ذلك على المقالات والدراسات بل نجده فى القصائد ، والروايات «التاريخية» أيضا .

وفى حقبة حداثة معرض الأزياء النقط شد بعض أفراد تلك الطبقة الرجال إلى حيث الدخل ومصادر الاستهلاك الترفى واتسعت الصفحات أمام الكثير من كتابها داخل الضوابط المعروفة . وحينما تجئ مواسم الوفاق تعود الطيور المفترية من بلابل حقيقية وغربان حقيقية إلى أعشاش وثيرة قد تكون رسمية . فالفكر المستسلم فى كنف السلطة يتوهم أن المثقفين هم دائما ممثلون ثانويون وليسوا مشاركين بحق فى صياغة المصير إلا وراء سلطة ما وإدعاءاتها . وتلك القلة من الطواويس اللامعة ستدعى دائما أنها ثورية وناقدة وتدعو إلى تنوير وتطوير وخلافهما . وترى الكتابات النقدية لهؤلاء فى بعض الأحوال داعية إلى «حداثة» تفصل بين الفن ومشاكل الشخصية الإنسانية ، وإلى مفاهيم النخبة والحذلقة . والمبدعون على هذه الشاكلة قد يصورون فى قصائدهم مثقف الطبقة الوسطى الصغيرة مغتربا عن العالم ، منكفئا على استبطان حالاته النفسية الملتبسة مقدما أحدث وسائل التعبير المستوردة : مثل صور تجرى فى سرعة «الخنزيرة» وأناقة التمساحة» لا

● حلم المستقبل وسلم الوصول إليه عند البورجوازية الصغيرة يبدأ فى المدرسة

الوصول إلى مكان أو أداء وظيفة تعبيرية بل لاستعراض الترف الجميل

التعبير عن نبض الإبداع

ويطبيعة الحال ليس هؤلاء إلا قلة لا تعبر عن النبض الحقيقى للإبداع المصرى والحداثة الشعبية فهناك من المنتمين إلى هذه الطبقة كثيرون طرحوا منذ الستينات وصاية السلطات والمراتب العليا وقاموا بمغامراتهم الفنية غير المسبوقة . لقد أعادوا رواية الحكاية من أولها حكاية الشخصية الإنسانية فى مصر وصوروا فى نثرهم وشعرهم كل ضروب الاغتراب والتشويه من زاوية الحلم بمشاركة وتحقق وتفتح . ولابد من الإشادة بكتاب وشعراء ينتمون إلى هذه الطبقة ويصورونها فى فن رفيع .

ولنقل إن بهاء طاهر وجميل عطية ومحمد مستجاب وإبراهيم أصلان ومحمد البساطى مثلهم مثل إبراهيم عبد المجيد وعبد السلام العمرى على سبيل المثال ودون ترتيب لا يقدمون شخصيات مختزلة إلى مجرد رموز مجازية لطبقة معينة ، ولن نجد عندهم خصائص نهائية ملصقة بهذه الطبقة بمعزل عن الفترة والعلاقات واللحظة التاريخية . وهم بالإضافة إلى ذلك لا يقومون بمسح اجتماعى أو تحليل نفسى فى المحل الأول بل يرصدون كل الظواهر من حيث دلالتها وقيمتها أو انعدام معناها وفقر قيمتها بالنسبة إلى الذات الإنسانية فى كليتها وتعدد جوانبها داخل الشروط المصرية العربية ، وأهمية ذلك فى تطور الملامح العامة للإنسانية وإسهام الفن المصرى فى تحقيق ذلك بعد إنتهاء العمر ، فتراضى للموجة الأولى من الحداثة ولكن معظم الكتابات لا تزال ترى فرد الطبقة الوسطى وحدها ممثلا للإنسانية ، ولا تتجاوز رؤيتها تلك الطبقة من حيث الرؤية والحلم والشعور وتعتبره وريثا «الممدوح» التى كانت تتغنى بصفاته القصيدة التقليدية ، بعد أن قفزت المشاعر الذاتية الخاصة إلى المقدسة بدلا من قيادة الفعل الجمعى للعشيرة . ولكن هناك براعم جميلة لتجاوز عالم هذه الطبقة لا بأن يرتدى الشاعر «أو قدوله الصراع الطبقى أو يملأ الردائى كتاباته بأهل الريف الكرام والأحياء الشعبية باعتبارهم مستودعات الوطنية والأخلاق المعلبة كما يفعل بعض حسنى النية . وتلك البراعم على العكس من ذلك تكتشف فى القوى الشعبية وفى صحوتها على الوعى والفاعلية ملامح إنسانية جديدة تقوم على المشاركة وتكامل الشخصية وغناها بدلا من الأنانية والسعى المحموم وراء الاقتناء واقتناص لحظات المتعة والغيبوبة .

الموقف الإشراقي

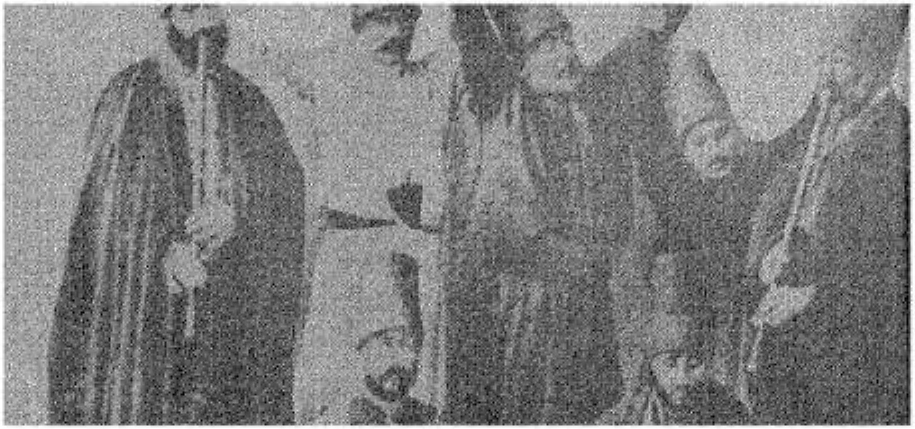
فى التصوف الإسلامى

بقلم: د. محمد على ابو ريان*

اصطلح كثير من مؤرخي الفلسفة الإسلامية على تحديد الموقف الإشراقى بصفة عامة بأنه ذلك الذى يعطينا تفسيراً للأبعاد الوجودية مع بيان مدى ارتباط الحركة الوجودية ومضامينها الروحية بالاتجاه المعرفى بحيث يتحد فعل الإيجاد مع عملية المعرفة من حيث إن الوجود كله بحسب الاشراقيين يعتبر تجمعاً نورانياً ضخماً .. وأن هذا النور الذى يتمثل فى الوجود الكلى العام بما فيه علته الأولى .. أى الألوهية .. إنما تظهر فيه الوحدات الوجودية عن طريق ديناميكية معرفية وجودية على ما سنرى فى أثناء عرض موقف هذه المدرسة .

وقد رأى هؤلاء المؤرخون للفكر الفلسفى الإسلامى أن للمدرسة الإشراقية فرعين : فرعا ينتمى إلى المغرب الجغرافى ويبدأ بابن مسرة الإشراقى .. لينتهى إلى ابن عربى الذى هاجر من الأندلس إلى حلب فى وقت ليس ببعيد عن الفترة التى عاش فيها السهروردى فى حلب بحيث كان من الممكن أن يلتقى كل منهما بالآخر إذا كنا قد

(*) أستاذ الفلسفة وتاريخها ومدير مركز التراث القومى والمخطوطات بآداب الاسكندرية .



توصلنا إلى معرفة دقيقة بتاريخ وفاة السهروردى وكذلك بتاريخ وجوده فى حلب .. وترجع أهمية هذا التساؤل إلى أن السهروردى المقتول أو الاشراقى هو زعيم المدرسة الاشراقية فى المشرق .

ومع هذا فإننا لا نسلم كثيراً بصحة هذا التقسيم المبدئى للمدرسة الاشراقية .. ذلك لأن كلتا المدرستين لهما مميزات خاصة يختلف بعضها عن بعضها الآخر من حيث أن المدرسة الإشراقية تلتزم فى تعاليمها بأصول شرقية أو فارسية .. ويتمسك أتباعها بأنهم ينتمون إلى الفكر الزرادشتى القديم ، بل هم يغلفون مصطلحاتهم النورية بغلاف فارسى مثل قولهم عن النفس الناطقة أنها الاسفهبذ أى النور المهيمن على الانسان ويهمن أى النور الأول واردبيهشت أى النار أو العقل وخرداد صاحب الثبات ومرداد صاحب الماء .. الخ . واسفندارمذ أى رب نوع الأرض .. أى هو النور القاهر الذى طلسمه الأرض .

● أصحاب المدرسة الاشراقيـــــــــة لا يعترفون بأى نوع من الوجود العدمى

أما مدرسة المغرب الاشراقية فإنها لا تلتزم بهذه الأصول الفارسية .. بل تستمد موقفها من أصول باطنية صريحة .. وذلك على الرغم من أن هذا الطابع الباطنى لهذه المدرسة يوجد أيضاً فى المدرسة الاشراقية فى المشرق .. ولا سيما فى نظرية الإمامة العالمية الباطنية عند السهروردى ، ومدرسته التى تتمسك بفكرة الامامة العالمية .. وفيها يجمع الحكيم الاشراقى بين الحكمتين الذوقية والبحثية وتكون له الرياسة والتبريز فى كل منهما .. ويكون هو القطب الأعظم وخليفة الله فى الأرض .. وذلك تفسيرا للآية الكريمة التى



وردت فى الذكر الحكيم حيث يقول الله عز وجل : « إنى جاعل فى الأرض خليفة » .. وكانت مشكلة الخلافة أو الإمامة الكلية .. ومشكلة النبوة .. هما المشكلتان اللتان كانتا سبباً فى الحكم بالحاد السهروردى وصدور أوامر صلاح الدين الأيوبى بقتله لأنه رد على تساؤل الفقهاء عن امكان وجود نبى بعد محمد عليه الصلاة والسلام بقوله أنه لا حد لقدرته تعالى فى هذا الأمر أو غيره .. ففهم هؤلاء الفقهاء من قوله هذا بأنه يسلم بامكان وجود نبى بعد محمد . ولذلك حكموا بكفره وسيّروا محضراً بذلك إلى صلاح الدين .. وهكذا انتهت حياة صاحب الاشراق إلى هذه الصورة المحزنة التى جعلت منه فى نظر أتباعه شهيداً روحياً وصل إلى مقام الولاية الخاصة على ما يقولون. وكانت وفاته عام ٥٨٨ هـ (أما مولده فقد كان بين سنتى ٥٤٥ ، ٥٥٠ هـ) .

والحقيقة التى ينبغى لنا أن نشير إليها فى مقدمة المقال عن الموقف الاشراقى عند المسلمين .. هى أن الفلسفة الاسلامية قدر لها أن تلتاث منذ نشأتها بتيار روحى اشراقى التزمت به لا سيما بعد أن أقامت من العقل الفعال عقلاً وجودياً تصدر منه المعرفة الاشراقية على العقول الانسانية .. بوصفه عقل فلك القمر على رأى البعض .. أو بصفته عقل النوع الانسانى على رأى البعض الآخر . وهو يعد بذلك آخر السلسلة الوجودية للعقول العشرة أو لمذهب الفيض الذى هو المكون الأساسى للنظرية الوجودية والمعرفية عند المسلمين . بل أننا لنجد أن نظرية الفيض ذاتها ابتداء من الواحد أو الأول عند ابن سينا والفارابى مثلاً .. إنما تترسم خطى النور فى فيضه من الواحد أو نور الأنوار متجهة إلى الترتيب النزولى حيث يصل هذا النور إلى العقل الفعال ثم يتوزع عن طريق الالهام أو البث النوارنى إلى عقول البشر .

وليس معنى هذا أن هناك توحداً بين الموقف المشائى المزعوم عند المسلمين وموقف المدرسة الاشراقية فيما يختص بالبنية الأساسية للموجودات عندهما فى كلا الموقفين إذ أن المدرسة الاشراقية لا تعترف بأى مكون وجودى لوحدات الوجود إلا أن يكون راجعاً ومنبثقاً من النور نفسه . وكذلك فإن عملية المعرفة عند الاشراقيين تلتزم بقواعد الحضور الاشراقى كما يقول السهروردى .. أى أنه يعتبر أن المعرفة لا تحتاج إلى موضوع كما هو الحال عند

المشائين . بل أن فعل المعرفة وموضوع المعرفة أمر واحد .. وان الموضوع يتكون من خلال عملية الحضور الاشراقى المعرفية .



وقبل أن نعرض للموقف الاشراقى الملتزم بالقواعد والأصول الاشراقية عند هذه المدرسة ينبغى لنا أن نشير إلى أن الفكر الاشراقى الفلسفى الباطنى الذى استمد أصوله من الحركة المضادة للاتجاهات السنية فى التصوف نجد أن أصحابه يتمسكون فى دعواهم بالاستناد إلى آيات قرآنية تتحدث عن النور وصلته بالوجود .. والمقصود طبعاً بهذا النور الشحنات الروحية التى ينطوى عليها النور وليست الأنوار المحسوسة التى ندركها عن طريق الباصرة(١) .

وقد كان هذا الخلط الشديد بين المعنى الروحى للنور والمعنى الحسى له سبباً فى أن يقع الاسلاميون فى أخطاء جسيمة نتيجة لعدم ادراكهم للحقائق الأساسية فى فقه الأنوار كما تسوقها أصحاب التصوف الباطنى .. الأمر الذى تأدى بمفكر اسلامى كبير كأبى حامد الغزالى إلى أن يربط بين تفسير آية النور : « مثل نوره كمشكاة فيها مصباح . المصباح فى زجاجة . الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية . يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار . نور على نور . يهدى الله لنوره من يشاء ... » . ثم يربط هذه المعانى الدينية بالمعانى الباطنية الواردة عند الاشراقيين للأنوار .. كما وردت فى كتاب : أثولوجيا أرسطوطاليس .. وهو كتاب منحول نسب خطأ لارسطو .. وهو فى الحقيقة مقتطفات من تاسوعات أفلوطين .

وجاء كتاب مشكاة الأنوار للغزالى لكى يعبر عن هذا الخلط الذى أشرنا إليه عند الاسلاميين .. وقد اتضح لنا عدم صحة نسب هذا الكتاب إلى الإمام الغزالى لأنه إنما يستند فى حقيقة أمره إلى عقيدة باطنية بعيدة كل البعد عن مذهب أهل السنة والجماعة .

---

(١) وقد اشتمل القرآن الكريم على آيات كثيرة تشير إلى النور بكل معانيه الحسية والروحية راجع الآيات التالية : البقرة : ١٧ ، ٢٥٧ – المائدة : ١٥ ، ١٦ ، ٤٤ ، ٤٦ – الأنعام : ١ ، ٩١ ، ١٢٢ – الأعراف : ١٥٧ – التوبة : ٣٢ – الرعد : ١٦ – إبراهيم : ١ ، ٥ – النور : ٣٥ ، ٤٠ – الأحزاب : ٤٣ – فاطر : ٢٠ الزمر : ٢٢ ، ٦٩ – الحديد : ٩ ، ١٢ ، ١٣ ، ٢٨ – الصف : ٨ – التغابن : ٨ – الطلاق : ١١ – النساء : ١٧٤ – يونس : ٥ – الشورى : ٥٢ – نوح : ١٦ – التحريم : ٨ التوبة : ٣٢ .

● يقــوم التخطيـط النوراني على أساس ان الوجود كله تغمره أشـــعـــةنوارنيـــة

حقيقة المذهب الاشراقى :

قبل أن نعرض للتخطيط النورانى للمذهب الاشراقى ينبغى لنا أن نشير إلى أن التفسير النورانى للوجود قد ظهر عند بعض فلاسفة اليونان ولا سيما عند أفلاطون وكذلك عند أفلوطين ومدرسته فى الاسكندرية . وكذلك أيضاً وجدناه عند اليهود فى الاسكندرية كان لهم - كما يذكر المؤرخون للمدرسة - كتاب عن فقه الأنوار وهو كتاب الأنوار .. ظهرت فيه المصطلحات الاشراقية التى استخدمها السهروردى ومدرسته الاشراقية .

ومما يثبت صلة المدرسة الاشراقية بفكر أفلاطون أن الاشراقيين أنفسهم يرجعون حكمتهم النورية إلى « رئيس الكل أفلاطون » كما يقولون .. وأنهم يسمون أنفسهم بأصحاب المثل النورية الأفلاطونية .. ومع هذا فانهم يتمسكون بأن أفلاطون قد تلقى حكمته النورية عن أساطين الفلسفة الفارسية القديمة من أمثال زرادشت وغيره .. وتاكيداً لهذا المعنى فانهم يجعلون أفلاطون مع زرادشت وغيره من حكماء الفرس والهند .. ويجعلونهم جميعاً حكماء متألهين .. أى أئمة وأقطاباً أو أولياء لهم الطابع الوجودى المطلق فى دائرة نظرية الإمامة العالمية التى أشرنا اليها فيما قبل .. أى أن السهروردى وأتباعه انسياقاً مع موقفهم الشعوبى إنما يردون الحكمة المتعالية والإمامة الروحية العالمية إلى ينبوع نورانى مشرقى هو الحكمة الخسروانية أى الدين الفارسي القديم .

وحينما يتوجه اليهم النقد بأن هذه الحكمة الذوقية التى يزعمون أنها من أصل فارسى هى نفسها التى اعتنقها أفلاطون وبثها فى محاوراته التى نعرفها .. يذهبون إلى أن أفلاطون نفسه قد استمد تعاليمه من الفرس القدماء.. ولم يثبت لنا تاريخياً صحة هذا الرأى .

ويقوم التخطيط النورانى أصلاً على أساس أن الوجود كله تعمره أشعة نورانية هابطة وصاعدة تتمثل فى وحدات نورية ذات بعد طولى وآخر عرضى ابتداء من نور الأنوار وهو الله عند الفلاسفة والمفكرين الدينيين .. وعن نور الأنوار تستمر الحركات الوجودية الثنائية وأهمها حركتا الاشراق والمشاهدة .. فيصدر عنه أولاً النور الابداعى الأول عن طريق الأشـــراق من نور الأنوار . وهذا النور الابداعى الأول يقابل الصادر الأول أو العقل الكلى الصادر عن

الواحد عند المشائين الاسلاميين . وحينما يتجه هذا النور الابداعى الأول لمشاهدة نور الأنوار فإنه تصدر عن هذه المشاهدة النور الابداعى الثانى .. وتستمر حركتها الاشراق والمشاهدة .. وهما حركتان إحداهما صاعدة وأخرى هابطة .. وينتج عن هاتين الحركتين وحدات نورانية أخرى تستمر إلى ما لا نهاية طولاً وعرضاً .

ولا يكتفى أصحاب المذهب بالكلام عن الاشراق والمشاهدة بل يدخلون أيضاً علاقات جمة مثل القهر والمحبة والفقر والغنى .. أو غيرها من العلاقات التى هى مجلى للحركة الوجودية حتى تعمر الوجود ديناميكية نورانية ينتج عنها مشهد نورانى واحد ليس له حدود .

وهكذا نصل فى النهاية إلى شبه وحدة وجود نورانية تظل فى تحليلها الدائم وفى دعم الوجود بالرباط الروحى للازمانى إلى ما لا نهاية حتى تذبل هذه الأشعة النورانية فتنتهى إلى الظلام أى إلى الوجود المادى الذى هو عالم الظلمة العدمى .

وهكذا فان أصحاب المدرسة الاشراقية لا يعترفون بأى نوع من الوجود العدمى أى الظلامى .. إذ أن الوجود المادى ليس هو الوجود الحق فى نظرهم مادام هو عدم النور ونقيضه على السواء .

ويلاحظ من ناحية أخرى أنه بينما ينتهى فيض العقول عند الاسلاميين إلى عشرة عقول عند غالبيتهم .. فإننا نجد أن الفيض النورانى عند الاشراقيين لا يقف عند حد .. ويستمر عن طريق الخلق أو الايجاد المستمر ولا يتوقف عند حد معين .. ويمثل السهروردى فعل الايجاد النورانى المستمر بالآية الكريمة : « وما يعلم جنود ربك إلا هو » .

ويعتنق هذا المذهب الاشراقى الذى يقوم على أساس التخطيط النورانى للوجود وسيلة منهجية لعروج الروح وهى فى صميمها نور على نور .. عروجها إلى العالم النورانى الأعلى حيث تسكن إلى جوار الأنوار المجردة العليا وذلك بعد استبعاد العوائق المادية التى تعوق حركة انطلاق النفس إلى موطنها الأصلى فى عالم الروح .

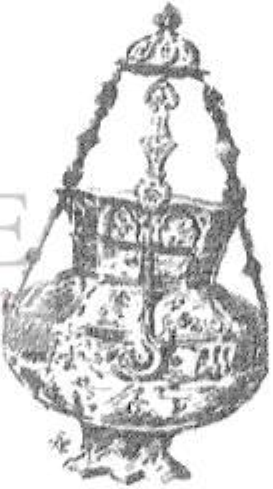
وهكذا نرى أن مذهب الاشراق يعتبر بمثابة سلم للصعود الروحى إلى العالم النورانى المعقول .. ولكننا نتساءل هنا عن حقيقة موقف

الاشراقيين فى المواعيد الدينية التى نجدها فى العقائد الدينية العامة في الأديان السماوية الثلاثة .. وأعني بها مواعيد الجنة والنار والحشر والبعث والجزاء الأخروى .

والواقع أن المدرسة الاشراقية تستند فى مجمل تعاليمها إلى الاتجاه الفكري للاسماعيلية الباطنية .. ولهذا فهم مثلهم مثل السهروردى يتكلمون عن الحشر النوراني وليس عن الحشر الدينى .. ويرجعون مسألة الحشر والآخرة إلى عالم يسمونه العالم الأوسط وهو عالم مؤقت يقع بين عالم المحسوس وعالم المثل .. وبه مدن جابلقا وجابرصا .. وتعمر هذه المدن المثل المعلقة .. أى تلك التى تقع فى موقع الوسط بين الأجسام المادية والمثل النورية . وهم يقولون أن هذه المثل المعلقة انما تخضع لعملية التناسخ فإذا تطهرت صعدت إلى جوار عالم الأنوار وبقيت فيه .. وإذا لم تتطهر تظل مستمرة فى تطهرها دون أن تصعد إلى عالم المثل النورية .

وهكذا فإن مواعيد الثواب والعقاب والحشر الأخرى تقف عند حد عالم البرزخ أو عالم المثل المعلقة .. حيث يوجد ما يسمى بالطباع التامة التى أشار إليها السهروردى في حكمة الاشراق .. أما الأنوار المصطفاة التى تعمر عالم البرزخ إلى العالم النورى الأعلى فإنها تبقى دائماً فى رعاية الأنوار العليا حيث ينفصل عنها كل ماعدا طبيعتها من الكدورة والظلام لكى تصبح من الوحدات النورية المجردة والمعقولة فى عالم الأنوار .

هذا هو مجمل التخطيط النورانى عند المدرسة الاشراقية والسهروردى يقيم صرح هذا المذهب ويتمسك بالتعاليم الاشراقية .. وهو يرى أن أحداً من المشائين مثل ابن سينا مثلاً لا يمكن أن يعد اشراقياً لأنه لم يتذوق الأصل المشرقى الخسروانى أى الفارسي لأنه لو حصل على هذا الأصل أى على ينبوع الحكمة ومصدر الفلسفة الاشراقية تضوع ريحها عليه كما يقول . وأنه - أى ابن سينا - فى نظر السهروردى - يدعى أن له كتاباً فى الحكمة المشرقية قرأه السهروردى فى كراريس وأثبت أن هذا الكتاب لا ينطوى أصلاً على أى اشارة إلى الحكمة المشارقة أى الفرس .. ولهذا فقد استبعد أن يكون ابن سينا من جملة الاشراقيين .



وكذلك فإن السهروردى يهاجم مفكراً اسلامياً كبيراً هو أبو البركات البغدادى الذى كان أول من انتقد مذهب الفيض الاسلامى

بصورة مباشرة وانتصر لموقف أفلاطون معلناً لأول مرة قيام المدرسة الأفلاطونية فى الأسلام .. تلك المدرسة التى انتسب اليها السهروردى فيما بعد .. ومع هذا فإن صاحب الاشراق يهاجم أبو البركات مهاجمة لا تليق بمفكر فى مثل مكانته العلمية المرموقة .. حيث كان من الضرورى أن يستخدم فى الكلام عنه أسلوباً أكثر احتراماً وتأدباً .. فهو يسميه « بذلك اليهودى القذر الذى لم يصح انتسابه إلى الأشعرية ولا هو رجع إلى اليهودية دينه الأصلى » .

وحقيقة الأمر أننى فى بحثى عن أبى البركات البغدادى(١) .. وجدت أنه يعتبر الرائد الأول لقيام المدرسة الأفلاطونية فى الاسلام والتى تعد ارهاصاً للفكر الاشراقى عند المدرسة الاشراقية .

وقد استمر الفكر الأفلاطونى الاشراقى فى معارضته للفكر المشائى المزعوم عند المسلمين وانحصرت دائرته فى إيران إلى القرن التاسع عشر الميلادى . ونجد من تلامذة السهروردى الاشراقى شخصيات مثل السهروردى وابن كمونة الاسرائيلى وقصاب باسشى زادة ... الخ . ونجد أيضاً ثبتاً كاملاً للمدرسة الاشراقية عند الحكيم المتأله صدر الدين الشيرازى فى كتابه الأسفار الأربعة الذى حرره فى القرن السادس عشر الميلادى .

وهكذا كان قدر المدرسة الاشراقية أن تستمر إلى القرن التاسع عشر الميلادى فى إيران متخذة صورة أفلاطونية أشراقية بعد أن عانى المسلمون كثيراً من سيطرة المشائية الاسلامية منذ عصر تناول الفلسفة فى عهد المأمون .

---

(١) راجع كتاب المعتبر فى الحكمة لأبى البركات البغدادى - طبع حيدر أباد الدكن - وكان أبو البركات يعتبر متكلماً أشعرياً امتدحه أبو المعالى الجوينى ولكننا بعد دراسة مستوعبة لكتاب المعتبر انتهينا « ولأول مرة فى تاريخ الفكر الفلسفى الاسلامى » إلى أن أبا البركات يعتبر الرائد الأول للأفلاطونية الاسلامية وانه لم يكن أشعرياً بالمعنى الذى وصفه به المتكلمون ونأسف حينما نذكر أن الكثيرين من الذين كتبوا عن أبى البركات فيما بعد لم يسجلوا أى إشارة إلى هذا السبق فى الكشف عن فيلسوف إسلامى حقيقى يمتاز بعقلية نقدية يعلو بها على الكثيرين من مفكرى الاسلام على الرغم من ضآلة إنتاجه . ولم يجد هذا الرجل من يدافع عنه من الاسلاميين سوى الغزالى .. وقد أنكر اليهود صلته بالإسلام واعتبروه مفكراً يهودياً أصيلاً .. الأمر الذى كان موضوع رد عنيف لنا على هذا الادعاء الذى أثارته مجلة الدراسات اليهودية بالجامعة العبرية بالقدس . (راجع ما كتبناه عنه فى كتابنا عن تاريخ الفكر الفلسفى فى الاسلام) .



الشيخ مصطفى اسماعيل

وقراء مصر

بقلم : د. محمود الطناحى

كانت نفحة عطرة ، تلك التى نشرها قلم الشاعر الناقد (السميع) الأستاذ كمال النجمي - أطال الله فى النعمة بقاءه - وذلك فى كتابه « الشيخ مصطفى اسماعيل - حياته فى ظل القرآن » .

والحديث عن الشيخ مصطفى اسماعيل ، رحمه الله ، يستدعى تاريخاً عريضاً ممتداً عن إقراء القرآن وقراءته بمصر ، وهو تاريخ حافل بكل عجيبة وغريبة . ولقد سمعنا من أهل العلم فى ديارنا وغير ديارنا هذه الكلمة المأثورة : « القرآن الكريم نزل بمكة وقرئ فى مصر وكتب فى استانبول » . وهى كلمة حكيمة يصدقها التاريخ ويؤكدها الواقع ، ولولا ضيق المقام لكان لى فيها تفسير وبيان .

ولقد أثرت طريقة أداء القراء المصريين فى قرّاء الدنيا شرقاً وغرباً ، وخاصة بعد شيوع آلات الإيصال الحديثة من المذياع والأسطوانات والأشرطة ولقد أذكر أنى دعيت إلى مؤتمر علمى فى الموصل بالعراق سنة ١٩٨٢ م ، وذات يوم كنا نتجول فى شوارع الموصل تلك المدينة صاحبة التاريخ ، فانتهى إلى سمعى



الشيخ مصطفى اسماعيل

صوت الشيخ عبد الباسط عبد الصمد يجلجل من بعض المحلات التجارية ، فقلت بصوت مسموع : الشيخ عبد الباسط هنا ! فرد على العالم العراقى الكبير الدكتور حسين على محفوظ : « ياأخى ، نحن العراقيين كانت لنا لحون خاصة وأداء خاص للقرآن الكريم حتى كان عام ١٩٤٨م وتوفيت الملكة « عالية » وجاءنا قارئان من مصر لإحياء ليالى المأتم : الشيخ عبد الفتاح الشعشاعى ، والشيخ أبو العينين شعيشع ، فأعجب الناس بهما اعجابا شديدا استحال إلى محاكاة وتقليد للأداء المصرى وهجر القراء العراقيون طريقتهم « المأثورة » وفى سنة ١٩٧١ م كنت فى زيارة لمدينة « أدرنة » بشمال تركيا ، وفى مسجد السلطان سليم استقبلنا مقيم الشعائر بالمسجد ، وما أن علم أننا مصريون حتى هش وبش وقال بالحرف : ما شاء الله ، مصر ، أزهر شريف ، أنا الشيخ يوسف ، سلموا على الشيخ مصطفى اسماعيل ، فأنا أحبه كثيراً ، لقد جاء إلينا وقرأ فى هذا المسجد ، ثم انطلق يردد بصوت عال آيات من سورة آل عمران جهد أن يقلد فيها صوت الشيخ مصطفى . واستمع إلى قراء القرآن الآن فى الباكستان والهند والصين ، وبلاد جنوب شرقى آسيا تجد لهذا الذى ذكرته من التأثير المصرى أشباهاً ونظائر ، بل إن التسجيلات التى ملأت مصر الآن لقراء الحرمين الشريفين ، والتى يعجب بها الناس إعجابا شديدا ، للمشايخ : على الحذيفى ، وإبراهيم الأخضر ، وعلى باجابر ، وعبد الرحمن السديس ، إنما يظهر الأثر المصرى فيها واضحا جدا لمن يعرفون الأصوات وتاريخ الشعوب فى قراءة القرآن .

« ولقد يسرنا القرآن للذكر » لكن الأمر كاد يخلص لمصر فى القرنين الأخيرين ، فتربع قراؤها على عرش الإقراء : رواية ودراية ، وصارت الرحلة إليهم من الشرق والغرب ويرجع ذلك إلى أسباب كثيرة : منها بروز الأزهر الشريف قوة كبرى مؤثرة بعد الحملة الفرنسية ، وتأثير رجاله على الحياة العامة : سياسيا واجتماعيا ، ومنها استقرار الأوضاع وازدهار الحياة بمصر أيام محمد على وذريته ، ومنها - وهو الأهم - إنشاء مطبعة بولاق والمطابع الأهلية الأخرى ، وفى هذه المطابع خرجت

منظومات علم القراءات ومتونه : كالشاطبية وشروحها وطيبة النشر ، والمقدمة الجزرية ، وغير ذلك مما لا يحصى الآن . ثم كان أبقى وأثر وأخلده هو «مصحف الملك فؤاد» الذى طبع بمصر سنة ١٣٣٧ هـ وقد قام بتصحيحه ومراجعته على أمهات كتب الرسم والضبط والقراءات : الشيخ محمد بن على بن خلف الحسينى ، وحفنى بك ناصف ، والمشايخ مصطفى عنانى ، وأحمد الإسكندرى ونصر العادلى وهذه الطبعة هى أصح طبعة للقرآن الكريم بشهادة أهل العلم والخبرة .

ثم كانت الوثبة الكبرى فى طريق علم القراءات بمصر هى إنشاء معهد خاص للقراءات تابع لكلية اللغة العربية بالأزهر الشريف عام ١٩٤٣ م ، وفى هذا المعهد تخرجت أجيال حافظة للقرآن ضابطة لقراءاته وعلومه .

ويذكر التاريخ أسماء عظيمة لمعت فى سماء مصر فى القرنين الأخيرين ، وخدمت كتاب الله إقراء وتأليفاً ، ورحل الناس إليهم من كل مكان لمشافهتهم والتلقى عنهم ومنهم .

نعمة من الله

ثم نأتى إلى قراء مصر بالمعنى الثانى ، وهم الذين يقرأون فيسمعهم الناس فيطربون لقراءتهم ويخشعون . وهم طائفة من الناس أنعم الله عليهم بحسن الصوت وجمال الأداء . ويبدو أن لمصر فى ذلك تاريخاً قديما ، تأخرنا كثيراً فى كتابة التاريخ قراء مصر ، ومكتبتنا العربية خالية من هذا اللون من الكتابة إلا شيئاً يسيراً كتبه الأستاذ محمود السعدنى (وهو سميع كبير) فى أواخر الخمسينيات سماه « ألحان من السماء » ثم مايكتبه أشتاتاً متفرقات فى بعض المجلات . ثم كنت أقرأ بين الحين والحين كلاماً لأستاذنا كمال النجمى عن الشيخ محمد رفعت والشيخ مصطفى إسماعيل - عرضاً فيما يكتبه عن الغناء والأصوات ، ثم كنت أحدث نفسى : لماذا لايفرد الأستاذ النجمى كتابا عن الشيخ مصطفى إسماعيل ، يقرأه الناس على مكث ، يظهر عظمة هذا الرجل ومكانه الضخم فى عالم القراءة والنغم . حتى كان هذا الشهر الكريم وصدق الأستاذ مآأملناه وجاء كتابه هذا مجلى لحياة الشيخ مصطفى وتقلبه فى العالمين . وزاد على هذا أن ألبس كتابه زاهية من الورق المصقول والزخارف المعجبة ، بما يليق بجلال المقروء وجمال القارىء .

أولى خطوات الشيخ مصطفى

ولقد ردنى هذا الكتاب الممتع إلى أيام غالية عزيزة عشناها فى القاهرة قبل أن يدهمها السيل وتغشاها النوائب « إذ الناس ناس والزمان زمان » .

ولقد ذكر الأستاذ النجمى أن أولى خطوات الشيخ مصطفى فى القاهرة كانت فى حى المغربلين نعم نزل الشيخ هذا الحى العريق وسكن بالمنزل رقم ١٨ بحارة العنانى ، بجوار قريبة له ، وسكن أخوه

الشيخ محمد بحارة قريبة تعرف بزقاق المسك ، والمغربلين تتوسط الدرب الأحمر حيث العتاقة والتراث ، والمساجد والمزارات : مسجد المؤيد والصالح طلائع بن رزيك ، والسيدة فاطمة النبوية ، والمارداني ، وإبراهيم باشا أغا ، وأم السلطان شعبان ، وعلى مقربة الأزهر الشريف والحسين والجمالية وباب النصر وباب الفتوح ، فإذا أنت أيسرت وجدت مساجد السيدة زينب والسيدة سكينة ، والسيدة نفيسة والإمام الشافعي والإمام الليثي وكانت هذه المناطق المتجاورة هي قلب القاهرة الذي يموج بالعلم والمعرفة والفن .

نزل الشيخ مصطفى اسماعيل القاهرة في أوائل الأربعينات ، وترك وراءه طائفة من مشاهير القراء : الشيخ محمد السعودي ، والشيخ محمد العقلة (بضم العين وسكون القاف) بطنطا ، والشيخ منصور بدار بالمنوفية ، وفي القاهرة كانت هناك طبقتان من القراء : الطبقة الأولى : محمد رفعت وعبد الفتاح الشعشاعي ، ومحمد الصيفي (وهو والد المخرج السينمائي حسن الصيفي) ومحمد سلامة والطبقة الثانية : علي حزين ومحمد عكاشة وزكي محمد شرف وأحمد سليمان السعدني ومدين منصور مدين وعبد الرحمن الدروي ومحمود عبد الحكم وعبد العظيم زاهر وطه الفشني وأبو العينين شعيشع وعبد السميع بيومي ومحمد فريد السنديوني وكامل يوسف البهتيمي ومنصور الشامي الدمنهوري ومحمد قنديل وعبد الرحمن عبده وهاشم هيبة .

وكان المشايخ في ذلك الزمان يعرفون للقرآن حرمته وجلاله ، فيقرءون بأدب وخشوع ورعاية لأصول التلاوة ثم كانوا يقنعون بالقليل ولقد حدثني الشيخ عبد الرحمن الدروي المتوفى العام الماضي (وهو صهر عالم المخطوطات الكبير محمد رشاد عبد المطلب – أبو زوجته رحمه الله) حدثني أنه دعي هو والشيخان عبد العظيم زاهر وطه الفشني لافتتاح إذاعة العربية السعودية بجدة ، وكان ذلك في موسم حج كان معهم من المذيعين الأستاذ عبد الحميد يونس ، والأستاذ علي الراعي (الدكتور فيما بعد) وافتتح المشايخ الثلاثة الإذاعة السعودية ، ثم سجلوا لها بعض التسجيلات لإذاعتها .

فيما بعد قال الشيخ الدروي : ثم جاءنا الأستاذ عبد الحميد يونس أو الأستاذ الراعي وقال لنا إن الأخوة السعوديين يتركون لكم تحديد الأجر المناسب لما قرأتموه ، يقول الشيخ الدروي : فبكيت وقلت : كيف نأخذ أجرا على قرآن قرأناه في البلد الذي نزل فيه القرآن ؟ انتهى كلامه وأقول : أين هذا من بعض قراء هذا الزمان الذين لا يصعدون إلى دكة القراءة حتى يأتيهم إيصال الإيداع على رقم حسابهم بالبنك بالآلاف ؟

وفي القاهرة أدرك الشيخ مصطفى

إسماعيل طائفة من كبار المنشدين ، أصحاب التواشيح الذين خلفوا الشيخين : ابراهيم الفَرّان وإسماعيل ، وعلى رأسهم الشـيخ المتفّنن على محـمود (صاحب الأذان الشهير) والشيخ درويش الحريرى ، والشيخ سيد موسى ، ثم الشيخ محمود صُبح ، ذلك الرجل العجيب الذى كان يتحدى فى إسطواناته أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب ، أن يأتيا بمثل ما يأتى به من الجواب وجواب الجواب ، وكان يقطع إنشاده عقب كل « قفله » ويتحداهما .

نزل الشيخ مصطفى إسماعيل القاهرة وهى تموج بهذه الأصوات : قراءة وإنشاداً ، أصوات عجيبة مبدعة ، جعل الله لكلٍّ منها شرْعةً ومنهاجا ، حتى جاء الشيخ مصطفى فزلزلهم زلزالا ، فكان مثل المتنبى الذي جاء فملأ الدنيا وشغل الناس . نعم جـاء الشيخ بأفانين من النغم ، وتصـرفات فى المقامات لاقبل لهم بها ، وهو لم يتلق أصول النغم عن أحد ، ولم يحاك أحداً من أصحاب الأصوات ، وإنما هى الفطرة والموهبة ، وفضل الله الذى يختص به من يشاء من عباده . ولقد قوبل الشيخ مصطفى بهجوم كاسح من المشايخ القراء وكان أشدهم عليه وأعنفهم به الشيخ محمد سلامة ، وقد رفع عليه عصاه ذات ليلة زاعماً أنه يتلاعب بالقرآن .

حسد الحاسدين

ولقد غيّرَ القّراءُ فى وجه الشيخ مصطفى ، ورموه بتهم كثيرة ، حسداً من عند أنفسهم وهم وإن كانوا يتلون كتاب الله فهم بشرٌ من البشر وقد رُوى بسند صحيح إلى ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : « استمعوا علم العلماء ولاتُصدّقوا بعضهم على بعض و فوالذى نفسى بيده لهم أشدُّ تغايراً من التُّيوس فى زُرُوبها » وعن مالك بن دينار قال :

« يؤخذ بقول العلماء والقرّاء فى كل شىء إلاَّ قول بعضهم فى بعض » .

ومن التهم التى وجِّهت إلى الشيخ مصطفى أنه يترخص ويتساهل فى قواعد التلاوة ليستقيم له مايريد من نغم وتطريب . وهذه فرية كبرى ، فالذى يسمع الشيخ بإنصاف يرى أنه ملتزم غاية الالتزام ، على ماذكر أستاذنا النجمى ص ١٥ ، وأحب أن أضيف إلى ماذكره أن أكبر علماء القراءات فى عصرنا : الشيخ عبد الفتاح القاضى ، سيّدى الشيخ عامر عثمان كانا من أشدّ الناس إعجاباً بالشيخ مصطفى ، وهما مأمونان فى أحكامهما ، ومن حُراس كتاب الله ، ولقد سألت مرةً سيّدى الشيخ عامر عمّا يقال عن تساهل الشيخ مصطفى ، فقال : لاتصدّقهم ، إنه على الجادّه ، ثم أضاف : إن خامة صوت الشيخ مصطفى تشبه خامة صوت الشيخ يوسف المنيلاوى .

ومما قالوه عنه : إنه لايلتزم بالوقوف المنصوص عليها . وهذا غير صحيح ، ونعـم إنـه كان يقف أحياناً على غير وقف لتصـوير معنًى ، كما وقف على قوله تعالى : « فلما رأينه أكبرنه » وليس

موضع وقف ، ولكنه حين وصل بعد ذلك تلا الجملة السابقة ، فيكون وقفه هذا أشبه بالوقف لانقطاع النَّفس ، وهو جائز ، وأحب أن أشير هنا إلى أن الشيخ مصطفى كان أكثر تحرياً للوقوف من الشيخ محمد رفعت - وهو من هو - فالشيخ رفعت مثلا يقف على قوله تعالى من سورة الكهف « فانطلقا » وليس موضع وقف ، يقف على قوله تعالى فى سورة طه « ثم جئت على قدر » ثم يستأنف « ياموسى » وليس موضع وقف .

ومما أخذوه عليه أيضا أنه يكثر من اختلاف القراءات لإثارة مكامن الطرب ، وليس هو وحده الذى كان يفعل هذا ، فقد كان يفعله أيضاً الشيخ محمد رفعت ، والشيخ محمد الصيفى . والجمع بين الروايات فى القراءة الواحدة مكروه عند بعضهم . لكنه جائز عند بعض آخر ، وبخاصة فى مقام التعليم . على أن الحق يقتضينى هنا أن أشير إلى أن الشيخ مصطفى قرأ مرة آية على وجه من القراءات لم أجده فى القراءات العشر المجمع على تواترها والقراءة بها : وذلك قوله تعالى فى سورة يوسف - فى أحد تسجيلاتها - « وقال نُسوة » بضم النون ، وهى فى القراءة المتواترة بالكسر ، ولم يقرأ بالضمّ إلاّ المفضل والأعمش والسلَمى وهى قراءة شاذة .

تسجيلات نادرة

ومما اتهموه به أيضاً أنه يقرأ سُوراً بعينها . وهذا غير صحيح ، بل إن عكسه هو الصحيح فالشيخ يقرأ من سور القرآن كلّه ، وليس كبعضهم الذى يؤثر السُّور التى تقصرُ آياتها ، وتتماثل فواصلُها .

من خصائص صوت الشيخ مصطفى إسماعيل

درج كثير من القراء على أن يخفضوا أصواتهم إلى مايسمّى بطبقة القرار حين يأتون إلى اية من آيات الإنذار أو جهنم أو الموت ، فإذا جاءوا إلى آية بشارة ونحوها رفعوا أصواتهم إلى مايعرف بطبقة الجواب ، كما تسمعهم فى آخر سورة الزمر ، حيث يخفضون أصواتهم فى قوله تعالى « وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا » فإذا جاءوا إلى قوله تعالى : « وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا » رفعوا أصواتهم عاليا . ولم يؤثر عن الصحابة والتابعين فى ذلك شيء إلاّ ماروِى عن التابعى الجليل إبراهيم النخعى أنه قال : « ينبغى للقارىء إذا قرأ نحو قوله تعالى : « وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله » ونحو ذلك من الآيات أن يخفض بها صوته » قال ابن الجزرى : « وهذا من أحسن آداب القراءة » على أن الشيخ مصطفي يخالف قراء زمانه فى خفض الصوت عند آيات الإنذار وذكر الموت .

واستمع إليه فى تسجيل نادر لسورة آل عمران ، فى قوله تعالى : « كل نفس ذائقة الموت » فهو يرفع صوته عاليا فى

«ذائقة» ثم يقف على «الموت» بنفس الطبقة العالية فى صراخ مُزَلْزِل كأنه صراخ ثكالى فقدن عزيزاً أو تذكرن غائبا وتكاد التاء المهموسة حين يصرخ بها تنقلب إلى حرف مجهور يكاد يخرق صماخ الأذن ثم تأمل أيضاً وقفه على قوله تعالى فى سورة يوسف «فلما رأينه أكبرنه» كيف وقف على الهاء فى «أكبرنه» وقفا مضيئاً ساطعاً يجسد لك انبهار النسوة ودهشتهن لجمال يوسف عليه السلام .

ويبقى شيء ، أرجو أن يأذن لى أستاذنا النجمى فى مناقشته ، وذلك ماذكره فى ص ٢٤ «أن المسلمين فى العهد النبوى وعهد الخلفاء الراشدين كانوا يقرأون القرآن بحسب لغاتهم المتعددة ، وأفصحها سبع لغات» ثم ذكر حديث «إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف» . ولى على ذلك بعض الملاحظات : أولا - إن سياق الكلام على هذا النحو قد يوحى إلى بعض من لا معرفة لهم بعلوم القرآن أن المسلمين كانوا يقرأون بهذه اللغات السبع باختيارهم ومن عند أنفسهم تبعاً لما ألفوه من أعرافهم اللغوية . ومعلوم أن القراءة أثر واتباع ، لارأى واجتهاد ، وأن جبريل عليه السلام قد نزل بهذه اللغات كلها فاقرأها الرسول صلى الله عليه وسلم أمته ثانيا - أن صحة الرواية «أنزل على سبعة أحرف» بالبناء للمجهول ، وليست «نزل» ثالثا - أن تفسير الأحرف السبعة الواردة فى الحديث بأنها سبع لغات من لغات العرب ، هو أحد التفسيرات ، وهو مردودٌ عليه . ويرى بعض المحققين أن أمثَلَ ماجاء فى بيان معنى الأحرف السبعة هو ماذكره الحافظ ابن حجر العسقلانى ، فقد قال فى فتح البارى ٢٣/٩ (طبعة السلفية) «باب أنزل القرآن على سبعة أحرف : أى على سبعة أوجه يجوز أن يقرأ بكل وجه منها ، وليس المراد أن كلّ كلمة ولاجملة منه تقرأ على سبعة أوجه ، بل المراد أن غاية ماانتهى إليه عدد القراءات فى الكلمة الواحدة إلى سبعة» . رابعا - إن كتاب أستاذنا هذا يقع فى أيدى الخاصة والعامة ، فكنت أحبُّ أن يشير هنا إشارة سريعة فى الحواشى إلى أن الأحرف السبعة الواردة فى الحديث ليست هى القراءات السبعة التى اختارها ابن مجاهد فى أوائل القرن الرابع ، وهى القراءات المنسوبة إلى : نافع وابن كثير وأبى عمرو وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائى .

وبعد .. فأرجو أن يأذن لنا الأستاذ النجمى فى القول بأن هذا الكتاب لم يُشبع نهمتنا ولم يرو غُلّتنا فى الوقوف على عبقرية الشيخ مصطفى اسماعيل ، ولهذا فسوف نعتبر هذا الكتاب عن الشيخ مصطفى الجزء الأول ، وهو عن حياته كما جاء بحقّ فى عنوانه «حياته فى ظل القرآن» ويأتى الجزء الثانى إن شاء الله تحليلاً ودَرْساً لصوت هذا القارىء العظيم .

أقوال معاصرة





د. زكي نجيب محمود





بول ماكرتني

● «أقدم عزائي للجميع .. فكلهم ضحايا زمن يستحق اللعنة».

الأديب نجيب محفوظ

● «عندنا، وعند أمثالنا ممن ضحلت معلوماتهم الصحيحة فقل وعيهم بنفس المقدار، تكثر عملة الأقزام».

الدكتور زكي نجيب محمود

● «عندما يتجرد الناس من القيم، تراهم وقد أصبحوا أسوأ بكثير من الحيوانات».

المخرج الروسي فيتا كانيفسكي

● «الموت هو الذي جعل من الحياة حدثاً».

الممثل الأمريكي فنسنت برايس

● «من بين ما يمكن أن يجلب للمرء سوء الحظ، أن يصيبه الغرور».

بول ماكرتني مغني فرقة الخنافس

● «الديموقراطية أهم شيء في الوجود، وأي شعب عاقل لابد أن يؤمن بها».

(أونو) آخر رئيس وزراء منتخب في بورما

● «الولايات المتحدة محكومة بأقلية مطمئنة راضية».

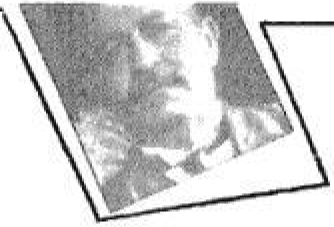
الاقتصادي الأمريكي
جون كينيث جالبريث

● «إذا كنت تعمل ضد الحد من النسل، فأنت تعمل تلقائيا على رفع نسبة الوفيات».

بول إيرليش أستاذ علم الأحياء
وصاحب كتاب «القنبلة السكانية»

● «الموت سهل، الحياة هي التي ترعبني حتى الموت».

المغنية الإنجليزية آني لينوكس



جرجي زيدان
حياته وفكره

بقلم : توماس فيليب   عرض : د . أمين العيوطي

● سيرة زيدان :

ولد زيدان في بيروت ، ٤ ديسمبر ١٨٦١ ، من أسرة متوسطة الحال تنتمي إلى الجالية الأرثوذكسية تلقى تعليما أوليا عشوائيا قبل أن يدفعه أبوه ، الذي لم يكن يؤمن إلا بتعلم القليل من الكتابة والقراءة ، إلى العمل مبكرا . غير أنه ما أن بلغ التاسعة عشرة حتى كان قد تأهل للالتحاق بالكلية السورية البروتستانتية لدراسة الطب (الجامعة الأمريكية فيما بعد) كان رجلا عصاميا تأثر بسير العصاميين وفلسفة الفردية وبقدرة الفرد على تحسين وضعه الاجتماعي إذا كان يملك الموهبة والإرادة . وسيرته مثال على كيف يصل الصبي الفقير إلى الشهرة وإن لم يصل إلى الثروة من خلال قيم العمل الشاق والمثابرة والتعلم .

ورغم تفوقه في دراسة الطب إلا أنه لم تكد تمر عليه سنة واحدة حتى مرت الكلية بأزمة حادة بين المحافظين والليبراليين حول تدريس نظرية داروين في كلية بروتستانتية . انتهى الصراع بفصل بعض الأساتذة الأجانب واستقالة البعض الآخر ورفض الطلبة الاستمرار في الكلية احتجاجا على قمع حرية الفكر . من بين هؤلاء كان زيدان . كان من أشد المتحمسين لنظرية علمانية توفر له وللمثقفين العرب إجابة عقلانية لتطور البشر في الطبيعة والمجتمع الإنساني والتقاليد والدين . أثر هذه الأزمة غادر بيروت إلى القاهرة (١٨٨٣) .

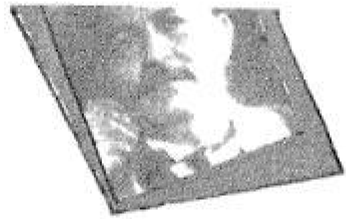
في القاهرة عمل زيدان رئيس تحرير لمجلة « الأزمان » لمدة عام قبل أن ينضم مترجما إلى حملة وزلي لانقاذ جوردون في الخرطوم . بعدها عاد إلى بيروت (١٨٨٥) لدراسة اللغات خاصة العبرية والسريانية التي أسفرت عن كتابه الأول « الألفاظ العربية والفلسفة اللغوية » وفي سبيله

حين تحتفل دار الهلال في سبتمبر ١٩٩٢ بمرور مائة عام على إنشائها فلابد أن تذكر مؤسسها جرجي زيدان . لهذا كان تخصيص هذا الكتاب تحية لجهد الرجل والدور المستنير الذي لعبه في الحياة الثقافية العربية لالقاء مزيد من الضوء على حياته وفكره .

١٨٨٦ رحل إلى لندن حيث قضى معظم وقته في قاعة القراءة في المتحف البريطاني قبل أن يعود إلى مصر ليجعل منها وطنه الدائم . في القاهرة عمل مديراً ادارياً لمجلة « المقتطف » كما ساهم في تحريرها ، ولم يلبث أن تركها ليتفرغ لكتاباته . لكنه كان قد اكتسب خبرة في إدارة المجلات . أفرزت هذه الفترة عن دراسته التاريخية الماسونية وكتابه « تاريخ مصر الحديث » (١٨٨٩) . وظلت اهتماماته محصورة في التاريخ بحيث جاء كتابه التالي « التاريخ العام : من الخلق إلى اليوم » (١٨٩٠) .

وفي عام ١٨٩١ أسس زيدان مع نجيب متري « مطبعة التأليف » كانت مطبعة صغيرة ذات حجرات قليلة ومطبعة يدوية لم تدم الا عاماً واحداً . احتفظ زيدان بالمطبعة التي أعاد تسميتها في ١٨٩٦ « دار الهلال » . في حين أنشأ متري داراً جديدة للنشر أسماها « دار المعارف » وفي نفس العام (١٨٩١) أصدر زيدان أول رواية تاريخية له « المملوك الشارد » التي لاقت نجاحا هائلا ومنذ ذلك التاريخ ظل كاتبا مستقلا يعمل بالصحافة وتأليف الروايات والأبحاث اللغوية والتاريخية لكنه لم يعش في ثراء .

تطلب قدرته على العمل الشاق قدرة مذهلة . ففي ١٨٩٢ بدأ أهم مشروع في حياته بمفرده وهو « مجلة الهلال » فيما بعد ، التي كانت تستهلك معظم وقته ، إذ ظل يعمل لفترة طويلة كاتبها الوحيد ورئيس تحريرها ومديرها وموزعها . ومنذ ١٨٩١ ظل زيدان يصدر رواية كل عام ، ومنذ ١٨٩٩ ظل يصدر كل عام مجلد دراسات عن التاريخ العربي والأدب . وكل ليلة ثلاثاء كان يعقد في بيته سهرة



للأصدقاء والزوار وصفوة المثقفين القاهريين من صحفيين وكتاب ومؤرخين وبعض مدرسي الأزهر وفي كل أنشطته لم يشارك في المنظمات السياسية أو المناسبات العامة .

وفي عام ١٩١٠ عرضت عليه الجامعة المصرية التي أنشئت حديثا تدريس مادة التاريخ الاسلامي وحين قبل العرض بعد تردد فوجيء بفصله . وقد ولد هذا في نفسه مرارة ألقت بظلها على السنين الأربع الباقية من حياته . وزاد من مرارته هجوم رشيد رضا على أعماله فعلى الرغم من النجاح الهائل الذي لاقته رواياته واصدارات « الهلال» إلا أنه لم ينجح في ازاحة التحامل عليه . وهنا بدأ حنينه إلى مسقط رأسه بيروت تحت وطأة شعوره بأنه لم يصبح فردا مقبولا في المجتمع الذي اختار أن يعيش فيه . غير أنه حين توفي في القاهرة في ٢١ يوليو ١٩١٤ كان قد أصبح معترفا به بصفته واحدا من أكثر المؤلفين العرب خصوبة واقبالا على كتبه .

● تعليم المجتمع

كان زيدان يؤمن بأن التعليم أهم عامل في تقدم أي شعب وتطوره خاصة أنه أدرك أن الشعب العربي يمر بصحوة ويجاهد كي يصل إلى مستويات تطور جديدة . وقد رأى أن هذه الأهداف يمكن تحقيقها من خلال الاصلاح الاجتماعي الداخلي وتحديث كل جوانبه ، ونظر إلى نفسه بصفته معلما ومصلحا .

لهذا جاءت كل أعماله تعلم وتنير ، موجهة إلى العامة والخاصة . فقد كان يرى أن الكاتب لابد أن يختار موضوعا تحتاجه الأمة ، وأن يصيغه بشكل يسهل فهمه ، وأن يعرض الحقيقة بصراحة وموضوعية . وفي ضوء هذا المفهوم جاءت رواياته التاريخية لتحيط العامة بتاريخهم بشكل مفهوم وسلس. وجاء كتابه « تاريخ مصر الحديث » يقرب الأشياء إلى فهم العامة ويرضي الصفوة في آن واحد . غير أننا إذا أخذنا في الاعتبار أن ١٠ ٪ فقط كانوا يعرفون القراءة والكتابة فإن كلمة العامة هنا لا تعني جماهير الناس بقدر ما تعني هذه الفئة الصغيرة من المصريين .

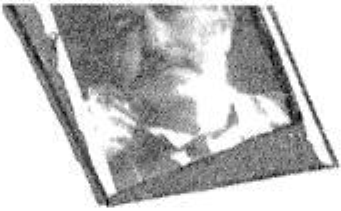
كذلك كان أحد أهداف زيدان أن يوسع مدى المعرفة لتتجاوز التعليم الديني التقليدي بأن يزود قارئه بمعلومات دنيوية معاصرة يراها هو ضرورية للتعليم الحديث.

وربما تشير « مجلة الهلال » التى كانت «مجلة علمية ، تاريخية ، أدبية » إلى أنه كان يتوجه بكتاباته إلى المثقفين المصريين الذين يشكلون نواة برجوازية صاعدة فى المجتمع العربى . فقد جاء تنوع موضوعات المجلة ليغطى أى جانب حضارى له صلة بالبرجوازية المتعلمة ، خاصة الموضوعات المتعلقة بماضيها والحضارة الغربية المعاصرة التى كانت تلك البرجوازية تشكل هويتها من خلالها . ولهذا لم تتخصص المجلة فى موضوع بعينه ، بل تناولت كل الموضوعات بأسلوب يقربها إلى ذهن الرجل العادى . ولعلها لهذا السبب سرعان ما تجاوزت حدود مصر لتصل إلى سوريا والعراق وفارس والهند واليابان والمغرب وأفريقيا الغربية وأستراليا ونيوزيلند . فقد كانت تخاطب كل من يبحث عن إجابات جديدة فى الحضارة الغربية الدنيوية مع تأكيدها على انجازات أمته الحضارية والثقافية .

وكانت إحدى أفكار زيدان لترويج المجلة هى ادخال الروايات التاريخية المسلسلة فيها لجذب القارىء واحاطته بتاريخه وماضيه . كانت تلك الروايات تتألف من قصص حب ومغامرات ومكائد ومن ملاحظات تاريخية وأوصاف مسهبة للأماكن التاريخية والأزياء . غير أن العلاقة بين الحقائق التاريخية والرواية ظلت علاقة مقحمة مصطنعة . فالحدث وأفكار شخصيات الرواية لا تعكس الخلفية التاريخية . ويرجع هذا إلى اهتمامات زيدان التاريخية وأهدافه الاجتماعية التعليمية أكثر من موهبته الروائية . لكن رواياته تحفل بالحدث الواقعى والحياة والتسلية بكل ما تحويه من عناصر التشويق والمؤامرات والتنوير الخلقى الذى ينشأ من الصراع بين الخير والشر ومن معلومات هامة لجمهور يتزايد بحثه عن هويته . ولهذا صدرت من رواياته طبعات ثالثة ورابعة حتى بعد موته ، وترجمات إلى الفارسية والتركية والأوردية والكردية وغيرها .

● الدين والسياسة فى المجتمع

على الرغم من أن زيدان كان ينتمى إلى الكنيسة الأرثوذكسية إلا أنه لم يعرف عنه التدين . وإذا كان قد تناول خلق العالم فى « التاريخ العام » من وجهة نظر الكتاب المقدس إلا أنه تحول عن هذا التصور لأصل الإنسان إلى تفسير نظرية التصور له ، بحيث تناول هذه المشكلة فى كتابه « طبقات الأمم » (١٩١٢) طبقا لنظرية التطور مفسرا كل يوم من أيام الخلق على أنه فترة تمتد عدة آلاف من السنين . أصبح العلم بالنسبة له يعنى المعرفة المنظمة التى تقوم على الملاحظة وعلى التجارب التى تؤدى إلى نفس النتائج حين تتكرر . ورغم ذلك فإنه لم يعل من شأن



العلم على الدين . فالدين بالنسبة له يحتوى على بعض الحقائق العلمية ، ولم يفضل دينا على دين آخر مما يدل على نظرة متسامحة .

هذه النظرة المتسامحة تبدو واضحة فى تناوله للعلاقة بين الاسلام والمسيحية حين أكد أنه خلال معظم فترات تاريخ الامبراطورية الاسلامية كان المسيحيون يعيشون فى وئام مع اخوانهم المسلمين وأن التسامح بلغ أوجه فى العصر الذهبى للدولة العباسية . بل أنه حين تناول اضطهاد المتوكل (٨٤٢ - ٨٤٧) والحاكم (٩٩٦ - ١٠٢١ م) للمسيحيين أبرز أن هذا الاضطهاد يرجع إلى بواقع شخصية لا إلى الأسرة الحاكمة أو الأمة التى ينتمى اليها هذان الحاكمان .

وعلاوة على هذا اعتبر زيدان الحروب الصليبية أسود فترة تعصب دينى فى التاريخ الأوربى ، وأن التاريخ يخجل من تذكر نتائجها . بل إن الصليبيين فى روايته « صلاح الدين » يلعبون دورا هامشيا فى حين يتعاطف زيدان مع البطل الاسلامى ويدين تدخل المسيحيين الأوروبين الذى أفسد العلاقات الطيبة بين المسلمين والمسيحيين فى العالم الاسلامى .

ويرتبط بهذه النظرة ادراكه للوظائف السياسية والاجتماعية التى قام بها الدين فى الماضى والحاضر . وفى هذا الشأن تشابهت آراؤه عن المجتمع مع آراء الفلاسفة المسلمين فى العصور الوسطى ، وهى أن المجتمع منقسم أساسا إلى فئتين العامة والخاصة ، وأن المرء لايجب أن يتوقع تفكيرا صائبا من العامة . ولهذا فإن الحقيقة التى يصـــل إليها المتعلمـــون بذكائهم يجب أن تقدم إلى العامة فى شكل عقيدة . وقد جعله هذا المفهوم يرى أن أى نظام سياسى يجعل الجماهير تشارك فى السلطة السياسية غير مقبول ، بل إن الحاكم يجب أن يملك ناصيتى السلطة السياسية والدينية ليحكم الجماهير بحيث يصبح الدين أساس الاستقرار والتضامن من داخل المجتمع . وفى هذا يقترب فكر زيدان مع فكر جمال الدين الأفغانى الذى أطلق عليه زيدان تسمية « فيلسوف الاسلام فى زمننا » .

لكنه فى تطبيقه لنظريات المفكرين الاجتماعيين الداروينيين أدخل أيضا عنصر الحراك الاجتماعى بحيث أصبحت فكرة البقاء للأصلح تعنى أن أى فرد ، بغض النظر عن وضـعه الاجتماعى الأصلى ، قادر على صعود السلم

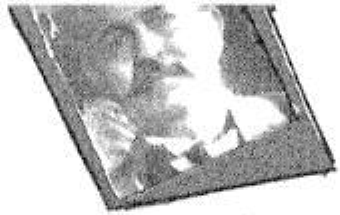
الاجتماعي من خلال العمل الشاق والمثابرة . وترتبط هذه النظرة بنظرته إلى العصامية التى كانت حياته خير مثال لها . ولاتتعارض هذه النظرة مع نظرته إلى أن يكون المجتمع منظما بشكل هرمي وأن تحكمه الصفوة أو الأصلح بلغة داروين .

ويشكل مستتير آمن زيدان بأن التعليم ونشر المعرفة العلمية لابد أن يضمنا تقدم المجتمع واصلاح حال أفراده ، واشراك المزيد من الناس فى حكم الأمة . ولهذا كان يؤمن بأن أى تغيير اجتماعي أو سياسي لابد أن تسبقه فترة اعداد طويلة حتى يتلاءم الناس مع الظروف والمتطلبات الجديدة ، أى أنه كان يطلب اعداداً تطوريا متدرجا لاحداث أى تغيير ، هذا الاعداد لا يتضمن فقط نقل المعرفة العلمية ولكن أيضا تشكيل الناس بحيث يصبحون مواطنين مسئولين حديثين .

● الوعي الثقافي والقومي

داخل مفهوم زيدان عن التركيب الاجتماعي عناصر من الفكر الاجتماعي التقليدى والفكر الدارويني الاجتماعي فلم يطرح اجابة عن أى المعايير تحدد هوية الأفراد بصفتهم أفراداً ينتمون إلى جماعة معينة أو مجتمع أو عن الوسائل التى يمكن بها خلق التماسك الاجتماعي ففى رأيه أن تكوين الجماعة والوسائل التى توجد بها أفرادها تتغير طبقا للاحتياجات أو الفائدة . فالمصريون يمكن أن ينتموا إلى الهوية الثقافية العربية فى حين أن الفائدة يمكنها أن تخلق تضامنا مع الامبراطورية العثمانية . فكل وسائل التضامن من مثل الوطن والقربى والدين واللغة ذات قيمة نسبية . كان بهذا يرفض كل القيم فيما عدا فائدة الجماعة بالنسبة للفرد .

غير أنه وإن قلل من أهمية اللغة والدين بصفتهما عاملى تضامن ، إلا أنه من أوائل المنادين بالهوية القومية العربية ، ولم يكن أمامه إلا الفكر الدنيوى ، بحيث انخرط فى الاتجاه السائد فى زمنه الى تشكيل هوية جديدة للمجتمع على أساس قومى ، ورغم هذا فقد استخدم كلمتى « الوطن » و« الوطنية » بمعنيين مختلفين ، فقد يستعمل كلمة الوطن بالمعنى الأوربى الحديث بمعنى أرض الآباء أو أرض محددة ينتمى اليها الفرد وتحدد سلوكه الاجتماعي والسياسي والأخلاقى وقد يستخدمها بمعنى المكان الذى يقيم فيه الانسان . والحقيقة أنه لم يحدد الأرض التى تشكل وطنا معينا فقد يشير إلى الوطن المصرى أو الوطن السورى ، ولكنه لايستخدم أبدا مفهوم الوطن العربى . كان الوطن يعنى بالنسبة له المكان الذى ترعرع فيه المرء ،



وفى بعض الأحيان كانت الكلمة تشير إلى المغزى الأخلاقى الذى يعنيه المعنى الحديث لها . ولهذا ظل مفهوم زيدان للكيان الاقليمى مفهوما غامضا .

وربما يرجع هذا إلى أنه ظل مرتبطا عاطفيا بسوريا لايفرق بين سوريا ولبنان فكان كثيرا مايقضى الصيف فى لبنان وسط أصدقائه وأهله ، كما يرى أن المهاجرين السوريين يشدهم حنين قوى إلى وطنهم . وفى وقت سادت فيه مصر اتجاهات وطنية كان زيدان فى موقف دفاع عن علاقته بسوريا ويؤكد أن السوريين من وجهة النظر العرقية ليسوا عربا بل مزيجا من شعوب مختلفة وإن كانوا عربا تماما بحكم ثقافتهم ولغتهم .

لكن هذا لم يمنع زيدان من رؤية العلاقات التاريخية بين مصر وسوريا وهجرة السوريين الى مصر والتوطن فيها . فهو يشير إلى السياسات الفرعونية والعلاقات التجارية الفينيقية التي تمهد لوحدة قريبة . وعلاوة على هذا فإنه ينظر إلى مصر بصفتها كيانا تاريخيا ومصدرا للعلم حتى الغزو الرومانى ومهد كل الحضارات والحقيقة أنه بصفته مهاجرا سوريا كان يبحث عن هوية تجمع البلدين فى كيان واحد .

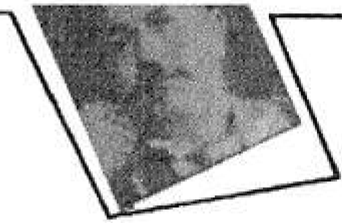
يؤكد هذه الحقيقة اهتمامه بفترة الحضارة الاسلامية التى كان العرب يشكلون فيها القوة التاريخية الأساسية . كان فخوراً بتلك الفترة ، ولكن هدفه الأساسى أن يجعل هذا التاريخ ملكاً لكل الناس بغض النظر عن دياناتهم . وقد حقق هذا الهدف بمدخله الدنيوى فلم يكن مهتما بتاريخ الاسلام الدينى بل بانجازات العرب الثقافية . لذلك كان تأكيده الدائم على أنه يكتب عن تاريخ الحضارة الاسلامية بهدف توضيح أن التجربة الاسلامية كانت فى البداية تجربة عربية خالصة توحد كل العرب . وفى نفس الوقت حرص على أن يبرز أن العرب المسلمين والمسيحيين حاربوا معا الفرس والبيزانيطيين . واللغة المشتركة هى العامل الأساسى فى تضامن العرب . وبهذا كان زيدان أول من طرح الهوية القومية لكل العرب فى التاريخ البعيد . ومن خلال مجلته ورواياته وأعماله جعل معاصريه أكثر وعيا بهذه القومية مسهما بذلك فى وضع الأساس الثقافى والعاطفى للقومية العربية فيما بعد.

● أعمال جرجى زيدان .

كان زيدان كاتبا خصبا تراوحت أعماله بين الدراسات التاريخية والأدب وتضمنت اثنتين وعشرين رواية ، واثنين وعشرين عاما من اصدار « مجلة الهلال » الشهرية التى كان يكتبها كلها بنفسه تقريبا . ويكتسب مشروعان من مشروعاته أهمية خاصة ، أولهما رواياته التاريخية ومجلة الهلال وتبرز أهميتهما لا من خلال حجميهما فقط ، بل من اهتمام جمهور القراء بهما . ومن الصعب أن نقلل من الدور الذى لعبته كتاباته فى هذين المجالين لنشر المعرفة وتطوير تذوق الأدب بين القراء العرب .

فى المقال الافتتاحى للمجلة التى بدأها فى سبتمبر ١٨٩٢ أوضح أسبابه لاختيار هذا الاسم ، فهو اشارة إلى ظهور المجلة شهريا ، ولكسب بركات الهلال العثمانى رمز الامبراطورية العثمانية ، كما أن مقارنتها بالهلال ينطوى على نية المجلة أن تنمو لتصبح ضوءا كاملا قويا مثل البدر . وقد قسم المجلة إلى خمسة أقسام : أهم الأحداث ، المقالات ، الروايات المسلسلة ، الأحداث الشهرية خاصة أحداث مصر وسوريا ، أخبار منتقاة ، نقد وفى العدد الثالث من السنة الأولى أضاف باب المراسلات أو بريد القراء . وفى السنة الثانية أضاف باب « أسئلة ومقترحات » وفى السنة الثالثة أضاف باب « أخبار علمية » كان حجم العدد مابين ٣٢ – ٤٠ صفحة . فيما بين السنة العاشرة والرابعة عشرة (١٩٠٢ – ١٩٠٦) أضاف إلى المجلة العديد من الأبواب مثل « ملوك الشرق » ، « صحة العائلة » ، « عجائب المخلوقات » ، « أحوال الدول » ، « غرائب العادات » . وفى المجلد الثانى والعشرين والأخير الذى نشره أعاد تخطيطها ليبلغ حجمها ٩٦ صفحة . وخلال السنوات الثمانى الأولى زاد التأكيد على الأخبار الثقافية والاجتماعية . ومن اهم أجزاء المجلد جزء « أشهر الأحداث وأعظم الرجال » الذى كان دائما أول جزء من كل عدد كما كان موضوع صورة الغلاف . وبسبب أهميته واتساع مجال موضوعاته يبرز هذا القسم ممثلا لروح المجلة ويستحق بحثا دقيقا فيما يتعلق باتجاهات « الهلال » وتطوراتها .

كان ثلث المقالات يدوران حول شخص ما ، أعماله ، واختراعاته وأفكاره مع ربطها بالسياق التاريخى العلمى الذى ظهر فيه . قد يكون هذا الشخص حاكما لأحد البلاد . ولكن بمرور الوقت أصبح التأكيد فى معظم المقالات على موضوعات لا على أشخاص . كما غطت مقالات « الهلال » موضوعات عديدة عن الغرب خاصة الثقافة الاغريقية والعصور الوسطى الأوربية وأوروبا الحديثة والبلاد الاسلامية وثقافتها مع تزايد الاهتمام بالأزمنة



الحديثة والثقافات الشرقية غير الاسلامية مثـل الصـينية واليـابانية والهندية ولاتزال « الهلال » خزانة للمعلومات عن المجتمع المعاصر تواصل تطوير مفهوم زيدان وأفكاره .

الروايات التاريخية

كتب زيدان اثنتين وعشرين رواية جاءت منها رواية واحدة عن المجتمع المعاصر هى « جهاد المحبين » أما الروايات التاريخية فقد بدأها بالمملوك الشارد (١٨٩١) وهى رواية تجرى أحداثها فى مصر وسوريا فى عصر محمد على . غير أن روايته الرابعة « أرمانوسا » فإنها اتجهت إلى التاريخ الاسلامى القديم . ثم شرع زيدان في كتابة متتاليات من الروايات تحيط بكل التاريخ الاسلامى . وظل ينشر رواية تاريخية كل سنة بعد سلسلتها فى « الهلال » . وهكذا غطى فى سبع عشرة رواية من ١٨٩٠ - ١٩١٤ التاريخ الاسلامى منذ بداياته حتى الحكم الأيوبى فى مصر .

وربما كان عدم حذق الحبكة وملل الأجزاء الوصفية نتيجة لانعدام التقليد الأدبى والتجربة فى كتابة الرواية فى عصره . لكنها دليل على طموحات زيدان فى أن يـكون معلما ومؤرخا لا كاتبا روائيا . وفى كل حبكات رواياته تظهر مجموعة من الشخصيات . هناك البطل والبطلة ، شابة متعلمة زكية تحب البطل . ويكمل قائمة الشخصيات خادم أو خادمة يمثلان العنصر الطيب وفى الجانب الشرير نجد أبا الفتاة القاسى الجاهل ، الظالم الذى يحاول أن يزوج ابنته للشرير الذى لايحب الفتاة ويطمع فى مصلحة خاصة ، هناك مثل هذا التقسيم الدائم بين الخير والشر وهذه العناصر ترتبط بشكل واه بالشخصيات والأحداث التاريخية . وقد ترتبط شخصية تاريخية بالحدث . لكن تظل شخصيات رواياته ذات بعد أحادى، أنماطها لاتتطور ينقصها التحليل النفسى ولكى يعوض هذا النقص يلجأ زيدان إلى حيلة المؤامرات والمكائد والمصادفات وتنتهى كل رواياته نهايات سعيدة . ومع ذلك لاتزال تقرأ حتى اليوم وتظهر فى طبعـات جديدة .

١٨٩٢ الهلال ١٩٩٢

ماذا بعد ٤٠ سنة ثورة ؟ !

مصطفى نبيل

تأتي خلال هذا الشهر ذكرى ٤٠ سنة على قيام ثورة ٢٣ يوليو ، الثورة التى أحدثت تغييراً جوهريا فى مسار الحياة السياسية المصرية ، سواء أعجب هذا التغيير البعض أو أغضب البعض الآخر . إلا أنه حدث جلل بما جاء به من إنجازات كبيرة أو أخطاء جسيمة ، وأصبحت هذه الثورة وأحداثها ونتائجها جزءاً هاما من تاريخ مصر والعرب والعالم ..

ولابد لنا أن نلاحظ ذلك الفارق الدقيق فى كل حدث تاريخى هام ، بين الوطن وبين نظام الحكم ، بين القادة وحركة الناس، وما الذى تقع مسئوليته على نظام الحكم وما الذى تقع مسئوليته على حركة المجتمع وحلم الشعب الدائم فى العدل والحرية .

• رجلا التطهير •



علي ماهر — محمد نجيب



الملك فاروق

وسنقتصر هنا على تقليب صفحات مجلة الهلال فى النصف الثانى من عام ١٩٥٢ ، لكى نرصد استقبال الكتاب والمفكرين لهذا الحدث التاريخى ، وكيف تناولته مجلة ثقافية .. ولعل هذه القراءة تضع ثورة يوليو فى سياقها التاريخى ، بدلا من الحكم عليها بأثر رجعى !

يلاحظ أنه فى عدد يوليو ١٩٥٢ ، مقال هام للمؤرخ عبد الرحمن الرافعى تصدر عدد الهلال ، وأهميته أنه نشر قبل قيام الثورة ، وهو يعكس الشعور العام بعد الأحداث الجسام التى بدأت بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ واقرار حكومة الوفد بعدم شرعية الوجود البريطانى ، وبداية العمل الفدائى على طول قناة السويس ، وتدهورت أوضاع الحكم سريعاً والذى انتهى بحريق القاهرة فى ٢٦ يناير وحل المجلس النيابى وإعلان الأحكام العرفية وتعاقب وزارات الأقليات التى أفصحت عن عجز النظام جميعه ، وعرفت الشهور الستة التالية أربع وزارات .

يقول الرافعى فى مقاله بالحرف الواحد .. « إن نصيب مصر من الديمقراطية قليل ، والديمقراطية تتعثر فى سيرها ، ولا يتجاوز نصيبنا منها بعض ظواهر تخفى أوضاعا من الاستبداد والحكم المطلق .. فى الحياة البرلمانية ، وفى الحياة الوزارية ، وفى الانتخابات وفى الحياة السياسية والحزبية ، فالنزعة الغالبة على هذه النظم هى نـــزعة الحكم المطـــلق .. »

ويضيف فى مقاله .. « .. ولئن كان مستوانا العلمى والثقافى قد ارتقى عما كان عليه فى الماضى إلا أن نصيبنا من حرية التفكير قد انخفض .. والطبقة المثقفة يقع عليها عبء أكبر ، ومما يؤسف له أنها تعيش على هامش الحياة السياسية أو بمعزل عنها .. وقصارى مساهمتهم أن ينتقدوا الحوادث والتصرفات فى مجالسهم الخاصة ، أو فى المقاهى .. دون أن يتعاونوا على إصـــلاح ما اعوج من الأمور .. »

ويستدرك مؤكداً أن هذا ليس من طبيعة الشعب المصرى الذى أثبت جدارة وقدرة على الاختيار فى الانتخابات التى أجريت عام ١٨٨١ قبل احتلال الانجليز لمصر ، وتلك التى جرت عام ١٩١٣ قبل

إعلان الحماية على مصر .

وهذا المقال أفضل رد على الذين يؤكدون على أن مصر قبل يوليو ٥٢ كانت جنة الليبرالية ، متصورين « أن آفة حارتنا النسيان » على حد تعبير كاتبنا الكبير نجيب محفوظ ويعبر هذا المقال بوضوح عن المحنة الشديدة التى تعبر عنها أزمة الديمقراطية وأزمة المثقفين وأزمة حرية الفكر .

***

ولم يتمكن عدد أغسطس من الهلال من اللحاق بالحدث التاريخى الهام ، وصدر عدد خاص عن الصيف وقيظه ، كانت أهم مقالاته ، الدنيا حر للدكتور أحمد أمين ، وليالى الصيف لمحمد فريد أبو حديد ، وماذا نقرأ فى الصيف لعباس العقاد ، والمصايف المصرية . لماذا يهجرها المصريون لأمينة السعيد ، وتحقيقا حول .. المصايف الأوربية جنات الفردوس فى الأرض ، ورحلة صيف للدكتورة بنت الشاطىء ، وجنون الصيف لأحمد عبدالقادر المازنى .

وجاء هلال سبتمبر ليتصدره مقال للواء محمد نجيب قائد الثورة ، فى صورة رسالة منه إلى الأجيال الجديد ، وكتبها وأرسلها بخطه وتوقيعه . وتولى المجلة اهتماماً كبيراً بالثورة وتنشر لوحتين على صفحتين كاملتين لكل من اللواء محمد نجيب ورئيس الوزراء على ماهر تحت عنوان « رجلا التطهير » ، ويظهر معظم الكتاب الاحتفاء الشديد بالسلطة الجديدة ، فيكتب عبد الرحمن الرافعى مقالا عنوانه عرابى ونجيب ، يعيد فيه الرافعى الاعتبار للزعيم أحمد عرابى ، ويشبه اللواء محمد نجيب بالزعيم الذى احتل مكانه فى وجدان الأهالى .

يقول الرافعى .. « شهدت مصر فى خلال نيف وسبعين سنة « انقلابين » ، قام بهما رجال الجيش تمثلت فيهما الوطنية الحربية .. أولهما سنة ١٨٨١ على يد أحمد عرابى . والثانى سنة ١٩٥٢ على يد محمد نجيب ..

وعلى الرغم من طول المدة التى تفصل بين « الانقلابين » فإن كثيراً من أوجه الشبه تجمع بينهما .. فالثورة العرابية كانت صدى لرغبات الشعب وسخطه على نظام الحكم الذى كانت تعانيه البلاد ، وقوامه الاستبداد والفساد والمظالم . والحركة التى قام بها الجيش سنة ١٩٥٢ كانت أيضا صدى لشعور المواطنين فى تبرمهم بفساد الحكم وتدخل غير المسئولين فيه ، وتضحية مصالح الشعب فى سبيل أهواء المحظوظين ..

فلا غرو أن قوبلتا من طبقات الشعب بالتأييد والمؤازرة ، والغبطة والابتهاج . ولم يصدر الجيش فى كلتيهما عن نزعات شخصية أو مطامع فردية بل كان ترجمانا لآمال الشعب مدافعا عن حقوقه ، فهما حركتان وطنيتان ، كان الجيش فيهما وكيلا عن الشعب ، فالجيش من الشعب وللشعب..



والعسكريون كالمدنيين فى شعورهم القوى، والروح الحربية خليقة بأن تقوى فى النفوس الوطنية والعزة القومية ..

نجحت « الحركة » التى قاموا بها نجاحاً منقطع النظير .. إذ تم الانقلاب دون أن تراق فيه قطرة دم . وجاء مضرب الأمثال فى تاريخ الانقلابات العسكرية الناجحة .

ويذكر فى معرض مقارنته بين سنتى ١٨٨١ و ١٩٥٢ .. « أن زعماء الجيش سنة ١٩٥٢ هم ولا ريب أكثر ثقافة وكفاءة وأوفر اطلاعا من أسلافهم سنة ١٨٨١ .

وهذه المزايا قد جعلتهم يحكمون وضع الخطط والبرامج لنجاح الانقلاب فى حزم وسرعة ، ويتجنبون بعض الأخطاء التى وقع فيها العرابيون . ويحرصون على الأخص على عدم تدخل الجيش فى السياسة ، واقتصر تدخلهم على خلع الملك السابق . »

سقوط الطغاة

ويكتب محمد فريد أبو حديد عن قصر نظر الطغاة الذين سقطوا عن العرش ، وهم السلطان عبد الحميد والخديو عباس الثانى وأخيرا الملك فاروق .

« .. فبدلاً من أن يكون فاروق وليد ثورة ١٩ وابن الشعب ، انطلق يعبث فى حياته.. وانعكس مسلكه العابث على الشعب ، فإذا موجة هائلة من العبث والانحلال الخلقى تطغى على الناس رجالاً ونساءً .. وها هى ذى أنباء الخطايا والبلايا تملأ الصحف فى كل صباح وكل مساء ... ولم يقتصر قصر البصيرة على الملك وحده ، بل أصاب السادة والقادة .. وصارت الأذناب رؤساء والرؤوس أذنابا ، وأصبحت الفضائل رذائل والمخازى مفاخر » .

وتعيد مجلة الهلال نشر بعض الأقوال الوطنية المأثورة عن الزعيم مصطفى كامل تحت عنوان « وطنيات لا تنسى » .

***

ونصل إلى هلال أكتوبر ١٩٥٢ ..

وترتفع حرارة الاحتفاء بالثورة ، وتقول الافتتاحية ، يصدر هذا العدد ، ومصر فى ثورة إصلاحية فذة ، سيروى التاريخ قصتها للأجيال القادمة .. ولئن

كانت مباذل ذلك « المخلوع » وسياسته الخرقاء ، وعصابته الفاسدة ، قد قوضت عرشه ومكانته وأنذرت بسقوطه وزواله قبل أن يزول ، إلا أنه كان يظن أن القوة العسكرية تحمى طغيانه ، ولكنها هى التى هدمت ذلك الطغيان . فهى التى تمثل قوة الشعب وما وجدت إلا للدفاع عن كرامته .. وتضيف

« ولقد كان بعض الساسة يحرمون اشتراك الجيش فى السياسة حتى زعم الشيخ على يوسف (رئيس تحرير المؤيد ، « أن السيف والحرية والدستور لا تبيت فى جراب واحد » ولكن ثبت غير ذلك فطالما أفسد الزعماء السياسيون السياسة .. ولقد فشل ساسة مصر المتحزبون ، وجثوا على مصالحهم بأغراضهم ومنازعاتهم الحزبية منذ ثلاثين عاما » .

ويكتب الأستاذ العقاد عن الشيخ العدوى أحد أبطال الثورة العرابية الذى أفتى بعزل الخديو توفيق .

ويقدم الهلال قصة أبطال الجيش المصرى فى فلسطين ، ويروى قصة البطل أحمد عبد العزيز وبيومى على الشافعى ومحمد رفعت فهمى وصبحى ابراهيم فهمى ومحمد جمال خليفة .

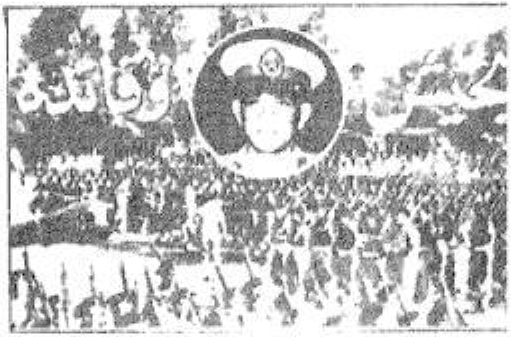
ويكتب فاروق نجل اللواء محمد نجيب عن كيف بعث نجيب من المـوت عدة مرات ؟ !

***

ويعود اللواء محمد نجيب فى هلال نوفمبر إلى توجيه نصائحه للشباب ، ويحذرهم من الاشتغال بالسياسة ويطالبهم بالاهتمام بدروسهم .. « على الشباب من الطلبه أن يعلموا أن مقاليد الأمور قد استقرت فى أيد تخاف الله ، وتحرص على كرامة الوطن ، وأن عهد الفساد قد ذهب إلى غير عودة ، فمن الخير لهم وللبلاد كلها أن ينصرفوا إلى تلقى دروسهم حتى يجنى الوطن ثمار علمهم وعملهم ، وأن يتركوا كل شىء بعد ذلك للقادرين على خدمة الأمة من رجالنا الصالحين الذين ينتظرهم طريق شاق طويل من الجهاد .. »

هذا بعد أن كانت الأجيال الجديدة الشابة تلعب دوراً هاما فى الحركة الوطنية، ثم تلاحقت الرسائل إلى الشباب تحضهم على الانصراف إلى دروسهم ! والدهش أن يجد القارىء على صفحات ذات العدد مقالا آخر للأستاذ فتحى رضوان وزير الإرشاد القومى فى هذا الوقت يرد فيها على الرئيس محمد نجيب ، وعنوانه « أيها الشباب .. اشتغلوا بالسياسة » ، .. « لتوسيع الآفاق وانضاج المدارك ، وتقوية الشخصية » ، ويدعو الشبان أن يشتغلوا بالسياسة كما اشتغل بها لينين ونهرو ومحمد فريد وغاندى وديفاليرا .. »

ويدعو فتحى رضوان وزير الارشاد الشباب إلى الاشتغال بالسياسة والتطلع إلى القيادة ..



الجيش وقائده نجيب

مما أدى إلى أن يحاول الهلال فى افتتاحيته إلى التوفيق بين الرأيين ، فذهب إلى أن فتحى رضوان يدعو الشباب إلى «العناية بالوطنية» وهناك بون شاسع بين السياسة التى تعنى بتدبير شئون الدولة والعمل لمصلحة المجموع ، والوطنية التى يمكن أن تتجلى فى أى عمل يعود على الوطن بالنفع .

وما يجب أن يعنى به الشباب ، الاشتغال بالوطنية لا بالسياسة الحزبية التى طالما جرت على البلاد شقاء ووبالاً .

فهل يعنى ذلك بداية الانشقاق فى صفوف الثورة ؟!

ومن أهم المقالات وأكثرها أهمية ، مقال كتبه فى ذات العدد الأستاذ عباس العقاد، وما أشبه اليوم بالبارحة ، يطالب فيه الثورة بتطهير صفوف الكتاب ، يقول.. «نعم تطهير لابد منه فى عالم الكتابة ولعله أوجب من كل تطهير وأنفع من كل تطهير ، بل لعل عالم الكتابة عندنا أحوج إلى التطهير من كل بيئة نودىء إلى اليوم بوجوب التطهير فيها » ويمضى إلى القول ... « قد تكون الكتابة متأثرة كما تكون مؤثرة ، وأنها قد تكون تبعا لمن حولها كما يتبعها من حولها فى أحيان أخرى ، .. فالكتابة فى الأمة صورة للكاتب والقارىء فى وقت واحد ، فإذا حسنت هذه الصورة فهى علامة حسنة على خلائق الكتاب وعقولهم وعلامة حسنة كذلك على الأخلاق والأفكار بين أنواع القراء ، وما كان صدق الأقلام قط شهادة للكتاب وحدهم ، إذ لا يستطيع الكاتب الصدق إذا كان القراء جميعا معرضين عنه غير قادرين على تمييزه أو تفضيله على الباطل والبهتان ...

« التطهير فى الكتابة دليل على صدق الكاتب ، ويقظة القارىء ، وشهادة حسنة للأفكار والأخلاق بين من يكتبون ومن يقرأون .

ويحزننا أن نقول إن الكتابة فى جملتها لم تكن عندنا قط قامعة للطغيان فى عهد من العهود ، وإنها كثيراً ما كانت عونا للطغيان وسترا له من يقظات العيون والآذان » .

« وتطهير الكتابة تطهيران : تطهير من قبل الحكومة وتطهير من قبل الجمهور ، ويشمل هذا القول كتابة الصحف كما يشمل كتابة المصنفات والرسائل وكل كتابة منشورة . »

وعلى الحكومة أن تراجع أضابير الدواوين وتستخرج منها أسماء أصحاب «الرواتب السرية » فى عهد كل وزارة غابرة، .. بل وتقدر الحكومة على كشف

الأقلام المأجورة من خزائن الأحزاب وخزائن الشركات تنفق الأموال الكثيرة على شراء الأقلام وتسخير الضمائر وترويج النفوذ .

وعلى القراء أن يميزوا قليلا ليطهروا الكتابة من كل قلم لا يعرف غير الثناء على السلطان ، ولا يعرف النقد والمذمة إلا إذا تكلم على السلطان الزائل .

أقلام تسخرها الدول الأجنبية جواسيس على أوطانها لتفسد سياسة أوطانها وتخدم سياسة تلك الدول ، ... هي الحملة على كل دولة ما عدا الدولة التي تشترى الأقلام لخدمة مآربها وتسخير الوطنية المصرية لغاياتها . »

***

ويكتب الأستاذ عباس العقاد في العدد الذي يليه هلال ديسمبر ١٩٥٢ مقالا إفتتاحيا بعنوان « الجيش وقائده »

جاء فيه .. « لا نعتقد أن فاروقا كان يعقل أن يضع لنفسه سياسة يحمى بها عرشه .. ، ولكنى أرجح أنه تلقى من أبيه وصية مكتوبة أو محفوظة تلخص له قواعد السياسة التي يعتمد عليها لحماية العرش وتوطيد دعائم الملك ، ومنها الاحتفاظ بولاء الجيش وولاء الأزهر .. فليس أنفع العروش من ولاء القوة والعقيدة ...

وجاءت الثورة سلمية لم يسفك فيها دم ولم يضطرب فيها حبل الأمور ، وقد كان الخلاص في عهد فاروق ضرورة لا تستكثر عليها أن تقدم الأمة في سبيلها على خسارة في الأرواح والأموال ... فلما تكفل الجيش للأمة بالثورة التي كانت مطلوبة منها عوفيت من جرائرها وأهوالها وانتظمت الأمور في سياقها وانجلى ملك مكروه عن عرشه بأيسر من جلاء عمدة في قرية صغيرة .... !

وقبل أن يسأل السائل : وما للجيوش ولهذه الشئون ؟ عليه أن يسأل : كيف كان الخلاص لو لم تخلصنا حركة الجيش من فاروق ؟ .. فلو أنه بقى على العرش إلى نهاية أجله فلا يعلم إلا الله كم سنة تتعاقب على مصر وهي تنحدر من هاوية إلى هاوية، وتتقهقر من نكسة إلى نكسة ، وتتهافت من خراب على خراب ، وتتلطخ بوصمة بعد وصمة من وصمات ذلك الفساد الذى جعلها مضغة فى أفواه العالمين .

ولم يكن كافيا لتمام العمل التاريخى الذى لا يتكرر كل يوم أو كل جيل أن يزول فاروق ويبقى بعده ألف فاروق وأكثر من ألف فاروق فليست نهاية فاروق هى نهاية الحركة ، ولكنها فاتحة عهد لابد أن يستقر على أساس وطيد .

هذا هو ما نشر فى مجلة الهلال حول ثورة ٢٣ يوليو فى النصف الثانى من عام ١٩٥٢ ، وهو يفصح عن الكثير ، ويبين مدى احتفاء الكتاب بالتغيير ، وسبق لهم وبشروا بعصر جديد يرتفع فيه صوت الشعب وصوت الحق .

ونجد أنه بقدر ما أسعدهم التغيير سجلوا تحفظاتهم ، ومنها خطر استمرار تدخل الجيش فى السياسة ، وسلموا بطبيعة الظروف الاستثنائية للتغيير ، ولكنهم حذروا من استمرار هذه الأوضاع ، وكم من المياه تدفقت فى النهر ..

بيكار

الناقد والفنان

بقلم : د . صبرى منصور

لا جدال فى أن حسين أمين إبراهيم المولود عام ١٩١٣ بحى الأنفوشى بالاسكندرية ، والذى اشتهر باسم بيكار هو واحد من الوجوه الثقافية التى أضاءت - ومازالت تضئ بنورها - سماء الحياة الثقافية المصرية منذ ما يقرب من نصف قرن . وهو واحد من ألمع نجوم الجيل الثانى فى الفن المصرى المعاصر . ولم يقتصر إبداع فناننا الكبير على مجال واحد فقط ، وإنما امتد نشاطه ليغطى نواحى عديدة ، كان يكفيه أى منها ليتبوأ به مكانة فريدة ضمن زمرة رواد التنوير والتحديث .

فى مجال كان جديداً على المصريين فى بدء صحوتهم الثقافية والحضارية المعاصرة . فهو مصور بارع تميزت أعماله برهافة الحس ، وأستاذية الأداء . وهو ناقد أمين صاحب كلمة موضوعية ، وهو رائد لفن الرسوم التوضيحية وفن الكتاب ، كما أنه فى مناصبه الإدارية التى تقلدها نموذج للنزاهة والحكمة واحترام الرأى الآخر وإنتاجه فى كل هذه المجالات يصدر عن روح نقية ، وضمير مخلص ، ومشاعر إنسانية مرهفة . وبيكار ينتمى إلى جيل تميز بالعطاء الخالص غير المشروب بدوافع



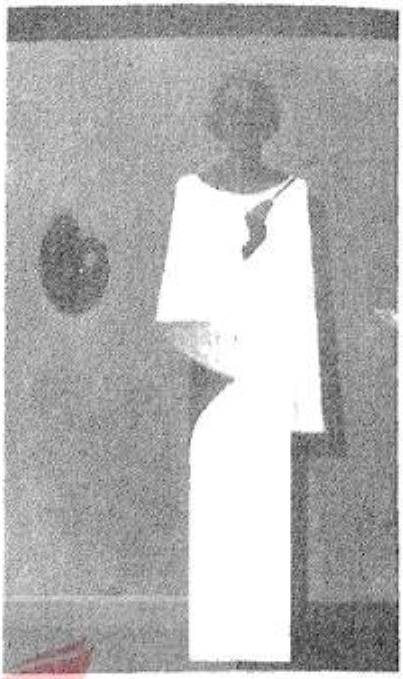
ذاتية ، أو رغبة فى منصب ، أو تزلف إلى سلطان ، بل كان هدفه المنشود إعلاء القيمة ، وانتصار المبادئ ، وتكريس المثل العليا فى الفن والحياة .. هكذا فإن بيكار ليس أستاذاً فى مجالات إبداعه فقط ، وإنما هو معلم رائد لكل من يبحث عن مثل أعلى ، وقدوة صالحة فى زمان تندر فيه القدوة التى يقتدى بها فى دنيا الإبداع الفنى والعطاء الثقافى

الريادة فى رسوم كتب الأطفال

ومنذ الأربعينات أسهم بيكار إسهاماً رائداً فى مجال فن الصحافة - إلى جانب عمله كأستاذ لفن التصوير الزيتى - وكان له دوره الكبير فى تطوير هذا الفن عامة، وكتاب الطفل بصفة خاصة ، وكان لإيمانه الشديد بالرسالة التى يمكن للفن الإسهام بها بدور مؤثر فى تعليم وثقافة الطفل سبب فى تشجيع العديد من تلاميذه من أجل اقتحام هذا المجال الحيوى ، وبصمات هؤلاء واضحة نلمسها اليوم فى الصحافة المصرية ولقد وضع بيكار ثقله الفنى من أجل التأكيد على أهمية الرسوم التوضيحية ، وبعد أن كانت تلك الرسوم بدائية ركيكه ، أضفى عليها بيكار لمسة الفن والإبداع ، وليس خافياً ما تأكد لدى علماء التربية من أن الجانب الفنى فى كتب الأطفال هو جانب مثير لخيال الطفل، إذ يجسد له من خلال الرسوم المادة العلمية التى عادة ما تتصف بالجفاف ، فتسبب نفور الطفل وعدم تقبله لها ، كما أن تلك الرسوم فى تجسيدها للقصص وحكايات الأطفال ، وما تحتوى عليه من شخصيات خرافية ، فإنها تساعد الطفل على تنمية مداركه ومعارفه ، وهى فى أحيان كثيرة تملك تأثيراً أكبر من النص المكتوب فى إيضاح المعانى والأفكار . ذلك أن المادة المكتوبة تستدعى جهداً خاصاً لإستيعابها وتفهمها ، بينما يجد الطفل متعة فى مشاهدة الرسوم ، وسهولة فى فهمها ، لأنها تخاطب بصره وخياله فى المقام الأول.

ولقد لاحظ فناننا الكبير أن الرسوم التوضيحية ينظر إليها على أنها نوع من الفن المنقوص لإرتباطه الحتمى بالنص ، ولكنه لم يلق بالاً إلى تلك الفكرة الخاطئة ، فأولئك الذين يستعملون تعبير الرسام التوضيحى لإهانة الفنان والانتقاص من شأن عمله ، عليهم أن يتذكروا أن الفن الغربى قد نشأ من تصوير الكتب ، وكذلك كان الحال فى الحضارة الإسلامية حيث لا تزال الرسوم التى أنجزها الرسام يحيى الواسطى لمقامات الحريرى خير شاهد على أن القيمة الفنية لا تنتقص حين ترتبط بنص معين كما أن الفن الأوربى الحديث حافل بنماذج من إنتاج الفنانين الكبار كانت لهم إسهاماتهم المميزة فى هذا المجال ..

وهكذا ارتاد بيكار بثقة وإيمان برسالته هذا المجال ليضع لبناته الأولى ، ولقد حور



● صورة شخصية للفنان بيكار البساطة والتلخيص ..

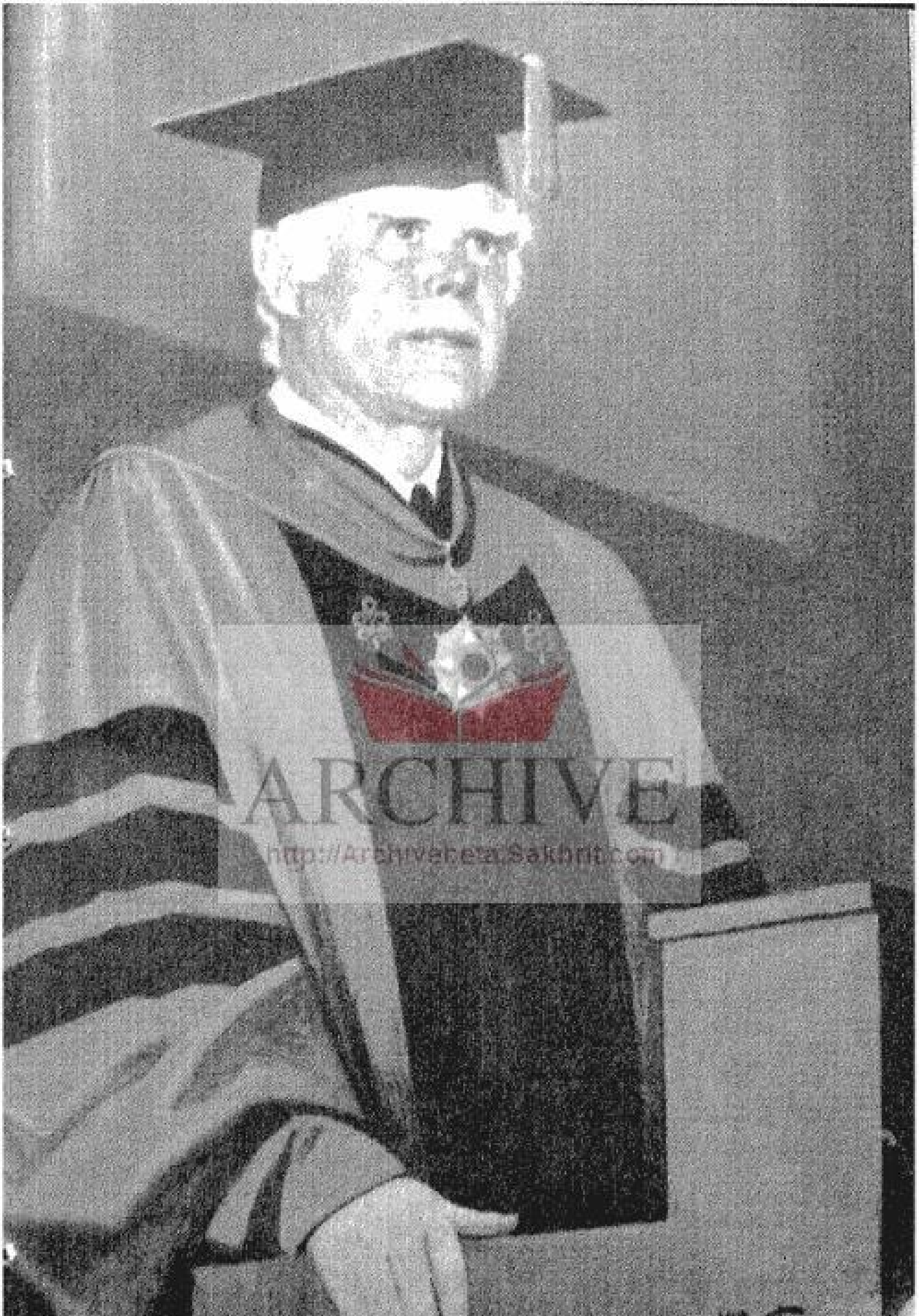
فى أسلوبه الفنى ، وجعله أكثر بساطة واعتماداً على الخط حتى يتلاءم مع ذوق الطفل ومستوى إدراكه .

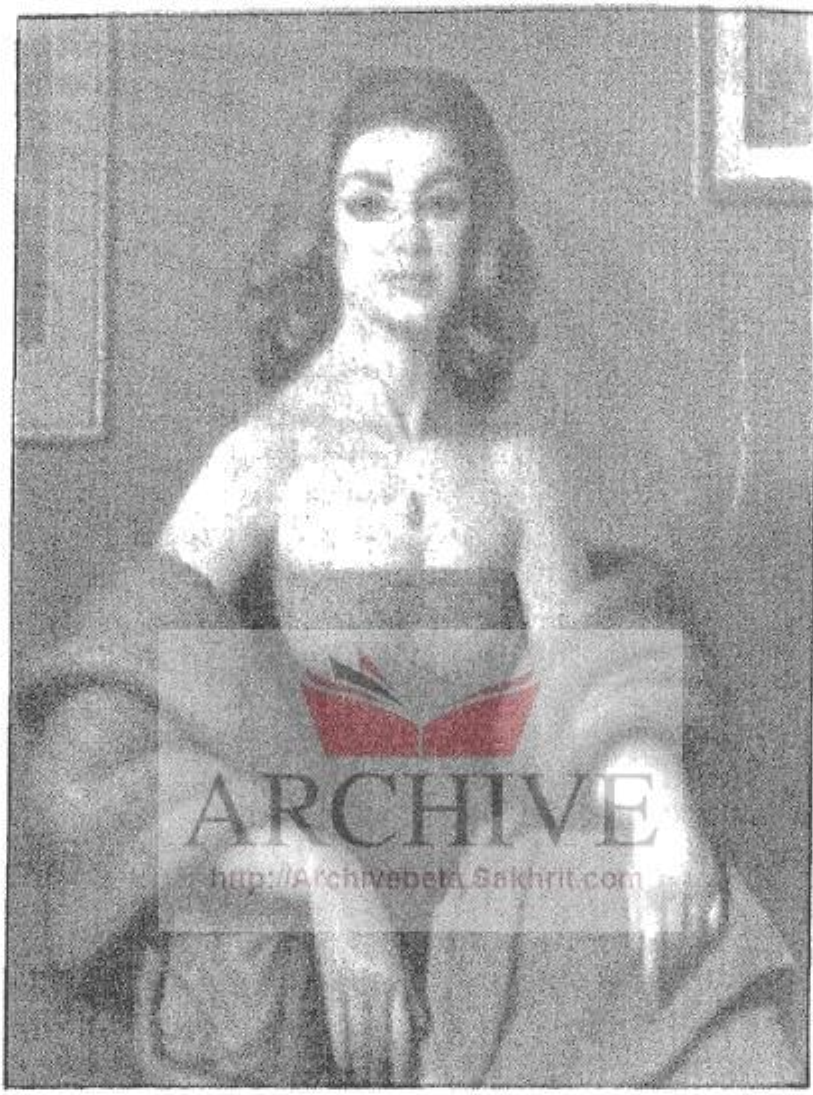
وكان حماس بيكار لأهمية إرتباط الفنان بالمجتمع ، والدور الذى يمكن أن يؤديه لتطوير الحياة الثقافية دافعاً له لكى يستقيل من منصبه كأستاذ ورئيس لقسم التصوير بكلية الفنون الجميلة .. ومنذ عام ١٩٥٩ - ومن خلال عمله الجديد فى دار أخبار اليوم رساماً وكاتباً وناقداً - أصبح وجوده مميزاً وتأثيره واضحاً على ساحة الصحافة الفنية .

العزف بالألوان

فى عام ١٩٢٨ كان بيكار ضمن أول مجموعة تلتحق بمدرسة الفنون الجميلة العليا بعد انضمامها إلى وزارة المعارف العمومية فى نفس العام ، وقد تخرج منها عام ١٩٣٣ متفوقاً على أقرانه ، مبشراً بموهبة فنية واعدة . وكان للفنان أحمد صبرى أحد جيل رواد الفن المصرى (١٩٨٩ - ١٩٥٥) عظيم الأثر على فناننا الذى يعد خليفته وتلميذه النجيب . واستمر هذا التأثير واضحاً فى أعماله لفترة طويلة قبل أن يستطيع الإفلات من سحر أسلوبه . ومن لوحات أحمد صبرى الشهيرة لوحة عازف العود - التى صور فيها تلميذه فى صدر شبابه منحنياً على عوده . ولقد كان يجمع الأستاذ والتلميذ حب الموسيقى ، فأحمد صبرى كان يتمتع بموهبة غنائية وله صوت رخيم وانعكس ذلك على فنه فزاده عذوبة وتألقاً ، كما كان بيكار عازفاً يمتلك رهافة الإحساس بالنغم واللحن الشجى ، وهو عازف ماهر على العود وعلى الطنبور وعلى آلة البزق وهى آلة قريبة الشبه من العود ، يستخرج منها بيكار بحساسيته ألحاناً غاية فى الرقة .

ولقد تنوع إنتاج بيكار الفنى ، فهو بعد أن تخلص من الشكل الأكاديمى الرصين لأستاذه ، متأثراً فى ذلك بقدرته





● صورة شخصية لسيدة (بورتريه) للفنان حسين بيكار

● صورة شخصية (بورتريه) لمدير الجامعة الامريكية بالقاهرة

على التواصل مع الاتجاهات الفنية الحديثة التى توالت على الفن المعاصر ، وكان لها صداها المؤثر فى مصر ، وتمثلت فى الجماعات الفنية المختلفة التى أثارت صخباً واسع النطاق بين المثقفين مثل جماعة الفن والحرية وجماعة الفن المعاصر وغيرهما ، وربما لا يعرف الكثيرون أن بيكار كان من أوائل الذين قدموا تجارب مغرقة فى التجريد ، وهى محاولات لم يقتنع الفنان نفسه بها فسرعان ما أهملها . وإن كان قد لجأ إلى تبسيط عناصره تبسيطاً شديداً ، وعدّل فى نسبها واختصر تفاصيلها ، وفى أحيان أخرى أدخل على أشكاله المختزلة عناصر رمزية أضفت عليها مسحة صدفية وقربتها من عوالم ميتافيزيقية مدحية . وقد أبدع بيكار تحويراً فنياً أصبح سمة على فنه ، وملمحاً من ملامح شخصيته التى جذبت بسلاستها ورقتها مريدين عديدين .

ومع هذا التنوع فى الاتجاه ، والتنقل بين المدارس ، فإن اتجاه بيكار المميز الذى يضع فيه خلاصة فنه ، ويبدعه بهوى حقيقى ، هو ذلك الإنتاج الذى يعتمد على أسس واقعية ، يستخلص منها الفنان بحساسيته الفائقة أنغاماً لونيه وتشكيلية ، ويستعرض فيها مهارته وحذقاً وأستاذية قل أن يمتلك مثلها الكثيرون .

فن (البورتريه)

بدأ ظهور هذا الفن فى مصر مع قدوم الحملة الفرنسية ، حين قام المصورون المصاحبون لها برسم لوحات لوجوه علية القوم والمشايخ ، وكان رسمهم التسجيلى الذى يهتم بإبراز التفاصيل الدقيقة وتجسيمها سبباً من أسباب انبهار المصريين بهذا الفن الذى يحاكى الواقع فتبدو اللوحة وكأنها ستنطق من فرط محاكاة الواقع . وتخطى المجتمع المصرى حينذاك الحاجز الدينى الذى كان يمنع تصوير الكائنات الحية ، وما لبث الفن الجديد أن انتشر رويداً رويداً حين أكده الفنانون الأجانب المقيمون فى مصر الذين سبقوا ميلاد الفن المصرى الحديث .. وعلى أيدى جيل الرواد تأكدت شعبية هذا الفن وأهميته ، وأسبغ عليه الرعيل الأول طابعهم المصرى والروح المحلية ، فكانت إسهامات محمود سعيد ومحمد ناجى ، وكان هناك أيضاً محمد حسن بقدرته الأكاديمية العالية ، ثم أحمد صبرى الذى كان بحق أستاذاً فى هذا الفن ، ومن منا لا يعرف صورته الرائعة للراهبة وهى من روائع الفن المصرى الحديث . وقد قدم هؤلاء جميعاً نموذجاً لا يقل - روعة وجمالاً وحساسية وقدرة على التعبيز عن الوجوه التى رسموها - عن أمثالهم من الفنانين الأوربيين .

وجاء حسين بيكار من فنانى الجيل الثانى فبزغ نجمه وتألق فى هذا الفن ، واستطاع أن يحذو حذو أستاذه أحمد صبرى فى روعة أدائه ونعومته ،



من أعمال بيكار عن دور المرأة فى المجتمع ...

وأصبحت له مدرسته فى هذا الفن التى تؤكد على إبراز سمات العقل والجمال الوقور المنبعث من الوجوه ، مع التسجيل الذكى للملامح فى اختصار بليغ للتفاصيل ، والوضعات الرصينة للنموذج واستقرارها وشموخها .

موضوعية الناقد

كانت وما زالت كتابات بيكار فى نقد الفنون التشكيلية فى ركنه الأسبوعى بجريدة الأخبار (ألوان وظلال) هادياً ومرشداً للقارئ العادى الذى يسعى نحو تنمية تذوقه للفنون التشكيلية ، كما كانت فى نفس الوقت مثار انتباه وموضع تقدير جموع الفنانين الذين يبحثون لهم عن تصبير فى الصحف اليومية يقدمهم للجمهور العريض ، ويقرب أعمالهم للمتذوقين ، ويعرضهم فى قاعات العرض الخالية .

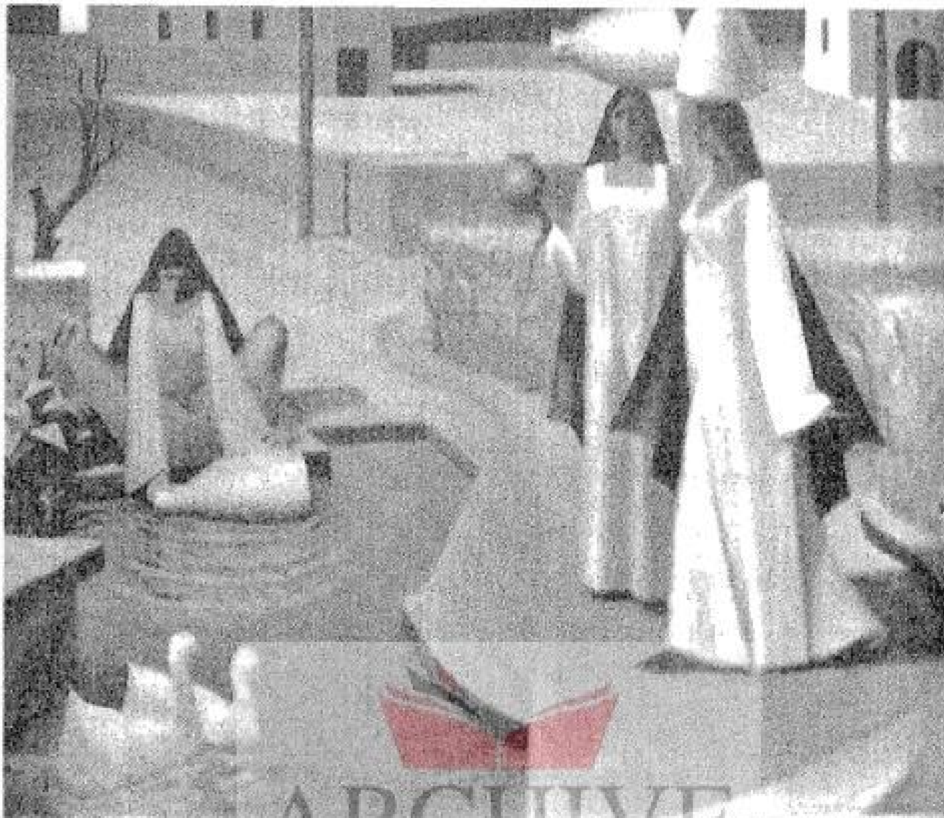
وخلال عشرات السنين كان لبيكار سبق اكتشاف النجوم ، والأخذ بيد المبتدئين من شباب الفنانين ، وكانت كلماته محل جدال ونقاش واسع النطاق فى دوائر الفنانين ، وهو بهذا الدور - الذى خلع فيه رداء الفنان وارتدى قناع الناقد - قد أثار منطقة مظلمة من حياتنا الثقافية قبل أن يطرقها الكثيرون . وكانت موضوعية ونزاهة أحكامه موضع تقدير الجميع ، فمهما اختلفت حول بعض آرائه فى الفن ، إلا أنه لن يخفى عليك أن تلك الآراء لا تصدر عن هوى ، فهو

يعتلى منصة النقد بضمير القاضى النزيه وروح المعلم الأستاذ .

وحين حاورته ذات يوم فى خطورة تشجيعه لبعض المبتدئين الذين ما زالوا فى رأيى يفتقدون إلى مقومات الفنان وضرورة تعميق خبرتهم الفنية قبل عرض أعمالهم ، وأن ذلك التشجيع يمكن أن يعود بالضرر على تكرينهم حين يندفعون إلى الإنتاج المتعجل ، فأوضح بيكار أن حركة الفن التشكيلى فى مصر ما زالت وليدة فى حاجة إلى إحتضان ورعاية وتشجيع ، وأنه ليس من أنصار النقد القاسى الذى يمكن أن يولد الإحباط والنكوص ، وأن الفنانين فى حاجة إلى الكلمة الطيبة الهادئة لأنهم فى جميع الأحوال يفتقدون إلى تقدير المجتمع ورعايته ، فهم كمن يحرثون فى البحر ، فليس أقل على الناقد من أن يزيد من جرعة حماسه فإن ذلك يؤدى بالتأكيد إلى مزيد من الإحساس بالمسئولية ويدعو الفنان - مهما كان مبتدئاً وغير مكتمل - إلى مزيد من الإتقان والإجادة .

وفى هـذه الظروف جاء نقد بيكار نقداً إرشادياً هادياً ومشجعاً ، وهو نقد إنطباعى لا يتبنى وجهة نظر نقدية صارمة ومحددة ، فهو بأسلوب ومنهج المعلم كان قادراً على تبنى عدة اتجاهات فنية متعارضة ، وتشجيع تيارات متباينة . فهو مع مفهوم التجريد والتحديث واتباع أشد الصيحات الفنية تطرفاً ، ويطلق على صاحب هذا الأسلوب وصف الطائر المحلق فى أجواء الفضاء لا تحده أرض أو تعوقه حواجز ، وهو أيضاً مع التأصيل بالاعتماد على الواقع المعاش ، واستلهام فنون التراث الفنى للبلاد عبر حضاراته المختلفة ، ويرى فى هذا التأصيل منطلقاً نحو العالمية . وربما كان ذلك الموقف الذى يحتوى كل التيارات يصدر عن قدرة بيكار الموضوعية على استيعاب كل ما هو جاد بصرف النظر عن قولبته وتحديد اتجاهه . وقد جاء نقده فى صياغة أدبية رفيعة ، فلغته العربية جزلة جميلة ، وإيقاعها مريح موزون ، ومفرداتها ذات معنى واضح مألوف ، وقل أن تجد بين كتابنا ذلك الأسلوب الرشيق إذا كنت عاشقاً لجماليات اللغة العربية وأناقة التعبير بها .

ولقد صدر لبيكار كتابان واحد عن أستاذه المصور أحمد صبرى يعد بمثابة لمسة وفاء لأستاذه ومعلمه ، والثانى عن مجموعة من الفنانين المصريين والأجانب تحت عنوان (لكل فنان قصة) وليته يجد من الوقت ما يمكنه من جمع مقالاته التى صدرت خلال السنوات العديدة الماضية وتناول فيها معارض الفنانين بالنقد والتحليل ، فتكون مرجعاً أميناً لكل من يريد أن يلمّ بتاريخ هذه الفترة الزمنية الممتدة .ومما يثير التأمل أن إنتاج بيكار فى أىّ من المجالات التى طرحها لم يؤثر بالسلب على باقى إبداعه فى



منظر ريفى يوضح التبسيط الهندسى فى أعمال بيكار

المجالات الأخرى ، فقد ساعدته شخصيته المتوازنة على أن يستخلص من أسلوبه كمصور ما يساعده على تفهم أدق الأسرار التقنية للأعمال الفنية حين يراها ويتصدى لها كناقد ، وعلى صياغة مبسطة لكنها مقتدرة للرسوم التى أنجزها لكتب الأطفال. ومن ناحية أخرى ساعدته تلك الرسوم على تبسيط أسلوبه كمصور فزادته سلاسة ونعومة ، وهو أيضاً كناقد إستطاع دائماً أن ينظر إلى نفسه فى الحالتين بموضوعية ، وأن تأتى خطراته دائماً حذرة متمهلة ، فحفظ لنفسه بذلك تلك المكانة الفريدة فى حركة الفن المصرى المعاصر كفنان وكناقد معاً .

القدس عربية

بعبق قداستها .. ورائحة حجارتها !!

بقلم : محمد هيكل

● لماذا القدس الآن ؟

هل لأنها فى القلب تفاصيل أنبياء ، وشهداء ، وهى كتاب البشر ؟

أم لأن الرسول الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم) قال عنها : « من صلى فى بيت المقدس ، فكأنما صلى فى السماء » ؟

أم لكونها المدينة الشامخة التى قال عنها عطاء الخرسانى : « بيت المقدس ، بنته الأنبياء ، وعمرته الأنبياء ، والله ما فيه شبر إلا وسجد فيه نبى » .

أم لأنها فى الاجابة الحاسمة عند محمود درويش : « لأننى لم أتمكن من احصاء التلال التى يدخلها الزائر من جرح قديم ، كما يدخل أقبية القلب ، ولأنه لم يولد إلا من دمه ، أمن هذه الحجارة تأتى الريح ؟ ومنها أنحت القلب وأعلقه على هذه الصخرة الطائرة ، لأنسى يمينى إذا نسيتك ياأورشليم !

إذن .. ومن خلال موقف مبدئى : علينا أن ندافع عن وطن الفكرة ، وأرض العرب ، وكتاب البشر .



من هنا : أتوجه إلى القدس ، اغسل قلبى بها ، واضىء عقلى بحجر مقدس منها ، لأن حجارتها أعطت لرائحة البخور لونا ، لأنها بيت الروح .

أتوجه إلى القدس – فى هذه المرحلة العصيبة من كفاح الشعب العربى – لأبحث عن نكهة التاريخ والنار التى تحك الدم فى كتب الأولين ، وأقول مع محمود درويش : « على هذه الأرض ما يستحق الحياة ، على هذه الأرض ، أم البدايات ، أم النهايات ، كانت تسمى فلسطين ، صارت تسمى فلسطين » !

● مبادىء ثابتة

.. وهناك مبادىء ثابتة عند النظر إلى قضية القدس :

– أولا : قضية القدس يجب ألا تدرس إلا فى ضوء القضية الفلسطينية – ككل – والقضية العربية فى صراعها مع الصهيونية .

– ثانيا : إن قضية القدس ، قضية قومية وسياسية بالدرجة الأولى ، وفى اتجاهات الصهيونية نحوها بصفة خاصة .

– ثالثا : إن الاهتمام الدينى بالمدينة لا ينفى عروبتها ، كما برهنت الشواهد التاريخية على ذلك .

– رابعا : كما أن الاهتمام الدينى بالمدينة لا يتناقض مع عروبتها ، أسوة بأى مدينة أخرى فى فلسطين أو خارجها .

– خامسا : إن الحفاظ على المدينة المقدسة وآثارها الدينية يلتقى – دوما – مع عروبتها .

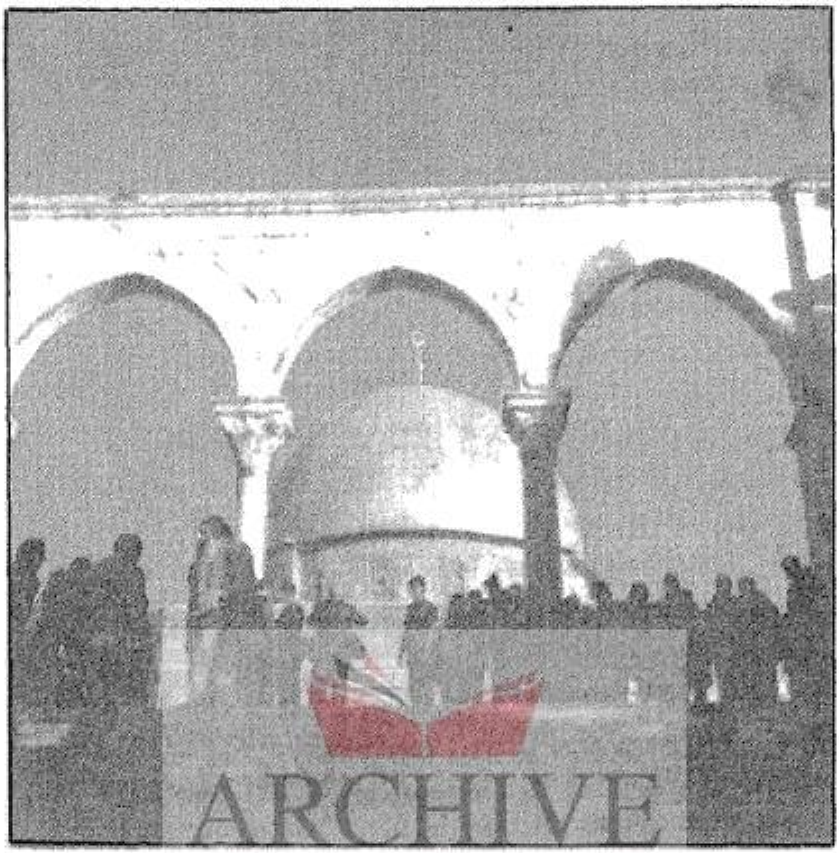
وإذا كان الإسلام – على وجه الخصوص – يخطب من القدس عروسا – كما يقول عماد الدين الكاتب الأصفهانى – ويبذل لها فى المهر عروسا ، ويهدى بشرا ليذهب عبوسا ، ويسمع صرخة الصخرة المستدعية المستعدية لاعدائها على اعدائها وإجابة دعائها ، وتلبية ندائها ، وإطلاع زهر المصابيح فى سمائها ، وإعادة الإيمان الغريب منها إلى وطنه ، ورده إلى سكونه وسكنه ، وإقصاء الذين أقصاهم بلعنته من الأقصى ، وجذب قياد فتحه الذى استعصى .



● برهنت الشواهد التاريخية أن الاهتمام الديني بالقدس لا يلغي عروبتها

لذلك .. فقد ميزت هذه المكانة المقدسة القدس ، من دون مدن فلسطين الأخرى العزيزة هي أيضا ، ويقدر مساو على قلب كل عربي ، وإن كان افراد مسألتها وتحويلها إلى قضية شبه قائمة بذاتها ، لم يكن من فعلهم هم ، بل كان نتيجة الاطماع الأجنبية .

وبود التأكيد على أن القدس لا تنفصل عن بقية فلسطين ، وسائر مدنها وقراها وبقاعها ، في أحلامها وذكرياتها وأشجانها ، وتطلع البشرية إلى مقدساتها، سواء كانت طبرية التي ألقى السيد المسيح بعظاته حول قراها ، أو الناصرة التي انتسب إليها ، أو بيت لحم التي ولد بها .



• القدس : مدينة شجية بتاريخها ، صافية بإيحاءاتها

ومع تفرد القدس التى أصبحت على مر الأجيال مقدسة بترابها ، شجية بتاريخها ، صافية بإيحاءاتها ، فريدة بما يرقد فى ترابها من عظام القديسين والأحبار والشهداء ، ومع ذلك فهى وطن العرب ، شاركت فى صنع التاريخ العربى، لذلك فهى مدينة عربية صميمة ، سواء من ناحية اللغة ، أو السكان ، أو الأرض .

والثابت قبل أربعة آلاف سنة أو يزيد حتى نهاية العام ١٩١٨ – كما يقول د . عز الدين فودة – أن فلسطين كانت بمثابة القنطرة التى تربط بلاد العرب وسوريا من جهة ، ومصر والعراق من جهة أخرى ، ولم تقم على مر التاريخ ككيان منفصل ، أو



كإقليم سياسى له إدارته أو شئونه الخاصة ، إنما كانت جزءا من ديار الشام ، وهى المنطقة التى تحددها مراجع التاريخ العربى .

ويقول مؤرخ الشام الحافظ شمس الدين الذهبى وفقا لما جاء فى كتاب « مثير الغرام بفضائل القدس والشام للعلامة ابن سرور المقدسى الشافعى » أعلم أن حدود الشام أربعة ، فحده من الغرب البحر المالح، وعلى ساحله مدائن عدة ، وحده من، الجنوب رمل مصر والعريش ، ثم تيه بنى اسرائيل وطور سيناء وتبوك ودومة الجندل، وحده من الشرق بعد دومة الجندل برية السماوة وهى كبيرة ممتدة من العراق ينزلها عرب الشام ، فيما يلى الشرق - أيضا - الفرات ، فيخوض إلى بلاد الجزيرة ، فطوله من العريش إلى الفرات عشرون يوما أو أكثر .

● القدس فى التاريخ

وقد عرفت القدس فى بدء نشأتها باسمها القديم « يبوس » نسبة إلى اليبوسيين ، من بطون العرب الاوائل الذين نشئوا فى صميم الجزيرة العربية ثم نزحوا منها مع من نزح من القبائل الكنعانية حوالى ٢٥٠٠ ق . م أو يزيد ، واحتلوا التلال المرتفعة المدينة القديمة ، وشيدوا على أكمتها الجنوبية « جبل صهيون » برجا لحمايتها والدفاع عنها ضد العبرانيين وغيرهم من القبائل المغيرة بقيادة ملكهم « سالم اليبوسى » الذى زاد فى بناياتها وأقام تحصيناتها ، وكان أول من ذكر أسمه من ملوك اليبوسيين « مليك صادق » الذى استقبل ابا الأنبياء ابراهيم ، وقدم له الخبز والنبيذ ، وعرف عنه أنه كان محبا للسلام ، حتى أطلق عليه « ملك السلام » .. ومن هنا جاء اسم المدينة « سالم » أو « شالم » ومن ثم عرفت المدينة باسمها الكنعانى « أورسالم » أو مدينة السلام كما ذكرت كتب العهد القديم اسمها « اورشاليم » وهو الاسم الذى ما يزال يطلق عليها من قبل اليهود والاجانب .

والثابت تاريخيا : أنه عندما تفككت وحدة اليبوسيين ، وراح العبرانيون فى غزوهم ، لجأ ملوك اليبوس إلى سياسة توازن القوى بالتحالف مع ملوك الكنعانيين المجاورين ، وفراعنة مصر الذين كانوا عونا لهم ، وتشير ألواح « تل العمارنة » إلى أن « عبد حيبا » حاكم يبوس قد وضع نفسه تحت حماية فرعون من غارات

العبرانيين « الغرباء » .. وقد خضعت يبوس لفراعنة مصر منذ عهد تحتمس الثالث ، وأقام عليها حاكما من مصر عام ١٤٧٩ ق . م .. ومن الفراعنة الذين كانت لهم جولات في هذا السبيل :

– أمنوحتب الثالث ١٤١٣ ق . م .

– إخناتون والتي أصبحت يبوس أهم ممتلكاته ١٣٧٥ ق . م

– توت عنخ آمون ١٣٥١ ق . م

– سيتي الأول ١٣١٤ ق . م .

– رمسيس الثاني الذي أدخلها في حدود مصر أثر معاهدة قادش ١٢٩٢ق . م

وعندما زحف اليهود على يبوس إثر خروجهم من مصر بقيادة يهوذا واشعلوا فيها النيران ، كان سكانها ومعظم أهالي القرى المحيطة بها من أصل كنعاني ، وكانت اللغة السائدة « الكنعانية » إلى جانب « البابلية » التي كانت اللغة الرسمية للدبلوماسية والعلاقات الدولية حينذاك ببلاد الشرق الأوسط (!!) .

وقد اضطر اليهود إلى اخلاء يبوس تحت مقاومة اليبوسيين ، ولكنهم عادوا واحتلوها مرة ثانية بقيادة داوود الذي أحبها وجعلها عاصمة لملكه بدلاً من حبرون « الخليل » واطلق عليها اسمها الكنعاني « اور سالم » أو « اورشليم » غير أن اليهود لم يستطيعوا الاستمرار في الاحتفاظ بوحدتهم ، فانقسموا على أنفسهم بعد وفاة سليمان ، وقامت دولتا « اسرائيل » في نابلس ، « واليهودية » في أورشليم .

واجتاحت فلسطين بعد ذلك موجات من الغزو استمرت حتى الفتح العربي لها ، ووقعت البلاد خلالها في قبضة البابليين ، والاشوريين ، والفرس ، واليونان ، والرومان .

وفي فجر هذه الغزوات ، جاءت غزوة « نبوخذ نصر » الذي دمر هيكل سليمان ، وسبى اليهود إلى بابل ، وأصبحت القدس مستعمرة بابلية بعدها تغلب « كورش » ملك الفرس على البابليين فأخذوا في التهيؤ لغزو مصر واستعانوا بيهود السبي في بابل للتعرف على مسالك البلدان ثم سمحوا لهم بالعودة إلى اورشليم ، وأتاحوا لهم في عهد « دارا » بناء السور والهيكل من جديد .

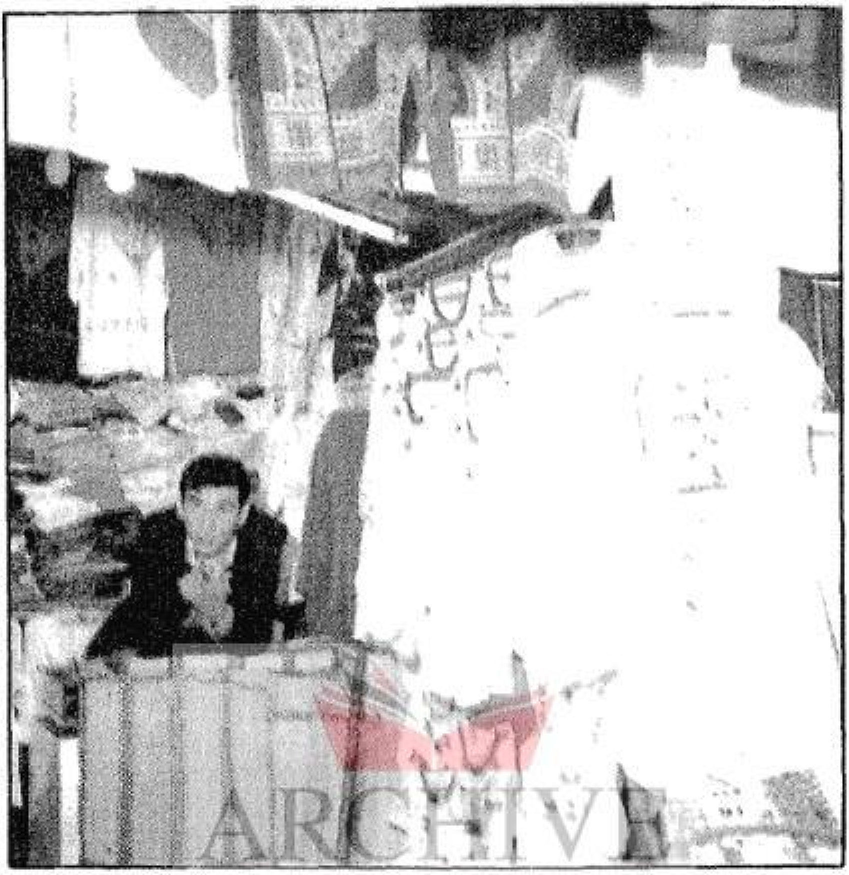
ثم جاءت غزوة الاسكندر المقدوني عام ٣٣٢ ق . م ، فترك اليهود على حالهم ، وسار مسيرته خلفاؤه من البطالسة ، ثم جاء الرومان بقيادة بومبي عام ٦٣ ق . م فألغى مجمع اليهود ، وهدم السور ، وفرض عليهم كل يوم ذبيحة أمام الهيكل تكريما للقيصر ، حتى جاء هدريانوس ١١٧ – ١٣٨ ميلادية الذي ضاق ذرعا باليهود ، فدمر المدينة تدميرا كاملا ، وحرث أرضها حرثا ، وطردهم ، وحطم هيكل سليمان للمرة الأخيرة ، وعلى أنقاض



● العبق العربي ... جزء لا ينفصل من مدينة القدس

المدينة القديمة ، بنى الرومان مدينة جديدة اسموها « ايليا » نسبة إلى الأمبراطور « ايليوس هدريانوس » .. وعندما تولى قسطنطين عرش الاباطرة عام ٣٣٠ م .. أصبحت ايليا مدينة بيزنطية ، وبنت أمه « هيلانه » بها كنيسة القيامة عام ٣٣٥ م .

ويرى المؤرخون أن هذه الغزوات قد تركت طابعها على حياة المجتمع القائم حينذاك ، فالبلاد أصبحت جزءا من الحضارة الارامية الهلينية والبيزنطية ، حيث كان الناس يتكلمون الارامية ، ويكتب المفكرون بالاغريقية ، ولكنها كانت الحضارة القديمة التى انبثقت عنها الحضارة العربية اللاحقة ، لهذا فإن حياة



● لا تنفصل القدس عن بقية فلسطين فى أماكنها وبقاعها

الناس فى تلك البلاد لم تكن إلا امتدادا للوضع الكنعانى العربى ، بما له من خصائص ومقومات فى المناخ والتعبير ، أكثر مما اصطبغت بصبغة الفاتحين .

● الفتح الاسلامى

وفى القرن السابع الميلادى ، فكر المسلمون فى فتح القدس لأسباب متعددة : دينية واقتصادية واستراتيجية ، وبعد أن انتصر المسلمون فى معركة اليرموك ، التى مهدت لهم فتح واخراج فلسطين بأسرها من حوزة الرومان ، ولى عبيدة بن الجراح وجهه نحو « إيليا » وحاصرها ، وكان لها أن تستسلم ، فطلب أهلها الأمان ، على أن



القدس عربية

يكون المتولى لعقد عمر بن الخطاب نفسه (!!) فكتب ابن الجـراح إلى ابن الخطاب بذلك ، فقدم عمر ، ونزل الجابية من دمشق ، ثم اتجه إلى ايليا ، ودخلها ، بعد أن أبلغ بطريرك النصارى بمقدمه ، فجاء حاملا الصليب المقـدس على صـدره ، فـقـابله الخليفة عمر بمزيد من الاكبار والتكريم ، وكتب له وثيقة الأمان الشهيرة ، التى أعطى فيها عمر لأهل القدس عهدا وأمانا على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم .. وجاء فى الوثيقة :

" بسم الله الرحمن الرحيم "

« هذا ما أعطى عبد الله أمير المؤمنين عـمـر بن الخطاب أهل ايليـا من الأمـان ، أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم ، فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام منهم فـهو آمن ، وعليـه مـثل مـا على أهل ايليا من الجزية ، فمن شاء منهم قـعد ، وعليه مثل ما على أهل إيليا من الجـزية ، شهد بذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبـد الرحـمن بن عـوف ومـعـاوية بن أبى سفيان » .

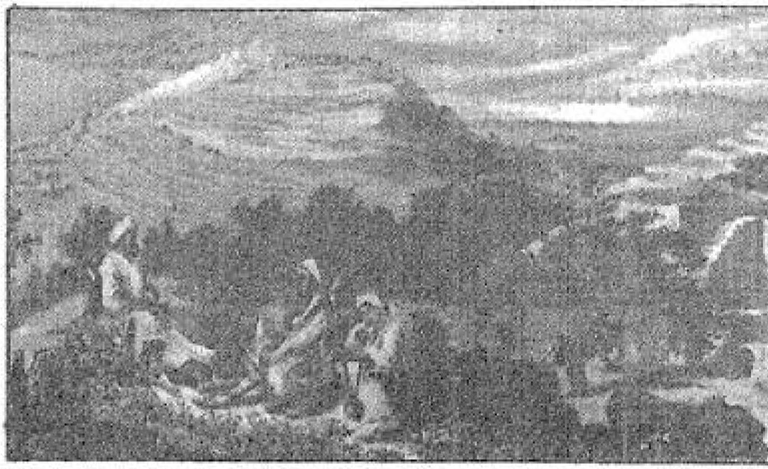
وقد أعرب أهل القدس عن رغبتهم فى ألا يسـاكنهم اليهود !! ، فاستجاب عمر إلى هذه الرغبـة ، مما يثبت أن القدس لم تكن يهودية ، كما لم تكن فلسطين يهودية ، ولم يكن اليهود سوى طائفة قليلة الأهمية .

منذ ذلك الحين سـمـيت القـدس أو بيت المقدس ، أى البيت المقدس المطهر الذى يتطهـر به من الذنوب ، ودخلت القـدس كـسـائر المدن العـربيـة فى نطاق الدول العربية ، والخلافة الاسلامـية تحت حكم الراشـدين والأمـويين والعبـاسـيين والاتراك والعثمانيين ، واستمرت المدينة المقدسة فى عروبتها ، مشتركة ومشاركة العالم العربى فى مصيره وأقداره .

وبعـد اسـتـيـلاء العـثـمـانيين على بيت المقـدس ، بعـد تغلب السلطان سليم الأول على المماليك فى معركة مرج دابق ١٥١٧ م انتقلت تبعيتها فى عـهد الاتراك من ولاية إلى أخرى حتى عام ١٩١٧ ، وإن كان قد تخللها فترة حكم فرنسية وجيزة عندما غزاها نابليون ١٧٩٩ م .

وبحلول ١٩١٧ ، وبدخـول الجـيـوش البريطانية القـدس ، دخل مـعـهم اليهود الصهيونيون متسترين بحماية ومساعدة الفاتح الجديد ، فى مـحاولة لاثبـات تاريخ احتجب احتجابا كليا منذ آلاف السنين .

وبصـدور وعـد بلفـور فى الثـانى من نوفمبر من نفس العام « ١٩١٧ » انتقلت أوراق القضيـة ، نقلة كيفية ساعدها على تنفيـذ المؤامرة بأحكام التـآمر الدولى من خلال شعور الحلفاء بحاجتهم إلى الحركة



الصــهيونية ، وبوصــول جيوش الحلفاء « انجليز ، فرنسيين ، ايطاليين ، يهود » إلى القدس فى صبيحة ١١ ديسمبر ١٩١٧ وقف أمام باب الخليل « اللنبى » ليذيع على الناس بيانا أعلن فيه الأحكام العرفية لضرورة حربية ، وإن كان قد ذكر أن المدينة « محترمة » بأديانها الثلاثة ، وترابها مقدس فى نظر المتدينين !

على الجانب الآخر ، لم تتوقف المقاومة الوطنية ضد الغزاة ، وارتبطت الحركة الوطنية الفلسطينية منذ هذا التاريخ ، بالحركة الوطنية العربية فى معظم الأقطار العربية ، والتى عبرت عن نفسها من خلال النهضة الفكرية منذ أواسط القرن التاسع عشر ، والتى سرعان ما اكتسبت طابعها السياسى الأمر الذى يؤكده الكاتب الليبرالى جيفريز بأن عرب فلسطين كانوا من أبرز منظمى الجمعيات السورية السياسية ، والحركة العربية الوطنية عموما ، وعلى حد تعبيره : « صُنّف عرب فلسطين كبقية الشعوب الموضوعة تحت الانتداب باعتبارهم ليسوا بقادرين على أن يقفوا وحدهم فى ظروف العالم الحديث الفوار بالنشاط » !

.. ومازالت المدينة المقدسة التى صمدت على مدى ثلاثة آلاف عام فى وجه التيارات الغربية ، والقوات المعادية ، صامدة فى وجه العدوان الاسرائيلى ، تدافع عن ترابها العربى بحجارتها ، وعن مقدساتها الدينية بأظافرها ، مادام بها أمهات تلد الأمل والحلم المعقود على التحرير ، وما دام بالقدس مطر وأجراس وشموع تنير ظلمة الاحتلال ، لينقشع ، مادام هناك فجر طالع على الأرض المقدسة ، لأن بها ما يستحق الحياة .



أغنية شرقية

قصة: إدوار الخراط

كان فريد الأطرش ينوح بشجنه المصنوع على شاشة التليفزيون.

وكنت محموما أخوض غمار هذيان شتوى عنيد.

شفتا المطرب الذى مات من زمان مازالتا شفرتين لا لحم فيهما وتسيلان بميوعة عذبة، وهو يخرج لنا أحشاء قلبه المفرغ فى دوزنة العود وشجى الكمنجة المتهافت.

أحبابنا ياعين
راحوا وفاتونا

كنت أراه، أحيانا نادرة جدا، أحييه فى السلم النظيف الهادئ، فى بيت شارع فرنسا إذ يدخل ليسلم وأنا عند صديقى أنطوان وأخته أوديت وأرليت شكر الله

كانت رائحة الطبيخ الشامى - الكبيبة أوكباب الحلة أو الحمص بالطحينة - تفوح منه، ومن البيت كله، رغم الكرلونيا الثقيلة، والبريانتين اللامع وأناقة الكرافته المعقودة على سنجة عشرة والحظة العمومية التى تشى بشياكة موظفين على قد حالهم، فى شركات مثل كومبانية النور ليبون أو شركة الملح والصودا. هم دونجوانات قشرة عبرة، ليس فى دخيلتهم إلا حسبة القرش والمليم، نقداً وعاطفة على السواء. لعب البوكر حتى الصباح ليلة السبت، الرقص مع البنت - أى بنت - فى النادى اليونانى - وليس فى النادى السورى - أو كازينو الأمبسادير.

خرج إلى جورج من الشاشة المهتزة بخطوط النور الملونة

هل كان اسمه جورج، هنرى، جوزيف، أم ماذا؟

بعد أربعين سنة، كان معى، يغنى.

الخالق الناطق فريد الأطرش، قامته القصيرة والبنطلون الواسع أبو حمالات المشدود عاليا على وسطه الممتلئ، جاكتته الضيقة، والنظرة الزارحة

بحسابات حسية .
وخرجت معه أوديت ،
بعد أربعين عاما .
كأننى رجعت إلى بعد
ظُهْريات الشتاء المتأخرة ،
أصحو من وخم النومة
الدافئة فى بيت شارع
ابن زهر ، وأنزل - كما
أنزل كل يوم تقريبا -
آخذ ترام راغب باشا
الذى يتهادى لامعا
ونصف فارغ لغاية
المنشية ، ثم أمشى
محاذرا أن يَتْرَبَ حذائى
المصقول بالورنيش
بعناية ، مازالت له رائحة
خفيفة ، وانسرب فى
الشوارع الجانبية
الواسعة ، بعد شركة بيع
المصنوعات وقبل زنقة
الستات بالضبط ، حتى
مدخل البيت الذى أجده
منيرا بلمبة كبيرة خافتة ،
والزرع اليانع على
ناصيتى السلم فى
الفسحة الواسعة ، كبير
الورق فى أصص
نحاسية تنعكس على
صفرتها الزاهية
بإشعاعات نور السلم .

أوديت تفتح لى الباب ،
هى التى تفتح دائما
تقريبا ، كأنها تعرف وقع
خطاى على الدرج ، أو
تنتظرنى فى هذا الموعد
بالذات . تعطينى يدها
الصغيرة الحانقة
الأصابع ، وتضغط على
يدى بنصف ابتسامة فى
عينيها الصغيرتين
الحادتين ، فقط . هذا كل
التواطؤ الذى بيننا ، دون
افصاح .
كان جورج ، أذن
(سوف أسميه جورج)
عندما يدخل ينظر الىّ
نظرة متآمر ساكتة . كأنه
يقول : نحن نفهم أحدنا
الآخر ، أليس كذلك ؟
ما أقل حصاد
الصبابات الحسية الذى
جنيته من كل هذه
الحكاية ، مع ذلك .
وما كان أكثر التحوط
والعناية بألا أتورط .
لقاءات ، فى سياق
أفلام جان كوكتو وجان
ماريه ، فى عتمة سينما
فؤاد ، يدى على حجرها ،
أو الشاى فى حديقة

التريانون الصغير أو
كأس نبيذ أبيض فى برج
الاسكارابيه الذى تحول
الآن إلى برج السرايا ،
على حافة غواية البحر
الزرقاء الضارية ، وهى
ساجية تومض فى آخر
الظهر .
فقط .
لم أعرف أبدا طعم
الشفتين الحساستين
الرقيقتين والفم الذى لم
يقل لى أبدا كلمة حب .
لم أعدها قط بشىء
من ناحيتى ، ولم ألّح ،
حتى ، إلى أكثر من هذه
الصداقة الغريبة التى لا
هى غرامية ولا هى بريئة
تماما ، والتى كنا نداريها
ونساتر بها ، مع ذلك .
حبيب العمر حبيتك
وضيعت معاك عمرى
ما وجهك ؟ من أنت ؟
تنهضين من القبر ،
قبر الذاكرة أم القبر الأم
الرءوم النهمة إلى ثوى كل
أبنائها وبناتها فى
حضنها الرطيب ؟
رأسها الدقيق مهدل
الجلد قليلا ملىء

بالغصون ، رأس خفاش، مدور بعينين لا يغمض جفناهما أبدا .

أما جسمها الذى لم أعرف طلاوته قط فهو الآن بين ساقى ، ناعما ، ناتىء الثديين ، صلب المكسر . عشتار الاسكندرانية رخامية القوام قد غرزت فمها تحت جلدى ، تمتص دمى.

أضرب فى التيه والهذاء ، أكثر من أربعين خمسين سنة ، تقفين إلى سريرى الآن ، لا تتكلمين، وغناء المطرب الجار الموظف الشامى يلفنى بطواياه ، مازال يرثى ضياع العمر .

أنت الآن معى ، فى سوق الطويلة ، بين ضجيج بيروت ونداءاتها . فجأة أجد نفسى أمام هذه السيدة التى تجعد وجهها ، ضربته الأيام ، انحنت القامة الممشوقة ، الرشاقة أصبحت جفافا ، لم يعد من أثر فى ملابسها أى أثر لصناعة الأناقة التي كانت - ولعلها مازالت - تكسب منها عيشها ، حروف كتابة لم تكتمل قط ، بالابرة والخيط ومكنة سنجر التي طالما سمعت وشيشها الرتيب فى بيت المنشية الصغيرة .

عيناها مسددتان الىّ ، بلا صوت ، بلا كلمة .

أقف ، جامدا غير قادر على حركة أو على صوت ، فى زحمة الناس، صريع نظرة متّهمة خرساء . مطوح بى فى بيداء موحشة ، من ألم الخذلان .

مازالت معى ، نفسها قوى على وجهى ، حضورها مصمّت ، وهى على رأس سريرى ، لا تتكلم ، ولا تنصرف . وجهها شبكة من الخطوط الدقيقة ، فمها كأنه قد أغلق إلى الأبد ، وسقط ، وكانت الوطاويط ترفّ حواليها ، تعلو وتنساب وتنقض بسرعة خاطفة ، تهفّ علىّ قريبة أسمع احتكاك جناحيها ، وتخفى . .

وجدت العَرقَ يتفصد باردا ، وقلبى ينطبق . لم أطلق الرقاد ، نهضت والغثيان يأخذ بخناقى ، ويرتفع فى حلقى . أحسست الدم بطيئا فى جسمى كله ، لا يكاد ينبض . أجاهد القىء الذى لا يجىء .

الهواجس القديمة الماثلة أنا فريستها طيعة ومضحاة .

صرختى بالليل أسمعها أنا وحدى . أسمعها . مازلت أسمعها تملأ سمائى الليلية المطبقة .

مركب الفجر مشدود الشراع ، واقف على ثبج الموج ، ينشد مرساه بلا وصول . أين نقطة انبثاق الشمس من حد سكين الأفق المسنون ، ملبداً بالاحمرار .

أتعثر وأقع بين حجارة مرمية حوالى على فراشى الذى تندى بأشواقى غير المروية

إثم
متكرر
قديم

أحلام قديمة مكسورة الكتابات عليها قد أمحت .

أريد أن أطلقها أن أطلق هذه الصرخة فى الليل الصرخة الطويلة الممتدة حتى الآخر عالية حتى أطباق السماء العلى أطلقها بلا حساب ولا تحوط بلا انتهاء أعلى وأطول ما تكون صرخة بلا قيود ، لا تنتهى بملء الحلق ملء الصدر ملء الوجود الساقط تحتها أنقاضا .

أعرف أننى لو أطلقتها ، لو أنها دوت بالفعل فى الليل ، لو سمحت لأحد - أى أحد - غيرى أن يسمعها ، فلن تتوقف أبدا ، سترتفع كالسيل ، صرختى فى الليل ، وتأخذ معها كل الحواجز والضوابط والسدود سوف أفقد فيها كل شىء وسوف أترك عندها كل شىء سوف أضرب بجناحى نسر مكسور فى فجر حرية الجنون التى بلا كبِاح .

احبسها اذن أكتم نارها . سد أذنيك عنها .

راقصة مشهورة تملك طائرة خاصة ، اعتادت أن تذهب إلى باريس لليلة واحدة تزور خلالها الكوافير لعمل بديكير ، ومانيكير .

عندما وصلت إلى مطار النزهة باسكندرية نصف ساعة قبل الموعد ، لم أجد أحدا ، لا موظف من شركة الطيران ، لا طائرة ، لا أحد . جاء جندى حراسة : « الطيران اتلغى يابيه ! » ، ثم جاء أفندى يرتدى شبشبا زنوبة : « اجراءات أمن لمدة أسبوع بس ! » .

وتم القبض على محمد المهدى عيسى نصر ٣٨ سنة وهو يعرض ابنه محمود المهدى ٣ سنوات للبيع مقابل ٢٠ ألف جنيه .

وقضت محكمة بولاق الدكرور بحبس سالى طالب الطب الذى تحول إلى فتاة ، هى وزوجها بالحبس شهرا مع الشغل لاعتدائهما على جارهما بالضرب .

رفع عدد من مودعى شركة والى لتوظيف الأموال دعوى قضائية على وزير الداخلية ومأمور قسم العجوزة بتهمة تسهيل هروب صاحب الشركة اللواء والى ، إلى خارج البلاد . كان اللواء قد استولى فقط على ٤ ملايين دولار من ٣٠٠ مودع حرروا ثلاثمائة محضر شيك بدون رصيد فى نيابة العجوزة .

قوات الأمن بالدقهلية ألقت القبض على ٦٦٠٥ من الهاربين من تنفيذ الأحكام ، منهم جنايات ٣٨٢٠ ، فقط فى بحيرة المنزلة .

وتوفى يوم ١٧ أبريل ١٩٩١ فى باريس رجل الأعمال عبد اللطيف أبو رجيلة زوج السيدة

زيلينداسكولاتش بايطاليا وحفيد المرحومين متولى أبو رجيلة وحسان باشا عبد المنعم .

وأمرت نيابة الجمالية بإحالة أحمد حسن متولى ٥٢ سنة إلى محكمة الجنايات لأنه قام بحرق سيد متولى ابنه الاكبر ١٤ سنة لسرقته ٢٠ جنيها لشراء أفيون .

وأحصت منظمات الإغاثة الدولية ما بين ثمانية إلى تسعة ملايين سوداني يعانون المجاعة . ولم تُحصِ كم منهم مات جوعا .

عزيزى أحمد

لم أرسل لك قط هذه الرسالة ، هل وصلتك ؟

ليست هناك أبداً نهايات .

ألم تصل بعد إلى هذا اليقين اللا يقين ؟ أم أن هناك فينا ، دائما ، ذلك النزوع الرومانتيكى نحو الفردوس الموعود (أو المفقود) أو حتى نفحة منه ، ترد الروح الصدى ، يراوغنا دائما ، ونراوغه . وحتى وهم الانجاز على ندرته ومشقته التى لا تطاق ، حتى هذا ليس فيه إلا التعرّض للعراء .

فهل نحن نشيخ ؟ أم هى مراهقة لا برء منها - نسميها أحيانا براءة وبكارة متصلة لكى نعطيها نبلا مزعوما ؟

كلامك عن الغربة التى تحملها معك ، لا فى حقيبتك بل بين جنبيك ، يؤرث جرحا قديما لا يندمل . هذا يجرى مجرى الطبع الآن .

ولكن ماذا بعد ؟ هل علينا إلا أن نأخذ الثور من قرنيه - كما يقال - حتى لا تطأنا - نهائيا - حوافره ؟

قد وطئنا الميناتور حقا ، وغرزنا ، بعمق ، غصبنا تحت ثقله فى أرض الوطن الوحيد الذى نعرفه ، وطن الغربة .

السحب البيضاء الخفيفة ، ممزقة ، قطع من الجسد الأنثوى الذى أعرفه ، هوائية ، تدخل من نافذتك لتخرج إلى سماء منمنمة بالشجر والزروع . النافذة مفتوحة، ومغلقة ، ليس لها إلا إطار خشبى ، لا جدار ، لا أرض . لا سقف . كأنها وطنك الوحيد ، غربتك النهائية .

جاءوا إلىّ من وراء أربعين خمسين سنة ، شيوخ لا أعرفهم ، اغتصبوا أسماء أصدقاء الصبا والشباب ، تلبسوا جسمهم وملابسهم وانتحلوا تاريخهم القديم؛ مهتزين ، متهدمين ، يتباهون - بشكل مثير للغضب - بإنجازات حياتهم المسكينة . أنهم تزوجوا وخلفوا واشتروا شققا لبناتهم ورتبوا وظائف مريحة لأبنائهم ، أنهم وصلوا إلى درجة مدير عام وأن رصيدهم فى البنك لا بأس به وأنهم يقرأون « الاهرام » . عيونهم صدئة ليست فيها نيران الاستبسال والاستشهاد القديمة . كم منهم ضاع منى ؟ هل إذا لقيت انطوان فى أى شارع من شوارع الحياة المتبقية ، أعرفه ؟ أن كان ما زال من أهل هذه الفانية الغرور ؟ شوقى إليه - وما زال فتيا فى

إثم متكرر قديم

ذاكرتي في الثلاثين من عمره - يعدل أشواقي إلى أولئك الذين اغتصبهم غرباء، وضعوا على وجوههم أقنعة محكمة الاتقان درءا لجريمتهم. لكنهم لم يخدعوني لحظة واحدة. عرفت على الفور، وأنا آخذهم بين ذراعي، أنهم ليسوا هم، أن هؤلاء الذين جاءوا لصوص، هم الذين أطفأوا النيران التي كان من شأنها ألا تنطفيء قط، العنقاء ما زالت رمادا لم تفرد جناحيها بوسع السماء، بعد، لم ترفرف بهما فتميد الجبال وتتمايل الصروح المشيدة في المعادي والدقي وزيزينيا والمعمورة، لم تضرب بأجنحتها فتنقض البروج على الخطافين والنهابين والغشاشين ليس بعد، ليس بعد.

فمتى؟ متى؟

سحابة سوداء تعبر احمرار السماء الممزقة وعناقيد الثمار الحيوانية العطشى للدماء معلقة مقلوبة بمخالبها الحادة، أغشية الأجنحة المعقوفة سوداء مشدودة مرهفة تتذبذب مع أهوائي وشطحات روحي، رابضة على حواشيها الذهبية الداكنة.

أما أخته، جورج، فقد أنسيت اسمها تماما. أذكر فقط المشية المتقصعة والكعب العالي جدا دائما والحواجب المحرقصة دائما والعينين اللتين تندب فيهما رصاصة. وجهها نبيذي النكهة وشديد النعومة معنيا به عناية كاملة، هي أيضا كأنما تسألني، دون كلمة، ماذا تنوي أن تفعل، يعني؟ الحاحها في السؤال، دون كلمة، بعينيها فقط، اقتحام حقيقي.

كأن كل شعرة في جسمها محفوفة، بالحلاوة.

نعومتها لا تحتمل.

هل دُهن جسمها، كله، وهي نازلة من بطن أمها، بدم وطواط صغير منتزع من بين جناحي أمه، جلده مصقول ولزج وأملط تماما، يصئي بوصوصة واهنة، مذبوح بسكين حادة على نور شمعة واحدة وبخور الجاوي والدارصين والصندل. فلن ينبت لها الشعر أبدا.. تظل ملساء كالرخام الحار اللدن.

حجارة أحلامي إذن ما زالت مرمية على سريري، انقاض العمر، وعلى أرضية غرفة نومي، أتعثر فيها، وتجرح أصابع قدمي الحافيتين، وأنا أعود، بعد أن تقيأت، أخيرا، في الحمام.

أحس نفسي مستنفذا، هالكا.

ألتقط أنفاسي بمشقة.

حجارة من معابد كوم امبو وأبيدوس ودندرة، منقوشة منحوتة بالقلم العتيق . حيات وأمواج ونسور وحدأ تثب خارجة من الحجارة تدور حولي وتملأ على الغرفة أضرب الهواء بذراعي أطردها أصرخ بلا صوت ولا تنزاح بل تتجمع في سحب كثيفة تلفني وترتفع ، سوداء تئز وتطن وتتموج بثقل تخترق سقف غرفة نومي فجأة ثم تعود تهبط تنقض عليَّ .

أوقدت النار في حفرة في أرضية الغرفة وصعد الدخان إلى السقف وترك غيامات جافة من الهباب الأسود المتفتت ولكن السحابة الحية المرفرفة لم تتقشع لبدت فقط فوق رأسي لا تنجاب .

هل نجاتي وملاذي فقط هناك على شط البحر الكبير تحت هفهفة أشجار الدوم الرشيقة عريقة القوام تحت عيني أوزير الحانيتين ، أم أنني لا أعرف أن أقرأ رسالتها ؟

أستيقظنا من نومة الفجر على طقطقة الرصاص وهبدات المدافع في السماء يتردد صداها العميق بين الجبل القريب وأنفاس البحر البليلة .

كانت الستارة ، بيضاء ، نصف شفافة ، على نافذة غرفتنا المحجوزة ليلة واحدة في « أطلس » ، ملفوفة بدبابيس إبرة لاتترك فجوة بين فلقتيها يمكن أن يجرحنا منها أحد .

وكان جسمها البرونزي الحار ، عاريا ، لامعا من ندى الشهوة والغيبة ، بين ذراعي ، وتحت ساقي .

وكانت في الأخبار في صحف شارع الحمرا فاغرة الأفواه صارخة بصمت مثل جياد الجيرنيكا ضرب الجنون وشطح الحب في شوارع العالم عريدة العشق العقيم في سرائر غريبة وعلى سرر مصنوعة ومهوشة وأجنبية وحميمة .

وعشق النعمة الخصيب ؟ هل راعيت عهده وعملت بوعده ؟

كل عشق غير كامل ، مهما أكتمل ، ومهما كانت لحظته هي الأبد فهو غير قائم في الأبد . كل عشق خيانة محتومة . ذلك لايعزيني ولا يرحيني ولاشيء .

أما التمساح فقد كان مرميا على جدار شرفة بيتنا في كليوبترا الحمامات . هائل الأنحاء وحراشيفه جارحة وصلبة ، لا يتحرك ، ذيله الضخم ، مشحونا بقوة منذرة ، ملقى به ، تحت ، على بلاط الشرفة ، مهددا في جموده ، وأن كانت عيناه الضيقتان ليستا عليَّ مباشرة ، بل على النخلة الطويلة الوحيدة في الحديقة الدقيقة التي لا تتجاوز أمتاراً قليلة بين سور حديدي عال مشغول وباب البيت الذي أمامنا ، عتيقا ثقيل الشكل .

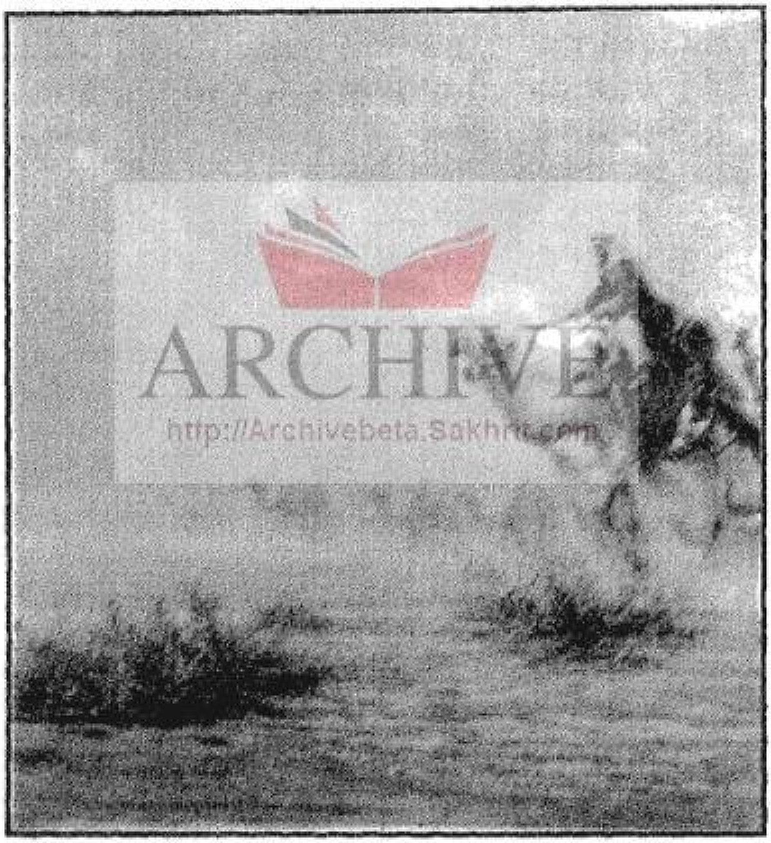
أين أنت الآن . أم أين أنا ؟ هل ضربت أيدي الليالي بيننا ؟ حقا ؟ هوالحلم يبدو كطفل غفا ، على لجة

إثم متكرر قديم

البحر عند الشفق .
ضحكت ، وسألت نفسي :
هل هو ضحك كالبكا ؟
أضحك ، أو أبكي ،
كالأوتومات ، مبرمجا ،
متوقعا ، أكاد أسمع تكة
التروس الداخلية . على
مضجع النور بين الورود ،
ويبدو كالطير لاح ثم
اختفى ، ويبدو شراعاً
أبيض .. ، قد هفا ،
كأنغام ناى بأفق بعيد .
هاها ! هو الحلم هو
العمر هو الحب هو الشوق
هو الألم أليست يداي
صفرا ، خاويتين ؟ فماذا
كنت تريد وبم كنت نريد
أن تملأ اليدين ؟
رمينا مع قروش
الأماني - ليرات معدنية
على الحقيقة - في ماء
النافورة . كنا بعد
منتصف الليل وكانت
الأضواء لنا وحدنا ،
أحيط خصرها القوى
بساعدي ومن الناحية
البعيدة أمسك بيدها
الرخصة الملينة . لم نكن
نعرف بعد أن الحب قد
قام . كنا ضربنا في
شوارع المدينة النائمة
التي تيقظت لنا وحدنا .
على غير وجهة . لاتقودنا
إلا خطى حب لم يعرف
بعد أنه هناك ، وأنه سوف
ينتزع من بين أجنحة
سوداء . صعدنا ربوات
أسفلت ندية خاوية وجرينا
أمام سفعات ريح باردة
قليلاً منعشة ومحيية
وعبرنا ساحات شاسعة
ونفذنا من تحت بوابات
رومانية عريقة وحدقت
إلينا تماثيلهم فاغرة
العينين . مضينا ، ولم
نرجع قط ، حتى الآن .
ما من شيء يرجع قط ،
أليس ذلك ؟ أليست هذه
حكمة القدماء ، دائمة
الجدة . فهل أنقضى
شيء ؟ التماثيل غسلت
بماء النيل في غرفة
نومي ، لكنها لم تعد كما
كانت ، عند ساعة
تخلقها ، أو لم تتغير قط ،
صانتها من الزمن يداي
« بحر العشق ليس له
شطآن » .
صدقت ياسيدي
الفرنوسي .
وحتى إذا لم تكن قد
صدقت ...
ماريتي رامتي نعمتي
التي لم تكن لي قط وما
كان لي قط امرأة أقرب
منها وألصق وأعمق
عضوية إليّ .
حييتها كانت تهب بها
أنفاس الريح الليلية
وحذاؤها يبدو ، في نور
المصابيح القوية العالية ،
متربا من غير تراب ،
جلده غالي الشكل ومرنا ،
قد التصق بجلد قدميها
الغض كأنه ينمو منها أو
جزء لاينفصل منها .
كانت النافورة
مفاجئة ، وكان عشقنا
مفاجئا .
كلاهما أنطلق -
كأنما بالصدفة ؟ أم بحكم
قدر لا يرد ؟ - من قمقم
ألفي ، ليبسط جناحيه
على الروح ، ويستولي
عليها .
الحجارة مازالت
تسقط من سحاب متلبد .

الجمل

قصة : سلوى بكر



قصة قصيرة
الجمل

تحولت إشارة المرور إلى الأحمر فتوقفت السيارات الكبيرة والصغيرة، وانتظر الناس بينما دبدب الطفل بقدميه وصاح وهو يشاهد جملا يعبر الطريق:

– ماما .. الجمل.

ردت دون أن تحيد ببصرها عن إعلان لقرية سياحية جديدة، شغل حائط بناية ضخمة على ناصية الشارع:

– طيب.

تابع بعينيه الكائن الضخم المهيب، برقبته الممتدة، وسنامه العالي، وهو يخطو بخطوات وئيدة، تنهد برضا ثم أعلن:

– ماما .. عاوز الجمل.

– ياسلام!

قالتها وعيناها على بيضاء الإعلان، ذات الشعر الأصفر، المستلقية على الرمال فى لباس البحر من قطعتين.

ثَنّى مطلبه، وساق عليها النبى:

– والنبى يا حبيبتى عاوز الجمل.

كانت تمسكه بيد، وتحمل بيدها الأخرى حقيبته المدرسية وكيس خضار، أما حقيبتها فقد علقتها على كتفها.

أعلنت مستنكرة بعد أن ملت انتظار نور العبور الأخضر:

– جمل .. معقول؟!

لم تغب عيناه عن الجمل حتى غاب، فشرع فى البكاء مؤكدا جديته وإصراره على مطلبه.

– وماله الجمل؟، هاتى لى الجمل وخلاص

اكتشفت جدية الموضوع، فابتسمت، وشرحت:

– الجمل كبير ياحبيبى، مستحيل نحطه فى بيتنا، شقتنا صغيرة، والجمل يحتاج لمكان واسع.

دحض منطقها بسرعة:

– خلاص .. نروح ونقعد فى بيت كبير ونشترى الجمل.

– هاهاها .. بيت كبير لأجل الجمل؟! البيت الكبير تلزمه فلوس كثيرة، أنا فلوسى قليلة.

– طيب خلّى فلوسك كثيرة.

– مستحيل يا حبيبى، لأن مرتبى صغير، على قد الأكل والشرب.

عاود الدبيب على الأرض بقدميه وصرخ:

– لكن أنا عاوز الجمل، هاتى لى الجمل وخلاص.

الشمس قوية فوق رأسها، والرطوبة خانقة، أما البيت فما زال الطريق إليه ممتدا، وصبرها فاض فصرخت هى

الأخرى :

- أنت أهبل ؟! .. حمار ؟! قال عاوز الجمل قال !! .. إخرس خالص وبعد ، خلينا نروح البيت وأشوف الطبيخ قبل رجوع أختك من مدرستها

- انفتحت حنفية الدموع عن آخرها ودعمتها صرخاته ، وهو لا يتوقف عن ترديد مطلبه - الذى رآه عادلا وبسيطا - فى اصرار :

- عاوز الجمل ياستى، يعنى ماله الجمل، نفسى تسمعى كلامى مرة وتجيبى لى طلبى .. هئ .. هئ .. هئ .

أبرزت الجانب المظلم من الأمومة ، وشمرت عن أظافر وأنياب ، وزعقت فيه :

- طيب أسكت ساكت، واقطع النفس بسرعة ، وإلا ضربتك لحد ما أعدمك العافية ، ياحمار، يا غجرى .. والله لو سمعت حسك لأضربك هنا فى الشارع وقدام الناس كلها .

بدأ يرعوى تحت وطأة التهديد ، فقد كان مدركاً تماماً إمكانية تحوله إلى تطبيق عملى ، فخفض من حدة بكائه ، لكنه لم ينهه بالكامل ؛ عندئذ رقت الأم قليلا ، وقررت اتباع الشق الثانى من سياسة المفر :

- اسكت يا بنى - الله يرضى عنك - لأنى مصدعة وجسمى يوجعنى كله ، يظهر أنى داخلة على دور انفلونزا ، اسمع ، تعال أجيب لك حاجة حلوة ، عاوز بتبونى ولا شكولاته ؟ .

كاد أن ينفلق غيظا ، إنها تستخف به ، توقف عن السير وصرخ بغضب :

- قلت لك : جمل ، جمل ، لا بنبونى ولا نيلة .

أوشكت أن تنفجر هى الأخرى ، هل تتوقف وتضربه ، أم تبتلع غيظها وتسكت ؟ .. فضلت الحل الأخير ، لكنه لم يسكت عن البكاء والمطالبة فوقع الانفجار :

- اخرس ، بلا كلام فارغ ، أنت عبيط والا صغير ؟! عندك ست سنين وتقول عاوز الجمل ؟! ، انسخطت ، ولا انسخطت ؟! ، سخطة لما تسخطك ، هو الجمل لعبة ولا حاجة بسيطة ؟! ، شئ يغيظ ويفلق والله .. يعنى ، ناوى تلعب بجمل ؟! .. هه ؟

فاجأته بسؤالها ، فهو لم يكن لديه تصور محدد لما سيفعله بالجمل حتى هذه اللحظة ، لكنه مازال يمتلك شعورا قويا جارفا تجاه هذا الكائن العظيم الفريد ، الذى توقفت له إشارات المرور والعربات وجميع الناس حتى عبر الطريق .

تذكر السنام والرقبة والعين الجاحظة ، فتنهد فى حرارة ، وتأكد من أحقية مطلبه ، فشتمها فى سره .

وجدته صامتا يفكر ، فاستأنفت هجومها المقنع

- ثم إن الجمل سعره غال يا حبيبى ، لازم

قصة قصيرة
الجمل

تخلي عندك ذوق وتعقل وتسمع كلام ماما ، حرام تتعب قلبي وتطلع روحي وهي طالعة خلقة من الحر .. الله يهديك ، إمش .

حاول هو استخدام أسلوبها ، فقال بهدوء :

– طيب يا ماما ، لكن الجمل حاجة بسيطة خالص .

أجابته بسرعة مستجيبة لحوار العقل :

– طيب .. أنت عمرك شفت أي انسان عنده جمل ، أولاد عمك مثلاً ، هل عندهم جمل ؟ .. الجيران ، أي واحد منهم عنده في بيته جمل ؟

أعقل يا حبيبي الله يهديك .

دحض منطقها بسرعة :

– الجيران عندهم كلب ، وأولاد عمي عندهم عجلة و ..

لم تعد تحتمل النقاش فزعقت مغتاظة ، حتى أن صوتها جذب انتباه عجوز كان يعبر بجانبها فنظر إليها مليا وهي تقول لابنها :

– اخرس .. خلاص .. يلعن أبو شكلك وغلاستك .

وأكد لنفسه أن أمهات هذا الزمن مسكينات وعصبيات وروحهن في مناخرهن بسبب الحياة الصعبة ، وقلة الغذاء ، وأكل الفراخ البيضاء واللحم المجمد معدوم الخير ، ثم إنه تصعب ونظر لوالدته في شفقة وسار .

الولد لم ينتبه للتعاطف الخارجي الذي كان يسير إلى جانبه ، إذ كان يسير محدقا بالأرض ، شاعرا بظلم فادح رغم عدالة قضيته من جميع النواحي من هذه المرأة المفترية ؛ مطلبه بسيط إنساني جداً : جمل ، لا أكثر ولا أقل هي تتحدث عن الناس ، الناس ليس عندهم جمال، لكن عندهم أشياء أخري كثيرة ليس عنده في البيت، فلماذا تقول الناس، وتقول أولاد عمه ؟!

قررت أن تشرب حاجة ساقعة تطفئ غيظها وشعورها بالحرارة ، لذلك فإنها بمجرد أن وقع نظرها على زجاجات الساقع وقد تناثرت فوقها قطع الثلج في صندوق بأحد المحلات توقفت وسألت ابنها :

– تشرب حاجة ساقعة ؟

لم يرد ، واستكمل البكاء والحزن وهو ينظر إليها في حقد ، فقالت له :

– انفلق . إنشاء الله ما شربت .

جاء البائع مبتسما ليفتح زجاجة ليمون ، فلما وجد الولد يبكى أخذ يلاطفه ويخيره بين أنواع

الحلويات التى لديه ، والولد لا يستجيب ، فقالت الأم بعد أن سحبت من الزجاجة سحبة طويلة بشفتيها :

– قطيعة قطعت خلفة الصبيان ، خلى روحى فى مناخيرى ، ونازل يبقوق لأنه شاف الجمل في السكة ، وعاوز أجيبه له ؟! شئ يفلق .

ابتسم البائع مرة أخرى ، وأخذ يربت على الولد ، ووجه له الكلام :

– جمل ؟ معك حق والله ، طيب أنا أجيب لك الجمل يا عم ، ولا يكون عندك أى فكر .

دخل الرجل الدكان ، وعاد بعد قليل وفي يده جمل صغير ، جمل من البلاستيك الأحمر الخفيف وضعه بين يدى الولد الصغير .

قلب الطفل الشئ البلاستيكى بيديه ، تأمله، كان على هيئة جمل فعلا قارنه بذلك العظيم ، المهيب ، الذى عبر أمام ناظريه الطريق ، بدا حائرا متردداً دهشاً من غباء الرجل ، كيف يسمى ذلك الشئ الذى بين يديه جملاً ؟! لكنه تردد مرة أخرى ، إذ كان بين يديه شئ على أية حال ، فسكت ولم يقل شيئا .

كانت الأم قد انتهت من زجاجة الليمون ، فلما وجدته هادئا ساكتاً قالت :

– الله .. والله جميل جداً .. وأحمر وحلو .

رمقها الطفل بما يشبه الريبة والاحتقار ، وواصل صمته .

– تعرف .. تقدر تحطه فوق التليفزيون ، أو تخليه ينام جنبك على السرير فى الليل .

قالت ذلك فتصاعد شعوره بالمرارة والخديعة وخيبة الأمل فى هذه الكائنة التى أمامه ، لكن بما أن هذا الشئ البلستيكى الأحمر كان في يديه فعلا . فقد واصل سكوته بينما نطق البائع بزهو المنتصر :

– العيال أقل شئ يرضيهم بسرعة ، وأفضل طريقة معهم المحايلة .

أكدت الأم وهى تخرج الفلوس من كيسها :

– طلع روحى طول السكة .. عاوز الجمل .. عاوز الجمل ، كنت ناوية أرنه علقة – والله فى الشارع من عزم غيظى ، ومنعت نفسى بالعافية .

نظر البائع إلى الولد فى رضا وحاول مناقشته :

– حصل خير ، لكن يا أخى اطلب عجلة ، طيارة ، إنما جمل ، نوقك غريب جداً ، الجمل كان أيام زمان ، بكره ينقرض ويختفى خالص .

ابتسمت الأم بسعادة من خرج من ورطة ، وسحبت الولد مغادرة المحل ، لكن ما إن ابتعدت قليلا حتى أعلن لها بصوت هادئ واثق :

– ماما .. عاوز الجمل والنبى .


حلمي التوني

قصة قصيرة

خريف في آخر أيام عم سلامة

بقلم
سليمان فياض
برشة :
حلمى التونى

اندفع عم « طه » خارجا من دار عم « سلامة » صائحا :

– سلامة مات ياحارة غضنفر . سلامة مات .

يسرع طه السير فى الحارة المتعرجة وهو يكرر صياحه بالنبأ . كان حدثا كونيا قد وقع ، وأطلت وجوه نساء وأطفال ورجال من بيوت غضنفر ، وخضير ، والحاج سليمان ، وكاعوه ، وفياض ، وتسلق رمضان منحدر الحفرة العميقة بالحارة صاعدا إلى أعلاها وجوه طينية البشرة محددة الملامح كبيوت الطين فى الحارة . قالت امرأة من آل كاعوه :

– بسم الله الرحمن الرحيم . اللهم اجعله آخر موت .

كان الموت بعيدا عن أهل الحارة ، منذ زمن بعيد ، منذ قتل الأشرار من الأعوان ، فى عزبة معوّض ، رجلين من أهل كاعوه غدرا وغيلة .

ودهش رجل من آل خضير ، لفزع طه لموت سلامة ، وحماسه فى إعلان النبأ ، وسرعة خطوه فى الحارة ، وكأنه قد عزم على إعلان الخبر للقرية كلها ، فقال له :

– الموت حق ياعم طه ، من يسمعك يظن أن سلامة من أقاربك ، وعلى ملتك .

صرخ فيه الحاج سليمان ، وكان قد غادر داره ، حين سمع صراخ طه بالخبر :

– اسكت الموت لايفرق بين ملة وملة . وأهل البلد عشرة وجيرة .

وأوسع الحاج سليمان خطوه ، نحو بيت سلامة ، فى آخر الحارة ، عند « سرّة » البلد .

❁ ❁ ❁

وجد طه امرأته « خضرة » واقفة على الباب ، فقالت لطه وهو يدخل البيت :

– على وشك مات سلامة الرجل الطيب .

التفت طه نحوها ، شاعرا بالإهانة ، ومدّ يده وصفعها على خدها الأعجف ، وقال :

- اخرسي ، وجدته ميتا . لو لم أذهب إليه لوجده غيري ميتا .

فـزعت خضـرة ، وقالت :

- تضربني يا طه . لو كان سلامة حيا ، ورآك تضربني ، لقطع لك يدك بقدومه .

طـأطأ طه رأسـه وقال :

- سلامة لم يرفع يده نحو أحد يا امرأة . منذ سقطت أسنانك وأنت تخرفين . تقولين أى كلام

وجلس طه قرب الباب حزينا ، وقال :

- يلطف الله بالبلد . يلطف الله بالبلد . فموت سلامة ليس كأى موت .

ورفع رأسه ، وقال لإمرأته :

- هاتي لي ثوبي الكشمير . المنادى لابد أن يعلن الخبر لأهل البلد .

دخل الحاج سليمان دار عم سلامة . هبط عتبتها إلى الفسحة . كانت الدار بيتا من فسحة صغيـرة ، وغـرفتين صغيـرتين ، مجرد بيت صغير ، لكنه صار دارا ، مثل بيت كبير ، لأنه كان بيتا لعم سلامة . كان يقع في سـرة البلد ، يعبره كل من يشاء ، في الليل ، والنهار ، ليجد نفسه يجتاز بابا آخر مفتوحا على النصف الآخر من البلد . وكانت الأخشاب ألواحا وعروقا وأوتادا وخوابير واقفة وملقاة ، وثمة كرة تلقى بضوء نهـاري في الفسـحة الصغيرة .

ورآه الحاج سليمان ممددا على ظهره ، في الركن المقابل للكوة ، على حصير قديم . خطا نحوه وجثا على ركبتيه . الوجه منير ، بلا أخاديد ، ملائكي الملامح . وجه بلا خطيئة واحدة ، وكأن الزمن لم يعرف طريقه إليه ، يشيع بسلام عميق ، كذلك السلام الذى أحس به وهو في فلسطين ، وهو يقدس في بيت المقدس .

وانحنـى الحـاج سليمان ، ولثم جبين عم سلامة ، وجمع بين كفيه على صـدره ، وغطى جسده ووجهه بملاءة بيضاء ، وهمس وهو يرسم صليبا وهميا على الجسد المسجى :

- في رحـاب القديسين ياسلامة .

وتلفت الحاج سليمان حوله في دهشة . وحدث نفسه : أين ذهب الأولاد في هذا الصباح . هذا الصباح بالذات ، لا أحد منهم بجانبك ، لكي تلقى الرب وحيدا . كما جئت إلى الدنيا وحيدا يا سلامة ، ترحل .

وسمع الحاج سليمان أنفاس الصمت ، فتلفت نحو الباب المفتوح أبدا على مصراعيه ، رأى

جمعا من أهل الحارة ، واقفين ، لا يجرؤ أحد منهم على نزول العتبة ، والدخول إلى فسحة الموت. ووقف الحاج سليمان ، وتوجه نحوهم قائلا :

– اذهبوا جميعا ، لا حاجة له الآن بأحد منكم ، فهو بين يدى الربّ .

وأجهشت امرأة بالبكاء ، فارتفع النواح وهم يبتعدون ، وطأطأ الرجال رءوسهم فى أسى. وردّ الحاج سليمان مصراعى الباب وراءه ، وصعد عتبة الدار ، فوجد طه أمامه واقفا يلهث

قال له « طه » :

– المنادى يعلن الخبر الآن لأهل البلد .

قال له الحاج سليمان :

– جزاك الله خيرا .

قال له « طه » :

– هو ميتنا ياحاج سليمان ، ولن تأخذوه منا.

فزع الحاج سليمان ، وصاح قائلا :

– اقصر الشرّ ياطه سلامة منا ، ونحن أهله .

قال له طه مكررا :

– هو ميتنا يا حاج سليمان ، ولن تأخذوه منا .

❁ ❁ ❁

كان صابر المنادى يسير فى الطريق الدائرى للقرية . معلنا وفاة عم سلامة ، ويتوقف أمام كل حارة زاعقا بالنبأ ، فترتجف الأبدان لخبر الموت ، ويرهف الأولاد والبنات السمع ، وينظر الرجال والنساء بعضهم إلى بعض ، ويغادرون البيوت والدوار ، إلى الأبواب ومداخل الحارات، والنبأ يسرى مع الهواء إلى من فى الحقول ، وأهل العزب والكفور المحيطة . وحين مر المنادى أمام الحاج على ابن الدرينى ، وقف الحاج على . وقال :

– يرحمه الله .

ثم ضرب كفا على كف ، وقد تنبه إلى أمر ، قائلا :

– فليلطف بنا الله . كيف لم تتوقع هذا الموقف الصعب .

تقدم الحاج ابراهيم البلهنية نحو الحاج على قائلا :

– حاج على . سلامة منا . وصلى معنا فى مساجدنا . وأنت تشهد أنه صلى معى ومعك ، فى الجوامع الثلاثة : الشبورى ، وابن عنان ، وشعير .

فقال له الحاج على كأنه يدفع خطرا لا قبل لأحد به :

– لكنه ياحاج ابراهيم ، لم يعلن إسلامه أمام الشيخ أحمد عنتر فى جامع ابن عنان ، على مشهد من الناس .

غضب الحاج ابراهيم البلهنية ، وقال عابسا :

– يعلن إسلامة ، والصلاة فى الجامع ،

معنا ياحاج على ، أليست إسلاما .

قال الحاج على بيأس ، ضاربا الهواء بكفه ضربة قصيرة :

– أعرف . أعرف ياحاج ابراهيم ، لكن ما قيمة ذلك الآن . إنه الآن ميت . والموتى أمرهم إلى الله لا إلينا .

فأكد الحاج ابراهيم قائلا :

– بعد أن يدفن ، يكون أمره إلى الله . لكن، قبل ذلك ، أين يدفن ، فى مقابرنا ، أم مقابرهم .

جلس الحاج على ، وقال بأسى عظيم :

– فى حياته ، طلبه الكل . من اسمه عيسى ومن اسمه محمد ، ودخل بيوت الكل من اسمها عائشة ، ومن اسمها مريم. حتى فى غيبة الرجال ياحاج ابراهيم . الكل كان يأمن له ، ويأتمنه . وأظنه لهذا السبب ، دخل المسجد وصلى ، وذهب إلى كنيسة ميت غمر وصلى ، وصام صيامهم ، وصام صيامنا ثم نقول نحن : هو منا ويقولون هم : هو منا . الحقيقة أنه حالة فريدة ووحيدة . فهو من الكل يا حاج ابراهيم .

ظل الحاج ابراهيم واقفا وقال :

– ذلك لا يقدم ولا يؤخر . لنا مقابرنا ، ولهم مقابرهم . فأين يدفن ، عندنا ، أم عندهم .

نهض الحاج على واقفا ، وقال :



– الأمر ليس بيدنا ياحاج ابراهيم ، فلنذهب إلى العمدة . فهو كبير البلد .

❊ ❊ ❊

كان العمدة « شكرى » جالسا على مصطبة الدوار ، ظهره إلى نافذة مسجد الشعايرة . يحيط به أعيان عوائل البلد : شعير ، ومكنس ، وفياض ، والسوقى ، والشيوى . وعلى مصطبة متعامدة أعيان العوائل الأخرى : ميترى، وجرجس ، والدواودة ، ويوسف . واخترق سياج الخضر ، عند مدخل الدوار الحاج على ، والحاج ابراهيم . وكان العمدة يقول :

– لا داعى للشقاق والخصام . عشنا أهلا . نتزاور ، ونتهادى ياأهل الخير .

قال رجل من آل جرجس :

– وحتى نظل كذلك

ياشكرى بك . دعوه لنا ، فهو من ملتنا ، ويصلى فى كنيستنا ، وقسيس الكنيسة فى ميت غمر يشهد .

وقال رجـــل من آل « مكنس » :

- حتى نظل بخير ، معا ، دعوه لنا ، فهو من ملتنا ، ويصلى فى مساجدنا ، والكل يشهد .

فصاح العمدة :

- كفى . الله واحد . ربنا وربكم واحد .

ودخل المجلس شيخ الغفر مسرعا ، وانحنى هامسا فى أذن العمدة ، فرفع العمدة رأسه ، فرأى النـــاس خارج الدوار، يحملون النبابيت، وقد انقسموا قسمين ، وبينهم صفان من الخفر يمسكون ببنادقهم . فالتـفت إلى الأعيـــان قائلا:

- هذه هى آخرة الخلاف أيها المجانين . الدم . كيف يسامحكم



سلامة ، كيف يغفر لكم الله . انهضوا وفضوا الناس ، وليعد الكل إلى بيته ، فلن تحدث بيننا فتنة قط .

صاح الرجل من أهل جرجس :

- كيف ؟

تقدم الحاج على وقال :

- إذا أذنت لى ياعمدة ، قلت للأعيان : كيف ؟

فصاح رجل من أهل مترى :

- لا تقل إنه منكم .

وصاح رجل من أهل الحبشى :

- ولا تقل إنه منهم .

فصرخ العمدة :

- كفى . ولنسمع . قل ياحاج على . فقد عهدناك حكيما ، ولم نرك إلا فى المحن .

قال الحاج على :

- لنا شيخنا ، ولهم قسيسهم . تدعو شيخنا ، ويدعـــون قسيســـهم ويجلسان معـــا . وما يحكمان به . ينفذ علينا وعليهم .

فصـــاح الحـــاج ابراهيم البلهتية ضاحكا :

- لا فض فوك ياحاج على .

فقال له الحاج على :

- لو أكملت تعليمك الدينى لكنت الآن شيخنا .

وضحـــك الأعيـــان جميعا ، وقالوا لأول مرة :

- رضينا .. رضينا .

عندئذ بدت الراحة فى وجه العمدة ، وقال لعين أعيان الشيوى :

- لديكم خيل .

أرسل واحد منكم بفرس إلى ميت غمر ، وليأخذ معه فرسا آخر للقسيس . وليكن معه هنا قبل العصر.

وفضّ الأعيان الناس خارج الدوار ، فانصرفوا مطيعين بعصيهم ، وعاد الأعيان إلى المجلس ، وجلسوا . وأقبل الخفراء يقدمون الشاى للأعيان ، وقال العمدة الخفراء :

- قولوا لهم أن يعدوا الغداء لرجال البلد .

وحين التفت العمدة إلى الأعيان ، ابتسم ، ثم ضحك حتى دمعت عيناه فقد رأى الأعيان ، وقد تداخلوا فى المجلس ، وراحوا يتحدثون : اثنين اثنين ، وقال :

- لم يجعل الله فى بلدنا دينين ، وملتين ، إلا لحكمة . فقال الحاج ابراهيم :

- سلامة النجار جمع قلوب البلد فى حياته على الحب والخير ، وروحه ، إن شاء الله ، ستحل فى كل بيت .

***

الشاى ، والغداء ، وأحاديث ما بين الشاى والغداء ، أرخت أعصاب الأعيان ، وأزاحت جانبا ، بالشبع والرىّ ، الهواجس والظنون ، والحدة والغضب . هنا الكل بشر من البشر ، وجيرة من الجيرة ، وصحبنا من الصحب ، فاسترخوا فى قاعة الراحة الكبيرة بالدوار ، بين جالس على راحته ، ومضطجع على راحته ، وممدد ساقيه ، والعمدة قد غفا هانئا فى راحة القيلولة ، ونسائم النوافذ العديدة ، الواسعة ، فى القاعة الفسيحة ، تهب من بحرى إلى قبلى ، فى انتظار قدوم القسيس من ميت غمر ، والشيخ عنتر من كفر « العنانى » ، وأثناء هذا الانتظار كان الكل قد غفا غفوة القيلولة ، جالسا ، ومضطجعا ، وممدد الساقين ، ومستلقيا على ظهره ، فوق السجاجيد الحائلة اللون ، وتنافرت أوضاع الوسائد والمساند والرءوس فى القاعة الشرقية .

وكان العصر يقترب ، حين أفاق العمدة من غفوته ، ورأى الكل فى غفوته وقد اختلطت أنفاس الجميع ، فابتسم، وأشعل سيجارة ، وراح يرهف السمع . وتراءى له عم سلامة راقدا ، لايزال، وحيدا كما كان ، منذ ودعت زوجته الدنيا ، وغادر بنوه البلدة إلى العمل فى المدن ، ولسوف يوارى سلامة الثرى وحيدا ، ولا يعرف ابن له أن أباه قد رحل فى غيابه، إلى الأبد .

وراح العمدة يحدث نفسه : ماذا لو اختلف الشيخ والقسيس ؟ وماذا لو عصى الناس ما يحكم به الشيخ والقسيس ؟ ستكون كارثة لا يستطيع أحد لها دفعا ، وكارثة أفظع ، أن يصير لكل عائلة ثار عند عائلة أخرى ، ثار أبدى تتوارثه الأجيال ، وبسببه هو ،

بسبب سلامة المسالم ، الذى فضّ فى زياراته للبيوت نزاعـــات بين الأزواج ، وخصومات بين العوائل ، وأخرج أجساد صغار غرقوا فى آبار السواقى ، وطحنتهم نواليبها ، ولم يحدث فى البلدة مأتم ولا فرح إلا وكـــان أحـــد شهوده ماذا لو ..؟ وماذا لو .. ؟ وماذا لو .. ؟

بدا له أن الحاج على وحده ، يعرف ما سيحكم به الشيخ والقسيس ، ما يجب أن يحكم به الشيخ والقسيس ، لدفع الكارثة، هو الوحيد ، مثله ، الذى يعرف ، هو الذى لم يقرأ ولم يكتب ، يعرف بالقلب ، والفطـــرة ، والصدر الرحب، والعقل الحكيم المتسامح ، ما يجب أن يحـــكم به الشــــيخ والقسيس، من قبل أن يقبلا . هو الذى اقترح فكرة اجتماعهما معا ، ولابد أنه ، وحده ، يعلم ، ما سوف يكون عليه قرارهمـــا ، وربما كان بحـــاجة إليه قبـــل اجتماعهما ، وكان بحاجة إليه ، بعد أن يعلن الشيخ والقسيس ذلك القرار المجهول .

نظر العمدة إلى وجه الحاج على ، كان راقدا ، كفاه على صدره ، مثلما رأى سلامة ، تماما ، فى رقدته ، بدا له الحاج على صاحيا ، متغافيا ، فجفنا عينيه يرتجفان ، كأنه يفكر مغمض العينين . توجه العمدة نحوه ، زاحفا ، ومسه فى كتفه بأصابعه ، ففتح الحاج على عينيه لتوه ، وابتسم، فأشار له العمدة برأسه فى صمت كى ينهض ، ويتبعه ، فهو ، وحده ، الرجل الرشيد .

❋ ❋ ❋

قبل أن يؤذن مسجد الشعايرة لصلاة العصر ، كان الشـــيخ عنتر والقســيس قد أقبلا ، وجلســا مع العمدة على مصطبة الـــدوار ، وأخذ الحاج على ينظر إلى الرجلين ، كلاهما فيما يقدر ممتلىء كلاما ، كلاهما يقف على أرض غير التى يقف عليها الآخر ، ينتمى بعقله إلى زمن غير زمن صاحبه ، بينهما مئات السنين ، وها هما جالسان معا فى ســاعة العصر ، يبتسم أحدهما لصـــنوه ، أكرشـــان، ملغـــدان ، ملتحيان ، معتمان ، مترهلان ، وبينهما من أسباب اللقاء، ما يجعل كلاهما يقدر دور الآخر فى قومه ، وظروفه مع قومه .

قال لهما العمدة :

- اســـمعا أيها الفاضلان ، قبل أن يأتى الأعيان ، ما سيقوله له لكما الحاج على ، فهو الذى اقترح أن نجمع بينكم هنا .

والتفت الفاضلان إلى الحاج على . ودهشا ، ونظر إليه .. رجل ريفى ، فارع القامة فى جلسته، واضح الملامح ، هادىء

الوجه ، ذكى العينين . وأدرك الفاضلان معا ، أنه لا يقرأ ولا يكتب ، وأنه، من ثيابه ، مستور البيت . وتحدث الحاج على ، فأصغى له الفاضلان وارتسمت على وجهيهما الدهشة ، والعجب ، وأطرقا مفكرين ، حين ارتفع صوت المؤذن مناديا لصلاة العصر ، فوق سطح المسجد .

وقال العمدة للشيخ عنتر :

– قم لتصلى بنا العصر ، ولندع الحاج على مع القسيس وأعيان قومه ، يتحدث معهم ، ثم يصلى هو وحده .

وابتسم وقال للقسيس عن الحاج على :

– هذا الرجل يامولانا، مثل سلامة ، لو فتحت قلب أحدهما لرأيت فيه قلب الآخر .

وابتعد الشيخ عنتر ، والعمدة ، وتبعهما أعيان إلى داخل المسجد من باب الدوار ، وجاء أعيان آخرون ، وقبلوا يدى القسيس ، وجلسوا حوله، وجاء شيخ الخفر يتبعه الخفر بأكواب الشاى وأباريقه .

وقال القسيس لأعيان قومه :

– عمدتكم هذا عجيب له عقل من ذهب .

فقال عين آل مترى :

– تعلم فى الجامعة يامولانا ، وآثر أن يكون عمدة للبلدة بعده ، وقال القسيس للحاج على :

– وأنت .. لك عقل من ماس ، وأظن أنك لا تقرأ ولا تكتب ، فابتسم على وقال :

– أنظر حولك يامولانا . واسمع . وتأمل . وسوف تعرف .

وبهت الأعيان حين رأوا القسيس ينحنى على يد على ، ويقبلها قبلة خاطفة .

فقال رجل من آل جرجس ، بذكاء وشك :

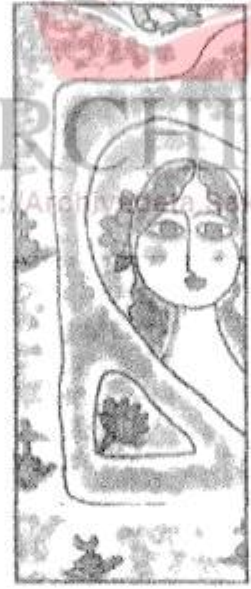
– كأنكم ياأبانا قد قررتم أمرا .

فابتسم القسيس ، وقال :

– يفعل الرب ما فيه الخير للجميع .

❊ ❊ ❊

من القاعة الكبرى بالدوار ، خرجا من الباب متجاورين : الشيخ عنتر ، وقسيس الكنيسة ، ويد أحدهما فى يد الآخر . وعند درج الشرفة المستديرة ، وقفا ، وأخرج القسيس ورقة من عباءته، وناولها للعمدة . وكانت



ساحة الدوار ، ممتلئة من أولها إلى آخرها برجال العوائل ، وكانت أيديهم خالية من العصى ، وعيونهم تفيض بالترقب ، والخوف .

قال القسيس لمن بالساحة :

– من كانت منكم معه عصا فليغادر هذا المكان .

وساد الصمت .

قال الشيخ لمن بالساحة .

– يد الله مع الجماعة، ومن خرج عليها شق عصا الطاعة .

وقال العمدة :

– من خالف قرار الفاضلين فليغادر هذا البلد ، ولا يعد إليه وأشار الفاضلان إلى العمدة ، فأخذ يقرأ قرار الفاضلين:

– يوضع سلامة ابن غالى فى صندوق ، ويصلى عليه فى بيته صلاة آل عيسى ، ثم يحمل إلى المسجد ويصلى عليه فى المسجد صلاة



آل محمد . ثم يدفن فى قبر وحده ، ويرجأ أمره كله إلى فاطر السموات والأرض .

عندئذ ضجت الساحة بصيحتين :

– رضينا ..

– رضينا ..

وراح الكل يعانق الكل، فيما كان الفاضلان يتعانقان، والعمدة والحاج على ينظر أحدهما إلى الآخر . وحين هدأت الساحة . قال العمدة :

– الحاج على تبرع بربوة على رأس أرضه ، تكون قبرا لسلامة .

وقال القسيس :

– وأنا تبرعت ببناء هذا القبر .

❊ ❊ ❊

وظل أهل البلدة يتحدثون زمنا . كيف أن عم سلامة كان يبتسم حين حمل ليوضع فى الصندوق ، وكيف أنه كان خفيف الوزن ، وهو يحمل إلى قبره الوحيد .

لكن هذا القبر صار بعد سنين ضريحا متواضعا ، يذهب إليه ناس ليقرأوا له الفاتحة ، ويذهب إليه ناس ليضيئوا له الشموع . ولا يعرف أحد من الذى رسم رسما قديما على جدار ضريحه رسما منفردا لصليب ، ثم رسما منفردا لهلال ، ولا من الذى رسم على ذات الجدار ، قلبا ، بداخله هلال ، فى قلبه صليب ، يراه أبدا المارة والزائرون، القادمون دائما من قرى بعيدة ، وكفور نائية ونجوع .

قصة
جمال الغيطاني





البهـــو

الصفحات شراء بعضها ؛ خاصة ما يمكن أن يروق لها ، مع أن معظم قراءاتها كانت بالفرنسية التي تعلمتها منذ طفولتها، لكم قالت له باسمة : عرفت العربية من خلالك .

يقول محتجا ، مهونا : لكنك تتقنينها ..

ترفع أناملها في الفراغ ، أطراف زهرة رقيقة .. تقول موضحة : أقصد جمالها ، سرها !

حرص على الوصول مبكراً يمضي بخطى متمهلة خاصة عند اقترابه من الفندق ، كأنه سعى إلى إطالة زمن ترقبها وانتظارها ، لظهورها حلاوة ، كان يعبر شارع الجمهورية يجتاز الممر الفاصل بين جناحي العمارة ، تطالعه لافتات مسرح متروبول ، مع بلوغه مدخل الفندق ينتشي ، يبلغ المدى ، يكون مستعدا لتأدية المهام المستحيلة .

المبنى يدير ظهره إلى شارع الألفي ، جدرانه من طوب أحمر قاتم نوافذه خشبية مستطيلة ، تعلوها شرفات مدببة الحواف ، مزيج من مضمون عربي ، وإطار أوروبي .

المدخل يؤدي مباشرة إلى السلم العريض ، إلى اليمين مصعد عتيق الطراز ، لم يتغير ، واضح أنه معطل ، الأتربة تكسوه وبابه الحديدي منبعج قليلا ، غير محكم .

حواف الدرجات متآكلة ، رقت في بعض المواضع ، ينتهي من ارتقاء الدرجات الأربع عشرة ، لكم احصاها ، ومرت عيناه بكل جزء ، لو يبوح الجماد ! يتوقف ليلتقط أنفاسه .

كان يصعده وثباً ، فارداً قامته ، حريصا على ولوج البهو قبلها ، جلوسه مبديا الهدوء ، مترقبا الدقائق والثواني الحق .. إنها لم تتأخر عن موعدها قط ، إذا وقع طارئ تبذل الجهد لتنبئه ، أما ظهورها ، اجتيازها الهادئ ، سريانها صوبه فباعث على الترقي !

مكتب الاستقبال إلى اليمين ، لم يتغير موضعه ، مدخل البهو إلى اليسار . لم تتبدل الجهات ، لكن ثمة شيئا خفيا يستعصى على الادراك ، لا يمكنه تحديده باللفظ ، ربما احساسه بالمكان .

يبدو البهو مفتوحا ، مباحاً ، لم يعرفه إلا ملموماً ، متدثرا بالضوء الخافت والظلال والتوقع الجميل .

ها هم ..

يجلسون في الجانب الأيمن ، لكن فوق أريكة أخرى تواجه المقعدين المتقابلين ، لم تتبدل

الأوضاع ، ولكن ثمة أرائك اضـــافية فى الفراغات الفسيحة .

يصــافح اثنـــان تربطهما به علاقة حميمة، أحدهما زميله منذ سنوات الدراسـة الأعـــدادية ، افترقا عند دخول الجامعة ، لكن اتصلت المودة .

الثـانى .. لا يذكــر الظروف التى عرفه فيها مع عمق صلتهما ، ربما قابله فى النادى الثقافى للنقابة ، أو جمعية الفيلم ، كـــان ذلك منتصــف الستينات ، عندما نشطت النــدوات ، واحتــدمت المناقشات وطال السهر الحميم .

الثـــالث .. اكبرهم سناً ، يراه للمرة الأولى ، استاذ جامعى ، مقالاته منشـــورة فى صــحف ومجلات عديدة ، حجة فى مادته ، تاريخ العصور الوسـطى ، عمـل لـدة اثنتى عشرة سنة متصلة فى الامارات ، تقاعد بعد عودته بعامين ، لكنه مازال يعمل كأسـتاذ زائر فى عـــدد من الجامعـــات العربية ، وأستاذ متفرغ بجامعة القاهرة ، كما أنه يدعى إلى مؤتمرات تعقد هنا وهناك ، تربطه صلة قوية بصاحبى الثانى ، ولدا فى قرية واحدة لكن فى زمنين مختلفين يتطـلع إليه ،وجهه غميق السمرة، متهدل الرقبة وما تحت العينين ، إذ يميل إلى الأمام يهتز رأسه حركة شبه دائرية ، تتزايد إذا ضحك .

يقـــول إنه سـعيد بمعرفتى بعد أن سمع عنه كثيرا ، وأنه تاق إلى رؤيته ، خاصة بعد عودته وبقائه الآن شبه متفرغ ، قال إن صاحب صديقه يعتبر صاحبا له ..

اهتز رأسه بسرعة وهو يقول مداعبـــا : ويأخذ نفس الأقدمية ، ضحكوا ، صاحبه الأول كان يعرفها ، جاء إلى هنا مرة ، التقى بها كان سعيدا بلقاء من يحب بصاحبه ، كان خصباً ، متدفق المشاعر ، بادى الحماس ، لا يبدو على صديقه أنه يذكر شيئا الآن ، يقول إن الدكتور يقترح عليهم لقاءً أسبوعيا .

يقول أنه يقضى أوقاتا طويلة بمفرده منذ عودته ، عنده مشاغل عديدة ، أهمها مراجعة الرسائل العلمية التى يشارك فى مناقشاتها ، أو التى يشرف عليها .

يشـــير إلى مجـــلد أسود يضعه أمامه فوق المنضدة ، تبرز من الورق قطعة مسـتطيلة مـن الجـلـد الرقيق .

يقول إن ذلك لا يأخذ إلا جزءا يسيرا من الوقت ، وأنه جاء قبل الموعد بساعة ، شرب زجاجة بيرة ، وشغل نفسه بقراءة جزء مما سيناقشه بعد أسبوع ..

يميل صاحبه الأول هامساً ، اقتربا من بعضهما ، كان راغباً فى مشاركتهما لكنهما يؤثران



البهـــو

الحوار الجانبى ، مازال لقاؤه بالدكتور يمر بطور المجاملة ، يقتضى ذلك البحث عن أسباب لاتصال الحديث ، وهذا مضن له الآن .

يومئ منتظرا بالاصغاء ، لكنه يتطلع إلى الأريكتين المتواجهتين لم يتبدلا لكن هل تغيرت الاغطية ، لون القماش بنى غامق ، الخشب المصقول .. المتصل بالخيزران المضفور ، كم تعاقبوا على الجلوس مكانه ، موضعها ، هل من آثار باقية منهما ؟

الاثاث باق ، طراز المصابيح ، السجاد ، لكن .. ثمة شيئا ما بدأ يدرك أول ملامحه ، إنه اتصال البهو بضجيج الطريق ، كل النوافذ مفتوحة ، لا يذكرها إلا مغلقة ، مواربة ، يمثل دائما عنده رطبا ، نديا ، حتى فى شهور القيظ ، فكأنه احتفظ بطقس خاص ، ربما كان مبعثه هى .

لا .. إنما كان عزل البهو عن صهد الطريق وضجيجه يحقق ذلك تبرز من الجدران صناديق أجهزة تكييف ، لا تعمل ، لم يرها من قبل ، حركة السيارات ، وضجيج متعدد المصادر ، والغبار والحر ينفذ مباشرة إلى البهو ، يكاد يطغى على الأصوات المتبادلة ، لم يعرفه إلا بصحبتها ، قالت إنها ستدعوه إلى مكان هادئ جدا فى وسط المدينة ، حميم ، أصحاب الفندق يمتون إليها بصلة قرابة ، قالت إنها اعتادت المجيئ إليه ، تجلس منفردة بدون أن يضايقها أحد ، أو يتطلع إليها انسان فضولى عابث ، تقريبا .. كان الرواد وقتئذ يعرفون بعضهم أما شخصيا أو بالملامح ، بدا البهو كواحة استثنائية فى وسط المدينة مع أن شارع الألفى المطل عليه لا تنقطع منه المركبات ، وقديما كان التروللى باص قبل وقفه وازالة اسلاكه بعد تعاظم الزحام ، كان الخط رقم ثلاثة وثلاثين ، يصل بين امبابة والعباسية ، يذكر الرقم .. قال إن المكان فريد مثلها ، يشعر داخله كأنه متصل ببيته يألفه المارة منذ اللحظات الأولى .

ابتسمت راضية ، تطلعت اليه بعينيها الخضراوين ، البراقتين ، سريعتى الحركة ، عبر ربع قرن اطلت من ذاكرته هكذا ، دائما حيث لا يتوقع أو يحتسب ، فى ثباته ، فى حركته ، فى اقامته ، فى رحيله ، لا يمكنه ارجاع طلتها إلى وقت محدد ، أو تاريخ بعينه ، إنما تتجاوز محدودية الزمان وتعيينه .

يقول صاحبه الثانى

إن الدكتور ينوى العودة إلى الكتابة فى الصحف والمجلات ، مـاذا عن رأيه ؟

الحق إنه لم يعرف بانقطاع الاستاذ أو سبب توقفه ، ولا يذكر آخر مرة قرأ له مقالاً ، لكنه سارع قائلا إن المناخ مناسب ، يسأل الدكتور عما إذا كان الوقت ملائما ؟

يقول إن مساحة الحرية الآن أفضل .

يهتز رأس الدكتور أثناء تساؤله عما إذا كان المناخ حقيقيا ؟

يقول صاحبه الثانى إن الأستاذ لديه أفكار هامة عن قضايا مختلفة ، مثل تعمير الصحارى ، وزيادة السكان ، والطرق الدائرية حول العاصمة ، وتنشيط انتاج وعرض الأفلام التسجيلية ، ونقل ورش الحرفيين فى ضواح جديدة قريبة من العاصمة ، ومشاكل النقل النهرى ..

يتمتم بعبارات استحسان ، إن تعبا مفاجئا يحط داخله ، لم ينم بعد الظهر ، عادة يرجع مرفقا من عمله ، لم يعد جسده يحتمل المشاق المتصلة ، وصل الصباح بالمساء ، عندما أخبره صديقه باللقاء أفاض فى الحديث عن الدكتور ، عن علمه ، استاذيته التى عرفها ، طلابه ، افتقاده بعد سفره إلى الخليج ، لقاء جيد ، لكن ما شجعه اختيار المكان .

رفرف عنده ما خبا وكمن ، دخولها السريع ، اتجاهه اليها مباشرة ، مستحيل تكراره الآن ، كانت تستدير حول المنضدة ، تسند حقيبتها ، تجلس فى الوضع نفسه ، عند حافة المقعد ، تميل قليلا إلى الأمام ، لا يستعيدها إلا ويرى ما يحيط بها خلو تماما ، فى البهو تتوزع الارائك المستطيلة والمقاعد ، بعضها أصغر حجما ، صممت الجوانب على هيئة انصاف البراميل الخشبية ، الابسطة يغلب عليها اللون الياقوتى المغبر ، كلها من طراز واحد ، منقوشة بوحدات هندسية متساوية باللونين الأسود والأصفر الفاتح وبدرجات أخرى من الأحمر القاتم .

يقول الدكتور إنه يخشى استخدام عربات الأجرة ، ولا يتعامل مطلقا مع المواصلات العامة ، أما السيارتان اللتـان عاد بهمـا من الخليـج فتقفـان تحت البيت ، فى مواجهـة المدخل مباشرة، إحداهما من أحدث طراز ، ذات سقف متحرك ، لكنه لا يقود أيا منهما ، فقط يقوم بإدارة المحرك حتى لا تتوقف البطارية .

لماذا ؟

يقـول إنه يعانى خوفا غامضا من أمور عديدة ، يخشى شغل مكانهمـا ، السـيارات كثيرة ، والجراجات قليلة مزدحـمة ، وأمـاكن الانتظار مشغولة لكن ..



البهـــو

يمكن الاتفاق بشكل ما مع أحد الجراجات القريبة .

قال إنه لم يحاول ، الأقرب على بعد ثلاث نواص وأربعة شوارع ، يعبر أحدها خط المترو الرئيسي . يخشى عبوره ، ربما يقع له حادث ما ..

يتراجع إلى الوراء . بحركة مفاجئة من قدمه يتخلص من فردة الحذاء الصيفي . لايرتدي جوربا . يثني ساقه تحت ركبته ، بعد أن ينحني مدلكا مابين أصابعه .

في مساء اليوم نفسه وأثناء اتصاله بصاحبه الثاني أبدى دهشته من أطوار الرجل . ضحك صديقه ، قال إن مالم يعرفه أغرب ، منذ عودته وعنده أحوال شتى من الخوف والحذر ، إنه يمضي معظم وقته في البيت ، يخشى الخروج خوفا من توقف المصعد فجأة أو انزلاقه فوق الدرج وإصابته بكسر يضطره إلى الرقاد في سنه بسبب الاضطجاع إلى وهن الرئة ، وينتج عن هذا التهاب يؤدي إلى الوفاة . يحذر أيضا هجوم اللصوص عليه ، خاصة أنه يعيش بمفرده منذ ستة أشهر بعد سفر زوجته إلى ابنتها الوحيدة المقيمة في كندا والتي تزوجت من أستاذ لبناني تعرفت إليه أثناء دراستها هناك . يشرب الماء بحذر، يقرأ كثيراً عن تلوثها وما تحويه من ميكروبات ، أما المياه المعدنية حتى المستورد منها . فبعضها يسبب السرطان . لايتناول أكثر من كوبين يومياً ، شتاءً وصيفاً ، مهما اشتدت درجات الحرارة ، طبيب أفغاني نصحه بذلك ، لأن الماء يمثل عبئا على القلب ، ومن الأفضل الاكتفاء بحاجة الجسم الضرورية، إذ يركب عربة الأجرة يجلس في المقعد الخلفي متطلعا بهلع إلى العربات المارقة ، يمد يديه بين لحظة وأخرى مستنداً إلى المقعد الأمامي راجيا السائق أن يتمهل ، خشية وقوع حادث ما يصيبه بكسر في العظام ، لا ينزل إلا بصحبة صديق وهذا الموعد تم بالحاح منه فالوحدة ضاغطة ، والصحبة شحيحة آخر ما يقلقه . الخوف على رصيده في البنك ، أنه يحمد الله دائما ويشكر فضله إذ ألهمه الصواب ، عندما رفض إيداع قرش واحد في شركات أصحاب اللحى ، وقد جرى ما جرى بعد انكشاف أمرهم ، لكنه يسمع كثيرا عن فساد البنوك .. يقول الدكتور ..

– هذا مشهد لا يمكن

أن تراه في الإمارات .. شاب يرتدى قميصا أسود ، فتاة طويلة ترتدى الجينز ، شعرها طويل ، في ملامحها شهوة خبيثة ، تميل إلى الوراء ، تجلس منزلقة إلى أسفل ، ممددة ساقيها ، تشعل سيجارة تتطلع إلى زجاجة بيرة مثلجة مغبشة وضعت أمامها ، وطبق الفول السوداني ، تجلس في موضعها .

في المقعد الذى احتواه دائما واستعاده مرات في ذاكرته ، وطاف به أثناء نوبات حنينه .

– لكن يقال إن الخمور موجودة ..

يقول هامساً : كل شيء موجود .. لكن في الخفاء

عمر الفتاة يدور حول العشرين ربما لم تولد عندما جاء إلى هنا آخر مرة ، قبل سفرها النهائى كانا يجلسان متواجهين أحيانا يميل تجاهها بينما تتشابك أصابعها ، تدير ابهاميها حول بعضهما ، ترق ملامحها مع استمرار نظراتها ، فتبدو كأنها تتطلع صوبى من إطار أيقونة عتيقة ، أو منمنمة في مخطوط ثمين ، بمجرد جلوسها تتطلع صوبى ، ثم تطلق آهة قصيرة محملة بالدلالات ، تقلب حقيبتها المصنوعة من القماش ، أحيانا تأتيه ببطاقة مصورة جميلة ، أو مستنسخ للوحة شهيرة ، أو كتاب بالفرنسية تقرأ منه صفحات رأت أن تحطيه بها علماً . كان يصحب معه دواوين شعر قديم ، كانت تصغى إلى قراءته ، تومئ ، تلفظ آهتها المقتصدة ، لكم رددت أنها على يديه عرفت تلك القصائد كما لم تعرفها من المدرسة ..

يميل الدكتور قليلا ، يسند طبق الخيار المقشر فوق المجلدين ..

– هل تعرف الدكتور علاء صدقى ؟

– الطبيب النفسى ؟

– نعم ..

– طبعاً .. ابن عمى ..

يتراجع إلى الخلف مربداً .

– ماشاء الله .. ماشاء الله ..

تتحرك الفتاة ، تتجرع البيرة ، لاتمسح الرغاوى البيضاء التى علقت بشفتيها ، يبدو صاحبها منكمشاً ، أقل حجما وحضوراً ، يحيط عنقه بسلسلة ذهبية ، من شكل الجلسة أو المشية يمكنه الاحاطة بكنه صلة ما .

هل تربطهما صلة قرابة ؟

لايظن

صداقة ؟

لكنه ماله يبدو متخاذلا ، بل مكسور العين؟

تنتبه إلى تحديقه تجاهها ، تتطلع ناحيته ، عيناها واسعتان ، كأنها تقول بحركة يدها وكتفها ، واخده بالى



البهـــو

منك » ، في ابتذالها شيء مثير، تضحك ، ابتسامة جانبية موجهة إليه ، صاحباه بمنأى ، لم يلحظا شروده وتردد نظراته ، الآن .. تتطلع إليه مباشرة تتخذ أوضاعاً متتابعة ، يبدو صاحبها لامباليا ، أما هي فتسفر عن تواطؤ علني .

يقول الدكتور :

– أتمنى لو أتيحت الفرصة لأتعرف به .

يقول إن أسم ابن عمه في الخليج مشهور جداً ، لاتخلو مجلة من صورته ، يستطلعون رأيه في مشاكل الزواج والطلاق وأمراض الفنانات ، ومشاكل التربية، والأمور العاطفية، وأحيانا السياسية كما أنه دائم الظهور في البرامج التليفزيونية ، لهذا حرص على مقابلته اليوم عندما علم بصلة القرابة من صديقيه العزيزين ..

– لكن .. أهم مالفت نظري إلى مكانته ، اشادة سمو الشيخ وكيل الديوان الأميري به ، قال على مسمع مني في اجتماع رسمي إنه أرسل طائرة خاصة إليه ليكشف على ابنه وكان شفاؤه على يديه ..

يهتز رأس الدكتور ، يبدو صوته ممتلئا بالفقاقيع ، يود لو يحيد ببصره بعيداً عنه ، لماذا ينهمك صاحباه في حوار جانبي ؟ ، قشور الفول السوداني فوق الجلد الضخم كانت تنبئه بما صدر من كتب ومايقام من معارض ، وإذ تنهي ترجمتها الفورية يطلب منها ضاحكا أن تقرأ مقطوعة بالفرنسية ، كان يحب جرس اللغة ، ايقاعها ، تأنقها ، تمهلها، دقتها في النطق ، مع جرأتها واعتدادها غير أنها تبدي خجلا ، لكنها تلبي .

كان يبدأ حديثه بملخص الأنباء كما اعتاد تسميته فيذكر أهم ما مرّ به ، في عمله ، في محيط سكنه ، مع صحبه ، كان يتحدث عنهم بانفعال ، فكأنهم امتدادات له ، يتحدث عن سهراتهم في الحسين ، وصلهم الليل بالنهار ذهابهم إلى عملهم بدون رقاد تفيض عيناها فضولا ورغبته في المشاركة ، لكم حدثها عن صاحبيه المشغولين تماما عنه الآن، كانوا يلتقون في كل ليلة أو بعد انتهاء أعمالهم ، في الظهيرة ، يجوبون شوارع القاهرة معا ، من مقهى إلى مقهى ، وفي المساء أما إلى سينما أو إلى مسرح، كانت الأوقات عامرة ، ولا يفترقون إلا مرغمين يصعب تدبير اللقاء الآن ولو مرة في الشهر ،

يكتفون بالهاتف ، كثيراً ما يرغب فى إنهاء الحديث ، العودة إلى الصمت ، بعد سفرها كانت تذكرهم بالاسم ، لم تنس حتى آخر خطاب وصله منذ خمسة عشر عاما تطلب ابلاغهم السلام ..

- أنت لاتتصور قيمة هذا وتأثيرة هناك ..

- قيمة ماذا ؟

- أن يشيد به سمو الشيخ علانية ..

- إلى هذا الحد ؟

- طبعا .. طبعا .. لكن ألم تنشر الصحف هنا أنه أرسل طائرة خاصة .

- لم أقرأ .. لا أظن ..

- خسارة .. والله خسارة ..

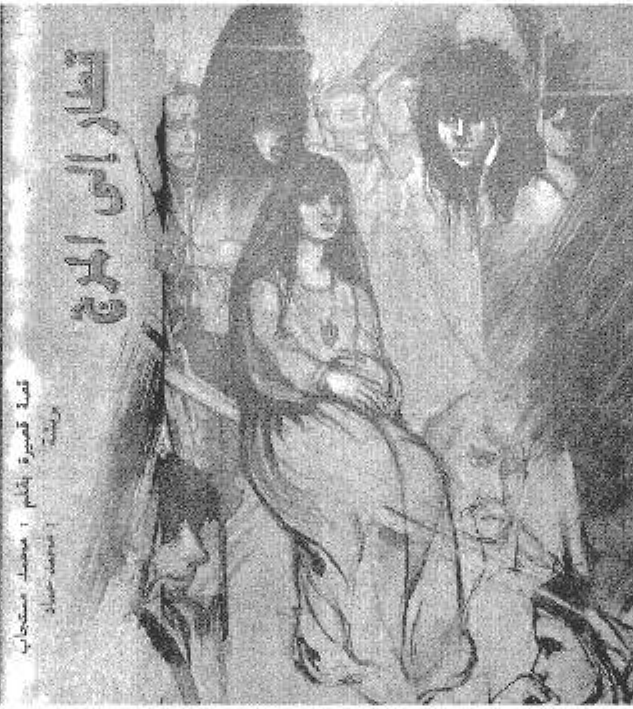
يتقدم النادل ، دون الثلاثين ، قميص أبيض بنطلون أسود ، رباط عنق أفرنجي ، كأنه يعرف الفتاة ، لم تبدل وضعها ، فرطت جسدها ، ساقاها تحت المنضدة . أردافها تلامس حافة المقعد ، على وشك ملامسة الأرض ، زجاجة بيرة ثانية ، يصب الكوب بحذر ، على مهل يتطلع إليها بنظرات تحتية ، على ملامحه ظلال ابتسامة خبيئة لاتسفر تماما ، أما الشاب فينقل البصر إلى اتجاهات شتى ، النادل يغمز بعينه .

- طبعا . ستنقل اليه ماسمعته ..

يومىء بدون نطق ، أنه مكتظ بالشجن ، ترى .. أين ذهب النادل القديم ؟ ، تهلله اذ يراه ، كان نوبيا عتيقاً ، يميل إلى بدانة عنده عرج خفيف ، يرتدى جلبابا ناصعاً ، حول خصره حزام أحمر ، يتحدث إليه قبل وصولها ، يخبره عن ابن وحيد يقيم الآن فى المانيا ، عشقته شابة جاءت إلى أسوان سائحة ، تبعها ، يعمل هناك سائقا على عربات النقل الضخمة ، يرسل صوراً ملتقطة له فى بلدان مختلفة . عنده طفلان ، الولد أكبر والبنت أصغر ، الصبى أسمر تماما كأن أمه أيضا نوبية، لكن البنت تشبه أمها أكثر . دائما ينهى حديثه بحمد الله وشكره ، مؤكدا أنها مستورة ، وأنه لايهمه إلا سعادة ابنه واستمتاعه بالدنيا ، ابدا .. لايريد منه شيئا ، إذ يلمحها قادمة يبتسم مرحبا ، يفسح الفراغ مابين المنضدة والمقعد ، لم يسألها قط عما ترغب فى شربه ، كان ملما بما تفضله ، عندما أبدأ اسماعها الشعر يقترب ، يقف على استحياء فتدعوه باسمه ، يهز رأسه شاكرا ، يطلب أحيانا تكرار مقطع أو بيت ثم ينصرف فجأة مردداً : ياسلام .. ياسلام ..

- هل يمكننى مقابلة سعادته لأخبره بنفسى ؟

جمال الغيطانى


قصة قصيرة بقلم : محمد مستجاب

فتحرك الثلاثة حركة قلقة مناسبة ساعدت على أن يجمعوها ، وأن يضعوا بعضها فى أفواههم ، وأن يلقوا بواحدة للشرطى ، فوقعت على الأرض ، حينئذ إنحنى الشرطى وتناول السيجارة من فوق الأرض وهو يسب ويبرطم غاضباً .

ومرت فترة طويلة ، قبل أن يصبح القطار قطاراً ، فقد إندفعت جماعة عابثة دخلت العربات وخرجت منها وهى تضحك وتتنامش ، ثم أفراد تفرقوا على المقاعد وهم يسألون عن موعد قيام القطار ، وكانت الإجابة متعددة ومتناقضة وغير ميسور تحديدها ، الآن أو بعد ساعة أو بعد يومين ، فقطار المرج مثله مثل غيوم الشتاء ينقشع فى عز البرد ويتواكب فى عز الدفء ، يمكن لك - وبالتأكيد فإنك استخدمته - أن تراه ذاهبا آتيا طوال الساعات فى ضجة وصخب ومرح ونشاط ، ثم تراه وقد ركن فى موقع ، فتعتقد أنه سوف يواصل المسيرة بعد قليل ، وتذهب إلى مشاويرك ومهامك وتعود فتجده لايزال واقفا ، ليس واقفاً فقط ، بل يظل واقفاً وهو يهدر ويصرخ ويملؤك بالإحساس المؤكد أنه فى طريقه للقيام لدرجة إنك تلهث جاريا إليه وقافزاً فيه ، ومع ذلك فإنه لا يتحرك ، وأصبح على الذين أجادوا استخدامه أن يتركوا له أنفسهم دون شد وجذب وكلام أو توتر : يطلع .. أوْ لا يطلع ، وتضع رأسك - مثل واحد من المقيدين فى الأغلال - على ورك الذى بجوارك وتفرد طولك وتنام .

وبالطبع كان صعباً على المقيدين الثلاثة أن يناموا جميعاً فى نفس الوقت ، ولذا تركوا ثالثهم ينام تاركا ذراعه المقيدة بين أحضان الثانى ، وكان واضحاً أن الشرطى تعود على هذا القطار حتى أنه لم ينبس بكلمة ذات معنى ، مرة أو مرتين هش عيالا دخلوا وتقافزوا ، ثم ركن نفسه على مسند القطار فخشى أن ينام ، وحينئذ أنعدل وصلب جسده فى يقظة واضحة .

لكن ذلك لم يدم طويلا ، فقد دخلت العربة امرأة ، من أول لحظة شدت العيون الكليلة القليلة ، ضخمة وارقة ترتدى أسود الجنوب أو أسود الغجر أو أسود الأرياف أو أسود المدن ، ورمقت الجالسين أو النائمين بعيون واسعة ثم إنخرطت إلى مكان وجلست فى هدوء ، نظر إليها الذى هو نائم والذى يجلس قبالتها والذى يعابث صديقه ، ثم لم يبث الجميع أن استكانوا منصتين لصوت القطار آملين أن يتحرك ، فعاد الشرطى للبرطمة الخالية من الحروف ، وأخرج سيجارة من جيبه

ووضعها فى فمه ، ثم قام ووضع يده فى جيب المكبّل بالقيود - وهو الأوسـط - وأخرج منها « علبة كبريت » ، وقبل أن يعود إلى مكانه ، أشار له الأوسط أنه فى حاجة إلى دورة المياه ، حينئذ إنفعل الشرطى - بصوت يبرطم أيضاً ، ثم مالبث أن صاح إنهم كانوا فى الخلاء ، فلماذا يريد المرحاض الآن ، وظلت عيون كثيـرة معلّقة بالشرطى ، كان إنفعاله مفهومـاً ، لكنه ، ماذا يفعل غير أن يحـرّك المقيـدين الثـلاثة ، ويصحبهم إلى دوْرة المياه الضيقة كى ... ، فأشار واحـد من الأحرار - أى الجالسين دون قيود - وقال فى نية حسنة : يأخى فُكّ القيد .. ، ولم يكمل فقد نهره الشرطى أن يلزم حدوده وإلاّ .. ، فلزم الجميع الصمت ، ولم يجـد المكبّل وسـيلة سـوى أن يقف ، ويحاول أن يُنزل ملابسه ، فانزعج



الناس ، وعاد الشـرطى إلى غضبه ، وقام فسحب الثلاثة إلى المرحاض ، ليستطيع الأوسط - بقدرة قادر - أن يدخل نصف جسـده ، وذراعـاه مسحوبتـان للخـلف - وأن يقضى حـاجته على بـاب المرحاض ، وظل الجميع صامتين ، وحين عادوا إلى أماكنهم وجدوها قد احتلّت بآخرين ، فغضبوا جميعاً وكادوا يتماسكون مع المحتلّيْن ، فى اللحظة التى بدأ القطار يتحرك ، ويزحف ، والتى فيهـا أيضا إمتلأ القطـار بالناس عن آخره ..

- ٢ -

حركة القطار إمتصت كل التوتر والجلبة وقال واحد بصـوت عالٍ إنه يستطيع أن يتحمل حركة

القطار وهو يسير يومين ولا يتحمل وقوفه خمس بقائق ، فلم يرد عليه أحد ، وإنزرق رجل معه قرد إلى الداخل مع أن القطار كان فى سرعة لا تساعد على التعلق به ، وإعتقد الناس أن الرجل سوف يبدأ جولة جمع النقود تحت توقيعات الرّق وترقيص القرد ، لكن الرجل جلس فى أرضية العربة - كان يمكنه أن يجلس على مقعد - وأخذ القرد فى حضنه وظل صامتا غير مهتم بالوجل الناتج عن دخولهما ، وعاد الشرطى لإنفعاله حينما طلب منه واحد من الثلاثة المكبلين - أعتقد أنه الأيمن - الذهاب إلى دورة المياه ، ولعن الشرطى آباهم جميعاً وأبا الذى وضعه فى هذا العمل الردئ ، وضحك أناس وسخر أناس ، لكن الشرطى لم يجد مفراً من رفض الطلب وظل متبرما فقام أحدهم بخلع سرواله بيده الحرة دون وجل ، فانتشرت الرغبة فى المهاترة فى كل المكان ، وصرخ واحد محتجاً وواحد مُصدراً أصواتاً من أنفه غير مهذبة ، وقلد واحد صوت بكاء طفل فإنهمرت فى الجميع ضوضاء تقلد الأطفال ، ورمقت المرأة وجه صاحب القرد ، الذى ظل محتضناً قرده والرق فى يده يتذبذب بين حين وآخر ، هذه الذبذبة التى تحولت فى هدوء - رغم الجلبة - إلى إيقاع هامس خافت دقيق ، إيقاع ناعم مثل دبيب شخللة الأطفال أو زقزقة العصافير ، بدأ التوقيع واهناً لكنه كان ملحوظاً ، تسرب إلى الناس فابتلعوا سخافاتهم وبقايا تعليقاتهم ، وانصتوا دون إحترام كبير ، حيث عادت التعليقات فتوقّف الرجل عن التوقيع ، وتململت المرأة الجالسة وظلت صامتة ، وسوّى واحد من المعتقلين ورك جاره وعاد للنوم عليه .

غير أن مجرد عودة الرق للصمت جعل الناس - كل الناس - ينتبهون ، فعاد الرجل من جديد يعابث الرق بأطراف أصابعه ، كان الجو خانقاً وإيقاعات الرق تعلو قليلا ثم تخفت ، ونظر صاحب القرد إلى المرأة طويلا ، فتعلقت عيونهما ، وظل القرد يرمق الجميع بحركات عيونه الدائبة رَمْشاً ، يود لو يخرج من وكره فى حضن صاحبه ، هذا الذى عاد يعابث الرق ، فتبدأ الدقّات تتصاعد ، وكلما تصاعدت إنخفض الضجيج ، حتى القطار بدا أنه يهابر كى يبتلع خبطات ضلوعه فى القضبان ، وكان الشرطى لايزال مشمئزاً ضيق الصدر ، لكنه - لم يلبث أن استرخى ، حينئذ تسلل صوت أجشّ ذو نتوءات من العذوبة :

أنا اللى جرحنى



برمشه وخلانى أبات مكوى قعدت أعالج فى قلبى والفؤاد مكوى لمّا إنت مش قدّ الرموش ماكان بلاش النظر وبلاش تعاتب حبيبك جوه الفؤاد مكوى .

وكاد صوت ساخر أن يقطع هذا البوْح لكن واحداً صاح : هُسْ ، فقد كان الصوت الذى يغنى هو صوت المرأة الجالسة بعيدا ، وعندما عادت لتغيير اللحن عند وصولها إلى – ماكان بلاش النظر – صاح أناس : الله ، وبدأت أصابع صاحب القرد تَغيرُ وتنوّع فى إيقاع الرّق ، لتعود المرأة الجالسة بعيدا إلى إرتفاع خجول فى الصوت ، هذا الصوت الذى نثر العذوبة الخشنة فى المكان ، فأعاد الجميع ترييح أجسادهم فى مواقعهم ، وإنتصبت أجساد المقيدين وجلسوا جميعاً دون أن ينام أحد على ورك جاره ، وتلوى القطار على قضبانه . هانئا قليل الضجيج ، وزاد الرق انفعاله فبدأت إيقاعاته تعلو أكثر ، وتتناثر الدقات الرقيقة مفروشة أمام الصوت المنساب ، وياللى فرشت لك عيونى فى ضلّها ترتاح ، سايبنا فى البرد ورايح فى الدفا ترتاح ، ماكانش لازم تغادر والقلب مش ناقص ، ده القلب سلّمك نفسه بالضبّة والمفتاح ، الله ، وعاد الرق إلى صمته ثم اندفع أكثر ، واشرأبّت الرقاب كلها معجبة وممعنة فى المرأة التى تغنى بعيداً ، والرجل الذى يدق الرق فى مكان أبعد ، والنغمات تتضوّع فى جو المكان ممتصة اختناقه لكن الصوت هذه المرة لم يصدر من المرأة ، بل جاء من المقيدين ، بالتحديد

من الثانى الوحيد المكبلة كلتا يديه ، أنا كنت وردة تفتح قلبها لنداك ، حيطان جوامع وزنازين لانت زى الندى لنداك ، ماكنت قاعد فى حالى ألعب مع الأنداد ، إيه بس خلاّ القلب يفتح فتحته لنداك ، كان الرجل يغنى وقد أغلق عيونه ، وحاول أن يرفع يده ليضع كفّه على صدغه إتقاناً للعودة فى الغناء ، فاكتشف أن يده مغلولـة ، واضطـرب الصوت وإختنق بالشجن ، حينئذ رفع يده المغلولة فى معصم جاره ووضعها على صدغه ، ويد جاره معلّقة فى هواء القيود ، وكان المنظر قاسياً وساخراً وهازئاً ومفهوما لكن الرجل عاد إلى إغلاق عيونه متقلا بإرتفاع يد جاره ، وإندهش الناس وكأنهم لم يكتشفوا أن الرجل مقيد ومكبّل من معصميه سوى الآن ، وعاد الرجـل يجلجل بصوته الذى كـان محبوسـاً ، وإنسـابت الأغـانى من الفـم إلى الصدغ إلى المعصم إلى القيود ، والناس يمعنون فى هـذه القيـود التى تصلصل محدثة أصواتا جـارحة مرفقـة مع ايقـاعات الرّق وذبذبات الصوت ، وعندما عادت المرأة – من جديد – تركب اللحن تخفيفا عن الرجل ، بدا واضحاً أن المكان أصبح تحت سطوة هذه الحناجر المتباعدة ، فقد وقف الرجـل شاداً زميليـه بقسـوة ، وقف وكأنه لا يستطيع التفاعل إلا إذ غنى واقفـاً بل ورفع يده ليضع كفه على صدغه فاستحال عليه الذى كان ممكناً وهو جالس ، والشـرطىّ أسـقط اشمئناطه فى أرض العربة وظل هائماً فى هذا الشجن المتدفق ، لدرجة أن الرجل عندما ركب لحناً جديداً على إيقاع للرق مغاير ، كان ينظر فى عيون الشرطى ، واللى كواه الليل بالشوق ما يعرف للنهار راحة ، والشفة اللى تاكل ماتعرف للعشق راحة ، والايد اللى تتقيد ماتعرف للغرام راحة ، وإن كنت مش فاكر عذابى يبقى أنساك راحة ، بل إن صاحب الرق – أو صاحب القرد – وقف تاركا القرد يلعب بسلسلته بين أقدامه ، وخلص تماماً للنقر على الرق بشكل أكثر راحة وتجاوباً وتفاعلاً ، وحتى الذين وقفوا فى العربة وجدوا الآخرين وقد تزحزحـوا ليجلـس الجميع ، وتجاوبت أصداء الغناء فى كل ركن وجسد وقلب ، المرأة الجالسة – الوارفة – تستقبل اللحن وتغذى به جوانحها ثم تجتره ليتلقاه الرجل المكبل فيفرده ممتدا على مساحة اللوعة كلها ، وصاحب القرد يزغزغ فى الألحـان وتنـويع الإيقـاع ليرد اللحـن للمرأة ، الله ، والناس يمصمصون ويهمسون ويصمتون ، واليد المكبلة

ترتفع لأعلى لكى تصل الكف الصدغ فيحس الجميع بأن كل هذا التفاعل مجروح بصليل القيود ، هذه القيود التى قام العسكرى إليها فأدخل فيها المفتاح ، أدخله فى رقة وحنو لايقطع عن المغنى اندماجه ، وأخذت القيود تصلصل كأنها زرازير تنطلق ، وعاد الشرطى إلى موقعه حيث ألقى القيود بجواره ، وأخذ يصفق فى حبور فصفق الجميع ، وكان الإجهاد قد بدأ يستشرف الطريق على وجه المرأة فأعادت تسوية غطاء رأسها ، وبدأت تركب لحناً جديداً .. وجاوبها هذا الذى حرّر حديثاً دون أن يضطرب حينما وجد كفه منصاعة سلسة مفرودة الأصابع فوق الخد والأذن ، فقط إندفع الغناء أكثر شدوا وأعمق شجناً ، يلف الصوت فى منحنيات الغربة والسهد وأرق العشق والهجران ، ويعاتب الزمان والعوازل والذكريات هائماً فى الفلوات ، يحرك ذراعيه كلما تدحرجت الكلمات من لسانه مخترقة الأفئدة المعذبة المستعذبة وتترك فراغات بين كل لحن وآخر كى يبرز صاحب الرق مفاتن إيقاعات الرق ، فتتناول المرأة آخر الإيقاع لتنغمه ناعماً دقيقاً ساخن الشوق كأنها تغسل به ضجيج القطار ، الله ، ويكون الرجل قد تهيأ ويبدأ من جديد ، ما أنا عارف بساتينك كلها أشواك ، وإيه فايدة الريحة من غير بساتينك ، ده إنت اللى كنت طول العمر بستانى ، صوابعك كلها دامية من الأشواك ، وتنصهر الأنفاس فى القلق الشائك المشتاق المكبود ، والقطار يقف ويستقبل آخرين ويغادره آخرون ، وبين الآخرين والآخرين تتضوع الأنفاس بالغناء والشدو والتصفيق ..

ثم وقف القطار

وجلس الرجل محتضنا قرده ..

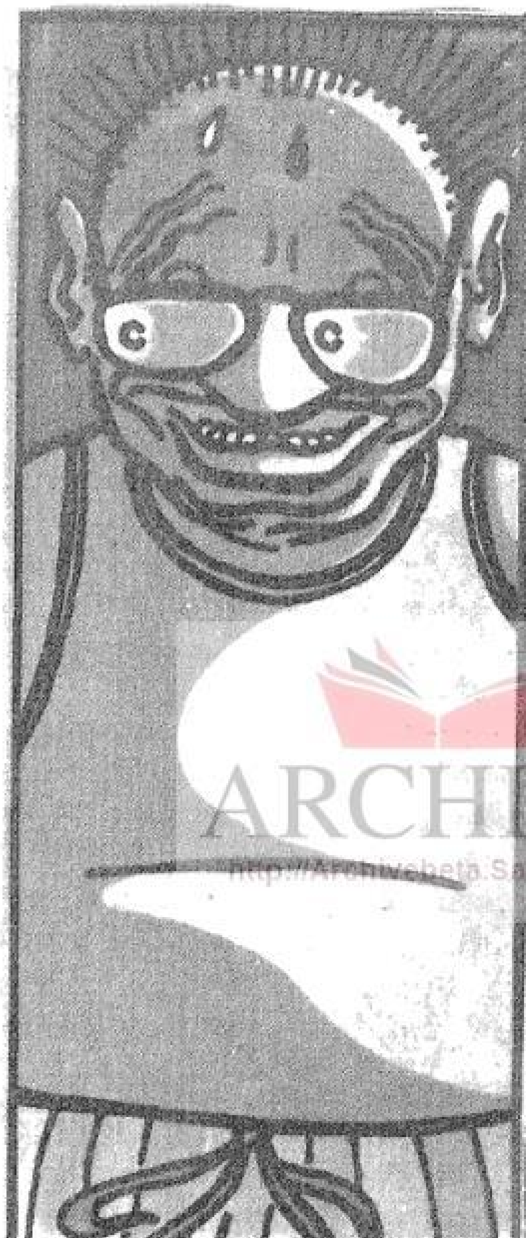
ونزل أفراد ...

وجلس الرجل وسط رفيقيه ، وبدأت الضجة تعود والسكوت يعود ، والألفاظ النابية تعود ، والسخرية تعود ..

وامتدت يد الشرطى إلى الأيدى الأربعة اليد اليمنى فى يد الأوسط اليسرى ، ويد الأوسط اليمنى فى يد رفيقه اليسرى ، وأغلق الشرطى القيود جيداً ، وعاد إلى موقعه ، حاول الأوسط أن يخرج سيجارة ، فأخرجها له رفيقه بيده التى بلا قيود ..

وتحرك القطار ، وكان الحزن قد حط على المكان تاركاً أصوات القطار ضاجة تعصف ، وتدك ، ليصبح القطار قطاراً .

المحفظة يا عالم ثالث



قصة :
مجيـد طوبيا

..وهـــذا وجـــه شـــمبانزى ، عينـــان غائرتان تحيطهما تجاعيد عميقـــة . مســتحيل أن يكون وجـه شمبانزى . لسـت فى حديقـــة الحيوانات ولا فى السيرك ولا فى الأدغال .. إنه وجه انسان .. وجهان .. ثلاثة .. دائرة من الرءوس .. دائرة علوية وأنا أسفلها .. ماذا حدث لى ؟.. وقعت على الأرض البـــاردة الصلبة .. أنا ممدد فوق البلاط !

الآن ظـــلام . ظـــلام الآن . أسمع غمغمات ، همهمات . أسمع كـــلاما مضـــغوطا متـــداخلا ، طنينا فى أذنى ، صفيرا .. الشمبانزى يقول : الباشا اللواء .. أنا هو الباشا لواء شرطة متقاعد .. ماذا يفعلون بى ؟.. أحدهم نشالا .. يفتشنى .. نعم يفتشنى .. يجب أن أقاوم .. سأقاومه .. جسدى يعصى أوامرى ، الطنين يعذبنى والصفير يؤلمنى . سوف أفتح عينى وأحدجه بنظرة صارمة ترعبه ، أنا أتقن هذه النظرة .. سوف أفتح عينى .. مازال الظلام .. حتى جفونى تعصيانى !. خرِع ، صرت خرِعا .. لواء شرطة .. متقاعد .. عبد .. عبد الـ ... أنا يا أولاد الكلاب .. المحفظة .. أعيدوها وإلا .. لن تفلتوا بها .. إسمى يبعث الرعب .. إسمى عبد .. عبد القوى مطاوع .. هل ارتعبتم ؟؟

لكن جسدى يعصى أوامرى .. وكثيرون يريدون الانتقام منى .. الطبنجة الميرى ليست معى .. وحتى لو كانت معى ! الآن أرى ضبابا ، غيوما ضئيلة ، دائرة الرءوس .. كثيرون يريدون قنص حياتى .. وجميعهم مجرمون أولاد زوانى .. هذا الوجه أعرفه .. البواب .. بواب العمارة التى بها الطبيب !.. الظلام يعود من جديد وأنا راقد فوق البلاط البارد أمام عتبة أخصائى القلب .. وجدت الباب مغلقا فوقعت .. أهى أزمة قلبية ؟! أزمتى القلبية الثانية ؟

***

كان لى شباب وحيوية وعزم وحسم .. وفى صدر شبابى كنت بطلا فى رفع الأثقال وهرب منى المجرم عباس .. ويقولون كم فى الحبس مظاليم !.. كل مجرم يزعم أنه مظلوم .. كنت برتبة ملازم ، تسلمت بعض المحبوسين على ذمة قضايا ، لنقلهم الى المحكمة ، فى الطريق هرب عباس ، غافل العساكر الحمير وهرب ، صار مستقبلى على كف عفريت . طلبت من رؤسائى مهلة يومين ، داهمت داره . طبعا لم أجده . أخذت زوجته الى القسم . كانت شابة جميلة. معظم زوجات المجرمين جميلات . معتادو إجرام ويفهمون فى الجمال !.. سألتها عن مخبأ زوجها .. قالت

لا أعرف .. لطمتها بكفى اليسرى . قالت والله لا أعرف . رفستها بقدمى اليمنى . كنت أعرف أنها لا تعرف .. ولكن ؟..

ماذا يفعلون بى الآن ؟!.. أتركوا المحفظة يا أولاد الكلاب . يحملوننى .. ماذا أرقدنى أرضا ؟! رأيت باب العيادة مغلقا على خلاف العادة ، عيادة أخصائى القلب .. ثم كانت الإغماءة .. الآن أتذكر .. أنا فى حالة إغماء .. جسدى خامل خرِع ولكن ذهنى متوقد ، وكثيرون يريدون قنص حياتى ، منهم عزرائيل والعياذ بالله !!

زوجة عباس قالت لا أعرف . لطمتها ثم تركتها متكومة الى جوار الحائط . قبل المغرب أمرت بتعليقها من معصميها . شققت ثوبها من أعلاه الى أسفله . بان جسدها متناسقا تحت قميص غالى الثمن . جميلة فعلا . زوجة الخنزير عباس كانت بديعة الجسد . وقتها كان يشغل بالى انقاذ مستقبلى وإعادة زوجها الهارب . تركتها حتى توافد أصحاب السوابق الموضوعون تحت المراقبة . بينما هم يوقعون أو يبصمون فى دفتر المساء نهضت بالعصا وضربتها على ساقيها وبطنها ثم نهديها ، ضربا خفيفا لكنها تلوت تتأوه . أذكر الآن . تأوهت كأنها فى نشوة الجماع !.. عذاب الألم يشبه لذة المتعة ، وهذا تعبير جميل ، لابد أن أكتب مذكراتى !

فى الصباح الباكر خرج أصحاب السوابق ، وطبعا حكوا ما رأوه ، حكوه فى أوكارهم . وصل الخبر الى رجلها الخنزير فى مكمنه . قالوا له الضابط الصغير أخذ زوجتك رهينة !.. رهينة يا أولاد الكلب يا كذبة ؟ هل نحن فى حرب عصابات ؟!.. لكنه جاء يفتديها وسلم نفسه . رآها معلقة والثوب مشقوق عن بضاعتها الطازجة . حدجنى بنظرة وعيد ، وعيد وتهديد . عاجلته دون تردد بلكمات متتاليات حتى كسرت نظرته . وشاعت سمعتى بين الرؤساء والمجرمين . قالوا هذا الضابط الصغير حازم صارم يتقن مهنته .. صرت أنا رجل المهام الصعبة !

***

المحفظة يا أولاد الكلب . أعيدوها .. ماذا تفعلون بى الآن ؟!.. تحملوننى الى أين ؟!.. تنزلون الدرج ؟!.. بهدوء وحذر يا خنازير . حذار أن أقع منكم وأتدحرج على الدرج .. لو جاء الخنزير عباس الآن لأخذ بثأره منى بسهولة تامة .. لعله مات .. كان ذلك فى الخمسينات ، جمال عبد الناصر يقول : إرفع رأسك يا أخى . حدجنى عباس بنظرته النارية المتوعدة فانهلت عليه ضربا بالعصا حتى تكوم ذليلا ، وخبت النار فى عينيه وكسرت نظرته !

الآن أسمع ضجيج الشارع . يضعوننى فوق الرصيف .. يا أوساخ افرشوا ملاءة تحتى .. أين الاسعاف ؟!.. لو مر

عباس الآن مصادفة وأنا راقد رقدة العاجز هذه لقتلني بسهولة . قد يتظاهر بالشهامة والرغبة فى المساعدة ثم يكتم أنفاسى الهزيلة ، أو يخرج من جيبه خلسة قطعة حشيش يدسها فى فمى ، وتكتب الصحف : لواء شرطة يموت بالمخدرات !.. وتقليعة المزاج هذه الأيام هى الأبيض ، كوكايين وهيروين ، أصناف مغشوشة !.. وآخر ما أذكره الإغماء والوقوع . رأيت الباب مغلقا . سألت عن السبب . عرفته فسقطت ، وفى الماضى كنت مثل الفولاذ !

تفانيت فى عملى فتعب قلبى ، وكان قويا دائما .. غرقت فى عالم الإجرام ، أقصد غرقت فى عالم مكافحة الإجرام .. نجحت دائما إلا قليلا . فى كل مكان عملت به كونت شبكة محترمة من المرشدين الأهالى . رغم خوفهم منى خدعنى بعضهم . يأتى المرشد ويهمس لى بسر عملية خطيرة ، شروع فى قتل أو تهريب ممنوعات . يحدد المكان والوقت . أتوجه سرا الى الموقع . أنصب كمينا محكما . تمضى الساعات ولا يقع شىء وأعود محبطا . فتعلمت الشك . تمنيت لو بامكانى الدخول الى عقل المرشد لأكشف صدقه من كذبه !

وحتى عندما التقيت بها ، نجلاء العجيبة الغامضة ، رغبت لو شققت رأسها ، لو أخرجت مخها وراقبت ما يدور فيه .. وقعت فى الحب ، كان هذا الوقوع أكبر غلطة .. لكنى وقعت وبدأ إجهاد القلب . بين عالم الإجرام ودنيا الأنثى تعب قلبى !.. كانت متزوجة جميلة عفية فارعة .. بنت الكلب كانت رشيقة متناسقة يانعة ، كأنها خالية من العظام مثل العرسة .. متزوجة من ثرى مثل العجل . كان من أوائل المنضمين الى تنظيم الحكومة ، هيئة التحرير ثم الاتحاد القومى .. ولما صار اسمه الاتحاد الاشتراكى العربى ، اتحاد قوى الشعب العاملة ، سارع العجل بالاندماج فى فرع الرأسمالية الوطنية ، سعى حثيثا وراء أموال الدولة ، وسعيت أنا وراء امرأته الغامضة ، نجلاء وجسدها الطرى العرساوى .. وقعت هى فى غرامى فأخذت تنغص عليه حياته .. جعلت من بيته جحيما فطلقها وتزوجتها أنا .. وخفق قلبى فرحة وفى ظنى أننى دخلت الجنة . لكن المرأة ليست جنة !

وجدتها خبيرة فراش، لها فيه فنون ومجون ، نهشنى الشك ، والشك هو الباب الواسع الى الجحيم - ما هذه البلاغة والتعبيرات الجميلة ؟! لابد أن أكتب مذكراتى - كنت معنورا لأن من غدرت بزوجها الأول تغدر بالثانى .. والقاهرة مكتظة بلصوص الزوجات السفلة .. ولم يكن من الاحترام أن أكلف مخبرا بمراقبتها سرا ، القط يفشل غالبا فى مراقبة العرسة !

صوت سيارة الإسعاف . أخيرا وصلوا . كنت أطلبهم فى حوادث الطرق فيأتون بعد ساعات .. لكننى أختلف . لست عابر طريق .. أنا الباشا اللواء متقاعد عبد القوى مطارع !

***

المحفظة يا أولاد الكلب . قبل أن تضعونى فى سيارة الاسعاف أعيدوا محفظتى . أعرف جميع ما فيها ، كما أنها هدية من نجلاء ، اللذيذة ليلا المشاكسة نهارا ، ونظراتها وقت الغضب تشبه نظراتها لحظة الرضاء !.. مع أول ترقية تالية نقلونى الى الصعيد، مأمورا لمركز صغير مشاغب ، تتنازعه أسرتان ، بينهما ثأر متفجر منذ عام ١٩١٥ .. الأجلاف يتناوبون القتل منذ عام ١٩١٧ .. قتيل من الأولى ثم ضحية من الثانية ، فالأولى فالثانية فالأولى .. وكل رجل منهم يتزوج من امرأتين أو ثلاثة لتعوض فواقد الاقتتال ، يفتنون من انجاب البنات ويفرحون بالذكور ليحولوهم حطب فى نار الثأر .. لابد أن أكتب مذكراتى : يوميات ضابط فى الأرياف .

سيارة الاسعاف تتحرك ، ترتج مثل سيارة نقل المواشى . هل أعادوا المحفظة ؟؟ أف .. رائحة السيارة نتنة .. ذات يوم ضبطت سيارة اسعاف تنقل خراف العيد ! والأجلاف كانوا يتناوبون القتل منذ عام ١٩١٨ ويتباهون بأن اسم مركزهم جاء ترتيبه الأول فى احصائية الأمم المتحدة ، الأول فى مجموع جرائم القتل . والمأمور فى مركزهم سكن ميرى ، بيت ريفى متواضع محاط بحديقة ليس بها الا خمس نخلات، أقرب الى المعتقل ويسمونه سراى المأمور . على قدر ضيق زوجتى به كانت فرحتى لابتعادها عن شبان العاصمة . لم يعد أمامها إلا الثرثرة مع زوجة طبيب الوحدة الصحية البدينة وقرينة وكيل النيابة المتعجرفة .. وعندما لا تنقطع الكهرباء كانت تتفرج على التليفزيون ومسلسلاته السخيفة وأناشيده الوطنية الفجة !

وصلت وقد سبقتنى سمعتى ، زارنى رءوس الأسرتين المتناحرتين . لم أبش فى وجوههم العكرة .. ثم جمعتهم معا فى اجتماع عابس وأنذرتهم . أمرتهم بالكف عن الثأر أو تأجيل حوادثه طوال فترة عملى فى ناحيتهم ، هددت باعتقال أعزتهم عند وقوع أول عملية قتل .. لكنى لم أمنع نساءهم من زيارة زوجتى بالهدايا المعتادة من طيور وسمن وبيض . أتحت لهم هذه المجاملة لأن حسن السياسة هى الكياسة .. سوف تكون مذكراتى إن كتبتها تحفة أدبية : يوميات بوليسية فى قرية مصرية !

آخر ما أذكره اليوم ومنذ قليل أننى عرفت السر وراء غلق الباب ، باب العيادة ، عيادة أخصائى القلب ..

فسقطت وحملونى الى الرصيف ، الى سيارة الاسعاف النتنة . مازال بمصر بعض أولاد الحلال. ولكن هل أعادوا المحفظة .. لا أستطيع تحريك يدى للتأكد . لا أقدر على فتح عينى .. لواء شرطة متقاعد على النقالة !

هددت باعتقال أعزتهم من باب التهويش .. لم يكن هذا الاجراء من سلطاتى .. كان يخضع لاعتبارات العزوة الأسرية والانتخابات .. انتخابات يا أولاد الكلب ؟!.. كنا نطبخها من أجل أمنكم يا خنازير .. لكنى كنت أحبس بعض أعوانهم وتوابعهم ، ثم أطلق سراحهم وعلامات الضرب واضحة على أبدانهم الوسخة ، كى يراها البغال فيرتدعون !

المشكلة كانت فى تبرم زوجتى العرسة ، والتبرم هو الطريق المنحدر الى هاوية الغواية .. أحضرت كلبا شرسا



وأطلقته فى الحديقة الخرية لمنع الغرباء من الاقتراب أثناء غيابى . لم اكن أخشى اللصوص .. لصوص الأرياف أمرهم تافه .. إن سرقوا يسرقون بقرة أو خروفا ، الغبى منهم يسرق حمارا ، ولا يجرءون على اقتحام بيت المأمور ، خصوصا أنا .. لكن حدث ذات عصرية وأنا عائد الى الدار أن وجدت هذا الكلب يهز ذيله لصبى ألقى له قطعة عظم

.. ضربت الصبى وشعرت بالغم ، حتى الكلاب الموصوفة بالوفاء تخون ، ومن أجل قطعة عظم !

لماذا توقفت سيارة الاسعاف ؟ .. اشارة حمراء أم زحمة مرور ؟.. أصحاب السيارات هذه الأيام لا يفسحون الطريق لسيارة اسعاف أو مطافىء ، لقطاء محدثو نعمة ، لصوص قوانون شمامون ! .. وبعد خيانة الكلب وقعت أحداث جسام ، أغتيل فرد من احدى الأسرتين . بعد يومين قتل فرد من الأخرى . بعد ثلاثة أيام لم تتحمل زوجة معاون النيابة المتعجرفة هذه الحال وسافرت الجبانة الى أهلها بأسيوط .. صار زوجها المعجب بشبابه ومنصبه وحيدا دون رقابة منها .. ولا يجرؤ ضابط منا على حبس معاون نيابة . لم تعجبنى نظراته وتحركاته فأطلقت رصاصة قتلت بها الكلب الشرس

الخائن ، وأحضرت أدميا يحرس بيت الزوجية ، سلماوى الذى كان دميم الوجه ويستطيع إصابة غراب طائر بطلقة واحدة من بندقيته القديمة ، زعم أنه حفيد « الخُط » أشهر مجرمى الصعيد أيام الملك فاروق . قال انه لم يكن لصا .. لماذا لم يكن لصا؟ لأنه كان يسرق من الأغنياء ليمنح الفقراء ، نفس ما فعله عبد الناصر عندما أخذ أرض الأغنياء ومنحها للفقراء ، وهللت له الناس لأنهم يعبدون القوى ، هكذا قال حفيد الخُط !

***

دائما كان قلبى سليما ، ثم عدت ذات مغربية الى سراى المأمور ولم أجد نجلاء . كان سلماوى ذهب لزيارة أسرته فهربت . كيف لم يرها أحد عيونى المبثوثين فى كل مكان وفى المحطة ؟.. سؤال جوابه مريب ! عادت الى أهلها بالقاهرة . أفلتت من منطقة سطوتى .. اضطررت الى تأجيل التعامل مع مشكلتها ، وتفرغت أنكل بالأسرتين المتناحرتين لوقف عمليات الثأر مادمت أنا المأمور .. يبدو أن زوجتى نجلاء هربت فى ثياب امرأة ريفية ، هكذا خدعت جواسيسى وهربت ، لكن من سرَّب الثوب اليها ؟! بنت الكلب كانت فى أسابيع الزواج الأولى لذيذة وممتعة ، تجيد بالفطرة مهنة السرير ، ولم يعوضنى عنها امرأة أخرى حتى البغى المحترفة !

فى أولى زياراتى للقاهرة طالبتنى بالطلاق محتمية بأهلها المنحرفين ذوى الحظوة لدى السلطة، صارت أول امرأة فى التاريخ تنفذ مشيئتها ضد ارادتى ، والعرسة تمتص دماء الطيور ، ديوك وذكور البط والدواجن ، طلقتها وعدت الى عملى لافرض الأمن وفرضته فى أقصر وقت ، فتم نقلى الى جهاز أمن الدولة بالعاصمة .. وفى شقة القاهرة القديمة رأيت وجهى فى المرآة ، كان غريبا به تجاعيد جديدة ثابتة جعلته دائم الصرامة ، ومشيب خفيف تسلل مثل لصوص الليل الى شعرى . خفق قلبى فى اختلال . لم أنتبه وقتها أنه خفق فى اختلال ، تذكرت ذلك فجأة منذ دقائق وأنا أسقط بغتة أمام باب العيادة المغلق ، عيادة أخصائى القلب !

طلقتها وبعد مدة رأيتها تتأبط ذراع رجل خِرِع يتوجه بها الى سيارة فارهة ، مليونير انفتاحى كان يركب الأتوبيس بالدرجة الثانية، ثم اقتنى الملايين والسيارات فى زمن السادات .. اصطدمت نظراتى بنظراتها ، احتقن وجهى أنا ، ومضت هى كأنها لم تشاركنى السرير من قبل .. أتكون عرفت هذا

الضرع وهى فى عصمتى؟! سؤال أربك قلبى ، فأسرعت دقاته تدفع الدماء الى نافوخى حتى مادت الدنيا بى لثوان ، ثم أبطأت حتى تملكتنى رغبة القىء .. لكن منصبى الجديد عوضنى عن الهزيمة . نجلاء لا تصلح امرأة لرجل واحد ، يلزمها زوج لكل ليلة ، قادرة على انهاك قلوبهم جميعا ، ولم تفلح النسوة الأخريات فى اقتلاعها من قلبى ، رغم أن واحدة منهن كانت راقصة شهيرة ارتمى تحت أقدامها أغنى أغنياء الانفتاح وأحد رموز النظام . كنت أغمض عينى وأتخيلها نجلاء الغامضة اللذيذة الخائنة !

***

لم أتحرك الا والنجاح يزين موكبى .. ومعظم الناس حمير يجهلون أن أمن الدولة بالعاصمة هو أمن سياسى ، كان اسمه أيام الملكية القسم المخصوص . نرتدى الثياب المدنية ومهمتنا حماية نظام الحكم أيا كان اسمه ، ملكى جمهورى رأسمالى اشتراكى انفتاحى انغلاقى ديمقراطى استبدادى ، لا يهمنا نوعه، نحن محترفون ، وحكام أى نظام لا يستغنون عنا ويغدقون علينا . هكذا حالنا فى العالم كله .. جاء السادات بانفتاحه وقال العلم والايمان ، ووصف نفسه بالرئيس المؤمن ، يقصد أن سلفه عبد الناصر لم يكن كذلك ، أمسكت مسبحة وصرت أوجه الاتهامات المسبوكة باجراءات قانونية محبوكة .. والمسبحة إما بين أصابعى أو على المكتب .

كل عهد جديد يستولى على الحكم يرفع ساسته لافتة النزاهة والعدالة ، يطيحون بوزيرنا وأحيانا يعتقلونه ، أو يحجبون عنه الأضواء ويتركونه يتعفن فى الظل ، ويطردون بعض الرتب الكبيرة ، وقد يشهرون بهم علانية . نفس الأمر يحدث مع قيادات الاعلام ، لكن الهيكل الأساسى يستمر فى جميع الأحوال .. وقبل أن يستقر الوضع نظل نحن أصحاب الرتب الكبيرة فى توتر وترقب ، كل واحد منا ينتظر العزل فى أية لحظة والتشهير به، والأفعال التى كافئونا من أجلها فى الماضى هى نفسها التى يحاكموننا بسببها عندما تدور الدوائر !.. كان لابد لقلبى أن يتعب ، وفاض التعب بى أمام باب العيادة المغلق . سألت إن كان أخصائى القلب فى اجازة وسمعت الرد ، فغصت فى ظلام سحيق ، ورأيت دائرة الوجوه وأحسست بمن يفتشنى .. المحفظة يا أولاد الكلب !

***

أخصائى القلب نصحنى بعدم قراءة

الصحف لأنها تتسبب فى زيادة ضغط الدم وارتفاع السكر وفساد القلوب . بعض الكتاب التافهين يكتبون هذه الأيام عن تقليعة اسمها حقوق الانسان ، بدأها بعض مخنثى أوربا ثم انتقلت مثل مرض الإيدز الى بعض الإمعات هنا ، وأسسوا جمعيات الدفاع عن حقوق الانسان ، شكلت عبئا إضافيا على الأمن من مراقبة أعضائها وتليفوناتهم واجتماعاتهم ورسائلهم . عبئا يضاف الى مكافحة أهل الجريمة والتهريب والقمار والسياسة والدعارة والنشاط المتطرف !.. صرنا فى نهاية القرن العشرين ومازلنا نقلد الغرب دون وعى .. حقوق انسان يا أولاد الكلب ياعالم ثالث ؟! نحن أول أناس ندافع عنها ، ودائما وأبدا باجراءات قانونية محبوكة مسبوكة .. قد أسمى مذكراتى « حقوق الانسان بين التسبيك والتحبيك » .. والحمد لله أننى تركت المهنة !

الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه .. قبضت مكافآت نهاية الخدمة من الوزارة وصناديق الزمالة . فكرت فى أحسن استثمار لها ، أردت ربحا حلالا سريعا كبيرا ، وهذا حقى . وضعتها وديعة لدى شركة توظيف أموال ، لأصحابها لحى طويلة كثة ، وملفات منتفخة لدى المباحث . أحدهم تاجر عملة ، الثانى مهرب مخدرات ، والثالث شمام هيروين . تحريات وتقارير سرية يعرفون أننى أعرفها منذ أيام الخدمة ، وقد يظنون أن فى حوزتى صورا منها ، توقعت ألا ينصبوا علىّ . رحبوا بى بالأحضان . عطست مرارا مع ملامسات لحاهم لأنفى . أعطونى أرباحا كبيرة فى مواعيدها الدورية ، أضفتها الى أصل الوديعة .. ثم بدأت الصحف تهاجم ، مع أنهم اشتروا كثيرين من الصحفيين ثم دخلوا السجن وطارت الوديعة بأرباحها الحلال ، ثمرة شقاء العمر فى التسبيك والتحبيك !

تقبلت الصدمة برضاء المؤمن وبأس الرجال . معاشى يكفينى والحمد لله . لم أنقطع عن الصلاة ، ولم أهرع الى الطبيب ومهدئاته . لم أطلب زيارة طارئة . انتظرت حتى حان موعدى الروتينى وتوجهت اليه . فى هذه الزيارة قال لى بين الجد والهزل أننا نحن رجال أمن الدولة مسئولون عن فساد الادارة العليا فى الحكومة والشركات والمصانع العامة .. غضبت فسارع بتغيير الموضوع مترفقا بقلبى .. ما ذنبنا ؟! الحكومة تحيل لنا الأسماء المرشحة للمناصب العليا ، ونحن مهمتنا الأمن السياسى . نفحص كل حالة بكل نزاهة ، ثم نرفع

كشفا الى الحكومة فيه أسماء من نعرف فيهم الولاء والطاعة والانصياع ، وهذا لا علاقة له بالأمانة أو الكفاءة ، هذه أمور لا تدخل فى اختصاصاتنا ، وتقاريرنا استشارية طبعا . بعد أسبوعين أو ثلاثة تنشر الصحف أخبار تعييناتهم ، فيستهلون وظائفهم بنشر اعلانات التهنئة والمبايعة لرئيس الجمهورية ورئيس الوزراء والوزير المختص ، ولا يذكروننا بكلمة شكر أو امتنان . لكننا نعمل فى صمت وانكار ذات .

حقوق انسان يا عالم ثالث .. وعربة الاسعاف تمشى بدقيقة وتتوقف عشرة !! وماذا يحدث لو كان عباس الخنزير مات واضطرت زوجته الى العمل ممرضة ، وبالتحديد فى المستشفى التى يأخذوننى اليها الآن، ثم رأتنى ضعيفا وتذكرتنى وتسللت ليلا لقتلى . جسدى ابن الكلب يعصى أوامرى . أعضائى كلها خامدة خاملة خرعة عدا ذاكرتى.. من يحمينى ؟

***

قلت لأخصائى القلب قبل أن يغيّر الموضوع : لتنحط الادارة والشركات والمصانع . ما دخلنا اذا كان الموالون المطيعون المنصاعون حميرا فى الادارة ؟!.. انهم مريحون أمنيا ، ينفذون تعليماتنا بنقل العمال الخطرين ، لكنهم كذلك وبسبب جهلهم يضطهدون الكفاءات ، والمال ليس مال أهاليهم .. ومع فوضى الصحافة التى شاعت فى زمن حسنى مبارك ، وشعاره طهارة اليد واللسان ، فإن بعض هؤلاء المضطهدين يذهبون الى صحف المعارضة ويمدون محرريها الخنازير بالمستندات المسروقة ، ويصورون من أنفسهم شهداء الواجب يضحون من أجل الوطن ! الوطن يا عالم ثالث ؟! نحن حماته .. وأعظم المتعاونين مع الشرطة فى كل العالم ذلك الذى نضبط زوجته تخونه ، أو نمسكه عاريا فى فراش زوجة غيره ، والأفضل أن يكون شاذا جنسيا .. إكسر عين الفرد يستتب أمن الدولة !

إجرام اختلاسات خيانات زنا غدر نفاق ضغائن .. كل هذا ولا يتعب قلبى يا أولاد الكلاب .. طبعا تعب وداهمته الأزمة الأولى . واليوم توجهت الى الطبيب . وجدت باب العيادة مغلقا فسقطت على البلاط فى اغماءة .. قبل السقوط مباشرة أحسست نارا فى صدرى ، ثم رأيت دائرة الوجوه ، وشعرت بمن يفتشني . سمعت طنينا فى أذنى .. لواء شرطة متقاعد : المحفظة يا أولاد الكلب !

رأيت الباب مغلقا وعلمت أن أخصائى القلب الذى يعالج قلبى ، سقط بفعل أزمة قلبية حادة .. ومات .. ابن الكلب .

القصة القصيرة

من الستينات إلى التسعينات

بقلم : د. سيد حامد النساج

يكتب الدكتور سيد حامد النساج دراسة حول القصة القصيرة فى الثلاثين سنة الأخيرة ، وننشر الجزء الأول منها ، نتعرف فيها على المعايير التى سارت عليها القصة فى هذه الفترة الزمنية ، والكتاب الذين ظهروا والمعايير الفنية التى اتسمت فى كتابتها نظرا للتغيرات السياسية والاجتماعية التى يشهدها المجتمع .

« الهلال »

يأتى هذا المقال - بإذن الله - استكمالاً لدراستين سابقتين تناولت فيهما القصة القصيرة فى مصر ، منذ البدايات الأولى حتى ١٩٦١ . صدر الجزء الأول بعنوان « تطور فن القصة القصيرة فى مصر » وقد تعرض لمرحلة التأصيل ١٩١٠ - ١٩٣٣ . ثم مالبث أن تبعه الجزء الثانى حاملاً عنوان « اتجاهات القصة المصرية القصيرة » متوفراً على دراسة الفترة التالية التى شهدت ازدهاراً وتنوعاً فى هذا الفن ١٩٣٣ - ١٩٦١ مصحوباً بعمل ببليوجرافى قدم دليلاً للقصة المصرية - من خلال الصحف والمجلات والدوريات والمجموعات القصصية - فى نصف قرن .

وكان لزاماً أن يواصل باحثون آخرون متابعة هذا الفن فى مسيرته الطويلة بعد سنة ١٩٦١ . نظراً لما يحتاجه مثل هذا العمل من جهد شاق ، ووقت طيب ، وأناة ،



شكري عياد — إبراهيم أصلان — بهاء طاهر — عبد الحكيم قاسم

وصحة . يضاف إلى هذا أنه ينبغي أن تتعدد الرؤى ، والمناهج ، وأدوات البحث ، وكى لاتصبح الموضوعات حكراً على أحد . لكن ، يبدو أنه لابد مما ليس منه بد .

ذلك أننا إذا نظرنا فيما بين أيدينا من مؤلفات أو دراسات حول فن القصة القصيرة المصرية في هذه الفترة : فإنا سوف نجدها قليلة جداً ، لاتتناسب مع حجم الإنتاج ، وعدد الكتاب ، وتباين اتجاهاتهم الفكرية والفنية . بالإضافة إلى أن كلاً منها قد تسربت إليه جوانب ضعف تجعلها قاصرة عن أداء الفائدة المرجوة .

فى الطبعة الثانية لكتاب « القصة القصيرة فى مصر » التى صدرت فى إبريل ١٩٧٩ ، تأليف الدكتور شكرى عياد صرح قائلاً : « إن القصة القصيرة فى مصر لم تعرف خلال هذه الأعوام العشرة ٦٩ / ١٩٧٩ جديداً ذا بال . فحين فكرت فى إعادة طبع هذا الكتاب وجدت أنه لايحتاج إلى إضافة ما . لقد تم تأصيل هذا الفن فى أدبنا . وإذا بدأ تاريخ جديد ، فسيكون فى حاجة إلى كتاب جديد . ولكننى ألحقت به مقالاً كتبته بعد أشهر من صدوره ورأيت فيه نوعاً من التفصيل للأسطر الموجزة التى ختمت بها الكتاب الأصلى » ص٣ .

وهذا يعنى أنه حكم على عقد كامل بأنه لم يشهد جديداً فى القصة القصيرة . كما أنه أغفل ماقبل ١٩٦٩ . وسوف يلاحظ الدارس المتأمل أن فن القصة القصيرة فى مصر ، اعتباراً من ١٩٦١ ، قد شهد عدداً من الكتاب الجدد ، وأشكالاً من الكتابة الفنية ، واتجاهات متعددة فكرياً وفنياً ، تستحق الخضوع للدراسة النقدية . لكن الدكتور شكرى عياد لم يجد مايضيفه إلى ماسبق أن درسه بدءاً بالمقامة العربية وحتى إحدى قصص يوسف إدريس فى أوائل الخمسينات ، لأنه شغل طويلاً بتأصيل هذا الفن دون التفات لمتابعة مراحل تطوره ، وأشكال هذا التطور ،

والأجيال التى اجتهدت فى محاولة إضافة بعض الملامح الفنية .

أمّا الملحق الذى أضافه الدكتور شكرى عياد فإنه عبارة عن المقال الذى كان قد نشره فى مجلة « المجلة » العدد ١٥٠ - يونيو ١٩٦٩ تعليقاً على العدد الخاص الذى أصدرته مجلة (جاليرى ٦٨) فى أبريل ١٩٦٩ . والمقال فى سبع صفحات من الكتاب (١٧٦ : ١٨٣) . وفيه نراه يخص الكاتب الواحد بفقرة أو فقرتين ؛ لأن مادته وقفت عند حد القصة القصيرة الواحدة المنشورة ضمن قصص العدد .

ومعظم الذين حظوا بهذه الفقرة ممن يمثلون الجيل الذى سعى من أجل أن يقدم جديداً فى القصة القصيرة ؛ مثل بهاء طاهر ، عبد الحكيم قاسم ، محمد البساطى ، أحمد هاشم الشريف ، إبراهيم أصلان ، جميل عطية إبراهيم ، محمد حافظ رجب ، محمد إبراهيم مبروك ، إبراهيم عبد العاطى ، إبراهيم منصور ، يحيى الطاهر عبد الله .

وفى المقدمة التى اختارها إدوار الخراط للنشر فى العدد الرابع عشر من مجلة (الكرمل) أفاض فى الحديث عن الحساسية الجديدة : مفهوماً وتيارات وتقنيات . وأشار إلى عدد من الكتاب الذين ظهرت قصص بعضهم فى الستينات ؛ وآخرين نشروا لأول مرة فى السبعينات .

اختار نموذجا لبعضهم ممثلاً فى قصة قصيرة واحدة . ولم يختر لبعضهم قصصاً على الإطلاق (خيرى عبد الجواد ، إبراهيم فهمى ، محمد حافظ رجب الذى يستأهل دراسة مستقلة منصفة ، محمود عوض عبد العال ، بهاء طاهر ، جميل عطية إبراهيم) .

قنّن ونظر وقعّد وأرخ فى سبع صفحات ، ثم أردفها بنماذج غير محللة ، ولا تستقيم مع ما وضعه من نظرية ، ولاتستجيب للتصنيف الذى حدده . وقد احتلت بعض النماذج مالا تسمح به طبيعة القصة القصيرة بأى شكل من الأشكال (قصة من مقام الاغتراب لجمال الغيطانى ٤٠ : ٦٥) ست عشرة صفحة . وقصة (رجوع الشيخ لعبد الحكيم قاسم ٩٤:١١٣) عشرون صفحة . وقصة (من يخاف كامب ديفيد ؟ ليوسف القعيد ١٤٦ : ١٦٥) عشرون صفحة ، من القطع الكبير .

كتاب بعينهم

ونحن لا نعرف - موضوعياً - لم كان هذا الاختيار ؟ وعلى أى أساس فنى أو فكرى أو موضوعى ؟ ولماذا هذه القصص بالذات ؟ ولم هؤلاء الكتاب بأعينهم ؟ إذ أنه ليس ثمة مقدمة دالة تجيب عن مثل مايثار من تساؤلات . ولا يخفى أنه أدخل كتاب السبعينات مع كتاب الستينات ، ورغم اختلاف الظروف والدوافع والتوجهات

السياسية والفكرية والمنطلقات الاجتماعية

وعندما أصدر كتابه (مختارات القصة القصيرة فى السبعينات) ١٩٨٢ ؛ وهى الدراسة التى كان قد نشرها فى مجلة «فصول» المجلد الثانى العدد الرابع يوليو - سبتمبر ٨٢ وجدناه يختار نماذج لثمانية من الكتاب الذين سبق له أن ضمنهم مجموعة الكتاب فيما أشرنا إليه . بمجلة (الكرمل) مثل : إبراهيم عبد المجيد، جار النبى الحلو ، سحر توفيق ، عبده جبير ، محسن يونس ، محمد المخزنجى ، محمود الوردانى ، يوسف أبو رية .

ولو أنه حذف نماذجهم من (الكرمل) واختار قصصاً قصيرة بالفعل ، واكتفى هناك بالحديث عن مرحلة الستينات وحدها، واتجه هنا نحو دراسة السبعينات ؛ لأفاد أيما إفادة .

ومن إسهاماته فى مجال بحثنا تلك المقدمة التى كتبها لمجموعة (الليف والصندوق) ليحيى الطاهر عبد الله ، والمقدمة التى كتبها للطبعة الثانية من مجموعة (الخطوبة) لبهاء طاهر . وهى جميعاً - وإن كانت تفتح باب الاختلاف والحوار - تعد لوناً من ألوان المتابعة ، لكتاب بأعينهم قلما يتغيرون ، دون الإلتفات لغيرهم على طول الخط ؛ وكأنهم غير موجودين . ولا مجال هنا لمناقشة الأفكار والرؤى الخاصة به ، إذ إنا نختلف معه فى كثير منها ، وقد يبدو ذلك واضحاً من خلال الدراسة .

القصة القصيرة وتيــار الــوعى

أما الدكتور عبد الحميد إبراهيم فإنه أصدر كتاباً بعنوان (القصة القصيرة فى الستينات) - دار المعارف - سلسلة « اقرأ » العدد ٥٤١ - ١٩٨٨ . يحدد منهجه بالبدء مباشرة من « الشكل » حماية من الواقع فى مقاييس خارجية أو متاهات المضامين ، أو تطبيق المذاهب الوافدة - كما يقول - مستهدفاً القصة القصيرة بطبيعة الحال .

ويحتل التمهيد مساحة كبرى من القسم الخاص بالقصة القصيرة وتيار الوعى . وقد اختـــار له عنوان « الاتجاهات التجديدية » . مما طغى على تحليل النصوص ونقدها ، والبدء بالشـــكل الفنى (٣١ : ٥٢) . ويبدو من هذا التمهيد أنه يفرد مفهوماً للتجديد ، وقصصاً للمجددين من خارج الأدب المصرى الحديث ؛ وبعيداً عن فترة الستينات التى يدور حولها الكتاب . وهو مايتعارض تماماً مع خطة البحث التى التزم بها . حيث سيطرت النماذج الأوربية ، كما كان الاستشهاد بالروايات أكثر من الاستناد إلى القصص القصار ؛ وهى موضوع الكتاب .

وفى ثنايا الاحتفال بالنماذج الأوربية أطلق أحكاماً قاطعة باترة ، على محاولات التجديد فى القصة القصيرة المصرية ، قبل البدء فى تحليل القصص ومناقشتها .

بل دون ذكر إسم كاتب واحد أو قصة قصيرة واحدة مثال ذلك قولـه (ص٤٥) (... ولكن هذا التصميم الجديد والحفى ، الذى يتحرك من خلاله عباقرة هذا الشكل قد أفلت عند كثير من كتابنا ... فقد أغرى هذا الشكل فى القصة الكثيرين وتصوروا أن مجرد التحطيم كاف فقدموا لنا مشروعات مجهضة ليست فيها خبرة حرفية ولا موهبة فنية ، فهى إما غامضة هلامية غموض مشاعر مؤلفها ، وهى إما مجرد ثرثرة أقرب إلى ثرثرة الحياة اليومية التى تحدث فوق المقاهى ، خلت حتى من عنصر الانتقاء) .

ويقول ص ٤٧ : (وبعض فنانينا قد ضاع منه التصميم لضياع النغمة الرئيسية التى تسيطر على القصة ؛ فهى نتيجة مشاعر مبهمة غامضة ونتيجة قراءات شتى ، كل هذا إذا لم يكن وراءه تصميم يصبح مجرد أخلاط لاتؤدى إلى شئ) . ويؤكد ذلك فى ص٤٨ قائلاً : (والتصميم قد يضيع من بعض فنانينا بسبب سوء فهم لطبيعة هذا الشكل) . وفى ص ٤٩ يقول : (ولكن الغموض فهم عند شبابنا فهماً قاصراً ، لم يكن غموضاً واعياً بغموض التجربة ومايقتضيه من عمق ، ولكنه كان غموضاً بسبب اختلاط المفاهيم وسوء الفهم لما يقتضيه الشعر كشعر ، وما تقتضيه القصة حين تستخدم الشعر) .

وهنا نجده يتحدث عن « التصميم » عند يوسف الشارونى . ويذكر له قصص « الغيظ » و « الوباء » و « الطريق إلى المصحة » وهى قصص كتبت ونشرت قبل بداية الستينات بكثير ؛ إذ أنها تعود إلى الأربعينات . وكاتبها لايمكن اعتباره واحداً من كتاب هذه المرحلة . واللافت أنه يذكر إسم الكاتب ، وعناوين قصصه ؛ فى حين أنه عندما حكم على كتابات الشباب - كما سبق فى الفقر التى نقلناها عنه - لم يذكر إسم كاتب واحد ، ولا عنوان قصة من القصص التى ينطبق عليها حكمه الباتر .

وحين تناول الاتجاهات التقليدية وجدنـاه يتحـدث عن « المضمون » وليس « الشكل » كما وعدنا فى المقدمة . ورأيناه يعرض لاتجاه واحد وليس « اتجاهات » وهو أمر طبيعى . لكن غير الطبيعى هو أن يتنـاول كلا من بهاء طاهر ، وزهير الشايب ، وحسن محسب ، وحمدى الكنيسى ، وغيرهم ، فى بضع صفحـات (٢٢ : ٣٠ من حيث مضمون القصص والموضوعات التى تتناولها . ومنهم من حظى بفقرة واحدة أو فقرتين . وجدير بالذكر أن وضعهم جميعاً فى دائرة اتجاه تقليدى واحد ، يظلم كاتباً مثل «بهاء طاهر» الذى استهدف التجـديد فى مجمـوعته (الخطوبة) على نحو خاص ، وحمدى الكنيسى الذى يعد واحداً من الذين جددوا بالفعل بعد ١٩٦٧ فى الشكل ، والمضمون ، واللغة . واختيار هذا العدد من الكتاب لايكفى للدلالة على غلبة هذا الاتجاه فى الستينات ؛ لأن غيرهم كتب قصصه فى

ضوئه . مثل محمد البساطى ، وخيرى شلبى ، وجمال الغيطانى ، ومحمد يوسف القعيد ، ومجيد طوبيا .

وعلى نحو ما أقحم يوسف الشارونى ، يدخل ادوار الخراط فى بداية تناوله للقصة القصيرة وتيار الوعى ، ممثلاً لذلك بقصته « حيطان عالية » . وهى الأخرى ليست نتاج المرحلة ؛ ولا الكاتب من أبنائها .
وفوق هذا كله فإننا لايمكن لنا أن نحكم على الكاتب بعد تحليل قصة قصيرة واحدة .
وهذا ما انتهجه الدكتور عبد الحميد إبراهيم ، عند تناوله لأحمد هاشم الشريف ، ومحمد حافظ رجب ، ومحمد إبراهيم مبروك (الذى تحدث عن لغته دون تناول المتاصر الفنية الأخرى) وإبراهيم أصلان ومحمد مستجاب وإبراهيم عبد العاطى وعبده جبير .

وقد يكون هذا الكتاب هو مجموعة المقالات التى كان يكتبها الدكتور عبدالحميد إبراهيم فى الستينات متابعاً لما كان ينشر فى حينه . لكن صدوره فى أواخر الثمانينات كان يستلزم إعادة نظر فى الأحكام ، وفى النماذج ، وفى الكتاب .

وإذا كان الدكتور عبد الحميد إبراهيم قد ذكر أسماء عدد كبير ، واختار نموذجاً واحداً لكل منهم ، وتوقف عند المضمون ؛ ولم يخرج عن دائرة الستينات إلاّ بالرجوع ليوسف الشارونى وادوار الخراط ، فإن تلميذه الدكتور مراد عبد الرحمن مبروك فى كتابه (الظواهر الفنية فى القصة القصيرة


جمال الغيطانى   فاروق خورشيد

المعاصرة فى مصر ١٩٦٧ - ١٩٨٤) وقد وقف عند معظم الكتاب الذين أشار إليهم أستاذه : يحيى الطاهر عبد الله ، جمال الغيطانى ، جميل عطية إبراهيم ، إبراهيم عبد العاطى ، إبراهيم أصلان ، أحمد هاشم الشريف ، محمد حافظ رجب ، محمد إبراهيم مبروك ، زهير الشايب ، محمد البساطى . وابتعد عن دائرة الستينات - هو الآخر - بدراسة يوسف الشارونى وادوار الخراط وفاروق خورشيد ومحمد كهل محمد وعبد الوهاب داود وعبد الله الطوخى وأمين ريان وعبد الفتاح رزق ومحمد أبو المعاطى أبو النجا ، غير أنه حصر بحثه فى إطار محاولات التجديد من حيث تفتيت الحدث ، واللغة ، والتتابع الزمانى والمكانى ، والرمز والحلم ؛ والدلالة الفنية لكل منهما .

وليس ثمة مبرر موضوعى مقنع لتناول عدد كبير من الكتاب الذين

لاينتمون إلى هذه المرحلة ، وإذا سلمنا بأنه وجد مظاهر للتجديد قبيل الستينات ؛ فإننا لا نستطيع التسليم بهذا الاغفال المتعمد ليوسف إدريس الذى قدم أبرز كتاب القصة القصيرة فى الستينات ، وهيأ لهم السعى من أجل التجديد الفنى ، وساعدهم على النشر . ولا أحد ينكر أنه كان رائداً من الرواد الأول فى منتصف الخمسينات وحتى أواخر الستينات (النداهة - بيت من لحم - لغة الآى آى - أقتلها) .

ويبدو الفصل التعسفى الجائر بين « الشكل » و « المضمون » فى ثنايا الكتاب . كما تأتى بعض فصوله ضعيفة المستوى ، تحتاج إلى أناة وعمق حتى تتخذ شكلها العلمى الموضوعى السليم . ولابد من الإلمام بمراجع حديثة جداً فى فنية القصة القصيرة . إن ما جاء خاصاً بالصورة الفنية (٩٠ : ١١٠) ، والمونتاج السينمائى (١٥٥ : ١٦٢) تناوله على عجل ، معتمداً على ماورد فى مقالات ومؤلفات عامة تفتقر إلى الموضوعية ، والمنهج العلمى . ولنا أن نتصور مايمكن أن يكون عليه منهج دارسة تتناول الظواهر الفنية ، وهى تستند فى الدرجة الأولى إلى كتاب الدكتور طه محمود طه (القصة فى الأدب الإنجليزى) الصادر ١٩٦٦ . وكتاب روبرت همفرى (تيار الوعى فى الرواية الحديثة) الذى ترجمه الدكتور محمود الربيعى .

كتاب الحلقة المفقودة

ويمثل ما أغفل يوسف إدريس ، فإنه لم يتناول من كتاب الستينات عز الدين نجيب وبهاء طاهر وضياء الشرقاوى وعبد الحكيم قاسم ومحمد روميش . ولم يرد اسم صبرى موسى وسط تلك الكوكبة من كتاب الحلقة المفقودة الذين بدأوا فى أوائل الخمسينات مادام قد تعرض لملامح تجديدهم . وكأنه لم يجد فى قصص بعض الكاتبات المصريات ملمحاً فنياً أو ظاهرة تقنية يمكن الإشارة إليها . وأظن أن الباحث يوافقنى على أن محمد حافظ رجب اقتحم ميدان التجديد والتثوير فى الأدوات والوسائل ، وواجه تقاليد فنية كانت ثابتة وراسخة ، دون الاستناد إلى عوامل غير فنية . وقد بدا دوره هامشياً وكأنه واحد من المجموع ، لا ريادة له ، ولا تجديد عنده ، حيث اكتفى بمناقشة صيحته المعروفة ، وباقتناص بعض السمات التى ذابت فى خضم من حاكموه .

وثمة كتاب آخر يحمل عنوان (الإتجاهات الواقعية فى القصة المصرية القصيرة حتى عام ١٩٨٠ - دراسة فى المضمون والبناء الفنى) للدكتور محمود الحسينى المرسى ، طبعته دار المعارف ١٩٨٤ . كان من المتوقع أن يقدم لنا الكتاب تطور هذا الفن فى الستينات

والسبعينات ؛ حتى يضيف جديداً إلى عشرات الكتب والدراسات التى تناولت تاريخ القصة فيما قبل ذلك . لكنا نلاحظ أنه توقف عند ١٩٦١ . ولم يشر من قريب أو من بعيد إلى الأجيال الجديدة ، والاتجاهات الحديثة ، والمؤثرات الاجتماعية والفنية التى أخذت تفعل فعلها فى البناء ، والشكل ، والموضوع ، واللغة . ومن ثم فإنه كتاب لايفيد الباحث عن صورة القصة القصيرة فى الفترة التى تدرسها ١٩٦١ / ١٩٩١ .

وبالنسبة للظواهر السلبية الأخرى التى تطغى على هذا الكتاب ؛ فإنا قد تناولناها بالتفصيل فى مجلة (الهلال) يناير ١٩٨٥ بعنوان (رسائلنا الجامعية إلى أين ؟!) وحققها باب (أخبار الأدب) يوم الأربعاء الموافق ١٦ من يناير ١٩٨٥ فى صحيفة (الأخبار) . كما ضمها كتاب (بحوث ودراسات أدبية) الصادر فى ١٩٨٧ .

وهنـــاك كتابـــات متفرقة دارت حول القصة القصيرة التى نشرت فى الستينات ، ثم فى السبعينات . لكنها لم تصدر فى كتب مستقلة ، تنتظمها وحدة موضوعية وفكرية وكانت فى حينها - بمثابة المقالات المواكبة . ومع كونها - فى الأغلب الأعم - كانت تجنح نحو اتجاه بعينه أو تنحاز لعدد محدود من الكتاب ، فإنها - من غير شك - ينبغى ألاَّ تنفصل عن حركة القصة القصيرة المصرية : إبداعاً ونقداً ، فى الفترة بين ١٩٦١ - ١٩٩١ . فلا سبيل إلى إغفال مقالات رجاء النقاش وإبراهيم فتحى وعبد الفتاح الجمل وصبرى حافظ وغالى شكرى .

والشئ الذى تجتمع كل تلك الدراسات حوله ، هو أنها لم تعتمد على الصحافة وهى تتصدى لدراسة القصة القصيرة فى مصر . وهذا جانب ضعف وقصور فى معظم مايكتب عن هذا الفن . إذ أن القصة القصيرة والصحافة صنوان . وقد ينشر كاتب بعض قصصه فى الصحف والمجلات دون أن تتاح له فرصة طبعها فى كتاب . والصحافة تساعد فى تفسير اتجاه الكاتب: اجتماعياً وفكرياً وفنياً وسياسياً . ثم إنها تسهم فى تقديم صورة واقعية عن حركة الحياة فى المجتمع إبان نشر القصة ونقدها . وبعض الكتاب ينشرون قصصهم فى الصحافة ، لكنهم عند التفكير فى إصدار مجموعة لايتحمسون لضمها إلى إنتاجهم ، لسبب أو لآخر ، إلى غير ذلك مما حللناه فى كتابينا السابقين .

ومن ثم فإنا مازلنا عند رأينا فى أهمية الدور الذى تلعبه الصحافة ؛ مما يحتم ضرورة الإستناد إليها فى تتبع خطوات القصة القصيرة ، وتحديد اتجاهاتها ، وضبط حركتها ، وإذا تأملنا ظروف الصحافة : يومية وأسبوعية وشهرية ، سوف نلاحظ أنها كانت تسمح بأن القصة القصيرة الأرض الخصبة التى تنبت فيها وتزهر وتتفتح وبخاصة طوال الستينات .

ندوة الهلال

متى تزدهر القصة القصيرة؟



● تقديم : عاطف مصطفى ●

★★ أسباب حقيقية أدت إلى إنحسار القصة القصيرة فى مواجهة إزدهار الرواية .

★★ د . سيد النساج : يتزايد عدد كُتَّاب القصة القصيرة ونغفل عن دراسة الظاهرة .

★★ د . شكري عياد : قلة نسبة المجيدين فى القصة القصيرة شئ ينبغى أن يتوقع .



د . شكرى عياد



د . سيد حامد النساج

ماذا يحدث لو توقفت القصة القصيرة ؟!

القصة القصيرة .. هل تعانى الانحسار فى مواجهة الرواية ؟. وما هى الأسباب التى أدت إلى هذا الإنحسار، وهل هى وليدة ظروف معينة ، ربما السبب فيها اختلال المناخ الثقافى عما كان فى الخمسينات والستينات ، ودخول التليفزيون الذى غير المفاهيم ووصل إلى حد الإدمان عند البعض .

وهل واصل الأدباء الذين فازوا فى المسابقات عطاءهم ، أم توقفوا بعد نشر قصة أو قصتين ، وما دور اتحاد الكتاب والجامعات فى تسهيل مهمة النشر للأدباء الجدد ؟..

كانت هذه التساؤلات ضمن ندوة الهلال والتى شارك فيها الأديب والناقد د . شكرى عياد والناقد الأديب د . سيد حامد النساج ، وطرح الهلال فى بداية الندوة رؤيته والظروف التى تحيط بحياتنا الثقافية بشكل عام بهدف التعرف على أسباب انحسار القصة القصيرة .

★★ **قال د . سيد النساج :** فى الحقيقة أتصور أن الموضوع الذى سيدور حوله الحوار مسألة الرواية والقصة القصيرة ، وأن الرواية فى إزدهار والقصة القصيرة فى إنحسار .

وأنا أرى العكس تماما ، لأنه لم تحدث فى مصر دراسة موضوعية جادة بالنسبة للرواية أو للقصة القصيرة ، على الأقل من بداية الستينيات حتى الآن .

ولكى نحكم هذا الحكم ، لابد من أن تكون هنالك دراسات جادة ومعمقة من جانب ، وإحصائيات من جانب آخر ، وجس نبض الجمهرة القارئة بعمل استبيانات ، وأنا أضيف أن معظم الذين يكتبون الرواية الآن هم فرسان الرواية فى الستينيات .. ومعنى ذلك أن عددهم قليل ومعروفون ، فضلا عن أنهم يعملون بالصحافة اليومية أو الأسبوعية ، وهم بالتالى أقدر على الإعلان عن رواياتهم .

في حين أننا إذا تأملنا الواقع الحقيقي ، فسوف نجد أن كُتّاب القصة القصيرة في ازدياد مستمر وكذلك الإنتاج في تزايد هو الآخر وفي إزدهار ، لأنه بالقياس إلى عدد كتاب الرواية الذين يكتبون منذ ثلاثين عاما ، سنجد أنه ظهر كتاب قصة قصيرة ، لكن هؤلاء لا يعلن عن أعمالهم ، لأنه ليس من المنطقي أن كل كاتب قصة قصيرة ، يعلن عن إنه سوف يكتب قصة قصيرة في صحيفة كذا ، إنما كاتب الرواية يعلن لأنه موجود في الصحيفة أصلا .

ولو تأملنا الدراسات التي درست القصة القصيرة والرواية حتى هذه اللحظة ، فسنجد أن معظمها يكرر بعضه بعضا .

ولكي نحكم هذا الحكم لابد أن تكون لدينا مثل هذه الوثائق وعموما فلابد من التنويه إلى أن المساء والأهرام والجمهورية وروز اليوسف والهلال تنشر قصصا قصارا .

بمعنى أن المسألة ليست خاصة بالقصة القصيرة ، وطبعا لا نستطيع أن ننقل رأى رئيس التحرير بأن القصة القصيرة تعاني منذ فترة طويلة .

★★ الهلال : نستطيع القول بأن الهلال تخرج عن هذه المعادلة ، لأنها في نهاية الأمر مجلة ثقافية تعطي مساحة للإبداع .

★★ د . شكري عياد : هل لاحظتم فروقا في التوزيع بين الروايات والمجموعات القصصية القصيرة ؟

★★ الهلال : بالطبع هناك فروق ففي روايات الهلال لم تنشر مجموعات قصصية خلال السنوات الأربع الماضية ، لأنني لاحظت أن توزيع المجموعة القصصية ضئيل جداً وقد لا يتجاوز (٥٠٠ نسخة) وحينما عدت إلى الإحصائيات وجدتها ظاهرة متكررة !

وهنا أطرح سؤالا : كان الأدباء في الماضي يبدأون بالشعر ثم يكتبون قصة قصيرة بعد ذلك .. والذين يكتبون الآن قصة قصيرة يكتبون الروايات .. هل هذا مرتبط باللحظة ، وهل المجتمع حينما يستقر أو يضطر تصبح الرواية هي التي تتناول موضوعات بعينها ، وكذلك يتم ذلك بالنسبة للقصة القصيرة ؟ .

★★ د . شكري عياد : طالما أن القاعدة الاستقرائية الإحصائية سليمة ، إذن لابد من هذا التحليل الفني .. يعني أنك استقرأت التوزيع وحذفت العوامل الخارجية التي لا تتعلق بشخص كاتب أو مدى شهرته أو موضوع الرواية .. إلخ ، وجاءت النتيجة مع ذلك أن القصة القصيرة أبقى بالنسبة للرواية ، وهما ليستا أختين ، أو مثل الضرتين ، فالحقيقة ، واحدة منهما غالبا تبقى على حساب الأخرى، فأصبحت هناك حقيقة، وبقى المطلوب هو تفسيرها مباشرة .

★★ الهلال : لا أخفي عليك أنني رأيت إمكانية أن تكون ظاهرة غير علمية ، ظاهرة ناتجة من الاتفاق بأن الذي يريد الحصول على الرواية ، يأخذها ليقرأها في سفره أو

وهو على الشاطئ فى المصيف ، وتواقعه فى الحصول على رواية طويلة تكفى هذا الوقت الطويل الذى يقضيه فى اجازته مثلا !

★★ د . سيد النساج : لى تعليق على ما ذكرته أولاً ، فلا نستطيع أن نأخذ دار الهلال وحدها مقياسا للحكم ، لأن ما قمت به فى دار الهلال لا نستطيع أن نأخذ به لأن هذه مؤسسة واحدة ، ولدينا الهيئة العامة للكتاب والناشرون الخصوصيون ومؤسسة دار المعارف وغيرها هذه كلها أيضا يمكن أخذها فى الاعتبار عندما نحكم على التجربة .

★★ د . شكرى عياد : أنا رأيى أن روايات الهلال مقياس أصلح من أى مقياس آخر فالسلسلة واحدة ، وخذ مثالا فهيئة الكتاب تصدر سلسلة « قصص عربية » وأيضا تصدر مطبوعة تسميها «روايات عربية » أما روايات الهلال فتصدر مرة مجموعة قصص قصيرة ، ومرة أخرى تصدر رواية طويلة فالحقل هنا واحد ، والإشكال الوحيد يظل هو استبعاد العوامل الأخرى التى لا تتعلق بالنوع الأدبى ، كشخص الكاتب أو موضوع الرواية ، أو موضوع القصص ، أو حتى الأسلوب الفنى ، بمعنى أننا إذا استبعدنا هذا كله وبقى الحكم سليما إحصائيا وموضوعيا أن القصة القصيرة متأخرة فى تقبل الناس لها عن الرواية ، إذن يتحتم على وعلى الدكتور السيد حامد النساج أن نجد حلا لذلك .

★★ د . سيد النساج : طول عمر دار الهلال يادكتور تقوم بفرز وإنتاج روايات أكثر من إصدارها مجموعات قصصية ونحن لا نستطيع أن نحكم على القصة القصيرة من خلال المجموعة القصصية والتى قد تصدر فى وقت متأخر جداً عن تاريخ النشر ولا أعتبرها معدلا أساسيا فى هذا الأمر ، ولكننى أرى أن القصة القصيرة هى أنسب الأشكال الفنية الآن ، للتعبير عن واقع المجتمع .

★★ د . شكرى عياد : هناك معايير أخرى فالدكتور يوسف أدريس رحمه الله توقف عن كتابة القصة القصيرة ، أوكاد ينصرف عنها إلى المقالة ، وهذا الأمر له بعض الدلالة بمعنى عمل اختبارات متعددة الأشكال منها اختبار النشر فى سلسلة واحدة ، واختبار كاتب واحد ، واختبار عدد الكتاب الجدد الذين يقدمون أعمالهم وهذا اختبار ثالث ثم اختبار عدد ما ينشر أسبوعيا فى الصحف السيارة والمجلات من القصص القصيرة ، وهذا اختبار رابع ، وكل هذه الاختبارات موضوعية وسهلة جداً ، وينبغى عمل أحصائية بالأرقام ، حتى لا يكون هناك إشكال ونقاش فى وجود الظاهرة أو عدم وجودها ، وينحصر النقاش فى تفسيرها ، فهل نستطيع ؟! لقد أطمأننت لأنكم بالتأكيد قد لفتت نظركم هذه الظاهرة ، كظاهرة موضوعية ومحسوسة بحيث نتعرف على الأسباب .

★★ الهـــلال : أشير إلى أن الهيئة العامة للكتاب هى التى تنشر قصة قصيرة أكثر ، ومما يلفت النظر أنها لا تقدم على أسس اقتصادية ولا تهتم بالتوزيع ، ونفس هذه

الملاحظة قائمة لدى بعض دور النشر والتوزيع ، لدى دار غريب وعند السحار ، والشروق .. والملاحظة هنا تنصب على الإصدار .

★★ د . شكرى عياد : فى الإنتاج الناشر كمسوق مقياس جيد وهذه ظاهرة عالمية .. القصة تنحسر ويحل محلها فى الغرب كتب الرحلات وغيرها ، أما عندنا فإن الرواية انتعشت قليلا عن ذى قبل ، خاصة وأن الناس زمان لم تكن تشترى إلا كتب إحسان عبد القدوس ومحمد عبد الحليم عبد الله وبعض القصص الرومانتيكية .

★★ الهلال : إننى أرى بالفعل أن الرواية فى مصر الآن تنتعش جدا .

★★ د . سيد النساج : وأنا أرى العكس تماما ، لأن الذين يكتبون الرواية الآن آحاد معروفون ، والذين ينشرون الآن وقادرون على النشر والتوزيع هم جمال الغيطانى ، يوسف القعيد ، مجيد طوبيا ، عبد الفتاح رزق ، صنع الله إبراهيم ، وفوقهم نجيب محفوظ ، هذه أسماء تتكرر وتطبع لها دار الهلال وأخبار اليوم وهيئة الكتاب ، وهؤلاء هم الذين يكتبون رواية وقصة قصيرة فى آن واحد منذ بداية الستينات ، ولم يضف إلى كتاب الرواية فى الأعوام الأخيرة إلا عدد قليل جدا ومحدود .. إنما بالنسبة لكتاب القصة القصيرة من حيث الاحصاء الدقيق لهم ، فهم الذين يتزايد عددهم ، وإنتاجهم أيضا يزيد ، ولكننا نغفل عن دراسة هذه الظاهرة ، خاصة ما يصدر فى الأقاليم ، فهناك ٤٠ مجلة اقليمية يصدرها الشبان على نفقتهم الخاصة ، ويكتبون فيها قصصا قصارا ، ويحاولون توزيعها بشكل أو بآخر ، وهذه الملاحظة ينبغى ألا تغيب عنا .

★★ د . شكرى عياد : أنت تحول النقاش الآن إلى اتجاه آخر ، هو أن الجيل الجديد من كتاب القصة القصيرة ، لا يجد الرعاية الكافية ولو وجدها تظهر فى القصة القصيرة انتعاش كبير .

★★ د . سيد النساج : الشبان الجدد موجودون ، لأننا لو تتبعنا أى عدد من أعداد مجلة إبداع على سبيل المثال ، فلم يكن يقل عدد القصص القصيرة المنشورة فى عدد واحد عن ١٢ قصة قصيرة .

وعلى الرغم من عدم وجود صحف بالاسكندرية ، فهناك مجلات يصدرها الشبان على حسابهم الخاص ، وأحيانا يقومون بطبع كتبهم بنفس الطريقة ، لأن أزمة النشر يعانى منها الكبار والصغار وأرى أن حركة القصة القصيرة ، وحجم الإنتاج الذى يصدر فى الرواية ، وقارنا السنوات الأخيرة ، فلن نجد على سبيل المثال سوى سلوى بكر كتبت رواية صغيرة ، وشهرتها تجئ فى أنها كاتبة قصة قصيرة ممتازة .

★★ الهلال : أريد إضافة نقطة هامة .. فنحن على سبيل المثال يصلنا عدد كبير من القصص القصيرة كل شهر ، فى تقديرى أن أغلبها لا يرقى إلى النشر ، ولكننى أقول

إن هناك جيلا لديه طموحاته ، وهو يكتب ويحاول ، وأما تقييم قدرته على الإبداع ، فهذه مسألة أخرى !

ولقد قامت « الهلال » بعمل مسابقة للقصة القصيرة ، اشترك في تقييم كل ما قدم إليها من قصص الدكتور شكرى عياد ، وذلك فى محاولة اكتشاف عناصر جديدة .

هنا يأتي السؤال : ما هى رؤيتك فى الأجيال الجديدة وكتاباتهم سواء كانت في مجلات الأقاليم أو هنا وبالطبع فسلوى بكر وحسام فخر متميزان فى وقت نرى فيه المتميزين قليلين ؟

★★ د . سيد النساج : بالطبع نحن لا نستطيع أن نقيم الأعداد كلها مرة واحدة ونحكم عليها ، فلابد من عمل دراسة فنية للإنتاج الذى يقدم ، ولكننا نستطيع أن نضيف إلى سلوى بكر وغيرها ، ونذكر لها على سبيل المثال أنها تكتب رواية وقصة قصيرة ، وهى من جيل الثمانينيات ، إنما هناك محمد عبد المطلب فى سوهاج ومحمد المخزنجي فى المنصورة ، وخيرى السيد ، وسعد القرشي ، وهناك شبان من المحدثين يكتبون قصصا جيدة .

★★ د . شكرى عياد : المسألة في رأيي ، أن القصة القصيرة مثلها مثل الرجز الذي كان حمار الشعراء ، فالقصة القصيرة هى حمار الكتاب ، وأى واحد خط خطا بالقلم ، يعتبر نفسه كاتب قصة قصيرة .

ومن خلال التجربة وبعض البرامج الإذاعية أقول إن قلة نسبة المجيدين في القصة القصيرة ، شئ ينبغى أن يتوقع تماما ، أكثر من أى فن آخر ، ويمكن للمبتدئين أن يجترئوا على الشعر ، وربما لو قلنا لأحدهم اذهب وتعلم العروض أو النحو ، يصمت . إنما القصة القصيرة ، فلا أحد يوقف من يود كتابتها ، وعلينا ألا نجزع .. فلا نقيس انتعاشها وازدهارها بالعدد ، وفي مقابل ذلك لا نضيق بالأمر ، ولا نراجع أحكامنا مراجعة أساسية ، عندما يتبين لنا أن من كل عشرة يكتب واحد فقط قصة جيدة ، وهذا شئ متوقع ، ومن هنا فالقصة القصيرة لها هذا الوضع الخاص .

إنما مثلما نقول إن هناك أزمة من جهة الاستهلاك في القصة القصيرة شئ يبدو أنه حقيقة موضوعية ولا نجادل فيها ، فهذه الأزمة الاستهلاكية لا تعبر عن واقع فى إنتاج القصة القصيرة .

سؤال آخر يمكن أن يطرح فى طريق البحث عن تفسير ، ويمكن أن يكون التفسير عدم الاقبال ، كما أن الجمهور القارئ لم يعد متحمسا للقصة القصيرة ، فأيضا المنتج أو الكاتب ، حتى الناشئ لم يعد متحمسا لكتابة القصة القصيرة .

وعلينا أن نبدأ من هذا الخيط فى البحث عن الأسباب الاجتماعية والفنية ، وعلاقة الشكل الفنى بوضع اجتماعى معين ، أو بظروف أو بمناخ فكرى معين ، وقد نسير فى اتجاه

مختلف كل الاختلاف ، وهو أن هذا التكاسل ، أو هذا الانحسار أو التقلص في الطلب على القصة القصيرة ، من قبل المستهلكين ، لا يدل على تراجع القصة القصيرة ، تراجعا حقيقيا ، بمعنى أنها لم تعد الشكل الصالح للتعبير عن حقبة معينة ، فهنا يكون قد طرح سؤالان مختلفان :

هل هي تعبير عن حقبة مختلفة ؟

وهل هذا الإنحسار ، وهذه الظاهرة تعبير عن حقبة مختلفة في المناخ الفكرى ، أو حصل تباعد بين جيل من الكتاب ، وجمهور القراء ، وتصبح المسألة في حاجة إلى تفسير ، وقد يكون من نوع آخر ، اختلاف أجيال ، أما الأول فهو اختلاف زمن .

★★ د . سيد النساج : مسألة اختلاف القارئ المعاصر ماديا ونفسيا ، وأيضا سيطرة وسائل الإعلام الملحة عليه ، مثل التليفزيون بشكل خاص ، لأن التليفزيون يجمع القصة القصيرة ، والرواية الطويلة ، ويجمع فنونا كثيرة جداً يقدمها للقارئ ، فعدد الإقبال من قبل المستهلك للأدب بشكل عام يدخل في القصة القصيرة وعدم الإقبال عليها .

★★ د . شكرى عياد : نحن هنا نرى مقارنة بغيرها ، مع التسليم بأن الأدب عموما حالته (تعبانة) بالنسبة المستهلك ، إنما في وسط هذه الحالة (التعبانة) فإن القصة القصيرة (تعبانة) أكثر من غيرها !

★★ الهلال : وفي تقديرى فإن الرواية تزدهر ، من خلال التوزيع ، وعدد الروايات الصالحة التي تصل إلينا كناشرين .

★★ د . سيد النساج : سيظلون آحادا أيضا !

★★ د . شكرى عياد : وحينما نحصى كتاب القصة القصيرة المجيدين سيكونون آحادا هم الآخرون !

★★ الهلال : مطلوب أن نتحدث عن انحسار القصة القصيرة ، وعلينا أن نحدد الأسباب ، لكى نصل إلى الوسائل التى يمكن أن توصلنا إلى الانتعاش ، وبالتالى إعطاء فرصة أفضل ، فضلا عن التليفزيون عامل مؤثر على الكتاب فماذا نفعل ؟

★★ د . شكرى عياد : ماذا يحدث لو ماتت القصة القصيرة ؟!!

لن يحدث شئ على الإطلاق !! ..

فالألمان بجلالة قدرهم لم يعرفوا فن القصة القصيرة بهذا الشكل الذى تعارفنا عليه ، والذى كتبه موباسان وتشيكوف ، واستمر بعد ذلك عند همنجواى وغيرهم .. لم يعرف الألمان هذا الفن إلا بعد الحرب العالمية الثانية ، قبل ذلك كانوا يعرفون الحكايات .. فافرض أن القصة القصيرة ماتت !! .. لن يحدث شئ !

★★ د . سيد النساج : لكنك يا دكتور لم تكتب سوى القصة القصيرة !!

★★ الهـلال : مشكلة الجيل الذى لديه الموهبة ، ولا يستطيع أن يجد الفرصة ، ما الذى يمكن عمله ؟!

هذا السؤال يوجه إلى كل رئيس تحرير ولكل ناشر .. لماذا لا تعطى الفرصة للشبان الجدد ، وفى رأيى أن هذا سؤال غريب جدا ، فمهمتى فقط اكتشاف مواهب ، وليس الأخذ بيد شخص عاجز لكي أقدمه ، وأعتقد أن هذه المهمة ينبغى أن توكل إلى جهات أخرى من بينها اتحاد الكتاب ، والجامعة من خلال مجلتها ، وهذه المجلة من الممكن أن تعطى فرصة الخطوات الأولى لبعض الكتاب ، وبالتالى لابد أن توجد صيغة تعطى فرصة للمبتدئين ، بهدف التعبير عن أنفسهم ، خاصة فى فترة الإنضاج .

★★ د . سيد النساج : الجامعات لها مجلاتها التى تهتم بالبحوث الخاصة بالأساتذة ، إنما من الممكن أن تقوم هيئة الكتاب بعمل ورشة عمل ، يجتمع فيها ناقد كبير مع بعض الكتاب الناشئين ويوجههم ومن الممكن أن يقوم اتحاد الكتاب - أيضا - بعمل ورشة عمل للقصة القصيرة والشعر ، ويلتقى بالأدباء الكبار لتقديم تجاربهم ، وبعض النقاد يقوّموا هذه التجارب، ويمكن أن تقوم بذلك بعض المؤسسات الصحفية الكبرى ودار المعارف .

★★ د . شكرى عياد : قصة قصيرة إيه .. وشعر إيه !! الكلام هذا راح وانتهى !! .. أعلمه كتابة قصة قصيرة لماذا ؟ بل أعلمه فن الكتابة ، أيا كانت التسمية أو التصنيف .

أنا أوافق طبعا على أن الشكل الفنى يتغير مع كل كاتب ، وليس مع كل عصر ، وإننى لا أستطيع أن أساعد أحدا إلا لأنه من الجائز أن يأتى إلىّ وأتحمل مخاطرة شديدة جدا ، حينما أقول له والله إننى أراك تحوم حول فكرة معينة ، وحينما بدأت تنفيذها حصل (كيت وكيت) وهذه بالنسبة لى كناقد ومعلم طوال عمرى مخاطرة شديدة جدا ، ولا أحب أن أقولها ، ومفيش أحسن من أنك تتركه إلى أن يهتدى ويكتشف نفسه ، ولا أظن أن كاتبا له قيمة علمه أحد .

الآن فى الجامعات الأمريكية لديها « كورسات » فى الشعر والنثر والقصة القصيرة والإذاعة ، وكنت أقرأ قريبا « كورس » للإبداع وربما يأتى مبدعون من خارج الجامعة الأمريكية ، ومع هذا لا أظن أن ذلك يخلق كاتبا كبيرا .

★★ الهـلال : ربما المطلوب إعطاء فرصة لاكتشاف العناصر الجيدة .

★★ د. سيد النساج : الموهبة والعبقرية لا تعلم ، ولكن ما أقصده هو محاولة التوجيه إلى المسار الصحيح .

★★ الهـلال : إذن يادكتور هذا يجعلنا نحاول أن نفكر فى كيفية انتعاش القصة القصيرة ؟

★★ د . شكرى عياد : أنا أخشى أن تكون القصة القصيرة أعجز وأضعف ، أنا أود أن يواجه الناس أنفسـهم ، لكن كيف ؟ ياليت تستطيع القصـة القصيـرة أن تؤدى هذا الدور .

★★ الهـلال : هل هناك تأثير على القصة القصيرة من التليفزيون والسينما ؟

★★ د . شكرى عياد : بالطبع نعم .. فأول مالفت نظرى أسامة أنور عكاشـة فى تمثيليتين تليفـزيونيتين كل واحدة لا تزيد على أربعين دقيقة ، أى تنتهى فى جلسة واحدة ، كانتا جيدتين جدا ، اهتم فيهما بالحبكة وبالفكرة ، لكن التليفزيون يريد مسلسلات ، أنت تطلب منى أن أفيق الناس ، التليفزيون أداة تخدير للناس ففى ليالى الحلمية - على سبيل المثال - والتى رأيت فيها دقائق ليست عملية اكتشاف للذات ، ولا اكتشاف حتى للعصر ، هذه عملية فرار إلى آفاق ومجتمعات وبيئات مختلفة .

★★ الهـــلال : من الأشـياء التى يتم عملهـا خدمة للقصة القصـيرة المسابقات ومن بينها مسابقة نادى القصة .

★★ د . سيـد النسـاج : هذه المسابقة ضعيفة المستوى جدا ، وكانت زمان تكشف عن مواهب عديدة ، لكن الآن يقوم بعملها محترفون عادة ، لأننا ينبغى أن نفرق بين محترف المسابقة والموهوب فأنا أشترك فى مسابقات كثيرة جدا ، وهناك « حريفة » لمراعاة الشروط المنصوص عليها بالنسبة المتقدم لمسابقة ما ، هذا « الحريف » هو الذى يحقق المركز الأول .

وقد لاحظت أن مجلة القصة فى أعدادها الأولى فى عام ١٩٦٤ ، ١٩٦٥ ، كانت تقدم نماذج جيدة من الفائزين بالقصة القصيرة فى المجلس الأعلى للفنون والآداب ونادى القصة ، وقدمت قصة لأحمد هاشم الشريف كانت فائزة بجائزة ، كما قدمت قصة لمحمد البساطى .

وفى المرحلة الثـانية لنادى القصـة سوف نجد أن عشرات كـانت تكتب أسمـاؤهم فائزين ، ولم يستمر أحد منهم فى الكتابة ، وهؤلاء المحترفون يدخلون العديد من المسابقات ، ومن بينها مسابقات الجامعات والشباب والرياضة .

★★ الهـلال : ننتقل فى المناقشة إلى نقطة جديدة .. فهل اختلفت أدوات التعبير ، وهل من الممكن أن تصبح ظاهرة إيجابية ، ونستقبلها ونطورها ، أم هى ظاهرة سلبية ،

خاصة وأن هناك تغيرات تحدث فى هذا العصر ، حيث أصبحت أدوات التعبير مختلفة ، وأصبح التطور التقني مختلفا ، وحينما نواجه ذلك كيف نكون جاهزين له ، ونستقبله ، فضلا عن أننا نرى ضرورة التعامل معه ، وبالتالي ضبط هذاالتعامل بصورة تجعله مفيدا .

★★ د . شكرى عياد : حكاية أن القصة القصيرة تضمحل الآن فهذا عرَض ، وفى نظرى أن دلالته محدودة جداً ..

لماذا ؟ ..

لأننى مشغول بالإنسان فعلا ، والأدب فى نظرى بما فيه من قصة قصيرة يمكن الاستغناء عنه إذا سلم الإنسان ، وأشعر أن الناس يبحثون الآن على مادة بها معلومات وهذا ينطبق على الجمهور القارئ فى مصر ، وأرى شبيها له فى بلاد أخرى ، بقدر استطاعتى لمتابعة حركة الأدب فى هذه البلاد .

وهذا الإنسان يتلمس المعلومات ، لا أستطيع أن أعطى له هذا الفن الأشبه بضوء كاشف وقوى جداً وبه كثير من الشعر ، مع موضوعية غريبة وعميقة وهو القصة القصيرة ، ولذلك لا أعجب إذا كانت القصة القصيرة أصبحت الآن هى والشعر فى سلة واحدة ، والإثنان يمثلان إنسانا متعزلا تماما أغلق على نفسه وهذه ظاهرة فى نظرى غير جيدة ، لأن معنى ذلك أن الإنسان يستسلم ، ويحلم الأحلام التى يمكن أن تسعده وهو فى طريقه إلى الموت ، وما الذى يمكن أن يتم ؟

طالما أننى غير معترف بأن التليفزيون من الممكن أن يكون قوة ثقافية أو فكرية ، وفى نفس الوقت لا سبيل لى إلى تغيره فلا حل إلا الكتابة ، وأن تتطور الكتابة ، وليس دورى أن أطلب من الناس القراءة غصبا ، فالكتابة لابد أن تتطور بشكل يجذب الناس ، ويحاول أن يسلك إلى نفوسهم وعقولهم مسالك أخرى .

و د . لويس عوض على سبيل المثال كتب سيرة حياته بشكل اعتراف ، وكان ذلك بمثابة اكتشاف جديد ، حيث لم يقدم على هذه التجربة من قبل .

وبالطبع فإن ذلك متروك للمستقبل وابتكار المبدعين ولا نقيدهم بشكل معين ، والمهم أن يصل إلى هذا الإنسان الذى أصبح همه الآن أن يعرف شيئا عما حوله ويضلله المضللون، وتؤلف له الكتب المخترعة ، والتى كنا زمان نسميها « فبركة » و « فبركة » الصحافة انتقلت الآن إلى الكتب .. مثل تلك التى نراها الآن عن الملك فاروق وعن الملك فؤاد وعن ناريمان .

والمحاولة التى أقصدها هى أن تعطى له هذه الرغبة فى المعرفة ، بشرط أن تكون معرفة بنفسه أيضا ، وبما يجب عليه أن يعمل فى هذا العالم ، ومسئوليته فى هذا العالم الذى يعيش فيه ، والعالم المحيط به .

شغالات السينما
بين الواقع والخيال

بقلم : مصطفى درويش

شاعت المصادفات لفيلمى « سمارة الأمير » و « الزواج على الطريقة المصرية » أن يكونا معروضين فى وقت واحد .

الأول فى القاهرة على شاشة فى دار سينما كبيرة أمام مقاعد خالية من المتفرجين أو تكاد ! وذلك رغم وجود صورة للنجمة نبيلة عبيد ، مرتدية بدلة رقص خليعة تزين الملصقات فى كل مكان .

أما الفيلم الثانى ، فقد كان عرضه على شاشة متواضعة بقاعة أحد الفنادق الكبرى المطلة على قناة السويس ، أمام حشد من صانعى الافلام التسجيلية ومشاهير النقاد ، وذلك بمناسبة مهرجان الاسماعيلية الدولى الثانى والقومى الخامس عشر للأفلام التسجيلية والقصيرة .

والحق أن « سمارة الأمير » و« الزواج على الطريقة المصرية » فيلمان مختلفان تماما ، لا يجمع بينهما حتى النوع السينمائى الواحد .

فالأول روائى طويل مصرى ، أما الثانى فتسجيلى قصير بريطانى من إنتاج التلفزيون البريطانى ، ضمن مجموعة من عشـرة أفـلام تحت عنـوان « تحت الشمس » .

وبالنظر إلى ما بين هذين الفيلمين من فروقات سينمائية ، وتباينات فنية عميقة ، فلابدّ لسؤال أن يطرح نفسه علينا .

وهو هل ثمة شيء مشترك بين الفيلمين بحيث يجمع بينهما حديث ؟

والاجابة السريعة على هذا السؤال ، هى أن الفيلمين يشتركان فى شيء واحد ، وهو أنهما يعرضان لحياة شغالة فى بر مصر : الأول بأسلوب روائى فيه من





ريم سعد صاحبة المادة العلمية



جوانافيد المخرجة

شطحات ، ولا أقول عربدته ، الشيء الكثير .

والثانى بأسلوب قوامه تسجيل الواقع كما هو بلا أى تزويق قدر الامكان .

غياب البساطة

وقد يكون من المفيد أن أبدأ الحديث بأولهما « سمارة الأمير » المأخوذ عن قصة للأديب العربي الوحيد المتوج بجائزة نوبل « نجيب محفوظ » .

لو ألقينا نظرة طائرة على هذا الفيلم ، لوجدنا أنفسنا أمام عمل سينمائى بعيد كل البعد عن البساطة المستحبة فى الأعمال الفنية ، وبالذات ما كان منها متصلا بابداع الافلام .

والسبب فى ذلك افراط فى الرمزية يصل إلى حد السذاجة المهينة لعقل المتفرج ؛ أيا كان مستواه الثقافي .

فلقد أراد صاحبا الفيلم ، وهما كاتب السيناريو المخضرم « مصطفى محرم » والمخرج « أحمد يحيى » أن تكون بطلته «سمارة» رمزا لمصر .

والفيلم يبدأ بها شغالة اسمها « شلبية الأمير » (نبيلة عبيد) ، تعمل فى قصر أحد الباشوات وفجأة ، وبلا أى مقدمات ، يضبطها أحد الخدم النوبيين الذين يعملون فى القصر المنيف ، متلبسة فى أحضان عشيقها « على جلال » (محمود حميدة) .

تحولات وعلاقات

ويشاء لها السيناريو أن تطرد من خدمة قصر الباشا لهذا السبب ، وألا تجد لها مأوى إلا فى غرفة هذا العشيق ، الذى ما يلبث أن يعمل على استثمار مفاتنها ، فيتحول بها من شغالة إلى راقصة فى ملهى ليلى يمتلكه « وحيد سيف » الذى يختار لها اسم « سمارة الأمير » .

ولأن السيناريو أراد لها أن ترمز إلى مصر ، فإن أيا ممن وقعوا فى حبها ، كان أما من كبار رجالات الدولة فى العهد الملكى البائد أو من كبار الضباط الانجليز فى جيش الاحتلال .

وبطبيعة الحال ، ومن باب الاختصار ، لم يظهر من هؤلاء الضباط العشاق ، سوى جنرال واحد « يوسف داود » ، وقع فى حب سمارة أو بمعنى أصح حب مصر .

وهو لا يتلذذ من علاقته بها ، ولا ينتشى ، إلا إذا أوجعته بالكرباج ضربا !!

ومن بين طابور العشاق المصريين مأمور ضرائب « عمر » (محمد وفيق) .

وباشا جلس على كرسى الوزارة فى إحدى الحكومات (حمدى غيث) .

وصحفى وطنى لا يعيش إلا من أجل مصر « مروان » (سناء الشافع) ، ويرأس تحرير جريدة ثورية تنادى بالجلاء التام والموت الزؤام .

رموز سقيمة

ولأول وهلة لا نشعر بغرابة قيام علاقة عشق بين الشغالة التى أصبحت راقصة وبين ذلك الصحفى الولهان .

ولكننا لا نلبث أن نحس شيئا من الغرابة فى تلك العلاقة بالذات ، وذلك عندما يتبين لنا أن مروان صحفى مريض بالقلب ، ومرضه عضال .

وعندما تخاطبه سمارة فى أحد المشاهد بقولها « شكلك مش مصرى قوى » فإذا به يرد محتدا « أنا لو مكنتش مصرى ، كنت أتمنى أن أكون مصريا » .

وهنا يحق لنا أن نتساءل ما الذى يريده صاحبا الفيلم بكل هذا الهراء ؟

وسرعان ما يتبين لنا ، ويا للغرابة ، أنهما إنما أراد بهذا الصحفى المعتل ، وبهذا الحوار أن يرمزا إلى الزعيم مصطفى كامل ، وقوله المأثور « لو لم أكن مصريا لوددت أن أكون مصريا » .

والأكيد أن التوفيق خان صاحبى الفيلم إلى حد كبير ، حين اختارا شغالة راقصة اسمها سمارة ، وصحفى ولهان إسمه « مروان » ليرمزا بهما لمصر ، وللزعيم الذى ضحى بحياته من أجلها ، وهو فى عزّ الشباب .

فكلاهما رمز ضئيل نحيل ، رمز لا علاقة له بأدب نجيب محفوظ لا من قريب ، ولا من بعيد .

الأم الشجاعة

فإذا ما انتقلنا إلى فيلم مهرجان الاسماعيلية ، لوجدنا انفسنا أمام عمل فنى من إخراج شابة انجليزية « جوانا هيد » ، وتبين لنا أنه ينهض على مادة علمية أعدتها شابة أخرى مصرية « ريم سعد لوقا » تدرس علم الانسان « الانتزوبولجيا » .

وشغالة « الزواج على الطريقة المصرية » من نوع آخر منبت الصلة بشغالة « سمارة الامير » .



نبيلة عبيد شغالة فى عمارة الأمير

إنها تعيش فى إحدى حوارى « نجيب محفوظ » التى تحيط بسيدنا الحسين والأزهر الشريف .

وهى بطبيعة الحال ، ليست فى اناقة وجمال « نبيلة عبيد » ، ولا تسعى إلى أن تكون راقصة ترمز إلى مصر ، أو إلى غير مصر .

أنها باختصار أم شجاعة تذكرنا بأم مسرحية الأديب الالمانى « برتول برشت » ، بل ثمة أوجه شبه بينها وبين «هيلين فيجيل» ممثلة مسرح « البرلينر انسامبل » وزوجة « بريشت » والتى اشتهر عنها الأداء المعجز لدور الأم الشجاعة ! ويخلق من الشبه أربعين !!

فهى ، أى الأم فى الزواج على الطريقة المصرية ، تعيش مهجورة من زوج بلا ضمير ، نسمع عنه ، ولا نراه ابدا .

وهى أم تعول ثلاثة أولاد ، بنتا وابنين ، أحدهما متبطل ، والآخر فى التجنيد. وهى أم شريفة تعمل شغالة ، تقيم الصلاة ، ولا تفكر فى امتهان الرقص فى يوم من الأيام .

هى فى كلمات جاءت على لسانها آية فى البيان ، نصف رجل ، نصف امرأة ، لأنها خارج البيت تعمل كالرجال وداخله تقوم بعمل النساء .

والفيلم يبدأ بها ، وهى تتحدث بلغة بسيطة عن زوجها الذى تكرهه ، وهو بعيد ، وتحبه ، وهو قريب لماذا ؟

لانه الآن مع زوجته الأخرى .

فإذا ما سألتها المحاورة عن سبب زواجه من امرأة أخرى .

أجابت بصراحة أسرة أنها هى التى سرقته من تلك الزوجة الاخرى ، وليس العكس .

وتصفها بأنها امـرأة طيبة ، بنت حلال ، أنجبت للزوج المتنازع عليه أربعة أولاد .

وما أن تنتهى من ذلك الحديث الشيق ، حتى تقطع المخرجة على جماعة من الموسيقيين فى أحد الشوارع تقوم بزف عروسين .

ومن هذا المشهد القصير تسرع الكاميرا بالانتقال إلى حارة ، حيث تسير الأم بخطى ثابتة نحو صنبور عمومى ، تجلب منه كمية من الماء .

وهنا نسمع اسمها يرد لأول مرة على لسان المعلقة .. أنه « ويزا » .

ونعرف أنها ، ومنذ نعومة أظافرها ، تقيم فى بيت من حجرة واحدة فى تلك الحارة ورثته من أمها .

وتعيـش الآن مع ابنتهـا الوحيـدة « نشوى » التى تعمل فى مصنع ورق سجاير ، وابنها المتبطل .. وليد .

وهى كأى أم ، تحمل همّ تأخر زواج ولديها ، رغم أنهما قد بلغا سن تكملة نصف الدين منذ زمن بعيد .

فنشوى ، وأن كانت فتاة جميلة ، إلا أنها قليلة البخت ، لم يتقدم لخطبتها فى أثنـاء الفيلم سوى رجل مسن جاوز السبعين ، أى أقرب إلى الجدّ ، منه إلى عريس الهنا .

ووليد حائر بين حب فتاتين إحداهما بدينة والأخرى نحيفة اسمها « الهام » .

وسعيا من « ويزا » لتحريره من هذه الحيرة ، تعمل على استصحابه مع تلك الفتاة النحيفة فى رحلة إلى شاطىء فايد ، وذلك للتعرف عليها عن قرب ، ولاستكشاف مدى صلاحيتها لان تكون ست بيت .

الحديث السائد

وهكذا ، يدءا من أولى اللقطات ، وحتى المشهد الأخير حيث نرى فرحا فى أحد الشوارع ، والفيلم لا يتمحور إلا حول موضوع واحد .. الزواج وما يترتب عليه من آثار .

فلا حديث إلا ويدور حوله ، سواء أكان هذا الحديث فى البيت أو فى الشوارع والحوارى أو فى المساجد على لسان المأذون أو الواعظ أو الإمام .

والزواج على الطريقة المصرية فيلم زاخر بمشاهد لا تنمحى ابدا من الذاكرة ، أذكر من بينها لقطات مشهد الزار ، حيث



الأم « ويزا » في الزواج على الطريقة المصرية

ترى « ويزا » وابنتها فى حفلة زار ، والنساء الممسوسات بالعفاريت والاسياد ، وهن يتمايلن على دقات الطبول ، ووجوههن تعبر عما بداخلهن من صراع مع الاوجاع .

ولقطات أخرى لمشهد قوامه حشد من النساء المؤمنات فى رحاب الحسين ، وهن يقمن فريضة الصلاة ، وراء الإمام ويستمعن لدرس دينى مداره واجب طاعة الزوج فى الحلال .

ذلك هو بعض ما يمكن أن يقال عن « الزواج على الطريقة المصرية » ، وهو فى رأيى فيلم اقرب إلى روح نجيب محفوظ من « سمارة الامير » وأغلب الأفلام المستوحاة من قصصه ، وهى كثير .

عودة الروح

ولعلى لست مغاليا إذا ما جنحت إلى القول بأن من أفضال مهرجان الاسماعيلية الأخير علينا ، أنه أتاح لنا فرصة مشاهدة ذلك الفيلم ، وأفلام تسجيلية أخرى قليلة ، أهمها بلا منازع « اللى باع واللى اشترى » رائعة « عطيات الأبنودى » صاحبة ثلاثية «حصان الطين» و« توحة الحزينة » و «الساندويتش» ، تلك الثلاثية التى أعادت الروح إلى السينما التسجيلية المصرية .

والآن ، ربما جاز لنا أن نسأل ، لماذا هذه الضجة الكبرى التى أثيرت حول «الزواج على الطريقة المصرية » فى أثناء عرضه بمهرجان الاسماعيلية ثم على صفحات الجرائد والمجلات اثر انتهاء ايام ذلك المهرجان ؟



شكاوى فلاحة فصيحة فى «اللى باع واللى اشترى»

عطاء وعدوان

ما أن انتهى عرض الفيلم فى قاعة الفندق ، وسط صيحات استنكار تطالب بمعاقبة صانعيه فورا ، ودون أدنى تأخير ، حتى ابدت « سوزيت جلانابيل » مديرة مهرجان سينما الحقيقة التابع لمركز بومبيدو بباريس دهشتها متسائلة .

هناك رأينا عطاء تقصد عطاء الام «ويزا» فى الفيلم ، وهنا نرى عدوانا ، فأيهما نصدق ؟

وكان الرد « صدقى الاثنين »

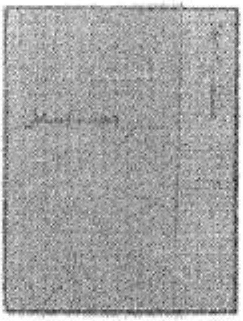
فالعطاء والعدوان كلاهما كامن فينا ، وفى كل الناس على أختلاف الاجناس ، والنجاة من العدوان لا تكون إلا بمزيد من الحب والعطاء .

يبقى أن أقول مع الشاعر «ادونيس » ، أنه ليس لمن لا يتقن الشيء أن يحكم له أو عليه ، تلك الحكمة الأولية البسيطة فى المعرفة ، وفى تقويم الاشياء .

والسينما عموما ، والتسجيلية بوجه خاص ، فى بين الاشياء الاكثر دقة وتعقيدا .

ونحن لم نشاهد من الأفلام التسجيلية إلا أقل القليل .

وإذا كان الذوق نفسه ثقافة فى المقام الأول ، فإن علينا أن ندرك أن تقويم السينما التسجيلية يتجاوز جذريا عبارة «يعجبنى » أو « لا يعجبنى » ، وأنه يتطلب رؤية فنية غنية ، وثقافة واسعة علينا جميعا أن نسعى إليها جاهدين .



الكتاب : منحنى النهر
قصص : محمد البساطى
الناشر : مختارات فصول.
١٠٨ ص ، ٥٠٠ ق م .

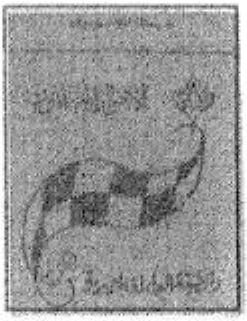
هذه مجموعة قصص جديدة للقاص والروائى المعروف محمد البساطى الذى ظل يعمل دون ضجيج وغبار كما يفعل البعض من الأدعياء الذين بعد أن يـزول غبار ركضهم المجنون لا تجد لأقدامهم أثرا .

هـذا كـاتب فذ وحساس وقادر وموهوب لا يعرف ، مجرد المعرفة ، أن الكتابة هى شىء آخر غير الصدق والإخلاص ، وما هى إلا هدف فى حد ذاته لإضفاء قيمة على الحياة التى قد تبدو للبعض غير ذات قيمة .

تضم المجموعة الجديدة إحدى عشرة قصة قصيرة ، لا يمكنك أن تخطىء فيها هموم الكاتب بآلام الناس وأحلامهم كما لا يمكنك أن تخطىء حسه الساخر ، وقدرته على النفاذ إلى شخصياته ، وهى تجربة يكاد لا يعرفها سوى أولئك الذين التصقوا بالناس عن قرب فى الحياة اليومية التى هم لصدق فى نفوسهم ، لايصنعون قناع «الكاتب» بينهم وبين البشر .

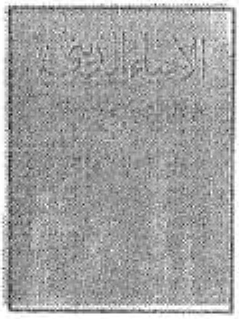
كما تلاحظ أن الكاتب هنا لا يغمض عينيه عما يحيط بالبشر مما فى الطبيعة من غنى : أشجار وحيوان ، طيور وصنوف شتى من المخلوقات ، كما تحس بأن بشره هم أحياء حقا ، يأكلون ويشربون ويمارسون حياتهم ولم يخرجوا من مجرد أفكار مجردة أو متعالية .. تحسن الحذلقة وإن تكن لا تحسن التعبير الصادق عن حياة الناس العاديين البسطاء .

هذه القصص تستحيل على التلخيص أو سرد مضامينها ، فهى أعمال متكاملة وحية لا يمكنك أن تفصل عظامها عن لحمها ، وإلا انتهت . لذا فإننا لا نستطيع إلا أن ندعو لقراءتها بكل حماس ، فهى مجموعة نادرة حقا .



الكتـاب :
الإخوان
المسلمون
تـأليف :
سناء المصرى
النـاشر :
مطبعة الأمل
١٥٦ ص
٥ ج م .

من موقف النقد الشديد تطرح الكاتبة سناء المصرى تاريخ مواقف جماعة الإخوان المسلمين من الطبقة العاملة ، وهى ترى أن موقفهم كان دائما موقف المتحالف من الرأسماليين الكبار ، ولكن الرأسمالية لم تستخدم الإخوان حتى النهاية . فقصفتهم فى منتصف الطريق ، ثم عادت وتركت لهم هامشا جديدا للوجود ، ثم ضربتهم من جديد ، وهكذا فى سلسلة من المتواليات ، ولم تمكنهم حتى الآن من تحقيق حلمهم فى الصعود إلى السلطة ، فقط استخدمتهم فى بعض لحظات الاختناق ، ومن جهة أخرى نمت جماعة الإخوان وتضخمت بفضل مساعدات الحليف وتسهيلاته إلى الحد الذى ظن معه قادة الجماعة أنه لم يعد بينهم وبين كرسى الحكم سوى شعرة رقيقة .. وهكذا تعاملت رموز رأس المال مع الإخوان المسلمين فى وقت استفحال الأزمة وتركوا لهم هوامش عديدة للوجود والنمو ، ولكن حينما إزداد خطر الإخوان أنفسهم بمعدلات أعلى من نسب خطر الجماعات السياسية الأخرى ، فإن نفس رموز رأس المال لم يترددوا فى القضاء على هذا الحليف المستشرى .



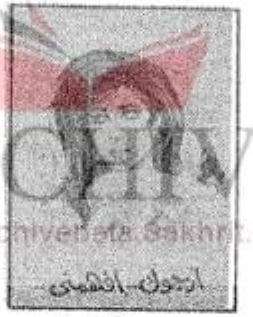
الكتـاب :
الإحيـاء الدينى
تأليـف : رفيق حبيب
النـاشر :
الدار العربية
٢٤٠ ص

فى مقدمته لهذا البحث يقول المؤلف مفسرا هدفه الرئيسى من دراسته أن العالم يشهد ، منذ نهاية الستينات ، حركة إحياء دينى ، وهو يحاول هنا أن يعرفها ويفسرها بمنهج علمى ، ويرى من هذا المنطلق إن

بالاستطاعة تحديد موضوع الدراسة الحالية « حيث نركز على المجتمع المصرى ، لندرس الحركات الاجتماعية الدينية ، الإسلامية والمسيحية ، ويدور البحث حول استراتيجية (السياسة العامة) الحركة الدينية ، تجاه المجتمع المصرى ، وكيف تحقق الحركة الشعبية والدور المجتمعى ، وعلاقات الصراع والتعاون مع القوى الأخرى ، وأيضا مضمون الخطاب الدينى السياسى للحركة .

ولهذا - يضيف الكاتب - نصنف الحركات الدينية إلى تيارات من الفكر والعمل ، حيث يتميز كل تيار باتجاه فكرى محدد ، وأسلوب عمل خاص ، مع التركيز أساسا على دراسة الاستراتيجية ، وهو تصنيف تحكمى لا يمنع التداخل بين التيارات ، كما لا يمنع وجود الحركة الواحدة فى أكثر من تيار ، سواء لتعدد جوانبها ، أو لتعدد مراحلها ، أو لوجود أكثر من اتجاه داخل الحركة الواحدة .

ودراسة سياسات الحركة الدينية ، تتيح لنا تقييم كل حركة من حيث مدى ملاءمة السياسة لأهداف الحركة ، ومدى ملاءمتها لظروف المجتمع وواقعه .



الكتاب :
أرجوك .. افهمنى
تأليف :
سعاد حلمى
الناشر :
مركز الأهرام
١٨٨ ص

بين دفتى هذا الكتاب تجمع الزميلة سعاد حلمى عددا قليلا من القصص الرومانسية العديدة التى كتبتها بشفافية القصة الواقعية التى تعالج إنسانية المرأة بأسلوب متميز فى مجلة حواء على مدى ٢٥ عاما ، والكاتبة اشتهرت بعمود « همسة صدق » خلال رئاستها لتحرير مجلة حواء التى امتدت بين عامى ١٩٨٠ و١٩٩١ ، وحاصلة على ميدالية المجلس الأعلى للثقافة عام ١٩٧٥ عن مجموعة القصص التى كتبتها عن حرب أكتوبر ، وساهمت أيضا فى ترجمة العديد من القصص الغرامية التى اشتهرت بها مجلة حواء ، كما ساهمت فى سلسلة روايات عبير وقامت بالعديد من التحقيقات الصحفية إلى جانب كتابة عدة قصص إذاعية .

تضم هذه المجموعة عشرين قصة منها قصص : لعبة المرأة ، والحب قضية ، وقالت لا ، وقفزة فى الظلام ، وسره فى بئر ، ولمن كان الحب ، والزمن الصعب وغيرها .



الكتاب : التنمية البشرية فى الوطن العربى

تأليف : د. حامد عمار

الناشر : سينا للنشر

٢٤٦ ص

يقول الدكتور حامد عمار فى مقدمة هذا الكتاب الذى يعكس عمق رؤيته ، وثقافته الواسعة ، وبراعة أسلوبه :

هذا الكتاب لموضوعه بداية ، لكن ليس له نهاية فقضية سعادة الإنسان قد بدأت مع بداية التاريخ البشرى ، وسوف تستمر كتابة فصولها - تحريرا وتعديلا ونضالا مع الإنسان وهو يضع تاريخه من خلال سعيه وصولا إلى الفردوس الموعود ، أو استعادة للفردوس المفقود وموضوع الكتاب لا يقع فى مجال الفلسفة والتأمل فحسب ، بل هو متصل بجوهر الخطاب السياسى فى أعلى مستوياته ، حين يعلن أن خير الإنسان وصلاح أموره هو غاية الغايات وأسمى المقاصد وأنبل المرامى التى تستهدفها جهود التنمية وسياسات الدولة والموضوع أيضا ينفذ إلى جوهر التطلعات الجماهيرية من خلال عملها وكدها . وما ترتجيه جزاء وفاقا كحقها فى توزيع الطيبات من الرزق .

والموضوع هو التنمية البشرية التى ارتبطت ارتباطا عضويا باحترام الإنسان لذاته وفى ذاته ، ويعنى هذا احترام كل إنسان إنطلاقا من التعاليم التى تضمنتها رسالات السماء حين أكدت أن الله قد خلق الإنسان فى أحسن صورة ، وفى أحسن صورة ما شاء ركبه ، لكى يصبح بعد هذا كله خليفته فى أرضه ، أضف إلى ذلك المنطلق الإنسانى الذى تبلور عبر مواقف التاريخ وتجاريه - حلوها ومرها والذى رسخ الايمان بعد طول معاناة بأن طاقات الإنسان هى ثروة لا تنضب ، ومن ثم ينبغى تنميتها إلى أقصى ما يمكن أن تصل إليه من مستويات الإنتاج والإبداع .

كيف تصبح

رسالة لندن

بقلم : د . على شلش

كلمة مليونير معربة عن الفرنسية . ومن الفرنسية انتقلت إلى الإنجليزية عام ١٨٢٦ بمعنى صاحب المليون ، ثم استعارتها سائر اللغات ، ولكنها أصبحت متواضعة فى قاموس الثروة المعاصرة . كلمة نسبية أيضا ، لأن العملات الرسمية تختلف فى قيمتها من بلد إلى آخر فالمليونير فى إيطاليا يصبح فقيراً فى بريطانيا ، وصاحب الثروة المتواضعة فى بريطانيا يصبح مليونيرا فى إيطاليا أو لبنان ، حيث تنخفض قيمة الليرة وربما تقل عن ثمن الورق الذى طبعت عليه .

ومع أن كلمة بليونير بمعنى صاحب البليون (الألف مليون) اشتهرت فى هذا العصر فمازال الناس يتمسكون بكلمة مليونير ، ويحلمون بأن يكونوا مليونيرات ، لأن الطريق إلى البليون يبدأ بالمليون . وصاحب الملايين يمكن أن يجد نفسه مليونيراً بعد قليل أو كثير من العرق . ولهذا صدقت البلاغة الشعبية فى مصر حين أطلقت اسم الأرنب على المليون . فالناس عندنا يقولون : هذا رجل عنده أرنب ، وذاك صاحب خمسة أرانب . وبلاغة هذه الكناية ترجع بالطبع إلى أن الأرنب أسرع الحيوانات توالدا وقفزاً . وأرنب اليوم قد يصبح ألف أرنب بعد خمس أو عشر سنوات من العرق المتواصل . ولا يمكن الوصول إلى الأرانب الألف ، أى البليون ، دون الأرنب الأول ، وهكذا .

فى مصر مثل شعبى يقول :

أصحاب الملايين فى نعيم !

ولكن الذى ألف هذا المثل أخذ الأمور بالظاهر . ويبدو أنه عاش هو نفسه فى جحيم الملاليم . ولذلك نسى أن المليونير يتساوى مع المليمير فى ضرورة الكدح لا حجمه ، وفى إمكان الإفلاس أيضا . وحكايات صعود المليونيرات وهبوطهم أكثر من أن تحصى . ولكن المليونير يتميز عن المليمير فى أنه تحت العين ، ومحط

مليونيرا على الطريقة البريطانية ؟

الأنظار ، دائما ، لا لأنه محسود أو قابل للحسد أو للغيرة ، وإنما لأنه مهم أيضا . وبسبب هذه الأهمية تلاحقه عيون الكاميرات وأقلام الكتاب ، ويحب الناس أن يتتبعوا أخباره ، حتى أصبح المليونير المعاصر في أوربا وأمريكا يتفنن في التخفي والبعد عن العيون ، ولكنه لا ينجح في هذا كثيرا . فالتقدم التكنولوجي في الإعلام ، الذي يساهم هو نفسه في تمويله وتحقيقه ، كفيل بالوصول إليه ما دام على ظهر الأرض .



الاخوان جوبى وسرى هندوجا



وستمنستر

أغنى امرأة فى العالم

أقول هذا كله بمناسبة تحقيق صحفى سنوى طويل عريض درجت على نشره مجلة صحيفة « ذا صنداى تايمز » الأسبوعية عن أغنى ٢٠٠ شخص فى بريطانيا . ولكن المجلة رفعت هذا العدد أخيرا إلى ٣٠٠ ، وزودته بكثير من بيانات المليونيرات الثلاثمائة ، وحذفت أسماء الراسبين فى السلك المليونيرى ، وأضافت أسماء الصاعدين والوجوه الجديدة فى نادى المليونيرات ، وهذا ناد وهمى بالطبع ، ولكنها عبارة مألوفة فى الحديث الإنجليزى عن الأثرياء .

ويقع التحقيق الصحفى الذى نشرته المجلة لهذا العام فى ٣٠ صفحة مزودة



أغنى امرأة فى العالم ...

بالصور ، والتراجم الموجزة ، وبيانات الثروة ، وأرقام العام الماضى وأرقام هذا العام . وبلغ الحد الأدنى الذى وضعته المجلة لعضوية نادى المليونيرات ٥٠ مليونا فى العام الماضى . ومن هذا الحد الأدنى الذى يمثله عدد من الأعضاء ، مثل المغنى الشهير كليف ريتشارد ، يصعد الخط البيانى حتى يصل إلى أغنى امرأة فى العالم ، وهى الملكة إليزابث الثانية ، التى تصل ثروتها إلى سبعة بلايين . ولكن المجلة لم تحدد الحد الأدنى لهذا العام ، وإن كان أقل رقم هنا ٣٦ مليونا .

طريقتان للثراء

من الطريف أن الصحفيين الذين أعدوا هذا التحقيق المجهد اعترفوا بعجزهم عن معرفة بيانات معينة ، مثل الأرصدة السائلة فى البنوك ، وهذه سر بالطبع ، لا يكشف إلا للشرطة أو الضرائب ، بعد الحصول على إذن خاص من الجهات القضائية . كما اعترفوا بأن بعض الأسماء فى قائمة كبار الأغنياء هذه احتجوا على إدراجهم فيها بدعوى أنهم لا يستحقون ، فى حين رجاهم البعض الآخر أن يدرجوا أسماءهم ويسجلوا قصص نجاحهم . ومن الواضح أن الفريق الأول المحتج يريد إخزاء العين كما تقول البلاغة الشعبية ، وأن الفريق الآخر المتلهف يريد الصيت لا الغنى . والصيت فى مثل هذه الأحوال رأسمال وضامن للاقتراض !

والآن .. ماذا يقول هذا التحقيق المجهد الطريف ؟ ماذا يمكن أن نستخرج منه ؟

التحقيق فى مجموعه جواب عن سؤال :

- كيف تصبح مليونيرا فى بريطانيا ؟

هناك طريقتان - لا ثالثة لهما - فى بريطانيا لكى تصبح عضواً فى نادى المليونيرات :

طريقة المليونير بالوراثة

أى أن تولد وفى فمك ملعقة من الفضة كما يقول التعبير الإنجليزى . ومعنى هذا أن يكون أبواك ، أو أحدهما على الأقل ، من المليونيرات . وهذه الطريقة لها مخاطرها ، لأن الضريبة على التركات عالية جدا . ولابد أن تكون التركة من الضخامة بحيث تترك لك بعض الملايين ، أو مليونا على الأقل ، بعد استقطاع نصيب الأسد للدولة . وبهذه الطريقة صارت الملكة إليزابث مليونيرة ، وصار عدد من النبلاء وكبار ملاك الأراضى مليونيرات . فهناك أكثر من ثلاثة ملايين فدان فى بريطانيا

● هناك طريقتان لا ثالث لهما فى بريطانيا لكى تصبح عضواً فى نادى المليونيرات

يملكها عدد قليل من الأفراد والأسر . ومعظم هذه الأراضى فى اسكتلندا . وجميع ملاك هذه الأراضى ورثوها عن آبائهم . ويدخل فى هذه الطريقة أيضا نوع خاص من المليونيرات بالوراثة يمثله الأرامل . وهؤلاء يعطيهن القانون الإنجليزى الحق فى حصة كبيرة من التركة ، على عكس الأولاد . ومع ذلك بدأ كثير من الأولاد بحصصهم المحدودة وأصبحوا مليونيرات .

طريقة المليونير بالكفاح

أى أن تولد فقيراً ، وتحلم بأن تكون مليونيراً ، ثم تشرع فى تحقيق حلمك ، وتكافح حتى تصل إلى عضوية النادى بعرق جبينك . وهذه الطريقة لا تكلف أكثر من بعض الأحلام والإصرار على تحقيقها، مع افتراض حسن الحظ . ومع أن الطريقة الأولى مضمونة ، ولا تسبب ألما ، فهذه الطريقة مملوءة بالمخاطر . والمخاطر عنصر أساسى فى النظام الرأسمالى كله، ولها لذتها وثمنها الفادح أيضا . فقد تجد نفسك غدا مليونيرا كبيرا ، وبعد غد مليونيراً صغيرا ، أو مليميرا متوسطا على أحد الأرصفة . ولهذا تحتاج هذه الطريقة إلى الحكمة المشهورة التى تمسك بها الزعيم الوطنى سعد زغلول : « لا يأس مع الحياة ولا حياة مع اليأس » وكثيرون من مليونيرات بريطانيا الثلاثمائة من رواد هذه الحكمة وتلك الطريقة ، تنطبق عليهم صفة العصامية ، والبدء من نقطة الصفر أو ما تحتها .

عالم البلايين

تقف الملكة إليزابث على رأس قائمة المليونيرات بالوراثة . ومع أنها ضربت رقما قياسيا فى الثروة ، وانتقلت إلى رأس قائمة البليونيرات ، ببلايينها السبعة ، فهى فى الحقيقة لا تملك كل هذه الثروة الموروثة التى تنمو بالاستثمار وارتفاع أسعار الأراضى واللوحات الفنية النادرة . وقد بدأت جدتها الملكة فيكتوريا عهدها عام ١٨٣٧ وهى مدينة ، ولكن بعض رعاياها الأثرياء تبرعوا لها بالكثير مما يملكون من تحف ومقتنيات ، كما أغدقت عليها الامبراطورية الشاسعة الهدايا . ومع ذلك تحول كل شئ بعد وفاتها عام ١٩٠١ إلى الدولة . ويذكر التحقيق أن دوق وندسور حاول عند تنازله عن العرش عام ١٩٣٦ أن يأخذ معه إلى الخارج ألبومات الطوابع التى جمعها فوقف القانون ضده ، وحكم عليه بإعادتها إلى القصر . ولكن الملكة الحالية أسعد حظا على أى حال ، لأن ممتلكاتها الخاصة تقدر بمبلغ ٥٠٠ مليون

جنيه مستثمرة فى بعض القصور الصغيرة والحلى والأسهم والسندات . وإذا كانت ثروتها هذا العام بلغت ٦٥٠٠ مليون (أى بناقص ٥٠٠ مليون عن العام الماضى) فحر مالها من هذه الثروة هو تلك الملايين الخمسمائة .

وإذا كانت الملكة مليونيرة بالوراثة فهى أيضا مليونيرة بالكفاح ، لأن ثروتها الشخصية بلغت نصف البليون . ولكنها ليست الوحيدة التى توالدت « أرانبها » وتكاثرت فى قائمة الطريقة الأولى ، فهناك أسرة مشهورة احتل اسمها جزءاً من نشرات الأخبار على أثر فضيحة مالية فى العام الماضى ، وهى أسرة جينيس ، فهذه الأسرة الأيرلندية الأصل بلغت ثروتها نصف بليون أيضا . وكانت قد بدأت بمعمل صغير للخمور فى القرن ١٨ ثم تكاثرت « أرانبها » بعد ذلك . وهناك أيضا أسرة روتشيلد التى ظهرت فى أوربا فى أواخر ذلك القرن ، ثم تفرعت من ألمانيا إلى فرنسا والنمسا وانجلترا . وأصبحت تملك فى بريطانيا نحو ٤٠٠ مليون جنيه فقط ، وهو رقم متواضع جدا بالقياس إلى أباطرة المال . وبعد أن كان اسم روتشيلد حلم كل مفلس فى العالم كله صار مليونير واحد أغنى من مجموع أفراد الأسرة المنتشرين اليوم فى أوربا وأمريكا . وفى العام الماضى ورث أحدهم ، وهو اللورد جيكوب لقب « اللورد » عن أبيه المتوفى ، كما ورث ٩٢مليونا عن ابن عمه (وبلغت ثروته ١٥٤ مليونا) أما بنك ابن عمه إيفلين دى روتشيلد فى لندن فلم يعد من أغنى بنوك انجلترا . ولم تتغير ثروة السير إيفلين عن ٢٠٠ مليون .

ليست الملكة هى الوحيدة التى تخطت حاجز الملايين . فدوق وستمنستر مثلا تقدر ثروته هذا العام بمبلغ ٣٥٠٠ مليون مقابل ٣٧٠٠ فى العام الماضى أما سر هذا الانخفاض فى ثروته فيرجع إلى هبوط أسعار الأراضى والعقارات التى تتركز فيها بلايينه ، فعنده ١٥٠ ألف فدان ، منها ٣٠٠ فدان من العقارات فى حى ماى فير، وهو أغلى أحياء لندن . وليس الدوق هو الوحيد الذى انخفضت قيمة ثروته ، فقد سرى الانخفاض على جميع ملاك الأراضى والعقارات . بل انتقل إلى المكافحين من المليونيرات ، ومنهم الوزير الحالى مايكل هزلتاين الذى كان يساوى ٦٠ مليونا ، فلما دخل الوزارة أصبح يساوى ٤٠ مليونا فقط . والسبب هو أنه لم يعد متفرغا لمؤسسة النشر التى كان يديرها (رفعت المجلة اسمه أخيرا) ولكن الأمور نسبية . فالأخوان جاد وهانز راوزنج - مثلاً - ارتفعت ثروتهما من

● الملكة اليزابيث على رأس قائمة المليونيرات بالوراثة

١٩٤٠ مليوناً فى العام الماضى إلى ٢٠٠٠ مليون فقط هذا العام . وقد بدأ الأخوان العصاميان رحلتهما مع الملايين منذ ٤٠ سنة ، وتخصصا فى تعليب الأطعمة . ومع أنهما جاءا من السويد فقد أتاحت لهما سوق الثراء المفتوحة فى بريطانيا القفز على غيرهما من البريطانيين الأصلاء أمثال اللورد سينسبرى وأسرته ، أصحاب سلسلة السوبر ماركت المعروفة بهذا الاسم . وقد بدأ جده رحلته عام ١٨٦٩ بمحل صغير لمنتجات الألبان . ولكن الحفيد أسس عام ١٩٥٠ سلسلة السوبر ماركت التى صارت اليوم على قمة محلات التجزئة ، وصار صاحبها يملك ٢٤٢٠ مليونا مقابل ١٨٥٠ فى العام الماضى .

الطعام أضمن وسيلة

من الواضح أن مليونيرات الأطعمة والمشتغلين بالطعام عموما لم يخسروا هذا العام . بل كانوا أكثر ربحا من المشتغلين بالعقارات . ومنهم واحد ، هو جارفيلد ستون ، بلغت ثروته ١٧٥٠ فى العام الماضى ، ثم ارتفعت إلى ٢١٩٠ مليونا هذا العام . وهو ينتج ثلث كمية الخبز الذى تأكله بريطانيا . ومع أنه بدأ رحلته مع الملايين فى انجلترا أثناء الثلاثينات فقد جاء هو نفسه من كندا مليونيرا جاهزا . وكان جده وأبوه قد هاجرا إلى هناك عام ١٨٨٢ ، حيث حققا ثروة هائلة . ثم ضاعفها الحفيد فى بلد أجداده .

وإذا كان غذاء البطون من أضمن وسائل تحقيق الثراء فغذاء العقول أيضا لا يقل فائدة . ولكن أشهر مليونير فى هذا المجال – روبرت ماكسويل – مات بفضيحة . فقد هاجر من تشيكوسلوفاكيا معدما فى سن ١٦ سنة ، أثناء الحرب العالمية الثانية . وبعد الحرب التى تطوع للقتال فيها بدأ رحلته مع المال والنجاح ، حتى صار يملك ١٢٠٠ مليون جنيه وقت غرقه . ثم كشف التحقيق عقب وفاته الغامضة عن فضيحة استيلائه على أموال معاشات موظفى مجموعة صحف « ميرور » التى يملكها . ومازالت الاكتشافات مستمرة ، ولكن المؤكد أن امبراطوريته الإعلامية قامت على « الفهلوة » ، أو كانت الفهلوة أحد أعمدتها . وإذا ترجمنا كلمة الفهلوة اقتصاديا لكان من معانيها زيادة الاقتراض مع انخفاض قيمة الأرصدة . وهذا ما حدث لماكسويل وغيره هذا العام . فقد ضمت قائمة « أغنى ٢٠٠ » فى العام الماضى اسم مليونير بين العشرة الأوائل ، ولكن الاسم اختفى هذا العام ، ولم يصل إلى العشرة الأواخر من ٢٠٠ . والسبب أن صاحبه حاول تفادى كساد سوق العقارات

فى بريطانيا ، حيث كان أحد أمرائه ، فانتقل إلى أمريكا ، ولكنه واجه ذات المشكلة ، ولم يستطع الصمود أمام الإفلاس .

لم يكن ماكسويل الوحيد بين مليونيرات العصر فى بريطانيا الذى ولد على غير أرضها . فهناك أكثر من عشرة مليونيرات آخرين غزاة . ومع أن التحقيق لم يورد اسم مليونير عربى واحد هنا ، برغم وجود أكثر من واحد ، فقد أورد أسماء أربعة ذوى أصل هندى . ومن هؤلاء الأربعة شقيقان ، هما جوبى وسرى هندوجا ، بلغت ثروتهما ١٣٠٠ مليون جنيه هذا العام مقابل ١١١٠ فى العام الماضى . والشقيقان يتاجران فى كل شئ ابتداء من السيارات إلى النفط . ولهما نشاط واسع بمنطقة الخليج ، فضلا عن صداقاتهما مع المشاهير وأصحاب القرار مثل جورج بوش ومارجريت تاتشر .

ويتبين من دراسة السير المختصرة الواردة هنا أن التعليم العالى ليس شرطا لدخول نادى المليونيرات أو البليونيرات . فبعض الأسماء الواردة هنا ترك أصحابها الدراسة فى سن ١٥ أو ١٦ . ومع ذلك فبعضها الآخر تعلم بأرقى جامعات بريطانيا (٢٨ بأوكسفورد ، ٣٦ بكمبريدج) وهؤلاء معظمهم من الأثرياء بالوراثة ، ولكن من قال إن العلم لا يحفظ الثروة ؟ ! إذا كانت الثروة بطبيعتها هشة وقابلة للتطاير والزوال فمن باب أولى أن ينميها صاحبها . ولكن مهما كانت سبل تنميتها ، أو حتى المحافظة عليها ، فلابد أن يشعر بوجودها ، لا عن طريق البحلقة أو التغزل فيها ، وإنما عن طريق الانتفاع بآثارها فى مسجد ، فى مكتبة عامة ، فى مدرسة ، فى جامعة ، فى مستشفى ، الخ. وهذا ما فعله أثرياؤنا قديما ، وأثرياء أوربا وأمريكا منذ عصر النهضة ، وأثرياء بريطانيا الحاليون أيضا .

فى العام الماضى تبرع مليونير متخصص فى تأجير أجهزة التليفزيون بمبلغ ١٨ مليون جنيه لجامعة كمبريدج ، فى هذا العام تبرع مليونير آخر بمبلغ ٢٦ مليونا لذات الجامعة . ولا نريد أن نحسد الجامعة على ما أعطاها الله ، ولكننا نريد التنبيه على أن فعل الخير هو أهم معالم الوجه المليح للمليونير الأوربى والأمريكى الحديث . أما وجهه القبيح فلا يهمنا التوقف عنده أو التعامل معه ، فهذا من عمل الشرطة والمحاكم والسجون . وما دام الوجه المليح هو الظاهر أمام الناس فمرحبا بكثرته المشروعة ، ومشروعاته الكثيرة ، لأهل بلده ووطنه .

القاهرة

طربوش .. الخواجة بطرخاني

« الطربوش » عنوان الرواية التي صدرت هذا الشهر باللغة الفرنسية للكاتب السورى روبير سولى وتدور أحداثها فى القاهرة أثناء ربيع عام ١٩١٦ . حول زيارة السلطان لمدرسة الجيزويت فى القاهرة . وقد اثرت هذه الزيارة فى وجدان تلميذ سورى فارتجف . وارتجل قصيدة مستوحاة من حكايات لافونتين أعجبت السلطان كثيرا ..

وهذا الشاب السورى يدعى ميشيل بطرخاني . ينتمى إلى اسرة تتكلم اللغة الفرنسية جاءت إلى القاهرة للإقامة المؤقتة فاستقرت فيها . وعاشت اقسى فترات الاحتلال البريطاني .



الطربوش



روبير سولى

وفى الرواية نرى الأب جورج بطرخاني ، صانع الطرابيش . لقد اختار ان يمارس هذه الصناعة . لأن الطربوش ، فى تلك الآونة، كان يعتبر بمثابة شعار وطنى . كما انه نموذج لمجتمع سعيد جاءته القوات الأجنبية كى تهدد كيانه .

وبطرخاني رجل ينتقل مع أسرته من هليوبوليس (مصر الجديدة) إلى مدينة الإسكندرية ويرتاد نفس الأماكن التى كان يزورها الخديو . لذا فلم يكن غريبا على ابنه ميشيل ان ينفعل ويلقى بقصيدته المرتجلة أمام السلطان حين زار مدرسته .

ورواية « الطربوش » مليئة بالاحداث والشخصيات . فهناك نانيو الذى يهتم بدراسة نفوس البشر . وهناك ماجى التى لا تكف عن اصطياد العشاق . وهناك مكرم الذى حمل سلاحه واقسم الا يتركه حتى يتخلص من آخر جندى بريطانى جاء لاستعمار بلاده .

وتدور أحداث الرواية فى سنوات عديدة

متلاحقة . وتنتهى فى بداية الخمسينات حين قامت الثورة . فجاء الضباط الاحرار وعملوا على نزع الطربوش عن الرءوس .. باعتباره رمزاً لعهد بائد .. ويرى الكاتب ان خلع الطربوش كان بداية لترحيل السوريين المصريين وبداية للبحث عن منفى جديد .

روبيرسولى مولود فى القاهرة من اصل سورى ، وعاش بها سبعة عشر عاما . ثم رحل إلى باريس وعمل فى جريدة لوموند فى كل من روما وواشنطن . وتعتبر روايته « الطربوش » تجربته الأولى فى عالم الإبداع .

باريس

نزوة .. الكتابة لأول مرة ..



آنى دوبريه

آنى دوبرى ممثلة فرنسية ذات جمال ملحوظ . ويمكن ان يجذبك جمالها لأول وهلة . كما انها متزوجة منذ سنوات من الممثل والمخرج برنار جيرادو .

ورغم أن حظ آنى دوبرى فى السينما متميز .. فإنها سعت إلى أن توسع عطاءها الإبداعى . ففى عام ١٩٨٥ نشرت روايتها الأولى «المعجب» . ثم نشرت روايتها الثانية فى عام ١٩٨٧ تحت عنوان « عيون مازران » . هذا الشهر قامت آنى دوبرى بإصدار البوم ضخم يحمل عنوان : « الشراع الأسود » ضم أكثر من مائة صورة نادرة التقطها ابوها المصور المعروف جان دوبرى .. ووسط هذا الكم من الصور راحت آنى تتكلم عن حبها الشديد لوالديها . فقالت :

« لقد فكرت طويلا فى أن أسطر هذه الصفحات تحية لذكرى والدىّ ، وخاصة أبى « مؤلف » العديد من الصور التى انشر اغلبها هنا فى هذا الكتاب » .

« حقيقة لم اكن أود أن أكتب شيئا عنها فى هذا الكتاب . فالكتابة أشبه بنكتة فى مثل هذه الكتب .. فأنا لم اضع زهوراً قط فوق قبرىْ أبى وأمى .. ولم أطأ بقدمى منطقة المقابر التى دفنا فيها . بكل بساطة لأنهما قد اختفيا وأنا فى سن صغيرة للغاية . كانا

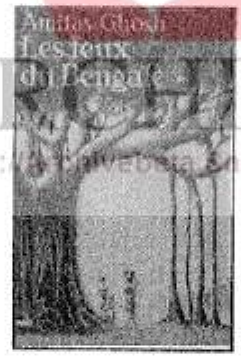
جميلين . وصغيرين ولم يشفع لهما المرض فالتهمهما دون أن تكون لهما رغبة في ذلك » .

« كان أبي مصوراً . وأنا اجد صوره جميلة . واعتقد أنه كان موهوبا للغاية . وقد انتابتني الرغبة منذ سنوات ان انشر هذه الصور . وعلى التوازي ، ارتفعت في داخلي الرغبة في الكتابة. وان اخلع عن نفسي رداء الإبداع . وان أكتب عن طفولتي التي انشطرت إلى قسمين . وها هي رغبتي المزدوجة في ان أكتب وان انشر كتابا عن والدي تتجمع هنا .

الجدير بالذكر ان عام ١٩٨٥ قد شهد ظاهرة غريبة . حيث قامت مجموعة من ممثلات السينما الفرنسية بتجربة التأليف الروائي مثل ماري فرانس بيزيه وسيمون سينيوريه وآني دوبري وغيرهن . والآن وبعد سبع سنوات من هذه الظاهرة . نجد ان ارفف المكتبات قد زخمت بابداعات أخرى لممثلات اديبات مما يؤكد ان الكتابة لأول مرة لم تكن نزوة .

كلكتا

خطوط الظل .. في البنغال



قليلة هي الاسماء الأدبية الشرقية التي يمكن ان تصبح نجوما في الأدب العالمي الحديث . ومن هذه الاسماء القليلة الكاتب الهندي الشاب اميتاف جوش الذي نشر في الفترة الأخيرة روايته « خطوط الظل » باللغة الإنجليزية .

تجئ أهمية جوش في انه لم يغادر بلاده الا كي يعود إليها ويعيش فيها . فهو يقيم الآن في مدينة كلكتا التي ولد فيها عام ١٩٥٦ . والتي قضى بها طفولته . قبل ان يتعلم الرحيل إلى بلاد عديدة في آسيا فزار طهران وبكا وكولومبو . وصعد جبال الهيمالايا على قدميه . ثم عاد إلى مدينة دلهي حيث درس التاريخ. وحصل على الدكتوراه في الانثربولوجيا الاجتماعية من جامعة اكسفورد .. وعاد إلى بلاده كي يقوم بالتدريس هناك .

في عام ١٩٨٨ نشر اميتاف جوش روايته الأولى « نيران البنغال »

باللغة الإنجليزية والتى مالبثت ان ترجمت إلى لغات عديدة . ونالت جائزة مدسيس فى فرنسا كأحسن رواية أجنبية مترجمة .

اما روايته الأخيرة « خطوط الظل » فتدور أحداثها فى منطقة البنغال أيضا . حول مجموعة من الناس عليهم أن يدفعوا كل شئ ثمين يملكونه مقابل أن يمتلكوا القدرة على التذكر .

ونحن هنا أمام راوية يتكلم عن هؤلاء الناس . منهم اخوه الأكبر ترديب الرجل الذى يلعب بالكلمات وكأنه ساحر . وهو رجل لم يبرح غرفته الا قليلا . ومع ذلك فهو قد سافر إلى بقاع عديدة من العالم من خلال قدراته اللغوية .

ويتحدث الراوية عن امرأة إنجليزية تدعى « ماى » إنها طيبة إلى درجة البراعة . اما «ايلا» فهى تمتلك عصا غير سحرية . وهناك مجموعة من الأطفال انجبتهم الاخت « ميادبيى » التى وكلت تربيتهم إلى جدتها .. فأصبحوا كأنهم يتامى .

وهؤلاء الاشخاص يعيشون متقاربين فى الأماكن . ولكنهم يتصرفون كأن حائطا كبيراً من زجاج ، يفصل بينهم . وهم يرون انفسهم فى هؤلاء الآخرين وكأنهم ينظرون داخل مرايا مشروخة .

الجدير بالذكر ان روايات اميتاف جوش قد حققت أعلى المبيعات فى طبعاتها المتعددة باللغات الإنجليزية والفرنسية والايطالية .

موسكو

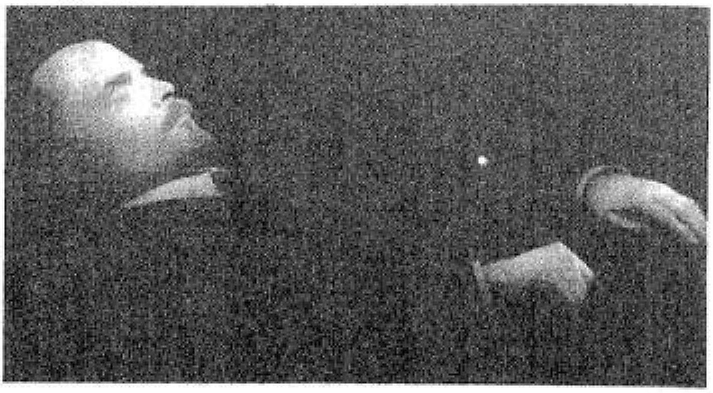
قصص .. مابعد التفكك السوفييتى

أدب الخيال السياسى يعيش حاليا أكبر فترة ازدهار له .. خاصة بعد تفكك الاتحاد السوفييتى .. فلا شك أن هذه الأحداث ، وتمهيداتها ، كانت بمثابة الملهم للعديد من الروائيين ان يلهبوا أفكارهم بما يمكن أن يحدث ، أو ما كان يمكن أن يحدث فى المعسكر الشرقى .

بدا هذا الازدهار واضحا فى روايتين ظهرتا أخيرا ، الأولى بالالمانية للكاتب تيلمان شبتجلر تحت عنوان « مخ لينين » . والثانية للكاتب الأمريكى و . د . ويزرل تحت عنوان « شقيقة تشيكوف » .

تحكى رواية «مخ لينين» حول الدكتور فوجت الذى اصابته حالة من الاكتئاب .. فقام بخطف مخ لينين قبل ان يتم دفنه وراح يجرى عليه الابحاث لمعرفة سر عبقريته التى غير بها خريطة العالم . ويتصور الكاتب ان زوجة

لينين سرقوا مخه



الطبيب قد رمت بالمخ فى صندوق القمامة فتجمعت حولها الكلاب وراحت تتسابق عليه .. وقد كان هذا الحادث كفيلا ان يزيد من حدة الكآبة التى اصابت الدكتور فوجت . والذى كان عليه أن ينتظر سنوات طويلة حتى يموت ستالين وان يقوم بالعملية نفسها .

اما الرواية الثانية ، «شقيقة تشيكوف» فهى مستوحاة من حكاية خيالية عن الأديب المعروف تشيكوف كما انها استعارت اسم احدى مسرحياته . وهى تصور التحالف الأكبر بين الشيوعية والنازية . تدور الأحداث ذات ليلة شتاء مرعبة فى عام ١٩٤١ . حيث نرى اخت تشيكوف الكبرى قد اقتنعت بوجهة نظر ضابط مثقف يؤمن بالنازية والشيوعية معا . ويطلب منها ان تذهب إلى المتحف الذى يحمل اسم أخيها وان تسرق له نص مسرحية « طائر البحر » ، لأن مجموعة من رجال الصاعقة الالمان يودون ان يقوموا بتغيير أحداثها كى تدور فى أحد بيوت الهوى الذى يحتله هؤلاء الرجال .

ويصور الكاتب المغامرة التى تقوم بها شقيقة تشيكوف من أجل دخول المتحف الذى يحمل اسم أخيها . ثم قيامها باحضار مسودات المسرحية . وتسلمها إلى الضابط الالمانى مقابل لحظة حب .

لقد تفككت اوصال الاتحاد السوفييتى . ولا شك انه مثلما تكثر مديات الجزارين حين تقع البقرة .. فلا شك ان أدباء الخيال السياسى سوف يتصورون كل ما تقدح به ذاكرتهم .. وأول الغيث قطرة .

فؤاد بدوى



الأطفال ربيع الدنيا
بسمة نور
نسمة سحر تسرى .. تجرى
يا ربى
يا واهب عمرى
اجعل أيامى أزهارا تنمو بحديقة أطفال .

هذا هو احساسى بالأطفال .. وهذا هو شعورى نحوهم .. عبرت عنه هذه الكلمات التى ترى الطفولة ربيعا وخضرة وازدهارا وتفتحا وأملا وشبابا ومستقبلا ونورا .. وهى هى الكلمات التى تتمنى ان تصبح الايام أزهار حديقة أطفال .. أعرف أنه تمن ترفى لأن الكثير من أطفال العالم يحتاجون إلى الرغيف قبل الوردة والى الرداء قبل الأغنية والى المسكن قبل كتاب الشعر .. ولكن هكذا تمنت الكلمات .

لم أكتب للاطفـــــال وأنا فى محاولتى الاولى مع الكلمة ولكنى توجهت نحوهم تماما بعد أن صرت كهلا فى الحياة وكهلاً مع الكلمة ..

وأذكر ان الكلمات الأولى فى هذه الورقة التى لا تصلح إطلاقا إلا أن تكون بحثا أكاديميا أو دراسة أو أى شىء من هذا القبيل بل يكفيها شرفا أن تحكى بكل

الرغبة فى كتابة أشعار وأغانى للأطفال

الصدق تجربتى مع الشعر والأغنية متوجهـا بهما إلى الطفولة الأمل والمستقبل .

كانت هذه الكلمات نص برقية بعثت بها إلى الأديب الراحل الأستاذ يوسف السباعى الذى كان يترأس مؤتمرا يبحث شئون الكتابة للأطفال فى الاسكندرية .. ولما كنت لا أدعى إلى ندوات الثقافة فى مصر ولا إلى مؤتمراتها وكأنى غائبٌ أو ميت ولما كنت لا أسعى مطلقا إلى أن أكون حيث لا أدعى أحببت بهذه البرقية أن أقول لهذا المؤتمر ومن خـلال رئيسه إننى هنا وإننى أكتب للأطفال .

لا أعرف كيف وقعت هذه الكلمات أو وصلت إلى يد وعيون وفكر وقلب الإذاعية الكبيرة الاستاذة فضيلة توفيق - رئيس الشبكة الرئيســية باذاعة جمهورية مصر العربية (سابقا) وهى ماما فضيلة التى تتحدث إلى أطفال مصر كل صباح .. عهدت ماما فضيلة بهذه الكلمات إلى الموسيقار الراحل الأستاذ الدكتور يوسف شوقى الذى وضع لها لحنا وأذاعتها السيدة فضيلة وقابلتنى بعدها فى طرقة بالدور الرابع وقالت : -



عبد التواب يوسف   كامل كيلانى

أذعنا لك كلمات جميلة عن الأطفـال لماذا لا تحضر لنا المزيد من إنتاجك .. حفزنى هذا إلى أن أحمل إلى برامج الأطفال قصيدتى القرآن والقلم اللتين لحنتا وغناهما على الحجار و «اللهم أجعل فى قلبى نورا» التى أنشدها محمد ثروت .

سألت نفسى عن ينابيع الشعر التى روت طفولتى فتذكرت أن أمى - شفاها الله - ربما هدهدتنى أو غنَّت لى وربما لم تفعل فذاكرتى لا تبوح - (تؤكد شقيقتى أنها تصبر على ابنتها الطفلة بوحى من صوت أمها الذى تستعيده وتستعيد معه الحنان والصبر)..

التكوين

كذلك لا تقول ذاكرتى إن كانت جدتاى قد قطتا أم لا وإن كانت الذاكرة والقلب يحتفظان لجدتى لأمى بقدر كبير جدا من الحب والتقدير والاحترام ومازالا يريانها طائرة خفيفة رشيقة معطاء بسّامة ويريانِ فى جدتى لأبى يرحمها الله وجها قاسيا متسلطا صعبا .

وعشت أيام طفولتى فى مدينة كفر الشيخ وكانت مدينة بسيطة تقطنها ثلاث فئات .

الأولى : السادة موظفو الأوقاف الملكية والحكومة .

الثانية : التجـــار .

الثالثة : الفلاحين .

تغيرت هذه الصورة كثيرا الآن .. عشت أيام الأجازة الصيفية فى دار جدى فى القرية التى كانت قرية جميلة وكان اسمها جميلا « رويثا » .. أعتقد أن هذه القرية هى مصدر الشعر الأول فى قلبى وضميرى وعيونى كانت الدار فسيحة ، أمامها مباشرة النخل وشجرة الجميز الكبيرة والحقول والترع وكان غير بعيد عنها الجرن الكبير .. كنا فى الصيف نتطلع إلى البلح أخضر ثم أحمر وأصفر .. وكنا نذهب إلى الجميزة نحاول تختين ثمارها وننتظرها .. ولكن تحت الجميزة أو فوقها الحكايات .. وكنا نفرح كثيراً بما تعطيه هذه الشجرة الكريمة أما الحقول فكانت تعطى لعيوننا لونها الأخضر الجميل الممتد (تزرع محافظة كفر الشيخ ثلث محصول جمهورية مصر العربية من الأرز) كانت الترعة تقدم لنا خدمات ثلاث .. كانت تسمح لنا بالسباحة فيها (كنت أجيد الغرق فكدت أغرق كل مرة) .

وكنا نصطاد منها السمك (لم أوفق كثيرا كصائد للسمك) . كنا نمشى على شاطئها للسمر وهنا كان لى مكان .

كانت شـــهور الصيف هى كل الطفولة .. للأسف الشديد ماتت هذه الأيام بمجرد الانتقال الى المرحلة الثانوية حيث بدأ أبى رحمه الله فى الاعتماد علىّ للمعاونة فى أمور متجره وفى تجارته المتفاتورة ولكن لابد هنا أن أذكر أن شهيتى للقراءة كانت قد انفتحت بشكل كبير وكان أبى – رحمه الله – يشترى لى كل ما أرغب فى قراءته ولا أنسى أنه اشترى لى مجموعات هائلة من مجلدات الطائف والمصور والهلال وغيرها .

كانت فى كفر الشيخ ترعة أكبر من ترعة القرية وكان هناك أصدقاء أيضا ولكن لم تكن هناك القرية ولا ليلها ولم نكن ننظر الى السماء الا تحريا عن الحرب والغارات على مدينة الاسكندرية التى تبعد عن كفرالشيخ ١٢٠ كم وبالرغم من ذلك كان أبى والجيران يتحدثون عن النيران التى يلمحونها .

عندما انتقلت من كفر الشيخ لأدرس فى جامعة الاسكندرية عاد الشعر من

جديد الى النفس .. تمثل هذا أولا فى البحر الممتد والذى ليس له آخر وتمثل فى السماء المزركشة دوما بالسحب .. كانت السحب تمثل لي مثيرات للتخيل هل هذه السحابة جمل ؟ أم أنها حصان ؟ .. هذه الأسئلة لا تكف عيونى عن توجيهها لعقلى طيلة الوقت الذى أتأمل فيه السحاب .. الاسكندرية بحر . وسحاب . وسماء . وقمر (ما أجمل انعكاس ضوء القمر على مياه البحـــر خاصــــة عند بعض الخلجان فى الاســكندرية قبــل منطقة ستانلى ورشدى) .. كم كان يحلو لى فى ليالي الشتاء القمرية أن أتدثر بيالطو مدفىء وأخرج إلى البحر وإلى القمر ذلك على الرغم من نزول المطر أحيانا أمام مكتبة جامعة القاهرة وعلى الحشيش الأخضر استلقيت على ظهرى ذات مساء أتأمل السماء انتظارا لخروج شقيقتى التى كانت تدرس دبلومها فى الترجمة والتى كان عليّ أن أعطيها توصيلة إلى مكان عملها .. وأنا على هذه الحال تذكرت سحابات الاسكندرية .. هذه السحب الرائقة ووجدتنى أتمتم بكلمات قصيدة السحابة .

قالت لى الســـــحابة
فى نبرة جــــــذابة
قــد كنت قطــرة مــاء
صـــعدت للســــماء
قابلت أصـــــــدقاء
صــرنا معـــا غيــوم
نجــاور النجــــــوم
والشمــس والقمــــر
تأتى خيـــول الريح .. الخ .

(ظهرت هذه القصيدة فى مجموعتى الشعرية الأولى للأعزاء الصغار من أصحابى .

أوقن أن أهم مصادر اللغة والشعر لى كان القرآن الكريم .. فكّر أبى رحمه الله فى أن أدرس فى الأزهر الشريف .. كان المثال الواضح أمامه خالىّ لى هما الاستاذ محمد حسن حنبل عمدة روينا - مد الله فى عمره - وخالى المرحوم حسن حنبل أستاذ المنطق بجامعة الأزهر وبعض الجامعات العربية سابقا ولذا عهد بى أبى إلى المرحوم الشيخ عبد الحليم - تعسا لذاكرتى نسيت بقية اسم الرجل - ليحفظنى القرآن الكريم كان الشيخ عبد الحليم يحضر الى محل تجارة أبى ويدخل فى المكان المخصوص ويبدأ فى تحفيظى وحفظت الأجزاء الثلاثة الأولى من القرآن الكريم .. تغير المسار بواسطة الشيخ عبد الحليم أيضا إذ اننى فى يوم ما لم أحفظ الواجب فشكانى لأبى الذى عاقبنى عقابا قاسيا اضطر معه خالى إلى أخذى من يدى ليضعنى تلميذا فى مدرسة الأمريكان ببلدتنا كفر الشيخ .

القـــرآن الكـــريم .. الحـــروف .. أ . ل . م . ك . هـ . ى . ع . ص . بسم الله الرحمن الرحيم .. كل حرف .. كل كلمة .. كل آية .. كل سورة كل ما فى القرآن الكريم من إعجاز .. كل هذا أثر فى اللسان والقلب والعقل .. أثر جدا وأعتقد أن القصيدة التى كتبتها عن القرآن فى مجموعة من أصحابى وقصيدة القرآن فى القلب التى وردت فى المجموعة الثانية

التكوين

«سبحان الله» هما بنات هذه الفترة الهامة من طفولتى . فترة علاقتى التى بدأت فى الطفولة مع كتاب الله الكريم والتى استمرت حتى هذه اللحظة من العمر .

ولاشك أن اللعب مع الاتراب فى الطفولة كان نبعا مضافا .. هذا اللعب فى المدينة يختلف عن السهر فى الجرن فى القرية مع الحــواديت التى كان يقصها أخى .

أغبط الاطفال الآن إذ أنهم بالرغم من كل ما يعانون من زحام وتدافع وسـباق إلا أن هناك اهتماما كبيرا بهم .. اهتمامات على مستوى عال واهتمامات من المبدعين بالاطفال ومن المثقفين ومن رجال التربية والتعليم .

بالمدارس مكتبات وتشهد مصر حاليا فترة ازدهار مكتبية للاطفال .. المكتبة والحديقة الكتاب والوردة ... واللعبة والاهتمام بهم اعلاميا .

أعتقد أن العنصر الرابع الذى ينبغى علىّ ان أشير إليه وأنا احكى عن تجربتى مع الكتابة للأطفال ، بعد علاقتى بالطبيعة وكتاب الله ومرحلتى الطفولة فى القرية والمدينة ، هو عملى فى بدء حياتى العملية مدرسا للأطفال بمدرسة إبتدائية بمدينة كفر الشيخ .. اسم مدينة كفر الشيخ بالكامل هو كفر الشيخ طلحة وهو الشيخ طلحة أبو سعيد من تلمسان بالمغرب والمدرسة التى بدأت حياتى العملية فيها كان أسمها مدرسة سيدى طلحة الإبتدائية . فى المدرسة تعرفت على أبناء الفصل عوض ومحمد ونبيل وحازم أسماء كثيرة جدا ثم بدأت أعرف أسماء تلاميذ فى الفصول الأخرى وكان قد لفت نظرى مدرس رسم فنان هو الصديق الأستاذ عبدالله سعد إلى ضرورة محاولة رسم الناس بالكلمات .. الرسام يرسم الملامح بالخطوط واللون ويضع الأشكال والشاعر يستطيع أن يرسم الناس بدون باليتة فقط يملك آلة التصوير وهى عيناه وغرفة قلبه التى ينفذ إليها ماتراه عيناه ويملك عقله وقدرته على التفكير ومن ثم يكون قادرا على رسم أى شخصية .. قبل تلاميذ الفصل وتلاميذ المدرسة كنت قد بدأت رسم بعض شخصيات المدينة (مدرس مزيكا - الفتاة التى تحمل الحبوب إلى ماكينة طحين والعالمة التى تصنع الأفراح وغيرها)

بدأت أتأمل الأطفال وبدأت أعرف ملامح كل طفل - الملامح النفسية بدأت فى محاولة التعبير عنهم برسم أسكتشات سريعة .

شـــريف ولد ظريف .
عمره ســبع ســنين
يروح المدرســـــة
يرجع م المدرســــة
يمشى فـوق الرصيف
وعيــــونه مفنجلين

وهكذا فى سنتين من التأمل ومحاولة الرسم استطعت أن أرسم الأطفال الذين أعرف .

المهم عندى هو أن كل قصيدة أو أغنية لابد وأن تسكب فى عقل وقلب ووجدان الطفل المتلقى قيمة ما .. أقول له إنك تعرف أن الشمس تنير وان الشمس تدفىء ولكنى أركز على قيمة أنها لم تخلف موعدها ابدا واحاول قدر الطاقة أن استخلص من الظاهرة الطبيعية قيمة معنوية هكذا مع النهر الذى ينصحنا بأن نزرع خيرا وزهرة عباد الشمس التى تحترف الوفاء والانتماء والعمل الذى تنادى به الكتب السماوية والصباح .. الخ .

بقى أن أذهب الى النبع الاخير والهام ما وقع فى اليد من شعر كتب للاطفال مثل أشعار أمير الشعراء أحمد شوقى الذى كان فى رأيى رائدا على مستويين ، المستوى الاول الشعر الذى كتبه للاطفال والمستوى الثانى وهو الصعود بالكلمة الشاعرة الى خشبة المسرح .. قرأت بالطبع هانز كريستيان أندرسون وقرأت بيرل بيلى المغنية الامريكية الزنجية التى نمت فى بعض كتبها للاطفال قصة ورقة الشجر التى سقطت من على غصن الشجرة لتلتقى مع علبة فارغة يسير بها تيار النهر .

كيف تعرفت الورقة على العلبة وكيف صارتا صديقتين وتتحدث الشاعرة بعد ذلك عن الرحلة . النظر فى اعمال سليمان



إحدى أمسيات فؤاد بدوى الشعرية

العيسى للاطفال ولا أغفل بالطبع اعمال الرائد الكبير كامل الكيلانى ولا أعمال الصديق الذى أهدى مكتبة الطفل العصرية فى مصر والعالم العربى كتبه الهامة عبدالتواب يوسف .

قبل أن أضع القلم يجدر بى ان أشير الى الاثر المهم والعميق الذى حفرته قراءة معظم ما صدر فى مجموعة الالف كتاب الاولى خاصة عن الاطفال وللاطفال .

ويقى ان أقول إن السفر فى الدنيا ومشاهدة الاهتمام الذى ما بعده اهتمام بحديقة الطفل ولعبة الطفل وكتاب الطفل فى العالم شرقا وغربا كل هذا دفع العقل والقلب معا إلى أن يفكرا فى لعب دور بالنسبة لاكبادنا التى تمشى نحو المستقبل على الارض .

أنت والهلال

• المسلمون اليــوم •

● من وحى ما يحدث للمسلمين فى بورما والبوسنة والهرسك وأذربيجان ، فضلا عن فلسطين ولبنان :

أكذا تكونُ الحالُ يا أهلَ الهدَى ∴ القتــلُ فيــكم لا يُحَدُّ لهُ مَدَى ..؟

يتــآمرُ الغربُ الكـريهُ عليكمو ∴ ويُذيقـكم - بالجَهـرِ - ألوانَ الرَّدَى

هل ذاك يُرضى ربَّكم ويَسُرُّهُ ..؟ ∴ هـل ذاك يُرضى يا رجالُ محمدا ؟

كتَبَ الإلـهُ لأغلـبَنَّ فما لَكُم ∴ ما عُـدتمو إلا ضـعيفاً مُقعَـدا ..؟

كان الأبـاءُ من الجدودِ عمـالقاً ∴ سـادوا الدُّنا مَجداً وجازوا الفرقدا

واليومَ أنتم قـد تَفرّقَ أمركُم ∴ لا تملــكونَ تَجمُّعــاً وتَوَحُّـدا

ما كانَ عن ضَعفٍ لِعَزمِ جنودِنا ∴ كـلا ، فَهُم دَومـاً رجـالاتُ الفِـدا

لكن لسـوءِ قيـادةٍ قد أخفقت ∴ أن تُحسِنَ التخطيطَ ، أن تَحمى الفدا

يا أهـلَ هـذا الدين هذا يَومُكُم ∴ فلتنقِـذوا إخوانـكم ، مُدوا يـدا

لا خَيرَ فينـا إن تركنا جَمعَهُم ∴ يغـدو على أيدى الطغـاةِ مُشَرَّدا

«الله أكبرُ» كـانَ حُرَ ندائِنـا ∴ فلتَجعلـوه لنا شِـعاراً سَـرمدا

أهلُ البطولة كيفَ يَخبو بأسُهُم ∴ أهـلُ السيادةِ كيفَ صاروا أعبدا ؟

أحمد قاسم أحمد مدير تعليم سابق - قنا

• جنــازة الماركسيـة •

● على مدى سنى متابعتى لقراءة مجلتكم ، بل مجلة العرب العزيزة على قلوبنا ، تعرفت وعرفت الكثير .. واسمى ربما لا يكون لديكم من الشعراء



المعروفين ، لذلك حرصت على إرسال قصيدتي المرفقة راجيا نشرها ، تعبيرا عما يجيش في عالمنا العربي في ضوء ما حصل لقطاع من جيلنا كان مرتبطاً بنوع أو آخر من الأفكار والنظريات التي سادت عالم ما قبل البريسترويكا .. وما قبل عالم اليوم ، الجيل الذى تاه كثير منه ، وهو الآن يبحث عن طريق ، رغم أن الطريق العربى كان ولا يزال موجوداً أمامه .. له كل مقوماته الفكرية والأيدلوجية . وهذه قصيدتي بعنوان «جنازة الماركسية» :

هـدئ من روعك ياصاحبي … فلا ينفع عند المصاب الـروع

وإن يك مصابك مصابا جللاً … فلغيرك أملاً طال أن توقعوا

وإن يكن غمك أنك كنت … تبنى أحلاماً ، فرأيتها تتصدعُ

فيا طالما لفت نظرك إلى … أنها بالأحرى أوهامٌ خُدعُ

خَدعنا كلنا سرابٌ مخاتلٌ … و«الضامئ» من السهل أن «ينخدع»

كنا «ضماء» لدواء أو جاعنا … لكنها كانت من الوجع «أوجعُ»

أكادُ أجزمُ أنهم حتى حياتي … عاشوها ، فأنا لا أرى ولا أسمعُ

وليس لي عقلٌ وليس لي هوىً … وعشتُ حسبما أعطوا وما منعوا

ماذا عسى تبكي ، أما كفى أن … عشت دهراً راهباً تتقوقعُ

تتعبدُ صنماً ظننتَهُ «إلـه» … أو أنك تكابرُ فيما أثبته الواقع

مهاش علي الصالح عدن - صنعاء (اليمن)

● تعليق الهلال :

- نشكرك على حسن ظنك بنا ، وأما قصيدتك فإنها طريفة حقا في لغتها ومعانيها ، وكنا نود أن ننشرها كلها ولكننا اضطررنا إلى اجتزاء هذه الأبيات منها لأنها طويلة لا يتسع لها المجال برغم طرافتها ! .. ونوجه

التفاتك إلى أن كلمة «الضامئ» - فى البيت الخامس - خطأ ، والصواب «الظامئ» بالظاء لا بالضاد ، وكذلك كلمة «ضماء» فى البيت السادس ، وصوابها «ظماء» ولكنكم فى اليمن تنطقون الضاد ظاء ، فاختلط عليك الأمر ، كما أن أوزان أبيات القصيدة كلها «من أولها إلى آخرها» غير صحيحة ، وليس فيها شطرة واحدة صحيحة الوزن ، وإن كانت الأغلاط اللغوية والنحوية ليست كثيرة جداً .. لهذا نرجو أن تعيد النظر فى أدواتك الشعرية كلها إذا كنت تعتزم الاستمرار فى نظم الشعر .. ونكرر شكرنا لك ، ونرحب برسائلك ..

• الذكرى الثانية لوحدة اليمن •

للأرض بات القلب والمقل	∴	للحقل أضحى الحلم والأملُ
صنعاءُ يا مرسى قوافلنا	∴	هذى معانى الحب والقبل
جنتاك والأفراح تصحبنا	∴	جنتاك والأنغام تكتمل
قد أكمل العامين مولده	∴	والعزم فى أعماقه جبل
إنا هنا بالقرب مسكننا	∴	وقلوبنا بهواك تشتعل
كم حاولوا تشتيت وحدتنا	∴	كم فى سبيل شقاقنا بذلوا
كم شككوا بصحيح نيتنا	∴	لكنهم خسئوا بما فعلوا
ماذا أقول بخاطرى كلم	∴	أبقى عليها فى فمى الخجل
أترين يا صنعاء أمتنا	∴	وقد اعتلاها الخزى والوجل
أضحت تفاوض للسلام فهل	∴	يأتى السلام بما به أملوا
واشنطن جاءت لتنهبنا	∴	والمعتدون ببغيهم وصلوا
يا كعبة الثوار يا عدن	∴	حياك شعب صامد بطل

إن تمتلئ أجـواؤنا فـرحا ∴ ويفـوح مله حقـولنا جـذل

فـلأننا وطـن بمنهجـه ∴ لا يعتـريه الخـوف والـزلل

درهـم جهـاري

مواطن عربي في سان فرانسيسكو - الولايات المتحدة الأمريكية

• أغـلاط مطبعيـة •

• في قصيدة الشاعر المهجري درهم جباري المنشورة بهلال يونيو الماضي بعنوان «دمعة على الشرق» يقول بيتها الأخير :

إن كانت «الأسود» لا تحمى مواطنها

فللثعالب حق الفخر واللقب

وكلمة «الأسود» في الشطرة الأولى تكسر الوزن وصوابها «الأسْدُ» جمع «أسَد» .. وهي بضم الهمزة وسكون السين ، فلزم التنويه ..

محمـد حسين الشـاوري - أسـيوط

• تعليق الهـلال :

- أنت يا عزيزي على حق ، وهذه الكلمة صحيحة في الأصل المكتوب ، ولكنها بعد أن مرت بالجمع والتصحيح صارت «مغلوطة» ! .. وآفة الشعر الآن - في جميع الصحف - اختلاف المطبوع عن المكتوب !..

• الشـاعر الصـغير •

ولـدي «أحمـد» يكتبُ شِعراً ∴ ويـذوب هـواه مع «الكلمة»

يتـوارى مني .. ارقُبُـهُ ∴ في شـغف ، ممتشـقاً قلمه

يجـلس في لحظـة إبـداع ∴ وعـليه البهجـة مُرتسـمة

ومـلاكُ الشـعر يُعـاونُهُ ∴ «بالصـورة» تنبضُ .. بالنغمة
شـاعرنا الطفـلُ ، قصـائدُهُ ∴ «أفـكارٌ» جـاءت منسـجمة
وغـداً .. سـنراهُ لدى الإبداع ∴ يُجـاهدُ .. ويُرَسـخِ قـدمه
ويخـوض بحـور الشـعر إلى ∴ أن يرفـع فى الـدنيا عـلمه

محمدى حسن الشافعى - سامول - المحلة الكبرى

• الرافعى المفترى عليه •

● فى حديث للأديب الناقد إبراهيم فتحى بجريدة الأخبار قال إن الكاتب القصصى إدوار الخراط يرى الأدب حرفة لغوية ، وهو استمرار لمصطفى صادق الرافعى فى الأناقة والبلاغة اللغوية ، وفى تقديم زجاج ملون جميل وتماشيق وأرابيسك !..

ونحن نوافق الأديب إبراهيم فتحى على رأيه فى إدوار الخراط الذى خولط قلمه فلم يعد يعرف شماله من يمينه ، ولكننا نرفض رأى الأديب المذكور فى نابغة الأدب العربى المرحوم مصطفى صادق الرافعى الذى كان يجمع بين جمال اللغة وجمال المعانى ودقتها وعمقها ، وله فى ذلك ما يشبه المعجزات ، ولكن أعداءه افتروا عليه ، وتابعهم على افترائهم من لم يقرأوا الرافعى قراءة عميقة ، فاجتمع على ظلم هذا الكاتب الفنان الرفيع القدر ، أعداؤه والجاهلون بأدبه وفضله ، وهم كثيرون ، وبعضهم من مشاهير الأدباء !..

وإذا كان إبراهيم فتحى يقدر نجيب محفوظ حق قدره ، ويندد بمن يهاجمونه ويقول إن الأدباء العمالقة يفتحون الطريق وإن المساس بهم جريمة ، فكيف فاته أن يطبق هذه « القاعدة » على الرافعى ؟!

رمضان عبد الجواد رجب - أبو قرقاص

• الهلال فى عيده المئوى •

قرن يمر وأنت إشراق لنا	فبقيت للقراء ياكل المنى
فى عالم متغير .. متقلب	أنت الثبات على الرشاد لمن بنا
الفكر فيك ومنك عم ضياؤه	مازاغ يوماً عن سبيل أو ونى
جُرجى ، أميل ، أحمد يتلوهما	وعلى أمين . صالح .. أسُ البنا
درجاتك ازدانت بـ «كامل» زهرة	نقاش .. والراعى . رعى الله السنا
والحب مؤنسنا بنجم طالع	يا أيها الشادى اسقنا ثم اسقنا
و «النبل» من شيم الكرام سجية	عين الوفاء لمن أراد طريقنا
يابدر تم فى المعالى قد سما	يذكى مشاعرنا وينعش فكرنا
ربط الوفاق عرى المحبة بيننا	أنت الهلال تشوقنا ، وأنا أنا

أبو بكر محمد محمد حسانين

مدرس أول لغة انجليزية - أبو تشت

• الألم المفرح •

إذ قال الشاعر للصمت :



إنا أعطيناك الروح صحارى فامرح

وامنح .. أزهارا لا تذبل ،

وسماء إن نُعيت تهطل

امرح .. وافتح

أبوابا للنبع الناعم

أنهارا للألم المفرح

رمضان عبد اللطيف حامد - ترس

• مع الأصـــــدقاء •

● أحمد أبو زيد سيد أحمد - مصنع أبو تيج - أسيوط :

- لا يكفى أن تكتب اسمك وعنوانك على «الظرف» فلابد من كتابته فى رسالتك لأنها هى الأصل .. أما صديقك أحمد الشاذلى الذى حدثتنا عنه فيستطيع أن يرسل إنتاجه الأدبى إلى النقاد الذين ذكرتهم فى رسالتك ، وليس من عادتنا أن نكون نحن الوساطة بين الأدباء والنقاد عن طريق البريد ! ..

● رائل محمد سراج الدين - كفر الشيخ :

- شعرك أكثره موزون ، ولكن صياغتك ومعانيك تحتاج إلى صبر للوصول إلى الإجادة ..

● السادة الشعراء : محمد محمد نعمان .. عادل حمزة .. محمد إبراهيم .. محمد عبد العزيز عبد المجيد .. عماد رفعت السيد بكر .. السيد التحلة :

- قصائدكم تحتاج إلى مراجعة أوزانها ، وننصح بالتمكن من علمى العروض والقافية قبل الاسترسال فى نظم الشعر .

● عماد عارف الشيمى - سوهاج :

- أقصوصتك مكتوبة باللهجة العامية .. لماذا لا تكتب باللغة الفصيحة المقروءة ؟ !

● محروس همس - عين شمس الشرقية :

- زجلك العامى جميل المعانى والمبانى ، ولكننا متخصصون فى نشر الشعر العربى فقط لأنه الشعر القومى لجميع الشعوب العربية ، فنعتذر إليك من عدم نشر زجلك ، وتستطيع إرساله إلى إحدى الصحف التى تنشر الأزجـــال ..

الكلمة الأخيرة



الوحدة الوطنية والتعليم

بقلم : د. عبد العظيم أنيس

فى هذا الزمن الرمادى الردئ ، زمن الفتنة الطائفية والقتل على الهوية فى قرى صعيد مصر واغتيال خصوم الفكر فى عز النهار فى شوارع القاهرة ، يبحث عقلاء هذه الأمة عن الأساليب والحوافز التى تدعم الوحدة الوطنية وتحصن أبناء مصر ضد جرثومة النزاع الطائفى وتوظيف الدين سياسيا بشكل سلبى كما هو حاصل فى طول مصر وعرضها فى السنوات العشرين الأخيرة .

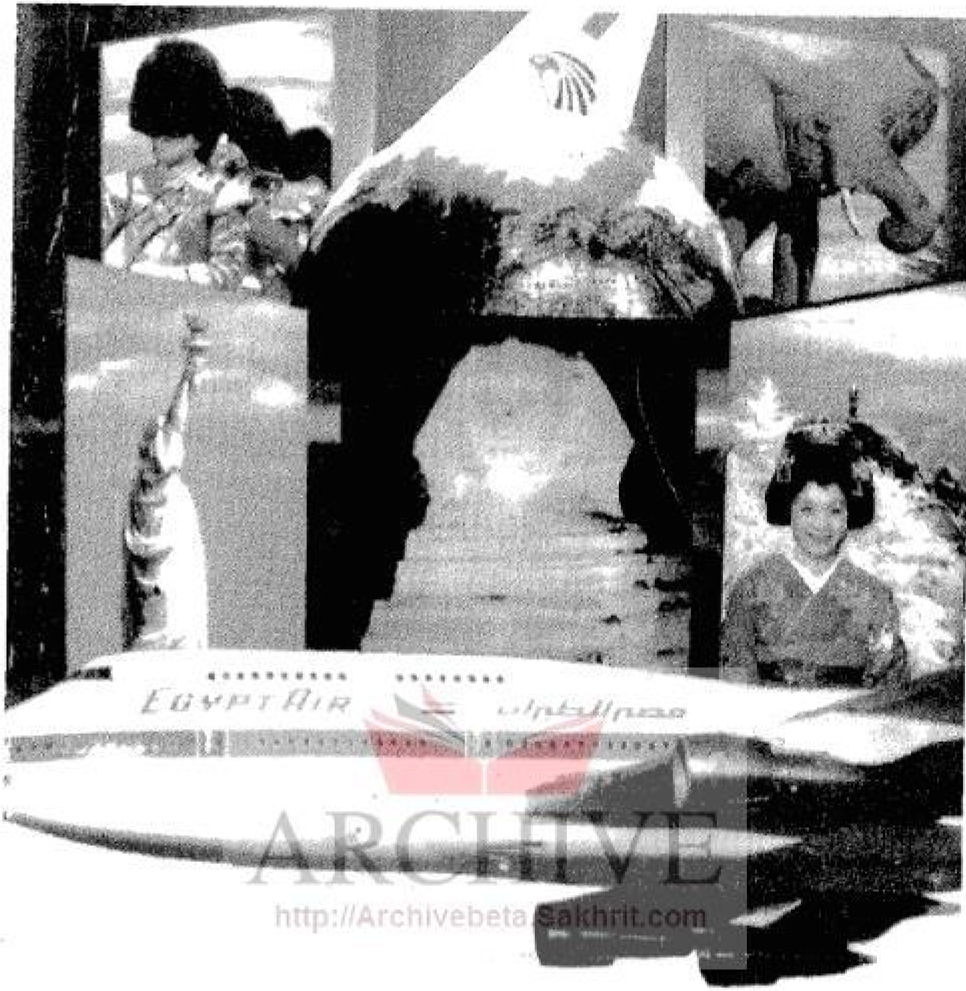
وضمن هذا البحث عن الأساليب والحوافز ينبه الكثيرون إلى دور الإعلام من صحافة وتليفزيون وإذاعة فى دعم الوحدة الوطنية إذا خططت برامجه بعناية ، وإلى النتائج السلبية لبعض هذه البرامج ، خصوصا البرامج الدينية ، فى بذر بذور التفرقة الطائفية وإضعاف الوحدة الوطنية ، وكل هذا صحيح وجميل وإن كان يتعلق باللحظة الراهنة ، أو إذا جاز التعبير بالجانب «التكتيكى» من مشروع دعم الوحدة الوطنية .

غير أننا لا نلتفت إلى جانب هام ذى أثر «استراتيجى» عظيم الأهمية فى دعم الوحدة الوطنية ، ألا وهو توحيد التعليم فى مرحلة «التعليم الأساسى» من السادسة إلى الخامسة عشرة . فهذا التوحيد فى المناهج والكتب .. إلخ كان العنصر الأساسى فى دعم الوحدة الوطنية لكثير من الدول المتحضرة التى حققت تقدما كبيرا فى ظل التنمية الرأسمالية ، رغم أن شعوب هذه الدول أتت من أصول مختلفة فى زمن حديث نسبيا . وبعد مرحلة التعليم الأساسى - حيث يتم التركيز على اللغة القومية والحساب والتربية الوطنية والبيئة المحلية - يجرى التفريع .. إلى تعليم مدنى أو دينى ، إلى تعليم ثانوى عام يؤهل للجامعة أو إلى تعليم مهنى يؤهل للعمل .. إلخ . أما أن يبدأ الطفل وهو فى سن الحضانة فى مدارس التعليم الدينى فهو خطر عظيم على وحدة الأمة .

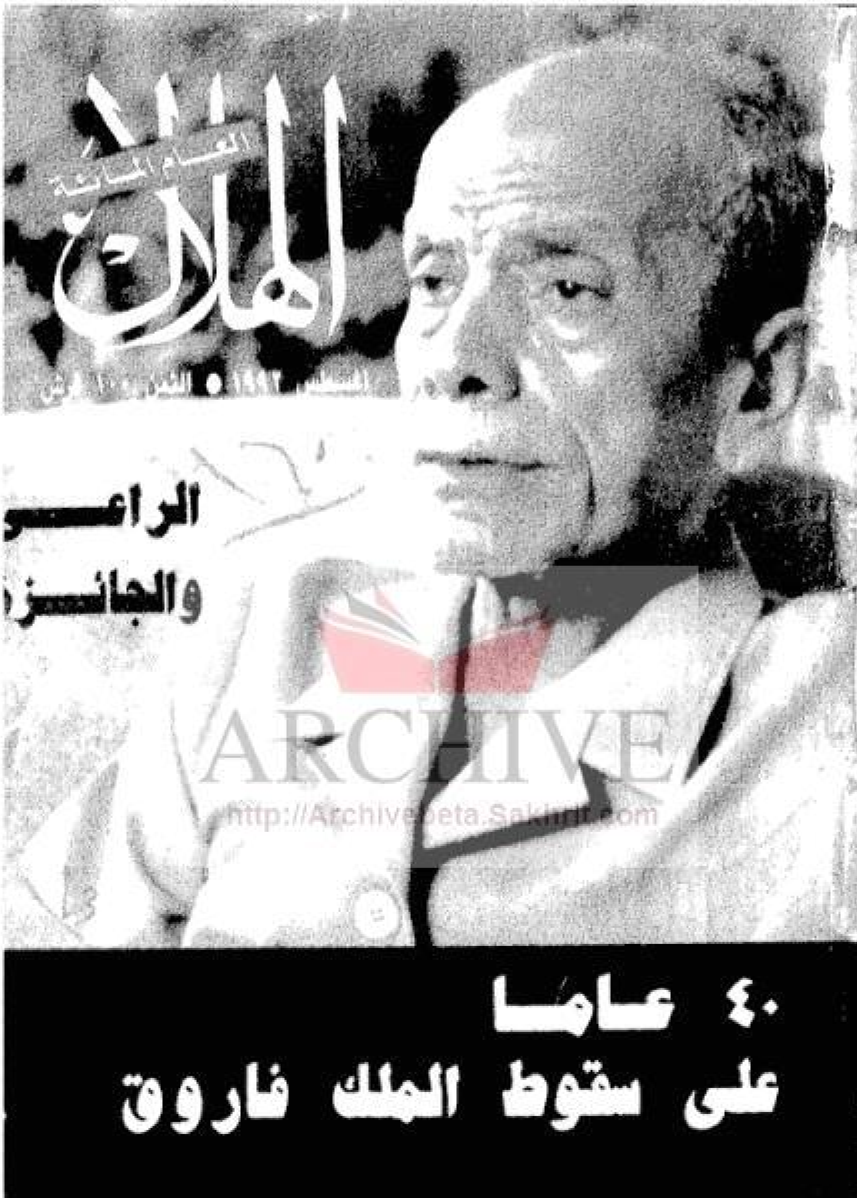
كان نابليون يقول إن الوحدة الوطنية للشعب الفرنسى تتحقق من خلال المدرسة والجيش ، وحبذا لو تعلمنا درسا من هذه الحكمة .

إن الدعوة إلى توحيد التعليم فى المراحل الأولى ليست جديدة ، فطه حسين هو صاحب هذه الدعوة فى كتابه (مستقبل الثقافة فى مصر) ، ومنذ أن صدر هذا الكتاب حتى اليوم يؤسفنى أن أقول إننا خطونا بضع خطوات فى الاتجاه العكسى ، وأن عودة المصروفات فى التعليم هى أيضا عنصر فى إضعاف الوحدة الوطنية .


المنظف الصناعى
نيون ...٢٠٠٠
ذو الرغوة الوفيرة
والرائحة الذكية
إنتاج:



EGYPTAIR
مصر للطيران


الهلال
العام المائة
الراعى
والجائز
٤٠ عاما
على سقوط الملك فاروق


سانتو ٢٠٠٠
مسحوق معطر لغسل
وتطهير لجميع
أنواع الغسيل
سانتو
٢٠٠٠
انتاج
شركة الاسكندرية للزيوت والصابون

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال

أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

عبد الحميد حمروش نائب رئيس مجلس الإدارة

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) . المكاتبات : ص . ب ٦١٠ - العتبة - الرقم البريدي : ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج . م . ع . مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨١ تلكس : 92703 Hilal un تلكس : FAX : 3625469

مصطفى نبيل رئيس التحرير

محمد أبو طالب المستشار الفنى

عاطف مصطفى مدير التحرير

محمود الشيخ المشرف الفني

عيسى ديـاب سكرتير التحرير التنفيذى

ثمن النسخة : سوريا ٥٠ ليرة ، لبنان ٢١٠٠ ليرة ، الأردن ١٠٠٠ فلس ، الكويت ٧٥٠ فلسا ، السعودية ٨ ريالات ، الجمهورية اليمنية ٢٥ ريالا ، تونس ٥٠٠ ، ١ دينار ، المغرب ١٥ درهما ، البحرين ٨٠٠ فلس ، قطر ٨ ريالات ، مسقط ٨٠٠ بيسة ، غزة والقدس والضفة ٨٠ سنتا ، إيطاليا ٢٧٠٠ ليرة ، اليمن ١٢٥ بنسا ، نيويورك ٤ دولارات ، الإمارات العربية المتحدة ٨ دراهم ، الجماهيرية الليبية العظمى ١ دينار ، السودان ٥ ج . س .

الاشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى ١٢ جنيها في ج . م . ع . تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ١٦ دولارا - أمريكا وأوربا وآسيا وأفريقيا ٢٥ دولارا - باقى دول العالم ٣٠ دولارا والقيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال . ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد

فكر وثقافة :

٨ د . شكرى عياد

على الراعى والرواية العربية .



١٦ د . على الراعى

يابنات إسكندرية وادوارد الخراط .

٢٢ عبد الرحمن شاكر

مشاكل الأرض بين قمتين .

٢٧ د . جلال أمين

خمسة قرون من فكر التنمية .

٣٤ د . محمد عمارة

البديل الإسلامى للمعرفة المادية .

٥٨ د . سيد كريم

امنحوتب والموسيقى

٦٤ جلال السيد

٤٠ عاما على سقوط الملكية .

٧٦ د . محمد حسن

أم البلاد وغوث العباد

٨٦ د . محمد شرابى

القاهرة وتقمة التحديث .

٩٢ عبده جبير

مصر أم الدنيا

عمل إبداعى جميل

٩٦ د . على بركات

أمين سامى وتقويم النيل

١٠٦ ماجدة الجندى

النيل رحلة إلى روح وأرض مصر

١١٤ د . المسيرى

هل هناك فن يهودى ؟

١٣٤ د . محمد الدسوقى

لماذا امتنعت قرينة طه حسين عن تعلم اللغة العربية ؟

١٤٠ د . سيد النساج

القصة القصيرة من الستينات إلى التسعينات .

١٤٨ د . محمود الطناحى

التصحيح اللغوى وضرورة التحرى .

١٦٤ محمود قاسم

الناس والقراءة فى الصيف .

دائرة الحوار :

٤٢ د . شبل بدران

الجامعة الأهلية بين تكافؤ الفرص وإصلاح التعليم

٥١ د . إبراهيم عوضين

حول احتفال الغرب فى علم الاستغراب .

قصة وشعر

٦٣ أنس داود

قبيل الرحيل (شعر) .

١٥٦ سليم الرافعى

رسالة (شعر)

١٢٦ الجداوى

دموع الفستق (قصة من الحياة)



فنون

١٥٨ مصطفى درويش

مهمة فى تل أبيب وأخرى فى الخليج .

د . على الراعى

الدكتور على الراعى والذى كرمته الدولة أخيرا ومنحته جائزة الدولة التقديرية فى الآداب ، يعد من أبرز النقاد المعاصرين الذين تميزوا بالحس الوجدانى والشفافية فى كل ما يقدمه للقارئ وهو أحد الذين تولوا رئاسة تحرير الهلال فى أوائل السبعينيات وكان يحلم بتقديم فكر مبدع متميز من خلال « الهلال » . حياته رحلة رائعة منذ تخرج فى كلية الآداب جامعة فؤاد الأول عام ١٩٤٣ وحصل على درجة الدكتوراة من جامعة برمنجهام عن الكاتب المسرحى برنارد شو .

ويعتبر د . على الراعى مؤسس المسرح المصرى المعاصر بأجمل ما فيه وأفضل فترات ازدهاره حينما تولى مؤسسة المسرح .

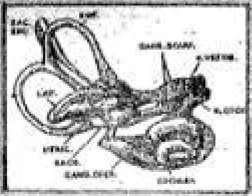
اعتمد كاتبنا وناقدنا الكبير على حلمه وثقافته ، وتنوع مواهبه ، ولم يعتمد على شئ آخر ، وكانت ومازالت خبرته العلمية والأدبية والمسرحية موضع التقدير .

ومازال عطاء الرجل بلا حدود وهو يفكر الآن فى إصدار كتاب يتضمن تجاربه فى عالم المسرح ليضاف إلى كتبه الهامة التى ألفها طوال حياته وكان آخرها الرواية فى الوطن العربى .. وتهنئة خاصة لأستاذنا الكبير الذى يعمل ويعطى للثقافة بلا حدود .

المحـــرر

علوم

١٧٤ د . بهائى السكرى
الأذن الداخلية والتوازن الدقيق



الأبواب الثابتة

٦ عـــزيزى القـــارئ
١٥ أقــوال معــاصرة
١٧٠ العالم فى سطور
١٧٨ التـــــكوين
١٨٦ أنت والهـــلال



١٩٤ الكلمة الأخيرة
محمود أحمد

عزيزى القارىء

اللقاء مع شهر الأمبراطور أغسطس

بين شهرى يوليو وأغسطس – تموز وآب – منافسة قديمة ترجع إلى أكثر من ألفى سنة ، فقد كان عدد أيام أغسطس ثلاثين يوما فقط ، وكان عدد أيام يوليو واحداً وثلاثين يوماً ، فغضب الإمبراطور الرومانى أغسطس الذى حكم الرومان من عام ٢٧ قبل الميلاد إلى عام ١٤ بعد الميلاد ، وقال الامبراطور الغاضب لرجال دولته : كيف يكون شهر يوليو المسمى باسم يوليوس قيصر واحداً وثلاثين يوما ، ويكون شهرى أنا – شهر أغسطس – ثلاثين يوما لاغير ؟!.

وعلى الفور تغيرت أرقام الأيام فى شهور السنة وصار أغسطس واحداً وثلاثين يوما مثل يوليو تماما !.

ومنذ ذلك العهد صار أغسطس توأماً ليوليو ، كأنهما خرجا من بطن أم واحدة ، وإنهما لكذلك ، فهما إبنان توأمان لموسم الاصطياف كل عام ، بحيث لايمكن فصل أحدهما عن الآخر ، ولايمكن أن يبدأ التصييف الحقيقى إلا ببداية يوليو ، ولاينتهى إلا بنهاية أغسطس ..

وفى يوليو كان لنا – ياعزيزى القارىء – لقاء على النسمات الأولى المنبعثة من البحر معلنة بداية موسم التصييف أو الاصطياف وهانحن أولاء فى أغسطس نلتقى وقد اشتد هبوب النسيم من البحر ، داعيا الجميع إلى

اللقاء السنوى مع الصيف على الشاطىء ، يستروحون العطر الندى الهائم فوق السحائب الزرقاء والبيضاء فى السماء الراقدة على صدر البحر فى الأفق البعيد ! ..

إن أغسطس هو الربيع الأزرق - كما سماه بعض كبار الأدباء - لأن البحر فى هذا الشهر يبعث من زرقة مائه ربيعاً مطلولا بالأنداء كأنه فى بهائه وصفائه الربيع الأخضر الذى ينبعث من خضرة الحقول حين ترتوى من رحيق الحياة فى أبريل ومايو، أو نيسان وأيار ..

عزيزى القارىء

يُطلق على أغسطس باللغة السريانية القديمة وهى من أخوات اللغة العربية ، شهر «آب» ومعناه نضج الفاكهة والثمر ، ويقابله فى الشهور المصرية القديمة التى يحفظ الفلاحون المصريون أسماءها إلى اليوم كما يحفظون أسماء آبائهم وأمهاتهم وأولادهم .. يقابله شهر «مسرى» وهو الشهر الذى يرث الحرارة والصهد من شهر «أبيب» .. ويتلقى أول نفحات الخريف من شهر «أيلول» .

هكذا الحياة ، تتواصل وتتشابك شهرا بشهر ، ولا انقطاع لها .. وتتصاعد وتتطور ، أو تتبعثر وتتدهور ، وتواجه الحياة أبناءها الأحياء بقوانينها الراسخة ، ويواجهونها بعملهم الدائم وكفاحهم الذى لاينقضى ! ..

عزيزى القارىء

ليست الأسطر القلائل السابقة جنوحا إلى «الفلسفة» ولكنها إيماءة من كثب ، وتحية من قريب إليك وإلى كل قارىء عربى يصل «الهلال» فى أيامه «المتوية» بينما نحن العاملين فى الهلال نقضى أغسطس كما قضينا يوليو نعد العدة للتلاقى إن شاء الله ! .

« المحرر »

القفز
على الأشواك

بقلم : د . شكرى محمد عياد

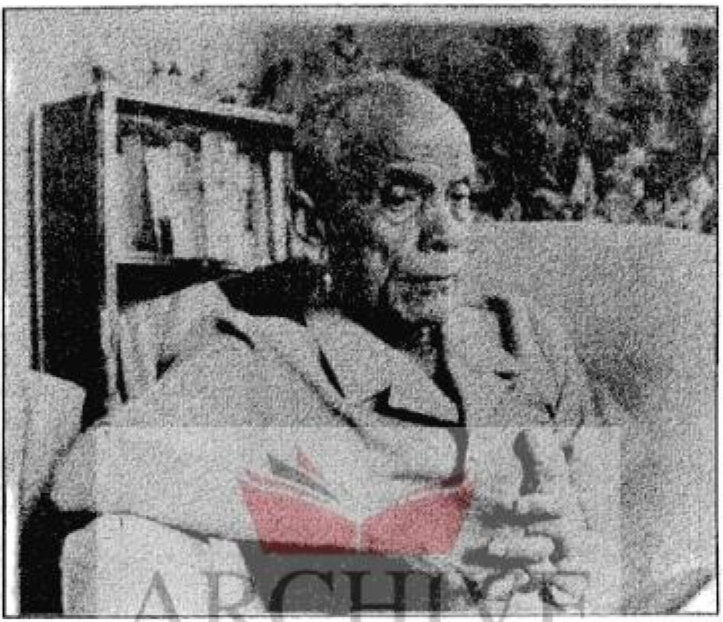
على الراعي

والرواية العربيـــة

تاهت جائزة الدولة التقديرية سنين كثيرة قبل أن تهتـــدى إلى مكان على الراعى ! وجـــائزة الدولة التقديرية حدث سنوى مهم يجب أن يشغل الرأى العام العلمى والفنى والأدبى وأن تستغله أجهزة الإعلام لنشر الثقافة الرفيعة بين جماهيرنا، ولكن يبدو أن الترشيح للجائزة ومنحها والاحتفال بها ، كل ذلك أصبح يخضع لما تخضع له سائر شئون حياتنا من عشوائية غابت فيها المعايير .

على الراعي ناقد من طراز فريد في وقتنا هذا ، وإن يكن هو الطراز العظيم الذى يسود الساحة الأدبية فى كل عصر غنى بالإبداع وفى كل أدب حى . طراز سنت بيف وهازلت وهنرى بورنو وادموند ولسن وبريستلى ومورجان . وهو أيضا طراز العقاد والمازنى وطه حسين ومحمد مندور ومارون عبود . كل هؤلاء كانوا فنانين بالسليقة ، ومعظمهم مارسوا فنون القصص أو المسرح أو الشعر أو جمعوا بينها جميعا وبين النقد ، وإذا كان النقد قد استأثر بعلى الراعى ، فقد كان فى نقده فنانا ، وهذا أحدث كتبه « الرواية العربية » (١٩٩١) لو أطلقنا عليه اسم « رواية الرواية العربية » لما عدونا الحقيقة .

المقالة النقدية نوع من أنواع المقالة



الفنية . والمقالة الفنية عمل إبداعي يأسر القارىء بإحكام بنائه ولطف مدخله وبراعة أسلوبه ولكن من سوء حظ المقالة النقدية أن سيطر عليها في الآونة الأخيرة اتجاهان غريبان عن الفن : الإيديولوجية من ناحية والأكاديمية من ناحية أخرى ، وعلى الراعي أكاديمي ودكتور وأستاذ وهو كذلك متعمق في فهم الماركسية ولكنه أديب

وفنان قبل أن يكون أكاديميا أو ماركسيا ، ولأنه غير بعيد عن الأكاديمية والماركسية فهو أقدر الناس على أن ينقذ المقالة النقدية منهما ، أو على الأصح من سوء استخدامهما . إنه يأبى أن يخضع العمل الفني للتصنيفات الأكاديمية أو ينكته ليخرج مضمونه الطبقي ، فهو أعلم بطبيعة الفن وأرهف ذوقاً من أن يصنع

هذا أو ذاك . إنه يتعامل مع كائن شديد التركيب ، ذابت فى داخله المضامين الطبقية وتآلفت الأساليب الفنية وانصهرت كلها فى مزاج الكاتب واتحدت مع مشاعره الإنسانية ورؤيته الكونية حتى خرج هذا « الكائن » متميزاً عن كل كائن آخر من جنسه . وعلى الراعى يعرف كائناته جميعا معرفة حميمة ، ولذلك يستطيع أن يتحدث عن تركيب كل منها كما يتحدث عن تركيب كائن حى ، لا عن أجزاء آلة . والمعرفة الحقيقية لا تكون إلا عن طريق الحب . حتى عالم الحشرات يحب حشراته ويمكن أن يصفها بالجمال ، ولعلها جميلة فعلاً ، ولكننا لا نستطيع أن ندرك جمالها إلا إذا كان لدينا مثل علمه غير أننا يمكن أن نشترك جميعا فى إدراك جمال الرواية ، لأنها تحدثنا عن كائنات نعرفها جيدا ، أو يخيل إلينا أننا نعرفها ، وهى أنفسنا . ونحن نحبها أكثر حين يكشف لنا عقل ذكى ونفس حساسة عن مدى قربها منا ، لأنه استطاع أن يقترب منها أكثر مما نستطيع ذلك ، ولأنه حدثنا عن تجربته معها حديث إنسان لإنسان ، لا حديث أستاذ لتلميذ .

لقد كان من المغالطات التى أقدم عليها بعض الأكاديميين ، وتلقاها عنهم تلاميذهم وحاولوا ترويجها بين الناس ، وصفهم المقالة النقدية (الفنية) بأنها نقد انطباعى، وموضع المغالطة أن « الانطباعية » لا تعد عيباً أو نقصا فى التصوير أو القصص أو الشعر ، فلماذا تعد مأخذا – بل سبة – فى النقد ؟ ولكن هؤلاء النقاد الأكاديميين زعموا أنهم يهدوننا نقداً « علميا » ، ولكن كيف يكون النقد « علميا»؟ هل نملك «قوانين» ثابتة نستطيع أن نطبقها على كل عمل أدبي ؟ وإذا كان لكل عمل أدبى تفرده الخاص ، أى قانونه الخاص فهل يمكننا أن نقدم وصفا «علميا» لهذا العمل إلا إذا اقتربنا من خصوصيته ؟ وهل يمكننا الاقتراب من هذه الخصوصية إلا بطريق « انطباعى » ، أو – بعبارة أدق – إلا إذا تلقيناه كشئ جديد ، متلمسين طريقنا إليه باستخدام جميع حواسنا ومداركنا ؟ هذه الطريقة فى المعرفة هى نفس الطريقة التى يسلكها المصور أو الروائى فى التعامل مع موضوعاته ، وسواء سمينا هذا التعامل « معرفة » فى حالة المصور أو الروائى أم بحثنا له عن اسم آخر ، فإنه فى حالة الناقد « معرفة » بدون أدنى شك ، ومن ثم فإن العمل الذى يقوم به عمل علمى ، وعمل فنى أيضا ، وعلى عكس ما يزعمه أولئك الأكاديميون من أن «الانطباعية» فى النقد تناقض « العلمية » ، فإننا نقول إن الانطباعية هى السبيل الوحيد العلمية الصحيحة فى النقد.

ولكن المقالة النقدية لا يكتمل لها جمالها الفنى إلا إذا استطاع الناقد أن يصور لنا « انطباعه » تصويراً دقيقاً



العقاد



المازني

وأميناً وأعني بذلك أن يكون « تكنيك » المقالة النقدية مناسباً للتجربة التي يمر بها الناقد في اكتشاف العمل الأدبي . وقد تختلف التجربة من عمل إلى عمل ، بل لابد أن يقع مثل هذا الاختلاف . وقد يختلف التكنيك من ناقد إلى ناقد ، ولابد أن يقع مثل هذا الاختلاف .

ولعلي الراعي تكنيك يبدو للناظر المتعجل شديد البساطة ، ولكنها عند التأمل بساطة الفن المكتمل ، التي لا تصدر إلا عن « حرفية » متمكنة .

يتوهم القارئ المتعجل أن علي الراعي « يعرّفه » بالرواية ، لا أكثر ، أي أنه يقدم له ملخصا لما يسمى « حبكة » الرواية ، مع وصف مختصر للشخصيات المهمة ، وربما أضاف جملة أو جملتين فيهما حكم نقدي على قيمة الرواية ، وكأنه لا يريد بهذه الإضافة أكثر من أداء مهمة لابد منها ، رغم علمه بأنها قد تكون ثقيلة على قارئه ، وربما على كاتب الرواية أيضا .

ولكن حقيقة ما يفعله علي الراعي مختلفة عن ذلك كل الاختلاف .

يتحدد الخط الرئيسي للمقالة النقدية - أو محور حركتها إن شئت - ككل عمل إبداعي بنقطة البداية . وكما أن كاتب الرواية لا يلزم أن يبدأ روايته من بداية الأحداث - بل قلما يفعل ذلك - فكذلك علي الراعي لا يبدأ مقالته من بداية الرواية . بدايته دائما نقطة متميزة كاشفة في الرواية ، قد تكون مشهداً أو جملة من حوار ، تبرز في ثنايا القراءة ويمكن أن تبقى متشبثة في خيال القارئ لأنها توحي أكثر من غيرها بكينونة الرواية : بالرواية كلها كنسيج وبناء و« معنى » كلي كامن في أعماقها . ومن هذه النقطة المضيئة يتقدم الناقد بسرعة ورشاقة نحو ما ينبغي أن تسميه بؤرة الرواية : نحو نقطة المركز التي تلتقي عندها كل الخطوط ، كما يمكنك أن تقف في الميدان الرئيسي في وسط المدينة فتتعرف أو تصف لغيرك اتجاهات الشوارع المهمة التي تبدأ من الميدان والأحياء التي يمر بها وتلك التي ينتهي إليها كل شارع . هكذا تصبح المدينة « مفهومة » لا لمن يزورها لأول مرة فقط ، بل ربما لمن عاش فيها طوال عمره أيضا ، ولكن دون أن يراها على هذه الصورة .

ربما بدا هذا الوصف « جغرافيا » أكثر مما ينبغي ، وهو كذلك فعلاً ، ولذلك ينبغي أن أبتعد عن أسلوب التشبيه لأصف لك بطريقة مباشرة ما يصنعه الناقد علي الراعي حين يصل بك إلى هذه البؤرة أو النقطة المركزية . إنه يجعلك تعيشها كما

عاشها هو . تعرف روحها كما تعرف جسمها . لا تهمّ التفاصيل ، تكفى منها تلك السمات أو الملامح التى تشف عن الروح ، هذه السمات أو الملامح هى أصابع المبدع على جسم الرواية ، يتحدث عنها الناقد بلغة اصطلاحية تجمعت من تجارب المبدعين فى مختلف أنماط الإبداع وعصوره ، ولكن الناقد الذى عايش العمل وأحبه يجعلها لغة شفافة لأنها لا « تعرّف » أو « تصنّف » فقط ولكنها تصف لك كيف تخلّق العمل على هذه الصورة الجميلة . وأخيراً يأتى « الحكم » النقدى : كلمات قليلة يحدد الناقد مكان « هذه » الرواية بالذات فى عالم الرواية الفسيح . وعندى أن القارىء لم يكن بحاجة إلى هذا الحكم ، فقد عرفه بصورة تلقائية من ثنايا المقال ، ولم يعد أمامه إلا أن « ينزل إلى البحر » ، يسبح وحده فى العالم الذى وصفه له الناقد .

فقراءة « نقد » لرواية ما ، تجربة مختلفة عن قراءة الرواية نفسها . إنك فى النقد تبحث عن « معنى » الرواية ، ولكنك فى الرواية تعيشها . فكتابة الرواية أو قراءتها ليس لها من مبرر سوى عشق الحياة . وإذا لم يجد الكاتب نفسه غارقا حتى أذنيه فى حياة شخصياته فليس له أن يفكر فى كتابة رواية ، وإذا لم يجد القارىء نفسه مفتوناً بحياة شخصيات الرواية فلا داعى لأن يعذب نفسه بقراءتها . وقد يوجد قارىء لا يهمه النقد ولا يحب أن يقرأه إنه يريد فقط أن يعيش حياة أبطال الرواية ، هذا هو القارىء الذى يقال عنه إن الروايات أفسدت مخه ، وأبعدته عن الحياة الحقيقية . وقد يوجد قارىء النقد لا يصبر على قراءة رواية . هذا غالباً قارىء متزمت ، يرى الخيال ضرباً من العبث ، ويجب أن يفهم الحياة أكثر من أن يعيشها . ولكن نقد على الراعى لون خاص من النقد ، يعطى - حتى لهذا القارئ المتزمت - جرعة طيبة من الحياة ! فلا تزال « الرواية » نفسها موجودة فى نقد على الراعى ، ولذلك يمكننا أن نقول إنها تصبح روايته هو ، حقيقة لا مجازا . فمن المسلم به أن القصة الواحدة ، بشخصياتها الرئيسية ، يمكن أن يتداولها مؤلفون كثر ، ويكون كل واحد منهم « مؤلفها » بفضل الصورة التى يعرضها بها . وعلى الراعى فنه الخاص فى رواية الرواية ، وإن كان فناً مرتكزاً على استخلاص « المعنى » من الحياة ، كما هو شأن النقد . ولذلك نجده يختلف مع المؤلف الأصلى أحيانا حول بناء الرواية ، فقد أصبح فى الحقيقة مالكا لها ، وأصبح من حقه أن يتصرف فيها ، لا بمنطق الناقد التقليدى الذى يطبق القواعد ، ومن ثم يمكنه أن يلفت الروائى إلى « خطأ » ، بل بمنظور المبدع الجديد ، الذى يعيد - فى الواقع - صياغة الرواية .

هل تريد بعض الأمثلة ؟ ما أكثرها !

ولكنني سأكتفي بواحد أو اثنين .

فى مقاله عن « الطوق والأسورة » ليحيى الطاهر عبد الله ، يبدأ على الراعى ، كعادته ، بنقطة مضيئة : فهيمة بطلة الرواية تناجي عريسها المقبل ، ولكنها فى الحقيقة تتشوق إلى أخيها الغائب مصطفى ، صورته لم تبرح خيالها ، وذكرياتها معه مفعمة بعشق خفى مكبوت . وتنضم إلى هذه النقطة نقطة أخرى فى الرواية ، فتتسع الدائرة . إنها متجهة إلى المعبد القديم سعيا إلى الإخصاب ، تسائل نفسها وهى تنظر إلى الكباش التى كانت بشراً فى القديم فسخطها الله : كيف يتزوج الأخ من أخته ؟

« ولما عادت من المعبد ، بعد أن جرى لها ما جرى ، رقدت على سرير أبيها الميت ، مريضة بالحمى ، وأخذت تشتهى الأشياء الحلوة النوم الطويل المقبل ، والبلح الرطب وجعلت تشم رائحة عرق مصطفى ، والبول على التراب الجاف ورائحة الجميز الأخضر العطن وتقول : أشتهيه : أنت أخى وأنا بنت الأم والأب ، هات حضنتى ... خذنى .. تعال » .

هل لاحظت أن على الراعى عندما يعطينا هذه البقعة المضيئة الثانية يصطنع أيضا حيل الروائيين فيلغز حول المعبد القديم وما جرى لفهيمة فيه ، ويعطينا ، من خلال هذيان الشابة المحمومة ، حقيقة قديمة وهى موت الأب ، وخطراً مهدداً وهو الشهوة المحرمة؟



طه حسين



محمد مندور

ولكننا أصبحنا مهيئين الآن للانتقال إلى بورة الرواية :

فهيمة عذراء مسلمة فى رواية فرعونية القرار ، تمتزج فيها أحداث الماضى وشخصياته وأعرافه الوثنية بدين الحاضر وقرآنه وكرامات أوليائه والمزاج عضوى يذوب فيه كل شئ فى كل شئ . الماضى السحيق تطوه طبقات التاريخ المختلفة وتكون وحدة عضوية متماسكة تماسك صخور الجيولوجيا » .

ومن بورة المركز يمكن أن تلقى الأضواء على تفاصيل بارزة وعميقة الدلالة ، تقوم منها صورة شديدة التكثيف لأحداث القصة وشخصياتها وجوها أيضاً ومن بين هذه التفاصيل خاتمة الرواية ، التى لا تقدم كحلقة أخيرة فى سلسلة من الأحداث المرتبة زمنيا ، بل كواحدة من التفاصيل التى تعرفنا بجسم الرواية ، حسب المنطق الخاص بالمقالة ، الذى يضم أجزاء المعنى بعضها إلى بعض ، وفقا لما يتطلبه المعنى نفسه .

لقد انهار مصطفى كما ينهار بطل

تراجيديا إغريقية ، وهاهو ذا يحمل مشلولا إلى داره ، حيث لم يبق إلا أمه العجوز ولا يبقى أمام المؤلف إلا أن يسدل الستار على هذه المأساة المروعة ، على وقع الكلمات الجنائزية التالية :

الدمع جف فى العينين ، وها أنت يا حزينة بعد مرور الزمان مع الإبن المقعد داخل المكان . رحل الزوج ورحلت البنت وهلكت بنت البنت ، وحولك المشفقون والحدأة الشامتة . ولا ضوء ولا نار بموقد ، وما الحاجة للنار والموقد ؟

كلمات تصلح تماما لإنشاد الكورس فى مسرحية إغريقية . لقد دار الزمن دورة كاملة وعادت حزينة تعيش مع رجل آخر مقعد » .

ويسجل الناقد للكاتب الروائى أنه استطاع من خلال حبه لأهله وناسه أن يصور مأثوراتهم الشعبية وخيالهم الأسطورى تصويراً دقيقاً ولكنه يضيف انتقادا لما يعده إضافات مقحمة أو نتوءات لا علاقة لها بجسم الرواية ، وهى تلك الإشارات إلى بعض أحداث التاريخ المعاصر : الحرب العالمية الثانية ، ومأساة اغتصاب فلسطين ، وكفاح المناضلين المصريين ضد الإنجليز فى القناة ، وأحداث إلغاء المعاهدة .

وقد يدافع ناقد آخر عن هذه الإضافات ، باعتبارها إطارا زمنياً معاصرا يؤكد - بدلا من أن ينقد - الجو الأسطورى الذى يسيطر على الرواية ولكن المهم أن هذا التصور لا مكان له فى الرواية التى يعيد الناقد خلقها . ومثل ذلك يمكن أن يلاحظ فى مقالته عن رواية فتحى غانم « حكاية تو » . لقد وضع أيدينا - من خلال عدد من النقط المضيئة - على الفكرة المحورية فى الرواية ، وهى « مسئولية الكاتب الذى يخاف السجن والتعذيب ويدفعه خوفه إلى أحضان الشلل » فلا يبقى أمامه إلا أن يدفع الشاب « تو » إلى قتل مدير السجن « زهدى » الذى تولى تعذيب أبيه حتى الموت - أو هذا ما يقنع نفسه بأنه قد قام به فعلا . وفى خلال ذلك « يستمع الكاتب إلى آراء عديد من الناس فى الاشتراكية والتأميم والفلسفة الجدلية والعنف المصاحب للثورات ، وهى آراء يجدها الناقد منفصلة عن جسم الرواية ، لأنها لا تقدم حلا لمشكلة الكاتب » .

ولكن « رواية الرواية العربية » التى يكتبها على الراعى ليست هى هذه الفصول التى يعيد فيها « تأليف » روايات كتبها غيره (أكثر من ثمانين رواية) بل هى الكتاب فى مجموعه ، الكتاب الذى يعرض محنة الإنسان العربى من المحيط إلى الخليج ، وأمله فى غد أكثر إشراقا .

تحية للصديق الناقد العظيم الدكتور على الراعى ، الذى خدعنى طويلا بتحفظه الظاهرى ، فرأيت فى نقده - رغم إعجابى به - الجانب العلمى ، والجانب الإيديولوجى ، وكاد يغيب عنى أجمل ما فيه : الإنسان الفنان .

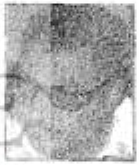
أقوال معاصرة

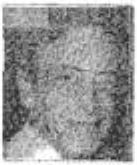


محمد الغزالي



رشيد ميموني





جميل راتب

★« الارهاب محكوم عليه بالفشل لأن للعقلاء رصيدا كبيرا فى امتنا »

الشيخ محمد الغزالى

★« عدو المتطرفين الأول هو الثقافة والمثقفون »

الكاتب الجزائرى رشيد ميمونى

★« الحضارة الانسانية تحتضر أمام العالم المتحضر »

الشيخ صالح أحمد جولا كوفيتش

رئيس المشيخة الاسلامية بالبوسنة والهرسك

★« الارتفاع بالمستوى الحضارى للانسان يتمثل فى عدم تلوث المياه والهواء »

الدكتور مصطفى كمال طلبه

المدير التنفيذى لبرنامج الأمم المتحدة للبيئة

★« الإنسان لا يستطيع أن يعرف نفسه إلا من خلال تاريخه »

المؤرخ الأمريكى فيلهلم ديلثى

★« نبذ رؤية الآخرين وعلومهم بمجرد أن تقول لهم « كلبتم » ظلامية جديدة »

المستشرق الفرنسى جاك بيرك

★« مسرحنا يتحول إلى كباريه ويموت »

الممثل جميل راتب

★« التجربة الشعرية لن تموت ، مادام هناك عطش كيانى لا يرتوى »

الشاعر اللبنانى فؤاد رفقة

★« الفرق بين الأفلام والقصص ، أنما يكمن فى التأثير الداهم للوهم فى التصوير الفوتوغرافى »

ريتشارد سلوتكين

الاستاذ بجامعة ويزليان بالولايات المتحدة

★« عندنا اصولية من نوع خطير تهدف إلى خلق مجتمع معلّب »

المنجى بوسنينة

وزير الثقافة التونسى

يا بنات إسكندرية

وادوار الخراط وترانيم طويلة فى معبد الجسد !

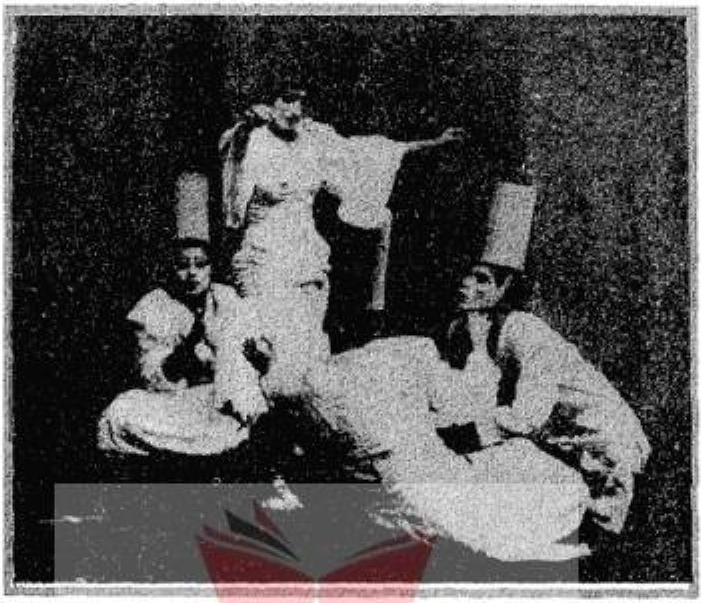
د . على الراعى

قال لنفسه وهو يحاورها : العودة هَوَسٌ مقيم ، وما من عودة ابداً .

وقال : التفجع سهل ومبتذل . ولكن الفاجعة ليست كذلك .

الفاجعة هى أن « الآن » عنده حدث مُنقض ، والذى مات دائم القيام .

عاشق متيم هو من عشاق الفرسان القدامى ، نعيمه المتيم أن يتعم بعذاب من لا يرحمه ولا يتركه . توقه الدائم إلى « الحضور » فى الماضى ، جعله يعجن كل من عرف من نساء ، حقيقيات كن أم خارجات من بطون الكتب وشاشات السينما فى امرأة واحدة : ليلى العامرية ، سافو ، هند التى لا تنجز ماتعد ، جريتا جاربو ، لوريتا يونج ، ميمى قشطة ، بهيجة حافظ ، سيلفانا ، سعاد السماحى ، دستينا الدقيقة الجسم ، زيزى ، منى العابثة ... إلى آخر قائمة تشغل أربع صفحات . كلهن امرأة واحدة . كلهن بتذكرة بنات الاسكندرية كلهن بنت الاسكندرية كلهن بنت واحدة مهما كُنَّ كثيرات . المرأة النخلة التى كان يراها خلسة على الشاطئ المزدحم فى المعمورة . لم تكن تراه ولا عرفت أنه يراها . حواليها رجالها ، سمر مفتولو العضلات ، تسيطر عليهم جميعا بالأنوثة المتفجرة من كل مسام جسدها ... يرى فيها النخلة السلطانى ، سامقة ملساء الساق ، سمرتها



صافية ، خُصَل الشعر مدببة طويلة ، أسنة العيون الناعسة فيها شراسة . وهي وادعة في حضنه تلتمس الأمان . نهداها المدوران محملان بلسباط البلح الرُطب الأسود المسكر الحلاوة لا تشبع شفتاه من امتصاص سكره . شماريخها العظمية المستديرة تنبثق عنها غدائر الغواية . جمالها دائم . عقيم .

★★★

« كلية » الأشخاص و« كلية » الأشياء . قد يصلح هذا وصفا لهذا العمل الجميل . لناسه وأحداثه ووسائل الحكي . هذه « الكلية » تتخلق عن طريق تداخل كل شئ في كل شئ : الماضي في الحاضر . الصوفي والشاعري في الواقعي الأرضي . وعن طريق هذا التداخل يحقق ادوارد الخراط بعضا من أعمق مؤثراته الأدبية يخطر على البال فوراً واقعة اللقاء العاصف بين منى ونفيسة في أول العمل . يبدأ اللقاء بداية مدوية ، ونفيسة تصرخ بالصوت الحيُاني ، تشهد أهل الحارة جميعا على ما حدث من

منى من عدوان عليها . نفيسة تحب محروس ومنى تشاركها هذا الحب . ومن ثمَّ وجب أن تُشَهِّرَ نفيسة ، ملكة الحارة فى فن الردح ، بغريمتها منى . بعد المقدمة التقليدية للردح تصل البذاءة إلى منتهاها ، ثم تثب نفيسة على جسد غريمتها وحبيبتها ، وتصرخ صرخة تلجم الحارة دهشة وفزعا ، وهى تلوى بجسدها الدقيق البارع ، فى تباريح المخاض ، وتعوى بوجع الآلام التى تكابد خروج الوليد ، ويخيل إليها أنها تحمل الوليد ، رقيقا مغمض العينين أحمر الجلد ، « فتخرج له ثديها الصغير وتلقمه الوليد وهى تنادى : ننه هوه . ننه هوه » .

قد تَلَبَّس جسد نفيسة جسد منى فى التحام جنسى واضح . نفيسة فيه هى الأنثى التى اندلقت على تراب الحارة ، وهى تتأوه وتنادى محروس بصوت يذوب طلبا وغلمة . ومنى هى المتهمة باخفاء طفل منى من محروس . خيال فى خيال ، ولكنه يرفع الواقعة المبتذلة — واقعة الردح والتشهير — إلى مرتبة أعلى .

تتحدث فيه الرواية عن الاختراق والتشنج وذروة المتعة والنداء الذى يخفت فى راحة وهمود . وتتحدث أيضا عن حس الذكورة الذى يملأ الحارة كلها .

***

يتطلع الراوى احجار جدار صلد ، يريد ان يُحدث فيه صدعا ، أو شقا يخرج منه . يجرى وراء منى ، يلاحقها ، يريد ان يثبت ذاته بإزائها ، فتنفيه منى من واقعها ، وتلغيه . لا تدرى ماذا تفعل بغرام هذا التلميذ « ابن الجماعة القبط اللى فوق » كلامه حلو ، تستعذبه حينا ، وحينا لا تفهم ما يقول . الرومانسى الذى يقرأ قصيدة كيتس : « المرأة الجميلة الفاقدة الرحمة » ، يريد ان يتخطى الحواجز . فتلغيه الحواجز واختلاف الاديان وتفاوت الثقافات .

جرب أن يقفز من وراء جدران الحبس إلى رحابة الحب الإنسانى المتبادل . عرف التلميذة سوسو ، واقترب قلباهما وروحاهما . تلاقيا مرات وحماها بسترته من مطر هطل فجأة فاحتميا منه فى كابينة على الشاطئ ، وزاد اقترابهما . وحين كف المطر ، سألته عن اسمه ، فَرَنَّ الاسم القبطى فى سمعه هو — وليس فى سمعها هى وحدها — غريبا غير مبرر . لم تقل شيئا ولم يتغير تعبير وجهها . خرجا صامتين وحين بلغت الترام ، خلعت السترة وردتها إليه ، دون شكر ، ودون لوم . لم تخرج من السترة وحدها ، بل خرجت من حياته أيضا . ورغم وجع الفراق ، ورغم ان الحكاية كانت مقطوعة منذ البداية ، فقد أصبحت « سوسو » تعيش معه فى كل الاماكن المستحيلة التى يسكنها فى خياله : بحيرات وجبال شُم وحصون وقلاع وغابات يراها ، ولا وجود لها الا فى روحه .

***

ويبرز « الثدي » في هذا العمل الجميل بروزا خاصا . ويكتسب أكثر من معنى . هو رمز التوق إلى الارتواء . يراه يخبئ بجسديه انثوية تمس شفتيه وتنسال على وجهه . يرى نهدى الفتاة يتلاقيان ، خصبهما خمران ، كأنما ينفحان اللبن الساخن الواعد بالزَّبد . ويثير خريره الذي يملأ العالم توقا غامضا . تتحول صورة اللبن الآدمي إلى صورة لبن الجاموسة . ارسلته أمه يشترى اللبن من عم أنيس اللبان . يدخل بيت الرجل ويلقى امرأته الشابة . كان مقرورا ، فأخذته المرأة إلى حضنها ، وقبلته على خده وضمته بحنو وثيق . اغمض عينيه وشم رائحتها الانثوية مختلطة برائحة اللبن الدسم الطازج . احس تحت فمه مباشرة الجزء اللين السفلى من نهديها : لحظة اغتصاب خاطف ، ناعم ، ثم تركته . وصبت له اللبن بصوت خرير مُشبِع ، كأنما من ضرع منتفخ .

ورأى الصبي الأم الشابة تحمل طفلا صغيرا جدا . وفي العتمة الخفيفة رأى صدر الجلابية الكستور مبتلاً ، وشم رائحة لبن الأم لا يخطئه الحس ، خصيبا ونفاذا وفيه آثار من حلاوة . قالت له الأم انها كانت تحمل طفلها بالقطار في الطريق إلى دمنهور ، فمرض الطفل وأوشك على الهلاك . لم يكن الولد قد تنَّصرَّ بعد ، وأَمْضَّى الأم ان يموت فلا يذهب ابدا إلى الملكوت ولا يرى قط وجه المسيح . إذ ذاك خلعت الأم ملابس طفلها جميعا حتى اصبح عاريا تماما ، ثم جرحت ثديها ، وعندما تقطر الدم رشت على وجهه قطرات منه وهى ترسم علامة الصليب . استراح الولد . ولما ذهبت به من بعد ليتعمد بالماء المقدس ، قال لها القسيس ان الولد قد تعمد بالفعل ، ولم يعد في حاجة إلى المزيد . كانت هذه احدى معجزات يسوع . وتلك كانت الست نجية ، ذات الثعبان الكامن بين النهدين .

كان الولد قد رأى ثعبانا ينزلق ببطء على أرض الفسحة الترابية الواسعة . ينسال مطمئنا ، واثقا ان البيت له وان أهل البيت ضيوف عابرون . فجأة يتحول اللبن الذي رضعه الطفل إلى لبن حزن وغضب يأتي من نهد خشن ، فيظل الفم ظامئا إلي اللبن والخمر والدم النقي الطهور . وتظهر الكوبرا الملكية ناشرة جناحيها في حنان . عصير النهدين يصبح سلالة قاتلة هي ثمن الالوهية وسم الخلود .

حين سلمت الست نجية على الولد لآخر مرة ، لاحظ فجأة الزرقة الباهتة في وشم الصليب القبطي المورق الاطراف على رسغها الاسمر الناعم . كان الطفل في حضنها – كما في السابق – وكان نهدها في فم الثعبان . الثعبان هائل ، له جناحان عريضان ، يشب من أعلى السلم الخشبي ويحط على ذروة نخلة عريقة ، قائمة وحدها في عتمة الحوش الترابي . ملامح وجه

الولد مطبوعة على حدقتى عينى الثعبان الزجاجيتين . هل قتل الولد اليفة الثعبان ، فهى لاتزال تبعث حية ؟ وهل تظل تتكرر بلا انتهاء ؟ ألا يمكن أبدا ان تمـوت ؟ ما دلالة الثعبان ؟ لا يفصح العمل ولا يبين .

***

حين يسـتعرض حيـاته شـاعرا ، وثوريا ، ثم عبثيا يهيم فى تأملات مبهمة عن غـواية المـوت وعبثيه واستحالة الحياة ، يبدو وكأنه يبحث عن تنين فاتح الشدقين بألسنة اللهب ، كأنه يريده ، كأنه واجد فيه نوعا مبهما من الخلاص . اتراه كان يبحث عن التنين ، أم أن التنين كان يبحث عنه ؟ ما معنى التنين ؟ جمال الموت ؟ الرغبة فى الخلاص ؟ فناء الجسد فى الجسد ؟

ثم يُسَلِّم - أواخر ايامه - بأن كل شئ يعدل كل شئ ، وان حياته كانت محكومة بالمصادفة ، وان الحب هوس ، والصداقة بين الرجال تبادل حسابات ، وأنه تَهَل وظن انه سيرتوى ، ولكنه ظل ظمآنا ، على شفتيه طعم مر لا يزول طلامه وقال : ان العدالة خرافة عريقة . والجمال ورقة شجرة ذاوية . والفن سعى عقيم . وكل شئ باطل . وقال . هذا افتراء وبطر بالنعمة . فطالما تعم بمفاتن الجسد وثمل بنشوات الروح . ولكن احبوكات الشيخوخة والصبا أيضا كلها حق وليس فيها شئ واحد حقا .

ظل يجهد فى العودة إلى أماكن الصبا والشباب : اسكندرية الثلاثينات وقاهرة الخمسينات وبطرسبرج دستويفسكى وأخميم الأربعينية وباريس موباسان وموسكو تشيخوف وبرادى جوجول ولندن ديكنز وتاكرى وبحيرات وردزورث والبساتين الصـوفية فى بتغـال طاغور . ثم عرف من بـعد فى كهـولته انه قاتل بضراوة طول عمره وصنع حياة حافلة بأكملها بالتحققات ، وترك الاشياء الحقيقية تمر من بين اصابعه دون ندم : الثروة والسطوة والنسوان . عَبَرَ الحياة كائما فى حلم وابتغى ما ليس موجودا . وكهلاً ، كان الصبى صنوه وقرينه !

وينتهى العمل والراوى يناجى حبيبة له التقاها ويود لو ذاب فى هواها : « شفتاك القرمزيتان شفتاى . احدق فى عينيك الكرواتين بسواد غويط فأجد نفسى فى غورهما . وحس شعرك الوثير على جانبى وجهى . ثقل النهدين وحجمهما المحسوس على صدرى والذراعان البضتان متملكتان تلتفان بى » . يرى فى الاندماج فيها موته وبعثه معا . يريد ان يصبحا معا : « الأنا - الأنت » . يجهد بكل ما فيه من طاقة إلى إلى الفناء فى جسدها ليصبحا جسدا واحداً بلا انفصام . الآن تحبس احلامه انفاسها . ويسأل : أفى العالم كل هذا الفرح ؟ يشرب ولا يرتوى من خمرتها .

فى نور هذا الفرح تبوح له البيوت القديمة بأسرارها . يستطيع بسهولة ان

يحل شفرتها . يجد العساكر قد اقاموا خيامهم فى مدرسة الاسكندرية الثانوية ونصبوا مدافعهم فيها . يحس ان المدافع موجهة إلى قلبه . كانت ثورة يوليو قد انفجرت .

★★★

تتعدد طبقات هذا العمل الفنى الجميـل . يعـزف الكاتب نغمات الحب الشبقى ، والحب الصوفى وينزل إلى الواقع الأرضى بكل ما فيه من وحل وتراب ، تتقلب عواطفه بين الفرح الطفولى بشئ يناله أو يظن انه ناله ، وبين الاحباط لأن ما وقع فى يده ليس الا وهماً ملوناً . تظل المرأة شغله الشاغل . تُطلّع عليه المدرسـة التى يطلق عليها « المادونا » فجـأة ، فتذهب رؤية الأشياء . لا يرى الاها . هى السيدة العذراء أم النور وهى ست دميـانة سانت كاترين معا . برغم قداسة الانتماء يراها جسدا . ساقاها عمودان متينان مجلالان بالتاج الخفى المكنوز . حوض المعمدانية ومنهل الماء الحى ، يشرب منه فلا يعطش ابدا . ونهـداها باهران كانهما مقدسـان ، يرُضْعان العالم لبن الحنان .

والاديان والثقافات والحضارات ترقد فوق بعضها البعض . فى طفولة الراوى كان صوت الشيخ محمد رفعت يترقرق من صناديق الراديو الكبيرة ذات العيون الواسعة المنيرة ، فى الدكاكين والقهاوى والبيوت المفتوحة الشبابيك قبل مدفع الافطار :

صوت سلسال وجميل ، ومنذر بحزن من عذابات الخيانات والكفران بالنعيم . صوت أبوى وعجوز وحنون ومتعب من عبء الرحمة للخاطئين .

وتطفو الاحداث الآنية ، يومية أو تاريخية إلى السطح من هذا البناء المتين المتماســك . الكفاح ضد الإنجليز . المظــاهرات الاخوانية . رصاص المعتدين الذى يجندل « جمالات » جارة الصبى القديمة . « شعار ارفع رأسك يا أخى » . يقول الراوى : كم رفعناه وكم نكسناه ! الكفاح الخفى من أجل الاشتراكية ، بما فيه من مطابع سرية ، وملاحقات واخطار توشك أن تحيط بالراوى . ثم التخلى عن هذا كله والمضى إلى السراب الدائم الظهور ، الدائم الاختفاء : المرأة ، وجسد المرأة ، وعذاب الحياة وعذوبتها ، وفناء الموت ديمومته ، واختفاء الحياة وعودتها الدائمة ، الدائبة .

قصيدة طويلة جميلة تترنم بها هذه السيرة الذاتية ، التى لم تعد ذاتية ، بل هى تتعدى الذات لتصبح سيرة للحياة والموت ، فى زمن بعينه ، وفى كل الازمان . هنا ، وفى العمل السابق : « ترابها زعفران » ، يسمو فن ادوار الخراط إلى مستوى رفيع من التعبير الفنى الأصيل ، تغذينا حلاوته ، ويمتعنا ويرهقنا أيضا تعدد معانيه .

من ريو دى جانيرو إلى ميونيخ
مشاكل « الأرض » بين قمتين

بقلم : عبد الرحمن شاكر

الأول منهما حضره ، أو كان من المفروض أن يحضره كل رؤساء دول العالم ، أما الثانى فقد حضره رؤساء الدول الصناعية الكبرى فحسب : الولايات المتحدة الأمريكية واليابان وبريطانيا العظمى وألمانيا وفرنسا وإيطاليا وكندا ، ولحق بهم - ليقف على بابهم حتى يفرغوا له من مداولاتهم - رئيس روسيا بوريس يلتسين !

الأول ، وهو مؤتمر ريو دى جانيرو ، يمكن أن يوصف بأنه « مجلس عموم » الكرة الأرضية ملتقى انعقد لأول مرة . أما الثانى ، فقد أطلق عليه اسم « مجلس إدارة الاقتصاد العالمى » ! حيث يضم « أعيان » العالم من الدول الصناعية الكبرى ، التى تتحكم فى اقتصادها ، وخاصة بعد سقوط المعسكر الاشتراكى ، وانحلال الاتحاد السوفييتى ، وكان جورج بوش يطمع فى أن يضم روسيا إلى هذا المؤتمر ، باعتبارها قوة صناعية كبرى هى الأخرى - رغم كل شئ ولكن رفاقه فى المؤتمر رفضوا ذلك ، بدعوى أن روسيا لم تتأهل بعد للحاق بهم ، فاقتصادها لم يستكمل تحوله إلى اقتصاد السوق ، أو الاقتصاد الرأسمالى ، ولا يزال أمامها أن تتفق مع صندوق النقد الدولى ليعطيها شهادة صلاحية اقتصادها للاندماج فى « الاقتصاد العالمى » وتلقى المساعدات التى تحتاج إليها بصورة ملحة . ومن المحتمل كذلك أن يكون « بوش » قد أراد أن يجعل من روسيا يلتسين، بعد التطورات التى لحقتها، حليفا له ، فى مواجهة منافسيه الجدد ، وخاصة اليابان وألمانيا ، ولكنهم رفضوا أن يبلعوا هذا « الطعم » واحتجت اليابان بأن على روسيا أن تعيد إليها جزر الكوريل الأربع أولا ، وهى الجزر التى احتلها « الاتحاد السوفييتى » السابق خلال الحرب العالمية الثانية ، والتى كانت موضع نزاع قديم ما بين اليابان والامبراطورية الروسية ، وتعرض اليابان أن تشترى من الروس الذين أقاموا فى بعضها حق الإقامة فيها بآلاف الدولارات لكل منهم ، وتعرض على الحكومة الروسية ، مليارات الدولارات أيضا كمعونة اقتصادية ، إذا ما قبلت بدورها التخلى عن هذا الجزء من « أرض الوطن » ، كما

شهدت « الأرض » فى هذا الصيف مؤتمرين ، أحدهما فى يونيو والآخر فى يوليو ، الأول منهما أطلق عليه اسم « قمة الأرض » ، وعقد فى ريو دى جانيرو العاصمة السابقة للبرازيل واسمه الرسمى هو مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة والتنمية ، والثانى الذى عقد فى يوليو ، هو مؤتمر الدول الصناعية السبع الكبرى فى مدينة ميونيخ ، قلعة الصناعة الألمانية ، وبين المؤتمرين مداخلات كثيرة فى دوائر اهتمامهما والمواضيع التى طرحت أمامهما ، وإن اختلفا اختلافا بينا فى التركيب .

يفكر القوميون الروس المتعصبون ، وخاصة المستوطنين منهم لتلك الجزر !

ونعود إلى المؤتمر الأول : لنجده قد انعقد ليبحث أساسا مشكلة تلوث البيئة الناتج عن زيادة الإنتاج والاستهلاك الصناعى ، والمفاعلات النووية ونفاياتها ، وزيادة نسبة غاز ثانى أوكسيد الكربون فى الجو ، بسبب عوادم الاحتراق ، مما يهدد بارتفاع درجة حرارة الأرض ، واحتمال ذوبان الجليد فى المناطق الشمالية والجنوبية من الكرة الأرضية بحيث تفيض مياهها وترفع منسوب المياه فى كافة البحار والمحيطات والأنهار ، ويهدد باختفاء كثير من المدن الساحلية بما فيها نيويورك ولندن وأمستردام ومرسيليا ونابولى والاسكندرية ! وكذلك نسبة زيادة « غاز الكلوروفلوروكربون » الناتج عن كثير من المواد الكيميائية المستعملة فى تشغيل الثلاجات ومكيفات الهواء وأنواع « السبراى » المختلفة ، وهلم جرا ، وهو يهدد بترسيع ثقب الأوزون فى الغلاف المحيط بالكرة الأرضية والذى يحميها من أشعة الشمس فوق البنفسجية ، وقد بلغ هذا الثقب حاليا مساحة تعادل مساحة الولايات المتحدة الأمريكية ، ومعنى أن يزداد اتساعا أن تزداد الكرة الأرضية تعرضا لتلك الأشعة التى تهدد بانتشار أمراض العيون وسرطان الجلد بين البشر ، ونفوق الماشية التى يعتمد الإنسان فى معيشته على لحومها وألبانها وجلودها ، بجهودها كطاقة محركة بدائية !

ومن مشاكل البيئة التى لا تنتهى نفاد الطاقة ونضوب مواردها ، وقلة الغذاء إزاء الزيادة السكانية المطردة فى العالم ، وخاصة فى بلدان العالم الثالث ، وتلوث البحار والأنهار بسبب النفايات الصناعية ، وبالتالى موت الأسماك ، واختفاء كثير من الأنواع الهامة ، منها الأعشاب الطبية التى تنبت فى المناطق الاستوائية والتى تستهلكها شركات الأدوية بشكل مفرط ، وكثير منها مهدد بالانقراض نتيجة لقطع الغابات الاستوائية ، والغابات بدورها قضية هامة ، لأنها رئات الأرض التى تزودها بالأوكسجين ، وتعادل بذلك زيادة نسبة غاز ثانى أوكسيد الكربون ، ولكن هذه الغابات يجتثها سكان تلك المناطق

تلبية لحاجة الصناعات الخشبية وصناعة الورق وما إلى ذلك ، ولزراعة الأرض بدلا منها لتوفير الغذاء . وبعض تلك الغابات ، وخاصة في الشمال الأوربي والأمريكي يذهب ضحية مجانية دون أن يقطعه أحد ، وذلك لسقوط الأمطار الحمضية عليها ، المحملة بالكثير من الغازات الصناعية ونواتج الاحتراق ، كما حدث في ألمانيا وهولندا وكندا .

ولقد طالب مؤتمر « قمة الأرض » الدول الصناعية الكبرى بأن تتحمل هي المسئولية الكبرى في عمليات حماية البيئة ومكافحة التلوث ، فهي صاحبة النصيب الأكبر في الإنتاج والاستهلاك الصناعي ، وعليها أن تضع سقوفا معقولة لهذا الإنتاج والاستهلاك ، وأن تتحول عن أكثر أشكاله إضرارا بالبيئة ، وهي التي تملك الطاقة الصناعية والمعرفة التكنولوجية والمال اللازم لهذا التحول ، وعليها ، أكثر من ذلك أن تساعد الدول النامية على مكافحة تلوث البيئة في بلادها من ناحية ، وأن تدعم اقتصادياتها من ناحية أخرى لكي تكف عن قطع الغابات كي تبيع أخشابها ، أو تزرع مكانها ، ولأن رفع مستوى المعيشة في تلك البلدان النامية ، هو الطريق الوحيد الناجح للحد من الانفجار السكاني فيها ، على غرار ما هو حادث في البلدان الصناعية الغنية ، حيث تتطلع الأسرة الصغيرة إلى الاستمتاع بمباهج الحياة . خلاف إنجاب الأطفال ، على نحو ما صور أديبنا الراحل يوسف إدريس في قصة « أرخص ليالي » ، وحيث الأطفال وكثرة عددهم لدى الأسرة الفقيرة ، هو نوع من رأس المال ، حيث تباع قوة عملهم . كأنهم من رقيق الأرض !

ويقترح المؤتمر أن تقدم الدول الصناعية الغنية مبلغ ١٢٥ مليار دولار في العام للدول النامية لمساعداتها على تحقيق هذا البرنامج ، وتتحمس اليابان لهذا الاقتراح وتؤيدها فيه الدول الأوربية ، ولكن الرئيس الأمريكي بوش ومعاونيه يعترضون رغم أن هذا المبلغ لا يزيد على ١ ٪ من الدخل القومي للدول الصناعية المتقدمة !

ويقولون إن هذا البرنامج يعني توريط الولايات المتحدة الأمريكية في برنامج « اشتراكي » على مستوى العالم ! وأن من وراء ذلك الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية في أوربا المتحالفة مع « الخضر » ، أو دعاة حماية البيئة ، وأن الراية الخضراء قد حلت محل الراية الحمراء لتؤدي نفس الغرض ! مشيرين بذلك إلى أن المؤتمر قد استند إلى تقرير لجنة الأمم المتحدة لحماية البيئة والتنمية ، وهي التي أشرفت على إعداده زعيمة « اشتراكية » هي « جروهارلم برونتلاند » رئيسة وزراء النرويج ورئيسة حزب العمل بها ، وكان عنوان التقرير « مستقبلنا المشترك » !

استنكار دولي

وحتى بالنسبة لغرض حماية البيئة فحسب .. دعك من حكاية معاونة البلدان النامية على بناء اقتصادها ، فقد أعلن الرئيس بوش أنه لن ينفذ برامج تؤدي إلى زيادة البطالة في بلاده عن طريق توقف بعض الصناعات التي يقال إنها ضارة بالبيئة ! وكان إعلانه هذا سابقا على عقد

المؤتمر ، بحيث قوبل باستنكار دول العالم بمن فيهم حلفاؤه الأوربيون ، وقوبل الرئيس ذاته عند وصوله إلى المؤتمر الذي راجت إشاعات بأنه لن يحضره لولا أن مستشاريه نصحوه بالحضور أقول قوبل بمظاهرات معادية أوشكت أن تفتك به لولا الحراسة المشددة !

وبهذا اعتبر مؤتمر « قمة الأرض » فاشلا ، وإن كان قد نجح على الأقل في إرساء مبدأ أن يعقد هذا المؤتمر ، عساه أن يصل إلى حلول للمشاكل التي تهم الجنس الانساني ككل في سنوات أو عقود مقبلة .

❊ ❊ ❊

ويأتي دور المؤتمر الثاني في يوليو ، وهو مؤتمر القمة الصناعية للعالم ، ويناشد الدكتور بطرس غالي الأمين العام للأمم المتحدة المؤتمرين ألا ينسيا مشكلة العالم الثالث ، وضرورة تخفيض أعباء الديون عن الدول النامية ، ومساعدتها في تطوير اقتصادياتها ، خاصة وأن المؤتمر يعقد تحت شعار تنمية الاقتصاد العالمي ، ولكن معظم مناقشات المؤتمر تدور حول اتفاقيات التجارة ، حيث تدور حرب تجارية خفية ما بين الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها الأوربيين ، حول المعونات التي تقدمها الحكومات للمزارعين للمساعدة على تصريف فوائض انتاجهم الزراعي ، وحول حجم المساعدات المقترحة لدول المعسكر الاشتراكي السابق ، أو الديمقراطيات الجديدة في شرق أوربا وكومنوث الدول المستقلة ، التي انبثقت من انحلال الاتحاد السوفييتي ، وخاصة جمهورية روسيا الاتحادية لمساعدتها على التحول إلى اقتصاد السوق ، وتريد الولايات المتحدة الأمريكية أن تتحمل أوربا واليابان العبء الأكبر في هذه المساعدات باعتبار أن الولايات المتحدة ذاتها تعاني مع عجز كبير في ميزانيتها الاتحادية وفي ميزان مدفوعاتها ، وذلك لأنها - كالاتحاد السوفيتي السابق سواء بسواء - كانت متورطة في الحرب الباردة ، ونفقات سباق التسلح الباهظة ، التي أعفيت منها سائر الدول الصناعية الكبرى ، وخاصة ألمانيا واليابان اللتين تتمتعان بالحماية العسكرية الأمريكية ، دون أن تتحملا في ذلك مصاريف تذكر ، وهما صاحبا أكبر فائض في ميزان المدفوعات .

ولكن ألمانيا واليابان ، بدأت كل منهما تعاني الآن ، الأولى منهما بسبب تكلفة توحيد ألمانيا ، وبالأحرى انضمام ألمانيا الشرقية ، باقتصادها المتخلف إلى ألمانيا الغربية ، والمساعدات الضخمة التي قدمتها ألمانيا الموحدة إلى الاتحاد السوفيتي السابق ليســحب جيــوشه من ألمانيا الشرقية ، بما في ذلك تكاليف انشاء مساكن بديلة للقوات المنسحبة ، بدلا من تلك التي كان يسكنها الضباط والجنود وعائلاتهم في ألمانيا الشرقية !

أما اليابان فقد بدأ التدهور في إنتاجها المزدهر ، وشرعت البطالة تطل برأسها في صفوف العمال اليابانيين المشهورين بالكفاءة وارتفاع الانتاجية والولاء للمؤسسة التي يعملون فيها بنسبة ٣٪ على الأقل من مجموع هؤلاء العاملين ، ولعل السبب في ذلك هو التدهور العام في الاقتصاد العالمي ، بما في ذلك الولايات المتحدة الأمريكية التي كانت أكبر

مستورد للمنتجات اليابانية ، وأكبر مستقبل لاستثماراتها الخارجية ، وكان ذلك موضوع شكوى الساسة الأمريكيين ، وهو الذى دفع الرئيس بوش منذ فترة إلى زيارة اليابان ، لمطالبة حكومتها بزيادة وارداتها من السلع الأمريكية وخاصة السيارات .

ويفشل المجتمعون فى ميونيخ فى التوصل إلى نتائج محددة ، لتطوير الاقتصاد العالمى ، ويكتفون باصدار بيانات عامة ، بعضها له طابع سياسى ، مثل استنكار ما يحدث فى « البوسنة والهرسك » دون الإقدام على فعل حقيقى لانقاذ سكان تلك الجمهورية الوليدة من المذبحة التى تدور هناك ، ومثل الحث على التوصل إلى سلام عادل فى الشرق الأوسط ، دون ممارسة الضغط السكانى على الحكومة الاسرائيلية الجديدة للشروع فى مبادلة الأرض بالسلام ، بدءا من التوقف كلية عن استيطان الأرض العربية المحتلة .

فإذا عدنا إلى الفرض الاقتصادى ، فإن بعض زعماء العالم الثالث ، ومنهم الرئيس المصرى قد قدموا النصيحة إلى المؤتمرين فى ميونيخ من قادة الدول الصناعية الكبرى ، بأن تنمية اقتصاد العالم لا يمكن أن تتجزأ ، وأن معنى أن تبقى الدول النامية غارقة فى ديونها أن تعجز عن استيراد المنتجات الصناعية من الدول المتقدمة ، مما يزيد الأزمة الاقتصادية ومعدلات البطالة فى هذه الأخيرة ، وخاصة بعد انتهاء الحرب الباردة ، وأفول نجم صناعة السلاح التى كانت تستهلك الجانب الأكبر من موارد الدول المتقدمة ، والنامية معا ، والتى أحدثت ازدهارا مصطنعاً فى الدول الرأسمالية الكبرى وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية ، ولكن انكشف عواره وزيفه فى النهاية ، وكانت أحداث لوس انجيلوس وسواها من المدن الأمريكية منذ شهور قليلة أصدق شاهد على ذلك !

بغض النظر عن استبشاع الساسة الأمريكيين احتمال أن يطالبهم أحد بتنفيذ برنامج اشتراكى على مستوى العالم ، فقد سبق للاقتصادى البريطانى « جون مايناردكينز » أن اكتشف أن أفضل وسيلة لحماية النظام الرأسمالى من أزمات الانتاج ، فى زيادة الطلب الفعال ، عن طريق رفع أجور العمال ، حتى يتمكنوا من استهلاك المنتجات الصناعية ، وبالتالى تستمر العملية الانتاجية دون توقف ، ودون أزمات تلقى بالملايين إلى البطالة وتفتح الباب واسعا أمام الاضطرابات الاجتماعية .

وقد آن أن يفتح قادة العالم الصناعى عيونهم على أن الاقتصاد العالمى قد أصبح بحاجة إلى « كينزية » على المستوى الدولى ، لزيادة الطلب الفعال على إنتاج الدول الصناعية المتقدمة من جانب الدول النامية ، فهل يفعلون أم لابد من انتظار أنواع أخرى من المشاكل والاضطرابات الاجتماعية ، حتى يأتى جيل جديد من الساسة يدرك طبائع الأمور ؟!

خمسة قرون

من فكر التنمية

فكر التنمية بين السابق والمسبوق

بقلم د. جلال أمين



● استمر المذهب التجارى ، الذى دعا إلى تدخل الدولة تدخلا حاسما فى النشاط الاقتصادى ، وإلى فرض الحماية ضد السلع الأجنبية ، وإلى درجة عالية من الاعتماد على النفس ، استمر سائدا فى أوربا طالما استمر مستوى النمو فى البلاد الأوربية متقاربا إلى حد كبير ، وهو ماظل عليه الحال حتى نحو منتصف القرن الثامن عشر . ولكنه لم يستطع الصمود والاستمرار بمجرد أن ظهر تفوق دولة بعينها تفوقا ملحوظا عن بقية الدول .

خمسة قرون من فكر التنمية



فحينما يكون مستوى النمو متقاربا ، يكون التنافس شديدا ، وتقوى غريزة الدفاع عن النفس ، وتشتد الدعوة إلى الدفاع عن البقاء في مواجهة الأجنبي ، وينهض من المفكرين من يستثيرون في شعوبهم الحمية الوطنية والرغبة في إثبات الذات ، ومن ناحية أخرى لا يكون في مصلحة أحد الدعوة إلى الحرية الاقتصادية وفتح الأبواب على مصاريعها للتجارة الدولية ، إذ لا تناسب هذه الدعوة إلا دولة واثقة من تفوقها ، ومن قدرتها على الصمود أمام المنافسة الأجنبية وعلى غزو أسواق غيرها .

من الشائق إذن أن نلاحظ أن الدعوة إلى الحرية الاقتصادية ، وإطلاق حرية التجارة الدولية من القيود ، نشأت أول ما نشأت في دولتين كانتا هما المرشحتين للسبق في الثورة الصناعية من بين كافة الدول الأوربية : وهما فرنسا أولا ثم بريطانيا . نشأت أولاً في فرنسا قرب منتصف القرن الثامن عشر ، على يد مدرسة الطبيعيين أو الفيزيوقراط (Phys-iocrats) ، ثم سرعان ما خبت وانطفأت عندما ظهرت حاجة فرنسا إلى الحماية ، وعلى الأخص ضد غزو السلع البريطانية . يقول الأستاذ شومبيتر عن مدرسة الطبيعيين ، إنها لم يكن لها وجود في ١٧٥٠ ، وفيما بين ١٧٦٠ ، ١٧٧٠ كان كل الناس في باريس وفرساي يتكلمون عنها ، أما في ١٧٨٠ فكانت قد نسيت تماما انتقلت الدعوة إلى الحرية الاقتصادية إلى بريطانيا على يد آدم سميث الذي رفع لواءها بكتابه الشهير « ثروة الأمم » في ١٧٧٦ ، واستمرت بريطانيا هي حاملة لواء هذه الدعوة طوال القرن التالي ، طالما استمرت تحمل أيضا لواء التفوق الاقتصادي على العالم بأسره.

★★★

إن عنوان كتاب آدم سميث نفسه يدل على أن الكتاب مهتم ، بصورة أساسية ، بقضية النمو والتنمية ، فعنوانه الكامل هو: « بحث في طبيعة ومسببات ثروة الأمم » .

"An Inquiry into The nature and Causes of the Wealth of Nations"

وتحليله لهذه المسببات يقوده خطوة بخطوة إلى أن يستخلص أن النجاح والفشل في التنمية مرهونان بعاملين أساسيين : أولهما حظ الدولة من الغنى أو الفقر في الأراضي الزراعية ، وثانيهما : نوع السياسة الاقتصادية التي تتبعها ، وبالذات من حيث اتباعها أو عدم اتباعها لمبدأ الحرية الاقتصادية .

فالدولة سعيدة الحظ هي تلك التي

حبتها الطبيعة بموارد زراعية غنية وخصبة، وتتمتع بسياسة اقتصادية حكيمة تترك الأفراد يمارسون نشاطهم الاقتصادي دون قيود ولا تدخل في مجرى التجارة الدولية .

كان التأكيد على هذين العاملين يناسب ظروف بريطانيا في ذلك العصر على نحو رائع . بل ظهر ذلك بوضوح أكثر فأكثر مع مرور الأيام بعد ظهور كتاب آدم سميث، فلا عجب أن تمتع كتابه بتلك المكانة العالية ، وإن زادت هذه المكانة علواً طوال القرن التاسع عشر . فبريطانيا كانت دائما تلك الجزيرة ذات الإمكانيات الزراعية المحدودة ، والتي عبَّر مالتس، البريطاني أيضا ، وبعد ظهور كتاب سميث بقليل ، عن تشاؤمه البالغ بمستقبل سكانها إزاء التزايد البطيء في إنتاج الغذاء بالمقارنة بتزايد السكان السريع . لم يكن لا سميث ولا مالتس ، وإن كانا قد رأيا بداية الثورة التكنولوجية في وضع يسمح لهما بالتنبؤ بما يمكن أن تحققه هذه الثورة لحل مشكلة الغذاء والانتاج الزراعي . وقد ظل الخوف من هذا السباق بين السكان والغذاء ، الذي عبر عنه آدم سميث برقة ، ومالتس بشدة ، يسيطر على بقية الاقتصاديين التقليديين حتى نهاية القرن التاسع عشر ، ومن ثم ظل « قانون الغلة المتناقصة » هو القانون الأساسي الحاكم للفكر الاقتصادي طوال القرن ، يطبق أولا في نظرية الانتاج والسكان على يد مالتس ، ثم تستخلص منه نظرية الريع وتوزيع الدخل على يد ريكاردو ، ويبني عليه التقليديون جميعا نظرية التنمية وتنبؤهم المفرط في التشاؤم بحلول حالة من الركود المستديم (Sttionary State) قبل أن تستخلص منه المدرسة الحدِّية في الثلث الأخير من القرن صورة طبق الأصل لتطبقها على نظرية الاستهلاك ، وهذه الصورة هي قانون تناقص المنفعة الحدية .

الدعوة للحرية الاقتصادية

أما الدعوة إلى الحرية الاقتصادية ، فكانت كما أشرنا ، تناسب هي بدورها الظروف الجديدة في بريطانيا مناسبة تامة . فإذا ظهر أن بريطانيا هي أول دولة أوربية تقوم بثورتها الصناعية بنجاح ، أصبحت هي أقدر دولة على تطبيق مبدأ الحرية الاقتصادية دون أن تخشى منافسة من هو أقوى منها ، إذ لم يكن هناك من هو أقوى منها . كما أن من صالحها أن تقنع الآخرين بصواب مبدأ الحرية الاقتصادية ، وفتح أبواب الاستيراد والتصدير ، إذ أن في ذلك ضمان وصول السلع البريطانية إلى الأسواق الخارجية .

كانت فرنسا قد حاولت تطبيق مبادىء الطبيعيين في الحرية الاقتصادية في السبعينات من القرن الثامن عشر ، عندما تسلم أحد رجالهم (تيرجو) وزارة المالية ، ففشلت سياسته فشلا ذريعا ، وعزل تيرجو من منصبه في نفس السنة التي

خمسة قرون من فكر التنمية



ظهر فيها كتاب آدم سميث فى بريطانيا ، وسرعان ما أدركت فرنسا أن الحرية الاقتصادية ، على الأقل بالنسبة لها ، لم يحن وقتها بعد ، وأن الحماية أولى بها وأنفع .

★★★

إنما يرجع الفضل الأكبر فى تأصيل الدعوة إلى الحماية ونبذ مبدأ الحرية الاقتصادية ، فى ظروف دولة لم تحقق ثورتها الصناعية بعد ، وتواجه بمنافسة شديدة من دول متفوقة عليها إلى الاقتصاد الألمانى الشهير « فردريك ليست » . والحقيقة أنه كلما أمعن المرء فى قراءة « ليست » وتأمل أفكاره ، تبين إلى أى حد تظلم الدول النامية الآن نفسها إذ تتخذ من أفكار آدم سميث دليلا لها ومرشدا بدلا من أفكار « فردريك ليست » . إن ليست كان يكتب عن وطنه ألمانيا فى العقد الثالث من القرن التاسع عشر ، وكأنه جالس الآن فى دولة من دول العالم الثالث ينصح أهلها بما يجب عليهم عمله . وهو ينتقد أفكار سميث وإطلاقه التعميمات حيث لا يجب التعميم ، وكأنه اقتصادى مصرى يكتب فى هذه الأيام رداً على مبادىء صندوق النقد الدولى الذى يحاول الصندوق أن يصوّرها بصورة المبادىء الصالحة لكل زمان ومكان .

يفصح كتاب ليست عن هدفه دون مواربة ، فاسم كتابه « الأساس القومى للاقتصاد السياسى » . " The National System ot Political Economy " الذى نشره فى ١٨٤١ ، يشير إلى أن الرجل يريد أن يبين أثر الظروف الخاصة ببلده وقومه على التحليل الاقتصادى والسياسة الاقتصادية الواجبة الاتباع ، وهو ما نجح بالفعل فى بيانه ببلاغة ومنطق ناصعين .

كان آدم سميث قد بنى دعوته إلى حرية التجارة الدولية على أن فيها مصلحة المستهلك ، فإذا فرضت ألمانيا مثلا تعريفات جمركية ضد السلع الصناعية البريطانية حماية لصناعتها ، وفرضت بريطانيا تعريفات جمركية ضد السلع الزراعية الألمانية حماية لزراعتها ، أدى ذلك إلى أن يدفع المستهلك الألمانى أسعارا أعلى للسلع الصناعية ، وأن يستهلك سلعا أقل جودة من ذى قبل ، بينما يضطر المستهلك البريطانى إلى دفع أسعار أعلى للسلع الزراعية أضف إلى ذلك أن إطلاق حرية التجارة الدولية من شأنه أن يوسع السوق أمام كلا الطرفين المشتركين فى التجارة ، إذ تتيح هذه الحرية لكل دولة سوقا أوسع لمنتجاتها مما كان متاحا لها فى ظل القيود التجارية . وتوسيع السوق

يسمح لكل دولة بدرجة أعلى من التخصص وتقسيم العمل، وتقسيم العمل يرفع الكفاءة (يقلل من نفقات الإنتاج) ومن ثم تعود حرية التجارة بالنفع على المستهلكين الذين يستطيعون الآن أن يحصلوا على أفضل أنواع السلع بأقل الأسعار . من هذا نرى أن تدخل الدولة بحماية سلعة وطنية من منافسة الواردات تؤدى إلى إساءة استخدام الموارد الوطنية، إذ يشجع عناصر الانتاج على الاتجاه إلى إنتاج سلع لا تتمتع فيها الدولة بأية ميزة ، ويحرم السلع التى تتمتع فيها هذه الدولة بميزة أو كفاءة خاصة ، من التوسع والنمو . الحماية مرفوضة إذن ، سواء كانت بفرض تعريفات جمركية ضد الواردات ، أو منح إعانات للصدير ، أو أى صورة أخرى ، طالما حولت عناصر الانتاج والتجارة الدولية عن مسارها الطبيعى ، واضطرت المستهلك إلى أن يدفع ثمنا لسلعة هو أعلى من المتاح له لو تركت الأمور دون تدخل .

أخطاء سميث

كان طريفا أن يصدر هذا الكلام من رجل كآدم سميث قضى الثلاثة عشر عاما الأخيرة من حياته مديرا لإدارة التعريفات الجمركية فى اسكتلندا . ولكن هذا فى حد ذاته لا يدل بالطبع عما إذا كان الرجل على صواب أم على خطأ . وإنما الذى بيّن أخطاء سميث هو فريدريك ليست . لقد نظر ليست فرأى أن بريطانيا متفوقة على ألمانيا فى الصناعة ولكنه لم يجد سببا مقنعا للاعتقاد بأن هذا التفوق لابد أن يستمر إلى الأبد . نعم ، إن ليست يرى بوضوح لا يقل عن رؤية سميث لمزايا اتساع السوق ، ولكن فتح السوق الألمانية أمام السلع الصناعية البريطانية ، وإن كان يؤدى حقا إلى توسيع السوق أمام الصناعة البريطانية فإنه فى نفس الوقت ، وبنفس القدر ، يؤدى إلى تضييق السوق أمام الصناعة الألمانية ، إذ ستقتطع السلع البريطانية لنفسها جزءا من هذه السوق . المسألة إذن ليست هى مزايا اتساع السوق أو ضيقه وإنما هى ما إذا كنت ستأخذ التفوق الحالى دليلا على التفوق إلى الأبد، أما ستحاول أن تحول التخلف الحالى إلى تفوق فى المستقبل .

هذه هى بالضبط النقطة المحورية فى قضية ليست : فلتحم ألمانيا صناعتها من المنافسة حتى تقف على قدميها ، طالما أن لديها أسبابا قوية للاعتقاد بأنها قادرة بالفعل على هذا النهوض ، وبعد هذا فلتطلق حرية التجارة كما تشاء ، ولتترك حلبة الصراع للمتنافسين ، لينتصر منهما الأجدر بالانتصار . ولكن حذار كل الحذار من أن تترك رجلا بالغا يصارع طفلا صغيرا ، فأنت بذلك تحكم على الطفل بالموت دون أن يستحقه .

ويندفع فردريك ليست فيوجه اتهاما بعد آخر إلى ادم سميث : إن سميث فى نظر ليست ، يزعم لنظريته العمومية والتجرد ، وهى ليست إلا نظرية «بريطانية» تستهدف صالح بريطانيا . وسميث يصب غضبه على كولبير (Colbert) وزير مالية لويس الرابع عشر ، الذى حمل

خمسة قرون من فكر التنمية



لواء المذهب التجارى فى فرنسا فى القرن السابع عشر ، ويتهمه بأنه « ظن أن صناعة وزراعة دولة عظيمة يمكن أن تدار كما تدار مصلحة حكومية » ولكن سميث يفصح بذلك عن عجزه عن فهم الدور الرائع الذى لعبته سياسة كولبير الاقتصادية فى تقدم فرنسا ، والخدمة التى أدتها الحماية للصناعة الفرنسية فى عهده . بل إن بريطانيا نفسها اعتمدت فى فترة سابقة على الحماية لتشجيع صناعاتها على النمو أما عن الولايات المتحدة فيقول ليست إن ما احتاج إنجازه إلى عدة قرون فى أوربا ، يراه يتحقق أمام عينيه فى الولايات المتحدة بفضل ما فرضته الولايات المتحدة لصناعتها من حماية ضد السلع البريطانية .

إن إطلاق آدم سميث لوصف « التجاريين » على كولبير ومدرسته ، فيه الكثير من الظلم ، إذ أن هذا الوصف ، فى نظر ليست ، أكثر انطباقا على آدم سميث نفسه وأتباعه . إن سميث وأتباعه هم « التجار » بالمعنى الدقيق ، إذ أن كتاباتهم تبدو وكأنهم قد نقلوها من مذكرات كتبها أحد التجار ، فهم لا هم لهم إلا البحث عن أنجح الوسائل للشراء من أرخص الأسواق والبيع فى أعلاها سعراً ! إن التجاريين قد يكونون قد أخطئوا حين أعماهم تمسكهم بالقومية وحماسهم لأوطانهم عن أن يفطنوا إلى أن الهدف فى النهاية هو الوصول إلى نوع من العالمية ، ولكن سميث ومدرسته قد أخطئوا بدورهم إذ صرفتهم نظرتهم العالمية وتفكيرهم فى « العالم ككل » ، عن إعطاء القومية والشعور بالانتماء لوطن معين ما يستحقانه من اهتمام .

إن ليست يرى أنه يوجد بين مستوى الفرد ومستوى الانسانية مستوى متوسط هو « الأمة » . وإهمال هذا البعد القومى ، على النحو الذى يظهر فى كتابات آدم سميث ، يجرد « الاقتصاد السياسى » من جانبه « السياسى » ، وهو ما لا يجوز ، إذ أن الفرد هنا ليس مجرد منتج أو مستهلك بل هو أيضا مواطن ، والدولة القومية لها دور لايستهان به فى تحقيق المجتمع ونهوضه .

إن ليست يميز بين مايسميه « نظرية القيمة » وما يسميه « نظرية « القوى المنتجة » ، الأولى تبحث فى مشاكل الانتاج عن طريق استخدام الموارد الموجودة بالفعل ، بينما تبحث الثانية فى وسائل زيادة هذه الموارد نفسها . الأولى تبحث فى زيادة الانتاج والثانية فى زيادة القدرة على الانتاج . وسميث ومدرسته يركزون على الأولى ولا يعطون اهتماما كافيا للثانية ، بينما هذه النظرية الثانية هى الجديرة بالاهتمام .

إن هذا التميز الذى يجريه ليست يذكرنا بلا شك بالتميز الذى نجريه الآن بين النمو (growth) والتنمية

(development) ، حيث تفهم النمو على أنه مجرد زيادة الانتاج من السلع والخدمات ، والتنمية على أنها النمو المقترن بتغيرات أساسية في الهيكل الاقتصادي ، مما يضمن استمرار النمو في المستقبل . وبهذا لا أعتقد أن من الخطأ اعتبار فردريك ليست الأب الحقيقي لاقتصاديات التنمية فهو ليس فقط أول من أشار بوضوح إلى هذا التميز بين زيادة الانتاج وزيادة القدرة على الانتاج ، بل هو أيضا أول من عالج مشكلة التنمية من وجهة نظر دولة « جاءت متأخرة بعض الشيء (late coner) » ، فأدرك أهم المشاكل المتولدة عن محاولة اللحاق بمن سبق إلى النمو . أضف إلى ذلك أن فردريك ليست هو بلاشك أول من أدرك وأكد على أهمية الجوانب غير الاقتصادية للتنمية .

القوة المنتجة للفرد

إن « القوة المنتجة » للفرد لا تتأثر فقط ، كما ذهب سميث ، بدرجة تقسيم العمل واتساع السوق وحجم رأس المال .. إلخ ، بل تتوقف أيضا ، في نظر ليست ، على الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للدولة ككل . وقد يكون دور الحكومة محدوداً في مساعدة الفرد على زيادة ما ينتجه باستخدام موارد موجودة بالفعل ، ولكن لها دورا أساسيا في تنمية هذه الموارد المنتجة نفسها ، ومن ثم في زيادة القوة المنتجة لكل فرد . فإذا كان الفرد يملك مصنعاً بالفعل ، فقد يكون من الأفضل أن تتركه الحكومة وشأنه ، ولكن الحكومة لها دور مهم فيما إذا كان الفرد سينشيء مصنعاً جديداً أو لا ينشئه .

قد يكون الحماية مضارها في الأفق القصير ، وقد تضر حقا بالمستهلك ، ولكن منافعها جمة في المدى الطويل ، والمستهلك هو المستفيد في النهاية قد تكون سياسة الحرية الاقتصادية أكثر جدوى في تنمية فروع معينة من فروع الانتاج ، ولكن سياسة الحماية هي التي تضمن للدولة تنمية متوازنة تشمل كل أنواع النشاط الاقتصادي ، فلا تبقى إلى الأبد بلداً زراعية لمجرد أنها لا تستطيع الآن أن تنتج السلع الصناعية بكفاءة . وتنمية الصناعة بالذات لا غنى عنه للدولة ، ليس فقط لارتفاع انتاجيتها ، ولأنها تمدّ الزراعة بسوق لمنتجاتها وبوسائل الانتاج المتقدمة، ولكن لأنها أيضا ترسخ في المجتمع بأسره قيما وتقاليد جديدة تقوم على احترام حرية الفرد ، كما أنها تساهم في توسيع الأفق وتساعد على تقدم العلوم والفنون . فترة من الحماية إذن ضرورية ، ليس فقط لتحقيق تقدم اقتصادي بل ولتحقيق نهضة اجتماعية وثقافية عامة .

أي النوعين من الكلام أقرب ياترى إلى ظروف البلاد النامية اليوم ؟ كلام آدم سميث الذي يأخذ الواقع كمعطى من المعطيات ، ويحاول تعظيم النفع العائد من هذا الواقع على العالم بأسره منظورا إليه ككل أم كلام فريدريك ليست الذي يتخذ نقطة إنطلاق له الرغبة في تغيير الواقع ، ويحاول تعظيم النفع المتحقق عبر فترة زمنية ممتدة وتعظيم العائد على دولة معينة يشعر نحوها بنوع خاص من الولاء ؟

إسلامية المعرفة :

البديل الإسلامى للمعرفة المادية

بقلم : د . محمد عمارة

لم يكد ينتهى القرن الهجرى الأول ، حتى كانت الفتوحات الإسلامية قد وصلت بحدود الدولة الإسلامية ما بين الأندلس والصين .. وأصبحت كل الديانات ، السماوية والوضعية ، وكل الملل والنحل ، وجميع المؤسسات «اللاهوتية» والمدارس «الفكرية» والفلسفية ، قائمة ونشطة فى دولة الإسلام .. فالفتح قد أقام الدولة ، لكن المسلمين ظلوا أقلية عددية فى رعية هذه الدولة لعدة قرون (١) ؟! .. إذ (لا إكراه فى الدين) (٢) .. وإذا كان للفتح أن يقيم « الدولة » فليس له من سبيل إلى إقامة الإيمان «بالدين» ، لأن الإيمان تصديق قلبى ، يبلغ مرتبة اليقين .. والإكراه قد يثمر «نفاقا» ، لكنه لا يثمر « إيمانا » بحال من الأحوال!



وفى خضم التدافع الفكرى ، الذى شاع وازدهر بين الإسلام وبين الديانات والنحل والفلسفات غير الإسلامية ، تخلقت للحضارة الإسلامية علوم ومذاهب كانت بعض أدواتها فى الحوار الفكرى والتدافع المذهبى مع هذه الديانات والفلسفات .. تخلقت العقلانية الإسلامية ، التى أعملت العقل فى النقل وحكمت العقل بالنقل .. فكانت نموذجا للمعرفة الإسلامية التى أرسى القرآن قواعدها - وتخلق علم آداب البحث والمناظرة ، الذى جعل حتى من قصور الخلفاء [٢] ، أحيانا ، ميادين تدافع فكرى بين علماء الإسلام وبين أحبار وعلماء الديانات والفلسفات الأخرى .. وكان ذلك امتدادا وتطويرا لنهج النبوة والدور مسجد المدينة المنورة ، على عهد الرسول ، صلى الله عليه وسلم ..

ولقد واجه المسلمون ، ضمن ما واجهوه خلال هذا التدافع الفكرى ، مذاهب المعرفة غير الإسلامية .. تلك التى افتقدت توازن معرفتنا الإسلامية .. واجهوا :

● العقلانية اليونانية ، التى لم تعرف الوحى والنقل ، فلم تعترف بهما .. فقامت معرفتها على ساق واحدة ، هى البرهان العقلى .. حتى لقد اقتربت كثيرا من نموذج المعرفة الحسية .

● والعرفان الغنوصى الباطنى ، الذى

اعتمد « الحدس » و« الذوق » ، فأهمل «الواقع» وغض من شأن «العقل» و النقل جميعا ! ..

● وواجهوا « المعرفة الحسية » لمذاهب الديانات الوضعية ، التى كانت منتشرة فى البلاد الآسيوية التى دخلت فى دولة الإسلام أو اتصل أهلها بالإسلام والمسلمين ..

وأمام هذه «المقالات» غير الإسلامية ، وفى مواجهتها ، وفى خضم التدافع الفكرى ممها شهدت حضارتنا فن التأليف فى (مقالات الإسلاميين) !؟ .. ورأينا ، ونحن نراجع عناوين مؤلفات سلفنا فى تلك القرون تلك الثروة العظيمة من المؤلفات التى تخصصت فى الرد على « مقالات » أهل تلك الديانات والمذاهب والنحل والفلسفات ..

وعلى سبيل المثال :

● فالذين أرخوا لقائد المعتزلة : أبى حذيفة واصل بن عطاء (٨٠ - ١٣١ هـ ٦٩٩ - ٧٤٨ م) . يقولون إنه لم يبلغ الثلاثين من عمره حتى كان قد فرغ من الرد على كل المخالفين !؟ .. ومن عناوين الكتب التى ألفها : (كتاب الألف مسألة) .. وجميعها فى الرد مذهب « المانوية » الفارسية ! .

ومما تذكره كتب هذا الفن .. فن (مقالات الاسلاميين) من وقائع التدافع الفكرى بين « إسلامية المعرفة » ، التى بلورها الإسلام ، وبين مذهب الديانات الوضعية - غير السماوية - فى « المعرفة الحسية » تلك الحوارات التى دارت بين علماء الإسلام وبين علماء فرقة « السُّمَنِيَّة » - وهى مذهب من مذاهب الديانة الوضعية الهندية .. ينكر أهله الوحى والنبوة والرسالة .. ويقولون :

« لاطريق للعلم سوى الحس : »(٤)

كان « السمنية » يرون أن المعرفة والعمل مباشرة للواقع المحسوس وحده .. ويرون الحواس الخمس وحدها سبيل المعرفة الحقة .. وماعدا ذلك خيال - وبتعبيراتهم فى ذلك العصر : « مجهول » ! . أى غير « معلوم » .. أى ليس من المعارف والعلوم ، التى يصدق عليها هذا الاصطلاح ! ..

ولقد دارت بين بعض علماء « السمنية » وبين واحد من علماء المسلمين ، وزعيم لإحدى الفرق الإسلامية - وهو الجهم بن

صفوان (١٢٨ هـ ٧٤٥ م) – مناظرة حول هذه القضية .. قضية « حسية المعرفة » .. عجز فيها الجهم عن تقديم مذهب الإسلام في المعرفة للسمنيين .. فلما بعث إلى واصل بن عطاء بمقالة السمنية ، لفت واصل نظره إلى مذهب الإسلام في المعرفة .. مصادرها ووسائل تحصيلها .. فعاود الجهم محاورة السمنيين ، الذين انتهى بهم المطاف إلى اعتناق الاسلام على يد واصل بن عطاء ! ..

أما النص الذي يذكر هذه الواقعة ، ذات الدلالة الهامة – هو الذي بقي لنا ضمن مابقي من أقدم كتاب بلغنا أنه ألف تحت عنوان (مقالات الإسلاميين) – لأبي القاسم البلخي (٣١٩ هـ ٩٣١ م) – أما هذا النص فإنه يقول : « ذكر أبو الحسن ابن فرزويه : أن قوما من السمنية أتوا جهم بن صفوان فقالوا له :

– هل يخرج المعروف عن المشاعر الخمسة؟

فقال : لا .

– قالوا : فحدثنا عن معبودك الذي تعبده ، أشيء وجدته في هذه المشاعر !؟ .

– قال : لا ! .

– قالوا : فإذا كان المعروف لايخرج عن ذلك ، وليس معبودك منها ، فقد دخل في المجهول !؟ . فسكت جهم !؟ »

هنا ، في هذا الجزء من هذا النص ، نرى مذهب السمنية في « المعرفة الحسية » التي لامصدر لها سوى « الواقع المحسوس » ولاسبيل إليها إلا « بالحواس الخمس » .. فهم يرون .. أن « المعروف » – أي للمعرفة – « لا تخرج عن المشاعر الخمسة » – أي الحواس الخمس – ! .. ولما كان الله ، سبحانه وتعالى ، لا تدركه – تجده – هذه المشاعر الخمسة .. فلا سبيل إلى معرفته .. لقد خرج من « المعروف » ودخل – حسب مذهبهم – « في المجهول » !؟ ..

على هذا النحو كان مذهب الديانات الوضعية في المعرفة الحسية ..

فكيف واجهها المسلمون ؟ . وكيف ردت على هذه المعرفة الحسية مقالات الإسلاميين !؟

لنستكمل قراءة النص .. فهو يقول :

إن الجهم بن صفوان – الذي عجز عن الرد على السمنية – كتب ، بوقائع هذه المناظرة ، « إلى واصل بن عطاء . فكتب إليه واصل :

إن المعروف لايخرج عن المشاعر الخمسة ومن الدليل .. فارجع إليهم الآن ، وقل لهم : هل تفرقون بين الحي والميت !؟ وبين العاقل والمجنون !؟ فإنهم يعترفون بذلك وإنه يُعـــرف بالدليل لابغيره ! .. »

هنا فى هذا الجزء ، من هذا النص ، يقدم واصل بن عطاء الإضافة الاسلامية فى نظرية المعرفة .. فهو لاينكر المعرفة الحسية ولكنه لا يقتصر عليها ، وإنما يضيف إلى أدواتها - المشاعر - الحواس الخمس - يضيف « الدليل » .. والدليل ليس حاسة مادية ، وبه يدرك الإنسان المعارف والعلوم غير المادية ، والتى لاتخضع لتجارب الحس والحواس ..

فالدليل - لغة - : هو المرشد والمنبه - واصطلاحا - : هو الذى يلزم من العلم به العلم بشىء آخر .. هو الذى يقود الذهن إلى التسليم بحقيقة قضية كانت موضع شك ، ومن قبل ، قد يكون : مجرد أمارة أو ظاهرة معينة ، أو شهادة شاهد ، أو ضربا من الاستدلال المنطقى (٥) .

فالدليل ، ليس فقط الحاسة التى تدرك المحسوس ، بل قد يكون : لازم العلم بالمحسوس .. والادراك به ليس مباشرا ، كحال الإدراك بالحواس .. ومثاله : أن يلزم من العلم بالمصنوع البديع - وهو محسوس - العلم بوجود الصانع المبدع - وهو معلوم غير محسوس ، لاتدركه الحواس .

لقد أضاف واصل بن عطاء «الدليل» إلى «الحواس الخمس » فعبر عن الرفض الاسلامى للمعرفة الحسية ، التى تقف بالمعروف عند «الواقع المحسوس» وبأدوات الادراك عند الحواس الخمس ..

ونحن عندما نتأمل الأمثلة التى طلب واصل من الجهم بن صفوان أن يتحدى بها السمنية نجد نماذج المعرفة الإسلامية، التى واجه بها الإسلاميون خصومهم فى هذا الميدان ..

لقد طلب منه أن يقول لهم : « هل تفرقون بين الحى والميت ؟ وبين العاقل والمجنون ؟؟ » وإذا كان جوابهم - ولابد أن يكون - بـ « نعم » لزمتهم الحجة ، لأن هذه التفرقة لاسبيل إليها إلا بـــ « الدليل» ! ..

« فالحياة » : ليست مادة تدرك بالحواس .. و «الموت» : ليس مادة .. وكذلك «العقل» و «الجنون» .. جميعها ليست مادة محسوسة ، تدركها الحواس . وواصل بن عطاء يصدر هنا عن الحقيقة القرآنية التى ضل عنها العلم الغربى الذى أثمرته موجه الفلسفة المادية والوضعية فظن أن العقل هو مادة الدماغ وأن الفكر والادراك والوعى ماهو إلا إنعكاس لهذه المادة .. واصل بن عطاء يصدر عن الحقيقة القرآنية التى رأت «العقل» : فعل التعقل ، وليس عضوا من أعضاء جسم الإنسان المادية .. والتى هى ، لذلك تحدثت عنه باعتباره «اللب» -

الجوهر لإنسانية الإنسان – تارة .. ثم باعتباره «القلب» ، لابمعنى : «اللحمة» الصنوبرية الشكل ، المستقرة فى التجويف الأيسر من الصدر .. وإنما بمعنى أن «القلب» – الجوهر – اللب – النهى – الذى يعقل ويفقه .. والذى – أيضا – يُخْتَم ويُطْبَع عليه بالغشاوات والأقفال ، هو : «لطيفة ربانية ، لها بالقلب الجسمانى تعلق .. وهى حقيقة الإنسان .. التى يسميها الفلاسفة : النفس الناطقة !» (٦)

لقد صدر واصل بن عطاء ، فى حديثه عن «المعروف غير المادى» – من مثل الحياة والموت .. والعقل .. والجنون – الذى يُدرَك بـ «الدليل» – وليس بالحواس الخمسة لقد صدر عن الحقيقة القرآنية .. وعن النمط الإسلامى فى المعرفة ، ذلك الذى لايقف بالمعروف عند «المحسوس» ، ولابأدوات المعرفة عند «الحواس» ! ..

أما خاتمة هذا النص التراثى ، الذى رواه أبو القاسم البلخى ، فى كتابه (مقالات الاسلاميين) عن أبى الحسن بن فرزوية .. فإنها تقول :

إن جواب واصل بن عطاء لما جاء إلى الجهم بن صفوان ، رجع به على السمنية ، فقالوا له :

– ليس هـذا من كلامك ؟! فمن أين لك ؟!

– قال : كتب به إلىّ رجل من العلماء بالبصرة ، يقال له : واصل . فخرجوا إليه (إلى واصل) – وكلموه ، فأجابوه إلى الإسلام ؟! .. » (٧)

ذلك مثال – مجرد مثال لمنهج «إسلامية المعـــرفة» الذى واجه به الاسلاميون ، بعد الفتوحات، مذاهب «المعرفة الحسية» التى كانت سائدة فى دوائر الفكر لدى أهل الديانات الوضعية ، التى تنكر «مصدر الوحى» وتقف بالمعرفة وأدواتها ومصادرها عند المحسوس المُدْرَك بالحواس ..

* * *

وإذا كانت الحضارة الإسلامية قد بدأت الترجمة لعلوم اليونان بـ « علوم الصنعة» – أى علوم التمدن المدنى – التى هى «مشترك إنسانى عام» – وذلك منذ مشروع الأمير الأموى العالم خالد بن يزيد (٩٠ هـ ٧٠٨ م) .. فإنها قد عرفت ، فى مجرى انفتاحها على هذه العلوم اليونانية ، إنسانيات ، بل وإلهيات اليونان .. ومنذ القرن الهجرى الثالث أصبحت الفلسفة اليونانية معروضة على العقل العربى .. فبدءا من الكندى ، يعقوب بن اسحاق (٢٦٠ هـ . ٨٧٣ م) أصبح أرسطو (٣٨٤ – ٣٢٢ ق .م) حاضرا فى المكتبة الإسلامية .. فأصبح لـ «المعلم الأول» – اليونانى – «المعلم الثانى» – العربى الذى كتب – ضمن ماكتب – : (إلهيات أرسطو) والذى قال عنه ابن جلجل ، أبو داود

سليمان بن حسان الأندلسى : « .. ولم يكن فى الاسلام فيلسوف غيره احتذى فى تواليفه حذو أرسطاليس .. » .. فلقد إجتهد لإثبات « التوحيد » و « النبوة » بمنهج اليونان فى المعرفة .. مذهب « أصحاب المنطق فى سلوك مراتب البرهان .. » (٨) فكان أن انفتح فى ساحة الفكر الإسلامى باب جديد ، وواسع ، لمقالات غير الاسلاميين !

ولقد كان طبيعيا أن تستفز هذه « المقالات » لغير الاسلاميين .. « مقالات الاسلاميين » .. فشهدت الحياة الفكرية الإسلامية ، غير (مقالات الاسلاميين) للبلخى الذى سبقت الاشارة إليه - كتاب الأشعرى ، أبو الحسن (٢٦٠ - ٣٢٤ هـ ٨٧٤ - ٩٧٦ م) الذى حمل ذات العنوان .. وكتابه العامرى ، أبو الحسن محمد بن يوسف (٣٨١ هـ ٩٩٢ م) : (الإعلام بمناقب الإسلام) ، والذى يعد أول أثر فكرى ، عثرنا عليه في مقارنة الأديان - الاسلام - واليهودية - والنصرانية - والزرادشتية - والوثنية - والصابئة .. وهو الكتاب الذى أجاب فيه على سؤال : « لماذا أقبلُ الإسلامَ وأرفضُ غيره من الأديان ؟؟ .. » .

ثم مشهد هذا التدافع الفكرى بين المنهج الاسلامى فى المعرفة ومناهج المعرفة لدى الملل والنحل غير الاسلامية ، تلك الأعمال الفكرية البارزة فى المقارنة والموازنة والمفاضلة بين الأديان (الفصل فى الملل والأهواء والنحل) لابن حزم الأندلسى (٣٨٤ - ٤٥٦ هـ ٩٩٤ - ١٠٦٤ م) . و (الملل والنحل) و (مصارعات الفلاسفة) للشهرستانى ، محمد بن عبد الكريم (٤٧٩ - ٥٤٨ هـ ١٠٨٦ - ١١٥٣ م) . والبناء الفكرى الذى أقامه حجة الإسلام ، أبو حامد الغزالى (٤٥٠ - ٥٠٥ هـ ١٠٥٨ - ١١١١ م) لتميز المنهج الاسلامى عن كل من المنهج اليونانى والمنهج الغنوصى الباطنى - (تهافت الفلاسفة) و (مقاصد الفلاسفة) و (فضائح الباطنية) و (ميزان العمل) و (القسطاس المستقيم) و (معيار العلم) و (إحياء علوم الدين) .. إلخ فلما جاء شيخ الاسلام ، ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم (٦٦١ - ٧٢٨ هـ ١٢٦٣ - ١٣٢٨ م) كان جهاده على جبهة تميز المنهج الاسلامى فى المعرفة الوجه الآخر المكمل لجهاده بالسيف ضد أعداء دولة الإسلام وأمته وحضارته !؟ .. فكما ذاد ، بالسيف ، عن ديار الاسلام ذاد ، بالقلم ، عن عقيدته ، وعن منهاج هذه العقيدة فى تحصيل المعارف والعلوم ،

فكان من عطائه على هذه الجبهة : (الجمع بين النقل والعقل) – درء تعارض صريح المعقول مع صحيح المنقول ونقض المنطق) – الذى حاول فيه بناء منطق إسلامي لعقيدة التوحيد ، مرتبط بالعربية – لسان الإسلام – بديل لمنطق أرسطو – الخاص بلغة اليونان ، ووثنيتها – .. وكذلك : (الرد على ابن عربي والصوفية) و (اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أهل الجحيم) ... الخ .. الخ ..

وفى سياق هذا الجهد الفكرى .. الذى استهدف تميز منهاج المعرفة الاسلامى عن منهاج المعرفة الحسية ، شهدت المكتبة الاسلامية العديد والعديد من الكتابات .. والتى يبرز فيها كتاب ابن الوزير اليمني ، محمد بن ابراهيم (٧٧٥ – ٨٤٠ هـ ١٣٧٣ – ١٤٣٦ م) : (ترجيح أساليب القرآن على قوانين المبتدعة واليونان) .. ذلك الذى أحيا فيه منهج المعرفة القرآنى .. منهج إسلامية المعرفة فى مواجهة ومقارنة ونقد مناهج المعرفة الحسية ، غير الاسلامية ...

وهكذا ، كانت المواجهة بين إسلامية المعرفة وبين مناهج المعرفة الحسية ، والغنوصية بدءا بالمواجهة القرآنية لمناهج الشرك والدهرية فى المعرفة .. والتى واصل الفكر الإسلامى مسيرتها عندما تصدى لمناهج المعرفة الحسية والغنوصية ، تلك التى سادت فى دوائر الفكر لأهل الديانات الوضعية التى تداخلت مع مقولاتها « مقالات الإسلاميين » ! ..

لقد ظل « البديل الإسلامى » فى المعرفة ، مرفوعة راياته ، فى هذا التدافع الفكرى ، عبر تلك القرون ! .

هوامش

(١) أنظر فى الانتشار التدريجى للإسلام : هارى . و . هازارد (أطلس التاريخ الإسلامى) ص ٥ ، ٦ ترجمة ابراهيم زكي خورشيد . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥ . و : د . حسين مؤنس (أطلس تاريخ الإسلام) ص ٣٣ طبعة القاهرة سنة ١٩٨٧ م و : أرنولد . سير توماس . و (الدعوة إلى الإسلام) ص ٩٨ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ترجمة د . حسن ابراهيم حسن ، د . عبد المجيد عابدين ، اسماعيل النحراوى . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م . وآدم ميتز (الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى) المجلد الأول ص ٧٥ ، ٨٤ ، ١٠٥ ، ترجمة د . محمد عبد الهادى أبو ريدة . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧ م .

(٢) البقرة : ٢٥٦ .

(٣) أرنولد (الدعوة إلى الإسلام) ص ١٠٣ .

(٤) التهانوى (كشاف اصطلاحات طبعة الهند سنة ١٨٩٢ .

(٥) أنظر الجرجانى (التعريفات) و المعجم الفلسفى) وضع مجمع اللغة العربية . القاهرة .

(٦) الجرجانى (التعريفات) .

(٧) البلخى ، والقاضى عبد الجبار بن أحمد ، والحاكم الجشمى (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٢٢٦ . تحقيق : فؤاد سيد طبعة تونس ١٩٧٢ م

(٨) أنظر ابن جلجل (طبقات الاطباء والحكماء) ص ٧٣ ، ٧٤ تحقيق فؤاد سيد طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥ م.

دائرة حوار

الجامعة الأهلية

بين تكافؤ الفرص وإصلاح التعليم

بقلم د . شبل بدران *

يعد التعليم الخاص من أبرز مظاهر عدم المساواة أمام فرص التعليم . ففى معظم المجتمعات لايتناسب المعروض من أماكن الدراسة فى التعليم الرسمى والطلب الاجتماعى على التعليم . ومن ثم يستطيع القادرون ماليا التغلب على تلك المشكلة بإدخال ابنائهم فى التعليم الخاص ، والذى يتطلب نفقات مالية لايستطيع عليها إلا أبناء الفئات الميسورة ، وأبرز علامات عدم المساواة الناجمة عن وجود التعليم الخاص تتمثل فيما يوفره هذا التعليم من نوعية ممتازة من التعليم فى معظم الحالات ، الأمر الذى يترتب عليه أن ينافس خريجى التعليم الرسمى وخاصة فى أنظمة التعليم التى تتخذ مستوى النجاح فى الامتحانات المدرسية معياراً لمواصلة التعليم فى المستويات الأعلى ، ومعنى ذلك أن الفئات الميسورة التى توفر لابنائها تعليماً خاصاً حتى مستوى الثانوى ، تستأثر بقدر كبير من أماكن التعليم الرسمى على مستوى الجامعة على حين تحتل الفئات الأخرى عدداً من الأماكن لا يتناسب وثقلها فى التركيب السكانى ، وبتعبير آخر يتعلم أبناء الفئات الميسورة على حساب ما يدفعه أباء الأخرين من ضرائب للخزانة العامة .

---

* أستاذ أصول التربية المساعد . كلية التربية - جامعة طنطا .



مصطفى عبد الرازق



قاسم امين



محمد فريد

الجامعة والمجتمع

إن العلاقة بين الجامعة والمجتمع علاقة جدلية فى أساسها ، بمعنى أن ما يصيب الجامعة من تدهور قيمى وعلمى وبحثى ، هو نتاج طبيعى لما يفرزه المجتمع من سلبيات على الجامعة ودورها كمؤسسة اجتماعية تلعب دوراً وطنياً وطليعياً فى بلدان العالم الثالث ، وكذلك ما يناط بها من ثورية محورية فى مواجهة قضايا مجتمعية عديدة منها : العدل الاجتماعى والحريات العامة والديمقراطية ، وشيوع المناخ الملائم لتطور وتقدم المجتمع بما يحقق مصالح الغالبية العظمى من المواطنين .

لذلك كانت نشأة أول جامعة فى مصر (الجامعة الأهلية ١٩٠٨) ، نشأة وطنية فى الاساس ، وفى ظل صعود الطبقة الوسطى المصرية ، والحركة الوطنية التى وضعت أمامها هدفا أساسيا ، تكرس فى الاستقلال السياسى عن القوى الأجنبية والاستعمارية ، والاحتلال البريطانى خصوصا ، والدفاع عن الثقافة الوطنية فى مواجهة طغيان الثقافة الانجليزية والفرنسية والدليل على ذلك المعارك الوطنية التى خاضتها الجامعة المصرية - بعد دمجها فى الجامعة الحكومية (عام ١٩٢٥) متمثلة فى معارك طه حسين ومصطفى عبد الرازق فى الثلاثينات ومعارك أحمد أمين عميد كلية الآداب ، واستقالته احتجاجا على نقل بعض الأساتذة ، ولقد لعبت الجامعة المصرية دورا كبيرا فى الصراع السياسى والاجتماعى الذى شهدته البلاد فى الثلاثينات والاربعينات ، بل إن تكوين الجماعات الوطنية - اللجنة الوطنية للعمال والطلبة - تم داخل أسوار الجامعة .

دائرة حوار

ولقد غاب هذا الدور الوطني والسياسي بعد تأميم دور النقابات المهنية والجامعات والمنظمات بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ وللآن ، والدرجة التي بارك فيها رؤساء بعض الجامعات وأصحاب الرأى نقل ٦٤ أستاذاً من الجامعة إلى وظائف خارجها عام ١٩٨١ ، مما دعم دور السلطة السياسية في احتواء وقمع الحريات العامة والحريات الاكاديمية بوجه خاص .

ولا شك إنه في ظل ظروف المجتمع المصرى الحالية ، والذى يواجه التبعية بكافة أشكالها للغرب الرأسمالي ، والتخلف المعرفي والاقتصادى ويعانى من سوء أحوال معيشة الغالبية العظمى من أبناء الشعب ، عماله وفلاحيه ومثقفيه ، ومن النشاط الطفيلي الواسع الذى تكون ثماره على حساب الغالبية الساحقة من أبناء الوطن ، لا تستقيم الدعوة بانشاء جامعة أهلية للفاشلين علميا والميسورين ماليا . لأن الشواهد المجتمعية تؤكد إخفاق خطط التنمية فى استيعاب الخريجين الجدد ، وزيادة معدل البطالة والذى بلغ حوالى ٢٠٪ بما يعادل ٣ ملايين عاطل ، وتدهور العملية التعليمية فى التعليم الجامعى الحالى . ومن هنا فإن استقامة الدعوة يكون بتوجيه الجهود نحو تطوير وتدعيم التعليم الجامعى الرسمى وحث رأس المال الخاص على تقديم الدعم المادى لعملية التطوير .

فكرة الجامعة الأهلية

على الرغم من أن التعليم الجامعى فى مصر يمكن رده إلى ألف سنة مضت منذ بدأت الدراسة فى الجامع الأزهر ، فإن ما اصطلحنا على تسميته بالتعليم الجامعى لا ترتبط خيوطه ارتباطا وثيقا بالماضى ، لا من حيث مواد الدراسة ، ولا من حيث منهج التدريس ، ولا من حيث الأهداف والغايات المنشودة من التعليم الجامعى ، وذلك لاختلاف الزمان وتطور الواقع الاجتماعى والسياسى والاقتصادى للمجتمع المصرى .

ففى يوم ١٢ اكتوبر عام ١٩٠٦ اجتمعت نخبة من أهل الرأى والفكر والوطنية معتزمة إنشاء جامعة أهلية ، وكان القائم عندئذ من التعليم العالى مدارس تتبع وزارة المعارف ، ولم يمض عام منذ ذلك التاريخ حتى افتتحت الجامعة الأهلية ، وأرسلت البعوث العلمية إلى أوروبا ليعود أعضاؤها فيضطلعوا بالتدريس فيها ، كما دعت نفرا من أساتذة الجامعات الأوروبية فنظموا مع طائفة من الاساتذة المصريين دراسات فى التاريخ والادب العربى والفلسفة والاقتصاد .

وفى عام ١٩١٧ فكرت الحكومة المصرية فى إنشاء جامعة على أن تضم المدارس العالية القائمة وتتنذ إلى إدارة واحدة تكون هى الجامعة ، وفى عام ١٩٢٢ تم الاتفاق بين الحكومة والجامعة الأهلية ، على ادماج الجامعة الأهلية فى الجامعة الجديدة ، على أن تكون الجامعة القديمة نواة لكلية الآداب ، وفى ١١ مارس ١٩٢٥ صدر مرسوم بقانون بانشاء الجامعة الحكومية باسم « الجامعة المصرية » مكونة من كليات أربع هى : كلية الآداب ، كلية العلوم ، كلية الطب ، كلية الحقوق . وبعد عشر سنوات فى عام ١٩٣٥ أدمجت فى الجامعة مدرسة الهندسة ومدرسة الزراعة العليا ، ومدرسة التجارة العليا ، ومدرسة الطب البيطرى وحل اسم « كلية » محل اسم « مدرسة » بالنسبة إليها جميعا .

ولعل إنشاء الجامعة الأهلية ، كان يرتبط بحركة القوى الوطنية والسياسية التى كانت سائدة فى المجتمع المصرى منذ أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، وكان على رأسها نفر غير قليل من المناضلين السياسيين الذين تبنوا القضية الوطنية فى مواجهة القوى الاستعمارية من أمثال مصطفى كامل ، وعبد الله النديم ، ومحمد عبده ، ومحمد فريد وقاسم أمين ، وغيرهم ، ومن الوطنيين المصريين الذين حاولوا الدفاع عن الثقافة الوطنية والهوية المصرية فى مواجهة طغيان الوجود الإنجليزى والفرنسى ثقافيا وسياسيا وعسكريا فى مصر .

ومنذ مطلع السبعينات وتحديداً ، بعد سياسة الانفتاح الاقتصادى وتخلُّق شرائح وفئات اجتماعية جديدة ارتبطت مصالحها بتلك السياسة ، وفكرة إنشاء جامعة أهلية (خاصة) بمصروفات تراود الرأسمالية المصرية ، محاولة إيجاد قناة تعليمية توفر لابنائها - الفاشلين دراسيا - فرصا للالتحاق بالتعليم الجامعى لتولى المناصب العليا ، وإدارة شئون المجتمع ومنذ ذلك التاريخ والفكرة يعلو ضجيجها حينا ، وتُقاوَم شعبيا ، ثم يخفت الضجيج ، لكن سرعان ما تعاود الكَرَّة مرة أخرى .

ولكن الجدل من قِبَلِ المعارضين بسبب المخالفة الدستورية والايديولوجية والمؤيدين الذين يحاولون الاستناد للدستور لدعم حجتهم بأن التعليم مجانى فقط فى المؤسسات التعليمية التى تشرف عليها الدولة . أما بالنسبة لموقف مؤسسات الدولة فقد اتسم بالتخبط البين وهو ما يتضح من موقف مجلس الشعب ووزارة التربية والتعليم ورئاسة الحكومة ، إضافة لعدم حسمه داخل المجالس القومية المتخصصة ، ورغم ان الجدل قد توقف نسبيا لعدة أعوام بسبب موقف الرئيس الراحل السادات فى عام ١٩٨٠ الداعى لإرجاء إتخاذ قرار بشأن هذا الموضوع .

إلا إنه عاد مرة أخرى منذ منتصف الثمانينات وذلك عندما طُرحت وزارة التعليم العالى عام ١٩٨٦ فكرة إقامة جامعة تكنولوجية ، وعندما وافق المجلس الأعلى للجامعات فى عام ١٩٨٨ - بعد إقرار استراتيجية تطوير التعليم فى مصر ، فى يوليو ١٩٨٧ على إقامة جامعة أهلية وكانت آخر المواقف فى هذا الشأن موافقة وزير التربية والتعليم . فى أغسطس ١٩٨٩ على اقتراح تقدمت به جمعية « اقرأ ؟ !! » لإنشاء جامعة للعلوم التكنولوجية .

والشئ الأكيد أن سياسة التعليم الحالية والواردة « باستراتيجية تطوير التعليم » والتى طُرحت فى يوليو ١٩٨٧ عازمة على المضىّ بخطوات أكيدة فى إنشاء تلك الجامعة وذلك استكمالا للمشروع الذى تدور فى فلكه مصر منذ مطلع السبعينات ، وهو التزاوج بين رأس المال المصرى والأجنبى ورفع الدعم عن التعليم كما تم رفعه عن السلع الضرورية للمواطن المصرى ، والتعامل مع التعليم بوصفه سلعة فى السوق يشتريها من يستطيع أن يدفع ثمنها ، والجديد فى الموقف الراهن هو تقديم حُجَج واهية للدفاع عن تلك الجامعة ، وهو فى حقيقته دفاع لفكر فى مواجهة الفكر الوطنى الذى مازال يؤمن بأن التعليم حق للمواطن ولا سيما الفقراء والكادحين ، وأن الدولة التى تشرف عليه وتنفق عليه لابد أن توفره لأنها هى المستهلك الوحيد للخريجين فى سوق عملها .

مشاكل التعليم الجامعى

يواجه التعليم الجامعى فى مصر مثله مثل كثير من بلدان العالم الثالث على تعدد مستوياتها الاقتصادية ، مشاكل ومطالب متعددة ومختلفة ، لعل من أبرزها ما يطلق عليه بظاهرة الأعداد الكبيرة والراغبة فى التعليم الجامعى . ومع الزيادة فى أعداد الطلاب الراغبين فى التعليم الجامعى وقلة الأماكن المتاحة والمحددة ، مهما زادت ، أمام الرغبات المتزايدة ، فإن الاتجاهات فى مصر تتضارب من أجل البحث عن حل فى فترة من التاريخ أبرز ما فيها الأزمة الاقتصادية والديون وتبعاتها ، وترتفع أصوات من يرون للحل فى ضرورة إنشاء جامعة أهلية - خاصة - تستوعب أبناء القادرين الراغبين ليتركوا أماكنهم لغيرهم فى الجامعات التابعة للمجلس الأعلى للجامعات ، ومنهم من يرون إعادة النظر فى مجانية التعليم - وترشيده - والتى سمحت للكثيرين من الفقراء بالتطلع لهذا التعليم العالى ، وهناك من يشهرون سلاحهم من زاوية أخرى حيث



طه حسين — أحمد أمين

يطالبون بالربط بين التعليم واحتياجات سوق العمل ، وبهذا يتم تقليل الأعداد الملتحقة بالتعليم العالى ، ولا شك فى ان كل تلك الرؤى تعبر بجلاء عن الإطار الفكرى والايديولوجى لاصحابها ، وهى تنتسب إلى منظومة المشروع التبعى برمته والذى طرح فى مصر بشدة منذ مطلع السبعينات .

قوى التأييد

تستند تلك القوى الاجتماعية فى تأييدها لإنشاء جامعة أهلية بمصروفات إلى حجج أهمها :

– إن هناك العديد من الطلاب يسافرون إلى خارج الوطن لمواصلة التعليم الجامعى والعالى .. وينفقون الكثير من الأموال والدولارات فى سبيل ذلك ، وان توفير تلك المبالغ سيعود على الوطن بالخير الوفير .

– إن التعليم فى مصر الآن ، لم يعد مجانيا ، ولكنه أصبح بمصروفات طائلة على رأسها الدروس الخصوصية والمصروفات المدرسية ... إلخ .

– إن هناك الجامعة الأمريكية والمدارس الخاصة والأجنبية فى مراحل التعليم قبل الجامعى ، ومن هنا فما الضرر من مد الخط على استقامته ومواصلة تلك الاشكال والصيغ فى التعليم الجامعى والعالى .

– إن مصر الآن تدعو وتنتهج طريق « الخصخصة » وتحرير الاقتصاد ، فلماذا لا يحرر التعليم والثقافة أولاً ، حتى تكتمل حلقات الدائرة فى الخصخصة المجتمعية ؟

ومما سبق يتضح أن مبررات الإنشاء لا تستند إلى أى مبرر تربوى أو تعليمى أو فنى ولكن المبرر الوحيد هو مبرر فئوى ، أى أن هناك جماعات أو فئات ، ترى أنها ما دامت تملك الثروة بكافة أشكالها ، فلا يجب ان يحول عائق فنى أو تربوى دون تعليم أبنائها – تعليما جامعيا ، ما دامت تملك القدرة المالية ، بغض النظر عن تكافؤ الفرص أو ديمقراطية التعليم .. ومن هنا فبدلا من الدعوة إلى ترسيخ المساواة والعدل ، يتم الشروع فى الدعوة إلى التفاوت وتكريس كل ما هو سلبى وضد مصالح الغالبية العظمى .

قوى الرفض

تنطلق تلك القوى فى رفضها لإنشاء جامعة أهلية بمصروفات من منطلقات على رأسها ان التعليم الخاص بكافة صوره

دائرة حوار

وأشكاله ومستوياته ، يقوض تكافؤ الفرص ويكرس التفاوت الاجتماعي والثقافي داخل بنية المجتمع . وأن التعليم حق للراغبين فيه والقادرين عليه معرفيا وبدون عوائق مادية أو جغرافية أو عرقية .. ويسوقون مبررات عديدة لذلك أهمها :

– ان التعليم بنص الدستور (المادة ٢٠) مجاني وتشرف عليه الدولة في كافة مراحله . وان ذلك يعد صمام أمان اجتماعي وسياسي ، وعامل هام من عوامل تضييق الفوارق الإجتماعية والطبقية بين أبناء الوطن الواحد .

– إن بمصر أربع عشرة جامعة ، بها العديد من الكليات في كافة التخصصات العلمية والفنية ، إلى جانب المئات من المعاهد العليا الفنية بكافة تخصصاتها ، وليس المجتمع في حاجة إلى جامعات جديدة أو كليات جديدة ، بقدر ما هو في حاجة إلى دعم وتطوير ما هو قائم فعلا .

– إن التعليم العالي والجامعي في مصر يعاني من مشكلات جمة في التمويل والانفاق والتجهيزات وضيق الأماكن . بل ندرتها سواء للطلاب أو لأعضاء هيئة التدريس والذين يعانون ظروفا معيشية قاسية ، والأجدر بالدولة ورأس المال الخاص الذي يستفيد من مخرجات التعليم العالي والجامعي ، أن يدعم ويوفر المال اللازم لتحسين أداء العملية التعليمية في الجامعات المصرية . وأن كان هناك أهل خير يريدون دعم التعليم العالي والجامعي فان الفائدة ستعود على المجتمع بكافة فئاته وطبقاته الاجتماعية .

– إن نسب البطالة ارتفعت بشكل مخيف وفي تخصصات يندر أن توجد في مجتمع نام مثل الزراعة والهندسة والتجارة وغيرها .

فأعلى معدل للبطالة يقع في الفئة العمرية ما بين ١٥ – ٢٩ سنة ، وتبلغ نسبتهم ٢٦٪ ومعنى هذا أن ربع شباب وشابات مصر القادرين على العمل والراغبين فيه لا يجدونه ، وكذلك ارتبط مستوى التعليم في مصر بمستوى البطالة بطريقة مخالفة للمنطق فزيادة درجة التعليم تؤدي إلى زيادة احتمال التعرض للبطالة .

والاحصائيات لعام ١٩٨٦ تؤكد أن نسبة البطالة بين الاميين ٤٪ والملمين بالقراءة والكتابة ٥ر٤٪ وترتفع بين حملة المؤهلات أقل من المتوسطة – الإعدادية – مثلا إلى ٢ر١١٪ ، وترتفع الغاية بين حملة المؤهلات المتوسطة وأقل من الجامعية إلى ٧ر٢٨٪ وبين المؤهلات الجامعية والأعلى إلى ٢ر٢٥٪ . وهذا أمر مفزع ، فالمفروض أن الشخص يجتهد في تحصيل العلم لكي يجد في النهاية فرصة عمل ، لا العكس .

والسؤال : هل نحن في حاجة إلى جامعة جديدة بمصروفات تكرس البطالة

وتفاقمها ؟! . أليس في هذا تغليب للمصلحة الخاصة على المصلحة العامة ، والمفروض في التعليم أن يحقق التوازن بين مصالح الفرد ومصالح الجماعة ؟! .

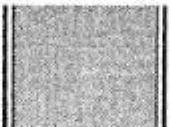
إذا كان أعضاء هيئة التدريس بالجامعات المصرية يعانون من سوء الأحوال وتدنى مستوى المعيشة . فهل ستكون الجامعة الأهلية حلما أمامهم وبديلا عن السفر والإعارة ؟ ونزفا للامكانات البشرية المتوافرة بالجامعات الحكومية والتى انفقت الدولة على تعليمها وتدريبها الكثير من الأموال . لصالح الجامعة الأهلية المزعومة . والسؤال : من أين سيأتون بأعضاء هيئة التدريس ؟ هل بالاستقدام من الخارج ؟ وذلك مكلف ماليا ومرهق ثقافيا وقيميا واجتماعيا .. هل بالإعارة من جامعات الدولة ؟ وذلك سيكون على حساب جامعاتنا التى تعانى مشكلات جمة باعتراف الكثيرين .

تظل مشكلة التمويل رئيسية أمام إنشاء تلك الجامعة . فما تم الإعلان عنه للآن من تبرعات لا يتجاوز ٢٥ مليون جنيه ، وإنشاء جامعة علمية ذات تخصصات فريدة وحديثة ، كما يدعون تحتاج مالا يقل عن خمسة أو عشرة مليارات من الجنيهات للإنشاء والتجهيز فى المبانى والمعامل وغيرها والسؤال : هل ستدعم الدولة ذلك ماديا ؟ أم معنويا كما هو حادث الآن ؟ فتبنى وزير الإسكان المشروع وحديث وزير التعليم يعد دعما معنويا لذلك الأمر ويعد إطارا للمشروعية المجتمعية .. لأن الحديث عن الإنشاء لم يأت فقط من أصحاب رأس المال أو المتحمسين للمشروع . بل هو حديثهم وحديث رجالات الدولة على حد سواء ..

إن هذه الجامعة لن يلتحق بها الا أصحاب المجاميع المنخفضة ، لأن أصحاب المجاميع المرتفعة . ليس لديهم الدافع للالتحاق بها ودفع مصروفات تربو على ٢٥ ألف جنيه مبدئيا ، وأمامهم فرصة الالتحاق بالجامعات المصرية ذات المكانة العالية والسمعة العلمية الطيبة إذن سيلتحق بتلك الجامعة الفاشلون دراسيا والقادرون ماليا ، وتلك حقيقة لا جدال فيها ، وذلك يعد هدرا للديمقراطية فى التعليم وتكافؤ الفرص وسيكون لذلك التمايز المادى آثاره المدمرة اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا فى المستقبل القريب .

ومادامت الخصخصة هى مشروع اليوم فى تحرير الاقتصاد المصرى ، فان خريجى تلك الجامعة سيجدون فرص العمل بعد التخرج بشكل أفضل من نظرائهم فى الجامعات الحكومية ولا سيما فى مجال القطاع الخاص والمشروعات التى سوف تتبنى أبناء تلك الجامعة بحكم أنهم أبناؤهم .. مما سيكون له مردود إجتماعى وسياسى سيئ فى المستقبل القريب أيضا .

إن الدعاوى التى يسوقها أصحاب ومؤيدو الجامعة الأهلية الخاصة ، هى جد



دائرة حوار

متهافتة ، ولا تعبر عن ضرورة تربوية أو علمية ، بقدر تعبيرها عن رغبة فى التمايز الاجتماعى والمعرفى ، وخلق نتوءات فى جســد التعليم المصرى وإتاحة الفرصة لأبنائهم لكى يحصلوا على ما يرغبون فيه بأموالهم فقط ، وليس بقدراتهم وإمكاناتهم العلمية والمعرفية . فبدلا من تطوير وتحديث وتدعيم ما هو قائم - بحكم حاجته للدعم - فى جامعاتنا ، وفتح شعب جديدة متطورة لمواكبة العصر كما يزعمون . وبدلا من أن تلعب الرأســمالية المصرية الوطنية دورها الوطنى والحقيقى فى البنــاء الثقــافى والتعــليمى والتربوى - كمــا ســبق للبرجوازيات الأوربية أن لعبته - فهى تختار دور التمايز والتشويه .

نحن إذن .. أمام اقتراح - أخذ شكل التنفيذ الفعلى - بإنشاء جامعة أهلية من المتعذر قيامها فى ضوء الخبرات التاريخية وطبيعة الرأســمالية الطفيلية التى تدعو إلى ذلك ، وكذلك من المتعــذر فى حــالة قيــامها أن يلتحــق بها ســوى الطــلاب الفاشلين دراسيا ، والذين يجرون وراء جامعات بيروت والخرطوم وتركيا ورومانيا وغيرها ، لكى يحصــلوا على شــهادات جامعية يستكملون بها الشكل الاجتماعى ، على عكس المتفوقين من أبناء الطبقات الوسطى وما دونها ، وعلى هذا فإن هذه الفكرة تطرح عاكسة بذلك الإفرازات التى افرزتها سياسة الانفتاح الاقتصادى وخلق طبقة من أصحاب الدخول العليا ، وتسعى إلى تقويض المكتسبات الشعبية والوطنية فى مجانية التعليم وتكافؤ الفرص . وخلق التناقض الطبقى وتأكيد عدم المساواة بين فئات وطبقات الشعب المختلفة .

وأخيرا علينا الا ننسى دروس التاريخ من أن فكرة إنشــاء جــامعة أهلية فى مصر ، تمت فى احضــان الحركة الوطنية وكفاح الشعب المصرى ضد القوى الأجنبية المسيطرة عسكريا وثقافيا وتعليميا . كانت الفكرة إنشاء جامعة لتخريج كوادر وطنية من المصريين يتبنون الدفاع عن وطنهم وقضــاياهم المصرية فى مواجهة أعتى استعمار غربى شــهدته مصر فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين . كانت الجامعة الأهلية (١٩٠٨) مشروعا وطنيا مستقلا للدفاع عن الهوية الثقافية المصرية والعربية . أما مشروع الجامعة الأهلية اليوم (١٩٩٢) فهو يتخلق فى أحضان الهيمنة الرأســمالية العــالمية ، وعبء الــديون وسياسات البنك والصندوق الدوليين ، والنظــام العــالمى الجــديد ذى القطب الواحد . العبرة واضحة والدرس جلى ، فهل من مستفيد ؟! ..

دائرة حوار

حول احتفال الغرب فى علم الاستغراب

نعم .. يجب أن ندعو إلى الاستغراب

بقلم : د . ابراهيم عوضين



إذا كان المخلصون العقلاء من أبناء أمتنا يسعدون حين يجدون مجلة أو صحيفة تفسح الميدان لتجلية الآراء الفكرية والأدبية على اختلاف اتجاهاتها ، من غير تعصب أو تحزب ، فإنهم أكثر سعادة وتفاؤلا حين تفسح المجلة ميدان الحوار الهادىء الرزين بين المفكرين وأصحاب الأقلام ؛ فذلك هو أقصر الطرق الموصلة إلى إنضاج الفكر وثرائه .

ولقد نجحت مجلة الهلال - على مدى مائة عام - فى أن تكون واحدة من أبرز المجلات العربية التى تفسح صفحاتها للرأى والرأى الآخر ، فحققت هذا التمكن والتغلغل فى عقول كل المثقفين العرب المعاصرين ووجدانهم ! .

دائرة حوار

وفى العدد الصادر فى أول مايو سنة ١٩٩٢ قدمت لقرائها الدكتور صلاح قنصوه فى مقاله (اعتقال الغرب فى علم الاستغراب) الذى يحاور فيه صديقه الدكتور حسن حنفى ، حول كتابه (مقدمة فى علم الاستغراب) حوارا علميا هادئا ، أقنعنى بأن كاتب المقال أستاذ يغلب عليه طابع الأستاذية فى حواره المستقصى ، الذى يعتمد على المناقشة المفندة .. إذا استثنينا تلك الغمزات التى طويت عليها بعض عباراته .

وقبل أن أقدم تعليقى .. أود أن أقرر أمرين مهمين :

فأولا : أنا لا أتقدم بتعليقى هذا دفاعا عن الدكتور حسن حنفى ، فعلاقتى بالدكتور حنفى تساوى علاقتى بالدكتور قنصوه ... لاتتجاوز المعرفة العامة من خلال إطلاعى على مقالة هنا أو هناك .

وثانيا : أنا لا أتقدم بتعليقى هذا عن كتاب الدكتور حسن حنفى فى موضوعه أو منهجه ، لأننى لم أتمكن بعد من قراءة هذا الكتاب .

فتعليقى إنما يدور حول بعض الأفكار والآراء العامة ، التى قدمها الدكتور قنصوه فى حواره .. ليس غير !.

الخداع بالعالمية

فى الفقرة الأولى ألمح الدكتور قنصوه إلى اختلافه مع الدكتور حسن حنفى حول قيمة الفكر الغربى ؛ فذكر – متهكما – أن الدكتور حنفى يدعو إلى إثبات خصوصية المذاهب الغربية ، وعدم إنسانيتها .

ولاشك فى أن مفهوم المخالفة يقرر أن الدكتور قنصوه لايسلم بهذه الخصوصية .. وسواء كان ذلك رأيه أم كان اختلافا مع رؤية الدكتور حنفى ، فإن الحكم على إنسانية الفكر وعالميته من أخطر الأحكام التى لابد من تجليتها، وتحديد المفاهيم فيها ، قبل الدخول فى أى حوار فكرى ؛ حتى لاينشط بنا الحوار لاختلاف المفاهيم .

إن ماأصابنا من ضعف فى هذا العصر وماسببه فرض علينا التسليم بكثير مما أطلقه السيد المنتصر ، ومن أبرز هذه المفروضات : التسليم بأن ارتفاع الصوت وسرعة الانتشار يستلزم منا الخضوع ؛ لأن ارتفاع الصوت وسرعة الانتشار من مظاهر الحقيقة ، وعنوان العالمية والإنسانية !.

وبواسطة ما يملكه السيد الغربى من أصوات عالية ، وإمكانات تضمن سرعة الانتشار .. أصبحنا ورقة فى مهب رياحه تلك ... يطلع علينا جماعة غربيون بمذهب يلحون به على أسماعنا فلا نملك إلا متابعته ، ونفاجأ بمذهب آخر مناقض

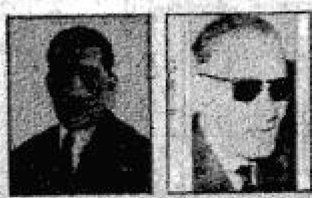
السابق ، يلحون به علينا ، فلا نجد مفرا من متابعته ، ثم يفاجئنا مذهب ثالث يناقض المذهبين السابقين ، فلانملك إلا أن نلهث وراءه – كذلك – حرصا منا على أن نضمن لأعمالنا وأفكارنا قسطا من العالمية، أو على أقل تقدير .. لنتعلق فى أذيال تلك العالمية المنشودة .

وبذلك أصبحنا قرودا ممسوخة ، قصاراها تقليد السيد ومتابعته ، إيمانا منا بأن فى التقليد تحقيق التحقيق الخير الذى لاخير غيره .

ولو أننا تمهلنا قليلا ، وأعدنا النظر فيما يحقق العالمية ، أو فيما تعنيه العالمية .. لوقفنا على مدى أمم الذى ران علينا ، والخداع الذى استبد بنا ! فليس الصوت المرتفع هو عنوان العالمية ، وليست سرعة الذيوع والانتشار هى أمارة العالمية ، وليس توالى طبعات الكتاب ، واستهلاك الملايين من النسخ هو علامة العالمية .

إن كلمة العالمية تشير إلى أن هذا الفكر أو المذهب يتضمن ما يلتقى عليه أبناء العالم من مشتركات ، فأبناء آدم جميعا تجمعهم مشتركات فطرية ، وتفرق بينهم خصوصيات نابعة من الظروف البيئية .

فإذا أردنا أن نصف بالعالمية مذهبا أو رؤية فكرية ، فلا بد من أن يكون هذا المذهب أو الرؤية الفكرية نابعة من القيم الإنسانية المشتركة التى لا يختلف فيها إنسان عن إنسان آخر !



د. طه حسين — سلامة موسى

أين نضع المذاهب الغربية ؟

ومن ثم ...إذا أردنا أن نقوم الفكر الغربى ونتعرف على مكان المذاهب الفكرية الغربية من العالمية ، فإن علينا أن نتعرف على أصول هذا الفكر ، وننظر فى الملابسات التى قامت فى ظلالها هذه المذاهب الفكرية ، ونقف على غايات هؤلاء المفكرين ومقاصدهم ؛ حتى تكون رؤيتنا محايدة صادقة .

ولاشك فى أن المجال – هنا – لايتسع لاستعراض المذاهب الغربية كلها ، فهى أكثر من أن يحيط بها مقال أو عشرات المقالات ؛ ولذلك فسوف أقتصر هنا على التمثيل بمنشا أحد هذه المذاهب ، وليكن هو المذهب – أو الاتجاه – الرومانسى ؛ ولذلك المذهب الذى استحوذ على مفكرينا وأدبائنا ونقادنا وفنانينا ، حتى أصبحت كلمة (رومانسى) من الكلمات التى تجرى على ألسنتنا فى وصف كل سلوك وجدانى، أيا كان هذا السلوك ! .

دائرة حوار

أظن أن كل مبتدىء فى الدراسات الفكرية المصرية يعرف أن الاتجاه (الرومانسى) كان فى نشأته رد فعل للفظ السياسى والاجتماعى المتسربل بسربال (الكلاسيك) ، حيث تولدت فى نفس الانسان الأوربى ثورة على (الكلاسيكية) وما جرته على الانسان هناك من متاعب .. فوجهه ثورته تلك لمناهضة دعامة (الكلاسيك) – وهو العقل الأرسطى أولا . والعقل فى عمومه ثانيا – ولكن ثورة الأوربى تلك دفعت به بعيدا عن التوازن الانسانى ، فانتقل من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال ؛ ليقع فيما وقع فيه أسلافه الكلاسيكيون من الفرار من ظلم إلى ظلم ، وليتحول من الخضوع للعقل التبريرى ، إلى الخضوع للقلب السلبى ، الواهن الضائع ، الهائم فى عالم الأحلام ، الهارب من موروثه الذى أنهكه وأتعبه فى ظل الحياة الاجتماعية . !

فالرومانسى – كما تعلم – ثائر أخرجته ثورته عن حد الاعتدال ، بما صورته له ثورته أنه تحرير للنفس ، حين اختلط عليه الأمر ، وتوهم أن ماكان يسود الكنيسة فى ذلك الوقت هو دين الله ، وأن مثل هذا الدين غريب عن الانسان الحر ، وأن المقصود بالدين تخدير الانسان وخداعه لتمكين السادة من التحكم فيه والسيطرة عليه ... ولم يستطع – بثورته تلك – أن يميز بين الدين ومبادئه وقيمه ، وبين أفكار رجال الدين ونزواتهم .

ومن ثم ... ثار الأوربى على الدين والعقل ، وأخضع نفسه وتصوره للقلب والعاطفة ؛ ولأن القلب فى تقديره هو وحده منبع الهام ، وهو أصدق وسيلة للرؤية الصحيحة المتحررة . فالرومانسية – كما ترى – تعنى بإحدى قوى الإنسان على القوى الإنسانية الأخرى ... كما كانت الكلاسكية ، ثم الواقعية ، البراجماتية ، والوجودية ، غير ذلك من المذاهب الغربية .. سواء تلك المذاهب الحديثة ، والمذاهب القديمة .

إن هذه المذاهب – فى مجملها – لم تكسب عالميتها من اشتمالها على المقومات الإنسانية الفطرية بنسبها المتوازنة ، ولكنها كسبت تلك العالمية من إعلاء صوتها ، والإلحاح على العالم بها فى ظل التسلط الاستعمارى الأوربى على الكثير من بقاع العالم – خصوصا عالمنا الإسلامى – فهى شهرة وذيوع ، وليست عالمية كما نرى؛ لأن العالمية إنما تعنى ارتباط الفكر بالعالم ، أى بالإنسان ، شرقيا كان أم غربيا ، معاصرا كان أم طواه الماضى ، أم مازال رهن المستقبل الآتى ...

فالفكر الإنسانى يتعامل مع الإنسان فى مختلف بيئاته ، وفى شتى ظروفه ... وهذا هو الذى يميز تعامل الدين السماوى مع الانسان ، وتعامل مفكر ذائع الشهرة – مثل أفلاطون وأرسطو – مع الانسان ؛ فأفلاطون كان يتعامل بفكره مع إنسان

بعينه كان يعيش معه فى زمن واحد ، وعلى أرض واحدة ، وفى ظل ظروف واحدة أما الدين السماوى فإن صدوره عن خالق الإنسان والكون يجنب فكرة الوقوع فى هذه الخصوصية التى يقع فيها الفكر البشرى الصادر بعيدا – أو مبتعدا – عن الوحدة الإسلامية الشاملة .

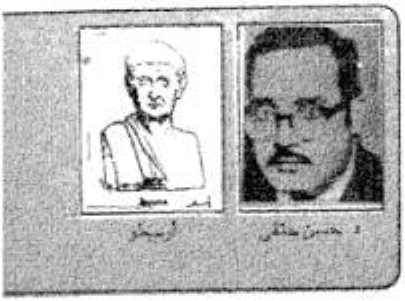
وإلا فقل لى بربك أين هذا المفكر أو المصلح الذى يؤمن اليوم بفكر أفلاطون ، أو أرسطو ، أو ابيقور مثلا يراه فكرا جديرا بالالتزام من أبناء العصر الحديث ليقود المسيرة ، ويصلح مافسد .؟!

إن الدعوة إلى التعرف على فكر الغرب هذا التعرف ، دعوة إلى حقيقة يؤيدها الواقع المستمد من النظر المتأنى فى منشأ هذه المذاهب الفكرية .!

الجديد فى هذه الدعوة

ولكن الدكتور قنصوه يرى أن لا جديد فى هذه الدعوة .. بحجة إتخام المكتبات العربية بالدراسات والرسائل الجامعية التى تبحث فى المذاهب والشخصيات والقضايا الفلسفية الغربية .. والتصدى لها بالعرض والتحليل والنقد .. فضلا عن مقارنتها بالفكر الإسلامى والعربى والشرقى بوجه عام .

ويبدو أن الدكتور قنصوه قد اختلط عليه الأمر ، فظن أن مثل هذا الجهد يغنى عن الدعوة إلى التبصر فى منشأ الآراء والأفكار والمذاهب الغربية ، مقدرا أن على الدارسين العرب والمسلمين أن يقصروا



د. حسن حنفى — أرسطو

جهدهم على الدوران فى محور الفكر الغربى – على القائم فعلا – من عرض وتحليل ونقد ومقارنة بالفكر الإسلامى ، بحثا عن نقاط التقاء الفكر الإسلامى بالفكر الغربى .

ولاريب فى أن هذا الذى قدره الدكتور، هو أمل الغربيين وغايتهم التى يحققون بها إحكام ربطنا بعجلتهم ، وترطيد تبعيتنا لهم ، حتى يصبح قصارانا .. أن نرصدهم ، فإذا دخلوا جحر ضب خرب دخلناه وراءهم ، من غير تمييز ولاتحفظ .. على نحو ماسبقت إليه دعوة الدكتور طه حسين فى (مستقبل الثقافة) حين دعا إلى أن نسير « سيرة الأوربيين لنكون لهم شركاء فى الحضارة ، خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، وما يحب منها ومايكره ومايحمد منها وما يعاب » ... هذا الذى كان دافعا لمثل سلامة موسى إلى أن يعلن تبرأه من شرقيته ، وأمله فى أن يرتبط بالغرب .!

وعلى نحو ماهو واقع اليوم من دعوة دائمة دائبة إلى استسلامنا للدوران فى

المحور الغربى استسلاما يدفع بنا إلى المتابعة العمياء – كما أراد طه حسين – ليس فى ميدان الفكر فحسب ، بل تعدى الفكر إلى السلوك والأزياء ، وغير ذلك ، فقد أصبح كل مايصدر من الغرب هو الصواب الذى لايناقش – حتى لو كان شذوذا وانحلالا – فإذا أبطرت المعيشة بعض الشباب هناك ، فخلعوا أنفسهم من تلك المعيشة الناعمة ، وقذفوا بأنفسهم عراة أوشبه عراة فى الميادين العامة ، ينامون على الأرصفة أو فى الحدائق العامة، مرسلين شعورهم فى غير نظام ولانظافة تحت اسم (الهيبز) ... تلحظ طائفة من شبابنا لمسايرتهم ، لأنهم يسايرون فى النموذج يتوهمون أنه النموذج .. أليسوا يتابعون شباب الغرب الرائد ؟!

أما الجديد الذى يجب أن تقوم عليه صلتنا بالفكر الغربى ودراستنا له (الاستغراب) فهو أن نغير طريقة التعامل مع هذا الفكر ، بأن نضعه فى حجمه المحدود ، بيئته التى نبت فيها ، وظروفه التى دفعت إليه ، ووسطه الذى رحب به يوما ما وهذا لن يتحقق بطبيعة الحال إلا إذا أسقطنا عنه ثوب القداسة الذى كساه أصحابه ومن حذا حذوهم .!

الحقيقة التى يجب أن تقوم عليها يقظتنا اليوم – والتى أرجو أن تكون مقصد الدكتور فى كتابه – هى أن الفكر الغربى محدود ناقص ، وأنه تشويه للفكر الإنسانى أو تزييف له ؛ لأن الفكر الإنسانى الحقيقى بذلك الوصف يجب أن يشمل كل المقومات الفطرية للإنسان من عقل وعاطفة ووجدان ومادة وروح .. وليس كما قرره هؤلاء الأسياد فى أذهاننا .. من أنه الفكر الإنسانى فى العالم ، الذى لايعدله فكر ، والذى يجب أن نظل مبهورين به ونفسح له مكان الريادة ، ونجعله محور دراستنا العلمية التى لايصح أن تتجاوز النظر فيما لدينا من فكر على ضوء الفكر الغربى ، لنترى مدى قرب فكرنا من هذا الفكر السيد .. فإذا بالغ الدارس أضاف إلى ذلك ما يثبت أن هذا الفكر الغربى ليس جديدا ، وإنما هو مسبوق بما يماثله فى فكرنا القديم ...

فالفارق إذن واضح جلى بين ما عليه الدراسة القائمة فعلا ، وبين مانرجو أن تصبح عليه دراستنا الفكر الغربى والتى أرى أن الدكتور حسن حنفى يدعو إليه اليوم ، على ماوضح فيما نقله الدكتور قنصوه من كتابه .

بين الاستشراق والاستغراب*

والدكتور قنصوه فى تفرقته بين الاستشراق والاستغراب – يذكر أن الاستشراق ضرب من إعادة الاكتشاف لما توارى عن التداول من تراثنا ، وتقديمه لنا وللعالم أجمع .

ولا أدرى إن كان الدكتور – فى قصره دور الاستشراق على ذلك – يغالط لينتصر

على الدكتور حنفى أم هو حقيقة لايعرف عن الاستشراق إلا ذلك الوجه المشرق الوضاء؟!

إن الاستشراق – فى مبتئه – إنما كان نشاطا غربيا صليبيا ، قصد به التعرف على مالدى المسلمين من علوم ومعارف مكنت لهم هذا التمكن ، ونقل ما أمكن نقله من ذلك إلى أوربا ، على نحو ما هو معروف مشهور من استغلالهم سماحة الإسلام وغفلة المسلمين فى السطو على الكثير من التراث الإسلامى ، والذى تنطق به الكثير من مكتبات أوربا اليوم .!

ثم أضيف إلى هذين المقصدين بعد ذلك مقصد آخر ، هو العمل على تشكيك المسلمين في قوتهم وقدرتهم وتشويه مالديهم من فكر موروث فى محاولة مسعورة لإفراغ الكيان الإسلامى ، تمهيدا لملئه بالفكرالغربى بعد ذلك ، وحتى يتم لهم النصر ، وحتى يؤازر الانتصار الفكرى والعقيدى الانتصار السياسى ... على مانحن فيه الآن ، حيث نجحوا فى إفقادنا هويتنا فى مجالات الحياة المختلفة ، وفرضوا أنفسهم ميزانا تقوم على أساسه أخلاقنا وأحلامنا وأفكارنا وآدابنا وسلوكياتنا .. الخ كل ذلك ؟

فإذا كان الغرب ليس فى حاجة إلى استغرابنا ؛ لأنه ليس فى حاجة إلى أن نكتشفه ، فهل ترى أننا كنا فى حاجة إلى من يكتشفنا إبان الحروب الصليبية والعصور الأوروبية المظلمة .. ولذلك تفضل علينا ساداتنا المستشرقون فأنعموا علينا بهذه المنة ؟!

إذا كان الغرب ليس فى حاجة إلى من يكتشفه – حتى إنه ليحاول أن يضلل من يسعى إلى ذلك ويصرفه عنه فإننا نحن العرب فى أمس الحاجة إلى اكتشاف الغرب ، ومعرفته على حقيقته ، حتى نأخذ منه ماينفعنا وما نحن في حاجة إليه بالفعل، بعد أن ظللنا نحو قرنين من الزمان نعرفه من خلال مافرضه هو علينا .. حتى كان جل ماعرفناه عنه – أو كله – ليس له بالحقيقة أية صلة فكان دافعا لأن نفقد هويتنا ونظل نلهث وراءه ... كما كان الغرب من قبل فى حاجة إلى اكتشافنا .!

وبعد .. فأرجو أن تكون غايتى من هذا التعليق واضحة ، وأن أكون بذلك قد أزلت لبسا ، رأيت أن الحاجة إلى إزالته ماسة .

كما أرجو أن يكون الدكتور قنصوه قد تبين أن ماخشيه على طلابنا وشبابنا من كسل وجهل إذا هم اتجهوا إلى التعرف على حقيقة الفكر الغربى هذا الذى خشيه على طلابنا وشبابنا لاوجود له وإنما (الاستغراب) فى الحقيقة خير دافع إلى الوقوف على أرض صلبة ، حتى ننهض لمواصلة المسيرة الحضارية الإنسانية التى بدأها آباؤنا فى ظلال الإسلام .

والله من وراء القصد .



إيمحوتب والموسيقى

بقـــلم :

د . سيد كريم

لم تترك معجزات الحكيم الساحر متعدد المواهب التي وصفت بانها تعبير صادق لما وصفته العقيدة التي نادى بها بسر الوجود والعيش في الحقيقة ، لم تترك معجزات أعماله ناحية من علوم المعرفة المرتبطة بحياة المجتمع لم يطرقها فشقت طريقها إلى أقرب الفنون إلى حياة المجتمع .. وهي الموسيقى .

يقول المؤرخ (ك . سيتا) ان إيمحوتب ساحر الموسيقى الذى اطلق بعض مؤرخي الدولة القديمة لقب إله الموسيقى بانه كان يتلقى وحي الالحان من

السماء وقد وصف الموسيقى بأنها لغة الالهة أو لغة الملائكة فى قبة السماء وانها هبة اله السماء إلى البشر نقلها من الجنة إلى المؤمنين برسالته التى حملها إيمحوتب إلى أهل الأرض مع رسالة التوحيد التى كان ينادى بها .

فكان إيمحوتب أول من لحن كلام الاله ليستمع اليه البشر ويرتلونه فى صلواتهم وفى متابعة طقوس عقيدتهم ، وهى الموسيقى التى علا صداها وارتفع رنينها فى المعابد المصرية فى الدولة القديمة لتخرج من مصر بمصاحبة الرسل والانبياء فى مختلف الأنيان ليتردد صداها فى جميع بيوت العبادة ومعابد الاله فى جميع انحاء المعمورة إلى يومنا هذا ، ولازمت ذكر اسم الاله فى طقوس جميع المناسبات الدينية والحيوية .

لدراية ايمحوتب العميقة بلغة الأنغام وسر الألحان التى يستمدها من وحى السماء وأدرك تأثيرها على حياة الكائنات كما ورد فى برديات - امنحتب اله الطب . كان أول من عالج الأمراض بالموسيقى وكانت تعد من الأسرار السحرية التى اشتهر بها فى مجال الطب وأعد لها معهدا خاصا فى معبد « أون » قبل انتقاله إلى معبد منف حيث أطلق عليه اسم ساحر الطب العظيم .

وقد نسج كتاب الاغريق الذين اتخذوه الها للطب عندهم .. نسجوا حوله الكثير من الأساطير حول دور الموسيقى التى يعالج بها الأمراض سواء فى الطب العضوى أو النفسانى أو الروحانى أو التنويم المغناطيسى أو التخدير فى الجراحة . واستمد ايمحوتب من التأثير النفسانى للموسيقى على البشر الى وضع مبادىء نواة الموسيقى المتعلقة بمشاعر حياة المجتمع واحاسيسه سواء الخاصة منها بالحرب والقتال والموسيقى العسكرية أو موسيقى السلام والمناسبات الرسمية والعامة وموسيقى الاعياد الشعبية والدينية وموسيقى الرقص التوقيعى .. والتى كل منها بتأثيرها النفسانى لاداء الغرض والتى اعتبرها امتدادا لدور الموسيقى فى العلاج .

بتعدد انواع الموسيقى والحانها تعدد ظهور الالات الموسيقية التى تقوم بادائها وابرازها سواء الات النفخ أو الالات الوترية أو الطبول .

قام أحد الباحثين فى تاريخ الموسيقى بعمل حصر لمختلف انواع الالات الموسيقية التى ظهرت فى الدولة القديمة عصر إيمحوتب ، فوجد انها تزيد على خمسين آلة مختلفة ابتداء من قيثار الهارب إلى الصاجات .

وهى الالات التى صاحبت الحضارة المصرية فى جميع مراحل تطورها عبر جميع عصورها ولم يطرأ عليها سوى اختلافات طفيفة فى تصميم اشكالها .



وتعتبر جميع انواعها وأشكالها المرجع والمصدر الرئيسي لجميع الآلات الموسيقية التي صاحبت مختلف الحضارات العالمية .

● بردية الملك انتف ٢١٤٠ ق . م

تحية دعاء إلى الأمير العظيم

تحية إلى من سيرحل جسده إلى عالم الخلود ويترك تراث ثروته ومع ذريته الصالحه وابناؤه الذين تستمر بها حياته .

إن الملوك والعظماء يرقدون في اهراماتهم الضخمة وقبورهم الفنية والمنيعة .

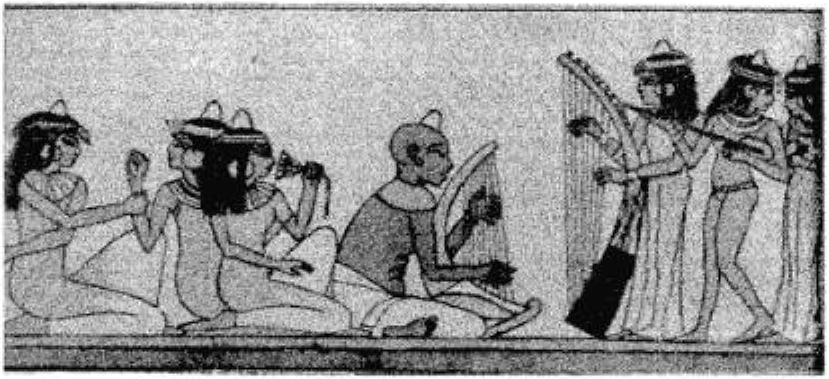
كذلك يرقد عامة الشعب من الاغنياء والفقراء فالقبر لا يميز بين ما يرقد به من أجساد .

إني استمع إلى صوت إيمحوتب العظيم وهو يتساءل عن حظ كل منهم من الحياة وما ناله كل منهم من أملاك وثروات أن اسوار أملاكهم وحوائط ديارهم قد تحولت إلى أطلال وما شيدوه من قصور اختفت من الوجود لتحفظ بمكانتها في الاساطير مع اسماء من شيدوها وعاشوا فيها .

لم يعد أحد منهم من القبر ليخبرنا ويصف لنا ما يدور هناك .

أن من تصعد أرواحهم تبتلع الأرض اجسادهم ولن يعود منها إلى الأرض أحد لم يجد أحد ليطمئن على ما تركه من أملاك لم يبق شيء من كنوزها وأثاثها ومقتنياتها إلا ما نقلوه على سبيل الذكرى لزخرفة قبورهم التي تركوها ولم يتمكنوا من اصطحابها معهم في رحلة المجهول لم يعد أحد منهم ممن رحلوا ليروي لنا حقيقة الغيب ويصف لنا ما يطمئن قلوبنا .

فالمصير هو ما وصفه لنا اوزير عن المصير ومحكمة الآخرة وعالم الخلود .



أو الانتقال من حياة عالم التجربة إلى حياة عالم الخلود عش فى الحقيقة التى تقول أن اليوم فقط ملك يديك .. والغد ملك الغيب .

عش ليومك بما يرضى قلبك ولغدك بما يرضى الاله إن كنت قد دخلت الحياة عاريا فكساك الاله ورعاك بان أنعم عليك جميع خيرات الحياة .

عش ليومك بتحقيق رغبات قلبك بجمال نعم الحياة ، اكس جسدك بارقى الثياب من التيل والحرير وعطره باطيب العطور التى وهبتها السماء للزهور لتمتعك بها لتتفسر مائدتك باشهى الاطعمة وأطيب المشروبات دع الموسيقى اليوم تملأ جو المجلس وتحلق فى سمائه انغام عازف القيثار .

متع مجلسك باصوات غناء المطربات والمطربين قبل أن يأتى الغد أو اليوم الذى لن تسمع فيه إلا صوت الندابات وعويل النائحات .

فكل ما ستتركه من بعدك من ثروة مادية مصيره الزوال ولن يبق خالدا إلا روحك التى ستغادر القبر حاملة ثروة لا تزول من اعمالك الحسنة .

التى يذكرها لك كل من عاشرك واحبك ودعا لك بالخير فدعاء الأوفياء يزيد رصيد أعمالك الحسنة التى ستحملها معك إلى عالم الخلود .

لن تسمع أذناك صوت الندابات وعويل النائحات فى القبر ، بل لن تسمع اذناك إلا اجمل الالحان الحان دعاء الخير لمن يحفظون لك جميل اعمالك .

ولا تدع انفاسك تستقبل من الروائح ما يحمل الغدر والخيانة .

لا تقدم لاختك (حبيبتك) سوى زهرة اللوتس المقدسة التى يحمل عبيرها الحب والود والوفاء فجسد اختك رفيقة حياتك التى تجلس بجانبك يسكن قلبها قلبك



عازفة القيثار فى بحيرة [illegible] المرأة الحبشية

فسعادتك من سعادتها ، متع نفسك بالنغم التى وهبها لك الاله وضعها امام عينيك وانق خلف ظهرك ما يعكر صفو الحياة ويغضب الاله فمثلك من كان طاهر القلب مطمئن النفس نظيف اليد مستريح الضمير .

تبقى روحه مضيئة تنير له طريق رحلة المصير ويبدد نورها ما يعترض الطريقين من مخاوف وأخطار فلنعش ليومنا فإننا لا نعلم ما يأتى به الغد أو ما يخبئه لنا الغيب لم يعد احد ممن رحلوا ليخبرنا برؤيا المصير فلنعش اليوم لنتمتع بما وهبه الاله لنا من نعم وخيرات ولتملأ الموسيقى والغناء وأجمل الالحان جو المكان اكس جسدك بأجمل الثياب . وعطر جسمك بأزكى العطور ولتحو مائدة طعامك اشهى الاطعمة وأطيب الشراب ليشع نور سعادتك على من حولك وينعم بجميل عطائك من يشاركون افراح مجلسك وما خلف من ذرية .

قر قلبك ومتع نفسك بنعم الحياة التى وضعها الاله بين يديك لتنسى ما يخبئه لك الغيب فى الغد حقق رغبات قلبك مادام ينبض بالحياة التى تعيشها لا تكتنز خيرات الحياة فتحرم نفسك من التمتع بها وتحبسها عن الاخرين فالاله يوزع خيراته على الجميع .

متع نفسك فى الحياة بما نلته من نعم فلن يدخل شيئ منها معك فى القبر ولن تحمل روحك فى رحلة المصير من متاع سوى اعمالك فى الحياة عش ليومك .. فليس هناك من يضمن غده ، استقبل يومك بتحقيق رغبات قلبك ، اكس جسدك باجمل الثياب وتزين باروع المصاغ وتعطر بازكى العطور متع نفسك باشهى الطعام واطيب الشراب قبل ان يأتى اليوم الذى تحرم فيه من جميعها متع روحك بانغام الموسيقى وعزف القيثار وصوت الغناء قبل أن يأتى اليوم الذى لا تسمع فيه إلاصوات النداءات وانت عار من الثياب مفتقدا جميع الملذات التى يشتهيها قلبك .

استمع إلى عازف القيثار وهو يردد الحكمة الخالدة اليوم ملك يديك والغد ملك الغيب .

قبيل الرحيل

شعر : أنس داود

إنهُ الحب سيدتي
فاستحرِ المستحيلْ
يدخل النّور بيتي
ويصحو الربيعُ الجميلْ

***

ربما يا حديقة هذا الخريف الرهيفْ
ربما ... في ابتسامة ثغرٍ
ولفتة جيد لطيفْ
ورفةِ هدبين .. فوق اخضرار الكروم
ولحن الحنان الوريفْ
تجئ العصافير قبل الغروب
ويكثر إلى النّهر سحرُ العزيفْ

***

ربما سألتك الرياح
لِمَ ترسلين العبير
[illegible]
فالورود التي [illegible]
منذ نزلت الحقل
والطيور التي تشعل [illegible]
في شفق المستحيل
وحتى السنابلْ
في بوحها .. لنسيم الأصيلِ العليلْ
بعذبها ..
عشقُ هذي الروح بعينيك
بفتنتها .. اخضرارُ الحقولْ
وصفصافة تستريح بشاطئ نهرٍ
تحدثني .. عن وعود الفصولِ
قبيل الرّحيل



٤٠ عاما على
سقوط الملكية

بقلم : جلال السيد

أعطيت ملكا فلم تحسن سياسته
كذاك من لا يسوس الملك يخلعه

مرت أربعون سنة على قيام ثورة ٢٣ يوليو ، وعلى عزل الملك السابق فاروق الذى تنازل عن العرش لابنه - الطفل - أحمد فؤاد الثانى وذلك فى ٢٦ يوليو عام ١٩٥٢ .

وفى ١٨ يونيو عام ١٩٥٣ أعلنت الجمهورية وأسقطت الملكية ، وأسدل الستار على أسرة محمد على التى ظلت تحكم مصر منذ عام ١٨٠٥ ، وكانت تجربة حكم محمد على أمام أبنائه وأحفاده . وأفراد أسرته تجربة فريدة .

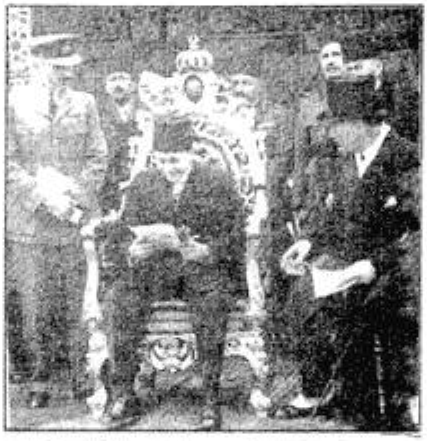
لم يقفوا عند إنجازاته وما حققه ، بل توقفوا عند معاهدة ١٨٤٠ وما نتج عنها من تقلص لنفوذ محمد على ورضوخه لمطالب الأوروبيين . فاختاروا جميعا وبلا استثناء حمايتهم من الدول الأوروبية ، وحين اختار الخديوى عباس حلمى الثانى مشاركة الحركة الوطنية فى بداية حكمه ، كان هذا بسبب موقفه من اللورد كرومر ، وما أن نقل كرومر وجاء جورست إلى مصر حتى عاد الخديوى عباس إلى الموقف العام ، موقف أسرة محمد على من الأوروبيين ومن الاحتلال بعد ذلك . وقد تزايد نفوذ المستعمرين فى مصر من خلال حكام مصر السابقين ، وكانت السيطرة



على اقتصاد مصر ثم احتلالها ، واستطاعت بريطانيا التي انفردت بالسيطرة على مصر أن تعزل الخديوي اسماعيل عام ١٨٧٩ ، ثم الخديوي عباس حلمي الثاني عام ١٩١٤ ، وتنصيب من ترائه من أسرة محمد علي ، كما حدث في حالة الخديوي توفيق ، والسلطان حسين كامل والسلطان أحمد فؤاد . ورغم ما كان يعانيه الشعب المصري من سيطرة واستبداد أسرة محمد علي والاحتلال ، فقد استطاع أن يشق طريقا لحركته الوطنية ، التي كانت مطالبها استقلال البلاد والمطالبة بالدستور ، ثم بعد ذلك حماية هذا الدستور ، هذا مع التفكير المستمر في التخلص من حكم أسرة محمد علي وإعلان الجمهورية .

إعلان الجمهورية .. فكرة قديمة

فلم تكن فكرة إعلان الجمهورية بعيدة عن أفكار بعض قادة الفكر [illegible] فكثيرا ما ناقشوا هذه الفكرة ، [illegible] عبد الله النديم ، وتحدثت عنها صحيفة «المؤيد » وأصبحت فكرة قيام الجمهورية متداولة بين قطاعات الرأي العام المثقف ، حتى كان قيام أول حزب علني عام ١٩٠٧ - الحزب الجمهوري - يدعو للجمهورية بديلا عن الخديوية ، وكان الداعية لهذا الحزب ورئيسه محمد غانم ، والذي كان متأثرا بالثورة الفرنسية ، وكان يحضر هو وأعضاء حزبه احتفالات الجالية الفرنسية



فى الحفل الرسمى لسلاح الطيران ١٩٣٤ نائباً عن جلالة الملك والده

فى القاهرة بعيدهم الوطنى – ١٤ يوليو – كما كتب محمد غانم فى جريدة الأحرار التى كان يصدرها محمد وحيد عدة مقالات عن فظائع أسرة محمد على وذلك فى عام ١٩٠٨ .

وفى أثناء ثورة ١٩١٩ المجيدة ، طرحت فكرة الجمهورية ، وجاء هذا على لسان خصوم الزعيم سعد زغلول حين طرح على أعضاء الوفد المصرى فكرة عزل السلطان فؤاد واستنتجوا أنه يريد أن يكون بديلا عن السلطان ، وإن كان سعد زغلول لم يؤكد فكرة إعلان الجمهورية ، لكنه عبر عن رغبته فى عزل السلطان أحمد فؤاد أما عن الملك المعزول فاروق ، فقد فكر حزب الوفد فى خلعه مرتين ، الأولى عام ١٩٣٧ ، وقد استشير السفير البريطانى فى ذلك من خلال مكرم عبيد ، ولم يكن فى ذهن رجال الوفد إعلان الجمهورية ، أما فى المرة الثانية ، فكانت عام ١٩٤٢ ، حيث رأى كبار الوفديين – كما جاء فى كتاب الأستاذ صلاح شاهين : « ذكرياتى فى عهدين » – أن الملك وحاشيته وفى مقدمتهم أحمد حسنين باشا سائرون فى سياسة غير وطنية وغير كريمة بحيث أصبح رمز البلاد مضغة فى الأفواه بسبب مباذله وسهراته التى شاعت فى مصر وخارجها ، وعرض الأمر على مجلس الوزراء فأقر هذا الاتجاه وعهد إلى أحمد نجيب الهلالى بأن يصوغ مبررات خلع الملك فأعد بياناً وسلمه إلى محمود سليمان غنام وزير التجارة أخذ فى تبييض مسودة الهلالى ، ولما انتهى ذهب إلى منزل النحاس باشا حيث كان الوزراء لا يزالون موجودين وتم توقيعهم جميعا على البيان كقرار صادر من مجلس الوزراء بخلع فاروق وإعلان الجمهورية وعندما علم النحاس أن السفارة البريطانية علمت بالموضوع طلب النحاس مسودة القرار التى كتبها الهلالى وحرقها أما قرار مجلس الوزراء المكتوب بخط سليمان غنام فقد احتفظ به ، وقد أكد هذه الواقعة الأستاذ إبراهيم فرج فى كتاب «ذكرياتى السياسية» الذى أعده الزميل الكاتب حسنين كروم .

وفى ١٢ فبراير عام ١٩٤٦ وبمناسبة وضع حجر الأساس للمدينة الجامعية هتف طلبة الجامعة - جامعة فؤاد - لأول مرة بسقوط فاروق ومزقت صورته .

وتتصاعد الكراهية لفاروق وأسرته حتى تبلغ ذروتها فى ٢٤ ديسمبر عام ١٩٥١ ، وفى أعقاب إلغاء حكومة الوفد لمعاهدة ١٩٣٦ ورفضها لفكرة الدفاع المشترك الرباعى (بريطانيا - الولايات المتحدة الأمريكية - فرنسا - تركيا) يوم أن عين فاروق حافظ عفيفى رئيسا للديوان الملكى ، والذى كانت تسبقه سمعته بموالاته الكاملة للإنجليز ودفاعه عن مشروع صدقى بيفن وتصريحاته الودية تجـــاه دولة الاحتلال ، يومها فى ٢٤ ديسمبر ومنذ الصباح انطلقت المظاهرات فى المدارس الثانوية والجـــامعات وشاركت طالبات المدارس الثانوية فى هذه المظاهرات وانضمت فئات الشعب فى معظم المدن الكبرى لهذه المظاهرات الصاخبة ضد حافظ عفيفى وفاروق ونازلى وفتحية ، وكان استفتاء شعبيا ضد فاروق والأسرة المالكة وفى بعض التجمعات كانت هناك هتافات تنادى بإعلان الجمهورية ..

تطورات ما قبل الثورة

كانت البلاد فى حالة غليان وحماس ضد الاحتلال وأعوانه يخشى فاروق من غضبة الجماهير التى أعلنت كراهيتها الشديدة له وبدلا من الوقوف إلى جانب



سمو الأمير فاروق ولى عهد مصر المحبوب يغادر القاهرة

القوى الوطنية ، اختار فاروق كما اختار الخديوى توفيق من قبل ، وتصور أن الإنجليز سيقدمون له الحماية ، ومن هنا كان استفزازه اليومى للحركة الوطنية والقوى الشعبية حتى تصطدم بقوات الاحتلال التى تصور أنها ستعيد الوضع كما كان قبل إلغاء المعاهدة . ولم تكن قوات الاحتلال فى حاجة إلى تحريض لضرب المواطنين ونسف منازلهم ، فالحركة الفدائية فى منطقة القنال بدأت أعمالها فى أعقاب إلغاء المعاهدة ، وتم سحب العمال المصريين الذين كانوا يعملون فى المعسكرات البريطانية ، كما توقف المتعهدون والموردون عن تقديم المواد

التموينية لقوات الاحتلال وكانت المعارك مستمرة طوال شهر ديسمبر ١٩٥١ ، ففى ٣ ديسمبر كانت معركة السويس والتى استشهد فيها ٢٨ من المصريين وبلغ عدد الجرحى ٧٠ جريحا ، كما بلغ عدد القتلى من البريطانيين ٢٢ كما أصيب منهم ٤ بجراح ، وفى ٨ ديسمبر قامت القوات البريطانية بنسف كفر عبده – حى بمدينة السويس – حيث نسف ١٥٦ منزلا بالقنابل تحت حماية الدبابات والمدافع ، وأزيل كفر عبده من الوجود بهذه الطريقة الهمجية واجتمع مجلس الوزراء فى ١١ ديسمبر احتجاجا على ما حدث فى كفر عبده . ، وكان من قراراته استدعاء سفير مصر فى بريطانيا – عبد الفتاح عمرو – والذى وصل فى ٢٠ ديسمبر .

ومن هنا جاء عزل فاروق فى ٢٦ يوليو ١٩٥٢ ، تلبية لمطالب الملايين من أبناء الشعب المصرى وقياداتها الوطنية ، كما جاءت ثورة ٢٣ يوليو امتدادا للحركة الوطنية المصرية وتعبيرا عن مطالبها ، والتى عجزت الاحزاب السياسية التى شاركت فى الحكم عن تحقيقها ، وبعد عزل فاروق بدأ نقاش على صفحات الجرائد اليومية والمجلات حول أى النظامين أصلح للبلاد : الملكى أم الجمهورى ، وكما يقول الدكتور وحيد رأفت فى كتابه فصول من ثورة ٢٣ يوليو – كان الاتجاه الأقوى هو إلى النظام الجمهورى ، ويشير إلى ندوة اشترك فيها مع آخرين ، ويقول « كنت الوحيد الذى دافع وقتها عن النظام الملكى بينما أجمع المتحدثون الآخرون على إيثار النظام الجمهورى » وقد فسر موقفه بقوله إن المقارنة يجب أن تكون بين الملكية الصالحة والجمهورية الصالحة ، لا بين ملكية فاسدة وجمهورية صالحة . ومع موقف الدكتور وحيد رأفت مع الملكية كنظام للحكم ، فقد علق على عزل فاروق بقوله : « من كان يتصور أن هذا الفتى الوسيم الذى تولى الحكم وهو دون الثامنة عشرة من عمره ، والذى أطلق عليه شعبه فى بداية سنى حكمه لقب «الملك الصالح» سوف يحمل معه بعد ستة عشر عاما فقط وهو ذاهب إلى منفاه غير مأسوف عليه فى ٢٦ يوليو ١٩٥٢ وصف «الملك الفاسد» وأضاف أن ملايين المصريين رحبوا بهذه النهاية .

الدستور .. وأهداف الثورة

وفى ١٣ يناير عام ١٩٥٣ ، صدر مرسوم بتأليف لجنة لوضع مشروع دستور جديد ، يتفق وأهداف الثورة ، وقد ألفت اللجنة من خمسين عضوا ، وانتخبت على ماهر رئيسا لها ، كما انتخبت لجنة فرعية من ١٥ عضوا سميت لجنة الخطوط الرئيسية لمشروع الدستور ، وانتخبت لجنة الخطوط لجنة من خمسة أعضاء ، هم : الدكتور عبد الرازق السنهورى – عبد الرحمن الرافعى – مكرم عبيد – الدكتور

السيد صبرى – الدكتور عثمان خليل ، وذلك لبحث نظام الحكم أولا ، وهل يكون ملكيا أو جمهوريا ، وقدمت اللجنة الخماسية تقريرها وهو يضمن قرارها بالإجماع بأن يكون نظام الحكم جمهوريا على أن يكون تقرير هذا النظام عن طريق استفتاء الشعب ، وجاء فى تقرير اللجنة :

« قامت الملكية فى أصلها التاريخى على زعم أن الملوك يستمدون سلطتهم من عند الله ، وأنهم خلفاء الله فى أرضه ، ومن ثم نبتت نظرية الحق الإلهى للملوك ، ولم تتهذب الملكية لتماشى تطور الحضارة ولتلائم مقتضيات هذا التطور إلا فى كثير من المشقة والعسر وإلا بعد مراحل متدرجة تخللها كثير من أعمال العنف ، انتهت فى الغالب إلى ثورات دامية رفعت لواءها الشعوب فى وجه النظام الملكى .

وقد نبه علماء الدستور إلى ما بين النظام الملكى والحكم الديمقراطى من مجافات وتعارض ، والنظام الملكى أصبح غير صالح لمصر ، بعد أن تعذر عليها ترويضه ، فلم تستطع أن تجعله نظاما رمزيا ، أو على الأقل نظاما متوازنا ، وقد وثب الشعب المصرى فى تاريخه الحديث وثبات حاول فيها هذا الترويض فلم ينجح ، فى أواخر حكم اسماعيل وفى أوائل حكم توفيق ، فلم تجار الأسرة المالكة وثبة الشعب ، بل تخلفت دونه ، لا بل هى استندت إلى الأجنبى واستعانت به فى إخماد ثـــورة الشعب ، وسلمت البلاد للاحتلال البـريطانى ممـــا زاد الثورة اضطرابا فى النفــوس . وفى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، حينما اشتعلت الثورة الشعبية المصرية فى وجه الأجنبى وضد الحكم الملكى وهنا أيضا لم تماش الأسرة المالكة وثبة الشعب ، والوثبة الأخيرة – ٢٣ يوليو ١٩٥٢ – جاءت بعد أن ضاق الشعب بما انتشر من فساد فى الحكم وانتهت باقتلاع الملك عن عرشه .

هذه الهزات العنيفة التى تتابعت على البلاد فى مراحل متعاقبة تدل على أن النظام الملكى فى مصر استشرى فساده واستعصى على العلاج ، وليس من حسنات هذا النظام أن الأجنبى منذ وضع قدمه فى البلاد كان دائما يستند إلى العرش فى توطيد سلطانه ، وليس من حسناته أنه كان موئلا للرجعيين من جميع الطـوائف والهيئات .

على أن أحداث التاريخ تتضافر جميعها فى الدلالة على أن النظام الملكى إذا فقـد هيبته فى بلد مضى إلى غير رجعة . »

من أجل ذلك رأت اللجنة بإجماع الآراء ترك النظام الملكى والأخذ بالنظام الجمهورى ويسـرها أن تتلاقى فى هذه النتيجة مع ما تحـس أنه هو الاتجاه الشعبى الواضح .

وفى مســاء ١٨ يونيو ١٩٥٣ قرر مجلس قيادة الثورة إعلان الجمهورية ،



بالزى الرسمى الملك الشاب فى إحدى الحفلات

وجاء فى القرار :

« إن تاريخ أسرة محمد على فى مصر، كان سلسلة من الخيانات التى ارتكبت فى حقوق الشعب ، وقد فاق فاروق كل من سبقوه ، فأثرى وفجر وطغى وتجبر وكفر ، فخط بنفسه نهايته ومصيره ، فآن للبلاد أن تتحرر من كل أثر من آثار العبودية التى فرضت عليها نتيجة لهذه الأوضاع ، فتعلن اليوم باسم الشعب : إلغاء النظام الملكى وإنهاء حكم أسرة محمد على مع إلغاء الألقاب من أفراد هذه الأسرة . وإعلان الجمهورية ويتولى الرئيس اللواء « أركان حرب » محمد نجيب قائد الثورة رياسة الجمهورية » .

واليوم وبعد أربعين عاما ، نعيد إلى الأذهان الكلمات التى جاءت بأول كتاب صدر عن الملك المعزول والكتاب الرائد «فاروق ملكا» للكاتب الكبير أحمد بهاء الدين والذى صـــدر بعد شـــهر من عزل فاروق ، فى السطور الأولى من الكتاب ، يقول الكاتب : « ليس هذا الكتاب الذى نقدمه لك عن الملك السابق فاروق إلا بداية، فلا شك فى أن كتبا كثيرة سوف تصدر متناولة كل ناحية من مأساته ومأساة شعبه معه ، بل إن كتبا كثيرة سوف توضع عن كل فرد من أفراد حاشيته التى صنعت مصير سيدها ودور كل واحد فيهم من أحمد حسنين إلى كريم ثابت وإلياس أندراوس وبوللى وناهد رشاد .

إما الضرورة التى دعت إلى الإسراع فى إصدار هذا الكتاب فواضحة ، ففى هذا الخضم الهائل من القصص والروايات والحقائق والأكاذيب والكلام المغرض والكلام البرىء ، شعر الناس بالحاجة إلى كلمة حق واضحة ، إن الأكاذيب التى نشرت كثيرة وأكثر منها الحقائق التى رويت بطريقة معينة ، يراد بها الباطل وقد قرأنا الكتاب الكبار يتبارون فى تفسير المأساة ، فيقول واحد أن فاروق مجنون ، ويقول آخر إنه كان يعانى من نقص جسدى أو عقدة نفسية ويقول ثالث إن ظروفه العائلية هى التى أدت به إلى هذه النهاية ، إن هذا الكلام برغم ما فيه من جوانب الصحة ليس إلا دفاعا عن الملك السابق ، كما يدافع المحامى عن موكله القاتل بأنه مجنون لينقذ عنقه من حبل المشنقة .

فالذى أطاح بالملك السابق ليس مجرد جنونه وحماقته وعقده النفسية ، إنما أطاح به أنه حاكم مستبد . ونحن اليوم فى حاجة لا إلى أن نكره شخص فاروق فحسب ، بل وأن نكره أيضا الأوضاع التى صنعت فاروق وأتـــــاحت له أن يكــون مستبداً .

كتب هاجمت الملك !

وصدقت نبوءة الكاتب الكبير وصدرت عشرات الكتب عن فاروق منذ عام ١٩٥٣ ، كان أولها « ليالى فاروق » - جزءان - للأستاذ مصطفى أمين ، ومنها قصـة ملك و ٤ وزارات للأستاذ موسى صبرى ، وكذلك كتاب « غرائب من عهد فاروق وبداية الثورة المصرية » للأستاذ أحمد مرتضى المراغى وزير الداخلية فى عهد فاروق والذى اشترك فى المؤامرة التى ضبطت عام ١٩٥٧ لإعادة الملكية والتى مولتها المخابرات البريطانية - كما يقول الأستاذ الرافعى فى كتابه ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ - واشترك فيها الضابط السابق حسين خيرى ومحمود نامق والأول من أصهار العائلة المالكة السابقة والثانى من ذرية العائلة السلطانية السابقة ، وقد عرض حسين خيرى على ضابط طيار مصرى - عصام الدين خليل - الاشتراك فيها فتظاهر بالقبول ووثق به حسين خيرى إذ كان زميلا سابقا له فى القوات الجوية المصرية وقد تسلم لحسابها ١٦٢ ألف جنيه سلمها إلى جمال عبد الناصر ، وقد نظرت القضية أمام المحكمة العسكرية العليا بالقاهرة وأصدرت فيها حكمها فى ٢٨ أبريل ١٩٥٨ بالاشغال الشاقة المؤبدة على المراغى وحسين خيرى وبالاشغال الشاقة ١٥ سنة على محمود نامق .

فى كتاب مرتضى المراغى - صدر فى بيروت ١٩٧٦ - وأعيد نشره فى حلقات فى مجلة أكتوبر منذ سنوات قليلة - نجده يقول : « إن فاروق كان ضحية المرض ، وضحية الخلاف العائلى وضحية والد لا يحب المصريين وضحية تنصيبه ملكا وهو فى طراوة الصبا وضحالة التعليم وكذلك ضحية مستشاريه للقصر أحدهما يزين له النزوات والآخر يعلمه انتهاك الدستور وما جاء بالكتاب إدانة كاملة لفاروق مثل الكتب السابقة التى أشرنا إليها ، وجاءت فى مذكرات حسن يوسف « القصر ودوره فى السياسة المصرية » وهى فى نفس السياق وإن كان كاتبها أخفى الكثير مما يعلمه .

كتب موضوعية عن حكم فاروق

أما الكتب التى ناقشت فترة حكم فاروق بموضوعية ، بالوقائع والوثائق والتى عبرت عن الفهم الحقيقى لما حدث ، فبعضها قدم إلى الجـــامعات كرسائل علمية ، مثل كتاب الدكتور سامى أبو النور « دور القصر فى الحياة السياسية فى مصر » وكذلك ما صدر من الكتب حول هذا الموضوع ، للمؤرخين والاساتذة والكتاب ، نذكر منهم - ليس على سبيل الحصر - الدكتورة لطيفة سالم - عبد العظيم

رمضان - يونان لبيب رزق - أحمد حمروش - حلمى سلام - طارق البشرى - على الدين هلال - عبد الرحمن الرافعى - وحيد رأفت - محسن محمد - أحمد فوزى عطا الله - كمال عبد الرءوف وعشرات من الكتاب وحتى عام ١٩٨٩ لم تجد كاتبا واحدا ، أو كتابا واحدا صدر دفاعا عن فاروق ، فالجميع أدانوا مسلكه وتصرفاته فى الحكم والعبث بالدستور والقانون والحياة السياسية - إن اختلفت وجهات النظر أو محاولة إيجاد بعض المبررات - النفسية والعائلية - لما وصل إليه ، لكن كان هذا فى إطار الإدانة ، واتهامه بالفساد وإفساد الحياة السياسية ، فبعيدا عن نزواته التى سجلتها بعض الكتب وسرقاته وعمولاته من الشركات ، وضمه أراضى الأوقاف إلى أملاكه وتهريب أمواله للخارج منذ منتصف الأربعينات ، نقف عند مواقفه السياسية ، فنجد أن حفاظا على عرشه لعب مع الأطراف المتصارعة أثناء الحرب العالمية الثانية ، فاتصل سرا بألمانيا وإيطاليا كما كانت علاقته طيبة ببريطانيا والولايات المتحدة الامريكية ، وظل طوال حكمه معاديا للحركة الوطنية كما كان معــاديا للحيــاة البرلمانية والدستور .

فقد حكم مصر ١٥ عاما - منذ ٢٩ يوليو ١٩٣٧ حتى ٢٦ يوليو ١٩٥٢ - شكلت فى هذه الفترة ٢٤ وزارة ، اغتيل فى تلك الفترة رئيسان للوزارة (أحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى) وتوفى حسن صبرى رئيس الوزراء وهو يلقى خطاب العرش ، ومعظم رؤساء الوزراء أقيلوا بشكل مهين أو أجبروا على الاستقالة ، والمثال الواضح موقفه من حزب الوفد وزعيمه مصطفى النحاس وهو الحزب الذى كان يقود الحركة الوطنية والحزب الأكثر تشددا مع دولة الاحتلال والحزب المتمسك بالديمقراطية وتشكيل الوزارة على أساس الانتخاب ، وكان من المعروف أنه حزب الأغلبية ويحظى بتأييد واسع من الجماهير ، هذا الحزب الذى كان يأتى للحكم من خلال اكتساحه فى الانتخابات لم يستكمل خمس سنوات فى الحكم طوال الخمسة عشر عاما ، وأقيلت وزاراته الثلاث عام ١٩٣٧ ، عام ١٩٤٤ ، ١٩٥٢ ، وحلت برلماناته التى جاء من خلالها ، وطوال حكم فاروق لم يستكمل البرلمان دوراته ، سوى دورة واحدة (١٩٤٥ - ١٩٤٩) وكانت انتخابات مزيفة شهد بتزييفها المؤرخون ، وعاشت البلاد تحت الأحكام العرفية ٩ سنوات . ولم يقف فاروق عند هذا الحد فى عدائه للوفد ، فقد كان وراء جميع الانقسامات التى خرجت من الوفد فى عهده ، خروج أحمد ماهر والنقراشى وتكوين الهيئة السعدية ، ثم خروج مكرم وكتابه الأسود وتكوين الكتلة الوفدية ، ثم اختــراق مجلس الوزراء الوفدى ١٩٥٠ - ١٩٥٢ بأمثال الدكتور حامد زكى .



بعد العرش .. الملك فاروق محاطاً بنساء من كل الأجناس

وأخطر من هذا ما حدث فى حرب فلسطين وتجارته فى الاسلحة ، وقتل الابرياء من الضباط والجنود بواسطة الأسلحة الفاسدة ، وأكثر خطورة ما شكله من تنظيمات لتصفية خصومه السياسيين وضرب رموز الحركة الوطنية ، فشكل البوليس الخاص ، والحرس الحديدى ، وكان فاروق وراء اغتيال أمين عثمان ، والشيخ حسن البنا ، والضابط عبد القادر طه ، وكان وراء محاولات اغتيال الزعيم مصطفى النحاس عدة مرات بالقنابل والمدافع وسيارة مليئة بالديناميت ، كما كان وراء محاولة اغتيال رفيق الطرزى عضو الهيئة الوفدية وعضو مجلس النواب عام ١٩٥٠ .

الدفاع الوحيد عن الملك

وفوجىء القراء عام ١٩٨٩ بكتاب غريب كتبه أحد أقارب فاروق وهو عادل ثابت وصدر الكتاب عن دار اخبار اليوم تحت اسم « فاروق .. الذى غدر به الجميع » ومن المعروف أن مؤلف الكتاب قد اتهم فى قضية تخابر فى بداية الستينات ، ولم يمر الكتاب فى هدوء ، فقد تصدى له عشرات الكتاب ، ولم يدافع عنه أحد ، لكن الهدف من الكتاب لم يكن محاولة رد الاعتبار لفاروق فقط ، بل كان بداية لتقديم أحمد فؤاد الثانى والذى بدأ يظهر فى الصحف العربية ، وفى نفس الوقت طرحت قضية

قتل فاروق ، ولم تكن مصادفة أن ظهرت ثلاثة كتب خلال شهر واحد : أحمد فؤاد – الملك الذى عاد ١٩٩١ – للزميل فاروق فهمى ، الملك أحمد فؤاد الثانى – الملك الاخير وعرش مصر – ١٩٩١ – للزميل عادل حموده ، إبراهيم بغدادى . كيف قتلت الملك فاروق ! – ١٩٩٢ – للزميل محمود فوزى .

واختلف الثلاثة فى التناول ، وإن اتفقوا فى الدعاية والترويج لأحمد فؤاد فمثلا كتاب الزميل محمود فوزى ، لم أجد فيه اعترافاً أو شبه اعتراف من الاستاذ إبراهيم بغدادى بقتله فاروق ، كما جاء فى عنوان الكتاب ، بل على العكس تماما ، رغم محاولات المؤلف المستمرة فى استنطاقه ، وأنا هنا لا أناقش قتل فاروق، لكن أناقش ما جاء بالكتاب من أنه اعتراف من القاتل ، ولا أجد أى اعتراف بل نفيا قاطعا ليس فقط فى حوار إبراهيم بغدادى مع محمود فوزى بل فى أحاديث صحفية أخرى ، أما كتاب الزميل فاروق فهمى فيبعد تماما عن الحقائق التاريخية ، بل يتبنى موقف أحمد فؤاد تجاه والده ، من أن والده مظلوم ولم يفعل كل الجرائم التى أشيعت عنه لتشويه سمعته ، ولا أدرى كيف سمح الكاتب أن يطلق على أحمد فؤاد – الملك الذى عاد ، وكأن الدستور لم يتغير وكأننا ما زلنا فى عصر الملكية ولم نعلن الجمهورية منذ أربعين عاما ، والمؤلف هنا مبهور بملكه الذى عاد والذى رآه وتلوح على وجهه سمات الملوك ، وكنت أود من الزميل فاروق أن يحدد لنا هذه السمات وكيف عرفها ؟ ولا أدرى لماذا لم يشر المؤلف إلى أن زوجة أحمد فؤاد كانت يهودية وقيل إنها أسلمت وقد أشار إلى ذلك الزميل عادل حمودة فى كتابه والذى يختلف عن كتاب الزميل فاروق فهمى ، حيث حاول أن يتعامل مع التاريخ والحقائق وإن سقط فى فخ الإثارة باختياره الموضوع وأسلوب التناول .

وقد حاول الزميل فاروق فهمى أن يجعل من نفسه مدافعا عن ملكه العائد فتصدى لمن أسماهم خصومه وكان أولى به أن يقدم اعتراضاته أو رفضه لثورة يوليو بشكل واضح ، لقد تعامل بعض الكتاب مع تاريخنا الوطنى بمنطق الإثارة والتجارة ، ولم يهتم هؤلاء بالحقائق التاريخية والواقع الذى يعيشه المجتمع الآن ، وأى نظرة موضوعية للخريطة السياسية فى مصر تؤكد العداء الدائم للفترة التى حكمها فاروق ، وقد تخطى الجميع هذه الفترة وأصبحنا نواجه مشاكل مختلفة ، بعيدة كل البعد عن الترويج لأحمد فؤاد العائد أو تبرئة فاروق من جرائمه ، إننا نسعى لتدعيم الديمقراطية ونطالب بالعدل والحرية لجميع الأفكار من خلال الحوار المستمر لتحقيق الهدف الأسمى الذى عملت من أجله الحركة الوطنية المصرية وهو العمل على رفعة الوطن وسعادة المواطنين .

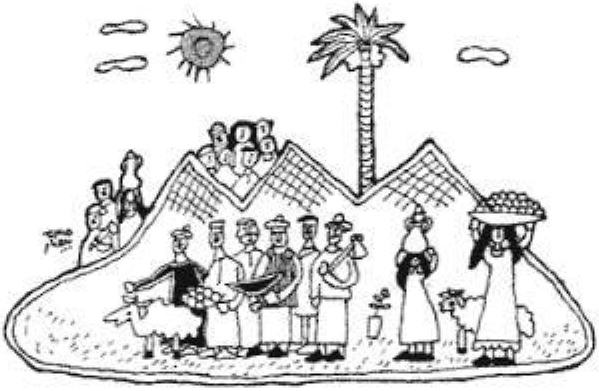
مصر في التراث

أم البلاد وغوث العباد

بقلم : د. محمد حسن عبد الله

كتاب «فضائل مصر» لمؤلفه عمر بن محمد بن يوسف الكندي، ينطوي على كثير من الحقائق التاريخية، والدلالات النفسية، والرموز الروحية، لمصر وشعبها عبر العصور، والكندي - مؤلف الكتاب - مصري، شديد الاعتزاز بوطنه، يراه أجمل الأوطان، وأسخاها، وأطيبها طبيعة وبشرا.

ومع هذا فإنه يستحق مكانة في سياق الاهتمام بمصر، كما تتجلى في التراث، الذي ينبغي أن يستمد أفكاره وصوره من كتابات غير المصريين، ذلك لثلاثة أسباب: أنه لا يخترع القول من وحي عاطفته الوطنية، وإنما يورد أقوال القدماء من العرب وغيرهم، التي تعلي من شأن مصر وطبائع أهلها وعظمة تاريخها وعمرانها، لم يستشهد بأقوال المصريين في بلدهم، لأن هذا - بالطبع - أمر مقرر. وثانيا فإن كتاب «فضائل مصر» - على صغر حجمه - كان مرجعا مؤثرا في عدد من الدراسات الهامة التي كتبها مصريون أعلام في عصور تالية، في مقدمتهم: القلقشندي صاحب صبح الأعشى، والسيوطي مؤلف حسن المحاضرة، والنويري «من إقليم



بنى سويف، مؤلف نهاية الأرب ، وابن تغرى بردى ، صاحب النجوم الزاهرة وابن ظهيرة ، مؤلف كتاب الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة . وهذا الأخير من مواليد القدس - بفلسطين - غير أنه انتقل إلى القاهرة عام ٨٤٣ هـ . فكان حبه لها وتأليفه عنها . ونقله - مثل سابقيه - عن كتاب الكندى . إن هذا النقل يدل على الاطمئنان إلى المعلومات الواردة ، كما يدل على أن عوامل الحب لمصر ذات أساس موضوعى ، ولها طابع الاستمرارية والاستقرار فى الوجدان المصرى العام ، ومن ثم تتحول مع التقادم والرسوخ إلى غريزة ، أو خليقة متأصلة . قد يدهش غير المصريين إذ يجدون الأقوال نفسها تتردد - تتردد - عبر مئات السنين ، ولكن المصرى العادى يتلقى هذه الأقوال فى مراحل عمره فتستقر فى وعيه ، وفى لا وعيه أيضا ، وتصبح من سماته النفسية والعقلية ، لا يتنازل عنها ، وإن قهرته ظروف مرحلة على أن يخفض صوته ، أو يكتفى بالهمس بها لنفسه .

مصر أم الدنيا ..

إننا - على سبيل المثال - لا نزال نردد عبارة مألوفة ، هى عندنا إعلان عن الاعتزاز بالتاريخ ، عبارة : «مصر أم البلاد» أو «مصر أم الدنيا» وحين غنى سيد درويش نشيده الحماسى إبان ثورة ١٩١٩ غلب على الاعتقاد أن هذه العبارة التى جاءت به من صنع مؤلف - فرد أو



جماعة – لكن الحقيقة أنها جملة «تاريخية» ، نجدها بنصها فى كتاب «فضائل مصر» الذى ألف فى عصر الدولة الأخشيدية (منتصف القرن الرابع الهجرى) ينسبها الكندى إلى سعيد بن أبى هلال، أحد علماء عصره ، إذ روى عن نافع ، وروى عنه الليث ، وتوفى عام ١٤٩ هـ ، إنه قال العبارة التى غناها سيد درويش ، وردها المصريون ، وأصبحت نشيدهم القـومى مؤخرا ، ونصـها : «مصر أم البلاد ، وغوث العباد» يذكر أيضا «أن مصر مصورة فى كتب الأوائل ، وسائر المدن مادة أيديها إليها تستطعمها» !! أوليست أما لجميع المدن ؟ قدرها الطبيعى إذن أن تحمى وتطعم وتعطف ، كما ينقل الكندى عن عمرو بن العاص ، فاتح مصر ، وأول ولاتها فى عصرها الإسلامى ، قوله : «ولاية مصر جامعة ، تعدل الخلافة» . وهى عبارة خطيرة ، تكفى لعزل والى مصر ، ولعلها تفسر لنا جانبا مما نقلق له فى قراءتنا لعلاقة المصريين بالخلافة فى دمشق ، ثم فى بغداد ، لمئات السنين ، والبحث عن جواب لسؤالين حائرين : لماذا كان والى مصر لا يبقى فيها طويلا ، وإنما يتم تغييره بعد وقت قصير ، قد لا يكمل عاما أو عامين فى مرات ليست قليلة ؟ ولماذا لم يستخدم الخلفاء وجوه المصريين فى حكم ولايات الخلافة ، وقد استخدموا الفرس والتـرك والصـقالبة والأكراد والأحبـاش ، والأحرار ، والعبيد ، ولكنهم لم يولوا المصريين ؟

إن هذا يوصلنا إلى السبب الثالث الذى جعلنا نقبل شهادة الكندى فى «فضائل مصر» ، وهو مصرى ، على موقع مصر فى التراث العربى ، ونظرتهم التاريخية إليها . فقد ألف الرجل كتابه تلبية لرغبة حاكم مصر كافور الإخشيدى، يقول عن مناسبة تأليفه : «هذا الكتاب أمر بجمعه ، وحض على تأليفه الاستاذ أبو المسك كافور ، أطال الله بقاءه ، يذكر فيه أخبار مصر، وما خصها الله تعالى به من الفضل والبركات والخيرات ، على أكثر البلدان» .

إن «أخبار مصر» تعنى فى لغة عصر المؤلف – تاريخ مصر ، بوجه عام ، ولسنا الآن بصدد تصنيف الكتاب ، وإن يكن الطابع التاريخى هو الغالب عليه ، ويهمنا أن الدعوة إلى تأليف كتاب يختص بأخبار مصر وإبراز شخصيتها ، وفضلها ، جاءت من حاكم عايش تجربة الاستقلال الأولى ، عن سلطة الخلافة فى بغداد ، تلك التجربة التى بدأها أحمد بن طولون ، وورثها الأخشيد ، وأورثها لكافور ، ليتسلمها الفاطميون بعد ذلك . ألم يقل عمرو ابن العاص إن ولاية مصر تعدل الخلافة !! ماذا تعنى هذه العبارة ؟ إن حجم مصر

الهائل : حضارة وثروة وسكانا وعمرانا ، وتاريخا ، وتميزا ، لا يطيق أن تكون «ولاية» تابعة ، وإنما يليق أن تكون قائدة ، ومركزا ، وحامية . لهذا فرح المصريون باستقلال ابن طولون ، وأعانوه ، واتسع سلطانه حتى شمل الشام ، وشمال العراق ، وكان الحزن الأكبر يوم هزيمة ولده والقضاء على الاستقلال بدخول جيش محمد بن سليمان. كان كافور حكيما عاقلا – استاذا كما دعاه أهل زمانه – هذا على المستوى الشخصي ، ولكنه يفترق عن سادته الذين مهدت الظروف أن يخلفهم في حكم مصر ، أنه أفريقى ، فشعور القرابة ، أو عدم الغربة ، متمكن فيه ، وليس مثل ابن طولون أو الأخشيد . من هنا كانت التفاتته إلى ما فات غيره ، لم يكن يريد أن يسعرف» –فقد كان استاذا ، وكان من اليسير عليه أن تصله المعرفة في مجلسه ، لكنه أراد –فيما نرجح – أن يدعم الشعور الوطني بالشخصية ، ويقوى روح الاستقلال ، ويؤصل الإحساس بالتفرد ، ويمسح عن بعض النفوس الوهم بأن قبول العقيدة الإسلامية ينطوى على التسليم بأن أهل الجزيرة أعلى درجة بالطبيعة في الدين والدنيا .

الإيمان الديني

يشغل فضل مصر ، أو فضائلها ، على أسس دينية مساحة كبيرة في هذا الكتاب. وهذا يعنى أن المؤلف يدرك جيدا أبعاد القضية التى يترافع فيها ، فمصر ليست مهبط الإسلام ، ولم تكن أول البلاد التى تلقته أو دافعت عنه ، مع هذا لن يعدم أسبابا «دينية» لا مجال للطعن فيها ، يقيم عليها «حيثيات» الفضائل المصرية ، غير أنه سيبقى لدى المؤلف حدس قوى بأن «التاريخ» و«ثراء الطبيعة واتساع العمران» هما الحجة الأقوى ، ولهذا سيكون الكندى رائعا حقا ، ومقنعا تماما لجميع من يتوجه بكتابه إليهم ، حين يجعل أسباب التفضيل التاريخى والعمرانى قائمة على أسس دينية ، أو هى على وفاق مع هذه الأسس الدينية ، بحيث تنتهى إلى نتيجة أن الإيمان الدينى يستلزم التسليم بفضائل مصر التاريخية والإنسانية والطبيعية !!

كيف توصل إلى هذا ؟

بعد أن أقر مبدأ «التفضيل» فى ذاته ، وأنه من الله ، وأنه يشمل البلدان ، كما يشمل الناس ، والأيام ، ويقول : «والفضل على ضربين : فى دين ، أو دنيا ، أو فيهما جميعاً» .

سينتهى الكندى إلى أن مصر ذات فضائل ، لم يقل فى هذه المرحلة من كتابه إنها «الأفضل» على الإطلاق ، ومع هذا فإن السياق سيدل على أن هذا مقصده . البدء بالقرآن ، وبالحديث النبوى مدخل مهم لإثارة الانتباه ، وإرساء الدعوى على أساس لا يجحد :

«وقد فضل الله مصر وشهد لها فى كتابه بالكرم ، وعظم المنزلة ، وذكرها باسمها ، وخصها دون غيرها ، وكرر ذكرها ، وأبان فضلها فى آيات من القرآن العظيم ، تنبئ عن مصر وأحوالها ، وأحوال الأنبياء بها ، والأمم الخالية ،



والملوك الماضية . والآيات البينات ، يشهد بذلك القرآن ، وكفى به شهيدا ، ومع ذلك روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فى مصر ، وفى عجمها خاصة ، وذكره لقرابتهم ورحمهم ، ومباركته لهم ولبلدهم ، وحثه على برهم» .

يذكر القرآن فى هذا الاقتباس ثلاث مرات ، شاهدا على ما خصها به «دون غيرها» ويربط هذا التفضيل إلى العقيدة : «أحوال الأنبياء بها» والتاريخ «الأمم الخالية والملوك الماضية» ، ويلتقى الدين والتاريخ والطبيعة فى «الآيات» أى المعجزات . ثم يتدرج إلى الرسول ، ومع أن الكندى – كما هو واضح من اسمه ونسبه – عربى مسلم، فإنه يذكر أو يذكر بوصيته بالقبط – ومباركته صلى الله عليه وسلم – لهم ، ولبلدهم ، وحثه على برهم. إن هذا الانتقاء فى الموضوع والصياغة ليدل على أن أهل مصر – منذ ألف ومائتى عام– كانوا قد صاروا إلى ما نطلق عليه الآن «الوحدة الوطنية» ، ولم يعد منهم عربى فاتح ، أو حتى مهاجر ، وقبطى خاضع يدفع الجزية ، أو صاحب بلد ، لقد أصبح الجميع مصريين وحسب ، وهذا المؤلف المسلم ، ذو العصبية القبلية الضاربة بجذورها فى كندة (إحدى أهم قبائل اليمن العريقة) يدافع بحرارة عن التاريخ الفرعونى ، وعن فضل أقباط مصر ، وانتماء العرب إليهم ، وليس العكس ، وإن كان هذا العكس تولى سبكه وصياغته تاريخ مصر الإسلامية عبر عصوره .

حكاية فرعون

القرآن دليله فى الدفاع عن فرعون وقومه ، لأنه يضع القارئ المسلم فى اعتباره كما ذكرنا ، فقد قال تعالى حكاية عن فرعون : «قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم، يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون . قالوا أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين ، يأتوك بكل سحار عليم» يعقب الكندى على هذه الآيات من صورة الشعراء بقوله : «فهل فى الدنيا جلساء ملك أرجح عقلا ، وأحسن محضرا منهم ، حيث انصفوا ، وأمروا أن يمتحن بمثل ما وقع لهم إنه يشبه ما جاء به ؟ ولم يكونوا فى النزلة وقبح المحضر كوزراء نمرود ، حين شاورهم فى إبراهيم عليه السلام . قال تعالى حكاية عنهم : «قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين» .

وفى هذا السياق عن استقرار حاسة العدالة والإنصاف ، حتى فى معاملة الخصم أو العدو ، فى الوجدان المصرى ، لا يفوته أن يشير – بالقرآن – إلى أن السحرة لم يصروا على الكفر ، بل آمنوا ، وقالوا : «آمنا برب العالمين» ! ونضيف إلى

إشارة الكندى عن إنصاف جلساء فرعون ورجاحة عقولهم ، قدرة فرعون نفسه على ضبط ثورته تجاه من جاء يطالبه بتغيير معتقداته ، والتنازل عن مكتسباته التاريخية ، إن الفرعون – بكل ما ينسب إليه من تجبر واستعلاء ، يقول لحاشيته أو مستشاريه ، بعد أن يعرض الأمر من وجهة نظره : «فماذا تأمرون ؟» ، وقد أخذ برأيهم وأرسل فى المدائن حاشرين ، واجتمع السحرة غير أنه رفض التسليم بنتيجة التحكيم ، واتهم الجميع بالتآمر على النظام – كما نقول فى عصرنا – فكان ما كان .

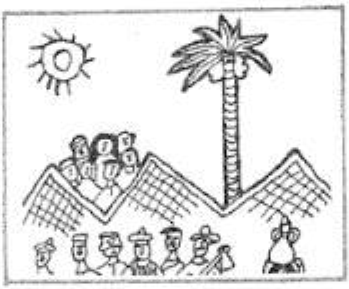
ويقدم الكندى صفحة ناصعة من أحاديث الرسول – صلى الله عليه وسلم ، بحقائق التاريخ كما يقره العرب عن أصولهم ، وكما يعتقده المسلمون مستمدا من كتابهم ، وكلها تضع أقباط مصر فى المنزلة القريبة الحميمة ، إذ ينقل عن صحيح مسلم الحديث الشريف : «ستفتح عليكم مصر ، فاستوصوا بقبطها خيرا ، فإن لكم منهم صهرا ورحما» . ثم يأتى بحديث آخر ، يسند روايته إلى عمر ابن الخطاب ، وفى سياقه يتساءل أبو بكر، فياله من حديث جمع بين النبى وصاحبيه فى الشهادة لمصر بفضيلة الجهاد والرباط فى سبيل الله ، فقد روى عن عمر ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : «إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندا كثيفا ، فذلك الجند خير أجناد الأرض» . قال أبو بكر رضى الله عنه : ولم ذلك يا رسول الله ؟ قال : لأنهم فى رباط إلى يوم القيامة» .

والصهر – أو الرحم فى بعض روايات الحديث الأول – إشارة إلى هاجر ، أم إسماعيل بن إبراهيم الخليل ، وهى من قرية الفرما (العريش) فهى أم العرب ، أما الذمة فلأن الرسول تسرى بمارية ، أم ولده إبراهيم ، وهى من الصعيد . يقول الكندى فى عبارة حارة معتزة :

«فالعرب والمسلمون كافة لهم نسب بمصر ، من جهة أمهم ، مارية أم إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن أزواج النبى ، صلى الله عليه وسلم أمهات المؤمنين ، والقبط أخوالهم» .

ويعود ليؤكد أن المصريين أخوال العرب مرتين ، لهذه التى أشار إليها ، ولأن العرب كافة من مصر (وليس العكس) بأمهم هاجر، لأنها أم إسماعيل ، وهو أبو العرب» .

وكما استمد الكندى آيات القرآن ، وأحاديث الرسول ، لتأكيد عروبة مصر ، ومصرية العرب معا ، وليدافع عن تاريخ مصر ، وشعب مصر ، يستخلص من القرآن ، ومما يروى عن الصحابة والتابعين من أقوال ، ما يدافع به عن حضارة مصر ، وأخلاق شعبها . يذكر قول الله تعالى ، عن فرعون وقومه بعد هلاكهم : «كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين» ثم يعقب على الآيات بقوله :



«فهل يعلم أن بلدا من البلدان ، فى جميع أقطار الأرض ، اثنى عليه الكتاب ، بمثل هذا الثناء ، أو وصفه بمثل هذا الوصف ، أو شهد له بالكرم ، غير مصر ؟!».

ويقول كعب الأحبار عن مصر : إنى لأحب مصر وأهلها ، لأنها (هذا هو التعليل) بلدة معافاة من الفتن ، وأهلها أهل عافية (أى يؤثرون المسالمة والبعد عن الشقاق) فهم بذلك يعافون (سلمت لهم وحدتهم الوطنية وسلمت بلادهم من قلق الانتماء) ومن أرادها بسوء كبه الله على وجهه (نتيجة متوقعة لوحدة الأمة واستقرار النظام العام) وهو بلد مبارك لأهله فيه

محاسن مصر

هذه بعض النصوص الدينية التى قيلت أو نزلت فى مصر ، وقد قدم المؤلف ثبتا كاملا بالأنبياء ، والحكماء ، والعلماء ، والشعراء .. و .. الذين ولدوا بمصر ، أو عاشوا فيها وقتا ، ليتفرغ بعد ذلك لإبراز محاسن مصر الطبيعية ، فيذكر ما هو معروف عن جوها وأرضها وزروعها ، غير أن «النيل» لابد أن يحظى بعناية خاصة ، إنه أحد أنهار أربعة «من الجنة» وهذا حديث ينسب إلى الرسول ، والمجاز يفسره، غير أن المؤلف لا يكتفى بهذه المشاركة ، وهو يبحث عن «انفراد» الشخصية فى الطبيعة المصرية ، فيتبهنا إلى حقيقة أن النيل «ليس فى الدنيا نهر يصب من الجنوب إلى الشمال إلا هو .. وليس فى الدنيا نهر يزرع عليه ما يزرع على نيل مصر ، ولا يجبى من خراج نهر من أنهار الدنيا ما يجبى من خراج النيل» .

يستطرد الكلام إلى أقاليم مصر ، وما يتميز به كل منها ، فأطيب عسل فى بنها ، وأهل مريوط أطول الناس أعمارا ، ونخيل الفرما يطيب بعد أن ينتهى موسم التمور فى كل الأقاليم فيكون وحده مددا لن يشتهى إلى الربيع التالى ، وإقليم الفيوم يتكون من ثلاثمائة وستين قرية ، تستطيع كل قرية أن تطعم مصر كلها يوما واحدا فى زمن الأزمة ، فتجتاز محنتها على مدار العام ، ليصل إلى النسيج المطرز والقصب الذى اشتهرت به تنيس وتفوقت به فى العالم ، ويذكر الثوب الدبيقى (نسبة إلى دبيق وهى من قرى مصر) والمرعز العسلى، وهو نسيج خاص من شعر الماعز ، لا تنتجه غير مصر ، وقد كانت دمياط تنافس تنيس فى جودة أقمشتها ، وإن

تفوقت تنيس بغزارة الإنتاج حتى إنه يقال ليس فى الدنيا منزل إلا وفيه من ثوب تنيس ولو خرقة !! .

إذا كانت هذه مكانة مصر الروحية، وقيمتها الحضارية، وقدرتها الإنتاجية .. فمن أين جاء تدهور أحوالها فى عصر الولاة ؟ مما يفسر لنا نزعتها إلى الاستقلال المبكر، ومنافستها للخلافة العباسية، ثم احتواءها لتلك الخلافة عقب سقوطها فى بغداد بعد الغزو المغولى ؟

يقر الكندى بوجود التدهور، وهبوط مستوى الإنتاج، معتمدا على أرقام ما تقدمه مصر إلى الخلافة من خراج، وسيذكر السبب أيضا، وإن لم يسم الأشياء بأسمائها «توقيرا» للتاريخ !!.

يقول إن عمرو بن العاص جباها أول سنة فتحها عشرة آلاف ألف دينار (أى عشرة ملايين دينار) ثم ارتفعت إلى اثنى عشر، ثم عزل عمرو، وجباها ابن أبى سرح أربعة عشر مليونا، ويبدو أن هذه الزيادة لم تكن ثمرة زيادة فى الإنتاج، بل كانت استنزافا لأرزاق الناس، بل لم تؤد هذه الزيادة إلى إجراء إصلاحات يجب القيام بها فى الأراضى الزراعية والطرق إلخ، ومن هنا كان تعليق عمرو بن العاص الشهير «نعم، وهلكت فصالها» أى أن مصر تقدم أموالها للخلافة ويموت أبناؤها. لقد كانت الأربعة عشر مليونا التى جباها ابن أبى سرح إيذانا بالهبوط الاضطرارى، إذ بدأ التدهور فى الدخل العام، فجبيت أيام بنى أمية، وبنى العباس دون الثلاثة الآلاف ألف دينار (أى أقل من ثلاثة ملايين). غير أن الدخل أخذ يميل إلى الارتفاع مع الاستقلال، والنظر إلى الفسطاط أو القطائع على أنها «عاصمة»، وعبارة الكندى واضحة دالة، تقول: «وولاية بنى طولون، فإنهم بالغوا فى عمارتها، فجباها أبو الجيش (يقصد خمارويه بن أحمد بن طولون، وقد قتل عام ٢٨٢ هـ) أربعة آلاف ألف دينار» !!

إن تعهد مصر بالإصلاح والتجديد أساس فى تنمية قدرتها على الإنتاج، ومن ثم تقديم الأموال الوفيرة للخلافة فى دمشق، ثم بغداد، وقد أدرك بعض ولاتها ذلك، وعلموا أنها لا تساس بأساليب حكم البوادى أو البلاد الحراجية التى تعيش على المطر. وهذا واضح فى خبر يسوقه الكندى، من أن المنصور (الخليفة العباسى) كتب إلى محمد بن سعيد، وكان يلى خراج مصر، يستحثه بالخراج، فكتب إليه يشكو اختلالها، وأنها تحتاج إلى إنفاق فإنها ترد أضعاف ما ينفق !!

ولكن هذا لم يحدث. وهنا نجد أنفسنا نعود عن النتائج إلى الأسباب .. وأهمها – فيما نرى ونستنتج أيضا من كتاب فضائل مصر – سببان: اعتقاد من بيدهم أمور الدولة (الخلافة) أن الأمصار، أو الولايات مجرد أدوات لإمدادها بالمال، وكان أهم ما



يعنيهم من أمور تلك الولايات خضوعها للسلطة المركزية ، وتقديم الخراج هو الدليل المعلن على هذا الخضوع ، بل ربما تخوف الخلفاء من ثراء بعض الولايات ، وتنمية قدراتها ، بما يغريها – ربما – بالتفكير في الاستقلال .

ونورد هنا خبرا – على طوله – لأهميته فيما نحن بصدده ، يرجع إلى عصر سليمان بن عبد الملك (الخليفة الأموى) وقد ولى الخراج أسامة بن زيد (وهو غير الصحابى بالطبع) فكتب الخليفة إلى عامله يقول : احلب الدر حتى ينقطع ، واحلب الدم حتى ينصرم !! يقول الكندى «فذلك أول شدة أصابت أهل مصر» ، ويستمر متعقبا هذه الإشارة الرهيبة لواحد من أعاظم خلفاء البيت الأموى ، فيذكر أن سليمان قال يوما – وقد أعجبه ما فعل أسامة (حل الدر ، والدم حتى أهلك الناس) : هذا أسامة لا يرتشى دينارا ولا درهما ، فقال له ابن عمه عمر بن عبد العزيز : أنا أدلك على من هو شر من أسامة ولا يرتشى دينارا ولا درهما ؟ قال : ومن هو ؟ قال : ذلك عدو الله إبليس ، فغضب سليمان وقام من مجلسه ، فلما توفى أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك ، وولى عمر بن عبد العزيز وجه فى عزل أسامة قبل دفن سليمان !!

التوجس من قوة مصر حين تجتمع حضارة التاريخ ، وقوة الاقتصاد ، ووفرة العمران ، وكثرة العدد ، كان يعمل عمله العكس فى نفوس الخلفاء والولاة ، فى أكثر مراحل التاريخ الوسيط ، (والقديم أيضا) .

السياسة والعاصمة

أما السبب الثانى ، وهو لا يقل أهمية فهو الموقف السياسى لمصر ، الذى تغلب عليه العاطفة ، ودوافع الإيمان الدينى ، ولا يضع اعتبارا للمصلحة ، أو التنسيق بين الاحتمالات ، لقد وقفت مصر فى جانب على بن أبى طالب – كرم الله وجهه – وكان هذا استمرارا لموقفها فى الثورة على عثمان ، رضى الله عنه ، إذ شارك بعض أبنائها فى حصاره ، ثم قتله .. وقد كان ما هو معروف من تغلب معاوية ، واستقرار الخلافة فى بنى أمية ، ومن الطبيعى ، فى حكم قام على العصبية ، وأعلن «الثأر لعثمان» شعارا ، ألا ينظر إلى مصر من موقع الرضا لا يمنع هذا أنه كان فى البيت الأقوى نفسه جناح يعشق مصر ، ويؤمن بفضلها وقوتها المذخورة ، على رأس هذا الجناح عمر بن عبد العزيز ، وقد رأينا

تعليقه الحاد، وقراره الحاسم في التعامل مع الوالي الذي قسا على أهل مصر، واستنزف أموالهم ولعمر بن عبد العزيز (خامس الراشدين) موقف آخر، كان الطرف الثاني فيه الخليفة الأموي الوليد ابن عبد الملك، فقد أمر هذا الخليفة باستحضار الخيول من كافة الأمصار، وجلس يستعرضها قبل أن تجرى في المضمار، فلم تعجبه خيل مصر، قال عنها: «هذه خيل ما عندها طائل، فقال له عمر بن عبد العزيز – وهو جالس معه – وأين الخير كله إلا لهذه، وعندها: فقال له: ما تترك تعصبك يا أبا حفص لمصر، على كل حال !!

وبصرف النظر عن نتيجة السباق، وقد كانت لصالح الخيل المصرية، التي جاءت كلها سابقة، ما خالطها غيرها، فإننا نكتشف أن هذا الاعتزاز بمصر كان موقفا شاملا لكل ما ينتمي إليها (حتى الخيل) ومعلنا معروفا عند الخليفة، وليس من شك في أن موقف الخليفة الراشد الخامس كان مترتبا على خبرة مباشرة بمصر، ومشاركة عملية لأهلها، إذ كان والده: عبد العزيز بن مروان، واليا على مصر عدة أعوام.

موقف عمر بن عبد العزيز استثناء، أما مصر التي رحبت دائما باللائذين بها من أهل بيت النبي، فقد كانت تغذى في الأمويين، والعباسيين معا، الإحساس بأنها ليست معهم بقلبها، وأن عواطفها مع غيرهم. حدث هذا ابان ثورة عبد الله بن الزبير، فقد دخلت مصر في دولته، وحدث في عصر المنصور، حين ثار عليه بالمدينة محمد النفس الزكية (من نسل الحسن بن علي) وقد سبقت الإشارة إلى أن والي مصر محمد بن سعيد كتب إلى المنصور – حين استحثه على إرسال خراجها – بأنها تحتاج إلى إنفاق، وأنها إذا أنفق عليها «ترد أضعاف ما ينفق»، ولكن هذا لم يحدث، فقد تصادف أن ثار «النفس الزكية» وقلق المنصور على مصير الخلافة، واتجه القلق إلى مصر (رغم أن الثورة في المدينة والبصرة) فكتب إلى واليه يمنعه من إجراء أية إصلاحات.

هذه بعض فضائل مصر، قبل الأزهر، ومجاهدة الصليبيين، ومحاربة التتار، لم يحصها الكندي، وإن ذكر أهمها، لا يغيب عنه أن الحرمين، أحق بالتقدم والفضل، ولكنه يستبعد المقارنة، كما يقرر حق وطنه إذ يقول:

«للحرمين (يقصد مكة والمدينة) فضلهما الذي لا يدفع، وما خصهما الله به مما لا ينكر من موضع بيته الحرام، وقبر نبيه عليه الصلاة والسلام، وليس ما فضلهما الله به بباخس فضل مصر، ولا بناقص منزلتها، وإن منافعها في الحرمين لبينة، لأنها تميرهما بطعامها وخصبها وكسوتها وسائر مرافقها ..».

القاهرة
ونقمة التحديث

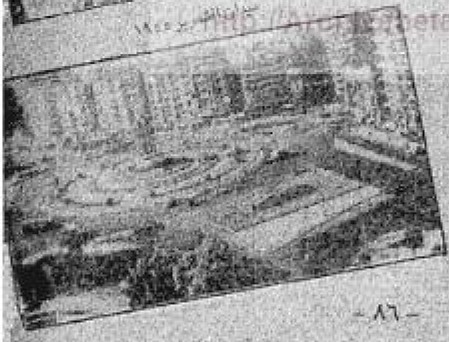
بقلم : د. محمد شرابى *

نادي السيارات المصري
بشارع قصر النيل



جمعية المهندسين بشارع رمسيس





* أستاذ العمارة فى جامعة دار مشتات بألمانيا

فى الغربة ، وبينما أعيش وأعمل فى وسط أوربا ، أخذت أبحث عن أصلى وبيتى .. عن بيتى ومدينتى ، وجعلت هذا البحث هو جوهر فعاليتى الحضارية وكفاءتى العلمية .

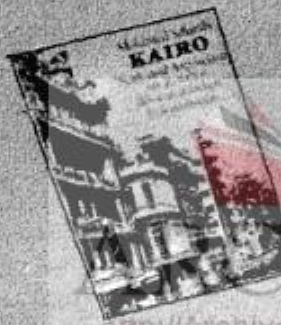
عدت إلى مدينتى القاهرة التى عشت فيها قرابة عشرين عاماً ، والتى امتزج فيها الشـرق والغرب ، وأخذت أبحث عن هويتها وعمارتها ومجتمعها ، تجولت فى شوارعها أتأمل عمارتها ، أرسم وأسجل وأصور كل ما يشدنى إلى عاصمتى ..

وبعد سنوات من البحث والدراسة ، ها هى القاهرة ، المدينة المعاصرة التى تأرجحت عمارتها بين الشرق والغرب ، بين العقل والنقل ، بين التراث والمعاصرة .

عندما غادرت القاهرة فى عام ١٩٥٧ متجها شمالاً إلى ألمانيا للدراسة ، كان عدد سكانها حوالى مليونين من البشر ، واليوم يقدر عدد سكانها بحوالى عشرين مليون نسمة يعيشون فى أحياء مكتظة ، وصل الازدحام إلى حد احتلال البعض للمقابر ! .

وما يؤدى إليه الازدحام من تلوث للبيئة وظهور غمامة تخفى القاهرة الفاطمية خلف عمارات أوروبية شاهقة وتوارت القاهرة القديمة خلف هذا الازدحام وخلف المبانى الأوروبية واختفت القاهرة الفاطمية ومـن قبلها تلك الفرعونية الإغريقية اليونانية ، ثم القاهرة الإسلامية ، وظهرت القاهرة الحديثة .

وقد مرت القاهرة الحديثة بمراحل ثلاث : ما قبل الاحتلال البريطانى لمصر عام ١٨٨٢ ، والمرحلة الثانية حتى عام ١٩٥٢ ، والمرحلة المعاصرة ، أى ما بعد عام ١٩٥٢ حتى الآن .



تجسيد الفكرة الاسلامية

وسنتناول هنا القاهرة الإسلامية التى نشأت فى القرن العاشر الميلادى ، والتى

خططت على أربعة أجزاء أو أحياء باستعمال محورين هما : الشرق غرب والشمال جنوب ، وهذا التقسيم أتاح إمكانية وجود السوق على المحورين ، خاصة محور الشمال الجنوب بين أبواب المدينة الرئيسية ، وعلى هذا المحور أيضا أقيمت أهم مبانى المدينة من مساجد ومدارس وقصور ، وأصبح هذا المحور هو قلب المدينة النابض الذى يجسد الفكرة الإسلامية بعدم وجود فارق بين الدين والدنيا .

والملاحظ هنا أن التخطيط المعمارى يسمح بتنوع الأنشطة ويتميز بالمرونة وإمكانية تغير الوظيفة تبعا لتغير الظروف .

وظهر فى القاهرة الفاطمية نوع متفرد من المبانى الذى يجمع بين السكن والتجارة يسمى « الوكالة » أو « الربع » ، ويوجد وسط السوق أو على أطرافه ، والذى يتكون من عدة طوابق ، يوجد فى الدور الأرضى المحلات والمخازن التجارية أما الطوابق العليا فتتكون من مساكن الغرباء وهى عبارة عن غرف منفردة ، أما مساكن الأقرباء فتتكون من غرف وطوابق متعددة ، أى تتكــون من عدة « فيلات » ذات فناء مشترك ، مثل وكالة (ذى الفقار) فى الجمالية . ولهذه الوكالات عادة مدخلان مدخل عام ومدخل خاص .

وتقوم هذه الوكالة علاوة على تميز عمارتها ، مراعاتها الأوضاع الاجتماعية فتضم السلاملك والحرملك فضلا عن أنها راعت ظروف المناخ ، فهى تتيح الحماية من حرارة الشمس عن طريق الظل وتراعى فى الوكالة كلا من الوظيفة والشكل والمناخ، والشكل المعمارى .

ويلاحظ أن الشارع النافذ هو القائم وسط المدينة ، أما الحارة المغلقة ، فهى أساس تخطيط الأحياء السكنية كأماكن خاصة للأهالى .

القاهرة ونابليون

وبدأت هذه الرؤية التخطيطية الدقيقة فى التغير التدريجى منذ سبعينات القرن التاسع عشر ، فرغم وصول الحملة الفرنسية فى أواخر القرن الثامن عشر ومحاولات نابليون تتم لتغيير المدينة المصرية ، ورغم توسيعه لشارع الموسكى وتسميته « ري نوف » ولكن ذلك ظل جزءاً غريبا عن نسقها ، وسرعان ما تغير واكتســب الطــابع الشرقى وسمى بالموسكى .

وإذا كانت الحملة الفرنسية قد عجزت عن تغيير نسق القاهرة القديمة ، إلا أنه نزع بذرة التغيير الأساسية عندما غير النظام الإدارى والاجتماعى القائم الذى يلعب الدور الرئيسى فيه شيوخ الحارات ، واختصر نابليون الحارات من ٤٠٠ حارة إلى ثمان فى نظام إدارى جديد ، كما

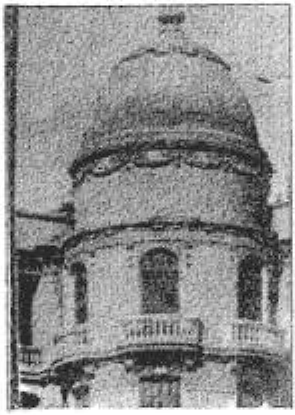
استبدل الشرطة بشيوخ الحارات ، وتحول شيخ الحارة من مساعدة الأهالى إلى مراقبتهم ، وكان ذلك بداية تغيير المجتمع الشرقى مما أدى إلى تغيير طبيعة المدينة .

وتمضى الأيام ويتولى محمد على الولاية على مصر طوال النصف الأول من القرن التاسع عشر ، ويسير فى العلم والفن والإدارة على النهج الأوربى ، ودعا العديد من الأوربين للعمل فى مصر ، وأوفد البعثات إلى أوربا فى كل من فرنسا وايطاليا وانجلترا ، وأقام المدارس على النمط الأوربى .

حى الأزبكية

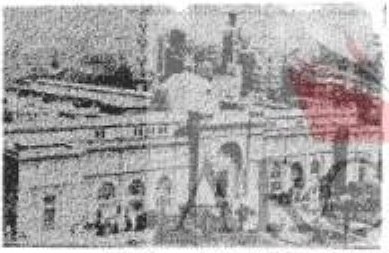
نافس محمد على نابليون وبدأ فى شق طريق على النمط الأوربى طوله حوالى كيلو مترين ، يوصل ما بين القلعة مقر الحكم وحى الأزبكية الذى كان يقطنه علية القوم وبدأت تتشكل بؤرة عمرانية جديدة بجانب القاهرة القديمة .

ورغم ما أحدثه هذا الشارع من تغيير فإنه لم يمس طابعها القديم ، ومضى عهد إبراهيم باشا ، وعباس حلمى الأول وسعيد، ولم تتغير القاهرة ، حتى عصر الخديو اسماعيل ، الذى تعلم فى باريس فى كلية سانت كير ، وكان يتكلم اللغة الفرنسية أفضل من اللغتين التركية والعربية ، والذى كانت تربطه بالبارون

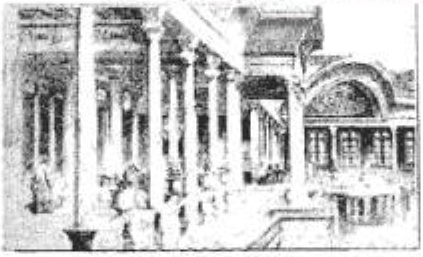


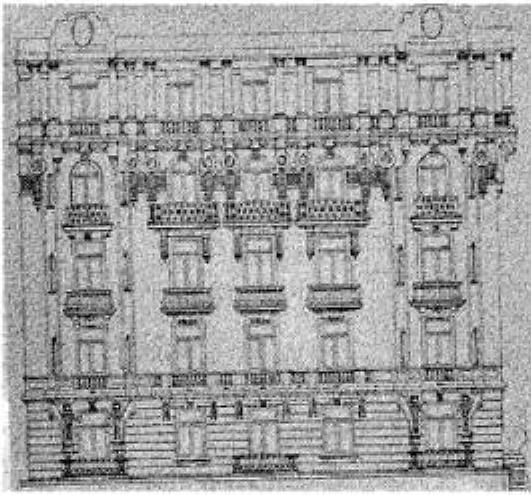
عمارة بشارع محمد مظلوم

المتحف المصرى ٦



[illegible] رسم سنة ١٨٧٩





مبنى على طراز
نيو باروك
(ميدان الاوبرا)

هاريسمان علاقة شخصية حميمة ، والذى صاحبه فى جولة لمشاهدة باريس الحديثة خلال المعرض العالمى عام ١٨٦٧ .

وقرر الخديو بناء قاهرة جديدة تصبح « باريس الشرق » وكلف اسماعيل المهندس الفرنسى باريلى دى شمب تخطيط المدينة الجديدة ، والتى أطلق عليها الاسماعيلية ، وأهدى الأراضى إلى من يريد البناء على الطريقة الأوربية ، وحتى سنة ١٨٧٠ لم يتم فى المدينة الجديدة سوى بعض المساكن والمحلات التجارية حول حديقة الأزبكية ، وحتى نهاية عهد اسماعيل لم يتم بناء ما يزيد على حوالى ٢٠٠ بيت فى التخطيط الجديد . كان المصريون يملكون القليل منها . وأسقط الأوربيون اسماعيل وعزلوه سنة ١٨٧٩ رغم كل ما قدمه لهم . وفى عام ١٨٧٦ تم إعلان إفلاس الحكومة المصرية .

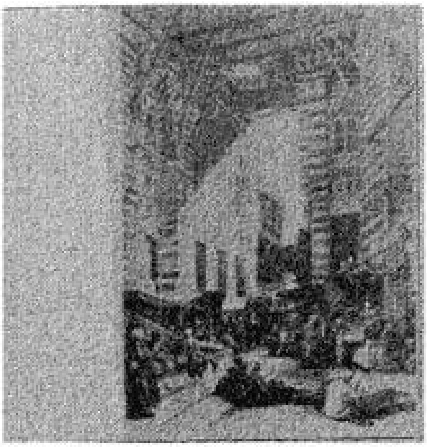
وحكم الإنجليز مصر بعد هزيمة الثورة العرابية ، وازدهرت الزراعة وتدهورت الصناعة ، ولم يهاجر أهل الريف إلى القاهرة ، وكان يقدر عدد سكان القاهرة فى أواخر القرن الماضى بحوالى ٦٠٠ ألف نسمة ، وتزايد عدد الأوربيين والأجانب فى العاصمة وكان يقدر عددهم بحوالى ٣٠ ألف نسمة ، والذين فضلوا السكن فى المدينة الحديثة ، فى كل من حى الاسماعيلية وحى التوفيقية الذى أقامه توفيق ، والتى أقيمت مبانيهما على الطراز الأوربى ، وأقامها مهندسون فرنسيون وإيطاليون وانجليز ، وأصبحت هذه الأحياء

تقارن في عمارتها وتنافس ماكنا نراه فى فرنسا وإيطاليا وتكونت القاهرة الأوروبية للأجانب ومساعديهم من المحليين وسكن معظم الأهالى القاهرة الفاطمية أو مصر القديمة ، واختلف الوضع منذ الخمسينات، عندما تزايد عدد سكان العاصمة ، وعقب إقامة أحياء سكنية جديدة على أطراف القاهرة والتى ربطت قلب العاصمة بالترام أو الحافلات وتخلى أعيان وأغنياء القاهرة عن أحيائهم ومنازلهم القديمة لعدم توفر المرافق الحديثة مثل الكهرباء والمياه والصرف الصحى .

فتدهورت الأحياء القديمة ، وتساقطت مبانيها ، وهى الصورة المحزنة التى تتكرر فى معظم العواصم الشرقية .

ورغم حصول البلاد على إستقلالها ، فإن الآثار الاستعمارية الاقتصادية والسياسية والحضارية ، جعلت المجتمع المصرى يتأرجح ولا يستقر بين كل من الغرب والشرق وقامت مدينة ثالثة ليست القديمة الاسلامية وليست الأوربية الحديثة ، وتضم كلتيهما وإن كانت أبعادها الحضارية غير ملموسة ، ولا يمكن تعريفها وتحديد معالمها مثل القاهرة الفاطمية أو تلك الأوربية .

وتضم القاهرة اليوم ما يزيد على ٣٠ ٪ من سكان البلاد ، وهى تحتاج إلى رؤية جديدة ومرافق جديدة ، وهى ليست بالقطع التقليد الأعمى لطرق تخطيط المدن الأوربية أو الأمريكية !



سوق الحرير رسم ١٨٣٩

لقد كانت القاهرة حتى حوالى عام ١٨٧٠ مدينة متكاملة ومحددة المعالم والطراز تضم مجتمعاً قديماً عريقاً ، ثم نشأت مدينة جديدة على الطراز الأوربى ، ولخدمة أغراض الأوربيين تمثل التخطيط والعمارة الأوربية الناتجة عن الفكر القائم فى القرن التاسع عشر .

ومنذ منتصف القرن العشرين إضطربت الأحوال واختلط القديم والجديد وتدهورت المدينة القديمة ، وتلوثت المدينة الأوربية وتغيرت معالمها وعمارتها ، أى انقرضت القديمة أو كادت ، وتغيرت الحديثة .

وحان الوقت للتفكير فى قاهرة القرن الواحد والعشرين بأسلوب جديد وتصور حديث .

مصر أم الدنيا

عمل إبداعي جميل

بقلم : عبده جبير



فتياتنا وفتياننا الذين هم بين سن ١٢ إلى ١٦ سنة هم أكثر الناس ظلما فى مجتمعنا العربى الهمام ، ليس فقط لأنهم يعانون من التسلط الأبوى الذى يكبس على أنفاسهم بسبب تحلل قيمة الحوار بين جميع أطراف هذا المجتمع العربى ، وأصحاب هذه السن هم أكثرنا حساسية ورقة ، فهى فترة المراهقة التى إما أن تنتهى بالنعيم أو بالجحيم ، بل وأيضا لأن الاهتمام الثقافى بهم يكاد يكون معدوما .



أحد شوارع الجمالية : هنا أيضا الطابع الإسلامى للحى القديم مع اللمسة الإنسانية التى ترفرف بها أعلام الطينة المعلقة بين البيوت .

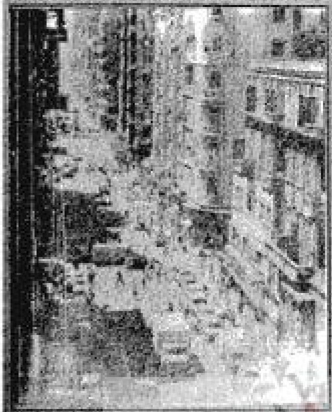
الغريب أن الأطفال ، من سن ٥ إلى ١٢ ، لهم عشرات من المجلات ، والكتب وبرامج التليفزيون والإذاعة ، أما أصحاب هذه السن فليس لهم (على الأقل فى مصر) شئ يذكر ، وأكاد أجزم ، على الإطلاق ، على الرغم من أن أعضاء هذا الفريق يشاركون فى كثير من برامج التليفزيون بالتمثيل ، لكنهم يتوجهون بكلامهم إلى من هم أصغر سنا ، لا لأقرانهم ، وهو أمر مدهش لو تأملنا .

لم هذا الإهمال ؟

هل لأن هذه السن تحتاج إلى كتابة حساسة جدا ، وأصحاب هذه الكتابة الحساسة جدا ، نادرون عندنا ، أم لأن ذكاء هذه الفئة يستعصى على الأقلام ، ففى هذه السن لا يمكنك أن «تفشر» أو تشطح ، كما أنك إذا لم تراع الدقة تعرضت لنقد مراهق صريح وقد يكون جارحا .

على أى حال أشير هنا إلى مجهود خاص تبذله دار الفتى العربى ، إذ تتوجه لهؤلاء المراهقين بعدة سلاسل ، على رأسها سلسلة روايات عالمية ، وروايات علمية ، هذه السلسلة الجديدة «المدن العربية» التى تفتتح بكتاب أول عن مدينة القاهرة ، وقصتها عبر ١٣٠٠ عام .

فى هذا الكتاب لجأت الدار إلى الأسلوب العلمى الصحيح ، الذى يبدأ باختيار الكاتب ، فلجأت للدكتورة «نللى حناء» التى كرست عمرها كله لتاريخ القاهرة المعمارى والثقافى والفنى ، وهى بالتالى قادرة على الوصول إلى المعلومات الصحيحة الدقيقة ، كما امتازت بلغة علمية بسيطة لا تلجأ للبهرج اللغوى ، أو «الأسلوب الإنشائى» الفارغ ، بل إلى الأسلوب المباشر الواضح لتعرض قصة القاهرة بشكل منطقى واضح ومختصر ، مما جعل الكتاب قراءة مشوقة ، أى أصبحت الكتابة هنا عملا إبداعيا وإضافة ... الآخرون ، أو استعراضا لمادة جافة تدفع للنفور ، والمقياس لهذه الجاذبية العلمية والإبداعية كان واضحا ، حين عرضت الكتاب على فتى فى الرابعة عشرة ليتصفحه ، فإذا به يتنحى جانبا بالكتاب ويلتهمه ، ورأيت الشوق فى عينيه ، والاستغراق فى ملامح وجهه ولم يتركه حتى انتهى منه تماما ، ونطق كلمة الإعجاب التى تلخص الموضوع برمته : الله .



شارع عماد الدين : قاهرة العصر الحديث لا تزال هذه المبانى تشكل ما تطورت إليه العاصمة المصرية فى القرن الماضى

نعم فعل الكاتبة سلفت بذلك ، والدار أحسنت الاختيار ، وكانت الصور (بالأبيض والأسود) المصاحبة للكلام صور مبدعة حقا ، علاوة على قيمتها التاريخية ، إلتقطتها عينا فتاة حساسة من زوايا خاصة ودالة ، وبهذا أضافت رانda شعث بعدستها الحميمة بعدا جديدا على هذا العمل الفنى ذى القيمة الكبيرة ، وهنيئا لفتياتنا وفتياننا بهذا العمل البسيط الجميل المتفرد ، ولنتأمل بعض هذه اللوحات البارعة .

ضريح الظاهر بيبرس بالجمالية ، مرة أخرى ، الأثر ليس معزولا عن البشر ، والعمارة والناس في تضافر فريد



أمين سامى وتقويم النيل

بقلم : على بركات(*)

أغسطس هو شهر « وفاء النيل » اعتاد المصريون منذ قديم الزمان على تقديم القرابين والهدايا ، حتى يفيض النيل وتمتلىء جنبات الوادى بمياهه رمزا للخير والنماء .

نقدم على صفحات « الهلال » أهم كتاب مصرى صور النيل وفيضان النيل ورصد أحوال النيل على مر العصور .

« الهلال »

فى عام ١٨٧٥ أنشئت الجمعية الجغرافية للعناية بالأبحاث الجغرافية ، والأبحاث العلمية بشكل عام ، وكان من باكورة أعمالها نشر بحوث تاريخية وأثرية لمؤرخين وأثريين مصريين من أمثال محمود الفلكى وأحمد كمال .

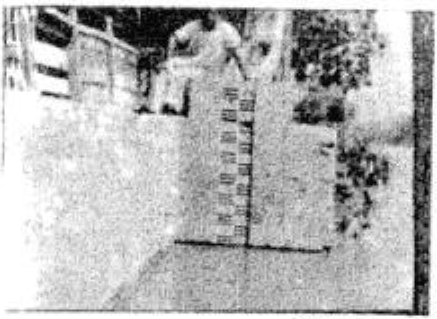
(*) أستاذ التاريخ الحديث بجامعة المنصورة .



تمثال النيل - متحف الفاتيكان



أمين سامي باشا



مقياس النيل بالروضة

وشهد القرن التاسع عشر كتابات تاريخية تختلف من حيث المنهج عن كتابات المؤرخين السابقين ، كما ظهر نوع جديد من الكتابة التاريخية يمكن أن يصنف ضمن المذكرات السياسية كتبها بعض الذين عاشوا تجربة الثورة العرابية وعاشوا أحداثها من أمثال أحمد عرابي وعبد الله نديم والشيخ محمد عبده ومحمود فهمي .

في هذا المناخ الفكري والثقافي ولد أمين سامي من أب ينتمي الى تلك الشريحة الاجتماعية الصاعدة في القرن التاسع عشر وهي شريحة أعيان الريف التي قدمت لمصر أبرز قادتها ومفكريها من أمثال أحمد عرابي وسعد زغلول وأحمد لطفي السيد .

ولد أمين سامي حسب رواية الزركلي – بقرية البرادعة من قرى القليوبية وكان أبوه محمد حسن شيخا لهذه القرية كما كان جده الشيخ حسن البرادعي شيخا لهذه القرية من قبل .

وليس لدينا كثير من المعلومات عن طفولة أمين سامي ومراحل تعليمه الأولى لأن أمين سامي لم يترك ترجمة لحياته وإن كان يمكن القول أنه تلقى تعليمه المبكر في كتاب القرية مثل غيره من أبناء أعيان الريف خلال تلك الفترة ، ثم التحق بالمدارس الحديثة بمعنى أنه لم يتلق تعليمه في الأزهر بحيث تشير المصادر الى أنه التحق بمدرسة الهندسة بالقاهرة بعد أن أتم تعليمه الثانوي ، وبعد تخرجه من مدرسة الهندسة عين مدرسا بمدرسة المساحة ببني سويف خلال عصر اسماعيل ومكث بهذه الوظيفة خمس سنوات ، ثم نقل خلال عصر توفيق الى مدرسة الناصرية بالمبتديان والتي كانت تقبل أبناء الصفوة والأعيان ، وكان مستواها من حيث التعليم أفضل من غيرها باعتبارها مدرسة نموذجية . وما لبث أن أصبح أمين سامي مديرا لهذه المدرسة وهو المنصب الذي ظل يشغله لمدة

ربع قرن ، ثم أصبح لفترة من الوقت مديرا لدار العلوم وبالتالى ارتبط بالصفوة وبدوائر المثقفين فى مصر .

وقد بذل أمين سامى جهدا فى اصلاح التعليم الابتدائى والثانوى فى عهد توفيق وفى عهد عباس حلمى الثانى كما بذل جهدا فى اعادة تنظيم دار العلوم التى تسلم ادارتها من مصطفى فهمى (شغل مصطفى فهمى منصب رئيس مجلس الوزراء بعد ذلك) .

ويبدو أنه قد حصل على رتبة الباشوية خلال تلك الفترة حوالى عام ١٩١٠ عندما كان لا يزال يشغل منصب ناظر المدرسة الناصرية بالمبتديان .

ويشير الزركلى الى أن أمين سامى قد أصبح لفترة من الوقت عضوا فى مجلس المعارف الأعلى ويبدو أن شغله لهذا المنصب قد مكنه من أن يلعب دورا فى اصلاح التعليم .

وفى أعقاب الاستقلال ناصر أمين سامى فكرة تعليم المرأة وفتح باب التعليم العالى أمامها وهى الفكرة التى كان أحمد لطفى السيد متحمسا لها . وقد ظل أمين سامى نشطا فى الحياة العامة ومن ثم تم اختياره عضوا بمجلس الشيوخ لهيئتين برلمانيتين الأولى ١٩٢٤ - ١٩٣٠ والثانية ١٩٣١ - ١٩٣٤ .

وفى المجال الاقتصادى كان أمين سامى من أنصار بذل أقصى الجهود للنهوض بالزراعة المصرية لأهميتها فى الاقتصاد المصرى ويبدو أن هذا الاهتمام كان وراء انجازه لكتاب « تقويم النيل » وهو تسجيل لتاريخ النيل والجهود المبذولة للسيطرة على النهر وفيضانه .

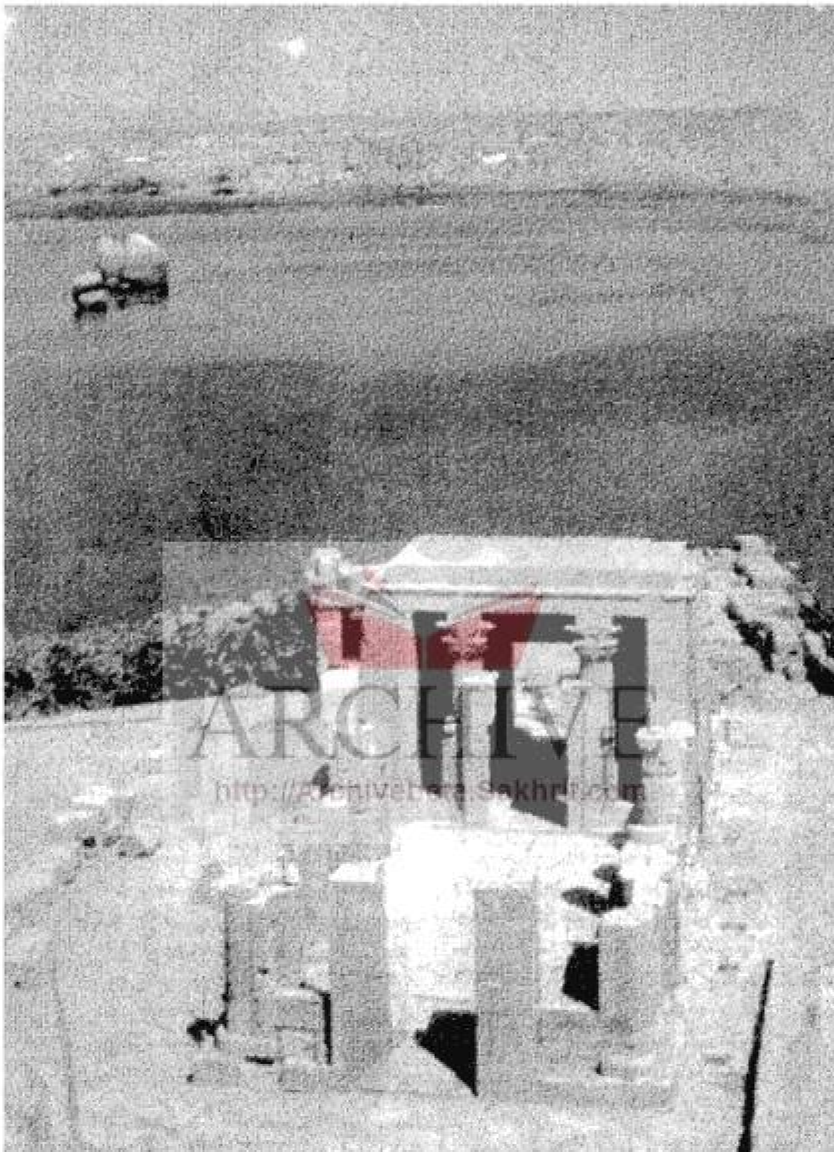
وقد استغرق اعداد تقويم النيل أكثر من ٢٥ عاما من حياة أمين سامى كما جاء فى مقدمة هذا العمل .

تقويم النيل

يقع تقويم النيل فى حوالى ٢٧٣١ صفحة من الحجم الكبير بخلاف الفهارس والمقدمات .

ويتكون من مقدمة وثلاثة أجزاء وخاتمة .

وتتضمن المقدمة التى تقع فى ١٣٤ صفحة جداول احصائية لفيضان النيل والتحاريق منذ العام الأول البحرى الذى يوافق عام ٦٤٠ م وحتى عام ١٩١٥ م ، وعلاقة الفيضان كل عام بحالة البلاد الاقتصادية من حيث الرخاء والقحط وما أورده المؤرخون عن ذلك ، كذلك تشمل المقدمة تفاصيل عن جغرافية مصر ومناخها ورياحها . ثم متابعة تاريخية لخراج مصر وارتباط ذلك بفيضان النيل مع التعرض للأحداث الهامة المرتبطة بهذا الموضوع خلال عصر الولاة ثم العصر الفاطمى ثم العصر الأيوبى والمملوكى كما تتعرض لعملية مسح الأرض خلال العصر المملوكى وخاصة الروك الناصرى وروك السلطان شعبان . وتتناول المقدمة العصر العثمانى فى عجالة ثم عملية مسح الأرض فى عصر محمد على ونتائجها ، وتطور تعداد السكان منذ الحملة الفرنسية وخلال عصر محمد على ونتائج تعدادات ١٨٨٢ ، ١٨٩٧ و ١٩٠٧ ، ١٩١٥ . ثم زمام الأراضى الزراعية عام ١٩١٤ م ، ومن



الواضح أن الموضوعات التي طرحها أمين سامي في المقدمة كانت هي الموضوعات التي سوف تحظى باهتمامه في الأجزاء التالية .

ويتضمن الجزء الأول الذي يقع في ٢٥١ صفحة عرضا لتاريخ مصر منذ عام ٦٢٢ م تاريخ فتح العرب لمصر حتى عام ١٥١٦ م تاريخ الفتح العثماني لمصر . مركزاً على فيضان النيل ووقت التحاريق في كل عام ، وأسماء من تولوا حكم مصر مع معلومات تاريخية عن كل سنة في شكل حوليات وقد صدر الجزء الأول والمقدمة في كتاب واحد عام ١٩١٦ . وقد اعتمد أمين سامي في هذا الكتاب على المصادر الاسلامية المعروفة .

ويسير أمين سامي في هذا الجزء على أساس تخصيص صفحة لفيضان النيل وأسماء الولاة ومدة حكمهم . ثم أهم الأحداث التاريخية في عهد كل حاكم ولا يزيد الجزء الأول عن كونه اعادة عرض لمادة علمية معروفة بعد مراجعتها باستثناء المعلومات التي أوردها عن النيل .

ويتناول الجزء الثاني : تاريخ مصر والنيل منذ الفتح العثماني وحتى نهاية عصر محمد علي وجاء تحت عنوان تقويم النيل ومصر محمد علي ، ويقع في ٦٢١ صفحة من الحجم الكبير ونشر عام ١٩٢٨م . وفي هذا الجزء يشير أمين سامي الى المصادر والمراجع التي استقى منها مادته العلمية بشكل أكثر شمولا ووضوحا مثل كتابات ابن اياس ونيقولا ترك والجبرتي . كما يشير أمين سامي الى أنه استفاد من كتابات بعض المصادر الإوربية مثل كتاب كلوت بك لمحة عامة عن مصر وكتاب المستشرق النمساوي «يوسف فون هيمر» « من تاريخ الدولة العثمانية » .

وتلقى فترة حكم محمد علي عناية خاصة في هذا الجزء ويظهر فيها الاعتماد بشكل واضح علي الوثائق . كما تظهر الوقائع من بين المصادر التي استعان بها أمين سامي في هذا الجزء ، ويقدم هذا الجزء معلومات عن الزراعة والري وتعداد السكان وأسعار القطن وتطوير القوة العسكرية البرية والبحرية . والبعثات التي أرسلها محمد علي وأسماء طلابها والتعريف بهم . فضلا عن أخبار فيضان النيل الذي يشير اليها الكتاب في شكل حوليات وينتهي الكتاب بملخص لأعمال محمد علي في كل النواحي .

والوثائق التي أوردها أمين سامي في هذا الجزء مرت دون تعليق من جانبه .

أما الجزء الثالث فيقع في ثلاثة مجلدات تغطي الفترة من ١٨٤٨ — ١٨٧٩ ويقع في ١٥٧٥ صفحة يخصص المجلد الأول منها لعصري عباس وسعيد ويخصص المجلدين الثاني والثالث لعصر اسماعيل .

وقد صدرت المجلدات الثلاثة عام ١٩٣٦ م . ويعتمد هذا الجزء على الوثائق الأصلية التي عمل المؤلف عليها بشكل متصل ابتداء من عام ١٨٨٠ حتى عام ١٩٢٨ م في دار المحفوظات بما فيها من وثائق عربية وتركية والمجلد يتناول الى جانب أخبار النيل ومشروعات الري أخبار التعليم في مصر والحرف وأسماء مديري

المديريات وكبار موظفي الدولة والإدارة العليا .

والوثائق التي يعرضها أمين سامي في هذه الأجزاء تمر بدون تعليق مثل الجزء السابق . ويسير التأريخ في هذا الجزء أيضا بنظام الحوليات .

أما الخاتمة فقد جاءت في شكل ملحق يقع في ١٥٠ صفحة صدر عام ١٩٣٦ تتبع فيه المؤلف محاولات التحكم في النهر منذ أقدم العصور من خلال تناول الجسور والقناطر والخزانات التي تمت اقامتها على النيل وفروعه في مصر والسودان مدعمة بالصور والخرائط ابتداء من عهد محمد على على الرغم من أن عنوان الكتاب يشير الى أنه منذ أقدم العصور .

ويبدو أن أمين سامي كان ينوي أن تمد الفترة الزمنية التي أرخ لها حتى عام ١٩١٤ م ، فمن ناحية يذكر في المقدمة أنه وضع تقويما للنيل ابتداء من أول التاريخ الهجري حتى سنة ١٣٣٢ هـ (١٩١٤ م) ، كما أن الجداول التي وضعها للنيل تستمر حتى ١٩١٤ م ، وكما حدد ذلك في صفحة الغلاف ، ومن ناحية ثانية يقول أمين سامي في نهاية المجلد الثالث من الجزء الثالث : « انتهى المجلد الثالث من الجزء الثالث من كتاب تقويم النيل ويليه الجزء الرابع وأوله ولاية سمو محمد توفيق باشا على مصر » .

إعادة التنظيم

لكن من الواضح أن الجهد الذي بذله أمين في الجزء الثالث الذي جاء في ثلاثة



منظر أمامي لكوبري امبابة
الحديدي على النيل في القاهرة

مجلدات بلغت أكثر من ١٥٧٥ صفحة من الحجم الكبير قد استغرق جهدا ووقتا أكثر مما قدر المؤلف كما أن أمين سامي انتهى من هذا الجزء عام ١٩٣٦ م وكان قد بلغ من العمر ٧٩ عاما ، وبالتالي أصبح غير قادر على مواصلة هذا الجهد الخارق الذي بدأه ، حقيقة نشر أمين سامي كتاب آخر عام ١٨٣٨ أسماه « مصر والنيل » لكن الحقيقة أن هذا الكتاب لا يقدم الكثير عما قدمه سامي في كتابه السابق تقويم النيل بل ان بعض مادته العلمية مأخوذة بشكل مباشر من تقويم النيل كما أشار الى ذلك في أكثر من موضع مع اعادة تنظيمها وجدولتها باستثناء الاضافات التي قدمها

حول التعليم .

وقد أوضح أمين سامي في أكثر من موضع جوانب من الصعوبات التي واجهته خلال اعداد كتاب تقويم النيل فهو يقول في المقدمة : « هذا الكتاب ضمنته حصيلة جهدي مدة ربع قرن من الزمان كاتبا ومنقبا في جمع الحقائق التي تهم الناس معرفتها مقتحما كلما اقتضت الحالة مشقة الأسفار الى خزائن الكتب في حواضر أوربا وغيرها » .

ثم يقول في موضع آخر : « ان تكوين عناصر الجزئين الأول والثاني من الكتاب اقتضت منه التردد على دار المحفوظات خلال الفترة ما بين عامي ١٨٨٠ م و ١٩٢٨ م وكذلك على مصلحة المساحة ، وفي هذا الاتجاه يذكر أنه حصل على المادة العلمية اللازمة للكتاب من خلال استمرار بحثه في دار المحفوظات (الدفتر خانة) ابتداء من عام ١٨٨٠ م بموجب أمر من أحمد خيري باشا رئيس ديوان الخديوي توفيق لاستجماع الأوامر الصادرة بتنظيم أمور حكومة مصر في عهد محمد علي باشا ، وثانيا بموجب أمر من ناظر المالية بتاريخ ٢١ يونيو سنة ١٩١٠ م بالتصريح بالبحث عن كل ما يحتاجه تقويم النيل من الوجهة العلمية والتاريخية .

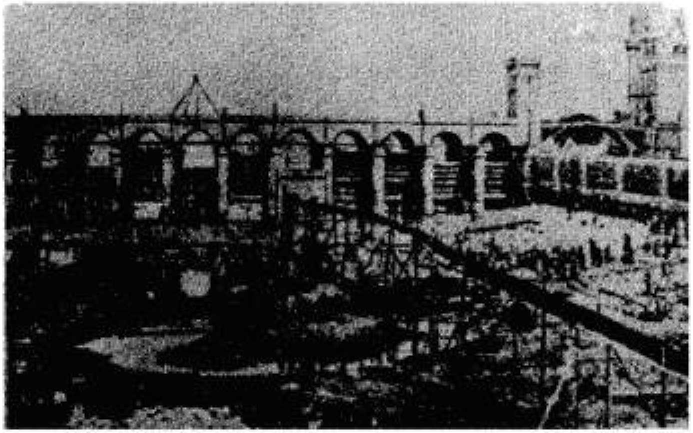
ويقول أمين سامي أن بيان تطور القوة العسكرية المصرية الذي أورده في نهاية الجزء الثاني من تقويم النيل قد استغرق إعداده ستة شهور من واقع دفاتر قيودات الأوامر العلية ودفاتر تحريرات وقيد الكشوفات بالمعية من بعض جرايد قيودات الجهادية بدار المحفوظات وشارك فيه ستة ناسخين ممن يعرفون العربية والتركية عملوا تحت اشراف رئيس قلم تركي الدفترخانة وقتئذ .

كما يقرر أمين سامي أنه استعان بالمستشرق كاتريمر في نقل بعض المعلومات التي تتعلق بالنيل عن الفترة من عام ٢٠ هـ الي عام ٨٥٦ هـ .

كما استعان بأحمد زكي (كاتب سر رياسة مجلس الوزراء عام ١٩٠٤) في مراجعة بعض البيانات عن الفترة من ٢٠ – ٣٦٥ هـ في المكتبة الوطنية في باريس .

ومن حيث المصادر حاول أمين سامي الاستفادة من أرشيف بعض الأسر التي تولى مؤسسوها الادارة الهندسية في بداية عهد محمد علي للحصول على معلومات تتعلق بفيضان النيل خلال الفترة ما بين عامي ١٨٠١ – ١٨٢٤ م من أمثال لينان باشا وثاقب باشا ومحمد عبد الرحمن بك ، كما يفهم مما كتبه أمين سامي أنه استفاد من الرواية الشفوية في كتابه تقويم النيل .

فهو يقول تعليقا على موضوع تنبؤ رفاعة رافع الطهطاوي وهو في السودان بنهاية الوالي « عباس الأول » عقب انتهاء رفاعة من ترجمة رواية « تليماك » يقول أمين سامي : « وقد سمعت ذلك من صهري المرحوم ابراهيم سالم بك الذي كان أحد المدرسين معه في الخرطوم وسمعت ذلك من رفاعة بك بمنزله بمهمشة بضواحي القاهرة » .



صورة للبوابات القديمة المستعملة بفرع رشيد على النيل

علاقة مصر بالنيل

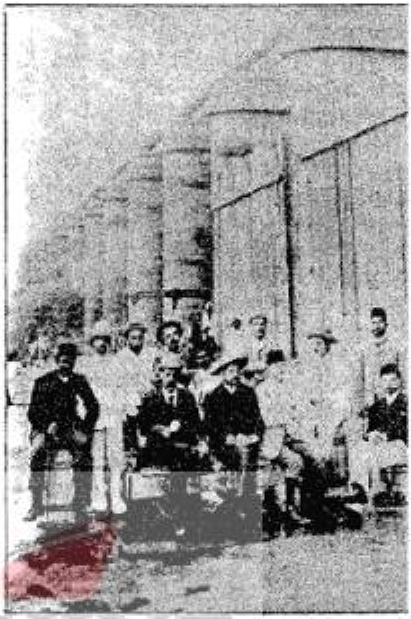
وهكذا يكون أمين سامى قد رجع الى كل المصادر المعروفة فى كتابة التاريخ من الكتب المنشورة الى الوثائق ، ثم أرشيف الأسر ، وأخيرا الروايات الشفوية .

وفى تقويم النيل تابع أمين سامى من خلال الوثائق والمصادر عددا من القضايا المحورية .

أولها : علاقة مصر بالنيل من خلال عرض تاريخى غير مسبوق للمعلومات الواردة عن النيل وفيضانه ومستوى كل فيضان وعلاقة الفيضانات برخاء مصر أو ازدهارها أو تدهورها وانحلالها اذ ما جاء الفيضان ضعيفا وما ترتب على ذلك من قحط ومجاعة ، وأثرها على أوضاع مصر الاقتصادية وتعليقات المؤرخين فى شتى العصور على ذلك . ويبدو أن الاهتمام بالنيل ومناسيبه ومقاييسه كان نابعا من طبيعة تخصصه ودراسته كمهندس ، فضلا عن أهمية الماء فى مجتمع يعتمد على الزراعة كمصر .

ثانيا : تاريخ التعليم وهو اهتمام يرجع الى الدور الذى لعبه أمين سامى فى التعليم وفى هذا الاتجاه قدم معلومات مستفيضة عن النظام التعليمى فى عصر محمد على والبعثات التى أرسلت الى أوربا والتعريف بأعضائها .

ثالثا : متابعة الصفوة الحاكمة من خلال عرضه لأسماء مديرى المديريات وكبار القادة وشاغلى المناصب العليا فى الجيش والادارة سنويا خلال الفترة من



نهاية حكم محمد على وحتى نهاية حكم اسماعيل .

رابعا : رصد عملية إحلال المصريين فى المناصب الادارية خلال عصر سعيد بدلا من الأتراك والشراكسة بدءًا بمناصب نظار الأقسام ثم مديرى المديريات .

خامسا : تطور تعداد سكان مصر وتطور مواردها وعمليات مسح الأرض ومحاولة ايجاد شكل من العلاقة بين مساحة الأرض وتعداد السكان .

سادسا : تطور القوة العسكرية المصرية خلال عصر محمد على وحتى قرار سلطات الاحتلال حل الجيش المصرى فى سبتمبر عام ١٨٨٢ م عقب احتلال الانجليز للقاهرة ، الى غير ذلك من القضايا التى تمتد أحيانا الى أسعار الحاجيات والعملة المتداولة فى فترات مختلفة .

أما القضية الأخيرة التى يمكن مناقشتها فى هذا السياق فهى منهج أمين سامى فى إعداد هذه الموسوعة من تاريخ مصر .

منهج أمين سامى فى كتابه تقويم النيل

حدد أمين سامى فى المقدمة ثلاثة أهداف دفعته الى كتابة تقويم النيل :

١ - وضع تقويم للنيل يتضمن تحاريقه وفيضانه كل عام ابتداء من العام الأول للهجرة (٦٢٢ م) وحتى عام ١٣٣٢ هـ (١٩١٤ م) ، معتمدا فى ذلك على ما دونه مؤرخو مصر « ألا ما عز وجوده » على حد قوله .

٢ - ذكر شذرات من الأحداث الصحيحة التى حصلت بمصر منذ أواخر العصر الرومانى وحتى التاريخ السابق ، ومعنى ذلك أنه لن يتناول كل الأحداث التى وقعت خلال تلك الفترة ، أى أنه سوف يتبنى منهجا يقوم على الانتقاء .

٣ – علاقة مصر بالنيل والنتائج التى يمكن أن تترتب على هذه العلاقة وأثرها سلبا أو ايجابا على مصر وسكانها بما فى ذلك عمليات ترويض النهر . وهو هدف يكمل الهدف الأول . وفى موضع آخر حدد أمين سامى المنهج الذى اتبعه فى تناول الأحداث التاريخية مؤكدا على عدم سلوكه سلوك المؤرخين السابقين الذين قسمهم الى ثلاث مدارس :

١ – التراجم وهى المدرسة التى تقوم على كتابة تراجم للأعيان وأهم أعمالهم وتاريخ مولدهم ووفاتهم دون تناول الخلفية التاريخية التى عاشوا فيها .

٢ – كتابة التاريخ بطريقة القصة أو الرواية « من غير نظر الى ترتيب سلسلة الحوادث التى يقتضى بعضها بعضا » .

٣ – مدرسة ابن خلدون – وان كان لم يشر اليها صراحة – والتى تقوم على ربط الأسباب بالنتائج وضرب لذلك مثلا بقيام الدولة العباسية وازدهارها حيث ذكر أمين سامى أن الدولة العباسية انتصرت عندما كان العباسيون حديثى عهد بالمدنية فلما انغمسوا فى الترف وتركوا الجهاد انهارت دولتهم ، ويقول أمين سامى انه استفاد من هذه المدارس الثلاثة فى كتابه تقويم النيل مركزا على العصر الحديث ، والتاريخ عند أمين سامى هو محاولة لاسترداد الماضى بطريقة عقلية حيث يقول :

« وقد فصلت فى تلك الشذرات الحوادث المهمة من التاريخ بطريقة تترك أثرا مطبوعا على صفحات قلوب المطلعين وتبعث أولئك الذين طواهم اللحد منذ قرون مضت فتدب بهم الحياة والقوة وكأنك بهم يشخصون على مسرح التخيل أفعالهم السابقة » . فتطبع ذكرى الشهيد منهم المستحق الذكر على مرآة المخيلة .

من هنا فالتاريخ عند أمين سامى هو تاريخ عظماء الرجال ومشاهيرهم « خصوصا فى بلاد لا يعرف الرجل صاحب المواهب فيها المستحيل » .

ثم يستدل على ذلك بما فعله « ساكن الجنان محمد على باشا » الذى انتشل مصر من وهدة الانحطاط ثم هو يؤكد هذه الجزئية مرة أخرى حيث يقول : « ما من انقلاب ميمون الا كان منبعثا عن حرب متوجا باسم فاتح فان أعظم الرجال الذين تركوا من بعدهم من جميل الذكر ما يبهر العقول والفكر مثل الاسكندر وقيصر وشارلمان ونابليون كانوا قبل كل شىء محاربين » . ومن هذه الزاوية نجده يدافع من حروب محمد على ومشروعاته الخارجية .

والحقيقة أن تقويم النيل من هذه الزاوية يعتبر شكلا من أشكال الكتابة التاريخية التسجيلية ، ويقوم على تسجيل كم هائل من المعلومات التاريخية الموثقة والمستقاة من مصادرها الأصلية والتى قد يصعب على الباحثين فى الوقت الحاضر العثور عليها ، نظرا للتطورات التى مرت بها الوثائق المصرية فى الفترة الأخيرة ويكفى أن نعلم أن أمين سامى كان أول مصرى يطلع على هذا الكم من الوثائق ويقوم بنشرها وبذلك يكون تقويم النيل عملا مرجعيا على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة للباحثين فى التاريخ المصرى ، فضلا عن كونه عملا موسوعيا لا يشاركه فى ذلك سوى الخطط التوفيقية .

النيل

رحلة إلى روح وأرض مصر [١٨٥٠]

بقلم : ماجدة الجندى

أوقعنى ماكسيم دى كامب Maxime Du Camp فى حيرة ما بعدها حيرة .. فعند أى من سطوره أتوقف وعن أيها أتغافل وكل مكنون كتابه « النيل » يشى « ببصيرة » نفاذة - فى غير خدش - للب ما يراه عبر النيل وعين تستشرف الجميل والنيل يغير أن تخاصم الصدق وحدس يجيد الإصغاء حتى « لوشوشات » الطيور و« غمغمات » « النيل » حقيقة كان النيل هو « الدرج » و« الطريق ».

منذ وصل ماكسيم دى كامب من مرسيليا إلى الإسكندرية لكن « مصر » الشفقان .. الروح والصحراوات [illegible] والأبنية والآثار هى ما سعى إليه.

فى عداد الرحالة والمسافرين الذين اجتذبهم الشرق سبقه كثيرون لكن حنين ماكسيم دى كامب إلى بلاد الشمس والدفء كان مغايراً تحركه مالم يملكه غيره وما لا قد يفهمه سواء صحيح هو أثرى .. مؤرخ .. رحالة .. أستاذ .. مصور وكلها حيثيات لا تجعل من المستغرب على « دى كامب » أن يشد الرحال إلى حيث سعى غيره من الشعراء والكتاب لكن السفر إلى الشرق وبالذات إلى مصر عند الشاب دى كامب كان يعنى شيئا آخر .. ربما كان عودة إلى الأصل وحنينا « إلى المنبع أو ارتدادا إلى حيث كان النبت الأول .. فها هو يكتب فى كتاب له يحمل عنوان «ذكريات أدبية» (عائلتى استقرت منذ أمد بعيد فى فرنسا لكنها أبدا لم تنس جذرها الإسبانى . ومألوف لدينا الاعتراف بأن دماء عربية تنساب فى عروقنا .. ولذا فأنا لا أستغرب تلك الراحة التى تنتابنى حين تظللنى خيمة نائما ولا يفاجئنى ائتلاف



قدمى لرمال الصحراء ولا يدهشنى سعى لما قد يبدو من البحث عن سعادة مجهولة . فلعلها عودة إلى الجذور » .

قرب الثلاثين من العمر وبالتحديد فى الثامنة والعشرين حصل السيدان ماكسيم دى كامب وجوستاف فلوبير على موافقة صادرة فى باريس بتاريخ ٢٤ اكتوبر ١٨٤٩ على أن يكونا فى بعثة رسمية تدعمها وزارتا المعارف والتجارة معا يرتحلان بكفالتها إلى بعض بلدان الشرق وبعد عامين كان الحصاد وفيرا متفردا .. « فالنيل » ثمرة ليس مجرد نص رحالة أو زاد أثرى لكن له خصوصية أوجدها انقلاب تكنولوجى كان من حظ دى كامب أن يكون رسوله فى الشرق فإذا كانت عين دى كامب نفذت إلى الجوهر فعين الكاميرا أكدت وأيدت وأتت بالبراهين لكل حرف سطره الكاتب دى كامب ..

دى كامب .. مكانة متفردة

فمن بين المصورين الفوتوغرافيين يحتل دى كامب مكانة متفردة بألبوم أعماله المصورة عن مصر فى فترة مبكرة نسبيا من عمر الكاميرا ١٨٤٩ - ١٨٥١ وقد خرجت هذه الصور إلى حيز الوجود فى ٢٦ ابرايل ١٩٥٢ بباريس تحت عنوان « مصر .. النوبه .. فلسطين .. سوريا رسوم مصورة » وألحق به دى كامب نصاً مكتوبا « نافس الكاميرا فى شيئين أولهما الدقة ثم الاقتراب من الأشياء دون الذوبان فيها .

على أثر ظهور العمل منحت أكاديمية الفنون والآداب فى باريس « ماكسيم دى كامب الأثرى ورئيس تحرير مجلة باريس الميدالية الذهبية عن أعماله المصورة وشهادة الدبلوم عن نصه رحلة إلى مصر .

مائة وخمس وعشرون صورة بكراً لمعالم أثرية بيئية اجتماعية من بقاع شتى فى مصر « حوت صدقاً بالغاً » ووفاء نادرا للحقيقة وقيمة معرفية أثرية تضافرت مع القيمة الأدبية لكتاب « النيل » وارتقى العاملان برؤية حانية متفهمة من مسافر ولد مسافرا ورحالة ظل دوماً يبحث عن أفق مغاير لما ولد فيه وقبلة لشواره فى الحياة وجدها فى شرقنا

***

« النيل » عمل ينتمى لإبداع من نوع فريد .. إنه السهل الممتنع .. رشيق الصياغة .. ليس صياغة المعالم . ولكن صياغة الرؤية .. المشاعر المعايشة .

خطه ماكسيم دى كامب على شكل رسائل إلى صديقه « تيوفيل جوتيه » ويقدر انسياب أسلوبه فى سلاسة بقدر ماحوى قيمة فنية أدبية وضعته فى مصاف أرقى الأعمال الأدبية لصدقه وتميزه فكاتبه ليس من أصحاب منهج الاستسهال وما أشد ضنه بالكتابة فهى نعم تمتعه لكنها أيضا تعذبه يقول فى استهلال النيل .

« عزيزى تيوفيل » ..

كثيراً ما عاتبتنى لأننى لا أروى رحلاتى .. ولا أكتب ما رأيته فى تلك

البقاع الضيقة مسجلا طبائع أصحابها لقد نبهتنى دوماً إلى أن « موهبة » الآداب الحديثه يكمن جزء منها أساسا فى أن تكون مسافراً وكل حسب طاقته من بين أنصاف ألهتنا الكتاب حاول أن يقول فها هو بيرون . شاتو بريان لامرتين ارتحلوا وتأملوا وعانوا بأغنيات الطريق والقلق الذى يغزونا منذ ما يقرب القرن يحثنا على البحث عن بدايات جديدة لحقائق جديدة تغطى هذه الأرض وتدفعنا لفرد أجنحة البحث عن الحقيقة التى لا يمكن أن يحتكرها أرضنا وحدها نحن مدعوون لمد الأيدى ووضعها على قلوب بشر آخرين وقوميات مغايرة تجس ايقاعات حياتها تتنسم عبق حضاراتها ففى مواجهة كل حضارة حية كانت أو منطوية ماضية أو مستقبلة لابد وأن تتقافز الأسئلة عن أحلام أصحابها وأحزانهم .. عن معتقداتهم ومشاعرهم .

أبدا لن تواتينا الحقيقة ياعزيزى ثيوفيل . لو ضمرنا وبقينا فى بيوتنا .

هل بإمكان ماكتبه عن رحلاتى أن يغزل خيطا من نور ؟ لا أدرى لكنك يوم جاويتنى : حاول أن تشرك آخرين .. إرو ماشاهدت ودع للآخرين عبأ وصل خيط باخر .. انشد أغنيتك أيا كانت حتى ولو لم تكن تدرى لن تغنيها وستجد طريقها أنت محق يا عزيزى ثيوفيل .. فإليك سأتوجه بأغنيتى عن مصر والنوبة

★★★

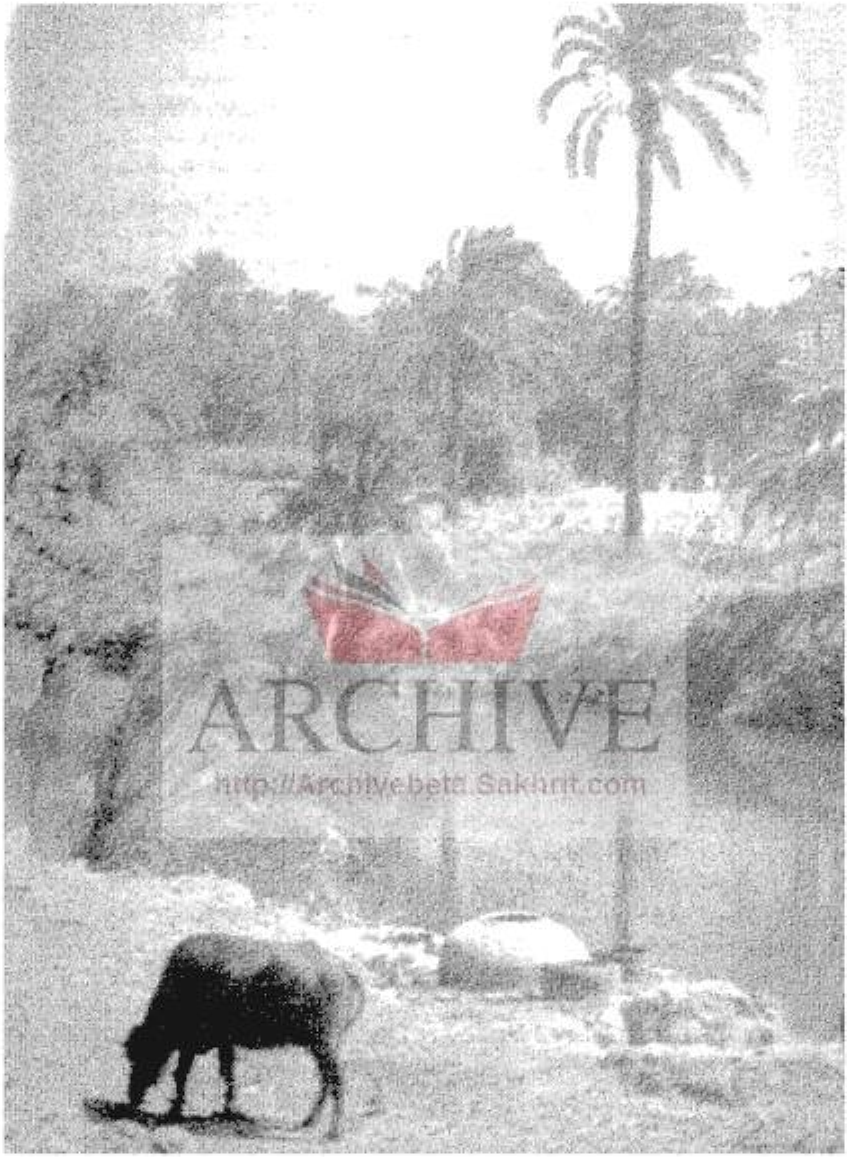
ولم يكن « النيل » مجرد أغنية من دى كامب فخمسة أبواب ضخمة من القطع الكبيرة حوالى مائتى وخمسين صفحة حوت أكثر من مائتى فكرة أو مائتى رؤية للحياة فى مصر اجتماعيا وسياسياً كل ذلك ليس مجرد أغنية لكنه ديوان أشعار كامل دفع باثنين من أكبر باحثى علم المصريات إلى التوقف والتحليل :Danid oster الكاتب المتخصص فى ابداعات القرن التاسع عشر وزميله Michel DewQ chter أستاذ المصريات الباحث .. كلاهما رأى فى « النيل » لماكسيم دى كامب ما يتجاوز نص الرحاله وأبرزا قيمته فى الكشف والتسجيل الأثرى .. فى الخصوصية والتميز الأدبى .. فى التاريخ وأيضا فى التوثيق .

حاول الباحثان أن يجيبا .. ولماذا « النيل » بالذات وأى نكهة خاصة اكتسبتها رؤية دى كامب لما اختار « النيل » معبراً ومعراجاً للولوج إلى أرض مصر من الاسكندرية إلى النوبة والصعيد .. لقد رأت ماكسيم دى كامب مالم يره براس دافان Prisse D' Avenes برغم أسبقية الثانى على الأول وبرغم أنه كان « الأستاذ » .

لقد طرح هذا الشاب ذو الأعوام الثمانية والعشرين أدباً جديداً تشرب منجزات حضارة تبدأ فى التأجج متجاوزه عصر البخار إلى الكهرباء والتلغراف والتصوير وسرعة الاتصال .. فالوجه الثانى لهذه المنجزات هو أن أحلام وأحزان وحقوق البشر فى الحياة سرعان ما



خريطة النيل كما رسمها بطليموس الأسكندري (القرن الثاني الميلادي)



تتجاوز لتلتئم .. وهذا دور جديد للمبدع . في تلك الفترة إنه حامل لرسالة التقدم ووحدة الحركة الانسانية .

يقول دى كامب في مرة « تصوروا معى شاعرا » له من الحكمة ما يكفى ومن الصدق الزاد يدقق البصر في الأيام القادمة وهو يعيش زمن الكهرباء والآلات .. إنه قادر ليس على أن يكتب كتاباته بل يحدث ثورة . »

كان دى كامب مشغولا كغيره بعلاقة الفن بتقدم الآلة ولعلها معادلة مستمرة حتى أيامنا ولكنه كان مهموماً أكثر بالإجابة أيهما سيخضع للآخر من أجل مزيد من الحقيقة الانسانية .. مزيد من السعادة .

في ٣ نوفمبر ١٨٤٩ بدأ سعى ماكسيم دى كامب (٢٨ سنة وجوستاف فلوبير - ٢٧ سنه - بشعار غير مدون المعرفة عبر المتوسط - جمع الكاتبان لكن جنوناً مختلفاً كان يلغذ بدى كامب جنون أوولع أو شغف أو سمه ماشئت من الكلمات التى تعكس العشق .. عشق « النيل » .. من المنبع إلى المصب حتى أنه كتب قرب نهاية عمره « كم اندم إنى لم أعد مرة أخرى إلى حيث جنونى أعاود النظر على ساقات من الأيام .. على عتبة شيخوختى اتمنى العودة إلى منابع النيل وصحراء لأموت هناك .. »

عام ١٨٥٩ بعد خمس سنوات من صدور كتابه « النيل » وفى إحدى الصالونات الأدبية سألوه يوما : لما الولع بالذات بالنيل وما يحف به قال دى كامب ما يشبه الشعر الصوفى « حين يعجز الانسان عن الوصول إلى إجابات نبيلة في الفلسفة والدين والسياسة فإنه يلوذ بالطبيعة يتلقى الإلهام من حقل .. أو نهر .. إنه حتى يخلق لروحه وطناً عابراً والجبال والبحار ليستقر حيث تأمن الروح إنه يحمل أحزانه بين بشر لا يعرفهم .. ينام تحت سماوات جديدة .. أنه يفر من الحاضر الغريب أو حيث هو غريب إنه يلوذ بالانسانية ويجد السكينة المنقذة متأملا وقد وجدت ذلك في النيل » .

***

التقطت كاميرا دى كامب صورا لمقبرة السلطان الغورى - ١٨٤٩ - والأهرام وابى الهول والقناطر الخيرية ومعابد الكرنك ونساء النوبة وكتراكت وابى سمبل وسجلت معالم « فيله » ومعابد إيزيس وكلابشه ونخيل أسيوط فاحتفظت لنا بذاكره تاريخية فنية أضافت لها رؤية عين دى كامب صفة الموسوعية المعرفية فلم يترك قلمه أغنية ولا خطاً معماريا ولا عادة إجتماعية ولا نقداً سياسيا ، ولا أسطورة فنية أو رقصة ولا حتى ملحوظة مناخية إلا ودونها .. اعتبر دى كامب « الكاميرا » فن « الإجلاء » أما ما دونه فنقول إنه كان « التجلى » .. أو القدرة على الخروج بالمكنون من الباطن إلى الظاهر . طوع تقدماً علميا نسبيا في عصره - الكاميرا - لجماليات رؤية البشر وظل وفيا « للصدق وأخضع الآلة - الكاميرا » لتقاوم فناء الواقع أو المكان لكنه أغفل الإنسان إلا فيما ندر من الصور أو لعله ادخره لقيمة ليحفر بأحرفه فمن ينس معالم « الريس إبراهيم » ؟

إنها ليست مجرد رؤية لبشر على ضفاف النيل بل كشف عن الدخائل دون ذوبان .. اقتراب دون وسيط لكن مع الاحتفاظ بحد معقول من المسافة مدينتان شدتا دى كامب على مدى عمره : القاهرة وباريس الأولى أوحت له بكتاب ثم أحدث الكتاب تحولا فى حياته والثانية بدلت حياته فكتب عنها كتابا » .

ولعل الخيط الواصل بين المدينتين حتى وإن توارى كان سؤالا مترددا حول استمرارية أو عدم استمرارية المجتمعات . وكانت الإجابة تكمن على ضفاف النيل ..

★★★

« النيل » عشق كامن من البدايات وحرس للنهايات وتجلى : يقول عنه أو لقائه الأول دى كامب .

« ما أن رأيته حتى ألقيت بنفسى فى قارب .. أغرقت يداى فيه .. منفردتين ثم متلاصقتين .. مددت رأسى شربت شربة طويلة طويلة .. من مائه .

كنت وكأنى أؤدى طقساً دينيا .. ألمس بعض من أحلامى كنت شجيا .. منفعلا .. ها أنا أرى النيل لأول مرة تذكرت نفسى صغيراً .. أنام فوق خرائط مصر وبأصبعى أتبع خطاً أسود صغيراً يشير إلى مسار النيل .. طالما تخيلته طويلا .. غير محدود .. شديد الجمال .. مغطى بالجزر ..

ولم يخدعنى خيالى ..

لقد عشت فيه .. صعدت معه ونزلت .

رأيته فى غروب الشمس وعند مشرقها تأملته غزيراً غنيا .. واسعا حتى تخاله بحرا قرب المعابد .. سخيا يطعم أرض النخيل والحقول حانيا واعداً كأنه كما قال القدماء ينبع من الجنة » .

★★★

ألم أقل لكم حيرتنى سطور ماكسيم دى كامب إنها أيضا جعلتنى أشعر بالغيرة .. أ أحب دى كامب نيلنا أكثر منا ؟ لقد منحه النيل أيضا سره ، فأتت رحلته كأنها « وشوشات » ما بين دى كامب والنيل .. حكايات رفيعتين معاً يجوبان أرض مصر يتوقفان عند أبى الهول أو محمد على .. اسكندرية أو أسوان .. مسجد عمرو بن العاص أو كنيسة ليستقبلان موكب المحمل أو يصفان عرساً أو طهوراً المهم أن سعيهما فى اتجاه واحد .. أرض الشمس ..

★★★

وآخر رسائل ماكسيم دى كامب إلى تيوفيل جوتييه قال « ثق عزيزى تيوفيل إنه حين تضنينا المعاناة فى أوطاننا الباردة .. حين نشتاق إلى التواصل فليس أمامنا إلا أن نعبر المتوسط ..

فإن شعرت بذلك اتجه إلى أرض مصر العتيقة .. أصعد وانزل مع النيل .. تأمل قنواته ومساراته أغرف من ضفافه ..

انصت إلى انشوداته الرائعة التى لا تصل إلا لمن يجيدون الإصغاء .

سر فى صحراوات الوحدة . ساعتها ستحس أنك أكثر امتلاء .. أكثر قوة أكثر اثماراً ... أكثر قرباً من الله



هل هناك فن يهودى ؟

بقلم : د. عبدالوهاب المسيرى

عبارة «الفن اليهودى» شأنها شأن عبارات أخرى ، مثل الثقافة اليهودية والأدب اليهودى ، تفترض وجود هوية يهودية محددة مستقلة وثابتة ومنفصلة عن التشكيلات الحضارية التى توجد فيها ، وشخصية يهودية لها خصوصيتها المتميزة ، ونحن نذهب إلى أنه لا توجد هوية يهودية واحدة وإنما هويات عديدة تختلف باختلاف الزمان والمكان وباختلاف التشكيلات الحضارية التى يعيش أعضاء الجماعات اليهودية فى كنفها .

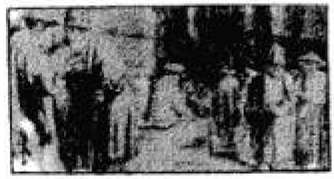
ومن ثم ، لا يوجد فن يهودى ولا حتى فنون يهودية بشكل عام ، وإنما يوجد فنانون عبرانيون وفنانون يهود تختلف طرقهم فى الإبداع باختلاف التشكيلات الحضارية التى ينتمون إليها .



عودة المتطوع اليهودى
للفنان موريتس دانيال (١٨٠٠ - ١٨٨٢)

ويظهر هذا فى فن العمارة على سبيل المثال .. وكانت مبانى العبرانيين تتبع النمط السائد ، ولذا كانت كنعانية فى البداية ثم هيلينية ورومانية ، وفى العالم الإسلامى ، شيدت المعابد اليهودية حسب الطراز المعمارى الإسلامى ، كما تشيد الآن فى العالم الغربى حسب الطرز المعمارية السائدة فيه.

وقد أثار اكتشاف معبد ديورا أوروبوس ، الذى بنى فى العصر الهيليني ، قضية تحريم اليهودية للتصوير والتماثيل (كما وردت فى الوصية الثانية من الوصايا العشر) ، ويبدو أن هذا التحريم لم ينفذ إبان حكم الممالك العبرانية ، فتماثيل الكروب (الملائكة) فيه تدل لا على تقبل التصوير وحسب وإنما تدل على بناء التماثيل أيضاً ، كما أن تماثيل العجول التى كانت فى هيكل المملكة الشمالية تدل على أن الكروب لم يكن استثناء فريداً وإنما نمطاً متكرراً ، ولكن بعد العودة من بابل احتدمت معارضة لتخفيف هذا الحظر وإن تم الاحتفاظ بتماثيل الكروب . وبمرور الوقت ، ازداد تشبع اليهود بالحضارة الهيلينية ، وبالتالى بدأ الاهتمام بالتماثيل إلى أن نسى الحظر الدينى تماماً ، فنجد أن معبد ديورا أوروبوس تظهر فيه لوحات فسيفساء تمثل أنبياء العهد القديم وبعض الشخصيات الأخرى ، وهناك لوحة تمثل ميلاد موسى وقد حملته أفروديتى



(فينوس) آلهة الجمال ، فى حين ظهر هارون فى لوحة أخرى وقد تبعه أحد الكهنة اللاويين ، يسير وراءهما عبد .

ولكن ، من خلال التأثر بالحضارة الإسلامية اكتسب الخطر شرعية جديدة ونجد أن يهود الحضارة الاسلامية ابتعدوا عن التصوير . أما فى إيطاليا ، مثلاً ، حين ازدهر فن النحت ، فإننا نجد أن جيتو روما كان يزينه تمثال نصفى لموسى. كل هذا يبين أن عبارة فن يهودى بلا مضمون ، وأن هناك فناً يبدعه فنانون يهود ، أو فناناً ذا مضمون يهودى ، أو فناً موجهاً إلى جمهور يهودى يتبع التقاليد الحضارية السائدة .

الدين والفن

ويمكن القول إن مساهمة اليهود فى الفن الغربى ظلت ضئيلة حتى القرن التاسع عشر باعتبار أنهم كانوا جماعة وظيفية وسيطة منعزلة عن أعضاء المجتمع، لها لغتها الخاصة على الصعيدين اللغوى والحضارى ، كما أن الدين كان مرتبطاً بالفن ، فى المجتمعات التقليدية ، ارتباطه بمعظم نشاطات الإنسان الأخرى ، مما كان يعنى استبعاد اليهود كمنتجين لهذه الفنون ، وتحولهم إلى مستهلكين لها وحسب .

وقد تغير هذا الوضع تماماً ، مع القرن التاسع عشر ، بعد علمنة المجتمع الغربى ، ونلاحظ منذ ذلك التاريخ ظهور عدد من الفنانين الغربيين من أصل يهودى ، ومن أهمهم الفنان الانطباعى بيسارو (الفرنسى) والفنان مارك شاجال (الروسى) وبن شان (الولايات المتحدة) وموديليانى (الفرنسى) وسوتين ، وكلهم من الرسامين ، وأهم النحاتين اليهود جاك ليبشيتس (الأمريكى) ، ويوجد عدد كبير من تجار الأعمال الفنية ونقاد الفنون من أصل يهودى . ولكن تظل نشاطات أعضاء الجماعات اليهودية ، كفنانين مبدعين أو ناقدين للفن أو تجار فيه ، لاتكتسب إلا استقلالا عن محيطها الحضارى ، فهى تعبير عن المجتمعات التى ينتمى إليها اليهود وعن تفاعلهم معها ، وهذه المجتمعات هى التى تحدد موضوعات هذه الفنون ولغتها الفنية .

ولننظر الآن إلى بعض الأعمال الفنية التى توصف بأنها « يهودية » وهى أعمال محفوظة فى المتحف اليهودى فى نيويورك

باعتبارها نماذج من « الفن اليهودى » . من هذه الأعمال هذا الوعاء النحاسى من العصر المملوكى ، وهو مطعم بالفضة والذهب . والوعاء مقسم إلى مساحات طولية عليها كتابة بالعربية يظهر منها فى الصورة عبارة « من صبر قد نال » تقطعها أشكال دائرة تحوى زخارف . داخل هذه الزخارف يلاحظ وجود نجمة داود وكتابات بالعبرية . ويبدو أن هذه الآنية قد صممها حرفى عربى يهودى من سوريا (ومن هنا معرفته بالحروف العربية) . ولكن طريقة الصناعة والطراز والبنية الجمالية كلها إسلامية ، أى أن صانع هذا الوعاء قد يكون حرفياً يهودياً ولكن ذوقه إسلامى مملوكى .

ومن المقتنيات الأخرى ، لوحة رمبرانت « اليهود فى المعبد اليهودى » ولن نحاول الخوض فى تحليل هذه اللوحة الرائعة (وهى حفر على الورق) التى تبين رؤية رمبرانت للجماعة اليهودية فى عصره . فعلى الرغم من أن اليهود كانوا أقلية صغيرة ، فإنه هو ذاته كان يعيش فى حارة اليهود . ويقول النقاد الفنيون إن رمبرانت فى هذه اللوحة يدرس موضوع الغربة ، وهو موضوع إنسانى عام ، فمركز اللوحة هو اليهودى الجالس على قطعة من الحجر ، وقد أعطى المشاهد ظهره . ويلاحظ أن كل الأشخاص الآخرين فى الصورة يتحدث الواحد منهم مع الآخر وجميعهم غير مكترث بوجوده بل ونجد أنهم ينظرون بعيداً عنه . وبرغم أنه يوجد فى بقعة التوتر (فى الوسط تماماً) فإن وجهه متجه نحو الظلمة . ويبدو أن أزياء اليهودى قد اجتذبت انتباه رمبرانت (وهى أزياء لم تكن هولندية فقد جاء الأشكناز من بولندا ، أما السفارد فقد جاءوا من إسبانيا) ، وقد أحضرت كل جماعة منهما الأزياء المحلية .

محاولات مشوبة بالتوتر

وإذا تركنا عصر النهضة والباروك والركوكو ووصلنا إلى عصر العقل والفن يشار إليه باسم « نيو كلاسيكى » ، فإننا سنجد لوحة لفنان أمريكى يهودى يسمى توماس سلى (١٧٨٣ - ١٨٧٢) . اللوحة عبارة عن بورتريه لسالى إتينج أى صورة شخصية لها . والواقع أن الفن النيو كلاسيكى يحاكى الفنون الرومانية واليونانية بشكل واع ، وهو بهذا يعد امتداداً لفن عصر النهضة الغربى ، وهنا ، فإن بطلة الصورة قد رسمت على هيئة إحدى بطلات الرومان - فهى ترتدى زيا رومانياً ، بل ونجد أن تسريحة شعرها على الطريقة الرومانية ، ومن الواضح أن انعكاس الضوء على وجهها وجسدها يهدف إلى تأكيد جمالها الجسدى ومثاليتها الخلقية - وستظل هذه هى أهم معالم الفن العلمانى حيث يحاول أن يصل إلى قيم مطلقة من خلال الجسد الإنسانى والظاهرة الإنسانية وقد كانت مثل هذه المحاولات مشوبة دائما بالتوتر ، فهى تعبير عن نزعة مثالية ولكنها تظل حبيسة الجسد والمادة ، ولا ندرى هل نجح الفنان هنا فى حفظ التوازن بين الحسى والمثالى ولكن وأيا ما

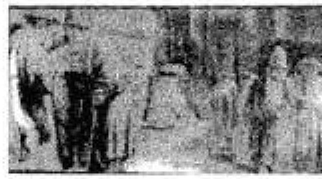


● بورترية للفنان الامريكى اليهودى توماس سالى من ١٧٨٣ - ١٨٧٢

كانت نتيجة المحاولة ، إيجاباً أو سلبا ، فالفن الذى نشاهده فن غربى نيو كلاسيكى ، كما أن المشكلة التى يواجهها الفنان هى على وجه الحصر مشكلة لا يمكن أن توصف بأنها يهودية وإلى جانب ذلك ، فإن المعالجة الجمالية الأخلاقية تنتمى إلى قواعد ذلك العصر ، بل إننا ، ابتداءً من الميدالية والكترياه ، نلاحظ بداية القيم العلمانية والموضوعات الوثنية فى الفنون الغربية ، ومن هنا ، يمكننا القول إنه ، مع شيوع الفن النيو كلاسيكى ، انتصر العنصر الوثنى ، مما أفضى إلى اختفاء القيم المسيحية والدينية ، وقد حدث نفس الشئ بالنسبة للفنان اليهودى ، إذ اختفت الحروف العبرية كما ترقفت أية محاولات ، مهما كانت واهية واهنة ، تتعلق باقحام عنصر يهودى على العمل الفنى ، فنحن هنا فى حضرة عمل فنى غربى خالص ، لا يوجد فيه حتى ادعاء اليهودية.

ومن أشهر اللوحات التى وصفت بأنها يهودية اللوحة المسماة «عودة المتطوع اليهودى من حروب التحرير إلى أسرته التى لاتزال تعيش حسب العادات القديمة» للفنان موريتس دانيال أوبنهايم (١٨٠٠ - ١٨٨٢) ، وهى تنتمى إلى الأسلوبين الرومانتيكى والواقعى فى القرن التاسع عشر ، فأسلوب اللوحة رومانتيكى من حيث تأكيده على العواطف وعلى البعد المثالى بالمنظر ولكنه واقعى من حيث اهتمامه المفرط بالتفاصيل ، واللوحة تعبر عن هذه النقطة التى بدأت فيها اليهودية التقليدية (الأرثوذكسية) تتفكك وتحل محلها الصيغ اليهودية الجديدة المخففة والتى لا يعترف بها الأرثوذكس ، مما أدى إلى طرح مشكلة من هو اليهودى ، فالأسرة لا تزال أرثوذكسية ، تقيم شعائر السبت كما هو واضح من الكأس والخبز على المائدة ، والأب يقرأ من كتاب هو فى الغالب كتاب دعوات وصلوات ، ولكن الأسرة ، مع هذا ، بدأت تفقد شيئا من أرثوذكسيتها ويدل على ذلك ، وجود صورة فى المنزل ووصول الابن فى ذلك اليوم ، يعنى أنه سمح لنفسه بالسفر فى يوم السبت ، وهو الأمر الذى تحرمه الشريعة اليهودية ، ومن الواضح أن هؤلاء اليهود قد بدأوا يفقدون هويتهم الإثنية الدينية ويتحولون إلى مواطنين ألمان، ومن هنا فخرهم بقوميتهم ، وربما كان وجه الأب الذى ينظر بشغف وزهو وحيرة إلى صدر ابنه وهو رمز فى هذه اللحظة ، فالأب ينظر إلى الصليب





الحديدى ، وهو رمز مسيحى قومى وموضوع «رحيل المتطوعين» موضوع أساسى فى الفن الرومانتيكى فى « القرن التاسع عشر ، وإن كان أوبنهايم قد جعله «عودة» المتطوع ، ربما متأثرا بلوحة «عودة الأبناء» للفنان الألمانى فيليب أوتورانج .

وقد كان النقاد الفنيون اليهود يتحدثون ، حتى عهد قريب عن يهودية حاييم سوتين (١٨٩٤ - ١٩٤٣) ، ولكن الاتجاه الآن نحو دراسة صوره يتم داخل إطار تاريخ الفن فى القرن العشرين ومشاكل الحداثة . وقد كونوا هو وموديلياني وأوتريللو وباسين جماعة تسمى «الملاعين» أو «سيئى الحظ» (بالفرنسية : موديى Maudit) وكلهم يهود ماعدا باسين ، ولكن ، هل لعبت يهوديتهم دوراً فى تحديد رؤيتهم وأسلوبهم ؟ أم أن تجربتهم هى تجربة أفراد يشعرون بالضياع والغربة فى عالم القرن العشرين العلمانى ؟ (ولعل يهوديتهم تزيد من حدة هذا الإحساس بالاغتراب ، فمعدلات العلمنة بين اليهود ، خصوصا المثقفين ، كانت أعلى منها بين بقية المجتمع) وقد رسم سوتين لوحته «وعاء زهور» عام ١٩٣٠ وقد اشتهر باللون الأحمر الذى استخدمه فى هذه اللوحة وفى لوحاته الأخرى التى رسم فيها لحم حيوانات مخضبا بالدماء (ويقال إن هذه اللوحات احتجاج على قوانين الطعام اليهودية) ويتضح توتر سوتين وجرأته فى هذه اللوحة ، التى تعد إرهاصاً للتعبيرية التجريدية .

ومن أهم الأعمال الفنية التى يقال لها «يهودية» النصب التذكارى الذى نفذه جورج سيجال المولود عام ١٩٢٤ عن ضحايا الهولوكوست أو الإبادة النازية ، بناء على طلب بلدية سان فرانسيسكو وتماثيل النصب مصنوعة من قالب جصى بالحجم الطبيعى لعدة جثث مرتبة على هيئة نجمة داود وتمسك إحدى الجثث بتفاحة رمزاً لحواء كما أن جثة أخرى تمد ذراعها رمزا للمسيح المصلوب وهناك رجل عجوز وبجواره صبى ، وهو يرمز إلى ابراهيم وإسحق ، أما الرجل الواقف ، فهو رمز البقاء (بقاء الشعب اليهودى) ولكنه فى حالة ذهول ولذا فهو يمسك بالسلك الشائك دون أن يشعر بالوخز ، وربما كان رمزا آخر للمسيح ، والموضوع هنا موضوع يهودى بالمعنى الإثنى لا الدينى ، لكن التناول

صهيوني ، وهو يؤكد بلا شك مركزية واقعة الإبادة النازية ويتحدث عن تاريخ يهودي ، وعن معاناة يهودية ، ولكن العمل مع هذا يظل عملا أمريكيا غربياً حديثاً ، لا يمكن فهم قيمه الجمالية إلا بالعودة إلى اللغة الفنية السائدة في الولايات المتحدة وهي لغة تدخلها الرموز المسيحية ، وهذا أمر طبيعي ، فقد صاغه فنان أمريكي ليعرضه على جمهور أمريكي وإذا كان الموضوع يهوديا والفنان الذي تناوله يهوديا فإن هذا لا يثير شيئا من أمريكية العمل ، إذ تظل اللغة الفنية هي لغة أمريكية غربية حديثة .

وفي عرضنا حتى الآن لما يسمى بـ «الفن اليهودي» وجدنا أنفسنا ننتقل من الحضارة الاسلامية إلى الحضارة الغربية ولو انتقلنا إلى الحضارة الصينية لندرس معمار المعبد اليهودي هناك ، لوجدنا أنه لا يختلف كثيرا عن معمار المعابد الكونفوشيوسية . وفي دراستنا للأعمال الفنية اليهودية المختلفة ، وجدنا أنفسنا نشير إلى فن عصر النهضة وفن عصر العقل وفن عصر الرومانسية وفن العصر الحديث وفي محاولة فهم هذه الأعمال ، كان علينا أن نعود دائما إلى تطور الفكر والفن الغربيين ، ولم نجد عناصر يهودية إلا في الموضوع ، وهو عنصر فرعي لا يحدد القيم الجمالية أو طريقة التناول ومن هنا ، نجد أنه من الصعب التحدث عن «فن يهودي» على حين يمكننا أن نتحدث عن فن غربي في الأعمال التي نشاهدها .

فن لا شخصية له

وإذا نظرنا إلى الفن الاسرائيلي ، فإننا نجد أن الأمر لا يختلف كثيرا عما يسمى بـ «الفن اليهودي» فهو فن ليست له شخصيته المستقلة ، ولا معجمه الخاص ، يمكننا أن ننظر إلى لوحة الفنان الاسرائيلي ريوفين روبين (١٨٩٣ - ١٩٧٤) المولود في رومانيا والذي هاجر إلى فلسطين واستوطن فيها واللوحة من مقتنيات المتحف اليهودي في نيويورك ، ولها عنوانان : «بائع السمك الملون» أو «الصياد العربي» والواقع أن إعطاء اللوحة اسمين أمر له دلالة عميقة في السياق الصهيوني ، فعنوان «الصياد العربي» محاولة أولية لتجريد العربي بحيث يصبح جزءا من الطبيعة ويظهر هذا في تشكيل اللوحة ذاته فالصياد قد تحول إلى شكل هندسي يقف متوازنا بين السمكة التي في يده والسمك الذي في الوعاء الذي يحمله ، وعيونه ذاتها تشبه السمكة وتجعله هو ذاته يشبه السمك ، ويداه : واحدة تمسك بسمكة ملوية بحيث تصبح متوازية مع جسده والأخرى ممسكة بالوعاء وإن كانت أصابعه تكاد تسبح في الماء كالسمك ، وذراعاه تشبهان الإطار ، بحيث يأخذ الصياد شكل المربع ، ولكنه مربع مليء بتموجات تذوب وتندمج في الخلفية المتموجة بحيث يندمج الفرد في الطبيعة تماماً وثمة غنائية عميقة في اللوحة على الرغم من ألوانها ، ولكنها على كل ألوان أرض فلسطين التي يسميها الصهاينة ارتس يسرائيل .

● بائع السمك الحزين أو الصياد العربي للفنان الاسرائيلي
يوحنن روبين ١٨٩٣ - ١٩٧٤





● باقة زهور . للفنان جونتر ١٩٣٠



● لوحة لرمبرانت «اليهودي في المعبد اليهودي» حفر على الورق

وموضوعه العربى موضوعة أساسية في الفن الصهيوني فمع أن الصهاينة طرحوا فكرة «أرض بلا شعب» أى فكرة أن العرب لا وجود لهم ، ولتفسير هذا التناقض لابد أن نشير إلى عنصرين :

١ – وجود المستوطنين الصهاينة الذين عاشوا فى هذه الأرض وجدوا العربى فى كل مكان ، يسير حولهم ويعمل فى الأرض قبل وبعد استيلائهم عليها ، آثاره فى كل مكان حتى بعد أن طرد منها ولذا كان لابد وأن يظهر العربى على شاشة الوجدان الصهيونى ، مهما حاولت الأيديولوجية المجردة أن تنفيه .

٢ – يرفض الفكر الصهيونى يهود المنفى (أى كل يهود العالم ما عدا المستوطنين الصهاينة) على أساس أنهم شخصيات هامشية مزيفة تعمل بالربا والتجارة ولا يمكنها أن تقوم بالأعمال اليدوية المنتجة وقد كانوا يضعون العربى فى مقابل يهودى المنفى باعتباره شخصية حيوية منتجة تعيش فى وئام مع الطبيعة ، فالعربى هنا هو نقيض يهودى المنفى ، وعلى المستوطن الصهيونى أن يعيد صياغة شخصيته بحيث يكون مثل هذا العربى ، ومن هنا كتبت مسرحيات وقصص كثيرة تدافع عن هذه الرؤية حتى اشتكى أحد النقاد الصهاينة فى أوائل القرن من أنه لا يوجد عمل أدبى واحد يكتب فى فلسطين إلا وفيه تمجيد للعرب وقد كان الصهاينة يرتدون زى العرب ويحاولون أن يتصرفوا مثلهم .

ولوحة «الصياد العربى» هى نتاج هذا الموقف الذى استمر حتى أواخر العشرينيات ، ثم اختفى بعد ذلك مع بداية انتفاضات العرب ، الأمر الذى حولهم من شخصيات رومانسية مندمجة فى الطبيعة ملتحمة معها ، ومن موضوع للتأمل إلى شخصيات حقيقية تدافع عن أرضها ولم يعد العربى مجرد مربع يشبه السمكة ينظر فى السمكة ويحمل الأسماك ويذوب فى الأمواج ، وأصبح من الصعب تجريده ،



ولعل هذا هو ما أدى إلى اختيار العنوان الثانى «بائع السمك الملون» فهنا تتحول عملية التجريد إلى تغييب كامل ، فيصبح العربي مجرد بائع سمك ملون وتصبح فلسطين أرضاً بلا شعب واللوحة متأثرة بفن موديليانى والفن الساذج أو البدائى وتحليلنا لمضمونها العقائدى العنصرى لا ينفى عنها أنها عمل فنى جميل ، لكن الجمال ليس له على كل علاقة كبيرة بالأخلاق فالأعمال العنصرية والإباحية يمكن أن تكون على مستوى عال من الجمال والإبداع الفنى .

وهذه الحركات الفنية داخل المستوطن الصهيونى ، تبدو كما لو كانت تتبع من حركة فنية أمريكية وجدت أصداء لها بين الفنانين الاسرائيليين وقد يمكن القول إنهم قد أضافوا نغمة اسرائيلية خاصة إلى أعمالهم ، وإنهم جزء من حركة فنية عالمية هى حركة الحداثة (والتجريد والتجريب) وأنهم فى هذا لا يختلفون عن معظم الفنانين فى العالم .

قصة من الحياة

دموع الغسق

عرض وتحليل :

عبد المنعم الجداوى



● هذه الجريمة [illegible] بطلها [illegible] شخصياتها [illegible] فكانت أولى ضحاياها [illegible] وهو طالب في الثانوية . ثم الشابة التي [illegible] [illegible] الانفتاح .. انطلقت [illegible] وهي التي [illegible] والأب الذي حاول أن [illegible] [illegible] كفه بالمال [illegible] [illegible] للقيم الفاضلة . ولم [illegible] وهي [illegible] الآن ، وستنتظر [illegible] على ذلك ، وهو على يقين أنه [illegible] من [illegible] [illegible] إلى [illegible] أحزان [illegible] كلهم كانوا [illegible] على [illegible] دون أن يفكر أحدهم في التضحية بشيء ما ، ومن هنا كان [illegible] إلى ذويها !!

إذا ما وجـدتم أخطـاء فى الكتابة أوصادفتكم صعوبة فى تركيب العبارات فالتمسوا لى الأعذار . فأنا كما نشرت الصحف لم أبرح بعد الصف الثانى الثانوى ولكن الذى عبرته ، ووقع لى ما كان ليحدث لعجوز فى السبعين . ولكن لا يسمح لى عمرى ، ولا قلة تجاربى . بالوصول إلى السبب ، ولا الأسباب التى دفعت بى إلى الورطة التى غرقت فيها ، وأحاطت بى . كان أمى لم تلدنى إلا لأرتكب ذنبى ، وأتـلقى عقـابى المجهـول الذى لم يصـل بعد ..

إن كنت أتلقى الآن بعض العقاب أو مقدماته .. فأنا داخل زنزانة . أو داخل قبر من الصمت أبدى السكون الذى يبدو الموت من مفرداته .. وهذا هو وجه الشبه بين الصمت ، والموت ، والظلمة التى بلا نهاية .. كل منها يمتزج بالآخر ، وأنا مع الهواجس ، شائع ، منهك ، أحيانا أتحسس أعضائى ليتأكد لى وجودى .. فوسط هذا العدم يخيل لى أن حواسى لا تعمل ، وأننى تحولت إلى لا شىء ، وتحللت فى العدم .. !

ورغم الهول الذى يطوقنى ، فإننى أجد الفرصة لأسأل نفسى . لماذا كل هذه المعاناة ؟ ومن أين جاء الذنب ، وكان لابد أن يجىء فى إثره العقاب .. ؟ كل الآباء منذ آدم وحواء يعطون أبناءهم كل ما هو حسن ، وجميل ، ويحميهم من نوائب الدهر. إلا أنا فقد رمينى والداى .. ما أنا ضحيته الآن .. مع أننى لم أعصهما ، ولم أخالف لهما رأيا .. كل الحقيقة هى أننى أحببت أمى ، وأمعنت فى حبها ، ومن فى الخلق لم يحب أمه .. وحبى لها دفعنى إلى محاولة الدفاع عنها ، والوقوف بجانبها ، ويخيل الى أن كل ابن لابد أن يقف إلى جانب أمه .. فإذا كانت مظلومة ، كان رفع الظلم عنها فريضة لابد أن تؤدى . وهكذا كان انحيازى إلى جانب أمى .. لكن مصيبتى أن ظالمها كان أبى ، ومن هنا كانت الورطة .. كانت البذرة التى نبعت منها محنتى .. ! فأبى كان ملاكا قبل أن يصاب بهذا الداء الوبيل الذى جعله يظلم أمى ، وكان يمكن أن يمضى كل شىء فى طريقه ، ولا يحدث ما حدث . لولا أنى لاحظت أن أمى تموت أمامى يوما بعد يوم ، وتضمحل ، وتركبها سلسلة من الأمراض ، والكل مجند لخدمتها وعلاجها ، إلا أن مقاومتها تضعف ، والمرض يفترسها فى عنف ، وأبى لايدخر وسعا فى علاجها بقدر ما تسمح له ظروفه، فقد كـان عملـه كتـاجر يسـتغرق كل وقته ..

وكنت إلى عهد قريب أحبهما معا بالتساوى بل أحيانا كنت أشعر بأننى

أقرب إلى أبى من أمى التى كانت عنيفة فى بعض المواقف ، وكانت شامخة ، سامقة لاتتزحزح عن رأيها تضع احترامها مع كل العالمين فى الدرجة الأولى .. بعكس أبى الذى كان مرنا كمعظم التجار الناجحين لا يعيبه أن يرجع فى عهد أو كلمة ارتبط بها، وأحس أنها سوف تصيبه بالخسارة .. أما أمى فكانت على عكسه تماما ، ولعل الجميع كانوا ينظرون إليها بإكبار من تلك الزاوية حتى أبى نفسه كان يبدو أمامها إذا ما فاجأته مخطئا غير قادر على جمع ذاته أو محاولة خداعها .. وعلمت فيما بعد أن سطوتها عليه كانت لأنها صاحبة الفضل بعد الله عليه فيما هو فيه من نعمة فهى لم تقف بجانبه فقط ، وإنما كان لها الجزء الضخم من رأس ماله بعد حصولها على الميراث من أسرتها المتيسرة .. إذ كان يحصل عليه منها فى شبه قروض غير مردودة .. وكانت عزة نفسها تمنعها من طلب استرداده .. !

ولم تكن تكشف لأحد قط عن أوجاعها، ولعل ذلك ما جعلها مهابة منا رغم حنانها ومرهوبة محبوبة نخشى من غضبها أضعاف ما نخاف من عقابها ، وكنا بناتا وأولادا نحاول أن نتعلم منها أو نأخذ عنها الشموخ على الألم ، والوقوف فوق المصاعب مهما كان حجمها بقدر ما تتحمل نفوسنا الغضة ، وذواتنا الخضراء ..

وحينما ضربها المرض فى الصميم ، وتدهورت صحتها ، وكأنها تتدحرج من القمة إلى السفح فى قسوة مريرة أفزعتنا، واحتار أطباء البدن فى علتها .. حاولت مع شقيقتى التى تصغرنى بعام أن نصل إلى سرها ، لكنها لم تفصح ، وقالت لها شقيقتى وهى منفعلة تجاوبا مع عذابها .. أن السبب مادام لا يكمن فى الجسد ، فلابد أنه قادم من جهة أبى .. ؟! .. فلوحت بيدها رافضة ، وهمست .. تحذرنا من أن يقودنا الغضب إلى ظلم والدنا .. فقد يكون هو الآخر مجنيا عليه ، وتحت سيطرة لايدركها لدقة تزييفها عليه ، وإلا كان معنا الآن .. ! وانتبهنا على إشارتها الخطيرة .. لسنا ندرى إذا كانت تقصدها أم أننا التقطناها على النحو الذى كنا نفكر فيه .. أين هو الآن ؟ ونظرت إلى شقيقتى ، كأنها توجه إلىّ تهمة مؤكدة .. فلولا أن هذه المدرسة التى اخترتها ودخلت بيتنا لكى تعطينى دروسا خصوصية ، ماحدث أن قامت صداقة بينها وبين والدى .. تلك العلاقة التى اتجهت إلى العمق ، بشكل أصابنا بالذهول ، وشل قدراتنا على المقاومة والوقوف فى وجه السيف الذى سلط علينا بعد أن ألقى أبى بنفسه فى ساحة هواها بتكتم شديد كان يظنه

كافيا لستر غرامه الذى كانت تكشفه محاولات ستره الرعناء والنعمة التى ظهرت على المدرسة ، وتمردها على الجميع وفرض سياستها فى وقاحة على البيت ، بل والتحكم فى خلفيات تخص أبى ، لم نكن نراها بحكم موقعنا فى الأسرة ، لكن والدتى كانت تلمسها وتسترها بعذاب مضاعف تعانيه حتى لا تكشف عن عورة زوجها ، وفشلها فى أن تحميه من اغراء ، مطلقة متفلة ، ومازالت معارك النفقة وقضايا ابنائها الثلاثة من مطلقها مستمرة ، ورغم ذلك راحت تلقى بشباكها حول الأب ، والزوج الذى وثق فيها وفتح لها بيته ، لتعطينى درسا ، وعطفت عليها أمى فتضاعف لها الأجر أول الأمر لأنها تواجه مصاعب الحياة ، وفى عنقها أبناء تخلى عنهم والدهم فى دناءة منقطعة النظير .. !

هذه الإنسانة التى كانت مولى عطفنا جميعا ، لاسيما والدتى ماذا دهاها ؟ وجعلها تنصب الشراك لتستولى على قلب الرجل الذى لم يحدث أن غابت مسئولياته كأب وزوج عن قلبه طرفة عين .. ؟ أو نفس السؤال مطروحا على الوجه الآخر ماذا حدث فى كيان أبى وأجهزته الواعية وغير الواعية حتى ينزلق إلى هذا المنزلق الخطر؟ ولولا أن والدتى تحتضن القصة كلها فى صدرها على حساب صحتها لذاعت على كل لسان ورغم كل الأسوار العالية التى صنعتها أمى ، الا أن كثيرين من النساء ، والرجال فى عائلتنا تملأ عيونهم ، وملامحهم أسئلة صامتة تقف على أطراف قسماتهم كالدموع التى تقف فى أحداق العيون لاتغيض ولا تفيض .. ؛ وأمى تقاوم فيصرعها المرض ، ولكنها لا تتكلم ، ولا تفصح حتى لنا نحن أولادها لا رغبة فقط فى أن تظل صورة الأب فى أذهاننا غير مهزوزة ، ولكن حتى لا تصبح هى فى أنظار الجميع المرأة المهزومة التى عدت عليها امرأة أخرى فحطمت مملكتها وأصبحت فى حاجة إلى الرثاء والعطف .. وهى القوية الأبية التى لم تعرف الضعف ، ولا الخذلان ، تحت أى ظرف !

ورفضت فى كبرياء بإشارة من يدها أن نسترسل فى الحوار أو تستمع إلينا واحترمنا ذلك ولم نكن نملك إلا الصمت وبقينا لحظات حول سريرها ، وفى صدرنا اضطرابات ، وصراعات تفوق عمرنا وانسحبنا كالمهزومين فى معركة صعبة غير متكافئة .. وقلت لشقيقتى أذهب إلى أبى فى متجره ، وأستمد من حبى لأمى قوة أواجهه بها فأقول له إن شفاءها فى يده ، وأنه لابد أن يتخلى عن هذه المدرسة ، وأعلن أننى مستغن عن دروسها ، وعن التعليم كله فى سبيل إنقاذ والدتى .. ؟

وقفت شقيقتي مذهولة ، كان كلامي كان مفاجأة لها .. فوالدتنا لم تطلب منا ذلك .. بل نهتنا عن مجرد الكلام عنه بلهجة غير محترمة ، فكيف استبيح لنفسي أن أواجهه ، وأقول له أنه مخطئ ، وأن عليه أن يصحح خطأه بكذا ، وكذا .. مواجهة فوق طاقاتي ، وقد لا يتقبلها والدي ، ويؤولها تأويلا ليس في صالحي ، وما كان يحرص على ستره قد يكشفه دون مواراة أو خجل ويصير الموقف كله ضد والدتي ، وأكون كالدبة التي قتلت صاحبها بحجر لكي تطرد الذبابة من على وجهه .. !

طالت وقفتي أمام شقيقتي التي تعاقبت على ملامحها كل ألوان الطيف ، ولم تجب بل حملقت فيّ ثم انسحبت لست أدري أهي مشفقة عليّ ؟ أم غاضبة مني ؟ أم أنها ترى أن الأب لا يجب أن يُعاتب أو يُعارض فيما يفعل .. ؟ فالأب دائما هو الأكبر ، لحسنته كبرى ، وسيئته كبرى وشاعت في خاطري رغبة في البكاء وانتابتني لحظة ضعف مريحة فبكيت في لذة تمنيت معها ألا أكف عن البكـــاء ، وألا تغـــادرني تـــلك الموجـــة التي تمســك بي في حالة من عدم التجميع ، والتركيز والتكثيف .. !

ولاحت لي صورة أبي في وجداني تتراقص كأنها على صفحة أمواج ، ولكنه شديد الحزن بادي التفكك مغلوب على أمره .. اقتنصته هذه المدرسة في لحظة ضعف وغضب من والدتي ، ثورة لكرامته أو بحثا عن كينونة يظن أنها مفقودة مع سيدة .. شامخة دائما .. تضع أنفها عاليا ، وترى نفسها فوق الجميع لاسيما داخل مملكتها ولعله كان راضيا قانعا بما يحصل عليه أو لعله ألفه ، ولم تكن لديه فرصة ليفطن إلى قلته أو كثرته إلى أن جاءت هذه السيدة ، واخترقت حياته وهو يعبر مرحلة من أخطر مراحل عمره .. لقد تربع فوق رشده الاقتصادي بشكل أو بآخر ، وتسربت من بين يديه سنواته الأربعون ، وشغلته ذاته لكي يؤكد نفسه بالخروج على روتين حياته مع أم أولاده التي شغلتها أمور الأبناء عن العناية به ، وعز عليه أن يستجدي منها الاهتمام بعد عشرين عاما من الزواج وما كان لها أن تفطن وهي مستغرقة كشهيدة في توفير الاستقرار والأمان لأولاده وله ، وحينما فطنت كبر عليها أن تبذل أو يكون عطاؤها بناء على إلحاح أو تحت شرط أو لقاء مقابل وهالها أن تتدنى المدرسة المطلقة التي فتحت لها بيتها لتعطيني مع شقيقتي دروسا لم نكن في حاجة إليها .. لكن أمي كانت تريد أن تساعدها من أجل أولادها القصر .. إلا أن المدرسة بشبابها، وفراغها ، وظروفها أغرت والدي ،

وأغراها، وقامت بينهما صداقة مبعثها الرغبة هنا ، والحاجة هناك ، والفراغ العاطفى الذى كان يعتصر والدى ، وانسحبت المدرسة ، ولم تعد فى حاجة إلى أن تجيئ بيتنا .. لأن أبى كان يقضى معها كل وقته فى الخارج ، وراجت الشائعات بأنهما يستعدان للزواج .. وحاولت أمى أن تكتم الأخبار فى عزة وشموخ لكن الأمراض صرعتها ، وألزمتها الفراش .. !!

أمى لم تخطئ حينما استدعتها لتدرس لى الانجليزية أنا وشقيقتى كانت تستهدف عملا نبيلا وأبى أيضا أراه مجنيا عليه تضافرت عليه ظروفه ، وأعتقد أنه لو التقى بها قبل ذلك أو بعد لما وقع ما وقع بينهما .. فقد كان أضعف من أن يقاوم شبابها الفياض ، وشعرها الذهبى ، وعينيها الخضراوين .

من الممكن أن أكون جاملت أبى وأمى .. وحتى لا أكون ظالما مع المدرسة فكرت طويلا فى أن أذهب إليها ، وأحذرها من أن تستمر فى الاستعداد للزواج من والدى لأنها بذلك سوف تقضى على أمى وتقتلها كمدا ، ولن أسمح لها ، ولا حتى لوالدى بذلك .. !

ولم أشأ أن أستشير أحدا فى ذلك حتى ولا شقيقتى .. فقد رأيت أن ذلك واجبى الذى يملى على الموقف أن أقوم به، وارتديت ملابسى ، ومضيت نحو مسكنها قبل أن تتراجع موجة حماسى ، وحينما فتحت لى الباب ، واحتوتنى ببصرها ضاع منها أمرها لحظة المفاجأة .. ثم جمعت أمرها ، ودعتنى إلى الدخول وأغلقت الباب، ووجدتها تسألنى عن والدى .. فقلت لها أننا نحن الذين نسألها عنه .. ؟!

وأحست من نبرة الصوت واللهجة أننى أحاكمها أو أعاتبها أو ألومها ، فهبت تقول أننى يجب ألا أتكلم إلا فى دروسى وأن على أن أتذكر أنها مدرستى ، وأن أمور الأباء للكبار لا يناقشها الأولاد الصغار .. !!

وأثارنى ذلك فكنت عنيفا ، وأنا أرد عليها بأننى لست صغيرا ، وأن الصغير هو الذى يصنع الصغائر ، ويخطف الأزواج من الصغائر .. ولم أكن جلست بعد فاتجهت صوب الباب ، وأغلقته خلفى فى عنف .. لم يستغرق كل ذلك سوى دقائق ، وحينما هبطت إلى الشارع كنت أرى فقط، حتى بقية أعضائى لم أشعر أنها معى .. بعثرتنى كأنما فجرت فى قنبلة .. أشعر بأننى أتلاشى أقاوم التبدد ، وأمعنت البصر فى أول مرآة طالعتنى لكى أتأكد أننى مازلت داخل ملابسى ، وأننى قادر على عمل الأفعال التى يأتيها الآدميون .. ورحت أسير بلا هدف .

مشيت طويلا على الكورنيش .. وقفت أرقب الشمس ، وهى تغرب فى قلب البحر ورأيت وجه والدتى ، والصفرة التى تسبق الموت فى ملامحها ، ورأيتها وهى تموت ، والأيدى تتسابق لتغطى وجهها ، ورأيتها وهى تدفن ، وتغيب فى الأرض ، كما غابت الشمس العظيمة فى قلب الأمواج !!

أكذب إذا قلت إننى كنت أبكى ، وأنا مأخوذ بهذا المشهد .. إلا أننى أحسست بدمعة ساخنة ، وقفت بين جفونى طويلا .. ثم انزلقت على خدى ، ولذ لى أن أتابع رحلتها فوق خدى .. فلما أوشكت أن تسقط على الأرض .. أشفقت عليها فدفنتها بين خدى ومنديلى حتى لا تسقط وتدوسها الأقدام .. واتجهت صوب البيت وفى عينى بقايا دموع .. !

كان علىَّ أن ألتقى بها فى اليوم التالى فى المدرسة فهى تعطينا الحصة الرابعة ، وفكرت فى أن أتغيب ذلك اليوم .. ثم فكرت إذا حلت حصتها خرجت ، وقلت للناظر أننى لا أريد حضور حصتها لأنها خطفت والدى ، وأسبب لها فضيحة انتقاما منها .. لكننى نمت قبل أن أستقر على حل .. !

فى الصباح كنت أعد حقيبتى للذهاب إلى المدرسة ، وغصت داخل الدولاب أبحث عن قميصى ، ولكنى لم أجده وقلبت كل الأدراج ، وفجأة أصطدمت يدى بمسدس أبى .. ماذا جعلنى أعثر عليه .. ؟ لماذا لم أدعه أمضى فى البحث عن القميص .. ؟ بل حدث العكس أننى تناولته ، ونسيت ماكنت أبحث عنه .. ! وحشرته فى حقيبتى ولم تتحدد بعد فى خاطرى المهمة التى سوف استعمله فيها .

لكن شيئا ما تجمد داخلى .. أنهيت كل شئ على عجل ، وهبطت الشارع أتطلع إلى المعالم التى أراها كل يوم ، وكأنى أراها لأول مرة .. بى شوق كبير إلى المألوف الذى أمارسه كل يوم .. نزعة هروب عارمة تنازعنى حتى لكأنى أريد أن أخلع ملابسى ، وانزلق منها هاربا حتى لا يعرفنى أحد .. كلما نسيت الكارثة التى فى الحقيبة عادت تدق رأسى بعنف كأننى حملت المسدس فى رأسى ..

وتمنيت لو أنها لم تجئ اليوم .. يحدث لها مايعطلها .. ودق الجرس ، ودخلنا الفصول ، وكلى رغبة فى أن أفر من الجميع .. وكلما حاولت أن أشغل نفسى فشلت ، ومضت الحصة الأولى ، والثانية ، والثالثة ، ودخلت هى ، وقبل أن تقع عليها عينى .. فتحت الحقيبة ، واخرجت المسدس وصوبته نحوها وأطلقته .. ولم أشعر بما حدث بعد ذلك ..

لمـاذا امتنعت قرينـة طـه حسـين عن تعلم اللغة العربية ؟!

بقلم : د . محمد الدسوقى

كان عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين - رحمه الله - قبل أن يسافر إلى فرنسا يتخذ من أبى العلاء المعرى مثله الأعلى فى عدم الزواج ، وقد علل لهذا بقوله : كان مذهبى هو مذهب أبى العلاء فى العزوف عن الزواج ، لأنى مثله فى العاهة ، ولأنى أحببته ، وكتبت عنه رسالتى للدكتوراه التى تقدمت بها للجامعة الأهلية ..

وقلت للعميد : [illegible] زوجتكم كانت من وراء عزوفكم عن مذهب أبى العلاء ؟ قال : إن زوجتى كانت تقرأ لى فى الجامعة بلجنة ، فتعجبت [illegible] وطريقة [illegible] لأحبتها ، وعاب حبها على مذهب أبى العلاء ، فطلبت منها الزواج فاستشارت بعض أهلها فتشاوروا عليها بعدم الزواج منى ، لأنى أجنبى ، ولأنى مكفوف ، ولكنها لم تأخذ بمشورتهم . قلت : لو كان قدر لكم الزواج بامرأة أخرى فهل كان سيؤثر هذا عليكم ؟ قال : بالطبع ، لقد قرأت لى زوجتى الأدب الكلاسيكى الفرنسى وساعدتنى فى دراسة اللغة اللاتينية ، وفتحت أمامى آفاقاً فكرية ، وأثرت فى ثقافتى ولأنى [illegible] وأحببتها .

إن طه حسين قبل أن يبدأ الدراسة فى الخارج لم يكن لتتاح له أن يلقى امرأة أو يتحدث إليها ، اللهم إلا والدته أو شقيقته ، فلما سافر إلى فرنسا كانت زوجته أول امرأة لا تمت إليه بصلة الرحم يجلس معها ، ويتحدث إليها ، وتساعده فى دراسته وتنقلاته ، فلا غرو أن أحبها ذلك الحب الذى جعله ينكر مذهب أبى العلاء ، وحمله على أن يطلب الزواج منها ، وكانت



هذه الزوجة من الذكاء وبعد النظر ، فلم تأخذ برأى من نصحها بعدم الزواج من العميد ، فقد آنست فيه إرهاصات العبقرية ، وآيات النبوغ ، وأدركت أن مثله سيكون له فى وطنه شأن مرموق ، فآثرت أن ترتبط به ، وأن تكون زوجة له ، وهى فى هذا قد خضعت - فيما أرى - لمنطق العقل قبل منطق العاطفة .

ولكن هذه الزوجة التى أحبها العميد وأثرت فى حياته ، وكانت عونا له فى دراسته وتنمية ثقافته ، والتى حنت عليه حنوا بالغا حتى وصفها فى آخر الجزء الأول من الأيام بأنها ملك بدل بؤس الحياة وشقاءها نعيما وسعادة - هذه الزوجة لم تنس يوما أنها فرنسية ، فظلت طوال حياتها فى مصر والتى بلغت ثلاثة أرباع القرن تقريبا لا تتكلم إلا الفرنسية ، فلم تعرف العربية قراءة أو كتابة ، أو مخاطبة ، ولم تكن تعرف منها إلا بضع كلمات عامية تنطقها فى لكنة أعجمية ، وتتحدث بها مع الذين يعملون فى البيت كالطباخ وسائق السيارة .

ولم تكن فرنسية هذه الزوجة مقصورة على عدم التحدث بغير لغتها القومية وإنما تجلت أيضا فى كل مظاهر البيت ، فهى تكاد تكون صورة للمظاهر الغربية ، فأثاث البيت واللوحات التى تزين الجدران كلها غير عربية ، وكان الشيخ محمود أبو رية وهو أحد أصدقاء العميد الذين حافظوا على مودته وزيارته يضيق بما يشاهده من هذه اللوحات ، ويتهم زوجة العميد بأنها تأنف أن تعيش فى جو عربى مع أنها زوجة لعميد الأدب العربى .

وكانت زوجة العميد إلى جانب محافظتها على لغتها الفرنسية ، ومحاولتها إضفاء الجو الغربى وبخاصة الفرنسى على رامتان تصطفى من يزورونها من الأجانب أو المصريين الذين يتحدثون الفرنسية ونشأوا ثقافيا نشأة غربية .

وإذا كانت زوجة العميد قد ظلت فرنسية لغة وعادات فإنها ظلت أيضا مسيحية تحافظ على الذهاب إلى الكنيسة كل أحد لا تتخلف عن هذا إلا لضرورة قاسية ، وما جاء فى صحيفة الأهرام بتاريخ ١٩٨٩/٧/٢٨ من أن السيدة سوزان قد أعلنت إسلامها بعد زواجها من عميد الأدب العربى غير صحيح .

وهذه الزوجة على ضوء ما لاحظته فى العقد الأخير من حياة العميد كانت لها الكلمة الأولى فى كل شئون البيت ، وكذلك فى تنظيم رحلة المصيف وما كان العميد يعارضها أو يناقشها ، كما عرفت هذه الزوجة بصرامتها فى معاملة من يعملون فى البيت حتى السكرتير الخاص لزوجها ، وكان الأستاذ فريد شحاته الذى عمل مع العميد نحو أربعين عاما يذكر بعد أن ترك العمل مع العميد أن زوجته كانت تعامله معاملة الخدم ، وأن هذه المعاملة كانت من

أسباب ترك فريد العمل مع العميد ، وإن كان هذا قد قال لمن حدثه ليعود فريد إلى عمله إن على فريد إذا أراد أن يعمل معى أن يحسن معاملة الست .

وفى شهر مايو سنة ١٩٧٢ كانت صحة العميد سيئة جداً ، ولجأت الزوجة إلى أن تستعين بممرضة تقيم معها ، فقد عجزت عن القيام بما يحتاجه زوجها من رعاية ، وكانت المشكلة التى تقلق الزوجة هى أن توفق فى اختيار شخص مناسب يسافر مع العميد فى رحلة الصيف ، فقد أزف الوقت ، وهى حريصة كل الحرص على أن تسافر فى كل عام ، وكانت فى بعض الأعوام تتهم زوجها بالتمــارض ، حتى لا يسافر ، وقد استقر الرأى أخيرا - على أن يســافر مع العميـد الأسـتاذ محمد عبد الحميد الموظف بالعــلاقات العامة بوزارة التربية والتعليم ، ولجأت إدارة المجمع اللغوى - دون علم العميد - إلى مخاطبة الوزارة تطلب إعارة الأستاذ عبد الحميد لمدة عام ، وتحدث الدكتور إبراهيم مدكور مع الوزير الأستاذ على عبد الرازق موضـحا له الغرض من هذه الإعارة ، ووافق الوزير على طلب المجمع ، وأخذ هذا الأستاذ يهيئ نفسه للسفر ، وكان بسبب ذلك يتلخر أحيانا فى الحضور إلى رامتـان ، وعاتبته زوجة العميد فى رفق أولا ، ثم ثارت فى وجهه ثورة عارمة ، فرفض السفر ، وألغى الإعارة ، واستمر فى عمله بالوزارة .



طه حسين وقرينته .. قبل الوداع

وكان أصدقاء العميد قد انفضوا عنه فى العقد الأخير من عمره ، لا يزوره منهم إلا عدد قليل ، ويعزو الأستاذ أحمد حسن الزيات - صديق العميد منذ أيام الطلب فى الأزهر والجامعة الأهلية - سبب ذلك إلى تسلط الزوجة وفرض إرادتها على علاقته بأصدقائه ، فقد سألته عن أسباب فتور العلاقة بينه وبين العميد - وكنت أعمل مع الأسـتاذ الزيات فى لجنة المعجم الوسيط - بالمجمع - فقال : إن العلاقة لم تفتر بينى وبين الدكتور طه ، ولكن زوجة الدكتور

هى المسئولة عن ابتعاد أصدقائه عنه ، وأنت تعلم أنه لا يستطيع اغضابها . فقلت : كيف تكون زوجة الدكتور مسئولة ؟ قال : كانت تحول بينه وبين لقاء من يود ، وكنا إذا ذهبنا إليه ورغبنا فى اصطحابه معنا فإنها كانت لا تمكنه من ذلك ، بحجة أن صحته لا تساعده على الخروج ، ولهذا ابتعد أصدقاء الدكتور عنه شيئا فشيئا ، حتى انقطعت صلته بهم تقريبا .

وكان العميد فى الفترة التى سعدت بلقائه فيها ينفق كل شهر أربعمائة جنيه ، تأخذ الزوجة منها ثلاثمائة لمصروف البيت ، والمائة الباقية يعطى العميد منها راتب السكرتير ، ويحتفظ معه بما تبقى من هذا الراتب لما قد يحتاج إليه من إرسال برقية أو رسالة ، أو تصدق على من كانوا يطرقون بابه يطلبون الإحسان ، وما كان العميد يرد من يسعى إليه دون أن يقدم له شيئا مهما يكن قليلا .

وكان المبلغ الذى تأخذه الزوجة إذا لم ينفق كله فإنها كانت تضع ما لم ينفق فى حسابها الخاص فى البنك ، وكان العميد يهدى لزوجته فى بعض المناسبات هدايا فى صورة مبالغ نقدية أحيانا ، وقد ذكر لى أنه فى عهد الملك فاروق رشح لجائزة أدبية مقدارها ألف جنيه ، غير أن الملك عارض فى منح هذه الجائزة للعميد ، ثم أمر بعد ذلك بمنحها له ، ويقول العميد : وقلت لمصطفى النحاس أنا سأرفض هذه الجائزة ، ولكن النحاس رجانى الا أرفضها حتى لا أكون سببا فى أزمة بين السراى والوفد ، وقبلت الجائزة ، وقدمتها هدية لزوجتى . فزوجة العميد كان لها حسابها الخاص فى البنك وكان فى الفترة التى أتيح لى أن ألقى العميد فيها يتجاوز عشرة آلاف جنيه .

وزوجة العميد مع هذا كانت تضيق بما ينفق على بعض أقاربه ، أو أن يمنح بعض العاملين فى البيت أكثر من راتبه ، ومن ثم كان يخفى عنها مايعطيه لهؤلاء أو أولئك ، وحدث مرة أن طلب منى أن أزيد فى الشيك الذى يصرف فى مستهل كل شهر مبلغ خمسين جنيها ، وأن أعطى له هذا المبلغ دون أن تعرف الزوجة منه شيئا ، بيد أنى فوجئت بعد عودتى من البنك بأن طلبت منى الزوجة أن أقرأ لها رقم المبلغ الذى صرف ، وكنت قد دونته فى كعب الشيك ، وما كانت تعرفه حتى وجهت الكلام فى انفعال للعميد ، ولاذ بالصمت فلم يرد عليها حتى انتهت من حديثها الغاضب ، وخرجت من الحجرة .

على أن هذه الزوجة مع ذلك كانت تهتم كل الاهتمام برعاية زوجها ، فضلا عن دقتها فى تنظيم وقته ، وأن تقرأ له كل يوم فى الأدب الفرنسى وكان ذلك بعد العشاء وقبل النوم .

إن العميد فى العقد الأخير من عمره كان يعانى من اضطراب فى صحته ،

وكانت زوجته ترعاه أصدق رعاية ، فهى تقدم له الغذاء والدواء فى مواعيد محددة ، ووفق قواعد صارمة ، ولما عجزت عن القيام بهذه الرعاية كما ينبغى أحضرت ممرضة تساعدها .

لقد كان العميد بسبب قلة حركته يشعر بآلام فى أمعائه ومعدته ، وكان يحاول التغلب على هذه الآلام بالإقلال من الطعام ، فزاده هذا ضعفا على ضعف ، ومن ثم كانت زوجته تكرهه على الطعام فى بعض الأيام اكراها ، وكان أحيانا يخضع لإرادتها ، وأحيانا أخرى لا ينزل عند رأيها ، ولا يستجيب لها فتغضب منه أو تثور عليه ، وقد تمسك عن تناول الطعام ، حتى يأكل زوجها كما ترغب لا كما يريد .

وكانت إذا خرجت لزيارة ، أو لدخول إحدى دور السينما تطلب من السكرتير أن يظل مع العميد حتى تعود ، وإن تأخرت عن الموعد المألوف لانتهاء عمل السكرتير فى الفترة المسائية وهو الثامنة والنصف ، لأنها ما كانت تطمئن أن تترك العميد مع بعض العاملين فى البيت ، فهم قد لايحسنون مواجهة أى ظرف صحى طارئ يقتضى اسعافا عاجلا .

وبعد فإن زوجة طه حسين أحسنت إليه كل الإحسان بلا مراء ، غير أنها على مابذلت نعمت بحياتها معه ، وأخذت أكثر مما أعطت ، فقد دخلت التاريخ بزواجها من العميد وبحديث العميد عنها فى بعض ما كتب ، وحديثها عن العميد فى كتابها « معك » كما أنها زارت من البلاد ولقيت من الشخصيات ما لم يكن ليتاح لها لو تزوجت غير العميد ، ولكن السؤال الذى يفرض نفسه بالنسبة لهذه الزوجة ، لماذا أعرضت عن تعلم العربية ، وحافظت على لغتها القومية مع أن زوجها مكفوف ، وقد تفرض عليها الظروف ، وهى تعيش فى بلد عربى ، أن تكتب بالعربية أو تقرأ أو تتحدث بها ؟ أكان ذلك استهانة بهذه اللغة ، وعدم اعتراف بأنها لغة جديرة بالدراسة والتعلم ، أو أنه التعصب والشعور بالفوقية !؟

وإذا كانت زوجة العميد قد أخلصت لزوجها وحنت عليه ، وكانت عونا له فيما أطلع عليه من تراث غربى ، فإنها مع هذا عاشت فى مصر سفيرة مخلصة لوطنها ، حافظت على لغته وثقافته ، وربما كان لها دورها فى نشر تلك اللغة وهذه الثقافة ، ويقتضى الانصاف القول بأن هذه المرأة كانت صادقة مع نفسها فى علاقتها بزوجها وتقديرها له ، كما كانت صادقة فى ولائها لوطنها واعتزازها به ، وإن كنت لا أدرى هل عاشت السيدة سوزان فى مصر بجنسيتها الفرنسية ، أو أنها جمعت بين هذه الجنسية ، والجنسية المصرية ؟

القصة القصيرة

من الستينات إلى التسعينات

الجزء الثاني

بقلم : د. سيد حامد النساج

ننشر الجزء الثاني من بحث د. سيد حامد النساج ، حيث رصد في الجزء الأول منه والذي نشر في العدد الماضي المعايير التي سارت عليها القصة القصيرة خلال الثلاثين سنة الماضية ، وفي ظل الظروف التي يمر بها المجتمع المصري .

أسباب تقلص القصة

لا يغيب عنا أن لجوء الكتاب الشباب إلى طبع قصصهم بطريقة « الماستر » أو في كتب رديئة الإخراج والورق ، قليلة العدد ، على نفقتهم الخاصة ، أو هروبهم إلى النشر في صحف ومجلات عربية ، جاء نتيجة ظروف سياسية فرضت على الصحافة طوال السبعينيات وأوائل الثمانينيات ، مما جعل القصة القصيرة تتقلص ، وتضيق فرص النشر أمامها .

وتتوسل في التعبير عما تريد التعبير عنه بأدوات ووسائل فنية معقدة أو مسطحة أو غريبة .

ليس من شك في أن هذا الوضع يفرض ضرورة البحث عن القصة القصيرة المصرية في صحف ومجلات عربية أقبلت على نشرها بطرق متفاوتة ، وفي أوقات متباعدة ، تحددها المجلة أو الصحيفة ، وفقا لسياستها . ومعروف أن موضوع القصة ، وبناءها الفني ، يخضعان خضوعاً سافراً لما قد تمليه إدارة المجلة ومصالحها الخاصة . وهذا بدوره يستتبع وعياً وذكاء وثقافة عند دراسة هذه القصص التي كتبها مصريون ونشروها في الخارج ، ويظفر الباحث بأمثلة كثيرة لذلك في مجلة (الأقلام) العراقية ، فيها نقرأ لكل من : جمال الغيطاني وسعيد الكفراوي وضياء الشرقاوي ، وأمجد توفيق ، ومجيد طوبيا ، ومحمد الراوي ،



محمود تيمور



يوسف جوهر

ومحمد يوسف القعيد ، وخيرى شلبى ، وسعيد سالم ، وسحر توفيق ، وعبد الوهاب الأسوانى ، وعبده جبير ، ومحمد مستجاب ، وعبد الحكيم قاسم ، ومحمد البساطى ، ويحيى الطاهر عبد الله . ليس من بينهم واحد من جيل الأربعينيات أو الخمسينيات .

وعندما كان رجاء النقاش رئيساً لتحرير مجلة (الدوحة) أتاح - على صفحاتها - لشباب كتاب القصة القصيرة ، استمراراً للدور الذى أداه فى مصر قبل أن يهاجر إلى هناك . ويسجل هذه الفترة بإتاحة الفرصة لهم فى صحيفة (الراية) القطرية . أما مجلة (الفيصل) فإنها سمحت بنشر قصص قصار لكل من مجيد طوبيا ورستم كيلانى وهدى جاد ونادية كامل ، وحسن محسب ، وعلى درويش ، وغبريال وهبه ، وأحمد الشيخ ، ومجلة (المعرفة) السورية لم تبتعد عن مجال إهتمام الكتاب بالنشر فيها ؛ فرحبت بكاتب مثل ضياء الشرقاوى قاصاً وناقداً .

هذا يفرض المتابعة الدقيقة . ولا تكتمل دراسة علمية إلا بالسعى وراء إنتاج الكاتب هنا وهناك . كما أن الحكم على قصص الكاتب لا يصبح صادقاً وموضوعياً إذا افتقد هذا الجانب . لابد من معرفة حركة الصحافة بعامة ، والأدبية بخاصة ، قبيل البحث والتنقيب عن القصص القصيرة المنشورة فيها.

وفيما يتعلق بالصحافة المصرية بدءاً من ١٩٦١ ، فإنه لا يغيب دورها ثقافياً وأدبياً وقصصياً إلا على كسالى الباحثين ، أو أولئك الذين ينكرون على الثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ كل فعل إيجابى ، وكل تخطيط ثقافى . فقد أصدرت الثورة عدداً كبيراً جداً من المجلات والصحف والمطبوعات : النهضة - نادى القصة - المجلة - الكاتب - البناء - الجمهورية - الشعب - الطليعة - الثقافة - الرسالة - الشعر - المسرح - الفنون الشعبية - الفكر المعاصر - إبداع . وكانت قد أصدرت فى الخمسينيات « التحرير » و« كتب للجميع » و« الهدف » و« الثورة » . وكان الحرص على أن يكون رؤساء تحرير معظم المجلات من المتخصصين.

ومن حيث الدراسة التابعة التالية الموضوعية ، فيما يتصل بعلاقة القصة القصيرة بالصحافة فى فترة بحثنا ، فإننا نلاحظ ما يلى :

١ – بدأت مجلة (القصة) – العدد الأول صدر فى يناير ١٩٦٤ – بالاحتفال بالكتاب الراسخين والرواد ، مثل محمود تيمور أول رئيس تحرير لها ، ومحمود البدوى وإبراهيم المصرى ، ومحمد عبدالحليم عبدالله وأمين يوسف غراب وعبدالحميد جودة السحار ويوسف جوهر وسهير القلماوى والدكتور محمد كامل حسين وجاذبية صدقى . لكنها – مع ذلك – التفتت لما يكتبه الشباب . ففى العدد الثانى – فبراير ١٩٦٤ – نشرت القصة الفائزة بالجائزة الأولى فى مسابقة نادى القصة ، وهى لمحمد البساطى بعنوان (الهروب) صفحة ١٢٧ . وفى العدد الثالث – مارس ١٩٦٤ – نشرت لأحمد هاشم الشريف قصة بعنوان (الذباب لايموت فى الطين) صفحة ١٣٥ . وأشارت المجلة إلى أنه فاز بالجائزة الأولى لعام ١٩٦٣ . كما نشرت له قصة (القمة) فى العدد العاشر – اكتوبر١٩٦٤ . وكانت هى الأخرى قد فازت بإحدى جوائز المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية . بينما يأتى العدد التاسع – سبتمبر ١٩٦٤، ليقدم عدداً كبيراً من ذوى الاتجاهات الجديدة ، وممن كانوا – آنذاك – فى بداية الطريق ، وفى مرحلة الشباب .

يؤكد ذلك تلك الكلمة التى كتبها محمود تيمور ، ثم ماسجله ثروت أباظة ، من حيث إن المجلة ، ترحب بالكتابات الشابة التى يبدعها الأبناء الجدد . وهو بالفعل ماأقدمت عليه المجلة بعد فترة . وكانت الجودة الفنية هى المعيار الوحيد الذى تنتقى فى ضوئه القصص التى تنشرها .

أقبل عدد لا بأس به من كتاب القصة القصيرة فى الستينيات على النشر فى هذه المجلة المتخصصة . وإن زعم بعضهم – الآن – غير ذلك ، بدعوى الاختلاف العقدى أو الفكرى أو السياسى أو الطبقى . وليس ثمة مبرر لادعاءات يفضحها الواقع والتاريخ والحقيقة . كما قال عز الدين نجيب – وهو واحد من المجددين أبناء هذا الجيل – فى مجلة (الطليعة) العدد التاسع – سبتمبر ١٩٦٩ ، إن مثل هذه المزاعم تتم على الورق فقط ، لكنهم يسمحون لأنفسهم – واقعياً – بالتقاط المزيد من اللقيمات : (وقد لاحظت ظاهرة غريبة فى الحياة الأدبية والفنية ، وهى أن كل القديم سىء فى نظر الجديد على صفحات الورق فقط ، أما على المكاتب والمقاهى فتنطلق قصائد المديح وسط دخان السجائر المتبادلة . ويستمر الجديد فى تمثيلية قذف الطوب من تحت النوافذ طلباً للمزيد من اللقيمات) .

ذلك أن الباحث يجد قصصاً لكل من : جمال الغيطانى وقاسم مسعد عليوة وإبراهيم أصلان وفتحى عبدالفتاح وعبدالرحمن أبو عوف وضياء الشرقاوى ويوسف أبو رية وأحمد الخميسى وأحمد

الشيخ ومحمد مستجاب وصلاح عبدالسيد ومحمد جبريل وعشرات من الكتاب على امتداد تاريخها ورغم تعدد رؤساء تحريرها . وقصة محمد حافظ رجب (الكرة ورأس الرجل) التى تعتبر مناقضة تماماً لما كان سائداً ، نشرتها المجلة فى العدد السابع - يوليو ١٩٦٤ . وقدم العدد الثامن عشر - يونيو ١٩٦٥ عدداً من قصص كتاب الجيل الجديد ، تولى نقدها وتحليلها عدد من النقاد ، يقف فى مقدمتهم الدكتور محمد مندور والدكتور على الراعى والدكتور عبدالقادر القط والدكتور محمد غنيمى هلال .

وما إن تولى ثروت أباظة رئاسة تحريرها حتى حافظ على نفس المنهج ، وأعلن أن المجلة تفتح صدرها كى يتنفس كل الكتاب الجدد ، وهى لاتتخذ موقفاً من أحد .

٢ - وقد واصلت مجلة (نادى القصة) مايو ١٩٧٠ السير فى ذات الإتجاه ، وضمت هيئة تحريرها بعض الكتاب المبدعين فى القصة القصيرة هم : أنوار الخراط وبهاء طاهر وزهير الشايب وسعد حامد وسليمان فياض وعبد الحكيم قاسم لكنها لم تصمد طويلاً .

٣ - ورغم أن مجلة (المجلة) قد تناوب على رئاسة تحريرها أربعة من أبنائنا الكبار ، هم د. حسين فوزى ثم د. على الراعى ، ويحيى حقى ، ود. عبد القادر القط ؛ فإن القصة القصيرة لم تلق ماهى أهله من العناية والرعاية إلاَّ فى عهد يحيى حقى .

٤ - ومع أوائل الستينيات ، وبالتحديد فى إبريل ١٩٦١ صدر العدد الأول من مجلة (الكاتب) ، وهى تعلق شعراً لها بأنها «مجلة الثقافة الإنسانية» . ولما كانت تتبنى قضية الفكر الاشتراكى ، وتطبيق مبادئ الإقتصاد الإشتراكى تحقيقاً للعدالة الإجتماعية ؛ فإنها فى ميدان الأدب حرصت على أن تكون القصص التى تنشرها قصصاً واقعية إجتماعية . فأخذت تنشر ليحيى حقى وسعد مكاوى وشكرى عياد ويوسف إدريس ومحمود السعدنى ولطفى الخولى وعباس الأسوانى وأحمد حمروش وعبد السميع الرسام ومحمد سالم وعبد المنعم سليم وعبد الفتاح رزق .

وما إن تولى يوسف إدريس مسئولية الإشراف على باب القصة ، حتى أخذ يقدم لنا الكتاب الجدد ، من خلال قصصهم ؛ بكلمات تبين عن إنحيازه لهم ، وتفاؤله بمستقبل مثمر ومؤثر فى ميدان القصة القصيرة .

٥ - لم تحظ القصة القصيرة بعناية فى المجلة العريقة (الهلال) فى ظل رئاسة على أمين هيئة تحريرها فى أول يناير ١٩٦٢ . وظل الأمر كذلك على يد كامل زهيرى الذى إهتم بالسياسة والإشتراكية والقومية ، ومما يلفت النظر أن



خيري شلبي — زهير الشايب

العدد الثاني عشر من السنة الثالثة والسبعين كان من الأعداد الممتازة ، وكانت المجلة قد دونت تحت عنوان « كلمات عاشت » كلمة لمحمود تيمور يقول فيها ص٢ : (أصبحت القصة سلطة ذات سيادة فى الأدب العربى) فإنا لانجد القصة القصيرة المصرية .

ثم أولى الدكتور على الراعى القصة القصيرة المصرية جانباً من إهتمامه ، فنشر لجمال الغيطانى ونوال السعداوى ، وأعدت المجلة فى أغسطس ١٩٦٩ عدداً خاصاً بالقصة القصيرة . وفى أول فبراير ١٩٧٠ أصدر رجاء النقاش عدداً عن نجيب محفوظ أتبعه فى أول أغسطس من نفس العام بعدد آخر عن القصة القصيرة، كان من بين كتابها عشرة ممن أصبحت لهم ملامحهم المميزة فى هذه الفترة . واعتباراً من يناير ١٩٧٢ لم يعد للإنتاج القصصى الجديد وجود فى ظل إشراف الشاعر صالح جودت . مما دفع بعضهم إلى الإتجاه نحو ملحق صغير صدر بعنوان « الزهور » فى يناير ١٩٧٣ . كتب محمد يوسف القعيد وحمدى الكنيسى ومحمد مستجاب ومحمد جبريل وإبراهيم عبد المجيد وعبد الوهاب الأسوانى وزهير الشايب وحسن محسب وإدريس على وعماد الدين عيسى ومحمد حسن الشرقاوى .

ولما كان الدكتور حسين مؤنس لايعترف بمن جاء بعد طه حسين من الكتاب ، وخصوصاً أبناء الستينيات والسبعينيات ؛ فإنا لم نعثر على قصة قصيرة واحدة لأحدهم ، وإذا اضطرت المجلة لنشر قصة قصيرة ؛ فلا بأس من أن يكتبها هذا الواحد أيضاً . ولاننسى أن هذا كله قد حدث فى السبعينيات ، التى دفعت الكتاب إلى أن ينشروا على نفقتهم الخاصة إن كانوا قادرين مادياً ، أو أن يلجأ إلى مجلات المهجر . الأهم أن القصة القصيرة كانت تحظى بإهتمام حينا ، ثم إضمحلال حيناً آخر ، وفقاً لسياسة رئيس التحرير ، ورؤيته ، وطموحه ، وإيمانه بكتابها المعاصرين من الشباب . وإن كنا نلاحظ أنه مع منتصف الثمانينيات أصبح ينظر إلى هذا الفن نظرة موضوعية تنتخب، وتختار ، مع حرص واضح على دفع الجديد الجيد ، دون إغفال لرواد هذا الفن ، بإصدار الأعداد الخاصة بهم .

٦ - محصول القصة القصيرة فى مجلة (الطليعة) التى صدر عددها الأول فى يناير ١٩٦٥ قليل جداً . لم تظهر إلاّ

فى أغسطس ١٩٧٣ حين نشرت قصة لعبد الحميد حواس بعنوان (ليلة عيد القيامة) . وكان علينا أن ننتظر عاماً آخر حتى سبتمبر ١٩٧٤ لنقرأ قصة يحيى الطاهر عبد الله « عودة إلى الحقائق القديمة ، فهى ماتزال صالحة لإثارة الدهشة » . وفى سبتمبر ١٩٧٥ « فصل من رواية حكاية التاجر والنقاش » لمحمد البساطى . وفى يونيو ١٩٧٦ قصة لمحمود الوردانى « الأشجار عند البحيرة » . وفى آخر العام نشرت قصة قصيرة لعبد الحكيم قاسم « الموت والحياة » ديسمبر ١٩٧٦ . بمعنى أنها تقدم قصة قصيرة واحدة أو قصتين إثنتين فى العام كله . حتى كان عدد مارس ١٩٧٧ ، حيث نجد قصة لسحر توفيق ، ثم تتوارى القصة القصيرة ، وتختفى المجلة فى وقت واحد .

٧ – وقد جعلت مجلة (الثقافة) – منذ أول أعدادها فى اكتوبر ١٩٧٣ حتى أكتوبر ١٩٧٨ – للقصة القصيرة مساحة تماثل تلك التى خصصتها مجلة (الكاتب) فى عهد صلاح عبد الصبور فى السبعينات . فلا نظفر بأقل من عشر قصص فى العدد الواحد .

٨ – وإذا كانت مجلة (الثقافة) القديمة قد أعيد إصدارها فى ٢٣ يوليو ١٩٦٣ فإنها لم تحتفل قط بالقصة القصيرة ، وكذلك الحال بالنسبة لمجلة (الرسالة) التى أعيد إصدارها فى ٢٥ يوليو ١٩٦٣ . فهى الأخرى قلما تنشر القصة ذرأ الرماد فى العيون ، مرة فى أكتوبر ١٩٦٤ وثانية فى ديسمبر ١٩٦٤ وهكذا .

٩ – وتلعب صحيفة « المساء » دوراً مهماً فى الفترة التى أعقبت صدورها حتى الآن . ونخص بالذكر ماقام به عبد الفتاح الجمل حين تحمل مسئولية الإشراف على صفحة الأدب . اهتم بالقصة القصيرة إبداعاً ونقداً وترجمة . وأسهم إسهاماً مباشراً فى تبنى كتابها الجدد طوال الستينيات ثم فى السنوات الأولى من السبعينيـــات .

١٠ – وتسلط مجلة (إبداع) بدءاً من يناير ١٩٨٣ الضوء على القصص التى يكتبها أبناء الثمانينيات و السبعينيات . بالإضافة إلى مايكتبه أبناء الستينيات . فإذا العدد الواحد يجمع هذه الكتابات معاً وربما أضاف إليها قصصاً كتبها أولئك الذين كانوا ينشرون فى منتصف الخمسينيات . وأتاحت لكاتبات الثمانينيات أن يسهمن بإبداعهن بشكل واضح .

١١ – وهنا تلزم الإشارة إلى المجلات التى صدرت فى الأقاليم ، ولم يكن يشغلها إلاّ فن القصة القصيرة ؛ فى محاولة لإقتحام أزمة النشر ، والتعبير عن هموم بيئية مشتركة ، وعن حتمية إثبات وجودهم وتأثيرهم . ومع كون بعضها لم يصمد طويلاً ؛ فإنها – جميعاً – ساعدت فى نمو

وتطور وازدهار القصة القصيرة فى كل الأنحاء .

كانت هناك « الكلمة الجديدة » فى السويس . و « فاروس » بالأسكندرية . و « أقلام » فى سوهاج . و « الزهور » فى القليوبية و « الشرنقة » فى الغربية . و « رواد » فى دمياط . و « النهار » فى الدقهلية . و « خطوة » فى القاهرة . و « نادى القصة » فى الأسكندرية أيضاً . و « اشراقة » فى كفر الشيخ . و « البحر » فى الغردقة . و « فيروز » فى العريش . و « الرافع » فى طنطا و « بداية » فى المنيا . و « شغاف » فى كفر الزيات . و « عروس الشمال » فى دمياط . كما كانت « سنابل » و « آفاق » و « الشارع » و « أدب المستقبل » و « التمام » وغيرها وغيرها . لون آخر من النشر أقبلت عليه الهيئة المصرية العامة للكتاب أواخر التسعينيات وأوائل السبعينيات ، عندما أصدرت سلسلة « كتابات جديدة » رغماً لما يكتبه ذوو التجارب الحديثة . ومعظمهم يشغل الساحة الأدبية الآن ، وقد مضى على ممارستهم الكتابة القصصية أكثر من ربع قرن . وتواصل هيئة الكتاب إصدار بعض هذه الدوريات فى « قصص عربية » و « إشراقات أدبية » . وتنحو نفس المنحى الهيئة العامة لقصور الثقافة « أصوات أدبية » . أضف إلى ذلك صحف « الجمهورية » و « الأخبار » و « الأهرام » وغيرها .

هذه الأمثلة تجعل الباحثين والدارسين ملزمين بالاعتماد على الصحف والمجلات أولاً وقبل كل شئ . لمعرفة الخطوات ، ولتحديد الأصوات ، ودراسة الإتجاهات ، والإحاطة بالظروف والملابسات ، الخاصة بالفن والعامة المتعلقة بالمجتمع . بعيداً عما يثار من مسائل هامشية قد لاتدخل فى باب النقد . وقد تبين أن القصة القصيرة فى مصر كانت تتأثر بالسياسة العامة للمجلة أو الصحيفة ، وبرأى رئيس التحرير على نحو خاص ، ونظرته إلى فكر الكتاب أو موقعهم بالنسبة للمشاهير مرة والجماهير القارئة مرة أخرى .

إن معظم ما أشرنا إليه قد جاء من قبيل ما أصدرته الدولة . فإن ذلك — فى رأينا — من مسئولياتها الأساسية . أما ماقام بإصداره الأفراد مجتمعين أو متفردين ؛ فإنه بالغاً مابلغ لم يتخذ سمة الإستمرار ، ولم يصل تأثيره إلاَّ إلى عدد محدود جداً . وفوق ذلك كله فإن الفترة التى ازدهرت فيها تلك الدوريات من قبل الدولة ، تزايد عدد الإنتاج المطبوع من المجموعات القصصية . وتوافد عدد كبير من كتاب القصة القصيرة ، وأقبل الجمهور القارئ عليها . وسعت الصحف من أجل نشرها . وتنوع محصولها الفنى . ووجدت نقاداً متخصصين فيها . مما يدعو إلى رفض أية دعوى تحاول النيل من الفترة بقصد رفض كل مايتصل بسنوات حكم

الرئيس جمال عبد الناصر . ومع أهمية هذا المصدر الرئيسى – الصحافة – فإن الدراسات التى تعرضت للقصة القصيرة المصرية قد أغفلته .

* * *

ونحن فى هذه الدراسة سوف نتبع ما التزمنا به فى الجزئين الأول والثانى ؛ من حيث المنهج ، وإن كنا نعطى « الشكل » نفس العناية التى نوليها المضمون . إنطلاقاً من أن القصة القصيرة شكل ومضمون فى وقت واحد .

قد نقف عند آحاد من الكتاب ممَّن نعتبر قصصهم القصيرة ذات تفرد فى الشكل والمضمون . لأنه لايمكن لنا – عملياً – تتبع كل كاتب . نظراً لكثرة عددهم . ولغزارة الإنتاج . كما أن مجموعات منهم كانوا يسيرون فى إتجاه واحد فى الموضوع، وفى نهاية الرؤية ، وفى طريقة المعالجة . وهنا تكون دراسة الجماعة واجبة . فهى أقرب إلى طبيعة ما أنتج ، وأهدى إلى معرفة الملامح المشتركة . مادامت السمات الفنية الخاصة بكل لاتشكل تفرداً وتميزاً .

بعدئذ تصبح تساؤلات كثيرة بلا معنى ، وربما تكشف عن قصور فهم ، وعن مراوغة مقصودة . كان يسأل أحدهم : لماذا لم تشر إلى هذا الكتاب وكانت له قصص كثيرة ؟ وفلان عاش المرحلة وماقبلها فلم يكن ثمة وقوف عنده ؟ الكل أجمع على ريادة فلان وأنت لم تفكر فى الكتابة عنه ؟ فلان يملأ الحياة الأدبية صياحاً وإعلاناً لكنك لاتعترف به ولاوجود له عندك !؟ مثل هذه التساؤلات لامعنى لها ، مادمنا نعتمد « الانتخاب » و« الاختيار » ، ومادام هدفنا ليس تقديم عمل ببليوجرافى يحصى عدد القصص والمجموعات ، ويحصر عدد الكتاب .

وليس منطقيا أن يطالب ناقد واحد ، أو باحث واحد ، بعمل كل شئ ، وبدراسة كل كاتب ، والإشارة إلى كل قصة أو كل مجموعة قصصية ؛ وبالإجابة عن كل سؤال ؛ ثم الحكم على كل من كتبوا فى هذا الفن . أين من يزعمون أنهم نقاد عاصروا هؤلاء الكتاب ، وعرفوا أساليبهم ، وماجوا وماجوا دفاعاً عن هذا وإعلاناً عن ذاك ؟ ولاتحلو لهم الكتابة الموضوعية ؛ وإنما تستهويهم الأحكام الجاهزة ، والنعوت غير العلمية يطلقونها فى المقاهى والندوات والإذاعة والتليفزيون . حسبنا أننا نستهدف تقديم حركة القصة القصيرة المصرية من خلال بعض كتابها الذين لم يكتب عنهم من قبل . أو الذين أسهموا – فعلاً وعملاً لا دعاية وإعلاناً – فى تطور هذا الفن . إذ إنهم أحق بالدراسة ممن تناولتهم من قبل أو ممن تناولتهم مقالات ودراسات سابقة .



التصحيح اللغوى

وضرورة التحرى

بقلم : د. محمود الطناحي

«من عَرَف كلام العرب لم يكد يُلحِّن أحداً» تذكرت كلمة الأصمعى هذه وأنا أقرأ صفحة «لغويات» فى عدد مايو الماضى من الهلال ، فقد جاء فى هذه الصفحة «توفى فلان إلى رحمة الله فهو «مُتوفًى» بضم الميم وفتح التاء والواو وتشديد الفاء المفتوحة وتنوين الحرف الأخير . وهذا من بديهيات اللغة التى كانت معروفة عند الصحف المصرية والعربية ، ولكن إحدى الصحف المصرية الكبرى كتبت فى صفحتها الأولى منذ أسابيع كلمة «مُتوفٍ» بكسر الفاء وتنوينها بدلا من «متوفى» التى بيناها ، فكأنما أحدث الرجل الوفاة بنفسه ، ولم يتوفه الله تعالى !» .

وهذا الكلام صواب ، ولكنه ليس الصواب الذى لا صواب غيره ، ولأهل العلم فى ذلك كلام طريف يصححون فيه الوجه الآخر لذلك الاستعمال الذى يأتى على ألسنة العامة هذه الأيام ، وهو الاستعمال الذى خطأه الكاتب الفاضل ، مع أنه ضارب فى العربية بعروقه ، فإنه يقال : «توفى فلان فهو مُتَوَفٍّ» بفتح التاء والواو والفاء فى الفعل ، وكسر الفاء فى اسم الفاعل ، ويكون المعنى على هذا الضبط أنه استوفى أجله ، واستنفد أيامه فى هذه الحياة الدنيا ، وعلى ذلك جاءت القراءة المروية عن على بن أبى طالب ، وعن المفضل عن عاصم : «والذين يَتَوَفَّوْنَ منكم ويذرون أزواجاً» – سورة البقرة ٢٣٤ – بفتح الياء فى «يتوفون» قال ابن مجاهد «ولا يُقرأ بها» . وقال ابن جنى فى المحتسب ١/١٢٥ «هذا الذى أنكره ابن مجاهد عندى مستقيم جائز ، وذلك أنه على حذف المفعول ، أى : والذين يتوفون أيامهم أو أعمارهم أو آجالهم ، كما قال سبحانه : «فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم» و «الذين تتوفاهم الملائكة» وحذف المفعول كثير فى القرآن وفصيح الكلام ، وذلك إذا كان هناك دليل عليه ، قال الله تعالى : «وأُوتِيَتْ من كلّ شىء» أى شيئاً» . انتهى كلام ابن جنى . وقد رُوى أيضا عن الأعمش أنه قرأ قوله تعالى : «ومنكم من يَتَوَفَّى» سورة الحج ٥ – بفتح الياء ، وحكاه أبو حاتم السجستانى ، كما ذكر ابن خالويه فى شواذ القراءات ص ٩٤ . فهذا الذى يجرى على ألسنة العامة ليس خطأ محضاً ، وإن لم يكن هو الأفصح . قال ابن هشام اللخمى : «وإذا كان فى الكلمة لغتان وكانت إحداهما أفصح من الأخرى فكيف تُلَحَّن بها العامة وقد نطقت بها العرب ، وإنما تُلَحَّن العامة بما لم يُتكلم به» .

على أن هذا التوجيه الذى يُسوغ استعمال «تَوَفَّى» مبنيا للفاعل لا ينبغى أن يُقبلَ إلا من عارف به مُطيقٍ لوجه الكتابة فيه . قال الإمام السكاكى فى مفتاح العلوم ص ٩٨ «فإن جوهر الكلام البليغ مثله مثل الدرة الثمينة ، لا ترى درجتها تعلو ولا قيمتها تغلو ، ما لم يكن المستخرج لها بصيراً بشأنها ، والراغب فيها خبيرا بمكانها ، وثمن الكلام أن يوفى من أبلغ الإصغاء وأحسن الاستماع حقه ، وأن يتلقى من القبول له والاهتزاز بأكمل ما استحقه ، ولا يقع ذلك ما لم يكن السامع عالماً بجهات حسن الكلام معتقداً بأن المتكلم تعمدها فى تركيبه للكلام عن علم منه ، فإن السامع إذا جهلها لم يُميز بينه وبين ما دونه ، وربما أنكره ، وكذلك إذا أساء بالمتكلم اعتقاده ربما نسبه فى تركيبه ذاك إلى الخطأ ، وأنزل كلامه منزلة

ما يليق به من الدرجة النازلة ، ومما يشهد لك بهذا ما يروى عن على رضى الله عنه أنه كان يشيع جنازة فقال له قائل : من المتوفى ؟ بلفظ اسم الفاعل ، سائلا عن المتوفى . فلم يقل : فلان ، بل قال : الله ، ردا لكلامه عليه مخطئاً إياه ، منبهاً له بذلك على أنه كان يجب أن يقول : من المتوفَّى ، بلفظ اسم المفعول .. وما فعل ذلك كرم الله الله وجهه إلا لأنه عرف من السائل إنه ما أورد لفظ «المتوفِّى» على الوجه الذى يكسوه جزالة فى المعنى وفخامة فى الإيراد ، وهو وجه القراءة المنسوبة إليه «والذين يَتَوَفَّوْن منكم ويذرون أزواجاً» بلفظ بناء الفعل للفاعل ، من إرادته معنى : والذين يستوفون مُدَدَ أعمارهم» .

قضية لغوية

وهذا الذى رأيته من تسويغ «تَوَفَّى» وإخراجه من دائرة الخطأ المحض يقودنا إلى قضية لغوية كبيرة شغلت اللغويين قديماً وحديثاً ، وهى قضية التصويب اللغوى ، وقد بدأ التصنيف فيها مواكباً لجمع اللغة وتدوينها ، على نحو ما نرى عند الكسائى (١٨٩هـ) فى الكتاب المنسوب إليه «ما تلحن فيه العامة» . وتحت هذا العنوان كتب كثير من علماء اللغة الأوائل ، مثل الفراء (٢٠٧هـ) وأبى عبيدة (٢١٠هـ) والأصمعى (٢١٦هـ) ومن فى طبقتهم ومن جاء بعدهم ، بل إن حركة التصحيح اللغوى هذه قد شارك فيها بعض علماء الترك فى الدولة العثمانية الذين اتخذوا العربية قلماً ولساناً ، فرأينا ابن كمال باشا (٩٤٠هـ) يؤلف كتابه «التنبيه على غلط الجاهل والنبيه» ثم جاء على بن بالى القسطنطينى (٩٩٢هـ) فصنف كتابه «خير الكلام عن أغلاط العوام» .

ومعلوم أن حركة التصحيح اللغوى قد تغيت غاية كبيرة ، هى المحافظة على سلامة اللغة ، فى أصواتها ومفرداتها وتراكيبها وإعرابها ودلالة ألفاظها . ومعلوم أيضا أن التنبه للخطأ اللغوى قديم ، وأن محاصرته والتوقى منه مما جاءت به السُّنة والأثر ، فقد رُوى أن رجلا لحن بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : «أرشدوا أخاكم» ويروى عنه عليه السلام أنه قال : «أنا من قريش ونشأت فى بنى سعد ، فأنَّى لى اللحن ؟» . وقال أبو بكر رضى الله عنه : «لأن أقرأ فأُسقط أحب إلىّ من أن أقرأ فألحن» . وكتب كاتبٌ لأبى موسى الأشعرى إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنهما : «من أبو موسى» فكتب إليه عمر : «أما بعد فاضرب كاتبك سوطاً واحدا وأخِّر عطاءه - أى راتبه - سنة» .

ومن أصدق وأدق ما قيل فى استنكار اللحن واستبشاعه ما رُوى عن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه «إن الرجل لَيُكلمنى فى الحاجة يستوجبها فيلحن فأردُّه عنها ، وكأنى أقضم حَبَّ الرمان الحامض ، لبغضى استماع اللحن ، ويكلمنى آخرُ فى الحاجة لايستوجبها فيُعرب - أى يتكلم

كلاماً صحيحاً – فلجيبه إليها ، التذاذاً لما أسمع من كلامه» . وروى عنه أيضاً أنه قال : «أكاد أضرس إذا سمعت اللحن» ، وقال عبد الملك بن مروان : «اللحن فى الكلام أقبح من الجُدرى فى الوجه» .

وينتهى عصر الراشدين واللسان العربى لا يزال صحيحا محروساً لم يتداخله الخلل ولم يتطرق إليه الزلل ، وتأتى الدولة الأموية ، ومن بعدها العباسية ، وتكثر الفتوح ويدخل الناس فى دين الله أفواجا ، فتختلط الألسنة ، وتتداخل الأصوات واللهجات ، ويستعمل العربى ما لابُد له منه فى الحوار والخطاب اليومى ، من أجنبى ودخيل ، فيضاف إلى عامل «اللحن» القديم عامل آخر ، هو هذا الدخيل ، فينهض له علماء اللغة ، فتكثر الجهود والتصانيف فى حركة التنقية اللغوية .

وفى عصرنا الحديث يطرأ عامل ثالث : هو الاستخفاف باللغة والنحو والصرف ، وإشاعة أن الاحتفال بمثل هذه العلوم مضيعة للوقت والجهد الذى ينبغى أن يُصرف إلى الفكر وحده ، ثم ظهرت بدعة «التفكير الموضوعى» الذى يرفض الاحتفال بهذه الشكليات من حركات الإعراب وأبنية الأسماء والأفعال ، والرسم «الإملاء» ، ثم يكون التخليط فى هذه القواعد والضوابط سمة من سمات التحرر والانعتاق من ربقة التخلف وأكفان الموتى ورمائم القبور !

ويفزع لهذه الفاشية طائفة من علماء اللغة والنحو المحدثين ، فيتصدون لهذا الانحراف عن سنَن العربية ، فيما عُرف بالتأليف فى الأخطاء الشائعة . ومن أبرز ما كتب فيها «لغة الجرائد» لإبراهيم اليازجى ، التى نشرها مقالات فى مجلة الضياء التى أنشأها بمصر سنة ١٨٩٨م ، و«حول الغلط والفصيح على ألسنة الكتاب» لأحمد أبى الخضر منسى . و«تذكرة الكاتب» لأسعد خليل داغر . و«أخطاؤنا فى الصحف والدواوين» لصلاح الدين سعدى الزعبلاوى . و«الكتابة الصحيحة» لزهدى جار الله . ثم كتب العلامة النحوى الشيخ محمد على النجار عدة مقالات فى مجلة الأزهر ، باسم «لغويات» نشرها بعد ذلك مجموعة بمعهد الدراسات العربية بجامعة الدول العربية . وكتب العالم العراقى الدكتور مصطفى جواد عدة مقالات أيضا بمجلة عالم الغد البغدادية ، بعنوان «قل ولا تقل» نشرها بعد ذلك فى كتاب ، إضافة إلى ما ذكره فى كتابه : «مباحث لغوية فى العراق» .

على أن هذه الجهود التى بُذلت فى التنقية اللغوية وتصحيح اللسان العربى ، قد تعرضت فى القديم والحديث لحركة نقدية واسعة ، تبعاً لمقياس الصواب اللغوى وعلى أى صورة يكون ؟ وهل يقتصر القياس على المشهور الشائع دون القليل النادر كما يرى البصريون ، أم

يقاس على الشاهد الواحد والشاهدين ، كما يقول الكوفيون ؟ وهل نقف عند أفصح اللغات ونُلغى ما سواها ، أم نجعل الشاذ والفصيح واحداً ؟ وقد كان بعض اللغويين يتشدد ويحكم بالخطأ على ما لم يكن فصيحا وإن جاءت به لهجة من لهجات العرب ولو كانت ضعيفة ، وكذلك يعد صحيحاً كل ما رواه لغوى ولو كان منفرداً بروايته . ولعل أعدل منهج في القبول والرد هو ما أثر عن أبي عمرو بن العلاء ، وقال له أحدهم : «أخبرني عما وضعت مما سميته عربية ، أيدخل فيها كلام العرب كله ؟ فقال : لا ، فقال : كيف تصنع فيما خالفك فيه العرب وهم حجة ؟ قال : أعمل على الأكثر ، وأسمى ما خالفني لغات» . فهذا منهج يقوم على اعتبار الأكثر ، وعدم إنكار الأقل ، فهو يقبله ولكنه يضعه في دائرة اللغات . واللغات عندهم تعنى ما نسميه نحن الآن : لهجات .

ومن أشهر كتب نقد مؤلفات التصحيح اللغوى قديما : ما صنفه ابن هشام اللخمى الإشبيلى (٥٧٧هـ) فقد ألف كتابه : المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان» وعرض فيه بالنقد لكتابين تقدماه في لحن العامة : هما لحن العامة ، لأبى بكر الزبيدى الإشبيلى (٣٧٩هـ) وتثقيف اللسان وتلقيح الجنان ، لابن مكى الصقلى (٥٠١ هـ) . وقد ذكر ابن هشام أن الزبيدى «تعسف على عامة زمانه في بعض الألفاظ، وأنحى عليهم بالإغلاظ ، وخطأهم فيما استعمل فيه وجهان وللعرب فيه لغتان» وأن ابن مكى الصقلى أنكر على العامة ما يحتمل التأويل أو يكون عليه من كلام العرب دليل» .

لغة الجرائد

وفى عصرنا الحديث أيضا تعرض مؤلفو الأخطاء الشائعة إلى كثير من النقد والمراجعة ، ومن ذلك ما كُتب من نقد حول «لغة الجرائد» لليازجى ، وما أثير حول «قل ولا تقل» لمصطفى جواد . وقد دارت معظم هذه النقود والتعقيبات حول معيار الحكم بالخطأ والصواب على هذا الاستعمال أو ذاك . ويكشف عن اختلاف معايير الحكم بالخطأ والصواب هذان المثالان : خطأ أبو بكر الزُّبيدى العامة فى قولهم : امرأة سكرانة ، وبين أن الصواب : سكرى ، ثم ذكر أن بنى أسد كانوا يقولون : سكرانة . فرد عليه ابن هشام اللخمى : «فإذا قالها قوم من بنى أسد ، فكيف تُلحن بها العامة ، وإن كانت لغة ضعيفة ، وهم قد نطقوا بها كما نطقت بعض قبائل العرب» . ورُوى عن ابى عثمان المازنى أنه قال : «دخلت بغداد فألقيت على مسائل ، فكنت أجيب فيها على مذهبى ، ويخطئوننى على مذهبهم» مغنى اللبيب (مبحث إذا) .

على أن أعظم ما تعرض له الذين كتبوا فى التصحيح اللغوى فى القديم

والحديث : هو التسرع وعدم الاستقصاء والتحرى ، والوقوف عند حدود القاعدة اللغوية والنحوية ، دون التفات إلى المسموع والمأثور المتناثر في كتب العربية على اختلاف علومها وفنونها ، فالمعاجم على تنوعها واتساع بعضها لم تُحص اللغة كلها ، وآية ذلك ما تراه في فهارس أئمة تحقيق النصوص ، من تلك الألفاظ والتراكيب التي جاءت في أشعار العرب وكلام أهل العلم من السابقين الأولين ، مما لم يُذكر في المعاجم اللغوية المتداولة ، ومن ذلك ما ذكره شيخنا محمود محمد شاكر بآخر طبقات فحول الشعراء باسم «ألفاظ من اللغة أخلت بها المعاجم أو قصرت في بيانها» .

وما تراه في فهارس أستاذنا عبد السلام هارون رحمه الله ، للبيان والتبيين ، والأصمعيات والمفضليات ومقاييس اللغة .

وليس غريبا أن تغيب بعض الألفاظ والتراكيب عن معاجمنا اللغوية ، فإن لغتنا العربية أوسع من أن تحيط بها المعاجم وحدها ، وقد قال الإمام الشافعي : «ولسان العرب أوسع الألسنة مذهبا وأكثرها ألفاظا ، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي» . وعلى هذا فإن اللغة ينبغي أن تُلتمس من كتب العربية كلها ، لأنك واجد في كتب التفسير والحديث والفقه وأصوله وعلم الكلام والأدب والبلاغة والتاريخ والجغرافية وسائر فنون التراث ، من اللغة ما لا تجد بعضه في كتبها المصنفة فيها المقصورة عليها ، وذلك لأن العربية كتاب واحد .

وإذ قد ثبت هذا - إن شاء الله - فإنه من الواجب على من يتصدى للتصحيح اللغوى أن يتحلى بالأناة والتوقف والصبر ، وألا يهجم على التخطئة دون سند قوى وحُجة غالبة .

نماذج

ولقد كنت عُنيت في مطالع الشباب بتلك الكتب المصنفة في اللحن والأخطاء الشائعة ، وكنت أحفظ منها مسائل ذوات عدد ، أديرها على لساني في مجالس المذاكرة والمطارحة ، مزهوا بما أحفظ ، إذ كان عندي هو الصواب الذي لا صواب غيره ، وحين أذن الله - وهو الذي بيده الخير كله - أن أتصل بما كتبه أهل العلم في كتب العربية ، وبخاصة شروح الشعر وغريب القرآن والحديث ، والأمالي والمجالس ، وكتب التراجم والطبقات ، ووقفت على تصرف أهل البيان في الأبنية والألفاظ والتراكيب ، وحين تم لي ذلك - على ضعفي وقلة حيلتي - أيقنت أن ليس الطريق هنالك ، وأن التخطئة والتصويب لا يُصار إليهما إلا بعد عناء وجهد ، لأن الأفق رحب والمدى واسع ، والشوط بعيد ، وبخاصـــة أننـــا في زمن انقطعت دونه الرواية ، وغاب الأشياخ ، فأوصد بغيابهم باب ضخم من أبواب العلم ، لأننا أبناء أمة قام تراثها على الرواية والتلقي والمشافهة

والتوقيف ، والكتب وحدها لا تصنع عالماً ، وقد قال أبو الفتح بن جنى فيما وقع له من كلام شيخه أبى على الفارسى : «ومثل هذه المواضع يُحتاج مع الكتب إلى الأستاذين» – شرح تصريف المازنى ٢١٠/١ – وقال ابن قيم الجوزية : «ومثل هذه الفوائد التى لا تكاد توجد فى الكتب يُحتاج إلى مجالسة الشيوخ والعلماء» بدائع الفوائد ١٠١/١ وإذ قد وضح لى بعض الطريق جمعت طائفة من تلك الألفاظ والتراكيب التى خطّأها الناس ، ورأيت صوابها أو استعمالها عند بعض أهل العلم قديما ، واكتفى من ذلك هنا ببعض النماذج التى تمهد لما أردته من ضرورة التحرى والمراجعة أمام كل تخطئة أو تضعيف :

١– يُخطئ بعضهم استعمال «النفس» فى غير التوكيد ، يريدون أنك تقول : «الشئ نفسه ، ولا تقول : نفس الشئ» وقد وجدت استعمال هذا الذى يخطئونه فى كتاب سيبويه ٢٦٦/١ – وحسبك به – وذلك قوله : «وتجرى هذه الأشياء التى هى على ما يستخفون بمنزلة ما يحذفون من نفس الكلام» وقوله أيضا فى ٣٧٩/٢ «وذلك قولك : نزلتُ بنفس الجبل ، ونفس الجبل مقابلى» ، وقال الجاحظ فى الحيوان ٧٦/١ «ولابد للترجمان من أن يكون بيانه فى نفس الترجمة فى وزن علمه فى نفس المعرفة» . وقال ابن جنى فى الخصائص ٣٤٨/١ «وإنما جاز ذلك فى هذا الموضع لا لشئ رجع إلى نفس «أو» بل لقرينة انضمت من جهة المعنى إلى أو» . وقال المرزوقى فى شرح الحماسة ص ٨٩٢ « وأشار بقوله الأبد إلى نفس الدهر» . بل إن هذا الاستعمال قد ورد عند من هو أقدم من هؤلاء جميعا ، وهو الخليل بن أحمد ، شيخ العربية وشيخ سيبويه ، وذلك قوله فى كتاب العين ١١٧/٨ «والترياء : نفس التراب» .

٢– يُخطئ بعض النحويين استعمال «قد لايكون» لأن «قد» لا تدخل على النفى ، والصواب أن يقال : «ربما لا يكون» . وقد وجدته فى كلام لابن جنى ، قال فى الخصائص ٢٠/١ «كما أن القول قد لا يتم معناه إلا بغيره» وفى كلام المرزوقى ، قال فى شرح الحماسة ص ٥٧ «والاكتفاء به قد يقع وقد لا يقع» ، ثم وجدته كذلك عند المالقى ، فى كتابه : رصف المبانى فى شرح حروف المعانى ص ٤٥٥ ، قال فى (مبحث قد) «إن نفيت فقلت قد لا يقوم ، توقعت العدمَ» .

٣– يرى بعضهم أن كلمة «مجاناً» مبتذلة وغير فصيحة وتوشك أن تكون عامية ، وأن الصواب أن يستعمل مكانها «بدون مقابل» ونحوه ، وقد رأيتها عند ابن فارس ، فى مقاييس اللغة ٢٩٩/٥ ، قال : «والمجان : هو عطية الرجل شيئا بلا ثمن» ، وقد استعملها ابن خلدون فى مقدمته ص ٥٥٧ ، قال : «فليست اللغات وملكاتها

مجاناه .

٤- يستسقط بعضهم تركيب «عبارة عن كذا» وقد رأيتُه فى كلام ابن جنى ، قال فى كتابه الخاطريات ص ٥٨ «ويؤكد ذلك أن لفظ الجبال قد وضع عبارة عما لا تُدركه المعاينة» . وقد رأيت هذا التركيب كثيرا فى كلام الفقهاء ، وكُتُب التعريفات .

٥- منع بعض النحويين دخول «أل» على «بعض» ، فلا يجوز أن تقول : أحبوا بعضهم البعض ، وإنما تقول : أحب بعضهم بعضاً . وقد أدخل سيبويه «أل» على بعض ، وذلك قوله فى الكتاب ٥١/١ «وربما قالوا فى بعض الكلام : ذهبت بعض أصابعه ، وإنما أنث البعض لأنه أضافه إلى مؤنث هو منه» . وكذلك صنع ابن جنى فى الخصائص ٦٤/١ ، قال : «فلما كان الأمر كذلك واقتضت الصورة رفض البعض واستعمال البعض» ، وكذلك استعملها ثلاث مرات فى الخصائص ٣٢٤/٣ ، ومن قبل سيبويه وابن جنى دخلت «أل» على «بعض» فى الشعر الجاهلى ، وذلك قول المرقش الأصغر ، فى إحدى رواياته ، يصف فرسه :

شـــهدتُ بــه عن غـارة مُســـبطرة

يطاعن بعض القوم والبعض طوَّحوا

٦- وكذلك منع بعضهم دخول «أل» على «غير» ، لكنى وجدتها فى ديوان المعانى لأبى هلال العسكرى ٩٨/٢ ، وكتاب الهوامل والشوامل ، لأبى حيان التوحيدى ومسكويه ص١١٧ ، ثم رأيتها قديماً فى كلام لصاحب القاموس فى موضع غاب عنى الآن .

٧- يخطئ بعضهم استعمال الفعل «ساهم» بمعنى «شارك» على أساس أنه لم يأت فى المعاجم إلا : ساهم فلان القوم : أى دخل معهم فى القرعة فقرعهم وغالبهم لكنه قد جاء بمعنى «شارك» فى شعر ينسب لزهير ولأبى الأسود الدؤلى ، وهو قوله :

أبا ثابت ساهمت فى الحزم أهله

فرأيك محمـــود وعهـــدك دائم

وعلى ذلك جاء فى المعجم الوسيط ، الذى أصـــدره مجمـــع اللغـة العـــربية بالقـــاهرة .

وهكذا تتبين صدق كلمة الأصمعى السابقة «من عرف كلام العرب لم يكد يُلحن أحداً» .

لكن هذه الكلمة على صدقها لا ينبغى أن تُتخذ سبيلا للفوضى اللغوية أو الحرية فى استعمال ما نشاء ، وارتكاب الضرورات والمحظورات اللغوية ، بدعوى أن من الأوائل من ارتكب الضرورة واستعمل الشاذ ، ثم بزعم أننا يجب أن نرفع العوائق ونحطم الحواجز أمام الإبداع والمبدعين ... ولهذا وأشباهه حديث آخر ..



رسالة

قالت الوعدُ؟ إنه مستحيلُ ∴ قلتُ: هذا الدلالُ منك دليلُ

ملء ساقيك غنج وعد لطيف ∴ يتعب الحلك الهوى ويميل

تحت إبطيك خلوة .. تتقي ∴ أيها الآكلُ استترى المأكولُ

وبعينيك واديان .. لماذا ∴ لك في الواديين صمت طويل

خصلة فوق خصلة فوق رأس ∴ هو أشهى الرؤوس حين يميلُ

وتجاهلت أنّ قلبي حقلٌ ∴ ربما تُنبت القلوب حقولُ

يتعالى بلفتة .. منك طيرٌ ∴ عبقري بين الطيور أصيلُ

شجر الحب أخضر اللون ينمو ∴ كل يوم .. لايعتريه الذبولُ

فاكتبي لي سطراً بخمس لغاتٍ ∴ ليس يدري بما كتبت الرسولُ

من حروف لم تنقرض ورموزٍ ∴ أنا – أنت – الوجود – نحن – الشمولُ

وإذا ضجت الورود .. وحارت ∴ واعتراها بين الزوايا ذهولُ



شعر : سليم الرافعى

فانظرى مرة إلى الشرق عفواً .·. وانشقيه .. ففى السماء كحولُ
وإذا ما سكرت من لكبريات .·. جاز فيها التسليمُ والتأويلُ
فأعيدى الحياة .. شرقاً وغرباً .·. لك [illegible] كبرياء تسيلُ
عبق الكون من لحاظ وشبت .·. روضةٌ بعد روضة ونخيلُ
كل شىء يصطنع .. كل إنسان .·. ومكان كل الفروع أصول
من لقاء يبنى الوجودُ ويهوى .·. صنم الشك منه أو يستقيلُ
أيها البلبلُ احتواك فضاءٌ .·. ممطر .. ملهم .. كريم .. بخيلُ
فى زواياه وعدها .. وشموس .·. ونجوم .. وثغرها المعسولُ

.. ..·. .. ..

وإذا قلت لى : أعدْ .. سأغنى .·. أيها النبل .. هل يصدُّ النبيلُ؟

سينما

مهمة فى تل أبيب وأخرى فى الخليج

بقلم : مصطفى درويش

منذ منتصف السبعينات ، وبالتحديد منذ ظهور «نادية الجندى» فى «بمبة كشر» (١٩٧٤) ، ونجمها فى صعود . وهى الآن ، وكما يحلو لها أن تسمى نفسها فى أى اعلان عن أفلامها ، نجمة الجماهير ، بلا جدال .

ومما لوحظ أخيرا ، أنه ، ومنذ «جبروت إمرأة» أى قبل ثلاثة أعوام أو يزيد ، وأفلامها تزداد عنفا ، وانفصالا عن الواقع .

و«مهمة فى تل أبيب» فيلمها الأخير يؤكد ذلك الانفصال بشكل قاطع .

وعلى كل ، فأول مايسترعى الانتباه فى ذلك الفيلم ، بدءا من العناوين ، هو إسناد بطولة الرجال فيه «لمحمد مختار» زوج نجمة الجماهير ، ومنتج أفلامها على امتداد عقد من عمر الزمان .

وما أن تنتهى العناوين بسلام ، حتى تظهر النجمة فى لباس غريب ، وهى تقول لسفير مصر فى باريس إنها جاءت إليه لأمر مهم وخطير .

وسرعان ماتعترف أمام سيادته ، ولسانه منعقد من هول مايسمع ، إنها جاسوسة نباحة للرجال ، تعمل لحساب مخابرات إسرائيل «الموساد» ، وتريد بعد أن تابت وأنابت أن تعود إلى أرض الوطن العزيز ، حيث ابنها الوحيد .

وعقب مشهد اللقاء هذا ، يسرع سيادة



أبطال حرب
الخليج في
«طلقات حارة»

السفير بإبلاغ المخابرات المصرية التى تسرع هى الأخرى بإرسال أحد رجالها الأشداء للالتقاء بالجاسوسة الحسناء .

وتشاء المصادفة البحتة أن يكون الرجل الذى وقع عليه الاختيار لهذه المهمة الصعبة والجليلة فى آن واحد ، ليس إلا «محمد مختار» زوج ومنتج أفلام نجمة الجماهير .

وطبعا يتم اللقاء بين الاثنين فى برج ايفيل ، حتى يفهم من لم يستطع أن يفهم بعد ، أن الكاميرا إنما تصورهما حقيقة وليست وهْما ، وهُما فى عاصمة الفرنسيس .

وتنتقل الأحداث بالنجمة ، ومايدور فى فلكها من رجال الحرب إلى الكومبارس منهم إلى أى شىء آخر ، بين مدن باريس والقاهرة وبروكسل وتل أبيب والقدس ومطار لارنكا وأحراش جمهورية اسمها «بادنجو» بغرب أفريقيا .

الواقع والحقيقة

غير أننا بفضل إمعان النظر فى اللقطات ، نكتشف أن مطار بروكسل ليس إلا مطار باريس ، وأن كنيسة القدس حيث التقت نجمة الجماهير بأحد رجال الدين الفلسطينيين المنخرطين فى صفوف مقاومة الاحتلال ، هى فى حقيقة الأمر كنيسة الدير المعلق «العذراء» بمصر القديمة ، وأن الفندق حيث قامت بإغراء اكبر رأس فى هيئة أركان حرب الجيش الاسرائيلى ، إن هو إلا فندق «سياج» القريب من سفح أهرام الفراعين ، وأن المطعم الذى تسلمت من صاحبه ، بعد أن أفضت له بكلمة السر «خالتى بتسلم عليك» ، مفاتيح هيئة الأركان الاسرائيلية ، مما اتاح لها الدخول فى قدس اقداسها ، ومن ثم الاستيلاء على خطة بنى اسرائيل الحربية بالكامل ، ذلك المطعم ليس فى اورشليم ، وإنما فى القاهرة وبالتحديد مدينة المهندسين حيث تنتشر المطاعم كعش الغراب .

حديث الباذنجان

أما جمهورية بادنجو فليس لها وجود إلا فى مخيلة صانعى «مهمة فى تل أبيب» .

والأكثر غرابة من ذلك كله ، غلاف مجلة «باريس ماتش» الموضوعة على المنضدة أمام نادية الجندى فى إحدى اللقطات تأكيدا من صانعى الفيلم لوجودها فى باريس فالعناوين على ذلك الغلاف عن موت ملك الصحافة «ماكسويل» الذى وجدت جثته فى اليم بالقرب من يخته الفخم ، وأزمة الجزائر مع غلاة السلفيين ، وكلاهما من أحداث شتاء ١٩٩١ ، وليس شتاء ١٩٧٣ ، حيث تجرى وقائع الفيلم كما قيل لنا فى أولى اللقطات .

الحية الرقطاء

ومع ذلك فهذه الأخطاء التى ترجع عادة إلى اهمال المخرج وهو فى هذه الحالة «نادر جلال» ، تهون أمام تصوير الفيلم لرجال المخابرات الاسرائيلية ، بلهاء

أغبياء ، يسيل منهم اللعاب ما إن تتلوى وتتثنى أمام أعينهم الشامتة ، حتى يفرطون فى كل شىء ، بما فى ذلك أسرار أمنهم العسكرى فى مواجهة الأعداء .

إذ لو كان الاسرائيليون بمثل هذه البلاهة ، وبمثل هذا الغباء والاشتهاء لجسد النساء البيض ، فبماذا تفسر حروب العرب الخمس ضدهم على امتداد خمسين عاما إلا قليلا ؟! .

وبماذا يفسر بقاء اسرائيل حية رقطاء حتى تاريخ انتهاء «بشير الديك» صاحب «ناجى العلى» من كتابة سيناريو «مهمة فى تل أبيب» ، ومن بعد ذلك ظهوره بلحمه ودمه فى أحد مشاهد الفيلم يؤدى دور مناضل فلسطينى «أبو شيماء» .

تشويه الصورة

ففى هذا المشهد تدعى «نادية الجندى» أن ساقها التوت .

ويبدأ «الديك» بتدليك قدمها ، ومن يقول لها «هون» فتجيبه بصوت يقطر إغراء «لافرق» وتتسع ابتسامة «الديك» ، أسف المناضل الفلسطينى ، ثم يصعد بأصابعه متسائلا «هون» فتزداد لاءاتها اغراء ، ويزداد هو إقداما .

(يلاحظ هنا أن مخرج الفيلم ظهر هو الآخر فى احدى اللقطات متقمصا شخصية مناضل فلسطينى يسيل على نجمة الجماهير) ومن غرائب الفيلم الأخرى أنه يقول من بين مايقول إن نجمة الجماهير فى عمر الزهور، لها ابن صغير



نادية الجندى فى مهمة تل أبيب

ليس له من العمر إلا ست سنوات . وأنها ماخانت مصر ، إلا لأنها توهمت أن حكامها قتلوا زوجها الطيار غدرا ، لثورته على الفساد الذى أدى بالبلاد إلى هزيمة نكراء .

وأنها ماعادت إلى حب مصر إلا بعد أن سمعت فى اجتماع حاشد بباريس قصيدة لصلاح جاهين «ورق .. ورق» عن أطفال مدرسة بحر البقر الذين قتلتهم قنبلة اسرائيلية فى إحدى الغارات الوحشية ؛ فكان أن تذكرت مصر المنسية، و«تامر» إبنها الوحيد .

وغنى عن البيان أن كل ذلك مما يدخل

فى باب الهراء ، ولا أقول ... الخليط المحطم للقلوب .

والحق ، أنه لو كانت الأشياء تسمى بمسمياتها الحقيقية ، لكان الأولى بفيلم نجمة الجماهير الأخير أن يسمى « مهمة فى القاهرة » بدلا من « مهمة فى تل أبيب » فالفيلم ليس له مهمة فى واقع الأمر ، سوى تحقيق أعلى الايرادات فى الشباك ، وذلك باستغلال اختلاط الحابل بالنابل ، واستباحة كل شىء بلا خشية أو حياء والآن من هراء المهمة الناجحة التى قامت بها نجمة الجماهير فى « تل أبيب » ، أو بمعنى أصح فى القاهرة ، انتقل إلى الخليج .

كما لم نر « تل أبيب » فى أى مشهد من مشاهد فيلم نجمة الجماهير ، فإنه لم تتح لنا فرصة أن نرى الخليج العربى ، ولو فى لقطة واحـــدة من الفيلم الأمريكى « طلقات حارة » لمخرج «جيم ابراهامز» ، وهو أحد أفراد الثلاثى المكون منه ومن الأخوين «زوكـــر» ، والمعروف تحـت اسم « زاز »

يوم الحساب

ولقد شاءت الأقدار لفيلم آخر مخرجه واحد من هذا الثلاثى «دافيد زوكر» ، وهو البندقية العارية جزء ثان ونصف ، رائحة الخوف ، وشاءت له أن يعرض فى القاهرة مع «طلقات حارة» فى وقت واحد وكلا الفيلمين معاد لإدارة الرئيس «جورج بوش » .

وكلاهما قصد به ، فى أغلب الظن أن يلعب دورا فى حملة الانتخابات الرئاسية الامريكية التى تشتد ضراوة كلما اقترب يوم الادلاء بالاصوات فى صناديق الاقتراع وكلاهما من ذلك النوع الفكاهى المرح الساخر سخرية لاذعة لاتقيم وزنا لاى مقام و لأى اعتبار .

والبندقية العارية « جزء ثان ونصفـه ، والحق يقال لم يترك كبيرة ، ولاصغيرة فى المجتمع الامريكى حتى أعلى المستويات ، بما فى ذلك البيت الأبيض وسيدته الأولى جدة الامريكيين ، إلا وسخر منها على وجه غير مسبوق — حتى فى أكثر أفلام مصنع

ليزلى نيلسن فى البندقية العـــارية جزء ثان ونصف



الاحلام جراة ، ولا أقول تطاولا ولاغرابة في هذا ، فمبدعه «دافيد زوكور» واحد من تلك الفئة القليلة من المخرجين التى تستطيع أن تجعل المتفرج يستلقى على قفاه من الضحك ، وأن تفعل ذلك بغير مبالغة وإسفاف ، بل وأن تسمو بالاضحاك إلى مستوى فنى رفيع .

وفوق كل هذا يدور الفيلم حول مشكلة اجتماعية تؤرق الناس .

التلوث .. لماذا ؟

وتلك المشكلة فى «البندقية العارية» هى التلوث الناجم عن استمرار استعمال النفط وقودا للسيارات .

هذا إلى وجود جماعات ضغط قوية ، يصل نفوذها إلى أهل القمة ، من مصلحتها وقف التقدم بالحيلولة دون استغلال الكهرباء فى تحريك جميع وسائل الانتقال .

والغريب من أمر هذا الفيلم أنه ، ورغم إسناد بطولته إلى «بريتشيللا بريسلى» زوجة « ألفيس بريسلى » المغنى الراحل الذائع الصيت .

و« لزلى نيلسن» الممثل المرح الذى ما أن يظهر على الشاشة ، حتى يشيع البهجة فى القلوب .

ورغم إسناد الادوار الثانوية إلى كوكبة من كبار الممثلين اذكر من بينهم «جورج كيندى» الفائز بأوسكار أفضل ممثل مساعد قبل خمسة وعشرين عاما (١٩٦٧) والممثل الانجليزى والشكسبيرى البدين «ريتشارد جريفيث» الذى قام بأداء دورى العالم الخيِّر والمجرم الشرير ، ومع ذلك لم يمنح عن الدورين إلا اجرا واحدا !! .

فالفيلم رغم كل ذلك ، لم يحقق فى القاهرة نجاحا . والأكثر غرابة أن فيلم «طلقات حارقة» ، وهو لايختلف عنه فى قليل أو كثير ، قد حقق نجاحا منقطع النظير .

خيانات وبطولات

ومهما يكن من الأمر فإذا كان «البندقية العارية» يسخر من أعلى سلطة فى أمريكا ، وبمناسبة النفط المفسد للبيئة والنفوس ، فإن «طلقات حارقة» هو الآخر يسخر من أعلى سلطة ، ولكن فى القوات المسلحة ، وبالتحديد سلاح الطيران .

وأحداثه تدور قبل حرب الخليج بقليل ، بل بعضها ، والفيلم يقترب من الختام ، يدور على ظهر حاملة طائرات ينطلق منها البطل «شارلى شين» بطائرته الآيلة للسقوط بفعل المخربين فى الادارة الامريكية والبحرية والشركات المتاجرة فى السلاح والارواح .. ينطلق إلى أين ؟

إلى المكان المحدد له فى العراق ، حيث يصيب بصواريخه كل الأهداف فى ثوان معدودات .

وكأن الفيلم يريد بهذا أن يقول إن انتصار أمريكا فى حرب الخليج رغم كل هذا الفساد والتخريب ، إنما سببه شجاعة وتضحية الرجال ، وبالذات فرسان سلاح الطيران .

الناس والقراءة فى الصيف

إنقاذ .. ما يمكن إنقاذه

بقـلـم : محمود قاسم

أصبح الحديث عن علاقة إنسان نهاية القرن العشرين بالقراءة مرنا ، ويتسم بأن هذه العلاقة ذات سمة مطاطية ، خاصة أن القراءة مرتبطة بمتغيرات عديدة منها أذواق الناس وقابليتهم للقراءة ومسائل النشر ووجود وسائل عديدة تلعب أدوارا مؤثرة فى جذب الناس من دنيا القراءة إلى الرؤية والاستماع والتسلية .

ومثل هذه العلاقات تحتاج إلى قياس دورى ودائم لتعكس مدى التغير الذى نراه فى مجتمعاتنا من ناحية ، وفى العالم من ناحية أخرى لأكثر من شهر ، بدأ على المستوى الرسمى المهرجان الصيفى للقراءة للجميع ، وهو فى المقام الأول نشاط موجه للأطفال والشباب باعتبارهم نواة القراءة الأساسية فى المجتمع ولأنهم الأكثر عددا . فحسب الاحصاءات المنشورة أخيرا فإن ٧٥ ٪ من سكان مصر قد ولدوا بعد عام ١٩٦٧ مما يعكس أبعاد المساحة العريضة التى تتجه إليها هذه الأنشطة .

ولسنا هنا بصدد تقييم مهرجان





القراءة للجمهور الذي أقيم في العام الماضي أو التنبؤ بما يمكن أن يحصده مهرجان هذا العام فليس بين أيدينا ما يشير إلى نتائجه بالأرقام والإحصاءات حتى يمكن أن نقيم مصر أو نتوج إحدى الظواهر، وذلك لأن مؤسسة ثقافية واحدة من المؤسسات العديدة التي ساهمت في المهرجان لم تهتم بالقيام بهذا الدور.

نسوق هذه الملاحظة بمناسبة ذلك التحقيق الهام الذي نشرته مجلة «ليريان» الفرنسية في عددها الصادر في ٣٠ مايو الماضي تحت عنوان «انقذوا القراءة». ويهمنا قبل أن نستعرض هذا التحقيق الهام أن نشير إلى أن المجلة السابق الإشارة إليها تعتبر أبرز المجلات السياسية الفرنسية، وفي مثل هذا النوع من المجلات يمكن أن نجد مراجعات للكتب الجديدة وأحدث العروض السينمائية والمسرحية.

وليس غريبا على مجلة سياسية أن تنشر مثل هذا التحقيق عن «انقذوا القراءة» فهي تعتبر مشكلة ثقافية كاملة نبعا من صميم السياسة حيث راحت مجموعة من المحررين والمفكرين يتتبعون أحوال القراءة في بلدان عديدة، ومن خلال زوايا متشابهة.

فللوهلة الأولى يمكن أن نلمس مدى الجدية التي تناولت بها المجلة موضوع



«انقاذ القراءة» فليس القارئ هنا أمام مجموعة من الاراء التى قد تعبر عن أهواء خاصة لا تستند إلى أسس علمية مثلما نرى فى تحقيقات مشابهة فى بعض صحفنا ومجلاتنا ولكن هذا التحقيق يعتمد أساساً على الأرقام والاحصاءات الدقيقة .

القراءة .. أزمة عالمية

أهم ما جاء فى مجلة «لوبوان» هو أن أزمة القراءة قد أصبحت عالمية ولم تعد مقصورة على بلد دون آخر ، وإن كنا نؤكد أن هذه الظاهرة تتفاقم أزمتها فى بلاد الجنوب أكثر من الشمال والمرء أن يتخيل أحوال القراءة فى بلد يمج بأناس تزيد نسبة الأمية بينهم على أكثر من ٧٥ ٪ وترتفع الأمية الثقافية إلى درجة أعلى من هذه الدرجة بكثير ففى التحقيق المشار إليه هناك تأكيد على أن ٧٠ ألفا من الشباب الفرنسيين يتركون الدراسة وهم فى سن السادسة عشرة سنويا ، وهم بالكاد يعرفون القراءة ولاشك فى أن مثل هؤلاء لايستطيعون قراءة الكتب الحقيقية وكل ما يمكنهم عمله هو مشاهدة برامج التليفزيون .

وتقول الاحصاءات أن فى بلد كفرنسا ، يمكن أن يتخذ كمقياس فى ارتفاع نسبة القراءة ، فإن شخصا من كل فرديين يشاهد التليفزيون طيلة ساعات النهار وفى عام ١٩٩٢ شاهد ٣٦٪ من الفرنسيين برامج التليفزيون أكثر من عشرين ساعة إسبوعيا ، بينما كانت هذه النسبة لا تزيد على ٢٣٪ فى العام الماضى وفى احصائية أخرى فإن عدد التلاميذ الذين تضاعف عددهم فى العشرين سنة الأخيرة قد صرحوا بأنهم يقرأون كتابا واحداً فى الشهر ، وهناك احصاءات تقول أن ٢١٪ من القراء كانوا يقرأون أكثر من عشرين كتابا سنويا وأن هذه النسبة قد انخفضت إلى ١٧ ٪ فى عام ١٩٨٩ .

وليست هناك علاقة بين ما يشتريه الناس من كتب ، وبين مايقرأونه فلا شك أن الكثير منا يشترون الكتب ويحتفظون بها دون أن يقرأوها ولديهم النية أن تتيح لهم الظروف أن يحدث ذلك يوما لكن الكثيرين من المؤسسات يهمها أن تنشط حركة بيع الكتاب ، فحسب احصائية حول إحدى المكتبات بباريس فإن عدد المترددين عليها يوميا يصل إلى ثلاثة عشر ألف شخص أى ما يعادل أربعة ملايين فى السنة وقد دفع هذا بوزير الثقافة الفرنسى جاك لانج إلى إقامة مهرجان ضخم تحت اسم «حمى القراءة» بدأ فى عام ١٩٨٩ وقد ساعد هذا المهرجان فعلا على

ارتفاع نسبة شراء الكتب لكن بينما الأمور تتحسن فإن انخفاض أسعار أشرطة الفيديو كان كفيلا أن يشكل تهديداً للمشروع بأكمله .

الكتب أرخص .. من السينما

ولاشك أن تطور صناعة الوسائل المرئية قد لعب دوراً فى منافسة الكتاب ليس فقط فيما يتعلق بالقراءة بل أيضا فيما يخص الشراء ، فقد كانت نسبة الأشخاص الذين اشتركوا فى القنوات الخاصة عام ١٩٧٣ تبلغ ٨٪ ارتفعت هذا العام إلى ٥٦٪ ، وقد أثر هذا بالتالى على علاقة النشء والشباب بالقراءة ، هؤلاء الذين وجدوا أنفسهم أمام نوع جديد من المنافسة ، حيث إنه سرعان ما ابتعدوا حتى عن التليفزيون ، الذى أصبح وسيلة تقليدية ، كى يتحولوا إلى منافس جديد يسمى بألعاب الفيديو .

وهناك دائما أطروحة يطرحها الناس كلما ناقشت مسألة القراءة ألا وهى أسعار الكتب العالية ، والجواب فى أغلب الأحوال موجود لدى الناشرين الذين يرون أن سعر الكثير من الكتب أقل الآن كثيرا عن أسعار تذاكر السينما ، أما الكتب الغالية حقا فإنها تقارب سعر ثلاث تذاكر .. وغالبا ماينظر هؤلاء الناشرون إلى الأمر بمنظور رقمى فهم ينشرون الكتاب الذى يعرفون أن القارئ سوف يدفع فيها الثمن المطلوب مهما كان مرتفعا .





الرعب فوق سلم المبيعات

إذا كانت هذه بعض ملامح الصورة فى فرنسا ، فماذا عن بلاد أخرى ؟

حسب ما تقول مجلة لوبوان فإن متوسط مايخص كل مواطن أمريكى عام ١٩٩٢ من ساعات البث التليفزيونى يبلغ ٢٤٦٣ساعة و ٧٣٠ ساعة من البث الاذاعى . بالاضافة إلى أن هذا المواطن يستهلك ٦١ ساعة من الثرثرة الهاتفية . كما أن متوسط عدد الصحف التى يقرؤها فى العام تصل



إلى ١٠٠ صحيفة ، و ٣٠ مجلة .

وحسب الاحصاءات التى نشرها معهد جالوب فان خريجى الجامعة يقرأون ٢٥ كتابا فى السنة مقابل ١٥ كتابا فى مختلف المعارف لمن تلقوا تعليما غير جامعى ولذا فإن عدد الدقائق التى يخصصها المواطن الامريكى يصل إلى ٣٤ دقيقة لقراءة الصحف ، و١٤ دقيقة للمجلات ، و ٢٣ دقيقة للكتب .

وتقول دراسات المعهد أن ٨٩ ٪ من الامريكيين يؤكدون أنهم يدفعون أولادهم للقراءة ، وذلك لأن فيروسات القراءة يجب أن تصيب الاطفال فى سن مبكرة . وتقول أيضا أن معدل القراءة يزداد كلما وجد القراء أنفسهم أمام عناوين متعددة تدفعهم للاختيار .

ورغم هذا ، فإن القراءة قد قلت بشكل ملحوظ . وفى مجتمع تبلغ نسبة الأمية ١٣٪ فإن الكاتب المقروء دائما فى الولايات المتحدة هو ستيفن كنج ، المشهور برواياته المرعبة ، فى نفس الوقت الذى يجىء ترتيب أبناء موموقين فى ذيل قائمة المقروئين ..

وفى بريطانيا لايختلف الأمر كثيرا . كما أنه لم يتغير منذ أعوام . فمن المعروف أن الاثرياء هم أكثر من يشترون الكتب . ويعتمد البريطانيون كقراء على الصحف . فالجريدة اليومية توزيع ١٥ مليون نسخة . وفى يوم الأحد توزع ١٨ مليون نسخة .

ويقول الناقد الفرنسى إنه فى انجلترا يوجد أحسن برامج تليفزيونية فى العالم . ومع ذلك فإن البرامج الثقافية تكاد تكون منعدمة . ولكن هذا لايمنع أن فى بريطانيا مجموعة جيدة من المجلات الأدبية المتخصصة .

وفى ايطاليا فإن أكثر من ٦٢ ٪ من السكان يقرأون أقل من كتاب فى العالم . ولذا انخفضت أرقام مبيعات الكتب فى السنة الماضية بشكل ملحوظ .

الناس يتحدثون عن كتب لم يقرأوها ؟

ورغم مايقال عن « إنقاذ القراءة فى هذه البلاد » وأيضا فى بلادنا ، فلاشك أن شكل المكتبات قد تغير كثيراً فى النصف الثانى من القرن العشرين . فقد أصبح الكتاب صناعة مثل بقية الصناعات . أنشئت من أجله أسواق كبرى – سوبر ماركت – ففيما قبل كانت الكتب تباع فى المكتبات إلى جوار كراسات وأدوات المدارس . لكن الآن هناك أسواقا عملاقة .

لبيع كل أنواع الكتب . لقد أصبحت الكتب تعرض فى هذه الأسواق بنفس الكيفية التى تعرض بها البضائع الاخرى فى المحلات المجاورة وعلى المستهلك أن يشترى مايشاء من كتب كالطعام مثلا والله وحده يعلم هل سيلتهمه توأ . أم سيحتفظ به فى الثلاجة لحين الحاجة !

فى رأيى الشخصى . فإن أهم ماجاء فى هذا التحقيق الضخم . وهو ماجاء على لسان برناربيفو . واحد من كبار صناع الثقافة فى فرنسا . فهو صاحب مجلة «ليره الشهرية التى صدر عددها رقم ٢٠٠ فى مايو الماضى . وهى مجلة متخصصة فى متابعة وتحليل الاصدارت الجديدة . كما أنه صاحب أشهر برنامج ثقافى يذيعه التليفزيون الفرنسى والمعروف تحت اسم « ابستروف » . كما أنه شخص متعدد المواهب . فهو مؤلف وممثل . وقد صنع نجومية عشرات الأدباء فى السنوات الأخيرة .

تتهم المجلة البرامج التليفزيونية الثقافية بأنها تدفع الناس لشراء الكتب ولكنها لاتجلعهم يقرءونها . إلا أن بيفو يرد قائلا إن مثل هذا إزدراء . فلاشك أن بعض المشاهدين يشترون الكتب . ومع ذلك يدعون قراءتها لأنهم سمعوا عنها دردشة فى برنامج تليفزيونى . أما الذين اشتروا الكتاب فإنهم يتابعون البرامج التى تعد عنه بدافع معرفة أشمل . وذلك كى يكون للقراءة طعم مختلف .

ولاشك أن ما قاله بيفو يثير نقاشا حول نوع من البرامج غير موجود فى بلادنا فالبعض منا ينظر إلى متابعة الكتب الجديدة على أنها دعاية .. للكتاب . كما أن أغلب البرامج التليفزيونية يعتمد فى المقام الأول على حوارات جامدة خالية من الحياة بينما البرامج الثقافية الفرنسية أقرب إلى المنوعات كما تشاهدها مبثوثة على القنوات الفضائية .

حاولنا فى السطور السابقة ، ونحن مع بداية أشهر الصيف ، أن نلقى بعض الأضواء على أحوال القراءة فى العالم : مشاكلها وأبعادها ولا شك أننا فى حاجة إلى دراسة مهرجاناتنا الثقافية بأشكالها المختلفة بعد أن ننتهى من اقامتها ، وكم نحن فى حرج إلى هيئة أو مؤسسة (مثل معهد جالوب) تقوم بدراسة التغييرات الحادة والطارئة لدى القراء ، ودراسة التنافس بين القراءة والمشاهدة ، وأيضا ألعاب الفيديو ، ومعرفة إلى أى حد أصبحت القراءة فعلا للجميع وكيف سارت ليس فقط طوال أشهر الصيف ، ولكن طوال العام ، فلاشك أن من تذوق «لذة» القراءة مرة لا يمكن أن ينسى حلاوتها ، فليست القراءة كالنزول إلى البحر تتم فى الصيف فقط بل هى « غريزة » إنسانية أساسية كلما أشبعها المرء احتاج إلى المزيد منها .

بوخارست

عقارب الساعة عند الخامسة والعشرين

اكتسبت رواية «الساعة الخامسة والعشرين» شهرة كبيرة بين أوساط المثقفين العرب خاصة المصريين ، رغم أن الرواية لم تترجم على مدى واسع حيث صدرت فى سوريا إبان الستينات .

تجدد الحديث هذه الأيام عن هذه الرواية بمناسبة رحيل كاتبها الرومانى فرجيل جورجيو فى أوائل الشهر الماضى لقد عاش هذا الروائى فى الظل سنوات طويلة سواء قبل أن ينشر روايته الرائعة «الساعة الخامسة والعشرين» أو بعدها ..



فرجيل جورجيو

ورغم أن جورجيو قد بدأ حياته شاعراً ، ورغم أنه حصل على الجائزة الملكية للشعر فى رومانيا عام ١٩٤٠ إلا أنه سيظل دائما مقرونا بهذا الرواية التى ترجمت إلى أكثر من ٣٠ لغة .

ورث فرجيل وظيفته كقس عن أبيه . ولكنه أصبح شاعراً بمفرده . سافر إلى ألمانيا وأعجب كثيرا بالكاتب هايلد برج . ثم توجه إلى باريس من أجل أن يستكمل تعليمه .

لم يتمرد فرجيل ابداً على وظيفته الكهنوتية ، بل أحس أنها يمكن أن تساعده فى أن يكون شاعراً . ويقول النقاد إن أى كاتب لم يكن له أن يقدم رواية «الساعة الخامسة والعشرين» إلاصاحب نفس راضية . فالرواية تدور أحداثها فى أثناء الحرب العالمية الثانية ، حيث يجىء بعض الجنود للقبض على مزارع ، لايعرف أحد السبب .. ويجد نفسه ينتقل من معسكر لآخر دون أن يعرف السبب ، فلا هو باليهودى كى يدخل معسكر الاعتقال ، ولا هو بالمحارب كى يتم أسره وطوال سنوات يغيب فيها المزارع عن بلده تظل امرأته تنتظره .. حتى تفاجأ به يوما وقد عاد بعد أن أذبلتها

السنون .. ولا أحد أيضا يعرف .. لماذا تم اعتقال المزارع ..

الغريب أن فرجيل جورجيو قد نشر أكثر من ستين كتابا ، منها في أواخر حياته كتاب يحمل عنوان «السماء تقيم في لبنان» قال فيه إنه كم يتمنى لو يدفن في لبنان كي تنتهي الحرب الأهلية هناك .

في عام ١٩٦٨ قامت السينما الفرنسية بتحويل رواية «الساعة الخامسة والعشرين» إلى فيلم اشترك في بطولته انطوني كوين في دور المزارع وفيرنا ليزي في دور الزوجة وأخرج الفيلم هنري فرنوي .. وحور الفيلم قصة الرواية وحشاها بقصص كثيرة عن اضطهاد اليهود في معسكرات النازي .

تيرانا :

إسماعيل .. علمنا الأدب

لكل مرحلة سياسية كاتبها ، ولكل جيل مبدعون .. ولن تقف ألبانيا عند كاتبها الكبير إسماعيل قدري الذي اختار أن يعيش في فرنسا منذ ثلاث سنوات . الآن تتم المراهنة على كاتب شاب يحظى بنفس الأهمية التي حظى بها قدري ، إنه بسنك مصطفى وهو روائي وكاتب مقال ، نشر في الشهر الماضي رواية أكدت موهبته المتدفقة تحت عنوان «بين جرائم وخيالات» .. ولأن الكاتب القريب من الناس غالبا ما يقف ضد الحاكم الطاغية ، فإن مصطفى قد وقف ضد رامز عاليا ، وهو عضو في الحزب الديمقراطي في ألبانيا .

ورواية «بين جرائم وخيالات» تدور في عالم غريب ، ففي إحدى مناطق البلقان هناك امرأة تدعى سناء ، تنتظر عودة خطيبها جوري منذ سنوات طويلة ، إنها امرأة عند كلمتها فقد وعدته أن تنتظره مهما طالت غيبته ، وأخيرا يعود جوري ، ولكن الفتاة تفاجأ بأن حبيبها قد تغير كثيراً ، وأنه ليس الشخص الذي سافر ، تحس أن عليها أن تتعامل مع هذا الرجل على أنه بديل لـ «جوري» .. وأن جوري لابد قد مات وأرسل بدلاً عنه شبحا باهتاً .

وبمناسبة صدور روايته أجرت مجلة «حدث

الخميس» حواراً مع الكاتب قال فيه إن أوروبا الآن مشغولة بأشياء كثيرة ولاتعرف أن نهضة إسلامية تنبعث فى ألبانيا التى يسكنها ٧٠ ٪ من المسلمين . «نحن نقدم الكثير من النقود من أجل أن نبنى المساجد . وكى نساعد أنفسنا أن نمشى فى الركب الإنسانى ».

ويقول بسنك مصطفى عن بطلته سناء إنها امرأة من الماضى . فليس هناك فى عصرنا وفاء بهذا الشكل . طالما أن فترة غياب جورى قد طالت إلى هذا الحد . فطول الغياب يصيب الحب بالبرود .

وقد تمنى الكاتب أن يسير على نهج إسماعيل قدرى الذى وقف دائما ضد الديكتاتورية فى رواياته . ويقول إنه ليس



بسنك مصطفى

الوحيد الذى يتمنى أن ينال نفس الأهمية والشهرة وأن يكتب بنفس الأسلوب . ولكن الكثير من أبناء الجيل الجديد فلاشك أن إسماعيل قدرى قد ساعد كثيرا على أن يخلص البلاد من الديكتاتورية بكتاباته .

باريس

الأديبة تحب .. كى تكتب وتنسى

مرجريت دوراس كاتبة لاتكف عن العمل . وفى كل عمل فنى جديد تثير حولها النقاش ليس فقط لأنها لم تكف عن الكتابة وهى التى تقترب من الثمانين (مولودة عام ١٩١٤) بل لأنها جربت تقريبا كافة أنواع الإبداع . فهى تكتب الرواية والمسرحية . والسيناريو وتخرج قصصها للمسرح أو السينما .

والجديد فى دوراس أنها يمكن أن تأتى بسيناريو فيلم كتبته قبل سنوات لتحوله إلى رواية أو إلى مسرحية . كما يمكن أن تفعل ذلك بين



مرجريت دوراس

فنون الكتابة التي مارستها بكل سهولة وآخر هذه المحاولات في أنها حولت أخيرا سيناريو فيلمها – الذي أخرجته عام ١٩٧٢ – يان اندريا شتاينر إلى رواية صغيرة الحجم بنفس الاسم .

وبالنظر إلى النص الجديد لايمكن التكهن هل نحن أمام رواية أم شعر، أم سيناريو سينمائي ، أم مسرحية . وذلك بكل بساطة لان مرجريت دوراس قد مزجت بين كل هذه الفنون الكتابية كلها في نص ابداعي واحد .

ولم تقع مرجريت دوراس أسيرة للنص ، ولكنها قامت بتجريده وصيغته بصيغة جديدة تناسب كاتبة في التسعينات . فقد التقت ذات يوم وهي خارجة من عرض فيلمها «أغنية هندية» بشاب كان يكتب لها خطابات من وقت لآخر . وعندما بدأ اللقاء تولدت قصة حب ، وترى مرجريت أن الحب لايدوم سوى من أجل كتابة عمل جديد . وعليه أن ينتهي . لذا فهو يولد كي يموت .

أما الحب الأزلي عند الكاتب . فهو ارتباطه بأدباء آخرين فهي تحب راسين صاحب مسرحية «فيدرا» . وفي روايتها تحفظ الشاب الذي قابلته بشبابه بشكل أبدى .. فلاشك أنه الآن قد عرف الشيب . لكنه لايزال الشاب في ذاكرة الكاتبة.

وتقول مجلة لويوان – ٢٧ يونيه ١٩٩٢ – أن مرجريت دوراس كتبت روايتها بعبارات قصيرة . مرنة . وكأنها مجموعة من التعليمات المكتوبة في روشتة .

الأذن الداخلية

التوازن الدقيق

بقلم : د . محمد بهائى السكرى

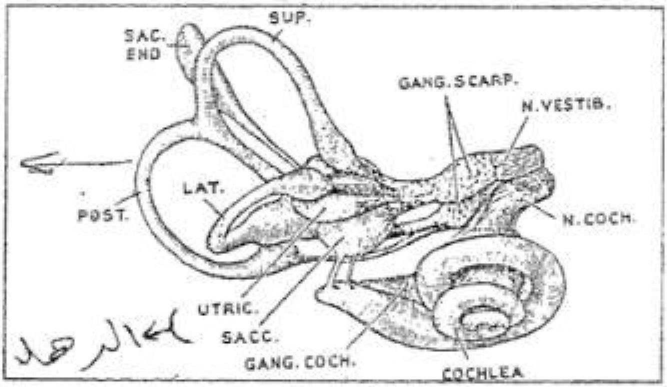
تعلقت أنظار المشاهدين فى المسرح الكبير باللاعب الرشيق الواقف على منصة مرتفعة وأمامه حبل ممدود إلى منصة أخرى وهو يعصب عينيه بمنديل أسود ثم يبدأ يتحسس طريقه بقدميه فوق الحبل المشدود ويسير فى أناة ثم يتوقف عند منتصف الحبل ليقفز قفزة دائرية فى الهواء يعود بعدها إلى نفس النقطة التى كان عندها فى منتصف الحبل المتأرجح تحت وقع خطواته ، ثم يسير فى ثقة ليصل إلى المنصة الأخرى ويرفع العصابة عن عينيه وسط تصفيق الناظرين .

أى اتزان دقيق وقدرة على معرفة وضع الجسم فى الفضاء دون الاستعانة بالبصر مع التحكم الفائق فى انقباض عضلات الجسم المختلفة على البدن من السقوط !

إن كل هذه القدرة على الإبهار تتلاشى لو تعرض اللاعب لمرض أصاب عضوا حسيا خاصا يقبع فى تجاويف عظام الجمجمة فى حيز صغير لا يتجاوز سنتيمترات معدودة يعرف بالأذن الداخلية يختص بوظيفتين مزدوجتين مترابطتين : السمع ، والاتزان (شكل ١٠)

* * *

وتتكون الأذن الداخلية من جزءين أساسيين : القوقعة وبها مستقبلات حسية خاصة بالسمع ، والدهليز والقنوات الهلالية المتصلة به حيث توجد مستقبلات معينة تختص بالتوازن .



شكل ٩٠ : الأذن الداخلية
بأجزائها المختلفة القوقعة والدهليز والقنوات الهلالية .

وتقوم الأذن الخارجية المكونة من صيوان الأذن وقناة السمع الخارجية وطبلة الأذن بتجميع الموجات الصوتية ونقلها الى الأذن الوسطى التى تحملها بدورها عن طريق عظمات دقيقة ثلاث إلى الأذن الداخلية وتحدث الموجات الصوتية تذبذبا فى سائل موجود بالأذن الداخلية ويتسبب ذلك فى تنشيط مستقبلات سمعية فى قوقعة الأذن .

أما التوازن فله قصة أخرى ومسار آخر .

فالمؤثرات الخاصة بحاسة الاتزان تختلف عن المؤثرات الخاصة بحاسة السمع . فمؤثرات السمع هى موجات التضاغط والتخلخل التى تحدثها الأصوات المختلفة وتنتشر فى كل اتجاه على هيئة ذبذبات .

أما المؤثرات الخاصة بحاسة الاتزان فتشمل الجاذبية الأرضية ، وتزايد السرعة أو تناقصها فى خط مستقيم أو أثناء دوران الجسم . أما السرعة الثابتة المنتظمة فلا يشعر بها الإنسان وأبسط دليل على ذلك أننا لا نشعر بدوران الأرض حول نفسها ليل نهار لأنها تتحرك بسرعة ثابتة منتظمة وهذا من رحمة الله وإلا لأصابنا الفزع والهلع مع دوران الأرض .

والمستقبلات الحسية فى الأذن الداخلية الخاصة بالاتزان تتكون من مجموعتين أساسيتين :

المجموعة الأولى فى دهليز الأذن الداخلية وهى تختص بتسجيل وضع الرأس فى الفضاء المحيط بالجسم ، وبالاحساس بحركة الجسم فى خط مستقيم بسرعة متزايدة أو متناقصة .

والمجموعة الأخرى فى مداخل القنوات الهلالية وهى تختص بالاحساس بحركة الجسم فى خط دائرىبسرعة متغيرة .

تثبيت الرأس

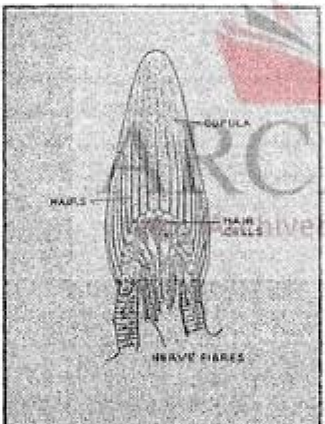
ونبدأ بالمجموعة الأولى فلها وظائف بالغة الأهمية أولها تسجيل وضع الرأس فى الفضاء وهذا التسجيل بالغ الأثر لأنه الخطوة الأولى من أجل تثبيت الرأس - غرفة التحكم العليا فى الجسم - فى وضع سليم ، ويستتبع ذلك تعديل وضع البدن كله لينتظم مع الرأس فى وضع سليم وهو فى قمته .

ويتم تسجيل وضع الرأس لحظة بلحظة عن طريق جسيمات بلورية دقيقة تهتز بتأثير جاذبية الأرض عندما يميل الرأس فى أى اتجاه وتحدد اتجاه الميل مثل البوصلة فتجذب أهدابا دقيقة متصلة بخلايا حسية خاصة جذبا معينا يتناظر مع درجة ميل الرأس عن الوضع المعتدل . ويؤدى ذلك إلى تنشيط تلك الخلايا الحسية المجاورة للبلورات فترسل إشارات محددة على هيئة نبضات كهربائية فى عصب الإتزان المتصل بالأذن الداخلية ليخطر المخ بالوضع الجديد للرأس طالبا تعديله .

فإذا تحرك الانسان فى خط مستقيم بسرعة متزايدة تدحرجت تلك البلورات إلى الخلف فيشعر المرء بتزايد السرعة إلى الأمام ، وإذا تناقصت السرعة أو توقف الانسان فجأة تندفع تلك البلورات إلى الأمام فيشعر المرء بالتغير الطارىء الجـديد ، وهكذا دواليك .

أما إذا تحرك الإنسان فى خط دائرى أو دار حول نفسه بسرعة متزايدة أو متناقصة فهنا يبدأ دور المجموعة الثانية من المستقبلات الحسية وهى الموجودة فى مداخل القنوات الهلالية .

ففى مدخل كل قناة هلالية توجد أهداب طويلة مغموسة فى مادة چيلاتينية ممتدة على هيئة لسان (شكل «٢٠») فى فوهة القناة ويحيط بذلك اللسان سائل ليمفوى تتسبب حركته عند دوران الجسم فى تحريك اللسان وما به من أهداب فتنشط خلايا حسية متصلة بتلك الأهداب وترسل إشارات عصبية للمخ تفيد التحرك فى إتجاه دائرى .



شكل «٢٠» : اللسان فى مدخل القناة الهلالية وما به من أهداب متصلة بخلايا حسية

ويساعد شكل القنوات الهلالية ووضعها متعامدة على بعضها فى تنشيط حركة السائل واللسان عند مدخلها أثناء الحركة الدائرية في أي إتجاه .

بشرط أن يكون هناك تزايد أو تناقص فى سرعة الحركة لأن الحركة المنتظمة تؤدى إلى سكون السائل الداخلى وتوقف حركة اللسان فى مدخل القناة الهلالية .

دقة متناهية ومعجزة

ونعود إلى اللاعب السائر على الحبل معصوب العينين كيف يحفظ توازنه ؟ . إنه يتحسس الحبل بقدميه . وتنبعث إشارات حسية من أنحاء جسمه لتخطر المخ بوضع أجزاء الجسم المختلفة ودرجة الشد والتوتر فى العضلات . ويتلقى المخ أيضا إشارات من الأذن الداخلية تحدد وضع الرأس فى الفضاء ودرجة الميل عن الوضع المعتدل مثل ما يبين ميزان الماء المهندس درجة ميل الحائط فى البناء ، أو كما تبين الأجهزة الدقيقة للطيار فى غرفة قيادة طائرته وضع الأجنحة وميلها عن خط الأفق .

وتقوم مراكز دقيقة فى المخ بعمل الحاسوب الآلى « الكمبيوتر » فتراجع البيانات المختلفة الواردة من أنحاء الجسم وتقارن بين معدلات الأداء الحركى والأوامر الصادرة لأجزاء الجسم المختلفة حتى تتضح مدى دقة التنفيذ . فإذا كان هناك خطأ فى الأداء يؤدى إلى فقد التوازن يقدر بدقة مدى هذا الخطأ ، وتصدر الأوامر بسرعة من أجل تداركه قبل استفحاله . ويتم ذلك كله فى لمح البصر وبصورة تكاد تكون لا شعورية فهى محصلة ميزات موروثة وتدريب شاق .

إن المشى على الحبل مهارة مكتسبة ولكنها تعتمد على استخدام وتدريب أجهزة دقيقة أمد الخالق سبحانه الإنسان بها وهى موجودة فى كل البشر ولها فائدة جمة فى حفظ توازن الانسان العادى اثناء سيره على الأرض قبل أن يتدرب على استخدامها بصورة أدق إذا سار على الحبل .

وإذا كان حفظ توازن الجسم المادى أثناء السير على حبل مشدود فى الهواء يحتاج إلى تدريب شاق طويل فإن أيضا حفظ توازن الإنسان النفسى يحتاج إلى مران منتظم .

وأغلب الظن أن الاتزان النفسى يحتاج إلى آليات تشابه تلك الآليات الخاصة بالتوازن الجسمى تشمل وجود مستقبلات حسيه تشعر المرء بالميل أو الانحراف عن الوضع المعتدل ، وتحسب له مقدار الخطأ فى معدلات الأداء ، وتبين له ما ينبغى عمله من أجل استعادة التوازن .

وإذا فقدت هذه الأجهزة المعنوية كفاءتها اختل توازن المرء فى الحياة وهوى كما يهوى لاعب السيرك من على السلك المشدود اذا أخطأ الحساب .

التكوين

هاجمني أستاذي فأصبحت صحفياً!

حافظ محمود



التكوين الثقافي لي لم يجره رائد الصدفة، ولكن الحياة التي عشناها سهلت لنا كثيراً أن ننهل من المعرفة والأدب سواء في المدرسة أو بين جدران الجامعة ..

على أنني وأنا أمارس أنشطتي الثقافية عشقت الصحافة، ودخلتها من أوسع أبوابها وكنت أصغر رئيس تحرير يومئذ في مجلة أسبوعية وجريدة يومية بعد ذلك.

وأنا أسجد صاحب فضل في تكويني الثقافي في الصغر، ولكن هنا يبدو النظام الفكري الذي كان سائداً في ذلك الوقت حيث كانت توجد الجمعيات والنوادي الثقافية، وكان من أشهرها الموسم الثقافي الذي تنظمه جامعة القاهرة، وكان إسمها في ذلك الوقت جامعة فؤاد، وكان هذا الموسم الثقافي يقام بالجمعية الجغرافية وأمامها مباشرة قاعة إيوارت التي تأسست فيها العديد من ندوات ومحاضرات.

كانت من زيارة تحاضر في هذه القاعة عن الموسيقى والفن والأدب ويوجه لطلاب الشباب، وكان لطلاب الجامعة حتى ذاك كانت تستقدم العلماء والمفكرين من الخارج في إطار هذه الثقافة، ومن بين من شاهدتهم الشاعر الهندي العظيم طاغور والذي أتم وقتها زيارات أن البلاد يقام بالموسيقى.

ولك أن تتصور أن أديباً مثل الدكتور طه حسين جاء ليفتتح الموسم الثقافي — في الثلاثينات — وكان وقتها عميداً لكلية الآداب وأذكر أن زوجته حضرت قبله بقليل فاستقبلها جميع الطلاب الذين جاءوا لحضور هذا الافتتاح وسمعوها وكرموا(؟) لها مكاناً في الصف الأول، وظلت مكانها وحيدة لمدة نحو … وبدخل القاعة وقبله وبصحبته له … الزحام وأكثر من ألف شخص كانوا في القاعة، وبدأ التصفيق، حتى صعد طه حسين إلى المنصة وألقى محاضرة الافتتاح.

وهذا يوضح لنا كيف كان الاهتمام بالثقافة — ولم يتوقف اهتمامي عند هذا الجانب، فقد كان لنا بيت ريفي في حي السيدة زينب وكنت طالباً بالثانوي، فاستأذنت أبي في أن آخذ غرفة لكي تصبح جمعية أدبية نجتمع فيها مع زملائي من محبي الأدب، ووافق الرجل على الفور محدثاً نفسه بأن ذلك أجدى وأنفع من اللعب في الحارة واشترى لنا بعض الكراسي فتحولت الغرفة إلى قاعة للمحاضرات وكنا مازلنا في أوائل المرحلة الثانوية عام ١٩٢٦.

كان الجو العام في طفولتي يوحي بالثقافة حيث كانت هناك العديد من الجمعيات: جمعية الشعر وأنصار الأدب ورابطة التمثيل والموسيقى والصحافة، ولم نكن نلاحظ هذا الجو المفعم بالثقافة والفكر، وأذكر أننا أنا ومجموعة من زملاء الدراسة كنا ذات يوم نمثل إحدى الروايات في

التكوين

شارعنا وكان معى المرحومان أحمد حسين وفتحى رضوان وفى تلك الأثناء مر نبيل الكردانى ناظر مدرسة الخديوية الثانوية وكان أول ناظر مصرى بعد النظار الإنجليز يتسلم عمله بتلك المدرسة واختبانا، ولكنه طلب منا أن نستكمل عرضنا المسرحى ، وفى اليوم التالى أمر بإنشاء فرقة مسرحية بالمدرسة فى عام ١٩٢٩ ومظمة الجانب التربوى لدى هذا الرجل أنه لم يطلب من وزير التربية أن يفتتح أولى حفلات المدرسة المسرحية ، بل جعل تلميذا من المدرسة اسمه حافظ محمود يفتتح الحفل بدلا من الوزير ! وكتبت الصحف عن ذلك الموقف الشجاع لناظر المدرسة .

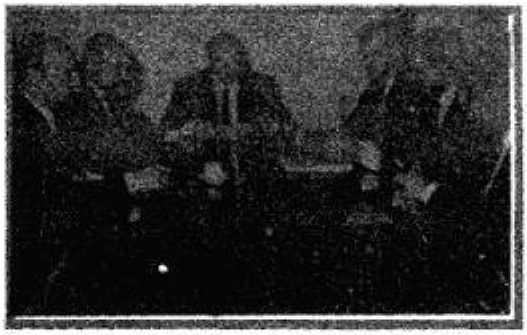
كانت الروح الأدبية منتشرة فى ذلك الوقت ، وكانت الصحف تشجع هذه الحركات الأدبية ، ولذلك شجعتنا الصحف ، حيث كانت تنشر الأخبار التى كنا نبعث بها عن نشاطنا المتنوع .

وأما هوايتى وحبى للصحافة فقد جاء نتيجة قراءتى لجريدة السياسة الأسبوعية والتى ظهرت فى مارس ١٩٢٦ ، وكانت توزع وقتها ثلاثة أضعاف الأهرام ، وبالرغم من فضل «السياسة» فإننى أعجب لماذا لاينكرونها الآن ، فقد كانت أول جريدة أسبوعية لها مكاتب فى دمشق وبيروت والخرطوم وبغداد ، وكان المشرفون على هذه المكاتب كبار الأدباء والمثقفين ، وكان التوزيع فى الخارج لجريدة السياسة أعلى منه داخل البلاد ..

لقد تتلمذت على هذه الصحيفة ، وتعلمت الصحافة منها ، وهناك حادث مهم فى أول عشقى وحبى للصحافة ، ربما كان وراء نجاحى فى الصحافة ، فقد طلب منى الدكتور أحمد ضيف رحمه الله عمل بحث ويعلق عليه ، وأعطانى أقصى الدرجات فى النجاح ، بعدها قال لى لقد تحدثنا فى العلم ، ولكننى أود الحديث معك فى شىء آخر .. فأسلوبك لايصلح لكى تكون كاتبا أو صحفيا ولاحتى أديبا .. أسلوبك علمى زيادة عن اللزوم ! هذه الكلمات التى جعلتنى أتعلق بالصحافة وأعشقها ، بعد أن أصبحت صحفيا زارنى الدكتور أحمد ضيف وهو يعتذر عما بدر منه فقلت له : على العكس مما تقول ، فأنت صاحب الفضل ، ولولا كلامك لى لما أصبحت صحفيا ولا كاتبا .

بدأت أتجه إلى الصحافة وأنا صغير السن نحيل الجسم ، حينما كنت أذهب إلى أى صحيفة لمقابلة مسئول فيها كان يقول لى : يابنى اذهب وذاكر دروسك بلا لعب عيال ! .

وصممت من باب العناد على أن أنشر فى أكبر جريدة فى ذلك الوقت وهى السياسة الأسبوعية ، وكان مقرها بجوار



حافظ محمود فى اجتماعات دراسة أول مشروع دائم للدستور

مبنى دار الهلال ومازال مبناها موجودا حتى الآن ، وللأسف فإنه يستخدم كمخزن ! ..

كان يوضع بجوار باب الجريدة صندوق لتلقى المقالات ، وكنت أذهب لكى أضع مقالتى فى هذا الصندوق وأنصرف ، وبالفعل نشرت لى مقالة وعلى أثرها هاجموا الدكتور محمد حسين هيكل ، وقالوا كيف ينشر مقالا لولد صغير ، وأساتذته لم يحصلوا على نفس الفرصة وبحث عنى د . هيكل ولما ذهبت إليه ضحك حينما رآنى وقال« والله لهم حق أنت طلعت أقل مما يجب » .. صغير جسما وسنا

قلت له : يابك أنا آسف !

قال لى : آسف إزاى !

قلت : لأنك تدافع عنى

قال : أنت لم تر الهجوم الذى حدث لى بسببك

قلت : وماذا أفعل

قال تكتب مقالا أفضل من مقالك السابق وأنشره حتى يعملوا أننى لا أنشر كلاما فارغا !

وبدأت الصلة بيننا إلى أن كتبت سلسلة مقالات بعنوان «إلى خطيبتى فى الخيال» .. وجاءت ردود واستدعانى الدكتور هيكل ليقول لى : «هو الجرنال ده مكتب غرام لحضرتك».

قلت : لماذا ؟!

قال : اتفضل لتشاهد بنفسك خطابات ملونة ومعطرة ، وكانت الرومانسية فى ذلك الوقت هى السائدة فى حياتنا .

قلت : أعتذر لك بشدة لأننى أسبب لك المتاعب وحاولت الانصراف فقال : تعال هنا .. أين أنت ذاهب .. خذ هذه الخطابات وإذا استطعت أن تخرج منها تحقيقا صحفيا ، فسوف أعينك فى

التكوين

الجريدة وإذا لم تستطع فدعنى لا أرى وجهك مطلقا !

لم أنم طوال الليل وقمت بعمل التحقيق وفى الصباح قرأه الدكتور هيكل وأعجب به ، وعلى الفور نادى محمد زكى عبد القادر وكان سكرتير التحرير وقال له خذ هذا «الوليد» واعتبره إبننا وضمه للأسرة كمتمرن ..

كل ذلك حدث وأنا مازلت طالبا بكلية الآداب قسم الفلسفة ، وظللت أعمل بهذه الجريدة متمرنا ، وحينما تخرجت كانت «السياسة» قد أغلقت ثم اعاد الدكتور هيكل إصدارها من جديد ، وبحث عن كل من كان يعمل بها من قبل واستدعانى وقال لى سوف تعمل معى «والى فى النسخت تطلعه المفرقة» فأنا وأنت شركاء وكان وقتها زعيما للمعارضة والظروف المالية الخاصة بالجريدة كانت محدودة للغاية ، لهذا قرر أن نكون شركاء وماتدره الجريدة نقتسمه سوياً وبعد عام عين وزيرا فتفاءل بى وقال لى لا أعرف كيف أكلفك فأنا لا أملك شيئا ولكن الشيء الوحيد الذى أملكه ، هو أن أصدر لك قرارا بأن تصبح رئيسا لتحرير السياسة الأسبوعية .

عينت رئيسا لتحرير السياسة الأسبوعية وعمرى ٢١ عاما ، كما عينت بعد ذلك رئيسا لتحرير السياسة اليومية وعمرى لما يتجاوز السابعة والعشرين ، وكونى أخلف رئاسة التحرير بعد الدكتور هيكل ، كان بالنسبة لى شرفا كبيرا ، خاصة أنه كان مصرا على أن الصحافة للصحفيين ويرفض تماما تعيين حفنى محمود قائلا إنه تربيتى وسوف ترون مايمكن أن يحققه من نجاحات وبالفعل كانت عند حسن ظنه بى . الطريف أن الصحف فى ذلك الوقت كانت كثيرة جدا وأى صحفى كان ينتقل بين الصحف لتحسين ظروفه المالية – مثلا – وقد يذهب إلى أكثر من صحيفة أو مجلة ، لكننى على مدار عملى فى الصحافة لم أعمل سوى فى السياسة الاسبوعية ثم اليومية وبعد عام ١٩٥٢ وبعد أن أغلقت مجلة «القاهرة» المسائية التى عملت رئيسا لتحريرها ، ثم رئيسا لمجلس إدارتها ، عملت فى الجمهورية حتى الآن ، وأذكر بعد أن أغلقت القاهرة لظروف خاصة بعد موت صاحبها ، قال لى الدكتور عبد القادر حاتم أن الرئيس جمال عبد الناصر طلب بأن أعمل فى الجمهورية ، ولم أنفذ هذا القرار إلا بعد ان عمل كل زملائى الذين وصل عددهم إلى ثلاثمائة ..

وأذكر تلك الحادثة بالضبط : فحين طلب منى د . عبدالقادر حاتم هذا الطلب قلت له إذا كان عبد الناصر يعرف إسمى ، فكيف يذهب ٣٠٠ إنسان مسئولون عن



فى العيد المئوى للصحافة المصرية يتحدث حافظ محمود نقيب الصحفيين وفى الخلف د . حلمى مراد وعبدالخالق حسونة وصالح جودت ود . خليل صابات

أسرهم ، وقلت : لا أستطيع أن أنفذ هذا القرار وزملائى فى الشارع ..

قال : التعليمات الموجودة عندى خاصة بك فقط .

قلت : هذا شيء لاتحتمله عواطفى إطلاقا أن أناسا كنت أرعاهم ومسئولا عنهم ، ثم فجأة يجدون أننى اشتغلت وقبضت ، ومازالوا هم فى الشارع بلا عمل ، وظل هذا القرار معلقا لفترة سنة كاملة وكتبت وقتها فى الهلال كثيرا ، ولم يكن لى مورد سوى الهلال فى أوائل عام ١٩٦٠ التقيت بصلاح سالم ، وكان رئيسا لتحرير الجمهورية وهو فى نفس الوقت إبن حارتنا فى السيدة زينب ..

قال : نفسى قبل أن أموت أن تعمل معى فى الجمهورية ، وإزاى عبد الناصر كل يوم يسألنى حافظ جاء أو لم يجيء ، وبالفعل ذهبت للجمهورية بعد اطمئنانى على كل زملائى فى جريدة القاهرة المسائية وتعيينهم فى وظائف مناسبة .

قد يتساءل البعض عن أسلوبى فى حياتى الصحفية ..

وأقول : أنا الوحيد بين الصحفيين الذى لايلتزم فى الكتابة بوقت معين ولا شكل معين ولا حتى مكتب معين .

قديما كنت حينما أبدأ فى الكتابة أطلب فنجان قهوة وأدخن سيجارة وحتى هذه العادة أقلعت عنها الآن ، وقبل أن

التكوين

أكتب هذا الكلام صباح اليوم وأنا أتناول إفطارى وأشرب الشاى جاءتنى فكرة مقال وعلى الفور تركت افطارى وبدأت كتابة المقال ، ومعنى هذا أننى لا ألتزم بوقت محدد فى الكتابة ليلا أو نهارا كما أننى أكتب مرة واحدة وهذه تسبب لى مشكلة ورداءة الخط ، فضلا عن ضعف البصر فى هذه السن المتقدمة ..

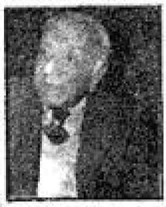
وأذكر أن خطى كان جيدا أثناء الدراسة ، ولكن مع ممارسة العمل الصحفى والسرعة فى الكتابة ، وصل إلى ماوصل إليه الآن .

أنا والهلال

أذكر حينما تعلقت بالصحافة فى بداياتى الأولى بعثت مقالا لمجلة الهلال وفوجئت بشىء ياليت كل الصحف تفعله الآن ..

وصلتنى بروفة للمقال مرفق بها ورقة مكتوب بها .. رجاء مراجعة هذه التجربة والإمضاء عليها ، ومعها شيك بعشرة جنيهات ، وكان ذلك فى الثلاثينات ..

هذه الجنيهات العشرة كان يحصل





محمد زكى عبد القادر   د . حسين هيكل

عليها طه حسين وهيكل باشا وعباس العقاد ، وكان أقصى أجر .. ذهلت حينما رأيت المبلغ الكبير ، فقد ظنوا أننى كبير فى السن وفى العلم ! ولكن وراء ذلك قصة .. فالبحث الذى تقدمت به للدكتور أحمد ضيف وقال لى إن أسلوبه علمى بحت ، كان عن ألف ليلة وليلة ، وهذا البحث نشرته مجلة الجامعة ، والتى كانت تختار البحوث الجادة ، بما فى ذلك محاضرات الأساتذة ، والأديب محمود تيمور حين قرأه ظن أنه لأستاذ جامعى ونشر البحث وعلق عليه ضمن مقدمة طويلة أن الدكتور حرص على نشر الأدب المحلى بشكل جيد ..

وبعثت خطابا للأديب الكبير قائلا .. أنا لست بأستاذ ولا بدكتور جامعى بل أنا طالب أحب الأدب وأهوى الصحافة .. وكانت تلك بداية صداقة بينى وبين هذا الرجل النبيل .

نشرت مقالات كثيرة فى الهلال ..

سوف يقول إنها رشوة » .

قال الرجل معك حق .. وما دام هذا رأيك فأنا أحترمه .

★★★

إننى أقول فى مناسبة احتفالات الهلال بمرور ١٠٠ سنة على صدورها أن تلك وحدها شهادة ، شهادة كبيرة وكتبت مقالات نشرتها فى الجمهورية حول هذا الحدث الهام فى حياتنا الثقافية والصحفية لم يعش فى مصر على مدى مائة عام سوى الهلال والأهرام والجازيت مع أن مصر شهدت مئات الصحف ، وزمان كانت تصدر صحف جديدة فى كل يوم ، لكنها لم تعش ويكون مجلة تتماسك بانتظام إلى درجة الحياة لمدة ١٠٠ سنة فهذه شهادة ودليل على عمق ماتقدمة من فكر وأصالة المنهج الذى تسير عليه على أننى هنا وأرجو أن يذكر شىء عن جرجى زيدان وآثاره العظيمة روايات وتاريخ الإسلام .. فضلا عن أنه كان رجلا جادا فى عمله ، واستطاع أن ينهض بالهلال ومن بعده أبناؤه ..

فتحية للهلال ولمنشئه متمنيا أن يواصل مسيرته الهامة فى حياتنا الثقافية والفكرية .



محمود تيمور



اميل زيدان

لكننى لا أنسى لقاءً بينى وبين إميل زيدان رحمه الله .. كنا قد كونا جمعية إسمها المصرى للمصرى لمقاومة البضائع الأجنبية انضم لهذه الجمعية طلاب وأساتذة من الجامعة وكان صاحب هذه الفكرة سلامة موسى ، وكان يعمل بدار الهلال . ثم اختلف معهم ، ولأنه وجد نفسه زعيما فى ذلك الوقت بدأ يهاجم دار الهلال ، والتى أصدرت ضده عددا من مجلة « الدنيا المصورة » .. وزعت مجانا .. بعد هذا العدد أعدنا انتخاب مجلس إدارة الجمعية واخترنا رئيسا آخر غير سلامة موسى وصاحب الفضل فى قيام الجمعية حيث لم نحتمل الهجوم الذى وجهته ضده دار الهلال . وعلى أثر ذلك التقيت بإميل زيدان والذى عرض علىّ أن أعمل بدار الهلال فقلت له « أنا أعمل سكرتير جمعية المصرى للمصرى ، ولاترضى لى أن أصبح موظفا عندك ، فالمعنى واضح أن البعض

أنت والهلال

● ديكارت .. وديسكارتس ●

● تهنئة من القلب للاحتفال بالعيد المئوى لصدور مجلة الهلال .أرجو لسيادتكم كل التوفيق ولمجلة الهلال التقدم وأود أن أوضح نقطة بسيطة وهى أنه جاء فى مقال الدكتور محمد بهائى السكرى « الجهاز العصبى مفتاح الصحة والمرض » صفحة ٥١ من هلال يونيو الماضى : واعتقد ديسكارتس Descartes ....

والمعروف كما قال لنا أساتذتنا سواء كان الدكتور بدوى أو الدكتور عثمان أمين وهو الذى كتب وترجم لديكارت . أنه ديكارت رغم وجود حرف « S » فى الكلمة الفرنسية ولكن الشائع هو نطق ديكارت ، ولو رجع سيادته إلى قاموس لاروس لوجد بجوار ديكارت النطق السليم للاسم وهو بدون حرف أل S . إلا إذا كان الدكتور يقصد عالما آخر عاش فى القرن السابع عشر وقال إن مكان النفس هو الغدة الصنوبرية .

شاكر هيكل

مدير السياحة بمجلس مدينة القناطر الخيرية

● الشاعرة نازك الملائكة ●

● فى التاسع عشر من ابريل الماضى من هذا العام ١٩٩٢ وفى أحد منازل بغداد أسلمت الشاعرة د . نازك الملائكة روحها إلى بارئها . وهى شاعرة تميزت بالثقافة الواسعة والموهبة وبالجرأة فى التفكير والتعبير وتصدرت دواوين شعرها واجهات المكتبات فساوت فى المنزلة مشاهيرالشعراء من الرجال .

نشأت فى بيت أدب ولغة ، فأمها « رباب » ابنة الشاعر العربى الكبير عبد المحسن الكاظمى وأم نزار ونازك الملائكة ولقد وجدت فى بيتها مكتبة تضم شتى ألوان الأدب العربى والأوربى ودرست فى دار المعلمين العليا ببغداد وكلية الآداب ببغداد قسم اللغة العربية وأجادت الانجليزية قراءة وكتابة وسافرت إلى الولايات المتحدة الامريكية واستكملت الدراسة فى جامعة

وسكونسن وحصلت على درجة الماجستير والدكتوراة فى الأدب المقارن ، وترجمت كثيرا من القصائد الافرنجية شعرا إلى اللغة العربية ، ودرست الموسيقى فى معهد الفنون الجميلة ببغداد وقدمت للمكتبة العربية أكثر من عشرين كتابا للدراسات النقدية من الأدب العربى المعاصر أهمها قضايا الشعر المعاصر وللشاعرة خمسة دواوين :

١ – عاشقة الليل ١٩٤٧

٢ – شظايا ورماد ١٩٤٩

٣ – قرارة الموجة ١٩٥٧

٤ – شجرة القمر ١٩٦٨

٥ – مأساة الحياة وأغنية للإنسان

رجب عبد الحكيم البيومى

خط حلوان – المعصرة – القاهرة

● شكوى وأرجوزة ●

عندما قرأت الهلال عدد يونيو ١٩٩٢ فوجئت برد المجلة على قصيدتى المعنونة بـ « سوق عكاظ » ؟ ولست أدرى بأى لسان أعقب على ما ثار فى النفس من أحزان ، وما أصابنى من هذيان ، فباب « أنت والهلال » بمثابة المعبر الأول للأديب الشاب وعند الأديب الحقيقى لايهم المكان الذى يوضع فيه إبداعه إن كان فى صدر المجلة أو فى آخرها ، ولكن رد المجلة العجيب أو رد المحرِّر العجيب هو الذى أتعسنى بحق ، فهو بعد أن يشكر السادة الأصدقاء الشعراء يجمعهم فى سلة واحدة ، ويقول مامعناه أن هناك :

١ – أخطاءٌ لغوية ؟ فى النحو والصرف

٢ – أخطاء إملائية

٣ – أخطاء فى العروض

ثم يقرر أن القصائد تدل على مواهب متنوعة ومتفاوتة فى النضج !! ومما أصابنى بالغضب هذا الردّ ، ولذلك أكتب هذه الرسالة . وأسأل فى حدود ما أرسلت إلى الهلال من قصائد وخلافه فى المدة السابقة ، وفى حدود

أنت والهلال

قصيدة (سوق عكاظ) التى كان التعقيب عليها من الهلال ، هذا التعليق المجحف بحق الأديب ، أسأل ما هى الأخطاء التى جاءت فى القصيدة سواء كانت نحوية أو إملائية أو عروضية ؟! .... هذا السؤال العام أتمنى رداً عليه ، لأن ماجاء فى رد الهلال بمثابة اتهام لشاعرية الأديب ، الذى هو أنا . واتهام فى اللغة ، وأقول : لقد بلغ كاتب هذه السطور إلى الحد الذى لايمكن أن يقنعه رد بسيط كهذا ؟ ولست أدّعى الفصاحة ولا البيان ؟ ولا أقول إننى كقيس بن ساعدة ولا سحبان ، ولكن أقول سبحان الله ، فالقصيدة التى أرسلتها ، وقانى الله شر الغرور ، تخلو من الأخطاء النحوية والإملائية والعروضية ، هذا ببساطة شديدة هو ردى ، وإذا شاء الأستاذ محرر باب « أنت والهلال » أن أرسل إليه تقطيعاً عروضياً للقصيدة لأرسلت إليه ذلك ، وإن كانت الأذن هى المعيار الحقيقى للشعر ومن ناحية أخرى أقول : بأى مقياس تقيس يا أيها المحرر العزيز ؟! بأى مقياس تقيس الشعر الذى يصل إلى يديك ؟! إن الأديب الشاعر الشاب اليوم يعانى من أجل أن يبدع وينتج ، هذه المعاناة كيف تسقطها برد سريع فتتهم الشاعر فى شاعريته وفى لغته وإذا كان ذلك كذلك ، كان لابد لكاتب هذه السطور أن يأخذ من هذه النقطة المظلمة ركيزةً للانطلاق للدفاع عن نفسه ، وإن كان ماكتبه من قبل ، ومانشره من قبل ، يكفيه عناء الرد على هذا التجنى الهلالى العجيب ، ومن ناحية ثالثة نقول : ماهى الشاعرية لدى المحرر الأستاذ ؟!! .

إن للمجلة كل الحرية فيما تنشره وفيما لا تنشره ، ولكن هناك خطأ آخر أشد خطورة من حرية المجلة ، وهو أن هذه الحرية لاتعنى إهمال حرية الكاتب أو الأديب !! فالمجلة ، أى مجلة ، فى البداية وفى النهاية ، هى ملك للمبدع وللقارىء لقد مل الأبناء الشبان من الخداع والمكر الثقافى ، ملوا من الواجهات اللاقاتلة ، الواجهات المبحرة فى اتجاه وهم فى اتجاه، ملوا من القنوات الثقافية التى أعرضت عنهم وأعرضوا عنها ، ملوا من الأوثان الفكرية ، ملوا وعادوا إلى الكلمة ، لايبغون من ورائها أجراً ولامرتباً ولاحوافز ، ملوا ، ولذلك أقول : انشروا أو لاتنشروا ، ردوا أو لاتردوا ، اغضبوا أو لاتغضبوا ، فالكلمة الحقيقية الصادقة هى الباقية ، ولاحول ولاقوة إلا بالله !!

عزيزى المحرر :

ما اتخذت أسلوب الواعظ ولا الخطيب ، ما اتخذت فى خطابى إليك إلاَّ

لغة الحق التى هى لغة العقل ، وفى نهاية هذه الرسالة لك منى كل الود والحب ، ورحم الله القائل : التمس لأخيكَ عُذْراً .

وهذه أرجوزة من نظمى أختم بها رسالتى :

● أرجـــــوزة ●

لاشىء يستدعى الغضبْ ∴	فى دهرٍ كان الإنفعالْ
كُنْ فاعلاً .. لامنفعلْ ∴	يأتيك حالٌ بعد حالْ
ولاتعاتبْ صاحباً ∴	إنْ خان عَهْدَهُ بالفعال !
وأطبْ حياتكَ بالصيامِ ∴	عن الفضالة والسُّؤال
أكرمْ فإنَّك ذاهبٌ ∴	ويظلُّ ربٌّ ذو جلال !
وقلِ الحقيقة لاتخفْ ∴	والصدْقُ مصداقُ الحلال !
لاتقتربْ من ناقصٍ ∴	واحذرْ أشباهَ الرِّجال ..
يعْطيكَ حلوَ لسانهِ ∴	والمنُّ منهُ والخبال !!

رمضان الهجرسى السنبلاوين

● تعليق الهلال :

– نحن لم نجمع بعض الشعراء الناشئين بطريقة جمع البيض فى سلة واحدة ، بل جمعناهم كطبقة واحدة من الشعراء الذين يخطئون فى الأوزان وفى النحو والصرف والإملاء ، وقد كنت يابنى – لسوء الحظ – واحدا من أولئك الذين ضاق المقام عن الرد عليهم واحدا .. واحدا ، فرددنا عليهم مجتمعين لأنهم – كما قلنا – طبقة واحدة من الشعراء تجمعهم صفات أو مواصفات واحدة ، وهذا يحدث كثيرا حتى فى البحوث الأدبية المستفيضة ..

أما أنت بالذات فإن لك أخطاء نحوية ولغوية وإملائية فى رسائلك الكثيرة التى نتلقاها ، وليس هذا عيبا مادمت تحاول أن تستزيد من العلم بلا انقطا ع حتى تدرأ عنك هذه الأخطاء ، وبعضها ظاهر فى أرجوزتك هذه التى تختم بها شكواك منا .

فالشطرة الأولى من البيت الأول هى فعلا من بحر الرجز ، وكذلك الشطرة الثانية وكذلك شطرتا البيت الثانى ، وكذلك الشطرة الأولى من البيت الثالث ،

أما شطرته الثانية فإنها مكسورة عند كلمة (عهده) ولو جعلتها (عهدا) لصحت واستقامت ..

وأما الأبيات رقم ٤ و ٥ و ٦ و٧ و٨ فكلها ليست من بحر الرجز ، وإنما هي من مجزوء بحر الكامل ، وكلها - بصفتها من مجزوء الكامل - صحيحة الوزن ، إلا قولك « واحذر أشباه الرجال » فهذا ليس من الرجز ولا من مجزوء الكامل وإنما هو نثر بحت ! .. وهكذا خلطت في أرجوزتك بين وزنين ..

ولانتحدث عما في هذه (الأرجوزة) من هنات النحو واللغة ، كما لانتحدث عما في خطابك الطويل الذي لم نستطع أن ننشره كاملا لضيق المكان .

بقي أن نقول لك ولكل زملائك من (شعراء الشباب) كما تسمون أنفسكم : إن نضج الإنتاج هو جواز المرور إلى صفحات الهلال بغض النظر عن السن ، فقد يكون شاب في العشرين أشعر وأنضج من شيخ في التسعين ، وكل مايقال غير ذلك هو تعلاتُ إفلاسٍ وغبار يُثار في العيون لحجب الحقيقة ! ..

● صورة على الحائط ●

أقصوصة :

● جدي رجل عجوز جاوز الثمانين بقليل .. لكنه دائب الحركة يذهب ويجيء ، يوزِّع النظرات على الجالسين ثم يذهب ليعود ..

عندما نجتمع لنشاهد التليفزيون يجلس لبرهة أمامه بطريقة تجعلنا لانرى غيره وعندما يجدنا ننظر إليه في ضجر يسارع بالقيام ..

إذا نظفنا البيت وفرشناه نجده يبصق على الأرض يشعل سيجارة ثم يبادر بإطفائها على أغلى السجاجيد. جدي كثير الأسئلة ومعظم أسئلته إجاباتها واحدة إذ أنه شديد النسيان ..

وفجأة .. مات جدي .. فاجتمعنا نسترجع أثاره الطيِّبة .. ثم صممنا على تكبير إحدى صوره وبعد تنقيب وبحث عثرنا على صورة لجدي .. والغريب في أمر هذه الصورة أنها لم تكن في ألبوم صور أو مع مجموعة من الصور ولكنها كانت ضمن أوراق حكومية قديمة ترجع إلى ماقبل خروجه من العمل الحكومي ..

كبَّرنا الصورة ووضعناها في أجمل إطار ثم علقناها على الحائط ..

عبد العزيز الشراكي - المنصورة

« قدرة الله »

أرى في السما قمراً نيرًا ∴ وتلك البحار وذاك الثرى
وعيناً من الصخر – نضاخة ∴ فمن خلق الماء من فجرًا ؟
عبابٌ .. عجاج .. وملحٌ أجاجٌ ∴ وآخر يبدو لنا كوثرا
ومن أنزل الغيث رمز الحياة ∴ وشم الرواسي وتلك الذُرا ؟
وليلٌ .. نهار .. ربيعٌ .. خريف ∴ ويقظة قلب بحضن الكرى
وسحر الجنان ونور البيان ∴ فمن أنزل الذكر من سطّرا ؟
ومن أحسن الخلق من قوّم ؟ ∴ ومن خلق العقل إذ فكرا ؟
ومن يبعث الكل بعد الفناء ؟ ∴ فَسَعْي أدم سوف يُرَى
ومن ألهم الطير تسبيحه ؟ ∴ وخلّد في الدهر «أم القرى»
فسبحان من صاغ هذا الوجود ∴ ومن خلق الكون ... من صورا

عبد العاطي موسى عبد العاطي – مهندس
الصف – جيزة

● ظلال النور ●

ظلال النور تغري بالظلام ★ وضوء الشجو يسري القتام
كأني في مدى الأحلام روح ★ تذرّه أراجيف الغمام
فما بين التنائي من وهادي ★ أداهن وجه آمال سقام
وأنسج في ثرى الأوهام حدسي ★ حسبنا للمدى نزق المرام
ولست أنا المهاجر من خريف ★ فما الطير تلت عن سلامي

رحاب محمد عابدين
مدرس لغة عربية

يا قريتي

ياقريتي عن مهجتي لاتغربي ∴ فلقد ولدت على ثراك الطيب
وضممتني طفلا صغيرا حابيا ∴ وخطوت فيك فكنت خير الملعب
وأظل مهموما إذا فارقتها ∴ حتى أعود إليك عند المغرب

ماجت بألــوان الجمــال تــزفها ... فى مــوكب (كالكرنفال) الصــاخب
فيهــا النخيــل يــزينه عــرجونه ... كالتــاج يلمع فى جبين معصــب
وهنــاك الجميــز تحت ظــلاله ... نحكى ونأخذ فى حــديث مسهب
وترى بها الكــافور ينصب قامة ... وقد اســتعد كحــارس متأهب
والنيل يحتضن الحقــول مقبلا ... مشتاقة لعطــائه المخصــوصب
فاخضــوضر الزرع البديع بمائه ... والزهر بــان بكل شــكل معجب
والطير سقسق فى الفضاء مسبحا ... لله فى الكــون الفســيح الارحب
يشجى بها صوت المؤذن مسـمعى ... والكون يســبح فى سكون ضارب
فتفتــت آمــالى وأحــلامى بهــا ... عند الصبــا وقضيت جل المآرب
سر الجمال بها بســاطة عيشــها ... أحبب بذاك العيــش فيهــا أحبب

مصطفى محمود مصطفى
كفر ربيع – منــوفية

رويدا .. رويدا



دعنى فى قلب التجربة الأولى..
مابين البحر وبين الغيب
دعنى أتهجى .. حرفا .. حرفا
من قاموس الحب ..
حتى تتكون فى آفاق حياتى
بعض من كلمات حيرى
تحبو فى هذا الدرب
فتكلم .. قل .. كرر .. حتى أهمس لك
إنى أحببتك من أعماق القلب

ماهر محروس محمد – طنطا

مع الأصدقاء

محمود عبد العزيز عبد المجيد – كفر الشيخ

–أنت تقول في قصيدتك « قالت بعد صمت لو تحكي لي الحكايا »« وهل يشفى الجرح الدامي لسه بيدايا » .. وهذا نثر لاوزن فيه ، وقولك «الحكايا» جمع حكاية خطأ لأن جمع « حكاية » هو «حكايات» .. أما «حكايا» فهو من غلطات شعراء هذه الأيام ! .. وقولك «بيدايا» خطأ وصوابه «بيديّا» .. وفي قصيدتك أغلاط أخرى مثل قولك : «بداية أو نهايا» .والصواب «نهاية» وإذا اردت الجمع فهو نهايات، وجملة القول أن قصيدتك نثر لاشعر ، والنحو والصرف فيها يحتاجان إلى مراجعات كثيرة ..

سوسن محمد خميس – شبراخيت :

قصيدتك : «لا كبرياء مع العشق» تحتاج إلى إصلاح كثير في الصرف والنحو والإملاء ، أما الأوزان فهي مشكلتك يابنيتي ، فأنت تحتاجين إلى أن تتعلميها كما تحتاجين إلى أن تتعلمي اللغة ، ونرجو لك التوفيق .

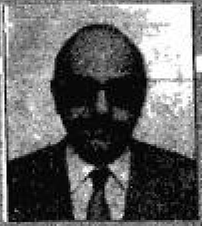
دكتور عماد الدين ناصر يوسف – أستاذ الفقة الاسلامي بمعهد طهطا سابقا :

– وصلتنا رسالتان باسمك ، ولاندري أأنت كاتبهما فعلا أم أن غيرك قد انتحل اسمك ، فالرسالتان طافحتان بالشتائم المقذعة لرجال ونساء في مصر والخارج ، مما يقع تحت طائلة القانون ولانستطيع نشره فضلا عن أن رسالتيك تعلنان بصراحة تكفير الناس وتهددان بأن قتل الدكتور فرج فودة هو – على حد تعبيرك – «نموذج مصغر لرأي الدين في هذا العلماني الكافر ، صاحب الكتب التي جاءت تقطر كفرا » ! .. وهذا كلام مُلْقيً على عواهنه يدل على منتهى الهوس والجهل ونستغرب صدوره من رجل يصف نفسه بأنه «دكتور وأستاذ في الفقة الإسلامي » ! .. فهل أنت ذلك الدكتور أم أن أحد الجهلاء انتحل اسمك !؟ ..

علاء العواني – طنطا :

– نحمد لك تواضعك ، فأنت تصف قصيدتك التي عنوانها «عين زين هاء» بأنها «محاولة شعرية» .. وإنها لكذلك ، لأن نصفها موزون ، ونصفها الآخر غير موزون ، ونرجو أن يجيء يوم تتمكن فيه من الاوزان بحيث لايختلّ منك وزن أي بيت ! ..

الكلمة الأخيرة



الغربة

بقلم : محمود أحمد

كيف يمكن تعريف الغربة ؟ !

وهل يمكن صياغة هذه الحالة الإنسانية الفريدة أو التعبير عنها في كلمات أو عبارات محددة ؟

طالما طافت بذهني هذه التساؤلات وغيرها ، وأنا أشاهد وأعايش المغتربين المصريين والعرب في أماكن تجمعهم – أو بالأحرى اغترابهم – على مدى ما يقرب من عشرين عاما .

وأبادر فأقر بأنني وجدت الإجابة بالغة الصعوبة . فالغربة ، أو الاغتراب ، تجربة حياة .. وحالة نفسية وعاطفية ومعاناة عملية وشخصية يتعذر حصرها في تعريف واحد محدد أو التعبير عنها بعبارات لغوية مهما أوتي المرء من بيان أو قدرة بلاغية . كما أن المغتربين حالات شتى [illegible] في تعريف جامع ، حتى إذا حاولنا أن نحصر هذا التعريف في معناه الضيق ، فقصرناه على بلد معين أو مجموعة [illegible] من المغتربين .

ومع ذلك ، فإنني وجدت – من معايشتي [illegible] من المغتربين – قاسما مشتركا يجمعهم دون أن يعرفوا ذلك أو يشعروا [illegible] ذلك الحنين الممض إلى الوطن الذي خلفوه وراءهم [illegible] الأمر [illegible] كلما مر [illegible] الولايات المتحدة منذ سنوات طويلة [illegible] إلى مراحل ثلاث [illegible] إذاعة عربية تقول أن [illegible] وقال إن المرحلة الأولى هي مرحلة الحماس [illegible] والثانية مرحلة محاولة الاستقرار [illegible] الهدف الذي يكون قد [illegible] المرحلة الثالثة ، فهي الاستكانة إلى شعور بالحنين الممزوج بالحزن الكامن في الأعماق ، والتمني لو أن المقادير أو الظروف لم تلق به إلى هذه الأرض التي يتعذر على جذوره أن تضرب في أعماقها .

ليس مدهشا ، بعد ذلك ، أن تجد « حالة الغربة » لدى المهاجر تعبر عن نفسها إما بتقلصات غير طبيعية قد تنعكس سلبيا عليه وعلى أسرته ، أو في أنماط من التصرفات قد لا يدرك هو لها تفسيرا .. كأن يصر على ألا يتزوج ابنه إلا من بنات الوطن الأصلي ، أو أن يستعين بالأفلام « الفيديو » يفرضها على أولاده فرضا في محاولة الإبقاء على خيط اتصال مع « روح » الوطن ..

أو أن يصبو أحدهم ميالة موجهة إلى الوراء .. فإذا به يسميها : « غربة » !



بطاقة من البنك لضمان شيكات الأهلى كارد
الصادرة من العميل لأى من المتاجر أو الفنادق أو المحال

إلى عملاء البنك الحاليين والجدد

- تضمن سداد قيمة مشترياتك من المتاجر والمحال والفنادق .
- تجنبك مخاطر حمل الأموال .
- تحقق لك الطمأنينة أينما ذهبت فهى مضمونة السداد من البنك الأهلى المصرى .
- تتيح لك الصرف النقدى بموجب الشيكات الخاصة بها من أى فرع من فروع مصرفنا فوراً وبدون أية عمولات .

لا تتردد ... اطلب الأهلى كارد ستجدها فى أى فرع من فروع البنك الأهلى المصرى

إلى أصحاب المتاجر والفنادق والمحال

- تنشط مبيعاتك .
- تجنبك مخاطر الاحتفاظ بالأموال فى خزينتك

اطلع على البطاقة .. ولا تتردد فى قبول شيكات الأهلى كارد ...
فهى مضمونة السداد من أى فرع من فروع البنك الأهلى المصرى

لمزيد من الاستفسار يرجى الاتصال بقطاع التسويق المصرفى
٨ ش إبراهيم نجيب – جاردن سيتى ت : ٣٥٤٤١١٨ – ٣٥٤٥١٤٠
وكذا أى فرع من فروع البنك المنتشرة بجميع أنحاء مصر

الأهلى كارد
الضمان .. والأمان

البنك الأهلى المصرى
٩٤ عاماً فى خدمة إقتصاد مصر

الهلال

سبتمبر ١٩٩٢ • الثمن ١٠٠ قرش

٢٠٠٠

القرن الحادي والعشرون

ندوة الهلال :
مائة عام من التنوير والتحديث

● حديث الصور والذكريات

● سيد درويش والثور الأبيض


المنظف الصناعى
نيون ٢٠٠٠
ذو الرغوة الوفيرة
والرائحة الذكية
إنتاج:
شركة الإسكندرية للزيوت والصابون

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال

أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

عبد الحميد حمروش نائب رئيس مجلس الإدارة

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) . المكاتبات : ص . ب ٦١٠ - العتبة - الرقم البريدى : ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج . م . ع . مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨٦
تلكس : Hilal un 92703 فاكس : FAX : 3625469

مصطفى نبيل رئيس التحرير

محمد أبو طالب المستشار الفنى

عاطف مصطفى مدير التحرير

محمود الشيخ المشرف الفنى

عيسى دياب سكرتير التحرير التنفيذى

ثمن النسخة : سوريا ٥٠ ليرة ، لبنان ٢١٠٠ ليرة ، الأردن ١٠٠٠ فلس ، الكويت ٧٥٠ فلسا ، السعودية ٨ ريالات ، الجمهورية اليمنية ٢٥ ريالا ، تونس ١٫٥ دينار ، المغرب ١٥ درهما ، البحرين ٨٠٠ فلس ، قطر ٨ ريالات ، مسقط ٨٠٠ بيسة ، غزة والقدس والضفة ٨٠ سنتا ، إيطاليا ٢٧٠٠ ليرة ، لندن ١٢٥ بنسا ، نيويورك ٤ دولارات ، الإمارات العربية المتحدة ٨ دراهم ، الجماهيرية الليبية العظمى ١ دينار ، السودان ٥٠ ج . س .

الاشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى ١٢ جنيها فى ج . م . ع . تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ١٦ دولارا - أمريكا وأوربا وآسيا وأفريقيا ٢٥ دولارا - باقى دول العالم ٣٠ دولارا
والقيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال . ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد

فكر وثقافة :

٨ ندوة الهلال

١٢ مصطفى نبيل
حديث الصور والذكريات

٣٦ د. شكرى عياد
(القفز على الاشواك)
قراءات الشباب

٤٢ د. صبرى حافظ
محمد روميش
قصاص مأسى الفقراء

٥٠ د. رءوف عباس
الطبقة الوسطى المصرية بين الوعى الطبقى والوعى الإجتماعى

١٨٨ د. لطيفة الزيات
محمد البساطى ورواية قصيرة

القرن الحادى والعشرون :

(جزء خاص) :

٥٨ د. جميل مطر
رؤية لمستقبل مصر

٦٦ د. السيد نصر
ثورة المعلومات والمنظومة القومية للمعرفة



٧٠ د. بهائى السكرى
عصر الليزر

٧٤ د. محمد القصاص
قضايا القرن الـ ٢١

٨٦ د. مصطفى سويف
العلوم النفسية بين حاضر يمضى ومستقبل يقترب

٩٤ د. جلال امين
الفكر الاقتصادى فى القرن الحادى والعشرين

١٠٠ د. ميلاد حنا
ترييف المدن وبندرة القرية

١١٠ محمود قاسم
الخيال وقراءة المستقبل

١١٦ د. رجب البيومى
الهلال وارتقاء الأسلوب الأدبى

١٢٢ مهدى الحسينى
مستقبل الإنتاج المسرحى فى مصر

١٣٠ مصطفى درويش
سينما المستقبل بين الواقع والخيال

١٣٨ نادر فرجانى
العرب وأوربا فى نهاية القرن العشرين

١٤٨ د. عبد الملك عودة
القرن الواحد والعشرون يدخل أفريقيا

فنون :



١٥٦ كمال النجمى
سيد درويش والثور الأبيض !

١٦٢ د. صبرى منصور
مائة عام من الفنون التشكيلية فى مصر



قصة وشعر :

١٧٨ رجب السيد

الجائعة (قصة)

١٨٦ د . أحمد تيمور

عشق الزاى (شعر)

رسائل صحفية :

٢٠٠ د. على شلش

الرجل الذى أحب مصر

(رسالة لندن)

الأبواب الثابتة :

٦ عزيزى القارئ

٦٥ أقوال معاصرة

١٩٥ العالم فى سطور

٢٠٨ التكوين

٢١٨ أنت والهلال

٢٢٦ الكلمة الأخيرة

(كامل زهيرى)

القرن الحادى والعشرون

نستقبل القرن الحادى والعشرين ، ونحن نبا

تصارى جهدنا فى أن تتبدل صورة الماضى إ

غد مشرق جميل ، ولا تتوقف طموحات الإنسان

الذى يعمل ويجتهد لتحسين صور الحياة وتجميله

وفى هذا العدد المتمم لمائة عام من عم

الهلال ، نقدم جزءاً خاصاً نناقش فيه قضا

القرن الحادى والعشرين وفى مقدمتها قض

السكان ، خاصة وإن الإنسان هو محور التن

وعاملها الأساسى ، ونحن نواجه زيادة رهيبة ف

عالمنا الثالث ، حيث من المتوقع أن تصل (...)

إلى ٨٥٠ مليونا كل عشر سنوات ، وبهذا يزد

الفقراء فقرا ، ويزداد الأغنياء غنى ، وتتعاظ

الفجوة بين الأغنياء والفقراء .. ومثل قضية السك

تبرز قضايا الإسكان فى مصر ، والخطر الذ

يواجهنا ، فضلا عن طرح قضايا عديدة تش

الاقتصاد والثقافة وأفريقيا فى القرن الحاد

والعشرين .

وتبرز قضايا ملحة فى مقدمتها بلورة الرؤ

المستقبلية لمصر والأسس الموضوعية التى تحد

أهدافنا ، وتضعنا على الطريق المنشود للتط

والإرتقاء وبلا شك يؤكد ذلك دور « الهلال » ف

طرح قضايا المستقبل وحرصا منها على أد

دورها الثقافى والريادى المعروف عنها منذ نشأتـ

حتى اليوم .

المحرر

مائة عام بالكلمة والصورة

فى مثل هذا الشهر – سبتمبر ١٨٨٢ – وقعت هزيمة التل الكبير التاريخية الأليمة ، ودخل الإنجليز مصر ، وذهب قائد المصريين فى التل الكبير – أحمد عرابى باشا – إلى منفاه فى جزيرة سيلان ..

وفى مثل هذا الشهر أيضا – سنة ١٩٠١ – عاد عرابى من غربة المنفى ، فاستقبله خصومه بالتنديد الشديد ، بصفته المسئول عن الهزيمة وإحتلال الإنجليز لمصر .

وتبارت بعض الصحف حينذاك فى هجاء العائد من المنفى ، ونظم أمير الشعراء أحمد شوقى قصيدة فى استقبال عرابى يهجوه بها قائلا فى مطلعها :

[صَغَارٌ فى الذهاب وفى الإياب
أهذا كل شانك ياعرابى ؟ !]

والصَّغَار – بفتح الصاد – بمعنى الهوان والذل !.. وقد نشر مصطفى كامل باشا هذا الهجاء فى جريدته اليومية «اللواء» .. ثم نظم شوقى قصيدة أخرى ونشرها فى «اللواء» أيضا ، يعزز بها قصيدته الأولى فى هجاء عرابى ..

واشتد الجدل – بعد تسعة عشر عاما من المعركة – بين من لم يشهدوها إلا من بعيد، وبين عرابى الذى اكتوى بنارها ودفع ثمن فشله فيها ..

وتعليقا على ذلك كتب عرابى فى مذكراته التاريخية يقول : «إن رجوعنا إلى وطننا العزيز لم يرق فى نظر خصومنا الجهلاء ظناً منهم أننا بعنا الوطن للإنجليز ، فأوعزوا إلى بعض الجرائد المأجورة للتنديد بنا ، فوجهت إلينا سهام جهلها وسفهها » .

هذه المذكرات التى كتبها عرابى كانت من الوثائق التاريخية التى نشرتها «الهلال» فى حينها ثم أعادت نشرها ..

واليوم يلعب التاريخ نفس اللعبة ، أو يُعيد نفسه كما يقال ، ولكن فى صورة أخرى ، فيحتدم الجدل بين المصريين حول هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ والمسئولين عنها ..

لقد تلقت ثورة يوليو هزيمة عسكرية كالهزيمة التى تلقتها من قبل ثورة عرابى ، وقد انتهى الجدل حول ثورة عرابى وهزيمتها ، لأن الحياة تصحح نفسها بلا انقطاع ولو بعد عشرات أو مئات من السنين ، فلا يبقى إلا المثل الأعلى الذى ترفعه الحياة كالسراج فى ثبج الصحارى يرشد التائهين ، ولاتقدر على إطفائه العواصف ، أو كما قال شوقى نفسه بعد ذلك وهو واقف على قبر البطل يوسف العظمة الذى هزمه

الفرنسيين في معركة ميسلون على مشارف دمشق قبل سبعين عاما :

[سراجُ الحق في ثَبَجِ الصحارى
تَهابُ العاصفاتُ له ذُبالاً]

فلنستبق العبرة المفيدة ، والمثل الصحيح ، من عثرات نضالنا ! ..

عزيزى القارئ :

لم نكد نفرغ من طباعة عدد « الهلال » الذى تطالعه حتى شرعنا فى وضع اللمسات الأخيرة فى « سجل الهلال المصور » ، .. وهو مجلد ضخم يحوى مئات الصفحات النادرة التى تضم حشدا من الكلمات والبيانات والصور التاريخية لمائة سنة من التنوير والتطوير فى جميع مجالات الحياة بمصر ..

ولانريد أن نسبق الأيام فنقول إنك ستجد هذا السجل عملا ثقافيا غير مسبوق فى الصحافة المصرية ..

فلنرتقب معا صدور هذا السجل الكبير ..

عزيزى القارئ :

تواكب سجل الهلال فى الصدور « موسوعة الكتب العربية المائة » التى كان لها أكبر الأثر فى تفكير الانسان المصرى والعربى منذ صدور « الهلال » سنة ١٨٩٢ حتى سنة ١٩٩٢ وهى موسوعة ضخمة حافلة اشترك فى تحريرها عشرات من أكبر الكتاب والأدباء والصحفيين ، وتتحدث عن عشرات من أمهات الكتب ، وتعرضها عرضا دقيقا شاملا ..

وقد تزايد الطلب على طبعات مجلدات الهلال المائة ، مما حفزنا إلى طبع مجلد السنة الأولى (سنة ١٨٩٢) وطرحه مع الموسوعة وسجل الهلال ..

عزيزى القارىء :

فى الأسبوع الثانى من هذا الشهر تنعقد الندوة الاحتفالية الكبيرة ذات الأهمية الخاصة ، التى تقيمها «دار الهلال» احتفالا بمائة عام من التنوير والتحديث فى مصر .. وسوف ينبثق من هذه الندوة التاريخية الفريدة فى بابها ، ضوء جديد يغمر الطريق التى تسير فيها مواكب التنوير والتحديث ، على مشارف القرن العشرين ، وما يتلوها من عقود السنين المترامية على آفاق المستقبل ..

ونحن وإياك – ياعزيزى القارىء – على لقاء متجدد إن شاء الله ..

«المحرر»

ندوة الهلال

هذا هو مشروع ورقة عمل لندوة الهلال التى ستعقد فى النصف الثانى من سبتمبر المقبل ويدعى إليها قادة الفكر من كل أنحاء العالم .. وموضوعها ..

«نحو مائة عام جديدة من التنوير والتحديث»

مائة عام انقضت على ميلاد مجلة «الهلال» . وهى ليست مائة عام من حياة مجلة هى أقدم المجلات العربية نشأةً واستمراراً ، وإنما هى كذلك مائة عام من حياة الثقافة العربية ، التى كانت ولاتزال مجلة «الهلال» سجلا أمينا لأبرز اجتهاداتها وإبداعاتها ، ومنبرا رفيعا لألمع كتابها ومفكريها . ولقد كانت مجلة «الهلال» مصرية النشأة ، ولكنها منذ البداية كانت تحتضن الثقافة العربية فى مختلف تجلياتها ، وتتابع منجزات عصرنا الراهن فى مختلف مجالاتها ، تعرض لها وتتحاور معها ، ولهذا فمجلة «الهلال» عبر أعدادها المتتالية التى لم تتوقف منذ سبتمبر عام ١٨٩٢ ، وبتنوع دراساتها وموضوعاتها ، تكاد تعبر عن الأسئلة الرئيسية التى فجّرها المثقف العربى طوال هذه السنوات ، من أجل الخروج بالثقافة العربية وبالواقع العربى عامة ، من وهدة التخلف الفكرى والتشتت القومى إلى آفاق التنوير والتحديث والنهضة والتوحد ، تأكيدا وتطويرا للهوية العربية الخاصة ، ولحاقا وتفاعلا مع حضارة العصر .

ولهذا كان حرصنا على الاحتفال بمرور مائة عام على صدور مجلة «الهلال» ، ليس حرصا على الاحتفال فحسب بما تمثله هذه المجلة من قيمة ثقافية وتاريخية ، وإنما هو حرص كذلك على الاستفادة من هذه المناسبة ،

لإعادة قراءة الهموم والأسئلة ، الرئيسية التى عبرت عنها الثقافة العربية طوال هذه السنوات المائة التى تعد بحق أهَم سنوات التنوير فى تاريخنا العربى الحديث .

وإعادة القراءة لا تعنى الرصد المجرد لما تم إنجازه ، أو الرفض المتعالى له ، وإنما تعنى دراسته دراسة تحليلية نقدية لتحديد دلالته - سلبا وإيجابا - فى مسيرة التنوير .

على أن إعادة القراءة لا تعنى كذلك مجرد الوقوف عند منجزات هذه السنوات المائة ، وإنما تعنى أساسا الانطلاق من هذه الدراسة التحليلية النقدية لها ، لاستشراف آفاق الحاضر والمستقبل والتصدى لما تثيره من تحديات وأسئلة جديدة ، وما تفرضه من مسئوليات وواجبات ملحة .

على أن الأمر المثير للتأمل والدهشة ، هو أنه بعد مائة عام من التنوير والتحديث ، نتبين أن أغلب الأسئلة التى فجرها رجال عصر النهضة منذ أواخر القرن التاسع عشر بوجه خاص ، لاتزال فى الجوهر هى نفس الأسئلة التى تحتدم بها الثقافة العربية فى أيامنا هذه ونحن على مشارف القرن الحادى والعشرين . ونتساءل بحثا عن تفسير ذلك :

كيف تظل نفس الأسئلة دون تغيير رغم ما تحقق فى البلاد العربية عامة من تغيير وتحديث وتنوير بدرجات متفاوتة طوال هذه السنوات ؟ هل معنى هذا أن التغيير والتحديث الذى تحقق هو تغيير وتحديث سطحى برانى لا يمس جوهر الأوضاع العربية ، وأن التنوير الذى انتشر هو تنوير محدود بحدود بعض النخب المتعلمة والمثقفة ، ولم يبلغ الهياكل والجذور الشعبية والاجتماعية الأساسية ؟ على أن الذى لا شك فيه ، أن أغلب أسئلة عصر النهضة ، لاتزال معلقة تنتظر إجاباتها العملية الموضوعية التى لم تتحقق بعد ، ولا نقول إنها قد أجهضت .

* فلاتزال قضية الدولة المدنية والدولة الدينية مثار خلافات ونزاعات فكرية وسياسية ، وتكاد تمزق بعض المجتمعات العربية ، برغم أنها لم تبلغ هذه الحدة الخلافية فى البدايات الأولى لعصر النهضة .

* ولاتزال الدعوة إلى الإصلاح والتجديد الدينى ، شعارات عامة لم ترتفع إلى مستوى المشروع المتكامل الذى كان قد بدأه باقتدار وجسارة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، بل ما أكثر ما تهبط هذه الشعارات إلى مظاهر وأفكار متخلفة .

* ولاتزال قضية الوحدة العربية معلقة ، بل لعلها قد أخذت تفقد بريقها وحرارتها هذه الأيام وخاصة بعد حرب الخليج ، وأخذت تستشرى بعض الاتجاهات القطرية والانعزالية .

* ولاتزال قضية التنمية الاقتصادية - الاجتماعية الشاملة ، مفتقدة فى كل بلد عربى ، وعلى المستوى العربى عامة ، فضلا عن اختلاف الاجتهادات بشأنها بين البلاد العربية مايضعف من إمكانية التنسيق والتكامل فى عصر أخذت فيه مختلف التجمعات الاقليمية فى العالم تتجه إلى التكامل والتواحد .

* ولاتزال قضية العلاقة بين التراث والعصر ، بين التقليد والتحديث ، بين النقل والعقل ، قضية خلافية حادة تتجسد فى العديد من الظواهر والتقاليد الفكرية والأدبية والفنية والحياتية ، مما يفقد حياتنا الاجتماعية والقومية طابع التجانس ، ويضعف فى كثير من المجالات روح العقلانية والتجديد والإبداع .

* ولاتزال العلاقة بين الأنا القومى والآخر الغربى موضع تفسيرات ومواقف مختلفة تتراوح بين الدعوة إلى الاندماج المطلق على حساب خصوصيتنا القومية ، أو الرفض المطلق على أساس طائفى يكاد يصل أحيانا إلى حد صياغة رؤية صليبية جديدة لهذه العلاقة ، أو محاولة التوفيق والتلفيق المظهرى بين خصوصية الهوية العربية وبين الآخر الغربى ، أو محاولة استيعاب حقائق العصر والتفاعل معها وخاصة فى منجزاته العلمية والتكنولوجية والديمقراطية والبيئية دون التخلى عن هويتنا القومية

وخصوصيتنا الثقافية .

* ولاتزال قضايا الحرية والديمقراطية والاستنارة العقلية وحقوق الإنسان تعاني من أشكال مختلفة من الحصار والتسلط والقمع ، ويكاد الموقف من المرأة - بوجه خاص - أن يرتد عما سبق أن اكتسبته من حقوق ومكانة اجتماعية ومدنية منذ أوائل عصر النهضة ، فتشيع مفاهيم وقيم حول المرأة تكاد تعود بنا إلى عصر الحريم .

هذه هي أبرز أسئلة عصر النهضة التي حاول المثقفون العرب - طوال المائة عام الماضية - اكتشاف إجابات وحلول لها على المستوى النظري والعملي ، على أنها لاتزال أسئلة معلقة محتدمة في ثقافتنا العربية الراهنة .

فهل نستطيع أن نجعل من احتفالنا بهذه السنوات المائة من حياة مجلة «الهلال» ومن حياة تجارب التنوير والتحديث في ثقافتنا العربية ، وقفة لتأمل هذه الأسئلة تأملا نقديا شاملا في ضوء خبرة الماضي ، ومتطلبات واقعنا العربي الراهن ، وفي إطار عالم اليوم الزاخر بالتحولات الكبرى ونحن على مشارف القرن الحادي والعشرين ؟! .

هل نستطيع أن نجعل من هذا الاحتفال نقطة انطلاق ثقافية نحو مائة عام جديدة من التنوير والتحديث ؟

إننا لا نطمع أن يصل هذا الاحتفال وخاصة في الندوة التي نريد أن نخصصها لهذا الموضوع إلى إجابات حاسمة جديدة لهذه الأسئلة المعلقة . على أننا نتطلع على الأقل إلى أن يكون هذا الاحتفال ، وهذه الندوة خطوة في هذا الطريق ، تتحرك بها الثقافة الراكدة ، وتنقشع بها حالة الإحباط واليأس التي ترين على بعض العقول والنفوس ، وتتوحد فيها الطاقات الثقافية والإبداعية العربية المختلفة من أجل مائة عام جديدة من التنوير والتحديث .

حديث الصور والذكريات

بقلم : مصطفى نبيل

كثيراً ما يقف المرء لاهثا أمام صورة فوتوغرافية ، يشعر كأنها تحدثه ، تثير لديه شحنة من الحنين والذكريات ، تقوده تلك الصورة الى ألبومه الخاص ، يتابع الصور النابضة بالحياة ويلاحظ تدفق واستمرار حركة الأحداث ، تعيش فيها الذاكرة لحظة حاضرة تستند الى ماضى حى ومتوهج ..

ترسم الصورة بالضوء والظلال وتجسم الموقف والفكرة ، تقدم ما صورته الكلمة وتخيله المصور ، تشكل الكلمة والصورة معا ما بين الموسيقى والشعر ..

وأصبحت الصورة جزءاً هاماً من حياتنا ، نراها فى كل مكان ، ونستعملها لأكثر من هدف ، فيضاف الى الحاجة اليها فى الكثير من الأعمال الرسمية ، تذكريات الماضى التى كثيرا ما تضعها فى مكان أمين ، نعود اليها بين وقت وآخر ، تنعكس هموم المرء ومشاغله .

وبعض الصور لها مكانة كبيرة وخاصة تلك التى تجسد استعادة اللحظة والحدث والعصر بكل ما فى ذلك من نبض ، ولا تقل أهمية عدسة المصور عن قلم الكاتب ، وكثيرا ما تفصح أكثر مما يفصح القلم ، ونافست الصورة فى زمن قصير الكلمة بل وكثيراً ما تفوقت عليها ، بعد أن أصبحت مسجلاً أميناً للتعبير عن المشاعر ، فكثيراً ما تقتنص العدسة البسمة وتضبط التقطيبة والدمعة ، وهى تحمل ما فى الوقائع المحسوسة من ماء الحياة .

من هنا جاءت فكرة أن يقدم «الهلال» في عيده المئوي في مجلد كبير سجل الهلال المصور، تنقل خلاله للقارىء العربي أهم وأجمل اللقطات خلال مائة عام، والذي سيصدر قريباً. ويقول السجل: «لا يعظ أكثر من الحقيقة»، تلك الحقيقة المتمثلة في لقطات حية تراكمت في أرشيف الهلال على مر الأيام والسنين، ويضم السجل أفضل اللقطات التي سجلتها عدسات مصوريها، يعيش القارىء في الأيام القديمة بخيرها وشرها، وتنعش ذاكرته البصرية والتاريخية في لقطات بديعة تدهش من يراها، بعضها لوحات تلقائية بديعة تريح العين، وتنقل طعم الحياة وملامحها حتى تكاد تعيش العصر، وتشم رائحته.

وأقمنا في هذا السجل مصالحة تاريخية بين مراحل التاريخ المختلفة، باعتبارها مراحل بدأت وانتهت، ونظرنا الى مراحل التاريخ من وجهة نظر محايدة تحتفى بما هو إيجابي، وتحتفى بكل ما هو تعبير عن تطلعات أبناء الوطن الى العدل والتقدم، وهذه النظرة نحن في أشد الحاجة إليها في نهاية قرن وعلى مشارف قرن جديد.

وشد انتباهنا في هذا السجل: الماضي البعيد الذي أصبح تاريخاً، وحياة الرواد الأوائل في المجالات المختلفة، وحتى إذا كان ذلك على حساب الماضي القريب والزمن المعاصر، على أمل أن يأتى جيل بعدنا يكون أقدر منا على تقديم أحداث هذا الزمن بعد أن تصبح تاريخا، والتزمنا بمنهج الانتقاء وليس الحصر، بعد أن وجدنا أن تقديم كل الشخصيات والأحداث أمر يصعب تحقيقه ويحتاج الى الكثير من الصفحات.

كما التزمنا بالمنهج التاريخي والتتابع الزمني في العناوين التي قدمناها

وأعطينا الإهتمام الأكبر لملامح الحياة الاجتماعية والفكرية ونقل نجوم الأدب والفكر والفن على أن يأتي بعدها الملامح السياسية والاقتصادية، حتى يتمكن القارىء من متابعة قرن غني بالأحداث والصور والظلال، في صور ناطقة يرى خلالها تفاصيل العمارة والأزياء، وكافة ملامح وتفاصيل كثيراً ما يغفل عنها المؤرخون.

وقدمت لنا الكاميرا صور الحياة الإجتماعية المختلفة، وسجلت صور الرواد والكثير من الأحداث التاريخية، وفرضت الكاميرا وجودها مع نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، وأخذت الصحف والمجلات المصرية تسجل صور الشخصيات والأحداث المتتابعة، وما أكثر اللقطات التي اكتسبت مع الأيام قيمة تاريخية كبرى.

فلقطة الصور هي الحقيقة ماثلة بعيدة عن التحريف، وهي جزء من الواقعية ومنهجها الإبداعي، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن العمل الفني المتمثل في عدد هذه اللقطات أشبه بمنجم غني بكنوز لا تنضب.

ونواصل تقليب سجل الصور في مختلف مناحي الحياة المصرية.

ونقدم الى القارىء سجلا مصورا تذكارا للماضي وبشرى للمستقبل، بعد أن انعقدت بين الكاميرا والصحافة علاقة حميمة، فالصورة هي الوجه الثاني للكلمة.

ويتضافر فى هذا السجل الكلمة المكتوبة التى اخترعها الانسان مع الكاميرا ، التى التقطت الصورة الضوئية منذ ما يقرب من مائة وخمسين عاما .

والكلمة والصورة تمضيان مع الانسان الى مستقبله ويشكلان سلاحه فى التعبير أمس واليوم وغدا .

ويظهر « سجل الهلال المصور » المجتمع المصرى فى تطوره ، نجاحه وإخفاقه ، ونرى من خلاله الحياة اليومية فى وجوهها المختلفة ، فجهودنا تتجه الى أن نحفظ لأحفادنا تصويرا حيا للقرن الماضى ١٨٩٢ - ١٩٩٢ عن طريق تقديم تلك اللقطات التى تمنح الحياة اتصالها .

وبينما تقلب صفحات « سجل الهلال التذكارى » يغيب المكان والزمان وتستحضر فى لحظات أزمنة مختلفة ، كما ترى العديد من الأماكن وأنت لم تبرح مكانك ، وينتقل اليك العالم بل الكون كله .

وكنا ونحن نعد « سجل الهلال المصور » نكمل دور مجلة الهلال ورسالتها للأجيال العربية الثقافية ، فعلى كل جيل أن يسلم الراية والخبرة والذاكرة البصرية للجيل الذى يليه .

وأن « الهلال » أقدم دار صحفية أولت إهتماما بالغا بالصورة ، هى المؤهلة لكى تقدم هذا العمل الكبير والجليل .

فإذا كانت السنوات هى اتصال الزمن ووحدة الحياة ، إلا أن مائة عام من الهلال فرصة كبيرة يراجع المرء فيها قرنا مضى ويستعد لقرن مقبل ، ومن حقه أن يتطلع للأجمل .

ولن يتمكن أحد من السير الى الأمام إذا اكتفى بالنظر الى الخلف ، ولم يتطلع الى المستقبل بهدف اقتحامه .

وباقى من الزمن ثمان سنوات ونجد أنفسنا فى سنة ٢٠٠٠ ونخرج من القرن العشرين لكى ندخل القرن الحادى والعشرين ، ولم يعد أمامنا سوى الرهان على المستقبل ، ولن نكتفى بالنظر الى الماضى على أنه الزمان الجميل ولن نغرق فى الحاضر ، ولكن على المجتمع كله أن يقرر اقتحام المستقبل .

ونحن أمام فرصة تاريخية لا تتكرر ، فعدد قليل من المجلات الشهرية ، لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة ، عاشت مائة عام ، تجذب اليها القارئ ، وتثير اهتمامه ، ومن هذه المجلات « مجلة الهلال » .

واستمر الهلال مصدر الاشعاع الثقافى يتلألأ فى سماء القاهرة ، يلتف حول هذا المصدر العرب جميعا ، وكثيرا ما يعيش الرمز أكثر مما يعيش أصحابه ، ويتحور معنى الرمز ولكنه لا يفقد دلالته ، ومجلة « الهلال » عند صدورها كان اسمها رمزا للأرض التى تعيش فوقها ، ومضمونها رمزا لاتجاه جديد فى صحافة الثقافة العربية

مما يلقى على عاتقها مسئولية كبيرة .

وقد دأبت مجلة « الهلال » على مواجهة المتغيرات من حولها ، وكانت احدى أدواتها تطوير المادة الثقافية ، واستخدام أحدث التقنيات فى الصورة الفوتوغرافية ، فقفزت مع أشقائها فى « دار الهلال » فى فن التصوير الصحفى ، وأصبحت رائدة فى فن جميل ساحر ، وقدمت عدسة الهلال صورا لمناحى الحياة المختلفة ، ونقلت

العدسة القارىء ليرى بالألوان والأبيض والأسود أماكن يصعب عليه الوصول اليها وكما يقول المثل الصيني « الصورة خير من ألف كلمة » .

وأدى تطوير طباعة المجلة الى كسب قراء جدد ، ومكنتها الطباعة الحديثة والاخراج الحسن من الوقوف أمام منافسة التليفزيون ووسائل الاتصال الحديثة الأخرى . وأثبتت تجربتها أن الحاضر والمستقبل مازالا للتحالف بين كلمات الكاتب وعدسة المصور وريشة الرسام مع تطور فن الطباعة الحديثة .

فالمجلة تقرأ بالعقل وترى بالعين ، ويكسر الإخراج الجيد الرتابة ، وينوع الايقاع ، وتقطع الصورة مجرى الكلمات فتضيف الى معمارها معنى ومغزى ، وجمعت المجلة فى فترات كثيرة الإجادة فى كل من التحرير والتصوير والإخراج ، وأخذت قارئها الى آفاق جديدة وجعلته يسافر على الورق فى ربوع العالم المختلفة ، وقدمت للقارىء جوانب من ثقافات الشعوب وفنونها ، كما تنقل اليه شخصية المكان وتاريخه وتطوره .

وتصحب القارىء الى آفاق العلم الجديدة وتأثيراته على مستقبل الانسان ، وتجذب القارىء بفتنة الاكتشاف ، وترفع الستار عن كل غامض ومجهول ، وتتوقف عند كل غريب وفاتن وجميل .

وكان أكبر إنجازاتها هو فن التبسيط ، مما ساعد المجلة على الوصول الى قارئها ، وأحدثت المجلة تأثيرات عميقة على كل من الادراك والخيال بصورة تجذب وتشبع .

وكانت مناسبة الاحتفال فرصة سانحة لتجميع كل هذه الجهود بين دفتى كتاب واحد يختزل الزمان ويقدم فرصة لإعادة التأمل والتفكير .

فنحن أمة تبحث عن المستقبل ، تراثنا يمتد وراءنا آلوف السنين ، ولكنه سوف يذهب أدراج الرياح إذا جمدناه ولم نتخطاه ، إن ماضى مصر والبلدان العربية يمتد الى أعماق آلوف السنين التى خلت ، ولكن ماذا يجدى هذا الماضى إذا كان حاجزاً يقف بيننا وبين مستقبلنا .

القرن الحادى والعشرون يفتح ذراعيه ، ولا يجوز لنا أن ننكص نحن على أعقابنا عائدين الى ماض سحيق .

ونتمنى عندما نقلب هذا السجل أن يدفعنا الى تغيير الكثير فى صورة الأمة العربية ، وأن تنتقل من التفكك والانقسام الى التكامل والوحدة ، ونتمنى أن تحقق الحد الأدنى من الأهداف العربية الحيوية ، لأنها بدون تحقيقها لا تستطيع أن تواجه عالماً يتغير ويتطور ويتجه الى المستقبل بأعمال وأفكار وخطط ومشروعات تتخلف الأمة العربية عنها .

ونتمنى لمن يقلب صفحات هذا السجل أن يجيب على السؤال التالى : ما الذى يجعل شعبا ينهض ويتقدم ؟ .. وما الذى يجعل شعبا ما ، يكون متقدما ناهضا ، يضمحل ويتقهقر ؟ .. ويلاحظ أنه كثيرا ما يحدث هذا لنفس الشعب فى عصور مختلفة .

والجواب الذى تؤكده كل لقطات السجل ، أن ايمان الشعب بدوره ورسالته هو الذى يجعله يصنع المعجزات ، وغياب هذا الايمان هو الذى يجعله ينزلق الى التدهور والإضمحلال .



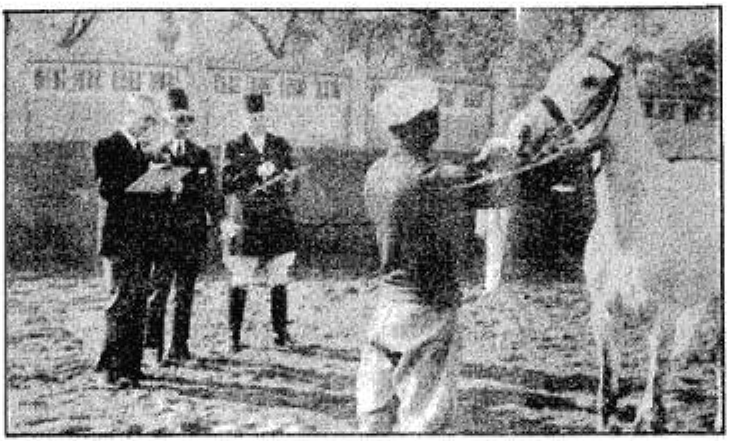
شفق نور هانم ، عباس ومحمد على من جدتهم أم الخديو توفيق



برنارد شو فى مصر

عزيز المصرى عندما كان ضابطا بالجيش التركى

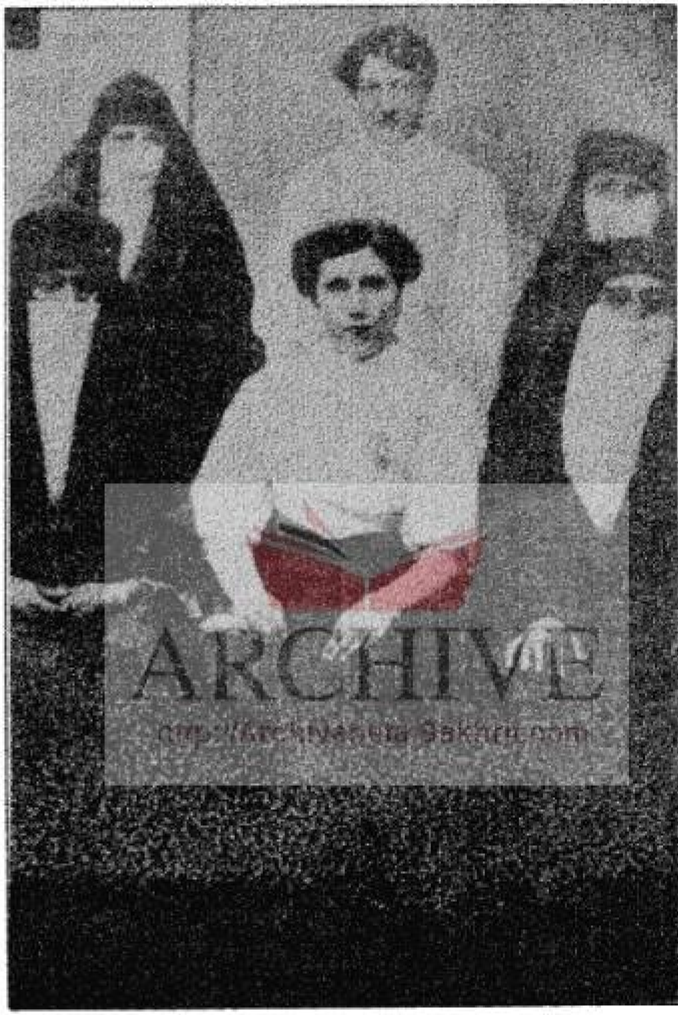




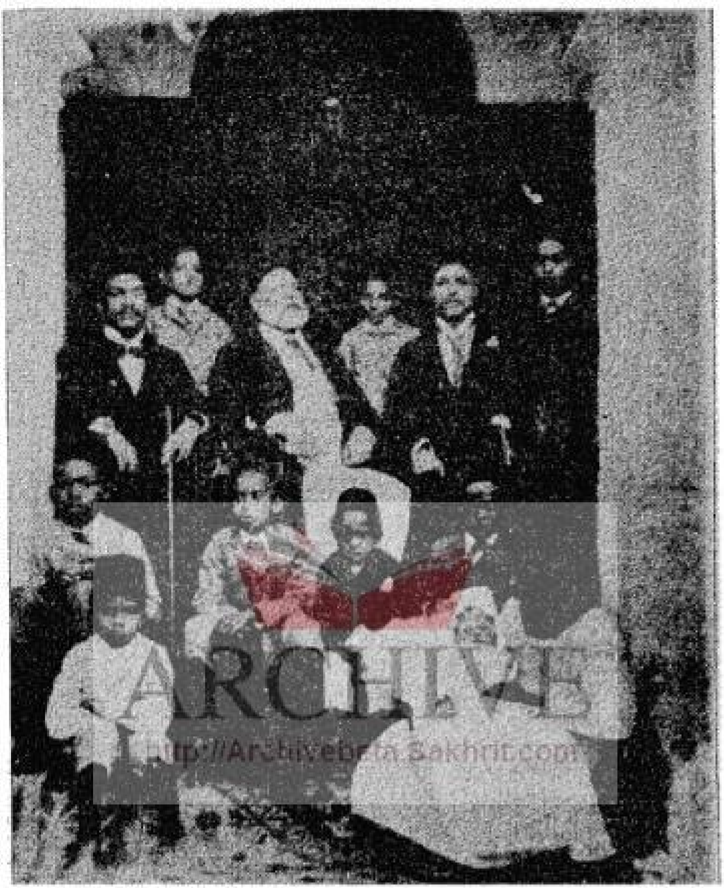
الأمير يوسف كمال مؤسس مدرسة الفنون الجميلة



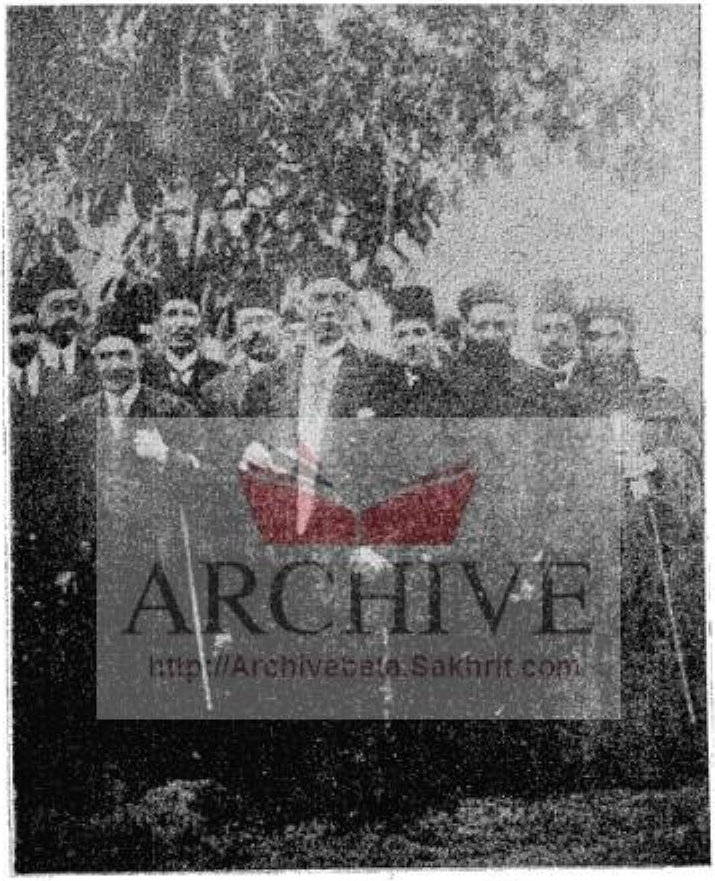
قسم النحت بمدرسة الفنون الجميلة



تلميذات المدرسة السنية منذ الثلاثينات بالبرقع والحبرة



عرابي بين أولاده وأحفاده

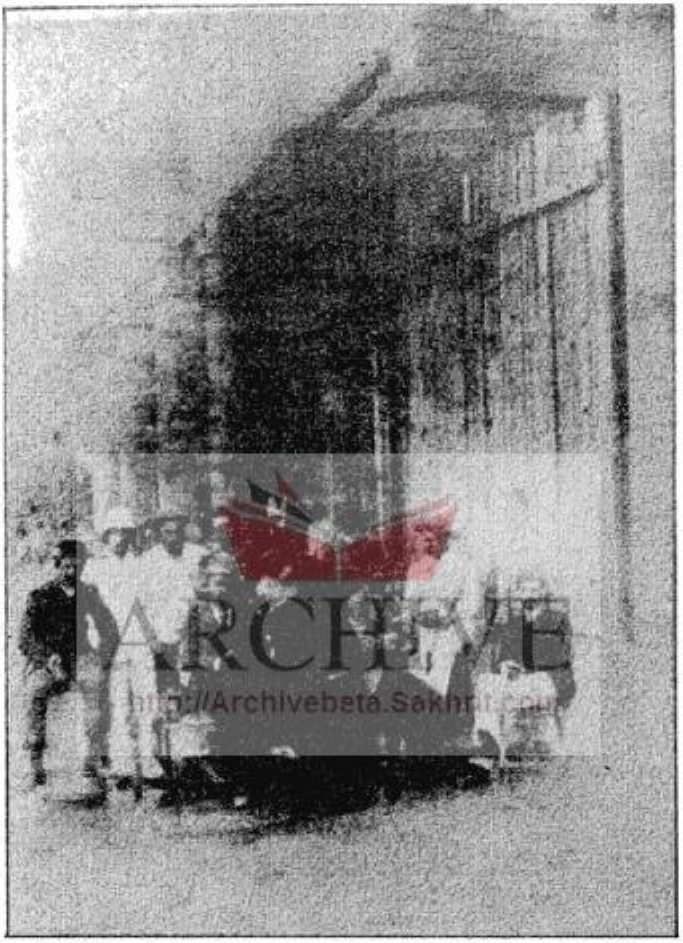


سعد زغلول مع بعض أفراد الشعب بعد عودته من المنفى



جماهير الشعب المصرى يوم ٩ مارس سنة ١٩١٩





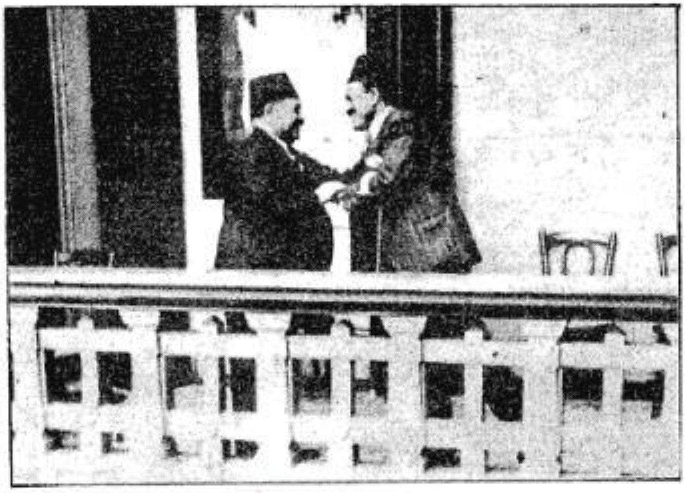
مهندسو القناطر الخيرية

من اليسار الى اليمين : الخديو عباس فالأميرة خديجة فالأمير محمد على



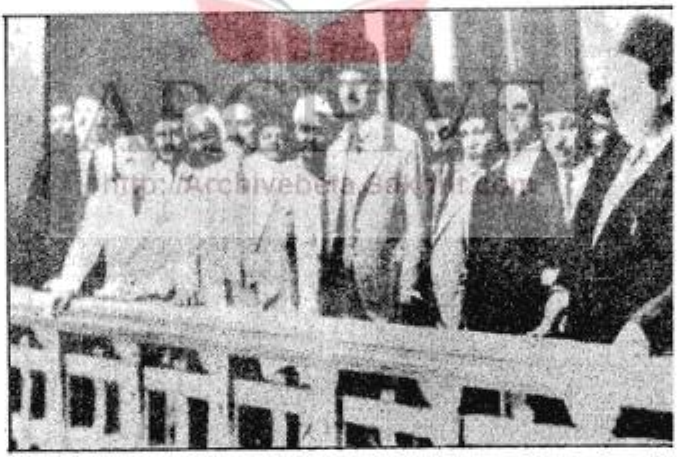


يوسف وهبي وأمينة رزق في لقطة من فيلم « أولاد الذوات »



النحاس باشا وأحمد ماهر

عباس محمود العقاد عند خروجه من السجن مع النحاس باشا





بطلا حادث ٤ فبراير سير مايلز لامبسون وأمين عثمان باشا



فلاحتان مصريتان سنة ١٨٨٦



طلبة السنة الرابعة بمدرسة الحقوق ١٨٩٢ يتوسطهم أحمد لطفى السيد وتوفيق نسيم

محمد التابعى وتوفيق الحكيم وأحمد الألفى عطية

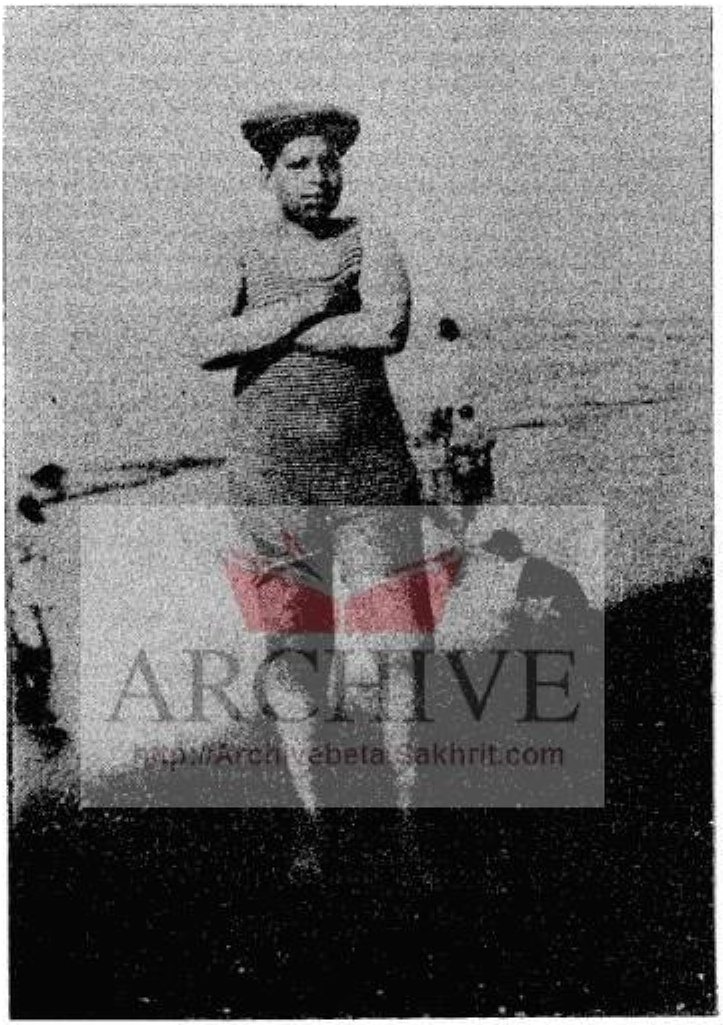




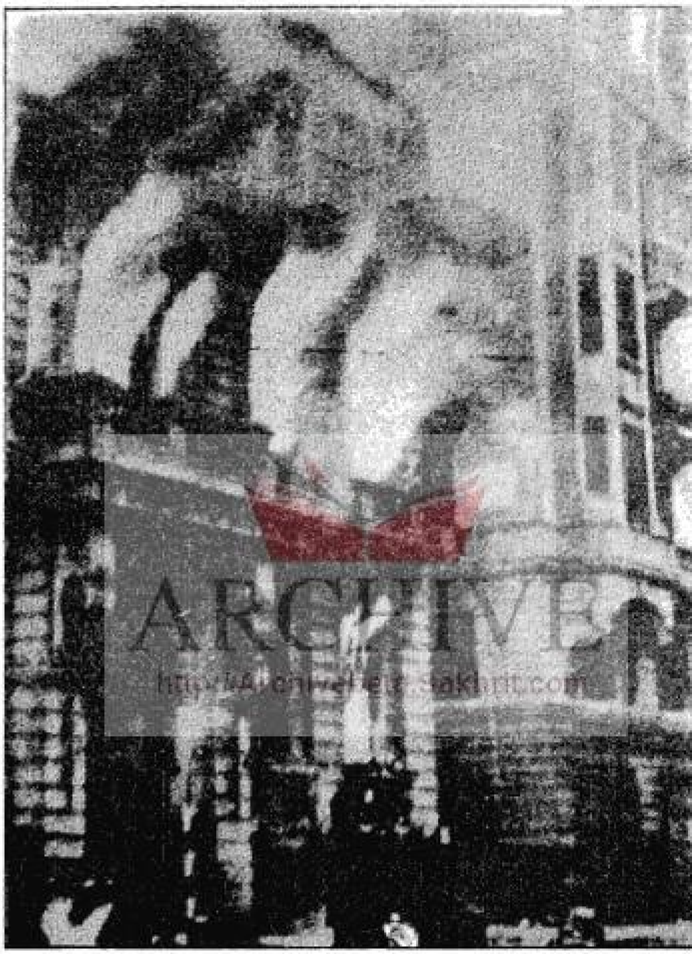
المحمل الشريف فى موكب أكتوبر ١٩٤٦ أيام الملك فاروق



اليوزباشي محمد نجيب الضابط بسلاح الحدود



صالح عبد الحي في شبابه على البلاج



حريق القـــاهرة



الأميرة فوزية



الأطفال في زيارة لقاعدة جوية يصحبهم العميد أركان طيار محمد حسني مبارك قائد الطيران

بقلم : د شكرى محمد عياد

قراءات الشباب

إذا كان لك ابن أو بنت فى سن المراهقة، فماذا تقدم إليهما ليقرآه ؟
إن كنت قد واجهت هـــذه المشكلة ، فسوف توافقنى - فى أغلب الظن - على أنها مشكلة فعلا .

قليلون فى هذه السن ، من يتذوقون أدب نجيب محفوظ . وربما وجدتهم أكثر إقبالا على يوسف إدريس أو الحكيم . ولكن ماذا بعد ذلك ، والصبى أو الصبية إذا جربا لذة القراءة - وما أطيبها من لذة ! - وجدتهما يلتهمان الكتاب الكبير فى بضع ساعات ؟

أظنك تجد الاختيار عملية صعبة جدا .

وأنا لا أتكلم هنا بلسان الناقد ، والناقد وإن أبى أن يقيم من نفسه حكما على الأعمال الأدبية ، واختار بتوضيح أن يكون مفسراً لهذه الأعمال ، فإنه يصطفى من هذه الأعمال ما يراه جديراً بالتفسير لأنه أقرب إلى حقيقة الفن ، ويعرض عما عداه إن نال أصحابه الشهرة العريضة فى حياتهم أو بعد مماتهم .

ولكنى كما قلت لك ، لا أتكلم بلسان الناقد بل بلسان المربى . ولذلك لا أجد حرجاً فى القول إن معظم ما أنتجه كتابنا المعاصرون لا يصلح للشباب ، وأعنى بالتحديد تلك الفترة الحرجة بين سن الثانية عشرة والسادسة عشرة ، أى سن المدرسة الثانوية على وجه التقريب ، ولا أحسبنى أصدر فى هذا القول عن تزمت أخلاقى أو نظرة ضيقة إلى العلاقة بين الفن والأخلاق - وليس هنا مجال الخوض فى ذلك - إنما أنظر إلى طبيعـــة تلك السن ، ففى مرحلة المراهقة والبلوغ تفور العواطف وتتعلق بالمثل العليا فيكون ما يبدو على الفتى أو الفتاة من ارتباك يشبه البلاهة أو هياج يعزى إلى سوء الأدب تعبيراً - فى حقيقة أمره وكنه مصدره - عما يجده من صعوبة



توفيق الحكيم



نجيب محفوظ

فى التعامل مع الواقع . وهنا يكتشف قيمة القراءة الأدبية فهى تشبع شوقه إلى المثل العليا فى حب الوطن أو حب المرأة أو حب الإنسانية أو حب العظمة ، وتكشف له برفق أن للنفس الإنسانية أو المصير الإنسانى حدوداً قد تتخطاها الأحلام ولكن تنقطع دونها القدرة . ويوافق هذا النزوع الطبيعى إلى المثل العليا وهذه العاطفة المتقدة التى لا تجد إشباعاً كافيا فى واقع الحياة - أو يلازمهما ويكملهما - حس فطرى متفتح للجمال فى كل شئ : فى الطبيعة الحية والجامدة ، فى الناس والأشياء ، فى الأصوات والألوان والأشكال ، وفى الكتابة الفنية بجرسها وصورها وموسيقاها التى تحيل فوضى العالم إلى نظام .

الشبان فى هذه السن يحبون أن يقرأوا القصص التى تثير الخيال وتحرك العواطف بأحداثها وشخصياتها وأسلوبها ، وترسم لهم أجواء بعيدة عن حياتهم المألوفة ، وقد يتجاوزون فى سبيل ذلك عن كثير من المبالغة ، والسطحية فى التفكير والشعور ، أى أنهم قد يقبلون على ما يعده الكبار الناضجون رومنسية زائفة أو رخيصة ، والرومنسية الزائفة هى بذاتها الواقعية الزائفة التى تخلع على أحلام اليقظة تفاصيل الواقع ، وتفتح باباً سهلا للتفريج عن الانفعالات المكبوتة دون أن تأخذ بيد الناشىء إلى النضج العاطفى والوجدانى ، ولكن هناك أدبا كثيرا جيداً يشبع خيال الشباب وعواطفه ويساعده فى الوقت نفسه على فهم ذاته وفهم الحياة من حوله ، بل وفهم « الحياة » فى صورة أوسع وأعمق معـــا يحتـــويه عالمه الصـــغير ، « الحياة » بمعناها الكبير ، معناها المثالى إن شئت ، ولكن المثالية هنا لا تعنى البلاهة ولا التغافل عما يشتمل عليه الواقع من دمامة .

حب روايات الخيال

هذا الأدب الكبير يقرؤه الشباب كما يقرأه الراشد ، ولكن ربما كان الشاب أشد تأثراً لأنه يتقبله باقتناع خيالى أقوى من اقتناع الراشد . فالشاب أقل استعدادا لنقد ما يقرأ . وربما قرأ رواية من روائع الأدب بين روايات أقل قيمة بكثير فلا يكاد يشعر بامتياز الأولى إلا حين تتسع قراءاته وتتنوع فتتبين له الفروق . على أن الروايات

المغرقة فى الخيال كروايات ألكسندر ديماس الأب وأنتونى هوب وريدر هاجرد قد تستهويه فى أول عهده بالقراءة أكثر من روايات بلزاك أو دكنز . هذا فضلاً عن الروايات البوليسية وروايات الخيال العلمى.

وقد امتلأ صبانا الباكر بهذه الأصناف من الروايات ، وكثير من أفاضل الأدباء الذين تحدثوا عن « تكوينهم » على صفحات الهلال لم يستنكفوا أن يشيروا إليها ، والحق أنها كانت ذات فائدة خبيرة فى تلك المرحلة من العمر ، وليس أقل فوائدها أنها جعلت اللغة العربية المكتوبة طبيعية فينا مثل لغة الكلام . وأغلب ظنى أن ما نشكوه اليوم من ضعف عام فى اللغة العربية راجع فى معظمه إلى افتقاد الأجيال الجديدة لهذا اللون من القراءةالسريعة الغزيرة ، فما دامت اللغة العربية « الفصحى » كما نسميها لغة كتابة لا لغة كلام ، فليس لها إلا سبيل واحد لتبقى لغة حية ، وهو سبيل القراءة الكثيرة. ولاشك أن للصحف والمجلات دورهما ، ولكنه لا يكفى.

وقد كانت هذه القراءات ، بطبيعة الحال ، تتم خارج المدرسة ، وأحيانا داخل الفصل، فى غفلة من المدرس ، ومع ذلك فقد كان بين الكتب التى تصرفها لنا المدرسة كتاب تعود الكثيرون من جيلى أن يقرءوا فيه للمتعة ، غير أبهين لقلة ما كان يقرر منه للامتحان ، ولعله كان أستاذنا الحقيقى الذى علمنا تذوق الشعر . كان كتاباً من جزأين ، عنوانه « المنتخب من أدب العرب » ، وقد اختار هذه المنتخبات وشرحها طائفة من خيرة أدباء عصرهم ، ولعلى لا أنسى منهم أحداً وإن كنت قد فقدت الكتاب نفسه من عهد بعيد : طه حسين ، عبد العزيز البشرى ، حفنى ناصف ، أحمد ضيف .

العودة لمنابع الجمال

وقد أساءت وزارة التربية والتعليم صنعا عندما ألغت هذا الكتاب وعمدت إلى مزج تاريخ الأدب بالنصوص فى سلسلة من الكتب جعلت عنوانها « الأدب والنصوص » ، كتب تمثل لك درس الأدب العربى فى أقبح صوره (ويمكنك أن تستمع بنماذج من هذه الدروس فى الإذاعة والتليفزيون) . فاختيار النصوص غالبا غير موفق ، وكثيراً ما تتحكم فيه المناسبات الحماسية على عادتنا فى وضع القول موضع الفعل ، أما الشرح فهو الفكاهة ذاتها ، لأنه شطران : نثر لمعانى النص الشعرى يفضح ما فيهـا من تفاهة (وكان هؤلاء الشراح لم يسمعوا قط أن

جمال الشعر كله في صياغته) ، وبعد ذلك سرد لما يسمونه « الصور البيانية » من تشبيه واستعارة الخ . ولا أدرى هل ألوم هؤلاء أم أعذرهم ، فهم مسخرون وتلاميذهم لشيء اسمه الامتحان ، ودرجة امتحان النصوص الأدبية تقسم بحساب دقيق على المعنى العام والصورة البيانية ، لعل الأفضل الا أعذر أو ألوم ، بل أطالب وزارة التربية والتعليم بأن تعيد كتاب المنتخب أو كتاباً آخر يضاهيه ، كما أطالب دور النشر الحكومية والأهلية بأن تعود إلى إصدار ذلك النوع من السلاسل التى تستهوى الشباب بوجه خاص . فعادة القراءة المتعة إذا لم تتكون فى هذه السن فإنها لا تتكون أبداً ، وما أظن كساد « الكتاب الثقافى » كما يسميه الناشرون ، أى الكتاب غير المرتبط مباشرة بالدراسة أو المهنة ، إلا راجعاً إلى إهمال هؤلاء الناشرين أنفسهم ، ومعهم أو قبلهم وزارة التربية والتعليم ، فى تنمية الجمهور القارىء بإضافة اعداد جديدة ممن تذوقوا لذة القراءة حتى أدمنوها وهم فى سن الشباب .

ومعلوم أن هناك عدداً من السلاسل التى تصدرها النشر الحكومية والمؤسسات الصحفية . ولكن الشباب لا يقبلون على هذه السلاسل ، فهى ليست موجهة لهم بل لقارىء عام مبهم : هو غالبا قارىء الجريدة أو المجلة الذى لا يهتم بغير الموضوعات الجارية أو المعلومات الطريفة ، وهذه لا يهتم بها الشاب كثيرا لأن انشغاله الأكبر مركز حول ذاته ، والتغيرات الداخلية العنيفة التى تمور فيها . فهو يلتمس فى الأدب الخيالى من شعر أو قصص ما يسكن فورة انفعالاته ، ويثير له بعض جوانب ذاته وهذا يقودنا إلى السلاسل الإبداعية التى تشتمل على شعر وقصص وتمثيل : ولابد هنا من كلمة صريحة : فالطابع الغالب على هذه الإبداعات هو أنها أعمال تجريبية أو طليعية ، لا تعنى بها إلا قلة القلة ، أى الفئات الطليعية من بين هواة الأدب أو محترفيه أو أولئك الذين يتأرجحون بين الهواية والاحتراف . وليس هذا هو كل ما تقتضى الصراحة أن نقوله . فالاتجاه الغريب الذى تتخذه هذه السلاسل لايرجع فقط إلى افتقارها لسياسة واضحة ، ونسيانها لوجود جمهور قارىء فعلى أو محتمل ، ينبغى أن تراعى رغباته وحاجاته ، بل إلى أن هذه السلاسل قد صدرت ، من أول الأمر ، نتيجة لجهود « جماعات ضغط » مشكلة من هذه الفئات التى أشرنا إليها ، والتى نحب أن نسميها كتاباً طليعيين ، وفقا لمكاناتهم ، وإلا فإن كثرتهم كتاب مبتدئون لا يحسنون صوغ جملة ، ولكنهم يتوهمون أنهم سيصعدون سلم الشهرة وثبا إذا صدر لهم كتاب (وبالطبع يجب على النقاد أن يكتبوا عنه المقالات الضافية) ، ولا يبقى بعد ذلك إلا أن يجتازوا الحدود (أى يصبحوا عالميين) ، وكل ما يلزمهم

لتحقيق هذا الهدف الأخير هو أن يكتبوا كلاماً غير مفهوم ، لأن هذه – كما يتوهمون – هى أحدث طريقة فى الكتابة ابتدعها الغرب ، والمشرفون على هيئات النشر الحكومية يهمهم أن يداروا هؤلاء ، ما داموا لا يخسرون شيئا من جيوبهم .

وتبقى قضية المختارات ، وقضية تدريس الأدب فى المدارس الثانوية أو ما فى مستواها ، وهما وثيقتا الارتباط كل بالأخرى ، فإذا وجدت بين يدى المعلم والمتعلم ذخيرة طيبة من الشعر الجيد والنثر الجيد ، المناسب لميول الطلاب ومستواهم الفكرى ، فإن حصة النصوص الأدبية يمكن أن تصبح متعة خالصة ، إذ سيقتصر الشرح على تحليل المفردات والتراكيب ، وبيان خصوصيتها الفنية بالمقارنة بين معانيها القاموسية أو النحوية ومعانيها فى النص الأدبى ، وهنا لا بأس باستخدام مصطلحات البلاغة بشرط ألا يكون فرز « المحسنات » هدفاً فى ذاته ، ثم يكون باقى الدرس ومعظمه – مباراة بين الطلاب فى إلقاء النص إلقاء يعبر عن روحه ، وهذا يقتضى التشبه بموقف قائل النص ذاته ، أى نوعاً من التمثيل ، والطلاب فى هذه السن يحبون التمثيل ، ويتنافسون على الانضمام إلى فرق التمثيل فى المدرسة ، ويستطيع المدرس أيضا أن يلقى شيئا من الضوء على موقف قائل النص باستخدام بعض المعلومات التى عرفها الطلاب فى درس تاريخ الأدب .

ولكن افتقار المكتبة العربية الحديثة إلى كتب المختارات فضيحة كبرى ، وهو سبب ونتيجة فى الوقت نفسه لكون جمهور قراء الأدب محدوداً جداً ، وقد تكون معظمه بطريقة شيطانية ، أى بالاعتماد على الذات ، والتخبط فى مطالعات غير منتظمة . هذا مع أن المكتبة العربية عرفت كتب المختارات منذ أول عصر التدوين .

جسر الثقافة

وإذا كنت أزعم أن كتب المختارات وثيقة الارتباط بتدريس الأدب ، فهذا لا يعنى أنها « كتب مدرسية » بالمعنى التقليدى الضيق ، بل هى فى الواقع جسر بين الثقافة المنظمة والثقافة الحرة ، وأداة للتثقيف الذاتى والتعليم المنهجى فى وقت واحد . والمعلم – فى نهاية الأمر – ليس إنسانا معزولاً عن الحياة الأدبية ، أو محصوراً فى قاعة الدرس ! وبعض كتب المختارات القديمة كانت مما جمعه علماء الأدب لمن وكل إليهم تثقيفه من أبناء الخلفاء ، وكان « المؤدب » فى بلاط الخليفة أو الأمير (والمراد بالأدب هنا المعنى الثقافى العام لا المعنى الأخلاقى الضيق) يختار من بين علماء الأدب ، كما أن كثيرا من الكتب الجامعة التى تتألف من

مختارات من الشعر والنثر واللغة كانت دروساً تلقى فى المساجد ، ومن أشهرها كتاب « الأمالى » لأبى على القالى وقد أحيا الشيخ الإمام محمد عبده هذا التقليد العظيم حين كان يفسر القرآن ويدرس بلاغة عبد القاهر فى محاضرات عامة للجمهور ولئن كان التعليم « الحديث » المنظم قد عزل المؤسسة التعليمية – إلى حد كبير – عن الحياة الثقافية العامة ، لقد شهد الجيل الماضى من أكابر الأدباء من سلخوا الشطر الأكبر من حياتهم فى التعليم العام (لأننى لا أتحدث هنا عن التعليم الجامعى أو الأكاديمى) ، وأذكر من هؤلاء : محمد سعيد العريان ، ومحمد فريد أبو حديد ، ودرينى خشبة .

ولا شك أن تقوية الروابط بين تدريس الأدب فى المدارس الثانوية وبين الحياة الأدبية العامة يمكن أن يبعث مزيداً من النشاط فى كليهما . وأول ما يقتضيه ذلك أن يكون لأستاذ الأدب نشاطه الأدبى خارج قاعات الدراسة . والمشاهد اليوم أن أدباءنا الذين يبدءون حياتهم العملية بمهنة التعليم كثيرا ما يفرون منها إلى العمل فى الصحافة أو فى أجهزة الاعلام المختلفة . وعندى انهم مخطئون ولاشك أن المجتمع مخطىء أيضا إذ لا يعطى مهنة التعليم حقها .

لقد سررت سروراً كبيراً عندما رأيت مؤلفا يعرف بنفسه ، على ظهر غلاف كتاب ، بأنه « من خبراء اللغة العربية بوزارة التربية والتعليم » (وما دام المفترض أن التعريف هو من وضع الناشر ، فلا بأس إذا أضيفت كلمة « كبار » إلى كلمة « خبراء » . وعلى كل حال فالمؤلف – الأستاذ عبد العزيز النعمانى – قد تخرج فى دار العلوم منـــذ – أكثر من ثلاثين سنة) . والكتاب نفسه وسيط جيد بين دروس « تاريخ الأدب ونصوصه » فى المدارس الثانوية وبين القضايا التى تثار فى حياتنا الأدبية حول الشعر الجديد والقديم ، وقد جعل المؤلف عنوانه « فن الشعر بين التراث والحداثة » .

أجود ما فى الكتاب فى نظرى هو المختارات ، وقد انبسطت على عصور الشعر كلها ، مع أن الكتاب صغير الحجم نسبيا . وإنما ساعد المؤلف على هذا الامتداد حسن اختياره للنصوص (وهو نفسه شاعر رقيق كما تدل القصيدة التى اختارها من شعره) ، مع توخيه الاقتصاد فى الشرح . ولكن المؤلف لم يستطع أن يخلص من آفة المزج بين تاريخ الأدب والنصوص . والذى أرجوه أن يثابر على التأليف للشباب ، فهو يقف على أرض قد يحسده عليهـــا الكثيرون (لو كانوا يعلمون) .

إنها ربوة عالية تشرف على التعليم المدرسى من ناحية ، وعلى الثقافة الحرة من ناحية أخرى .

محمد روميش

قصاص مأسى الفقراء

بقلم : د .صبرى حافظ

لا شك فى أن فقدان الحركة الأدبية للقصاص الفنان محمد الصادق روميش (١٩٣١-١٩٩٢) يشكل خسارة فادحة للقصة المصرية . صحيح أننا كنا قد فقدناه ، منذ بداية عقد السبعينات الكئيب ، حينما عزف عن الكتابة ، وكسر قلمه ، كما كسر أخيل حربته ، حينما فسدت الساحة ، وضاعت قيم الجودة والأصالة والتنافس النظيف ، وزحفت جحافل الظلام ، وبدأت عمليات الطعن فى الظهر والانقضاض على جل قيم العقل والاستنارة .

ومحمد روميش في هذا المجال ابن سلالة طويلة من كتاب مصر الموهوبين المرهفين الذين لا يحتملون عقوق الحركة الأدبية فينصرفون عن مواصلة الكتابة ونخسرهم وهم في ذروة العطاء . من مصطفى عبدالرازق الرائد القصصي والعقل المحرك لمجلة (السفور) في العقد الأول من هذا القرن ، إلى أحمد خيرى سعيد عمدة جماعة المدرسة الحديثة ومؤسس (الفجر : صحيفة الهدم والبناء) فى العقد الثاني منه، إلى حسن محمود وعادل كامل ومحمد يسرى أحمد فى الثلاثينات والأربعينات والخمسينات على الترتيب . وكأن على مصر أن تخسر فى كل جيل واحدا من كتابها الموهوبين ، وكان روميش هو ضريبة هذا التراث فى جيلنا . لكن بقى بيننا روميش الإنسان . يعرف حفنة قليلة من الأصدقاء الذين يخلص لهم الود ويخلصون له المودة ، وكأنما قد انتقاهم واحدا واحداً من مختلف



أجيال الثقافة المصرية ، ليؤكد هذا الانتقاء نوعاً من الشهادة الضمنية على منهجه في الفن والحياة معا . كان حريصا على أن تتصل حبال الود مع أستاذنا الكبير يحيى حقي الذي أهدى إليه رويمش مجموعته الثانية (الشمس في برج المحاق) التي لم تظهر بعد، وكأن اسمها الدال على مرحلة بأكملها في الثقافة المصرية كان نبوءة صادقة فهل يمكن لشمس قصص رويمش الساطعة أن تطلع في برج المحاق . لكن إهداء هذه المجموعة « إلى يحيى حقي : الأب والأستاذ والصديق » يسجل واحـــدة من القيم الأســـاسية في هـــذا الانتقاء/ الانتماء. انتماء الإبن الكاتب محمد رويمش إلى يحيى حقي : الأب الحقيقي للكتابة القصصية الصادقة والمترعة بالحب والتجربة ، وأستاذ كل الذين وعوا درس هذه الكتابة الصادقة السلسة وصديقهم .

وكان رويمش يشعر بنوع من التواصل الحميم مع فنان آخر من كتاب التجربة القصصية الصادقة وعشاق الحياة في ريف مصر هو ابن جيله عبد الحكيم قاسم. ويحس بأنه وإن كف عن الكتابة عن القرية المصرية في الدلتا قبل عقدين من الزمان ، فإن لها قاسماً الذي يحس عن حق بأنه يكتب ما لم يكتبه وما أراد أن يكتبه . وكانت قدرة عبد الحكيم قاسم الفارقة على التواصل وبذل أعماله ونفسه لأصدقائه هي عزاء رويمش في الانقطاع عن الكتابة ، وكانت هذه الصلة الحميمة بين الكاتبين هي التي جعلت رزء رويمش في عبد الحكيم قاسم كبيرا وثقيلا . فقد كان رويمش أكثر الذين تأثروا بمرض عبد الحكيم إلى حد مشاركته الألم العضوي لا النفسي فحسب، بدرجة جعلت مأساة قاسم ورحيله بداية لمرض رويمش ورحيله . فقد كانت الصلة بين رويمش وقاسم من تلك الصلات العميقة التي تتحقق فاعليتها على عدة مستويات . انطلقت من ذلك التشابه الذي يصل إلى حد التماثل في تكوينهما الاجتماعي والثقافي ، فقد ولدا ونشأ في القرية . ولد رويمش في تبانة مركز المنصورة عام ١٩٣١ ، وولد قاسم بعده بأربع سنوات (١٩٣٥) في قرية مماثلة هي البندرة في محافظة أخرى من محافظات الدلتا هي الغربية . وتلقى كل منهما تعليمه الابتدائي والثانوي في محافظته ، ولم يتركها إلى المدينة الكبيرة إلا للدخول إلى الجامعة لدراسة الحقوق . فذهب رويمش إلى جامعة القاهرة وتخرج في كلية الحقوق بها عام ١٩٥٨ ، بينما اتجه قاسم إلى الاسكندرية ليتخرج هو الآخر في كلية الحقوق بها بعد ذلك بسنوات . وعمل كل منهما بعد تخرجه بوزارة المالية ، وإن انتقل رويمش بعد عدة سنوات للعمل في بنك ناصر الاجتماعي الذي ظل يعمل به حتى رحيله ، بينما ترك قاسم مصلحة التأمينات والمعاشات للسفر إلى ألمانيا ثم عمل بعد عودته بهيئة الكتاب .

أخوة الروح

لكن هذا التماثل الظاهري في الخلفية الريفية والتكوين الثقافي والدراسة والعمل لم يكن هو مصدر تلك الصلة الحميمة التي ربطت بين أقدار الكاتبين الراحلين ، وإنما كان مصدرها أخوة الروح ، ورفقة الطريق ووحدة الرؤية والرؤيا . فقد كانت علاقة كل منهما بالأرض الريفية وطقوس الحياة اليومية في القرية أقرب إلى علاقة العشق الصوفي التي تجمع في رحابها أبناء الطريقة الواحدة . وهي الطريقة

التى أفنى فى محرابها كثير من المريدين أعمارهم ، وبذلوا كل جهدهم فى التعبير عن جموع الصامتين من فلاحى مصر الفقراء . التقيا فى ساحة النشر فى قاهرة الستينات ، وهى الساحة التى التقى فيها جل أبناء جيلنا الذين جاءوا إلى القاهرة من كل فجاج الأرض المصرية الولود يطرحون على الحركة الأدبية رؤاهم واجتهاداتهم وأحلامهم وكشوفهم . وكان فى الحركة الأدبية كعادتها دائما شىء من «لوع» المدينة وقسوتها ، ومن طرقها المراوغة الصعبة التى لا يجيد الفلاحون التعامل معها ، ولكن سرعان ما اكتشف روميش طريقه إلى المتبرين الخاليين من كل «لوع» والتواء فيها : إلى مجلة (المجلة) التى كان يرأس تحريرها فى هذا الوقت أستاذنا الكبير يحيى حقى الذى كان يكتشف المواهب الجديدة ويشجعها ، والذي يعود له الفضل فى تقديم كل من روميش وقاسم وعدد كبير من أبناء جيلنا إلى الواقع الأدبى ، والذى أتاح لهم فرصة النشر فى أهم مجلة ثقافية فى مصر وقتها بالرغم من أنهم لم ينشروا من قبل شيئا . وإلى الصفحة الأدبية لجريدة (المساء) التى كان يشرف عليها عبد الفتاح الجمل فى هذا الوقت وكان له فضل مماثل فى وضع إنتاج أبناء هذا الجيل الموهوبين فى دائرة النور . وفى (المجلة) و(المساء) نشر روميش جل أعماله مع استثناءات قليلة نادرة .

اختزان المرارة والألم

كان لى صداقة روميش وقاسم شىء من مباهاة الريفى بنجاحات ابن بلده ، واعتزازه بقدرته . وكان هذا الاعتزاز متبادلا لأن قاسم كان ، كأستاذنا الكبير يحيى حقى - أطال الله عمره ، من أكثر المتحمسين لإبداع روميش الأدبى وأشد المدافعين عنه والمذكرين دوما بأهميته . وكان فيها من جانب روميش وحده هذه المرة شىء من الإعجاب بقدرة قاسم على غزو المدينة التى لم يشعر روميش أبدا بالألفة معها . لذلك كان رزؤه فى عبد الحكيم قاسم كبيرا ، وكانت مرارته الناجمة عن عجزه وعجز الجيل بأكمله عن انقاذ ابن طريقته التى يتقاتص أبناؤها يوما بعد يوم ، ومن عقوق مصر وحركتها الأدبية إزاء قاسم من العوامل التى استكنت فى النفس ، وعملت فعلها فيها . كان روميش كالجمل الصبور الذى يختزن المرارة والألم، لكنه أبدا لم يتلجج، فسرت فى الدم تفت فيه وتفعل فعلها الخبيث الذى أودى به .

أذكر أننى خرجت مع روميش من مستشفى المعادى إثر زيارة لعبد الحكيم قاسم إبان مرضه العضال بها وما أن بدأت الحديث مستبشرا بتحسن صحته ، وموضحا الخطوات الفساح التى قطعها فى طريق الشفاء ، حتى قال روميش فى شىء من الغضب المهذب الكظيم « ازاى يا أخى مش عارفين نسفر عبد الحكيم » . لقد كان مثالا لإخفاقنا فى تسفير عبد الحكيم للعلاج بالخارج ، مثالا لعقوق مصر فى حق واحد من أنجب أبنائها . وكان الإخفاق فى تسفير عبد الحكيم للعلاج بالخارج ، وهو واحد من ألمع كتاب جيل الستينات وأثراهم عطاء ، هو القدمة لإخفاق هذا الجيل المكلوم فى تسفير محمد روميش نفسه للعلاج بالخارج ، حيث مات وهو ينتظر توقيع رئيس الوزراء على قرار سفره الذى تعثر فى أروقة مكتبه لأكثر من شهرين . فى الوقت الذى تعالج فيه مصر على حسابها ومن عرق بنيها

من يقل عطاؤهم لها عن روميش وقاسم كثيرا .

مآسى الفقر .. والريف

وعطاء روميش لمصر كبير بأى معيار من المعايير ، لأنه كان حلقة وصل فى سلسلة كبيرة من كتاب مصر الكبار الذين كرسوا أدبهم للتعبير عن مآسى الفقراء فى الريف المصرى ، من طه حسين ويحيى حقى ومحمود البدوى حتى يوسف إدريس وعبد الرحمن الشرقاوى وسعد مكاوى ، بالرغم من أنه لم ينشر فى كتاب إلا مجموعة واحدة هى (الليل ... الرحم) . صحيح أنه نشر فى (المجلة) و (المساء) كل قصص مجموعته الثانية (الشمس فى برج المحاق) ، لكن هذه المجموعة لم تصدر حتى الآن فى كتاب ، وقد انتظرت النشر طويلا ، وأرجو أن يكون أقل ما يمكن أن نقدمه للراحل الكبير ، بعد عجزنا عن علاجه بشكل كريم ، هو إصدارها فى كتاب فى أقرب وقت ممكن . ومع ذلك فإن مجموعته اليتيمة استطاعت أن تلفت النظر إلى لغته المتميزة ومنطقه الفريد فى التعامل مع الواقع والشخصيات ، وقدرته الفذة على أن يرسم بالكلمات أدق الصور الريفية المتوهجة بالحياة والحركة وأشدها رقة وشاعرية . ومع أن روميش ينتمى فى هذا المجال إلى هذا الرتل الكبير من كتاب مصر الأماجد ، ومع أنه كان صنو عبد الحكيم قاسم ورفيق رحلته وطريقته ، لكنه كان نسيجاً وحده فى الكتابة والإبداع ، له لغته الخاصة التى تحمل فى مفرداتها وتراكيبها عبق الريف وسخونة الحياة فيه ، وله بنيته القصصية المتفردة التى تنطوى تشكلاته السردية على بنية الواقع العميقة وعلى رؤية الكاتب المتميزة له .

كاتب متمكن

ففى قصص روميش المشغولة بأفراح الفلاحين وأتراحهم ، بلحظات سعادتهم وتفاصيل مآسيهم ، يجد القارىء نفسه أمام كاتب متمكن من مادته وأدواته معا . يعرف عالمه أرتق معرفة ، ويعى كل ما يمور فيه من تناقضات ، وهى معرفة لا يفرضها الكاتب على التجربة من عل ، ولكنه يشيعها بحب حميمية فى كل تفاصيل العالم المحكى بطريقة قادرة على إحالة هذه المعرفة الآلفة إلى قيم جمالية وفنية رائعة ، توثق عراها بأدق مواويل الفلاحين وملاحمهم وحكمتهم ، ويعرف من خلالها القارىء مهما كانت جنسيته ، ومهما كانت طبيعة موقفه الفكرى ، التركيبة الاجتماعية فى القرية المصرية على حقيقتها ، وعلاقات القوى الفاعلة فيها . يعرفها عن حق لأنه يراها واضحة ناصعة فى ضوء معالجة روميش المقتدرة التى يضج فيها المشهد بالحركة والعنفوان ، ويتدفق فيها الدم فى عروق الشخصيات المكتوبة على الورق فتدب فيها حياة حقيقية لا مماراة فيها . فيرى القارىء بنفسه كيف تبهظ هذه التركيبة الاجتماعية القديمة قدم الريف المصرى ، الجديدة جدة أحدث ما انتابته من تغيرات ، بثقلها الفادح أبناء القاع الاجتماعى فى الريف المصرى ، وكيف يستغل الجميع طيبتهم ، بما فى ذلك رجال الدين أنفسهم ، وكيف تطحنهم الأوبئة والأمراض . ولكنهم مع هذا كله يستطيعون استقطار لحظات من السعادة والتواصل الإنسانى الحميم ، يحافظون على كرامتهم ويعتزون بكبريائهم كما حافظ روميش نفسه على

كبرياء الفلاح الأصيل وإبائه وسط عالم يموج بالزيف والمرض فى هذا الزمن الردىء .

و (الليل .. الرحم) هى درة روميش اليتيمة ، حرص عليها كما يحرص الصائغ على أغلى جواهره، ونقاها من أى أثر للعوشية أو التهنهات الرومانسية ، وصقلها بالتشكلات الجمالية الفريدة فى التعبير عن التجربة الإنسانية الثرية عنده ، وبلور ملامحها الصلدة فى بناء القصة المتميز لديه ، ونحت قسماتها من أديم مادة الحياة الريفية وتفاصيلها الخاصة ، وصاغ لغتها المتميزة العذبة بمفرداته التى تحمل فى كل لفظة عبق الريف وتوهج صوره وإيقاع حركته . وأسس من خلال صلابة التجربة وعمق الوعى الرهيف السارى فى كل أنحاء المجموعة قيمة مغايرة للقيمة السائدة: قيمة الكيف القليل الذى لا يصمد فى مواجهة الكم والإسهال الكتابى فحسب، ولكنه يكتسحه أمامه بصلابته وتماسكه وقدرته على إضاءة التجربة وإرهاف الوعى وإمتاع القارىء فى آن واحد . ولذلك أصدر روميش مجموعته اليتيمة تلك مرتين . أصدرها أولا فى طبعة صغيرة ضمن سلسلة « أدب الجماهير » ، وكان هذا الإصدار هو إصدار الانتماء وتحديد الموقف الرافض الأبى . فقد كانت هذه السلسلة الصغيرة التى تصدر من المنصورة مركزه وعاصمة محافظته ، هى سلسلة أدباء القرى الذين يطمحون إلى أن يفرضوا من القرية وجودهم على العاصمة. فلما تحقق هذا الوجود أعاد إصدارها ، بعد أن أضاف إليها قصتين هما : « طرح المجد » و« عين الحياة .. نظيرة » ، ضمن سلسلة (روايات الهلال) فى ديسمبر ١٩٨٦ بعد إصدارها الأول بخمسة عشر عاما ، وكان هذا الإصدار الثانى هو إصدار الوصول إلى القارىء العريض فى مصر وفى العالم العربى من ورائها .

وإصدار روميش لمجموعته الأولى مرة أخرى ، وبعد هذه السنوات الطويلة ، وبالرغم من أنه كانت لديه مجموعة ثانية هى (الشمس فى برج المحاق) كتبت قصصها فى الفترة بين ١٩٥٧ و ١٩٦٨ ، ونشرت كلها فى (المجلة) و (المساء) باستثناء قصة واحدة هى «قصة لا تنتهى» نشرت بمجلة « الكاتب » عام ١٩٦٥ ، هو الذى يكسب هذه المجموعة أهميتها فى عالم روميش القصصى . فقد أدرك روميش قبل غيره أن هذه المجموعة لم تأخذ حقها فى الإصدار الأول ، وحرص على أن يطرحها من جديد على القارىء الواسع لأنها تشكل حجر الزاوية فى عالمه القصصى ، عالم القرويين الذى تشويه الشمس ، ولكن ما أن تهب عليه نسمة رخية حتى يتوارى الجحيم كما تقول الكلمات الأولى فى مجموعته ، وتستحيل الحياة القاسية الخشنة إلى تجربة مترعة بالحب والفرح . وإن كانت لحظات الفرح فى حياة الإنسان الريفى عنده قصيرة بقدر ما هى صادقة وباهرة ، وبقدر ما تكشف قصص روميش عن عمق الفرحة فى عالمه ، بقدر ما توضح لنا أسباب عمرها القصير وطبيعة التناقضات التى تغتالها فور ميلادها ، ولا تسمح لها بالتطور والنمو . وهو عالم حاول أن يجعله خالصا لتجارب الحياة فى الريف المصرى ولمآسى الفقراء فيه ، فروميش لا يتألق ككاتب ويبلغ ذروة الإبداع القصصى إلا عندما يتناول الحياة فى القرية . ولهذا قال أستاذنا يحيى حقى عنه : « من قصص روميش أشم رائحة تراب القرية، وأرى أهلها أحياء ، وعلى المستوى الإنسانى لا المحلى فحسب . وقد بقيت فى ذهنى من قصصه صورة

امرأة قروية لن أنساها . هذا هو الامتحان الكبير للقصصى . أن تدب فى شخصياته نبضات الحياة وسمة التخصص والانفراد، بحيث إذا ذكر الكاتب ذكرت على الفور أسماء هذه الشخصيات . إذا قلت مثلا عطيــل أو هاملت ، قلت على الفــور شكسبير ، والعكس صحيح » . وأظن أن المرأة التى يتحدث عنها يحيى حقى هى «هانم» بطلة قصة « الليل .. الرحم » التى لا يستطيع القارىء أن ينسى منظرها والأكف تنهال عليها ضربا دون ذنب أو جريرة ، اللهم إلا المقادير العابثة التى ألقت بها ، كقدر أغريقى ، فى طريق الست جواهر وقد غاظها أنها لم تضبط زوجها الزناوى ، فحثت الأولاد على تجريس هانم بغل ووحشية دفعت ابنها نفسه إلى إنكار أن هذه أمه . ولن ينسى القارىء مشهد الحب الرقيق الأخير وقد جاءها فتح الله يمرضها بعد أن هدتها إصابتها بالكوليرا ، وهو غير عابىء بالعدوى فى نوع من التكفير الانتحارى عن الذنب الجماعى الذى اقترفته القرية فى حق هذه الزهرة الرقيقة .

والواقع أن معالجة روميش لهذه الشخصية ، ولغيرها من الشخصيات الريفية البسيطة التى يعج بها عالمه ، هى التى ترتفع بها من المستوى المحلى إلى المستوى الإنسانى العام دون أن تنفصم عرى علاقتها الوثيقة مع واقعها المحلى . فإغراق شخصياته وأحداثه ومشاهده فى المحلية هو الذى يرقى بها إلى المستوى الإنسانى العام ، لأنه يحيل الواقع المحلى تحت وقع معالجته الحاذقة له إلى صور من الشعر الشفيف الخالص ، قادرة على النفاذ من العرضى إلى الجوهرى . فقد اتخذت قصص روميش من التعبير بالصورة منهجا سرديا لها . وهذا التعبير بالصورة المرسومة بدقة ومهارة ، والتى تستقى كل مفرداتها من عالم القرية بالصورة التى تبدو معها جمالياتها فى الصياغة والتشكيل جماليات قروية خالصة هى السمة الأساسية للكتابة القصصية عند روميش .

وحتى نتعرف على طبيعة هذا المنهج السردى المتميز فلنقرأ هذه الكلمات التى يفتتح بها قصته الأولى « النشيد من الأفق الغربى » : ثم توارى الجحيم . كانت تصبه الشمس ، فتصنع الحقل ، حقل الوسية الواسع ، فرنا كبيرا ، يشوى ما به من ناس . ومن بعيد ... من حيث تلتقى السماء بحقل القطن ، أقبلت نسمات ... تجفف العرق ، تعانق رءوس الشجيرات ، تموج اللوزات المتفتحة بلونها الشاهى ، فيبدو القطن بحرا كبيرا صاخبا ، يغطى الزبد صفحة مائه » (ص٧) . هنا نجد أنفسنا أمام رسام يستخدم الكلمات مادة لصياغة لوحاته الحية الفياضة بالحركة . فهذا الجحيم الذى تصبه الشمس ، والذى يؤذن بالجحيم الآخر الذى ستنفتح بواباته عن هذا الشقاء الأبدى الذى اغتال لحظة السعادة القصيرة فى القصة ، تجسد لنا الكلمات الحادة والإيقاع السريع ثقله الذى يبدو لنا كسيل من السعير المصهور الذى يحيل حقل الوسية الواسع إلى فرن كبير سرعان ما يتبدد أمام النسمات الرخية التى تجفف العرق وتهتز لها لوزات القطن فينقلب لهب السعير إلى أمواج بحر يغطى الزبد القطنى صفحة مائه . وهذا التحول السريع من اللهب إلى الماء لا يدرك حقيقته إلا من عاش بحق تجربة جمع القطن فى عز الحر ، وخبر وقع تلك النسمات الرخية التى ما أن تهب فجأة حتى يتبدد اللهب فى لحظة ويستحيل إلى ماء وزبد .

وما أن تقترب ساعة الغروب حتى تتغير طبيعة الصورة كما هو الحال في قصته «الليلة الجاية» : «الشمس هناك ، على مدد الشوف ، كحفرة مملوءة بالأوالح المتوهجة . وهي لقربها ، تستطيع - كما يقول عم زناتي - أن تخطفها بيدك ... أبو قردان عائد ليقضي ليلة فوق أشجار الجميز العجوز حول قريتنا ، جماعات ، جماعات ، كأثواب القماش الدبلان تحملها الرياح » (ص٤٣) . هذه الشمس هي نفسها التي أحالت الحقل إلى سعير ، ولكنها استحالت هنا إلى حفرة من الأوالح المتوهجة . ولذلك كان طبيعيا أن يقول عم زناتي أن قرب الشمس وقد صورها الكاتب كحفرة من الأوالح المتوهجة يمكن الإنسان من لمسها بيده . كل مفردات الصورة مصاغة ، كما ترى ، من تفاصيل الحياة في الريف. الشمس حفرة من الأوالح المتوهجة وأسراب الطيور العائدة إلى شجرة الجميز العجوز كالقماش الدبلان الذي لا يعرف الفلاح غيره . أما الدقة المتناهية في رسم الصورة والتي تشف عن ملاحظة بالغة الرهافة والعمق في آن ، فستجدها في مفتتح قصة العنوان : « الليل .. الرحم » : « الأظلاف الستة عشر تضغط وجه الأرض في قبلات متلاحقة ، ثقيلة ، تاركة خلفها صفين من الأقواس الهلالية . سلاح المحراث يشق سطح الأرض . قبل أن تندمل شفيرتا الخط المشقوق يسقط وسطه سرسوب منتظم من حبات الذرة فيلتئم عليها- كالرحم - يتهيأ لميلاد جديد » (٥٢) .

هذه الصورة الدقيقة الثرية لعملية الحرث بما فيها من بذر لحياة جديدة في رحم الأرض هي التي جعلت حركة أظلاف البهيمتين نوعا من التقبيل الخافت المتلاحق الثقيل والسريع معا ، لا تقبيل أظلاف البهيمتين فحسب ، لكل ثمانية أظلاف لأن أظلاف بهائم الحرث من بقر أو جاموس مشقوقة ، ولكن تقبيل شفيرتا الأرض التي يشق بطنها المحراث لحبوب الذرة التي يسقط سرسوبها في الجرح قبل أن يلتئم عليه في تحنان رحم يتطلع إلى ميلاد جديد . وهي أيضا التي ترتفع بالمشهد اليومي المتكرر إلى آفاق الشعر والفن الإنساني القادر على استيعاب كل تفاصيل المشهد في عملية الخصب والنبات. لكن قصص رومبش لا تكتفي بهذا المنهج التعبيري الثري وحده، ولكنها تضيف إليه الولع بالمفارقات في بناء العمل القصصي ككل ، لأن قصة « الليل .. الرحم » التي تبدأ بهذا المشهد الشاعري تنتهي بموت كل البذور الواعدة بالميلاد فيها ، موت هانم ضحية لمرض الكوليرا ، وموت فتح الله بعد فقدانه هانم بتلك الرصاصة التي تدوي في نهاية القصة المفتوحة فلا يستطيع القارىء منها فكاكا .

فوداعا أيها الصديق العزيز : عشت وحدك ، وتحملت عبء المرض وجهل أطباء هذا الزمن الرديء وحدك ، وعانيت عسف البيروقراطية والفساد وحدك . وهذا هو قدر الفلاحين في المدن القاسية . ولكن العزاء أنك حشرت في زمرة الكتاب الكبار الذين صاغوا من مآسي الفقراء فنا عذبا جميلا. وأن رسالتك الأدبية القيمة التي حملت لواءها مع مجايليك يحيى الطاهر وقاسم لا تزال تتواصل في الأجيال التي وفدت إلى الساحة بعدكم من سعيد الكفراوي ويوسف أبو رية حتى عبد الحكيم حيدر وخيري عبد الجواد .

الطبقة الوسطى المصرية

بين الوعى الطبقى والوعى الاجتماعى

بقلم : د . رءوف عباس

يتطلب الوعى الطبقى عند طبقة ما إحساسا وإدراكا جمعيا لمصالحها يدفعها إلى التضامن للدفاع عن تلك المصالح فى مواجهة الطبقات الأخرى التى تنازعها تلك المصالح ، أو حماية لمصالحها تلك وحرصا على تنميتها على حساب غيرها من الطبقات . أما الوعى الاجتماعى فنقصد به إدراك الطبقة لأهمية الاستقرار الاجتماعى للحفاظ على بنية المجتمع الذى حققت من خلاله وجودها ومصالحها حتى تتجنب تعريض تلك المصالح للخطر . ولعل الطبقة الوسطى المصرية عبر تاريخها الذى قارب القرنين من الزمان - كانت من الطبقات الاجتماعية التى انفردت بوعى طبقى غريزى ولكنها افتقرت - على نحو ما سنرى - إلى الوعى الاجتماعى .

وقد تكونت الطبقة الوسطى المصرية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر نتيجة تطور الملكية الزراعية تدريجيا حتى استقرت الملكية الفردية قبيل نهاية القرن ، فكانت زراعية أساسا تستمد مصالحها من الملكيات التى حصلت عليها فى ظروف التطور السياسى والاقتصادى الذى شهدته مصر فى تلك الحقبة ، وتمتعت بنفوذ كبير على الفلاحين بحكم امتلاكها لأداة الانتاج الزراعى (الأرض) ، وإن سكنت المدن إلى جوار الارستقراطية الحاكمة ممثلة فى أسرة محمد على ومن لاذ بها من كبار



محمد على



الخديو إسماعيل



عرابي



عامر وكمال الدين حسين والبغدادي والسادات وزكريا محيي الدين حول جمال عبد الناصر

الموظفين ذوى الأصول التركية والشركسية. وانضمت إلى تلك الطبقة شريحة أخرى تمثلت فى أولئك الذين أتيحت لهم فرصة التعليم الحديث فى مدارس محمد على واسماعيل . والذين جاءوا من بين صفوف الفلاحين (حيث كان التعليم مجانيا حتى بداية عصر اسماعيل) ، والذين دعت الحاجة إلى تعليمهم لتوفير الكوادر اللازمة للادارة المصرية ، فاتسع التعليم حينا وانكمش حينا آخر فى حدود حاجة دواوين الحكومة إلى الموظفين ، وهى سياسة استمرت تحت حكم الاحتلال البريطانى وإن فقد التعليم مجانيته عندئذ ، فسد الطريق أمام فرصة الحراك الاجتماعى لأبناء الفلاحين . على كل أصبح المتعلمون من موظفى الحكومة (كبارهم وصغارهم) يعبرون عن الطبقة الوسطى المصرية ، واستطاع بعضهم أن يدخل شرائحها العليا عن طريق هبات الاراضى التى منحها اسماعيل على وجه الخصوص للبارزين منهم ، وعن طريق المصاهرة ، وغنى عن ذلك من روابط جعلت شريحة المتعلمين (أو الأفندية) تلتصق بالطبقة الوسطى وتتنكر لأصولها الفلاحية.

مواجهة الهيمنة الأجنبية

ولما كانت الطبقة الوسطى المصرية قد تكونت فى مرحلة تاريخية اتسمت بالهيمنة الأجنبية على الاقتصاد المصرى ، وربطه بالاقتصاد الأوربى بروابط التبعية ، فقد برز وعيها الطبقى فى وقت مبكر عندما كونت الجبهة الوطنية التى تصدت للتدخل الأجنبى فى النصف الثانى من سبعينات القرن الماضى ، تلك الجبهة التى ساندت ثورة ١٨٨١ (التى عرفت بالثورة العرابية). غير أن وقوع الاحتلال البريطانى وهزيمة الثورة عام ١٨٨٢ ، جعلاها تتراجع عن مواجهة الهيمنة الأجنبية دفاعا عن مصالحها وحرصا عليها ، وخاصة أنها بحكم كونها من كبار ملاك الأراضى ، كانوا كبار منتجى القطن الذى لا تشتريه إلا بريطانيا وبعض الدول الأوربية الأخرى، ومن ثم مالوا إلى التعاون مع الاحتلال مادامت سياساته لا تمس مصالحهم وانما تعمل على تنميتها من خلال سياسة زراعية وضعها الاحتلال لخدمة مصالحهم ورعايتها ، ولذلك صرفوا جهودهم فى المجالس النيابية التى أقامها الاحتلال إلى الدفاع عن مصالحهم الاقتصادية والاجتماعية فى حدود الإطار الذى رسمه الاحتلال البريطانى . ولكن شريحة « الأفندية » المتعلمين الذين تلقوا تعليمهم فى أواخر عهد اسماعيل ومطلع عهد الاحتلال ، كانوا أكثر معارضة للاحتلال البريطانى ، غير أن هذه المعارضة لم تتخذ شكلا واضحا إلا فى أعقاب أزمة ١٩٠٧ الاقتصادية التى أضرت بالشرائح الدنيا

من الطبقة الوسطى ، فأصبحت معارضة الأفندية الذين التفوا حول الحزب الوطنى بزعامة محمد فريد تتخذ طابعا احتجاجيا واضحا .

وقد ترتب على نمو المدن المصرية ، ونشوء مدن جديدة بمنطقة قناة السويس ، والتوسع النسبى فى التعليم بعد صدور دستور ١٩٢٣ ، والظروف الاقتصادية التى شهدتها مصر فى الحربين العالميتين التى أتاحت الفرصة أمام صغار التجار وبعض أصحاب الحرف لتحقيق قدر محدود من الثراء ، أدى ذلك كله إلى اتساع قاعدة الشريحة الدنيا من الطبقة الوسطى . وجاء الكساد العالمى الكبير فى مطلع الثلاثينات وما ترتب عليه من آثار أضرت بتلك الشريحة الاجتماعية بقدر ما زادت من بؤس الطبقة الكادحة من العمال والفلاحين، ليقع التناقض الكبير بين شريحة كبار الملاك المحدودة التى استأثرت بجانب كبير من الدخل القومى ، وبين الشريحة الدنيا من الطبقة الوسطى ممثلة فى الأفندية وصغار التجار وصغار المنتجين الحرفيين (أصحاب الورش) ، وأصبح هؤلاء دعامة حركات الرفض السياسى والاجتماعى التى عرفتها مصر منذ أواخر العشرينات فجاءت من بين صفوفهم كوادر الحركة الشيوعية المصرية و« الإخوان المسلمون » ومصر الفتاة ، كما خرجت من صفوفهم جماعة « الضباط الأحرار » التى أشعلت ثورة يوليو ١٩٥٢ ، وأدت سياستها الاجتماعية والتعليمية إلى توسيع نطاق قاعدة الطبقة الوسطى المصرية وخاصة الشريحة الدنيا منها .

وعلى مر تاريخ الطبقة الوسطى المصرية كانت تعبر عن وعيها الطبقى بالدفاع عن مصالحها عن طريق التشريع بحكم وجودها وسيطرتها على المجالس النيابية وتربع ممثليها على كراسى الحكم ، كما أقامت الهيئات التى ترعى مصالحها مثل الجمعية الزراعية الخديوية (السلطانية ثم الملكية فيما بعد) التى وقفت حارسا على مصالح كبار الملاك وراعيا للانتاج الزراعى ، ثم اتحاد الصناعات الذى تولى رعاية مصالح القطاع الصناعى ، وتولى رئاسة الهيئتين بعض الشخصيات الهامة المعروفة بدفاعها عن مصالح ملاك أدوات الانتاج سواء فى الصناعة أو الزراعة .

افتقار الوعى الاجتماعى

ورغم وعى الطبقة الوسطى بمصالحها وتصديها للدفاع عنها ، إلا أنها كانت تفتقر إلى الوعى الاجتماعى من حيث إيجاد الضوابط التى تكفل تحقيق الاستقرار الاجتماعى الذى يضمن - بالضرورة - استمرار وجودها وتنمية مصالحها ، ويتجلى ذلك فى عزوفها عن تبنى السياسات الاجتماعية التى تخفف



من وطأة المسألة الاجتماعية التي تمثلت في ثالوث : الفقر ، والجهل ، والمرض ، والتي كانت ترجع إلى سوء توزيع الملكية الزراعية ، وتدني الأجور في قطاعي الزراعة والصناعة على السواء ، وارتفاع إيجارات الأراضي الزراعية وعدم الاهتمام بمحو الأمية ، وانتشار الأمراض المتوطنة وغياب السياسات الخاصة بالرعاية الصحية ، وانتشار البؤس والفاقة في الريف والمدن على السواء .

ومن عجب أن سلطات الاحتلال البريطاني – وهي تتحمل جانبا كبيرا من مسئولية صياغة النظام الاقتصادي الذي استمر بصورة أو بأخرى حتى قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ – كانت تعي تماما خطورة استمرار ظاهرة سوء توزيع الثروات بين المصريين من زاوية سياسية محضة ، فقد كانت تنظر دائما بعين القلق إلى ما قد يترتب على استمرار تلك الظاهرة من قلاقل اجتماعية ، قد تتخذ طابع العمل السياسي المعادي للوجود البريطاني في مصر . لذلك تبنت سياسة ترمي إلى توسيع نطاق الملكيات المتوسطة وتشجيعها وتثبيت الملكيات الصغيرة والحيلولة دون استمرار

تفتتها ، فحاولت أن توفر مصادر الائتمان لصغار ومتوسطي الملاك ، وتدخلت بالتشريع في محاولة لحل مشكلة ديون الفلاحين بإصدار قانون الأفدنة الخمسة (١٩١٣) ، وإذا كانت تلك المحاولات قد باءت بالفشل ، فإن ذلك يرجع إلى عدم المساس بالبنية الاقتصادية التي أفرزت الظاهرة المطلوب علاجها .

وفيما عدا تلك المحاولة التي تمت على يد الاحتلال البريطاني لا نجد اهتماما من جانب السلطات الحاكمة برسم سياسة اجتماعية تهدف إلى تخفيف أعباء الحياة عن عاتق الطبقة الكادحة الفقيرة ، وبالتالي التخفيف من حدة التناقضات الاجتماعية ، فترك الحبل على الغارب لرأس المال الزراعي والصناعي دون ضابط أو رابط ، فإذا تدخلت الحكومة بالتشريع كان ذلك لمصلحة الأغنياء ، وحماية لمصالحهم كما حدث بالنسبة لتدخل الحكومة لتنظيم تجارة القطن خلال الحربين العالميتين التي أنقذت كبار المزارعين من خسائر محققة كانوا عرضة لها لولا تدخل الحكومة لحمايتهم .

ظلم الفقراء

أما بالنسبة للفقراء ، فلا تتحرك الحكومة إلا إذا احتدمت الأمور وهددت بالانفجار أو كادت ، عندئذ تضع النظم التي تفتقر إلى القوة الرادعة التي تضمن تنفيذها لصالح الفقراء ، مثلما حدث بالنسبة للأوامر العسكرية التي صدرت خلال الحرب العالمية الثانية ووضعت حدودا لإيجارات الأراضي الزراعية ، ولكنها لم تنص على عقاب الملاك الذين يخالفونها ، فلم يلتزم بها أحد . ولعل لجان التوفيق والتحكيم التي شكلت عام ١٩١٩ لفض المنازعات بين العمال وأصحاب الأعمال تقدم نموذجا آخر للاستهانة بمصالح الطبقة الكادحة والاهتمام بمصالح رأس المال ، فلم تكن تلك اللجان ملزمة لأحد . ولم تصدر التشريعات العمالية التي صيغت على مدى النصف الأول من القرن العشرين إلا تحت ضغط الحركة العمالية ، وبصورة تقل كثيرا عما كان يطمح إليه العمال . وحتى هذه التشريعات الهزيلة تضمنت النص على عدم سريانها على عمال الزراعة زيادة في الحرص على مصالح كبار الملاك الذين يجلس ممثلوهم في سدة الحكم ويشغلون مقاعد النيابة عن الشعب في البرلمان دون أن يعوا أن استمرار تفاقم التناقضات الاجتماعية يهدد تلك المصالح بالخطر .

وقد يتبادر إلى أذهان البعض أن السلطة الوطنية كانت عاجزة عن التدخل بالتشريع لوضع السياسات الاجتماعية الواجبة ، بسبب الامتيازات الأجنبية وضرورة تصديق الجمعية العمومية للمحاكم المختلطة على التشريعات حتى تسري على المؤسسات الأجنبية والملاك الأجانب (وما

أكثرهم !) . ولكن ذلك لم يكن واردا عند صناع القرار فى مصر . فهناك سياسات اجتماعية كان يمكن رسمها دون المساس بمصالح الأجانب ، ودون حاجة إلى المرور عبر المحاذير التى تمثلها الامتيازات مثل مشروع تزويد القرى بمياه الشرب النقية ونشر التعليم الأساسى ، وتوفير الرعاية الصحية للمواطنين ، والاهتمام بالاسكان الصحى فى الريف والمدن ، وكلها مطالب رفعتها فصائل مختلفة داخل الحركة السياسية ونادت بها أقلام الكتاب الذين كانوا ينشدون الاصلاح من أبناء الشريحة العليا من الطبقة الوسطى مثل مريت غالى وابراهيم مدكور وغيرهما .

ومن يتتبع المناقشات التى دارت فى المؤتمر الزراعى الثالث الذى عقدته الجمعية الزراعية الملكية بالقاهرة (مارس - ابريل ١٩٤٩) يدرك مدى غياب الوعى الاجتماعى عند نخبة الطبقة الوسطى المصرية . ففى محاضرة ألقاها حامد جودة بك - رئيس مجلس النواب السعدى وأحد كبار الملاك - أمام المؤتمر ، طالب زملاءه كبار الملاك بتحسين أحوال عمال الزراعة بإقامة مساكن صحية لهم كتلك التى يعتنون باقامتها لمواشيهم ، وأن يهتموا بعلاج الفلاح كما يهتمون بعلاج مواشيهم إذا أصابها المرض . وطرح نفس الفكرة فى مجلس النواب فلم يلق آذانا صاغية ، بل اتهموه بأنه يريد أن يفتح الطريق أمام أصحاب المبادىء الهدامة ، ولم يستمعوا لتحذيره لهم من أن استمرار البؤس والشقاء فى الريف هو الذى سيفتح الطريق أمام المبادىء الهدامة وليس الإصلاح الاجتماعى .

وحدث نفس الشىء عندما تقدم بعض من توافر لديهم الوعى الاجتماعى من أبناء الطبقة الوسطى بمشروع تحديد الملكية الزراعية إلى البرلمان مثل محمد خطاب عضو مجلس الشيوخ (عام ١٩٤٤) ، وابراهيم بيومى مدكور الذى تقدم لمجلس الشيوخ (١٩٤٥) بمشروع قانون تنظيم الملكية والإيجار والعمل فى الزراعة ، وابراهيم شكرى الذى تقدم لمجلس النواب (عام ١٩٥٠) بمشروع قانون للإصلاح الزراعى ! فقد ووجهت كل تلك المحاولات الاصلاحية بموجة عارمة من المعارضة من جانب النواب والشيوخ وكان مصيرها الرفض . وراح مريت غالى - عضو مجلس النواب - يدق ناقوس الخطر فى كتابه «الاصلاح الزراعى» (١٩٤٤) داعيا البورجوازية المصرية إلى التضحية من أجل وطنهم ومواطنيهم ، وعدد تجارب الإصلاح الزراعى التى عرفتها الأمم الأخرى ، وأشار إلى التجربة الروسية التى رأى أن فيها نذيرا بالخطر « إذا أهملنا الاصلاح اللازم أو تغلبت علينا نظريات سياسية لا قبل لنا بها (ص ١٣) » .

ونظرة إلى المناقشات التى دارت

بالبرلمان عند نظر مشروع قانون التعليم الأولى (مايو ١٩٣٣) ، حيث اعتبر بعض النواب أن تعليم أبناء الفقراء « خطر اجتماعي هائل لا يمكن تصور مداه ، لأن ذلك لن يؤدى إلى زيادة عدد المتعلمين العاطلين ، بل يؤدى إلى ثورات نفسية » ، وطالبوا بأن يقتصر التعليم على أبناء الموسرين من أهل الريف ، وعبر نائب آخر عن خشيته من أن يفسد التعليم أبناء الفلاحين ويجعلهم يعتادون حياة المدينة ، ويخرجون إلى حقولهم بالبلاطى والأحذية ، ويركبون الدراجات ويتطلعون إلى ركوب السيارات .

وعندما طرح قانون التعليم الإلزامى للمناقشة بالبرلمان (١٩٣٧ - ١٩٣٨) تجدد الحديث حول خشية إفساد التعليم للفلاح ، وعدم جدوى تعليم أبناء الفلاح الجغرافيا والتاريخ . وأبدى أحد النواب مخاوفه من أن يجد الفلاحين وقد ارتدوا « جلاليب مكوية أو طواقى بالأجور وأحذية ملونة » ، حتى « لا يتحول أصحاب الجلاليب الزرقاء إلى أصحاب جلاليب مكوية » .

وضع المسكنات

وتكشف تلك المناقشات عن مدى غياب الوعى الاجتماعى عند نخبة الطبقة المتوسطة المصرية الذى جعلهم يرون فى ابقاء الطبقات الكادحة تعيش فى فقر وجهل ومرض أضمن لمصالحها . وبالتالى وقفت ضد كل علاج يطرح لحل بعض جوانب المسألة الاجتماعية من خلال وضع مسكنات لها ، فضلا عن التفكير فى الحلول الجذرية . وزاد من حدة هذا الاتجاه أن الأحزاب السياسية التى تعاقبت على الحكم - على اختلاف اتجاهاتها - كانت ترى أن أمامها مسألة تفوق ماعداها أهمية هى المسألة المصرية ونعنى بها تحقيق الاستقلال التام وإجلاء قوات الاحتلال عن أرض الوطن ، أما المسائل الأخرى اجتماعية وغير اجتماعية فعليها أن تنتظر حتى تحين ساعة الاستقلال ، عندئذ يبحث القوم عن حل لها . وهكذا تقاعست كل تلك الأحزاب عن محاولة إيجاد حلول للمسألة الاجتماعية التى ازدادت تفاقما . ولكن ذلك لم يمنع الفصائل السياسية المعبرة عن الشريحة الدنيا من الطبقة الوسطى من أن تستجيب للرفض الاجتماعى من جانب الطبقات المسحوقة ، وتطرح تصورات لحل بعض جوانب المسألة الاجتماعية قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ ، ساهمت فى صياغتها الجماعات الشيوعية وحزب العمال المصرى (١٩٣١) ، وحزب الفلاح (١٩٣٨) ، وجماعة النهضة القومية (١٩٤٤)، واستفادت «مصر الفتاة» من كل ما طرح من أفكار عند صياغة برنامج الحزب الاشتراكى (١٩٤٩) ، وشكل ذلك كله الاطار المرجعى للسياسات الاجتماعية التى تبنتها ثورة يوليو ١٩٥٢ .

القرن الحادى والعشرون

٢٠٠٠

رؤيـــــة لمستقبل مصر

بقلم : جميل مطر

تحتاج كل الأمم فى مراحل معينة من تطورها إلى مشروع كبير يعيد صياغة أهدافها، ويوحد صفوفها، ويعبئ مواردها، ويحفز قياداتها، ويجدد الثقة فى مستقبلها. وقد يتخذ هذا المشروع أحيانا شكل العقيدة الدينية، وأحيانا أخرى شكل الثورة السياسية والإقتصادية والإجتماعية، وأحيانا ثالثة يتبلور فى شكل تصور فكرى يستند إلى واقع مدروس وطموحات ممكنة التحقيق.

وقد تعددت فى مصر تجارب ومحاولات بناء هذا المشروع الكبير على مدى القرنين الماضيين، وخلف كل تجربة ومحاولة كانت هناك رؤية ما. كانت هناك رؤية خلف تجربة محمد على لبناء مؤسسات الدولة الحديثة، وكانت هناك رؤى خلف تجارب النضال من أجل تحقيق الاستقلال: رؤى عند أحمد عرابى ورفاقه فى ثورة ١٨٨٢، وأخرى لدى مصطفى كامل ومحمد فريد وقيادات الحركة الوطنية حتى نشوب الحرب العالمية الأولى، وثالثة لدى سعد زغلول وقادة ثورة ١٩١٩، ورابعة عند جمال عبد الناصر وثورة ١٩٥٢، وكذلك كانت هناك رؤى لمفكرين إصلاحيين وتيارات سياسية عديدة مارست دورها فى تكوين العقل المصرى الحديث.

وقد كانت هذه الرؤى نتاج عصرها وظروفها، ومن ثم فقد تأثرت بالواقع الذى نشأت فى إطاره وتفاعلت معه، كما أنها عكست تطور المجتمع وفئاته الإجتماعية وقواه السياسية، وعكست كذلك مفاهيم متجددة للنهضة، وهذه بحكم تعريفها ليست

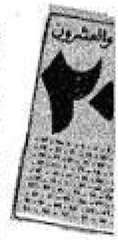
★ مصر فى حاجة إلى رؤية جديدة مشتقة من أهداف هذا الشعب عبر ثوراته وطموحاته وتجاربه

★ أصبحنا نعيش عصر الاقتصاد العالمى، حيث لم يعد الاكتفاء الذاتى فيه أمرا ممكنا

عملا فرديا يقوم به أحد المبدعين أو العباقرة ولا هى برنامج لحزب من الأحزاب ، ولكن النهضة كمفهوم حضارى متكامل يتجاوز المفاهيم المتداولة فى العلوم الإجتماعية مثل التنمية الإقتصادية أو التحديث أو التغير الإجتماعى ، فالنهضة هى كل ذلك وقد انخرط فى نسيج متكامل من العلاقات الإجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية . وعندما تسرى روح النهضة فى مجتمع ما ، تدب الحركة فى كل أوصاله ، فهى إذن حركة مجتمع بأسره يتحرك صوب مثل أعلى ، أو تحركه رؤية لمستقبل أفضل .

ونحن عندما نتطلع إلى رؤية للمستقبل على أساس النهضة ، فإننا لا نستطيع أن ننفصل عن الخبرة التاريخية ، بل يجب أن نستفيد منها ونطورها فى سياق المعطيات الجديدة والمستجدة ، ومن هنا علينا ونحن نبحث عن رؤية جديدة لمستقبل مصر ، أن ننظر إلى تاريخها القديم والحديث بمنظور التواصل والاستمرار .

هذا وقد تعرضت مصر خلال العقود الأخيرة إلى تحولات جذرية شملت منظومة القيم وأساليب الحياة وشكل الخريطة الإقتصادية والإجتماعية ، وأسس الأمن الوطنى والعلاقات الخارجية . والمؤكد أن هذه التحولات لم تكن متتابعة أو متناسقة ، ولم تؤد إلى خلق هيكل إجتماعى واضح المعالم بقدر ما أدت إلى ما يمكن وصفه بحالات « إنقلاب » واهتزاز عنيف فى نسق القيم والمعايير الموجهة للسلوك الاجتماعى ، كما أدت إلى عدم الاستخدام الأمثل للموارد والفرص المتاحة ، الأمر الذى حال دون إيجاد ظروف التراكم التنموى اللازم .



إن قراءة لتاريخ مصر الحديث تبين أن عملية التطور الإجتماعى فيه قد اتسمت بسمتين رئيسيتين : أولاهما ، أن إدخال الأنماط الجديدة فى المؤسسات ومسالك الحياه المختلفة لم يكن الغاء للقديم ، وإنما تزامن القديم والجديد وتطور كل منهما فى مجاله ، يتصارعان أحيانا ، ويتعايشان أحيانا أخرى ، ولا يستطيع أحد أن يفهم هذا الشعب دون الإمساك بتلك العلاقة بين القديم والجديد فى شخصيته ونفسيته وإدراكه للأمور . فمصر التى نعيش فى ظلها اليوم هى امتداد لمصر الأمس . وتمثلت السمة الثانية فى الانقطاعات المتتالية فى مسار عملية التطور ، فنتيجة للتوقع السريع للنتائج وعدم إعطاء الفرصة الزمنية اللازمة لأى سياسة لأن تؤتى ثمارها ، فإن الأخطاء التى أفصحت عنها كل تجربة لم تؤد إلى تقويمها وإصلاحها ، وإنما إلى هجرها والبدء فى طريق جديد .

إن تفاعل هاتين السمتين أدى إلى تبلور حالة ذهنية ونفسية متميزة فى لحظات التحول أو الأزمة أو الشعور بالخطر ، أبرز معالمها قدرة المجتمع على استدعاء مختلف الافكار والمفاهيم التى اثرت فى تاريخه وتعبئتها فى مواجهة هذه اللحظة .

فالقديم فى بلادنا لا يزوى تماما ، وإنما يظل جزءا منه يعيش وسطنا ، ويستطيع المصريون الدفع به إلى مقدمة الصفوف عندما تقتضى الظروف ذلك ، ولعل هذا يفسر « بانوراما » الأفكار والتيارات السياسية التى تشهدها مصر اليوم ، والتى نهلت من منابع مختلفة ونشأت فى ظروف تاريخية متباينة ، وهو ما يخلق مشكلة فى التعامل مع المستقبل وما يحمله من جديد ، فمن خلال السعى - غير المنتظم - نحو الجديد سحب المجتمع المصرى وراءه كل القديم ، وبدلا من أن يرتبط هذا المجتمع برؤية مستقبلية يتسلح فيها بكل ما هو إيجابى فى القديم والجديد ، تعلق برؤى « ماضوية » حمل فيها كل ما هو قديم لمواجهة الجديد ، فكانت النتيجة حاضرا يخترقه الماضى وأفكاره وثاراته ورواسبه وأساطيره ، ولا يترك مجالا - إلا ضئيلا - ينفذ فيه المستقبل أو ينفذ منه إلى المستقبل .

فهم معطيات المستقبل

إن مصر اليوم فى حاجة إلى رؤية جديدة ، رؤية يقتنع بها الرأى العام ، ويتبناها أهل الفكر والرأى والقرار . رؤية تكون مشتقة من اهداف هذا الشعب عبر ثوراته وطموحاته وتجاربه وإخفاقاته ، رؤية تستند إلى تقدير صحيح لحجم مشاكل الحاضر ولقدرات المجتمع الكافية والقادرة على مواجهتها ، ويتم بلورتها فى ضوء فهم معطيات المستقبل وعالم الغد الذى يتشكل حولنا . نحن فى حاجة إلى رؤية لا تبحث فى الماضى الا بالقدر الذى يضع أساسا للمستقبل ، ولا تنشغل بالدخول فى صراعات

ومعارك فات أوانها ، ولا تنطلق من مفاهيم وأفكار تجاوزتها الاحداث ، وإنما تنطلق من الاقتناع بالإمكانات الكامنة لهذا المجتمع ولهذا الشعب ، وبقدرة المصريين على تجاوز مشكلاتهم الراهنة إلى مستقبل مغاير .

إن هناك اعتبارات كثيرة نابعة من ظروف المجتمع المصرى تحتم بلورة مثل هذه الرؤية الجديدة ، فهناك حاضر يتسم بعدد من الاختلالات والمشكلات التى تبدو أحيانا وكأنها لا نهاية لها ، والتى تسفر عن كثير من التوترات النفسية والإجتماعية . فهناك توترات ناتجة عن الفجوة بين الزيادة المطردة فى السكان والنقص فى قدرة المؤسسات الإجتماعية والإقتصادية على الإستجابة للحاجات المتزايدة فى مجالات التعليم والغذاء والإسكان . وهناك أيضا توترات ناتجة عن التغيرات السياسية السريعة فى العقود الثلاثة الأخيرة وما صاحبها من قيم مختلفة فى مضمون التنشئة السياسية والقيم الفكرية الأخرى ، بما أدى فى النهاية لوجود « أزمة انتماء » وما واكبها من اهتزاز لدور القوة الاجتماعية والسياسية . وبالإضافة لهذه الإعتبارات المحلية هناك أسباب أخرى عالمية ودولية منها : تزايد الاهتمام العلمى والسياسى فى مختلف دول العالم بالمستقبل ، وضرورة الإعداد له والتخطيط لمشاكله من الآن ، ويظهر ذلك فى عشرات التقارير والمؤتمرات والكتب والدراسات التى تتناول شكل عالم المستقبل والقوى الفاعلة فيه .

وهناك عدد من الضوابط التى يمكن أن تؤخذ فى الإعتبار عند صياغة مثل هذه الرؤية المستقبلية لمصر :

أولها : الشمول ، بمعنى النظرة المتكاملة لحركة المجتمع فى كلياتها وتحليل سلوك ومواقف الأجزاء فى سياق تلك الحركة الإجمالية .

ثانيها : التاريخية ، فهى تدرس المستقبل فى ضوء الحاضر والماضى ، وهى تتحسب الإحتمالات والآفاق الجديدة التى يتضمنها عالم الغد ، ودون أن تنفصل عن خصوصية المجتمع المصرى وتاريخه وتجاربه ، كما يشمل مفهوم التاريخية أيضا معنى أن دراسة مستقبل مصر لاتتم بمعزل عن السياق الإقليمى والدولى .

ثالثها : التركيز على القضايا والعناصر الحاكمة ، والأكثر تأثيراً على شكل المستقبل ومسيرته ، فلا يجب أو ينبغى أن تتجه الرؤية إلى تبنى إسلوب السرد والحصر لكل القضايا .

رابعها : الأخذ بروح الجماعة أو العمل الجماعى ، فالرؤية الفردية عادة تتحكم فيها عناصر ايديولوجية وذاتية ، فضلا عن محدودية إدراك أى فرد لكافة العوامل التى تؤثر فى شكل المستقبل ، ومن هنا ، فإن بلورة هذه الرؤية يجب أن تتم من خلال

العمل الجماعى من اللحظة الأولى .

خامسها : التركيبية ، أى أن تكون من حيث المضمون خلاصة تركيبية لأفضل ما قدمه الفكر المصرى الحديث وتجربة الشعب المصرى فى هذا القرن .

معطيات المستقبل : المعطيات الدولية

لا شك أن التعرف على سمات العالم الذى يتبلور من حولنا إنما يمثل المقدمة المنطقية والضرورية لفهم المستقبل المصرى ، فهذا العالم هو السياق التاريخى للجهد المصرى ، وهو الذى سوف يتيح للمصريين فرصا جديدة أو يفرض عليهم قيودا مستحدثة ، وفى الحالتين لا تملك مصر سوى الفهم الدقيق لهذا الواقع وتحديد أفضل السياسات للتعامل معه ، تعظيما لمنافعه وتقليلا لأضراره وفيما يلى نتناول ما نتصور أنه يشكل المعطى الدولى .

١ - الاتجاه إلى العالمية :

إن العالم لم يعرف درجة من التداخل والترابط الإقتصادى كما يعرفها الآن . أصبحنا نعيش فى عصر الإقتصاد العالمى حيث لم يعد الإكتفاء الذاتى فيه أمرا ممكنا ، وقد أصبحت العلاقات الدولية مظهرا من مظاهر فكرة الإقتصاد العالمى وليس مجرد علاقات اقتصادية خارجية بين الدول للبحث عن الاسواق أو توفير الموارد الطبيعية ، وقد ارتبط ظهور الإقتصاد العالمى بتطورات مقابلة فى الصناعة وفى التكنولوجيا المتاحة فضلا عن تطور المؤسسات والمنظمات المؤثرة فى العلاقات الإقتصادية الدولية . فالصناعة الحديثة لا تتميز فقط بامكانياتها التكنولوجية والتسوية العالمية ، وإنما أيضا باتجاهها العالمى فى كافة مراحلها ، وتدخلت صور العلاقات الإقتصادية الدولية فى تبادل السلع والخدمات فى مختلف مراحل الانتاج وأصبحت التجارة فى السلع نصف المصنعة والوسيطة ومكونات الانتاج تجاوز تجارة السلع النهائية .

وقد صاحب هذا التطور فى طبيعة الصناعة الحديثة واتجاهها إلى العالمية ظهور دور متميز لعدد من الوحدات الانتاجية العملاقة والتى تتحكم فى تكنولوجيات مختلف الصناعات وتباشر سياسات واستراتيجيات صناعية عالمية تتجاوز الحدود السياسية .

ولا يقتصر الاتجاه إلى العالمية على هذه النواحى التكنولوجية وما ارتبط به من دور متزايد تلعبه هذه الوحدات الإنتاجية العالمية ، بل إن إتجاهات العالمية تفرض



محمد فريد



سعد زغلول



عبد الناصر

نفسها على مختلف نواحي الصناعة الحديثة ، كذلك فان النظم القانونية للمعاملات لم تعد دائما نظما وطنية ، فقد ظهر نوع من القواعد العالمية لتنظيم هذه المعاملات سواء فى مجال البيوع الدولية أو الإستشارات أو العقود الدولية .

٢- ثورة المعلومات والإتصالات :

عندما نتحدث عن « ثورة المعلومات » انما نشير إلى تغيير وانقطاع كيفي فى لتكنولوجيا والآفاق المتاحة . وإذا كان ظهور الزراعة قبل حوالى عشرة الاف سنة قد مثل ثورة وانقطاعا كاملا بين نمط الحياة السابقة واللاحقة ، وأيضا إذا كانت الثورة الصناعية قبل قرنين قد مثلت انقطاعا آخر غير فى نمط الحياة وأساليب الإنتاج ، فإنه يمكن القول إننا على فاتحة عصر جديد يمثل انقطاعاً وتغييرا فى نمط الحياة والتكنولوجيا فنحن نعاصر الآن تغييرا نوعيا فى الصناعة والتكنولوجيا المستخدمة ، ولم يعد الأمر متعلقا بإنتاج « أكبر » أو « أكثر » وإنما أصبح يشير إلى شيء « آخر » وإلى أمر « مختلف » ، وأصبحنا نعيش مرحلة تتميز بغلبة المعلومات والإتصالات لدرجة تبرر وصفها بـ « ثورة المعلومات والإتصالات » ولم تعد الآلة الجديدة تحل محل قوة الانسان وعضلاته إنما أصبحت تقوم بدور عقله وتكمل بل ومضاعفة ذكائه .

ولعل من أهم آثار هذه الثورة الجديدة فى المعلومات والإتصالات هو ذلك التقارب والاندماج بين مختلف أجزاء العالم ، حتى بات البعض يتحدث عن « القرية العالمية » وأصبح العالم نتيجة هذه الثورة المعلوماتية يتقارب ويتجه نحو التماثل وتزول مختلف الحواجز بين أجزائه ، ولكن هذا التقارب وهذا التماثل لا يحولان دون أن يتمكن هذا العالم – وبفعل هذه الثورة – من إيجاد أشكال جديدة من التنوع والتفرد .

٣ - الثورة المالية :

لم تعد النقود أمرا وطنيا بحتا بل أصبحت تتأثر . وكثيرا ما تتوقف على ما يحدث خارج الحدود . كما لم تعد النقود تصدر فقط عن البنك المركزى والبنوك التجارية ، وإنما أصبحت هناك أشكال أخرى للمديونية تشارك النقود وظائفها مثل كروت المديونية التى تصدرها المؤسسات التجارية والسياحية ، بل إن العديد من هذه المديونيات لم يعد تحت سيطرة الدولة . كما أن زيادة حجم التبادل الدولى قد جعل مسألة النقد مرتبطة باعتبارات دولية ، فالدولار يلعب دورا أساسيا ليس فقط فى الولايات المتحدة الامريكية ولكن فى معظم الدول الغربية واليابان وعدد غير قليل من بقية دول العالم . وفى نفس الوقت بدأت تظهر ترتيبات نقدية بين الدول سواء فى النظام النقدى الأوروبى EMS أو فى ظهور حقوق السحب الخاصة SDR أو الوحدة الأوروبية ECU . ومن هنا يمكن القول بأن النظام النقدى قد انفصل بعض الشىء عن علاقته الوطنية لكل دولة ليصبح له وجود وحياة مستقلة تتأثر بما يحدث فى مجموع العلاقات الدولية .

وإذا تركنا النقود إلى بقية الأدوات المالية نجد ثمة تطورا أكثر وضوحا يتمثل فى تحرر هذه الأدوات من القيد الإقليمى لتصبح عالمية ، وقد عمد الكثير من الدول إلى تحرير أسواقه المالية وبحيث أصبحت الأسهم تتداولها فى معظم الأسواق المالية العالمية دون قيود ، وانتقل العالم إلى نوع من الاقتصاد الرمزى تحركه هذه الأصول المالية تنتقل من مكان إلى آخر ومن عملية إلى أخرى فى لحظات ودون أن تحركها عين أو تعوقها سلطة . وهكذا أدت الثورة المالية فى أدوات وأساليب التمويل إلى تجاوز الحدود السياسية للدول ، وقيدت بالتالى من قدرة السياسة الاقتصادية الوطنية فى مواجهة هذه الثروات المالية الهائلة .

وأخيرا ، فــإن كل مهتم بمستقبل مصر ، أيا كان موقعه أو مكانه ، وسواء من الأجيال الأقدم سنا أو الأحدث ، عليه أن يساهم فى بلورة هذه الرؤية المستقبلية لمصر ، رؤية تختزن الماضى لتنطلق منها إلى المستقبل ، فالماضى فى مصر فيه الصحيح والإيجابى ، وفيه الخاطىء والسلبى ، وهناك من القديم والماضى ما يمكن البناء فوقه ، وما يمكن البناء إلى جانبه ، وعلينا جميعا - ونحن بصدد بلورة هذه الرؤية - التمييز بين هذا وذاك من أجل تكوين رؤية مستقبلية يكون فيها الماضى نبعا للأصالة والصلابة ، وعاصما من احتمالات التشويه الثقافى ، ويعتبر فيها الجديد سلاحا أكيدا وفعالا لمواجهة المستقبل وسبر أغواره .

أقوال معاصرة



يحيى حقي



مارجريت تاتشر



عادل امام

- « اعطاء الحق لكل فرد في تغيير المنكر بيده فوضى يكرهها الإسلام » .

الشيخ الدكتور محمد سيد طنطاوي
مفتي الديار المصرية

- « سوريا لن تسمع الكلام ، إلا إذا أجبرت على السمع والطاعة » .

مارجريت تاتشر
رئيسة وزراء بريطانيا السابقة

- « أغلب الأنظمة العربية الحاكمة تنظر للثقافة بارتياب » .

المفكر العربي حسام الدين الخطيب

- « الثقافة ضيف ثقيل على الصحافة » .

الدكتور على الراعى

- « مصر هي قلب الثقافة العربية » .

الأديب السوري حنا مينا

- « كل شيء مباح في ديمقراطية أمريكا بما في ذلك صناعة الفضائح للمرشحين » .

ميشيل دوكاكيس
المرشح السابق لرئاسة الولايات المتحدة

- « الشاعر لا يكتب أصلاً في الغرف المكيفة الهواء والشعر يكتب فوق خط الاستواء » .

الشاعر نزار قباني

- « المسألة وصلت إلى أن تموت أو تكون أحرارا » .

عادل إمام

- « حرية التعبير في بعض الدول العربية محدودة » .

جورج عطية
رئيس دائرة الشرق الأوسط وأفريقيا في مكتبة الكونجرس الأمريكي

- « الفنان وحده - دون سائر الناس - قد يذوق الموت مرتين » .

الأديب الكبير يحيى حقي

القرن الحادى والعشرون

٢٠٠٠

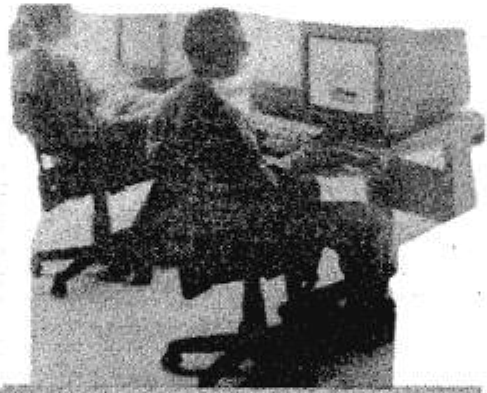
ثورة المعلومات والمنظومة القومية للمعرفة

بقلم د . السيد نصر الدين

يكتسب الحلم جدواه من قابليته للتحقيق والتنفيذ ، ويكتسب شرعيته من كونه أداة لتصور المستقبل وتلمس صورته ، ويكتسب ضرورته من قدرته على ملاحقة ومواكبة التغيير . هذا التغيير الذى تسارعت إيقاعاته وتلاحقت آثاره حتى بتنا نقف أمامه بعقول لاهثة ونفوس مضطربة ونحن نعانى من صدمة المستقبل . هذا المستقبل الذى يندفع نحونا حاملا لنا فرصة تكنولوجية علنا نقتنصها حتى لا نخرج أقدم أمة فى التاريخ من التاريخ .. !؟؟ فنحن ، فى تلك اللحظات الحاسمة من تاريخ البشرية ، نقف شهودا لأكبر «تبدل للقوى» يحدث فى تاريخها فنحن نشهد ميلاد عصر تصبح فيه «المعرفة هى السلاح الرئيسى فى صراع القوى المصاحب لإقتصاد عصر مابعد الصناعة» وتصبح «السيطرة على تدفق وتداول والتوصل إلى المعرفة هى محور الصراع» وذلك على حد قول ألفين توفلر A. Toffler فى أحدث كتبه «تبدل القوى» Powershift فلقد أصبحت المعرفة هى المورد الرئيسى الذى يقوم عليه مجتمع ما بعد الصناعة لتلعب بذلك الدور الذى لعبه رأس المال والطاقة المولدة فى عصر المجتمع الصناعى والذى لعبته المواد الخام والقوى الطبيعية فى عصر مجتمع ماقبل الصناعة .

والمعرفة ، فى عرف أهل الصنعة من المعلوماتيين (+) ، هى : رؤيتنا ، أفرادا ومجتمعات ، لعالم الواقع وهى الرؤية التى تشمل مجموع الإستنتاجات العقلية والخبرات المكتسبة والأحكام الشخصية التى تنشأ نتيجة للتعقل والتجريب و الممارسة

(+) هم الأفراد المشتغلون بالمعلوماتيات والمعلوماتيات Informatics هى مجموع النظم العلمية المختلفة التى تعنى بالدراسة النظرية والتطبيقات العملية لكافة الجوانب الفنية والإنسانية والإقتصادية والاجتماعية المتعلقة بإستخدام وتوظيف تكنولوجيا المعلومات . وذلك مثل : علوم الحاسب ، العلوم الإدراكية .



العملية والتجارب الذاتية ويمكن تمثيلها بواسطة وإختزانها و تقديمها للآخرين من خلال وسائط التمثيل والإتصال المختلفة (مثل : اللغة الطبيعية ، الأصوات ، الصور ، الأشكال ...) وذلك طبقا لقواعد محددة (منطقية جمالية) وللمعرفة ، كمورد من موارد القوة ، خصائص تميزها عن غيرها من موارد القوة الأخرى كالثروة أو العنف فهي مرنة يمكن تحويلها بيسر إلى الأشكال الأخرى لموارد القوة ، وهي لا تقل بالإستخدام على عكس الموارد الأخرى فقراءة كتاب أو ورقة علمية أو إسترجاع المعلومات المختزنة في أحد بنوك المعلومات لا تنقص من كمية المعرفة الموجودة بأي منها وهي تتميز بجماعية الاستخدام إذ يمكن لأكثر من فرد أو جماعة الإستفادة منها ، في نفس الوقت وأخيرا هي متاحة للفقراء و الضعفاء الراغبين ، ولم يكن لهذا المورد أن يأخذ مكان الصدارة بين الموارد الأخرى لولا ظهور تكنولوجيا المعلومات بتقنياتها المادية والذهنية تلك التكنولوجيا التي حققت خلال سنوات معدودة التي لا تتجاوز الخمسين تقدما فاق كل التصورات فرأيناها وهي تتحول من معالجة البيانات إلى معالجة الأفكار ورأيناها وهي تنتقل من مرحلة تخزين البيانات في صورتها الأولية الرقمية إلى مرحلة تخزين المعرفة وتعليب الخبرة البشرية بشتى صورها وأشكالها ، وشهدنا قدراتها تتطور من مجرد التنفيذ الآلي للعمليات الحسابية والمنطقية الأولية إلى محاكاة للذكاء البشري بشتى صوره وإلى تمثيل القدرات الإدراكية للمخ البشري . كما أدى تزاوج تكنولوجيا الحواسب مع تكنولوجيا الإتصالات إلى إيجاد «فضاء إلكتروني» حل محل «الفضاء الجغرافي» فضاء لا توجد به حدود سياسية تحكم التنقل بين أرجائه ولا قيود رقابية تحد من تبادل المعرفة بين أطرافه المختلفة وهو فضاء لا يتطلب التجوال فيه إنتقالا بالجسد بل يكفي أن تجلس أمام الحاسب لتصبح أقصى الأماكن

على بعد لمسة إصبع ، وهكذا يمكنك وأنت جالس فى الإسكندرية التوصل إلى المعلومات التى ترغب فى الحصول عليها من مكتبة الكونجرس فى واشنطن وذلك من خلال «منظومات إسترجاع المعلومات» ويمكنك تبادل الرسائل مع رفاق العمل فى السويد أو فى فرنسا عبر «البريد الإلكترونى» أو عقد مؤتمر عالمى بإستخدام منظومات «الإتمار عن بعد» Teleconferencing كما يمكنك العمل سويا مع فريق عمل موزع على أنحاء المعمورة بواسطة منظومات «الجماعيات» Gruopware .

كانت هذه بعضا من ملامح التقنيات المادية لتكنولوجيا المعلومات المعاصرة وهى تقنيات لا يتطلب تنفيذها وإستخدامها إستثمارات مالية ضخمة ولكنها تتطلب إستثمارات عقلية مكثفة حتى تؤتى بثمارها لذا نجد أنفسنا فى حاجة ماسة إلى إطار مفهومى عام ينظم وتنتظم فيه كافة الأفكار المتعلقة بكيفية تحين تلك الفرصة التكنولوجية المتمثلة فى توفر تكنولوجيا متقدمة ذات تكلفة منخفضة نسبيا ولا تتطلب حيازة أسرار صنعتها Know - How جهدا فوق العادة فهى فى متناول الجميع ممن يقرءون فيعون ويعملون من هنا جاء حلم المنظومة القومية للمعرفة لتكون بنية أساسية للتنمية المعرفية للأمة أفرادا وكيانات وهو البعد التنموى اللازم و الضرورى لتحقيق التنمية الشاملة بكافة أبعادها الثقافية والاجتماعية والاقتصادية .

والمنظومة القومية للمعرفة هى : المنظومة الشاملة والمتكاملة التى تعنى بـ :

- الحفاظ على :
- زيادة وتنمية .
- بث ونشر

الرصيد المعرفى للأمة متمثلا فى :

- الإنتاج المعرفى القومى
- التراث الثقافى للأمة .
- الإنتاج المعرفى العالمى

وذلك بإستخدام التقنيات المادية والذهنية لتكنولوجيا المعلومات [مثل منظومات الحواسب ، البرمجيات ، شبكات الإتصال ونقل البيانات ، نظرية المنظومة العامة General System Theory السيبرنيطيقا Cybernetics ......]

وذلك بالتعاون والتنسيق والتكامل مع :

- مراكز الإنتاج والإبداع المعرفى [جامعات ، مراكز بحوث ....]
- مراكز حفظ ومعالجة المعرفة والمعلومات [بنوك المعلومات المحلية و الدولية ، المكتبات المحلية والدولية ، منظومات المعلومات القطاعية والمركزية ...] .
- وسائل بث ونشر المعرفة والمعلومات [شبكات الإتصال ، الصحف ، الإذاعة التليفزيون ، دور النشر ...] .

إنها إذن المنظومة التي تربط بين منتجي المعرفة ، أيا كان شكلها وأيا كان موقع إنتاجها ، وبين مستهلكيها أيا كان موقعهم وهي أيضا تحقق التواصل وتيسر التحاور بين منتجي المعرفة بعضهم بالبعض فنرى ، في إطارها ، العاملين في أحد مراكز الإنتاج المعرفي وهم يعملون على «تعليب الخبرة» المتقدمة في أحد المجالات الزراعية أو الصناعية في «منظومات خبيرة» Expert Systems ويحفظونها في «قواعد معرفة» Knowledge - base لتتاح بعد ذلك لمستهلكيها من زراع وصناع أفرادا كانوا أو مؤسسات وأيا كان موقعهم على أرض الوطن ، ونرى الخبرات الطبية المتخصصة والتي تحتكرها القاهرة والإسكندرية ، نراها وقد توفرت لدى كل وحدة صحية في أصغر نجوع صعيد مصر وذلك على هيئة منظومة خبيرة على حاسب شخصي أو من خلال خط إتصال مع إحدى قواعد المعرفة الطبية ونرى تراثنا الشعبي وقد إختزن صوتا وصورة ، على منظومات «الإعلام المتنوع» Multimedia وأصبح في متناول الجميع من مفكرين ومثقفين وهنا نكبح جماح الرغبة في الإستطراد ونتوقف عن التجوال في جنبات الحلم الرحبة .. نتوقف لنتساءل عن جدواه ... وعن قابليته للتنفيذ ...؟ فإذا نظرنا داخل حدود الوطن لرأينا العديد من الجهود المبذولة في تجسيد بعضا من مكوناته ولكنها جهودا متناثرة ومبعثرة لا يلمها إطار عام أو استراتيجية شاملة فهناك على سبيل المثال ، الشبكة القومية للمعلومات العلمية والتكنولوجية التابعة لأكاديمية البحث العلمي والتي توفر للمتعامل معها فرصة إسترجاع المعلومات المتوفرة في العديد من المصادر العالمية ونجد أيضا شبكة الجامعات المصرية التابعة للمجلس الأعلى للجامعات والتي تتيح لأعضاء هيئات التدريس فرصة التحاور مع أقرانهم في العالم من خلال خدمة البريد الإلكتروني ، أما إذا نظرنا خارج حدود الوطن لوجدنا على سبيل المثال ، المنظومة الطبية الخبيرة DXPLAIN المتخصصة في تشخيص أكثر من ٢٠٠٠ مرض والتي يستطيع أكثر من عشرة آلاف طبيب من أعضاء الجمعية الطبية الأمريكية الإتصال بها في أي وقت ومن أي مكان في الولايات المتحدة ، وذلك لمساعدتهم على تشخيص ما قد يقابلونه من أمراض مرضية .

كانت هذه لمحات مما يمكن أن تقدمه المنظومة القومية للمعرفة وذلك على مستوى العلاقة بين منتج المعرفة ومستهلكها ، ويبقى بعد ذلك ما يمكن أن تقدمه تلك المنظومة لمنتجي المعرفة أنفسهم وهو أمر لا يتسع له المكان ولنا له عود قريب .

وفي النهاية فإن قضيتنا هي قضية تحين فرصة تكنولوجية سانحة وكان حلمنا هو وسيلتنا للفت الأنظار إليها وإلى إثارة الإهتمام بها حتى لا تفلت من بين أيدينا ونكون من الخاسرين .

القرن الحادى والعشرون

٢٠٠٠

عصر الليزر

بقلم :د . محمد بهائى السكرى

ورد ذكر الياقوت فى القرآن الكريم وشبهت به الحور العين فى الجمال والبهاء ، وذكر النبى عليه السلام أنه من أحجار الجنة وعشق الكثير من البشر الياقوت حجرا نادرا ذا لون أحمر خلاب يزين الكثير من الحلى الثمينة .

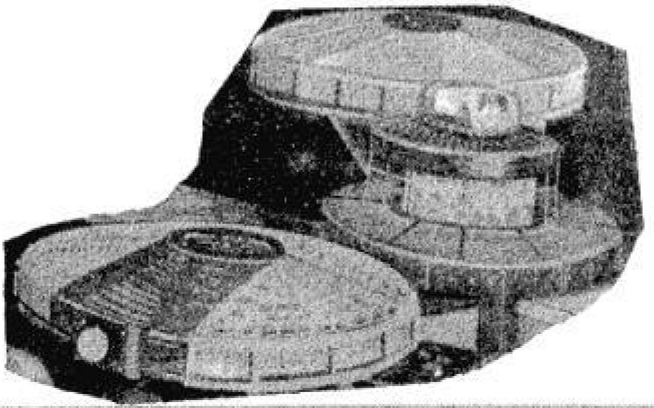
ولم يكن هذا كل قدر الياقوت ففى عام ١٩٦٠ كان له موعد مع العلم ليهدى البشرية كشفا جديدا على هيئة شعاع ضوئى مميز نفاذ عرف بإسم « الليزر » .

ففى شهر يوليه سنة ١٩٦٠ نجح العالم ثيودور هـ . ميمان Theodore H. Maiman فى توليد شعاع ضوئى قوى نفاذ من ياقوتة حمراء فى حجم الأصبع الصغير بسبيكة رقيقة تغطى الفضة طرفى الياقوتة ، ويسقط عليها ضوء غامر من مصباح أنبوبى زجاجى يحيط بها ، فعندما سقط ضوء المصباح على الياقوتة أهاج ذراتها فانبعث منها وميض انتشر إلى طرفيها ليصطدم بالفضة هناك فعكسته كالمرآة فتردد ذهابا وإيابا فزادت قوته وتركيزه وتغيرت صفاته حتى أنبعث من طرف الياقوت شعاعا جديدا فى العلم أسمه مشتق من جملة باللغة الإنجليزية معناها « تكبير الضوء عن طريق قذف منشط للإشعاع » .

Light Amplilication Stimulated Gy Emission of Radiation.

ويتميز الضوء الجديد بالخصائص التالية :

– توحد طول الموجة (شكل ١) خلافا للضوء العادى الذى يحتوى على



موجات متعددة (شكل ٢) .

– تحرك كل الموجات المنبعثة بطول ثابت فى إتجاه واحد فى وقت واحد بصورة متوافقة تزيد من طاقة الشعاع وتركيزه تماما كما تزيد كفاءة كتيبة من الجند تتحرك بإنتظام وإيقاع موحد على كفاءة مجموعة من الغوغاء تجرى فى كل إتجاه .

– بقاء الموجات المتحركة متوازية بإستمرار لا يبتعد بعضها عن بعض ولا تتفرق مهما طالت المسافة التى سارتها مما يزيد من قوتها وتركيزها .

وبالتالى يستطيع شعاع من الليزر أن يذيب أقسى المعادن بسهولة إنه الضوء القاهر الذى لا تصمد له صلابة الأشياء .

وبعد أن أستخدم الياقوت فى توليد الليزر بدأت محاولات أخرى من أجل الحصول على تلك الإشعاعات بنفس الأسلوب عن طريق تنشيط مواد أخرى صلبة وسائلة وغازية .

وبدأ عصر جديد فى العلم يمكن أن نسميه «عصر الليزر» الشعاع الضوئى القوى ذى الطاقة العالية الذى يستطيع أن ينفذ فى الفضاء من الأرض إلى القمر دون أن ينحرف عن مساره كثيرا وينعكس من على سطح القمر ليعود مرة أخرى إلى سطح الأرض . !

وأنطلق المارد من قمقمه ووقف بين يدى العلماء يقول لهم « لبيكم أنا طوع أيديكم ماذا تريدون » .

الليزر فى خدمة السلم

وبدأت الاستخدامات الواسعة لأشعة الليزر فى مجالات السلم والحرب ، وفى



ميادين الصناعة والطب .

وتساءل الأطباء بم يفيد هذا الشعاع بعد أن أستؤنس الوحش الكاسر فيه وأصبح قابلا للسيطرة والتحكم ؟ ولا غرو فهذا الشعاع منشاه تحول جزء من الطاقة الداخلية في الذرات والجزيئات إلى موجات بالغة القصر عظيمة الخطر .

وبدأ استخدام أشعة الليزر في مجال من أدق مجالات الطب والعلاج وهو جراحة العيون .

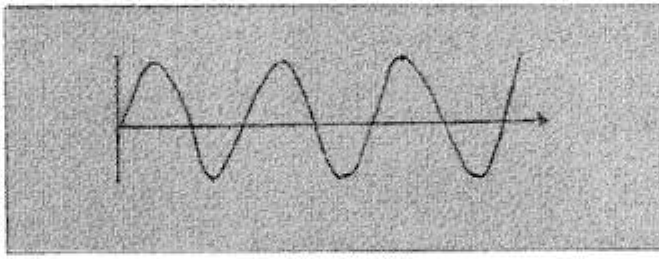
فمن المعروف أن مرض السكر يؤثر على شبكية العين وشعيراتها الدموية الدقيقة فتصبح الشبكية قابلة للنزف والانفصال عن مهدها في قاع العين .

وكان العلاج من قبل صعبا بل يكاد يكون مستحيلا في بعض الأحيان والعين مهددة بالعمى .

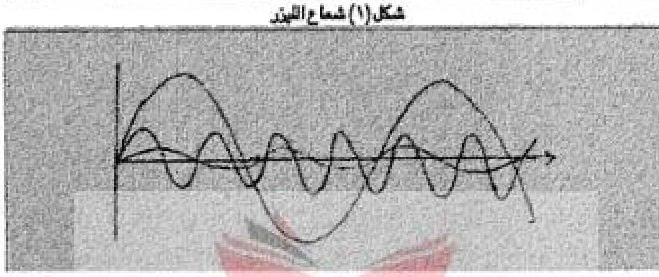
وجاء الشعاع الجديد ليستخدم بدقة وبجرعات محسوبة في مناطق محددة من الشبكية ينطلق صوبها ويحدث بها نوعا من الكي Phatocagulation يوقف النزيف ويمنع تشعب الشعيرات الدقيقة غير المرغوب فيها . ويحدث قدرا من التليف المحدود يؤدي إلى تثبيت الشبكية في مكانها فلا تنفصل عنه . وفي مجال علاج قصر النظر (حيث تتجمع الأشعة الضوئية الساقطة على العين في بؤرة أمام الشبكية بعيدا عنها مما يؤدي إلى قلة وضوح الرؤية إلا مع استخدام عدسات خاصة تجمع الأشعة في بؤرة على الشبكية) أمكن حديثا استخدام أشعة الليزر من أجل تقليل سمك قرنية العين الشفافة بواسطة إزالة بعض الأنسجة الزائدة من على سطحها فتقل قدرة العين على إحداث إنكسار في الضوء وتتجمع الأشعة الضوئية على الشبكية دون الحاجة إلى استخدام نظارة .

وفي ميدان الجراحة بصفة عامة تم إعداد شريط خاص من أشعة الليزر يتيح للجراح إحداث قطع في الأنسجة دون نزيف دموي حيث تقوم تلك الأشعة بإحكام إغلاق الأوعية القابلة للنزف عن طريق الكي في نفس الوقت الذي يتم فيه قطع الأنسجة أي من أجل إجراء جراحة دون فقد للدم Bloodless Surgovy .

وفي مجال علاج إنسداد الشرايين أصبح من الممكن إدخال قساطر (أنابيب) دقيقة من فتحة في الجلد إلى داخل الأوردة والشرايين وبتلك القساطر ألياف زجاجية تحمل الأشعة المكثفة إلى مناطق الإنسداد لإذابة الجلطات الدموية وتوسيع بعض



شكل (١) شعاع الليزر



شكل (٢) شعاع الشمس

الشرايين الضيقة المتصلبة من الداخل فيعود الدم للسريان فيها بصورة طبيعية وأصبحت أحلام مؤلفى قصص الخيال العلمى حقيقة . ولم يعد من الضرورى كما ورد فى بعض تلك الروايات إجراء تصغير متناه لغواصة تحمل فريقا من الأطباء كى تحقن فى وريد أحد المرضى لتسرى مع الدم إلى شريان مسدود فتذيب جلطة فيه ، فهناك الآن من يقوم بذلك الدور دون هذا العناء المستحيل والخيال الجامح ، إنه المارد الجديد الذى انطلق فى سماء العلم والطب ، الشعاع الجديد ، شعاع الليزر ! ..

القرن الحادى والعشرون

٢٠٠٠

قضايا القرن الحادى والعشرين

بقلم : د. محمد القصاص

يبدأ كل حديث عن القرن الحادى والعشرين بإبراز قضية السكان ، ذلك لأن «الإنسان» هو محور التنمية وعاملها الأساسى والمستفيد الرئيسى منها ، فإذا تجاوزت معدلات الزيادة السكانية معدلات التنمية وزيادة الإنتاج تدهورت مستويات الدخول والمعيشة وذهبت جدوى التنمية . هذه القضية هى المشكلة الأولى فى دول العالم الثالث وشعوبه الفقيرة وإذا استمرت الزيادة السكانية على النحو الحالى فسيزداد سكان العالم ألف مليون فى كل عشر سنوات منهم ٨٥٠ مليونا فى العالم الثالث الفقير و١٥٠ مليونا فى العالم المتقدم الغنى ، بهذا يزداد الفقراء فقرا ويزداد الأغنياء غنى ، وتتعاظم الفجوة بين الأغنياء والفقراء مما يعرض المجموع البشرى والعالم جميعه للمخاطر السياسية والاجتماعية .

★ ألف مليون يتزايدون كل عشر سنوات من بينهم ٨٥٠ مليوناً فى العالم الثالث الفقير !

★ زحف السكان إلى الحضر تضاعف ، مما أثقل الحمل على البنية الأساسية .

وعندما يستهدف المجموع البشرى مكافحة الفقر والحرمان فى العالم جميعه ، وهو هدف إنسانى نبيل ، فإن السبيل هى تحقيق التوازن بين السكان وتنمية الموارد . بدون هذا ستظل المجاعات التى هددت أفريقيا فى عقدين النصف الثانى من القرن العشرين تستشرى فى أفريقيا وغيرها من أقاليم الفقر ، وستظل جموع اللاجئين تزحف بحثاً عن الغوث . وقد بلغ عدد اللاجئين الذين هجروا أوطانهم إلى معسكرات الغوث فى إفريقيا ما يزيد على عشرة ملايين إنسان فى منتصف الثمانينات .

يتفرع عن مشكلة السكان وأعدادهم المتزايدة ، عدة أمور :

الأول هو معدلات الاستهلاك خاصة فى مجتمعات الدول الغنية ، فاستهلاك الطاقة والمواد فى تلك المجتمعات بلغ حد الإسراف الزائد ، وأصبح ترشيد الاستهلاك هدفاً اقتصادياً واجتماعياً ، وهو كذلك من أهداف حماية البيئة . فالاستهلاك الزائد يعنى استنزاف موارد البيئة ، ويعنى كذلك زيادة فى المخلفات والنفايات وهى مصادر تلوث البيئة .

الأمر الثانى هو تعاظم الحضر وتضخم المدن وزيادة معدلات هجرة الناس من الريف إلى الحضر .

فى عام ١٩٥٠ كان ٢٩٪ من سكان العالم يسكنون الحضر ، والباقى يسكنون الريف . فى عام ١٩٩٠ كان ٤٥٪ يسكنون الحضر . فى عام ١٩٥٠ كان عدد سكان مدن العالم ٧٣٤ مليوناً وفى عام ١٩٩٠ أصبح ٢٣٩٠ مليوناً . ويتصل بهذا أن كان فى العالم عام ١٩٥٠ مدينتان (لندن ونيويورك) يزيد عدد سكان الواحدة منهما على

٨ ملايين . وفى عام ١٩٩٠ أصبح عدد هذه المدن الكبيرة ٢٠ منها ١٤ مدينة فى دول العالم الثالث . هذا التحول الديمغرافى ذو الدوافع الاجتماعية والاقتصادية أدى إلى اكتظاظ المدن مما أثقل الحمل على بنيتها الاساسية (شبكات المواصلات والطاقة والمجارى والمياه والخدمات) ، وأدى إلى نشأة نطاقات السكن العشوائى حول المدن وهى نطاقات تتدنى فيها مستويات المعيشة وأحوال البيئة والظروف الاجتماعية . ولو استمرت معدلات التضخم الحضرى على هذا النحو لشهد العالم فى القرن الحادى والعشرين مشكلة عسيرة الحل .

لعلنا نذكر فى هذا المجال تضخم المدن المصرية وخاصة مدينة القاهرة ، وقد اقتضى علاج قصور البنية الاساسية أن انفقت مصر جزءا بالغا من اعتمادات خطط التنمية فى تطوير شبكات المواصلات والاتصالات والمجارى ومياه الشرب فى مدينة القاهرة وغيرها من العواصم . كذلك تغول العمران الحضرى والريفى على أجود الاراضى الزراعية بمعدلات كانت تبلغ ٣٠ - ٥٠ ألف فدان فى العام فى غضون السبعينات والثمانينات . وقد توجهت مصر إلى إقامة المدن الجديدة فى خارج الوادى، وهو توجه رشيد . والمأمول أن يستكمل هذا التوجه فى القرن الحادى والعشرين وتصبح هذه المدن مستقرات لسكان والمجتمعات الجديدة كما أصبحت مستقرات عظيمة للصناعات .

وتمثل مصر نموذجا كاملا لجملة قضايا السكان. تضاعف عدد السكان فى غضون المائه .. عام الماضية من حوالى ٩,٧ مليون عام ١٨٩٧ إلى حوالى ٥٥ مليوناً حاليا ، ولكنا نلاحظ كذلك تعاظم معدلات الزيادة . فى الخمسين سنة الأولى (١٨٩٧ - ١٩٤٧) زاد عدد السكان من ٩,٧ مليون إلى ١٩ مليوناً أى بمعدل حوالى ٢٠٠ ألف نسمة كل عام . والآن تبلغ الزيادة السنوية حوالى ١,٢ مليون نسمة . ولو استمر الحال كما هو فإن معدلات الزيادة السكانية فى القرن القادم ستتجاوز حد الخطر البالغ .

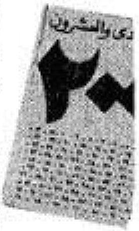
كذلك نلاحظ فى مصر زيادة معدلات استهلاك الفرد من مياه الشرب ومواد الغذاء والادوات المنزلية والسيارات والطاقة . أى أن الناس يزدادون عددا وتتعاظم معدلات استهلاكهم، وهى أمور تمثل الضغط الزائد على موارد البيئة الطبيعية ، وتبهظ الاقتصاد القومى والقدرة الوطنية على التنمية الاقتصادية والاجتماعية . النتيجة التى لامفر منها تتمثل فى الازمات الاقتصادية ، وتراكم الديون الخارجية ، وتدهور مستوى الخدمات الاساسية فى مجالات التعليم والصحة . ولو استمر الحال على ما هو عليه فإن التوازن بين الانتاج والطلب الاستهلاكى سيواجه خللا خطيرا .

التنمية المتواصلة

يأتي كل حديث عن القرن الحادي والعشرين بإبراز قضايا التنمية المتواصلة ، أي التنمية التي تحقق التوازن بين النمو الاقتصادي والبيئة . والتعريف البسيط لمصطلح التنمية المتواصلة هو أنها التنمية التي تشبع الحاجات الاساسية للجيل الحالي دون أن تخل بقدرة الموارد على أن تهيىء الاشباع للحاجات الاساسية للاجيال القادمة . وبهذا المفهوم يصبح لمعايير التنمية بعد أخلاقي يتصل بمسئولية الجيل الحاضر تجاه الاجيال المقبلة ، ولا يكون الهدف هو تعظيم الانتاج إلى أقصى حد إنما يكون الهدف هو مراعاة المدى الزمني الممتد لقدرة الموارد الطبيعية ، أي قدرة البيئة ، على العطاء .

البيئة هي خزان الموارد الطبيعية ، والتنمية هي حصيلة جهد الإنسان في تحويل هذه العناصر البيئية إلى ثروة أي إلى سلع وخدمات تفي باحتياجاته . والموارد الطبيعية قسمان : الموارد المتجددة ، وهي نظم بيئية منتجة (مصايد الاسماك - الغابات - المراعي - حقول الزراعة) انتاجا يتجدد . الموارد غير المتجددة وهي مخزونات تجمعت في عصور جيولوجية سابقة ويجعل منها الإنسان خامات يحولها بجهده إلى سلع تفي بالكثير من احتياجاته (خامات الفحم والبترول والمعادن والمياه الجوفية) .

التنمية المتواصلة للموارد المتجددة تستلزم المحافظة على سلامة العمليات الحيوية والبيئية التي تعتمد عليها البيئة المائية التي تنتج الاسماك والاسفنج والمحاريات ، والتي تهيىء للمراعي النمو النباتي الذي يعوض ما يأكله الحيوان ، والتي تحفظ على أرض المزرعة خصبها وصحتها . وتستلزم كذلك أن يكون الحصاد (ما يأخذه الإنسان من الحيز البيئي) متوائماً مع قدرة النظام البيئي على العمل ، أي قدرته على العطاء دون أن يتدهور : صيد الاسماك في حدود قدرة الكتلة المائية على العمل أي قدرة المجموعة السمكية على التكاثر والنمو بما يعوض ما أخذه الصيد ، فإذا تجاوز الصيد هذا الحد أصبح صيدا جائرا تتدهور به مصايد السمك كما حدث في مصايد الجمبري في مياه الخليج ، ومصايد بحيرة ناصر . مثل هذا يقال عن قدرة المرعى الطبيعي على الحمل أي عدد الحيوانات التي تحتملها وحدة المساحة من المرعى دون أن تتدهور الانتاجية ، ويقال عن قدرة الغابات والاحراش على تعويض ما يقطعه الإنسان من الخشب والحطب ، ويقال عن حقول الزراعة وقدرتها على العطاء المتواصل ، وصون هذه القدرة يستلزم أن يتوازن الري مع الصرف ، وأن تمتد فترات البور لراحة الارض بما يمكنها من استعادة الخصوبة . ونضيف إلى ذلك حماية



النظام البيئى المنتج من التلوث الذى يضر العمليات الحيوية (البناء الضوئى فى النباتات الخضراء - التنفس فى الكائنات الحية - تدوير العناصر فى التربة - الخ) وهى أساس الانتاج .

تنمية الموارد غير المتجددة (الناضبة) تنمية غير موصولة بالطبع ، لان حقول البترول وطبقات الفحم ورواسب الفوسفات وتكوينات المعادن وحقول المياه الجوفية ، الحفرية مواد مختزنة في باطن الارض ، ما يؤخذ منها لايتجدد . نذكر حقول البترول فى جمصة والغردقة فى مصر ، والتى كانت أول حقول تنتج البترول فى الشرق الادنى، وقد نضبت مواردها . وكذلك نذكر العديد من آبار المياه فى واحات الصحراء الغربية فى مصر وقد توقف تدفقها . التنمية الموصولة هنا تعنى استنباط الوسائل التكنولوجية التى تزيد من كفاءة استخدام المورد (ليس كذلك استخدام المياه الجوفية فى زراعة الارز فى الواحات) ، والتى تزيد من قدر مايستخلص من المورد (بعض حقول البترول التى توقف تدفقها يمكن أن تحقن ببخار الماء فتعطى من مخـزونـهـا قـدرا إضـافيـا لـم يتـح بالتكنولوجيات المعتادة) . نرجو أن تتيح التكنولوجيات الحديثة إمكان أستخلاص الذهب من ركام المناجم القديمة كمناجم السكرى بالصحراء الشرقية المصرية . ويعمل التطور العلمى والتكنولوجى على أستكشاف مصادر جديدة للموارد غير المتجددة فى قيعان البحار والمحيطات وفى المناطق التى لم تستغل مواردها بعد ، وكذلك يتجه هذا التطور إلى أستنباط بدائل صناعية تحل محل المعادن التى تدخل فى الصناعة (أنماط من اللدائن الصناعية تحل محل الحديد وغيره من أجزاء من السيارات وغيرها) ، وهذه جميعا جهود تقصد إلى تطويل المدى الزمنى لاستغلال الموارد غير المتجددة .

موارد الطاقة

ولعلنا نشير هنا إلى قضية موارد الطاقة ، خاصة الموارد غير المتجددة وهى الفحم والبترول والغازات الطبيعية ، وهى جميعا من الموارد الناضبة على اختلاف بينها فى المدى الزمنى للكميات التى تم حصرها . موارد الفحم فى العالم قد تكفى عدة مئات من السنين ولكن موارد البترول المعروفة قد تكفى عدة عشرات من السنين . ولاستخدام هذه الموارد جميعا آثار بيئية متعددة ، بعضها موضعى يتصل بتلوث البيئة ، وبعضها عام يتصل بتغير مناخ الكرة الأرضية جميعا . لذلك تتجه الجهود العلمية والتكنولوجية إلى استنباط وسائل تكنولوجية لموارد بديلة للطاقة . من ذلك موارد الطاقة الشمسية والرياح ، وتتابعات المد والجزر فى النطاقات الساحلية ، وتدفق الأمواج فى البحار ، وغيرها من الموارد المتجددة . وكذلك يسعى التقدم

التكنولوجى إلى التوسع فى تنمية موارد الطاقة من جوف الأرض والتوصل إلى تكنولوجيات آمنة لموارد الطاقة النووية (طاقة الاندماج النووى) . وهذه جميعا ستكون من سمات التطور فى القرن الحادى والعشرين .

التنمية المتواصلة التى هى صيحة ختام القرن العشرين ، والتى انعقد لها أكبر تجمع لرؤساء الدول فى ريو دى جانيرو فى شهر يونيو ١٩٩٢ (مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة والتنمية) ، ستكون من مشاعل الطريق فى غضون القرن الواحد والعشرين. وتقضى التنمية المتواصلة الأخذ بالوسائل التكنولوجية المتقدمة فى عمليات الإنتاج وترشيد الاستهلاك وتقليل الفقد وتدوير المخلفات ، إلى غير ذلك ، ولكنها تقتضى قبل هذا تحولات اجتماعية وثقافية . ولعل صعوبات التحولات الاجتماعية أعسر من التطبيقات التكنولوجية . من هذه التحولات :

١ – أن تتضمن سياسات التنمية توجهات تتصل بالسكان ومعدلات تزايدهم ونمط توزيعهم بين المدن والقرى . الزيادة البالغة فى عدد السكان وتعاظم معدلات استهلاك الأفراد تذهب بجدوى كل تنمية أقتصادية . وعلى مجتمعات العالم الثالث – على وجه الخصوص – أن تترسم سياسات سكانية واضحة المعالم وأن تضع برامج عمل ناجز لتوقى مخاطر الأنفجار السكانى . وهذه قضية تحتاج – إلى جانب الوسائل التكنولوجية لتنظيم الأسرة – الوسائل التشريعية والجهود الاجتماعية والسياسية والبرامج الثقافية والإعلامية ، إلى غير ذلك من أدوات التطوير الاجتماعى .

٢ – أن تترسم السياسات الوطنية وظائف التعليم والتأهيل والتدريب بأعتبارها أدوات لتنمية الموارد البشرية ، أى أن يكون هدف التعليم ووظيفته تحويل أفراد المجتمع إلى موارد لهذا المجتمع بأعتبار أن الأنسان هو عامل التنمية الرئيسى . والحاصل فى كثير من مجتمعات العالم الثالث هو أن التعليم يحول الأفراد إلى عبء اجتماعى . أنظر إلى قضية توظيف الخريجين فى مصر وكيف أصبحت احد الشواغل الرئيسية للدولة . وفى هذا الصدد تتكون المنظومة التعليمية من عناصر متعددة : المدارس والكليات والجامعات بعض هذه العناصر ، وسائر وسائل الإعلام والمؤسسات الجماهيرية والأحزاب السياسية والجمعيات الأهلية والنوادى الرياضية وغيرها عناصر هامة فى هذه المنظومة .

٣ – أن توضع خطط تنمية الموارد الطبيعية المتجددة وغير المتجددة فى إطار زمنى يحقق متطلبات الجيل الحاضر الأساسية ويأخذ فى الاعتبار متطلبات الأجيال القادمة ، أى أن توضع برامج التنمية الخمسية فى إطار خطط طويلة المدى

وواضحة المعالم . إن سياسات تعظيم الإنتاج - وخاصة إنتاج الموارد غير المتجددة كالبترول والرواسب المعدنية - سياسات قصيرة النظر ، والتحول إلى سياسات أرشد تحتاج إلى تغير فى النظر السياسى والقبول الاجتماعى .

٤ - أن تترسم السياسات الوطنية حفز المشاركة الجماهيرية أى إسهام الرجال والنساء فى سائر الجهود التى تستهدف وضع سياسات التنمية، وخططها وبرامج تنفيذها ، وأن يكون للمؤسسات الجماهيرية دور فى النقاش والفكر ، ليكون القبول والإسهام الإيجابى فى الإنجاز . هذا هو جوهر الديمقراطية ومقصدها الإيجابى . إن نجاح التنمية المتواصلة وقبول تكاليفها الاجتماعية مرهون بالإسهام العام للناس جميعا . والقرن الحادى والعشرون هو قرن المشاركة العامة فى جهود التنمية وفى حصاد ثمارها .

التنمية المتواصلة تعتمد على التكامل بين الظروف البيئية الطبيعية ، والتكنولوجيا، والمجتمع . الظروف البيئية الطبيعية هى جزء من المحيط الحيوى الفطرى على نحو ما جعله خالقه وليس للإنسان عليه من سبيل إلا ترشيد الاستغلال ، والتكنولوجيا تتخذ سمتها القيمى بتوجيه المجتمع ، والعلاج هو التطوير الاجتماعى ، أى تطوير الأدوات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى يدير بها المجتمع علاقاته الداخلية وعلاقاته مع الموارد الطبيعية .

التغير المناخى

المجتمع الدولى مشغول بمجموعة من القضايا المتصلة بالبيئة والمستقبل وخاصة فى القرن الحادى والعشرين . منها قضية التغير المناخى بتزايد الدفء ، إذ يتوقع الباحثون أن تزداد معدلات الحرارة فى النصف الثانى من القرن القادم (١.٥ - ٤ م) وهى زيادة بالغة سيكون لها آثار على عناصر المناخ الأخرى كالبخر والمطر والرياح ، وآثار على موارد المياه وعلى الزراعة ، وتمدد مياه البحار بما يرفع من مستواها ، إلى غير ذلك من التوابع البيئية. ومنها أثر بعض الملوثات من مركبات الكلور على طبقة من طبقات الجو العليا (الاستراتوسفير : ١٥ - ٥٠ كيلومتراً فوق سطح الأرض) وما تحويه من الأوزون . وهى طبقة تمنع نفاذ الأشعات فوق البنفسجية إلى محيط الأرض وما عليها من الحياة ، وتدهور طبقة الأوزون يعرض الإنسان والكائنات الأخرى لمخاطر بالغة . ومنها فقد الكثير من أنواع النبات والحيوان نتيجة تدهور الأحوال البيئية والاستغلال الباهظ للموارد الطبيعية ، وفقد هذه الأنواع يعنى فقد موارد وراثية وبيولوجية لها دورها فى التوازن البيئى ، وقد يكون لها نفع فى

المستقبل فى استنباط سلالات جديدة ، أو استخراج مواد للأدوية والصناعة تكشف عنها البحوث والدراسات العلمية . وفى هذا المجال يعنى المجتمع الدولى بمستقبل الغابات فى العالم ، لأن للغابات دوراً فى توازن الأحوال المناخية ، وفى توازن دورة الماء فى الكرة الأرضية ، وفى صيانة الأراضى المدارية من التدهور ، وهى كذلك من خزائن التنوع الوراثى والبيولوجى الثرية . هذه المسائل وغيرها تبينت معالمها فى غضون النصف الثانى من القرن العشرين ، وستبقى بارزة فى ثبت اهتمام العالم فى القرن الواحد والعشرين .

ولكن القرن الواحد والعشرين سيطرح عددا من القضايا لم تحظ بالاهتمام الكافى فى القرن العشرين ، وهى قضايا تضاف إلى تلك الهموم التى برزت فى القرن العشرين وأشرنا إلى بعض منها . الموضوع الأول قضية الماء العذب . إذا نظرنا إلى كوكب الأرض نجد أن المياه تغطى أكثر من ثلثى (٧٠٪) من سطح الكرة الأرضية . ويقدر حجم الماء بحوالى ١٤٠٠ مليون كيلو متر مكعب ، معظمه (٩٦.٥٪) ماء ملح فى المحيطات والبحار . وتوزيع الجزء الباقى (المختزن خارج البحار) على النحو التالى :

مياه أرضية جوفية ٢٣٤٠٠ ألف كيلو متر مكعب .

(منها ١٠٥٣٠ ألف كيلو متراً مكعباً ماء عذباً) .

جليد وجمد ٢٤٠٦٠ ألف كيلو متراً مكعباً .

(منها ٢١٦٠٠ ألف كيلو متراً مكعباً فى القارة القطبية الجنوبية) .

مياه فى البحيرات ١٧٦ ألف كيلو متر مكعب .

(منها ٩١ ألف كيلو متر مكعب ماء عذب) .

مياه مختزنة فى الأنهار ٢.١ ألف كيلو متر مكعب .

مياه فى الهواء الجوى ٢١.٩ ألف كيلو متر مكعب .

(عن شيكلومانوف ، ١٩٩٠) .

خلاصة هذه الأرقام أن جملة الماء العذب فى محيط كوكب الأرض حوالى ٣٥ مليون كيلو متر مكعب ، أى ٢.٥٪ من مياه الكوكب ، وأن أغلب هذه المياه (٢٤ مليون كيلو متر مكعب) جمد وجليد فى المناطق القطبية ، وأن البحيرات العذبة والأنهار تحوى ، ٩٣٠٠٠ كيلو متر مكعب أى ما يعادل ٠.٢٧٪ من جملة المياه العذبة ، وهى كمية تعادل ٠.٠٠٧٢٪ من جملة مياه الكرة الأرضية .

ونضيف أن جملة ما يجرى من ماء عذب فى أنهار الكرة الأرضية جميعا حوالى ٤٧٠٠٠ كيلو متر مكعب . وتقدر جملة المياه التى يستخدمها الإنسان (عام ١٩٩٠) حوالى ٤١٣٠ كيلو متراً مكعباً .

منها ٢٦٨٠ كيلو متراً مكعباً فى الزراعة المروية .

و ٩٧٣ كيلو متراً مكعباً فى الصناعة .

و ٣٠٠ كيلو متر مكعب فى الاستهلاك المنزلى .

و ١٧٠ كيلو متراً مكعباً فى الخزانات .

أى أن ما يتاح للاستخدام البشرى من الماء العذب يمثل قطرة من المياه الغزيرة الموجودة على الكرة الأرضية .

نذكر فى مقابل هذا أن ٤٠٪ من سطح اليابسة أراضٍ جافة تتراوح بين الصحارى الشديدة الجفاف ، والأراضى شبه الجافة أو التى تصحرت بفعل الاستغلال الجائر ، وهى أراضٍ قليلة الانتاج . ونذكر نوبات الجفاف – أى شح المطر – فى نطاقات واسعة من القارة الإفريقية ، وما أحدثته من جدب وما خلفته من مجاعات شملت أكثر من عشرين دولة إفريقية فى ١٩٨٤ – ١٩٨٥ .

نذكر كذلك أن العالم فى سعيه لعلاج مشكلة التغير المناخى وزيادة الدفء ، يحتاج إلى استزراع مساحات واسعة من الأرض بالأشجار بقصد زيادة طاقة المحيط الأرضى على امتصاص غاز ثانى أكسيد الكربون وهو الغاز الرئيسى من مجموعة الغازات التى تسبب حبس الحرارة قرب الأرض ومن ثم زيادة الدفء. وليس بين يدى العالم من مساحات تتاح لبرامج التوسع فى زراعة الغابات إلا تلك الصحراوات الشاسعة فى القارات جميعا.

العامل المحدد والذى يقعد بالجنس البشرى عن أن ينهض بمشروعات مكافحة التصحر وإعمار المناطق الجافة وزراعة كساء أخضر يكفى لتوسيع طاقة المحيط الأرضى على امتصاص ملوثات الهواء التى قد تسبب تغير المناخ ، هو نقص الماء العذب .

أضف إلى ذلك أن نقص الماء العذب فى كثير من مناطق العالم أصبح من أسباب التوتر السياسى بين الدول المجاورة وخاصة الدول التى تشترك فى أحواض الأنهار الدولية ، أو التى تشترك فى أحواض المياه الجوفية . إن الخريطة السياسية لمنطقة الشرق الأوسط نموذج لهذه القضية . والدول التى تشارك فى الأنهار الكبرى كدجلة والفرات والنيل ، والأنهار الصغرى كالأردن ، والليطانى واليرموك ، يقع بينها التوتر

السياسي بسبب التنازع على موارد المياه . ومن أسف أن العالم لم يدرج بعد هذه القضية ضمن قائمة الاهتمام الذى توجه إليه البحوث والدراسات العلمية والتكنولوجية ، سعيا لزيادة حصة البشر من الماء العذب . أن الاعتمادات التى تخصص لهذا الجهد محدودة ، ولو قد زاد الاهتمام لاستطاع العلم أن يجد السبيل فى الاتجاهات التالية ، وفى غيرها .

١ – إيجاد تكنولوجيات اقتصادية لإعذاب الماء الملح ، على نحو يكون استخدام الماء فى الزراعة والتشجير اقتصاديا. توجد تكنولوجيات لإعذاب الماء الملح بقصد الاستخدام المنزلى والاستزراع المحدود على نحو ما نجده فى دول الخليج وحوض البحر الأحمر ، وهى تكنولوجيات عاون عليها وجود مصادر للوقود ميسرة ، ولعل المستقبل يتمخض عن تكنولوجيات للطاقة الشمسية أو الطاقة النووية أو غيرهما .

٢ – إيجاد تكنولوجيات اقتصادية لضخ المياه الجوفية لإمكان الإفادة من مواردها العظيمة . فى مصر مناطق شاسعة فى الصـحراء الجنوبية الغربية (منطقة شـرق العـوينات وامتداداتها إلى تخوم منخفضات الواحات) بها إمكانات زراعية كبيرة اعتمادا على ضخ المياه الجوفية . وما تزال التكنولوجيات المتاحة – بما فيها المضخات الشمسية ومضخات الرياح – غالية التكاليف .

٣ – إيجاد تكنولوجيات الإفادة من كتل الثلج الموجودة فى تخوم القارة القطبية الجنوبية . جرت تجارب فرنسية سعودية لسحب كتل الثلج إلى شواطئ المملكة العربية السـعودية . ولكن الدراسة ما تزال فى حاجة إلى المزيد من الجهد العلمى .

المأمول أن تكون القضايا المتصلة بموارد الماء العذب وزيادة حصة الإنسان من موارد مياه الأرض ، ضمن اهتمامات العـلم والتكنولوجيا فى القـرن الحادى والعشرين .

اغتيال الخضرة

سيطرح القرن الحادى والعشرون مجموعة من القضايا المتصلة بالحلل السكنية . أولى هذه القضايا يتصل بتضخم الحضر بزيادة السكان العامة والزيادة الناتجة عن الهجرة من الريف إلى الحضر. وتضخم المدن – وخاصة فى دول العالم الثالث – تصاحبه عدة مشاكل ، منها تعاظم نمو نطاقات السكن المتدهورة والعشوائية التى لا تتوافر فيها الخدمات الأساسية (الصرف الصحى – مياه الشرب – الكهرباء –

التخطيط السليم – الخدمات الصحية – خدمات التعليم ..إلخ) ، وتقدر الدراسات التى أعدتها المجالس القومية المتخصصة (القاهرة) سكان الإسكان العشوائى بثلث جملة سكان مدينة القاهرة ، ومنها تدهور بنية الخدمات لزيادة الضغط السكانى الذى يتجاوز قدرتها على الحمل . ومنها التدهور الاجتماعى الذى تبدو مظاهره فى تفشى العنف والجريمة (الخطف – السرقات .. إلخ) ، ونلاحظ أن هذا التدهور الاجتماعى متفشٍ فى المدن الكبرى فى الدول المتقدمة والدول المتخلفة على تباين فى نوعية الجريمة خاصة جرائم الشارع . ذلك لأن اتساع المدينة واكتظاظها بالسكان يجعل أجهزة الضبط غير قادرة على تحقيق الأمن للسكان .

ومن مشاكل المدن البالغة تداول المخلفات والنفايات الصلبة (القمامة) والسائلة (مياه الصرف الصحى) . وقصور أجهزة الجمع والمعالجة والتخلص تترك كميات من القمامة فى شوارع المدن – وخاصة مدن العالم الثالث – مما يمثل ظاهرة من ظواهر التدهور البيئى . وعجز شبكات الصرف الصحى ومحطات معالجة المخلفات ووسائل الإفادة من المياه المعالجة وما يتبع ذلك من طفح المجارى تمثل أيضا صورة من صور تدنى حالة البيئة (التلوث).

ثانية هذه القضايا المتصلة بالحل السكنية تتصل بتوسع العمران وتغوله على المساحات الخضراء فى داخل المدن وعلى الأراضى الزراعية فى تخوم المدن والقرى. وتبرز هذه المسألة بوضوح فى الدول ذات الأراضى الزراعية المحدودة مثل مصر . وقد تغولت كل قرى مصر ومدنها على الأراضى الزراعية ، وتقدر جملة الأراضى الزراعية الخصبة التى تحولت إلى استخدامات غير زراعية (مبان سكنية – مراكز صناعية – شبكات الطرق ..إلخ) فى خلال الخمسين سنة الماضية بأكثر من مليون فدان . وهذا خلل يتصل بمسألة السياسة الوطنية لاستخدامات الأرض وتحديد أولويات هذا الاستخدام . ومن حسن الطالع أن خطط التنمية فى مصر اتجهت فى السنوات الأخيرة إلى الخروج بالعمران إلى تخوم الدلتا والوادى ، ونشأت المدن الجديدة فى ربوع الصحارى (السادات – العاشر من رمضان – السادس من أكتوبر ...إلخ) .

زحفت العمارة على المساحات الخضراء (الحدائق والمتنزهات) فى المدن ، على نحو ما يشاهد فى مدينة القاهرة وغيرها من المدن الكبرى فى كثير من دول العالم الثالث ، يمثل تضييقا لقدرة المدينة كنظام بيئى على تنقية الهواء من الملوثات. المساحات الخضراء هى رئات المدينة ، وتحويلها إلى الاستخدامات الأخرى (المبانى – ساحات وقوف السيارات ..إلخ) يمثل وجها من أوجه التدهور البيئى .

ثالثة القضايا تتصل بتخطيط الحلل السكنية فى القرى وفى المدن ، وتصميم وحدات البناء ، واختيار مواد البناء . فى كثير من مدن العالم الثالث ، خاصة فى المناطق المدارية والحارة ، لم تراع فى التخطيط والبناء أحوال البيئة السائدة وسادت فى تلك المدن أنماط العمارة المنقولة من عمارة المناطق المعتدلة والباردة . أنظر إلى عمارة المبانى فى مدن الاقليم الصحراوى الجاف الممتد من المحيط إلى الخليج العربى، تجد أنها فى الأغلب الأعم أشبه بعمارة المدن الأوربية . وانظر إلى اجتهادات المعماريين العرب والمسلمين القدامى فى اليمن والعراق ومصر وشمال إفريقيا ، تجد فيها توافقاً مع البيئة بما يحقق الراحة للساكن . ولقد سعى المغفور له المهندس حسن فتحى أن يبصر أهله بأهمية التوافق بين أحوال البيئة والمناخ وتصميم وحدة البناء .

رابعة القضايا تتصل بالآثار البيئية الإقليمية للمدن الضخمة التى زاد عددها فى غضون النصف الثانى من القرن العشرين ، ويبدو أنها إلى زيادة وتعاظم . المدينة كتلة من عمارات السكن والورش والوحدات الصناعية ومحطات القوى ، تجرى فى شوارعها وسائل النقل المتعددة ، وهذه جميعا عناصر تستهلك الطاقة فى التدفئة والتبريد وطهو الطعام وتشغيل الآلات ، أى أنها وحدات تخرج عنها كميات من الطاقة ومن مخرجات الاحتراق . لذلك يمكن تصور المدن كأنها بؤر ساخنة (تتصاعد منها الملوثات الغازية والغبار) فى حيز المحيط الحيوى أو فى حيز المعمور من سطح الأرض .

تشير الدراسات عن المدن والبيئة ، إلى أن المدينة أشبه بالبركان (تسمى البركان البشرى) يتصاعد من وسطها عامود من المخرجات التى تجمع الغازات والدقائق الدخانية (الغبار) والحرارة . وأن بين المدينة ونطاق الريف المحيط بها تبادلات حرارية أشبه ما تكون بتبادلات نسيم البر والبحر فيما بين اليابسة والبحر . وزيادة عدد المدن الكبيرة قد تجعل منها أحد العوامل المؤثرة على المناخ الإقليمى أو العالمى .

لو اتصل تعاظم هذه القضايا فى خلال القرن الحادى والعشرين لأصبحت المدن واحدة من المشاكل الكبرى التى تقلق البشر . ذلك لأن مجموعة القضايا التى أشرنا إلى أطراف منها ، قضايا معقدة ومتداخلة وذات تأثيرات مباشرة على صحة الإنسان (تلوث بيئة المدينة) أو تأثيرات اجتماعية تتصل بالتدهور الاجتماعى (الجريمة والعنف) ، أو تأثيرات اقتصادية واجتماعية تتصل بكفاءة استخدام الطاقة والراحة التى يهيؤها السكن ، أو تأثيرات بيئية مناخية عامة . والسبيل إلى توقى الكثير من هذه المتاعب العمل على تصويب التوجه .

القرن الحادى والعشرون

٢٠٠٠

العلوم النفسية بين حاضر يمضى ومستقبل يقترب

بقلم : د. مصطفى سويف

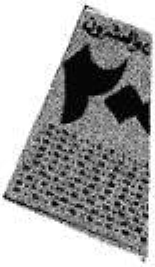
دلالة العلوم النفسية بالنسبة للإنسان بالغة القيمة، فهى الطريق الى فهم الفعل البشرى ، وتفسيره ، بدءاً من الوحدة الأساسية فى الحياة الانسانية ، ألا وهى الفرد ، وصعودا منها الى شبكة التعاملات والتفاعلات التى تصل بينه وبين سائر الوحدات فى محيطه المباشر حيث الأفراد الذين يؤثر فيهم ويتأثر بهم وجها لوجه ، وفى محيطه غير المباشر حيث الآخرون الذين يتعامل معهم ويحسب حسابهم رغم البُعد فى المكان وفى الزمان. وهى فى الوقت نفسه مصدر لتطبيقات لا حصر لها فى ميادين الحياة الاجتماعية المختلفة ، كالتربية ، والصناعة ، والإعلام ، والأمراض النفسية، والأمراض الجسمية ذات المكونات النفسية ، والجريمة .

- الاعتمـــاد المنهجى على لغـــة التحليل الإحصــائى ســوف يزداد كثــافة فى المستقبل .
- لدينــا أســـاس لا بأس به للإســـهام الإيجـــابى فى تحـقـيــق الصـــورة المستقبلية للعلوم النفسية .

وما بين الجريمة والمرض ، كجناح الأحداث وإدمان المخدرات . ولما كان حفظ البقاء فى عالمنـا الحديث (على مستوى الأفراد والأمم) يزداد مع الأيام اعتمادا على العلم ، مفاهيمه وأساليبه وتطبيقاته (سواء فى ذلك العلم الطبيعى والبيولوجى والاجتماعى) فقد أصبح لزاما علينا من حين لآخر أن نجدد العهد بيننا وبين هذا العلم ، فنعيد النظر فى تصوراتنا التى تنتمى الى فروعه المختلفة ، ونرصد موقعنا على خريطة تطبيقاته المتحققة والممكنة . وفى هذا المقال نقدم للقارىء صورة مجملة وموجزة للعلوم النفسية بين حاضر يمضى عنا ، ومستقبل يقترب منا .

نشوء العلوم النفسية وتطورها :

شهد القرن التاسع عشر مولد العلوم النفسية كمنظومة فكرية مستقلة عن الفلسفة حوالى سنة ١٨٥٠ ، من خلال مجموعة من البحوث التجريبية كان يجريها عدد من العلماء الألمان ، على رأسهم فخنر وهلمهولتز ، حول عدد من العوامل الموضوعية التى تؤثر فى الإدراك . ثم شهدت بداية الربع الأخير من القرن نفسه تأسيس أول معمل لعلم النفس مستقل عن علم وظائف الأعضاء . كان ذلك فى ليبزج بألمانيا سنة ١٨٧٩ . مع رحيل القرن التاسع عشر وقدوم القرن العشرين كانت البوادر الأولى لعدة أحداث كبرى فى نمو هذه العلوم تفصح عن نفسها : فمن ناحية بدأت تتخلق فروع جديدة ، على رأسها ثلاثة هى : فرع علم نفس النمو والارتقاء ، حيث محور الاهتمام هو الكشف عن قوانين نمو الوظائف النفسية المختلفة (كاللغة والتفكير) فى مراحل العمر المتوالية . وفرع علم النفس الاجتماعى ، حيث تتجه العناية الى دراسة عمليات التفاعل بين الشخص وبيئته الاجتماعية . وفرع قياس



الوظائف النفسية ، من قبيل قياس الذكاء ، وقدرات العقل العامة والخاصة ، وسمات الشخصية . وفى الوقت نفسه أخذ أساتذة علم النفس يتزايدون وينتشرون فى عدد من الدول بالاضافة الى ألمانيا ، وكان على رأس هذه الدول انجلترا والولايات المتحدة الأمريكية ، وهناك بدأوا ينشئون أقساما ومعامل للعلوم النفسية فى جامعاتهم ، ويؤسسون الجمعيات الخاصة بهذا العلم الجديد لدعم وجوده الاجتماعى ، وينشرون المجلات المكرسة له لإذاعة بحوثه ومنجزاته بين الخاصة والعامة ، وفى الربع الثانى من هذا القرن بدأت تطبيقات هذا العلم بفروعه المختلفة تحتل مكانة متميزة ، خاصة فى ميدانى التربية والصناعة . جاء هذا نتيجة لمشاركة عدد من علماء النفس فى جهود الحرب العالمية الأولى ، فكانت مشاركتهم تلك فرصة لتنشيط البحوث التى أعطت ثمارها فيما شهدناه من تطبيقات فى أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات . ثم جاءت الحرب العالمية الثانية ، وعاد علماء النفس الى الاسهام فى انجاز متطلباتها . وفى هذه المرة كان الإسهام أشد غزارة وتنوعا مما حدث فى الحرب الأولى ، فكانت النتيجة دفعة هائلة لأسرة العلوم النفسية فى جميع جبهاتها ؛ بمعنى أنه ما من فرع من فروع أسرة علم النفس الأساسية أو التطبيقية إلا أصابه قدر كبير من النمو كمًّا وكيفا ، فقد أخذت أعداد الباحثين النفسيين وأعداد البحوث المتنوعة المنشورة تنمو بمعدلات متزايدة على امتداد النصف الثانى من القرن ، كما أخذت مناهج البحث وأدواته المعملية والميدانية تتطور نحو مزيد من طلب الدقة فى الرصد والقياس، ومزيد من الإحكام فى خطوات التحليل والتطبيق .

ومن ثم فقد أصبح لزاما على من يتصدى لوصف تقدم علم النفس فى النصف الثانى من القرن العشرين أن يرصد هذا التقدم من زاويتين : زاوية المضمون الفكرى نفسه ، وزاوية الإطار المنهجى الذى يكشف عن مكونات هذا المضمون . صحيح أن رصد تقدم هذا العلم (متمثلا فى فروعه المختلفة) منذ نشأته يحتاج كذلك الى أن نضع الزاويتين فى اعتبارنا ، فهناك دائما المعلومات أو النتائج التى يخرج بها الباحث من بحثه لتضاف الى رصيد المعلومات المتراكمة فى خزانة المعرفة العلمية ، وهناك أيضا الأدوات وطرق التحليل التى استعان بها هذا الباحث أو ذاك للوصول الى هذه المعلومات ، غير أن الطرق والأدوات التى استعان بها الباحثون فى بداية نشأة العلم كانت ساذجة نسبيا اذا قورنت بالطرق والأدوات التى استُحدثت فى العقود والمراحل التاريخية التالية .

وتتمثل أهم أحداث التقدم الذى أحرزته العلوم النفسية فى النصف الثانى من هذا القرن فى أربعة أحداث كبرى ، هى بترتيب ظهورها التاريخى : ظهور فرع علم

النفس الإكلينيكي أو العيـادي ، وهـو يعنى باستـخدام جميع مكتشفـات العلوم النفسـية وأساليبها لخـدمة أغراض التشـخيص الدقيق للحـالات المرضـية النفسية وتناولها بالعلاج والتوجيه ، وقد حـدث ذلك مع بداية خمسـينات القرن . وظهور فرع علم النفس الفارماكولوجي ، وهو يهتم بما للمواد الكيميائية التي تدخل الجسم (كالكحوليات والمخدرات) من تأثير على السلوك ، وقد حدث ذلك في أوائل الستينات . ثم تلا ذلك ظهور فرع علم النفس العصبي ، وهو يهتم بالكشف عن القوانين العلمية التي تحكم علاقة المخ بسلوكنا في جميع جوانبه الحركية والفكرية والوجدانية . ثم ظهور تصميمات التجارب والتحليلات الاحصائية اللازمة لاجراء التجارب المنضبطة على الفرد الواحد واستخلاص قوانين السلوك البشرى من هذا التجريب على الفرد الواحد ، وقد وقع الحدثان الأخيران في توقيتين متقاربين ، حوالي منتصف السبعينات .

هذا وصف موجز أشد الايجاز لمسار التقدم الذى انتهجه علم النفس بتفريعاته المختلفة خلال عمر ناهز قرنا ونصف قرن. فإذا أردنا أن نستخلص من وصفنا هذا مجموعة السمات الكبرى لتوجُّه هذا المسار فهى على النحو الآتى :

- مزيد من التفريع داخل أسرة العلم .
- ومع التفريع مزيد من التشابك مع علوم أخرى قائمة فعلا ؛ مثال ذلك : علم النفس الاجتماعي وهو يمثل تشابكاً بين علمي النفس والاجتمـاع . وعلم النفس الفارماكولوجي ويمثـل تشـابكا بين علم النفس والفارماكولوجيا . وعلم النفس العصبي ويمثل تشابكا بين علم النفس وعلم الأعصاب .
- مزيد من العناية بالأمور المنهجية ، ويتمثل ذلك بوجه خاص في زيادة الاعتماد على علم الإحصـاء ، مع عنـاية متميزة بالتحليلات الإحصـائية المتقدمة ، وتصميمات التجارب .
- ثم مزيد من العناية بالمعمل والأدوات المعملية .

هذا هو ماضى علم النفس وقد وصل بتراكماته الى الشكل الحاضر ، قدمناه لأنه يدخل حتما في حساباتنا حول المستقبل .

مصير العلوم النفسية في المستقبل المنظور :

نعنى هنـا بالمستقبل المنظور ذلك الجزء من المستقبل الذى يقع في حدود الربع الأول من القرن الحادي والعشرين ، أو ما يزيد على ذلك قليلا . وسؤالنا الذى نجيب

عليه في هذا الجزء من المقال هو : ماذا عن تطور العلوم النفسية في المستقبل المنظور ؟

١ - يخيل الينا أن الاعتماد المنهجي على لغة التحليل الإحصائي وتصميمات التجارب سيزداد كثافة . ومعنى ذلك أن الحاسب الإليكتروني سيتعاظم دوره ، وهذا بالتالي سيجهل بإمكان الباحثين إجراء تحليلات على درجة عالية من التعقد أو التركيب مع الاعتماد على مخزون كبير من المعلومات بحيث تقترب صيغة العمل العلمي من حقيقة التشابك بين معطيات الحياة النفسية ، فنبتعد بشكل ملحوظ عن بعض صيغ التبسيط المصطنع التي لانزال نضطر اليها في بحوثنا الراهنة . وفي الوقت نفسه سوف تزداد الروح التجريبية للعلم رسوخا ، وسيتجلى ذلك في مزيد من نشاط البحوث الميدانية والمعملية على السواء . وتشير كثير من الدلائل الراهنة الى أن معامل علم النفس سوف تزداد تشابكا مع معامل علم وظائف الأعضاء وعلم الأعصاب والفارماكولوجيا دون أن يهدد ذلك حدود الهوية العلمية للعلوم الأربعة . لكن هذه الخطوة قد تستدعي إدخال تعديلات جذرية فيما يدرّس لطلاب علم النفس داخل الجامعات ، وفي الأليات التربوية التي من خلالها هذا التدريس . وربما ارتبط بذلك ادخال تعديلات مقابلة فيما يدرّس لبعض طلاب الطب والعلوم .

٢ - يخيل الينا كذلك أن الاهتمام سوف يزداد بصورة ملحوظة بالبناء النظري للعلم ؛ فعلى طول امتداد تاريخ علم النفس تأرجحت عناية العلماء بين الاتجاه الى التنظير على حساب التجريب من ناحية ، الاتجاه الى التجريب على حساب التنظير من ناحية أخرى . وقد كانت فترة العقود الثلاثة أو الأربعة الأخيرة فترة اهتمام زائد بالتجريب (المعملي والميداني) بحيث يمكن القول بأنه آن الأوان لأن تتجه حركة البندول الى طرف التنظير . ومن أوضح العلامات على ذلك فيما نرى علامتان : الأولى هي بدء صدور مجلة سيكولوجية متخصصة للبحوث النظرية ، وهي بعنوان « النظرية وعلم النفس » . وقد صدر المجلد الأول منها في العام الماضي ، عام ١٩٩١ . وجدير بالذكر أن المجلات العلمية المتخصصة لا تصدر إلا بناء على شعور متزايد بين أهل الاختصاص بالحاجة الى نوع معين من النشاط البحثي المكثف يسد ثغرة نشأت كنتيجة جانبية لتطورات علمية (في التنظير أو في التجريب) أخذت مجراها في الماضي القريب . أما العلامة الثانية فهي ظهور أسلوب جديد للتحليل الاحصائي يعرف باسم « ما بعد التحليل » أو « تحليل التحليل » ، يمكن عن طريقه تجميع نتائج التجارب المتعددة التي أجريت حول موضوع بعينه سواء أكانت متعارضة فيما بينها أم متلاقية ، وإعادة تحليلها في مجملها للكشف عن اتجاه عام

لهذه النتائج رغم ما بينها من تباينات أو تضاربات . ولا يخفى على القارىء أن خطوة التجميع هذه ضرورية لحسن التنظير ، لأن أبسط شرط لكفاءة النظرية فى العلم أن تكون قادرة على تفسير ما تجمّع من حقائق حول الموضوع . وقد كان العلماء المنظرون يؤدون خطوة التجميع هذه فعلا ، ولكن دون ضبط أو إحكام ، بل على أساس أقرب ما يكون الى النظرة الانطباعية . أما الآن فأسلوب « تحليل التحليل » يمكنهم من إدخال درجة عالية من الدقة والضبط على مهمتهم . ومع ذلك فهذا الأسلوب كما نقول لا يوفر إلا أدنى شرط لكفاءة النظرية . أما الشرط الأهم من ذلك والذى له أكبر الوزن فى حساب كفاءة النظرية فهو التنبؤ ، وهذا يقتضى (بالاضافة الى اتقان تكنيكات البحث والتجميع) مستوى رفيعا من التفكير الابداعى عند العالم ، وهو أمر لن تغنى عنه جميع طرق التحليل ولا أدواته حتى ولو زادت على ما هى عليه الآن أضعافا مضاعفة .

٣ – ومع مزيد من التنظير يبدو أن الجيل التالى من علماء النفس سوف يشهد نهوضا للاهتمام « بفلسفة علم النفس » . ولا يجوز الخلط هنا بين هذا الكيان الجديد وبين التأملات ذات الطبيعة السيكولوجية التى كانت ترد ضمن كتابات الفلاسفة منذ أفلاطون وأرسطو حتى أوائل القرن التاسع عشر ، والتى لايزال بعضها يرد ضمن كتابات عدد من الفلاسفة المعاصرين . فهذه التأملات كانت ولاتزال تقوم خارج نطاق المنجزات الفعلية للعلوم النفسية الحديثة . أما « فلسفة علم النفس » فيقدمها عدد من علماء النفس الذين أمضوا الجزء الأكبر من أعمارهم فى تعامل بحثى فعلى مع مفاهيم علم النفس ومناهجه ونظرياته ، وهم الآن يتخذون من المواقع التى انتهوا اليها فى معاملهم نقاط انطلاق لرحلة فكرية جديدة ، قوامها تعميق المناقشة نحو مزيد من النقد ومزيد من التعميم . وجدير بالذكر أن خطوة التفلسف هذه تأتى كتتويج طبيعى لمستوى معين من التقدم أحرزه العلم . وقد حدثت فعلا ولاتزال تحدث فى مجال العلوم الطبيعية ، والبيولوجية ، والرياضيات .

وجدير بالذكر أيضا أن أكبر وأقوى جمعية لعلماء النفس فى العالم ، وهى الجمعية الأمريكية ، تضم بين أقسامها الآن قسما للمشتغلين بفلسفة علم النفس .

مرة أخرى ، هذه خلاصة شديدة الإيجاز والتكثيف لما نتصور أن العلوم النفسية ستتجه اليه فى المستقبل القريب . وقد فرض علينا هذا الايجاز أن نلتزم بالاشارة الى المعالم الكبرى لهذا المستقبل.

نحن فى مصر :

يبقى الآن السؤال الذى لابد من اثارته ، وهو : أين نحن ، فى مصر ، من هذه المسيرة ؟ والاجابة ، وهى أيضا شديدة الايجاز ، أننا بدأنا محاولاتنا بخطوات

متواضعة قبيل الحرب العالمية الثانية ، ولكن لم تقم لدينا أقسام جامعية مستقلة لعلم النفس إلا ابتداء من أواسط السبعينات . وتوجد الآن أعداد لا بأس بها في هذه الأقسام من الطلاب وأعضاء هيئات التدريس . وتوجد لدينا كذلك جمعية مصرية للدراسات النفسية على قدر معقول من النشاط الذى يتجلى فى عقد الندوات والمؤتمرات العلمية وإصدار بعض المنشورات العلمية . كما أن هناك أكثر من مجلة مصرية متخصصة فى العلوم النفسية . ومعنى ذلك أن لدينا أساسا مجتمعياً لا بأس به لكى نعلق عليه الآمال فى حمل رسالة اللحاق بالركب العالمى والإسهام الايجابى فى تحقيق الصورة المستقبلية للعلوم النفسية .

إلا أن هذا الأساس فى واقع الأمر يعانى من كثير من نقاط الضعف الخطيرة ؛ فرغم وجود أفراد ذوى كفاءات علمية عالية المستوى ، ورغم أن لهؤلاء الأفراد انجازاتهم ذات القيمة العلمية الرفيعة فلاتزال جهود هؤلاء الأفراد محدودة بحدود كياناتهم الفردية ، وهى حدود شديدة الضيق اذا قورنت بما نرجوه ونتوقعه على أساس حسابات أخرى غير الكيانات الفردية ، وأعنى هنا على أساس حسابات الكيانات المؤسسية . هؤلاء الأفراد يعملون فى ظل مناخ مشحون بالعناصر المعاكسة، بدءاً من ظروف الأزمة الاقتصادية الطاحنة ، وامتداداً الى عناصر أخرى لا تقل عنها قدرة على شل الارادات والعزائم، نذكر من ذلك على سبيل المثال : ما يستشعره الباحث المجتهد فى معظم ما حوله ومن حوله من هوان شديد لقيمة البحث العلمى والمشتغلين به ، وما يلمسه بنفسه شاهداً على ذلك فى سياسة انفاق الدولة على البحث ، وما يصطدم به من سلطات بيروقراطية عاتية كل همها الاحتفاظ بمكانتها ضمن شبكة علاقات القوى .. الى آخر هذه العوامل التى نعرفها جميعا ، ونعيد اكتشافها جميعا ، كلٌ من زاوية نظره واهتمامه . ثم يضاف الى هذا كله نزيف العقول الى البلاد النفطية أساسا ، والى بلاد ومواقع أخرى فرعاً ، وهو النزيف الذى أوشك الآن أن يسلبنا كل غرس جديد بمجرد أن يشتد عوده .

هذه عينة من العناصر المعاكسة التى يزخر بها المناخ الاجتماعى الذى يعمل فى ظله قلة قليلة من الافراد المجتهدين الذين أوتوا مناعة خاصة ضد تأثير هذا المناخ . فإذا استمر الحال هو الحال فلا يمكن التنبؤ بإسهامات مصرية لها وزن مؤسسى فى تحقيق العلوم النفسية فى المستقبل القريب . ولكن ، رغم كل ذلك يظل الباب مفتوحاً أمام إسهامات الأفراد المجتهدين ، فى حدود كياناتهم الفردية . ولا يعنى ذلك أننا نرسم صورة متشائمة لمستقبل دورنا فى تحقيق الصورة العالمية للعلم ، ولكن يعنى أننا نشهد شهادة صدق . فإن يكن الصدق مؤلما فإن شهادة الزور مدمرة . أما فيما يتعلق بالصدق فقد يؤذن الألم بصحوة تكون فيها العافية .

مع الاحتفال بالعيد المئوى
للهلال تصدر

موسوعة عصر التنوير

١٠٠ كتاب
فى ١٠٠ عام

السنة الأولى من الهلال

القرن الحادى والعشرون

2000

الفكر الإقتصادى في القرن الحادى والعشرى

بقلم : د . جلال أمين

حينما طُلب إلىّ أن أكتب فى مستقبل الفكر الإقتصادى فى القرن القادم رأيت أن يكون مدخلى للتفكير فى الأمر تأمل مسار الفكر الإقتصادى فى الماضى ، على أمل أن يكون ماحدث فى الماضى مرشدا لما يمكن أن يحدث فى المستقبل . وعندما استعرضت تطور الفكر الإقتصادى منذ نشأته وجدت أن نقطة التحول الحاسمة فى هذا التطور حدثت منذ نحو خمسمائة عام أى حوالى سنة ١٥٠٠ ، فقلت لنفسى أنه مع نهاية القرن العشرين ، قد نكون فى مطلع خمسمائة سنة أخرى لها سمات مختلفة تماما عن الفكر الإقتصادى خلال الخمسمائة سنة الماضية .

الذى أعنيه هو أن الفكر الإقتصادى قبيل سنة ١٥٠٠ ، أى قبل بداية عصر النهضة الأوربية ، كانت له سمات وملامح مختلفة تماما عن سماته خلال القرون الخمسة الماضية (أى منذ سنة ١٥٠٠) . كان الفكر الدينى قبل ١٥٠٠ خلال ماعرف بالعصور الوسطى يسيطر ، كما نعرف جميعا ، على كل نواحى الفكر والحياة ، ولم يكن

☆ سمات الفكر الاقتصادى فى المستقبل شبيهة بالفكر الاقتصادى فى العصور الوسطى

☆ تضاعفت كميات وسـائل الإنتاج وتطورت وزادت معها الوفرة والرخاء

☆ علينا ان ننتقل من مناقشة مشكلة الندرة إلى مناقشة مشكلة الوفرة

« علم الإقتصاد » بالمعنى الذى نعرفه اليوم قد ولد بعد . ولكن هذا لم يمنع من وجود « فكر إقتصادى » ، أى بعض الأفكار المتعلقة بالمسائل الإقتصادية والتى لم تكن قد ارتقت بعد الى مستوى العلم . وكان لهذا الفكر الإقتصادى ثلاث سمات أساسية :

السمة الأولى : تتعلق بالندرة والوفرة . نحن نُعرِّف علم الإقتصاد الآن بأنه علم الندرة . أى العلم الذى يبحث المشاكل الناجمة عن ندرة الموارد بالنسبة للحاجات الإنسانية . ولكن من الشيق أن نلاحظ أن مشكلة الندرة لم تكن تشغل الناس قبل ١٥٠٠ ، كما تشغلهم الآن . لم يكن الشعور قويا بأن حاجات الناس كثيرة بالنسبة للموارد بل ربما كان العكس هو الصحيح ، أى الشعور بأن الموارد التى أعطاها الله للناس كثيرة بالنسبة للحاجات . وقد يبدو هذا غريبا فى مجتمع لم يكن يستطيع أن يلبى ماننتبره الآن أبسط الحاجات الإنسانية ، وكانت الموارد فيه محدودة للغاية والإمكانيات التكنولوجية بدائية إلى أبعد الحدود ، ومع هذا فلم يكن الإنسان يشعر بحدة مشكلة الندرة بالدرجة التى يشعر بها الآن . ربما كان السبب أن حاجات الإنسان كانت بدورها قليلة جدا ، وكان إنسان العصور الوسطى سهل الإرضاء شديد القناعة ومن ثم لم يبد له أن هناك مشكلة ملحة اسمها مشكلة الندرة . ليس غريبا إذ أن علم الإقتصاد لم ينشأ قبل سنة ١٥٠٠ .

تغير الأمر مع بزوغ عصر النهضة ، إذ بدأ التقدم التكنولوجى يسير بخطى متسارعة حتى بلغت السرعة أقصاها مع الثورة الصناعية وتضخمت الموارد المتاحة للإنسان ، وكلما تضخمت الموارد تضخمت الحاجات الإنسانية بسرعة أكبر ، فكلما حقق الإنسان رغبة استبدت به رغبتان أو ثلاث رغبات جديدة ، وإذا بالقناعة التقليدية تزول ، والرضا بالقليل يذهب الى غير رجعة ، وتحل محلهما رغبة عارمة فى المزيد .

ولعل هذا هو الذى خلق علم الإقتصاد الذى يقوم كما ذكرنا على فكرة ندرة الموارد بالنسبة للحاجات ومن ثم كان وجوده يحتاج الى شعور الإنسان الحادّ بالندرة . إن غياب فكرة الندرة (أو على الأقل غياب الشعور الحادّ بوجودها) قبل سنة ١٥٠٠ له علاقة وثيقة ببعض الأفكار الأساسية التى سادت الفكر الإقتصادى فى العصور الوسطى مثل تحريم الربا .

إذ كان حصول شخص على فائدة مقابل اقراضه لبعض المال لغيره أمرا مكروها ومرفوضا ، فكان يتخذ دليلا على الطمع والجشع اللذين لا يبدو لهما مبرر ، فلماذا الرغبة فى المزيد وحاجات الإنسان محدودة ومتناهية ؟ وقل مثل ذلك على النظرة السائدة وقتئذ الى الإدخار والإكتناز ، حيث كان الميل الى إكتناز المال مكروها لنفس السبب ، فلماذا الإدخار والإكتناز مادامت حاجاتك فى المستقبل وحاجات أولادك محدودة ومتناهية ؟

بينما كان السلوك الإقتصادى الحميد هو سلوك الرجل الذى يقرض المحتاج دون فوائد ، والرجل الذى ينفق ماعنده دون أن يدخر ويكتنز .

السمة الثانية : للفكر الإقتصادى قبل سنة ١٥٠٠ ، وهى وثيقة الصلة بالأولى ، هى عدم الفصل بين الإقتصاد والأخلاق . فقد كان الفكر الإقتصادى فى العصور الوسطى ، بعكس الحال فى القرون الخمسة التالية ، جزءا لا يتجزأ من الفكر الدينى والأخلاقى ، وكان أهم مفكر إقتصادى فى العصور الوسطى (فى أوربا) هو سانت توماس الأكوينى ، وكانت أفكاره الإقتصادية تدور حول مسائل من نوع : ماهو الثمن العادل وماهو الأجر العادل ؟ ولماذا كان الربا محرما ؟ وكلها مسائل تنتسب الى الأخلاق بقدر ماتنتسب الى الإقتصاد . كان كلاما فيما يصح ومالا يصح ، مايجوز أخلاقيا ومالايجوز ، وليس كلاما فيما هو قائم بالفعل . لم يكن حديثا فيما هو كائن بل فيما يجب أن يكون . تغيّر الأمر ببزوغ علم الإقتصاد إبتداء من القرنين السادس عشر والسابع عشر حيث رأينا اشخاصا يكتبون كتبا ومقالات فى الإقتصاد دون أن تتعرض لأى موضوع آخر . كان الموضوع يسمى فى البداية الإقتصاد السياسى (Political Economy) حتى انتهى فى أواخر القرن التاسع عشر إلى اسم الإقتصاد (Economics) أو علم الإقتصاد البحت (Pure Economics) المنفصل تماما ليس فقط عن الأخلاق بل وعن السياسة أيضا . وتطور علم الإقتصاد مستقلا الى أبعد الحدود عما عداه من علوم إجتماعية .

السمة الثالثة : للفكر الإقتصادى قبل سنة ١٥٠٠ تتعلق بغياب « الإقتصاد القومى » . ذلك أن الدولة بالمعنى الحديث لم تكن قد نشأت بعد فكان

يسافر من روما إلى باريس إلى لندن فلا يشعر أنه انتقل من دولة الى دولة ، أو أنه يعبر إقليما اقتصاديا معينا الى إقليم إقتصادى آخر ، ومن ثم كان من يقوم بالتعبير عن أفكار اقتصادية يخاطب الإنسان بوصفه إنسانا وليس بوصفه إيطاليا أو فرنسيا أو إنجليزيا ، وكانت المصلحة المرجوّة هي مصلحة الإنسان كإنسان وليس مصلحة ماسمي فيما بعد بالإقتصاد القومى . تغيّر هذا أيضا ببزوغ عصر النهضة ، فعرفنا نشأة الدولة القومية .

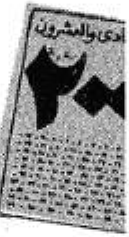
وظهرت فرنسا كدولة موحدة وانجلترا ثم إيطاليا والمانيا ، كوحدات إقتصادية وسياسية وليس كمجموعة من المقاطعات التى تتمتع بدرجة عالية من الإستقلال أو الإكتفاء الذاتى . وأخذت كل دولة تقيم حواجز جمركية فى مواجهة الدول الأخرى ، بل وتدخل خمس حروب فى منافسة فيما بينها على المستعمرات .

المستقبل

لماذا أتكلم عن سمات الماضى ، والمطلوب هو الحديث عن المستقبل ؟ لقد تعمدت هذا لأنى سوف أزعم فى بقية هذا المقال أن هناك من الشواهد مايجعل من المحتمل جدا أن نكون مقبلين على عصر جديد من الفكر الإقتصادى له سمات أقرب إلى سمات الفكر الإقتصادى الذى ساد فى العصور الوسطى منه إلى سمات الفكر الذى ساد فى الخمسمائة سنة الماضية ، حيث يقل الكلام عن الندرة ومشاكلها ويحل محله الكلام عن الوفرة ومشاكلها ، ويقل بشدة حدة الفصل بين الإقتصاد والأخلاق أو بين الأخلاق والسياسة وغيرها من العلوم الإجتماعية ، وتعود إلى الجمع بينها ، وتضعف بشدة النزعة القومية فى الفكر الإقتصادى ، ويصبح علم الإقتصاد أكثر إنسانية وأكثر عالمية وأرسع أفقا من أفق الدولة القومية .

قد يبدو هذا غريبا وغير مقبول ، إذ كيف تكون سمات الفكر الإقتصادى فى المستقبل شبيهة بالفكر الإقتصادى فى العصور الوسطى مع كل ماحدث من تقدم فى التكنولوجيا والعلم ووسائل الإنتاج ؟ كيف يكون الفكر الإقتصادى فى عصر الكمبيوتر وغزو الفضاء وثورة المعلومات والإتصالات وعصر مابعد الصناعة ... الخ ، شبيها بالفكر الإقتصادى الذى ساد فى عصر لم يكن يعرف إلاّ الزراعة بأساليب بدائية وصناعة محدودة جدا بأساليب بدائية أيضا ولا يكاد يستطيع أن ينتج أكثر من الحد الأدنى الضرورى للحياة ؟

قد يكون الرد على ذلك هو المعنى المقصود فى المثل الشعبى المشهور "إذا الشيء عن حدة إنقلب الى ضده" وقد يكون هذا بالفعل ماحدث . لقد تضاعفت



كميات وسائل الإنتاج وتطورت ، وزادت معها الوفرة والرخاء (أو على الأقل إمكانيات تحقيق الرخاء) إلى درجة جعلت فكرة " الندرة " مهددة بالإختفاء ، وإلى حد كاد يجعل الكلام عن الموارد المحدودة بالمقارنة بالحاجات غير المحدودة ، الذى دأب الإقتصاديون على ترديده ، سخيفا ، وغير مقبول . الندرة كما نعرف تتعلق بعلاقة الموارد بالحاجات ، وقد بدت فكرة الندرة فى العصور الوسطى سخيفة لأن حاجات الناس كانت محدودة ، والأن تكاد تصبح فكرة الندرة سخيفة مرة أخرى لأن الموارد زادت الى حد فاق كل التصورات . بعبارة أخرى ، كان الإنسان فى العصور الوسطى يقول ويعتقد فعلا أن الغنى هو " غنى النفس" ، وكانت هذه هى طريقته فى القول بأن الماديات لاتهم كثيرا ، وكان يقول ذلك لأن حاجاته كانت محدودة . والأن يمكن أن يشرع الإنسان فى أن يقول من جديد أن " الغنى هو غنى النفس " وأن الماديات لاتهم كثيرا ، لأنه زاد من إنتاجه وسلعه أضعافا مضاعفة واكتشف أنها لم تجلب له ماكان يحلم به من سعادة .

قد يؤيد هذا الذى أقوله ماذهب اليه الإقتصادى الشهير كينز منذ نحو ستين عاما ، ففى سنة ١٩٣٠ كتب كينز مقالا مشهورا اسمه " المستقبل الإقتصادى لأحفادنا " (Economic Possibilities For our Grandchildren) عبّر فيه عن فكرة شبيهة جدا بما أقوله الأن ، وهو أن الإنسان منذ وجد كان يعانى من مشكلة ندرة الموارد ، ولكنه الأن يتوقع أن أحفادنا (أو أحفاده) ستكون مشكلتهم الأساسية هى مشكلة الفراغ ، أى كيف يقضون أوقات الفراغ دون سأم فعندما لايحتاج المرء الى أن يعمل أكثر من ثلاث ساعات فى اليوم ، لن يجد أن من السهل عليه أن يقضى بقية اليوم دون عمل . ويقول كينز إن قليلا جدا من الناس من يستطيعون حل مشكلة الفراغ دون أن يصيبهم إنهيار عصبى . وأنا أعتقد أن كينز كان على حق تماما ، وأن جزءا كبيرا من شعوب العالم المتقدم (بل ونسبة لا يستهان بها من شعوبنا نحن) يعانى من أنه لم يستطيع حل مشكلة الفراغ حلاً مرضيا ، يحاول عن طريق التليفزيون وعن طريق الرياضة فلم يفلح ، يحاول عن طريق شرب الخمر أو السياحة أو الإباحية الجنسية أو حتى الشذوذ الجنسى ولم يفلح ، ولم يحصل على السعادة بعد .

إذا كان هذا صحيحا فيجدر بنا ألا نتعجب من أن تعود السمة الثانية أيضا من سمات الفكر الإقتصادى للعصور الوسطى ، أى عودة الوحدة بين الإقتصاد والإخلاق . فمشكلة الندرة قد تؤدى بطبيعتها إلى إنفصال علم الإقتصاد البحت عن غيره ، فهى مشكلة مادية بحتة ، أما مشكلة الفراغ والوفرة والرخاء فلا بد أن تثير مشاكل أخلاقية وفلسفية بالدرجة الأولى ، ومن ثم لابد أن نعود إلى الجمع بين الإقتصاد والأخلاق أو بين الإقتصاد والفلسفة .

أما عن السمة الثالثة : وهى " العالمية والإنسانية " ، فلا نكاد نحتاج الى تدليل على أنها ستعود أو لعلها بدأت تعود بالفعل . نحن نسمع أكثر فأكثر عن أن العالم أصبح قرية واحدة كبيرة ، وأن سكان الكرة الأرضية ليشبهون ركاب السفينة الواحدة ، وأن التلوث الذى ينشأ فى دولة يصيب دولا أخرى ، وأن كارثة تقع فى طرف من أطراف الأرض تؤثر فى أقصى الأطراف الأخرى . هنا أيضا نجد أن الشىء إذا زاد عن حده إنقلب الى ضده . كانت النزعة العالمية والإنسانية فى العصور الوسطى ترجع بدرجة أو بأخرى الى أن التكنولوجيا كانت بدائية أكثر من اللازم ، ومن ثم كانت العلاقات الإقتصادية محدودة بحدود القرية أو المقاطعة ، وكانت هذه العلاقات محلية جدا وإنسانية جدا فى نفس الوقت . ثم تقدمت التكنولوجيا وأزدهرت التجارة واتسعت حدود الإقتصاد حتى بلغت حدود الدولة القومية ، أو بالأحرى حتى خلقت حدود الدولة القومية خلقا . أما الآن فإن التقدم التكنولوجى وتقدم العلاقات التجارية قد تجاوزا الدولة القومية وانفتحت القوميات بعضها على بعض ، وإذا بالإقتصاد تصبح حدوده هى حدود العالم بأسره ، وإذا بالعلاقات تعود ، أو هى على وشك أن تعود فتصبح محلية جدا وإنسانية جدا فى نفس الوقت . إنى لهذا السبب لاأجد تناقضا بين نمو النزعة الإنسانية ونمو العصبيات المحلية فى نفس الوقت . الأمم تنفتح على بعضها البعض أكثر فأكثر ، ولكن تتمسك كل أمة وكل مجتمع صغير بثقافتها وتراثها أكثر فأكثر .

هذا هو مستقبل الفكر الإقتصادى كما أراه ، وأنا أجده داعيا للتفاؤل لا للتشاؤم . من المفيد أن ننتقل من مناقشة مشكلة الندرة الى مناقشة الوفرة ، ومن الجميل أن تعود الوحدة بين الإقتصاد والأخلاق ، ومن الجميل أيضا أن تحل النزعة الإنسانية محل النزعة القومية دون أن يقضى ذلك على التراث الخاص بكل أمة .

صحيح أن الإقتصاديين قد يشعرون بقلق حقيقى ، فقد يعنى هذا كله إختفاء علم الإقتصاد من الوجود ، ويحل محلهم بعض الفلاسفة وبعض علماء الإجتماع بالمعنى الواسع لعلم الإجتماع . ولكنى أنا شخصا لاأشعر بالقلق من هذا ، إذ أنَّ هذا إن حدث فلن يحدث فى أثناء حياتى ، ولا أثناء حياة أولادى فيما أظن ، بل ربما حدث أثناء حياة أحفادى ، فهنيئا لهم .

القرن الحادى والعشرون

٢٠٠٠

تريييف المدن وبندرة القرية

بقلم : د. ميلاد حنا

عندما تذهب لمدينة أو قرية فى أى جهة من العالم ، وتمر بين شوارعها مشيا بتؤده وتأمل أو جريا بسرعة داخل سيارة ، أنت لا تدخل البيوت ولا تتحدث مع أهلها ولا تدرس إقتصادياتها أو أحوالها السياسية ، ولكنك إن وجدت بيوتا نظيفة متراصة ، شكلها متقارب ثم لمحت لكل بيت حديقة صغيرة أو كبيرة ، لأدركت منطقيا أنك فى حى راق ، وإذا مررت بحى ثان وثالث ووجدتها تقارب وتناظر ما رأيت فى حى سابق ، أدركت أن الفروق الاقتصادية والحضارية بين أهلها ليست كبيرة ، وربما يمتد بك الخيال لتقول بأنه مجتمع ينعم بالديمقراطية وأن الصراع الطبقى ليس حادا.

ومن قراءاتى غير المتخصصة لتاريخ مصر ، أشعر بأن أحوالها المعيشية لم تختلف أختلافا جوهريا منذ عهد الفاطميين فى القرن العاشر إلى بداية القرن الثامن عشر عندما خرج الفرنسيين من مصر وبدأ حكم محمد على ، وكان تعداد مصر وقتها نحو ٤ مليون نسمة ، فحدثت تغيرات ملحوظة فى التقدم العمرانى ، إذ تم إنشاء القناطر الخ وشقت الترع والرياحات وأنشئت صناعات جديدة ، ومن ثم فلابد أن كان لذلك مردود على

- **فى المستقبل يُنتظر أن تتحول القاهرة الكبرى إلى كتلة عمرانية رهيبة .**
- **مطلوب فورا بحث المشكلات السكانية وربط مشاكل الإنسان بالبيئة .**

الإسكان فى مصر ، وكانت العلاقة الثانية فى القرن التاسع عشر فى عهد إسماعيل فرغب فى أن تكون مصر «قطعة من أوربا» وفى منتصف هذا القرن دخلت السكك الحديدية ثم الكهرباء، وأنشئت الكبارى على النيل وافتتحت دار الأوبرا حيث عرضت أوبرا عايدة والتى ألفها ولحنها فيردى خصيصا لهذه المناسبة ، ومن ثم فلابد أن كان هناك عمران واضح فى القاهرة وفى اثنائها انشئت العديد من القصور للخديو وللأثرياء بطرز معمارية أوروبية إلى أن جاء القرن العشرون ، فكانت مصر وقتها تحت سيطرة الإستعمار البريطانى وهو الأمر الذى أدخل شركات تقوم بخدمات المياه للمنازل ثم الكهرباء والغاز وشركة للنقل بالترام وأدخلت خدمه الصرف الصحى قبل الحرب العالمية الأولى فى القاهرة ولأول مرة فى مصر ، وتم تخطيط مناطق سكنى الانجليز والأثرياء فى المعادى وجاردن سيتى ، والعديد من القصور فى حى الزمالك ومن ثم شاهد القرن العشرون حركة عمران هائلة فى المدن الكبرى وبالذات فى القاهرة والاسكندرية

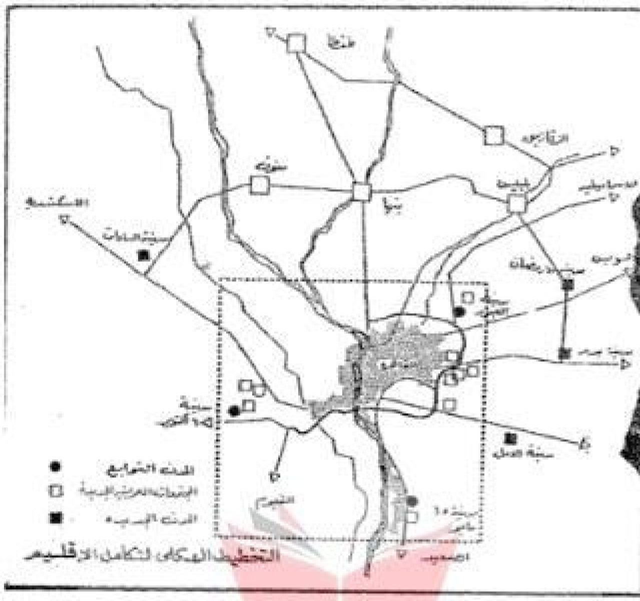
كان عدد سكان مصر فى بداية القرن نحو عشرة ملايين نسمة وكانت الغالبية العظمى تعيش فى الريف ، ولم تتغير أحوال الحياة والسكن فى الريف فى النصف الأول من القرن العشرين عما كان عليه الحال لقرون طويلة مضت ، البيوت كلها من الطمى ، والفلاح هو ذاته الذى «يضرب» الطوب طوب حريق واستخدم فى ذلك طمى النيل مع إضافة نسبة بسيطة مناسبة من التبن تكفى لعدم تشقق الطين عند جفافه فى الشمس ، واختار الطوبة مقاسا يناسب حجم كفه ، لكى يتحكم فى وضعها فى مداميك فوق بعضها بعضا ، أما المونة فكانت من ذات الخامة أى من الطين أو الطمى مع التبن ، وقد تزيد نسبة التبن أو قد تقل حسب نوع

التربة التى تحت قدمه والمتوافرة لديه ثم يعود عند انتهاء المبنى بيياضه أو لياسته بذات اللون والمونة والتبن وبذلك كان الفلاح هو البناء وغالبا هو النجار الذى يصلح الساقية الخشبية عندما تعطب وهو الذى يشكل نوافذ وأبواب بيته البسيط ، كان الريف ينمو ويبنى دون تدخل لامن الدولة ولا من المهندسين ولا المخططين المعماريين ، كان اختيار الموقع أى المكان للقرية أو العزبة أو الكفر غالبا فوق ربوة عالية قليلاً أو كثيراً حسب الطبيعة ، إذا كان الموقع فى الوجه القبلى حيث الرى بطريقة الحياض ، فإن مجموع الفلاحين بقيادة العمدة أو كبار السن يدركون من خبرتهم أن يتم إختيار موقع القرية مرتفعا عن منسوب مياه الرى أثناء غمر الأحواض بمياه الفيضان ، وكانوا يعرفون من خبرتهم أن الأمر قد يتغير من سنة إلى أخرى وفق حالة الفيضان ، ولأن الثروة الرئيسية للفلاح هى الأرض الزراعية وهى مورد الرزق الكافة ، لذلك كان يحتجز لجملة الحيز المخصص لسكنى أهل القرية أقل قدر من الأرض ، ولذلك كانت مساكن الفلاحين فى وادى النيل قليلة المسطح جدا بخلاف بيوت الفلاحين فى الواحات حيث الأرض رملية ومتسعة بلا نفع.

وكذلك كانت طرق ومدقات الطرق فى القرية ضيقة وغالبا متعرجة حتى لايكون إختراقها سهلا أو ميسرا للإنسان الغريب ، سواء كان من قرية أخرى ، أو غازيا أجنبيا يأتى دون أن يصلهم الخبر ، وكانت مبانى القرية متلاصقة وحوائطها مشتركة حتى صارت كسكانها يتساندون على بعضهم البعض ، ولأن الكتف فى الكتف فى العمل بالحقل ومقاومة الفيضان كذلك فالجدار يسند الجدار ، ولذلك ماسمعنا فى العصور القديمة أو الحديثة عن حادث واحد لانهيار مبان فى الريف فى مصر ، ولذا فهى ظاهرة غريبة عن تراث الريف المصرى وتزعج جميع المصريين ويشعرون أنها أمر مخجل فبناة الأهرامات تهدم بيوتهم فوق أهلها .

● نظر متشابه

هكذا كانت القرى المصرية ، كتلة متراصة من المبانى ذات اللون البنى أى لون الأرض والتربة ، ولايمكن أن تفرق مسكنا من آخر لأنها متلاصقة ومتشابهة ، ومن بعيد ترى القرية موازية لخط الأفق من دور واحد ، وفوق هذه الأسقف حطب القطن وعيدان الذرة المجففة لتستخدم فى طهو الطعام كوقود ، وبعض الصوامع الصغيرة من الطين حيث تخزن الغلال من ذرة أو قمح تكفى الأسرة طوال العام ، وعلى الأطراف الخارجية لمحيط البيت يكون سور وهمى



سوف تمتد القاهرة لتلتحم مع المدن الجديدة لتصبح أكبر كتلة عمرانية في أفريقيا..
ترى هل يمكن التحكم فيما حدث

من أقراص الجلة (أي الأقراص التي تعمل من التبن مخلوطاً مع روث البهائم) وكان ذلك أفضل أنواع السماد لتقوية الأرض، وكثيرون كانوا يفضلونه على السماد الكيماوي وأحيانا يستخدم كوقود، ولكن مع ارتفاع سعر التبن كعلف للبهائم، تغيرت اقتصاديات استخدامه والتي سادت لقرون.

وإذا نظرت أي قرية مصرية من بعيد تجدها خطاً أفقياً له هذا المنظر المتشابه، ويكسر هذا الخط وجود مئذنة متعانقة مع منارة كنيسة إذا كان عدد الأقباط وأحوالهم الاقتصادية يسمح بذلك.

إن هذه الصورة كانت موضع إلهام لكثير من الشعراء والأدباء والمبدعين من الفنانين التشكيليين ، بعضهم رآها صورة شاعرية لمجتمع وديع طيع مسالم ، وآخرون رأوها صورة لتخلف وقهر واستغلال للأثرياء بالعيش فى رفاهية على حساب الفقراء ، وربما كانت تلك الصورة المختلفة لريف المصرى ولحالة الفلاح الذى عانى من الفقر والمرض والجهل ، كانت أحد أسباب انفعال شباب الضباط الأحرار الذين قاموا انقلابا عسكريا فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ تحول مع تأييد الفلاحين إلى ثورة ومما يؤكد ذلك أن قانون الإصلاح الزراعى صدر فى ٩ سبتمبر فى ذات العام مما يعنى أن آلام الفلاح وحالته كانت تلهب ضمائرهم بتغير هذا الوضع وقد تغير بالفعل كثيراً إبان فترة حكم عبد الناصر وهو الأمر الذى سنأتى إليه فيما بعد .

ومما هو جدير بالتسجيل هنا هو أن نمط حيازة السكن فى الريف كان إما ملكا ، أى أن الفلاح أو المزارع الصغير كان يمتلك بيته ويتوارثه أبا عن جد ، أو يكون منحة من مالك الأرض ، وهو الأمر الذى كان متبعا فى العزب والملكيات الكبيرة عندما كان مالك الأرض ملزما – ولأجل أن تتوفر له اليد العاملة وترتبط به بأن يوفر له المسكن – وكان فى الأغلب الأعم مجرد مأوى أكثر منه مسكناً مسكن وأصبح الفلاح الأجير مرتبطا بالأرض والمأوى وكلها ملك للإقطاعى صاحب الأرض .

● نمط قريب التشابه

أما المدن المصرية – وفيما عدا القاهرة والإسكندرية والعواصم للمديريات – هكذا كان اسمها «المديرية» قبل أن تتحول إلى مسمى «المحافظة» فكانت فى معظمها لاتختلف كثيراً عن نمط الريف فيما عدا أنها أكبر من ناحية المسطح وربما تتضمن أنشطة أوسع من التجارة المرتبطة بالزراعة وبعض الحرف التى تحتاج إلى إتقان وتلبى حاجات الفقراء ومتوسطى الحال .

وللإسكندرية والقاهرة وضع خاص متميز ، إذ اتسعت وتوسعت لتشمل أنشطة الدولة والتجارة والتعليم والمحاكم الكبرى وبعض أنواع الصناعة وكان بها دائما خدمات أكبر وأرقى تلبى احتياجات الأثرياء والحكام فضلاً عن الجاليات من الأجانب وبالذات الانجليز والفرنسيين،

أما الجاليات الأقل من الايطاليين واليونانيين فكانوا فى الأغلب الأعم متعايشين فى أحياء الطبقة المتوسطة واختلطوا مع المصريين واكتسبوا اللغة العربية نطقا ولكن بلكنة واضحة يمكن التعرف من نطقها على اللغة الأم . ولذلك دخلت هذه اللكنات فى بعض الكوميديات المسرحية التى تعبر عن العصر .

ورحل أثرياء الريف إلى المدن الكبرى أى العواصم الكبيرة للمديريات مثل طنطا والمنصورة ودمنهور وبنى سويف والمنيا وأسيوط وغيرها واستعان بعضهم ببعض المهندسين أو البنائين من الأجانب فبنى كل منهم لنفسه قصرا كبيرا أو صغيرا حسب الأحوال ، تعبيرا عن الثراء والجاه ، وهكذا أصبحت تلك القصور من معالم هذه المدن إلى يومنا هذا على الرغم من أن بعضها قد تحول فى مرحلة عبد الناصر إلى قصر الثقافة أو مقر للاتحاد الاشتراكى ثم الحزب الوطنى الديموقراطى بعد ذلك . وتدريجيا انتشرت مبانى العمارات المتوسطة الارتفاع والحجم فى المدن ، لتناسب سكنى الطبقة المتوسطة وبالذات فئة الموظفين والتجار فى تلك المدن ، وكان النمط الغالب هو عمارات على مسطح يتراوح بين ١٠٠ : ٢٥٠ متراً مربعاً وبارتفاع من ثلاثة إلى خمسة طوابق .

وهنا – ومن مطلع القرن – بدأ نظام الإيجار يعرف فى المدن حيث كان الاستثمار فى إنشاء عمارة سكنية أحد أوجه النشاط الاقتصادى المشروع فضلا عن أنه تعبير عن الثراء للطبقة الوسطى .....

وهكذا قسمت المدينة إلى أحياء سكنية محددة المعالم كل منها مخصص لسكنى فئة اجتماعية بذاتها وأصبح اسم الحى السكنى معبراً ضمنياً عن مستوى الدخل والثقافة ومازالت آثار تلك الحقبة واضحة على الطبيعة فى أغلب المدن فى الأحياء التى تكونت فى الحقبة من مطلع القرن حتى نحو الستينات وقد جمدت هذه الإيجارات القديمة حتى الآن ويمثل ذلك أحد أسباب تفاقم أزمة الإسكان وسببا فى غلق كثير من هذه الشقق وعدم تداول إيجارها . وفى عهد عبد الناصر ، رغب النظام فى أن يرفع من أحوال معيشة السكن للطبقة العاملة والموظفين ، فأنشأ ما أصبح يعرف بمناطق «المساكن الشعبية» .

● طريقة الهيكل الإنشائى

وفى تلك المرحلة كان إنشاء المساكن – وبالذات بعد الحرب الثانية – والعمارات بطريقة الهيكل الانشائى من الخرسانة المسلحة ، قد صار من الأمور المعروفة والتى تم تنفيذها فى

يسر ، فهناك الأعمدة المسلحة مرتكزة على قواعد ترسو على الأرض ، أما السقف فبلاطه سمكه غالبا ١٠سم وترتكز على كمرات في الجوانب الأربعة للبلاط تنقل أحمال الأسقف إلى الأعمدة ومنها إلى الأساسات والتربة ، وصار هذا الطراز معروفا ورخيصا ، فكانت تكلفة المتر المسطح من المساكن لهذا النوع الشعبي يتكلف نحو ٨ جنيهات عام ١٩٦٢ ، أصبح نحو ١٦٠ جنيها/م٢ عام ١٩٨٢ أي زاد نحو ٢٠ ضعفا في بحر عشرين سنة وقد أدى ذلك إلى خلل اقتصاديات الإسكان ، فأكثر الملاك من القطاع الخاص إلى هجرة الإنشاء والاستثمار بهدف التأجير كما كان ذلك هو الوضع السائد في المدن منذ مطلع القرن إلى نحو منتصف السبعينات ، وتحول الناس إلى نمط «التمليك» أي شراء وحدة سكنية في عمارة .

★★★

هكذا تطور الإسكان في المدن عبر القرن العشرين وهكذا تغيرت أحوال المباني في الريف ، ففي العديد من المدن المصرية ظهر ما أصبح يعرف «بالإسكان العشوائي» وهي أحياء بعيدة عن المناطق المركزية المخططة .

وفي الخفاء وبعيدا عن رقابة الدولة وبدون تخطيط هندسي يتم إنشاء مساكن على قطع أرض قليلة المسطح يتراوح بين ٧٠ ، ١٥٠ متراً مربعاً ويتم إنشاء المبنى على مراحل في الغالب ، ونظرا لتعود العمال الانشاء بطريقة هياكل الخرسانة المسلحة كما سبق التوضيح ، فإن أغلب هذه العمارات تكون من شقق صغيرة وبها صالة وحجرة أو صالة وحجرتان وتكون التشطيبات متقشفة حتى تكون التكلفة أقل مايمكن ولذلك فإن هذه المباني لا يتم بياضها أي كسوتها بطبقة مونة تسمى البياض من الخارج ، وتترك واجهاتها بذات ألوان الخرسانة الرمادية والطوب الأحمر ولذلك فهي قبيحة المنظر ولاتحمل أي قيم جمالية ، وقد اضطر الناس لإنشاء هذا النوع من الإسكان غير المرخص لإمكان توفير المساكن للطبقات محدودة الدخل وابتكروا أنظمة اقتصادية غير معروفة أو مسبوقة في القانون المتبع في المساكن المرخصة في الأحياء التي تناسب الطبقات المتوسطة والثرية ، كان يدفع المستأجر «مقدم إيجار» كبيراً يعتبر مساهمة منه في رأس المال المطلوب لإنشاء الوحدة السكنية وحتى يكون عندئذ الإيجار الاقتصادي المتفق عليه مناسبا للدخل ، ولذلك يطلق عليه عادة «نصف تمليك» أو «ربع تمليك» حسب الأحوال ، ولولا هذا النوع من الإسكان لتوقفت الحياة ولما أمكن للفئات الشعبية أن تكون حياة أسرية ، ولذلك فلا عجب أن الدولة تغمض العين عن الإنشاء لهذه المساكن بدون تخطيط أو ترخيص ، لأنها غير قادرة من خلال طرقها الشرعية أن توفر المسكن بإيجار يتناسب مع الدخل لهذه الفئات المطحونة من صغار الموظفين أو العمال المهاجرين من الريف والذين يعملون في وظائف هامشية يمكن توفيرها في مجتمعات المدن الكبرى .

وكان طبيعيا في هذه البيئة من الإسكان العشوائي أن تنمو الجريمة ويزداد العنف الاجتماعي ، وقد أكد كل المراقبين وجود صلة بين الإسكان العشوائي وإنتشار التطرف الديني ، فقد أمكن للأصوليين أن يسيطروا على بعض هذه المناطق والتي يصعب على الشرطة الوصول اليها ، لأنها لم تخطط على هذا النحو ، ولعدم وجود الخدمات بها مثل : الشرطة - الاسعاف - المدرسة - النادي - المستوصف ... ولذلك تقوم الجماعات الأصولية بتقديم هذه الخدمات للأهالي بما فيها الفصل في المنازعات بين الأسر .

***

وحدثت تغيرات اجتماعية هائلة مقابلة في الريف المصري ، فاختفى المنظر «الرومانسي» للقرية المصرية بالطريقة التي سبق أن قدمناها ، وحل محلها ذات النمط من الإسكان العشوائي والذي ساد في الأحياء المتطرفة في المدن وبذات طرق الإنشاء ، وتغيرت ملامح القرية المصرية ، فقد وجد بها نمط العمارات الصغيرة التي تتكون من عدة طوابق وبذلك تكون الفوارق الشديدة التي كانت سائدة بين الحضر والريف عبر القرون الطويلة قد قلت كثيراً، ومع إنتشار الإسكان العشوائي في المدن والريف على حد سواء ، يمكن القول بأن المدن قد تريفت ، ويقابل ذلك أن الريف قد تبندر أي أصبح قريبا من الإسكان في البندر أي المدينة .

***

وخلال القرن العشرين زاد سكان العالم زيادة ضخمة وسوف تستمر هذه الزيادة بشكل واضح في دول العالم الثالث كما هو معلوم ومنشور في دوريات الأمم المتحدة وكل تلك الأنفس الجديدة تصبح مطالبة بحقها في السكن الصحي المعقول وبإيجار يتناسب مع الدخول المتواضعة التي لازالت سائدة في تلك الدول وهي معضلة رهيبة ، فالأجور هزيلة إذا قورنت بالوظائف المماثلة في الغرب ، ولكن الإيجارات تتقارب مع ماهو سائد في الغرب .

وفي حالة مصر زاد عدد السكان من ١٠ ملايين نسمة في بداية القرن كما سبق القول إلى ٢٠ مليون نسمة عام ١٩٥٠ أي تضاعف عدد السكان في بحر نصف قرن ، ولكنه وصل إلى ٤٠ مليوناً عام ١٩٧٨ أي تضاعف مرة أخرى في بحر ٢٨ سنة، ولكن الدولة - تساعدها معونات أجنبية - تعمل كل ماتستطيع لإيقاف هذا التفجر السكاني ، وتؤكد الدراسات المتوافرة حاليا من الجهات المسئولة أن سكان مصر سيظلون في زيادة في السنوات القادمة ولكنه سوف يستقر عند رقم يتراوح بين ٩٠ ، ٩٥ مليون نسمة عند نحو من عام ٢٠٢٥ إلى ٢٠٣٠ .

ومن هذا المنطلق فإن أمام أي حكومة في مصر أن توفر من الآن وفي بحر الخمس وثلاثين سنة القادمة ، المساكن لنحو ٣٥ مليون نسمة على الأقل ، أي أن هناك «دولة» أو شعباً

جديداً يحتاج إلى كافة أنواع الخدمات بدءاً من المسكن وهو تحدٍ صارخ يحتاج لعقول جبارة وعزيمة حديدية وتعبئة شعبية حتى يمكن عبـور هذا المأزق الضخم .

● المدن الجديدة

وقد بدأت الحكومة – ومن منتصف السبعينات – سياسة الخروج من الوادى الأخضر حول النيل والدلتا إلى الصحراء ، وكانت البداية فى إنشاء بعض المدن والمجتمعات الجديدة ، ورغم أن الوقت الذى مضى على إنشائها ليس كافيا لتقييم النجاح أو الفشل لهذه المشاريع المكلفة ، ولكن المشاهد هو أن التوجه السريع كان بإنشاء جمله مدن قريبة من القاهرة ، فى العاشر من رمضان على الطريق بين القاهرة والإسماعيلية ثم مدينة ١٥ مايو جنوبا وفى الصحراء قرب حلوان ثم مدينة ٦ أكتوبر فى الصحراء شرق أهرامات الجيزة ، فضلا عن مدن العبور وبدر وغيرها ، وتقوم الحكومة بإنشاء ١٠ تجمعات سكنية توابع للقاهرة حول الطريق الدائرى ، وهذه فى مجملها قريبة من أو فى إطار القاهرة بحيث ينتظر أن تتحول القاهرة الكبرى إلى كتلة عمرانية رهيبة عندما تلتحم هذه المدن مع جسم القاهرة ذاته والذى يمتد ويتسع بسرعة رهيبة .

وحول الإسكندرية يتم تكتل عمرانى آخر قد توقف شرقا عند أبى قير والمعمورة وإدكو ، ولكنه ينمو غربا وأصبحت العجمى وتوابعها حياً كاملاً ، وسوف يستمر العمران إلى أبو تلات ثم جنوبا لتلتحم مع منطقة العامرية والنوبارية وسوف يستمر الامتداد جنوبا وغربا ، لتكون أيضا تجمعاً عمرانياً ضخماً لا يفوته إلا تجمع القاهرة ، وأتصور أن هذه الكتل العمرانية فى القاهرة والإسكندرية ستكون أكبر تجمعات فى إفريقيا والشرق العربى ومن أكبرها فى العالم لأن الدول المتحضرة قد خططت لعدم تفجر عدد سكانها وخططت لعدم زيادة مسطح مدنها الكبيرة .

وأتوقع فى القرن القادم أن تتحول مصر إلى فريقين أو مجتمعين :

الأول : هو مواطنو الدرجة الأولى فى القاهرة والإسكندرية ثم مواطنو الدرجة الثانية والثالثة فى باقى أنحاء مصر ، وسيحدث ذلك تغيرات اجتماعية ليست بسيطة ، لها آثار سياسية ، والتى لايمكن رؤيتها من الآن .

★★★

من كل هذا نخلص إلى أن لمصر وضعاً خاصاً بالنسبة لتراكم التراث المعمارى والحضارى قد لايتكرر فى مدن أو عواصم أخرى ، فالقاهرة بها حى مصر القديمة يحمل رائحة الماضى من خلال حصن بابليون من بقايا العهد الرومانى ، وبه كنائس قديمة تعود إلى عصور ماقبل دخول العرب إلى مصر ، وبها مجموعة كنائس أثرية يندر أن يوجد لها مثيل فى

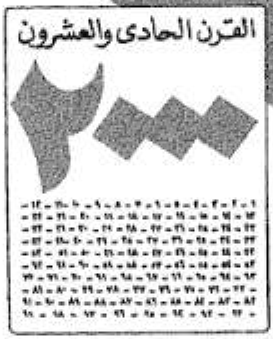
أوروبا ليس من ناحية العظمة المعمارية ، ولكنها انعكاس لاضطهاد ، فالكنائس في حارات ضيقة ومعظم مبانيها تحت الأرض ولكنها تحتوى نمطا معماريا خاصا وتحفا فنية ذات قيمة تاريخية يعتز بها المصريون .

وهناك قاهرة الفاطميين وماتلاها من عصور ، الطولونية والأخشيدية ثم عصر المماليك ثم القاهرة العثمانية وهي رقعة متميزة يفوح منها كل التاريخ الإسلامي ، ويتربع في وسطها الجامع الأزهر ممثلا قلعة فكرية بأروقته التي قدمت الفقه والاجتهادات للمدارس الفكرية المتعاقبة للأئمة والعلماء العظام ، وهناك القلعة تطل من جبل المقطم على القاهرة القديمة مؤكدة سيطرة الجالس على الحكم وعلوه على باقى سكان المدينة ، ثم حى الغورية بكل شوارعه وأزقته القديمة وجوامعه التي تحمل كل تراث الحقبة الإسلامية في مصر ، وأتصور أن القرن القادم - بكل مايحمل من تغيرات عالمية - سيقرر المحافظة على إحياء الأزهر والجمالية وباب الشعرية والغورية والقلعة ، وسيخصص لها مبالغ هائلة للمحافظة على هذا التراث والذى يتحول إلى تاريخ مع تقدم الأيام .

وحتى في مناطق وسط القاهرة وأحياء الزمالك وجاردن سيتي والمعادى تلمس وجود سرايات وعمارات تحمل طابع العمارة في فرنسا أو إيطاليا في عصور النهضة ، وهي قطع فنية لن تتكرر الآن وينبغى المحافظة عليها ، وينتابنى حزن شديد كلما مررت بهذه الأحياء الآن لأرى كيف يقتل بعض المستثمرين الجهلاء هذا التراث ويقومون بهدم هذه التحف الفنية فتنتهى قيمتها الفنية ، وتتحول زخارفها الى «أكوام من التراب» وقطع من الحجر أو الطوب تباع بأبخس الأسعار ، لكى يتم بناء عمارات «تمليك» مكانها تقدم الملايين للمستثمرين - وكان آخر تلك المآسى ماتم منذ سنوات عندما تقرر هدم قصر شريف باشا المطل على النيل في جاردن سيتى وفي مواجهة فندق مريديان ، وهاهى ذى مبانيه تتعثر بعد أن فقدنا هذه الجوهرة والتى كان يمكن أن تتحول إلى مكتبة عامة أو قاعة لمتاحف .

***

خلاصة القول ، هو أن القرن العشرين قد شهد تغيرات عمرانية هائلة في كافة أنحاء مصر نتيجة زيادة السكان وتفجر تطلعات البشر مع الاستقلال والتغيرات الاجتماعية والسياسية ، وسيظل هذا التغيير مستمراً نتيجة استمرار زيادة السكان إلى نحو عام ٢٠٣٠ ، وما لم يتم ربط مشاكل الإسكان بالبيئة وطموحات البشر والتوسع في الصحراء وحسن توزيع السكان على كل أنحاء التنمية على شواطىء البحر المتوسط والبحر والأحمر ، فإن مصر ستواجه مشاكل مختلفة حتى السياسية ولذلك وجب عرض هذه المسائل والتى تبدو فنية وهندسية على بساط البحث .



الخيال وقراءة المستقبل

بقلم : محمود قاسم

هل يمكن قراءة القرن الواحد والعشرين من وقائع السنوات الأخيرة للقرن الحالى .. ؟ للرد على هذا السؤال ، يجب أن نعرف أن هناك فروقا حادة بين حدود الخيال التى يصل إليها أدباء الخيال العلمى ، وبين ما يمكن للمستقبل أن يأتى به فالتخيل دائما يقوم على قراءة المستقبل من خلال الخيوط المنسوجة من الواقع لدرجة أن البعض يرون أن كتابات الخيال العلمى ، ليست سوى روايات واقعية كتبها مؤلفوها قبل سنوات من حدوثها .

وللإجابة على السؤال أيضاً ، يجب أن نعرف أن حدود التغير فى نهاية القرن العشرين سريعة للغاية وحادة بشكل لايمكن أن يتوقعه . ليس فقط فى مجال دون آخر ، بل فى أغلب مظاهر الحياة الاجتماعية والانسانية . وقد تأتى هذه التغييرات السريعة بأحداث لم تكن متوقعة بالمرة ، مثل تفكك المعسكر الشرقى فى أقل حيز زمنى ممكن ، هذا التفكك الذى تخيله الأدباء يوما على أنه لن يحدث إلا من خلال حروب نووية سوف تأتى على الأخضر واليابس . وتدمر كل المعسكرات والتيارات البشرية المتصارعة . وأيضا مثل ظهور وتكتلات سياسية وعقائدية جديدة خرجت من وسط الركام . ولم يكن



لأحد أن يتصور ظهورها أيضا بمثل هذه السرعة ..

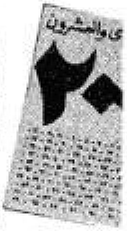
وقراءة المستقبل تختلف تماماً عن صناعته . فالله عز وجل هو وحده الذى بيده ملكوت كل شىء وهو وحده صانع مستقبل البشرية . لكن البشر يسعون إلى قراءة هذا المستقبل من خلال خريطة الواقع من ناحية . وأيضا من خلال رغبة الانسان فى تغيير هذا الواقع . وتحسين صورته . وتفادى أخطاره المتعددة كالحروب والمجاعات وتكدس السكان ..

وقد سعت جهات عديدة إلى قراءة المستقبل . منها مؤسسات البحوث ، والمجلات المتخصصة . بالاضافة إلى الأدباء والمفكرين . وقد تباينت خطوط صفحات المستقبل فى أعين الكثير من أفراد هذه المؤسسات . كما تشابهت فى بعض النقاط .

ولايمكن أن نحصر هذه الرؤى . والقراءات فى مقال واحد . ولكننا أخترنا هنا محاولة جادة وهامة قامت بها مجلة فرنسية تسمى «حدث الخميس» . حاولت التساؤل عما يمكن أن يأتى به الغد . وبالاخص فى القرن الواحد والعشرين ، للبشرية . ليس فقط على المستوى السياسى . بل أيضا على المستوى الانسانى فى أنشطة عديدة . وذلك تحت عنوان بارز هو «الغد ماذا ؟»

حشمة مادونا

أطرف مافى هذا التحقيق الضخم الذى قدمته المجلة فى أربعين صفحة من القطع الكبيرة هو قراءة المستقبل . ليس من وقائع الحاضر . ولكن من دلائ الماضى . فنحن لسنا أول البشر الذين اهتموا بصورة القرن الواحد والعشرين . بل



أثارت هذه الصورة الكثير من أبناء القرون الماضية ، خاصة القرن التاسع عشر . وترى المجلة أنه لو أن الاقدمين قرأوا ماضيهم لامكنهم معرفة أن عصر ازدهار العلم سوف يأتى بقوى دولية متعددة تحاول الاستفادة من منجزات هذا العلم من ناحية . ثم السيطرة على العالم وثرواته من خلال هذا العلم . وأن حروب البشرية سوف تكون متغيرة عن حروب ماقبل عصر العلم .

ورغم أن أغلب قراءات الماضى للمستقبل الذى نعيشه الآن كانت ساذجة قياسا إلى ماحققناه نحن أبناء العقد الأخير من القرن العشرين . فإن قراءات المستقبل بالنسبة لنا ستكون أكثر سذاجة لجيل العقد الاخير من القرن القادم . لأن الحياة تتحرك بسرعة أكبر ، وستكون التغييرات حادة للغاية فى فترات زمنية وقياسية . ولذا فمهما حاولنا استشراف هذا المستقبل بصورة موضوعية وعقلانية وعلمية . فإن أغلب المستقبل سيجىء مختلفاً عما تصورناه الآن .

وعلى سبيل المثال . فإن الفنان الذى تخيل صورة أزياء المرأة فى القرن الواحد والعشرين ، وهو ينتمى إلى عام ١٩٠٠ لم يكن يتصور أن المرأة يمكنها أن تخلع «المشد» الذى انتهى تماما فى العقد الثانى من القرن العشرين . ومع نهاية القرن وقفت مطربة مثل مادونا شبه عارية أمام ملايين المشاهدين تغنى لهم وهى ترقص . ولم يأبه الناس لجسدها . بل راحوا يتغنون بكلماتها .

أما جراهام بل الذى أجرى أول اتصال هاتفى على مسافة بعيدة فى عام ١٨٩٢ – عام صدور الهلال ، فلم يكن يتصور أنه بعد مائة عام سوف يتكلم الناس إلى بعضهم عبر مسافات أبعد من خلال أجهزة فيديوصوتية ، فيرى المرء من يحادثه على الطرف الآخر من خلال شاشة صغيرة ملحقة بهاتفه .

كوارث رفاهية البشر

ولو أخذنا هاتين النقطتين السابقتين فماذا يمكن أن نتصور أن يحدث فى مجال الأزياء والنساء خلال المائة عام القادمة . لايمكن أن نتوقع أن تعود النساء إلى عصر «المشد» . ولا أن تخلع ملابسها أكثر مما فعلت مادونا .. ومن المرجح أنها ستظل على نفس الدرجة من «الحشمة !! » مع تغيير فى التنويعات ، كما يصعب تخيل صورة هاتف المستقبل بعد الهاتف الفيديو صوتى . كل مايمكن تخيله أن مثل هذه الأجهزة ستتحول إلى أجهزة صغيرة للغاية يمكن للمرء أن يستعملها فى السيارة والشارع . والنزهات . بمعنى أن العلم سوف يزيد من احتمالات رفاهية البشر ، بعد أن وفر لهم الكثير من الضرورات . هذا بالطبع اذا افترضنا أن موارده ستظل كما هى . وأن عدد سكانه لن يزيدوا . أما إذا حدث هذا . وهو بالطبع سيحدث بشكل كارثى مخيف ، فإن كل هذه الرفاهية ستختفى . وستستخدم هذه الأشياء من أجل

القضاء على البشرية ، وفى نوع جديد من الحروب ، هى حروب الثقافات ، وسيطرة أصحاب المعلومات الأوفر على من لايملكون القدر الكافى من المعرفة ، أو الذين يسيرون فى أماكنهم ، أو يتطلعون كثيرا إلى الخلف دون الاستفادة منه للمساهمة فى بناء المستقبل .

عمر قصير .. للنظام الجديد

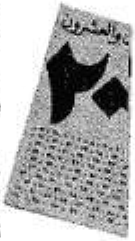
الآن ، وفى نهاية القرن العشرين ، لدينا علم للمستقبل يسمى بنفس الاسم ، ومادام أن كلمة علم قد ارتبطت بـ « مستقبل » Futrologie . فإن هناك حقائق بين يدى العلماء ، وحقائق يمشون عليها وهم يقرءون هذا المستقبل . ففى الولايات المتحدة ، على سبيل المثال ، يهتم علماء المستقبل بتصور ماذا يمكن أن يحدث لو خلا منصب الرئيس فجأة . قد يكون هذا أمراً صعباً لكن احتمال حدوثة واردة خاصة فى ظل المتغيرات . ولذا فإن من أهمية هذا العلم أنه لايترك شيئا فريسة للمصادفة . بل هو يضع إحتمالاتها حتى لايفاجىء بحدوثها مهما كانت حدتها .

وفى الولايات المتحدة مجموعة من معاهد البحوث معروفة تحت اسم Think TANKS يعمل فيها متخصصون فى كل المجالات الاقتصادية والتاريخية والعلمية والاكاديمية والسياسية ، والعسكرية . وفى واشنطن وحدها ، بؤرة السياسة العالمية الآن ، أكثر من عشرين فرعاً لهذه المعاهد .

وتتباين قراءات هذه المعاهد من المستقبل القريب إلى المستقبل البعيد . وفى النصف الثانى من الثمانينات كانت تلعب دوراً بارزاً فى متابعة واستشراف آفاق التغيير فى الاتحاد السوفيتى وهم يقرءون الآن نهوض قوميات أخرى فى المانيا واليابان . والتجمعات الجديدة فى أوربا والعالم الاسلامى . وهذه المعاهد لاتغلق أبداً ملفات الماضى . فلا يزال المعسكر الشرقى يحمل أخطاره بما هو موجود فيه من رءوس نووية . ويرون أن عمر النظام العالمى الجديد ، المعروف حاليا ، قصير للغاية ولعل هذا يرجع إلى أنواع المواجهة فى المستقبل

حروب سوبر

ترى مجلة «حدث الخميس» فى عددها المنشور فى ٣ يناير ١٩٩١ أن حروب القرن الواحد العشرين ستكون تجارية فى المقام الأول فالاتحاد الأوربى الجديد يشكل خطراً على التجارة الامريكية . كما أن اليابان تتزعم هذه الحرب . وستدخلها الصين مع عام ١٩٩٧ عقب استعادتها لهونج كونج . وتقول قراءات المستقبل فى حرب الاقتصاد هناك بؤر تجارية صغيرة تظهر فى شرق آسيا . من المتوقع أن تشكل اتحاداً فيما بينها فى القرن الواحد والعشرين لمجابهة عمالقة الاقتصاد ، هذه البؤر موجودة الآن فى كوريا وتايوان وفيتنام ، ويمكن أن يحدث فى المستقبل مايسمى بالعملاق الاسيوى حين تنضم الصين واليابان إلى هذه البؤر أو بالعكس .



ولاشك أن ظهور العملاق الاسيوى ، فى شرق القارة ، سيهدد العملاق الاقتصادى فى الولايات المتحدة وأوربا . وسيكون هذا العملاق هو الأقوى . ليس فقط لأنه يملك المال . بل أيضا التقنيات والقلبة العددية . ولاشك أن مثل هذه الحرب ستكون بين العملات . وسترتفع العملة . كلما انتصر فريق الحرب الاقتصادية التى سترتبط بلاشك بتفوق فى المعلومات والتقنيات وأيضا فى الأسلحة .

والطريف أن الحروب الاقتصادية سوف تفتح الآفاق والحدود ، وذلك على عكس الحروب العسكرية التى تقطع العلاقات وتغلق الحدود . فأصحاب التكتلات الاقتصادية سيعملون على تحسين علاقاتهم مع الدول المستهلكة لبضائعهم وتقديم تسهيلات كثيرة . والعمل أيضا على كسب المزيد من المستهلكين مهما كانت الأفكار والأيديولوجيات الجديدة مختلفة . إنها حرب مصالح فى المقام الأول . ليست من أجل الارض ولكن أيضا من أجل المزيد من العملات الأقوى .

صدمة المستقبل .. للعرب

ووسط تشاؤم شديد بأن البطالة ستزيد مع القرن الواحد والعشرين أو عصر العلم السوبر فإن الحروب الاقتصادية قد تقضى على الكثير من معالم هذه البطالة .. ولعلها قد تزيد من نسبتها . ويرجع ذلك إلى الموارد الاقتصادية التقليدية والجديدة من ناحية . وأيضا إلى أساليب تفكير أبناء القرن ٢١ فى كل ما يتعلق بأمور الحياة .

وفى قراءتها للمستقبل رأت مجلة «حدث الخميس» أن الحروب الأهلية سوف تسود فى الاتحاد السوفيتى . وذلك قبل انحلاله بعشرة أشهر لا غير . ولكن كانت التغييرات السريعة جدا فى هذه المنطقة الهامة من العالم أكثر حدة من تخيلات علماء المستقبل وتقاريرهم المبنية على الوقائع والحقائق . ولذا فإن الكثير من هؤلاء العلماء يتوقعون الآن عودة الشيوعية فى صورة مختلفة بعد أن فشلت تجربة الانفتاح فى الاتحاد السوفيتى . ولكن أحداً من هؤلاء العلماء لم يتوقع أن تكون روسيا من دول العالم العظمى فى القرن الواحد والعشرين . والسبب كما أشرنا واضح للغاية . وهو أن روسيا قد فقدت ولسنوات عديدة مقبلة قوتها الاقتصادية . وفى وقت تزداد فيه ثروات التكتلات الجديدة بشكل يدعو للنظر ..

ولعل هذا يدعو علماء المستقبل فى العالم العربى إلى محاولة قراءة دور العرب فى هذه الحروب الاقتصادية . فلاشك أن البترول ، وثروات عربية عديدة ، سوف تتقلص فى القرن القادم . وسيكون على العرب أن يصنعوا تكتلا اقتصاديا خاصاً بهم . ولعل هذا التكتل يكون كفيلا بتجميع كلماتهم التى لم تتم بشكل حقيقى فى صراعات القرن العشرين . وعلى كل ، فنحن نرى أن العرب سوف تحدث لهم صدمة مؤثرة فى مواجهة هذه التغييرات وعند الخروج منها ستكون العقلية العربية قد تغيرت تماماً فى مواجهة مؤثرات الواقع الراهن للقرن القادم .

زمن القرى العملاقة

إذا كنا قد تحدثنا عن صور السياسة والاقتصاد ، فإن أخطر ما سيحدث فى نهاية القرن الواحد والعشرين هو تحويل القرية إلى مدينة عملاقة . أى أن المدينة بعمارتها وتقاليدها سوف تزحف إلى القرى المعروفة حاليا . وستكون البنايات البرجية سمة لهذه القرى . وسيختفى الافق تماما فى المجتمعات السكنية ، ومع ارتفاع معدل السكان فى القرن القادم ، سيكون التوسع رأسياً فى كل شىء . ليس فقط فى الابنية التى يسكنها البشر . بل أيضا فى إنتاج هؤلاء البشر من محاصيل وأطعمة . فمن أجل مواجهة هذه الزيادة يجب على البشر أن ينتجوا المحاصيل العملاقة فوق نفس قطـع الأرض أو فوق قطع أقل مساحة ، بعد أن تم اقتطاع الكثير منها للمدن العملاقة .

وترى مجلة «حدث الخميس» على طريقة مالتوس أنه رغم تقدم الطب . فإن الكوارث المرضية سوف تحصد البشر فى القرن الحادى والعشرين بشكل وبائى ، وجماعى . فليس ظهور مرض عدم المناعة إلا مفرخة لظهور أمراض أخرى أكثر شراسة وغموضا . وفيروسات ، أو أسباب هذه الأمراض ستروح تغير من طبيعتها كلما حاول البشر ايجاد أساليب لمعالجتها كى تصبح أكثر شراسة .

وقد توقع البشر أن تكون أمراض إنسان القرن الواحد والعشرين نفسية فى المقام الأول . ولكن من الواضح أن الامراض العضلية ستعمل على اندثار امراض النفس التى سميت بالامراض الحضارية .

القراءة .. بالاشتراك

لاشك أنه فى وسط عالم مزدحم . وملىء بالصراعات التى لاضمير لها ولاعقل ، فإن الفنون والآداب سوف تأخذ أشكالا مختلفة فى القرن الواحد والعشرين . وليس من المتوقع أن يضمحل أثر الكلمة المكتوبة فى بداية القرن القادم . لكن أساليب البرمجة المتطورة ستجعل كافة الكلمات المكتوبة مطبوعة على شاشات باحجام وأنماط مختلفة . فيمكنك قراءة أى صحيفة فى العالم عن طريق .. «كابل» مثلما يحدث الآن فى قنوات التلفاز العالمية . وذلك بالاشتراك السنوى فيها . وسوف ينعكس هذا أيضا من خلال الكتب . حيث من المتوقع ، وليس هذا من قبيل الخيال المحض ، أن يكون ناشر الغد هو الشخص الذى يجعلك تقرأ كتبه من خلال أيضا «كابل» خاص . فللمرء أن يقرأ الصفحات وهو فى الحالة النفسية التى يريدها استرخاء مثلا ، وعن طريق الكابل هذا يمكن للمرء القراءة .. لن تنتهى القراءة فى حياة البشر إبان القرن الواحد والعشرين . ولكنها ستأخذ شكلا مغايراً لما اعتدناه .. ليس إلا لأن القراءة من غرائز البشر التى يجب اشباعها دائما .

القرن الحادى والعشرون

٢٠٠٠

مستقبل اللغة العربية

الهلال وارتقاء الأسلوب الأدبى

بقلم د. محمد رجب البيومى

لابد لمؤرخ النثر العربى فى هذا القرن أن يرجع إلى مجلدات مجلة الهلال فى تعاقبها المتصل، ليرى كيف تدرج الأسلوب فى سلم الارتقاء الأدبى تدرجا محمودا على صفحات هذه المجلة الممتازة، لأن منشئها قد جعل من همه الأول أن يرتقى بأسلوب الكتابة المعاصرة جهد المستطاع، إذ كانت الحقبة التى ابتدأ فيها الهلال بالظهور مجال تردد متذبذب بين أنصار الصناعة اللفظية، ودعاة التحرر الأدبى من قيود المحسنات، حتى تمت الغلبة للأسلوب المسترسل، وأخذ هذا النمط الجيد من أنماط البيان يستقل بنفوذه الكاسح شيئا فشيئا، حتى استقام على منهجه الأصيل.

ولا أنكر أن الهلال لم يكن وحده ذا انفراد فى المحيط الأدبى، فقد كانت هناك الجرائد اليومية مثل المؤيد واللواء والأهرام والمقطم والجريدة، وكانت هناك المجلات الأسبوعية مثل مصباح الشرق والإصلاح واللطائف والنيل، والشهرية مثل المقتطف ومجلة المجلات والمنار والآداب ولكن مجلة الهلال هى التى استمرت فى كفاحها المتصل حتى اليوم، وهى فى كل عام تزداد تألقا وازدهارا، وكان كتابها من صفوة أعلام البيان فى الشرق العربى كافة، بل إن الظهور البراق لم يكن ليتاح لأكثر هؤلاء لولا سطوع أسمائهم على صفحات الهلال، وقد كنا فى كل وطن عربى نترقب

★ حرصت الهلال على أن يكون كتاب الفكرة من دعائم بنائها

★ مجلدات الهلال على مدى قرن كامل تعد مرجعا دقيقا للحياة السياسية والعلمية .

ظهور الهلال فى شروق ، كما يترقبه أبناء العروبة فى المهاجر النائية والأصقاع المترامية ، وبهذه السيرورة المنتشرة أدت المجلة رسالتها فى شتى الميادين الفكرية ومن أهمها ميدان الأسلوب الأدبى الذى أصبح مضرب المثل فى القوة والازدهار .

وإذا كانت المجلة ذات أبواب متعددة ، فإن أهم ما احتفلت به فى هذا العصر المديد هو الدعوة إلى ارتقاء الأسلوب ، حيث تناوب كبار الكتاب على معالجة هذا المنحى ، فأخذ كل مفكر يعرض ما يراه مؤديا إلى ازدهار الفصاحة البيانية ، بعيداً عن الزخرف اللفظى والتكلف البديعى ، ولا أستطيع فى هذا المجال المحدود أن ألم بما نبجه هؤلاء الأفذاذ ، ولكنى أكتفى بالإشارة إلى مقالات كانت ذات تأثير نافذ فى تحديد الهدف وإصابة المرمى .

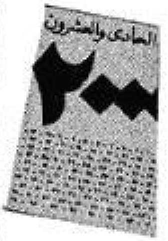
ولعل أول ما يفد على الذهن من هؤلاء الكتاب هو رائد النثر الأدبى المعاصر السيد مصطفى لطفى المنفلوطى ، حيث تحدث على صفحات الهلال عن نهجه الأسلوبى فى الكتابة الأدبية ، فنشر فصلا وافيا عن الأسلوب البيانى مهدت له مجلة الهلال بقولها (١) .

المنفلوطى .. أمير البيان

وليس بين كتابنا من هو أجدر بالتكلم عن البيان من أمير البيان السيد مصطفى لطفى المنفلوطى ، وإننا لنود أن يطلع على هذا المقال البديع كل أديب من أدبائنا .

---

(١) أعيد نشر هذا المقال بالعدد الماسى من مجلة الهلال الذى صدر فى مفتتح سنة ١٩٦٧م ص ٢٧ .



وقد كانت الفترة التى ظهر فيها مقال المنفلوطى على صفحات الهلال فترة تذبذب حائر بين الكتاب ، إذ دخل فى صفوف الكاتبين من ينتسبون إلى علوم اللغة والبلاغة دون أن يكونوا من ذوى الموهبة ، وكان لهم من المناصب العلمية ما يزيد من بريقهم المؤثر ، فأراد الكاتب الكبير أن يوضح رأيه الصريح دون لبس فقال :

«ليس البيان ميداناً يتبارى فيه اللغويون ، والحفاظ ، أيهم أكثر مادة فى اللغة ، وأوسع اطلاعا على مفرداتها وتراكيبها ، وأقدر على استظهار نوادرها وشواردها ، ولا متحفا بصور الأساليب وأنواع التراكيب ، ولا مخزناً لحقائب المجازات والاستعارات ، وأحمال الشواهد والأمثال ، فتلك أشياء خارجة عن موضوع البيان وجوهره .. أما البيان فهو تصوير المعنى القائم فى النفس تصويراً صادقاً يمثله فى ذهن السامع كأنه يراه ويلمسه ولا يزيد عن ذلك شيئا ، فإن عجز الشاعر والكاتب مهما كبر عقله ، وغزر علمه ، وذكا ذهنه عن أن يصل بسامعه إلى هذه الغاية فهو إن شئت أعلم العلماء ، أو أفضل الفضلاء ، ولكنه ليس بالشاعر ولا الكاتب» .

وقد يكون هذا الكلام بديهياً الآن ، ولكن فى زمنه السالف كان مجال أخذ وشد ، وما اتجه المنفلوطى إلى نقد هؤلاء العلماء حين يزجون بأنفسهم فى ميدان ليسوا من فرسانه إلا ليوجه الأنظار إلى نمط من الأسلوب يراه أجدر بالاحتذاء ، والهلال حين دعا كل أديب من أدبائنا إلى الإطلاع ، إنما كان يؤيد منحى المنفلوطى فى اتجاهه البيانى ، وقد يكون بين المتعصبين من لا يرتفع بالمنفلوطى إلى الذروة التى يحله فيها المنصفون ، ولكن الجادين من مؤرخى الأدب المعاصر يحفظون له مكان الرائد فى مضماره ، حيث كان بنظراته الأدبية حدا فاصلا بين أسلوب وأسلوب وحسبه ذاك .

وإذا كان نصيب الديباجة فى أسلوب المنفلوطى أقوى من نصيب الفكرة ، فإن مجلة الهلال حرصت على أن يكون كتاب الفكرة من دعائم بنائها ، وفسحت المجال للحديث عن الأفكار العلمية وأثرها فى ارتقاء الأدب العربى ، ولا أعنى بالأفكار العلمية ما يتصل بالعلوم التجريبية كعلوم الطبيعة والكيمياء والنباتات والتشريح فإن هذه العلوم قد وجدت مسرحها الفسيح على صفحات مجلة المقتطف ، ولكنى أعنى هنا العلوم الإنسانية مثل علوم التاريخ والنفس والتربية والاجتماع والسياسة حيث حظيت هذه العلوم بعناية مجلة الهلال ، فكانت وسيلة إلى ارتقاء الأسلوب إذ أوجدت نوعاً أدبياً كان حديث العهد بالصحافة المصرية ، وهو ما يسمى بالأسلوب العلمى المتأدب ، وهو الوسيلة الأولى للتثقيف العام بين القراء ، وفى سبيل ارتقاء هذا النوع اتسع ميدان النقاش الفكرى فى مسائل الترجمة والتعريب ، وأذكر أن من أهم ما نشرته الهلال حينئذ ما أكده الاستاذ الكبير أحمد لطفى السيد من ضرورة الاهتمام بالترجمة عن أدباء الغرب وعلمائه وفلاسفته ، لأنها الطريق الطبيعى لنقل العلوم إلى بلادنا ، وهى الطريق الذى سلكته كل مدنية من مدنيات الأمم الماضية ، ولا يمكن أن تقوم معارضة بين الترجمة والتأليف ، لأن التأليف يتجه إلى نقد المذاهب المعاصرة ، وأن

تقدر على هذا النقد إلا إذا عرفنا حقيقة هذه المذاهب عن طريق الترجمة ، والأمم المتقدمة الآن في أوربا تنقل عن غيرها ، فما يجد كتاب «في لغة انجليزية أو ألمانية أو فرنسية حتى يُترجم إلى كل لغة هناك ، فإذا كانت أوربا تحتفل بالترجمة هكذا ، ولها السبق في التأليف فإننا في خطواتنا الأولى أولى وأجدر بالاهتمام بهذه الترجمة) ثم رأى الكاتب الكبير أن يجيب عن سؤال وجه إليه هو هذا : «أيهما أولى في مجال الترجمة بالتقديم أهي الآداب أم العلوم» فقال (١) :

«الواقع أن الحركة الأدبية تتقدم الحركة العلمية دائما ، كذلك كانت سنة الأولين فإن الآداب اليونانية قد تقدمت العلم اليوناني ، والآداب العربية قد تقدمت العلم العربي والنهضة العلمية الحديثة في أوربا بدأت بالآداب ثم ثنت بالعلوم ، فلسنا إذن مختارين في أن نبدأ بأيهما شئنا ، والواقع من الأمر أننا بدأنا فعلا في درس الآداب ، وبلغنا في ذلك مستوى أرفع بكثير من المستوى العلمي فلست تجد في علمائنا من يساوي في علمه مستوى أحمد شوقي في شاعريته» .

ومع احتفال الأسلوب الأدبي على صفحات الهلال بخاصة ، وعلى صفحات المجلات المتناظرة في العالم العربي بعامة بالفكرة الصائبة ، فإن المفكر الشهير الاستاذ سلامة موسى قد هاجم على صفحات الهلال كثيرا من أعلام الأدب المعاصر ، وقال إنهم يتجهون إلى الصنعة اللفظية ، وقال فيما قال :

«إن المنفلوطي لم يبلغ ما بلغه من الشهرة إلا لجمال صنعته ، وتوخيه دس العبارات القديمة في ثنايا إنشائه ، والرافعي والمازني كلاهما لا يبالي بشئ بمقدار ما يبالي بالصنعة ، ولو كانت هذه الصنعة في توخي الدقة لما كان يمكن الاعتراض عليها ، فإن دقة التعبير هي في اعتقادي غاية الغايات من اللغة ، وهي هم كل كاتب مخلص يود أن يفضي إلى القارئ بحقيقة فكره ، وإنما كان القصد هو الإغراق في الصنعة وهي لا يزال إلى الآن قائما على الزينة (٢)» .

وهذا كلام يحمد من ناحية الدعوة إلى الاهتمام بالفكرة ، ومحاولة التدقيق في عرضها عرضا واضحا محددا لا اتساع فيه فوق المعتاد ، ولكنه ينقد من ناحية التمثيل إذا استشهد الكاتب بالمنفلوطي والمازني والرافعي يجعلهم جميعا من أنصار الصنعة اللفظية ، التي تهدف إلى الشكل دون الاهتمام بالموضوع ، وهذا موضع النقد ، فإن نصيب الموضوع في مقال المنفلوطي لا يُنكر ، وإن احتفل بالديباجة احتفالا كبيرا ، لأنه رائد في مجاله ، أما المازني فإن نصيب الفكرة من أسلوبه قدر نصيب التعبير . ولم يقل أحد إنه من أدباء الزينة اللفظية وكتبه بين أيدينا تعطي الشهادة الصحيحة على صواب ما نقول ، وقد غاب عن الناقد أن الرافعي يمضي بالخيال في مقالات وجدانية نصيب العاطفة منها أبلغ من نصيب الفكرة ، فإذا اتجه الرافعي إلى بحث تاريخي فإن نصيب الفكرة يتعادل لديه مع نصيب التعبير كما نرى

---

(١) مجلة الهلال ، مجلد عام ١٩٢٤ جـ٣ ص ٢٣٤ .

(٢) أعيد نشر هذا المقال بالعدد الماسي من مجلة الهلال وقد صدر في مفتتح سنة ١٩٦٧ ص ١٧٣ .

فى كتابه «تاريخ الأدب العربي» بأجزائه الثلاثة ! ويهمنى أن أؤكد أن الاحتفال بالفكرة لا يكون على حساب التعبير الأدبى ، وإلا فإن العلماء جميعاً يُصبحون أدباء لأن لديهم أفكارا يذيعونها فى مؤلفاتهم ، والفرق بين العالم والأديب أن الأول يحصر نطاقه فى مجال البحث النظرى دون أن يسمح لعواطفه بالتنفيس عن إتجاهها الخاص ، أما الثانى فإن عاطفته مصدر إلهامه ، ونبع بيانه ، والعقل يمدها بالنظر الصائب والتعليل الموفق ! وقد اتسع النقاش حول هذه الأفكار أمداً طويلاً ، ولكنه حُسم الآن بما وصلنا إليه من الارتقاء الفكرى فى الأسلوب المتداول ، وإن كنت أنعى على بعض من يزاولون الكتابة فى صحف العالم العربى قلة احتفالهم بالتعبير المشرق ، كما كنا نجد لدى زعماء الأدب المعاصر من أمثال طه حسين والمازنى ومحمد حسين هيكل والعقاد والرافعى والبشرى والزيات ، ونرجو أن يكون لنا فى ارتقائهم الأدبى وإبداعهم التصويرى نموذج للاحتذاء .

وحين أنشئ المجمع اللغوى بمصر سنة ١٩٣٢ ، وخاض الكتاب فى جدوى رسالته الأدبية بين مؤيد ومعارض ، كانت مجلة الهلال من أسبق الصحف إلى تسجيل آراء الكبار من ذوى الرأى تأييداً وتفنيدا ، فقد أفردت عدة صفحات لاقتراحات أئمة الفكر الأدبى فى مصر والعالم العربى ، حيث أدلوا بآرائهم فى مستقبل اللغة العربية ، ومهمة المجمع اللغوى كما يرجى لها أن تكون ، وبمراجعة هذه الآراء نجد بعض التباين وفق المشارب الخاصة ، إذ ذهب الاستاذ الدكتور طه حسين إلى مهمة المجامع اللغوية هى التسجيل والتنظيم ، لأن من الخير أن ترقى اللغة على أيدى الكتاب لا على أيدى من يضعون الألفاظ الجديدة للمخترعات .

يقول الدكتور طه حسين (١) :

ومن هنا يظهر أن الذين يظنون أن المجامع اللغوية تستطيع أن تضع للناس ألفاظاً أو مصطلحات يستعملونها فى أغراضهم المختلفة لا يفهمون عمل المجامع على وجهه ، إنما عمل المجامع هو أن تسجل تطور اللغة ، وتطورها فيما تضعه من المعاجم ، وفيما تؤلفه من كتب النحو ، وقد تعمل المجامع اللغوية للترقية الأدبية فى اللغة حين تقترح موضوعات على الكتاب والشعراء ليعالجوها .

فالدكتور طه كان يرى أن المجمع لا يختص بوضع المصطلحات العلمية حين أبدى هذا الرأى عند إنشاء المجمع ، وقد خالفه الاستاذ محمد كرد على حين قال (٢) :

«اللغة فى حاجة إلى وضع المصطلحات إما بالأخذ مما خلفه العرب من مدوناتهم من المعاجم وغيرها ، أو بالنحت والاقتباس على الصورة التى جرى عليها القدماء ، وهذا الاصطلاح لا ينهض به فى الحقيقة غير مجمع لغوى يؤلف من رجالات

---

(١) مجلة الهلال عدد يناير سنة ١٩٣٤ ص ٢٧٤ .

(٢) مجلة الهلال عدد يناير سنة ١٩٣٤ ص ٢٧٦ .

العلم واللغة والأدب على اختلاف أمصارهم ، ومصر أحق البلاد بذلك لأن ما تقرره مصر يكون موضع القبول» .

وقد توسط الدكتور منصور فهمى (١) بين الرأيين ، فرأى أن يكون للمجمع أن يختار مما يتخذه كبار الكتاب من الألفاظ الجديدة تارة ، وألا يكتفى بدور المختار المسجل بل ينشئ ما يراه ضرورى الاستعمال تارة أخرى ، بينما نحا الاستاذ على عبد الرازق منحى الاستاذ كرد على فقال (٢) :

«إننا فى عصر كثرت فيه المخترعات والمستحدثات ، وهذه تحتاج إلى أسماء جديدة لم تعرفها اللغة ، واستحدثت فيه أيضا مباحث جديدة فى الفلسفة والتشريح والفنون وغيرها ، وكل هذه أمور تشعرنا بحاجتنا إلى التعبير عنها ، لأننا لا نجد فى اللغة التى وصلت إلينا طرقا موروثة للدلالة عليها ، فنحن من هذه الجهة بحاجة إلى ما يكفل للأمة العربية التعبير عن هذه الأمور الجديدة فى حياتها» .

هكذا كان الهلال مسرحا للأفكار الداعية لأنهاض الأسلوب لغة وأدبا ، وقد أختير الدكتور طه حسين رئيسا للمجمع أمداً غير قصير ، وكأنه عدل عن رأيه السابق حين وافق على أن يكون للمجمع الحق الكامل فى وضع الاصطلاح العلمى فى شتى الفنون ، ومن يراجع مجلات المجمع يرى هذا الجهد الضخم فى هذا المجال الفسيح» .

والذى تستطيع أن تباهى به مجلة الهلال أنها لم تترك فى مدى قرن كامل قضية من قضايا الأدب واللغة إلا خصتها بالدراسة والتحليل ، وحين دب النزاع بين أنصار الفصحى والعامية ، اتسعت صفحات الهلال لعرض الآراء المختلفة ، ولكنها وقفت فى جانب الفصحى تؤيد دعاتها ، وتفسح لهم مجال الرد المقنع ، ولعلى أذكر أن الاستاذ محمود تيمور قد دعا فى العشرينات إلى اتخاذ العامية فى الحوار القصصى تارة ، وفى التعبير عما ليس له أصل فى العربية تارة أخرى ، ثم بدا له فى الأربعينات والخمسينات أن يعارض ما ارتآه من قبل ، وأن يجعل الفصحى السنن الوحيد للتعبير القويم ، وهذان الرأيان المتقابلان قد أذيعا على صفحات الهلال مع آراء أخرى ظلت موضع المناقشة والرد حتى انتصرت اللغة الفصيحة ، ذات الأسلوب السلس الخالى من التوعر والاستكراه .

وقد أكون مصيبا حين أؤكد أن مجلدات الهلال فى مدى قرن كامل قد أصبحت مرجعا دقيقا للحياة السياسية والعلمية والأدبية والاجتماعية فى الوطن العربى ، وإذا كنت قد قصرت هذا البحث على أثر الهلال فى ارتقاء الأسلوب الأدبى وحده ، فلست بغافل عن أثرها البعيد فى شتى الاتجاهات وهو أثر يحفظ لصحائفها الخلود عبر سنوات التاريخ المقبل ، ويكفى الهلال أن يكون وحده ذا الصوت المرتفع بين المجلات الراقية منذ مائة عام .

---

(١) ، (٢) العدد نفسه ص ٢٧٥ ، ٢٧٨ .

القرن الحادى والعشرون

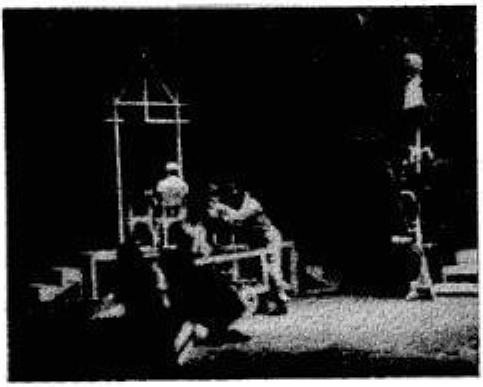
٢٠٠٠

مستقبل الإنتاج المسرحى فى مصر

بقلم : مهدى الحسينى

حسبنا فعلت دراما الإذاعة والتليفزيون والمسرح التجارى والعروض المحلية الدارجة، إذ رفعت عن كاهل الفن المسرحى ركام الكلمات ولجاجة النثرية روحا وقالبا، فخلصته من عبء الركاكة، ومغبة العناية بالتفاصيل التافهة والثرثرة والتزيد، أعفته فأعادته إلى بنيته الأصلية : روح الشعر وجوهر الفكر، دُرّ الكلام وعميق المعانى وساحر الخيال وعوالم الجمال. هذا إنْ نثراً وإنْ شعراً، عامية أو فصحى، مهما كانت مدرسته أو اتجاهه أو أسلوبه أو طابعه، فالأمر لن يختلف : الشعر والفلسفة معاً. وأنوه أن هذا الأمر لا يقتصر على « النص » وحسب، بل يتجلى فى كل مفردات العرض كلها : الظل والنور والكتلة والملمس والفراغ واللون والزى والأداة والحركة والأداء والنغم والمؤثر، وفى كل العلائق بين هذه جميعا، أى التكوين الشامل الذى ينسجه مزاج المخرج وذوقه ووعيه.

هذا الأمر إنما يعنى « انفراد » فن المسرح عن غيره من وسائل الاتصال والفنون الأخرى، بأنه يشملها حين يكثفها ويعمقها كثّب لكل الفنون، ولا يعيد ترديدها كما هى. وهكذا يعود لهذا الفن سمته القديم الذى رأيناه فى « مأساة أوزوريس وانتصار حورس » ملحمتنا المصرية القديمة وفى أعمال عمالقة المسرح الإغريقى: اسخيلوس وسوفوكليس ويوريبيدس وأريستوفانيس وفيما خلفه لنا وليم شكسبير وإبسن وتشيكوف وشو وآرثر ميللر .. من حيث كونهم شعراء ومسرحيين

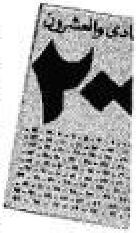


المسرح القومي المصري

ومفكرين.

وهكذا كان الأمر عندنا حين حمل المسرحيون المصريون لواء هذا الفن منذ يعقوب صنوع .. وحتى مصطفى بهجت مصطفى الذي رحل مبكراً عن دنيانا دون أن يعرف عطاءه. كان أغلبهم يعون هذه السمة المميزة لفن المسرح - روح الشعر والفكر - التي تمنحه الخلود. حتى أن أعمالا لصنوع وتيمور وعثمان جلال وشوقي مازالت قادرة على الوقوف على المسرح حتى اليوم مخاطبة لأجيال جديدة. هذا إذا ما أحسن تفسيرها وتقديمها.

إلا أن هذا يبدو حلما بعيد المنال، فاليوم لا يقدم مسرحنا أعمال الحكيم ونعمان والفريد وروما وعبد الصبور وادريس وسرور وذياب والشرقاوي وبهجت، اللهم في مسارح الثقافة الجماهيرية ولبضع ليال وأمام جمهور محدود. وهكذا أدار مسرح الدولة ظهره لهؤلاء المبدعين الكبار ومضى يقدم أعمالا لمؤلفين بلا تاريخ ولا مستقبل. إلا أسماء قليلة تشفق على نفسها من الكتابة لحركة فنية متعثرة، ومسارح خاوية، وإدارة لامبالية. بل مضى مسرح الدولة ليصبح ظلا شاحبا لمسرح آخر، نمت بذرته في حضانة تسمى مسرح التليفزيون الذي أشرف على إنشائه « سيد بدير » جاعلا هدفه إنتاج مسرحيات مسلية وخفيفة (هكذا ظنوا) لتمد الارسال التليفزيوني، وتشغل فراغا فيه. فسحب هذا (الكم) المسرحي البساط من تحت أقدام الفرق المستقلة كالمسرح الحر وفرقة الريحاني وأنصار التمثيل. ومنه نشأ مسرح النجوم والقطاع الخاص الذي قدم أولى روائعه باسم



« مجنون بطه » (!!!) هذا المسرح الذى يهز عروش التقاليد المسرحية ويتألف من المؤلفين والمخرجين الجادين ويشترى بمئات الألوف العشرات من النجـوم والممثلين وتصل تذكرته إلى ٦٠ جنيها .

إذن فمسرحنا اليوم تتنازعه قوتان إنتاجيتـان : الأولى هى قوة البيروقراطية المهيمنة على فرق : القومى ، الطليعة ، الحـديث ، الكوميـدى ، الاسـتعراضـى ، والثـانية قوة رأس المال لمنتجين مستقلين أهمهم سمير خفاجى ، والابيارى ، ومحمد فوزى ، وسمير عبد العظيم ، وأوسكار ، وبين هاتين القوتين يحار عشاق المسرح الحقيقيون من مشاهدين أحجموا عن المشاهدة ، وكتاب وفنانين بلغ بهم الضيق وأحيانا اليأس مداه .

إنقاذ مسرح الدولة

إذن لننظر إلى ما يملكه مسرح الدولة بعد أن تضيف اليه الفرق المسرحية الفنانية الاستعراضية : حوالى ١٠٠ مليون جنيه سنويا كميزانية إنتاج ، فضلا عن أبواب ثابتة كالمرتبات والتجهيزات والانشاءات ، ومئات من الفنانين الموظفين وما يزيد عنهم من الاداريين والمهنيين والحرفيين ، ممن يحتاجهم العمل ومن لا حاجة العمل إليهم أى عمالة زائدة . وتمتلك الدولة ٨ دور للعرض هى : القومى والجمهورية (مغلق منذ سنوات) والسلام والشباب ومحمد فريد والطليعة والبالون (تابع للقطاع الاستعراضى) والسامر (تابع للثقافة الجماهيرية) وفى الاسكندرية داران هما سيد درويش ومحمد عبد الوهاب ، بالاضافة إلى دور عرض متراوحة الاتساع والاستعداد – وتتبع الثقافة الجماهيرية فى الأغلب – تصل إلى ٢٠ داراً تقريبا . وهذه الدور جميعا يجب أن تظل ملكا للدولة ، على أن تمتد إليها يد التحديث والتجميل ، وظيفة وذوقا ، كى تصبح صالحة باستمرار لكل أنواع العروض مصرية وأجنبية ، سواء من الإنتاج المباشر للدولة أو بالمشاركة أو بالاستضافة أو بالإيجار غير المستديم (فقط لعرض أو موسم) لعروض ذات قيمة فنية حتى لا تهدر سمعة دار العرض إذا ما قدمت عروضا مبتذلة أو ضعيفة ، إذن فملكية الدولة لدور العرض هو الجانب الذى يجب أن تحرص جميعا على عدم التفريط فيه وبلا مناقشة . أما الجانب الذى يجب مناقشته هو الأطر الإنتاجية لمسرح الدولة ونوعية الأعمال المطلوبة .

فبعد النجـاح البـاهر للدورة الثانية لمهرجان الجماعات المسرحية الحرة ، التى دعت إلى تحـرير الإنتاج المسرحى من البيروقراطية فى مقابل عدم رضـوخه لسيطرة رأس المال الطفيلى ، وحين طالب الناقد « حازم شحاتة » المتحدث باسم هذه الجماعات بأن تقدم الدولة ، ويمثلها

صندوق التنمية الثقافية ، العون المادى لفرق جديدة مستقلة عن القطاعين المهيمنين ، أثارت إحدى الصحف اليومية حملة عنوانها الأغلب « بيع مسارح القطاع العام » أو «تصفيته» واستجاب العشرات لهذه الحملة. بعضهم يعبر عن منظور يعتقده ومصلحة سوف يجدها ، وبعضهم تعبيراً عن يأسه من تحسن الاوضاع فى مسرح الدولة ، بينما عارض البعض هذا الاتجاه حفاظا على مقعده البيرقراطى الذى لن ينال مثله فى حال التصفية ، وعارض البعض الآخر أملا فى أن يستيقظ المسئولون عن هذا القطاع فيستجيبون للنقد ويأخذون بالمقترحات البناءة ، غير أن ثمة خشية حقيقية من أن يسعى « المصفون » باسم صندوق النقد أو البنك الدولى ، أن يدخلوا هذا المسرح ضمن قائمة طلباتهم بـ «الخصخصة» ، وثمة موقفان إزاء هذه الأخطار ، إما المزيد من التمسك بالاوضاع الراهنة فى قطاع المسرح والمسرح الاستعراضى ، والإبقاء على كل المزايا وكل العيوب ، وإما إعادة النظر ، مثلما طالب الفنان « محمود الحديني » مدير المسرح القومى فى كلمته بندوة « مستقبل الثقافة العربية فى عالم متغير » الذى عقدته هيئة الكتاب بفندق الميريديان أخيراً حين قال إن الصيغة الإنتاجية الحالية فى مسرح الدولة غير صالحة ويجب إعادة النظر فيها جذرياً .

وفى ظنى أن إصلاح مسرح الدولة لابد وأن يأخذ أحد اتجاهين لا ثالث لهما ، اما المزيد من المركزية ، وإما المزيد من الديمقراطية واللامركزية ، وعن الصيغة الأولى للإنتاج المسرحى لقطاع الدولة فهى أن تعين مجلسا للمسرح يضم صفوة من كبار المثقفين والفنانين والخبراء الذين يعبرون عن المنظور الفكرى المستقر للدولة ازاء الثقافة والفنون ووفقا للدستور والقوانين العامة والمستقر من تاريخ المسرح المصرى ، ويتولى هذا المجلس وضع خطة سنوية للعروض وأنواعها - مستنيرا بآراء الكتاب والنقاد والمبدعين - حيث يقوم بالتعاقد على أعمال بعينها وفقا لتوقيتات وشروط محددة ، مع كتاب ومخرجين ومصممين وموسيقيين وممثلين ومهنيين ، لتنفيذها بشرط التفرغ التام ولمدة عام على الأقل ويتجدد إذا لزم الأمر .

هذا ويساعد (مجلس المسرح) المقترح خمس إدارات تنفيذية : للإنتاج ، وللشئون الهندسية والتجهيزات والصيانة ، وللاتصال والدعاية والعلاقات العامة ، ولدور العرض ، ثم إدارة قانونية ، ويرأس هذه الإدارات جميعا عضو بالمجلس ، أما بالنسبة للفنانين فإننا نجد أنفسنا ازاء أحد حلين :

١ - الاحتفاظ بهم تحت إدارة سادسة ، مع تجميد أجورهم فى حالة

التعـــاقد معهم ، مع عدم تعيين دفعـــات جديدة .

٢ - نقلهم إلى وزارات التربية والتعليم، والتعليم العالى ، والشباب ، والشئون ، والعمل والإعلام ، والثقافة الجماهيرية ، كخبراء فى المسرح أو كأخصـــائيين كل حسب درجته وأقدميته وخبرته .

وبالنسبة للفائض الإدارى والعمالة غير المتخصـصـة فيمكن أن يشكل بهم مع زملائهم من العمـالة الزائـدة فى كل الوزارات وقطاعات الدولة نواة لوزارة جديدة هى وزارة لمحو الأمية وتعليم الكبار والخدمة العامة .

وبالتجاوز عن التحفظات المبدئية حول الطبيعة الحقيقية للتقسيم الإدارى الحالى للفرق وموضوعيته ، فليس المسرح القومى كلاســيكيا ، ولا الفـنانين الموزعين على مسرح الطليعة فنانون مهتمون بالتجريب ، ولا المعينون فى المسرح الحديث مهتمون بالحداثة ، ولا مسرح الشباب مسرح يخاطب الشباب ، ولا كل المعينين بالمسرح الكوميدى يستطيعون إضحاكك !!! لذا يكون تقسيم الفنانين على هذا النحو تقسيما إعتباطياً جزافيا لا يخلو من سخف ، بل السؤال الآن هل هذه فرق مسرحية حقـــا ؟ فرق بالمعنى المفهوم للفرقة ؟ تضم كفايتها من الفنانين : فتيات وفتية أوائل ، وكوميديانات وجراندات .. إلخ ، هل هناك فرقة واحدة من هذه الفرق تشكل تكاملا ذاتيا لا زائد .. ولا ناقص ؟ وهل هناك فارق جوهرى (مدرسى أو أسلوبى أو فنى أو فكرى) بين هذه الفرق ؟ وما ينطبــق على الممثـــلين يسرى على المخرجين والمصممين . ان غياب النسق يعنى غياب الفن . لذا يكاد الأمر لا يعدو أكثر من لافتات ترفعها القوى البيروقراطية المسيطرة لتظل سيطرتها قائمة بغض النظر عن حاجات الجمهور ومتطلبات الفن وقدسية المال العام . غير أننا إذا اضطررنا للتعامل مع ما هو قائم ، فان التحسين النسبى للأوضاع الحالية يمكن أن يقوم على ما يلى :

١ - رفع العبء المالى والادارى المركزى عن كاهل الدور المسرحية (الفرق) باعطائها الأولوية والاستقلالية فى وضع خططها الفنية والانتاجية ، على أن تمنح كل فرقة الحـق والحـرية فى تسـويق عروضها وبيع أشرطتها المسجلة بصريا وصوتيا وكذا تحريك أسعار التذكرة وفقا للسوق ، على أن تعد الاسعار الحالية حداً أدنى :

٢ - تعديل الوضع الراهن فى قيادات المسارح (الفرق) فلا تصبح سلطات المدير (المخرج غالبا) مطلقة ، حيث يجب أن يشـــاركه مــكتب فنى من ٤ فنـــانين نقابيين ينتخبهم سنويا أعضاء الفرقة النقابيون ، ويعين نائب مدير ينوب عنه فى كل سلطاته فى حـــالة غيابه ، ويشـــاركه

فيها باختصاصات محددة فى حالة حضوره ، ثم سكرتيراً عاماً للشئون الفنية ، ومديراً لدار العرض ، وبذلك يكون مجلس ادارة الفرقة مكونا من ثمانية أعضاء ، وعند التصويت المتساوى يرجح الجانب الذى يكون فيه صوت المدير .

٣ - إعادة النظر فى أسس تشغيل الفنانين واستثمار طاقاتهم ، بما يكفل تفرغهم للعمل المسرحى فى حال تكليفهم به ، ومنع الطفيليين وغير المؤهلين فنيا (لا يقصد بهم غير الحاصلين على مؤهلات) ووضع نظام واقعى للأجور والحوافز تشجيعا للفنانين ، على أن تربط الحوافز بايرادات الشباك حتى يصبح للجميع (مصلحة) فى النجاح .

٤ - أن يقتصر عمل قيادة الهيئة على دورها القيادى فى رسم السياسة العامة والتخطيط والرقابة الفنية ، ومنع المخالفات، والمتابعة فقط ، فضلا عن التمثيل الإعتبارى الرفيع لمسرح الدولة وفنانيه .

ترشيد مسرح القطاع الخاص

مع التسليم بأن هناك جانباً من هذا القطاع يسعى لحل المعادلة الصعبة : كيف تكون فنانا مخلصا ورائجا ورابحا ، فى وقت واحد ، ولابد من التسليم بأن هذا القطاع نجح فى جذب عدد من ألمع العناصر الفنية فى حياتنا المسرحية ، وبأنه تخلص بروحه العملية وحسه التجارى من المعوقات البيروقراطية والعمالة الزائدة التى طالما عوقت مسرح القطاع العام ، ففى حين يكون البيروقراطى هو البطل فى القطاع العام ، يكون رأس المال هو بطل القطاع الخاص . أما الفنان فليس له السيادة فى أى من القطاعين بينما هو صاحب القضية وهو أصل الموضوع !! إلا أن الوقت لم يفت لتدارك الأمر مع هذا القطاع ، لذا يمكن النظر فيما يلى :

١ - اعتبار إنتاج القطاع الخاص عملا تجاريا بحتا ، يخضع للقوانين المنظمة للشركات والأعمال التجارية .

٢ - تسليط النقد الموضوعى البناء على أعماله ، ومناقشة اعماله بجدية على نطاق واسع ، بهدف جذبه من وهدة الترخص والابتذال التى وجدها بعض منتجيه أسهل وسيلة للكسب غير المشروع بالمعنى الأدبى والفنى والفكرى بل والعرقى أيضا .

٣ - تطبيق القوانين على إنتاجه دون تقصد أو تعسف ، ودون التضييق عليه مهنيا أو رقابيا .

٤ - العمل على منافسته - لا تقليده - منافسة شريفة باعمال جماهيرية من إنتاج القطاع العام ، أو من إنتاج تجمعات الفنانين الواعين ، وهو الأمر الذى حققه المثقفون والنقاد فى عشرينيات هذا القرن

عندما أنشأوا فرقة عبد الرحمن رشدى لمواجهة أسلوب الفودفيل المبتذل ونجحوا فى القضاء عليه وجذب اصحابه إلى الكوميديا الرفيعة .

٥ - انشاء جائزة كبرى لمسابقة مسرحية بين الفرق المحترفة - كل عامين - توضع لها مواصفات فنية وموضوعية ، تنالها المسرحية الفائزة ، وكذا مجموعة نوعية من الجوائز لكتاب العروض والمخرجين والممثلين والمصممين والمؤلفين الموسيقيين ، بدلا من جوائز التأليف الورقية الحالية . إن المنافسة على نيل هذه الجائزة سوف تخلق مقاييس حقيقية لرقى الفن المسرحى فى وطننا .

القطاع الثالث

قبل أن تفرض الدولة هيمنتها الكاملة على الإنتاج المسرحى خاصة بعد تأميمها للصحافة ودور النشر المستقلة واحتكارها لمنابر الرأى وتسليط موجاتها الإذاعية القوية وقنواتها التليفزيونية الباهرة ، كانت هناك مساحة لقيام مسرح مستقل تعينه الدولة وتقدم له الخدمات بالمجان أو بمقابل رمزى أو زهيد ، وأذكر بالذات جمعية أنصار التمثيل وفرقة يوسف وهبى وفرقة رضا وفرقة المسرح الحر التى كان لها شرف تقديم أول أعمال الراحل نعمان عاشور (المغناطيس - الناس اللى تحت) وكذا إعداد ثلاثية نجيب محفوظ وتقديم عمل لرشاد رشدى وغير ذلك ، ولكن تلك الفرق المستقلة لم تصمد أمام جبروت الدولة حينها حيث كانت لا تريد أن تسمع صوتا غير صوتها ، فلم تتمكن أى من هذه الفرق من تقديم أعمالها ، حيث شغلت فرق التليفزيون العشرة بقيادة سيد بدير - جميع دور العرض المسرحية ، وجذبت أعضاء هذه الفرق المستقلة بمغريات المال والشهرة والارسال التليفزيونى ، فلم تستطع أنصار التمثيل والمسرح الحر مجاراة هذه الموجة التليفزيونية الجديدة خاصة وأن إيجارات المسارح والخدمات بل وأجور الممثلين أصبحت أبهظ من أن



سيد بدير



نعمان عاشور



الريحانى

تغطيها إعانة الشئون الإجتماعية الضئيلة وعائدات شباكهم . ولم تتمكن أى فرقة من تقديم عروضها ، اللهم إلا فرقة الريحانى وهى تلفظ أنفاسها الأخيرة ، وفرقة يوسف وهبى الذى اعتمد على ما تبقى لديه من مال ونفوذ ، غير أن الفرقة تحللت برحيله ، وها هو ذا القطاع الخاص - فى صورته الجديدة - يرد الكيل لهيئة الدولة على المسرح كيلين أو أكثر ، فيحول القطاع العام إلى بقرة حلوب ، فيسلبها نجومها وفنانيها بل وحرفييها ، ويعزل كتابها الجادين ، ويحتضن كتابا متهاونين متفاهمين ينطبق عليهم القانون القائل بأن العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة ، وهكذا يكون « القطاع الخاص » مصدر شكوى كل ذى ضمير فى هذه البلاد .

إذن ما الحل ؟ الحل فى ظنى هو أن يعمل المثقفون والفنانون الشرفاء على إقامة ما يسمى بـ « القطاع الثالث » فى ظل مساندة الدولة مسترشدين بروح الدستور ملتزمين بالقوانين العامة . ويتخذ هذا المسرح صيغة المسرح المستقل المعلن كما كان الحال مع فرقة « أنصار التمثيل » وفرقة « المسرح الحر » وغيرهما قبل قيام مسرح القطاع العام ، بل وأثناء بدايته وحتى عام ١٩٦٢ ، ويمكن تطوير هذه الصيغة كالتالى :

١ - تشجيع إشهار جمعيات ثقافية مستقلة يكون أبرز مهامها إنتاج الفن المسرحى الرفيع مع منح كل منها إعانة إنتاج مسرحى لا تقل عن عشرة آلاف جنيه لكل مسرحية .

٢ - ترتيب لائحة تسمح بإقراض هذه الجمعيات من صندوق التنمية الثقافية فى الإنتاج الأكثر تكلفة ، بضمان الشباك وشريط الفيديو الماستر ، ووفقا للشروط والضمانات البنكية المعروفة .

٣ - تخصص هيئة المسرح دورها - إلى جانب برامجها - لعروض هذا القطاع الجديد الثالث ، عن طريق الايجار الرمزى مع تقديم كافة الخدمات الإنتاجية مقابل التكلفة الفعلية دون شبهة ربح أو تكسب ، ووفقا للائحة سعرية محددة وتفصيلية .

٤ - دراسة صيغ للإنتاج المشترك بين الدولة وفرق هذا القطاع الثالث (الجمعيات الثقافية المشهرة) حيث تقدم فيه هذه الفرق المستقلة إمكاناتها الفنية والبشرية ، وتقدم فيه الدولة خدماتها الفنية وباقى مستلزمات الإنتاج ، على أن يتم إقتسام إيراد الشباك .

٥ - يخضع إنتاج هذا القطاع الثالث لقانون الجمعيات ويحظى بكافة امتيازاته .

وهكذا يمكن تحقيق التناغم بين القطاعات الثلاثة عن طريق المنافسة - بالفن - على اجتذاب ٥ ملايين مشاهد مصرى أحجموا عن مشاهدة المسرح المصرى يأساً منه وقنوطاً .

القرن الحادى والعشرون

٢٠٠٠

سينما المستقبل بين الواقع والخيال

بقلم : مصطفى درويش

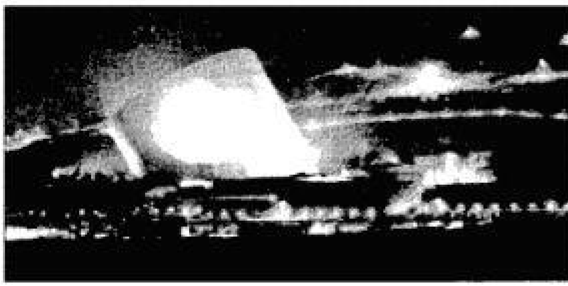
يوم صدور الهلال كانت الصورة على وشك أن تتحرك ، وكانت لغة جديدة وفنا سابعا قاب قوسين أو أدنى من الميلاد .

فلم يمض على أول ظهور للهلال سوى سنتين وسبعة شهور ، الا ويسجل الاخوان لويس وأوجست لوميير براءة اختراعهما لما أسمياه « السينماتوجراف » ، وهو عبارة عن جهاز يتيح عرض الصور المتحركة على شاشة بيضاء أمام حشد من الناس .

بعد ذلك التسجيل بحوالي ثمانية شهور ، وبالتحديد يوم السبت الموافق الثامن والعشرين من ديسمبر لسنة ١٨٩٥ ، دعا الأخوان لوميير نفرا من علية القوم والعلماء الأجلاء الى المقهى الكبير المطل على شارع كابوسين ، وسط باريس ، حيث جرى أول عرض سينمائي على ملاءة بيضاء .

الدهشة الأولى

وكان من بين الأفلام المعروضة ، وكلها تسجيلية قصيرة لا تزيد مدة الواحد منها عن دقائق معدودات ، فيلم لقطار يدخل احدى محطات السكك الحديدية « لاسيوتا » ، فاذا بأحد من المدعوين يتوهم أن القطار انما يتحرك متجها نحوه، وطلبا للنجاة يهم بالفرار .



وهنا فى القاهرة ، بعد أقل من سنة من عرض المقهى الكبير بمدينة النور ، وبالتحديد فى الثامن والعشرين من نوفمبر لسنة ١٨٩٦ ، جرى عرض السينماتوجراف لأول مرة أمام صفوة المجتمع القاهرى داخل صالة حمام شنيدر.

وعن هذا الحدث التاريخى ، كتبت جريدة المقطم ، بعد العرض بثلاثة أيام ، تقول وهى فى حالة انبهار شديد :

« من أبدع ما تمتع به الأنظار فى هذا الشتاء من المخترعات والألعاب التى يأتينا بها الأوربيون كل عام الصور المتحركة ، فقراء المقتطف يعلمون أن المصورين بالشمس توصلوا الى تصوير الصور وضم بعضها الى بعض بحيث اذا مرت أمام عينى الناظر رآها تتحرك كأنها الأجسام الحية تماما .

وقد ظفر حضرة السيور « دلستروولوجو » بامتياز عرض هذه الصور فى القطر المصرى .. وعرضها مساء السبت الماضى فى حمام شنيدر بجانب دائرة البرنس حليم باشا على جماعة من أهل الذوق ورجال الأدب ، يتقدمهم سعادة محافظ العاصمة ، فراقهم ما رأوه من الصور المتحركة ، حتى خيل لهم انهم يرون أمامهم أشباحا متحركة وأجساما حية لا ينقصها الا الصوت .

فيرى الانسان فى صورة القطار قادما من بعيد ، ثم يكبر كلما دنا منه حتى يقف فى المحطة ، وتنفتح أبوابه ويخرج الركاب منه ويدخل الناس اليه ، وكلهم مهتم بأمره كما يشاهد فى كل محطة .

ويرى فى أخرى البحر هائجا وأمواجه تعلو كالجبال ثم تنقض على الصخور ، فيتطاير زبدها فى الهواء ، ويسقط على اثنين يركضان ويستغيثان ، وفى أخرى كوكبة من الفرسان تعدو فى الميدان من بعيد ثم تدنو » .



النبوءة

وتمر الأيام بعد هذا العرض الأول أعواما بعد أعوام، وتنشر الهلال في عددها الصادر في الأول من يونيه لسنة ١٩٠٥ ما معناه أن بعض العلماء يشتغلون في اصطناع صور تتحرك وتتكلم في وقت واحد باستخدام السينماتوغراف والفونوغراف معا.

وتستطرد قائلة، وكأنها تقرأ الغيب: «فستأتي أيام نرى فيها العالم وحوادثه رأى العين، ونحن جلوس في غرفنا، وذلك كله من معجزات هذا التمدن».

وفي السادس من أكتوبر لسنة ١٩٢٧ تحقق جزء من تلك النبوءة عندما تكلمت السينما لأول مرة في الفيلم الأمريكي «مغني الجاز».

ولم يكن قد مضى على عرض هذا الفيلم في نيويورك الا ستة شهور، حتى أعلن عن عرض فيلم أمريكي آخر ناطق على شاشة سينما الهمبرا بالاسكندرية (١٩٢٨/٣/١٤).

بعد ذلك بتسعة شهور (١٢/٢٠) جرى عرض فيلم «مغني الجاز» في سينما امريكان كوزموجراف بالاسكندرية، ومن مفاجآته غناء ممثله الأول «آل جولسون» في معبد يهودي بأحد أحياء مدينة الشيطان الأصفر «نيويورك»، وما هي الا خمس سنوات على تعلم السينما الكلام، حتى كان يوسف وهبي يتكلم هو الآخر في النصف الأول من فيلم «أولاد الذوات»، ومطرب الملوك والأمراء يغني لوردة الحب الصافي في «الوردة البيضاء».

اختراعات بالجملة

وقبل اندلاع نيران الحرب العالمية الثانية بقليل، أخذت نبوءة الهلال في التحقق باختراع التليفزيون.

وفي أثناء السنوات التالية لالقاء تلك الحرب سلاحها (١٩٤٥)، وهي السنوات التي شهدت تحولات عميقة في حياة الشعوب، تحققت اختراعات أخرى، أذكر، من بينها، الفيديو واستعمال الأقمار الصناعية في نقل المعلومات، ونحن على مشارف الربع الأخير من القرن العشرين.

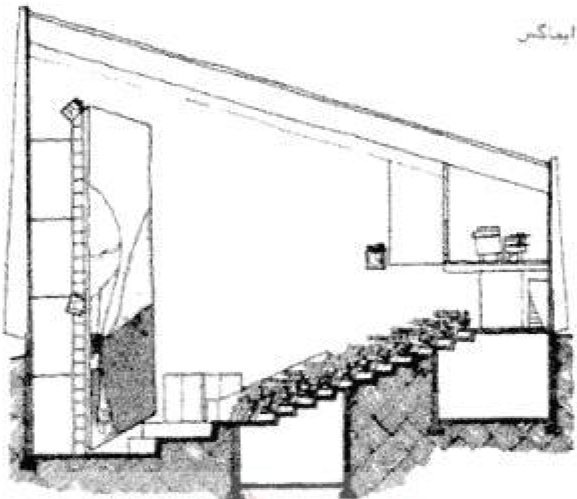
وفي ظن المخرج «جان لوك جودار» رائد الموجة الجديدة الفرنسية، أن هذه الاختراعات تؤذن بتغييرات عميقة في حياة الناس، وهي تغييرات من شأنها حتما محتوما أن تنتهي الى صورة حضارية جديدة نراها الآن في طريق التكوين.

العبور العظيم

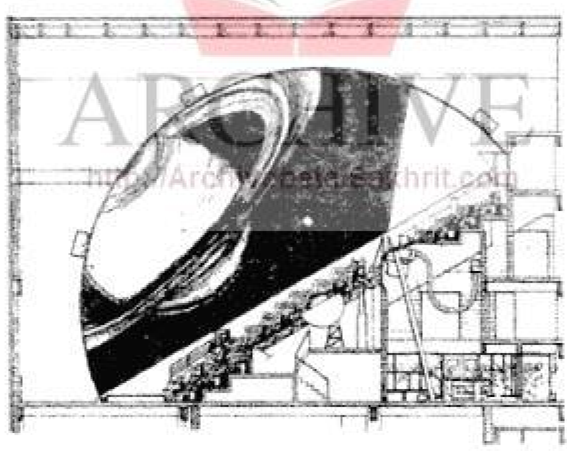
فمعرفتنا بالعالم الذي داخلنا، وذلك الذي من حولنا، تزداد على مرّ الأيام عمقا واتساعا.

وثورة الفيديو انما تزيد ذلك وتؤكده.

دار ايماكس



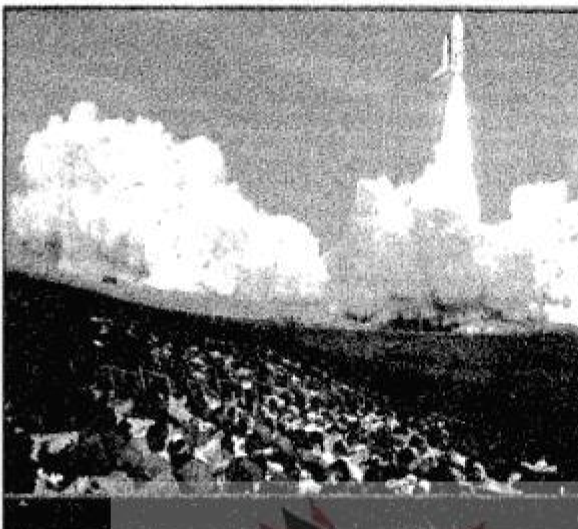
Typical IMAX theatre



دار اومنيماكس

سينما المستقبل

عرض بطريقة إيماكس



فبفضلها ، وبفضل ثورات أخرى تؤدى الى مزيد من الاختراعات المثيرة ، لن نودع القرن العشرين ، الا وقد تحول كل بيت فى الغرب وأنحاء من الشرق الى مركز اليكترونى كامل شامل للترفيه والتعليم .

وطبعا لا يستطيع شخص عاقل ، فى مواجهة هذا الحدث الكبير التأثير على مصير الانسان ، أن يتظاهر ، وقد تحصن وراء نظارة سوداء ، انه لا يرى حقائق الحياة (بالمناسبة « فيديو » تعنى لغويا « أرى ») .

فالعلم قد نجح فى العبور بنا نحو آفاق جديدة وعلينا أن نعبر معه ونستفيد » .

ولقد ظن البعض أن هذه الاختراعات بدءا بالتليفزيون ، ومرورا بالفيديو ، وانتهاء بالارسال عن طريق الأقمار الصناعية ، لابد وأن تؤدى الى اختفاء دور السينما .

اليائسون

ومما ساعد على انتشار هذا الظن ، انخفاض عدد دور العرض السينمائى فعلا أمام زحف التليفزيون الذى أصبح مع اقتراب عقد الخمسينات من نهايته جزءا لا يتجزأ من أسلوب حياة الأسرة الأمريكية على جميع المستويات .

فمثلا عدد تلك الدور على امتداد الولايات المتحدة سنة ١٩٤٦ كان قد ارتفع الى عشرين ألف دار .

وعدد المتفرجين فيها كان قد وصل الى تسعة وسبعين مليونا ، وأزدادوا أربعمائة ألف متفرج .

غير أنه بعد سبع عشرة سنة من التاريخ الأخير ، اذا بعدد المتفرجين ينحدر الى النصف ، ويتكرر الانحدار بنفس النسبة بعد مدة مماثلة ، وذلك رغم أن السكان كانوا طوال تلك الحقبة من عمر الزمان ، في ازدياد مستمر وعلى وجه لا مثيل له في تاريخ الولايات .

وما حدث في أمريكا ، حيث يوجد أكبر وأغنى سوق ترفيه في العالم ، حدث وبشكل أسوأ بكثير في جميع البلاد ، لاسيما ما كان منها فقيرا ، متخلفا ، تعربد فيه الرقابة وتعيث فسادا .

ولعل انخفاض عدد دور العرض وتدهور مستواها في مصر ، وهي من مراكز الاشعاع القليلة في دنيا الأطياف ، باغلاق بعضها ، وبتحويل بعضها الآخر الى مسارح ، وأحيانا الى خرابات ، لعله يؤكد وجهة النظر الجانحة الى القول بأن دور السينما الى زوال .

واذا كان هذا هكذا ، فلن تبدأ سنوات القرن الحادي والعشرين ، الا وتكون دور السينما قد اختفت من كوكب الأرض نهائيا ، وأصبحت خبرا قديما يدرس في كتب التاريخ .

ولكن هذا الاستخلاص أراه استخلاصا غير سائغ ، يكذبه واقع الحال .

التجديد والتجلي

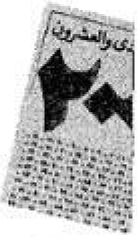
فثمة عود على الأقل في الغرب الى بناء دور عرض كبيرة مجهزة بشاشات عريضة شبيهة بتلك التي انتشرت ابان عقد الخمسينيات .

فمعروف أنه ما إن ظهر التليفزيون واشتد الاقبال عليه قبل أربعين سنة أو يزيد ، حتى أصيب مصنع الأحلام في هوليوود بذعر شديد .

وفي مواجهة هذا الخطر المميت ، لجأ المصنع الى انتاج أفلام ضخمة ، مع عرضها على شاشات كبيرة ، عريضة ، كانت على مر السنين تزداد ضخامة وابهارا .

ومن هنا التوسع في تجهيز دور العرض بشاشات السينما سكوب والسينيراما ، وما الى ذلك من ابتكارات ذلك الزمان .

والآن ، ها هو ذا مصنع الأحلام يجد نفسه ، ازاء انتشار سوق الفيديو ، مضطرا الى اللجوء مرة أخرى الى الشاشة العريضة ، وذلك بتصوير الأعمال السينمائية الضخمة على فيلم خمسة وستين مللي ، وعرضها بعد ذلك في دور مجهزة بمعدات عرض سبعين ميللي ، ونظم صوت متعددة القنوات أذكر من بينها نظام « تي



ايتش اكس » الذى ابتكره جورج لوكاس مخرج فيلم « حرب النجوم » ، والاسم مستوحى من أول فيلم لهذا المخرج ، وكان بنفس العنوان .

ولعل خير مثل على هذا النوع من الأفلام المعد خصيصا للعرض فى مثل هذه الدور « الآفاق البعيدة » لصاحبه المخرج « رون هوارد » ، وهو فيلم أسندت بطولته الى « توم كروز » أمام زوجته الجميلة « نيكول كيدمان » .

ويعرضه خارج المسابقة على شاشة سبعين ميللى ، انتهى مهرجان « كان » الأخير .

بل ربما يلجأ مصنع الأحلام الى الانتقال بأفلامه الى دور مجهزة بشاشات عريضة تعرض عليها الأفلام تليفزيونيا ، بواسطة الارسال عن طريق الأقمار .

وشىء كهذا يعنى توفير المبالغ الطائلة التى تنفق على عمال العرض ، وعلى طبع نسخ الأفلام ، وعددها بالمئات ، ولا أقول بالآلاف فى بعض الأحيان .

اذ يكفى أن تعرض نسخة واحدة فى هوليوود ، ثم يجرى ارسال معلومات تلك النسخة الى قمر صناعى يكون همزة الوصل بين الفيلم وبين شاشات العرض فى وقت واحد ، وبوضوح رؤية غير مشوبة بأى عيب .

سينما المستقبل

والأهم من ذلك كله دور عرض أخرى يجرى تشييدها منذ خمس عشرة سنة أو يزيد ، بمواصفات تقنية ، منقطعة الصلة بالمواصفات التى كانت تبنى دور السينما بموجبها فى سالف الزمان .

وهذه الدور الجديدة مهيأة لعرض الأفلام المصورة بطريقتى ايماكس (الصورة الأقصى) وأومنيماكس ، بل هى لا تستطيع أن تعرض الا مثل هذا النوع من الأفلام .

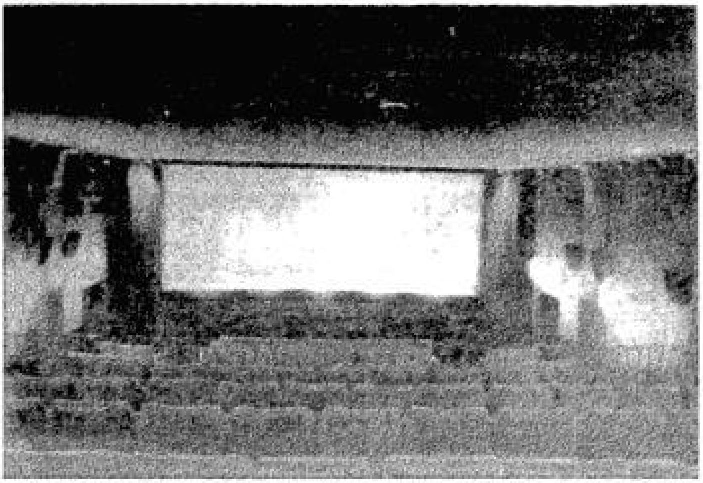
ولقد سبقتها ، قبل أن تصل الى صورتها الحالية المتكاملة ، ارهاصات ، بداياتها كانت فى معرض مونتريال الدولى بكندا (١٩٦٧) .

وفى السنوات الثلاث اللاحقة لهذا المعرض ، كان مشروع انتاج أفلام تصور وتعرض بتلك الطريقة يتخلق ويتشكل ، وكأنه جنين فى مراحله الأولى .

ومما ساعد على سرعة تكونه نهائيا ، تحديد موعد لابداع فيلم مصور بطريقة ايماكس ، غايته معرض أوزاكا الدولى باليابان (١٩٧٠) .

فضلا عن اكتشاف رجل فى أستراليا اسمه « رون جونز » ، نجح فى اختراع آلة تعرض الفيلم أفقيا بسرعة أربع وعشرين صورة فى الدقيقة ومائة ومترين فى الدقيقة .

وعلى كل ، فبدءا من سنة ١٩٧١ ، ومن مدينة تورونتو بكندا ، أتيح لسينما جديدة



عود الى الشاشة الضخمة العريضة

أن تولد ، سينما تعرض أفلامها ، كما هو الحال فى سينما جيبود بمدينة العلوم والصناعة باحدى ضواحى باريس ، على شاشة تبلغ مساحتها ألف متر مربع ، مع اثنى عشر مكبر صوت بقوة اثنى عشر ألف كيلووات .

وحتى الآن ، جميع الأفلام التى أنتجت بتلك الطريقة من ذلك النوع المسمى بالأفلام التسجيلية ، وذلك فيما عدا استثناء وحيداً ، ألا وهو فيلم « أكتب فى الفضاء » للمخرج الفرنسى « بيير أبتى » .

فهو عمل روائى عرض فى العاشر من يوليه لسنة ١٩٨٩ فى صالة جيبود ، وذلك بمناسبة الاحتفال بمرور مائتى سنة على العصف بالباستيل .

وحضر حفل الافتتاح الرئيس فرانسوا ميتران .

وأغرب ما يعجب له كل من شاهد هذا الفيلم أو غيره من أفلام تلك السينما الجديدة ، هو الشعور بنفس الدهشة التى شعر بها المشاهدون الأوائل ، وقطار الأخوين لوميير يدخل محطة « لاسيوتا » قبل مائة سنة الا قليلا .

وكأن التاريخ يعيد نفسه ، وكأن الانسان لا يكف عن الاندهاش .



العرب وأوروبا في نهايات القرن العشرين بين الندية والاستجداء

بقلم : نادر فرجانى

تعالج هنا موضوع العلاقات بين العرب وأوروبا في هذا العام الذى يشهد خطوة جوهرية على سبيل إنشاء أوروبا الموحدة ، بعد أربعين عاما كاملة من الخطوة الأولى على طريق الوحدة الأوروبية (مجمع الحديد والفحم ١٩٥١) . ونلاحظ مرورا ، هنا أن هذه العقود الأربعة أقصر من عمر جامعة الدول العربية بسبع سنوات .

ولكن مجرد طرح الموضوع ، من منظور عقلانى ، يثير مقارنات ، بين العرب وأوروبا في سياق العالم تؤدى إلى تبصرات تلقى ظلالا كثيفة على إمكانية قيام علاقات فى صالح العرب ، إن استمرت أوضاعهم على ماهى عليه .

وتتبنى هذه المساهمة فى بحث الموضوع منظور أن العلاقات الاقتصادية والسياسية تقوم على المصالح ، وأن المصالح تتحقق بقدر درجة الوعى بها من ناحية ، وبمقدار توافر القدرات اللازمة للضغط من أجلها فى معترك العلاقات الدولية من ناحية أخرى ، وتوظيف هذه القدرات بفعالية من ناحية ثالثة .

العالم الراهن

يقارب القرن العشرون على الانتهاء والعالم يموج بعمليات تغير بعيدة المدى

● بانهيـــار الاتحـــاد الســـوفييتى انتـــهى التوازن النووى الذى ساد العالم عدة عقود

● نظم الحكم التى لاتخضع لمساءلة الشعب كفيلة بانتـــاج أســـوأ مايمـــكن من النظـــام الجديد

ستحدد مستقبل البشرية بوجه عام وسيكون لها إنعكاسات قوية على العلاقات بين أجزائها بوجه خاص.

ولعل على رأس هذه التغيرات طفرة التقانة المعروفة بالموجة الثالثة ، خاصة فى مجال المعلوماتية والالكترونية الدقيقة.

لقد أدت هذه الطفرة إلى تغيير مفاهيم الموارد والانتاج فى النشاط البشرى ، بل وعلاقات الانتاج ، بحيث أصبح العنصر البشرى عالى التأهيل ، والمبدع أهم عناصر الانتاج قاطبة ، من ثم المعيار الأساسى لتقدم على المستويات الأرقى من الوجود الانسانى ، وبذلك تشكل الطفرة التقنية ، وتبعاتها ، تحولاً نقلة حضارية جوهرية يمكن مقارنتها بطفرات الزراعة المستقرة والثورة الصناعية كنقاط تحول حاسمة فى تاريخ البشرية ككل.

وتتسم الموجة الثالثة من التطور التقانى البشرى بالسرعة الهائلة لتشكل معالمها من ناحية ، وبالحاجة إلى إمكانات بشرية ومؤسسية غاية فى الرقى لتبوأ مكانة متقدمة فى مضمارها من ناحية أخرى.

ويأتى بعد ذلك انهيار الاتحاد السوفييتى والكتلة «الاشتراكية» . لقد مثل هذا الحدث الجلل الحلقة الأخيرة فى سيادة الطور الراهن من الحضارة الغربية على العالم



أجمع وأقول الحلقة الأخيرة لأن أهم حلقة في هذا الصدد كانت في تقديري هي تنازل الصين عن محاولة خلق «الإنسان الاشتراكي» .

وليس من تلك السيادة مناص الآن وإن دفعت البشرية كلها الثمن فيما بعد هل تكون الغلبة بداية النهاية ؟ وهل يصبح الطور الحالي من تاريخ البشرية ، والرأسمالية مظفرة ، بمثابة الرحلة العثرية للباخرة «تيتانيك» التي بدأتها في أبهى حلة وانتهت بأكبر كارثة في سجل البحرية المدنية ؟

لقد ترتب على انهيار الاتحاد السوفييتي أن انقضى التوازن النووي الذي ساد العالم عدة عقود . وأصبحت الولايات المتحدة الأمريكية القوة العسكرية العظمى دون منازع بسبب الضعف الاقتصادي البالغ لأكبر مابقي من فتات الاتحاد السوفييتي (روسيا) . ويرتبط بهذا أن تعاظمت الهيمنة السياسية للولايات المتحدة على العالم ، وإن كان إقتصادها ضعيفا ويستشرى فيها الفقر المدقع رفق الثراء الفاحش مما يؤجج التناقض الاجتماعي بين الفقراء والأغنياء الذي يثور في انفجارات متعاظمة كما حدث في لوس انجيلوس مؤخرا . ومع ذلك فما زالت عملة الولايات المتحدة تلعب دور الاحتياطي العالمي .

غير أن القمة الاقتصادية والتقانية للعالم تشهد تنافسا يتوقع له أن يشتعل بين أقطاب ثلاثة : الولايات المتحدة واليابان وأوربا المتحدة . ويسعى كل طرف لاكتساب أسباب القوة في هذه المنافسة بما في ذلك الأسواق (مع ملاحظة أن البلدان المتخلفة لا تمثل أسواقا مغرية في هذا المجال نتيجة لضعف قدراتها الشرائية) . وقد يكون لهذا التنافس التقاني والاقتصادي عواقب سياسية ، وربما عسكرية ، في المستقبل . أنظر مثلا في التناقض الذي تبلور بين أمريكا وباقي الدول المتقدمة في (قمة الأرض) حديثا حول التعهد بحماية البيئة في العالم .

إعادة تشكيل العالم

وقد استتبعت كل هذه التغييرات أن استشرت محاولات إعادة تشكيل العالم على النمط الغربي عامة ، والأمريكي خاصة ، ثقافيا واقتصاديا وسياسيا ، شريطة ألا ينتقص ذلك من مصالح المراكز المهيمنة على «النظام العالمي الجديد» بالطبع .

ويبدو أن التشكيل الثقافي لمجتمعات العالم المتخلف قد وصل مرحلة متقدمة ، وإن كانت متأزمة ، بفعل الجاذبية الخادعة لنمط الحياة الغربي ، وتغرب فئة المثقفين في هذه المجتمعات ، وإضعاف البنى الثقافية المحلية بواسطة هياكل القوة التابعة

المسيطرة ، فى تناقض واضح مع الثقافات المحلية ، خاصة الإسلامية منها وينذر هذا التطور بشرخ ثقافى خطير فى بنية هذه المجتمعات بين أقلية متغربة وأغلبية أصولية يتوقع أن يجلب مواجهات إجتماعية وسياسية مدمرة .

كذلك تزداد محاولات إعادة تشكيل البنية الاقتصادية للمجتمعات المتخلفة قوة بسبب الأزمات الاقتصادية التى تعيشها ، من خلال ما يسمى برامج «الاصلاح الاقتصادى والتكيف الهيكلى » التى يقوم عليها صندوق النقد الدولى والبنك الدولى ، وتقوم هذه البرامج على تبنى منظومة السوق الحر ، فى العلاقات الاقتصادية الداخلية والخارجية بشكل لاتطبقه حتى الدول الرأسمالية المتقدمة (أنظر فى مدى تدخل الدولة فى هذه الأخيرة وفى محاولة فرض القيود على التجارة الخارجية بغرض حماية الانتاج المحلى) . كذلك وجد الغرب فى بقايا الكتلة الاشتراكية مجالا رحبا للاستثمار والانتاج والتسـويق فى مجتمعات أقرب حضاريا وأجدى اقتصاديا ، من الدول المتخلفة .

والمؤكد أن هذه البرامج قد تؤدى إلى تحسن ظاهرى فى بعض المقاييس الاقتصادية بالمعنى الضيق ، ولكنها تجر ويلات اجتماعية واقتصادية تتمثل فى إستشراء البطالة وانتشار الفقر مع زيادة سوء توزيع الثروة والدخل مما يترتب عليه تفاقم الصراع الاجتماعى . وليست هذه توقعات نظرية ، بل هى النتيجة الفعلية لسنوات غير قليلة من تطبيق هذه البرامج فى مجتمعات أفريقيا وأمريكا اللاتينية كما تشهد بها تقارير الأمم المتحدة . ولا أستتر هنا موقفا ايديولوجيا . ولكن إضافة إلى العيوب المستقرة علميا لقوى السوق الطليقة ، فإن نظم الحكم غير الممثلة والفاسدة والتى لا تخضع لمساءلة الشعب ، القائمة فى أكثرية البلدان المتخلفة لكفيلة بانتاج أسوأ ما يمكن من النظام الجديد ، كما أخلفت شر سوءات تدخل الدولة .

أما فى المجال السياسى ، فتتجمع الآن قوى تستهدف المعاونة فى تطوير مؤسسات «المجتمع المدنى» فى المجتمعات المتخلفة ، ولاريب أن هذا التطور سيساهم فى إضعاف الدولة القائمة . ولا أسف على صنف الدولة التى وصفنا فى الفقرة السابقة . إلا أن المعاونة الخارجية ، بالنصح والتدريب والتمويل ، فى إطار التغيرات التى أشرنا إليها أعلاه ، ستخلق مجتمعا مدنيا على الصورة الغربية على أقل القليل، مرتبطا بالغرب جذريا فى الأغلب ، فى تناقض مع القوى الأصولية التى تستمد زادا من التـأزم الاجتماعى والسياسى فى كثير من هذه المجتمعات خاصة حيث يسود

الإسلام . فماذا سيكون حال مثل هذه المجتمعات ؟ هل ستتمزق عنيفا بين مجتمع مدنى غربى النزعة وأصولية محلية فى كنف دولة ضعيفة ؟

ويدخل فى هذا السياق أيضا ما يسمى بالمشروطية الجديدة لبرامج العون الاقتصادى المقدم من الدول الغربية . فالمشروطية الجديدة تقوم على ربط العون الاقتصادى باحترام حقوق الانسان والديمقراطية ، كما تفهمها الدول الشارطة إلا عندما تتناقض هذه الاشتراطات مع مصالحها ، حتى وإن اقتضى الأمر التعاون السافر مع أنظمة قمعية .

الخلاصة إذن أنه يجرى إلحاق المجتمعات المتخلفة بنسق عالمى واحد بشكل متزايد . إن هذا النسق غير عادل فى الجوهر . وأن فرصة المجتمعات المتخلفة فى التنافس على أسباب القوة والرفاهة فى هذا العالم قليلة . ويتوقع أن تستغل وحدة العالم المستجدة هذه فى تفاقم استنزاف موارد البلدان المتخلفة من هذه الأسباب على شاكلة هجرة الكفاءات ، لصالح مراكزه المتقدمة . وأن تتدهور إمكانات البلدان المتخلفة فى المعترك العالمى فتتحول ، على حد تعبير أحد الاقتصاديين العرب البارزين « من الاستقلال إلى الاستغناء » . بل يرى البعض أن مصير المجتمعات المتخلفة هو أن تصطف أمام الدول المتقدمة فى صفوف تلقى الإحسان !

العرب وأوربا فى المنظور المقارن

العرب شعب توحده ، بالقوة ، ثقافة وتاريخ ، ويقطن متصلا جغرافيا فسيحا وإن جزأه المستعمر الأوربى فى التاريخ الحديث إلى كيانات لا يعدو بعضها أن يكون مسخا تاريخيا ، وأوربا قارة تسكنها شعوب متفرقة .

غير أن السمة الفارقة جوهريا بين العرب وأوربا عام ١٩٩١ هى سعى الثانية الحثيث نحو الوحدة بينما تتوطد القطرية فى المنطقة العربية ، فى ظلال الهيمنة الغربية ، بقيادة الولايات المتحدة ، التى تقارب الاحتلال المباشر لبعض الأقطار العربية ، خاصة بعد كارثة الخليج التى أنشأت كراهيات مريرة بين الحكام بل وأقسام من الشعب العربى ، قد يصعب تجاوزها بسرعة .

وإن كان هناك من مساع توحيدية داخل المجموعة العربية فتتمثل فى محاولة توحد مجلس التعاون الخليجى ، أو مجلس التعاون المغاربى ، من منظورين مختلفين ، فى التفاوض مع أوربا ، بغض النظر عن باقى العرب .

بل تتعرض أجزاء من البلدان العربية القائمة للتفتت . أنظر فى حالتى العراق والصومال .

بالمعايير السائدة ، والتى يتوقع أن تزداد رسوخا ، أى نوعية البشر ، تتربع أوربا على قمة التقدم البشرى والعرب متخلفون ، بل يزدادون تخلفا فى المنظور المقارن .

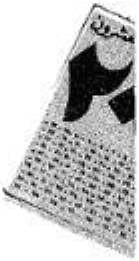
يكفى أن قرابة ٤٠ بالمائة من رجال العرب ، وثلثى نسائهم ، مازلوا ، فى أخريات القرن العشرين ، أميين بمعنى فقدان القدرة على أوليات القراءة والكتابة والحساب ، وهو مفهوم للتعلم عفا عليه الزمن ، ولاتكفى الجهود الحالية فى مجال التعليم الأساسى لسد منابع الأمية فى المستقبل المنظور . بل إن الموقف النسبى للعرب ، بالمقارنة بباقى الدول المتخلفة ، قد تدهور فى هذا المضمار عبر العقود الثلاثة الماضية . أما التعلم على مستوى راق يؤهل لامتلاك ناصية العلم والتقانة ، المعيار الأساسى للتقدم فى عالم اليوم والغد ، فضرب من الخيال بينما أوربا الموحدة تتنافس على قمة التقانة الحديثة فى العالم كله ، وقد كان سبيلها إلى ذلك إنشاء العديد من مؤسسات البحث والتطوير الأوربية الموحدة .

وحتى بالمعايير الانسانية الدنيا ، من غذاء وكساء ومسكن وتعليم وعمل ، فالعرب فى حالة يرثى لها . ولنعتبر فقط الفجوة الغذائية التى تزداد اتساعا فى الوطن العربى . فمجمل البلدان العربية غير قادر على إنتاج الغذاء الأساسى للعرب ، وبعض الدول العربية يستجدى بل غذائه الأساسى معونة من الغرب ، بينما يتشدق بفخيم الشعارات المفرغة من أى مضمون .

أوربا ديمقراطية فى الجوهر ، وتتيح ديمقراطيتها مع التوحيد بفضل مؤسسات أوربية موحدة أرقى من تلك القطرية مثل البرلمان الأوربى والمحكمة الأوربية .

بينما الدول العربية ، بدرجات استبدادية وقهرية مما أدى إلى إنهاك الحيوية السياسية للشعب العربى ، وإلى سيطرة نظم حكم غير ممثلة للشعب وغير مسئولة أمامه بجدية ، حتى وإن ارتدت أحيانا مسوح ديمقراطية شكلية . وتحكم هذه النظم سيطرتها عن طريق توليفة من الامساك بمقاليد العائد الاقتصادى والمكانة الاجتماعية من جانب ، وتزييف الوعى من خلال نظم التعليم والإعلام المدارة من جانب آخر ، والقهر المباشر من جانب ثالث .

أوربا تبنى هوية أوربية موحدة ، ومؤسسات أوربية فاعلة ، تكون أساسا لوحدة حق جابهت ولا شك صعوبات كثيرة ، وستواجه لاريب صعوبات أخرى ، ورغم ذلك فالمسيرة تطرد وترقى .



والدول العربية تسهم فى إهدار الهوية العربية بتكريس القطرية حرصا على مصالح هياكل القوة المسيطرة ، ومن ثم فهى تشارك فى مخطط إضعاف الهوية العربية بل واستبدال الجامعة العربية ، على وهنها ، بمؤسسة شرق أوسطية للتعاون والأمن تضم إسرائيل وتركيا وربما إيران . أنظر فى انصياع ثلاث عشرة دولة عربية ، بما فيها مجلس التعاون الخليجى إلى مائدة المفاوضات متعددة الأطراف الخاصة بالتعاون فى «الشرق الأوسط» ، فى بروكسل ، تحت رعاية المجموعة الأوربية ، وامتناع إسرائيل عن حضورها لمجرد أن رأس الوفد الفلسطينى مواطن من خارج الضفة والقطاع المحتلين . مع ملاحظة أن الدول العربية تدخل هذه المفاوضات كدول منفردة ، أو على أكثر تقدير ، كمجموعات عربية فرعية (الخليج ، المغرب ، ...)

وليس العرب الرسميون فقط هم العاملون على تفتيت الهوية العربية وإحلال هوية «شرق أوسطية» محلها . فهناك فئة من المثقفين فى البلدان العربية تشارك فى هذه الموجة الجديدة ، خدمة للحكومات القائمة وللغرب ، وضد مصالح الشعب العربى . أنظر مثلا فى مشروع «المبادرة من أجل السلام والتعاون فى الشرق الأوسط» المتبناة أمريكيا لإنشاء قناة غير حكومية ، وإن كانت وثيقة الصلة بالحكومات ، تكون حافزا ومكملاً ، بل وبديلا إذا اقتضى الأمر ، للمفاوضات الرسمية الجائرة القائمة الآن ، والذى يتمركز حول فئة معروفة من المثقفين فى البلدان العربية .

على الساحة الدولية ، أوربا إحدى قوى ثلاث تتنافس على زعامة «النظام الدولى الجديد» فى القرن الواحد والعشرين من خلال الثقافة والاقتصاد ، بعد انهيار الكتلة الشرقية . بينما العرب ، كدول ودويلات فرق ومتخلفة ، هامشيون .

بين أوربا والوطن العربى ، كدار للإسلام ، اتصال حضارى سابق منكور من أوربا ، وانطراح حضارى ، واسع النطاق ومتعاظم من قبل عرب اليوم .

وأخيرا ، بين أوربا والعرب عداء ايديولوجى ، ومن ثم سياسى ، مبطن دينيا منذ الحروب الصليبية ، يتأجج أوراه بصعود المد الاسلامى السلفى فى الوطن العربى ورواج التيارات الرجعية والفاشية فى مجتمعات الوفرة الأوربية .

بين الندية والاستجداء

ماذا يريد العرب من أوربا ؟ وماذا يمكنهم تقديمه فى المقابل ؟ وبالتالى ماذا يتوقع أن يحصلوا عليه فى ضوء موازين القوى الراهنة ، فى سياق العالم القائم الذى وصفنا إجمالا ، وبينا وضع العرب وأوربا فيه ؟

عندى أن استقراء معطيات القسمين السابقين من هذا المقال ، بفرض استمرار الاتجاهات الأساسية القائمة ، يفضى إلى أن العلاقة بين العرب وأوربا ستنزع ، اطراداً نحو الاستجداء عوضا عن الندية .

فليس لدى العرب من أسباب القوة ، ومن ثم الندية الكثير ، ولا يتوقع لها أن تزداد .

وتدل خبرة العقود الأربعة الأخيرة على أن العرب قد تفننوا فى إهدار مالديهم من أسباب القوة خاصة عن طريق قهر نظم الحكم القائمة لإمكانات البشر والتمترس وراء أسوار القطرية المرهنة .

وبالمقابل يطلب العرب من أوربا كل شىء من الغذاء الأساسى ، معونة فى أحيان كثيرة ، إلى سلع الرفاهة المادية ، إلى السلاح الذى يحارب به بعضهم بعضاً ويستخدمة جميع الحكام فى مواجهة الشعب .

ولن ينقذ كثيرا ، وحال العرب كذلك ، اللعب على عقد الذنب الأوربية ، على التنافس بين الأقطاب المستجدة فى العالم الغربى ، أوحتى الارهاب أو التهديد به .

لن ينقذ العرب من هذا المصير التعس ، فى التحليل الأخير ، إلا أن يغيروا ما بأنفسهم .

لكن هناك تمايزات إجتماعية مهمة داخل هذه الصورة الاجمالية تنبنى على تحديد من نقصد بالعرب ؟

هل نقصد عرب تخلف النفط أم عرب تخلف الفقر ؟

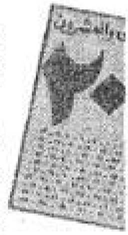
وبين الفصيلين فروق وتمايزات ، رغم شركة التخلف ، أشرنا إلى بعضها أعلاه.

ثم هل نقصد العرب الحكام أو الشعب ؟

فللعرب حكام يتعاملون نيابة عنهم مع الأطراف الخارجية رغم أن النيابة كما أسلفنا فاسدة . وإن كان النمو المتوقع للمجتمع المدنى ، على الشكل الذى قدمنا ، يمكن أن يدخل مع الزمن عنصر تناقض بين الحكام والأجانب ، ولكن من منظور غربى .

وحتى داخل الشعب تتفاوت التطلعات والإمكانات بين فئات الشعب المختلفة بما ينعكس على طبيعة العلاقات مع الأجانب عموما ، وأوربا على وجه التحديد .

باختصار ، مناقشة العلاقات بين العرب وأوربا دون اعتبار للانقسامات



الداخلية بين الدول العربية من ناحية ، وبين الشرائح الاجتماعية للشعب العربي من ناحية أخرى ، تنطوى على تبسيط مخل للأمر .

فالمرجح ، إن استمرت أحوال العرب على ماهى عليه ، أن تستمر الفئات الاجتماعية المسيطرة فى السعى إلى علاقات قوية مع أوربا ، لامفر من أن تكون تابعة، وإن تسربلت بمظاهر تفخيم كاذبة . ففي أوربا ستجد هذه الفئات أمنا مزعوما، وأسبابا للرفاهية المادية ، وملاذا لأموالها ، بل مستقرا ومتاعا إذا دارت الدوائر . وستقدم هذه الفئات المسيطرة لأوربا قرابين هذه العلاقات على حساب الشعب العربى .

كذلك يتوقع أن تقوى اللحمة بين النخب المثقفة المغربة ، وبين المراكز الثقافية الأوربية ، التى تسترجع مرة أخرى دور المراكز الاقتصادية والسياسية للبلدان العربية ، حتى ليكاد يصبح حصاد عقود الاستقلال هشيما . وفي هذا المنظور سيصبح هم النخب المثقفة المغربة فى البلدان العربية الالتحاق بمراكز الغرب ، إما مباشرة إن كانوا يملكون ما يغرى الغرب من مال أو ملكات ، أو من الباب الخلفى المتمثل فى القطاع الاجنبى فى النشاط الاجتماعى والاقتصادى ، بل والسياسى .

أما الغالبية المستضعفة من الشعب فالمنتظر أن تكون هامشية فى العلاقة مع أوربا كما هى مهمشة فى بلدانها . وإنما سيبقى أمام بعض قليل منها فرصة الفرار إلى جنة الغرب ، فى الداخل أو الخارج ، عند المستويات الأدنى من القبول والمزايا .

ولاريب أن هذا التمايز الاجتماعى فى العلاقة بين العرب وأوربا ، بما تحمله من توترات ، فى إطار الاستقطاب الاجتماعى المتعاظم ، سيحمى التناقض الاجتماعى فى البلدان العربية .

وعليه ، ينتظر أن تنحى العلاقات بين العرب وأوربا بعيدا عن الندية بسبب موقف القوى الحاكمة والنخب المثقفة المغربة ، إلى أن يتسبب المأزق الاجتماعى فى البلدان العربية فى إضعاف هيمنة الفئات المسيطرة حاليا على مقدرات هذه البلدان وعلى غالبيتها المستضعفة .

وحينذاك لن يكون البديل حميدا .

كما لن يكون الطريق إليه إلا عسيرا .



القرن الواحد والعشرون يـــدخل أفريقيـــا

بقلم : د . عبد الملك عودة

يتهيأ القرن العشرون للرحيل من حياة القارة الأفريقية دولا وشعوبا ، بعد أن ترك بصماته ومواريثه على مجمل أوضاع الحياة فى المجتمعات الأفريقية . ومنذ فترة من الزمن بدأت مراكز الابحاث والجامعات والدراسات المستقبلية فى مناقشة ونشر تصورات وسيناريوهات لتطور الأوضاع فى القرن القادم أو التنبؤ بما سيكون، ومثل هذه الرياضة الفكرية المستحبة لا تقتصر فقط على القارة الأفريقية وانما نجدها أيضا بالنسبة لأوضاع ومستقبل مناطق وأجزاء متنوعة من العالم المعاصر . وفى هذا المقال نختار عددا من القضايا والمشكلات والأوضاع التى نعتقد أن أزمنة وأحداث القرن القادم سوف تجدها وتتفاعل معها فى حياة البشر والدول بالقارة الافريقية .

١ - قضايا الدولة المستقلة : فى النصف الثانى من القرن العشرين تحولت القارة والجزر المحيطة بها إلى دول مستقلة بعد تبعية وإدارة استعمارية متنوعة ، وتحولت الخطوط الإدارية الفاصلة بين نفوذ الدول الاستعمارية إلى حدود سياسية بمفهوم القانون الدولى المعاصر . وانضمت هذه الدول إلى عضوية المنظمات العالمية والاقليمية المتنوعة . ولكن مازالت بعض الجيوب الإستعمارية التى لم يحسم مصيرها بعد مثل سبتة ومليلية فى شمال المملكة المغربية ، وجـــزيرة مايوت فى دولة الكومور

استاذ العلوم السياسية بجامعة القاهرة

● تعداد اللاجئين المشردين فى افريقيا وصل الى ٧½ مليون انسان !
● الصراع والتنافس سيزداد للسيطرة على مجالات الإذاعة والتليفزيون .
● التوجه العام هو التحول الديمقراطى واحترام حقوق الإنسان .

(القمر) . وهذا الوضع الاستقلالي يطرح قضايا نظام الحكم والمؤسسات السياسية في هذه الدول ، فقد بدأت أغلب الدول بنظم سياسية أقرب إلى الصورة السياسية الأوروبية والأمريكية ، ثم تحولت إلى نظم الحزب الواحد أو نظم عسكرية ، وأخيرا تتعرض القارة لموجة من التحول الديمقراطي وحماية حقوق الانسان تحت ضغط الدول المانحة . وهذه القضايا سوف يشهدها القرن القادم لأن بناء النظم السياسية وتشغيلها وحمايتها والتوصل إلى النتائج المرجوة منها سوف يستغرق وقتا طويلا ، وممارسة زمنية واجتماعية لسنوات كثيرة قادمة .

٢ – تصفية النظم العنصرية : شهد النصف الثاني من القرن العشرين تصفية النظم السياسية العنصرية في الجزائر وكينيا وزيمبابوي ، وتشهد دولة جنوب أفريقيا الغاء النظام العنصري بأسلوب التغيير الدستوري والتحول الديموقراطي الداخلي بعد تاريخ من الكفاح السياسي والعسكري الاقليمي والعالمي ، وقبل دخول القرن ٢١ في حياة المجتمعات الأفريقية سوف يتم التغير السياسي وقبول دولة جنوب أفريقيا عضوا في منظمة الوحدة الأفريقية وبنك التنمية الأفريقي وغير ذلك من المنظمات الاقليمية . لكن سيبقى للقرن القادم مشكلات وتعقيدات التفرقة العنصرية والاثنية على المستوى الثقافي والمستوى الاجتماعي بدرجات متنوعة ، وهذه المشكلات لا توجد فقط في افريقيا وانما تظهر أيضا في دول أوروبا وأمريكا الشمالية وسوف تأخذ وقتا طويلا لعلاجها والتخلص منها .

٣– قضايا العلاقات الدولية : هذه مشكلة عويصة سوف تمتد إلى القرن

القادم حتى تتوصل الدول الافريقية إلى أنماط ومعايير تحكم العلاقات المتبادلة بين الدول الافريقية ودول العالم المعاصر خاصة دول النصف الشمالى من الكرة الأرضية ، ويرجع هذا إلى أن الدول الافريقية ولدت وعاشت فى مناخ الحرب الباردة والاستقطاب الدولى وما صاحبهما من قضايا الانحياز والمعسكرات والاحلاف والاختراق والتطويق .. الخ ، وأن هذه الاوضاع الدولية تركت آثارها العميقة على تركيب المجتمعات والنظم السياسية وتوجهات النخب الحاكمة والمسيطرة مدنيا وعسكريا ، ولكن بعد انتهاء الحرب الباردة واختفاء الاتحاد السوفييتى والمعسكر الشرقى من الخريطة السياسية والعسكرية للعلاقات الدولية ، بدأت الدول فى تعديل وتجريب سياسات خارجية جديدة مع الدول الكبرى والمتقدمة ومع الدول الافريقية المجاورة والمتاخمة ..

ومن ناحية ثانية فإنه على الدول الأفريقية فيما تبقى من هذا القرن وإلى أزمنة طويلة فى القرن القادم – أن تحاول التكيف والتعايش مع التحول العالمى الجديد أو النظام العالمى الجديد ، والذى نراه يتبلور فى إعلان قمة نيويورك الصادر عن مجلس الأمن فى فبراير ١٩٩٢ – وخاصة المبادىء والسياسات التى ترغب الدول الكبرى فى تطبيقها مثل التحقق من تطبيق حقوق الانسان ، ومراقبة الانتخابات النيابية والبرلمانية فى الدول الصغرى ، وتسوية النزاعات الاقليمية بالوسائل السلمية والتفاوض ، والالتزام بالاتفاقات الدولية فى مجالات الرقابة على التسلح عامة ونزع أنواع من السلاح ومنع انتشارها ، والربط بين المعونات والقروض والتسهيلات المالية وبين التحول الديموقراطى كما تراه سياسات الدول المانحة .

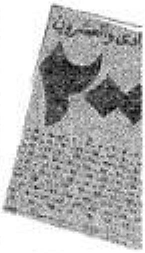
٤ – قضايا الوحدة الافريقية : شهد القرن الحالى قيام منظمة الوحدة الافريقية على أساس جغرافى يجمع دول القارة والجزر المحيطة بها ، ووصل عدد الدول الأعضاء حاليا إلى (٥١) دولة ، وهذا الرقم لا يشمل دولة جنوب أفريقيا والجمهورية الصحراوية (الصحراء الغربية) . وتاريخ المنظمة يسجل كثرة المنازعات بين الدول الأعضاء ، وتفاقم الحروب الأهلية والنزاعات المسلحة فى داخل الدول الأعضاء ، ولكن المنظمة أقدمت على محاولة انشاء جماعة اقتصادية على نمط الجماعة الاوروبية ، وقد نجحت أخيرا فى توقيع اتفاقية الجماعة الاقتصادية الافريقية فى مؤتمر القمة الافريقية فى أبوجا عام ١٩٩١ . ومخطط الانشاء يمتد إلى ٣٤ عاما مقسمة على ست مراحل ، وتهدف إلى تكثيف التنمية وتعبئة الموارد والتعاون والتكامل الاقتصادى لدول القارة جمعاء ، بواسطة أساليب تحرير التجارة البينية وحريات التنقل والغاء الرسوم



التمييز العنصري في أفريقيا أحد القضايا الهامة

الجمركية وانشاء سوق افريقية مشتركة . واذا سار المخطط طبقا للمتصور فسوف تقوم هياكل وبنايات الجماعة الاقتصادية عام ٢٠٢٥ ، وفي هذا المقام يتوزع التفكير والآمال عندي بين التفاؤل والتشاؤم . ويرجع هذا إلى أن اجتماع القمة الأفريقية عام ١٩٩٢ دعا الدول الاعضاء إلى سرعة المصادقة على الاتفاقية حتى تدخل حيز التنفيذ ، حيث أن ١٢ دولة افريقية فقط هي التي صادقت على الاتفاقية بعد التوقيع عام ١٩٩١.

٥ - قضايا الجفاف والتصحر واللاجئين : غضبت الطبيعة وانقطع المطر وساد الجفاف سنوات طويلة في مناطق عديدة شمال خط الاستواء ، ثم انتقل هذا الوضع في عام ١٩٩١ إلى دول كثيرة جنوب خط الاستواء ، وهذا خطر فادح يهدد الانتاج الزراعي ويهدد حياة البشر وقطعان الماشية والإنتاج الحيواني ، ويؤثر تأثيرا سلبيا فادحا في حياة المجتمعات الأفريقية على مستوى الحضر والريف ومناطق الرعي والغابات . وتقارير الأمم المتحدة منشورة بشأن هذا الوضع ونتائجه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والبشرية . وهذه الأوضاع سوف تمتد إلى



القرن القادم كما أن لها آثارا سياسية على مستوى العلاقات الخارجية مع الدول المانحة والمنظمات الدولية والاقليمية . ومن ناحية ثانية فإن قضايا اللاجئين والمشردين والنازحين عن مناطق اقامتهم ترتبط بمشكلات الجفاف والتصحر والقحط كما ترتبط بالحروب الاهلية والنزاعات المسلحة المنتشرة فى عدد من الدول الأفريقية . ولسنا فى حاجة إلى الافاضة فى مشكلة اللاجئين فهى معروفة تطالعنا كل يوم فى وسائل الاعلام، وأن تعداد اللاجئين والمشردين فى افريقيا وصل إلى $\frac{1}{2}$ ٧ مليون انسـان ويمثلـون $\frac{1}{2}$ تقديـرات اللاجئين على مستوى العالم .

٦ - قضايا السكان ومرض الايدز : كان فى تقديرات واحصاءات السكان والدراسات الديموغرافية العالمية أن أفريقيا سوف تواجه انفجارا سكانيا متزايدا بنهاية القرن الحالى . على أساس أن عدد سكان العالم حاليا حوالى ٥,٤ بليون نسمة وانهم سوف يزيدون إلى ٦,٣ بليون نسمة سنة ألفين ، وان الرقم سوف يرتفع إلى ٨,٥ بليون نسمة عام ٢٠٢٥ ، وأن نصف هذه الزيادة سيكون فى قارة افريقيا . ولكن هذه التقديرات الآن تخضع للمراجعة واعادة النظر حيث أن تقارير منظمة الصحة العالمية تكشف أن عدد الافارقة المصابين أو الحاملين لمرض الايدز سيصل فى نهاية القرن الحالى ومطلع القرن القادم إلى حوالى ٢٠ مليون نسمة ، وإنه من المتوقع أن يموت منهم سنويا حوالى مليون نسمة ، وأن عدد الشباب المصابين بمرض الايدز فى الدول الافريقية جنوبى الصحراء حوالى ٦,٥ مليون شاب (أى واحد من كل أربعين فى سن الشباب) . ونضيف إلى هذا سوء الأحوال الصحية وارتفاع معدلات الوفيات (الموت جوعا) بين اللاجئين والمشردين ونتيجة لاستمرار النزاعات المسلحة فى بعض الدول الافريقية مثل ليبريا والسودان والصومال ورواندا وبوروندى وموزمبيق ... إلا إذا توصلت الاطراف المتحاربة إلى تسويات سياسية سلمية وبدأت تتحول إلى البناء ومعالجة تدميرات الحرب وآثار الجوع والمرض والفقر وسوء التغذية ونقص الطعام وانتشار المجاعة .

٧ - قضـايا اللغة والثقافة والاتصـال : من مـواريث الحكم الاستعمارى السابق على عهد الاستقلال ، انتشار اللغات الأوروبية (انجليزى - فرنسى - برتغالى - اسبانى) على مستوى النخبة ووسائل الاعلام ونشر المؤلفات والانتاج الفكرى والتعليم فى المدارس والجامعات بجوار اللغات القبلية والقومية . ووصل الأمر إلى تقسيم افريقيا إلى مناطق انجلوفون وفرانكوفون ولوزيفون بجـوار

الـــــدول والشعوب الناطقة بالعربية ، ويضاف إلى هذا انتشار لغات افريقية على نطاق واسع فى التعامل والحياة مثل السواحيلى فى شرق افريقيا والهاوسا فى غرب افريقيا وتكتب حاليا بالابجدية اللاتينية . هذه القضايا سوف تنتقل إلى القرن ٢١ ومعها صراع يتنافس يتنامى ويشتد للسيطرة على مجالات الاذاعة والتليفزيون بين الانجلوفون والفرانكوفون ، وقد استعدت للدخول فى حلبة المنافســـة اسبانيا والبرتغال حيث توجد (٦) دول افريقية ناطقة بهاتين اللغتين (لوزيفون) علما بانه لا يدخل فى حساب هذه الدول الجمهورية الصحراوية (الصحراء الاســـبانية سابقا). وتجدر الاشـــارة إلى وجود عديد من الدراسات والبحوث العلمية الموثقة عن هذا التنافس والتدفق الاعلامى الذى يرتبط بالتنـــافس الســـياسى والاقتصــــادى والاجتماعى بين الدول الاوروبية والامريكية فى ميادين الاتصال المتنوعة .

٨ – قضايا الديون والانتاج : تعانى الدول الافريقية من عبء ديون قيمتها هذا العام حوالى ٢٧٥ مليار دولار وأن أقساط الدين والفوائد (خدمة الدين) تصل إلى ٣١ ٪ سنويا من إجمـالى دخل وإيرادات هذه الدول ، وعلى الرغم من أن قيـمـة الدين العام على افريقيا قد تبدو أقل من قيمة الدين العام المستحق على دول امريكا اللاتينية ، فإن ضعف الانتاجية وتذبذب أسعار الصادرات والارتفاع المتزايد فى أسعار الواردات بالنسبة للدول الافريقية يجعل عبء الدين وخدماته ثقيلا للغاية على اقتصاديات دول افريقيا الفقيرة ، وبالاضافة إلى هذا الفقر فهناك الفساد وسوء الادارة وعدم الاستقرار السياسى وفشل خطط التنمية وتدميرات الحروب والنزاعات المسلحة فى أغلب الدول الافريقية ، وتأكيدا لهذا القول نورد جدولا نشره البنك الـــــدولى ومنظمة التعاون الاقتصادى والتنمية عن افقر عشرين دولة فى العالم عام ١٩٨٩ ويتبين منه أن ١٥ دولة من بينها موجودة فى افريقيا ، كما تشير الاحصاءات الحديثة عام ١٩٩١ – ١٩٩٢ أن عدد الدول الافريقية ازداد إلى ١٦ دولة . والجدول كالتالى على أساس معدل دخل الفرد بالدولار :

موزمبيق – اثيوبيا – تنزانيا – لاوس – نيبال – الصــــومال – بنجـــلاديش – غينيابيساو – مـــلاوى – بوتان – تشاد – فيتنام – جامبيا – مدغشقر – نيجيريا – مالى – زائير – بوركينافاسو – رواندا – النيجـــر . والحل الوحيد لمشكلات الدين الخارجى وانخفاض مستويات المعيشة والدخل الفردى والخدمات الاساسية هو زيادة الانتاج للاستهلاك والتصدير . وهذا هو التحدى الأول الذى يواجه دول ومجتمعات

افريقيا فى القرن ٢١ ، وهذا القول ينطبق على جميع الدول فى القارة فيما عدا دولة جنوب افريقيا التى ينتظر أن تأخذ دورا فعالا فى الحياة الاقتصادية الافريقية بوجه عام بعد إنضمامها لمنظمة الوحدة الافريقية ، حتى أن رئيس البنك الافريقى للتنمية يرى أخيرا أن اقتصاد جنوب أفريقيا سوف يأخذ دور المحرك للمجموعة الاقتصادية الافريقية ، وأن السوق الافريقية المشتركة سوف تمتد من القاهرة إلى كيب تاون .

٩ - قضايا المياه والكهرباء : تتمتع القارة بمجموعة من الأنهار التى لم تستثمر طاقاتها كاملة فى مجالات الرى وتوليد الكهرباء .. الخ ، ولكن هناك بعض التجارب الناجحة فى مجال إقامة السدود وضبط المياه وتوليد الكهرباء على مستوى اقليمى أو بين الدول المشاركة فى حوض النهر ، وتشير إلى ما تم من تنظيم قانونى ومائى وكهربائى لنهر الزمبيزى ونهر السنغال على مستوى حوض النهر بأكمله ، وإلى توليد الكهرباء على مساقط شلالات أوين فى أوغندا وتوزيع الكهرباء بين أوغندا وكينيا . وهذه الامثلة تشير إلى أن القرن القادم سوف يشهد التحول الافريقى إلى التعاون فى مجالى المياه والكهرباء نتيجة الضغوط الشديدة الواقعة على الدول لكى

غزا التصحر افريقيا الخضراء فحولها الى بؤرة جائعة



تؤمن لمواطنيها الغذاء والخدمات والتوسع فى الانتاج الزراعى والتحول إلى الزراعة المروية ومكافحة التصحر ، وهذا يتطلب من الدول الافريقية والنخب الحاكمة فى القرن القادم التحول إلى مفاهيم جديدة بشأن السيادة وتهدئة اوضاع التوتر على الحدود السياسية المشتركة والإقرار بمبادىء التعاونية المتبادلة على المستويات الاقليمية والعالمية .

١٠ - قضايا الديموقراطية والمشاركة السياسية وحقوق الانسان : هناك اجماع بين الدارسين للشئون الافريقية أن الجذر الأول للتدهور العام الذى تشهده دول ومجتمعات القارة هو غياب الديموقراطية ، وفرض النظم الديكتاتورية وسيطرة العسكر والحزب الواحد ، وحكم المجتمعات بالقوة واستعمال ادوات الردع والعنف الحكومى للسيطرة على شعوب هذه الدول . وصاحب هذه الفترة الزمنية انتشار الفساد بكل انواعه ، وعدم الانتماء والنزاعات المسلحة والحروب الاهلية . لذلك فإن التوجه العام هو التحول الديموقراطى واحترام حقوق الانسان والاقرار بالتعددية السياسية والثقافية واللغوية والقومية فى الدول متعددة القوميات والاقليات . ولكن لا يوجد حتى الآن نمط واحد يطبق بالكامل أو بالتفاصيل على هذه الدول والمجتمعات التى تتصف بالتنوع الشديد فى أغلب اوضاع الحياة ، ولكن الموجود هو توجه عام واطار عام للتحول نحو الديموقراطية التعددية وإقامة أجهزة ومؤسسات للحكم والرقابة ولحماية المواطن ، وأن هذا التوجه العام للتحول الديموقراطى يتطلب وقتا وزمنا ليس بالقصير ، ويتطلب جهداً ليس باليسير ، ويحتمل خطوات التقدم للأمام وخطوات الإنتكاس للخلف ، كما يحتمل نماذج وتطبيقات شكلية أو جزئية بسبب أنه ليس من السهل أو المقبول عند النخب الحاكمة مدنية أو عسكرية أن تتنازل أو تتراجع طوعا عن امتيازاتها وسلطاتها ومراكزها الاجتماعية والمالية المتولدة عن الإمساك بالسلطة واستثمارها واستغلالها ، ولكن دور الدول المانحة هام ومؤثر فى هذا الميدان فقد أعلنت إنها تربط بين المعونات والقروض والتسهيلات البنكية والمالية المطلوبة من جانب الدول الافريقية وبين خطوات التحول الديمقراطى التعددى وحقوق الانسان كما تؤكد الاشارة السابقة إلى ما ورد باعلان القمة الصادر عن مجلس الأمن بشأن مراقبة الانتخابات وحقوق الانسان وتسوية النزاعات الاقليمية وحاليا تنتشر الموجة فى القارة الافريقية على مستويات متنوعة وفى إطار تصورات متباينة ، ولهذا فإن هذه القضايا وتعقيداتها سوف تكون الشغل الشاغل لأزمنة واحداث وتطورات القرن الواحد والعشرين ....

سيد درويش والثور الأبيض !

بقلم : كمال النجمى

عاش سيد درويش مائة عام على صفحات التاريخ حتى الآن ، فقد ولد سنة ١٨٩٢ ، وهاهى ذى سنة ١٩٩٢ تقف على حافة الثقب الأسود الأبدى الذى تسقط فيه أوراق السنين الجافة ! ..

ومن بداية عامنا هذا إلى قرب نهايته ، شهدنا احتفالات وندوات ومسرحيات ، وقرأنا قصائد ومقالات وتعليقات ، عن سيد درويش صاحب العيد المئوى ، بل الأوحد من أهل الفن الذى قيضت له الأقدار من أهل «المسئولية» من أقام له ذكرى مئوية امتدت عاما ، فشملت ذكرى مولده فى مارس (آذار) وذكرى وفاته فى سبتمبر (أيلول) .. وبين الذكريين ، وقبلهما ، وبعدهما ، قرعت الطبول تحية لفنه ، وضجت المواكب باسمه ، وصعد الكلم الطيب إلى روحه فى علاه ! ..

كانما أراد المحتفلون بذكرى سيد درويش أن يحتفلوا بذكرى الغناء العربى نفسه ، فقد انقطع هذا الفن الجميل العريق وخلت الساحة من أربابه ، ونعقت الغرابيب فوق أطلاله ، مصداقا لما قرره الشيخ ابن خلدون قديماً من أن صناعة الغناء المتقن أول ماينقطع من «صنائع» الأمة عند انقطاع سيرها فى الحياة ودخولها فى التيه ! ..

وكنا - والعهد غير بعيد - نقول : ياقومنا .. حاذروا أن تنقطع بين أيديكم صناعتان : الشعر والغناء ، فإن



انقطاعهما نذير الخراب والتباب ! ..

فها نحن هؤلاء انقطعت بين أيدينا الصناعتان : مات الشعر العربي منذ ثلاثين سنة فانفطر عليه قلب العربية ، وانصدعت كبدها ، وبات أهلها في العقد الأخير من القرن العشرين كأسلافهم «الموريسكيين» أو العرب المدجنين في العقد الأخير من القرن الخامس عشر في أيدي القشتاليين ..

ولم يكن بعد موت الشعر مناص من موت الغناء ، فقد علقت به المخالب التي علقتْ قَبْلُ بالشعر ، فكيف ينجو ؟!

الآنَ إذ عَلقتْ مخالبهم به
يرجو النجاةَ ولاتَ حينَ مناصِ

فالاحتفال الآن بذكرى سيد درويش يقام فيما يشبه سرادق العزاء ، والكلام عنه يبدو أضخم من معناه تارة ، وتارة يبدو بلا معنى ! ..

ويكاد الحجم المجسم لسيد درويش يسد الفضاء في تهاويل عبادتنا للفنان الفرد الذي لبسته شخصية هذا الفنان المصري الفريد ! ..

وأبلغ الإنصاف لسيد درويش أن يقدمه محبوه وعارفوه إلى الأجيال الجديدة في حجمه الطبيعي ، ملحنا ومغنيا ومفكرا موسيقيا .. ويخلّصوا سيرته ومآثره الفنية من شهوات الإعجاب ، فإنها كثيراً ماتنقلب إلى تشويهات ! ..

ومنْ ذلك قولهم : لو لم يمت في ريعان شبابه لصنع من الألحان ما لم يصنعه أحد في القرن العشرين ! ..

بلى .. قد كان جديرا أن يصنع ذلك وأكثر منه ، ولكن الحي لا ينصف الميت إذا حكم عليه بما كان مرتقبا أن يصنعه لو عاش كذا من السنين فوق العمر الذي عاشه .. ولا ينتقص من سيد درويش من يقول إنه – في ميزان الفن – يساوي بالضبط ما أتيح له أن يساويه فعلا خلال عمره الخاطف العاصف ! ..

ولو عاش لكان ممكنا أن يبلغ نهاية جهده بعد شوط قصير ، فيدور في حلقة مفرغة ، ويسبقه الزمن ، ويتفوق عليه ملحنون جدد ، وينقلب سيد درويش المجدد إلى سيد درويش المحافظ المتزمت ، فإن هذا الفنان لم يكن ثمرة ناضجة سقطت فجأة من الفضاء ، بل كان ثمرة نبتت في الأرض وأنضجتها الشمس في زمانه ومكانه ، وقد عوجل عن استكمال فنه ، ولكن فنه هذا الذي لم يكتمل ، هو فنه كاملا غير منقوص !

لسة التعبير

لقد نشأ سيد درويش في نهاية عصر الشيخ محمد المسلوب والمطرب عبده الحمولي والملحن محمد عثمان وحين بدأ يلحن ويغني كان هؤلاء قد تركوا المكان ، ولكنهم لم يتركوه فارغا ، بل تركوه مترعا ، ففن الدور قد بلغ على أيديهم غايته ، وكذلك الموشح ، فضلا عن القصيدة والموال، فلم يزد سيد درويش على ذلك كله

إلا لمسة من التعبير بدت ظاهرة قوية ، وكانت عندهم خافية تحت وشى الصناعة وزخرفها وإعجابها بذاتها ..

إن سيد درويش هو أول ملحن أفصح بالألحان عن معانى الدور والموشح ، وكانت هذه مأثرته الكبيرة ، فقد صارت الأغنية الفردية والمسرحية على يديه كيانا فنيا متراكبا - وإن كان لحنا ميلوديا مفردا بسيطا - وذلك هو الأساس الفنى الصحيح للغناء العربى المتقن «الكلاسيكى» كما نراه مسطورا فى كتب الأسلاف منذ العصرين الأموى والعباسى ..

ولسيد درويش أدوار كبيرة لاتقل براعة عن أدوار أستاذ الأدوار محمد عثمان ، فى تشكيلها المقامى والإيقاعى وفكرها الموسيقى ، ولكن أدوار سيد درويش أقرب إلى التعبير منها إلى التطريب ، وإن لم تخل بعض أدوار محمد عثمان ومعاصريه من التعبير مع الطرب بلا خفاء ..

ولانستطرد وراء أعمال سيد درويش فى المسرح وفى القوالب الغنائية المتنوعة ، وحسبنا أنه أنجز خلال خمس سنوات فقط - عاشها فى القاهرة - ما لم ينجزه أحد من معاصريه .. فبين سنة ١٩١٨ و ١٩٢٣ لحن سبعا وعشرين مسرحية غنائية لفرقته الخاصة وفرق الريحانى والكسار وجورج أبيض وأولاد عكاشة ومنيرة المهدية ..

وفى تلك السنوات التى انقضت كلمحة بارق سجل سيد درويش بصوته وأصوات المطربات والمطربين عشرة أدوار كبرى وتسعين لحنا ما بين أهازيج مسرحية وطقاطيق ومونولوجات وأناشيد ..

وكان يغنى ويحيى الليالى كمطرب محترف مع أن صوته لم يكن شديد الجاذبية ، إلا أن قوة روحه وعمق إحساسه فى أداء الألحان ، كان لهما فى صوته أثر يهز السامعين ..

وقد رحل سيد درويش فى عصر الأسطوانة الذى شهد فى مصر المد الوطنى الشعبى منذ ظهورها سنة ١٩٠٥ إلى ثورة ١٩١٩ وماتلاها ، فكانت أسطوانات سيد درويش تسجيلا لتلك المرحلة التاريخية بما انطوت عليه من بأساء ونعماء ! ..

وبعد وفاته بخمس سنوات تقريبا بدأت الإذاعات الأهلية فى القاهرة ، ثم جاءت الإذاعة الحكومية وازدهرت الأصوات فى عصر ميكروفون الإذاعة ثم فى عصر السينما ، وهما عصران متداخلان كأنهما عصر واحد ، لم يستطع المسرح الغنائى أن يصمد لهما أو يعيش فيهما ، فانصرف الملحنون كبارا وصغارا إلى الأغنية الإذاعية والسينمائية .. ولو عاش سيد درويش إلى ذلك الوقت لاضطر إلى وقف نشاطه فى تلحين المسرحيات الغنائية وصرفه إلى تلحين الأغانى الإذاعية والسينمائية ، ولكان سيد درويش كغيره من

ملحنى ذلك العهد فى خدمة صوت أم كلثوم وأسمهان وليلى مراد والمطربات والمطربين الآخرين ..

موجة فى تيار التطور

فلا يمكن أن يقال إذن إن سيد درويش لو عاش بعد سنة ١٩٢٣ لطبع الغناء العربى والموسيقى العربية بغير طابعها الذى عرفته على أيدى محمد عبد الوهاب والقصبجى وزكريا والسنباطى، والجيل الذى تتلمذ عليهم، وأضاف إليهم أمثال أحمد صدقى ومحمود الشريف .. ثم كمال الطويل ومحمد الموجى وبليغ حمدى وغيرهم ..

لو عاش سيد درويش وأتى بالعجائب لكانت عجائبه هذه مجرد موجة فى تيار التطور الذى أجراه الملحنون فى الثلاثينات وماتلاها من عقود، ولفرض عليه هذا التطور أن يسلك الطرق التى سلكوها، أو يشق لنفسه مثلها، فهم لم يلحقوا به فى زمانه، وهو لا يلحق بهم فى طرائقهم التى انتهجوها فى زمانهم، ولايمكن لمس التاريخ الفنى وغير الفنى أن يمحو المسطور فى صفحاته ..

والآن .. انتهت تلك الأيام، ولحق الأول بالآخر، واستوى الماء والخشبة كما كان يقال فى الأمثال، وانقطع الغناء العربى المتقن إلا من ذكرياته وأسماء عباقرته، فماذا يمكن أن يقال ؟! ..

لقد دخل أعداء الغناء العربى أرضه، فهى الآن أرض محتلة تنتظر تحريرها، ولو استسلم لهم أصحاب هذه الأرض لانقرض الغناء العربى المتقن بأصوله وفروعه، دلالة خلل العمران وفناء الأمة ..

والمستمع العربى محصور الآن بين دعاة تغريب الغناء والموسيقى تغريبا تاما، أى الاستغناء عن الغناء العربى والموسيقى العربية وإيداعهما متحفا للآثار إلى جوار عباءات سلاطين التركمان والجركس وسيوفهم وخوذاتهم، ثم التطفل بعد ذلك على مائدة الموسيقى الأوربية والعيش على الفتات اليابس المتساقط من جوانبها ..

وأصحاب هذه الدعوة أو الدعوى يتجاهلون ذوق الإنسان العربى الذى صنعته عوامل التاريخ العميقة، ويصطنعون «التقية» فيزعمون أنهم إنما يريدون «التطوير» لا التدمير، ولكن هؤلاء «المطورين» لايوافقون فى سرائرهم حتى على وضع الغناء العربى فى متحف صغير يراه الإنسان العربى من بعيد، أو يدنو من حائطه مستعبرا مستعيدا ذكريات الأجداد الكرام ..

تلفيق الصهيونية

والعجيب أن يقع ذلك بينما يلفق الصهيونيون لأنفسهم فى فلسطين مايسمونه «الموسيقى اليهودية» ولاشىء عندهم من هذه الموسيقى إلا التلفيق، وأشد مايريب فى هؤلاء «المطورين» حقدهم ولددهم، كأنهم ورثة المبشرين الأجانب،



عبده الحامولي



منزل سيد درويش

أفكارا وأهدافا .. وهي شنشنة من أخزم عرفناها منذ ثلاثين عاما حين وثب «المطورون» في الشعر يهدمون الشعر العربي من أساسه !.

أما الفريق الآخر الذي جاء برهاناً على أننا قد صرنا في الزمن الأخير ، فهو غربان الملاهي الليلية الذين انقطع الغناء العربي على حناجرهم انقطاعا من نوع آخر ، فهم ليسوا دعاة للموسيقى الأوربية «الرفيعة» ولكنهم دعاة لموسيقى الكاباريهات ، وتجارتهم رائجة ، والزمان زمانهم ، ووجودهم في عصرنا يجعل ابن خلدون يتململ في مثواه متفكرا في مقالته المأثورة عن صناعة الغناء !.

ولايدرى أحد .. أتنهض الأمة يوما فيسقط هؤلاء وأولئك ، أم نظل نتساءل مع الشاعر الذي قال :

أقـومي أحـياء فاعـزف شاديا
بشعرى ، أم موتى فأبكى على الرمس ؟!

ومن يستهن اليوم بصناعة الغناء العربي ، كما استهان أمس بصناعة الشعر فلا يبالي بهدمها ، بل يراها من اللهو ، بل من عمل الشيطان ، فسوف يعض بنانه ذات يوم ويقول :

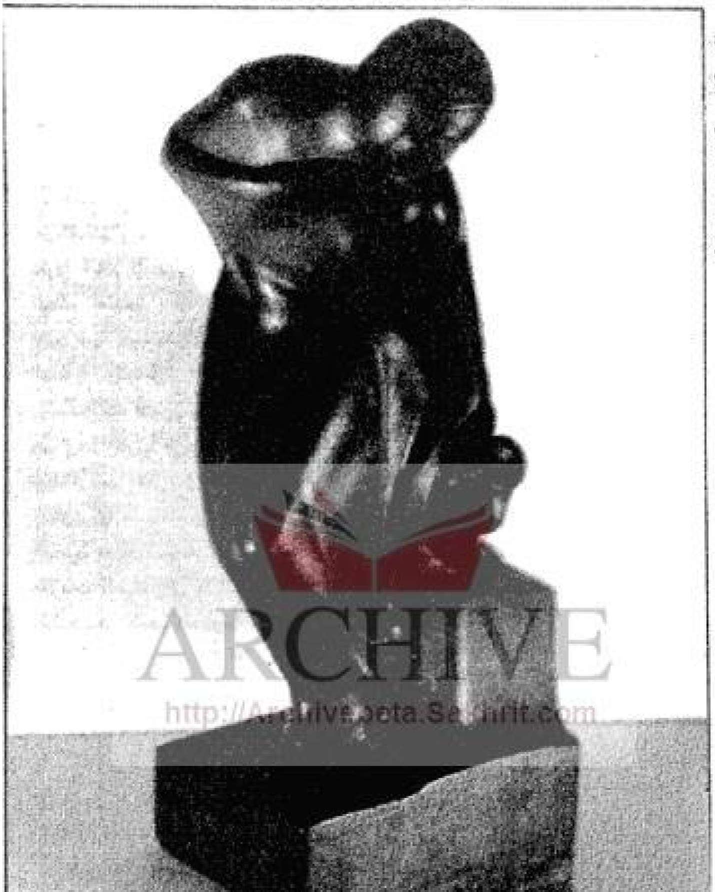
– ألا لقد أكلوني يوم أكلوا الثور الأبيض ! ..

مائة عام من الفنون التشكيلية في مصر

بقلم : د .صبري منصور

لم يكن غريباً أن تكون الفنون التشكيلية أحد أهم الميادين التي طرقها المصريون في صحوتهم الحديثة ، وبلغوا فيها خلال سنوات قليلة مستوى قلّ أن تجد له نظيراً في مجالات أخرى من مجالات الابداع والنشاط الانساني كالموسيقى والمسرح والسينما ، ذلك أن الشعب المصري - صاحب التاريخ الإبداعي العريق - ظلت قوى الخلق الفني كامنة فيه أزماناً طويلة تنتظر الفرصة للانطلاق والتجسد .

وربما يفسر ذلك عبقرية محمود مختار وكان أول مثال مصري معاصر ، فأعماله النحتية تمثل إنجازاً رائعاً وفريداً يماثل في عظمته وتفوقه إنتاج أكبر النحاتين المعاصرين له . كما أن ذلك يفسر أيضاً ما قدمه جيل الرواد المصورين محمود سعيد ويوسف كامل وراغب عياد ، فهم على اختلاف شخصياتهم وأساليبهم الفنية ، قد تجسدت في أعمالهم رهافة الحسّ الفني ، واستطاعوا أن يقدموا نموذجاً ودليلاً على



الفلاحة المصرية للفنان محمود مختار

تفوق المصريين فى مجال حضارى كانوا بعيدين عنه - لسبب أو لآخر - لمئات السنين .

★ البدايــات

ظلت مصر لفترة زمنية طويلة بمنأى عن اللحاق بركب التطور ، فقد كان يخيِّم عليها ظلام العصور الوسطى منذ أيام الحكم العثمانى ، فثقافتها ثقافة آسنة لا جديد فيها ، واقتصرت فنونها على الحرف الشعبية وتحسين الخطوط العربية ، واتسمت تلك الفنون بالبدائية والخشونة ، وقد وجد الغرب فى مصر لقمة سائغة ، فوطأ أرضها الأتراك والفرنسيون والانجليز يفعلون بها ما يشاءون ، فقد كان شعبها البسيط مغيباً ، ويفتقد أشدّ الافتقاد إلى مقومات الحياة بكل ما تعنيه من عوامل التقدم ذلك الشعب العظيم - الذى بــدأ منذ آلاف السنين حضارة الانسان ، وشيد على ضفاف النيل الإعجاز البشرى الذى مازالت آثاره تنطق به - كان يبدو كما رد هدَّه المرض بعد أن توالت عليه المحن وحلّت به المصائب حتى افقدته الذاكرة ، وذهبت بقواه الحضارية فأصاب الخمود إبداعه ، وضمرت مواهب أبنائه ، وأمسى فى أشد الحاجة إلى من يهزه هزاً ليفيق من غفوته ويستعيد بعض قوته .

وجاءت الشرارة التى كان لها فضل التنبيه ، وتمثلــت فى ذلك الاحتكـــاك الحضارى الذى حدث بين الحملة الفرنسية (١٧٩٨) وبين المجتمع المصرى ، فالجيش الفرنسى لم يكن مجرد جنود يحققون غزواً عسكريا فقط ، وإنما صاحبهم مجموعات ضخمة من العلماء والفنانين كانت مهمتهم إجراء مسح شامل لتلك البلاد الغشيمة صاحبة التاريخ الموغل فى القدم ، والتى تحتوى أرضها على كنوز حضارة رائعة كان لها ذات يوم شأن عظيم وأصحابها لا يدرون عنها شيئا ، فهم غافلون عن أهميتها غير مدركين لقيمتها . وهكذا إختلط فنانو الحملة الفرنسية بطبقات من الشعب المصرى ، ورأى المصريون لأول مرة ما نطلق عليه انواع الفنون الجميلة من رسم وتصوير ونحت ، فاقتربوا منها فى البداية بحذر وريبة ، إذ كانت تسيطر عليهم التعاليم الدينية التى تدعو لكراهية التصوير وعمل التماثيل ، وينبهر رجل مثل الجبرتى برسوم فنانى الحملة الفرنسية وتلك الصور الواقعية التى بها من البروز والتجسيم فى الفراغ ما يجعلها تكاد تنطق على حد تعبيره .

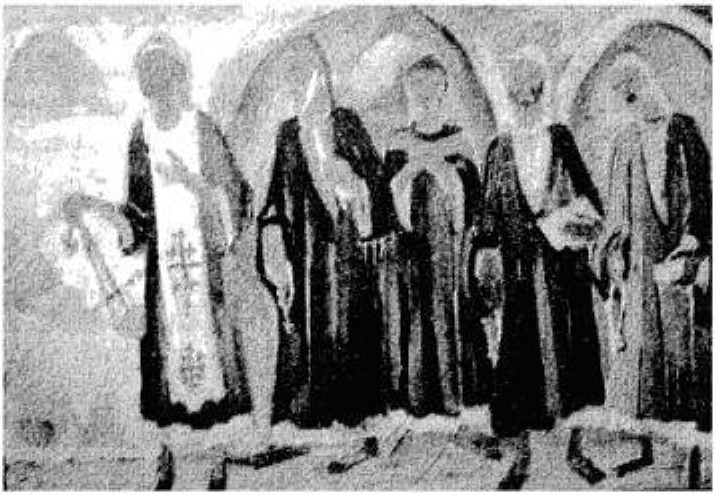
ثم جاء مسعى محمد على الذى تولى السلطة فى مصر (١٨١١)

نحو تكوين دولة مصرية حديثة ، فكانت الفنون من بين المجالات التى اهتم بها ، فأوفد صفوة الشباب المصرى إلى باريس لتعلم فنـــون النحـــت والحفر والرسم، وحين عاد هؤلاء تولوا نشر وتدريس الفنون فى المـــدارس الفنية الصنـــاعية ، وذلك إلى جانب الخبراء والفنانين الذين استقدمهم محمد على واستعان بهم فى إقامة القصور والمتنزهات والنوافير .

واستمرت فى عهد اسماعيل (وقد حكم مصر عام ١٨٦٣) الجهود فى إقامة دولة عصرية على ضفاف النيل ، وقد كان هدفه تحويل مصر إلى قطعة من أوربا ، فكثرت فى عهده مظاهر التحديث والبناء ، واحتشدت العاصمة بالأعمال الفنية والتماثيل . ومنذ عام ١٨٣٠ توافد على مصر الفنانون المستشرقون ، وعاشوا فى حىّ الخرنفش ، وكانت القاهرة القديمة بما فيها من أسواق وعمارة إسلامية وحمامات هى الموضوع المفضل لدى هؤلاء الفنانين بالاضافة إلى المناطق الأثرية ومناظر الصحراء ، وتـــراوحت اتجاهاتهم بين التســجيلية الواقعيــة والـــرومانتيكية والانطباعية ، وهى أساليب فنية كانت أوربا قد تخطتها فتحولت إلى قوالب محفوظة ومصنوعة . وقبل مائة سنة بالتمام فى عام ١٨٩٢ تكونت أول جماعة فنية فى مصر ، وأطلقت على نفسها (الدائرة الفنية) وأصدرت مجلة (الفن) ونظمت معارض فنية سنوية ، ولكن لم يذكر أن فناناً مصرياً كان ضمن المشاركين فيها .

وكان لهؤلاء الفنانين المستشرقين الفضل فى توجيه أنظار المحيطين بهم من المصريين إلى أهمية الفنون وجمالياتها ، وفى عام ١٨٩٢ افتتح الخديوى عباس حلمى أول صالون للفن بدار الأوبرا وكان يصحبه الأمراء والأعيان ووجهاء القوم .

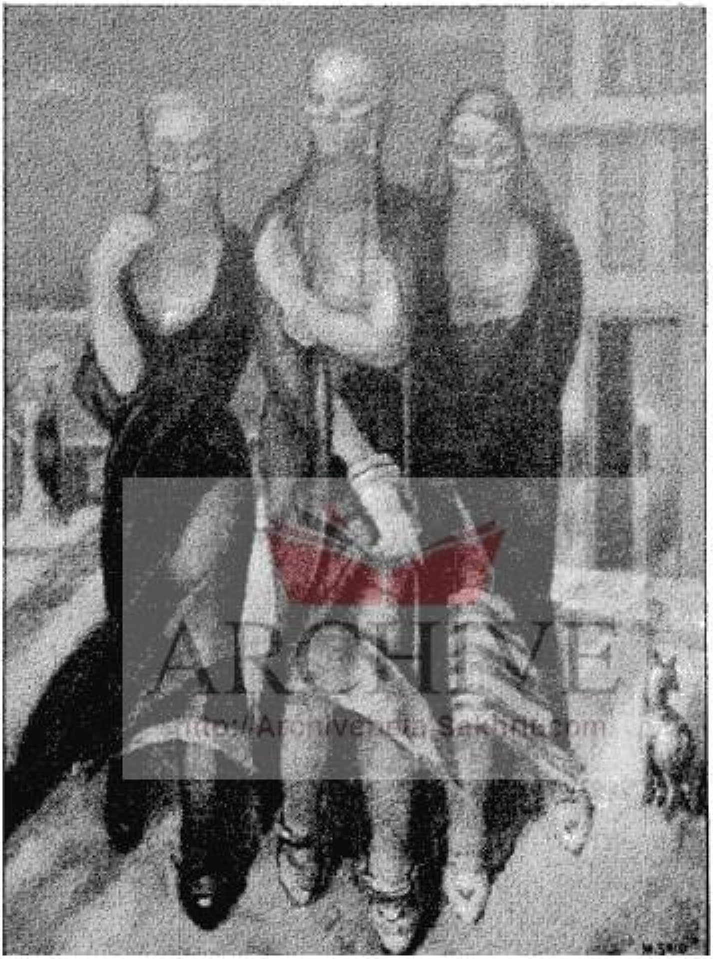
وهكذا أصبح للفنون الجميلة وجود متواضع على الساحة الثقافية ، مما دفع المفكرين والكتاب المصريين الذين زاروا أوربا واتصلوا بالحياة الثقافية والفنية هناك ، وانبهروا بفنون الغرب إلى تدبيج المقالات فى الصحف المصرية آنذاك مطالبين بالاهتمام بالفنون ومبرزين مدى حاجة المجتمع المصرى إليها ، وكان من أشد هؤلاء الكتاب حماساً لطفى السيد وقاسم أمين ، بل كان من بينهم الشيخ الإمام محمد عبده الذى انبرى للدفاع عن الفنون الجميلة ، موضحاً أنه لا خطر منها على الدين ، بل أن فيها فائدة محققة



إحدى لوحات الفنان راغب عياد



لوحة للفنان يوسف كامل



بنات بحري للفنان محمود سعيد

لتقدم المجتمع وتضافرت جهود الأجانب والمصريين فى انشاء مدرسة الفنون الجميلة ، حين تحمس لإقامتها الأمير يوسف كمال ، فكلف المثال الفرنسى (لابلان) بإعداد مشروع المدرسة ومنهجها ، وافتتحت رسمياً للدراسة المنتظمة فى ١٢ مايو عام ١٩٠٨ ، وضمت أقسامها فنون التصوير والنحت والزخرفة والعمارة ، وأشرف على التدريس بتلك الأقسام اساتذة أجانب من الفرنسيين والإيطاليين .

★ الاســـاتذة الأوائل

كان من بين الطلاب الذين التحقوا بمدرسة الفنون الجميلة حين فتحت ابوابها لأول مرة المثال محمود مختار (١٨٦١ – ١٩٣٤) ومن بين المصورين يوسف كامل (١٨٩١ – ١٩٧١) وراغب عياد (١٨٩٢ – ١٩٨٣) ويكوّن هؤلاء مع الفنانين الهاوين محمود سعيد (١٨٩٧ – ١٩٦٤) ومحمد ناجى (١٨٨٨ – ١٩٥٦) جيل الاساتذة الأوائل أو ما اصطلح على تسميته بجيل الرواد الذين كان لهم السبق فى حركة الفن المصرى الحديث . والأمر الغريب أن هؤلاء الاساتذة على الرغم من كونهم أوائل المصريين الذين أتيحت لهم فرصة صقل مواهبهم ، وأول من أبدع أنتاجاً فنياً بالمعنى المتعارف عليه فى الثقافة المعاصرة فإن انتاجهم قد احتوى قيمة فنية عالية لا تتأتى إلاّ فى مناخ فنى مزدهر متصل الحلقات .

وقد كان محمود مختار – وهو أول نحات مصرى بعد قرون طويلة من إنحسار الفن المصرى القديم – حريصاً رغم تعلمه على أيدى الأجانب فى مصر وفرنسا على أن يأتى عمله متصلاً بالفن المصرى فى عظمته وشموخه وبلاغة تعبيره ، وفى خلال حياة قصيرة أنتج آيات فنية ستظل خالدة كنموذج على ابداع الانسان المصرى ورهافة حسه الفنى . ولم يتلق محمود سعيد تعليماً منتظماً ، لكنه درس فى مدينة الاسكندرية على أيدى فنانين أجانب من أصحاب المراسم الخاصة ، وكانت له أسفاره العديدة إلى متاحف العالم وقاعات العرض فيها واستطاع هو أيضـــا أن يعبر – بصورة لها استقلالية فى الأداء والأسلوب – عن جـــوانب من الوجدان المصرى وروحه الثقافة ، وهو يعد رائد التصوير المصرى الحديث وأباه الروحى .

★ الشخصية المصرية فى الفن

ولقد أدّى جيل الرواد وخاصة مختار ومحمود سعيد ومحمد ناجى وراغب عياد دوراً بالغ الخطورة فى تاسيس الشخصية

المصرية فى الفن المعاصر ، وهم لم يستندوا فى هذا الدور إلى مرحلة فنية قريبة كانوا هم استكمالاً لها ، وإنما شقوا الطريق فى وسط ثقافى عام لم يكن بعد مؤهلاً لتقبل هذا الفن ، فالأساليب الأوربية كانت لا تزال مسيطرة على أذواق الطبقة القليلة المحبة للفنون ، وهى طبقة ارستقراطية كانت تتشبه بالأوربيين فى كل شىء فكان من الطبيعى أن يميل ذوقهم واعجابهم إلى تلك الأعمال القريبة الشبه من النموذج الأوربى .

واليوم وبعد مرور حوالى مائة عام من الفن فى مصر - وهى فترة ضئيلة فى عمر تكوين الثقافات والطرز الفنية التى تحتاج إلى تراكمات ثقافية ومناخ حضارى حتى تكتمل وتتحدد أبعادها - فإننا نرى أن الصورة أكثر وضـــوحاً ، حين تسقط التفاصيل والمظاهر ولا يتبقى إلاَّ كل ما هو أصيل وصادق ، فنستطيع أن نحدد كيف يصعد الخط البيانى أو يهبط فى محاولة تجسيد فن له شخصية مصرية مميزة . والحقيقة أنه بعد جيل الاساتذة الأوائل فإن تلك المحاولة قد تعرضت لاخفاقات عديدة ، ومسار خطها البيانى يبدو متذبذباً بين الصعود فى فترة والهبوط فى فترات أخرى ، ولقد تداخلت عوامل عديدة

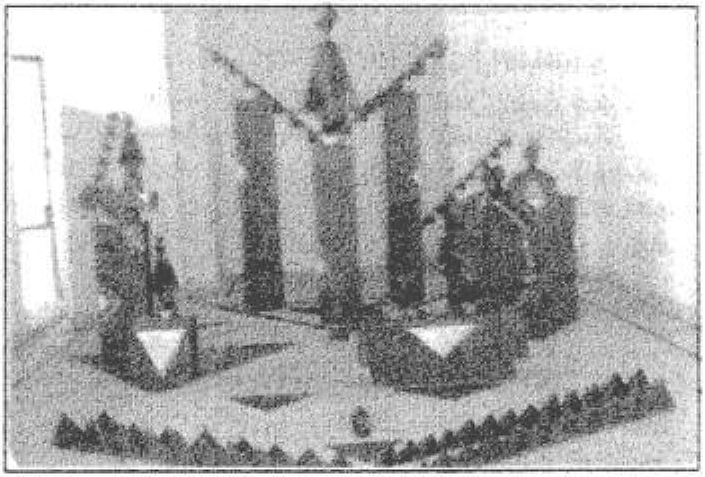


النحات السكندرى محمود موسى عـــام ١٩٥٥ أمام أحد أعمـــاله

ساهمت فى النكوص عن اتمام تلك المهمة الجليلة والتباس أمرها فى معظم الأحيان . فأمام المصريين تبدو الثقافة الأوربية كالعملاق الهائل الذى يجرف أمامه أىَّ منافس ، فهو مسلح بقرون من الخبرة الفنية منذ عصر النهضة الأوربية ، وهو يملك الأعلام المتقدم من طباعة فاخرة ووسائل نشر متقدمة وهو فى النهاية المهمين الحالى على أقدام العالم ، ومن هنا فإنه من السهل على الآخرين من أمثالنا - البادئين فى مضمار التحديث - أن ينطووا تحت لوائه بدلاً من مصارعته ، وذلك فى



وجه الفتاة جانبية سرى للفنان عز الدين حموده



تكوين نحتي للفنان احمد عبد الوهاب

لوحة للفنان زكريا الزيني



مجال الفنون يعنى التقليد الأعمى لكل ما ينتجه من أشكال وأنماط فنية ، وذلك التقليد دون شك يسعد أصحاب الثقافة الغربية فهو يدلل على تفوقهم وتميزهم ، فالمقلد يظل دائما صورة ممسوخة ومشوهة من الأصل لا معنى لها ولا قيمة . أمّا محاولة اثبات الذات ومجاهدة النفس والروح من أجل استخلاص عوامل التميز وعناصر الأصالة فتلك محاولة لا يسعى إليها الاّ المتفوقون ولقد كانت الروح القومية والشعور الوطنى الدفاق الذى صاحب ثورة ١٩١٩ وما بعدها سبباً من أسباب بلورة الفكر الفنى لمحمود مختار وصحبه ، أمّا فيما تلى ذلك من سنوات ، فإن انفتاح مصر على العالم - وهى مازالت فى مركز حضارى واهن - قد جرف المثقفين المصريين نحو إتباع الصيحات الجديدة هناك فى عالم الفكر والفن ورغم عدم تماثل أو تشابه الظروف الحضارية والتاريخية فقد رأينا فى مصر أصداء الاتجاهات الغربية المتوالية وقد جاءت مزيفة مصنوعة ، فزادت من ابتعاد الجمهور من تلك الفنون وهى التى كانت مازالت وليدة وبعيدة عن أذواق الناس وفى حاجة للاقتراب منهم وليس إلى الاغتراب عنهم .

★ الأجيـــال الفنية تتوالى

ومن أجل خلق فن مصرى صميم جاءت محاولات الفنانين تباعاً ، وبعد أن كان الفنانون أيام جيل الرواد يعدّون على أصابع اليد الواحدة فإن الساحة الفنية امتلأت بعشـــرات الأسماء ، وتعددت الجمعيات الفنية وجماعات الفنانين ، نذكر منها جماعة الخيال التى أسسها محمود مختار فى العشرينات ، وجمعية محبى الفنون الجميلة التى رعاها فى البداية الأمير يوسف كمال ومازالت إلي اليوم تؤدى دورها - وأن كان قد انكمش - فى رعاية الفن وتنشيطه ، وجماعة الدعاية الفنية ثم جماعة الخزف ، وجماعة المجمع المصرى للفنون الجميلة التى أسسها الناقد صـــدقى الجباخنجى ، وفى الثلاثينات ظهرت جماعة رابطة الفنانين المصرين ، وجماعة الفنانين الشرقيين الجدد وكان من بين مؤسسيها الفنان فؤاد كامل المصور التجريدى المعـــروف ، ولعل من أهـــم الجماعات التى ظهرت فى الثلاثينات كانت جماعة (الفن والحرية) وكان من روادها الفنان رمسيس يونان الذى يحدد هدفها فى عقد الصلة بيننا وبين الينابيع الحية فى الفن بعد أن كادت تقتصر صلتنا بالفن

الأوربى على صوره المتدهورة . وفى الأربعينات ظهرت جماعة الفن الحديث ثم جماعة الفن المعاصر التى كانت من أهم الجماعات الفنية التى ظهرت فى تاريخ حركتنا الفنية وكان رائدها المربى والمفكر حسين يوسف أمين ، والتى ضمت بين أفرادها اثنين كان لهما شأن عظيم فى تأكيد ملامح الشخصية المصرية فى الفن المعاصر وهما عبد الهادى الجزار وحامد ندا . ولقد آمنت تلك الجماعة التى اتخذت شعاراً لها الفن والمجتمع بأن الفن الذى كان سائدا حين انشائها هو فن ناعم مهادن ، وغرضه البهجة والزينه ، إذ كان يتلاءم مع عواطف ومشاعر الطبقة المترفه، فكان لهذا فناً ليناً سهلاً لا يعبر عن حقيقة الواقع والتراث ، كما جاء بعيداً عن الجماهير لا يتفاعل مع أحاسيسها ، وهو عاجز عن التعبير بعمق عن طابع الشخصية المصرية الصحيحة وما تطويه داخلها من أصالة ، وذلك هو الهدف الذى وضعت الجماعة نصب عينيها تحقيقه .

ولقد خلقت تلك الجماعات الفنية - وكانت تضم أدباء ومفكرين وفنانين - مناخاً صحياً ساعد على بلورة المفاهيم الثقافية ، وتصارعت الأفكار والاتجاهات ، وحميت المناقشات ، وتلك كانت من عوامل اثراء الحياة الفنية التشكيلية . ولكن ما يدعو للأسف أن الجماهير العريضة كانت بمنأى عن كل ذلك الثراء الفكرى والفنى ، فالتعليم لم يكن قد أثمر ثمرته بعد ، والأمية تخيم على الشعب الذى افتقد إلى جانب ذلك الاستقرار فى حياة اقتصادية ميسرة، مما ساعد على انصراف الفرد العادى عن الفنون والاهتمام بها أو متابعتها ، لذلك فقد ظل الحوار بين الجماعات والفنانين يدور فى دوائر مغلقة على عدد محدود من المثقفين .

ويصعب على المتابع لنمو الحركة الفنية المصرية أن يحصر اسماء عشرات الفنانين الذين اسهموا بدور كبير أو صغير فى بناء الكيان الفنى المصرى الحديث بعد جيل الاساتذة الرواد ، وإن كان يحسن الاشارة إلى هؤلاء الذين قدموا فى أعمالهم لمحات من الشخصية المصرية والروح والوجدان المصرى فى أعمالهم كالمثال جمال السجينى والمصورين رمسيس يونان وحامد عويس وتحية حليم وجاذبية سرى وعز الدين حمودة ومصطفى أحمد وحسن

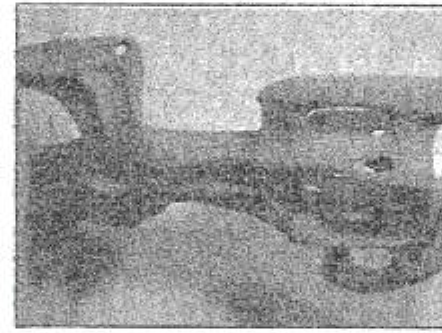


عروسة المولد (على الصفحة المقابلة)
للفنان جمال السجينى

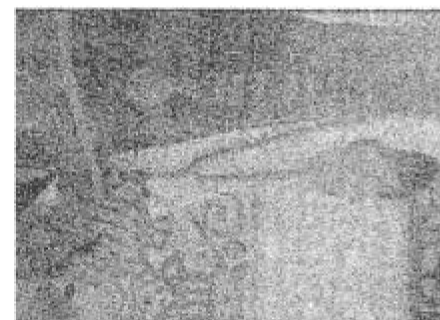
أحدى لوحات الفنان
محمد ناجى



نحت للفنان عبد الهادى الوشاحى



تمثال الفنان عبد الهادى الجزار



الفنانة جاذبية سرى فى مرسمها



سليمان وزكريا الزين ، والمثالين محمود مرسى وأحمد عبد الوهاب والوشاحى .

★ آفـــاق المستقبل

بينما جاءت بداية الفن المصرى الحديث مشجعة وباعثة على الأمل والتفاؤل فى قيـــام نهضة فنية تعيـــد للبلاد مجـدها القــديم ، فإن مسار التطور المتأرجح بين الصعود والهبوط يؤشـــر فى المرحلة الراهنة فى اتجاه الخطر .. ففى مناخ ثقافى عام يتسم بهبوط الذوق الفنى ، وتدهور مستوى التعليم ، وفى ظل انعدام المسئولية الجادة فيمن يتولون مواقع الســلطة ، حين وضــعوا همهم فى احـــراز المكاسب الشخصية ، والاقتصـــار على الأنشـطة المظهرية ، فإن المـــرء لا يتوقع خيـــراً خلال سنوات طويلة قادمة . إن مصر لا تعدم الموهــــوبين المتفتين بالرغبــــة فى التعــبير الفنى ، ولديهم الرؤى الأصيلة الصادقة ، ولكن هؤلاء كالنبت الذى لا ترويه مياه أو تحوطه عناية، فسرعان ما يذبل فيموت .. لقد جاء محمود مختار فى أوائل القرن من قرية فى قلب الدلتا طفلاً أحبَّ التشكيل بطين الأرض ، وتلقته المدينة ، واحتوته ، وضمته إلى صدرها بعناية ، وأرضعته غذاء التعليم والتثقيف ، وأرسلته على نفقتها ليزداد معرفة ، ولتتفتح موهبته وتثمر ، وفى يوم من أيام حياته تحدث البرلمان المصـــرى فى موضـــوع تمثاله (نهضة مصر) واكتتب الشعب بجميع طوائفه لاقامته ، وذهب زعيم الأمة – سعد زغلول – بنفسه – ليتفقده .. هكذا تكون الدولة حين تعترف بأهمية فنانيها فتسبغ عليهم رعايتها وتقديرها لأنهم فى النهاية وسام على صدرها ودليل تحضرها ..

لقد آن لنا أن نفيق من غفوتنا ، وأن نعمل – بكل الجدية والصرامة – لاقامة الدولة العصرية فقد شبعنا تخلفاً وكنا سادة الأمم ، والتاريخ لا يرحم ، والحياة لا تتوقف فى انتظار من يخطىء الطريق أو يبطىء الخطى ، والمســافات تتسـع والفجوة تزيد بيننا وبين من سبقونا على طريق التقدم ، والفنـــون التشكيلية أحد أركان التقدم وهى فى حاجة إلى إنهاضها من عثـــرتها وتوفيـــر الضمانات الكـــافية لنموها النمو الســـليم كى تثمـــر وتزدهر .



المجاعة

قصة بقلم : رجب سعد السيد

سمعت طرفا من حديث عامل نظافة بالمعمل إلى عامل نظافة من معمل مجاور ، دأب الإثنان على إحتلال فراغ كبير من أجهزة التبريد الشديد .. أزاحا العينات الخاصة بالأبحاث الجارية في المعمل ، وملأ الفراغ بلفافات من النايلون ومن الورق السميك ، ويصعب - ظاهريا - تخمين محتوياتها . عرفت هذه المحتويات حين عمدت إلى إستكشاف اللفافات ، وهالني أنها كلها لحوم بيضاء وحمراء .

في البداية . لم أعر الأمر أدنى إهتمام ، ولكنى أفتح أجهزة التبريد يوميا عدة مرات ، وتطالعنى اللفافات التى تحمل إسمى العاملين بخطوط عريضة .

كانت بداية إهتمامى بالموضوع حين قررت أن أعرف ما بداخل اللفافات ، ثم تطور الإهتمام حين سألت نفسي عن قدرتهما على تجميع كل هذه الكمية من اللحوم المتنوعة . ثم حادثت زوجتى . فاكبرت نشاط العاملين وحرصهما على توفير القوت لأولادهما . إعتبرت ذلك تلميحا إلى إتهام لى بالتقصير ، فلم أعد أذكر أمامها أى شيء عن هذا الموضوع ، ولكنها هى التى اهتمت بمتابعته ، ونقلت إلى عدوى الإهتمام ، فظللت أراقب حركة اللفافات من وإلى الثلاجات . ثم لمحتنى إحدى الزميلات وأنا أتفحص اللفافات ، فأظهرت أمامها إمتعاضى لهذا التعدى على أجهزة العمل التى يجب أن تخصص لصالح العمل فقط ، وليس للإستخدام الشخصى ، وافقتنى الزميلة على الفور ، وقالت فى لهجة حماسية ، إنه يجب وضع حد لهذا التصرف . ونقل الأمر إلى رئيس معملنا ليلقى بهذه اللحوم خارج المعمل . وحدثتنى ، بعد ذلك ، عن تكاسل عامل النظافة وعدم إمتثاله لأوامرها . قالت إن له طرقه الخاصة للوصول إلى رجال السوبر ماركت الإستهلاكى التعاونى المجاور لمركز الأبحاث الذى تعمل به ، وهو لا يخدم إلا نفسه .

وبمرور الوقت ، وجدتنى أبتسم أكثر فى وجه عامل النظافة ، وأوقع له على ورقة الوقت الاضافى دون مساءلة عن حقيقة الأيام التى عمل فيها أوقاتا إضافية . ووجدتنى أحادثه ، من حين لآخر ، حول موضوعات صغيرة لم تكن لنا أحاديث حولها من قبل . وحين تخيلت أننى قد أسرته بتلاطفى وتباسطى معه ، خذلنى عند أول طلب ، كما فعل

مع الزميلة المتحاملة عليه، إبتسمت وهو يرفض طلبي آسفا ، وقلت له : لا عليك يا رجل ، أنا أعرف صعوبة الأمر .. سأذهب بنفسي .. الطابور موجود .. والسلع متوافرة .. لا عليك ! .

ولم أذهب بطبيعة الحال ، فمنظر التزاحم والتضارب كفيل بالتأكيد على ضرورة الترفع مهما كانت النتيجة .

والغريب ، أن رئيس لعملنا لم يبد أي حماس تجاه وقف إعتداء عامل النظافة وزميله على ثلاجات العمل ، فبدأت أرصد العلاقة بينه وبين عامل النظافة المخصص لعملنا ، فلم أستطع التوصل إلى الإستنتاج الذي أريده ، إما لأنهما يجيدان تغطية العلاقة بينهما ، أو لعدم وجود مثل ما أفكر فيه أساسا .

واستمرت مراقبتي لعامل النظافة ، لغرض آخر .. فقد حاولت ، أكثر من مرة ، أن أذهب إلى السوبر ماركت ، ولكني فشلت في الوجود في الوقت المناسب .. لذلك كانت مراقبتي له ، لأعرف منه متى تمتلىء ثلاجات السوبر ماركت بالدجاج وعبوات اللحوم . وتمكنت من ضبطه متسللا ، أكثر من مرة ، فتبعته ، وكان التوقيت مضبوطا ، وكان الناس يتصارعون من أجل النفاذ من باب السوبر ماركت كان يذوب وسط الزحام ، أو يدخل من باب آخر ، فلا أجده - بعد مدة - إلا داخلا إلى العمل محملا بالمزيد من اللفافات ، فأبتسم له وأواصل إنشغالي بعملي .

أكثر من مرة ، إقتربت من تزاحم النساء والرجال عند الباب ومرة ، إندسست في وسطهم ، فدفعتني موجة إلى قرب الباب ، ولكنها إنحرفت قبل خطوة منه ، فأخرجتني من عمقها ، فلملمت نفسي ، وأسرعت راجعا إلى العمل قبل أن يراني أحد يعرفني . بقيت طيلة اليوم في حالة من النشوة الغامضة ، فقد إقتربت من الباب دون أدنى جهد .. وكان لدي من الأحاسيس ما يؤكد لي أنني لو كنت إجتزت الباب لحققت الفوز ، وخرجت من الباب الآخر بمثل لفافات عامل النظافة . أخذتني طرافة اكتشاف طريقة الإستسلام للحركة الموجية للأجسام المتزاحمة .. المهم أن أحاول - في المرات القادمة - أن أختار نقطة بداية جيدة ، وأن أبدي بعض التفاعل تجاه قوى التجاذب ، لأحتفظ بموقعي في وسط التيار المتدفق إلى داخل المجمع الإستهلاكي .

لم يكن سهلا ، وبخاصة لأن الأجسام

كانت خليطا من رجال ونساء ، فكنت أحرص على مراعاة الرفق مع النساء فلا أدافعهن ، فكنت أخسر مواقعى . وعلمتنى التجارب أن أتنازل عن رفقى ، فقد دفعتنى إمرأة حتى كادت تكسر ضلعى .

ويبدو أننى قد أصبحت وجها مألوفا لدى موظف البوابة الذى لم أكن أراه إلا خالعا حزامه العريض مهدداً أو ضارباً به من لا يهتمون لضرباته .. فقد رآنى الرجل أوشك أن أفقد نظارتى ، ويداى تمتدان تكادان تمسكان بطرف من البوابة الحديدية فلسع من كان يقاومنى ، وشدنى إليه ، فارتطمت به وأنا أفلح - أخيرا - فى إجتياز البوابة والإنتظام فى التيار المحموم والمتلاطم داخل المجمع .

تشكل الزحام فى حلقتين دواميتين ، الصراع - الآن - وصولاً إلى مركز إحدى الحلقتين، لتمتد الأيادى خاطفة عبوات اللحوم ، أو الدجاجات المذبوحة المنزوعة الريش والأحشاء والملفوفة فى أكياس النايلون . كانت حلقة اللحوم الحمراء تكاد تهدأ لأن الثلاجة أصبحت خاوية . إتجهت ، مع من خسروا جولة اللحوم الحمراء ، إلى حلقة الدجاج حيث كان الصراع يتزايد . لم أكن أفعل غير أن أمد يدى فى إتجاه الثلاجة الكبيرة المفتوحة فى وسط الحلقة . كان بعض النساء والرجال يخرجون من الحلقة وهم يحتضنون صيدهم من الدجاج ويسرعون فى إتجاه طابور الخروج . كنت مطمئنا إلى وجود الأمل فى الفوز ببعض الدجاج كانت السلة الحديدية فى يدى تعرق حركتى وتصطدم بسلال الآخرين فتركتها تسقط تحت الأقدام ، وتعثر بها رجلان وإنشغلا بها بعض الوقت عن صراعهما فى الطريق إلى مركز الدوامة . أخيرا ، لمست يدى جدار الثلاجة ، ولكنى كنت لا أزال عاجزا عن الإمساك بالدجاج الذى كان يتناقص بداخلها . كانت أمامى سيدة تنحنى منهمكة فى تكديس سلتها بالدجاج ، غير عابئة بثدييها اللذين كان يحطان على ذراعى الممتدة المتشبثة بجدار الثلاجة . إكتفى رجل إلى جوارها ، ودفع من كانوا إلى الخلف منه ، وخرج من الدائرة ، رافعا سلته الثقيلة فوق رأسه . لمحت مكانه يخلو ، فدفعت السيدة ذات النهدين الثقيلين إلى اليمين قليلا، إرتفع صوتها بكلمات احتجاج ، ولكنى لم أكترث ، ودفعت نفسى

إلى الفراغ الذى خلا بتزحزحهـا أخيـرا ، إلتصقت بجدار الثلاجة . كان مستوى سطح الدجاج فيها يقترب من القاع .. ألقيت بنصفى الأعلى ساقطا وراء الدجاج المتناقص .

أمسكت بيدى دجاجتين ، إكتشفت فداحة خسارتى لسلتى ، إضطررت إلى أن أدفن دجاجة تحت إبطى ، وأغوص لأمسك بثالثة . نجحت فى تحقيق ذلك . قلت فى نفسى : الدجاجات الثلاث بداية طيبة .. والتجربة ناجحة فى مجملها ، وملیئة بالدروس ، وأهمها ألا تتخلى عن سلتك مهما كانت الظروف .

وكان على أن أدفع الواقفين إلى الخلف لأشق طريقى خارجا بدجاجاتى الثلاث أحتضنها بين صدرى وذراعى . كنت حريصا على ألا أفقدها تحت الأرجل المتداخلة لذلك خفت أن أشترك فى صراع التدافع من أجل الخروج ، وفكرت فى أن الساحة ستهدأ بعد قليل ، فقد أوشك قاع الثلاجة أن يظهر عاريا . وتركت نفسى واقفا ، تدفعنى الاجسام من الخلف إلى الأمام ، فيزداد إلتصاقى بجدار الثلاجة . صرخ صوت نسائى إلى الخلف منى ، لاعنا وآمرا أن أترك مكانى . إلتفت برقبتى ، فأكدت السيدة ذات الوجه الملطخ بالأصباغ أنها تقصدنى ، وأننى يجب أن أتحرك ولا أقف كالجدار فى وجهها . صعب على أن أشرح موقفى فى كلمات قليلة سريعة .. لم أجد الكلمات .. كما أن وجهها كان عدائيا ، مليئا بالسخط . سارعت تتهمنى بالخرس والصم . إنضم إليها رجلان . وامتدت أذرع عديدة تشدنى للخارج دون أن تحدد لى طريقا خاليا أخرج منه . وفى نفس الوقت ، كانت السيدة ذات النهدين الثقيلين تستدير لتخرج ، فالتقت معى فى نفس الموقف . لم يصرخ فى وجهها أحد ، برغم أنها كانت تتقدم وتدفعهم إلى الخلف . وقد علمتنى التجربة داخل المجمع الإستهلاكى أن اغتنم الفرصة لأحقق الهدف وإن كان مجرد سنتيمترات أتقدمها فى الإتجاه المطلوب . لذلك ، إتخذت ظهر السيدة المتقدمة هدفا لى . ولكنى لم أهنأ بتقديرى للموقف ، فقد دفعتها الموجة البشرية اليائسة إلى الخلف ، فوجدتنى مضغوطا بين مؤخرتها وجدار الثلاجة . لم تلتفت إلى من دفعوها إلى التقهقر ، وإنما فتحت فى وجهى سيلا من شتائمها . صرت متهما . أكدت

السيدة للجميع أننى ألتصق بها منذ كنا فى الطابور الخارجى ، وأنتهز الفرصة لتحقيق نواياى الدنيئة . ولحسن حظى ، أن الجميع كانوا فى سباق الأمل الأخير للحصول على الدجاج المذبوح من قاع الثلاجة ، فلم يلتفت إليها أحد من حاملى وحاملات السلال الحديدية . إسترحت لذلك، وقررت أن ألتزم الصمت كأنها تشتم شخصا غيرى ، أولا لأننى لم أتعمد الإحتكاك بها ، وثانيا لأننى فى مثل هذه الحالات أعجز عن تحديد الكلمات التى توضح موقفى وتحسم الأمور ، وأجدنى أتحدث بلغة لا يفهمها الآخرون ، فأفقد التعاطف وأخسر القضية. لم تكف السيدة عن إهانتى ، برغم التجاهل الذى قوبلت به . وكفت عن التدافع لتخرج من الحصار ، ووقفت بالشتائم ولا تحاول الإبتعاد بجسمها عنى ، وفجأة ، أنشق الحشد بتأثير صوت خشن عال يأمر الجميع بالإفساح . كان الرجل ذا نظارة غامقة . أمر السيدة أن تكف عن الصياح ، ثم شدها من كتفها فأخرجها من موقعها حيث كانت تقف أمامى ، فصار الرجل فى مواجهتى تماما . حاولت السيدة أن تشرح له ، فأسكتها قائلا أنه قد رأى كل شىء من موقعه بأعلى . نظرت إلى أعلى فوجدت حجرة صغيرة زجاجية الجدران تطل على كل أركان المجمع ، فوجئت به يشدنى من رباط عنقى فى عنف ، وهو يوبخنى بكلمات شديدة الوقع . كان المشهد قد صار يستحق المراقبة ، فوجدتنى محط أنظار الرجال والنساء ، وقد كفوا عن سباقهم إلى الدجاج . كانت كلمات الرجل تؤكد إتهام السيدة لى . خبطنى فى كتفى بقبضته ، مؤكدا أننى لا أستحق الإنتفاع بالسلع التى تقدمها الدولة للمواطنين الشرفاء . خلص الدجاجات الثلاث من حضنى ، وقذف بها فى إتجاه الثلاجة ، فتلقفتها الأيادى قبل أن تصل . أخذت أبحث عن كلماتى لتدافع عنى . كنت - فقط - أترجم مفاجأتى بما حدث ، وأننى إنسان محترم ، ولى وظيفة علمية ذات شأن . وكان الموظف المسئول فى المجمع الإستهلاكى لا يزال ممسكا بصدر قميصى ورباط عنقى ، ويقول : حتى لو كنت وزيرا لقد رأيت أفعالك النجسة بعينى !! .

ثم إقترب بى من باب الدخول ، وفك قبضته عنى ، وقال : هذه المرة سأدعك إلى حال سبيلك..

إذا رأيتك هنا مرة ثانية ، لن أتركك إلا للشرطة ! ..

خرجت إلى الشارع ، فتخلصت من عشرات النظرات المتهمة . ولكن ، بقى أن أنفض عنى إحساسى بالعار لوقوعى فى تلك الورطة . ترددت قليلا وأنا أراجع موقفى ، مؤكدا لنفسى أننى لست بحاجة إلى إستعراض دلائل براءة سلوكى طوال مراحل مغامرتى الأخيرة وصولا إلى الدجاجات الثلاث . صار ذهنى مضطربا ، وانقذنى من التشويش قرب مبنى المركز ، فأسرعت إلى مكتبى فى معملى ، أنفرد بنفسى ، وأحاول الإحتماء من شعور بالمهانة يعصف بى .

إرتحت إلى أن رئيس المعمل كان متباعدا كطبعه ، وكانت زميلتى تبدو منهمكة وغارقة بين المعدات المعملية . وجلست أنا إلى مكتبى فاقدا القدرة على الإمساك بفكرة محددة . كنت حزينا ، ولكنى إبتسمت ورأسى بين يدى . صاحب إبتسامى صوت إحتكاك هواء الزفير فى فتحتى أنفى . رسمت بعض الخطوط والدوائر فى ورقة بيضاء . أخيرا ، تمكنت من تحديد معالم فكرة . قلت لنفسى إن ما حدث لى ليس إلا مظهرا هامشيا . فى الأزمات تتداخل الخيوط ونفتقد إلى الوضوح . تأكدت اليوم من أننا نخطو إلى المجاعة ، وأنا الذى كنت ابتسم للأمل ولا أميل إلى آراء المتشائمين .

إقتربت الزميلة تزفر ساخطة ، قالت إن التجربة فشلت مرة أخرى

أدنت أوراقها منى ، وأخذنا نراجع المعادلات . لم أستطع التركيز . إعتذرت عن عدم قدرتى على المشاركة ، وقمت أنوى العودة إلى البيت ، عند الباب الخارجى ، رأيت عامل النظافة يقترب وفى يده كيسان متضخمان . لمحت إبتسامة على وجهه .

قبل أن أصل إلى البيت ، ملت إلى السوق المجاورة لأبتاع قائمة الأشياء التى كتبتها لى زوجتى فى الصباح . إشتريت دجاجة . ذبحها البائع وناولها لصبى التنظيف . إقتربت فتاة صغيرة فى ثياب متسخة دنت من البائع ، وحدثته بصوت خفيض ، وأعطته أوراقا مالية صغيرة . إستدار البائع ، وراح يلملم أرجل الدجاج المذبوح المتناثرة على أرضية الدكان . وضعها فى ورقة ، ووزنها ، ثم أعطاها للفتاة . عاد الرجل إلى الأرجل المتناثرة ، يرفعها ويجمعها فى إناء مملوء بها . سألته وأنا أشير إلى الإناء : « بكم تبيعها ؟ » .

قال : « الكيلو بنصف جنيه » . عدت أسأله : «القطط ؟ » . ضحك وقال : « أى قطط يا أستاذ ؟!.. لبنى آدم !! » .

وكان صبيه يقدم لى كيسا به دجاجتى منظفة، فأخذتها منصرفا ، بينما كان (المعلم) يواصل قهقهته مبينا القيمة الغذائية لحساء أرجل الدجاج .

إنتهى بى المطاف فى البيت . تعجبت زوجتى لحالى . حملت عنى المشتريات عند الباب . جاءت تسألنى ، فى حجرتنا ، عن سبب وجومى . لم أحدثها عن وقائع اليوم كلها .. فقط أشرت إلى ما رأيته عند بائع الدجاج . أكدت لى أن ذلك ليس بجديد ، وأن ثمة من يشترون آذان أو حوافر البهائم من المذبح، وأنها – خلال سفرنا معا – رأت خادم العربة فى القطار يلتقط عبوات الشاى المستعملة من الأكواب الفارغة قبل أن يعود ليجمعها عامل البوفيه .. ولكن تلك كلها أمور عادية ، لأن الله خلق الفقر والغنى . وكانت تساعدنى فى إرتداء ملابس البيت وتتحدث ببساطة ، فهى لا تعرف – ولن أدعها تعرف – ما وقع لى عند ظهر اليوم . قالت أيضا : دعك من القلق ، فالله يسير الأمور منذ خلق الكون ، ولا تصدق التوقعات والتنبؤات فى الكتب التى تتحدث عن غيب لا يعلمه إلا الله . وتركتنى إلى المطبخ .

بقيت على حالى ، أحمل مهانة يومى التى تطرقت بى إلى جانب أبواق التحذير من المجاعة القادمة . تركت الحجرة وذهبت إلى زوجتى حيث كانت تعد الطعام . كانت منصرفة تماما إلى عملها . فتحت الثلاجة ، فوجدتها مكدسة بأنواع الأطعمة . إلتفت إلىّ زوجتى بين أوانى الطبخ وقالت وهى تتذوق ملوحة ما تطهيه : على فكرة ، نحتاج إلى مخزون من اللحوم .

إعتبرتها واحدة من ملاحظاتها التى اعتادت إن تلقيها دون أن تنتظر منى جوابا . إلتزمت الصمت وأنا أكشف أغطية الأوانى واحدة بعد الأخرى . عادت زوجتى – على غير عادتها – تؤكد على ملاحظتها . لم أرد عليها فى الحال ، وإنما إقتربت منها ، وهى تنظر إلىّ متسائلة . كنت أضع كفى على كتفها ، وكانت كلماتى بطيئة :

– « ربما كان من الأفضل أن نعتاد على بعض الحرمان !! » .

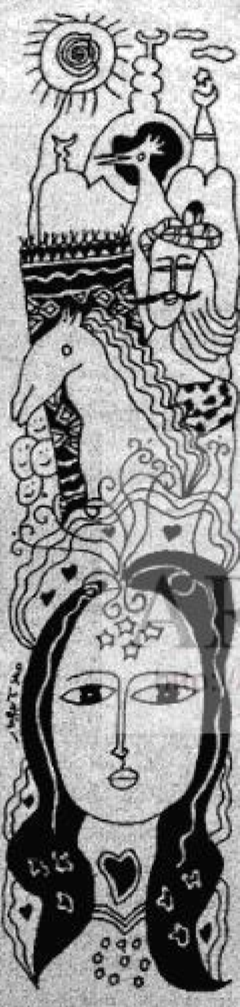
وكانت لا تزال تنظر فى عينى متسائلة متشككة ، ولكنى لم أكن فى يوم من الأيام جادا كمثل جدى وأنا أنطق تلك الكلمات .

عشق البازى

شعر
أحمد تيمور

الهلال سبتمبر ١٩٩٢

عيناك ممالكُ لم تُفتحْ من قبلُ لغازى
مكتوبٌ فوق مداخلها :
لا يدخلها إلا الصقر الشاهين البازى
لا يقطف أثمار قرونِ أيائلها
غير الخببىّ الهزجىّ الرجّازِ
لا يرتاح بظل خمائلها
إلا العائد من رحلتهِ للشمس على متنِ شعاعٍ هزّازِ
وأنا المملوك الضالع فى رد الظاهرة إلى العلةِ
والبارعِ فى فضّ غموض الألغازِ
أومَزتُ إلى هاجرة الصحراء فأغمضت العينَ
وأغمضِ ليلُ المدن مصابيح الأعمدةِ .. بلا إيعازِ
أسرجتُ حصانى العربى
من الشطِّ الألبىّ لنهر الدانوبِ
وثبتُ على حرف الجرف القارىّ لإفريقيا مهمازى
وسحبت ورائى كل سهول النرجسِ ...
من غربِ صفاقص حتى شرق الأهوازِ
أقبلتُ من الهند .. السند .. الصين .. السينِ
ومن سقف العالم فى التبت
ومن سجادته العجمية فى شيرازِ .
وأتيت اليك بأشواقٍ تتجاوز آماد الآفاق
وتلهافٍ .. هافٍ .. مجتازِ
وتقدمتُ على صدغى الأيسر شامتى الشاميةُ
وعلى رسغى الأيمن وشمى اليمنىُ
وفى جبهتىَ المبسوطةِ .. عرقٌ قوقازى
وهتفتُ بصوتى المصرىّ : أنا الصقر الشاهينُ
ولقبى عند صغار الكركىّ وأفراخ القمرىّ البازى



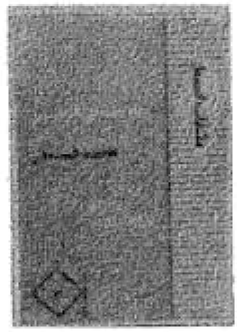
فانسحب المزلاج الفجرىّ على بوّاباتها المائية
فسبحتُ لخلجان يديها من بوغازى
وتسلقتُ مدارج زنديها .. زبداً فواراً
لا يفصلنى عن باطن كفيها غير القفاز
شرعتْ تتطلع نحوى .. يسلبها الدهش .. تماسكها
وأنا أتكثّف عضواً عضواً من شبّورة غازى
قالت : من ؟
قلت : نسيم البحر يودّ يعانق فى رئتيك نسيم البرّ
فقالت : لا يتعامد أبداً كل موازى
قلت : هما مملكتا عشقٍ عيناك لهذا العالم
قالت : ورعيتىَ العشاق المعشوقونَ
فقلت : ولكنى يا سيدتى لا أتقن إلا أن أعشقَ
بعض رعاياك أنا .. ياذات الحسن المسهب فى الإعجاز
قالت : أين هداياك ؟
فقلت لها : أوجزتُ هداياى الذهبيةَ فى حبةِ قلبى
هل مغفورٌ - يا كنزاً مكتفيا بجواهره - إيجازى
أوجزت فضائى المطلق فى نظرة عينى
هل مسموح أن تتحلق
حول كواكب أهدابك أجوازى
ويحطّ على أقمار جفونك
روّاد فضائى الدمعيون .. يلبّونَ
ففى عينيك القدسية - يا أم قرى أحلامى -
يتجمّع كل حقيقىٍّ .. فى عاطفتى .. ومجازى
واليك تحج شعاب النجوى من ربعى الخالى شجواً
ويسوق الهمس قوافلهُ
من شفتىْ نجدى وحجازى

محمد البساطى ورواية قصيرة

بقلم : د . لطيفة الزيات

فى المجموعة القصصية الأخيرة لمحمد البساطى منحنى النهر ، تجمع بين معظم القصص وحدة المكان ، ونجد أنفسنا والأمر كذلك أمام قصص متصلة تلقى الضوء على الكثير من زوايا المكان الذى يوحدها . غير أن القصص الأربع الأولى تنفرد بوضع مميز من حيث أنها تندرج فى وحدة تجعلها أشبه ما تكون برواية قصيرة ، جديدة كل الجدة فى أكثر من إتجاه ، وجميلة من حيث ترسى بلمسات الفرشاة لمسة بعد لمسة ، قصة بعد قصة الجو القاهر السائد فى البلدة فى منحنى النهر ، وخاصة بين الجنسين وشىء ما طازج وجديد فى لمسات الفرشاة ، وشىء ما رهيب حين تتجمع اللمسات .

فى القصة الأولى « منحنى النهر » ، يتتبع الكاتب مجموعة نساء البيوت الكبيرة فى البلده وهن يتنـزهن تحت أشـجار الكافور عند منحنى النهر ، ومجموعة من الأولاد من طلبة المعاهد والجامعات العائدين إلى البلدة فى الأجازة الصيفية يجلسون على مبعدة على الكوبرى ، يختلسون ما بين الحين والحين والحديث بينهم يتلكأ ويتعثر النظرات إلى النسوة المتنزهات . والحدث يحكى لا كحدث حدث ذات مرة ، بل كالحدث الذى حدث ويحدث بصرف النظر عن تغيّر الزمن ، كلمـا خرجت النسوة للتنزه ، وكلما تواجد الأولاد فى البلدة ، ويعمق من هذه الحقيقة إستخدام الكاتب للفعل المضـارع المتصـل . والنسـوة مقهورات وكذلك الأولاد كما تتبين من



الحكاية ، والقاهر غير منظور وغائب عن المجال ماديا وإن جثم بحضوره معنويا على المكان وعلى كل مكان فى هذه البلدة عند منحنى النهر . والقاهر قد يكون الرجل أو الأعراف أو هما معا .

والحدود مرسومة على المستويين المادى والمعنوى بين النساء من جهة والأولاد من جهة أخرى لا يجرؤ أحد على تخطيها سوى طفلة تتجاوزها أحيانا ، عابرة الكوبرى الذى يجلس عليه الأولاد . ويعم الإضطراب الخفيف بين الشباب حتى تعود الطفلة إلى مكانها حيث تنتمى ، وسيكون لهذه الطفلة أو شبيهاتها شأن فى القصص الثلاث التالية حيث تستحيل إلى بنت تتجاوز الحدود المرسومة على مر العصور .

ولا تذكر كلمة القهر ولو مرة واحدة فى هذه القصة ، غير أن القصة توجز ببلاغة ودون أدنى مباشرة حالة القهر الواقعة على النساء والأولاد ما بين توهج الرغبات والقمع لهذه الرغبات ، بين السعى إلى الإنطلاق والقيود الداخلية والخارجية التى تقمع هذا السعى ، بين الرغبة فى الحياة والوأد لهذه الحياة .

ولا شىء يحدث فى القصة إلا الأولاد جالسين على الكوبرى يختلسون النظرات ما بين الحين والحين إلى نساء البيوت الكبيرة تفصلهن عنهم مسافة طويلة . واستخدام فعل المضارع المتصل يضفى على اللوحة ثباتا يصل إلى حد الجمود ، ويعمق من الشعور بالقمع الواقع على النساء والأولاد وعلى أهل البلدة جميعا . واللوحة تكاد أن تكون ثابتة ، ما تكاد تتحرك حتى يضفى القمع غير المنظور الثبات على جزئياتها ، واللوحة تكاد أن تكون صامتة ، فما أن ترتفع الضحكة حتى يعقبها صمت مفاجىء ، وما أن تبدأ واحدة من النساء فى الغناء حتى تطلب منها بقية النساء إلتزام الصمت ، والهمس يُغلف كل ما يقال ، وذات القمع واقع على الأولاد ، الذين يلمحون الأذرع العارية ، ويتخيلونها



كما تخيلوها دائما بيضاء وممتلئة .

إن الحركة التى لا تلبث أن تستحيل إلى ثبات ، والضحكة التى لا تلبث أن تموت، والصوت الذى لا يلبث أن يتحول إلى الهمس ، والمسافة المرسومة التى تفصل النساء عن الأولاد ، تبلوّر حالة القهر والقمع السائدة فى البلدة ، وخاصة بين الجنسين ، وتخرجنا من هذه القصة واجفين يؤرقنا الشعور بمدى هذا القهر .

وتُرس هذه القصة الأولى الجو القاهر السائد والذى سنرى منه أكثر من وجه فى القصص الثلاث التالية ، عن طـريق التعميم ، وترسم من خلال التعميم الحدود الضيقة المتاحة فى هذه البلدة ، والخانقة لكل محاولة إنفلات أو إنطلاق ، فى التعامل مع مجاميع من الناس دون أفرادهم ، فهناك النساء دون تمييز وكذلك الأولاد ، والطفلة التى تتجاوز الحدود المرسومة .

★★★★

ومن الطفلة التى تتجاوز الحدود المرسومة سننتقل فى القصة التالية إلى «البنت تغتسل » وبداية التخصيص بعد إطلاق التعميم فى القصة الأولى ، وإن لم نعرف للبنت إسما فى هذه القصة فهى تبقى البنت وكل بنت تتجاوز الحدود المرسومة . وهى البنت بكل ايحـــاءات البنوتة ، الجسد النحيل ، الصدر الذى لم يكتمل نموه ورغبة البنت فى الإنطلاق أو بالأحرى الإنعتاق من الجو القاهر دونما إمكانية ولا مجال للإنعتاق فى البلدة على منحنى النهر .

فى نفس المكان بأعرافه القاهرة وبالصمت الذى يريم عليه نلتقى ببنت تغتسل فى النهر ، متشحة بعتمة الفجر والضباب الأبيض يتصاعد بعيدا عن سطح الماء ، بنت تختلس فى ظل الجو القاهر لحظة فرحة . وما أن يتبين شعاع الضوء ويتحول الضباب الأبيض إلى دخان خفيف يتمارج بعيدا ، حتى تنكمش البنت ، وتعود إلى الشـاطىء سعيدة بلحظة الفرحة المختلسة .

ويحتل الوصف الدقيق للمكان فى ظل عتمة الفجر ، وتكاثف الضباب ثم تحوله أخيرا إلى دخان خفيف ، من الأهمية ما تحتله رحلة الفتاة عارية إلى الشاطىء الآخر ، من حيث تتوقف الرحلة وأمدها على العتمة وتكاثف الدخان وتنتهى بنهايتهما .

وتجرى أحداث القصة التى لا تزيد عن وصف لفتاة تغتسل والطبيعة متغايرة من

حولها ، وسط سكون يكاد أن يكون شاملا، وكأن ليس فى الكون سوى النهر والفتاة ، غير أن هذا الشعور يبقى زائفا ، ففى الكون الذى يتمثل فى البلده عند منحنى النهر دائما رقيب يتشح بنفس الصمت والحيطة التى تتشح بهما الفتاة .

« تحرك رجل كان راقدا فى المصلى مختفيا خلف فرع شجرة يميل على المصلى ... إمتدت يده فى حذر وأزاحت أوراق الشجرة بين فرعين صغيرين ، كانت حركة هادئة حتى أن العصفور المنكمش تحت ورقة عريضة على أحد الفرعين ظل فى رقدته لم يتحرك . »

وهذا السكون القاتل يطبع الحدث بطابع القهر الطاغى ، الذى يشمل الفتاة ومن يراقبها على السواء .

وبعد التعميم الذى يرسم الجو العام للقهر فى القصة الأولى فى هذه البلدة على منحنى النهر تصل فى القصة الثانية إلى شيء من التخصيص للبنت تختلس لحظة فرحة رغم كل شيء ، القانون الطبيعة يسرى فى وجه كل القهر ورغما عن كل القهر .

****

وفى القصة الثالثة للموت « وقت للموت » نصل مع مزيد من التخصيص إلى الثمن الفادح الذى تدفعه بنت الدغيدى نتيجة للحظات الفرح المختلسة فى هذه البلدة على منحنى النهر .

ومع هذه القصة ستكتسب البنت نسبا كإبنة وأخت ، وإن لم تكتسب إسماً كهذه الإنسانة الفريدة والمستقلة ، وتكون وهى إبنة الرابعة عشرة حاملا فى شهرها الرابع ، وسيقرر الدغيدى وأبناؤه الذكور قتلها ، وستنتظر الحارة كاتمة الأنفاس إخراج القرار إلى حيز التنفيذ ، وسيبدو فعل القتل فى هذا الجو القاهر فعلا يوميا عاديا من طبائع الأشياء ، وكأنه الموت القدر وإن عرف موعده سلفا ، ووقت هذه البلدة على منحنى النهر هو وقت الموت / القتل .

ويعلق بنيان القصة ونسيجها على طبيعية القتل فى هذا المكان بإدراج فعل القتل فى ظل غيره من الأحداث اليومية الطبيعية . مساوياً لغيره من الأحداث وعلى نفس القدر من الأهمية . واللقطات التى تصور صورة البنت التى تملأ الدنيا مرحا وحيوية ، وصورة البنت وقد إستحالت إلى جثة فى جوال مربوط ، تحكى جنبا إلى جنب وعلى نفس الدرجة من الأهمية مع قصة أخويها شاكر وزيدان اللذين هجرا بيت الدغيدى وعادا بعد غياب لحضور عملية القتل . وقصة الأخرين لا تضيف لا الكثير ولا القليل إلى الحدث ، وإن قامت بدور وظيفى فيه بمدى ما تحاصر مأساة القتل ، وبمدى ما تدرجها فى الإطار كجزء لا يتجزأ من طبيعة الأشياء فى هذا الجو الأخرس القاهر الذى هو جو بلدة « منحنى النهر » .



دراما الصراع

ويتبنى الكاتب عدة تقنيات أخرى ليُرسي بيننا كقراء وبين فعل القتل مساحة شعورية مدرجا لهذا الفعل كطبيعة من طبائع الأشياء فى هذه البلدة . ووجهة النظر الذى يواتينا منها الحدث ليست وجهة نظر البنت الضحية ، ولا وجهة نظر أى من أفراد عائلة الدغيدى ، ومن ثم فنحن لا نعرف أى شيء دار داخل بيت الدغيدى ، ولا نتعرف ولو على لمحة من الدراما التى إصطرعت داخل هذه البنت حين اكتشف الإبن عبد السلام بمحض الصدفة أن أخته حامل فى الشهر الرابع ، ولا نعرف الأوضاع الى واكبت إتخاذ القرار . ولا وقع القرار على البنت . بل إن النص هنا معادى بطبيعته لمثل هذا الصراع النفسى أو الدراما التى تتولد نتيجة للصراع الخارجى والداخلى ، فالنص يستهدف أولا وأخيرا تسجيل الحقيقة كما تبدو لمراقب محايد ، وتسجيلها بموضوعية وأمانة دون ثمة إحتجاج مباشر ، غير ذلك الاحتجاج بالطبع الذى ينطوى عليه ترتيب الأحداث .

ووجهة النظر التى يواتينا من خلالها الحدث فى هذه القصة الثالثة والتى تليها هى وجهة النظر الذى واتانا منها الحدث فى القصتين الأولى والثانية ، أى وجهة نظر الكاتب / الراوى . والراوى هنا أبعد ما يكون عن الكاتب العليم بكل شيء راوى محمد البساطى شأنه شأن رواة كتاب الستينات لا يزعم لنفسه معرفة الحقيقة فى كليتها ، ظاهرها وباطنها ولا يعرف عنها سوى ما ترصده حواسه ، وخاصة حاسة البصر . وهو راو موضوعى ومحايد يسجل الظاهرة من الخارج دون أن يعلق عليها أو يناقشها ، ودون أن يزعم لنفسه الحق فى التغلغل إلى داخلها وتبيان أسبابها ومسبباتها . وهذه الرؤية القاصرة للحدث من خارجه دون داخله تجعل الوصف دائما وأبدا أقل من الموصوف ، وتدعو القارىء والأمر كذلك إلى المساهمة مساهمة فعالة فى عملية القراءة باستكمال مالم يستكمله الكاتب ، وبإغناء النص بالمشـــاعر التى تعمد الكـــاتب عدم إستثارتها ، وبإعمال خياله ووجدانه معا إن محمد البساطى يحركنا عاطفيا لا عن طريق الإثارة العاطفية بل بالبعد ما أمكن عن الإثارة العاطفية ، وهو فى كل الحالات لا يجعل الوصف زائداً ولا حتى مساويا للموصوف ، وإنما يأتى به دون الموصوف ،

نائيا به عن الإغراق فى العاطفية ، وداعيا القارىء لكى يُكمل مالا يقال : وأن يغنى بمشاعره ما استبعد من النص ، كما نبكى نحن حين يعز الدمع على صاحب المصاب.

وفى قصة « وقت للموت » كما فى القصة التى تليها والتى تنهى هذه الرواية القصيرة ، لا يقف الكاتب / الراوى وسيطا بيننا وبين الحدث فحسب ، بل يضاعف هذه الوساطة من حيث يلتزم الكاتب / الراوى بما تراه شخصية من شخصيات الحدث فى علاقة هامشية لا تنطوى على الإندماج مع الحدث ، والشخصية الهامشية هى عم خليل البقال المواجه لبنت الدغيدى فى « وقت للموت » ، وهى عم درويش الطبال فى القصة التالية أو « الجوال العائم ».

وتبدأ قصة « وقت للموت » من خلال ما يرصده عم خليل البقال حيث يتنبأ على ضوء مجريات الأمور بمقتل بنت الدغيدى ، وتنتهى فى جوف الليل وقد بلغ التواطؤ على القتل أقصاه ، حيث يطفىء عم خليل الكلوب ، ويراقب من خلال باب الدكان مواربا مشهد الجثة خارجة من بيت الدغيدى ، مربوطة فى جوال ، ومحمولة على حمار يسوقه الأخ الأصغر فى إتجاه النهر ، يشيعها الأخوة الثلاثة يسعل أحدهم ، ثم يعودوا إلى البيت .

والقتل فى هذه البلدة القاهرة على منحنى النهر ، يبدو كما لو كان موتا مقدرا يتواطأ عليه فى صمت كل أهل الحارة ، يسهرون الليل فى إنتظار وقوعه ويفسحون له الطريق متحاشين بيت المرشحة للقتل ، ويرقبونه من خلف شيش النوافذ مواربا . والقتل قدرهم إن خرجوا عن الأعراف القاهرة بمدى ما هو قدر البنت ، وهو قدر إرتضوه لأنفسهم متواطئين وشركاء فى الجريمة التى هى ليست جريمة فى عرفهم بل قدر ينتظـــرونه فى كـل مرة كاتمو الأنفاس .

ومع نهاية قصة « وقت للموت » يبلغ التخصيص أقصاه فى هذه الرواية ذات القصص الأربع ، ويلتقى التعميم فى النهاية بالتعميم فى البداية ، والنسوة يتنزهن فى الأماسى فى منحنى النهر ، يتأرجحن على سطح النهر مقتولات فى «الجوال العائم » . والقتل بالجملة لنساء ، لمجرد نساء مجهولات معلومات يتأرجحن فوق سطح المياه فى أجولة مقفلة . ونحن لا نعلم على وجه التحديد إن كانت « البنت تغتسل » هى بنت « وقت للموت » ، ولا نعلم على وجه التحديد إن كانت بنت « وقت الموت » هى بنت « الجوال العائم » يراقب جثتها واحد من أقاربها حتى تصطدم بالهويس . ولكننا والنتائج تترتب على المقدمات ، نعلم على وجه اليقين أنها كل بنت تتجاوز الحدود المرسومة فى هذا البلد على منحنى النهر .

ويُوصف مسار الجوال العائم ، يحمل جثة المرأة المقتولة إلى أن يصطدم ببوابة الهويس الحديدية ، وصفا مسهبا ودقيقا



وواحد من أقارب المرأة المجهولة يتبع الجوال العائم والغربان تحوم من حوله ، وهو يتعلق بفرع من فروع الأشجار ، وهو يمر بالمصلى ، والرجال يتمتمون بأدعية وهو ينحبس فى الدوامة أمام المصلى والأدعية تتصاعد ، والقريب متخفيا بشاله يلتف حول وجهه ، يدفع الجوال بعيدا عن الشاطىء بعصـــاه ، والنســـوة يغسلن أشياءهن فى النهر يلمحن الجوال يتقدم :

وعندما يبدو وكأن تيارات الماء أخذت تميل بالجوال فى أتجاه الشاطىء ... كن يندفعن داخل النهر ويضربن سطح المياه بالملابس المغسولة وقد تعالى صراخهن : وتتسع الدوائر المتلاحقة التى صنعتها الضربات لتعيد الجوال إلى وسط النهر ، ويتأرجح قليلا ثم يستمر فى طريقه . »

وفيما يشبه الطقوس من جانب الرجال والنساء يكرس مسار الجوال العائم حتى يصطدم بالهويس ، والكل متواطىء والطقس طقس يومى يتكرر . واستخدام المضارع المتصل يثبت الحدث ويعلق عليه كجزء من طبيعة الأشياء ومن الأحداث اليومية التى تتكرر فى هذه البلده على منحنى النهر .

وتستغرق مسيرة الجوال إلى الهويس يتبعه القريب المتخفى أياما تكون ملامح الوجه فيها قد طمست . وحين يتأكد القريب بأن الجثة إبتعدت بما فيه الكفاية يقرع باب العم درويش الطبال فى جوف الليل طالبا إليه إنتشال الجثة وتبليغ السلطات ، ليتم بالطبع دفنها ، وهذا مالا يقال .

وعم درويش الطبال . الذى ينزل إلى المضيق بالقرب من الهويس ، ليلتقط جاموسة نافقة ، ويسلخها صانعا من جلدها طبق ، يثنى ساقيه تحته عادة حتى لا تصطدم بجوال مغلق ، ولكنها دائما ما تصطدم بهذا الجوال ، ولا يبقى أمامه سوى إنتشال الجثة وإبلاغ العمده سواء ظهر لها صاحب أو لم يظهر ، وسواء طلب إليه الصاحب هذا الطلب أو لم يطلب ، ولسنوات يلتقط عم درويش الطبال جثث العذارى الحاملات فى هذه البلدة على منحنى النهر .

وفى هذه الرواية القصيرة يبدو أسلوب محمد البساطى سـطحيا ، ولكن تحت السطح تتجذر الأعماق ، ويبدو الأسلوب خامدا ، ولكن تحت السطح الخامد تضطرم النار .

باريس

يخــــوت فى الهــواء الطلق

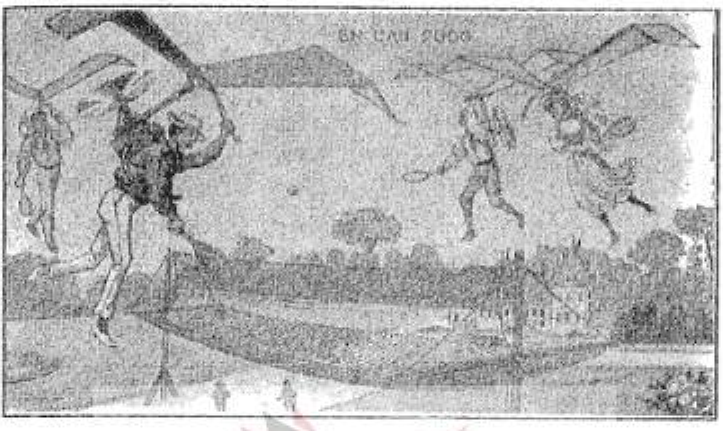
الفنان الفرنسى البير روبيده هو أشهر وأهم من تخيلوا صورة القرن الواحد والعشرين، وجسد هذا الخيال فى لوحات عديدة رسمها فى أواخر القرن التاسع عشر . وكانت هذه اللوحات دائما بمثابة الوحى الذى راح العلماء يستلهمون مخترعاتهم الجديدة منه . فهو أول من تصور كيف تكون الحياة فى الجو والفضاء .

تبلغ أهمية روبيده فى الرسم نفس الدرجة التى يتمتع بها جول فيرن فى أدب الخيال العلمى ، بل يمكن أن تقول ان خيال روبيدة كان أكثر خصوبة. فعلى سبيل المثال ، كان روبيده أول من تخيل بما أسـمـاه باليخت الجـوى ، وهو وسيلة الانتقال الاولى فى القرن الواحد والعشرين . كما انه أول من تخيل ما يسمى بثقوب باريس . وهذه الثقوب عبارة عن أنابيب متباينة الاحجام تسير فيهـا الميـاه ، والكهرباء ، والموسيقى بواسطة كابلات ضخمة ، وهى تنقل الموسيقى من اماكن إلى اخرى تحت الأرض .

وقد تخيل الفنان أن باريس قد بلغ عدد سكانها فى القرن الواحد والعشرين أحـد عشـر مليون نسمة ، ومع هذا فلن تفتقد الخضرة ، ولن تزدحم بالسكان ، لأن الناس سوف يستخدمون الطـرق السـفلية ، أو الانفاق.

وفى رسوم روبيده يمكن أن نجد أول صورة للمســجلات ومكبرات الصوت التى انتشرت فى القرن العشرين ، والتى ستصبح عـلامة للقرن القادم ، كما تخيل أن الانسان يمكنه أن يطير بواسطة اجهزة متطورة يلفها حول وسطه ، وبهذا يمكنه أن يمارس أشياء جديدة لم تكن موجودة من قبل ، مثل لعب التنس الجوى وكرة القدم فى الهواء .

أما المرأة فى القرن الواحد والعشرين فيكفيها أن تجلس أمام جهاز فى بيتها كى يقوم لها بكل ما تحتاجه من مكياج وزينة . وفى نفس الوقت فإن كل لوازم البيت سوف تتم آليـا ، الغسـيل ، والاستحمام ، والطهو . ولعل روبيده بذلك قد سبق شارلى شابلن بعشرات السنين حين صور هذا



رياضة في عام ۲۰۰۰



العالم فى فيلمه « العصور الحديثة » .

وأطرف ما تصوره الفنان عن الحياة فى القرن الواحد والعشرين أساليب التعلم . فعلى التلاميذ أن يجلسوا فوق مقاعدهم ، ويضعون فوق آذانهم سماعات متصلة باسلاك كهربائية قادمة من آلة ضخمة أشبه بمفرمة اللحم . وهذه المفرمة تفرم الكتب التى تتسرب عصارتها الى امخاخ التلاميذ . فلا يحتاجون إلى تفكير ولا أى تركيز .

أما بخصوص الجو الذى سبق الحديث عنها ، فانها أشبه بطائرات صغيرة . يمكن للمرء أن يقودها بنفسه . أو أن يقودها سائق متخصص. وهى متباينة الأحجام والاشكال . فيمكن للعشاق مثلا أن يقومون بجولات جوية خلوية . ويمكن أن يكون هناك اتوبيس جوى ينقل الركاب . وهو مكون من أكثر من طابق . كما يمكن للاثرياء أن يركبوا طائراتهم الخاصة للذهاب إلى العمل .

القرن العشرون إنتهى

وقد توقع روبيده أن ترتدى كافة تخيلاته زى الواقع مع بداية القرن الحادى والعشرين . ولكن من الواضح أن علينا الانتظار قرنا آخر لترى الكثير من هذه التخيلات بين بنات الواقع المعاش

ثلاثية القرن الواحد والعشرين

لم يتوغل كاتب معاصر فى سنوات القرن الواحد والعشرين مثلما توغل الكاتب البريطانى المعروف آرثر كلارك . ليس فقط من خلال ثلاثيته عن أوديسا الفضاء .. بل فى أغلب رواياته وقصصه القصيرة التى تنتمى إلى الخيال العلمى .

ففى عام ١٩٦٦ كتب كلارك سيناريو فيلم يحمل عنوان « ٢٠٠١ أوديسا الفضاء » حول الصراع بين عقل اليكترونى وبين رواد سفينة فضاء متجهة إلى مجهول فى رحلة فضائية . وقد سيطر العقل الاليكترونى هال على العقل البشرى ، لانه الاكثر تنظيماً . وقدرة . ومعرفة .

وعقب نجاح الفيلم الذى اخرجه ستانلى كيوبريك . قام كلارك بتحويل الفيلم إلى رواية شهيرة تحمل نفس الاسم تدور أحداثها فى محطة الفضاء التى تبلغ مساحتها ألف قدم .

والمتجهة إلى قمر كلافيوس . والتى يمكن لركابها أن يتركوها للسياحة فى الفضاء والعودة إليها مرة أخرى . ويشرف على المحطة الدكتور فلويد وعالم آخر من كلافيوس . ويصاب أوتوبيس الفضاء يوما بعطب تكون السفينة خلاله قد ابتعدت بملايين الاميال عن كوكبنا . واقتربت من المشترى .

وإبان العطب ، يرى فلويد ان عليه أن يكون فى حال افضل من ناحية اللياقة . فيمارس بعض التدريبات الرياضية . ثم يضيع فى الفضاء اثناء واحدة من هذه التدريبات كي يخلو الجو لكل من العقل الاليكترونى هال ٩٠٠٠ وبين رئيس الملاحين . ويدور بينهما صراع من أجل السيطرة على قيادة المحطة .

وقد صور كلارك العقل الاليكترونى على انه مخلوق مصنوع من



٢٠٦٠ اوديسا الفضاء

اسلاك كهربائية شريرة شيطانية . ويبدو أن المؤلف قد رأى ان الصراع لن يتوقف بين العقول الاليكترونية والبشر ، لذا قدم رواية أخرى فى عام ١٩٧٩ تحت عنوان «٢٠١٠ اوديسا الفضاء» صور فيها جانب آخر من الصراع . فهناك بعثة علمية امريكية سوفيتية ترحل إلي الفضاء للبحث عن السفينة ديسكفرى التي ظلت تدور حول المشترى . ويحاول الملاحون أن يفهموا لماذا ظلت تدور تسع سنوات ويكتشفون ان هال كان ضحية . رغم ان القيادة قد اختلت . وأصبحت له القدرة على الإختراع مثل البشر .

وقد إختار كلارك ان يتعاون كل من السوفييت والامريكيين فى هذه المهمة كنوع من الوفاق الفضائى منعا من قيام حرب بين الطرفين .

وفى عام ١٩٨٥ نشر كلارك رواية ثالثة بعنوان « ٢٠٦٠ اوديسا الفضاء » ولعله يعكف الآن على تقديم رواية رابعة تحمل عنوان « ٢٠٩٩ اوديسا الفضاء » ارثركلارك من مواليد بريطانيا عام ١٩١٨ . وقد تخرج من كلية العلوم . ومن اعماله الاخرى « عالم ٢٠٠١ المفقود » . و « المدينة والنجوم » . و « جزر فى السماء » .

كاليفورنيا

يوم فى عام ٢٠٢٦
أغسطس ٢٠٢٦

« أغسطس ٢٠٢٦ »

عنوان قصة قصيرة كتبها الأديب الأمريكى راى براو بورى ، المولود عام ١٩٢٠ ، تصور فيها كيف سيكون العالم فى بداية الربع الثانى من القرن الواحد والعشرين ، وذلك من خلال وقائع يوم فى حياة شخص عادى فى هذا الشهر فاليوم يبدأ حين تعلن الساعة الصوتية عن بداية نشاط جديد حيث تروح الساعة لتوقظ أهل الدار . هذه الساعة التى تلعب دوراً أساسياً فى حياة سكان البيت ، فهى تنبه إلى الأحداث الهامة فى المنزل . حيث تهتف أنه قد بدأ اليوم الرابع من شهر أغسطس عام ٢٠٢٦ . إنه عيد ميلاد صاحب المنزل . كما أنه أيضا يوم ذكرى زفاف ابنته . وعلى السيد أن يدفع اليوم قسط التامين، وقوائم المياه والغاز والكهرباء.



راى براو بورى

كما أن الساعة تنبه الأبناء إلى أن موعد الذهاب للمدرسة قد حان . وتروح تأمر الخادمات إلى أن وقت التنظيف قد بدأ .

وما يحدث فى هذه الأقصوصة فى ذلك اليوم ، يعد نموذجا لما يمكن أن يدور فى ولاية كاليفورنيا . فهناك الطباخ الكهربائى الذى يتولى آليا إعداد الفطور والغذاء والعشاء حسب قائمة مبرمجة فيه اليكترونيا .

يتحرك كل شئ آليا : السيارة ، الأبواب ، المطر الذرى . الزهور الآلية . فالمنزل هو البيت الوحيد الذى بقى من المدينة بعد أن أصابها إشعاع ذرى . أصبح الكلب هيكلا . ورغم الحركة التى تملأ البيت . إلا أن المنزل خاو تماما من كل البشر . لقد أتت الحرب الذرية على البشر .. وغما قريب سوف تلتهم النيران المنزل الوحيد الباقى فى كاليفورنيا بعد اندلاع هذه الحرب .

راى براو بورى . من ألمع أدباء الخيال العلمى فى القرن العشرين . ومن أبرز رواياته « فهر نهايت ٤٥١ » ، و « رحلة المليون عام » و « يوم أمطرت الدنيا للأبد » ، و « عقار الكآبة » ، و « مدينة أكتوبر » .. وغيرها من مجموعات قصصية عربية .

د. على شلش

الرجل الذى أحب مصر

منذ فترة قدمت الإذاعة البريطانية (غير العربية وغير الدولية) ثلاثية مسلسلة طريفة بعنوان : « البمباشي مكفرسون - سيرة رجل فى مصر » ، وكانت الثلاثية مقتبسة من ٢٦ مجلدا من الخطابات الشخصية التى كتبها مكفرسون المذكور لأهله فى انجلترا طوال إقامته بمصر ، وحتى وفاته بها عام ١٩٤٦ . ولما نجحت المسلسلة جماهيريا أغرى النجاح حفيد شقيق الرجل بإعداد كتاب يضم قطرات من بحر ذلك الركام الهائل من الخطابات .

فقد كان مكفرسون ولوعاً بكتابة الرسائل لإخوته وأولادهم على مدى ٤٥ سنة . وكانت هذه الرسائل قد وصلت الى حفيد شقيقه ، واسمه جون مكفرسون ، عقب وفاة الشقيق عام ١٩٥٥ ، فحفظها ، ثم فكر فى نشر بعضها ، بعد نجاح الثلاثية التى نبعت من مجلداتها ، حتى وجد من يشاركه فى هذا العمل الضخم ، واسمه بارى كارمان . ومن حماسة الاثنين للرجل والموضوع خرج هذا الكتاب الطريف أيضا :

الرجل الذى أحب مصر

البمبـــــاشى مكفرسون

ولكن ، من هو ذلك الرجل الذى أحب مصر ، ذلك البمباشى ، أو البكباشى ، أو المقدم اذا شئنا مقابلا عربيا لهذه الكلمة التركية ؟ لقد قدمه ، وقدم كتابه أيضا ،

الهلال

١٨٩٢ - ١٩٩٢

عدد تذكاري

اكتوبر ١٩٩٢ • الثمن جنيهان

الهلال

مائة عام من الفكر والفن
١٨٩٢ - ١٩٩٢

العدد الأول - السنة ١٠١

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال

أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

عبد الحميد حمروش نائب رئيس مجلس الإدارة

الإدارة: القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب (المبتديان سابقاً) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط). الكاتبات: ص. ب ٦١٠ - العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج. م. ع. مجلة الهلال ت: ٣٦٢٥٤٨١
تلكس: 92703 Hilal un تلكس: FAX : 3625469

مصطفى نبيل رئيس التحرير

محمد أبو طالب المستشار الفني

عاطف مصطفى مدير التحرير

محمود الشيخ المشرف الفني

عيسى دياب سكرتير التحرير التنفيذي

ثمن النسخة: سوريا ٥٠ ليرة، لبنان ٣١٠٠ ليرة، الأردن ١٠٠٠ فلس، الكويت ٧٥٠ فلسا، السعودية ٨ ريالات، الجمهورية اليمنية ٣٥ ريالا، تونس ٥٠٠ ر١ دينار، المغرب ١٥ درهما، البحرين ٨٠٠ فلس، قطر ٨ ريالات، مسقط ٨٠٠ بيسة، غزة والقدس والضفة ٨٠ سنتا، إيطاليا ٢٧٠٠ ليرة، لندن ١٢٥ بنسا، نيويورك ٤ دولارات، الإمارات العربية المتحدة ٨ دراهم، الجماهيرية الليبية العظمى ١ دينار، السودان ٥٠ ج. س.

الاشتراكات: قيمة الاشتراك السنوي ١٢ جنيها في ج. م. ع. تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٤٦ دولارا - أمريكا وأوروبا وآسيا وأفريقيا ٥٥ دولارا - باقي دول العالم ٢٠ دولارا

والقيمة تسدد مقدما بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال. ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد



مستقبليات

٨ عزيزى القارئ

١٢ إميل زيدان

– رجاء الشرق فى شبابه

١٦ تحقيق

– نظرات إلى المستقبل

٣٠ تحقيق

– هل صحت أحلام المصلحين ؟

٥٦ بهى الدين بركات

– هل يتجه العالم نحو ثقافة إنسانية ؟

٦٦ تحقيق

– مصر والعالم سنة ٢٠٠٠

٧٦ ابنة الشاطئ

– نساؤنا فى أواخر القرن العشرين

٨٢ عباس العقاد

– قبلة الغد

٨٦ محمد العشماوى باشا

– ثقافتنا سنة ٢٠٠٠

٨٨ أحمد حسن الباقورى

– المستقبل لنا

٩٤ عباس العقاد

– **توفيق الحكيم**

– **فكرى اباظة**

– **امينة السعيد**

– شباب ٢٠٠٠ (وصيتى)

٩٨ احمد بهاء الدين

– مارس ١٩٨٧

١٠٦ د . سهير القلماوى

– مستقبل القصة القصيرة

١١٦ د . عبد المحسن صالح

– هل نحن وحدنا العقلاء فى الكون ؟

١٢٤ تحقيق

– الجولان التاريخ والمستقبل

١٣٢ د . بطرس غالى

– مدينة عربية فاضلة

١٣٦ د . جمال الغندى

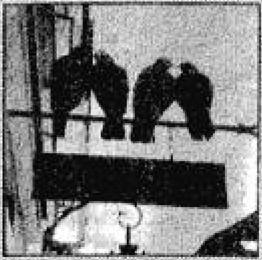
– القمر والأرض والمستقبل

١٤٦ د . عبد العظيم أنيس

– مستقبل الثقافة فى مصر

١٥٤ مصطفى الحسينى

– مستقبل إسرائيل



عصر المراة

١٦٦ معروف الرصافى

– المرأة فى الشرق (قصيرة)

١٦٨ مى زيادة

– من الآنسة مى إلى فتاة مصرية

١٧٠ محمد فريد وجدى

– هل أخطأ قاسم أمين

١٧٦ زكى طليمات

– موقف الرجل والمرأة فى فن التمثيل

١٨٦ د . امير بقطر

– سيدة المستقبل

١٩٢ إبراهيم المصرى

– الزواج هل هو حب أم حرب ؟

١٩٨ انيس منصور

— الأدب الثقافي والأدب العريان

٢٠٦ د . سـعـيـد كـريـم

— فن الباليه وأزياء النساء

٢١٢ د . أمـين العيـوطى

— أجمل قصص الحب في الأدب الإنجليزي

٢١٨ د . رجـب البيـومى

— هل تعلمت المرأة في الأزهر ؟

٢٢٤ د . سـيـد عـويس

— المرأة في حياة الرجل المصرى

٢٣٠ مصطفى نبيـل

— أسرار الحريم في الشرق

٢٤٢ د . شكرى عياد

— القفز على الأشواك



قضايا ثقافية

٢٤٨ أحمـد عـرابى

— أحمد عرابى كما هو في جزيرة سيلان

٢٥٠ «تحقيق نشر عقب وفاته»

— جرجى زيدان

٢٦٠ خليـل مطـران

— الحديقة المرشوشة (قصيدة)

٢٦٢ الشاعر القـروى

— الفرح (قصيدة)

٢٦٤ خليـل شـيبوب

— المتناسى (قصيدة)

٢٦٦ د . طـه حسـين

— بين الشرق والغرب

٢٦٨ أمين الخـولى

— الشرق والغرب يلتقيان

٢٧٤ فتحى رضـوان

— هو الشباب دائما

٢٨٠ د . زكى مبـارك

— الثقافة العربية

٢٨٦ عبد الرحمن صدقى

— أخطار تهدد الثقافة

٢٩٢ د . أحمـد زكـى

— بين العامية والفصحى

٢٩٨ د . محمد عوض محمد

— مصر قلب العالم الإسلامى

٣٠٢ جمال الدين سالم

— الاغتيال السياسى عند قدماء المصريين

٣٠٦ كامـل زهيـرى

— الديمقراطية عند مندور

٣١٤ محمـود تيمـور

— ذكريات في الأدب

٣٢٠ رجـاء النقـاش

— توفيق الحكيم . رائد بلا نظرية

٣٢٨ نجيب محفـوظ

— روح طيب القلوب (قصة قصيرة)

٣٤٠ كمـال النجمى

— الغناء والمغنون في روايات نجيب محفوظ

٣٥٠ إبراهيم عـامر

— هل أفلس المثقفون العرب ؟

٣٥٨ الأنبا شنودة

— رحلة العائلة المقدسة

٣٦٦ د . أحمد كمال أبو المجد

— المثقفون والسلطة

٣٧٢ طـارق البشـرى

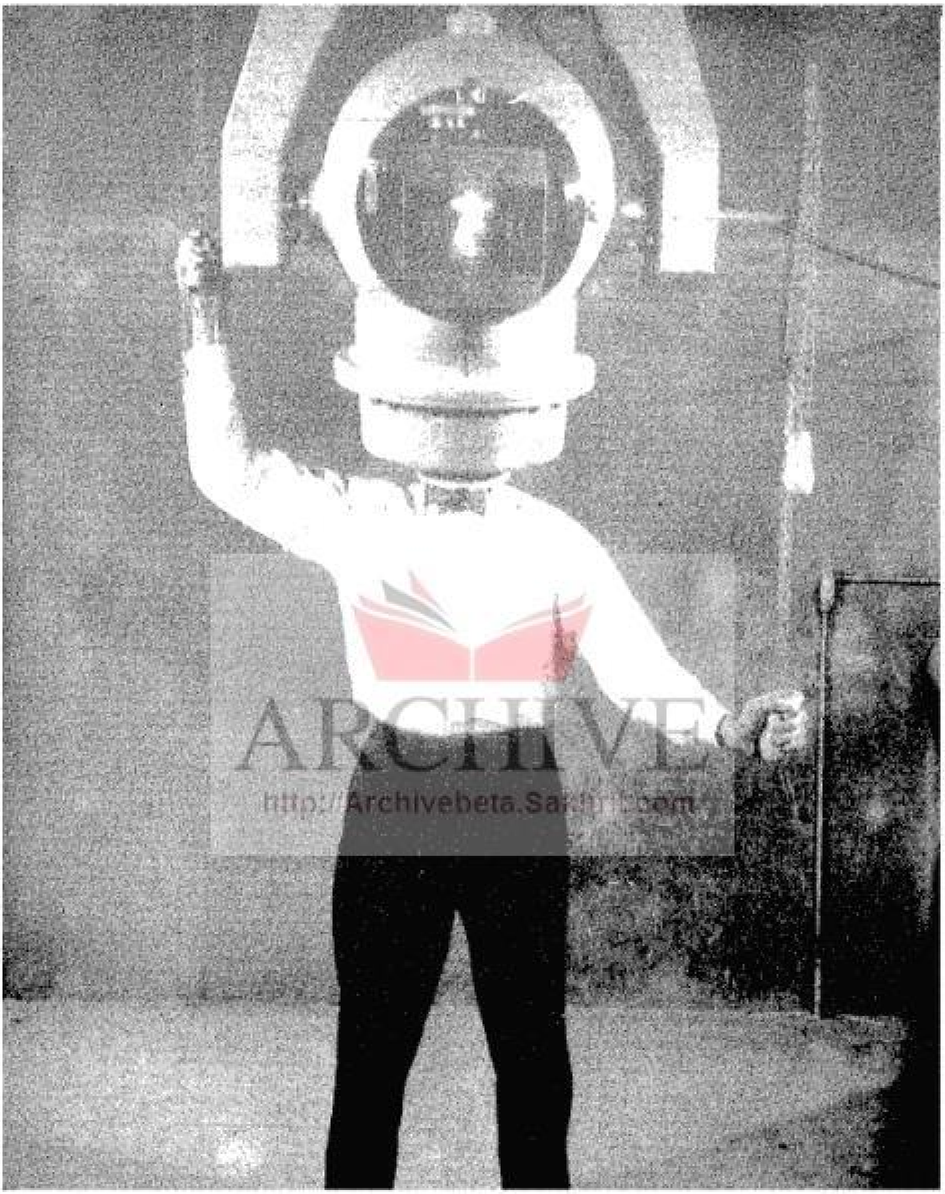
— هنرى كورييل

٣٨٢ د . إسماعيل صبرى

— ثروة الأمم

٣٨٦ د . على الراعى

— الا فن الأوبرا



الهلال

والمستقبليات

أجمل مختارات الهلال كما كتبها

اميل زيدان ● محمد العشماوى ● سهير القلماوى

بهى الدين بركات ● توفيق الحكيم ● د.عبد المحسن صالح

بنت الشاطئ ● فكرى أباظة ● د. بطرس غالى

عباس محمود العقاد ● أمينة السعيد ● د.جمال الدين الفندى

احمد حسن الباقورى ● أحمد بهاء الدين ● د. عبد العظيم أنيس

● مصطفى الحسينى

عزيزى القارئ

الهلال المئوى .. للماضى والحاضر والمستقبل

كثيرة هى الأعداد الخاصة التى أصدرها « الهلال » فى عشرات السنين الماضية .. بعضها اقتصر على شخصيات أدبية وفكرية تراثية مثل المتنبى وأبى نواس ، وبعضها الآخر تناول شخصيات معاصرة مثل أحمد شوقى وطه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ .. فضلا عن الأعداد الخاصة عن « القرآن الكريم » و« القدس » و« سيناء » ، والأعداد المتعلقة بالقضايا الأدبية والفكرية ..

وقد اعتاد « الهلال » أن يحتفل بأعياد ميلاده كل حقبة بعدد خاص ، أو بجزء كبير يقوم مقام العدد الخاص .. وكان الاحتفال « بالعيد الفضى » للهلال سنة ١٩١٧ لمناسبة مرور خمسة وعشرين عاما على صدوره ، ولكن الحرب العالمية الأولى كانت مستعرة حينذاك فحجبت هذا الاحتفال .. ثم جاء « العيد الذهبى » للهلال سنة ١٩٤٢ لمناسبة مرور خمسين عاما على صدوره ، وكانت الحرب العالمية الثانية فى ذلك العام تجتاز أخطر مراحلها ..

وما أقبل « العيد الماسى » للهلال سنة ١٩٦٧ بعد مرور ثلاثة أرباع

قرن على صدوره ، كانت مصر تنفض عنها غبار حرب « يونيو » ومآسيها ..

لقد عاصر « الهلال » بأعداده وأعيانه كبريات الحوادث فى تاريخ مصر وتاريخ العالم ، فانطبعت على صفحاته بالكلمات والصور ، مائدة للمعرفة المستنيرة ، تتداولها الأجيال ..

وها هو ذا يبلغ عيده المئوى فيحتفل به فى صور شتى يشترك فيها الشعب المصرى والشعوب العربية ، باعتبار « الهلال » ديوانا للعرب ، مسطورا فيه تاريخهم الفكرى والأدبى فى مائة عام ..

عزيزى القارئ ..

لعلك تابعت الندوات الثلاث الكبرى التى عقدتها « الهلال » فى دار الأوبرا بالقاهرة لمناسبة العيد المئوى ، ونوقشت فيها قضايا الفكر والأدب والمستقبل .. ولعلك تصفحت السجل التاريخى الضخم الذى صدر الجزء الأول منه فى أكثر من سبعمائة صفحة من القطع الكبير ، متضمنا مائة عام من تاريخ مصر منذ صدور الهلال سنة ١٨٩٢ إلى اليوم ، فضلا عن

عزيزى القارئ عزيزى القارئ عزيزى القارئ عزيزى القارئ عزيزى القارئ عزيزى القارئ عزيزى القارئ عزيزى القارئ عزيزى القارئ

الموسوعة الكبيرة التى تستعرض أهم مائة كتاب قرأتها مصر والبلاد العربية خلال تلك الأعوام المائة .. وقد صدر الجزء الأول من السجل ، والجزء الأول من الموسوعة ، وتصدر الأجزاء الباقية فى وقت قريب ..

عزيزى القارئ ..

يطالعك « الهلال » الذى بين يديك بطائفة مختارة من المقالات والموضوعات التى نشرها فى مائة عام ، ويهديها إليك فى عيده المئوى ، لعلك تعيش معه تلك الأعوام السابقة بتواصله الفكرى وتنوعها وتطورها وسيرها دائما إلى الأمام ..

إن مقالات هذا العدد الخاص من « الهلال » تبدو لنا الآن كأنها مكتوبة لتوها ، فهى تتحدث عن أمور مازلنا نتحدث فى الكثير منها ، وهى تتطلع إلى المستقبل وتستشرف آفاقه بنفس اللهفة التى تملأ الأجيال الجديدة .

ولهذا نثق بأنك - يا عزيزى القارئ - ستتشوق إلى هذه المجموعة الكبيرة من المقالات القادمة من عشرة عقود كاملة ، مكتوبة بأقلام أربعة أجيال من الأدباء والمفكرين ..

ولعل استشراف المستقبل يتجلى واضحا فى « تنبؤات » منشئ « الهلال » جرجى زيدان فى مقالته عن « مصر والعالم سنة ٢٠٠٠ » التى تخصه والقرن العشرون لم يكد تبزغ أنواره .. !

وفى هذا العدد تلتقى من جديد مع العقاد وطه حسين وخليل مطران وفريد وجدى وزكى مبارك ومعروف الرصافى وتوفيق الحكيم وأحمد حسن الباقورى والآنسة مى وإميل زيدان ، وكأنهم مازالوا أحياء بنبضات أقلامهم على صفحات الهلال ...

عزيزى القارئ ..

إن هذا العدد المئوى من « الهلال » يصل الماضى بالحاضر والمستقبل ، وهو يختلف عن العدد الفضى والعدد الذهبى والعدد الماسى فى كونه من إصدار مصر « السلام العالمى » بعد انحسار الحرب الباردة ، بعكس تلك الأعداد التاريخية الثلاثة التى صدرت فى نطاق الحروب العالمية والمحلية !

ونرجو أن يكون هذا من حُسن الطالع لنا نحن المصريين والعرب ، وأن تكون الأعوام المائة القادمة سلاما لنا ولكل الفرع الإنسانى الذى ينتمى إلى أب واحد وأم واحدة ..

« المحــــرر »

رجاء الشرق في شبّانِه

بقلم : اميل زيدان

لم تقم هذه النهضة الجميلة فى الشرق الا بفضل شبانه . وعليهم دون غيرهم تقع تبعة مآلها . فمهمتهم لاتزال فى أول ادوارها . ولابد لهم بعد الاندفاع الاول من الاستمرار بلا ملل في طريق التعمير والتجديد (١)

ان البشرية الآن فى دور انتقال – وادوار الانتقال هى أصعب الادوار فى تاريخ الشعوب . ففيها يحتدم النزاع بين «القديم» و «الحديث» ، بين الاساليب والعادات المألوفة من جهة ومن الجهة الاخرى الروح الفتية النشيطة التى تبغى محو الماضى محواً لا أثر بعده .

ولكى يتم الانتقال على أدنى قدر من الاختلال والاضطراب ينبغى لقادة الأمور أن يدركوا حقيقته ويكيفوا آراءهم وأعمالهم بمقتضى الاحوال المستجدة حولهم فاين تجد الشعوب تلك العقول الفتية التى تدرك حقيقة الحالة الراهنة فتتخلق بأخلاق هذا العصر وتتكيف وفقاً لمقتضيات هذا الزمان ؟ ليس أمامها الا شبيبتها ، ليس أمامها الا شاباتها وشبانها فإن عقولهم لاتزال مفتوحة لكل جديد ، وأن نجاح الشعوب كنجاح الافراد يتأتى لها على نسبة قدرتها على التطور مع تطور الوسط الذى تعيش فيه

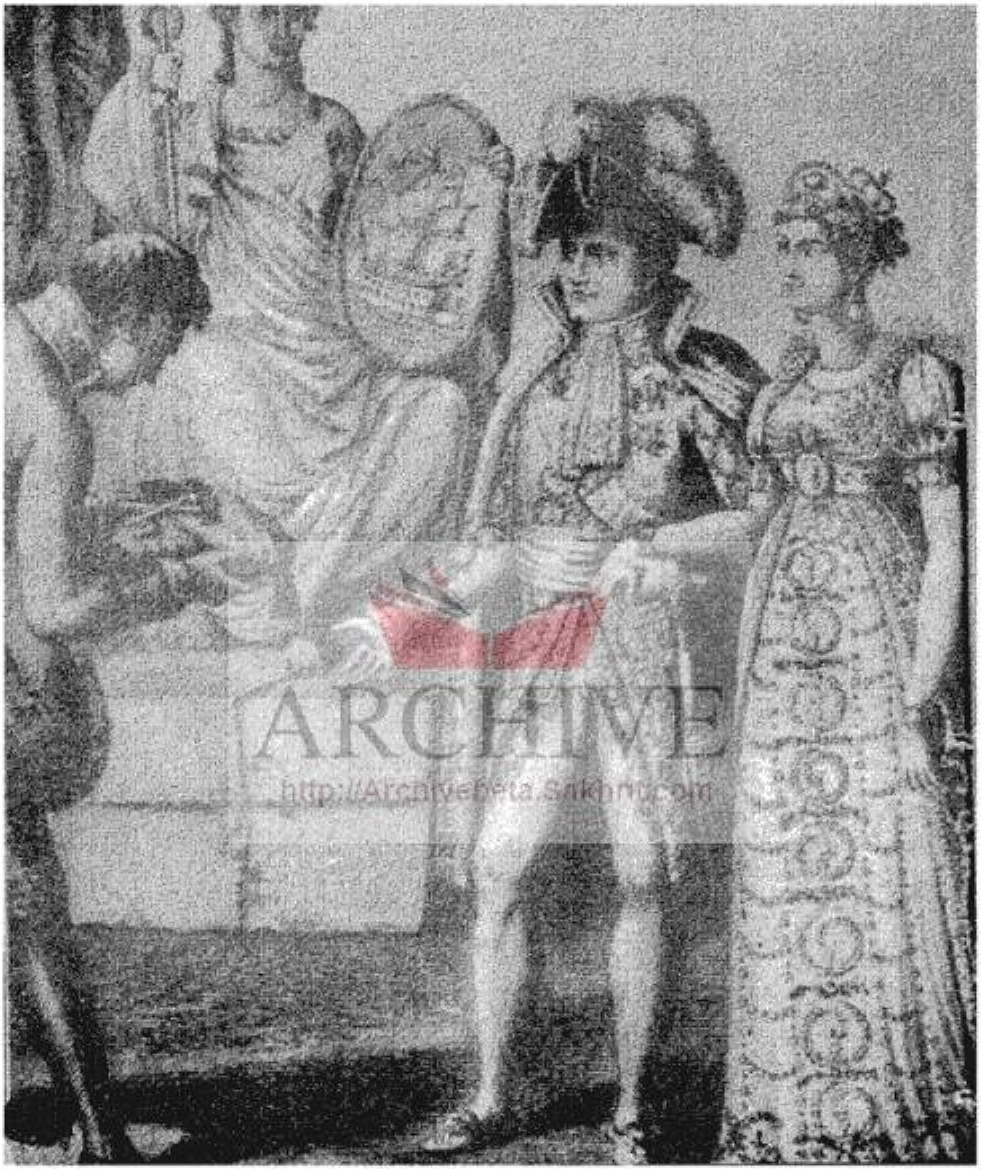
***

واذا قلبنا صفحات التاريخ تجلت لنا ابلغ الامثلة على نصيب الشبان من الاعمال العظيمة والمآثر الخالدة .

هذا الاسكندر الكبير فقد ارتقى العرش وهو فى العشرين من عمره فلم يكد يبلغ الثلاثين حتى كان قد حمل المدنية اليونانية الى أطراف الهند .

وهذا يوليوس قيصر أعظم قياصرة الرومان فانه كان لايزال شاباً حديث السن حين اضطر

(١) كل متتبع للنهضة الوطنية فى مصر وسوريا والعراق وغيرها يعلم الدور الخطير الذى قامت به الشبية فيها جميعاً . حتى الصين كان للشبان فيها شأن عظيم جداً ولاسيما اثناء عقد مؤتمر الصلح ، فبفضلهم أجمعت البلاد الصينية على عدم امضاء المعاهدة احتجاجاً على مافيها من الإجحاف بحقها .



بومبای وكراســوس الــى مشـاطرته السيطرة على العالم .

بل أى مثل ابلغ من قصة ذلك الفتى الذى وفد على فرنسا من كورسيكا فلم يلبث قليلاً حتى تولى قيادة جيوش الثورة الفرنسية واحرز أبهر الانتصارات وهو لم يجاوز السابعة والعشرين من عمره . ثم قام بحملته المصرية وهو فى التاسعة والعشرين .

ومن المصادفات التاريخية العجيبة أن الخصم الألد لبونابرت كان مثله شاباً الا وهو وليم بت السياسى الانجليزى العظيم . فلقد كانت شعوب العالم بين سنتى ١٧٩٥ و ١٨٠٥ كحجارة الشطرنج بين أيدى هذين الشابين . دخل بت هذا مجلس العموم وهو فى الثانية والعشرين من عمره ولم يكد يلقى فيه خطبته الاولى حتى عد من أعاظم رجال انكلترا . ومما يروى فى هذا الصدد أن بعض النواب جاءوا على أثر تلك الخطبة الى الوزير فوكس فقالوا له أن بت سوف يعد من أشهر خطباء المجلس فأجابهم للحال : «بل منذ الآن فى مقدمتهم» . وقد عين بت وزيراً وهو فى الثالثة والعشرين من عمره .

واذا اقتربنا من زماننا هذا وجدنا أمثلة أخرى بليغة على نبوغ الشبان فالجنرال غوردون قاد الجيش البريطانى وهو فى الثلاثين من عمره . ومثله الجنرال شريدان الاميركى الذى اشتهر فى الحرب الاهلية الاميركية . فقد كان فى الحادية والثلاثين حين عين قائداً فى جيش الشمال وقد التف حوله نفر من الضباط الحديثى السن . ذكر أحد المؤرخين أن قائداً من قواد جيش الجنوب أتاه يوما الى معسكره على أثر إعلان هدنة للمفاوضة . فلما رآه ومن حوله سأل عن معدل أعمارهم . فقيل له : «٣١ سنة» فقال : «إن الانكســار محتوم على الجنوب فإن هذه الحرب قــائمة بين الشـباب والمشيب ولن يفوز هذا على ذاك» .

ولنتحول الآن من ميادين السياسة والقتال الى ميادين العلوم والفنون . فان نيوتن كان فى الثالثة والعشرين من عمره حين اكتشف قانون الجاذبية الذى قلب كيان العلوم . وبيتهوفن ألف أجمل قطعه الموسيقية وهو دون الثانية والثلاثين ومثله موزار . وأغرب منهما مندلسهن الذى ألف قطعة موسيقية خالدة وهو فى السابعة عشرة من عمره ، أما الأدباء فيجدر بنا أن نذكر بيرون الذى أشتهر فى عالم الادب وهو فى الرابعة والعشرين . ومثله من هذا القبيل كثيرون يضيق عنهم المقام . وأنه ليكفينا أن نذكر منهم شكسبير رب الروايات التمثيلية فقد وضع رواية «روميو وجوليت» وهو فى السابعة والعشرين .

ويروى أحد الكتاب الاميركيين أن روزفلت على أثر ترشيحه للمرة الاخيرة لمنصب الرئاسة قال له أنه فى حال انتخابه ينوى أن يحتاط بفئة من الشبان لكى تطعم الحياة السياسية بروح جديدة .

***

ولكن ما أظلم المتقدمين فى السن ! وسرعان ما ينسون أو يتناسون شبابهم انهم فى الغالب يطلبون من أولادهم أن يجاروهم فى الرزانة والهدوء والسكينة فاذا حادوا عن هذه الخطة انحو عليهم باللائمة ووصموهم بالحدة والطيش والنزق والتسرع أجل للشبان حدة وطيش ونزق وتسرع . ولكن هذه الصفات ليست الا مظاهر للقوة المتدفقة من صدورهم — تلك القوة المندفعة الى الامام بزخم هائل لتكوين المستقبل وتصويره .



اسحاق نيوتن

هذه القوة كالسيل الجارف المنقض من أعالي الجبال فانه يبيد كل مايعترضه في سبيله وقد يخلف شيئاً من آثار التخريب والتدمير ولكنه لايلبث متى بلغ الوادي أن يصير ماءً صافياً ومورداً زلالاً.

فلئن لم تستقم أمور العالم من دون حنكة الشيوخ وصبرهم واختبارهم فلولا رحى الشباب وتلهبه وجرأته لما عرف التاريخ أجمل حوادثه وأشدها رواءً وبهاءً.

***

تختلف أعمار الشعوب عن أعمار الافراد بأن الفرد لا يستطيع تجديد شبابه فاذا جاوز سناً معلومة دخل في دور الكهولة ومنها الى الشيخوخة – وليس من الشيخوخة الى الشباب من مرجع على حد قول الشاعر « ألا ليت الشباب يعود يوماً » . أما الشعوب فقد يعود اليها شبابها . والأمثلة على ذلك كثيرة في التاريخ الحديث نكتفي منها بالاشارة الى اليونان وما كان من تجديد شبابها في هذا العصر كثيرة هي الشعوب التي تبغي اليوم تجديد شبابها . على أن في الدول كما في الافراد شيوخاً وشباباً . وشيوخها ناقمون ابداً على شبابها يتهمون بالحدة والطيش والنزق والتسرع .

ولكن هل فات تلك الدول أيام شبابها وهل نسيت أنها لم تصبح على ما هي فيه من الحرية والنظام الا بفضل ثوران شبابها القحوم وقيامها على قوات الظلم والاستبداد ؟

إلى اخواني الشبان أقدم هذه التأملات عسى أن يجدوا فيها مذكراً لهم بما عليهم من التبعة تجاه أوطانهم . فهم هم رجالها وعليهم قبل سواهم يقف أمر خلاصها .

إن تيار الشعور الوطني في العالم قد أصبح شديد الزخم اليوم لا تستطيع الاغراض والمصالح أن تقاومه طويلاً . فلقد انقضى زمن كان فيه «الشرف الوطني» و«الكرامة القومية» من محتكرات بعض الشعوب القوية . فان أصغر الشعوب الآن تهتم لأمر شرفها وكرامتها قبل كل شيء وتؤثرهما على كل مصلحة وتضحي لاجلهما بكل مرتخص وغال .

وقد تفشل الشعوب المطالبة بحقوقها سنة أو سنوات . ولكن أعمار الشعوب ليست كأعمار الافراد . فمازال الشعب على اجماعه الروحي فليس من قوة على وجه الارض تستطيع الوقوف في سبيله .

قال غوستاف لوبون : «ان الإرادة تزحزح الجبال» وقال : «ان العزم الصادق كاف لضمان النصر وليس من جبار يقدر على اخضاع قوم رغم ارادتهم . وقد خبر ذلك نابوليون نفسه في اسبانيا . فمع انه دخل مدنها وكسر جيوشها لم يستطع أن يخضعها لانه لم يخضع ارادة اهلها فلنذكر على الدوام ان على قوة إرادتنا يقف أمر مستقبلنا . وليس في الكون ما يحول دون العزيمة الصادقة – لا الطبيعة ولا الانسان ولا الاقدار نفسها .

نظرات إلى المستقبل

نشر الهلال فى العدد الأول من السنة الأربعين استفتاء لطائفة من صفوة المفكرين فى مصر عن تطورنا فى الأربعين سنة الماضية وفى بدء السنة الحادية والأربعين للهلال نشرت استفتاء فيما يحتوى على آراء طائفة من كبار مفكرينا فيما عسى ان يكون عليه المستقبل . ونحن ننشره هنا بعد ستين عاما لنرى إلى أى مدى صدقت رؤية المفكرين فى رؤية المستقبل فى مجالات متعددة .

مصر بعد ٥٠ عاما

فى الشئون الاقتصادية والمالية

رأى سعادة أحمد عبد الوهاب باشا وكيل وزارة المالية

يتسع وقت سعادة أحمد عبد الوهاب باشا لكل شئ ، ان عمله الرسمى يتخطى جدران وزارة المالية ، فيستغرق مصر وعلاقاتها بالشرق والغرب فى الحاضر والمستقبل .

على انى حين لقيته لم أجده كما تصورته رجلا تبدو عليه امارات المزاج العصبى والحيوية المتوثبة . كلا !! هو هادئ الظاهر على الاقل ، يعزى سر نجاحه فى القدرة على التنفيذ إلى عقله المنظم وذهنه الحاد وخبرته التى تزداد يوماً بعد يوم ... وأنه لرجل حقائق لا دخل للاوهام والظنون فى حسابه ، على إنه بصير بالاحتمالات ، يحتاط لما ليس فى الحسبان قدر ما يستطيع إنسان .

كره ان أحمله على التكهن ، فلما بسطت له وجهة نظر « الهلال » ، قال بعد لأى :

« لا بأس من التحدث عن الغيب على أساس من الواقع ، وما أعنى الغيب على نحو ما يفهمه المتفلسفة أو يزعمه المشعوذون . الغيب عندى هو تقدير النتائج المجهولة فى مقدمات معلومة دون اهمال لما عساه يفاجئ ويأتى بغتة » .

قلت : « أراكم ميالين على الدوام إلى جانب التفاؤل . فهل تفاؤلكم طبيعة جبلتم عليها ، أم تراه يذهب ويجئ تبعاً للظروف والمؤثرات » فألفيته شعلة ضاحكة ، وقال :

« انى بطبيعتى متفائل ، لكنى فى حياتى العملية أبنى تفاؤلى على منطق معقول وعلى حقائق ممحصة » .

قلت : «جئنا نسترشد برأيك عن الحالة الاقتصادية والمالية بعد خمسين عاماً ، بعد عمر طويل ان شاء الله » فابتسم قائلا : « وهل ترانى ساكون واحداً من المعمرين أعيش إلى ان تتنافس الصحف فى نشر صورتى وذكر النادر من سيرتى ؟! » .

قلت : « من يدرى لعلهم يحدثونك وقتذاك عن مصر قبل خمسين عاماً » .

فأجاب وفى عينيه بريق من السخرية الرقيقة : « بل قد يطلب إلى ان ألقى محاضرة بالراديو عن زيارتى لمقبرة « توت عنخ آمون » لأول مرة !! ما علينا سأختصر فى الكلام . فالموضوع متشعب ، قل ان يستوعبه بحث مستفيض ، وأكرر أن المستقبل مجهول على كل حال » .

ولست ازعم انى استوعبت كل ما قاله سعادته ، وانما أروى ما أمكننى فهمه بأسلوبى وطريقتى :

« المأمول أن تكون الكهرباء موفورة لكل إنسان ، فالقرية ستكون اذ ذاك أشبه شئ بالضواحى ، والراديو سيعم استعماله .

« أغلب الظن أن الكهرباء من أسوان والقطارة والمنحدرات الكثيرة ربما تكون قد جعلت الصناعات الزراعية وفيرة المحصول تغنينا عن استيراد أى شئ ، وقد تمكننا من تموين البلاد الأجنبية ، وربما تمكننا من تصدير لحوم محفوظة وأسماك متنوعة فى هيئة علب السردين ، ثم ان فواكهنا الطازجة والمجففة ، خصوصاً البلح والبرتقال والمانجو ، جديرة بأن تقتحم الأسواق الخارجية .

« ثم اننا سنكون قد تخلصنا إلى الابد من الاعتماد على محصول واحد . وانها لأمنية جريئة أن نحل مكان أوربا فى تموين البلاد الشرقية - الشقيقات العربيات - بالاقمشة لاقتراب العادات وجرياً وراء التعاون المؤسس على التفضيل والتفاهم المشترك ، فهل أقمشتنا القطنية والحريرية والصوفية سترتقى بسرعة هائلة فتسد حاجتنا وتفيض ، بفضل الكهرباء قبل المهارة والحذق . وهل مصر ستصنع الطيارات بكثرة ، ذلك لأن الطيارة قد أخذ صنعها فى البساطة ، بحيث سيجئ يوم يتمكن الصانع المدرب من بنائها كما هو الحال فى عدة اللاسلكى .

وهنا سألت سعادته قائلا : « ما رأيكم فى صناعة السينما والراديو . فانى أتكهن لمصر بنشاط عظيم فى هذا المضمار . وانى إذا لم أستطع تعيين مكان المدينة التى ستضاهى « هوليوود » عندنا ، فانى أتخيلها كشئ حقيقى لا ريب فيه . وأنا على ثقة من ان الشرائط المصرية ستدر عشرات الالوف - أو الملايين - على مصر بالنسبة لرواجها فى الاقطار التى تتكلم العربية . كذلك الراديو ، فان محطات الإذاعة على النسق الاوربى ستكون فى القاهرة . وما جعلنى أجزم بذلك الا ما أشاهده من توافرنا على التجويد فى فن التمثيل والموسيقى والغناء وتفوقنا فى الشئون الثقافية .. !!

« باريس الشرق .. هكذا ستكون القاهرة . بملاهيها ومسارحها ومعاهدها ومعارضها ومتاحفها » .

« وناهيك بما تدره الحمامات والمشاتى والمصايف إذا نظمت وكفلت لروادها أسباب الراحة ووسائل اللهو البرئ وسهولة المواصلات وحسن المعاملة واصطناع الحيلة فى جذب الطبقات جميعاً ، لا طبقة الاغنياء وأصحاب الملايين ليس غير . ان الإسكندرية وأبو قير ورأس البر يمكن العناية بها بحيث تصير مصايف دولية . وهذا ما سيحقق فعلا . وكأنى بالمصطافين قادمين على متن الهواء لقضاء بضعة أسابيع على شواطئنا وفى فنادقنا المصرية . وكذلك الحال فى المشاتى مثل الأقصر وحلوان والواحات (وحيث المياه المعدنية) ستجتذب هذه كلها عشرات الآلاف كل عام للاستشفاء والتمتع بمشاهدة المخلفات والآثار » .

فابتسم قائلا : « انك حالم ، لكن فى تكهناتك شيئاً من الحقيقة » .

« إن ثروتنا المنخورة فى الأرض ، مثل الغيب ، حافلة بالمدهشات الرائعة . لكننا لا نعرف بالضبط ماذا تعطيه لنا ، ومن يدرى لعلها تعطينا الشئ الثمين الذى يزيد فى ثروتنا العامة . وهنالك ثروة فى البحار لا ينبغى ان نحذفها من تقديرنا ، تلك هى الأسماك والأصداف وجلود السمك الكثيفة وقشرها الغليظ وعظامها الصالحة للامشاط وغيرها . فهذه الثروة يصح أن تضيف إلى أموالنا أكداساً من الذهب النضار » .

قلت : « يمكن التكهن بأن مصر بفضل السياسة الجمركية ، وبفضل استحواذنا على قناة السويس ، وبفضل ما ينتظر من جمارك الطيران ، وبفضل الضرائب التى سنفرضها على رءوس الأموال بلا نظر إلى الجنسية ، ثم بفضل الاقتصاد المعقول لا تحتاج إلى مليم واحد من الخارج تقترضه . وهذا عمل عظيم ، لأننا سنشيد مصراً أخرى صناعية إلى الحد اللازم زراعية على طراز حديث » .

« اظن ان سياستنا المالية يجب أن تقوم على أساسين جوهريين : العمل على حماية المنتجات والمحاصيل المصرية وتشجيع الصناعات القومية ، ثم زيادة الدخل والاقتصاد فى النفقات ، أى توطيد الاحتياطى وزيادته مع العمل على تسديد ديوننا القديمة » .

« فهل أقول ان مصر فى سنة ١٩٨٢ ستكون رخية موفورة المال عزيزة على الأزمات ؟! » .

فقال : « ذلك ما نتمناه » .

★★★

هذا خلاصة ما استوعبته وأرجو أن يكون وافياً بالمرام .

فى التربية والتعليم والثقافة العامة

رأى الأستاذ محمد العشماوى بك

السكرتير العام لوزارة المعارف

ذاع للأستاذ العشماوى بك صيت بعيد فى الأوساط المثقفة ، بأنه نصير الفنون الجميلة وكافة ألوان المعرفة التى نحن بحاجة إليها لنستكمل ما فاتنا دركه فيما مضى ، وأنه لقد يهزنى بواسع اطلاعه ورجاحة منطقه وتقاعسه عن الغلو بطبيعته .

بدأت باستفهامى عن المدة التى تكون قد مضت بعد خمسين عاما على « الأمى الأخير » .

فنظر إلى الافق البعيد كمن يستوحى السماء وقال : « لا شك أننا ستكون بعد نصف قرن قد دفنا (الأمى الأخير) . على شرط أن نكون قد نفذنا الاجبارية بقانون صارم يعاقب من يتخلف عن تعليم أولاده والاحتياط لتعليم الكبار على الكره منهم . وعندى انه يجب دفنه بغير احتفال . لكن يصعب على تعيين الوقت الذى ندفنه فيه » .

فقاطعته قائلا : « ما رأى سعادتكم فى اننا نحفظ هذا (الأمى الأخير) ونحتفل بوضعه فى المتحف المصرى ؟ » .

فضحك واستصوب الفكاهة ، وقال : « هو على كل حال حادث تاريخي ومثل هذا الأمي يكون علامة على انتهاء عصر الجهل العام والظلام !! » .

من هذا السؤال قفزت إلى ميزانية التعليم . فأجاب بأنها ستكون أضعاف أضعاف ما هي عليه الآن . وأكد انها ستفوق ميزانية وزارة الحربية والبحرية والطيران مجتمعة . إذ هو يعتقد ان مصر لن تأخذ يوما من الأيام بسياسة التسليح . فهي مسالمة بطبيعة أهلها . فبعد الاتفاق مع بريطانيا وبعد ان تصبح عصبة الأمم أداة فعالة في فض المشاكل وحسم النزاع ، أي حاجة تبقى للصرف عن سعة للتسليح ؟ العصر القادم - كما تشير إليه اتجاهات الساسة وميول الشعوب - سيكون فريداً في حياة الإنسانية ، من ناحية العدول عن الحرب المسلحة إلى التفاهم والتراضي والتعاون بقدر الإمكان .

قلت : « هل المدارس الصناعية والفنية والزراعية ، هي التي سيكون لها المكان الأول في عناية وزارة المعارف في الخمسين سنة القادمة ؟ » .

فاتجه إليّ وعلى محياه سيما الجد ، كرجل يتكلم عن خطة مقررة أو سياسة يستحسن ان تأخذ بها بلاده وقال : « إن ما تراه اليوم صوتا خافتا سيسفر فيما يأتي من الزمن عن تصميم وعزم مقرون بالتنفيذ . المستقبل للمدارس الصناعية والفنية والزراعية . وان تخرج المدارس الثانوية أكثر من حاجة الجامعة والمدارس العليا . وهذا لخير مصر التي ستشعر بحاجتها إلى البناء والاصلاح في شتى ميادين النشاط الحيوي . وتلك ضرورة تصيح بها حالة البلاد الراهنة . ونحن سنلبي نداء الوطن الذي يسعى إلى الأمام ، ونكفل له شبابا يحمل مسئوليات تركنا حملها للأجانب واهملنا ما تبقى منها » .

قلت وقد استلهمت « آلهة الفنون » :

- ما رأيكم في معهد الموسيقى ومعهد التمثيل ؟

فقال على الفور ، حتى لحسبته يقرأ فكرى :

- معهد التمثيل والسينما ! أحب أن لا يغيب عن بالك اني انظر إلى التمثيل على اعتبار أنه أداة للتثقيف وليس وسيلة من وسائل اللهو والتسلية . فالرواية المسرحية الفنية كانت ومازالت غذاء الروح والعاطفة النبيلة . إن مصر ستكون بعد خمسين عاماً مركزا لنهضة فنية عظيمة . ولا يمكن التكهن بالدور الذي ستلعبه في تاريخ الفنون الجميلة . لكن لا مانع من الظن بأن انقلابا خطيرا قد شرع يبرز وعن مداه وأثره يطول الكلام ولا يجمل الحدس والتخمين .


ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فاطربنى تفاؤله وجعلنى اسأل : « إذن سيعود سيرته الأولى معهد التمثيل ؟ »
قال : « وسيتسع أيضا للسينما ، استعداداً لسد حاجة البلاد الفنية وتشجيعاً للرغبة فى انشاء صناعة تعرف انت مبلغ مزاياها وجليل خدماتها ، من نواح لا تحصى ، اخصها الناحية المادية والدعاية والتثقيف » .

وختمت حديثى بالاستفسار عن الجامعة : « على أى حال ستغدو بين معاهد العالم ؟ » .

فقال عقب برهة سبح فيها :

– الجامعة !؟ انها تسير ببطء لكن بوثوق ، وتتقدم تدريجيا على الاسس العلمية الصحيحة . اليوم نحن مضطرون للاستعانة بالأساتذة الأجانب . وفى الغد ستقترض منا جامعات أوربا اساتذة فى العلوم الشرقية ، وربما فى التشريع والفلسفة . وهنا اذكر أن كاترين زوجة بطرس الأكبر لما رأيت الحكم انشأت جامعة روسية ، كل أساتذتها من الالمان ، فلم يمض طويل وقت حتى حل الروس مكان الالمان ، ومهروا فى العلوم والآداب وتفوقوا فى الفنون .

« وكذلك فعل فردريك الأكبر ملك بروسيا الذى فتن بالثقافة الفرنسية واستقدم فولتير إلى بلاطه وكان يعرض عليه شعره ، فانه انشأ جامعة جعل مديرها أحد العلماء الفرنسيين يعاونه رهط من بنى جنسه » .

« فى الختام ان جامعتنا ستكون مركز الدراسات الشرقية ، ومشرق اقمار تعيد لنا صيت العرب والفراعنة . وستكون القاهرة قبلة يحج إليها المشارقة جميعاً وبعض المغاربة لاتمام علومهم » .

فى علاقتها بالأسرة الدولية

رأى الدكتور محمد حسين هيكل بك

أفاض الدكتور هيكل فى مركز مصر السياسى ومكانتها الدولية بعد نصف قرن من عامنا هذا وانتقل من موضوع إلى موضوع ، منسجم المنطق فتان البيان قال :

– حينذاك لا تكون مصر الحديثة هامشا على تاريخ مصر القديمة ، ولا

تعيش فى كنف الفراعنة تستجدى العطف عليها ، ولسان حالها يقول : ارحموا عزيز قوم ذل .

« بلى !! ان السياح سيفدون على مصر ، ليشهدوا كيف بعث الشعب الذى خرج من تحت انقاض الزمن ونفض عنه غبار الفناء ، وكانوا من قبل يجوسون خلال الديار ، يمجدون آباءنا ويترحمون علينا » .

« مصر اليـوم موضـوعة على الرف ، فى عـزلة عن الأسرة الدوليـة وفى الغد ستزاحم الأمم النابهة بالمناكب سباقة إلى أداء واجبها نحو الحضارة ونحو الإنسانية » .

« إن الخمسين عاماً القادمة لابد مستنفدة قوانا فى بناء مصر الحديثة التى نحلم بها اليوم ، وأول لبنة فى أساس هذا البناء هو اتفاقنا مع بريطانيا اتفاقاً يحقق المطالب القومية كاملة غير منقوصة وفى مقدمتها الاستقلال التام لمصر وسودانها . ولا يتوهمن أحد أن الاستقلال هو غاية الغايات . كلا . إنه مفتاح الطريق ليس غير . ومن قعد عند الباب مكدوداً من الاعياء لا يأمن قطاع الطرق » .

« لا نطلب الاستقلال لذاته بل لثمراته . وعندى أن مصر بعد أن تستكمل بناءها ترحب بها الدول كعضو عامل فى جمعية الأمم . وفى عصبة الأمم أعضاء كالاشلاء تلعب دور الصفر على شمال العدد . ولست أتصور مصر بعد نصف قرن الا ظافرة بمكانة كتلك التى تتمتع بها سويسرة – مكانة دولية مضمونة الحياد . وقد أتخيلها منافسة لسويسرة من حيث انعقاد المؤتمرات الدولية التى تفض المشاكل بالحسنى وتسوى المنازعات ووجوه الخلاف بالتراضى والتفاهم » .



محمد حسنين هيكل

« مركزنا الجغرافى ، وحاجتنا إلى هدوء السلم وطمأنينته - خصوصا عقب أعمال البناء المجهدة - وتطلعنا إلى المثل الأعلى للحضارة ، كل هذا سيوحى الينا أن خير سياسة يجب أن نتبعها هى مصافاة الشعوب جميعاً ووضع علاقاتنا مع الدول على قواعد الولاء والمحبة وحسن النية والتعاون المتبادل .

« إنه لا مطمع لنا اسمى من تأدية الرسالة التى ندبنا لها خلقنا السمح وطبعنا الكريم . واعنى بها رسالة السلام . فنحن الذين تعاقبت على إخضاعنا أقوى الدول قد تعلمنا من مصارعها درساً لا ينسى - تعلمنا أن البغى مرتعه وخيم . وليس مثلنا شعب ذاق لذة إذلال غيره من الشعوب ثم شرب كأس الذل حتى الثمالة . ونحن الذين أرهقنا الطغيان حتى لكاد يسحقنا بكلكلة لن نظاهر دعاة الحرب أو نحبذ طغيانهم . وسيساعدنا على أداء رسالتنا الرفيعة ما نكون قد أحرزناه من نفوذ أدبى بين الشعوب ، بفضل سفرائنا . ونباهة الذكر وحسن الاحدوثة أفضل سفير » .

« على ان السلم فى دمنا . السلم عندنا عقيدة . فانا معشر أهالى وادى النيل قد ورثنا التراث الروحى للشرق . والشرق هو الذى أنجب الأنبياء - أنجب محمداً وموسى وعيسى وما يشذ دين من الأديان الثلاثة عن أن يكون السلام لبابه وجوهره » .

« هناك شئ جليل آخر . هناك أن مصر ستبرز للامم مثلا صالحاً وأنموذجاً حياً . والأمم كالأفراد تحتاج إلى القدوة الحسنة ، ذلك أننا سنكيف طباعنا بحيث يستعذبها المشارقة ويستسيغها الغربيون . ستكون ملتقى الصفات الشرقية والخصائص الغربية ، فنجمع النقيضين فى نفوسنا ، فتقوم الحجة على بطلان ما قال به شاعر الاستعمار ، روديارد كبلنج ، من أن الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا ماكر الجديدان » .

« بذلت أوربا فى سبيل الحرية الفكرية وحرية العقيدة دماء زكية . وتعلم عنها العالم أنه لا يتهيأ للإنسان تقدم وارتقاء بغير التسامح الفكرى والتسامح المذهبى . لكن أوربا لم تعرف التسامح العنصرى . والراجح أن الحضارة الراهنة يعوزها التلقيح بهذا المصل الحيوى ، مصل التسامح العنصري ، فلا يعود البيض يحتقرون السود ويزدرون الصفر ويسترِيبون بالشعوب السامية ، وفى أمريكا يتجلى الظلم العنصرى وتظهر مساوئه بأشنع مظاهرها » .

« عن مصر ستتعلم الإنسانية ان التسامح العنصرى - مثل التسامح الفكرى والتسامح المذهبى - ضرورى لتكون حضارتنا الراهنة إنسانية حقاً . ولن تتحقق قط فكرة السلام العالمى عن طريق تكوين الاسرة الدولية بدون هذا التسامح » .

« ذلك في رأيي واعتقادي هو ما ستصنعه مصر بعد خمسين عاماً ، ستماشي العالم إلى مثل أعلى يحث على الاسوة الحسنة والقدوة الطيبة » .

في التطور الاجتماعي

رأى الدكتور منصور فهمي

يسبق الدكتور منصور فهمي عصرنا هذا بأفكاره ، وبعض تأملاته تتكشف عن نبوءات صادقة ، طفق يتحدث إليّ عن مصر من الوجهة الخلقية بعد نصف قرن فحسبته بعض أهلها في قادم الأيام وفد علينا من المستقبل ، يبشر الحاضر بحسن العاقبة . وكنت سألته : « ترى هل تكون مصر أزكى اخلاقا منها اليوم ، وهل تكون حياتها الاجتماعية أنضر صفحة وأصلح حالا ؟ » .

فاتكأ إلى الوراء وحدق في السماء برهة ثم قال :

« ستتغير بيئتنا بلا ريب ، وستتغير أفكارنا بعد خمسين عاماً . وتبعاً لذلك تتطور حياتنا الاجتماعية ، وستحقق بهذا التطور الخطير وسائل الاستقلال ونبالة النظم واستقرارها وشيوع الحريات الصادقة بيننا وأخذنا من الثقافة بنصيب وافر . ومن مميزات هذا التطور تطهيرنا من أخلاق الضعف التي بثتها في نفوسنا عهود الاستبداد والظلام . وأنكى هذه الأخلاق المريضة هو النفاق والحسد والبغضاء . وليست الانانية والاثرة بأخس ما رمينا به » .

« سيعيش الفرد للمجموع ولأهله وذويه ثم لنفسه . وذلك هو حجر الزاوية في بناء الأمم ، فبدون التضحية وانكار الذات ، والايثار والتعاطف ، لا يطيب وطن ولا تتحقق قومية . ان الوطن يبنى بأشلاء الضحايا وتستمد القومية حيويتها من أرواح الاسخياء بجهودهم الصالحة من شهداء الفكرة أو العقيدة . وقد يستشهد الرجل في معركة لا طعن فيها ولا نزال ، على نحو ما يموت العالم والمصلح والزعيم فكل من هؤلاء شهيد قضى نحبه على دفعات » .

« ثم انك لن تجد أناساً مسرفين في الشهوات والبذخ ولا زاهدين في المناعم المباحة ، ولن تصادف شباباً يائساً خائر العزيمة يفرق من المجازفة ويشفق من المخاطرات ، ويسلك إلى الكسب أقصر الطرق ويضيق عليه الافق فيحصره في محيط كالقبر ، تذبل فيه همته ويركبه تشاؤم قاتل وتتقاذفه الحيرة والجبانة » .

« ستتفتح ميادين للعمل والحركة والنشاط في غير مصالح الحكومة ودواوينها ،

وسيتعلم الشبان في مدرسة الحياة الحرة أن الأمر جد وأن الفوز للشجاع المثابر ، وأن التعاون من الصفات الإنسانية التي ينهض عليها صرح الحياة الاجتماعية سامقاً وارف الظلال » .

« إذ ذاك يمتلئ وقت المصرى بالعمل المنتج . والعمل هو أعظم مروض على الفضيلة ، وهو الذى يلقى بذور الخير في الضمائر . وسيكون من أثر ذلك أن تقفز القهوات المنتشرة في بلادنا انتشاراً شديداً وتعمر البيوت ، وفي عمار البيوت سعادة حرمناها » .

« وإذ ذاك نفقه كيف ننتفع بأوقات الفراغ انتفاعاً موفقاً ، ونعرف كيف نستغلها في تغذية العقول بالاطلاع أو التسلية الفنية البريئة ، أو الاستجمام لوقت الكدح والدأب ، أو المكث بين الزوجة والعيال حيث تنقلب الدار فردوساً وينقلب الاطفال ملائكة أبراراً » .

« وثم ظاهرة كبيرة ! تلك هي سفور النفس واشراقها عند الرجل والمرأة ، حين يسفر العقل وتسفر العاطفة . يسفر العقل من حجاب الجمود والجهالة ، وتسفر العاطفة من حجاب المرض والانحلال . ولست أريد الاطالة فيما ينجم عن اشتراك المرأة في القيام بالاعمال العامة والخاصة ، إذ من تحصيل الحاصل ان أصف حالة كالتي نراها اليوم في أوربا . والفرق شاسع بين أمة يحمل نصفها الاعرج الكسيح نصفها المقعد الضرير وبين أمة يتآزر شطراها على النهوض بها والسير إلى الأمام » .

« وكأنى بالعائلة المصرية قد استقرت على دعائم راسخة . وأهم هذه الدعائم الزوجة الواحدة والتربية الحرة الفاضلة . ومتى استقامت العلاقات بين الجنسين أصبح التفاهم ميسوراً ، وصار في الوسع اختيار شريكتنا مدى الحياة . والعائلة هي الأمة مصغرة . فإذا برئت من العلل برئ المجتمع من الادواء الوبيلة التي نلاحظها عندنا خصوصاً بين أهل الريف وجماعة الموظفين وطلاب المنافع الذاتية من أصحاب الاهواء والنيات المسفة ، مما كان سببا في تفككنا الاجتماعي وعدم اتساقنا لمجابهة الارزاء القومية والمحن الوطنية بنفوس متعارفة متآلفة » .

« فإذا استقامت لنا الأمة اسرتنا الكبرى التي تضم شيعنا ونحلنا وعقائدنا في صعيد واحد يرفرف عليه روح التضامن ، ساقنا مثلنا الأعلى إلى الاتجاه نحو الأسرة العظمى ، أسرة الإنسانية ، وأغلب الظن أن الحضارة الراهنة مصيرها إلى توجيه الشعوب في نظام يكفل استقلالها ويربطها برباط مقدس من الاخلاص والوئام . ان الفكر الإنساني يسبق الأخلاق بآلاف السنين ، وقد هدانا



الفكر إلى أن الحياة لا تبسم ولا تستحق العيش ما لم تهون آلامها وأرزاءها الاخلاق الرضية » .

فى الأدب والعلم والفن

رأى الأستاذ خليل مطران

لا داعى إلى الاطالة فى مناقب خليل مطران والالماع إلى ميزاته التى لا تحصى ... ويكفى فى مقام ضيق كالذى افسحته لى « الهلال » ان اعترف بأن حديثه من المستحيل أن تقيده حافظة أو تلاحقه مخيلة ، وقد ذهبت لاستمتع بسحر بيانه واستيعاب ما يمكن استيعابه ، وما من دأبى ان اختزل الخطب الطوال ، ان شاعر القطرين محيط زاخر بالمعلومات والتجارب ، وهو عظة ناطقة ، عاشر القدماء فبزهم وجرى مع المجددين فى الشوط فسبقهم .

قال لى فى جملة ما قال :

« كنت قد حدثتنى عن رأيى فى جائزة « نوبل » لماذا لم يظفر بها أديب مصرى ، فاليوم أدلى لك بصيغة التأكيد ، ان غير أديب وشاعر سيظفر بها على الارجح » .

« سيكون لنا بعد نصف قرن ما نصبو اليه الآن ، ادباء عالميون وكتاب ينتشر لهم صيت فى كل مكان ، وتترجم منتجاتهم البديعة إلى اللغات كافة . لا اتكلم على سبيل الامنية ، إنما استنتج محترساً ناظراً إلى الغاية من المستهل . فلا شك فى أن الاحوال المعنوية والظروف المادية ستتطور ، ولا شك فى ان الأديب سيدنو فنه من الكمال المنشود . فقد أرى أن الرخاء واليسر ضروريان لتقدم الفنون الجميلة » .

« ومن العسير تعيين الاتجاه الذى تسلكه القصة والرواية فى نصف القرن القادم . لكن يمكن الظن بأن الفكرة الصوفية - بالمعنى السامى - ستغمر هذه القصص وتعيش بها ولها شخصياتها ، ولأردد كلمة الشاعر الهندى طاغور ، وهى التى نادى بها قادة الفكر فى عصرنا الحاضر ، الفكر الحديث الذي فهمنا انه يتجه إلى الله بعد ان كاد يتجه فى القرن الماضى إلى المادة وعبادة الأرضيات قال طاغور فى حديث له مع مكاتب جريدة امريكية : ان المدنية الغربية قد سئمت ضوضاء الآلة وعافت المادية ، وليس امامها سوى الهدوء والسكينة مهربا . تعبد فى قدسه وجه الاله فى صمت ملائكى » .

« فكأن الحضارة قد تطورت إلى اتجاه نحن مبرزون فيه ، قد فطرنا عليه وركزته عهود الاستبداد والظلام فى طبائعنا . فإنه لم يكن امامنا معاشر الشرقيين سوى الله نستعديه على الاقوياء ونفئ إلى ظله الرحيم ونستريح إلى مايسبغه علينا من صبر وراحة بال ، حين كان الصبر قوام الحياة وملاك القوة ، وحين كانت راحة البال غذاء ضروريا لاشباع روحنا الجائعة وتسكين نفوسنا القلقة » .

« ان الرواية المسرحية والقصة – صغيرة أو مستفيضة – ستزدهر على طراز مستحدث . كيف لا ونحن الذين ابتدعنا هذا الفن وسمونا به إلى الكمال ، فأعطينا للأدب العالمى والفن الإنسانى اثمن درة واعتى بها « الف ليلة وليلة » . ويغلب القصص على عيون الكتب الأدبية عندنا من مثل الاغانى وما إليها » .

« سيكون الأديب فى سنة ١٩٨٢ فى رغد من العيش . الكتاب الواحد أو الرواية الواحدة تدر على صاحبها آلاف الجنيهات . ويومذاك تكثر شركات النشر والطباعة وترتقى الصحافة وتباع الجرائد بالملايين . وقد لا اغالى إذا حسبت ان مصر ستغدو اروج ميدان للأدب العربى والفكر العربى ، يهرع إليها من سائر الاقطار الشقيقة العباقرة والنبغاء لينضموا إلى الاسرة الفنية الأدبية » .

« ثم لا يبعد ان توجد مدارس فى الأدب والنقد . وعندى ما يجعلنى اعتقد ان علماء مصر سيتممون عمل المستشرقين الذين أقول انهم عاجزون عن اتمامه لبعدهم عن الروح العربية ، ولأن بعضهم متعصب من غير وعى يعالج البحوث بطريقة العالم لا بروح الأديب الفنان ، ومن أجل ذلك لا يتغلغلون إلى صميم الأدب العربى » .

« فليطمئن أهل الصناعتين : النثر والشعر ، فان المستقبل لن يبخسهم حقهم ، انهم لن يكونوا كأسلافهم يعيشون فى حمى الامراء ومن فضل ما يسخو به العظماء والكبراء . سوف يكونون قوة يرهب بأسها وتخشى سطوتها . سيكونون القادة الحقيقيين للشعب . وسيتحكمون فى القلوب والعقول يهيمنون على الشعب ويكيفون اخلاقه ويصبونه فى القالب الذى يشتهون » .

« وسيعكس المسرح حياتنا المخبوءة والظاهرة ويعيد الحياة إلى تاريخنا المنسى . وسينشط كتابنا إلى تأليف القصص السينمائية » .

« كل هذا سيؤدى إلى تطور اللغة فان تقدم اللغات ظاهرة تدل على حيوية الأمم . والأدباء هم الذين يستطيعون وحدهم ترقية اللغات وبعث الحياة فيها » .

نوفمبر ١٩٣٢

هل صحت أحلام المصلحين ؟

استفتاء طائفة من المفكرين

- ماذا كان يحلم به المصلحون والزعماء فى مصر ؟
- وماذا تحقق من أحلامهم ؟
- وماذا ينتظر تحقيقه منها فى المستقبل ؟

هذا ما أجابنا عنه طائفة من المفكرين وأصحاب الرأي عندنا . وقد تناولوا كبار المصلحين والزعماء الذين ظهروا في مصر وكان لهم أثر بارز في حياتها الجديدة من النواحي السياسية أو الاجتماعية أو الدينية . وقد درسوا أحلام هؤلاء القادة وماذا كان مداها وإلى أي الغايات اتجهت .

ونحن ننشر هذه الإجابات في الصفحات التالية :

محمد على باشا والخديو إسماعيل – بقلم الأستاذ عبد الرحمن بك الرافعى .

السيد جمال الدين الأفغانى – بقلم الدكتور يحيى أحمد الدرديرى .

الشيخ محمد عبده – بقلم محمد رشيد رضا .

مصطفى كامل باشا – بقلم حافظ بك رمضان .

قاسم بك أمين – بقلم إبراهيم بك الهلباوى .

سعد باشا زغلول – بقلم الدكتور أحمد فريد رفاعى .

محمد على باشا والخديو إسماعيل

بقلم : عبد الرحمن بك الرافعى





١ - محمد على باشا :

لا جدال في أن محمد على باشا هو من عظماء الرجال ومن كبار مؤسسي الدول والممالك، وحسبك أنه أسس ملكا عريضاً وهو ملك مصر .

كان الأمل الأكبر لمحمد على أن ينشئ الدولة المصرية المستقلة ، وقد تحقق هذا الأمل العظيم. فبعد أن كانت مصر ولاية من ولايات السلطنة العثمانية يتعاقب عليها الولاة كل سنة أو سنتين أصبحت دولة مستقلة قوية البأس عزيزة الجانب ذات ملك واسع الأرجاء، تمتد حدوده من جبال طوروس شمالا إلى أقاصى السودان جنوباً، وتشمل مصر وسورية وبلاد العرب وجزيرة كريت وقسماً من الأناضول. ولئن تراجعت حدود الدولة المصرية بعد أن تألبت عليها انجلترا وتركيا وأوربا سنة ١٨٤٠ فقد بقيت حدودها الأصلية سليمة إذ شملت استقلال مصر والسودان وتحققت بذلك وحدة وادى النيل السياسية والقومية. ومهما نالت الأحداث من هذا الملك العظيم فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، فإن الدولة المصرية المستقلة التى أسسها محمد على قائمة إلى اليوم وإلى ما شاء الله آخذة بأسباب التقدم والرقى.

اقترن أمل محمد على من هذه الناحية بأمله فى تأسيس أسرة مالكة يكون الملك فيها لشخصه ثم لذريته من بعده، وكان هذا لزاما لتأسيس الدولة وبقائها واستقرارها على الزمن. ولولا أن تحقق هذا الأمل لتبدد الملك الذى أنشأه والإصلاحات التى قام بها وعادت مصر ولاية عثمانية يسودها التأخر والفوضى. وقد عمل على توطيد دعائم الدولة التى أسسها بإنشاء حكومة نظامية وقوة حربية ونشر لواء العلم والحضارة فى البلاد، وتحققت آماله فى هذا الصدد. فأسس حكومة ذات نظم ولوائح وقوانين ودواوين على غرار الحكومات الأوربية. وأنشأ جيشا مصرياً قوياً منظماً على أحدث طراز، وبنى الحصون والقلاع. وأسس أسطولا ضخماً رفع علم مصر فوق ظهر البحار. وكانت آماله السياسية معقودة بقوة مصر الحربية والبحرية إذ كان يعتقد أنها السياج المنيع للدولة الفتية التى أسسها. وقد بقى استقلال مصر سليما ما بقى للجيش قوته ومنعته .

وتحقق أمله فى نشر لواء العلوم فى مصر بإنشاء المدارس النظامية الحديثة وإيفاد البعثات العلمية إلى أوربا. فكانت تلك المدارس والبعثات قوام النهضة العلمية والأدبية التي سطع نورها فى عهده، وهى الأساس لنهضة مصر الحاضرة فى العلوم والآداب والفنون .

ووفق أيما توفيق في تحقيق آماله من الناحية العمرانية في الزراعة والتجارة والصناعة. فأحيا ثروة مصر الزراعية بمنشآت الري التي أسسها وإدخال الزراعات الحديثة. وحسبك في هذا الصدد أنه أدخل في مصر زراعة القطن الحديث الذي أصبح أساس ثروة مصر الزراعية . ومن ناحية التجارة أنشأ لمصر اسطولاً تجاريا كان له الفضل الكبير في نهضتها التجارية. وقد تبدد اسطول مصر التجاري في عهد الاحتلال ثم تجدد الأمل في إحيائه في عصرنا الحاضر .

ومن الوجهة الصناعية كانت آماله متجهة إلى إحياء الصناعات الكبرى. فأنشأ كثيرا من المعامل والمصانع التي تدار بالآلات. ونجح نجاحاً عظيما في إنشاء معامل الأسلحة والبنادق والمدافع والبارود ومعامل الحديد والنحاس ، وفي تأسيس مصانع الغزل والنسيج في مختلف المدن والعواصم. ولئن أصيب بعض هذه المصانع بالبوار في أخريات عهده بسبب احتكار الحكومة لها وانعدام الإدارة الحرة فيها فإن هذه التجربة كانت سببا لظهور الصناعات الكبرى في مصر ونواة للنهضة الصناعية التي أخذت مصر بأسبابها في العصر الحاضر .

وصفوة القول أن آمال محمد علي قد تحققت إلى أبعد مدى في عهده ، واستمر معظمها من بعده حقيقة ثابتة . فالدولة المصرية المستقلة ، والاسرة المالكة ، والحكومة ، والنهضة العلمية والادبية ، وعمران مصر وتقدمها في الزراعة والصناعة والتجارة – كل هذه الحقائق والمنشآت أصبحت ثابتة مستقرة مطردة النمو والتقدم ، وهذا يدلك على رسوخ البناء الذي شاده محمد علي . أما الجيش والاسطول فهما العاملان اللذان اصابهما التراجع ثم الاضمحلال من بعده مما أدى إلى تصدع بناء الاستقلال . وإذا أتيح لهما أن يستردا مكانتهما فسيكون هذا احياء للأمل الذي حققه محمد علي الكبير .

٢ – الخديو إسماعيل :

كان الخديو إسماعيل مشغوفاً بالمدنية الغربية إلى أقصى مدى ، راغباً في أن تنال مصر على عهده أكبر قسط من هذه بالمدنية . وقد حقق كثيراً من آماله في هذه الناحية ، فبعث النهضة العلمية والادبية من مرقدها ، وأعاد عهد البعثات العلمية ، وانشأ المدارس العالية التي كانت واستمرت من بعده قوام انتشار المعارف وارتقاء الافكار وتقدم الثقافة إلى عصرنا الحاضر . ونهض بعمران مصر بما انشأه من

الترع والقناطر وسائر منشآت الرى التى كان لها الفضل الكبير فى اتساع نطاق الاراضى الزراعية ، وعنى بعمران المدن وبخاصة القاهرة والاسكندرية . وكان يبغى أن يجعل العاصمة باريساً ثانية بما انشاه فيها من الاحياء الجديدة والشوارع والميادين والمتنزهات والقصور والجسور (الكبارى) وقد تحقق أمله فى هذه النواحى إلى مدى بعيد . ومن الجهة الاجتماعية يصح أن يسمى عهده عهد التجديد الاجتماعى لان الهيئة الاجتماعية المصرى بتأثير الخديو إسماعيل أخذت تتطور نحو الرقى وتقتبس أساليب المجتمع الاوربى وعاداته فى أنماط الحياة وطرائق التفكير والتهذيب . وهذه النهضة ماضية فى سبيلها إلى اليوم .

وكان يأمل من الوجهة السياسية أن يكمل الاستقلال الذى وطد محمد على دعائمه ويصل به إلى الاستقلال التام . فألغى معظم القيود التى قيدته بها الفرمانات السابقة . وأكمل فتح السودان وضمه إلى حظيرة الوطن . وتحقق أمله فى هذا الصدد إلى أبعد مدى إذ وصل بحدود مصر إلى منابع النيل وشواطىء المحيط الهندى وبسط نفوذها فى مديرية خط الاستواء ومملكة أونيور ومملكة أوغنده وسلطنة هرر وسواحل السومال ، وهذا العمل يعد من مفاخر إسماعيل . وكاد يتحقق أمله العظيم فى إنشاء امبراطورية مصرية وطيدة الاركان باقية على الزمن تشمل وادى النيل بأكمله من منبعه إلى مصبه لولا أنه أسرف فى عقد القروض الاجنبية وبالغ فى حسن ظنه بالدول والبيوت المالية الأوربية ، فانقلبت هذه الديون أداة للتدخل الاجنبى وتأثر لها كيان الاستقلال فى أواخر عهده بما كسبته الدول من الحقوق والمزايا ، كتاسيس المحاكم المختلطة وإنشاء صندوق الدين وفرض الرقابة الثنائية على مالية مصر وتعيين لجنة تحقيق أوربية لفحص شئون الحكومة المالية والإدارية وتعيين وزيرين اجنبيين فى الوزارة المصرية لهما حق «الفيتو» أى وقف كل عمل تشريعى وتنفيذى للحكومة . وقد كانت هذه القيود عقبة فى تحقيق آمال إسماعيل ، ومايزال بعضها إلى اليوم عقبة فى سبيل الاستقلال التام .

السيد جمال الدين الأفغانى

بقلم : د. يحيى أحمد الدرديرى

قال رينان على أثر المناقشات التى دارت بينه وبين جمال الدين الأفغانى فى باريس فى العلم والاسلام : «كنت أتمثل أمامى – عندما كنت أخاطبه – ابن سيناء أو ابن رشد أو واحداً من أساطين الحكمة الشرقيين» .


ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هذا هو جمال الدين العالم ، فأما جمال الدين الرجل فقد وصفه تلميذه أديب إسحق بقوله : «إنه أسمر ربعة ممتلىء ، قوى البنية ، جذاب النظر ، نافذ اللحظ ، خفيف العارضين ، مسترسل الشعر ، بجبة وسراويل تنطبق على الكاحلين ، وعمامة صغيرة بيضاء على زى علماء الاستانة ، عزب عفيف النفس ، قانت ، كثير القيام ، لاينام إلا الغلس إلى الضحى ، ولاياكل غير مرة واحدة فى اليوم ، على أنه يكثر من شرب الشاى والتدخين ، قوى العارضة ، طويل الحجة ، واسع المحفوظ ، نبيه ، يكاد يكشف حجب الضمائر ، ويهتك أستار السرائر . ولكنه على فضله لايسلم من حدة المزاج» .

وقال عنه الامير شكيب أرسلان : «إنه كان يعظم نفسه عن الشهوات ، ولايرى من اللذات إلا اللذة العقلية العالية . وقد حاول السلطان عبد الحميد أن يعلق قلبه بالمال والبنين ويشغله بزينة الدنيا وراوده على الزواج فأبى وأعرض . وكان ينظر إلى المال نظره إلى التراب فلا يدخره ولا يتناول منه إلا ما هو ضرورى للحياة . وحاول السلطان أن يعطيه رتبة علمية – كرتبة «قاضى عسكر» مثلا فأبى أن يقبل الرتبة وأن يلبس كسوتها المزركشة بالقصب . وكذلك رفض قبول وسام مهما كان عالياً» .

هذا هو جمال الدين الرجل ، فأما جمال الدين المثل العالى فقد وصفه أعظم تلاميذه فابدع فى تصوير نفسيته ، قال :

«هو هش بش عند اللقاء ، وفاه الله من كمال خلقه ما ينطبق على كمال خلقه ، أما أخلاقه فسلامة القلب سائدة فى صفاته ، وله حلم عظيم يسع ماشاء الله أن يسع، إلى أن يدنو منه أحد ليمس شرفه أو دينه فينقلب الحلم إلى غضب تنقض منه الشهب، فبينما هو حليم أواب ، إذا هو أسد وثاب ، وهو كريم يبذل مابيده ، قوى الاعتماد على الله ، لا يبالى ما تأتى به صروف الدهر ، عظيم الأمانة ، سهل لمن لاينه، صعب على من خاشنه ، طموح إلى مقصده السياسى ، إذا لاحت له بارقة منه تعجل السير للوصول اليه ، وكثيرا ما كان التعجل علة الحرمان . وهو قليل الحرص على الدنيا ، بعيد عن الغرور بزخارفها ، مولع بعظائم الأمور ، عزوف عن صغارها ، شجاع مقدام، لا يهاب الموت كأنه لا يعرفه ، إلا أنه حديد المزاج ، وكثيراً ماهدمت الحدة مارفعته الفطنة» .

هذا جمال الدين «المثل العالى» فلننظر ماذا كان جمال الدين السياسى .

قال الاستاذ الامام : «إنه كان يسعى لانهاض احدى الدول الاسلامية من ضعفها ، وتنبيهها للقيام على شؤونها ، حتى تلحق بالدول القوية ، فيعود للأسلام

شأنه ، والدين الحنيف مجده . ويدخل فى هذا تنكيس دولة بريطانيا فى الأقطار الشرقية ، وتقلص ظلها عن رءوس الطوائف الاسلامية . وله فى عدواة الانجليز شؤون يطول بيانها » .

فلنبدأ من النهاية ، لنبدأ بمطمحه الاسمى وأعنى به الجامعة الاسلامية ، وسنترك جمال الدين نفسه يحدثنا عن أخفاق فكرته تلك فى حياته ويأسه من تحقيقها بعد وفاته .

قال فى سنة ١٨٩٢ ، قبل وفاته بخمس سنوات : «ان المسلمين قد سقطت هممهم ، ونامت عزائمهم ، وماتت خواطرهم ، وقام شىء واحد فيهم ، وهو شهواتهم» .

إلا أن جمال الدين إذا كان قد أخفق فى تحقيق مثله العالى فقد حقق لأمم الشرق مثلا عليا عديدة . وما أخفق فى واقع الامر إلا لأن ما ابتغاه صعب المنال عسير المرتقى فى وقت طمع فيه الغرب فى الشرق وألب عليه الأحن والأحقاد ودس ساسته السم فى نواحى العالم العربى الإسلامى . وهو بالذات كان يطارده الاستعمار أينما حل وسار .

على أن هذا المصلح الكبير قد نجح فى حياته ونجح بعد وفاته وكان نجاحه متعدداً كثير النواحى شهى الثمرات .

نهضت شخصية الأفغانى على دعائم من نور العلم وقدسية الحرية وديموقراطية الشورى .

ففى ناحية الفكر الحر نجده بذر بذوراً صالحة أينعت بسرعة خارقة للعادة ؛ فما أن بشر بتعاليمه فى مصر حتى أقبل يرتشف من منهله العذب صفوة من طلاب الازهر فى رأسهم محمد عبده وسعد زغلول وإبراهيم الهلباوى ، وورد منهله الصافى من مفكرى الاسكندرية عبدالله النديم وأديب أسحق وسليم نقاش ، واستفاد من واسع علمه وجليل تفكيره وصائب رأيه جماعة من أهل المناصب والجاه : منهم محمود باشا سامى البارودى ، وعبد السلام باشا المويلحى حامل لواء المعارضة فى مجلس شورى النواب على عهد إسماعيل ، وإبراهيم بك المويلحى الكاتب المشهور ووالد محمد بك المويلحى صاحب «حديث عيسى بن هشام» ، وعلى بك مظهر والشاعر الزرقانى وأبو الوفا القونى .

هؤلاء الإعلام هم تلاميذ السيد جمال الدين فى مصر ، ولابد أنه قد تتلمذ عليه جهابذة فى سائر البلاد الشرقية التى هبط اليها حاملاً مشعل الحرية والفكر والجرأة على الاستبداد والنضال ضد التدخل الأجنبى والاستعمار !!

ومن ذلك يسهل عليك إدراك أن جمال الدين الأفغانى هو احد بواعث الثورة العرابية وهو من أكبر دعاة الحركة الدستورية لا فى مصر وحدها بل فى تركيا وإيران، فاننا نعلم أن السلطان عبد الحميد كان قد منح الدستور لتركيا ثم سحبه ، لكن الشعب التركى ما برح يطالب به ويسعى إليه حتى حصل عليه فى سنة ١٩٠٨ ، وكذلك الشعب الايرانى حصل على الدستور فى سنة ١٩٠٦ أى بعد وفاة الأفغانى بسنوات تعد على أصابع اليد .

وعندى أن جمال الدين كان قدوة طيبة ، والقدوة أفعل أثراً من الفكر ومن العلم ومن فصاحة اللسان ومن الدعاية النشطة الواسعة النطاق .

لقد كان الأفغانى جريئا فى ابداء رأيه ، لايعبأ مما تجره الصراحة فى الحق من عواقب وخيمة . ولقد طورد طول حياته فما اشتكى ولا تململ ولا فترت عزيمته . ولقد كان ثائراً على أخلاق الضعف من ملق ودس وحسد واستخذاء وتبعية . وكان مع الثوار العمليين ، يضرب المثل ويتقدم بنفسه فى الطليعة . وأن نظرة واحدة إلى سيرته لتبعث فى النفس سموا وترفع المرء إلى ذروة الأخلاق الفاضلة . فتأثير الأفغانى فى رفع المستوى الخلقى هو فى نظرى أجل آثاره .

يأتى بعد ذلك تأثيره الفكرى والأدبى ، وأن فى تلاميذه لدليلا محسوساً على أن هذا التأثير لا يقل عمقاً عن تأثيره الخلقى .

هذا بالاختصار مجمل الرأى فى السيد جمال الدين الأفغانى كرجل قد سعى لتحقيق أمنية جليلة فمات دونها لكنه حقق أمنيات غيرها .. وقد كان أمله أكبر من عزمه وفكرته أقوى من وسيلته فصرع شهيداً لمبدئه وفياً لأمنيته .. ومثل الأفغانى سائر العظماء وكبار المصلحين العالميين .

الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده

بقلم : الاستاذ السيد محمد رشيد رضا

أننى قد نشرت فى الجزء الأول من «تاريخ الاستاذ الامام» ما كتبه الاستاذ بيده فى بيان ما دعا إليه من الاصلاح ، وهو ينحصر فى ثلاث دعوات جامعة لعدة مقاصد ما عدا الوسائل ، وهى :



١ - الاصلاح المثلى الذى يجمع بين هداية الدين ومنافع العلم :

وقد عرفه بقوله : «الأول تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الامة قبل ظهور الخلاف ، والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى ، واعتباره من ضمن موازين العقل البشرى التى وضعها الله لترد من شططه ، وتقلل من خلطه وخبطه ، لتتم حكمة الله فى حفظ نظام العالم الانسانى ، وأنه على هذا الوجه يعد صديقا للعلم باعثا على البحث فى أسرار الكون ، داعياً إلى احترام الحقائق الثابتة ، مطالباً بالتعويل عليها فى أدب النفس واصلاح العمل ، كل هذا أعده أمراً واحداً » الخ . فهذا الأمر الواحد يجمع حرية الدين ، وحرية العلم ، واستقلال الفكر ، والترغيب فى هداية الدين وترقى الدنيا .

هذا هو الاصلاح الاعظم الذى عنى به ، وله فى بيانه بالقلم «رسالة التوحيد» المشهورة وهى مجملة موجزة . وأما تفصيله له بالاطناب التام فقد كان فيما قرره فى دروس تفسير القرآن الحكيم فى الازهر الشريف . وقد فصلته فى الأجزاء الخمسة الاولى من تفسير المنار تفصيلا . وجريت عليه فى سائر أجزاء التفسير وفى جميع مجلدات المنار إلى الآن . وقد اقتنع به فى عهد قليل من تلاميذه ، وكثر المهتدون به من بعده ، حتى صار لهم جمعيات ومصنفات ، ودعاة وأنصار فى جميع الاقطار الاسلامية .

وكان يرى أن أقرب الوسائل إليه إصلاح التعليم فى الجامع الأزهر وملحقاته، وجهاده فى إصلاح الأزهر معروف . وهو لم يتحقق كما كان يريد ولكن لا يقال إنه قد خاب سعيه له ، بل وجد من وسائله التى رسمها له : النظام ، والتخصص ، والعلوم العصرية ، وتحضير الدروس فى الاقسام العالية بدلا من المناقشات اللفظية فى عبارات المتون والشروح والحواشى ، ووجد فيه نابتة من تلاميذه وتلاميذهم ومتبعى خطته فى استقلال الفكر والتفصى من قيود التقليد للمؤلفين الميتين ، هم وسط بين حزب الجمود والخرافات القديم وحزب التفرنج الذى حدث بعده . وعندنا طائفة تؤيد حزب الجمود والخرافات ، وتسلس لحزب التفرنج وتضطهد حزب الإصلاح الجامع بين هداية الدين وترقى العلم العصرى .

٢ - إصلاح اللغة العربية :

كان من أول نشأته يرى أن ارتقاء الأمة متوقف على ارتقاء لغتها . وكان له فى إصلاح اللغة العربية مراحل :

(أولها) طريقته فى التعليم والتدريس فى مدرسة «دار العلوم» إذ كان من أساتذتها الاولين عند إنشائها ، وكان له رأى فيه مع صديقه المرحوم «على باشا مبارك» مؤسسها . ومن أنفع محاضراته فيها ما كان يلخص به مقدمة ابن خلدون وينتقدها . ومن أشهر تلاميذه فيها محمد صالح باشا الذى صار مستشاراً فى القضاء الاهلى وحفنى بك ناصف الشهير .

(ثانيها) عمله فى إدارة المطبوعات ورياسة تحرير جريدة الحكومة الرسمية «الوقائع المصرية» الذى كان له به من السلطان على الجرائد وعلى الحكومة ما لم يعهد له نظير فى العالم ، فإنه انشأ فى الجريدة قسماً أدبياً كان ينتقد فيه كل ما يراه منتقداً من أعمال الحكومة ولغة دواوينها ومصالحها ، بله انتقاد الاخلاق والعادات العامة فى الأمة والحكومة معاً . وكان من تأثير انتقاده للغة الدواوين أنه ألجأ جميع الكتاب فيها إلى دراسة اللغة فى مدرسة ليلية أنشئت لذلك ، كما شرحت ذلك فى الجزء الاول من تاريخ الاستاذ الامام . وكان من اشهر تلاميذه فى هذه المرحلة ربيبه ومريده الشهير سعد باشا زغلول .

(المرحلة الثالثة) الأزهر . وكان عمله فى إصلاح اللغة فيه نوعين : أحدهما إلقاء دروسه كلها باللغة الفصحى الممتازة برشاقة التعبير وبلاغة التأثير ، فكان فيه الأسوة العملية العليا . ثانيهما قراءته فيه لأعلى كتب البلاغة وأنفعها : أسرار البلاغة ودلائل الاعجاز لواضع فنها الأول الامام عبد القاهر الجرجانى وانهما لهما الكتابان الجامعان لقواعد علمى المعانى والبيان وفلسفتهما من علم النفس ، ولبلاغة العبارة وروعة البيان المفقودتين من كتب السعد التفتازانى ومن دونه من فرسان هذا الفن .

وتلاميذه فى هذه المرحلة كثيرون ، منهم جهابذة المدرسين فى دار العلوم الذين صاروا من بعده أساتذة فى مدرسة القضاء الشرعى وفى الجامعة المصرية [1] ومن نوابغ الأزهريين الخلص منهم الاساتذة الشيخ مصطفى عبد الرازق ، والشيخ عبد العزيز البشرى، والشيخ عبد الرحمن البرقوقى ، والمرحوم السيد مصطفى المنفلوطى،

---

(١) قال أحدهما المرحوم الشيخ محمد مهدى لنا بعد الخروج من الدرس الاول من دروس كتاب اسرار البلاغة : اننا فى هذه الليلة قد كشفنا معنى كلمة «علم البيان» وكان الشيخ مهدى مدرساً فى دار العلوم فمفتشاً فى وزارة المعارف فمدرساً للبلاغة وآداب اللغة فى مدرسة القضاء والجامعة المصرية فوكيلا لمدرسة القضاء ، ومنهم خلفه فى الوكالة الشيخ حسن منصور (رح) .

وقد وجد من بعده كثير من الكتاب المجيدين في الأزهر لا يعلمون من أين جاءهم هذا الاصلاح . ولم يكن قبله في الأزهر عالم ولا مجاور يعد كاتباً مجيداً .

وكان الاستاذ الامام يرأس في كل سنة لجنة امتحان طلاب دار العلوم ، ويرشد الطلبة في أثناء الامتحان إلى ما ينفعهم في اكتساب ملكة البيان فله الفضل الاكبر الأعم في جميع معاهد نهضة اللغة العصرية ، وكان راضياً عن سيرها وراجياً لها بلوغ الكمال . وسأنقل كلمته في هذا .

• الإصلاح السياسي المصري والاسلامي :

كان الاستاذ الامام في هذا النوع من الإصلاح ناصراً ومؤيداً لداعيته الأول وواضع أسسه ، وهو استاذه موقظ الشرق وحكيم الاسلام السيد جمال الدين الافغاني، ولذلك عبر عنه بقوله :

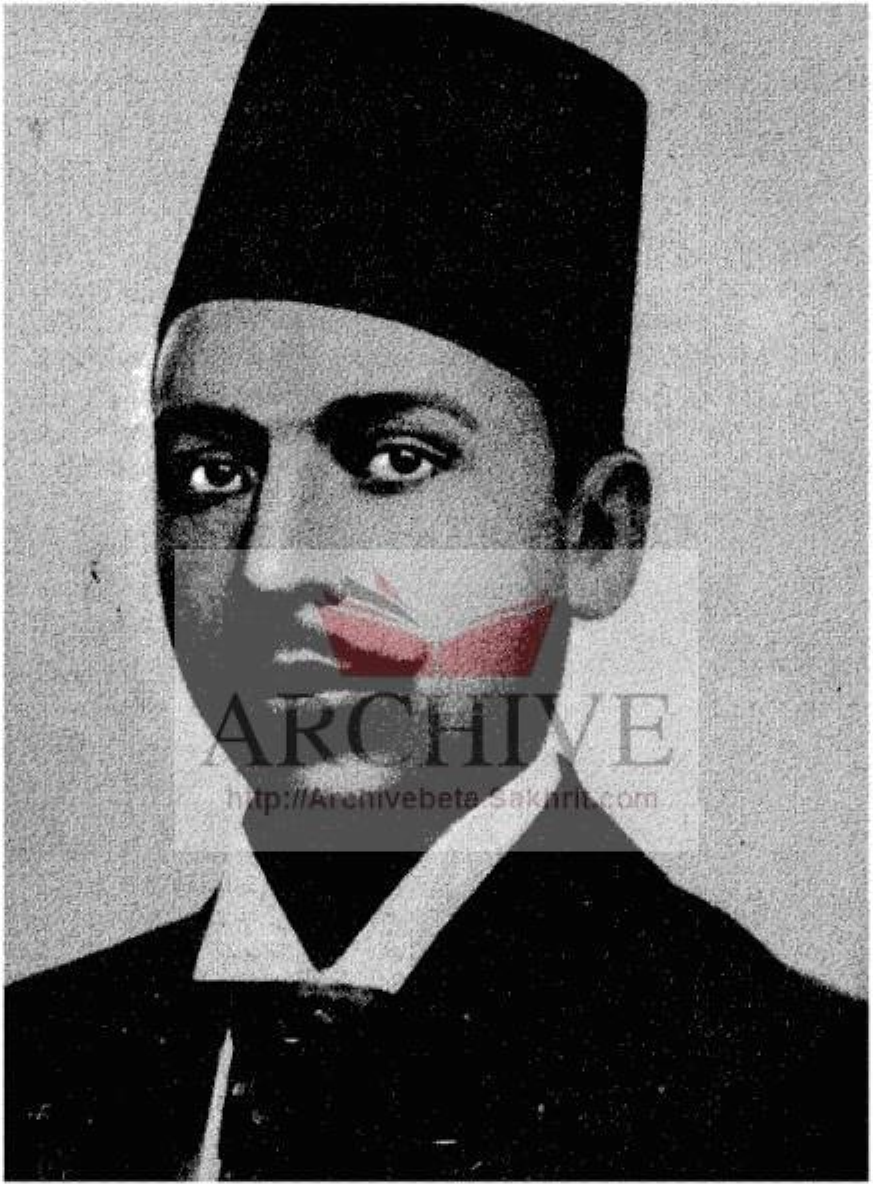
«وهناك أمر آخر كنت من دعاته ، والناس جميعاً في عمى عنه وبعد عن تعقله، ولكنه الركن الذي تقوم عليه حياتهم الاجتماعية ، وما اصابهم الوهن والذل إلا بخلو مجتمعهم منه . وهو حق الحكومة على الشعب وحقه على الحكومة ، والاعتقاد بأن الحاكم وأن وجبت طاعته هو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم ، وأنه لايرده عن خطئه ، ولايقف طغيان شهوته ، إلا نصح الأمة له بالقول والفعل .

«جهرنا بهذا القول والاستبداد في عنفوانه ، والظلم قابض على صولجانه ، ويد الظالم من حديد ، والناس كلهم عبيد له أي عبيد » .

هذه إشارة إلى عمله السياسي بمصر حين أسس مع السيد جمال الدين الحزب الوطني الأول في عهد إسماعيل باشا وهو خاص بمصر . ثم كان له معه سعي آخر للاصلاح السياسي الاسلامي الراقي العام ، وتأسيسهما جمعية العروة الوثقى السياسية التي أصدرا باسمها جريدة «العروة الوثقى» في باريس . وقد فصلنا كل ذلك في تاريخه .

ثم صرح بأنه ترك العمل السياسي لأنه ثمرة لتربية الأمة تربية خاصة ، فالواجب الأول العناية بهذه التربية ، وأنه لايزال يدعو إلى الإصلاح الديني ولم يذكر أنه تحقق شيء منه قال : «وأطالب باتمام الإصلاح في اللغة وقد قارب» .

وكان كل رجائه في الإصلاح الديني منوطاً بالمنار وتفسير المنار ، كما صرح بذلك لكثير من الناس ، وأشار إليه في الأبيات التي أنشدها قبيل وفاته . رحمه الله وجزاه أفضل الجزاء عن أمته ووطنه ، وعن مريده ومحي علمه وذكره .



بقلم : الاستاذ حافظ رمضان بك

«لقد قام مصطفى كامل بكل ما يمكن أن يحلم به انسان ويرغب فيه ، ليوجه قومه فى طريق المطالبة بحقوقهم المشروعة .

«لقد كتب كل ما كتب عن مصر تحت تأثير تلك القوة المزدوجة التى كانت بالغة عنده درجة هائلة وهى : الشعور بمفاخر عنصر مجيد فى تاريخه القديم ، والامل العظيم بما يمكن الوصول إليه فى المستقبل .

«فإذا تمكن الوارثون لتراثه الوطنى من السير فى الطريق التى رسمها والتى يمكن تلخيصها فيما يأتى : وراثة الاسلاف فى صفاتهم ، والجرأة فى العمل ، والمهارة فى أسلوب ذلك العمل فانهم يضيفون حجراً فى هيكل الوطنية المصرية الذى كان مصطفى كامل مهندسه النابغة »

هذا هو حكم «مدام جولييت آدم» فى مصطفى كامل ، نبى الوطنية المصرية ، بعثت به إلى ضمن خطاب ، رداً على سؤالى اياها عن رأيها فيه بعد سنوات قليلة من وفاته .

عرفت مصطفى كامل وانا أزل طالبا فى الحقوق ، وهو فى فجر حياته السياسية – عرفت فيه الفصاحة معقودة بلسانه ، والحماسة مكونة فى جسمه النحيل، والوطنية الصادقة ملء قلبه الكبير .

كان لهذا الرجل الكبير فؤاد لا كالأفئدة ، وشعور أعلى مما يتصوره الانسان، ولقد عهدت فيه حباً جماً واحتراماً عظيما لهذه الامة ، لم أعهده فى غيره ممن وقعت عليهم عينى .

دب إلى جسمه الضئيل دبيب المرض ، فنصحه أطباؤه أن يتقى الله فى نفسه فلا يحملها فوق طاقتها من العناء ، وطلب إليه أصدقاؤه أن يتقى الله فى أمته فلا يحرمها من وجوده حتى يتم مهمته التى وقف عليها حياته ، ولكنه عندما أحس بضعف القوى ، وشعر بأن أيامه فى الحياة معدودات ، أسرع الخطى وضاعف المجهود وأخذ العدة فى تنظيم الحزب الوطنى ، وألقى بالاسكندرية فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ خطبته المأثورة التى أعلن فيها مبادىء الحزب الوطنى فاهتزت لها البلاد ، وانهالت طلبات الانضمام التى تعد بمئات الالوف .

ثم أخذ يسابق الزمن، والمرض يلاحقه، وآثر أن يضحي حياته لإتمام العمل الذى بدأه، فألقى خطبة الوداع يوم ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧ وهى آخر خُطبه، ثم عاد إلى غرفته ولم يفارقها إلا محمولا على الأعناق، تشيعه زفرات الباكين وعويل المنتحبين من جميع طبقات الأمة – مات ذلك الذى كان يهز أعصاب القلوب بصلصلة صوته الرهيب وصرير قلمه الجرئ. مات ذلك الذى كان يجوب الأقطار ليبدد ظلمات الباطل بنور وطنيته الساطع، ويحاول أن يجمع قلوب العالم حول مصر، يقارع الحجة بالحجة ، وكانت أبلغ حججه يوم لبى نداء ربه – ذلك أنه أيقظ بموته وهو حى الاموات، أموات الأحياء .

فلا عجب إذا كان قاسم أمين قد سمع قلب مصر يخفق يوم شيعنا مصطفى إلى مثواه الأخير. أجل، لقد كانت وفاة مصطفى وما أحدثته من لوعة ومن فراغ دليلاً محسوساً على أن نبى الوطنية أدى رسالته ، فأثمرت وآتت أكلها من كل زوج بهيج .

وحسبه ذلك عملا جليلاً وتوفيقاً فى تحقيق جوهر الفكرة قل أن يوفق إليه قادة الشعوب ما أشبه مصطفى كامل بالزعيم الإيطالى مازينى، كلاهما أثار شعباً مجيداً من رقدته وحفزه للعظائم. وما يضير مصطفى أن الجلاء لم يتحقق حتى اليوم، لأن جهاد الأمم قد ينتظم حياة الأفراد جيلا فجيلا، على نحو ما وقع لبولونيا . ولم يقل أحد إن «كافور» خير من «مازينى» ولا قال أحد أن «جاريبالدى» خير من صاحبيه «كافور» و«مازينى» وإنما قالوا : أن مازينى ذهب بمعجزات النبوة الوطنية وجعل حب الوطن إيماناً وعقيدة عند الطليان، ونجح كافور فى تحقيق سيادة وطنه من الناحية السياسية ، بينما راح جاريبالدى بفخر النضال الدموى لتحرير بلاده .

وكان من أثر الدعاية التى بثها مصطفى كامل فى أوربا ضد الاحتلال البريطانى، أن قال المسيو فريسينيه المؤرخ الفرنسى السياسى المشهور :

«لابد من يوم تخرج فيه مصر من قبضة انجلترا وتعود للسلطان ، أو تبقى على الحياد تحت ضمانة أوربا .. وإن حلول هذا اليوم أمر محتم، لا لأنه مقصود بمقتضى المعاهدات الكتابية بل لأنه فى طبيعة الأحوال نفسها» .

قال مسيو فريسينيه هذا، بعد وفاة مصطفى وبعد أن استقر فى تقديره أن الوطنية المصرية حقيقة رائعة ليس إلى نكرانها وتهوين شأنها من سبيل .

اختزلت المنية عمر مصطفى، فاختزلت بوفاته جهوده، ولك أن تتصور ماذا كان يفعله ذلك الزعيم النارى فى عام ١٩١٤ أو عام ١٩١٩، لو أنه كان حياً .

على أني لا أتردد في توضيح نقطة من برنامج مصطفى كامل غمض فهمها على الناس. هذه النقطة هى رأيه فى علاقة مصر بتركيا .. دعنى أقول عن علم أن مصطفى كان يتكئ على المعاهدات الدولية التى تربط مصر بتركيا ليتخلص من الاحتلال البريطانى. ولا ضير وقتئذ على مصر أن تتبوأ المركز الذى كانت تتبوؤه باقاريا وغيرها من دويلات ألمانيا فى البناء الشامخ الذى شيده بسمارك بدهائه وعزيمته الحديدية ، والذى نعرفه باسم الامبراطورية الألمانية وعلى رأسها ملك بروسيا.

فلا يغضن أحد من فكرة مصطفى كامل الاستقلالية !! لقد كان يريد التخلص من الانجليز أولا .. وإنى لأسأل : هل كانت سيادة تركيا قبل الاحتلال إلا وهما لا وجود له، وهل كانت علاقتنا بها إلا كالشعرة تربط العضو بالجسم ؟ وفى كل يوم توشك الشعرة أن تنقطع .

أما نضاله ضد الاحتلال البريطانى فقد بدأ بصورة رائعة فى حادثة دنشواى، واستمر حتى اشتد واضطرم فى سنة ١٩١٩، وإن تلقى مصر سلاح النضال المشروع حتى تسترد حريتها وحقوقها وسيادتها التامة على وادى النيل .

فمصطفى كامل علمنا الوطنية وجعلها عقيدة فى نفوس المصريين، ومصطفى كامل جاهد الاحتلال والمحتلين، ومازال يناضل حتى سقط فى الميدان - ذهب إلى الدار الباقية وضرب لنا بموته المبكر مثلا فى التضحية جليلاً. والتضحية كفيلة بتحقيق ما كان يصبو إليه، لأن مصطفى لم يمت . وكيف يموت وقد خلف فى مصر أربعة عشر مليون مصطفى كامل ؟!

بقلم الاستاذ إبراهيم بك الهلباوى

لما طلب منى «الهلال» أن أكتب عن قاسم رأيت من الواجب على أن أرجع إلى بعض زملائه الذين عاشروه أيام الدراسة. وقد كان فى مخيلتى قبل الرجوع إليهم أن قاسماً كان أيام دراسته دائماً فى مقدمة الناجحين فى الامتحان . ولكنى علمت مع الدهشة من طلعت باشا أن قاسماً كان يؤدى امتحانه فى أغلب السنين بدرجات متوسطة وقل إن كان بين الأوائل اللهم إلا فى السنة الأخيرة التى نال فيها الشهادة العليا سنة ١٨٨١ فقد كان فى امتحان الليسانس أول الناجحين .



قلت لطلعت باشا : «إن خاصة الذين عرفوا قاسماً بنبوغه وفرط ذكائه كانوا يظنون أنه كان دائما فى طليعة زملائه فى الامتحان» فقال «نعم ولكنه ألف من صغره أن يوزع مجهوده بين دروسه وبين قراءة كتب الأدب الفرنسى والتاريخ الفرنسى . فكان يحصل ضعف ما يحصله الزملاء فى الدرس وفى المعارف العامة . وقد بقى ذلك شأنه لا يكتفى بعمل واحد فى الحياة بل يجمع بين الأعمال والدراسات حتى كان فى القضاء قاضياً وعلامة ومؤلفاً ومحرراً للمرأة ومنشئاً للجامعة ومؤسساً للجمعية الخيرية الإسلامية وغير ذلك من جلائل الأعمال».

أما مؤلفه فى الرد على رسالة الدوق «داركور» وكتاباه «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة» وأما اشتغاله بالجمعيات واشتراكه فى تأسيس الجمعية الخيرية الإسلامية والجامعة المصرية ، فقد كانت كلها آيات ناطقة بمبلغ نشاط هذا الرجل الفذ .

فرده على الدوق أمر يستحق الالتفات، فهو وإن كان يتعلق بمشكلة اجتماعية لمرجع البحث فيه إلى مسائل دينية إسلامية محضة. ونحن قد تعلمنا أن الذين يضيفون إلى تربيتهم المصرية تربية أوربية يعودون إلينا أقل عناية بالمسائل الدينية. فاشتغال قاسم بهذا الموضوع يدلك على أن شخصيته الدينية الإسلامية كانت ما تزال مرتبطة بعزته القومية وشرف وطنه .

بحثه فى هذه الرسالة جره إلى البحث فى مسألة المرأة المسلمة ، فهى من أهم المسائل الاجتماعية المحبوبة، وقبل بيان أهمية هذا الموضوع أذكر أن رجلا قسيساً من فرنسا كان يرى إمكان اتحاد الأديان بعضها ببعض وجعلها ديناً واحداً، وهو القس (لوازون) جاء إلى مصر مع زوجته حوالى سنة ١٨٩٨ وألقى محاضرة فى هذا الموضوع بالأوبرا. وقد قوبل بكل حفاوة ممن عرفه وتعرفت زوجته بزوجات كثير من العائلات التى زارها. ولما كنت من بين من تعرفوا به ذهبت إلى داره مرة فى ضواحى باريس مع محمود بك سالم والمرحومين مصطفى كامل ومحمود بك أبو النصر. وعندما استقبلتنا زوجته قالت للمرحوم مصطفى : «لقد دخلت وأنا أقرأ فيلده فقال : «لعلك راضية عما قرأت» فقالت : «كلا» ثم التفتت إلىّ فسألتنى رأيى فيما كتب مصطفى فقلت لها : «لم أطلع عليه» فقالت هى : «إنه حديث مع جريدة (لاباترى) سأله الكاتب : ما شأن المصريين الآن مع الانجليز ؟ فقال : كلما طال عهد احتلالهم كثرت كرامة المصريين لهم» ثم قالت : «مافائدة هذا البيان هل يوجد أحد يتوهم أن هناك أمة ترضى بالاستعمار ؟» ثم قالت بين حديث طويل : «ذهبت مع زوجى لمصر ولأتصل بنساء مصر لعلى أجد بينهن جريحاً يتألم من وجود الأجنبى فى ديارهن فأشاركهن

فى هذا الشعور. وذلك لأنى وإن كنت فرنسية بحكم زواجى من فرنسى فأنا أمريكية ضحيت من عائلتى خمسة رجال استشهدوا فى حرب الاستقلال ضد انجلترا. ومن الأسف أنى تعرفت بكثيرات منهن فوجدتهن لاهيات عن الأمر الذى أبحث عنه فعدت بخفى حنين. كل ذلك لأنكم أيها الرجال حلتم بين نسائكم وبين التمتع بحق كل كائن فى الحرية حتى صرن كالتحف فى المنازل. وكلكم تعلمون أننا جميعاً فى هذه الحياة نسير إلى غرض هو أمل الجميع فى الشرق أو الغرب . ولكن المصرى يمشى وامرأته على كتفه والاجنبى يمشى وامرأته بجواره فهل السائرون خفافاً كالسائرين ثقالا ؟».

من يدرك هذا المثل من هذه السيدة فى سنة ١٨٩٨ يعلم مقدار ما كانت حاجتنا إلى تحرير المرأة وتعليمها ، ويعلم أن قاسماً إن كان طرق هذا الباب فى ذلك العصر فهو قد تقدم إليه فى إبانة وبخير الذرائع .

صلة قاسم بسعد جعلته إلى حد ما بعيداً عن جو السراى والآراء التى تعطف عليها لأن السراى كانت تقليدية رجعية فى هذه المسألة .

ولهذا جاء مذهب قاسم فى تحرير المرأة من أشد المذاهب بغضاً واستحقاقاً للمحاربة من كل الرجال الذين يستقون أفكارهم من ذلك الينبوع، ولذلك لم يكن غريباً أن يكون فى مقدمة من حملوا الحملة الشعواء على مذهب قاسم هم أصحاب اللواء والمؤيد. وقد قابل قاسم هذه الحملات بما له من الشجاعة والاستخفاف بالأذى، والذين لم يكونوا متصلين بحوادث ذلك الزمن لا يدركون خطر ما يلحق من كان فى مركز قاسم من العنت والاضطهاد. لم يكن من تقاليد السراى أن تقفل بابها فى وجه رجل من كبار رجالات الدولة كقاسم، ولكنها فعلت ذلك لأن حنقها كان شديداً حتى احتقرت تلك التقاليد وأقفلت بابها فى وجه قاسم العظيم .

هذا العنت الظاهر أفقد صاحبنا صبره وقتاً ما. وأذكر أننا كنا ذات ليلة فى حفلة زواج عطية هانم الفلكى بالدكتور صالح صبحى، وكانت الحفلة بجمع صفوة رجال مصر وفى صدرهم قاسم. فإذا بأكبر أمراء البيت الحاكم وأخو الخديو الشقيق يدخل فى تلك الحفلة ويقوم له كل من بالسرادق إجلالا وإكباراً، إلا رجلاً واحداً كان موضع أنظار الجميع لم يقف لذلك الأمير الذى وقف له الجميع، وكان الرجل قاسم أمين ..

لم يكن يدخر مجهوداً للدفاع عن عقيدته. عرض رأى فى الجمعية الخيرية الإسلامية لإيقاف كل ما تملك على الوجوه الخاصة بنفقات الجمعية. ولما كان قاسم يرى أن الوقف كثيراً ما يعطل على أصحاب الشأن فيه حرية التصرف بما تقتضى

الحاجة والظروف التي لا يمكن الإحاطة بها، عارض معارضة شديدة ، وكانت الأغلبية ترى غير ذلك، فبقى قاسم مصراً على رأيه قائلا : «إن هذه مسألة من المسائل الأساسية التي لا يمكنني أن أخضع فيها لحكم الأغلبية ، بل واجبي في هذه الحالة يقضي علي بالاستقالة من خدمتها» . فتراجع الجميع وسلموا برأيه ومات قاسم واتقينا خطر استقالته وبقيت الجمعية من سنة ١٩٠٨ ولم يفكر أحد من أعضائها إلى اليوم في الخروج عن رأى قاسم .

أما أثره في الجامعة فلم يكن أقل جلالا من آثاره في المسائل الأخرى، فقد قام قاسم بالدعوة إلى إنشاء هذه الجامعة. وتقارير كرومر السنوية تنطق بأن رغبة الانجليز في تعليم الشبيبة المصرية يجب أن ينتهي إلى حد تعليم الناشئة مقدار ما يراه الانجليز لاستخدامهم. فإنشاء الجامعة كان اعتراضا صارخا على مبادئ المستعمرين في قتل ثقافة المصريين. وأكبر دليل على هذا أن المرحوم سعد باشا لما دعى لتولى وزارة المعارف في أواخر سنة ١٩٠٦ لم يجد مما يتفق مع سياسة ذلك العصر أن يكون وزيراً للمعارف ورئيساً أو وكيلاً أو عضواً في لجنة الجامعة فاستقال منها. ولكن قاسماً لم يكن من بدء حياته إلى منتهاها إلا مفاخراً بأنه يقوم بما يستطيع من خدمة وطنه أرضى الغير أم أغضبه .

يخطئ من يظن أن قاسما كان بعيداً عن السياسة ، لأن ذلك إن صح يناقض أنفته المعروفة عنه. فالسياسة في مصر أخص صورها الشكوى من وجود المستعمر والعمل لتحرير الأمة منه . ولن يستطيع من يقدر قاسماً أن يقول إنه كان بملهى عن ذلك.

ولعل الكتاب ظنوا أنه كان بعيداً عن السياسة ، وذهبوا إلى ذلك لأن اسمه لم يقترن بحركة من الحركات السياسية. فهذا مرجعه إلى أن قاسماً كان يعمل ولا يتكلم، كان يحب الوحدة والعزلة ويكره الشهرة ، ولكنه كان من أوائل المرافقين لإخوانه في بث الشكوى ومدافعة الاحتلال في مصر. كان يفكر ونحن نكتب، كان يشير ونحن نعلن، كذلك كان شأن قاسم بين الشيخ محمد عبده وسعد زغلول ولطيف سليم وعلوى باشا وإبراهيم بك مصطفى وحسن عاصم وعلى فخرى وغيرهم من الرجال الذين قضوا كل حياتهم في هذا السبيل .

كان قاسم مشغولا بفن الأدب وخاصة بالفنون الجميلة ، أكثر الناس تقديراً للفنانين، مصورين وشعراء وموسيقيين. ولذلك تراه الرجل الوحيد من طبقته الذى سار وراء نعش المرحوم عبده الحامولى أول المغنيين المصريين المجددين.

ولا أظن أحداً يسألنى بعد ذلك عن شخصية ذلك الرجل الفذ، فهى ظاهرة فى تلك المواقف التى سردتها والتى تنطق جميعها بمقدار القوى التى كانت كامنة فى ذلك الرجل العظيم.

أما طباعه وسجاياه ورقة حاشيته، فإنك كنت تكاد تحسبها الدماثة والرقة صورت رجلا فصارت إنساناً كاملاً، بل كنت تكاد تحسبها طباع ملاك هبطت إلى إنسان.

ولقد كانت بغية قاسم أمين وأمنية حياته تحرير المرأة المصرية – أو بالأحرى إطلاق المرأة من سجن الحريم والحجاب، ولم يرض لها الجهل مع الحرية فشدد فى وجوب تعليمها... كل ذلك ضمنه كتابيه : تحرير المرأة و المرأة الجديدة .

فأما ما تحقق من أحلامه فيقظة المرأة فى مصر وما وصلت إليه من تحطيم كثير من القيود ومزاحمة الرجل فى شتى مناحى النشاط الحيوى. هذا هو الذى تحقق من هذا الحلم والزمن كفيل بتحقيق ما بقى، والطلائع كلها تبشر بأن دعوته إلى تحرير المرأة وتعليمها وجعلها من الأسس التى تنهض عليها دعائم القومية المصرية وحشدها مع الرجل فى ميدان الجهاد الوطنى لإحراز الاستقلال بكل ما يحمله من معان سامية – إن دعوته تلك أقرب إلى أن تفعل فعلها الكامل وتأتى بثمراتها الناضجة من أية دعوة إصلاحية أخرى. ولست أنكر أن قاسما مات ولما يتحقق من برنامجه شئ يذكر ، لكن المعول فى صيحات الإصلاح هو على النتيجة البعيدة لا الأثر القريب – فقاسم أمين مصلح موفق بلا ريب. فرحمه الله وألهمنا العمل بما رسم.

بقلم : الدكتور أحمد فريد رفاعى

حقاً إنى لفى حيرة ! ماذا أقول عن «سعد زغلول» ؟ .

أقول كثيراً وكثيراً جداً .

شخصية حبتها الطبيعة المواتية حكمة واعتباراً ونبوغاً وابتكاراً، وسمواً فى غير استكبار وعظمة فى غير ازورار، مع كياسة فى غير ضعف، ورياسة فى غير ما عنف، وسياسة فى غير ملق ولا دهان، وعقلية جبارة فى إتئاد وحكمة ، وتقوب



بصيرة فى دماثة وظرف، وابن عريكة فى رجولة مستكملة. كلها نضج، وكلها حزم، وكلها إرادة ، وكلها عزم، وكلها يقظة ، وكلها إنتاج.

عظمة سعد روعة كلها، وحياة سعد مفاخر كلها، وبطولة سعد خليقة بالدرس والإمعان. ولست أرتاب أن الوقت لم يحن بعد لإنصاف سعد لأن زمن تقديره لم يأت بعد...

على أن سعداً قد نجح فى مهماته التى بعث لها وبعث بها، والتى خلق لها وخلق بها، والتى بذ فيها الأقران والأنداد. بل نجح نجاحاً ليس إلى تقديره من سبيل، وكادت تلك البذور الحية الخصبة تظلنا جميعاً بدوحاتها المشمخرة الفينانة...

أرجع البصر كرتين أو ثلاثاً، واذكر جهوده الجبارة فى افتتاح الكتاتيب، واذكر خطاباته الثرة الهتانة فى الحض على إلزامية التعليم، ثم اذكر وقفاته «لدنلوب» فى البرامج التعليمية ، ثم اذكر مناصرته للغة العربية . ولا تنسى أنه وليد الثورة العرابية ، وأنه من مناصرى الاستاذ الإمام، ومن مؤيدى «قاسم أمين» ومن باعثى الحياة فى الجمعية التشريعية والحياة الصحفية ، ومن مشجعى الأدباء ...

ولا تنس أيضاً نصيب سعد فى القضاء ولا أثر سعد فى المحاماة ولا ضلع سعد فى الجامعة المصرية ، ولا مؤازرة سعد فى تأسيس الجمعية الخيرية الإسلامية .. ولا .. ولا ...

ولست أشك لحظة أنك واجد أصبعه فى شتى مرافق حياتنا المصرية إذا ما تغلغلت فى أناة الباحث المستقصى لأرومة كل شئ.

والحق أن حياتنا الجامعية مدينة لسعد، والحق أن حياتنا التفكيرية المنطقية مدينة لسعد، والحق أن لهجاتنا الخطابية الحماسية مدينة لسعد، والحق أن دربتنا البرلمانية مدينة لسعد..

لقد آن لى أن أقرر لك شيئاً سمعته بأذنى من صديق الحياة والممات، المغفور له ثروت باشا الذى كان يقدر سعداً حق قدره، والذى كان يكبره فى خصومته كل الإكبار ..

قال لى : «علم الله أنى ما تقويت على «اللنبى» وانتزعت منه ما انتزعت،

إلا بتخويفه بمعارضة سعد. لقد كنت أقول له دائما : إن سعداً أمامي، وأن البلد من ورائه...» .

وهكذا كانت البلاد تستفيد من سعد سلبياً وإيجابياً .. وهكذا كانت البلاد تستفيد من سعد في الوزارة وخارج الوزارة .. وهكذا تبر الشخصيات البارزة على أوطانها بأفاويق النفع والإفادة ..

على أنك سائلني : ماذا حقق سعد ، بعد أن علمت ماذا أفاد ..؟!

ولكني ألفت نظرك إلى أن الأسس الوطيدة ، والبذور الصالحة ، والجهود المثمرة ، والتعاليم المبثوثة ، والصيحات المذكورة . هذه كلها التي إلى سعد مرجعها، ومن سعد متفجرها – لابد واصلة بنا حتما إلى بغية الجميع في الاستقلال والحرية ..

«أما بعد» فإذا ما ذكرت «الرينيسانس» فإنك ذاكر إيطاليا و«بوكاسيو» و«مديتشي»، وإنك لذاكر قطعاً حين ذكراك للنهضة في مصر في مختلف نواحيها سعداً وسعداً في الطليعة – في اللغة ، في الصحافة ، في المحاماة ، في القضاء، في البرلمان، في التشريع، في الاجتماع، في الكفاح، في السياسة.. في كل هذه المناحي تستطيع – من غير ريب – أن تكتب فصولا طوالا، وأن تجد لمتسع القول مجالا ..

ومهما حاول خصوم العظمة ، وخصوم المعدلة والبطولة ، الغض من الآثار العملية التي وصلت إليها البلاد بفضل سعد وشخصيته وتعاليمه – مهما قالوا لماذا رفض مشروع ملنر أو مشروع الدمنيون، فإنهم لا يستطيعون أن يقولوا إن يقظة مصر وثورتها وقضية مصر ونهضتها، لم تخدم من سعد، ولم تظهر بفضل سعد، ولم تضطرم جذوتها من روح سعد

وإذا ما قيل إن الاستقلال يتطلب طيلة زمان، وطيلة كفاح، وطيلة جهود، فإن لنا من روح سعد، ومن الأمة المؤمنة بتعاليم سعد الإيمان الوطيد، نبراساً يهدينا لتحقيق مطامحنا السياسية . وعندنا رجاء خير رجاء في نضج شتى النواحي المدينة لسعد من حياتنا الثقافية والاجتماعية والبرلمانية والحزبية. تلك كلمة ألممنا لك بها إلمامة تحتملها مجلة سيارة في ظروف كلها ملالة وسآمة ..

نوفمبر ١٩٣٣

هل يتجه العالم نحو ثقافة إنسانية

للدكتور بهي الدين بركات باشا

ليس فينا من لا يستمع إلى الراديو يوميا، بل منا من يتتبعون أخباره في الداخل والخارج عدة مرات كل يوم، فهل فكرنا في مدى ما أدخلته تلك الآلة الصغيرة أعني عدة الراديو من تطور جسيم في حالة العالم بما أزالت من حدود بين الأمم المختلفة ، وبما خلقت من اتصال سريع بين الناس، وبما سهلت من انبثاث الآراء بين سكان هذا العالم .

نحن اليوم نجلس في غرفتنا، فنحرك تلك الآلة الصغيرة، فنسمع لندن وباريس ونيويورك وموسكو وبرلين في ساعة واحدة، ونطلع على ما تذيعه كل منها من الأخبار وما تعلق به من الآراء على المواقع الحربية وتطورات الحرب ساعة فساعة، وكثيرا ما نسمع خطبة سياسية هامة في المساء ونسمع التعليق عليها من الجانب المناصر أو الجانب المعادي في نفس الليلة أو في اليوم التالي على الأكثر، فالعالم جميعه أصبح سوقا مشتركة يدلي كل برأيه ويؤيده بحججه ويناصره بكل ما يعتقده، محبذا لفكره، من غير أن تقف دون ذلك حدود سياسية أو غيرها، فلقد رأينا الدول الكبيرة نفسها تحرص على أن تصل أفكارها وآراؤها ومذاهبها إلى جميع بلاد العالم، فهي لا تقتصر على محطة إذاعة واحدة ولا تكتفي بالإذاعة بلغة واحدة، بل تذيع بعشرات اللغات حتى لا يبقى شخص في العالم المتمدن دون أن تكون له فرصة الاستماع إلى تلك الإذاعات بلغته هو .

تصوروا تلك الحالة، ثم قارنوها بما كانت عليه في الحرب الماضية، حيث كان الاتصال مقصورا على التلغرافات التي تصل إلى كل مملكة بقدر محدود، إذ كان

الاتصال مقصورا على البلاد التى يكون لها فيها وكلاء يوافونها بالأخبار. ليس من شك أن من يضع هذه التطورات نصب عينيه يرى أن تقييد الأفكار أو الحجر عليها أصبح ضربا من المحال، فإذا كانت المطبعة قد أتت بالعجائب وقلبت العالم فى القرون الوسطى بما سهلت من اتصال الأفكار، فماذا يكون مقدار أثر الراديو فى عهدنا الحاضر، لا شك أن هذا الاتصال الروحى الذى وجد بين جميع أجزاء العالم على أثر هذا الاكتشاف العجيب، سيكون له أثر شامل لا أحسبنى مبالغا إذا قلت انه الحجر الأول فى سبيل توحيد العالم .

فإذا ما نحن تركنا الراديو جانبا، وفكرنا فى مدى أثر السينما علينا حيث نرى الآلاف بل عشرات الآلاف من الناس فى مصر وحدها يذهبون كل يوم ليروا ما تخرجه أمريكا وغيرها مما يجعل الناس فى جميع أقطار المعمورة يطلعون على سبل معيشة كل بلد من البلاد أدركنا إلى أى حد بلغ ترابط العالم بعضه ببعض .

ولقد فطر الناس على حب التقليد، لذلك ترانا بعد أن كنا فى الاجيال الماضية نحرص فى كل بلد على عادات معينة وطرق من الزى خاصة حتى أن كل إقليم كان ينفرد بطابع خاص يميزه عن سواه، وكان يحرص على المحافظة على هذا الطابع، ويعتبره تراثا يجب المحافظة عليه، ترانا الآن يقلد بعضنا بعضا فى اللباس وفى المأكل وفى طريقة المشى وفى المعيشة، بل وفى طرق الزينة وقص الشارب وتقليم الأظافر وكيفية السلام، إلى غير ذلك من أنواع التجميل وتفاصيل الحياة التى لم تكن تسنح الفرصة لمعرفتها، فضلا عن تقليدها إلا للنزر اليسير من الناس الذين آتاهم الله سعة فى الرزق وصحة يستطيعون معها أن يجوبوا أنحاء العالم مع ما كان فى السفر من مشاق ومجازفات لا يمكن أن يضطلع بها إلا النزر اليسير من الناس، وهل لى بعد ذلك أن أشير إلى ما حدث من تطور جسيم بسبب سهولة المواصلات، فلقد كانت المسافات بين قطر وقطر تجعل الناس بعيدين بعضهم عن بعض فى الأفكار وفى الآراء وفى فهم الحياة، فجاء البخار وانطوت معه المسافات الشاسعة وتعارف الناس بعضهم ببعض، ولكن أين هذا مما نرى اليوم وقد ملكنا الهواء، فاقترب ما كان بعيداً، فرأينا رئيس الوزارة الانجليزية وقد جاوز السبعين يطير إلى كازبلانكا من انجلترا، كما رأينا الرئيس روزفلت يطير إليها من الولايات المتحدة ليتفاوضا فى شئون الحرب ويدبرا ميدان القتال بين المئين من الملايين، ولعمرى ألسنا نرى العالم جميعه وقد انقلب إلى معسكرين عظيمين، فمعسكر الديمقراطيات وفيه أميركا والامبراطورية البريطانية وإلى جانبهما روسيا الشيوعية، وإلى الجانب الآخر الدولتان

اللتان تمثلان الأوتوقراطية وإلى جانبهما اليابان زعيمة الجنس الأصفر، وأين هذا مما كنا نشهده أو نسمع به منذ جيل واحد من الزمان بل منذ عشر سنين فقط .

إننا لا نزال نذكر أن الولايات المتحدة كانت دائما حريصة على أن تبتعد عن سياسة العالم القديم، حريصة على أن تتركه وشأنه يدبر علاقات ممالكه بما يراه كل منها، حتى إذا وقعت الحرب الماضية وطال أمدها وتوجست أميركا خشية من مصيرها رأينا الجيوش الأميركية تعبر البحار لنصرة فرنسا وبريطانيا ونصرة مبادئ ولسن الأربعة عشر، حتى إذا ما انتهت الحرب ورأينا ساعة السلم قد أذنت بمؤتمر الصلح، رأينا أميركا تصر على أن لا يزيد اشتراكها فيه على وجود عضو مشاهد فحسب دون أن تأخذ نصيبا مباشراً في مؤتمر السلام. وعند ذاك رأينا الأمير كيين يطعنون على سياسة الاشتراك مع أوربا، ويؤكدون بكل الوسائل أنه لن يكون لاميركا في المستقبل تدخل في المشاكل الأوربية .

ولكن هذه الحرب لم تلبث أن هددت مصير أوربا بل العالم القديم بأجمعه، حتى رأينا أميركا تنسى كل سياستها التقليدية وتعود إلى الحرب على وجه أهم مما كانت عليه في الحرب الماضية فجيوشها ليست في فرنسا وحدها، بل إنها تحارب في الشرق الأقصى وفي استراليا وفي جزر الفلبين وفي شرق إفريقيا وفي البحر الأحمر، بل إنها وصلت إلى مصر وفي من الناحية الأخرى تحتل مراكش والجزائر، حتى لم تعد في الحرب مجرد عون لأوربا المقتحمة ولا للإمبراطورية البريطانية وحدها، ولكنها محارب أصلي تضرب بعنف وشجاعة وتتلقى الضربات بصبر وبسالة.

ذلك هو الحال اليوم في العالم وهو ليس مقصورا على أمريكا، بل ان ما تراه من السياسة الروسية ومن السياسة نحو روسيا لأعجب بكثير مما نشاهده بالنسبة للسياسة الأميركية، فروسيا عندما اعتنقت المبادئ الشيوعية قاطعها العالم بأجمعه، ورأى في عملها خروجا على المبادئ الإنسانية وفوضى ووحشية لا يصح لمن كان يحرص على وطنه ويحترم مبادئ الشرف أن يتعامل مع أهلها أو أن يتصل بهم حتى لمجرد الدراسة، ولقد ظل الحال على ذلك أعواما وأعواما حتى رأينا في مصر قانونا يصدر بجواز حرمان كل من يدرس في روسيا أو يقيم فيها من الجنسية المصرية حفظا للأمن العام وحرصا على سلامة البلاد من انتشار الأفكار المخالفة لمبادئ الإنسانية والمدنية .

كان ذلك منذ عشر سنين فقط قبل إعلان الحرب سنة ١٩٣٩، والآن ماذا نرى، لقد صارت روسيا جنبا إلى جنب مع بريطانيا وأمريكا، وأصبحت حليفة معهما، كما

أصبحت شريكة في الرأى لهما، بل سيكون لرأيها مقامه في تنظيم العالم بعد الحرب.

لست أنا الذى أقول هذا، بل أن هذا هو قول عاهل انجلترا المستر تشرشل حيث جاء في خطابه الأخير منذ عشرة أيام عن رعاية الأمم الصغيرة قوله : «والآن ما شأن العدد الكبير من الأمم الصغيرة التي لابد من صيانة حقوقها ومصالحها، إنه ينبغى أن يكون هناك إلى جانب الدول الكبرى عدد من مجموعات الدويلات أو اتحاداتها على أن يعبر ممثلوها المختارون عن أغراضها وأمانيها. وعندى أن هذا كله سيكون منسجما مع المصالح العليا الدائمة لبريطانيا والولايات المتحدة وروسيا. ومن الثابت أن هذه الأمنية لا يمكن أن تتحقق إلا برضاء هذه الدول الثلاث الخالص واتفاقها التام» .

فهل عرفتم مدى التطور العظيم الذى حدث في الأفكار وفى الآراء ثم تصورتم بعد ذلك ما يمكن أن تكون عليه الحال إذا ما وضعت الحرب أوزارها ألا يكون المحتم عند ذاك أن يكون الاتصال الأدبى والاقتصادى والسياسى كاملا بين هذه الدول الثلاث وهل يمكن إذا ما تم هذا الاتصال وأصبح التبادل الاقتصادى تاما بين تلك البلاد إلا أن تتقارب النظم الاجتماعية وتتم الخطوة الأولى وهى خطوة واسعة جدا فى سبيل توحيد النظم بين تلك الدول المتناقضة المذاهب والمتباينة الأجناس. وهلا يؤذن ذلك بتوحيد الشعوب واندماجها بعضها فى بعض أو على الأقل تقاربها وتفاهمها وعملها مشتركة بعضها مع بعض، وإلا فخبرونى كيف يمكن أن نتصور بعد ما نشاهده اليوم أن أحدا يجرؤ أن تحدثه نفسه بوضع روسيا فى عزلة من العالم أو أن أمريكا يقبل أن يكون دوره فى العالم مقصورا على أن يشترك معه فى يوم الكريهة، فإذا ما جاء يوم السلم ابتعد عنه وعن الاشتراك معه فى نظمه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

وهل إذا نحن اتجهنا ببصرنا نحو ألمانيا النازية وقد شادت مذهبها بل نظمها الاجتماعية على أساس تفوق الجنس الآرى وسيادته على ما عداه من الأجناس، ثم رأينا كيف أن اليابان كانت سبب انقاذها فى العام الماضى من انكسارها فى الحرب، هل هى تستطيع بعد ذلك أن تتمسك ضد الجنس الأصفر بنظرية هذه السيادة، أم أنها لابد معاملة له على قدم المساواة التامة ؟

إنى لألمح فى المستقبل القريب زوال الحواجز الصناعية لمنع الاتصال بين الشعوب والأمم، فسيكون عالمنا بأجمعه ميدانا واسعا جدا لتبادل الأفكار والآراء وتجربة النظم المختلفة فيه على تباعدها عن بعضها، ومن ذلك ستتقارب الأفكار

وتتناسق الآراء، وتتحدد الجهود في سبيل سعادة البشر، فإن لم تتمخض هذه الحرب عن ذلك فستتلوها حرب تكون أوسع وأعنف جهاداً وأقدر على صهر الشعوب والأمم حتى تصل إلى تلك الغاية. أما بقاء شعب أو أكثر أو إبقاؤه في عزلة عن باقي الشعوب فقد أصبح أمراً مستحيلاً، وقد علّمنا التاريخ الحديث أن العالم يسير في طريق الوحدة أو ما في حكمها كجامعة أمم متحدة، فكما أن الدول الحاضرة تكونت على آثار نظم القبائل والإقطاعات، فكذلك ستتكون الأنظمة الجديدة على أساس تقوض الأنظمة الحاضرة .

بل أننا إذا نحن تركنا ما يحتمل حدوثه من التقرب بين أنصار كل فريق من المتحاربين ونظرنا إلى ما يحتمل حدوثه بين فريقى المتحاربين أنفسهم على ضوء ما حدث من التقارب بين الشرق والغرب أبان الحروب الصليبية وبعدها، وما تدعو إليه الحرب من تقليد فى الأنظمة وتقليد فى الأسلحة وتقليد فى المناورات الحربية وتقليد فى طرق الفتك والتدمير، وجدنا أن كل ذلك سيكون مدعاة لأن يسود العالم علم واحد وأن تنتظم الجهود فى اتجاه مشترك .

لا تظنوا أنى ألمح من ذلك عهداً قريبا تسود فيه العدالة والرحمة وتتعاون جميع الشعوب الإنسانية فى سبيل مصلحة المجموع، كلا بل إنى لا أزال أرى أمامنا مواقع دامية يسود فيها الظلم وتتحكم فيها القوة المجردة وتضطهد فيها شعوب وتظلم أمم، ولكنى أرى برغم كل ذلك أننا فى سبيل تناسق وتوحيد بين العالم أجمع سيكون الثمن غاليا وستكون الضحايا كثيرة وعديدة، وستنشأ الأنظمة الجديدة بحيث يبقى للقوى امتيازه بل جبروته، ولكن الأقوياء أو من سيظلون أقوياء سيتحدون حتما أو يشتبكون اشتباكا يتغلب فيه من يتغلب فينفذ آراءه ويحتم الوحدة سواء أراد هو أم لم يرد .

لعل بعضكم يظننى ابتعدت عن موضوع الثقافة وتكلمت فى تطور سياسى ليس داخلا فى معرفة ما إذا كان العالم يتجه نحو ثقافة إنسانية أو لا، ولكن مهلا ، ودعونا نقف لحظة لنعرف ما هى الثقافة ، فلقد تفاوتت فى تفسيرها الآراء تفاوتا شاسعا، فأستاذنا الكبير أحمد لطفى السيد باشا يقول فى ختام محاضرته فى هذه الجامعة : «يجب على الأمة فى تربية أبنائها أن تكون غايتها الإنسان المثقف ووسيلتها إلى ذلك تثقيف ملكات الفرد الطبيعية ملكات الجسم والعقل والنفس بأن يقوم بمقتضيات حفظ الذات وحفظ النوع بالاعتدال التام، ثم بواجب الصدق الذى يسبب له الاقتناع بكرامته وواجب السخاء الشخصى بأن لا يقتر ولا يسرف بل ينفق بالمعروف

وواجب كرامته من حيث هو إنسان، فيرفض أن يكون تبعا لغيره في غير الحدود المفروضة عليه من جهة كونه عضوا فى جمعية مدنية لها قوانين مرعية الأداء، وواجب محاسبة نفسه على كل ما يخطر له من فكر أو يلفظ من قول أو يأتي من عمل، وضابط ذلك كلمة سقراط المعروفة : «اعرف نفسك بنفسك» أى تعرفها بالدرس الدائم لحلها وسبر غورها فى أعمق طياتها. ثم ينبغى أن يؤخذ الناشئ بتثقيف ملكات عقله بأن يتعلم ما هو ميسر له من العلوم والفنون . قال كنت : «من ليس مثقفا فهو بهيمة ومن ليس مؤدبا فهو متوحش» .

فإذا نحن أخذنا بهذا التفسير، لم يبق عمل فى حياة الإنسان لا يكون داخلا على نحو أو آخر فى معنى الثقافة ، وعلى ذلك تكون كل العلاقات بين الناس سواء أكانت اجتماعية أم سياسية أم اقتصادية أم أدبية أم تشريعية أم روحية داخلة فى معنى الثقافة، ويكون كل تقارب فى أى ناحية من تلك النواحى بين شعب وآخر أو بين فرد وفرد مما ينطبق عليه هذا الحكم ، بل نحن لا نكون مبالغين إذا ما قلنا إن الاتحادات الرياضية والمسابقات الأولمبية نوع من التثقيف، ففى تنظيمها بين الدول المختلفة اتجاه جلى نحو ثقافة عالمية .

كذلك يمكننا إن نقول أن مؤتمرات الأديان التى كانت تعقد بين الفينة والفينة لتقريب بينها والتفاهم بين الناس، وسعى بعضها للتوحيد وإزالة الفوارق، هو اتجاه واضح صريح نحو توحيد الثقافة فى العالم .

وما نقوله عن مؤتمرات الأديان ينطبق بذاته على المؤتمرات التعليمية والمؤتمرات التشريعية بل المؤتمرات الطبية، فإنها جميعها إنما ترمى إلى الوصول إلى تكوين رأى عام عالمى للسير عليه فى التربية وفى التعليم وفى طرق معاملة المجرمين والمرضى وفى صيانة الحقوق الأدبية للكتاب والمؤلفين، وفى الوصول إلى أجدى طرق العلاج . كل ذلك كان موجوداً وهو اليوم أقوى أثرا وأسرع مما كان عليه قبل الحرب الحاضرة، أى منذ ثلاث سنوات أو أربع.

أنظر إلى انجلترا وكيف أنها وسط هذا الضجيج الهائل وتلك المجزرة البشرية التى لم يشهد التاريخ بما يماثلها هولا ، كيف أنها وسط كل ذلك تبحث مشروعا لتحسين حالة العمال وضمان العيش لكل شيخ وكل عاطل عن العمل ، ثم انظر إلى أميركا وهى بعد أسابيع قليلة من تقديم مشروع بيفردج تنسج على نفس المنوال وتتبع نفس الخطة، فواجب الحكومة يحتم عليها «أن تكفل لكل مواطن حقه فى الحصول على عمل، وحقه فى الحصول على دخل يتناسب مع احترامه لنفسه حينما

يعجز عن العمل. ولو لم توجد مثل هذه الكفالة الاجتماعية والاقتصادية لما أصبحت هناك أية ضمانة للحرية. ولا شك أن كل جهودنا (هكذا تقول اللجنة الأميركية) لإقامة الحياة والحرية والسعي إلى الرخاء، ستذهب عبثًا ما لم تعتمد على أساس وطيد من التأمين الاجتماعي والاقتصادي» .

أرأيتم كيف أن العالم اليوم صار يتقارب من بعضه، بل كيف أن الأثير جعل كل الشعوب تطلع على ما يجرى خارج بلادها فلا تلبث واحدة منها أن تقوم بنظام جديد حتى ترى هذا النظام موضع بحث وتمحيص فى البلاد الأخرى، بل ربما كان هناك مباراة بين الأمم فى أيها تسبق الأخرى، أليس ذلك هو المقصود بقولنا إن العالم يتجه نحو ثقافة عالمية .

قد يقول البعض إننا توسعنا توسعاً كبيراً فى تفسير معنى الثقافة، وأن الحقيقة إن الثقافة إن صح التعبير بها على الملكات العقلية والروحية، فهى لن تنطبق على تثقيف ملكات الجسم مثلا، ولقد عرفها الاستاذ محمد سعيد مظهر فى عدد يناير سنة ١٩٤٠ من «الهلال» حيث قال : «فالرجل المثقف غير الرجل المتعلم، فهو أكثر مرونة فى العقل وأوسع مجالا فى الحديث وأكبر مدى فى المعلومات، وله شخصية قوية محبوبة ورأى بارز فى المجتمع وأثر كبير فى الأمور العامة، وهو لا يكون كذلك إلا إذا ألم بطرف من الأدب والفن واتصل بأمور الحياة العامة، وعرف ما يجرى فى بلده وفى العالم من الأحداث الهامة، ويعرف لغة أخرى غير لغته، وتتبع النهضة العلمية الحديثة وتيار الفكر فى الشرق والغرب إلى جانب علومه التى تخصص فيها . على أن لا تبقى هذه الطوائف من المعلومات منعزلة مستقلة بعضها عن بعض، فيصبح عقله مخزنا كبيراً به غرف غير متصلة.. وإنما هو يؤلف بينها فى مجموعات منتظمة واحدة للعلوم وثانية للمعلومات العامة وأخرى للتاريخ والاجتماع وهكذا على قدر تنوع معلوماته. ثم يربط هذه المعلومات بعضها ببعض فتصبح كلها مجموعة واحدة كبرى أو دولة علمية يشد بعضها أزر بعض ويستفيد كل فرع منها من باقى الفروع بحيث إذا تكلم فى الدين عرج على الفلسفة والمنطق واستعان بالتاريخ للاستقصاء والمقابلة وبالعلوم للبحث والتمحيص فتدور معلوماته كلها حول محور واحد يتدرج فيه إلى الغرض الأسمى من التعليم والتثقيف . وهو دراسة طرائق التفكير الصحيحة ومناهج البحث ومعالجة الأمور بالحكمة والنظر فيها نظرا سديدا وكسب العادات العقلية المنظمة» ..
هكذا عرف الثقافة استاذ أشرف هنا وفى العراق على اختيار درجة الثقافة العامة .
وهو تعريف إن سهل أن يكون وصفا لأشخاص بذاتهم فإنه لا يكاد يحصر الاتجاه

الذى يمكن أن يتعرف به الإنسان المعنى المقصود من لفظ الثقافة فهى فى عرفه ترجع إلى توسيع المدارك العامة وتنظيم المعلومات الفنية والأدبية والعلمية وهضم عوامها جميعا لدرجة تمكن الشخص من أن يكون ذا رأى ومذهب فى الحياة ، بل إنه يذهب إلى أبعد من ذلك ، فهو يعتبر الشخصية القوية المحبوبة شرطا من شروط الرجل المثقف .

ولعلى لا أكون مبالغا إذا قلت إن تلك الصفات على أهميتها وفائدتها فى الحياة لا تتوفر جميعها إلا نادراً فى شخص واحد، لذلك أرانى أميل إلى تعريف الاتجاه الثقافى بأنه الاتجاه الفكرى والروحى، فهل نحن آخذون فى سبيل اتجاه عالمى من هذا القبيل .

إن جميع ما قدمت من الملاحظات والآراء يجعلنا نجيب عن هذا السؤال بالإيجاب، ولكنا من الناحية الأخرى إذا ما رجعنا إلى تحليل تفاصيل الحياة ومعارك المجتمع الذى نعيش فيه، وجدنا الأمر على خلاف ذلك تماما، فإن أقصى ما يرد بالخاطر أن تتسع المملكة اتساعا يجعلها أضعاف ما هى عليه اليوم، حتى لا يبقى فى العالم إلا عدد محدود من الدول، فهل هذا يحل الإشكال، كلا فمصر دولة واحدة، ونظامها السياسى واحد وتشريعها واحد، ودين أغلبيتها العظمى واحد، ولغتها واحدة، وطقوس أفراحها ومآتمها واحدة، ولكن هيا بنا نفحص قليلا أفكار الناس وآراءهم، إذن لرأينا بونا شاسعا وتناقضا عظيما وعراكا مستمرا بين مذهب ومذهب وبين رأى ورأى .

هذا يدافع عن السفور ويراه حقا طبيعيا تتمتع به المرأة، ويرى أنه السبيل الوحيد لترقية المجتمع، لأن المرأة التى لا تختلط بالناس ولا تعرف الحياة لا يمكن أن تكون أما صالحة ولا ربة بيت نافعة، وهذا يطعن على السفور ويرى فيه مخالفة للدين وتقليدا أعمى للأوربيين ، ويعتقد أن السفور عار وسبة للمدنية .

وهذا يرى وجوب تقليد أوربا فى نظمها وطرق معيشتها، بل وفى المأكل والمشرب، والآخر يرى أن لا شأن لنا بغير بلادنا، فنحن شرقيون وهم غربيون، وسبيلنا إلى النجاح أن نحرص على تقاليدنا وقواعد ديننا، وأن نستقل فى أمورنا عن سوانا.

وهذا يرى أن يكون هدف مصر الأسمى أن تكون قطعة من أوربا، وذاك يراها جزءا من البلاد العربية يجب عليها أن تحافظ عليها وتتفانى فى الإخلاص لها وتجعلها هدفها الأسمى الذى تسعى إليه وتعمل على تحقيقه مهما كانت الظروف والدوافع.

هذا فى مصر وهى شعب واحد ولغة واحدة ونظام واحد، فإذا ما حولنا نظرنا إلى فرنسا مثلا قبل الحرب، وجدنا عوامل خلاف متأصلة فى شعبها برغم وجود الاتحاد فى اللغة والنظام والدين، ففيها من كانوا يسعون إلى بسط النظم الشيوعية بكل تعاليمها حتى وصلوا إلى أن يجعلوا لهم عددا محترما من النواب يتصلون علنا بموسكو ويعملون بتعاليمها فى أشد الأزمات حرجا فى بلادهم، كما كان فيها من كانوا يرون ويدعون إلى نظام الملكية ويطالبون بإعادتها ويعلنون إفلاس الحكم النيابى.

كذلك كان فى فرنسا دعاة أشداء أقوياء يناصرون الديمقراطيات ويرونها المثل الأعلى للإنسانية، وإزاءهم كنا نرى دعاة الدكتاتورية والنظم الفاشية أو النازية.

وغير هؤلاء وهؤلاء كنا نرى كتابا ومفكرين يدعون إلى الفكرة الدينية، وغيرهم يعلنون حربا لا هوادة فيها على الأديان والشرائع السماوية وكتب الله ورسله .

ونحن إذا ما اتجهنا ببصرنا إلى غير مصر وفرنسا، ونظرنا إلى الأمم المتعددة الشعوب واللغات والدين، لوجدنا خلافات أشد غورا وأبعد أثراً وأعمق فى نتائجها وفيما تتمخض عنه من حرب داخلية وقودها الحقد والعداوة والجهل، فهل منا من يستطيع أن ينسى ما وقع وما يقع فى كثير من البلاد باسم النعرة الجنسية، أو هل نسينا الحروب الأهلية فى مختلف أنحاء العالم وعلى ممر الدهور بين السود والبيض، أفلا نزال نشاهد إلى اليوم فى بلاد تزعم أنها وصلت إلى أقصى درجات الحرية والرقى تفريقا بين الشعوب، كأجناس بذاتها لا يجوز لها الدخول فى بعض المحال العامة لأنها مقصورة على غيرهم .

لست أريد أن استطرد فى هذا الحديث لأنه مؤلم مرير، ومن شأنه أن يثير ذكريات ليس من الصالح إثارتها أو تحريكها، ولكننا أردنا فقط أن نشير إلى أن الشعوب والأمم لا يزال بينها وبين بعضها فوارق أساسية تقتضى أجيالا وأجيالا فى سبيل تذليلها، وأننا لم نصل بعد فى هذه الناحية إلى درجة يمكن الاغتباط بها أو الرضى عنها، فاتحاد الثقافة لايزال بعيداً بل أبعد مما تتصورون، فإذا قلت إننا فى طريق بناء اتحاد عالمى، فإنما نظرت فقط إلي تطورات العالم مدى الدهور، وأردت أن أقول إن اتجاه التطور الحديث من شأنه أن يساعد على وضع حجر جديد فى أساس العالم الجديد، أما الوصول إلى تحقيق الغاية فأمامه طريق طويل وطويل جداً، بل ومحفوف بأشد المخاطر والأهوال.

هاتان الناحيتان اللتان يمكن النظر منهما إلى تطور العالم نحو ثقافة عالمية، ولكن قد يرد بالخاطر أن المقصود بثقافة إنسانية فى هذا المقال ليس الثقافة العامة، بمعنى أنها تعم جميع الأجناس، بل المقصود هو الثقافة الإنسانية، أى التى تبنى على الإنسانية الرحيمة، وفى هذا أيضا نجد العالم يتطور نحو المبدأ الإنسانى، فما نراه فى البلاد الراقية من عناية بالمرضى ومن مكافحة للأمراض ومن رعاية للطفولة ومن رحمة بالشيخوخة ومن إعانة للعاطلين ومن تأمين للعمال ومن ملاجئ لإعالة المحتاجين وإغاثة المصابين، كل تلك أعمال إنسانية تتبارى الأمم الراقية فى السبق إليها والتنويع منها لا فى بلادها فحسب، بل خارج بلادها أيضا، فالعالم فى سبيل التدرج إلى أمثلة عليا كريمة فى هذه الناحية، وما على الباحث إلا أن يقرأ المشروع الانجليزى أو المشروع الأميركى اللذين أشرنا إليهما ليعرف كيف تتضامن الإنسانية وتكافح لضمان الرخاء والسعادة لجميع أبناء الأمة يستوى فى ذلك غنيهم وفقيرهم، جاهلهم وعالمهم، صحيحهم وعليلهم، شيبهم وشبانهم، فهم جميعا أبناء الوطن، وهم جميعا جديرون برعايته وحنانه وعطفه.

ولكنا نرى من نافذة أخرى أهوال حرب هائلة تزهق فيها الأرواح بلا حساب، فالفتك والتدمير والتخريب والتقتيل وإيقاع الأذى على الأطفال والشيوخ وعلى المدنيين الآمنين فضلا عن المحاربين، بعض سلاحها، فنحن إذا ما نظرنا إلى تلك الصفحة وجدنا البشرية بأكملها وهى لا تزال فى دور الفطرة الوحشى، ونحن لا نزال أبعد ما نكون عن تحقيق المبادئ الإنسانية الرحيمة .

ونحن إذن حيثما قلبنا وجوهنا وجدنا لتطورنا الثقافى وجهين متقابلين : أحدهما ضاحك باسم يجذبنا إلى السعادة والرقى، والآخر عابس محزن ينذرنا بما ينتظرنا من مصاعب وأهوال. وإنى لأرجو أن يعمل الجيل القادم على أن يتغلب جانب الخير على جانب الشر، وأن يساعد كل منا مهما قل نصيبه فى العمل على أن تكون جهوده فى هذا المعترك العالمى موجهة إلى تحقيق ثقافة إنسانية رحيمة تؤلف بين القلوب، وتعلى كلمة الحق والعدل ، والله يهدينا سواء السبيل .

مايو ١٩٤٣

مصر والعالم
سنة ٢٠٠٠

تنبؤات
فى السياسة والعلم والفن والاجتماع
لمنشىء الهلال
وطائفة من رجال مصر المعروفين

عثرنا فى أوراق منشىء الهلال على مذكرات كتبها فى سنة ١٩٠٠ وتنبأ فيها بما سيكون عليه العالم ومصر حينما تحل سنة ٢٠٠٠ الميلادية وماقد يجد فى خلال القرن العشرين من مخترعات وفنون وعلوم ، وماسيقوم من نظم وأوضاع . وقد رأينا أن نشرك فى هذا البحث طائفة من خيرة رجال مصر المعروفين فى السياسة والعلم والفن والاجتماع



تنبـــــــــــــؤات

جـــــرجي زيـدان

يقـــرر كثيـــر من المفكرين السياسيين أن عهد الدول الصغيرة انقضى ، وأن المستقبل سيشهد نظام «تكتل الدول» الذي يدمج الدول الصغيرة المتقاربة في أجناسها وأصولها وأوضاعها في «كتلة» كبيرة . وفي منشىء الهلال ويقول :

ينقسم العالم المتمدين بعد مائة سنة ، حسب الأجناس «دولا» قليلة . فدولة اللاتين تضم فرنسا أسبانيا وإيطاليا . ودولة الجرمان تضم العناصر الألمانية المبعثرة في أوربا . ودولة الروس وتنضوي تحتها الدول السلافية في أوربا ، وتكـــون الصين واليابان دولة واحـــدة ، وهكذا ..

في بداية هذا القرن كانت الجمهورية راسخة الدعائم في فرنسا ، والامبراطورية موطدة الأقدام في ألمانيا .. ولكن منشىء الهلال تنبأ حينذاك بزوال الجمهورية الفرنسية والامبراطورية الألمانية فقال :

تنقلب جمهورية فرنسا وتصير ملكية ، وقد تصير امبراطورية وتصير ألمانيا جمهورية بسبب انتشار الاشتراكية فيها

وكذلك الولايات المتحدة الامريكية تنقلب من الجمهورية الى الملكية

لم تكن فكرة الوحدة العربية منذ أربعين سنة قد خطرت لأحد من كتاب البلاد العربية أو زعمائها ، فقد كانت كل دولة عربية في شغل وهم بأمورها الخاصة ، ولكن بصيرة جرجي زيدان أنبأته بأن هذه الدول المشتتة المتباعدة ستتقارب وتتكتل يوما ما فقال :

★ تتم الجامعة العربية بين الشعوب العربية ، فتتحد مصر والشام والعراق وتكون دولة عربية ولكنها قد لا تصل الى هذا القرن العشرين ، بل في القرن الذي يليه

مصر ، كيف يكون أمرها سنة ٢٠٠٠ ؟ . هذا بعض ما رآه فيها منشىء الهلال من الأنظمة والمنشآت التي تم تحقيقها في النصـــف الأول من القــــرن العشرين :

★ حكومة مصر نيابية ومجلس نوابها يمثل كل مافيها من الملل والمذاهب .

★ الازهر يدرس جميع العلوم العصرية واللغة الانجليزية .

★ للسيدات نـــاد اسمه نادي قاسم أمين .

★ السـفـــر بين مصـــر والاسكندرية بالطائرة ، وبين مصر وأوربا بالبالون .

★ في القـــاهرة مستشفى للراديوم يعالج فيه مرض السرطان .

★ تبنى المساكن على الطراز الفرعوني ، وتقوم بجوار الاهرام «فيلا» من هذا الطراز تعرف «بفيلا» فرعون .

★ تكثر الواحات في صحاري مصر ، مثل واحة «هليوبوليس»

★ تقوم في مصر مصارف «بنوك» وطنية ويقبل المسلمون على التعامل معها .

★ تقوم في هليوبوليس جامعة تدرس فيها جميع العلوم ويحاضر

فيها أساتذة من جميع الاجناس.

★ تستقل سورية كما تستقل مصر وتنشأ بينهما سكة حديدية .

فهل يتم في النصف الثاني من القرن العشرين تحقيق ما في نبوءات جرجي بك زيدان عن نواحي النشاط ومرافق الحياة في مصر؟؟

★ يبلغ عدد سكان مصر خمسة وعشرين مليون نسمة .

★ الدكتور محمد يبحث عن ميكروب الفرح وميكروب الحزن .

★ الدكتور مصطفى يجرى عملية نقل أعضاء الجسم البشرى من شخص الى آخر .

★ الدكتور ابراهيم يبحث في أعصاب النبات وقوته العاقلة .

★ تصدر في مصر مجلة خاصة بالعلوم باللغتين العربية والانجليزية .

★ وتصدر جريدة عربية يعرف المشترك فيها أخبارها لا بقراءتها بل بطريق التليفون .

★ يجلس المرء في بيته مع زائريه ، ويشاهد ويسمع التمثيل بالسينما توغراف الناطق .

★ يسافر الناس من الاسكندرية الى رأس الرجاء الصالح بالسكة الحديدية الكهربائية ومن القاهرة الى طوكيو بالبالون .

★ تنشأ في الخرطوم جامعة مصرية وكذلك مستشفى للبحث في أمراض السودان .

★ عثروا في أرض اليمن على آثار مدنية قديمة متصلة بمدنية الفراعنة .

★ أنشيء في القاهرة مجمع علمي أطلق عليه اسم «مجمع البحث عن مفاخر الشرق القديم »

إذا تذكرنا ما كانت عليه صورة الحياة ومتجه التفكير في بداية القرن الحالي ، أدركنا كيف كان منشيء الهلال صادق الحس نافذ البصيرة ، حين رسم صورة للمستقبل المحجوب فأخرجها قريبة مما عليه الحال ، أو مما يجري فيه التفكير ، في هذه الأيام ..

الزواج : بالتراضي بين الزوج والزوجة . وبعقد مدنى يجوز إلغاؤه . ويجب على الشاب والفتاة أن يقدما عند الزواج شهادة طبية تثبت خلوهما من المرض ، ولايتم الزواج دون تقديم هذه الشهادات . وتنشيء الحكومة مكتباً خاصاً لفحص الشبان والفتيات مرة في كل سنة ، وتقيد نتيجة الفحص في سجلات الحكومة ، حتى يعرف الطبيب عند اعطاء الشهادة الامراض التي تعرضوا لها

الحكومة : تتولى كل الاعمال العامة على المبدأ الاشتراكي ، ويدفع كل انسان مبلغاً ينفق منه على المصلحة العامة .

المدارس : يتعلم فيها التلاميذ كافة العلوم حتى الطب والقانون ، وإن لم يكن القصد تخريجهم أطباء أو قانونيين .

المرأة : حر تخرج في الأسواق، وتتعلم وتتوظف وتتاجر وتحارب كالرجل .

اللغة : لغة عامة للعالم كله .

النقود : مثل اللغة ، ستكون نقوداً دولية .

البريد : طوابع البريد دولية ، وتكون الرسائل مثل أسطوانات الفونوغراف ، فيسمع المرء صوت صاحب الرسالة .

الملابس : كساء بسيط واسع . معتدل في الرجل وقبعة على الرأس للوقاية من الشمس ويختارون في الالوان مايوافق الفصول والنهار والليل .

المساكن : تقام في الهواء الطلق . وهي بسيطة التركيب قليلة الاثاث ، وتغرس حولها الاشجار ذات الزهور والثمار النافعة للصحة .

في كل بيت غرفة للتليفون باللاسلك . ويمكن بواسطته محادثة الناس ورؤيتهم كذلك . مطبخ البيت ومغسلة يدران بالكهرباء .

الطعام : الرجوع الى الطبيعية ، أي الاكثار من أكل الخضر والفاكهة والتقليل من تناول اللحم .

الرياضة : لابد من الرياضة البدنية مدة معينة في كل يوم ، ويعمل الانسان نصف النهار ويقضي نصفه الثاني في النزهة والقراءة .

التجارة : تمتلك دكاكين التجارة جمعيات تعاونية ، يشترك فيها كل رجل وكل امرأة بسهم أو عدة أسهم . وتتصل هذه الحوانيت بالمنازل بواسطة تليفون بلا سلك.

الانارة : تنار المدن بالمصابيح الكهربائية ، وذلك على نفقة الحكومة أما البيوت فتنار بالكهرباء على نفقة سكانها .

معاملة المجرمين : بالتطبيب في المستشفيات لابالحبس في السجون

الطب : يعدل الاطباء عن العقاقير الا قليلا . ويكشفون عن العلل الداخلية بأشعة رنتجن فيرون الاعضاء والاحشاء واضحة وكل مايصيبها ظاهر . وتجرى العمليات الجراحية بكل يسر وسهولة . ويجريها الناس في منازلهم بعضاً لبعض . أما طبيب العائلة فيبقى مرتبه محسوباً طالما لم يكن في العائلة مريض ، فاذا أصاب أحد أفرادها المرض انقطع مرتبه حتى يشفى المريض .

الميكروبات : اكتشفوا لكل مرض جسمي أو نفسي ميكروباً ، فللفرح ميكروب ، وللحزن ميكروب ، وللذكاء والغباوة ، والاخلاص واللؤم ، والنشاط والكسل لكل منها ميكروب . ووجدوا لكل مرض مصلا شافياً ، حتى أمراض النفس مثل الحب والبغض ، وجدوا لكل مصلا يعالجها ويشفيها .

العلم : يبحث العلماء عن وسيلة لاطالة الحياة باستبدال الاعضاء التي هزلت أو شاخت بأعضاء أخرى قوية أو شابة ، وقد رضى أحد العلماء بأن يضحي بنفسه ليجرى عليه زملاؤه عملية إبدال الأعضاء . وبنى تضحيته هذه على أنه لا بد من مكافأة في الدنيا الأخرى ، وأن هذه الدنيا لم تخلق عبثاً .

الأدب : يقبل الناس على قراءة رواية بطلها مكتشف جديد لمادة تطيل الحياة ، واستخرجت بواسطة أشعة الراديوم ووجدوا لها تأثيراً على الأحياء ، فصنعوا منها مصلا سموه «مصل الحياة»

الملاهي : تقام خارج المدن وعلى نفقة الحكومة ، وتتقاضى الحكومة مقابل ذلك من كل فرد ضريبة سنوية تبيح له التفرج على جميع أنواع الملاهي .

الطائرات : تبنى طائرات ضخمة كالبيوت ، فيسكن فيها الانسان وهي رابضة على الارض ، وتطير به عند الحاجة حاملة جميع أفراد أسرته ومن يريد من الاصدقاء فضلا عما تحمله من معدات المنزل والسكنى . وفي هذه الطائرات أجهزة التليفون والتلغراف بلا سلك ، والمرآة السحرية التي يرى فيها الراكب المشاهد البعيدة .

وتخترع مادة ترم بها الطيارة من بعد ، فتوقفها عن المسير لتمنع فرارها بالهاربين ...

الرياح والشمس : فرغ الفحم من الدنيا فاستخدموا حرارة الشمس بدلا منه . وكذلك استخدموا الرياح في توليد القوى المحركة .

هذا ماتنبأ به المرحوم جرجي بك زيدان منذ ٤٣ عاماً ، وقد



تنبؤات محمد على علوبة باشا

تحقق بعضه ، وبقى البعض الآخر وقد يتحقق كما تنبأ سنة ٢٠٠٠ .

***

وإليك نبوءات بعض رجالنا وكتابنا المعروفين ، وقد تناول كل منهم جانباً من الحياة العامة :

أنظمة الحكم

اذا جاز لنا التنبؤ بما ستكون عليه حال الحكومات حينذاك ، كان لزاما علينا أن ننظر الى الماضى والحاضر لنستشف منهما ما عسى أن يكون فى المستقبل ، على أن الأمر فى منتهى الصعوبة، فهناك فرق عظيم بين مايجب أن يكون وبين ما نتوقع أن يكون عليه الامر فى سنة ٢٠٠٠ .

والذى يمكننا أن نتوقعه ، هو أن الانسان قد ارتقى فى عقله وثقافته ، ونشعر أن الحرية وكرامة الانسان متلازمتان مع تعليمه وتهذيبه . بما أن الانسان فى الوقت الحاضر قد ارتقى وأحس بضرورة حريته وكرامته ، فاننا نتوقع أن ينتشر هذا العلم والتهذيب بفضل سرعة تبادل المنافع بين الامم وتنظيمها وشيوع المؤلفات والاخبار العامة بين أفراد الناس ، وفى هذا فأل حسن فى نمو فكرة الحرية والكرامة ، وبالتالى فى منع الاستبداد ، ونمو فكرة الديمقراطية . وينجم عن هذا أن ترسخ فكرة الحياة الدستورية البرلمانية فى الامم ، وأن تهذب حتى تحقق الحرية الكاملة لافراد كل شعب ، وأن تتسع أنظمة الديمقراطية الى الدرجة التى بها تتحقق اللامركزية فى أقاليم كل أمة ، وأن يكون كل اقليم مكلفا بشؤونه الخاصة وألا يطلب من الدولة الا ما كان متعلقا بالشؤون العامة كحفظ الامن فى الخارج مع الارشاد والمراقبة فيما تقوم به أقاليم كل مملكة .

هذا الى أن العالم يسير الآن بخطى واسعة فى سبيل العلم والاختراع ، مما ينجم عنه ايجاد وسائل الرفاهية وراحة الانسان فى حله وترحاله ، وابتكار الادوية التى تقى الانسان من أمراض لا زالت مستعصية أو تشفيه من هذه الامراض .. فاذا تم ذلك كما نتوقعه كانت الحياة فى كافة مناحيها فردوسا للجنس البشرى ، كانت الحياة عيشا هنيئا ، وصحة قوية فى العقل والبدن ، وتهذيبا وتثقيفا وادارة حكيمة غير قائمة على حرية الفرد وكرامته .

انما يجب ألا ننسى مفاجآت قد تكدر صفو هـذا الرجاء . لاننسى أن ارتقاء الانسان فى تلك المناحى التى نتوقعها ونرجوها ، قد يدعو الى كثرة عدد ساكنى الارض وتنوع حاجياتهم وكثرة مطالبهم ، فيزداد ويتضاعف سكان الارض على نحو قد يتعذر معه ارضاء مطالبنا . والارض شحيحة ان كانت واسعة الارجاء من زمن مديد ، وتكفى لتغذيتهم وتبادل المنافع فيما بينهم ، فانها قد تضيق يوما ما عن أن تؤدى هذه المطالب وتنضب ينابيعها المختلفة بعد أن تكون غير قادرة على أن تمد الناس بأسباب الرزق وخيراتها الكاملة ، فقد يقل الفحم

فى ناحية ما ، وينضب البترول من ناحية ما ويتلاشى الحديد فى بقعة ما .. وقد تقل المحاصيل عن أن تغذى الكثرة من الناس ، فتدب فى بعضهم روح الغيرة وفكرة الاعتداء فتنشب الحروب للرزق والقوت ، بل للحياة . والانسان مهما ارتقى وتهذب وسعى الى العدل والاخاء ، فان الحيوانية لازالت كامنة فيه ، وعند الحاجة يرجع الى حالته الاولى من الفتك والقتل والنهب والتخريب .

ولطالما سعى المفكرون والحكماء والفلاسفة فى منع هذه الحروب والتذكير بوجوب ارتقاء الانسانية وبعدها عن الاعتداء وبراءتها من الوحشية .. ولكن الانسان هو الانسان ، ولم يثبت لنا التاريخ فى أى زمن من الازمان ان الانسانية قد بعدت عن هذه الوحشية التى يسمونها ضرورة للبقاء أو للمجد ، ومتى كانت فكرة الحروب قائمة بين الناس من يوم الخليقة الى الآن ، وأصبح من العسير بل من المستحيل منعها ، فانا نخشى أن تتكرر هذه الحروب وأن يساعد العلم على شدة الفتك والتخريب .

فاذا وقعت كوارث وقامت حروب فى المستقبل بين أمم الارض ، قوامها العلم والاختراع انقلب نظام العالم وفنيت شعوبه وتخربت بقاعه فينقلب النظام الاجتماعى والادبى بنظام لا نعرف كنهه الآن وقد يكون ديكتاتوريا ، أو استبداديا فظيعا ، أو عبودية أمم بأسرها تحت أقدام الظافرين . فاذا قامت هذه الفوضى ، وقام التقتيل والتخريب ، وانحطت المروءة وضعفت الأخلاق الكريمة ، لم يصبح للمنطق مجال ولا للتنبؤ مجال ، ولا لسير الامور نظام مستقر ، وأصبح الظلم والقوة قاعدة بين الامم ، فتتلاشى الآمال فى تحقيق الديمقراطية وتحقيق العدل ، ويرجع الناس بعد ذلك الى همجية تنقلب فيها الارض من فردوس الى جحيم

فعلى المسئولين فى توجيه الانسانية البشرية ، أن يقودوها الى مافيه خيرها ورقيها ورفاهيتها ، وأن يحسنوا قواعد العدل وتطبيقها بين الاقوياء والضعفاء . بغير هذا لا يكون للانسانية وجود وينقطع كل أمل فيما نرجوه لرفعتها عن طريق العدل والضمير الانسانى السليم

حياتنا الاجتماعية

اذا أردنا أن نتعرف الحياة المصرية فى نواحيها الاجتماعية



تنبؤات

محمد العشماوى بك

المستشار الملكى لوزارة الشئون الاجتماعية ووزارة الاشغال

فى سنة ۲۰۰۰ وجب أن نتعرف نوع المجتمع الذى رسمته البلاد وعملت لتحقيقه ، وما اتخذت لذلك من وسائل ، وما رصدت له من أموال ، وما وقفت عليه من جهود ، ويخيل الىّ أن برنامجا مقررا للوصول للمجتمع المثالى لم يوضع للآن . صحيح أن الرغبة فى الاصلاح قد قويت والدعوة اليه قد ارتفعت من كل جانب ، وأن بعض مشكلاتنا الاجتماعية الكبرى قد فكر فى الاخذ باسباب علاجها ، ولكنا لا نزال فى دور البداية أو طور التفكير ، فلم نضع خطة

ثابتة وليدة دراسة شاملة . ولاتزال مشـــروعاتنا في الاصـــلاح الاجتــماعي مرتجلة ، وجهودنا متفرقة . ولذلك أخشى أن يأتي عام ٢٠٠٠ ولم نتقدم كثيرا في الوصول الى الاهداف الاجتماعية السامية فنصف قرن ليست مذكورا في حياة الامم . اذا جرى التطور فيه بخطوات بطيئة ، بعد المدى بيننا وبين غاياتنا في الاصلاح الاجتماعي بما يتجاوز سنة ٢٠٠٠ بكثير على أني أعتقد أنه سيكون للحرب وكوارثها ومعضلاتها ، ما يحفز الامة المصرية متأثرة بالتيار الجارف الذي ينتظر أن يجتاح العالم عقب انتهاء الحرب - الى أن تقيم أسس مجتمع سليم يصمد للاحداث ويتمشى مع هذا التطور العنيف . فان صح اعتقادي ، ولم ينسنا هدوء السلم ضجيج الحرب، أمكننا أن نصل في النصف قرن المقبل الى نتائج بعيدة المدى في حياة المجتمع المصري . وأخصها تحقيق العدالة الاجتماعية في أروع صورها متأثرة بمبدأ التضامن والتكافل العام . فلا تكون الاغلبية الساحقة من الامة في فقر مدقع وجهل شامل ومرض قاتل ، والمئات أو الألوف القليلة في ترف من الحياة ، والمعرفة والصحة ، والغنى ، بل تتقارب الفوارق بين الطبقات ليتحقق التوازن الاجتماعي ويتناسب الانتاج القومي مع عدد السكان ، فيتوافر للفرد مورد من الرزق يتناسب مع حياة انسانية كريمة ، ويمكنه أن يأخذ من الحياة بمقوماتها .

كما أنتظر في سنة ٢٠٠٠ أن تزول الامية تماما وأن نحتفل بتشييع جنازة آخر أمي احتفالا قوميا رائعا ، وأن يكون التعليم العام ميسرا للجميع وبالمجان ، فحاجتنا للتعليم كحاجتنا للماء والهواء . وأن تقوم الاسرة على أساس مكين من التضامن فيحد من فوضى الطلاق وتعدد الزوجات بحيث تصبح هذه الرخصة مقصورة على مواجهة ضرورة اجتماعية لا وليدة المتعة والهوى والعابث .

وأشد ما يشغلني مصير المرأة المصرية وحالتها في سنة ٢٠٠٠ ، فما تزال الى اليوم على مفترق الطرق ، قطعت شوطا بعيدا في الثقافة وأصبحت عنصرا فعالا في الحياة المصرية الاجتماعية ، ولكن أغلب الظن أنها لم تنته الى رأي في رسالتها في الحياة ، فقد بـــدأت تطالب بالمساواة ، والمساواة في الامور العامة حق من حقوقها في المعرفة العليا لامرية فيه ، ويبقى نوع الميدان الذي يجب أن تعمل فيه .. واعتقادي أنه لن يأتي عام ٢٠٠٠ الا وقد تبين للمرأة المصرية ان مزاحمة الرجل في ميدانه أمر لا ينفعها ولا يشرفها ولاينفع البلاد ، وأنه خير لها أن تعتصم بملكها غير منازعة فيه ، وأن تعمل في ميدانها على تربية الجيل ، فذلك مايرفعها الى مرتبة الخلود .

تنبؤات عبد الله بك أباظة

السكرتير العام لوزارة التجارة والصناعة .

حياتنا الاقتصادية

بلغ عدد سكان مصر في سنة ١٩٣٧ حوالى ١٦ مليون نسمة ، لما كان متوسط الزيادة السنوية قد بلغ فى الثلاثين سنة الأخيرة ٢ر١٪ . فانه ينتظر أن يكون عدد السكان فى سنة ٢٠٠٠ حوالى ٢٧ مليونا .

واذا كانت مساحة الاراضى الزراعية لاتزيد فى الوقت الحاضر على ستة ملايين من الافدنة تقريبا ، ولا ينتظر أن تزيد فى سنة ٢٠٠٠ على ثمانية ملايين فدان ، فان متوسط نصيب الفرد من مساحة الاراضى المنزرعة سيهبط من حوالى التسعة قراريط كما هو الآن الى الستة فقط . ومن ذلك يتبين مقدار تفاهة ما يصيب الفرد من غلة الارض مهما قيل فى امكان الزيادة فى خصوبتها وانتاجها ، أو فى المساحة المنزرعة منها . ويدعو ذلك حتما الى وجوب تنمية موارد البلاد صناعيا وتجاريا ، والى استخراج مافى أرض مصر من كنوز ، وما فى بحارها من ثروة مائية .

نحن الآن فى سنة ٢٠٠٠ ، وقد أنارت الكهرباء المولدة من خزان اسوان جميع المساكن النظيفة التى يقطنها العمال فى المدن والقرى الصناعية المنتشرة على جانبى النيل الذى يحف به «كورنيش» معبد جميل ممتد على شاطئه ، تتفرع منه طرق كثيرة تشق سبيلها وسط الصحراء الشرقية ، منسابة الى الموانىء الكثيرة المنشأة على ساحل البحر الاحمر ، وفى كل منها صناعة بحرية راقية ، وقد اكتظت مرافئها بمئات من سفن الصيد المصرية ، وسفن النقل التى بناها صناعنا المصريون ، والحركة على أشدها فى هذه الثغور . فهذه بضائع تشحن لفيضها عن حاجتنا ، وتلك مواد أولية تفرغ لتنقل الى مصانعنا ، حيث تحول الى مواد مصنوعة ننتفع بها محليا ، ونصدر الزائد منها لبلاد الشرق الاوسط .

اما حركة استغلال الكنوز المعدنية المدفونة فى صحارينا فقائمة على قدم وساق ، ومناجمنا تخرج أطنان الحديد والالمنيوم والكروم والقصدير وغيرها وغيرها . والمصانع تحول هذه وتخلق منها الكثير مما نحتاج اليه . وقد نشطت مصانع السماد والمواد الكيماوية والاسلحة والذخيرة والآلات الميكانيكية والسيارات والطائرات وصناعات الجرانيت والخزف والفخار وغيرها، وكلها تستمد قوتها من كهرباء خزان اسوان بتكاليف قليلة .

وقد أصبحنا لانرى القاطرات الحديدية والدخان يتصاعد منها ، لانها تسير بالكهرباء ناهبة الارض نهبا قادمة من السودان غادية اليه ، بعد أن تم مد الخط الحديدى بين الشلال ووادى حلفا . وكان من أثر ذلك أن استفادت صناعتنا وتجارتنا الى حد كبير ، فنقل الينا من السودان الكثير من

المواد الخام التى تنقصنا ونشأت بسبب ذلك صناعات لها أهميتها كحفظ اللحوم والفواكه ودبغ الجلود وصنع الورق وغيرها ، فضلا عن استغلال الغابات السودانية بما فيها من مواد وأخشاب .

.. وها هى ذى الطائرات تملأ الجو فى كل مكان ، وقد أصبح لنا أسطول تجارى جوى وبحرى كبير ، يربطنا بالحجاز واليمن والهند وشرقى الاردن وفلسطين والشام والعراق وغيرها ، ويعزز التبادل التجارى بيننا وبينها ويروج لانتاجنا الصناعى الغزير .

لقد أصبحت جميع هذه المرافق المالية والتجارية والصناعية فى أيدينا نحن المصريين ولا بأس من أن يعاوننا مستشارون من الاجانب فى بعض الاحوال . وقد ارتفع مستوى المعيشة عندنا بسبب ما ننعم به من رخاء وزادت أجور العمال وسما مستواهم الاجتماعى الثقافى والصحى ، ولم نعد نرى ما كانوا يسمونه «الجهل» منذ سنوات ! وأصبح كل فدان من المناطق الصناعية يقوم عليه مصنع يحوى آلاف العمال الذين انتقلوا من حياة الفلاحين الفطرية الفقيرة ، الى حياة عمالية راقية ينعمون فيها بالطعام الدسم المنظم والكساء النظيف والماء المصفى ، والصحة والعافية ، وقد زالت عنهم الامية فصاروا كلهم يقرأون ويكتبون ، ويفهمون حقوقهم وواجباتهم ، ويكونون شعبا صناعيا متعلما ناهضا قوى الشكيمة منيع الحاشية ، يذود عنه جيش كامل العدة ، وافر العدد ، مرهوب الجانب ، يرفرف عليه علم «مصر» القوية المنيعة المحصنة التى أصبحت تكفى نفسها بنفسها تضارع أقوى الامم صناعة وغنى وحضارة واستغلالا .



تنبؤات
أحمد بك راسم

حياتنا الفنية

كنا نذكر كيف تأثرت الفنون اثر الحرب الماضية فرجعت بها القهقرى وطلعت علينا ببعض تطريبات حديثة ، فحلت الموسيقى «الجديدة» محل الانغام المنسجمة التى كانت تهز الروح وتطرب الفؤاد . ونزع بعض المصريين الى التحلل من قيود المادة والخطط «الكلاسيكية» باحثين عن تسجيل صفات الروح بأساليب كانت محل اعجاب البعض وسخرية الكثيرين.

ولما كان من المنتظر أن يعقب هذه الحرب تغييرات واسعة المدى

تتناول جميع الانظمة الاجتماعية والاقتصادية المتعارف عليها ، فان الفنون ستتأثر بهذا التطور كما تأثرت عقب الحرب الماضية .. غير أن هذه الحالة سيعقبها حالة استقرار تدعو اليها الرغبة فى نشر السلام والحرص على تجنب ويلات مثل هذه الحروب التى من شأنها تعكير صفو العالم .

فالعودة الى هذا الاستقرار الاجتماعى سيعود بالفنانين الى استقرار حالتهم ، مما يساعدهم على رفع مستوى الفن الى جو سحرى تحس فيه الروح هدوءا وانسجاما .

وسوف يتطور كل فن من الفنون الى ما يحقق مطالب الروح التى عانت من هذه الحرب رعبا واضطرابا ، فيقدم لها توازنا واستقرارا .

ففى الادب مثلا ترى الصحف خلوا من المقالات المطولة تورد أخبارها وتنشر على الناس ثقافتها فى أسلوب أسهل وتعبير قوى .. وفى المعمار تظهر الدور الصحية المقسمة تقسيما مريحا .. وفن الزخـــرفة يأتى بالالوان البسيطة الهادئة التى تمس الروح المضطربة فتوحى اليها الراحة والسكون .. وحتى فن الطهى تمشيا مع هذا التطور سيكون مبنياً قبل كل شىء على مايفيد الجسم من الغـــذاء من وفرة الفيتامينات ، وتستبعد منه أغلب المركبات العـــالية التى تؤذى الصحة .

سيجد هذا التطور بعد الحرب بمدة بأشكال بدائية وطرق ارتجالية تندمج تدريجيا مع ما هو قائم الآن من نظريات . والعالم اذا سار على ماتقدر يكون للناس عام ٢٠٠٠ نظام اجتماعى واقتصادى من شأنه توافر أسباب العيش بقليل من الجهد ، فيحس المرء حينذاك بقيمته ويشعر انه لايعيش ليكد كما هو الحال الآن ، وانما يعمل بعض الوقت حينذاك ويجد متسعا ليتذوق الراحة ، وتتهيأ له الفرصة للعمل على تهذيب روحه ، فتدق احساساته وتسمو أساليب الحب عنده ، وتزدهر برقى الحب سائر الفنون .. وربما يبلغ التطور بفن الحب أن يتسامى عن الغيرة ، ويكون الحب للحب ذاته .. أى أن المحب يكفيه أن يخضع لهوى الحبيب مستعذبا لذة الهوى دون مطالبته حتى بمبادلته حبا بحب ، فضلا من الترفع عن احساسات الحب السلبية كالغيرة وما اليها ..

وستظهر فوق ما هو معروف الآن من شتى الفنون ، فنون أخرى حديثة ، كفن التعامل ، فينصف الناس بعضهم بعضا اذا لايجدون هناك من فائدة وراء المعاملات الملتوية وفن جديد للسياسة ، ويبدو من الآن أنه سيقوم على الصراحة والاخلاص والرغبة فى اسعاد الجنس البشرى .. كذلك سيخلق حتما فن جديد للتهرب ، يتخلص به مثلى من الاجابة عن سؤال رئيس التحرير فى موضوع متشعب كهذا يتناول كافة الفنون .

نساؤنا

فى آخر القرن العشرين

بقلم : الآنسة ابنة الشاطىء

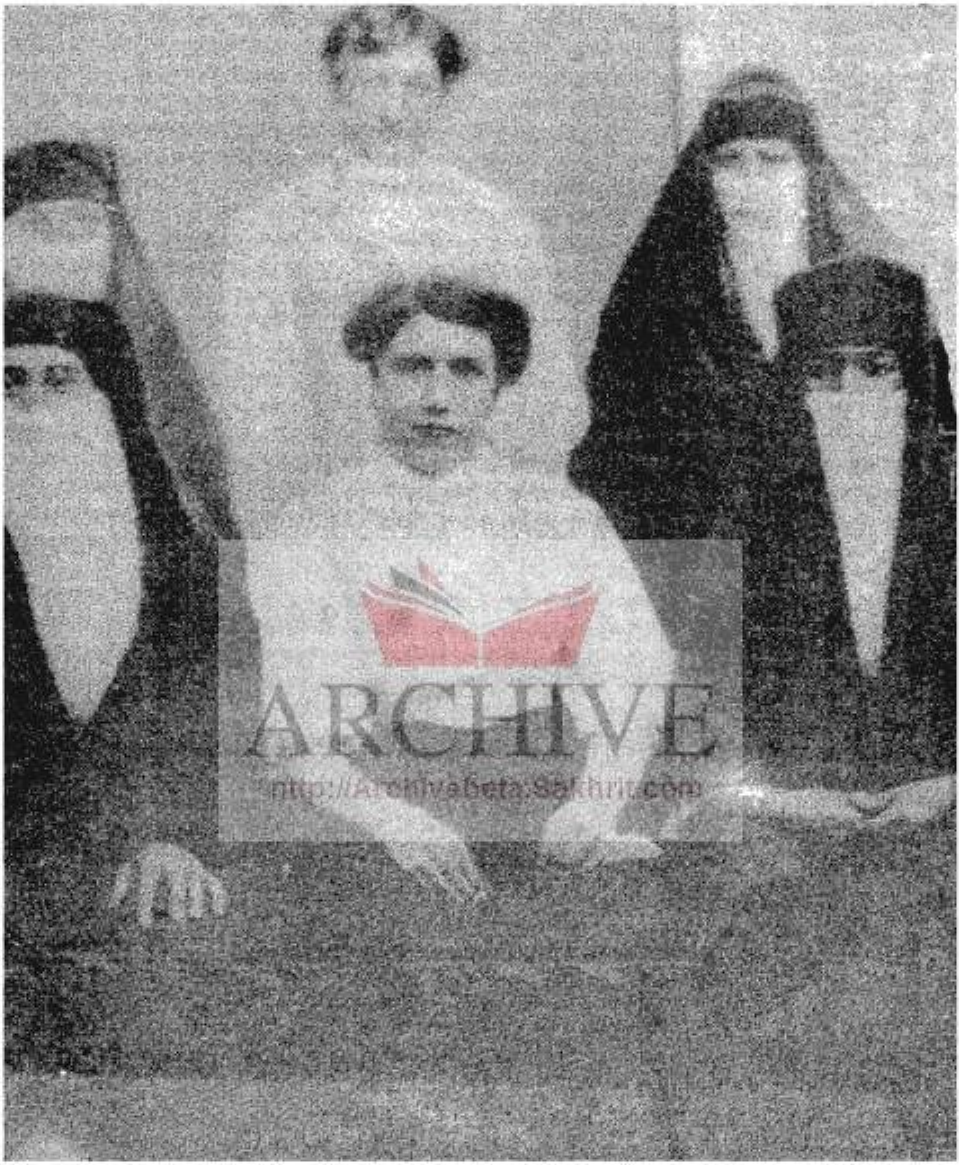
ستتمرد المرأة المصرية على الدنيا التى بناها الرجــــال ، وتصر على أن تشترك فى بناء العالم من جـــديد .. وســـيراها القرن الحادى والعشرون قد فتحت بابين موصدين اليوم أمـامنا : أمـا الأول ، فهو بـاب الأزهـــر ، وأما الثـانى فهو باب البـرلمـــان .

طالبات مدرسة السنية فى أوائل القرن العشرين

لم يخطر هذا الموضوع على بالى قبل أن تقترحه علىَّ مجلة الهلال الغراء : لقد كنت من بين أفراد الطليعة الضارية فى تيه الانتقال ، فشغلتنا أهوال التيه عن التفكير فى الأمس كيف كان ، والغد كيف يكون، حتى اذا أتممنا الرحلة ووصلنا الى آخر الشوط، وقفنا نصغى الى أنين الضحايا ممن تخلفهن عن الركب وسقطن صريعات فوق الصخور والاشواك والرمال ، فأمست أشلاؤهن معالم هادية فى الطريق المظلم الوعر ، وغدا حطامهن جسرا آدميا رهيبا تعبر عليه المـرأة المصرية من الجهالة العمياء الى نور العلم والعرفان .

وعسير على من سمع هـذه الاشلاء النائحة ، ورأى ذلك الحطـام المنهار ، أن تشوقه رؤى الغد ، ويطيب له الحديث فى المستقبل ، اللهم الا أن يعصمه جمود الحس ، وتتهيأ له نعمة النسيان ، وهيهات ! ..

فليكن حديثى اليوم مرثية للشهيدات المجهولات ، وتحية لاشلائهن الممزقة ، وحطامهن المنهار !



تساؤلنا بعد نصف قرن من الزمان
ماذا يكون من أمرهن ، وإلى أين تنتهي بهن هذه السنون الطويلات ؟!

انها رحلة مطوية في ضمير الغيب ، يشق السير فيها بغير دليل ، فليكن لنا دليل من ماضينا القريب ، ولنعد الى الوراء نصف قرن ، لنرى ما فعلت بنا الايام ، في هذه الحقبة من الزمان .

نحن الآن في عام ١٩٠٠ على التحديد ، وقد توقفت عجلة الحياة في مصر برهة ، لان أهلها وقفوا يتفرجون على فتاة مصرية واحدة ، نالت الشهادة الابتدائية في ذلك العام ، لأول مرة في تاريخ البلاد .

ونشر « المؤيد » في تلك المناسبة ، قصيدة للتلميذة النابغة ، تفخر فيها بأنها « ساوت الرجال في التعليم » .

وتمضي سنوات معدودات ، فنسمع « الشيخ عبد الكريم رئيس تفتيش المحاكم الشرعية في ذلك الحين » يسجل ظاهرة أخرى غريبة ، اذ يروي عن شيخ مسن أنه ذهب وهو شاب الى احدى الاسواق، فعجب اذ رأى امرأة في السوق ، « وما عهدها من قبل ذلك النهار الا قعيدة البيت » ولما قص على أبيه القصص ، قال له أبوه : « يا ولدي لا تعجب ، فإننا قربنا من آخر الزمان ! »

★★★

على أعقاب هذا الجيل ، جاء جيلنا الذي أيقظ دعوة « قاسم أمين » النائمة ، وغذى النار الخابية باللحم والدم !

ومن أبناء هؤلاء الرجال والنساء ، تألفت مواكب الفتيات المتعلمات اللائي تضيق بهن المدارس اليوم .

ومن تلك الامية السائدة ، بدأنا رحلتنا الشاقة فاندفعت جموعنا في سرعة هوجاء ، تقتحم المدارس الاولية والابتدائية والثانوية ، حتى أدركت أبواب الجامعة ، فاقتحمتها الوف منا ، وبدأت الطلائع تستبق في ميدان الدراسة الجامعية العليا .

وتجاوزنا - في هذا العمر القصير - حدود الحجاب وجدران الخدور ، وأسوار التقاليد ، الى آفاق الدنيا وميادين العمل ، حتى غدت الواحدة منا يباح لها السفر - وحدها - الى اوربا وأمريكا ، والشام والعراق ، حرة طليقة سافرة ، وقد كانت أمها تشكو الحرمان من زيارة آلها وذويها ومن أداء فريضة الحج .

كل ذلك فعلته المرأة المصرية في النصف الاول من القرن العشرين ، فماذا تراها فاعلة حين يصل بها الزمن الى آخر القرن ، وان العام الواحد من أعوام هذه ليعدل قرنا كاملا من قرون ماضية ؟!

★★★

قافلتنا اليوم متعبة ، قد أثخنتها الجراح ونال منها الاعياء ، لكنها لا تملك - مع هذا - ان تنكص على عقبيها وتعود أدراجها وتستقبل من أمرها ما استدبرت ، لان ما بينها وبين ماضيها قد انقطع ، ولن ترضى أن تعود من حيث جاءت ، الى وادي الظلمات ، عبر التيه المخوف .

بل ليس في طاقتها أن تكف عن السير أو تقف لتستريح ، لانها تنزلق في المنحدر الوعر ، والزمن

يمضى بها غير مكترث بما تعانيه .

ويرى الاكثرون أن ما بقي من هذا القرن ، كفيل بتهدئة سورة الانفعالات الحادة التى كابدتها المرأة الجديدة ، والتيارات العنيفة التى تعرضت لها فى عصر الانقلاب .

لكنى من أقلية محدودة العدد ، تستبعد أن يشهد الجيل المقبل خاتمة الصراع ، وأن تستقبل نساؤنا القرن الحادى والعشرين ، وقد اطمأن بهن المكان فى العالم الجديد ، ونعمن بالراحة والاستقرار .

ويدفعنا الى ذلك الاستبعاد أمران :

أحدهما من طبيعة الانقلاب الحاضر ، والآخر من طبيعة هذا الغد القريب الذى تندفع نحوه جماعة النساء ، اثر حركتها الجامحة فى جيلنا هذا .

لقد كان الانقلاب عنيفا عاتيا طاغيا ، زادته السرعة والاندفاع والطفرة والجموح ، عنفا وعتوا وطغيانا ، فمن البعيد جدا أن تزول آثاره وتهدأ سورته فى قطعة من الزمان ، هى بطبيعتها أبعد الاوقات عن الهدوء المحتمل والاستقرار المظنون ، لانها - فى ذاتها - ستكون عهد ثورة جامحة وانقلاب خطير فى تاريخ البشرية ، حيث تشهد نتائج النضال الهائل الرهيب ، الذى يحتدم اليوم بين أعنف قوى شهدها الانسان فى ماضيه الطويل

أسمع من وراء السحب ، نذر عاصفة هوجاء ..

وألمح على أفقنا البعيد ، ثورة عاتية صماء ..

ولن ندرك نحن هذه الثورة ، لكنى أحس بوادرها تضطرم وتضطرب فى كياننا فمنا من تنكر هذا المنهج الضار الذى ارتجله الرجل لحركة الخروج ، والاسلوب الشاذ الذى اصطنعه فى معاملتنا بعد أن تميزت شخصيتنا ونضج كياننا .

أليس من الغريب انه علمنا كل شيء ، الا ما يمس حياتنا فى الصميم ؟

علمنا الطب والفلسفة والصيدلة ، ولم يعلمنا بناء الأسرة !

وحدثنا عن ألغاز الرياضيات وأسرار الطبيعة والكيمياء ، ولم يحدثنا بكلمة واحدة عن شخصية الانثى كما رسمتها السنن الطبيعية ، والاوضاع الانسانية ، والحدود الشرعية !

وفتح أمامنا أبواب معاهد الطيران والتجارة والتمثيل ، وأغلق دوننا أبواب المعاهد الدينية ، وانه ليعلم أننا فى بلاد شرقية اسلامية ، يستقل الدين فيها ، برسم نظام الأسرة ووضع حدودها ! ويفصل « القاضى الشرعى » بين أفرادها فى أمور الزوجية والبنوة والحضانة والنفقة والميراث .

ثم ، أليس من الغريب أن ينكر الرجل اليوم أمرنا ، بعد أن استجبنا لما أراد ؟ وأن يحاول ردنا الى مكان أمهاتنا وجداتنا ، وقد انقطعت بيننا وبينهن السبل ، وهو الذى دعا ووجه وحرك وأراد !

ألا لا يحسبن الرجال أن المرأة سوف تسكت على هذا ، وتترك مصيرها ، معلقا بكلمة تخرج من أفواههم ، وتدع ابنتها - من بعدها - تتعثر فى ذلك الضلال ، وتواجه تلك الاعاصير والانواء .

★ ★★

بيننا وبين القرن الحادى والعشرين ، حقبة طويلة من الزمان ، تقطعها الحياة فى مرحلتين ويمر بها جيلان متعاقبان .

والمرأة فى الجيل الاول ، هى التى تعانى آثار الاخطاء الكبيرة التى لابست الحركة الحاضرة ، وتتعرض لأزمة نفسية قاسية عصبية .

ثم تأتى ابنتها من بعدها ، فتعلن الثورة وتشعل النار ..

ستثور فى امرأة الجيل المقبل ، فطرتها الموروثة وتحاول أن تنأى بها عن صخب العمل ، وغبار المعترك ، وضجة الميدان ، مدفوعة الى ذلك بقوة قاهرة من ميراثها العصبى والنفسى ، الذى انحدر اليها من أمهاتها ، على مر الحقب والدهور .

لكن هذه الفطرة الثائرة ، سوف تصطدم فى كيان المرأة ، بعقلها الحديث ، وشخصيتها الجديدة التى تنأى بها عن الجمود والتعطل وتهفو إلى الحركة والنضال مدفوعة بقوة غالبة من ثروتها المستحدثة التى كسبتها فى عصر النور والعرفان !

وسيكون كيان المرأة ، ميدان هذا الصراع : بين فطرتها السليمة البارزة ، وعقلها الناضج الممتاز .. بين ميراثها النفسى والعصبى القديم ، وثروتها العقلية الجديدة .

ويطول النضال حتى يستغرق الجيل الآتى كله، ثم تكون الغلبة أخيرا للعقل ، وتلك هى كلمة الزمن وحكم التطور ..

يومئذ تندفع المرأة ، فى أواخر القرن العشرين بقوتها الطارئة ، فى ثورة عاصفة ، تشعل نارها بيدها الناعمة ، وتذكى لهيبها بالاعصاب والدماء !

وسوف تبدأ هذه الثورة ، بالخروج على الدنيا التى استقل الرجال ببنائها يوم كانوا وحدهم فى الميدان ، ثم يريدون اليوم أن يفرضوها على المرأة الجديدة ، التى خرجت وتعلمت وعانت وتميزت وطمحت !

ستتمرد المرأة على الدنيا التى بناها الرجال ، وتصر على أن تشترك فى بناء العالم من جديد

وستنتزع منهم زمام القيادة فى الحركة النسائية ، لانها ستسمع فى مهدها قصة الرحلة العمياء ، والسباق المرتجل ، والانوثة الحائرة المضيعة ، والرجولة التى كشفتها المعركة ! حتى اذا بلغت أشدها ، اندفعت ثائرة متهورة تثأر لامها وتحمى بناتها ، وتنتزع الزمام من أيدى الرجال ، لتجنبهن الاشواك والصخور ، وترسم لهن منهجا واضح الحدود ، بين المعالم متميز الاهداف

وهى لن تتردد - فى سبيل هذا - فى دفع أى ثمن ، وخوض أية معركة ، واقتحام أي ميدان ..

ستمضى فى الطريق الوعر الى النهاية ، وسيراها القرن الحادى والعشرون قد فتحت مغلقين موصدين اليوم أمامنا

أما الاول فهو باب الازهر ، تدخله عنوة وأو كره الرجال ، لتلقه الحدود الشرعية وتنتفع بها ، وتفسرها تفسيرا تراعى فيه مصلحتها كما فعل الرجل من قديم الزمان .

وأما الثانى فهو باب البرلمان ، تدخله اثر معركة رهيبة تستشهد فيها الانثى ، لتشترك فى



الآنسة ابنة الشاطئ

توجيه الحياة الحديثة ، وبناء العالم من جديد .

ويومئذ قد يثور الرجال ويسخطون وينكرون ، ويحاول نفر منهم أن يرد (المرأة الى رشدها) ويوقظ فطرتها النائمة .

ولكن الزمن سوف يمضى بها غير مكترث بصياح الصائحين وسخط الساخطين ، وثورة الثائرين !

ولن تبرأ هذه الحركة العنيفة من الاخطاء ، ولن ينجو أهلها من فداحة التضحية وهول الاستشهاد، فان المرأة سوف تتهور فى اندفاعها ، وتغلو فى مطالبها ، ثم يأخذها غرور الشخصية الجديدة فيفسدها على الرجل ، ويفسد عليها الحياة .

انها ستنكر عليه أنه لم يتفوق على أبيه وجده ، بقدر ما تفوقت هى على أمها وجدتها ، وانه لم يحقق فى نفسه معجزة شبيهة بتلك التى حققتها هى فى نفسها ، فى قرن واحد من الزمان

ولعل خطيئته الكبرى أنه لم يثب الى السماء السابعة ، حين شارفت هى سماءه الاولى وأخيرا تفتقد الرجل فى دنياها ، وتتمثل فطرتها صورة رائعة له ، تبدو لها فى عالم المثل ، وتسعى اليها من أعماق العصور الغابرة ، وتتسلل الى كيانها فى أحلام اليقظة ورؤى المنام

ويا ويلها من هذه المحنة !

ويا ويل الرجل منها ! ..

ذلك هو طابع الثورة ، فى آخر القرن العشرين ..

ضحاياها من الرجال والنساء ، وأخطاؤها يشقى بها الفريقان على السواء ..

ان ثورة الأمس قد أشعلها الرجال ، وصلى بحرها النساء وحدهن ..

وغدا تدور الايام ، فتشعل النساء النار ، ويصلاها الرجال والنساء جميعا ..

وعزاء المرأة الوحيد ، انها تستشهد هذه المرة فى سبيل هدف تعرفه ، وتمضى الى ثورتها بارادتها وقد كانت بالأمس ، تدفع الى النار معصوبة العينين !



قنبلة الغد

بقلم
عباس
محمود
العقاد

تشتهر العصور باختراع شامل أو بحركة إنسانية كبيرة يشترك فيها أكثر من أمة واحدة.

فيقال مثلاً عصر الطبعة وعصر البخار وعصر الكهرباء وعصر الطيران، ويقال أيضاً عصر الإصلاح وعصر النهضة وعصر الثورة الفرنسية وعصر الاستعمار.

وقد تكون هناك علاقة بين المخترعات الصناعية والحركات الإنسانية، فتكون إحداهما نتيجة الأخرى، أو تكون هذه وتلك نتيجة عامل واحد يسيطر على العقول كما يسيطر شعور الجماعات.

ولكننا لا نعنى بالبحث عن هذه العلاقة الآن، وإنما نعنى بالاسم الذى يمكن أن يطلق على العصر الحاضر من جانب المخترعات ومن جانب الحركات الانسانية.

فما اسم هذا العصر إذا أردنا أن نطلق عليه اسماً مشتقاً من أهم مخترعاته وأهم أطواره الإنسانية من قبيل ما أشرنا اليه؟

نعتقد أننا لا نخطىء تسميته إذا سميناه من جهة بعصر الطاقة الذرية وسميناه من الجهة الأخرى بعصر الهيئات العالمية.

والعصر الذى يليه ماذا يصحب أبناؤه على هذا النمط من الأسماء؟

بماذا نتنبأ له نحن؟ وإلى أى حد تصدق النبوءة عنه قبل مقدمه بخمسين سنة فى زمن تكفى فيه السنة الواحدة للتغيير والتبديل فى الوقائع، فضلا عن النبوءات؟

نعتقد أننا فى أمان هنا من خطأ النبوءة، وأن الأمر لا يحتاج منا إلى علم بالغيب ونظر إلى ما وراء حجاب الأطوار والأحقاب.

فاستخدام الطاقة الذرية لا يزال فى باب المقدمات، وتنظيم الهيئات العالمية لا يزال فى باب التجارب.

فمن التقدير المأمون أن بقية القرن العشرين وأوائل القرن الحادى والعشرين ستنقضى فى إتمام تلك المقدمات واستيفاء تلك التجارب. لأن الطاقة الذرية والهيئات العالمية كلتيهما أخطر وأعظم من أن تستنفدهما الجهود البشرية فى جيل واحد، وليس بالكثير عليهما جهود جيلين متعاقبين.

●●●

لا تزال الطاقة الذرية فى انتظار التعميم والترويض، إذ كل ما ظهر منها حتى الساعة أن دولة واحدة قد استخدمتها فى معركة حربية، فهل هذا كل ما ينتظر من غرائب الطاقة الذرية؟ وهل ينتهى عصر التجديد فى استخدام هذه الطاقة بانتهاء العصر الحاضر؟

إننا بغير حاجة إلى النبوءة أو إلى التعب فى التقدير والتخمين – نستطيع أن نجيب بالنفى القاطع ونحن على أتم اليقين من صدق ما نقول.

لا يزال هناك مجال للتعميم.

ولا يزال هناك مجال للترويض.

فأما التعميم فمنه شيوع العلم بأسرار الطاقة الذرية بين أمم الحضارة فى المغرب والمشرق، فلا يبتدىء القرن الحادى والعشرون حتى تصبح القذيفة الذرية سراً مذاعاً بين الأمم التى اشتغلت بالعلوم الحديثة وعرفت تسخير الآلات والمخترعات.

ولا نحسب أن التعميم فى شئون الطاقة الذرية سينحصر فى شيوع العلم بأسرار قذائفها بين أمم كثيرة.

ففى الوسع أن يعم فلق الذرة حتى يشمل ذرات العناصر جميعاً ولا ينحصر فى العنصر الواحد

الذى يفرج الطاقة الذرية اليوم ، وهو عنصر الاورانيوم .

أو فى الوسع على الاقل أن تنشق الذرة وأن تستخدم طاقتها فى عشرين أو ثلاثين عنصرا من العناصر الشائعة على الكرة الأرضية ، فلا ينفرد بجميع مزاياها من ينفردون بهذا المعدن أو ذاك من أشباه الاورانيوم فى تركيب نواته وكهاربه ، بل تنشق كل ذرة متماسكة فى العناصر المختارة ، لأنها لا تتماسك إلا بقوة يستفاد منها فى حالة الانشقاق .

أما الترويض - ترويض هذه الطاقة المخربة - فله طريقتان لا تزالان مجهولتين ، وليس بالكثير أن تنقضى فى علاجهما بقية القرن العشرين وأوائل القرن الحادى والعشرين .

من ترويض الطاقة المخربة أن تستخدم فى التعمير والإصلاح ولا تظل مقصورة على تخريب الحصون وإبادة الأعداء .

وهى إذا استخدمت فى التعمير والإصلاح أمكن أن توفر الجهود الكثيرة التى تضيع فى استخراج الوقود والتنازع على الزيوت المعدنية وتمهيد الطرق بين الجبال أو تمهيد الأرض الصالحة للزرع والسكن بين الثلوج .

وإذا تم هذا فهو قنبلة الغد وبعد الغد إلى زمن بعيد ، ولكنها قنبلة ترد الطمأنينة إلى النفوس ، ولا تخيف .

ومن ترويض الطاقة المخربة أن نقاوم تخريبها بقوة من نوعها ومن مادتها .

والمسألة كما نعلم الآن مسألة انطلاق الأشعة وانبعاث القوة المدمرة من هذا الانطلاق .

فهل يستحيل على العقل البشرى أن يسيطر على حركة الإشعاع كما يسيطر الآن على حركة الكهرباء ؟

هل يستحيل توجيه الشعاع أو تفريغ حيز من الجو يلغى الفعل الاشعاعى بفعل معاكس أو مقاوم ؟

إن الفطنة إلى نظريات الانطلاق أو التموج اللذين يحدثان فى حركة الإشعاع قد تفتح الباب لتحويل الأمواج عن مجراها أو اجتذابها إلى باطن الأرض وأجواز الفضاء .

وهنا نحن نظن ونخمن ، ولكننا نضرب فى مجاهل المعقولات ولا نخبط فى تيه الأوهام والمستحيلات .

●●●

إن القرن الحادى والعشرين سيأتى إذن ولما يفرغ العالم من محاولاته فى الطاقة الذرية .

وستمضى بقية القرن العشرين وتهل على العالم مطالع القرن الذى يليه والطاقة الذرية هى مارد الزمن الذى يعالج البشر ترويضه ويحسبون أنهم قد ملكوا وقتهم عملا وابتكارا إذا استطاعوا بعد ذلك أن يروضوه .

ويستوى فى ذلك ترويضه باستخدامه فى أعمال التعمير أو ترويضه بترياق من نوعه يقاوم الإشعاع بالإشعاع .

●●●

ويحسب البشر أيضا أنهم ملأوا وقتهم عملا وابتكارا إذا ابتدأ القرن العشرون وهم ناجحون فى تجارب الهيئات العالمية .

فإن الهيئات العالمية اليوم توجد لأنها ضرورية ولا توجد لأنها مفلحة فى أغراضها وغاياتها .

وستظل ضرورية بعد اليوم ، وستزداد الضرورة التى تدعو اليها سنة بعد سنة وحقبة بعد حقبة .

وهذه الضرورة التى توجبها هى باب الرجاء فى نواتها وفى اصلاح أخطائها .

وقنبلة الغد فى هذه الحركة الإنسانية هى تكوين



« القوة العالمية » التي تتغلب على كل قوة منفردة .

فإذا وجدت « قوة العالم » فكل قوة مغلوبة أسلمها ، وكل دولة تحاول الطغيان بأسلحتها أو بأموالها تنعزل وتنهزم .

واليوم تتألف الهيئات العالمية من دول كبيرة ودول صغيرة ، يدعوها إلى التعاون أنها لا تستطيع أن تنفرد .

ولكن هذا لا يكفي لتحقيق الغرض من الهيئة العالمية لهيئة الأمم المتحدة وما إليها .

بل ينبغي أن يكون في الأرض « عالم » تجمعه بنية واحدة ، وتدخل فيه الدول الكبيرة والصغيرة كما تدخل الأعضاء في الجسد الواحد .

ينبغي أن تكون في الأرض وحدة عالمية يشد بعضها بعضا ويتألم بعضها لألم بعض .

أما اليوم فالهيئة العالمية مجموعة من أجزاء متفرقات ، لم يبلغ بها تمام التكوين أن ترتبط فيما بينها ارتباط البنية الحية ، فيؤذيها ألم الإصبع أنية يخالفها الرأس والقلب والذراع ، ويخشى العضو الكبير على العضو الصغير ، ولا يحسب أنه يسخره ويؤلمه ويؤذيه وهو في أمان من عاقبة أذاه .

●●●

خمسون سنة ليست بالكثير على هذه الوثبة في أطوار الجماعة الإنسانية ، ولا على تلك الوثبة في علاج الطاقة الذرية .

ولعل الدهر يجود علينا بقنبلة تفوق هذه القنبلة المدخرة في عالم الغيب . فإنها القنبلة التي تراخى بها ذرة المادة وقوة الروح .

يناير ١٩٥٠

ثقافتنا سنة ٢٠٠٠

بقلم : معالى محمد العشماوى باشا

لمجلة الهلال فضل كبير فى نشر الثقافة العامة على مستوى رفيع ، سواء فى عهدها الأول أم فى عهدها الجديد ، فقدمت للمثقفين على اختلافهم ألوانا شتى من ثمرات العلوم والآداب .

وقد طلبت الى أن أتحدث عن ثقافتنا سنة ٢٠٠٠ من الميلاد ، فانتقل بى السؤال الى أفق بعيد أول وهلة ، اذ ظننت أن سنة ٢٠٠٠ بعيدة عنا ستقع فيها شتى الأحداث وتتطور الثقافة تطورا فسيح المدى .

ولكنى ما لبثت أن أدركت أن تلك السنة ستكون ختام خمسين عاما . وهى فترة قصيرة فى حياة الأمم التى لم تفرغ بعد من اعداد العدة لتوفير مقدمات نهضة جديرة بمصر فى ماضيها العريق وفى حاضرها وفى مستقبلها المرموق . وفكرت فيما قد تصل اليه مصر فى ثقافتها بعد خمسين عاما ، فقلت فى نفسى : ان سير قافلة الثقافة بهذه الخطى الوئيدة من شأنه ألا يحدث بعد خمسين عاما أثره البعيد الذى يطمع فيه الطامعون ، فنحن منذ أكثر من مائة عام نعالج مكافحة الأمية ، ومع ذلك لا يزال المدى واسعا بيننا وبين القضاء عليها ، فما بالك اذا أردنا أن نتخلص من الأمية بكافة ألوانها : الأمية الثقافية ، والأمية الاجتماعية ، والأمية الاقتصادية ، والأمية الصحية ، والأمية القومية ، والأمية الدولية - فكم نحتاج من الزمن اذا أردنا أن نحقق هذا الهدف الذى يجب أن يكون هدف وزارة المعارف والقائمين بشؤون الثقافة والاجتماع .

ان الطريق وعرة والمهمة ثقيلة ، وخطانا لا تتفق وعظمة الرسالة ونبل الهدف . ولابد من عمل كبير يحدث انقلابا ثقافيا كاملا ، ترصد له الأموال ، وتفرض له الضرائب وتقترض له القروض ، ويجند له المثقفين كافة فنعلنها حربا نظامية ونثير لنظامية على الجهل ، لا تقف عند مكافحة الأمية بل ترتفع بالثقافة الشعبية الى مستوى لائق ، يخلق شعبا مستنيرا يعرف ما له وما عليه ، وينهض بأعباء النهضة على خير الوجوه ، وأن تضع سياسة للثقافة مستقرة ثابتة سريعة الخطى وتؤازرها الصحافة والاذاعة وجميع وسائل النشر والدعاية ، ويجند لها كما قلت طوائف المثقفين تجنيدا كما يجند أفراد الشعب للدفاع عن البلاد ورد عدوان المغير

فاذا تحققت هذه الأمنية ، وسرنا قدما في طريقنا لا يهدم الخلف ما بناه السلف ، ولا تعوق الخلافات سير القافلة ، ولا تنحرف بها النزوات عن الطريق المستقيم ، أمكننا – وأنا رجل عرف عنه التشاؤم – أن نحقق آخر أمنية سنة ٢٠٠٠ ، وأن يكون لنا في كل قرية في مصر مدرسة ريفية تخرج المواطن الصالح وتعده اعدادا ثقافيا ملائما مكملا باعداد زراعي أو صناعي على أساس علمي سليم ، وأن تعنى هذه المدارس بالتربية الروحية والخلقية والعلمية ، وأن تشع النور في القرية وتتغلغل في ظلامها الدامس فتحيله نورا وضاءً ، وتعم فيه الوسائل الصحية والدينية القومية ، وتقوم بهذه المدرسة دراسات ثقافية مسائية لأهل القرية من رجال ونساء ممزوجة بتعليم فني ملائم ، يؤهل الجميع الحياة الشريفة المثمرة ، وأن يكون بعاصمة كل مركز مدرسة ثانوية للبنين وأخرى للبنات وثالثة للثقافة ورابعة للصناعات المتقدمة وخامسة لتعليم الزراعة على أسس علمية فنية ، تتعاون كلها على الارتفاع بمستوى المدنية الثقافي ، فلا يرد طالب علم عن معهد ، ولا تتعلل بالاعذار لصد الناس عن العلم ، وأن يكون لنا في عاصمة كل مديرية ومحافظة جامعة تنهض بالتعليم العالي والجامعي .

وإني لأطمع أن يكون هناك جامعتان لا جامعة واحدة ، احداهما للبنين والأخرى للبنات حتى يتحقق التخصص في التوجيه العالي للجنسين ، ويأخذ كل منهما زاده بما يتفق ورسالته ويهيء مواهبه للبروز . واني اذ أطالب بتخصيص جامعة للبنات أصدر عن الرغبة في تهيئة جو ملائم لاستغلال مواهبها وتهيئة البيئة الصالحة لتخصصها ولا أصدر عن فكرة منع اجتماع الجنسين في التعليم الجامعي ، فهذا لا غبار عليه بل لعله من خير الوسائل لتعاون الجنسين وتقارب المستوى ، غير أن في التخصص وسيلة لاستغلال مواهب المرأة الى أقصى مداها . وفي حياتنا الجامعية الحالية ما يصرف كثيرا من البنات عن ارتيادها أو عن الانتفاع بحياة جامعية صحيحة ، كما أني أطمع أن يكون في القاهرة جامعة كبرى للدراسات التي تأتي بعد مرحلة التعليم الجامعي الحالي فتوجد بيئة البحث العلمي الذي ينبت المفكرين والعلماء والمخترعين وقادة الرأي في العالم ، وأن تكون هذه الجامعة الكبرى محط أبناء الشرق العربي والأمم جميعها لتأخذ من الثقافة العالية زادها فتكون جامعة عالمية تعيد الى المصريين ذكرى عظمتهم الأولى عندما كانت جامعتا هليوبوليس والاسكندرية منتجع كل راغب في المعرفة العليا .

هذه فكرة متواضعة عما أطمع أن تكون عليه الثقافة في مصر سنة ٢٠٠٠ من الميلاد . لا أبالغ في تصويرها ولا أحتاج الذرة في تحقيقها ، وانما كل ما أطالب به أن تسير سيرا حثيثا لسياسة شاملة تتعاون عليها كل قوى البلاد ، بعيدة عن خضم السياسة الحزبية وشرورها ، لا يؤثر فيها تغير الوزارات ، وأن تجند لها الكفايات دون نظر لأي اعتبار غير المصلحة العليا للوطن .

ذلك أمل المتشائم ، فما بالك اذا استقام الأمر فمسني شيء من التفاؤل ؟



« الحضارة مقبلة الينا .. وهى حضارة مطبوعة بطابع الشرق ..
فيها حياة وفيها روح ، وفيها خير للشرق والغرب جميعا »

المستقبل لنا ... !

بقلم : فضيلة الأستاذ أحمد حسن الباقورى

العالم الانسانى كله عالم واحد ، تنتظمه خصائص وصفات تؤلف من أفراده وجماعاته جنسا خاصا ، له مميزاته بين سائر المخلوقات .. وحيث كان الانسان فهو فرد فى هذه الاسرة الانسانية الكبيرة مهما اختلفت الالسن والالوان ، ومهما تباعدت الازمان والاوطان .

وما الشرق والغرب الا اسمان متقابلان كما يتقابل الشمال والجنوب ، والخط الذى يفصل بين الشرق والغرب خط وهمى - على حد تعبير الجغرافيين - ومع هذا فقد تعارف الناس وجرى التاريخ على أن العالم عالمان : شرقى ، وغربى ، وأن لكل عالم حسابه وتقديره الخاص فى موازين الحياة

هناك اذن عالم شرقى وعالم غربى ، وفى كل عالم من هذين العالمين مجموعة من الامم والشعوب تعيش فيه وتدور فى فلكه ، وتخضع لظروف البيئة السائدة فى محيطه

والفروق التى يذكرها علماء الاجتماع بين الشرق والغرب كثيرة متعددة ، ترجع إلى اختلاف فى المزاج والتفكير ، وإلى تباين فى الصفات النفسية والخلقية التى يعود الكثير منها الى الوراثات ، والى ظروف الحياة واحوال البيئة ، وذلك مما جعل الاختلاف واضحا بين الشرق والغرب ، وجعل لكل تفكيره ومذهبه واسلوبه فى الحياة

ولعل اهم مايذكر من فروق بين الشرق والغرب أن أمم الشرق تعتمد على الخيال وتلون حياتها به ، وتبنى حاضرها ومستقبلها عليه . وأن أمم الغرب تؤمن بالواقع وتعمل له وتعيش فيه ، وتقدر حاضرها ومستقبلها على قدره . ولايعجز الباحثون عن أن يجدوا الدليل على هذا الرأى . فقد استقل الشرق وحده بالنبوات جميعها ، والنبوات - كما تعلم - تعتمد أكثر ما تعتمد على ايقاظ الروح وتوجيهها الى السماء ، ووصلها بالملأ الاعلى ، ولفتها الى الحياة الآخرة وما يتصل بها من بعث وحساب ، وجنة ونار . وكلها أمور تثير الفكر ، وتغريه بالانطلاق الى تلك الاجواء الروحانية الشفيفة التى لايستطيع العقل أن يرتفع اليها الا على أجنحة الخيال ، هذا الخيال الذى جعل العقلية الشرقية تتقبل كثيرا مما وراء المادة ، وتؤمن بالصالح منها وبغير الصالح . فكما امتلأت دنيا

الشرق – من فيض هذه الروحانية وبفضل هذا الخيال – بالخفقات المتجهة الى السماء النابضة بالايمان ، أمتلأت كذلك أجوائه بألوان السحر والشعوذة ، وبأشباح الخرافات والاباطيل

أما الغرب الذى آمن بالواقع ووثق بالمادة فلم يكن له من هذه الروحانيات ولا من هذا الخيال نصيب مذكور ، ولهذا انصرف الى الحياة يعالجها بكل قواه ، ويلقاها بكل ما عنده من حول وحيلة ، ويشتبك مع واقعها فى صراع عنيف طويل

هذا الخلاف الذى يذكره علماء الاجتماع فى مظاهر التفكير بين الشرق والغرب هو الذى جعل الشرق شرقا والغرب غربا ، وجعل لكل منهما دوره فى الحياة ، وفلسفته التى يعالج بها شئونها ، ويواجه مشكلاتها

ونحن لانستطيع أن ننكر هذه الظاهرة .. فان أمم الشرق يغلب عليها حقا عنصر الروح الذى ينزع بها إلى الخيال ، والذى يجعل لها نظرات خاصة تمتد الى ماوراء المادة ، وتنفذ الى عالم المجهول ، وتصل بها الى نتائج تدور فى كيانها ، وتؤثر فى تفكيرها وتسيطر على سلوكها . فهذا العنصر الروحى قد كان له – ولاشك – دور هام فى الامم الشرقية .. وكان له حسنات ، كما كان له أيضا سيئات .. ونستطيع أن نذكر من حسناته انه قد أتاح للشــرق أن يسبق فى ميدان التقدم والعمران ، وأن يفتح له الخيال مغالق العلوم والفنون ، ويفسح له الطريق الى مجالات الابتكار والاختراع .. فان عين الخيال أحد بصرا وأوسع افقا من عين الحقيقة والواقع .. ومن حسناته أيضا أنه قد وصل أمم الشرق بأسباب السماء فملأ القلوب ايمانا وسكينة ، وأشاع فى النفوس الثقة والطمأنينة بالاستناد الى أقوى الاقوياء .. كما أشاع فيها الامل والرجاء فى الجزاء الطيب للعمل الطيب ، وكل هذه ولا شك دعائم قوية فى بناء الجماعات والامم ، وإشاعة المثل الفاضلة والاخلاق الكريمة فيها .

ونستطيع أن نذكر فى سيئات هذا العنصر الروحى أنه قد غلب عليه الخيال المريض فى كثير من الاحيان ، وبين كثير من الامم ، فأصبح معول هدم مدمر ، وجعل الحياة أوهاما وضلالات ، فأقام الناس على محيط لا ساحل له من السراب الخادع والامــانى الكواذب ، حتى فرغت دنياهم من كل خير ، وانتهى بهم الحال إلى أسوأ حال من البؤس والشقاء

هذا رأى .. وأيا كان الامر فإن هناك شرقا ، وهناك غربا ، وأن بين الشرق والغرب ما بين كفتى الميزان من تعادل حينا ، وتراجح أحيانا والتاريخ يشهد أن كفة الشرق كانت هى الراجحة وأن الحياة كلها كانت بيد الشرق من يوم أن استقبل العالم الحياة .. فما أن طلعت شمس الوجود على الانسانية حتى كان الشرق هو الذى استقبلها ، فملأت دنياه دفئا وحرارة ، وفتحت خياله على أسرار هذا العالم فصاغ منها أعظم حضارة عرفها التاريخ : فما عرف العالم إلى اليوم حضارة تقف الى جانب الحضارة المصرية القديمة، ولاتبلغ من القوة والعمق ما بلغته هذه الحضارة فى مختلف العلوم والفنون . وشواهدها الباقية تشهد لهذا وتقف الى الآن متحدية علوم العصر أن تفك ألغازها، وتكشف أسرارها ، وتصل الى صميم الحقيقة منها

وكذلك كان الشأن فى حضارة الهند والصين ، وبابل وآشور ، وفارس . وكلها حضارات قامت على

عمد ثابتة من العلم الصحيح وعلى أصول مقررة من الفن الرفيع . وبهذه الحضارة التى انفرد بها الشرق رجحت كفته ، وخلا له وجه الحياة زمنا طويلا ، على حين كان الغرب لايزال يعيش عيش البداوة ، ويأخذ من الحياة ما تسمح به دون أن يقدر على شيء مما تزويه عنه ، وتحجبه دونه

وقد يذكر بعض الناس أن حضارة اليونان والرومان كانت تعاصر حضارة مصر ، وفارس وبابل وأشور . وأنها كانت من القوة والعمق بحيث لاتقل عن أية واحدة من هذه الحضارات .. ونقول إن هذا حق ، وأن حضارة اليونان كانت على هذا النحو ، ولكننا مع هذا نستطيع أن نقرر أن هذه الحضارة قد اعتمدت فى كثير من اصولها على الحضارة المصرية والفينيقية .. اذ كان اليونان أصحاب تجارة مع مصر والشام وغيرها من البلاد الواقعة على ساحل البحر الابيض ، وقد نقل اليونان ما استطاعوا نقله من هذه الحضارات .. وكشف البحث أخيرا فى اليونان عن تماثيل لفراعنة مصر . كما يذكر التاريخ أن «هيرودوت» المؤرخ اليونانى قد عاش فى مصر زمنا وكتب كثيرا من أخبارها . وكل هذا يدل على أن حضارة اليونان قامت فى ظل الحضارات الشرقية وأهمها حضارة مصر .. فحضارة اليونان إن لم تكن شرقية فهى ربيبتها . قد غذيت منها واعتمدت عليها فى الغالب الكثير من صورها

لقد ظل الشرق عهدا طويلا قائما على الحضارة منفردا بها .. والغرب يستقبل من هذه الحضارة شعاعات بين الحين والحين فى هذه الحروب التى كانت متصلة بين فارس واليونان وفى فتوحات الاسكندر .. ولكن الغرب مع هذا لم يستطع أن يقف على قدميه وأن يقيم حضارة تناظر حضارة الشرق أو تقاربها .. حتى كان الفتح الاسلامى واتصال العرب بالغرب عن طريق الاندلس وصقلية .. هنالك استطاع العرب أن يخلطوا أمم الغرب بهم ، وأن يوثقوا بينهم أواصر الثقة والمودة مما جعل كثيرا من أبناء أوربا يقبلون على تعلم العلوم العربية فى جامعات اشبيلية وطليطلة وغرناطة وغيرها من جامعات الاندلس وذلك لما عرف عن العرب من سماحة جعلت الاوربيين يأنسون إليهم ويؤملون خيرا عندهم . استطاع الغرب بهذه الثقافة العربية الخالصة أن يرى الحياة وأن يبعث التراث اليونانى - وهو كما قلنا تراث عظيم فى العلوم والفنون ، تأثر كثيرا بالحضارة الشرقية وخاصة مصر - وبهذا استطاع الغرب أيضا أن يتهيأ لاقامة حضارة وأن يكون لهذه الحضارة حسابها فى ميزان الحياة وأن تزداد هذه الحضارة مع الايام نموا وازدهارا بينما تأخذ الحضارة الشرقية فى الذبول والجفاف ، حتى لكأن العالم لايحتمل حضارتين ، وأنه اذا كانت هناك حضارة لابد أن يقابلها من الجانب الآخر تأخر وانحطاط . ولعل هذا التضاد فى الحياة هو من سنة الحياة ، وأصل أصيل فى بقائها وعمرانها .. فهى ليل ونهار ، ونور وظلام ، وخير وشر ، وسلام وحرب ، وصحة ومرض ، وغنى وفقر .. وهكذا .. إنها مسرح تتقابل فيه الاضداد وتلتقى عليه المتناقضات

ما كادت أضواء المعارف والفنون ترسل أول خيوطها على الافق الغربى حتى بدأت شمس المدنية الشرقية تنحدر نحو الغرب ، وتخلف وراءها ظلاما لم يلبث أن تكاثف وتحول إلى ليل دامس يغمر الآفاق ، بينما أخذ الغرب شيئا فشيئا يستوفى حظه كاملا من مظاهر المدنية والعمران

ولو ذهبنا نعلل لهذا التحول فى أحوال الشرق والغرب ، وغروب شمس الحضارة هنا وشروقها هناك ، لوجدنا لذلك كثيرا من العلل والاسباب فهذا التحول الذى أتى على حضارة الشرق – مع أنه سنة من سنن الحياة وأن لكل حضارة أجلا ، وأن الحضارة الشرقية قد استوفت عمرها وبلغت أجلها – هذا التحول له أسباب مباشرة لا يمكن اغفالها

منها أن هذه الروحانية التى قلنا إنها طبيعة غالبة فى أمم الشرق قد بعد بها العهد بينابيعها الاولى فأصابها الجفاف ولحقها العطن ، وبدأ الجهل يزحف عليها فى صور كثيرة من الخرافات والاباطيل التى تتحكم فى حياة الناس ، فتعزلهم عن الحياة وتلهيهم عنها بهذا السراب الذى يعيش عليه خيالهم المريض

ومنها أن الغرب حين اشتد ساعده وحين واتته القوة ارسل على الشرق جيوشا زاحفة احتلت أرضه واستعبدت أممه ، وأرهقتها بألوان العسف والاستبداد فزاد ذلك من بلاء الشرق وضاعف من محنته ، وأسرع بالقضاء على معالم علومه وفنونه

كذلك كان الشأن فى تحول أحوال الغرب ، وانتقاله من البداوة الى الحضارة ومن الهمجية الى المدنية فهذا التحول مع أنه أمر طبيعى يجرى فى دورة الفلك بغروب الشمس عن أفق وطلوعها على أفق – الا أن له أسبابا مباشرة لا يمكن اغفالها أيضا

منها أن الشرق قد أمد الغرب بكثير من المعارف ، واطلعه على الكثير من معالم المدنية ، ووضع بين يديه منها مثلا معنوية ومادية .. فكان لذلك أثره فى إثارة غريزة التقليد والمحاكاة فيه ، وفى تقوية الرغبة عنده الى التفوق والتقدم

ومنها أن العقلية المادية التى غلبت على التفكير الغربى .. أن تكن قد أبطأت بالغرب عن مجال الحضارة زمنا طويلا .. الا أنها وثقت الصلة بينه وبين الطبيعة وجعلته فى مواجهتها دائما .. وذلك قد أتاح له فرصا كثيرة شاهد فيها – عن كثب وبعين الواقع – كثيرا من أسرارها وخفاياها وبهذا استطاع أن يقيم حياته على أسس سليمة راسخة خالية من طلاء الخيال ، وزخارف الاوهام

وهكذا جرى القدر ، وتمت دورة الفلك بأن تذهب حضارة وتقوم حضارة ، ويهوى الشرق ويرتفع الغرب ، وصدق الله العظيم حيث يقول جل شأنه : «وتلك الايام نداولها بين الناس »

واليوم .. قد بدأ الشرق يصحو وبدأت الدماء الحارة تجرى فى عروقه وتنساب فى كيانه ، وكان أول تباشير هذه الصحوة انقشاع سحب الاستعمار من آفاقه .. ثم ما تبع ذلك من الالتفات الى تراث الماضى والاتجاه الى العناية بالعلوم والفنون ومزاحمة الغرب فيها ..

هذه ظاهرة واقعة لابست حياة الشرق ، فأصبحت متجه آماله ومرمى أهدافه .. فما هى النتائج التى نعلقها عليها وننتظرها من ورائها ؟

نستطيع أن نقول فى ظل هذه الظاهرة الواقعة :

أولا – أن الشرق فى طريقه الى حضارة جديدة تقوم على ما قامت عليه حضارته الاولى من علم وفن وأن الشرق ليتهدى الى هذه الحضارة ويستلهمها بما استقر فى نفسه من أحاسيس بموروثاته من حضارته الماضية التى لاتزال تدور فى آفاق نفسه ، ولاتزال تحلق فى سماء خياله .. وأنه بهذه الانبعاثات الداخلية – الى جانب الانبعاثات الخارجية ، من مظاهر العلوم والفنون –

سيبلغ غايته من الحضارة والمدنية في وقت قريب .. فان معالم الطريق له واضحة ، وادلته عليها كثيرة وبينه وبينها الف .. وكل هذا مما يعينه على قطع الطريق الى الغاية ، وتوفير الكثير من الجهد والوقت

ثانيا – أن الشرق سينتقل اليه ثقل ميزان الحياة ، وستكون له الكفة الراجحة .. وانه سيسلم اليه زمام هذا العالم وقيادته . وذلك لما قررنا من قبل من أن العالم لايحتمل حضارتين .. وأنه لاتظهر فيه في وقت واحد أو في الغرب

واذا كانت الحضارة قد أخذت طريقها الى الشرق – كما قلنا – فانها ستخلى مكانها حتما من الغرب ولايبقى منها الا ظلال !

واذا أردنا أن نجد الدليل على تحول الحضارة عن الغرب فانا نستطيع أن نقول إن الحضارة الغربية قد اعتمدت على المادة واستندت اليها وجعلت علومها وفنونها مسخرة لها ، ثم مازال هذا الشعور المادى ينمو ويقوى حتى تحولت هذه الحضارة الى حجارة صماء ، وارقام متحركة ، لا تلمع فيها ومضة روح .. وهذا ايذان باختناقها وموتها

نقول هذا لاشماتة في الغرب ، ولاحقدا عليه ، ولكن لان هذه سنة الحياة : لاتطلع فيها شمسان ولايجتمع فيها نهاران .. وحضارة الشرق اتية لاريب فيها . فهل يمكن أن تبقى مع ذلك حضارة الغرب ؟ لاندرى ، ولكن الذى ندريه وفي يدنا الدليل عليه هو أن الحضارة مقبلة الينا ، وأنها حضارة مطبوعة بطابع الشرق .. فيها حياة ، وفيها روح ، وفيها خير للشرق والغرب جميعا

لقد كانت حضارة الغرب نقمة وبلاء على العالم كله .. فانه على الرغم مما بلغته هذه الحضارة في



في العرض العسكري ١٩٥٣

ميادين العلم والفن ، وعلى كثرة ، ما انتجت من صور الحياة المادية ، وعلى قدر ما ملأت الدنيا من وسائل المتعة والرفه .. قد ركبها الغرور ، واستبد بها جهل القوة فاستخفت بحقوق الضعفاء ، واستهانت بمعايير الاخلاق ، وتنكرت للاديان ، وحقرت من شأن المثل الفاضلة .. وكان من هذا كله أن امتلأت دنياها بالاباحية والالحاد وجعلت الناس في هم دائم وفزع مقيم من نذر الحروب وويلاتها

أما مدنية الشرق المرتقبة فانا نرجو أن تقوم على المبادىء التى قامت عليها من قبل .. وأن تتصل بأصولها الروحية الصافية ، فتحمل الى الناس الخير الخالص من شوائب الاذى وتقيم الامم جميعا على نهج الحب والمودة والاخاء

يناير ١٩٥٦

مـاذا أكـتـب

ومـاهى وصـيـتـى

لشـبـاب الجـيـل

شـبـاب ٢٠٠٠

رأت مجلة الهلال ، بمناسبة إصدار العدد الخاص عن العالم العربى الصادر فى يناير ١٩٥٩ اى فى اواخر النصف الأول من القرن العشرين ، أن تستفتى طائفة من كبار الكتاب وهم : الاساتذة عباس محمود العقاد ، توفيق الحكيم ، وفكرى أباظة ، وأمينة السعيد ، فى موضوع طريف ، فوجهت الى كل منهم هذه الاسئلة : لوعشت الى سنة ٢٠٠٠ :

- فما هو الانتاج الأدبى الذى تقوم بانتــــاجه ؟
- ما هى الاختراعات التى تود أن تراهــــا ؟
- ما هى المنــــاظر التى ترجـو زوالهـا ؟
- ماهى الوصية التى تقدمها لشباب سنة ٢٠٠٠ ؟



عباس العقاد

شباب ٢٠٠٠

للاستاذ عباس محمود العقاد

لو عشت الى تلك السنة لكتبت محصول تفكيرى ونظراتى الى الحياة فى كتاب مجمل

أود أن أرى اختراعا واحد ، هو نتائج التجربة الجديدة فى العلم الجديد : باراسيكولوجى « Parpsychology » ، وانتظر أن أرى الدلائل العلمية التى تثبت امكان انتقال الحس والشعور بغير وسائل محسوسة .

والمناظر التى أرجو زوالها فى تلك السنة هى مناظر الفقر والجهل .

أما نصائحى إلى شباب ٢٠٠٠ فأرجو بعد أربعين سنة من التقدم العلمى والادبى ، أن يكون شباب سنة ٢٠٠٠ فى غنى عن نصائح الشيوخ !



توفيق الحكيم

قصة من صميم التقدم للاستاذ توفيق الحكيم

قصة سنة ٢٠٠٠ اذا كتبتها فى تلك السنة ستستمد حوادثها من صميم التقدم الذى تصل اليه البشرية فى تلك السنة . فاذا لم تقع حرب فى خلال الاربعين سنة القادمة ، وأمكن للقوى المتصارعة فى العالم أن تسخر العلم فى خدمة البشرية بدلا من دمارها ، فإن البشرية ستسعد كثيرا .

فى ذلك العالم السعيد سيظهر الكثير من الاختراعات التى تهدف الى رفاهية بنى البشر ، وربما قامت الدولة بتوزيع الغذاء المادى والعقلى على الناس فى صنابير ، كما صورت فى مسرحيتى «رحلة الى الغد» ، وسوف يكون كل شىء فى متناول اليد ، وتسخر الآلة فى خدمة الانسان ، ويتيسر السفر بين الارض والكواكب .

وفى ذلك العالم السعيد ستختفى مناظر الفقر والجهل والمرض ، وستزول محاولات السيطرة على بنى البشر واستغلالهم .

أما اذا وقعت الحرب ، فقد يرجع العالم عدة قرون الى الوراء ، وربما وصلنا الى الاحوال التى كانت سائدة فى القرون الوسطى ، أو الى سيطرة رجال الدين ، بعد أن يكفر الناس بالعلم الذى جر عليهم الكوارث ، وانتهى به الامر الى نسف نفسه !

أما وصيتى للشباب فلا أريد أن أقول لهم أكثر مما قلت .



التفاهم بلا كلام !

للأستاذ
فكرى أباظة

يغلب على ظنى أن القصة التى أكتبها فى سنة ٢٠٠٠ تقع حوادثها فى القمر أو فى المريخ ، لأنى أتصور أن الاربعين سنة القادمة ستختم الى أفكارنا وخيالنا وقائع تقع فى القمر أو فى المريخ أو فى غيره من الكواكب المكتشفة ، ولا أدرى الآن أى موضوع أختاره لها ، ولعله يكون حبا متأججا بين أحد سكان الأرض وإحدى ساكنات القمر أو المريخ .

وفى تلك السنة أود أن أرى اختراع التفاهم بين الناس من غير كلام وانما بقراءة ما فى داخل الرءوس . ثم اختراعا آخر هو مقاومة الجو ، بحيث يهون القيظ الشديد فى الصيف ، والبرد القارس فى الشتاء ... هذا هو التحول الذى أتوقعه ، فقد قهر العلماء كل الصعاب ، فاخترعوا الرادار والراديو واللاسلكى والذريات ، وهم على وشك أن يصلوا الى القمر ، فما بالهم لايهتمون بالراحة البدنية والذهنية للبشر ، وهى لا تتوافر الا اذا قهروا الجو واخضعوه صيفا وشتاء ، مما يؤدى بالانسان الى انتاج أصح وأقوى .

وأرجو فى سنة ٢٠٠٠ أن تختفى من العالم العربى مناظر الطائفية الدينية ، وأتمنى أن يزول المنظر المؤذى – أو بعبارة أصح الوباء الكامن فى جسم الامة العربية – وهو اسرائيل . كما أتمنى أن يقل عدد الاحزاب فى بعض البلاد العربية ، فالحزبية المبالغ فيها . فوضى تؤدى الى فتنة أهلية . وأود أن يتطور الشباب العربى إلى شباب نشيط يحس بمسئوليته ويؤمن بأن العمل هو قوام الشعوب ، لا الكسل ، ولا التراخى ، ولا عدم الاحساس بالواجب ، ولا الرقاعة . وأود أن تستقر نظم الحكم فى كل البلاد العربية فتعود الحرية التى هى أعز شىء فى الوجود إلى العقائد، وإلى الصحافة ، وإلى الاجتماع ، وأن يستقر أو يبعث النظام البرلمانى النيابى الذى هو عماد كل دولة ديمقراطية .. وأود أن أشهد اليوم الذى يأخذ فيه كل مواطن عربى حقه من التعليم والصحة ومستوى المعيشة اللائق بالآدميين .

وأنا أود أن يعيش كل من أعرفهم ما عداى ، فلا أظن أن الحياة القادمة ستكون حياة مريحة سعيدة ، خصوصا اذا تخللتها حرب ضروس أو ما هو أتعس من الحرب ، وهو جنون الجرى وراء الرزق .

وأنا أنصح الشباب فى تلك السنة أن يعتدوا بشخصيتهم ، والا يكونوا ذيولا للأحزاب ، والا يكتفوا ويقتنعوا بدراسات المدارس أو الجامعات ، وانما عليهم أن يجعلوا من بيوتهم معاهد وجامعات، فالقراءة والدرس خارج المعهد قد تكون أصلح وأقوم .

وانصح شباب سنة ٢٠٠٠ ألا يتزوجوا قبل الثلاثين حتى تستقر حياتهم العلمية ، وأن يحذروا كل الحذر من كثرة النسل فهي كارثة شخصية ووطنية في بلاد تكاد تضيق بسكانها .

انسان ميكانيكي لبيتي
للسيدة أمينة السعيد

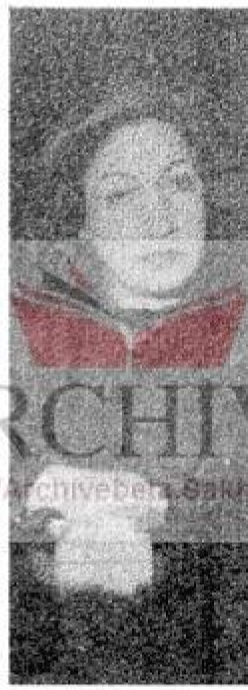
أرى أن هذه أمنية كريمة ولو أنها قسوة لامبرر لها فانني لا أقبل أن أعيش إلى سنة ٢٠٠٠ الا اذا صحب ذلك معجزة علمية تقف بي عند المرحلة التي أعيش فيها الآن ، فلو حدث هذا لكتبت قصة تمثل الحياة في وقتنا الحاضر ، لتكون مرجعا أدبيا تاريخيا لفترة من الزمن لا شك ستكون أوضاعها غريبة على ذهن من يسعدهم الحظ بالمجيء الى الدنيا من بعدنا . وستكون بطلتها فتاة هذه السنة تدور حوادثها عن المتاعب النفسية التي تمر بها ، والصراع الشاق الذي تبذله في سبيل الوقوف على أقدامها . هذه القصة ستكون بلا شك دراسة بديعة لفتاة سنة ٢٠٠٠ التي ستتمتع بكل الحقوق والمميزات التي لاتجرؤ امرأة اليوم إلى التطلع اليها ... ولو في حلمها وفي سنة ٢٠٠٠ أود أن يكون في متناول يد كل «ست بيت» أن تشترى أنسانا ميكانيكيا يقوم بجميع واجباتها المنزلية . وأود أيضا أن أرى آلة ميكانيكية تخرج لى أفكارى في مقالات كاملة المعانى !

أما المناظر التي أرجو زوالها فهي مناظر الترام والاتوبيس والعربات «الحنطور» والدراجات والشحاذين، الذين أرجو أن ترسلهم دولة سنة ٢٠٠٠ الى القمر !

والذين أود أن يعيشوا معى الى سنة ٢٠٠٠ زوجى وأولادى واخـــواتي وأصـــدقائى وصديقاتي ... ثم الأدباء الذين أحبهم واستمتع بقراءتهم .

وأخشى أن أنا أدليت بنصح لشباب سنة ٢٠٠٠ أن أكون موضع سخريتهم لأن التطورات الذهنية والفكرية التي ستطرأ على حياتهم ، ستكون بعيدة عن تفكيرى ، وعن قدرتى على استيعابها . وقد عشت أجمل سنوات حياتي في تقديم النصائح للناس ، فهل تبخلون على بهذه الراحة في سنة ٢٠٠٠ ؟

أمينة السعيد



تحريرا فى أول مارس ١٩٨٧

بقلم : أحمد بهاء الدين

طلبت منى مجلة « الهلال » أن أتصور العالم بعد خمس وعشرين سنة ..

أن أتصور إننى جالس فى مكتبى ، أدبج مقالا عن الموقف الحاضر وأبدأه قائلا :

تحريرا فى أول مارس ١٩٨٧

والقارىء يتوقع دائما ، حين يقرأ عن مستقبل ما يزال وراء الافق ، أن يرى الاعاجيب . إنه يتوقع أن يقال له إن كل ما يكرهه من حياته الحاضرة لن يكون له وجود . ويتوقع أن يرسم له الكاتب صورة حياة لا عهد له بها من قبل . عمارات ارتفاعها مائة دور ، وشوارع عرضها ألف متر ، وصواريخ رابضة فى ميادين هائلة ، تحمله إلى القمر ، ليقضى عطلة آخر الاسبوع .

وليس تصور هذه التطورات المادية الآن بعسير. فقد زودت الاختراعات العلمية الحديثة بجناحين لامثيل لهما من الخيال ومن القدرة على التحقيق . لقد كان الانسان يحلم بأشياء كبيرة وهو لا يعرف سوى البخار الذى يحرك البواخر والقطارات .. فكيف لا يحلم الآن ، حلم الواثق ، وقد عرف الصواريخ والاقمار الصناعية ، ورأى الدول الكبرى تضع فى ميزانياتها السنوية الاعتمادات اللازمة لارسال أول انسان إلى القمر ؟ ..

ولكن السؤال الذى لا مفر من طرحه ، ولو كان فيه بعض ما يثقل أجنحة الخيال ، هو : ما هو أثر كل هذه الاختراعات على الانسان نفسه بعد خمس وعشرين سنة ؟

لقد أخترع الانســـــان – فى بعض مناطق الارض – السيارة والغواصة والطائرة والقنبلة الذرية والصاروخ ، خلال مائتى سنة متواصلة من الكشف والاختراع ، ولكن هذا لم يمنع من أن يظل مئات الملايين من البشر ، فى مناطق أخرى من



نفس الكرة الارضية ، يعيشون نفس الحياة التي عاشها أسلافهم منذ ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف سنة : نفس الساقية والشادوف ، نفس الاقدام الحافية تسعى طول النهار وراء المحراث البدائي ، نفس كوخ الطين ، نفس الطعام التافه .. سواء كان أرزا مسلوقا في الهند ، أو ماء ساخنا في الصين ، أو « الفوفو » المدقوق في افريقيا !

لماذا ؟ ...

لابد أن ثمة خلل في العلاقات الانسانية هو الذي جعل هذا التناقض ممكنا ... فماذا لو استمر هذا الخلل بصورة أو بأخرى؟ هل يمكن القول في هذه الحالة أن العالم حقا قد تغير ؟

مثل آخر ...

لنفرض أن الانسان قد تمكن فعلا من أن يسكن القمر والمريخ وزحل وعشرة كواكب أخرى .. ولكنه ذهب اليها بنفس مشاكله وعلاقاته . بنفس الصراع الاجتماعي ، والتناحر الدولي ، والاخطار المهددة بالفناء . بنفس التوتر العصبي والقلق النفسي والاقراص المهدئة . هل يمكن القول في هذه الحالة أن شيئا قد تغير في العالم ؟ .. بالطبع لا . كان الانسان يلعب بكرة ارضية واحدة فأصبح يلعب بعشر كرات . ولكنها نفس اللعبة . ونفس الحبل المشدود من أمعاء الناس وأعصابهم .

اذن ؟ ..

اذن لابد لنا حين نفكر في صورة العالم بعد خمس وعشرين سنة ، من أن نتأمل الجانبين ...

جانب الاختراعات والاكتشافات العلمية ،

وجانب العلاقات الانسانية أو الاجتماعية .

وأول ما يدهشنا – حين نتأمل هذين الجانبين معا – هو أن التغير المادي يقع بأسرع مما يقع التغير الاجتماعي ...

الانسان يسرع إلى « استخدام » الاكتشاف العلمي الجديد .. ولكنه لا يوافق على تغيير علاقاته الاجتماعية بما يلائم هذا الاختراع إلا في بطء ومن خلال صراع وجهد شديدين .

الانسان – مثلا – اكتشف الالات التي أدت إلى ظهور الصناعات الكبيرة والمجتمع الصناعي الحديث ... وعلى الفور أسرع الانسان إلى استخدام هذه الالات والتوسع في التعامل معها .. إلى أقصى ما يستطيع . ولكن الانسان لم يعمد بنفس السرعة إلى مواجهة نتيجة التطور فيما يختص بعلاقاته الاجتماعية . انما تفاقم الصراع بين العمل ورأس المال . وقامت ثورات وسالت دماء . وظهرت النظريات الرأسمالية والشيوعية والاشتراكية والفاشية . وما زال الصراع بين هذه النظريات مستمرا حتى يصل الانسان إلى أحسن تنظيم للعلاقات الاجتماعية ازاء هذا الواقع المادي الجديد .

مثل آخر ...

الانسان اكتشف القنابل الذرية والصواريخ . وأسرعت الدول التي تملك هذا الاكتشاف إلى صناعتها واختزانها . وكل انسان يعرف أن معنى هذا الاكتشاف هو القضاء على الاسلحة العادية الاخرى والجيوش الجرارة . وكل انسان يعرف أنه ازاء هذه الاسلحة الجديدة لا مفر من نزع السلاح كأسلوب وحيد لاستمرار الحياة . ولكن الانسان لم

يصل بعد إلى تطبيق نزع السلاح . ولا ينتظر أن يصل اليه قبل وقت طويل . وهكذا فان آلاف الملايين من الجنيهات تنفق كل سنة على صنع أسلحة يعرف الانسان تماما أنه لا يجب أن يستخدمها ، مهما كانت الظروف ...

اذن ، فلنا أن نتوقع ، ونحن نمد البصر عبر خمس وعشرين سنة قادمة ، أن تجد التغير المادى سريعا إلى أقصى الحدود ، وأن تجد التغير الانسانى ، كالعادة ، بطيئا ...

والواقع أن من يتابع أنباء الابحاث العلمية التى تجرى فى المعامل الهـادئة المنتشرة فى أنحاء العالم ، يجد أن مجالات التغير فى حياة العالم خلال الخمس وعشـرين سـنة الماضية ليس لها حد ...

ففى خلال خمس وعشرين سنة - مثلا - سوف تختفى السيارات التى تسير على أربع عجلات وتحل محلها سيارات بدون عجلات ، تسير طائرة على ارتفاع ٣٠ سنتيمترا من الأرض محمولة فوق هواء مضغوط ، وسيكون من نتيجة ذلك الاستغناء عن اقامة كثير من الكبارى فوق الانهار ، والاستغناء عن تعبيد طرق كثيرة من الطرق التى لا تستخدم فى السير على الاقدام كطريق مصر - اسكندرية الصحراوى مثلا .

وسوف يتم صنع الآلات الالكترونية التى تشبه الراديو الترانزيستور الصغير ، والتى يستطيع بها الانسان المصاب بأى شلل فى أى عضو من أعضائه أن يحركه كالسليم تماما . فالشلل هو عجز الاعصاب عن اصدار أوامر الحركة إلى اليد المشلولة أو الساق المشلولة أو اللسان المشلول . وقد أمكن صنع أجهزة الكترونية تقوم بهذه المهمة ...

وسـوف تختفى بعض الجدران من بعض البيوت . فقد أمكن صنع جهاز مثل جهاز تكييف الهواء تستطيع أن تديره فيقيم حاجزا من « الهواء » يقوم مقام الحائط . فتكون درجة البرودة فى الخارج صفرا ولكن هذه البرودة لا تنفذ من خلال حاجز الهواء رغم عدم وجود أى جدار .

ولن تكون آلات تكييف الهواء مجرد أجهزة لتسخين الهواء أو تبريده . ان الآلات الحديثة سوف تحمل لك نوع الطقس الذى تحتاج إليه اعصابك . فهذا المفتاح يجعل الجهاز يملأ من الغرفة بهواء له رائحة وخصائص هواء البحر .. أو الحدائق .. أو الجبال .. إلى آخره .

ولن تكون المدارس والمكتبات على صورتها الراهنة ، سوف يكون هناك جهاز « تليفون - تليفزيون » تطلب به دار الكتب فيديرون لك - على جهازك فقط - تسجيلا صوتيا يقرأ لك الكتاب الذى تريد أن تقرأه أو العلم الذى تريد أن تدرسه .

وكما يقول أحد مصانع التليفونات فى أمريكا : سوف يولد الطفل ومعه رقم تليفونه . ذلك أن التليفونات سوف تكون صغيرة ويحملها الفرد فى جيبه كعلبة السجاير . وسوف يمكن الاتصال بها مع أى شخص فى الكرة الارضية مباشرة . بل أنها سوف تستخدم فى ادارة بعض أدوات البيت . فتضرب رقم بيتك وأنت فى المكتب ثم تضرب رقما معينا فيدور الفرن فى البيت حتى إذا وصلت وجدت الطعام ساخنا ...

كل هذه أنباء علمية وليست أحلاما . ولا حد لمثل هذه الانباء التى تخرج من المعامل يوما بعد يوم .

ولكننى أعتقد أن هناك ثلاثة مجالات بالذات من مجالات التقدم العلمى . سوف يكون لها أثر كبير على حياة الانسان سنة ١٩٨٧ ...

★ الاول .. هو الابحاث الجارية الآن لتحويل مياه البحر الملحة إلى مياه عذبة . إن المشكلة الآن ليست فى عملية التحويل ذاتهـــا ، فقد أنجزت بالفعل . ولكن المشكلة هى تخفيض أسعار هذه العملية بحيث تتحول مياه البحر إلى مصدر لرى الاراضى كالانهار تماما . ويوم يتم تحقيق هذا الفرض سوف يكون هذا انقلابا حقيقيا فى حياة الانسان . إذ سوف تتحول الصحارى الشاسعة إلى أراضى مزروعة وسوف تتضاعف المساحات التى يمكن زراعتها كل عام . الامر الذى يساهم فى حل مشكلة الغذاء فى عالم يتزايد بسرعة مذهلة ..

★ الثانى هو أبحاث الفضاء .. التى تتمتع بما يكفيها من ضجة الدعاية ومن اهتمام الناس .

فقبل سنة ١٩٨٧ سيكون الانسان قد وصل إلى القمر فى رحلات متوالية . وسيكون قد تم ارسال أول بعثة علمية كاملة بعلمائها وأجهزتها إلى المريخ والقمر وغيرهما من الكواكب القريبة .

وفى سنة ١٩٨٧ لن يكون القمر أو المريخ كوكبا مسكونا . فالأرض مازالت فيها مساحات هائلة لم تكتظ بالسكان بعد . ولكن هذه الكواكب ستكون مسكونة قطعا ببعثات دائمة من العلماء المزودين بالاجهزة المختلفة أشبه بالبعثات العلمية التى تقيم الآن فى القطب الجنوبى .

ستكون فى هذه الكواكب اذن مدن علمية تنمو تدريجيا . أما الانسان العادى فقد يبدأ فى السفر اليها فى شكل مجموعات للسياحة أول الأمر ..

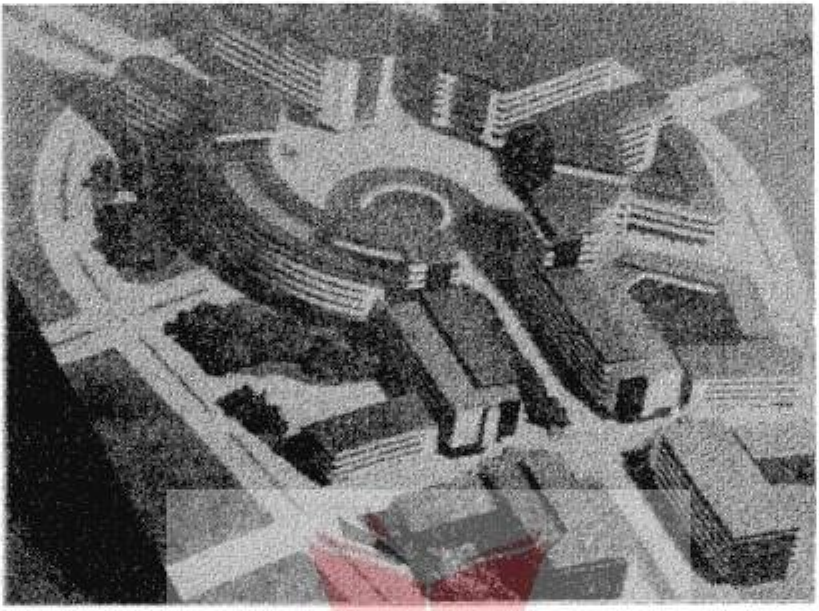
أما الأقمار الصناعية السابحة فى الفضاء فى مدارات حول الأرض والقمر والمريخ فسوف يصل عددها إلى بضع مئات ... وسوف يكون هناك أكثر من عشرة من البشر طائرين فى الفضاء فى وقت واحد ...

وليس هذا كله إلا مقدمة لاكتشافات علمية أخرى تزيدنا معرفة بأسرار الكون والحياة . وسيكون من أول آثارها معرفة المزيد عن الطاقة الشمسية لاستغلالها على نحو أرخص بكثير جدا من الطاقة الكهربائية أو الطاقة الذرية .

أما الاقمار الصناعية فستكون أجهزة ارسال متنقلة تجعل الاتصال التليفونى والتليفزيونى بين شتى أجزاء العالم سهلا ميسرا . فتستطيع أن تدير قرص التليفون من القاهرة لتخاطب أمريكا الجنوبية . وتستطيع أن تدير مفتاح التليفزيون لترى أى برنامج يذاع من اليابان أو من السويد أو الصين أو الهند .

وهذا التطور العلمى سوف يكون له أثر ضخم فى تحقيق حرية الانباء على مستوى آخر جديد . إذ سوف يستطيع الفرد أن يرى بنفسه حقيقة الحياة فى أى بلد آخر . لا يحجبها عنه دعاية حاكم أو قيود على استيراد الصحف أو أية عقبة من هذا النوع . وسوف يكون لهذا أثر ثورى على تكوين الرأى العام فى كل مكان ...

★ المجال الثالث الذى سوف تؤدى الابحاث العلمية فيه إلى انقلاب عميق .. هو مجال الأبحاث التى تدور الآن حول « الخلية الحية » فكما أن الانسان تمكن من تحطيم الذرة ، فانه قد نجح فى تحليل « الخلية .. الحية » إلى مركباتها الكيمائية ..



سوق تجارى مصرى كما تخيله الكاتب ، السوق موجود الآن فى مدينة العبور

وبالتالى أمكن « صنع » خلية حية من مركبات كيميائية !

ومعنى ذلك ببساطة : أنه فى خلال خمس وعشرين سنة سوف يستطيع العلم أن يتحكم فى الجنين ، وفى صفاته التى سيولد بها ، كما سيمكنه الكشف عن أسرار جديدة من أسرار الحياة ، فضلا عن علاج الامراض التى لا علاج لها كالسرطان ..

إن هذا البحث هو أخطر بحث أجراه الانسان الان على الاطلاق . العلماء المنهمكون فى هذا البحث منتشرون فى أمريكا وروسيا وانجلترا والمانيا . والمجلات العلمية تروى العجائب عن أخبار تقدم أبحاثهم !

وليس أصدق من كلمة العالم الذى قال : إنه يصاب بالذعر والدوار كلما فكر فى نتيجة هذه الابحاث التى يشترك فيها ويراها – لعجبه الشديد– تنجح وتتقدم !!

وبعد ...

فماذا عن « العلاقات الانسانية » سنة ١٩٨٧ ؟ ...

هل يكون شبح الحرب قد أزيح إلى النهاية ، وأصبح حماقة قديمة يتعجب الناس من أنها وجدت ذات يوم ؟ ..

أم تكون الحرب الذرية قد قامت وانتهت ؟

أم يكون الموقف بعد ٢٥ سنة كما هو الآن : الصواريخ مستعدة ، والطائرات المحملة بالقنابل الذرية فى طيران مستمر .. ومباحثات نزع السلاح متعثرة ؟ ..

هل يكون الصراع المذهبى قد حسم ؟ ..

هل يكون للعلاقات الدولية شكل جديد ؟..

أعتقد أن العالم سنة ١٩٨٧ سيكون قد حل بعض المشاكل الفرعية مثل مشكلة برلين ومشكلة نزع الاسلحة الذرية ، أما المشاكل الرئيسية التى يواجهها العالم الان ... فإن خمس وعشرين سنة أقصر من أن تتسع لحل حاسم لها ...

لماذا ؟ ..

ان الضغط والصــراع الراهن له أكثر من سبب ... بعضها سوف يختفى قبل ١٩٨٧ ، وبعضها سوف يبقى ، على الاقل إلى ما بعد هذا التاريخ بقليل ...

من أسباب الضغط والصراع مثلا الاستعمار وهو سيطرة شعب على شعب آخر . هذا السبب سوف يختفى . سوف يزول الاستعمار نهائيا ، ولا تبقى منه إلا صفحات أليمة فى كتب التاريخ .

ولكن السبب الاكبر للضغط والصراع فى عالمنا الحالى هو الفقر . أو بتعبير أدق هو الفروق الشاسعة بين مستويات المعيشة المختلفة . ذلك أن الفقر فى حد ذاته نسبى ، ففقراء العالم اليوم ربما كانوا أحسن حالا من فقراء ثلاثة قرون مضت ، ولكنهم أكثر احساسا بفقرهم ، خصوصا بسبب سرعة التقدم الذى يحرزه آخرون غيرهم ، ولذلك فهم أكثر ثورة على هذه الفوارق من فقراء ثلاثة قرون مضت .

هذا السبب من أسباب الضغط والصراع لن يكون قد اختفى قبل سنة ١٩٨٧ ...

فنحن حين ننظر إلى بلاد كثيفة السكان مثل الصين أو الهند ، نجد أن أحسن تقديراتها لبرامج التنمية فيها لا تصل بسكانها فى ٢٥ سنة إلى مستوى من المعيشة يبلغ نصف مستوى المعيشة الحالى فى أوروبا مثلا . فإذا عرفنا أن مستوى المعيشة فى أوروبا يتحرك إلى أعلى بسرعة ، أدركنا أن « الفروق » فى حد ذاتها سوف تبقى ، وبالتالى فان عنصر الخلاف فى النظرة وفى المصلحة وفى العقيدة سوف يبقى .

وفى مجال الصراع العقائدى ، سوف نجد النظام فى الاتحاد السوفييتى سنة ١٩٨٧ غير نظامها الذى نعرفه الان ... وسوف نجد النظام فى أمريكا غير نظامها الان ولكن الصراع المذهبى بين الشيوعية والرأسمالية سوف يبقى .

إننا كثيرا ما نستعجل التاريخ ونتصور أنه سيحسم القضايا الكبرى بسرعة ، ولكن هذا لا يحدث عادة . ونظرة واحدة إلى ما استنفدته خلافات انسانية أخرى – كالحروب الدينية مثلا – من وقت طويل ، تكفى للدلالة على أن هذه الخلافات الكبرى لا تحسم فى وقت قصير كما نتوهم ، صحيح أن العالم الان يجرى بسرعة أكبر . ومع ذلك

فاننى أعتقد أن ٢٥ سنة لن تحسم القضية ..

على أنه فى سنة ١٩٨٧ سوف يكون الانسان قد بدأ يقتنع أن هذه النظريات كلها – بصورتها التى نعرفها – ليست الكلمة الاخيرة فى الفكر الانسانى .

وسوف تجد الدول أنها – ازاء متطلبات هذا الصراع – لابد لها من أن تقبل التقليل من سيادتها فى اتجاهين ..

الاتجاه الاول .. نحو الاندماج والاتحاد فى دول أكبر

والاتجاه الثانى .. نحو الاعتراف بسلطة أكبر لبرلمان دولى وحكومة دولية ، هما الامم المتحدة ومجلس الأمن ..

وفى الاتجاه الاول سوف تجد الدول أن اقامة صناعة كبيرة يحتاج إلى سوق أكبر وإلى عدد من المستهلكين أكبر . وسوف تجد الدول أن مهمات عصر الفضاء والحاجة إلى مسايرتها تحتاج إلى دولة لها ميزانية أكبر وعلماء أكثر . ولهذا فانه إذا كانت مرحلة « الستينات » فى هذا القرن ، هى مرحلة كثرة عدد الدول المستقلة وتزايدها ، فان سنة ١٩٨٧ ستكون سنة اختصار عدد الدول إلى عشر عددها الحالى على الاقل ...

ستكون أمريكا الشمالية كلها دولة واحدة ، وأمريكا الجنوبية كلها دولة واحدة أو دولتين . سيكون غرب أوروبا كله دولة واحدة . والبلقان وشرق أوروبا دولة واحدة ستكون البلاد العربية كلها دولة واحدة . وستكون أفريقيا السوداء كلها دولة واحدة . سوف ينظر العالم إلى الدولة التى لا يزيد تعدادها عن عشرين مليون نسمة كما ينظر الان إلى امارة موناكو مثلا أو دوقية لوكسمبرج !

وليس هذا غريبا .. فمضى سنة ١٩٨٧ سيكون عدد سكان الصين على وشك أن يصبح ألف مليون.. وعدد سكان الهند على وشك أن يصبح ستمائة أو سبعمائة مليون ! وعدد سكان غرب أوروبا حوالى ٣٠٠ مليون .

وليس غريبا بعد هذا أن نجد دولة عربية كبرى عدد سكانها ١٥٠ مليون ودولة افريقية كبرى عدد سكانها ٢٥٠ مليون ...

أما فى الاتجاه الثانى ... فسوف نجد أن قلة عدد الدول سيسهل – إلى حد – كبير مهمة تكوين هيئة أمم متحدة أقوى من الهيئة الحالية . هيئة أمم تشرف على نزع السلاح وتنظم النشاط الانسانى فى الفضاء الخارجى وتملك قوة بوليسية تحافظ بها على الامن والنظام ...

والآن ...

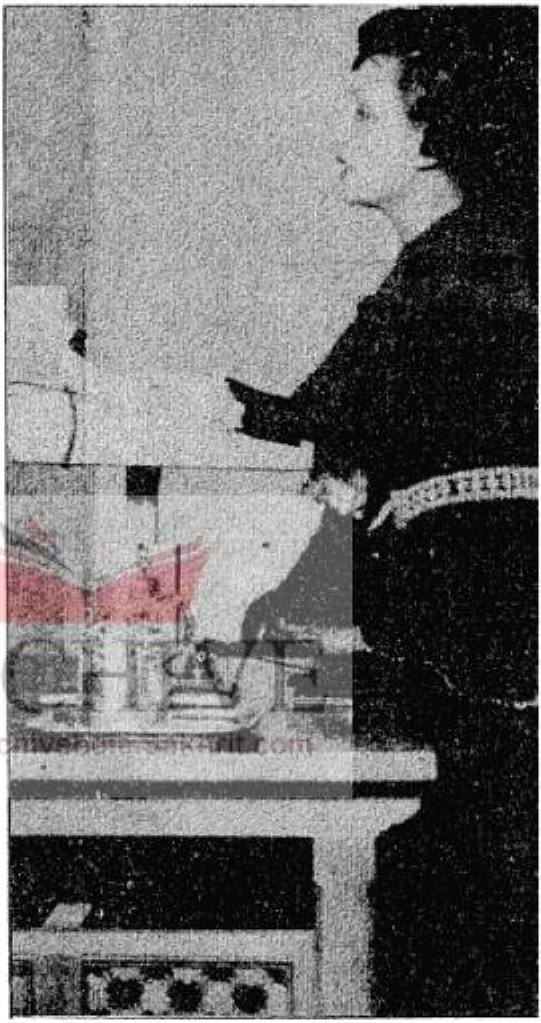
هل ترى أن عالم ١٩٨٧ لن يختلف عن عالم ١٩٦٢ بالدرجة التى كنت تتمناها ؟ ..

ربما ...

والسبب هو أننا نمر بمرحلة تغير عميقة جدا فى حياة العالم . تغير يجعل الستة الاف سنة التى مضت من التاريخ الانسانى مجرد « فصل أول » يوشك أن ينتهى ليبدأ فصل جديد تماما ...

هذا التغير العميق لا يمكن أن تتم « مرحلة الانتقال » التى تؤدى إليه فى أقل من قرن كامل ! ...

إن ٢٥ سنة أقل من أن تكون « استراحة قصيرة » بين الفصلين !



إن التـــأثر المتبـــادل بين مضمـــون العمل الفنى وشكله أمر بالغ التعقيـد وهو يشكل جزءا هاما متجـدد الصـــور والإمـكانيات فى مجـــالات الدراسـات الفنية والأدبية فكل تطـور فى حياة الناس أفرادا وجماعات يعكس مدلولاته على مضامين الأعمال الفنية، وكل تطور فى الحياة عامة يعكس أيضا إمكانياته بكل مالها وما عليها على طاقات الأداة الفنية أو نوعيتها مما يجعل الأشكال الفنية فى تطور مستمر. ولما كانت الحياة وحدها أو بالناس دائمة التطور والتغير ولا يمكن أن تعاد فيها لحظة معاشة كما كانت أبدا فإن هذا، بكل قوته وجبروته، ينعكس على الفنون والآداب فيكسبها هذه الحيوية المتدفقة المتجددة ولكنه أيضا يكسبها مشكلاتها المتعاقبة .

مستقبل القصة القصيرة

بقلم : د. سهير القلماوى

ولقد مرت بالفنون والآداب من حيث الإنتاج والوسيلة والتلقى ثورات ضخمة في تاريخ الإنسان ، وكان لهذه الثورات انعكاسات متعددة الجوانب متشعبة المظاهر فى تطور الفن والأدب، طورت أشكاله وأوجدت نماذج بأشكال جديدة كما أنها فى الوقت نفسه غيرت من مفهومه ومن دوره فى الحضارة ومن أثره فى حياة الناس .

وفى عالم الكلمة المكتوبة نقف أمام ثورتين عظيمتين .

أولاهما : اختراع المطبعة وما نجم عن ذلك من توسيع قاعدة المتلقين للآثار الأدبية اتساعا متزايدا لا يزال بالملايين إلى اليوم .

والثورة الثانية هى : انتشار الوسائل السمعية والبصرية الناقلة للمادة الأدبية. فالفيلم والراديو والتليفزيون، وكلها اخترعت ونمت فى حقبة تاريخية متقاربة نسبيا، قد أحدثت فى الفن الأدبى تأثيرات جمة جديرة بالدراسة والوقوف عندها .



وكثيرا ما تعرض دارسو الأدب إلى أثر الصحافة فى فن الكلمة شكلا ومضمونا . ولكن الذين تعرضوا لدراسة أثر الفيلم والإذاعة والتليفزيون قلة قليلة مازالت أبحاثهم نادرة قصيرة قلما تكون موجهة مباشرة إلى هذا الموضوع بذاته، وإنما هى فى الأغلب والأعم دراسة لأثر هذه الوسائل السمعية والبصرية فى تكييف ذوق الجماعات بل الأهم فى توجيه رأى الجماعات وتكييف سلوكهم. ومع أنه من المسلم به حتى الآن أنه لا الصحافة ولا هذه الوسائل «السمعبصرية» الجديدة بقادرة على أن تؤثر فى الرأى العام أثرا يؤدى إلي النقلة من «لا» إلى «نعم» فى أية مسألة يكون الجمهور قد كون لنفسه رأيا فيها من قبل، فإن أثر هذه الوسائل «السمعبصرية» لايزال بعد شيئا رهيبا ضخما يجعل السيطرة عليه أمرا بالغ الحيوية بحيث تتولاه

الدولة بسلطة تقل أو تكثر فى أكثر بلاد العالم. والأهم من هذا هو أن هذه الوسائل «السمعبصرية» لم تستغل بعد إمكانياتها وطاقاتها الرهيبة نظرا إلى حداثة عهدها وقلة المختصين الذين يمكن أن يفجروا طاقاتها الفعلية من حيث الأثر فى الجماعات .

وشكلنا الفنى الذى يحظى بكثير جدا من اهتمام المؤلفين والقارئين (والذى رغم كل شئ لا يزال شكلا متداولا له حيويته ووجوده القويان) شكل «القصة القصيرة» قد تأثر تأثيرا ضخما بالثورة الأولى. بل أن كثيرين من دارسى الأدب يعزون وجوده الأصلى إلى ظهور الصحافة. فلقد بدأت الصحافة كما نعرف بنشر المسلسلات المتتابعة لأجزاء من رواية طويلة وسيلة من وسائل ترغيب القراء مثلما نجد من نشر مقتطفات من ألف ليلة وليلة فى الوقائع فى أول عهدنا بالصحافة أيام «محمد على». ثم تدرج الأمر حسب حاجة القراء إلى إشباع الرغبة فى قراءة قصة كاملة فى العدد الواحد من الجريدة، فنشأت القصة القصيرة فنا قصصيا له مساحة محددة فى صحيفة سيارة فأصبح له كل خصائص الآنية والتركيز والاختصار التى دمغت هذا الشكل لسنين طويلة لا تزال ممتدة إلى الآن .

وتأتى الثورة الثانية فى عالم وسيلة الفن فإذا بهذا الشكل يتأثر دون أن ندرك أنه تأثر أو نرصد هذا التأثير ولو فى محاولة لاستشفاف مستقبل التأثيرات والتغيرات المرتقبة فى أسلوب هذا الشكل الفنى .

ولقد درس بعض الدارسين فن الإذاعة : خصائصه وطاقاته، ولكنهم درسوا ذلك بعيدا عن الأشكال الأدبية، بعيدا عن تلمس الآثار المباشرة لهذه الوسيلة من إذاعة الفن الأدبى فن الكلمة على الناس. كذلك دراسة الفيلم والتليفزيون وهى أحدث وأقل بالرغم من سبق الفيلم وممهداته فإنها لم تحفل بالأثر فى الشكل الأدبى، بقدر ما حفلت بدراسة الأثر فى الجماهير فى محاولات من السلطة أو غيرها لتطور هذه الوسائل السمعبصرية فى سبيل أهداف لا علاقة لها بالفن أو بالأدب، وقد تكون فى بعض الأحيان قاصدة إلى استعمالها فى مجالات عملية مثل نشر الوعى بقضية أو محو الأمية أو غير ذلك من مجالات مهما اختلفت فكلها تلتقى عند أنها لا تحفل بعالم الفن وما طرأ عليه من تطورات .

صحيح أننا نجد بعض الدراسات عن الفيلم وأثره فى الرواية أو على الأصح الفيلم وتطوره من تصوير مسرحية إلى فن قائم بذاته اسمه القصة السينمائية ثم السينمائية فقط دون قصة أو أى شكل أدبى سابق. فإن السينما طاقاتها الخاصة بدأت غامضة ملفوفة فى فكرة التسجيل، مجرد التسجيل، ثم تحررت وانطلقت إلى

أنها لا تسجل وإنما تنشئ الجديد الخاص بها. إنها لا تعبر عن رواية، هي أثر فنى خالد فى عالم الكلمة المكتوبة، وإنما هى تخلق لنفسها شيئا مستقلا. ربما مستعينة بفكرة من أثر أدبى مكتوب ولكنها تخلق جديداً مستقلا لطاقاتها الشخصية ومميزاتها التى تنفرد بها. طاقة الصورة المتحركة التى تستعين قليلا ثم أقل فأقل بالكلام لتدل على مضمون معين بهدف إحداث أثر فنى خاص .

وابتعد الفيلم ولا يزال يبتعد أكثر فأكثر عن الرواية بمعناها الأدبى وأخذ الفيلم التسجيلى منحى جديدا فكشف عن طاقات جديدة للكاميرا وطاقات جديدة لتتابع الصورة تتابعاً منطقياً أو غير منطقى، واقعياً أو غير واقعى، وعمت السينما موجات من التجديد لا تتفق إلا فى الاستغناء ما أمكن عن الرواية أو المسرحية أو حتى القصة القصيرة بل عن الكلمة المسموعة إذا أمكن .

ولكن الإذاعة تعتمد على كثير من فنون القول. فالشبه قوى بين الكلمة المكتوبة والكلمة المسموعة .

إننا أمام وسيلة نشر جديدة تفوق المطبعة فى طاقاتها من حيث مخاطبة جمهور عريض غير متجانس كما أنها تقع دون المطبعة فى كثير من الطاقات الأخرى.

ولإمكان رصد أثر هذا الوضع الجديد بدخول الإذاعة بالذات ميدان فن الكلمة لابد لنا من وقفة أمام خصائص الكلمة المقروءة وخصائص الكلمة المسموعة لنتبين بعد ذلك كيف يمكن أن يؤثر ذلك فى مضمون الفن القولى وشكله وخاصة فى مجال القصة القصيرة .

الذى يجب أن نقرره أولا هو أن الأدب كفن نشأ أولا كلمة مسموعة قبل عصر التدوين ثم استمر بعده بل ظل فى بعض أنواعه إلى اليوم يعتمد على الكلمة المسموعة فى التأثير فى متلقى الفن.

ثم ما هى الكلمة المكتوبة إنها رمز للمسموعة يتردد صداها فى النفس بشكل مكتوم خافت أو غير محس .



فنحن نقرأ الكلمة المكتوبة وفى مكان ما من المخ يتردد صداها مسموعا. وقد نقف لنقرأها بصوت عال وخاصة عندما نريد أن نحس بالشعر إحساسا أقرب. ولكن هذا لا ينفى أن الكلمة المسموعة لها طاقات أخرى. إن صوت الآدمى، بحنجرته وهى أعقد آلة موسيقية وأحلاها نغما وأغناها طاقة وقدرة تضيف كل إمكانياتها إلى صوت الحرف الصامت المكتوم فإذا هو شئ آخر. قارن بين قصيدة تقرؤها فى خلوة وحدك

وتردد مقاطعها وبين سماع هذه القصيدة ممن يلقيها عليك وقد برع فى فن إلقاء الشعر بالذات، أو من الشاعر نفسه يقرؤها لك فى حفل عام أو عن طريق المذياع.

لا يختلف اثنان أنه فى فن الشعر المعتمد على الموسيقى يكون الإلقاء المتقن عنصر إضافة جوهرية فى إمكانية التأثير الفنى، ولكن ما نوع هذا الأثر وما هى الظروف التى تساعد عليه أو تحول دونه .

وللرد على هذه الأسئلة لابد من أسئلة كثيرة بغية الإجابة عليها. هل يتاح للفرد أن يسمع هذا الملقى الممتاز وقتما يشاء أى عندما يكون فعلا مستعدا لذلك ؟ قد يتوفر ذلك فى الإلقاء فى حفل أو اجتماع، ولكن الإذاعة تفرض علينا القصيدة وتفرض علينا الملقى وتفرض علينا الزمان الذى نسمع فيه. إنك لا تختار قصيدة لإذاعة ولا ملقيها ولا زمانها مما يضعف من جهة أخرى مدى استجابتك للطاقة الضخمة التى تكسبها كلمات القصيدة من صوت الملقى الممتاز. ثم إنك تسمع هذه القصيدة من المذياع وأنت منفرد ومجتمع فى آن. تعرف أن كثيرين غيرك وربما بعضهم معك يستمعون إلى نفس القصيدة ولكنك فى الواقع منفرد بعيد عنهم لا تجمعك وإياهم قاعة مخصصة لذلك ولم يأتوا كلهم ليسمعوا القصيدة. من حولك حياة منزلية بكل ما فيها من دقائق لا علاقة لها بالإذاعة ، تليفون يرن، صوت مارة فى الشارع، صراخ طفل ..إلخ . مما قد يفسد عليك متعة الاستماع. أين هذا من قبوعك فى ركن وقد اخترت قصيدتك وجلست وحدك فى زمان هادئ ومكان مناسب تقرأ وتحس وتركز وتستمتع. فإن أعجبت ببيت فإنك تكرره وتستعيده ولا يمكنك ذلك بواسطة المذياع. إذن إلى جانب طاقة الصوت الممتاز تراك تفقد كثيرا من مزايا القراءة المستقلة .

والقصة القصيرة تختلف فى هذا بأكثر من القصيدة إنك تحتاج فيها إلى التركيز وإلى اختيار القصة وإلى اختيار الزمان والمكان بشكل ربما أقل ولكن من جهة أخرى فإن طاقة الصوت الملقى الممتاز لا تحتاج إليها كثيرا مثلما تحتاج إليها فى القصيدة، لذلك تجد أن الشعر يقرأ فى المذياع بأكثر مما تقرأ القصص.

أما الرواية الطويلة فإن هذه قد شغلت الناس فيما يتعلق بالفيلم، فيلم الثلاث ساعات أو نحوها ، الذى يستطيع أن يستوعبها . ولكن فى الإذاعة أمرها يختلف. لقد جربت إذاعة باريس مثلا أن تذيع بصوت «البير كامو» رواية من رواياته القصيرة فاستغرق التسجيل ثلاث ساعات وأذيعت مسلسلة كما كانت تنشر الروايات مسلسلة فى الصحافة فى أول عهدها، وكما عدلت الصحافة عن ذلك ووجدت الحل فى القصة

القصيرة فإن الإذاعة مضطرة إلى العدول عن ذلك ولكنها لن تجد الحل فى القصة القصيرة بشكلها الحالى. إن صورة ما من صور القصص القصيرة هو الذى يناسب الإذاعة. صورة يمكن أن تستغل طاقة الصوت الملقى وهنا يدخل عامل التنوع فى الحوار وصورة يمكن أيضا أن تستغل مؤثرات صوتية.. موسيقى وما أشبه ذلك أو صوت عواصف أو جريان نهر أو قفل باب .. إلخ.. وهذا كله يقرب القصة القصيرة من التمثيلية الإذاعية قربا مهددا بفناء القصة القصيرة المذاعة .

ولما كانت الإذاعة تحس بطاقاتها الأكثر وإمكانياتها الأقل فى الوقت نفسه بالنسبة للمسرح لفقدان عنصر الصورة المرئية الضرورية فى المسرحية وفقدان المعايشة المكانية والزمانية الضرورية أيضا فى المسرحية فتحاول الاستعاضة عن ذلك بنوع آخر من المسرحيات تخف فيه الحاجة إلى الرؤية والمعايشة وتكثر فيه الحاجة إلى طاقات الصوت بشرى وغير بشرى وطاقات الموسيقى والغناء أيضا فكذلك الأمر فى القصة القصيرة.

إن النص المقروء للقصة القصيرة يمكن استعادته إلى جانب إمكان اختياره واختيار الزمان والمكان اللذين يرى فيهما المتلقى، أنهما موافقان لاستعداده فى التلقى، ولكن الكلمة المسموعة حتى فى القصة وإن تكن أقل من الشعر لها طاقة كبرى لم تدرس بعض تفصيلاتها دراسة فنية مستوعبة كاملة.

وإذن فالإذاعة لا تستطيع أن تستغل أية قصة قصيرة. إنها لابد أن تختار ما يلائم إمكانياتها. قصة يستطيع الصوت فيها أن يهب كل المزايا الأخرى تركيزا واختيارا واستعدادا للتلقى. وباستقصاء غير شامل ولكنه مقارب، وجد أن أكثر القصص القصيرة نجاحا فى الإلقاء الإذاعى هى نوعان من القصص : قصص ما يشبه الاعترافات والقصص القريبة إلى الغنائية الرومانسية.

إن الكلمة المسموعة لها ثقل تفتقده الكلمة المقروءة. هذا الثقل الذى يفرض إلى الآن احتراما أكثر للمسموع على المقروء. «لقد إذاعت الإذاعة هذا الخبر» فالتصديق له أقرب مما لو قلنا نقلت الصحف هذا الخبر. الإذاعة بشكل أو بآخر تتعلق فى أذهاننا بالدولة أو بما يشبه الدولة من السلطة والقوة مثل شركات الاحتكار العالمية الموجهة لسياسة العالم الرأسمالى. أما الصحافة فإنها حتى فى البلاد التى تخضع فيها لسيطرة الدولة مازالت مرتبطة فى أذهاننا بالمشروع الفردى أو الشركة المستقلة. ومن السهل أن نقبل سيطرة الدولة سيطرة تامة على الإذاعة وليس من السهل أن نقبل سيطرة ما على الصحافة إلا أن تكون سيطرة الشعب نفسه بواسطة تنظيم



من تنظيماته ، للكلمة المسموعة على كل حال ثقل. ولطاقة الإذاعة فى لقط الأخبار وسماع الإذاعات من شتى أنحاء العالم كل هذا يجعل للكلمة المسموعة سيطرة ما على الفكر وأثرا ما فى وزن الذى يقال .

من هنا تأتى قيمة أن ما يقال فى الإذاعة كلما كان موحيا بالثقة فارضا للإيمان به كان مستغلا للطاقة الفعلية للكلمة المذاعة. وقصص الاعترافات أو اللقاءات الصحفية والتحقيقات وما شابه ذلك تجد فى الإذاعة وسيلة أقرب إلى طبيعتها. تعطيها من طاقاتها أكثر مما تعطى غيرها. إن المؤلف نفسه إذا قرأ قصته قد لا يشد اهتمامى ويجذب أذنى للإذاعة ولكنه إذا حدثنى عن نفسه بنفسه فإن هذا أوقع كثيراً. لذلك تكثر الاعترافات وما فى حكمها والمذكرات وما فى حكمها التى تستغل مادة للإذاعة. وقد أثر ذلك فى اتجاه القصة القصيرة فعادت إلى أسلوب الاعتراف فى القصص القصيرة المذاعة ، قد يكون اعترافا بالغربة أو الضياع مثلما نجد فى غربة الشعراء وضياعهم فى الجيل الماضى ، وقد يكون اعترافا بالقلق وبثقل التبعات وضغط الشعور بالالتزام أمام شرور العالم ومعارك تحرره وصيحات احتجاجه فكل ذلك يشد آذان الجماهير العريضة إلى صوت المذياع .

ولانتشار الراديو انتشارا لم يسبق له مثيل فإن الأمر يحتاج إلى مادة مذاعة تختلف .

إن ما يذاع يخاطب الجاهل والأمى، يخاطب البدوى فى صحرائه والفلاح فى حقله كما يخاطب المثقف فى مكتبه بل الفيلسوف فى محراب فكره. كيف إذن يمكن للمادة المذاعة أن تلبى متطلبات هذا الخضم غير المتجانس من ملايين البشر. بشر من أوطان تختلف وظروف وربما عقائد وعادات تختلف لا شئ يجمع بينهم إلا القدرة على الفهم من هذه اللغة. إن اتجاه الإذاعة عادة إلى الجماهير العريضة أى إذن تتجه إلى التبسيط وإلى السهولة، وامتحانها الحق هو ألا تسف بهذا التبسيط وألا تتميع لهذه السهولة وهو امتحان جد عسير ومازالت أرقى إذاعات العالم تعترف بأنها تواجه هذا التحدى فى امتحان عسير كل يوم.

ولكن أثر ذلك يظهر فى القصة المذاعة فنجدها للسهولة تعتمد ربما على آداب شعبية كركيزة سهلة للالتقاء بأكبر عدد ممكن على نداء المذياع وصوته ، أو تعتمد على معتقدات لها حرمتها دينية وغير دينية . ومن هنا يتطور مضمون القصة فى منحاه شكلا ومضمونا ليلبى رغبة الجماهير العريضة . جماهير كما أسلفنا فيها الأمى الذى لا يقرأ والأمى الذى لايعرف وإن كان يقرأ ، كما أن فيها المحب للقراءة المدمن لها .

وأدى هذا بدوره إلى أن القصة القصيرة المكتوبة تتعقد بعقد المثقفين . انها لا تخاطب الأمى وإنما تخاطب القارئين بل القارئين الجادين المريدين لها . فلا بأس آلن من أن تمعن فى تبنى تيارات جديدة معقدة تتجه إلى المثقفين الممتازين الذين لا يستسلمون عادة للإذاعة باعتبار أنها تتجه إلى العام أو الكسالى أو الذين لا يريدون من النص الأدبى أكثر من المتعة العابرة . أما المتعمقون الذين لا يمكن أن يستغنوا عن الكلمة المقروءة لهؤلاء يقلون وترتفع نسبة التطلب عندهم لكل ما هو مركز عميق وممتاز.



د. سهير القلماوى

أن تعود تلقى الفن عن طريق الإذاعة وحدها أو غيرها من وسائل الاتصال بالجماهير يربى عادة الكسل والتقبل لاى شىء ويساعد على انعدام الخيال الفردى والحافز الفردى فى التذوق . وقد يخفف هذا اختيار المحطة المذيعة أو البرنامج الخاص ولكن هذا لا ينفى الأثر الاعم . إن التوازن فى المجتمع قد يأتى عن طريق المسرح وربما السينما بأساليب عادية ولكن التوازن الحق لا يأتى إلا عن طريق الكتاب المطبوع فهو وحده القادر على ذلك بالكلمة المقروءة وما تحتاجه من خيال متجاوب وما تتيحه من فرصة الاختيار (سبب من أسباب تنوع المطبوع وكثرته تنوعا لم يسبق له مثيل من قبل) وكذلك فرصة التركيز والاستعادة والتكرار الخ .

صحيح أن الادب لم يستغن فى يوم من الأيام عن الكلمة المسموعة : المسرح ، أنشاد الشاعر للناس أو فى بلاط الحكام ثم الشعراء الجوالون ، التروبادور وشاعر الربابة وكل هؤلاء الذين سبقوا المذياع فى الاتجاه للجماهير العريضة بالكلمة المسموعة ولكن شتان بين أعداد الجماهير أيام الشاعر وأيام الإذاعة وشتان بين تنوع الجماهير أيام الشاعر واليوم . إن أصحاب أدب الكلمة المسموعة فى العصور السالفة كانوا يخاطبون جمهورا متجانسا إلى حد كبير قليل العدد نسبيا بشكل ملحوظ . ومع ذلك فقد أوجد ذلك طبقية فى تلقى الفن عكست آثارها فى القصة فنفتها لمدة طويلة من رحاب الفن الرفيع حتى فرضت القصة نفسها على طبقة المثقفين والعلماء ومن فى حكمهم . وها هى القصة تعود مرة أخرى للجماهير ولكن دون أن تستغنى عن المثقفين الذين كسبتهم بعد معارك طويلة لذلك نراها فى مفترق الطرق الان . هل يمكن للإذاعة – وقد أسلفنا أن نوع قصص الاعترافات والقصص الغنائية الرومانسية هى وحدها التى تلائم آلة الجماهير العريضة – إن تطور هذا الفن بحيث يظل محتفظا بجمهور المستوى الاعلى إلى جانب جمهور المستوى الادنى . هذا هو التحدى .

وقصة أصحاب اختيار التعمق والتركيز تتخذ لنفسها آفاقا جديدة . جملا مشتتة تتحدى قدرة التركيز وصفا للاشياء بدقة تفصيلية تغنى عنها الصورة فى

الظاهر ولكنها غير الصورة المرئية بالمرة وآثارها فى النفس تختلف فى شعيرات دقيقة وانصاف نغم رقيقة خاصة . صورة دقيقة مكتوبة لها طاقة طريفة جديدة تتحدى الصورة المرئية وتستعمل أسلوبها بأداة جديدة ، فهل ياترى توقف أنغاما جديدة؟

إن مضمون القصة القصيرة الحالى مهما اختلف عن مضمونها فى السابق لايمكن أن يوجد الفرق الفني الذى يحدد مسار القصة القصيرة فى المستقبل . أن المضمون ، أى مضمون ، لايمكن أن يعطى للاداة طاقتها إلا إذا كان قادرا على الايحاء الفني . أما الايحاء بالايديولوجيات أو الخلفيات فانه يأتى بعد الفن عندما يتحقق الفن أولا . أن أنبل المشاعر لا تنتج فنا وأخصها خليقة بأن تفسد كل طاقات الشكل الفنية . ولكن الفن بطبيعته لايمكن إلا أن يتبنى أنبل المشاعر وأرقى الاحاسيس وإلا ما استطاع أن يجذب المتلقى إليه . وفن بلا متلق له مثل تمثال رائع جميل مدفون فى قاع النيل فمنذا الذى يمكن أن يسمى شيئا لا دليل على وجوده . إن الفن حلقة متصلة بين منتج وأداة أو نص ومتلق وأى كسر لهذه الحلقة فى أية منطقة منها يمنع تحقيق وجود فن .

إن غزو الصوت الآدمى (مسجلا متحديا الزمن والمكان) لافئدة السامعين ثورة ثانية كما أسلفت فى عالم الفن القولى . ثورة كان المأمول فيها أن توسع دائرة المتلقين وأن ترتفع بنوعيتهم ولكنها مثل ثورة الصحافة تحتاج إلى وقت . لقد عانى المثقفون الممتازون الفن الادبى على صفحات الصحف أول أن نشر ، ثم تدرج الأمر فإذا المجلات المتخصصة الادبية تحل أشكال التقاء القارىء الممتاز بالصحيفة على نحو يرضاه ويمثل له عالما يشبه عالم الكتاب ولكنه أكثر تنوعا وربما أجود اختيارا .

وتلعب البرامج الخاصة (البرنامج الثانى عندنا) ما تلعبه المجلات المتخصصة من دور هو تخفيف آثار الاتجاه إلى جماهير عريضة على نوعية الفن القولى وامتياز مستواه . ولكن البرامج الخاصة هذه مازالت تعانى آلام البعد عن مزايا الكتاب . أن المجلة المتخصصة شبيهة بالكتاب والبرنامج الثانى لايزال مادة مذاعة مفروضة فى زمان بعينه لمختارة بشكل لا دخل للمتلقى فيه فهو إما أن يستمع له وكما هو أو لايستمع أصلا . ومرة أخرى لا مجال للتعمق والتركيز والاستعادة كما أنه لامجال لاختيار الوقت ولا المكان ولا النوعية .

وتقف القصة القصيرة وحدها حائرة المصير . الشعر يتأقلم وصوت الشاعر حبيب حتى ولو خيب ظن القارئين المعجبين بشعره يكفى أن يعتادوه ليحبوه . والقصيدة بطبيعتها قصيرة يمكن أن تتعدد حتى فى اللقاء الواحد . أما الرواية

فترفض أن تتأقلم نهائيا على المذياع . والتمثيلية لها تاريخ آخر وإمكانيات أخرى ولكنها تفرض نفسها فرضا على الإذاعة ومهما اختلفت عن تمثيلية المسرح فهى آخر الامر تمثيلية لها فنية المسرح المعروفة . والخطبة لها كل المكانة فى الإذاعة وسائر أنواع الفن القولى إلا القصة القصيرة وليدة الصحافة وأحدث الاشكال الادبية فانها تقف وحدها مارة بتاريخ يجعلها فى حالة مخاض الاختلاف ؟ لا يدرى أحد ماذا ستلد. هل تكون هناك قصة قصيرة مقروءة غير المسموعة . مختلفة كل الاختلاف ؟ هل توجد المسموعة والمقروءة باختلاف محدود مثلما نجد فى التمثيلية ؟ هل تندمج نهائيا فى التمثيلية الإذاعية فلا يعود لها كيان مستقل يلقى فيها الحوار حواراً ويكيف السرد فيصبح حوارا أيضا صرفا أو إلى حد .

هذا هو موقف القصة القصيرة حائر بين صورة جديدة لايدرى كيف ستتبلور فى الإذاعة بينما القصة القصيرة المقروءة تشق طريقها بسرعة وتحد عجيبين فى عالم الكتابة وكانما هى تقول لم أعد فنا جماهيريا إذن فلاصبح أكثر فنون الكتابة تعاليا وتعقيدا وعمقا .

لا شك أن هناك عوامل كثيرة جانبية ستدخل فى أتون التفاعلات التى سينتج عنها الشكل النهائى أو المرحلى الأخير للقصة القصيرة . عوامل الارتقاء بالجماهير العريضة كما ارتقت الصحافة بهم على مدى أكثر من قرنين ونصف قرن . كذلك عوامل انتشار اللغات الأجنبية مما سيوسع أكثر وأكثر دائرة المستمعين من نوعية أفضل ثم التقاء الحضارات على مسرح التقاء اللغات فى آذان السامعين .

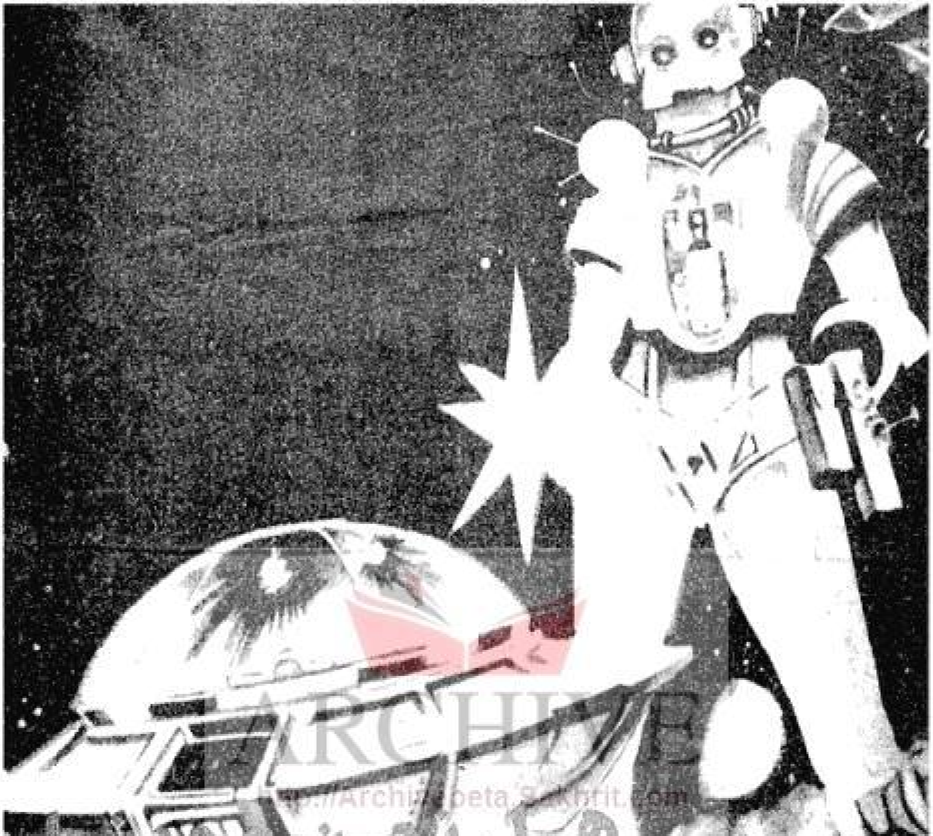
هذا ولم نتعرض للتليفزيون الذى لا يطيق صورة الملقى الثابتة بأى حال حتى ولو كان شاعرا يحبه الجمهور أو مغنيا يعشقه . والمغنى يمكن أن يمثل قليلا ويمكن انتقال الصورة منه إلى تخته إلى مستمعين إلى صور مستوحاة من كلمات الأغنية إلى آلة أكثر مما يعزف عليه التخت الخ . ولكن الشعر أيفسد بكثرة الصور أم يزداد تأثيرا؟ الثابت من التجارب إلى الان (ولابد من إلى الان) هو أن الشعر يخسر بالصورة ، والقصة أيضا ، عالم تمسرح تخسر بالصورة المستندة إلى الالقاء الثابت .

وعالم التليفزيون عالم واسع عريض وإمكانياته لها الكثير وعليها الكثير ولكن القصة القصيرة لم تدخله بعد فلنتركه بكل عالمه أو عوالمه .



إن القصة القصيرة تخوض الان تحدى الإذاعة وحده . كم ذا ستستفيد وكم ذا ستخسر والاهم من ذلك إلى أين تتجه . هذا ما حاولنا أن نثير الاهتمام به بهذا المقال .

أغسطس ١٩٧٠



هل نحن [illegible]
العقلاء فى الكون ؟

بقلم : د . عبد المحسن صالح

إن من يقول إن الأرض هي الكوكب الوحيد الذى نشأت عليه مخلوقات عاقلة، كمثل من يقول إنه هو الوحيد بين بلايين البشر الذى يستطيع أن ينجب ذريته وكل ما عداه عقيم!

إننا نستطيع أن نرى بعض كواكب المجموعة الشمسية بالعين المجردة لقربها منا (كالمريخ والزهرة والمشترى .. الخ)، ولكننا لا نستطيع أن نرصد كواكب الشموس الأخرى لبعدها السحيق عن أرضنا وشمسنا، حتى ولو استخدمنا لذلك أقوى التلسكوبات الفلكية، فأقرب نجم أو شمس - بعد شمسنا - يبعد عنا بمقدار ٢٦ مليون ميل .. ولو لم تكن نجوم السماوات شموسا ضخمة ومشعة كشمسنا، لما استطعنا أن نراها على مثل هذا البعد الرهيب، فكيف إذن نرى كواكبها وهى ليست شيئا مذكورا بالنسبة لضخامة الشموس: كما أنها ليست أجراسا مشعة كنجومها؟

ونحن لا نرى الكواكب التى امتلكتها الشموس لتطوف حولها كما تطوف الكواكب حول شمسنا، ولكن ليس معنى ذلك أنها غير موجودة مادمنا لم نستطع رصدها ولا رؤيتها .. ومن يقول: «إن الميكروب غير موجود لأننى لا أراه بالعين»، ولكن الطبيب يستطيع أن يعرف وجود الميكروب من أعراض المرض، كما أن غيره يعرف حلول الجنين فى رحم أم من أعراض الحمل، رغم أننا لا نرى الجنين، على نفس المبدأ نعرف الشموس التى «حملته» من أعراض الحمل، وما حملها إلا كواكب تدور حولها، ولقد سجلت الأجهزة الحديثة هذه الأعراض بدقة تامة، وصنفها العلماء على أسس من علم، فكانت الحوامل وغير الحوامل، فكيف يكون ذلك؟

لقد نبعت هذه الحقيقة من حالة غريبة يطلق العلماء عليها «حالة الحركة المفقودة» .. فالنجوم الوليدة - أى التى فى دور التكوين - تدور حول نفسها بسرعة كبيرة، والتى «فرمت» تبطئ حركتها، وبطء الحركة يشير إلى أن النجم قد أصبح له أسرة من الكواكب .. لا تختلف هذه الحقيقة بين انسان أرتبط بأسرة فيعطيها من روحه وماله وكده ونفسه، وبين شمس أو نجم له عائلة، فيعطيها شيئا من طاقته، أو بمعنى آخر من حركة دورانه حول نفسه، فتختفى منه لتظهر فيما حوله من كواكب .. وكل شئ هنا بحساب ومقدار، ولاشئ إلى ضياع أو فناء، حتى ولو كان ذلك فى حركة نجم أو خلية أو ذرة أو انسان .. ألخ

فلو أن شمسنا قد جاءت بدون أسرة كوكبية، لكان فى استطاعتها أن تدور حول نفسها أسرع خمسين مرة من وضعها الحالى، ولكن حركتها المفقودة التى تصل إلى ٩٨٪ من حركتها الكلية قد ظهرت فى كواكبها، وبها دارت!

وبمثل هذه الفكرة استطاع العلماء - من خلال الرصد والحسابات - أن يدللوا على أن كثيرا من شموس هذا الكون أو نجومه تدور حولها كواكب شتى، أى أن معظمها خصيب، والبقية الباقية عقيمة - أى بدون كواكب .. والخصيب منها قد يدور حوله كوكب أو كوكبان أو ثلاثة أو ستة أو عشرة أو أكثر، مثلها فى ذلك كمثل عائلات البشر، فمنهم

من تتكون أسرته من وليد وحيد أو اثنين أو نصف دستة أو أكثر .. وكلما زاد عدد أفراد الأسرة ، كلما احتاج ذلك إلى مجهود أكثر من رب الاسرة ، وكذلك تكون النجوم ، فكلما زاد حملها بكواكبها ، بطأت حركتها ، وزاد عبؤها !

يحملنا هذا إلى الافتراض بأن الكواكب التى تنتشر فى الكون أكبر عددا من النجوم ، فنجمنا (أوشمسنا) يمتلك وحده كواكب تسعة ، وربما يكون غيره قد حمل على عاتقه « كواكب أكثر مما حمل نجمنا ، أو ربما أقل .. لسنا فى الواقع ندرى ، فما زلنا على درجة كبيرة من الجهل بأمور السماوات .

ورغم أن الكواكب التى تطوف حول النجوم – ولا نراها – قد تقع فى حدود ألوف بلايين البلايين، إلا أن هذا لا يعنى أنها كلها مسكونة بمخلوقات عاقلة أو غير عاقلة ، أو أنها جميعا قاحلة ، فكلا الرأيين لا يستقيم مع عقل أو منطق ، فحيث توافرت الظروف لنشأة الحياة على أى كوكب من الكواكب ، فإنها ستنشأ ، ولا شك أننا نقيس الأمور هنا بنفس المعايير التى نعرفها على كوكبنا أو مجموعتنا الشمسية التي نسكن أرضها ، وقد نكون فى ذلك مخطئين ، أو قد نكون على صواب .. لسنا ندرى !

اذن ... فالأساس واحد

فلكى تنشأ الحياة على الكواكب ، كان لا بد من توافر شروط نذكر منها باختصار :

أن يكون النجم أو الشمس ذا عمر طويل جدا ، أى فى حدود عدة بلايين من السنين ، حتى تتهيأ الفرصة لتفاعلات كيميائية مستمرة على سطح الكوكب التابع لهذا النجم ، وأن يساعد النجم بإشعاعاته وحرارته التى « يرضعها » لكواكبه على مدى عدة مئات الملايين من السنين ، أن يتوج هذه التفاعلات بظهور جزيئات أعقد وأعقد لتنبثق منها الجزيئات الوراثية التى تظهر فى الخلية الأولى (وسنوضح ذلك فيما بعد) .

أن يكون الكوكب على مسافة مناسبة من شمسه حتى يستقبل (الرضعة) المناسبة من الأشعة والحرارة ، لأنها إذا زادت عن الحدود كوته وأحرقته بسعيرها ، وإذا تناقصت ، تجمدت « أوصاله » من شدة البرودة .. ويعتبر كوكب الأرض بوضعه الحالى مثاليا لظهور الحياة وتطورها حتى يومنا .

أن يكون الكوكب فى حجم مناسب ووزن مناسب حتى تصبح الجاذبية ذات أثر فعال على غلافه فالكواكب الصغيرة تفقد غلافها الهوائى .. وتضيع مياها بالبخر فى الفضاء ، لأن جاذبية الكوكب ضعيفة ، ولهذا لا تستطيع الاحتفاظ طويلا بالمقاومات اللازمة لظهور الحياة ، والعكس صحيح مع الكواكب الضخمة التى يجثم عليها غلافها كالكابوس الرهيب .. وأرضنا وسط بين هذا وذاك – وخير الأمور الوسط كما يقولون – حتى ولو كان ذلك على مستوى أجرام سماوية وكواكب !

أن يدور الكوكب على محوره لتتوزع الأشعة والحرارة بالتساوى على سطحه فى فترات متقاربة (كتعاقب الليل والنهار على كوكبنا) .

أن تكون فى الكوكب العناصر المناسبة لنشأة الحياة كما هو الحال فى أرضنا .. وهنا قد يبرز سؤال : وما يدرينا أن العناصر التى نشأت بها الحياة الأرضية هى نفس العناصر الموجودة فى الكون كله ؟

الواقع أن الكون - كما يراه العلماء - وحدة واحدة ، وكأنما هو فى البداية كان بمثابة «بطيخة» هائلة توزعت على هيئة « أطباق » ظهرت فى مجرات ونجوم وكواكب وأقمار .. فالشمس مثلا تشتغل بنفس العناصر التى تشتغل بها كل النجوم، ولقد تكونت الكواكب حول نجومها من نفس المادة التى تكونت بها الأرض وأخواتها الثمانية حول شمسها ، ومع ذلك فنحن نستطيع أن نكتشف عناصر الكون دون أن نذهب إلى النجوم ونحضر منها عينات للتحليل ، فالكون يذيع أسراره على هيئة موجات خاصة ، وكل عنصر فى السماوات يبعث لنا بأطياف عناصر لتسجلها الأجهزة على أرضنا كخطوط ثابتة لا تتغير للعنصر الواحد .. فللأيدروجين طيفه ، وكذلك للحديد والنيكل والكربون .. الخ ، ولقد أصبحت هذه الأطياف أو الخطوط بمثابة « بطاقات الشخصية » أو « بصمات الأصابع » التى تحدد لنا العناصر الموجودة فى الكون ، وهى لا تختلف عن العناصر التى نعرفها فى شمسنا أو أرضنا .. إذن فالأساس واحد ، وإن اختلفت الصور !

كوكب واحد يتيم !

والسؤال الذى يفرض الآن نفسه : كم كوكبا فى الكون يمكن أن يكون صالحا لنشأة الحياة وظهورها ؟

لكى نجيب عن هذا السؤال ، علينا أن نسقط من حسابنا كل الكواكب التى لا تدور فى فلك نجم مناسب ، أو أنها لا تقع على البعد المناسب ، أو لم تأت بكتلة مناسبة ، أو لم يتهيأ على سطحها الجو المناسب ، أو أية ظروف أخرى لا ندريها ، وعلينا أن نكون حريصين حتى لا نبالغ فى تقديرنا ، ولهذا دعنا نفترض أن من بين كل مليون كوكب لا يوجد غير كوكب واحد يتيم تهيأت فيه الظروف لنشأة الحياة العاقلة ، ورغم أن فى ذلك اجحافا كبيرا « لحقوق » ٩٩٩٩٩٩ كوكبا ، إلا أن هذا لا يدعو للأسف أو الاكتئاب ، إذ سيتبقى لدينا فى الكون المرصود أكثر من ألف مليون مليون كوكب صالح لظهور الحياة ، ولكننا لا نعرف أشكال ولا أحجام ولا ألوان ولا أمزجة ولا لغات هذه المخلوقات التى تسكنها ، ولا ندرى كذلك إن كان بعضها أكثر تقدما ومدنية وحضارة من هذا الإنسان الذى يسكن كوكب الأرض ، أو أن بعضها أحط منه شأنا .

الخلايا ولعبتها الخالدة

والواقع أن الظروف إذا تهيأت لعناصر الكوكب

– أى كوكب – ووجدت البيئة الصالحة لتفاعلها ، فلابد أن تظهر الجزيئات وتتعقد وتتطور وتنتظم فى جزئ كبير يكون تتويجا لهذا التفاعل الذى يستمر عشرات أو مئات الملايين من السنين .

وعندما يظهر هذا الجزئ – الذى هو بمثابة « آدم » الجزيئات فى عالمه – فإن من صفاته التكاثر والانقسام ، أى تخلفه ذرية جزيئية تشبهه فى النظام والتكوين ، وبهذه الجزيئات التى نعرفها الآن باسم الجزيئات الوراثية ، تكونت الخلية الحية الأولى منذ أكثر من ألف مليون عام ، وأصبحت هذه الخلية بمثابة « آدم » الخلايا ، ومنها اشتقت كل سلالات أو أنواع الخلايا التى نعرفها اليوم على أرضنا فى كل المخلوقات من أول الميكروب إلى الإنسان العاقل – ولا يزال كل منا حتى يومنا هذا يبدأ بدايته بخلية ملقحة فى رحم أم ، وكذلك القردة والخنازير والحمير والحشرات والديدان والنباتات .. الخ .

وكل هذا فى الواقع امتداد للخلية الأولى التى تمركزت فيها الجزيئات الوراثية فى نواة ، وأصبحت هذه النواة بمثابة (الإدارة) الحكيمة ، أو العقل المدبر ، أو الأرشيف الدقيق المكدس بالمعلومات الكيميائية ، أو الشفرات الوراثية .... ولقد تطورت هذه المعلومات والشفرات على مر مئات الملايين من السنين حتى استطاعت أن تتوج مشوارها الطويل بإنسان عاقل أو « آدم » البشر كما يقولون ، فأصبح هو الأساس فى كل هذا الطوفان البشرى سلالاته وألوانه وأمزجته ولغاته ، ووراء كل هذا خلية أو خلايا جنسية تنتقل من مخلوق إلى مخلوق من نفس النوع .. وكأنما هى تلعب لعبتها الخالدة ليسير التطور إلى مداه العظيم ، وعلى حسب الخطة الموضوعة من قديم الأزل ، لتكون هناك عقول أكفأ وأرقى وأكثر تطورا وتقدما .

إن نشأة الحياة على أرضنا ليست بدعة أو شذوذا أو حالة خاصة ، فهناك نواميس كونية ، وقوانين طبيعية تتحكم فى كوكبنا كما تتحكم فى ألوف الملايين من الكواكب التى تنتشر فى الكون ، ولهذا فإن نشأة الحياة فيها أمر طبيعى .. لكن ليس معنى هذا أن تكون نسخة طبق الأصل لما حدث فى كوكبنا ، فقد تكون بذرة الحياة أو الخلية الأولى التى ظهرت فيها قد تطورت بطريقة أو بأخرى ، ونتج عن ذلك مخلوقات تتأقلم وتتكيف مع ظروف الكوكب الذى نشأت فيه ..

وأيا كانت أشكال أو صفات هذه المخلوقات ، فإن الهدف يتركز فى النهاية على تتويج مخلوقات الكوكب أى كوكب – بعقل مدبر حكيم ، ليكون خليفة فى هذا الكوكب ، كما جاء الإنسان ليكون خليفة فى الأرض .

إن الله يحب الباحثين المفكرين المتأملين فى كل هذا الابداع والنظام المتقن الذى تزخر به السماوات والأرض ، ولقد وضع النواميس ، وترك الأمور

تجرى فى مجراها الطبيعى دون عجلة أو تسرع .. ولقد اكتشف العلماء كل ذلك على هيئة قوانين كونية تتحكم فى كل هذه الظواهر التى نفهمها والتى لا نفهمها !

إذن فهناك فكرة وهدف ، والهدف هو وجود عقول كثيرة ومنوعة لتنتشر فى هذه الأكوان ، ولتبحث فيما خلق الله .. ففى الحديث القدسى « كنت كنزا مخفيا ، فأردت أن أعرف فخلقت الخلق ليعرفونى » .. ولن يعرف الخالق إلا بالعقل - أى عقل - فى أى كوكب من بلايين البلايين من الكواكب، وإلا فهل جاء كل هذا بدون هدف أو تدبير ؟

لوقلنا ذلك ، لكان مجيئه بمثابة عبث فى الخلق ، فالكون المعمور أفضل عنده من الكون الخراب ، والعقل المدرك خير من كل صور الحياة غير المدركة .

اكتشافات لا تخطر على بال

إن التطور صفة بارزة من صفات الكون والحياة ، والتطور يحتاج إلى وقت طويل ، فلقد جاء الانسان منذ مائة ألف عام - وهى فترة قصيرة للغاية بالنسبة لمراحل التطور التى سبقت الإنسان ، واستمرت أكثر من ألفى مليون عام ، فجاءت مخلوقات ، وراحت أخرى ، حتى ظهرنا فى النهاية إلا أن الإنسان قضى معظم هذا الوقت هائما على وجهه ، يعيش حياة أقرب إلى الحيوان منه إلى الانسان ، ثم بدأت حضارته فى الظهور تدريجيا منذ حوالى ١٥ ألف عام ، إلا أن قفزته الهائلة فى المعرفة ، وحصيلته من العلوم التجريبية بدأت منذ حوالى قرنين من الزمان ، وبلغت قمتها فى القرن العشرين ، ومجدها فى النصف الثانى من القرن العشرين .. ولكن الأمجاد الحقيقية ستأتى على أيدى الأجيال القادمة .. فكل شئ سيتطور تطورا هائلا مادام العقل قد اشتغل ، وأمام هذا العقل المتطور ألوف الملايين من السنين ، فما زالت شمسنا فى عنفوان شبابها ، وستبقى فى هذه المرحلة النضرة أكثر من خمسة آلاف مليون عام ، وما دامت هناك شمس قائمة ، فلابد من وجود أرض وإنسان ، ومالم يدمر هو نفسه بنفسه ، فإن حياته على أرضه ستستمر كل هذا العمر الطويل !

ترى .. إلى أية درجة من العظمة والتطور العقلى سيصل الإنسان بعد ألف أو ألفى مليون عام ؟ .. لا أحد يستطيع أن يتنبأ بشئ ، ولكن من المؤكد أنه سيتوصل إلى حقائق ومعلومات واكتشافات لا تطرأ لنا على بال ، ولا تخطر فى عقولنا حتى ولو بطيف خيال .. وقد يقول عنا أحفادنا فى المستقبل البعيد « كم كانوا بعقولهم متحجرين هؤلاء الذين كانوا يعيشون فى الأزمنة الغابرة ! » كما نقول الآن على انسان العصر الحجرى الذى لم يعرف من الأدوات إلا الحجارة .

إنه إذن عامل الزمن ، والتطور يحتاج إلى زمن، وكلاهما صفتان من صفات الكون !

العقول المفكرة المتطورة

إن ما يسرى على المخلوقات يسرى أيضا على الكواكب والنجوم ، فالكل يسير فى عملية خلق وتجدد وتطور مستمر .. فالمخلوق ينشأ ثم يمر بمراحل العمر ويموت ، وينشأ غيره .. وكذلك الحال مع النجوم ، فلقد سجل العلماء بمناظيرهم الفلكية نجوما فى مراحل التكوين ، ونجوما فى حالة الاحتضار ، أو ما بين ذلك تكون أقدار النجوم الأخرى .. فعمر شمسنا وكواكبها يقدر بحوالى خمسة آلاف مليون عام ، وأمام الشمس عشرة آلاف مليون عام أخرى قبل أن تهرم وتحتضر وتموت ، ومعنى هذا أن كثيرا من نجوم السموات أقدم بألوف الملايين من السنوات من عمر شمسنا وأرضنا ويتبع ذلك أن بعض الكواكب المعمورة التى تطوف حول نجومها قد نشأت قبل نشأة شمسنا وأرضنا بمئات وألوف الملايين من الأعوام .

ويتبع ذلك أيضا أن بعض المخلوقات العاقلة التى تسكن هذه الأكوان قد ظهرت قبلنا بمئات أو ألوف الملايين من الأعوام ، وهى فترة لا تقارن بالمائة ألف عام التى مضت على ظهور الإنسان على كوكبنا ، ويعنى هذا وجود عقول أكفأ وأذكى بكثير من عقول أهل الأرض .. لأن الزمن - كما ذكرنا - كفيل بتطوير العقول ، وربما الحواس أيضا .. وقد تكون بين مخلوقات الكواكب الكونية (ولا شأن لنا هنا بمخلوقات كواكب الأسرة الشمسية إن وجدت فى غير الأرض) عقول ترى وتستوعب أبعادا أكثر من أبعادنا ، فنحن لا نستطيع مثلا أن نرى البعد الزمنى أو البعد الرابع كما يطلقون عليه ، رغم أنه منسوج فى الكون ، ولكننا نرى فقط أبعادا ثلاثة ، فتبدو بها الأشياء أمامنا مجسدة .. وقد تكون هناك مخلوقات أخرى ترى أبعادا خمسة وستة وسبعة .. ألخ !

لقد توصل العلماء - بالفعل - إلى هذه الأبعاد فى معادلاتهم الرياضية ، وليس لها ، بطبيعة الحال مغزى ، لا فى عقول العلماء ولا فى عقول الناس .. وربما لأن عقولنا وحواسنا لم تتطور بالدرجة التى تصلح لاستيعاب أسرار الكون الغامضة .. وربما استوعبتها المخلوقات العاقلة الأخرى التى ظهرت قبلنا فى الكون بمئات وألوف الملايين من الأعوام !

وليس ببعيد أن يتطور عقل الإنسان فى عشرات الملايين من السنوات القادمة إلى درجات هائلة .. فهدف الخالق يتركز على العقول المفكرة المتطورة .. لا الجامدة ، لأن الكون نفسه ليس جامدا ، بل أساسه الحركة والتفاعل والنظام والجمود .. فقال : « لو كنتم تعلمون ! » .

احتمال غير محتمل

يبرز الآن أمامنا سؤال أخير : إذا كان الكون يحوى ملايين الملايين من الكواكب المعمورة بمخلوقات عاقلة ، وكان بعضها أكثر منا تقدما وعلما وحضارة وعقلا وتفكيرا ، فلماذا لم يحاولوا الاتصال بنا حيث نحاول نحن ذلك رغم القصور

النسبى فى علمنا وتقدمنا ؟

يجيب على ذلك « آرثر كلارك » فى كتابه « الإنسان والفضاء » فيقول أن هناك احتمالات ، ولك أن تختار منها ما تشاء .

احتمال أننا المخلوقات الوحيدة العاقلة فى الكون ، وهذا فى الواقع احتمال غير محتمل ، ولو قلنا ذلك ، لكان دليلا على الجهل أو أن الإنسان مصاب بجنون العظمة !

احتمال أننا على قدر كبير من عدم الذكاء لدرجة أن أحدا من أصحاب العقول الخارقة الذكاء لا يجد فينا ما يثيره حتى يكلف نفسه مشقة الاتصال بنا ، وهو احتمال مقبض ، ولكنه أكثر احتمالا !

احتمال أنهم قد حاولوا الاتصال بنا ، أو أنهم يحاولون ، ولكننا لم نستطع أن نتوصل إلى كيفية استقبال اشاراتهم أو رموزهم (وقد يكون الاتصال قد حدث منذ مئات أو عشرات الألوف أو ملايين السنين .. فنحن حديثو العهد جدا بأجهزة الاستقبال الكونية) .

احتمال أنهم يراقبوننا ويدرسوننا بأجهزتهم المتقدمة كما يراقب دارسو المخلوقات الدنيئة الميكروبات مثلا تحت عدسات الميكروسكوب !

احتمال أن السفر بين النجوم غير ممكن لأسباب تكنولوجية ، أو لأخطار كامنة فى الفراغات الهائلة التى تفصل بين النجوم (ونحن فى الواقع لا نعرف عنها شيئا) ولهذا لم يحضروا لزيارتنا .

احتمال امكان السفر بين النجوم ، ولكن عدد الكواكب التى تطوف حول نجومها فى الكون كعدد حبات الرمل المنتشرة على شواطئ بحار ومحيطات العالم ، ولذلك فإن اختيار كوكبنا للزيارة احتمال ضئيل للغاية .. مرة واحدة فى عدة ملايين من الأعوام !

ومن يدرى ؟ .. فقد نلتقط اشارة بالأجهزة الضخمة التى شيدها الانسان حديثا على أرضه ، ربما نلتقطها غدا أو بعد ألف عام أو مليون عام ، لسنا ندرى .. ولكن الاحتمال قائم ، كما أن زيارتهم لكوكبنا قائم ، وعندئذ سنعرف الخبر اليقين .. قد يكون ذلك فى جيلنا أو فى ملايين الأجيال القادمة ، أو قد لا يأتى هذا اليوم على الاطلاق ، وتبقى أمور الكون مدثرة بالسرية والغموض !

وما نهاية المطاف إذن ؟

لا نهاية .. وإذا أردت نهاية ، فإليك الآية الكريمة « ومن آياته خلق السموات والأرض ، وما بث فيهما من دابة ، وهو على جمعهم إذا يشاء قدير » !

يونيه ١٩٧٢



الجــــولان التاريخ والاستراتيجية والمستقبل

من تحقيقات الهلال

نشأت أهمية الهضبة السورية وزاد التحدث عنها، بعد حرب يونيه ١٩٦٧.. فقد احتلت القوات الاسرائيلية مدينة القنطرة السورية يوم ١٠ يونيه ١٩٦٧، ولكن لم تحتل هضبة الجولان الا بعد معارك عنيفة مع الجيش السوري.

وبعد محاولات متتالية من الجيش الاسرائيلي استمرت يومي ٩، ١٠ يونيه.

منذ ذلك اليوم وقادة اسرائيل يعلنون أن الوجود الاسرائيلي - في الاراضي المحتفظ بها - هو الأمل الوحيد لتحريك الحكومات العربية لقبول المفاوضات مع اسرائيل.

وقد توالت تصريحات قادة اسرائيل منذ عام ١٩٦٧ ، تؤكد أنه ليس فى النية التنازل عن الهضبة السورية (الجولان) ...

ففى المؤتمر الاقتصادى اليهودى العالمى بالقدس فى ٢٦ / ٠٦/ ١٩٦٩ صرح موشى ديان بقوله : « الجولان هى جزء لا يتجزأ من اسرائيل ، ويجب أن يعتبرها كذلك كل من سلطات اسرائيل ويهود العالم » ..

وكان آخر التصريحات التى تمت بهذا الخصوص ما صرحت به جولدا مائير رئيسة وزراء اسرائيل فى حديث اذاعه راديو تل أبيب ونشرته الصحف يوم ٢ / ١٢ / ١٩٧٣ : « ان حدود السلام لا يمكن أن تكون حدود ما قبل حرب الأيام الستة ، ولكننا مستعدون لكثير من التنازلات ، وإن كان موقفنا من القدس والجولان مقررا » ...

ومن وقت قريب نقلت الصحف العربية تصريحات أدلى بها بن جوريون رئيس وزراء اسرائيل الاسبق والذى توفى أخيراً :

« اذا كان علينا ومقابل السلام أن نتخلى عن السيادة السياسية من أرض اسرائيل ، فإننى أنصح مواطنى بالجلاء عن معظم الاراضى المحتلة باستثناء القدس والجولان » ..

وحديثنا فى هذا المقال يشمل :

- الموقع الجغرافى للهضبة السورية (الجولان) ضمن طبيعة الارض السورية .
- لمحة تاريخية .
- الاهمية الاستراتيجية العسكرية للجولان .
- بعض المشروعات التى أقامتها اسرائيل بالهضبة السورية (الجولان)

الموقع الجغرافى وطبيعة الأرض

نظرا لأن الهضبة السورية هى جزء لا يتجزأ من الجمهورية العربية السورية - طبيعيا وتاريخيا وسياسيا - فمن الضرورى ايضاح طبيعة الاراضى السورية قبل التعرض للموقع الجغرافى ... وطبيعة الارض للهضبة السورية (الجولان) ..

أرض الجمهورية العربية السورية

تحد شمالا بتركيا ، وجنوبا بالاردن ، وغربا بلبنان وفلسطين المحتلة ، وشرقا بالعراق ويتكون الجانب الاكبر من الاقليم من هضبة مرتفعة ، يتراوح ارتفاعهما ما بين ٢٠٠ و ٧٠٠ متر ، وهى مناسبة لتنفيذ الاعمال القتالية لكافة الاسلحة .

وتمتد بادية الشام (صحراء الحماد) الى منطقة الحدود مع الاردن والعراق ، وهى صحراء مستوية ويسهل وصول جميع الاسلحة اليها .

وتتواجد الجبال اساسا فى غرب الاقليم ، وهى تتكون من سلاسل جبلية تمتد من الحدود التركية فى الشمال الى الحدود اللبنانية فى الجنوب ، وأهم هذه الجبال جبل الشيخ ، والجزء الجنوبى الغربى لهذا الجبل يتحكم فى اجزاء من أراضى لبنان وسوريا وفلسطين .

هضبة الجولان

تقع فى أقصى الجنوب الغربى لسوريا ، وهى ترتكز فى الشمال على جبل الشيخ ، وتنحدر غربا الى نهر الاردن بحيرة طبرية ، منطقة الحولة

وتستند فى الجنوب على جزء من الحدود السياسية بين سوريا والاردن ، وتمتد شرقا الى بادية الشام .

وطبيعة الارض فى شمال الهضبة جبلية صخرية تتدرج فى الارتفاع فى اتجاه الشمال الغربى ويتخللها عدد من مجارى السيول التى تتجه فى اتجاه الشرق والجنـوب الشـرقى والجنوب الغربى .

وفى وسط الهضبة تنفتح الارض ويتخللها بعض مناطق تحتوى على صخور ركامية واراض منخفضة ، وتتدرج الارض فى الارتفاع من الشرق فى اتجاه الغرب ، ثم تبدأ فى الانخفاض مرة ثانية، الى أن تنتهى عند الميول الحاد للهضبة عند وادى ونهر الاردن ، ويعتبر هذا الجزء اصلح المناطق لعمليات القوات الميكانيكية وخاصة على المحور «القنيطرة – جسر بنات يعقوب » ثم الى الاراضى المحتلة .

وفى جنوب الهضبة أرض جبلية تتموج فى بعض اجزائها وتتدرج فى الارتفاع حتى تتجه شرقا حتى خط المقيرة جسم الجولان ، حيث تبدأ فى الانحدار ثانية فى اتجاه الشرق .

ويعتبر هذا الجزء من الهضبة صالحا نسبيا لعمل القوات الميكانيكية وخاصة على الطرق ...

وتنتشر بالجولان عدة مدن صغيرة ، ومن أهمها القنيطرة التى تبعد عن دمشق بحوالى ٦٤ كيلو مترا . وترتبط بها بطريق أسفلتى يمتد فى اتجاه الجنوب الغربى الى جسر بنات يعقوب ، ويصل الى صفد بالارض المحتلة .

وترتفع الهضبة بحوالى ٣٠٠ متر عن الأراضى المنخفضة فى فلسطين المحتلة ، وهى لهذا تعتبر متحكمة فى كافة المستعمرات الواقعة فى فلسطين وعلى مقربة من حافتها ، ومن هنا تتحدد أهمية هذه الهضبة .

وأعلى جبال الهضبة هو جبل الشيخ ، ويبلغ ارتفاع قمة حرمون به الى ٢٨١٤ مترا فوق سطح البحر .

وحافته الجنوبية الغربية تقع عند التقاء الحدود بين سوريا ولبنان وفلسطين المحتلة ، وهو بذلك يعتبر من أهم المواقع المتحكمة فى الهضبة .

لمحة تاريخية

كان يحد فلسطين من الشرق (قبل ان تحتل الجزء الاكبر منها القوات الاسرائيلية ، أى قبل عام ١٩٤٨) – الجمهورية العربية السورية والمملكة الاردنية الهاشمية ، على خط يمتد من غربى بانياس ويسير جنوبا على طول الضفة الشرقية لنهر الاردن والشواطىء الشرقية من بحيرة طبرية ويتجه جنوبا بشرق الى محطة الحمة الواقعة فى الجمهورية العربية السورية .. ثم يكمل سيره جنوبا على محاذاة ضفة الاردن الشرقية حتى مصبه فى البحر الميت ، ثم يمتد بشكل وهمى بحيث يقسم البحر الميت الى قسمين متساويين (شرقى وغربى) ثم بعد أن ينتهى من الطرف الجنوبى للبحر الميت يكمل سيره مع انحراف قليل الى الشرق على طول سلسلة جبال الشراء الى أن ينتهى عند خليج العقبة فى رأس طابا على بعد ميلين الى الغرب من مدينة العقبة .

وكانت الجولان هي المنطقة الفاصلة بين الجمهورية العربية السورية واسرائيل قبل عدوان يونيو ١٩٦٧ ، وهي تشغل ساحة عمليات صعبة لكلا الطرفين حيث لا تساعد طبيعة المنطقة على القيام بالمناورات الواسعة ، ويصعب على قوات اسرائيل خرق الجبهة السورية والتي تمتاز بمواقعها الحصينة ذات العمق الكبير .

وقد كان ذلك سببا في فشل الهجوم الاسرائيلي الذي تم بالمواجهة في يوم ٩ يونيو ١٩٦٧ في اتجاهين : الاول من جنوب بحيرة طبرية في اتجاه خسفين ، والثاني من مرتفعات جسر بنات يعقوب في اتجاه القنيطرة ، مما دعا الاسرائيليين الى أعادة الهجوم يوم ١٠ يونيو ١٩٦٧ من على الاجناب من الشمال من داخل الاراضي اللبنانية ومطوقة وبانياس في اتجاه القنيطرة ومن جنوب بحيرة طبرية في اتجاه الشمال الشرقي في اتجاه خسفين .

الاهمية الاستراتيجية والعسكرية للجولان

١ - تمتد الحدود بين اسرائيل وسوريا حاليا الى مرتفعات الجولان ومشارف الحرمون ، ولهذه الحدود المزايا الآتية من وجهة النظر الاسرائيلية :

أ - تدعم كثيرا حالة الامن الحالية في الجليل الاعلى والجليل الاسفل وغور الاردن .

ب - تسهل الوضع الدفاعي ضد أي هجوم سوري محتمل .

جـ - تستخدم كقاعدة انقضاض مثالية للهجوم المضاد امام أي هجوم سوري .

د - لا يفصلها عن حدود الاردن الشمالية أي عائق ، وهذه الحقيقة تتيح أمكانيات لفتح جبهة أخرى ضد الاردن اذا ما دخلت الاردن الحرب ضد اسرائيل .

هـ - انها قريبة من تجمع الدروز في جنوب سوريا .

و - تعتبر هضبة الجولان الحد الطبيعي الشرقي الآمن مع سوريا .

وقد أوضح ايجال الون نائب رئيسة الوزراء الاسرائيلية وجهة نظره في الحدود الآمنة بالاتي :

« الحدود الآمنة هي تلك الحدود السياسية التي ترتكز على عمق اقليمي وعقبات طبيعية مثل المياه والجبال والصحراء والممرات الضيقة التي تحول دون تقدم جيوش برية مزودة بمدرعات ، وهي الحدود التي تمكن من اتخاذ وسائل الانذار الفعالة ضد اقتراب الطائرات المعادية من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن هذه الحدود تستخدم كقواعد مناسبة للقيام بالهجوم المضاد » .

٢ - يتوفر في الاتجاه العملياتي ، والذي يمتد من حدود لبنان حتى جنوب بحيرة طبرية والذي يبلغ عرضه من ١٠٠ - ١٢٠ كم ، وعمقه ١٥٠ كم - عدد من المحاور والطرقات التي تخترق هضبة الجولان ، وأهمها محور دمشق القنيطرة - جسر بنات يعقوب ، وتتجلى أهمية هذا المحور بأنه الاتجاه الرئيسي لاى عمليات عدوانية ضد الجمهورية العربية السورية في حالة اتخاذها الدفاع ، كما أنه الاتجاه الرئيسي لتقدم القوات



العربية وبلوغها أهم أهدافها عند تحرير الارض العربية المغتصبة (هضبة الجولان) . ويبلغ حجم القوات الممكن استخدامها فى هذا الاتجاه من ٣ - ٤ فرق .

٣ - يشرف جبل الشيخ على مناطق واسعة من الجولان المحتلة ومن الاراضى السورية (ويبلغ ارتفاع الجبل ٢٨١٤ مترا) وقد أقامت اسرائيل عليه نقطا للمراقبة العسكرية ومحطات للرادار .

٤ - تسيطر هضبة الجولان على وادى الحولة بأكمله ووادى الاردن وبحيرة طبرية .

٥ - ازال تجفيف بحيرة الحولة احد العوائق الكبرى التى تحمى الجليل ضد الهجوم السورى الى وادى الحولة ، كما اضاف أرضا كبيرة صالحة للرقعة الزراعية بالمنطقة .

٦ - تتوفر المياه فى المنطقة ، فمياهها غزيرة (١٠ ملايين مترمكعب سنويا) وهى تكفى لانعاش زراعات كثيرة مختلفة من منتجاتها : (الطماطم ، البصل ، البطاطس - الجوز - الفراولة - الكمثرى - الخضراوات) .

بـعض المدن والمـراكز السـياحية فى الجـولان :

منطقة الطرف الجنوبى الغربى لجبل

الشيخ الذى يشرف علي مناطق واسعة من اسرائيل والاراضى السورية .. وقد بنت عليه اسرائيل نقطا للمراقبة العسكرية ومحطات للرادار، ثم مستعمرة على سطح الجبل على أرض قرية جباتا الزيت العربية على خط وقف اطلاق النار مع سوريا وسط منطقة من الجبال والمرتفعات . كما أنشأت مبنى للرياضة الشتوية والتزحلق على منحدر الجبل .

مدينة القنـيطرة

وتعتبر قاعدة الهضبة السورية (الجولان) وأكبر المدن بها ، وكان بها قبل عدوان يونيو ١٩٦٧ حوالى ٢٠,٠٠٠ نسمة ، وقد أجلى الاسرائيليون كل أهلها واقاموا بها مركزا عسكريا قوامه جنود نظاميون ، وفندقا واستراحة .. كما أنشأ الاسرائيليون به « كيبوتز » وهو الكيبوتز الاول فى منطقة الجولان ، وسموه « كيبوتزها جولان » ثم ناحال سمى « ناحال هاجولان » على بعد ٢.٥ كيلو متر من خط وقف اطلاق النيران بين سوريا واسرائيل .

كما أنشأت سدا للمياه قرب القنيطرة يخزن به ٣٥ الف م٣ ويتسع عند الحـاجة الى $2\frac{1}{4}$ مليـون م٣ ..

الحمـــة

وبها « ينابيع الحمة » المدينة الصحية الشهيرة والتى أقام العرب فيها منشآت ذاع صيتها فى العالم منذ عشرات السنين ، وقد استغلها الاسرائيليون لاغراض السياحة .

مديـنة فـيق

وهى فى الجزء الجنوبى من الهضبة السورية ، وكان عدد سكانها فى يونيو ١٩٦٧ أقل من ٢٠,٠٠٠ نسمة .

مشروعات ومستعمرات اقامتها اسرائيل فى الجولان

١ - ورد الإعلان الاول خارج فلسطين المحتلة عن تمسك اسرائيل بالجولان بانشاء مستعمرات فيها - فى مقال نشرته جريدة « الجارديان » ، اللندنية فى ٨ / ٨ / ١٩٦٧ ، وقد حمل حجة اسرائيل التقليدية « نحن ننشىء المستعمرات لحماية نسائنا واطفالنا ما دمنا عاجزين عن اقناع العرب بمصالحتنا ، وكلما تأخر العرب فى عقد الصلح معنا أصبح الوصول الى هذا الصلح اكثر صعوبة ، اذ تكـون قد أنشـأنا المـزيد من المستعمرات .. »

كما أعلنت اسرائيل انها قررت البدء فى اقامة ناحال فى بانياس على بعد ٧٠ كم من دمشق وقرب أحد مصادر مياه الاردن .

وقد استمرت اسرائيل بعد ذلك فى اقامة المستعمرات والناحال والكيبوتز محل المدن السورية مثل (بانياس ، والقنيطرة ، وبلدة عين زيوان جنوب القنيطرة ٥ كم) وعلى سفح تل الفرس .

وفى اقل من سنة بعد احتلال هضبة الجولان، كانت اسرائيل قد اقامت عددا من المستوطنات اليهودية، ولم تكتف اسرائيل بالانشاءات بل شقت الطرق واعطت المنح والقروض لاستغلال الاراضى واستصلاحها ... وقد انفقت الوكالة اليهودية خمسة ملايين ليرة اسرائيلية على بناء وتطوير المستعمرات فى الجولان، فى اول سنتين للعدوان الاسرائيلى، وواصلت اسرائيل اقامة المستعمرات داخل الهضبة واسكان العسكريين بها، وقد حرصت على اقامة المستعمرات فى المناطق الخصبة والتى كانت فى الماضى طريقا للفدائيين الفلسطينيين يدخلون منها الى الاراضى المحتلة لزرع الرعب فى نفوس الاسرائيليين ...

وقد جاء فى مقال نشرته جريدة « ها ارتس » الاسرائيلية « انه قبل الخامس من يونيه كان الوصول شرقا فى اتجاه سوريا فى منتهى الصعوبة أما الآن فلم يعد بامكان الفدائيين ان يعبروا المنطقة بفضل قيام المستعمرات ... »

وقد أعلن مدير منطقة الجليل فى ١٩٦٩/٥/١٩ أن الوكالة اليهودية ستصرف ٣٠ مليون ليرة اسرائيلية فى اعمال البناء فى الجولان فى مدة ثلاث سنوات، وأن ما استصلح بواسطة هذه الوكالة من أراضى الجولان يبلغ ٥٠ ألف دونم، وقد قام بهذا العمل ١٥ الف عامل .. كما قال أن اسرائيل تخطط ليصبح عدد المستوطنات فى الجولان ٢٥ مستوطنة مساحتها ١٧٠ الف دونم، وسكانها ١٣ الف شخص ينتجون بما يعادل ٥٥ مليون ليرة اسرائيلية سنويا ... وقد أصبح بالهضبة الآن ما يقرب من ٣٥ مستوطنة.

٢ – اقامة شبكة واسعة من طرق المواصلات للربط بين المستوطنات وبعضها البعض، وبها طريق رئيسى يشطر الجولان شطرين من الجهة الجنوبية الغربية الى الشمالية الشرقية ويتفرع منه عدة طرق فرعية.

يتضح مما تقدم – وهو بعض ما قامت به القوات الاسرائيلية المعتدية من مشاريع ومستعمرات داخل الهضبة السورية، وما أمدت به المستعمرات من خدمات – أن اسرائيل تعتزم البقاء فى المنطقة واستغلالها ...

ختـــــام

هذه لمحة سريعة مختصرة عن تاريخ وأهمية الهضبة السورية (هضبة الجولان)، وما قامت به القوات الاسرائيلية العدوانية من مشروعات وما أقامته من مستوطنات راغبة فى الاحتفاظ بها معلنة ذلك على ألسنة زعمائها وقادتها ... فهل أمنت اسرائيل ؟ ... لا ! أنها مازالت خائفة من القوات المسلحة السورية والفدائيين الفلسطينيين ...

لقد اتجهت اسرائيل اخيرا الى منع بناء البيوت الحجرية فى المستعمرات الجديدة، والاستعاضة عنها بالاكواخ الخشبية حتى يسهل نقلها حسب متطلبات الأمن ...

وسوف تتبخر آمال اسرائيل واحلامها فى الاحتفاظ بالجولان، عندما تستعيد سوريا وقواتها المسلحة الباسلة هضبتها، وترفع رايتها فوق كل جزء منها، فالهضبة السورية (الجولان) هى جزء لا يتجزأ من أرض سوريا العربية الحبيبة ...

يناير ١٩٧٤

مدينة عربية فاضلة

على شاطىء البحر المتوسط

د . بطرس بطرس غالى

التاريخ المعاصر يفرض على الدول الصغرى أن تتحد لتكون فيما بينها كائنات كبرى تستطيع أن تواجه مقتضيات العصر ، وهناك دول فرضت عليها ظروف ماضية أن تتجزأ ، فالظروف الحاضرة تفرض عليها أن تتقارب ثم تتآلف ثم تتحد لتعود إلى ما كانت عليه ... والوطن العربى كان وحدة واحدة فى فترة من تاريخه الطويل ، ثم قضت عليه ظروف التطور والاستعمار أن يتجزأ ، وقد آن الأوان لكى يتخلص من هذه التجزئة ويعمل على الوحدة .

فى مقدمة القضايا التى تعترض طريق الوحدة اختيار عاصمة لها ، لان عواصم الاقطار العربية التى ستتحد تتنازع هذا الشرف ، وتتنافس فى سبيله . فالقاهرة مثلا ستقول إنها أكبر عاصمة فى الوطن العربى وإنها القلب النابض لكل حركات تقدمية قامت فيه .

ومكة المكرمة ستقول : انها الحرم الذى يؤمه جميع المسلمين فهى جديرة بهذا الشرف .

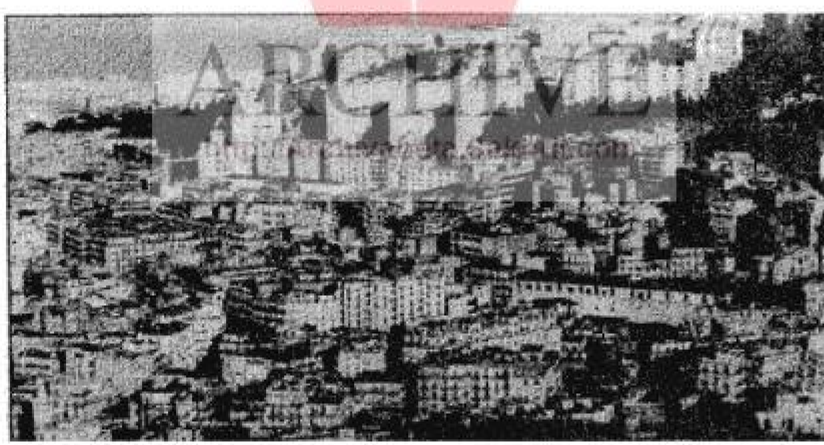
وستقول القدس : إنها عاصمة الديانات السماوية الثلاث .

ودمشق ستقول : إنها عاصمة الأمويين ، كما تقول بغداد إنها عاصمة العباسيين .



ميناء الاسكندرية

مدينة الجزائر



ومدينة الجزائر ستقول إنها عاصمة المليون شهيد ، وهكذا وهكذا ...

تستطيع كل عاصمة لدولة عربية أن تتقدم حين تقوم الوحدة بعشرات من الحجج القوية لتبرر كونها أصلح من غيرها لتكون عاصمة للوطن العربي في تكتله الجديد .

●●●

وإذا استقصينا تاريخ الفكر الوحدوي على مر العصور وجدنا أن اهتمام الدعاة الأكبر كان موجها الى اختيار البلد الذي يكون عاصمة للوحدة المنشودة . فأمريك كروشويه ذلك المفكر الفرنسي الذي نادى بوحدة أوربا ، بل ونادى بوحدة العالم في القرن السابع عشر اقترح أن تكون مدينة البندقية بايطاليا عاصمة وحدته المبتغاة .

أما «سوللي» وزير خارجية هنري الرابع ملك فرنسا ، فإنه في مشروعه الأعظم نادى بوحدة أوربا واقترح لها ثلاث عواصم : فمدينة كراكوفيا في بولندا تكون عاصمة للوحدة التي تتألف من بولندا والسويد والدانمرك والمانيا . ومدينة ترانت بايطاليا عاصمة للوحدة المكونة من سويسرا والتيرول والمجر ونابلى وسيسيليا . أما مدينة باريس فتكون عاصمة المجموعة المؤلفة من فرنسا وأسبانيا وبريطانيا وهولندا .

أما القس «سان بيير» فتقدم بمشروعه المشهور لإقامة سلام دائم في أوربا وصاغه في كتابين يقعان في ١٢٠٠ صفحة ، وقد نشرا في بداية القرن الثامن عشر ، وكانت المادة الأولى من دستور الدولة الاتحادية التي يقترحها تنص على أن تكون مدينة أوترخت بهولندا عاصمة للاتحاد الاوربي المقترح ، ويبرر اختياره لها بأن الهولنديين شعب تجاري يتميز بطبيعة الهدوء ، وهذه الصفة تجعله يعلى باستتباب السلام والأمن ، ثم إن هذه المدينة - في رأيه - ستكفل لممثلي الدول إقامة طيبة تهدأ فيها أعصابهم لما تمتاز به من طيب الهواء ، وعذوبة الماء ، وحسن الموقع مما يجعل حسن التفاهم مكفولا بين ممثلي الأقاليم .

●●●

وفي العالم العربي نجد أن دعاة الوحدة قد اهتموا كذلك باختيار العاصمة ، فعبد الرحمن الكواكبي الذي نادى بالوحدة الإسلامية في كتابه «أم القرى» جعل مكة المكرمة هي العاصمة المختارة لأنها ملتقى كافة المسلمين في موسم الحج كل عام.

وإذا تجاوزنا الماضي وانتقلنا الى التجارب الوحدوية الحديثة نجد أن اختيار العاصمة كان دائما موضع خلاف وصراع بين الدول الراغبة في الاتحاد حتى أن كثيرا من الحركات الاتحادية انشأت لنفسها عاصمة جديدة بعيدة عن العواصم القطرية لتأمن بذلك عادية الصراع والتنافس . فانشئت واشنطن في الولايات المتحدة الأمريكية لتكون عاصمة للاتحاد ، وكذلك انشئت برازيليا لتكون عاصمة للولايات المتحدة البرازيلية ، وكان مبعث اختيارها وقوعها في وسط الولايات .

والدول الاتحادية التي لم تستطع أن تنشىء لنفسها عاصمة جديدة قبل أن تتحد أو بعد اتحادها تعرضت لكثير من المنازعات والمتاعب

بسبب العاصمة ، لذلك ظلت لها أكثر من عاصمة ، فهولندا حتى اليوم لها عاصمتان مما لاداى واستردام ، وبعض البلاد الاتحادية توزع الهيئات الحكومية على أكثر من عاصمة لتكسر حدة التنافس فسويسرا جعلت مقر السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية فى مدينة برن ، وجعلت مقر المحكمة الاتحادية العليا فى لوزان .

تلك الامثلة تبين أهمية حسن اختيار عاصمة الوطن العربى منذ الآن ، حتى اذا ما أتيح للجهود المبذولة أن تنجح فى تحقيق الوحدة الشاملة للوطن العربى تكون العاصمة معدة ومهيأة للقيام بدورها القيادى ، ومنذ البداية نستبعد فكرة أن تكون أية عاصمة من العواصم القطرية هى العاصمة المختارة مستقبلا للوطن العربى المتحد ، لأن التجارب التاريخية يستفاد منها أن اختيار عاصمة قطرية لتكون عاصمة للوحدة المنشودة تمنح القطر الذى وقع الاختيار على عاصمته نوعا من السيطرة على الوحدة مما يخل بتوازن القوى المنشودة ، ويسبب بعض الاحتكاكات وبعض المنازعات .

ويضاف إلى ذلك أن الوحدة العربية المرادة ستكون تجربة جديدة وفى حاجة الى أجهزة جديدة، ومن هذه الأجهزة مدينة جديدة تنشأ خصيصا لتكون عاصمة للوحدة .

فاذا كان الاتفاق قائما على أن عواصم مثل القاهرة ، أو الرباط ، أو تونس ، أو مكة ، أو دمشق وغيرها لا تصلح لأن تكون العاصمة المثالية للوحدة العربية الجديدة فالسؤال يكون اذن : أين تقام هذه المدينة المثالية لتكون العاصمة ؟

نحن نرى أن المدينة المثالية يجب أن تتوافر فيها صفات لابد منها وفى مقدمتها :

أولا – أن يكون موقع هذه المدينة فى وسط العالم العربى ، وليس فى طرف من أطرافه النائية . وذلك لتتساوى مسافات السفر تقريبا بالنسبة لجميع الاقطار العربية .

ثانيا – أن تكون فى موقع يسهل الوصول اليه برا وبحرا وجوا ، وأن تكون ذات جو معتدل طوال العام لتكون ملائمة لمن سيقيمون فيها ممن يمثلون القيادة العربية الفكرية والسياسية .

ثالثا أن تكون فى موقع يسمح بتلاقى التيارات الفكرية والتجارية العالمية .

وتلك الصفات يمكن أن تتوافر فى بلد يقع على شاطىء البحر المتوسط ، واذا كان من صفة هذه المدينة أن تقع فى وسط العالم العربى ، واذا تأملنا مليا نجد أن المكان الصالح لهذه المدينة الفاضلة يقع فيما بين السلوم وطبرق . فإما أن ينعقد الاتفاق منذ الان على إعداد إحدى هاتين المدينتين لتقوم بالدور الذى سيفرض عليها ، وإما أن يختار مكان صالح بين هاتين المدينتين على شاطىء البحر المتوسط ، ويعد ليكون المقر المختار ، ويمنح استقلالا تاما استعدادا لأن تكون تلك المدينة هى عاصمة الوحدة ، وهى مقر كافة المنظمات الوحدوية القادمة .

إن كلا من ليبيا ومصر تستطيع أن تجعل – منذ اليوم – أحد أهداف الوحدة الاندماجية التى قامت بينهما ، العمل على إنشاء مدينة مثلى لتكون العاصمة الجديدة للوحدة العربية الشاملة الجديدة .


القمر والأرض

من الطبيعى أن يعقب النزول على القمر اقامة قواعد قمرية ومستعمرات ثابتة ، وقد تنشأ بعد ذلك المصانع والمصحات ... ومن مثل تلك القواعد سوف يقلع الانسان إلى الكواكب السيارة ، بل وربما وصل إلى مجموعات الشمس الأخرى ، مثل مجموعة « قنطور س » التى هى أقرب مجموعات الشمس الينا وهى لا تبعد عنا إلا بنحو ½ ٤ من السنين الضوئية – علما بأن السنة الضوئية هى المسافة التى يقطعها الضوء فى سنة كاملة بسرعته البالغة ٣٠٠ ألف كيلو متر فى الثانية .

ولقد ظهرت عدة طرق تعالج موضوع الملاحة إلى القمر ، وأهم هذه الطرق التى وافق عليها الخبراء هى :

١ – طـــريقة الانطلاق من مدار من حول القمر ..

٢ – طريقة الطيران المباشر إلى القمر ..

٣ – طريقة الانطلاق من مدار من حول الأرض، (وسوف نعود إلى شرحها مع شىء من التفصيل) .

وكما هو متوقع ، يعتمد الانسان فى نجاحه فى كافة هذه العمليات على مقدرته الفائقة فى أى ظرف على تكييف البيئة التى يريد أن يعيش فيها ، ويجعلها ملائمة له من كافة الوجوه ، مثل الضغط الجوى ، ودرجـــة الحرارة ، وكثافة الاشعاع الشمسى .

ويستخدم رواد الفضاء على القمر حلل الضغط المحكمة التى تتصل بالمركبة القمرية بموصلات تشبه حبل الصرة ، كما يحملون معهم خزانات الاوكسيجين اللازم للتنفس ، ومعدات التحكم فى درجات الحرارة ، وغيرها من مستلزمات الحياة الاخرى ..

ولاول مرة فى تاريخ عصر الفضاء استخدمت الطاقة النووية كمصدر للطاقة اللازمة لتشغيل بعض أجهزة سفن الفضاء ومحطات الرصد التى انزلت على سطح القمر من أجل رصد الزلازل هناك ، ولتوليد الطاقة الحرارية اللازمة للتدفئة والتكييف خلال ليالى القمر الطويلة .

وخوفا من عدوى كائنات الفضاء الدقيقة التى لا علم لنا بها ، وحرصا على سلامة الناس ، يتم نقل كل العينات التى يجلبها الرواد معهم بطائرات خاصة إلى معمل البحوث القمرية فى « هيوستون» ليجرى المختصون عليها بحوثهم ودراساتهم قبل أن توزع على العلماء الاخرين .

ثلاث مراحل فى الخطة الروسية

هناك ، رغم الرقابة العسكرية فى كل قطر ، مبدأ اتفقت عليه الدول الكبرى ، فحواه حفظ سجل أسفار الفضاء كاملا بمكتب التسجيل بالامم المتحدة ، ولكن من المفهوم أنه يوجد ارتباط بين تجارب الفضاء (أو الصواريخ) والاستعدادات العسكرية المعتمدة على القذائف ذات المدى البعيد .

وقد انبثقت تجارب الفضاء أول الامر فى أعقاب الحرب العالمية الثانية بسبب الحاجة الماسة إلى اعداد رءوس نووية تطلق على أهداف بعيدة ، ثم الحاجة الماسة إلى دراسة عناصر الجو العلوى والفضاء المحيط بالارض خلال السنة العالمية الاولى لطبيعيات الارض (١٩٥٧) .

وقد سارت خطة الروس فى مراحل ثلاث هى :

المرحلة الاولى : مرحلة الاقمار الصناعية أو توابع الارض ، وقد تضمنت هذه المرحلة اضافة مجموعة صناعية من الاقمار التى تدور حول الارض على غرار القمر الطبيعى لجمع المعلومات اللازمة الخاصة بغلاف الارض الجوى والفضاء الخارجى ، مثل تجمعات السحب وأحزمة الاشعة الكونية التى تضرب نطاقا حول الارض .. وكان أول قمر صناعى دار حول الارض هو « سبوتنيك - ١ » الذى أطلقه الروس فى ٤ أكتوبر ١٩٥٧ وظل فى مداره ٥٧ يوما .

المرحلة الثانية : مرحلة القمر الطبيعى والقمر كما هو معروف هو باب السماء لاهل الارض ، لانه يمثل محطة الفضاء الكونية التى هيأتها الطبيعة من تلقاء نفسها وجعلت لها أرضا صلبة لتكون بمثابة الباب الذى يخرج منه الانسان إلى ما شاء الله من أرجاء الكون الفسيح ويطور المجموعة الشمسية .

ومن أوائل أسفار هذه المرحلة : اطلاق سفن الفضـــاء « لونيـــك - ١ » و « لونيـــك - ٢ » و « لونيك - ٣ » .

ومشروع لونيك - أى القمرى - انما يهدف إلى خلق أقمار صناعية تدور حول القمر وتظل على أتصال دائم مع الأرض ، ثم يلى ذلك انزال بعض اجهزة الرصد وآلات التتبع والتسجيل إنزالا هينا لينا على سطح القمر ، وتقوم تلك الاجهزة بارسال ما ترصـــده أو تسجله من عناصر البيئة المحلية هناك ، مثل درجات الحرارة ، وكثافة الاشعاع، وهزات القشرة وزخات الشهب الخ .

ويقوم البرنامج السوفييتى على أساس أنه بعد جمع تلك المعلومات والتثبت منها وتحليلها عمليا تجىء مرحلة طيران الانسان إلى القمر ، ليدور من حوله ، ثم ليهبط على سطحه .. وتفسر لنا هذه الحقيقة ذلك التضارب الذى قرأناه أو سمعناه عن مهمة لونا (١٥) ، فهى ولا شك تدخل ضمن برامج «لونيك» التى تهدف إلى خلق جيل من الاقمار الصناعية تدور حول قمر الارض الطبيعى لجمع المعلومات اللازمة عنه وعن سطحه وبيئته .

المرحلة الثالثة : السفر إلى الكواكب ، وتطوير المجموعة الشمسية .

يقول الفلكى البريطانى المشهور السير «برنان لوفيل » فى مقال له نشرته مجلة (نيوز آند وورلد ريبورت عام ١٩٦٣) : « أن الروس أنما يركزون على هدفين فى برامج غزو الفضاء :

الهدف الاول « هو انزال أجهزة وآلات للرصد انزالا لينا على سطح القمر من أجل جمع المعلومات المطلوبة وثانيا دراسة بعض الكواكب الاخرى بنفس الطريقة هذه » .

وعلى ذلك فان البرنامج الروسى لارتياد الفضاء يتركز فى تشييد محطة ضخمة تحمل آلات الرصد من الفضاء .

« ابوللو » من الأرض إلى القمر .

هذا البرنامج كان برنامج أمريكا الثالث لانزال الانسان على سطح القمر وإعـــادته سالما إلى الأرض ، وتتكون السفينة من ثلاثة عنـــاصر رئيسية هى :

أ - عنصر القيادة الذى يطلق ليصل إلى القمر ويدور فى مدار من حوله ثم يعود إلى الأرض حاملا رواد الفضاء الثلاثة بالاضافة إلى أجهزة التوجيه والاتصال ، ومقومات الحياة ..

ب - عنصر الخدمات وهو مجهز بمعدات وآلات لاجراء المناورات وعمليات الانفصال والاتصال والخروج من المدار القمرى عند بدء العودة إلى الأرض .

جـ - عنصر نقل رجال الفضاء من المدار القمرى إلى سطح القمر ، ثم العودة بهم من جديد إلى المدار القمرى من أجل اللحاق بالسفينة الام ويسمى هذا العنصر أيضا باسم المركبة القمرية ، وتميزها مثلا قوائم تشبه سيقان العنكبوت تساعد على الهبوط اللين فوق القمر .

ومركبة الاطلاق هى من طراز الصاروخ «ساتيرن - ٥» التى يقارب ارتفاعها عندما تنتصب واقفة ارتفاع ٢٨ طابقا ، بينما يعادل ارتفاع السفينة ٨ طوابق ، وتعمل المرحلة الاولى على إرسال السفينة إلى مسارها المرسوم من حول الأرض . وبعد ذلك تشتعل المرحلة الثانية لاكتساب المجموعة سرعة تكفى للهروب بالمجموعة من مدار الأرض أى إلى نحو ٢٥ ألف ميل فى الساعة لكى تنطلق فى مسارها المرسوم من الأرض إلى القمر .

والغالب أنه فى تلك المرحلة يتولى رواد الفضاء بمعرفتهم عمليات التحكم فى سفينة الفضاء المكونة من العناصر الثلاثة السابقة . وعادة تبدأ تصويبات منتصف الطريق بعد مضى ٤٥ دقيقة على انتقال سفينة الفضاء من مدارها الأرضى باستخدام أجهزة عنصر الخدمات .

وبعد أن يستتب أمر السفينة فى مدارها القمرى المرسوم يستعد الملاحون للهبوط على القمر فى البقعة المختارة ، وبعد ذلك يتسلل رائدا الفضاء المكلفان بكشف معالم القمر إلى العنصر الثالث ، بينما تظل السفينة (الام) منطلقة فى مدارها القمرى ومن داخلها الرائد الثالث . وتعمل الالات الخاصة بمرحلة الهبوط وكذلك الاجهزة اليدوية على أبطاء سرعة دوران العنصر الثالث أو مركبة القمر لتهبط إلى علو نحو ٥٠ مترا من السطح . والمفروض أنه إذا ما وقع خطأ ليس فى الحسبان عاد الملاحان فى الحال إلى السفينة الام من غير أن يهبطا على القمر ، لأن هذه المرحلة هى فى واقع الامر أدق مراحل الرحلة وأخطرها .

ملاحة الفضاء إلى القمر

إن حدود النجاح فى الوصول إلى القمر وفى الدوران حوله هى حدود ضيقة تماما . فالسفينة يجب قبل كل شىء أن تنطلق من الارض بسرعة لا تقل عن ٦,٩٢ من الميل فى الثانية لكى تخرج من جاذبية الأرض ، كما أنها يجب كذلك أن تنطلق بسرعة أصغر من ٧,٢٧ من الميل فى الثانية حتى تقع فى نطاق جذب القمر .. وحتى بين هذين الحدين من السرعة يجب أن تقترب السفينة من سطح القمر قربا يجعلها على بعد مناسب لا يزيد على نحو ٥٥٠٠ ميل .

ان الانطلاق من فوق سطح القمر إلى الفضاء ليس بالامر الصعب كما هو الحال على الارض ،

وذلك نظرا لانخفاض الجاذبية إلى نحو سدس قيمتها على الأرض ، بالاضافة إلى انعدام الغلاف الهوائي الذى يقاوم الحركة . وتتضمن مناورات التشابك بين المركبة القمرية الصاعدة والسفينة الام التى تسبح حول القمر ، عمليات دقيقة يقوم فيها الرائدان بدور هام جدا ، يستغلان فيه خبرتهما وتجاربهما السابقة على الارض مما يسهل أمر تلك المناورة إلى حد كبير ..

وبعد أن يتم التشابك يزحف الملاحان من المركبة القمرية إلى عنصر القيادة لينضما إلى زميلهما الثالث فى السفينة الام ، ثم يتم بعد ذلك فصل المركبة القمرية لتظل تدور من حول القمر إلى ما شاء الله .

وفى تلك المرحلة من الرحلة يقوم الرواد بفحص عنصرى القيادة والخدمات من جديد وذلك بمساعدة المختصين وآلات الحساب الضخمة فى محطات التتبع الارضية . وتتم مراجعة جميع الحسابات ويشعل محرك السفينة «أبوللو» لتنطلق بسرعة إلى أمها الأرض ، ثم تجرى تصحيحات فى منتصف الطريق كالمعتاد حتى إذا ما اقتربت لحظة دخولها جو الأرض ، حيث تبدأ المقاومة للحركة وتولد الحرارات العالية والاحتكاك يؤخذ فى الاعتبار أمران هامان هما :

(أ) ضبط انحراف المسار .

(ب) فصل عنصر الخدمات .

وتوجه السفينة فى حماية درع حرارى نظرا لزيادة السرعة ، حتى تصل إلى علو ٥٠ ألف قدم مثلا ، وعندئذ تفتح المظلات توطئة لتهدئة السرعة واستقرار السفينة ثم تفتح مظلة الهبوط الرئيسية من أجل الهبوط اللين على الخيط بلب السفينة الذى بداخله رواد الفضاء .

اسماء جذابة لبحار القمر !

دلت أرصاد برامج «أبوللو» على أن القمر كوكب مثل الأرض . ويبلغ حجم القمر نحو جزء واحد من ستين جزءا من حجم الأرض .

وتذهب احدى النظريات القديمة إلى أنه كان قطعة من الأرض مكانها المحيط الهادى الحالى . ومن القرائن التى تؤيد هذا الزعم أن قاع المحيط الهادى ليس تماما على غرار قاع المحيط الهندى أو الاطلسى من حيث تركيب الصخور التى طفت على سطح الأرض عند بدء تكوينها .. وتقدر كتلة القمر بنحو جزء من واحد وثمانين جزءا من كتلة الأرض .

أما قوى الجاذبية على سطح القمر فهى تعادل نحو سدس قوى الجاذبية على الأرض ، أى أن الرجل الذى وزنه ٦٠ كيلو جراما يزن هناك ١٠ كيلو جرامات مما يجعل القفز والنط والحركة على سطح القمر أمراً سهلا ميسورا (أى يمكن للرجل أن يقفز هناك كما يقفز البرغوث على الأرض) .

ولهذا يرى الأطباء أن مرضى القلب والمقاعدين والذين يحظر عليهم القيام بأى مجهود عضلى يستطيعون المحافظة على سلامة أبدانهم هناك .. زد على ذلك أن اليوم هناك يعادل نحو ثلاثين يوما من أيام الأرض ، فمن يمضى هناك ٣٦٥ يوما قمريا يكون نظيره على كوكبنا قد أمضى ثلاثين سنة ، وهكذا تختلف الاعمار وتتباين .

فهل معنى ذلك أن المرضى يمكنهم أن يتخذوا

من القمر خير مكان لاطالة أعمارهم ثلاثين مرة ؟ إلى جانب الشفاء من أمراض القلب المعروفة على الأرض ؟ ..

وليس للقمر هواء يذكر ، كما أنه خلو من الماء إلا ما بقى محتبسا بين الصخور أو بين الشقوق .. ولهذا فان القمر عالم ميت لا وظيفة له حتى الان إلا أن يعكس ضوء الشمس ويرده إلى أهل الأرض ويعينهم على حساب الشهور والسنين منذ رصد الانسان السماء فى العصور القديمة حتى الآن .

وفى هذا المعنى يقول القرآن الكريم فى سورة البقرة الآية (١٨٩) :

« يسألونك عن الاهلة قل هى مواقيت للناس والحج .. »

وترتفع درجة حرارة سطح القمر المواجه للأشعاع الشمسى إلى ما يقرب من نقطة غليان الماء ، كما تنخفض أثناء الليل إلى ما دون الصفر المئوى بكثير ، وعندما تسلط على جباله ووديانه الكبرى مناظيرنا المكبرة نستطيع أن نتتبع شروق الشمس على قمم جباله العالية التى تظهر وقد أشرقت بضوء الشمس واستقبلته قبل الاجزاء التى من حولها بزمن طويل وتبدو كأنها هى جزر صغيرة من الضوء يزداد اتساعها رويداً رويداً وسط محيط الظلام الدامس الذى يتصف به الفضاء الكونى كما نعلم .

ومرة أخرى نجد أن أهم ما يميز سطح القمر الجبال القمرية إلى جانب الوديان الواسعة التى ظنها الناس عندما رصدوها أول مرة بحارا تذخر بالماء على غرار بحار الأرض ، فراحوا يطلقون عليها أسماء جذابة مثل :

« بحر الرحيق ، بحر الصفاء ، بحر الهدوء ، وبحر الرغد ... » ومن أعلى جبال القمر قمة جبل نيوتن التى يصل ارتفاعها نحو ٩ كيلو مترات ، وكانت تحسب مثل تلك الارتفاعات عن طريق قياس الظلال التى ترميها الجبال على سطح القمر . وهناك العديد من فوهات البراكين التى لا تشبه تماما براكين الأرض .. ويعتقد بعض الفلكيين أنها أنما تكونت بفضل النيازك والشهب ، كما ينظر إليها فريق آخر ويعتبرون أنها من نتائج نشاط بركانى متكرر .

وينظر الفلكيون اليوم إلى القمر كمحطة فضاء مثالية بالنسبة إلى أهل الأرض ، منها يمكن جمع معلومات عديدة قيمة خاصة بالكون أو الفضاء وبمكان الكواكب باستخدام الفلك الراديوى الحديث، وكذلك الاشعة الكونية ، كما يمكن السفر إلى الكواكب بأقل التكاليف وأقل مقادير من الوقود . ولهذا فإن النزول عليه خطوة لازمة من أجل تطوير المجموعة الشمسية بمعرفة الانسان . ولكن يسبق ذلك حتما أنشاء مستعمرة القمر .

ومن القمر يستطيع الانسان أن ينطلق إلى الفضاء الخارجى ليرى عجائب الكون .. وليس للقمر غلاف هوائى ، ولذلك لا توجد من حوله طبقة «الايونوسفير» والطبقة المتألقة التى يحول وجودها دون وصول اذاعات العوالم الاخرى الراديوية إلى السطح . ويستطيع من على القمر أن يسترق السمع إلى العوالم الاخرى .

هل هناك من سبق بالنزول على القمر

هبط الامريكيون على القمر مرارا ضمن برامج «أبوللو» ولكننا لا نستطيع الجزم بشيء من حيث امكان وجود من سبق أن هبط هناك . وربما يكون أهل العوالم الاخرى قد فعلوا ذلك . ونحن نعرف أو نتوقع أننا لسنا وحدنا في هذا الوجود ، وأن العقل البشرى ليس فريدا ولا وحيدا ..

وقد تحدث الناس عن الاطباق الطائرة وجواز كونها من صنع عالم آخر جاء يدرس ما يجرى على الأرض من أحداث .

والطبق الطائر كما تصوره فريق من العلماء عبارة عن سفينة فضاء انسيابية كالطبق يدور وسطها حول محور الطبق لكى يولد قوة طاردة إلى الخارج تجعل من فى الطبق يشعرون بما يعوضهم انعدام الجاذبية ، الا أن فوق وتحت تصبح إلى الخارج وإلى الداخل بالنسبة للطبق .

وقد يكون أصحاب الاطباق الطائرة ممن تحولوا إلى طاقات تجوب الفضاء بسرعات تفوق ما نعرفه من سرعة الضوء ، وهو قول نستبعده .

وقد طالعتنا بعض الصحف أثناء تنفيذ برامج «أبوللو» بأخبار رؤية ما يشبه آثار أقدام على سطح القمر ودخان يتصاعد من على سطحه ، وفسر بعضهم ذلك الدخان بأنه ربما يكون عبارة عن غبار دقيق يتصاعد بسبب ارتطام النيازك أو الشهب به .

ووجود عوالم أخرى غير عالم الارض ، وامكان أتصال تلك العوالم بعضها ببعض وردت الاشارة إليه فى القرآن الكريم فى العديد من الآيات ، مثل قوله تعالى فى سورة الشورى « ومن آياته خلق السموات والأرض ومابث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير .. » .

تصميمات المستعمرات القمرية

هناك نظريتان أساسيتان عن طبيعة سطح القمر وما تحت سطحه ، هما النظرية البركانية ، ثم النظرية النيزكية ..

ويعتقد المؤمنون بالنظرية البركانية أن مرتفعات القمر وجباله أنما تتميز بفوهات البراكين التى كونها النشاط البركانى المتكرر ، مما يجعلها معرضة للانهيار . أما السهول فقد تكون واهية كذلك بسبب نشوئها على هيئة مستنقعات هائلة من الحمم ، إلا أنها أكثر تماثلا وتزداد صلابتها بازدياد العمق إلى الداخل .

وأصحاب النظرية النيزكية يعتبرون السهول ضعيفة أيضا ، بل وربما تكون أكثر ضعفا من المرتفعات ، وذلك نظرا لان هروب الغازات وافلاتها انما يتم بمعدلات أقـــل من هروبهـــا من على المرتفعات ، مما يوفر وجود الفجوات الغازية . ومن ناحية أخرى ربما يكون ما تحت سطح تلك المرتفعات من صخور محطمة تغطيها الحجارة الصغيرة ومساحيق الرمال التى أحرقتها أشعة الشمس عبر الاجيال الطويلة .

وهنا يمكن أن تقام القاعدة القمرية أو المستعمرة التى يعيش فيها أهل القمر بعد نزوحهم من الارض ، وبطبيعة الحال تختلف بقعة النزول فى

انها يجب أن تكون إلى جانب من صلابتها مسطحة خالية من العقبات التى قد ترتطم بها سفينة القمر عند تكرار الهبوط .

وتبعا للنظرية النيزكية فان الهزات فى القشرة التى تشبه هزات الزلازل الناجمة من ارتطام النيازك بسطح القمر انما تعمل دائبة على زحزحة الحصى ومساحيق الصخور من فوق المرتفعات لتجمعها على سطح منبسط نسبيا ، وتعمل ايضا الهزات البركانية نفس الشىء ، وعلى ذلك فانه بالنسبة إلى سهول القمر تتكهن النظريتان معا بانها ذات سطوح ممهدة باستثناء الشقوق والكسور هنا وهناك الناجمة عن الانفجارات ، وهى فجوات قد يبلغ قطر الواحدة منها أكثر من متر ، وتتفق النظريتان أيضا فى أن ترابا وفيرا يغطى سطح القمر .

وتتركز وظيفة برنامج «أبولو» فى هذا الميدان وتقتصر على تحديد مقادير تلك المساحيق ، وأماكن تجمعها وأعماقها ، وأنواعها ، وكذلك امكان وجود مواد مشعة وأتربة كونية ضارة .. صخور لها أنشطة أشعاعية ..

ويعمل العلماء دائبين على استنباط وسائل يكيفون بها أية بيئة طبيعية على الأرض أو تحت الماء ، أو فى الفضاء أو حتى على القمر . وفى واقع الامر ارتقى الانسان إلى منزلته الحالية العليا فى الترتيب بين سائر الكائنات عن طريق مقدرته على تغيير البيئة المحيطة به لكى تناسبه ، وليس عن طريق تطوره هو أو تكييف جسده ليلائم ما صادفه من بيئات . وهكذا عاش فترات طويلة فى أعالى الجو حيث لا يستطيع كائن حى آخر أن يعيش بسبب انعدام الاوكسيجين وازدياد الحرارة ، ووفرة الاشعاع الشمسى المحرق ، كما استطاع أن يعيش فى قاع المحيط حيث تسود ضغوط تربو على ٣٠٠ ألف رطل على البوصة المربعة .

ومن الواضح أن الانسان يعمد فورا إلى بناء حواجز بينه وبين مثل هذه البيئات ، ثم يعيش فى مكان مكيف يعده من وراء تلك الحواجز . وما الملابس والبيوت وأجهزة التكييف إلا من أنواع وأصناف الطرق التى يسلكها الانسان من أجل حماية نفسه من تقلبات الجو وغوائل البيئة .

ولهذا كله فليس عجيباً ولا غريبا أن نقرر أن قيام حياة بشرية على القمر ليست إلا أمرا طبيعيا يستمد من مقدرة الانسان الخارقة على تكييف أو تطوير بيئته التى يعيش فيها . وسوف يكون ذلك متوافرا داخل المستعمرات القمرية .

شىء من القفز فى التصور

يحتاج تصميم عمارة قمرية إلى شىء من القفز فى التصور ، لأن كثيرا من الاشياء التى نألفها ونسلم بها كبديهيات هنا على سطح الأرض ، لن تكون موجودة على القمر ..

فاولا وقبل كل شىء لا يوجد على القمر هواء ولا ماء .. رغم أن ممن رصدوا القمر فريقا يعتقد أن الماء يوجد على هيئة ثلج داخل الفجوات والشقوق التى يغطيها الظل على سطح أرض القمر. ومرة أخرى تعتبر كل من النظرية البركانية والنظرية النيزكية القنوات القمرية غنية بالماء وبعض

العناصر الهامة . أما انعدام الهواء فهو أمر مقطوع به .

وانعدام عوامل الهواء والماء على سطح القمر جعل سطحه غير معبد على خلاف الأرض التى بسطها الخالق وجعل فيها سبلا عبدتها عوامل التعرية كالمياه الجارية والثلوج والرياح ونحوها .

ومن نتائج عدم وجود الهواء انعدام الرياح وتقلبات الطقس والسحب والمطر . حتى أن مهندس القمر المعمارى يجد أمامه مشاكل عديدة فريدة يجب أن يحلها .وسوف تحتاج التصميمات المعروفة على الارض إلى ادخال تعديلات شاملة لتوفير مأوى الانسان المناسب على القمر .

وربما يكون الاساس الاول الذى تقوم عليه المبانى والمنشآت القمرية هو لحامها تماما مع بعضها البعض بحيث لا يتسرب إلى خارجها أى شىء من الهواء المضغوط فى داخلها . وقد تتصل المبانى بواسطة سراديب مقسمة إلى حجرات من أجل تقليل أخطار الانفجار أو الانبعاج إلى الفضاء الخارجى .

ونظرا لصغر الجاذبية سوف يكون توزيع الغازات والسوائل على المبانى أسهل بكثير بالنسبة إلى ما يجرى على الارض . ومن الممكن أن تكون السلالم أعظم انحدارا لان الفرد يمكنه هناك أن يرفع نفسه ببذل سدس المجهود الذى يقوم ببذله على الارض .

وبينما لا يوجد ما يدعو إلى اتخاذ الحيطة لحماية المبانى من الرياح والامطار ونحوها . نجد أن هناك عينات أخرى عديدة من الاخطار التى تهدد المستعمرات القمرية ، مثل الاشعة الكونية ، والشهب التى تفد من غير هوادة ليل نهار .. وليس من السهل اقامة حواجز ثقيلة لحماية الانسان من تلك الجسيمات وسيلها القاتل على القمر ، ولذلك يقترح فريق من المهندسين توليد طاقة كهربائية عالية ، لها شحنة موجبة قوية تعمل دائبة على رد الجسيمات الكونية وارسالها إلى الفضاء أولا بأول كما تعمل «ماجنيتو» سفير الارض .

وبطبيعة الحال يؤدى عدم وجود غلاف هوائى إلى وصول النيازك العظيمة على حالها إلى سطح القمر لانه على الأرض يعمل الغلاف الهوائى على مقارنة حركتها وتفتتها إلى مساحيق دقيقة فى أغلب الحالات قبل أن تصل إلى الأرض ، كما حدث مرة عام ١٩٤٦ حين ساد السماء لون أصفر شاهده أهل القاهرة بسبب تفتت نيزك جبار فى أعلى سمائها ..

وباستثناء مثل هذه الحالات يتساقط على سطح القمر ما يقرب من ١٤٠ طنا من تراب الشهب كل يوم من أيام الارض . لهذا سوف تكون الاسقف السماوية لمبانى القمر كروية الشكل بحيث تجعل النيازك والشهب المتساقطة تحيد بعيدا عن المبانى بكفاءة فائقة .

كما فكر عباس بن فرناس

هناك عدة فوائد يمكن أن تجنيها البشرية من المستعمرة القمرية . أولاها نشوء فنون وتكنولوجيا جديدة مثل تكنولوجيا صناعة الفراغ . ومعنى ذلك أنه لن يقتصر التعدين فى القمر على مجرد جعل القاعدة القمرية مكتفية ذاتيا بل ستعود بعض

المناجم القمرية بالفائدة على أهل الارض .

وسوف تقوم صناعات محلية لامداد السائحين والراغبين فى الاستمتاع بأسفار الفضاء بما يلزمهم لسد حاجياتهم . ومن المرغبات الكبرى للسفر إلى القمر سماء القمر المليئة بالنجوم التى ترى كل يوم ، إلا أن أعظم المناظر أثرا وأروعها وقعا على المرء هو منظر الارض من على القمر .. ولسوف تمر الارض عبر أوجه معينة أثناء ظهورها معلقة فى الفضاء أمام منظر النجوم الخلفى ، وعندما تكتمل الارض أى تصبح بدرا ، يكون قطرها أربعة أمثال قطر القمر البدر ! ونظرا لما لها من مقدرة عالية على رد أشعة الشمس سوف يكون لمعان الارض ٨٠ مرة قدر لمعان القمر .

وسوف تنشأ صناعة طيارات خاصة بسيطة على حساب الجاذبية الصغيرة على القمر ، وربما استخدم الانسان أجنحة يطير بها داخل المستعمرات القمرية كما سبق أن فكر عباس بن فرناس !

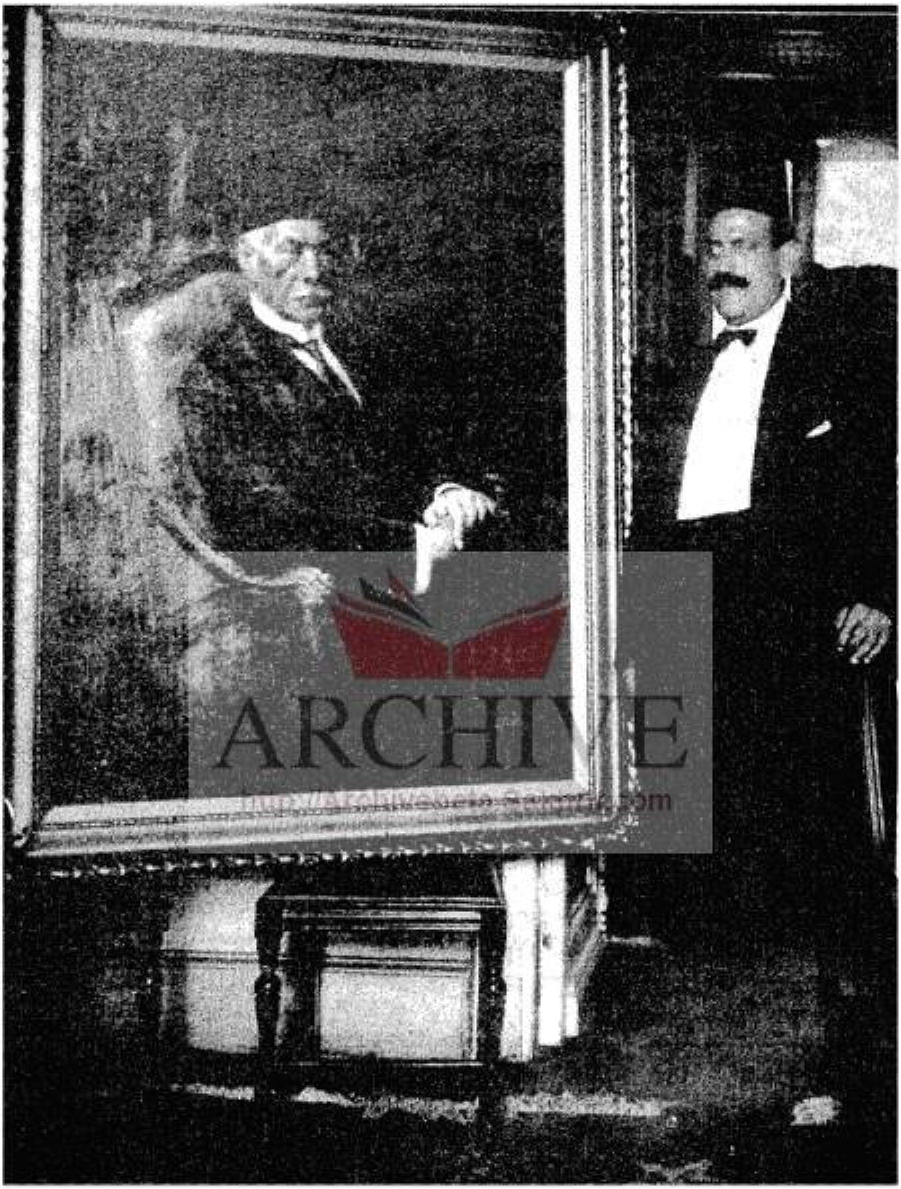
وقد يبدو هذا القول وهما أو خيالا ، إلا أن العلماء يفكرون فى مثل هذه المسائل تفكيرا جديا . وهناك فريق من الاطباء يعتقدون أن الجاذبية المنخفضة على القمر سوف تعين كثيرا على الشفاء من بعض الامراض والعلل . وسوف يتمكن المصابون بالتهاب المفاصل والشلل أو ما شابه ذلك من ألوان العجز من التحرك بسهولة إلى حد كبير . وكما قلنا يستطيع المصابون بأمراض القلب ممارسة النشاط العادى .

وفى المستقبل سوف يتوصل الانسان إلى طرق ناجحة للنقل عبر الفضاء ، بحيث لا تزيد تكاليف النقل من القمر على تكاليف السفر المألوفة على الأرض . وبمرور الوقت سوف تستعمل الصواريخ أكثر من مرة كما سوف يكون الوقود أكثر فاعلية ونجاحاً ولن يقتصر الأمر على مجرد الوصول إلى القمر بل ستتخذ القاعدة القمرية محطة لفضاء كونية .

ما أهمية القاعدة القمرية فى الحرب ؟

يفكر الناس فى أهمية القاعدة القمرية من الوجهة الحربية تفكيرا تغلب عليه العاطفة فى أغلب الاحايين .. ولكن الرأى العلمى السليم يتلخص فى أنه إلى حين الحصول على وقود ناجح عظيم الفاعلية تتطلب القذيفة الموجهة من الارض إلى القمر (أو العكس) نحو يومين للوصول إلى الهدف، مما يعطى أو يوفر الفسحة الكافية من الوقت لعمل هجوم مضاد . وهذا يقلل كثيرا جدا من قيمة القاعدة القمرية فى حالة الحرب .

وإذا كان الحربيون أو العسكريون يتطلعون إلى الاستخدامات الممكنة للقاعدة القمرية فى شئون الحرب ، فاننا نأمل أن يكون العلماء هم الذين يوجهون دفة البحوث ويجعلون الفوائد العلمية هى الغرض الاساسى من المستعمرة القمرية ، وإلا فربما تعرضت لغزو من خارج مجموعاتنا الشمسية إذا صارت قاعدة حربية ، والله أعلم ..



مستقبل الثقافة فى مصر تفاؤل أم تحد .. ؟ !

● النحاس باشا أمام قبر الزعيم سعد زغلول

بقلم : د. عبد العظيم أنيس

لا يستقيم الحديث عن كتاب « مستقبل الثقافة فى مصر » دون الحديث عن المناخ السياسى العام فى مصر عندما أملى طه حسين مادة هذا الكتاب وعندما نشره . وليسمح لى القارىء أن أقول إن طه حسين يبدو فى هذا الكتاب أقرب إلى المفكر الذى يكتب وثيقة للتاريخ خوفا من أن يأتى المستقبل بما لا تشتهيه أنفس الأحرار ، وربما أقول الراديكاليين ، من أمثــال طه حسين .

فالواضح من مقدمة الكتاب وآخره أن هذا الكتاب قد أملاه طه حسين ما بين يوليو سنة ١٩٣٧، يوليو ١٩٣٨ : وعندما بدأ فى املائه كانت وزارة الوفد على رأس السلطة مشغولة بصراع مرير مع القصر ممثلا فى الملك ومع الأزهر ممثلا فى الشيخ المراغى ومع أحزاب الأقلية ممثلة فى الأحرار الدستوريين ثم السعديين بعد ذلك الذين انشقوا عن حزب الوفد ، ومع جماعة الاسلام السياسى ممثلة فى الاخوان المسلمين ، لكن طه حسين انتهى من املاء الكتاب وقد طردت وزارة الوفد من الحكم فى ديسمبر سنة ١٩٣٧ ، وعادت وزارة الاقليات السياسية بزعامة محمد محمود رئيس حزب الأحرار الدستوريين بانتخابات زائفة قاطعها الوفد، وشنت على الوفد أنذاك أبشع حملة باسم الدين قادها الشيخ المراغى فى أحاديثه الدينية التى كان يحضرها الملك فى المساجد وشارك فيها

بعض أصدقاء طه حسين القدامى من أمثال محمد حسين هيكل وعباس العقاد .

ولم يكن في كل هذا ما يدعو طه حسين إلى التفاؤل وهو المفكر الذى كان يتعاطف مع الوفد ، حزب الجامعة الوطنية ، ولا يتعاطف مع القصر ولا قيادات الأزهر أو جماعات الاسلام السياسى ، لعل النبرة الواضحة فى كتاب طه حسين هى أقرب إلى نبرة التحدى ، تلمسها حتى فى هذه الأبيات لأبى العلاء المعرى التى وضعها فى صدر الكتاب ، ومن الغمز الهين الموجه إلى وزير المعارف ومن هجومه على سياسات الأزهر التعليمية وانتقاده لشيخه .

لقد أبرمت المعاهدة عام ١٩٣٦ مع بريطانيا ، وعاد الوفد إلى الحكم بعد انتخابات حرة ، وأمن مؤقتا شر دار المعتمد البريطانى ، فأخذ يستعد لتقييد سلطة القصر ، ففى خطاب العرش للوزارة الجديدة أعلن النحاس باشا عزمه على تعيين وزير للقصر فى حكومته بحيث لا يتصرف الملك فى شأن سياسى إلا من خلال الوزارة ، وبحيث تستعيد الحكومة سلطتها فى الاشراف على الأزهر بما فى ذلك تعيين شيخه دون الملك ، ومن نية الحكومة فى توحيد القضاء وإلغاء الأوقاف الأهلية ، وبدأت وزارة الوفد تعد مشروعات قوانين جديدة من أهمها قانون بفرض عقوبات معينة على كل مخالفة لأحكام الدستور وانتهاك لها ، ومنها أيضا قانون انتخاب العمد انتخابا مباشرا فى القرى تحت اشراف رجال النيابة والقضاء .

وعندما طرح الشيخ المراغى فكرة تتويج الملك الجديد فاروق بالقلعة وأن يقلده هو سيف جده محمد على ثم يؤم الحاضرين للصلاة كإمام للمسلمين ، عـــارضت وزارة الوفد بشدة هذا الاقتراح ، واعتبر النحاس مثل هذا العمل بمثابة اقحام للسياسة فى شئون الدين ومحاولة لاحياء الخلافة وهو ما سعت له بريطانيا مع الملك فؤاد فى العشرينيات .

وكل هذا الصراع العنيف بين الوفد وحكومته من جانب وبين الملك والأزهر وأحزاب الأقلية والاخوان المسلمين من جانب آخر ، اتخذ مسارب غير شريفة فى كثير من الأحيان ، فالهجوم على الوفد تم باسم الدين وادعاء أن النحاس مطية لمكرم عبيد والأقباط وشارك فى هذا الهجوم شخصيات كان من المفروض من واقع ماضيها أن تتنزه عن ذلك مثل عباس العقاد الذى كان يؤكد فى مقالاته أن مكرم عبيد هو المعارض الرئيسى لتتويج الملك دينيا ، ومثل محمد حسين هيكل الذى غمز فى خطابه بشبين الكوم إلى نفس المعنى ، فضلا عن الشيخ المراغى الذى كان يتحدث أمام الملك فى أحاديثه الدينية عن « الثعالب الذين ركن الاسلام إلى مودتهم وهم يدعون إلى غير هذه المودة » ، وكان يقصد بذلك الأقباط .

أما الأخوان المسلمون فلم يكتفوا بالمشاركة النشيطة فى هذه الحملة المسعورة ضد الوفد ، واعلان أنهم رجال الملك فحسب ، وإنما طالبوا بوقف الدستور وحل الأحزاب وتقييد الصحافة باسم الاسلام ، وانتهى كل هذا الصراع بطرد حكومة الوفد فى ديسمبر سنة ١٩٣٧ وعودة وزارة محمد محمود .

★ خروج طه حسين من الجامعة

لقد أخرج طه حسين من الجامعة عام ١٩٣٢ فى عهد وزارة صدقى ، ثم أعيد إليها عام ١٩٣٤ تحت ضغط جامعى وشعبى عارم ، ووقف الوفد إلى جانب طه حسين فى محنته ، ومع أن طه حسين بدأ نشاطه السياسى فى العشرينيات فى ظلال حزب الأحرار الدستوريين ، حزب الفكر الليبرالى كما بدا له آنذاك ، فإن قضية العدوان على الجامعة بفصله ، والتجربة المريرة فى الصراع بين الوفد والملك فؤاد حول الدستور والحياة الديمقراطية قد أقنعت طه حسين فى نهاية الأمر بالتعاطف مع الوفد باعتباره حزب الجامعة الوطنية والدستور والديمقراطية ، ولم يتراجع عن هذا الموقف بعد ذلك أبدا .

وطه حسين لم يكن ليبراليا فقط كما قال د . فؤاد زكريا بحق ، وانما كان راديكاليا أيضا تؤرقه قضية الفقراء فى مصر وقضية تعليمهم ، ومن يراجع هذا الكتاب سيجد العديد من العبارات التى تؤكد هذا الموقف الثابت ، فهو يعلن فى الكتاب أنه من أشد الناس بغضا لنظام الطبقات فى مصر ، وهو يدعو الدولة أن تأخذ من القادرين أجر هذا التعليم وأن تحط ثقله عن العاجزين عن أدائه ، وهو يتساءل فى الكتاب إن كان الغنى يمنح الاثرياء حقوقا تحظر على غيرهم ، ويقول فى هذا السياق إن الغنى والفقر عرضان من أعراض الدنيا وإن الدفاع عن الوطن يشترك فيه الجميع وربما كان حظ الفقراء أعظم فى هذا الشرف ، وهو يقول فى كتابه محذرا « إن الخير كل الخير أن يفهم الأغنياء ويدافعوا الضرائب هذه الحقائق فى سهولة ويسر منذ الآن قبل أن يأتى يوم ثقيل بغيض تكرههم فيه الضرورة على فهمها اكراها ! » .

وهو يرفع صوته بأن الشعب المصرى هو صاحب الحق المطلق المقدس فى أن تشيع المساواة والعدل بين أبنائه جميعا .

هكذا تكلم طه حسين فى كتاب « مستقبل الثقافة فى مصر » وألح على مسئولية الدولة فى تعليم الفقراء ، ومسئوليتها فى أن تأخذ من الأغنياء لتعليم الفقراء ، فالتعليم ليس ترفا والادعاء بأن التكلفة المالية للتعليم فوق طاقة الدولة أمر لا يقنع طه حسين لأن التعليم عنده لا يقل أهمية عن الدفاع الوطنى ! .

★ نبرة التحدى

ليست النبرة الأساسية فى هذا الكتاب إذن هى نبرة التفاؤل ، وإنما هى نبرة التحدى والدعوة إلى النضال من أجل تعليم هذا الشعب ، فقرائه قبل أغنيائه ، وهو أمر مفهوم فى جو المناخ السياسى العام بمصر الذى أملى فيه طه حسين كتابه هذا ، وفى ضوء انحيازاته الاجتماعية التى لم يتخل عنها أبدا .

تلك هى الملاحظة الأولى ، أما الملاحظة الثانية فهى أنه ربما كان من الأنسب أن يسمى طه حسين هذا الكتاب « مستقبل التعليم فى مصر » ، فالموضوع الأساسى فيه هو موضوع التعليم وليس موضوع الثقافة بالمعنى الذى نفهمه من تلك الكلمة اليوم ، وان صلب الكتاب يتعلق بالتعليم العام والعالى ، وإذا استثنينا الصفحات الأولى التى



● مكرم عبيد أمام تمثال الزعيم سعد زغلول

تتحدث عن « العقل المصرى » وكيف أنه لا يختلف عن العقل الأوربى ، وبالطبع فاننى اتحفظ على هذا الحديث عن العقل المصرى ... هل هناك حقا عقل مصرى يختلف عن العقل السورى أو العراقى أو اللبنانى ؟ وإذا أخذنا أقوال طه حسين على علاتها فسوف نجد أنه يتحدث عن عقل واحد لمنطقة المشرق العربى كما نعرفها اليوم ، بمعنى الدول العربية المطلة على البحر الأبيض ويرى أنها كلها قد تأثرت بطبيعة وضعها الجغرافى والتاريخى بالحضارة اليونانية والرومانية ربما قبل أن تتأثر أوربا ، هل يتحدث اذن طه حسين عن « عقل عربى» بهذا المعنى ؟ ربما ، كان من الصعب أن نتقبل اليوم مثل هذا الكلام حتى عن عقل عربى له خصائصه المتميزة ، إذ لو قبلنا هذا فلماذا يمنع أن نتحدث عن عقل فارسى أو عقل تركى ... الخ ...

وربما كان من الأسلم أن نتحدث عن ثقافة عربية أو ثقافة فارسية أو هندية ... وهذه الثقافات هى خلاصة ظروف تاريخية معينة وعصارة الاحتكاك بالثقافات الأخرى والتفاعل المتبادل بينها . ولو عاش طه حسين إلى اليوم وزار طوكيو لما أحس بفارق اساسى بين العقل اليابانى والعقل الأمريكى فالاثنان ثمرة الأوضاع الرأسمالية المتقدمة فيهما ، بل إن مظاهر كثيرة للثقافة اليابانية التقليدية توشك على الاندثار بينما تزحف مظاهر الثقافة الأمريكية إلى كل ركن من أركـــانها الايجـــابى منها والســـلبى .

ويستشهد طه حسين ببول فاليرى عندما شخص العقل الأوربى فرده إلى ثلاثة عناصر : حضارة اليونان وما فيها من أدب وفلسفة ، وحضارة الرومان ومافيها من سياسة وفقه ، والدين المسيحى ومافيه من دعوة إلى الخير ، وحيث أن دول المشرق العربى قد تأثرت بحضارتى اليونان والرومان ، وحيث أن جوهر الاسلام والمسيحية واحد فان العقل المصرى - أو قل العقل العربى - لايتمايز عن العقل الأوربى ، وانما هو عقل واحد تختلف عليه الظروف المتباينة ، فتؤثر فيه آثارا متباينة لكن جوهره واحد عند طه حسين .

ومن الواضح لى أننا عندما نتأمل هذا المنطق اليوم نجده منطقا متعسفا لاسباب كثيرة قد لايتسع المجال لشـــرحها هنا وربما أعود اليها فى مقال آخر ، وقد يكفى أن أقول اليوم أننى من أشد المتحفظين على مقولة « العقل العربى » أو العقل الفارسى ، أو العقل التركى ... الخ .

لكن السؤال الذى يهمنا هنا ونحن نعرض لكتابه هو : لماذا بدأ طه حسين كتابه بهذه المناقشة عن علاقة العقل المصرى بالعقل الأوربى فى كتاب موضوعه الأساسى هو التعليم ؟

إن طه حسين دعا إلى العديد من الأفكار فى التعليم تشابه ما كان مطبقا فى فرنسا حتى وصل الأمر إلى دعوته لتدريس اليونانية واللاتينية فى الثانوية العامة ! ويبدو أنه قد أقنع نفسه بأن تماثل العقلين يدعم من حجته فى هذا الميدان ، ولو قال طه حسين أن نمو العلاقات الرأسمالية (التى زحفت علينا من أوربا) قد فرض علينا التشبه بما حدث فى أوربا من ديمقراطية سياسية ودستور وحياة مدنية وتعليم جماهيرى .. الخ فربما كان

منطقه أقوى من ذلك .

ولقد كان طه حسين على حق عندما أبرز فى كتابه أهمية توحيد المراحل الأولى من التعليم (التعليم الأولى والقسم الأول من الثانوى) فى دعم الوحدة الوطنية للشعب ، ولاشك فى أن طه حسين كان يدرك مغزى ما قاله نابليون من أن وحدة الشعب الفرنسى تتدعم من خلال الجيش والمدرسة .. وفى عهد طه حسين كان هناك التعليم الأولى والثانوى الأزهرى الذى لا تشرف عليه الدولة ، وكان هناك التعليم الأجنبى بجناحيه الدينى والمدنى ولا تشرف عليه الدولة ، وكان هناك التعليم المدنى الرسمى ... وكل هذه الأنواع من التعليم المتباينة تباينا شديدا من شأنها أن تخلق أنماطا من البشر يتفاوتون فى العقلية والقيم وشعور الانتماء والولاء للوطن ، ولهذا دعا إلى أن تشرف الحكومة ممثلة فى وزارة المعارف على التعليم الأزهرى قبل العالى وإلى اخضاع التعليم الأجنبى لاشراف الدولة ، وتوحيد المناهج فى كل هذا خصوصا فيما يتعلق باللغة العربية والتاريخ القومى ..

★ الأزهر بيئة محافظة

وهو لا يدعو بالطبع إلى الغاء التعليم الدينى فى الأزهر وانما يريد أن يكون هناك مقدار من مناهج التعليم مشتركا بين جميع المصريين ومن الواجب أن يكون لوزارة المعارف كلمتها فى مناهجه وبرامجه .

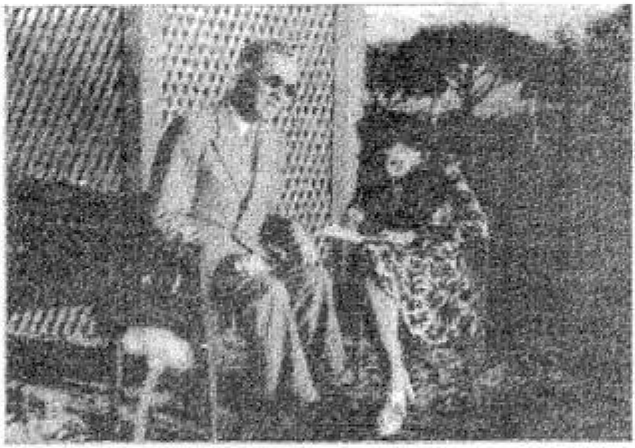
أما ما بعد هذه المرحلة للأزهر أن يذهب فيه ما يشاء ... وطه حسين لا يريد للأزهر أن يكون دولة داخل الدولة ، وسلطانا يطاول السلطان العام ، فالأزهر بطبيعة تاريخه بيئة محافظة – كما يقول طه حسين – تمثل التفكير القديم ، فإذا تركنا صبيته للتعليم الأزهرى الخالص عرضناهم أن يصاغوا صياغة قديمة تباعد بينهم وبين متطلبات الحياة الحديثة وجعلنا من العسير على الجيل الازهرى الحاضر اساغة الوطنية والقومية بمعناها الحديث . ألا يقول الشيخ المراغى أن محور القومية هو القبلة المطهرة !

ومن مفارقات أوضاعنا الحاضرة فى التعليم بعد انقضاء خمسين عاما على صدور كتاب طه حسين أن بعض القضايا التى الح على معالجتها فى كتابه تطرح علينا اليوم من جديد فيما يعرف باسم المدرسة التجريبية الرسمية للغات ، وأنا أشير إلى مسألة تعليم اللغات الأجنبية فى المرحلة الابتدائية ومن يعلم اللغة الأجنبية فى مدارسنا : الأجانب أم المصريون ؟

إن د . طه حسين حاسم هنا ، فهو يعارض تعليم اللغة الاجنبية فى المرحلة الابتدائية ويقول إن هذا القسم من التعليم العام يجب أن يخلص للثقافة الوطنية إذا أردنا أن تخلص نفس الصبى لوطنه وأن تشتد الصلة بينه وبين هذا الوطن ، وهو ينادى بضرورة أن يتولى المصريون تعليم اللغة الأجنبية فى المرحلة الثانوية بعد أن يهيئوا لهذا العمل .

كما يثير طه حسين فى كتابه أوضاع المعلمين المالية ويتحدث عنها حديثا يذكرنا بأحوالهم اليوم وعن الحاجة الماسة إلى رفع أجورهم إذا أردنا أن يؤدوا عملهم فى أمانة .

بقى أن أشير إلى مقترحات طه حسين لاصلاح



طه حسين وزوجته

التعليم العالي وهي عديدة تبدأ من اصلاح احوال الثانوية العـــامة ورفع مستواها حتى تنتهي المقترحات إلي ضم دار العلوم إلي الجامعة وإعداد المعلمين عن طريق كليتي الآداب والعلوم مع انشاء معهد للتربية تابع للجامعة يلحق به خريجو هاتين الكليتين .

كما يناقش في كتابه الحاجة الماسة الي تناول تعليم اللغة العربية بالاصلاح والتيسير حتى تكون الكتابة تصويرا دقيقا للنطق ، وضرورة تيسير دروس النحو والصرف والبلاغة والتركيز على دراسة الأدب ، ومع أن طه حسين قاوم فكرة استخدام الحروف اللاتينية في الكتابة العربية فإنه يعترف أن اللغة في حاجة إلى اصلاح كبير ويرد على اعتراضات الأزهر الدينية في هذا الشأن .

والحقيقة أن كتاب « مستقبل الثقافة في مصر» هو ثمرة فكر رجل تأثر تأثرا شديدا بالتوجهات الديمقراطية للحياة البورجوازية في أوربا عموما وفرنسا خصوصا ، وهو ثمرة فكر رجل يحب وطنه بعمق ويعتز باستقلاليته الأكاديمية أشد الاعتزاز ، رجل يعادي الفكر المحافظ القديم مع ماله من خبرة طويلة مع الأزهر وفي ميدان التعليم لكنه ايضا مفكر ديمقراطي آمن برسالة تعليم الشعب بكل طبقاته ، واقتنع أن الحياة الدستورية دون تعليم هي نوع من الغفلة .

وهو أخيرا فكـــر رجل مناضـــل إلى جانب الفقراء ، ومن هنا أشرقت في هذا الكتاب راديكاليته وشجاعته التي لم يتخل عنها أبدا .

مارس ١٩٨٨



مستقبل إسرائيل

بقلم : مصطفى الحسينى

أى مستقبل ؟

فإسرائيل تصف نفسها ويصفها أصدقاؤها بأنها «الدولة اليهودية» بينما كان حلم الحركة الصهيونية التى أقامتها أن تكون «دولة اليهود» ، الدولة التى يهاجر إليها اليهود كلهم من أطراف الأرض أو على قولها «يعودون» ليبنوا دولتهم ، فيصبحوا «شعبا كسائر الشعوب وأمة بين الأمم»

وبعد أربعين سنة من إقامة الدولة «عاد إلى صهيون» من كل أربعة يهود واحد ، وبقى ثلاثة حيث هم ، ومن هاجر منهم فمن «منفى إلى منفى» فالعالم الواسع عند الصهيونية هو المنفى بل أنهم لا يريدون العودة ، بل إنهم يصلون كل يوم ثلاثا «من أجل العودة إلى صهيون» دون نية العودة وكيف يصبحون «شعبا كسائر الشعوب» بينما ثلاثة أرباع «الشعب» يحملون جوازات سفر دول العالم أو معظمها ، وبينما نسبة غير قليلة من «مواطني» الدولة يحملون أيضا جوازات سفر دول أخرى ؟ وبينما تعداد اليهود الذين يعيشون فى الدولة يزيد قليلا عن نصف تعداد اليهود الذين يعيشون فى مدينة واحدة ، نيويورك حتى أن الصهيونى الأمريكى البارز «لوم دايان» قال عنها وعن اسرائيل إنه « إذا كانت اسرائيل هى مركز العالم اليهودى فإن نيويورك هى مصدر وجوده» وليس فقط بتعداد يهودها وإنما بأموالهم التى يمدون بها اسرائيل وبنفوذهم الذى يحميها » .

وكيف يصبحون «أمة بين الأمم» بينما دولتهم وبعد أربعين عاما منذ أقاموها ، مازال شغلها اليومي هو الدفاع عن شرعيتها ، وعن شرعية وجودها وعن شرعية سلوكها معا ، وبينما مازال مطلبها الذى ترفعه كل يوم .. ومن موقع القوة !

هو المطالبة « بالاعتراف بحقها فى الوجود » .

حتى علم الآثار ، الذى عرفه العالم استجلاء لغابر التاريخ وكشفا عنه ، أصبح فى الدولة اليهودية « أداة لإثبات الوجود » حتى قال فيها الكاتب الأمريكى الفذ جور فيدال « أنها دولة أثرية ، فى حرب مع جيرانها جميعا ، ولا تحب العالم وبالتالى لا يحبها » .

فأى مستقبل ؟

مفارقات الشتات

وأصبحت المفارقات فى علاقة «الدولة اليهودية مع يهود العالم أكثر من التوافقات أو أغلب .

فإذا كان لاسرائيل أن تصبح «دولة اليهود» فعلى يهود العالم أن يهاجروا إليها بل بغير هذه الهجرة ، فإنه حتى «الدولة اليهودية» قد لا تبقى .

لكنه إذا كان «الدولة اليهودية» أن تقوى لكى تبقى ، فعلى يهود العالم أن يبقوا حيث هم يمدونها بالمال ويذودون عنها بالنفوذ .

فأى مستقبل ؟

أى مستقبل لهذه الدولة التى نزح منها ، حسب أكثر تقديراتها الرسمية اعتدالا ، واحد من كل عشرة من سكانها فى السنوات العشرين الأخيرة ، ناهيك من أن هؤلاء النازحين ، فى أغلبهم ، هم الأكثر فتوة (فئات الأعمار بين ٢٥ و٤٠ سنة) والأكثر كفاءة (فى الولايات المتحدة وحدها ٣٢ ألف أكاديمى و٨ آلاف مهندس نازحين من اسرائيل) ، والأكثر قدرة على الابداع والانجاز والأوفر مبادرة .

وأى مستقبل لهذه «الدولة» التى تعرف أن طوق نجاتها الوحيد من الغرق فى المحيط العربى الذى أصبح فى داخلها هو المزيد من الهجرة اليهودية ودعك من أن اليهود لا يهاجرون إليها ولا يريدون ، المسألة أن اليهود فى العالم كله يتناقصون

فتعدادهم فى عالم اليوم يقارب ١٣ مليونا حسب احصاءات المنظمة الصهيونية العالمية ، وحسب تقديرها سيصبح تعدادهم بعد ١٢ سنة فى سنة ٢٠٠٠ حوالى ٩ ملايين .

أى مستقبل لدولة معين سكانها ينضب ؟

دولة خيبة الأمل

وهذه دولة الآمال الخائبة ، فضلا عن الأحلام الضائعة .

فإذا كانت الصهيونية قد تنعت من حلم دولة اليهود بواقع الدولة اليهودية فهذا حلم ضائع أما الآمال الخائبة فهى آمال هؤلاء اليهود المتدينين الذين ظنوا «العودة إلى صهيون» كفيلة لهم بـ «حياة يهودية كاملة» فوجدوا أنفسهم مواطنى دولة حكامها يجاهرون بالالحاد ، ويحددون اليهودية بأنها تمايز اليهود عن الأغيار ويسعون إلى إحلال القومية التى لم يعرفها اليهود من قبل ، محل الدين الذين عاشوا القرون وعبروها واخترقوها يحملونه فى وجدانهم وإذا بالصهاينة يفشلون فى خلق الأمة ويضيقون الخناق على الدين الذى يراه هؤلاء المتدينون ويريدونه دينا كسائر الأديان .

وخابت أيضا آمال من داعبتهم أحلام صهيونية اشتراكية تصحح وضع الهرم الاجتماعى اليهودى المقلوب فى الشتات وتعيد اليهود إلى قيمة العمل أو تعيد قيمة العمل إلى اليهود كما قال فيلسوفهم بوروخوف فانشقوا أو تابعوا انشقاق اسلافهم عن ما كانوا فى صفوفه وأحيانا فى طلائعه من حركات اشتراكية وأحزاب ، ليقيموا اشتراكيتهم على أرض اسرائيل ، فلا يمضى وقت طويل حتى ينهار الحلم، ويرون الكيبوتز صورتهم المثالية المسترطنة الاشتراكية يبتلعه اقتصاد السوق وإذا عماده ليس العمل اليهودى الذى عادت قيمته إلى اليهود أو عادوا إليها إنما عماده عمل مأجور ملوث بالتمييز العرقى .

يستخدمون العرب الذين أفقروهم ويميزون اليهود عليهم فى الأجر والرعاية بل ويستخدمون المهاجرين اليهود الذين جاءوا من بلاد العرب ، وأيضا يميزون أنفسهم عليهم فى السلطة التى اتتهم من ملكية الكيبوتز الجماعية الاشتراكية ويتحول أبناء الكيبوتز أو أصحابه إلى نخبة أسبرطية تتمتع بالامتيازات وتتميز بالصلف وتتيه بالزهو على من سواها من المواطنين بأنها الأكثر ولاء للدولة وكان لها على ولائهم مطعن .

وأيضا خابت آمال هؤلاء اليهود الذين هاجروا من بلد العرب ، حيث كانوا - معظمهم فى صفوف طبقاتها الوسطى ، أو كانوا متميزين فى تلك الطبقات ، وما لبثوا أن وجدوا أغلبيتهم فى الدولة اليهودية محصورة فى قاع المجتمع ، دون فرصة تذكر للنمو أو الصعود أو للانتقال ، فهذه دولة أقامها يهود أوربا لأنفسهم وعلى هيئتهم وقياسهم ، وعلى من يريد الصعود من سواهم فعليه أن يتماثل معهم ينفض عن تراثه وثقافته ويهوديته الشرقية الأصلية ويرتدى يهودية أخرى غريبة وغربية ، نمت أو بالأحرى تعوق نموها ، فى احياء اليهود المعزولة فى مدن أوروبا وأصبحوا ، هؤلاء اليهود الشرقيون لا يسمعون من ثقافتهم بل وعن يهوديتهم إلا

الزراية بينما لا يرون فيها مايزرى ، فهى توصف بألسنة يهود المعازل الأوربية بأنها شرقية وبأنها عربية ولذلك فهى لزوما متخلفة ، بينما الذى يميز اسرائيل هو تفوقها النوعى على العرب الذى هو ضمان أمن اسرائيل ، ناهيك عن بقائها .

فأى خيبة للآمال !

اليهود يضطهدون اليهود

وبررت الحركة الصهيونية حلم «دولة اليهود» الذى أختزله الواقع إلى «دولة يهودية» بأن هدفها ومسعاها ومبررها هو «تحرير اليهود» فإذا الدولة اليهودية هى أكبر مستودع فى العالم للتفرقة والتمييز ضد اليهود !

ففى الجيش الاسرائيلى ما يسمى خريطة عملياتية (أى غير رسمية) للأمن الطائفى على أساسها يعامل الجيش جنوده اليهود وتقسمهم الخريطة إلى الفئتين المعروفتين : الاشكناز أى اليهود الأوروبيين والسفارديم أى اليهود الشرقيين، وتعتبر هذه الخريطة أن الفئة الأولى أكثر ولاء للدولة، وأكثر كفاءة وبالتالى فمن المفروض أن تشكل هيكل الجيش والمؤسسة الأمنية كلها ، بينما تعترف للفئة الثانية بالولاء الشديد للدولة ، لكنها تراها ذات كفاءات غير مستوية ، وبالتالى فمهمتها أن تزود الجيش ومؤسسة الأمن بالطاقة البشرية الكبيرة الحيوية لمهمات الأمن ، أى بالوقود البشرى .

وطبقا لهذه الخريطة ، كان ٦٧ ٪ من الأنفار وضباط الصف فى الجيش الاسرائيلى فى أواخر السبعينيات من السفارديم ، بينما كان نصيبهم بين صغار الضباط حتى رتبة نقيب ٣٠ ٪ ، تتضاءل إلى ٣ ٪ (ثلاثة) بين كبار الضباط أما مجموعهم فى سلك الضباط فلم يزد على ١٧ ٪ ومن بين ٢٥ ضابطا برتبة لواء فى الجيش الاسرائيلى ، كان ثلاثة فقط من السفارديم ، واحد منهم فقط يحتل منصبا عسكريا فعليا .

ويقول عالم الاجتماع الاسرائيلى سامى سموحة (ويبدو من أسمه أنه شرقى - سفارادى) الذى رسم هذه الخريطة أو كشف عنها ، إن هذا ليس وضعا مؤقتا ولا عابرا والأسباب عديدة : فالجيش الاسرائيلى هو امتداد للهاجاناة ، التى أقامها المهاجرون اليهود الأوروبيون الذين أقاموا الدولة ، فأقاموا الجيش على عقلية غربية أوربية ، واعتبروها متفوقة ، واعتبروا تفوقها هو الذى يضمن التفوق النوعى على الجيوش العربية واعتبروا هذا «التفوق النوعى» ضرورة وجود لاسرائيل .

لكن سموحة يقول : أن المسألة أعمق ، فكما الجيش كما المجتمع ، فهو يقرر أنه فى اسرائيل هناك تطابق بين الخريطة الطبقية والخريطة الطائفية ، فالشريحة الهامشية فى المجتمع ، معظمها يهود شرقيون ، وشريحة العمالة الدونية ، كلها شرقيون تقريبا ، وشريحة العمالة الماهرة ، معظمها شرقيون ، وفى الطبقة الوسطى وحدها يوجد قدر من التوازن بين الشرقيين والاشكناز مع أفضلية للأخيرين ، أما الطبقة الوسطى - العليا ، فمعظمها من الاشكناز ، ونخبة السلطة اشكنازية بالكامل تقريبا .

ويقول إنه مع ذلك فما زالت المسألة أعمق ، لأن هذا التطابق بين الخريطتين الطبقية والاجتماعية قد تحول إلى ظاهرة دائمة في المجتمع ، ينتقل من جيل إلى جيل ويكتسب شرعية اجتماعية .

فأى تحرير لليهود !

وقالت الصهيونية أن دافعها وغرضها معا هو تحرير اليهود من العداء للسامية .

وبعدما أقامت الدولة اليهودية ، اكتشفت أن جرائم النازية قد حذرت العالم وطهرته من هذا العداء للسامية ، أو العداء لليهود .

فانزعجت ، لأن اليهود عندما لا تواجههم مشكلة يهودية بهذا المعنى ، فهم لا يهاجرون ، لا يعودون إلى صهيون يبقون حيث هم .

واعتبرت « الدولة اليهودية » اختفاء المشكلة اليهودية من الشتات مرضا لمرض مستفحل وعدم واقعية وأحد معالم التفسخ والاحتضار كم يورد ميخائيل روزنيك ، وهو إستاذ مرموق للفلسفة التربية في الجامعة العبرية .

بينما يرى يهود الشتات « أى الذين لم يهاجروا إلى اسرائيل » أن اليهود في اسرائيل ، هم بالأحرى الذين يواجهون مشكلة يهودية أمنية وديموغرافية فجيرانهم لا يريدونهم ، لأن غير اليهود الذين يعيشون معهم سيصبحون أكثر منهم عددا في مستقبل منظور .

الدولة اليهودية لا تستطيع أن تقيم وفاقا بينها وبين يهود العالم الذين تعتبرهم إمتدادها الطبيعي في هذا العالم .

فأى مستقبل ؟

وأرادت الصهيونية أن تحرر اليهود من عقد المنفى ، لكن بن جوريون عندما أبلغ في ١٩٧٥بأن الأمم المتحدة أدانت الصهيونية بالعنصرية كفكر وكحركة ، لم يجد مايقوله سوى « ليس مهما ما يقول الأغيار ، المهم ما يقول اليهود » .

وهى عقدة من عقد المنفى .

وعندما تجد اسرائيل نفسها معزولة عن العالم وأمامه ، لا شغل لها في مجتمع الدول سوى الدفاع عن سلوكها ، لا تجد ما تقوله سوى « العالم كله ضدنا » .

وهى عقدة أخرى من عقد المنفى سوى أنها قبل إقامة الدولة كانت صيحة مريرة عاجزة ، أما بعد إقامة الدولة فترجمت نفسها في الاعتماد على القوة العسكرية دون غيرها من وسائل الدول .

وبررت الصهيونية حلمها أو مشروعها بأنها تبغي تحرير اليهود من الطفيلية الاقتصادية لكنها الحركة الصهيونية - لما أقامت الدولة ، لم تلبث أن وجدت أنها أقامت دولة ذات أقتصاد طفيلي ، يعتمد على العون من الخارج ، ويقول مفكر استراتيجي أمريكي مرموق - أنتوني كورد سمان - أنه لن يلبث أن يتحول إلى اقتصاد متسول .

بينما يقول مفكر اسرائيلي إن اقتصاد اسرائيل قد تحول إلى أقتصاد مضاربات ، غير منتج ، يبتعد بإجماله عن جوهر الحلم الصهيوني الذي تطلع إلى مجتمع يهودى عامل ومنتج ، ويبدو أحيانا أن إقتصاد المنفى دخل من جديد إلى تخوم

دولة اسرائيل »

فأى مستقبل ؟

إنكار اليهودية

والدولة اليهودية هى الدولة الوحيدة فى العالم التى لا تنتمى إلى مجموعة طبيعية من الدول .

وأعتبرت الدولة اليهودية أن الشتات اليهودى يعوضها عن ذلك رغم أن حلمها ، أو الحلم الذى قامت كى تحققه هو أن ينتهى الشتات وأعتبرته كتلتها الطبيعية .

إنما فوق عجزها عن إقامة وفاق بينها وبين هذا الشتات فهى لا تفتأ تهدده وفى يهوديته فلو أخذت اسرائيل بالتعريف الأورثوذكسى لليهودى ، لانكرت على غالبية الشتات يهوديته وفى هذه الأغلبية معظم اليهود الأمريكيين مصدر المال الذى يدعم والنفوذ الذى يحمى والضغط فى اسرائيل للأخذ بهذا التعريف قوى ومتزايد .

ثم إنها تطالب هذه الكتلة الطبيعية بولاء مزدوج، تطالبهم بالولاء لها ، لا موازيا وإنما متقدما على ولائهم للبلدان التى يحملون جنسيتها ويعيشون فيها .

لكن كثرتهم تقول لاسرائيل « أنا أمريكى أولا ، أو أنا فرنسى أولا ثم يهودى ثانيا » حتى ولو كانوا يقولونها ، رعاية لمصلحة ظاهرة وحاكمة .

وتقول هذه الكثرة للاسرائيلين : لقد حققتم مشروعكم - الدولة - فلماذا تحاولون تخريب مشروعنا - الاستقرار .

فأى مستقبل ؟

المسكينة العظمى

واسرائيل أصبحت الدولة الأعجوبة بين الدول فهى الدولة المسكينة التى يحاصرها بحر من العرب يناصبونها العداء وتتعاظم قوتهم كل يوم ، لكنها تتصرف كأنها دولة عظمى فتفرض أرادتها وسطوتها على هؤلاء العرب ، ولا تفتأ تتحدث عن ذراع إسرائيل الطويلة ، وتقرر بقنابل الطائرات أن لها ، ولها وحدها ، حق تحديد سقف التطور العلمى والتكنولوجى للعرب أجمعين ، على نحو ما فعلت بالمفاعل النووى العراقى .

حتى أصبح العالم يحار كيف يعاملها هل هى دولة من الدول تدافع عن مصالحها الأمنية المشروعة أم هى عنصر لعدم الاستقرار فى النظام الدولى كما قال دبلوماسى اسرائيلى بارز .

فأى دولة ؟

أى دولة تلك ، التى يأخذ فيها فريق من الناس القانون بيدهم فى أدق ما يعنى الدولة - أى دولة - من أمور فتقول حركات مثل حركة المستوطنات وتحيا « وموراشا وكاخ وغيرها إن الحكومة التى تتنازل عن أى جزء من الأراضى المحتلة حكومة غير شرعية ، وكلها حركات مسلحة برضا الدولة أو برضوخها ، بمقتضى الاستيطان الذى هو من مقتضيات أمن اسرائيل .

فهنا مقتضيات أمن اسرائيل تتحدى أمن اسرائيل إن رأت حكومة ذات يوم أن الانسحاب من الأراضى المحتلة يوفر لاسرائيل الأمن ..

فأى دولة ؟

أى دولة هذه التي تقوم على حلم تحقق القومية والاستقلال لشعب تصورته لنفسها (بقى معظمه خارجها يحمل جنسيات دول أخرى) ثم لا تلبث أن تجد نفسها رهينة وملحقا لدولة أخرى ، وتجد نفسها كذلك بحكم الضرورات التى كانت هى صلب اقامتها ؟ أو كما يقول بيتر جروز وهو كاتب أمريكى صديق لاسرائيل ، يعمل مديرا لتحرير مجلة فورين افيرز - الشئون الخارجية ومديرا لبرنامج الشرق الأوسط فى مجلس العلاقات الخارجية الأمريكى الذى هو من أهم المؤسسات الفكرية للسياسة الأمريكية إن لم يكن أهمها جميعا ، يقول جروز : «اسرائيل محمية اقتصادية لدولة أجنبية كبرى هى الولايات المتحدة ، لهذا فإن وضع اسرائيل الاقتصادى لم يعد مسألة داخلية ينبغى إبقاؤها فى أيد الاسرائيليين وبذلك تلاشت رؤيا الاستقلال الاقتصادى التى عول عليه الحالمون الصهيونيون الذين أقاموا الدولة وعاجلا أو آجلا ، سيكون للأمريكيين شاءوا أو أبوا ، كلمتهم فى تحديد الأولويات السياسية لاسرائيل» .

ولقد رأت اسرائيل فى ضمان الولايات المتحدة لوجودها ، ثم لأمنها ، ثم لرخائها أيضا ضمانا ما بعده ضمان .

لكن ما فاتهم أن يروه ، كما يقول دبلوماسى اسرائيلى مخضرم هو سميحا دينتز الذى عمل فى سفارتها فى واشنطن من بعد حرب ١٩٦٧ حتى عام ١٩٧٨ ، وزيرا مفوضا ثم سفيرا ، يقول إن ما فاتهم أن يروه هو أن اسرائيل ليست الرصيد الاستراتيجى الوحيد للولايات المتحدة فى هذه المنطقة ، فهناك أيضا : النفط وطرق نقله إلى مواقع استهلاكه فى الغرب .

على أى حال ، فهو لا يمد هذه النظرة التحذيرية على استقاماتها ، فيقول ان المصلحة الامريكية الاصلية هى النفط وطرق نقله ، وهى التى بيد العرب ، وإن مكان اسرائيل فى هذه المصلحة الامريكية هو مكان وظيفى .

أى إنه إذا تغيرت المصلحة ، أو تغيرت الموازين التى تحكمها ، تغير المكان الوظيفى ، إلى حد أنه يمكن أن يفقد وظيفته .

وفى اسرائيل هذا قلق كبير على مستقبل الدولة يعبرون عنه بالقول إنه لا أحد فى اسرائيل يجرؤ أن يسأل نفسه ماذا لو غيرت الولايات المتحدة موقفها ، أو فقدت مصالحها فى المنطقة ، أو تغيرت أقدارها ومقاديرها ، أو تغيرت موازين القوى ، أو تغيرت قواعد الصراع الدولى ، أو حل فى علاقات السوفييت والأمريكيين نوع من الوفاق الايجابى بدلا من الاستقطاب أو مما سبق بينهما من وفاق بالامتناع ، بل إذا حل السلام الشامل الذى تقول اسرائيل إنها تنشده ؟

وهو سؤال أصبح من الشيوع ، بحيث يختصره الاسرائيليون فى كلمتى : ماذا لو .

لكن الاسرائيليين لا يسألون أنفسهم : وماذا لو استجمع العرب أمرهم وغيروا ما بأنفسهم ، واستبدلوا بضعفهم قوة ، واحتكموا على النفط

ويسيطروا على طرقه ؟ .

فأى دولة ؟

لا بالحرب ولا بالسلام

وأى مستقبل ينتظر دولة تواجه مأزق أمن ، لا تخرجها منه الحرب وتتصور أنه لن يخرجها منه السلام؟

وقد بدأ مأزق الأمن مع النشأة ، بل هو صلب هذه النشأة ذاتها ، فقد بنت الحركة الصهيونية تصورها عن دولة اليهود على وهم آخر من الأوهام ، وهم أن فلسطين التى تسميها أرض اسرائيل هى أرض بلا شعب وبالتالى يستحقها هذا الشعب اليهودى الموهوم والذى لا أرض له ، لم تكن المسألة تدور بين المعرفة والجهل ، لأن العالم كله كان يعرف أن هذه الأرض هى أرض شعب آخر ، لكن المسألة هى أن الطمع فى الحقائق لا تبرره إلا أوهام ، وقامت الحركة الصهيونية فنظمت وخططت وعملت وتآمرت متذرعة بهذا الوهم ، وجاءت بمن استطاعت أن تجئ به من اليهود ، ووجدت أن اقامة الدولة تقتضى أن تضعهم وتضع نفسها فى خدمة القوى التى بيدها الأمر فلم تردد ، لم يجعلها تردد أن هذه القوى التى بيدها ، كانت قوى معادية للأمة التى ينتمى إليها الشعب صاحب الأرض ، بل أن ذلك بالذات كان يناسبها ، فالطامع لا يعنيه إلا المغتصب ، وكانت هذه هى البذرة الأصلية لمأزق الأمن ، جاءت الدولة اليهودية محمولة على موجة معادية وقاتلت الحركة الصهيونية لتقيم الدولة ونجحت ، وإقامتها وإن يكن على قسم من أرض اسرائيل ، وإذا كان أصحاب الأرض قد غلبوا ، فإنهم لم يستسلموا فبدأ نمو مأزق الأمن .

فالعرب لم يعترفوا بأن هزيمتهم فى ١٩٤٨ و١٩٤٩ هزيمة نهائية ، فانتهت تلك الحرب بهدنة مسلحة ، أدت إلى حرب أخرى ومن حرب إلى حرب ، كما هو معروف .

وفى كل حرب انتصرت اسرائيل وهذا أيضا معروف ، حتى حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، رأت فيها اسرائيل هزيمة فى البداية ونصرا فى النهاية .

لكن النصر فى هذه الحروب جميعا كان نصرا كالهزيمة .

لأن هذا النصر لم يحقق لها اعتراف العرب .

ولأن هذا النصر هو الذى قاد الدولة اليهودية إلى أن تصبح تابعة ، ملحقة ، رهينة لقوة دولية كبرى على نحو ما رأينا ونرى .

ولأنه من مفارقات هذه الحروب جميعا ، أنه كلما كان النصر العسكرى الاسرائيلى واضحا وحاسما ، كلما ضؤلت ثماره السياسية ، مثلما حدث في حروب ١٩٥٦ و١٩٦٧ و١٩٧٣ ، وكلما كانت نتيجة القتال بين بين استطاعت اسرائيل أن تجنى بعض الثمار مثلما حدث فى فى حرب ١٩٤٨ حيث جنت إقامة الدولة وإن لم يكن على أرض اسرائيل كلها ، ومثلما حدث فى حرب ١٩٧٣ حيث جنت اسرائيل سلاما مع مصر .

وكان من شأن هذه المفارقة أن تعلم اسرائيل درسها ، فكان من شأن نتيجة حرب ١٩٧٣ مثلا ، أن تعلم الحركة الصهيونية أن طريقها إلى حل

مازق الأمن هو مبادلة الأراضى بالسلام على نحو ماحدث مع مصر .

لكنها لم تتعلم .

هل نقول لأنه ليس ممكنا أن تتعلم ؟

لم تتعلم «الدولة اليهودية» أن الحرب لن تأتيها بالأمن ، رغم أن مـازق الأمن أصبح يبتلع ثلث ناتجها الاقتصادى ، ورغم أن كل حرب ظافرة تزيد من هذا العبء ، ورغم أن كل حرب « ظافرة » تؤدى بها إلى امتداد أوسع لما تعتبره مصالحها الأمنية حتى وصلت هذه المصالح إلى حدود الهند شرقا والمحيط الأطلسى غربا وجنوب أوروبا شمالا ، والمحيط الهندى وجواره فى شرق أفريقيا جنوبا .

وكأنها امبراطورية عظمى من امبراطوريات التاريخ .

أليست مفارقة أن هذه الدولة المسكينة ترى لنفسها مصالح أمنية تفوق أحلام الأسكندر الأكبر ، وحدود الأمبراطورية الرومانية وأطماع بونابرت ؟

وهل تطيق دولة مثل اسرائيل بحجمها وبعدد سكانها من اليهود ، وقدرتها الاقتصادية مضافة إليها معونات الامبراطورية التى تحميها ومعونات يهود العالم ، هل تطيق هذا الدور ؟

أم أنها لا تستطيع أن ترى ما تحت أنفها من حقائق ؟

فأى مستقبل ؟

والدولة اليهودية تعتصم بالحرب لأنها تخاف السلام .

تخاف إن حل السلام أن تفقد وجهها فى المطالبة بالعون ، سواء من الولايات المتحدة أو غيرها من الدول ، أو من يهود العالم .

وهى فى غياب العون لا تستطيع أن تعيش ، فقد جاءت إلى هذه الأرض بشعب يريد أن يحيا الرخاء فى اقتصاد فقير بالضرورة ، وعنده أن له حقا فى أن يعيش الرخاء على حساب الآخرين .

فهى تؤسس حقها فى المعونة الأمريكية بالقول أن حاجة الولايات المتحدة إليها ، لا تقل عن حاجتها هى إلى الولايات المتحدة .

لكن الأمريكيين فى الحقيقة يشكون فى ذلك ، ويقول بيتر روجرز الذى سبق ذكره « أن هناك نزاعا أمريكيا - اسرائيليا خفيا حول شرعية المعونة الأمريكية ، التى ينفقها الاسرائيليون على الاستهلاك ، ويرون أن لهم حقا فيها لأنهم يعيشون على جبهة استراتيجية الحياة عليها قصيرة » .

فإذا حل السلام ، لم تعد الدولة اليهودية هى هذه الجبهة الاستراتيجية التى يتحدث عنها الاسرائيليون ، أو لم تعد لها هذه الأهمية ومن شأن هذا أن يأكل مبرر المعونة .

حتى ولو أتى هذا التغير بطيئا ، وهو بالضرورة سيأتى بطيئا .

وتخاف إن حل السلام أن يستعيد اليهود الشرقيون وهم الآن أغلبية السكان وعيهم بأولوية هويتهم الشرقية التى يسميها الاشكناز بازدراء عربية .

تخاف المؤسسة الصهيونية - إن حل السلام - أن يتوحد اليهود الشرقيون مع العرب ضد المؤسسة

الصهيونية .

تخاف السلام لأسباب تمتد من أكبر القضايا إلى التفاصيل والعوامل الثانوية والتنبؤات الاحصائية .

ولأنها تخافه ، فإنها لا تريده قائما حتى على شئ من العدل .

فهي تعرف أن العرب مستعدون لقبول سلام قائم على قدر من العدل .

لكنها بعد أن حاربت هذه الحروب كلها وقاتلت هذا القتال وحققت هذه الانتصارات أصبحت تخشى أن قدرا من العدل في صلب السلام ، سيؤدى إلى أن يطمع بها العرب .

لذلك لا تريد إلا سلاما تفرضه وإن يكن من خلال شكل المفاوضات ، تريد سلاما يقنع العرب بقوتها وسطوتها وبأنها لا تهزم أو تتراجع .

أى تريد سلاما مستحيلا .

وحتى لو حصلت عليه ، لو حصلت على سلام يعطيها ما تحتل من الأراضي ، أليست هذه بذرة حرب جديدة ؟

وحتى لو حصلت على السلام على هذا النحو ، فالمفارقة فيه تصل إلى حد الكارثة بالنسبة للدولة اليهودية ، ففي ظل هذا السلام يصبح العرب هم أغلبية سكانها خلال ربع قرن من الزمان أو يزيد قليلا .

وتكف اسرائيل عن أن تكون دولة يهودية وتجد الحركة الصهيونية نفسها صفر اليدين ، فبعد أن ضاع الحلم يضيع الواقع الذى حققته .

وقد تؤجل هجرة يهودية يشجعها السلام هذه الكارثة لكنها لن تلغيها .

وهذا كله إذا حققت اسرائيل السلام بشروطها ، وفي الوقت ذاته أقرت لسكان ما ستضمه من أراض بحقوق المواطن .

فإذا انكرت هذه الحقوق ألقت ظلالا كثيفة على ديموقراطيتها في نظر قسم من شعبها اليهودى ، وفي نظر العالم ، وهذه الديموقراطية هى إحدى وسائلها في استدرار التعاطف والمعونات .

وحتى إذا قبلت سلاماً قائماً على قدر من العدل ، فانسحبت من الأراضي التى احتلتها في ١٩٦٧ فإن الأغلبية العربية سوف تتأجل ، إنما ليس وقتا طويلا ، إلى حوالي النصف من القرن المقبل ، بدلا من حوالى الربع منه .

وهذا هو مأزق الأمن الذى لم تحله الحرب ، ولا تثق اسرائيل ، بل لا تعتقد ، بأن السلام قادر على إخراجها منه ، وعندها في هذا ما يقرب من اليقين .

لذلك تجد نفسها محكومة بالمضى من حرب إلى حرب كأنه قدر !

فأى مستقبل ؟

بل ، وياله من مستقبل !



● هدى شعراوي

الهلال

وعصر المرأة

اجمل مختارات الهلال كما كتبها

معروف الرصافي . ● ابراهيم المصري ● سيد عويس

مي زيادة . ● أنيس منصور ● مصطفى نبيل

محمد فريد وجدي ● د . سيد كريم ● د . شكري عياد

زكي طليمات ● د . أمين العيوطي

د . أمير بقطر ● د .محمدرجب البيومي

المرأة فى الشرق



شعر :
معروف الرصافى

ألا ما لأهـل الشـرق فى برحاء	يعيشـون فى ذلّ بـه وشـقاء
لقـد حـكّموا العادات حتى غدت لهم	بمنـزلة الأقيـاد للأسـراء
اذا تخـتبرهم فى الحـياة تجد لهم	حـيـاة تخبطت خـبطة السـعداء
وما ذاك الا انهـم فى امورهـم	أبـوا أن يسيروا سـيرة العقـلاء
لقـد غمطـوا حـق النسـاء فشدّدوا	عليهـن فى حبس وطـول ثـواء
وقد ألزموهنّ الحجـاب وانـكروا	عليهـن الأ خرجة بغطـاء
اضـاقوا عليهـن الفضـاء كأنهـم	يغـارون من نـور به وهـواء
قد انتبذوا عنهـن فى العيـش جانباً	فما هـنّ فى أمـر من الخُـلطاء
وقد زعموا أن لسن يصلحن فى الدُنا	لغـير قـرار فى البيـوت وبـاء
فما هـن الا متعـة من متـاعهـم	وأن صـنّ عن بيـع لهـم وشـراء

اهانوا بهن الامهات فأصبحوا ... بما فعلوا من آلأم اللؤماء
ولو انهم ابقوا لهنّ كرامة ... لكانوا بما ابقو من الكرماء
ألم ترهم امسوا عبيداً لانهم ... على الذل شبُّوا فى حجور إماء
وهان عليهم حين هانت نساؤهم ... تحمّل جور الساسة الغرباء
فيا قوم ان شئتم بقاءً فنازعوا ... سواكم من الاقوام حبل بقاء
أيسعد محياكم بغير نسائكم ... وهل سعدت ارض بغير سماء
وما العار أن تبدو الفتاة بمسرح ... تمثل حالى عزة وإباءٍ
ولكن عاراً أن تزيا رجالكم ... على مسرح التمثيل زىّ نساء

***

اقول لأهل الشرق قول مؤنّب ... وان كان قولى مُسخط السفهاء
ألا آن داء الشرق من كبرائه ... فبعداً لهم فى الشرق من كبراء
واقبح جهل فى بنى الشرق انهم ... يسمون اهل الجهل بالعلماء
واكبر مظلوم هو العلم عندهم ... فقد يدّعيه أجهل الجهلاء
لو واقتصُ رب العلم للعلم منهم ... لصبّ عليهم منه سوط بلاء
ولاستأصل الموت الوحىّ نفوسهم ... ونادى عليهم مؤذناً بفناء
لكن حلم الله ابقى عليهم ... فعاشوا ولو فى ذلة وشقاء
لقد مزّقوا أحكام كل ديانة ... وخاطوا لهم منها ثُياب رياء
وما جعلوا الأديان الا ذريعة ... الى كل شغب بينهم وعداء
وما علماء الجهل الا مساقم ... رمت جهلاء العلم بالقوباء

***

الا ياشباب القوم إنى الى العلا ... لداع فهل مَن يستجيب دعائى
أما آن للاوطان ان تنهضوا بها ... لادراك مجد وابتغاء علاء
قد بح صوتىَ واستشاطت جوانحى ... وقلّ اصطبارى واستطال بكائى
على أن لى فيكم رجاءً وان يكن ... من اليأس مسدوداً طريق رجائى
وما أن فى وادى الخيال بهائم ... وان كنت معدوداً من الشعراء

ابريل ١٩٢٢

من الآنسة مي
إلى كل فتاة مصرية

هذه صحيفة خاطبت فيها الآنسة مي الفتاة المصرية ، وكأنها خاطبت بها كل بنية شرقية . وقد طلب اليها أن تكتبها خاصة لكتاب « محفوظات البنات » الذي أقترح تأليفه مجلس مديرية القليوبية ليدرس في مدرسة البنات الأولية التابعة له بشبرا البلد . وأنه ليسرنا أن نقدم هذه الصحيفة إلى قرائنا الكرام ولا سيما أنها مقتطفة من كتاب « بين الجزر والمد » الذي سيصدر قريباً وهو - كما ذكرنا سابقاً - الهدية الثانية من هدايا الهلال إلى المشتركين في هذه السنة .

الحياة أمامك

الحياة أمامك ، أيتها المصرية الصغيرة ، ولك أن تكوني فيها ملكةً أو عبدة :

عبدةً بالكسل ، والتواكل ، والغضب ، والثرثرة ، والاغتياب ، والتملق ، والتبذل .

وملكةً بالاجتهاد ، والترتيب ، وحفظ اللسان ، والصدق ، وطهارة القلب والفكر ، والعفاف ، والعمل المتواصل .

فإن عشت عبدةً بأخلاقك كنت حملاً ثقيلاً على ذويك تكرهك وتنبذك . وإذا عشت ملكةً أفدت أهلك ووطنك وكنت مصرية مباركة .

فأيهما تختارين ؟

إذا اخترت السيادة فروِّضي نفسك على المكارم منذ الساعة ، لأنَّ الملوك يسلكون طريق العزِّ منذ الصغر .

مي

فبراير ١٩٢٤




محمد فريد وجدي



انقضى الآن ثلاثون عاما على وفاة محرر المرأة المصرية قاسم أمين . وقد لاقت دعوته من النجاح بعد وفاته ، قدر ما لاقت من الاستنكار في أثناء حياته ، ولكن ما نجم عنها من تاريخ يحملنا على أن نتساءل :

هل أخطأ قاسم أمين في دعوته إلى تحرير المرأة ؟

بقلم : الأستاذ محمد فريد وجدى

قال العلامة الكبير (اجوست كومت) مؤسس علم الاجتماع والفلسفة الوضعية في كتابه (النظام السياسي) :

«كل أدوار الانتقالات الاجتماعية قد ولدت في زماننا هذا ضلالات خيالية على حالة النساء الاجتماعية ، ولكن القانون الطبيعي الذي يخصص الجنس النسوي للحياة البيتية لم يتغير ابدا تغيرا خطرا » .

وهذه الضلالات فى نظر واضع علم الاجتماع هى ما كان يكتبه بعض الكتاب فى أوربا تحت عنوان (تحرير المرأة) .

التسمية فى نفسها تؤثر فى كل نفس كريمة ، فمن الذى لا يود أن تحرر اخواته فى الانسانية من الاسر وقد حررت الاماء السود فى جميع بقاع الأرض ، ويغفل الاكثرون عن أن هذه التسمية مبنية على اخطاء علمية ، سوغت لعمدة الفلسفة الوضعية أن يسميها ضلالات خيالية . فلم تنص شريعة فى الأرض مهما انحطت على أن النساء أسيرات فى أيدى الرجال ، ولا أنهن مجردات من جميع الحقوق ، ولكن الأمر الواقع هو أن المرأة فى الجماعات المختلفة كانت تعامل على نسبة مكان تلك الجماعات من سلم المدنية ، ولا سبيل الى تغيير هذه المعاملة ، فان فلسفة محررى المرأة لا تصل الى هذه الجماعات ، ولو وصلت لرموا بها عرض الحائط ، فان لكل دور من أدوار الاجتماع مميزات لا يمكن أن تتخلف على الاطلاق .

والذى يتبين من تاريخ الانسان أنه مافتىء يزيد من حقوق المرأة عليه كلما ارتفعت حالته الأدبية وازداد شعوراً بواجباته الاجتماعية ، فنزل عن كثير من مزاعمه حيالها دون أن تطالبه هى بذلك ، محفوزا بمحض العوامل الطبيعية ، مما يشعر ، بأن العلاقة بين الجنسين لابد منتهية الى درجة من الكمال لا يكون معها ملحق لشكوى . نعم لم تصل أمة من أمم المعمورة بعد الى هذه الدرجة ولكنها منتهية اليها لا محالة ، اذا خلا الجو من المزاعم الطائشة التى يرمى مثيروها من ورائها الى الحصول على ما يطلبونه باسم المرأة من طريق الثورة لا من طريق العوامل الطبيعية .

ولقد اتفق فى إبان نعرة تحرير المرأة فى أوربا فى القرن التاسع عشر أن نعرات أخرى فى النواحى الاقتصادية والاجتماعية والخلقية والسياسية كانت قائمة ، أثارتها مزاعم اشتراكية وفوضوية وإباحية واصلاحية ، فكان تأثير مجموع هذه النعرات الصاخبة فى ذلك القرن أشد فى زعزعة أركان المبادىء المستقرة فى نفوس الناس من تأثير أكبر الحوادث الانقلابية ، وأفضى ذلك التأثير الى نتيجة لا مفر منها فى مستهل القرن العشرين ، وهى الحرب العامة التى ظلت الانسانية تتناحر فيها خمس سنين متوالية وكادت تقضى على المدنية وتجعلها أثراً بعد عين ، لولا ما كتب لها من بقية حياة الى حين . فكان أثر كل نعرة من هذه النعرات المتطرفة أن ارتكست الأحوال بسببها الى عكس ما كان يراد منها . فاستحالت فى الناحية الاقتصادية الى انتشار البطالة ، وتوالى الأزمات وتتابع الاضرابات ، واختلال اتزان الاعمال فى

جميع البلدان . وكان أثرها فى الناحية الاجتماعية زعزعة الأصول الديمقراطية ، وقيام حكم الفرد مقام حكم الجماعة ، وضياع أكثر المبادىء العليا التى حصلها الانسان فى خلال العصور بإراقة دمه ، وأصبحت الجماعات مضطرة الى اللجوء لحكم القوة ، ففزعت الى التسلح باذلة فى سبيله كل ما تملك من حول وحيلة .

وكانت ثمرتها من الناحية السياسية سريان سوء الظن بين جميع الامم ، وتنبه الأحقاد الجنسية وهضم حقوق الاقليات لدرجة حرمانهم من العمل لكسب قوتهم ، حملا لهم على الجلاء من بلاد استوطنوها مئات من السنين ، وعدم المبالاة بالعقود المبرمة ، والعهود المقطوعة ، حتى صرحوا بأنها وقصاصات الأوراق سواء ، وابتنى على ذلك كله الجرى على قاعدة الأمر الواقع ، فاصبحت كل أمة قوية تبيت لجارتها ما بدا لها من الحوادث ، حتى اذا أصبح الناس وجدوا أنفسهم حيال انقلاب كان لا يمكن حدوثه لو كانت النفسية السياسية للقادة فى حالتها التقليدية .

أما من ناحية الآداب العامة فقد كان من نتائجها أن تفككت جميع ربط الاخلاق ، وانحلت عرى حوافظها المعنوية ، فلم يبق لسنتها التقليدية اعتبار فى نظر الخاصة والعامة ، فسمح كل فريق لنفسه أن يعمل ما يبدو له كانه مستقل برأسه ، وضعف سلطان الرأى العام فلم يعد أحد يعتد به متى تراءت له مصلحة شخصية فى احتقاره .

هذه الكارثة الخلقية حلت بالبيوت فلم يبق لرب الاسرة المنزلية التى كانت له من قبل ، وأنس نفسه بين حليلته وبنيه مجرداً من السلطات ، حتى فيما يمس شرفه الشخصى وكرامة البيت ، ورأى انه لو قام مذكراً بأدب موروث ، أو بقاعدة مأثورة ، أو بمأساة متوقعة ، قوبل بعاصفة من الاحتجاج ، وضربت له الأمثال بفلانة وفلان ، وأحيط به من كل مكان ، فألفى نفسه بين شرين لهما ، فاما ان يعتزل أسرته ويعيش أبدا كأنه بعض الضوارى ، واما ان يجدع انف غيرته ليعيش ، متأسيا بمصائب الكافة بين يديه ومن خلفه .

ألمت هذه الاباحة الجائحة بصناعة القلم ، فاندس فيها من لا حريجة له من كرامة أو ضمير ، فأطلق ليراعته العنان ليرضى هذه النفوس الهائمة فى متاهات الشهوات ، ويبل أوام تلك الفطرة النزاعة الى الإباحة والاطلاق . وأى شىء يخشى وقد سلب الرأى العام سلطانه فلا يبالى وازعا من ناحية ، ووسم داعى الاعتدال بالرجعية فلا يتوقع كريهة من جهته ، واضطر كثير من حملة اليراع إلى الإسفاف ، وما هم بأهله ، ولكن المضطر قد يركب الصعب من الأمور وهو عالم بركوبه !

فإذا عنى باحث بأن يستطلع آراء زعماء المذاهب المختلفة فيما انتهت اليه الحال في هذا العهد كثمرة لجهادهم ، لما صادف واحداً منهم راضيا بما آلت إليه الامور ، بل لصرحوا له بأن نتيجة جهودهم جاءت مباينة لما كانوا يدعون اليه . فلا الاقتصاديون كانوا يرومون من وراء بحوثهم المستفيضة أن تنتهي الحال الى أزمات عملية ومالية منكرة ، ولا إلى اختلال توازن المبادلات والمعارضات الى حد أن أصبحت كل أمة تعمل على ان تقطع صلاتها بجميع العالم ، وتكفي نفسها الحاجة الى سواها فيما جل أو حقر ، مما ستكون نتيجته لا محالة قطع أواصر الأمم ، وفصم عرى الألفة العالمية التي لا موجب لوجودها إلا ضرورة تبادل المنافع ، وتداول المرافق .

ولا الإجتماعيون كانوا يرجون بافكارهم من بيان ظل الجماعات ، والسعي لزيادة حظها من الحرية ، ونقد اسراف الحكومات في تجاهل حقوق الافراد ، أن ينتهوا الى هدم سيادة الأمة ، وإحلال الدكتاتورية محلها . ولا الى اثارة الدهماء الى حد اقامة حكومات شعبية تنعدم فيها الطبقات وتستحيل الى شيوعية باحتة . ولا شيعة الشيوعية أنفسهم كانوا يتطلبون من وراء سيادة مبادىء كارل ماركس أن تفضي الحالة الى ضرب من الحكومة الاستبدادية لا يستطيع القائم بها أن يحفظ وجودها الا باحداث مجازر بشرية دورية .

ولا اشياع الاصلاحات الخلقية كانوا يترضون من تشنيعهم على استبداد الأوضاع العامة ، والتشهير بالعبودية لوثنية العادات والتقاليد الضارة ، أن تؤول الحال بالناس الى نكران جميع الاوضاع والعادات ، والخروج الى باحة الفوضى الخلقية ، كما هو حاصل اليوم .

ولا زعماء النقد الأدبي كانوا يرجون بما نعوا عليه من تحدي الأساليب العتيقة ، والورع المبالغ فيه عن ذكر المساوىء البشرية في عبارات صريحة ، أن تنتشر الدعارة الكتابية الى حد أن توقف البراعات الفنية على نشر ما يثير الشهوات البهيمية ، ويقضي على عاطفة الصلاح في النفس البشرية .

ولا الذين كانوا يدعون لتحرير المرأة والمطالبة باستقلالها كانوا يرمون أن يقضوا عليها بأن تعيش على هامش الجماعة كما هي اليوم ، خارج دائرة الزوجية ، وأن تقصر على أن تكون أداة شهوانية ، فاذا لم تعد تصلح لذلك نبذت الى عالم الحرمان مع أولادها الطبيعيين ، وأن تستتبع هذه الاباحة انتشار العزوبة ، واقفار البيوت ، وذيوع الامراض السرية ، وقيام نوادي العري التي يجتمع فيها الرجال والنساء عرايا على حالة تأباها الكرامة الانسانية .

فلو أراد الباحث المنصف أن يعرف الطائفة التي فازت مما دعت اليه بحظ مرض ، أو اعتبرت ما آلت اليه الأحوال تمشيا نحو تحقيق غرضها ، لما وجدها في واحدة مما ذكرت وما لم أذكر . بل لرأى رأى العين أنها خسرت جميعا خسارات فادحة في مبادئها وتعاليمها ، وأصبحت لا تستطيع أن تتابع جهودها ، اللهم إلا في ناحية واحدة وهي الدعوة الى التعقل ، وإعادة النظر فيما العـالم ماض فيه راكبـا رأسـه لا يلوي على شيء .

الدعوة الى تحرير المرأة في مصر كانت فرعا من تلك الدعوة نفسها في أوربا ، وقد أصابها هنا ما أصابها هناك ، أي انها تأدت الى شر محض ، واندفعت في تيار لا يرجى الخير ممن يندفع فيه . ولو كان المرحوم قاسم بك أمين حيا ورأى ما نحـن رائيه اليوم ، لبرىء الى الله منه ، ولأهـاب بالناس الى الرعـوى عما هم ماضون فيه .

لقد سلخنا في تحقيق برنامج تحرير المرأة أكثر من ثلاثين سنة فلم يتم منه غير شيء واحد ، وهو سفور القلة المحجبة من ساكنات المدن ، وكانت النتيجة وصولنا الى عكس ما كان ينتظر من ذلك البرنامج . فقد كان ينتظر واضعه منه ارتفاع مستوى الآداب ، ورواج سوق الزواج ، وتوافر أسباب السعادة في البيوتات ، ولكن الذي حدث هو تدهور مروع في الآداب العامة ، وانتشار مفزع لمبدأ العزوبة . وكنا لا نسمع بحدوث طلاق في الأسر الكبيرة إلا في أحوال شاذة ، فأصبحنا نراه شائعا في تلك الأسر كأنه أمر عادي . وأضحت جلسات المحاكم غاصة بقضايا هتك الأعراض ، وتعديد بعض النساء للأزواج . وصار من الأمور المألوفة هروب الشابات من دور أهليهن ، وقضاء الأيام والأسابيع مع بعض الشبان ، واختتام هذه الفصول بعقد قرانهن في مكاتب البوليس ، ولا تسل عما تؤول حالتهن اليه بعد تلك المأساة المنكرة من السيرة المعوجة ، والحياة الدنسة .

لقد طمت هذه الأحوال وتفاقمت شرورها وهي آخذة في الازدياد ، وقد أصبحت جزءاً من التدهور الأدبي العام الذي أصاب الانسانية في هذا العهد الأخير . فاذا اعتبرها الاجتماعيون من العلامات المنذرة بقرب انهيار صرح المدنية الراهنة ، فلم يعدهم الصواب ، لأنه لا يعقل أن تنقلب الحياة الانسانية الكريمة ، وهي مستقر الصفات الملكية ، وعوامل السمو الذي لا حد له ، الى مثل هذا الحضيض من الدنس والاسفاف والبهيمية .

موقف الرجل من المرأة في فن التمثيل

بقلم : زكى طليمات

يذهب بعض الاجتماعيين إلى أن المرأة فى مجال نشاطها الحديث تنحرف تدريجا عن مهمتها الاساسية فى الحياة المنزلية الى الاشتغال بمهام لم تكن لها فى سابق الازمان . فهى تزاحم الرجل فى ميادين الاعمال المدنية المختلفة ، بل إنها تتجاوزها الى ساحات القتال ، وهم يرون فى هذا تطرفا قد تنقلب معه أوضاع الحياة العائلية كما يرى فريق آخر انه استعداء صريح على مهام الرجل وتنافس له ما بعده من اضطراب الاحوال . لهم ما يذهبون اليه فلسنا هنا للمناقشة فى هذا ولكننا نقرر ، ماداموا يذكرون استعداء المرأة على الرجل ، أنه جاء حين من الدهر أبعده منذ ثلاثة قرون فى انجلترا وأقربه منذ نصف قرن في مصر ، كان الرجل فيه يستعدى على المرأة استعداء غريبا مضحكا اذ كان يسلبها حقا صريحا من حقوقها فى تولى العمل فى ناحية هى للمرأة .. ومن المرأة !



زينب صدقي من الممثلات اللاتي عملن بالتمثيل أمام الرجال
ويظهر في الصورة الممثل المشهور — الشاب الأول — سراج منير

هو استعداد عجيب في نوعه يثير ضحكنا اليوم ، وكان ميدانه مسرح التمثيل ، فقد نحى الرجل المرأة عن اعتلاء المسرح تمثل فوقه أدوار جنسها ليقوم هو مكانها بتمثيل هذه الادوار في مختلف المسرحيات بعد أن يتزيا بزيها وينتحل صوتها ويقلد حركاتها مخططا وجهه بالمساحيق والأصباغ ، مغطيا رأسه بجدائل الشعر المستعارا

الرجل فوق المسرح يمثل دور المرأة أمام جماهير من الناس يصفقون له ويعجبون به ! أى استعداد من جانب الرجل وأى استكانة من جانب المرأة وخضوع ، وأى مزاج كان الجمهور عليه ؟

ظاهرة اجتماعية تبدو لنا اليوم على غرابة لا تنتهى لمخالفتها المألوف ومجافاتها المزاج السائد ، فاننا اليوم مهما قلبنا هذه الظاهرة على وجوهها المختلفة فلن نجد فيها موضعا للاستساغة والقبول ، بل ان مجتمعنا العصرى ليشمئز ويتبرم اذ يرى رجلا، كانت ما كانت سنه ووسامته وموهبته، يتلوى فوق المسرح ، متكلفا أنوثة المرأة بعد أن يتقمص شخصيتها ويرتدى لباسها مؤديا دورها فى احدى المسرحيات . بيد أن هذه الظاهرة كانت تبدو

للرجل الانجليزى حتى أواسط القرن السابع عشر وليس فيها موضع للتأمل ولا مثار للدهشة ، بل كان يعبر بها من غير أن يعيرها التفاتا . لهذا فان أول ما تثيره فينا هذه الظاهرة من تأملات : كيف تأتى ان أصبحنا اليوم ننكر ما كان يقره الاقدمون ولا نجد مذاقا لما كانوا يستسيغونه ؟ ولكن سرعان ما نجد الجواب باعتبار أن المزاج العام للمجتمع لا يقيم على حال ، وأن البشرية فطرت على التحول والتقلب تغير من نظرتها الى الاشـياء بتغير الازمـــان .

ثم تترى تأملات أخرى يحلق الخيال ببعضها الى آفاق الفكاهة والسخرية ، فنحاول أن نتمثل كيف كانت « جولييت » مثلا تطارح « روميو » الغرام الملتهب وتبادله العناق الرقيق – وذلك فى مأساة شكسبير الخالدة وفى زمنه – وجولييت هذه يؤدى دورها رجل سلط الموسى على لحيته وشاربه ، يتكلف أنوثة ليست فى طبعه ورقة ينكرها جنسه ، ويتعمل صوتا لين المكاسر ليس فيه شىء من الغير التسوى الدافىء ، وقد نبتسم وقد نضحك اذا تخيلنا ماذا يكون حاله لو سقطت من فوق رأسه جدائل الشعر المستعار ؟

بيد أن أمرا واحدا يظل يراود خاطرنا وقد يستبد به ، مأتاه التشوف الى المعرفة ، أين الاصول فى هذه الظاهرة ؟! وكيف نشأ هذا التقليد العجيب فى ان يقوم الرجال بأدوار النساء فوق المسرح ؟!

المرأة فى المسرح الاغريقى والمسرح الفرعونى

الاغريق ، أو قدماء اليونان ، هم بناة المسرح ، وهم أول من رفع العرض التمثيلى المرتجل الى مرتبة الفن الكامل ، ومن مسرحهم خرجت أول أوضاع الفن المسرحى وتقاليده ، وهى أوضاع وتقاليد مازال بعضها مخلفا طابعه على مسرحنا حتى اليوم .

لدى هؤلاء الاغريق الاساتذة الفنانين نجد الاصل لتلك الظاهرة الغريبة ، قيام الرجال بأدوار النساء فوق المسرح ، كما نجدها أيضا فى المسرح الفرعونى الذى سبق المسرح الاغريقى فى معالجة شئون أرباب العقيدة المصرية القديمة .

وقد نعجب كيف تأتى أن الاغريق تورطوا فى هذا وقلبوا رأسا على عقب وضعا طبيعيا منحرفين كل الانحراف عن شرعة انزال الأمور منازلها الصحيحة ، وهم أهل فن عريق مجيد ، وبناة مدنية زاهرة ، يمتاز فنهم بالمنطق والمعقول والوضوح والاعتدال والاتساق ، وينزع نزعة مثالية نحو الجمال ؟!

فى الحق انهم تورطوا فى هذا على الرغم مما ذكرنا من سمات فنهم الرفيع فى النحت والزخرفة والبناء ، ومرجع هذا أن فن التمثيل فى نشأته ومرحلته الأولى كان موقوفا لديهم على شئون الآلهة ومناسك الدين ، يقوم بأعبائه الكهان دون سواهم من طبقات الشعب ، فكان أمرا واجبا الا تتدخل النساء فى شئون هذه الناحية من المراسم الدينية



الرفيعة ، لاسيما وأن الحوار في تلك المشاهد التمثيلية كان خاليا من أدوار النساء .

ونجد نفس الحال في المسرح الفرعوني الذي كان لشؤون الآلهة فحسب .

في هذين المسرحين اللذين يعتبر كل منهما مظهرا من مظاهر مدنية عظيمة نجحت هذه الظاهرة الغريبة ، ولم يجرؤ أحد على انتقادها ومناهضتها نظرا لالتصاقها بشؤون الدين .

بيد أن المسرح الاغريقي ترك معالجة أحوال الآلهة الى شؤون الدنيا والناس ، ووضع الشعراء أدوارا للمرأة في مسرحياتهم ، ومات المسرح الفرعوني بين جدران الهياكل ولما يخرج الى العالم الارضي ، ولكن هذه الظاهرة لم تمت .

أجل أصبح المسرح الاغريقي منقل ألوان الحياة ومرآة صورها ، ومن المعلوم أننا لا نرى الرجل في الحياة الواقعية يشكل بشكل المرأة ويقوم بدور لها يستمد معينه مما ركب فيها من أنوثة ورقة ودلال . كذلك تخلى رجال الدين عن أداء الادوار التمثيلية وتركوا هذا لعامة الناس ، وفي هذا كله الكفاء لان تختفي هذه الظاهرة من المسرح ، ولكن

على الرغم من هذا لم تفارقه بل بقيت لاصقة به !

والسبب فى هذا أن هذه الظاهرة أصبحت تقليدا امتدت جذوره مع الايام فى تربة المزاج الاغريقى . كما أنه يبدو لى أن الاغريق – وقد سمت نظراتهم الى فن التمثيل وعظم اعتبارهم للقائمين به باعتبار أنه فن له قداسته ، اذ إنه منحدر من الهيكل ومناسك الدين – كانوا ينفسون به على النساء اذ يرون فيهن عنصرا متحولا طائشا لا يتكافأ مع الرجل فى الجد والرصانة والتقوى ، ولاشك فى أن المرأة كانت ترمق من المجتمع بنظرة ظنينة تبالغ فى تجسيم ما منيت به من ضعف ، فكان على الرجل أن يصونها عن مزالق الهواية ويبعدها عن مواطن الاستثارة مهما سمت أغراضها ، فلم ينحها عن الظهور فوق المسرح فحسب ، بل سلبها حق المتعة فى غشيان المسارح مع الجمهور المتفرج .

وهناك سبب آخر منشاه ضرورات فنية تتصل ببناء المسرح ومكان النظارة فيه ، لاشك فى انها صرفتهم عن مراجعة هذا التقليد الخاص بابعاد المرأة عن الظهور فوق المسرح .

كان الممثلون لا يبدون على المسرح بوجوههم الطبيعية ، بل كانوا يلبسون أقنعة Masques كبيرة من الكتان المشدود أو الورق السميك المضغوط تغطي الرأس والوجه والعنق ، وقد ركزت فى بعضها – وذلك بالقطع والتخطيط والتصوير – ملامح وجه الرجل فى أهم مراحل الحياة ، وفى بعضها الآخر سمات وجه المرأة فى أبرز أدوار العمر ، بقصد أن تزيد هذه الأقنعة فى قامة الممثل وفى حجم رأسه ووجهه حتى تتيسر رؤيته للنظارة بحال يعظم التأثر باجتلائه (١) .

ولاشك فى أن وجود هذه الاقنعة قد أغرى الرجل الممثل بأن يبقى ممثلا دور المرأة ، اذ ما كان أيسر عليه أن يقوم بدورها مادام الأمر لا يتطلب منه غير التخفى بقناع يحمل فى رسمه ملامح وجهها وزى يشاكل زيها .

المسرح الروماني

أما الرومان فكان حالهم من فن التمثيل غير حال الاغريق ، وان تعرفوا الى فنهم فى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد ثم أخذوا عنهم الكثير من أوضاعه وتقاليده .

ولم يتصل المسرح لدى الرومان بشؤون الآلهة ولم يعالج مناسك الدين كما كان الحال لدى الاغريق . ولهذا لم تكن لديهم نحوه قداسة وإجلال . كذلك كان الرومان يغلب عليهم ميل الى المجون والرقص والموسيقى ، وقد طغى حبهم لالعاب الفروسية والمصارعة والمبارزة على كل شيء سواه . كان اللعب أحب اليهم من المسرح ، ولهذا كانت

---

(١) مكان النظارة فى المسرح الاغريقى مدرج كبير مترامى الاطراف بحيث يسع ما لا يقل عن خمسة آلاف شخص ، فكان الممثل ، بحكم هذا الاتساع بعيدا عن النظارة . ولهذا عمد ممثلو الاغريق الى الاقنعة كما عمدوا الى الاحذية ذات النعال المرتفعة السميكة Cotherne التي كان يبلغ ارتفاع بعضها ٥٠ سنتيمترا ، واتخذوا الثياب الفضفاضة الطويلة . كل هذا ليزيد فى حجم الممثل . أضف الى ما تقدم أن حفلات التمثيل كانت تجرى فى وضح النهار من غير استعانة بالاضواء الصناعية .

نظرتهم الى التمثيل والممثلين يجافيها الاحترام والتقدير ، بدليل أن ممثلى مسارحهم كانوا كلهم من الرقيق والمعتوقين والاوشاب الذين لا مؤونة لهم من التثقيف والخلق الطيب المتين ، وقد تألفوا فرقا ثابتة يتولى أمر كل منها رئيس ليس حظه من الاصل والخلق بأرفع من مرءوسيه ، هذا فى حين أن الممثلين لدى الاغريق كانوا موضع التجلة والاحترام ، فقد كان الشاعر مؤلف المسرحية يشكل فرقته بنفســه كلما دعت الحــاجة من صفوة المتأدبين ، وقد يقوم بتمثيل أحد أدوار المسرحية .

أول ظهور المرأة فوق المسرح

بيد أنه على الرغم من هذه الحال فقد عمل المسرح الرومانى مدة طويلة بالتقليد الاغريقى الخاص بابعاد النساء عن التمثيل فوق المسرح ، ولا سيما فى المآسى الرفيعة والفكاهيات الاخلاقية للشاعرين « سينيك » و « تيرانس » ونهجوا نهج أساتذتهم الاغريق فى استعمال الاقنعة .

غير أن الرومان كان يستهويهم طبع الى الرقص والموسيقى كما أشرنا ، فابتدعوا رقص الجماعة ، ورفعوه الى مرتبة العرض المسرحى ، فى حين أنه يجمع بين الايماء والاشارة السادرة Mime وبين الحركات الايقاعية المثيرة للحس (١) .

فى هذا المجال يسجل التاريخ أول ظهور للمرأة فوق المسرح ، وهو ظهور لا يشرفها ويا لقسوة الرجل . فقد حجزها باسم التقليد عن العمل بالمسرح ممثلة تؤدى رسالة خلقية سامية ، ثم أطلقها فوق المسرح راقصة عربيدة الجسد تغرى وتغوى وتلهب الحواس .

وهذه بادرة لا شعورية من جانب الرجل فى تلك العصور تنم ولاشك عما يستهويه أن تكون المرأة عليه وأن تؤديه من وظيفة فى الحياة ، سواء أكانت تحت سقف البيت أم فى ظل المسرح . وهى بادرة جديرة بالتســجيل فى تاريخ موقف الرجل من المرأة .

المرأة فوق المسرح

ومن ذلك الوقت امتدت قدم للمرأة الى المسرح ، فكانت تارة تستقر وتارة أخرى تقتلع ، وهى فى الحالتين تتطوح بين التقليد القديم الذى حرمها العمل بالمسرح قرونا عدة ، وبين الحق الذى اكتسبته بظهورها فى العرض الرومانى الراقص ، وأخيرا رسخت قدمها فى عصر النهضة Renaissance وهو وان كان عصر رجعة الى حياة الذهن والعلم والادب بعد عصور الظلام فى القرون الوسطى حيث سلط رجال الكنيسة سلطانهم على المجتمع فخلعوا عليه مسحة التقشف وأقنعه الوقار والزهد ، فانه أيضا عصر فرح بالحياة وعهد اطلاق للحواس التى كانت تكابد مرارة الكبت ، وعصر حرية نسبية للوجدان فكان أن

(١) كان فى روما وحدها ثلاثة آلاف امرأة يعملن فى هذا الرقص . وفى الوقت الذى كان يطرد فيه العلماء والخيرون من العاصمة ويعانى السكان آلام المجاعات ، كانت هاتيك الراقصات يستمتعن بالبقاء والعيش الهين . وفى هذا أكبر دليل على مبلغ شغف روما براقصاتها .

أخذت المرأة حقها المشروع فى اعتلاء المسرح ، ولا سيما فى أوربا اللاتينية . بيد أن مجالها فى فن التمثيل لم يتجاوز نطاق فن الاداء التمثيلى فقط واختفت « الاقنعة » من عالم المسرح .

المسرح الانجليزى والتقليد القديم

وتفرد المسرح الانجليزى بالمحافظة على التقليد القديم فى ابعاد المرأة عن القيام بدورها فوق المسرح . وهو موقف يثير العجب حقا ، فان هذا المسرح الزاهر الذى سبق مسارح أوربا كلها الى الخروج على أعرق تقاليد الاغريق فى صياغة المسرحية محطما قيود وحدتى الزمان والمكان (١) . على يد العبقرى « وليم شكسبير» كما خالف شعراؤه المسرحيون الكتاب القدامى من الأغريق والرومان ومن تلى تلوهما بأن كتبوا المسرحية بالشعر المرسل « Blank Verse » بدلا من الشعر المقفى ، هذا المسرح المجدد فى أخطر دعائم المسرحية وفى أهم أسس العرض التمثيلى ، مما يضيق المقام بسرده ، وقف جامدا أمام ما خلفه الاغريق من تقليد شاذ فى جعل الرجل يمثل دور المرأة حتى منتصف القرن السابع عشر .

وأسماء الممثلين « وليم أوستلر » و « روبرت جوش » و« جون أندروود » و« اسكندر كوك » يأتون فى رأس قائمة طويلة بأسماء رجال ممثلين كانوا يقومون بتمثيل الادوار النسوية فى روايات « وليم شكسبير » وغيره . والى الممثل الأخير يعزى فخر تأدية دورى « كليوباترة وجولييت » على المسرح الانجليزى للمرة الأولى .

وأعجب من هذا أن أدباء المسرح الانجليزى فى ذلك الوقت كانوا يزهون بهذا الوضع ويفاخرون به رجال المسرح الفرنسى ، ففى رسالة نشرها الناقد الانكليزى « ناش » عام ١٥٩٢ مفاخرا بالمسرح الانجليزى ، جاء فيها : « ان ممثلى المسرح الانجليزى ليسوا كممثلى المسرح الفرنسى جماعة من القوادين يستأجرون البغايا وأنصاف العرائر ليقوموا بأدوار النساء على المسرح » !

بأى نظرة يرمق بها هؤلاء الانجليز المرأة الممثلة وبأى مقياس يصدرون عنه فى تقدير العفة والشرف لدى المشتغلين بالمسرح فى غير بلادهم ؟

لاشك فى أن النزعة الطهرية Puritanisme كانت المعين الأول لهذه النظرة القاسية ، فان الطهريين بمغالاتهم فى أن يلقموا العرف السائد ومناسك الحياة الواقعية بالجد والصلابة الخلقية قد انحرفوا الى المناداة بتقشف الصادف عن محاسن الدنيا وزهد المتبرم بملذاتها ، فطبعوا المجتمع الانجليزى بطابع من الصرامة والعبوس كان له أكبر الاثر فى تخلف المسرح الانجليزى عن مجاراة المسارح الاوربية الاخرى فى القضاء على ذلك العرف الشاذ ، كما نحى المرأة الانجليزية عن مجالات النشاط الذهنى والعملى التى كانت تضرب فيها المرأة الأوربية . وفوق هذا فان فى طبيعة الانجليز عنادا موروثا فى تمسكهم بأذيال التقاليد ،

(١) وحدة الزمان فى صياغة المسرحية الاغريقية تقضى بأن تجرى حوادث الرواية فى يوم واحد . ووحدة المكان أن تقع هذه الحوادث فى مكان واحد لا يتغير .

ولا سيما من الناحية الشكلية . وقد نرجع تمسك الأنجليز بتنحية المرأة عن المسرح ومجاراة الاغريق في هذا إلى أنهم ، وقد أسرفوا في القضاء على اكثر التقاليد الاغريقية الخاصة بصياغة المسرحية وحرفية المسرح ، أخذتهم أخيرا نكسة الى الماضي مأتاها رد الفعل الذى يعقب كل انطلاق وتطرف ، فتعلقوا بذيل هذا التقليد التافه .

نضال عجيب !!

وتاريخ اعتلاء المرأة الانجليزية أرض المسرح تؤدى عليه أدوار جنسها حادث مثالي للنضال الذى يستعر بين تقليد قديم متأصل يقتحمه تقليد جديد ناشيء ، سجلت عنه أعجب النوادر . ففى سنة ١٦٢٩ هبطت مدينة لندن فرقة فرنسية قدمت بعض مسرحياتها فثار المحافظون وكتب « برين » Brynne رسالة نعت فيها الممثلات الفرنسيات بأنهن « عاهرات فواجر ذوات حذق في تصيد الرجال » فغضب الملك والملكة وأثيرت هذه المسألة في البرلمان وحكم على الناقد بالسجن وحرق كل ما طبع من رسالته !

وجاءت فرقة فرنسية أخرى بعد ست سنوات ، ثم تلتها فرق أخرى لم تلق القبول والتشجيع الا من الملكة ، بيد أن الجمهور الانجليزى أخذ يروقه الامر ، ولكنه لم يسمح للمرأة الانجليزية بأن تعتلى المسرح . وأخيرا في سنة ١٦٥٤ ظهرت على المسرح أول امرأة انجليزية واسمها « مدام كولن » في مسرحية « حصار رودس » وكان دورها تافها وكانت تتعثر في تمثيله خجلا !

وفى عام ١٦٦٣ رأى الجمهور الانجليزى ممثلة انجليزية تمثل دور « ديدامونة » في مسرحية « عطيل » وقد مهد لظهورها بقصيدة صاغها أديب شاعر وقف يلقيها على المسرح قبل رفع الستار يستأذن فيها الجمهور بلسان الممثلة ويستجدى عطفه ويلتمس رحمته ، جاء في نهايتها : « أتسميه جريمة ما يعدونه شرفا في فرنسا ؟ ان الازواج في كل الممالك الاخرى لا يحسون ما يخدش الادب اذ يرون امرأة فوق المسرح ، صدقونى ليس في الامر ما يعيب وانما العيب يرجع الى العادة فحسب » .

ولكن هذا الشاعر تناسى ولاشك أن العادة أقوى من المنطق والمعقول !

أجل العادة وسيطرتها فانه على الرغم مما تقدم ، عاودت المسرح الانجليزى نكسة الى التقليد القديم ، واستمر هذا النضال حتى انتهى بفوز المرأة ، فرسخت قدمها على المسرح نهائيا ، وأخرج المسرح الانجليزى أشهر الممثلات واقدرهن بعد أن كان الممثل الاخير في أوربا لهذا التقليد العجيب .

في المسرح المصرى

وليس عجيبا ، بعد ما تقدم ذكره عن موقف المرأة من المسرح في بلاد هي مهد للمسرح ومدارج لنشأته وازدهاره أن نرى المسرح المصرى يجتاز نفس الطريق . أجل كانت أدوار النساء نهبا للرجال يمثلونها ولكن من غير استعانة بأقنعة الأغريق يغطون بها وجوههم ومازال يعاصرنا ممثلان (١)

(١) هما الاستاذان عمر وصفى الممثل الكبير وعبد العزيز الجاهلى الذى يعمل الآن في الفرقة المصرية .



زكى طليمات . كاتب للقال مخرج وممثل

ممن كانوا يقومون بأدوار النساء في مختلف المسرحيات ، اذ لا يخفى أن تاريخ المسرح باللسان العربي لم يتجاوز سبعين عاما .

ولا شك في أن الاخذ بهذا التقليد لم يكن لتأصله في المسرح المصرى الحديث لاننا محدثين فيه باللسان العربي ، لاتقاليد لنا ولا وراثة ، وانما

يرجع إلى شئون الدين ، وإلى الحجاب ، وإلى مركز المرأة عامة فى الشرق من حياة العمل خارج بيتها .

وقد وجد أصحاب الفرق السبيل إلى تركه اذ استقدموا من سوريا ولبنان سيدات من غير الدين الاسلامى احترفن التمثيل وقمن بالادوار النسوية فى مختلف الروايات .

ويسجل مسرحنا الناشئ اسم «هانم كوكب» كاول مصرية مسلمة احترفت التمثيل فى وقت أحجمت فيه الفتيات المسلمات عن الاشتغال فيه وكان ذلك منذ نصف قرن تقريبا .

ولا شك فى أن العرف القومى قبل قيام «قاسم أمين» بدعوته إلى تحرير المرأة من الحجاب ومن الجهل ومن الركود ، لم يكن يقبل بأى حال أن تعمل المصرية فى المسرح. وقد ** كان للحرب العظمى الماضية أثر ملموس فى تطرية هذا العرف ، كما أن تعليم البنات وقد أخذ دورا جديا ، ساعد على أن تقتحم المرأة المصرية ميادين ** العمل إلى جانب الرجل ، وأصبح المسرح المصرى اليوم مجال عمل للمرأة المصرية مسلمة كانت أو مسيحية . فهى فيه ممثلة وناقدة وصاحبة فرقة يعمل بأمرها رجال ورجال !



سارة برنار .. معجزة نسائية فى فن التمثيل المسرحى

سيدة المستقبل

إذا كان الحاضر مرآة المستقبل كما يقولون ، فان المرأة فى نهاية الخمسين سنة القادمة ستكون بعيدة الشبه جدا عما هى عليه اليوم ، جسما وعقلا وشخصية وخلقا وزيا وعادة وتقليدا . ولن تستبقى من كيانها الذى نعرفه سوى الجانب الكبير من وجدانها وعاطفتها ، إن لم يكن كله . وقد يعترض على هذا بعضهم فيقول: لقد شهدنا المرأة منذ خمسين عاما مضت ، وليس هذا القول ملقى على عواهنه ، أو من قبيل الرجم بالغيب ، ولكن الدلائل والأرقام التى تضيق بها هذه الصفحات تزيدها . هذا إذا كان العالم فى خير ، واحتكمت الانسانية إلى العقل والمنطق . أما إذا طغت القنبلة الذرية وملحقاتها وبغت ، فان الحقيقة سيلقى على وجهها كلف من التشكيك والتناقض ، فتعود بالمرأة وسواها إلى العصر الحجرى .

بقلم : د. أمير بقطر

ولم تر فى زميلتها فى منتصف القرن العشرين فرقا جوهريا . والجواب عن ذلك أن ركب العلم والحضارة والاختراع تتضاعف سرعته كل عام ، إن لم يكن كل يوم ، فإذا كان سيره فى سنة ١٩٠٠ بسرعة الجمل ، فان سيره إلى سنة ٢٠٠٠ سيكون بسرعة الصوت ، وقد يتجاوز ذلك

جسمها ومنظرها وزيها

تدل الأرقام والشواهد على أن المرأة تطول قامتها باطراد . فقط احتفظت بعض الكليات والجامعات فى شمال أوربا وأمريكا بسجلات ألوف من الطالبات وأمهاتهن ، فاتضح لها أن الطالبة تزيد عن أمها قامة وعرضا فى المنكبين والصدر بأكثر



من سنتيمترين ، وتبلغ سن الحلم قبلها بعامين ، كما اتضح أن هذه الزيادة مطردة فى أكثر نواحى النمو، وتعزى هذه الظاهرة إلى عدة عوامل ، أهمها، الانتخاب الطبيعى (للزوجين) ، والغذاء ، والرياضة البدنية . وليست هذه مجرد أرقام فقد عاش كاتب هذه السطور فى مدينة جامعية منذ عامين بها نحو عشرة آلاف طالبة ، كان أول ما يسترعى الانظار فى حرم الجامعة وبناياتها التى تتجاوز المائة ، امتداد قامات الطالبات و (الطلبة) فيها ، ومما يدل على هذه الاتجاه أن شركات السينما كانت تشترط قبلا ألا تزيد قامة الممثلة عن عدد معين من السنتيمترات ، وقد رفعت الحد الأقصى أخيرا مضطرة ، لانقراض الممثلات اللاتى يتوافر فيهن الشرط القديم أو نقصان عددهن . ولن تكون المرأة



بنية [illegible] ، ولكنها لن تكون نحيلة ، ستميل إلى الامتلاء والقوة كالرجل ، مع المحافظة على رشاقة الجسد وانطلاقه ، وربما يؤسف له أن ثديها أخذ في التصغير من الآن ، وإذا اضطرت إلى الاستعانة بالوسائل الصناعية التي تباع الآن بالملايين ، والأرجح أنها ستنافس الرجل في ذلك قبل حلول سنة ٢٠٠٠ بعدة أعوام .

وستجد المرأة في فترة التحول عقبات في اللحاق إلى الرجال الذين ينافسها ، لقد اضطرت عميدة الطالبات في الجامعة التي سمحت الفتيات إليها ، أن تحول بعض الطالبات إلى جامعة أخرى مجاورة ، بأن فيهن الضعف الذكر طول القامة من أصل سويدي ، لأنهن لا يجدن في جامعتهن من يقبل على مراقصتهن من الذكور ، لامتداد قاماتهن إلى حد غير مألوف ، وستقترب ملابس المرأة وأزياؤها من ملابس الرجال في ساعات العمل والراحة وفي الرحلات وأوقات الرياضة والنزهة ، أما ملابس الزيارات والحفلات وأزياء السهرة ، فستحافظ فيها من جهة ، وستراعي فيها البساطة من جهة أخرى . أما من الملابس فإنها ستبدو المرأة عارية أكثر منها مرتدية ، ومن البساطة فإنها ستتخلى فيها البعض من الزخارف والأهداب والحواشي ، فإن هذه تستر بدنها ، وهي تريده سافرا إلى أقصى حد .

شخصيتها واستقلالها الاقتصادي

أما شخصيتها فستتخذ نوعا من القوة ، يحسب لها الرجل حسابا ، وينبغي بعد أن تكون

قد تحررت منه تماما أو كادت ، أن تبطش به ، وفى يدها سلاح ذو حدين ، سعة الحيلة والحرية المطلقة. ولن يكون لها حاجة للبكاء لأوهن الأسباب كما تفعل اليوم . وسينقرض من جنسها المرض النفسانى المعروف باسم الهستريا ، كما انقرضت بعض الحميات الخبيثة من البلدان الراقية ، لأن الكبت لن يعرف إلى عقلها الباطن سبيلا . وستسير فى دور الأعمال والأماكن العامة ، والمجتمعات مرفوعة الرأس ، ولن تتغايد فى مشيتها أو تتحاجى مع صويحباتها فى لا شىء كما تفعل اليوم ، لأن شئونها الهامة لن تسمح لها بذلك .

وسيكون أكبر عامل فى قوة شخصيتها ، وشدة مراسها ، وتحررها من الرجل ، استقلالها الاقتصادى فستأبى الفتاة فى سنة ٢٠٠٠ ، سواء أتيح لها اتمام دراستها العليا أو الثانوية ، أم لم يتح ، أن تعيش عالة على ذويها ، فتخرج فى طلب رزقها ، مهما بلغت ثروة أبيها . وستأبى الزوجة أن يتعهدها الرجل بالمأكل والملبس ، حتى لاتخضع له خضوعا أعمى ، فتساهم معه فى الشركة بنصيب وافر . وستؤثر الفتاة العانس أن تكون على شظف من العيش فى منزلها الخاص ، على أن تعيش فى بيت أبيها أو أخيها أو أقرب الناس اليها فى نعيم مترف . وسيتم لها هذا الاستقلال الاقتصادى قبل ذلك التاريخ فى الواقع ، والدليل أن نسبة تذكر من الجنس اللطيف فى بعض البلدان قد نالت ذلك فعلا .

أخلاقها

لا جدال أن القيم الأخلاقية فى منتصف هذا القرن ، ستكون غيرها فى نهايته ، وما نعده شرا اليوم قد يكون خيرا غدا ، وما نحسبه قبيحا فى المرأة سنة ١٩٥٠ ، سيعده الجيل حسنا سنة ٢٠٠٠ ، فاذا ما تحدثنا عن خلق المرأة فى ذلك الحين ، فإن المقاييس التى نتخذها ، هى مقاييس هذا العصر الذى نعيش فيه . وعلى هذا يمكن أن نقول ان المرأة سيدفعها التحرر من الرجل ، واستمتاعها بقسط وافر من المساواة به ، ونيلها استقلالها الاقتصادى كاملا - سيدفعها هذا إلى شىء مما نسميه الآن الاستهتار . وأننى أحيل من يتطرق اليه الشك فى هذه النبوءة ، إلى المرأة فى نهاية القرن التاسع عشر ، مع مراعاة السرعة التى أومأنا اليها فى صدر هذا المكان ، سيكون مقدار التحول فى مسلك المرأة أضعاف أضعاف مثله فى خلال الخمسين سنة الماضية . لقد كانت المرأة الأمريكية منذ عهد قريب لا يسمح لها بدخول مطعم أو النزول فى فندق ، مالم يكن فى صحبتها زوجها أو ولى أمرها . أما الآن فليس ذلك .

بيد أننى أعتقد أنها ستكون أحسن خلقا وأعلى مثلا منها اليوم ، لأن الخطأ فى ظل الحرية خير من الصواب داخل الأغلال والقيود وتحت سيف الجلاد. ستكون صريحة فى استهتارها إذا استهترت ، وتتحمل مسئوليته أمام المجتمع ، ولا تقدم عليه وراء الأستار الكثيفة فى جنح الليل ، ثم تبدو نهارا فى ثوب الرياء والنفاق ، وديعة كالحمل ، بسيطة كالحمام ، عفيفة كالعذراء .

وسيبقى الحب ما بقى الدهر ، إبقاء للجنس البشرى وتخليدا للنسل . وكسائر العواطف لن يتناوله التغيير الا قليلا . لقد دلنا التاريخ على أن التقدم العقلى يسير بسرعة لا بأس بها ، فى حين أن التقدم الوجدانى أو العاطفى لم يخط الا قيد شعرة أو شعرتين فى خلال الثلاثين ألف سنة الماضية . كل ما هنالك أنه كسائر الوجدانات التى يولد بها الانسان ، يتهذب ويصقل ، وتتغير مظاهره الخارجية دون لبه ، تغيرا يتمشى مع الزمن . وكل ما يحدث لحب المرأة فى سنة ٢٠٠٠ أنه يفقد الكثير من « الرومانس » ورقة الحساسية ودقة العاطفة . سينقصه الكثير من الشعر والخيال ، ويسوده شيء من الجفاء والجفاف ، فيخلو من الغلو فى الآهات والتنهدات . ستكون المرأة فيه عملية جدية . لن تقف أمام الرجل فى عزلة صامتة خفرة حيية ، خافضة البصر ، بل تبادله النظرة بنظرتين ، والبسمة ببسمتين وتعامله معاملة الند للند ، والنظير للنظير . لقد استطاع هتلر فى بضع سنوات أن ينشىء جيلا من الفتيات ، يكاد ينطبق عليهن هذا الوصف . لم يستطع أن يقتل فى الفتاة الألمانية العاطفة الجنسية أو عاطفة الحب ، ولكنه تمكن من جعلها عملية ، جافة ، خلوة من الاستسلام للجوى ، والتتيم ، والتدله والهيام ، وسائر المعانى التى عرفها العرب للتعبير عن الإمعان فى الحب والتعمق فيه وجعله الشغل الشاغل . ويتفق وأياى فى الرأى كل من زار ألمانيا الهتلرية مرات وخبر الحياة فيها ، خصوصا فى خيام الفتيان والفتيات ومزارعهم ومصانعهم ، فى خلال السنة التى كان يحتم على كل شاب وشابة قضاؤها قبل التحاقه بالجامعة .

أما الزواج فهو شركة وتبادل ومنفعة بين الرجل والمرأة . وفى سنة ٢٠٠٠ ستقل حاجة المرأة إلى الرجل ، وحاجة الرجل إلى المرأة ، كثيرا عما هى عليه اليوم . ستقل حاجتها إليه لاستقلالها الاقتصادى الذى سبقت الأشارة اليه ، وستقل حاجته اليها للحالة الجديدة التى سيكون عليها البيت وما يتوافر فيه من الوسائل الآلية الحديثة ونظرا لتحرر المرأة من الرجل ، ستطالبه بالمساهمة فى الأعمال المنزلية .

وستتزوج مبكرة جدا ، برغم مواصلتها الدراسة أو العمل أو كليهما ، لأنها كما قلنا ستبلغ سن الحلم مبكرة ، وستطلب يد الشاب للزواج بها إذا شاءت ، كما يطلب هو يدها إذا شاء . ولن تسمح لنفسها بانجاب أكثر من ثلاثة أطفال .

يناير ١٩٥٠



الزواج هل هو حب .. أم حرب ؟!

بقلم : ابراهيم المصرى

«المرأة العاملة كالجندي الصالح .. كلاهما يخوض معركة الحياة في سبيل هدف سام ومثل عليا رائعة ..!» سقراط »

لابد للزواج من عاطفة الحب موالاً استحال إلى شركة مادية وضيعة سرعان ما تهددها الانانية بالتصدع والانهيار . فلكي ينهض الزواج على صرح ثابت يجب أن يسبقه حب لا عشق ، أو يجب أن يتطور فيه العشق إلى حب . والحب الذى يدعم الزواج ويوطده هو ذلك الحب النابع من استجابة عاطفية وحسية ، تغذيها صداقة العقل ، وترعاها مشاركة الفكر ، ويحـــرسها تآلف الطبع وحنان القلب. هذا الحب هو الذى يهون بعد الزواج حمل الواجب ، ويدفع إلى التجاوز والتسامح وينزع إلى الثبات فى وجه احداث الزمن ، ويغرى بالبذل والتضحية وانكار الذات .

فهل هذا الحب موجود عندنا ؟ ! وهل نحن نتزوج عن حب ؟!

وهل نحاول أن نبنى الزواج على قاعدة الحب ؟!

الواقع ان الجيل الجديد يصبو إلى تحقيق هذه الغاية . بيد أن السواد الاعظم من شبابنا لا يزال يتزوج فرارا من العزوبة المحرومة ، وأشباعا للشهوة المكبوتة ، أو مصاهرة لاسرة ذات مكانة ونفوذ ، أو تطلعا إلى مصلحة مادية مباشرة فقيام الزواج على الشهوة المجردة من العاطفة والحب أو على المصلحة المستهزئة بمشاركة العقل والفكر ، يلهب الانانية ، ويفصل بين الزوجين بدل أن يجمع ، ويلقى فى روع كل منهما أن شريكه لم يتزوج إلا وهو يفكر فى نفسه وملذاته ومصلحته فقط . فينظر اليه نظرته إلى خصم له . فيوجس منه ، ويتربص به ، ويستحيل الزواج بينهما إلى مقاتلة وحرب .

وهذه الحرب التى يثيرها فى معظم بيوتنا انعدام النزاهة وانعدام الحب قبل الزواج ، يضاعف نارها بعد الزواج اشتعالا خوف المرأة من الرجل . أى خوفها من أن يكون زوجها انسانا فاسد الخلق والضمير بطبعه ، فيستغل محللات الشرع ، ويطلق امرأته لمجرد نزاع عارض ، أو يتزوج عليها توكيدا لقوته وانانيته وارواء للذاته .

والحق أن المرأة عندنا ماتزال متاع الرجل . فهو أن شاء أبقى عليها وقدر جهادها وضمن مستقبلها وحباها بالامن والطمانينة فى ظل الأسرة، وإن شاء اهدر كرامتها وتزوج عليها أو استبدل بها غيرها ، فشردها هى واولادها الابرياء المساكين ..

فالرجل عندنا - فى غالبية الاحوال - هو الخصم والحكم . هو قوة لا ضابط لها . هو وحده الذى يقرر ، وهو وحده الذى يفصل ، وهو وحده الذى يتمتع ويشتار العسل من الزهرة التى تعجبه . فنزوته هى المتحكمة فى مصير المرأة ومصير الاسرة . وما انحلال بعض الروابط العائلية ، وفساد اخلاق بعض النساء ، وتشرد الاطفال ، وكراهية الاخوة الاشقاء لاخوتهم الدخلاء ، الا النتيجة المحتومة لتلك النزوة المروعة ، تعصف بلب الرجل ، فتضرم فى صدره انانيته الجنائية ، وفى

حواسه شهوة الحيوان . فيطلق أو يتزوج على امرأته . فيتخبط بين عالمين ، ويقوض دعائم اسرتين ، ويهدم بكلتا يديه حياته الزوجية المستقرة الاولى التي كان قد بناها بلحمه ودمه في سنين ..

فانعدام الحب والنزاهة ، كما ذكرنا ، يمهد للحرب ويثيرها بعد الزواج ، وخوف المرأة من الرجل يجعل من الزواج حربا مستعرة ودائمة .

وقد قالت لي يوما احدى السيدات في صراحة اذهلتني : مادمت اشعر أن زوجي يستطيع في اية لحظة أن يطلقني أو يتخذ علي زوجة ثانية ، فانا اعتبره خصمي . واحاربه باسلحة ثلاثة دفاعا عن نفسي :

أولا : اعقب منه اكبر عدد ممكن من الاطفال كي اربطه وارهقه باكبر مسئوليات ممكنة .

وثانيا : ابتز ماله وانفقه اولا باول لاحول بينه وبين التفكير في الزواج من امرأة اخرى .

وثالثا : اغافله جهدي ، وادخر من ماله لنفسي كي اجمع نقودا احمي بها ظهري في حالة ما إذا انصرف عني يوما وطلقني .. ؟

فانعدام الثقة والطمأنينة في نفس المرأة فوق انعدام الحب ونزاهة القصد قبل الزواج ، هو الداء الذي يهـــدد بيوتنا ، ويحيل معظمها إلى ميادين قتال .

****

وليس شك في ان الزواج القائم على الشهوة أو المصلحة لابد أن يتصدع ، حتى ولو لم يطلق الرجل امرأته أو يتزوج عليها . لابد أن يتصدع بنيان البيت والاسرة . فينفصل الرجل بالفكر والروح عن زوجته ، وقد يتخذ له خليلة ، أو يرتد إلى حياة العزوبة والتشرد في المقاهي ، فتحس زوجته أنها وحيدة ومنبوذة . فتتقد الحرب بينهما . فتكره المرأة زوجها ، وقد تضيق ذرعا به في النهاية فتغافله هي ايضا وتخدعه .

فلكي يعيش الزواج عندنا وينمو ويؤتي ثماره المرجوة لخير الفرد والاسرة والمجموع . أي لكي يصبح الزواج سلما لا حربا ، وودا لا عداء ، وثقة لا توجسا ، وتعاونا لا تسلطا ، وحنانا وبذلا لا قسوة وانانية ، يجب أن ينهض أولا على الحب ثم على حماية المرأة والاسرة من الرجل الذي يمكن أن يكون فاسد القلب والضمير فيحاول استغلال محللات الشرع .

فأما الحب الذي يجب أن ينهض عليه الزواج فلا ينبغي أن يكون حبا شهوانيا مجردا ، أو حبا خياليا طائشا ، بل ينبغي أن يكون كما أسلفنا عاطفة متنبهة واعية ، يشترك في تكوينها القلب والجسد والعقل معا . فقلب الشاب أو الفتاة يجب أن ينبض للشريك الذي ميزه واختاره . وجسده يجب أن يستجيب إليه استجابة معتدلة لا تذهب إلى حد الهوى الجامح الشهوي . وعقله يجب أن يلمس في عقل الشريك توافقا في الاخلاق ، وتشابها في الافكار ، وتجانسا في الاهواء والميول ، مع علو في النفس ، وعزة في الطبع ، ونزاهة في القصد ، تتمثل في وضع الحب فوق المادة ، والتفاهم النفسي والمعنوي فوق اغراء المظاهر والمصالح والنفعيات .

ذلك هو الحب الذي تبثه الشعوب المتمدينة في نفوس ابنائها ، كي تمازج بين قلوبهم وعقولهم وطباعهم ، وتجنبهم حرب الزواج ، وتبني صرح



الاسرة ما أستطاعت على أسس متينة ثابتة ! ..

****

ومع ذلك وبرغم ما تقدم ، فالحب وحده لا يحقق هذه الغاية وكذلك نزاهة القصد . لابد من حب ونزاهة ، ولابد أيضا من تشريع وقانون . ذلك لأن الزواج نظام . وكل نظام يتطلب موانع وضوابط تحسب حساب ضعف الطبيعة البشرية برغم وجود الحب ، وتحاول ان تدرأ المخاطر التى قد تنجم عن انانيتها وشهواتها وأنحرافاتها ، خشية أن تستفحل هذه المخاطر فلا تصيب الازواج فقط بل تمتد منهم إلى المجموع . وهذا هو الواقع عند الشعوب المتمدينة . فالاسرة فى تلك الشعوب محكومة بقانون لا يميز الرجل على المرأة ، ولا يمنح الرجل حقوقا تمكنه من البطش بالمرأة إذ الاسرة فى عرفهم ليست قبيلة يتحكم فيها رجل ، والبيت ليس خيمة مرهونة المصير بنزوة رجل ، والمرأة ليست متاعا أو سلعة يتصرف فيها ويعبث بها رجل فالرجل هناك لا يملك حق هدم أسرته بكلمة ، ولا يمكنه أن يطلق أمرأته إلا طلاقا مسببا ويحكم محكمة ، ولا يستطيع أن يتخذ عليها زوجة أو زوجات .

وصحيح أن بعض شعوب الغرب التى زعزعتها الحروب قد خرجت منها شبه متحللة . فكثرت فيها حوادث الطلاق مما اكره السلطات على تيسيره . ولكن الطلاق مع ذلك لا يقع إلا أمام المحكمة ، ولا يقع فى الغالب إلا فى المدن الكبرى وفى الاوساط التى تزخر بافانين الحضارة ومغرياتها . أما الطبقات المتوسطة وأهل الريف ، فالسواد الاعظم منهم يحرص على الاسرة كل الحرص ، ويلتزم بالقوانين التى تصونها ، ويذود عن هذه القوانين بما تخلف فيه من مؤثرات دينية كاثوليكية كانت ام بروتستانتية . وحتى روسيا نفسها التى حاولت فى مبدأ الثورة أن تفكك روابط العائلة بحجة الذود عن حرية الفرد ، عادت فوثقتها ، وتشددت فى أحكام الطلاق وفى ضرورة الابقاء على نظام الاسرة .

****

فالأسرة فى نظر المتحضرين هى الصورة المصغرة للوطن ، وهى الخلية الاجتماعية الأولى ، والرجل والمرأة كلاهما رب هذه الخلية وحارسها المسئول عنها فى ظل قانون ينزع إلى تثبيتها ، ويساوى بين الرجل والمرأة فى الحقوق والواجبات ، كى يحفظ للمرأة كرامتها ، ويحميها من بطش الرجل القوى ، ولا يجعل منها مجرد وسيلة للمتعة وإداة للاخصاب .

وإذن فالزواج القائم على حب تقترن فيه العاطفة بمشاركة الفكر ، والمنزه على السعى وراء المصلحة المادية الوضيعة التى تخنق العاطفة وتهزأ بالفكر ، هو الزواج الذى تحث عليه الشعوب المتحضرة ابناءها ، ثم تدفعهم إلى توطيده بموانع وضوابط من القانون . فيتحالف الحب الفردى والقانون الجماعى على صون مستقبل الاسرة وحماية المرأة والابناء .

وتلك هى الغاية التى ننشدها نحن لبلادنا . ولكنها غاية لن تتحقق إلا إذا اعترفنا للمرأة بحقوقها تجاه الرجل . إذ الرجل عندنا حتى ولو كان محبا لامرأته ومتآلفا بالعاطفة والفكر معها ، فشعوره بحقه المطلق عليها ، وبما يمتلك من اسلحة يمكنه أن يسددها فى اية لحظة إلى صدرها ، هذا الشعور قد يفسد حبه ، ويفسد خلقه ، ويغريه بهدم بيته ، والاقدام على طلاق ظالم أو زواج ثان ، إذا

استبد به الغضب فى نزاع عارض مع امرأته ، أو زهد على مر الزمن فيها ، أو ملكته شهوة جارفة نحو اخرى .

★★★★

فاعترافنا بحقوق المرأة حيال الرجل هو حماية للأسرة وارتفاع بشخصية المرأة التى ما تزال مكانتها أقل درجة فى عين الرجل . والعجيب اننا ونحن نعلم المرأة ، ونحاول أن نخلق لها شخصية حرة وكرامة انسانية ، نلقى بها فى محيط الزواج جاعلين منها هدفا لبطش الرجل ، دون أن نقيم وزنا إلى أن المرأة لابد أن تفقد احساسها بكرامتها ، وتشعر أن علمها لا يحميها ، وأن زوجها قد ينقلب إلى عدو لها . فتندفع بالرغم منها إلى استخدام علمها وذكائها لا لتوطيد بنيان بيتها ، ولا للسهر على مصلحة قرينها ، ولا للعناية بتربية اولادها ، بل لتجريد أسلحتها الثلاثة التى اشرنا اليها دفاعا عن نفسها فى الحرب الزوجية التى لا يكاد يدب فى البيت نزاع حتى تدور رحاها بين امرأة ضعيفة ترتعد فرقا من سلطان زوجها ، وبين رجل قوى قد يذهب بلبه سلطانه فيهلك امرأته ويهلك ابناءها .

★★★★

فالمرأة يجب أن تنقذ وتحترم وتصان . ونحن فى جمهوريتنا اليوم يجب أن نقوم بجهد حاسم فى سبيل حماية مستقبل المرأة .

ولن تتم حماية المرأة والاسرة إلا بالقانون . أى بتشريع واضح وصريح ، يجرد الرجل من حقه المطلق فى الطلاق ، ويقيد الطلاق نفسه وتعدد الزوجات ، ويكون أيضا مقدمة لالغاء التعدد اطلاقا . أن الله فى كتابه العزيز يقدر أن الرجل قد يخاف من عجزه عن اقرار العدل بين النساء ، فينصحه باتخاذ امرأة واحدة ، بل ويبصره بانه لن يعدل بين النساء ولو حرص ، وكذلك نبى الله يقول : « ابغض الحلال إلى الله الطلاق » .

وأذن فالاسلام هو دين الوحدانية فى الله وفى نظام الزواج ، وهو دين العدل . وما التشريع الذى ننشده الا الاستجابة والتوكيد لروح العدل التى هى جوهر الاسلام ولبابه .

★★★★

وإلى أن يصدر هذا التشريع يجب أن ندعو إلى الحب ، وإلى الزواج القائم على الحب ، الحب المتحضر البصير لا الحب البدائى الشهوانى الاعمى ، الحب الذى ينبع من مشاركة العاطفة والعقل ، وزمالة الخلق والفكر ، وتوافق المزاج والطبع ، والتجرد من كل نزعة نفعية خسيسة تجعل من الزواج رابطة مظهرية سرعان ما تتفكك بعد الظفر بالمغنم والمصلحة .

هذا هو الحب الذى يمكن على الاقل أن يطمئن المرأة على مصيرها ، ويهذب غرائزها بالتخفيف من وطأة خوفها . كما أنه هو الذى يمكن على الاقل ايضا أن يلطف من انانية الرجل ، ويحرك فيه عوامل الشهامة والنبل ويحنن قلبه على امرأته وابنائه ، ويجنب البيت شر الحرب والهدم ويحل الضمير محل القانون .

★★★★

ومع ذلك فلابد من ضابط ولابد من قانون . لان الرجل مستكبر ومزهو وغليظ . وهو قد يكون بالحب « ملاكا » ثم تعصف به الانانية والشهوة فينقلب فجأة إلى شيطان رجيم .

فبراير ١٩٦٤

الأدب الشفاف والأدب العريان !
أو الأدب الكاشف والأدب المكشوف

بقلم : أنيس منصور

فى صحف بريطانيا ضجة أدبية ، بسبب قصة قديمة أعيد نشرها ، ولم تحدث هذه الضجة بين الناشرين والمحامين ورجال البوليس ، وبين الأدباء والفنانين ، إلا بعد أن تم توزيع أكثر من مائة ألف نسخة من الكتاب.

وهذه الضجة أعادت الى الأذهان المناقشات التى تتكرر كلما صدر كتاب يتناول الجنس ، وظهرت الأسئلة التقليدية : هل هذه قصة يليق نشرها أم لا يليق ؟ ثم ما هو معنى اللائق وغير اللائق ؟ وهل هى قصة تتنافى مع الأخلاق ، أم تتمشى مع الأخلاق ؟ ثم ما هى علاقة الأخلاق بالأدب أو بالفن ؟ وهل يلتزم الفنان القيم الأخلاقية؟ ومن الذى يجعل من نفسه قيماً على الأخلاق ؟

وهذه القصة اسمها فانى هيل : أو مذكرات غانية Fanny Hill Memeirs of LadY of pleasure .

وهذه القصة من تأليف كاتب غير معروف إسمه جون كليلاند John Cleland ١٧٠٩ - ١٧٨٩ ، ولو حاولت أن تجد اسم هذا الرجل فى أى قاموس أدبى فلن تجده ، ولذلك كانت هذه القصة مفاجأة حتى لأكثر الناس اطلاعا على الأدب الانجليزى ، وعندما ظهرت هذه القصة لم يشأ أن يكتب الناشر شيئا عن المؤلف ، ولا عن ظروف نشر هذه القصة ، وكل ما نعرفه أن المؤلف كان يعمل فى شركة البترول الهولندية ، وانه تشاجر مع رئيسه وانه استقال بعد ذلك ، وانه اضطر الى أن يقوم برحلات عديدة فى أوربا بحثا عن عمل !

واخيرا عاد الى بريطانيا وأصدر فى ١٧٤٨ الجزء الأول من « مذكرات غانية » ، وفى السنة التالية نشر الجزء الثانى ، ولم يكد يصدر الجزء الثانى حتى ألقى القبض عليه بتهمة إفساد الأخلاق العامة ، واعترف المؤلف أن الذى دفعه الى تأليف هذا الكتاب هو حاجته الى المال ، ومع ذلك لم

يقبض عن قصته هذه سوى عشرين جنيها !

بينما الناشر الذى أصدرها أخيرا ربح منها خمسين ألفا من الجنيهات !

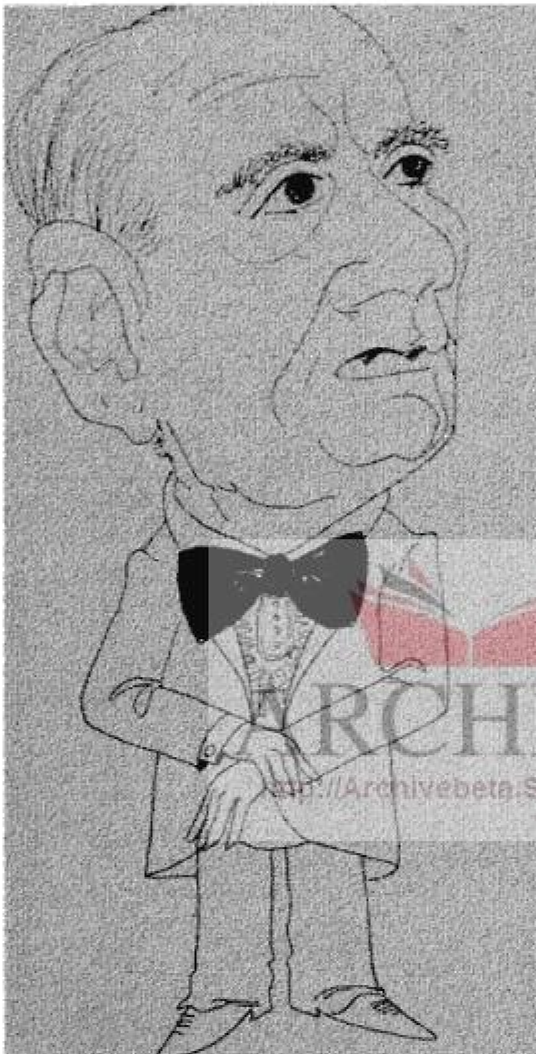
والذين قرأوا القصة أخيرا يؤكدون أنها عمل أدبى من الدرجة الأولى ، وليس صحيحا ما أعلنه المؤلف من أن حاجته الى المال هى التى جعلته يتحدث عن الجنس بهذه الصورة الشائنة ، ومن رأى معظم النقاد أن الكلام عن الجنس لم يفسد هذه القصة المرحة الممتعة ، لأن المؤلف لم يقصد فقط الكلام عن الجنس ، لأنه مادام يتحدث عن غانية ، فكيف لا يتحدث عن صميم الجو الذى تعيش فيه وتقاومه ، تقاومه لتعيش ، وتقاومه حتى لا تموت ، تقاومه وتقوم به فى نفس الوقت

وهى قصة فتاة يتيمة جاءت الى لندن وعاشت فى بعض البيوت ، وهربت من البيوت الى أحضان الرجال ، ثم الى صناديق الليل ، ووصف فنى لهذه الأجواء التى عاشت فيها وينتهى هذا الكتاب ، أو هذه المذكرات بعودتها الى لندن واستئناف الحياة من جديد .. حتى تموت !

●●●

وقد سبقت هذه القصة فى الأدب الانجليزى قصة أخرى اسمها « مول فلاندرز » Moll Flanders للأديب الساخر دانييل ديفو Defoe .

وهذه القصة تروى محاولات الفتاة « مول » أن تكون سيدة محترمة أو تكون سيدة أعمال ، وكيف أن محاولاتها جميعا فشلت فى النهاية ، ولكن المحاولة فى ذاتها متعة ، وهذه الفتاة ولدتها أمها وتركتها وحيدة أيضا ، كأنها يتيمة هى الأخرى ، فقد اتهمت أمها بالسرقة وطردوها من بريطانيا للعمل فى حقول أمريكا ، وظلت الفتاة تتنقل بين



ألبرتو مورافيا

الفجر ، وبين البيوت حتى عملت في بيت أحبها فيه الابن الأكبر ، وجعلها عشيقة له ، ثم أحبها أخوه وتزوجها ، وأنجبت منه ولدين ، ومات الزوج واحتجزت الأسرة هذين الطفلين ، واضطرت «مول» الى الزواج من رجل آخر ، ورجل ثالث ورابع .. وهي في جميع الحالات تبحث عن مركز اجتماعي محترم . وأخيرا تزوجت رجلا سافرت معه الى مزارع أمريكا ، وهناك اكتشفت أن حماتها ليست إلا أمها التي طردوها من بريطانيا ، فانزعجت من زواجها من أخيها ، وعادت الى بريطانيا ، ثم عادت مرة أخرى الى الحياة المليئة بالندم على ما ارتكبته من أخطاء في حياتها .. مع أن أخطاءها كلها كانت في البحث عن الحياة الكريمة .

ولكن النقاد يؤكدون أن قصة « فاني هيل » هي أروع ما ظهر في الأدب الانجليزي حتى الآن في التعبير عن حياة الغانيات لأن المؤلف أولا أديب وفنان . وثانيا لم يقصد من وراء هذه القصة مجرد الإثارة .

والقضية التي يثيرها ظهور هذه القصة هي نفس القضية التي أثارتها قصة « عشيق الليدي تشاترلي » Lover Lady Chatterly التي ألفها د. هـ. لورانس « ١٨٨٥ - ١٩٣١ » التي صدرت قبل وفاته بعامين ، وظلت محرمة في بريطانيا الى أن تم تنقيحها بعد وفاته بعامين . ثم أصبحت محرمة بعد ذلك ، وفي سنة ١٩٥٩ رفع الناشرون في أمريكا دعوى ضد الرقابة هناك ، وتقدم معظم الأدباء في أمريكا وفي أوربا يطالبون بالافراج عنها لأنها عمل أدبي . أما الصفحات الجنسية ، فهي لا تعتبر أعمالا شائنة وإنما هي تعتبر ضمن اللوحة الفنية التي قصدها الفنان ، وتم الافراج عن القصة في أمريكا ، ثم في بريطانيا بعد ذلك .

●●●

ونفس الضجة ظهرت حول قصة « لوليتا » Lolita للكاتب الروسي المولد الأمريكي الجنسية نابوكوف Nabokov . وهي قصة رجل في الأربعين أحب فتاة في الثانية عشرة ، ورغم أن هذا الحب في ظاهره شيء فظيع ، إلا أن القصة نفسها تعتبر عملا أدبيا من الدرجة الأولى .. والقصة بكل لغاتها في متناولنا ، والفيلم قد شاهدناه في القاهرة ، ولكن القصة في ذاتها من ناحية الموضوع ورسم الشخصيات والأسلوب لا شك عمل أدبي رائع .

●●●

وفي كل مرة يثار موضوع الأدب الجنسي ، أو الجنس في الأدب يتذكر الناس محاكمات أوسكار وايلد .. وما الذي قاله في المحكمة عن مفهوم الأدب والأخلاق ، أو علاقة الفن بالأخلاق .

والسؤال الذي وجه لأوسكار وايلد Oscar Wilde « ١٨٥٤ - ١٩٠٠ » : هل تسمي الكتاب الذي يتناول موضوعات تتنافى مع الأخلاق ، كتابا؟ وجواب أوسكار وايلد المعروف هو أنه لا يوجد كتاب أخلاقي وكتاب لا أخلاقي ، وإنما كتاب أسلوبه جيد أو كتاب أسلوبه رديء ، أو عمل فني أو عمل ليس فنيا !

وكتمهيد أو مقدمة للمناقشة التي أهدف اليها من وراء كل هذه النماذج والأحداث الأدبية ، أقدم ترجمة لمحاكمة أوسكار وايلد ، لا كل المحاكمة طبعا ، وإنما الصفحات الخاصة بمشكلة الأخلاق واللاأخلاق في الأدب والفن .

والذي كان يحاكم أوسكار وايلد هو زميله في الدراسة الجامعية القاضي كارسون Carson وقد


الجواهري
وهوى الشعراء
الهلال
نوفمبر ١٩٩٢ ● الثمن ١٠٠ قرش
اليابانيون قادمون
الأنثى من الحريم الى السيطرة !!

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال

أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

عبد الحميد حمروش نائب رئيس مجلس الإدارة

الإدارة: القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط). المكاتبات: ص. ب ٦١٠ - العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج. م. ع. مجلة الهلال ت: ٣٦٢٥٤٨١ تلكس: 92703 Hilal un تلكس: FAX : 3625469

مصطفى نبيل رئيس التحرير

محمد أبو طالب المستشار الفني

عاطف مصطفى مدير التحرير

محمود الشيخ المشرف الفني

عيسى دياب سكرتير التحرير التنفيذي

ثمن النسخة: سوريا ٥٠ ليرة، لبنان ٢١٠٠ ليرة، الأردن ١٠٠٠ فلس، الكويت ٧٥٠ فلسا، السعودية ٨ ريالات، الجمهورية اليمنية ٣٥ ريالا، تونس ١٠٥٠ مليما، المغرب ١٥ درهما، البحرين ٨٠٠ فلس، قطر ٨ ريالات، مسقط ٨٠٠ بيسة، غزة والقدس والضفة ٨٠ سنتا، إيطاليا ٢٧٠٠ ليرة، لندن ٢٢٥ بنسا، نيويورك ٤ دولارات، الإمارات العربية المتحدة ٨ دراهم، الجماهيرية الليبية العظمى ١ دينار، السودان ٥٠ ج. س.

الاشتراكات: قيمة الاشتراك السنوي ١٢ جنيها في ج. م. ع. تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ١٦ دولارا - أمريكا وأوروبا وآسيا وأفريقيا ٢٥ دولارا - باقي دول العالم ٣٠ دولارا

والقيمة تسدد مقدما بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال. ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد.

فكر وثقافة :

٨ د. محمد المواقي
السيرة الذاتية للجواهري

٢٥ د. محمد برادة
بعد مائة سنة
محصلة الاستئناف

٣٠ سميح القاسم
مجلة الهلال والزمن العربي

٣٤ د. مصطفى سويف
البحث العلمي في دولة نامية

٤٢ د. سعيد إسماعيل
ثورة في ثورة

٥٠ محمود أحمد
اليابانيون .. والآخرون

٦٢ د. رجب البيومي
قراءات الشباب

٧٠ د. شكري عياد
(القفز على الاشواك) بين الواقع والاسطورة

٧٨ د. محمود الطناحي
الكتب الصفراء والحضارة العربية

٨٤ د. محمد عمارة
البديل الإسلامي للوضعية الغربية

٩٠ د. المسيري
حركة التمركز حول الأنثى

١١٤ فؤاد دواره
قنديل أم هاشم

١٤٦ د. جلال أمين
التنمية الرأسمالية كشرط للاشتراكية

١٧٨ محمود قاسم
حين تصبح الجائزة تكريماً لذكرى اكتشاف أمريكا !!

قصة وشعر :



١٨ الجواهري
ملال الفكر (شعر)

١١٨ رجب سعد السيد
محطتان (قصة)

فنون :

١٠٢ د. صبري منصور
ماجريت وسيريالية الواقع

١٢٦ مهدي الحسيني
ماذا بعد مهرجان المسرح التجريبي الرابع ؟

١٧٠ مصطفى درويش
« الايدز » بين السينما المصرية والأمريكية

دائرة الحوار :



١٣٤ منح الصلح
العروبة فكرة المستقبل أم من بقايا الماضي ؟!!

١٣٨ محمد سيد أحمد
مستقبل الطبقة الوسطى في ظل الظروف الدولية الجديدة

علوم :

١٥٢ د. بهائي السكري
الإنسان ذلك المجهول

رسائل صحفية :



١٥٨ مجـدى نصيـف
رسالة لندن :
صحف الكترونية للعميان

١٦٤ د. عـلى شلش
رسالة لندن :
زمن المثقفين الأخير .. !

الأبواب الثابتة :

٦ عـزيزى القـارئ

٢٤ أقـوال معـاصرة

١٨٢ العالم فى سطور

١٨٨ أنت والهـلال

شارك الشاعر العربى الكبير محمد مهدى الجواهرى فى احتفال الهلال بمرور مائة عام على صدوره ، وبرغم تقدم سنه فإنه آثر تحمل المشاق ، وحضر إلى القاهرة وكله شوق وحب حيث لم يزرها منذ عام ١٩٧١ .

كان حضور الجواهرى فى حد ذاته حدثا ثقـافيا هاما ، حيث تجمع من حـوله محبوه وتلاميذه ، بل ان كثيرا من المتفائلين لم يكونوا يتصورون الرجل بهذا الحب الشديد للحياة ، وهذه الذاكرة الحديدية لقول الشعر وإنشاده ، بل وإتتأليفه وقتما يريد أن يقول أو يتغنى به .

فور وصوله إلى مطار القاهرة ، وهو فى طريقه إلينا ، قال : أنا سعيد بأن آتى من أجل الهلال الذى كتبت فيه فى العشرينيات وكان هذا شرفا لى أن اكتب ضمن الصفوة من كبار المفكرين العرب ، وآتى اليوم لأرد الدين للهلال الذى تربينا على ما يضمه من ثقافة وفكر مستنير .

وأنشد بيتين من قصيدة يحيى بها الهلال

وأكمل الشاعر قصيدته - التى ننشرها بالهلال - كاتب العشرين برغم أن سنه قد تجاوز الثانية والتسعين ..

وكانت «ندوة الهلال» والتى عقدت فى الفترة من ١٣ - ١٧ سبتمبر الماضى مثالا للتفاعل الحقيقى بين المثقفين العرب وأثرت الفكر بكل مادار فيها من مناقشات ومداخلات ، ولهذا فسوف تطبع فى كتاب لتكون مرجعا لمستقبل الفكر برؤية محايدة لكبار مفكرينا ومثقفينا .

عـزيـزى القـارئ،

عزيزى القارئ عزيزى القارئ عزيزى القارئ عزيزى القارئ عزيزى القارئ عزيزى القارئ عزيزى القارئ عزيزى القارئ عزيزى القارئ

صورة المستقبل ودرس الزلزال

هذا هو العدد الثالث من السنة الأولى في المائة الثانية من حياة «الهلال» التي بدأت في سبتمبر ١٩٩٢ وما زالت تمضي إلى غايتها مباركة بإذن الله ..

وفي عدد أكتوبر الماضي استجبنا لرغبتك يا عزيزي القارئ في القيام بسياحة طويلة معاً في أعلام المائة الأولى التي قطعتها «الهلال» حتى الآن في رحلة حياتها وحياة الأمة وحياة الثقافة المصرية والعربية والعالمية .

وكانت استجابتنا لرغبتك يا عزيزي القارئ متمثلة في العدد التذكاري للهلال التي استمعت فيه إلى الأصوات الأدبية، وقرأت فيه إلى صور الأقلام العريقة التي خاطبتك بكلماتها المحكية من وراء السنين الطوال، فإذا بتلك الأصوات القوية، والأقلام المستنيرة ما زالت تخاطبك يا عزيزي القارئ الجديد، كما خاطبت أسلافك القراء القدماء في العقد الأخير من القرن التاسع عشر، ومن جاء بعدهم من قراء العقود الأولى من القرن العشرين .

ويستطيع «الهلال» وقراؤه أن يفخروا بأن ما احتواه عدد أكتوبر التذكاري قد أثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الطلائع المستنيرة التي ظهرت على صفحات «الهلال» في العقود الماضية كانت ثاقبة الفكر، عظيمة الأمل في المستقبل، قادرة بأفكارها وأحلامها على مسايرة الأجيال وإحلال الجديد محل القديم، وربط الماضي بالحاضر والمستقبل على [illegible] وحميمية ..

عزيزي القارئ ...

إن إقبالك الكبير على العدد التذكاري للهلال الذي اقتصر على نشر نخبة من نتاج الأقلام فيما سلف من السنين، قد أوحى إلينا بفكرة [illegible] ، ألا وهي إصدار عدد على هذا الشكل، ومن نفس هذه المادة العريقة التي لا تنضب، في مطلع كل سنة جديدة من [illegible] ١٩٩٢

[illegible] الهلال، ففي أول سبتمبر من كل عام نصدر مثل هذا العدد التذكاري للهلال .. فما رأيك؟ اكتب إلينا برأيك، لأننا سنضع هذه الفكرة موضع التنفيذ إذا وجدنا منك تعزيزاً لها .

إن هذه الأعداد التذكارية إذا توالت عاماً بعد عام تحولت إلى مراجع عظيمة القيمة للأجيال الجديدة والقديمة، ويحدث في كل عام ذكريات الاحتفال الرائع الذي أقامته دار الهلال بمئوية الهلال وشارك فيه الأدباء والصحفيون والهيئات الثقافية، وشاركت فيه الدولة ممثلة في الرئيس حسني مبارك ورجال المجالس النيابية والحكومة، فكان احتفالاً تاريخياً مهيباً لم يسبق له في بابه مثيل في العالم كله تقريباً .

عزيزي القارئ ...

إن أمتنا هي أمة المواقف التاريخية الكبيرة والمحن الأخطار الجسام، وقد تجلى معدنها ثانية في شهر أكتوبر الماضي عندما فوجئت بالزلزال العنيف الذي كان مفاجأة بتوقيته وبشدته في وقت معاً، وتمكنت الأمة سريعاً من أن تفيق من صدمة الزلزال، وتضمد جراحها، وتستأنف مسيرتها، متخذة مما حدث عبرة ودروساً لتعديل ما ينبغي تعديله، وإصلاح ما يجب إصلاحه، وإعداد المستقبل ملاذاً آمناً [illegible]، فقد [illegible] وحدها في [illegible] المستقبل، فلا بد أيضاً من أسس علمية وأسس لحماية الأمة من الكوارث الطبيعية، والزلازل المدمرة العاصفة ..

عزيزي القارئ ...

إن كل شيء في العالم الآن يحاول أن يفتح صفحة جديدة على مشارف القرن الواحد والعشرين، ولعلنا نكون قد وفقنا في محاولتنا لفتح صفحة جديدة من «الهلال» تربطك نحن وإياك بكل ما نرجوه في المستقبل لأمتنا وأجيالها الجديدة، وأحلامها المتجددة ..

«المحرر»

السيرة الذاتية للجواهرى

مذكرات .. طفل فى التسعين

بقلم د . محمد عبد العزيز الموافى

– ١ –

وجه عَفَّرَتْهُ أحداث السنين .. وجه طفل فى التسعين !! صورة حزن دفين تلوح ظاهرة على ذاك المحيّا ! نظرات نافذة قوية تشع من محجريه الغائرين! شعر أشعث وخطه المشيب . صوت جهورى متهدج ، يصدر كأنه دوى متصل ! ذلكم هو شاعرنا : الجواهرى ، الذى ما انفك حديث جيل كامل . يتغنى الملايين بشعره ! شرب من كئوس مجده حتى الثمالة ! كما ذاق الأمرّين من منغصات هذا المجد ، فأحبه الكثيرون لشعره ، ويغضه الكثيرون لشعره ! وتفرق الناس فى أمره شيعا ، واختلفوا بشأنه اختلافا ضخما ، فمن معجب به إلى حد المغالاة التى لا تسمح بنقده ، إلى خاسف به الأرض راميا إياه بأبشع النعوت!

– ٢ –

وكان غياب التفسير المقنع لكثير من مواقف الجواهرى ، من أهم أسباب هذا التفرق والاختلاف فى أمره . ولذلك ألح عليه مريدوه بتسجيل ذكرياته ونشرها لعلها تزيل لبسا أو توضح غامضا ! ومنذ ربع قرن طلبت ذلك منه فأجابنى : « منذ عشرين عاما وأنا أطالب من إخوان لى أن أدوّن ذكرياتى . وحاولت العمل مرارا ، ثم مزقت ما كتبت ! لا لمجرد أن الأسلوب الذى أريده لها لم يعجبنى ، بل لأن تشابك الصور وتقاليها .. وخضولة صورة وعمق أخرى ، وعنف الثالثة ، وقبح الرابعة ، كان يطغى على التعبير لدىّ . وصدقنى أن طلبك بالذات ، أعنى سؤالك عنها ، سيكون – بل كان فعلا – حافزا جديدا ، يضاف إليه شعورى بقصر المدة الممنوحة لى على صعيد هذا الكوكب المنحوس ... !! » .



وها هو ذا يصدر « مذكراتي » في مجلدين كبيرين عن دار الرافدين بدمشق لتلقي الضوء على كثير من جوانب حياته وحياة وطنه وأمته ، خلال قرن من الزمان عصيب ! وقد صدّرها بقول ذي دلالة عميقة على رحلة الإنسان في الحياة : « ولدوا ، فتعذبوا ، فماتوا ... !! وأهداها « ... إلى من هم أعز عليّ من صفو الحياة ... إلى كل من ودّعني من أهل بيتي ، وإلى كل من أقام ... » .

وليس من شك أن نشر هذه المذكرات يمثل حدثا أدبيا مهما يجيب عن كثير من علامات الاستفهام الحائرة تجاه مواقف الشعر ، ويسهم في إعادة تقييم بعض الأحداث الخطيرة في حياة وطنه وأمته ، أمام كثيرين حاروا في أمره واختلفوا بشأنه ولا يزالون مختلفين !

أما هؤلاء الذين اقتربوا من الشاعر لسبب أو لآخر فقد كان الأمر بالنسبة إليهم أيسر ، والمشكلات أقل . ولعلي لا أبالغ إذا قررت أنني بعد الفراغ من قراءة المذكرات شعرت كأني انتهيت من إعادة القراءة لكتاب اطلعت عليه من قبل ! فكثير مما تحويه سبق لي معرفته ومعايشته ، خلال الأسابيع القليلة التي قضيتها معه ، قريبا منه ولصيقا به ، في بغداد في أواخر العقد السابع من القرن العشرين .

– ٣ –

ويُحمد للشاعر إصراره على إنجاز هذا الأثر الضخم ، وتغلبه على العقبات التي اعترضته ، فقد كتبه وهو على أبواب التسعين ، مغتربا – كدأبه طوال حياته –

عن وطنه ، معتمدا فى المقام الأول على ذاكرته الحادة الواعية ، « هذه الذاكرة التى عادت بى وأنا فى التسعين إلى السنة التى كنت فيها على صدر أمي ، لاتذكر أين كان فراش جدى وهو يُحتضر ، وفى أى زاوية ، ومن أى غرفة فى بيتنا العتيق ... !! وإذا كان فى هذا ما يحسبه القارئ تبجحا ، فأنا أطمئنه بقوة وحرارة ، بل ووجع أيضا ، بأننى أحسد كل ضعيف ذاكرة ، لا يتمثل معها ما أتمثله حتى ساعتى هذه ، من أطياف وأشباح وكوابيس ... ! » (مذكراتى ١/١٥) .

ونتيجة لتلك الذاكرة الحادة الواعية ، ظلت طفولته تعيش معه ، وتوجه حياته وتؤثر فيها على امتداد عمره ، إلى درجة تسمح لنا أن نزعم أنه لم يزل « طفل فى التسعين !! » .

وقد أبرز « أبو فرات » فى أكثر من موضع فى « مذكراتى » الدور الخطير الذى لعبته فترة الطفولة فى حياته . وكان ذلك تأكيدا لما ألح هو عليه منذ ربع قرن : « إننى وقد شارفت على السبعين ، أضحك من طفولتى ، حتى لكأننى لا أعرف مرحلة من مراحل العمر غيرها ... فشدَّد على هذه الناحية ... وإنك لواقع على أشياء جديدة . واعتبر هذا توجيها منى ، قد لاينتبهك إليه أحد ... فأنت أول واحد - من خمسة كتبوا إلىّ أننى موضوع أطروحاتهم - حصل منى على جواب شاف ... أضف ذلك إلى حسناتى ، إذ تكتب عنها ! ... » ويظل مراراً يؤكد هذا المعنى : « رغم أنى قاربت التسعين ، فأنا فى حقيقتى ذاك الطفل الذى لم يتجاوز العاشرة .. وكل كيانى المتضارب المتصاعد ، المتنازل ، المتخالف ، المتناقض يقوم على هذه الحقيقة الأولى من حياتى ! » (١/٣٩) .

— ٤ —

وهذه الطفولة البريئة العذراء ظلت ذا تأثير ضخم فى حياته ، أدى إلى تورط هذا « الطفل الكبير » أو « الشيخ الطفل » فى كثير من المواقف التى ضخمها حُسَّاده ، متوهمين أن كل مذمة تشيل كفته هى بالضرورة محمدة ترجح بها كفتهم !! ومن ثم ركزوا على مواقفه المتناقضة فى حياته ، وهى جد كثيرة ، متهمين إياه تهما عديدة يتدرج من بحثه عن المغانم والنفوذ والشهرة ، إلى وصمه بتهمة الشعوبية ، مرورا باتهامه بالشيوعية !!

وليس من همنا التصدى للدفاع عن الجواهرى أو تبرير تصرفاته ، لأن له مواقف كثيرة تحتمل الإدانة ، وتناقض طريقه التى سلكها بين الجماهير :

متصلا بهم ، ورائدا لهم ! فقد أيد انقلاب بكر صدقى - ١٩٣٦ وأصدر صحيفة تناصره هى « الانقلاب » ثم ارتد فهاجم الانقلابيين بعد فشلهم . ورحب بتتويج فيصل الثانى ثم ندم على ذلك ! كما هاجم ياسين الهاشمى الذى يمثل قمة الوطنية العراقية فى العقد الرابع ، هجوما عنيفاً ، لا يخفف منه اعتذاره عنه ! كذلك بالغ فى الثناء على عبد الكريم قاسم وأصبح فى عهده « صاحب الرياستين » : اتحاد الكتاب ، ونقابة الصحفيين ! ثم ساءت بينهما العلاقة حتى نُفى - أو نفى نفسه - إلى براغ ! .

ومن الإنصاف للحقيقة أن نقرر أن المسارعة إلى إدانة الرجل وتشويه صورته نتيجة لمثل هذه المواقف ؟ لا يتحمل وزرها إلا من علم ظاهراً من القول ! لأننا لو فحصنا هذه الإدانات فرادى و ثنىً ، وربطناها بملابساتها ، لتغيرت النظرة إليها ، ولخفّت حدة كثير منها !

ونحن عند إنعام النظر فى مواقف الجواهرى نرى الطفل البرئ والشاب المتهور ، لا الداهية المحنك الذى يخطط لتحقيق أطماعه ونيل مآربه ! نعم ، فهذا الرجل تجسيد حى لوطنه ومواطنيه ذوى المزاج المتقلب بين إفراط وتفريط وربما كان ذلك نتيجة لعدم الامتزاج بين عناصر السكان المختلفة بعضها مع بعض ، أو أثرا لوقوعه على أطراف الحدود القومية . وهو نفسه يشير إلى شئ من ذلك عندما يصور دجلة فى فيضاناتها وشحها :

تُريكَ العراقىَّ فى الحالتين يُسرفُ فى شُحِّه والنَّدى !

ثم يبالغ فى تصوير آماله تصويرا حالما هُلاميا يقترب به من عالم الشاعر ، ويبتعد عن مجال الطامع الساعى إلى اقتناص الفرص :

وما أنت بالمُعطى التمردَ حقَّهُ إذا كنت تَخشى أن تجوع وأن تَعْرى !
طموحٌ يُرينى كلُّ شئ أنالُهُ وإن جلَّ قدرا دون ما أبتغى قدرا !!

ومن أدل الشواهد على ذلك موقفه من « فيصل الأول » الذى تم تنصيبه ملكا على العراق عقب فشل « ثورة العشرين » . فقد عينه الملك فى قصره ، وأحبه وأكثر من الإشادة به : « أنت شاعر العراق المنتظر ! » .

وعلى الرغم من هذا الموقع الذى يحسده عليه الكثيرون ، فقد باعه بقصيدة !! حيث نشر خلال وجوده فى معية الملك قصيدته « الرجعيون » ثم أتبعها بأخرى غزلية ماجنة « جربينى » وكانت ثالثة الأثافى ، غزليته « النزغة » !!

وبعد هذه « الانتفاضات الشعرية » حزم حقائبه وأصر على ترك القصر ، وما أدراك ما القصر ، وما به من ألوان النعيم ! على الرغم من تمسك الملك وحاشيته به ، وإصرارهم على رفض الاستقالة ، « لدرجة أني خجلت من إصراري .. ! ولكني بقيت وكأني لا أزال في وظيفتي ، لا يستأذنون لي في الدخول على الملك !! » فهل يسلك هذا المسلك باحث عن مصلحة ؟! إن صاحب هذا السلوك شاب مرهف الاحساس متطلع إلى الكمال رافض للواقع ، دون تفكير في العواقب مهما كانت قاسية ، بل لقد لحق به ، نتيجة لذلك ، ما يثير الأسى والأسف ، ويكفى أن نعلم أنه حتى الآن - وهو في هذه السن وتلك المنزلة - لا يملك شيئاً ، أي شئ ، في وطنه « قلت : قريبا من أهل بيتي ، ولم أقل قريبا من بيتي أو داري !! فمن أشد المفارقات أنني ، وحتى السبعين ، لم يكن لي في العراق كلها سقف يؤويني أو يؤوي عائلتي !! » (٢/١٥١) .

— ٥ —

ولعل من اللافت للنظر والمثير للإعجاب أن الجواهري لم يتبرأ من شئ فعله ، أو يبرر خطيئة ارتكبها ، أو يستر أطماعا ناوشته ! فهو يعترف في صدق برئ وعفوية آسرة بكثير من خطاياه ! بل قد يعنِّف على نفسه ويعرِّيها بجرأة نادرة ، فسلوكه :

بـه مـا أطيـق دفاعـاً بـه ... وبمـا فُـرِّ لي مُخْـرِس مُلْجِـم

نافقت إن كان النفـاق ضـرورة ... مُتحرِّقـا من صنعتي مُترمِّضـا !!

وعـزيتي ، وهـو الوحيـدة ، أنني ... جاريتُ طبعي في الكثير كما اقتضى !

هي النفس، نفسي، يسقط الكلُّ عندها ... إذا سلمتْ فليذهب الكونُ عاطبا !!

وعندما يُسأل عن بعض مواقفه ، يجيب : « ... إن لي سقطاتي ! وموقفي مع الهاشمي واحدة منها ! أعترف بذلك اعترافا يفهمه شعبي . » ويجسِّد ألمه وإحباطه في شعره . « أحاول خرقا في الحياة فما أجرا » و« أبصرتُ ما أهوى على مثله العمى ! »

و« لبست لباس التعليين مُكرها » و« عُدتُ مِلء الصدر حقداً وقرحة ! »

ثم يردف على ذلك بما يلقى ضوءا كاشفا وموضحا على مواقفه :

« حياتي يسيرها عاملان : مزاج حاد ، الغضب بعض سماته ، والتصادم المستمر مع الاتجاهات الجامدة في المجتمع ... إن بريق الغضب في عينيَّ ليصدني عن رؤيتهم ! أنا أحب الحياة بالرغم من مزاجي العنيف المنحوس ، الذي قد يحرِّم

على المرء كل شئ ! وقد يدفعه إلى حب الحياة عنيف ! .. أحب أن أرتاح ويرتاح من معي » ولكنه فشل بالطبع في ذلك ، فاعتذر لأسرته عما جناه عليها : « .. إلى قطع متناثرة من نفسي هنا وهناك .. تحت أطباق الثرى ورهن القبور .. وعلى صعيد الأرض الواسعة ! إلى الذين مشيت بهم خببا فى طريق الآلام ! إلى الذين صبروا معي على كل ما أنزلته بسومهم من أذى وحرمان وخوف وقلق .. حماقة مني وجهلاً تارة ! وقصدا وعنادا .. تارة أخرى !! ولكن بصفاء قلب وصفاء سريرة فى كل الأحوال ... أهدى ديوانا هو خير ما أهديته إليهم فى حياتى ، وقد لا أقدر أن أهدي إليهم شيئاً بعده .. ! » .

وفى اعتذاره عن بعض مواقفه يبدو الجواهرى وكأنه يجد لذة وسعادة فى تعرية نفسه وإدانتها بقسوة بالغة ، لا يسوغها الموقف ، فمدحه لفيصل الثانى ، واستبشاره بتتويجه لا يستدعي تعذيبه لنفسه إلى تلك الدرجة العنيفة :

« فى أوج العز والشموخ ، وفى فترة لم يمر عليّ أعز منها منذ بداية الأربعينيات تراني أنحدر انحدارا لم أنحدر مثله طيلة حياتي !! والأكثر إيلاما فى هذا الإنحدار أني أردته بمحض إرادتي ، وبدون أية ظروف ضاغطة ، وبدون أية مساومة وأي مقابل ! إنها زلة العمر التى ظلت عالقة بى طيلة فترات طويلة ، حتى بعد أن كفّرت عنها ، وبعد أن نهضت من كبوتها ، فقد أوقعت نفسى فى عذاب الضمير ، ولاحقت نرس الكوابيس !! ألا وهي قصيدة التتويج التى قلتها فى مديح « فيصل الثاني » .. هى زلة وأكثر من زلة !! لا أتراجع ولا أحاول أن أخفف من وطأة الموقف ... لقد اغتصبت فى تلك الزلة ضميرى ، وما أصعب أن يجد المرء ضميره مغتصبا ! وممّن ؟! من ذاته !! » (٢/٢٢٨) .

ولكنه الجواهرى : الحادّ المزاج ، العنيف على نفسه قبل الناس !! الموقن بأن « كل أضواء الدنيا لو أطبقت على التاريخ وعلى من عاشه أيضا ، لما قدرت أن تقضى على لواعج نفسى ، مما كان من أمر الصميم الأليم من مواقفي وعواقبها ، وهفواتي وأثمانها ، وأوجاعي ومآتمها !! » إنه فى هذا التقريع العنيف لنفسه يخضع لعقيدة راسخة تشربها وجدانه منذ بواكير حياته : « كلما حاولت أن أجعل من نفسى محاميا قديرا فى الدفاع عنها ، وهى فى قفص الاتهام ، فيما كان لى من خلل واضطراب وقلق ، فلا أجدنى إلا وقد خسرت القضية ، وصدر الحكم عليّ بما أستحقه من عقاب !! » (١/٢٤١) .

إنه في صراع مستمر ، ليس مع مواطنيه فقط ، بل مع نفسه التى بين جنبيه ! هذه النفس التي « تحملني بمشقة ، وأحملها بمشقتين !! » فقد أفسدت عليه إباءه ، وكانت وساوسها السبب في تكرهه عما فُيئ له وفُطر عليه ، مهموما بمواطنيه : مرشدا لهم ، وحريصا عليهم . لكنها النفس الأمارة بالسوء .. « أيمكن أن يجتمع الإباء والطمع ؟ أجل ! ممكن لفترة أو لأكثر ، يشتد الصراع فيها لمن خلق لواحدة منهما ، ويحاول الانسياق إلى الثانية . صراع قد يقصر أو يطول ، ولكن الشئ المفروغ منه أن ينتهي الأمر به إلى ما خلق له . وقد قدر لى أن أمر بمثل هذا الصراع ، وخرجت صفر اليدين من كل متاعات الحياة وأطماعها ، لأنى لم أخلق للثانية منهما ! » (٤٤٧/١) .

« لست رجل فرص ولا مناسبات ، ولا أملك مهارة اقتناصهما ، لأنني لا أتقن فنون المواربة والانتهاز » (٢٥٥/٢) .

– ٦ –

الجواهرى شاعر يهوى السياسة ، بمقدار ما هو سياسي يقول الشعر :

أنا العراق لساني قلبُه ، ودمي ... فراتُه ، وكياني منه أشطارُ

ونتج عن ذلك أنه عاش حياة عاصفة « اختلطت فيها عوالم بعوالم : الفقه بالشعر ، والشعر بالسياسة ، والسياسة بالصحافة ، والصحافة بالحب ، والحب بالصداقة ، والبؤس بالنعيم ، والتوطن بالترحل ، والطفولة بالرجولة » (١٤/١) .

وصدور « مذكراتي » لشاعر هذا شأنه يمثل حدثا أدبيا مهما ، وتجربة حية صادقة تعد نبعاً ثرا يستقى منه الدارسون : « أريد أن أعطى ، في ذكرياتي هذه ، صورة لهذه الحياة التي تؤلف نموذجا لكل تناقضات ومفارقات المجتمع العربي ، محاولا أن أكون – وأنا أتوسط جميعا من الحزازات والمشاحنات والتحديات ، قدر ما استطعت – مترفعا عن مباذل الخصومات ، ومدافن الأحقاد ، ونبش القبور !! فمن حقي – وقد كتب على أن أكون ، قبل أى شاعر معاصر عشته وعاشني ، أكثر انشداداً إلى الجماهير العربية ، وأشد مشاركة في مطامحهم ومعاناتهم – من حقي ، بل ومن حقهم ، أن أضع صورة هذه المشاركة والمعايشة في إطارها المنشود بما تستحقه من بساطة ووضوح ، وصدق وأمانة .. » (١٤/١) .

وعلاقة الجواهرى بهذه الجماهير ، في وطنه وأمته ، علاقة عجيبة يحار المرء في تفسيرها وفهم ملابساتها ، ولا نريد أن نعلل لها فنشتط في التعليل ، ونقول كثيرا ولا نقول شيئا ! وربما كان الأدنى إلى الصواب رصد مظاهر هذه العلاقة وملاحظتها فقد يؤدى ذلك إلى فهمها ، أو الوصول إلى شئ قريب من الفهم !

الجواهرى شاعر كبير ، أجل ! وآخر الفحول ، وصف يستحقه ! لكنه ليس الفارس الوحيد في الحلبة ، فهناك شعراء عاصروهم يطاولونه قامة ، وربما تفوق بعضهم عليه ؛ لكن الأمر المؤكد أن واحدا منهم لم « يملأ الدنيا ويشغل الناس » ويؤثر فيهم ويمتزج بهم ، كما حدث للجواهرى ! وقد كان لأكثر هذا الناس في وطنه مآخذ عديدة عليه ، وإدانات كثيرة لمواقفه . عندما تحول من رائد وملهم وموجِّه ، إلى باحث عن منفعة ، أو منتهز للفرصة ! لكنهم يحبونه : مقيما بينهم ، وغريبا عنهم ! وينسون - أو يتناسون - زلاته ويضخمون أمجاده ويتيهون بها !

هل يمكن الزعم بأن ثمة خيطا سحريا بينه وبين قومه ، وأن هذا الخيط يمثل رابطة وجدانية تربطه بهم وتجذبهم إليه ؟ هنـاك شواهد كثيرة تدعم صدق هذا الفرض . فالجواهرى يحظى بين العراقيين بقدر كبير من الحب والإعجاب . وكأنهم أحسوا منذ وقت مبكر بأنه واحد منهم ، يعيش مآسيهم وينفعل بها ، ويجاهد من أجل آمالهم ، ويضحى في سبيلها . وحتى في تلك الفترات التى تنكب فيها الشاعر طريقه القويم ، عتبوا عليه وغضبوا منه ، لكنه عتاب الأهلين ، وغضب المحبين الذين سرعان ما يغفرون وينسون عقب عودته - وما أسرع ما يعود - إليهم ! مستأنفا سيرته الأولى معهم : رائدا وموجها حينا ، ثائرا وغاضبا حينا آخر !! وظلت هذه العلاقة تنمو بين الطرفين وتتغلغل في أعماقهما ، حتى غدا بالنسبة لمواطنيه جزءا من كيانهم ، بل بطلا شعبيا أمامهم : يتجسد فيه الأمل والإحباط ، والنصر والهزيمة ، والفرح والانتكاس ؛ على امتداد نحو قرن من الزمان ! ويكفى أن يعلم هؤلاء بقصيدة يلقيها الجواهرى ، أو مهرجان شعرى يشارك فيه ، حتى تتزاحم الأعداد الغفيرة ، ينصتون وينتشون ! وكأنهم يحيون « المربد » أمام الهجوم الكاسح لوسائل الإعلام الحديثة ! .

وعلى الرغم من أنه قد يُسمعهم مالا يعجبهم ، وقد يغضـب منهم أو يثور عليهم ، فإنهم يتقبلون ذلك بقبـول حسـن . بل صـار العراقيون عندما تدلهم الأحداث أو تتأزم الأمور ، يتوقعون منه قصيدة تؤجج الخواطر ، وتنفس عنها في

وقت معـاً ! وكأنهم فى عـلاقتهم به يجـدّدون ارتبـاط القبيلة بشـاعرها فى العصر الجاهلى !

فها هو ذا يصب لعنات ماحقة على قومه إذ تخاذلوا ، بيد أن غضبه يمثل القسوة الرحيمة على أمة استكانت إلى الدّعة والخمول :

أطبِقْ دُجى ، أطبِق ضَـبابُ   أطبِـقْ جَهـاماً يا سحابُ
أطبِـقْ دمارُ عـلى حُمـا   ةِ دمـارهم ، أطبِق تَبـابُ
أطبِـقْ عـلى مُتبلّـدِيـ   ـن ، شـكا خُمولَهم الذبابُ
لم يعـرفوا لـونَ السَّـ   ـماءِ لِفَرْطِ ما انْحنتِ الرِّقاب
أطبِقْ عـلى مُتفـرقيـ   ـن يزيدُ فُرْقَـتَـهمْ مصاب

ومن العجيب أن مثل هذه القصيدة كانت - ولا تزال - ذات تأثير عجيب فى سامعيها ، فهى تحرك فيهم عوامل النقمة والشعور بالاضطهاد ، وبأنهم ضحية يجب أن تثور على ذابحيها !

وسرعان ما يتقدم الجماهيرَ فى مجابهة الطغاة ، ويرودهم : ثائرا ومتشفيا فى سخرية موجعة ، وفى وزن يتراقص على الشفاه ، وعليه خناجر مسلولة ، لإبراز حدة المفارقة بين الإيقاع ومحتواه :

ما تشـاءونَ فاصنَعوا   فرصـةٌ لا تُضـيَّـعُ
ما الذى يسـتطيعـهُ   مستضامون جُوَّعُ ؟!
من نوالِـكمْ ومنعِكُمْ   الدسـاتيرُ تدفَـعُ !

إن التجربة هنا تجربة المجابهة والمقارعة ومنازلة الحكام . تجربة يحركها الغضب الماحق الذى صار نارا تحرقهم وتدمرهم !!

وربما أكد طبيعة هذه العلاقة الحميمة بينه وبين قومه أنشودة حزينة « تنويمة الجياع » تنبع من القلق والشفقة ، تلبس فيها الفاجعة زىّ السخرية . وهو يبدأها بإبراز النقيضين : فآلهة الطعام تحرس الجياع ، وآلهة الحرب تغنى ألحان السلام :

نامى جياعَ الشـعبِ نامى   حرسـتْكِ آلهـة الطعـامِ !
نامى فـإن لم تشـبعى   من يقظـةٍ فمـنَ المنـامِ !
نامى تصِـحّى ! نعـم نَـوْ   مُ المرء فى الكُرَبِ الجسـامِ !

نامى وسيرى فى منامك ... ما استطعت إلى الأمام !

إن الحماقة أن تَشُقّى ... بالنهوض عصا الوئام !

والقصيدة طويلة (١٠٤ ت) وفى مقطع منها تتحول لهجة الخطاب إلى قسوة يخفف من حدتها الحزن والحب : « ولا تتجادلى . القول ما قالت حذام ! » ثم يتوجه إلى الجياع بغنائية تشف عن حب عميق لهم ، وامتزاج كامل بهم ، وإشفاق صادق عليهم :

نامى شذاةَ الطهر نامى ... يادرَّةً بين الركام !

يا نبتةَ البلوى وبا ... ورداً ترعرع فى اهتضام !

يا شُعلة النور التى ... تُعشى العيون بلا اضْطرام !

– ٧ –

وهكذا ظل الجواهرى على امتداد عمره المديد ممتزجا بقومه ، مجسدا لهم ، معبرا عنهم كثيرا ، غاضبا عليهم أحيانا :

فقُلْ للمُقيم على ذله ... هجيناً يُسخَّرُ أو يُلْجَمُ !

تقحَّمْ – لُعِنْتَ – أزيزَ الرصاص ... وجرِّبْ من الحظ ما يُقسمُ !

تقحمْ – لُعِنت – فما ترتجى ... من العيش ، عن ورده تُحرمْ

لكن غضبه ، كما أشرنا ، نوع من خصام الأحباب ، وتصوير لحسرة الرائد الذى لا يكذب أهله ، والذى يرامم فى غيهم سادرون ، وعما يُدبر لهم غافلون ! فيصيبه ذلك بشئ من الأسى واليأس :

أرِحْ ركابك من أيْنٍ ومن عثَرٍ ... كفاكَ جيلانِ محمولاً على سفَرِ !

وسرعان ما يتجاوز المحنة ، ويواصل كفاحه وريادته ، متبوئاً مكانه الذى رسمته الأقدار :

كلُّ عرسٍ أنا « المغنّى » وفى كل عزاء ، أنا الهتوفُ النّاعى !

وبعد ، فقد رفقت « الهلال » – وهى تحتفل « بمئويتها » احتفالا طريفا – فى دعوة الجواهرى إليه ، فهو يمثل ملمحا بارزا من ملامح « قرن التنوير » الذى أسهمت فيه « الهلال » طوال عمرها . فضلا عن أنه كان من أغزر المنابع التى ظلت تفيض بالخير ، وتدعو إلى التقدم ، على امتداد « مائة عام من الفكر والفن » .

هلال الفكر

من قصيدة عصماء لشاعر العربية الكبير محمد مهدى الجواهرى

يا « هلالَ الفكرِ » في العيد السعيد
هكذا ظلَّ مضيئاً ألفَ عيدِ

هكذا ظلَّ كما كُنتَ حفيّاً
بجهودٍ ، وحَفيظاً لعهودِ

يا « هلالَ الفكرِ » كم طوّرتَ جيلا
وتطوّرتَ على جيلٍ جديد

كم فكَكْتَ القيدَ عن ذهنٍ بطيءٍ
وتحفّظتَ على ذهنٍ شرودِ

صُعُدٌ للفنّ حلّقتَ بها
فتعالى شامخاً كل صَعيد

أنا ممّن كنت صعّدت بهم
يومَ مُنّيتُ بمرقاة صُعود

مئةٌ منكِ ، ولي تسعون منها
داعياتٌ لك بالعمر المديد



جُلتُ في ساحاتك الغُرُّ فتىً
يَلِجُ الدربَ على خطوٍ وئيدِ
خلتني جنباً إلى جنب هواةٍ
وغواةٍ أيّ شيطانٍ مريد
وإلى جنب شيوخٍ غررٍ
سادةٍ أيّ حفيدٍ لجدود
عَضُدي كنتَ وكم ولى سُدىً
هَوَسُ الفنان من دون عَضيد
يا « هلالَ الفكرِ » لم يُلفَ عَنيدُ
مثلَ جبارٍ من الفكر عَنيدِ
عنجهي يكره الخُلقَ على
وعيه ، من عبقريٍّ وبليد
يتحدّىَ الموت كالإعصار يطغى
فتهاوى دونَه كلّ السّدود

وضحـــاياهُ نووهُ ، شـــيدوا
دارةً فاســـتُبدلت دار خـــلود

أنت ممّن رُحتَ عن قرنٍ مضى
شــاهداً عدلاً على ألف شــهيد

يا «هــلال الفكر» كُنْ للمستزيد
منك شـــوقاً ، وهـــوىً للمُستعيد

هــكذا ظلّ على جــيدٍ وجـيد
تُســـبغ المنّة كالعـــقد الفـــريد

يا « هلالَ الفكرِ » بوركـت «جمالاً»
«وتبوركت بحـــسنى» من جـــديد

ما الذى تبغـــيه عن أغنى الغنى
وإذ يحـــييك «الرئيس» من رصيد

يا«هـــلال الفكر» والدهر يغنى
أى أنغـــام لـــه عن أىّ عـودِ ؟

بَدأ «الخلـــقــة» لونـاً ثم سَدَىً
لحمـــةُ منها ببيـضٍ وبِسُـــود

وانبرى يجـرى دمٌ منهُ عَبُوسُ
فى جلودٍ ، وبَشـوشُ فى جلـود

وتعـالـــت تزدهـى فى جـــبروت
جنّـــة الخـلد على ذات الوَقـود

بئست الدنيــا خُروقــاً مثـلما
بئس ميـلاد شـقـىّ وسَعـــيد

يا « هلالَ الفكرِ » ما كنتُ جحوداً
لا أطالَ اللهُ من عمر الجحودِ
كم تقضّت ذكرياتٌ شُعَبٌ
هُنَّ أدنى ليَ من حبل الوريد
يا أخي « مكرمَ » يا مسكَ ختام
لعجوزٍ شامخٍ ، شبه قعيد
وَجَدَ الضالّةَ من أحلامه
قبلَ أن يُستلَّ من سِفر الوُجود
كنتَ وعدَ الغيب في مأزمةٍ
شدَّ ما احتجتُ بها حلوَ الوُعود
كنتَ في الصفوة من صِيدٍ وصِيدِ
ثقّلوا حِملِيَ من لُطفٍ وجُودِ
لا أحابيكَ فقد جُوزِيتُ خيراً
عن قصيدي وسيجزوكم قصيدي
مصرُ يامهد الحضارات ويا
مدرج الغيد ويا نحياب الأسود
ياابنة النيل غفت شطآنُهُ
حالمات بأهازيج النشيد
يامصبَّ العبقريات إليَّ
ملتقى بهو زعامات وطيد
مصرُ يا سنبلةً مخضلّةً
لم تنلْ منها مناجيل الحصيدِ

غذت الأذنين عن سبع عجافٍ
بسمانٍ واستدارت للبعيد
كنتِ صنوَ الكون مُذْ أصبحَ كوناً
ومُذ التفَتْ حشودٌ بحشود
بُرُدٌ من كل حدبٍ ناسلاتٌ
ومن «الأهرام» عنوان البريد
كنتِ والدنيا حُبالى طلعةً
تستفزُّ الصُّبح عن أيِّ وليد ؟
شامهُ أيِ إلهٍ ؟ رضعتهُ
أيِّ أمٍّ ؟ هزّه أيِّ المهود ؟
يا تراثاً ليس ينفكُّ محجّاً
لركوعٍ من وفودٍ وسجودٍ
كل شبرٍ فوقهُ عطرُ الجدود
وصدى منتجع الشمل البديد
أبد الدهر تشدين هباتٍ
بقظات «بيبابٍ» من رقودٍ
خيرُ ماتحت الثرى يُوقَى به
كُل ما فوق الثرى شرَّ الحسود
كلّما أمعنتُ في هذا الصعيد
والأساطير على مَرِّ الأبيد
وبما أطلقتْ به أصباحَهُ
وأماسيهِ على سُمْر الزنود

والأكاليلُ على زهــــر الرُّبا

تُســرج الليل بشــمعات الــورود

والعماليقُ كم هُمْ عن عصــورٍ

عصــــــورٍ ، بأمــاليد القُـــدود

خـلته الأسطورة الكبرى مشى

وهـــــج منه على عصــر الجـليد

أه يــا مصـرُ ولن يُصـدقك الــودُّ

إلاَّ آهـــةُ الصـــــبُّ العـمـــيد

أه مـــن صبرٍ على الضُّــرُّ دميم

خدعـــةٌ سَـعْوَهُ بالصبر الحمـيد

أفَحَدَّاً حجــزتْ بـين حبـيبٍ

وحبـيـبٍ رملــةٌ دون حــــدود

أقـلـوبٌ تحســدُ الطيـرَ علـى

خفـقـةٍ تدنـى أليفــاً من بعيدِ ؟

أطـريـدٌ ؟ وعلامــا ؟ ولـمــاذا

ينتهـى عن فكرةٍ عمــر الطريدِ ؟

عــربىٌ وعلـى جمْرِ الغضـا

أبوعـد « عربـىٌ» أم وَعـيد ؟

لجنـان الخُـلـد بـــابٌ ولـنــا

فى الصحارىِ ألف بابٍ من حديدِ

ومتى تسـألْ عن الـقيد فَقُـلْ :

تَعِبَ « الحـداد » من صبِّ القيود

أقوال معاصرة

★ « الغوغاء لايحق لهم الفتوى، ومن طلب الولاية لا يولى ».

الشيخ محمد الغزالى

★ « التنوير الثقافى ضرورة حياة ».

الدكتور عاطف العراقى

أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة

★ « العرب لم يشهدوا أى نهضة علمية فى العصر الحديث ».

الدكتور رشدى راشد

الحاصل على جائزة الأكاديمية الدولية لتاريخ العلوم

★ « نحن ضحية لأخطائنا الكامنة فى تفكيرنا ».

الدكتور فؤاد زكريا

★ « صرنا نحن العرب لسبب أو لآخر مجموعة من الذكريات ».

الشاعر أدونيس

★ « الثقافة المتلفزة مبيدة للذاكرة ».

الكاتب والصحفى اللبنانى فواز طرابلسى

★ « الكاتب الذى يحترم نفسه لا يتوقع جوائز ».

الأديب البرازيلى جورج أمادو

★ « الحدود بين الفن وغيره أصبحت ضبابية ».

محمد المليحى

مدير الفنون فى وزارة الثقافة المغربية

★ « لبنان تحول إلى رمز عالمى للفوضى ».

سلوى شقير روزفلت

الرئيس الأسبق للبروتوكول فى البيت الأبيض

★ « بين الزواج والفن اختار الفن ».

يسرا

★ « استلهم القوة من ملايين النساء اللائى واجهن بنجاح تحدى السرطان ».

المغنية والممثلة اوليفيا نيوتون جون

عند اعلانها عن مرضها بالسرطان

★ « نحن نرفض الديمقراطية ».

الدكتور عمر عبد الرحمن

مفتى الجهاد اللاجئ للولايات المتحدة



محمد الغزالى



فواز طرابلسى



سلوى شقير

مصر ١٠٠ عام من التنوير

بعد مائة سنة :

معضلة الاستئناف

بقلم : د . محمد برادة *

عشت لحظات ثرية ومثيرة خلال ندوة « نحو مائة عام من التنوير والتحديث » التي أقامتها مؤسسة دار الهلال في سبتمبر الماضي . ذلك أن الموضوع يشدُّنا إلى المستقبل وأسئلته بالرغم من اتصاله الصميم بتجربة الماضي القريب والحديث عن المستقبل محفوف دوماً بالمخاطر لأنه قد يغري بالانسياق مع رغائب الذات أو قد يقود إلى افتراض خط « منطقي » ينتظم الأسباب والنتائج، غافلاً عن « نزوات التاريخ » واتصافه باللا استقرارية .

*

كان طبيعياً ، أن يبرز أولاً خلاف بين المتحاورين حول مفهومي نهضة وتنوير . هل ما عشناه في المائة سنة الماضية كان تنويراً أم نهضة ؟ وهل ما نتطلع إليه في المستقبل يستمد مضمونه من نموذج تحقق في مجتمعات أخرى أدركت « التحديث » ، أم أنه مشروع مفتوح يسعى إلى تحريك الفعل وسيرورة التشييد أكثر مما يتوخى الوصول إلى أنماط ونماذج أثبتت فعاليتها ؟

عندما نتذكر بعض الوقائع المعروفة ، نلاحظ بأن مفهوم النهضة في السياق الأوربي يُحيل على فترة زمنية تستغرق

* الكاتب المغربي المعروف

عدة قرون ، وأنه كان ذا طابع شمولى يتصل بالفكر السياسى والفلسفى وبالإبداع الفنى ، كما يتصل بأنظمة الحكم والصراع بين الكنيسة والدولة ، بين العلم واللاهوتية ، أى أن تجربة النهضة الأوربية استهدفت القطيعة مع العصور الوسطى فى كل المجالات عبر صراع تجسّد فى التفاصيل على جميع الأصعدة وتطلب أمداً طويلاً قبل أن يتوّجه عصر الأنوار ببلورة الأسس الفكرية والفلسفية والسياسية ، وأيضا بالانتقال ، عملياً ، من صيغة فى تنظيم المجتمع إلى صيغة أخرى .

لكن « نهضتنا » منذ أواخر القرن التاسع عشر ، تختلف كثيراً عن نهضة أوربا ، لأنها بدأت فى سياق المثاقفة وحضور النموذج الآخر مُستغلاً بقوته الاستعمارية ، ولأنها كانت - فى معظم لحظاتها - ردود فعل أكثر مما كانت نتيجة لتصورات متكاملة تصدر عن تطور طبيعى ، ونموّ غير متعاق مع ذلك لا يمكن أن أوافق الذين يذهبون إلى حد التشطيب على المحاولات والجهود المبذولة من لدن أشخاص وفئات ، على إمتداد الوطن العربى ، حاولوا أن يستوعبوا أسئلة العصر الحديث وأن يقدموا أجوبة عنها . لذلك فإن المسألة الجوهرية ، فى نظرى ، هى فى طريقة صَوْغ الإشكالية ، مادام السؤال يحدّد ، إلى حد بعيد ، أفق الجواب .

هل يتعلق الأمر بالتّنوير والتحديث أم بشىء آخر ؟ يُفهم من كلامى السابق ، أن التنوير فى سياقه الأوربى ، يختلف كثيراً عن المعنى المتداول ، راهناً فى معظم أدبيات الفكر العربى الحديث ، فإذا كان التنوير لحظةً تتْويجيّة لمشروع النهضة الأوربية ، ومفهوماً يستند إلى خلفية تاريخية وصراعات اجتماعية وأسس فلسفية ، فإنه قد أخذ دلالة ظرفية فى سياق الصراع الثقافى العربى ، إذ أصبح يقترن بالتطلع إلى العقلانية والتفتّح على الحضارة العالمية بدلاً من التقوقع والوثوقية العمياء وبالنسبة لمفهوم التحديث ، يمكن أن نلاحظ أيضاً أنه فى السياق الأوربى يعنى إدماج معطيات العلم والتكنولوجيا فى جميع مستويات تنظيم المجتمع وتسيير الشئون العامة على اعتبار أن التحديث امتدادٌ للحداثة التى تبلورت منذ القرن التاسع عشر بوصفها وعياً انتقادياً يسعى إلى تجديد صيغة الحياة والثقافة داخل حضارة سريعة التبدلات ، معرضة لاهتزاز القيم وزوال اليقين ، بينما قد يوحى هذا المفهوم ، عندنا ، باستجلاب المخترعات والطرائق التحديثية ، فى غيبة الأسس العلمية والسياسية والاجتماعية للحداثة .

هل يكفى ، إذن التّنوير والتّحديث بهذا المعنى ، لمواجهة أسئلة الواقع العربى الراهن شديد التّعقيد ؟

الواقع العربى المعقد ، بدون تحوّل فى التفاصيل ، يتجسّد مادياً وإيديولوجيا

وفكرياً في أنظمة الحكم والمؤسسات والتصنيفات الطبقية والتبعية الاقتصادية وسيادة الثقافة الرأسمالية عالمياً (على نحو ما أوضح ذلك الأستاذ سمير أمين في تدخلاته أثناء النقاش) ، وتصاعد الحركات الدينية المتطرفة ثم سراب النظام العالمي بعد حرب الخليج ... كيف نستطيع - من داخل هذه اللوحة القاتمة التي أرسم سوى بعض ملامحها - أن نُغامر بصياغة إشــكالية تكوِّن أفقاً لأجـوبة محتملة ؟

القضايا الكبيرة والمشكلة النُّهوضية

أريد قبل كل شيء ، أن أنوّه بالتصور الذي وضعه المشرفون على ندوة « نحو مائة عام من التنوير والتحديث » ، لأنه يقوم على ربط متكامل بين عناصر إشكالية انطلاقاً من نقد مشروع النهضة « الأولى » وعلاقتنا بالغرب ، والمرأة وحقوق الإنسان ونور الإبداع ، إلى مسألة المجتمع المدني والديمقراطية ثم الإسلام والعصر . فهذه القضايا الكبيرة كانت تضعنا باستمرار في عمق الأزمة وتُشعرنا بالطابع الكلّي للمشكلة النُّهوضية .

لم يعد ممكناً التّحايل على القضايا الشائكة أو الهروب من مواجهة الأسئلة الصّعبة لابد من عملية « تفريغ » ايديولوجي وسياسي لابراز المسكوت عنه وإعادة النّظر في مجموعة من المسلمات والأحكام السابقة التي تُنتصب اليـوم وراء كابوس التّعصّب والطائفية والتطرف . لم يعد بالإمكان حَجْبُ الحوار الصريح عن علاقة الإسلام بالسياسة وعلاقة الدولة بالدِّين ، عن الحكم الثيوقراطي والديمقراطية ، عن الوحدة العربية والتعدّد الإثني والثقافي . ولا شك أن العقد الأخير قد عرف تظاهرات وكتابات عربية تفصح بقوّة عن هذا الوعي الذي يتخطّى مرحلة انطواء كل اتجاه على « حقيقته » والتقوقع داخل جُزُر إيديولوجية، إلى مرحلة المواجهة والحوار . لكن ما يشغلني باستمرار ، خاصة عندما أشارك في مثل هــذه النّدوات ، هو الموقع الـذي نتكـلّم منه . وأقـصـد المثقـفـين والمفكـرين الذيـن لا يعتبـرون أنفسـهم امتداداً لنظـام قـائم . تحديد الموقع الذي نتكلم منه ، معنـاه تحديد علاقة خطابنا بالمثقفين سواء كانوا من أصحاب القرار السياسي أو من المجتمع المدني . وما دُمْنا نُقرّ بوجود أزمة حادّة وتعثرات متوالية في مشاريع النهضة فإن التحليلات والانتقادات التي نصوغها لا يمكن أن تكتسي طابع « الوعظ والإرشاد » الموجّه للمشكل بالسلطة إلى سـواء السبيل . ذلك أن العلاقة بين الدولة والمجتمع المدني (كما أوضحتْ مناقشات الندوة) هي علاقة مُختلّة في المجتمعات العربية ، لأنه منذ الاستقلالات السياسية ، استأثرت الدولة بالقرار ، وفرضتْ إيديولوجية السلطة وخنقتْ مبادرات المجتمع المدني التي ظهرت خلال فترات الاستعمار ، وتحوّلت الدولة إلى رقيب

يُحصى أنفاس المواطنين بدلاً من يطلع المجتمع المدنى بمراقبة سياسة الدولة لأجل ذلك سيكون من الوهم الاعتقاد بأن خطاب الحقيقة الصادر عن المفكرين والمثقفين سيجد آذاناً صاغية من ذوى السلطة الذين تكشفُ خطاباتُهم وأفعالهم عن رفضهم للعلاقة الديمقراطية وتداول السلطة ، من ثمَّ فإن موقع المتكلم الطامح إلى استئناف « النهضة المعاقة » لا يمكن أن يكون إلا داخل المجتمع المدنى ، وكلامه لن يكتسب فعاليته إلا بالتوجه للمجتمع المدنى بوصفه الرَّحِمَ المولِّد لتصحيح العلاقة المختلة بينه وبين الدولة .

هكذا نصل إلى نُقطة أساسية ضمن إشكالية النُّهضة ، وهي معضلة الاستئناف ، سواء اعتبرنا النهضة العربية بدءاً عشوائياً ، أو مشروعاً مُقتبساً من الآخر ، أو بدايات أجهضتها دُوَلُ الاستقلال ، فإن ماهو مطروح باستعجال هو استئناف الفعل بتحصين نظرى وممارسة مغايرين لما سبق ، ومستجيبين للأسئلة الراهنة ذات الطابع الشامل .

كيف يتمُّ الاستئناف ؟

لا أملك جواباً على هذا السؤال لكننى أزعم أن المجتمع المدنى هو المصدر الأساسى الذى يضمن استئناف فعل التغيير والتصحيح ودَمَقْرطة علاقة المجتمع السياسى (الدولة) بالمجتمع المدنى . لقد لفت نظرى خلال مناقشة « ورقة » المجتمع المدنى والديمقراطية أن بعض المتكلمين عبروا عن تخوفاتهم من أن يؤدى الإلحاح على إعادة الاعتبار للمجتمع المدنى إلى إضعاف الدَّولة وتفكيكها ، وهو ما قد يؤدى إلى خدمة مخططات « خارجية » تحارب قيام دولة وطنية قوية . لكن مثل هذا الطرح لا يعنى ، فى نهاية التحليل ، إبقاء الأمور على ما هى عليه أو الاستسلام لمنطق السلطوية . ثم إن تجذير الصراع فى المجتمع المدنى لا يعنى بالضرورة القضاء على الدولة ، بل يستهدف تصحيح العلاقة الجدلية بينهما على أساس ديمقراطى فليس المجتمع المدنى بديلاً عن الدولة ولا عدواً لهـا ، وإنما هو امتداد يضمن « الهيمنة » المنبنية على الإقناع لا على الإرهاب من جوف المجتمع المدنى تنبثق القوى التى تُشكل المجتمع السياسى وتسنده وتراقبه ، ومن جوفه تتبلور الإرادة الجماعية وقوانين الصراع الديمقراطى وتقاليد التنافس والحوار .

لكننا إذا اقتربنا من هذه المسألة أكثر، فإننا سنجد أن مأزق الدولة المتمثل فى سلطتها المطلقة وعجزها عن تدبير الشئون العامة ، هو الذى أفسح الطريق أمام تصاعد الحركات الدينية المتطرفة التى اعتمدت على جزء من المجتمع المدنى ووظَّفتْ سخطه وخيبته لتأويلاتها الظلامية فهل يحق لنا أن ندافع عن الدولة بإطلاق ، فيما هى تمنع المجتمع المدنى من ممارسة حقوقه الديمقراطية لتجـديد الدولة

وحمايتها ؟ من هذا المنظور أرى أن عودة القوى الديمقراطية والمثقفين المؤمنين بالتغيير، إلى المجتمع المدني هي الخطوة الأولى لإيجاد مرتكزات لاستئناف مشروع النهضة وتأصيل صيرورة النظام الديمقراطي. ومن الخطأ أن نترك المجتمع المدني فريسة لخطاب ماضوي منغلق، أو لخطاب رسمي تُثقله بلاغة التبرير والزيف.

المجتمع المدني ودوره في الفعل النهوضي

إن العودة إلى المجتمع المدني هي في متناول كل القوى والاتجاهات بما فيها الدولة. لكن ذلك لا يعني أن المجتمع المدني العربي مُنعدم، بل هو موجود من خلال العديد من الأحزاب والهيئات والجمعيات والمشاريع المستقلة، ويعبر عن نفسه خلال الفترة الأخيرة - عبر جمعيات حقوق الإنسان والمطالبة بالديمقراطية. وهذه المؤشرات بالذات هي التي تؤشر على وجود « حالة نهضوية » داخل المجتمع المدني تقتضي استثماراً خصباً يجنّبنا الإجهاض والهبوط. ليس المطلوب الترويج بنموذج ماضويّ أو « عالمي » لتحقيق النهوض العربي، وإنما العاجل حالياً: تقوية المجتمع المدني بوصفه ضماناً للديمقراطية، لا الديمقراطية المثالية، بل ديمقراطية الصراع والحوار. لذلك فالقول بأهمية المجتمع المدني من أجل استئناف الفعل النُهضوي لا يجب أن يُفْهَم على أنه حلٌ سحري، بل معناه التأكيد على الصراع، والمجابهة والقبول بالاختلاف.

- الصراع بين قوى التقدُّم وقوى المحافظة الرجعية من خلال الاحتكام إلى الرأي العام وإلى المجتمع المدني..

- والمجابهة مع محتكري الحقيقة أو الذين يزعمون أحادية التأويل مُتسترّين على استبداديتهم

- والاختلاف على أساس أن الحقيقة متعدّدة المظاهر والوجوه والاختلاف حولها سبيل لتصحيح الأخطاء واكتمال الوعي.

لقد تعطّلت آليات (ميكانيزمات) الفعل الاجتماعي والسياسي بمعناه العميق نتيجة للتسلُّط وتهميش المواطنين، وإبعادهم عن المشاركة الفعلية في القرار ومراقبة الحاكمين. من ثمّ فإن الاستئناف النهضوي يستوجب استعادة الآليات المفتقدة لإخراج مجتمعاتنا من الجمود والدوران في الحلقة المفرغة. وهنا يأخذ الرهان الديمقراطي حجمه الكبير على اعتبار أن الديمقراطية هي الجسر الضروري لإنجاز التغيير وفق إرادة الأغلبية. وهي أيضاً الشرط الأوّلي لتوفير مناخ الانتقال من مفهوم الهوية الثابتة إلى مفهوم صيرورة الهوية، أي توفير القدرة على محاورة الذات والآخر والتاريخ بتفاعل وحيوية لتجديد الرؤية، واستيعاب التحولات، وإنتاج الفعل المبدع.

مجلة الهلال والزمن العربى

بقلم : سميح القاسم

★ لم تكن المبادرة لتأسيس « الهلال » تحقيقاً لحلم شخصى أو إنجازاً لمغامرة فردية فحسب . كان الإقدام على إنشاء هذه المجلة (وأرجو الإخوة اللغويين توثيق اللفظة) ، جزءاً من مشروع وطنى مصرى وقومى عربى ، يطمح الى تحديث الحياة العربية ، المحكومة بحالة ثقيلة من ركود لزج ومظلم استمر نيفاً وخمسة قرون.

كان الإرهاص بزمن جديد من التنوير والتثوير والتغيير قد بلغ مرحلة الغليان فى أغوار كوكبة نخبوية طليعية ، من رجال ونساء ، ذاقوا تفاحة المعرفة الأوربية فاستطابوها واستساغوها وسكنهم الحماس لنقل أشتالها وغرسها فى تربة العرب المتروكة ، بوراً ، أزداحاً من زمن هو أشبه بالورطة التاريخية .

لقد بدا الحكم العثمانى لعامة العرب أمراً طبيعياً ، باعتباره استمراراً عضوياً للخلافة الإسلامية . ولم يكن التعامل مع الأتراك العثمانيين كأنما هم غزاة أجانب أمراً ممكناً ، ذلك أن العنصر الدينى فى علاقة الحاكم والمحكوم كان من القوة بحيث أصبح التنكّر له أو تجاهله ضرباً من الكفر أو الجنون ... ولولا بروز الطورانية باعتبارها تياراً فكرياً قومياً تركياً متعصباً لما أتيح للعرب الطرف الأكثر قابلية لبلورة نزعاتهم هم القومية . وحين نشأ هذا الطرف الموضوعى ، فقد كانت

من سبتمبر سنة ١٨٩٢ الى اغسطس ١٨٩٣

الهلال

مجلة علمية تاريخية صحية أدبية

لمنشئها

جرجي زيدان

قيمة الاشتراك خمسون غرشاً مصرياً في السنة بالقطر المصري و ١٢ شلناً او ١٥ فرنكاً في الخارج

AL-HILAL

A Fortnightly Scientific & Literary Arabic Review

Edited by

G. ZAIDAN M. R. A. S.

Subscription; 12 sh. or 15 Frs. Per Annum

Vol. I

Second Edition

From September 1892 — August 1893

AL-HILAL Printing office, Faggalah, Cairo, Egypt

طبع بمطبعة الهلال بالفجالة بمصر طبعة ثانية سنة ١٨٩٨





« الهلال » وشقيقاتها جزءا من بنية ثقافية تحتية مهيّأة لاستيعاب الحلم الإقليمى المصرى والقومى العربى ودفعه باتجاه التحقق والتجسد على مساحة المكان العربى الباحث عن زمانه المطابق .

لقد شكّلت « الهلال » وشقيقاتها ركناً أساسياً من عمارة ما كادت تكتمل حتى تعرضّت لهزات سياسية واجتماعية ألحقت بها صدوعاً خطيرة تتهدّد مصيرها ، وتعنى عمارة النهضة القومية العربية الحديثة التى ترسّمت خطا الحركات القومية فى الغرب باتجاهين بارزين :

التقليد الحرفى فى مجال الأطر : البرلمان ، الأحزاب ، البرامج ، الإيديولوجيات ، الأزياء ، والعلاقات العامة .

محاولة الهضم والإستفادة من التجربة الغربية بالاتكاء على التراث فى جهد توفيقي لم يُكتب له النجاح الباهر .

ويُخطىء كل من يزعم أن مشروع النهضة العربية الحديثة بلغ النهاية من طريق مسدود ، فلا يجوز التقليل من شأن الإنجازات التى حققها هذا المشروع غير أن الهجوم الذى يتعرض له الفكر النهضوى العلمانى من جانب التيارات السلفية لا يفتقر الى التفسير حتى لو كان تبريره أمراً شاقاً على النفوس .

إن طرح الفكر الدينى والحل الدينى بديلاً ونقيضاً للفكر القومى والحل القومى يعتمد إلى مدى بعيد على أخطاء الطرح القومى وخطاياه ..

لقد طرحنا فكرة الوحدة العربية وأنزلنا الدبابات الى الشوارع ، والجامعات لمنع الوحدة ، لإصرارنا على النهج القبلى فى مفهوم الوحدة ، بمعنى أن هذا « الشيخ » هو المؤهل الوحيد لزعامة الوحدة ، وعلى

« القبائل » و « العشائر » الأخرى أن تبايعه بلا جدل وبلا استئناف على أيٍّ من مواقفه الشخصية الموغلة في الذاتية الى حد النرجسية .

وأقمنا البرلمانات أشكالاً دون مضامين برلمانية حشدنا لها زعماء البطون والأفخاذ وجمعناهم في مجلس أميري أو ملكيّ أطلقنا عليه اسم البرلمان ..

وشكّلنا الأحزاب محكومين بالرواسب القبلية وشبه الإقطاعية حتى ألفينا أنفسنا قبالة حالة يعجز فيها الحزب الواحد عن توحيد قطرين .. وأكثر من ذلك فقد انشقّ الحزب على نفسه وأقام دولتين غير وديتين على الإطلاق وتتقارب البنية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بين انجلترا الملكية المحافظة وفرنسا الجمهورية الاشتراكية أكثر بكثير مما هو حاصل بين دولتين يحكمهما حزب الحزبين .

وارتكبنا في مجال التعامل مع الإيديولوجيات أخطاءً لا تُغتفر لشدة ما ألحقته من إساءات بالإيديولوجيات وبالجماهير على حد سواء .

على هذه الخلفية القاتمة من الممارسات المُحبطة تصاعدت الحملة المُضادة للفكر القومي غير أن فرسان هذه الحملة يكررون الخطأ الذي ارتكبته بعض الفصائل القومية العلمانية بوضعهم الحل الديني في مواجهة الحل القومي ، وكبديل / نقيض / مطلق له .

ثمة أزمة شاملة في الواقع العربي والحياة العربية ، أزمة سياسية ، أزمة فكر، أزمة اقتصاد ، وأزمة مجتمع ، أزمة ثقافة وأزمة عقيدة .. ولا يستطيع المثقف الملتزم الركون الى الحيدة في جهنم الأزمات هذه . لا مبرر للنكوص ولا جدوى في التقوقع .

نحن مطالبون بالانخراط في صفوف الجماهير الملغومة بالإحباط الموجوعة بالنكسات الى درجة الفضيحة .

نحن مطالبون بإعادة النظر وليس بالالتفاف على الواقع وتجاهله .. نحن مطالبون بالتكرس لإنجاز ثورة ثقافية تعتمد إنجازات الماضي وإيجابياته وتستشرف المستقبل من خلال الالتحام بالحاضر وتفوّره ومواجهته من داخله ، لا باستحضار الأرواح أو الاستسلام العبثي للغيب ولعواصف المجهول .

لم تحقق حلم الـرواد النهضـويين لأصبح « الهلال » بدراً تاماً .. غير أن الحلم شيء والواقع شيء آخر .. وزمن الحلم النهضوي شيء والزمن العربي الراهن شيء آخر .. ولابد من تطابق الطموح بزمنه .. ومن أجل ذلك نحتفل بمئوية الهلال آملين باللقاء القريب في المهرجان المئوي القادم ، فلنحافظ على صحتنا إلى ذلك اليوم القريب إن شاء الله، ولنحافظ على عقولنا في زمن التوعك والجنون هذا .. تحية « للهلال » القاعدة والمنشأة والحلم .. تحية للعاملين في هذا الصرح الحضاري العظيم .. تحية ومحبة لجماهير القراء ، والجماهير ، صانعة الزمن العربي القادم ....

البحث العلمى فى دولة نامية

بقلم : د. مصطفى سويف

ليس القصد من هذا الحديث تقديم سيرة ذاتية لكاتبه ، لكن الهدف الحقيقى هو عرض صورة حية للخبرات التى يلقاها من يتصدى للاشتغال الجاد بالبحث العلمى فى مجتمعنا المصرى بكل الظروف المفروضة عليه كمجتمع نام يعيش فى النصف الثانى من القرن العشرين . أما تبرير هذا العرض فهو أنه شهادة معايشة لمرحلة بعينها من مراحل التاريخ الاجتماعى للبحث العلمى فى مصر ، ومما لا شك فيه أن الوعى بالتاريخ شرط من الشروط الضرورية فى حياة الأمم المتحضرة . غير أن شهادتنا هذه ليست مقالا فى التاريخ ، ولكنها وثيقة تقدم منظورا للأحداث والحقائق محدودا بحدود صاحبها ، وبالتالى فهى معرضة لمخاطر النظرة الجزئية ، والتأويلات الذاتية . غير أننا سنرتضى الاعتراف بهذه المخاطر ، على أن نحاول ما وسعنا الجهد ألا نتورط فى مساوئها ؛ وسيكون ذلك بالوقوف عند الجزئيات المحملة بالدلالات والمعانى العامة ، والانصراف عن الوقائع شديدة الخصوصية، أو شديدة الضيق فى معناها . وسيكون هذا هو طريقنا نحو الرؤية الموضوعية والفائدة المعممة .

بدءا من الأحلام :

أن تحلم بأن تجعل من البحث العلمى قبلة حياتك التى تقود خطاك أكثر من أى قبلة أخرى ، فهذا حلم جميل وممتع ؛ لأن مجرد بزوغه فى النفس يحمل فى طياته شرط الاستمتاع به ، ذلك أن هذا البزوغ يعنى أن حاجة ما قد تولدت فى نفسك واختمرت الى حد معقول ، وقد تولد هذا الحلم لإرضاء هذه الحاجة . ولكن عندما تبدأ الخطوة الأولى نحو تحقيق الحلم



وإحالته الى واقع تبدأ متاعب الرحلة تتوالى عليك ، فاذا بدأ ورود هذه المشاق فلا انقطاع لتداعيها ، ولا هدوء لايقاعها . تبدأ المتاعب مع أقرب المقربين اليك ، أفراد الأسرة الذين كنت تأنس اليهم ، وتطمئن على أحلامك الصغيرة أن تعرضها على مسمع منهم ؛ وكأن اطمئنانك هذا جزء لا يتجزأ من نسيج يضمك وإياهم ، وهم يقولون إنهم يجلون العلم والعلماء ، ويحثونك على الاجتهاد والتفوق فى تحصيل العلم ، ويقرنون على مسمع منك بين ارتفاع القامة فى العلم وعلو قدر الشخص ومكانته ، ولكن فى اللحظة التى تبدأ فيها القيام بالخطوة الحاسمة الأولى على الطريق الى الاشتغال الجاد بالبحث العلمى ، بمعنى أن تجعل له الأولوية فى اختياراتك العملية (كأن تتجه الى الالتحاق بكلية العلوم أو الآداب بدلا من كلية الطب مع أن مؤهلاتك فى الثانوية العامة تسمح لك بالدراسة الطبية) يتوقف هذا كله ، يتوقف التغنى بسيرة العلم والعلماء ، وينقطع ما اتصل من أحاديث الحث والتشجيع على السير فى هذا الطريق ، وسرعان ما يطفو على السطح نوع آخر من الحديث ، وتوجه آخر للحث بالتلميح حينا وبالتصريح أحيانا ، الحث على الاهتمام بالأمور العملية فى الحياة ، وعلى ضرورة التنبه الى أن احتراف البحث العلمى فى بلدنا يعتبر نوعًا من السفه أو سوء التدبير لأنه لا يضمن العيش الكريم . ويبدأ يساورك العجب ، مع قدر من الاستنكار لهذا التغير الفجائى الذى تشهده ، فى النفوس وفى الوجوه وفيما يصدر عن أصحابها من أقوال غير الأقوال وأفعال غير الأفعال . وسواء اتهمتهم نتيجة لذلك بالنفاق ، أو باختلال الاتساق بين ما يقولون وما يفعلون ، أو قنعت باستخلاص أنك فى واد وهم فى واد ، فالأمر الذى لا شك فيه أن أزمة فى العلاقات الانسانية بدأت تتخلق وتتبلور لتعوق التواصل بينكما ، أنت وحدك فى طريق ، وهم جميعا فى طريق آخر .

هكذا تخلقت البنية الأساسية لأزمة مستعصية فيما بيننا، أنا وأسرتي، بدءاً من الخطوة الأولى لتحويل الحلم الى واقع. واكتشفت عندئذ أن الكثافة العالية للعلاقات الانسانية داخل الأسرة في مجتمعنا سلاح ذو حدين، حدٌ فيه النعمة حين يحيط المرء بكل أنواع الرعاية المعنوية، والمادية أحيانا، وحدٌ فيه النقمة، عندما يستخدم أداة بالغة السطوة لوأد أية بادرة تصدر عن الفرد لتنبيء باختلافه عن المجموع.

تكريس العصامية الأكاديمية

فإذا قدِّر لك أن تعبر مرحلة البدء هذه بنجاح، وثبتت قدمك على عتبة الطريق الذي تريد فثمة مشاعر كثيرة تتلاحق عليك! يعلو بعضها بروحك المعنوية إذ تشعر ببوادر النصر لأنك تقترب من أمل طال نشدانه. ويثير بعضها الآخر لديك مخاوف مبهمة، ويزداد وضوح هذه المخاوف مع الأيام، وتكتشف شيئا فشيئا أنها مخاوف من فقدان التوجه، أو من التوهان، لأنك لا تجد علامات لإرشاد المسافرين على الطريق. في هذه المرحلة تكتشف أن عليك أن تنمِّي في نفسك ما يمكن أن تسميه «العصامية الأكاديمية»، أن تعتمد على نفسك معظم الوقت في كل ما من شأنه أن يقيم دعائم شخصيتك العلمية، بدءاً من قدرات تحصيل المعرفة، الى مهارات المفاضلة والتمييز بين مختلف المجالات المعرفية التي تعرض لك، الى تنمية ما يمكن أن تسميه حاسة التوجه الذهني الصحيح، الى تكريس بعض السمات الوجدانية المساعدة، كالمثابرة والاكتفاء الذاتي. صحيح أن الأستاذ موجود، وقد يسعدك الحظ فيكون الأستاذ واسع الأفق عقلا ووجدانا، غير أن تكوين باحث علمي لا يكفي للوفاء به وجود الأستاذ حتى ولو كان قمة في غنى العقل والنفس. لابد من أن يكون هذا الأستاذ جزءاً مما يسمى بالمناخ المكرَّس للعمل العلمي، حيث كل صغيرة وكبيرة، بما في ذلك جزئيات وكليات العمل الادارى وأبواب الإنفاق المالى مرتبة أساسا لتيسير خطى الانجاز الأكاديمي. لكن معظم مقومات هذا المناخ لم تكن متوافرة في إطار كلية الآداب بجامعة القاهرة (فؤاد الأول) عندما بدأنا التلمذة فيها أنا وجيل كامل من الشباب في أوائل الأربعينات، وأكبر الظن أن الأمر كان كذلك في سائر كليات الجامعة، ولكني أخص بالذكر كلية الآداب لعلمي بما كان يجري فيها. ولاتزال الأمور تسير من فقر الى فقر أشد وأعتى في مقومات المناخ هذه، فاذا طرأ على أحد المجالات قدر طفيف من التحسن فإنه يكون في أغلب الأحيان مصحوبا بما يعادله أو يفوقه من التدهور في مجال آخر. وعلى سبيل المثال فعندما كنت أنا وجيلي في عهد التلمذة كنا نجد أمامنا بعض الأساتذة الأجلاء نلوذ بهم، وكانوا ولا شك يقدمون

لنا سندا نتكيء عليه في مواجهة سائر الظروف المعاكسة . أما الآن فقد تكفل نظام الإعارة الى بلاد النفط بالقضاء حتى على هذا العنصر ، شعاع الأمل الأخير ، وإحقاقًا للحق لم يكن نظام الإعارة وحده هو الذى قام بهذه المهمة ، لكنه جاء ليكملها على خير وجه ممكن ، جاء على قمة كومة كبيرة من الاجراءات والنظم واللوائح الفاعلة فى الاتجاه نفسه فكان القشة التى قصمت ظهر البعير .

وعلى ذلك فلاتزال الحاجة الى تنمية مهارات « العصامية الأكاديمية » ، قائمة حتى يومنا هذا ، وربما زادت هذه الحاجة شدة وإلحاحا فى بعض ميادين النشاط العلمى عنها فى بعضها الآخر .

مستلزمات العصامية الأكاديمية

سئلت أكثر من مرة عن المستلزمات النفسية (العقلية والوجدانية) للعصامية الأكاديمية التى كثر حديثى عنها ، وأعنى بالمستلزمات مجموعة الشروط التى يجب أن تتوافر لدينا حتى نحصل من هذه العصامية على آثارها المرغوبة ونتجنب آثارها الجانبية الضارة ؛ وللإجابة لا أجد خيرا من الإشارة الى عنصرين رئيسيين ، أولهما : أن تكون على درجة عالية من الوعى بأنك اخترت طريقا وعرا ، أشق ما فيه أنه يفرض عليك شعورا ملحا بالوحدة . عليك أن تقبل هذا الشعور قبول معايشة ايجابية لا قبول استسلام ، فقد جاء نتيجة طبيعية غير مباشرة للطريق الذى اخترته ، تماما كما يجيء الأبناء نتيجة طبيعية غير مباشرة للزواج . وثانيهما : أن تعتزل دون أن تنعزل ، لكى تستثمر وقتك أفضل استثمار ، وتنأى بنفسك عما قد يفسد قصدها ؛ ولكن لا تدع العزلة تطغى عليك ، فيضيق مجال رؤيتك ، وينكمش مجال حركتك ..

دواعى العصامية الأكاديمية

ثم يبقى بعد ذلك سؤال هام : هذه العصامية الأكاديمية فى مواجهة ماذا ؟ ما الذى يفرضها باعتبارها طوق النجاة ؟ والإجابة الأمينة على ذلك هى : أن هناك أمورًا كثيرة فرضت علينا هذه العصامية ولاتزال تفرضها فرضا .

كان الموقف الذى يواجهنا ينطوى دائما على طريقين لا ثالث لهما ، إما هذه العصامية ، أو التراجع التام عن الحلم . وامتد هذا الموقف على طول نصف القرن الذى هو امتداد عمرنا (أنا وأبناء جيلى) فى التوجه الى البحث العلمى . وفيما يلى محاولة لحصر الأبواب الرئيسية التى تقع تحتها محتويات هذا الموقف من أمور معاكسة :

أولا - الخواء المادى : لم أجد أفضل من هذه البطاقة للإشارة الى وضع تكاد تنعدم فيه متطلبات النشاط الأكاديمى الجاد داخل الجامعة ؛ فالدوريات العالمية المتخصصة لا تتوافر بانتظام أو لا تتوافر

إطلاقا . وميزانيات البحوث فى الكليات من الضآلة بحيث تُشعر المرء بالمهانة الشديدة أو بعبثية مفهوم البحث العلمى كما تنظر اليه سلطات الجامعة وسلطات الدولة .

والمعامل غير مهيأة لأكثر من إجراء بعض التجارب المبسّطة التى تلزم لطلاب سنوات الليسانس أو البكالوريوس . وحضور المؤتمرات العلمية فى الخارج ليس له سوى ميزانية هزيلة لا تقل فى هزالها عن ميزانية البحوث . ومكاتب أعضاء هيئة التدريس فى معظم الكليات لا تصلح إلا لتمضية الدقائق التى تقضيها فى المكان بين محاضرة ألقيناها وأخرى سنلقيها ، أما أن تعين على البقاء فيها ساعات متصلة للاطلاع والانتاج المكثّف فهذا أمر غير وارد . هذه صيغة محدودة من بنود الخواء المادى ، وعلى مر الخمسين سنة التى عرفت خلالها جامعة القاهرة لا أذكر أن الجامعة أبدت يوما استعدادا لإنهاء هذا الوضع ، وما استجد على الساحة من جامعات جديدة لم يتخلق معه وضع أفضل ، بل ولا تخلق معه وضع مماثل ، كانت الأوضاع تتدهور بقدر ما تتوالى . لذلك كان علىّ وعلى أمثالى أن يتنبهوا منذ وقت مبكر الى قيام هذه العقبات ، وأن يعترفوا دون أى خداع للنفس بما يمكن أن تفعله بمسيرتهم ، وأن يجددوا العهد بينهم وبين العلم حتى يتمكنوا من إعداد العدة اللازمة للتغلب على كل بند من هذه البنود بالمواجهة أحيانا ، والالتفاف حوله أحيانا أخرى .

ثانيا - التثبيط الإيجابى الساذج :

يتعرض من يداعبه الرجاء فى أن يأخذ مسألة البحث العلمى مأخذ الجد الى أقدار وأنواع من تثبيط الهمة تثبيطا ايجابيا لا أول له ولا آخر . يحدث هذا بكثافة ملحوظة من أعداد متزايدة من الزملاء ، ويحدث بصورة أشد كثافة ممن بيدهم سلطة اتخاذ القرار .

ومع ذلك فهذا طراز من التثبيط يصدق عليه الوصف بالسذاجة لأنك لا تلبث أن تكتشف أن هؤلاء الذين يثبطون همتك لا يقصدون الإساءة اليك ، بل إنهم يشفقون عليك بمعنى ما ، ولسان حالهم : لماذا تحمّل نفسك هذه المشقة وأنت فى غنى عنها ، فأنت غير مطالب بإجراء هذه البحوث والدراسات (وبوجه خاص إذا كنت قد بلغت مرتبة الأستاذية !) ثم إنها لا تدر عليك أى عائد مادى ، بل العكس هو الصحيح ، فأنت تنفق عليها من مالك الخاص . هذه رؤيتهم للأمور ، وهم فى حدودها ناصحون مخلصون ، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، وما عليك إلا أن تقاوم فى أدب جم ، اذا لم تكن تقبل النصيحة .

ثالثا - التثبيط الايجابى المغلف :

هناك أنواع أخرى من التثبيط الايجابى أشد من هذا الذى ذكرناه تعقيدا وأكثر ضررا ، لأنها تنطوى على فلسفة واضحة وليست مجرد رد فعل ساذج ، وبالتالى فقد تتسرب آثارها التخريبية باسم الاقتناع

العقلاني . وتتلخص هذه الفلسفة فيما يأتي : لا قيمة لأى اجتهاد يقوم به شباب الباحثين من أبناء الدول النامية فى العلوم الأساسية ، لذلك وجب أن يجتهدوا فى حقل العلوم التطبيقية ، وانطلاقا من هذه الفلسفة يبدأ محدثك فى عرض حججه المثبطة وعليه سيماء المتكلم الموضوعى . وعليك أنت أن تكون على درجة عالية من الوعى بأمور السياسة الدولية ، والتاريخ ، وتاريخ العلوم بوجه خاص ، بالاضافة الى ارادة لا تنثنى عن التمسك بالتوجه العام الذى اخترته لنفسك حتى تصمد أمام هذا الطراز من التثبيط فيطيش سهمه ، وكثيرا ما ووجهت بهذا النوع من الحجج ، وكنت فى شبابى أحاول أن أرد على الحجة بمثلها ، ثم أدركت خطأ محاولة الرد من جانبى ، ومع الأيام تعلمت مهارات اجتماعية أخرى تعفينى من مشقة جدل لن يفيدنى ، وقد يفيد محدثى بمزيد من شحذ مهاراته التخريبية وزيادة كفاءتها .

رابعا - التثبيط الايجابى المسيس : ثم هناك نوع ثالث من التثبيط أسوأ من النوعين السابقين وأشد ضررا ، هذا هو التثبيط المسيّس . وهو نوع ساد استعماله فى رحاب الجامعة على طول الخمسينات والستينات . وأثيرت حوله هالة تجعله يبدو وكأنه جزء من الفلسفة السياسية للدولة . أما مضمونه فيمكن تلخيصه على النحو الآتى : أن العلم ينبغى أن يوجه الى خدمة المجتمع . هذه هى المقدمة ، وهى قولة حق أريد بها باطل ، ويبدو ذلك واضحا عند ذكر ما يُرتَّب على هذه المقدمة ، ومؤداه أن الاشتغال بالعلوم البحتة (أى التى لا يظهر لها هدف اجتماعى قريب يراه الجاهل ونصف الجاهل) مضيعة للوقت أو ترف لا يجوز أن تنساق اليه .

ومن الواضح أن هذا الرأى قريب من الرأى الذى أوردناه تحت عنوان التثبيط المفلسف ، ولكن الجديد فى الرأى الحالى أنه يضيف قدرا من التلميح المهدِّد بأن الدولة لا ترضى عن ذلك . وفى مناخ الخمسينات والستينات كان هذا التهديد المستتر يفعل فعله المدمر فى النفوس ، وربما طُمست معالم كثير من الهمم الشابة تحت وطأته ، وهى بعد فى بداية الطريق .

خامسا - التشتيت المتعمد : وفى هذا المناخ لم يقتصر الأمر على التثبيط الايجابى بأنواعه المختلفة ، بل تعداه الى محاولات التشتيت المتعمد ، ذلك بأن تجد نفسك هدفا لمحاولات التجنيد التى لا تكاد تنقطع لخدمة النظام السياسى ، بأشكال متباينة ومن جهات متعددة . فاذا قبلت فقد تبدد وقتك وجهدك ، ولم يبق لديك منهما ما تنفقه فى البحث العلمى . واذا لم تقبل تعرضت لأخطار الشك فى ولائك وما قد يترتب على هذا الشك من متاعب لا تعلم مداها . وعليك عندئذ أن تتدبر الأمر بحصافة شديدة ، أهم ما تنطوى عليه هو ضمان الاستمرار فى طريقك مع الابتعاد عن الاستفزاز ما أمكن .

وقد تعرضت لأكثر من موقف من هذا الطراز ، وفي كل مرة كنت أزداد إصرارا على مواصلة السير في طريقي ، وأزداد قدرة على لبتكار أساليب الاعتذار التي لا تؤذي مشاعر محدثي . ولكني كنت في الوقت نفسه أشعر بشيء من الخوف المبهم يعايشني لفترة حتى يتلاشى .

سادسا - الخواء المعنوي : يناظر الخواء المادي في الأدوات خواء معنوي في البشر . تقلّب النظر فيمن حولك فلا تجد بينهم إلا قلة محدودة هم الذين نذروا أنفسهم للعمل العلمي الجاد . وحتى هذه القلة تتعرض من حين لآخر للتآكل . كان الحال كذلك في أوائل الخمسينات ، واستمر كذلك حتى أوائل التسعينات ؛ نجحت عوامل كثيرة ، تراوحت على طول هذه الفترة ، بين الوعد والوعيد ، نجحت في أن تذرو أدراج الرياح معظم الأحلام العلمية الصغيرة التي لابد أن تكون قد طافت ببعض الرءوس في شبابها . ولا يمكنك والأوضاع هكذا أن تجد سبيلا الى التواصل العميق مع معظم زملاء المهنة ، لأن البشر يتواصلون بقدر ما يتناغم بينهم من قيم واهتمامات مشتركة ، ومادمت لا تجد لديهم نتاجا لغرس الأحلام ولا تجد الأحلام نفسها فلا يبقى أمامك إلا أن تلوذ بالصمت أمام هذا الخواء .

وهكذا كان قدري منذ اعتزمت أن أعيش عاكفا على البحث العلمي الجاد في مصرنا العزيزة ؛ قدّر لي أن أعدّ منذ الخطوة الأولى ، عندما بدأت أحيل الحلم الى واقع . فلمّا اجتزت عتبة الطريق اكتشفت أن عليّ أن أنمي في نفسي مجموعة من المهارات العقلية والاجتماعية والخصال المزاجية تجتمع جميعا تحت عنوان « العصامية الأكاديمية » . كان ذلك في مواجهة الخواء المادي فكان عليّ أن أزود نفسي بمعظم ما يلزم من إعداد لحياة البحث بما في ذلك المراجع والأدوات والترحال ، أنفق عليها وعلى متعلقاتها . وكان كذلك في مواجهة أنواع من التثبيط الايجابي تتفاوت فيما بينها من حيث السذاجة أو سوء القصد الذي يتعدى مجرد التثبيط الى التشتيت المتعمّد ، وبالتالي كان عليّ أن أتعلم أنواعا متنوعة من الصمت وأن أتقنها جميعا وأتقن التنقل بينها حسب مقتضى الحال . ثم كانت العصامية مطلوبة أيضا للصمود أمام عاديات الخواء المعنوي ، حيث يعز التواصل ويلزم رصيد ضخم من الاكتفاء الذاتي .

أما بعد - فهذه شهادة صادقة على مرحلة بعينها من مراحل التاريخ الاجتماعي للبحث العلمي في مصر . خلاصتها أن طريق البحث العلمي الجاد لدينا شديد الوعورة ، وأن السير فيه بالغ المشقة ؛ كان ، ولايزال . فهل سيظل كذلك ؟ أم أن الأوان ليبدأ العمل الصادق في سبيل التخفيف من مشقته ووعورته كي تزداد أعداد المقبلين على ارتياده ، ويزداد المؤمنون به ايمانا على ايمانهم .

ثورة فى ثورة

من ثورة بالتعليم .. إلى ثورة على التعليم

بقلم : د . سعيد اسماعيل على

« من شابه أباه ، فما ظلم » !!

لم تكن تلك المقولة تشير فقط إلى مجرد التماثل والتشابه البيولوجى بين الابن وأبيه ، وانما كانت تلخص كذلك ، الغاية التى كانت تراد دائما من الجهد التعليمى والعملية التربوية .

وهكذا أصبح المربون : معلمين وآباء ، يحرصون الحرص كله على أن يربوا أبناءهم وتلاميذهم ، لا وفقا لما يريده ويرغب فيه الصغار ، بل حسبما يرى الكبار أنفسهم ، زعما منهم أنهم أدرى وأعلم باحتياجات هؤلاء الصغار ، وبالتالى ، فقد كان من الضرورى أن يجىء الأبناء صورة طبق الأصل مما كان عليه الآباء ، وبالقدر الذى يكون فيه تماثل ، بالقدر الذى يقدر به نجاح التعليم ، فاذا ما حدث العكس ، كان هذا تأكيدا على الفشل والاخفاق

ومن هنا فانك إذ تتفحص مسيرة التعليم فى كثير من المجتمعات فى العصور القديمة ، تلحظ أن القرن يجىء مثله مثل سابقه ، وينبىء غالبا بما سيكون عليه لاحقه، فالمحافظة والجمود والثبات شعارات مرادة ، والتغيير والتحول والتطور شعارات غير مرغوب فيها .

وهكذا تحددت وظيفة التعليم : أن يكون أداة للمحافظة على الموروث البشرى بكل مكوناته من معتقدات وأفكار وعادات وتقاليد وقيم ونظم واتجاهات .

ويخطىء البعض إذ يظن أن أفلاطون فى (الجمهورية) إنما أراد (التغيير)





محمد رشيد رضا



جمال الدين الأفغاني

و (التطوير) فى المجتمع الأثينى القديم ، ذلك أنه كان على يقين بأن (المعرفة) موجودة سلفا ، ولدى كل انسان (بالفطرة) ، وأن الناس (معادن) ثابتة الهوية ، وما كان الفساد الذى قام فى عهده إلا نتيجة (انحراف) المجتمع عن (الثوابت) التى هى قوام الانسان وهوية المجتمع ، ومن ثم فقد اقترح ما اقترح من نظام تعليمى فى جمهوريته ، لا ليبدع وضعا جديدا ، وانما ليعيد ترتيب الأوراق الاجتماعية فيعود كل انسان إلى « أصله » وتصبح العملية التعليمية هى إعادة (تذكير) الانسان بما هو مفطور ومجبول عليه من المعارف والمعلومات .

بل أن الذى يتفحص سلم (التقدير) و (الترتيب) الذى وضعه أفلاطون لمختلف مجالات المعرفة الواجب تعليمها للمواطنين ، يستطيع أن يلمس أن (الثبات) يرفع من قيمة المجال ، وأن (التغير) يحط من أن شأنه ، وبحيث أصبح التساؤل عن (نفع) و (فائدة) المعرفة ، اهانة لها ، ذلك أن المقصود بها ليس (تحريك) الواقع لجعله أكثر نفعا وملاءمة لبنى البشر ، وإنما هى غاية فى حد ذاتها !!

وكان منطق أرسطو هو منهج التفكير المناسب تماما ، بحيث تجىء النتائج غير منبئة بجديد ، لأنها متضمنة فى مقدماتها . وعندما يواجه الإنسان مشكلة ، فما عليه - بناء على هذا - إلا أن يبدأ تفكيره من جملة من (المبادىء) المسلم بها ، ثم يتسلسل فى خطوات منطقية حتى يستنبط الحل أو النتيجة الطبيعية ، أما أن يفكر فى الاتجاه إلى دنيا الخبرة والحركة والفعل ، فهذا غير مطلوب ، ومن هنا كان (الاستنباط) منهجا عقليا ملائما ، حتى يجىء يومنا مثل أمسنا ، ويجىء غدنا مثل يومنا !!

وهكذا كانت المرحلة الأولى فى مسيرة التعليم : لا ثورة ... بالتعليم !!

لكن نفرا من العلماء والمفكرين في عصر النهضة الأوربي وأوائل العصر الحديث أدركوا أن الانسان يستطيع أن يستثمر هذه الميزة التي ميزه الله بها عن سائر الخلق العقل ، ليس كآلة تصوير فوتوغرافي تتلقى ما ينطبع عليها من صور ، وإنما كقوة فاعلة ومحركة ومغيرة لمعطيات الواقع الطبيعي والاجتماعي .

إن حال أي مخلوق آخر ، منذ قرون ، تظل هي هي ، أما الانسان ، فهو الذي يستطيع أن يجعل يومه أحسن من أمسه ، وأن يخطط لكي يجيء غده أفضل من يومه، فبهذا تتطور المجتمعات وتتقدم البشرية وتنشأ الحضارات .

ولكي يتحقق هذا ، فلابد من تغيير البشر أنفسهم .. أعادة بناء الانسان منتج الثقافة ومستهلكها . ومن هنا اتجهت جهود عديدة من قادة الاصلاح وحركات التغيير الاجتماعي والمفكرين والفلاسفة والعلماء إلى التعليم أملا في أن يكون أداتهم للتغيير الثوري .. للتطوير الجذري الشامل .

وبالفعل ، شهدت المجتمعات الأوربية منذ عصر نهضتها قفزات متسارعة دفعتها إلى آفاق من التقدم ربما تجاوزت كثيرا من الأحلام .

وفي نفس هذه الحقب ، توارت من أمام التعليم ، في عالمنا العربي ، الحقيقة القرآنية القائلة بأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .. توارت في ظلمات قهر واستغلال أحاط بالانسان العربي فسقط في جب التخلف ، وأصبحت الكتب التي يتداولها طلاب التعليم « حواشي » و (هوامش) على كتب أخرى سبق تأليفها في زمن الابداع والازدهار .. أصبحت براعة طالب العلم تتحدد بمقدار ما (يحفظ) ، لا بمقدار ما (يبدع) . ولأن (الصورة) يستحيل أن تجيء أفضل من (الأصل) ، فضلا عن أن تماثله ، تتالى التخلف وتعمق ، وواصل الخط البياني لتقدم الانسان العربي وتنشئته في الاتجاه إلى أسفل ، حتى إذا بدأت ذئاب الامبريالية تحوم حول المنطقة ، وجدت الصيد متهيأ للسقوط ، فتقدمت تعربد وتتنشر لتأكل بنهم ولتصبح المنطقة العربية أشلاء خراف على مائدة ذئاب !!

لكن نفرا من مفكري الأمة المستنيرين ، بدأوا ينتبهون وينبهون : أن شعوب أمتنا بلا سلاح تذود به عن حياضها ، يتمثل في هذه المدافع وهذا البارود وتلك القنابل والبوارج الشامخات .. وأرضها يستحوذ عليها جنود مدججون بمثل مما لم يألفوه من سلاح .. والمال يتسرب من أيديها إلى جيوب القاهرين ، فماذا بقي أمامهم من سبيل يسلكونها لمواجهة هذه الكارثة التي تحيط بهم من كل جانب ؟

هنا جاءت صرخة الشيخ حسن العطار : ان بلادنا لابد أن تتغير ، فنتعلم من العلوم ما ليس فيها !!



مصطفى كامل



محمد عبده

وإذا كانت تلك الصيحة قد لفتها دياجير الظلام المطبق على كل الأرجاء ، فقد جاءت صيحات أخرى أشد قوة وبأسا بعد عقود قليلة على لسان جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ومصطفى كامل وقاسم أمين ومحمد رشيد رضا وعبد العزيز جاويش وأحمد لطفى السيد ، وغيرهم كثيرون ، ليؤكدوا أن (الفكرة) سلاح لا يقل فاعلية عن القنابل والبارود ، شرط أن ترتبط بنبض الجماهير وحركة المجتمع ، وأن (العقول) أرض واسعة لم يحتلها ، بعد هؤلاء الغزاة ، ومن ثم فلابد من تكتيل الجهود لنشر المعرفة بين المواطنين وتثقيفهم وتعليمهم وتربيتهم .

بل أن مصطفى كامل ، فى حديث له مع أحد المراسلين الأجانب ، أكد أن الانجليز - مثلا - إذا جلوا عن مصر طوعا أو كرها ، وظل المصريون على ما كانوا عليه من جهل ، فسوف يكون الباب مفتوحا لقوة غازية أخرى ، تجىء لتحل محل الانجليز ، فتسيطر على البلاد ، ومن ثم فإن جهده الرئيسى يتمحور حول (التعليم) لتوفير شرط (الوعى) الذى هو المقدمة الأساسية للتغيير ، ودعا إلى إنشاء (الجامعة)، التى تجسدت واقعا فعليا عام ١٩٠٨ . وكان حريصا على أن يقيم حفلا كبيرا كل عام يوزع فيه الجوائز على المتقدمين فى المدارس التى كان يرعاها ويخطب فى الناس منددا بالاستعمار حاثا اياهم على الاقبال بكل الطاقة على المدارس .

ولأن السلطة كانت فى يد القاهرين ، فقد حرصوا على أن تجىء خطوات نشر التعليم بأقل من سرعة السلحفاة ، وحرصوا على وضع العراقيل والسدود ، لكن قادة الأمة من أصحاب الفكر والرأى أمثال محمد عبده وقاسم أمين وسعد زغلول ، وغيرهم ، استطاعوا أن يكونوا جمعية أهلية تستهدف نشر العلم والمعرفة بين الجماهير ، فظهرت (الجمعية الخيرية الاسلامية) .. وتتالى ظهور جمعيات أخرى

مثلها حتى لقد تفوق الجهد الأهلى الرسمى فى نشر التعليم ليسجل بذلك الحدود بين جماهير تنشد التقدم والتغيير فتسعى جاهدة إلى التعلم ، وقوى مستغلة تنشد القهر والاستغلال فتحاصر التعليم فى أضيق حدود .

وشيء مثل هذا كان يحدث وحدث فى بلدان عربية أخرى كثيرة ...

وكان هذا إيذانا بأن وطننا العربي قد أصبح على عتبة المرحلة الثانية فى مسيرة التعليم ، وهى ان يحقق حلم الثورة الوطنية ... بالتعليم .

تحققت هذه المرحلة بالفعل فى العالم الغربى بدءا من عصر النهضة الأوربى ، وتوالى تدعيمها فيما تلا ذلك من قرون .. لكننا فى وطننا العربى ، وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، لم نكن قد دخلناها إلا من جانبين : الأول هو الجانب (الفكرى) ، أما الثانى ، فهو المرحلة السلبية من الثورة الوطنية ، ونعنى بها مرحلة (اجلاء) عساكر الاحتلال ، وإنهاء وجوده (الرسمى) .

... وبقيت المرحلة الأكثر خطرا .. المرحلة الايجابية من الثورة الوطنية .. مرحلة (الفعل) و اعطاء الاستقلال المضمون الحقيقي !!

ومن حسن الحظ ، أن يتنبه مفكرون ، فى وقت مبكر إلى هذه الحقيقة ، من هؤلاء - مثلا - طه حسين ، ففى كتابه الخطير (مستقبل الثقافة فى مصر) الذى صدر عام ١٩٣٨ ، نبه إلى أن توقيع مصر على معاهدة ١٩٣٦ مع انجلترا هو اعلان (رسمى) بالاستقلال مدعما بمعاهدة ثنائية بعد أن كان قد أعلن سنة ١٩٢٢ بتصريح منفرد من انجلترا ، ومن ثم - هكذا أكد طه حسين - فهذا الاستقلال ، إن هو إلا (خطوة) .. وهى هامة من غير شك ، لكن الأكثر أهمية ، هو المحافظة على هذا الاستقلال وتدعيمه ، ولن تتم هذه المحافظة ، ولن يتحقق هذا الدعم إلا إذا امتلكنا الأدوات والامكانات والمهارات التى هى وحدها السبيل إلى ذلك .. أدوات كسب العيش، وإمكانات التفكير الديمقراطى الحر .

وبالفعل ، فما أن تكاثرت أعلام الاستقلال مرفرفة على كثير من البلدان طوال الخمسينات والستينات ، حتى اندفعت دول كثيرة تقيم المشروعات التعليمية وتوجه الأموال إلى جهاز التعليم ، أملا بأن يعوض مافات من سنوات التخلف ، ورغبة فى أن يحقق حلم (اللحاق) بركب التقدم المتمثل نموذجه فى العالم الغربى .

وتمر سنون وأعوام ، ولكن أحوال الجماهير لا تتحسن بالدرجة المأمولة ...

وتمر سنون وأعوام، وأوضاع كثير من البلدان النامية تسوء بل وتزداد سوءا !

عجبا ! كيف هذا ، ولم تعد هناك جنود احتلال تعوق ؟!

كيف هذا ، ولم يعد هناك مندوب سام ينهى ويأمر ؟!





د . طه حسين　　　　أحمد لطفي السيد

وبمثل الحماس الكبير الذي أحيط بالتعليم منذ بداية القرن العشرين ، وازداد في الخمسينات والستينات ، بدأت نظرات الشك والاتهام تتجه إلى التعليم نفسه ... بدأ كثيرون يتصورون أنه هو (المتهم) . ودعم من هذا الاتجاه ، أن نقدا حادا بدأ يتصاعد في العالم الغربي نفسه ضد التعليم لأسباب أخرى غير تلك التي قامت في العالم الثالث .

في العالم الغربي ، تطلع الناس إلى مهام أخرى ووظائف جديدة فرضتها مرحلة التطور المتسارع للحضارة التكنولوجية ..

لقد حقق التعليم الكثير للعالم الغربي ، لكن تحقق هذا ، فتح آفاقا أخرى وحاجات جديدة جعلتهم يقولون : هل من مزيد ؟ منهومان لا يشبعان : طالب علم ، وطالب مال ... من هنا جاءت المرحلة الثالثة في مسيرة التعليم ، وهي الثورة على التعليم !!

ثورة على التعليم في العالم النامي ، وهما بأن التعليم قد أخفق في تطوير المجتمع وتطويره ، بحيث يستطيع توفير الحاجات الأساسية للمواطنين ..

وثورة على التعليم في العالم المتقدم ، طمعا في أن تتسع قدرات التعليم لتمكن المجتمع من توفير الحاجات الثانوية الجديدة للمواطن ..

... تعددت الأسباب ، والثورة واحدة !!

وبدأ المفكرون يصدرون كتبا ، بعضهم يعلن (وفاة المدرسة) : The School Is dead والبعض يطالب بمجتمع يخلو من المدارس Deschooling Society مما عرضناه بالتفصيل في عدد سابق من (الهلال) .. إلى غير ذلك من مظاهر

الثورة على التعليم . بل أن زعيمة العالم الرأسمالي ، الولايات المتحدة الأمريكية ، كانت قد شكلت في مطلع الثمانينات لجنة من خبراء التعليم خرجت بذلك التقرير الشهير الذي أعلن أن الأمة الأمريكية في خطر لماذا ؟ لأن تعليمها قد فشل في بناء الإنسان الأمريكي المنشود !!

يقولون هذا في بلد يشكل أكبر وأعتى قوة في عصرنا الحاضر ، فماذا نقول نحن عن تعليمنا ، ونحن مازلنا (نيلا) في عصرنا الحاضر ؟!

ومنذ بدأت أصابع الاتهام تتجه إلى التعليم معلنة الثورة عليه ، أسرع خبراؤه وعلماؤه وفلاسفته لفحصه من الداخل وإعادة النظر فيه ، ونفض ما قد يكون قد تراكم عليه من غبار التخلف .

ونشط كثيرون في هذا السبيل ، حتى استطاعوا ، بالفعل أن يستحدثوا العديد من الصيغ التعليمية الجديدة ، مثل (التعليم من بعد) ، والعديد من الطرق والأساليب التعليمية التي تختصر الجهد وتوفر الاتفاق وتحقق الغايات بصورة أكثر دقة وأشمل اتساعا ، تمثلت في كم عجيب من التكنولوجيا التعليمية .

وهكذا شهدنا مرحلة رابعة في مسيرة التعليم ، وهي مرحلة : الثورة في التعليم .

ولكن ، هل تستطيع هذه الثورة الحادثة (في) التعليم أن تخفف الثورة (عليه) وتعيد سيرته الأولى بحيث يمكن أن يعين المجتمع في حركة التغيير والتطوير ؟

لقد بدأ تيار جديد في المسار التربوي ، يؤكد على تلك الحقيقة التي خفيت على كثيرين : فليس بالتعليم وحده يتطور المجتمع ويتغير !!

التعليم منظومة فرعية في نظام أكبر هو المجتمع بكل مكوناته .. ولا يكفي الاعتماد على هذه المنظومة الفرعية وحدها ، بل لابد من أن تعم حركة التغيير الجذري الشامل ، المجتمع بأسره ، فعندئذ ، يستطيع التعليم بالفعل أن يسرع ويهيىء ويسهل ومن ثم نصل إلى المرحلة الخامسة ، وهي ثورة مع التعليم . وبالتالي ، فالجهد في التغيير والتطوير غير مناط برجال التعليم وحدهم ، وإنما هي مهمة مجتمعية ، تفكر لها كل العقول ، وتدفعها كل الأيدي ..

ورحم الله ابن خلدون ، عندما أكد ، منذ قرون غير قليلة ، إلى أن ازدهار العلم مرتبط أوثق الارتباط بمدى وفرة (العمران) ... وما العمران عند مفكرنا العظيم إلا هذا التقدم الحادث في كل خلية من خلايا الجسم الاجتماعي الكبير !!

اليابانيون .. والآخرون :

من الذى يخاف « أبناء الشمس المشرقة » ؟!

بقلم : محمود أحمد

زرت اليابان على مدى الثلاثين عاما الأخيرة ، ثلاث مرات .. بواقع زيارة كل عشر سنوات تقريبا ، ومنذ صباى ، كانت اليابان تفتننى ، وكان يستهوينى دائما أن أقرأ عنها حتى قبل أن أقوم بأول زيارة لها فى عام ١٩٦٢ - بل أن المصادفة جمعتنى قبل ذلك ببعض اليابانيين الذين لا يزال بعضهم فى منزلة الأصدقاء حتى اليوم ، وكم آلمنى ، فى زيارتى الأخيرة لطوكيو قبل بضع سنوات ، أن ألتقى بأحدهم .. وهو مترجم مخضرم محب للعرب ودنياهم اسمه « ماساو آبى » .. فأجده قد أضحى عجوزا هدّه المرض وأقعده ، وإن لم يقهر شفافية روحه وأدبه الوافر ورغبته المخلصة فى تقديم العون !

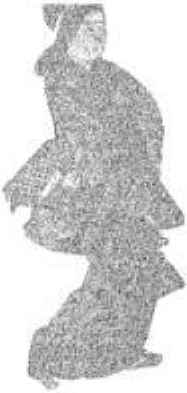
وحتى اليوم ، أجدنى باستمرار منجذبا إلى هذه البلاد الأسطورية ، متطلعا للذهاب مرة أخرى إلى هناك ، لاستطلاع ما يكون قد جد .. هو كثير ، والتعرف على ملامح التغيير وهى عديدة بلا حصر .

وعلى مدى السنوات الأربع الأخيرة ، أتاحت لى فرصة عملى كمراسل صحفى فى « واشنطن » ، أن أتعرف على وجه آخر من وجوه اليابان .. فأراها كقوة عالمية بازغة تنافس القوة العالمية العظمى وتناطحها .. وتكاد تشتبك معها فى صراع يرى الكثيرون من المحللين الأمريكيين أنه يختمر الآن ويوشك أن يسفر عن صدام محتوم !

ولا أحسب إلا أن اليابان تسحر المصريين خصوصا وتبهرهم بصورة أو بأخرى ، ليس فقط لأنها «بلاد الشمس المشرقة» ، كما اشتهر اسمها بينهم ، ولأنها أرض الأساطير البعيدة التي تقع عند الطرف الأقصى للعالم ناحية الشرق ... وليس لأن ذكرها يستحضر في ذهن أي مصري تداعيات لصور تمتزج فيها الرقة والنعومة والتفوق والغموض ، فضلا عن التاريخ العريق والثقافة المتميزة ذات المذاق الخاص ، وإنما لأن اليابان فوق كل ذلك تمثل بالنسبة للمصريين - فيما أتصور - ما يشبه التحدي الصارخ ، فالواقع الياباني ، يكاد يكون نقيضا للواقع المصري في كل شئ : فاليابانيون الذين يربو عددهم على ١٢٠ مليوناً من البشر يعيشون على جزر محدودة المساحة قليلة الموارد ، يجسدون النجاح الفذ والتصميم والقدرة على تحقيق الازدهار .. كما أنهم استطاعوا الارتقاء فوق آلام أصعب هزيمة يمكن أن يتعرض لها شعب يشمئز بهذا الكبرياء الزائد (هل هناك ما هو أقسى من أن يكون هو الشعب الوحيد في العالم الذي عانى ويلات القنبلة الذرية ؟) .

فعلى الرغم من كل ذلك ، نهضت اليابان من كبوة الهزيمة ، ومضت قدما نحو صياغة مستقبلها وسط القوى العالمية العاتية .. وعلى الرغم منها في أحيان كثيرة ، ولم يسمع عن اليابانيين أنهم اشتكوا من كثرتهم العددية ، أو أنهم تركوا





بلادهم المجدبة بحثا عن الرزق فى الجوار أو عبر البحار ، فالحقيقة أن الهجرة ليست ظاهرة فى اليابان ، وإنما ظلت على مدى السنين محصورة فى نطاق ضيق .. وفى اتجاه واحد تقريبا ، عبر المحيط الهادى ، حيث استقرت مجموعات صغيرة على السواحل الغربية للولايات المتحدة وأمريكا الجنوبية .

وقد أصبح معروفا الآن أن الأموال التى استدانتها اليابان بعد الحرب من أجل إعادة البناء - وفى إطار الخطة التى وضعت لها وفرضت عليها - لم تتحول إلى « عبء » يجبرها على الركوع وإنما استطاعت بالعمل وكفاءة الأداء أن «تعزل» القروض الكثيرة القادمة من بلدان الغرب ولا تدخلها فى صلب الاقتصاد اليابانى .

وبعد سنوات ، استطاع اليابانيون سداد هذه القروض ، ثم الانتقال إلى مرحلة أخرى بدأو فيها «غزو» الآخرين .. ليس ببضائعهم ومنتجاتهم فقط ، وإنما برءوس أموالهم أيضا ، وفى الوقت نفسه ، فإنه على الرغم من جرثومة « التأمرك » - أو لعلنا نستعير هنا تعبير «التغريب» - قد فعلت فعلها وتركت آثارها بوضوح على وجه الحياة فى اليابان ، فإن الانسان اليابانى استطاع الحفاظ على قدر كبير من قيمه وتقاليده الموروثة ، الأمر الذى ساعده ليس فقط على الإبقاء على جذوة « الروح » اليابانية حية ومتوهجة ، وإنما أيضا على المحافظة على التوازن النفسى والثقة بالذات .

وهكذا ، وعلى الرغم مما تنطوى عليه صورة اليابان من تحديات مؤلمة - لبلد ترجمه المعاناة من الفوضى والافتقار إلى العزم على حشد الطاقات للانطلاق إلى هدف محدد - فإنه يمكن القول إن المصريين يحتفظون بفكرة «إيجابية» عموما عن اليابان وشعبها ، بل ويكنون لليابانيين شعورا من الاعجاب .. الذى قد لا يخلو من الحسد !

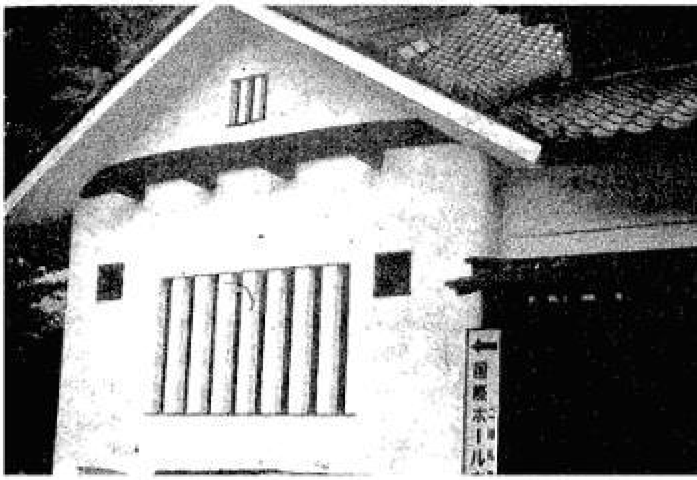
.. ورؤية الآخرين ؟!

على أننا يجب ألا نغفل هنا حقيقة هامة وهى أن المصريين لم يقدر لهم «مواجهة» اليابانيين أو الاحتكاك بهم ، لأن طرق الشعبين لم يقدر لها أن تتقاطع فى أية مرحلة من مراحل التاريخ القديم أو المعاصر ، أما هؤلاء الذين تقاطعت طرقهم مع اليابانيين واحتكوا بهم ، وتصادموا

معهم أيضا ، فمن الطبيعي أن تكون لهم رؤية مختلفة عن رؤية المصريين أو غيرهم من الشعوب التي تبهرها «الظاهرة اليابانية» من بعيد ، ومن المؤكد أننا سنعثر على هذا « الاختلاف في الرؤية » لدى الكثيرين سواء في الغرب الأوروبي والأمريكي أو بين شعوب الشرق الآسيوي التي كانت لها تجارب كثيرة مع اليابانيين وهي تجارب تغطي مساحة واسعة من التاريخ القديم والمعاصر .

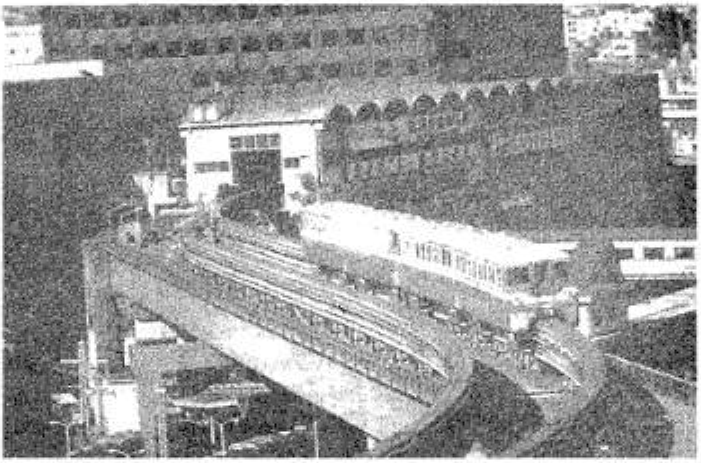
وبالطبع فإن نظرة الغربيين والآسيويين إلى اليابان لا تخلو من التقدير الذي تستحقه ، فلا أحد يملك إلا أن يرمق بإعجاب هذه الانجازات الباهرة على كل صعيد التي استطاع أن يحققها أبناء «بلاد الشمس المشرقة» ولكن ذاكرة الغرب - بما في ذلك روسيا أيضا - لا تزال تحتفظ بصور تجارب مريرة من الصراعات والحروب التي خلفت جراحا عميقة لم تندمل حتى اليوم ، فلا الروس يمكن أن ينسوا الحرب الروسية اليابانية .. ولا الغرب يمكنه أن ينسى تحالف اليابانيين مع محور «هتلر - موسوليني» إبان الحرب العالمية الثانية .. على الرغم من التحاق اليابان بعد ذلك .. راغبة أو مضطرة بالمعسكر الغربي الرأسمالي الذي أصبحت أحد أعمدته منذ ما بعد انتهاء الحرب العالمية وطوال حقبة الحرب الباردة ، ومع ذلك ، تظل أكثر الذكريات مرارة هي تلك التي لا تزال مترسبة في ذاكرة الشعوب الشرقية الآسيوية عن الاحتلال الياباني الفظ والقاسي الذي أخضع كل جنوب شرقي آسيا - من كوريا وحتى الملايو - وحكمها بالحديد والنار حتى انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وبالنسبة لهذه الشعوب ، فإن ما جرى خلال الحرب العالمية لم يكن - في التجربة الأقرب ، وربما الأكثر بشاعة ، لنموذج ظل يتكرر على مدى التاريخ ، فكلما كانت اليابان تستشعر القوة والحاجة إلى الموارد الخارجية .. كانت تخرج من قوقعة عزلتها لكي تدفع جنودها ليجتازوا «بحر اليابان» إلى شواطئ شبه الجزيرة الكورية ، ثم عبرها إلى منشوريا والصين، فلا تلبث الملايين من سكان هذه البلاد أن تفر أمامهم مذعورة ولهذا ، فإنه ليس غريبا أن تظل صور بطش العسكرية اليابانية وقسوتها تخيم على أية جهود معاصرة لإقامة علاقات جديدة بين اليابان والبلدان الآسيوية الأخرى .. خاصة بعد أن نفضت اليابان عنها آثار الهزيمة الكبرى ، فإذا هي تبرز كقوة اقتصادية هائلة تنافس دول العالم العظمى التي أصبحت تلح على الحكومات اليابانية في « التنفيس » من احتقانها الاقتصادي عن طريق القيام بدور «عسكري » أو « أمني » في النظام العالمي الجديد !

ولهذا فإنه ليس غريبا أن نجد أن عقدة الخوف والشك ، التي تولدت لدى الشعوب الشرقية الآسيوية تجاه اليابان ، لا تزال تتحكم في رؤية البلدان الآسيوية لأي دور



نموذج من اليابان الحديثة تحاول دول كثيرة الاحتذاء بها

محتمل على الساحة الدولية يمكن أن تقوم به اليابان التى أخذت تفرض نفسها تدريجيا كقوة عالمية فتية . وفى شهر سبتمبر الماضى ، عندما ألغى الرئيس الروسى « بوريس يلتسين » زيارة كان مقررا أن يقوم بها إلى اليابان ، مضحيا بفرصة الحصول على مساعدات يابانية كان يمكن أن تصل إلى عشرات المليارات من الدولارات ، قوبل هذا بارتياح لدى بلدان شرقى آسيا لم يحاول أى منها أن يخفيه . وإذا كان السبب الرئيسى لإلغاء الزيارة ، كما أعلنه الرئيس الروسى ، هو تشدد اليابان فى مطالبتها بجلاء القوات الروسية من الجزر اليابانية التى احتلتها فى أرخبيل «كوريل» فى نهاية الحرب العالمية الثانية .. فإن خبيرا أمريكيا هو «مارك براون» الباحث فى مركز الدراسات الروسية التابع لجامعة «هارفارد» ، يرى أن هناك أسبابا أخرى فى مقدمتها أن احتمالات التوصل إلى تسوية روسية يابانية حول الجزر – مع ما ينتظر أن يتبع ذلك من دفع العلاقات بين موسكو وطوكيو – قد زاد من حدة المخاوف لدى بلدان شرقى آسيا المجاورة « التى لا تزال ذكريات قسوة الاحتلال اليابانى حية جدا فى ذاكرتها » ، وتريد البلدان الاسيوية – وفقا لما يقوله براون – أن تبذل الدول الكبرى جهودا أكثر جدية للتأكد أولاً من



لا أحد يملك إلا أن ينظر بإعجاب الى هذه الانجازات

مدى قوة العسكرية اليابانية وقدرتها على التوسع ، وتدليلا على ذلك ، أشار الخبير الأمريكي إلى «الكتاب الأبيض» الذي صدر مؤخرا عن كوريا الجنوبية والذى حذر من أن اليابان ستعود إلى «طبيعتها العسكرية» عند ظهور أول بادرة لوجود فراغ أمنى فى شرقى القارة الآسيوية ، وقد ترددت النغمة ذاتها في سنغافورة ، ماليزيا ، والصين .. حيث اعترف المسئولون فى هذه البلاد ، وغيرها ، بأن روح «الكراهية الشعبية» تجاه اليابان لا تزال قوية وظاهرة .

وهذه الشعوب تسمع وتتابع ما يتردد عن الزيادة المستمرة فى الإنفاق العسكرى الياباني ، فى الوقت الذي تعمد فيه بلدان الغرب - فى معظمها - إلى إجراء تخفيضات فى نفقاتها الحربية بعد زوال «الخطر السوفييتى» .. وبينما يبدو انسحاب الوجود العسكرى الأمريكى من شرقى آسيا أمراً محتوما ، وهناك خوف حقيقى يتفاعل - ولو بشكل مكتوم - فى صدور أبناء هذه البلدان الآسيوية الكثيفة السكان ، من الازدياد المضطرد للقوة العسكرية اليابانية التى تتهم بأنها ذات صبغة عنصرية ، والتى أصبحت أيضا تمتلك تكنولوجيا متفوقة ، بكل ما يعنيه ذلك وما ينطوى عليه من احتمالات لا تزال فى أعماق الغيب !

وعندما احتدمت المناقشات حول مساهمة اليابان بـ«دور صغير» في عمليات حفظ السلام التى تتولاها الأمم المتحدة وأثيرت ضجة داخل اليابان نفسها من جانب الجناح الرافض لبعث العسكرية اليابانية ، فإن البلدان الآسيوية كانت تتابع هذه المناقشات بقلق وترقب .. وكان المسئولون فيها ينتهزون كل فرصة للتأكيد على أنه من الأفضل ألا يعهد لليابان بهذا الدور ولكن الحكومة الأمريكية كانت ترى غير ذلك ، واستمرت فى الضغط إلى أن أقر البرلمان اليابانى (الدايت) فى النهاية قانون المشاركة فى قوات حفظ السلام وإرسال أول قوة منها إلى كمبوديا ، وقد كان للقرار أصداء فى بلدان شرقى آسيا تختلف عنها فى بقية أنحاء العالم ، وعلى الرغم من أن القوة اليابانية التى أرسلت بالفعل كانت صغيرة العدد جدا (٣٤ جنديا مزودين بكميات ضخمة من أحدث المعدات) فإن الصورة التى نشرتها الصحف ، يوم ١٨ سبتمبر الماضى ، للجنود اليابانيين وهم يغادرون قاعدة «كيورى» البحرية اليابانية فى طريقهم إلى كمبوديا كان لها وقع عميق لدى أبناء البلدان الآسيوية . مع أن الجنود اليابانيين كانوا يضعون على رءوسهم «البيريهات الزرقاء» التي تميز قوات الأمم المتحدة ، ورغم أن القانون اليابانى نفسه يمنعهم من « المشاركة فى أية مهمات تتضمن خوض قتال وأن يستخدموا أسلحتهم الفردية التى زودوا بها فى الدفاع عن النفس فقط » .

من هم «العنصريون» ؟؟

ولكن اليابانيين يدافعون عن أنفسهم بالقول إن هذه الصورة التى ترسم لهم فى العالم الخارجى - وخاصة فى البلدان الآسيوية - مبالغ فيها كثيرا .. بل إنها مغايرة للواقع والحقيقة ، ويؤكد اليابانيون - مفكرين ومسئولين وسياسيين - أن تجربة الحرب العالمية الثانية قد أحدثت تحولا فعليا فى العقلية والنفسية اليابانية ، وإذا كان هؤلاء جميعا يتجاهلون الإجابة على الأسئلة المثارة فى جميع البلدان الآسيوية من أسباب رفض اليابان الاعتذار علنا عن جرائم العسكرية اليابانية أثناء الحرب العالمية الثانية .. إلا أنهم يؤكدون فى الوقت نفسه أن تصاعد حدة المشاعر الوطنية اليابانية فى السنوات الأخيرة ، وتنامى التيار المتعصب الذى يجنح إلى التطرف وكثيرا مايعبر عن نفسه بكبرياء تصل أحيانا إلى حد «الصلف» ، لا يعنى أنه سيؤدى إلى « انبعاث جديد » للعسكرية اليابانية على المدى القريب أو المتوسط .

ويشكو اليابانيون من أنهم يعانون من الكثير من عدم الفهم من جانب الآخرين ، فى آسيا والغرب على السواء ، وأن ذلك هو السبب فى إساءة تفسير الكثير من السياسات أو التصرفات التى تصدر عن اليابان ، كما أنهم ينفون عن أنفسهم تهمة العنصرية ، ويردون على ذلك بأنهم هم الذين يعانون من التمييز والعنصرية التى يمارسها الآخرون تجاهم والتى تتجلى

بصورة خاصة فى نظرة الإنسان الغربى – والأمريكى خاصة – وإسلوب تعامله مع أبناء اليابان .

ولا شك فى أن باستطاعة اليابانيين العثور على أمثلة ونماذج عديدة ، فى هذا المجال ، لعل آخرها ما صدر عن وزير الخزانة الأمريكى « نيكولاس برادى » أثناء مؤتمر صحفى عقده مؤخرا – عندما استخدم كلمة « جابس Japs » فى الإشارة إلى اليابانيين .. وهى اختصار للفظة الإنجليزية الدالة على الشعب اليابانى وكانت تطلق على الجنود اليابانيين إبان الحرب ، احتقارا وازدراء ، وشاع استخدامها على ألسنة الأمريكيين بعد ذلك فى الإشارة إلى اليابانيين .. ترفعا وتعاليا ! وعلى الرغم من أن الوزير الأمريكى سارع إلى الاعتذار علنا عن الملاحظة التى بدرت منه ، إلا أن ذلك لم يخفف من غضب اليابانيين ولا الأمريكيين المنحدرين من أصل يابانى ، ونشر النائب الأمريكى اليابانى الأصل « نورمان مينيتا » مقالا ناريا فى الصحف هاجم فيه برادى بشدة ، وتساءل عن السبب الذى لم يجعل الملاحظة العنصرية التى بدرت عن وزير الخزانة تثير ولو قدرا ضئيلا من الضجة التى أثارها الأمريكيون – بحق – قبل عامين .. عندما صدرت ملاحظة عنصرية مماثلة عن وزير العدل اليابانى « سيروكو كاجيياما » الذى وصف الأمريكيين السود بأنهم ، مثلهم فى ذلك مثل العاهرات ، يعملون على إتلاف الأحياء التى يسكنونها !

وبطبيعة الحال ، فإن لنا أن نتصور ما تضيفه الحقائق المعاصرة من تشابك وتعقيد إلى هذه الخلفية الحافلة بالعقد والشكوك ، فالعلاقات بين اليابانيين و« الآخرين » هذه الأيام ، لا يمكن وصفها بأنها علاقات عادية أو طبيعية ، على ضوء الحرب الاقتصادية والمنافسة التجارية العنيفة القائمة بينهم على قدم وساق .. وهى منافسة كثيرا ما تتخذ مظهر حرب فعلية ، كاملة العناصر والمقومات ، وإن لم تستخدم فيها المدافع والنيران ، ويكفى أن نعيد إلى الذاكرة هنا ، صورة الرئيس الأمريكى جورج بوش وهو عائد من طوكيو – فى مطلع العام الحالى – بعد أن حقق فشلا كاملا تقريبا فى إقناع اليابانيين بفتح أسواقهم بغير قيود أمام البضائع الأمريكية فى محاولة لسد العجز الرهيب فى الميزان التجارى بين البلدين والذى يميل بقوة لصالح اليابان ، كذلك ربما نتذكر هنا أيضا ، أن اليابان – التى مرت كغيرها من الدول الرأسمالية بأزمة كساد اقتصادى – كانت هى الوحيدة التى استطاعت وضع برنامج باهظ الأعباء (يتكلف نحو ٨٥ مليار دولار) لمواجهة حالة الكساد وآثاره .. وكان ذلك فى الصيف الماضى قبل وقت قصير من اندلاع الأزمة النقدية الخطيرة التى عصفت بالعملات الأوروبية فى أوائل شهر سبتمبر .



الفهم .. المفتقد !

عند هذا الحد ، يمكننا أن نرصد توقعات متباينة لما يمكن أن يفضى إليه هذا الواقع المعقد الذى يحكم علاقات اليابانيين .. والآخرين ! ففى حين يتوقع البعض صداما محتوما بين القوة اليابانية البازغة والقوى الأخرى المنافسة لها على الساحة الدولية - رغم عدم «توحد» هذه القوى فى الوقت الراهن ومع ماهى عليه من اختلاف - وبينما يذهب من بين أصحاب هذا الرأى إلى حد توقع أن يتخذ هذا الصراع «اليابانى - الغربى» طابعا مسلحا على المدى البعيد .. نجد أن البعض الآخر يميل إلى استبعاد استمرار الصراع على أساس الإدراك الواضح لدى الجميع بأن هذا ليس فى مصلحة أحد ، ولأن هناك أيضا تحولات فعلية فى العلاقات الدولية من شأنها أن تتكشف أكثر فأكثر عن آفاق من التعاون الذى تحتاج إليه كل الشعوب بغير استثناء ، ويرى أصحاب هذا الرأى الأخير ، أن «النظام العالمى الجديد» ليس مجرد بدعة أمريكية ابتكرها الرئيس جورج بوش لسبب أو لآخر، وإنما هو «حتمية» لابد أن تخرج إلى الوجود نتيجة للزلازل العنيفة التى هزت العالم فى السنوات الأخيرة .. وهو نظام - كما يقول هؤلاء - لابد أن يفرض قوانينه قبل مرور وقت طويل .

ولكن الجميع ، على تفاوت تقديراتهم ، يعترفون بأهمية وضرورة السعى إلى تحقيق تفاهم أفضل حتى يمكن تجنب صدامات كبرى فى المستقبل بين القوى الفاعلة فى العالم .. وهو تفاهم يسلم الجميع بأنه مطلوب أولا وبإلحاح بين اليابانيين .. والآخرين وبطبيعة الحال ، فإنه لابد وأن تؤخذ فى الاعتبار ، فى هذا السياق ، الحقائق المعاصرة .. ولكن دون إغفال الخلفيات التاريخية والثقافية والاختلافات التى تميز اليابانيين عن غيرهم من الشعوب ولعله مما يثير الحيرة حقا ، إنه لم تبذل جهود كافية ، سواء من ناحية اليابان أو من جانب الغرب ، لتحقيق التفاهم والتقارب المنشود رغم فيض البحوث التى أجريت واللقاءات والحلقات الدراسية التى شهدتها قاعات المعاهد والجامعات .. هنا وهناك .

ومع ذلك ، فإن هناك محاولات مستمرة، وعلى مستويات كثيرة ومتعددة ، وإن كانت لا تزال قاصرة عن بلوغ الهدف ربما لأنها لم تعثر بعد على البداية الصحيحة لتجاوز الاختلافات والتمايز العميق الجذور ..



وصولا إلي تحقيق الفهم المتبادل ، ولعلنا نتوقف هنا أمام نموذج صغير ، ولكنه على بساطته وطرافته يدل على مدى الشعور السائد بضرورة صنع هذا التفاهم أو الفهم المتبادل والحيرة أمام كيفية تحقيقه في الوقت نفسه !

يروى «ت . ر . ريد » ، مراسل صحيفة «الواشنطن بوست» الأمريكية في طوكيو ، أن معضلة «الفهم المفتقد» بين اليابانيين والآخرين ظلت تشغله طويلا .. إلى أن خطر له ذات يوم أن باستطاعته أن يسهم – ولو عن طريق الأدوات البسيطة المتوفرة بين يديه – في تبديد بعض سوء الفهم القائم بين بلده ، أي الولايات المتحدة ، وبين اليابان ، فقد وجد أن وسائل الإعلام الأمريكية بغير استثناء ، تتناول الشئون اليابانية دون أن تأخذ في الاعتبار أو تعير أدنى إلتفات إلى «طريقة التفكير اليابانية» وكمثال على ذلك، يقول «ريد» إن اليابانية، كمعظم المجتمعات الأسيوية ، يقدمون اسم العائلة أو اسم الجد الأكبر أولا ، يليه اسم الأب ، ثم أخيرا الأسم الأول ورئيس وزراء اليابان مثلا ينطقون أسمه على أنه «ميازاوا كيتشي» .. لأن ميازاوا هو اسم العائلة الذي يجب أن يسبق اسمه الشخصي وهو كيتشي ، وكذلك يعرف شقيق رئيس الوزراء الياباني بإسم «ميازاوا يوكو» .. وهكذا ، ولكن جميع وسائل الإعلام الغربية والأمريكية تكتب اسم رئيس الوزراء الياباني وتنطقه على أنه «كيتشي ميازاوا» ، وهو نطق خاطئ ولكنهم يصرون عليه .. رغم أنهم لا يطبقون هذه القاعدة الغربية على اسماء الأعلام من البلدان الآسيوية الأخرى ، مثل الزعيم الصيني « دينج هسياو بنج » الذي يقدم اسم عائلته «دينج» قبل بقية الاسم .. وكذلك « روه – تاي وو » رئيس كوريا الجنوبية ، و « كيم إيل سونج » الرئيس الكورى الشمالي ، وغيرهم .

ويمكن أن نتوقف هنا ، مع المحاولة التي يرويها لنا «ريد » لنعود إلى الوراء قليلا في التاريخ ، ففي سنة ١٨٥٣ ، عندما دخلت أول سفينة أمريكية إلى خليج طوكيو (وكانت أول سفينة تسير بالبخار يراها اليابانيون) .

وكان ذلك إيذانا بفتح أبواب اليابان – التي كان لا يزال يحكمها نظام الإقطاع – على العالم الخارجي ، كان هذا التاريخ نفسه بداية لإقبال ياباني على الغرب .. وهو إقبال ما فتئ يتصاعد منذ ذلك الحين، وهكذا فإن الشعار الأهم الذي رفعته حركة التحديث اليابانية خلال عصر النهضة (عصر ميجي MeIJIERA : ١٨٦٨ – ١٩١٢) كان هو شعار دع آسيا .. واتجه نحو الغرب Drop Asia, Movewest .

ونعود إلى حكاية الأسماء فحتي ذلك الوقت – أي بداية عصر النهضة – لم يكن اليابانيون يهتمون بأن يكون لهم «اسم عائلة» وكان الناس العاديون يكتفون بإسم واحد هو الإسم الشخصي ، أو الأسم

«الأول» الذى يمنحه الأبوان للطفل عند ولادته . أما اسم العائلة فكان امتيازا يقتصر على «الساموراى» الأثرياء وكبار ملاك الأراضى الإقطاعيين . وفى سنة ١٨٧٠ ، وفى إطار إصلاحات «مييجى» ، سمح لكل عائلة بأن يكون لها اسم يميزها ، وعلى طريقة اليهود الأوروبيين الذين استمدوا أسماءهم من الطبيعة حولهم (مثل اسم روزنبرج .. أى تل الزهور) بدأت العائلات اليابانية تختار أسماءها من الطبيعة المحيطة وتجعلها فى المقدمة بحيث يأتى بعدها اسم الشخص المنتمى لهذه العائلة أو تلك ، وفى المناطق الريفية ، بدأت عائلات كثيرة تضيف إلى اسمها لفظ «تا» أو «دا» وهو ما يعنى «حقل الأرز» ، وتكونت بهذه الطريقة أسماء عائلات أصبحت معروفة ، مثل «تاناكا» ومعناها «فى الحقل» أو «تويوتا» .. ومعناها «الحقل المهجور» ، أو «هوندا» .. ومعناها «الحقل الرئيسى» وهكذا ..

على أى حال ، يقول « ت . ر . ريد » إنه كان على وشك أن يطلب إلى صحيفته أن تتخذ من جانبها تلك الخطوة الأولى كما تصورها باتجاه مد جسور التفاهم المقطوعة تقريبا بين اليابان والولايات المتحدة ، وذلك بأن تبدأ بكتابة أسماء الأعلام كما هى فى أصلها وكما يكتبها وينطقها اليابانيون .. خاصة بعد أن سمع احتجاجات عديدة أوجزها عمدة مدينة صغيرة فى شمال اليابان اسمه «هيروچى توميتا» ، والذى قال للصحفى الأمريكى دون مواربة : « كيف يمكن للغربيين فهمنا .. إذا كانوا لا يفهمون حتى كيف نكتب أسماءنا ؟ » ولكن «ريد» وجد قبل أن يشرع فى تنفيذ فكرته – ولدهشته الشديدة – مقاومة من جانب كثيرين آخرين من اليابانيين لهذه الفكرة ، ففى الوقت الذى أيد فيه اليابانيون العاديون ، من أمثال العمدة «توميتا» أن تبدأ وسائل الإعلام الغربية على الفور ما يدل على إنها مستعدة لتصحيح فهمها اليابان وشعبها .. فإن مقاومة الفكرة جاءت من جانب الشرائح العليا من اليابانيين الذين يبدو ظهور أسمائهم فى صحف الغرب أكثر احتمالا ، وكانت النتيجة أن تراجع «ريد» عن تنفيذ فكرته ، بعد أن انتابته الشكوك فى أنها قد تتسبب فى إحداث إرتباك وفوضى .. بل وربما أدت إلى مزيد من سوء الفهم !

وأخيرا ، فإن هذا ليس إلا مثالا صغيرا واحدا ، ولكن دلالته تتسع لتنطبق على مجالات أخرى تتعدد بتعدد أنواع النشاط الذى يجمع بين اليابانيين والآخرين ، فمن الذى يمكن أن يبدأ باتخاذ خطوة أولى فعالة نحو تحقيق التفاهم وإزالة سوء الفهم الذى يتسبب فى كثير من حالات الالتباس وبهدف المساعدة – على الأقل – فى تجنب ما يخشاه الكثيرون من «صدام» محتمل ؟!

قراءات الشباب

«تعقيب على مقال»

بقلم : د. محمد رجب البيومى

أسر بمقالات الأستاذ الدكتور شكرى عياد سروراً لاحد له ، إذ أجدها تفصح عن معانٍ أحس أكثرها فى نفسى ، ولكن لا أستطيع أن أجلوها بمثل منطقه الجذاب ، فأحمد الله أن وجدت من كبار الأدباء من يسعدنى بالتنفيس عن أوار حبيس يتوهج فى صدرى ، ولو ترك فى اشتعاله لأتى عليه ، وقد قرأت ماكتبه تحت عنوان (قراءات الشباب) أكثر من مرة ، ولاحظت أن كلمة الشباب لاتقتصر على عهد المراهقة الخاص بطلاب المدارس الثانوية ، بل تمتد فتشمل طلاب الجامعة أيضا ، أفيكون قد اكتفى بالحديث عن طلاب المدارس الثانوية ، كى يتسع له القول عن غيرهم فى مناسبة أخرى ، وهو بعد أجدر من يتحدث عن طلاب الجامعة التى صار علما من أعلامها ، أفيأذن لى أن أضيف الى حديثه مااستمده منه ، تعقيبا وتفصيلا ، لا لأقدم الجديد مما لايعلم ، بل لأذكر به من القراء من لايكون على صلة بما كانت عليه المدارس الثانوية من قبل ، حين كانت المدرسة مدرسة ، والطالب طالبا ، والأستاذ أستاذاً ، أما الآن فلا يبتعد الأمر عن قول القائل :

أما الخيام فإنها كخيامهم
وأرى ظباء الحى غير ظبائها



عبد العزيز البشرى



على الجارم



زكى مبارك

وطبيعى أننا لن نتحدث عن قراءة الشباب من غير الطلاب ، فهؤلاء قد ألهتهم الإذاعة المرئية ، ومنافسات الكرة ، والمسلسلات التمثيلية عن عالم القراءة ، ومن يطالع الصحف اليومية، والمجلات الأسبوعية لايقرأ بها غير مايتعلق بمن أخبار الرياضة والفن وزواج المطربات والممثلات ، هذا الى التفكير فى الثراء العاجل ، والارتحال الى دول الأرض شرقا وغربا ، ومعه الحق كل الحق فى أن يرتحل وراء أمل متوقع ، فذلك خير من البقاء فى شقاء محتوم .

أما طالب المدرسة الثانوية ، فما أوجع الموازنة بينه وبين طالب الأمس ، حين كانت تسمى وزارة المدارس وزارة المعارف ، لقد غضبنا على كلمة المعارف، لأنها تعطى مضمون التلقين والاستظهار ، وعشقنا كلمة التربية لأنها تعطى معنى السلوك والنهوض ، وبعد انقضاء أربعين عاماً وجدنا أننا خسرنا المعرفة ولم نكسب التربية ، مع أن المعرفة الحقيقية باب من أبواب التربية ، والتربية لاتنهض إلا على قدمين ، أحدهما المعرفة والتثقيف ، وهذا هو الملحوظ فى كلمتى (التربية والتعليم)

لقد ذكر الدكتور شكرى عياد بعض الكتب المفيدة لطالب الأمس ، منها المنتخب بجزءيه ، وأنا أذكره الآن بحشد مماثل من أشباه المنتخب ، كانت وزارة المعارف تقدمه للطالب عاماً بعد عام ، ومعنى أن يكون كتاب قيم ممتاز بين يدى طالب

المدرسة الثانوية ، أن ينتشر الكتاب حتى يكاد يكون فى كل منزل ، وأن يقرأه الوالد المطلع والأخ الناهض وأن يصبح مشاعاً بين أفراد الأمة ! إننى لم أكن من طلاب المدارس الثانوية ، حيث تلقيت تعليمى بالمعاهد الدينية ، ولكنى كنت أشترى كتب الوزارة بأرخص ثمن إذ أجدها بالأكشاك التى انتقلت الآن إلى رحمة الله ، وعلى الأسوار العامة الشبيهة بسور الأزبكية ، أجدها بثمن لايتجاوز القرش أو القرشين ، إذ باعها بعض الطلاب بعد أن فرغ منها ، ومن هذه الكتب البخلاء للجاحظ مشروحاً فى جزءين للأستاذ الجارم والأستاذ العوامرى ، وكتاب نقد النثر المنسوب لقدامة بتحقيق العبادى ، وتقديم طه حسين ، وكتاب حضارة الإسلام فى دار السلام ، لجميل نخلة المدور ، وكتاب المكافأة وحسن العقبى ، بتحقيق أحمد أمين والجارم ، وكتاب مهذب رحلة ابن بطوطه فى جزءين ، بتحقيق العوامرى ومحمد جاد المولى ، وكتاب التوجيه الأدبى لطه حسين وفريق من زملائه ، وكتاب المفصل فى الأدب العربى بجزئية للأساتذة أحمد الاسكندرى وأحمد أمين وعلى الجارم وعبدالعزيز البشرى ، وأحمد ضيف ، وهم الذين ألفوا كتاب المنتخب بجزءيه ، وقد ذكرت أسماءهم تصحيحاً لما ذكره الدكتور شكرى عياد ، حيث ذكر حفنى ناصف وهو من جيل سابق ، وكان له كتاب يسمى (قواعد اللغة العربية) فى عدة أجزاء ، لقد اشتريت هذه الكتب جميعها بما بين القرش وثلاثة القروش للكتاب الواحد ! بل إن من المفارقات أن أذكر أنى اشتريت (مختار الصحاح) وقد وزع على الطلاب أيضا بثلاثة قروش ! وهو الآن يباع بثلاثين جنيها ! ومهما التهبت الأسعار فى زمننا هذا ، فلن تسكت المفارقة الهائلة بين ثلاثة قروش ، وثلاثة آلاف . أى جنون هذا ؟

دوائر معارف قيمة

هذه كتب ثقافية ، ومنها مالايمتحن فيه الطالب ، بل يكون اطلاعاً حرا يستنير فيه برأى المدرس فى حصص القراءة ، أما الكتب الخاصة بالامتحان ، ومن أهمها كتاب القراءة ، وكانت تسمى من قبل بالمطالعة فإنها تمثل دوائر معارف ممتازة حقا ، إذ يكتبها نفر من جلة الأدباء والباحثين وعلماء التربية فتقدم زاداً مناسبا ، يراعى فيه التعبير الجيد ، والفكر الصائب ، والسهولة الواضحة ، والهدف

الموجه ، وقد جمعت أربعة أجزاء من كتاب (المطالعة الثانوية) وأربعة أجزاء من كتاب (المطالعة المختارة) لاتزال جميعها لدى ، وأعدها من مراجعى ، ولن يضحك مستهزىء يرى أن الكتاب المدرسى ليس بمرجع ! فهذا صحيح بالنسبة للحاضر المشاهد ، لا للأمس القريب ، فكتاب المطالعة الثانوية فى جزئه الأول – على سبيل المثال – يتحدث عن موضوعات منها وطنية التلميذ ، الرياضة البدنية ، الصناعة فى مصر ، القاهرة ، الجاذبية ، الفارابى، البرهمى والنمر ، جوتنبرج والطباعة ، ثروة مصر المعدنية ، نبات البردى ، العلم والثروة، الرفق بالحيوان ، الطيران ، أول رائد مصرى ، تقويم البلدان ، أرشميدس بين مصر واليونان ، الزراعة فى مصر ، القوة ، التعاون ، ترف خمارويه ، الى مايتحو هذا النحو ، وفيه باب واحد تحت عنوان (أيام الفاروق) وأنص عليه نصاً واضحا لملاحظة هامة تأتى فى باب الموازنة إذ أن جل الكتب الخاصة بالقراءة فى عهد الثورة ، قد تركت الثقافة العامة جانباً ، واتجهت الى الإعلام ، وكأن المدرسة أصبحت دار إذاعة كإذاعة صوت العرب فيما عهدناه ، فأنت تقرأ كتاب المطالعة ، فتجد مثل هذه الأبواب ، خطبة الرئيس عبدالناصر ، عيد النصر ، مديرية التحرير ، مؤتمر باندونج ، ثورة على الإقطاع ، يوم الجلاء ، ثورة ٢٣ يوليو ، وحدة مصر وسوريا – فصول من الميثاق ، هذه الأرض أرضنا ، أعداء القومية العربية! كل هذا فى كتاب واحد مع أن معانيه تتكرر فى كتب التاريخ والتربية القومية وغيرها ثم تجىء دروس التعبير الإنشائى فتدور فى هذا الفلك ولا تتعداه ، ووجه الخطر فى ذلك أن الطالب يكرر نفسه فى كل موضوع ، بحيث يصير الموضوع فهرساً لأعمال الحاكم ، وفى الجرائد والإذاعة مدد آخر لاينقطع سيله !! والنتيجة أن الطالب لم يتثقف فى درس المطالعة ، ولم يتعلم فى درس التعبير ، ولم يعرف الحقائق الخالصة فى دروس التاريخ والتربية القومية ، فكيف يتشوق الى القراءة النافعة وهو منها بمكان بعيد .. وهذه هى كتبها المختارة ! أما دروس الأدب والنصوص فقد لاحظ الدكتور شكرى تحجرها فى قالب واحد ، وقد كنت مدرساً بالمدارس الثانوية ودور المعلمين والمعلمات أكثر من خمسة عشر عاما ! وكنت أقف حائراً أمام دراسة البيئة الخاصة بالنص ،

لأن الكتاب المدرسى لايفى بالمفهوم الصحيح ، فكان مما يساعدنى أن ألزم الطـــلاب بقراءة الكتب ذات الموضـــوع الواحد، وهى ميسورة ، وأكثرها مقرر متداول ، فكتاب أبو الفوارس عنترة بن شداد لمحمد فريد أبو حديد يصور العصر الجاهلى ، وكتاب معارك السيف والقلم لطاهر الطناحى يصور العصر العباسي، وكتاب هاتف من الأندلس للجارم يصور العصر الأندلسى ، وكتاب واسلاماه لعلى أحمد باكثير يصور العصر المملوكى ، وكلها قصص جيدة ذات أسلوب رائع ، وهدف ممتاز ! وقد ساعدت هذه الكتب نبغاء الطلاب على أن يبحثوا عن نظائرها، ومنهم من عشق الأدب وزاوله إذ كانت خطوة أولى فى طريقه الطويل ! هؤلاء هم النبغاء ، أما سواهم ، فقد نجحوا فى الامتحان الرسمى ، والتحقوا بالجامعات المتخصصة ، ولكن زمن الثقافة العامة بالمدارس الثانوية لم يخرجوا منه بغير حصاد الهشيم ، أو قبض الريح ، ورحم الله المازنى .

أساتذة أقاموا مجد الجامعة

فإذا انتقلوا الى الجامعة فماذا يجد الطالب بكليته ، إنه يجد الأستاذ والكتاب ، والأستاذ مسلح بأرقى الدرجات العلمية ، مسلح بالدكتوراة ، وببحوث جعلته يتجاوز درجة المدرس الى درجة الأستاذ المساعد ، ثم الى درجة الأستاذ ، ولكنه – مع استثناء قلة فى كل كلية – قد يجيد تخصصه وحده فإذا انتقلت به الى فرع آخر لايكاد يعرف شيئا ، وقد قرأت قديما مقالاً توجيهيا للدكتور محمد مندور تحت عنوان (أمية المعلمين) تحدث فيه عن المتخصصين الذين يجهلون كل شيء عدا ما يدرسونه ، ومندور على فضله الجهير قد سدت فى وجهه أبواب الجامعة كما سدت فى وجه زكى مبارك ، وهما أفضل من عشرات ملئوها فصارت بهم فارغة ! هذا الأستاذ الذى لايعرف غير تخصصه لن ينشيء طالباً ممتازا ! وقد حفلت كلية الآداب حيناً بأساتذة لايحملون درجة الدكتوراه ، ولكنهم أقاموا للجامعة مجداً علميا لايجحد ، لقد كان أحمد أمين ومصطفى عبد الرازق وأمين الخولى وابراهيم مصطفى وعبد الحميد العبادى لايحملون هذه الدرجة ، ولكنهم أثمروا فى حقولهم أشهى ماكان ينتظر من ثمار ، لقد أدوا أمانة العلم فيما يدرسون ويؤلفون ومن امتنع عن التأليف فى تخصصه المنهجى – كالعبادى – امتنع

إشفاقا لا عجزا ، أذكر أن الأستاذ الكبير أحمد حسن الزيات حدثني أن الأستاذ العبادي ألف الجزء الأول من فجر الإسلام خاصاً بالتاريخ السياسي وفق الخطة التي اتفق عليها مع أحمد أمين وطه حسين ، ثم أخذ يعرضه على أصدقائه بعد أن أخرج أمين كتابه (فجر الإسلام) في تحليل الناحية العقلية ، ليقولوا رأيهم فيما كتب ، وقد عرضه على الأستاذ الزيات فصادف تقديره ، وحثه على طبعه ، ولكنه أخذ يوازن في خالص سره بين كتاب أحمد أمين وكتابه ، فرأى أن يتمهل ، وقد حثه زملاؤه على نشر الكتاب دون إرجاء فاستعصم ، ومضت الأيام دون أن يرى النور ، ولانقول إن العبادي قد أصاب في احجامه ولكننا نضربه مثلا لتقدير المسئولية العلمية ، لعل الذين يفاجئون الطلبة كل عام بالهش الركيك يتأملون فيتلومون .

جامعات الأقاليم ودورها في النهضة

تعددت الجامعات في الأقاليم ، وامتلأت بحملة الدكتوراة ، والنبوغ الإنساني محدود فبعد أن كانت الجامعة الواحدة تضم الصفوة المختارة ، أصبحت الجامعات تضطر الى ملء الفراغ ممن تنطبق عليهم شروط التعيين ، ولايهم بعد ذلك إن كان حامل الدرجة عَيِيًّا أم فصيحا ، وهو على تواضعه العلمي يؤلف ويرقى لدرجة الأستاذية ، ويصير أستاذاً بالدراسات العليا يمنح الماجستير والدكتوراه ، ولن يكون تلميذه أفضل منه ، إذ أن فاقد الشيء لايعطيه ، ولا أستطيع أن استرسل في مايدور في هذا المنحى ، فقد سبق أن نشرتُ بجريدة الجمهورية مقالا تحت عنوان (هل صارت الكليات مدارس ثانوية) فقرىء على غير وجهه ، وعاتب من عاتب ، وخاصم من خاصم ، وضاع المقال هباء ، وكأنه صرخة في واد! إن هذا التلميذ الذي تخرج على أستاذه هذا وصار مدرسا لن يأتي بما يفيد الطالب براعة استنتاج ، ومهارة إبداع ، لن يخرج من المعلوم مجهولاً ، ولكنه سيلخص فإذا أطال كرر فأمل ، وفي ازدحام المدرجات بمئات الطلاب ، مايعوق السؤال الجاد ، ومايجعل ضعيف الحول من هؤلاء يصر على رفض الإجابة كيلا يضيع الوقت ، مع أن المحاضرة بأكملها تضيع كثيراً حين يفاجأ الطلاب بإعلان

سبورى يشير الى اعتذار السيد الأستاذ الدكتور عن غيابه ! ثم يتكرر الاعتذار ، وكأنه أمر طبيعى لايثير استفهاما ، ويمضى العام ، وقد قنع الطالب بشراء المذكرات : أجل ، قد جاء حديث المذكرات، وكنت أباعده متأنئا ولكنه كليل النابغة الذبيانى لابد أن يدركنى ، وإن خلت أن المنتأى عنه واسع ، لم تعد هناك كتب أصيلة يحتفظ بها الطالب مرجعا حيا كضحى الاسلام مثلا ، إذ دأبت الأقسام على تفتيت المادة الواحدة ، شرائح مختلفة، لترضى حاجة هيئة التدريس جميعها ، إذ لابد لكل عضو من ثلاثة كتب، أو على الدقة من ثلاث مذكرات ، فلا بد أن تكتب هذه المذكرات سريعا ، لتكون بين أيدى الطلاب ، وأكثرها يطبع على ورق شاحب لا أدرى من أين جاء ، وقد كنا نضرب المثل بورق الجرائد على أنه مثال متواضع للورق الرخيص - فأصبح ورق الجرائد بالنسبة لورق المذكرات بالمحل الأرفع .

الملخصات آفة فى الجامعة

وإذا كانت الجامعة قد حددت السعر بالنسبة لعدد الورق فقد تطول المذكرة عند المؤلف الملتزم ، وقد يتحلل من لايخضع لتحديد السعر وعدد الورق معا ، أما الذى تكثر لديه الصفحات ، فهو كما ينبىء الواقع الأليم لايدرس غير أبواب ضئيلة منها ، وقد جرى الطلاب على أن يسألوا عن الأبواب المطلوبة ، ليكتب الطالب على الباب الأول كلمة مهم ، ثم يترك الباب الثانى ، وماخلفه ، ليكتب على الباب الرابع هـذه الكلمة ، ثم تكرر الكلمة على باب ثالث، وتكاد تقف عند ذلك ، ولعل القارىء يظن أن الأمر قد انتهى عند هذه الأبواب الثلاثة ، وأن الطالب سيقرؤها من ألفها الى يائها قراءة المستفيد ، ولكن هناك تقليداً أخذ يتبع من بضع سنوات ، هو أن ينهض معيد أو مدرس مساعد ، أو تلميذ موهوب ، فيلخص الأبواب المقررة فى عدة صفحات لا تتجاوز العشرين على الأكثر، وقد تنحط إلى الخمس تلخيصا سريعا ، ثم تصور هذه الصفحات لتقدم للطالب كى يكتفى بها عن سواها ، وتجىء الأسئلة من هذه الصفحات ، فتكون الإجابة المبتورة بحيث لايتجاوز الرد على السؤال عدة أسطر، ينال الطالب عليها درجة النجاح ، وقد وقع فى يدى كتاب فى علم النفس ، أظنه كان رسالة جامعية رأى صاحبها أن

تقرر على الطلاب متجاوزاً الكم المتفق عليه في تحديد الصفحات والسعر وفق عدد الساعات ، ليرى رسالته مطبوعة ذائعة ، فهالني أن أقرأ معلومات لا ترتبط برباط ، وفى نهاية كل فقرة قد لاتتجاوز أربعة أسطر ، رقم يشير الى مرجع شرقى أو غربى ، فإذا انتهيت الى صفحات المراجع وجدتها ثلث الصفحات السابقة ، وتحاول أن يتصل بك الحديث العلمى على نحو متسق ، تتصدره المقدمة ، فالعرض فالخاتمة فيعجزك أن ترى منطقا سديداً ، أو تفكيراً مطردا ، وإذن فالبحث العلمى لدى طائفة من أساتذتنا نقول وأمشاج تساق كيفما اتفق بحيث يجيء الفصل كما قال حافظ ابراهيم كثوب ضم سبعين رقعة مشتتة الألوان مختلفات ، هذا باحث وباحث، سواء فى علم كعلم الاجتماع يملأ مذكرته بجداول الإحصاء ، حتى ليخيل اليك أنك تقرأ فى كتب الحساب والجبر ، فإذا سألت عن المادة التى يجب أن تلحق بها جداول الإحصاء هذه فلن تجد غير سطر أو سطور لاتسمن ولاتغنى من جوع ! لقد كنت طالباً بمعهد التربية العالى ودرست فى علم النفس التربوى كتباً مقررة للدكتورين عبدالعزيز القوصى وأحمد عزت راجح دفعتنى الى البحث عن كتب علم النفس فى شتى فروعه الجنـــائية والاجتمـــاعية والعسكرية والصـــناعية لاالتربوية فحسب ، فهل تدفع المذكرة المبتورة ، أو الرسالة المعلولة طالباً اليوم الى البحث عن كتبٍ تتصل بما يدرس ، وهو يضيق ذرعا بأوراق كتبت ، كما اتفق وأطلق عليها وصف المذكرات !

وتعود الى سؤال الدكتور شكرى عياد عما يقرأ طالب المدرسة الثانوية مرفقاً بسؤالى عما يقرأ طالب الكلية الجامعية ، فتجد الإجابة صريحة فى أنه لا يقرأ شيئا مفيدا ، وإذا شاء أن يقرأ فلديه الصحافة الملونة ذات الورق الناصع ، والصور الخادعة ، والقصص المثيرة ، وسيجد أسماءً يظنها كبيرة لأنها تتكرر دائما أمام عينيه ، تطالعه فى كل عدد ، فيعتقد أن أصحابها من زعماء الفكر فيكونون المثل الأعلى لديه فى الإبداع ، وفيهم من بعثته القوى العاملة الى الصحافة كما بعثت خريج كلية اللغة العربية الى وزارة التموين مفتشاً ، وخريج كلية الآداب الى المصرف المالى محاسبا ، إذ المهم أن يتوظف ، وليس المهم أن يعمل ، ولن يطلب منى قارئى أن أصف الدواء فهو معروف موصوف ، ولكننا نتجاهله عامدين ....

القفز على الأشواك

بين الواقع والأسطورة

بقلم : د. شكرى محمد عياد

أضحك أحيانا - سرا وعلانية - عندما أسمع أو أقرأ حديثاً عن أدباء الستينيات وأدباء السبعينيات وأدباء الثمانينيات .

فهذا حديث لا علاقة له بالأدب . قد تكون فيه إدانة غير مباشرة لحقبة الستينيات ، أو تعبير عصرى جداً عن القلق ، وشدة الرغبة فى الوصول ، والمزاحمة على المكسب ، والسخط على «المنافسين» ولكنه فى معيار النقد ومعيار الحياة كلام فارغ .

الكاتب الذى أريد أن أتحدث عنه اليوم قد جاوز الستين ، ولكنك لاتملك إلا أن تعده من كتاب الثمانينيات . أنظر إلى ثبت أعماله فى أحدث مجموعاته القصصية : ستجد مجموعتين قصصيتين بينهما ثلاث عشرة سنة ، الأولى صدرت سنة ١٩٥٩ والثانية سنة ١٩٧٢ ، ثم أخرى تستمر إلى ١٩٨٠ ، وبعدها تتعاقب الأعمال الإبداعية: تسعة أعمال فى عشر سنوات ، أحذف منها عملاً واحداً لا ينتمى إلى هذه الحقبة ولا إلى سابقتها ، إذ إن حظه من الإبداع - فى الحقيقة - جد قليل .

ماذا كان إدوار الخراط يعمل منذ أواخر الخمسينيات حتى أواخر السبعينيات؟ كان يترجم ، فهو مترجم ممتاز ، وثبت أعماله يضم أربعة عشر عملاً مترجماً خلال هذه الفترة ، أعمال مختلفة الموضوعات ، متفاوتة القيمة ، ولكن حسبه منها رائعة تولستوى الضخمة «الحرب والسلام» .



ادوار خراط



يمكنكم أن تلمحوا عمق المأساة :

فورة الإبداع المكتوبة عبر السنين ، تنطلق فجأة كما ينطلق المارد من قمقم سليمان (ولأول مرة أفكر في الدلالة الأسطورية العميقة لهذه الحكاية الشعبية) . ولعل التاريخ ينصف هذا الجيل في يوم من الأيام . جيل وجد الأبواب كلها مسدودة في الأربعينات . وصودرت إرادته واستعبد عقله في الخمسينيات والستينيات . ولعنه أبنــاؤه وأحفــاده في السبعينيات والسبعينيات . في الأربعينيات لم يكن النشر متاحاً (أزمة الورق في أثناء الحرب وأعقابها) . ولم يكن النشاط العملي متاحا (ليس هناك إلا وظائف الحكومة) ولا النشاط السياسي ممكنا (الأحزاب ملك لمحترفي السياسة في القمة والقاعدة ، والحركات السرية سيطر عليها اليهود ، وحتى الإرهاب كان ينظمه القصر ، ولم يكن ذلك أمراً مجهولا) . وفي الستينيات والسبعينيات كان على الكاتب أو المفكر أو الفنان أو الخبير أن يرقص على النغمة التي يعزفها نظام الحكم . وكان نظام الحكيم يغير النغمة بدون مقدمات ، فإذا اختلت حركات الراقص وجد نفسه خارج الحلبة أو داخل السجن .

هذه هي البيئة التي تكون فيها نموذج من البشر يسمى اليوم «المثقف» . وهو نموذج مصري أساساً ، وقد يكون له نظراء في سائر الأقطار العربية . واللعنات تصب اليوم على هذا المثقف (وممن ؟ من الأجيال التالية التي تكرر النموذج ذاته) لأنه عاجز عن إصلاح ما أفسده غيره .

ولأن هذا «المثقف» لا يشتغل بغير الأفكار المجردة (فهو لا يتعامل مع الأرض

ولا مع الآلة إلا كمستهلك) كان عليه أن يلهث ، خلال عمره القصير ، عدوا من أوائل القرن التاسع عشر إلى مشارف الحادى والعشرين : من رومنسية المنفلوطى الدامعة إلى ما بعد الواقعية ، ومن الإصلاح الدينى الحذر إلى الثورة الإسلامية ، ومن الصراع ضد الاستعمار إلى «النظام العالمى الجديد» .

هذا هو الجيل الذى يطلب منه اليوم أن يتنحى عن الطريق ، جيل لم يعش بعد ، حتى يسأل البعض : لماذا لايموت . وإذا كان الباقون من هذا الجيل يرون اليوم مندفعين إلى العمل فى غير هوادة ، فقد لايكون دافعهم هو التشبث بالحياة ، لمجرد الحياة ، بل الرغبة فى أن يضعوا – قبل فوات الأوان ، خلاصة تجاربهم وخبراتهم فى أيدى الأجيال التالية .

ولكن الكاتب الفرد ليس مجرد مثال أو نموذج لجيل . إدوار الخراط هو قبل كل شىء إدوار الخراط . وقد صنع من نفسه نموذجه الخاص المتفرد . إدوار الخراط يتميز أولاً بأنه قبطى عميق القبطية ليس كلويس عوض ، أو يوسف الشارونى ، أو مجيد طوبيا . هؤلاء نوّبهم المجتمع المصرى ، الذى لا يقيم وزناً كبيراً للفرق بين قبطى ومسلم ، فلم تعد كتابتهم تتميز بخصوصية راجعة إلى قبطيتهم ، ولكن إدوار يملك عادة الاسترجاع إلى درجة عالية جدا (بحيث يمكن القول إن كل ما كتبه هو ترجمة ذاتية) وهذه العادة تجعله يحتفظ بكل الفروق التى تميزه كقبطى (اسم ملاكه الحارس مثلا : ميخائيل ، ولا أدرى لماذا أتصور أنه اسم إدوار المنزلى ، أو الحميم ، كذلك ، ومع الاسم قصة الملاك والتنين ، الخ .) ولاشك أن إدوار يغنى الثقافة العربية المصرية بتراثه القبطى ، كما أنه إذ يقدم تجربة قبطية عميقة ، يقدم أيضا تجربة إنسانية عميقة . ولكن ترى هل يحدث له هذا الوعى بقبطيته نوعاً من الأزمة ، وهل تدخل هذه الأزمة ، أو طريقة تغلبه عليها ، فى تشكيل هذا النموذج الفنى المتفرد ، الذى نسميه أدوار الخراط؟

إن هذا السؤال – رغم أهميته – لم يطرح قط ، أو على الأقل لم يطرح قط بهذه الصورة . فهو يبدو سؤالاً شائكا ، يمكن أن يؤدى إلى شىء من الريبة بين الأقباط والمسلمين . وعندى أن النظر العلمى الموضوعى ، مهما يكن الموضوع ، لايمكن أن يؤدى إلا إلى مزيد من الفهم ، ومع الفهم يكون التفاهم . وإذا صح أن الأمر شائك ، فهل يعالج بالتجاهل ، وهل يجب أن نذهب إلى ندوة أدبية فى فرنسا

لنبحث موضوع الأقليات في العالم العربي ؟

على أن الحساسية الدينية لا يمكن أن تكون هي السبب الوحيد لقلة إقبال النقاد على الكتابة عن أدب إدوار الخراط (وإن كنت أعلم أنه يلقى نصيباً موفوراً من الاهتمام في الدراسات الجامعية) ، فأعمال إدوار شديدة التركيب ، وهي تتبع مواضعاتها الخاصة ، وتخرق كل المواضعات السائدة تقريباً ، فضلاً عن أنها حافلة بالإشارات المستمدة من ثقافته الواسعة .

وإن أي إنسان ليستحي أن يكتب عنها مجاملاً ، وإن أي إنسان ليشفق أن يكتب عنها جادا . وهأنذا أكتب هذا المقال بعد أن أطار النوم عن عيني ليلتين .

إن الدكتورة فريال غزول التي كتبت مقالاً ضافياً عن «رامة والتنين» ، بعد ظهور هذه الرواية بعدة سنوات ، لم تجد إلا مقالتين اثنتين عن هذه الرواية ، ومقالة أخرى عن أحد أعمال إدوار التالية ، مع حرصها الشديد على جمع كل ما قيل عن الرواية ، حتى ما ورد منه عرضاً في أحاديث صحفية . وقد كان معظم إشاراتها إلى الندوة التي عقدت حول الرواية في البرنامج الثاني ، واشترك فيها الناقدان بدر الديب وصبري حافظ . (والذي اهتم بتسجيل هذه الندوة ، وأخرجها في كراسة لطيفة ، هو إدوار الخراط نفسه ، ولابد أن لديه سكرتيرة ممتازة) .

وقد حرصت الدكتورة فريال غزول على أن تبسط بأناملها اللطيفة أي «كرمشات» يمكن أن تتعلق بالمعتقدات الدينية ، فحرصت مثلا على تأكيد أن «التنين» مذكور في التراث الإسلامي في عدة مواضع (إلى جانب الأبيات الأربعة التي أوردها إدوار في ختام الرواية ، وهي للحلاج) ، ولا يخص الثقافة المسيحية لوروده في الكتاب المقدس (إن الملاك ميخائيل – أو ميكائيل – يقتل التنين) وفي القصص الشعبي عن قتل القديس جورج – مار جرجس – التنين . ولكنّ هأنذا أتذكر ملاحظة الناقد صبري حافظ ، لفتت نظري أيضا حين كنت أقرأ الرواية ، وهي أن مصر (إحدى المعادلات الكثيرة للمرأة رامة) انتهكت حين غزاها العرب . وأقول إن هذا معنى يمكن أن يجول بخاطر أي قبطي ، وإذا عبر عنه في عمل روائي فما الضرر ؟ إنه لن يهدم وحدة عنصري الأمة . وسنرى بعد قليل أنه جزء من البناء الفكري الروائي عند إدوار ، وأنه لايحمل ذرة واحدة من التعصب الطائفي .

إننى أختلف قليلاً مع الدكتورة فريال غزول حول استخدام إدوار لأسطورة التنين، وللأساطير عموما . فليست هناك أسطورة موَلِّدة وأساطير مولودة ، بل هناك بناء فكرى مكون من عدد من الأساطير ، أضيف بعضها إلى بعض ، وربطت بمختلف الطرق ، أحيانا ، تلبّس أسطورة فى أسطورة ، وأحيانا توصل بها بحبل متين ، وأحيانا غير متين جداً ، ذلك أن وراءها عقلاً يحاول الخروج من مازق ، ويجتهد بقدر استطاعته . وليس للأسطورة حياة كصانعها (ومستخدمها هو أيضاً صانعها) حتى تحبل وتلد . وهنا اختلف الاختلاف الكبير مع الدكتورة فريال غزول، فهى تشايع البنيويين ، والبنيويون جعلوا للأعمال الأدبية عالماً خاصاً وحياة خاصة، تتواصل أو تتقاطع أو تتشابك تبعا لمنطقها الخاص ، وبما أن منطقها الخاص شكلى محض ، فيجب أن نتصور حياة للأشكال الأدبية حتى تتزاوج وتتوالد وتقيم أو تهاجر. ألا ترين ياسيدتى أن البنيوية أيضا أسطورة ، أسطورة من خلق الإنسان ؟

إن فكرة «تولد» الأساطير من أسطورة محورية ، وانتهاء الأساطير كلها إلى أصل فكرى واحد – وهى فكرة مأخوذة عن لفى ستراوس تؤدى بالدكتورة فريال غزول إلى خطأ واضح – لاسبب له إلا التعسف فى الفهم – حين تربط شخصية رامة بأسطورة التنين على اعتبار أن «رامة هى الفتاة أو العذراء أو الأميرة أو الحسناء التى ينقذها البطل فى الأسطورة» . وأنا لا أملك الآن نصاً لأسطورة مار جرجس والتنين أو الحكايات الشعبية المنبثقة عنها ، والتى أشارت إليها الدكتورة فريال ، وإن كانت «تيمة» البطل الذى ينقذ الحسناء من الوحش أو المارد معروفة فى حكايات ألف ليلة (وغالباً تأخذ شكل مواقعة الحسناء فى غفلة المارد ، لا إنقاذها منه) ، كما أننى أكتب عن «رامة والتنين» معتمداً على قراءاتى السابقة لها ، دون مراجعة جديدة، ولكن الذى لاشك فيه أنه إن كان قد وجد فى الرواية رابط كالذى تذكره الدكتورة فريال ، فهو شىء فرعى جداً ، لايمثل شخصية رامة . والربط بينها وبين إيزيس فرعى أيضا ، ويشبه – إن وجد – أن يكون إضافة إلى النموذج ، غير منسجمة معه . تقول الدكتورة فريال فى موضوع آخر معلقة على رمز التنين والعلاقة بينه وبين رامة : «فالرواية تقدم الأسطورة ولكنها لاتقوم بتعريف التنين هل هو وجه من أوجه رامة المعشوقة ؟ أم هو وجه من أوجه ميخائيل العاشق ؟ أم هو كائن آخر أو قوة أخرى ؟ سؤال تتركه الرواية مفتوحاً ليقوم كل قارىء بالرد عليه .» وهذا كلام – لاشك

– أحكم من سابقه ، وإن كان من المسلم به أن الرواية لا «تعرّف» شيئا . اما الذى قد نختلف عليه فهو تعليق المعنى فى رقبة القارىء وحده . إذن فما وظيفة الناقد ؟ النقد مغامرة فى التفسير ، كما أن الإبداع مغامرة في التعبير ، والقارىء يشارك فى كليهما ولابد ، وقد يقبل أو يرفض ، ولكنه – وأنا هنا أتكلم كقارىء – لايعجبه الإسراف فى الدلال .

وإذا كان الحدس المطلق أساس عمل المبدع ، مهما يبذل من جهد فى إعداد نفسه ، فكرياً وثقافيا ، لعملية الإبداع ، فإن الحدس المنظم ، المرتب له ، هو أساس عمل الناقد . ومن الممكن – مثلاً – أن نبدأ بالتحليل الأسلوبى . فنلاحظ – أولاً – تردد اسم التنين فى الحوار بين الرجل والمرأة ، وفى هذا إشارة إلى أمر مشترك بينهما . ثم نلاحظ – ثانيا ، ورغم هذا الاشتراك – أن الفعل هو «القتل» ، وأنه مسند إلى الرجل ، وهنا يتحدد المعنى بالفعل الجنسى ، منظوراً إليه كصراع بين الرجل والمرأة .

وأن يكون الحب ، بخصوصاً حين يكتمل بالعلاقة الجنسية ، نوعاً من الصراع ، هو معنى معروف ومتداول من قديم، ثم هو حاضر بقوة فى ذهن الكاتب، كما فى هذا النص من أحدث أعماله «أمواج الليالى» (١٩٩١ – ص ١٠٦) :

«وأقول ، هل هناك حقاً بين المعتدى والضحية – فى كل صور العنف – علاقة تواطؤ ؟ كل صور العنف : بالكلام ، بالضرب ، بالتعذيب الجسمانى أو الروحى، بالفعل الجنسى ، أو حتى بالتآمر ؟ كأنها علاقة زمالة ، بين الوحش والفريسة ، تورط مشترك ، كأن فيها نوعاً من ممارسة العشق ، مقلوباً على وجهه ، ربما ، ولكنه هناك هناك .

«أقادرة أنت المنتهكة ، برضاك أو برغمك ، على أن تجعلى غاصبيك ، طغاة ، قتلة ، هم أنفسهم ، عاشقيك ؟»

أرأيت أنى لم أكن مخطئاً حين قلت إن تصوير فتح العرب لمصر على أنه نوع من الانتهاك ، لايعنى – فى نظر الكاتب – إدانة هذا الفتح ، أو الإنكار – حتى على المستوى الوجدانى أو مستوى التخيل المحض ، إذ لامجال لهذا الإنكار على مستوى الواقع – لعروبة مصر ؟ فمن الواضح أن المعشوقة التى يخاطبها الكاتب هنا هى مصر . أما كيف تكون المعشوقة مرة امرأة ككل النساء – بل امرأة هى كل النساء ! – فموضوع يجب أن أعود إليه فى مقال تالٍ .

هل عرف المقصود بالتنين الآن ؟ (ولا أعنى أنه قد عُرِّف !) إن أردت أنْ تتعمق فى الفهم أكثر فتعال نقرأ معاً هذه الأسطر الأخيرة فى «أمواج الليالى» - كلام الشيخ إدوار :

«ألم تدركى أننى فى حضنك مغترب أبداً ، لا أنى مع ذلك أناجيك دون انقطاع ولكنى لا أعرف لغتك المبهمة الأولى وأفتقد المبدأ الأول ، وعنيداً فى افتقادى ووجدى تراوغنى دائماً معرفة أنثوية الجسد . أهذه هى لأواء الفرقة أم لأواء المعرفة ؟ خلود عارض ملتبس ليس له منى مبتدأ ولا إليه مآب .

«بين الأعمدة القصيرة مكتنزة الربلة فى هواء النيل الذى بردّته رطوبة الصخر المنحوت عرفت بيقين مشوب أن التنين مسجون فى الأرض ، تحت أحد هذه العمدان الكثيفة الراسخة ، عمدان ساقيها - منذ ألف ألف عام ، لا أعرف متى .. متى يحطم قيوده ، ويفك الرصد ، كأننى إذ تشتعل نيران ، روحى أعوذه وأعزم عليه حتى يظل مدفونا ، والنيران سيف مشرع من الأرض مغروز فى كبد السماء تتـراقص ذؤاباتها وشـعاليلها عـلى الشفرتين ، لا تقهر .

«دفق المطر الخصيب فى سماء جسدانية سوداء منمنمة ».

«صارى السفينة الطافية على السماء ملموم الشراع معلّق وعميق النفاذ فى غور السحاب الخافى الأبيض »

«تحلق حمامة سوداء ، من صميم خلقى ، وجهها محبوب إلى الأبد ، جناحاها مطويان علىّ وعلى جسمها الناعم معا ، أطلقتها الآن من بين يدىّ ، تحوم وتحوم ثم تعلو فوق شجرة العالم الذى أصبح فجأة صغيرا ، هديلها لاينقطع .»

إن هذه الفقرة مشحونة برموز الجنس: النار ، المطر ، الصارى ، الحمامة ، السواد (الليل) . ويضاف إلى هذه الرموز : الأرض ، حيث إن المعشوقة فى هذا العمل الجديد تسمى «كيمى» (الأرض) وإلهة الأرض فى الأساطير اليونانية والمصرية القديمة جميعا أنثى . والتنين سجين تحت الأرض ، أى تحت كيمى ، المعشوقة ، وبدلاً من الموقف الملتبس : هل يقتله البطل أو لايقتله (هل يتخلص من الدافع الجنسى ويخلص المعشوقة منه ، إما بإشباعه وإما بإعدامه - التباس ثان) لانجد هنا ذكراً للقتل ، بل نجد بطلا أقرب إلى السلبية ، فهو إما منتظر انطلاق التنين من سجنه ، وإما مستعين بالسحر على إبقائه مسجونا . هل أصبح ميخائيل شيخا ؟ أم كيمى - رامة بلا فرق - فهى الأنثى الخالدة ، «منذ ألف ألف عام» ، تجسد الشهوة التى

لانهاية لها ، التي لاتمتلىء أبداً ، حتى فى أوج تحققها ، والتى تضمن استمرار الحياة ، رغم فناء الأحياء (لعل تعازيم ميخائيل كى يبقى التنين سجينا تحت الأرض إشـــارة إلى محـــاولة يائسـة ، ولاجدوى منها ، لاستبقاء الحياة الفردية).

ثم هذا السيف النارى الصاعد إلى السماء من روح البطل : أين هو من سيف القديس ؟ أظن ظنا ، ولست بمستيقن ، أن حكاية القديس جورج أو مار جرجس تقول إنه قتل التنين بسيف من نار ، ولكن سيف ميخائيل ينغرز فى كبد السماء - السماء الجسدانية السوداء - وكأنه يتجنب قتل التنين ، القابع فى أعماق الأرض لا يريم .

هذه المعانى الملتبسة للتنين فى تعامل البطل معه تأتى من التحام الأسطورة بأسطورة أخرى مختلفة كل الاختلاف . إن التنين فى الأسطورة الأصلية ذو معنى واحد بسيط ، فهو يعنى الشر ، الشر الكامن ، أساساً ، فى نفس الإنسان والشهوة ، فى منظور هذه الأسطورة ، أسطورة ميخائيل ، شر . ولكن رامة ، أو كيمى ، شخصية مجبولة من الشهوة ، ولهذا نقول إن شخصية إيزيس ، الزوجة الوفية المخلصة ، مقحمة عليها . إن النموذج الأسطورى لرامة أو كيمى هو عشتار أو أفروديت ، إلهة العشق التى تقرر مجمع الآلهة أنها لا ينبغى أن تمارس عملاً غيره . إن سحرها لايقاوم ، ومعاشقها لاتنتهى ، رقدت لكل الآلهة ، ولبعض البشر أيضا ، كذلك يشك ميخائيل أن رامة أمكنت المراكبى من نفسها ، ويصفها بأنها امرأة نمفية ، أى شبقة أبدا . وأفروديت بنت البحر ، وللبحر حضور مؤثر فى غرام رامة أو كيمى . بل إن هناك جزئية أسطورية مهمة ، وهى أن أفروديت تنزل إلى البحر لتجدد بكارتها ، ومثل ذلك نقرؤه عن رامة - أو لعلها كيمى ؟

ولكن إدوار يتصرف فى أسطورة أفروديت بعض التصرف ، إذ يمزجها بأسطورة أرتميس إلهة الخصب ، راجعاً بها إلى أصولها فى الطقوس الذكرية ، فيجعل حابى (النيل) قضيباً مخصباً ليشق كيمى ، متدفقاً دائماً بالمنى المخصب («أمواج الليالى» ص ٤٥ - ٤٦ و١٠٦) .

وهكذا يصبح للتنين وجهان : وجه مخوف ووجه مرغوب ، ويصبح للعشق وجهان : وجه من النشوة ووجه من العجز عن الامتلاك . ويتمزق ميخائيل ويصبح أوزوريس الذى لايطمع أن تجمع أشلاءه إيزيس ، وتتمزق كيمى نفسها حتى تصبح «أوزوريس مؤنثة» .

هل عبر إدوار الخراط بهذا التمزق عن حالة عصر وموقف جيل ؟ دعنا لا نتعجل الجواب .

الكتب الصفراء والحضارة العربية

بقلم : د . محمود الطناحى

كتب الشاعر الأستاذ أحمد عبد المعطى حجازى ، كلمة فى جريدة الأهرام بتاريخ ١٩٩٢/٨/٢٦م قدّم فيها كتاب الأستاذ الكبير النبيل الدكتور مصطفى ناصف « صوت الشاعر القديم » .


أحمد عبد المعطى


د . طه حسين

وقد ذكر الأستاذ حجازى فى صدر كلمته أنه مدين لثلاثة أساتذة بما يعرفه عن الشعر الجاهلى : أولهم مفتش لغة عربية رآه أيام الدراسة ، وقد دخل عليهم الفصل ، وكان أستاذ اللغة العربية يشرح شيئاً من شعر الأعشى الكبير ميمون بن قيس ، فلم تَرُقْ طريقةُ المدرّس فى شرح شعر الأعشى ذلك المفتش ، فأخذ الكلام من المدرس ، واندفع فى شرح بلغ من الأستاذ حجازى مبلغاً كبيراً من الرضى والارتياح، ثم غاب ذلك المفتش ، ولم يره الأستاذ حجازى ، ولم يسمع به بعد ذلك . ولا نعتقد أن مثل هذه اللحظة الخاطفة فى حصة دراسية محدودة ، أخذ فيها ذلك المفتش فى شرح بيتين اثنين من شعر الأعشى على نحوٍ مطربٍ معجب ، تضع هذا المفتشَ - حَذْوَ القُذَّة بالقُذَّة - مع عميد الأدب العُربى الدكتور طه حسين ، والأستاذ الكبير الدكتور مصطفى ناصف ، وتجعل الأستاذ حجازى مديناً لهؤلاء الثلاثة بما يعرفه عن الشعر الجاهلى ! غاية ما يقال عن ذلك المفتش الحاذق اللَّبق أنه حبب إلى ذلك الفتى الصغير الشعر الجاهلى ومهد لأنغامه الشجية أن تنصب إلى سمعه وتتولَّج فى قلبه .

على أنى أظنّ ظنًا أن الأستاذ حجازى قد غبَن نفسه ، وحَجَرَ عليها واسعاً حين حصر طريق معرفته بالشعر الجاهليّ فى هؤلاء الثلاثة ؛ فإنى ألمح فى شعره وفى كتاباته الأخيرة رصيداً طيباً من القراءة المتعدّدة المصادر والموارد .

والعميد الدكتور طه حسين – على جلالة قدره ونَباوَة محلّه – لم يكن وحده فى ساحة الشعر الجاهليّ ، فقد سبقه سابقون ، وعاصره معاصرون ، ولحقه لاحقون ، بذلوا لذلك الشعر الجاهليّ من صفاء نفوسهم ونقاء أذواقهم ، وذكاء ألسنتهم ، ونصاعة أقلامهم ، ما كشف هذا الشعر ، ودلّ على أنه أنبل كلام العرب وأشرفه ، وأنه مستودع أسرار العربىّ ومُستراحه ، ومَجْلى مواجعه وأشواقه .

أما الأستاذ الكبير الدكتور مصطفى ناصف فما فتىء يصرّح بأن الشُّق بعيد، والمدى أوسع ممّا يحيط به بَصَر ، بل كثيراً ما يحدثنى كفاحاً ومشافهة ليس بينى وبينه أحد ، عن صعوبة طريق الشعر ، ثم يقول لى بلهجته العذبة الودود : « يامولانا المسألة مافش كده ، احنا محناش واخدين بالنا ، لازم نقرأ ونقرأ » ثم يثنى على فلان ، ويحيل على فلان من السابقين الأوّلين .

ومهما يكن من أمر فإن الذى يعنينى من مقالة الأستاذ حجازى هنا قوله عن الدكتور طه حسين . إنه يدين له « بهذا المنهج الذى أخرج به الشعر الجاهليّ من سلطان النحاة والشرّاح وسَدَنَة الكتب الصفراء » . وهكذا يرسل الأستاذ حجازى الكلام إرسالاً وكأن ذلك من الحقائق المؤكدة التى استقرت عند الناس ، ولم يبق لأحدٍ فيها مقال .

وسأؤخر الحديث عن سلطان النحاة إلى حين ، وأحبّ إلينا أن تكون المقدِّماء ، وآخذ فى الحديث عن « سدنة الكتب الصفراء » ، وأتفرغ أولاً من « سَدَنَة » هذه على طريقة « تحرير المصطلح قبل الأخذ فى المناقشة » ، و « سدنة » من الكلمات التى يتساهل بعض الكتاب فيها ، فيستعملونها فى غير ما وُضِعت له . وهى جمع « سادن » وهو خادم الكعبة خاصةً ، وخادم الأصنام فى الجاهلية ، والفعل منه سَدَنَ يَسْدُنُ ، من باب قَتَل يَقْتُل . قال ابن فارس فى مقاييس اللغة : « السين والدال والنون أصلٌ واحد لشىء مخصوص . يقال : إن السِّدانة : الحجابة ، وسَدَنَة البيت « حَجَبَتُه » انتهى كلامه . وقوله : « لشىء مخصوص » قَطَع به طريقَ المجاز ، وأراد أن العرب لم تستعمله فى غير هذا المعنى ، وأن مثل ذلك لا يُنقل إلى غير معناه الخاصّ إلا بسماعٍ صحيح ممّن يُوثق بعربيّته . فبطل إذن – بحمد الله – استعمالُ «سَدَنَة» هنا .

ولم يبق إلاّ « الكتب الصفراء » وهو وصفٌ عجيب ، كنّا نسمعه قديماً ونحن شَبَبَةٌ صغار ، فنفتتن به افتتانا ، كما كنّا نفتتن بمثل « الشعر المهموس » و « الدَّفْقة

الشعورية » و« تراسل الحواس » و« المنولوج الداخلى » فلما أفقنا من الغشية ، وعرفنا الطريق ، أدركنا أن ذلك كله مما لا غناء فيه ، ولا طائل تحته ، وأنه كما قال ابن قتيبة : « ترجمة تروق بلا معنى ، واسم يهول بلا جسم » ، أو كما قال ابن الشجرى : تهاويل فارغة من الحقيقة » .

وقد اختفى هذا الوصف « الكتب الصفراء » زماناً ، ثم عاد مرة أخرى . وإذا كنّا لا نحفل به إذا جاء فى كلام من لا يؤبه له ، ولا يُعاجُ به من صغار الكتّاب ، فإن الأمر يختلف إذا ورد فى كلام شاعر كبير مثل الأستاذ أحمد عبد المعطى حجازى ، له قرّاء ومحبون ، وأستاذ جامعى مثل الأستاذ الدكتور عاطف العراقى ، له تلاميذ ومريدون - وذلك فى كلمة له قريبة فى الأهرام أيضا .

وواضح أن ورود هذا الوصف فى كلام الأستاذ حجازى والدكتور العراقى ، ومَن لفّ لفّهما ، إنما هو فى مقام الذمّ والسّخرية ، بحيث صار استعمال هذا الوصف مرادفاً للأدب الغثّ والفكر الهزيل المتخلّف .

وإذا كنّا لا نرضى لأنفسنا أن نتغلغل إلى المطوىّ فى ضمائر الناس ؛ لأن ذلك عند علاّم الغيوب ، وإذا كان الأستاذ حجازى والدكتور العراقى ، وكل من استعمل هذا الوصف ، لم يقدّموا لنا نماذج محدّدة من أسماء هذه الكتب الصفراء وما تشتمل عليه من ألوان الفكر وضروب الأدب ، إذا كان ذلك كذلك فإن من حقّنا أن نقف عند الدلالة المجرّدة لهذا الوصف ، فنقول ببداهة العقل وبمطلق الدّلالة : إن كلّ فكر جاء فى كتب صفراء مرفوضٌ ومُطّرَح ؛ لأن الوصف إذا جاء بغير قيد أو استثناء دخل تحته كلُّ أفراد جنسه ، ومعنى هذا ببداهة العقل أيضاً ، وبمطلق الدّلالة أن ديوان الأستاذ حجازى « مدينة بلا قلب » إذا جاءنا فى ورق أصفر احتويناه ورفضناه ، وبمفهوم المخالفة : إذا جاءنا هذا الديوان على ورق كوشيه فاخر ، كان ذلك رافعاً لخسيسته - إن كانت فيه خسيسةٌ - لا قدّر اللهُ ولا قضَى .

ونحن نقولها بكلّ سلامة الصدر ، وبكلّ خلوص النّية لكلّ من عنده خبرٌ عن حقيقة هذا الوصف : نبّئنا بتأويله .

وبكلّ سلامة الصدر أيضا وخلوص النيّة نسأل الأستاذ حجازى ، نعم نسأله تعلّماً لا تَعنُّتاً : ما معنى قولك : إن الدكتور طه حسين أخرج الشعر الجاهلىّ من سدنة الكتب الصفراء ؟ فمن هم هؤلاء السّدنة - إن قبلنا هذا الاستعمال؟ ما هى أسماؤهم ، ثم ما هى أزمانهم ؟ ثم ما هذه الكتب الصفراء التى جاء فيها شرح الشعر الجاهلى مُحرّفاً ومُزالاً عن جهته ، حتى جاء عميد الأدب العربى فنفخ فيه من رُوحه حتى نهض قائماً على سُوقه ؟

إن الشعر الجاهليّ قد جاءنا موثّقاً مضبوطاً في دواوين أصحابه التي صنعها علماء الصدر الأول ، مثل ابن السكّيت وابن حبيب وثعلب والسُّكّري ، وفي الشروح الكبرى ، مثل شرح المفضليات لأبي محمد الأنباري ، وشرح القصائد السّبع لابنه أبي بكر ، وشرح القصائد التسع لأبي جعفر النحاس ، وجاءنا أيضاً في المجاميع والمختارات الأدبية التي صنّفها فحول العلماء في الصدر الأول أيضاً كالمفضليات والأصمعيات والحماسات والمختارات ، وجاءنا أيضاً منثوراً ومفرّقاً في كتب الأمالي والمجالس ودواوين الأدب ومعاجم اللغة ، بل وفي كتب التاريخ والبلدانيّات (الجغرافيا) .

وحين ظهرت المطبعة ، وتصدّى علماء البعث والإحياء لشرح الشعر الجاهلي قرأناه في مؤلفات جِلّة العلماء ، من أمثال الشيخ حسين بن أحمد المرصفي ، والشيخ سيد بن علي المرصفي ، والشيخ حمزة فتح الله . ثم جاءت طبقة تلاميذهم من قرّاء الشعر الجاهلي وشرّاحه ، مثل الأستاذ محمود محمد شاكر ، والدكتور طه حسين ، والطبقة التي جاءت بعدهما مثل الدكتور نجيب محمد البَهْبيتي ، والدكتور عبد الله الطيّب المجذوب ... وهلمّ جرّاً إلى أساتذة الأدب ودارسيه بالجامعات وغير الجامعات .

فأنت ترى أن الشعر الجاهلي تنقّل في أصلاب كريمة ، ووعتْه صدورٌ حافظة، وحملته أيدٍ بارّة ، وأدّته ألسُنٌ ذكيّة . وهؤلاء العلماء المحدَثون الذين ذكرتُهم إنما قرأوا الشعر الجاهلي وغير الجاهليّ في الكتب الصفراء .

فإذا تركنا حديث الشعر الجاهلي ونظرنا في تراثنا كله المطبوع في مطبعة بولاق والمطابع الأهلية الأخرى بمصر وسائر بلاد الدنيا ، وجدناه كلّهُ - وبخاصة أواخر القرن الماضي والربع الأول من القرن الحالي - قد جاءنا في الورق الأصفر ، فقد قرأنا تفاسير القرآن الكريم ودواوين السنّة المطهرة في الورق الأصفر ، وكذلك كتاب الأم للشافعي ، وكتاب سيبويه ، والأغاني لأبي الفرج الأصبهاني ، وتاريخ الطبري وابن الأثير ، ومقدمة ابن خلدون ، والفتوحات المكية لابن عربي ، ومنهاج السنة النبوية لابن تيمية ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ، ونفح الطيب للمقري ، وألف ليلة وليلة ... وسائر كتب الحضارة العربية والإسلامية . وكذلك الكتب المترجمة يومئذ إلى العربية في أنواع العلوم ، كالطب والهندسة والفلك والرياضيات والعلوم الحربية . وكذلك كان الشأن في كثير من مطبوعات أوربا من الكتاب العربي وغيره . يقول العلاّمة الدكتور عبد الله الطيب المجذوب ، صاحب الكتاب العظيم « المرشد إلى فهم أشعار العرب » في محاضرة ألقاها بنادي ناصر الثقافي بالخرطوم : « وأشهد على نفسي أني عندما كنت أدرس في الخارج - يعني لندن - كنا ندرس بعض القطع المسرحية لشكسبير ، فكان التلاميذ معنا يُسَمّع بعضهم لبعض القطع عن ظهر قلب ، حتى أمثال « يدخل يطارده القتلة » أو « يخرج يطارده سبع » وكانت لهذه المسرحيات

القديمة شروح ، قد تكون الأبيات أربعة أسطر فى أعلى الصحيفة بخط كبير ، وسائر الصحيفة بخط دقيق شرح لما فوق ، ويقبل التلاميذ على ذلك ولا ينفرون ، فإذا قدّم لهم شيءٌ يشبه ذلك بالعربية نفروا منه نفوراً شديداً . ومن عجب الأمر أن الكتب التى كنّا نَدْرُسها بالإنجليزية كان ورقها أصفر . والورق الأصفر لعلّه ألْيَن على عين القارىء من الورق الناصع الأبيض » انتهى كلامه ، ويؤكده أن مصابيح الإضاءة فى شوارع وميادين المدن الكبرى غلب عليها الآن اللونُ الأصفر .

وقد شهدنا فى الكتب الصفراء ظاهرةً طباعية عجيبة ، لم نشهدها فى الكتب البيضاء ، وهى ظاهرة طبع كتاب أو كتابين بهامش الكتاب الأصليّ ، أو بآخره إذا كان له صلة بالكتاب الأصلى . والأمثلة على ذلك كثيرة جداً ، لاداعى للتطويل بذكرها . على أن أعجب مافى هذه الظاهرة أن ترى خمسة كتب مطبوعة فى كتاب ، وفى صفحة واحدة اجتمعت الكتب الخمسة ، فى الصُلْب والهامش ، مفصولة بجداول ، دون أن يختلط بعضها ببعض ، أو يبغى بعضُها على بعض . وذلك : كتاب شروح التلخيص فى علوم البلاغة ، ويشتمل على :

١ – شرح سعد الدين التفتازانى على تلخيص المفتاح للخطيب القزوينى .

٢ – مواهب الفتّاح فى شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربى .

٣ – عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح ، لبهاء الدين السُبكى .

٤ – الإيضاح للخطيب القزوينى .

٥ – حاشية الدسوقى على شرح السعد .

والثلاثة الأولى طبعت فى صلب الكتاب ، والاثنان الباقيان بهامشه . وكانت الطبعة الأولى للكتاب بمطبعة بولاق – على الورق الأصفر – سنة ١٣١٧ هـ ، أى منذ نحو مائة عام . وكانت هذه الطبعة على نفقة مصطفى افندى المكّاوى ، المحامى بمدينة الفيوم ، والشيخ فرج الله زكى الكردى ، وكيل الشركة الخيرية لنشر الكتب العالمية الإسلامية ، من طلبة العلم بالأزهر الشريف ، وعبد الحميد افندى الصمدانى .

وقِفْ أيها القارىء الكريم عند اسم « مصطفى افندى المكّاوى المحامى » وانظر إلى هِمم الرجال واهتماماتهم فى تلك الأيام ! رجلٌ من رجال القانون ينهض للمشاركة فى نشر أصولٍ من كتب البلاغة ! وأَدَعُ لك أيها القارىء العزيز التدبُّر فى هذا الذى كان ، وما نحن عليه الآن !

وظاهرة طبع الكتب بهامش كتب أخرى ، ظاهرة عجيبة فريدة ، وهى دالّةٌ بوضوح على أن القوم كانوا فى سباقٍ لنشر العلم وإذاعته . وما أعلم أن هذه الظاهرة عرفت فى غير مطابع مصر واستانبول ، فى بداية الطباعة العربية على الأقل .

هذا وقد ارتبط الورق الأصفر عند عارفي الكتب وجامعيها ، بجودة التصحيح وكمال الإخراج - وتلك حقبة غالية من تاريخ الطباعة فى مصر - فقلَّ أن تجد تصحيفاً أو تحريفاً ، وجاءت النصوص كاملة موفورة ، لا سقط فيها ولا خلل ، وذلك لأن القائمين على تصحيح الكتب الصفراء فى ذلك الزمان كانوا طبقة من فضلاء العلماء ، وكانوا يقومون بعملهم هذا فى أمانةٍ تامّة وحرصٍ شديد . ويذكر التاريخ من أسماء هؤلاء المصحّحين العلماء : نصر الهوريني ، ومحمد بن عبد الرحمن ، المعروف بقُطّة العدوى ، ومحمد الحسيني ، وطه محمود ، ومحمد عبد الرسول ، ومحمد قاسم ، ومحمد الزهرى الغمراوى ، وعبد الغنى محمود .

وكان كثيرٌ من أساتذتنا الذين يجمعون الكتب يركضون خلف الطبعة الصفراء ، ويسمحون فيها بأغلى الثمن ، فإذا جئت أحدهم بطبعة من الكتاب القديم على ورق أبيض ، نفر منها نفوراً شديداً ، فإذا زينتها له بأن فيها أوائل فقرات ، وعلامات ترقيم ، لَجَّ فى إعراضه ، وقال : « بِطِينِهُ ولا غُسيل البِرَك » .

وإن تعجب فعجب : أن الورق الأصفر قد عاد إلى الطباعة مرّةً أخرى . وأمامي الآن طبعة جيدة جداً من « القاموس المحيط » للفيروز ابادى ، على ورق أصفر. ويقع هذه الطبعة فى (١٧٥٠) صفحة ، وقد أصدرتها مؤسسة الرسالة ببيروت - الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـ = ١٩٨٧ م . ثم طبعة محقّقة من كتاب « مفردات ألفاظ القرآن » للراغب الأصبهاني . على ورق أبيض ، ولكنه بياض خفيف يميل كلَّ الميل إلى الأصفر . وهذه الطبعة من منشورات دار القلم بدمشق ، والدار الشامية ببيروت . الطبعة الأولى ١٤١٢ = ١٩٩٢ م .

هذا وإن تزول حيرتى ، وإن ينقضى عجبي من حديث « الكتب الصفراء » والحطّ عليها ، إلاّ إذا جاءني كاتب بكلام محدّد مبين موثّق ، بأسماء هذه الكتب الصفراء ، والفنون التى عالجتها ، والدلالة على مواضع الذمّ منها . وليس لى إلاّ شرطٌ واحد : أن يرفُق بى الكاتب ، فلا يهجم بى على دهاليز المنهجية والموضوعية والإشكالية ، وحركة التاريخ ، والحتمية الحضارية ، وأن يأتيني الكلام واضحاً قاطعاً ، لا ترى فيه عوجاً ولا أمْتاً ؛ فإن كثيراً مما نقرأه ونسمعه فى هذه الأيام مما ينطبق عليه قول ذلك الأعرابى وقد حضر مجلس الأخفش فسمع كلاماً لم يفهمه ، فحار وعجب ، فقال له الأخفش : ما تسمع يا أخا العرب ؟ فقال : « أراكم تتكلمون بكلامنا فى كلامنا بما ليس من كلامنا » ... نعم إن كثيراً مما نقرأه ونسمعه الآن مما يدير الرأس ويجعل الأعلى أسفل والأسفل أعلى ، وكأنك فى مدينة ملاهٍ ، أمام تلك الصناديق التى يجلس فيها الصغار : تعلو بهم ثم تهبط ، ثم تعلو ثم تهبط ، إلى أن يدركهم الدُّوار ، أو يُنَزّلَ الله عليهم النُّعاسَ أَمَنَةً منه ... والملجأُ الله .

البديل الإسلامى للوضعية الغربية

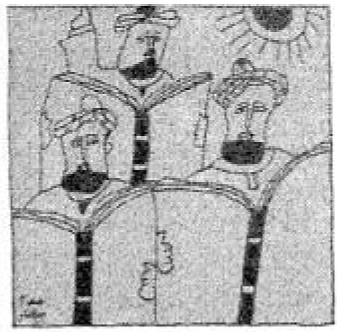
بقلم : د. محمد عمارة

عندما حدث ودخلت حضارتنا الإسلامية فى طور التراجع والجمود - لأسباب ليس هذا هو مقام الحديث فيها [1] .. فذبل فيها الخلق والإبداع والتجديد ، وعزق العقل الإسلامى فى بحار الجمود والتقليد .. تصادف زمن ذلك التراجع مع الإحياء والنهضة للحضارة الغربية فى أوربا ..

ولقد قامت النهضة الغربية الحديثة ، فى مناهج المعرفة ونظرياتها ، كرد فعل عنيف ومناقض لتلك المناهج التى سادت ، فى تلك الحضارة ، إبان عصورها الوسطى والمظلمة ..

كانت الكنيسة الكاثوليكية ، إبان هيمنتها على الحضارة الغربية - سواء فى ظل « القيصرية - البابوية » - التى هيمنت فيها الكنيسة على السلطة الزمنية - أو فى ظل «البابوية - القيصرية» - عندما أصبح «البابوات» «قياصرة» أيضا ! - .. كانت هذه الكنيسة قد جعلت «اللاهوت» هو مصدر المعرفة الوحيد .. فقدست المعرفة ، وثبتتها - جمدتها - عندما جعلت لها قدسية الدين وثباته .. وبعزلها «الواقع» عن أن يكون المصدر الثانى للمعرفة ، منعت الشرعية عن ثمرات معرفة هذا «الواقع» ، من هنا كان «التحريم» للمكتشفات الجديدة ، و «الحرمان الدينى» لمن يطلبون «المعرفة» خارج «اللاهوت» ! ..

لقد جعلت الكنيسة من «المعرفة» شأنا سماويا خالصا ، لا مكان فيه «للواقع» وأدوات إدراكه وتصوره .. فجاءت النهضة الغربية الحديثة ، كرد فعل عنيف ، مضاد



لهذا الموقف الكنسي لتجعل من «الواقع المحسوس» المصدر الوحيد للمعرفة ، ولتجعل من التجربة الحسية - المذاهب التجريبية ، بأنواعها - السبل الوحيدة لتحصيل المعارف والعلوم ! ..

لقد فتحت هذه النهضة الغربية الحديثة صفحة جديدة لمنهج المعرفة الحسية ، الذى عرفه تاريخ الفكر البشرى لدى أصحاب الديانات الوضعية - والذى أشرنا إلى «السُمَنِيَّة» نموذجا له .. بل لقد تصاعد رد الفعل هذا بتيارات الوضعية الغربية إلى حد الزعم بأن «الدين : وضع بشرى» ! .. وليس «وضعا إلهيا » ، وذلك عندما أنكرت هذه الوضعية «الوحى» كمصدر من مصادر المعرفة الحقيقية ، واعتبرته - فى أحسن الحالات ، وبأخف وألطف التعبيرات : ميتافيزيقا ، وخيالات ، إن جاز أن تكون تصورات لمرحلة من مراحل طفولة وسذاجة العقل الانسانى ، فغير جائز أن تكون «معرفة» بالمعنى الدقيق لهذا الاصطلاح ! ..

لقد قال الوضعيون الغربيون : «إن العقل الإنسانى قد مر بحالات ثلاث : حالة لاهوتية ، وحالة ميتافيزيقية ، وحالة واقعية ..» هى تلك التى غدا «الواقع» فيها المصدر الوحيد للمعرفة الحقة .. فالحق ، بنظرهم ، هو «ثمرة التجربة» وحدها [٢] ! ..

وكما قال «السُمْنِيَّة» - القدماء - : إن ماعدا «المعروف بالحواس» هو «مجهول » .. قال أبو المذهب الوضعى : أوجست كونت (١٧٩٨ - ١٨٥٧م) : إن ماعدا «الواقع» المحسوس هو «وهم» من الأوهام ! .. «والفكر الإنسانى لايدرك سوى الظواهر الواقعية المحسوسة ، ومابينها من علاقات أو قوانين ، وإن المثل الأعلى لليقين يتحقق فى العلوم التجريبية .. فالتجربة هى مصدر المعرفة الحقة الوحيد - ومن ثم فإنه يجب العدول عن كل بحث فى العلل والغايات وفى المبادىء الأولية .. فكل المعرفة مستمدة من الحس أو التجربة المباشرة ، وليس من الفطرة أو العقل أو النظرى والاستنباطى .. أما «مصدر

الوحى» ، فلقد أعتبرته الوضعية : افرازا بشريا تلازم مع مرحلة الطفولة التى مر بها العقل البشرى قبل أن يصل إلى «الوضعية – التجريبية » ، عبر «الميتافيزيقا» ؟! ..

بل لقد شابهت هذه الوضعية الغربية الحديثة ، فى منهجها هذا فى المعرفة ، أسلافها القدماء ، من أبناء الديانات الشرقية الوضعية – مثل «السمنّية» التى أشرنا إليها – عندما سارت على ذات الدرب « حذو النعل بالنعل» ! .. فقالت بـ «الدين الوضعى » .. فكتب أوجست كونت كتابه (تعاليم الدين الوضعى) سنة ١٨٥٢ ؟! ..

وفى هذا «الدين الوضعى» جعل هذا «المتنبىء الوضعى الجديد» .

● العبادة للكائن الأعظم – الذى رمز له بصورة الأنثى ! فى معابد تحتوى على تماثيل نصفية لمن رآهم قد أحسنوا إلى الإنسانية ! ..

● وجعل لهذا الدين الوضعى «تقويما» وضعيا سميت شهوره بأسماء : موسى ، وأرشميدس ، وفردريك الثانى .. وغيرهم من أمثالهم ! ..

● أما أعياد هذا الدين ، فهى احتفالات بالعظماء – ولقد جعل أوجست كونت فى هؤلاء العظماء الذين تقام الأعياد احتفالا بهم : أصدقاءه ، الذين ساندوه فى محاولته الفاشلة لاحتلال منصب الأستاذية بمدرسة الفنون التطبيقية ؟! ..

● أما روحانيو هذا الدين الوضعى ، فهم العلماء التجريبيون .. بدلا من رجال اللاهوت ؟! (٣) ..

فهى ، إذن « والردة المنيقة » و « رد الفعل المنيف » على الموقف الكنسى والمذهب اللاهوتى فى مصادر المعرفة وسبل تحصيلها .. لقد جعلت الكنيسة المعرفة شأنا سماويا خالصا لا علاقة له «بالواقع» .. فجاءت الوضعية لتجعلها شأنا أرضيا «واقعيا» خالصا لا علاقة له بالوحى ولا بنبأ السماء ! ..

والأمر الذى يؤكد هذه الحقيقة هو ماذهب إليه أبو الوضعية الغربية ، و «متنبىء» دينها الوضعى» الجديد ، فى تقسيمه لمراحل تطور المعارف والعلوم .. فلقد رآها مراحل ثلاث :

١ – المرحلة اللاهوتية .. وهى مرحلة الحكم الدينى .. التقليدية ، التى اتسقت فيها السلطة بين قوة الملوك الدنيوية وقوة الكهنة الروحانية ..

٢ – والمرحلة الميتافيزيقية .. التى حدث فيها نوع من الفوضى ، تعرضت فيها كل من السلطة الدنيوية والسلطة الروحانية للهجوم ..

٣ – والمرحلة الوضعية .. التى يكون فيها رجال العلم التجريبى قوة روحية جديدة .. وتسود فيها المعرفة الوضعية .. ويصبح الدين وضعيا أيضا ! .. وتصبح

كل العلوم ، حتى الانسانية منها طبيعية ، فى مناهجها ، وفى درجة الحياد والموضوعية والتعميم لقوانينها ومقولاتها – حتى لقد أطلق على علم الاجتماع – الذى أسسه – : «الفيزيقا الاجتماعية » ؟! .. [4] وقال ، فيما قال : «إننا مادمنا نفكر بشكل وضعى فى مادة علم الفلك أو الفزياء ، لم يعد بإمكاننا أن نفكر بطريقة مغايرة فى مادة السياسة أو الدين ، فالمنهج الوضعى الذى نجح فى علوم الطبيعة يجب أن يمتد إلى كل أبعاد التفكير ! ..» [5]

لأنه قد رأى كل أبعاد التفكير وكل ألوان المعارف وكافة العلوم صادرة عن مصدر واحد للمعرفة ، وهو «الواقع المحسوس» .. فكل المعارف «تجريبية» ، ومن ثم يمكن التعبير عنها بلغة الفيزيقا » !

هكذا بدأت وتبلورت «الوضعية» الغربية – بمدارسها المختلفة – وانقساماتها التى تمايزت فى الفروع والتفاصيل والتخصصات – : الوضعية .. والوضعية المنطقية .. والتجريبية .. والسلوكية .. والمادية – بمذاهبها وفروعها – .. الخ .. الخ ..

فكما حرَّم اللاهوت الكنسى الغربى «المعرفة الواقعية» لجاليليو (١٥٦٤ – ١٦٤٢م) .. جرَّمت الوضعية الغربية «المعرفة الإيمانية » معتبرة إياها : إفرازا بشريا طفوليا ، تجاوزه العقل البشرى عندما تجاوزت الانسانية مرحلة طفولتها ! ..

وهكذا عاد الخلل إلى مصادر المعرفة ، وإلى أدواتها ، عندما قامت على ساق واحدة ، هى «كتاب الوجود» ، معرضة عن ساقها الأخرى ، «كتاب الوحى» .. عاد إليها هذا ،

الخلل القديم من جديد !

لقد عدَّت الوضعية : «دين الفكر الغربى» الذى استبدل به «دين الإيمان السماوى» .. ثم اتخذت الأشكال المتعددة فى الميادين المختلفة ..

فهى قد جعلت «الوعى» نشاطا ماديا ، هو انعكاس «للدماغ» ، الذى حسبته «العقل» .. أى أنها قد جعلت «العقل» و«التعقل» مادة .. حتى لايكون هناك شىء فى الإدراك والمعرفة غير الحس والمحسوس والحواس .. وقال هكسلى (توماس . هـ) (١٨٢٥ – ١٨٩٥م) : لايبدو أن الوعى متصل بآليات الجسم كنتيجة ثانوية لعمل الجسم ، لا أكثر ، وأن ليس له أى قدرة كانت على تعديل عمل الجسم ، مثلما يلازم صفير البخار حركة القاطرة دونما تأثير على آليتها ..» ! ... وقال أيضا ، فى سياق الادعاء بهذه «المادية الميكانيكية» : «إن الأفكار التى أعبر عنها بالنطق ، وأفكارك فيما يتعلق بها إنما هى عبارة عن تغيرات جزئية .. » ؟!

ولقد قادت هذه «المعرفة الحسية» ، التى أنكرت «مادون المحسوس والحواس» ، قادت أصحابها إلى «دهرية جديدة» فى الاعتقاد ! .

فالدهريون الأول قد قالوا : (ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر) ورءوا فى الموت نهاية كل شيء يستوى فى ذلك «الجسم» و«العقل» و«النفس» و«الروح» و«الفكر» و«الإرادة» .. فالناس - كما قالوا - هم مثل الزرع ؟! .. تراه مختلفا ألوانه ، ثم يصير حطاما لا عودة له ولا بعث ولا نشور ؟! .. لأنه - كما قال هؤلاء الماديون - «إذا كان التفكير والإرادة ، نشاطين من أنشطة الدماغ ، فسيفنيان بفناء الدماغ . وإذا كان كل جزء من أجزاء الإنسان مادة ، فلابد من أن يكون كل جزء منه عرضة للفناء .. » !

وانطلاقا من هذه الفلسفة المادية للعلم الغربى ، انطلق داروين (تشارلز) (١٨٠٩ - ١٨٨٢ م) فقسر - فى الداروينية - نشأة الحياة تفسيرا ماديا - أو إلى هذه النتيجة قادت أبحاثه فريقا من تابعيه - فهى - الحياة - قد نشأت نشأة ذاتية بواسطة التفاعلات والتغيرات الجزئية التى اعترت المواد الأولى التى تخلقت منها .. تماما كما تخلق الوعى ونشأ من مادة الدماغ ، بالتغييرات الجزئية .. فما قاله هكسلى فى عالم الأفكار ، قاله داروين فى عالم الأحياء ؟! ..

وتطبيقا لهذه النزعة المادية - فى عالمى الأفكار والاحياء - فى الاجتماع والأموال والثروات والاقتصاد - قال ماركس (كارل) (١٨١٧ - ١٨٨٣م) إن تطور المجتمعات والإجتماع البشرى إنما هو بتأثير المحرك الأول : الواقع المادى .. والاقتصاد - قوى الإنتاج ، وعلاقات الإنتاج .. فالمعرفة مادية ، تعكس «الواقع» فى «الفكر» ، وهى قائمة على الممارسة ، تبدأ بالإدراكات الحسية للأشياء .. ولاشيء غير «الواقع» المنعكس فى «فكر الانسان ، بواسطة «مادة الدماغ» .. أما «الله» و«الدين» - وكل ماجاء به «كتاب الوحى» ، فهو خيال وخرافة اخترعها المحرومون ، تسلية لأنفسهم ، أو الخبثاء الأغنياء تخذيرا للفقراء ؟! ..

ولقد تصاعدت الماركسية بهذه «الدهرية» المنكرة «لمصدر الوحى» والمعادية للدين ، من مستوى «الخيار - الفردى» إلى حيث جعلتها «مهمة ثورية» دعت «الثوار» إلى النضال لتعميمها على الإنسانية ومجتمعاتها ، باقتلاع الدين والتدين اقتلاعا من هذه المجتمعات ، جاعلة من هذه «المهمة» جزءا لايتجزأ من «تحريرها» الإنسان من القيود ! ..

لقد تنوعت مدارس الفكر الغربى ومذاهبه ، وتعددت فى إطار نهضته الحديثة العلوم . والمعارف والتخصصات .. لكن الوضعية .. والنزعة المادية .. والمذهب الحسى فى المعرفة .. كانت القاسم المشترك الأعظم فى معظم هذه المدارس والمذاهب والمعارف والتخصصات .. حتى لقد انطبع فكر النهضة الغربية الحديثة بهذا الطابع «الدهرى الحسى» إلى حد كبير ..

ولقد تزامن ذلك مع تراجع حضارتنا الاسلامية .. ومع الموجة الاستعمارية الغربية

الحديثة ، التي حملت إلى بلادنا الإسلامية – بعد خضوعها لهيمنة هذه الموجة الاستعمارية – مع النهب الاقتصادي .. والإلحاق الأمني والسياسي .. نزعتها هذه في المعرفة الحسية ، والتوجه المادي .. فأعاد تاريخ المواجهات الفكرية سيرته الأولى من جديد .. مع تغير في مواقع الفرقاء .. فبعد الفتوحات الإسلامية نهض الإسلاميون بمواجهة مذهب المعرفة الحسية – الواقف عند المحسوس والحواس – نهضوا بمواجهته بمذهب الاسلام في المعرفة ، في البلاد التي فتحها المسلمون .. لقد قدموا «البديل الاسلامي» في المعرفة ، كجزء من المشروع الحضاري ، الذي انتصر وغدا – لأكثر من عشرة قرون – منارة العالمين ..

واليوم .. وبعد الغزو الغربي لوطن العروبة وعالم الاسلام ، منذ نحو قرنين من الزمان ، اقتحم الفكر الغربي على العقل المسلم دياره ومعاقله ، محاولا أن يفرض عليه – ضمن مايريد فرضه – نموذجه الحضاري الغربي ، المؤسس على النزعة المادية والحسية في المعرفة .. الأمر الذي يجعل من شعار «إسلامية المعرفة» التعبير عن مهمة ثقافية ورسالة فكرية ، هي المدخل والسبيل والأداة لبلورة الطور المعاصر لمشروعنا الحضاري الإسلامي ، الذي لابد لنا من احيائه وتجديده ، لنواجه به المشروع الغربي ..

فالقضية الآن أكبر من مهمة ثقافية .. وأخطر من رسالة فكرية .. وأعظم من «هم أكاديمي» .. إنها جزء من المشروع الحضاري الإسلامي ، الذي يمثل بالنسبة ليقظتنا الإسلامية الحديثة ، دليل العمل الذي ينير لهذه اليقظة الطريق .. والرائد الذي لايكذب أهل هذه اليقظة .. وطوق النجاة لأمتنا من هاوية التبعية الفكرية والاستلاب الحضاري ، الذي أقام له «الآخر الحضاري» في عقر دارنا المؤسسات التي تبث مذاهبه في المعرفة ومناهجه في صياغة الواقع وتشكيل الحياة ..

تلك هي المهمة التي يطرحها شعار «إسلامية المعرفة» على العقل المسلم ، في المنعطف التاريخي والظرف الحضاري الذي نعيش فيه ..

الهوامش :

(١) أنظر كتابنا (الطريق إلى اليقظة الإسلامية) – تاريخ التراجع الحضاري وأسبابه ومظاهره – ص ٨١ – ١٢٨ . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٠ م .

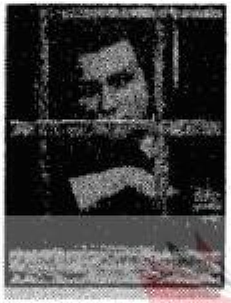
(٢) أنظر (القاموس الفلسفي) مادة «المذهب الوضعي» تأليف : د . مراد وهبة – وآخرين – طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦م .

(٣) أنظر (الموسوعة الفلسفية المختصرة) ص ٢٦٧ – إشراف ومراجعة – : د . زكي نجيب محمود . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣م .

(٤) المرجع السابق . ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

(٥) محمد أمزيان (منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية) ص ٢٨ – رسالة ماجستير – كلية دار العلوم – تحت الطبع .

حركة التمركز حـول الأنثى



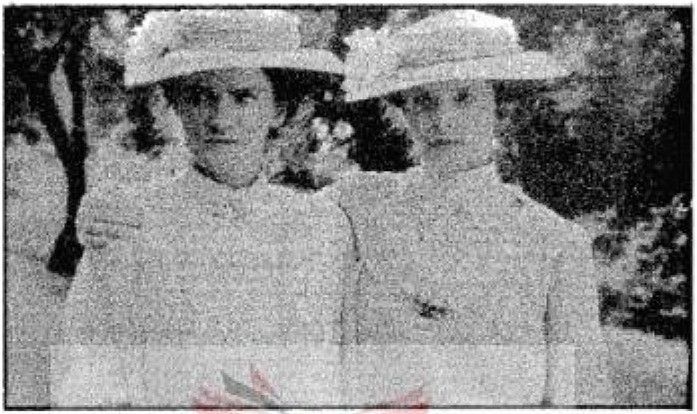
روزا لوكسمبرج (صورة سينمائية)



رفاعة الطهطاوى

يتسم الرصد العربى للحضـارة والظواهر الغربية بأنه لايزال يدور فى نطاق بعض المقولات التحليلية التى تضرب بجذورها فى كل من الفلسفة الانسانية أو المتمركزة حول الإنسان والفلسفة العقلانية أو المتمركزة حول العقل . وهى مقولات تعلمناها أساسا من الغرب (حتى ولو كان هناك ما يقابلها فى تراثنا) . ولذا نجد أن الفكر العربى عاجز إلى حد كبير عن رصد معظم العناصر العدمية والمعادية للانسان والمتجاوزة للقيم الأخلاقية (نقول « متجاوزة » لا « معادية ») واللاعقلانية التى تضرب بجذورها فى فلسفة نيتشه والتى تسم كثيرا من التيارات الفكرية والظواهر الاجتماعية فى الغرب .

بقلم :د . عبدالوهاب محمد المسيرى



روزا لوكسمبرج كما صورتها السينما الألمانية



وما يحدث هو أننا حينما نقرأ عن هذه الظواهر أو التيارات فإننا فى غالب الأمر لا نفهمها لأنها ليست جزءا من خريطتنا الادراكية ، وإن فهمناها فإننا لا نصدقها لأنها تتنافى تماما مع منظومتنا القيميـة (بما فى ذلك المنظومة المتمركزة حول الانسان) فإن فهمنا وصدقنا فنحن عادة ما نهمش ما رصدنا ولا نعطيه ما يستحق من مركزية تفسيرية ، إذ أننا نصر على رؤية الحضارة الغربية من خلال المقولات التحليلية التقليدية ، الانسانية والعقلانية ، التى تعلمناها منها . وكلما ازدادت عدمية هذه الحضارة، وكلما ازدادت ابتعادا عن المركزية الانسانية والعقلانية وزادت من تهميش الانسان ورفض فكرة المركز (أى مركز) كما هو الحال مع ما بعد الحداثة ، كلما سيزداد فشلنا فى الرصد . واذا كان الجيل السابق (الطهطاوى إلى لويس عوض) قد قام بعملية نقل أمينة دون أى نقد ، فإننا سنقوم بعملية نقل لا تتسم بأى أمانة ولا تستند إلى أى أرضية نقدية أو معرفية .

وقد سمعت كثيرا من أصدقائى يتحدثون عن فيلم « صمت الحملان » بكثير من عدم الفهم والتصديق ، ويتساءلون كيف تأتى لفيلم مثل هذا أن يحصل على خمسة جوائز أوسكار ؟ مع أن أى طفـل أمريكى إن شـاهد الفيلـم لأدرك تمـامـا معنى ما يشاهد ، ولتنبأ ببعض الأحداث ، مثلما نفعل نحن مع بعـض المسلسلات التليفزيونية الهابطة (العربية أو الامريكية) التى حفظنا كل مواقفها وخبرنا كل أحداثها واستمعنا إلى ما جاء فيها من قيل وقال عدة مرات ، حتى أصبحنا خبراء فى الملل .

● ظاهرة مركبة

واذا كان هذا ينطبق على ظاهرة بسيطة مثل الافلام فإنه ينطبق وبشكل أعمق على ظاهرة مركبة مثل الدين ، وهى ظاهرة مركبة مثل الدين ، وقد تعرضت العقيدة الدينية فى الغرب للهجمات الرقيقة منذ عصر النهضة ثم الشرسة فى عصر العقل ثم المدمرة منذ عصر الثورة الصناعية والثورات الأخرى التى تبعتها . وبعد عملية التدمير والتفكيك بدأت عمليـة إعـادة التركيب والبعث ، وهى عملية تمت على أسس جديدة تماما كانت ثمرتها بنايا فكرية لا علاقة لها بما نعرفه نحن تحت مقولة الدين . فالدين بالنسـبة لنا يـعـنى مجموعة من العقائد (المرسلة من الله) يستند إليها نسق معرفى وأخلاقى والمؤمن بهذا الدين يصدر عن هذه العقائد ويؤمن بهذا النسق المعرفى ويسلك سلوكا يتفق مع القيم التى تستند إليه . وجوهر السلوك الدينى فى تصورنا — سواء كنا نؤمن بالدين أو لا نؤمن به — هو الطاعة ، والخروج من الذات والامتثال لمشيئة نرى

انها أكبر من مشيئتنا ، فى مشيئة الله . ولذا لا يمكن أن يطرأ لنا على بال ان يكون الدين لا علاقة له بالاله ، بل وأن يصدر النسق الدينى عن الايمان النيتشوى بموت الاله وفراغ العالم من المعنى ، وأن المطلق - بعد موت الاله - قد أصبح شيئا ماديا مثل اللذة أو المتعة . وإذا كنا نؤمن باله منزه عن الطبيعة والتاريخ فإنه يصعب علينا تصور الدين على أنه مجموعة من العقائد والشعائر يتم تغييرها حسب رغبات الأغلبية وبما يتفق مع انتمائهم الجنسى (ذكر أم أنثى ، شاذ أم سوى) . وهل يمكن لنا أن نتخيل دينا بلا عقائد ولا معايير أخلاقية ولا مركز ولا مطلق ، وانما يتكون من مجموعة من الممارسات الرمزية التى اختارها أصحابها لأنها تعبر عن نواتهم وأذواقهم ومزاجهم وحسهم المرهف ولأنها تدخل البهجة على قلوبهم وتسبب لهم إحساسا عميقا بالراحة (مثل الآيس كريم أو الفاليام) ؟ مثل هذا الشيء قد يكون متعة وأى متعة ، ظرف ولطف وضحك ولعب - ولكن هل يمكن أن نسميه « دينا » من منظورنا ؟ ولذا فأنا أرى من الضرورة بمكان أن نوضح السياق الذى نستخدم فيه مصطلحاتنا حتى نحدد معناها بدقة . فإن كان السياق غربيا ، فيجب ألا نكتفى بالمعنى المعجمى إذ أن مدلوله الحضارى المتعين سيجعل منه شيئا مختلفا تماما .

ولا يزال الكثيرون منا ، ممن يدورون فى إطار المقولات التقليدية العقلانية والمتمركزة حول الانسان ، يخلطـون بين مـا يسـمى « الفيمينزم Feminism » و « ويمنزليبريشون موفمنت » Women,s Liberation Movement ولذا نجدهم يترجمون المصطلحين بحركة تحرير المرأة وكأنهما نفس الشيء .

وكلمة « فيمنست » Feminist الانجليزية فى تصـورنا مختلفـة تمـاما عن عبـارة « ويمنز ليبريشون موفمنت » Women's Liberation Movement فالعبارة الأخيرة ، يمكن التعبير عنها بعبارة « تحرير المرأة » أما الأولى فنحن نؤثر التعبير عنها بعبارة « حركة التمركز حول الأنثى » .

ولتوضيح وجهة نظرنا سنختار ظاهرة « اليهودية المتمركزة حول الأنثى » لنبين الفرق بين الدعوة لتحرير المرأة والدعوة لأن تتمركز الأنثى حول نفسها ، ولنبين بعض ما يحدث لظاهرة الدين فى الغرب وكيف بدأت تتحول إلى شيء مغاير تماما عما نعرف .

وقد ظهرت حركات سياسية واجتماعية وفكرية فى الغرب تدور حول موضوع المرأة فى المجتمع . ويمكن أن نقسم هذه الحركات إلى اتجاهين : حركات تحرير

المرأة ، وحركات التمركز حول الأنثى ، والحركة الأولى حركة اجتماعية سياسية فكرية تهدف إلى تحقيق العدالة فى المجتمع بحيث تنال المرأة ما يطمح إليه أى إنسان من تحقيق لذاته إلى الحصول على مكافأة عادلة (مادية أو معنوية) لما يقدم من عمل . وعادة ما تطالب مثل هذه الحركات بحقوق المرأة سواء السياسية (حق المرأة فى الانتخاب والمشاركة فى السلطة) ، أو الاجتماعية (حق المرأة فى الطلاق وفى حضانة الأطفال) ، أو الاقتصادية (مساواة المرأة فى الأجور مع الرجل) . وبرغم أن حركات تحرير المرأة تصدر عن مفهوم تعاقدى للمرأة (باعتبارها فرداً مستقلاً بذاتها لا باعتبارها أما وعضوا فى أسرة) ، فإن حركة تحرير المرأة تدور فى إطار بعض القيم الاجتماعية المستقرة ، وتقبل المفهوم التقليدى لدور المرأة فى المجتمع والمفهوم التقليدى للطبيعة البشرية .

● هيمنة الذكر

أما حركات التمركز حول الأنثى فهى رؤية معرفية أنثروبولوجية اجتماعية تقف على الطرف النقيض من كل هذا ، فهى تصدر عن مفهوم أساسى هو أن تاريخ الحضارة البشرية إن هو إلا تعبير عن هيمنة الذكر على الأنثى ، وهى هيمنة تمت إثر معركة أو مجموعة من المعارك حدثت فى عصور موغلة فى القدم حينما كانت المجتمعات كلها مجتمعات أمومية تسيطر عليها الأنثى أو الأمهات ، وكانت الآلهة إناثاً ، وكان التنظيم الاجتماعى ذاته يتصف بالأنوثة ، أى بالرقة والوئام والاستدارة (التى تشبه نهود الإناث وعضو التأنيث) . ثم سيطر الذكور وأسسوا مجتمعا مبنيا على الصراع والسلاح (الذى يشبه عضو التذكير) وعلى الغزو (الذى يشبه اقتحام الذكر للأنثى) . انطلاقا من هذه الرؤية للتاريخ يطرح دعاة التمركز حول الأنثى برنامجا إصلاحيا يدعو إلى إعادة صياغة كل شىء، التاريخ واللغة والرموز ، بل والطبيعة البشرية ذاتها . فالتاريخ فى تصورهم هو سرد للأحداث من وجهة نظر ذكورية، ولابد أن يعاد السرد من وجهة نظر أنثوية ، والرموز التى فرضها الذكر لابد وأن تضاف لها رموز أنثوية ، واللغات ، التى عادة ما تفضل صيغة التذكير على صيغة التأنيث ، لابد وأن يعاد بناؤها بحيث تستخدم صيغا محايدة أو صيغا ذكورية أنوثية . وهذا البرنامج الاصلاحى يهدف فى نهاية الأمر إلى إعادة صياغة الإدراك البشرى ذاته للطبيعة البشرية كما تحققت عبر التاريخ وتجسدت فى مؤسسات تاريخية وأعمال فنية ، فهذا التحقق والتجسد إن هما إلا انحراف عن مسار التاريخ الحقيقى

بعـــد استيلاء الذكور عليـــه !

وفي تصورنا أن الرؤية الكامنة وراء هذه المحاولة هي رؤية حلولية تستند إلى رؤية واحدية أو أحادية كونية إذ تحاول اختزال الكون بأسره إلى مستوى واحد ، فتدمج الإله والطبيعة والإنسان والتاريخ في كيان واحد وتحاول أن تصل إلى عالم جديد تماما تتساوى فيه الأطراف بالمركز ، عالم لا يوجد فيه قمة وقاع ولا يمين ويسار (ولا ذكر وأنثى) ، وإنما يأخذ شكلا مسطحا تقف فيه جميع الكائنات الإنسانية والطبيعية على نفس السطح وتصفى فيه كل الثنائيات . بل إن تحقق هذا النمط يتم عند نقطة الصفر حين تصبح كل الكائنات شيئا واحدا . وبينما تعترف حركة تحرير المرأة بالاختلافات بين الرجل والمرأة ، وتحاول ألا يكون هناك تفاوت اقتصادي أو إنساني نتيجة هذا الاختلاف ، فإن حركة التمركز حول الأنثى لا ترفض التفاوت وحسب وإنما ترفض الاختلاف ذاته . وبينما تعترف حركة تحرير المرأة بأن هذا الاختلاف يؤدي إلى اختلاف في توزيع الأدوار وتأمل ألا ينجم عن اختلاف الأدوار ظلم أو قمع اجتماعي ، فإن حركة التمركز حول الأنثى ترفض توزيع الأدوار وتطالب أن يصبح الذكور آباء وأمهات ، وأن تصبح الإناث بدورهن آباء وأمهات ، بل إن الأمر يمتد ليشمل الاحاسيس ذاتها . فالمرأة يجب أن تشعر مثل الرجل ، والرجل مثل المرأة . (والحالة المثالية هي حالة اليوني سكس Unisex حيث نصبح كلنا - والعياذ بالله - جنسا واحدا ، وكيانا متوحداً ، وكأننا في منزلة أقل من منزلة النمل والنحل الذي ينقسم على الأقل إلى ذكور وإناث) . ويمتد الأمر لرؤية الإنسان للإله . فحركة التمركز حول الأنثى ترى أن كل التاريخ يدور حول مركز ، هذا المركز هو الرجل ، عضو التذكير ، السلطة ، الإله الذكر . ويجب أن يحل محل هذا شيء محايد بحيث ينظر للإله باعتباره ذكرا وأنثى ، أو ذكرا ثم أنثى ، أو ذكرا في أنثى ، أو لا ذكر ولا أنثى (وهذه هي مرحلة ما بعد الحداثة حين تسقط كل الحدود ويضمر المركز ثم يختفي) .

والفارقة الكبرى تكمن في أن حالة السيولة الحلولية الكونية تثبت عادة استحالتها ، فينتج عنها حالة تفتت ذري ، وتصبح القضية ليست جعل الذكر مثل الأنثى وإنما ينتج عنها ثنائية صلبة تصبح ثنوية فيتم عزل الأنثى تماما عن الذكر باعتبار أن ما تحس به الأنثى لا يمكن للذكر أن يحس به ، وباعتبار أن التجربة التاريخية للأنثى مغايرة تماما للتجربة التاريخية للذكر . ويمكننا هنا أن نرى تطورا تاريخيا في قضية علاقة الذكر بالأنثى ، من مساواة الذكر بالانثى إلى

ظهور الخنثى ، وأخيرا ظهور الأنثى التى لا علاقة لها بالذكر . وحينما نصل الى هذه المرحلة ، فإننا لا نتحدث عن برنامج للإصلاح وإنما عن برنامج تفكيكى تختفى فيه كل المقولات الثنائية التقليدية ، مثل : إنسان / طبيعة ، أنسان / حيوان / ، ذكر / أنثى ، ويختفى المركز تماما ، ويصبح التمييز مستحيلا . عند هذه المرحلة ، تلتحم حركة التمركز حول الأنثى بحركات حلولية مماثلة كالدفاع عن الجنسمثلية الأنثوية ، وعبادة الأرض ، فهى كلها حركات تفترض أن ما هو مطلق لا يتجاوز المادة وإنما يكمن ويحل فيها ، فهو الأرض بالنسبة لعبدة الطبيعة ، وهو الأنثى بالنسبة لحركات التمركز حول الأنثى ، وهو الطبقة العاملة بالنسبة للفكر الشيوعى ، والمنفعة واللذة الفردية بالنسبة لليبرالية . وهذا المطلق الحال هو الذى يحرك التاريخ .

ويبدو أن المرأة اليهودية كانت مرشحة أكثر من غيرها لأن تنخرط فى صفوفها فى حركات تحرير المرأة ثم حركات التمركز حول الأنثى فى الغرب لأسباب عديدة ، من بينها :

١ - ارتفاع معدلات العلمنة بين الإناث اليهوديات فى الغرب بنسبة تفوق مثيلتها لا بين أعضاء المجتمع وحسب وإنما بين الذكور اليهود أنفسهم (ولعل هذا يعود إلى أن الأنثى اليهودية كانت لا تتلقى تعليما دينيا ، كما أنها كانت غير ملزمة بأداء كثير من الشعائر الدينية اليهودية).

٢ - لابد وأن الفكر الدينى اليهودى ولّد لدى الإناث اليهوديات قابلية عالية للغاية لتقبل نزعة التمركز حول الأنثى والدعوة إليها - ويلاحظ أن مقولة يهود/أغيار تقابل تماما مقولة أنثى/ذكر . كما أن التمركز حول الأنثى يشبه التمركز حول الهوية اليهودية . ورؤية تاريخ البشر كتاريخ ظلم وقمع واضطهاد (اليهود والإناث) ، هو الآخر ، عنصر مشترك . ويشترك الفريقان فى البرنامج التفكيكى العدمى .

عصر التنوير

ويعود تاريخ حركة تحرير المرأة بين أعضاء الجماعات اليهودية فى الغرب إلى عصر التنوير فى ألمانيا ، حيث عبرت عن نفسها فى ظاهرة صالونات النساء الألمانيات اليهوديات ، مثل راحيل فارنهاجن ، وفى ظهور أدبيات يهوديات مثل إما لازاروس ، ونساء يهوديات فى الحياة العامة مثل روزا لوكسمبرج (فى الحركة الشيوعية) وهنريتا سيزولد (فى الحركة الصهيونية) . ويمكن القول أن الحديث عن حركة مستقلة لتحرير المرأة اليهودية أمر صعب إن لم يكن مستحيلا ، إذ أن حركة تحرير المرأة هى مسألة متعلقة

بحقوق المرأة فى المجتمع ، وهو أمر يقع داخل رقعة الحياة المدنية العامة (وكفاح المرأة اليهودية للحصول على حقوقها لا يختلف فى الواقع عن كفاح النساء غير اليهوديات ، بل هو جزء عضوى منه) . وقد تركت حركة تحرير المرأة أثرها على المؤسسات الدينية اليهودية التى بدأت تفتح أبوابها للنساء . وبدأت اليهودية الإصلاحية والمحافظة تحث النساء اليهوديات على المشاركة فى الصلوات التى تقام فى المعابد اليهودية التى لا يفصل فيها الجنسان . كما أنه أصبح هناك احتفال ببلوغ البنات سن التكليف الدينى (بت متسفاه) على غرار احتفال البرمتسفاه ، أى بلوغ الصبيان هذه السن .

أما حركة التمركز حول الأنثى فهى أمر مختلف تماما . فهذه الحركة ، كما أسلفنا ، ليست مسألة حقوق ، وإنما هى قراءة للتاريخ ، وموقف من اللغة والرموز والجسد ، ومن ثم يمكن الحديث عن حركة يهودية للتمركز حول الأنثى تركت أثرا جذريا على الجماعات اليهودية وعلى العقيدة اليهودية وأدت يهودية متمركزة حول الأنثى وصفت بأنها حركة تحاول تركيب بنية دينية جديدة ، تتكون من عناصر يجمعها مفكرو وقيادة الحركة لإعادة بناء اليهودية بطريقة ترضى الإناث وتفى بحاجاتهن الأنثوية الخاصة . وهذه العناصر هى مجموعة من الأساطير الشعبية والأفكار الوثنية التى تراكمت داخل التركيب الجيولوجى اليهودى (مثل أسطورة ليليت) وهو تركيب جعل من الممكن على دعاة اليهودية المتمركزة حول الأنثى توليد نسقهم من داخل النسق الدينى ذاته ، لأن هذا التركيب يحوى كل شىء تقريبا ، كما أنه يولد قابلية عالية لليهودية للتغير حسب الأوضاع والملابسات التاريخية . وقد وصفت جوديث بلاسكو ، إحدى مفكرات حركة اليهودية المتمركزة حول الأنثى ، بأنها حركة تسعى إلى توسيع نطاق التوراة ، و من ثم فهى تثير الشكوك بخصوص نهائية النص التوراتى ومطلقيته ، فهى يهودية معادية للمطلق الدينى المتجاوز للطبيعة والإنسان ، وتطرح بدله نسقا يتغير بتغير الملابسات التاريخية والرغبات البشرية ، الجماعية والفردية . وهى فى هذا لا تختلف كثيرا عن لاهوت موت الإله ، حين يموت الإله ويصبح المطلق الوحيد هو حادث الإبادة النازية ليهود أوربا وإنشاء الدولة الصهيونية . وقد صرحت إحدى مفكرات الحركة بأن إعادة النظر فى وضع المرأة فى سياق العقيدة اليهودية هو أمر جوهرى يشبه إعادة دراسة المسألة اليهودية فى سياق التاريخ العام .

وكانت اليهودية الإصلاحية هى أول

الفرق التى استجابت لحركة التمركز حول الأنثى اليهودية ووافقت اليهودية المحافظة على أن تحسب النساء ضمن النصاب (المنيان) اللازم لإقامة الصلاة فى المعبد ، كما سمح لهن بالقراءة من التوراة فى المعبد . وهذه أمور كانت مقصورة على الذكور البالغين . ثم وافقت اليهودية المحافظة على ترسيم الإناث كحاخامات محافظات فى ١٩٨٥ ، وكمنشدات عام ١٩٨٧ . وقد اتسع النطاق بطبيعة الحال ليشمل كل الشعائر .

وقد أسست بعض النساء الأمريكيات اليهوديات من المدافعات عن التمركز حول الأنثى جماعة « نساء الحائط » التى تطالب بحق تلاوة التوراة أمام حائط المبكى ، وارتداء شال الصلاة وهو حق مقصور على الرجال . كما بدأت بعض المؤمنات باليهودية المتمركزة حول الأنثى بارتداء شيلان للصلاة حريمى لونه بنى وطاقيات للصلاة موشاة بحاشيات حريمية مثل الدانتلا ، وتمائم للصلاة (تيفلين) مزينة بالأشرطة (وإن كان بعضهن يرفض الشيلان والطاقيات والتمائم لأنها ذكورية أكثر من اللازم وتذكرهن بآبائهن !) . ومنذ عام ١٩٨٣ ، بدأت بعض المعابد اليهودية غير الأرثوذكسية بتعديل الصلوات حتى تتم الإشارة إلى الآباء (الباتriاك) وزوجاتهن الأمهات (الماتريارك) .

وتحاول بعض المعابد تغيير صيغة الإشارة إلى الإله باعتباره ذكرا ، فيشار إليه باعتبار أنه ذكر وأنثى فى ذات الوقت ، حتى تتحقق المساواة التامة بين الجنسين ! فيقال على سبيل المثال «إن الخالق هو الذى/هى التى وضع/وضعت .. إلخ» ، بل ويشار إليه أحيانا بالمؤنث وحسب ، فهو «ملكة الدنيا » ، و « سيدة الكون » و « الشخيناه » . كما أن بعض دعاة حركة التمركز حول الأنثى يستخدمن كلمات لا جنس لها (« أن جندرد » Ungendered) فى اللغة الإنجليزية مثل : « فريند » Friend (صديق) « وكومبانيون » Companion (رفيق) و « كوكريتور » Co-creaton (المشارك فى الخلق) .

● اليهودية وحركة التمركز

كما تحاول الحركة اليهودية المتمركزة حول الأنثى تطهير الخطاب الدينى تماما من أى استعارات قد يفهم منها الانقسام إلى ذكر وأنثى مثل استعارة الزواج والزفاف المتواترة فى العهد القديم . ولعل من أهم التغييرات فى عالم الرمز ظهور ليليت (نسبة إلى الليل والظلمة) بديلا لحواء ، وهى حسب الأساطير التلمودية الزوجة الأولى لآدم قبل حواء ، وقد تمردت على وضعها كأنثى (فرفضت مسألة أنها

تنام تحت الرجل لا فوقه !) كما تمردت على الإله . وأصبحت تنتقم من الرجال والنساء المتزوجات بأن تقتل الأطفال المولودين . فليليت ليست عكس حـــواء وحسب ، بل هى عكس الأنوثة والأمومة والحالة البشرية ذاتها ، فهى شخصية تفكيكية من الطراز الأول تنتمى إلى عالم ما بعد الحداثة الذى لا يوجد فيه لا مركز ولا معنى (وقد صدرت فى عام ١٩٧٦ مجلة ليليت لتعبر عن فكر حركة التمركز حول الأنثى أسستها سوزان وايدمان شنايدر احدى أهم مفكرات الحركة) .

ومن التعديلات الأخرى التى أدخلت على العبادة اليهودية ، الاحتفـــال بعيـد « روش هوديش » ، أى « عيد القمر الجديد» باعتباره عيدا أنثويا . وتشير بعض مفكرات الحركة اليهودية للتمركز حول الأنثى إلى علاقة القمر بالعادة الشـــهرية ، وإلى أن فى التلمود عبـارة تقول أن القمر سيصبح يوما ما مســاويا للشمس ، ويفسر كل هذا على أنه إشارات إلى المساواة المطلقة بين الذكر والأنثى واختفاء أى اختلاف بينهما . ويقيم دعاة حركة التمركز حول الأنثى احتفالات خاصة بالعادة الشهرية والاجهاض والولادة. وقد وصفت إحداهن الاحتفال بالمخاض وإنجاب الطفل وقالت أنها عثرت عليه فى كتاب يسمى سيفر هاتشبى (وقد ذكره أحد الحاخامات ليحذر أعضاء الجماعة اليهودية من الانغماس فى الخرافات الشعبية الوثنية) .

وقد أعد دعاة حركة التمركز حول الأنثى هاجاداه لعيد الفصح خاصة بالنساء وكتبتها الأمريكية إستير بروند والإسرائيلية بروند نعومى نيمرود ، وكلاهما يدير مجموعة من النساء اليهوديات المدافعات عن حركة التمركز حول الأنثى . ويبدأ الاحتفال بعيد الفصح بالنساء جالسات على الأرض وقد فرشن أمامهن مفرشاً وتوجـه الأسئلة لأربع بنات ، بدلا من أربعة أولاد ، أما كأس النبى إلياهو فيصبح كأس الكاهنة مريم . وقد كتبت كتب مدراش خاصة متمركزة حول الأنثى . وقد أدخلت الحركة أيضا تعديلات عديدة ذات طابع سطحى بعضها يكاد يكون كـوميديا . فمثلا هناك احتفال يسـمى « بريت بنوت يسرائيل » بدلا من « بريت ميلاه (الختان) » تتلى فيه صلاة خاصة تؤكد أهمية الأمهات : أولهن بطبيعة الحال ليليت ثم حواء وزوجة نوح وسارة ورفقة وليئة وراحـيل . ويقام احـتفال التشـليخ (بعد عيد رأس السنة) حيث تقوم النساء بإلقاء خطاياهن فى الماء . وتأكل النساء طعاما مستديرا (فطائر) علامة الخصوبة والأنوثة ، ويشعلن شموعا يوم السبت على أن توضع الشموع فى طبق ملىء بالماء

حتى تشبه القمر . وتجمع النساء الصدقة فيما بينهن ولا ينفقنها إلا على حركة التمركز حول الأنثى . ويوجد الآن معابد يهودية إصلاحية ومحافظة للمساحقات ، وقد رسمت لها (كحاخامات) النساء المساحقات وتوجد الآن مدرسة تلمودية عليا تسمح بالتحاق الشواذ جنسيا والمساحقات لها . وقد يكون من الأفضل تصنيف اليهودية المتمركزة حول الأنثى على أنها من بين العبادات الجديدة ، أكثر من أن تكون استمراراً لليهودية الحاخامية.

وسواء وافقني القارىء على تقييمى لحركة التمركز حول الأنثى ، كما تتبدى داخل اليهودية ، أم لم يوافقنى ، فإنه لا يمكن إلا أن يتفق معى أن ما تنادى به هذه الحركة يختلف تماما عما تنادى به حركة تحرير المرأة . فأنا كرجل يمكننى أن أنضم لحركة تحرير المرأة ، ويمكن أن أدخل فى حوار بشأن ما يطرح من مطالب لضمان تحقيق العدالة للمرأة ولضمان ألا تتحول الاختلافات بين الجنسين إلى أساس بيولوجى للتفاوت الاجتماعى والاقتصادى بينهما ، وكأن المرأة تعادل الرجل الأسود فى المنظومة العنصرية الغربية البيضاء ويمكن للمجتمع الانسانى أن يتبنى برنامجا للإصلاح فى هذا الاتجاه ويمكن لكل من الرجال والنساء تأييده والوقوف وراءه ، أما حركة التمركز حول الأنثى فلا يمكن أن أنضم لها حتى لو أردت ، فالافتراض أننى كرجل لايمكن أن أشعر بمشاعر المرأة ، كما أننى مذنب أحمل وزر هذا التاريخ الذكورى ، رغم أنه ليس من صنعى ولايوجد برنامج للإصلاح وإنما يوجد برنامج للتفكيك يهدف إلى تغيير الطبيعة البشرية ومسار التاريخ والرموز واللغات حتى تظهر الانسانية الجديدة التى يتساوى فيها الرجل تماما مع الأنثى فى كل شىء بما فى ذلك المشاعر الباطنية أو ينفصل فيها الرجل تماما عن الأنثى فى كل شىء (ويمثل هذا التأرجح بين قطبين يسم كل الحركات الثورية الحلولية التى تهدف إلى تصفية أى ثنائيات وتنتهى بالسقوط فى أكثر الثنائيات صلابة) .

وحركة التمركز حول الأنثى تشبه تماما فى بنيتها الحركة الصهيونية التى تذهب إلى أن الأغيار لايمكنهم أن يشعروا بشعور اليهود ، وهم يحملون وزر تاريخ قام باضطهاد اليهود جيلا بعد جيل ، والبرنامج الاصلاحى الصهيونى لايهدف إلى تحسين أحوال اليهود باعتبارهم أقلية دينية فى أوطانهم وإنما هو برنامج تفكيكى يطالب بسحب اليهود من مجتمعات الأغيار (مثلما تسحب المرأة فى المنظومة المتمركزة حول الأنثى من مجتمع الرجال) .



فتاة امريكية يهودية تحتفل في رأسها ببلوغها سن التكليف الديني فترتدي شال الصلاة طاليت ، وتحمل لفائف التوراة وهو الأمر الذي تحرّمه الشريعة اليهودية

ولنا أن نقول نفس الشيء بالنسبة لما يحدث في الدين فما يحدث في حالة اليهودية المتمركزة حول الأنثى ليس إصلاحا دينيا يهدف إلى تطوير بعض الشعائر حتى يمكن لليهودي أن يصبح إنسانا عصريا ، وإنما هي عملية تفكيك للدين تغير من هويته وملامحه وتوجهه حتى يصبح من العسير تسميته دينا على الإطلاق ؟ فإذا كان النص المقدس نصا زمنيا تاريخيا وإذا كانت العقائد مسائل اجتماعية اتفاقية وإذا كانت الشعائر تدور داخل نطاق كل هذا ، فما الفرق بين النص المقدس ومجلة نيوزويك مثلا ؟

لقد دخل الانسان الغربي عالم مابعد الحداثة ، عالم حلولي وثني دائري عيشي مثل صمت الحملان ، عالم يحكمه إله مجنون ويعيش فيه بشر ، لا يمكن الحكم عليهم من منظور أي منظومة قيمية ، فهم خليط من الذئاب والأفاعي والأميبا ولاحول ولاقوة إلا بالله .

ماجريت وسيريالية الواقع

بقلم : د . صبري منصور



ماجريت في مرسمه ١٩٦٣

بات علينا أن ننتبه إلى أهمية ذلك الدور الذي يمكن أن يؤديه الفنان من أجل الكشف عن آفاق جديدة في الحياة الإنسانية ، فهو دور لا يقل في قيمته وقدره وخطورته عما يؤديه العالم حين يخترع أدواته العلمية، ويطور من أساليب التقنية.

حالة إنسانية سنة ١٩٣٠٣



وإنما الفرق بينهما فى الوسائل ، ويجمعهما نبل الهدف من أجل ارتقاء الانسان ، وإثراء معرفته عن نفسه وعن الكون الذى يعيش فيه. وإذا كنا نطلب من مجتمعنا أن يوفر إمكانيات البحث العلمى للمبرزين فى مجال العلوم ، فإننا فى نفس الوقت ندعو إلى أن تمنح الامكانيات لأبناء الوطن المبدعين فى مجال الفنون جميعا ، فعن طريق هؤلاء يتشكل الوجدان وتصقل الرؤى ، وترهف المشاعر .

ولقد أصبح لزاماً علينا أن نعيد النظر فى تقييمنا للفنون الحديثة ، التى ينظر إليها على أنها ضرب من العبث لا جدوى منه ، بل أضحى الحديث عنها - وقد خرجت عن المألوف - ضرباً من الاستهتار الممزوج بالسخرية عن فائدتها وضرورتها ، مع أن الجاد من تلك الفنون لا يقل فى أهميته وقوة أثره عن النظريات العلمية والتطور التكنولوجى المعاصر .

ولسنا بالطبع من دعاة التقليد أو المحاكاة لفنون ظهرت فى بيئات غريبة عنا، وجاءت مواكبة لتطورها الحضارى المختلف ، وإنما هى دعوة للدراسة والتعرف والتأمل فى إبداع إنسانى ، ومدى قدرته على ارتياد مناطق مجهولة ، والمغامرة من أجل حياة انسانية أفضل .

السيريالية اتجاه فنى جاد

ومن الاتجاهات الفنية الحديثة التى ظلمت فى أوساطنا التعليمية والثقافية اتجاه المدرسة السيريالية فى الفن والأدب والسينما ، وقد أصبحت عنوانا على ما يستغلق فهمه ، وكلمة يتندر بها الغافلون حين يواجهون ما يستدعى إعمال العقل وتفتح الوجدان وإطلاق الخيال .

مع أن السيريالية كانت اتجاها فنيا جاداً ، وضعت هدفاً لها الكشف عن تلك العوالم الخفية من النفس البشرية ، وهى بذلك محاولة للفهم واستجلاء أسرار ذلك العالم المبهم الذى يكتنفه الغموض والإبهام. وكلمة السيريالية تعود إلى الشاعر الفرنسى أبولينير ، فقد كان أول من استخدمها حين وصف بها المسرحية التى ألفها من فصلين (أثداء تيريزيا)

وقدمت فى أول عرض لها فى يونيو ١٩١٧ .

وقد مهّد اتجاه (الدادية) بريادة الفنان الفرنسى تريستان تزارا عام ١٩١٦ الطريق للسيريالية ، فالدادية كانت ثورة على الجمود الفكرى ، وعلى كل ماهو

الحنين للوطن عام ١٩٤١



تواردخواطر عام ١٩٦٠



الحسن الطبيعي عام ١٩٦٣



متعارف عليه وعلى القوالب الجاهزة في التعبير الفني .

وحين أسس العالم النفسي أندريه بريتون مجلة الأدب عام ١٩١٩ فإنه قد استعمل كلمة السيريالية ككلمة تحدد صفات طريقة الكتابة الفورية أو التلقائية التي كان يجربها حينذاك - محاولاً التجديد على الطريقة الدادية - وتمثلت في أعمال أدبية تجريبية يطلق فيها الخيال دون رابط ليسطر ما يعن له .

وكان بريتون أكثر ألفة مع سيادة مدرسة التحليل النفسي للعالم فرويد حين وصل إلى نتيجة أن الصور الرمزية التي تظهر في الأحلام يمكن تحليلها والاستفادة منها لتحقيق تأثيرات شعرية .

وقد نشر البيان الأول للسيريالية عام ١٩٢٤ ونشر البيان الثاني في مجلة السيريالية الثورية التي أسست عام ١٩٢٤ وكان بريتون يتولى مسئولية تحريرها ، ومنذ عام ١٩٢٥ أعلن ارتباط السيريالية الوثيق بالحركة الشيوعية ، وما بين أعوام ١٩٢٥ و ١٩٣٠ ظهرت دورية تحمل اسم (السيريالية في خدمة الثورة) وتضمنت بيانات أدبية وشعرية وسياسية ، وتلك كانت الرغبة الأكيدة لبريتون في ربط الفنون التشكيلية بفنون الأدب . ويحتوي العدد الأول من دورية السيريالية في خدمة الثورة على تصريحات مؤيدة لوجهة نظر بريتون السيريالية من أسماء عديدة بينهم الشاعران أراجوان وإيلوار ، والمصورون ماكس ارنست وسلفادور دالي وإيفيز تانجي ، ومن السينمائيين جورج سادول ولويس بونويل صاحب الأفلام السيريالية الشهيرة .

وهكذا فإن أصول الحركة الجديدة رغم أن بدايتها كانت أدبية ، فإن تأثيرها امتد ليحتوي باقي الفنون .

كان بريتون يعتقد بأن التوازن المطلوب بين العقل والخيال ، أو بين الوعي واللاوعي قد أصابه الاضطراب والتشويش، وكان نتيجة ذلك ظاهرة الحرب العالمية ١٩١٤ - ١٩١٨ ، تلك الحرب التي كان لديه الحظ هو شخصياً أن ينجو من الهلاك فيها . وقد وضع بريتون نظاماً لاستكشاف اللاوعي الذي يتراءى غالبا في الأحلام .

« إنني اعتقد في الحل المستقبلي لتلك الحالتين اللتين تبدوان متناقضتين وهما الحلم والواقع ، وذلك الحل يكمن في نوع من الحقيقة المطلقة ، أو الحقيقة العليا .

وهكذا فان السرياليين يضعون كهدف لهم تقديم الحقيقة الداخلية والحقيقة الخارجية أو الظاهرية كعنصرين اثنين فى نسق واحد متحد . وهم يرتكزون فى ذلك على الاعتقاد بحقيقة سامية لأشكال خامسة فى امتزاج – قد أهمل فيما مضى – ويعتمدون على اللعب بالفكر الحرّ والأحلام ، ويبتعدون عن الميكانيكية الطبيعية ، وذلك إيماناً منهم بأن هناك علاقات أخرى بجانب الحقيقة الظاهرية والتى يكون العقل قادرا على ادراكها ، والتى تكون أيضا أساسية مثل المصادفة والوهم والتخيل والحلم والظواهر السيكولوجية ، هذه المجموعة المتنوعة تتحد وتتآلف فى نسق واحد وهو السيريالية، وهكذا تكون السيريالية هى الشكل الذى اتحدت واندمجت فيه كل التصورات مع بعضها البعض .. إن مهمة الفنان السيريالى هى أن يخلق حقيقة جديدة يمتزج فيها الحقيقى بغير الحقيقى ، فهو إذ يتبين أن الحياة والحياة العقلية بوجه خاص توجد فى شكلين أحدهما ظاهر محدد ، والثانى – وربما كان هو الجانب الأكبر – خفى غامض ، فإن مهمته هى اكتشاف أبعاد هذا الوجود الخفى ، والبحث فى البناء المختبئ للعالم الخارجى، وكذلك إثارة الدهشة من خلال التناقض من أجل إعطاء هزات لسطح الشعور حين يميط اللثام عن تلك الأشياء الغامضة المختفية فى اللاشعور وتؤثر فيه .

رينيه ماجريت

(١٨٩٨ – ١٩٦٧)

يبدو لنا ماجريت كنموذج فريد بين رواد المدرسة السيريالية ، وقد اتخذ لنفسه خطاً مستقلاً يظهر فيه كما لو كان عالماً يجرى تجاربه المعملية بحساسية فائقة وذكاء شديد ، مستخدماً فى ذلك قدراته التصويرية وتمكنه الفنى الذى اكتسبه فى دراسته المنظمة للفنون الجميلة .

وقد ولد ماجريت فى بلدة ليسين ببلجيكا عام ١٨٩٨ ، وبدأت موهبته الفنية تتضح حينما بلغ الثانية عشرة من عمره .

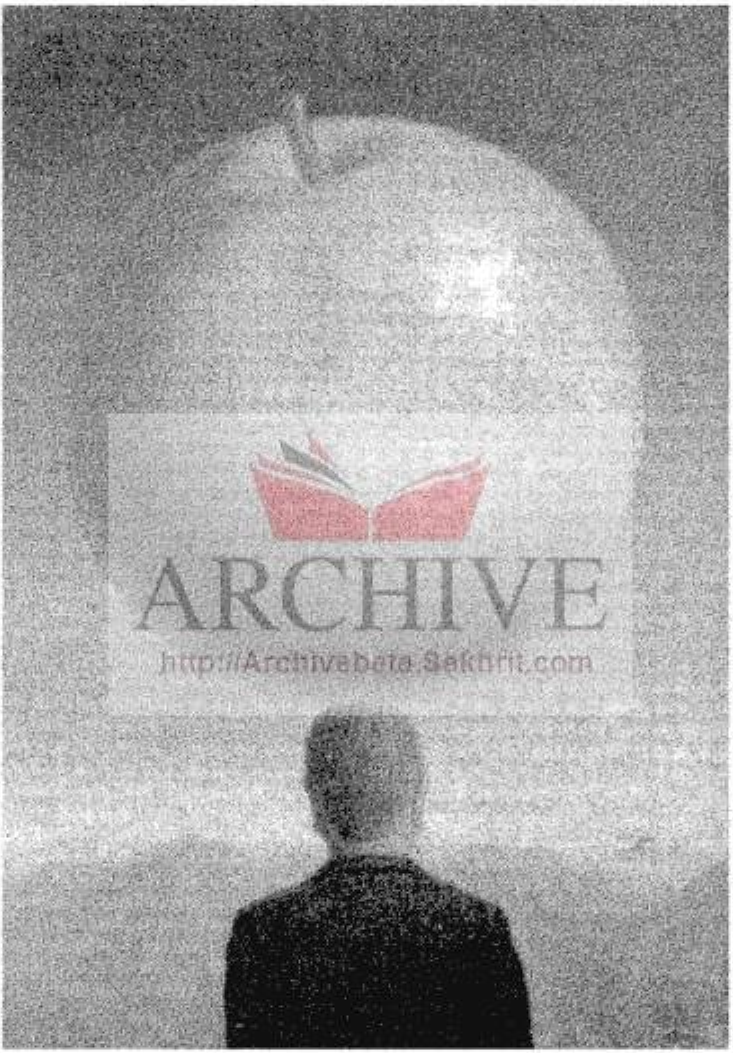
وفى عام ١٩١٢ انتحرت أمه غرقاً ، وقد ترك ذلك الحدث فى نفس الصبى آثاراً سوف تؤثر على مسار حياته الفنى فيما بعد ، فتلك الحادثة وأسبابها ظلّ الغموض يلفها فى عقل ماجريت .

والتحق عام ١٩١٦ بأكاديمية الفنون الجميلة ببروكسل .

المتعة الرئيسية ١٩٢٧



بطاقة بريد سنة ١٩٦٠





ماجريت مع أمه عام ١٨٩٩

ومنذ ذلك التاريخ بدأ الفنان حياته العملية في فن التصوير ، وبدأ عرض أعماله منذ عام ١٩١٩ والتي كان متأثراً فيها إلى حد كبير بتكعيبية بيكاسو ، إلى جانب تأثيرات هنري ماتيس وأندريه لوت ، وكذلك الفنانين الإيطاليين أصحاب الاتجاه المستقبلي .

وفي عام ١٩٢٥ صور ماجريت أول أعماله التي أدخل فيها فكرة شعرية ، وفيها تحقق وجود شيء ما غامض وغير معروف وكان عنوان اللوحة « الفارس الضائع » .

وقبل ذلك بعامين كان ماجريت قد التقى لأول مرة بأعمال المصور الإيطالي الشهير جيورجيو دي كيريكو والتي ظهرت في إحدى المطبوعات ، وجاء ذلك اللقاء مؤثراً غاية التأثير في أسلوب ماجريت الفني ، فقد أظهر له روعة سطوة الشعر على فن التصوير ، وكان اكتشافاً يمثل لماجريت رؤية جديدة في الفن .

وكانت لوحة الفارس الضائع من أوائل اللوحات التي نفذها ماجريت تحت تأثير اكتشافه الجديد ، وفيها يتخذ الفارس مكانه وسط غابة من الأشجار ذات الجذوع العملاقة التي تشبه قطع الشطرنج أو أرجلا لمائدة ضخمة ، ومنذ ذلك الكشف - الذي فتح له آفاقاً جديدة - تحول فن التصوير عند ماجريت إلى خبرة عجيبة ، وأصبح قادراً على استحضار خلاصة ذلك العالم الذي أحبه على قماش الرسم ، محولاً إياه إلى معادل تشكيلي وكان نتيجة ذلك وثمرته تلك الصور الحية المثيرة .

« لقد كنت قادراً على أن أرى المنظر كما لو كان مجرد ستارة موضوعة أمامي ، وأصبحت غير متأكد من عمق الحقول ، وغير مقتنع بالبعد اللانهائي لخط الأفق »

وفي جميع إنتاجه يعمل ماجريت الفكر والخيال ، فالأشياء تظهر في لوحاته موضوعة حيث لا يمكن أن نتوقعها أبداً

وجعل مهمته تخليق وتوليف أشكال جديدة ، أو إجراء تحويلات وتعديلات على الأشياء المعروفة ، أو تغيير المادة المألوفة لبعض العناصر ، واستعمال الكلمات ممزوجة ببعض الصور ، واستخدام بعض الرؤى من أحلام اليقظة ، وإيجاد علاقة غريبة بين جزئيات موجودة بالفعل ، كل ذلك كانت وسائل ماجريت لإقامة علاقة وإيجاد اتصال بين الوعى والعالم الخارجى .

وفى لوحة (حالة إنسانية) تبدو من داخل الحجرة لوحة تمثل تماماً ذلك الجزء من المنظر المختفى عن المنظر بواسطة اللوحة، لذلك فالشجرة المرسومة فى اللوحة تخفى عن النظر الشجرة الحقيقية المختفية ، إنها موجودة بالنسبة للرائى كما لو كانت فى ذاكرته ، ولا فاصل بين الوهم والحقيقة أو بين الحلم والواقع .

لقد ابتدع ماجريت عالماً غريباً يبدو كما لو كان تجارب معملية على الإدهاش ومفاجأة عين المتلقى وإثارة خياله ، وعالمه العجيب مؤلف من الأشياء والعناصر البسيطة التى يقابلها المرء أو يستعملها فى حياته اليومية العادية ، وقد جسدها بأسلوب واقعى بسيط ، لكنه تدخل بخياله وأعاد صياغة العلاقات فيما بين هذه الأشياء بطريقة تفاجئ المتفرج وتدعوه للتأمل ، فأوراق النبات التى تعلو عملاقة فى الفضاء ، أو الآلة الموسيقية النحاسية وقد ارتفعت منها ألسنة اللهب ، والوجه الآدمى الذى تجسد فى شكل عين الإنسان، أو تلك اللوحات التى تبدو زجاجية شفافة فتظهر من خلفها المشاهد المرسومة، أو الرجل ذو الجناحين الذى يعطى ظهره للأسد الرابض بجواره متأملا فى طمأنينة وسلام المنظر من أمامه ، أو الجبل الذى يتشكل فى جسم طائر عملاق ، أو السحب القابعة على الأرض ، والتفاحة الضخمة السابحة فى السماء ، وبقعة الضوء المبهر حين تحل محل وجه الرجل ، كل تلك العلاقات للعناصر العادية فى أوضاعها غير المألوفة تثير فى النفس التساؤلات ، وتهاجم مواطن الركود والخمول فى ذهن المتلقى .

لقد وظّف ماجريت كلّ خبرته التصويرية لكى يضع العالم الواقعى تحت مجهر الفحص والاختبار ، مؤمنا بالإمكانيات اللانهائية – التى لم تعرف بعد – للحياة الإنسانية ، مؤكداً أن غزوها هو الهدف الوحيد العاقل من وجود الإنسان .

قنديل أم هاشم

سيرة ذاتية ليحيى حقى

بقلم : فؤاد دواره

« قنديل أم هاشم » أول كتاب يصدر للأديب الكبير يحيى حقى ، وكان ذلك فى ابريل سنة ١٩٤٤ . ولا يعنى ذلك أنه يضم أولى محاولاته فى الكتابة ، بل سبقته كتابات عديدة ترجع إلى أوائل العشرينات وما بعدها .

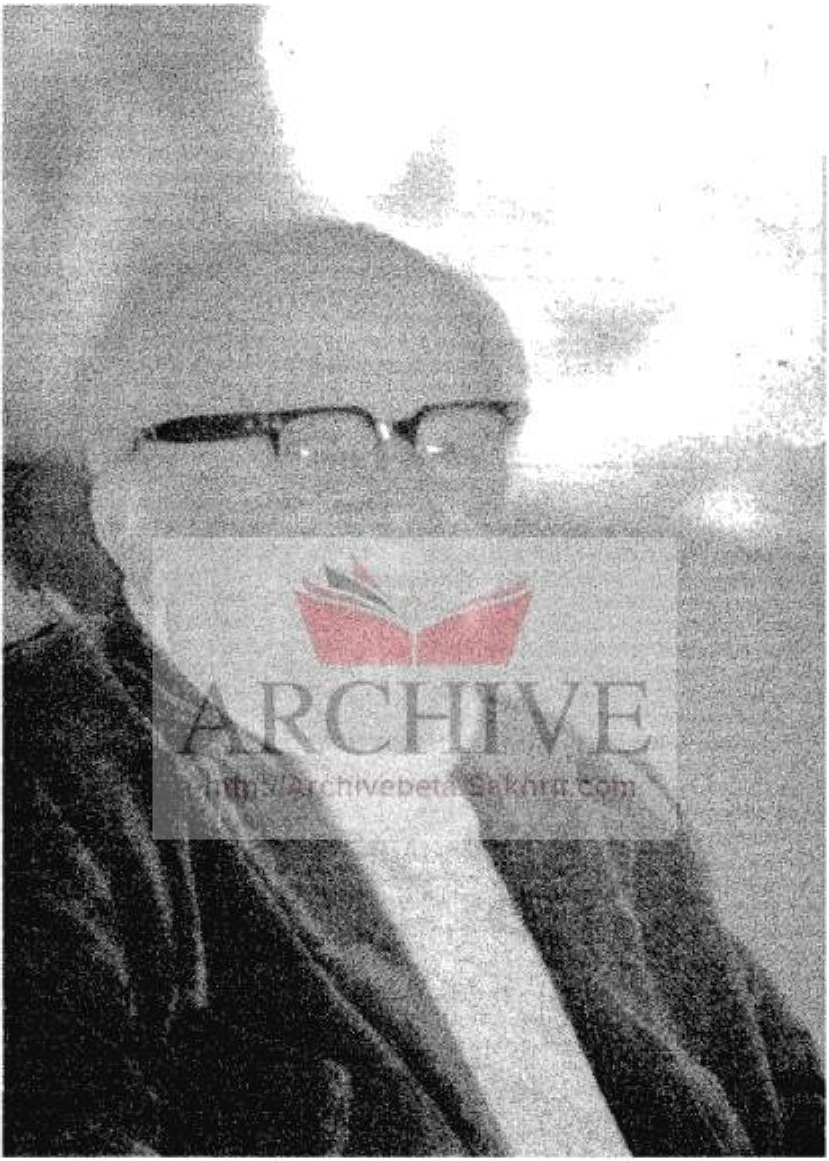
يضم الكتاب رواية قصيرة هى التى أطلق عليه اسمها ، وأربع قصص قصيرة ، بالإضافة إلى مقطوعات غزلية قصيرة من الشعر المنثور بعنوان « بينى وبينك » يمكن اعتبارها نماذج مبكرة لما سمى بعد ذلك « قصيدة النثر » .

فوبل الكتاب بحفاوة كبيرة ، وكان كافيا وحده ، بالرغم من صغر حجمه ، لادراج اسم مؤلفه بين كبار الكتاب .. ولم تزد كتب يحيى حقى العديدة التى صدرت بعد ذلك على تأكيد تلك المكانة ، ولم ينجح أى منها فى منافسة « قنديل أم هاشم » فى شعبيتها وشهرتها ، حتى أصبح من المألوف أن يسمى يحيى حقى « صاحب القنديل » ..

نتيجة لتلك الشعبية أعيد طبع « قنديل أم هاشم » مرات عديدة ، ووقع عليها الاختيار ليعاد طبعها فى الكتاب الأول من « مؤلفات يحيى حقى » التى أصدرتها « الهيئة المصرية العامة للكتاب » ابتداء من عام ١٩٧٥ . (توالى صدور المؤلفات بعد ذلك حتى اكتملت عام ١٩٩١ بالكتاب الثامن والعشرين ، وعنوانه « كناسة الدكان »)

وفى هذه الطبعة الأخيرة أضيفت « لقنديل أم هاشم » سيرة ذاتية مركزة لمؤلفها ، تحدث فيها عن السنوات الخمس التى عمل فيها بسفارتنا فى روما ، وعن الآثار التى تركها فى نفسه احتكاكه لأول مرة بالحضارة الأوربية ، ثم انتقل إلى تجربته فى « قنديل أم هاشم » فقال :

« وطوال تلك السنوات لم أنقطع عن التفكير فى بلادى وأهلها . كنت دائم الحنين إلى تلك الجموع الفقيرة من الغلابة والمساكين الذين يعيشون برزق يوم بيوم . وحين عدت إلى مصر سنة ١٩٣٩ شعرت



بجميع الأحاسيس التى عبرت عنها فى «قنديل أم هاشم» .

« إن بطل القصة شاب يريد أن يهز الشعب المصرى هزا عنيفا ويقول له :

– « اصح .. تحرك ، فقد تحرك الجماد ! .. »

« إنها قصة غريبة جدا كتبتها فى حجرة صغيرة كنت أستأجرها فى حى عابدين ، وعشت فيها لوثة عاطفية مثيرة عبرت عنها فى أناشيد « بينى وبينك » التى تجدها فى نهاية هذا الكتاب .

« واسم « اسماعيل » بطل « قنديل أم هاشم » أخذته من اسم صديق لى يدعى « اسماعيل كامل » كان آخر منصب شغله هو سفير مصر فى الهند ، فقد كان يمثل – فى نظرى – محاولة المزاوجة بين الشرق والغرب .

« إن اسمى لا يكاد يذكر إلا ويذكر معه « قنديل أم هاشم » كأنى لم أكتب غيرها .. وكنت أحيانا أضيق بذلك ، ولكن كثيرين حدثونى عنها واعترفوا بعمق تأثيرها فى نفوسهم .. منهم أديب يمنى قال لى :

« – لقد أحسست أنك تصفنى حين أعود من القاهرة إلى اليمن .

« وقال لى بائع كتب قديمة » :

« مش القصة اللى فيها واد بياكل بفتيك فى أوربا وأهله بياكلوا طعمية فى مصر » !!

« وحين أحاول البحث عن سبب قوة تأثير « قنديل أم هاشم » لا أجد ما أقوله سوى إنها خرجت من قلبى مباشرة كالرصاصة ، وربما لهذا السبب استقرت فى قلوب القراء بنفس الطريقة .. »

وحين نبحث عن سر تفوق هذه الرواية القصيرة ، وقوة تأثيرها فى نفوس كل من قرأوها تواجهنا أولا تلك الشحنة الروحية العارمة التى حمّلها الكاتب لها ، فيها مزيج عجيب من الافتتان بحب بلاده .. « فى ذهنه مصر عروس الغابة التى لستها ساحرة خبيثة بعصاها فنامت ، عليها الحلى و« رواق » ليلة الدخلة . لا رعى الله عينا لم تر جمالها ، ولا أنفا لا يشم عطرها . متى تستيقظ ؟ »

يمتزج هذا الافتتان ببلاده بالحرص على نهضتها وتقدمها ، والضيق بأهلها لأنهم لا يقومون بمسئوليتهم نحوها ونحو أنفسهم ، فإذا به يتحول من الافتتان والانبهار إلى نوع من الحب القاسى الذى يعبر عن نفسه بهذا الهجاء المقذع لموضوع الحب والافتتان :

« هؤلاء المصريون جنس سمج ثرثار أقرع أمرد ، عار حاف ، بوله دم ، وبرازه ديدان ، يتلقى الصفعة على قفاه الطويل بابتسامة ذليلة تطفح على وجهه . ومصر ؟ قطعة مبرطشة من الطين أسنت فى الصحراء ، تطن عليها أسراب من الذباب والبعوض ، ويغوص فيها إلى قوائمه قطيع من الجاموس نحيل .. »

غير أن هذا الحب ليس مشاعر مجردة أو عاطفة مثالية ، بل هو شديد الارتباط بالمكان والناس الذين نشأ بينهم فى حى السيدة زينب وعايشهم عن قرب ، وأحس بآلامهم وشاركهم جدهم ولهوهم ، وتعمق فى فهم نفسياتهم . ليس من قبيل

المصادفات أن يقول في سيرته الذاتية :

« .. مازلت إلى اليوم أعيش مع الست «ماشاء الله» بائعة الطعمية ، والأسطى حسن حلاق الحي ، وبائع الدقة .. ومع جموع الشحاذين والدراويش الملتفين حول مقام « الست » ..

ثم إذا بنا نجدهم جميعا وبنفس أسمائهم في الرواية !

إلى جانب الدقة في تصوير مظهرهم الخارجي وسلوكهم الغريب هناك قدرة واضحة في النفاذ إلى سرائرهم والتعمق في فهم نفسياتهم . يقول عن تأثير اقتراب العمى من فاطمة النبوية على حركات يديها :

« من ذا الذي يقول لاسماعيل : تنبه إلى هاتين اليدين كيف دبت فيهما خلسة حياة غريبة وحساسية يقظة ، ولست متعرف . ألا تفهم ؟ ألا تفطن إلى أن دليل اقتراب عاهة العمى في السليم هو أن تبدأ يده في الابصار ؟ »

فإذا أضفت إلى ذلك دقة أسلوب يحيى حقي وأحكامه وتحديده ، وشاعريته في كثير من المواضع ، أمثل لها بوصفه الرقيق لتلك الخاطئة التي تقصد مقام السيدة زينب طالبة بركتها وعفوها حتى يمكنها التوبة :

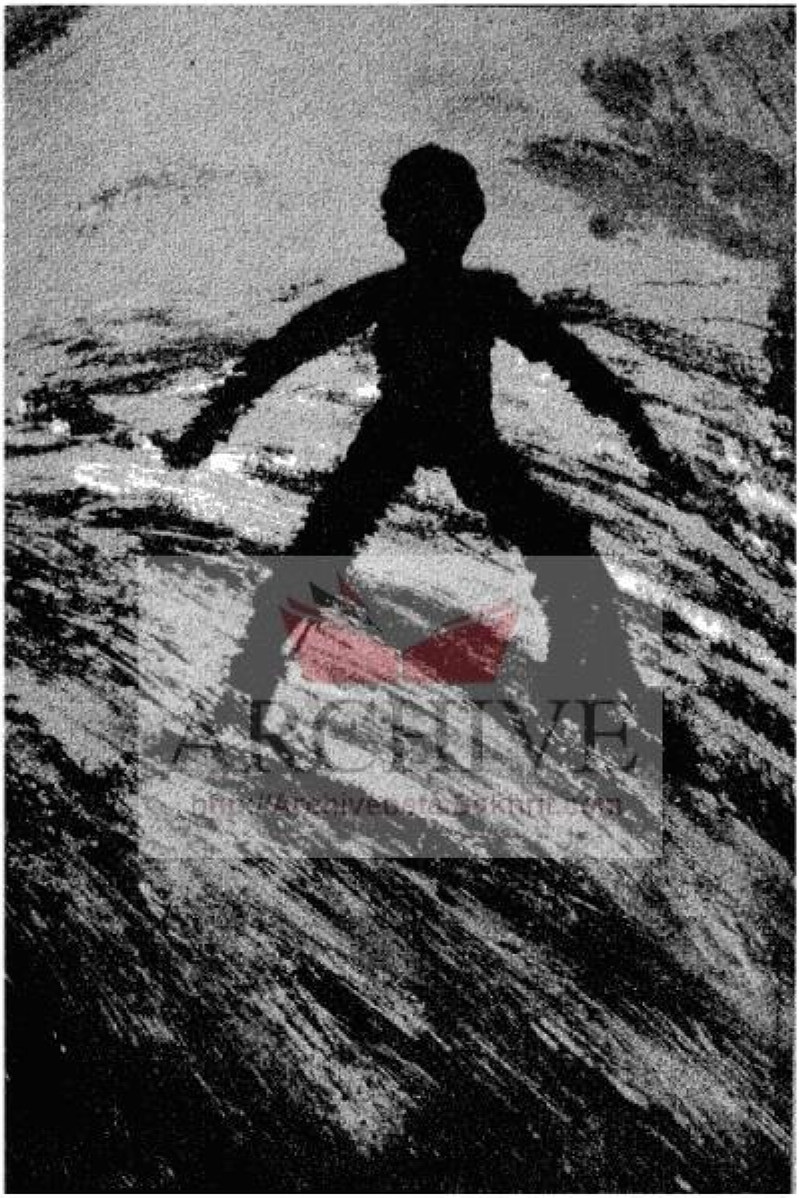
« وضعت الفتاة شفتيها على سور المقام . ليست هذه القبلة من تجارتها ، بل من قلبها ومن ذا الذي يجزم بأن أم هاشم لم تسع إلى السور وقد هيأت شفتيها من ورائه لتبادلها قبلة بقبلة ؟ .. »

ويمكن أن تلمس روعة الأسلوب ورقته في المواضع الثلاثة التي وصف فيها الكاتب ميدان السيدة زينب . الأولى من وجهة نظر محايدة ، والثانية أثناء ثورته على الجهل والخرافة ، والأخيرة في ليلة القدر بعد تصالحه مع نفسه ومع أهله ..

إن الحي هو نفسه في المواقف الثلاثة ، والشخصيات هي الشخصيات ، ولكن المختلف هو الحالة النفسية للبطل ، وتتبدى براعـــــة الكاتب في تلوين المكان والشخصيات بالألوان المسيطرة على البطل في تلك اللحظة .

إن الأدب الصادق - عند يحيى حقي - « هو الأدب الذي وان سجل وحلل وكتب بأسلوب واقعي لا يكتفي بذلك بل يرتفع إلى حد التبشير ، وهذا ما وجدته في الأدب الروسي فسحرني .. »

وهذا التبشير أوضح ما يكون في «قنديل أم هاشم» التي تدعو بقوة وبأسلوب درامي مؤثر للتصالح بين العلم والإيمان من أجل النهوض بجموع الشعب المستكينة المستسلمة لمصيرها التعس دون أي محاولة للمقاومة ، وفي الخاتمة التي إنتهى إليها البطل بعد أن نجح في علاج « فاطمة النبوية » التي لم تفقد إيمانها به لحظة واحدة ، فتزوجها وأنجبا البنين والبنات ، وافتتح عيادة لعلاج مرضى العيون في حي البغالة ، الزيارة بقرش واحد لا يزيد .. في هذه الخاتمة دعوة قوية لجميع المثقفين لينحازوا إلى طبقات الشعب المهضومة ، ويجندوا علمهم في خدمتها .. فهل بعد ذلك تبشير ؟!



محطتان

قصة قصيرة بقلم : رجب سعد السيد

** الأولى: في زمن الرمال الصفراء والزنبقة البيضاء.

موقع تحاصره كثبان الرمال العالية . عند الصباح ، أشعر بالرمال في أغشية أنفي ، وعالقة بشعيرات رموشي . تناثرت الفرقة ، فكان نصيبنا هذا الموقع الجديد.

انتهت أيام التوتر الشديد ، ولكننا - وقد كانت لقاءات الخيمة عند الكيلو ١٠١ - لم يكن [illegible] أعصابنا . هل [illegible] سترخي أم نستمر في التوتر ؟ [illegible] حقا - أن الحرب قد انتهت [illegible]

ولازلت لا أعرف موعداً لانتهاء تجنيدي . لازلت أحمل شرائطي الثلاثة على ذراعي الأيمن ، وأمارس تميزي كواحد من فئة المجندين الجامعيين (هـ . ع .) : أناقش والفلسف ، وتجمعني بضباطي جلسات خاصة تسقط فيها أقنعة الرتب العسكرية ونثرثر كزملاء دراسة.

تقاسمنا جرعات مريرة قبل أن يفقأ هدير مدافع الظهيرة التحضيرية عين الانتظار السمجة . لم يبخل أي منّا على نفسه بنصيب وافر من نشوة المشاركة في الفعل . لم يكن اللون الأسود أقل مساحة في عيني قبل أن تتولد في شفتنا صرخة الفعل ، ولكني كنت - معظم الأحيان - أثق في تغيير [illegible] بشارة [illegible] لا [illegible] تتخفى [illegible] شرنقة ، تحملها [illegible] دائمة الاهتزاز.

انتهى القتال ، وجئنا إلى هذا الموقع ، وبدأنا نتحدث من جديد . لم يعد لدينا ما نفعله إلا أن نتحدث ونزاول أعمالا

محطتان

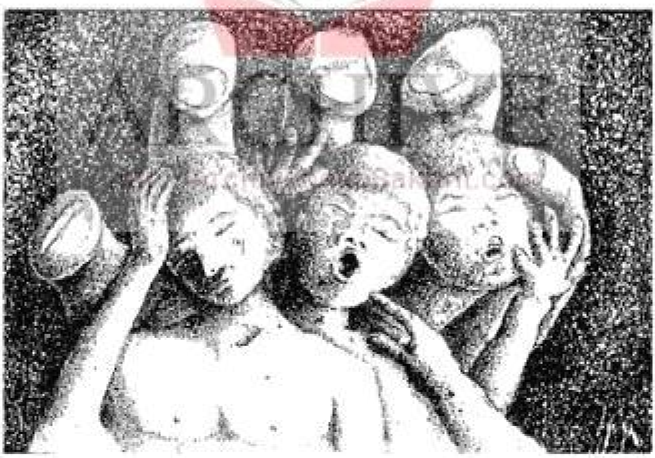
قصة قصيرة

تتمنى كثيرا من أداء المقاتلين .

وكنت ساخطا - معظم الوقت - ولا أخفى الإفصاح عن رأيى فى أن الزنبقة كانت بين أصابعنا ولكنها - كيف ؟ - اختنقت ، ولم أعد أرى غير متوالية من الستائر الرمادية ، وتلال من الرمال الناعمة ، تتناقلها رياح الصحراء ، وتجعل لها أسطحا ناعمة مخادعة ، وتتسلل ذراتها إلى جهازى التنفسى .

ولم أكف عن التساؤل : هل أفسدنا الحلم بأيدينا ، مرة أخرى ؟!

يتعاطف معى أحمد أمين طلبة والضبع وسالم وأحمد سعد وإبراهيم عبد الرازق ، أفراد فصيلتى : من قنا وأسيوط وسوهاج والمنوفية . يوقدون النار ويصنعون الشاى . نشرب بالمشاركة يختصوننى بالكوب الزجاجية الوحيدة . يقولون : حدثنا بهذا الحديث الذى يكاد - مثل شعرك - يبكينا .. حدثنا عن مصر التى لا نعرفها ، والتى كنا نظنها تبدأ وتنتهى بميدان باب الحديد وعربات الدرجة الثالثة فى القطارات المتهالكة ، المتجهة من الصحراء إلى قرانا ..



إنك تتحدث عن حبيبة تراها ماثلة أمامك، وقد أضفتنا إلى قائمة المحبين .. حدثنا بالمزيد عنها .. ما الذى تخبئه لنا فى قميصها الحريرى ، ونحن نعود إليها وقد وضعنا السلاح جانبا ؟ . هل هى أنثى طيبة ؟ . هل هى أم تفيض بالحنان وتوزع رغيف القلب على أبنائها بالعدل ؟ . هل ستتجمل من أجلنا وتكون صادقة فى وعودها ؟ .

ليس أحلى ولا اسهل من الحديث إلى أحباء . أتدفق بكل ما أعرفه . وأثناء تدفقى ، اكتشف ما لم أكن أعرفه ، وأحيانا كانوا يأخذون بيدى إلى أراض للبحث وإلى مصبات أنهار من شعر وعسل مصفى .

وفجأة ، يغتال تآلفنا صوت (الرتالة) الحاد المستمر البغيض . ارتبط صوتها بالإنذار بالخطر القادم فى أيام القتال .

الآن ، تدعـونا إلى (طابور) من السأم .

التأفف والتثاقل . يتحركون من كل جهات الموقع المتسع يكسوهم استرخاء مقاتل هجر خندقه . وكنت فى مقدمة المقتربين من مكان تجمع الطابور . رأيت قائد السرية متجهما ، يقف بدون غطـاء رأس ، ممسكا بعصا رفيعة ، وسمعته يصيح غاضبـا دامغـا الجنـود بانعدام الرجولة .

لم أحاول إلا انتقاء أقل الألفاظ إيلاما . أنا أحد جنوده الذين قاتلوا معه ، ويقذفهم – الآن – بالنقائص .. صحت :

– (هـؤلاء جنـود مقاتلون ، وليسوا أجراء فى أرضك .. قائد أنت أم ملاحظ أنفار بائس ؟ !) .

لن أنسى ملامح وجهه قبل أن يثور ويتراجع هـادرا إلى مكتبـه ، صائحـا فى مسـاعد السرية أن يأتى بى إلى المكتب ، مع (أورنيك الذنب) .

اقتادنى المساعد إلى محكمته . أمـر المساعد بالانصراف . بدأ الحديث غاضبـا . نصحنى أحد ضباطه – إشارة – أن التـزم الصمت . كان صوته العالى مستمرا فى توجيه الاتهامات إلىّ ، والتهديد بأشد العقاب . تدخل الضابط ملتمسا لى العذر ، فكلنا مرهقون وأعصابنا متوترة ، وطلب منى أن أعتذر . توقف القائد منتظرا اعتذارى .

قلت فى هدوء شديد :

– (لم أخطـىء لأعتـذر ! .. لم أكن لأسكت حين يقال لنا أشباه رجـال .. إننى أدافع عن رجولتى وشرف زملائى .. بل عن قائدى نفسه .. إذا كنا نحن أشباه رجـال فكيف ارتضيت لنفسـك أن تقودنا فى الحـرب يا سيدى ؟ !) .

محطتان

قصة قصيرة

صرخ قائد السرية منهيا المحاكمة : خذوا هذا الرقيب من أمامي !!.

وعلمت أن الجزاء كان الحبس لمدة عشرة أيام .

ولكن ذلك لم يستمر إلا لساعات قليلة . فقبل أن ينتصف الليل ، فوجئت بالقائد نفسه يدخل إلى (ملجئي) . بادر بطلب الشاي . كان ضيفي ، فأسرعت أعد الشاي . نظر إلى بعض الكتب والأوراق المتناثرة فوق الفراش . قال : كيف تقرأ في ضوء هذا الفانوس ؟ .

مد يده إلى الأوراق ، وقال : ماذا تكتب ؟ .. هل لي أن أرى ؟ .. لعلك تصيغ منشورا ضدى ! .

كان يتحدث وأنا مأخوذ بمفاجأة الزيارة ، ويداى مشغولتان بالشاى والسكر . نظر في الأوراق طويلا . قال : سمعت أنك تكتب الشعر .. يبدو أن هذه قصيدة جديدة .. زنبقة من دم المدثر ! .

قلت: المدثر الدرديرى علي .. زميلنا الذى استشهد عند الممر ! .

أدار وجهه ، وغمغم : أعرف .. أعرف .

قرأ القصيدة ، وأخذ يحتسى الشاى صامتا . سألني فجأة : هل أزعجك الجزاء ؟ .

قلت بعد تردد : ليس كثيرا .. فحالنا العام أقرب إلى الحبس الدائم.. لا أحد يغادر السرية ! .

فاجأني ثانية يسأل : هل لك حبيبة ؟ .. لكل شاعر حبيبة ! .

ابتسمت فابتسم .

قال وهو يترك الكوب جانبا ويستعد لمغادرة الملجأ : راجع مكتب السرية صباحا .

وفي الصباح ، كانت الورقة المختومة في يدى ، وكنت أغادر أرض الكثبان الرملية ، أفكر في الأماكن التي سأنشد فيها قصيدتي الجديدة .

***

** الثانية : في زمن الحرائق .

أسميه زمن الحرائق ...

أرفض الأجابة على دهشة من يتساءلون عن ضرورة انبعاث الدخان .

أعظم الحرائق لاتنتج دخانا ! .

تنفس، فأنت – إذن – تشعل حريقا . هل يمكنك أن تكف عن التنفس ؟ .

أنت كائن حي .. أنت مشعل حرائق .. فلماذا يطالبونني بدليل رآه ، كالدخان ؟! .

لا تسألوني .. إن حرائق الدخان هي حرائق الإطفائيات . حرائق هذا الزمن – التي أراها – لا تجد ضرورة لغاز الأكسجين . إذا رأيتموها فافعلوا كما أفعل . لا

حاجة بكم إلى الهاتف لاستقدام عربات الإطفاء، فقط، قفوا، وانظروا .. اكتفوا بالمراقبة، وإن استطعتم، لا تقتربوا من السعير!.

....

كان ارتفاع درجة الحرارة يطاق. لم يكن قد وصل إلى درجة الشواء..

برغم الكراهية المتبادلة، طلبنى. يحتاج إلىّ.

قالت زوجتى: لا بأس .. فرصة .. وأمامنا تكاليف بداية العام الدراسى .. مصروفات المدرسة .. الملابس .. السيارة .. والشتاء داخل، ولم تعد ملابسنا الثقيلة القديمة تصلح لمواجهة توحش موجات البرد.

فقلت له، لا بأس.

وكنت أضمر أنها فرصة لأرى مساحة من وطنى، وأمسح اسمى من قائمة الذين لا يعرفون خريطته إلا فى كتاب الجغرافيا.

تواربنا، ولم نعلن هدنة، ولكنا عشناها. تتبادل الكائنات الدنيا المنفعة. نتعالى نحن عن سلوكها. هى ترقى به وتعيشه فى احترام للحدود. نحن نتوارى ونمارسه.

جمعتنا المائدة وهو على رأسها. يتكلم عن خطة الأعمال الحقلية، ابتداء من جنوب الغردقة إلى الشمال، التفافا حول خليج السويس، حتى رأس محمد، الامتداد الجنوبى المدبب من شبه جزيرة سيناء!

وأنا أنصت وأشارك.

حاولت أن أضع مطالب زوجتى جانبا، وأخلق مبررا آخر: عمل قومى متميز! .. ما رأيك؟. فى الأعمال التحضيرية، صغت بعض الخطابات.

السيد .... يجرى حاليا بالمركز الإعداد لبعثة قومية لدراسة أحوال الشواطىء المصرية وتقصى آثار التلوث بالزيت فى منطقة خليج السويس حتى جنوب مدينة الغردقة على ساحل البحر الأحمر. وسيقوم الفريق البحثى بالعمل فى شواطىء المناطق المذكورة ومياهها الساحلية نرجو التكرم باتخاذ اللازم نحو تسهيل مهمته.

وكان ضروريا أن أسأل عن التمويل.

ابتسم: لا تخف .. ليس كما تظن!.

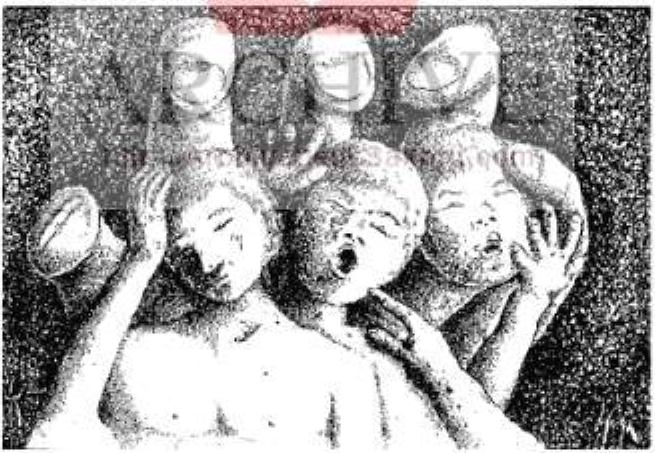
وكان يعرف أننى



محطتان

قصة قصيرة

لاأتعامل مع المشروعات العلمية التي تمولها سياسة التطبيع . إن لم تكن إسرائيل الممول ، فمن يكون ؟ .
شركة بترول كبيرة . حاولت أن أعرف أكثر . لم تكن المعلومات متيسرة ، واكتفيت باطمئناني إلى أنني لا أرفع فوق رأسي علم التطبيع .
نقلة حادة . سنوات العمل الطويلة في المختبر عودتني على الاسترخاء . يختلف الحال في الميدان .. في عربات متهالكة .. تحت شمس ساخنة .. حد أدنى من متطلبات المعيشة ، نتيجة لقصور واضح في التجهيزات الإدارية .. ومساحات عريضة من الشواطيء لاتزال تتفجر فيها ألغام الحروب الماضية من حين لحين ، فيصبح ارتيادها جنونا .
معي آلة التصوير وقلمي وأوراقي وأكياس النايلون لحفظ النماذج والعينات . على رأسي قبعة قطنية مبللة بالعرق وأبخرة ملحية . يمتد خط الماء خلف مرتفعات جبلية أو مساحات شاسعة من الرمال المستعصية ، فنفقده ، ثم يعود فيقترب لنلتقي به .
حماسي واضح لي أنا قبل أن يرصده رفاق الرحلة . كان البحر الأحمر عالما مجهولا لي قبل الآن ، فقد اقتصرت



خبرتى على الساحل الشمالى ... وها أنا أبدأ جولتى معه فتتآكل جدران قلبى حسرة وأسى .

فى أول جلسة لمناقشة أحوال العمل والتقارير عن عمليات المسح للأيام الأولى ، كان رده على ما قدمته أن التزم الحياد ، ولا شأن لنا بما هو موجود . كان مطلوبا منى ألا أقول شيئا عن فوضى التداخل العمرانى فى قلب البيئة البحرية ، والأنقاض التى يأتون بها لدفن مساحات هائلة من بيئة الشعاب المرجانية الضحلة ، لترتفع فوقها مبان لقرى سياحية وقصور .

قلت : إنهم يتصورون البحر أنبوبة مجارى ! ... إنهم لا يعاملونه ككائن حى .

وقلت : الزيت والقمامة وكرات القطران فى كل مكان .. فماذا تريد الشركة الأخطبوطية أن تفعل بهذا البحر أكثر مما به ؟ ! .. كتل أسمنتية تقوم على أشلاء بحر تتراجع فيه الحياة .. تباع شواطئه لتنقض عليها المعاول ، وترتفع أبنية تطل على مياه كابية ، لا يدرون أنها تموت ببطء ، وسيأتى يوم يفتحون فيه نوافذهم فتهب عليهم رياح القبور بدلا من نسيم البحر .

ثرت وقلت إننى لن أكون مشاركا بالسكوت .

قال إن مهمتنا علمية ، وإنه ليس علىّ إلا أن أعطيه تقريرى ، فتنتهى مهمتى ، وأحصل على أجرى .

وكنت أعرف أن ما يقوله هو الحقيقة التى قبلتها منذ البداية ، فتعاظمت درجة الحرارة وبدأ الاحتراق .

لملمت أوراقى وغادرت المكان إلى استراحتى المليئة بالذباب . تبعنى شريكى فى الاستراحة . يجدنى أرتب حقيبتى . ولم يجد مشقة فى تهدئتى .

وقبل أن تظهر شمس الصباح ، كنت - كالعادة - أحمل أوراقى وأقفز إلى العربة العجوز . كنت حريصا على قبعتى التى تحمى رأسى من وهج الشمس . وكنت أخوض فى المياه الضحلة لمسافات طويلة ، ولكن ذلك لم يكن له أثره المبرد الكافى . فالمياه ساخنة .. بل إنها تحترق . والرمال الملطخة ببقع الزيت وكريات القطران لا تكف عن الاحتراق . وكان السرطان الراهب يجرى إلى المياه أملا فى إطفاء نيران تلهب صدفته ، ونجوم البحر ذات الأذرع السوداء الهشة الطويلة تتلوى مختنقة . وكنت أنا أحاول أن أنتزع قدمىّ من بركة وحل زيتى ، وأدوّن ملاحظاتى التى سأعتمد عليها آخر النهار فى إعداد تقرير علمى محايد .



ماذا بعد ..

مهرجان المسرح التجريبى الرابع ؟ ؟ !

بقلم : مهدى الحسينى

رغم أن كثيرا من سياساتنا وفعالياتنا ترتبط - عادة - بحضور شخص منشئها أو باللجنة أو الوزارة أو الحكومة التى قررتها ونفذتها ، فتقوم بقيامها وتمضى بمضيّها ، إلا أنه من الأهمية بمكان مناقشة ما يجرى فى هذا المهرجان - سواء كان وجوده عارضا (حكومة) أو دائما (دولة) - وذلك للأسباب الآتية :



د . علي الراعي

● التكاليف الكبيرة التي يتكلفها من أموال ثابتة ومتغيرة ، والجهود المضنية التي تبذل في سبيل إنجاحه .

● تزايد اهتمام دوائر مسرحية عديدة في مختلف بلدان العالم بالمساهمة في عروضه وأنشطته الثقافية المصاحبة .

● الأثر – إيجابا وسلبا – الذي لا يمكن تجاهله على فنوننا المسرحية المصرية والعربية ، ومن ثم القضايا الفكرية والثقافية المتعلقة بالمسرح خاصة والفنون عامة .

● الاهتمام الخاص من قبل الحركة الثقافية المصرية والمتمثل في ثلاث مواقف : مؤيد متحمس ، ومعارض رافض ، وانتقائي يأكل الثمرة ويلفظ النواة .

لذلك أسوق ملاحظاتي في صورة تقرير أطرحه على دوائر المهتمين والمهمومين برأس مصر وقلبها ، وعلى دوائر الدولة التي تخطط لثقافتها .. ومن ثم لهويتها الجمالية : من أين ؟ وكيف تكون ؟ ولماذا ؟

أولا : التمويل والإنفاق

١ – تقتطع الحكومة جزءا من ميزانيتها لهذا المهرجان لم يعلن بالمرة ، إلا أن البعض يقدره بثلاثة ملايين جنيه كرأس مال سائل فضلا عن الثوابت ، وقد يكون المبلغ الحقيقي أقل أو أكثر ، إلا أنه في النهاية مبلغ كبير يتم إنفاقه في أقل من نصف شهر ، خاصة وأن هناك نواحي أخرى في ميدان العمل الثقافي .. بل والحضاري ، مثل إنقاذ آثارنا المنهارة في حاجة إلى مزيد من المال ، وبالطبع فإن الاهتمام بالآثار لا يكون على حساب المسرح والعكس صحيح ، والأمر الأفضل أن تسير كافة عمليات العمل الثقافي جنبا إلى جنب على نحو متواز ومتوازن ، مع تقدير سليم ودقيق للأسبقيات .

٢ – ومع التسليم بعوائد المهرجان من وجوه عدة : سمعة أدبية دولية ، وإبراز لدور « القاهرة » كعاصمة ثقافية عالمية ، واطلاع على جانب من ثقافات شعوب

العالم فى مجال المسرح ، وإفادة مسرحيينا بمناهج الإبداع وأساليبه من مختلف عروض المهرجان ، ومن ثم خلق حالة من الغيرة فى صفوف فنانينا تحفزهم على التطور ، إلا أن هناك مجالات عديدة لضبط الإنفاق وترشيده ، دون التقليل من قيمة المبلغ الإجمالى المرصود سعيا للمزيد من الإفادة به ، وزيادة عائده ، وذلك بالآتى :

★ فرض رسم اشتراك على الفرق الراغبة فى المساهمة بعروضها ، على ألا يقل عن خمسة آلاف دولار على كل فرقة .

★ التعاقد مع القناة الفضائية على شراء عروض المهرجان لتسويقها عالميا ، مع مادة علمية إيضاحية وندوة للنقاد لكل عرض .

★ الإبقاء على نظام فتح الشباك أمام الجمهور تنظيما للدخول وتغطية لجانب من المصروفات .

★ تغيير مكان استضافة الفرق المسرحية ، إما إلى فنادق ٣ نجوم ، أو إلى فندق القرية الأوليمبية فى مدينة نصر ، عدا عدد محدود من الضيوف الرسميين وكبار المفكرين المدعوين إلى الندوات .

★ ضبط الإنفاق على حفل الافتتاح بالذات ، حيث أنه تكلف - فى تقدير البعض - أكثر من ربع مليون جنيه ، عدا إيجار الأوبرا وخدماتها ، مع التركيز على فكرة أن هذا الحفل يجب أن يكون بطاقة هوية مصرية نطرحها على حضور المهرجان .. لا أكثر .

ثانيا : التحضير للمهرجان

من المعروف - بيروقراطيا - أن أية جهة حكومية مصرية لا تستطيع وضع خططها موضع التنفيذ ؛ إلا فى شهر أغسطس حين تصل الميزانية بحجمها الحقيقى ، وليس وفقا للمشروع الاستثمارى الذى ترفعه هذه الجهة إلى الدوائر المختصة فى الحكومة ، غير أن وجود « بنك التنمية الثقافية » يحرر المهرجان نسبيا من هذا القيد ، فضلا عن أن طبيعة هذا المنتج يمكن تمويله من ميزانية السنة المالية التى تسبقه ، وعليه يمكن وضع تصور تقريبى للبرنامج التنفيذى للمهرجان فى موعد أقصاه شهر مارس من كل عام وعلى النحو التالى :

١ - تعقد مسابقة مصرية .. مصرية بين المسرحيين المحترفين بفرقهم وأعمالهم التى يرغبون المشاركة بها فى المهرجان ، على أن يقوم بالتحكيم بينها لجنة موسعة تضم كافة نقاد المسرح وبعض مخرجيه وكبار فنانيه حيث يتم تمثيل كل التيارات الفنية التى تشغل الساحة المسرحية المصرية ، وتختار اللجنة العرض الذى سوف يمثل مصر ، وكذا العروض الموازية ، وذلك كى تتأهب مصر لمشاركة لائقة فى المهرجان ولكى لا يحدث مثلما حدث هذا العام .. والأعوام السابقة .

٢ – تضع الهيئة الوزارية للمهرجان عنوانه وموضوعات بحوثه ومحاضراته وندواته وشروطه ومحكميه وإجراءاته التنظيمية ولجانه الإدارية ومشروع ميزانيته التقريبي وتبلغها لكل من يعنيه الأمر ، كل فيما يخصه ، سواء في الداخل أو في الخارج .

٣ – تخطر الإدارة العامة للعلاقات الثقافية الخارجية ، كافة ملحقينا الثقافيين بالخارج ، وكافة الفرق والدول الممكن مشاركتها بعروض ، وكذا النقاد المسرحيين والمفكرين الجماليين للمشاركة بالمحاضرات والندوات والبحوث ، بقرار المهرجان وعناوينه وشروطه ومحكميه ونظمه.

٤ – تطلب هيئة المهرجان من كافة الفرق المشاركة ، مواد علمية إعلامية تكفي ١٠٠ ناقد ومراسل صحفي ، عبارة عن معلومات عن الفرقة وتاريخها وعروضها وجوائزها وأعضائها ومكانتها في بلدها ومساهمتها في الفن المسرحي ، وفلسفتها الفنية ، وصور لعروضها ومخرجها وأهم أعضائها ، وكذا بانفلت واف عن عرض المسابقة باللغات الانجليزية والفرنسية والعربية وبعدد كاف للجمهور .

٥ – أن تراعي كل الوفود والفرق أن المهرجان يعقد في مصر قلب المنطقة الناطقة باللغة العربية ، فتضم كل منها مترجما ناطقا باللغة العربية ، مهمته عقد سبل الاتصال مع الإدارة المصرية للمهرجان ، وكذا النقاد والفنانين المصريين والعرب ، بل والجمهور أيضا ، حيث يجب اعتبار اللغة العربية اللغة الرسمية الأولى في المهرجان احتراما لها واعتزازاً بحضاراتنا العربية . ومثل هذا الأمر تأخذ به فرنسا على سبيل المثال رغم إلمامهم بلغات أخرى كالإنجليزية والألمانية والإيطالية والأسبانية .

٦ – أن ترسل كل فرقة نسخة من سيناريو أو نص العرض وكذا شريط فيديو له ، كي يتسنى لهيئة المهرجان مشاهدته والحكم على أهليته للمهرجان ، حيث أن بعض العروض قد استبعدتها لجنة التحكيم بحجة أنها ليست في سياق المهرجان ، وبعضها لم تستبعده رغم تقليديته مثل عرض الجزائر « عرس الذيب » ، بالإضافة إلى تفادي عمليات الغش الفني ، كأن تُصنّع بعض الفرق عروضها على مقاس المنطقة العربية وتصوراتهم عنا التي قد لا تصيب .

ثالثا : شئون إدارية .. وحضارية

ليس جيداً أن تظل دورتنا المسرحية على هذا النحو من الرثاثة والانهيار الخدمي ، ففي مسرح محمد فريد بواجهته البلاستيكية القبيحة التي شوهت هيكل واجهته المعمارية الأصلية ، كانت فرقة مولداڤا تقدم « في انتظار جودو » حيث لم تستطع المراوح الهزيلة أن تخفف عبء

الحر والعرق والرطوبة عن الفنانين القادمين من الشمال، علما بأن أموالا هائلة تضيع في الهباء، في حين نستطيع أن نعيد للمسرح واجهته الأصلية، وأن نضيف تكييفا مركزيا لهذه الدار، وقس على ذلك مسرح الطليعة بقاعتيه والشباب.. الخ، لقد كشف هذا المهرجان عدم استعدادنا للتعامل مع العالم الخارجي رغم أننا أقمنا مهرجانا عن « التجريب » للعام الرابع !!

وعلى باب أحد المسارح وقف رئيس البيت الفني للمسرح يبحث عن موظف الكونترول لحظة دخول لجنة التحكيم والنقاد والجمهور ولم يجده، كما لاحظ في مسرح آخر رثاثة ستائر كان قد قيل أنه تم شراؤها للتو !! ولا تنتهي الملاحظات، ابتداء من عدم وجود زي للعمال، وغياب موظفين وموظفات للاستقبال على دراية تامة بإحدى اللغتين الانجليزية والفرنسية، إلى نقص التجهيزات الفنية في أغلب دور العرض، كما أن غياب مسرح الجمهورية ليس فقط في هذا المهرجان، بل على مدار المواسم، أمر يدعو للتساؤل !!

ولقد أضافت هيئة المهرجان عدداً من المرافقين للوفود ممن لهم دراية باللغات وهذا أمر لا بأس به، إلا أنه يستحسن أن يكون هؤلاء من المحترفين خريجي كليتي السياحة والآثار.

أما بالنسبة للمكتب الاعلامي، فلابد وأن تودع إليه كل فرقة مائة مظروف من موادها العلمية والإعلامية لتوزيعها على النقاد والصحفيين ومراسلي وكالات الأنباء بالإضافة إلى النشرة اليومية وبرامج اللقاءات والندوات والمحاضرات وجداول العروض، بالإضافة إلى ما قد يستجد من أخبار هامة طارئة. إن حضور المكتب الاعلامي هذا العام كان خافتا.

رابعـا : النشرة

حسنا فعلت هيئة المهرجان إذ تبعتها عملية إصدار النشرة اليومية، فهذه تمثل الوزارة وفي نفس الوقت تتسع لكتابات النقاد والصحفيين، مثلها مثل كافة الاصدارات الصحفية الحكومية، فحفلت بالمعلومات والإعلام والأخبار والأحاديث والتحقيقات وعروض الكتب والدراسات المختصرة والمتابعات بالعربية والانجليزية، حتى أن لجنة التحكيم استرشدت بكثير مما ورد بها من كتابات النقد التطبيقي عن العروض.

خامسا : التحكيم والشروط

يسعد جميع المثقفين المصريين والعرب حضور أ. د. علي الراعي، منظرا للمسرح العربي ومعلما ومترجما وقيادة تاريخية، على رأس لجنة التحكيم الدولية وللعام الثاني، إلا أن هناك نظراً وتساؤلا عن صحبته من المحكمين !! هل هم يمثلون التيارات الفنية والمدارس الإبداعية الرئيسية في بلادهم ؟ نحن لا نعرف بدقة

.. وهناك من يعرفون أكثر ، ولكن عضواً واحداً على الأقل في لجنة هذا العام لا تنطبق عليه هذه الصفات ، هكذا أكد كثير ممن عملوا وعاشوا في بلده التي مثلها .

إن الريادة والتجديد من ناحية ، وخصوصية التمثيل الثقافي لثقافة معينة يجب أن يكونا مقياسين لازمين لعضوية لجنة التحكيم ، فإما أن يتم اختيار المحكمين على أساس قارّى ، وإما على أساس قومى (ثقافى ولغوى) : انجلو ساكسونى - .. إفريقى - لاتينى - سلافى جرمانى - أسيوى جنوبى - عربى - الخ ، أو الجمع بين مزايا التقسيمين ، فنضمن لجنة تحكيم دولية تمثل كل أجزاء العالم جغرافيا وثقافيا بحق ، أكتب هذا لأننى لاحظت أن الفنون الأسيوية والتى مصدر الهام بريشت وأرتو وبروك وغيرهم لم تحظ باهتمام لجان التحكيم التى طغى على مقاييسها اتجاه الشمال والغرب ، فهضمت ثقافات الشعوب ، فلم تفز الهند إلا بنصف جائزة فى العام الماضى ، ولعلها لم تحضر هذا العام لأسباب أخرى غير هذا السبب ، ولم تفز اليابان أو الفلبين ، وفازت سنغافورة بجائزة فى التمثيل ، أما أرمينيا واكرانيا فلم يلتفت إليهما أحد .

عموما على لجنة التحكيم أن تحل معضلة مقارنة الزيت بالماء !! فكيف تقارن ثقافة شعب بشعب آخر دون أن تقع فى الانحياز والعنصرية ؟ وكيف تقارن فن بفن ؟ وما هى المقاييس ؟ هل تستطيع أن تقارن الكابوكى والنو اليابانيين بمسرح انطون تشيكوف وستانسلافسكى فى المسرح التقليدى ؟ وبالمثل هل تستطيع أن تقارن فن جروتوفسكى بفن بيتر بروك ؟ لا أعتقد أن هناك إجابة حاضرة عن هذه الأسئلة سواء لدى أحد من المحكمين أو النقاد أو عندى ، غير أن بداية الطريق يتحدد فى خطوتين : توسيع التمثيل القارى والقومى والثقافى والفنى لمختلف شعوب وفنون البشر ، والعناية باختيار شخصيات من أهم مفكرى المسرح وفنانيه فى بلادهم . بعد ذلك لابد من مجموعة من الإجراءات المكملة :

١ - فصل فرق المحترفين عن فرق الهواة ، حيث أن المقارنة والتحكيم بين هاتين لابد ظالمة ، وقد يقول قائل عن الاستثناءات إنه رُب فرقة محترفة أقل من فرقة للهواة أو العكس ، حسنا فلتصعد الفرقة الهاوية - فى العام القادم - إلى مصاف المحترفين ، وليكن المهرجان مهرجانا للمحترفين ، وللفرق الكبيرة الهامة فى مختلف أنحاء العالم ، والقادمة الينا ممثلة لثقافة اقاليمها وشعوبها . أما الهواة فاما أن يكونوا على هامش المهرجان أو أن يقام لهم مهرجان مستقل تقيمه الثقافة

الجماهيرية أو وزارة الشباب أو معاً فى مكان وموعد آخر .

٢ - وفى هذا العام أيضا ، لم يستطع كل أعضاء لجنة التحكيم مشاهدة كل العروض ، رغم التسهيلات التى أجرتها هيئة المهرجان سواء فى مواعيد العرض أو فى وسائل النقل ، ولكن العدالة محايدة عمياء وسيفها يمثل فى منتصف المسافة بين الحق وبين الباطل ، فلابد أن يشاهد كل المحكمين كل العروض ، ذلك الأمر الذى لن يتحقق إلا بإجراءين : تقليل عدد عروض المسابقة بعد اقتصار المشاركة على عروض الفرق المحترفة فقط ، وزيادة ليالى المهرجان إلى ١٥ ليلة حيث تقدم كل فرقة ثلاث ليال ، وحيث تقدم كل قاعة مسرحية مابين عرضين إلى أربعة نهاراً ومساء . فهكذا يتمكن المحكمون والنقاد والجمهور وأعضاء الفرق من مشاهدة كل العروض فتتم الفائدة .

٣ - أما بالنسبة لجنة النقاد ، فلست أدرى معنى لوجودها على هذا النحو ، ففلسفة نتائجها مطابقة لفلسفة لجنة التحكيم وأن اختلفت فى بعض النتائج ، فقد سيطر على مفاهيمها أفكار جمالية شمالية غربية ، فلم يقدر أعضاؤها فنون الشعوب فى فنزويلا والفلبين وأرمينيا واليابان وسنغافورة حق قدرها ، ولعلها فى العام القادم تتدارك هذا الأمر حين تقر بأن فى العالم ثقافات وفنون أخرى غير أوروبا وأمريكا ، وحين تستقل عن تأثير ذوق وأحكام لجنة التحكيم ، بل وحين تستقل عن الوزارة فتنبع من جمعية النقاد أو نقابة المهن التمثيلية ، وحين يضاف اليها بعض النقاد الشباب مثل الدكاترة . أحمد العشرى ومحسن مصيلحى وسامح مهران ومحمد شيحه وعطية العقاد ومصطفى يوسف ، لعل هؤلاء يستطيعون الموازنة مع الصحفيين الذين يشكلون أغلبية هذه اللجنة ، وليس مطلوبا منها أيضا صياغة نتيجة منافسة (صورية) للجنة التحكيم ، بل أمامها تتنكب أسلوبا آخر هو التقرير النقدى الذى يثبت اتجاهات آراء النقاد وميولهم وتصوراتهم وحيثياتهم دون الخروج بترتيب وجوائز ، تماما كما فعلت لجنة التحكيم فى المهرجان الثانى المسرح العربى .

سادسا : استدراك هام

إن الكلام عن « التجريب » المسرحى فى مصر يصبح كسحق الماء فى الهون ، طالما أن مسرحنا يموت ، وطالما يخنقه البيرقراطيون والانفتاحيون ، وإذا ظن أحد أن « التجريب » محاولة للاصلاح بنقل الدم ، فإنه واهم ، وأرى أن تضع الوزارة همها المسرحى الأساسى فى إصلاح المسرح المصرى .

دائرة حــوار

العروبة فكرة المستقبل أم من بقايا الماضى ؟!

بقلم : المفكر العربى منح الصلح

يتعاظم – منذ تراكم الهزائم العربية وخاصة بعد حرب الخليج – الشك بالعروبة كهوية قومية جامعة ، وكفكرة نهوض فى الوقت عينه ، ويتخذ الشك طابعاً هجومياً عند فريق واسع من دعاة اتخاذ الدين أساساً للعمل السياسى ، فهؤلاء يقولون إن العروبة لم تكن إلا سلاحا رفعته أطراف عديدة ، أجنبية أساساً ، فى وجه آخر دوله تقوم على مبدأ الخلافة الاسلامية ، هى الدولة العثمانية ، ومنهم من يشير إلى دور كبير لعبه عرب غير مسلمين فى طرح الفكرة العربية ، والترويج لها ، وتصويرها بأنها طريق الانقاذ ، حتى إذا سقطت دولة الخلافة ارتد هؤلاء عن الدعوة إلى وحدة العرب إلى التمسك بالكيانات العربية القطرية ، بل القول بتقسيمها إلى دويلات صغيرة ، أضيق من هذه الكيانات .

والواقع أن من ينظر إلى نشأة القومية العربية يرى أنها لم تظهر قبيل الحرب العالمية الأولى إلا بعد أن ساد الشعور بفشل دولة الخلافة العثمانية ، واتجاه العنصر التركى القيادى لهذه الدولة إلى إحلال الطورانية ، أى التركية الموسعة ، محل الإسلام كقاعدة للإمبراطورية ، فقامت عندئذ من داخل المجتمع الإسلامى العربى حركة تنادى بالعروبة كراية يجتمع حولها العرب لبناء كيان موحد كبير قادر على مكافحة خطرى الاضمحلال والاحتلال . والهدف من العروبة ، كان الهدف نفسه لدعوة الجامعة الاسلامية ، أى الدفاع عن المنطقة وتأكيد وحدتها التاريخية والجغرافية ومنع تفتيتها

على يد الدول الغربية الاستعمارية .

وقارىء وقائع المؤتمر العربي في باريس عام ١٩١٣ يجد أن الشعار المرفوع في هذا المؤتمر هو : الصمود في وجه الاحتلال والاضمحلال . والمقصود بالاحتلال الغزو الغربي الاجنبي - الانجليزي والفرنسي بخاصة - الذي كان في مرحلة التحضير للسيطرة المباشرة على البلاد العربية بعد إزالة السلطة العثمانية عنها ، وبالاضمحلال الوهن والتفسخ البادبين على طريقة العثمانيين في السلطة ، فالعروبة بهذا المعنى هي حركة موجهة في آن معاً ضد الطمع الغربي والتخلف الشرقي .

وهناك إشكال قام في هذا المؤتمر حول مشاركة المصريين فيه ، فقد تقدم طالبان مصريان ، كانا يدرسان في باريس ، بطلب الاشتراك في المؤتمر ، أسوة بالعراقيين والسوريين وأبناء الجبل اللبناني ، فرفض طلبهما ، فلما سألا رئيس المؤتمر الشيخ عبد الحميد الزهراوي : هل تعتبرون المصريين عرباً ، أم لا ؟ كان الجواب من الرئيس والأعضاء أن المصريين في عرف المؤتمر هم عرب شأنهم شأن غيرهم ، ولكن المؤتمر منعقد لبحث مصير الولايات العربية في الدولة العثمانية ، وعلى هذا الأساس رؤى من الحكمة والواقعية أن تقتصر العضوية على عرب بلاد الشام والعراق والمشرق العربي .

ومما يؤيد كون المصريين مشمولين فعلاً بالمشروع القومي العربي ، أن القاهرة كانت منذ ذلك الزمن ساحة نشاط قومي عربي ، اشترك فيه عدد من المصريين إلى جانب اكثرية من عرب بلاد الشام ، والسبب واضح هو أن المصريين كانوا يعتبرون دفع الاحتلال الاجنبي هو الاولوية .

وصحيح أن نسبة المسيحيين الشوام المشاركين في الحركة العربية كانت واسعة وأن المشاركة المصرية كانت ضيقة وأن بعض رموزها كانوا على اتصال بأعداء الدولة العثمانية من الانجليز والفرنسيين ، إلا أن هذا لايبدل من أن الحركة العربية ، كظاهرة اجتماعية تاريخية ترمي إلى توحيد البلاد العربية ونهوضها ، مركبة موضوعياً من عنصرين : الأول القيم والذاكرة المشتركة بين العروبة والإسلام ، والثاني الاستجابة لتحديات العصر والحضارة الحديثة من مفاهيم ونظريات وانجازات مادية ملموسة ، بشكل التفاعل معها شرطاً للنهوض بل للوجود نفسه . فالعروبة بمعناها العميق والموضوعي، هي الإسلام زائداً العصر ، ومانشهده الآن من رفض لها سواء من إسلاميين غير عروبيين أو ليبراليين إقليميين هو تراجع عن مستوى مثلته وتمثله كطريق إنقاذ للأمة .

ذلك أن الاسلاميين من دعاة جعل الدين أساساً للعمل السياسي يرفضون بشكل أو آخر العصر الذي يعيشون فيه ولايقدمون ما تقدمه العروبة من صيغة للتفاعل مع إنجازاته وقدراته النظرية والتطبيقية ، العلمية والتقنية . والليبراليون والإقليميون

لايمثلون لشعوبهم مايمثله الاسلاميون والعروبيون من دفء القيم والذاكرة والهوية التاريخية .

إن مانسمعه اليوم من أصوات رافضة للعروبة هو فى الحقيقة خطوة إلى وراء تلبس عند البعض لباس الانتماء إلى التاريخ وعند البعض لباس الانتماء إلى العصر ، بينما تشكل العروبة مشروع انتماء للتاريخ والعصر معاً .

على أن هذا ينبغى ألا يجعلنا ننكر وجوب التساؤل الدائم حول علاقة العروبة بالعصر . وفى ندوة «دار الهلال - من أجل مائة عام جديدة من التنوير والتحديث» كان بين الموضوعات المبحوثة «الإسلام والعصر» . ولست أدرى إذا كان موضوع من هذا النوع يمكن الوصول به إلى نتيجة، لأن الاسلام السياسى وهو المقصود بالموضوع - وليس الاسلام كدين - يرفض استقلالية الدوائر الثلاث ، أى دائرة العلم ، دائرة الدين ودائرة الوطن ، والعصر كله قائم على هذه الاستقلالية . بالمقابل هناك مجال واسع ومطلوب للخوض فى موضوع «العروبة والعصر» مما لم يكن مطروحاً بشكل مباشر وصريح فى الندوة .

وفى طبيعة ماتجب معالجته هنا ، موضوع العروبة والديمقراطية أو إذا صح التعبير ، الحاجة إلى ديمقراطية عربية .

تذكرنا هذه الكلمة بكلمة الاشتراكية العربية غير الموفقة ، بل البائسة ، التى راجت فى يوم من الأيام ، وكان القصد بها تخفيف وقع الاشتراكية على قطاعات معينة من المجتمع ، أو التهرب من الالتزام بالتطبيق الكامل لفكرة جامدة ، استبقاء للمرونة وحرية الحركة ، أو مجرد الرغبة فى دفع كل نشاطات الدولة بلفظة «عربى» الجذابة فى مرحلة ما .

وأقل بؤساً من لفظة اشتراكية عربية فى رأيى ، لفظة علمانية عربية التى اقترحها، شخصياً ، بديلاً عن العلمانية وحدها التى أصبحت تحمل فى بلادها معنى معادياً للإسلام ، أو على الأقل ، ضيقاً بكل هذا التراث المشترك من القيم والذاكرة الجامع بين العروبة والاسلام . فاذا كنا نرى الأخذ ببعض جوانب الفكرة العلمانية ، فلابد من أن نميز منذ البدء بينها وبين مدلول كلمة علمانية فى الغرب ، وعند بعض الاحزاب الموجودة فى البلاد العربية والمعروفة بالعداء للفكرة العربية والدين الاسلامى معاً . وقد يكون من واجب المفكرين التوسع فى بحث العلاقة بين الاسلام والعروبة والتأكد من إمكانية اعتماد لفظة علمانية عربية كمفهوم ومضمون غير عدوانيين لتراثنا القومى والدينى أما الديمقراطية العربية ، فالمقصود بها الإشارة إلى بعض المشاكل الخاصة التى يفرضها المجتمع العربى وخصوصياته .

الديمقراطية فى البلدان المتقدمة هى علاقة المواطنين بعضهم ببعض على أساس الحرية والمساواة والكرامة ، وعلاقة الفرد بالدولة والمجتمع على الأساس نفسه .

أما فى بلادنا فلابد من أن تكون هناك علاقة ديمقراطية بين فئات داخل المجتمع نفسه كالطوائف والمذاهب والعناصر ، وبعض هذه غير منصهر تماماً فى المجتمع بسبب نقص دينامية مجتمعاتنا . فالتأمرك مثلاً - أى أن يصبح المواطن أمريكياً - عملية سهلة ، وتتم بسرعة بفعل قوة المجتمع وثرائه وحيويته ، بينما الأمر ليس كذلك فى البرازيل ، وهذا يعنى انه إذا كانت الديمقراطية بين الافراد كافراد كافية فى المجتمع الأمريكى ، فهى غير كافية فى البرازيل حيث ينبغى أن تقوم إلى جانب ديمقراطية التعامل بين الافراد والافراد الآخرين ، والافراد والسلطة ، ديمقراطية فى التعامل بين جماعات وتكتلات متفرقة . ونحن إذا أخذنا العالم العربى ككل فى حالة مماثلة إذ إنه فى لبنان والمغرب والسودان وربما فى معظم البلدان العربية أيضاً ، لابد من مواثيق وفاقية بين الجماعات تكون ركيزة لأى مشروع ديمقراطى . وكل ديمقراطية تنشأ فى بلادنا ولاتأخذ بعين الاعتبار «التعدد» ، لاتكون ديمقراطية ، أياً كان حكم العدد والاقتراع .

وبالاضافة إلى الديمقراطية فى التعامل بين الجماعة والجماعة ، والأكثرية والاقلية توجب الديمقراطية فى بلاد عربية، أن تكون هناك علاقات ديمقراطية بين الدول والحكومات . ومن صلب الديمقراطية أن لايتحكم فارق الحجم أو فارق الثروة أو فارق القوة فى النظام فى العلاقات العربية . فالحكومات العربية يجب أن تكون متساوية بمعنى ما ، ومحفوظة الكرامة والاستقلال والدور كبرت أم صغرت ، وهذه الديمقراطية فى العلاقات بين الحكومات والدول ليست أقل ضرورة قومية من أى مقوم آخر من مقومات القومية .

إن هذين النوعين من التعامل الديمقراطى ، ذلك المتعلق بالفئات والمجموعات والاقليات ، وذلك المتعلق بالعلاقة بين الحكومات بعضها ببعض هما شرط عضوى من شروط الحياة القومية . وبهذا المعنى نؤكد وجود خصائص بالديمقراطية العربية ، لايجوز أن تهمل ، وإلا انهار المشروع القومى للعروبة . فلا يكفى أن نردد فى المجتمعات كلمات الحرية والديمقراطية والحقوق الشخصية والعامة ، فهذه كلها بعض ما نحتاجه وليس كل مانحتاجه . وشرطا الوفاق الوطنى على أساس التعامل الديمقراطى بين الفئات الداخلية ، والوفاق القومى القائم بين الاقطار والحكومات هما من الديمقراطية العربية فى الصميم بل بدونهما لا ديمقراطية صحيحة المعنى ، وصادقة وإن تأمنت كل المقومات والشكليات الاخرى .

إن العروبة الحديثة ليست بقية حضارية من الماضى ، ولكنها حركة للمستقبل ، هكذا كان الأمل فيها عندما ولدت ، وهكذا هو التحدى الدائم لها فى وجه كل الدعوات الطامحة الآن لمنافستها .

دائرة حوار

الطبقة الوسطى الصغير وتطور دورها السياسى . !

أ . د. يونان لبيب رزق

الطبقة الوسطى الدين والتعليم

بقلم : د. جلال أمين

مستقبل الطبقة الوسطى فى ظل الظروف الدولية الجديدة

بقلم : محمد سيد أحمد

لست بصدد تأصيل الطبقة الوسطى نظريا، بصفتها شريحة إجتماعية بالغة الأهمية فى كل المجتمعات. ولكنى بصدد محاولة تحديد معالم لهذه الطبقة. وخواص لها ذات دلالة فى مجتمع مثل المجتمع المصرى. ولا أطمع فى مثل هذه العجالة أن أكون "جامعا مانعا". ولكنى أريد أن أركز فقط على بعض الاشكاليات الجديرة بجذب انتباهنا، فى ظرف تعاظم فيه شأن هذه الطبقة كما لم يحدث من قبل، وفى ظرف قد تتعرض فيه لتمزقات قد لا تكون فى الحسبان !

فعند الحديث عن الطبقة الوسطى، نعنى فى الواقع مفهوما له شقان: شق يتعلق بمصطلح "الطبقة" عموما، وشق يتعلق بمصطلح الطبقة "الوسطى" تخصيصا. فإن مفهوم "الطبقة" إنما يرجعنا إلى مفهوم للمجتمع قائم على أن إنقسامه إلى "طبقات" هو أبرز ما يميزه. ومفهوم "الطبقة الوسطى" لايتحدث عن طبقة بعينها وحسب، وإنما يتحدث عنها منسوبة إلى طبقات أخرى. تلك التى تقف هذه الطبقة منها موقف "الوسط". أى إننا بصدد طبقة "فوقها" طبقة اجتماعية و"دونها" طبقة اجتماعية أخرى !

وأبرز نظرية تعرضت "للمفهوم الطبقى للمجتمع" هى كما نعلم جميعا الماركسية، المبنية على فكرة "صراع الطبقات". بيد أن هذه الطبقات المتصارعة هى، حسب الماركسية، قبل أى شئ آخر، الطبقة "العليا" والطبقة "الدنيا" أى الطبقة الرأسمالية والطبقة العاملة، بينما الطبقة "الوسطى"، على ما لها من وزن اجتماعى، هى - حسب الماركسية - طبقة تابعة فى التحليل الأخير للطبقتين الأساسيتين المتصارعتين فى المجتمع.. إنها طبقة لا تقوم بذاتها، كما يشهد بذلك اسمها. وإنما هى طبقة توجد بقدر قصور الطبقتين الأساسيتين عن "احتواء" كل مكونات المجتمع.. إنها طبقة المجتمع "المتبقية" RESIDUAL بعد استنفاد ما هو منسوب إلى الطبقتين الأساسيتين، الطبقة التى لم ينلها الاستقطاب الطبقى.. ولأنها طبقة لا يتصور قيامها قياما مستقلا، فلا تكون لها

دائرة حوار

قيم تجمعها كلها، وتميزها عن غيرها، وتكسبها ملامح خاصة.. وهذا يطرح إشكالية تخص بالذات المجتمعات النامية بوجه عام، والمجتمع المصرى بوجه خاص: ماذا فى حالة بروز مجتمع يتميز بانزواء قيم "الطبقة العليا"، وانزواء قيم "الطبقة الدنيا"، وتكون "الطبقة الوسطى" هى الأكثر بروزا فى الساحة؟ ماذا عن مجتمع يبدو وكأنما هو مشكل فقط من الطبقة الوسطى؟!

طبقة جديدة.. جديرة بالبحث

بديهى أننا لا نعنى بهذا التصور اختفاء الطبقتين، العليا والدنيا، فذلك غير وارد، تماما كما أنه غير وارد أن يوجد "مجتمع نقى" من وجهة النظر الماركسية كل "النقاء"، بمعنى أن تصبح الطبقة الرأسمالية والطبقة العاملة هما الطبقتان الوحيدتان فى المجتمع!.. ذلك أن التصورات النظرية فيها دائما قدر غير قليل من التبسيط المخل، ولو بقصد استكشاف قوانين المجتمع العامة، وتحاشى الغرق فى التفاصيل.. فليس واردا اختفاء طبقات بكاملها، حتى إذا ما اتسمت بسمات تختلف عن تلك التى تصف نفسها بها.. ولكن الشئ المحقق هو أن هناك ما يبرر طرح إشكالية أن تبرز طبقة، لا هى الطبقة العليا ولا هى الطبقة الدنيا، بصفتها القادرة على احتلال مقدمة المسرح، وأن تطبع المجتمع بقيمها، وأن تصبح هى المهيمنة أيديولوجيا. وهى إشكالية جديرة بأن نمعن النظر فيها.

فلقد أبرز مقال الدكتور يونان لبيب رزق عن "الطبقة الوسطى الصغيرة وتطور دورها السياسى فى مصر" (المنشور بـ"الهلال" فى عدد مارس ١٩٩٢) كيف أن ثورة يوليو قد ضمنت "للطبقة الوسطى" أن تحتل مقدمة المسرح فى المجتمع المصرى، وقد أزالت لدرجة أو أخرى هيمنة "الطبقة العليا" التى سادت طوال مرحلة النظام الملكى.. صحيح أن ثورة يوليو قد نسبت نفسها إلى "الشعب العامل" ككل، فى مواجهة "الرجعية" التى قصد بها "الطبقات العليا التقليدية". ولكن تشخيص أى نظام لا يكون بما يقوله عن نفسه، بل بما يقوله عنه مراقبون محايدون منزهون عن أى غرض.. وإذا ما إلتفتنا إلى منجزات ثورة



جماهير الشعب العامل اثناء خروجها ٩، ١٠ يونية أثر إعلان الهزيمة

يوليو، بعيدا عن وصف النظام ذاته لهذه المنجزات ، فسوف نلاحظ مثلا أن قرار الثورة بمجانية التعليم قد فشل تماما في محو الأمية . فلقد ظلت مرتفعة . وحسبنا الإشارة إلى هذا المؤشر الناطق لاستخلاص نتيجة لامناص منها وهى أن الثورة لم تكن تمثل الشعب بكل فئاته تمثيلا صادقا، بل كانت أقرب إلى تمثيل مصالح وتطلعات شرائح إجتماعية معينة حلت محل الطبقة العليا السابقة هى التى نصفها بالطبقة الوسطى.

إن إنتساب النظام إلى الشعب لا يعنى بالضرورة مشاركة الشعب فى السلطة. فليس موضع جدال أن جمال عبدالناصر لم يكن يشرك الشعب فى القرار السياسى، لقد كانت قراراته "علوية". كانت الثورة "ثورة من أعلى".. صحيح أن جماهير الشعب العريضة قد أيدت الثورة بقوة، بالذات شرائح المجتمع "الدنيا" التى كان يمكن وصفها بـ"الشعب العامل". وثمة شواهد على ذلك لا تحتمل الانكار، مثل الخروج العفوى لجماهير غفيرة يومى ٩، ١٠ يونيو ١٩٦٧ أثر إعلان الهزيمة مباشرة، وفى يوم جنازة عبدالناصر.. ما من شك فى أن جماهير عريضة قد آمنت بـأن عبـد النـاصـر كان حـريصـا على

مصالحها، وكان على نحو أو آخر يمثلها، ولكن لم يكن يعنى ذلك أن عبدالناصر قد أشركها فى السلطة.

قيم الطبقة الوسطى مرجعا

لم تنجح الثورة فى إزالة وجود "طبقات دنيا"، ولكن كان لها دور بارز فى إنجاز عملية "إرتقاء اجتماعى"، أى عملية "حراك إجتماعى إلى أعلى" لفئات غدت فى النهاية شرائح الطبقة الوسطى.. لقد أصبحت قيم الطبقة الوسطى هى "المرجع". وقد اتضح الآن، فى ضوء تجربة البلدان الاشتراكية، أن حتى الاتحاد السوفيتى، وهو الدولة التى أنجزت ومنذ سبعين عاما ثورة وصفتها بـ"الاشتراكية"، لم يكن قد حقق المساواة بين مواطنيه وفق ما تطرحه الاشتراكية نظريا، وإنما كان هناك ما سمى بـ"النومنكلاتورا" NOMENCLATURA أى المنتفعين بالانتماء إلى الحزب الشيوعى والتنظيمات الرسمية للدولة، وأن هؤلاء أيضا قد خلقوا "طبقة ممتازة"، "طبقة" ربما لم تكن تلبى مواصفات الماركسية للطبقة، ولكنها "فئة من المجتمع" احتلت مقدمة المسرح، وتيسرت لها منافع كثيرة لم تكن معممة لسائر أفراد الشعب. وإن صح ذلك بشأن أكثر تجارب الاشتراكية عراقة فى هذا القرن، فمن باب أولى فيما يتعلق بالتجارب الوطنية، التى لم تكن تدعى عن نفسها بأنها قد بلغت مرحلة اشتراكية متقدمة.

ومن السمات المميزة للطبقة الوسطى أنها تريد دائما أن تنسب إلى نفسها صفة "تمثيل المجتمع ككل"، ولا تريد أن تسلم بأنها فقط إحدى شرائح المجتمع وحسب. هذا تقليد ميز هذه الطبقة منذ الثورة الفرنسية. وجاءت كل الثورات الكبرى فى العصور الحديثة لتؤكده. إن الطبقة الوسطى بمجرد احتلالها مقدمة المسرح، لا تنظر إلى نفسها بصفتها فئة إجتماعية متميزة قد وصلت إلى الحكم، بل تنسب إلى هيمنتها على المجتمع صفة أنها "حكم الشعب"، وأنها بهذه الصفة تملك الحديث باسم الشعب، حتى بدون تفويض، حتى إذا ما لجأت إلى نظام سياسى تسلطى ودكتاتورى سافر. إنها المستفيدة من أن صوتها السياسى والاجتماعى عال، بينما ما هو قابع دونها فى السلم الاجتماعى

يشكل فى أغلب الأحوال "الأغلبية الصامتة"، الأغلبية غير القادرة على مزاحمة الطبقة الوسطى فى إسماع صوتها!.. وقد توجد تنظيمات سياسية تصف نفسها بأنها لسان حال هذه "الأغلبية الصامتة" ، ولكننا نجد، خاصة فى المجتمعات الوطنية، وفى أحوال كثيرة ، أن المتحدثين باسم هذه الفئات الدنيا إنما يشكلون هم أنفسهم نمطا خاصا ممن ينتمون إلى "الطبقة الوسطى"! نذكر على سبيل المثال، قيادات العديد من النقابات العمالية، والاتحادات الفلاحية، والجمعيات التعاونية... إلخ..

الطبقة الوسطى وانتسابها للاشتراكية

والجدير بالملاحظة أن الطبقة الوسطى فى مصر قد بدأت بالانتساب إلى أيديولوجية "اشتراكية"، واتخذتها تكأة لتضفى على نفسها صفة أنها تمثل المجتمع ككل فى صراعه ضد الطبقات القديمة المخلوعة.. ولكن لتنتهى - فى أعقاب وصولها إلى موقع الطبقة "المهيمنة" - إلى تبنى أيديولوجيتين تبدوان متناقضتين كل التناقض . فإحداهما هى الأيديولوجية الليبرالية ، والأخرى هى أيديولوجية سلفية.. بديلا - فى الحالتين - عن الأيديولوجية "الاشتراكية" التى بررت بها صعودها إلى مركز "طليعى" على رأس المجتمع وكانت مصدر "شرعية" هيمنتها السياسية عليه. وسؤال جدير بالطرح هو: إلى أى حد تتصف هاتان الأيديولوجيتان بصفة التعارض فى التطبيق العملى؟!

الجدير أيضا بالملاحظة أن الثورة - على الصعيد الدولى - قد انتسبت إلى فكرة "عدم الانحياز"، بل كانت مصر من الدول الطليعية فى الدعوة لها على صعيد العالم الثالث كله. وجوهر معنى "عدم الانحياز" هو رفض الانتماء إلى "الرأسمالية العالمية" وإلى "الاشتراكية العالمية" فى آن واحد.. أى رفض الانتساب إلى أيديولوجية "الامبريالية العالمية" وإلى أيديولوجية "الطبقة العاملة"، مما يحمل ضمنا معنى أن "عدم الانحياز" ليس أمرا يتصل بالسياسة الخارجية وحسب، بل وارد الاسترشاد به داخل المجتمع ذاته.. وفعلا، فإن الانطلاق من فرضية أن "الطبقة الوسطى" كفيلة باحتلال مقدمة المسرح، إنما تجد فى فكرة "عدم الانحياز" رمزا لهذا الواقع الاجتماعى، ولهذه "التشكيلة الاجتماعية"، والأيديولوجية ترفض معا أيديولوجية الرأسمالية وأيديولوجية الشيوعية ، وإن تبنت

دائرة حوار

"الاشتراكية"، فإنها "اشتراكية" سوف تتسم بخواص تميزها - وبحسم - عن الأيديولوجيتين العالميتين المعاصرتين.. أنها "اشتراكية" كفيلة بأن تسفر في النهاية عن لون ما من الليبرالية، ولون ما من السلفية، دون أن يكون هناك تعارض ظاهري!..

الأيديولوجية الدينية الراديكالية

وقد أبرزت مقالات سابقة نشرت في "الهلال"، وبالذات مقال الدكتور جلال أمين في هذا الصدد (عدد نوفمبر ١٩٩١)، أن الأيديولوجية السلفية إنما أصبحت جزءا من أيديولوجيات الطبقة الوسطى بحكم أن ما تحقق من ثروة لقطاعات واسعة من هذه الطبقة، بفضل الهجرة الكثيفة إلى بلدان النفط الخليجية، قد إصطحبها العمل داخل مجتمع سادت فيه القيم الدينية المحافظة، وأصبحت هذه القيم في نظر المهاجرين إليها رمزا للخروج من مأزق "العوز" و"الحاجة" التي تعرضت لها من قبل في موطنها الأصلي.. كما أن الأيديولوجية الدينية الراديكالية قد عبرت عن الإحساس بالإحباط إزاء استمرار وتجدد وتعمق هوة التباينات الاقتصادية والاجتماعية. وأصبح التطلع الى "مجتمع إسلامي فاضل"، نموذجه في ماض بعيد، ويقوم على الزهد والتقشف، شكل من أشكال الاحتجاج على ظاهرتي الفساد والافساد اللتين انتشرتا مع نمو فئات اجتماعية ذات صفة طفيلية من جراء تفشي ما يمكن وصفه بـ"الريع النفطي"..

وعلى نحو ما، بوسعنا القول بأن التيار السلفي الراديكالي قد يعبر عن "سخط" و"تمرد" الفئات الدنيا من الطبقة الوسطى إزاء فئاتها العليا التي أصبحت تحتل فعلا مقدمة المسرح، تماما كما أن أيديولوجيات "متمردة" كثيرة، منها الأيديولوجية الوطنية، ومنها "الاشتراكية"، تبنتها الطبقة الوسطى في صراعاتها ضد الطبقات العليا في مجتمع ما قبل الثورة..

ولكن السؤال الجدير بالطرح في النهاية هو ما احتمال اكتساب هيمنة قيم الطبقة الوسطى على المجتمع صفة الدوام؟.. هل من الممكن تصور استمرار هذه "الهيمنة" في ظل الظروف الدولية الجديدة، ظروف عالم ما بعد "النظام

الدولى الثنائى القطبية"؟.. ولنطرح سؤالنا على نحو آخر، نقول: إذا صح أن "هيمنة الطبقة الوسطى" كانت ، على نحو ما، تعبيرا – على الساحة الداخلية – عن موقف له "وجه تماثل" مع موقف "عدم الانحياز" على الساحة الدولية، فهل هناك ما يبرر القول بأن زوال المواجهة بين عالمى الاشتراكية والامبريالية دوليا سوف يستتبعه زوال هيمنة قيم وأيديولوجية الطبقة الوسطى على المجتمع داخليا ؟

الخصخصة وظهور طبقة جديدة

فإن هناك ما يبرر القول بأن ظاهرة "الخصخصة" وآلياتها انما لابد أن تنتهى إلى بروز "طبقة عليا" جديدة، بسمات قد تختلف كثيرا عن "الطبقة العليا" القديمة، ولكن لايجادل أحد فى أنها ذات صفات رأسمالية صميمة، ومعنى ذلك تخلص "الطبقة العليا الجديدة" من كثير من صفات "التلفيقية" التى ميزت "أيديولوجية" الطبقة الوسطى طوال الحقبة الماضية.. إذ كان من الممكن للطبقة الوسطى أن تطرح نفسها كطبقة تنطوى على حد أدنى من التجانس طالما انتسبت إلى قيم "اشتراكية"، ولكن لم يعد هذا واردا فى عالم أصبح لا يعتبر الاشتراكية أيديولوجية ذات مصداقية..

معنى ذلك أن الفئات العليا من الطبقة الوسطى سوف تندمج – عبر عملية "الخصخصة"، ومن خلال "آليات السوق" – فى "النظام الرأسمالى العالمى الجديد"، بينما فئاتها الدنيا سوف تتجه لتصبح قوى يتعذر استمرار "احتوائها" اجتماعيا بدعوى أن "الشعب" مازال هو "المهيمن على الحكم"!.. سوف تصبح هذه الفئات الدنيا – مع تخلى المجتمع عن أوجه شتى "للتأمين الاجتماعى" وتعاظم انتشار البطالة – مرتعا خصبا لتفشى أيديولوجيات متطرفة يتخذ الكثير منها صورا "منفلتة".. ولابد، فى غياب قوى تزاول المعارضة من موقع أيديولوجيات تنسب نفسها إلى العلم والعقلانية، من أن يتعاظم شأن التطرف باسم الدين.. ولذلك جاز القول بأن "هيمنة قيم الطبقة الوسطى" كضمانة ضد "الصراع الطبقى" هو ادعاء ينطوى على مغالطة، ويحمل فى طياته أخطارا جسيمة.. وربما كان لهذه "الهيمنة" دور مخفف للصراع الاجتماعى طوال حقبة تاريخية محددة، حكمتها ملابسات تاريخية معينة، ولكنها ليست بالظاهرة المكتوب لها الدوام .

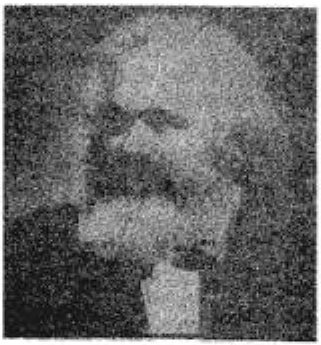
خمسة قرون من فكر التنمية

التنمية الرأسمالية كشرط للاشتراكية

بقلم : د . جلال أمين

ربما وجد أبناء العالم الثالث اليوم فى كتابات الإقتصادي الألمانى ، فردريك ليست ، - الذى كان يكتب منذ نحو قرن ونصف - ماهو أقرب الى مشاكلهم مما يجدون فى كتابات آدم سميث البريطانى ، لمجرد أن ، ليست ، كان يكتب فى دولة كانت ، متخلفة ، فى ذلك الوقت ، بالمقارنة ببريطانيا . ولكن لا فردريك ليست ولا آدم سميث كانا يبديان أدنى اهتمام بهذا الجزء من العالم الذى نسميه اليوم ، العالم الثالث ، .

ولم يكن هذا الإهمال غريباً . لم تكن أوربا تعرف الكثير بعد عن تلك المناطق الغريبة من العالم التى كثيرا ما كان يشار اليها بذلك اللفظ الغامض « الشرق » دون تمييز كاف بين الصين وجيرانها ، أو بين العرب والفرس . لم تكن دراسات علماء الأنثرو بولوجيا قد بدأت على أى نحو جدى بعد ، وإنما كانت هناك فقط كتب لبعض الرحالة المغامرين ، التى يختلط فيها حب المبالغة فى تصوير غرائب هذا الجزء غير المعروف من العالم ، بالنزعة الأدبية ، على حساب الوصف الدقيق للواقع ، ومختلطة



كارل ماركس



آدم سميث

أيضا بالشعور بالتعالى والرغبة فى تحقير ما لم يلحق بالحضارة الأوربية.

الأكثر غرابة، وإن لم يكن من الصعب تفسيره، هو موقف الفكر الماركسى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، من قضية تنمية العالم الثالث ولحاقه بركب الحضارة. فالفكر الماركسى مقترن دائما فى أذهاننا بالانتصار للمستضعفين فى الأرض، وكراهية الاستعمار، واعتبار الاستعمار عاملا معطلا لتنمية العالم الثالث ونهضته. ولكن الحقيقة مع ذلك، هى أن الفكر الماركسى، قبل لينين، كان أقرب إلى اعتبار الاستعمار الأوربى للعالم الثالث «خطوة الى الأمام» أكثر منه عاملا معطلا للنهضة والتنمية.

إن ماركس كان ينتقد أعمال الانجليز فى الهند والفرنسيين فى الجزائر ويشجب استغلال هؤلاء، وأولئك للشعوب المقهورة هنا وهناك، ولكن منطقه العام، ونظريته فى المادية التاريخية كانتا تدفعانه إلى النظر إلى وجود الانجليز فى الهند أو الفرنسيين فى الجزائر على أنه عامل مساعد على وصول الطبقات العاملة فى الدولتين إلى التحرر النهائى من أغلالها. تفسير ذلك هو نظرة ماركس إلى التاريخ على أنه انتقال حتمى من مرحلة إلى أخرى يفرضه التطور فى قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج، وهو قانون حديدى لا فرار منه ومن العبث تصور أن من الممكن تغييره. فالشيوعية البدائية يعقبها الرق، والرق يعقبه الإقطاع، والإقطاع تعقبه الرأسمالية، ولا مفرّ بعد ذلك من قيام الثورة الاشتراكية التى تضع حداً لآلام البشر. والذى يفرض هذا التحول من نظام إلى نظام، التطور

فى قوى الإنتاج ، أى فى أساليب الإنتاج ومستوى المعرفة التكنولوجية السائدة ونوع السلع المنتجة ، فإذا تغيرت هذه القوى فلابد أن تتغير علاقات الإنتاج ، أى العلاقات الاجتماعية المتعلقة بملكية وسائل الإنتاج وتوزيع الدخل والثروة . « الطاحونة الهوائية تعطيك النظام الإقطاعى ، والمصنع الآلى يعطيك الرأسمالية » ، هكذا يلخص ماركس فى جملة واحدة جوهر المادية التاريخية . فإذا كان الأمر كذلك حقا ، وكانت الاشتراكية هى الأمل النهائى للطبقات العاملة المستغلة ، وإذا كان مجىء الانجليز إلى الهند أو الفرنسيين إلى الجزائر يعجّل بانتقال الهند والجزائر من الإقطاع إلى الرأسمالية ألا يقربهما ذلك من النهاية السعيدة وهى الإشتراكية ؟ أى أنه إذا كان من المستحيل أن تقفز أمة من الإقطاع إلى الإشتراكية مرة واحدة ، وإذا كان الإستعمار هو الذى يدخل هذه الأمة عهد الرأسمالية ، ألا يكون هذا الاستعمار، مع كل شروره وفظائعه ، نعمة على هذه الأمة ؟

إذا تجاوزنا قليلا عن قضية توزيع الدخل والاستغلال ألا نرى فى هذا الموقف الماركسى المبكّر ، موقفا قريبا جدا من موقف الاستعلاء الأوروبى على الشعوب غير الأوروبية ؟ وإذا استبدلنا بكلمة « الرأسمالية » ، عبارة « الحضارة الأوروبية » أفلا يبدو ماركس وكأنه يلقى درسا على شعوب العالم الثالث يحاول فيه إقناعها بأن انتشار الحضارة الأوروبية فى العالم بأسره شئ لامفر منه ، والأجدر به قبوله كحتمية تاريخية ، وأن دخول هذه الحضارة أراضيها ، مهما كان ما اقترن به من شرور ، هو أفضل لها من أن تظل إلى الأبد فى حالة من الركود والتخلف المقيتين ؟

إن الماركسية التقليدية لم تكن تبدى فى الواقع (فى حدود علمى) أى تعاطف حقيقى مع قضية الاستقلال الثقافى ، أو المحافظة على الهوية أو الذاتية الحضارية للشعوب غير الأوروبية . وكان هذا الموقف بدوره ، نتيجة طبيعية لمنطق المادية التاريخية . فكل الخصائص الثقافية ، من عادات وتقاليد وقيم أخلاقية وعقائد دينية وسمات خاصة للفنون ونمط الحياة .. الخ ، هى فى نظر ماركس من قبيل « البناء العلوى » الذى يقوم على أساس اقتصادى هو « البناء السفلى » ، والذى يتكون بدوره من قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج . فالبناء العلوى يتشكل بشكل البناء السفلى ويعكس أي تغيرات جوهرية فيه . الناس تفكر على النحو الذى يمليه عليهم اقتصادهم ، والحياة الثقافية هى فى الأساس انعكاس لحياة الناس الاقتصادية . قل لى كيف يشبع الناس حاجاتهم ، وما الذى ينتجونه ، وكيف ينتجونه (قوى الإنتاج) ، وما هو نظام الملكية عندهم ، ومن الذى يستغل من وكيف يستغله (علاقات الإنتاج) ، أخبرك بنوع الثقافة السائدة فى هذا المجتمع ونوع القيم السائدة فيه . يترتب على هذا بالضرورة ، حتى اذا لم يقله ماركس بهذا الشكل ، أنه إذا كان الأساس الاقتصادى متخلفا ، كانت الثقافة « متخلفة » كذلك ، وكان من الممكن إذن أن نصف نظاما ما

للقيم والأخلاق والفنون بأنه نظام أرقى أو أكثر تخلفا من غيره ، تماما كما أن من الممكن أن نصف مستوى معينا من التكنولوجيا بإنه أكثر تقدما أو أكثر كفاءة من غيره .

إن هذا الموقف يصعب علينا جدا قبوله اليوم ، والحقيقة أن ماركس وإنجلز كانا بذلك الموقف ، مع كل نقدهما للرأسمالية ومع كل إدراكهما لشرور الثورة الصناعية ، يعكسان نفس الانبهار بإنجازات الثورة التكنولوجية ونفس التمركز على الذات الأوربية اللذين سادا القرن التاسع عشر . كما أنه باستثناء إشارات جدّ قليلة إلى مجتمعات غير أوربية، كانت قضية النمو الاقتصادى ومشاكله ، فى نظرهما ، هى قضية النمو الإقتصادى ومشاكله فى أوربا ومشاكل التاريخ والحاضر والمستقبل ، هى مشاكل التاريخ الأوربى وحاضره ، ومستقبله .

● إهمال التنمية

المدهش حقا أنه خلال ما يزيد على سبعين عاما تلت ظهور كتاب رأس المال لكارل ماركس (١٨٦٧) توارت قضية النمو الاقتصادى والتنمية توارياً يكاد يكون تاما من الكتابات الاقتصادية ، وكأن قضية النمو لم تعد تهمّ أحدا ، ليس فقط فيما يتعلق بالتنمية فى خارج أوروبا بل وحتى فيما يتعلق بأوربا والعالم الغربى نفسه . بدا وكأن الاقتصاديين قد حولّوا اهتماماتهم الى أشياء مختلفة تماما ، وكان هذا هو ما حدث بالفعل . فالمدرسة الحدّية النمساوية ، وممثلوها فى بريطانيا والولايات المتحدة ، منصرفون منذ ١٨٧٠ إلى الحديث عن أشياء غريبة ، لا تتعلق بالاقتصاد القومى أو تراكم رأس المال أو علاقة السكان بالأرض الزراعية أو التقدم التكنولوجى بل بأشياء أصغر كثيرا وأقل اثارة لاهتمام القارىء غير المتخصص ، كنظرية الاستهلاك وتوازن المستهلك ، والمنفعة الحدية وتناقصها ، والعوامل المحدّده لسعر سلعة ، ولماذا كانت هذه السلعة أغلى أو أرخص من تلك . انصرف الاقتصاديون عن قضية زيادة الموارد المادية والبشرية المتاحة للمجتمع ، إلى قضية توزيع هذه الموارد بين الإستخدامات المختلفة ، ومن ثم لم تعد زيادة « ثروة الأمم » هى مثار الاهتمام بل محدّدات العرض والطلب ودور جهاز الثمن فى توجيه هذه الثروة إلى إنتاج هذه السلعة أو تلك .

استمرّ هذا الإهمال لقضية التنمية مع استثناءات قليلة للغاية ، حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ولأسباب تتعلق بالواقع والتاريخ الاقتصادى أكثر مما تتعلق بعوامل فكرية فمن ناحية ، كان قد اتضح مع مرور الزمن أن الثورة الصناعية التى انحصرت فى البداية على بريطانيا قد امتدت مع انتصاف القرن التاسع عشر لتشمل فرنسا وألمانيا ، ثم سرعان ما امتدت إلى الولايات المتحدة فى أعقاب الحرب الأهلية الأمريكية فى الستينات من ذلك القرن ، ثم امتدت إلى دولة بعد أخرى من دول أوروبا الغربية ، حتى ساد الشعور ،

وبحق ، بأن النمو الاقتصادى فى الغرب أصبح شيئا مضمونا وتلقائيا ولا يحتاج إلا لمرور الوقت للاكتمال والنضوج . أصبح النمو الاقتصادى السريع فى الغرب من قبيل الأمور الواقعة بالفعل ، والذى هو حادث بالفعل لا يحتاج لإعمال الفكر للتساؤل عن كيفية إحداثه ، ومن ثم لم تعد قضية التنمية فى الغرب تشغل الاقتصاديين كما شغلتهم ، قبل ذلك بقرن أو قرنين من الزمان .

أما ذلك الجزء من العالم ، سيىء الحظ، الذى لم تصبه شرارة التنمية ، فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية ، فقد كانت هذه السبعون عاما بالنسبة له ، هى عصر الإستعمار التقليدى ، تقاسمت فيه حفنة من الدول الأوروبية ، ثم أنضمت اليها الولايات المتحدة ، استغلال موارده الطبيعية والبشرية ، وخضعت معظم شعوبه للاحتلال العسكرى المباشر ، لم يكن يتُصوَّر إذن أن يهتم اقتصاديو الغرب، فى ذلك العصر ، بقضية تنمية هذا الجزء البائس من العالم ، بل كان أقصى ما يمكن أن يحظى به هذا الجزء من العالم من اقتصاديى وسياسيى الغرب هو بحث أحكم الأساليب« لإدارة المستعمرات » ، وهذا شىء والتنمية شىء آخر .

لم يعد من الممكن تفسير إهمال قضية التنمية ، لهذا الجزء المستعمر من العالم ، بالقول بأن مفكرى الغرب لم يكن لديهم دراية كافية بأحوال إفريقيا وآسيا ، كما كان الحال قبل قرن من الزمان ، فقد شهدت هذه السبعون عاما ظهور دراسات متعمقة لأحوال هذه الشعوب وخضعت لغاتها للبحث المتأنى والمستفيض ، ونشط علماء الأنثروبولوجى فى دراسة ثقافاتها وتقاليدها . لم يكن الجهل إذن هو سبب إهمال التنمية ، بل مجرد أن تنمية هذه البلاد، بالمعنى الذى نفهمه الآن ، لم يكن يتفق بأية حال مع مصالح الدول المستعمرة. فزيادة درجة التصنيع تتعارض مع مصلحة الدولة المستعمرة فى تصريف سلعها أو فى استغلال المواد الأولية المتاحة فى المستعمرات أو فى كلا الأمرين ، والتصنيع إذ يرفع مستوى الأجور يتعارض مع مصلحتها فى استغلال القوة البشرية ، ولا مصلحة للدولة المستعمرة فى النهوض بالتعليم إلا فى أضيق الحدود ، وبقدر ما تفرضه حاجة المستعمر إلى موظفين محليين يقومون بما يأبى أو لا يستطيع المستعمر القيام به من أعمال . وزيادة الدخل غير مطلوبة إلا فى حدود خلق طبقة محلية من ذوى الدخل المرتفع ، يشعر أفرادها ، بسبب إمتيازاتهم، بالولاء للدولة المستعمرة ومن ثم يعملون فى خدمة مصالحها ، ويسمح لهم دخلهم المرتفع نسبيا باستهلاك ماتورِّد هذه الدولة تصديره اليهم من سلع . لا مانع بالطبع من تطوير الموانىء والطرق والسكك الحديدية وإنشاء بعض البنوك الحديثة ، وكل ما يساعد على خدمة التجارة الخارجية مع الدولة المستعمرة ، تصديرا واستيرادا ، ولا مانع أيضا من إقامة بعض السدود والخزانات ، وتحسين شبكة الطرق والاتصالات ، لزيادة

إنتاج سلع التصدير ، الزراعية أو المعدنية، ومن تطوير وتحسين نوعية الحياة في بعض الأحياء العصرية من مدن البلاد المستعمرة ، وتزويدها بالمياه النقية والكهرباء ، لخدمة السكان الأجانب أو لخدمة تلك الطبقة من السكان المحليين المرتبطة مصالحهم بالأجانب. ولكن كل هذا لا يرقى إلى «تنمية» المجتمع بأسره ، ولا يثير من القضايا ما يكفي أساساً لقيام نظرية عن التنمية أو النهضة أو التحديث .

كان الحديث ، إذا تطرق لمشكلات شعوب البلاد المستعمرة ، يجرى على نحو يؤدى إلى القول باستحالة النهضة أصلا ، فهي ابتداء تسمّى شعوبا «بدائية أو متأخرة» (primitive backward) . وهي تسميات تفرض بأن سوء أحوالها هو من قبيل القدر الذي يكاد يستحيل ردّه ، وتأخرها كثيرا مايُردّ إلى ظروف مناخية تدعو إلى الاسترخاء وهبوط الهمة ، والظروف المناخية هي من قبيل القضاء والقدر اللذين لاحيلة للمرء معهما ، وكثيرا مايربط التقدم والتأخر الإقتصاديين بلون البشرة ، فيفترض أن تقدم الأوروبيين له علاقة ببياض البشرة ، وتأخر غيرهم له علاقة بسوادها أو اصفرارها . وشعوب هذه البلاد ، على أية حال ، لايتقبلون التغيير بسهولة (هكذا يقال) ، أو لا يتقبلون التغيير على الإطلاق ، فإذا أردت تمدينهم فأنت تمدّنهم على الرغم منهم ، وسيظل نجاح «الرجل الأبيض» في القيام بمهمة التمدين هذه ، على أية حال ، مقصورا على دائرة ضيقة للغاية تتكون من شريحة غير عادية من أهل هذه البلاد يصعب أن تتصور أن تتسع فتشمل أكثر من نسبة ضئيلة للغاية من هذه الشعوب .

أيا كان الأمر ، فطوال هذه السبعين عاما الممتدة من سبعينات القرن الماضي إلى أربعينات القرن العشرين ، لا نكاد نجد أي إقتصادي غربي يبدي أهتماماً يذكر بقضية التنمية . الاستثناء الهام الوحيد هو جوزيف شومبيتر الذي نشر كتابه عن نظرية النمو الإقتصادي في سنة ١٩١٢ (Schumpeter , j. : the theory of Economic Development) ولكنه أولا كان يتكلم على التنمية في العالم الصناعي ولم يتطرق قط للحديث عن التنمية خارج هذا العالم ، كما أن ذلك الجزء من الكتاب الذي يناقش التنمية في المدى الطويل لم يحظ باهتمام كبير من جانب الاقتصاديين إلا بعد انتهاء الفترة التي نتكلم عنها ، وانحصر اهتمامهم بالكتاب خلال هذه الفترة في مناقشة شومبيتر لمشكلة الدورات الاقتصادية ، أي تقلب النشاط الاقتصادي في المدى القصير ، وهي مشكلة متميزة عن مشكلة التنمية كما نفهمها الآن .

كان علينا إذن لكي نشهد عودة الاهتمام بقضية التنمية ، وبزوغ الإهتمام لأول مرة بمشاكل العالم غير الصناعي ، أن ننتظر حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، حينما فرض تغير المصالح مدة أخرى ، تغيّرا في الاهتمامات الفكرية .

الانسان ذلك المجهول
التعليم والتدريب واللذة والألم

بقلم : د. محمد بهائى السكرى

يعتبر وضع التعاريف للأشياء وإطلاق الأسماء على المسميات مهمة من أصعب المهام . وبالرغم من صعوبة المهمة فإنها ضرورية من أجل التقدم والإرتقاء. وقد يحدث إختلاف فى التعاريف ولكن فى نهاية الأمر تتبلور الآراء وتتضح ، وتتفتح معالم الصورة ، وتستقر النقاط فوق الحروف .

ويتساءل المرء هل هناك فرق بين التعليم والتدريب ؟ . إن التعليم يعنى إكتساب معلومات وأفكار جديدة ومهارات خاصة بقصد إحداث تغيير فى سلوك الكائن الحى . أما التدريب فيقصد به المران على أداء أفعال معينة أو القيام باستجابات محددة بصورة تدل على المهارة وبقدر كبير من الكفاءة .

وقد ينضوى التدريب تحت التعليم فيصبح التدريب المتصل وسيلة لتعلم حرفة جديدة أو مهارة مكتسبة .

أما الوراثة فهى كل الصفات والخصائص والاستعدادات التى تنتقل للأجيال التالية من الأسلاف السابقة عن طريق الجينات الوراثية أو الشفرة المكتوبة فى الخلايا الجنسية التى تتولد منها الأجنة .

ومن الخصائص الأساسية للكائن الحى القدرة على الاستجابة للمؤثرات . واستجابته تندرج بصورة محددة تحت نمطين أساسيين . نمط غريزى موروث تتماثل فيه كل الكائنات الحية من نفس النوع مثل النأى بالنفس من مواطن الخطر، ونمط مكتسب تتباين فيه ردود

الفعل من كائن لآخر حسب طبيعة التجارب التي مر بها ، والخبرة التي اكتسبها ، وبمعنى آخر حسب تعليمه وتدريبه .

وبالرغم من أهمية التعليم والتدريب والوراثة في حياة البشر وتقدم الحضارة في مختلف المجتمعات فإن الأمر لم يخضع للدراسة العلمية التجريبية المنظمة إلا في مطلع هذا القرن ، وبدأ الأمر بدراسة سلوكيات الحيوان ثم عممت التجارب لتشمل الإنسان .

ففي عام ١٩٠٣ قدم العالم الروسي «بافلوف» تجاربه على ردود الفعل الموروثة والمكتسبة في الكلاب أمام المؤتمر الطبي الدولي في مدريد ، وحصل في عام ١٩٠٤ على جائزة نوبل تقديرا لجهوده ، واكتشافاته .

وقد أجرى بافلوف تجاربه على حيوانات وضعها في برج خاص أقامه أسماه «برج الصمت» وفي هذا البرج يتم عزل الحيوان تماما عن جميع المؤثرات الخارجية عدا مؤثر واحد يتم إختياره من أجل التدريب عليه . ويراعى في إختيار ذلك المؤثر ألا يحدث أساسا استجابة غريزية في الحيوان . وتستهدف التجربة جعل هذا المؤثر بالتدرج ذا فعالية وتأثير بحيث يحدث إستجابة معينة في الجسم .

من أجل ذلك يتم قران أو ربط هذا المؤثر بمؤثر آخر له فعاليته قادر على أن يحدث استجابة غريزية موروثة . وبمرور الوقت يصبح للمؤثر المختار فعالية المؤثر الآخر ويحدث في الجسم نفس الاستجابة الغريزية حتى في غياب الأخير .

فعلى سبيل المثال : يحدث سقوط الضوء على شبكية العين انقباضا في حدقة العين عن طريق رد فعل منعكس موروث يستهدف تقليل كمية الضوء الساقط على الشبكية وحمايتها . ويتم ذلك عن طريق إشارات عصبية حسية تسرى في العصب البصرى إلى مراكز خاصة في جذع المخ تنشط الأعصاب الحركية الخاصة بإنقباض حدقة العين .

فإذا تم ربط المؤثر الضوئي بمؤثر سمعي مثل رنين جرس بحيث يدق الجرس بإنتظام في كل مرة يسقط فيها ضوء على شبكية العين يصبح بمرور الوقت للجرس نفس فعالية سقوط الضوء على العين . وبمعنى آخر يؤدى رنين الجرس وحده إلى انقباض حدقة العين . ويصبح هذا رد فعل منعكس مكتسب نشأ عن طريق التدريب . وتختزن هذه القدرة الجديدة في قشرة المخ الرمادية التي تهيمن على المراكز الأدنى منها . فإذا تلفت قشرة المخ إختفت معها

هذه القدرة الجديدة المكتسبة على الأستجابة لرنين الجرس ، وبقيت القدرة القديمة الموروثة على الاستجابة للضوء فقط .

ومثال آخر يتعلق بالجهاز الهضمي : فمن ردود الفعل الموروثة أن يحدث وجود الطعام في الفم إفراز اللّعاب . فإذا اقترن تقديم الطعام بوميض ضوئي مرات عديدة يصبح لوميض الضوء وحده فعالية وجود الطعام في الفم في تنشيط إفراز اللعاب . وبمعنى آخر يصبح تنشيط العصب البصري وحده كافيا لإفراز اللعاب حتى لو لم تنشط أعصاب التذوق في الفم .

أمثلة أخرى عديدة وتجارب أخرى متنوعة أجريت منذ ذلك الوقت وإلى يومنا هذا لترسى دعائم ما يعرف بالطريقة الكلاسيكية لإكتساب ردود الفعل المنعكسة الشرطية المرتبطة بمؤثر معين يتم التدريب عليه .

وفي جانب آخر من العالم في الولايات المتحدة في منتصف هذا القرن كان هناك عالم آخر يدعى «سكينر» يجرى تجارب على الحيوانات وتدريبها وسلوكها في صندوق خاص عرف باسمه وهو «صندوق سكينر» . وفي ذلك الصندوق يوضع حيوان جائع وأمامه رافعة يحدث الضغط عليها سقوط قطعة من الطعام في طبق أمامه . ويراقب سلوك الحيوان وإكتسابه للخبرة الجديدة وهي تحريك الرافعة من أجل الحصول على الغذاء تحت الظروف المختلفة .

وطورت هذه التجارب ودرست بعمق ليتضح بمرور الوقت أن عملية التدريب تتم بسهولة إذا كانت تؤدى إلى حدوث رد فعل مسار مثل الحصول على الطعام أو لتجنب رد فعل مؤلم مثل التعرض لصدمة كهربائية غير قاتلة .

وأرست هذه التجارب دعائم ما يعرف بالطريقة الأدائية لإكتساب ردود الفعل المنعكسة الشرطية المقترنة بمؤثر معين ، وبمعنى آخر الطريقة التي تعتمد على دفع الكائن الحي إلى أداء أفعال معينة من أجل التوصيل إلى إستجابة محمودة أو تجنب حدوث شيء مكروه .

ثم حدثت طفرة جديدة في التجارب العلمية على المخ حيث أمكن زرع أقطاب كهربائية في مناطق محددة من الدماغ في حيوانات التجارب عن طريق إجراء جراحات دقيقة . وبعد أن يفيق الحيوان ، ويشفى من آثار الجراحة تبدأ تجارب لتنشيط هذه الأقطاب أثناء يقظة الحيوان ودراسة ردود فعله المختلفة .

وأمكن التوصل فى السنوات الأخيرة إلى أن تنشيط مراكز محددة فى المخ يثير إحساسا بالنشوة أو اللذة ، وأن تنشيط مراكز أخرى يؤدى إلى الإحساس بالإستياء أو الغضب .

ومن أجل التأكد من ذلك صممت صناديق أو أقفاص لحيوانات التجارب (شكل «أ») بها رافعة متصلة بمفتاح كهربائى ينظم سريان الكهرباء فى أسلاك



شكل « ١ » : طريقة تحديد مناطق اللذة والاستياء أو الثواب والعقاب فى مخ القرد .

متصلة بالأقطاب المغروسة فى مخ الحيوان تحت التجربة فى مناطق اللذة أو مناطق الاستياء .

مراكز اللذة والغضب

ومن المثير للعجب أن البحث عن اللذة يدفع الحيوان للضغط على الرافعة بمعدل قد يصل إلى ١٠٠٠٠ مرة فى الساعة ، وأنه يفضل ذلك على تناول الطعام وقد يموت من الجوع والإرهاق باحثا عن اللذة!

وفى نفس الوقت فإن الحيوان يتجنب تماما تنشيط مراكز الاستياء ، وإذا تم تنشيط تلك المراكز ضد إرادته فإن الغضب ينتابه ، وإذا استمر ذلك لفترة طويلة فإنه يمرض ويموت .

وقد بينت بعض التجارب التى أجريت أثناء جراحات المخ على الإنسان أن هناك أيضا فى مخ الإنسان مراكز يحدث تنشيطها إحساسا باللذة ، ومراكز أخرى يتسبب تنشيطها فى الإحساس بالغضب والاستياء .

ومن الاكتشافات البالغة الأهمية المتعلقة بهذه المراكز فى الإنسان والحيوان أن عمليات التعليم والتدريب لا تتم بدونها . فإن أى تجربة أو معلومة أو خبرة لا تعلق فى الذهن ولا تبقى فى الذاكرة إلا إذا

كانت مرتبطة بإثارة مراكز اللذة التى أسميت مراكز المكافأة أو الثواب أو تجنب إثارة مراكز الاستياء التى أطلق عليها مراكز العقاب ! .

ومن هنا إتضح المغزى العميق لوجود هذه المراكز فى المخ . فهى ضرورية للذاكرة والتعليم والتدريب . ووجود مراكز المكافأة يحفز الكائن الحى على القيام بكل أنواع النشاط المؤدى إلى إثارتها ، ووجود مراكز العقاب يجعله يتجنب كل ما يتسبب فى تنشيطها . هذا من الناحية العلمية التجريبية البحتة ، وهو يؤكد بصورة قاطعة مبدأ الثواب والعقاب فى الأديان وأخلاقيات الإنسان .

وللتجارب السابق ذكرها وما شابهها أهمية تطبيقية بالغة فى حياة الرنسان ، وتدريب الأفراد والجماعات ، وفى السيطرة على الحيوان .

الدوافع الداخلية نوعان . دوافع أولية وهى دوافع غريزية مثل الرغبة فى إشباع الجوع والعطش واللذة والجنس والمحافظة على النوع ، ودوافع ثانوية وهى دوافع مكتسبة يختلف من شخص لآخر مثل الرغبة فى تحقيق الذات أو الظهور مثل الرغبة فى تحقيق الذات أو الظهور أو الحصول على الحب واحترام الغير . ولا تقل الدوافع الثانوية قوة عن الدوافع الأولية فى كثير من الأحيان . بل قد تطغى الدوافع الثانوية على الأولية ، ويفضل الإنسان إشباع دافع مكتسب على دافع غريزى . ونضرب لذلك مثلا الرياضى الذى يسعى للفوز بميدالية ذهبية فيلزم نفسه بتدريبات شاقة ، ويتخلى عن أصناف يحبها من الطعام من أجل إتباع نظام غذائى معين ، ويحدد علاقاته الجنسية لفترة حتى يمر وقت المسابقات .

ولابد للمدرب الممتاز من أن يأخذ فى اعتباره الدوافع الكامنة فيمن يقوم بتدريبه، وأنه ينمى فيه رغبة إتباع التدريب والوصول إلى أعلى مستويات الأداء ، وأن يساعده على السيطرة على الدوافع ذات التأثير السلبى .

وتبقى بعد ذلك عوامل الوراثة والاستعداد الشخصى . فمما لاشك فيه أن هناك فروقا أساسية بين الأفراد ترجع إلى أسباب وراثية ، وأن الله سبحانه قد حبا كل كائن حى بقدرات وملكات ومواهب يختلف فيها عن غيره حتى ولو كان من نفس نوعه وجنسه .

فهناك من حباه الله بملكات عقلية خاصة أو بميزات جسمانية ، وينبغى أولا

دراسة أمكانيات كل فرد وإختبار قدراته الكامنة حتى يوضع الإنسان المناسب فى المكان المناسب .

تفاوت بين الأفراد

فإذا تناولنا الملكات العقلية يمكننا أن نشبه الجهاز العصبى بالحاسب الآلى «الكمبيوتر» . وكما نجد تباينا بين أجهزة الكمبيوتر المختلفة فى القدرة على الاستيعاب ، وإختزان المعلومات فى الذاكرة، وسرعة الأداء ومعدلاته نجد تفاوتا بين الأفراد فى قدراتهم العقلية . بل إن التباين بين البشر أعم وأشمل .

وقد أمكن للباحثين تقسيم الجهاز العصبى فى الإنسان من ناحية الاداء الوظيفى لأنواع عديدة ترجع إلى أسباب وراثية . وأفضل هذه الأنواع صنف يتميز بكفاءة عالية لخلايا قشرة المخ الرمادية التى تكمن فيها الوظائف العليا مثل التفكير والإرادة والذكاء والذاكرة . ويتميز هذا الصنف بوجود توازن بين عمليات التنشيط والتثبيط فى المخ ، وبمرونة فى الأداء أى بالقدرة على تغير الاستجابات بسرعة حسب الظروف المختلفة .

والنوع الثانى أقل درجة حيث أنه يفتقد المرونة في الاداء بالرغم من كفاءة الجهاز العصبى وتوازنه .

والنوع الثالث تغلب فيه عمليات التنشيط على التثبيط وبالتالى فإن من ملامحه فقد التوازن والتهور والاندفاع .

والنوع الرابع أسوأها جميعا ، ويتميز بضعف كفاءة الخلايا العصبية ، وبغلبة عمليات التثبيط على التنشيط وبالميل إلى الجبن .

وهناك درجات متفاوتة من كل نوع ، وكذلك أيضا أصناف أخرى يمكن إدراجها فى مناطق متوسطة بين الأنواع الأربعة السابق ذكرها .

ومن حسن الحظ أن بعض الصفات السلبية في الأنواع المذكورة من الممكن تحسينها أو التخلص منها كلية عن طريق التدريب الواعى القائم على تفهم طبيعة الجهاز العصبى وإمكانياته .

وإن الجهود المبذولة من أجل دراسة العوامل المؤثرة فى التعليم والتدريب لها ما يبررها . فارتقاء المجتمعات يتوقف بدرجة كبيرة على تقدم وسائل التعليم والتدريب .

ولا غنى للمدرس فى المدرسة ، وقائد الكتيبة فى الجيش ، ومعلم الحرفة فى المصنع ، ومدرب الألعاب الرياضية فى الملعب ، وموجه الفرق الموسيقية فى المحافل ، ومدرب الحيوانات فى السيرك من الاستيعاب التام لأساسيات ردود الفعل المكتسبة الشرطية ولمبدأ الثواب والعقاب .

* * *

رسالة لندن

مجدى نصيف

صحف الكترونية للعميان

جـاءت لحظة الصـدق أخيراً . يولية ١٩٨٥ انتقلت إلى جـدول العميان ، بعد أن أبلغنى الدكتور بيتر هاملتون ان بقعة على الشبكية قد تخلفت عن النزيف الذي كان يعالجه على مدى عامين كاملين . وكانت هناك بقعة كبيرة أخرى على شبكية العين اليسرى .

جلست صامتاً أفكر . كيف سأعمل الآن . صحفى وكاتب ماذا يفعل بغير عينين ؟ لاحظ صمتى وحزنى فقد جاءت هذه اللحظة بعد علاج دام ما لا يقل عن ثمانى سنوات تنقلت فيها بين القاهرة ولندن وبون وموسكو ومدريد وفيينا . كان الاطباء يقولون نفس الشيء

قال الدكتور هاملتون : الدنيا ليست مظلمة لازال ٢٥٪ من نظرك سليماً ، ومازلت تمتلك عقلك وذاكـرتك . وسـأكتب لك خطـاباً « للمعهد الملكى الوطنى للعميان » Rnib. ستستفيد من خبرتهم الواسعة ، وستجد نفسك وكأنك لم تفقد هـذا الجزء من بصرك ، وستعمل ربما اكثر من سنوات عمرك السابقة .

هزت رأسى . كان الدكتور هاملتون قد تحول من معالج إلى صديق . نتزاور ونتحاور ونتناقش ، خفيف الدم قال فى النهاية :

– ستحمد الله انك لن ترى وجهى بعد ذلك !

ابتسمت بمرارة قائلاً :

– ليتنى « زراه » !

مرت أيام خريفة قضيتها وحيداً بالمنزل . ماذا سأفعل الآن ؟ أنا فى التاسعة والأربعين من عمرى ، ولا أعرف مهنة غير الكتابة لا اكتب مقالات رأى كثيراً . اكتب معلومات وتحليلها فى السياسة الخارجية . ولو ركزت على العلوم والتقنية فهو يتطلب مراجعة ومتابعة . لكل

مجال لابد له من متابعة وقراءة .

بعد أسبوع ، دق جرس التليفون وجاء صوت رقيق عبر الاسلاك : مستر نصيف : نحب ان نراك غداً .

ماذا يمكن أن يفعل خبراء « معهد العميان » ؟

كانت السيدة ايرفين في انتظاري على باب المعهد . ذهبنا إلى مكتبها مباشرة . قالت بطريقة عملية :

– مستر نصيف ... المعهد يقدم خدمات واسعة حسب إمكانياته .

أولاً : انت تصنف عندنا في قائمة ضعاف البصر . وينبغي أن تستخدم ما تبقى من نظرك استخداماً كاملاً بالاعتماد على نفسك ، وبهذا تحتاج إلى نظارات سميكة من نوع خاص للقراءة والكتابة . هـــذا بالإضافة إلى عدسة يمكن أن تساعدك . حاول أن تفعل بنفسك ما يمكنك أن تفعله دون مساعدة أحد .

ثانيا : لأنك تريد ملاحقة الأحداث اليومية كصحفي وكاتب ، فستمنح لك فتاة من الحي تقرأ لك الصحف اليومية . ساعة ونصف ساعة يومياً باستثناء عطلة نهاية الاسبوع (السبت والأحد) وسنعطيها نحن أجرها .

ثالثا : هناك قسم تابع للمعهد اسمه «الصحف المسموعة » ، ولك أن تختار ما يعجبك من بين حـوالى ١٢٠ مجلة ، يسجل كل منها على كاسيت تسعين دقيقة تصلك في البريد مجاناً وبعد أن تنتهي منها – لا تبقى معك اكثر من ثلاثة أيام – تعاد مرة أخرى إلى المعهد بالبريد مجاناً . وهناك ثمن رمزي لكل مجلة لا يزيد عن سبعة جنيهات في السنة .

اخترت : الايكونوميست ، والنيوزويك ، والتايم ، والنيوستيتسمان ، والجارديان الاسبوعية ، والفاينشيال تايمز الاسبوعية (باختيار عدة مقالات من الصحيفة على مدى الاسبوع) .

رابعاً : هناك مكتبة شاملة بها ما لا يقل عن عشرين الف كتاب مسجلة على كاسيت من نوع خاص (٤ تراك بدلاً من اثنين) ويتطلب ذلك إمدادك بجهاز ريكوردر من نوع خاص . تصلك قائمة كاملة للكتب تتكون من سبعة مجلدات لتختار منها . وهي متنوعة في كافة الفروع . تصلك الكاسيتات بالبريد وكل كتاب تستطيع الاحتفاظ به ثلاثة أشهر ، ثم ترسله بالبريد مجاناً .

خامسا : بطبيعة الحال لن تلبي المكتبة احتياجاتك كصحفي . في هذه الحالة يمكنك أن ترسل الكتاب الذي تريد قراءته إلى « القراءة السريعة » . وفي هذه الحالة ترسل عدداً من الكاسيتات . وسنحاول أن يتم هذا بسرعة لمساعدتك في عملك .

انتهت المقابلة . وقالت السيدة ايرفيه : يبقى « المحل » فى أسفل المعهد وبه كل ما يمكن أن يساعدك فى عملك : عدسات ، قرص تليفونى بحروف كبيرة ، ألعاب مسلية للعميان وضعاف البصر . كان عالماً آخر يتطلب حديثاً آخر .

فتح أمامى عالم جديد . كأننى لم أفقد بصرى . من يصدق أننى أقرأ أكثر وبشكل أكثر كثافة .

لكن كل هذا شىء وما حدث عام ١٩٩٢ كان شيئا آخر .

الصحف الالكترونية :

طور المعهد الملكى الوطنى للعميان Rnlb نظاماً جديداً بالاشتراك مع صحيفة الجارديان اليومية البريطانية وشركة « إيركول تيليتيكث » وهى شركة تقديم النصوص تليفزيونياً - طور الثلاثة نظاماً جديدا يمكن أن نطلق عليه الصحف الالكترونية . وهو نظام يمكن العميان وضعاف البصر من قراءة الصحف اليومية على شاشة تليفزيونية .

ويعنى هذا النظام الجديد ببساطة أن تبث الصحيفة فى شكل رقمى وتخزن على أسطوانة صلب للكمبيوتر . ثم تقرأ على شاشة تليفزيونية بحروف كبيرة لضعاف البصر ، أو بطريقة بريل الكترونية للعميان . ويمكن أيضا أن تُسمع عبر مخلّق صوتى .

وهناك ثلاث خطوات لعمل النظام :

١ - إعداد النص من المصدر وهو الصحيفة .

٢ - البث أو الإرسال .

٣ - الاستقبال والقراءة .

أولا : إعداد المعلومات وبثها

يعمل الصحفيون فى العالم الصناعى المتقدم على حاسوب يكتبون عليه مقالاتهم . وهكذا يخلق نص الصحيفة على كمبيوتر . وتعد النصوص للطبع باستخدام تقنية Wysiwyg أو تقنية « ما تقرؤه هو ما تحصل عليه » . ويخلق هذا تمثيلا خريطياً - أى صورة طبق الأصل لشكل الصحيفة - يتضمن كل سمات المادة المطبوعة . وليس المعلومات بهذه الصورة مناسبة للنظام الرقمى ، حيث لا يمكن قراءته عن طريق مخلق .

يحـــول نص الصحيفــة إلى ملف « أسكى Ascii فى نفس يوم الصدور . وتنظم هذه الملفات على نفس نمط الصحيفة المطبوعة . وتوضع إشارات خاصة تشير إلى العناوين ونهاية الفقرات الخ ، ويضاف إلى ذلك عدد من إشارات البث عند بداية الملفات وعند نهايتها ، قبل نقلها على الشبكة العامة إلى محطة البث .

وفى « محطة البث » تشكل المعلومات على الهيئة المطلوبة للبث . وتخزن حتى وقت محـــدد ، ثم تدخـــل إلى الإرســـــال التليفزيونى ، وتبث باستخدام نظام الاشتراكات أى إلى عدد محدد من الراغبين .

- وهم العميان وضعاف البصر فى هذه الحالة . وتوفر هذه الطريقة البث من

نقطة إلى نقاط متعددة ، واستقبال الصحيفة ايضاً فى نفس الوقت تقريباً - فى جميع أنحاء بريطانيا .

ثانيا : استقبال المعلومات : وتستقبل المعلومات باستخدام حاسوب شخصى . وتفك شفرة المعلومات وتخزن على اسطوانة صلب لملف « أسكى » ثم تعالج تلك الأراشيف لإزالة إشارات البث ، ثم توضع فى صورة صالحة للاستخدام مع برامج القراءة - « السوفت وير » .

ثالثا : قراءة الصحيفة .. تتلخص الأهداف الأساسية للنظام فى تمكين العميان وضعاف البصر من قراءة الصحيفة اليومية فى نفس يوم صدورها وبنفس الطريقة التى يقرأها بها البصير .

ولقد طور « المعهد الملكى الوطنى للعميان » برامج « سوفت وير » توفر نظاما بيئيا وسيطا ملائما للغاية للاختراع الجديد ويميز هذا النظام البيئى الوسيط بطريقة « قائمة الاختيار » فتظهر كل المعلومات على الشاشة أو تذاع صوتيا عبر مخلق صوتى أو تعرض على عارض بطريقة بريل . وتمكّن « قائمة الاختيارات الشخصى من اختيار عدد الجريدة التى يقرأها (عدد اليوم أو عدد سابق) ، وأن يضبط الجهاز لتلقى الصحيفة بنفس ترتيب صفحاتها ، أو أن يبحث عن مقالات بعينها تهمه . فمتى تم اختيار الشخص لعدد الصحيفة الذى يريده ، تقدم له قائمة تضم أقسامها المختلفة : الأخبار المحلية ، الأخبار الأوربية ، الأخبار الخارجية ، أخبار المال والاقتصاد ، الرياضة ، الموضة ، ومقالات الرأى والتعليقات الخ .

. يختار الشخص القسم الذى قراءته ، ثم يقرأ له العنوان الأول .. فلو كان الموضوع يهمه ، فإنه يضغط على مفتاح (زرار) فتبدأ قراءة المقال . واذا لم يكن يريد هذا الموضوع ، يضغط على « زرار » آخر ، فيظهر العنوان التالى وهكذا .

هناك مفاتيح أخرى فى الجهاز لمساعدة القارىء وتقديم تسهيلات أخرى له مثل .

- البحث عن الكلمات المفتاحية (داخل مقال)
- أو للتوقف عن القراءة ثم العودة إليها
- أو للحصول على مساعدة ما

التطورات المستقبلية

يجرى « معهد العميان » حاليا تجربة إرشادية ناجحة للنظام ، دخل فيها : عدد من العميان وضعاف البصر الذين يقرأون الصحيفة (الجارديان) بمنازلهم ، ومعهدان أكاديميان ، وست مكتبات عامة .

والغرض من هذه التجربة الإرشادية تقييم جدوى هذا النمط من النظم ، واختيار كل من برامج القراءة وإجراءات البث .

وأظهرت التجربة إمكانية تنفيذ المشروع تقنيا . وبهذا تتم الاستعدادات لإقامة خدمة مستديمة يستفيد منها الآلاف

وهناك تطورات إضافية يمكن أن تحسّن النظام ، وتتضمن هذه .

● إدخال صحف أخرى في النظـــام (وأساسا الفاينتشيال تايمز والتايمز والإنديندانت الخ) وكذا مجلات اسبوعية وشهرية .

● إمكانية استخدام حواسب أخرى ، ذلك انه في الوقت الحـــالي ، فإن « السوفت وير » مهيأ للاستخدام على الحواسب الشخصية المناسبة لنظام آي . بي إم IBM .

● تطوير برامج « سوفت وير » للوصل المبسط إلى التليتيكيت المفتوح العادي ، الذي يمكن متابعته على قناتي التليفزيون البريطـــاني (نظـــــام أوراكل ونظـام سيفاكس) .

توفير النظام لمعرتين غير العميان وضعاف البصر ، باستخدام مفاتيح تشغيل خاصة .

التقنية المستخدمة

أولا : المعدات :

تتكون المعدات والأجهزة المستخـدمة من :

● حاسوب شخصي : يتوائم مع نظام آي . بي . إم IBM باسطوانة صلب ، إلى جانب رام RAM مقيـاس ٢٥٦ ك (وإضافة إلى الذاكرة التي يحتاج إليها في نظام التشغيل ، وأي تسهيلات أخرى للذاكرة مثل برنامج قراءة الشاشة) ومن النادر اليوم شراء حاسوب له رام أقل من ٥٢٠ ك وعلى ذلك لا يعتبر الشرط المطلوب قيداً . وهناك حاجة إلى فتحة حرة بطول كامل من أجل « كارت فك الشفرة » . لذلك هناك حاجة إلى فتحة بطول كامل أو باب حر للمخلق الصوتي ومرة اخرى لا يعتبر ذلك قيداً على الحاسوب الشخصي .

● مخلق صوتي ، أو برنامج سوفت وير بحـــروف كبيرة ، أو عارض على نظام بريل . والمطلوب واحد فقط من تلك المعدات حسب الحاجة .

وقد يكون المخلق الصوتي إما الدولفين أبولو Dol phina Apollo أي الإنفوفوكس Infovox . وهذان النظامان هما الوحيدان المفضلان حاليا . لكن من الممكن طلب مجموعة أخرى من المخلقات إذا كان هناك طلب عليها . ويمكن الحصول على تسهيلات العرض بحروف من أي مجموعة سوفت وير تجارية ذات حروف كبيرة . ومن المتوقع استخدام أي سوفت وير يملكها الشخص .

ويعرض بريل الوحيد المعتل حاليا هو الفيرسا بريل psd ومرة اخرى يمكن استخدام أجهزة أخرى إذا كان عليها طلب.

● « كارت فك شفرة يوصل بهوائي تليفزيوني من نوع قوي جيد ويوجد داخل الحاسوب الشخصي .

وأحد الأهداف عند اختيار المعدات ، هي أن يكون أمام القارىء اختيارات عديدة . والحواسب والحاسوبا الشخصية

التى تتوام مع آى . بى . إم شائعة للغاية . وبالمثل هناك عدد كبير من تسهيلات المعدات والبرامج المعدة لتلك الحواسب وبالاضافة إلى ذلك هناك عدد كبير من الموردين لنظم الحواسب . وحيث ان النظام مازال تحت التطوير ، فإن مدى المعدات سيتسع كثيراً بمرور الوقت . وسيكون من الممكن تركيب برامج السوفت وير على حاسوبات أخرى ، أحدها حاسوب أبل ماكنتوش الذى يستخدمه - فى بريطانيا - عدد من المصابين بالشلل الرباعى ، والذى ليس لديهم الفرصة لقراءة المطبوعات بأنفسهم .

ثانيا : البث

البث المستخدم هو « النص التليفزيونى بطريقة الاشتراكات » ، وهو البث الذى يستخدم خطوط فى . بى . آى VBI اشارات التليفزيون لإذاعة معلومات رقمية . والملامح الرئيسية لهذا البث ، والتى تجعله مثاليا لهذه النوعية من التطبيق هى :

- بث واحد يغطى البلاد - بريطانيا - بأكملها .
- ولا تفك الشفرة إلا بأسلوب تحكم لذا فهو آمن .
- طريقة اختبرت جيدا لبث المعلومات .
- طريقة اقتصادية .

وأخيراً ..

هناك إمكانات كبيرة لمشروع الصحيفة الرقمية الالكترونية لخدمة العميان وضعاف البصر ، وهناك فرصة كبيرة لتطوير المشروع فتزيد بهذه الطريقة المعلومات المتوفرة لهم . وسيحسن هذا المشروع من حياتهم . ولاشك أيضاً أن هذه الخدمة ستمتد إلى معوقين آخرين غير العميان وضعاف البصر . وعلى قدر علمى ، لا أعرف أن هناك إحصائيات عن أعداد المعوقين فى مصر وفى البلاد العربية ، وهل يمكن أن تمتد إليهم مثل هذه الخدمات المتقدمة . لكن الأمر يحتاج إلى دراسة ، على أية حال .

هوامش

(١) أدين لمعهد العميان بحياتى العملية الثانية التى بدأت عام ١٩٨٥ بعد تدنى نظر عينى الاثنين . وأشكر رؤساء اقسامه على كل التسهيلات والمساعدات التى قدمت لى والتى اولاها ، لما استمر عملى كصحفى وكاتب .

(٢) وأوجه شكرى للدكتورة باولا فابريرى مديرة بحوث التقنية بقسم تطوير التقنية بالمعهد الملكى الوطنى للعميان .. التى قدمت لى المادة العلمية لهذا المقال حول « صحف الكترونية للعميان » ، وكذا على الرسم الذى يبين كيف تعمل والذى أعدته لمجلة الهلال عندما علمت بانها طالبت الموضوع .

رسالة لندن

زمن المثقفين الأغبر .. !

د. على شلش

يبدو أن العالم الأول يظلم المثقفين كما نظلمهم فى العالم الثالث . فنحن نعتقد أن المثقف شخص غير عادى ، أو سوبر مان ، بطل، لا يضعف ، ولا يقبل الحلول الوسط ، ولا يخطئ أيضا ، وهذه كلها من بقايا نظرة المجتمعات المتخلفة إلى أبنائها المتعلمين أو الملمين بالمعارف ، ويبدو أيضا أن هذه النظرة الرومانتيكية التى تفترض أن المثقف بطل على طول الخط مازالت موجودة فى العالم الأول ، حتى بعد خروجه من محنة التخلف وتسلحه بالنظرة الواقعية .

برنارد شو



د. هـ لورنس



أقول هذا الكلام لنفسي بعد مطالعة كتاب جديد ظهر هنا لأستاذ جامعي في أكثر من ٢٠٠ صفحة وعنوانه : « المثقفون والجماهير » ولكن هذا عنوان خطابي ضخم ، يخفف وقعه عنوان آخر فرعي هو « الكبرياء والهوى بين المثقفين الأدباء : ١٨٨٠ - ١٩٣٩ » أما مؤلفه فاسمه جون كاري ، ومن العنوان الفرعي الأخير تتبين أن المؤلف مشغول بقطاع معين من المثقفين ، هو قطاع الأدباء ، بل هو مشغول بفئة معينة في هذا القطاع ، هي فئة الحداثيين الذين رفعوا لواء الحداثة في بريطانيا بالذات خلال الفترة موضوع البحث وشغلوا الدنيا والناس ، ولا سيما خارج بريطانيا في عالمنا الثالث بصفة خاصة ، وعلى رأس هؤلاء الحداثيين د . هـ . لورنس ، و . ت . س . إليوت ، هـ . ج . ويلز ، ج . ب . شو ، و . ب . ييتس ، جيمس جويس ، جورج أورويل ، ومعظم هؤلاء - كما نعرف - شعراء وقصاصون عاطفيون مزاجيون من الذين تتغير أمزجتهم بتغير الطقس أحيانا ، ومع ذلك لم يرحم كاري ضحايا الطقس المتقلب في بلده ، ونزل بهراوة وضراوة فوق رؤوس هؤلاء وغيرهم .

نيتشه



● هكذا تكلم نيتشه

يقوم الكتاب على فكرة مؤداها أن الحداثيين البريطانيين والأيرلنديين لم يكونوا من أنصار الجماهير ، بل لم يهتموا بمخاطبتها أو التقرب إليها في كتاباتهم بمقدار ما كرهوها وربطوها بالغوغائية وأطلوا نبحها إلى درجة أن نغمة حديثهم عن الجماهير صارت مثل نغمة خطب هتلر ضد الغجر والمجانين واليهود ، وإذا كان هتلر نفسه تأثر بفيلسوف بلاده نيتشه فهم أيضا شاركوه في هذا التأثر .

ماذا قال نيتشه عن الجماهير ؟

اقتبس المؤلف كثيرا مما قاله نيتشه ، ولا سيما في كتابه الشهير « هكذا تكلم زرادشت » وفي هذا الكتاب تمنى نيتشه لو أن عاصفة هوجاء هبت على البشر فاقتلعتهم من على الأرض . وفي كتابه الآخر الشهير أيضا « إرادة القوة » طالب بإعلان الحرب على الجماهير من جانب المتفوقين الأقوياء . ولكن الأهم من هذا وذاك أن نيتشه وجد لنفسه أتباعا مخلصين بين مؤسسي الثقافة الأوروبية الحديثة وأعمدتها ، كما وجد صدى واسعا عند الحداثيين والمجددين في الأدب داخل أنجلترا وأيرلندا خلال الربع الأول من هذا القرن ونتيجة لهذا الصدى الواسع تعالى الحداثيون الأوروبيون عموما على الجماهير

زمن المثقفين الأغبر .. !

المسكينة ووصفوها بالغوغائية والسوقية ، واتهموها بتلويث البيئة وتكدير النسل ، وازداد نكيرهم عندما اتسع جمهور القراءة بعد ظهور الصحف الشعبية (التابلويد) ابتداء من عام ١٨٩٦ ، ففى ذلك العام أنشأ بارون الصحافة الراحل اللورد نورثكليف جريدة «ديلي ميل» الموجودة حتي اليوم ، وقال إن شعارها هو «صحيفة الرجل المشغول» ولكن الحداثيين والنخبويين حاربوها مثلما حاربوا الجماهير عموما ، وبينما كان مبدأ نورثكليف هو «إعطاء الجمهور مايريده» كان هؤلاء وأولئك يعتقدون فى « إعطاء الجمهور مايريدونه هم » وكان ذلك الذى يريدونه يعنى «التعليم» ، أى أن التخطيط للتعليم والقيام به من عمل النخبة المثقفة !

وظل موقف الحداثيين على هذه الحال حتى آخر الفترة موضوع الكتاب ، أى إلى اشتعال الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩.

قبل عام من اشتعال تلك الحرب كتب الشاعر الناقد ت . س . إليوت فى إحدى إفتتاحيات مجلته «كرايتيريون» ينعى على الصحف اليومية والأسبوعية إجرامها فى حق القراء ، فهى « تبقى عليهم فى صورة جماهير راضية عن نفسها ومتعصبة ومعدومة التفكير » وشاركه فى هذا الهجوم زميله الناقد ف . ر . ليفز الذى شدد النكير على الصحف ووسائل الإعلام فى افتتاحيات مجلته «سكروتنى» ، بل ربط الإعلان بالشر ، وقال « إن وسائل الإعلام تنشر أرخص العواطف ، والأفلام والجرائد والدعاية بأسرها تقدم الناس زاداً من أحط مستوى » وكانت مجلة إليوت توزع فى ذلك الوقت ما لا يزيد على ٨٠٠ نسخة فى حين كانت مجلة ليفز لا تطبع أكثر من ٧٥٠ نسخة !

يأتى المؤلف أيضا بمثل آخر على كراهية إليوت للجماهير ، وهو من شعره هذه المرة ، بل من أهم قصائده « الأرض الخراب » ، وفيها يربط إليوت بين جماهير موظفى المكاتب الذين يعبرون جسر لندن والموتى فى جحيم دانتى ، قائلا :

راح الزحام يتدفق
على جسر لندن
بكثرة شديدة
إلى حد أننى تصورت
أن الموت لم يقرب العابرين

ويضيف كارى بأن المعنى الضمنى فى أبيات إليوت هذه يعنى أن زحام لندن كله موتى ، وهذا - فى رأيه - يتفق مع زعم نيتشه بأن الحياة فى الدولة الحديثة ماهى إلا انتحار بطئ !

● زمن أغبر !

هكذا أيضا كان موقف د . هـ لورنس . وجورج أورويل وإذا كان لورنس أبدى

امتعاضه وقرفه من أهالى سيلان والمكسيك عقب زيارة للبلدين ، وتمنى أن ينزل الله طوفانا آخر لإغراق العالم فقد شاطره أورول أحزانه على السوبر مان الذى يعيش وسط قطيع من الجماهير الدنية ! وهكذا أيضا – كما يقول المؤلف – دار الأدب الحداثى والثقافة الحديثة حول مبادئ خلاصتها استبعاد الجماهير ، والقضاء على سلطتها وطاقاتها المعرفية ، وإنكار انسانيتها ، ولكن هذا كله باء بالفشل ، فالجمهور تعبير مجازى عما لا يمكن معرفته أو رؤيته ، وهو يعني الزحام فى مظهـره الميتافيزيقى ، ولا يمكن له أن يتخذ شكلا معرفيا إلا بصفته مجازا . «ومع ذلك فهو مجاز يخدم أغراض الفرد عند الفرد ، لأنه يحول الغير إلى كتلة مختلطة غير متطورة ، وهو ينكر على الغير الفردية التى ننسبها إلى أنفسنا وإلى الذين نعرفهم» .

أليس هذا تفسيرا فلسفيا نفسانيا ؟

هذا مايريده المؤلف على أى حال . أما مايريده السياق الاجتماعى والثقافى العام، أو ما يسمى الظروف المحيطة ، فشىء آخر غير هذا . فالمثقف ، أو الأديب أيضا ، ليس سوبرمان ولا مقطوعا من شجرة . والمجتمع الذى عاش فيه أولئك الحداثيون الذين ذكرنا أسماءهم كان يربى فيهم – منذ حداثتهم – الشعور بالتفوق على عباد الله الاخرين المنتشرين فى الامبراطورية التى لاتغرب عنها الشمس (سابقا) . كما كان يربى فيهم العنصرية والتعالى على الشعب العامل . وإذا كان هؤلاء الحداثيون أو غيرهم تعالوا على الناس البسطاء وانفصل أكثرهم عن جذوره الشعبية باستثناء اليوت الذى ولد وفى فمه ملعقة من الفضة ، فهم جميعا لم يدعوا أنهم قادة الجماهير ، ولا زعموا أنهم مخلصو الشعب من خراب عصرهم بل كانوا هم أنفسهم ضحية غرور الثقافة الأوربية ، ودورانها حول ذاتها ، وتناقضها بين النظر والعمل ، أو بين الفكر والسلوك . ومن حق المثقف الذى لايدعى القيادة ولا يزعم المهدية أن يكون ضعيفا ، وأن يتناقض مع نفسه أحيانا ، وأن يغير جلده أحيانا أخرى .

وحتى لانذهب بعيدا ، أو يجرفنا تيار الانفعال إلى شواطئنا ، نذكر مقالاً ذكيا فى نقد هذا الكتاب ، نشرته صحيفة «صنداى تايمز» فى ملحق «الكتب» للكاتب بول جونسون ، وهو مؤلف كتاب آخر ظهر عام ١٩٨٩ بعنوان «المثقفون» . وقد استهل مقاله بقوله :

«هذا زمن أغبر على المثقفين . فقبل هذا الجيل كان رجلان مثل جان بول

سارتر وبرتراند رسل يستطيعان تكتيل الجماهير فى الغرب، وكان برتولت برخت يستطيع تصريف أمور امبراطورية ثقافية فى الشرق. أما اليوم فمن الصعب أن نفكر فى شخصية مشابهة تجتذب بآرائها أدنى درجات الانتباه. فالمثقفون لا يجدون الاحترام، وعمداء الكليات لايثق بهم أحد، والطلاب ككيان مكروهون، وأعداد الجامعات لاتزدهر إلا على حساب الكساد العالمى. بل صار ضرب المثقفين رياضة مفضلة بين القراء

ومن هذا المنطلق بدأ جونسون هجومه على كارى، وقال إن كتابه لون من ألوان ضرب المثقفين، وإطلاق النار عليهم من خلال الذوق أو المعتقد. فهدف كارى مزدوج: أدبى وأخلاقى. فهؤلاء الأدباء الذين أطلق عليهم النار لهم أعمال، مثل رواية «يوليسيس» لجويس، لم تكتب إلا للمثقفين، وبذلك امتنع فهمها وقراءتها على من هم أقل. وهذا هو الجانب الأدبى. كما أن هؤلاء احتقروا الناس العاديين وترفعوا عليهم، ثم دمروا شرعيتهم بأيديهم، بل شاركوا هتلر فى جريرته وهذا هو الجانب الأخلاقى. ولكن كارى - كما يقول جونسون - لم يلحظ أن كره البشر عند الأدباء الإنجليز وغيرهم لم يبدأ فى ثمانينيات القرن ١٩ وحدها، بل يتردد صداه منذ جوناثان سويفت فى القرن ١٨، ولا علاقة له بالحداثية وحدها أو اليمين السياسى وحده. فكارل ماركس - مثلا - له أفكار وآراء عنصرية وهتلرية، منها كرهه للطبقات والأسر الحاكمة والشعوب التى دمغها بالرجعية. واتخذ ولاؤه المعلن للجماهير شكل التحيز للبروليتاريا وحدها. وكانت معاملته لأبويه وزوجته وبنتيه وأصدقائه فظة، توحى بأن قلقه على البشرية لم يكن أصيلاً. بل إن عقليته وتعاليمه أنتجت سياسات الإبادة التى اتبعها لينين وماو وستالين أكثر مما أنتج نيتشه سياسات هتلر. ثم أخذ جونسون على كارى أيضا هجومه على المسيحية وأفكارها التى أنتجت كتابات القديس أوغسطين عن جهنم والجحيم. وبرأ القديس من تهمة التأثير على هتلر التى ألصقها به كارى. وأضاف أن الأدباء المسيحيين فكرا مثل ج. ك. تشسترتون هم الذين وقفوا فى وجه برامج الإبادة وتغيير الهندسة الوراثية التى ناصرها أدباء من أمثال ولز وشو. ولم يقف المثقفون المسيحيون الأتقياء وحدهم فى معارضة الأفكار المعادية للبشر، وإنما شاركهم اليهود الأصوليون كما يقول جونسون. وهؤلاء وأولئك سيقفون - كما يقول أيضا - فى وجه أية مخططات ترمى

إلى السيطرة على النسل وتوجيهه بعد مؤتمر قمة الأرض فى ريو دى جانيرو .

ظلم ذوى القربى

شئ واحد فقط وافق جونسون زميله كارى عليه حول أصحابنا المثقفين ، هو أنهم فى مجموعهم - كما يقول أخيرا - فظيعون جدا !

ولعلنا نقول لجونسون وكارى معا : لقد ظلمتما أبناء طائفتكما أو فئتكما ، أيا كان المصطلح . وأقسى أنواع الظلم هو ظلم ذوى القربى . ولكن ماذا نفعل مع المثقفين وهم فى نقار مستمر مثل نقار الديكة منذ سقراط حتى اليوم ؟ سوف يستمر النقار على أى حال ، وسوف يستمر أيضا ذلك الاهتمام المتبادل بين الخاصة والعامة ، أو بين المثقفين والجماهير إذا شئنا المصطلح الحديث . أما الظلم الواقع على المثقفين فيهمنا ما يأتى منه من جانب الجماهير . وأساس هذا الظلم أن الجماهير تضع المثقف فى وضع غير إنسانى حين تعامله على أنه بطل وقائد ومرشد وهاد ، دون أن تتقبل فكرة أنه - أيضا - بشر وإنسان ، وأن الإنسان خلق ضعيفا ، وليس معصوما ولا فوق المساءلة . وأما ظلم كارى بصفة خاصة فأساسه أنه لم يفرق بين المثقف الأديب والمثقف الفيلسوف أو المؤرخ . فالأول متقلب المزاج مثل طقس لندن ، يحب العامة فى لحظة ويكرهها فى لحظة تالية ، وطوال اللحظتين لايحب إلا نفسه . أما الآخر فأكثر تماسكا . ولابد من محاسبته إذا تطوع للدعوة إلى سفاح مثل هتلر أو دكتاتور مثل ستالين.

شيء واحد فقط ، أيضا سيظل مصدر إزعاج لعقل العامة وعقل الخاصة معا ، وهو شيء لايصلح معه التعجل فى البحث أو التفسير . لذلك يحسن أن نضعه فى صورة أسئلة :

لماذا انحاز بعض المثقفين إلى عمليات اغتيال العقل منذ سقراط ، وإبادة البشر منذ الإسكندر الأكبر ؟ ألم يكن الإسكندر نفسه ، ثم يوليوس قيصر وستالين وهتلر وغيرهم من السفاحين والطغاة ، مثقفين ، ولبعضهم إنتاج مطبوع ومعروف ؟ كيف جرى فى جسم المثقفين - فى العالم ومنذ سقراط على الأقل - شريان دكتاتورى وإرهابى مازال يلتهب ويتورم حتى اليوم ، ويظهر طفحه من وقت لآخر فى صورة غير إنسانية كما حدث مع إخواننا الحداثيين فى بريطانيا وغيرها ، أو كما يحدث اليوم مع السكوت عن مجاعات الصومال ومذابح البوسنة ؟

يبدو أن جواب هذه الأسئلة يحتاج إلى كتاب ثالث غير كتابى كارى وجونسون . ولكن الذى لايحتاج إلى كتاب هو أن زمن المثقفين فى عالمنا المعاصر أغبر !

الإيدز

بين السينما المصرية والأمريكية

بقلم : مصطفى درويش



شريهان مريضة بالإيدز فى حب ورعب

حتى عهد قريب لم اكن قد شاهدت اى فيلم يعرض لمرض فقدان المناعة المكتسبة «الايدز» ، ذلك المرض المسمى بطاعون القرن العشرين

وعلى كل ، ففى اثناء مهرجان الاسماعيلية الدولى الثانى للأفلام التسجيلية والقصيرة الأخير ، رأيت ضمن الافلام المشاركة فى المسابقة فيلما عن بين افلام التخرج فى معهد السينما اسمه « الموت كالاخرين » لصاحبه المخرج ، محمد الرشيدى

فاذا بى افاجــأ بانه يعـــرض بصراحة لهــذا المرض اللعين



مشروع عبد الحليم أحمد الصافي بالأبيض حتى الصدر ، هنا

ونظرا الى ان تناوله لمأساة مرضى الايدز اتسم باسلوب قوامه الاستخفاف والاستهتار ، فقد اثار ذلك سخرية ثم غضب ، ولا اقول رعب ، جميع أعضاء لجنة التحكيم الدولية ، بمن فيهم كاتب هذه السطور .

فكان ان شجبوه فى بيانهم الأخير ، حيث وصفوا طريقة عرضه للمرضى بعدم الدقة ، وعدم الانسانية ، مع التحذير من انها طريقة محفوفة بالمخاطر .

ولا غرابة فى رد الفعل هذا من جانب اعضاء تلك اللجنة ، فالفيلم من تلك الأعمال السينمائية التى لابد أن تثير برداءتها غضب أى حليم .

● نوم العقل

وسبب الغضب هو موضوعه الذى يقال من خلاله على امتداد عشرين دقيقة لاتزيد ، ان صحفية شابة كلفها رئيس التحرير بعمل تحقيق عن أحوال المرضى فى أحد المستشفيات .

وبينما هى تقوم بعملها على خير وجه، اذا بها ترى مريضا يسقط ، وهو يحاول الهرب ، صريع وابل من رصاص الحراس .

واذا بها تسمع من داخل المستشفى نواح انسان يبكى حظه العاثر .

وهاهى ذى تتوجه فى حذر الى مصدر الصوت ، حيث تكتشف ان صاحبه فتى فى عنفوان الشباب ، يبكى صديقه الذى مات مقتولا قبل لحظات .

وما ان تبدأ فى التعاطف معه ، وبخاصة بعد ان تبين لها أنه حلو اللسان والبيان ، حتى يعترف لها انه وصديقه معزولان فى المستشفى عن سائر المرضى لانهما مصابان بمرض الايدز اللعين .

وهنا تفقد الصحفية الشابة صوابها تماما ، وتهرب منه فزعة ، كما يهرب السليم من المجزوم .

ولسبب غير مفهوم يطاردها الشاب الذى كان وديعا كالحمل قبل حين ، فى ممرات المستشفى حتى يلحق بها ، ثم يلقيها ارضا فى احد الأركان حيث يقوم باغتصابها دون رادع من ضمير .

وطبعا ينتهى بها الأمر حاملاً ، وفى نفس الوقت مصابة هى والجنين المسكين بالايدز اللعين !!

ولا يكتفى صاحب الفيلم القصير بكل ذلك ، بل انه ينهى فيلمه بمشهد أخير نرى فيه الصحفية الشابة فى نفس المستشفى معزولة عن الناس ، تنتظر الموت كالآخرين

● داء الاستسهال

ولم تمر على محنتى مع هذا الهراء سوى أيام ، الا وكنت أمر بمحنة أخرى ، الا وهى مشاهدة فيلم « الحب فى طابا » لصاحبه المخرج « أحمد فؤاد » .

فهو بدوره عرض لاخطر مرض يتهدد بنى الانسان الآن ، بنفس طريقة « الموت كالآخرين » ، أى باستخفاف واستسهال يندر أن يكون لهما نظير .

و « الحب فى طابا » ليس له ، والحق

يقال ، علاقة بالحب الذى يملك القلوب ، لا من قريب ، ولا من بعيد .

فهو باختصار يحكي قصة ثلاثة شبان « ممدوح عبد العليم » و« نجاح الموجي » و« هشام عبد الحميد » ذهبوا إلى سيناء مصطافين .

وعلى رمال الشاطىء الساخنة ، استباحوا لانفسهم مغازلة ثلاث سائحات أجنبيات غزلا فاضحا .

وبطبيعة الحال انتهى الأمر باشباع رغباتهم الجامحة مع السائحات الهائمات حبا .

وفى طابا وبعد وداع حار ، تركت السائحات الثلاث لكل عاشق ولهان رسالة تعترف فيها بانها مريضة بالايدز .

وما أريد ان اعرضه لردود الفعل البلهاء من قبل عشاق طابا ، بعد انتهاء كل واحد من قراءة الرسالة النذير .

ولا لجهل الطبيب من بين هؤلاء العشاق « هشام عبد الحميد » بان الايدز مرض لايصاب به الإنسان بمجرد التماس .

ولا لادعاء الفيلم بان مرضى الايدز فى مصر يجرى عزلهم فى مكان أمين مخافة العدوى أسوة بمرضى الطاعون فى سالف الزمان .

وأنما اكتفى بان أقول بان « الحب فى طابا » اشد خطرا ، وبالتالى أكثر اضرارا من « الموت كالآخرين » لماذا ؟

لأن الفيلم الأخير ليس له أى تأثير ، وذلك لأنه فيلم تخرج قصير ، لن يشاهده الا نفر قليل فى حين أن « الحب فى طابا » فيلم تجارى ، لاقى فى الشباك نجاحا كبيراً .

● عود غريب

ومن عجب أنه ما أن انتهى عرضه فى دور السينما حتى بدأ عرض فيلم ثالث يتناول مرض الايدز بنفس الطريقة التى لا تقيم وزنا لأى اعتبار .

وهذا الفيلم هو « حب ورعب » أول عمل سينمائى للمخرج « كريم ضياء الدين » .

وأعجب العجب ان يكون هو الفيلم الذى تعود به شريهان إلى الجمهور الذى انبهر بتميز ادائها فى « الطوق والاسورة » أيما انبهار .

ومهما يكن من الأمر ، فالفيلم يبدأ بها عائدة من الولايات المتحدة مستصحبة نعشا به جثة زوجها ، وطفلا رضيعا وفيروس الايدز المميت .

وبعد التخلص من الجثة فى المقابر ، والطفل فى دار للحضانة ، تتجول شريهان فى أنحاء المدينة البديئة ، حاملة الفيروس الذى ليس لهارب منه نجاة .

فهى مثلا تنام مع ابن عمها « محمود الجندى » فتصيبه به فورا .

ويغتصبها أحد فتوات الكاباريهات ، فيصاب به فى التو واللحظة .. وهكذا وهكذا وإلى هنا والأمر مقبول إلى حدٍ ما .

فساد الرؤية

ولكن سرعان ما يبدأ الفيلم فى التدهور بنسبة متوالية هندسية عندما يفتعل كاتب السيناريو « نبيل غلام » كوميديا من الأخطاء مدارها زعيم عصابة منشقة « حسين الشربينى » ، يريد قتل زعيمه « حسن كامى » قبل الانشقاق فيستغل ، تحقيقا لذلك فيروسات شريهان

ولأمر ما تلتقط « شروق » الفيروس من عشيقها « كامى » فور التقاط الأخير له من شريهان ، ثم تنقله فى نفس الليلة الليلاء إلى زوجها « الشربينى » ولامر ما آخر ، كل ذلك كان يجرى تسجيله على شريط فيديو وضعه « الشربينى » خلسة فى حجرة نوم « كامى » كى يصور « شريهان » مع الأخير ، حتى يطمئن قلبه إلى نجاح التدبير .

فاذا بالكاميرا تلتقط بعد تصوير «شريهان» مشهدا للزوجة الخائنة « شروق » وهى نفس فى الاحضان .

وهنا ، لابد من القول بان كل هذا قد تحول بالفيلم الذى اراد له أصحابه أن يكون عملا جادا هادفا ، إلى فيلم لايثير فى أشد المواقف مأساوية الا الاضحاك ، ولاشىء الا الاضحاك .

اما قصة السينما الأمريكية مع مرض الايدز ، فعلى العكس من ذلك تماما .

فحتى الآن لم تنتج استوديوهات هوليوود الكبرى أى فيلم يعرض له لا تصريحا ، ولا تلميحا .



اندى جارسيا .. مرشح لدور مريض الايدز

بيان للناس

وقبل أيام فقط أعلن مصنع الأحلام فى عاصمة السينما أن أصحاب الأمر والنهى فى أستوديوهاته الكبرى اعطوا اشارة البدء بعمل افلام تعرض لمشاكل ، ولا اقول مآسى ، المصابين بمرض الايدز .

وما ان مرّت بضع ساعات على الاعلان ، حتى كانت اسماء المخرجين والممثلين المرشحين للمشاركة فى ابداع هذه الأفلام تتردد على كل لسان .

ومما اثار الدهشة أن يكون من بين الاسماء المرشحين للاخراج « جون شلسنجر » و « فرانسيس فورد كوبولا » و « جوناثان ديم » .

والثلاثة قد سبق لهم الفوز بجائزة أوسكار أفضل مخرج ، الاول « شلسنجر » عن فيلمه « راعى بقر منتصف الليل » (١٩٦٩) ، والثانى « كوبولا » عن فيلمه « الاب الروحى - جزء ثان » (١٩٧٤) ،



ديم .. مخرج صمت الحملان مرشح لأول فيلم عن الايدز

والاخير « ديم » عن فيلمه « صمت الحملان » (١٩٩٢) .

أما الممثلون المرشحون فمن بينهم « بيل موراى » بطل « مطاردو الاشباح » و« اندى جارسيا » ابن « آل باشينو » فى « الاب الروحى - جزء ثالث » و« دانييل داى لويس » الفائز باوسكار أفضل ممثل رئيسى قبل سنتين عن ادائه المذهل فى فيلم « قدمى اليسرى » لدور رجل ولد معوقا ، لايستطيع ان يحرك من جسمه الا اصابع قدمه اليسرى ، بها يكتب ويرسم معبرا عن الذات .

وقيل - من بين ما قيل - ان « بيل موراى » سيسند اليه فى فيلم « سبب محتمل » « لجوناثان ديم » دور محام معاد للمنحرفين ، يكرههم كراهة التحريم .

وإن « أندى جارسيا » و« دانى داى لويس » يتنافسان على أداء دور المحامى العام المريض الطريد .

القضية الكبرى

ويجئ إعلان الاستديوهات عن إنتاج أفلام مدارها مأساة الإيدز فى وقت تحول انتشار الإصابة به ، والعجز عن علاجه إلى قضية سياسية طرحت قبل أسابيع أمام الحضور فى المؤتمر العام للحزب الجمهورى الذى انعقد أصلا لتجديد ترشيح الرئيس « جورج بوش » لفترة ولاية ثانية .

وقبل ذلك المؤتمر بخمسة أسابيع ، طرحت نفس القضية أمام الحضور فى المؤتمر العام للحزب الديموقراطى ، حيث وقفت سيدة من أعضاء الحزب اسمها « اليزابيث جليسر » ورجل اسمه « بوب هاتوى » .

ويروى كل منهما مأساته مع المرض العضال ، وكيف أنه يعيش ما تبقى له من أيام منبوذا من المجتمع حتى انهارت دموع الحاضرين .

واستغل الديمقراطيون هذه الواقعة الحزينة انتخابيا ، فجعلوا منها سببا للتنديد بإدارة الرئيس بوش ، والاتهام لها بالتهاون فى التصدى لمأساة الإيدز التى تهدد المجتمع بالدمار والفناء .

وأخذ « بيل كلينتون » مرشحهم للرئاسة يطرح الوعود الانتخابية بأن يكون مرضى الإيدز موضع عنايته ورعايته فى حالة الفوز المبين .

زمن اللامبالاة

والغريب من أمر مصنع الأحلام فى هوليوود أنه لم يهتم بالمأساة إلا أخيرا ، وقبل أيام .

فى حين أنه يعرف عنه أنه سباق إلى عمل أفلام عن أية مشكلة تثير اهتمام الرأى العام .

والسؤال هو لماذا هذا الإهمال من جانب استديوهات هوليوود لقضية ، بل قل ، لكارثة أودت بحياة مائة وثمانية وعشرين ألف مواطن أمريكى ، وازدادوا مائتين وتسعة وثمانين حتى نوفمبر الماضى ، وهو عدد يزيد عمن لاقوا حتفهم بسبب حرب فيتنام .

ومن بين هؤلاء الموتى ثلاثمائة وواحد وأربعون فنانا كانوا يعملون فى مصنع الأحلام ، لعل أشهرهم « روك هدسون » النجم الذائع الصيت و «تونى ريتشارد سون » زوج « فانيسا ردجرف » السابق ، والفائز قبل ثلاثين سنة بأوسكار أفضـــل مخـــرج عن فيلمه « توم جونز » و « براد ديفير » الذى قام بأداء دورين فى أثناء حياته القصيرة ، أحدهما فى فيلم « قطار منتصف الليل السريع » (١٩٧٨) للمخرج «الان باركر» حيث تقمص شخصية مهرب أمريكى يذوق فى أحد السجون التركية ألوان العذاب .

والآخر دور بحار شاب جذاب فى فيلم « كويريل » المأخوذ عن قصة للأديب الفرنسى الراحل « جان جينيه » ، ترجمها إلى لغة السينما « راينر فيرنر فاسبندر » قبل رحيله بقليل (١٩٨٢) .

الصدمة الأولى

ولعلى لست بعيدا عن الصواب ، إذا ماجنحت إلى القول بأن العالم لم يع الأبعاد الحقيقية لكارثة الإيدز إلا بفضل واحد من نجوم هوليوود ، ألا وهو « روك هدسون » .

فلقد كان طولا بعرض ، يرمز إلى الصحة والعافية والفتوة والجمال .

اسمه الأول يعنى لغويا « الصخرة » أما « هدسن » فليس إلا اسم النهر الأمريكى الفائر بالأمواج المتلاطمة تنحدر صاخبة من أقصى الشمال فى كندا حتى نيويورك ، حيث تصب فى المحيط الهادر .

وفجأة ، إذا به أمام عدسات الكاميرات فاتر العينين والوجنتين ، يلتقط أنفاسه بالكاد .

وإذا به إلى باريس يسافر للعلاج من المرض اللعين .

ولكنه يعود منها إلى هوليوود مجهدا ، ليس بينه وبين الموت سوى خطوات .

وكان الإعلان عن مرضه بالإيدز ، ثم موته قبل سبع سنوات ، وبالتحديد فى الثانى من أكتوبر لسنة ١٩٨٥ ، صدمة للرأى العام ، لا فى أمريكا وحدها ، بل فى العالم شرقا وغربا .

المستجيرات

ولم يمر على اختفاء « هدسون » سوى

أسابيع معدودة ، حتى كانت « اليزابيث تايلور » ترأس مؤسسة أنشئت تحت اسم المؤسسة الأمريكية لأبحاث الإيدز ، استطاعت من خلالها أن تجمع أربعين مليون دولار أو يزيد .

وحتى كانت « بت ميدلر » و« مادونا » و « شيرلى ماكلين » ، وغيرهن من فاتنات هوليوود ، يسرن على نفس الدرب ، داعيات إلى الوقوف صفا واحدا بالتبرعات والحفلات الخيرية ضد المرض اللعين .

ومع ذلك ، ورغم أن المرض جرى اكتشافه قبل اثنتى عشرة سنة بفضل الدكتور « مايكيل جوتليب » أحد أخصائيى المناعة فى جامعة لوس أنجلوس .

فلقد كان أول من لاحظ عجز بعض مرضاه عن مقاومة العدوى بأى مرض ، حتى ولو كان خفيفا ، واستسلامهم للموت بانهيار مقاومتهم نهائيا .

رغم كل ذلك لم تحاول الاستديوهات الكبرى أن تنتج فيلما واحدا يعرض لأكبر مأساة تتهدد الإنسانية ، وهى على مشارف القرن الواحد والعشرين .

وغنى عن البيان أن هذا التصرف كان تصرفا غريبا من قبل سينما وقود صناعتها الأشجان .

● حقائق وأكاذيب

وكانت حجة أولى الأمر فى تبرير الامتناع عن صنع أفلام تعرض للمأساة ، تتلخص فى أن فيلما يدور حول مرض الإيدز وضحاياه لن يحقق نجاحا جماهيريا .

فلا أحد يرغب فى أن يذهب إلى السينما ليخرج منها بعد مشاهدة الفيلم مصابا بحالة اكتئاب .

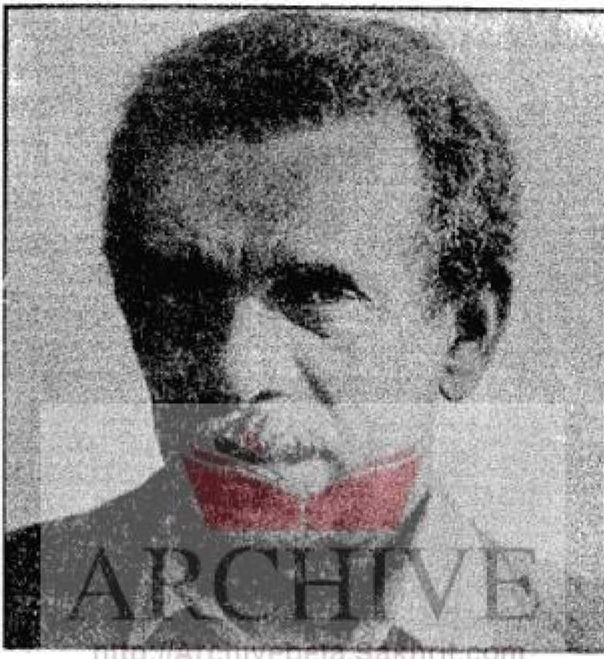
وهذه الحجة مردود عليها بأن هوليوود قد دأبت على ركوب المخاطر بخوض تجارب إنتاج أفلام ، كانت تعلم مسبقا أنهـا قد لا تحقق نجاحا كبيرا ، بل ربما لا تحقق أى نجاح فى الشباك ، وآية ذلك أخيرا « اعمـل الصح » للمخرج الأسـود « سبايك لى » ، وفيلم « مارتين سكورسيزى » عن السيد المسيح « الاغراء الأخير » .

غير أن هوليوود امتنعت عن فعل ذلك بالنسبة لمأساة الإيدز .

كان فى إمكانها بميزانية صغيرة ، وبصفقات مع التليفزيون والفيديو أن تنتج أفلاما تعرض لتلك المأساة ، دون أن تنجم عن ذلك أية خسائر على المدى الطويل .

ولكنها أحجمت ، مفضلة أن تنفق مئات الملايين من الدولارات على أفلام كالفريزة الأساسية ، لا تقول شيئا .

فلما تبين أنه مرض يتهدد الجميع ، ولو أمسل شانه لا تسع الخرق على الراتق ، كما كان يقول أهل زمان ، لما تبين ذلك سقط حاجز الخوف على السمعة ، وتهيأ مصنع الأحلام لإنتاج أفلام مدارها مأساة الإصابة بالمرض اللعين ، يبدعها أعظم المخرجين مع أشهر الممثلين .



ديريك والكت

حين تصبح الجائزة تكريما لذكرى اكتشاف أمريكا !!

بقلم : محمود قاسم

أول بادرة يمكن للمرء أن يحس بها بشأن منح الشاعر ديريك والكوت جائزة نوبل هذا العام هي ان أكاديمية ستكهولم قد تنبهت للثقافات البعيدة عن أوروبا والولايات المتحدة . وان الذين يسكنون المناطق البعيدة ، جغرافيا ، وثقافيا يكتبون أدبا متميزاً ، حتى وان كانوا لايزالون يكتبون باللغة الإنجليزية . اللغة الأم لأغلب من فازوا بالجائزة طوال قرن من الزمان .

فبعد نيجيريا عام ١٩٨٦ ، ومصر في عام ١٩٨٨ . ثم جنوب أفريقيا عام ١٩٩١، ها هو ذا كاتب من ترينداد في جزر الهند الغربية يحصل على الجائزة كشاعر . ولقد ظل ديريك والكوت غريبا ، مثل الثقافة التي يمثلها ، عن القارئ خارج الدائرة التي يمثلها .

فإذا كان إبداع والكوت كشاعر ومسرحي معروف في المملكة المتحدة ، باعتبارها زعيمة دول الكومنولث الغربية ، فإن أيا من الأعمال الكثيرة التي كتبها طوال نيف واربعين عاما من الزمن قد ظلت مجهولة خارج هذه الدائرة ، وعلى سبيل المثال فإن دور النشر الفرنسية التي تتبنى أغلب المبدعين المميزين في العالم ، ومنهم العرب بالطبع ، لم تنشر كلمة واحدة لوالكوت قبل فوزه بجائزة نوبل . وأغلب المعلومات التي نشرت في الصحف والمجلات في الأسابيع التي تلت اعلان الجائزة مأخوذة عن مركز المعلومات الرئيسي بواشنطن .

ومثلما كان سوينكا أول أفريقي يحصل على الجائزة ، ومثلما كان نجيب محفوظ أول عربي يحصل على نفس الجائزة ، فان ديريك والكوت أيضا هو أول رجل من البحر الكاريبي يحصل على الجائزة . وكل منهم يمثل ثقافة بكرا لم يكتشفها العالم بما تستحق . ولكن الذي لا شك فيه ان والكوت هو أسعد الفائزين بالجائزة حقا . فبلاده كانت قريبة من المنطقة التي نزلت عندها سفن كرستوفر كولمبس قبل خمسة قرون من الزمان ، وبهذه المناسبة رأت الأكاديمية أن تكرم هذه المنطقة وثقافتها . فاعطت الجائزة لوالكوت الذي حصل على مبلغ يقدر بـ ١٫٢ مليون دولار . وهو مبلغ يعادل ثلاثة أضعاف ما حصل عليه أديبنا نجيب محفوظ .

★ لماذا .. أنا ؟

وقد جاءت جائزة نوبل بمثابة تحية لثلاث ثقافات يمثلها والكوت الأولى ثقافة

الكاريبى التى يعيش فيها الشاعر ، ثم الثقافة الأفريقية التى جاء منها أجداده ، والثقافة المكتوبة باللغة الإنجليزية . وذلك مثلما جاء فى حيثيات منح الجائزة لوالكوت ، « ثقافة جزر الهند الغربية التى أسست شاعراً عملاقاً » .

وقد اشارت جريدة هيرالد تريبيون فى ٩ أكتوبر الماضى ان ثمانية عشر عضوا من أكاديمية ستكهولم قد اتفقوا على اختيـــار ديريك والكوت من بين مائتين وخمسين اسما رشحوا للحصول على الجائزة . ورغم ان الأكاديمية لا تعلن أبداً اسماء هؤلاء المرشحين ، فإنه فى بعض الأحيان تتسرب الاسماء ومن أجل بعث الرضا والأمل فى قلوب البعض من أدباء العالم بأنهم المنتظرون ومع هذا فإن والكوت لم يكن مرشحا بالمرة . والسبب فى غاية البساطة ، فالمسرحية الشعرية التى حصل على الجائزة من أجلها قد نشرت لأول مرة فى أواخر عام ١٩٩٠ ، وحصلت فى العام التالى على جائزة أدب الكومنولث . وقد قال والكوت ابان نشرها مداعبا : « هذه المسرحية تستحق ان تحصل على جائزة نوبل ، فالمال الذى يدفعونه كثيرا » . وقد أضاف والكوت يومها : « الطريف ان كل فائز بالجائزة يردد عقب حصوله عليها : ولماذا أنا ؟ » .

وإذا كان والكوت قد سأل هذا السؤال بدوره ، فإن جيمس أرنولد قد أجاب عليه بكل بساطة . وجيمس أرنولد هو مدير دراسات العالم الجديد فى جامعة فرجينيا ومنظم مؤتمر « قصص الهوية الأمريكية : ٥٠٠ عام بعد اكتشاف كولومبيا » ، فقال : « يبدو اختيار والكوت كأنه بمثابة تكريم لذكرى اكتشاف القارة الأمريكية ، ففى مسرحية « اوميروس » بين لنا والكوت كافة التقاليد الأمريكية فى نص درامى ، بدءا من المولودين فى أمريكا وعبر الاوروبيين ، واخلاق الأفارقة ، لقد حرك المياه الساكنة بشكل فنى راق فى جزيرته الصغيرة عبر الفضاء والزمن » .

هوميروس فى الكاريبى

والكوت المولود فى عائلة مسرحية ، فى الثالث والعشرين من يناير عام ١٩٣٠ وضع كل خبرته وماضيه ، وتراثه فى هذه المسرحية ، فهو ابن لرجل يعمل فى الإدارة المسرحية ، وامرأة مارست التأليف المسرحى ، وشقيق لتوأم يعمل أيضا فى المسرح . ورغم ان أكاديمية ستكهولم قد منحت والكوت جائزتها له كشاعر ، فإن ابداعه المسرحى أكثر بكثير من قصائده المتناثرة التى جمعها فى مجموعة قليلة من الدواوين . إلا ان هذا لم يمنعه ان يكرس موهبته كشاعر فى خدمة المسرح ، فكتب العديد من المسرحيات الشعرية من بينها :

« هنري كريستوف » عام ١٩٥٠ . و «هنري دريئر» عام ١٩٥٤ . و «القلعة الساحرة» عام ١٩٧٠ . ثم « رجل مشعوذ » عام ١٩٧٤ . و « مملكة التفاح » عام ١٩٧٨ . ثم « آه يا بابليون » عام ١٩٧٨ . ثم «اوميروس» عام ١٩٩٠ .

والمسرحية الشعرية « اوميروس » هي أضخم أعماله ، وكما هو ملاحظ فإن الكاتب يحاول أن يصيغ اوديسا معاصرة من خلال تأثره الشديد وإعجابه بهوميروس الشاعر اليوناني . وملحمتيه « الاوديسا » و « الالياذة » . وإذا كان اوديسيوس في الجزء الثاني من الملحمتين يعود من حرب طروادة بعد ان حقق الانتصار كي يبحث عن أسرته التي تنتظره أكثر من عشرين عاما . فإن اوديسيوس في ملحمة والكوت هما اثنان من الصيادين يقرران أن يقوما برحلة عبر المحيط الاطلنطي نحو بلادهما الأصلية التي جاء منها الأجداد نحو أفريقيا . والراوية في هذه الملحمة العصرية يدعى هوميريس – لاحظ اختلاف الحروف فقط في المسميات .

والمسرحية بمثابة رحلة زمنية غريبة الشكل . فهي تنتقل بين عصور عديدة . بداية من زمن هوميروس إلى أيام « فريق الخنافس » وذلك من خلال تاريخ بحر الكاريبي . وذلك في إطار تحولي ، كما كتبت جريدة ليبراسيون في ٩ أكتوبر ١٩٩٢ ، والذى ظل يرزح طويلا تحت وطأة الاستعمار .

* صرخة بعيدة من افريقيا

وطالما أننا نتحدث عن والكوت كشاعر ، فمن المهم ان نترجم له بعض القصائد التى نشرها فى السنوات الأخيرة . ففى أعماله الكاملة . والمنشورة عام ١٩٨٤ . وفى قصيدته « صرخة بعيدة من أفريقيا » ، يقول :

عندما سالتفت نحو عروقى
فانى التقى بالضابط البريطانى الحاكم الذى يختار
بين أفريقيا هذه . واللسان الأفريقى
هل أحب نفسى ؟
أتساءل عن قوتها ، أو اتراجع القهقرى .

وفى قصيدة له منشورة عام ١٩٨٤ فى ديوانه « منتصف صيف » يقول :

كل شئ ينحدر كأنه حجر
ينسلخ إلى حضن البحر . وكأنه يكذب
دع الأحجار تغوص فى الأعماق . فى ذاكرة البحر .
واتركها فى المياه . مثلما كان أبى يفعل بالألوان المائية
يمارس عمله . ويستجلب شبحه
يتماوج ويتمايل فى ضوء الشمس فى منتصف الصيف .

العالم فى سطور

سيوة

مصر .. هبة الواحات

إذا كان القول المأثور يؤكد أن من شرب من مياه النيل مرة واحدة ، فلابد أن يعود من جديد ليرتوى منه . فإن الكاتب الفرنسى آلان بلوتيير يؤكد ان من عاش فى صحراء مصر وعرف ايقاع الحياة فيها لابد أن يعود إليها مرات ومرات .. ولابد أن يكتب عنها الكتب والروايات .

هكذا تحدث الكاتب فى روايته الأولى « نقطة ماء » المنشورة عام ١٩٨٥ عن مظاهر الحياة فى واحة سيوة ، ثم فى روايته الثانية « سعد » التى يصف فيها نفس الواحة بأنها أرض الله التى يذهب البشر إليها للبحث عن كنوز المطلق . وفى هذه الرواية التقى مجموعة من الغرباء لأول مرة فى القرن التاسع عشر ، لقد جاءوا جميعا بدافع البحث عن العلم والمعرفة . فوجدوا أنفسهم ان عليهم ان يكتشفوا سحر هذا المكان وروعته .

والرواية مأخوذة عن قصة حقيقية . وقد سعى آلان بلوتيير إلى تمجيد الاثنين معا . المكان والاشخاص الذين جاءوا إليه . لقد اكتشف هؤلاء العلماء ان مصر عالم عاطفى رائع لكل من يأتى إليه . خاصة الغربيين . وأن للواحات سحراً خاصاً لايعرفه سوى من يعيش فيه .

آخر كتاب صدر فى الصيف الماضى لآلان بلوتيير يحمل عنوان « واحة سيوة » . أو « عدن الطبيعة » . ويرى فيه ان هذه الواحة ليست غنية بحدائقها . ولكن بنخيلها العالى . وبزيتها وشمسها التى لا تغرب طيلة النهار الا عند الليل . انها شمس تتمتع بحرية خاصة تنعكس سماتها على هؤلاء الذين يعيشون أسفلها .

ويرى الكاتب ان هيرودت لم يأت إلى الصحراء البعيدة التى تقترب من الحدود الليبية ، ولذا فهو لم يعرف طعم الحياة فيها . وإلا ردد ان مصر هبة الصحراء . مثلما أكد انها هبة النيل . وقد راح الكاتب يفسر ان الفراعنة قد اتجهوا إلى الصحراء للتعبد لما عرفوه من صفاء الحياة هناك ولعل هذا السبب هو الذى دفع الاسكندر الأكبر ان يبنى مدينته قريبا من البحر والصحراء . بدلا من وادى النيل نفسه .

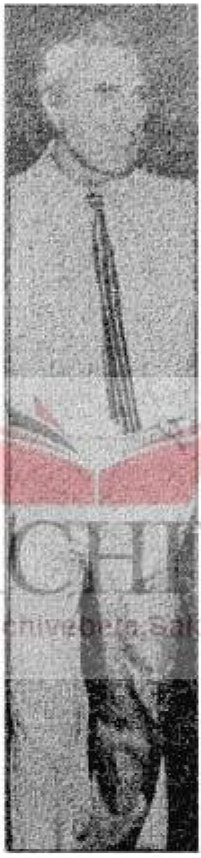
الجديد بالذكر ان المؤلف ألان بلوتيير قد عمل طويلا فى واحة سيوة كخبير عسكرى . ولكنه تحول إلى أديب - مثلما تقول مجلة ماجزان ليترير - تحت سطوة الصحراء .

روما

المهنة : انطونيونى

احتفلت ايطاليا فى اوائل الشهر الماضى بعيد الميلاد الثمانين للمخرج المعروف مايكل انجلو انطونيونى صاحب أهم أفلام السينما الايطالية فى الخمسينات والستينات . وهو بالاضافة إلى كونه مخرجا فهو أديب وفنان تشكيلى متميز .

انطونيونى المولود فى عام ١٩١٢ درس الهندسة والرسم فى



جامعة بولونيا . واتجه فى بداية حياته نحو المسرح والأدب . حيث كتب عدة روايات كوميدية اخرجها بنفسه على خشبة المسرح . ثم مارس النقد المسرحى والسينمائى . وقد بدأ يمارس كتابة السيناريو عقب حصوله على شهادة فى التقنيات السينمائية . فكتب قصة فيلم « عودة الطيار » التى اخرجها روسيلينى . ثم عمل مترجما حيث ترجم العديد من الروايات الفرنسية إلى اللغة الايطالية . وفى عام ١٩٥٠ أخرج فيلمه الأول « يوميات حب » ثم توالت أفلامه البارزة والتى منها «المغامرة» الذى صور حالة عدم الاستقرار بين البشر وتشعب العواطف الإنسانية . ثم هناك أفلام أخرى من طراز «الليل» .

و «الصحراء الحمراء» . و « تكبير الصورة » المعروف تحت اسم انفجار . ثم « المهنة صحفي » .

وانطونيوني لم يتوقف قط عن الابداع السينمائي . لكن أفلامه الأخيرة بدت تائهة قياساً إلى أفلامه الأولى . وخاصة فيلمه الشهير «انفجار» . الا انه في عام ١٩٨٥ نشر كتابا يحمل عنوان « لا شئ سوى الكذبات » حاول ان يقدم فيه عصير حياته عبر الرحيل ، والنساء ، والابداع الفني ، ويبدا هنا أشبه بالمصور في فيلمه السابق الاشارة إليه . فهو يلتقط الصور العابرة من لحظات البشر . لتكون شاهدة عليهم .

ويقول انطونيوني في هذا الكتاب ان المؤلف يجد نفسه مهتما بالتفاصيل في الكتابة أكثر من المخرج . وذلك كي يساعد القارئ أن يتخيل أكثر . اما المتفرج فعليه ان يرى « فقط » .

والجدير بالذكر ان انطونيوني لم يترك عالم الفن التشكيلي . فمنذ عامين فقط اقيم معرض ضخم ضم مجموعة من لوحاته . ويقول ان علاقته بالرسم تختلف . فهو كثيرا ما يمزق لوحاته . كي يعيد تركيبها مرة أخرى لتكون لوحة جديدة مثلما حدث مع لوحته المشهورة « الجبل السحري » .

والرسام انطونيوني يعترف أنه لا ينتمي إلى مدرسة فنية بعينها . فهو يرسم دون أن يمنهج نفسه لانه لا يحب أن يضع نفسه في إطار بعينه . ولعل انطونيوني المخرج أكثر قربا من هذا الرسام . فهو لا يمكن تصنيفه في مدارس السينما الايطالية واتجاهاتها . فلم ينتم إلى الواقعية . ولا إلى التجريدية والعبثية المعروفة عن فيلليني .

نيودلهي

سيرة .. وطن

« الهند . بلد المليون ثائر »

عنوان الكتاب الذي صدر باللغة الإنجليزية للروائي المعروف ف . س . نايبول . والذي يعيش في بريطانيا منذ سنوات طويلة .

هذا هو الكتاب الثالث الذي يخصصه نايبول للحديث عن وطنه الأصلي الذي هاجر عنه وهو في الرابعة والعشرين من عمره . وهو اقرب إلى كتاب رحلات . يتناول فيه الهند سياسيا واجتماعياً وحضاريا . كان قد نشر كتابه الأول « الهند المحطمة » عام ١٩٧٧ . والذي أكد فيه ان الهند الحقيقية لم تعد موجودة . وأن الهنود قد تركوها للاقامة في ترنيداد منذ



ثلاثة أجيال . ومن هؤلاء الهنود كان نايبول الذين يسميهم بهنود الشتات الذين كانوا مهددين دوما بالتشريد والفراغ . وقد عاشوا حياة متواضعة .

من المعروف ان ترنيناد مستعمرة بريطانية يسكنها الهنود . وفي روايته « منعطف النهر » عبر نايبول عن حالة عدم التأصل الذي يحياه هؤلاء الهنود . ورغبتهم في الهجرة إلى اماكن أخري . خاصة بريطانيا .

وفي بريطانيا يعيش هؤلاء الجنود بلا هوية محددة . فلا هم بالبريطانيين ، رغم الجنسية التي حصلوا عليها ولا هم بالهنود . ولذا فإن كاتبا مثل نايبول مصاب بداء الرحيل . كثيرا ما تحط به الطائرة في عواصم الشرق من أجل أن يعيش إنسانه الشرقي . ولذا جاء كتابه «الهند . بلد المليون ثائر» بمثابة سيرة ذاتية لنايبول يتحدث فيها بصوت عال عما يعجبه في بلاده . وعما لا يعجبه . ويعيد إلى الحياة أشخاص ماتت ذكراهم منذ أمد طويل .

ويقول نايبول انه كان أشبه بقط له عين واحدة يقف في ركن صغير يرقب كل ما يدور حوله ويسمع الهمس قبل الاصوات العالية . ويتمنى ان يظل الناس يتكلمون كي يعبروا عن مكنون قلوبهم ومشاعرهم .

ويعتبر نايبول كتابه اشبه بحوار داخلي يتحدث به إلي ذاته . ورغم ذلك فهو كتاب ساخن أقرب إلي سيرة وطن . منه إلي سيرة أديب .

باريس

احتفلت مجلة أدبية هامة في الشهر الماضي بصدور عددها رقم «٣٠٠» . وهي مجلة «ماجزان ليتريرء» التي تصدر منذ خمسة وثلاثين عاما . وهي تعتبر أهم مجلة أدبية تصدر باللغة الفرنسية .



نماذج من فنون عصر الباروك

وتقوم سياسة هذه المجلة على الاهتمام بالكتب الجديدة، والصورة، والادباء، وقضايا الثقافة مع التركيز على قضية أدبية فى كل عدد، ولذا اختارت فى عددها الاخير ان يكون حول عصر الباروك بالاضافة إلى الأبواب الثابتة.

وتقول المجلة ان نجاح فيلم « كل صباحات العالم » الذى حقق أعلى قدر من جوائز سيزار هذا العام قد أكد عودة عصر فن الباروك مرة أخرى. ورغم ان المجلة قد اعترفت ان كلمة «الباروك» لم تعد تعنى شيئا عند تفسيرها، فإن الفنانين فى القرن السابع عشر الذين تميزوا من عصر الباروك قد اهتموا بالشكل والصياغة. ويرى الناقد جان جاك بروشيه ان تفسير «الباروك» يعنى تفسير العصر الذى كان ينتمى إليه هذا الفن. كان تقول إنه راسين والقوطية والجمالية واشياء عديدة، لذا فإن الباروك كلمة قد تكون بلا معنى وفى نفس الوقت لها عشرات المعانى.

وفى مقال الكاتب الكوبى اليهو كار بنتير ان الباروك لم يتوقف قط منذ القرن السابع عشر، فقد عهدناه أيضا فى عهد نابليون. وفى روايات



دون كيشوت ، و« أحدب نوتردام» ثم في أعمال بروست .

وتؤكد المجلة أن عصر الباروك قد ازدهر في أواخر القرن العشرين في أمريكا اللاتينية فقد اهتم بها الكوبي خوسيه ليما . الذي ربط بين الوهم وانعكاس الواقع . ولم يقتصر الباروك على الأدب والفن التشكيلي وحدهما . بل وصل إلى عالم السياسة .

كان من مظاهر احتفال المجلة بعددها رقم ٣٠٠ نشر مجموعة من الصور النادرة لادباء معروفين قام بتصويرهم واحد من ابرع المصورين هو رايمون موريتي . اما محور العدد فقد كان عبارة عن مقابلة طويلة مع الكاتب الالماني – ٩٧ سنة – ارنست يونجر الذين يطلقون عليه اسم بطريرك الأدب الالماني . والذي اثارت روايته « مهمة صخور المرمر » ضجة في عام ١٩٣٩ لوقوفها ضد النازية بكل حزم . ومن أهم أعماله الأخرى « مشاكل علاء الدين » . وتجئ أهمية يونجر أنه الكاتب الشاهد على قرن كامل من الزمن . فلقد كان ضابطا متميزا في الحرب العظمى . وحصل على وسام الشرف لما ابداه من شجاعة في معركة سيدي ابن عباس عام ١٩١٣ .



تفصيل من تمثال العذراء والطفل للفنان مايكل انجلو

● في العيد المئوي للهلال ●

عيدك العيدُ ياسميَّ الهلالِ .·. يزرع النور في قلوب الرجالِ

ما رأينا لمثله من شبيه .·. عرفته شوامخ الأجيالِ

يصل الأمسَ بالذي سوف يجري .·. ويمدّ الجسور دون اختيالِ

وهو سرٌّ لكل فن جميل .·. ومدارٌ مداه رحب المجالِ

منذ عهد الصبا سميرٌ، خدينٌ .·. ونديمٌ، وخيرُ صحبي الغوالي

ياهلالاً له روافدُ شتى .·. من أفانينَ رُصّعت بالجمالِ

مذ حملت الذي حملت وليداً .·. وصبيّاً ويافعاً ذا تَوالِ

وعطاياك للثقافة نهرٌ .·. وعيونٌ تفيض دون سؤالِ

يبصرُ الشرق فيك خير رسولٍ .·. لا يُداري سناهُ كرُّ الليالي

وقوى الفتّاد في مراياك يبقى .·. أبد الدهر مِنْ تمامِ الكمالِ..

عشت «دار الهلال» صرحَ شموخٍ .·. يتبنّى روائع الأعمالِ..

هكذا الفيل من قديم كتابٌ .·. فيه ما فيه من صبا وجلالِ.

كم كرامٍ إليه جاءوا غراماً .·. خشّعاً يقتفون درك المعالي

فأقاموا صلاتهمْ، واستقلوا .·. بفعالٍ تغني عن الأقوالِ

محمد عبدالفتاح إبراهيم
٩٣ شارع أحمد عرابي بالمهندسين

● مدرسة الاستنارة .. أين ؟!●

● والدولة تحتفي بالهلال نوراً ونبراساً للتنوير في مائة عام مضت ولمائة عام قادمة بإذن الله .. أين «المدرسة المصرية» من التنوير والعلم والمستقبل بعد أن

ران عليها التخلف الفكرى وسيطرت عليها أفكار قلة من المعلمين المبرمجين الذين يرددون شعارات لها موسيقاها وليس لها مدلولها ؟! أين المدرسة المستنيرة التى عرفناها منذ سنين حيث تلقينا الأدب والنغم والمسرح والصحيفة تربية مستقبلية هيأتنا لأن نفهم بعقولنا ونردد بقلوبنا وندرك بوعينا ما يجرى حولنا دون بوصلة توجهنا إلى الصحيح أو مرشد أو أمير ؟!

كيف تستعيد المدرسة أم الإصلاح وأم المشاكل دورها لتكون هلالاً لعصر جديد منير وقد انتهى منها الملعب والمسرح والمكتبة والصحيفة وجماعات المناظرات والرسم والتربية الزراعية والتربية الموسيقية وحفلات العام الدراسى والمسابقات الأدبية والفرق المسرحية ؟!

كيف تقوم المدرسة بدورها فى (التربية) دون تربية الحواس بالسمع للألحان وتذوق جمال الشعر وترديده وتدريب الجسم السليم ليحوى الفكر السليم؟

كيف نعتبر تخريج الآلاف والآلاف من آلات التسجيل والتلقى والترديد تعليماً ؟! ثم أين التربية التى تعين على ملاقاة الحياة بوعى وإدراك ؟!

أرجو أن يهتم هلال التنوير بمدرسة مصرية يعمها الظلام حتى تبدأ بحق قرن التنوير الثانى .. أطال الله عمر الهلال ليصبح بدراً وبدر البدور فى أيام كلها نور واستنارة .

زغلول توفيق – بنى سويف

● فى عيدك الهلال ●

أنت بدر وإن دُعيت هلالا .·. هكذا البدر حين يزهو اكتمالا

كنت مذ صحوة الشباب أراه .·. فائقا سامقا ينال المحالا

رغبة القلب ، دعوة الفكر ، روحى .·. تنتشى رقة وتصفو جمالا

رمضان أبو غالية

أنت والهلال

الهلال للأجيال

● كان لإصداركم الأعداد الأولى من مجلة الهلال الأثر الكبير في نفسي وفي نفوس الكثير من قراء الهلال . وتحقق الأمل الذي كنت في غاية الشوق إليه ، وإلى ما كان يكتب في الهلال من مائة عام . فأنا واحد من بين الملايين من عشاق الهلال ، وأعداده موجودة في مكتبتي منذ خمسة وثلاثين عاما بفضل مواظبة المرحوم والدي على شرائها والاحتفاظ بها لأولاده . فكانت الهلال أولى المجلات التي أمسكتها بيدي وقرأت منها حتى نهاية دراستي الجامعية بكلية الحقوق وها أنا الآن أحتفظ بها لأولادي كما أحتفظ بها والدي - عليه رحمة الله - لي . فأرجو قبولي صديقا لمجلة الهلال من خلال باب أنت والهلال .

فايز أحمد البنا
أبو الجهور - مركز السنطة

على عبد الرازق وشفيق منصور

● نشرت مجلة «الهلال» في عدد أغسطس الماضي مقالا بعنوان «الجامعة الأهلية بين تكافؤ الفرص وإصلاح التعليم» للدكتور شبل بدران .

وقد استوقفني في هذا المقال الذي تناول فيه كاتبه تناولا مستنيرا قضية من أهم قضايانا التعليمية هنة صغيرة ، أو بالأحرى «فلتة قلم» ، رأيت لفت النظر إليها إثباتا للحقيقة وحتى لا تختلط الأمور في ذهن بعض القراء ، وبخاصة من الشباب الذين بعد العهد بينهم وبين الأحداث التي أشار إليها الكاتب .

قال كاتب المقال «.. والدليل على ذلك المعارك الوطنية التي خاضتها الجامعة المصرية بعد دمجها في الجامعة الحكومية عام ١٩٢٥ متمثلة في معارك طه حسين ومصطفى عبد الرازق..» . وأكدت المجلة هذه «المعلومة» بنشر صورة الشيخ مصطفى عبد الرازق مع غيرها من صور الذين وردت أسماؤهم في المقال .

وغير خاف أن المقصود هو الشيخ على عبدالرازق شقيق الشيخ مصطفى وصاحب الكتاب المعروف «الإسلام وأصول الحكم» .

● وفي عدد سبتمبر الماضي كتب الصديق الدكتور علي شلش «رسالة لندن» بعنوان «الرجل الذي أحب مصر» عن «البكباشي ماكفرسون» البريطاني الذي عاش في مصر ما يقرب من نصف قرن .

وقرب نهاية المقال ذكر الكاتب أن ماكفرسون حضر ذات يوم محاكمة بعض الوطنيين المصريين في أثناء ثورة ١٩١٩ «وكان منهم الدكتور منصور» ثم أضاف بين قوسين معلقا (لا ندري بقية اسمه) .

وأود أن أوضح للصديق الدكتور شلش وللقراء أن ذلك الوطني هو الثائر الشهير الدكتور شفيق منصور الذي حمل مع نخبة من شباب مصر الاطهار عبء محاربة المحتل الانجليزي بكل الطرق من خلال تنظيمات سرية ثورية لعل أبرزها «جمعية اليد السوداء» .

وقد حوكم شفيق منصور أكثر من مرة ثم جاءت نهايته على حبل المشنقة بعد حادث اغتيال السردار السير لي ستاك عام ١٩٢٤ .

د . أحمد حسين الصاوي

● القدس عربية ●

● قرأت بعدد يوليو ١٩٩٢ من «الهلال» موضوعا بعنوان «القدس عربية» للأستاذ محمد هيكل ، ولكن لما كان الكمال لله وحده فقد لاحظت قليلاً من الاخطاء الصغيرة التي لن تغير من دسامة الموضوع أو تقلل من أهميته .

ولحرصي على كل ما يذكر عن القدس وذلك لمكانتها الكبيرة لدى العرب جميعاً ، فقد رأيت أن لا تمر مثل هذه الاخطاء الصغيرة على قلتها أو تنوت على بعض القراء .

● فقد جاء في صفحة ٨١ : «وعندما زحف اليهود على يبوس (القدس) إثر خروجهم من مصر بقيادة يهوذا الخ ...»

– والحقيقة التاريخية تقول أن العبرانيين كانوا بقيادة (يوشع بن نون) أو يشوع كما يسميه اليهود في توراتهم ، عندما هاجموا القدس واحرقوها كما فعلوا في كل مدينة احتلوها ، حيث كانوا قد احرقوا أريحا أقدم مدن التاريخ .

● وجاء على نفس الصحفة ٨١ أن اسم الدولتين العبرانيتين كان : «إسرائيل» و«اليهودية» ...

– والحقيقة ان اسم المملكة الثانية (الدولة) العبرية كان مملكة «يهوذا» وليس «اليهودية» وذلك نسبة إلى اسم يهوذا الابن الرابع ليعقوب كما تقول توراتهم . وقد عاشت هذه المملكة «يهوذا» مائة وثلاثين سنة وزالت في العام ٥٨٦ ق . م . حين غزاها نبوخذ نصر ودمر هيكل سليمان وطهر فلسطين من العبرانيين وآثامهم . وكانت القدس مركزا لهذه المملكة الهزيلة .

اما مملكتهم «إسرائيل» فلم تكن قد عاشت سوى ثمانين سنة حيث كانت مقاومة الكنعانيين العرب من فلسطين والفينيقيين العرب من سوريا ولبنان قد مهدت لزوالها حين هاجمها الأشوريون من العراق ودمروها في العام ٧٢٢ ق . م . .

وكانت «السامرة» قرب مدينة نابلس الآن مركزاً لهذه المملكة .

اما باقي أجزاء فلسطين خاصة الساحل الممتد من غزة جنوبا إلى صيدا في لبنان شمالاً ، فقد بقي محرراً ، مرتبطاً بثقافته وحضارته وتجارته مع مصر من الجنوب ومع سوريا ولبنان من الشمال .

ومن هذا نلاحظ أن العبرانيين أو اليهود لم يحكموا أو يسيطروا إلا على أجزاء من فلسطين ولفترة محدودة جداً لا تذكر في عمر الزمن وعمر الأمم ، حيث لم تزد هذه المدة على ١٣٠ سنة في أطول فترة لها . وأين هذا من آلاف السنين التي عمّر بها الكنعانيون العرب فلسطين ، هم وبطونهم المختلفة .

● جاء بالموضوع صفحة ٨٢ – أن الناس كانوا يتكلمون الآرامية وأن المفكرين كانوا يكتبون بالاغريقية ، وأن الحضارة تلك هي التي انبثقت عنها الحضارة العربية اللاحقة .

– والحقيقة أن الحضارة الكنعانية كانت قبل الحضارة الإغريقية ، وأن اللغة الكنعانية هي اللغة الأصل أو – الأم – وهي التي كانت مستعملة في القدس وباقي أنحاء فلسطين .

ويذكر علماء اللغات أن الكنعانيين العرب هم أول من اخترع الحروف الابجدية في العالم ، ويقسم علماء اللغات اللغة الكنعانية – وهي لغة العرب البائدة – إلى قسمين ، ومن القسم الأول انبثقت العربية ، والآرامية والعبرية، ومن القسم الثاني انبثقت الاثيوبية .

● جاء بالموضوع صفحة ٨٥ – أن الجنرال «اللنبي» قائد الجيش البريطاني الذي احتل فلسطين في ديسمبر ١٩١٧ م في الحرب الأولى ، وقف أمام باب الخليل في القدس وأذاع على الناس بيانا الخ ..

– واضيف هنا أن الجنرال «اللنبي» هذا كان قد قال شيئاً آخر عدا بيانه العسكري عبّر به عن حقده على العرب ، إذ قال وهو يقف متغطرساً متطلعاً

إلى المسجد الأقصى المبارك : «الآن انتهت الحروب الصليبية» ! ..

● جاء بالموضوع صفحة ٨٤ – نص جزء مختصر من الوثيقة التى أعطاها الخليفة عمر بن الخطاب إلى المسيحيين العرب من أهل القدس ، وهذا الاختصار بنص الوثيقة هذه والمسماة «بالعهدة العمرية» افقدها الكثير من معانى الرحمة والتسامح والإنسانية التى اتصفت بها الفتوحات الإسلامية ، فليراجع القارىء نص هذه الوثيقة العظيمة فى مراجعها التاريخية .

مرة أخرى اقول إن الأستاذ محمد هيكل أحسن فى موضوعه فبارك الله فيه .

وبارك لكم جهودكم فى تذكير العرب إينما كانوا بمدينتهم المقدسة «القدس الشريف» العربية إلى الأبد بإذن الله .

سعد يوسف الدجانى

الزرقاء – الأردن

● التباس واستدراك●

● نشرت «الهلال» فى عدد شهر سبتمبر ١٩٩٢ مقالا تحت عنوان «رؤية لمستقبل مصر» وتذكرون ولاشك أننا حين تحدثنا عن موضوع العدد قلت أن المركز انشغل لفترة منذ ثلاثة أعوام بإعداد مشروع لدراسة عن مستقبل مصر ، وشكل فريقا يضم الدكتور حازم الببلاوى والدكتور على الدين هلال وكاتب هذه السطور ، وأنه من خلال اجتماعات عمل متعددة وأوراق معدة خصيصا لهذه الاجتماعات أمكن اعداد مسودة للمشروع . وقد طلبتم إعداد ملخص لهذا المشروع فى شكل مقال ينشر فى الهلال باسم المركز أو باسم المشاركين الثلاثة فى إعداد المشروع ، وبالفعل قام المركز بإعداد المقال معتمدا على محاضر الاجتماعات وأوراقها . وكتبت بخطى على مخطوطة المقال التى سلمت لكم البديلين الذين اتفقنا عليهما . كتبت المركز العربى لبحوث التنمية والمستقبل وكتبت أيضا جميل مطر ود. حازم الببلاوى ود. على الدين هلال .

وقد فوجئنا ثلاثتنا بنشر المقال باسمى وحدى ، ولذلك أرجو نشر التنويه اللازم فى العدد القادم من الهلال ، والكتابة للزميلين الدكتور حازم الببلاوى والدكتور على الدين هلال لتوضيح الأمر وإزالة أى أثر لسوء الفهم .

جميل مطر – مدير المركز

أنت والهلال

● رؤية لمستقبل مصر ●

● يسعدنى أن اهنئكم بالعيد المئوى لمجلة الهلال العتيدة ، كما انتهز هذه المناسبة لأعبر لكم عن تقديرى عن العدد الممتاز لشهر سبتمبر بهذه المناسبة الهامة . ولست فى حاجة إلى الاشارة إلى الدور التنويرى الهام الذى قامت به هذه المجلة عبر تاريخها الطويل ، وأنها - فى ثوبها الحديث مع أشرافكم - تستمر فى اداء دور يعتز به كافة ابناء الوطن .

وأجد بعض الصعوبة فى الانتقال من هذا المقام الجميل لأشير إلى واقعة جانبية ليست على نفس القدر من الخطورة ، ولكنها - مع ذلك - تبدو غريبة بل ومقلقة . فقد اطلعت على مقال الاخ والصديق الاستاذ جميل مطر المنشور فى عدد سبتمبر ١٩٩٢ الاخير بعنوان «رؤية لمستقبل مصر» فى الصفحات ٥٨ - ٦٤ ، وقد استرعى انتباهى أن نصف المقال المتعلق بمعطيات المستقبل ، (ص ٦٢ وما بعدها) تنطوى على تطابق تام - ليس فى المعنى فقط وإنما فى العبارات - مع كتابات سابقة لى (فى مؤلفى «محنة الاقتصاد والاقتصاديين» ، ١٩٨٩ ، دار الشروق - القاهرة ، واعيد نشر بعضها فى مؤلفى «بعد أن يهدأ الغبار» ، ١٩٩١) .

وقد رأيت أن أرسل لكم مع هذا نسخة من صفحات ذلك المؤلف ، لتقفوا بأنفسكم على التقابل المذهل - مع بعض الاختصار . وإذا كان من الطبيعى أن تتلاقى الأفكار وتتوارد الخواطر عن ظواهر عامة ، فإن تطابق العبارات والالفاظ - وبدون تغيير باستثناء بعض الحذف - لما يدعو إلى بعض الدهشة . ويقدر سعادتى بأن تتلاقى نفس أفكارى - بل وعباراتى - مع مقال الزميل العزيز الكاتب ، فقد رأيت أن من حق القارىء أيضا أن يشاركنى هذه السعادة بملاحظة هذا التطابق الخلاق !

دكتور حازم الببلاوى

● استدراك ●

● وقع خطأ مطبعى فى رقم العدد الثانى من «الهلال» للسنة ١٠١ الصادر فى أكتوبر الماضى - وهو العدد التذكارى الممتاز - فبدلا من كلمة «الثانى» ظهرت كلمة «الأول» . فنعتذر إلى القراء الأعزاء ، ونرجو تصحيح ذلك الخطأ فى كل نسخة .. وعلى هذا يكون عدد نوفمبر سنة ١٩٩٢ هو العدد الثالث من السنة الواحدة بعد المائة للهلال ..



الهلال

ديسمبر ١٩٩٢ • الثمن ١٠٠ قرش

الزلزال على أرض مصر

إخناتون ومزامير داود

أمريكا والحلم الجريح

جزء خاص



الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال

أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

عبد الحميد حمروش نائب رئيس مجلس الإدارة

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب (المبتديان سابقاً) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) . الكاتبات : ص . ب ٦١٠ - العتبة - الرقم البريدي : ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج . م . ع . مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨١ تلكس : 92703 Hilal un تلكس : FAX : 3625469

مصطفى نبيل رئيس التحرير

محمد أبو طالب المستشار الفني

عاطف مصطفى مدير التحرير

محمود الشيخ المشرف الفني

عيسى دياب سكرتير التحرير التنفيذي

ثمن النسخة : سوريا ٥٠ ليرة ، لبنان ٢١٠٠ ليرة ، الأردن ١٠٠٠ فلس ، الكويت ٧٥٠ فلساً ، السعودية ٨ ريالات ، الجمهورية اليمنية ٣٦ ريالاً ، تونس ٥٠٠ ، ١ دينار ، المغرب ١٥ درهماً ، البحرين ٨٠٠ فلس ، قطر ٨ ريالات ، مسقط ٨٠٠ بيسة ، غزة والقدس والضفة ٨٠ سنتاً ، إيطاليا ٢٧٠٠ ليرة ، لندن ١٢٥ بنساً ، نيويورك ٤ دولارات ، الإمارات العربية المتحدة ٨ دراهم ، الجماهيرية الليبية العظمى ١ دينار ، السودان ٥ ج . س .

الاشتراكات : قيمة الاشتراك السنوي ١٢ جنيهاً في ج . م . ع . تسدد مقدماً نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ١٦ دولاراً - أمريكا وأوربا وآسيا وأفريقيا ٢٥ دولاراً - باقي دول العالم ٣٠ دولاراً

والقيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال . ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد

في هذا العدد

فكر وثقافة :

٨ د. لطيفة الزيات
تجربتي مع الإبداع

١٤ د. شكري عياد
(القفز على الأشواك)
أمواج الليالي

٢٠ د. علي شلش
أحدث مدارس النقد الأدبي

٢٦ د. سيد كريم
أخناتون ومزامير داود



٣٦ د. رشدي سعيد
الزلزال على أرض مصر

١٠٨ عبد الرحمن شاكر
في ذكرى ثورة غابرة

١٢٨ د. محسن خضر
تولستوي المعلم والمربي

١٣٦ د. محمود الطناحي
النحو والشعراء

١٤٤ د. سيد النساج
القصة القصيرة المصرية في الستينات

جزء خاص عن أمريكا



٥٨ د. حسين بكر
العلاقات المصرية الامريكية في القرن الـ ١٩

٦٦ د. رءوف عباس
الولايات المتحدة الامريكية من العزلة إلى الهيمنة

٧٤ منار الشوربجي
إدارة كلينتون وإعادة ترتيب الولايات

٧٨ مصطفى الحسيني
بيل كلينتون رئيساً مهمة الشجعان

٨٦ محمود قاسم
الإبداع يتسلل في البيت الأبيض

٩٢ فؤاد زكريا
هل كسبت امريكا الحرب الباردة؟

١٠٠ مصطفى نبيل
عصر الهيمنة الامريكية

دائرة حوار :

٤٢ جميل مطر
الديمقراطية والجدل الدائر حولها

٥٠ د. رجب البيومي
مستقبل الثقافة في مصر تفاؤل أم تشاؤم ؟

قصة وشعر :

١١٤ فريدة مرعي
أرى .. واسمع .. وانكلم

بريسترويكا أمريكية !

أثبتت نتائج الانتخابات الأمريكية أن المواطن الأمريكي يهمه بالدرجة الأولى رفاهيته وحريته ، ولايعطى نفس الاهتمام لدور أمريكا الدولى ، هذا نفسه هو الذى ظهر أمام البريسترويكا فى الاتحاد السوفييتى .

إن أمريكا التى تعد الآن زعيمة للعالم الحديث بعد انهيار الاتحاد السوفييتى ، لم تحقق جديدا بعد هذا الانهيار ، فقد انكمش اقتصادها ، وازدادت البطالة ، وهبط مستوى المعيشة ، وظهرت أرقام مخيفة ، تضمنتها الحملة الانتخابية الشرسة وانتهت بالفوز الساحق للرئيس بيل كلينتون والسؤال الذى يطرح نفسه ، لماذا تدهورت أوضاع الشعب الأمريكى وساءت أحواله منذ أصبح يتربع وحده على قمة العالم؟

إنها ظاهرة تستحق الدراسة ، كما أنه مأزق يواجه الحاكم الأمريكى .

وعلى الرئيس الجديد سد هذه الفجوة خاصة أن أمريكا هى الآن الدولة الأعظم ، ولديها هذا الكم الكبير من المصاعب !

١٢٦ سليم الرافعى
الشرق (شعر)

فنون :

١١٨ عز الدين نجيب
معرض الفنانة نجاح طاهر أغنية للماضى الذى كان

١٥٦ مصطفى درويش
(رسالة قرطاج)
مواد سينمائية أخرى فى المغرب العربى

١٦٤ فوزية مهران
٢ تحت الأرض
الاكتشاف فى العمق

الأبواب الثابتة :

٦ عزيزى القارئ
٤٩ أقوال معاصرة
١٧١ المكتبة
١٧٨ التكوين
١٨٦ أنت والهلال
١٩٢ الكلمة الأخيرة
(محمد عودة)

عزيزى القارئ،

الأحلام على

كانت سنة حافلة ، أتم فيها « الهلال » السنة المائة من مسيرته التى بدأت عام ١٨٩٢ ، وجمعت احتفالات « الهلال» فى سبتمبر واكتوبر الماضيين بهذا العيد المئوى رموز مصر كلها ، وفى مقدمتها الرئيس حسنى مبارك ، وكانت احتفالات الدولة بعيد « الهلال » ودار الهلال أول احتفالات من نوعها ومستواها فى تاريخ الصحافة المصرية ، ودخلت تلك الاحتفالات بدلالتها المضيئة تاريخ الصحافة المصرية والعربية والعالمية ..

وفى العام الأول من القرن الثانى فى مسيرة « الهلال » يضع الهلال تحت أنظاره عدة أفكار ومشروعات للتطوير والتغيير فيما يحتويه بين دفتيه من شهر إلى شهر ، ومن عام إلى عام .. فالعالم كله الآن يهتف بكلمة « التغيير » .. أى الانعطاف إلى الأصح والأجمل والأكمل .. ونحن نتطلع بأحلامنا إلى العام الجديد الذى تبزغ شمسه فى الأفق القريب ، إلا أننا ندرك أن بداية كل عام جديد مثل نهاية كل عام منصرم ، فالشمس فى شروق وغروب مدى الدهر ، والمهم دائما هو ما يعمله الإنسان بين شروق كل شمس وغروبها ، متنقلا معها من عام إلى عام، سابحا فى ضوء الشمس ونور القمر مع اليقظة والأحلام ..

وما أقصر اليوم فوق أرضنا بالحسابات الفلكية فإنه ينقضى كلمح البرق .. وهو أقل من لمح البرق إذا قيس بما يذكره الفلكيون من أن اليوم فى بعض الأجرام السماوية يساوى مائة ألف يوم من أيام كرتنا الأرضية الصغيرة الجميلة ! ..

ومع ذلك فإن الحياة فوق أرضنا صارت الآن تتحرك وتتدفع وتعدو ، كأن يومها لا يقل عن مائة ألف يوم ، وكأنما صارت الأرض التى تحت أقدامنا تدور بين الأفلاك البعيدة الموغلة فى الفضاء السحيق ! ..

ذلك أن عالمنا القديم قد انتهى بخيره وشره ، وبكل ما تحمله قلوبنا من الإعزاز لذكرياته وأمسياته الشعرية الآسرة .. وصار القرن الواحد والعشرون على مرمى سبع سنوات فقط من حياة أهل زماننا ، ولا يدرى أحد أتكون سبع سنوات عجاف ، تعقبهن سبعٌ سمان ، أو سبعون أو سبعمائة ، إلا أن الجميع يتطلعون إلى طريق جديد للنوع الإنسانى كله ، بلا أزمة طعام ، وبلا أزمة مياه ، وبلا أزمة مساكن ، وبلا بطالة ، وبلا اضطهاد عنصرى ، وبلا افتئات من الأقوياء على الضعفاء .. ولكن القرن الواحد والعشرين لن يكون قرن الميعاد أو المعاد ، ولا

عزيزى القارىء

أجراس ديسمبر

قرن العسل واللبن لكل الأمم بلا قيد ولا شرط ، فإن قانون الأقوى والأضعف ، أو قانون الغابة بجوهره الوحشى الصريح ، لايمكن إلغاؤه ، لأنه - كما تعلمنا من دروس النشوء والارتقاء - قانون للحياة والمجتمع والكون ، ولكن الإنسان استطاع فى تطوره الصعب ، وكفاحه العسير الطويل ، أن ينتزع من شدقى هذا القانون الكثير من أنيابه ، ويقلّم الكثير من مخالبه ، وغاية الحضارة الإنسانية المثلى أن تتحكم مستقبلا فى هذا القانون وتجعل عمله خفياً كأنه لم يوجد أصلا ..

ولكن هذه الأحلام التى تملأ الرءوس فى نهاية عام مضى وبداية عام يجىء ، سوف تتلاشى فى الفضاء كما تتلاشى دقات أجراس أعياد الميلاد الغربية فى نهايات ديسمبر ، ودقات أجراس أعياد الميلاد الشرقية فى بدايات يناير ، إذا لم تهتد البشرية إلى الحلول الجذرية العادلة للمشكلات والمظالم التى تجعل قوما يذرعون الأرض بحثا عن لقمة يتبلغون بها ، وتجعل قوما آخرين يجوبون الفضاء الأعلى بحثا عن أسرار الكون ليزدادوا بمعرفتها قوة على قوة ! ..

عزيزى القارىء

إن قانون الغابة لن يخلع بيديه أنيابه من فكّيه ، ولن يقصّ أظافره تطوعا واحتسابا ، ولهذا سوف تبقى أحلام نهاية ديسمبر ، وأحلام بداية يناير ، مجرد تهويمات ساذجة ، إذا لم ينهض الضعفاء ليلحقوا بركب الأقوياء ، فإن ضعف الضعفاء لا يقل فتكاً بنظام الحياة عن فتك قوة الأقوياء بذلك النظام ! ..

عزيزى القارىء

مع أحلام ديسمبر بثلوجه ورياحه القطبية ، تلوّح بأيدينا وداعاً لعام ١٩٩٢ الذى كان من أحفل أعوام القرن العشرين بكبريات الأحداث ، فى مصر والبلاد العربية والعالم ..

لقد كان عام الزلازل الأرضية ، والزلازل السياسية ، والزلازل الاجتماعية ، وكان مع ذلك عام انجازات فى كل مكان ! .. وليت العام القادم الجديد يضرب بعصاه الأرض فتهدأ ، وتبتلع أثقالها وتُخرج لأبنائها رزقا من كل الثمرات ! ..

المحـــرر

تجربتى مع الإبداع

الإبداع عندى وصل ووصال

بقلم : د . لطيفة الزيات

لكل كاتب شعوره الإنسانى المهيمن على بقية مشاعره ، وهذا المعين هو الذى يشكل الحافز على الإبداع ، وهو الذى يلقى التعبير فى الكتابة الإبداعية ، وهذا الشعور المهيمن قد لا يتغير على مسار العمر ، وإن تغير فمرة أو مرتين على طيلة العمر ، وفى العمل الأول للكاتب يواتينا هذا الشعور المهيمن بكل طزاجته حيا دفاقا يمس أفئدتنا .

مؤتمر رابطة فتيات الجامعة وبينهم د . لطيفة الزيات (على اليسار)



وإذا ما استمر هذا الشعور المهيمن قائما تبدأ المشكلة مع العمل الثانى للكاتب وخطورة التكرار تهدده ، إذ يبقى ذات الشعور مشكلا الحافز على الكتابة ومطالبا بالتعبير ، ويتأتى على الكاتب إن أراد ألا يكرر نفسه أن يجد أقنعة جديدة يتخفى خلفها شعوره المهيمن ، وإيجاد هذه الأقنعة الجديدة ليس بالأمر السهل ، فقد يتوصل الكاتب لهذه الأقنعة فتنفرج أزمته ، وقد لا يتوصل ، فيتوقف رافضا تكرار نفسه ، ولعل هذا ما حدث لفلوبير القصاص الفرنسي الكبير الذى كتب على طيلة حياته عملين روائيين فحسب ، وإذا ما وجد الكاتب أقنعته التى يتخفى خلفها توالت أعماله ، وإنتقل فى الإبداع من مجال الهواية إلى مجال الإحتراف ، يقول الكاتب الألمانى الكبير توماس مان : كدت أتوقف عن الكتابة بعد روايتى الأولى ، غير أنى لحسن الحظ وجدت أقنعة جديدة أتخفى خلفها ، وكان ذلك بعد أن انتهى من رائعته الواقعية بودنبروكس ، والتى تعتمدإعتمادا كليا على تاريخه الشخصى وتاريخ عائلته .

ولم أجد أنا أقنعتى بعد صدور عملى الأول الباب المفتوح سنة ١٩٦٠ ، وكان أن بقيت فى مجال الكتابة الإبداعية هاوية ، ولم أقترب من الإحتراف إلا فى عمل واحد جاء متأخرا ١٩٩١ ، وبعد الباب المفتوح فضلت التوقف على تكرار قولى ، وفصلت مدة زمانية تجاوز العشرين عاما مابين عملى الأول ، وعملى الثانى الشيخوخة وقصص أخرى ١٩٨٦ ، وخلال هذه الفترة كنت قد تقدمت فى السن ، ولى التجربة وتغير منظورى للحقيقة ونما داخلى شعور مهيمن جديد يطالب بدوره بالتعبير وتختلف قصص الشيخوخة عن الباب المفتوح إختلافاً يكاد أن يكون كليا بمدى ما تغيرت الرؤية وتبدلت ، وتغير المنظور والشعور المهيمن على الكتابة ، وبمدى ما اقتضى هذا التغير بالطبع من متغيرات تقنية فى أسلوب التناول واستخدام اللغة ومن متغيرات فكرية ضخمة .

وجاءت روايتى القصيرة الرجل الذى عرف تهمته (مجلة أدب ونقد ، عدد سبتمبر ١٩٩١) مختلفة تمام الإختلاف عن كل ما كتبت فى مجال الإبداع ، خفيفة ناقدة ساخرة تستدر الضحكات من أقسى المواقف التى يمكن أن يتعرض لها الإنسان من مصادرة لحريته بالسجن ، ومصادرة لحريته فى البيت بإملاء أجهزة الرقابة بالصوت

والصورة لسنين عديدة على البيت ، ومصادرة لحقوقه الإنسانية بتوجيه تهم باطلة إليه وبتزييف أشرطة التسجيل بغية إثبات هذه التهم المختلفة ، وما إلى ذلك من أوجه إنتهاك الحريات الخاصة والعامة التى إنفضحت إثر حملة الإعتقال التى قام بها السادات ١٩٨١ فى حق ألف وخمسمائة من معارضيه وأنا منهم ، ولكى أعبر عن تجربة عصفت بحريتى وحقوقى كإنسان ، كان لابد من التجاوز النفسى لمرارة هذه التجربة أولا ، وكان لابد ثانيا أن أجد القناع الذى أتخفى خلفه فى عملية التعبير لأفضح عمليات المصادرة والتزييف ، ولأضحك الناس من أوضاع هى بطبيعتها أوضاع مأساوية (فى أعْماق المأساة ترقد الكوميديا أحيانا) وفى هذا العمل المختلف تماما عن بقية أعمالي ، إقتربت ما أمكن من وضع الإحتراف .

وضمت حملة تفتيش أوراق شخصية التى هى أشبه بالرواية منها بالسيرة الذاتية جماع مشاعرى التى هيمنت علىّ طيلة حياتى ، وفى حملة تفتيش الكثير من الباب المفتوح ، وفيها من الشيخوخة ، وفيها من الرجل الذى عرف تهمته .

ولأنى لم أحترف الإبداع وبقيت فى مجاله هاوية ، تبقى تجربة الإبداع عندى تجربة صميمية تتساوى فى الأهمية والوجود ذاته ، وأعنى الوجود لامجرد التواجد ، بما يتضمنه هذا الوجود من تفاعل حى ، ومن وصل وتواصل مع الآخرين ، وفى كل مرة أشعر فيها أن رؤية جديدة ما للحياة تتبلور داخلى ، أشعر بالرغبة فى إستكشاف هذه الرؤية على الورق بهدف إيصال أبعادها مكتملة للآخرين .

وهذه الرؤية الجديدة للحقيقة عادة ما تؤرقنى ، ما تثيثنى وتعزلنى وتجعلنى أشعر بالتفرد والإختلاف ، وبالإغتراب نتيجة لهذا التفرد والاختلاف ، إذ تبدو كما لو كانت رؤيتى أنا الخاصة دون رؤية الآخرين ، وتشكل الرغبة فى إيصال رؤيتى هذه للآخرين ، وفى مشاركة الآخرين لى فى هذه الرؤية الحافز على الكتابة ، والعامل الرئيسى الذى يتحكم فى نوعية هذه الكتابة ، فأنا لا أسعى فحسب إلى التعبير عن رؤيتى ، بل أسعى فى المقام الأول إلى اقناع الآخرين إقناعا فنيا بالطبع ، بصحة هذه الرؤية وبسلامتها ، ومحاولة التأثير فيهم بهدف تبنيها ومشاركتى فيها .

وعندما يصلنى بعد النشر إقرار الآخرين ، تصبح رؤيتى رؤية الآخرين تسقط





من أعمال د. لطيفة وصورة شخصية لها عام ١٩٦٤

على عزلى وما توهمت أنه تفردى ، وأنتمى من جديد الكل ، ويتحقق ما أردت لنفسى دائما ومازلت أريد .

ولأن الإبداع عندى وصل ووصال ، ولأنى أخشى دائما ألا يتحقق هذا الوصل والوصال نتيجة لقصور تعبيرى عن بلوغ غايته ، تبقى عملية النشر بالنسبة لى عملية تكتنفها المخاوف والهواجس ، وأنا أؤجل ما أمكن عملية النشر وتبقى المخطوطات مركونة فى أدراجى تهيبا من نشرها أحيانا لسنوات ، وأظل للحظة الأخيرة متهيبة وعاجزة عن التنبؤ برد الفعل ، ويكفى أن أقول أنى أحببت أعمالى من خلال حب الناس لها .

يفتخر بعض الكتاب بأنهم لا يكتبون لأحد وإنما لذواتهم ، وبصرف النظر عن

صحة هذا الإدعاء ، فأنا لا أكتب لنفسى ، بل أكتب وعينى على دائرة معينة من القـراء ، قد تضيق وقد تتسع ، وأتمنى دائما أن تتسع أكثر فأكثر ، والقارئ لا يغيب عن عينى وأنا أكتب ، ومن ثم هذا الوضوح الذى أتوخاه ، وهذا التوازن الصعب فى التجريب بين جديد الكتابة وقديمها حرصا على ايصال الرسالة الوجدانية وعدم الوقوع فى الإبهام ، ومن ثم هذا الحرص على إبقاء أرضية مشتركة بينى وبين القارئ والبدء بالقيم الأخلاقية التى يتبناها وصولا إلى القيم التى أسعى إلى تغييرها للأفضل .

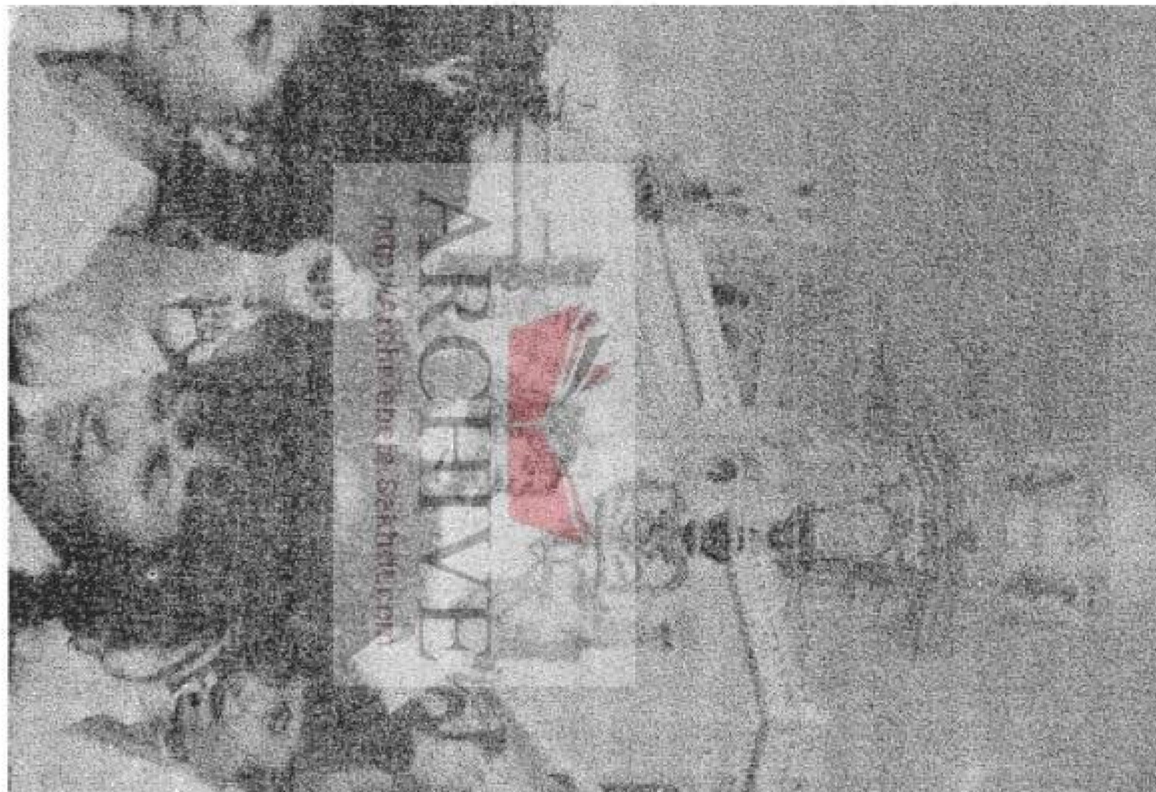
ويرسم النقاد حدودا فاصلة ما بين تقنيات البلاغة التى تستهدف التأثير فى المتلقى ، وتقنيات الأدب الذى يعيد إنتاج الحياة بصورة جديدة ، غير أن حافزى على الكتابة وهدفى منها يجعل اللونين من التقنيات يلتقيان فى كتابتى .

ولأن الإبداع عندى وصل ووصال تنشغل فيه كل حواسى الإنسانية مكتملة ومجتمعة العقلى منها والوجدانى والحسى ، تبقى العملية الإبداعية عندى أبعد ما تكون عن السهولة ، فأنا أكتب وأشطب وأعدل وأبدل ، وأتمنى لو استطال هذا التعديل والتبديل إلا مالا نهاية ، وتشوقى إلى الكمال يحثنى فى هذا الطريق .

إن الإلهام لا يسقط علىّ من عل ، وإن واتانى ما يشبه الإلهام فمن خلال التعديل والتبديل وأنا أكتشف طبيعة المادة ، وأتبين فيما بين جزئياتها علاقات إستغلقت علىّ فى البداية .

وأنا استهدف التأثير الوجدانى فى القارئ ، وكسبه إلى صفى وإقناعه بسلامة رؤيتى ومن ثم أشحذ كل قدراتى التقنية واللغوية لبلوغ هذا الهدف ، يساعدنى فى هذا الاتجاه حس نقدى مكتسب ، ومعرفة تقنية وطيدة بأساليب السرد ، مكتسبة بدورها ، وحس لغوى يجعل لغتى تبدو جياشة وتلقائية ومنسابة فى محاولة لتكثيف اللحظة الشعورية ، والتأثير فى القارئ من خلال هذا التكثيف .

وبعد فقد قلت ولم أقل ، وبداخلى ما زال مخزون من المشاعر ، أتساءل هل يلقى التعبير ؟



القفز على الأشواك

بقلم : د . شكرى محمد عياد

أمواج الليالى

يسمى إدوار الخراط كتابه الجديد «أمواج الليالى» متتالية قصصية — هذه التسمية — أو هذا التصنيف — يطالب القارئ بشيئين :

أولهما ألا ينظر إلى الكتاب كمجرد مجموعة قصصية ، أى مجموعة من القصص ليس بينها اشتراك إلا فى وحدة المؤلف ، والثانية أن يعاملها على أنها نوع من التأليف شبيه بالتأليف الموسيقى . الوحدة يمكن اكتشافها بسهولة : هناك شخصيتان محوريتان فى أجزاء هذه المتتالية التسعة ، رجل وامرأة ، إذا كنا قد قرأنا «رامة والتنين» فسنعرف أن الشخصيتين هما هما ، لم يفقدا شيئا سوى الاسم : الرجل لم يعد يسمى ميخائيل ، لا فى عنوان ولا فى إشارة ، والمرأة لم تعد تسمى رامة ، بل أصبح اسمها الآن كيمى ، أى الأرض بالمصرية القديمة . ربما كان فى هذا إشعار بأن الرجل نوى على مزيد من البوح — هو الراوى كما فى الرواية السابقة — إنه يتحدث إلى نفسه عن نفسه ، كان كذلك فى الرواية ، ولكن أصبح الآن أقل انشغالاً بالعمل ، وأكثر انشغالاً بالتعبير . إنه يطرح مشكلة الكتابة فى الحلقة السادسة من هذه المتتالية (ص ص ٨٥ — ٨٦) والحلقة السادسة هى — تخيلا أو وهماً أو حقيقة (داخل القصة بالطبع!) رسائل متبادلة بينه وبين صاحبته ، فيها ، كما يصرح الكاتب ، قدر لا بأس به من الرومنتيكية ، وأضيف أنا ، كإعلان مجانى عن الكتاب ، يمكن أن يبيع أكثر مما يبيعه الفن ، أنها تصلح لأن ينقلها العشاق الصغار ، إن كانوا يتبادلون الرسائل فى هذه الأيام كما كان يحدث كثيراً فى أيامنا — يقول الكاتب فى إحدى هذه الرسائل :

«الكتابة جمجمة ، والحياة غموض



وليام فوكنر

واختلاط » .

وأيا كانت كتابة جسد الحلم ، كتابة الحلم الذى هو جسد ، ومهما كانت الكتابة مريحة أو حتى ضرورية ، فالصدق – إن كان ثمة – فى هذا الخلط المروّع الجمال ، والبشع ، فى هذا الشوّه متصل الأشلاء ، بلا انقطاع ، الذى هو ما حدث . ما يحدث

«وفى رسائلى إليك أجد أنى لا أصنع الدائرة بل ألقاها أجد أن إصرار هذا الاتساق التلقائى والتدبّر بها محتمل ، بل هو ممكن ، ولعله – لا غيره – هو الذى يحدث حقا . هو الصدق ، لا غيره »

هو إذن – وباختصار مخل – يكتب بمزيد من التلقائية ، «لا يصنع الدائرة بل يلقاها» . ولذلك لا يعرض نفسه ، كما لو كان ينظر إليها من الخارج – هذا الوضع المستحيل ، غير الصادق – فالاسم يسقط عنه بكل بساطة ، كما تسقط ورقة التوت (وكلمة «العرى» ترد أيضاً فى هذه الرسائل) .

ومادمنا قد تحدثنا عن التلقائية النسبية للكتابة فى هذا العمل بالذات ، فقد أجبنا – وإنْ جزئيا – عن المسألة الثانية : النسبة بين هذا العمل ، والتأليف الموسيقى ، فهذا العمل ليست تأليفا محكوماً ، قصديا ، تام البناء ، مثل السمفونية ، بل هو عمل أكثر حرية ، له «تيمة» أساسية نعم ، ولكنه يأخذ تيمة جديدة فى كل جزء ، يسير معها قليلاً ، على هواها ، ويعود إلى التيمة الأساسية من حين إلى حين ، ثم ينتقل إلى تيمة جديدة ، وهكذا يمضى ، بمزيج من التلقائية والتدبير ، ينتج عنه نوع من الاتساق (لا التساوق) .

تراجع التسلسل الزمنى

ولكن هذا الجواب الجزئى لا يفيدنا شيئا عن الشبه بين هذين النوعين من التأليف – مع اختلافهما – وبين التأليف الموسيقى . كان يقال منذ أيام لسنج

القفز على الأشواك



جيمس جويس

وكتابه الشهير «لاوكون» إن الشعر والموسيقى كليهما فنان زمنيان ، أى أنهما يعتمدان على التتابع الزمنى ، ولكن الكتب التى عالجت تكنيك الرواية ، والتى توالى ظهورها منذ أواسط هذا القرن ، طرحت مشكلة أخرى : مشكلة العلاقة بين الزمن الروائى والزمن الخارجى ، أو : إلى أى حد يلتزم الكاتب الروائى بمراعاة التتابع الزمنى الواقعى ، أى تسلسل الأحداث وكيف يتحرك بالحدث أحيانا نحو الماضى، وأحيانا نحو المستقبل . ولم يزل احترام التسلسل الزمنى للحدث يخف مع تراجع الحدث نفسه كعنصر أساسى فى الرواية ، إلى أن أصبح معنى الزمن الروائى ، عند أصحاب الرواية الجديدة ، هو «الزمن الذى يكفى لقراءة الرواية» . ومن ثم تحقق التوازى الكامل بين العمل الروائى والموسيقى .

وهكذا لا يبقى فى متتالية إدوار الخراط أى أثر لتوالى الأحداث إنما هى متتالية بالمعنى الذى ذكرناه من تتابع التيمات . وهو تكنيك مال إليه منذ أعماله القصصية الأولى ، واكتمل له فى «رامة والتنين» ، وقد وصفته الدكتورة فريال غزول وصفا دقيقا مستفيضا . ولعل أهم ما فى الوصف هو تمييز لغة إدوار القصصية . فهى ليست لغة سردية كما أنها ليست لغة «تيار الوعى» التى نجد ألواناً منها عند فرجينيا وولف وجيمس جويس ووليم فوكنر ، وجميعها تعتمد بطريقة أو أخرى على محاكاة الحركة شبه الواعية - وأحيانا اللاواعية - للفكر . إنما لغة إدوار قصدية ، منحوتة نحتا (ما أشبهُه فى الناشرين العرب إلا بمصطفى صادق الرافعى ، على بعد ما بينهما ، ولكنك تستطيع ، إن شككت فى هذا التشبيه ، أن تراجع شيئا من «أوراق الورد» أو «السحاب الأحمر» مثلا) . ومعنى ذلك أن إدوار صاحب أسلوب كلاسيكى فى القص ، وإذا أمكنك أن تجمع الرافعى على هوميروس ، وتضيف إليهما شيئا من ملارميه ، حصلت على أهم العناصر التى تدخل فى تركيب أسلوب إدوار الخراط . وملارميه فى هذا الخليط - الذى يبدو متنافراً للوهلة الأولى - معناه الحداثة . فمع الإكثار من الصفات والكنايات والجمل الوصفية إلى جانب طول النفس غالبا (هوميروس) ، ومع التأنق فى

تحت الجملة العربية (الرافعي) هناك ذلك الإحساس، المسيطر بأهمية الكتابة، أهمية ذلك الفعل العجيب الذي يفرض، أو يحاول أن يفرض، المعنى على فوضى الزمن، كما رأينا في الفقرة التي اقتبسناها من الرسالة الأخيرة في «رسائل لن تصل». وأهمية الكتابة، وصعوبتها إلى حد الاستحالة أحيانا، شيء حداثي جدا.

على أن هذا كله لايعطينا «روح» أسلوب إدوار. وروحه - كما أتصور - هي اقتناص اللحظة من الزمن. فالزمن، من ماض وحاضر ومستقبل، لا معنى له. الزمن لحظة عشق، والكتابة عشق. يقول إدوار في إحدى هذه الرسائل أيضاً:

«زمني الآخر. حلمي الآخر. جسمي الآخر.

«كل شيء عندي آخر.

«لم يكن قط، ولن يكون أبداً، شيء هنا، والآن».

بل كل شيء إما منقض، ولكنه - على دثوره - ماثل غير بائد؛ وإما مسوفٌ، مؤجل، ولكنه - وإن لم يأت بعد - قائم، يصارعني ويشغل حيزي، الآن، وكأنه مع ذلك وفي الآن نفسه قد مضى وانقضى.

«إلا لحظة العشق.

«هذه لا زمن فيها، لا زمن لها، لا انقضاء ولا مآب ولاهناك مقدمٌ آت».

ونستطيع أن نقول، ولانخشى المبالغة، إن «رامة والتنين»، هذه الرواية الطويلة، إن هي إلا لحظة تمكنت وتبحبحت.

خطورة اللعب مع الزمن

ولكن اللعب مع الزمن خطر. لايمكنك أن تفر من الزمن إلا إلى المطلق، وأنت لن تطيقه. إن لمحته مرة لم يبق لك وجود. هذا هو قدر «مجانين الله». أما أنت أيها الرومنتيكي القديم، أيها المراهق الأبدي، فستجد نفسك، في آخر المطاف، تقول لنفسك:

«مازالت الأسئلة غير مجابة، ومازالت «مراهقة الكهولة» - كم أتسلى بأن أسميها - مستحكمة. مازالت التهويمات أكثر بكثير مما تحتمله الطاقة - لكنها تحتملها - ومازالت موسيقى أن تحيا عاصفة ومرة، ومازلت لا أعرف كيف أقاوم الوحدة مهما فعلت ومهما كانت الحياة تحيطني بالزحام - الذي ظللت أدبره وأسعى إليه طول الوقت - وبالبهجات - التي لا أنكرها ومازال هذا الشجو يمكن أن يبث - مهما كان مضحكا قليلا - ومازالت الوحدة في حضنك يمكن أن تتكسر فيما تظل معها قرينتها غربة وغرابة دائمة.

«وطبعا هذه حلقة لا يمكن النفاذ من طوقها والأفضل أن أبهى هذا وأن أسلم به، وطبعا أنا لا أريد أن أراه، ولا أريد أن أسلم به أبدا، وهكذا إلى غير نهاية.

«كأنما لا أقبل أن تجدب روحى

«أو أن يجدب الجسم الذي يتهدم، بينما تدرّ الروح».

ليست معنى إنكار الزمن إلا الدخول عميقا في الذات. والذات في وحدتها وغربتها تبحث عن سند ما، عن يقين ما.

القفز على الأشواك

يقول إدوار : «أبحث روحي ليقين الجسد» (ص٩٧) . بالطبع هذا هو اليقين الأنسب للحداثة غير أنه ، فيما يبدو ، لايكفي لكاتب شرقي . إن «يقين الجسد» يختلط باليقين الصوفي في «مجانين الله» ، ولكن ينتهي بأن تكون معرفة الله تجديفا ، ويقين الجسد إلهيا . وإذن فما المخرج ؟ مزيداً من الغوص في أعماق الذات ، حيث عالم الأساطير : دين بغير إله ، أو بآلهة كثيرة ذات وجوه كثيرة ، وحادياها الشهوة والرعب . إن أسطورة القديس والتنين ، أو الملاك والتنين ، تلك التي تتردد كثيراً في «رامة والتنين» تصبح الآن مجرد نبوءة ، لايمكن أن تتحقق إلا «بعد تمام الأيام» ، بعد انقضاء الزمن ، أما الحقيقة الراسخة عبر الزمن كله ، الحقيقة المرعبة والساحرة، المختفية تحت جبال الثلج ، فهي التنين نفسه ! (ص٦١) .

وأما المرأة (رامة) فإنها حين أصبحت كيمي قد رجعت أيضاً إلى الزمن الأول ، وإن لم تفقد شيئا من سحر أنوثتها ، ولا من روقانها الدائم . إنما هي في هذا الدور الأقدم أكثر تعرضا للانتهاك والتمزيق، تشترى بهما دهريتها التي لاتبيد، «أوزير المؤنثة ، قائمة من بين الأموات ، ملمومة بعد تمزق ، دهرية وحية إلى أبد الآباد» (ص٩١) .

البناء الأسطوري

ماذا ينتظر البطل ، ميخائيل الذي لم يعد ميخائيل : بعث أوزير المؤنثة (كيمي ، مصر) ، أم انطلاق التنين ، نافضا أغلاله عند حلول الربيع ، «مطلق السراح في الجبل والسفوح ، يحرق كل شيء بناره الأكالة الهائلة» ؟ أم أن التنين ينطلق فعلاً ، ويخرج منه حابي «القضيب العظيم المخصب» (ص ٤٥) ، وبذلك تتحد الأسطورتان ، وتصبح للبطل صورتان : صورة أوزيريس الممزق ، وصورة حابي الذي يشق كيمي فيعيد الحياة إلى أوصالها الممزقة ؟

لعل هذه الخطوط العامة تصور البناء الأسطوري الذي بدأ بـ «رامة والتنين» وانتهى بـ «أمواج الليالي» . ولكن هذا البناء الأسطوري – ويجب ألا ننسى أنه بناء فكري ، يهيىء نوعاً من الإيمان للكاتب أو للبطل – يبدو غريباً حين يدخل في بناء رواية معاصرة . والذي يصنعه إدوار الخراط هنا جديد كل الجدة ، ولكني أشك في مدى نجاحه . فالمرأة المسماة كيمي تتصرف كامرأة عادية (أو لنقل : فوق العادية !) ولكنها تخاطب ، في الواقع أو في الخيال ، كتجسيد لآلهة أسطورية . وهذا التنقل الدائم ، غير المألوف ، يكلف القارىء عنتا في قبول كل منهما ، فضلا عن أنه لا يترك لخياله مجالاً كبيراً لربط الحاضر بالأسطورة ، وعوضا عن ذلك

يكون عليه فقط أن يتقبل خيال الكاتب ، وأن يتأمل تكنيكه ، ويستطلع فكره . إن بقاء الأسطورة فى خلفية العمل – وهو ماصنعه شو فى «بجماليون» ، وجويس فى «يوليسيس» ، ويوجين أونيل فى الحداد يليق بإلكترا إلى أمثلة لا تحصى – لا يظهر سوى خطوطها العامة ، التى تنسجم بسهولة مع الشخصيات المعاصرة والأحداث المعاصرة. ولكن الجمع بين الطرفين على صعيد واحد يبقيهما فى حالة شد وجذب مستمرين ؛ حتى ليشعر القارىء بأن واحدا منهما مقحم على الآخر . وإن محو الفوارق بين الأسطورة والواقع مترتب على موقف الكاتب من الزمن ، موقف الإنكار أو الإلغاء، وهذا هو انتقام الزمن .
ولا يبعد أيضا أن يكون الكاتب قد تأثر بالتفسير الكنائى للكتاب المقدس ، ولا سيما أسفار العهد القديم (مثلا : تُفسَّر الأبيات التى تعبر فيها امرأة عن غرامها – مطلع نشيد الأناشيد – على أنها تعنى : حب الكنيسة للمسيح) ولكنه حوّل الكنايات من التفسير إلى النص ، وإذا كان الأول صعب القبول ، فإن هذا أصعب قبولاً .



برنارد شو

وفى هذا السياق الذى يمزج الطبيعى بالكنائى ، أو الزمنى باللازمنى ، يبدو الوصف الشديد الواقعية لحوادث معينة ، كتلك التى تقدَّم على أنها مأخوذة من أخبار الحوادث أو شكاوى القراء فى الصحف والمجلات ، أو كالوصف البالغ التفصيل والدقة لإنسحاب الجيش من سيناء سنة ٦٧ ، نوعاً من النشاز المقصود، أكاد أقول نوعاً من السخرية .
وكان الكاتب الذى يعطى ، على المستوى اللازمنى (أى المستوى الفكرى المحض) أملاً فى البعث بعد التمزيق ، حريص على أن يقدم الواقع الزمنى فى صورة حاضر ممزق ، بلا أمل فى البعث !

أحدث مدارس النقد الأدبي



إيهاب حسن

بقلم : د . علي شلش

إيهاب حسن وألوان من النقد

ويقدم " عملا تجريبيا عالي الجدية " كما قال عنه الناقد رايموند أولدرمان وقد أضاف هذا الناقد - " وداخل ما فيه من ألوان التعقيد والمصاعب ومضات نفاذ البصيرة نستطيع أن نتعقب تطور ناقد استجاب بذكاء ، ولزامة للمطالب المتغيرة في الأدب المعاصر " - كما قال عنه مايكل موقمان : " لا غنى عن التأملين من أمثال حسن ، ويلزم لنا جميعا أن نقرأ كتبا من أمثال : ألوان من النقد المخالف " .

يقول حسن موضحا محتويات الكتاب :

" هذه التأملات تصنع - فيما أرجو - علاقة نشطة فيما بينها ، إذ تشكل سياقا متسلسلا ، فأولها يتعلق بقضايا عريضة في النقد الأدبي ، وآخرها يتصل بمسائل عامة في الثقافة والوعي ، أما في الوسط فتضيق البؤرة وتركز على الأدب ، على جويس وبيكيت - بوجه خاص - اللذين يحملان أكثر توترات الخيال المعاصر تطرفا ، بل يزداد التركيز مرة أخرى على رواية ، مأتم فينجانز ، التي تثير ذات الأسئلة التي يبدأ بها الكتاب وينتهي .

وبعد أن يروي طرفا من قصة تطور النظر إلى الأدب والنقد الأوربيين في أمريكا يطرح عددا محيرا وصعبا من الأسئلة حول النقد

• هل كل النقد استجابة معقلنة إلى صوت ، يدعي الناقد أنه يسمعه ولا يسمعه أبدا بذات الطريقة مرتين ؟ إن الناقد بصفته مستمعا ، يضيع وقته . فهل الوقت النقدي مختلف عن أنواع الوقت البشري

ظهر كتاب " ألوان من النقد المخالف " بعد ظهور كتاب " تقطيع أوصال أورفيوس " كما أشرنا من قبل ، أو على التحديد عام ١٩٧٥ . ثم طبع بعد ذلك أكثر من مرة . ولكن هذا الكتاب يختلف عن سلفه كثيرا ، فهو لا يتناول موضوعا واحدا ، ولا يخوض في تاريخ الأدب وسير الأدباء ، ولا يقتنص من التراث الاغريقى استعارة أو رمزا يسقطها ، أو يسقطه ، على المشهد المعاصر للأدب ، مع أنه يفعل هذا كله بشكل أو بآخر ، وانما يطرح موضوع النقد بطريقة جيدة ، مخالفا لما هو سائد فى الكتابات النقدية شكلا ومضمونا .

الأخرى ؟ وكيف ؟ ما أنواع الفشل الكبرى للنقد ؟ هل هى متصلة بالذوق أو المنهج أو التسير كما يحب النقاد أن يتصوروها ؟ أم هى أنواع فشل قديمة تتصل بالحكمة ، أى نوعية حياة الناقد داخل الأدب وخارجه ؟ بل ما المبدأ أو الادراك القابل للاستخدام الذى يستمده الناقد من جميع معارك النقد ، ومعارك الكتب قديما وحديثا؟ هل يوجد - باختصار - علم للخصومات النقدية ؟ وإلى أى حد من التواضع والانقياد للتعلم يجب أن يبقى النقد ؟ إلى أى حد يكون واجبه مثل واجب الأدب في المخالفة والانتهاك ؟ بل - مرة أخرى - كيف يتكيف الخطاب النقدى مع التكنولوجيات الجديدة ووسائل الاتصال المختلطة ، واللغات الجديدة للعقل المتصل به والعقل الفردى ؟ أن الاسئلة تتكاثر ، فسؤالى الأخير ليس فى الحقيقة آخر سؤال . فهناك على الاقل سؤال آخر أحب أن اطرحه : متى سيواجه النقد المحتويات التى تتضمنها تساؤلاته هو ذاته وماذا سيصير بعد ذلك ؟

وبعد هذه الاسئلة الكثيرة مباشرة يقول حسن :

ليس عندى جواب ، ولكنى أعتقد أن الجواب يجب أن يتجاوز حدود مصطلحاتنا الخاصة الراهنة مثل : التشكيك ، الوأد ، التوضيح ، التفكيك ، التوسيع ، التخطئة ، التقاطع ، بعجزها .

إنه يريد للعدة الروحية للبشر أجمعين كما ظهر من كلامه ، ولكن هذا الحلم المستحيل تحويلا جزئيا عمل الناقد فى رأيه ، فنحن - باختصار - كما يقول - بشر ، وسنظل بشرا ، إى : جنسا قاسيا ، غريب النزوات ، قادرا على الابداع الذاتى ، وهذا أيضا هو عمل النقد ، على طريقة المذهب الإنسانى أو ما بعد المذهب الانسانى ، أيهما شئت ، ولكن ، ما الإنسانى ؟ لا يمكن الجواب بطريقة شافية على سؤاله هذا كما يتضح من توسيعه قلة

الخلاف والتخالف حول بحثه عن جواب . وفي النهاية يعود إلى ذاته ، وينهي تقديمه بقوله أنه من أنصار التغيير . والتغيير عنده موسيقى ، ولكن الموسيقى جميعها ليست من صنعنا . « فكيف إذن يكتسب الزمن قيمة دائمة ؟ » وبهذا التساؤل الجديد يتوقف مؤقتا ليعود إلى المزيد من التساؤل في فصوله السبعة أو قطعه السبع كما سماها .

ثلاث مراحل

من الصعب تلخيص هذه القطع السبع في الحقيقة ، لا لأنها كثيرة التساؤل وحسب ، ولا لأنها مركبة تركيبا موسيقيا معقدا وحسب ، وإنما أيضا كثيرة الاقتباس من الغير في شتى فروع المعرفة، وشديدة التلاعب بالألفاظ واختراع المفردات والمصطلحات . فضلا عن أن كاتبها يجبرك على مرافقة أكبر قواميس اللغة الانجليزية ، حتى لو كنت انجليزيا .

وتبدأ هذه القطع السبع بقطعة ، أو فصل مطول من ثلاث قطع ، وتبدأ كل قطعة من هذه الثلاث الفرعية بتاريخ محدد ، ويحدد كل تاريخ بداية مرحلة .

تبين له أن النقد استجابة متميزة لنشاط انساني متميز أيضا هو الأدب ، وأن الناقد يشعر بحاجته إلى الإلتزام وأداة الشهادة على الحالة الأدبية ، ولما كان عمل الناقد أن يتكلم عن الأدب فلابد أن يتخذ هذا الكلام - في النهاية - شكل التجليات الذاتية . وليست الحاجة إلى التجليات الذاتية - هذه - خاصة أو وجودية وحسب، وإنما هي وظيفة اجتماعية أيضا من وظائف الناقد . ولكن الحوار بين الناقد والنص لا يتصف بالموضوعية التامة ولا الجمالية الخالصة . ويبدأ هذا الحوار عادة بالتأمل الذي يثيره النص في الناقد ، لأن التجربة التي يقدمها النص لا تترك الناقد وشأنه وإنما تغيره . وهذا ما عناه سارتر حين قال في كتابه " ما الأدب ؟ " إن العمل الفني قيمة لأنه يدخل اللذة . وهذا عمل ذاتي مبني على الحرية ، وإذا كان البيركامي كتب أن الإبداع يعني تعريض المبدع للخطر فإن النقد عمل يعرض الناقد للخطر أيضا .

وكان من أبرز الاتجاهات الاتجاه الأمريكي إلى إعلاء شأن شكل الأدب ونظريته عند رينيه ويليك ونورثروب فراي الذين يعدان من أكبر منظري الأدب . وقد رأى الأول أن الخلاص في البنيوية كما ظهرت عند حلقة براغ في علم اللغة ولكنه شجب تيارات النقد الأدبية بعد الحرب الثانية مثل تيار الاعتداد بالأسطورة في تفسير الأدب والتيار الوجودي على أساس أنهما تياران غير عقلانيين ، ثم ناصر النظرية الشكلانية في النهاية . أما نورثروب فراي فميز بين المزاجين الكلاسيكي والرومانتيكي في النقد وقال أن الأول جمالي والآخر نفسي ، وأن أحدهما

يرى الفن صنعة والآخر يراه تعبيرا ولا خلاف على هذا التمييز . وإنما الخلاف على أن فراى لا يرى النقد تجربة أو معايشة للأدب ، انما يراه منطقة من مناطق المعرفة وينتهى إلى أن معرفة الأدب هى التى يمكن تعليمها وليس القيم ، فهو يقول : « أن العمل الأساسى للنقد يقوم على الاستجابة غير المتحيزة للعمل الأدبى، وخلال عملية الاستجابة هذه يقوم الناقد باسكات جميع معتقداته ، وارتباطاته ، والتزاماته ، وتحيزاته ، وصور التشتت الغالصة لديه ، عن طريق التعاطف والأرهاب » وهذا أمر غريب لا يفيد النقد الأمريكى المعاصر فى شىء . على العكس من النقد الفرنسى الذى يعد أدب المستقبل صمتا وغيابا وتنازلا عن اللغة ولكن هل هذا الصمت الكامن فى قلب الأدب الحديث تعريف للفظاعة ومعادل ذاتى للأرهاب عندنا ؟ .

وهكذا يعانى النقد الأمريكى أزمة ، ولكنها ليست أزمة منهج وحسب ، وانما أزمة أدب أيضا ، أى أزمة ثقافة ووعى .

فانتازيا الثقافة

مازال النقد يشتغل بالتأويل ، ولكن متى سيشفى علم التأويل الثقافة ويجعلها - من خلال التوضيح - كلية متماسكة ؟ لقد أصبحت الثقافة المعاصرة بصرية ، لا سطرية وأصبحت التكنولوجيا الكهربائية تستطيع الاستغناء عن الألفاظ ، كما قال مارشال ماكلوهان ، وتنبأ نورمان براون بأن « البقية للصمت » . فالصمت مصيرنا . ويجب على النقد أن يتعلم الاعتراف بقوة الصمت التى ضغطت على اللغة طوال قرن من الزمان حتى اقصتها إلى حافة الوعى.

ولكن كيف يتكلم النقد عندما تتوقف الانسانية عن التنفس ؟ كيف سيعيش النقد ويستمر ؟ إن أدب ما بعد الحداثة يعرف ألوان الصمت ، ولكن النقد يمشى ببطء فى الوقت الذى يسرع الأدب فى خطاه ، ومن الصعب الفصل بين الفن والحياة ، ولكن خطاب الناقد جزئى ، لا تصل كلماته إلى أبعد من هوامش الأدب وأطرافه ولذلك يجب على النقد أن يتيح للقارىء مسافات خالية ، وألوانا من الصمت ، حتى يلتقى نفسه فى حضور الأدب ، وهذا هو النقد المخالف ، أى محاولة أنقاذ النص من تعدد الوظيفة والرسالة ، وهو لا يعنى بالنص وحروفه وانما بالاستعارات التى يستمدها منه .

ما بعد الحداثية

فى فصل تال بعنوان « ما بعد الحداثية : ببليوجرافيا عامة » نصل إلى مصطلح اثير من مصطلحات المؤلف والحداثية modernism تختلف عن الحداثة modernity كما سبق أن أشرنا فالأولى مظلة تجمع عددا من المذاهب الحديثة فى الأدب والفن ، والأخرى حالة تاريخية تشمل التاريخ

والفكر والفن وسائر مظاهر النشاط الانسانى . والمؤلف نفسه باع طويل فى تلسيس مصطلح " ما بعد الحداثية " وتوثيقه وتوضيحه . فكأننا هنا فى حضرة مؤسس من مؤسسيه رثقة من ثقاته . وإذا كان جوهر الحداثية هو التجديد ، فسر التجديد هو الحركة ، كما يقول : وإذا كانت الحداثية تغيرت كثيرا منذ ظهورها فى ثمانينات القرن الماضى فهذا التغير هو نفسه ما بعد الحداثية كما يقول أيضا . ويعد كتاب « قلعة اكسل » للناقد الأمريكى إدموند ولسون نصا كلاسيكيا للحداثية ، لأن مؤلفه درس الأدب الغربى فى الفترة من ١٨٧٠ إلى ١٩٣٠ . وبعد ٤٠ سنة من ظهور هذا الكتاب ظهر كتاب " تقطيع أوصال أورفيوس " لحسن نفسه الذى درس فيه جذور ما بعد الحداثية وطلقاتها الأولى . وهو يقارن بين الكتابين ، ويعتقد أن وجود حركة مراجعة للحداثية فى الفترة الأخيرة دليل آخر على وجود ما بعد الحداثية ، حتى لو كانت هذه المراجعة بطيئة كما هى حاليا بالفعل . ومع ذلك فالحركتان - الحداثية وما بعدها - تتعيشان حالها ، ولم تقض أحداهما على الاخرى ، وإذا كانت الحداثية نافذة على جنون الانسان - كما يقول - فقد اتخذت صورا وأشكالا عديدة فى المدن التى دخلتها والتكنولوجيا التى تعلقت بها ، ثم ثارت ما بعد الحداثية على أعمدة الحداثية السبعة ، فبدأ العالم يسعى إلى التوحد ، والناس يطلبون الأكل الصحى ، والسجون تنشد التمرد ، والجرائم تشرع فى خطوها، حتى أصبحت المدينة معسكر اعتقال . وهذا هو عصر الفضاء !

يأتى بعد ذلك فصل أكثر أهمية ودلالة فيما يتعلق بما بعد الحداثية بعنوان "الادرية الجديدة : تأملات فى أحد جوانب عقل ما بعد الحداثية " . وكلمة " الأدرية " Gnosticism ربما لا تفى بالمعنى المقصود . فالغنوصية فى الفلسفة حركة ذات جذور يونانية ووثنية قديمة ازدهرت فى بداية العهد المسيحى عندما تأسست الكنيسة فى القرن الثانى ، وتلفعت بالأساطير والشعائر السحرية مع بعض المصطلحات المسيحية ، وأكد أصحابها على قوة الغنوص ، أو المعرفة التى يكشفها الله للإنسان من أجل تخليص العنصر الروحى فيه .

أخذ حسن المصطلح بمعناه الفلسفى واللغوى من حيث هو صوفية باطنية تعتمد على الاشراقات ، وعنده أن ما بعد الحداثية غنوصية ، أو أدرية ، جديدة تقوم على الوعى ، مع أن الاسطورة والتكنولوجيا يختلطان اليوم بسهولة فى عقولنا ، حتى صار العلم فوق الحلم .

يشير حسن بعد ذلك إلى أن الوعى صار من أسس عالمنا الراهن ، مثله مثل الإيمان أو العقل أو الحساسية ، ومع ذلك

فجذور الآلات فى هذا العالم أكثر صوفية وروحية مما نفترض ، لأن الاسطورة لم تفارق العلم ، ولأن الاسطورة والعلم والتكنولوجيا لا يمكن أن تتحرر من الخيال، وإذا كان بروميثيوس سرق النار من الالهة فى الأسطورة القديمة ، واستل الوعى من عرينه المقدس ، فالوعى مثل النار شرير ، يسعى إلى ضده ، ويلتهم أله ، وإذا أطلق على العالم فسوف يهدد المادة وكل شىء . فما الجواب البروميثوسى؟أن البروميثوسية مركز يتلاقى فيه الحلم والمشروع الغنوصى أو العرفانى ، وهو مركز ينشأ فيه الوعى الإنسانى ، ويخلص فيه الوعى الإنسانى نفسه بالمعرفة الكاملة ، ولذلك يتضمن الارادة والطموح والنبوءة والخيال .

الأدب والتغيير

ولكن ما صلة هذا بالأدب ؟

لقد صور أدب الخيال العلمى كثيرا من أحلام الوعى هذه قبل وقوعها . وكان بليك الانجليزى ودى ساد الفرنسى يقفان على هذه التجربة فى القرن الماضى . بل ان رحلة الرومانتيكيين إلى ذواتهم فى ذلك القرن كانت رحلة نحو الوعى ، وهى رحلة غنوصية عرفانية بأوسع معنى ، بل صارت الفلسفة ذاتية منذ هيجل . كما صار النقد ذاتيا ضد بوليه وبلانشو وبارت وفوكو ودريدا ، بحيث ترك هؤلاء " النص " وراءهم فراح يتصعلك بذكاء من خلال اللغة، ويختفى داخل الوعى فى النهاية .

لن نناقش ما جاء فى هذا الكتاب الطريف المخالف على أى حال ، لأن الاسئلة التى طرحها أكثر من أن تحصى . ولكننا نعود الآن إلى ما أشرنا إليه فى البداية من خصائص تفكير إيهاب حسن ومنهجه فنقول إن كتابه " تقطيع أوصال أورفيوس " كان نافذة على الأدب الفرنسى لحساب المذاهب الحداثية ، ولكن كتابه المخالف هذا نافذة أخرى على التراث الإنسانى لحساب مذاهب ما بعد الحداثية. وفى كلتا الحالتين نجده من القلائل فى أمريكا الذين يضعون عينا على الأدب الامريكى وأخرى على الأدب الأوربى بصفة خاصة والأدب الفرنسى بصفة أخص ، وإذا كان منهجه سقراطيا، يتساءل أكثر مما يجيب ، ويثير أكثر مما يهدىء ، فهو يولج الموضوعى فى الذاتى ، والكلى فى النسبى ، ويتفنن – بطريقة غير تقليدية – فى صياغة أفكاره ورسمها وطبعها على الورق، وإذا كان يبدو هنا متأثرا بالوجودية أو البنيوية فلم تطبع عليه أحداهما علامة التبعية ، ولا كفت يده عن الاقتباس من جميع المعارف المتاحة ، أو قيدته فى توليد المصطلحات واشتقاق الالفاظ . ومن هذه الزاوية الأخيرة يجبر قارئه – حتى لو كان انجليزى اللغة تخصصى المعرفة – على استشارة أكبر قواميس اللغة فى كثير من مصطلحاته .

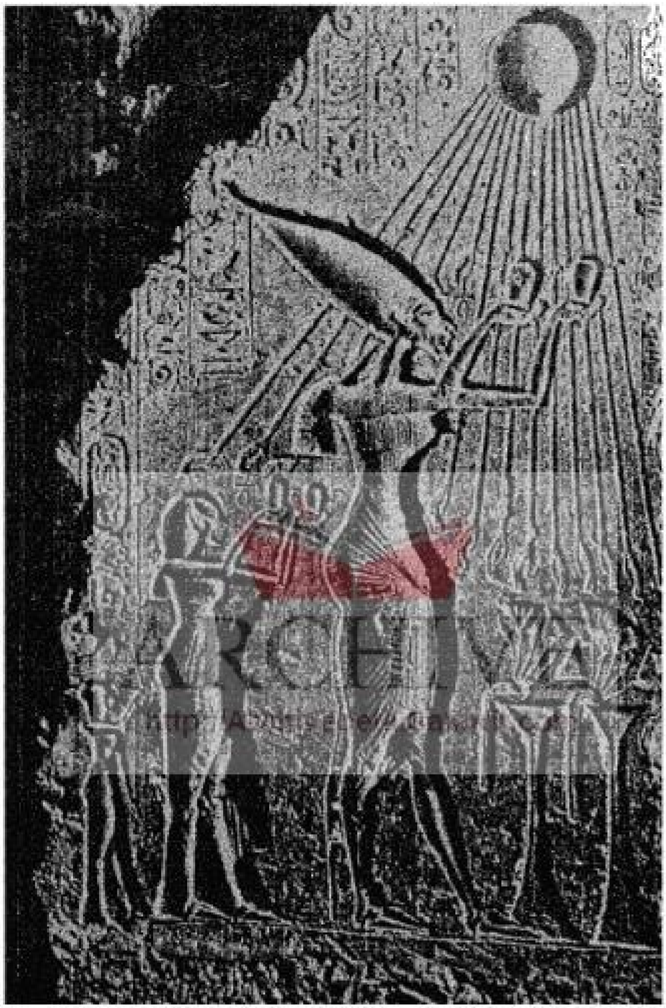
اخناتون ومزامير داود

بقلم : د. سيد كريم

المزامير أناشيد وتسابيح حملتها كتب التوراة إلى العبرانيين لتصبح عنصراً من عناصر العقيدة ، وتصور ركناً من شعائرها خصت بها النبى داود الذى كان يرددها بجمال الصوت الذى وهبه إليه الاله ، فنسبها مؤرخو الأديان إلى النبى داود الذى ارتبطت بأسمه على مر الأجيال خاصة وأنه لم يرد لها ذكر بالنسبة لمن سبقه من أنبياء بنى إسرائيل .

كان مصدر المزامير موضع شك عند كثير من مؤرخى العقيدة وكتاب الحضارات حيث نسب البعض مصدرها إلى كتب التوراة نفسها وذلك اسلوب كتابتها بالشعر الغنائى الذى اشتهر به المصريون القدماء فى أدب العقيدة وترتيل الأناشيد الدينية فى المعابد بمصاحبة الالات الموسيقية وهو ما نقلته جميع الاديان التى خرجت من مصر لتصاحب الموسيقى طقوس العبادة فى دور العبادة المسيحية واليهودية . لقد تميز عصر اخناتون بصفة خاصة بالأناشيد والتسابيح المنظومة بالشعر الغنائى المرتل . كما تحوى المزامير كثيراً لخطوط بردية جولو نشيف التى وصفت بأنها الحلقة المفقودة التى تربط التسابيح بالمزامير .

أثمرت الحملة العالمية فى بدايتها على النص الفرعونى للمزمور رقم ١٠٤ من مزامير داود ضمن مجموعة برديات حفريات تل العمارنة وبعض المقطوعات من المزامير ١٢٥ ، ١٢٦ ضمن برديات (بريس دافن) المشهورة ، وتتوالى بلاغات الاكتشافات من مختلف المتاحف حتى وصل عدد المزامير التى اكتشفت اصولها المصرية ما يزيد عن عشر برديات جديدة موزعة على كل من متاحف اللوفر وتورين وبرلين .



كان اخناتون فيلسوفا وحكيما واديبا وفنانا وموسيقيا



الملكة نفرتاري
معبد أبو سمبل الكبير

يكشف المؤرخ والعالم المصرى الكبير سليم حسن فى أبحاثه الخاصة بالأدب المصرى القديم أن مقدمة المزامير العبرانية لا تختلف صيغة نصوصها عن النشيد الكبير الذى يبدأ به اخناتون تسابيحه المشهورة .

لم يغفل معظم دارسى اخناتون عن هذا التماثل الواضح بين كثير من اجزاء النشيد المصرى الذى قاله اخناتون فى تسبيح الهه الأوحد «اتون» .

فالنشيد المصرى يسبق مجىء اشعيا بسبعة قرون كاملة الأمر الذى يؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن العبرانيين قد أخذوا من النشيد المصرى كثيرا من أفكارهم فى التوحيد :

سؤال يفرض نفسه متى ؟ وكيف انتقلت الاناشيد من اخناتون .. إلى النبى داود ؟ .

داود والمزامير

● النبى داود (فى التوراة وكتاب صموئيل والملوك) نادى صموئيل عام ١٠٢٥ ق . م شاؤول ليكون أول ملك لإسرائيل . وصف بانه كان فارسا يحب الحرب والملذات وابتعد عن الدين والعقيدة فنزلت عليه لعنة الاله ليختم حياته بيده . ولم يخلفه ابنه يوناثان بل تولى الحكم داود الذى كان أول من انشأ مدينة القدس .

وكان محاربا انتصر على البلاد المحيطة به وجمع بين محاسن البشر ومساوئه وتزوج من «بيت شيبا» زوجة قائده أوريا الذى ارسله إلى الحرب للاستيلاء على زوجته التى اغراه جمالها ومحاسنها عملا بقولهم كل ما تمتلكه تضع عليه يدك فهو ملك لك .

● وتصف قصص الانبياء للنيسابورى مزامير داود بقولها أنعم الاله على داود الصوت الطيب ونعمة الترجيع والالحان ولم يعط احد من خلقه مثل صوته فكان يقرأ المزامير بستين لحنا حتى اذا غنى تستمع إليه الانس والجن وتقف له الوحوش وتظله الطيور وتسكن الريح ويقف خرير المياه فى النهر وكانت الجبال تجاريه بالتسبيح وما صنعت المزامير والبرابط والصنوج الا على صوته .

قال الله تعالى فى سبأ والانبياء «ولقد أتينا داود فضلا منا ياجبال أوبى معه والطير والنّا له الحديد»

«وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين»

ويقول كتاب الانبياء ، «عندما عصى

داود الاله وارتكب الخطيئة نقصت نعمته وفقدت تأثيرها على ما حوله وعلى من يسمعه وغيرت صوته وحاله فتوقف عن ترديد المزامير .

أما الخطيئة التى ارتكبها هى عندما اخرجه الشيطان من محرابه اثناء صلاته ويغريه ليتبعه إلى الحديقة ليطلعه على كنز مدفون فمازال يتبعه حتى اشرف على امرأة تغتسل فى بحيرة القصر . فاعجبه حسنها وخلقها فلما رأت ظله على الارض جللت جسدها بشعرها فزاده ذلك اعجابا بها ولما سأل عنها قيل له أنها زوجة اوريا قائد جيشه فعمل على ارساله فى مهمة حربية فى مكان بعيد إذا بلغه قتل ولن يرجع . فخطبها داود لنفسه وتزوجها . وكان لداود عندما تزوجها تسع وتسعون امرأة وزوجة .

ودخل عليه جبريل فى محرابه وهو يتغنى بالمزامير وقال له كيف تتغنى بالمزامير وخطيئتك قائمة فاوريا لم يمت فى الحرب بل مات كمدا عندما تزوجت زوجته وهى فى عصمته ، فامر الاله بحرمانه من نعمة الصوت الذى يرتل به المزامير ونعمة الفن التى تعزف به اصابعه على القيثار .

أخناتون والتسابيح

لم يكن اخناتون فيلسوفا متعبدا فقط كما وصفه المؤرخون بل كان حكيما وأديبا وفنانا وموسيقيا محبا للنحت والتصوير الذى أوحى للفنانين بتجسيد الطبيعة الحية فى فنون النحت والتصوير والتعبير بالالوان المستوحاة من الطبيعة .

وقد ورث اخناتون فلسفة الفن عن أبيه امنحتب الثالث . كان اخناتون محبا للموسيقى والرقص فقام بتطويرهما والخروج بهما من المعبد إلى مسرح الحياة العامة وانتقل بالتمثيل من تمثيل الاساطير الدينية فى المعابد وفى المناسبات الدينية إلى تمثيل طبيعة الحياة فى الأعياد والمناسبات الاجتماعية . خرج بالفنون بأنواعها من القيود الدينية إلى التحرر الاجتماعى فوضع مبدأ «الفن الحر» فى جميع فنون الحياة ابتداءً من التصوير والزخرفة والازياء والادوات المنزلية والاثاث امتدادا إلى التعبير عن متون العقيدة وتشاريع السماء التى برزت كمقطوعات أدبية وفنية على شكل تسابيح منظومة بالشعر ومصحوبة بالنغم والموسيقى .

يقول المؤرخ بريستد فى «فجر الضمير» اعلن اخناتون أنه رسول الاله الواحد إلى الناس كافة ليظهرهم على جماله ويشعرون بقوة خالقهم وسلطانه . جاء لينقل للناس جمال كلام الاله وتعاليمه التى تنطق بها التسابيح الشعرية المنظومة التى تصاحبها انغام الموسيقى .. لغة السماء . يقول المؤرخ ايرمان «كنوز الحضارة» ان شخصية اخناتون كانت مثلثة القوى ، فقد ورث فلسفة الفن عن أبيه امنحتب الثالث . والعقيدة عن امه



الملكة نفرتارى
معبد أبو سمبل الكبير

الملكة «تى» العظيمة ، والشجاعة عن جده تحتمس الثالث .

فجمعت شخصيته الحساسة الحالمة بين القوة والاحترام الكافيين لان يقف أمام أقوى نفوذ فى البلاد فى ذلك الوقت وهو نفوذ كهنة آمون . فهو أول حاكم عرفه التاريخ يقوم بثورة دينية واجتماعية وفنية بعد أن تمكن من تحقيق فكرته فى الدعوة لعقيدته وتحدى كهنة آمون ، فينقل مقر الحكم من طيبة معقل عبادة آمون إلى عاصمة جديدة للعقيدة والحكم اطلق عليها اسم (اخت اتون) أى افق الاله .

وقد اختار لمدينته الجديدة موقعا استراتيجيا بين كل من أون (هيليوبوليس) وطيبة مركزى عبادة كل من «رع» و«آمون» وجعل ذلك الموقع الجديد مقراً للحكم .

لم يكن الانقلاب الذى أحدثه اخناتون قاصرا على احياء عقيدة التوحيد باسم اتون بل قد تخطت حركة الانقلاب إلى انقلاب أعظم فى الفن المصرى وطرائقه ، الذى كان جزءا من منهاجه والذى امتد إلى التصوير الادبى للعقيدة بالتعبير عنها بالشعر المنظوم والاناشيد والتسابيح التى ترتل فى المعابد وتتردد فى المناسبات والندوات وتنتقل منها إلى أسفار التوراة لتصل إلى بيت المقدس ليتغنى بها داود فى مزاميره .

● بعد سقوط ثورة اخناتون لم يترك اعداؤه حجرا واحدا لم يقلبوه لازالة كل شىء باق يدل على مدة حكمه المقوت عندهم فاتلفوا بطبيعة الحال مخطوطات اخناتون وكل ما يختص بكتاب عقيدته وما ارتبط بها من شرائع وتعاليم سماوية عبر عنها بأناشيده وتسابيحه المعروفة التى لا تدخل تحت حصر وما وصل منها إلينا من نصوص ما كان يزين بها أشراف رجاله جدران مقابرهم أو بقايا بعض البرديات ولفائفها التى وجدت ضمن موميات بعض مقابر مدينته المقدسة .

لازال باطن ارض مصر يلفظ من آن لآخر بعض تلك البرديات الاثرية المثيرة التى تلقى ضوءا على العلاقة بين اسفار التوراة ومزامير داود وعقيدة اخناتون المصرية . وهو ما حدى بكثير من المؤرخين والباحثين فى محاولة ترجمة الكثير من البرديات والنقوش التى كشفتها حفريات تل العمارنة (مدينة اخت اتون) والمكدسة فى مخازن كثير من متاحف العالم .

كان من المفاجأة التى كشفتها بعض لفائف البرديات أنها تحوى نصوصا كاملة لاكثر من مزمور من مزامير داود المدونة

باللغة المصرية القديمة والخط الهيروغليفي والتي سبقت مزامير داود المدونة باللغة والخط العبراني بأكثر من ثلاثمائة عام . ومن أخطر المفاجآت التي كشفها العالم المصري . بالاشتراك مع علماء متحف برلين وجود ثلاث صفحات من كتاب اخناتون مطابقة لمثيلاتها في اسفار التوراة .

اخناتون وموسى .. والمزامير

● تبدأ علاقة اخناتون بموسى كما وصفتها كتب العقيدة وقصص الانبياء بزواج يوسف عليه السلام واسمه المصري (يويا) من اسنات ابنة «فوتيفارع» كبير كهنة معبد اون معقل عقيدة التوحيد واسمها المصري (تويا) فانجب منها ابنته الجميلة طاي (تي) التي تربت في قصر تحتمس الرابع . فاحبها ابنه امنحتب الثالث وتزوجها بعد توليه العرش بعام وجعل منها ملكة على مصر .

نسب المؤرخون إلى الملكة (تي) مسئولية النزاع والنفور الذي قام بين كهنة معبد امون والاسرة المالكة خاصة وانها كانت تنتمي إلى عقيدة اله الشمس «رع» التي يرعاها معبد اون الذي تربت فيه ويرأسه جدها «فوتيفا رع» لذا فانها ارسلت «اخناتون» منذ طفولته للالتحاق بمعبد اون بعيدا عن كهنة معبد آمون بطيبة وفي معبد آمون بهيليوبوليس تشبع بعقيدة توحيد رع التي كان يؤمن بها جده النبي يوسف .

أما علاقة اخناتون بموسى عليه السلام فتفسرها علاقة موسى عليه السلام بالنبي يوسف جد اخناتون فيذكر كتاب الانبياء في التوراة تلك العلاقة بقوله : «ذهب رجل من بيت لاوى واخذ بنت لاوى اخى يوسف فحبلت وولدت ابنا وهذا الابن هو كليم الله موسى وبيت لاوى هم احفاد يوسف (سفر الخروج اصحاح ٢ نص ١).

● يقول العالم «فرويد» عن كتابه «اليهود في مصر» أن موسى قد تلقى علومه في معبد اون الذي تخرج منه اخناتون وأنه كان يؤمن بعقيدة التوحيد التي نادى بها اخناتون وحاربها المصريون ارضاء لكهنة معبد آمون . وكان موسى ينشر سرا عقيدة التوحيد بين طوائف اليهود بعد أن انحرف عنها المصريون بعد ثورة كهنة امون عليها .

كان اليهود يرتلون تسابيح اخناتون في معابدهم ويتغنون باناشيده بمصاحبة الموسيقى في مختلف مناسباتهم الدينية والاجتماعية وهي التسابيح التي نقلها مع التوراة ليحملها معه إلى بيت المقدس لتصبح من شعائر الدين التي يرتلها اليهود في معابدهم والطقوس التي يمارسونها بمصاحبة الموسيقى التي نقلوها عن المعابد المصرية ولازالت تمارس وتتردد إلى اليوم في انحاء العالم . بانتقال تلك التسابيح والاناشيد وما ارتبط بها من شعائر وتقاليد .. بانتقالها إلى مدينة القدس التي نزلوا بها وتوالى ظهور الانبياء على ارضها تعلق بها النبي داود



الملكة نفرتارى
معبد «أبو سمبل» الكبير

الذى اشتهر بجمال صوته وإتقان عزفه على «القيثار» احد الآلات الموسيقية الفرعونية المعروفة التى نقلها اليهود من مصر ، مع غيرها من الالات الأخرى التى نقلوها إلى العالم ولازالت تحتفظ باشكالها وتتردد انغامها إلى اليوم داخل المعابد وخارجها .

ذلك القيثار المصرى الذى احتفظ به النبى داود ليعزف عليه تسابيح اخناتون المصرية بعد مرور فسحة من الزمن .

● يصف كتاب الانبياء مزامير داود بانها نزلت بالعبرانية فى مائة وخمسين عامودا . خمسون منها فى ذكر الله وآيات خلقه وخمسون فى التسابيح بحمده وخصائص نعمه وخمسون منها فى الحكم والمواعظ وهو ما يتفق إلى حد بعيد فى نصوصها وتتابعها مع أناشيد اخناتون وتسابيحه .

فمطلع مزامير داود يتشابه مع فاتحة «النشيد الكبير» الذى بدأ به اخناتون تسابيحه فى مناجاة الاله الخالق الذى لا شريك له ، والذى رمز له بقرص الشمس «اتون» (القوى الخفية التى تهب الحياة والحركة) وصورها بقرص الشمس الذى تمتد اذرعه وايادية حاملة هبات العطاء الالهى ومنحه مع مفتاح الحياة إلى البشر.

يبدأ النشيد الكبير أو فاتحة تسابيح اخناتون بقوله :

● انت الاله الاحد الذى وجد منذ الازل

انت آية الحياة وموهب الحياة ولاحياة الا بك .

أيها المشرق البهى القريب البعيد .

يامن يشرق بجماله فى آفاق السماء

تعاليت فامتد نورك ليضىء الكون كله .

أنت تترك آخر الارض رغم ارتفاعك عنها .

لا تكاد تقذف باشعتك حتى يتمزق رداء الليل .

فإذا الارض تتهلل وإذا الناس أيقاظ.

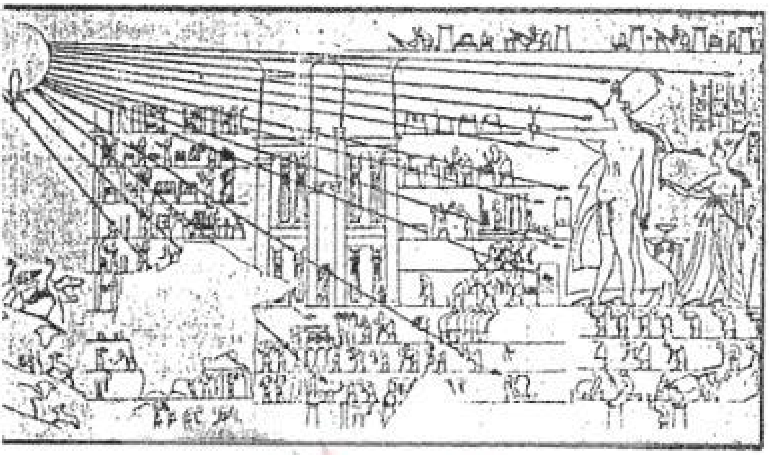
لانك بعثتهم وكل ما حولهم من رقاد.

وتتحرك الخلائق من كل دابة . وإذا الماشية ترتع كيف تشاء لانك أضأت لها الكون .

ونشرت أشعتك التى تحيط بكل ما خلقت .

فإذا بنورك ينضر ما فى الأرض من نبات وشجر .

وتغادر الطير أوكارها لتضرب باجنحتها مسبحة بحمدك .



عندما يشرق نورك على الكون تعود إليه الحياة ويتطلع كل إلى عمله ويصبح الكل يحمدك



أمنحتب الثالث (والد اخناتون) ورمز عبادة آتون



الملكة نفرتارى
معبد «أبو سمبل» الكبير

والاسماك تسبح فى الماء تحت نور طلعتك .

وينفذ نورك إلى أعماق الماء ليهب الحياة لما بها من كائنات .

وتمتد تسابيح النشيد الكبير لتغطى عدة برديات متفرقة ولويحات الاوستراكا والنقوش الزخرفية التى تزين بعض مقابر العمارنة وبقايا احجار معابد ابيدوس واخميم والتى تحتل مكانها حاليا فى معظم المتاحف العالمية .

من بين أناشيد الخلق التى انتقلت بغير تبديل من تسابيح اخناتون إلى مزامير داود :

● ياباريء الفرخ فى البيضة تعطيه النفس .

ليحفظه حيا فى وسطها ويتحرك فيها بامرك .

وقدرت له ميقاتا ليخرج منها .

ولا يخرج منها إلا فى ميقاته .

فتنزله القوة على كسرها فيمشى ساعيا على قدميه .

ليخرج منها إلى الدنيا .

يامن خلقت الحياة من الجماد فاخرجت الفرخ من البيضة .

● يامبدع الاجنة فى الارحام .

وخالق النطفه فى اصلاب الرجال .

يامطعم الجنين فى بطن أمه مهدأ اياه حتى لايبكى .

ونافخا الحياة من أنفاسك فى اديمه .

فإذا ما خرج إلى الحياة فتحت له فمه وحركت لسانه .

ووهبته الحواس ليحس بوجوده ووجودك .

● ياخالق الحياة من الماء ومن الماء اخرجت بيضة الكائن الحى .

خلقت فى الماء ومن الماء ما يسبح ويغوص .

ومن الماء ما يمشى ويطير .

ومن الماء ما يخرج إلى الارض ليزحف على بطنه أو يسير على اقدامه .

ومن الماء بعثت الحياة فى الارض بما يسقط منه من السماء أو يخرج من الأرض أو ينساب على سطحها أو يحيط باركانها .

● كان الفضل لاكتشاف العلاقة بين أناشيد اخناتون وتسابيحه ومزامير داود للعالم الاثرى الشهير «جولونشف» فى أوائل القرن الحالى عندما كان يقوم

بترجمة بعض البرديات الفرعونية التى يحتفظ بها متحف بتروجراد حيث فوجىء عند قيامه بترجمة احدى البرديات التى حصل عليها المتحف من حفريات مقابر العمارنة والمدونة بالخطين الهيروغليفى والهيراطيقى، وبمقارنتها بنصوص مزامير داود التى كان يحتفظ بها فى مكتبته الخاصة فوجىء بانها صورة طبق الأصل من ناحية اللهجة والنص والاسلوب الشعرى من المزمور الثامن من مزامير داود.

كان لاعلان ذلك الاكتشاف المثير الحافز للفت انظار علماء الاثار فى مختلف المتاحف العالمية فحاولوا البحث والتنقيب بين أكوام البرديات التى تحتفظ بها مخازنهم.

فيعلن المتحف البريطانى اكتشاف نص فرعونى للمزمور ١٠٤ ضمن برديات «بريس» المشهورة ثم تتوالى الاكتشافات التى تعلنها كل من متاحف اللوفر وتورين ليصل عدد المزامير التى تمكنوا من اثباتها أكثر من عشرين بردية.

عند ذكر المزامير لا يمكننا أن نذكر فضل العالم الأثرى المصرى الكبير سليم حسن والبحوث التى قام بها والخاصة بعقيدة اخناتون وعلاقة كل من التوراة والمزامير بها وترجمات البرديات التى أعلنها متحف برلين عام ١٩٣٥ وكان له الفضل فى اكتشاف بعض صفحات من التوراة لا يقبل الشك فى اتفاق نصوصها وتطابقها مع وثائق عقيدة اخناتون، ولايزال كثير من علماء الآثار والباحثون يواصلون البحث والتنقيب بين برديات المتاحف التى لم تترجم بعد أو ضمن حفريات الآثار خاصة فى المناطق التى كانت تهتم بعقيدة اخناتون وتمارس شعائرها وفى مقدمتها منطقة أخميم وأبيدوس التى أقيم لاخناتون بها أكثر من معبد ومزار لازالت بعثات الآثار المصرية والأجنبية تعثر عن العديد من أحجار تلك المعابد والمنشآت التى خربها كهنة آمون فى ثورتهم المعروفة ضد عقيدة اخناتون.

من آخر الاكتشافات ما قام به علماء مصر عام ١٩٨٣ فى منطقة المضل ببنى سويف عندما اكتشفوا مخطوطا كاملا للمزامير وجد على شكل كتلة متماسكة تتكون صفحاتها من الرق. عثر عليها الاثرى إبراهيم جاد والمخطوط مكتوب باللغة الهيلينية المصرية القديمة التى يطلق عليها لهجة مصر الوسطى والتى يدخل بها كثير من الكلمات اليونانية ويعتبر ذلك المخطوط اقرب للمزامير من الاصل. وقد وجد المخطوط تحت رأس أحد المومياوات وهو ما يعد استمرارية لبعض العادات المصرية القديمة حيث كانوا يضعون «كتاب الموتى» تحت رأس المومياء ويوالى باحثو المصريات فك رموز المخطوط والذى سيكون فصل الخطاب فى حقيقة العلاقة بين تسابيح اخناتون ومزامير داود.

الزلزال على أرض مصر!

بقلم : د . رشدى سعيد

أكتب هـــذا المقال لكى ألخص عمـــل وملاحظات سنوات طويلة من البحث العلمى على أرض مصر ولكى أضع بين يدى القـارىء فكرة عن الزلازل والهـزات الأرضية التى شهدتها

ولكى أضع للمشتغلين بالعلم فى هذا المجال إطارا جامعا يربط بين الظـواهر والمعلومات المتناثرة المسجلة عن زلزالية مصـر ، وحتى تصبح مهمة وضع خطط عملهم على أسـاس دقيـق ، وحتى يكـون لنتائج أبحـاثهم فى المستقبل مغزى ..

فوجىء المصريون فى يوم ١٢ أكتوبر بزلزال مدمر لم يكن ينتظروه فقد دخل فى يقينهم أن بلادهم بعيدة عن هذه الكوارث التى يسمعون عنها فى بلاد بعيدة - والحقيقة أن الزلزال الذى حدث بمصر زلزال ضعيف فقد بلغت درجته على مقياس رختر ٩ر٥ وهى أقل بكثير من درجة الزلزال التى توصف بأنها شديدة والتى تبلغ ٥ر٧ أو أكثر على نفس المقياس ولابد أن نبين هنا أن درجات مقياس رختر تتزايد لوغاريتميا أى أن زيادة درجة واحدة على المقياس تعنى زيادة شدة الزلزال بعشر مرات . فالفرق بين درجة ٦ ودرجة ٧ على المقياس مثلا هو الفرق بين زلزالين تزيد فيه شدة الزلزال الذى يسجل ٧ درجات عشر مرات من الزلزال الذى يسجل ٦ درجات . وقد جاءت خسائر زلزال أكتوبر سنة ١٩٩٢ بسبب تهالك المبانى واكتظاظها بالسكان وليس بسبب شدة الزلزال .



تواريخ الزلازل التي مرت بمصر وأماكنها

وكان لهدوء مصر الذى عهدناه أثره على دراساتي العلمية ، فلم يكن موضوع زلزالية مصر مثيرا لى ولم تكن له أية أسبقية فى أعمالى حتى أوائل السبعينيات عندما بدأ اهتمامى به فى ظروف تستحق تسجيلها – ففى ذلك التاريخ كنت مشغولا بأبحاث عن نهر النيل فى محاولة لاستقصاء تاريخه ونشأته والعوامل التي حددت مجراه وجعلته قادرا على الوصول إلى أرض مصر والبحر المتوسط رغم مروره عبر القفار دون أن تصله قطرة ماء لأكثر من ألفى كيلو متر .

وكانت أكثر النظريات قبولا لتفسير هذه الظاهرة الفريدة وهو أن النيل يقع فى أحد صدوع قشرة الأرض على أن هذه النظرية كانت غير محققة، لأن أحدا لم يكن قد تتبع الصدع على طول مجرى النهر - وقد خطر لى أنه ربما كان من الممكن التحقق من هذه النظرية لو عرفنا شيئا عن زلزالية وادى النيل وسجلنا الهزات الأرضية، فإن وجدنا أن ترددها كان كبيرا كان هذا دليلا على وجود مجرى النهر فى نطاق صدع لم يستقر بعد - ولم يثنني عن القيام بهذه الدراسة أن الزلازل التى رصدت أو تحدث عنها الرواة فى ماضى الزمان فى وادى النيل كانت قليلة ومتباعدة فقد كانت هذه هى الزلازل القوية التى يحس بها الانسان أو التى كانت الأجهزة المركبة فى ذلك الوقت قادرة على رصدها - كان الغرض من الدراسة هو معرفة مقدار تردد هزات الأرض الصغيرة والتى لا يحس بها الانسان فقد كانت هذه الهزات بالنسبة لدراستى دليلا على مدى استقرار الأرض فى وادى النيل - ولما لم يكن بمصر فى ذلك التاريخ أجهزة رصد حساسة تستطيع أن تميز هذه الهزات الأرضية الخفيفة ، فقد سعيت لشراء هذه الأجهزة للبدء فى القيام بهذه الأبحاث .. فكللت جهودى بالنجاح ووصلت الأجهزة إلى مصر وأزمعت تركيبها فى شمال الفيوم حيث يوجد هناك صدع معروف يمتد عبر النيل . إلا أن وصول الأجهزة جاء وقت أن كانت أعمال موسم الأبحاث الميدانية لعام ١٩٧٦ توشك على الانتهاء ، ولذلك فقد قررت تأجيل استخدام الأجهزة بوادى النيل حتى بدء الموسم التالى والقيام بضبط الأجهزة وتجربتها خلال فترة الصيف . واحتاج أمر هذا الضبط إلى إيجاد مكان بارد لا ترتفع فيه درجة الحرارة ولذلك فقد قمنا بتركيبها وتجربتها فى أحد الأنفاق التى كنا قد حفرناها فى «جبل أبو دباب» المطل على البحر الأحمر بجوار مدينة مرسى علم - وتركنا الأجهزة لقرابة الشهرين وعندما عدنا إليها وجدنا لدهشتنا أنها سجلت نشاطا زلزاليا فائقا للمنطقة فقد بلغ عدد الزلازل التى سجلتها الأجهزة بين ٥٠ و ٦٠ فى اليوم الواحد وفاق المائة زلزال فى أحد الأيام - كانت مفاجأة تبينا على أثرها السبب الذى دفع بالبدو إلى تسمية الجبل بـ «أبو دباب» فقد كانوا يسمعون دبيبه وهو يهتز - كانت النتائج مثيرة حقا مما دفعنى إلى الاستمرار فى دراسة هذه المنطقة وتأجيل مشروع دراسة النيـــل إلى وقت لاحق .

وقد جاء هذا الوقت بعد ذلك بسنوات

عندما حدث زلزال ١٤ نوفمبر ١٩٨١ فى منطقة السد العالى مما دفع بمرصد حلوان أن يقوم بنشر أجهزة رصد الزلازل الحساسة حول بحيرة ناصر لرصد هزاتها الأرضية .

أهم أحزمة الزلازل

وكل مكان على الأرض معرض للهزات الأرضية إلا أن هناك أمكنة بذاتها تزداد فيها هذه الهزات . وتقع هذه الأمكنة فى أحزمة ضيقة الاتساع يحاذى أهم اثنين منهما أراضى القارات التى تحد المحيط الهادى - ويمتد أحدهما من شبه جزيرة الاسكا إلى نيوزيلندة مارا باليابان واندونسيا والجزر المحيطة بها ، ويمتد الآخر بمحاذاة ساحل الأمريكتين من كندا إلى شيلى وللأخير ذراع يمتد عبر أمريكا الوسطى إلى جزر البهاما - كما تتزايد الزلازل أيضا فى حزام ثالث يمتد فى اتجاه شرقى - غربى من جبال أطلس بشمال أفريقيا عبر البحر الأبيض المتوسط إلى إيطاليا فاليونان فتركيا .. حيث يخترق جبال القوقاز وايران فمنتصف آسيا إلى الصين - وقد وقعت فى نطاق حزامى المحيط الهادى أكثر من ٨٠٪ من جملة الهزات الأرضية التى نشأت عن عمق ضحل وكل الهزات الأرضية التى نشأت عن عمق ضحل وكل الهزات الأرضية التى نشأت عن أعماق كبيرة والتى حدثت فى خلال القرن العشرين .

وتقل الهزات الأرضية خارج نطاق حزامى المحيط الهادى والبحر الأبيض المتوسط وتحدث فقط عندما تنشط صدوع قديمة فى القشرة الأرض . وفى حالة مصر التى تقع فى ظل حزام البحر المتوسط وخارجه فإن هناك ثلاثة صدوع أساسية تسببت فى معظم الزلازل الحديثة التى سجلت فى القرنين الأخيرين. ويبين الشكل المرفق موقع هذه الصدوع- والصدع الأول هو جزء من مركب كبير من مختلف الصدوع التى تشكل منطقة البحر الأحمر وهو يمتد من مدخل خليج السويس حتى البحر الأبيض المتوسط فى اتجاه شمالى غربى مارا بالسويس ومخترقا الدلتا - وقد حدثت على طول هذا الصدع زلازل فى مواقع مختلفة . وكانت مراكز هذه الزلازل فى : مدخل خليج السويس عند جزيرة شدوان فى ٣١ مارس سنة ١٩٦٩ حين بلغت شدة الزلزال ٦٫٣ على مقياس رختر وقد سبقت هذه الهزة عدة هزات صغيرة حدثت خلال النصف الثانى من شهر مارس سنة ١٩٦٩ . كما تلتها هزات أخرى وقد صاحبت الهزة فرقعة شديدة وارتفاع فى منسوب البحر وتساقط الصخور من الجبال المحيطة .

كما حدثت هزة أرضية فى وادى حاجول الذى يقع إلى الجنوب من مدينة السويس فى ١٩ مارس سنة ١٩٨٤ بقوة ٤٫٧ على مقياس رختر وأحس بهذا الزلزال سكان القناة والقاهرة - كما حدثت هزة أخرى فى جبل جفرة (بطريق القاهرة - السويس) فى ٢٢ مايو سنة ١٩٩٢ بقوة ٤٫٥ على مقياس رختر وهزة رابعة فى

معالم الدمار الذى تحدثه الزلازل فى العالم



أبو حماد بمحافظة الشرقية فى ٢٩ أبريل سنة ١٩٧٤ بقوة ٤,٩ على مقياس رختر وهزة خامسة فى أقصى شمال الصدع تحت مياه البحر الأبيض المتوسط بقوة ٦,١ على مقياس رختر فى ١٢ سبتمبر سنة ١٩٥٥ ، وكانت هذه الهزة الأرضية الأخيرة من القوة بحيث أنها أثرت فى فلسطين وقبرص واليونان وتهدم فى أثرها أكثر من ٣٠٠ منزل فى مدن رشيد وادكو والاسكندرية .

وبالاضافة إلى هذا الصدع الأساسى النشيط فهناك صدع أخر يقع فى الجزء الجنوبى من مركب صدوع البحر الأحمر حول منطقة أبو دباب الفائقة النشاط الزلزالى كما سبق أن وضحنا والتى تسجل فيها زلزالين بشدة ٥,٥ و ٥,١ على مقياس رختر يومى ١٢ نوفمبر سنة ١٩٥٥ و ٢ يولية سنة ١٩٨٤ على التوالى وقد أحس سكان الصعيد بهذين الزلزالين .

صدعان فى وادى النيل

أما فى وادى النيل فعلى الرغم من وجود عدد كبير من الصدوع التى تعترض مجراه إلا أن معظمها كان خاملا خلال القرنين الماضيين ولم ينشط منها إلا صدعان إثنان يتجهان من الشرق إلى الغرب ويمتدان لمسافات طويلة ويقع أولهما فى النوبة عند وادى كلابشة على بعد ٦٠ كيلو مترا إلى الجنوب من السد العالى ويمتد الصدع من عند النيل ناحية الغرب لأكثر من ٤٠٠ كيلو متر وحتى حدود مصر الغربية - وقد نشط هذا الفالق يوم ١٤ نوفمبر سنة ١٩٨١ وسبب زلزالا بقوة ٥,٥ على مقياس رختر - وقد أثار هذا الزلزال اهتماما خاصا نظرا لوقوعه فى منطقة السد العالى وتم فى أثره توزيع شبكة من آلات الرصد الزلزالى الحساسة التى أثبتت أن الصدع تنتابه هزات خفيفة ومستمرة يتراوح عددها بين العشرين والثلاثين هزة (والتى تبلغ درجاتها أقل من ٣ على مقياس رختر) فى الشهر الواحد وقد زادت هذه الهزات إلى اكثر من ٣٠٠ هزة فى شهر سبتمبر سنة ١٩٨٢ - ومن الجدير بالذكر أن فالق كلابشة كان نشيطا منذ العصر الرومانى على الأقل فقد سجل كاتب هذه السطور زلزالا أثر فى بقايا مساكن الحامية الرومانية بالمنطقة .

أما الصدع الأخر الذى يعترض وادى النيل ونشط خلال القرنين الماضيين فهو الصدع الذى يمر بشمال الفيوم فى اتجاه شرقى - غربى ممتدا من هناك إلى البحر الأحمر عند العين السخنة ومارا بالنيل فى محافظة بنى سويف - وهذا الصدع قديم كان نشيطا فى الماضى السحيق ثم خمد وبدأ نشاطه من جديد فقد كان تحركه سبب زلزال اكتوبر الماضى وسبب زلزال آخر حدث فى سنة ١٨٤٧ وكان اكثر شدة من الزلزال الحديث وكان تأثيره على أشد ما يكون فى منطقة الفيوم وشمال الصعيد .

الديمقـــــراطيـــة والجـــدل الدائر حولها

بقلم : جميل مطر

أتابع منذ مدة الجدل الدائر في منطقتنا حول موضوع الديمقراطية ، أتابعه منذ غزو الولايات المتحدة لبنما إذ كانت إحدى ذرائعها في التدخل القضاء على الحكم الدكتاتوري الذي يقوده نورييجا ، وإحلال نظام ديمقراطي محله . الغزو في حد ذاته لم يثر جدلا مهما في منطقتنا ، ولكن أثار الجدل المهم تساؤل بعض المفكرين العرب عن إمكانية أن تفعل الولايات المتحدة في هذه المنطقة من أجل الديمقراطية [illegible] تفعله في دول أمريكا اللاتينية . حينذاك شعرت أننا على أبواب جدل عظيم . ويبدو لي الآن أن الشعور لم يكن [illegible] الأحداث [illegible] جدل عظيم وحسب ، [illegible] أنها جزئية وخطابية [illegible] والأسئلة [illegible] ويكملان بعضهما بعضا فالجدل يثير الأسئلة ، والأسئلة تدفع إلى مزيد من الجدل .

أن [illegible] هنا كل نقاط الجدل ، أنتقي منها القليل المفيد في توضيح حجم وجوهر الجدل . فقد جرى في عدد متزايد من الدول العربية خلال العامين المنصرمين وتجري الآن انتخابات لمجالس نيابية أو تشكيل مجالس شورى ، وهو ما يعني نشاطا ملموسا نحو تحقيق درجة من المشاركة السياسية للجماهير في صنع السياسة وقراراتها . حول هذا النوع من النشاط يدور جدل ، طرف يقول إن هذا النشاط يجب النظر إليه كانتصار ، ويجب تشجيعه . إنها بداية طريق شاق سعينا طويلا نحو خوض غماره ، وككل بداية يجوز أن تكون ضعيفة أو ناقصة . وإنما



جورباتشوف



نورييجا

كانت نقائصها فنحن سعداء بها ، ونقدر أسباب النقص ونفهمها .

الطرف الآخر لا يقر بهذا المنطق بطلب أن تكون البداية أقوى ، فالشعوب العربية ليست أقل استحقاقا من شعوب أخرى حصلت على حق المشاركة الكاملة ، يقول أيضا إنه يخشى الارتداد عن هذه البداية إلى ما قبلها ، فالبداية المتواضعة لا تقوى على تشكيل مناعات شعبية ضد الارتداد ، بينما البداية [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] ونقصد الأساس .

يقول الطرف الأول ، وكذا [illegible]

أن الحكام [illegible]

[illegible] ليسوا ضد الديمقراطية ، انهم [illegible] حذرون وهذا واجبهم ، بل ومسئوليتهم انظروا إلى الصومال وإلى الجزائر وإلى الصين وإلى يوغوسلافيا وإلى جورجيا وطاجكستان وافغانستان . انها دروس قاسية يجب أن نستوعبها . ما حدث في معظم هذه الدول وغيرها هو أن حكامها تسرعوا وقفزوا فوق البداية المتواضعة المتعقلة . وكانت العواقب مأساوية دفعت الشعوب ثمنها قبل أن تدفعه الحكومات .

أن الغالبية العظمى من شعوبنا العربية في حاجة ماسة إلى تأمين غذائها وسبل عيشها . تنسون أن الدول المتقدمة لم تمارس الديمقراطية الا بعد أن وضعت أسس البناء الاقتصادي ، وحققت الاستقرار السياسي . الشعوب الجائعة تبحث عن اللقمة قبل أن تسعى إلى حرية الكلمة . [illegible] بالتحديد تستشهدون عن جوع الانسان في حرية الكلمة [illegible]

[illegible] من اجتماعات [illegible] ويتقدم فيها [illegible] الديمقراطية جالسين في صالات مكيفة وأمامكم صفوف من زجاجات المياه المعدنية وكئوس من الكريستال أو الزجاج الفاخر . الشعوب تحلم بفتات ما تأكلون ، وأنتم تزعمون أنها تحلم بالكلمة الحرة والمشاركة السياسية .

يرد الطرف الثاني قائلا : ان بيننا وبينكم ، أي بين هذا الطرف وذاك الطرف ، نقطة تستوجب التوضيح . أنتم تنطلقون من واقع أن السلطة القائمة تقترح على

دائرة حوار

الشعب نوعا أو درجة من المشاركة . ولن نناقش هنا الأسباب التى تدفعها أو دفعتها للتقدم بهذا الاقتراح – وهى تقترح وتنفذ وتعتبرون الاقتراح والتنفيذ بداية . هذه السلطة – كما نراها – لا يمكن أن تكون قد تحولت بين يوم وليلة إلى الاعتقاد بسلامة الحل الديمقراطى وبحق الشعوب فى المشاركة . حقيقة ما حدث فى دول كثيرة طرحتوها كأمثلة هو أن حكاما تمتعوا بكل السلطة اقترحوا نوعا من الديمقراطية ، وشرعوا لها . وفى رأينا أن التحول نحو الحرية والديمقراطية لا يمكن أن يتحقق من خلال أجهزة لم تتعود على التعامل مع من يختلف معها فى الرأى أو فى غيره . لذلك حدثت الفوضى التى تتحدثون عنها .

دعونا نحن أيضا نضرب أمثلة ، فى روسيا تحديدا ، وفى حفنة أخرى من الدول التى كان يتشكل منها العقد السوفييتى قبل أن ينفرط ، يوجد حكام كانوا أعضاء فى الحـزب الشـيوعى ، وكانوا قادة فى الحزب . هؤلاء تمرسوا على أبشع صور الاستبداد والقمع وإزهاق الرأى الآخر . هؤلاء أنفسهم يقودون اليوم بلادهم نحو الديمقراطية . انسان مارس عمله السياسى وأتقنه فى إطار الرأى الواحد أو الحزب الواحد ، مطلوب منه الآن أن يمارس عمله ويتقنه فى إطار مختلف تماما. نحن نتابع الجدل الناشب هذه الأيام بين الرئيس الروسى يلتسين والرئيس السوفييتى السابق جورباتشوف ، وهو الرجل الذى وضع بلاده على بداية الطريق نحو الديمقراطية . تابعوا معنا من فضلكم هذا الجدل حول الممارسة الديمقراطية بين قائدين روسيين لم يمارسـاها طوال حياتهما .

من ناحية أخرى ، تتعمدون الفصل بين تأمين الغذاء وتأمين الحرية والديمقراطية . نحن لا ننكر أهمية وأولوية تأمين الغذاء ، ولكننا متأكدون أن تأمين الحرية والديمقراطية هو الإطار الأمثل الذى يتحقق من خلاله تأمين الغذاء والتقدم المادى .

وينقل الطرف الأول الجدل إلى موضوع آخر فيقول أنتم تطالبون بأحزاب سياسية . فلنكن صرحاء ، ولنتحدث بدون حساسية عن قضيتين فقط من بين قضايا متعددة تتعلق بالأحزاب . نحن – وكثيرون غيرنا من علماء السياسة والاجتماع فى الغرب – نحذر من أن تتحول الأحزاب إلى تنظيمات طائفية أو عرقية أو إلى تحالفات قبلية تعيدنا إلى عصر ما قبل قيام الدولة الحديثة ، أو تعرض دولنا الناشئة إلى مخاطر التقسيم والحروب الأهلية . القضية الثانية ، هى قضية ديمقراطية الأحزاب. إن خبرتنا مع الأحزاب السياسية فى العالم العربى تؤكد أن الأحزاب التى قامت

وانفضت ، أو القائمة حتى الآن ، لم يوجد ولا يوجد بينها حزب واحد التزم الديمقراطية فى هياكله واختيار قياداته وتجنيد اعضائه .

ويستطرد هذا الطرف قائلا ، وعلى كل حال مشكلتنا أعقد من أن تكون مجرد مشكلة أحزاب لا تمارس الديمقراطية . المشكلة الأهم هى أن ثقافتنا السياسية فى كل أرجاء العالم العربى لا تتضمن تراثا ديمقراطيا ، ولا تشجع على ممارسة الديمقراطية . فالأسرة لا تمارسها ، والمدرسة لا تلقنها ، والصحف وأجهزة الاعلام لا تحث عليها ، والنقابات ومختلف قطاعات المجتمع المدنى لا تعرفها. فى هذه الحالة تكون مطالبتكم بتسريع التحول نحو الديمقراطية كالمطالبة بتشييد بناء ضخم فوق أساس من القش .

ويرد الطرف الثانى بأن كل ما يطرحه الطرف الأول حول هذه القضايا صحيح ، ولكن المسئول عن هذه القضايا والمتسبب فى تعقيدها هو الحكومات التى رفضت الانفتاح منذ البداية على الديمقراطية . لم تنشر الوعى بالديمقراطية وحقوق الانسان وحرية الرأى ، ولم تدرب مدرسيها واساتذتها على تشجيع حرية النقد وابداء الرأى بين الطلاب ، لم تشجع صحافييها وأعلامييها على عرض مختلف الآراء ، لم تفرض احترام حقوق الانسان فى الحقل وفى المصنع وفى الدوائر الحكومية . ثم أنها أحكمت الحصار حول حركة وأنشطة ومؤسسات المجتمع المدنى . لم تترك جمعية أو رابطة أو هيئة تقوم الا وكبلتها بالقيود والقوانين ، وأخضعتها لرقابة الدولة ، وتعاملت معها كتنظيمات مشكوك فى ولائها وانضباطها . تريد الحكومات أن تتقدم الشعوب تحت اشرافها . تريدها أن تتقدم ولكن لا تريدها أن تنهض أو تتغير .

نحن لا نشكك فى حجم الانجاز على صعيد التقدم المادى . فكثير من دولنا تقدمت فى مجالات الصناعة والتجارة والزراعة والأنظمة المصرفية والمالية . ولكن هذا التقدم لم ترافقه نهضة . والنهضة لن تتحقق من دون مشاركة قطاعات المجتمع المدنى . وفى هذا المجال نقولها صراحة إن الحكومات تواصل تقييد حرية الشعوب فى تكوين الجمعيات الأهلية . بمعنى آخر لم يبذل أى جهد لاعداد التربة الصالحة لاستقبال وتغذية شجرة الديمقراطية . ولا نرى ما يمنع من الاستعانة بالخبرة الأجنبية فى هذا المجال كما نستعين بها فى كل مجال آخر .

ويتواصل الجدل حول الديمقراطية فى العالم العربى بين الطرفين . طرف يدعو للتقدم بحذر على طريق التحول نحو الديمقراطية وطرف يطالب بالقفز فوق مراحل متعددة وتحقيق التحول فورا وشاملا .

ويلتقط الطرف الأول حجج الطرف الثانى واقتراحه الاستعانة بالخبرة الأجنبية لنشر الوعى بالديمقراطية وكأنه

دائرة حوار

كان ينتظرها فيقول إن الطرف الثانى لا يجد غضاضة فى التعاون مع جهات أجنبية ضد وطنه حين يتعلق الأمر بقضية الديمقراطية والمجتمع المدنى . ومن دون التشكيك فى وطنية هؤلاء المتعاونين ، فإننا نريد أن يكون واضحا أن التدخل الأجنبى فى شئوننا مرفوض . فالدولة لها سيادة ، هذه السيادة يجب أن يحترمها المواطن والأجنبى على حد سواء . اختياراتنا ملك لنا . ونحن أدرى بمصالح شعوبنا . يقول الأجانب إنهم أدرى بمصالح شعوبنا حين يضغطون علينا مباشرة أو بواسطتكم فى موضوع الديمقراطية . قولهم هذا زعم باطل وافتراء على الحقيقة والواقع . فالدول الأجنبية لها مصالحها التى توليها الأولوية على مصالح شعوبنا . وإذا تعارضت المصالح فهى لن تتأخر عن أبادة الشعوب أو تشجيع قمعها أو فرض الحصار عليها . الخيار الديمقراطية مقبول ومعقول ، ولكن نحن الذين نختار الوقت المناسب والاسلوب المناسب .

حكوماتنا ليست غافلة عن الأنشطة الأجنبية والعناصر المحلية المتعاونة معها . وليست غافلة عن حجم المبالغ التى تدفع لترويج أفكار ، ونشر مبادىء ، وتشكيل هيئات وجمعيات ليست غافلة عن الجهات والأجهزة الرسمية الأجنبية التى تعقد الاجتماعات وتخطط لاختراق مجتمعاتنا بهدف اضعاف سلطة الدولة ، وتشجيع تيارات معينة أو متنوعة لضرب السلام الاجتماعى والسيطرة على قطاعات المجتمع المدنى . وليست غافلة عن السذج وغير السذج من المفكرين والناشطين سياسيا الذين تستخدمهم هذه الجهات والأجهزة الأجنبية للضغط علينا . ندرك جيدا أننا لا نستطيع الآن المجاهرة برفض هذه التحركات لأن دولنا تمر فى مآزق متعددة ، ولا نريد أن نضيف إلى هذه المآزق مأزقا جديدا أو الاساءة إلى علاقاتها بدول أجنبية . نحن ساكتون على مضض وإلى حين . تقولون إن كلينتون بعد أن وصل إلى منصب الرئاسة الأمريكية سيضاعف من الجهود المبذولة لفرض الديمقراطية . ونحن نقول لكل حادث حديث . ولكن فى كل الأحوال لن نقبل طويلا بخرق سيادة دولنا ، ولن نسمح باحلال الفوضى محل الاستقرار . لن نقبل أن تصبح المنطقة العربية صومالات متعددة .

أما الطرف الثانى فيستخف بهذا المنطق ، وبالأساس الذى تنبنى عليه . السيادة التى يتحدث عنها الطرف الأول فى ذمة التاريخ . نحن نعيش عصرا مختلفا ونظاما عالميا جديدا . لم تعد الحدود السياسية تعنى نفس الشىء الذى كانت تعنيه فى الماضى . المال – عصب العصر الجديد – لا يعرف وطنا أو

صاحبا . وهذه الوطنية التي تتحدثون عنها تبدل تعريفها . لم تعد تعني النضال للمحافظة على أراضي الوطن ضد الغرباء بقدر ما تعني الحصول على حقوق المواطن السياسية . الوطنية بمعناها الرومانسي عفا عليها الزمن . عالم اليوم قرية واحدة كبيرة ، أي وطن واحد . لقد دخلنا حروبا مريرة ، ونشبت حروب عالمية مدمرة ، بسبب الوطنية . فماذا جنينا وماذا جنى العالم سوى الخراب والدمار ؟ . قارنوا بين عصرين : عصر الحروب التي تسببت فيها الوطنية الضيقة والرومانسية الحالمة ، وعصرنا الراهن ، عصر السلام والمحبة والذوبان في نظام عالمي جديد ، مبادئه هي الحق والعدل والديمقراطية . إنه الوطن الجديد الذي يدعونا لتأمينه وحمايته من انفعالات الأوطان الصغرى والوطنيات المتشنجة .

ثم انكم تعيبون علينا التعاون مع جهات وأجهزة رسمية أجنبية من أجل نشر الوعي بالديمقراطية . إننا نتعامل مع جهات وأجهزة أجنبية تتعامل معها أجهزة حكوماتنا . نحن لا نذهب إلى دول معادية لتعاونها أو تعاوننا . نذهب فقط إلى الجهات التي تتعامل معها حكوماتنا . إنها جهات وأجهزة صديقة وحريصة على استقرار دولنا ، فهي تقدم لدولنا مختلف أنواع المساعدات لحماية أمننا وتنشيط اقتصادياتنا . وبالتأكيد لن يكون من مصلحتها التسبب في عدم استقرار يهدد أمن واقتصاديات دولنا .

كثيرون - في طرفكم - يلمحون أحيانا ويصرحون أحيانا أخرى بأن في طرفنا عملاء يعملون لحساب جهات أجنبية . إنه أحد التعبيرات الموروثة عن حكومات لم تكن تثق في نفسها أو في مواطنيها . إن العملاء والوكلاء يقودون في هذه الأيام عملية تحول اقتصادي كبير في معظم الدول العربية . ولا يمكن تحقيق التقدم المنشود إذا تخلت حكوماتنا عن نظام العملاء والوكلاء . فلكل الشركات والمؤسسات العالمية الكبرى عملاء ووكلاء ، هم الذين يروجون لسلعها وخدماتها ، وهم الذين يعقدون الصفقات بين مؤسساتهم وحكوماتهم ، وهم الذين يحددون المواصفات المناسبة للسوق المحلي . ونحن نعتبر الديمقراطية مؤسسة عالمية - ككل هذه المؤسسات - ويشرفنا أن نكون وكلاء وعملاء نخدم مبادىء ومصالح هذه المؤسسة ، ونخدم في نفس الوقت أسواقنا المحلية المتعطشة لهذه السلعة .

نحن نحاول تنشيط المجتمع المدني لكي يتحمل بعض الأعباء ، ويخفف معاناة المؤسسات الحكومية . لا نهدف إلى إضعاف الدولة وإن كنا نتمنى أن تتخلى الدولة عن بعض المسئوليات وتقلل من حجم تدخلها في الحياة الاقتصادية والاجتماعية للشعوب . فمن أهداف العصر الجديد الذي رحبتم به تماما كما رحبنا ، تشجيع المبادرات الفردية والاستثمارات الخاصة

وحرية الناس فى اختيار ما يحلو ويروق لهم أداؤه من أنشطة . نريد أن تقوم الشعوب بتنظيم حياتها وأسلوب معيشتها دون تدخل من السلطة السياسية . وشعوبنا قادرة على تنظيم شئونها وراغبة فى أن تثبت أنها متمدينة ومتحضرة تماما كشعوب غرب أوربا وكالشعب الأمريكى .

نعرف أن الحكومات غير غافلة عن جهودنا واتصالاتنا ، والفضل يعود إلينا . فنحن لا نعمل فى الخفاء . نستأذن المختصين فى حكوماتنا قبل القيام بأى نشاط صغير أو كبير . ونجتمع ونحاور ونناقش ونروج بتراخيص منها ، وندعوها للمشاركة وتستجيب . نعمل من أجل هدف جليل . ونعمل فى إطار وفى حماية مبادىء سامية ، هى مبادىء العصر الجديد . ونتعامل وفق قواعد وأساليب حديثة ، وهى أيضا من الأساليب التى استحدثها العصر الجديد ، نحن حملة مشاعل هذا العصر الجديد . وهو عصر يعلم الجميع أنه لن يتوقف فى انتظار من يتخلف عن مبادئه ولا يطبق أساليبه . لقد اخترنا أن نكون فى منطقتنا رمحـــا من رمـــاح العصر الجديد ، ودرعا تحميه .

تضربون بتكرار مثال الصومال . ونحن نضرب بتكرار مثال العراق . لو أن الديمقراطية وجدت فى العراق لما فعل حكامه الديمقراطيون ما فعله حكامه غير الديموقراطيين ، ولما حصل لشعبه ما حصل . ونحن - وأصدقاؤنا الأجانب - حريصون ألا يتكرر مثال العراق فى دولة عربية أخرى .

ومن الطرف الأول جاء الرد خافتا ، يقول هذا اختياركم ولنا اختيارنا . نعم رحبنا بالعصر الجديد ومبادئه ولكن اكتشفنا بعد قليل أنه شىء مختلف عن الشىء الذى قدموه لنا . لكم مصالح نعرفها ولنا مصالح تعرفونها . نحن ننتقى ما نشاء ويتناسب مع ظروف شعوبنا ومجتمعاتنا ، وأنتم تنتقون من الأفكار والمبادىء والأساليب ما تشاءون ويتناسب مع ظروفكم ومصـالحكم وأهـــداف أصدقائكم . تتحدثون عن انتهاء عصر الوطنية والسيادة ، ولكنكم لا تقرأون ولا تتابعون الجدل الدائر فى أوربا الغربية حول معاهدة ما ستريخت ، وخطاب جون ماجور فى برايتون عن الوطنية والسيادة ، وتصريحات وخطب بوش وكلينتون عن فهمهما للوطنية وضرورة إيقاظها فى أمريكا ، أى أنه فى أوربا كما فى أمريكا الوطنية كمفهوم رومانسى تنتعش . فأما أنكم لا تقرأون ولا تتابعون ، أو كما قلنا تنتقون ما يناسب ظروفكم ومصالحكم وأهداف أصدقائكم عندنا . كل ما نأمل فيه أن تكون شعوبنا ومصالحها واستقرارها ونهضتها المصدر الرئيسي والمرجع الوحيد لابداعاتكم وابداعاتنا على الطريق نحو الديمقراطية .

ويستمر الجدل ....

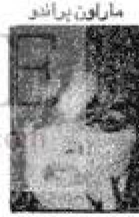
أقوال معاصرة



يلتسين



مارلون براندو



مادونا

● «القاهرة تنتحر معماريا لأننا نبنى أقبح ما يمكن»

د. عبد الحليم ابراهيم

الفائز على جائزة الاغاخان فى المعمار

● «الخروج عن القطيع عزاء الحداثيين الوحيد»

الشاعر العمانى سيف الرحبى

● «البحث العلمى عشقى الوحيد»

د. فوزى حسين حماد

رئيس هيئة الطاقة الذرية

● «ليس لدى وطن غير الخيال»

ديريك والكوت

الفائز بجائزة نوبل للآدب (١٩٩٢)

● «النظام العالمى الجديد - قديم جداً»

رينيه دومور

مؤسس عالم حماية البيئة فى فرنسا

● «التمثيل مهنة تافهة، غير مفيدة»

مارلون براندو

الفائز بأوسكار أفضل ممثل مرتين

● «انقسام الأمة العربية يحول من صياغة حضارة جديدة ذات بعد عالمى إنسانى»

المستشرقة الالمانية ليزلى ترامر فيتش

● «علينا ألا نلعن الآخر أو نحاكمه لمجرد أنه مختلف عنا»

المغنية مادونا

● «يمكنك أن تبنى عرشا بواسطة الحراب، ولكن لا يمكنك الجلوس عليها طويلا»

رئيس جمهورية روسيا بوريس يلتسين

دائرة حوار

تعقيب على مقال

مستقبل الثقافة في مصر تفاؤل .. أم تحد ؟

بقلم : د. محمد رجب البيومي

أحسنت مجلة الهلال حين أصدرت عدد أكتوبر الماضي حافلا بمختارات جيدة تمثل وجهات النظر المختلفة في شتى أمور الثقافة والفكر والفن ، وكنت قرأت أكثر هذه المقالات في أزمنتها المختلفة ، ولكن قراءتها مجتمعة في هذا العدد الممتاز كانت ذات مذاق جديد عندي ، على أني توقفت عند مقال للدكتور عبد العظيم أنيس تحت عنوان (مستقبل الثقافة في مصر . تفاؤل أم تحد) يحتمل أن يكون موضع نقاش هادف ، ولم أكن قرأته حين صدر سنة ١٩٨٢ في أحد أعداد الهلال ، ولكن تكرار نشره ، ضمن له ذيوعا جديدا فوق ذيوعه السالف ، وفيه من الآراء ما يتعلق بإنصاف إمام كبير من أئمة المسلمين في هذا العصر الحديث، تحدث عنه الأستاذ الدكتور عبد العظيم أنيس بما أراه مخالفاً وجه الحقيقة السافرة، ولن يكون نقاشي معه في قضايا فكرية تحتمل وجهات النظر المختلفة بحيث يكون لكل فكرة توجيهها المعقول ، ولكنه سينحصر في وثائق ملموسة لا سبيل إلى إنكارها وهي وحدها التي تفصل بين الصحيح المعقول ، والخطأ المرفوض .

الشيخ مصطفى المراغى



د . عبد العظيم أنيس



لقد تحدث الدكتور الفاضل عن الإمام الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر ثلاث مرات فى مقاله فقال عنه أولا

« وعادت وزارة الائتلاف السياسية بزعامة محمد محمود رئيس حزب الأحرار الدستوريين بانتخابات زائفة ، قاطعها الوفد ، وشنت على الوفد آنذاك حملة باسم الدين ، قادها الشيخ المراغى فى أحاديثه الدينية التى كان يحضرها الملك فى المساجد »

والذين حاربوا الوفد حينئذ لم يحاربوه باسم الدين ، كما توهم كاتب المقال ؛ لأن زعيم الوفد صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا كان من صفوة المسلمين الذين لا تتطرق أدنى شبهة فى غيرتهم الإسلامية ، وتمسكهم بالرفيع الأعلى من خلق الإسلام ، يعرف ذلك عنه عامة الشعب وخاصته ، فمحاربة الوفد باسم الدين لغو صبيانى لا يصح على ذهن عاقل وإنما حورب الوفد باسم السياسة التى تنحو منحى يخالف اتجاه الوفد ، وإذن فما دخل الدين فى هذا الموقف ؟

أما أن الإمام المراغى قد قاد الحملة فى أحاديثه الدينية التى كان يحضرها الملك فى المساجد ، فهذا ما ينكره الواقع الصريح ؛ لأن أحاديث المراغى الدينية مسجلة بمجلات الأزهر ، وقد جمعتها دار الهلال فى سلسلة كتاب الهلال بالعدد

دائرة حوار

الصادر تحت رقم ١٤ بالسنة الثانية من صدور سلسلة كتاب الهلال ولا يقول أحد إن الأحاديث قد هذبت ، لأنها نشرت حرفيا بمجلات الأزهر في السنوات :

١٣٥٦ هـ ، ١٣٥٧ هـ ، ١٣٥٩ هـ ، ١٣٦٠ هـ ، ١٣٦١ هـ ، ١٣٦٢ هـ ، ١٣٦٣ هـ ، ١٣٦٤ هـ على التوالي إذ كان شهر رمضان المبارك خاصا بهذه الأحاديث ، وقد جمعها الأستاذ رشاد المراغي نجل الإمام دون تصرّف ، وأنا أتحدى من يذكر أن سطرا واحدا من هذه الأحاديث تضمن هجوما على الوفد ، والإمام المراغي أول من يعرف معنى قول الله عز وجل « وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدا » فكيف تكون أحاديث إمام المسلمين في أطهر بقاع الأرض ، مجالا لمحاربة حزب سياسي ، وتأييد حزب آخر ! وممن ؟ من إمام المسلمين !

وأنا أعرف أن الدكتور عبد العظيم أنيس لم يقرأ ، هذه الأحاديث ، ولو قرأها لعرف أن بعضها قد أحدث دويا هائلا في القصر الملكي استنكارا ولوماً ، فقد تعرّض الإمام في الدرس الذى ألقاه في رمضان سنة ١٣٦٣ هـ إلى تفسير قول الله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) فقال في تفسير معنى أولي الأمر «أنهم أهل البيئة من العلماء والفقهاء والأمراء الذين يمثلون الأمة الإسلامية تمثيلا صحيحا بعيدا عن الهوى والغرض ، ومن سائر المؤثرات ويمثلون طوائفها المختلفة فهم أصحاب الكفاية في الرأي والتشريع وأهل الدربة بمصالح الأمة وما يوافقها» هذا ما قاله المراغي بلفظه في تفسير معنى ولي الأمر ، وبحضور الملك وحاشيته ووزرائه وسيجده الدكتور أنيس منشورا بكتاب الهلال ! فهل كان المراغي بمثل هذه الآراء الصائبة يدعو إلي تأييد الملك في مساجد الله ! إننا ننقل عن وثائق مكررة ، ولسنا نلقي الكلام كما اتفق ، وبدون أدنى دليل !

على أن التاريخ لا ينسى موقف الإمام المراغي أثناء الحرب العالمية الثانية حين قال في خطبته الرنانة بمسجد الحسين ، إننا نصطلي حربا لا ناقة لنا فيها ولا جمل ! وقد هاج السفير البريطاني اللورد كليرن ، وطلب من رئيس الوزراء حسين سري أن يصلح المراغي خطأه فيعلن أن مصر مع انجلترا ، ومصلحتها في مصلحتها ، واتصل كبير الأمناء بالقصر مؤيداً طلب رئيس الوزراء ، ولكن المراغي صرخ في وجه سرى ، وقال له : أنا شيخ الاسلام ، وأعرف ما أقول ، ورفع السماعة دون انتظار ، فهل يكون هذا الموقف الرنان تأييدا للقصر ودعوة لحزب الأحرار ؟!

ثم يقول الدكتور عبد العظيم أنيس في مقاله : « وعندما طرح الشيخ المراغي فكرة تتويج الملك فاروق بالقلعة ، وأن يأخذ سيف جده محمد على ثم يؤم الحاضرين للصلاة كإمام للمسلمين ، عارضت حكومة الوفد بشدّة هذا الاقتراح » .

وهذا كلام لا أصل له إطلاقا ، فالإمام المراغي لا شأن له بالقلعة حتى يدعو إلى تتويج فاروق بها ، كما أنه لا يفكر في سيف محمد على حتى يحرص على أن يتقلده فاروق ، ثم إنه كان يؤم فاروقاً في كل مرة يصلي بها في الأزهر ، وما رآه أهلا للإمامة في مرة من المرات ! فكيف يقترح هذا ؟ .

إن الذي دعا إلى التتويج بالقلعة ، وحمل سيف محمد على هو ولي العهد حينئذ الأمير محمد على حفيد مؤسس العائلة ، وهي حقيقة تاريخية ، قررها الأستاذ محمد التابعي في كتابه (من أسرار السياسة المصرية) الذي صدر في سلسلة كتاب الهلال بتاريخ فبراير سنة ١٩٧٠ فقال ما نصه ص ٦٧ :

«وكانت حكاية القلعة ، وسيف محمد على الذي يقدمه شيخ الأزهر إلى فاروق ، ووقوف أمراء أسرة محمد على في صفين يرتدون ثياب الإمارة .. كانت هذه تقليعة من تقاليع الأمير محمد على رئيس مجلس الوصاية ، وقد أفضى بها إلي صحفي يعمل في جريدة الأهرام ، فنشرها وغذاها ، وتولى الدعاية لها ، وكبرت الفكرة في رأس الأمير محمد على وبقية الأمراء ، ولا أعرف هل كان الأمير محمد على كتب إلى فاروق بهذا الموضوع ، أم أن فاروقاً قرأ الموضوع بجريدة الأهرام فطابت له الفكرة ، وكانت الصحف والمجلات ترسل من مصر بالطائرة وبانتظام لفاروق وكان سكرتيره الخاص دكتور حسنى يقرؤها ويعرض عليه مايرى وجوب عرضه ! أما أنا فقد كان ذهني خاليا تماما من الموضوع لأني لم أطلع على صحف مصر ! حتى صحيفة المصرى التي كنت يومئذ أحد أصحابها »

فإذا كان الأمير محمد على في حاجة إلى إثبات رئاسة أسرته ، وتأكيد تاريخها منذ تولّى جده الأكبر حكم مصر فاقترح ما اقترح ! فما دَخْل المراغي حتى يزج به زجاً في أمر لم يشهده ! نعم إن الأمير قد اقترح أن يقوم شيخ الأزهر بتقديم السيف إلى الملك ، أيكون هذا الاقتراح دليلا على أن المراغي هو صاحب الرأى ! وأنّه يتمنى حدوث ما زعم الأمير ! ؟

لقد اقيمت حفلات التتويج في الجمعيات والهيئات المختلفة من علميّة وسياسية وأدبيّة ، وكان على الأزهر أن يحتفل بما احتفلت به الهيئات جميعها ، فألقى الإمام خطبة مناسبة ، ثم دُعي مع كبار رجال الدولة وفي طليعتهم الرئيس الجليل مصطفى النحاس زعيم الأمة

الحقيقى إلى تناول الطعام بعابدين ، فانتهز الامام المراغى هذه المناسبة وألقى خطبة قال فيها ، والملك يسمع ، ووزاؤه صامتون «مولاى ، أذكركم بحقوق الله سبحانه ، وبحقوق عباده ، فلله حق الطاعة فيما أمر ونهى، وحق العمل بما بيّن وهدى، وللرعية حق العدل بينها ، وتوفير الخير لها وإسعادها ، وفى الحديث الصحيح «مَن ولاّهُ الله عز وجل شيئا من أمر المسلمين ، فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم ، احتجب الله عنه، ومن حقوق الله يامولاى حمل الرعيّة على الاعتصام بالكتاب والسنة ، وإرشادها إلى الأعمال النافعة الموصلة إلى عزة الأمة ورفعة شأنها ، فقد حرص الإسلام أشد الحرص على العزة ، ولا يوجد فى تعاليمه ما هو أشد من هذه التعاليم ، ولايوجد فى غيره من المذاهب ما يقرب منه فى الحرص على هذه التعاليم »

هذا بعض ما قاله الإمام فى حفلة الترحيب بعابدين ، بمسمع من الملك والوزراء والأمراء ، وقد نشرته مجلة الأزهر فى عدد جمادى الأولى سنة ١٣٥٦ ، وقدم الأستاذ محمد فريد وجدى رئيس تحرير المجلة لخطبة الإمام المراغى بقوله ص ٣١٤ .

« تقدم فضيلة الأستاذ الإمام ، وألقى بين يدى جلالة الملك كلمة جمعت على إيجازها من أصول ولاية الأمر فى الإسلام وحقوق الرعية على راعيها ما يجب على قيّمّ الدين أن يجهر به ، وهذا تجديد وفق الله إليه الأستاذ الإمام تنويها بمكان الدين من مقومات الملك ، وقد ابتكر لهذا التنويه أسلوبا يلائم كل الأذواق ، ويتفق مع جميع التقاليد الدستورية » .

أفبعد هذا كله ! تلصق بالرجل الكريم ما هو براء منه ! وقد قال فى مناسبة التتويج أجرأ ما يمكن أن يقال ؟!

أما حفلة القلعة التاريخية ، فلم يكن شيوخ الأزهر بها إلا زعماء الشعب وقادته ، لأنهم الذين قاوموا سطوة المماليك فى أحداث مشهورة تحدث عنها الجبرتى بإفاضة ، فذكر ما فعله الصعيدى والدردير وسليمان المنصورى وعبد الله الشرقاوى فى ردع الطغاة ، ورد المظالم إلى أصحابها ، ثم أنهم كانوا زعماء مصر فى مقاومة الحملة الفرنسية ولاقوا من الاضطهاد ما عرّضهم للقتل حينا ، وللسجن والضرب والمصادرة حينا آخر ، حتى كشف الله البلاء ، وذهب الفرنسيون ، واستأسد الوالى والمماليك بعد خنوع ، فرأى هؤلاء الزعماء أن ينتخبوا أكفأ من رأوه صالحا للولاية ، وبايعوه بالقلعة بيعة دستورية لأنهم زعماء الشعب وترجمان عواطفه ، والمنصفون من المؤرخين كالرافعى وفريد أبو حديد وشفيق



الملك فاروق .. في صحن الجامع الأزهر

دائرة حوار

غربال قد عرفوا لشيوخ الأزهر والسيد عمر مكرم بلاءهم المشكور ، فليست هذه الحقلة مظنة تآمر من العلماء ، ولكنها اجتهاد صائب فى إنقاذ البلاد ، وقد سجل التاريخ أن محمد على - على رغم جبروته - كان مؤسس مصر الحديثة ، وأنها انتقلت على يده من هبوط إلى صعود فالذين يكتبون التمثيليات التافهة ليضائلوا من كفاح العلماء فى القرن الثامن عشر خادعون أو مخدوعون .

لنرجع ثانية إلى حديث الإمام المراغى، فنقول إنه كان صديقا حميما لرئيس الأحرار الدستوريين محمد محمود باشا ، كما كان مجاهرا بخصومة مصطفى النحاس باشا ، وقد دعاه الأزهريين إلى مناصرة زعيم الأحرار ، وقد يكون مخالفا للأغلبية فى اتجاهه، وهو ما أخذه به بعض الكاتبين أنفة من أن يكون شيخ الأزهر لفريق دون فريق ، ولكن هذا التحيز لزعيم الأحرار الدستوريين شئ ، والقول بأنه كان يتخذ الأحاديث الدينية فى المساجد وسيلة لمحاربة الوفد باسم الدين شئ آخر، والفرق بينهما فرق ما بين السماء والأرض .

ونأتى إلى الزعم الثالث وهو قول الدكتور عبد العظيم أنيس «إن المراغى كان يتحدث أمام الملك فى أحاديثه الدينية عن الثعالب الذين ركن الإسلام إلى مودتهم وهم يدعون إلى غير هذه المودة ، وكان يقصد الأقباط بهذا ، نأتى إلى هذا الزعم فنقول إن من حسن حظ المراغى وسوء حظ خصومه أن أحاديثه الدينية مسجلة من ألفها إلى يائها ، وقد نشرتها دار الهلال فى سلسلة (كتاب الهلال) وليس بها هذا الافتيات الصارخ ، وإذا كان الدكتور أنيس لا يستطيع العثور على مجلات الأزهر ، لأنه لا يحب أن يزور مكتبة المجلة ، فليقرأ هذه الأحاديث فى كتاب الهلال ، وليحضر لنا هذه العبارة التى لا يعقل أن تصدر من عالم مسلم فضلا عن إمام العلماء !! إن حديث مودة الأعداء قد جاء فى سورة الممتحنة التى ابتدأها الله بقوله « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة ، وقد كفروا بما جاءكم من الحق ، يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ، إن كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى ، وابتغاء مرضاتى تسرون إليهم بالمودة ، وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ، ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل » وقد نزلت الآية فى حاطب بن بلتعة حين راسل المشركين بمكة يخبرهم بزحف المسلمين إليهم ، وهو صحابى شهد بدرا ، وكان عليه ألا يلقى بالمودة لقوم حاربوا المسلمين وأخرجوهم من ديارهم ، وكفروا بما جاءهم من الحق ، بهذا قال جميع المفسرين ، وربما قاله الإمام المراغى فى حديث دينى غير

أحاديث رمضان إن صحت رواية الدكتور أنيس ، وإذن فالمراد بالأعداء هم المشركون بمكة ، ففى أى تصور يعقل أن يكون الأقباط هم المعنيين !! وإذا عقل بطريق التحكم المتبعث عن الغرض ، فليكن هذا أيضا تصور أعلام المفسرين من أمثال الطبرى والنيسابورى والزمخشرى والقرطبى الذين لم يزد المراغى فى قوله عما قالوه ! ولنحاول أن نلصق بهم عداءهم للأقباط ليصح استنباط الدكتور أنيس ..

على أن مقالات المراغى عن التسامح الدينى فى المجلات المختلفة تنبئ عن شعوره القوى بضرورة الإخاء العالمى بين معتنقى الأديان جميعا ، وفى العدد الممتاز من مجلة الهلال الذى صدر فى يناير ١٩٣٩ خاصا بقضايا العروبة والاسلام ، كلمة رائعة للإمام المراغى تحت عنوان «الإسلام والإخاء الإنسانى» تحدث فيها عن غريزة التدين لدى الإنسان ، ودعا رجال الدين فى كل ملة أن يعملوا على الوفاق ، وأكد أن القرآن الكريم قد طلب إلى المسلمين إحسان معاشرة غيرهم من أهل الأديان ، كما أباح الإصهار إلى أهل الكتاب ، وقد صدر لى فى سلسلة كتاب الهلال بتاريخ مارس سنة ١٩٨٣ كتاب بعنوان «الأزهر بين السياسة وحرية الفكر» تحدثت فيه عن بعض جهود المراغى فى الإخاء العالمى تحت عنوان (الأزهر والسلام الدينى) ولست فى حاجة إلى أن أعيد ما قلت ، ليرجع إليه من أراد .

وكانت خاتمة المطاف لدى الدكتور أنيس حديثه عن «الإخوان المسلمين» فقال إنهم رجال الملك فحسب ! وقد طالبوا بوقف الدستور وحل الأحزاب وتقييد الصحافة باسم الاسلام !! أما أنهم رجال الملك فإن الناس جميعا يعرفون أن الملك هو الذى حل جماعة الإخوان في المرة الأولى ، وأنه الذى قتل الإمام الشهيد حسن البنا رئيس الجماعة ! فكيف يحل الملك جماعة رجاله ، ثم يثنى بقتل إمامها !! أليس هذا تفكيرا مدهشا ! وإذا كانت جماعة الاخوان قد طالبت بوقف الدستور، فهذا من صميم رسالتها لأنها تدعو إلى حكم القرآن ، وقد جعلت شعارها « القرآن دستورنا » وإذن فقد حاربت دستور الأرض حرصا على دستور السماء ، وقد عمت دعوتها الآن بين الخاصة والعامة ، بين الخاصة لدى أساتذة الجامعات ، جميعها - لا جامعة الأزهر فحسب - وبين أعضاء النقابات المرموقة فى مصر ، وبين العامة من العمال والفلاحين والتجار ، والأحزاب السياسية الآن تتقرب إلى الشعب بحمد الشريعة الإسلامية - صدقا كان أو كذبا - فهل يكون إلغاء الدستور الأرضى جريمة ، ولا يكون لجماعة مستنيرة أن تشرئب إلى دستور عادل لا شك فيه ! أما دعوة الإخوان إلى تقييد الصحافة فهذا مالم أسمع به إلا من الدكتور أنيس ، ولن يملك عليه أى دليل .

كان .. ياما كان :

العلاقات المصرية - الأمريكية فى القرن ١٩،

إسماعيل باشا يهدد مبدأ « مترو » ثم يستعين ببعثة عسكرية أمريكية !!

بقلم : د. حسن بكر *

تعود جذور العلاقات المصرية - الامريكية الى ثلاثينات القرن التاسع عشر، ومنذ ذلك التاريخ وحتى اليوم جرت مياه كثيرة تحت جسر هذه العلاقات، بعضها كان ثائراً هادراً ، وبعضها الآخر كان لينا وديعا، ويمثل الربع الأخير من القرن الماضي حقبة غنية بالوقائع النادرة التى لم [illegible] عنها الستار بعد، لعل أشهرها على الاطلاق زيارة الجنرال جرانت (١٨٢٢ - ١٨٨٥) بطل الحرب الأهلية الأمريكية والرئيس الثامن عشر للولايات المتحدة الى مدينة اسيوط فى صعيد مصر، والى القنصلية [illegible] كانت موجودة فيه [illegible] [illegible] الأمريكية التى [illegible] [illegible] على وجه التحديد - فى [illegible] طويلة عبر النيل.

* قسم العلوم السياسية - جامعة أسيوط



بريطاني يمثل أمريكا

تعود العلاقات الدبلوماسية بين مصر وامريكا الى توقيع المعاهدة الامريكية التركية التجارية فى ٧ مايو ١٨٣٠، وقد اصبح بمقتضى هذه المعاهدة الحق للولايات المتحدة فى انشاء قنصليات فى عموم أرجاء الامبراطورية التركية ومنها مصر. وقد عينت الولايات المتحدة اول قائم للاعمال لها لدى الباب العالى فى ١٥ ابريل ١٨٣١ واصبح لديفيد بورتر الحق فى تعيين وكلاء له فى المدن الهامة الخاضعة للحكم العثمانى.

ومن غرائب الوقائع ان يجيء تعيين أول وكيل قنصلى لبورتر فى مدينة الاسكندرية حاضرة الدولة العثمانية واهم مدينة مصرية على شاطىء البحر الابيض المتوسط فى عصر ولاية محمد على الكبير مؤسس مصر الحديثة وذلك فى يوم ١٢ يناير ١٨٣٢ وكان الوكيل القنصلى فى الحقيقة تاجرا بريطانيا يدعى جون جليدون John Gliddon ، ومع ازدياد اهمية مصر الاقتصادية وتصديها للباب العالى ووقوف الولايات المتحدة على الحياد فى هذا الصراع ارسلت امريكا عام ١٨٣٤ «ويليام هودجسون» لاستطلاع الموقف الاقتصادى والسياسى فى بلاد النيل. وجاءت توصيات هودجسون مؤكدة لشيء واحد وهو ضرورة رفع التمثيل مع مصر فى الاسكندرية من منصب الوكيل القنصلى الى منصب القنصل الامريكى عام ١٨٣٥ وتم تعيين جون جليدون مرة اخرى قنصلا لامريكا ولما توفى عام ١٨٤٤ قامت الولايات المتحدة بتعيين زوج ابنته الكسندر تود Alexander Tod البريطانى الجنسية ايضا محله عام ١٨٤٨.

قنصل عام أمريكي

تعتبر وظيفة القنصل العام أعلى رتبة من وظيفة القنصل ولذا لم يكن للقنصل الممثل لامريكا القدرة على خدمة الحكومة الامريكية فى نفس مستوى القناصل العموم للدول الاخرى ذات النفوذ فى مصر. ولما كان المواطنان الممثلان للولايات المتحدة بريطانيين، فان القنصل البريطانى العام وضعهما تحت وصايته من الناحية الفعلية وفى ١٠ اغسطس ١٨٤٦ كتب وزير الخارجية الامريكية رسالة مطولة الى الكونجرس يحث فيها على رفع درجة القناصل الدبلوماسية الى قناصل عامين وقال فى ختام رسالته: ان قنصلنا فى الاسكندرية محروم من الحصول على اية امتيازات لسبب بسيط هو انه لا يحمل لقب

القنصل العام، وبالفعل قبل الكونجرس الامريكى توصيات وزير خارجيتها، لذا بدأت الولايات المتحدة بعد عام ١٨٤٨ مرحلة اكثر نشاطا وفاعلية فى تمثيلها الدبلوماسى فى مصر اذ رفعت مرتبة قنصلها فى الاسكندرية الى قنصلية عامة وعينت فى منصب القنصل العام خلال الفترة من ١٨٤٨ - ١٨٦٠ امريكيين هما دانيل ماكولى Daniel S. Macaully وادوين دى ليون Edwin De Leon

سعيد يهدد مبدأ مونرو

بعد استقرار العلاقات الدبلوماسية التى اخذت شكلا معينا خلال الربع الاخير من القرن التاسع عشر وبالذات فيما يتعلق بموضوع الشرف الوطنى كان لكل من ماكولى ودى ليون اساليبهما الحادة فى الربط بين الاعتداء على اى مواطن امريكى بل واحيانا غربى واهانة «الشرف الوطنى» الامريكى، ولم يكن ذلك باى حال من الاحوال ليشير الى تمزق العلاقات المصرية - الامريكية بقدر ماكان ذلك يعكس دبلوماسية القرن التاسع عشر التى كانت تستخدم تعبيرات مبالغا فيها بين جميع الدول فى كل ما يتعلق بالشرف الوطنى والتهديد باستخدام القوة لتحقيق ذلك والدفاع عنه.

تلى ذلك وقوع الحرب الاهلية الامريكية بين الشمال والجنوب، لتمكس الثورة الثانية فى التاريخ الامريكى بعد حرب الاستقلال. وبالرغم من ضآلة العلاقات التجارية المصرية - الامريكية فإن العلاقات السياسية تحسنت بشكل كبير بسبب موقف الحياد الذى وقفته مصر بل واحيانا المساندة للولايات المتحدة فى مواجهة القوات الكونفيدرالية (الجنوبية). ولكن عكر صفو هذه العلاقات مانمى الى علم الولايات المتحدة بقيام مصر بارسال قوة مصرية - سودانية مشتركة قوامها ٥٠٠ جندى فى شهر مايو ١٨٦٣ الى المكسيك (المجاورة للولايات المتحدة) بناء على طلب نابليون الثالث والمشاركة فى الخدمة العسكرية مع القوات الفرنسية هناك.

وقد غضبت الولايات المتحدة لهذا التصرف من خديو مصر لانه يعد انتهاكا صريحا لمبدأ «مونرو»، خصوصا ان القوة المصرية ذهبت الى المكسيك فى اطار تدخل اوروبى عام يهدد النفوذ الامريكى فى هذه المنطقة شاركت فيه بريطانيا واسبانيا وفرنسا، ثم انتهى الامر الى بقاء فرنسا وحدها فى المواجهة، ويقوم مبدأ مونرو (الذى ظهر الى العلاقات الدولية عام

١٨٢٣ عندما وجه الرئيس الامريكى مونرو رسالته الى الكونجرس بشأن القارتين الامريكيتين)، يقوم هذا المبدأ على منع الاستعمار الأوروبى من السيطرة على امريكا الشمالية أو الجنوبية، وفى نفس الوقت اعتبار اية محاولة اوروبية عدوانية على ايهما مجافاة للصداقة مع الولايات المتحدة.

على انه وبسبب ظروف الحرب الاهلية الامريكية لم يتقدم الامريكيون باحتجاج رسمى، ولكن الباب العالى وبريطانيا اعتقدا بوجود صفقة سرية ربما يكون قد عقدها الخديو سعيد مع نابليون الثالث ليعاون الاخير الاول فى حصول مصر على استقلالها وان ارسال القوات المصرية كان جزءا من هذه الصفقة. وقد تم حل الازمة وديا آنذاك عندما قدم سعيد باشا اعتذارا رسميا وعد فيه بعدم تكرار ذلك مستقبلا.

حقيقة ان اسماعيل باشا - بعد ذلك - ارسل ٩٠٠ جندى الى المكسيك فى اغسطس ١٨٦٥، ولكن هذه العملية جرت بصفة علنية اذ ابلغ وكيل والقنصل عام الولايات المتحدة فى الاسكندرية بها مقدما وكانت حجة الحكومة المصرية ان هذه القوات لا تتعدى كونها استبدالا للقوات الموجودة فعلا فى المكسيك، ولذا فهى تعتبر جزءا من الاتفاق الاصلى مع الفرنسيين. الا ان الولايات المتحدة احتجت هذه المرة وبشدة على اساس قانون محاربة الرق فيها والذى كان من نتـــاج الحـــرب

الامبراطور نابليون الثالث



الاهلية، وقد استمرت المشكلة قائمة حتى انسحبت فرنسا من المكسيك عام ١٨٦٧، وعادت القوة المصرية - السودانية الى مصر فى مايو فى نفس العـــام وانتهت المشكلة ودبا دون توتر كبير فى العلاقات بين الولايات المتحدة ومصر.

جيمس مونرو رئيس امريكا سابقا



أول بعثة عسكرية

كان ضمن انجازات اسماعيل باشا السعي لبناء جيش مصرى قوى وحديث وقد خالف فى ذلك المفاهيم التقليدية الجيش المصرى آنذاك فبدلا من الاستعانة بالخبرة العسكرية الفرنسية فانه اتجه الى الامريكيين واستخدم ضباطا امريكيين هم نتاج الحرب الاهلية سواء كانوا فيدراليين او كونفيدراليين. ومن الواضح انه كان للخديو اسماعيل اسبابه فى ذلك منها تأثره بشجاعة ومهارة واستراتيجية ذلك المارد الغربى الصغير الصاعد فى العالم، اضف الى ذلك ان انسحاب نابليون الثالث السريع من المكسيك عام ١٨٦٧ اظهر الاحترام الجديد للقوة الامريكية، ثم ان الخديو كان ميالا الى الامريكيين لغياب اية ادلة او نوايا اقليمية تستهدف مصر من قبل الولايات المتحدة. وفى كلمة الترحيب التى قابل بها اسماعيل باشا مجموعة الضباط الامريكيين الاولى تحدث بعبارات حذرة عن طموحه نحو الاستقلال عن

تركيا، «انني ارحب بكم ايها السادة في بلدي.. واقول لكم بثقة تامة ان خبرتكم في الحرب الاخيرة مع الولايات في امريكا وعدم وجود مطامع امريكية في مصر كانت الدوافع التي اوحت لي باستخدام الامريكيين لتلك الخدمة المقترحة».

وقد بلغ عدد من خدم من الضباط الامريكيين في مصر ٥٥ ضابطا خلال الفترة من ١٨٦٩- ١٨٨٢ ما بين فيدرالي وكونفيدرالي وكان الغرض من استخدامهم بالاضافة الى اعادة تنظيم الجيش المصري على اسس حديثة، التجهيز للقيام بضربة قوية ضد الدولة العثمانية للحصول على استقلال مصر. وقد حلف هؤلاء الضباط جميعا يمين الولاء للخديو قبل الدخول في خدمة الجيش المصري واعتبروا خارجين عن خدمة الجيش الامريكي.

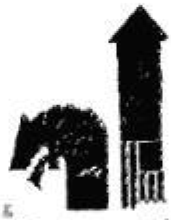
وقد ادى هذا التصرف الى غضب واستياء القوى العظمى الاخرى على الساحة الدولية آنذاك. ويظهر ذلك واضحا في ردود افعال تركيا وبريطانيا وفرنسا. وسعت الاخيرتان بكل الطرق والوسائل لطرد الضباط الامريكيين من خدمة الخديو دون تقديم اية احتجاجات رسمية لواشنطن، دون جدوى حتى واتتهما فرصة القيام بالمراقبة الثنائية على احوال الجيش المصري فقامتا بتسريحهم جميعا عدا الجنرال «ستون» والكولونيل «ماسون» بحجة خفض نفقات الحكومة المصرية وذلك في يونيو ١٨٧٨. ولقد كان الخديو الطموح ينفق اكثر من امكانياته واصبح في آخر الأمر مفلسا عام ١٨٧٦ مما كان له اكبر الاثر في انشاء الرقابة المالية الانجليزية- الفرنسية على احوال الحكومة المصرية.

اليانكي في جيش الخديو

من الواضح انه لا في مصر ولا خارجها حظيت البعثة الامريكية غير الرسمية بالترحيب فقد انذر الخديو اسماعيل بنفسه خبراءه الجدد بأنهم قد يواجهون غيرة كبيرة بين ضباط الجيش المصري، وثبتت صحة هذا الانذار عندما وجد هؤلاء

الامريكيون مقيدين نتيجة هذا العداء فقط باداء اعمال اركان الحرب والاعمال الفنية الى حد كبير. كما نتج عن احتكاكات الامريكيين ببعضهم كفيدراليين وكونفيدراليين خارجين من الحرب الاهلية، احداث جمة منها تآمر الجنوبيين على طرد الجنرال «موت Mott» الشمالي مما دفع الخديو الى اعفائه من الخدمة كقائد ميداني فقدم استقالته من الخدمة علاوة على تنزيل رتب اربعة جنرالات كونفيدراليين الى رتبة الكولونيل.

ويعدد البروفيسور «ليتوار رايت» في كتابه الشهير عن العلاقات المصرية - الامريكية (ومذكرات من خدموا في تلك البعثة وسجلات الخارجية والدفاع الامريكية) مزايا وجود هؤلاء الضباط الامريكيين في خدمة الجيش المصري بأنهم قاموا بتنظيم الجيش المصري من خلال الجنرال «موت» والجنرال «ستون» وقد عين الأخير رئيسا لاركان حرب الجيش المصري. كذلك شاركوا في انشاء هيئة اركان الحرب وكلية الاركان وشعبة رسم الخرائط ومصنع الذخيرة والاسلحة الصغيرة واصدار مجموعة القوانين العسكرية والقيام بتعزيز دفاعات مصر بقيامهم بتقوية الشواطيء بالطوربيدات والمدافع وشراء كميات هائلة من الذخيرة من الولايات المتحدة. وقد ادى ذلك الى تعميق الشك لدى الباب العالي وبقية القوى الاوروبية الاستعمارية الاخرى في نوايا الخديو اسماعيل فتآمروا على اسقاطه ووضع مصر تحت الرقابة المباشرة. كذلك شارك ستون وزملاؤه من الامريكيين في الاستكشافات العلمية المذهلة والاستطلاع الذي تم في السودان وشرق افريقيا الوسطى ومنابع النيل والحبشة عام ١٨٧٤، وهكذا رسخ في ذهن تلك القوى الاوروبية ان الهدف من تلك البعثات العلمية هو انجاز خطة مدروسة للتوسع الاقليمي المصري، ولذا سعت بكل الطرق والوسائل الى تحطيمها وتشويهها وايقافها والسعي اخيرا لاحتلال مصر.



الولايات المتحدة الأمريكية من العزلة إلى الهيمنة

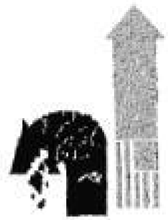
بقلم : د . رءوف عباس

حرصت الولايات المتحدة الأمريكية منذ استقلالها عن بريطانيا على ان تنأى بنفسها عن التورط فى مشاكل العالم القديم ، وأن يظل العالم الجديد بعيداً عن تداخلات السياسة الأوربية ، فقد كانت أمامها مهمة طويلة شاقة تتمثل فى بناء اقتصادها القومى والتوسع غربا فى اتجاه المحيط الهادى . واستطاعت أن تحقق ذلك كله مع منتصف القرن التاسع عشر ، حيث بلغت قامة الاقتصاد الأمريكى قامة اقتصاد بلاد أوربا الغربية بفضل وفرة الموارد الطبيعية والمواد الخام ، ونقل التكنولوجيا وتطويرها محليا على أيدى المهاجرين الأوربيين الذين قصدوا العالم الجديد بحثا عن حياة أفضل .

وجاء مشروع قناة بنما ليحقق الاتصال البحرى بين شرق البلاد وغربها ، وبين قوتها البحرية فى المحيطين الأطلنطى والهادى ، مما مكن الولايات المتحدة من أن تمد نطاق نشاطها التجارى إلى عالم المحيط الهادى ، فأجبرت اليابان على فتح موانيها للتجارة (١٨٥٤) ، وأجبرت الصين على أن تمنحها نصيبها من



الحروب الأمريكية لم تتوقف في الهند الصينية



الامتيازات التي حصلت عليها الدول الأوربية في موانئ وتجارة الصين ، كما بدأت تجارتها واستثماراتها تزحف على أمريكا الجنوبية تسحب البساط من تحت أقدام القوى الأوربية ذات الوجود التاريخي هناك ، حتى استطاعت أن تبرز كقوة اقتصادية ضخمة مع مشارف القرن العشرين .

كل ذلك وعلاقات الولايات المتحدة بالعالم القديم علاقات تجارية وثقافية محضة في إطار الحرص على إقامة علاقات ودية مع الجميع ، وعدم التورط في نزاعات العالم القديم . ووضع مبدأ مونرو في مطلع عشرينيات القرن التاسع عشر أسس سياسة العزلة على أساس أن تظل أمريكا (العالم الجديد) للأمريكيين ، أو بعبارة أخرى تظل الأمريكتان مجالا حيويا للولايات المتحدة لا تسمح لأوربا بالتدخل فيه ، في مقابل أن تظل الولايات المتحدة بعيدة عن التدخل في صراعات أوربا . وقد ساعدت تلك العزلة الولايات المتحدة على بناء اقتصادها القومي مستفيدة من موارد العالم الجديد ، معتمدة على سوقها ذات الامكانات الهائلة دون أن تواجه بإنفاق عسكري كبير تتطلبه السياسة العالمية النشطة فيما لو فكرت في مثل تلك السياسة .

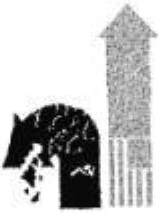
ورغم أن الرئيس ودرو ولسون فكر في كسر جدار العزلة عندما مد يد العون للحلفاء في الحرب العالمية الأولى ، وأطلق مبادئه الشهيرة التي تضمنت حق تقرير المصير للشعوب الخاضعة للدولة العثمانية ، كما تضمنت الدعوة لإقامة هيئة دولية تضم الأمم جميعا ، تسعى إلى حل الصراعات التي تنشب بينها بالطرق السلمية تحت اسم « عصبة الأمم » ، إلا أن الرئيس الأمريكي لم يحظ بتأييد الكونجرس الذي فضل التمسك بسياسة العزلة ، ولم يوافق على انضمام الولايات المتحدة للعصبة التي ساهم رئيسها بفكره وجهده في إنشائها .

فقد وجدت جماعات الضغط الأمريكية من ممثلي الرأسمالية أن مصالحها التجارية واستثماراتها في العالم القديم تحتاج إلى سياسة تقوم على عدم التورط في مشاكله السياسية حتى يستطيع الاستفادة من جميع الأطراف ، فتتغلغل في نسيج النظام الرأسمالي العالمي دون أن يستثير ضدها ردود أفعال غير مواتية قد تجلبها سياسة التورط في مشاكل العالم القديم والاضطرار إلى تحديد مواقف معينة قد تغضب أطرافا بعينها وتعود بالنتائج السلبية على المصالح الاقتصادية الأمريكية .

سياسة الباب المفتوح

وهكذا تبنت الولايات المتحدة فى فترة ما بين الحربين العالميتين سياسة « الباب المفتوح » التى تتيح لمصالحها الاقتصادية وخاصة الاستثمارات والتجارة فرصة الحركة فى العالم القديم دون عائق . وفى إطار تلك السياسة الحذرة استطاعت الولايات المتحدة أن تفتح الطريق أمام استثماراتها فى بلاد كانت مناطق نفوذ لبلاد غرب أوربا ، من ذلك مثلا الاستثمارات البترولية الأمريكية فى العراق والسعودية كما ضمنت لتجارتها حرية الحركة دون التعرض إلا لمضايقات غير ذات بال من جانب بريطانيا وفرنسا . وقد حققت هذه السياسة بعدا استراتيجيا جديدا اكتسبته المصالح الأمريكية المتشعبة فى العالم القديم : فى أوربا والشرقين الأقصى والأوسط ، أملى على صناع السياسة الأمريكية توجهات جديدة بدأت تتبلور بخطى سريعة عند قيام الحرب العالمية الثانية ، جذبت الولايات المتحدة إلى الساحة الدولية لتصبح اللاعب الرئيسى الذى يتصدى للدفاع عن مصالح العالم الغربى الرأسمالى فى مواجهة العالم الشرقى الاشتراكى الذى برز بعد الحرب بزعامة الاتحاد السوفييتى فيما عرف « بالحرب الباردة » والتى انتهت عمليا عام ١٩٨٩ بالتغيرات الجذرية التى شهدتها أوربا الشرقية ، ثم بتفكك الاتحاد السوفييتى نفسه .

وهذه الرحلة القصيرة (بمعيار الزمن) التى نقلت الولايات المتحدة من موقف المتفرج القابع فى جانب قصى من الساحة السياسية الدولية يرقب ما يدور عليها إلى لاعب رئيسى على الساحة الدولية ، تمثلت فى الحرب العالمية الثانية ، ولم تجر الولايات المتحدة جرا للعب دور رئيسى ، وانما أعدت نفسها خلال فترة ما بين الحربين للقيام بهذا الدور بعد تشعب مصالحها الاقتصادية والاستراتيجية ، ولم يغب عن ذهن صناع السياسة الأمريكية تهيئة بلادهم للعب هذا الدور منذ بدأت آفاق الموقف الدولى تتلبد بغيوم الحرب مع مطلع الثلاثينات ، فكان على الولايات المتحدة أن تتأهب للدفاع عن مصالحها الاقتصادية والاستراتيجية وخاصة أن اليابان - القوة الصاعدة فى عالم المحيط الهادى - كانت تمثل تهديدا لتلك المصالح ، وكانت سياسة الولايات المتحدة فى المحيط الهادى ترمى إلى مقاومة الأطماع اليابانية، ففرضت حكومة الرئيس روزفلت عقوبات اقتصادية على اليابان (يوليو ١٩٤٠) وتدهورت نتيجة لذلك العلاقات اليابانية الأمريكية ، وخاصة عندما قام الرئيس الأمريكى بتجميد الأموال اليابانية فى البنوك الأمريكية ردا على غزو اليابان للهند الصينية ، ثم ما لبثت اليابان أن شنت هجومها المفاجئ على قاعدة بيرل هاربور (٧ ديسمبر ١٩٤١) ، فأعلنت الولايات المتحدة وبريطانيا الحرب على اليابان فى



اليوم التالى ، مما دعا ألمانيا وايطاليا (حليفتى اليابان) إلى إعلان الحرب على الولايات المتحدة (فى ١١ ديسمبر ١٩٤١) ، وبذلك أصبحت الولايات المتحدة طرفا أصيلا فى الحرب العالمية الثانية ، وقع عليها معظم عبء المجهود الحربى فى المحيط الهادى حتى نهاية الحرب ، كما وقع عليها عبء دعم جبهة الحلفاء فى أوربا وشمال أفريقيا ، فضلا عن دعمهم اقتصاديا من خلال «قانون الإعارة والتأجير» الذى أصدره الرئيس الأمريكى ليتيح للحلفاء فرصة الحصول على ما يحتاجونه من مؤن وعتاد .

وهكذا أصبحت الولايات المتحدة حليفا أساسيا ضد المعسكر الفاشى بزعامة ألمانيا ، وأدت أسلحة ترساناتها ومواردها أجل الخدمات للحلفاء فى أحلك الأوقات . وأتاح لها ذلك فرصة الاشتراك الكامل فى الجهود الدبلوماسية للحلفاء لتنسيق المواقف قبيل نهاية الحرب ، فاتيح لها حق الاشتراك فى صياغة عالم مابعد الحرب . بل سعت بريطانيا فى العامين الأخيرين للحرب إلى التوصل إلى اتفاق مع الولايات المتحدة حول تقسيم مناطق النفوذ فى الاقاليم ذات الأهمية الاستراتيجية الخاصة مثل الشرق الأوسط ، فاستفادت الولايات المتحدة من المباحثات التى دارت بهذا الصدد فى التعرف على أفكار حليفتها دون أن تلتزم بشئ محدد . فقد أصبح واضحا فى أواخر الحرب أن الاتحاد السوفييتى سوف يبرز كقوة كبرى ، وأن ثمة كتلة تتشكل فى أوربا الشرقية مشايعة له ، كما أثبتت المراحل الأخيرة للحرب أن بريطانيا التى تزعمت غرب أوربا قد أصبحت مثخنة بالجراح ، وأنها لن تستطيع قيادة الغرب فى عالم مابعد الحرب لافتقارها إلى مؤهلات تلك القيادة التى توفرت - فى نفس الوقت - للولايات المتحدة الأمريكية ، ومن ثم بدأت الأخيرة تتهيأ للعب دورها الجديد .

وكان الأمر يحتاج إلى إصدار شهادة ميلاد للقوة الجديدة تقنع الأصدقاء قبل الخصوم بأهلية الولايات المتحدة لتلك الزعامة ، فجاء ضرب هيروشيما ثم نجازاكى بالقنبلة الذرية (٦ - ٨ أغسطس ١٩٤٥) رغم أن اليابان كانت على شفا الاستسلام ، وكانت تتصل بالاتحاد السوفييتى ليقنع الحلفاء بشروط استسلام معقولة ، فقد جاء استخدام القنبلة الذرية إعلانا عن مولد القوة الجديدة قصد به توجيه رسالة مزدوجة إلى الحليف اللدود (الاتحاد السوفييتى) وإلى الحليف الودود (بريطانيا) مفادها أن لكل زمان دولة ورجالا .

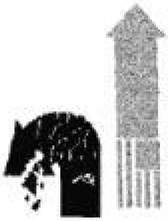


السلاح الأمريكي .. صانع تسويات المعركة

دور خطير لأمريكا

وهكذا لعبت الولايات المتحدة الأمريكية دورا رئيسيا فى صياغة تسويات ما بعد الحرب ، وتقسيم ألمانيا ، وإقامة هيئة الأمم المتحدة التى اتخذت من نيويورك مقرا لها ، وأصبحت واحدة من القوى الخمس الكبرى التى تمتعت بحق الفيتو فى مجلس الأمن ، ولعبت الدور الأكبر فى صياغة ميثاق شمال الأطلنطى الذى أوجد تحالفا غربيا بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية . وفى نهاية عام ١٩٤٧ صدر « قانون معونة أوربا » (الشهير بمشروع مارشال) الذى قدمت الولايات المتحدة بمقتضاه معونات اقتصادية لإعادة تعمير بلاد الحلفاء ، فدعم ذلك موقف الولايات المتحدة كزعيمة العالم الغربى أمام شعوب تلك البلاد .

وتبنت الولايات المتحدة سياسة تصفية الاستعمار التقليدى القديم لتكسب ود شعوب المستعمرات من ناحية وتجتذبهم إلى سياسة الأحلاف التى تزعمتها لمواجهة الاتحاد السوفييتى وحماية المصالح الاستراتيجية والاقتصادية الأمريكية ، وخاصة أن الامبريالية طورت من نفسها وأصبحت قادرة على الهيمنة على شعوب العالم الثالث دون حاجة إلى الاحتلال العسكرى من خلال روابط التبعية الاقتصادية التى تربط

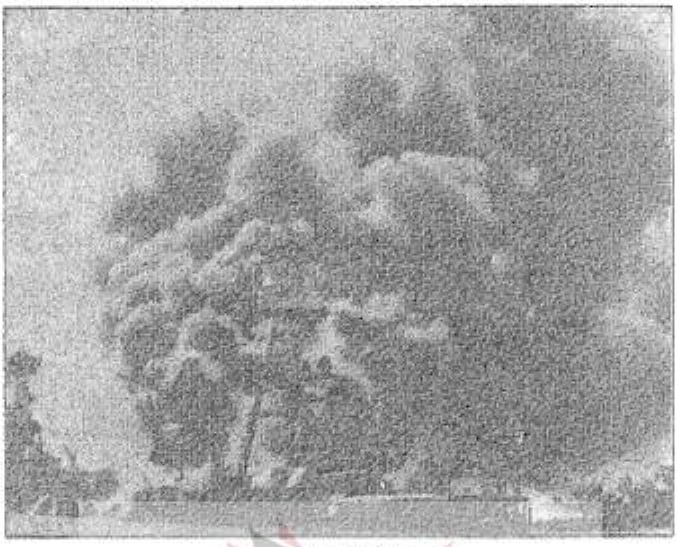


منتجي المواد الأولية ومستهلكي السلع المصنعة بالعالم الصناعي الرأسمالي الغربي ، والتي تستند إلى تأييد ودعم القوى المحلية المتعاونة مع الامبريالية .

كما تبنت الولايات المتحدة سياسة الأحلاف العسكرية الموجهة ضد الاتحاد السوفييتي والرامية إلى الهيمنة على المناطق الاستراتيجية الهامة والسيطرة على بلادها وتوجيه سياستها بما يخدم المصالح الأمريكية باسم التحالف ، فراحت مشروعات الأحلاف تترى . من حلف يحمل اسم « منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط » إلى حلف يحمل اسم « الحزام الشمالي » قصد به أن يضم تركيا وإيران وباكستان وأفغانستان وبلاد المشرق العربي ، إلى حلف أطلق عليه اسم « الحزام المحمدي » قصد به أن يضم البلاد الإسلامية الأسيوية بما في ذلك اندونيسيا ثم ما لبث أن استبدل به حلف جنوب شرقي آسيا .

ورغم الجهود التي بذلتها بعض الحركات الوطنية لمقاومة سياسة الأحلاف وخاصة دور مصر بزعامة عبد الناصر في مقاومة حلف الحزام الشمالي الذي أصبح يعرف باسم « حلف بغداد » ، وقيام حركة عدم الانحياز بجهود بعض زعماء العالم الثالث لمقاومة سياسة الأحلاف استطاعت الولايات المتحدة أن تقيم بعض تلك الأحلاف التي أعطتها مزايا استراتيجية هامة ، وأتاحت لها فرصة الحلول محل القوى الاستعمارية التقليدية باسم الأحلاف وما تتطلبه من اشراف على القوات المسلحة للدول المشتركة فيها ، والمعونات الاقتصادية التي تقدم في إطار الحلف وما تتطلبه من توجيه لاقتصاد تلك الدول وهي سياسة ووجهت بالرفض والمقاومة من جانب شعوب تلك الدول .

واقتضت استراتيجية الهيمنة على الساحة الدولية باسم مواجهة الشيوعية قيام الولايات المتحدة بالمساهمة الرئيسية في شن حربين محليتين في آسيا هما حرب كوريا وحرب فيتنام بما ترتب عليهما من نتائج سلبية عانت منها شعوب الشرق الأقصى وجنوب شرقي آسيا ، غير أنها استخدمت أداة لتسويق نظام الأحلاف الذي رعته الولايات المتحدة الأمريكية ، والذي أتاح لها الاحتفاظ بالعديد من القواعد العسكرية في المحيط الهادي في اليابان وكوريا والفلبين وبعض بلاد الهند الصينية ، فضلا عن الأساطيل الأمريكية التي تجوب بصفة مستمرة أعالي البحار ، وتظهر في مناطق معينة عند وقوع أزمات سياسية ، لتفرض دور الشرطي الأمريكي الذي تقمصته الولايات المتحدة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية .



معركة بيرل هاربر

كذلك اقتضت استراتيجية الهيمنة على الساحة الدولية ضرب الحركات الوطنية التى تهدف إلى تحقيق استقلال وطنى لا تشوبه شائبة التبعية ، وذلك فى المناطق ذات الأهمية الاستراتيجية للمصالح الأمريكية ، ولا أدل على ذلك من ضرب حركة القومية العربية وتأييد إسرائيل ، وهو أسلوب تكرر حدوثه فى مواقع أخرى فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية عندما تشعر الولايات المتحدة أن ثمة خطراً يتهدد مخططات السيطرة والاحتواء التى تضعها لتلك البلاد .

وإذا كانت أوربا قد استشعرت خط الهيمنة الأمريكية الذى ازداد بعد سقوط الاتحاد السوفيتى فراحت تسعى إلى درب الوحدة السياسية والاقتصادية لحماية مصالحها وإيجاد قطب مقابل للولايات المتحدة على الساحة الدولية ، وهو ما أخذ شكل صراع مصالح ينذر بحرب تجارية ما لم تستجب الولايات المتحدة لمتطلبات الاقتصاد الأوربى ، فما أحوجنا فى العالم النامى إلى ايجاد منظمة ترعى مصالح البلاد النامية ، بل ما أحوجنا فى العالم العربى إلى صيغة ما تضمن ألا نتحول إلى مجرد أدوات فى أيدى قوى الهيمنة الأجنبية .

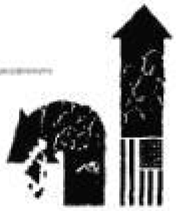
إدارة كلينتـــــون ...

وإعادة ترتيب الأولويات

بقلم : منار الشوربجى



انتخابات الرئاسة الامريكية هذا العام هى أول انتخابات رئاسية تجرى فى الولايات المتحدة بعد انهيار الاتحاد السوفييتى ، وانتهاء الحرب الباردة ، وهو الأمر الذى انعكس بوضوح على الحملة الانتخابية ، إذ اختفت منظومة القضايا المرتبطة بتلك البيئة الدولية لتحل محلها منظومة أخرى .



وبناء على ذلك سوف يكون على الإدارة الامريكية الجديدة إعادة تعريف العدو، ومن ثم المصالح الأمريكية فى العالم، ومن المتصور ان يكون هذا التعريف على أساس معطيات السياسة الامريكية الداخلية بعبارة أخرى، فإن العدو الجديد سوف يكون هو ذلك الذى تعرقل سياساته عجلة النمو الاقتصادى داخل الولايات المتحدة ذاتها، وهو الامر الذى يعنى اختلاف شكل العدو الجديد عما سبق، ولا مجال للايديولوجية فى هذا التعريف الجديد.

إن نتائج انتخابات الرئاسة هذا العام لم تعبر فى الواقع عن خيار ايديولوجى وإنما كانت بمثابة استفتاء على فعالية ادارة «بوش» فيما يتعلق بالسياسة الداخلية. وكان السبب الرئيسى وراء فوز «بيل كلينتون» أنه أدار حملة اتسمت بدرجة عالية من المهارة السياسية وركزت فى الأساس على ما يحتاج المواطن الامريكى أن يسمعه، فجعل «كلينتون» القضايا الداخلية وفى مقدمتها الاوضاع الاقتصادية العمود الفقرى لحملته الانتخابية، وقام بتعريف الهدف من حملته للناخبين بأنه «التغيير»، هذا فى حين اتسمت حملة «بوش» فى الواقع بالتشوش وعدم وضوح المفاهيم، بل إن الفشل الحقيقى لحملة «بوش» هو أنه لم يفلح فى تقديم حجة قوية تقنع الناخبين بإعادة انتخابه، فقد تراوحت حملته بين النظرة المتفائلة لأحوال الاقتصاد الامريكى والتى اعتبرها الامريكيون دليلا على فقدان الاحساس بنبض الجماهير وبين التشكيك فى قدرات خصمه

إلا أن التغيير الأساسى الذى قصده «كلينتون» طوال حملته الانتخابية هو التغيير الداخلى وليس الخارجى، وهو ماعبر عنه كلينتون بوضوح فى أول كلمة أدلى بها فى اليوم التالى لفوزه إذ أكد أن السياسة الخارجية الامريكية سوف تتسم بالاستمرارية وركز فى ذلك على ثبات المصالح الامريكية رغم تغير القيادات

وسيلة وليست غاية

إن الاستمرارية فى السياسة الخارجية - كما عبر عنها كلينتون - لها مايبررها: أولا:- لان بيل كلينتون لا ينتمى إلى التيار اليسارى فى الحزب الديمقراطى وهو التيار الذى يختلف جوهريا فى توجهات السياسة الخارجية عن الحزب الجمهورى بل ان هناك الكثير من المواقف التى يتفق فيها تيار كلينتون مع مواقف الحزب الجمهورى على المستوى الدولى، حتى أن مواقف كلينتون التى أعلنها أثناء الحملة قد جاءت متفقة كثيرا مع مواقف بوش إلا فى بعض التفاصيل.

ثانيا إن الاستمرارية فى السياسة الخارجية سوف تكون وسيلة وليست غاية بالنسبة للادارة الجديدة ، بعبارة أخرى ، وحيث إن هناك اتفاقا على أن ادارة بوش قد حققت الكثير من الانجازات على المستوى الخارجي فسوف تبنى ادارة كلينتون على ماتم انجازه فى عهد بوش ، ومن ثم تتجنب استنزاف الجهد والوقت فى المجال الخارجي وذلك من أجل التركيز على القضايا الداخلية .

إلا أن هذه الاستمرارية لن تكون على الارجح استمرارية مطلقة ، فلما كانت أولويات الادارة الجديدة مختلفة (حيث تضع الاقتصاد على قمة جدول أعمالها) فانه من المتصور ان تكون هناك استمرارية بالقدر الذى يسمح بالتفرغ للقضايا الداخلية وان يحدث التغيير فى السياسة الخارجية بالقدر الذى يخدم الاولويات الامريكية الجديدة . ومن هذا المنطلق سوف تحظى قضايا العلاقات الاقتصادية الدولية على الارجح باهتمام كبير لدى الادارة الامريكية الجديدة وذلك لارتباطها مباشرة بالاقتصاد الداخلى . وقد تكون ساحة العلاقات الاقتصادية الدولية هى احد الاستثناءات من قاعدة الاستمرارية التى أكد عليها كلينتون فيما يتعلق بعلاقات أمريكا الخارجية . ويبقى السؤال إلى أى مدى سوف تفرض الاوضاع الداخلية على الرئيس الجديد احداث التغير أو الاحتفاظ بالاستمرارية ؟ وقد اتخذ كلينتون اثناء الحملة الانتخابية بعض المواقف فى هذا الشأن فعلى حين أنه لا يتبنى مواقف انعزالية ، فإنه طالب بأسس جديدة لتجارة عادلة مع اليابان ، وأكد على أنه سوف يوافق على معاهدة التجارة الحرة مع كندا والمكسيك ولكن بعد استئناف المفاوضات بما يضمن عدم فقدان مزيد من الوظائف داخل الولايات المتحدة

وقد يحدث التغيير فى السياسة الخارجية بناء على ما تفرضه الظروف الدولية أو بمعنى آخر حين تتطور قضية خارجية ما على نحو يشكل تهديدا للمصالح الامريكية . إذ ليس من المتصور ان تقف الادارة الامريكية الجديدة مكتوفة الايدى بحجة الاهتمام بشئونها الداخلية ازاء حدوث تصعيد فى منطقة الخليج مثلا ولكن يبقى السؤال هنا مرتبطا بالشكل الجديد الذى سوف تتصرف به الادارة الجديدة فى منطقة الخليج بعد سقوط الاتحاد السوفييتى ونهاية الحرب الباردة . وهل تكون الاولوية للحفاظ على استقرار امدادات النفط ام احداث توازن فى المنطقة بين إيران والعراق خاصة مع تنامى النفوذ الايرانى .

ومن المتوقع ان يكون مجال حقوق

الانسان ودعم الديمقراطية احد المجالات التي تشهد تغيرا نسبيا في تعامل الادارة الامريكية معها على المستوى الدولي ، وينبغي القول هنا ان الاهتمام بتلك القضايا لن ياتي في اطار المبدأ الأخلاقي ، وانما سوف يرتبط مباشرة بالمصالح الامريكية . فدعم الولايات المتحدة للديمقراطية في روسيا - كما أشار كلينتون في العديد من المناسبات - لا ينبع في الواقع من مبدأ أخلاقي ، وانما يضرب بجذوره في عمق المصالح الامريكية ، إذ ان انهيار الجهود الديمقراطية في روسيا يشكل تهديدا مباشرا للامن القومي الامريكي . ويكفي للدلالة على ذلك تحليل مضمون الخطاب السياسي لكلينتون اثناء الحملة الانتخابية ، فلقد ربط كلينتون ربطا مباشرا بين قضايا الديمقراطية وحقوق الإنسان ، وبين امتلاك اسلحة الدمار الشامل ، لذلك من المتصور ان تثار قضايا حقوق الانسان ضد الدول التي ترى الولايات المتحدة ان امتلاكها لأسلحة الدمار الشامل يشكل تهديدا لمصالحها .

وأخيراً ..

إذا كانت أولويات الادارة الامريكية الجديدة في المرحلة القادمة تضع الاوضاع الاقتصادية في المقدمة ، فانه ينبغي للجانب العربي أن يعيد تعريف نفسه وموارده ومصالحه لصانع القرار الامريكي على نحو يرتبط مباشرة بتلك الاولوية الامريكية ، ويبلور نقاطا مشتركة للمصالح بمعنى أخر ، سوف يكون على صانع القرار العربي ان يربط المصالح العربية بقضايا داخلية تمس الحياة اليومية للمواطن العادي فعلى سبيل المثال ، حصلت المملكة السعودية على صفقة طائرات اف - ١٥ في خضم المعركة الانتخابية ، ومع ذلك حظيت الصفقة بموافقة كافة الاطراف على الساحة السياسية ويرجع ذلك في الواقع إلى انها طرحت على انها قضية داخلية وليست قضية سياسية خارجية . ففي بيئة سياسية تضع قضية البطالة على قمة الاولويات جاءت صفقة الأسلحة السعودية مرتبطة بمئات الالاف من الوظائف في مصنع ماكدونال المنتج لتلك الطائرات .

وخلاصة القول ، ان الكثير ومما سوف تشهده الساحة العربية في المرحلة المقبلة يتوقف على قدرة صانع القرار العربي على تعريف مصالحه وموارده وقدراته على نحو يجعل الادارة الامريكية الجديدة تدرك ان لها مصلحة حيوية ترتبط بأولوياتها الجديدة في دعم هذا الموقف العربي .

بيل كلينتون رئيسا

مهمة الشجعان

بقلم : مصطفى الحسينى

ربما كان ويليام (بيل) كلينتون هو أول رئيس أمريكى ، يفوز فى الانتخابات لا حسب التوقعات ولا خلافا لها . فحتى إعلان النتائج ، لم يكن أى مراقب ، ومهما كانت درجة معرفته ومتابعته ، قادرا على التنبؤ - بأى قدر من اليقين - أى من المرشحين سيرأس الولايات المتحدة الأمريكية السنوات الأربع التالية : الرئيس المقيم جورج بوش ، أم مرشح الحزب الديمقراطى الشاب المستجد « بيل كلينتون » . كان اليقين الوحيد أن المرشح الثالث ، روس بيرو ، قد أصبح خارج السباق



ومع ذلك لم يكن وجـــود بيرو بين المتسابقين أمرا عديم المغزى ، بل إن وجوده كان من مصادر ارتباك التوقعات ، فهذا المرشح الذى جاء من خارج الحياة السياسية الأمريكية ، قد أشغل خيال الناخبين وتوقعاتهم فى البداية ، فهو وإن كان مستجدا على الحياة السياسية ، إلا أنه يأتى من قلب هيكل السلطة الحقيقية فى تلك البلاد ، سلطة الاقتصاد والأعمال حيث هو من أكبر رجالها ، فى وقت تعتبر فيه البلاد أن مسألتها بل مشكلتها الأولى هى الاقتصاد.

لكن ما أخرج بيرو من السباق ، ربما كان تردده ، فقد انسحب فى المنتصف ثم عاد قرب النهاية ، على نحو ترك الناخبين، حتى المتعاطفين معه منهم ، يضربون أخماسا فى أسداس حول هدفه من ترشيح نفسه للرئاسة ، وحول مدى إمكانية الاعتماد عليه كرئيس لبلاد تلعب سلطة الرئيس فى نظمها دورا يتطلب القدرة على الحسم ، بل وحول مدى جدية تطلعه إلى رئاسة تلك البلاد.

ومع ذلك - مرة أخرى - لم يكن وجود بيرو فى السباق عديم الأثر ، فقد جمع وراءه ١٩ ٪ من الناخبين ، وإن لم يفز فى أى من الولايات ، وبالتالى لم تنعكس هذه الكتلة غير القليلة من الأصوات فى «المجمع الانتخابى» الذى يقرر فى النهاية اسم الرئيس. وكأنه أراد فى الحقيقة من حملته الانتخابية هدفا غير هدفها - أى الفوز - كأنه أراد أن يكون الرئيس ، أيا كان ضعيفا على مستوى القاعدة الانتخابية ، وكأنه أراد من حيث المضمون أن يكون هو الذى يقرر الموضوع الذى يدور حوله الاختيار.

وربما تحقق له ما أراد ، فقد دارت الحملة الانتخابية حول الاقتصاد وحسمت لصالح كلينتون الذى أولاه معظم عنايته ، ومع ذلك ، لم يحصل إلا على ٤٣ ٪ من أصوات المقترعين ، الذين هم أقل من ٦٠٪ من المسجلين فى جداول الانتخاب ، الذين هم - بدورهم - أقل من ٧٠ ٪ ممن هم فى سن الاقتراع.

أى أن الرئيس الفائز ، قد وصل فى الحقيقة إلى سدة الرئاسة مستندا إلى أقل من ٣٠ ٪ من الناخبين المسجلين ، وحوالى الخمس من الذين وصلوا إلى سن الاقتراع.

ولعل هذا يقول لنا شيئا عن الفعل الحقيقى للإجراء الديمقراطى فى كبرى الديمقراطيات.

على أن حقيقة فوز كلينتون ، لا طبقا للتوقعات ولا خلافا لها ، تستحق البحث عن مغزاها فيما هو أبعد وأعمق من الدور الذى لعبه روس بيرو فى تحديد الموضوعات وتشتيت الأصوات.

فالفرق فى حساب الأصوات بين المرشح الذى فاز وبين منافسه ليس كبيرا ، إذ فاز جورج بوش بـ ٣٨ ٪ من الأصوات فى مقابل ٤٣ ٪ لبيل كلينتون ، وهذا تعبير



بيل كلنتون ومجموعته .. الحصول على ٤٣٪ من المجموع

من حيرة المترددين ، وهى حيرة مفهومة .

فالمرشح الخاسر ، بوش ، يقود حزبا كان يحكم البلاد على مدى السنوات الاثنتى عشرة السابقة على الانتخابات ، وحكمها لمعظم سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية (٢٨ سنة من ٤٧ سنة) .

وما يجمع هذين العنصرين أنه يمكن وصفهما بأنهما يضمان زمن « العظمة الأمريكية » (فترة حكم دوايت ايزنهاور (١٩٥٢ - ١٩٦٠) أول رئيس جمهورى بعد الحرب العالمية الثانية ، بل ومنذ ما قبل منتصف الثلاثينات ، شهدت بلورة مركز الولايات المتحدة كدولة عظمى وتأكيدها ، ووضع استراتيجية محاصرة الخصم الدولى الكبير - الاتحاد السوفييتى - واحتوائه ، ووراثة الولايات المتحدة للامبراطوريتين الاستعماريتين القديمتين ، بريطانيا وفرنسا .

وفترة حكم الرئيس الجمهورى ريتشارد نيكسون وامتدادها فى رئاسة جيرالد فورد (١٩٦٨ - ١٩٧٦) شهدت انهاء حرب فيتنام (التى تورط فيها الحزب الديمقراطى) وفتح باب العلاقة مع الصين ، وهو ما أدخل إلى أسلحة الصراع ضد السوفيات سلاح الورقة الصينية الضاغطة على موسكو ، كما شهدت تأكيد قوة الولايات المتحدة وسلطانها فى العالم عن طريق سياسة نشيطة للمعونات الأمنية الأمريكية وبيع السلاح وتشجيع قيام قوى كبرى إقليمية موالية لها .

وحققت رئاسة رونالد ريجان - الجمهورى أيضا - حسم الصراعات



جورج بوش .. وداعاً للبيت الأبيض رغم اشارة النصر

الداخلية في أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية لصالح الأطراف الموالية للولايات المتحدة ، كما نجحت في دفع سباق التسلح إلى ما يفوق طاقة العدو الرئيسي – الاتحاد السوفييتي – على المسايرة فضلا عن المنافسة وانتقال هذا السباق إلى الفضاء الخارجي عن طريق « مبادرة الدفاع الاستراتيجي » التي عرفت باسم « حرب النجوم » . واكتشفت رئاسة ريجان الثانية معالم ضعف هذا العدو التي كشفت عنها قيادة ميخائيل جورباتشوف وبدأت في استثمارها . وأدخلت إلى ترسانة الأسلحة السياسية الأمريكية استراتيجية جديدة للتدخل على نطاق العالم باسم « مكافحة الارهاب الدولي » .

أكبر تحالف دولي

وشهدت رئاسة جورج بوش – الجمهوري – انهيار الاتحاد السوفييتي ونهاية الحرب الباردة ، ونجحت في إقامة أكبر تحالف دولي شهده التاريخ الحديث وتولت قيادته في حرب الخليج الثانية ، وساعدها ذلك على أن تدعي لنفسها الفضل في انهيار النظام السياسي المناوىء وفي نهاية الحرب الباردة ، وعلى محاولة أن « تأخذ القانون الدولي بيدها » وتقيم على هذا الأساس نظاما دوليا متفردة فيه بالقيادة أو سلطة القرار ، ونجحت في الاستيلاء على الأمم المتحدة وتحويلها إلى اداة طيعة للسياسة الخارجية الأمريكية .

وإذا كانت السياسة بطبيعتها اتصالا

لا انقطاعا ، فما حققه الجمهوريون أو أدعــوا الفضــل فيه أســهم فيه الديمقراطيون ، فــإن الاعتمــاد فى الانتخابات يكون عادة على ضحالة ذاكرة الناخب وضعفها .

وفى عهود الجمهوريين أيضا بنيت شبكة الطرق العظمى التى ربطت بين الولايات فوفرت للاقتصاد قوة دافعة وولدت أكبر موجة من النمو عرفها فى تاريخه ، كما أنه فى تلك العهود أقرت قوانين الحقوق المدنية وتدخلت الحكومة الفيدرالية بقواتها لفرض الالتزام بها على الولايات وحكامها .

فأى رصيد لدى هذا الشاب المستجد - بيل كلينتون - فى مواجهة مرشح عن الحزب الذى له أن يدعى فضل بناء «عظمة أمريكا» إلى أعلى قممها بعد الحرب العالمية الثانية ؟

ربما لذلك ، لا يجــد المتابع لحملة كلينتون الانتخابية اعتمادا على رصيد حزبه ، وربما لذلك أيضا كان يقصر تحديه للمرشح المنافس وحزبه على السنوات الاثنتى عشرة الأخيرة ، أى عهد رونالد ريجان وجورج بوش .

ففى زمن هذين الرئيسين استغرقت السياسة الخارجية من الموارد ما ترك المطالب الداخلية والمتطلبات تعانى الحاجة والعوز ، بما أنتجه هذا من تدهور فى نوع الحياة ، فالولايات المتحدة التى مازالت صاحبة أكبر اقتصاد فى العالم ، تقول أرقامها الرسمية أن ٣٥ مليوناً من سكانها يعيشون دون حد الفقر وأن ٣ ملايين منهم (الأرقام غير الرسمية ١٤ مليوناً) يعيشون بلا مأوى ، وأن ملايين من سكانها لا تشملهم الرعاية الصحية من أى مستوى، وأن ملايين الاسر ذات الدخل المتوسط لا تقدر على تكاليف الحد الضرورى من هذه الرعاية ، بكل ما تؤدى اليه هذه العوامل من تدهور فى مستوى التعليم ، ومن زيادة مساحة الشقاق بين الفئات الاجتماعية ، كما بين الجماعات القومية - العرقية التى يتمايز فيما بينها السكان .

وإذا جاز إرجاع هذه العناصر إلى الجانب الاجتماعى من الاقتصاد ، فإن «كلينتون » يرصد مؤشرات أخرى تتصل بصلب الوجه الاقتصادى البحت للاقتصاد، فهو يرصد مثلا ، أنه منذ عشر سنوات كان معدل الاستثمار بالنسبة للفرد من السكان فى الاقتصاد الأمريكى يزيد على المعدل المقابل فى اليابان بـ ٤٠٠ مليون دولار ، وقد أصبح المعدل اليابانى الآن ضعف المعدل الأمريكى ، وأنه فى نهاية عقد الثمانينات أصبحت اليابان وألمانيا تنفقان على البيئة الاساسية للاقتصاد وعلى شبكات المعلومات وعلى تكنولوجيا المستقبل ١٢ ضعف ما تنفقه الولايات المتحدة ، وأن معدل الأجور الأمريكية - قبل حكم رونالد ريجان - هو الأعلى فى العالم ، فأصبح الآن فى الترتيب العاشر ، ويتراجع .

وربما يشير هذا إلى أن « كلينتون » الذى يتمسك بأن الولايات المتحدة هى أعظم دول العالم ويجب أن تبقى كذلك ، أدرك أنك لا تستطيع أن تبنى واجهة جميلة لبيت خرب ، ولا تستطيع أن تكون قويا فى الداخل ضعيفا فى الخارج .

بناء الاقتصاد الأمريكى

لكنه يريد أن يحافظ على قوة بلاده فى العالم ، على احتفاظها بمركز الصدارة ، بإعادة بنائها من الداخل ، وهو ما عبر عنه ببناء اقتصاد مبنى على التجارة بدلا من اقتصـــــاد مبنى على الدفاع .

يقول الدبلوماسى الأمريكى المخضرم جورج كينان ، إن الولايات المتحدة – كثيرها من الدول التى تبدأ عظمتها من الانتصار فى حرب كبرى – أخذت فى الغرق فى هذا الانتصار .

فالحرب العالمية الثانية التى كانت الولايات المتحدة فيها هى أكبر المنتصرين أورثتها هيمنة الصناعة العسكرية على الاقتصـــــاد . فأصبحت المهمـــة الأولى للسياسة الخارجية هى تسويق السلاح وهو ما أدى إلى تشتيت جهودها الدولية وافتقادها القدرة على التركيز على البؤرة الحقيقية ، فمطالب تسويق السلاح أدت بالسياسة الخارجية الأمريكية إلى تشجيع التهاب مناطق التوتر فى العالم ، بل واختلاقها . وإذا كان ضعف العدو السوفييتى يقع فى هيكل النظام ، فإن هذا التشتت فى السياسة الخارجية الأمريكية لم يستفد منه هذا العدو ، بل إنه أيضا تورط فيه ، إنما جاءت السلبية فى انتعاش حلفاء الولايات المتحدة ، الذين كانوا أقل تورطا فى مناطق التوتر أو أدركوا خطر هذا التورط فى وقت مبكر ، فتحولوا من حلفاء إلى منافسين .

وأهمية جورج كينان وأقواله فى سياق تقدير حكمة السياسة الخارجية لبلاده ترجع إلى أنه من صقور الحرب الباردة ، بل من دعاتها قبل أن تبدأ ، وهو الذى صاغ نظرية احتواء الاتحاد السوفييتى .

ويبدو أن « كلينتون » الذى تربى سياسيا فى رعاية السناتور الديمقراطى السابق والمخضرم ويليام فولبرايت ، لم يكن بعيدا عن بعض آراء جورج كينان ، فقد كان إطار أفكار فولبرايت يعتبر نقيضا لإطار أفكار كينان . لم يكن فولبرايت من أنصار الحرب الباردة فضلا عن أن يكون من صقورها وكان يقف ضد سياسات التدخل الأمريكية فى العالم ، وهنا نقطة التقائه مع نقيضه كينان . ويبدو أن هذا العنصر هو الذى تسرب إلى كلينتون .

لذلك ، فإنه يتجه إلى خفض الوجود العسكرى الأمريكى فى العالم ، بادئا من أوروبا التى وعد بتخفيض القوات الأمريكية فيها بمقدار الثلث ، وقد أذهله أن يعلم أن

لبلاده مليونى جندى منتشرين خارج أراضيها .

كما يبدو أنه أدرك ما أدركه كينان : لا يجب أن يكون مركز أمريكا فى العالم أسيرا لمصالح الصناعة العسكرية ، فوضع فى مقدمة أهداف سياسته الاقتصادية تشجيع تحويل المصانع العسكرية إلى الصناعة المدنية ، وتشجيع انتقال أفراد القوات المسلحة إلى وظائف مدنية ، وانشاء « مجمع مدنى للابحاث والتطوير » ينهى احتكار الصناعة العسكرية لهذه المهمة الحيوية ، بينما يمولها دافع الضرائب .

وربما استمد رؤيته من نشأته ، فهو يحدد « القيم الأمريكية » التى خانها الحزب الجمهورى فى رئاستيه الأخيرتين بأنها : توفير الفرصة ، وحمل المسئولية ، ومكافأة العمل .

فهو ابن أسرة ممزقة وبائسة : مات أبوه وهو فى الثانية ، وتزوجت أمه من سكير ، منحه اسمه ، كان يعامل الأم والابن بقسوة . لكن الابن الذى التحق بالمدارس المحلية المجانية ، اغتنم الفرصة التى كانت متوافرة ، فحصل على منحة للدراسة فى اكسفورد ، واحدة من أهم جامعتين فى بريطانيا .

وعندما بلغ الثالثة والثلاثين ، كان قد أصبح حاكما للولاية التى نشأ فيها .

إنها : أى ولاية ..



واحدة من أصغر الولايات وأفقرها : فترتيبها بين الولايات الأمريكية الخمسين هى السابعة والعشرون من حيث المساحة ، والثالثة والثلاثون من حيث عدد السكان والتاسعة والأربعون بحساب حصة الفرد من الناتج الاجمالى للولاية ، وهى الثالثة من ولايات أربع تقل حصة الفرد فيها من الناتج الإجمالى عن المعدل الأمريكى العام.

إلى هذا فإن علاقتها بالثورة العلمية التكنولوجية تكاد تكون معدومة ، بل إن علاقتها بالثورة الصناعية ضعيفة ، إذ يكاد يقتصر ما بها من صناعات على الأحذية والملابس الجاهزة ، والنشاط

الاقتصادى الرئيسى فيها هو تربية الدواجن .

وهى ولاية لم يسبق أن خرج من بين ابنائها رئيس أو وزير على مدى عمر الولايات المتحدة الذى يزيد على قرنين من الزمان . وابنها الوحيد المرموق - قبل الرئيس المنتخب - هو الجنرال دوجلاس ماك آرثر .

فالفقر شامل ، فالولاية ليست موطنا لأى من الجامعات أو المعاهد الأمريكية المهمة .

وقد كان مرتب كلينتون - كحاكم للولاية - هو الأقل بين حكام الولايات .

فهو ابن اسرة فقيرة وممزقة من ولاية فقيرة ومتخلفة عن بقية الولايات اقتصاديا وعلميا وتكنولوجيا ... وعنصريا أيضا .

فعاصمتها - ليتل روك - وعندما كان بيل كلينتون فى الحادية عشرة ، شهدت واحدة من الشرارات الأولى لموجة العنف العنصرى التى اجتاحت الولايات المتحدة من منتصف الخمسينات إلى أواخر الستينات . وكان هذا هو مدخلها الوحيد إلى التاريخ .

ولعل فى ذاكرته مشهد القوات الفيدرالية التى ذهبت إلى ليتل روك عام ١٩٥٧ لتفرض على سلطاتها تنفيذ حكم المحكمة العليا بإلحاق تسعة من التلاميذ السود بمدرسة ثانوية . وربما تعلم من هذا شيئا .

وهو ينتمى إلى الجيل الذى كان يتظاهر ضد حرب فيتنام ، ولا شك أن عديدا من اترابه كانوا ضمن تجمعات «الهيبيز» التى كانت حركة احتجاج على المجتمع الأمريكى ونفيا اختياريا منه .

وربما أخطأ جورج بوش عندما حاول أن يستخدم ضده أنه راوغ قانون التجنيد الاجبارى الذين كان من مستلزمات حرب فيتنام . فثلث الناخبين الحاليين من أبناء ذلك الجيل .

فإذا تصورنا أن رؤية بيل كلينتون هى حصيلة النشأة والبيئة والتربية السياسية والجيل ، فهل لنا أن نقرأ ما يقوله عن تأكيد عظمة الولايات المتحدة وقيادتها بالعالم ، « انما باقتصاد يقوم على التجارة بدلا من الدفاع » (أى العسكرية) على أن رئاسته ستكون بداية الاعتراف بالحقائق وأن أمريكا لم تعد تقدر على الهيمنة .

أى أنها ستكون الخطوة الأولى فى اتجاه طى بساط الهيمنة الأمريكية .

فإذا كان قد أخذ على عاتقه هذه المسئولية ، يكون قد تصدى لمهمة لا يقدر عليها الا الشجعان . وهم فى تاريخ نهايات الامبراطوريات قليلون .

وربما لم يسبقه على هذا المضمار سوى شارل دى جول وميخائيل جورباتشوف .

الإبداع يتسلل إلى البيت الأبيض

رئيس يهرب إلى مانهاتن ورئيس تغتاله المؤسسة العسكرية

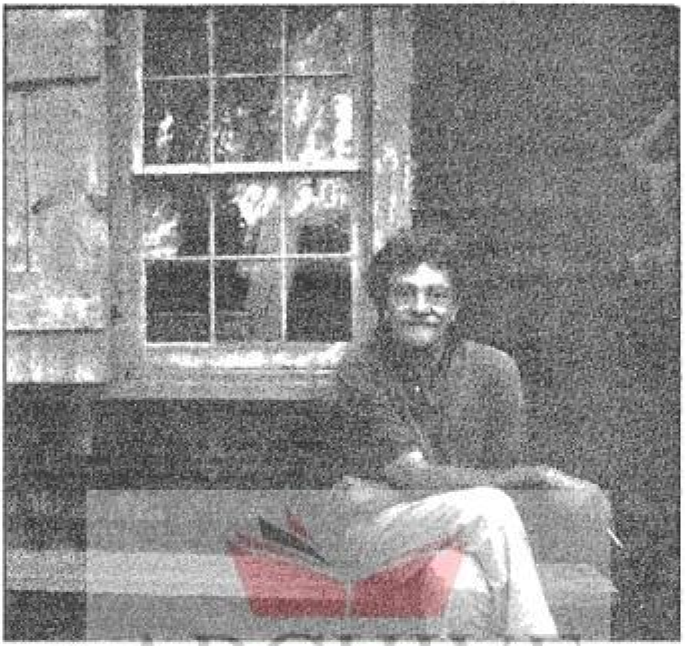
بقلم: محمود قاسم

هناك جاذبية خاصة يتمتع بها منصب الرئيس فى أى بقعة من العالم وتزداد جاذبية هذا المنصب، كلما كان الرجل الجالس فيه يتمتع بسمات خاصة، تجعله قريبا من قلوب الناس، ومشاعرهم. وخاصة إذا كان هذا الرئيس يحكم بلداً قويا مثلما يحدث فى الولايات المتحدة على سبيل المثال.

ولأن الرجل الذى يمكنه الجلوس على مقعد الرئاسة فى مثل هذا البلد لابد أن يكون شخصا غير عادى. يمتلك من السمات مالا يمتلكه آخرون. منها على سبيل المثال الطموح اللامتناهى. والذكاء الخارق. واللياقة البدنية والوسامة. إن أمكن بوأحيانا الشباب والحكمة.

لذا فإن مثل هذا الرجل السوبر لابد أن يلفت أنظار الأدباء، ويحفر فى قرائحهم من أجل الكتابة عن عالمه ليس فقط عن شخصه الجذاب. بل أيضا عن منصبه الحساس. والملىء بأجواء من المراسيم، والسرية والغموض.

لذا، فإن الكثير من الأدباء قد راحوا يكتبون عن كيف يكون الرئيس. وعلاقة شخص ما بالمنصب الذى يستحقه. وفى النظم الشمولية. غالبا ما يكون الرئيس نصف إله. وهو غالبا فى نظر المبدعين من أبناء وطنه المنزه والخارق، وعلى الأديب، إذا إقترب منه ألا يخترق الحاجز الزجاجى



كيرت فونجوت

المقدس الذى يضعه منصبه حوله .

لكن ، فى الدول الأكثر ديمقراطية ، فإن «المنصب» هو الأهم .. وكل شخص استطاع أن يصل إلى هذا المقعد ، يجب أن تسقط عليه هالات من الضوء لكشف كل جوانبه . السلبى منها والايجابى على السواء خاصة فى عالم الابداع .

● المؤسسة قبل الرئيس ..

وإذا كانت نتائج الانتخابات الامريكية الأخيرة ، قد ساعدت على تحطيم الهالة التى تحوطها وسائل الاعلام بمؤسسة الرئاسة . فإن الدور الآن على المبدعين أن يبينوا ما كان يحدث حقيقة وراء «الكواليس» . فلاشك أن صعود شاب فى الاربعينات إلى البيت الأبيض ، وتوارى الرئيس الذى بدا أقوى رجل فى العالم قبل عامين بهذه الكيفية يذكرنا بالصورة التى كتبها الروائى الامريكى والتر فاجنر فى روايته «فيير؟» المنشورة عام ١٩٧٧ . والتى تعمد فيها تصوير شخصية الرئيس كأنه الرجل

الأضعف دوما ..

ففي هذه الرواية صور فاجنر نهاية واحد من رؤساء البلاد على أيدي رجال مؤسسته السياسية والعسكرية . وقبل أن يتم ذلك الاغتيال . كان على رجلين خارجين عن المؤسسة العسكرية الامريكية أن يتخذا من رئيس الدولة رهينة ، وهو الذي سلم نفسه طواعية لهذين الرجلين حتى لا تتصاعد حدة المواجهة النووية. فراحا يلفان به في دوائر محدودة رغم يتجهان به نحو الطائرة التي ستقلهما إلى الخارج . وفجأة تنهال الرصاصات لتتخلص من الثلاثة معا ..

في هذه الرواية كشف فاجنر أن الذي يحكم الولايات المتحدة ليس هو الرئيس بل هي المؤسسات التي تقرر حتى لو كان القرار نفسه هو اغتيال الرئيس نفسه ، وهو الذي جاء عن طريق الانتخاب الشرعي ..

وتجيء أهمية هذه الرواية ، أنها تنتمي إلى أدب الخيال السياسي بمعنى أنها تقرأ ما يمكن أن يحدث في المستقبل خاصة في عالم السياسة . ولأن الرئيس هو صاحب السياسة العليا . والقرار الأول . فإن اغتيال الرئيس هنا لايعني نهاية نظام . بل استمرار دولة المؤسسات ، خاصة أن فاجنر قد صور هذا الرئيس ، في روايته ، رجلا طيبا ، يتمتع بأخلاق حميدة ، وهو يقف بكل ما لديه ضد إراقة الدماء . ولايتصور أبدأ أن مؤسسته هي خصمه الأول ، . لذا فهو يدفع حياته ثمنا لموقفه .

اخترنا أن نبدأ مقالنا بذكر هذه الرواية ، حيث أنها تمثل نموذجا هاما لأدب الخيال السياسي ، خاصة الذي يتناول الجانب الوظيفي والشخصي للرئيس في الولايات المتحدة ..

من الذي يسيطر ؟

والروايات التي يكون الرئيس بطلاً أساسيا فيها يمكن أن تتسم بمجموعة من السمات يمكن أن نوجزها في النقاط التالية :

اختار الأدباء الذين يكتبون هذه الروايات الخيال السياسي في المقام الأول . حيث كما أشرنا أن زمن أحداثها هو المستقبل . ولذا فإننا نجد أنفسنا أمام رئيس «وهمي» لم يعرفه العالم بعد وهو قادم إلى مقعد الحكم آجلا أم عاجلا . ومثل هذا الرئيس لم يتخذ بعد القرار السياسي الخطير الذي نجده قد اتخذه في الرواية . ومن أهم هذه القرارات على سبيل المثال ، إصدار قرار بتفجير قنبلة نووية باليابان إبان الحرب الباردة ، ليجعل بذلك نهاية العالم .

الرئيس في أغلب هذه الروايات هو السياسي صاحب قراره . وهو الذي بيده دمار العالم أو اندلاع الحروب ، أو الابقاء على السلام . أحيانا هو فوق المؤسسات الدستورية . ولا يراجعه أحد . كأنه

ديكتاتور فى بلاد شمولية . ونتيجة لمثل هذا الموقف المتساهل من المؤسسات فإن النتيجة تكون وخيمة مثلما حدث فى رواية دكتور ستريخلاف .. لكنه فى أحيان أخرى مجرد دمية بين هذه المؤسسات .

الرئيس فى هذه الروايات يعنى المؤسسة الرئاسية التى ينتمى إليها ، وليس مجرد شخص عادى ، وقليلة هى الروايات ، إن لم تكن غير موجودة ، التى تتناول سيرة حياة الرئيس بعد أن يترك منصبه الرسمى حين يصبح مجرد مواطن عادى لايهتم الناس بأمره . لأنه لن يكون صاحب قرار بالمرة ولذا فإن المكان الذى تدور فيه أحداث روايات من طراز صرخة مدوية فى صحراء مانهاتن .. لكيرت فونجوت ، ومحلل نفسى للرئيس ... و .. النذير لدافيد سلتزر هو البيت الابيض . باعتبار أن من يسيطر على هذا البيت يسيطر على العالم ، وكأنه مركز الأرض ، وقلب الكون .

ماذا يمكن أن يحدث لو أن البلاد ، على سبيل المثال ، قد حكمها رئيس يتردد عليه طبيب نفسى بصفة دورية . هل يمكن للحكم أن يستقيم ، وهل يمكن للرئيس ان يصدر أوامره سليمة ؟

هذا هو ما تخيله الكاتب الامريكى جون . ك فليكر فى روايته «محلل نفسى للرئيس» والرئيس هنا فى حاجة إلى المحلل النفسى كى يروى له متاعبه مع وظيفته ، وهذا الطبيب عليه أن يسمع كل الاسرار العسكرية والشخصية للرئيس . ويمكن أن تتخيل لو أن الطبيب النفسى يمتلك نفساً شريرة . فماذا به يمكن أن يفعل بهذه الاسرار ؟ . لاشك أن مثل هذا الشخص يمكن أن يوجه شخص الرئيس .. وبالتالى البلاد كلها إلى مايريده هو ..

وإلى بيت الرئيس الابيض جاء داميان فى رواية «النذير» التى كتبها دافيد سلتزر عام ١٩٧٥ . وقد تصور الكاتب داميان باعتباره ابنا للشيطان الذى جاء به إلى العالم كى تسود مملكته الشريرة على كافة الممالك الاخرى .. ولم يجد الشيطان مكانا افضل يدفع اليه ابنه خير من البيت الابيض .. وتصور الرواية هنا شخصية الرئيس مليئة بالطيبة ، والاريحية . داميان فى الرواية بعد أن يفقد والديه بالتبنى ، عقب أحداث مليئة بالشر ، يلجأ إلى رئيس البلاد كى يتولى تربيته .

ورغم أن شخصية الرئيس هنا هامشية فى رواية سلتزر ، فإن وجودها فى البيت الابيض يعكس مدى خطورة هذا المكان لو دخل اليه شخص شرير ، يمكنه أن يؤثر على القرار السياسى ، ليس فى الولايات المتحدة وحدها بل فى العالم أجمع .

● مصرى

ورواية «فيبر٣» التى أشرنا إليها تدور فى فترة زمنية معينة . فهى تختار أن تكون

أحداثها فى عام ١٩٨١ وهو نفس العام الذى فاز فيه رونالد ريجان فى الانتخابات . وخرج الديمقراطيون من الحكم كى يدخل أبناء الحزب الجمهورى لمدة أثنى عشر عاما ، تخيل المؤلف أن أحد رجال الجيش الامريكى قد استولى على قاعدة عسكرية . ويهدد باشعال حرب عالمية ثالثة اذا لم تستجب الحكومة لمطالبة.

والغريب أن مطالب لورانس دل فى هذه الرواية شخصية . لكنها لا تلبث أن تتحول إلى مطالب عامة حيث يطلب أن يذيع الرئيس عبر التلفزيون وثيقة سرية حول حرب فيتنام . وهى الحرب التى كان لورانس أسيراً فيها . ومفاد الوثيقة أن الولايات المتحدة قد خاضت الحرب بهدف بالغ التفاهة . الا وهو أن تثبت للإتحاد السوفييتى أنها لا يمكن أن تخضع لتهديد أو تستسلم لضغوط . ومقابل هذه الفكرة ضحت البلاد بآلاف الشباب وبسنوات تسع من تاريخ امريكا . وبأموال طائلة .

ورئيس الدولة فى هذه الرواية ، كما صوره والتر فاجنر رجل ضعيف ، متسامح، لايميل إلى استخدام العنف . لذا يرى أن عليه التضحية بنفسه كمسيح عصرى لإنقاذ البشر . فيستقل الطائرة وينزل إلى القاعدة ويقدم نفسه كرهينة للورانس ورفيقه كى يثبت حسن نواياه .

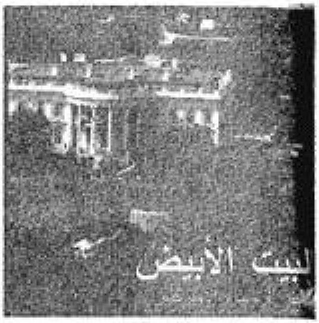
وكما سبقت الاشارة فإن الرئيس ستيفز يدفع حياته ، بعد أن اثبت أنه لعبة بين طرفين متنازعين . أحدهما المؤسسة العسكرية أما الطرف الآخر فهم رجال الجيش المنشقين على ما يحدث فيه .

● الرئيس الأخير

وإذا كان فاجنر متصوراً نهاية رئيس أمريكى فى روايته هذه فإن الكاتب الامريكى المشهور كيرت فونجوت قد راح يؤرخ لحياة آخر رئيس امريكى فى روايته «صرخة مدوية فى صحراء مانهاتن» .

الرئيس الاخير فى الولايات المتحدة سوف يدعى «اريو» كما يسميه الكاتب . إنه يتجه مع بقية اتباعه إلى جزيرة مانهاتن ، بعد أن دمرت إحدى القنابل النووية مدينة نيويورك ، ولم يعد هناك مكان آمن .

لقد انكسرت جميع الالات التى صنعتها الحضارة ، والتى يستخدمها الموظفون . وفى مانهاتن يجد الرئيس الاخير نفسه خاضعا لحكم بعض الاشخاص البدائيين الذين عرف التاريخ أمثالهم أبان العصور الوسطى . وهؤلاء الحكام الجدد يؤمنون أن على العالم أن يظل متخلفا . وبلا تقدم . هؤلاء الاشخاص هم ملك اليشمان . ودوق اركلاهوما . وفرسان البحيرات .. كما يظهر فى مانهاتن فى شخص أقرب إلى المسيخ الدجال يردد بنبرات مهووسة : «إنها نهاية الأمة الامريكية . حيث لم تعد هناك أسر ، أو بشر » .



البيت الأبيض

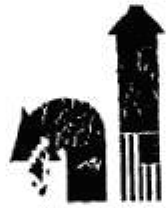


الرئيس

ويرى فونجوت أن روايته ليست فقط عن رئيس أخير فى تاريخ الولايات المتحدة ، ولكنها أيضا عن الغباء البشرى .

● الحقائق .. والخيال

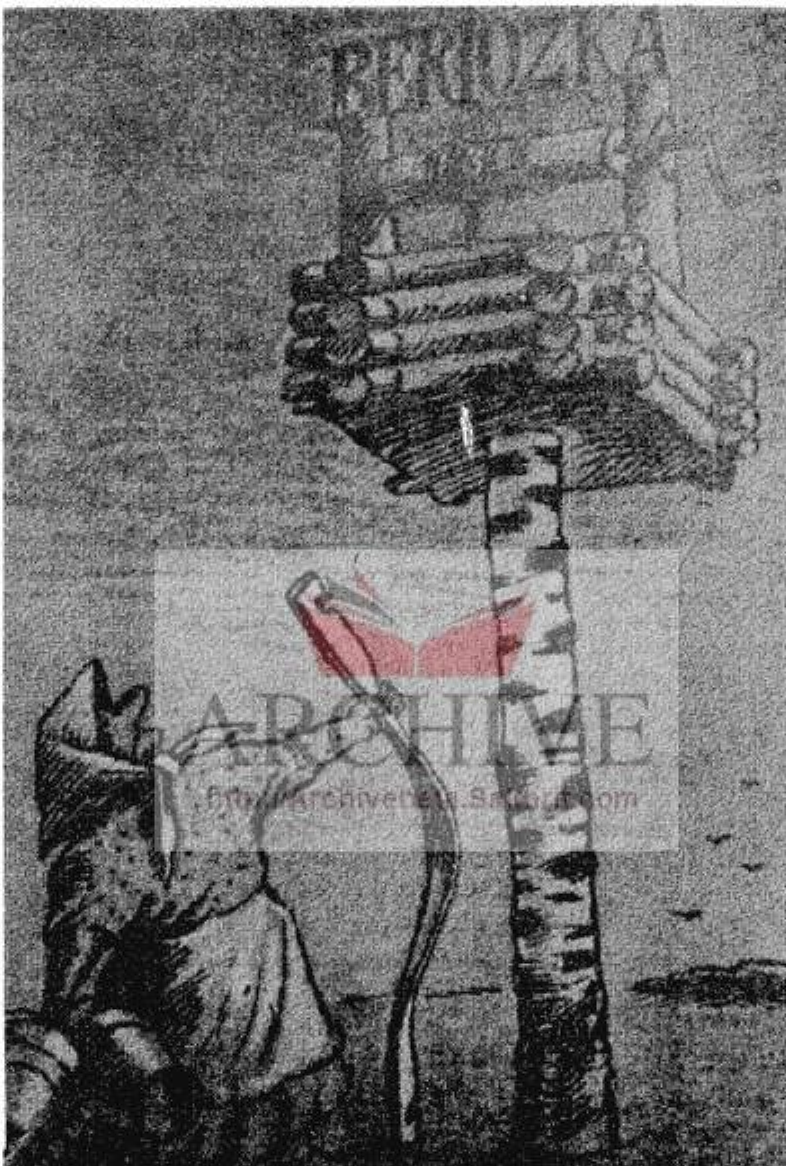
حاولنا فى هذا العدد أن تلقى بعض الضوء على روايات الخيال السياسى ، دون غيرها من الروايات ، التى اقتربت من جدران البيت الابيض . وكما سبقت الاشارة ، فإن الخيال هو عمادها ، ولكن هذا لاينفى أن الكاتب الذى يحذر من حدوث أى خطر لساكن البيت الأبيض قد يأتى ببعض الحقائق التى يعرفها الناس مثلما فعل فونجوت فى روايات أخرى عن الرئيس نيكسون . ومن المهم الاشارة إلى أنه بعيدا عن الخيال السياسى ، كانت أغلب الروايات المكتوبة عن البيت الأبيض مليئة بالتقديس لأشخاص عاشوا هناك مثلما حدث فى روايات عديدة عن روزفلت ، ولينكولن ، وكيندى ، وتوماس جيفرسون ..



هل كسبت أمريكا الحرب الباردة ؟

بقلم : د . فؤاد زكريا

كانت أسخف نكتة أطلقت فى العقد الأخير من القرن العشرين هى نكتة « نهاية التاريخ » ، التى قام فيها يابانى متأمرك ، يعمل لحساب وكالات أمريكية ليست فوق مستوى الشبهات ، بتحويل الوضع المفاجىء والمؤقت والمضطرب ، المترتب على انهيار المعسكر الشيوعى فى عام ١٩٨٩ ، إلى وضع دائم ونهائى سيظل يسود العالم ، مع تغيرات هنا وهناك فى التفاصيل ، حتى أبد الآبدين . وعلى الرغم من الطابع الفلسفى الذى أضفاه « فوكوياما » على فكرته هذه ، حين « رشّ » عليها طبقة كثيفة من التوابل الهيجلية الدسمة ، فقد كانت الفكرة فى صميمها دعائية فجة ، بل ربما كانت آخر الأفكار الدعائية الفجة فى عصر الحرب الباردة ، على الرغم من ادعائها تجاوز ذلك العصر واستشراف المستقبل البعيد .


BERIOZKA



كان الهدف منها ، ببساطة ، طرْق الحديد وهو ساخن ، وانتهاز فرصة انهيار الأيديولوجية المنافسة للغرب ، من أجل إقناع العالم بأن أيديولوجية الغرب هى التى ستظل وحدها فى الميدان إلى آخر الزمان ، بل بأن فرص ظهور أية أيديولوجية أخرى تتجاسر على تقديم بديل للرأسمالية الليبرالية قد انتهت إلى غير رجعة ، وهكذا كانت الرسالة الموجهة إلى العالم كله ، شماله وجنوبه ، غنيه وفقيره ، هى : لقد أصبحت الرأسمالية الليبرالية قَدَرَكم المكتوب ، ولم يعد أمامكم إلا أن تكيفوا أموركم معها ، لأن أية محاولة للمقاومة ما هى إلا جهد يائس للوقوف فى وجه المسار التاريخى المحتوم .

حتمية جديدة للتاريخ

كانت الفكرة ، فى حقيقتها نقلا لمبدأ « حتمية التاريخ » من ميدانه الأصلى ، أعنى من الفكر الماركسى ، إلى الفكر الرأسمالى فبعد تاريخ طويل من استخدام هذا المبدأ فى الايديولوجيات الماركسية التى تؤكد وجود مسار حتمى للتاريخ يؤدى آخر الأمر إلى الانتصار النهائى للطبقة العاملة ، انهارت تلك الأيديولوجيات فى لمح البصر ، وأصبحت فكرة « حتمية التاريخ » ملقاة على قارعة الطريق ، بلا صاحب ، فتلقفها ذلك اليابانى - الأمريكى الماكر ، وزرعها فى أرض المعسكر المضاد ، وتقدَّم إلى العالم بحتمية جديدة للتاريخ ، هى حتمية سيادة الأيديولوجية الليبرالية الرأسمالية بلا منافس طوال المستقبل المنظور للبشرية .

ولكن ، مثلما أن مبدأ « حتمية التاريخ » كان يشكل نقطة ضعف قاتلة فى الأيديولوجيا الماركسية فلابد أنه سيتحول إلى ثغرة خطيرة فى صميم الفكر الرأسمالى الليبرالى حين يطبق عليه . ذلك لأنك حتى لو تحكمت تحكما كاملا فى ممارسات المعسكر الذى تنتمى إليه ، على نحو يؤدى إلى مسايرة « حتمية التاريخ » التى تؤمن بها ، فإنك لن تستطيع أبداً أن تتحكم فى مسار القوى الأخرى التى تقاومك والتى تعمل على تحطيم « حتميتك » أو تغيير مسارها . ومن هنا كان الخطأ القاتل الذى ارتكبه الفكر الماركسى هو أنه عمل حسابا لما يقوم به معتنقوه من ممارسات تستهدف تحقيق « الحتمية التاريخية » كما يراها هو - ومن أمثلة هذه الممارسات : كفاح الطبقة العاملة وحركات التحرر من الاستعمار ، الخ ... ولكنه لم يعمل حسابا لممارسات القوى المضادة التى تستهدف كسر هذه الحتمية وإثبات خوائها ، كقيام المعسكر الرأسمالى برفع مستوى طبقته العاملة إلى الحد الذى يقضى على ثوريتها والوصول بالتكنولوجيا العسكرية والسلمية إلى مستويات ترهق المعسكر الاشتراكى وتكشف ضعفه الإنتاجى .

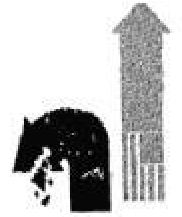


من وقائع حرب الخليج

هكذا أثبت التاريخ ، بالنسبة إلى الإيديولوجيات الماركسية ، أن من المستحيل فرض حتمية مرسومة مقدما عليه ، وأنه يظل مسارا مفتوح الأطراف على الدوام . ويبقى أمامنا ، فى الجزء المتبقى من هذا المقال ، أن نثبت استحالة فرض حتمية التاريخ المضادة أو المقلوبة ، التى تجعل الرأسمالية الليبرالية كلمة التاريخ النهائية فى المغامرة البشرية بأسرها .

* * *

لنعد إلى الوراء قليلا ، كيما نسترجع تلك المرحلة الانتقالية التى تمت فيها هزيمة الأيديولوجية الشيوعية ، وإعلان انتصار الرأسمالية الغربية . كانت البداية الحقيقية فى بولندا ، وكان الدور الذى قام به البابا الحالى (يوحنا بولس الثانى ، وهو بولندى) بالتعاون مع وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ، حاسما فى دق أول مسمار فى نعش المعسكر الشيوعى ، إذ كان انفصال بولندا عن الايديولوجية الشيوعية هو الخطوة الأولى ، الحاسمة والأكثر صعوبة ، ضمن مجموعة الخطوات التى أدت إلى انهيار هذه الايديولوجية وزوال المعسكر المرتكز عليها . ويمكن القول إن الدور الذى لعبته الأجهزة الأمريكية فى بولندا كان أصعب وأكثر تعقيدا وأطول مدى من أى دور لعبته فى البلاد الأخرى المنتمية إلى المعسكر الاشتراكى : فالحجر



الأول تصعب زحزحته ، ولكنه ما إن يسقط حتى يصبح سقوط بقية الأحجار أمرا هينا ، لاسيما أن العوامل الداخلية ، المنتمية إلى صميم النظام نفسه ، كانت تجعل من هذا السقوط أمرا لا مفر منه . ولنضف إلى ذلك الدور الذى قام به ميخائيل جورباتشوف ، وهو دور أصبح فى ضوء التطورات التالية يبدو مثيرا لكثير من التساؤلات ، مما يدفع كاتب هذه السطور إلى مراجعة الكثير من تقويماته السابقة لهذا الرجل ، وهى التقويمات التى عُرضت فى وقت لم يكن فيه العالم كله قد عرف مدى فداحة النتائج المترتبة على «ثورته التصحيحية» التى ربما كانت تمثل أكبر حركة هدم ذاتى عرفها التاريخ .

المهم فى الأمر أن المعسكر الشيوعى قد سقط ، وكان دور العوامل الداخلية فى سقوطه أكبر قطعا من دور العوامل الخارجية . ومن المؤكد أن تراكم الأخطاء وتراكم السخط وتراكم الرغبة فى التغيير بأى ثمن وفى أى اتجاه ، كان أعظم بكثير مما قدّره أولئك الذين كانوا يخططون ليل نهار من أجل هدم هذا المعسكر . وفى مدى شهور قلائل ، من أواخر عام ١٩٨٩ وأوائل عام ١٩٩٠ ، وجد المعسكر الرأسمالى نفسه وحيدا على رأس العالم ، بلا غريم ولا منافس . ولم يحدث فى تاريخ الصراع بين الامبراطوريات العظمى ، منذ أقدم العصور ، أن حُسم صراع حياة أو موت بين عملاقين يملك كل منهما أشد مظاهر القوة جبروتا ، بمثل هذه السرعة ، وبمثل هذه السهولة وربما كان صانعو الخطط والسيناريوهات فى البنتاجون والمخابرات المركزية أشد الجميع دهشة : فقد قضى هؤلاء عشرات السنين يرسمون آلاف الخطط لمواجهة الخصم وقهره ، وكان الثمن يبدو فادحا حتى فى أشد هذه الخطط تفاؤلا . ومع ذلك فقد فاجأهم الخصم الجبار وانهار من تلقاء ذاته بصورة لم تكن تستطيع تحقيقها أعظم الحروب المكلفة نجاحا . وبدلا من حساب عدد الصواريخ والقنابل النووية والنيوترونية والكيميائية والبيولوجية اللازمة لدحر العدو ، سحق العدو نفسه بنفسه بأكمل صورة ممكنة ، وبدون إراقة نقطة دم واحدة .

الانفراد بقمة العالم !

أعود مرة أخرى فأقول إن المعسكر الرأسمالى ، وعلى رأسه أمريكا وجد نفسه فجأة جالسا وحده على قمة العالم ، بعد أن أحرز أسرع وأرخص نصر فى تاريخ الصراعات البشرية الكبرى . والمفروض أن يُترجم هذا الانتصار الحاسم إلى مكاسب فورية ، وأخرى آجلة . والمفروض أيضا أن تتغير معالم الحياة فى المعسكر المنتصر بعد أن انزاح عنه ذلك الكابوس الذى ظل يقض مضاجعه عشرات السنين .

ولكنني أتلفت حـــولي ، وأبحث عن مكسب واحد حاسم أحرزته أمريكا بعد أن أصبحت تتربع وحدها على عرش العالم ، فلا أجد .

اتركوا حرب الخليج فهذه قصة أخرى، ولا أظن أن نتيجتها كانت ستتغير كثيرا لو حدثت في عصر الحرب الباردة ، فما كان من الممكن أن يخاطر المعسكر الشيوعي بنفسه من أجل مغامر أحمق يرتكب في حساباته أفدح الأخطاء ، ولم يكن على أية حال صديقا حقيقيا ، في أية لحظة من لحظات حكمه ، لذلك المعسكر ، بل كانت ارتباطاته الخفية بالمعسكر الغربي الرأسمالي أقوى بكثير . فإذا تركنا هذه الحرب جانبا ، وتأملنا جيدا . فيما يمكن أن يكون المعسكر المنتصر قد أحرزه من مكاسب ، فإن الصورة تبدو لنا على عكس جميع التوقعات فالانكماش الاقتصادي ، وما يترتب عليه من نسب عالية للبطالة وهبوط متزايد في مستوى المعيشة ، ينهش جسد الرأسماليات الكبرى ، وعلى رأسها أمريكا وانجلترا ، والخلافات الداخلية بين أطراف المعسكر المنتصر تكاد تصل في بعض الأحيان إلى حد إعلان حرب اقتصادية كاملة . والرخاء والازدهار الذي كان يتوقعه الجميع من جراء الاندحار الحاسم ، لم يظهر له أي أثر .

ولعل أحداث الانتخابات الأمريكية الأخيرة تكون أبلغ الأمور دلالة على الخيبة التي مني بها المنتصرون . فقد خذل الناخبون الأمريكيون رئيسهم الذي تحقق في عهده أكبر انتصار كان يحلم به الأمريكيون ، كأمة وكنظام سياسي واجتماعي ، منذ سبعين عاما . فعلام يدل هذا الخذلان ؟ إنه يعني - من بين ما يعني - أن الشعب الذي قيل له إنه أحرز أعظم انتصار سياسي وايديولوجي ، لم يذق شيئا من طعم هذا الانتصار ، ولم يشعر بأن حياته قد تغيرت من بعده . وحين يسود هذا الشعور ، فمن الطبيعي أن يتساءل الناس : لماذا إذن كانت المعركة أصلا ، إذا كان الانتصار فيها عاجزا عن أن يجلب لنا أية مكاسب ؟ بل إن المحور الذي تركزت فيه دعاية المرشح المنافس للرئيس، والذي أحرز في النهاية انتصارا مدويا ، هو أن الشعب الأمريكي قد تدهورت أوضاعه ، وساءت أحواله ، منذ أن أصبح يتربع وحده على قمة العالم ، ومنذ أن اختفى المعسكر المنافس الذي كان ينغص عليه حياته .

هذه ظاهرة تستدعي تأملا عميقا . ذلك لأن المعيار الحقيقي الذي يقاس به النصر أو الهزيمة ، لدى الشعوب الحديثة ، هو مدى تأثيره على الأوضاع المعيشية للإنسان . ومن المستبعد جدا أن الحرب الباردة كانت قائمة لأن المعسكرين كانا يتنافسان على « شرف » قيادة العالم ، أو على « أمجاد » النصر والتفوق ، فهذه الحرب كانت مستمرة لأن هناك نظاما جديدا يهدد النظام الرأسمالي القائم



باقتطاع دولة بعد أخرى ، وإدخالها ضمن منظومة أخرى تحاول تحقيق نمو يستقل ، بقدر ما يستطيع ، عن تلك السوق العالمية التى تسيطر عليها الرأسمالية . كانت وراء هذه الحرب مصالح حقيقية ، ومن ثم فالمفروض أن انتهاءها يعنى تحقيقا أعظم لمصالح الطرف المنتصر ، ولكن هذا لم يحدث ، بل إن الشكوى التى ترددت ، طوال الحملة الانتخابية الأمريكية ، كانت تنصبّ على تدهور الأوضاع وانتشار البطالة وثورة الفقراء فى لوس أنجيليس ، إلخ . وبعبارة أخرى فإن أمريكا ، ومعها الرأسمالية العالمية ، لم تكسب شيئا من انتصارها فى الحرب الباردة ، إذا قسنا الكسب والخسارة هنا بمعاييرهما الحقيقية

بل إننى أكاد أتخيل أن هناك ، فى أوساط صانعى القرار الأمريكى ، من هم نادمون فى صمت على انتهاء الحرب الباردة على النحو الذى انتهت عليه . صحيح أن هؤلاء ، كما قلنا كانوا يخططون منذ عقود عديدة من أجل هدم المعسكر الآخر ، ولكن يبدو أن زمام الأمور قد أفلت من أيديهم لحظة الانهيار : فقد حدث هذا الانهيار بأسرع مما تصور الجميع ، وعلى نطاق شامل ، بحيث اختفى « العدو » من المسرح فى لمح البصر ولعل « السيناريو » الذى كان يفضله هؤلاء المخططون هو أن يحدث الانهيار ببطء أشد ، وعلى نطاق أضيق ، بحيث ينكسر المعسكر الاشتراكى وينقصم ظهره ، ولكنه ، أو جزء منه ، يظل باقيا بوصفه « عدوا » ذلك لأن بقاء « العدو » حتى لو كان عدوا مثخنا بالجراح ، عاجزا عن المنافسة ، كفيل بالإبقاء على القوات المسلحة بأعدادها الهائلة ، وبكل ما يرتبط بها من صناعات ومصالح اقتصادية وعمالة منتظمة . وبعبارة أخرى ، فإن الانهيار المفاجىء والتام للعدو وتحوله إلى حالة الركوع والاستجداء أحدث انهيارا مناظرا لدى المنتصر ، فكانت النتيجة شعورا عاما بالإحباط ، فى الوقت الذى كان يُفترض فيه أن تكون معنويات المنتصر ومادياته فى السماء ، ومن الشعور بالإحباط تولدت الحاجة إلى إحداث تغيير شامل ، ومن هنا انتصر كلينتون .

أسوأ نهاية !

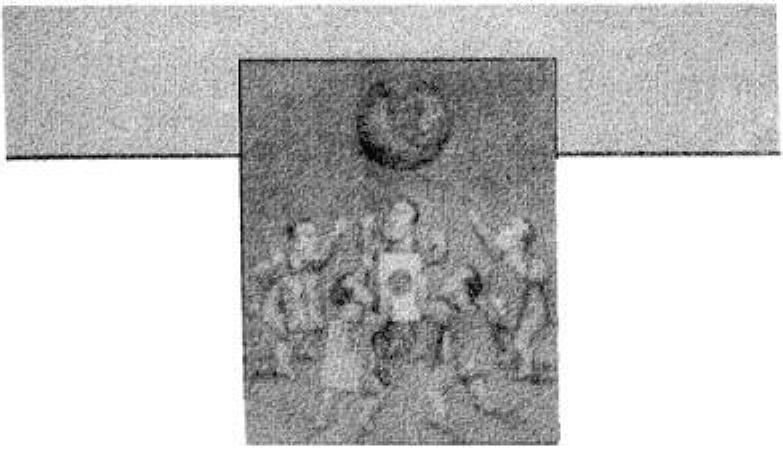
لقد انتهت الحرب الباردة أسوأ نهاية يمكن أن يفضى إليها صراع على هذا القدر من الضخامة والاتساع . انتهت بتفكك ، بل تفسخ المعسكر الاشتراكى إلى درجة تدعو إلى السخرية المريرة . فالمعسكر الذى كان شعاره « الأممية » ، وكان ينظر إلى التمسك بالشعارات الوطنية والقومية على أنه تعبير عن ضيق الأفق



وقائع أخرى من حرب الخليج

والأنانية ، ويرى فى الخلافات القائمة على أسس دينية أو عنصرية ، بقايا من عصور التخلف والتعصب - هذا المعسكر قد انتهى به الأمر إلى التفكك إلى وحدات وطنية ، ثم تفككت الوحدات الوطنية إلى وحدات عرقية وطائفية ، ووصل الأمر إلى أن أصبحت كل مجموعة من الشوارع والأزقة تطالب لنفسها بدولة مستقلة لها جيشها وسفراؤها فى الخارج . أما المعسكر الرأسمالى الذى ارتكزت عقائده على الرخاء ، والذى أجج نيران الحرب الباردة من أجل ألا يخرج ركن فى الأرض من نطاق أسواقه ، فقد استبدت به الأزمات بمجرد أن تحقق له ما أراد ، وأعلنت شعوبه بأعلى صوت أنها سحبت ثقتها من أولئك الذين هزموا منافسيهم شر هزيمة ، ولكى تكتمل السخرية المريرة ، فقد أخرجوا لنا ، وسط طوابير العاطلين الطويلة ، وجموع الأقليات العرقية الساخطة ، ووسط دوى رصاص الجريمة التى ترتفع معدلاتها ارتفاعا صاروخيا عاما بعد عام ، شابا من أصل يابانى ، يحدثنا عن شعور هيجل حين رأى نابليون ممتطيا حصانه الأبيض وهو يقتحم المدن غازيا ، ويؤكد لنا أن التاريخ قد اختار الوضع الذى أصبح عليه عالم اليوم لكى يستريح من صراعاته ، وينام !

لقد كانت الحرب الباردة أضخم وأشرس صراع بين عمالقة التاريخ ، ولكن نهايتها كانت « أبرد » وأسخف نهاية لمثل هذا الصراع الجبار : كانت نهاية بلا أمجاد للمنتصر ، وبلا كرامة للمهزوم !

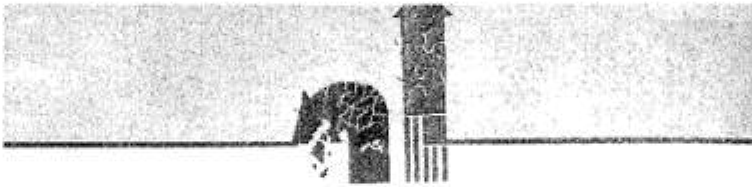


عصر الهيمنة الأمريكية

بقلم : مصطفى نبيل

من نتائج معركة الرئاسة الأمريكية ، ما بدا من حدة الأزمة التى تعيشها الولايات المتحدة ، وقد فاجأت هذه الأزمة الكثيرين ، فالولايات المتحدة تعيش أوج إنتصاراتها كقوة أولى فى العالم .

وتأتى المفاجأة من عدم إستقبال الإشارات التى أخذ يتوالى إرسالها من واشنطن ، وعدم متابعة المناقشات التى دارت حول المستقبل منذ أوائل الثمانينات ، والتى تدور حول دخول أمريكا القرن الحادى والعشرين .



فتابع العالم كله إنهيار الاتحاد السوفييتى ، واختفى وراء دوى السقوط وخلف الغبار ما يجرى فى الولايات المتحدة ، رغم أنه ظهر فى أمريكا من يقول فى منتصف الثمانينات أن الذى ينهار ليس الاتحاد السوفييتى وحده ، بل النظام العالمى الذى استقر منذ الحرب العالمية الثانية .

وظهر كتاب هام لمؤلفه بول كنيدى « قيام وسقوط القوة العظمى » والذى كان بمثابة صيحة تحذير وانذار ونبوءة بالكثير من التغيرات التى شهدها العالم ، تأمل قوله بالحرف الواحد .. « بقيت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى فى المقدمة مع إنسلاخ الستينيات وحلول السبعينات والثمانينات ، وقادهما تنافسهما إلى سباق التسلح .... وغدت معدلات النمو الأمريكية والروسية أكثر تباطؤا ، وتقلص نصيب الدولتين فى ثروة وإنتاج العالم » .

وصدر هذا الكتاب قبل إنهيار الاتحاد السوفييتى ، ولكن تلمح بين سطوره نبوءة الإنهيار ، عندما يتحدث عن أثر الإنفاق الضخم على التسليح فى الاقتصاد السوفييتى وفى الاقتصاد الأمريكى بعد الذى كشف أخيراً فقد خرجت أمريكا من هذا السباق مدينة بما قيمته أربعة آلاف مليون دولار ، تحولت من أكبر دولة دائنة إلى أكبر دولة مدينة فى العالم .

وتتابعت الإشارات والكتابات التى تعالج بعض أبعاد الأزمة :

● التقرير الذى أصدرته أكاديمية العلوم الأمريكية سنة ١٩٨٥ ، والذى رصد ظاهرتين فى الحياة الأمريكية ، أولاهما النقص الكبير فى أبحاث العلوم البحتة مثل الطبيعة والرياضيات لحساب الأبحاث التطبيقية ، فتنفق على هذه الأخيرة المؤسسات الاقتصادية الكبرى ، فهى أكثر ربحية ، أما الرياضيات والطبيعة فلا تجد من ينفق عليها فهى أقل ربحية فى الزمن الكثير ، وهى التى تمد الأبحاث التطبيقية بالحياة !

والثانية .. أن الطبقة الوسطى الأمريكية البيضاء لم تعد قادرة على إمداد المجتمع بحاجته من التكنوقراط وعناصر الأداة الحكومية ، بعد أن أخذ يحل محلها بالتدريج فئات جديدة من الأقليات غير البيضاء والمهاجرين الجدد .

● ومن الاشارات أيضا ، الحديث عن تدهور نظام التعليم ، عند مقارنته بنظام التعليم فى اليابان وبعض الدول الأوربية ، والذى تركز فى تقرير بعنوان : « أمة فى خطر » !

● ومن هذه الاشارات أيضا كتاب صدر سنة ١٩٨٧ بعنوان : « إغلاق العقل الأمريكى » لمؤلفه آلان بلوم ، والذى يدور حول إستقرار معنى الليبرالية عند فكرة بسيطة هى أن الآراء المختلفة تتمتع بشرعية متساوية ، مما أصاب العقل الأمريكى بأحد إحتمالين ، إما القبول بالأفكار والنظريات دون تمحيص ، وإما معالجتها بعدم إكتراث أو حالة غياب اليقين ! ..



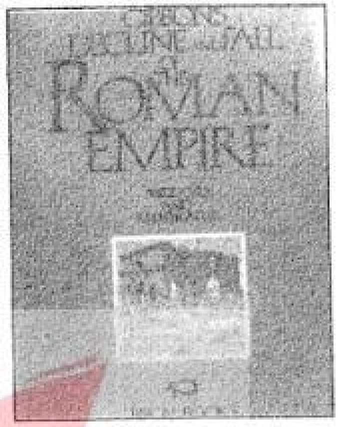
ادوارد جيبون

القيام والقعود

لذا برز على السطح موضوع كثيراً ماشغل المفكرين والمؤرخين ، وخاصة فى مراحل التحول والانتقال ، وهو « قيام وإنهيار القوى العظمى » ، أحيانا يشغلهم بهدف السعى للنهضة وأحيانا تجنبا للسقوط .

ومن أبرز الكتب الكلاسيكية التى عالجت هذا الموضوع ، كتاب « قيام وإنهيار الامبراطورية الرومانية » ، لكاتبه الإنجليزى إدوارد جيبون والذى صدر فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر ، ويلاحظ أنه كتب خلال حرب الامبراطورية البريطانية مع مستعمرتها الأمريكية ، أى وبريطانيا تتعرض للتهديد وخوفا من أن يكون إيذانا بانهيارها ! ..

ولم يكتف جيبون بالتاريخ لروما وحدها بل إمتدت دراسته لتعم الامبراطوريات التى تحيط بها ، واهتم إهتماما واضحا بالفتح الإسلامى والحروب الصليبية وقيام الامبراطورية العثمانية على أطلال القسطنطينية ، وبهذا عالج خلال سفره الضخم تاريخ الغرب وعلاقته بالشرق من القرن الأول الميلادى حتى القرن الخامس عشر .



سقوط الامبراطورية الرومانية

وجاء كتاب بول كنيدى ليكمله سواء من الناحية الزمنية أو الموضوعية . ويرى جيبون أن سقوط وإنهيار الدول يأتى من وصولها إلى درجة كبيرة من الرفاهية ، التى تؤدى بدورها إلى التحلل ، وتتعرض الامبراطورية المتسعة الأرجاء إلى الطغيان وتفشى الصراعات الداخلية ، ويعتبر جيبون أن غياب الحرية هو أحد أسباب إنهيار الامبراطوريات . ويرسم صورة لسقوط الامبراطورية الرومانية بقوله : «كان حكام القسطنطينية يقيسون عظمتهم بمقياس الطاعة الذليلة التى فرضوها على شعبهم ، ولم يدركوا أن هذا الخلق السلبى يضعف كل ملكات العقل ويورثها الانحطاط ... فكانت الحكومة الرومانية تبدو كل يوم أقل بأسا فى نظر أعدائها ، وأكثر ظلما ومقتا فى نظر رعاياها ، فالضرائب كانت تتضاعف مع تفاقم الضيق العام ، وكلما ألحت الحاجة إلى الاقتصاد زاد الإسراف ، وطرح الأغنياء الظالمون كل العبء عن كواهلهم ، وألقوه على كواهل الناس ، بل وتحايلوا على حرمانهم من المتع البريئة التى تخفف من بؤسهم ، وعمدت الحكومة إلى التحقيق والتفتيش ثم إلى مصادرة أملاكهم وتعذيب أشخاصهم ، هذا ما أرغم الرعايا على إيثار الأعداء وطغيانهم الأيسر إحتمالاً ، أو على الفرار إلى الغابات والجبال أو الهبوط إلى مراتب الخدم والمرتزقة حتى وصل بهم الحال إلى التبرم من لقب المواطن الرومانى، والذى كان يوما مطمح الجميع .... وظلت روما طويلاً قائمة على أنقاض الحرية والفضيلة » .

وهو كتاب بحق ملحمة إنسانية ينقل عبرة التاريخ ومأساته معاً .

وهناك حلقة تالية لبحث ذات المسألة ،

عصر الهيمنة الامريكية

وتساءل فى العصر الحديث أرنولد توينبى – وريث ابن خلدون – ما هو باب « الفناء » الذى تدلف إليه العديد من الحضارات بعد إزدهارها ؟ ..

ويجيب قائلا . « ينبئنا تاريخ أى مجتمع أنه عندما تتحلل اقلية مبدعة وتستمر مسيطرة تسعى إلى الإحتفاظ بمركز لم تعد جديرة به ، وأداتها القوة والقهر . ويحدث هذا التغير فى النخبة الحاكمة مما يعزلها عن مجموع المواطنين ، الذين لا يعودون يعجبون بحكامهم ولا يقلدونهم ، وتنتهى هذه الحالة بالتمرد عليهم » .. (مختصر دراسة التاريخ) .

ويرى أن أسباب إنهيار الحضارات تتمثل فى نفاد الطاقة الإبداعية فى النخبة المسيطرة ، مما يستتبعه رد مجموع المواطنين على طغيان الأقلية ، بسحب ولائها ، والعدول عن محاكاتها ، وفقدان الثقة بين الأقلية الحاكمة والأغلبية المحكومة الذى ينتهى بضياع وحدة المجتمع ثم إنهياره .

نهاية التاريخ !

ومن توينبى إلى بول كنيدى ، نعود إلى صيحة التحذير التى صدرت عام ١٩٨٨ ، الذى يعلن أن الفجوة بين التزامات الدول العظمى وبين قدرتها هى سبب إنهيارها ، ويرى أن الدولة تصعد وتمتد عندما تغريها إمكانياتها بالتوسع حتى تصل إلى لحظة من التاريخ تكتشف عندها – بعد فوات الأوان – أنها توسعت أكثر مما تقدر ، وهنا تبدأ فى التراجع ! ..

ويدور الكتاب حول الولايات المتحدة ، ومحاولة تطبيق نظريته عليها .

ولم يكن غريبا أن تتباين ردود الفعل على صدور هذا الكتاب .

إعتبره البعض عملاً قدرياً متعسفاً يستعجل النهاية ، وسلم البعض بأهميته وبالجهد الكبير المبذول فى جمع مادته وتصنيفها ووضع الحقائق جنباً إلى جنب ، وأثره الكبير على الفكر السياسى داخل أمريكا ، وصدور مثل هذا الكتاب أحد التقاليد الأمريكية ، فعندما إستاء وليم ليدرر أحد الكتاب الأمريكيين من أداء الدبلوماسية الأمريكية كتب « الأمريكى القبيح » والذى كان صيحة تنبيه سرعان ما غيرت من أداء الدبلوماسية الأمريكية ، ثم أعقبه بكتاب « أمة من غنم » ! .

ويشير بول كنيدى إلى إحتمالات إنهيار القوة الأمريكية بعد مرحلة أفول

عصر الهيمنة الامريكية

القطبية الثنائية ، وقد صدر كتاب آخر هو بمثابة « معكوس » كتاب كنيدى لمؤلفه فوكوياما تحت عنوان « نهاية التاريخ » ، والذى يرى أن التاريخ وصل إلى محطته الأخيرة بعد الانتصار الكبير الذى حققته الديمقراطية وانتشار طريقة الحياة الأمريكية ، والعالم يمر بمرحلة إنتصار الولايات المتحدة وشيوع أفكارها .

وتنبه الكونجرس لهذا الجدل ، وعقدت جلسات إستماع لمناقشة كتاب كنيدى وما ينبغى عمله حتى لا تترك الأمور دون تصحيح .

وقام الكاتب بمسح شامل « لمراكز القوة » فى العالم منذ عام ١٥٠٠ حتى عام ٢٠٠٠ ، وكيف ظهرت هذه المراكز ثم كيف تبدلت ، ويؤكد « أن مواطن القوة النسبية للأمم لاتبقى ثابتة نتيجة للمعدل المتفاوت للنمو بين المجتمعات المختلفة ومدى التطور التكنولوجى ، وكفاءة النظم التى تحقق للمجتمع ميزة أكبر من مجتمع آخر » .

ويشير الكتاب إلى زوال ما كان يعتبر لأكثر من ثلاثة قرون ، نظاماً عالميا يتمركز حول أوروبا ، بعد دخول قوى قارية كبرى كالولايات المتحدة وروسيا .

ويتحدث عن التحديات المختلفة التى تواجه الهيمنة الأمريكية ، ويضع الصين فى مكانة عالمية كمرشحة لمركز القوة الأعظم ، ولكن بمعاييرها وطريقتها الخاصة وليس تقليداً لأحد . ولا يستبعد وقوع أحد صور التقارب بين الصين واليابان .

كما يعتبر الكاتب أن القدرة على إتباع النظام الاجتماعى اليابانى المتميز أكثر التحديات صعوبة ، وهى سباق أشد من المنافسة السياسية والعسكرية مع الاتحاد السوفييتى ، فالتحدى الذى تمثله اليابان لايقتصر على إعفائها من الإنفاق العسكرى الضخم الذى فرض عليها بعد الحرب العالمية الثانية .

ولا يتصور الكاتب أوروبا الموحدة أكثر من مجرد تحد تجارى ، وليس تحديا إستراتيجيا للخلافات القائمة بين الدول الأوربية التى تمثل قوميات ولغات مختلفة وعقائد عسكرية متباينة . وسيصل سكان أوروبا الموحدة إلى ٣٢٠ مليونا أى يزيدون ٥٠ مليونا عن سكان الاتحاد السوفييتى وحوالى ١٠٠ مليون عن سكان الولايات المتحدة ، وبعض دولها تفوق - من حيث دخل الفرد - الولايات المتحدة ، وهى أكبر كتلة تجارية فى العالم .

ثم يذكر المشاكل التى يواجهها

عصر الهيمنة الامريكية

الاتحاد السوفييتي وعلى رأسها المسألة الزراعية ، والذى يحتاج لاستثمارات زراعية تصل إلى ٧٨ بليون دولار سنويا للحفاظ على مستوى المعيشة ، كما يحتاج إلى ٥٠ بليون دولار لدعم أسعار المواد الغذائية ، أما الصناعة فتعانى من التخلف والركود بعد أن اقتربت مراحل التوسع السهل من نهايتها ، كما تعانى الصناعة من نقص فى التكنولوجيا المتقدمة مثل الروبوت والكمبيوتر والليزر ووسائط الاتصال الحديثة .

ومشكلة التكنولوجيا الجديدة ليست مرتبطة فقط بضخامة الاستثمارات بل إنها تتحدى أيضا النظام السوفييتى القائم على السرية والبيروقراطية .

ويضرب مثلاً مأساويا على ما يمكن أن تحدثه الفجوة التكنولوجية ، ويذكر معركة أم درمان عام ١٨٩٨ ، عندما إستطاعت البنادق لى أنفيلد ومكسيم مع قوات كيتشنر أن تحصد أرواح « ألف مقاتل من الدراويش » ، فى مقابل ٤٨ رجلاً من قوات كيتشنر .

أمريكا القرن ٢١

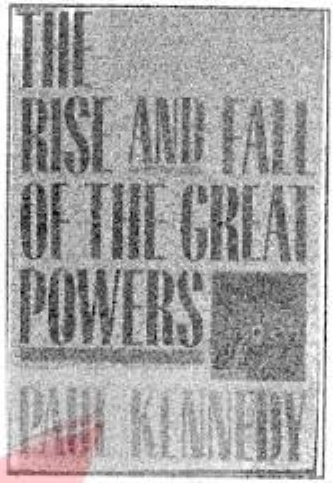
تصل إلى الولايات المتحدة القوة العظمى الأولى فى العالم ، والتى يقع عليها عبء توفير ظروف معينة تتمكن خلالها من تحقيق التوازن بين قدرتها الإنتاجية وبين تجدد مواردها وبين قدرتها العسكرية .

ويرى كنيدى أن نصيب الولايات المتحدة من القوة العالمية يتراجع نسبيا بشكل أسرع رغم بقاء القوة المطلقة للولايات المتحدة ، وعلى الرغم من أن أمريكا مازالت تمثل قوة متميزة اقتصاديا وعسكريا فإنها لا تستطيع أن تتفادى مواجهة أحد مصيرين :

- أن تكون قادرة على الإستمرار ، وأن تحافظ على توازن معقول بين متطلبات الدفاع والدور العالمى وبين الوسائل الفعلية للإبقاء على هذه الإلتزامات .

- أن تحافظ على قدرتها على التطور التكنولوجى وحماية ثروتها الاقتصادية من التفتت النسبى فى مواجهة الأنماط المستمرة التغير للإنتاج العالمى .

أى عليها أن تتجنب التوسع الإمبريالى الذى يفوق الامكانيات والقدرات الفعلية ، وأن تجد حلا للمعضلة المتمثلة فى أن مجموع المصالح والالتزامات الأمريكية العالمية القائمة أوسع بكثير من قوة الولايات المتحدة وقدرتها على الدفاع عنها جميعا فى وقت واحد . ويرتبط بتلك العلاقة بين القدرة والرغبة ذلك التراجع النسبى



صعود وهبوط القوى الكبرى

في الصناعة وحجمها في الإنتاج العالمي ، والتي لم تتأثر فقط الصناعات التقليدية مثل المنسوجات والحديد والصلب وبناء السفن بل وتأثرت أيضا الصناعات الدقيقة ذات التقنية العالية ، مثل الروموت والكمبيوتر ومعدات صناعة الفضاء .

وهى معضلة ليس لها حل فإما الخارج وإما الداخل .

ويورد الكاتب دراسة للكونجرس الأمريكي تؤكد أن الفائض التجاري الأمريكي في المنتجات ذات التكنولوجيا العالية قد إنحدر من ٢٧ بليون دولار عام ١٩٨٠ إلى أربعة بلايين دولار عام ١٩٨٥ ، ويشير إلى إضطرابات غير مسبوقة في الأوضاع المالية الأمريكية .

ويصل الكاتب إلى السؤال الجوهري .. هل تستطيع أمريكا أن تحافظ على مركزها العالمي الراهن ، كقوة أولى في العالم ؟ .. ويجيب بالنفي ، فلم يتح لأي مجتمع عبر التاريخ أن يظل متقدما على غيره من المجتمعات ، ولا يعني هذا – في رأيه – أنه محكوم على أمريكا بالانهيار مثلما حدث مع قوى عظمى سابقة ، فهي تملك أن تتجنب هذا المصير ، إذا أدركت حقيقة ما يجري في العالم ! ..

وأختم هذا المقال ، بما ذكره جورج كينان السياسي الأمريكي الشهير ، وهو يلقي حزمة ضوء أخرى على الجدل الدائر في أمريكا .. يقول :

« كان شعار إنتصار أمريكا في الحرب الباردة شعاراً غير صحيح ومؤسفاً ، فإدعاء أن هذه الحرب قد إنتهت هو مجرد وهم ، فالحرب الباردة لم تنته وأمريكا لم تنتصر .

اللاعبون تغيروا ، نعم ، وأسلوب المواجهة إختلف .

فى ذكرى ثورة غابرة

بقلم : عبد الرحمن شاكر

مر شهر أكتوبر من هذا العام ، وقد احتفلنا فيه بذكرى حرب أكتوبر المجيدة من عام ١٩٧٣ ، ولكن ذكرى «أكتوبرية» أخرى لم يلتفت إليها أحد ، أو يعتنى بالاحتفال بها . ومرت كأن لم تكن وتلك هى الثورة البلشفية من عام ١٩١٧ ، والتى كان يجرى الاحتفال بها كل عام أيام كانت هناك دولة كبرى تسمى إتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية ، وتدعى اختصارا باسم الاتحاد السوفييتى ، فقد اقتصر الاحتفال بالثورة البلشفية هذا العام ، على بعض المظاهرات الصاخبة فى موسكو وكييف ، ترفع صور لينين وتطالب بعودة الاشتراكية .

يمر هذا العام ، وقد مضى على ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى ، كما كانوا يسمونها خمسة وسبعون عاما أى «اليوبيل الماسى» لتلك الثورة لو وجدت من يحتفل بها . ولكن منذ بداية هذا العام بالتحديد لم يعد هناك كيان دولى يحمل اسم الاتحاد السوفييتى ! لم يتول أحد من خارجه تدميره كما حاول هتلر فى الحرب العالمية الثانية ، أو كما ظلت الدول الامبريالية فى الغرب متهمة بذلك طوال التاريخ القصير نسبيا لذلك الاتحاد . ولكن نهايته كانت لأن أبناءه أرادوا ذلك ، وكان حله على أيديهم [illegible] ، وتحولت بلادهم إلى جمهوريات مستقلة يضمها كومنولث واهى العرى بعد أن كانت دولة عظمى موحدة .

الثورة والثورة المضادة

ولكن : هل تخرج ثورة من التاريخ ، لمجرد أن أبناءها فى مرحلة تاريخية محددة وظرف تاريخى معين ، قد أداروا ظهورهم لها ، وشرعوا يبصرون معظم ما أنجزته أو توهمت أنها أنجزته ؟

ما أظن ذلك ، وكل الثورات تتعرض



الثورة البلشفية ١٩١٧

للردة ، أو للانقلاب عليها ، أو تحتني للثورة المضادة لها . ولكن الثورة تبقى بعد ذلك في التاريخ حدثا [illegible] لا يستحيل إلى حذفها منه أو استبعاد تأثيرها فيه.

وبديهي أن يدخل في تشكيل واقع الثورة ، التركيبة الخاصة للمجتمع الذي ثار ، أو وقعت فيه الثورة . وكما تحمل تلك التركيبة بذور الثورة التي انطلقت منها فالأرجح أيضا أنها تحمل بذور الثورة المضادة ، أو الثورة على الثورة ، بحيث تفرغ بعد حين منها ، أو من الضرورة التي أنشأتها بعد أن زالت ، وتتخلص من كثير من الأوضاع التي ترتبت مباشرة عليها - تطبيقا - غير مقصود في الغالب - لفكرة أن التطور لا يأخذ خطا مستقيما ، وإنما يسير في دوائر حلزونية متصاعدة ، تقع فيها العودة إلى نقطة انطلاق سابقة ، ولكن على مستوى أعلى ، ودونما ارتداد جوهري إلى [illegible].

سجن الشعوب

وتصبح المسألة أشد تعقيدا ، حينما يكون المجتمع الذي انطلقت منه الثورة ، هو في حد ذاته مجتمعا مركبا وليس مجتمعا بسيطا متجانسا ، كما كان الحال بالنسبة للامبراطورية الروسية التي انطلقت مثل ثورة أكتوبر الاشتراكية في عام ١٩١٧ . فقد كان ثوار ذلك التاريخ يطلقون على تلك الامبراطورية الضخمة اسم «سجن الشعوب» ، لأن الاضطهاد

السياسي والاستغلال الاقتصادي لم يكونا واقعين على الشعب الروسي وحده، ولكن أيضا على مجموعة أخرى من الشعوب تعيش معه في أسر تلك الامبراطورية وتمثل نصف سكانها، وتعاني كما يعاني الشعب الروسي من القهر والاستغلال، مضافا إليه قمع شخصيتها الوطنية وإنكار ثقافتها الخاصة واغتيال تطلعها إلى الوجود المستقل.

حقا، لم تكن الثورة البلشفية في أكتوبر عام ١٩١٧، هي التي قضت على القيصرية، رمز الاستبداد السياسي والقهر الوطني للشعوب التالية، وإنما كان ذلك في ثورة فبراير من نفس العام، الثورة التي اشتركت فيها مختلف القوى الديمقراطية، بما فيها الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي، بجناحيه البلشفي بزعامة «لينين»، والمنشفيك بزعامة مارتوف، وأتت هذه الثورة بحكومة كيرنسكي المؤقتة إلى السلطة.

مفاهيم ثورة أكتوبر

لا يستطيع يلتسين الرئيس الحالي للجمهورية الروسية، والذي أعاد علم القياصرة بدلا من علم البلاشفة ذي المنجل والمطرقة، أن ينسب نفسه وحكومته إلى القيصرية بل ولا إلى حكومة كيرنسكي «الديمقراطية» لأن تلك كانت حكومة لكل الامبراطورية الروسية، أما يلتسين فيحكم واحدة من الجمهوريات «السوفييتية» السابقة فحسب، لأن تحرير «التوابع» ولو من الناحية الرسمية، ورفعها إلى مستوى جمهوريات، تتساوى نظريا مع الجمهورية الروسية في إطار الاتحاد السوفييتي السابق، ويعد زواله، هو بالتأكيد أحد إنجازات ثورة أكتوبر الاشتراكية، دون سواها.

ذلك لأن ثورة أكتوبر كانت تنطلق من مفاهيم ومدركات ثورية، لاتلحق بها الأحزاب الأخرى التي شاركت معها في ثورة فبراير الديمقراطية، كانت تنطلق من فكرة المساواة الكاملة في كل شيء، ما بين الطبقات الاجتماعية من ناحية، كانت الدول الصناعية المتقدمة في غرب أوربا مثل ألمانيا وفرنسا وانجلترا، تعج بالحركات العمالية والاشتراكية، وفي ألمانيا بالذات طور ماركس، انجلز فلسفة الاشتراكية، وأعطياها لقبا فخما هو «الاشتراكية العلمية»، وذهب ماركس في تحليله للنظام الصناعي الرأسمالي، في كتابه الشهير «رأس المال»، إلى تأكيد أن استمرار النمو الرأسمالي لابد أن يفضي في النهاية إلى تحول رئيسي في المجتمع الصناعي الذي أنشأه بأن تستولى الطبقة العاملة المتزايدة عددا ووعيا وتنظيما في ظله على مقاليد الأمور في المجتمع، بما في ذلك السلطة السياسية، وتحقق الاشتراكية عن طريق تأميم الصناعات الرئيسية، ومختلف وسائل

الإنتاج . وبالرغم من أن روسيا لم تبلغ فى تطورها الصناعى المدى الذى بلغته الدول الصناعية الرأسمالية المتقدمة ، فإن لينين زعيم الثورة البلشفية ذهب إلى تأكيد أن البروليتاريا الروسية يمكنها أن تكون بحكم التناقضات التى تسود المجتمع الروسى وتجعل روسيا حبلى بالثورة - على حد تعبيره - فى طليعة الطبقة العاملة العالمية . كان يظن أن استيلاء البلاشفة الاشتراكيين على السلطة فى روسيا ، سوف يفتح الطريق للطبقات العادلة فى غرب أوربا لمحاكاتها وإسقاط النظم الامبريالية الرأسمالية فيها .. ولما لم يتحقق هذا التوقع ، قرر أن تكون استراتيجية حزبه هى « تدعيم ديكتاتورية البروليتاريا فى بلد واحد واتخاذها قاعدة لاسقاط الامبريالية فى جميع البلدان » .

وإزاء هذا التهديد من البلد الذى حكمه الاشتراكيون لأول مرة ، حاولت الدول الرأسمالية الامبريالية من جانبها القضاء على الثورة فى مهدها ، وذلك بشن حروب التدخل ضدها ، ولكن هذه الحروب لم تفلح فى إسقاط الثورة ، بفضل تعاطف عمال العالم الصناعى المتقدم معها ، حتى ولو لم يسلكوا طريقها .

فى سبيل البروليتاريا

وفى سبيل تدعيم «ديكتاتورية البروليتاريا فى بلد واحد ، قضى لينين على الحريات الديمقراطية المكتسبة فى ثورة فبراير ١٩١٧ ، وحل الجمعية التأسيسية التى انتخبت لتصنع دستورا لحكم البلاد ديمقراطيا ، كما قضى على سائر الأحزاب السياسية الأخرى معلنا أن ديكتاتورية البروليتاريا تعنى ديكتاتورية حزبها ، أى الحزب البلشفى ، الذى لم يكن فى الواقع عماليا تماما فى تركيبه العضوى بل كانت قيادته ومعظم الكوادر الرئيسية فيه من المثقفين وذوى الأفكار الثورية وعلى رأسهم لينين ذاته . وكانوا يزعمون لأنفسهم تمثيل المصالح العليا ليس للعمال الروس وحدهم ، بل للطبقة العاملة العالمية أيضا !

وبعد انتهاء حروب التدخل تخلى لينين عن « شيوعية الحزب » التى فرضت المساواة شبه الكاملة ما بين الجميع ، وسمح بقدر من الارتداد إلى الرأسمالية تحت اسم « السياسة الاقتصادية الجديدة » لكى يسمح بزيادة النشاط التجارى ، وبالتالى استخدام قوى السوق فى تنمية اقتصاد البلاد المنهار .

ولكن ما لبثت أن تحولت الدولة السوفييتية عن هذا الطريق ، بعد أن أدى دوره فى إنعاش الاقتصاد ، وخاصة بعد وفاة لينين . وأكثر من ذلك فإن خليفته ستالين ، من أجل تحقيق النهوض السريع للصناعة المؤممة ، فرض سياسة المزارع الجماعية على الفلاحين ، الذين سبق للثورة فى بدايتها أن وزعت عليهم الأرض ، وأوجد بذلك أول تناقض صارخ ما بين

القوى الثورية ، وقضى عمليا على تحالف العمال والفلاحين ، الذى هو أساس السلطة السياسية ، كما يدل عليها علم الدولة السوفييتية ذى المنجل والمطرقة ، وأصبح حكم البلاد فى عهده استبداديا مطلقا ، السلطة العليا فيه للمكتب السياسى للحزب البلشفى بزعامته ، وأداة الحكم فيه قوى القمع البوليسية ورجال الكى .. جى . بى أى المخابرات العامة .

أما من الناحية القومية فبالرغم من المساواة التى أعلنتها الثورة ما بين مختلف الجمهوريات التى تشكل الاتحاد السوفييتى فإن ضرورة الاحتفاظ بالدولة الاشتراكية موحدة ، قد اقتضى أشكالا من التحكم المركزى لا تقل عسفا عن ممارسات القيصرية .

ولقد ساعد التهديد الخارجى على زيادة العسف الاستبدادى فى أرجاء الدولة السوفييتية ، حتى أصبحت أشبه بالقلعة العسكرية المحاصرة ، وسخر اقتصادها الصناعى والزراعى لصنع الأسلحة ترقبا للصدام المرتقب مع الدول الامبريالية المتربصة بها ، وحرمت الشعوب السوفييتية بذلك من كثير من ثمار عملها . وقد وقع الصدام المرتقب بالفعل بنشوب الحرب العالمية الثانية ، وقيام الحكم النازى فى ألمانيا باجتياح روسيا ، بهدف اسقاط الشيوعية فى مهدها ، وتحويلها إلى سوق واسعة للصناعة الألمانية ، ولكن الاتحاد السوفيتى خرج منتصرا من تلك الحرب ، ودالت دولة النازى فى ألمانيا ، وبدأت مواجهة جديدة مع حلفاء الأمس ، وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية ، وأصبح كل منهما ، الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة الأمريكية على رأس معسكر دولى كبير معاد للآخر ، واستعرت بينهما «الحرب الباردة» وسباق التسلح ، بما فى ذلك صنع الأسلحة النووية والصواريخ التى تحملها .

تحول تاريخى

ثم بدأ التحول التاريخى بعد وفاة ستالين فى عام ١٩٥٣ ، وتولى نيكيتا خروشوف ، منصب الأمين العام للحزب البلشفى ، حيث أعلن فى المؤتمر العشرين لهذا الحزب المنعقد فى عام ١٩٥٦ ، أن الاشتراكية قد أصبحت نظاما عالميا لايمكن قهره ، وأن التعايش السلمى بين النظامين قد أصبح ممكنا ، وأدان سياسة عبادة الفرد التى كانت تمارس فى عهد ستالين ، كما كشف عن الكثير من مظالمه ، التى لم يسلم منها حتى رفاقه الشيوعيون.

وبعد فترة من التردد استعر فيها سباق التسلح والسعى لاقتسام مناطق النفوذ بين المعسكرين ، جاء جورباتشوف فى عام ١٩٨٥ ، ليستأنف عمل خروشوف فى التحول الديمقراطى والسعى إلى إنهاء الحرب الباردة .

ولكن الموجة العارمة التى أطلقها جورباتشوف بسياسته فى إعادة البناء أو البرويسترويكا ، والجلاسنوست (أى

المكاشفة والمصارحة) ، ودعوته إلى إدخال اقتصاد السوق - على نحو ما فعل لينين في سياسته الاقتصادية الجديدة - من أجل استخدام التكنولوجيا المتطورة في الغرب الرأسمالي ، لم تقف عند حد ، وكنست في طريقها فكرة المجتمع الاشتراكي كلها ، بما في ذلك وحدة الجمهوريات السوفييتية ، وفي أواخر عام ١٩٩١ ، تم حل الاتحاد السوفيتي ، وفقد جورباتشوف منصبه كرئيس لهذا الاتحاد، وكأمين عام للحزب البلشفي الذي جرى حله بعد محاولة الانقلاب في أغسطس .

تفسيرات متعددة

وتختلف التعليلات في تفسير هذا التحول بالذات ، حيث كان من الممكن نظريا أن تسود الديمقراطية ، بل أن يتم التحول إلى اقتصاد السوق دون أن يفقد الاتحاد السوفييتي وحدته . ولكن حكام روسيا وعلى رأسهم يلتسين يذهبون إلى أن جمهورية روسيا كانت تحمل على كاهلها عبء الاقتصاد المتخلف في الجمهوريات الآسيوية ، ولكن هناك تفسيرا آخر قدمه الرئيس الأمريكي الأسبق نيكسون في كتابه بعنوان « لنتنهز الفرصة » ، حيث يقول إن الاتحاد السوفييتي لو بقي موحدا حتى القرن القادم لأصبح المسلمون أغلبية فيه ، لأن شأنهم شأن المسلمين في كل أنحاء العالم كثيرو التوالد !

أما المسألة القومية فالاضطرابات العرقية تسود كل مكان من الاتحاد السوفييتي السابق ، والاتحاد الروسي ذاته مهدد بالانحلال مثل سابقه الاتحاد السوفييتي ، فقد استقلت بالفعل جمهورية شيش والانجوش ، وتسعى تتارستان وغيرها للاستقلال ، ورغم القيادة العسكرية الموحدة فلا تزال الجمهوريات التي تملك أسلحة نووية مثل كازاخستان ترفض تسليم سلاحها لروسيا التي قيل مؤخرا إنها قد باعت سلاحا نوويا لإيران ، وتشير دلائل كثيرة إلى أن الروس يساعدون أبناء جلدتهم السلاف من الصرب في ضرب أبناء البوسنة والهرسك من المسلمين ، مما يعني فشلا كاملا لكل ما حاولته الثورة الروسية من تثبيت فكرة الأخوة الإنسانية والمساواة بين الشعوب ، وفي ظل موجة من التعصب العنصري تجتاح ألمانيا من جديد على غرار النازية التي حاولت تدمير الاتحاد السوفييتي والقضاء على مبادىء ثورته التي يتنكر لها أبناؤها الآن .

فهل تستسلم البشرية ، والشعوب السوفييتية من بينها لنزعات التعصب العرقي والعنصري بإعتبار ذلك ضربا من ممارسة « الديمقراطية الوليدة» في تلك البلاد ، إن ذلك يعد من سخرية التاريخ ، ولابد من أن تكون هناك صيغة أكثر رقيا للجمع ما بين مبدأى الحرية والمساواة على نحو صحيح .

قصة قصيرة : بقلم فريدة مرعي

أرى .. وأسمع .. وأتكلم

اللوحة (١)

- لا .

قلتها عالية هادرة غاضبة وحاسمة .

(٢)

كنت هذه المرة قد اتفقت مع نفسي أن ألزم حدودي وأن أكف عن دس أنفي فيما لايعنيني بعد أن هجرني الناس ، حتى الأصدقاء قد باتوا يخشون سلاطة لساني وأصبحوا يعملون ألف حساب لما أجره عليهم من مشاكل .

(٣)

سمعت السائق يحدث أحد الركاب متحسراً « لما كانوا هنا كانت البلد زي الفل لا زبالة ولا دبان» تشاغلت بالنظر إلى الطلاء الأحمر في أظافري وإلى الحذاء الجديد . تذكرت قول صديقتي أنني يجب أن أهتم بمظهري لأكون على مستوى زميلاتها في الرحلة .

(٤)

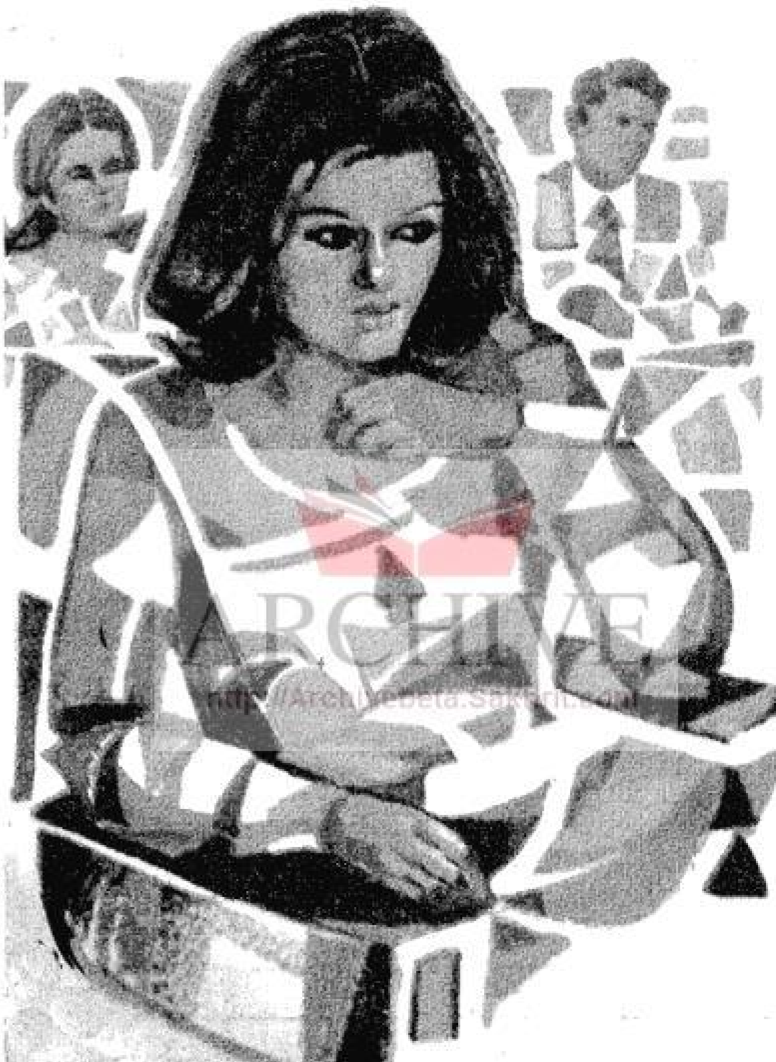
«أما الخضار والفاكهة فقد كانوا على قفا من يشيل . دلوقتي مافيش إلا البطيخ وإن لحقته» . سليت نفسي بمتابعة عادل إمام على الشاشة الصغيرة . أدرت محطات الراديو الترانزستور الذي أهداه على أنني وسمعت «الحكم بالسجن عشرين عاماً على كل من يقذف سيارة اسرائيلية بالطوب» .

(٥)

«كنا بنلعب بالفلوس لعب والشغل كان زي الرز» . أخذت أجرب الزراير الكثيرة على جانبي الكرسي الفخم البطن بالقطيفة . اكتشفت أن أحدها للتكييف ، وآخر للإضاءة ، وثالث لإمالة ظهر المقعد إلى الخلف حتى يستريح الراكب . فكرت فجأة في سياسة الانفتاح الاقتصادي وتبين لي أنها ليست بالسوء الذي يدعيه بعضهم . شكرتها في سري على كل هذه النعم وإلا فكيف يستطيع المواطن أن يسافر ساعة أو ساعتين دون زر للتكييف وآخر للإضاءة وثالث لتحريك ظهر المقعد . حزنت جدا على أبي وأمي اللذين ماتا قبل أن يلحقا بركب التقدم والمدنية .

(٦)

قاطعه الراكب فجأة : وماذا كنت تفعل بكل هذه الفلوس ؟ . أجاب السائق



بريشة الفنانة : سميحة حسنين

أنه كان يذهب إلى اسرائيل فى عطلة الاسبوع لكى يشرب وينبسط . تململ لسانى فى حلقى ... ، وقبل أن أمنعه سمعته يقول : يعنى كانوا بياخدوا منك بالشمال ما يعطونه لك باليمين !

(٧)

لت نفسى كثيرا على تدخلى .

(٨)

هرش السائق رأسه متفكرا تأملنى فى غباء ، ثم هز كتفيه وقال إنه لم ينظر للأمر بهذه الصورة .

(٩)

أوقف السائق الاتوبيس السياحى الفاخر . أعلن المشرف أننا وصلنا إلى مدينة رفح المصرية . قال أننا المفروض أن نتوقف ساعة واحدة فقط حسب البرنامج ولكنه يسمح بساعتين «لأن البضايع هنا جميلة ورخيصة ولافيش زحمة ولا طوابير جمعية » .

(١٠)

أعربت المرأة البيضاء الضخمة ذات الشعر المصبوغ التى كانت تجلس خلف السائق عن سعادتها البالغة لوجود المكسرات بوفرة فى هذه المدينة ، وأنها أتت خصيصا لأن رمضان على الأبواب وهى لاتستطيع أن تأكل الكنافة بدون مكسرات «والله يجازيك ياللى فى بالى ، حرمتنا من المكسرات رمضان اللى فات . هيء هيء هيء » .

(١١)

نزلنا جميعا من السيارة فى همة ونشاط وقد شمر الجميع عن سواعدهم استعدادا لمعركة الشراء من الأسواق .

(١٢)

تجولت فى المحلات اقلب فى البضائع . أعجبتنى حقيبية يد مصنوعة من البلاستيك تصلح لجميع الاغراض . فتحت حقيبتى وأعطيت البائع النقود .

(١٣)

تفحصت الحقيبة فى إعجاب . وقع بصرى على كتابة بالخط الصغير جدا. تبين أنها كتابة باللغة العبرية . خطفت النقود التى كانت لاتزال فى يد البائع وأعدت إليه الحقيبة فى غضب لم يفهمه .

(١٤)

ذهبت إلى محل آخر، وآخر ، وآخر . وجدت أن كل البضائع عليها كتابة بالخط الصغير جدا . تمشيت إلى نهاية السوق حيث توجد منطقة الحدود . نظرت إلى العلم المصرى ثم إلى العلم ذى النجمة السداسية المعلق على الجانب الآخر . سمعت الصبى الصغير يسأل العسكرى المصرى وهو يشير على الناحية الأخرى : هى دى يأه

اســرائيل ؟ . أجـاب العسكرى النحيل الأسمر وكأنه يسلم الامانة لمن سيحملها بعده : دى فلسطين المحتلة .

(١٥)

هاهو ذا واحد يعرف أصل الأشياء .

(١٦)

عدت بمفردى إلى الأتــوبيس الخـــالى من الركاب .

(١٧)

بعد ساعة بدأ الركاب يتوافدون إلى الاتوبيس وكلهم محملون بكثير من اللفائف .

(١٨)

حملق فىّ الجميع بدهـــشة . ســـألتنى إحداهن : اشتريت شاى؟ قلت فى أدب : لا . قالت: مش معقول ! ده الشاى بجنن ورخص التراب . سألتنى أخرى : اشتريتى كاكاو ؟ قلت : لا. قالت : ده كاكاو أصلى ، مش مخلوط زى بتاعنا . سألت أخــرى : اشـــتريتى صابون ؟ لا . اشتريتى جوز الهند ؟ لا . قالت المرأة الضخمة : يبقى اشتريتى مكسرات . قلت بقلة أدب : لا . قالت فى استنكار وهى ترفع حاجبيها إلى أعلى : أمال حتاكلى الكنافة بإيه ؟

(١٩)

نفد صبرى . انفقعت مرارتى . وقفت فى وسط الاتوبيس وصحت بأعلى صوتى : لا خرجت اللا من قلبى .. من عقلى .. من غضبى .. من هزيمتى .. من مهانتى أعلنت أننى ساكل كنافة محشوة بالسودانى .. ساكل كنافة بدون حشو .. لن اكل كنافة مطلقا ، ولكننى لن آكل كنافة محشوة بدماء أطفال ذُبحت ، معجونة ومخلوطة ببطون نساء بُقرت ، ومطهية على رائحة جلود شباب احترقت بالنابالم .

(٢٠)

ساد الصمت . خيم الوجوم على الجميع . أعلن المشرف - الذى كان الشر يتطاير من عينيه قطع برنامج الرحلة والعودة فورا إلى القاهرة «لأننا جايين نتبسط مش جايين نتنكد» .

(٢١)

انحنت علىّ صديقتى وقالت بغيظ أن دى آخر مرة تاخدنى معاها فى أى حتة لأنى «دايما كاسفها ومجرساها ومخلية رقبتها قد السمسمة » قالت إنها بصراحة لا ترى أى علاقة بين الكنافة وبين كل الكلام الفارغ اللى أنا قلته ثم اشاحت بوجهها غاضبة .

(٢٢)

فتحت كتابى وقرأت

«سأحمل روحى على راحتى
وألقى بها فى مهاوى الردى
فإما حياة تسر الصديق
وإما ممات يغيظ العدى»

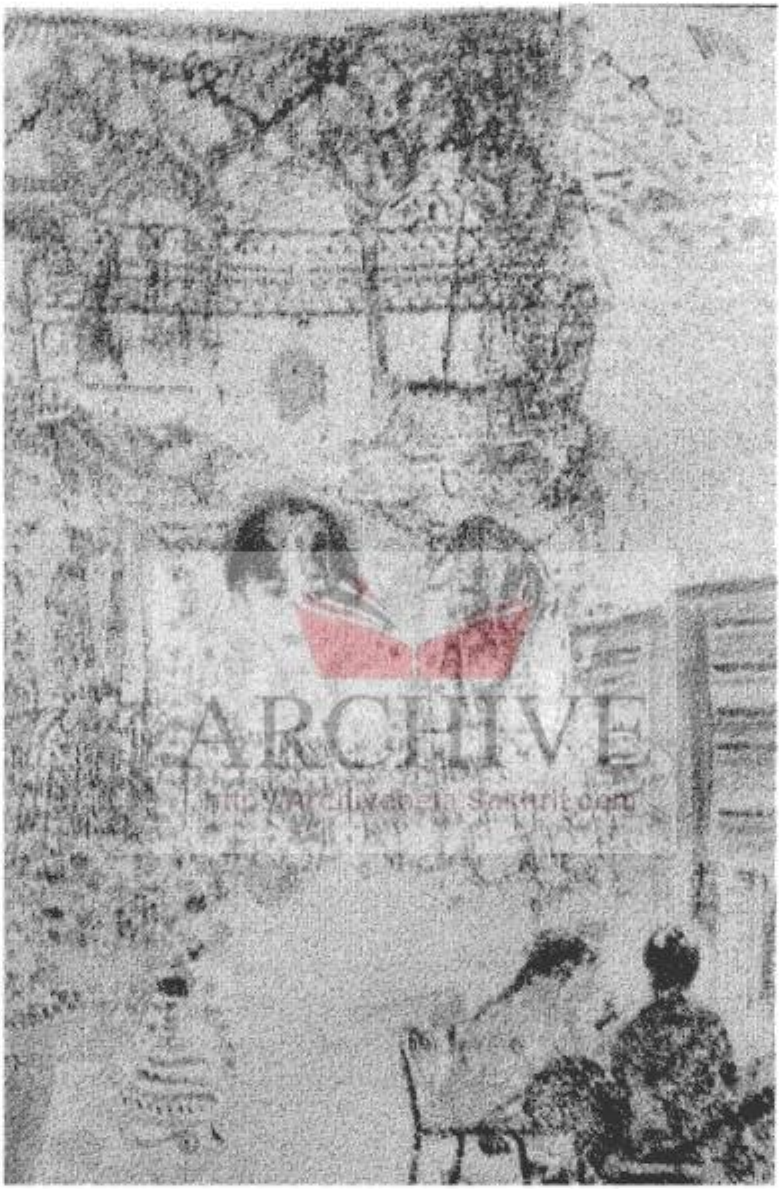
معرض الفنانة نجاح طاهر



أغنية للماضى الذى كان !

بقلم : عز الدين نجيب

فن الرسم بالألوان المائية عالم خاص للغاية، هو السهل الممتنع، هو أداة الطفل اللاهى فى جدية الكبار ، وأداة الفنان المحنك فى لهو الأطفال ، ومن ثم نجد أنه لا يدرس فى أكاديميات الفنون، ولا يقبل على التعامل معه من الفنانين إلا ندرة



فتاة مغربية ، صبرا !

معرض الفنانة نجاح طاهر

بالرغم من أن أى مصور – أو حتى نحات – لا تكاد تخلو أوراقه الخاصة وتجاربه المعملية من رسوم بالألوان المائية ، لكنه لا يعرضها على الناس فى الغالب ، لأنها انطباعاته العفوية أو مكابداته البحثية وراء الشكل الهلامى واللون المراوغ ، إنه فن ينطوى على سحر غريب ، فيه شىء غامض يسلب لب الفنان ، فهو قد يعرف النقطة التى يبدأ منها لوحته على سطح الورق الجاف أو المبلل ، لكنه لا يعرف إلى أين تقوده هذه النقطة ومتى يتوقف .. إن اللون يسرى على السطح مسرى الحلم غير المنطقى ، أو مسرى المياه الجوفية اللامرئية ، وينشع متشعبا فى تعرجات لها قانونها الذاتى ، ويومض بتجليات ذات إبهار لونى وضوئى يصعب التكهن به ، لأنها وليدة تداخلات وامتزاجات الصدفة والشفافية الدنية .. وهكذا حتى يكتشف الفنان فجأة أنه وصل إلى لحظــة الاقتناص ، أو اقتناص اللحظة ، وسعيد هو الفنان الذى يتمكن من السيطرة على هذه السيولة الضرابية وتوجيهها إلى غاية نصف محسوبة ، بحيث لا تفقد تلقائيتها وطزاجتها ، مما يجعل هذا الفن جديرا باسم « فن الصدفة الموجهة » ويجعل من يمتلك من الفنانين ناصيته ويكتشف أسراره ، يتخصص فيه ويهبه حياته .

من هؤلاء الفنانين ، رسامة عربية من لبنان الشقيق ، أقامت معرضها بأتيليه القاهرة فى الشهر الماضى ، هى نجاح طاهر ، ونجاح ليست وجها جديدا على الحركة الفنية فى مصر ، فلا يكاد عام يمر دون أن تأتى لزيارة القاهرة والتعرف على ابداعات الفنانين فيها ، إضافة إلى اهتماماتها بالحركة الثقافية عامة ، بحكم اشتغالها فى بيروت فى مجال تصميم أغلفة الكتب ، مما أتاح لها التعرف على نخبة من الكتاب والمثقفين المصريين قبل أن تراهم . ومنذ عامين حملت لوحاتها إلى مصر وعرضتها بأتيليه القاهرة ، فتركت صدى عميقا كان له دور هام فى الإقبال على معرضها الأخير .

وكعادتها ، قدمت نجاح معرضها الجديد تحت عنوان شعرى هو « كان المكان » وقدمته فى الدليل المطبوع بكلمة أقرب إلى الشعر تقول : « نذهب إليه ، لنكتشف أنه ينتظرنا ، وننتظره فنرى أنه سبق أن جاء ، نشهد له ، نتعرف إليه ، فنعرف أنه كان ! ... »

إن المكان فى لوحاتها – سواء فى معرضها الجديد أو السابق – يمثل دور البطولة غالبا ، وهو مكان داخلى ، منزلى ؛

حجرة ، قاعة عتيقة ذات أعمدة وعقود ، نافذة ذات طراز قديم مغطاة بستائر أو بحديد مزخرف ، والأشخاص فيه يقفون ثابتين بغير حراك وقد تجمدت فى عيونهم النظرات ، أو تجمدت فوق شفاههم البسمات ودون أن تحمل معنى ، وقد تباغتنا بمشاهد لا تخلو من طرافة مستمدة من صور الزفاف التذكارية القديمة فى أوضاع للعروسين مواجهة للكاميرا ، والعريس يختال بطربوشه المائل وشواربه المفتولة ، وربما كان هذا هو الرجل الوحيد الذى عثرت عليه فى لوحات المعرض كله ، فيما نجد المرأة أو الفتاة أو الطفلة يتخذن أوضاعا ثابتة فى أكثر من لوحة ، فنرى إحداهن تقف متمايلة متباهية بفستانها المزركش مثل عارضة أزياء ، يخلفها مبنى عتيق تبدو عليه آثار حريق ، مما يحدث مفارقة غريبة ، ونرى أخرى شاخصة بنظراتها فى ذهول ، وثالثة مستسلمة فى حزن تحت جذع نخلة ، ورابعة أمام نافذة أو جدار كمن تبكى الأطلال أو تطل على عالم غير مرئى ، لكنها فى لوحات أخرى تبدو وكأنها جزء من زخرفة المكان أكثر مما تمثل حضوراً إنسانيا .

إن الفنانة لا تفصح عن طبيعة الأماكن التى تصورها ، ولا عن معان معينة أو مشاعر واضحة ، إننا إزاء حالة من الحياد واللا مبالاة الظاهرية للأشخاص أمام كل



الفنانة نجاح طاهر

ما يحدث ، وهى لا تحاول أن توحى لنا بأنها تبعد عن بيروت أو لبنان أو عن بلد معين ، لكن شيئا ما وسط هذا كله يشعرنا بأنها ترسم وفى مخيلتها أو عقلها الباطن كل ما حدث فى لبنان من حروب ودمار خلال السنوات الماضية ، إلا أنها ترفض وتهرب منه كما تهرب من كابوس ، وتعود إلى الزمن الماضى (الجميل) قبل هذا الكابوس ... هل استجابة لقانون الحياة التى لن تتوقف مهما حلت الكوارث ؟ .. هل سخرية من سلبية البشر أمام ما حدث وارتدادهم إلى ماضيهم وانغماسهم فى عوالمهم الذاتية ؟ .. أم أنها تعنى بيروت ذات الشخصية المزدوجة – من الحياة والموت – فى وئام أو قدرية ؟ ! .

لكن فى أسلوبها للتعبير عن هذا العالم (الموجود / اللاموجود) أو (الحقيقى / الوهمى) شيئا يعارض ويعاند طبيعة خامة





معرض الفنانة نجاح طاهر

الألوان المائية التى تستخدمها .. إنها لا تترك شيئا للعفوية والصدفة كما هو معتاد فى تقنية هذه الخامة ، بل تتحكم فى خطوطها وألوانها بدقة حسابية لافتة ، وتقتفى أثر التفاصيل الدقيقة فى صبر ، وتنسجها على مهل ، خطا بجوار خط ولمسة لصق لمسة ، وتتوالد الخطوط والأشكال من بعضها البعض وتتوالى إلى ما لا نهاية مثل « وَنْوَدة » هامسة بين عاشقين ، حتى يتكون فى النهاية بناء تماسك متكامل يثبّت الزمن عند لحظة مفاجئة ، فيبدو المكان وما بداخله من أشخاص وأثاث مثل لقطة فوتوغرافية قديمة ولما كانت ترسم بدرجة عالية من النعومة والرهافة ، وتلون بدرجات باهتة شفافة حتى التلاشى ، فإننا لا نشعر بالزحام أو الضوضاء ، بل بالهدوء حتى الغموض ، ويتولد لدينا دائما الحس بالتوقع أمام لوحاتها ، كأن شيئا ما على وشك الحدوث ، أو الانبثاق من وسط عالمها الغريب ، أو كأننا نستعيد فجأة ذكرى غامضة من الزمن السحيق .

وفى لوحات نجاح طاهر المغلّفة بحزن أنثوى رقيق ، بذرة فرح إنسانى محبط ، وإقبال على الحياة يجهض الظروف ، نستطيع أن نلمس ذلك فى المفارقة الواضحة بين ولعها الشديد باستخدام الوحدات الزخرفية (هندسية ونباتية) ، وفى إسرافها فى رسم الورود ، وتجنبها ترك فراغات بيضاء على سطح اللوحة ، بما يوحى بتأثير لحن موسيقى منتظم على تخت عربى ، وبين حرصها على إسدال غلالة باهتة على جميع الألوان تكاد تكتم بداخلها بهجة الحياة .

وثمة وشائج قوية بين هذه الرسوم والرسوم الجدارية الكالحة الألوان فى الفنون الشعبية ليس فقط فى الألوان التى خضعت لعوامل التعرية والزمن ، بل كذلك فى الحس الفطرى الساذج والروح الطفولية ، وقد أفسحت للطفولة مكانا مهما فى هذا المعرض ، لكن طفلتها الواقفة دوما فى دهشة وبلا حراك أمام نافذة مغلقة أو سور حديدى تبدو أكبر من سنها وكأنما سرقت منها طفولتها .

وإذا كانت مسحة الحزن قد طغت على لوحات نجاح طاهر ، فإن اللحن الغنائى الطروب مازال يسرى فى أوصالها ، ويمتعنا بإيقاعه الشرقى ، ملامسا آثار الحزن الكائن فى وجداننا منذ آلاف السنين ، متغنيا بالماضى الذى كان !



صورة ذاتية

شعر

الشرق

سليم الرافعي . لبنان

بقيت منه لحى .. باللعجب . ... ونقابٌ وسواكٌ مستحبْ

ولحاظُ الشزرِ من جمجمةٍ . ... أكل الدهر عليها وشربْ

أنكر المشرقُ فجراً ساطعاً . ... وبكى ليلاً ونجماً قد غربْ

فلمنْ شمسُ الضحى في زورقٍ . ... ماجت الفضة فيه والذهبْ ؟

عانق الكونُ صباياه .. وقد . ... شعشع العُرسُ بأكواب اللهبْ

وتغنى كل حقل عاشقٍ . ... بقواريرَ احتساها من طرب

إنْ يكنْ ليلٌ مضى .. ماذا جنى . ... واهبُ النور لنا .. ماذا ارتكبْ ؟

قالت الأوتار : ما نام الهوى . ... قالت الأكؤس : ما غاض الحَبَبْ ؟

هذه الآفاقُ في موكبها . ... تتهادى في حريرٍ أو قصَبْ

عالم الأمس بدا اليوم كما . ... كان .. ما احتال علينا أو كذبْ

إنه الإنسانُ في قدرته . ... مزّق الكونَ العمى .. واقتربْ

لم يغبْ عنه سوى مفترسٍ . ... غاب عنه النابُ والظفر احتجبْ

هذه الأجسادُ في معتركٍ . ... كتب العقلُ لها حقّ الغَلَبْ

لا تلوموا العقل في حنكته . ... لا تلوموا النار تلقاتُ الحطبْ

كم وطاويط اختفت في غابةٍ . ... لقيتْ بالجهل سوء المنقلبْ

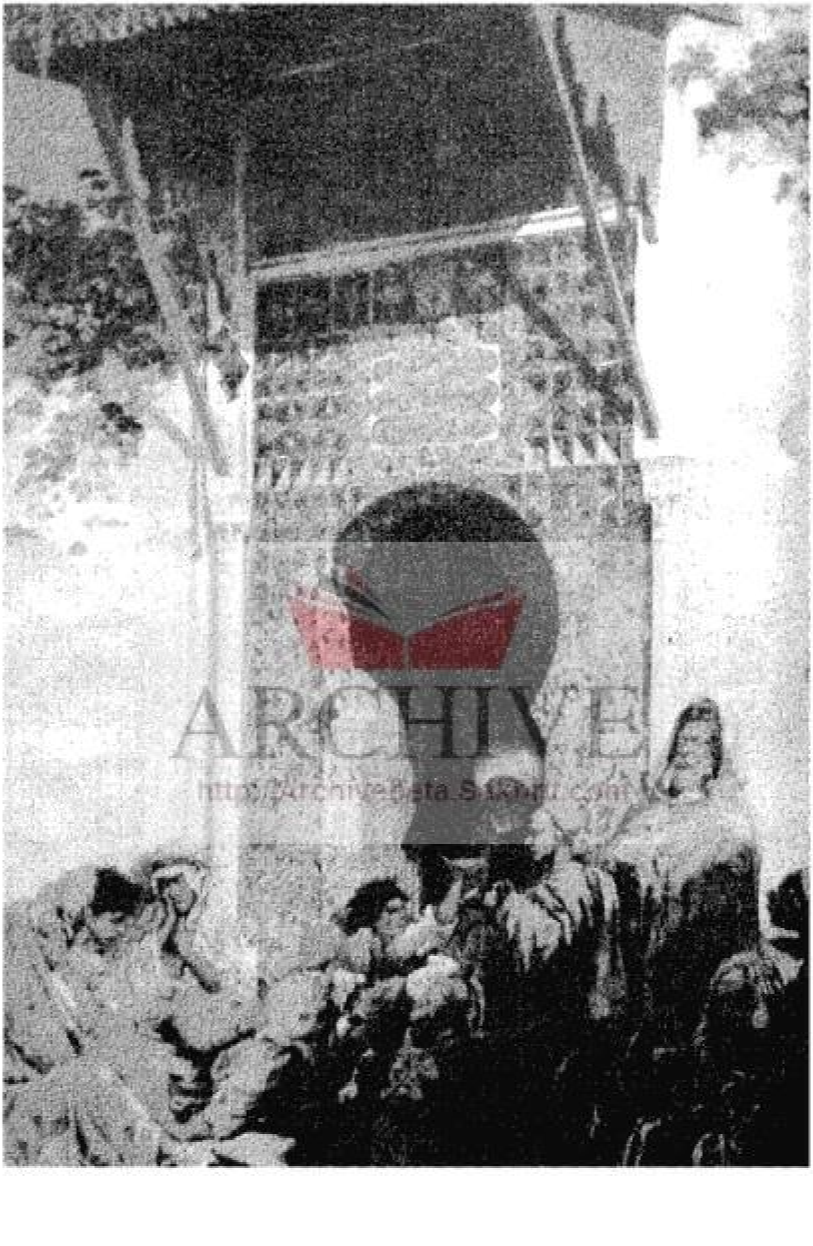
فبكاها الليلُ في أوكاره . ... ورثاها من رثاها وانتحبْ

مَنْ يكن نسراً يطرْ مُستكشفاً . ... بالسماوات ففيها مضطرب

غاب عنا عبقريٌ واحدٌ . ... ينقذ الأمة من داء الخُطَبْ

نحن لا نغلب في الفجر إذا . ... طلعتْ شمسُ نهارٍ بالعَجَبْ

نحن للعلم والفتح على . ... صهوة التاريخ .. إنْ صحّ النَّسَبْ



الوجه الآخر لتولستوى

تولستوى المعلم والمربى

د . محسن خضر *

« الحرية شرط لازم لكل تعليم حقيقى »

لم يكن تولستوى آخرهم ، فأغلب مفكرى وأدباء البشرية مارسوا التدريس وانخرطوا فى مهنة التعليم بشكل أو آخر .

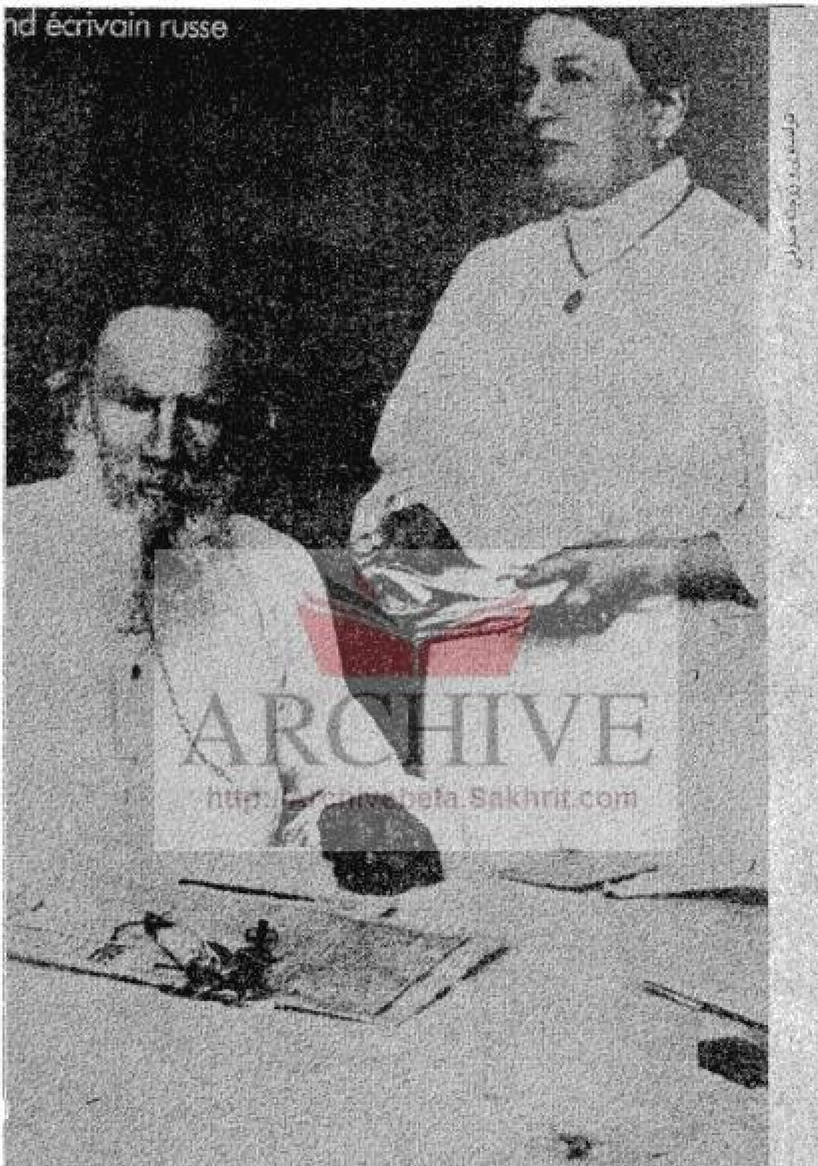
ألا تتذكر سقراط وأفلاطون وأرسطو والسوفسطائيين ؟

ألم يمتهن التعليم على مبارك ومحمد عبده والطهطاوى ولطفى السيد وفريد أبو حديد وطه حسين ومحمد فريد وزكى مبارك والمنفلوطى ولويس عوض وسلامة موسى والسياب والبياتى ، بشكل أو آخر ، فى فترة أو أخرى ؟

وأليست الرسالة الفكرية تستدعى اذابة الحدود بينها وبين المتلقين ، والتعليم هو الصيغة الأمثل للتواصل بين المرسل والمستقبل ، بين المبدع والمتلقى ، بين الايمان بالتغيير وتحقيق هذا التغيير على أرض الواقع ؟ فى هذه الحالة تتماهى الكلمة والمهنة ، وموقف الكاتب وموقف المحاور والمناقش .. وبالنسبة للروائى الروسى الكبير نيقولا يفنيتشى تولستوى (١٨٢٨ - ١٩١٠ م) فقد طغت جوانبه الأدبية والاجتماعية على الجانب التربوى فيه . ولعل الكثيرين لا يعرفون الوجه الآخر لتولستوى الروائى والقاص الفذ ، وهو وجه المفكر التربوى المهموم بقضايا التربية ، والمربى والمعلم فى نفس الوقت .

---

* كلية التربية جامعة عين شمس


nd écrivain russe

ولعل تولستوى من المفكرين والأدباء القلائل الذى أسس مدرسة ليجسد فيها أفكاره ويجعلها مختبرا لتلك الأفكار أيضا . أسس تولستوى مدرسة قروية نائية وجرب مع أبناء الفلاحين فى ياسنايا بوليانا طرقا جديدة فى التدريس ، وحملت المدرسة إسم تلك القرية المجهولة .

ومن المدهش ان الأفكار التى طرحها تولستوى قبل قرن ونصف من الزمان تتفق إلى حد كبير مع الاتجاهات التربوية المعاصرة مما يشير إلى عمق فكره وسعة تحليله ونتائجه .

كان السؤال الأساسى الذى يشغل تولستوى هو : ما المعيار الذى نحدد به ما الذى يدرس وكيف ينبغى أن يدرس ؟

ومن المهم الإشارة إلى ان تولستوى كان يضع أعماله وكتاباته التربية قبل أدبه الروائى . وقد انفق تولستوى سنوات طويلة من حياته فى دراسة وممارسة التربية والتعليم .

ولعلنا نلاحظ التكامل الخلاق بين ابداعه التربوى والأدبى ، ويجمع الجانبين تمحيص واستيعاب فى شخصية الفرد ونفسيته . وتكشف قصة مبكرة لتولستوى وهى قصة « صباح مالك عقارى » عن اهتمامه المبكر بالتربية . تدور القصة حول طالب جامعى قرر أن يقطع دراسته الجامعية ويتجه إلى توعية أبناء الفلاحين وتنشئتهم خلقيا هى القضية الأولى عند كل فرد متعلم ، وإذا قرر الطالب تكريس حياته لمساعدة فقراء الشعب عن طريق التعليم ، واكسابهم شخصيات أكثر خلقاً وسمواً وكمالاً .

ألم يجسد تولستوى قصة بطله فى حياته الشخصية فيما بعد .. عندما أقدم فى عمر التسعة عشرة على تنظيم مدرسة فى قريته ياسنايا بوليانا ، وهى المحاولة التى أنهاها التحاقه بالخدمة العسكرية فى القفقاس ثم سيباستوبول ، وهى التجربة التى سجلها فى مجموعته القصصية « قصص سيباستوبول » لتكون ايذانا بميلاده الأدبى ، ليعود بعد استقالته من العسكرية ويستأنف العمل فى مدرسة قريته ياسنايا بوليانا .

واستفاد تولستوى من رحلته الطويلة إلى المانيا وفرنسا وسويسرا وايطاليا فى دراسة المؤسسات التربوية فيها إلى جانب دراسته لأدبها وفنونها .

التعليم لكل الشعب

كانت فكرة توفير التعليم العام لكل أفراد الشعب تشكل ركيزة الفكر التربوى عند تولستوى . كانت روسيا تشهد تباينا اجتماعيا واسعا انعكس على الاوضاع الاجتماعية فى عقدى الستينيات والسبعينيات من القرن الماضى وهى الفكرة التى تكونت فيها آراؤه التربوية .

لم تتجاوز نسبة التعليم ٦٪ من مجموع السكان ، ولم يكن المحظوظون من أبناء الفقراء يلتحقون الا بالمدارس الفقيرة المستوى . اعتبر تولستوى ان التعليم حاجة أساسية لكل الشعب الروسى (قارن هذه النظرة بنظرة غاندى فى الهند ونظرة طه حسين فى مصر) ودافع عن حق التعليم للشعب كافة ، وتعززت قناعته بأن نشر التعليم من شأنه ترقية مستوى المواطنين ومجابهة الأدران الاجتماعية التى خلفها الفقر والجهل والمرض .

وصف لينين الدور الذى لعبه تولستوى فى الثورة الروسية بأنه « مرآة الثورة الروسية » .

انتقد تولستوى تناقضات المجتمع الاقطاعى وإن كان لم يتوصل إلى نظرية علمية لتغيير المجتمع .

يصف تولستوى أهمية تعليم الشعب ، باعتباره أداة التحرر والتقدم ، فيقول « عندما أدخل المدرسة وأرى هذه الجمهرة من الأطفال النحفاء القذرين ذوى العيون الصافية والسحنات الملائكية يعترينى قلق ورعب أشبه بما يعترى المرء حين يرى بشرا يغرقون . والذى يغرق فى هذه الحالة هو أعلى ما فى الوجود ، وبالتحديد هو تلك القيمة الروحية التى تتجلى بأسطع وجه فى الأطفال . إننى أنشد تعليم الشعب لا لشئ إلا لانقاذ من يشرف على الغرق من انجال بوشكين وأوستر جراد سكر وفيلاريب ولومونوسف ، وهم كثرة فى كل مدرسة ، وتجرى الأمور بشكل طيب .

أشعر بأننى أؤدى عملا مجديا ، وأتقدم فيه أسرع كثيرا مما كنت أتوقع » .

مدرسة ياسنايا بوليانا

يمكننا تقسيم نشاط تولستوى التربوى إلى ثلاث مراحل : الأولى من ١٨٥٩ - ١٨٦٢ ، والثانية من ١٨٧٠ - ١٨٧٦ ، والثالثة من ١٨٨٠ - ١٩١٠ .

افتتح تولستوى مدرسته فى خريف ١٨٥٩ لتعليم أبناء الفلاحين .. إلتحق فى اليوم الأول ٢٢ تلميذا ازدادوا إلى ٧٠ تلميذا بعد ثلاثة أشهر ، قسم تولستوى تلاميذه إلى ثلاث مجموعات عمرية : الأولى صغرى ، الثانية وسطى ، والثالثة كبرى ، يعطى كل معلم خمسة دروس (حصص) فى اليوم ، ويبدأ اليوم الدراسى من التاسعة صباحا حتى العصر يتخلله ثلاث ساعات للغذاء واللهو .

لقد استخدم تولستوى طريقة للتدريس لعله استقاها من حكماء الأغريق والشرق الأسيوى وهى طريقة الحوار والمناقشة الحرة بين المعلم والتلاميذ . اما طبيعة الدروس فدارت حول قواعد النحو ودروس التاريخ والجغرافيا والطبيعة ، وتعلموا القراءة والكتابة والانشاد ومارسوا الرسم .

اما تولستوى فكان يقوم بتدريس مواد الحساب والطبيعة والتاريخ . كان شكل الدراسة جديدا على التعليم الروسى ، فكان التلاميذ يجلسون فى أى مكان . لا عقاب أو زجر . لا واجبات منزلية وهو ما يعكس الفلسفة التربوية التى آمن بها تولستوى أى إحترام شخصية الطفل وتنمية قدراته الإبداعية وإطلاق مناخ الحرية .

يقول تولستوى حول أسلوبه التربوى : « ان التلاميذ بشر وان كانوا صغاراً ، شأنهم شأننا ، لهم نفس الاحتياجات ونفس طرق التفكير» .

« قارن هذه النظرة بفلسفة التربوى الأمريكى الكبير جون ديوى التربوية » .

كان العمل فى تلك المدرسة قائما على تحقيق الإبداع التربوى وإطلاق ملكات وقدرات واستعدادات التلاميذ الفردية لهم .

ومن ثم أصبحت مدرسة ياسنايا بوليانا مقصد زيارات التربويين الروس والأجانب ، وحاول تولستوى تطوير تجربته التربوية الأجنبية خلال رحلته الثانوية الطويلة سنة ١٨٦٠ والتى زار فيها المانيا وفرنسا وأيطاليا وبلجيكا وإنجلترا محاولا الاستفادة من الاتجاهات والنظم التربوية الحديثة .

« نلاحظ ان تعليمنا المصرى شهد مرحلة التجريب تلك على يد إسماعيل القبانى وعبد العزيز القوصى فى مرحلة مبكرة من القرن العشرين والتى شهدت محاولات للمزج بين التعليم والعمل مثل مشروع المدرسة العاملة (١٩٢٥) أو مرحلة التجريب والقياس المستفيدة من انجازات علم النفس ، كما شهد تطبيق تجريب طرق



التدريس المطورة مثل المشروعات والوحدات والنشاط » وترتب على نجاح تجربة مدرسة تولستوى افتتاح حوالى عشرين مدرسة شعبية أخرى فى محافظة تولا وبجهود تولستوى نفسه .

مجلة ياسنايا بوليانا .. والأبجدية

طور تولستوى تجربته التربوية باصدار مجلة « ياسنايا بوليانا » التربوية عام ١٨٦٢ لتعبر عن الفكر التربوى والاتجاه التربوى الجديد الذى استقاه من تجربته ، أى تأصيل ممارساته التربوية من خلال الواقع .

اثارت المجلة ردود فعل قوية بسبب انتقاده للمسألة الاجتماعية وعلاقتها بالتعليم الشعبى وخاصة أن تولستوى دعا أنصار كل الاتجاهات التربوية المختلفة للكتابة فيها وبلا قيود .

استشعرت السلطة العنصرية خطورة أفكار تولستوى على مصالح النظام ، فحرضت الشرطة على اقتحام المدرسة فى صيف عام ١٨٦٢ لتفتيشها وهو ما اثار تولستوى فكتب إلى القيصر معترضا . تصدى وزير الداخلية للخطورة التى تمثلها حركة تولستوى التربوية واتهمها بالحط من اصول الدين والأخلاق ، واتهم المجلة بأنها تشوه قضية التعليم الشعبى واتهمها بالتحريض .

وكانت الخطوة التالية اغلاق المجلة فى ديسمبر من العام نفسه . استمر تولستوى فى نضاله من أجل تعليم أفضل للفلاحين ، فألف كتابا للمطالعة فى المدرسة الشعبية ، كما ألف كتابا مدرسيا مطورا وسماه « الأبجدية » حيث وصفه بأنه « بذلت فيه روحى باكملها » . وأصبحت أبجدية الكونت تولستوى (صدرت عام ١٨٧٢) حدثا تربويا كبيرا فى المدرسة الروسية .

وتضم الأبجدية نصوصا للمدرسة الإبتدائية ، ونصوصا سلافيانية ، ومواد لتعليم الحساب ، وارشادات للمعلم إلى جانب الأبجدية ذاتها وتشبه الأبجدية الموسوعة العلمية المبسطة للصغار حيث تبسط لهم أهم الظواهر العلمية والبيولوجية المختلفة .

وفى أواخر العام ١٨٧٤ شرع تولستوى فى انجاز الأبجدية الجديدة التى صدرت فى العام التالى واثارت اهتماما وطنيا واسعا لقد طور « أبجديته » الأولى

واستفاد من الملاحظات والانتقادات التى وجهت لها ، وأقرت « الأبجدية الجديدة » من قبل وزارة التربية الروسية لاعتمادها فى جميع مدارس الدولة .

وطبع من « الابجدية الجديدة » فى حياته حوالي ثلاثين طبعة . واعتبرت نموذجا للبساطة المثلى والحقيقة الحياتية ووصفت بـ « قمة الكمال سواء من الناحية السيكولوجية أو الفنية » . استهدف تولستوى من أبجديته الجديدة أن تكون وسيلة فعالة يتطور من خلالها الاهتمام بالمعرفة لدى الطفل ، وبالتالى تساعد الأطفال على ارساء مبدأ « التعليم الذاتى » بعد التخرج من المدرسة (وهو المبدأ الذى تقوم عليه فكرة التربية المستمرة فى العقدين الأخيرين فى الفكر التربوى المعاصر) .

كما حاول تولستوى تأسيس مدرسة لإعداد المعلمين فى باسنايا بوليانا لتكمل مشروعه التربوى الكبير ، ولإعداد معلمين من بين الفلاحين باعتبارهم الأقرب تفهماً لأطفال الفلاحين وبالتالى ضمان نجاح التفاعل بينهم .

وكان تصوره أن تكون مدة إعداد المعلم سنتين ، ويرافق افتتاح مدرسة إعداد المعلمين مدرسة أخرى لتطبيقات المعلمين وتستغرق ستة أشهر ، الا أن السلطات المحلية حاربتها خوفا من تأثير أفكار تولستوى .

ومن الطريف ان انهماك تولستوى فى التدريس فى مدرسته وإدارة شئونها أدى إلى ان تشكوه زوجته صوفيا فى رسائلها إلى أهلها واتهمته باهمالها ، ومن كُتب تولستوى الأخرى التى ألفها « محاورات مع الأطفال » و« أفكار تربوية » وقد وصف البروفسور الجامعى رانشينسكى جهود تولستوى التربوية بقوله « ان كُتب الكونت تولستوى المخصصة للأطفال يجب أن يلم بها كل فرد روسى متعلم ، فهذه الكُتب لا نظير لها فى أى أدب أوروبى » .

وقد حذا رانشينسكى حذو تولستوى ، فهجر التدريس بالجامعة واتجه إلى الريف لينشئ مدرسة ريفية لتعليم أطفال الفلاحين . كان الروائى الروسى الأعظم تولستوى نموذجا « للمثقف العضوى » بتعبير انطونيو جرامشى ، والذى توحد عنده الفكر والممارسة ، والتنظير وتغيير الواقع ، ورصد الإنسان الابداعى فى كتاباته ومحاولة تحسين وضع هذا الإنسان فى الواقع .

طه حسين





أحمد عبد المعطي حجازي

النحو والشعراء

بقلم : د . محمود الطناحي

• عرضتُ في عدد الهلال الماضي لكلمة الشاعر الأستاذ أحمد عبد المعطي حجازي المنشورة بجريدة الأهرام ٢٦/٨/١٩٩٢م ، والتي قدّم فيها كتاب الأستاذ الكبير الدكتور مصطفى ناصف « صوت الشاعر القديم » .

وقد وقفت عند قول الأستاذ حجازي إنه مدين لعميد الأدب العربي الدكتور طه حسين « بهذا المنهج الذي أخرج به الشعر الجاهليُ من سلطان النحاة والشرّاح وسدنة الكتب الصفراء » .

ثم ناقشته في « سدنة الكتب الصفراء » ، ولم يبق لي من كلامه إلاّ قوله . إن الدكتور طه حسين « قد أخرج بمنهجه الشعر الجاهلي من سلطان النحاة » .

وعوداً على بدء : فهذا أيضاً من الكلام الذي يُرسَل إرسالا ، وكأنه من الحقائق المؤكدة التي استقرت عند الناس ، ولم يبق لأحد فيها مقال .

فأيُ « سلطان » ياسيدي الشاعر ، وأي « نحاة » ؟ لابد من تحديد هذا السلطان (الجائر) وبيان مداه الذي ينتهي إليه ، وغايته التي يقف عندها . ولابد أيضاً من تعيين هؤلاء « النحاة » بأسمائهم وأزمانهم ، فإن هناك كثرة من النحاة الأوائل قد وقفوا مع الإبداع الشعري – كما يقال – ووجهوا تراكيب الشاعر التي خرجت في الظاهر عن سنن كلام العرب ، فالتمسوا لها وجها ، وطلبوا لها تأويلاً من لغات العرب التي تسمى الآن « لهجات » . والقضية أقدم من عميد الأدب العربي بأكثر من ألف عام . وإليك يُساق

الحديث : قال أبو محمد بن الخشاب المتوفى سنة ٥٦٧ هـ : إن أبا حاتم السجستانى قال : ليس الفرزدق أهلا لأن يستشهد بشعره على كتاب الله ، لما فيه من التعجرف . وقال ابن الخشاب أيضا : لم يَجْرِ فى سَنَن الفرزدق من تعجرفه فى شعره ، بالتقديم والتأخير المخل بمعانيه ، والتقدير المشكل إلا المتنبى ، ولذلك مال إليه أبو علىّ وابن جنى ، لأنه مما يوافق صناعتهما ، ولا ينفع المتنبى شهادة أبى على له بالشعر ، لأن أبا على معرب لا نقّاد ، وإنما تنفعه شهادة العسكريين (يعنى أبا أحمد صاحب المصون ، وأبا هلال صاحب الصناعتين وديوان المعانى) وأبى القاسم الآمدى ، فإنهم أئمة يقتدى بهم فى نقد الإعراب » .

فى قلب الحركة الشعرية

أرأيت يا سيدى الشاعر ! هذا أبو على الفارسى شيخ النحاة فى القرن الرابع وتلميذه العظيم ابن جنى ، كلاهما مع الإبداع الشعرى ، ولعلى أذكر شيئا من تخريج أبى على لشعر الفرزدق الذى عابه عليه النحاة .

فذكر « النحاة » هكذا بصيغة التعميم غير صحيح . وأيضا فإن وضع القضية على هذا الشكل يجعل النحاة – وبخاصة عند من لا يعرف تاريخ العلم والعلماء – بمعزل عن الشعر ، بل فى موقف المتربص به ، الكاره له ، البعيد عنه . وهذا غير صحيح أيضا ، فإن كثيراً من نحاة الصدر الأول لم يكونوا منظرين من بعد ، بل كانوا فى قلب الحركة الشعرية ، وفى الصميم منها : فهذا أبو عمرو بن العلاء الإمام النحوى اللغوى ، وأحد القراء السبعة كان راوية لذى الرمة الذى يقال : إن شعره يمثل ثلث لغة العرب . وعناية أبى عمرو بالشعر الجاهلى معروفة ، وقد كان يعول مع السماع والرواية على الكتابة والتقييد . وكان يونس بن حبيب شيخ سيبويه شديد الاختصاص برؤبة بن العجاج . وكان نِفْطويه يحفظ نقائض جرير والفرزدق وشعر ذى الرّمة .

أما أبو العباس ثعلب – وهو مع الكسائى والفراء ، زعماء مدرسة الكوفة النحوية – فإن له علقة شديدة بالشعر والشعراء : فقد صنع دواوين الأعشى وزهير وابنه كعب وعُروة بن حزام والنابغة الذبيانى والجعدى والطرماح وطفيل الغنوى ، وشرح لاميّة الشنفرى :

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم
فإنى إلى قوم سواكم لأميل

كما روى شعر ذى الرمة عن أبى نصر الباهلى صاحب الأصمعى ، وعن هذه الرواية كانت نشرة الدكتور عبد القدوس أبو صالح العظيمة لديوان ذى الرمة بمجمع اللغة العربية بدمشق . وفضلا عن ذلك كله فإن لثعلب فى علم الشعر كتابا شهيرا هو « قواعد الشعر » وهو على وجازته مفيد فى بداية هذا العلم .

أما مسألة « سلطان النحاة على الشعر » ووقوفهم فى وجه الإبداع

الشعرى فهى من المسائل التى يتابع الناس بعضهم بعضا فيها دون أن يعطوها حظها من النظر والتأمل .

تقعيد القواعد

إن النحو علم وصناعة ، وقد قعد النحاة القواعد بناء على الجمهور الأعظم الذى انتهى إليهم من كلام العرب شعرا ونثرا . فهو نظام مستتب ، مبنى على الأكثر والشائع ، ولذلك يقول ابن عصفور : « إن أئمة النحويين كانوا يستدلون على ما يجوز فى الكلام بما يوجد فى النظام » .

والنحوى حريص على هذا للنظام ، متشبث به ، فما خرج عنه رفضه أو ضعفه أو شذّذه . ولا يبالى النحوى أى نص كان هذا الذى خرج عن النظام ، ولذلك يضعف النحوى - بناءً على نظامه - بعض القراءات القرآنية الآتية من طريق التواتر . فقد تكلم النحاة على قراءة نافع وابن عامر وحمزة والكسائى : « إنّ هذان لساحران » بتشديد نون « إن » مع رفع « هذان » بعدها ، وحقه النصب . وتكلموا على حذف الفاء فى جواب « أما » من قوله صلى الله عليه وسلم « أما بعد ، ما بال رجال يشترطون شروطا ليست فى كتاب الله » وحقه : «فما بال ...» وتكلموا على حديث : « صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعدا ، وصلى وراءه رجال قياما » لمجىء « قياما » حالا ، وقبله نكرة « رجال » ، وحق صاحب الحال فى النظام النحوى أن يكون معرفة . وتكلموا أيضا على قول العرب : « مكره أخاك لابطل » ، وحقـــه «أخوك » . فالنحوى يعرض كل ما يرد عليه من كلام ونصوص على نظامه ، فما وافقه قبله ، وما خالفه رفضه ، فلئن كانت عداوة بين النحاة والشعراء لهذه العلة ، وجب أن تكون هذه العداوة أيضا بين النحاة وكل من تكلم بكلام خالف فيه النظام واتبع هواه .

علم التوجيه النحوى ودوره

ومع كل هذه الصرامة النحوية ، فقد قام نحاة آخرون بتوجيه هذا الكلام الخارج عن النظام ، ورده إليه من طريق موافقته لبعض لغات العرب - أى لهجاتهم - أو من طريق الحذف والتقدير ، والحذف من خصائص العربية ، وهو سمة من سمات فصاحتها وبلاغتها ، ويجعله ابن جنى من « باب شجاعة العربية » . وعلم التوجيه النحوى هذا علم ضخم جدا ، وبخاصة توجيه القراءات السبع .

ولما كان الشعر كلاما من الكلام فقد عرضوه أيضا على نظامهم ، فقبلوا منه ورفضوا ، لكنهم قد وقفوا منه موقفا آخر غير موقفهم من النصوص النثرية - وهذا يدل على احتفالهم به ، وإجلالهم له - فهم قد نظروا إليه من أول الأمر على أنه كلام ذو طبيعة خاصة ونسق متميز ، وحيث كانت هذه حاله عومل معاملة مباينة لمعاملة منثور الكلام ، فأجازوا فيه مالا يجوز فى النثر .

وكان صنيع إمام النحاة سيبويه في ذلك دليلا ومرشدا : فقد عقد بابا في أول الكتاب سماه « باب ما يحتمل الشعر » قال في أوله : « اعلم أنه يجوز في الشعر مالا يجـــوز في غيره » . ويقول ابن عصفور : « اعلم أن الشعر لما كان كلاما موزونا يخرجه الزيادة فيه والنقص منه عن صحة الوزن ، ويحيله عن طريق الشعر ، أجازت العرب فيه مالا يجوز في الكلام ، اضطروا إلى ذلك أولم يضطروا إليه . لأنه موضع أُلِفَتْ فيه الضرائر » .

وتأمل جيدا قوله « اضطروا إلى ذلك أولم يضطروا إليه » فهو كلام صريح في الاعتراف بأن للشعر لغة خاصة ، وأن الضرورة الشعرية ليست كما يفهمها بعض الناس : أنها الذي لا يجد الشاعر عنها محيصا . وهذا ما عليه المحققون من العلماء ، فإن الشاعر الذي قال :

تمرّون الديارَ ولم تعُوجوا
كلامكم عليّ إذن حرامُ

كان يستطيع أن يقول :

« مررتم بالديار ولم تعوجوا »

فيسلم له الوزن مع رعاية النظام النحوى في تعدية الفعل « مرّ » بالباء ، ولكنها لغة الشّعر ، فيابُعْدَ ما بين « تمرون » و « مررتم » في المذهب الشعرى ! ومع التسليم بهذه الضرائر الشعرية وتصنيف العلماء فيها : فإنك لو أحصيت ما خرج به الشعراء جميعا في كل عصور الاستشهاد والاحتجاج ، وما بعدها ، عن النظام النحوى ، لوجدته قطرة في بحر ، وأن جهود شعرهم جار على هذا النظام ، وما كان ذلك كذلك إلا لأن ذلك النظام النحوىّ فطرةٌ وسليقة عند العرب ، ألم يقل الشاعر القديم :

ولست بنحوىّ يلوك لسانَه
ولكنْ سليقىّ أقول فأعربُ

الضيق بالنحو

أما ما تراه في كتب الأدب والتراجم من ضيق بعض الشعراء بالنحو والنحاة ، وقولهم في ذلك الشعر الساخر المستهزىء فهو عندى من باب المعابثة والاستطالة بالذكاء ، وكأنهم يريدون أن يقولوا : إن نحوكم أيها النحاة صنعة ، ونحونا فطرة ، وآية ذلك أن شعرهم الذى حمل سخْريتهم من النحاة ليس فيه شىء خارج عن النظام ، أو خارق لقواعدهم ، وكأنها سخرية بالنحاة لا بالنحو . ولا يتسع المقام لذكر شىء من شعرهم الساخر هذا وتحليله ، ولكنى أشير إلى مقطوعة من تسعة أبيات ، أوردها أبو حيان في الإمتاع والمؤانسة ٢/١٤٠ ، يقول الشاعر الساخر في أولها .

ماذا لقيتُ من المستعربين ومِن
تأسيس نحوهمُ هذا الذى ابتدعوا

وفي هذه المقطوعة يقول :

ما كلّ قولىَ معروفٌ لكم فخذوا
ما تعرفون ومالم تعرفوا فَدَعُوا

كم بين قوم قد احتالوا لمنطقهم
وآخرين على إعرابهم طُبِعُوا

فهذان البيتان شاهدان على ما قلته من نحو الصنعة ونحو الفطرة . والشاعر بطبعه مختالٌ تيّاه . وحقّ له !

وما أظن الذين تكلموا عن « سلطان النحاة » على الشعراء قد أخذوا كلامهم إلاّ من قصة الفرزدق مع عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي : فقد سمع الفرزدق يقول :

وعَضّ زمانٍ يابن مروان لم يدع
من المال إلاّ مسحتا أو مُجلّفُ

فقال له : بِمَ رفعتَ « أو مجلّفُ » ؟ فقال : « بما يسوءك وينوءك . علينا أن نقول وعليكم أن تتأولوا » . وهذا البيت مما استفاضت به كتب العربية ، وأطال النحاة فيه الكلام . قال البغدادي صاحب الخزانة : « وهذا البيت صعب الإعراب » . وقال الزمخشري : « هذا بيت لا تزال الركبُ تصطكُّ في تسوية إعرابه » . وقال ابن قتيبة : « رفع الفرزدق آخر البيت ضرورة ، وأتعب أهل الإعراب في طلب الحيلة ، فقالوا وأكثروا ، ولم يأتوا فيه بشيء يُرْتَضى، ومن ذا يخفى عليه من أهل النظر أن كلّ ما أتوا به احتيالٌ وتمويه » . وقال أبو فِهْر محمود محمد شاكر : « وبيت الفرزدق ممّا اشتجرت عليه ألسنةُ النحاة ، ولكنه بقي مرفوعا حيث هو » . ومن أقرب تخريجات النحاة وأولاها بالقبول ما ذكره الخليل بن أحمد ، عبقريّ العربية ، قال : هو على المعنى ، كأنه قال : لم يبق من المال إلاّ مسحت ، لأن معنى لم يبق ولم يَدَعْ واحد . ومثل ذلك قال أبو علي الفارسي ، واستشهد للحمل على المعنى بشواهد أخرى .

وقد حكوا حكايات أخرى عن مخالفة الفرزدق لبعض قواعد النظام النحويّ ، ومع هذا المأثور عن الفرزدق فقد بقي جمهور شعره على الجادّة النحوية ، وظل مدداً ثرّيا للنحاة ، ينتزعون منه شواهدهم في الدرس النحوي واللغوي بمستوياته الأربعة : المستوى النحوي (التراكيب) ، والمستوى الصرفي (الأبنية) ، والمستوى الصوتي ، والمستوى الدلالي .

الضرورة الشعرية لا تبرر الخروج عن السنن العربية

على أنه مما ينبغي التنبه له والحذر منه أن الضرورة الشعرية - أو إن شئت لغة الشعر - لا تبيح للشاعر أن يخرج عن سنَن العربية . قال أبو سعيد السّيرافي ، وهو يشرح كلام سيبويه في الضرورة الشعرية : « وليس في شيء من ذلك رفعُ منصوب ، ولا نصب مخفوض ، ولا لفظ يكون المتكلم فيه لاحناً ، ومتى وُجِد هذا في شعر كان ساقطا مطّرحاً ، ولم يدخل في ضرورة الشعر » .

والعميد الدكتور طه حسين ، الذى قال عنه الأستاذ حجازى إنه أخرج الشعر الجاهلى من سلطان النحاة ، يعيب على بعض الشعراء المتحدثين خروجهم على قواعد النحو ، فيقول عن الشاعر إيليا أبى ماضى إنه اتخذ ضعفه فى النحو مذهباً ، وقد ردّد هذا الرأىَ الناقدُ اللبنانى صلاح لبكى ، فى كتابه « لبنان الشاعر » فرأى أن شعراء المهجر أنسوا ضعفهم فى اللغة ، ويأسهم من إصلاحها ، فلم يجدوا بدًا من أن يتخذوا هذا الضعف مذهبا ، وآية ذلك فصل للأستاذ ميخائيل نعيمة فى « الغربال » عنوانه ضفادع الأدب .

فليست لغة الشعر ، أو الإبداع الشعرى ، مجازاً إلى الفوضى اللغوية ، أو رخصة ليقول بعضهم « قد فوق وقد تحت » . ولعل ذلك يذكرنا بمقالة أخرى للأستاذ حجازى ، نشرها بجريدة الأهرام بتاريخ ١٩٩٢/٣/٤م ، بعنوان « حدّ الصواب وحدّ الخطأ » وذكر فيها كلاماً عجيبا حول اللغة الاعتباطية ، وأن القاعدة اللغوية ليست نموذجا مثاليا لا يتغير ولا يتبدلّ ، وأن اللغة اذا لم تكن تنزيلا فكلّ شىء فيها مباح .. إلى كلام آخر كثير مما يقال فيه « وآخر من شكله أزواج » وهو كلام منقوض من جهاته كلها ، لكن الذى يعنينى منه هنا استشهادُه على تجاوز القواعد النحوية بالقراءة المنسوبة للإمام أبى حنيفة النعمان بن ثابت ، وذلك قوله تعالى . « إنما يخشى اللهُ من عباده العلماءَ » – سورة فاطر ٢٨ – برفع لفظ الجلالة ونصب « العلماء » وعندى فى هذه القراءة كلام كثير لا يتسع له هذا الموضوع ، لكنى أوجزه فيما يلى :

أولا : هذه قراءة منكرة ، لاشاذة ، كما ذكر الأستاذ حجازى ، وفرق كبير فى علم القراءات بين القراءة المنكرة والقراءة الشاذة ، فالقراءة المنكرة مرفوضة ، أما القراءة الشاذّة فإن لها حدوداً ومعالم ، وليس وصفُ القراءة بالشاذّة غضبًا منها أو تهمة لها ، وإنما وصفت القراءة بالشذوذ لخروجها عن قراءة القراء العشرة المعتبرين . ولذلك يقول ابن جنى فى مقدمة كتاب المحتسب ، عن هذا الشاذ : « إلاّ أنه مع خروجه عنها – أى عن القراءات العشر – نازع بالثقة إلى قرائه ، محفوف بالرواية من أمامه وورائه ، ولعله ، أو كثيراً منه ، مساوٍ فى الفصاحة للمجتمع عليه . ونعم وربما كان فيه ما تلطف صنعته ، وتعنُف بغيره فصاحتُه .. » .

القراءات الشاذة

وقراء القراءات الشاذة أربعة من كبار علماء العربية، وهم : ابن محيصن ، ويحيى اليزيدى ، والحسن البصرى ، وسليمان الأعمش . وقد ألفت كتب فى ذكر قراءتهم وتوجيهها ، وعندى من كتب توجيه القراءات

الشاذة هذه ثلاثة كتب ، أولها : المحتسب فى تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، لابن جنى المتوفى سنة ٣٩٢ هـ ومختصر فى شواذ القراءات لابن خالويه المتوفى سنة ٣٧٠ هـ . والقراءات الشاذة وتوجيهها من لغة العرب للشيخ عبد الفتاح القاضى ، وهو عالم قراءات مصرى كبير ، توفى منذ عشر سنوات ، سنة ١٤٠٣ هـ ، ولا ذِكرٌ لهذه القراءة المنسوبة لأبى حنيفة والخليفة عمر بن عبد العزيز ، فى هذه الكتب الثلاثة ، وكذلك لم أجد لها ذكرا فى كتاب الدّمياطى : إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر .

ثانيا : ذكر الآلوسىُّ فى كتابه روح المعانى ٢٢/١٩١ : أن صاحب النَّشر – وهو ابن الجَزَرىّ – طعن فى هذه القراءة . وقال أبو حيان فى البحر المحيط ٢٧/٣١٢ بعد أن ذكر نسبة هذه القراءة إلى عمر بن عبد العزيز وأبى حنيفة . « ولعل ذلك لا يصحّ عنهما ، وقد رأينا كتباً فى الشواذّ ولم يذكروا هذه القراءة ، وإنما ذكرها الزمخشرى » .

قلتُ : نعم ذكرها الزمخشرى فى الكشاف ٣/٣٠٨ ، وعبارته : « فإن قلت : فما وجه قراءة من قرأ : – إنما يخشى اللهُ من عباده العلماءَ – وهو عمر بن عبد العزيز ويحكى عن أبى حنيفة ؟ قلتُ : الخشيةُ فى هذه القراءة استعارة . والمعنى : إنما يُجلّهم ويُعظمهم ، كما يُجَلُّ المهيبُ المخشى من الرجال بين الناس من بين جميع عباده » .

انتهى كلام الزمخشرى . وتأمل قــوله : « ويحكى عن أبى حنيفة » فهو أسلوب غير قاطع بنسبة هذه القراءة إلى الإمام الأعظم . وأيضاً فإن انفراد الزمخشرى بذكر هذه القراءة وتوجيهه لها على أسلوب الاستعارة يتفق مع منهجه الذى غلب عليه فى تفسيره ، وهو العناية بالمجاز والاستعارة وتنزيل الكلام عليهما ، وواضح أن تفسير الآية الكريمة على نصب لفظ الجلالة « الله » ورفع « العلماء » إنما هو على الخشية الحقيقية ، وتفسيرها على العكس ، بالرفع والنصب إنما هو على المجاز ، كما سبق . فليس معنى الآية واحداً فى القراءتين ، كما فهم الأستاذ حجازى !

ثالثا : لم يلتفت إلى هذه القراءة المنكرة أئمة المفسّرين الثقات : من أمثال أبى جعفر الطبرى ، وأبى الفرج بن الجوزى ، وأبى الفداء بن كثير ، فلم يأت فى تفاسيرهم شىء عنها البته .

رابعا : هذه القراءة المنكرة المنسوبة لأبى حنيفة ليست أول حكاية عن مخالفته لقواعد اللغة والنحو ، فقد رُوِى عنه غيرها ، كما تراه فى ترجمة الخطيب البغدادى له فى تاريخ بغداد ١٣ /٣٣٢ ، ويرى المحققون أن الحامل للخطيب على ذلك هو عصبية المذهب ، وهى آكلةُ القلب ، ومغمضة العين ، ومطلقة اللسان ، لأن

الخطيب كان شافعيّ المذهب ، ولذلك عاب عليه ابن خلكان فى وفيات الأعيان ٥/٤١٣ مَسْلَكَه هذا فى ترجمة أبى حنيفة ، وقال إنه كان الأليق به تركه والإضراب عنه .

ومن وراء ذلك كله : فإن الكلام فى القراءات القرآنية طريق مخوف العواقب ، ليس من باب الدّيانة فقط – وهى عزيزة علينا – ولكن من باب اللغة أيضا وضُروبها المتشعبة الشائكة . ولعل الشاعر الكبير الأستاذ أحمد عبد المعطى حجازى يريح نفسه من الحديث فى قضايا اللغة والنحو ، فإنها مجلبة للهم ، تكد الذهن وتصدع الرأس ، والسالك فيها لا يأمن العثرة بعد العثرة ، والزلة إثر الزلة . والسعيد من وفقه الله .

رجاء صادق

ثم أختم برجاء صادق إلى الشاعر الأستاذ حجازى – وأنا أخاطبه بالشاعر قبل أى صفة – ألاّ يحرم قراءه ومحبيه من حديث الشعر والشعراء ، وأن يخصص ذلك المكان المتاح له فى « الأهرام » للشعر ، فيمتعنا بشعره هو ، أو يقدم لنا ما يختاره من شعر قديم أو محدث ، بالتحليل والدرس والتذوق ، فليس أقدر من الشاعر على شرح الشعر . والشعر بهاء ، والنفس إليه نزوع ، والقلب به علّقة . وقد قال الأول :

الشعر نار بلا دخـــان
والقوافى رُقى لطيفـــة
كم مِن ثقيل المحل سامٍ
هَوَتْ به أحـرفٌ خفيفةْ

وكان أبو على الفارسى إمام النحاة فى القرن الرابع ، يقول وقد جرى ذكرُ الشّعر بحضرته : « إنى لأغبطكم على قول الشعر ! فإن خاطـرى لا يوافقنى على قوله ، مع تحقُّقى بالعلوم التى هى من موادّه » .

ولم نر شاعراً اشتغل بقضايا اللغة والنحو والصرف ، إلاّ أن يكون أبا العلاء ، ومَن مثلُ أبى العلاء ؟ ولقد أسعدنى زمانى بمعرفة الشاعر العظيم محمود حسن إسماعيل ، وكان يؤثرنى بكلام حلو عال عن الشعر ، وكيف يكتب ، ومن إحساسه بالحرف العربى . وقد أكثر معى من الكلام حول معانى الشعر ، وبخاصة عقب إصدار الشاعر العوضى الوكيل الجـزء الثالث من « الديوان » – يعنى ديوان العقاد والمازنى – وعرّض فيه تعريضا شديدا بالشاعر محمود حسن اسماعيل . ويومها قلت له : لماذا لا تكتب يا أستاذ محمود هذا الكلام النفيس عن الشعر وحياتك معه وفهمك له ؟ فقال : « إني شاعر » ولم يزد . رحم الله الشاعر العظيم محمود حسن اسماعيل ، وأطال فى عمر الشاعر الكبير أحمد عبد المعطى حجازى ، وللنّحو والنّحاة كلُّ الحب والإجلال .

القصة القصيرة المصرية
فى الستينات

بقلم : د. سيد حامد النساج

لكنا ننظر إليها من خلال ما قدمته فكريا وأدبيا وفنيا وتقنيا . وفى ضوء النتاج الأدبى والمحصول الثقافى الذى ظهر إبانهـا . ونظرة فاحصة فى اتجاهات الكتاب . وفى مضمون ما قدموه ، وفى عدد المنتجين ثقافيا . وحجم ما قدم سوف تؤكد وجود [illegible] فى الرواية ، والقصة القصيرة ، والمسرح ، والسينما ، والتليفزيون ، والفنون التشكيلية والشعبية ، والصحافة ، والنقد الأدبى . بل إن عددا ممن يتصدرون حياتنا الأدبية والفنية – الآن – نشأ معظمهم فى حضن الستينات ، وتأثر بالمناخ الذى كان سائدا ، وبما أحاط به من ظروف وملابسات .

ولما كانت القصة القصيرة هى نبض الواقع ، وهى التعبير الآنى عن حركته ، فإنها كانت لونا من ألوان الإبداع الأدبى الذى شهد تطورا ملحوظا طوال فترة



[illegible]



عبد الحكيم قاسم

الستينات ، بل إننا نزعم أن هذه الفترة تشبه تماما تلك التى مرت بها القصة القصيرة المصرية بدءا من ١٩٢٥ ، حين شاعت مبادىء المدرسة الحديثة ، وغلبت القصة القصيرة على الانتاج الأدبى ، وأقبلت الصحافة على نشرها ، واهتدى إليها كبار الكتاب الذين لم يكونوا ينظرون إليها بعين التقدير .

ونحن نعتقد أن دراسة ما كتب من قصص قصار طوال الستينات قد

ظلمت فترة الستينات طويلا . فما أن يبدأ الحديث عنها ، حتى يتصدى لها من ينطلقون فى الحكم عليها من وجهة نظر سياسية معينة ، أو ممن كانوا قد حددوا مواقفهم المسبقة من هذه الفترة المهمة فى تاريخنا المصرى المعاصر . وبخاصة مما احتفلت به من قرارات وقوانين واجراءات اقتصادية واجتماعية وسياسية وتنظيمية . أثرت فى البنية الطبقية ، والعلاقات الاجتماعية ، وفى تنظيم العمل ، وعلاقات الانتاج . وهم يستهدفون إلغاء هذه الفترة من تاريخنا الغاء تاما .





بهاء طاهر

أصبحت ضرورة لازمة بعد مرور أكثر من ثلاثين عاما على كتابتها . وبعد استمرار بعض كتابها فى الإبداع القصصى [illegible] أن أصبحوا روادا لهم اتجاهاتهم ومناهجهم الفكرية والفنية . ولم يكن ذلك سهلا عندما بدأوا يكتبون لأول مرة .

لذا فإن قصصهم القصيرة ينبغى ألا نقف عند حد الذى نشروه فى الستينات وحدها . بل يلزم أن تمتد لتشمل ما نشر لهم من قصص فى السبعينات والثمانينات أيضا . لأن قصص بعضهم لم تجمع إلا فى العقود المتأخرة . وقد يدل هذا من بعض الوجوه على أن ما نشر بعد الستينات يعد امتدادا لدور هؤلاء الكتاب . كذلك فإننا لا نستطيع تجزئة الكاتب الواحد ، أو دراسته بشكل منهجى . إذ إن رؤيته واحدة . وثقافته تعود به إلى أول عهده بالكتابة . بمعنى بلورة الرؤية . والثقافة ، والمنهاج الفكرى [illegible] يعتبر كلا واحدا . لا يمكن فصل بعضه عن بعض . ولا يزعم أحد أن ما يكتبونه لم تعد له صلة برؤيتهم الأولى . اللهم إلا إذا انحرف النص القصصى انحرافا ملحوظا . نتيجة تغير فى المنحى الفكرى أو فى الأدوات المتوسل بها . وهذا يفرض موقفا نقديا خاصا .

والملافت للنظر أننا ونحن بصدد حركة واعية صاعدة مؤثرة لفن القصة القصيرة ، وفى ظل ازدهارها الكيفى ، وتنوع أساليب كتابها : نفاجأ بأقوال غير مدروسة تحاول

تقليص دورها، وطمس معالمها، وإلغاء قدرتها الفنية على تصوير حركة المجتمع، بل والتماس أسباب غير حقيقية لذلك يفضحها الواقع الأدبي والصحفي والتطبيقي. فقد كتب الدكتور أحمد كمال زكي في مجلة (الفكر المعاصر) العدد ٢٨ - يونيو ١٩٦٧: (إن القصة القصيرة لم تعد قادرة على مواجهة الفنون الأخرى - ولا أقول الشعر الذي هزت عرشه يوما - مع أنها بطبيعة تكوينها تقوم بسهولة بدور خطير في التعبير عن طموح الفرد وصراعه وضياعه لا سيما في هذا العصر الذري الذي يوشك الفضاء أن يخضع له. وكان عجيبا حقا أن تطرد الصحافة القصة مع أنها هي خالقتها منذ البدء على أساس أن حجمها الذي قد يستغرق صفحة أو نصف صفحة وموضوعها الذي يتفق عادة مع أحداث الصحافة - وبطله الإنسان العادي بمشكلاته اليومية - يتفقان - وطبيعة الصحافة التي تفرض علاقة لا يمكن أن تنفصم، إن هذا في حد ذاته يعمل على أن يدهور فن القصة. فما بالنا إذا رأينا المجلات الأدبية بدورها تحذو الحذو نفسه فلا تجعل للقصة القصيرة الحيز الذي يتسع لرسالتها الرفيعة) (ص ٥٦).. لا يستلزم هذا الكلام المرسل كبير عناء في دحضه. فهو يدل على أن كاتبه لم يتابع، ولم يعايش ما أقحم نفسه في إطلاق الأحكام عليه، مما قد يكشف عن أنه لا علاقة له بحركة القصة القصيرة في الستينات، إبداعا ونقدا. بل إنه أسرف في اتهام الصحافة بأنها اتخذت موقف الطارد للقصة القصيرة، وبأن المجلات الأدبية قد التزمت نفس الموقف. وهذه جميعا لا يمكن تصورها في ذات العام ١٩٦٧ الذي يقف عنده كثير من النقاد والدارسين، من حيث إنهم يعتبرونه مرحلة مهمة في تطور فن القصة القصيرة في مصر. وقد سبق لنا أن حددنا دور الصحافة بعامة، والمجلات الأدبية بخاصة، فيما يتصل بنمو حركة القصة القصيرة، وتنوع اتجاهاتها. والمتابع لما كانت تنشره الصحافة اليومية والأسبوعية، والمجلات الأدبية، من قصص قصار، في تلك الفترة - سوف يخرج بنتائج مخالفة لما يقول به الدكتور أحمد كمال زكي، لأن الواقع الفعلي يشهد بأنه لم يتحر الدقة والصدق والأمانة.

ظاهرة فنية

وشهادات الذين عاصروا حركة القصة القصيرة، وتتبعوا خطواتها، تؤكد أن الأدب العربي الحديث في مصر، قد عرف إبان الستينات ظاهرة فنية لا تستحيل إلى تصنيفه إلا في إطارها التاريخي، الذي يضيف إليها بعدا مهما، هو ارتباطها العميق بكثير من سمات هذا العقد. كما أن الظاهرة بدورها تضيف إلى مرحلتها الزمنية بعضا من خصائصها في الفكر والتعبير. تتمثل هذه الظاهرة في التجديد الذي أحدثه كتاب القصة القصيرة، أو فيما يمكن تسميته بالقصة القصيرة الجديدة. يقول غالي شكري في مقال له بعنوان: «البصمة الأخيرة في أدب

تقلص دورها ، وطمس معالمها ، وإلغاء قدرتها الفنية على تصوير حركة المجتمع ، بل والتماس أسباب غير حقيقية لذلك يفضحها الواقع الأدبي والصحفي والتطبيقي . فقد كتب الدكتور أحمد كمال زكي في مجلة (الفكر المعاصر) العدد ٢٨ - يونيو ١٩٦٧ : (إن القصة القصيرة لم تعد قادرة على مواجهة الفنون الأخرى - ولا أقول الشعر الذي هزت عرشه يوما - مع أنها بطبيعة تكوينها تقوم بسهولة بدور خطير في التعبير عن طموح الفرد وصراعه وضياعه لا سيما في هذا العصر الذري الذي يوشك الفضاء أن يخضع له وكان عجيبا حقا أن تطرد الصحافة القصة مع أنها هي خالقتها منذ البدء على أساس أن حجمها الذي قد يستغرق صفحة أو نصف صفحة وموضوعها الذي يتفق عادة مع أحداث الصحافة - يغري الإنسان العادي بمشكلاته اليومية - يتفقان - وطبيعة الصحافة التي تفرض علاقة لا يمكن أن تنفصم إلا إذا هي حبس ذاته بعمل على أن يطور في القصة . فما بالنا إذا رأينا المجلات الأدبية نفسها تحذو الحذو نفسه فلا تجعل للقصة القصيرة الحيز الذي يتسع لرسالتها الرفيعة) (ص ٥٦) .. لا يستلزم هذا الكلام المرسل كبير عناء في دحضه . فهو يدل على أن كاتبه لم يتابع ، ولم يعايش ما أقحم نفسه في إطلاق الأحكام عليه ، مما قد يكشف عن أنه لا علاقة له بحركة القصة القصيرة في الستينات ، إبداعا ونقدا . بل إنه أسرف في اتهام الصحافة بأنها اتخذت موقف الطارد للقصة القصيرة ، وبأن المجلات الأدبية قد التزمت نفس الموقف . وهذه جميعا لا يمكن تصورها في ذات العام ١٩٦٧ الذي يقف عنده كثير من النقاد والدارسين ، من حيث إنهم يعتبرونه مرحلة مهمة في تطور فن القصة القصيرة في مصر . وقد سبق لنا أن حددنا دور الصحافة بعامة ، والمجلات الأدبية بخاصة ، فيما يتصل بنمو حركة القصة القصيرة ، وتنوع اتجاهاتها . والمتابع لما كانت تنشره الصحافة اليومية والأسبوعية ، والمجلات الأدبية ، من قصص قصار ، في تلك الفترة - سوف يخرج بنتائج مخالفة لما يقول به الدكتور أحمد كمال زكي ، لأن الواقع الفعلي يشهد بأنه لم يتحر الدقة والصدق والأمانة .

ظاهرة فنية

وشهادات الذين عاصروا حركة القصة القصيرة ، وتابعوا خطواتها ، تؤكد أن الأدب العربي الحديث في مصر ، قد عرف إبان الستينات ظاهرة لافتة لا سبيل إلى تصنيفها إلا في إطارها التاريخي ، الذي يضيف إليها بعدا مهما ، هو ارتباطها العميق بكثير من سمات هذا العقد . كما أن الظاهرة بدورها تضيف إلى مرحلتها الزمنية بعضا من خصائصها في الفكر والتعبير . تتمثل هذه الظاهرة في التجديد الذي أحدثه كتاب القصة القصيرة ، أو فيما يمكن تسميته بالقصة القصيرة الجديدة . يقول غالي شكري في مقال له بعنوان : البصمة الأخيرة في أدب



أسامة أنور عكاشة



عز الدين نجيب

الفنية . ونحن نعتقد أن صيحات التجديد ، وتجاربه الفنية في القصة القصيرة : لا يمكن ربطها - فقط - بما حدث في يونيو ١٩٦٧ ، باعتباره القشة التي قصمت ظهر البعير . كما أن الأسماء التي تذكر في هذا الصدد لا تمثل الحقيقة بأي حال من الأحوال . إن ملامح التجديد بدأت تظهر مع بداية التحول الاجتماعي والاقتصادي في يوليو ١٩٦١ . وإذا كانت القصة القصيرة - فيما قبل - قد صورت المجتمع المصري ، والتغير الذي أصاب العلاقات الاجتماعية ، والقيم الأخلاقية ، بوسائل متباينة ، شارك فيها كتاب لم يرتبطوا بالثورة ، ولم يعتنقوا أفكارها ، وربما اتخذوا منها موقفاً مضاداً ؛ فإنه بدءاً من ١٩٦٦ أخذت القصة القصيرة تتلمس أشكالاً ومضامين جد مختلفة . وطفقت ملامح الثورة الفنية الجديدة تكشف عن نفسها لدى عدد من الكتاب الذين نشروا قصصهم اعتباراً من ١٩٦٤ ، مما يمكن معه القول بأنه إذا كانت محاولات التجديد قد اتخذت بعداً فردياً بين لحظة وأخرى اعتباراً من ١٩٦١ ؛ فإنها ضمت عدداً من الكتاب شكلوا تياراً في ١٩٦٤ . اتخذوا من ضرورة التغيير الفني في الشكل والمضمون منطلقاً وهدفاً في كتاباتهم القصصية .

ولعل هذا هو الذي ميز قصصهم القصيرة منذ اللحظة الأولى التي طالعوا فيها الجمهور القارئ ، وزملاءهم من الكتاب ، وفاجأوا نقاد هذا الفن من المتخصصين . حتى كانت هزيمة يونيو ١٩٦٧ وما أشيع من أنها أحدثت تغييراً جذرياً في النفس ، والفكر ، والفن ، والأدب ؛ مما حدا بمن لا يعرفون أصول التجديد ، ومبرراته ، وأشكاله ؛ أن ينتحلوه ، وأن يختلقوا السير في ركابه ، دون أن يتسلحوا بأسلحته الموضوعية والفكرية والفنية . ومنهم من وجد ضجيجاً يمجد ويسبح بما يفعل ، وصياحاً يعلن ريادته للاتجاه الثوري المتمرد ، دون وجه حق موضوعي أو تاريخي أو فني .

في حين أن الذين مارسوا التجديد - بالفعل لا بالقوة - لم يجدوا - آنذاك - من يساندهم ، أو يبارك خطواتهم ، أو ينير لهم طريق المستقبل . مادامت النكسة قد أضحت مظلة يحتمي بها كل خالٍ من الموهبة والابتكار . بل إن ممن كانوا يكتبون القصة القصيرة قبل النكسة من راحوا يزعمون لأنفسهم أو لقرائهم ، أو يزعم لهم نقادهم الذين تخصصوا في

الدعاية لهم، أن كتاباتهم قد استجابت لدواعي المرحلة، فعبرت عن إحباط ما بعد الهزيمة، مما استلزم شذوذاً في الأدوات الفنية، إلى غير ذلك مما لا يتسق والنصوص القصصية التي بين أيدينا.

رؤية فنية واعية

ولا يخفى أن بعضاً ممن أقدموا على كتابة القصة القصيرة في مسار التجديد، كانوا هم الذين يبررون محاولاتهم وتجاربهم. بمعنى أنهم كانوا يدافعون عما أقدموا عليه، وهو ما يدل على أنهم كانوا يستندون إلى رؤية فنية واعية، وثقافة اجتماعية واقتصادية وسياسية، جعلتهم يعيشون واقعهم ويدركون حاجاته، ويفهمون تناقضاته. وبخاصة أن أغلبهم ينتمون إلى جذور اجتماعية، وإلى طبقات مطحونة، تنتسب إلى العمال أو الفلاحين، لم يجدوا في أصولهم ما يدعم مواقفهم أو ما يتمسكون به، كما لم يجدوا في الثورة ما يؤهلهم كي يصعدوا في المستوى الاقتصادي والاجتماعي الذي يحلمون به، ولم يلحظوا فيما يقدم أدبيا وفنيا صدقاً يغريهم بتقليده ومحاكاته، ولمسوا في القصص التي تتناول المطحونين سذاجة، وسطحية، وشعارات لا أول لها ولا آخر، فأخذوا يتمردون أو يجربون التمرد والثورة - في القصة القصيرة - لأنهم لا يملكون ما يساعدهم على التمرد والثورة خارج الفن. ومن ثم جاءت قصصهم القصيرة مختلفة عما كان يصدر عن أبناء جلدتهم، وعن الأجيال السابقة عليهم في آن معا.

ويلاحظ أن من كتاب القصة القصيرة في الستينات، من ينتمون إلى ذات الطبقة الاجتماعية المطحونة اقتصاديا ونفسيا، أعلنوا أسمائهم بالثورة، واعتناقهم مبادئها وشعاراتها، وهللوا - ظاهريا - لعدالتها الاجتماعية. لكنهم وجدوا أنهم لم يفيدوا - ماديا - بشكل مباشر وشخصي. فالتمسوا لأنفسهم وسائل وأساليب قد يفيدون منها ذاتيا. أخذوا يقلدون كتابات بعض ذوي الانتماءات القديمة، ويعلنون إيمانهم بقدرة هؤلاء على الاستمرار والبقاء والتأثير وإن كانوا يقفون ضد الثورة ومبادئها. وهكذا اصطنعوا التناقض الذي مازالوا يعيشون فيه، وينعكس في كتاباتهم القصصية. فهي صدى لكتابات الآخرين شكلا ومضمونا. كلاسيين واقعيين، ومستغربين وتجريديين. ثلهث مرة وراء الواقعية الساذجة بدعوى الدفاع عن الفقراء، وتحاكي مرة الواقعية الاشتراكية تحت وهم مسايرة المطلوب سياسيا ونقديا. وثالثة تدعو إلى الأخلاق الحميدة الرشيدة مغازلة لأصحاب النفوذ القديم. ورابعة تستعين بالفانتازيا والحلم تحت شعار الرمز الناقد الرافض. وخامسة تقع في أسر الخطابية والمباشرة.

على هذا النحو ضاعت ملامحهم الذاتية، وذابت شخصيتهم الأدبية، وتبعثرت هنا وهناك؛ فلم تصمد أمام التجارب الجادة، ولم تلفت نظر أي مدرسة نقدية، رغم أن قصصهم نشرت قبل وأثناء وبعد النكسة. وهذا يعني أنه لا الشعارات الزاعقة، ولا الطبقة الفقيرة، ولا الرحلة، ولا المحاكاة، ولا اللهاث المحموم وراء منطق السادة، ولا نقل صفحات كاملة من روايات روسية شهيرة، يمكن أن تُشكِّل تياراً متميزاً في القصة القصيرة. ففي دائرة بحثنا نجد – مثلا – أن الكاتب حمدي أبو الشيخ نشر قصة «الكابوس» في مجلة (المجلة) نوفمبر ١٩٦٢، ثم تابع النشر فيها – مايو ١٩٦٤ قصة (الطريق الى أثينا)، وأصدر مجموعة قصصية حرص كاتبنا الكبير يحيى حقي على كتابة مقدمة لها لكنه لم يلفت النظر اليه من الناحية الفنية واستكان الى كلمات التشجيع التي أطلقت دون أن تكون له قصص قصيرة، ولا استمرار جاد في حقل الإبداع القصصي.

ومنذ الأعداد الأولى لمجلة (القصة) وهي تقدم قصصاً قصيرة لأسماء لم يواصل أصحابها الكتابة: أحمد عبد الحميد (مارس ١٩٦٤)، كمال جمعة (مايو ١٩٦٤)، علي حسين خلف (يونيو ١٩٦٤) رضا المنياوي وأحمد عثمان بهلول (يوليو ١٩٦٤) حسين كبة (سبتمبر ١٩٦٤)، رجاء العريني (أكتوبر ١٩٦٤) محمد خريك (أغسطس ١٩٦٤). وفي مجلة (المجلة) كذلك: اسماعيل البنهاوي (سبتمبر ١٩٦٣)، دانيال عبد الله رزق (أبريل ١٩٦٦)، سميح عباس (ديسمبر ١٩٦٦) وقد عقب على قصته يحيى حقي، وكانت بعنوان (الكتل السوداء) العدد ١٢٠ ص ١٠٢. وهناك من أصدروا مجموعات قصصية في هذا العقد دون أن يكون لهم تأثير أو استمرار. مثال ذلك: أحمد لطفي (الصبر طيب) ١٩٦٢، مواهب صدقي ربيع (الزجاجة الفارغة) ١٩٦٤، مصطفى أبو النصر (واحدة تكفي) ١٩٦٥، فتحي زكي (أزمة ثقة) ١٩٦٦، أمير سلامة (الدوافع الخفية) ١٩٦٦.

وفي ذات الوقت كنا نقرأ لكتاب مارسوا الكتابة القصصية قبل ١٩٦٧، ومنهم من لم ينقطع عن كتابتها حتى الآن، دون أن يقدموا جديدا مؤثرا في الرؤية أو في الأداة، ودون التفتات الى أن تكون قصصهم ذات شخصية متميزة ومستقلة وقوية. عزت نجم في مجلة (الشهر) مارس ١٩٦١، قصة (القشاش)، محمود حسن العزب في مجلة (الآداب البيروتية)، قصة (الاتجاه الآخر) مايو ١٩٦١، ثم (المرآة الصاخبة) مجلة (الرسالة) أكتوبر ١٩٦٤. أمين ريان،

قصة (ضحكة) مجلة (القصة) أكتوبر ١٩٦٤ . بكر رشوان في قصة (الناس والمولد) مجلة (القصة) مايو ١٩٦٥ . سيد سعيد (تلغراف) مجلة (صباح الخير) ٢٩ سبتمبر ١٩٦٦ . رستم كيلاني (المفكرة) مجلة (القوات المسلحة) ١٦ سبتمبر ١٩٦٦ . عباس الأسواني في (الكاتب) يناير ١٩٦٢ . عباس محمد عباس (القصة) سبتمبر ١٩٦٤ . سيد جاد (المجلة) يونيو ١٩٦٤ . عبد المنعم شلبي (القصة) يناير ١٩٦٤ . زهير البيومي (القصة) مايو ١٩٦٤ . عبد العال الحمامصي (القصة) نوفمبر ١٩٦٤ .

بل إنا وجدنا عشرات من الذين فازوا في مسابقات القصة القصيرة التي تعقد كل عام ، وكانت مجلة (القصة) تنشر قصصهم الفائزة ، لكن - بعدئذ - لم تكن تظفر بأحد منهم ، يكونون محترفين متخصصين ، ليسوا مبدعين ، توفروا على الاشتراك في هذه المسابقات ، وقد فطنوا لشروطها جيدا ، وحرصوا على توفيرها ، فقدموها جواز مرور للفوز ، وليكن بعدها ما يكون . وربما يكون الفاحصون ممن لا يملكون الوقت والصبر ، وممن لا يحرصون على استغلال المسابقات لاكتشاف المواهب الخلاقة المبدعة . وحتى لا يكون حكمنا مطلقا فإني أذكر بعض أسماء من فازوا في مسابقتي عام ١٩٧٤ ، ١٩٧٥ لنادي القصة : محمد زكي الأجهوري ، جمال الدين محمد عشماوي ، أحمد دسوقي مرسي ، محمد عبد المنعم الطنبولي ، السيد وليد عبد الحميد حجازي ، أحمد رءوف محمد الشافعي (١٩٧٤) . إبراهيم حلمي حسن ، وليم ميخائيل شحاتة ، محمد أحمد القنام ، محمد فؤاد محمود ، مؤنس ابراهيم هنداوي ، حمدي نصر عباس ، السيد عبد العزيز الجندي ، محمد أحمد سيد أحمد ، أحمد أحمد مريود (١٩٧٥) . أين هم الآن من كتاب القصة القصيرة ؟!

أما من تفردت قصصهم القصار في هذا العقد : فإنا نذكر منهم : عز الدين نجيب (المساء) مايو ١٩٦١ . محفوظ عبد الرحمن (الكاتب) نوفمبر ١٩٦٢ . أحمد هاشم الشريف (القصة) مارس ١٩٦٤ . ضياء الشرقاوي (القصة) يونيو ١٩٦٤ . محمد حافظ رجب (القصة) يوليو ١٩٦٤ . بهاء طاهر (الكاتب) مارس ١٩٦٤ . ابراهيم أصلان (القصة) سبتمبر ١٩٦٤ . محمد البساطي (القصة) يناير ١٩٦٤ . أسامة أنور عكاشة (القصة) سبتمبر ١٩٦٤ . أحمد الخميسي (القصة) أبريل ١٩٦٥ . جميل عطية ابراهيم (المجلة) يوليو ١٩٦٥ . جمال الغيطاني (القصة) أبريل ١٩٦٥ . يحيى الطاهر عبد الله (الكاتب) أغسطس ١٩٦٥ . عبد الحكيم قاسم (صباح الخير) ٢٧ أكتوبر ١٩٦٦ . مجيد طوبيا (المجلة) مايو ١٩٦٥ . أما محمد ابراهيم مبروك فإنه نشر قصته المعروفة (نزف صوت صمت نصف طائر) في مجلة (المجلة) أكتوبر ١٩٦٦ .



إبراهيم أصلان



عبد العال الحمامصي

وجدير بالملاحظة ، أنه في ميدان الشعر ، وفي يناير ١٩٦٤ صدر العدد الأول من مجلة (الشعر) برئاسة تحرير الدكتور عبد القادر القط ، قدمت عدداً من الشباب الجدد ، وآزرت الشعر الجديد ، ونشرت بحوثاً ومقالات نقدية حول ظاهرة التجديد في الشعر المعاصر

تعدد الأصوات

إزاء هذا النتاج المتنوع في القصة القصيرة ، فإنا لن نقف عند كل ما كتب ، ولا عند كل من كتبوا ، وإنما سنقدم بعضاً [illegible] الكتاب من الشباب [illegible] جميعاً – لم يتخذوا مساراً واحداً ، إذ تعددت مناحيهم ، تفرد فيها بعضهم ، بينما انزوى آخرون . ولا يعنينا هنا – بطبيعة الحال – من لم يُضف جديداً ، معتمداً على محاكاة الأسلوب الذي كان شهيراً وجاذباً . وتكشف النصوص القصصية أن الفترة سمحت بتعدد الأصوات ، وهو الأمر الذي يجب أن نشير إليه . فلم تعد القصص تجرى في قناة واحدة ؛ لأنها لم تعد تصدر عن صوت واحد أصبحت نغمته مملولة ومكررة .

ونحن نرى أن قصص محمد حافظ رجب ، وأحمد هاشم الشريف ، وعز الدين نجيب ، وضياء الشرقاوي ، ومحمد ابراهيم مبروك ، تمثل معاً صوت الثورة والتجديد ، إنهم أصروا على تطوير الصورة ، والموقف ، والكلمة ، والمعنى ، والرؤية الشخصية . وقد أكدوا في كتاباتهم وبأقوالهم ، وقصصهم ، تشبثهم بالتجديد ، وحرصهم عليه . ولعل محمد حافظ رجب هو الذي تعرض للهجوم – طويلاً – بسبب تجاربه الجديدة ، ولمواجهته الواقع القصصي غير المتطور ، ولأنه أعلن صيحته الشهيرة « نحن جيل بلا أساتذة » أثناء مناقشة المجموعة القصصية (عيش وملح) التي شارك فيها بالكتابة عز الدين نجيب وغيره . ويبدو أن معارضة قصصه القصيرة ، ورفض أسلوبه الفني ، قد اتخذا وسيلة للهجوم على كل المجددين من الشباب ذوي الطموح الفني والفكري .

وقد اتخذت معارضة قصصه شكلا حاداً [illegible] أصدر مجموعته الأولى (الكرة ورأس الرجل) التي قدمت نمطاً غير مألوف ، وبناءً غير موروث ، ولغة لم تكن متداولة . ولذا انصبت عليه اللعنات باعتباره ممثلاً للتجربة الجديدة ، ولأنه أعلن رأيه الواضح فيما يكتب من قصص تقليدية ، وفيمن يكتبون . كتب محمد حافظ رجب عدداً من المقالات يدافع فيها عن التجربة الجديدة ، ويفند الآراء المضادة ، ويدافع عن حق أصحاب التجربة في التعبير عنها ، من خلال كل ما يصدر من مجلات أدبية . وجاءت مقالاته تلك في شكل

يقترب من أسلوب كتابته القصة القصيرة ومتحديا بذلك كل معارضيه (إنكم غرباء علينا بالفعل . فلنترك للناس الحكم . ولتسمحوا لنا بأن نقف معكم فوق المنصة ، ومن يصفق له الناس يستمر في الإنشاد)

ويوجه حديثه الى محمد فريد أبو حديد ، بعد صدور العدد الأول من مجلة (الثقافة) ١٩٦٣ قائلا : (لو لم تمنحنا جواز الإقامة ، فسنقف على البوابة ، لن نتحرك ، لن نمشي ، سننام في منتصف الطريق ، معنى ذلك أن الكل متفقون ، معنى ذلك أن الكل رفعوا شعار الطرد ، أين نقيم ؟ أين نلجأ ؟ « الثقافة » آخر ملجأ) لكن الرد كان صادما من قبل محمد فريد أبو حديد : (لقد حاولت بكل إخلاص أن أدرك شيئا وراء هذا الكلام الذي يبدو أنه لا يفيد معنى ، ولقد صدمني الكلام وشعرت بالصدمة بإخلاص ، وفاء بوعدي للسيد الكاتب ، ولكني وجدت آخر الأمر أنني عاجز عن تفسير هذه القصة ، فأنا أقر للسيد الكاتب بعجزي وقصوري عن إدراك ما يختفي وراء ألفاظ هذه القصة ، لعله فلسفة عليا ، كما أنه من الممكن أن يختفي وراءها سر مخيف) .

هذا هو الذي جعل محمد حافظ رجب يصرح مؤخرا بأن (التقليدية المصرية اتهمتني بالجنون ، مجلة الثقافة والرسالة ، والتقدمية المصرية اتهمتني بالخروج على واقع الناس البسطاء) – مجلة « نادي القصة » بالاسكندرية – العدد ٣٦ – ١٩٨٨ ص ٩ . ونراه يفسر الواقع الى التجربة الجديدة بقوله : (كانت الحاجة الى التجديد ملحة وواجبة . إنها انبثاق من صخور الواقع الوحشي الذي صنعته ظروف وملابسات تلك الفترة ، لقد كنت مضغوطا وضائعا في غابات القاهرة وكنت أرى وأستمع لعق الذئاب لدماء الانسان في مصر . كانت الحيوانية في ممارسة كل لحظة وكل يوم ، من هنا خرجت كلماتي في وجه اليوم الخفافيش ، لم يكن في هذا الوقت بالإمكان سوى التلميح بالإشارات والرمز . كان الكتاب في مصر يلعبون لعبة السير في طوابير الاستسلام الى أقصى الحدود فأعلنت خروجي على طاعتهم . وتنحيت جانبا لدى الأم الريفية ، وهكذا قلت « نحن جيل بلا أساتذة ») مجلة « الثقافة الجديدة » – العدد العاشر – أبريل ١٩٨٦ – ص ٧٩ .

إنه يصور كلمات غاضبة حادة الواقع المصري ككل ، ويسلط الضوء – قويا – على الأسس الذاتية والموضوعية الكامنة وراء [illegible] الاستسلام والرضوخ للنمطية السلطوية والتقليدية ، كما يكشف عن الوسيلة التي أتيح له استخدامها – فنيا – في ذلك الحين ، أراد أن يطلق البخار المكتوم في صدره ، ورغب في ممارسة حريته الفكرية والفنية كاملة ، في ظل اصطراع الأيديولوجيات ، وانتشار وسائل الإعلام ، والأحكام الصارمة للنقد الأدبي التي تطلق من فوق منصة عالية ، في هذا الجو المشحون بالرغبة ، والخوف ، والارشادات ، والقواعد ، لم يجد الكاتب

الشباب نفسه حراً مع عالمه الخاص وتجاربه التي لم يعشها أحد غيره، بالإضافة الى سيطرة آخرين على منافذ النشر

من هنا كان لظهور كتاباته وقع الدهشة والذهول (وكنت مصراً على فرض نتاج نفسي على الجميع في الساحة الدموية، وأفسحت كتاباتي المكان لجيل الستينات لكي يقول كل ما يعرفه. وهكذا جاء رجال هذا الجيل الذي أسميه رجال الحرس القديم. لقد كنا جيل الشباب كما يقولون عنا. لقد كنا أبناء البخار المكتوم، وكانت الانفجارات تتتابع في كتاباتها دون أن نجد من الناس العون. لقد تفوقنا في الستينات على الألم والحزن والسير قدماً الى الخلق المبدع. كنا نكتب باستشهاد، كنا شهوداً ما يحدث). مجلة «الثقافة الجديدة» – العدد العاشر – أبريل ١٩٨٨ – ص ٨٠. ويحدد أحمد هاشم الشريف علاقة الجيل الجديد – الذي أخذ بتجاربه ومحاولاته في تغيير شكل القصة القصيرة وبنائها الفني – بالجيل السابق عليه، والموقف الرافض الذي اتخذه تجاهه قائلاً: (الجيل الماضي لا يفهمنا بطبيعة الحال. ولكن بعض أفراده يحاولون ذلك بصورة مضحكة ومنفرة سرعان ما تكشف نفسها. إن الزمن لا يرحم والتغييرات الكثيرة التي طرأت على المجتمع: جعلت من الجيل الماضي أشباحاً هزيلة). مجلة «الطليعة» سبتمبر ١٩٦٩ – ص ١٥، وفي الكتاب الذي أصدره محمد الراوي عن أدباء الجيل، الصادر عن مطبوعات الكلمة الجديدة بالسويس؛ يقول: (... ونتيجة لمواقف الأجيال القديمة التي لم يستطع الجيل الجديد أن يستفيد منه الكثير فتقدم برؤية جديدة) ص ٣٢ ثم يقول: (لما بدأ الجيل الجديد يصرخ في الستينات مطالباً بحقه في التعبير عن وجوده تصدّى له هؤلاء الأدباء الرسميون وأتباعهم وحاصروا الجيل الجديد بشتى الاتهامات: الإغراب، الغموض، الذاتية، الجهل باللغة. وهكذا بدأت محاولات الجيل الجديد للنشر في بيروت أو النشر في مصر على حسابه الخاص. وهكذا أيضاً ظهرت الى حيز الوجود أشكال جديدة للتعبير نابعة من هذه الظروف) ص ٣٣.

ويتفق أحمد هاشم الشريف عن التجربة الفنية الجديدة أنها تكمن في نطاق الشكل وحده: (إنها اكتشاف الحقيقة، واقتحام المجهول، ومحاولة لحل الألغاز التي تحيط بنا في هذا الكون. إن الكاتب الجديد هو من يحاول الوصول الى الحقيقة بأسلوبه الجديد. بعض من رأى أن القصور في الأساليب القديمة المتبقية هو الهدف وأساليب الأدباء للوصول اليها لا تتوقف، لذلك فمن الطبيعي أن تكون هناك أشكال جديدة في القصة) ص ٣٤.

ولا يعترف ضياء الشرقاوي بأي دور للأجيال السابقة، ويذهب الى أنهم لم يقوموا بدورهم لرعاية الجيل الجديد، وتهيئة الطريق له، أو إتاحة الفرصة لتجاربه، بل إنه يعتقد في أن رعاية الجيل الجديد شيء لا قيمة له، وينبغي ألا

تكون (حتى تنمو أظافر الجيل الجديد يشق بها طريقه في الصخر ، وكلما كانت العقبات أكثر والمصاعب وافرة كلما أفاده ذلك خبرة وأصالة) ، أدباء الجيل - محمد الراوي - ص ٣٢ .

إنهم يجمعون على أن الأجيال الفنية تعمل في دوائر مغلقة ، ليس هناك التحام حقيقي بينها ، مما يجعل لكل جيل ذاتيته المغلقة وتجاربه المنفصلة ، بحيث لايكاد الجيل الجديد يستفيد من تجارب الأجيال السابقة استفادة حية ، وهذا قد لا يعطي التجربة الأدبية والثقافية صفة الاتصال والتقدم المستمر الى الأمام . ويعترف ضياء الشرقاوي بأن العلاقة بينه وبين الأجيال السابقة (علاقة فاقدة للتأثر والتأثير ، وإن من حدتها أن الجيل الجديد يواجه تغيرات جذرية حاسمة يواجهها ويعيشها ويحمل نصيبا أكبر من الأجيال السابقة عليه للتعبير عنها . لذا فإن المناخ الذي نعيشه [illegible] مناخ الأجيال السابقة مما يزيد من حدة الانفصال) مجلة « الطليعة » العدد ٩ - سبتمبر ١٩٦٩ - ص ٥٢ .

وينتقل ضياء الشرقاوي الى تعيين الفروق المميزة لكتاب العقد الأول من الستينات في اختلاف الرؤية ، والحساسية الجمالية والفنية ، وما استتبع ذلك من فروق في بناء القصة القصيرة ، وفي معنى المكونات الأساسية للعمل الفني : كعنصر الزمن ، والمكان ، ومفهوم الشخصية ، والحدث ، والخيال ، ودور اللغة (وكلا الرؤية والشكل هما اللذان يشكلان معمار القصة القصيرة عندي وعند زملائي) أدباء الجيل - ص ١٣ - ص ٢١ . تدل هذه النماذج من أقوال بعض كتاب القصة القصيرة في الستينات ، على أنهم أعلنوا موقفهم بوضوح من كبار الكتاب الذين كانوا يمثلون الريادة والتأثير في مجال القصة القصيرة ، أو من الذين كانوا يشرفون على وسائل النشر ، كما رفضوا تلك القواعد والقرارات التي أصدرها بعض النقاد ، تطبيقا لتعاليم ومبادىء غير فنية . وثاروا على المذاهب الأدبية السابقة ، وسلبيات من يؤمنون بها ، وأشاروا الى موقفهم الجديد من الشكل الفني الذي ينبغي أن تكون عليه القصة القصيرة ، الى غير ذلك من الفكر والآراء التي [illegible] - آنذاك - ثائرة ومجددة ومتمردة .

وطبيعة الدراسة قد تستلزم أن نخصص لكل تيار فصلا أو لكل كاتب جزءا - نعتمد فيه على تحليل النصوص القصصية - لبيان دوره - كاتبا أو تيارا - وإضافاته والملامح الفنية التي تميزه ، أو التي لو أضيفت الى ملامح الآخرين ؛ فإنها قد تحدد أبعاد الصورة الكلية ، وتستكمل قواعد البناء الجديد . وقبل هذا وذاك ، فإنه ربما يكون ملائما الإحاطة بالمناخ الثقافي والنفسي الذي أحاط بكتاباتهم ودفع الى اتجاههم ، وأسهم في رسم القسمات الفنية المشتركة ؛ تلك التي جاءت استجابة لذلك المناخ .

مولد سينما أخرى في المغرب العربى

بقلم : مصطفى درويش

موعدنا مع أيام قرطاج السينمائية مرة واحدة كل سنتين .. وأين ؟

فى قلب تونس العاصمة ، وبالتحديد فى مثلث يقف على رأسه ابو التاريخ « ابن خلدون » شامخا بتمثاله المهيب ، يذكرنا بماض ثقافى مجيد .

وبعد التمثال ، وعلى امتداد البصر ، ينساب نهج الحبيب ابو رقيبة ، وهو شارع معبق بعطر الماضى التليد ، يسر بأشجاره وأطياره الناظرين .

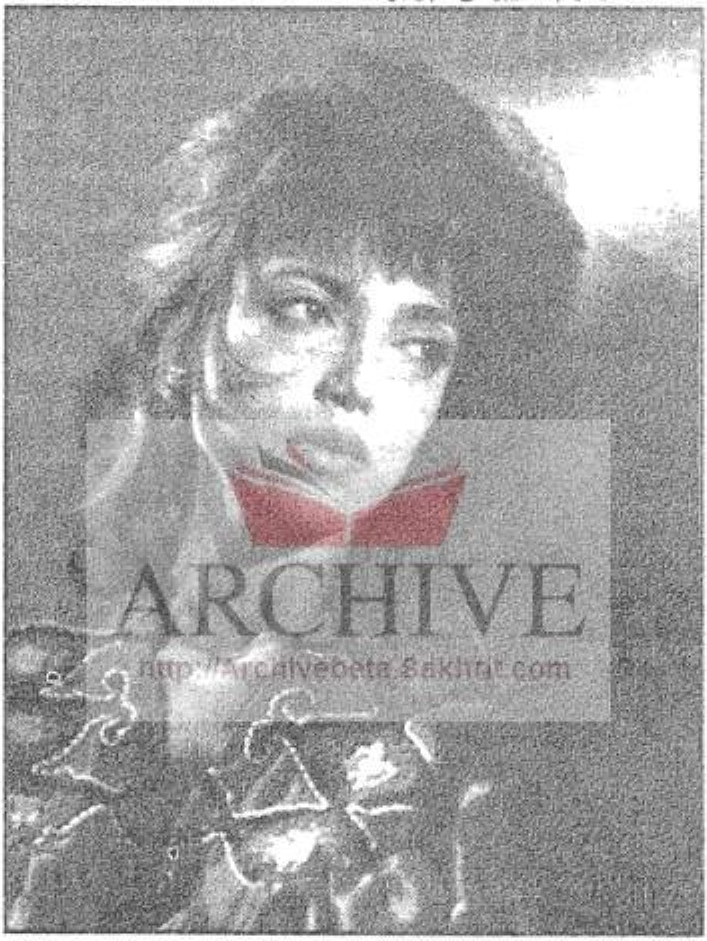
ولعله واحد من أجمل شوارع العاصمة التونسية ، ولا اقول شوارع من الوطن العربى من الخليج إلى المحيط .

فداخل هذا المثلث الذى لا تزيد مساحته كثيرا عن مساحة نهج الحبيب ، تركز عدد من دور العرض على وجه ليس له مثيل على امتداد هذا الوطن الفسيح .

وقد لا أكون بعيدا عن الصواب ، إذا ما جنحت إلى القول بان عدد دور السينما فى هذا المثلث ، إنما يفوق عددها فى وسط القاهرة هوليوود الوطن العربى ، بل قد يفوقها بكثير .

ومما يزيد الأمر غرابة ان تونس بلد

لقطة من فيلم اكتوبر فى الجزائر



صغير ، لا ينتج إلا ثلاثة أفلام على مدار السنة ، فى حين ان ما تنتجه استوديوهات القاهرة سنويا ، لا يقل عن ستين فيلما ، بل قد يزيد .

سر الاستمرار

ومثل ذلك الحشد للدور فى بقعة واحدة وسط عاصمة خضراء ، يتيح للمشاهد فرص الانتقال فيما بينها فى بضع ثوان ، وبدون كبير عناء .

وهذا شرط لابدّ منه لقيام أى مهرجان سينمائى جاد ، ولا اقول لنجاحه ، ودوام استمراره ما دام ثمة أفلام .

ولعل توافره فى قلب مدينة غير بدينة مثل تونس العاصمة ، هو الذى أهل تلك المدينة العريقة لان تكون مركزاً لايام قرطاج ، واتاح لهذه الايام ان تستمر ثلاثة ثلث قرن من عمر الزمان .

ومن بين الاسباب الاخرى لنجاح الايام ، ذلك الجمع الغفير من عشاق الفن السابع الذى كنت أراه فى أثناء تلك الايام يحتشد داخل دور العروض ، وأمامه تمر مناظر العرى والفراش ، دون أن تثير صرخة من حلق ، أو دبدبة من أقدام .

واغلب الظن ان وجود جمهور بمثل هذا الذوق المصفى المهذب ، انما يرجع أولا إلى فهم ما يجرى على الشاشات من احداث ، لا لسبب سوى أن جميع المثقفين يجيدون التحدث باللغة الفرنسية ، علاوة على لغة الآباء .

وثانيا الدور الذى لعبه النقاد ، فهم لم يغفلوا لحظة واحدة عن مفهوم السينما باعتبارها فنا له أصوله وقواعده ، ومن ضرورة التوعية بها بوصفها لغة العصر .

ولقد اسهم دورهم هذا فى فتح النوافذ على كل ما له قيمة ودوام فى انتاج السينما العالمية ، كما ساعد على انطلاق أيام قرطاج من عقال الجدل العقيم فى مهرجانات مفتعلة ، بلا هوية ، كمهرجان الاسكندرية إلى طريق وحب لا ينتهى إلى سراب .

ولولا هذا الدور لما أصبحت قرطاج بايامها أقدم مهرجان لفن السينما فى جنوب حوض البحر الأبيض المتوسط ، وفى الأقطار العربية كلها بلا استثناء . ولما استمرت ملتقى للمبدعين ، ومنارا للسينما العربية والافريقية ، حتى يومنا هذا .

لزوم الهوية

وثمة مزايا أخرى للايام ، أذكر من بينها أنه منذ البداية (١٩٦٣) ، وله هويةّ أفريقية عربية ، لم يحد عنها أبدا ،

فحسب قواعده الصارمة ، ليس لأى فيلم لم يبدعه مخرج أفريقى أو عربى الدخول فى مضمار التنافس على جوائزه التى تمنح فى ليلة الختام .

كما أن التيار السينمائى السائد عالميا ، وهو تيار هوليوود بطبيعة الحال ، ليس له مركز مرموق فى أيامه ، مثل ذلك المركز الذى يشغله فى مهرجانات القاهرة ، وفينيسيا وكان .

وفضلا عن ميزة الهوية تلك ، هناك حسن الاختيار ، فلا اهتمام بالكم يترك عنه زحام أفلام ، يضيع فى صخبه ما ينفع الناس .

قصة وعظة

ومن هنا قصر العروض الخاصة بالسينما العالمية فيه على روائع مثل « اللاعب » للمخرج الأمريكى « روبرت اكتمان » و « جيمس الأبيض » للمخرج الأمريكى الأفريقى « سبايك لى » و « العاشق » للمخرج الفرنسى « جان جاك انو » و « تستمر الحياة » للمخرج الإيرانى «عباس تخيا روستامى» و « كعب عال » للمخرج الاسبانى « بدرو المودوفار » وفوق كل هذا « الفهد » (١٩٦٣) أول فيلم يبدعه المخرج الايطالى الراحل « لوكينو فيسكونتى » لاحدى شركات هوليوود الكبرى « فوكس للقرن العشرين » ومعروف عن « الفهد » ، وهو تحفة بين الأفلام قلَّ ان يجود الزمان بمثلها ، ان فيسكونتى أخرجه قبل تسع وعشرين سنة وبفضله فاز بجائزة كان المسماة بالسعفة الذهبية . هذا ، وقد ارتأت « فوكس » ألا يعرض « الفهد » كاملا ، لأنه فى تصورها لو عرض كذلك ، لكان فيلما طويلا ، شديد الأملال .

وبعد كل هذه السنين جرى عرضه فى أيام قرطاج كاملا ، بحيث استمر الاستمتاع بمشاهده الاخاذة مدة ثلاث ساعات ، وازدادت عشر دقائق ، لم نشعر خلالها بملل ، ولو قليلاً .

واختتمت العروض الرسمية بفيلم « ضباع » للمخرج السنغالى « جبريل ديوب ممبيتى » ، وهو مأخوذ عن مسرحية للأديب السويسرى « دورينمات » .

ولن أقف عنده ، ولا عند أى فيلم أفريقى آخر لأن الحديث عن أزمة السينما الأفريقية يطول ، وفى نفس الوقت حزين .

وحدة ونهضة

ولا يفوتنى ان أشير ، بمناسبة مجىء كلمة أزمة فى أثناء الحديث ، ان اشير إلى ظاهرة آراها جديدة كل الجدة وجديرة

بالوقوف عندها ، ولو قليلا .

فلقد لوحظ ان الكثير من الترقب والتلهف لم يتركز على الأفلام القادمة من مصر ، كما كان يحدث في سالف الأيام ، وإنما تركز على الأفلام التي أبدعها مخرجون من أبناء المغرب العربي .

وفي الحق ، فالأفلام التونسية والجزائرية والمغربية كانت أعجوبة بين الأفلام العربية ، بفضل جرأتها في تناول قضايا الساعة سواء كانت اجتماعية أو سياسية أو حتى دينية .

وهي جرأة ، ولا شك منقطعة النظير ، وتبشر بالخير الكثير .

الحدث الجليل

وفي رأيي أن هذه الجرأة ، أو بمعنى أصح النهضة ، بدأت تباشيرها قبل

« الضباع » فيلم الافتتاح



سنوات ، وفى تونس بالذات .

والفضل في ذلك كان لكوكبة من المبدعين الموهوبين ، اذكر من بينهم على سبيل المثال « محمود بن محمود » ، « نورى بوزيد » ، « ناصر خمير » و « فريد بو غدير » .

وجرى تتويج هذه النهضة ، قبل سنتين ، بالحلفاويين رائعة الأخير .

وهى رائعة أراها حدثا جليلا فى الانتاج السينمائى العربى ، لأنها فتحت بابا بقى موصدا ، حتى يوم عرضها فى تونس بنجاح فى الشباك ، فاق كل التوقعات .

ومن ارهاصات تلك النهضة الغاء الرقابة على فن السينما فى المغرب قبل خمس عشرة سنة ، وتطويعها لخدمة هذا الفن فى كل من الجزائر وتونس .

الشباب الضائع .. فى « بزنس »



مولد سينما

ومنذ قديم كان السؤال .. أين السينما المغربية ؟

وجاءت الأجابة فى أيام قرطاج قاطعة بوجود هذه السينما قوية ، قادرة على التعبير بحرية ، متحررة من أكثر القيود التى تكبل السينما العربية لاسيما ما كان منها مصريا .

والسينما المغربية استوقفت الأنتباه بفيلمين أولهما شاطىء الأطفال الضائعين لصاحبه المخرج « جيلالى فرحاتى » الذى قام بإسناد الدور الرئيسى فيه لشقيقته « سعاد فرحاتى » .

وهى فى فيلمه تؤدى دور فتاة شبه بلهاء يخفيها أبوها عن عيون الجيران فى قرية صيادين تطل على المحيط ، لأنها حامل والمسئول عن ذلك سائق لم يعد بامكانه إنقاذها ، لا لسبب سوى أنها قتلته دون قصد ثم أخفت جثته فى أحد كثبان الملح المنتشرة على سطح الشاطىء الكئيب .

ومع مرّ الأيام ، ينمو الجنين ، وتساعدها زوجة أبيها العاقر بادعاء أنها هى الحامل .

والفيلم بموضوعه الفريد ، وبأسلوبه الساحر وبلغته السينمائية الهادئة الرصينة ، إنما يذكرنا بروائع « بازوليني » و « باراد جانون » و « مومياء شادى عبد السلام » .

ومن عجب ابتعاد صاحبه فى تناوله لمأساة تلك الفتاة عن مرجعية السينما العربية السائدة ، فلا تعامل مع المشاهد باعتباره كائنا ساذجا ، تستغل عواطفه ، وتستدر دموعه بالصراخ والعويل .

فاذا ما انتقلنا إلى الفيلم الآخر « حب فى الدار البيضاء » فسنجد مخرجه « عبد القادر لقطع » يطرح فيه مشكلة صراع الإجيال من خلال قصة فتاة تعمل مدرسة، تسقط فى حب عشيقين ، تكتشف والفيلم يقترب من نهايته الفاجعة ، إن أولهما الأكبر سنا ان هو إلا والد العشيق الشاب.

ومخرج الفيلم يعرض لهذه العلاقات الخطرة بجرأة غير مألوفة فى السينما المتكلمة بلغة الضاد .

والأكيد أن هذه الجرأة ، لعبت دوراً كبيرا فى نجاح الفيلم جماهيريا داخل المغرب ، وذلك رغم ضعف اخراجه اذا ما قورن باخراج « شاطىء الأطفال الضائعين » .

أرهاب الفساد

أما السينما الجزائرية ، فقد أدهشتنا بفيلم « خريف أكتوبر فى الجزائر » لصاحبه المخرج والممثل وكاتب السيناريو

« مالك لخضر حمينه » ابن أول مخرج عربى يفوز بجائزة مهرجان كان الكبرى عن فيلم « سنوات الجمر » .

و« خريف أكتوبر » أول فيلم يخرجه « مالك » وفيه يحكى صفحة من تاريخ الجزائر الحديث ، وبالتحديد الفترة السابقة بأيام على أحداث أكتوبر ١٩٨٨ ، تلك الأحداث الدامية التي أنتهت بسقوط حكم الشاذلى بن جديد الشديد الفساد .

وهو يحكيها من خلال أسرة جزائرية متوسطة الحال ، محورها ثلاثة أشقاء ، احدهم فنان متحرر والثانى سلفى متحجر، والأخير متخلف عقليا .

والشقيق الفنان يتعرض طوال الفيلم لالوان من الضرب والإهانة على أيدى المتعصبين وجلادي السلطة على السواء ، وكلاهما فى اهانته وتعذيبه لايقيم وزنا لأية حرمة من الحرمات .

بيع الأجساد

يبقى أن اقول ان السينما التونسية ساهمت هى الأخرى فى هذه الموجة من الأعمال السينمائية الجريئة بفيلم المخرج « نورى بوزيد » اسماه « بزنس » .

وفيه يعرض لمأساة الشباب التونسى الذى يتربح من بيع جسده للسائحات ، وكأن هذا الجسد ليس إلا سلعة تباع وتشترى وفقا لقوانين العرض والطلب .



الحلفاويين .. فتح الابواب

و « روفا » بطل فيلم « بوزيد » واحد من هذا الشباب الضائع .

أنه يعيش ازدواجية أخلاقية مقيتة .

فهو مع أهل بيته وشريكة حياته مستقبل ، محافظ متمسك بالتقاليد إلى أقصى الحدود .

أما خارج البيت ، ومع النساء السائحات بالذات ، فهو لا يتورع عن بيع فحولته ، وبيعها بلا حياء ، مستحلا كل المحرمات .

وختاما ، نستطيع بعد كل هذا ، ان نتنفس الصعداء ، ونقول متفائلين أصبح للمغرب العربى سينما يعمل لها حساب .

مسرح

٢ تحت الأرض

الاكتشاف فى العمق

بقلم : فوزية مهران

منذ أكثر من ثلاثين عاما كنت أحدث كاتبنا الكبير نجيب محفوظ عن ذلك المسرح العبثى التجريدى الجديد .

وكيف حول يوجين يونسكو قصة قصيرة له « السيد أو القائد » إلى مسرحية من فصل واحد . والمشهد فى ميدان كبير حيث يتقدم موكب السيد أو الزعيم .. القائد - من نوعية هتلر ربما - تحتشد الجماهير على جانبى الطريق لرؤيته - ومذيع ينفم صوته ويطوعه ليصف تفاصيل الركب - مع هتاف الجماهير .

فتى وفتاة يحاول كل منهما رؤية ما يجرى .. يقف الفتى على مرتفع صخرى ويفسح لها مكانا تقف على أطراف أصابعها فيه ..

تشهق الفتاة : إنه بلا رأس ..

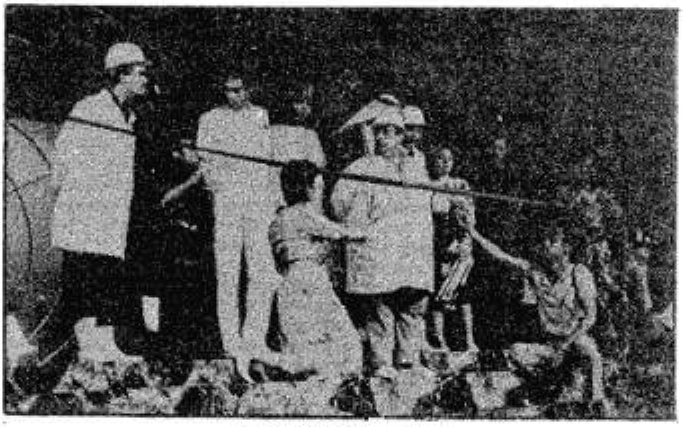
ينهرها رجل كبير : اصمتى ما حاجته لرأس !

تلتصق بالفتى - يسندها كى لا تقع .. صوت المذيع وهوسه .. يتعانقان يسألها :

- ما اسمك ياحبيبتى ..

سألنى نجيب محفوظ : ما جنسية يونسكو؟ .

- من رومانيا ويكتب ويقيم بباريس.



لقطة من « ٢ تحت الارض »

قال – كأنه مصرى – والمشهد بين أيدينا وعلى أعيننا – ماذا ترك لى لأكتب ! وضحك ضحكته الشهيرة – المجلجلة من الأعماق .. الساخرة المرحة التى تسع جموع « وعموم المصريين » .

(بعدها انطلق فى مرحلته الرمزية والعبثية .. وأطلق سخريته اللاذعة .. وصوره الشعبية التى تضج بالمفارقة .. وجسد لوحات عبثية ومشاهد واقعية هزتنا من الأعماق – وعبر عما يجرى من تناقض وأحداث كأنها كوابيس – انطلق يعبر بمصريته الأصيلة ووصل إلى آفاق التحدى والكشف المثير) .

من المؤلف :

وهكذا فعل « محمد سلماوى »

إنه فى دراسته للمسرح الحديث داخله هذا التحدى الجميل .. إن الواقع لدينا حافل بالمتناقضات .. بالمفارقات ومظاهر العبث والضحك والبكاء معا .

لديه على الساحة لقطات ولحظات ومواقف درامية عميقة المعنى بالغة الإثارة والتأثير موحية وناطقة . شخوصه مثل بيكيت ويونسكو وأداموف فى مواجهة المجتمع .. أمام لعنة الانتظار ومحاولة الفهم والبحث عن معنى .. عن الدفء والتواصل .



نجيب محفوظ



محمد سلماوى

لحظة واقعية .. سياسية .. اجتماعية والإنسان يعانى من التمزق من الانفصام والعزلة من القهر من التحكم .. توالت أعمال سلماوى المسرحية – اللى بعده – فوت علينا بكرة – القاتل خارج السجن – وأخيرا أنضج الأعمال وأكثرها سخرية ومرارة ٢ تحت الأرض .

عن المسرحية :

بقدر ما أفاد محمد سلماوى من دراسته المسرحية استفاد أيضا من موقعه ككاتب صحفى له حس متميز ورؤية واضحة . انتطع موقفه المسرحى من قلب الواقع – المسرح يخلق المواطنة الجيدة – كما يقولون لم يكن فى حاجة إلى الابتكار أو إعمال الخيال.. المشاهد من حوله والأحداث الصغيرة يمكن أن تلقى بوهج الحقيقة .. وتكشف عن عمق درامى وتضىء أمامنا الأضواء الكاشفة وتمد إلى حالة مضحكة ومبكية معا .

كل يوم نسمع عن طفح شبكات المجارى – اختلاطها بمياه الشرب سقوط أحدهم داخلها – فوهة فاغرة تبتلع أطفالا يلعبون الكرة .. أو فى طريق عودتهم من المدرسة حادثة مؤسفة ومتكررة حتى تبلد منا الحس وأصبحنا نلتقى بالأخبـــار المفجعة .. مع حوادث القتل والاغتيال – وسقوط الدول والنظم – نقرأ الأحداث وكأنها بعيدة عنا – تدور فى كوكب آخر ونحن نحتسى الشاى ونفكر فى الصلاة ونتصل بأحبائنا لنطمئن عليهم !

لكن الإنسان لا يستطيع أن يحيل نفسه إلى قطعة صخر .. لابد أن يتوقف يوما تنمى إنسانيته – توجعه آدميته .

الفنان عليه أن يهتم .. أن يعيد الإنسان إلى مجتمعه .. إلى كلية إنسانية واسعة وإلى جوهر إنسانيته .

دبر المؤلف أن يسقط فى إحدى البالوعات المهجورة فتى وفتاة « منى وحسن » بعد يوم عمل ورغبة فى العودة إلى البيت والأهل ومسئولياتهما .. كانا يسيران فى الطريق العام تحت وهج الشمس .. كل فى حال سبيله .. وفجأة وجد كل منهما نفسه فى قاع الجب العميق .

وتبدأ رحلة الإنسان فى قلب الحوت.
لم يذهب أى منهما مغاضبا .. ولم يفر أحد من عمله أو مهمته .. إنما سارا فى صبر ومعاناة وملل - تمشيا مع القطيع العام وتبعا مصيرهما بلا غضب أو ندم - ومع ذلك قذف بهما الخطاة إلى قلب الحوت .

(وليته من نوع الحوت السابح فى بحر الظلمات .. حوت عصرى وحشى وهوان رهيب) مشهد واقعى تماما - ومأزق يمكن ببساطة أن يحدث لأى منا - ومفارقة مضنية تكشف عن الجانب اللامعقول من حياتنا .

وأقام حول الموقف بناء دائريا - كى يدلى بشهادته ويصل برسالته - ويتمكن من إيجاد فصل ثان يبدأ وينتهى فى البالوعة أيضا والحلم بالخلاص والخروج وإعادة صياغة الحيـــاة من جديد .

يبدأ النقاش والجدل واللقاء الغريب والهدف المشترك . يدور كل منهما أحيانا فى منولوج داخلى بصوت مرتفع - يحكى عن حياته « فوق » معاناته .. جانبا من سيرته الشخصية والاجتماعية .

- نفس الموقف التعس الذى يجد فيه المشردان فى مسرحية بيكيت « فى انتظار جودو » .

- لا أحـــد يأتى .. لا أحـــد يذهب .. ولا خروج

وفجأة يأتى عاملا زراعة .. معهما أصص الزهور - ورغم أنهما يمثلان شارة الأمل ولمسة التواصل والدفء الإنسانى .. فإنها فى طليعة موكب التزييف وقلب الحقائق والهدف المعد تجميل المكان لافتتاح توصيلة شبكة المجارى الجديدة والتخفيف من السخط العام على حوادث غرق البالوعات ، والعمل يجرى على قدم وساق والمشاكل فى طريقها إلى الحل .. وحلول الرخاء كما تشير الدعايات وأجهزة البث والإعلان .

يبدو جليا أنه قد سقط معهما فى البئر العميقة الكذب أيضا والزيف . الشخصيات التى جعلها المؤلف تدور حول الموقف بلا أسماء - لأنها فى الحقيقة بلا ملامح أو وجوه .. مجرد أنماط لمناصب أو ألقاب .

- يدورون حول الحدث ولا يقربون الحقيقة .

مجرد أداء تمثيلى ساذج أو تهريج والايهام من أن دولاب العمل لا يتوقف وكل شىء على ما يرام .. وجار الاصلاح والترميم .

- رجل الأمن .. المحقق .. المتحدث الرسمى - مذيعة التليفزيون .

منى وحسن – بطلان واسمان – والأمل مرهون بجهودهما .

أيضا عليش وحبيش – عاملا الزراعة والنظافة – ومحبا الخضرة والشهامة.

رغم غرابة إسمهما – فهما رمز البسطاء العاملين .. أصل الحضارة – ومبعث الدفء الإنسانى وصلات الود رغم جفاف الواقع وقسوته من حولهما .

أستاذ الجامعة د . لبيب . له اسم للتنبيه لنوعية من المثقفين يقعون فى التناقض بين التقدم العلمى وأسر التخلف والتقاليد البالية والأساطير .

– كشف هذا النوع لأنه يعيق التقدم والتطوير .

البالوعة المهجورة التى زينوها واختاروا موقعها للاحتفال والتصوير بدلا من تلك التى حدث انفجار بها وشقت بطن العاصمة وقذفت بالمخلفات والعفن فى وجوهنا .

منى وحسن شاهدان لنا .

– وكأن لا يكفى ما لقياه من عذاب وترويع من أثر السقوط .. ولكن يحاط بهما اتهام بالتآمر والتخريب .

– وتجد الصحافة مادة للكتابة والإثارة وشغل الجماهير .

منى وحسن أخر زوجين على سفينة نوح – وصل طوفان العذاب المدى .

وكتبت عليهما المواجهة وإقامة حياة جديدة وإدارة دفة النجاة إلى مشرق جديد .

على المسرح القومى

عرضت المسرحية للمرة الأولى على المسرح القومى منذ خمس سنوات (١٩٨٧) .

– كانت من إخراج فهمى الخولى – بطولة فاطمة التابعى ومحمود مسعود – كمنى وحسن – يعيشان الدور تماما . ملابس البطلة لم تكن مناسبة .

حسن العدل وسعيد الصالح – حبيش وعليش – كانا يعرفان مغزى دوريهما وأنهما يمثلان قيمة العمل وسط ركام التراخى والاهمال – ورمز إنسان مصر البسيط – كما كتبنا فى ذلك الحين – مذيعة التليفزيون « نهير أمين » سحرت أعين الناس وأضحكتهم وسط المأساة .

موسيقى عمر خيرت كانت منسجمة مع الموقف المسرحى .

أشرف نعيم فنان الديكور المبدع واجهنا بفوهة بالوعة فاغرة وجسد لنا الحدث بكل أبعاده – وجسد الموقف .. جعله « حاضرا » .

فهمى الخولى جعل حركة الرسميين والموظفين تأتى من القاعة .. من بيننا – نحن أيضا مدانون إذ نسمح لهم بالكذب

علينا والافتراء وهم ينفذون من بين عيوننا .

جعلنا داخل الموقف - واحتفظت المسرحية بروح الكوميديا السوداء .. وارتفعت الضحكات وتوالت طلقات الحوار الذكى .

على مسرح الجامعة الأمريكية

أخذت المسرحية على مستوى أكبر من الخفة والمرح .. انطلق بها شباب قسم المسرح إلى آفاق الكوميديا العبثية - وضجت المفارقة بالضحك . وأعانهم على ذلك كثيرا المخرج أحمد زكى .

تقلصت الأدوار وتم حذف بعض الشخصيات - وغاب عنها البعد السياسى ولذعة النقد الاجتماعى .. ورموز الحكمة والتاريخ وإن تأججت بمرح الشباب وخفة تناولهم للمشاكل وأخذ الأمور ببساطة .

غاب العمق وحرفة الموقف واحتفظوا ببراءة نظراتهم وإشاعة الأمل . الموقف الدرامي نفسه تحول من الترويع وحدة المواجهة .. إلى عبثية الوضع واشتعال النكتة فيه وإبراز جوانب اللهو والمرح .

قصة الحب هى المفارقة - لحظات عاطفية شاعرية تجرى فى بالوعة مهجورة !! ديكور المسرح - د . محمد حامد على - كأنه خلفية منزل قديم .. والمواسير ظاهرة - لا حفرة ولا هوة - جعلنا ندرك فقط أننا تحت بعدة سلمات تمتد بين السطح وإلى الداخل .

- السطح لا يفضى إلى شيء .. ولكن يأتى منه الآخرون .

اللمسة المرحة الذكية التى أضافها أحمد زكى هو أنه وضع المذيعين المبرمجين الرسميين فى صفيحة قمامة على جانبى المكان وجعلهما يطلان كل حين - مثل الإنسان الآلى - ويذيعان الكلمات المعدة لهما . (هو الذى أخرجهما على هذه الصورة وأضاف إليهما عنصر البرمجة - فى النص نجد المذيع العادى أو صورة كاريكاتيرية له - هم ومن ينطقون باسمهم فى صفيحة قمامة بالفعل - ولا يعيرهم الشباب انتباها يضحكون منهم ويسقطون كلماتهم .

فعلها بيكيت من قبل ..

الكاتب المسرحي الذى حصل على جائزة نوبل وضع الأم والأب فى مسرحية « نهاية اللعبة » فى علبة قمامة . وهاجت الدنيا عليه - قبل حصوله على الجائزة - لقد جرح مشاعر الرأى العام . ونال من قدسية الأبوين - ولم يهتم بيكيت قال إن الناس لاتقوى على مواجهة الحقيقة أو الواقع

الصارخ – مهمة المسرح ان يضع أمامهم الحقيقة سافرة – يصدمهم بها – كثير من الشباب لا يقيمون وزنا لآبائهم لا يبدون احتراما عميقا لهم – بعد الجهد والعناية والتربية يعتبرون أن دورهم انتهى – يلقون بهم إلى سلة المهملات – ويعجبون لطول بقائهم ! – أحمد زكى انتقم لنا من مزيفى النشرات والدعاية والاعلان وضعهم فى صناديق القمامة هم ودعاياتهم المغرضة .

وكان متوافقا تماما بين عبث الشباب ومرحهم وأخفى مكره بين طيات ضحكاتهم .

منى التونسى بطلة العرض بدت مبهرة مدهشة .

تنتقل بخفة ونعومة من فتاة تشعر بالأسى ووجل طفولى .. إلى أنوثة ناضجة تشدو بالحب فى موقف عسير حقا .

وأحالت صوتها الجميل إلى أداة موسيقية تصنع من المشهد لحنا عذبا مؤثرا .

إبراهيم صالح فى دور حسن – كان صغيرا بريئا يأخذ الأمور بظاهرها وعفويتها ويبدو غير واع تماما بأبعاد دوره أو بحقيقة الموقف الذى هو فيه .

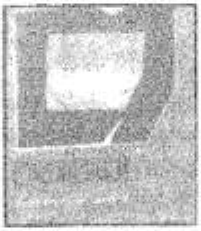
مفاجأة العرض حقا « خـــالد أبو النجا » نجح فى أداء الدورين معا – المأذون ومدرس اللغة الفرنسية – يستطيع أن يستحضر مشاعره الكامنة لدى أى دور يقوم به – إحساسه متقد ويوسعه النفاذ إلى الآخرين والإمساك بجوهر الشخصية التى يؤديها كأنها حقيقته .

لقد شاهدته فى أدوار عدة ومعظم المسرحيات التى تقدم على مسرح الجامعـــة الأمريكيـــة – خصوصا فى « محفوظيات » عن شخصيات فى قصص نجيب محفوظ ومازالت طريقة أدائه مشعة ومتوهجة .

عليش وحبيش – أى أحمد عابدين ومحيى العرابى كانهما حقيقة الرمز لدوريهما محبا الزرع ، وشراع الأمل ليقضى على الركود والبوار والعفن .

عبير الشرقاوى فى دور مذيعة التليفزيون منطلقة عنيفة صاخبة مليئة بالحماسة وجموح العاصفة .

كلمات شوقى خميس أضافت الكثير وأعادت التوازن والعمق للكوميديا الساخرة . أما الجوقة الموسيقية ألحـــان « علاء مصطفى » وأورج « ايهاب عبد السلام » وإيقـــاع « هشام الزقازيقى » فقد أحاطت العرض بخلفية موسيقية نابضة .. وجعلت معزوفة الكلمات تدور حلقاتها داخلنا ومن حولنا وتشدنا إلى قوى الشباب وإمكانية الوعد وتحقيق الأمل .



● النشر الفنى فى الأدب الفارسى المعاصر.
تأليف : حسن كشاد .
ترجمة د. إبراهيم الدسوقى شتا
الهيئة المصرية العامة للكتاب .

صدر هذا الكتاب عام ١٩٦٦ عن جامعة كمبردج البريطانية ، ونال مؤلفه به درجة الدكتوراه ويقدم الكتاب نشأة الفن القصصى وتطوره فى الأدب الفارسى ، مع عرض للتاريخ السياسى لإيران فى المائة سنة الأخيرة والظروف الاجتماعية التى صاحبتها ، الأمر الذى أثر بدوره على الحياة الأدبية وإلى جانب اهتمام المؤلف بالفن القصصى فقد أشار إلى بعض المقالات الصحفية والدراسات النقدية والترجمات التى قام بها الكتاب ، ويأخذ المؤلف جانب الإنسان وآماله الفكرية والاجتماعية والسياسية ، لدرجة أن اعتبر البعض كتابه صرخة مدوية ضد الإرهاب الفكرى والسياسى كما اهتم المؤلف بالنقد الأدبى والفنى وعرض للمشكلات الفنية التى يواجهها أدب فى طور النمو مثل مشكلة التعبير وهل يكون فى لغة أدبية أو عامية أو فى لغة خليط منهما معا ، وكذلك مشكلة التعبير الرمزى الساخر فى مجتمع استبدادى تسيطر عليه الفاشية ، ورسالة الأدب فى مجتمع دائم التطور والغليان .

وتناول الكتاب الفترة الزمنية من عام ١٩٠٥ – ١٩٦٥ وقسمها ثلاث فترات رئيسية أنتجت كل واحدة منها أدباً مرتبطا بطبيعتها إلى حد بعيد :

١ – فترة الثورة الدستورية (حدثت الثورة الدستورية بين عامى ١٩٠٥ – ١٩٠٩) وما بعد الثورة الدستورية حتى انقلاب رضا خان العسكرى من ١٩٠٥ – ١٩٢١ .

٢ – عهد رضا شاه من ١٩٢١ – ١٩٤١ .

٣ – فترة تبدأ من اعتزال رضا شاه من ١٩٤١ حتى عام ١٩٦٥

وفى مقدماته التاريخية أشار المؤلف إلى أن الطباعة دخلت إيران عام ١٨١٢ ، كما أن أول صحيفة صدرت فى إيران عام ١٨٣٧ ، ويشير المؤلف إلى صحيفتين كان يصدرهما فى القاهرة ميرزا محمد على خان الشيبانى وهما : «الثريا» ١٨٩٩ - ١٩٠٠ ، «بروش : التربية» ١٩٠٠ - ١٩٠١ ، وبرغم أنهما كانتا قصيرتى العمر إلا أنهما اكتسبتا شهرة واسعة ، كلتاهما أحدثت ثورة عقلية عظيمة فى الشباب الإيرانى وأشعلت الرأى العام وملأت رجال البلاط بالرعب .

ويسجل المؤلف أن كتاب «سياحة إبراهيم بك» تمثل المحاولة الأولى فى كتابة رواية على النمط الأوربى ، والكتاب من ثلاثة أجزاء وقد أحدث ضجة عظيمة فى إيران ، وقد ظهر الجزء الأول بدون تاريخ وبدون اسم المؤلف وصدر فى القاهرة ، وصدر الثانى فى كلكتا عام ١٩٠٧ ، والثالث فى استامبول عام ١٩٠٩ وعليه اسم المؤلف الحاج زين العابدين المراغى وهو تاجر إيرانى كان يقيم فى استامبول ، وتدور فكرة الكتاب حول ابن تاجر تبريزى جاء بعد مولده إلى مصر ، وهناك نشأ وتشرب من والده تربية وطنية وحبا زائدا لوطنه وحضارة موطنه القديمة ، وبناء على ما ورد من وصية والده ، قام إبراهيم بك برحلة إلى إيران ، وعلى عكس ما كان يتوقع وجد المكان الذى كان أبوه يصفه دائما بأنه جنة ، مليئا بالفقر والبؤس والظلم ، والكتاب يحتوى على نقد من للأحوال التى كانت سائدة .

وأفرد المؤلف عدة فصول عن كاتب إيران الأول صادق هدايت الذى انتحر فى باريس عام ١٩٥٠ ، وقدم أعماله ورأى النقاد الاوروبيين فى هذه الأعمال .

ويتحمس المؤلف إلى رواية قصيرة : تسمى «يكليا ووحدتها» كانت باكورة أعمال الكاتب الشاب تقى مدرسى وصدرت عام ١٩٥٦ وكما يقول المؤلف: تعتمد على موضوع توراتى ممتزج مع نظرة كنظرة ميلتون في مناقشة البحث عن تحقيق الطرق إلى الله ، ويعلق المترجم على هذه الرواية بقوله : «الرواية تجرى فى إسرائيل القديمة ويكليا هى ابنة ملك أورشليم .. وقد تجاهل المؤلف وضع الرواية فى إطارها السياسى والاجتماعى فى سنوات الخمسينات الوسطى وبعد سقوط مصدق وتوارى الجناح

الديني والتقارب الشاهنشاهي الإسرائيلي

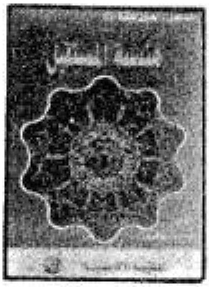
أما أخطر ما جاء بالكتاب فكان الهجوم على العرب عموما من خلال الأعمال الأدبية وخاصة أعمال كاتبهم الكبير صادق هدايت ، الذي يقول على لسان أحد أبطاله :

«كانت غلطتنا أننا علمنا العرب الإدارة الحكومية ووضعنا نحوا للغتهم ، وفلسفنا دينهم وحملنا السيوف وضحينا بشبابنا من أجلهم ، وسلمناهم بأيدينا أفكارنا وأنفسنا وفنوننا وصناعتنا وعلمنا وأدبنا ، وذلك من أجل أن نمدين أرواحهم الجاهلة الشموس.. لكن وا أسفاه . هناك فرق شاسع بيننا وبينهم ، بين جنسهم وأفكارنا .. وهذا ما ينبغي أن يكون» .

ويعلق المترجم بقوله :

«كان تعظيمه إيران القديمة والهجوم على العرب ملمحا من ملامح الفترة البهلوية ولا يعبر هدايت إلا عن الروح السائدة في كتابات مفكري الشاهنشاهية وكان الاتجاه محمودا ومستحسنا من قبل الشاهنشاهية» .

وهنا يثار تساؤل ، لماذا لا يكون من خطة الترجمة الأدبية ، الأعمال الأدبية الإيرانية ، وكذلك الأعمال الأدبية التركية لنقف على آرائهم ولا يكون فقط في المتابعات السياسية ونحن نعرف أنه منذ الثلاثينات ترجمت أعمال أدبية وفنية فارسية هامة ، ولكننا نحتاج اليوم إلى معرفة الأجيال الجديدة من الأدباء والكتاب . وقد قام المترجم الأستاذ الدكتور إبراهيم الدسوقي شتا – أستاذ ورئيس قسم الدراسات الشرقية وآدابها بجامعة القاهرة بجهد مشكور في هذا المجال ، فإلى جانب ترجمته لهذا الكتاب الذي نحن بصدده وتعليقاته الهامة التوضيحية ، وإن كان بعض هذه التعليقات جاء نتيجة الاختلاف الفكري بين المؤلف والمترجم وقد قدم الدكتور شتا : قصصا من الأدب الفارسي ، ومطالعات في الرواية الفارسية المعاصرة ، كما قام بترجمة العودة إلى الذات – لعلي شريعتي ، وكتبه عن الثورة الإيرانية.



هندسة المستقبل
الدكتور أحمد شوقى
المكتبة الأكاديمية

هو الكتاب الأول من سلسلة «المستقبل بعيون علمية» وهى سلسلة مفتوحة - كما يقول مقدمها ومؤلف الكتاب فيها المؤلف والمترجم والمشترك ، بحيث تصبح نوعا جديدا من المشروعات التى ترتكز على دعامتين من حصاد التقدم العلمى والفكر المستقبلى المتفتح ويشترك فى حوارات الغد، مع الحرص على التفكير العلمى والموضوعية والرؤية النقدية .

ويقدم الكتاب رؤية بانورامية لدور العلم والثورة العلمية التكنولوجية عموما ، والبيولوجيا باعتبارها أقرب العلوم الطبيعية إلى العلوم الإنسانية خصوصا ، فى تشكيل وهندسة المستقبل ، وانطلاقا من «ثقافة البيولوجيا» يلتحم فى حوار واسع من مجالات الفكر المستقبلى فى التعليم والسياسة والاقتصاد والتنمية ، طارحا اجتهاداته عن صورة المستقبل كما تبدو لنا ، بشكل يستهدف الالتقاء والمشاركة فى الحوار حول الصورة التى يقدمها غيرنا ، وبذلك يمكن أن نضع على المستقبل المتحقق بصماتنا .

والكتاب لا يقف عند رصد الإنجازات العلمية الهائلة على مدى ربع القرن الأخير (٦٤ - ١٩٨٩) من استكشاف الفضاء ، إلى استخدام الأقمار الصناعية فى مراقبة العواصف والاتصالات والبث المباشر واستكشاف المناطق غير المطروقة إلى جانب التقدم الكبير فى تشخيص الامراض باستخدام المسح بالأشعة المقطعية والتقدم فى تخليق المواد الجديدة الموجهة للتوصل إلى كفاءة أعلى فى الأداء فى مختلف الأغراض ، هذا مع استخدام أشعة الليزر ، ليس فى إجراء العمليات الجراحية فقط ، بل فى تسوية الأراضى الزراعية ولعب الموسيقى وقراءة أسعار البضائع، يتعدى ذلك لمناقشة علاقتنا بالآخر ، ويحاول المؤلف من خلال الإنجازات العلمية التى تمت والتى هى متواقعة على قضايا مازالت محل الجدل والنقاش ، حول الأصالة والمعاصرة ، وحول الوافد والموروث ، ومن خلال ما يحدث فى العالم يطرح المؤلف تساؤله عن دورنا فى هذا العالم المتطور دائما ، وهنا يناقش فكرة التابع والمتبوع ، ويدعو أن نبدع

فكرنا المستقبلي النابع من ثقافتنا والذى يتوام مع التوجهات العظمى التى تحدث فى العالم ولكن لا يتطابق مع الفكر المستقبلى لأصحاب الثقافات الأخرى ، فالمستقبل للتكيف والتنوع فى ظل الاقتناع الكامل بحق الوجود المشترك .

ويركز الكاتب بشكل أساسى على التعليم ودوره ، فإن إدراك عوامل القصور فى واقعنا التعليمى ورفع عناصر الأمن فى منظومته والاتفاق المجتمعى حول استراتيجية قومية لتطويره ، يتم التوصل اليها بناء على دراسة مستقبلية جادة ولا شك أن التواصل مع تجارب الشعوب الأخرى فى هذا الشأن يعد أمرا حيويا ، على أن يتم ذلك بالاستفادة من العام دون إهمال الخاص .

والكتاب يتناول العديد من القضايا الحيوية الهامة ولا نستطيع طرحها أو عرضها لاننا فى هذه الحالة سنحتاج إلى مساحة توازى مساحة الكتاب فنحن نكتفى بالإشارة إلى أهمية الكتاب وخطورته ، ويكفى أن يدفعك للتامل والتفكير ويغضبك بما نحن فيه ، لكنه يأخذ بيدك إلي الأمل ، إلي المشاركة فى صنع المستقبل ، وذلك طبقا للشروط الموضوعية والعلمية والنظرة المستقبلية ، ويتميز الكاتب بنظرة الشمولية وثقافته السياسية والأدبية ووعيه بقضايا الوطن العربى وبدور العروبة .



مصر والحركة العربية

د . محمد عبد الرحمن برج

سلسلة مصر النهضة - مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر

مع بداية هذا القرن كان ميلاد الحركة العربية من خلال الجمعيات والتنظيمات السرية داخل الدولة العثمانية ، ثم أخذت أشكالا علنية كمؤتمر باريس عام ١٩١٣ وكتابات المثقفين القوميين فى الشام ، فى البداية لم تكن مصر ضمن هذه الحركة ، لظروف سياسية ولاختلاف التوجهات من أجل الاستقلال ، وقد صدرت عشرات الكتب التى تناولت موقف مصر من الحركة العربية ، كان منها كتاب «الفكرة العربية فى مصر» للدكتور أنيس

صايغ - ١٩٥٩ - وتطور الفكرة العربية فى مصر - لأوتان ترتوط ، وفى البداية لجأ زعماء الحركة العربية إلى مصر، وعلى أرضها تحركوا ، وكانت كتاباتهم وصحفهم وأحزابهم السياسية، ومنذ بداية الثلاثينات، أصبحت فكرة الوحدة العربية فى برامج بعض الأحزاب المصرية ، وفى الأربعينات أنشئت الجامعة العربية ومقرها القاهرة ، حتى أصبحت مصر بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ هى قلب الحركة العربية وعقلها ، وتجسدت آمال رواد الحركة فى أول وحدة عربية فى تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، ومرت الحركة العربية بأزمات ، وحققت نجاحات ، وأصيبت بنكسات وخفت صوت المنادين بها ، من هنا تأتى أهمية هذا الكتاب ، وإن كان يتناول الموقف حتى بداية الحرب العالمية الأولى فقط ، ليوضح ويؤكد دور مصر فى الحركة العربية وإسهامها الواضح ، حتى فى البدايات ، من خلال إشعاع حركة التحديث فى العالم العربى والتى بدأت مصر ، ومن خلال متابعة تاريخية لدور الشوام فى مصر ، وموقف مصر من قضية احتلال إيطاليا لطرابلس الغرب عام ١٩١١ ، وبعد استعراضه لأحداث هذا الحدث وموقف الدولة العثمانية وبريطانيا والحكومة المصرية والخديو عباس حلمى وموقف الصحف المصرية يرى المؤلف أن موقف مصر وما قدمته من مساعدات لأهالى طرابلس كان كسبا للحركة العربية ، ونتوقف طويلا عند تقديم مركز الوثائق لهذا الكتاب ، لما جاء من كلمات واعية معبرة عن آمال وطموح أصحاب الفكرة العربية وإعلان انحياز سلسلة مصر النهضة للفكرة العربية التى أصدرت بعض الكتب تأكيدا لموقفها ، وجاء فى التقديم : «بينما تبدو الفكرة العربية وهى تتراجع باستمرار منذ السبعينات لتحل محلها الروح القطرية ، فإن مصر النهضة منذ أن صدرت تقف فى صفوف أصحاب الفكرة ، رغم ما يتعرض له هؤلاء من استهزاء من بعض غلاة القطريين من جانب ومن اتهام العلمانية ، بعد أن أصبحت العلمانية تهمة ! من غلاة المتدينين من جانب آخر .

ويصدر هذا الانحياز لدى القائمين على مصر النهضة من اعتقاد راسخ بأن لاماضى لمصر بدون أمتها العربية ولا مستقبل لها دون القيام بدورها الطليعى داخل هذه الأمة.

ومن اقتناع يصل إلى حد اليقين بأن تراجع الفكرة العربية فى مصر أو فى غيرها إنما هو تراجع مؤقت وبفعل فاعل

صدرت الطبعة الثانية من كتاب «القبائل العربية فى مصر – فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة» للدكتور عبد الله خورشيد البرى – عن الهيئة المصرية العامة للكتاب – هذا الشهر – دون أى إشارة إلى الطبعة.

ولقد صدرت الطبعة الأولى من الكتاب عام ١٩٦٧ عن دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، والتى أصبحت فيما بعد الهيئة المصرية العامة للكتاب.

والفرق بين الطبعتين أن الطبعة الثانية اختصرت صفحات فهرس الكتاب فى الطبعة الأولى من ١٢ صفحة إلى صفحة واحدة، أما سعر الكتاب فقد تضاعف حوالى ١٥ مرة – على مدى ربع قرن – فكان سعره فى الطبعة الأولى ٥٠ قرشا، وأصبح فى الطبعة الثانية ٧٢٥ قرشا.

ومؤلف الكتاب من جماعة الأمناء، وصدر له من قبل «القرآن وعلومه فى مصر» – من ٢٠ هـ – ٣٥٨ هـ، قدم الكتاب المرحوم الدكتور عبد العزيز الاهوانى – صدر عن دار المعارف عام ١٩٧٠. كما صدر له فى سلسلة كتاب الهلال «أوراق مصرية» – أغسطس ١٩٨٥، وكان الدكتور عبد الله أستاذاً للأدب العربى فى كلية الألسن، كما كان وكيلا للكلية وقد توفى فى ١٧ يوليو عام ١٩٩٠.

وفى سلسلة «إقرأ» – دار المعارف، صدرت طبعة جديدة من كتاب «العشاق الثلاثة» (جميل بن معمر – كثير بن عبد الرحمن – العباس بن الأحنف) للدكتور زكى مبارك، دون الإشارة إلى الطبعة التى صدرت فى الشهر الماضى – وقد صدرت عدة طبعات لهذا الكتاب، فى الاربعينات فى نفس السلسلة، وفى السبعينات فى المكتبة العصرية بصيدا – لبنان.

ومن الطبعات الجديدة التى صدرت عن دار المعارف صدرت الطبعة التاسعة لكتاب «المعذبون فى الأرض» للدكتور طه حسين، والطبعة السادسة لرواية «قنديل أم هاشم» ليحيى حقى، والطبعة الثانية لمسرحية «الإنسان والظل» لمصطفى محمود.

حواديت أمي على إيقاع "أبو فروة" الساخن

بقلم : د. أمين العيوطي



أمين العيوطي في ندوة الهلال مع [illegible]

حين طرح عليّ الصديق مصطفى نبيل رئيس تحرير الهلال أن أكتب هذا المقال ضمن سلسلة من أقلام كتاب «الهلال» في هذا الموضوع، راقت لي الفكرة كثيرا . لكنني ترددت . قلت له : «أنا لا أحب الكتابة عن نفسي ، كما أنني لا أظن أن تجاربي الشخصية في الحياة تستحق التناول أو تستحق اهتمام القارئ» قال لي ضاحكا : «دع عنك هذا التواضع» فكرت قليلا محاولا أن أجد مخرجا من هذه الورطة . قلت : «أكتب عن تجربة جيلي وتكوينه» قال : «هذا رائع» . وأردف مصححا : «هذا إن استطعت أن تحيط بكل هذه التجربة» وكان على حق .

[illegible]

سنوات التكوين لا تنتهي

[illegible]

وحين أذكر الأسرة فإنني أعنى فى المقام الأول تأثير الوالدين ، وإن لم يكن هذا يلغى التأثير المتبادل بين الأخوة والأخوات . فقد كنا أسرة من ثلاثة أخوة وخمس أخوات ، هذا عدا ما فقدته أمى من أطفال بعد أو قبل الولادة فى زمن لم يكن هناك شىء أسمه تنظيم، فى زمن كانت الاحتياجات فيه قليلة و«اللقمة الهنية التى تكفى مية» كان زمنا يمضى هادئا هنيئا حتى وإن اشتدت الضائقات فيه بين الحين والحين خاصة أيام الحرب الثانية وبطاقات التموين ! .

الطريق إلى الله

كان أبى موظفا بسيطا شديد الإخلاص لعمله ، شديد الولاء لأسرته شديد التدين . كان يصلى الفرض فى وقته . فى عز الشتاء كان يقوم فى الفجر ليأخذ «دشا باردا» ، ونحن ننتفض له تحت الاغطية الدافئة ، ويتوضأ ويصلى الفجر قبل أن يعود للنوم بضع ساعات ليبدأ عمل اليوم . كان أول مدرسة ندخل منها إلى معنى الخشوع بين يدى الله والشكر له وطلب رضائه . فى أيام الجمع كان يسعى مشيا من شبرا إلى مسجد السيدة زينب ليؤدى صلاة الجمعة ويعود مشيا أيضا ، ففى كل خطوة يخطوها تباركه الملائكة . هكذا كان يقول لنا . لم يكن يفعل هذا من أجل خلاص روحه وحده ، بل ومن أجل أن يبارك الله أسرته . من خلاله ، ومن خلال أمنا أيضا ، عرفنا جميعا فى سن مبكرة طريقنا إلى الله ، حتى أننى وأنا طفل صغير كنت أنظر إلى السماء وأتعجب كيف رفعت بلا عمد ولم أكن وقتها أعرف الآية الكريمة.

كان حى شبرا يجمع بين المسلمين والأقباط . وكان الكثير من زملائى فى العمل وأصدقائى فى الحى من الأقباط . كانت بيوتهم مفتوحة لنا وبيوتنا مفتوحة لهم . نتبادل أطباق الطعام فى المناسبات والأعياد وفى الأيام العادية . بل أذكر تماما أن والدتى ذات الأصل الريفى والعريق قامت بتوليد ابنة جارة لنا حين تأخرت «الداية» وكانت تلك الطفلة الوليدة عزيزة علينا جميعا كأنها أخت لم تلدها أمنا . ولم يكن أبى يشير من بعيد أو قريب إلى هذا الزميل أو ذلك الصديق أو ذاك الجار على أنه قبطى أو مسيحى أبدا . علمنا ، دون أن ندرى ، سماحة الأديان . علمنا ، دون أن ندرى ، أن الإنسان مهما كانت ملته إنسان فى المقام الأول ، وأن الصلات الإنسانية هى التى تجمع الكل فى زورق واحد إن غرق غرق الجميع وإن نجا نجا الكل .

وبطبيعة الحال كانت شلة الأطفال فى الشارع تجمع بين مسلمين وأقباط . لم نكن نعى فرقا . كانت الصداقة تجمعنا وكفى . كانوا يحتفلون معنا بأعيادنا ، وكنا نحتفل معهم بأعيادهم . كنا ندعوهم إلى حضور الدرس الدينى فى الجامع قبل صلاة العشاء والتراويح فى رمضان . وكنا نشاركهم طقوسهم الدينية فى البطريركية القديمة ، التى كانت تقع قرب حديقة الأزبكية . كانت محاولات اقتراب وفهم من كلا الجانبين باحترام وتقدير كاملين . بل إننى وأنا

طفل صغير حين كنت ألتقى فى الطريق بقس كنت أقبل يده فيمسح على شعرى ويدعو لى بالبركة وهو لايدرى إن كنت مسلما أو مسيحيا . وأذكر فى هذا المجال حادثا طريفا لأحد أصدقائنا الأقباط كان اسمه فيما أذكر بديع . اصطحبناه معنا إلى الجامع فى رمضان وأدى معنا الصلوات كما نؤديها . لكنه ذات مرة ما كاد يخلع نعليه عند مدخل الجامع حتى رأيناه يولى الادبار هاربا . ضحكنا . لم نفهم . ودخلنا المسجد وأدينا الفروض قبل أن نعود إلى اللعب والمسامرة حتى يحين موعد السحور . ضحكنا أكثر حين قال لنا إنه ما أن خلع نعليه حتى رأى بواب العمارة التى يسكن فيها جالسا فى المسجد يتطلع فيه باستغراب فولى الإدبار . أغرقنا فى الضحك حتى أغرورقت عيوننا .

كان هذا ، ياصديقى القارىء ، تأثير أب متوسط التعليم ، وأم ولدت فى فترة لم تكن الفتاة فيها تتلقى أى قدر من التعليم . وسبحان مغير الأحوال !

ورغم أن أبى لم يكن قد تلقى قدرا وافرا من التعليم ، فإنه كان جميل الخط ، وكان حريصا على قيمة تعليم البنات قبل الصبيان كل الحرص ، وإلى أعلى مراحل التعليم . لم يكن يبالى كم ساعة قضيت فى اللعب خارج البيت ، ولا أى ساعة عدت . كل ما يهمه أن أعود إليه فى آخر العام ، أو أن أذهب إليه فى مكتبه لأخبره أننى نجحت . وعندما كنت طالبا فى الجامعة فى قسم الأدب الإنجليزى كنت أذهب إليه لأخبره أننى نجحت . لم يكن يبتهج أو يتهلل أو حتى يبتسم . لكننى فى قرارة نفسى أعلم علم اليقين أن قلبه قد استراح ، إن نجاحى كان نجاحا له ، لكل ما يبذله من أجل بيته وأولاده ، وأن البيت والأولاد يسيرون فى الطريق الذى اختطه لهم فى عقله . لم يكن يزيد على أن يقول لى : «هل حافظت على الامتياز ؟» أجيبه بالايجاب فيقول : «عد الآن إلى البيت !» كانت هذه كل سعادته .

الإحساس بالمسئولية

كان البيت هو المدرسة الأولى ، جاءت بعدها المدرسة الأولية والإبتدائية والثانوية . كان المدرس فى ذلك الزمان مدرسا بحق . إحساسه بمسئوليته ينبع من إيمان بحق وطنه عليه فى مرحلة كان الوطن هو الآخر فى مرحلة تكوين جديدة ، بقدر ما كان ينبع من علم غزير لا يضن به ، بل يريد أن ينفع به طلبته . مازلت أذكر فى المدرسة الإبتدائية مدرسا للغة العربية ، هادىء الملامح ، بشوش الوجه ، رحب الصدر أجمع كل تلاميذ المدرسة على حبه . كان ما أن يهل عند بوابة مدرسة «السيدة حنيفة السلحدار» حتى يتوقف الجميع عن ألعابهم وألاعيبهم ولغطهم وثرثراتهم وضجتهم ويندفعوا صوبه فى حشد هائل ، فيلقاهم بابتسامة ودودة هادئة حانية ، ويمد كفيه الرحبتين ليتحفن أكف التلاميذ كومة بعد كومة بين كفيه . وفى الفصل كان صبورا هادئا فى شرحه لقواعد اللغة أو فى مناقشته لموضوع انشاء . ولم يكن

كل هذا ، على أهميته ، أهم مما كان يتبعه معنا . كان يختار من بين تلاميذه من يتوسم فيهم استعدادا طيبا للغة فيعطيه كتابا . قد يكون كتابا في التاريخ أو الأدب ليقرأه ويكتب مجرد تلخيص له . ولأن التلاميذ كانوا يحبونه أو يحبون فيه أبوته فإنهم كانوا حريصين على أن يقرأوا بعناية وأن يكتبوا ما يعن لهم بعناية . كان الحب هو معلمنا الأول متمثلا في هذا المعلم .

ولم يكن هذا الأستاذ متفردا في هذا الحرص . كان ناظر المدرسة استاذاً ، للغة الإنجليزية ، حريصاً كل الحرص على نسبة النجاح في مدرسته وخاصة في الشهادة الإبتدائية. كان تلاميذ السنة الرابعة مقسمين إلى فصلين لا يزيد عددهم في الفصل الواحد على ثلاثين طالبا . بلغ من حب الرجل لمدرسته ومادته أنه خصص لكل من الفصلين حصة واحدة في الأسبوع . لم يكن يتناول فيها المقرر الدراسي من قريب أو بعيد ، بل كان يخرج علينا بتدريبات في اللغة لا علاقة لها بالمقرر اطلاقا ، الهدف الأول منها أن يزيد من حصيلتنا اللغوية وأن يعمق حسنا اللغوى . وكانت الحصة ، حين يدخل ، مباراة بين الجميع ، وقدح ذهن بين الجميع ، حبا للرجل وأسلوبه في التعليم .

كان التعليم آنذاك تعليما يجمع بين الكتاب الذى يعمق عقل الطفل ولا يسطحه والذى أعده متخصصون على قدر عال من العلم والدقة في جميع المواد ، وبين المدرس الجيد الذى يعمل بضمير ، وبين منهج علمي يهدف إلى تكوين عقلية التلميذ . لم نكن نعرف آنذاك ما هو الدرس الخصوصي . ومازلت أذكر بعض الكتب التى كان لها أكبر الأثر في تكويني . أذكر منها مثلا كتاب «القراءة الرشيدة» الذي كان مقررا علينا في الإبتدائي . كان يجمع نماذج للشعر من أمهات الكتب ونماذج من الشعر من عيون الشعر الجاهلي والمعلقات . حدث منذ سنوات أن عثرت على نسخة منه لدى صديق ، فرحت أقلب فيها وأتعجب كيف كان بامكاننا أن نفهم وأن نستوعب تلك النماذج العميقة الصعبة . وفي الثانوى كان لدينا كتاب مطالعة إنجليزية بالغ الصعوبة يمثل حجر عثرة في سبيل كثير من الطلاب . لكنك ما أن تتبع شروح المعانى حتى تجد نفسك قد تمكنت إلى حد بعيد من اللغة فيفتح أمامك الباب إلى مزيد من المعرفة . وهكذا كانت كتب الجغرافيا والتاريخ وغيرها وغيرها . وكان تعليما يقوم على تدريب عقل الطالب وتكوينه ، وتوجيهه في حدود قدراته ومهاراته .

دور هام للأم

في البيت كانت هناك مدرسة أخرى . في أمسيات الشتاء كانت أمي تجمعنا حولها وهي تشوى لنا «أبو فروة» وتحكى لنا الحواديت التى تعلمتها عن أمها في احدى قرى الشرقية. كانت حواديت عن الذئب والعنزات الصغيرات أو عن الجنيات وأمنا الغولة وابنة السلطان وما إلى ذلك . كانت قصاصة بارعة وهي تغير من ايقاعات صوتها لتخلق الجو المناسب وتحلق بنا

فى آفاق الخيال ، ونحن نجلس أمامها مبهورين كلما انتهت من حدوتة نطلب منها أن تعيدها مرة ثانية . أصبحت الحواديت من أحب الأشياء إلى قلوبنا .

وكان بالحى مكتبات صغيرة كثيرة بها قصص للأطفال لايزيد حجمها على حجم الكف تباع بقرش . لكننا ما أن نفرغ من واحدة حتى نعيدها لنأخذ قصة أخرى ندفع فيها نصف قرش . أدمنت قراءة هذه القصص وأنا فى المدرسة الإبتدائية حتى أننى حاولت ذات مرة أن أكتب قصة على غرارها . رحت أكتب صفحات وصفحات قبل أن أكتشف أننى فى الحقيقة أعيد كتابة قصة من تلك القصص التى قرأتها وأعجبت بها أشد الإعجاب . بل إننى لاأزال أذكر إلى اليوم عنوانها «الطيور البيضاء» وإن كنت قد نسيت أحداثها .

فتحت لى الحواديت التى كانت تحكيها لنا أمي والقصص الصغيرة التى ولعت بها باب حب القراءة . وكان متاحا لنا فى تلك الأيام سلسلة «روايات الجيب» و«مسامرات الجيب» التى كانت تقصص مغامرات الفرسان ومغامرات اللص الشريف أرسين لوبين وروكامبول وجون سنكلير والروايات البوليسية تعرفنا منها رغم ذلك على اسماء كتاب مشاهير مثل رافايل سباتينى وفيكتور هيجو وغيرهما . وحين تجاوزت تلك المرحلة وجدت أمامى «زينب» هيكل ، «أيام» طه حسين ، و «أهل كهف» الحكيم . ومن الشعر ، فيما عدا الشعر الذى كنا ندرسه فى المدرسة لشوقى وحافظ والبارودى والجارم وغيرهم ، كان أول ديوان أقرؤه هو ديوان محمود حسن إسماعيل «أغانى الكوخ» وتمسنى مسا عميقا إيقاعات قصائده وبساطة لغته وتعبيره عن تجارب البسطاء .

فتح لى هذا كله بابا واسعا إلى الأدب . وربما شجعنى على هذا اللون من القراءة ، بالإضافة إلى استعداد طبيعى فيما أعتقد ، أخى الأكبر - رحمه الله - حين كنت لاأزال أصبو فى المدرسة الإبتدائية كان هو قد التحق بقسم الأدب الإنجليزى بجامعة القاهرة . كانت القراءة عشقه هو الآخر منذ نعومة أظافره حتى إنه كان حين يشارك أصدقاءه لعب الكرة «الشراب» فى الشارع يقف حارسا للمرمى بين قالبى الطوب اللذين يشكلان حدود المرمى ، وهو يقرأ فى كتاب ولك أن تتخيل عدد الأهداف التى لم تكن تهز له شباكا وإن اخترقت مرماه عن يمينه ويساره وبين قدميه !

كانت كل هذه التأثيرات وغيرها من التجارب العاطفية البريئة المبكرة ما جعلت من الأدب فى عينى أفقا مترامياً مثيرا لا حدود له ، عالما آخر يحوى كل عوالم الأرض والنجوم والكواكب والكون الغريب . كان هو فى حد ذاته كونا مترامياً غريبا حتى أننى حين حصلت على شهادة الثقافة فى السنة الرابعة الثانوية ، وكان علىّ أن أحدد مجال تخصصى فى السنة الخامسة لأحصل على شهادة «البكالوريا» فضلت القسم الأدبى على العلمى رغم كل ما يطرحه

عالم العلوم علىّ فى مجالات الفلك والنبات والكيمياء والحيوان والإنسان . ورغم رغبة أبى الشديدة فى أن يكون له من بين أبنائه من يلتحق بكلية الطب ، فإنه لم يعترض مطلقا على اختيارى . قال لى برنة أسى ، «أنت حر ، يابنى ، فى اختيارك !» .

أنا والسياسة

فى المدرسة الثانوية بدأ تفتحى على عالم السياسة . كانت البلد تموج فى أوائل الأربعينيات بتيارات سياسية شتى : الوفد . الأحرار الدستوريون . الأخوان المسلمون . الشيوعيون . مصر الفتاة ، الحزب الوطنى . كانت معظم برامجها تدور حول الاحتلال الإنجليزى ومعاهدة ١٩٣٦ ومعاهدة صدقى - بيفن اللتين لم تثمرا عن الاستقلال بعد أن كابدنا فى تاريخنا الحديث الاحتلال الفرنسى والعثمانى والمملوكى . حاول بعض الزملاء اجتذابى ، دعونى إلى حفل شاى فى مدرسة فى شارع جزيرة بدران . ذهبت وأنا غافل عن مقصدهم ، فإذا بنا نجلس فى غرفة يضيئها مصباح أصفر على «دكك» صفت على جوانب الغرفة . وتكلم فينا شخص . ألقى علينا موعظة لم تكن مما كنت أسمعه حين أتردد على الجامع . ثم دخل علينا شخص ما يحمل على يديه فوق رأسه طاولة تحمل قطع «الجاتوه» وهو يصيح : «الله أكبر ولله الحمد» لم أستطع لحظتها أن أفهم العلاقة بين اغراء قطع الجاتوه التى كان من الواضح أن الجميع ينتظرونها بفروغ صبر وبين ذكر اسم الله . لم أعد إلى هذه الحفلات بعد ذلك .

وذات يوم آخر أسر لى زميل آخر أنه قد قدم اسمى إلى الحزب بصفتى متعاطفا . سألته ، «أى حزب ؟» قال همسا «الحزب الشيوعى» غير أننى من بين كل تلك التيارات السياسية كنت أميل إلى «الحزب الوطنى» وإن لم أنضم إليه . كانت شخصية محمد فريد تأسرنى ، بقدر ما كانت تأسرنى أحاديثنا الجانبية فى أركان مدرسة شبرا الثانوية مع الصديق القديم الجديد أبدا د. يحيى الجمل وصديق آخر لا أذكر من اسمه الآن إلا «الصوفانى» لكننى فى نهاية الأمر اكتشفت ، رغم اشتراكى فى اضرابات الاربعينيات والتى كان شعارها «الجلاء بالدماء» واشتراكى فى تبادل التراشق بين طلبة مدرسة شبرا الثانوية ، ورويض الفرج (فاروق الأول حينذاك) ، ومدرسة التوفيقية ، ومدرسة الصنايع من ناحية ، وبين الشرطة بالحجارة والرصاص ، إن السياسة لم تكن مجالى ، بقدر ما كان مجالى الفكر الإنسانى . وإذا كانت الفلسفة قديما تعنى كل مجالات الفكر الميتافيزيقى والتاريخ والاجتماع والأخلاق والفلك والطب والسياسة إلى غير ذلك فى كل ما يتعلق بحياة الإنسان على كوكب وفى مجتمع ، فقد أثبت الأدب أنه الوريث الوحيد لكل هذا ، وأنه فلسفة العصر .

اختيارى للأدب الإنجليزى

لهذا كان اتجاهى إلى دراسة الأدب . اخترت الأدب الإنجليزى لأنه نافذة على آداب الغرب وكان الأدب العربى متاحا لى بصفة العربية هى لغتى الأم . كانت الجامعة شيئا جديدا مثيرا . مهيبة فى مبانيها وأساتذتها وعمدائها ، مهيبة فى مداخلها إلى العلم . كانت شيئا يدعوك إلى أن تأخذ كل ما فيها بجدية ، بصفتها رمزا لاحترام العلم والفكر . وكان عليك أن تأخذها بجدية . فأنت تدخل على مناهج فكر مختلفة أكثر تطورا من كل ما عرفته وأكثر تعقيدا ، تطلب منك أن تعطيها كل ذرة فى كيانك إذا كنت تحترم هذا الصرح وتحترم ذاتك .

رغم أننى كنت آتيه بمعرفتى باللغة الإنجليزية من خلال ما تعلمته فى المدرسة الإبتدائية والثانوية على مدى تسع سنوات ، فإن أول رواية كان علىّ أن أقرأها كانت رواية «جولد سميث» قس ويكفيلد . أذكر تماما أن الصفحة الأولى كان بها عشرون كلمة جديدة لا أعرفها . حاولت أن أستنبط منهجا . أدركت أن تعلم اللغة ليس لعبة . عملت لنفسى قاموسا موجزا . كنت أرجع إلى القواميس لأعرف المعنى . أخط الكلمة والتعبير والمصطلح وتفسيرها فى دفتر صغير . كان هذا قاموسى الصغير الذى أعود إليه فى لحظات فراغى ، سبيلى إلى تكوين حصيلتى اللغوية .

لكن الأدب ليس لغة فحسب ، فليست اللغة إلا مدخلا إلى الفكر وفنيات العمل الأدبى ، ولحسن الحظ أن قسم الأدب الإنجليزى يقع أمام المكتبة العامة للجامعة . وكان الممر بين المبنيين خلية نحل من طلبة وطالبات يستغلون الدقائق العشر بين المحاضرة والمحاضرة لكى يسارعوا إلى إعادة مرجع أو طلب آخر ليلحقوا بالمحاضرة التالية .

لم تكن الدفعة تزيد على خمسين طالبا وطالبة . ولهذا كان من الممكن أن يكلفنا الأساتذة بخمسة أبحاث فى كل سنة بحيث لا يتخرج الطالب إلا وقد عمل عشرين بحثا على امتداد السنوات الأربع . وكانت المكتبة معدة لهذا اعدادا جيدا وفهرسة جيدة . ولما كنت طالب امتياز فقد كان علىّ فوق كل هذا أن أدرس فى السنة الثالثة والرابعة مقررين اضافيين وأن أقدم فى كل منهما بحثا . تعلمنا أساليب البحث العلمى، وأصابتنا حرفة الأدب . ورغم هذا كانت لنا ساعات وأيام فرح ومرح ولهو ولعب وتسلية تزيد من بهجة الدراسة وتعيننا عليها .

حين حصلت على الدرجة العلمية الجامعية ذهبت إلى أبى فى مكتبه . نظر فى وجهى . قلت : «الحمد لله نجحت» قال : «هل حافظت على الامتياز ؟» قلت : «الحمد لله» لم تبد على وجهه إلا ابتسامة صغيرة . قال : «الآن عُد إلى البيت !» .

ولم يكن الحصول على الدرجة العلمية إلا مقدمة لسنى تكوين أخرى لم أنته منها إلى اليوم .

مصر الوفاء

عاشق مصر .. رافع راية العشق بلطف المريد سرا وجهرا

هذه مصر .. والخلود فخار الدهر .. من ذا الذى يفاخر مصرا ؟

فإذا ما القضاء سدد سهما .. كان رب القضاء منه أبرا

كلما أذن المؤذن عصرا .. جاوبت صوته الكنيسة عصرا

وتلاقى الجميع ، بين يدى رب رحيم .. يثيب دنيا وأخرى

فالمسيح المبعوث نورا وخيرا .. حب طه المبعوث نورا وخيرا

أتيا للأمان ، للحق ، وارتادا طريق الخلاص شبرا فشبرا

رحمة الله حيث تدنو لمن أصفى المعالى شمسا ، وفجر فجرا

.. تلك مصر الوفاء .. سلم وحرب واعتزاز بكل من عاش حرا

يا بلادى : وأنت نبض فؤادى .. كنت طول الزمان فخرا وذخرا

فيك تسرى الصبا على زورق المجد ، فتنساب للصبابة نهرا

وتغنى الطيور أغنية العشاق .. لا تلتقى فتغرى وتغرى

ولدى الأفق بهجة بشعاع راح قبل الظلام ينسج بدرا

روعة ، تجمل الذى يتملاها .. يحيى ربيع الكلام نثرا وشعرا

هذه مصر ، كعبة الطائف الشادى ، وقدس لمن تسامى ومسرى

مثل ياقوتة أفاض عليها النيلُ .. فازينت بهاء ، وسحرا

أحمد عبد اللطيف حسب الله
موجه التربية الاسلامية
إدارة دمنهور التعليمية

• بعد الزلزال •

قاهرة المعز يا قاهرتى
لا تتركى الكون رضيعاً باكيا
يبحث عن صدرك
ولتضمدى جرحك بالحب الذى
يرسله الأحباب غيثا وافيا !!!

عبد الرحيم الماسخ - سوهاج

• العدد التذكارى •

شكرا للهلال على العدد التذكارى الذى أصدرته فى شهر «أكتوبر» فقد كان حقا عيداً زاخراً بالعديد من المقالات الجميلة والشيقة التى تضمنتها أعداد الهلال طوال الأعوام المائة الماضية ، وأطلب من الهلال أن تختار لنا فى كل شهر مقالا من المقالات القيمة التى تضمنتها أعداد الأعوام المائة الماضية حتى يواصل الحاضر بالماضى ، وتمنياتى للهلال بالتقدم الدائم .

إبراهيم عبد المعطى متولى
كلية الآداب بقنا

• ذكرى الزعيم غاندى •

فى ذكرى مرور ١٢٣ عاماً على ميلاد زعيم الهند المهاتما غاندى نهتف له وللسلام الذى دعا إليه وعاش له وقتل من أجله ! إن لم نبرز سيرته للأجيال الشابة ، وإن لم ترفع لواء السلام والوحدة والحب فكأنما نطلق الرصاص من جديد على هذه الروح العظيمة التى ستظل إلى الأبد متوهجة لأن الرصاص لا ينال من الأرواح .

زغلول توفيق - بنى سويف

• بيع النفس •

أتيت إلى الحياة برغم أنفي	. ' .	ولو خيرت لاخترت الرجوعا
فإني ما لقيت العيش إلا	. ' .	شقاء دائماً وظمئاً وجُوعا
ولو تبتاع نفس بعت نفسي	. ' .	ولكن لا تساوي كي أبيعا

بشير رفعت سعيد محمد
الخادمية - كفر الشيخ

• ملكة .. جمال •

قد طاف في كل الدنا يتألق
رسم به الحسناء كم تتأنق
فازت بجائزة الجمال سنية
فتخفي بسمتها بذاك وتشرق
والكل يطمع أن يفوز بلفتة
منها - على بعد - فلا تتحقق
فيعود مكتفيا برؤية رسمها
والجو ينظر قانعا ويحملق
شقراء أو سمراء قد عقدوا لها
تاجا بمفرق رأسها يتألق
فتربعت فوق القلوب مليكة
عرش الجمال بها أحق وأخلق
حسناء كورخ ضمها .. وربيعا
بزت سواها بالجمال وتسبق
سبحان من قسم الحظوظ على الورى
يهب الجمال لمن يشاء ويرزق

مصطفى محمود مصطفى
كفر ربيع - منوفية

● قطرة موت ●

لن آتى إلى هذا العمل المهين بعد اليوم ..

هكذا قررت وأنا جالس بين الرجال الذين يعملون معى لتناول وجبة الغذاء فى ظل شجرة النبق الضخمة التي تقف علي رأس الغيط .

أنا لم أخلق لكى تكون حياتى شقاء هكذا .. أخرج من البيت قبل مطلع الفجر حاملاً فأسى الثقيلة فوق كتف هزيل نحيل ، وأظل أعمل في الأرض تحت شمس الصيف الحارقة مع حفنة من غلاظ الطباع قليلى الحياء ، حتى يأتينا صاحب الأرض فيما بين الظهر والعصر - بعد أن يكون الجوع قد التهم أمعاءنا وأنهك قوانا - يأتينا بصحن كبير من « المش » القديم وملء «منديل محلاوى» من البصل وقليل من الخبز ، وبعض حبات من الطماطم ..

فى أقل من نصف الساعة ننهى مهمة الأكل .. ونقوم إلى عملنا القاسى حتى انغماس الشمس الواهنة فى لجة المساء ، فنعود إلى بيوتنا جثثاً متحركة ..

لا لم أخلق لهذا العمل .. إننى رجل متعلم حاصل على شهادة «الليسانس» فى الأدب الإنجليزى .. ذو سعة فى الثقافة .. نهم بالاطلاع والكتابة الأدبية لن آتي إلى هنا بعد اليوم .. إننى أتآكل من الداخل .

فى آخر النهار قصدت صاحب الأرض فى بيته لأخبره أننى لن أعمل معه بعد اليوم ليتفق مع أجير غيرى .. فى الطريق سمعت من ينادى : « يا ولد يا .. » إنه هو صاحب الأرض التى أعمل فيها .. اتجهت إليه .. لم ينبس بكلمة واحدة .. ولكنه وضع يده فى جيب جلبابه الداخلى وأخرج حافظة جلدية منتفخة وسحب منها عشرة جنيهات :

- خذ أجر غد وبعد غد .

تذكرت أبى المريض وأخوتى الصغار الذين يطالبونه بزى المدارس الجدد .. مددت يدى أخذت الجنيهات العشرة ، ومشيت نحو البيت لأنام مبكراً .

رمضان عبد اللطيف حامد
البحر الأحمر - الغردقة

• اقصوصة :

• العجوز والحقل •

ننتفض من شدة البرد تلبد أجسامنا داخل أجسامنا ، تحتوينا ملابسنا الثقيلة بين أحضانها ، نهرع خارج قريتنا حيث الجدار الطيني القابع بجوار الحقول ننتظرفي لهفة أشعة شمس الشتاء الدافئة التي تتلقفها أجسامنا الغارقة في البرودة فيتسرب لها الدفء شيئا فشيئا ويقبع البرد في ركن قصي .

نلعب نمرح نملأ الخلاء المحيط بنا صحيحاً ولكن أعيننا دائما معلقة علي الطريق الترابي الطويل المتصل بقريتنا ، تتهلل وجوهنا بالبشر عندما يظهر لنا عن بعد بظهره المقوس مرتديا البالطو الصوفي الذي لا نراه على جسده إلا في أيام الشتاء ، وتعلو قمة رأسه عمامته البيضاء ، وقد قبض بقوة على عصاه الخشبية العتيقة التي يدق بها الأرض دقا فتثير حوله مسحة من غبار تكدر صفاء الجو في ساعات الصباح الأولى .

يرمي علينا السلام بصوته القوي الذي لم تفلح السنون بطولها في أن تخفف من حدته ، يتكئ بظهره على الجدار القديم الذي تصدعت أركانه وصار ينذر بالانقضاض في أي لحظة ، يعقد حاجبيه الأبيضين ويزم شفتيه فتظهر بوضوح التجاعيد التي تملأ صفحة وجهه ، عندما يكون الكلام على أهبة الانطلاق من لسانه ، يخيم علينا الصمت نرهف السماع إليه فتصبح قطعة منه ، يتحدث بقوة عن النيل ونسابق الفلاحين في جمع محصولهم قبل أن يغمر أرضهم بالماء الكثيف .

يصمت قليلا وهو يحدق في الأرض الزراعية وقد اختفى منها الزرع وقامت فوقها البيوت المشيدة بالخرسانة ، ثم يقول : كانت هذه أرضا يزرعها الفلاحون .. أما الآن ، فكما ترون !

وانتظرنا أن يأتي في اليوم التالي ، ولكنه لم يأت فقد مضى يبحث عن أرض بعيدة ما زالت تعيش فوقها الحقول الخضراء ..

خلف أحمد محمود
مزامر المسيرات - سوهاج

• مع أصدقائنا •

رشا فراج – كلية الآداب – جامعة القاهرة :

– قصائدك التي أرسلتها إلينا تقل فيها الأوزان ويكثر فيها النثر .. حاولي أن تتفهمي الأوزان .

فارس عبد الشافي عطية – كلية الآداب – جامعة الأسكندرية :

– قصيدة « أمنية » التي تلقيناها منك ذات أوزان صحيحة ، ولكن ينقصها النسج المتين ، والمعنى الجيد ، فليس الشعر مجرد أوزان ..

رمضان الهجرسي – السنبلاوين :

– أشعاركم تختلط فيها الأوزان الصحيحة والأوزان المكسورة ، كما تختلط اللغة الصحيحة واللغة غير الصحيحة ...

عصام راسم فهمي – أسوان :

– قد تكون قصتك المسماة « تفاصيل من الليل » جيدة فنيا ، ولكن رائحة «الطائفية» تفوح منها لغير داع فكري أو سبب فني ..

فيصل أحمد حجاج – كلية حقوق الاسكندرية :

– قصيدتك «حكمة الأقدار» صحيحة الأوزان .. ولكن قولك « أنا طالما راض على إلهي » تعبير غير عربي ، فإن استعمال « طالما » هنا خطأ فاحش، ولكن من الأخطاء الشائعة على الأقلام في هذه الأيام ، بما فيها أقلام كبار الكتاب ! وكذلك قولك : « وتطيبي بالصبر علك تهتدي » .. والصواب «تهتدين» ولكن الوزن ينكسر ، فابحث عن صياغة جديدة لهذه الشطرة .

مجدي حسن الشافعي – المحلة الكبرى – سامول :

– قصيدتك عن الزلزال فيها بيت واحد يصلح للنشر وهو قولك : «قدر الله وما شاء فعل .. وقع الزلزال والخطب الجلل» .. أما بقية الأبيات فشتائم وإهانات توجهها إلى مواطنيك الذين روعهم الزلزال كقولك : « لا ترى فيهم شجاعا يدّعي .. أنه العملاق والرجل البطل » فهذه تشبه الشماتة ، ثم إن استخدامك كلمة «الرجل» هنا تخل بالوزن إذ ينبغي أن يكون حرف الجيم ساكنا وهو شيء رديء ، وثمة كلمات كثيرة كنت تستطيع استعمالها لا تخل بالوزن ، فابحث عنها ..



فى غيبة العرب

بقلم : محمد عوده

احتدم طوال هذا العام أطول حوار فى هذا القرن شارك فيه العالم كله الأوربيون والأمريكيون والأسيويون والأفريقيون وبصفة خاصة وبعنف الأمريكيون اللاتينيون ، والهنود الحمر والسكان الأصليون فى الأمريكتين !

وكان محوره شخص كريستوفر كولومبس الذى مرت خمسمائة عام على أكتشافه لأمريكا فى ١٢ اكتوبر سنة ١٤٩٢ ، وهل ذهب مغامرا قرصانا يبحث عن الذهب وكنوز الشرق أم مكتشفا يحقق حلما ويحمل شعلة .. وبلغ الاحتفال ذروته فى محاكمة دولية كبرى عقدت فى جمهورية الدومينيكان أول أرض وطأتها قدماه ، وعددت الجرائم والفظائع التى ارتكبها ولا تزال آثارها ممتدة حتى الآن ..

وعلى الجانب الآخر كان « البابا» ورئيس الجمهورية يزيحان الستار عن أكبر تمثال فى «أمريكا اللاتينية » تكلف سبعين مليون دولار تمجيدا لمن حمل الحضارة .. وكلمة المسيح إلى الدنيا الجديدة !!

وسارت جموع المظاهرات وعقدت الاجتماعات الحاشدة فى جمهورية الدومينيكان وفى بيرو وبوليفيا ، وكولومبيا المسماة باسمه تنديدا بالتاريخ « المشئوم » واحتفلت المكسيك فى نفس اليوم بذكرى استشهاد الزعيم « بوروبيتا موى » الذى قاد الثورة وحينما أسر أحرقه الاسبان حيا .. على طريقة محاكم التفتيش

وسارت مظاهرة من عشرة آلاف من الهنود الحمر تهتف ضد خمسمائة عام من « القهر والنهب » بدأت بوصول كولومبس إلى الأرض الجديدة !

وانقسم الرأى فى الولايات المتحدة نفسها ولم يحسم بعد إذا ما كان الاكتشاف نعمة أم نقمة ، ولم تفت الاسرائيليين الفرصة وشاركوا بكتاب عن كولومبس يثبت أنه كان يهوديا ورمزا لعبقرية الشعب ولولاه لما كانت أمريكا !

طرف واحد رئيسى لم يشارك ولم يسمع بالحوار فيما يبدو ، ولم تنعكس لديه أصداؤه .. وهم العرب ..

وبدوا وكأنهم لا يعرفون ولا يتذكرون أن ما يسمى عصر الاكتشافات الجغرافية الكبرى كان

موجها أساسا إليهم واستمرارا للحرب الضارية عليهم وبعد طرد العرب من الاندلس ، قررت اسبانيا والبرتغال ، استئناف الحرب الصليبية وتعقب اعداء الله والمسيح حتى آخر الأرض وتطهيرها منهم ، ولن ينالوا بركة « البابا » والثواب من عند الله فحسب ، ولكن سوف يستردون أثمن ثروة فى العصر ، وهى تجارة الشرق والتى يسيطر عليها « الكفرة » العرب حتى ذلك الوقت

وقد حاولت أوربا خلال مائتى عام من الحروب الصليبية المباشرة الاستيلاء عليها ولكنها باءت بالفشل الذريع وبأحد أكبر الهزائم فى التاريخ فى « حطين » ثم الهزيمة النهائية بأسر الملك القديس لويس التاسع آخر الصليبيين فى مصر .

وانتهى التفكير والتدبير إلى استراتيجية جديدة أطلق عليها الالتفاف حول ظهر الاسلام والوصول إلى الشرق عبر بحار الجنوب أو الغرب مفاجأة العرب هناك والقضاء عليهم .. ونشر كلمة المسيح والاستيلاء على الذهب والتوابل ..

وكانت تجارة الشرق حتى ذلك الحين فى يد مصر والبندقية ولهذا كانت مصر هدفا أساسيا ، وقرر البرتغاليون الاعتماد على مملكة الحبشة فى منع مياه النيل عن مصر ، حتى تجف أرضها وينقرض أهلها جوعا وعطشا !!

ووصل كريستوفر كولومبس إلى أمريكا فى ١٢ اكتوبر سنة ١٤٩٢ ، ولم يخطر بباله أنها عالم جديد ، « ولكن الهند » وسميت جزر الهند الغربية « وبعد ست سنوات وصل فاسكودى جاما البرتغالى سنة ١٤٩٨ إلى الهند حقيقة وفعلا .

وكان ذلك بداية العصر الحديث والنظام العالمى الجديد ، وعصر السيادة الغربية على العالم وانقسام الدول إلى امبراطوريات تسود فى الشمال ، وشعوب تقهر وتستعبد فى الجنوب فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية

ولابد أن يذكر للسلطان الغورى آخر سلاطين المماليك أنه كان أول من أدرك مدى الخطر الداهم الذى لم يدركه العثمانيون ، وسارع بعقد حلف دفاعى مع حاكم مالابار فى الهند ، وسار الاسطولان الهندى والمصرى تحت قيادة أبرع أمراء البحر المصريين « امير حسين » وكاد النصر ان يتحقق لولا خيانة حاكم جزيرة هندى غيرت التاريخ !!

وألهبت الثروة الفاحشة التى تدفقت على اسبانيا والبرتغال ، حقد وغيرة أوربا كلها وبدأ الصراع الدامى على المستعمرات ، واقتسام القارات الثلاث وبلغ ذروته فى الحربين العالميتين ومازال على أشده فى صور أخرى .

وكان غريبا ألا يشترك العرب فى الحوار الذى استغرق العام بأكمله ألا يتذكروا الفصل الأول من مأساتهم المعاصرة !!

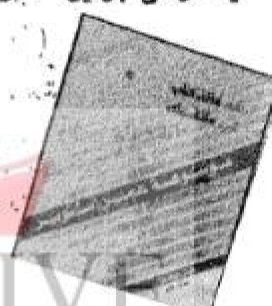


سجل الهلال المصور

١٨٩٢ - ١٩٩٢

٣٤٧٠ صورة فى ١٤٥٠ صفحة

تعبير صادق عن الحياة السياسية والاجتماعية والفنية والأدبية فى « مصر » فى ١٠٠ عام
يصدر فى جزءين - ثمن الجزء ٥٠ جنيهاً



موسوعة عصر التنوير

أهم كتاب فى ١٠٠ عام

الجزء الأول - الثمن ٣٠ جنيهاً

تطلب من مكتبة دار الهلال والمكتبات الكبرى

القيمة فى البلاد العربية	القيمة فى باقى دول العالم
السجل ٦٠ دولاراً	٧٥ دولاراً
الموسوعة ٢٥ دولاراً	٣٥ دولاراً

والقيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال وترسل النسخة بالبريد السريع الدولى فى خلال ٤ أيام من استلام الشيك .

روايات الهلال

تقدم

سراج

بقلم

رضوى عاشور

تصدر ١٥ ديسمبر ١٩٩٢

